الهلال

يناير ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

هيكل مؤرخاً

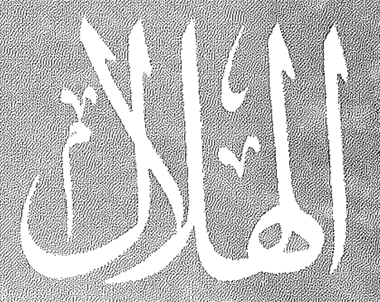
- سارة العقاد بين الواقع والخيال
- أضواء على حياة أقباط مصر



لوحة وفنان

لوحة : غادة شرقية

للفنان الفرنسي : جوزيبي اوريللي



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ذو القعدة ١٤٢٤ هـ - يناير ٢٠٠٤م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١.٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١
ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس
٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه - امريكا ٨ دولارات





تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج م ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولارا.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال، ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة

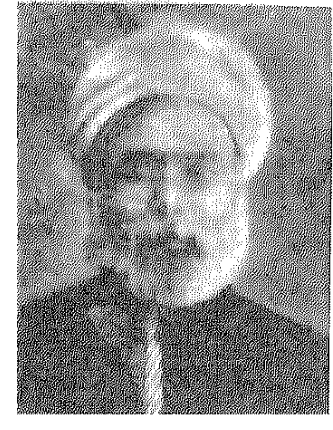
تطوير التعليم

مع بداية عام جديد، وعلي طريق مليء بالآلام مشت أمتنا هذا العام الذي انقضي، وعلي أية حال .. كل سنة عزيزي القاريء وأنت بخير، وبقي أن نذكّر ونحن في مطلع العام بالقضية المحورية علي طريق النهضة وهي قضية «تطوير التعليم»، فلا يوجد تفسير لتردي الأوضاع العربية، سوي غياب الحرية ونقص التعليم والتدريب، مما أدي إلي شيوع التلقين بدلا من الفهم وإعمال العقل، وغياب الفكرة الرئيسية في التعليم الحديث، وهي اكتشاف مواهب الدارس، ومساعدته في التعرف علي ميوله، وصقل مواهبه، استعدادا لمواجهة أعباء العمل والحياة ..

وليست هذه القضية جديدة، فقديما وفي مطلع القرن التاسع عشر يقول الشيخ حسن العطار: «إن مصر لابد لها أن تتغير، ولايمكن أن تتغير سوي بأن تعلم في مصر من العلوم ما ليس فيها..»،

وإحدي سمات التاريخ المصري الحديث البارزة، إدراك أهمية التعليم وتطويره، فشهدنا البعثات في جميع المجالات في عصر محمد علي، واستمر التعلق بالتعليم كأداة لمناهضة الاحتلال البريطاني.

كما أدرك عدد من المفكرين والمصلحين أهمية التعليم كمدخل للنهضة، وأن تعليم الشعب ومحو أميته شرط ضروري للإصلاح، وإذا غفل البعض عن ذلك





الشيخ محمد عبده



طلعت حرب

د. أحمد زكي

أحيانا، فكثيرا ما يتذكرونه في حالة الانحسار الوطني ..

والأسماء كثيرة علي هذا الطريق، وسنقتصر هنا علي تجربة الشيخ الإمام محمد عبده، ومن بعده طلعت حرب والدكتور أحمد زكي ..

تقدم حياة محمد عبده نموذجا للعمل والبحث عن مخرج في ظل أزمة وطنية طاحنة، فقد جعل تطوير التعليم هدفا رئيسيا، فعقب اشتراكه في الثورة العرابية، ومشاهدته أحلامه تنهار بعد هزيمتها ودخول الاحتلال البريطاني، وبعد السجن والمنفي، لم يتوقف عن العمل السياسي، وأصدر مع جمال الدين الأفغاني مجلة «العروة الوثقي» من باريس تدعو إلي الحرية والعدل وتحرض علي مقاومة الاستعمار الزاحف علي الأقطار العربية، ودخل سرا إلي مصر علي أمل تنظيم المقاومة.

وفشلت محاولته، وأرهقته حدة الانقسامات في صفوف الحركة الوطنية، وخيبة أمله مع اكتشاف تسلل عملاء الدول الأجنبية.

وأدرك ضرورة الاعتماد علي إعداد الشعب وتسليحه بالعلم والمعرفة، وإلا فإنه يحرث في البحر وينتظر حصاد الهشيم، فترك السياسة بمعناها المباشر.

وها هو ذا يتساءل في إحدي مقالاته: ماهو الفقر الحقيقي؟! ويؤكد علي



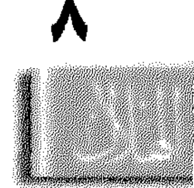
ضرورة تلازم الثروة الطبيعية والثروة البشرية، فالمسالة ليست وجود معادن ومزارع، وإنما هي مسألة الأيدي التي ستستعمل هذه الثروة، «ليس كل ما ذكرته بكاف وحده في الغني والثروة، والعزة والشوكة، بل لابد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب، ورشاد الرأي في استخدامها، فإن ضلت الآراء، وساء الاستعمال، فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه، لعدم سريان روح التربية الشرعية، العقلية التي تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته» الوقائع المصرية ع ١٠٧٣.

لذلك سعي إلي إصلاح التعليم في الأزهر الشريف، وأقام الجمعية الخيرية الإسلامية التي تقيم المدارس، وترك لنا تسجيلا كاملا لرأيه في التعليم كمدخل للإصلاح.

وفي العشرينات من القرن الماضي نأي طلعت حرب بنفسه عن السياسة مثله مثل الإمام محمد عبده، وقد رأي أنه لاجدوي من السياسة بدون بناء الإنسان، فمن الضروري أن يسبق بناء الإنسان أية نهضة. ورأي أن إصلاح التعليم يسبق أي عمل سياسي، وأن انتشار المنهج العلمي في التفكير يسبق أي عمل سياسي، كما رأي طلعت حرب أن بناء الاقتصاد المصري يسبق بالضرورة العمل السياسي.

وكما قال محمد عبده «لعن الله السياسة» ويقول طلعت حرب: «تبا للسياسة، ماتدخلت في شيء إلا أفسدته».

وكما اهتم باقتصاد البلاد اهتم أيضا بلغة البلاد، فيقول: «أدعو من حيث يجهلون أو يتجاهلون منزلة لغتنا – أن العربية لاتصلح للتعليم، لأنها تقصر عن استيعاب علوم العصر..» ويضيف .. «وواجب الجماعات العربية جعل اللغة الفصحي، واسطة العقد، وأن يعملوا دائما علي توجيه إتجاهاتها بمجمع علمي



عام مشترك».

وفي الخمسينات برز د.أحمد زكي..

ومن يعن بقراءة سيرة حياته وأعماله، يلحظ أنه وهو الحاصل علي أعلي الدرجات العلمية، لم يركز جهده في البحث العلمي، ولم يعكف علي العمل في معمل الكيمياء، بل أخذ ينشر في الصحف، ويلقي المحاضرات، ويقيم المؤسسات العلمية والجمعيات الأهلية، ويساهم في إصدار الدوريات المختلفة، مما يعني توجهه نحو غرس الفكر العلمي في تربة وطنه، ويلح سؤال حول هذه الظاهرة، ولايفسرها، سوي أنه أدرك ضرورة الاهتمام بالتربية والعمل الثقافي، فأخذ يسهم في تطوير التعليم الجامعي، ووجه اهتمامه للعقول وأدمغة البشر التي تصنع النهضة، ومن كلماته .. «أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح، كل السلاح في المدي الطويل، إنما هو العلم والمعرفة، فألقينا سلاحنا، هكذا أعلنا، واستبدلنا بالسلاح القلم، وألفنا عام ١٩١٤ لجنة سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر» واضطلع العالم الكبير بدور بارز في بناء صرح العلم الحديث، وتمكين الثقافة العلمية من النفوس..

ويكاد يكون أول من بشر ونادي بإدخال الثقافة العلمية لكي تصبح جزءا من نسيج الثقافة العربية، باعتبارها الطريق الوحيد للتقدم والنهضة، وأرسي بالفعل قواعد تناول العلوم ومعالجة الثقافة العلمية وتبسيطه وأقام مركز البحوث حتي يكون حاضنة للعلم.

وبعد، فقد حان الوقت لأن نجيب عن هذا السؤال المصيري الحاسم .. «ما العمل؟...».

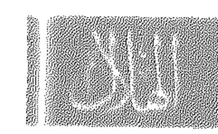
المحـــــرر

هيكل مؤرخاً وقراءة التاريخ خارج المنهج

بقلم
د. عاصم الدسوقى

لايزال فى جعبة محمد حسنين هيكل الكثير والكثير ليقوله للتاريخ سواء من الوثائق المصرية التى يحتفظ بها، أو من الوثائق الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى اعتاد أن يدون بها ما يخرج به من لقاءات مع مختلف الشخصيات السياسية مصرية وعربية وغربية على مدى رحلته فى عالم الصحافة السياسية منذ مطلع أربعينيات القرن الماضى

ومن أحدث إصدارته فى هذا المجال كتاب «سقوط نظام» الذى يجيب فيه عن سؤال طرحه تحت العنوان وهو : لماذا كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ لازمة ؟، وكان ذلك بمناسبة مرور خمسين عاما على الثورة .



وللإجابة عن السؤال اتصالا بالعنوان، كان عليه أن يقرأ وقائع تاريخ مصر ابتداء من حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ التى اعتبرها المسرح الخلفى ليوم ٢٣ يوليو، فأخذ ينهل من معين وثائق لا ينضب يشتمل على مذكرات وتقارير ومحادثات وبرقيات، فضلا عن مفكرته الخاصة التى حملت ملخصات لمقابلاته وانطباعاته اللحظية عن أشخاصها. ومن هنا جاء كتابه فى ستمائة صفحة متخما بالمعلومات والأوصاف والانطباعات عن الأشخاص والأماكن .

ولأنه يكتب التاريخ كما وقعت أحداثه فى اللحظة الواحدة معتقداً أنه يعيد رسم

صورة حوادثه كما وقعت وحيث كانت، وجدناه يتنقل بين عدة أماكن ليقرأ موقفا معينا أو حادثة بعينها، متجولا ما بين مكتب مسئول، وغرفة طعام وصالون ضيافة ومكان عام وسيارة خاصة، ونادى خاص أو حتى على الرصيف فى مصر وفى خارجها ليلا ونهارا، فبدا الأمر وكأنه يعد سيناريو ضخما لعمل درامى كبير أحسب أنه لن يأخذ جهدا فى إخراجه على الشاشة لأنه يوفر على كاتب السيناريو والمخرج ما يحتاجانه من مناظر وأوصاف وحوادث ورسم للشخصيات .

ويبدو واضحا أن هيكل يعلم تماما أنه لا يكتب بحثا فى التاريخ بالمعنى الاصطلاحى وربما أن صفة المؤرخ لا تعجبه، فنراه يقول فى كل ما أصدره تقريبا إنه قارئ للتاريخ وليس كاتبا له، وكأنه يحذر المتخصصين من توجيه أى نقد منهجى له، لكنه يغفل أو ينسى فى هذا الخصوص أن كتابة التاريخ هى قراءته فى ذات الوقت وما التاريخ في النهاية إلا صناعة كاتبه الذى قرأ أحداثه ومن هنا فإن التفرقة بين قراءة التاريخ وكتابة تفرقة تعسفية ومجرد تلاعب بالألفاظ .

لماذا اتخذ هيكل هذا الأسلوب الوصفي البارع المتقن دقيق الملامح في كل ما يكتبه ؟

لقد كنت أعتقد منذ فترة طويلة أنه يحاكى محمد التابعى أحد نجوم سماء صحافة ما قبل ١٩٥٢ الذى كان يمعن فى وصف الأشياء، ويبحث فيما وراء الستائر، وعما يدور فى الغرف الخاصة، فيأتى ما يقوله مشوقا ينجذب القارئ له ثم تأكد لى أن أسلوب التابعى هذا مدرسة تعلم فيها هيكل وآخرون، إذ قال لنا هيكل بنفسه إن أول رئيس تحرير عمل معه هارولد إيرل رئيس تحرير الاجيبسيان جازيت، نصحه ومن معه عند التحاقه للتدريب فى جريدته بألا يفكر فى إرسال مواد إخبارية عاجلة لصحيفته لأن وكالات الأنباء سوف تسبقه وأن ما يمكن التفوق فيه على الغير يأتى من التركيز على خلفية الوقائع والحوادث راسما باللون والظل وبالصوت والهمس صورا حية للأجواء والظروف والملابسات (ص ٨)

وهكذا استقى هيكل معلومات كتابه من الوثائق البريطانية والمصرية فى المقام الأول، ومن أحاديثه مع شخصيات كثيرة مختلفة المقام وانطباعاته عنها ابتداء من الملكة نازلى والملكة فريدة، ثم كل من الباشوات: مصطفى النحاس ومكرم عبيد وإسماعيل صدقى وحسين سرى ونجيب الهلالى ومحمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وعبد الفتاح عمرو وأحمد عبود وكريم ثابت وانتهاء بإدجار جلاد وناهد رشاد .

غير أن مشكلة فى التعامل مع مصادره أنه يصدقها جملة وتفصيلا دون أن يداخله أدنى شك فى مصداقيتها، مع أن منهج البحث يعلمنا ألا نخضع للمصدر خضوعاً كاملا وتاما أيا كانت درجته، وأن علينا التحقق من صدق المعلومات بواسطة المقارنة بمصادر أخرى وغير ذلك من أساليب نقد الأصول .. وهذا ما لم يفعله، وحجته أنه لا يكتب تاريخا !!.

والحق أن اهتمام هيكل بالخلفيات طبقا لمنهج أستاذه هارولد إيرل جعله يغرق فى تفاصيل مشرقة جذابة لا يحفل بها عادة باحث التاريخ إلا إذا كان لها تأثير واضح على الحدث الذى يتناوله وليس مجرد إضفاء عنصر التشويق والإثارة ومن ذلك على سبيل المثال ما قاله من أن المارشال ويفل القائد العام للقوات البريطانية زمن الحرب

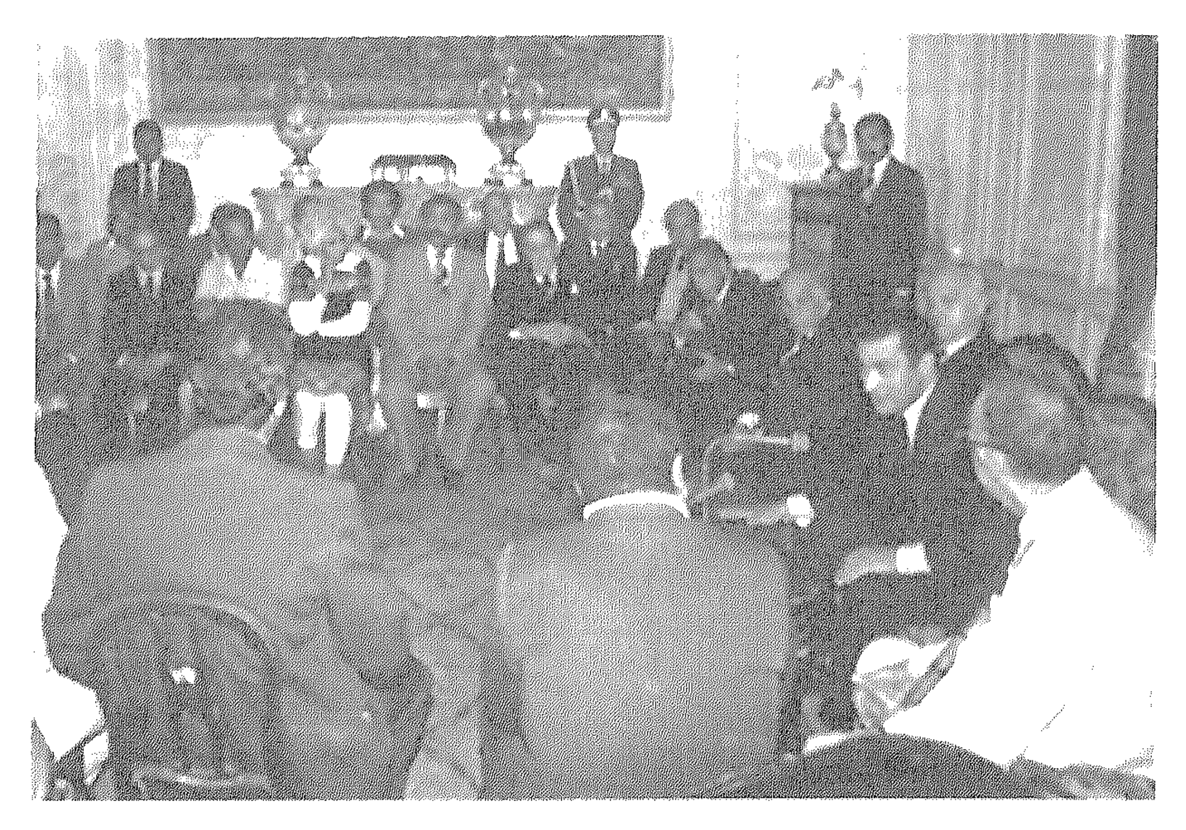
• هيكل أحد أبناء مدرسة محمد التابعي الصحفية التي تعتمد على التشويق والإثارة ووصف التفصيلات الدقيقة

العالمية الثانية كان شاعرا وكتب نصف ديوانه على شكل رسائل غرام لزوجة وزير مصرى له شأن أنذاك وكانت جميلة فعلا وإن لم يعثر هيكل على ما يجعله واثقا من أنها بادلته الغرام (ص ٢٢) ولكنه آثر إخفاء اسمها احتفاظا بعنصر التشويق ومن ذلك أيضا ما رواه من أن إسماعيل صدقى وبموافقة من الملك فؤاد وضع فى طريق مصطفى النحاس وكان أعزبا صحافية إيطالية اسمها فيرا كان، يلتقى بها فى عوامة على النيل بالعجوزة للإيقاع به (ص ٢٥٣) . أو روايته عن زواج مايلز لامبسون السفير البريطانى بالقاهرة من صديقة ابنته التى فى عمرها ويكبرها بستة وثلاثين سنة، وملابسات هذا الزوج، وأن فاروق كان يسمى لامبسون جاموس باشا وأن السفير كان يقول عنه «الولدboy(ص ٦٢) .. ومن ذلك أيضا تفاصيل مغامرات فاروق بعد طلاق فريدة ومحاولته الزواج من الأميرة فاطمة طوسون بعد وفاة زوجها الأمير حسن طوسون، ولكنها رفضته وفضلت عليه كونت برتغالى أو تحرش الملك جنسيا بملكة اليونان فردريكا فى ديسمبر ١٩٥٠ (ص ٣٣٢)، وكذا تفاصيل زواج فاروق بناريمان وكيف رآها ومن الذى رتب له رؤيتها ومن كان وراء فسخ خطبتها .. الخ .

اجتهادات في إبداء الرأي

والحقيقة أن استعرض هيكل لوقائع تاريخ مصر بتلك الصورة خلال عشر سنوات (١٩٤٢ - ١٩٥٢) سبق أن تناولته عدة دراسات متخصصة وكتابات جارية، بعضها مذكرات وذكريات كما يفعل هيكل، وبعضها عرض وثائق كما يفعل أيضا ومن ذلك على سبيل المثال وليس الحصر : محمد التابعى فى كتابه «من أسرار الساسة والسياسة»، وكتاب صبرى أبو المجد «سنوات ما قبل الثورة»، وأحمد بهاء الدين «فاروق ملكا»، ومحمد صبيح «من العلمين إلى سجن الأجانب ومحسن محمد التاريخ السرى لمصر»، وموسى صبرى قصة ملك وأربع وزارات ومحمد حسين هيكل مذكرات فى السياسة المصرية»، وجلال الدين الحمامصى « أزمة نزاهة الحكم»، وكتاب سيد جاد «الحرس الحديدى»، ومذكرات كريم ثابت وحسن يوسف، فضلا عن الدراسات التى قدمها محمد أنيس عن ٤ فبراير وحريق القاهرة وكذا ما كتبه جمال الشرقاوى عن حريق القاهرة، ورسائل جامعية كثيرة عن هذه الفترة. والجديد فى تقديرى ما ذكره هيكل نقلا عن مفكرته وبعضه خاص بأحاديث الغير معه، وكذا اجتهاداته فى إبداء الرأى فى بعض الموضوعات التى ينبغى التوقف عندها .

وحيث أن هيكل بدأ كتابه بحادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ وخلفياتها (كان فى التاسعة عشرة من عمره إذ ذاك) فكان من الطبيعى أن يركز على حزب الوفد فى الحياة السياسية وعلاقاته بالقصر وبالإنجليز وبسائر القوى السياسية ولست أبالغ إذا قلت إن الوفد وشخصياته يكاد يشكل عصب الكتاب وفى هذا الخصوص يؤكد أن مصطفى النحاس كان يعلم بإصرار الإنجليز على أن يرأس الحكومة رغما عن الملك ودليله على ذلك أن النحاس بعد تكليفه بتشكيل الوزارة توجه رأسا فى مساء اليوم



هيكل فى لقاء مع الرئيس مبارك وبحضور عدد من رموز الثقافة المصرية

نفسه إلى السفارة البريطانية ليتلقى توجيهات السفير بإقصاء الموظفين الإيطاليين فى القصر وإحداث بعض التغييرات الإدارية، وهى تهمة عمل النحاس وغلاة الوفديين على نفيها

أول تجربة لتغطية الحياة السياسية

كما يؤكد على وقائع فساد الحكم المنسوبة لحكومة الوفد طبقا للكتاب الأسود الذى وضعه مكرم عبيد والتى وصفت آنذاك بفضائح المحسوبية والاستثناءات ثم ما كان من متابعة هيكل وقائع مناقشة الاستجواب المقدم فى شأن الكتاب الأسود من شرفة الصحافة بمجلس النواب عام ١٩٤٣ للتغطية الصحفية، وهى المتابعة التى وصفها بأنها كانت أول تجربة مباشرة له لتغطية الحياة السياسية (كان فى العشرين من عمره) وهذا الجزء فى الكتاب (ص ١٢٣ - ١٢٤) عما دار من وقائع جديد، لأنه ذكر فيه ما تردد من ألفاظ السباب والشتائم المتبادلة والتى حذفت من المضبطة، وكيف أنه أسقط النحاس من نظره فى تلك اللحظة .

ولعل سقوط النحاس هكذا مبكرا فى نظر هيكل مسئول إلى حد ما عن نظرة الاستهانة إلى شخص النحاس فقد صوره لنا فى أماكن مختلفة من كتابه على أنه ليس ذلك السياسى المرموق !! بل إنه شخصية انهزامية فعندما ترددت أنباء بوجود فرقة عسكرية ألمانية عند مدخل الإسكندرية من ناحية الدخيلة واتصل به محافظ المدينة عبد الخالق حسونة طلبا للتصرف أجابه النحاس بقوله:إذا تأكد ذلك إذهب وقابل روميل وسلمه مفتاح المدينة وأبلغه أن الإسكندرية مدينة مفتوحة (ص ١٢٠ - ١٢١)

● مشكلته فى التعامل مع مصادره أنه يصدقها جملة وتفصيلا دون التحقق من صدقها ودقتها

ويكشف لنا أن مصطفى النحاس كان يهاجم توجهات الملك فاروق ناحية العمل العربى عموما وقضية فلسطين خصوصا إذ كان يقول : إن هذا الذى يفكر فيه فاروق مسائل أكبر من عقله ومن شخصيته وكلها إيحاءات مجانين مثل عزام (ص ١٧٢ - ١٧٣) .

كما يؤكد هيكل على قصة قيام النحاس بتقبيل يد الملك فاروق بعد فوزه فى انتخابات يناير ١٩٥٠ (ص ٢٩٠) التى تسجل فى رأيه سقوط عصر بدأ تدهوره من فبراير ١٩٤٢ .. وكيف أن النحاس فى وزارته الأخيرة (يناير ١٩٥٠ - يناير ١٩٥٢) لم يعد يهتم بشئون الحكم إذ كان يقضى معظم وقته فى الحمام أو فى غرفة النوم بعد أن أصيب بداء الوسوسة ويمشى وراءه شخص يحمل زجاجة كولونيا للتطهر، حتى لقد عرف عنه أنه لم يعد يهمه خروج الإنجليز من مصر (ص ٣٣٣) بل إن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ كان باقتراح من وزير خارجيته محمد صلاح الدين .

ولا يفوت هيكل أن يذكر كيفية صعود نجم فؤاد سراج الدين داخل حزب الوفد حيث انتقلت قيادة الوفد على يديه من يد المثقفين إلى كبار ملاك الأراضى الزراعية، وكيفية اقترابه من زينب الوكيل حرم النحاس التى اقتسمت معه قرار الحزب، وحكايات قصور شمال الدلتا وكيف أن الرجل لم يكن سياسيا، بل لقد كان يدير أمور السياسة بعقلية إدارة المزرعة .. وكيف كان يطمح إلى رئاسة الوزارة لولا بعض الحياء.

ومن الملاحظ أن هذه الصفحات الستمائة خلت من بيان تفاصيل إنشاء الحرس الحديدى على خلاف طريقته فى رسم خلفيات الصورة بالألوان، ولم يذكر هيكل لنا إلا أن الفكرة مستعارة من ملك رومانيا كارول، وأن هذا الحرس تحول على يد يوسف رشاد طبيب الملك من حماية الملك إلى الهجوم على أعدائه فى إطار خطة الملك انتقاما من حادثة ٤ فبراير التى أسماها فاروق نفسه الكونت دى مونت كريستوا أمير الانتقام فى قصة الكسندر ديماس وكيف أن الخطة تضمنت تسليط الأضواء الوردية على الملك وتكثيف الظلال الرمادية على خصومه وهى مهمة تكفل بها مصطفى أمين رئيس تحرير مجلة الاثنين والدنيا !.

لقاؤه بجمال عبد الناصر

كما يلاحظ أيضا أن هيكل لم يذكر تفاصيل روائية عن تنظيم الضباط الأحرار، واكتفى بذكر المناسبات التى التقى فيها بجمال عبد الناصر قبل قيام الثورة... الأولى أثناء تغطيته لحرب ١٩٤٨ (غادر الجبهة فى أغسطس)، والثانية فى مكتب هيكل بأخبار اليوم ١٩٥١عندما جاء جمال برفقة زكريا محيى الدين الذى أراد أن يبلغ هيكل عما ما تقوم به إسرائيل من منح تراخيص لعرب العزازمة للتجول عبر خطوط الهدنة وراء المرعى وما يمثله ذلك التصرف من خطورة على الحقوق، والثالثة مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ أمام محلات شيكوريل لقاء عابرا على الرصيف وتساؤلات عما





عمالقة الفكر والفن

هيكل .. نجيب .. ام كلثوم



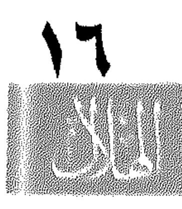
هيكل فى اجتماع مع عبد الناصر والسادات

حدث دون إجابة، والمرة الرابعة فى ١٨ يوليو ١٩٥٢ فى بيت محمد نجيب حيث كان عبد الحكيم عامر موجودا، وكان هيكل هناك يسعى لاقتناص أخبار من محمد نجيب عما ينتويه ردا على حل مجلس إدارة نادى الضباط فى اليوم السابق (١٧ يولية) وفى هذه المقابلة اختلى ناصر وعامر ونجيب فى غرفة مجاورة لبعض الوقت ثم ما حدث من قيام هيكل باصطحاب ناصر وعامر فى سيارته بعد انتهاء الزيارة وما دار من حديث طويل بين الثلاثة عن كيفية الاحتجاج على حل مجلس إدارة نادى الضباط (ص ٥١٢ - ٥١٧)، وهو حديث طويل يفهم منه أن هيكل هو الذى أوحى لجمال عبد الناصر بتقديم موعد الثورة إلى ليلة ٢٣ يوليو ..

والشئ المهم فى هذه الرواية الطويلة أن هيكل يرجح أن تنظيم الضباط الأحرار لم يتصل باللواء محمد نجيب إلا فى وقت ما من شهر يوليو ١٩٥٢ وليس قبل ذلك (ص ٥٥٣- ٥٥٤) وإنه لايستبعد أن يوم مفاتحة محمد نجيب لقيادة الثورة هو يوم ١٨ يولية هذا وذلك خلافا لما تقول به الروايات التى تتعمد الإساءة إلى عبد الناصر فى التعامل مع محمد نجيب .

وأخيرا يبقى القول إن كثيرا من الأحكام التى أطلقها هيكل فى ثنايا كتابه بحاجة إلى مناقشة فى إطار المنهج العلمى وليس فى إطار فن الرواية والحكى وإن بعض المعلومات أيضا بحاجة إلى تصويب وتصحيح ..

من ذلك قوله : إن حسن صبرى وحسين سرى رئيسا وزراء مصر (يونية ١٩٤٠ - ٢ فبراير ١٩٤٢) لم يكونا عملاء للإنجليز وإنما ساسة يعتقدون بضرورة التفاهم مع بريطانيا لبلوغ المطالب المصرية لأن ذلك أسلم من مواجهة غير متكافئة معها (ص ٢٤ - ٢٥) وهذا مجرد تبرير للتصرف وليس تفسيرا له، لأن العمالة لا تعنى أن يكون العمل مدرجا بكشف العملاء ويتقاضى أموالا بشكل منتظم وإنما أى سياسى



●كانت نظرية هيكل بلزومية ثورة يوليو وليس بحتميتها يضعه في صفوف من يرفضون منهج الحتمية العلمية في تفسير قيام الثورات

يتصرف بما يخدم مصالح الخصوم والأعداء يعد عميلا لهم ..

الملك وتلقائية العاطفة

وقوله أيضا إن الملك فاروق كان وطنيا مصريا لاشك فى ذلك وحتى عندما غرق لاحقا فى مستنقع من الفساد زاد وفاض على ما حوله، فإن وطنيته على عكس معظم حاشيته ظلت سليمة فى تعبيرها عن نفسها حتى بتلقائية العاطفة (ص ٤٣) ولست أدرى كيف يفهم هذا التقدير على الأقل فى ضوء ما أورده هيكل نفسه من معلومات فى كتابه «أزمة العروش صدمة الجيوش» ..

وقوله على مدى صفحات كثيرة إن ٤ فبراير هو الانقلاب العسكرى الأول وأنه كان الطريق إلى ٢٣ يوليو الذى يمثل الانقلاب العسكرى الثانى (ص ١٣) ..

وقوله إن حزب الوفد قبل المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس الأمريكى ولسن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (ص ١٠٥) والمعروف أن الحرب انتهت بتوقيع الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨، وأن المبادئ أعلنت فى ٨ يناير ١٩١٨ قبل أن يعرف أحد متى تنتهى الحرب ، كما لم يكن حزب الوفد قائما لأنه لم يتكون إلا بعد مقابلة ١٣ نوفمبر ١٩١٨ الشهيرة مع المندوب السامى البريطانى ..

وقوله أيضا إنه من المفارقات إن ملكية الأرض الزراعية كأساس للتركيب الطبقى فى مصر الحديثة لم تدرس بالقدر الكافى فى وطنها وأن أكمل وأوفى دراسة لها جاءت من الجامعة العبرية على يد جبرييل باير (ص ٣٤٨) وهذا قول يجافى الحقيقة لأن جابرييل باير حصل على رسالته من جامعة أكسفورد ١٩٦٢وليس من الجامعة العبرية بتل أبيب، وأنه لم يطلع على أرشيف دار المحفوظات المصرية فيما يتعلق بمكلفات حيازة الأرض .. وأن بعض الشيوعيين المصريين درسوا هذا التركيب الطبقى للملكية الزراعية وكتبوا فيه قبل أن يكتب جبرييل باير كتابة بسنوات ومن هؤلاء إبراهيم عامر فى كتابة «ثورة مصر القومية» ونشره عام ١٩٥٦ ثم كتابة «الأرض والفلاح والمسالة الزراعية فى مصر» «ونشر ١٩٥٨، وكتاب شهدى عطية الشافعى فى ١٩٥٧ تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦»، ثم جاءت بعد ذلك ثلاث رسائل دكتوراة نشرت تباعا فى كتب لكل من رءوف عباس النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة (١٩٧٢) وكتاب عاصم الدسوقى كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤ - ١٩٥٢» (١٩٧٥) ثم كتاب على بركات تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣- ١٩١٤ نشر فى ١٩٧٨ واعتمدت على الأرشيف المصرى أساسا .. ولكن ما حيلتنا إذا كان «الأستاذ» لا يقرأ إلا كل ما هو أجنبى ولا يعتقد إلا فيه !!..

وأخيرا .. فإن قوله بلزومية ثورة يوليو وليس بحتميتها يضعه فى صفوف المستشرقين وكتاب الغرب الإمبريالى الذين يرفضون منهج الحتمية العلمية فى تفسير قيام الثورات !! ■





أين ديمقراطية التعليم؟!

بقلم
د. شبل بدران

«إن للفقراء حقاً فى مختلف مراحل وأنواع التعليم، فهو أولا حق لهم، وهو ثانيا مصلحة للأمة وهو بعد ذلك تحقيق للديمقراطية ...»
(طه حسين، مستقبل الثقافة فى مصر، ١٩٣٨، ص ١٠)
طه حسين

لقد كان التعليم ومازال وسيظل مجالا للصراع الاجتماعى والسياسى فى المجتمع، فمنذ نشأة التعليم الحديث فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، مروراً بمرحلة الإحتلال البريطانى. والاستقلال المشروط وإنتهاءً بالسيادة الوطنية منذ ثورة يوليو ١٩٥٢، والتعليم يخوض هذا الصراع الضارى من قبل القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة فى المجتمع المصرى.

وعلى الرغم من الإنجازات التى تحققت فى مجال التعليم على مستوى التوسع فيه كما وكيفا، وإعتباره حقا من حقوق



الإنسان، وأحد الآليات الهامة لتحقيق التنمية فى المجتمع، ومكسبا وطنياً واجتماعيا للفئات والقوى الاجتماعية التى حرمت منه لزمن طويل بحكم موضعها الاجتماعى والطبقى، إلا أن الواقع المعيش يشهد الآن صيحات هنا وهناك نحو ترشيده وتضييقه أمام الفئات الاجتماعية غير القادرة، وإلقاء اللوم عليه فى قضايا البطالة والتعطل عن العمل.

ولا شك أن المكاسب التى حققها نضال وكفاح الشعب المصرى فى مجال التعليم على مستوى تكافؤ الفرص التعليمية وتحقيق المجانية والمساواة كان الفضل فى معظمها يعود إلى جهود ونضالات طه حسين التى خاضها فى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، حيث يعود الفضل إليه فى دعوته الشهيرة أن التعليم يجب أن توفره الدولة لأبنائها بصرف النظر عن أوضاعهم الاجتماعية والطبقية، لأنه المدخل الطبيعى لتحديث وتطوير المجتمع وتحقيق الديمقراطية ، وجعل المجتمع المصرى مجتمعا عصريا قادراً على التفاعل الايجابى مع المتغيرات العالمية، لقد كان لدعوته – التعليم كالماء والهواء – أبلغ الأثر فى حث القوى الوطنية على جعل التعليم على أولويات العمل الوطنى فى الثلاثينات والأربعينات، بل للآن .

ولقد كانت لدعوة طه حسين فى تعليم العامة مقابل الدعاوى العديدة التى كانت تسعى إلى قصر التعليم على الخاصة، أبلغ الأثر فى تطور التعليم على مستوى فلسفته وأهدافه وبرامجه ومحتواه المعرفى . ولم يكن غريبا أن يصدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨ بعد دعوة طه حسين بسنوات قليلة ، إلا استشرافاً من طه حسين للمستقبل ولصدق دعوته وإيمانه العميق ونضاله نحو تحقيق تكافؤ فى فرص الحياة



والتعليم أمام الشعب المصرى وتحقيق حياة ديمقراطية حقيقية تقوم على العلم والمعرفة المتاحة للجميع دون تمييز.

تكافؤ الفرص فى التعليم

تنبع أهمية التكافؤ فى الفرص التعليمية من إرتباطه بالتكافؤ فى فرص الحياة ذاتها وسائر متطلبات العدالة الاجتماعية، ولا ينفع فى معالجة هذا الموضوع الخطير طمس أو إغفال هذه الحقيقة الأساسية أو استبعادها أو تجاهلها ، ويمكننا إدراك التلازم بين هذين المفهومين بمتابعتنا تغير نمط الإنتاج ، وتطور الحياة الاجتماعية ونمط التعليم عبر التاريخ الإنسانى . (شبل بدران ٢٠٠٢ ، ص ٢٨)

ومن هنا فإن إدراك طه حسين لتلك الحقيقة مبكراً جعله يصب جُل اهتمامه ونضاله نحو تحقيق العدالة الاجتماعية والتعليمية ، وتلك حقيقة ساطعة ، أدركها طه حسين ، لأن المجتمع الذى عاش فيه حينذاك هو مجتمع طبقى قائم على التمايز وسيطرة رأس المال ، من هنا خاض نضالاً وكفاحاً طويلا من أجل تعميم التعليم على كل فئات وطبقات المجتمع بصرف النظر عن الوضع أو المكانة الاجتماعية، مستنداً فى ذلك إلى أن طريق تقدم الأمم والشعوب لا يكون إلا بالتعليم وبالتعليم الحديث على وجه التحديد. ناهيك عن أن ذلك يحقق الديمقراطية فى المجتمع والتى هى جوهر الإصلاح السياسى والاجتماعى .

الدولة والتعليم

إن موقف طه حسين من دور الدولة فى السيطرة على التعليم ، يعود بالدرجة الأولى إلى أثر الثقافة الفرنسية عليه وتأثره بها. ففرنسا تأخذ بمبدأ سيطرة وإشراف الدولة على كل شئون التعليم، منذ أن وضع نابليون هذا المبدأ عام ١٨٠٦ ، وللآن وكان الهدف الجوهرى من وراء ذلك تحقيق :

- مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية تحقيقا عملياً، وذلك بتقديم نوع من التعليم المجانى الاجبارى المدنى الموحد لكل أبناء الوطن، وهذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلى فى ظل إدارة الدولة لشئون التعليم وتوجيهه.
- الإشراف الفنى على شئون التعليم بوضعه فى أيدى خبراء مدربين لا يتوافرون إلا لدى السلطة المركزية . (كمال مغيث، ١٩٩٧ ، ص ١٥٣).
- التماسك الاجتماعى لأبناء الوطن وتكوينهم فى إطار من الوحدة الثقافية ، التى تحقق التجانس الاجتماعى والثقافى وتسييد ثقافة وطنية مستنيرة لكل أبناء الوطن، تحقق التنوع فى إطار من الوحدة، لأن بديل ذلك شيوع وسيادة ثقافات متباينة وغير متجانسة اجتماعياً وثقافياً ، مما يهدد كيان الأمة، ولا شك أن ذلك كان مطلباً وطنياً فى مواجهة الاحتلال البريطانى إدركه طه حسين مبكراً.

ويؤكد طه حسين على هذا الفهم - فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر - حيث يقول : «.. وإلى الدولة وحدها يجب أن توكل شئون التعليم كلها فى مصر إلى أمد بعيد. وليس معنى ذلك أنى أكره أن يبذل الأفراد والجماعات ما يستطيعون من الجهد لإنشاء ما يمكن إنشاؤه من أنواع التعليم وفروعه. بل معناه أن حياة مصر

الخاصة، وتطورها الحديث ، يقضيان بأن تؤخذ أمور التعليم كلها بالجد والحزم، وأن يكون تنظيمها دقيقاً، الاشراف عليه قوياً، وملاحظتها متصلة لا تفتر ولا تنى ، ومصدر ذلك أن مصر مضطربة بين أمرين كلاهما خطير: أحدهما أن كثرة المصريين المطلقة لاتزال جاهلة جهلاً مطلقا فلابد من أن تقوم الديمقراطية بتعليمها ، وبتعليمها على النحو الملائم لأصول الديمقراطية وغايتها ..» (طه حسين، ١٩٣٨ ص ٧١).

والدولة وحدها هى التى تستطيع أن تضع المناهج والبرامج لهذا التعليم، وأن تقوم على تنفيذ هذه المناهج والبرامج . وأن تلاحظ ذلك ملاحظة متصلة دقيقة، حتى لا ينحرف التعليم عن الطريق التى رسمت له، وحتى لا ينتهى إلى غرض مباين للغرض الذى أنشىء من أجله. والثانى أن القلة المتعلمة من المصريين، هى وحدها لا تعدو العشرين فى المائة – وما أظنها تبلغها – وقد خضعت لألوان مختلفة من التعليم، ونظم متباينة ومناهج ينكر بعضها بعضاً ، ويصدم بعضها بعضاً ، ونشأ عن ذلك اضطراب له آثاره الخطيرة فى حياتنا المصرية على اختلاف فروعها وألوانها. (طه حسين ، ١٩٣٨، ص ٧٢).

ونحن نعتقد أنه ليس هناك أبلغ من قول طه حسين منذ أكثر من ستين عاما مضت للرد على الدعاوى الحديثة والمعاصرة التى تطالب بأن تتخلى الدولة عن دورها فى التعليم وتوكله إلى القطاع الخاص الاستثمارى بحجة إن الدولة لم يعد لديها الموارد الكافية للانفاق على تعليم أبناء الوطن. أن المشهد التربوى المعاصر ينوء بالكثير من السلبيات التى خاضها التعليم الخاص خلال العقدين المنصرمين بما لا يبشر بالأمل فى المستقبل.

ولا شك أن موقف طه حسين كان موقفاً وطنياً إنطلق من إيمانه العميق بديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص التعليمية وفرص الحياة أيضا ، وذلك لا يمكن أن يتحقق إلا فى ظل سيادة للدولة والتى سيظل دورها فى التعليم أساسى وجوهرى بصرف النظر عن سياسة التحرير الاقتصادى والإندماج فى الاقتصاد العالمى بصورة تابعة غير فعالة .

تعليم العامة وتعليم الخاصة

لقد شهدت الفترة الليبرالية (١٩٢٣ – ١٩٥٢) فى حياة المجتمع المصرى قضية تعتبر أخطر القضايا التعليمية وأهمها فى تاريخ التعليم الحديث فى مصر لقد كانت كل الجهود تهدف إلى توفير حد أدنى من التعليم للعامة من الشعب المصرى (الفقراء والمعدمين) فى حين تميز الأغنياء بكل الامكانيات التى تسهل لهم الحصول على أرقى أنواع التعليم المعروض فى الأسواق أمامهم . ولم يقف أمامهم مانع يحول دون حصولهم على هذا التعليم أو ذاك داخل الوطن أو خارجه ، كما إننا يجب أن نشير منذ البداية بأن المجتمع المصرى فى تلك الفترة كان مجتمعاً طبقياً نضجت فيه الطبقات الاجتماعية تماماً وتشكلت لها أحزابها السياسية ووسائلها للدفاع والتعبير عن مصالحها .

وكان التناقض حادا بين الأغنياء والفقراء ، بين من يملكون كل شيء، ومن

ليس لديهم شيء. ووسط هذا الجو الاجتماعي ظهرت قضية تعليم العامة (الغالبية العظمى من الشعب) وتعليم الخاصة (الصفوة) وسميت حينذاك بقضية الكم والكيف، ولقد تبنى تعليم العامة (الكم) طه حسين وأحمد نجيب الهلالي، وتبنى قضية تعليم الخاصة (الكيف) المزعومة إسماعيل القباني ولفيف من التربويين الذين عادوا من بعثاتهم من أوروبا وتأثروا بالفكر التربوي والنفسي والفلسفة البراجماتية الأمريكية . (شبل بدران ، ٢٠٠٣، ص ١٧٨) .

اختبارات نفسية

لقد أراد إسماعيل القباني بوجهة نظره أن يجعل التعليم في المرحلة الأولى إلزاميا لجميع الأطفال ، ثم يبدأ بعد ذلك باختيار الصالحين للاستمرار في التعليم النظري الذي يؤدي إلى التعليم العالي، وتتم عملية الاختيار هذه باستعمال مجموعة من الاختبارات النفسية على مرحلتين ، مرحلة أولى استطلاعية عند سن ١٢ سنة ومرحلة ثانية تأكيدية عند سن ١٤ سنة . يوجه بعدها الطلاب إلى التعليم النظري أو الفني حسب قدراتهم واستعدادهم. وهذا معناه إنهاء دراسة من ذهبوا إلى المدرسة الثانوية الفنية عند هذه المرحلة، ويرى إسماعيل القباني أن فتح أبواب التعليم على مصراعيها معناه فصول ومدارس مزدحمة وانخفاض مستوى التعليم من حيث الكيف. (إسماعيل القباني، ١٩٥١، ص ص ١٨٢ - ٢٠٠).

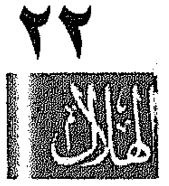
أما آراء طه حسين وأحمد نجيب الهلالي والتي ارتبطت بالكم أو تعليم العامة فيرى طه حسين فتح أبواب التعليم الفني أو تعليم المرحلة الأولى لجميع أبناء الشعب وفتح أبواب التعليم الثانوي أمام جميع الطلاب ممن يرغبون فيه دون داع للقيام بتطبيق الاختبارات التي استقدمها مستر مان ركلاباريد الخبيران التربويان اللذان أحضرتهما الحكومة المصرية لإصلاح أحوال التعليم، وخرجا بروشتة للإصلاح جاء في متنها ضرورة اعتماد الاختبارات النفسية في توزيع الطلاب على مراحل التعليم المختلفة.

ولقد أكد طه حسين أفكاره في كتابه مستقبل الثقافة في مصر حيث يقول و«أول ما يجب أن نلاحظه ويجب أن يفهمه المشرفون على الأمر في مصر، أن التعليم ليس ترفا، وإنما هو حاجة من حاجات الحياة ، وضرورة من ضرورتها»، ويؤكد أيضا أن: كل هذا ينتهي بنا أن الديمقراطية الصحيحة إذ فرضت المساواة بين أبناء الشعب في الحقوق والواجبات فهي لا تقبل أن تفرق بينهم في حرية التعليم، وأن يقتصر لون من ألوان هذا التعليم على جماعة من أبناء الشعب يخرج منها القادة والساسة والمديرين.

إن طه حسين يرى أن تتم عملية الاختيار بطريقة طبيعية عن طريق ملاحظة التلاميذ ، فالطفل الذي يثبت فشله ولا يمكنه الاستمرار في المدرسة الثانوية الأكاديمية عليه أن ينقل إلى إحدى المدارس الثانوية الفنية أو المهنية.

التعليم روح الديمقراطية

لقد كان طه حسين يرى أن الدعوة إلى التمهل في نشر التعليم العام بين



العامة، والاقتصار على ممن يرغب آباؤهم رغبة حقيقية فى تعليمهم «هى فى حقيقتها امتداد للتعليم فى عهد الإنجليز فالتعليم قبل كل شىء، والتعليم بعد كل شىء، والتعليم فوق كل شىء» من هنا نادى طه حسين بمد مرحلة الإلزام ومجانية التعليم العام، وخاصة ونحن فى بلد فقير ويعانى أكثر من ٨٠٪ من أبناؤه من الأمية والفقر والجهل والمرض، ولأن التعليم هو زوح الديمقراطية وأسلوبها، بل أداتها فى التصويت، وفى تحقيق الحياة الكريمة أما أصحاب نظرية الكيف – تعليم الخاصة – والتى يؤكد أصحابها «أنه من الخير لنا أن نعلم ألفا من الأطفال تعليماً منتجاً من أن نحشر ألفين فى المدارس دون أن يفيدوا من ذلك فائدة مجدية، فتعنى أن التعليم للخاصة والصفوة وهو مبدأ غير ديمقراطى. (سليمان نسيم، ١٩٨٤ ، ص ص ٢٤٧ – ٢٤٨).

ولعل المشهد التربوى يتكرر الآن فى عام ٢٠٠٣ ، حيث تنادى بعض الأصوات بإنشاء مراكز للتميز يتعلم فيها قلة تعليما متميزاً خيراً من تعليم الكثرة تعليماً غير متميز ، أن نفس الفكر والتوجه مازال يعانى منه المجتمع المصرى لأكثر من ستين عاما رغم كل التحولات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التى مرت على المجتمع المصرى . لقد كان طه حسين رائداً ومبشراً فعلا بتلك الأفكار الثورية والتقدمية.

حقا لقد كان الصراع فى حقيقته صراعا سياسيا واجتماعيا بين ديمقراطية التعليم ورأسمالية التعليم (لويس عوض ١٩٦٨) أن طه حسين كان يريد أن يجعل من المدارس العليا جامعات ومن التعليم الثانوى طريقا إلى الجامعات . أما إسماعيل القبانى فكان يريد أن يجعل من الجامعات مدارس عليا، ومن التعليم الابتدائى طريقا إلى التعليم الفنى المتوسط المكتفى بذاته، والذى لا يتجاوزه إلا الممتازون بالعلم والمال ، وواضح أن كلا الاتجاهين استمد فلسفته من سياسة معينة : «الأولى ديمقراطية ليبرالية تقوم على أن الأمة مصدر السلطات، وأن استنارة الحاكم من استنارة المحكوم، أما الثانية فتقوم على أن المواطنين ما هم سوى أدوات للإنتاج وأنهم رعايا ورعايتهم من جنس أعلى من جنسهم » (لويس عوض ، ١٩٦٨).

لقد كان موقف طه حسين الفكرى واضحاً جلياً ، وهو انحيازه إلى تعليم الفقراء من أبناء الشعب وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص فى الحياة والتعليم، وأن على الدولة دوراً رئيسيا وجوهرياً فى الاشراف على التعليم وتمويله، لأنه لو ترك للأفراد أو الجماعات فإن ذلك يصيب البنيان الاجتماعى فى مقتل يؤدى إلى التشرذم وعدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى الذى تسعى إليه الحكومات والشعوب. ■



القضية التى تشغل المثقفين

(جزء خاص)

الموضوعية والتلقين

بقلم

د. عبد الوهاب المسيرى

ما يشغل بالي الآن هو قضية قد يتصور البعض لأول وهلة أنها قضية نظرية فلسفية، لا علاقة لها بواقعنا اليومى. ولكننى فى السطور القليلة التالية سأحاول أن أبين أن لها علاقة وثيقة بحياتنا اليومية.

أصبح من المألوف أن نسمع عبارات مثل «يجب أن نتحلى بالموضوعية» و«يجب أن نبتعد عن الذاتية». ولاشك أن الموضوعية أمر محمود إذ كيف يمكن أن نصل إلى المعرفة وأن ندير مجتمعاتنا دون أن نتحلى بصفة الموضوعية ولكن أى نوع من الموضوعية، فهناك أنواع وأنواع هل هى الموضوعية الاجتهادية، أم الموضوعية الفوتوغرافية المتلقية؟ ولنبدأ حديثنا بتعريف هذا النوع الأخير.

الموضوعية المتلقية هى نموذج تحليلى يذهب إلى أن المعرفة عملية تراكمية تتكون من التقاط أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادى) كما هو تقريبا، بصورة فوتوغرافية (أو شبه منها) قد عرف الموضوعى بأنه «ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين» والموضوعية تستند إلى أن ثمة علاقات قائمة بين أجزاء الأشياء المدركة، وأن الناس جميعا بوسعهم أن يدركوا هذه

العلاقات بنفس الطريقة لو تهيأ لهم الموقف الصحيح لإدراكها ولا يهمنى أى التعاريف يتبناها المرء، وإنما المهم هو النموذج الإدراكى الكامن وراءه. وفى حالة الموضوعية نجد أن النموذج الإدراكى يساوى بين العقول كلها، ولذا إن تهيأت الظروف كان الإدراك واحدا أى «إدراكا موضوعياً». مثل هذا التعريف يلغى فعالية العقل وإبداعه ويلغى الذاكرة التاريخية وأعباء المدرك الأخلاقية وتحيزاته وأوهامه وآماله وآلامه وأحلامه والتى توثر فى عملية الإدراك - فالعقل - حسب هذا النموذج - شئ سلبى بسيط الكاميرا يحاول أن يحيط بالواقع كله وأن ينقل تفاصيل الواقع كلها وبحذافيرها، فهو غير قادر على الحذف والاختيار والتضخيم والتهميش والتحريف والتشويه، مرجعيته النهائية هى الواقع المادى كما هو. وهذا التصور للعقل والواقع يهمل علاقة الجزء بالكل والواقعة بالنمط والظاهر بالباطل فالكل والنمط والباطن لاتوجد فى الواقع وإنما هى أطار يجردها العقل الفعال ..

والمعلوماتية المرتبطة تمام الارتباط بهذه الرؤية، تذهب إلى أن المعلومة مهمة فى حد ذاتها لابسبب علاقتها بالموضوع الكلى أو بنمط متكرر، ولذا يصبح التأليف هو أن يحشد المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها وعدم وجود بؤرة مركزية لها والأفتراض الكامن أنه كلما زادت المعلومات زادت درجة الأقتراب من الواقع (كما هو)، على أن يحشد الباحث كل المعلومات أو المراجع (أو معظمها)، ويعطينا صورة طبق الأصل من الواقع وهو تصور يتضمن صورة للعقل باعتباره كيانا سلبياً

إن هذا الموقف الموضوعى المتلقى المعلوماتى ليس «موضوعيا» وإنما «موضوعاتيا» بمعنى أن الدارس يكتفى برصد التفاصيل والموضوعات وتسجيلها دون أن يربط بينها ودون أن يبين ما هو المركزى منها وما هو الهامشى، وما هو المعبر عن النمط الكلى وما هو مجرد واقعة غير ممثلة، وما يستحق الإبقاء منها وما يستحق الاستبعاد .

ولعل التمييز بين الموضوعية والموضوعاتية يعود إلى هذا التمييز الذى أدعو له دائما بين الحقائق والحقيقة فالحقائق هى معطيات مادية متناثرة لايربطها رابط، أما الحقيقة فهى نتاج جهد أنسانى عقلى، حين يقوم العقل بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها وعمليتا الربط والتجريد تقفان على طرف النقيض من عمليتى الحشد والتراكم .

الموضوعية المتلقية

والموضوعية المتلقية لا تفرق بين مادة البحث (التجميعية الأرشيفية) وعملية البحث (التحليلية التفكيكية التركيبية) وقد وصف الأديب الأمريكى هنرى ديفيد ثورو هذا النوع من الموضوعية بأنه مثل إحصاء عدد القطط فى زنزبار، وهو جهد لا طائل من ورائه إن لم يكن هناك إطار لعملية الإحصاء هذه، وإن لم يكن هناك هدف،

والبحث عن الحقيقة ليس إحصاء عدد القطط في زنزبار، وانما تصنيفها داخل اطر محددة ثم تفسير وجودها على هذا النحو إن هذه الإمبريقية غير مبدعة وغير توليدية فهي محصورة في فضاء التفاصيل الضيق، لاتشغل نفسها بما وراء التفاصيل (أنماطها - اتجاهاتها - علاقاتها ..الخ .وقد واجهتني مشكلة الموضوعية المتلقية وبحدة في أثناء محاولتي تعريف الصهيونية فتعريفات الصهيونية التي وردت في بطون الكتب الغربية (بما في ذلك الموسوعة البريطانية) تتحدث عن أن «الصهيونية. هي حركة تحرير الشعب اليهودي» أو «عودة اليهود لو طنهم القومي أو أرض أجدادهم أوالأرض التي وعدهم الإله إياها» وهنا طرحت على نفسي السؤال التالي : «هل تتطلب الموضوعية نقل هذا التعريف بحذافيره، برغم أنه يتضمن مفاهيم كثيرة لا يمكن قبولها، مثل أن فلسطين ليست وطن العرب، وإنما وطن اليهود وأن اليهود شعب واحد؟.. وإن رفضت هذا التعريف، هل يكون هذا من قبيل الذاتية؟» وينطبق الشئ نفسه على ما يأتينا من أخبار، فهل الموضوعية تتطلب أن أوردها كما هي، والذاتية عكس ذلك، برغم إدراكي أن هذه الأخبار تم أنتقاؤها بعناية، وأنه تم في المقابل إخفاء عشرات الأخبار الأخرى أو تهميشها ؟

ظاهرة الأملاء في التعليم

وتتضح سيطرة النموذج المعلوماتي على التعليم في ظاهرة الإملاء التي أصبحت شكلا أساسيا من أشكال التعليم في الجامعة يفترضها الطلبة كما يفترضها الأساتذة أساسا لعقد اجتماعي صامت بينهم. وإن حاول أحد الأساتذة أن يغير من هذا الاتجاه ويبدأ في إعطاء محاضرة حقيقية تتطلب الحوار واعمال العقل يجد نفسه أنه يقف ضد التيار الأساسي

ثم يلي الإملاء طبع المذكرات والملخصات وبيعها للطلبة «بسعر معقول» أو مغالى فيه حسب درجة طمع الأستاذ. وتصبح القضية هي ثمن المذكرة، ومن هنا مشكلة ما يسمى «الكتاب الجامعي» وهو مفهوم يدل على مدى الانهيار الذي يعاني منه التعليم الجامعي .

ونصل إلى الهوة في «الدروس الخصوصية» وإذ تنحصر العملية التربوية في تدريب الطلبة على طريقة اجتياز الامتحانات وكيفية اجترار المعلومات على ورقة الإجابة، وتنتصر الحقائق الصماء التي لا معنى لها، وتضيع الحقيقة ويذوي المعنى .

وغني عن القول إن فلسفة الامتحانات تنبع من نفس النموذج، إذ يصبح هم الطلبة هو أن يحفظوا عن ظهر قلب ما لقنهم إياه الأستاذ وإظهار معرفتهم بأكبر قدر منه في الامتحانات .

كثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست «بحوثا» على الأطلاق، فهي في كثير من الأحيان عبارة عن المادة البحثية الأرشيفية

الأولية بعد تصنيفها سطحياً وبعد ترتيبها بطريقة لا تستند إلى منطق واضح أو كامن وهناك حيلة أخرى، وهى أن يكون البحث عبارة عن ورقة تتحدث عن أطروحة معروفة مسبقا يتم توثيقها من خلال حشد مصادر كثيرة ومراجع عديدة ومعلومات غير مترابطة لذا حل التوثيق (الموضوعى المتلقى) محل الاكتشاف والتفكير والتفكيك والتركيب (الذاتى الإبداعى). ومن ثم ظهر داء النصوصية (أى يحشد الباحث أقوال الآخرين الواحد تلو الآخر، تأييدا لكلامه)

عملية توثيقية

ونفس النموذج (أى نموذج الالتزام بالمعلوماتية والموضوعية المتلقية) يتبدى فى الإجراءات التى تتخذ الآن للتسجيل لدرجة الدكتوراة أو الماجستير ففى الماضى كانت المسألة تستغرق بضع ساعات فى مناقشة بين الأستاذ المشرف والمتقدم لنيل الدرجة، أما الآن فيطلب من الطالب (فى كثير من الجامعات) أن يقدم تقريراً مفصلا عن الموضوع الذى سيكتب عنه وعن أطروحته، يرفق به قائمة بالأدبيات المتصلة له وهذا الإجراء يحمى بعض الطلبة (متوسطى الذكاء) من. الدخول فى طريق لن يؤدى بهم إلى شئ ولكنه يجعل الهدف من الرسالة عملية توثيقية، لأن كل شئ لابد أن يكون معروفاً مسبقا (مع العلم أننى فى رسالتى للماجستير والدكتوراه قد توصلت إلى نتائج تقف على طرف النقيض من الأطروحة التى كنت أنوى إثباتها .

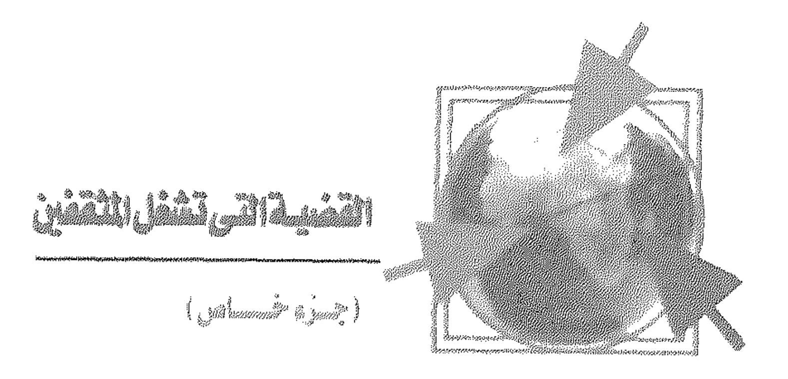
وانطلاقا من فكرة الموضوعية المتلقية، التى تسقط حق الأجتهاد، أصبح من المعتاد أن يقال لطالب تقدم بموضوع رسالته : «لقد كتب فى هذا الموضوع من قبل»، وكأن وجهة نظر الدارس مسألة عديمة الأهمية، وكأن المعرفة الإنسانية معرفة واحدية تراكمية : مجموعة من الأفكار أو المعلومات، التى تتراكم بعضها فوق بعض، مثل المعادلات الرياضية أو القوانين العلمية

وتعبيرا عن نموذج الموضوعية المتلقية الذى استشرى فى الرسائل والمؤلفات فى العلوم الاجتماعية فى البلاد العربية ما يسمى بالاستبيان، وهو مجموعة أسئلة توزع على اعضاء العينة الذين يجيبون عليها عادة بنعم أولا، وتختزل القضية إلى الأسئلة التى يطرحها الدارس والأجوبة التى يتلقاها، ثم يحاول بعد ذلك التوصل إلى نتائج إحصائية دقيقة، ثم يملأ رسالته بالجداول التى تدخل الغبطة على نفس المتحنين نظراً لدقتها العلمية (وهم يعنون الموضوعية الفوتوغرافية فى واقع الأمر). ومعظم هذه البحوث يقال لها «ميدانية»، أى أنها لاتتعامل مطلقا مع إطار النظرى ولا تتساءل بخصوصه، وإنما تحاول أن تطبق مقولة نظرية ما على حالة ما أو على عدة حالات وهذه الدراسات الميدانية هى الأخرى عملية تطبيق صماء متلقية تأتى

بنتائج متوقعة متضمنة فى المقدمات النظرية، ومن ثم فهى ليست بحثا ولا تعدل شيئا من النظرية السائدة (مع أن هذا فى تصورى هو هدف العلم) وعادة ما تفضل الإحصاءات والدراسة الميدانية لأنها «مفيدة» مما يبين أن الموقع المباشر سيطر على عقل الدارس، كما توصف بأنها «دقيقة» مما يدل على أن العلوم الطبيعية (وهى علوم تتجاوز فى دقتها العلوم الإنسانية والاجتماعية) تلقى بظلالها الكثيفة على العلوم الإنسانية، كما تدل على أن هذه المناهج ترى الإنسان بحسبانه كائنا طبيعيا .

عملية الإدراك والتفسير

إن جوهر البحث والإبداع - فى تصورى وتصور الكثير غيرى - هو أن يكتشف الإنسان علاقة بين شيئين أو ظاهرتين لم يكتشفها أحد من قبل ويربط بينهما، ثم يجرد بعد عملية الربط هذه نمطا عاماً يتجاوز الظاهرتين له مقدرة تفسيرية، ثم يرى الواقع من جديد فى ضوء هذه العلاقة الجديدة. وعملية الربط فعل ذاتى، لأنه نتاج إعمال الفكر، وليس معطى ماديا يوجد جاهزا فى الواقع، وعملية التجريد عملية إبداعية أكثر ذاتية من عملية الربط. ولكل هذا وجدت أنه من الأجدى استبعاد مصطلحى «موضوعى ذاتى» (فهما يفترضان موضوعاً قائما فى حد ذاته، وذات مستقلة منعزلة لاتتعامل مع الموضوع) أحللت محلهما مصطلحى «أكثر تفسيرية» و«أقل تفسيرية»، فهما أكثر دقة فى وصفهما لعملية الإدراك والتفسير. فإن كانت الأطروحة التى يأتى بها الدارس تفسر عدداً من المعطيات يفوق العدد الذى تفسره الأطروحات السائدة، فهى «أكثر تفسيرية»، وإن كان عددها أقل فهى «أقل تفسيرية»، ويتميز هذان المصطلحان بأنهما لا يتجاهلان الواقع بطريقة مغرقة فى الذاتية، وإن كانا فى الوقت نفسه يؤكدان أهمية العقل ومقدرته على التفاعل مع الموضوع وربط المعطيات المختلفة كما أن المصطلحين الجديدين أكثر انفتاحا. فالإنسان يقدم أطروحته لتختبر على محك الواقع، لاتقبل أو ترفض، وبعد اختبارها إن وجدها الإنسان أكثر تفسيرية أخذ بها، وربما أضاف إليها ليجعل مقدرتها التفسيرية أعلى ، أما إذا كانت أقل تفسيرية فإنه يشير إلى نقائصها ويكملها، ولذا أسمى هذا النوع من التفكير «الموضوعية الاجتهادية» (فى مقابل الموضوعية المتلقية أو الفوتواغرفية)، وهى ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره وكأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء، وإنما يعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد منها أنماطاً متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل ..■



الاستعمار الجديد والقديم

بقلم
د. جلال أمين

عندما تفضلت مجلة الهلال ووجهت هذا السؤال إلى مجموعة من الكتّاب: «ما الذى يشغل بالك الآن؟» اتجه تفكيرى على الفور إلى ما يدور فى العراق. ووجدت أن السؤال الذى يلحّ علىّ منذ فترة هو: «ما هو الجديد بالضبط فى الاحتلال الأمريكى للعراق؟ نعم، إنه بلاشك هجمة استعمارية، ولكن فيم يختلف الاستعمار هذه المرة عن الاستعمار القديم؟»

إن لهذه الهجمة الاستعمارية الجديدة نفس الملامح القديمة المعروفة لأى غزوة استعمارية سابقة. ولكن تظهر من حين لآخر بعض الملامح غير المألوفة تجعل هذه الهجمة تبدو وكأنها نوع جديد حقا من الاستعمار، أو كأنّ ما يحدث يمثل أعلى مراحل الاستعمار.

كان هناك أولا نفس التعلل بحادثة مثيرة، منبتة الصلة فى الحقيقة بما اتخذ بعدها من إجراءات. أقصد بهذا بالطبع حادث ١١ سبتمبر، ٢٠٠١ فأيا كانت الحقيقة فيما يتعلق بتفاصيل ماوقع بالفعل في ١١ سبتمبر هناك مئات الأدلة على أن ما قيل عنه من أكاذيب، من جانب وسائل الإعلام وجهات التحقيق الرسمية على السواء، يبلغ أضعاف ما قيل عنه من حقائق.

وعلى أية حال فقد استخدم هذا الحادث كما يُستخدم دق الطبول فى تهييج الجيوش للحرب: لا علاقة مباشرة فى الواقع بين دق الطبول فى بداية الحرب وبين الأهداف الحقيقية من الحرب، اللهم إلا تهييج الناس وخلق المناخ النفسى الملائم لما يراد عمله.

هناك أيضا نفس التشدق المألوف بمبادىء سامية جدا، لتبرير أعمال حقيرة جدا. فبعد أن استخدم الاستعمار شعارات نشر المسيحية مرة، فى عصر الرأسمالية التجارية، ثم استخدم شعارات الوطنية وتمدين الشعوب المتأخرة، فى عصر الرأسمالية

الصناعية، تستخدم الآن شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب، فى عصر الرأسمالية المعولمة.

وكل هذه الشعارات، القديم منها والجديد، لا علاقة لها بالطبع بالأهداف الحقيقية من الهجوم الاستعمارى.

أما الأهداف الحقيقية من الهجمة الاستعمارية فإن لها أيضا نفس الملامح المألوفة : السيطرة على مواد أولية ثمينة، وإن كان النفط قد حل محل السلع الزراعية، وفتح أسواق جديدة، وإن كان تصريف الأسلحة قد حل محل تصريف الأقمشة، وفتح مجالات جديدة للاستثمار، وإن كان الأمر الآن كثيرا ما يتطلب القيام بالتدمير قبل أن يعاد بناء ما تم تدميره.

كل هذه الوسائل والأهداف لها إذن كثير من الملامح الرئيسية المألوفة فى أى هجمة استعمارية سابقة.

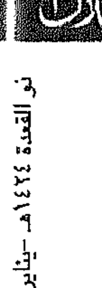
ولكن هناك أيضا ملامح حديث بشعة لهذه الهجمة الاستعمارية الجديدة لابد أن تستوقف النظر، وتدعو المرء إلى التساؤل عما إذا كنا قد دخلنا، دون أن نشعر، عصرا جديدا تماما، لم نر مثله من قبل. وهو أقرب إلي العصر الذى صوّره جورج أورويل فى رواية ١٩٨٤ منه إلى أى عصر سابق من عصور الاستعمار.

أنظر مثلا إلى الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام الآن، ليس فقط فى نقل المعلومات والأخبار إلى الناس، وليس فقط فى إثارة عواطفهم وتوجيه مشاعرهم فى الاتجاه المطلوب، بل ودورها فى إدارة العمليات الحربية نفسها بل وفى خلق الأحداث خلقا.

إن الجيش الأمريكى الذاهب إلى العراق أخذ معه، إلى جانب الأسلحة والعتاد، مندوبى التليفزيون ومصوريه، حيث يقرر قوّاد المعركة، ليس فقط مكان وزمان المعركة وأسلحتها، بل وأيضا طريقة تصويرها وإخراجها للناس.

وعندما يتقرر إنهاء حكم صدام حسين، يكون أمام قوات الاحتلال الاختيار بين القبض عليه فورا ومحاكمته وإعدامه مثلا، وبين الاكتفاء بتصوير تمثال ضخم له وهو يسقط فى ميدان عام بينما يصفق بعض الناس لسقوطه، على أن يؤجل القبض عليه إلى وقت آخر أكثر ملاءمة.

المشهد كما ترى أورولى مائة بالمائة، حيث تضيع الفوارق بين الواقع والخيال، أو بين الأصل والصورة.



أو فلتنظر مثلا إلى هذا الاهتمام البالغ بتغيير طريقة التفكير، وتبديل الولاء، وإضعاف الشعور بالانتماء للدين أو الأمة، بما يتطلبه هذا من تغيير مناهج التعليم وإنشاء قنوات تليفزيونية جديدة، وصحف ومحطات إذاعة يقال صراحة إن الغرض الأساسى منها هو تغيير طرق التفكير وتبديل الولاء. نعم، كان من بين وسائل الاستعمار، فى كل مراحله، إضعاف الشعور بالانتماء للوطن، وبالولاء للأمة، وبالاعتزاز بدينها ولغتها. وما أكثر ما فتح الاستعمار من مدارس لتخريج تلاميذ يشعرون بالولاء للدولة المستعمرة، ويفكرون بلغتها، بل ويدينون بدينها. ولكن المدهش الآن، ليس فقط أن هذا يجرى بعد مرور عشرات السنين على اكتشاف نسبية الثقافات، وحماقة ترتيب بعضها فوق بعض، وفى وقت يدافع فيه الناس عن حق الحيوانات والطيور المهددة بالانقراض فى الاستمرار فى الحياة، فما بالك بحق ثقافات إنسانية أخرى فى الوجود إلى جانب الثقافة الغربية؟

بل من المدهش أيضا أن الاحتلال نفسه يجرى بدعوى عدم صلاحية ثقافة للبقاء، أو بدعوى تعارض دين من الأديان مع احترام حقوق الإنسان .. إلخ

لقد كانت الأفكار والشعارات دائما سلاحاً فعّالاً فى أيدى المستعمرين يدعمون بها السلاح المادى. ولكن هناك أشياء جديدة فى هذا أيضا .

شعار مكافحة الإرهاب

اختراع فكرة «الإرهاب» لتبرير هذه الهجمة الجديدة يتسم بصفات جديدة لم يحظ بها أى من الشعارات الدعائية السابقة، مثل نشر المسيحية أو نشر التمدين الأوربى، أو مكافحة الشيوعية.

فى كل هذه الشعارات السابقة كانت هناك نسبة لا يستهان بها من حاملى هذه الشعارات ومتلقيها تؤمن به أو على الأقل تصدقه، أما فى استخدام شعار «مكافحة الإرهاب» فإن الترويج له يعتمد على الضجيج المصاحب له أو مجرد التكرار والإلحاح أكثر مما يعتمد على الإقناع.

«وهو تطور يتفق مع التطور الذى حدث فى وسائل الإعلام»

كذلك فإنه فى الهجمات الاستعمارية السابقة كان للشعار المرفوع أساس موضوعى مستقل عند استخدامه لتبرير الاستعمار. فالمسيحية لم تنشأ أصلا لتبرير الاستعمار، ولا التمدن الأوربى، ولا كان النظام الشيوعى مجرد وهم ابتدعه الرأسماليون. أما «الإرهاب»، فهناك أدلة كثيرة على أن الأمر بأكمله مصنوع ومخترع لتبرير التدخل والهجوم والاحتلال. **وفكرة الارهاب، علي أية حال، فكرة غريبة لا يعرف لها أحد حدودا واضحة، أو مكانا معينا تسكن فيه، أو مفكرا نادى بها وحدد أصولها وأهدافها .. إلخ.**

أضف إلى ذلك أن استخدام الأفكار والشعارات كسلاح لدعم الهجمة الاستعمارية كان فى الماضى محدودا فى نطاق ضيق سواء من حيث الدول التى يمارس فيها هذا الاستخدام، أو من حيث النسبة من سكان أى دولة التى يوجه إليها هذا السلاح. كانت محاولات المستعمرين القدامى للتبشير بالمسيحية مثلا، لا تمس الجماهير الغفيرة من معتنقى الديانات الأخرى، كما كانت محاولة الترويج للحضارة الأوربية والاقناع بتفوقها مقصورة على حفنة صغيرة من المثقفين أو المتعلمين أو السياسيين. وينطبق هذا أيضا على شعارات مكافحة الشيوعية. وفى جميع الأحوال كانت هناك دائما بلاد وأمم نائية عن محاولات الترويج لهذه الشعارات . أما الآن فلتنظر إلى العالم بأسره، ولتخبرنى بأى بلاد العالم ينجو الآن من هذا الإلحاح السقيم على ضرورة التصدى «للإرهاب» وأى شعب من الشعوب نجت أغلبيته من التعرض لهذه المحاولات المستمرة لتلويث المخ؟

الجديد إذن فى هذه الهجمة الأخيرة يمكن تلخيصه فى عبارة واحدة، وهى «عولمة القهر»، سواء كان هذا القهر ماديا أو فكريا أو نفسيا. إذا كان الأمر كذلك فإن قضية الاستعمار لم تعد قضية شعب بعينه أو أمة بعينها، حتى إذا كانت كذلك فى أى وقت من الأوقات، بل أصبحت قضية الناس فى كل مكان. وإذا كان التحرر من تضليل الأفكار والشعارات التى ترددها يوميا أبواق الاستعمار، شرطا ضروريا دائما لتحرير الشعوب الخاضعة للاستعمار، فقد أصبح هذا التحرر الآن شرطا ضروريا لتحرير العقل الإنسانى فى أى مكان. ■



ديمقراطية.. على الطريقة الإيطالية

بقلم
جميل مطر

تعودت فى الشهور الأخيرة تصريحات سيلفيو بيرلسكونى رئيس وزراء إيطاليا ، كل تصريح منها يثير فى أوروبا الاهتمام المصحوب بالقلق ، أو يثير فى الدول العربية والإسلامية ودول أخرى كثيرة الغضب المصحوب بالاشمئزاز . سمعته منذ أسابيع قليلة يقول «يجب أن نروج للقيم الغربية ، ومنها فرض العقوبات الاقتصادية على الأنظمة الشمولية» . وقال « إن استخدام الدول الديمقراطية للقوة فى بعض الحالات كما حدث فى العراق يتطلب العمل على تغيير القانون الدولى ، فالقانون الدولى كما عرفناه كان يقف إلى صف سيادة الدولة ولا يسمح بالمساس بها » .. وقال « إنه يجب أن نتدخل فى شؤون الدول الأخرى كمصدرين للديمقراطية والحرية . وهذا أمر ممكن وأعتقد أن الغرب يجب أن يذهب أبعد مما ذهب إليه الرئيس بوش فى التدخل العسكرى الخارجى تحت اسم الحرب الوقائية»

هذه التصريحات تبدو مفهومة إذا قورنت بتصريحات أخرى أدلى بها فى مناسبات مختلفة متسببا فى مشكلات جمة أشهرها على سبيل المثال تصريحه الذى عبر فيه عن كراهية للإسلام والمسلمين . وتصريح آخر سب فيه أحد النواب الألمان ووجه إليه إهانة لم يغفرها مجلس النواب الألمانى والبرلمان الأوروبى . وتصريحات أخيرة أيد فيها إسرائيل تأييدا خارقا للعادة فأغضب العرب وأغضب الاتحاد الأوروبى ، ثم أيد فلاديمير بوتين ضد الثوار فى الشيشان ، فأغضب الأمريكيين وزملاءه الأوروبيين الذين يأخذون على بوتين قسوة معاملته للجمهورية المتمردة . ولكن يهمنا فى كل هذه التصريحات تصدره لقضية الديمقراطية ورفع لوائها والتبشير بها. إذ قد يكون فى تصريحاته متهورا أو غامضا أو غير مفهوم وهذا لم يعد شيئا لافتا للنظر فكثير من زعماء العالم هذه الأيام لايجيدون الحديث ولا يفهمون أحيانا ما يصرحون به . ولعل الكتب الثلاثة التى صدرت مؤخرا عن الرئيس بوش وكمية الأخطاء اللغوية وحجم الجهل الذى تعكسه تصريحاته وخطبه دليل على أى حد صار منصب الرئيس يخضع إلى ما يمليه عليه مستشاروه وحتى رغم هذا الإملاء فإنه قد لايفهم ما يفرض عليه أن يقول .

* * *

بيرلسكونى ربما يأتى بعد بوش مباشرة وقبل طونى بلير فى صدارة المبشرين بالديمقراطية ودعاتها .. بيرلسكونى هو ابن ايطاليا . ومن هى إيطاليا ؟ يكشف تاريخ إيطاليا السياسى عن أن الديمقراطية لم تتعمق فيها رغم فترات مورس فيها شكل أو آخر من أشكال الديمقراطية . المعروف أن إيطاليا منبت الفاشية . فالفاشية نشأت فى إيطاليا قبل أن يصل هتلر إلى الحكم فى برلين . إيطاليا عرفت نظام الحزب الواحد أكثر مما عرفت نظام الأحزاب المتعددة . فقد حكم موسولينى بحزب واحد لأكثر من عشرين عاما . ثم سقطت الفاشية فى الحرب العالمية الثانية وحل محلها نظام الأحزاب المتعددة ومع ذلك ورغم وجود عدد كبير من الأحزاب فى إيطاليا لم يحكم إيطاليا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى سنوات قليلة مضت إلا حزب واحد كاثوليكى معتمدا فى بعض الأحيان على تحالفات أو على ائتلاف مع أحزاب أخرى . بهذا لم تعرف إيطاليا تداول السلطة بين الأحزاب خلال القرن العشرين . كانت النتيجة أن إيطاليا عاشت بديمقراطية مشلولة وبنظام سياسى جامد الحركة لا يتطور ولا ينمو ولا يمارس الديمقراطية كما تفهمها الدول الأعرق فى ممارساتها . ولذلك عانت إيطاليا من كل أنواع الظلم الاجتماعى والفساد القضائى والشلل البرلمانى ، فمن ناحية هيمنت الديمقراطية المسيحية على الحكومة والإدارة وهيمن الحزب الشيوعى على المعارضة ، أى أن إيطاليا خضعت لما يقرب من مدة خمسين عاما للكنيستين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشيوعية، وكلتاهما كانتا على الدوام رافضتين

للتطوير والتغيير . في ظل هذا الشلل نشأ الإرهاب اليميني ونشأ بعده الإرهاب اليساري وامتد منه إلى دول أخرى في أوروبا .

شركات عائلية

إيطاليا مجتمع أبوى . العائلة فيه هي أساس العلاقة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فعلي نقيض معظم الدول الأوروبية تعيش نسبة كبيرة من الشباب الإيطالي إلى أعمار متقدمة مع أهاليهم . وينعكس هذا النظام الأبوى العائلي على ظواهر متعددة مثل الطلاق حيث تبلغ النسبة في إيطاليا ١٦٪ وهى نصف المعدل في بقية أوروبا وثلث معدل الطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية . كذلك تبرز الإحصاءات الاقتصادية أن ٨٣٪ من النشاط الاقتصادى الإيطالي يتم من خلال شركات عائلية وأكثرها شركات لايعمل فيها أكثر من ٥٠ عاملا . وفي السنوات الأخيرة حدث تغير مهم في سلوك الأفراد في إيطاليا وفي إنتماءاتهم فالإيطالي كان دائما ملتصقا بأيديولوجية ما فهو إما اشتراكى وإما فاشى وإما كاثوليكى . وفي الوقت نفسه ظل قويا انتماؤه الجغرافي ، فالإيطالي إما جنوبي أى من صقلية وسردينيا أو نابولى أو بارى، وإما شمالي أى من سهل البو وإقليم لومبارديا الشاسع الممتد من فينيسيا شرقا إلى تورينو وسان ريمو غربا . وقد يكون من توسكانيا أى من القلب الارستقراطي ، لغة وطبقة ، وفي التسعينيات من القرن الماضي قفز النظام الدولى قفزة واسعة من الحرب الباردة إلى هيمنة القوة الرأسمالية الأعظم في العالم وقفز النظام الإقليمي الأوروبي في خطوات متسارعة نحو الوحدة الأوروبية ، بكل ما يعنيه هذا التحول من ضغوط على الانتماءات الأساسية للمواطن الإيطالي ، فأضيف الانتماء الأوروبي كانتماء جديد . إلى جانب ذلك حدثت الطفرة الكبيرة في اتجاه العولمة التى أثرت تأثيرا مباشرا على الحياة في إيطاليا وسلوكيات الأفراد فيها . خلاصة القول أن المواطن الإيطالي انتقل في أقل من ١٠ سنوات من إنسان ملتزم أيديولوجيا متمسك بانتماءاته الأولية أبوى النشأة إقليمي النزعة إلى إنسان شديد البراجماتية ، أوروبي التوجه ، عالمي الرؤية .

* * *

أما الرجل سيلفيو بيرلسكوني فهو في حد ذاته قصة . ولكنها القصة التى لاتنفصل عن سياقها ، أى عن طبيعة وسلوك المواطن الإيطالي العادى وسلوكه ولا عن طبيعة إيطاليا والتحولات التى جرت فيها . في يوم ٩٤/١/٢٦ ظهر بيرلسكوني على شاشات قنواته الثلاث ليعلن ، وهو القادم من قلب طبقة رجال الأعمال ، تشكيل حزب سياسي ورغبته في أن يتولى منصب رئيس وزراء إيطاليا . تقدم بيرلسكوني إلى جماهير إيطاليا باعتباره أكبر مالك للأراضي في إيطاليا وأغنى رجل فيها وصاحب أوسع امبراطورية إعلامية . وبالفعل اهتز الكيان السياسي الإيطالي تحت وقع هذه الهجمة وشعر أكثر المراقبين السياسيين أن هذا الرجل سوف يأتي رئيسا للوزارة ، فقد

امتلك الهواء وتسلل إلى جميع البيوت والمقاهى . فى ذلك اليوم شاهده على الأقل ٤٥ ٪ من مشاهدى التليفزيون فى إيطاليا وما كان يمكن لأحد أن يتجاهله إذ كان يكفى أن تغير القناة إلى قناة أخرى لتجده فيها وإذا انتقلت إلى قناة ثالثة لوجدته كذلك فيها .

لم يخف بيرلسكونى أن هدفه هو السيطرة على معظم أجهزة الإعلام فى إيطاليا . ووصل إلى الحكم بالفعل وصار رئيسا للوزارة وانكشفت فضيحة كبرى تتضمن رشوة قضاة كانوا يحاكمونه بتهمة استخدام الفساد ، وانفرط التحالف الحاكم تحت وقع الفضيحة وسقطت حكومته بعد ثمانية شهور قضى جميعها فى حرب مع القضاء والعدالة . انتظر بيرلسكونى ست سنوات ولكنه لم يبتعد كثيرا عن الأنظار . كان يطل على المشاهدين من حين إلى آخر على قنواته ومن خلال صحفه التى كانت تزداد باستمرار . وخلال غيابه عن منصب رئيس الوزراء ظل حزبه الأكبر عددا فى البرلمان واستمر يدعم سلطاته على السياسيين ويكيل الضربات الواحدة بعد الأخرى للسلطة القضائية ولم يضع فرصة لكى يشترى سياسيا مهما أو رجل قضاء أو أى إنسان له نفوذ أو قد يفيد فى أى يوم من الأيام .

كان معروفا مثلا أن خمسين نائبا من الذين انتخبوا على قائمته فى عام ١٩٩٤ يعملون كموظفين فى شركته المعروفة باسم ميديا است للإعلانات وهى أكبر شركة فى إيطاليا فى هذا المجال . نواب آخرون كانوا يعملون فى شركاته الأخرى وهى متعددة . ونواب من نوع ثالث كانت أرزاقهم تعتمد عليه بشكل غير مباشر ، منهم محامون ومحاسبون واستشاريون ونجوم تليفزيون وسينمائيون وصحفيون ومقاولون ووكلاء فنانين . عدد من هؤلاء كانوا من بين المشتبه فيهم فى عديد من القضايا التى يجرى التحقيق فيها، وكان هدفه من تعيينهم حمايتهم من الاستدعاء لمحاكمتهم أو للشهادة ضده، ويقال إن أكثرهم لم يحضر أى جلسة من جلسات البرلمان إلا حين بدأت المحاكمات فكان يستخدم حضوره فى الجلسات البرلمانية كمبرر لعدم حضور جلسات المحكمة ، بل يقال إنه قام بتعيين جوليو تريمونتى محاميه الخاص وزيرا للميزانية ، وكان الغرض من تعيينه أن يعمل على إصدار تشريع يعفى شركات بيرلسكونى من دفع مبلغ ٢٥٠ مليار ليرة أى حوالى ١٥٠ مليون دولار ضرائب متأخرة السداد ، وكانت الحجة التى استخدمها الوزير لإصدار هذا التشريع أن الحكومة تشجع الشركات على إعادة استثمار هذا المبلغ فى مجالات اقتصادية بدلا من تجميده فى خزائن الحكومة كإيرادات. وقبل أن تنفذ الشركات هذا الالتزام كان بيرلسكونى قد باعها إلى شركات أخرى فسقط عنها الالتزام .

بيرلسكونى إعلامى يعرف قوة الإعلام وأهميته ، لذلك أصدر أمرا خلال الحملة الانتخابية عام ٢٠٠١ بألا تظهر على ملصقات جميع المرشحين على قائمته إلا صورته هو . وأى نائب يضع صورته إلى

جانب بيرلسكونى يحرم من الانتخابات كان وجهه يطل على الناس فى كل مكان . ملصـــقـــات هائلة الحـــجم على الطرق السريعة ومحطات السكك الحديدية بل إن أحـيـاء كـاملة غطت جـدرانهـا صـور بيرلسكونى..

أعـود لأذكـر بما جـاء فى صـدر هذا المقال عن أن بيرلسكونى هو ثانى أو ثالث أكبر داعية لنشر الديمقراطية فى العالم الثالث ومحاربة الاستبداد والديكتاتورية بالقوة المسلحة إن استدعى الأمر . وفى الحقيقة أكاد لا أجد فارقا كبيرا بين ما فعله بيرلسكونى فى إيطاليا وما فعله أى ديكتـاتور نعرفه أو قـرأنا عنه فى العـالم الثـالث . الفـرق الوحـيـد ربمـا يكمن فى ضـخـامـة الامـبـراطورية الإعـلامـيـة التى يتحكم فيها بيرلسكونى واتساعها مقارنة باحـتكار كـامل من جـانب حكام النظم السلطوية فى العـالم النامى . وقـد أثارت بعض أحزاب المعارضـة مسـألة تعـارض المصالح بين بيرلسكونى والدولة التى تولى فـيـهـا وظيـفـة رئيس الوزراء وكـان رد بيرلسكونى على ذلك أن وضع أولاده على رأس شركاته التليـفزيونية ووضع زوجته على رأس المؤسـسات الصحافية بكل ما يحمل هذا الإجراء من استهانة بالرأى العـام فى إيطاليا وبأصـول الديمقـراطيـة الليبـرالية التى تشـترط وجود مـسـاحـة ومنافذ للرأى الآخر وبشكل منصف .

تشريعات مخالفة للأعراف

الشـائع فى إيطاليا أنه لم يحـدث فى تاريخـهـا السـيـاسى أن أصـدرت حكومـة هذا الكم من التشريعات المخالفة للأعراف والأخــلاق فى هـذه المدة الوجـيـزة ، فـإلى جانب التشريع الذى وضـعـه وزير ماليـته الذى يعـفى شـركـات بيـرلسكونـى من الضـرائب المتـأخـرة ، صـدر تشـريع آخـر يسقط حماية الدولة عن الشهود فى جرائم المافيا وفى أى قضايا تحاكم فيها شركات بيرلسكونى ، ولاشك أنه من الممتع وبالذات بالنسبة إلى أى رجل قضـاء أو مشرع أن يقـرأ صـيـاغـة هذا التـشـريع الذى يكاد يصــرخ فى وجـه العـدالة والإنسـانيـة والديمقـراطية قبل أى شىء آخـر . ثم أن حكومـتـه أصـدرت تشـريعـا يعطل فـاعلية القوانين الخاصة بسرية الحسابات البنكية فـيـمـا يتـعلق بالمحـاكـمـات الجـارية لبيرلسكونى نفسه أو لشركة من شركاته. بمعنى آخر لايحق لرجال الادعاء والقانون أن يسـتـخـدمـوا الحق فى الاطلاع على حـسـابات هذه الشـركـات وحـسـابات بيـرلسكونى طالما ظل بيرلسكونى رئيسـا للحكم . ويتمكن الخبـراء القانونيون الذين استعان بهم كنواب ورؤساء وأعضـاء لجنة تشـريعيـة فى البـرلمان ووزراء من إصـدار لوائح وتشريعات تجعل أى قضية معروضة أمام القضاء تتعلق به وبشركاته تأخذ وقتا أطول مما تحـتـاجـه قـضـايا مماثلة ، أى إطالة أمد القضـية المعروضـة إلى أقصـى حـد ممكن بوضـع العـراقيل أمـام الادعـاء حتى لايتمكن من اسـتكمـال قـضـيـتـه . وهكذا سقطت قضايا لم ينته الادعاء من إعدادها فى الوقت المناسب. عن هذا يقول الإيطاليـــون إنه بدلا من أن يـصـــدر بيرلسكونى تشريعا واحدا بعدم محاكمة شـخـصـه أصـدر عـشـرات اللوائح



والتشريعات والقوانين التى تصل إلى النتيجة نفسها .

ومن القصص الطريفة التى تروى عن أساليب بيرلسكونى فى الحكم أن اثنين من محاميه الشخصيين الذين كلفهم بالدفاع عنه فى قضايا الرشوة المتهم فيها أمام محكمة فى ميلانو كانا يطيران فى الصباح من روما إلى ميلانو ليدافعا عن بيرلسكونى ويعودان بعد الظهر ليشتركا فى صياغة قوانين جديدة تصدر بسرعة لمنع الادعاء من الوصول إلى أغراضه التى يخطط لها فى الجلسات القادمة للمحاكمة . بمعنى آخر كانا يستبقان الادعاء بإصدار قوانين تحول دون ممارسته حقه فى توجيه التهم .

ليس غريبا أن يحدث هذا إذا أعدنا التذكير أن بيرلسكونى يمتلك ثلاث قنوات تليفزيونية يشاهدها ٤٥٪ على الأقل من المشاهدين . وبصفته رئيس الحكومة فهو يهيمن هيمنة كاملة على ثلاث قنوات تليفزيونية حكومية أخرى يتابعها أيضا ٤٥٪ من المشاهدين . أى أن رئيس الحكومة الذى يبشر بالديمقراطية وحرية الرأى الآخر واحترامه واستخدام القوة العسكرية ضد من يحتكرون السلطة خارج الدول الغربية هو نفسه يحتكر الرأى الواحد على الأقل بين ٩٠٪ من المشاهدين . وتقول إحدى الإحصائيات إن بيرلسكونى وحده يدلى بتصريحات تحتل ٤٠٪ من كل التصريحات السياسية فى إيطاليا ، وأن عدد المعلقين السياسيين فى أجهزة الإعلام الذين فصلوا من وظائفهم بسبب انتقاداتهم لبيرلسكونى يصل إلى حدود لا سابقة لها فى إيطاليا . والمعروف أن أضخم جريدة فى إيطاليا وهى كوربيرى دى لاسيرا أجبر بيرلسكونى أصحابها على فصل رئيس تحريرها فوروشيو دى بورتولى وكان سبب الفصل أنه ألح فى مقال له إلى أن ضغوطا من بيرلسكونى تمارس على الصحيفة لتغيير خطها السياسى . هذه الجريدة عرفت على مدى عقود طويلة بوصفها الناطق الأساسى باسم اليمين الرأسمالى الليبرالى ، فى إيطاليا .

لا جديد فى إيطاليا !

يقول توبياز جونز فى كتابه «القلب المظلم لإيطاليا: رحلات عبر الزمان والمكان فى إيطاليا» والصادر منذ أسابيع قليلة إنه لا جديد فى إيطاليا فى ظل بيرلسكونى إلا من حيث الدرجة ، ويضرب مثلا بفريقى الكرة أ . س ميلان ويوفينتوس . الأول يملكه بيرلسكونى والثانى يملكه الملياردير أنيللى صاحب إمبراطورية السيارات ، هذان الفريقان يحصلان على معاملة أفضل من حكام الكرة فى كافة المباريات التى يشتركان فيها . هذه إحدى الفضائح المعروفه لدى العامة فى إيطاليا ومسكوت عنها ، إيطاليا ثقافة مرئية يسهل غوايتها بقنوات بيرلسكونى . ويساوى توبياز جونز بين بيرلسكونى وموسولينى فيقول إن أحدهما كان يسلب إرادة الناس من شرفة فى ميدان البندقية فى روما والآخر يسلبها من شاشة التليفزيون .

ويلاحظ بول جنزبورج فى كتابه «إيطاليا والساخطون فيها» أن أغلب ناخبى بيرلسكونى هم من صغار رجال

الأعمال الذين يشكلون النسبة الأعظم فى القطاع الاقتصادى فى إيطاليا. هؤلاء لهم ثقافة اقتصادية وسياسية معينة بمعنى أنهم معتادون على طرد موظفيهم متى شاءوا دون مراعاة قوانين العمل . هؤلاء أيضا يغشون فى الضرائب ويتهربون منها ويخرقون كل القوانين . يعرف بيرلسكونى عن خبرة، وخاصة أنه الإيطالى النموذجى ، كما يقال ، أن محاكمته بتهم الفساد والرشوة والتهرب من الضرائب تقلق الطبقة الوسطى ورجال الأعمال لأنهم يخشون أن القضاء وقد بدأ به فلا شك أن يد التطهير سوف تصل إليهم سواء عن طريق التدقيق فى حسابات الضرائب أو عبر مطاردة الذين يخرقون القانون . ولذلك عمد بيرلسكونى فى المرتين اللتين تولى فيهما الحكم أن يبدأ بإصدار قانون يعفى المتأخرين عن الضرائب ، أى يكافىء الطبقة الوسطى من صغار رجال الأعمال على أساليب الغش التى يستعملونها ضد الحكومة . يلاحظ جنزبورج أيضا أن بيرلسكونى فى الواقع لا يتحدث عن الديمقراطية بقدر ما يتحدث عن الحرية لأن مفهومه للحرية هو ألا يكون هناك أى قيد على المنافسة ، ولذلك تشير الإحصائيات إلى أن من كبار مؤيدى بيرلسكونى بعض صغار رجال الأعمال والطبقة الوسطى الصغيرة وبناة العشوائيات أى الذين يعملون على تخريب البيئة فى إيطاليا بالمبانى الخارجة عن القانون أو بأى أعمال أخرى تهدد جمال الطبيعة وقوانين الدولة . هؤلاء يهدمون المبانى الأثرية أو يسرقونها ويحطمون التاريخ الإيطالى أمام سمع رجال الدولة وبصرهم . الحرية عند بيرلسكونى هى حرية الاحتكار والتغلب على الدولة والتهرب من القوانين . وإيطاليا حسب جنزبورج وتوبياز منبت الفاشية والمافيا والإرهاب كلها مجتمعة فى فلسفة واحدة تقوم عليها الحكومة الإيطالية الراهنة .

وتفسير ذلك لدى المحلل السياسى لشؤون إيطاليا أن الأحزاب الإيطالية مثلها مثل أحزاب كثيرة فى العالم بدأت تنحسر لصالح أفراد أغنياء يشترون السياسة بإعلانات التليفزيون . وقد ظهر أحدهم فى أمريكا منذ سنوات وهو روس بيرو . وظهر ثلاثة منهم فى روسيا استطاعوا فى وقت قصير أن يصلوا إلى ما يشبه احتكار أجهزة الإعلام الروسية وحاولوا ضرب فلاديمير بوتين والهيمنة على السياسة الروسية الداخلية والخارجية . اثنان منهم محكوم عليهما وهما فى الخارج كلاجئين سياسيين ، أحدهما فى إسرائيل ، والثانى فى بريطانيا، والثالث ينتظر محاكمة فى سجن روسى بتهمة التهرب من الضرائب والتلاعب فى الأموال .

فوق هذا وذاك يشير الكثيرون إلى أن بيرلسكونى يقدم نموذجا سيئا للتطور الإعلامى لأنه يفخر بأنه بدأ حياته الإعلامية فى أوائل عقد الثمانينيات بتقديم استعراض راقص للعراة كان الأول فى العالم . ويقول أحد المحللين السياسيين إن شركة الإعلام التى يملكها سيلفيو بيرلسكونى يعود سر نجاحها ليس لأنها سياسية أكثر مما يجب بل لأنها ليست سياسية على الإطلاق ، فجميع القنوات



التليفزيونية التى يملكها بيرلسكونى لاتتحدث عن السياسة إلا عندما يظهر هو فيها ، إنما كل اهتمامها هو الأفلام وصور العراة والكوميديا . ويتردد فى الدوائر السياسية فى الحكم أن فلسفة بيرلسكونى تتلخص فى عبارة "أن المدخل للسياسة فى العصر الراهن هو اللاسياسة» . وأظنها عبارة تستحق التوقف عندها خاصة هذه الأيام .

خيبة أمل الكثيرين

ويذكرنا بيرلسكونى برئيس الولايات المتحدة الأمريكية عندما يقول «إن هناك شيئا سماويا فى أن يختارك الشعب رئيسا له» ، هنا الإضافة الدينية تصيب بخيبة أمل كثيرين من الليبراليين والعلمانيين فى الدول الأوروبية خارج إيطاليا . قال بيرلسكونى ذات مرة إن الشعب لايعتبره مذنبا أو مجرما بدليل أنه أعاده إلى الحكم . «وإذا صدر حكم محكمة ضدى فمعناه أنه حكم ضد الديمقراطية لأن الشعب لايعترف بجرائمى أو لايرى أننى ارتكب جرائم وبالتالى كلمته أعلى من كلمة القانون أو القضاء» . كان لافتا لنظر الكثيرين ممن شاهدوا على شاشات التليفزيون مشاهد التصويت على قوانين فى مجلس النواب الإيطالى أن يتابعوا موظفى مجلس النواب وهم يهرولون فى القاعة ليدقوا بأصابعهم على أزرار التصويت نيابة عن نواب غائبين . ولم يحتج الشعب . واستمر بيرلسكونى يرفع شعار الديمقراطية ويدعو إلى تنفيذه بالقوة وبالعنف . والجدير بالذكر أن التليفزيون الإيطالى لم يقدم فى عشر سنوات تغطية لأى قضية من قضايا الفساد نظرت أمام المحاكم الإيطالية ضد بيرلسكونى وشركاته ، باستثناء مرة واحدة حين ناقش أحد مقدمى البرامج الكوميدية علاقة بيرلسكونى بالمافيا ، وأعيدت إذاعة البرنامج فى محطتين أخريين كانت نتيجتها أن بيرلسكونى فقدت شعبيته ١٢ نقطة فى قياس الرأى العام . واتهم بيرلسكونى التليفزيون بارتكاب جرائم إعلامية وقررت الحكومة فصل ثلاثة من المسئولين عن إذاعة هذا الشريط . ويطمح بيرلسكونى إلى السيطرة على أكبر شركات إعلامية فى أوروبا . وحاول شراء أكبر قناة تليفزيونية فى إسبانيا ورفعت ضده قضايا فى مدريد بسبب فساده وتهربه من الضرائب فى إسبانيا واستخدامه شركات وهمية لشراء هذه القناة الأمر الذى أجبر حكومة إثنار على رفض عرض الشراء .

هذا الرجل هو الذى يؤيد إسرائيل تأييدا خارقا للعادة خلافا لكل قرارات الاتحاد الأوروبى وسياساته وهو رئيسه حتى نهاية ديسمبر ، فأغضب العرب والمسلمين . وهو الرجل الذى أيد فلاديمير بوتين ضد الثوار فى الشيشان فأغضب الأمريكيين والأوروبيين معا . وهو الرجل الذى أصدر قانونا يحمى إمبراطوريته من رجال القانون والادعاء فى إيطاليا فأثار حنق المعارضة ملوثا سمعة الديمقراطية ، وبيرلسكونى هو الرجل الذى قال «لم أتصل مرة واحدة تليفونيا بمسئول فى قنواتى التليفزيونية التى أملكها للتأثير على قراراته» . أليس هذا هو القول الشائع فى كل عواصمنا العربية وعواصم الدول غير الديمقراطية ؟ ■

القضية التى تشغل المثقفين

(جزء خامس)

العروبة المفترى عليها!

بقلم

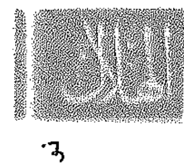
د. محمد عبد الشفيع عيسى

قدم بعض المثقفين العرب - غداة الغزو الأمريكى للعراق - وعدا بجائزة، وذبحوا ضحية فأما الوعد بالجائزة فهو وعد بالديموقراطية وأما الضحية فهى القومية العربية .

وارتبطت جائزة الديموقراطية بأيديولوجية قوى السوق للاقتصاد الرأسمالي . أما الضحية فلم تكن الديموقراطية فقط، وإنما أفكار العدل الاجتماعى الجذرى أيضا (أو الاشتراكية) بالإضافة إلى الأفكار المرتبطة بالهوية العربية - الإسلامية والمؤتلفة مع المسيحية الشرقية.

وباختصار فإن ذلك الفريق من المثقفين العرب أقام مهرجانا خطابيا للترحيب بالديموقراطية والرأسمالية القادمة - المزعومة حتى الآن، وأقام احتفالية جنائزية لوداع العروبة والاشتراكية والإسلام المؤتلف مع المسيحية الشرقية ..

وبرغم ما يحمله المهرجان والجنازة من دلالات فكرية كبرى، فلم يفسر لنا أحد منهم ما حدث بالضبط وما ينبغى أن يحدث ؟!



لم يقل لنا أحد ما هى الديموقراطية أصلا؟ وهل مازالوا يتذكرون تعريفها المدرسى القديم : (الديموقراطية حكم الشعب بالشعب وللشعب)؟ ولم يقولوا لنا هل للديموقراطية شروط ؟ أى هل إن الممارسة الديموقراطية مشروطة بتوفر مقومات معينة، وان كان ذلك فما هى تلك الشروط أو المقومات ..؟ وهل توفرت لدينا، أو هل يمكن لأمريكا أن توفرها لنا نحن العرب ؟

(ونقول : أمريكا - هكذا مجردة من أى وصف قد يكون متحيزاً : مثل الاستعمارية والأمبراطورية الخ) وكيف يمكن أن توفرها أمريكا هذه - إن افترضنا رغبتها فى ذلك وقدرتها عليه ؟ أم الديموقراطية شأن محلى، أو وطنى، أو قومى - وحينذاك: كيف يمكن توفير شروطها ومقوماتها ..؟ وما مستقبلها إن قامت ؟. وما إطارها الاجتماعى وأيضا الحضارى والثقافى والإيديولوچى ؟.

أما الضحية فقد ساقوها ذبيحة مذمومة ومدحورة، ولم يعنوا حتى بعرضها أمام مذبح القرابين قبل أن يسيروا فى جنازتها وحدهم دون شريك؟ وهكذا لم يقولوا لنا : كيف تسببت القومية العربية نفسها فى المآسى ؟ وكيف لنا أن نتوقى كوارث من هذا القبيل بعد ذلك ؟

ولكنا نقول لذلك الفريق من المثقفين العرب هاأنتم فسرتم لنا لماذا استمرت هذه الأمة تعيش أجواء النكسة منذ ١٩٦٧ حتى الآن أى قرابة أربعين عاماً.. ؟ فقد عرفنا منكم الآن كيف يتشتت رأس الأمة - المقطوع - ويذهب شذر مذر تميل به الرياح أينما مالت، وكيفما شاءت لها أهواء الفضاء (الخارجى) ..!

بغداد في قبضة الاحتلال

قد عرفنا الآن معنى الظاهرة المعروفة فى علم السياسة بـ (تشرذم النخبة) Elite Fragmentation وغياب الاتجاه الرئيسى لأغلبية معينة mainstream direction فقد ذهب مثقفونا كل مذهب بعد وقوع بغداد فى قبضة الاحتلال سواء من حيث تفسير الحدث نفسه (بين أنصار مذهب التقصير ومذهب الهروب ومذهب الخيانة ومذهب الصفقة والإافاق ومذهب أن هذه هى النتيجة الوحيدة للإاستبداد) ومن حيث رسم معالم المستقبل ما بين مواجهة الاستبداد، وبناء (الديموقراطية) المزعومة، وما بين «الليبرالية» على النمط الغربى الصريح (انتخابات وتمثيل) وما بين العلمانية القحة، والدولة الدينية التقليدية، والدولة الإسلامية الحديثة، والدولة الطائفية المجزأة دينيا والمبعثرة قوميا وإثنيا - حيث تنبعث هويات من مرقدها ويعاد إحياؤها من جديد ..

أنقسم أولئك المثقفون العرب على أنفسهم إذن، وتوحد معظمهم حول لعن ماضى والتطلع إلى شبح فى المستقبل. ومع هؤلاء المثقفين، وبأثر لما فعلوه فى الفترة الماضية، احتارت جماهير الأمة التى التفت طوال أيام عملية الغزو العسكرى

للعراق – حول العراق ونفذت بقصد أو بدون قصد عملية (غسيل للدماغ) نسيت من خلاله وقائع ما جرى من الغزو والمقاومة العراقية لهذا الغزو وأخذت تركز على ما أرادت لها أجهزة الدعاية الأمريكية أن تتذكره : مثل سقوط تمثال من حالق وبعض مبالغات إعلامية اعتبرها البعض باعثة على الضحك التمثيلي وعلى انقاض (التمثال) و(التمثيلية) جرى إفساح المجال للفوضى من ناحية أولى، ولسياسات الثأر أو الانتقام المعنوى من ناحية ثانية وكانت هذه هى التربة المزدوجة التى رعتها ألاعيب بعض السياسيين الانتهازيين العرب والعراقيين وسياسة (فرق تسد) الأمريكية – البريطانية .

وضمن هذا الإطار الشامل الذى رسمته الولايات المتحدة الأمريكية يجرى الإعداد فى العراق وعلى امتداد الوطن العربى لإقامة تمثال جديد ولعب تمثيلية جديدة فأما التمثال فهو لذكرى الكارثة نصبا أو أنصابا أو أزلاما تجسد(ديموقراطية) الهوية المبعثرة، وأما التمثيلية فهى السياسة التمثيلية أى بناء نموذج ليبرالى شكلى يقوم على تعددية سياسية وحزبية فارغة من المضمون الاجتماعى التقدمى والقومى وتكتفى من الغنيمة بسلامة الإياب .. من خلال انتخابات مزورة أو غير مزورة واقتصاد سوق يعيد سيرة الانفتاح .

وبواسطة التمثال والتمثيلية ويريدون تثبيت واقع التجزئة الاستعمارية فى الوطن العربى، والتبعية للمركز الأمبراطورى – أو الامبريالى – البائس الجديد : أمريكا – والتعامل من موقع المذلة تجاه إله التطرف العنصرى وإله الرأسمال اليهودى أى اسرائيل .

بيد أننا نقول لكل من سبق وما سبق : لا نقولها بالصوت العالى و (بالخط العريض) لا لديموقراطيتكم المزعومة، ولا لوطنيتكم المدعاة لا لاقتصادكم الرأسمالى ولا لأمريكا الكبرى وأمريكا الصغرى اسرائيل .

ديمقراطية قوي الشعب

ولكننا نريد الديموقراطية. بيد أن الديموقراطية التى نريدها هى ديموقراطية قوى الشعب العربى المنتج والساعى الى التحرير الوطنى – القومى فلا ديموقراطية لدنيا بدون الاستناد إلى الغالبية الاجتماعية ذات المصلحة المستقبلية فى الاشتراكية، ولا ديموقراطية إلا فى اجواء التحرر الوطنى القومى العربى وتثبيت هويتنا القومية – الدينية .

إن الديموقراطية فى عرفنا هى عملية بناء سلطة لقوى اجتماعية معينة، هى صيغة الحكم لهذه القوى، هى ديكتاتوريتها إن شئت فإن شئت لها أن تكون ديموقراطية أو ديكتاتورية الطبقات الاستغلالية والطفيلية المرتبطة بالاستعمار فهذا شأنك وإن اردتها ديموقراطية الشعب العربى المتحرر فهذا شأنك وشأننا أيضا

الديموقراطية إذن ليست جائزة مجانية، وليست منحة، وإنما هى عملية كفاحية، نكاد نقول: ثورية وكما نال الغربيون ديموقراطيتهم بكفاحهم المضنى عبر ثورات البرجوازية الصاعدة فى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر (الثورة البريطانية فى عهد كرومويل - والثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية التى أنجبت الدستور وسبقت الحرب الأهلية) - فكذلك لن يتسنى لنا إقامة الديموقراطية كغنيمة حرب وإنما كثمرة كفاح ثورى يشبه الحرب : عن طريق رفع الوزن النسبى للقوى الاجتماعية المنتجة، عبر ممارسة طويلة ومعقدة، تبنى من خلالها المؤسسات، وتراكم الإنجازات، حتى تقيم تلك القوى سلطتها أو ديموقراطيتها أو ديكتاتوريتها .. لافرق ..!

بل إن التجارب الديموقراطية ذات النفس (الليبرالى) المعقول نسبياً فى الوطن العربى وسائر (العالم الثالث السابق) إنما نشأت فى أجواء حركة التحرر الوطنى والسعى للاستقلال السياسى عن الاستعمار فقد تطورت التجربة البرلمانية المصرية فى القرن التاسع عشر فى غمار محاولة تشكيل هوية وطنية معارضة للوجود والنفوذ الأجنبى، والتى توجت بالثورة العرابية ١٨٨١ وتبلورت التجربة (الليبرالية) المصرية فى القرن العشرين تحت تأثير ثورة ١٩١٩ ولمدة ثلاثين عاما (١٩٢٢ - ١٩٥٢) وقد حدث شئ قريب من ذلك فى حالة الهند، من خلال تجربة غاندى ونهرو وبزعامة حزب المؤتمر .

فأما تلك الديموقراطية من النوع الليبرالى الغربى التمثيلى - الانتخابى - الأجوف والمجرد من المضمون الوطنى التحررى الجذرى والمضمون الاقتصادى الاجتماعى أيضا - فهذه لاتزيد عن كونها (أفيون الشعوب) فى المرحلة الحالية ..!

وأن السلطة التى نريدها لأمتنا العربية فى مستقبلنا هى على النقيض من هذا كله.

.فهذه هي الجائزة الموعودة الحقيقية وليست الجائزة التي يعدنا بها بعض المثقفين هذه الأيام.! وبعد حديث الجائزة ... يأتى حديث الضحية فالقومية العربية التى يريدونها ضحية، نراها نحن نقطة الابتداء لإعادة البناء فمن مشاعر الشعب العربى المتأججة شوقاً للتحرر من سطوة الأجانب وسلطان الفراعين فى الداخل، ننطلق نحو بناء إطار عربى توحيدى جديد.

وإن البناء على أساس العروبة، هو بناء على أساس هوية حضارية متميزة، عربية - إسلامية، مؤتلفة - كما ذكرنا - مع المسيحية الشرقية .

عروبة إذن، ديموقراطية بأفق اشتراكى، وهوية ذات بعد حضارى عميق .. هذا ما نخلص إليه من (المعرفة) وما ينبغى أن نذهب إليه فى (الممارسة). ■



قاتل عند كل زاوية

بقلم
صافى ناز كاظم

تتراكم فوق قلبى الأشياء فى زحام ثقيل، أشد ثقلا من زحام ميدان العتبة القاهرى بكل جلبته وضجيجه وسياراته الملاكى والأجرة، وحافلاته - التى تنفث دخانها الملوث الخانق - وعربات الكارو التى تجرها البغال والحمير والخيل - التى راح زمان عزتها وهيبتها وتنكست آذانها - وتلكؤ الناس فى السير، والعبور والانتظار والتردد بالذهاب والعودة فى المساومة والشراء، والغضب والبرود، وإشارات المرور فاقدة الدلالة، فلا يعنى اخضرارها عبوراً ولا يكبح احمرارها انطلاقا. التباس وفوضى ولامبالاة رغم زعيق النفير بأعلى صوت ممكن.

نحن فى عصر الالتباسات، هذا إذا سألنى سائل فى أى وقت نحن؟

أندهش ممن يجلس وقوراً «يحلل»، وتحت صورته المتحركة أو الجامدة لقب «محلل سياسى» الأقرب هو لقب «متكهن سياسى»، فالساحة العالمية والمحلية لايمكن قراءتها إلا كما نقرأ الطالع فى الفنجان، أو الرمل، أو ضرب الودع. صحيح أنها ليست غيباً لكن من يدَّعى فهمها يبدو من المشعوذين الراجمين بالغيب كذبا وبهتانا.

وضوح الرؤية «الوحيد» يتجلى فى مقاومة الشعب الفلسطيني الباسل على أرضه المحتلة، ذلك لأن العدوان صريح ووقح وبارز ومتسع وموحّد، ولأن العدو واضح وأجنبى ويتكلم اللا منطق بفصاحة لا تقبل التأويل.

قطبان متواجهان: فلسطينى، صاحب وطن وأرض وهوية كاملة، فى مقابل محتل صهيونى سارق وطن وأرض ويسعى لتثبيت هوية مزيفة بفرض واقع

جائر لم يزد عمره على نصف قرن.

لكن هذا الوضوح فى الحق الفلسطينى لم يمنع تداخل مشوشات تتكلم بالباطل لتدحض به الحق «الواضح». مشوشات من جانب المعسكر المعادى ومن جانب بطانته فى داخلنا تصيح للتثبيط بكلمات تشبه عادم الحافلات التى تنفث دخانها الملوث الخانق، فلا تبلغ سوى الإغاظة والاستفزاز بعناوين مثل: «لا للقنابل البشرية» - إثر عملية استشهادية قامت بها الشهيدة النبيلة وفاء إدريس - أو «لماذا لا يحاول الفلسطينى مقاومة احتلاله بالرقص والغناء بدلاً من المقاومة بالسلاح؟»، أو حكمة: «لقد جربنا الانتفاضة ولم تحرر فلسطين وخسرنا بها أكثر مما كسبنا فلماذا لا نحاول صيغا أخرى ؟» إلى آخر ما يمكن أن تتمخض عنه العقليات المثقوبة التى تتطلب «بنطة لحام»، ومع ذلك - والحمد لرب العزة - مازالت المقاومة الفلسطينية بكل أشكالها تستقطب تأييد ومباركة ودعم ودعاء كل التيارات السياسية وغير السياسية فى ساحة أمة العرب والمسلمين والإنسان الصالح فى كل أنحاء الدنيا من دون أى التباس. صارت المقاومة الفلسطينية «بدهية» لا تقبل الاستئناف أو النقض، وحين تأتى الاستغاثات الموجهة لذوى «الضمائر الحية» تناشد مساندة الشعب الفلسطينى حتى تستمر «مسيرته النضالية من أجل مواصلة التصدى للعدوان الإسرائيلى ومواجهة ممارساته الإجرامية على أرضنا المحتلة من حصار، وإغلاق، وتجويع، وتجريف، وتدمير، وقتل....»، ترهف الآذان وتمتد الأيدى تبحث عن وسائل للتلبية فوق العوائق والمعوقات والمسموح واللا مسموح. بينما يظل ما يدور على أرض العراق العزيز يتشابه كثيرا مع أحداث فيلم سينمائى كان عنوانه : «قاتل عند كل زاوية»، فما كاد الشعب العراقى يفلت من القاتل الأول وعصابته حتى وجد نفسه بين زوايا قتلة يتربصون به بدعوى «الإنقاذ»، يتعارك القتلة فلا تنزل السكاكين إلا على رقبة الشعب العراقى، ولا تنهدم البيوت إلا على رأسه ولا يحيق الدمار إلا بأمانه وأمنه، وبين صيحات ووجوه تلبس أقنعة «المقاومة»، وصيحات ووجوه تلبس أقنعة «التحرير» و«الإنقاذ» لا يجد العراقى «الملاذ» الواقى حقا من «القتلة». لابد له من مَخْرج بعيدا عن «الالتباسات». مخرج لايعرف مسالكه سوى هذا الشعب المجروح الذى عانى من «احتلال» سابق بلون الأرضية، لا يهمه الآن سوى إنقاذ فلوله وذيوله وتعويض خسائره بأنانية انتهجها دوما، ومن احتلال أجنبى، لا يهمه الآن سوى إنقاذ ماء وجهه ومداراة كذباته وتجميل بطشه الذى تفضحه ضراوته ولا إنسانيته التى تقوده دائماً.

لابد للشعب العراقى من تملك زمام «مقاومته» و«تحريره» و«نجاته» بيد واحدة مخلصة، تكون قد تعلمت أن خلاصها من السفاح لا يمكن أن يتحقق على يد سفاح آخر.

وحتى تستبين الرؤى وتنقشع الالتباسات، ألا يمكن أن يتوقف السادة «المحللون» عن «طق الحنك»؟ ■

ماذا لو إنهارت اتفاقيات السلام ؟

بقلم
د. قدرى حفنى *

القضية التى تشغلنى هى مسار العلاقات العربية الإسرائيلية، وبالتحديد مستقبل السلام . ترى هل يوشك ذلك السلام أن ينهار ؟ أو بعبارة أخرى، هل توشك العملية السياسية التى تمثلت فى اتفاقيات السلام أن تتداعى؟ أم أنها ستستمر هكذا بين الحياة والموت مجسدة لحالة اللاحرب اللاسلم؟ أم أننا على وشك أن نشهد تغيراً كيفياً على الساحة يفرض السلام على مناهضيه ؟ وقد يرى البعض - وهم ليسوا بالقلة - أن الصراع العربى الإسرائيلى. لم يشهد أصلا ما يمكن أن يسمى بالسلام حتى نتحدث عن احتمالات انهياره. وعلى أى حال فلعلنا نتفق جميعاً على أن ثمة اتفاقات رسمية علنية أبرمتها مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل، وأن هذه الاتفاقات مازالت حتى يومنا هذا قائمة من الناحية الرسمية على الأقل .

لقد بدأت عملية السلام نتيجة لعوامل عالمية عديدة لسنا فى مجال حصرها . ما يعنينا أنها لم تكن تتويجا لتغيرات حثيثة فى المناخ الثقافى على الجانبين العربى والإسرائيلى لقد بدأت مسيرة السلام فى أعين الجماهير على الجانبين مفاجأة صادمة . كان المناخ الثقافى العربى ولفترة طويلة مشحونا بروح المهزوم الذى يعد نفسه لمعركة فاصلة حاسمة تستعيد حقوق العرب جميعا كاملة . وجاء خيار السلام قراراً قياديا اتخذته مصر ثم منظمة التحرير الفلسطينية ثم الأردن .

* أستاذ علم النفس - جامعة عين شمس

أما على الجانب الإسرائيلى فقد بدا كما لو أن القيادة الإسرائيلية تساق عنوة إلى سلام ثمنة الأرض مع استنادها إلى ثقافة تقوم على الاستعداد الدائم للحرب تمسكا بهذه الأرض . ولذلك لم يكن غريبا أن يتهم بيجن بالخيانة حين وقع معاهدة كامب دافيد، وهى نفس التهمة التى أدت إلى اغتيال رابين فيما بعد، والقياس مع الفارق فالتفاوض يجرى هذه المرة مع الفلسطينيين، ويجرى حول أرض مزروعة بالمستوطنين المسلحين .

صحيح أن اتفاقيات أوسلو وكذلك تفاهمات جنيف تقصر كثيراً عن الأمل الفلسطينى العربى الذى يجسده المناخ العربى السائد، ولكنها رغم ذلك تفوق بكثير احتمال الثقافة الإسرائيلية السائدة، ثقافة الاستيطان، وإسرائيل الكبرى ولكن تلك الثقافة السائدة لم تعد بعد كامب دافيد الثقافة الوحيدة فى إسرائيل فقد أصبحت هناك ثقافة أخرى آخذة فى التبلور . ثقافة ترى إمكانية أن يكون السلام مدخلا جديداً لازدهار إسرائيل ونموها بل وحتى لسيطرتها .

والسؤال الذى فرض نفسه على تفكيرى هو ماذا لو انهارت اتفاقيات السلام ؟ ونعنى بانهيار تلك الاتفاقيات إعلان طرف أو أكثر من الموقعين عليها إعلانا صريحا أنه لم يعد ملتزما بها، وهو أمر يختلف تماما عن كل ألوان التجاوزات، وكذلك عن التهديد بالإقدام على مثل ذلك الإلغاء .

وفيما نرى فإن هذا الاحتمال قائم بالفعل منذ بداية العملية السياسية الجارية والتى ترجع بدايتها إلى اتفاقيات كامب دافيد، ثم مؤتمر مدريد، واتفاقيات أوسلو، والاتفاق الأردنى الإسرائيلى . لقد شهد مسار هذه العملية ومازال يشهد رفضا شديدا من قطاعات واسعة داخل الدول التى وقعت تلك الاتفاقيات على الجانبين العربى والإسرائيلى، بل لقد أصبح رافضو هذه الاتفاقيات - على الجانبين - يمثلون ما يمكن تشبيهه بضمير الشارع على الجانبين بحيث أصبح على أصحاب تلك الاتفاقيات تبرير ما أقدموا عليه لإثبات أنهم لم يتنازلوا عن المبادئ الوطنية أو العقائدية الأساسية لبلادهم. ولسنا على أى حال بصدد الخوض تفصيلا فى مبررات أو ديناميات هذا الموقف سواء من حيث شقه الرافض أو شقه المعتذر .

ومع تسليمنا بأن انهيار اتفاقيات السلام احتمال قائم، إلا أنه فيما نرى ليس بالاحتمال الأقرب للحدوث فى المستقبل القريب . ولا يرجع ذلك بحال - فيما نرى - لتعاظم قوى السلام فى المنطقة بقدر ما يرجع إلى أن انهيار تلك الاتفاقيات تماما قد يكون من الأمور المحظورة أمريكيا - حتى الآن على الأقل - فى ظل النظام العالمى الجديد، كما أن تلك الاتفاقيات قد خلقت واقعا اقتصادياً سياسياً جديدا يضغط فى اتجاه الحفاظ على الوضع القائم .

وعلى أى حال فإن انهيار اتفاقيات السلام لا يعنى بشكل تلقائى الانتقال الفورى إلى حالة الحرب أو القتال الفعلى، بل يعنى على الأرجح الدخول فى مرحلة جديدة من اللاحرب اللاسلم التى قد تستمر لفترة تطول أو تقصر تمهيداً لاتفاقيات سلام جديدة أو لقتال جديد يؤدى إلى إبرام اتفاقيات جديدة . وليس من شك فى أن ملامح تلك

المرحلة تتأثر بدرجة كبيرة بالشكل أو السيناريو الذى قد تتخذه عملية الانهيار هذه والتى قد تتخذ واحداً أو أكثر من الأشكال التالية :

١ - قد تنهار اتفاقيات السلام من الجانب العربى نتيجة استسلام النظم العربية الموقعة لتلك الاتفاقيات للضغوط الداخلية الرافضة وللممارسات الإسرائيلية الدافعة فى نفس الاتجاه .

٢ - قد تنهار اتفاقيات السلام من الجانب الإسرائيلى نتيجة لمزيد من تصاعد قوى اليمين الدينى الإسرائيلى .

٣ - قد تنهار تلك الاتفاقيات نتيجة قرار أمريكى بأنها لم تعد معنية بقضية الصراع العربى الإسرائيلى .

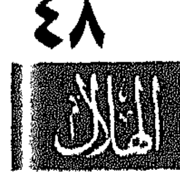
وإيا كان شكل ذلك الانهيار فإنه إنما يعنى مباشرة انتصاراً لأصحاب الاتجاهات الراديكالية العربية على مختلف تياراتهم الفكرية وعلى رأسها التيار الإسلامى الأصولى، كما أنه يعنى مباشرة وبنفس الدرجة انتصاراً لليمين الإسرائيلى وعلى رأسة التيار الدينى الاستيطانى . ولنا أن نخلص من ذلك إلى أن الطرفين الإقليميين فى مرحلة اللاحرب اللاسلم المتوقعة آنذاك سوف يتمثلان فى هذين الطرفين المنتصرين، وهى بذلك قد تختلف عن مرحلة اللاسلم اللاحرب التى عاشتها المنطقة منذ حرب يونيو ١٩٦٧ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

إن انهيار اتفاقيات السلام، إيا كان الشكل الذى يتخذه ذلك الانهيار، وما يتبعه من تصاعد لمناخ اللاحرب اللاسلم، يعد بمثابة الحل الأمثل لأزمة الضمير الإسرائيلى الراهنة، حيث يتيح لكل القوى الإسرائيلية إمكانية أن تنصهر من جديد . ولكن الاستراتيجية الإسرائيلية لإدارة الصراع قد تختلف باختلاف ملابسات انهيار اتفاقيات السلام.

١ - فى حالة نجاح الاستفزازات الإسرائيلية فى دفع الطرف العربى للتخلى عن اتفاقيات السلام ومن ثم انهيارها، يكون ذلك هو الوضع الأمثل إسرائيليا . حيث لاتكون إسرائيل فى حاجة لتعديل الاستراتيجية التى مارستها طويلاً منذ قيامها، والتى ترسخت عبر مرحلة اللاسلم اللاحرب . وتتلخص تلك الاستراتيجية فى إبراز التهديد العربى، وكذلك فى التأكيد على رغبة إسرائيل فى السلام.

٢ - فى حالة نفاد قدرة إسرائيل على التحمل، وإقدامها على التخلى عن اتفاقيات السلام ومن ثم انهيار تلك الاتفاقيات، فقد يؤدى ذلك إلى تبنيها لسياسة داخلية صارمة حيال عرب الداخل بمن فيهم عرب الضفة والقطاع حتى لو اضطرت للتضحية بغطائها الديمقراطى الذى تحرص عليه كثيراً .

٣ - أما فى حالة حدوث تطورات عالمية سياسية أو اقتصادية غير متوقعة، تدفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسقاط المنطقة برمتها من دائرة اهتمامها، ومن ثم التخلى عن الإمساك بدفة اتفاقيات السلام، فقد يؤدى ذلك بأطراف الصراع جميعا إلى إعادة حساباتها وفقا لمحصلة القوة الذاتية المتوافرة آنذاك لكل طرف، ووفقا لقدرة كل طرف على استثمار إمكاناته .. ■






جاك شيراك


أدونيس


كلينتون

● «الكاتب لا يودع الكتابة حتى يودعوه القبر ».

الأديب المغربى محمد شكرى

● «الفقـيـر لايعـرف أحـدا فى حى الأعمـال ومـن يعمل فـى هذا الحى لايعرف أحدا من الفقراء »

جون بروفيومو الوزير الأنجليزى الأسبق المرتبط اسمه بفضيحة كريستين كيللر

● «طالبان يحاربون من أجل قضية خاسرة »

هيلارى كلينتون
عضو مجلس الشيوخ الأمريكى وزوجة الرئيس الأمريكى السابق

● «بدأ الاحتراء فى العالم العربى عندما أصبح القاضى شرطيا بركبة عريف عند ضابط المخابرات »

المفكر والصحفى سمير عطا الله

● «المسارح فراغات كبيرة نحلم فيها معا نفس الحلم »

برناردو بركولوتش
المخرج الايطالى صاحب فيلمى التانجو الأخير والأمبراطور الأخير

● «النظام فى بيـروت يحكم مـدينـة ميتـة، وبشـرا مـوتى، وهـو ليس الا قناعا من أقنعة الموت »

الشاعر أدونيس

● «لم يعد الشعر عموما يشكل هما انسانيا بالنسبة الألية البشرية المعاصرة، بعد أن اقصتها عوامل التقنيه وانحسار عامل الاسترخاء الذهنى من مساحة العقل البشرى المبدع»

الشاعر العراقى على الحلى

● «الرجـال يفكرون فى الزواج عندما يكونـون فى حـالة سكر والنسـاء يفكرن فى الزواج فى حالة الصحو »

الممثل الأنجليزى «هيوجرانت
فى تعليق له عن اقناعة عن الزواج

● «أن قرارا يصدر فى أحد الأمور الأقتصادية والإدارية فى الوقت المناسب، ويشوبه معدل خطأ خمسون فى المائة، خير الف مرة من قرار يصدر صحيحا مائة فى المائة، ولكن فى الوقت غير المناسب »

د . بيتر دراكر
أحد أساتذة علم الإدارة بالولايات المتحدة

● «فرنسا لاتقبل علامات التباهى بالتدين مهما كان نوعها ومهما كان هذا الدين »

الرئيس الفرنسى جاك شيراك

● «الفكر فى العالم الثالث وقع تحت هيمنة ما يعرف بالعقل السليب الذى هو نتاج مؤسسات جامعية غربية الفكر، وانماط تفكير غير نقدية»

الباحث المصرى / السيد الحسينى



أجراس الخطر

قراءة فى مستقبل العرب

بقلم
د. أحمد محمد صالح

منذ أكثر من مائة عام، والعرب ينتقلون من هزيمة إلي أخرى علي كافة الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والمعرفية. وتتعاقب عليهم الويلات والإهانات حتى شاعت عبارات اليأس من الشعوب والحكومات العربية معا! وقد بلغ الحد بأن أعلن البعض وفاة العرب!

ووسط حالة العجز والإحباط فى المجتمع العربي، وفى مثل هذه الأيام من العام الماضى ظهر تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول عام ٢٠٠٢ الصادر عن الأمم المتحدة، بالتعاون مع الجامعة العربية، وهو يحلل متغيرات العجز العربى، ويظهر عمق أبعاد الفجوة بيننا وبين العالم المتقدم.

وأحدث صدور التقرير فى العام الماضى ضجة، ودار حوله جدل واسع فى كافة الأوساط، ومع أنها ليست المرة الأولى التى تعنى فيها الأمم المتحدة بتكليف فريق من الخبراء العرب أنفسهم ليشخصوا الحالة العربية الراهنة، ورغم الجدل الذى أثاره التقرير حول أرقامه وأساليب الاحصاء والقياس والتقدير التى اعتمدها، والاستنتاجات والقراءات الخاصة بأسباب ما تعانيه الدول العربية من مشاكل انسانية وعلاقة ذلك بالخبراء العرب الذين وضعوه وخلفياتهم السياسية والفكرية، عدم إبرازهم لدور العوامل الخارجية مثل الاستعمار ومطامع الدول الغربية وإسرائيل كعامل فاعل فيما وصل إليه العرب، ومع تحفظنا على تلك المقولات الناقدة للتقرير، بيد أن ذلك كله لا يقلل من أهمية الناتج النهائى من زاوية المعلومات التى وضعت فيه كبيانات يمكن الاعتماد عليها أو الاسترشاد بها فى قياس حجم العجز والتقزم العربى، وكانت صورة العرب فى التقرير الذى صدر العام الماضى مأساوية وتشير إلى حالة جمود

ليس من السهل تجاوزها، فأربعة وسبعون مليون عربى من أصل مائتين وتسعين مليوناً هو عدد العرب التقريبى يعيشون تحت خط الفقر، وسبعون مليون عربى أميون لا يقرأون ولا يكتبون، وأكثر من خمسة وعشرين مليون عربى من قوة العمل العربية عاطلين عن العمل، ولم يزد ما ترجمه العرب من كتب منذ العصر العباسى وحتى الآن عن أحد عشر ألف كتاب، وهو مجموع ما تترجمه دولة واحدة هى إسبانيا فى العام الواحد، ومجموع الناتج العربى العام الذى يبلغ ٦٦٠ مليار دولار أقل من الناتج (العام) السنوى لدولة واحدة هى إسبانيا أيضاً. ورغم أن العرب يمثلون ٥٪ من سكان العالم، فإنهم يمثلون ٠.٧٪ فقط من مستخدمى الإنترنت، وينتجون ٢٪ فقط من الناتج المحلى الإجمالى العالمى وسوق التجارة الإلكترونية العربية لا تزيد على ٠.٢٪ فقط من السوق العالمى، أما اللغة العربية.. لغة القرآن، فرغم أنها تقع فى المرتبة السادسة بالنسبة لعدد المستخدمين لها عالمياً إلا أن نسبة وجودها على شبكة الإنترنت لا تزيد على ١٪ أما معظم الأنظمة العربية السياسية فإنها تتفوق على غيرها فى تبعيتها والتفنن فى وسائل القمع والاستبداد والتشريد لشعوبها، وطرد الكفاءات حيث يهاجر سنوياً من الدول العربية إلى الدول الغربية ما يزيد على ٩٠٠ ألف عربى يمثلون جانباً مهماً من الكفاءات المتميزة فى الأمة. ولخص التقرير حالة العرب الانسانية فى الفقر والاستبداد، ومحدودية الفرص الاقتصادية والحرمان الاجتماعى، واهمال الخدمات العامة والتعصب وقمع الدولة، وهى مصادر رئيسية للحرمان الإنسانى وبالتالى لانكماش الحرية». وجاءت محصلة التقرير وشخصت المرض فى ثلاثة نواقص، هى الحرية وتمكين المرأة وبناء القدرات الإنسانية وخاصة المعرفة. واقترحت العلاج فى الحرية، والمعرفة، والعمل، والعمل الجماعى، وحرية المرأة، والمؤسساتية، والابداع، والتعاقد الاجتماعى، والكفاءة.

تقرير التنمية البشرية

ومع بداية الصيف الماضى صدر التقرير السنوى للأمم المتحدة عن حالة التنمية البشرية فى العالم، وكشف تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣ الذى أصدره برنامج الأمم المتحدة للتنمية، عن تقدم ترتيب ٦ دول عربية وفقا لمؤشر التنمية البشرية الذى يشمل دخل الفرد الحقيقى ومعدل الحياة ونسبة الأطفال الذين يلتحقون بالمدارس ونسبة المتعلمين، والوفيات والمواليد وغيرها من المؤشرات، كما أشار التقرير - الذى شمل ١٧٥ دولة عن تراجع مستوى ١٣ من الدول العربية . وكان التقرير قد رصد أوضاع ١٩ دولة عربية جاء من بينها وللمرة الأولى أراضى السلطة الفلسطينية التى احتلت المرتبة ٩٨ فى دليل التنمية البشرية العالمية. وجاءت البحرين وفقا للتقرير فى مقدمة الدول العربية من حيث مؤشرات التنمية

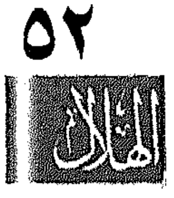
البشرية بينما احتلت دولة جيبوتى المرتبة الأخيرة بين الدول العربية، وسجل لبنان أكبر نسبة تراجع باحتلاله المرتبة ٨٣ بعد أن كان ٧٥ بإنخفاض ثمانى مراتب تلته تونس بانخفاض ست مراتب من ٩٧ إلى ٩١، بينما انخفض وضع مصر إلى المرتبة ١٢٠ بتراجع ٥ درجات وهى الدولة الأكبر تعدادا للسكان..

تقرير التنمية الإنسانية العربية

وفى ٢٠ أكتوبر الماضى صدر التقرير الثانى للتنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٣، تحت شعار نحو إقامة مجتمع المعرفة، فى ٢٠٢ صفحة، وأعاد تشخيص الواقع العربى المتقزم، وشارك فى اعداده أكثر من ٤٠ مثقفاً ومفكّراً عربياً، ونُشر بالعربية والانجليزية. واستقبل التقرير حتى كتابة هذه العجالة، بصمت وفتور، والبعض اعتبره تكرارا ولم يأت بجديد، وهى عاداتنا دائما فى عدم التفرقة بين التكرار والتراكم العلمى، فالتقرير الثانى أعطى فهما أكثر عمقا للواقع العربى المتقزم، وليس مجرد أرقام ومؤشرات، فهو جهد علمى كبير، يفتح باب الحوار الواسع ليراجع العرب أنفسهم، وأسلوب التقرير له طابع خاص، فهو خليط بين العلمى والسياسى والإعلامى، وإن اتسم بالحياد رغم حساسية وغضب المؤلفين من الأحداث التى مرت بها المنطقة فى الشهور الأخيرة، وعندما أشار التقرير إلى عدم تمكين المرأة كأحد معوقات التنمية فى الدول العربية. لماذا تمكين المرأة فقط؟ وماذا عن تمكين الشباب والمهمشين مثلا؟ هل هم أفضل حالاً من المرأة؟.

التحديات الخارجية

حذر تقرير «التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٣» من النزوع إلى المبالغة فى تأثير التحديات الإقليمية والعالمية على التنمية العربية «حيث إن هذا الموقف قد يكون أسلوبا للتنصل والاستكانة». كما دعا التقرير الأجيال العربية الشابة «لأن تكون واعية كل الوعى لتراثها الثقافى الثرى، وتربطه بمقتضيات الحاضر وتتزود منه بالثقة الفكرية والعقلية. وشدد التقرير فى جانب مسهم على أنه يجب ألا تتحول الحرب على الإرهاب لتكون طريقا لضرب الحريات المدنية، ففى بعض الدول العربية، قدمت الحرب على الإرهاب «مبررا واهيا للسلطة للغلو فى كبح الحريات». وأن الإجراءات الصارمة التى اتخذتها الولايات المتحدة فى حملتها ضد «الإرهاب»، وتبنتها بعض الأقطار العربية «قد خلقت أجواء وأوضاعا مناوئة للتنمية الإنسانية. ويمضى التقرير إلى القول إن الحكومات العربية تتذرع باعتبارات الأمن والاستقرار «وتتخذ منها مبررا لتخوفها الدائم من مخاطر الحرية»، ويرى أن الحرب على الإرهاب طرحت تحديات خارجية خطيرة للتنمية



العربية «فالمضايقات التى يتعرض لها العرب المقيمون خارج أوطانهم قد خلقت مناخا ينتقص من رفاهيتهم، ويقوض من فرص اكتسابهم للمعرفة فى الأقطار الأجنبية ويعرقل عملية التفاعل بينهم وبين مجتمعات البلدان التى يقيمون فيها».

التحديات الاقتصادية

يغلب على نمط الإنتاج السائد فى البلدان العربية الاعتماد على استنضاب المواد الخام، وعلى رأسها النفط، وهو ما يسمى الاقتصاد الريعى، بما يضعف الطلب على اقتصاد المعرفة ويهدر فرص انتاجها محليا وتوظيفها بفعالية فى النشاط الاقتصادى. ويؤكد التقرير على أن مقولة ثراء البلدان العربية مجرد وهم، إذ إن مجمل الناتج الاقتصادى المحلى العربى فى نهاية القرن العشرين، حوالى ٦٠٤ بلايين دولار، يتعدى بالكاد ناتج دولة أوروبية واحدة مثل إسبانيا، أما الناتج القومى الإجمالى للفرد من قوة العمل «فإنه يقل فى البلدان العربية عن نصف مستواه فى دولتين ناهضتين فى العالم الثالث هما كوريا الجنوبية والأرجنتين». ويرصد التقرير اتساعا فى الهوة بين البلدان العربية والدول الآسيوية، خاصة فى نصيب دخل الفرد من الناتج المحلى، على الرغم من تقارب تلك النسب، فى عقدى الستينيات والسبعينيات، ففى حين بلغ دخل الفرد العربى ٧٪ عام ٢٠٠١ وصل فى بلدان شرق آسيا إلى ٥٢٪، ويكمن سر المعجزة الآسيوية فى التركيز على التعليم والتربية، و«والنمور الآسيوية» أفلحت فى «تضييق الفجوة» التى تفصلها عن الدول المتطورة، فيما «اتسعت الهوة» بين البلدان العربية وهذه الدول خلال الفترة ذاتها. والحكومات العربية لم تفشل فى تنمية التبادل التجارى البينى بين شعوبها فقط، ولكنها فشلت فى التبادل التجارى مع الدول المتقدمة، وكذلك فى اجتذاب الاستثمارات الجديدة، وتركز الاقتصاد العربى فى عدد من المشروعات والخدمات وارتبط إلى حد كبير بالبترول واستخدم خبرات أجنبية ليحقق عائدا سريعا. ولعل أبرز ما كشف عنه تقرير التنمية هو تقلص الطبقة الوسطى تحت وطأة الخوف والفقر، وتوازى توزيع السلطة مع توزيع الثروة، والتضحية بالعدالة الاجتماعية، وهو ما أدى إلى اتساع التسلط الإدارى المجحف على مجمل القرارات، وغابت النزاهة والمسئولية وساد الفساد الاجتماعى والأخلاقى، وضعفت القيمة الاجتماعية للعالم، والمتعلم، والمثقف، وباتت القيمة الاجتماعية العليا للثراء والمال بغض النظر عن الوسائل المؤدية، وكان من نتيجة ذلك هروب الكفاءات، فى المجتمعات العربية. كما أصابت الفورة النفطية عددا من القيم والحوافز الاجتماعية التى كان يمكن أن تؤازر وتسند الإبداع واكتساب ونشر المعرفة، ولكن القيم السالبة التى انتشرت من خلال الفترة الماضية قعدت بالإبداع وأفرغت المعرفة من مضمونها التنموى والإنسانى، وحلت الملكية محل المعرفة والعلم، كما يقول التقرير. بكلام آخر، إن الفساد محترم فى بلاد دفنت القيم! كما فقدت المرحلة الراهنة قيم نمط الوجود



الذى يتميز بالاستقلالية والحرية وحضور العقل النقدى والنشاط الإيجابى الفاعل. وأسهم القمع والتهميش فى قتل الرغبة فى الإنجاز والسعادة والانتماء، ومن هنا ساد الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسى ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المشاركة فى إحداث التغيير المنشود. وقد نجم عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطاردة إضافة إلى عوامل الجذب فى الدول الأخرى إلى تنامى ظاهرة هجرة العقول العربية، بما فى ذلك من هدر على الدول والمجتمعات وضياع للفرص، ويقدر عدد الجامعيين العرب المهاجرين إلى أوروبا وأمريكا عام ١٩٩٥/١٩٩٦ بـ ٧٥ ألفا، وكان عدد الأطباء العرب المهاجرين بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠٠ حوالى ١٥ ألف طبيب وبات حلم الشباب العربى الأول هو الهجرة.

حالة التنشئة والتعليم

ورصد التقرير أسباب تخلف العالم العربى فى اكتساب المعرفة، لعدة أسباب، تبدأ بأساليب التنشئة، حيث يشير التقرير إلى أكثرها انتشارا فى الأسرة العربية هى «أساليب التسلط والتذبذب والحماية الزائدة ما يؤثر على نمو الاستقلال والثقة بالنفس والكفاءة الاجتماعية ويؤثر بصورة سلبية على ضعف اتخاذ مهارات اتخاذ القرار وكبح التساؤل والاكتشاف والمبادرة» . ويشير التقرير إلى أن أخطر مشاكل التعليم لاحقا تتمثل فى «تردّى نوعيته، إلى جانب ارتفاع معدلات الأمية خاصة بين الإناث، وتناقص الإنفاق على التعليم». ومازال الوضع العام للتعليم متواضعا مقارنة بإنجازات دول أخرى حتى فى بلدان العالم النامى ومقارنة باحتياجات التنمية الإنسانية. ومازال التوسع الكمى فى التعليم منقوصا بسبب ارتفاع معدلات الأمية، ولكن المشكلة الأخطر فى التعليم فى البلدان العربية هى تردى نوعيته، وهذا يقوض أحد أهم أهدافه الأساسية، وهو تحسين نوعية الحياة وإغناء قدرة المجتمعات، كما تحدث التقرير عن تعريب التعليم العالى، واعتبره مفتاحا للنهضة الثقافية، وقال فى هذا الصدد «إن من الضرورى أن يتعلم الشباب العرب التفكير النقدى بلغتهم الأم» حتى اللغة العربية هى فى انقراض، والتقرير يوصى «بإصلاح لغوى شامل».

حالة المعرفة

تبدو المعوقات السياسية لاكتساب المعرفة أشد وطأة من المعوقات الاجتماعية والاقتصادية، فالسلطة السياسية فى البلدان العربية تعمل على تدعيم النمط المعرفى الذى ينسجم مع توجهاتها وأهدافها، وتحارب الأنماط المعرفية المعارضة، وبسبب غياب التنافس السياسى والتداول السلمى للسلطة تخضع المؤسسات العلمية للاستراتيجيات السياسية والصراع على السلطة، وتتقدم مقاييس الولاء فى الاختيار للإدارة والترقية بدلا من الكفاءة والمعرفة. وأدى التقييد على البحث والإبداع العلمى إلى تكبيل العقول وإخماد جذوة المعرفة وقتل حوافز الإبداع. وتقوم السلطات الأمنية متجاوزة المؤسسات الدستورية والقوانين بمصادرة المطبوعات ومنع بعضها من

الدخول والتداول والعرض والتسويق. ويرى التقرير أن إنتاج المعرفة فى البلدان العربية يتسم بالتجزؤ والتبعثر، ويتعرض للاستغلال السياسى والتهميش، وأن السلطة فى العالم العربى تضع خطوطا حمراء تؤدى إلى فساد البحث العلمى والعبث فيه، أو إلى تدمير المعرفة نفسها، ومع ضعف منظومة المعرفة وتفشى آليات اجتماعية بديلة وناجعة لحل المشكلات المجتمعية كالمحسوبية والمحاباة، تسود انطباعات عن عدم جدوى المعرفة فى حل مشكلات النشاط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، أو صعوبة التوصل لمثل هذه المعرفة، ما يؤدى بصناع القرار إلى الانكفاء على ما ألفوه من وسائل وآليات تصرف. وتواجه عمليات نشر المعرفة فى البلدان العربية فى مختلف مجالاتها فى التنشئة والإعلام والترجمة صعوبات عدة من أهمها شح الإمكانيات المتاحة للأفراد والأسر والمؤسسات والتضييق على نشاطها، وكان من نتائج ذلك قصور فعالية هذه المجالات عن تهيئة المناخ المعرفى والمجتمعى اللازمين لإنتاج المعرفة. وما يوصى به تقرير التنمية الانسانية العربية الثانى هو إقامة مجال معرفى يجرى فيه إنتاج المعرفة بمنأى عن الإرغام السياسى.

الإعلام والفضائيات

مازال الإعلام العربى ووسائط الوصول إليه وبنيته التحتية ومضمونه يعانى من الضعف والقصور، ما يجعله دون مستوى التحدى فى بناء مجتمع المعرفة، فعدد الصحف فى البلدان العربية يقل عن ٥٣ لكل ١٠٠٠ شخص مقارنة مع ٢٥٨ صحيفة لكل ١٠٠٠ شخص فى البلدان المتقدمة. والصحافة فى أغلب البلدان العربية تحكمها بيئة تتسم بالتقييد الشديد لحرية الصحافة والتعبير عن الرأى، وتكشف الممارسات الفعلية فى كثير من البلدان العربية عن انتهاكات مستمرة للحريات الصحفية والتضييق عليها بالعقوبات والتهديد، ومازال نمط ملكية الدولة هو السائد، خاصة فيما يتعلق بالإذاعة والتليفزيون. وقد شهد العامان الأخيران حركة ملموسة فى الحياة الإعلامية العربية، فقد نشأت قنوات فضائية عربية قادر على منافسة أعتى المؤسسات التليفزيونية العالمية فى السبق على الخبر والصورة، وعلى بث روح جديدة فى الشاشات العربية ساهمت فى جعل قنوات فضائية عربية كثيرة من القنوات الحكومية والرسمية تتجه نحو الحرية والإبداع والمنافسة. ويشير التقرير إلى أن نسبة وسائل الإعلام لعدد السكان فى الدول العربية تعتبر الأدنى على المستوى العالمى، إضافة إلى أن أكثر من ٧٠ فى المائة من قنوات التلفزة العربية وعددها ١٢٠ «هى تحت إشراف الدولة التى تملك بدورها وكالات الأنباء» وعلى الرغم من انتشار الفضائيات فإن نشرات الأخبار «قلما تحمل المعلومات التى تهم غالبية الناس وتثرى مخزون المعرفة العملية النافعة لديهم. أما الأخبار عن جوانب معينة فى الحياة السياسية العربية، أو فى المجتمع أو الدين، فلا يتم الإعلان عنها فى أغلب الأحوال». كما يرصد التقرير انخفاض

عدد أجهزة الحاسوب المتوافرة فى العالم العربى، حيث هناك ١٨ حاسوبا لكل ١٠٠٠ شخص مقارنة مع المتوسط العالمى وهو ٧٨.٣ لكل ١٠٠٠ شخص، كما يقتصر عدد مستخدمى الإنترنت على ١.٦ فى المائة فقط من سكان العالم العربى.

الكتب والقراءة

وحسب التقرير أنتجت البلدان العربية مجتمعة ٥٦٠٠ كتاب فى العام ١٩٩١ مقابل ١٠٢ ألف كتاب فى أمريكا الشمالية. فالإنتاج العربى للكتاب متراجع إلى حدوده الدنيا بالنسبة لحجم السكان وبالمقارنة مع الدول الأخرى، وهناك ٢٧٠ مليون عربى، والكتاب العربى الذى تباع منه ٥ آلاف نسخة يدخل فى باب الكتب الأكثر رواجاً. وتعتبر الترجمة من القنوات المهمة لنشر المعرفة والتواصل مع العالم، إلا أن حركة الترجمة العربية مازالت مشوبة بالفوضى والضعف، فكان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون شخص من العرب فى السنوات الأولى من الثمانينيات يساوى: ٤.٤ كتب، أى أقل من كتاب واحد كل سنة، بينما بلغ ٥١٩ كتابا فى المجر، ٩٢٠ كتابا فى إسبانيا. ويعانى الإنتاج الأدبى من قلة عدد القراء بسبب الأمية وضعف القوة الشرائية للقارئ العربى، فلا يتجاوز الإنتاج العربى فى مجال الكتب ١.١٪ من الإنتاج العالمى رغم أن العرب يشكلون ٥٪ من عدد سكان العالم غير أن اتجاهات هذه الكتب تشير إلى طبيعة اهتمامات القراء العرب، «فعدد الكتب الأدبية والفنية (على سبيل المثال) الصادرة فى البلدان العربية لم يتجاوز ١٩٤٥ كتابا فى عام ١٩٩٦، مما يمثل ٠.٨ فى المائة فقط من الإنتاج العالمى، وهو أقل مما أنتجته دولة مثل تركيا لا يتعدى سكانها ربع سكان البلدان العربية. «فيما تمثل الكتب الدينية نحو ١٧ فى المائة من عدد الكتب الصادرة فى البلدان العربية بينما لا تتجاوز هذه النسبة أكثر من ٥ فى المائة فى مناطق أخرى من العالم».

البحث العلمي والتقنية

ويعانى البحث العلمى فى الدول العربية من شح الإنتاج، وضعف فى مجالات أساسية، وشبه غياب فى حقول متقدمة مثل المعلوماتية والبيولوجيا الجزئية، مع انخفاض الانفاق عليه، وانخفاض عدد المؤهلين للعمل فيه، فلا يزيد عدد العلماء والمهندسين العاملين فى البحث والتطوير فى البلدان العربية عن ٣٧١ لكل مليون من السكان، وهو أقل بكثير من المعدل العالمى البالغ ٩٧٩ لكل مليون من السكان، تواجه عملية ترويج نتائج البحث والتطوير صعوبات وعقبات أساسية بسبب ضعف الروابط بين مؤسسات البحث والتطوير وقطاعات المجتمع الإنتاجية، وغياب الدعم المؤسسى وعدم توافر البيئة العلمية المواتية لتنمية العلم وتشجيعه بالرغم من امتلاك العالم العربى ثروة بشرية مهمة وقادرة على حفز صحوة معرفية. وكان اقتصار سياسات التصنيع العربية على مفهوم اقتناء وسائل الإنتاج وعدم الاهتمام بالسيطرة على التقانات وتوطينها كان معناه أن تقادم التقانات المستخدمة فى المشروعات الإنتاجية حولها إلى مؤسسات غير قادرة على المنافسة. لأن «استيراد البلدان العربية

للتقانة يحفز تنمية المعرفة فى الأقطار المصدرة لها بينما يخنقها على الصعيد المحلى». وكل عمليات التصنيع والاقتناء التقانى التى قام بها العرب فى نصف القرن الماضى لم تؤد إلى الفائدة المرجوة.

ماذا نفعل في مستقبل العرب؟

التقرير يقدم تشخيصا مخيفا لحالة العالم العربى، الذى يتجه ولو على الأجل البعيد نحو حالة تأزم لا يمكن حسبان أبعادها. فهناك ركود اقتصادى دائم وانخفاض خطير فى معدلات دخل الفرد وتراجع كبير فى الإنتاجية، وسوء كل من العمل الحكومى والتخطيط والسياسة وتفاقم الميزانيات العسكرية وانتشار المحسوبية والفساد المالى الفاضح. وأكثر ما يستدعى القلق هو حالة التعليم فى العالم العربى. وأن الفروق القائمة فى المعدلات العلمية بين البلدان العربية ودول أخرى من هذا الكوكب فى ازدياد مطرد. فتراجع المجتمعات العربية فى حقول التكنولوجيا والاقتصاد والعلوم يجرى يوما بعد يوم. ويرافق ذلك تكريس اعتماد هذه المجتمعات على علماء الغرب والشرق الأقصى. وينتهى التقرير إلى رؤية استراتيجية لإقامة مجتمع المعرفة فى البلدان العربية تنتظم حول أركان خمسة هى: ١- الحرية ٢ -التعليم الراقى. ٣ - توطين العلم والبحث. ٤ - اقتصاد المعرفة. ٥ - تأسيس نموذج معرفى عربى عام، أصيل، منفتح، ومستنير يقوم على: العودة إلى صحيح الدين وتخليصه من التوظيف المغرض، وحفز الاجتهاد وتكريمه؛ النهوض باللغة العربية؛ استحضار إضاءات التراث المعرفى العربى؛ إثراء التنوع الثقافى داخل الأمة، ودعمه، والاحتفاء به، والانفتاح على الثقافات الإنسانية الأخرى. ويخلص معدوّ التقرير إلى أن «التحدى الأكبر للدول العربية لا يكمن فى اللحاق بالدول الأخرى، على مؤشرات المعرفة فحسب، بل يتعدى ذلك ليشمل العمل الحثيث لامتلاك بعض الخواتيم المعرفية (فى إشارة إلى الصادرات عالية التقنية) من خلال إقامة بنى مؤسسية وبلورة إرادة سياسية».

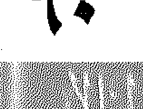
وقد التفت التقرير بشكل خاص إلى ضرورة تنشئة الأطفال وإعادة الأمور إلى جذورها الحقيقية حيث الرهان الحقيقى على إحداث التغيير فى المجتمعات العربية لا يمكن تحقيقه فى يوم وليلة وإنما من تنمية ثقافية تبدأ بتنشئة الطفل من البيت والمدرسية حيث التنمية الثقافية هى الأساس الذى تبنى عليه كافة أشكال التنمية من اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية. والآن بعد هذه البانوراما لأحوال العرب بالأرقام، هل هناك أمل؟! هناك أمل إذا نظر كل عربى حوله وغضب لنفسه ولأحوال بلده على ما يحدث فيها من انتهاك لحقوق الانسان وقمع وقهر اقتصادى وسياسى واجتماعى، وجهل باسم الدين والاستقرار والنظام، فكلنا حكاما وشعوبا مسجونون فى سجن اللامبالاة والخوف والقهر، فنحن غير مستعدين حكاما وشعوبا لدفع تكلفة الحرية والتقدم، لقد فقدنا إرادة الرفض من عشرات عشرات السنوات. فلن ترجع الحياة للعرب. ■



أحد الاحتفالات القبطية بملوى



احتفال حول دير العذراء - المحرق



ثمة في المكتبة العربية (والإنجليزية) عدد من الكتب المصورة عن التراث القبطي في الفنون والعمارة، ولكن الجديد الذي يقدمه هذا الكتاب هو أنه يركز على الموروثات الدينية والحياة الاجتماعية لأقباط مصر كاشفا عن الطريقة التي يمارسون بها شعائر دينهم، وكيف تدخل في نسيج حياتهم. وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول: يبدأ كل منها بنبذة عن خلفية الأعراف والتقاليد والمعتقدات التي تجسدها الصور الفوتوغرافية في أعقاب النبذة، إن الشعب المصري مولع بعرض معتقداته الدينية: ففي كل دكان أو محل للعصير أو كوّاء أو مؤسسة تجارية يملكها قبطي تجد لوحات تومىء إلى ديانة صاحبها. والدين ، عند كثير من الأقباط ، جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية: يجد تعبيرا عنه في حرصهم على حضور الموالد وزيارة القديسين حيث يحتشد الآلاف، والموالد من أكثر الأمور دلالة على تواشج الحياة الاجتماعية بالحياة الدينية ، تمتزج فيها مظاهر التقوى بمظاهر اللهو والمرح: إن الأسرة قد تحتفل بتعميد طفل جديد لها ثم تذهب إلى مدينة الملاهي وتمتطي الأراجيح استكمالا للاحتفال، وقد ترفع أكف الضراعة إلى أحد القديسين ثم تقوم بنزهة تستمتع فيها بغزل البنات الذي يذوب في الفم ذوبانا ! من هنا كان هذا الكتاب - بصوره الحية - نافذة يطل منها القارىء (الأجنبي بخاصة) على عالم ملون مثير.

وتقول يسرية ساويرس في مقدمتها للكتاب : إن الأقباط - أي مواطني مصر الذين يدينون بالمسيحية - يفخرون بأن



البابا شنودة فى احتفال بكاتدرائية القديس مارك - العباسية

بلادهم هى المكان الوحيد - باستثناء أرض فلسطين المقدسة - الذى وطأته قدما السيد المسيح عندما فرت العائلة المقدسة من اضطهاد هيرودس وأقامت بمصر ثلاث سنوات . ويرجع الأقباط أصول عقيدتهم ونشأة كنيستهم الأرثوذوكسية إلى وصول القديس مرقص إلى الإسكندرية حاملا معه القداس الذى تُرجم إلى اللغة القبطية ثم جمعه البابا كيرلس الأول ، البابا الرابع والعشرون للكنيسة القبطية. وقد كان تمسك الأقباط الأوائل بعقيدتهم فى وجه اضطهاد الرومان وإقدامهم على الشهادة عن طيب خاطر مبعث فخر لأحفادهم . كذلك كانت مصر هى موطن نظام الرهبنة الذى أنشأه القديس أنطونيوس فى صحراء مصر الشرقية فى القرن الرابع للميلاد، كما كانت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية منارة هادية للفكر والدفاع عن العقيدة الأرثوذوكسية . ويظل أقباط مصر اليوم فخورين بتراثهم الذى أضاف الكثير إلى تراث العقيدة المسيحية بعامة.

ويبين هذا الكتاب - بالكلمة والصورة - كيف يمارس الأقباط حياتهم الدينية، وكيف أبقوا على شعلة الموروث الدينى حية، وكيف يحتفلون بميلاد أو شهادة القديسين ، بل إن عدسة المصورة الغربية لا تُغفل أن ترصد حياة الزبالين - من المسيحيين والمسلمين على السواء - والتغير الذى طرأ على أسلوب معيشتهم نتيجة لالتفات الحكومة والمنظمات غير الحكومية إلى حاجاتهم من إسكان وتعليم ورعاية صحية ، مما فتح أمامهم وأمام أولادهم آفاق حياة جديدة.

وتسجل يسرية ساويرس أن البابا

شنودة الثالث حريص على الالتقاء بأبناء شعبه من خلال ندواته الأسبوعية التى تعقد كل أربعاء ، ويؤمها المئات.

التقطت كلاوديا وينز الصور الفوتوغرافية التى يزدان بها الكتاب فى الفترة ما بين فبراير - أكتوبر ٢٠٠١ أثناء إقامتها فى مصر وتجوالها بين محافظاتها. وهى تسجل دينها لمن سبقوها إلى الكتابة عن حياة الأقباط مثل چيل كامل صاحبة كتاب «الحياة القبطية» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٠) وأوتو ميناردوس صاحب كتاب «ألف عام من المسيحية القبطية» (نفس الناشر ١٩٩٩)، وقد التقطت أكثر من ١٥٠٠ صورة اختارت منها المجموعة التى تظهر هنا.

بدايات المسيحية فى مصر

كيف بدأت المسيحية فى مصر، هذا هو السؤال الذى يطرحه الفصل الأول من الكتاب ويحاول الإجابة عنه، «وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه»، هكذا يقول القديس متى فى إنجيله (الاصحاح الثانى ، الآيات ١٣ - ١٥). وهكذا بدأت رحلة العائلة المقدسة (ومعها سالومى مربية الطفل يسوع) من بيت لحم إلى مصر، وتختلف الآراء حول المسار الذى اتخذته هذه الرحلة على وجه الدقة، ولكن الثقات يذهبون إلى أنها عبرت الجليل وبئر سبع إلى حدود مصر متوقفة بتل الفرما وتل بسطة ومسطرد وبلبيس وسمنود والبرلس وسخا ووادى النطرون والقناطر والمطرية وحارة زويلة والقاهرة القديمة والمعادى والبهنسة وجبل الطير والأشمونين وملوى وديروط ومير.

كذلك لا نعرف المدة التى قضتها العائلة المقدسة فى مصر بالضبط، ولكن أغلب المصادر تجمع على أنها تتراوح بين ثلاثة أعوام ونصف وأربعة أعوام.

وكثير من المواقع التى مرت بها الرحلة قد قامت بها الآن كنائس وأديرة منها دير السريان ودير الأنبا بيشوى ودير أبو مقار ودير البراموس فى وادى النطرون ودير المحرق.

وقد تبعت العائلة المقدسة، فيما يبدو، نفس المسار عند عودتها إلى فلسطين ، وتقول المأثورات إنه خلال إقامتها فى المكان الذى ينهض به الآن دير السيدة العذراء ظهر ملاك الرب ليوسف النجار فى حلم «قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى (إنجيل متى ٢ : ٢٠).

كان القديس مرقص الإنجيلى هو أول من أدخل المسيحية إلى مصر فى القرن الأول الميلادى أثناء حكم الإمبراطور الرومانى كلاوديوس، ورغم أن المصادر لا تذكر تاريخ زيارته لمصر بالضبط فمن المحتمل أن ذلك كان فى أعوام ٤١/٤٢م أو ٤٣/٤٤م وربما أيضا زارها مرة أخرى بين أعوام ٥٠ - ٦٢ م . ومن المحقق أنه كان بها فى عام ٦٨ وهى سنة استشهاده.

لم يكن القديس مرقص هو الذى وضع أول الأناجيل فحسب، وإنما كان أيضا مؤسس الكنيسة القبطية، كان الأول بين سلسلة متصلة من ١١٧ بطريركا، وتقول المأثورات إن أول من اهتدى إلى المسيحية بفضله كان إسكافيا فى





عيد الزعف فى كنيسة سان مارى - بالمعادى



الإسكندرية. وقد هدى مرقص أسرة الإسكافى بأكملها وعمدّها ، وسرعان ما تزايد عدد الداخلين فى الدين الجديد، وفى الوقت ذاته خشى الوثنيون أن يزيد عدد المسيحيين عن عدد المؤمنين بالألهة القديمة، فزُج بالقديس مرقص فى السجن يوم أحد عيد القيامة عام ٦٨، وظهر له ملاك وعده بإكليل الشهادة وهكذا كان، ففى اليوم التالى عُذب القديس وجُرّ فى شوارع الإسكندرية إلى أن قضى نحبه. وليلتها اجتمع حواريوه لكى يدفنوه فى الكنيسة.

ورغم اضطهاد الرومان نفذت المسيحية جنوبا إلى الصعيد، حيث إن المناخ الروحى لمصر كان أرضا مهيأة للإيمان . فمن ناحية رحب المصريون بالمسيحية لما تحمله من أوجه شبه بمأثوراتهم الدينية القديمة منذ عهد الفراعنة، كانت قصة السيدة العذراء تشبه أسطورة إيزيس التى حمت طفلها حورس من أعدائه، وسرعان ما غدت الأماكن التى نزلت العائلة المقدسة بها أماكن للزيارة والتبرك.

الدين والهوية المصرية

قلنا إن المصريين يحبون أن يعلنوا عن إيمانهم الدينى: فصور القديسين والصلبان كثيرا ما تزين الجدران ، بل إن من سائقى عربات الأجرة من يعلقون بها صور السيد المسيح والقديسين، والمسلمون يعلقون لوحات تحمل عبارة «الله أكبر» أو ما جرى مجراها. فالمصريون - بكل طوائفهم يفخرون بدينهم ويعدونه محدداً أساسياً لهويتهم.

وفى مساء كل أربعاء يتجه الآلاف إلى الكاتدرائية المرقصية بالعباسية لكى يقضوا ساعتين فى الاستماع إلى عظات البابا شنودة الثالث، ويكتب الحاضرون أسئلة



احتفال حول دير المحرق

تجمع وتوضع تحت نظر البابا ليرد عليها. وهو يتناول عادة مناسبة دينية أو مشكلة طرأت حديثا ثم يقرأ الأسئلة ويجيب عنها، ويقيم هذا اللقاء الأسبوعى صلة قوية بين الكنيسة والشعب، كما يجعل مبادىء الديانة أقرب إلى الأفهام. إن البابا رمز ولكنه رمز قريب من شعبه مما يجعل من اليسير على أفراده التماهى معه

جامعو القمامة في المقطم

كثير من المشتغلين بجمع القمامة (الزبالون) من الأقباط ممن يربون الخنازير لأنها تلتهم الفضلات. وكثير منهم قد هاجر منذ زمن طويل من المناطق الريفية إلى العاصمة بحثا عن فرص للعمل، وحين لم يجدوا عملا مربحا لم يكن أمامهم إلا الانضمام إلى صفوف العاملين بهذه المهنة، ولأسباب تتعلق بالصحة العامة نُقلت مزارع تربية الخنازير من قلب العاصمة المزدحمة إلى مناطق خارج المدينة.

ولأكثر من خمسين عاما والزبالون يمارسون مهنتهم هذه فى القاهرة مستخدمين عربات تجرها الحمير أو سيارات حيث ينقلون القمامة إلى واحدة من مناطق خمس: المقطم، طرة، المعتمدية، البراجيل، عزبة النخل، ويعيش حوالى عشرين ألفا من هؤلاء الزبالين فى المقطم تحت سفح الجبل وقرب قلعة صلاح الدين. وبينما يجمع الرجال القمامة، تتولى النساء والأطفال فرزها، وتُقسم إلى مجموعات: زجاج، وورق، وأشياء معدنية، إلى جانب مواد عضوية لغذاء الخنازير وتباع الفضلات غير العضوية لمصانع تتولى إعادة تدويرها.

ويعيش سكانو هذه المناطق فى ظل ظروف صعبة، ولكنها تحسنت فى السنوات الأخيرة بفضل جهود المنظمات غير الحكومية والحكومة، فقد توافر لهم الآن ماء الشرب النظيف والكهرباء ونظام



من ضيوف دير الانبا بولا

للصرف الصحى ورعاية طبية، وتوجد بالمقطم عدة مدارس ابتدائية وثانوية، كما توجد برامج لمحو أمية النساء والأطفال بخاصة. وثمة أيضا دور حضانة للأطفال ونواد ومستشفى تابع لدير المقطم وعيادة أنشأتها السيدة الفاضلة سوزان مبارك.

الموالد

يحتفل المصريون - مسلمين ومسيحيين - بموالد الشهداء والقديسين ورجال الله، ويتخذ الاحتفال بالموالد المسيحية صورة رحلات سنوية . إن الموالد جزء من الديانة الشعبية تجمع بين الجانب الشخصى والجانب الاجتماعى. وكثيرا ما تختلف مأثورات الجماهير عن مأثورات الكنيسة الرسمية وإن كان الأمران يتداخلان ، إن قسما كبيرا من طقوس الدين الشعبى يضرب بجذوره فى الموروث الدينى لمصر الفرعونية . فالاتجاه الدينى للمصريين قد شكله دائما إيمانهم بالغيب وهو ما يسر على المسيحية أن تخلف ديانة الفراعنة ، يؤمن الأقباط بأن هذه الحياة معبر إلى الحياة الأخرى فى الفردوس ومن ثم يحتفلون بموت القديسين على أنه ضرب من الولادة ، ولادة تفضى إلى الحياة الأبدية، حل القديسون والشهداء محل الألهة المصرية القديمة وغدوا موضع توقير وأداة شفاعة ، وسرعان ما غدا لكل إقليم فى مصر قديسه الحامى تقام له فيه مزارات وقبور يُحفظ بها رفاته وعظامه، وأحاطت هالة من القصص والمعجزات بكل قديس؛ ولا عجب فالقديسون والشهداء وقائع محسوسة أقرب إلى فهم الناس العاديين من مجردات العقيدة القطعية (الدوجما) للدين الرسمى.

وتقام الموالد فى أفنية الأديرة والكنائس وغيرها من الأماكن المقدسة، ويشيع فيها ، إلى جانب العبادة ، جو من

المرح، فالمولد السنوى الذى يستمر لمدة عشرة أيام بدير المحرق فى مصر الوسطى أشبه بنزهة ، إن الموسيقى ترتفع عالية والناس يرقصون ، وهناك باعة مصنوعات من تايوان ، وباعة مكسرات وفواكه وصور للقديسين، وهناك من يدقون الوشم الذى يصور الصليب على المعصم، ويرسمون صور القديسين على الأذرع والأكتاف، ويُقدر عدد من يحجون إلى دير المحرق فى كل عام بخمسين ألف نسمة ، وينظر الفقراء - وهم أقلية - إلى المولد على أنه نزهتهم الوحيدة، فهم ينصبون خيامهم حول الدير عدة أيام، ويزورون الكنائس للصلاة، ويطلبون شفاعة السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين، ويلمسون المزارات والمحاريب وصور القديسين والشهداء التماسا للبركة، وتجلب بعض الأسر رءوس ماشية تُذبح على سبيل الأضحية فى السلخانة التابعة للدير حيث يباركها قس أو راهب، ثم توزع على الحاضرين.

والمولد أيضا مناسبة لعماد الأطفال، إن طقس العماد فى المسيحية أول الطقوس وأهمها وبدونه لا يمكن ممارسة باقى الطقوس فهو شرط لخلاص الأرواح ودخول مملكة السموات وذلك بحسب قول السيد المسيح : «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (إنجيل يوحنا ٣: ٥) يُغمس المولود فى الماء ثلاثاً باسم الآب والابن والروح القدس وبذلك يتحد بالسيد المسيح وبالكنيسة. وتُعمد البنات بعد ثمانين يوما من ولادتهن، والأولاد بعد أربعين يوما.

ويوقر الأقباط كثيرا من الشهداء ، وهم يدخرون أكبر قدر من التوقير للسيدة العذراء فثمة اثنان وثلاثون احتفالا بها تُقام فى كل سنة.

طقوس الزواج

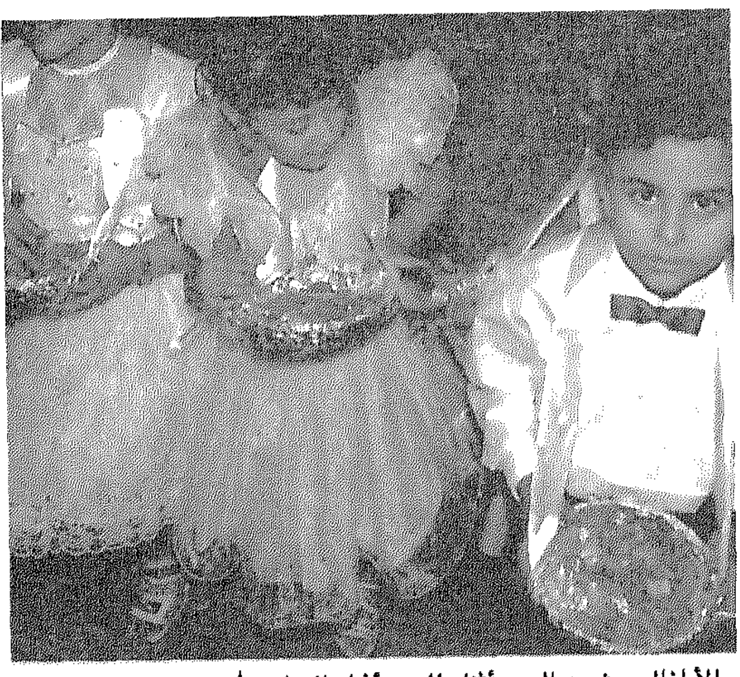
يُدعى طقس الزواج القبطى «الإكليل» لأن الكاهن يضع تاجا (أو إكليلا) لبرهة قصيرة على رأس العروسين أثناء إجراء مراسيم الزواج. ويُعقد الزواج عادة فى الكنيسة؛ وفى الأحوال الاستثنائية فقط يمكن عقده بالبيت .

ويتجه العروسان إلى الكنيسة مصحوبين بالأهل والأصدقاء ، كل على حدة ، وتزان الكنيسة بالزهور فى هذه المناسبة، ويجلسان على مقعدين مُذهبين ، وفى مواجهتهما مائدة يقوم عليها الكتاب المقدس وصليب ذهبى ودبل الزواج والبخور ، ويرتدى رجال الدين حللا زاهية ويقترن الاحتفال بأناشيد الفرحة وقرع الصنوج ، ويدهن الكاهن معصمى العروسين وجبينهما بالزيت المقدس ثم يضع الإكليلين لمدة قصيرة على رأسيهما، والإكليل يحمل صليبا ذهبيا نقشت عليه عبارة «المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام»، ويتبادل العروسان الدبل ويتلو الكاهن آيات من الكتاب المقدس ، وفى نهاية الاحتفال يتلو الحاضرون الصلاة.

وقد تقام حفلات الزفاف فى البيوت أو الفنادق أو النوادى بحسب الحالة المالية لكل أسرة، والزواج القبطى يدوم عادة لمدى الحياة، ولا تُقبل دعاوى الطلاق إلا في حالات استثنائية كالزنا أو تغيير الديانة.

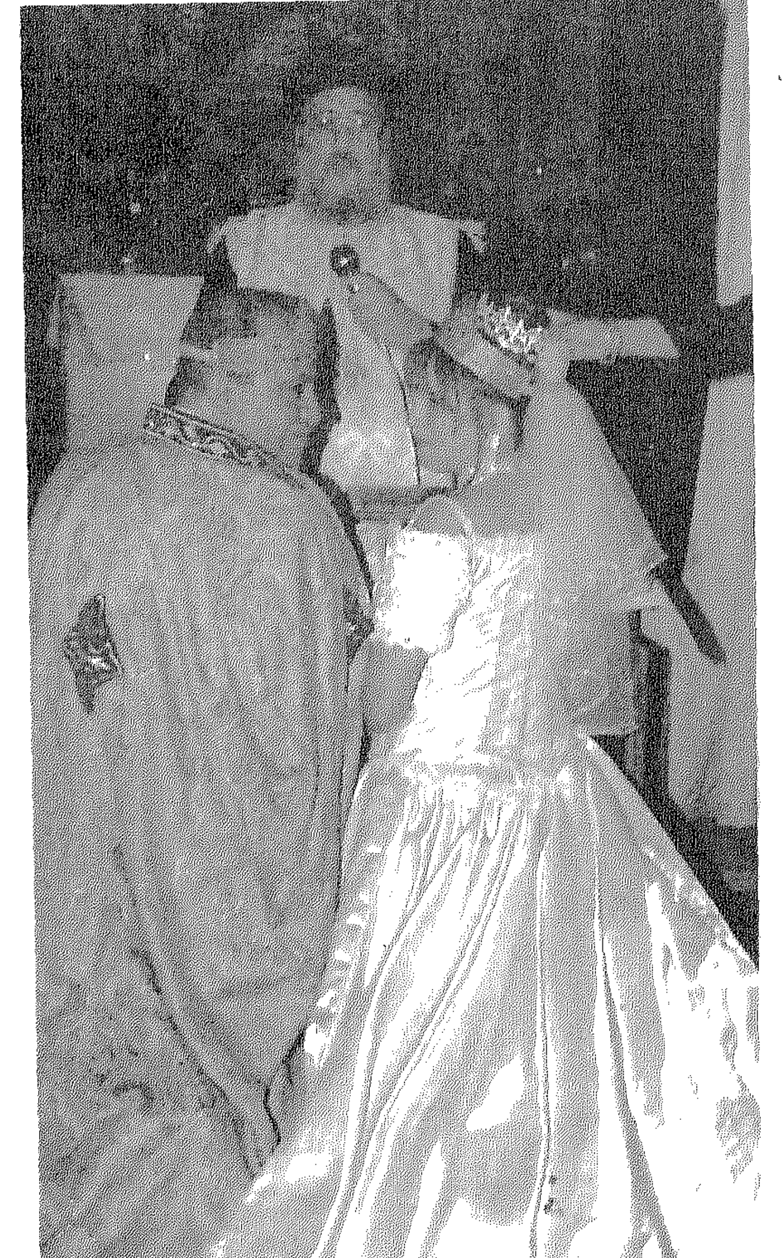
حياة الأديرة

خلال القرن الثالث للميلاد شرع آلاف من الزهاد فى العيش متوحدين أو جماعات صغيرة منفصلة عن العالم



الأطفال يرشون الورد أثناء الورد أثناء الزواج ▲

▼ طقوس الزواج بكنيسة شبرا



المحيط بهم، واستلهم كثير منهم سيرة آباء الصحراء بولا وأنطونيوس فنشدوا العزلة فى أعماق الصحراء ، لقد عاش القديس بولا (٢٢٨ – ٣٤٣) والقديس أنطونيوس (٢٥١ – ٣٥٦) فى عزلة تامة بالصحراء غربى البحر الأحمر، وكرسا حياتهما للصلاة والتأمل، وقد صارا يُعدان قادة روحيين ومؤسسين لنظام الحياة الرهبانية ، كان القديس أنطونيوس يؤمن بأمرين ظهرا له فى رؤيا: العمل والصلاة ، وهو أول من لبس رداء الرهبان : حلة من الكتان مثبتة بحزام جلدى ، ومعطف من جلد الأغنام حين يشتد البرد.

كلن أغلب النساك يعيشون فى كهوف ولا يلتقون إلا أيام السبت والأحد حين يلتمسون الإرشاد الروحى من كبارهم ، وكثيرا ما كانوا ينحدرون من أصول اجتماعية متواضعة كالقديس بولا ، ولكن منهم أيضا من كان ينتمى إلى درجة أعلى فى السلم الاجتماعى كالقديس أنطونيوس، ومع الزمن غدا آباء الصحراء – فى نظر المسيحيين بعامة – أبطالا روحيين تُنسب إليهم قوى إلهية.

وفى القرن الرابع – بعد وفاة القديس أنطونيوس بزمن قصير ، بُنى دير الأنبا أنطونيوس تكريما لذكراه قرب الكهف الذى قضى فيه حياته، أما دير الأنبا بولا فأقيم ، غير بعيد عن دير الأنبا أنطونيوس ، قرب نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس تكريما لذكرى القديس بولا، وفى الاحتفال بذكرى هذا الأخير يعزف الرهبان الموسيقى وينشدون الترانيم الدينية ، ثم يخترق – فى نهاية المساء – موكب منهم

فناء الدير، ويأتى إلى المكان آلاف المؤمنين منتظرين أن يتمكنوا من لمس صور القديس التماسا للبركة.

ويتسم أسلوب حياة الرهبان بالبساطة والتقشف ، ويتألف طعامهم عادة من الخبز والفول والخضراوات ، وتحرص أديرة كثيرة على الاعتماد على نفسها والاكتفاء ذاتياً ، فهى تؤجر أرضها للمزارعين أو تبيع ما ينتجه الرهبان أو يزرعونه.

ويعد دير أبومينا قرب الإسكندرية من أغنى الأديرة المصرية، ويقوم رهبانه بتربية الدواجن والأسماك وزراعة الزيتون والخضراوات، ومن الأديرة الغنية الأخرى فى مصر الوسطى دير المحرق.

عيد القيامة

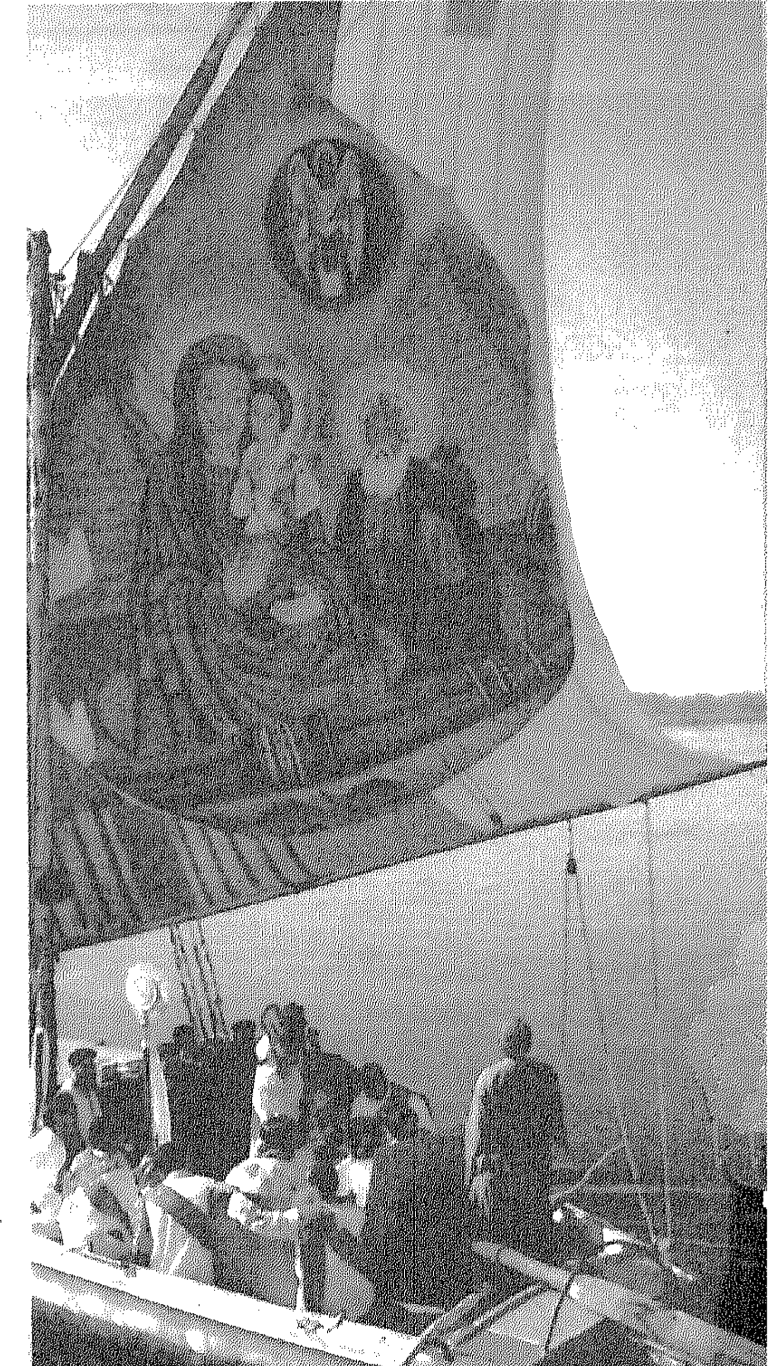
عيد القيامة هو أهم الأعياد القبطية، فهو يفوق عيد الميلاد فى أهميته وفى مظاهر الاحتفال به، ولأن التقويم القبطى مختلف عن التقويم الغربى ، فإن موعده يتأخر عادة عن مثيله فى الغرب.

ويصوم الأقباط خمسا وخمسين يوما قبل العيد، ويمتنعون عن أكل منتجات الحيوانات كاللحم والبيض واللبن والأسماك . كذلك يمتنعون عن شرب القهوة والمشروبات الكحولية أثناء الصيام، وكما هو الشأن فى صوم رمضان المبارك، لا يجوز لهم الأكل إلا فى الفترة ما بين غروب الشمس وشروقها، ويُعفى الأطفال والحوامل والشيوخ والمرضى من فريضة الصيام.

وأسبوع عيد القيامة الذى يُعرف باسم «أسبوع الآلام» فترة صلاة وتأمل احتفالاً بذكرى أيام المسيح الأخيرة على الأرض، إنه يبدأ بأحد السعف وينتهى بعيد القيامة فى يوم الأحد، وفى أحد



البابا شنودة وعظة الأربعاء فى كاتدرائية القديس مارك بالعباسية



احتفال قبطى بالقرب من ملوى

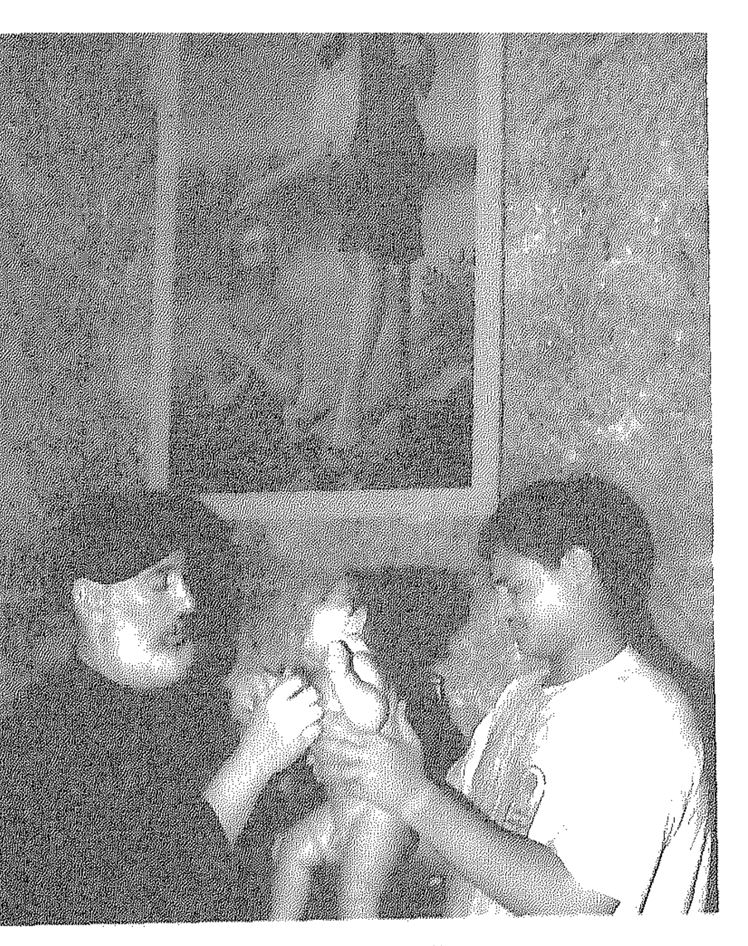
السعف يزور الناس قبور أهاليهم ، ويجرى الكهنة مراسيم القداس فى الكنائس ويقودون المواكب التى تحمل سعف النخيل مضفورة على هيئة صلبان ، كذلك يطلقون البخور من المجامر، وخارج الكنيسة يضفر الصانعون أوراق السعف ويبيعونها للناس كى يعلقوها على أبواب دورهم طرداً للأرواح الشريرة. وفى يوم الخميس يحتفل الأقباط بغسل السيد المسيح لأقدام تلاميذه، وفى يوم الجمعة الحزينة تُكسى هياكل الكنائس بقماش أسود، أما يوم السبت فيدعى سبت النور احتفالا بمعجزة النور الذى أضاء جنبات القبر المقدس فى أورشليم ، كذلك تسير فى بعض المناطق مواكب تحمل الشموع .

وفى منتصف ليلة السبت تقيم الكنائس فى كل أنحاء البلاد قداسات، ويجرى البابا شنودة الثالث مراسيم القداس فى الكاتدرائية المرقصية بالقاهرة حيث يتوافد الآلاف، ويرتدى رجال الدين حللا زاهية، أما البابا نفسه فيرتدى ثوبا مزخرفا وتاجا.

والاحتفال بفتح الهيكل الداخلى للكنيسة يرمز إلى إزاحة الملاك للحجر الذى كان يعلو قبر المسيح، ويدور موكب يقوده كاهن حول الهيكل حاملا أيقونة تصور المسيح.

ويشتد حماس المصلين عندما يمر البابا بهم مانحا إياهم بركاته إذ يسود الاعتقاد أنه يملك قوة شافية من الأمراض، وينتهى الاحتفال بتناول القربان المقدس من خبز ونبيذ.

والاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح يشبه الاحتفال بعيد القيامة ، وإن يكن على نطاق أضيق، وتحتفل الكنيسة القبطية بعيد الميلاد فى السابع من يناير من كل عام. ■



التعميد فى دير المحرق



دير العذراء – درنكه

بين
منصور فهمي وزكي مبارك

بقلم
د. محمد رجب البيومي

كان الدكتور زكي مبارك نادر الأصدقاء كثير الغرماء ، إذ قضى حياته في صيال دائب لاينقطع ، وفيمن ناوأهم أعلام «ذوو مقدرة على النفع والضر معا ، وفيهم من لايقدر حرية الكلمة مهما هتف بتمجيدها ، فأصلاه جهنم شوته شيّا ، وهو مع ذلك يتلهب في الجحيم باسما غير عابس وقد يشكو حينا فيرتفع صراخه إلى عنان السماء ، ولكنه لا يرجع إلى المهادنة ، وكأنما كتب عليه أن يحمل سيفه حتى الرمق الأخير .

ولا أعرف من الكبار الذين شملوا زكي مبارك بعطف حان أثير غير رجلين كبيرين بمزاياهما الخلقية قبل أن يكبرا بمزاياهما العقلية ، هما الأستاذ عبدالقادر حمزة ، والدكتور منصور فهمي .

أما عبدالقادر فقد وقف معه ساعة العُسرة القابضة إذ جعله مراسلا للبلاغ في باريس كي ينفحه بما يعين على مصائب الدهر ، ثم فتح له جريدة « البلاغ » يصول على صفحاتها بأجر مكافئي ، وقد يعارض اتجاهه في بعض ما يكتب ، فلا يحاول أن يمنع ما يقول ، وأما الدكتور منصور فهمي فحديثه مع زكي يطول ويمتد ، ولكني سأجتزئي منه بما يؤميء ويشير ، إذ أعرض موقفه معه عند نقاش رسالة الدكتوراه الأولى بالجامعة المصرية عام ١٩٢٤ ، وقد كان الدكتور منصور أحد المشرفين على إعدادها » فآزره وأكرم غربته حين تناولته الأقلام الهائجة في الصحف ، والدكتور منصور فهمي فيلسوف بسلوكه قبل أن



د. منصــور فهمى

يكون فيلسوفا بعلمه ، فقد ارتفع فى نظره الفكرى إلى مرتبه ساوت سلوكه الاجتماعى تماما ، فهو يرى الدنيا مسرحا للتناقض ، فلا يضيق بهذا التناقض فى شىء بل يعرض الرأى ونقيضه عرضا محايدا ، وهو حين يبسط الرأى الأول بسطا تاما تظن أنه يمثل وجهه نظره ، ثم يبسط الرأى المقابل إلى أبعد ما ينتهى إليه من مقررات حتى تظن أيضا أنه يحتل وجهة نظره ، وقد يترك الرأيين

د. زكي مبارك

دون ترجيح ، فإذا سألته عن ذلك ابتسم ، وقال لكل وجهة ألست ترى من يعبد البقرة ومن يذبحها ليأكلها فى موطن واحد ، وكلاهما فى رأيه صائب غير معتد ولا آثم ، وهذا هو الروح الفلسفى فى أرقى مجاليه !

بداية رائعة

وسأتحدث عن رسالة الدكتوراه الأولى للدكتور زكى بالجامعة المصرية الناشئة ، وكانت خامس رسالة تقدم لهذه الجامعة الناهضة إذ سبقتها أربع رسائل ممتازة حقا ، أتحدث عنها وأنا أقلب كفى من العجب الذى لاينتهى ، إذ أن من المعهود أن يبدأ الشىء صغيرا صغيرا ثم يكبر على مدى الأيام ، ولكن الأمر فى رسائل الجامعة كان على عكس ذلك تماما ، فقد بدأت رسائل الدكتوراه رائعة شكلا وموضوعا ثم أخذت تتحدر بحيث صار الهرم كوخا هذه الأيام ! وكانت الرسالة لا يعلن عنها إلا فى آماد متباعدة يترقبها الجمهور ترقبا وكأنه يستعد إلى مشاهدة مهرجان علمى تؤرخ الأحداث الفكرية بموسمه، فأصبحنا الآن نرى فى اليوم الواحد بالكلية الواحدة عدة رسائل تناقش وفى كل مدرج أشباه الأساتذة يتحدثون ! أما جمهورهم فأقارب الباحث الممتحن ، وتسعون فى المائة منهم أميون لايفهمون شيئا مما يقال ، ولكنهم رأوا من الشهامة أن ينتقلوا من القرى إلى ماتوهموه حفلا كأفراح العرائس ، فهم يزغردون ويصفقون ، ويحملون باقات الزهور لتملأ المكان عن اليمين والشمال ، هذا يحدث اليوم ، أما ما شأن الدكتور زكى مبارك فهاك حديثه :

لم يكد يحين الموعد المحدد ، حتى امتلأت القاعة بكبار المفكرين ، وفيهم الوزير وأستاذ الجامعة وأكابر شيوخ الأزهر ، ومندوبو الصحف اليومية إذ أرسلت كل جريدة من ينقل إليها مناقشات الأساتذة فى إسهاب وإشباع ، وكانت شخصية الطالب مثار جذب شديد بين الأساتذة لأنه كان صلبا لا يلين وكان موضوعه يدور حول شخصية إسلامية ذات مركز مرموق فى الفكر الدينى ، وهى محاطة بهالات من الإعجاب والتقدير . تلك هى شخصية الإمام الغزالى ، وقد انتظر الملأ أن يزكى الغزالى من الباحث بكل تقدير فإذا انتقده كان رفيقا رقيقا ، ولكن الباحث الشاب رأى نفسه ندا للغزالى ، بل رأى نفسه فى بعض الأبواب أستاذا بجابهه بالخطأ فى استعلاء ، والغزالى ليس معصوما من النقد ، ولكن عنف الدارس واستعلاءه قد آثار الجمهور ، ابتدأ النقاش بكلمة المشرف الدكتور منصور فهمى ، وقد نشرت بصحيفة الجامعة المصرية الصادرة فى يوليو سنة ١٩٢٤ وحين قرأتها وجدت نموذجا طيبا لما يجب أن يحتذيه مقدم الرسائل ، إذ لم يكتف الدكتور منصور بتعداد ما أحرزه مبارك من سبق علمى فى دراسته بالأزهر التى استمرت خمس عشرة سنة ، وفى دراسته بالجامعة التى انتهت بإجازة الليسانس بل سأل بعض الكبار عن مبارك ممن له صلة علمية بهم ، وسجل إجابتهم



فى كلمته ، فقال إن الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى قال له : لم أر فى الذين عرفتهم من طلاب الأدب - وكان القاياتى أستاذا بالجامعة - من يشبه هذا الطالب فى بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، وجاء فى إجابة أستاذ الفلسفة قوله « سرنى من الطالب أنه فهم أمهات المسائل ، وأنه أحسن الترتيب ، وفهمه أكثر من علمه ، وقابليته للفلسفة موضع رجاء ، ولم يقتصر الدكتور على آراء الأساتذة فى الجامعة ، بل كتب إلى الأستاذ حسين والى من كبار علماء الأزهر حينئذ يسأله عن حالته الدراسية بالأزهر حين كان طالبا به فقال الشيخ وسألت عددا من اخوانه ومشايخه بالأزهر ، فقالوا إنه نبيه ومستقيم وحسن الأخلاق وأنا أعلم فيه ذلك .

فما رأى القارىء فى هذا البحث المستقصى من المشرف الذى خبر تلميذه فى سنوات الجامعة ، ودعاه الحرص إلى أن يسأل ذوى الشأن بالأزهر عن أبنائه من قبل ، ثم ختم الدكتور مقدمته بقوله :

موارد العلم الأصيل

إن هذا الطالب الذى جاءت بشأنه هذه الشهادات ، قد تكوّن رأس ماله العلمى من الاتصال بموردين من موارد العلم مورد الأزهر الشريف ومورد الجامعة المصرية ، ويلوح لى أن اختياره البحث فى فلسفة الغزالى ، والأسلوب الذى اتبعه فى ذلك يدل دلالة تامة على أن الطالب قد استفاد من الموردين اللذين أتيح له أن يتصل بهما ، فلم يفرط فى الأزهر ، وحرص كل الحرص على أن يصل بينه وبين ما يناسبه من المعلومات التى استقاها فى حجر الجامعة ، وقد عرف كيف يوفق بين معلومات شتى ، وصلت إليه من طريقين قد يختلفان فى معالجة العلم وتلقيه .

هذا بعض ما جاء فى التقديم ، وهو تمهيد حسن ، يجّمل صورة الباحث بما يدل على استعداده الطيب، وقد ظن الحاضرون أن الريح ستسير رخاء فى المناقشة ، لأن الباحث باغترافه من الأزهر قد أمن الشطط الفكرى ، وبتأثره بالجامعة قد التزم المنهج العلمى ، ولكن زكى مبارك صور حالته النفسية حينئذ بما يبعد هذا الظن ، فقد قال إنه كان يعانى ثورة روحية وعقلية عند تأليف هذا الكتاب، وقد صاحب الغزالى فى مؤلفاته خمس سنوات فأسره بدءا ، ثم رأى أن يؤلف كتابا فى (الأخلاق عند الغزالى) لينجو من أسره ، فجمع قواه وكسًّر باب الأسر ليتنسم الروح الحر للفكر وليلقى الغزالى مقابلة الند للند !

هذا الروح العاصف الذى جعله ضريبا للغزالى تلقاه ملاقاة الند للند ، قد جمح بالباحث إلى خطرات أقر بشططها فيما بعد ، وهذا الجموح الشارد قد صدم عشاق الغزالى من كبار الحاضرين حتى أن الشيخ عبدالمجيد اللبان من كبار علماء الأزهر - ولم يكن عضوا باللجنة ، قد سمح لنفسه أن يعترض على الطالب فى أسئلة يوجهها إليه ، والدكتور منصور فهمى يعرف مقام الشيخ اللبان فلم يشأ أن يحرجه بما يدل على أنه يخرج على التقاليد الجامعية حين يفرض نفسه



مناقشا ، وقام من بعده الشيخ محمد الإبيارى أحد علماء الأزهر ليوجه أسئلة أخرى للباحث ، وهنا استطاع الدكتور منصور فهمى أن يقول للشيخ الابيارى إن الجمهور يسمع ولا يناقش ، وأن الاعتراضات من حق لجنة الامتحان .

وحصل ما لم يكن ليتوقع ، فقد كان الدكتور طه حسين حاضرا ، وهو أستاذ بالجامعة ، وليس عضوا فى لجنة النقاش ، فاستأذن معالى الأستاذ محمد حلمى عيسى باشا وكان من الحضور أن يسمح له بتوجيه أسئلة للباحث ، وسارع حلمى باشا فأسر للدكتور منصور برغبة الدكتور طه ، فوقع رئيس اللجنة فى حيرة ، ثم رأى المسألة فأعلن أن لأساتذة الجامعة وحدهم أن يناقشوا الطالب ، فهم يشرفون عليه إشرافا أدبيا ، وهذا غير الواقع فعلا ، ولكنه تبرير ، وهنا قام الدكتور طه حسين بتوجيه أسئلة للباحث ، حاول الإجابة عنها قدر المستطاع .

وفى هذا الجو العاصف رأى مندبو الصحافة مادة دسمة فى الاعتراضات والإجابة ، دفعتهم إلى أن يملأوا صحفهم بما كان من صراع ، وأفردت جريدة المقطم صفحتين كبيرتين تعرض كل ما قال ، فانتقلت الضجة من ساحة الجامعة إلى جمهور الباحثين خارجها ، وشرع الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر في كتابة ردود شديدة اللهجة تبين خطأ الدارس ، وتبعه الأستاذ الشيخ أحمد مكى شيخ المعهد الدينى بالزقازيق بهجوم مماثل ، وكان الأستاذ الكبير محمد أحمد جاد المولى عضوا فى لجنة المناقشة ، وهو تلميذ الغزالى الذى سار على نهجه فى كثير مما كتب من بحوث الأخلاق ، ومن بينها موسوعة (الخلق الكامل) فتتبع الباحث ناقضا بعض آرائه ، وكشف بذلك عن هنات استغلّها من أثاروا الضجيج ! وقد حاول الدكتور زكى أن يرد على كل ما قيل فى الصحف ، فجاءه رسول من إدارة الجامعة ينصحه بالسكوت التام، إذ ربما فهم بعض الناس من لجاجة الحوار أن للجامعة مآربا فى تحطيم القمم العالية من أمثال الغزالى ، وهنا كان الصمت مما لا حيلة فيه !

ولعل من أهم ما أثار الضجيج على الباحث أنه قرر أن الإمام الغزالى ، كان يميل إلى تأييد الفضائل السلبية دون الإيجابية فهو يدعو إلى الزهد والورع والاعتكاف ، والانصراف عن الملذات دعوات متكررة ، ولم يهتم بالفضائل الإيجابية مثل الشجاعة والإقدام والحرص على المال ، والسعى لنيل الأماكن العالية فى الحياة ، إذ لايكفى فى رأى الدكتور مبارك أن يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة ، وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف ، لأن الضعف شر كله » والباحث حين أفاض فى هذا المنحى قد نسى أن المؤلف الكبير ألف كتاب الإحياء فى حالة نفسية خاصة دفعته إلى اعتزال المنصب والجاه ، والاعتكاف

فى خلوات المساجد حين رأى مظاهر القسوة لدى الكبراء فى بغداد ونيسابور وبيهق وما وراء النهر ، وتحقق من أن التكالب على السيطرة والرياسة قد سبب شرورا كثيرة ، وخشى على نفسه أن يكون أحد هؤلاء الذين خدعوا ببوارق الحياة ، كما قرر ذلك فى كتابه «المنقذ من الضلال» وهذا الشعور الخاص به دفعه إلى الزهد والانصراف عن الملذات، وهو فى الوقت نفسه لاينكر الفضائل الإيجابية بل أشاد بها إشادة لم تبلغ مبلغ غيرها ، ومن كان فى مثل موقفه العازف عن كل جاه لايكتب إلا ما يطمئن إليه ويقوم بتنفيذه فعلا ، أما قول الدكتور مبارك خير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف فهو الشطط بعينه لأن الرذائل رذائل سواء كانت رذائل قوة أو رذائل ضعف ، ورذائل القوة أشد نكالا من رذائل الضعف ، فما كانت قسوة المتحيزين من الحكام ، وبطشهم بالشعوب ، وتعاظمهم على الجمهرة من المحكومين إلا بعض رذائل القوة ، وهى وحدها باعثة الظلم والجور والاغتيال ! أما رذائل الضعف إن عد الزهد والورع والرحمة من الرذائل فلن تؤدى إلى خطر كبير يعادل رذائل البطش والجبروت بل منحت السلامة أناسا كثيرين !

وأكبر ما أثار العلماء والجمهور وصف الدكتور مبارك للإمام الغزالى بالجبن ، لأنه لم يشترك فى الحروب الصليبية التى دارت فى عصره ، وكان من واجبه أن يمتشق الحسام ويدع اليراع فى هذه المحنة ، وهو وصف لايجد القبول ، لأن كل إنسان ميسر لما خلق له ، ولن يستطيع من تباعد عن ضروب الصيال والكد أن يقوم بما لا يقدر ، وإذا كان من كبار العلماء من خاضوا معامع الحروب أو حرضوا عليها مثل عبدالله بن المبارك ، والعز بن عبدالسلام ، وأسد بن الفرات ، فهؤلاء أبطال حقا ، ولهم قدرهم البطولى بحيث لايقاس بهم الغزالى ، ولكنه فى الوقت نفسه معذور لأنه ترك مالا يستطيع ، وقد عاد مبارك فاعتذر للغزالى فى أيام الحرب العالمية الثانية إذ كتب فى إحدى مقالاته بالرسالة بقول تحت عنوان (إليك اعتذر أيها الغزالى) إنه الآن قد عرف كيف ابتعد الغزالى عن الحرب ، إذ لم يكن يستطيع القتال ، بدليل أن الحرب القائمة الآن ، وقد داهم الألمان حدود مصر ، وضربوا الاسكندرية بالقنابل ، هذه الحرب لم تدفع الدكتور مبارك إلى مطاردة الأعداء لأنه لايستطيع !

حكمة غير مقبولة

وثالثة اشتط فيها مبارك حين حكم بأن الحكمة الانجيلية القائلة « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» حكمة غير مقبولة لايقرها عرف ولا قانون ، ومصدر الخطأ فى هذا الحكم أنه حمل القول على الحقيقة لا على المجاز ، فقائل الحكمة لايعنى الضرب على الخد الأيمن أو الأيسر ، ولكنه يعنى التسامح المرجو من المعتدى عليه كى يتعظ المعتدى بهذا الرفق فيرجع إلى صوابه ، وهذا ما بينه أحد الفضلاء فى رده على الدكتور بجريدة المقطم! وإذا كان الباحث قد خالف الغزالى فى كثير مما دعا إليه فقد اعترف

بمجلة الرسالة العدد (٤٣٥) بأنه رجع عن كثير من هذه الآراء حين ألف كتابه (التصوف الإسلامى) وبين الكتابين أعوام تنقل فيها عقله من أفق إلى آفاق ! وقد أشار إلى نحو من ذلك الأستاذ الكبير محمد جاد المولى فى مقدمته التى تصدرت الجزء الأول من كتاب «التصوف» !

نرجع إلى الدكتور منصور فهمى ، وموقفه من هذه الضجة التى صاحبت المناقشة ، والتى أعقبتها فى الجرائد والصحف ، فهو فى قاعة المناقشة قد سمح للطالب أن يرد بما يشاء دون تهيب ، وأعطاه الفرصة الكاملة لأن يعارض مالا يوافق عليه ، كما أنه من ناحية أخرى سمح للأستاذ محمد أحمد جاد المولى أن يكتب فى التقرير الخاص بمنح الدكتور درجته العلمية بتقدير جيد جدا أن اللجنة حين تمنح الباحث هذه الدرجة لاتعنى أنها توافقه على كل ما أبداه من الآراء فهى تتحفظ على كثير مما قرر ، ولكنها تقدر فيه حرية البحث . وقوة التفكير ! ولهذه منحته الدرجة عن صواب .

هذا فى قاعة المناقشة ، أما بعد انتهائها ، وحدوث الضجيج الصحفى حول الرسالة ، فقد رأى الدكتور منصور ألا يخذل تلميذه فيتركه وحده دون نصير فكتب فى الصحف خطابا إلى الدكتور زكى مبارك ، يأخذ بناصره ، ويهنئه بمستقبله ويأخذ عليه أشياء أخذ مثلها على معارضيه ، فكان خطاب منصور فهمى فى هذه الحومة المشتعلة عامل تأثير قوى فى انتهاء المعركة على وجه يقوى تلميذه ويسدد خطاه ، وقد جاء فى هذا الخطاب النادر ، بعد حديث جاد مفيد استغرق صفحتين من صحيفة الجامعة المصرية:

«أنت يا أخى درست مؤلفات الغزالى وفهمتها وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ؟ وقد ذكرته بالخير حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطىء ، وما كنت بأصغر من أن تصيب، كانت رسالتك مثارا للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لم نغضب لذلك ، لأنا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث ، وهل علمناك إلا أن تكون خادما للحقيقة ، ولو شق إليها الطريق ، فمادمت ترى أنك على حق ، ومادمت تعتقد أنك سائر على الطريق السوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فالحق لايخدم بمثل الرفق والنزاهة ، وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فإن عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل فإن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والتمادى فى الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق إلا الضلال .

وإن كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية . يريد رجال الأزهر ممن كتبوا ناقدين - فمن الانصاف أن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون ، فقد رأينا بكل



أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود ، وهم جميعا من المسرفين» .

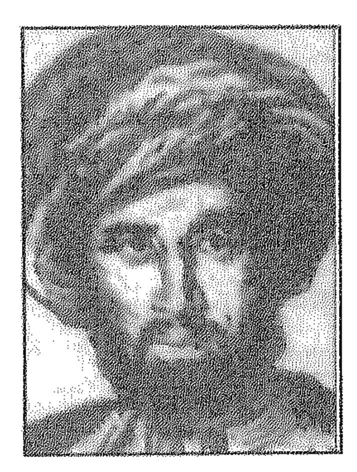
وإذا كان لى أن أنصحك - ومن الواجب أن أنصحك - فإنى أدعوك إلى حرب هذه الضلالة وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فإنكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال» .

هذا بعض ما جاء فى الخطاب الرقيق الذى وجهه الأستاذ إلى تلميذه إبان المعركة المشتعلة فى الصحافة !

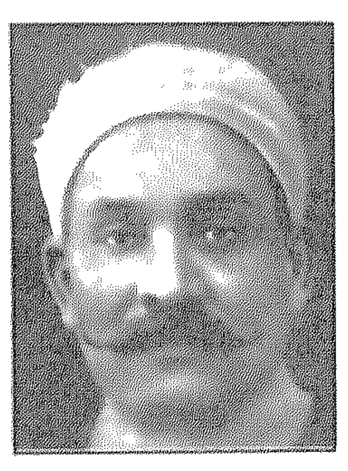
متى تهتم بالجوهر العلمى

ولى أن اتساءل هل تحتفل اليوم جرائدنا ومجلاتنا بما يدور فى الجامعات من مناقشة علمية ، تصلح أن تكون مادة للصفحة الثقافية بالجريدة ! أو أن المشاهد أن الجريدة إذا شاءت فى النادر أن تتحدث تكتفى بصورة أعضاء اللجنة والباحث المتقدم للدرجة ثم لاتهتم بإبراز الجوهر العلمى للرسالة ، ولا لأهم الاعتراضات التى وجهت إليها ، بل يكون الكلام ممتدا أو موجزا لا يخرج عن الأخبار العامة ، وكأنها تنقل حديثا عن عرس من الأعراس أقيم فى فندق ، بل إن حديث العرس يلقى من الاحتفاء صورا وأسماء وعناوين ما يجعله خبر اليوم ! وقد يكون ضعف الرسائل فى مجموعها صارفا عن هذا الاتجاه ، ولكن بين الضعيف الكثير أمثلة محترمة توجب الإشادة والتنويه ، كما أن من الملاحظ أن الجريدة تحرص على أسماء بالذات تعلن عنها قبل المناقشة ، وتشير إلى الصور والأسماء بعدها ، مما يدل على أن المجاملة للمناقشين لا للباحث ولا لموضوع الرسالة ، وهو أمر يفقد النشر على ضآلته كل اعتبار ، ويدعو إلى إعادة النظر من جديد .

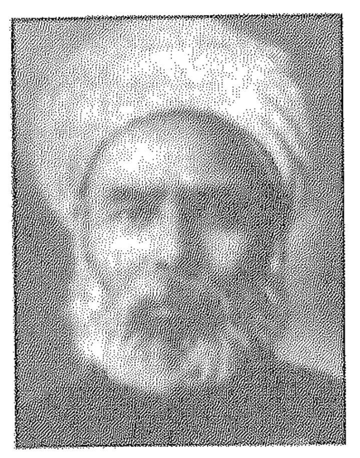
وقد انتقل الدكتور زكى مبارك إلى رحمة الله قبل أن يفارق أستاذه الحياة ، فأسف أسفا لوفاته العاجلة ، وأقامت نقابة الصحفيين حفلة تأبين كبرى للدكتور زكى مبارك كان الدكتور منصور فهمى باشا من خطبائها اللامعين ، وقد سرد فى تأثر شديد بعض ذكرياته عن تلميذه العزيز ، ومنعه الحزن أن يستطرد ، وأذكر أن الأستاذ محمد مظهر سعيد ، كان من المتحدثين الذين أجادوا القول فى صدق وإخلاص ، كما أذكر أنه قال فى ختام كلمته « لقد كان مبارك معارضا لى فى كثير مما أكتب . وكنت أبادله معارضة بمعارضة ، وهأنذا اليوم أعترف بفضله وسبقه وتبريزه ، وأمانته ، والفضل ما شهدت به الأعداء ! وهو ختام حاز التقدير ، فدوى التصفيق فى مجال التأبين ! وخرج الحضور آسفين على ما نال الدكتور من غبن عجل برحيله على غير انتظار ، وكنت أحد هؤلاء فسرت لا أتبين الطريق . ■

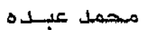


رفاعة الطهطاوى

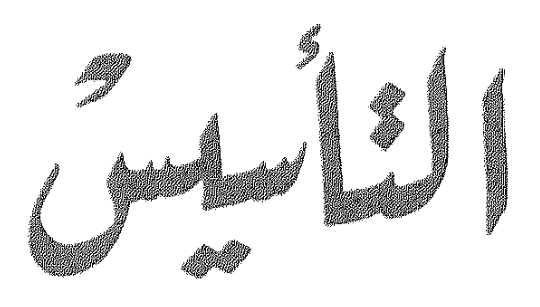


مصطفى لطفى المنفلوطى





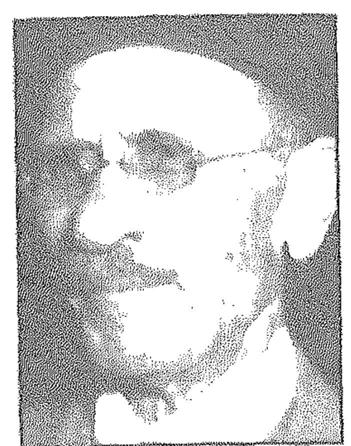
محمد عبده



التأسيس

بقلم
د. عبدالمنعم تليمة

أعمدة المجتمع الحديث المؤسسات (حكومية وأهلية) والصياغات الدستورية القانونية والعقلانية والتعليم المدنى والتمثيل النيابى وتحرير المرأة والعدالة والحريات شخصية واجتماعية وسياسية. فإذا انتقل المجتمع من العلاقات الكلاسيكية الاقطاعية وشبه الإقطاعية إلى العلاقات الحديثة فإنه يكون قد شيد لنفسه موقعا على خارطة التاريخ الإنسانى الحديث، وهنا يجرى له وعليه ما تمليه قوانين هذا التاريخ، وتخلق أعمدة المجتمع الحديث السالفة بنية ثقافية حديثة تدفع وتفسر ما صار إليه هذا المجتمع من أنظمة جديدة أخلاقية وسلوكية وسياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية، ومن تغير فى المثل الأعلى والقيم والأعراف والعادات ، ومن تجدد فى طرز البناء والأزياء



أحمد لطفي السيد



محمد مندور

حافظ ابراهيم

وهذه البنية الحديثة هى القاعدة التى يتأسس عليها نقد أدبى حديث:

كان النقد القديم والوسيط يرد العمل الإبداعى إلى قوى غير مرئية علوية أو سفلية، وكان فى التشكيل لغويا بلاغيا يقف فى العمل الأدبى عند اللفظة المفردة وفى الجملة المعزولة عند متفرقات من المجازات والكنايات والتشبيهات والاستعارات ، وكان فى الموقف أخلاقيا دينيا يعتمد فى التقويم معايير من خارج العمل مما عليه الجماعة من عقائد ومذاهب وأعراف. لكن البنية الثقافية الحديثة تنقل النقد الحديث إلى آفاق بعيدة، فيغدو نشاطا ثقافيا شاملا، عمله الأول تفسير الظاهرة الإبداعية تفسيرا موضوعيا عقلانيا فيرد إليها طبيعتها الإنسانية ويتعامل مع منتجها تعاملا تشكيليا تكامليا، ويضيء التشابك والتفاعل والتداخل بين الهيئات والتراكيب التى كونت هذا التشكيل الكلى، ويحدد الوحدات البنائية التى أقامت البنية النهائية للعمل. والنقد الأدبى الحديث لايعزل المنتج الإبداعى، فإذا كان عمله الأول المنتج الأدبى الذى يصطنع الخيال أداة فى العملية الإبداعية ويصطنع اللغة فى العملية التشكيلية، فإنه يمد عمله إلى كل (الصياغات)، الفلسفية والمنطقية، والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية، والعلمية الرياضية والتجريبية، ذلك أن كل صيغة إنما تبدأ بالخيال فى وضع الفروض وتتوسل باللغة فى تحديد النتائج، وهنا يعمل النقد فيعرض الفرض

على آليات الخيال ويعرض النتيجة على قوانين اللغة ومقرراتها، وبديهى أن الناقد الأدبى ليس مطالبا بالإحاصة بكل الحقول المعرفية، إنما هو مطالب بمعرفة لغاتها ليعرض منتجها على لغتـه، ليستطيع وضع هذا المنتج فى سياقه التاريخى الاجتماعى على قاعدة البنية الثقافية للمجتمع.

إن تحديث المجتمع هو تحرك وانتقال إلى الطور الحديث من التاريخ الإنساني، وثمة مجتمعات عتيقة لها موروثاتها الخالدة التى ترتد فى الزمان إلى آلاف من السنين خلت، كان تحرك هذه المجتمعات إلى الطور الحديث مستندا إلى تراثات باقية متواترة أصاب طاقتها الخالقة المبدعة فتور فى عصور متأخرة، ثم جدت ظروف تاريخية اجتماعية أعادت إلى تلك الطاقة توهجها.. هنا تصدق على عودة هذا التوهج التسمية الصالحة فى هذا المقام (النهضة). ونماذج النهضات معروفة تاريخيا وعلميا: النهضة الأوروبية الحديثة التى أسست على القديم اليونانى واللاتيني، والنهضة العربية الحديثة أسست على التراث العربى الإسلامى وعمقه فى المصرية ووادى الرافدين والشام وما حول ذلك ووراءه من الشمال العربى الإفريقى، والعمق الإفريقى والعمق الآسيوى، والنهضة الهندية التى أسست على الآلهة والأرباب والأديان المحلية والملاحم الشعبية الإنسانية الخالدة، والنهضة الصينية التى أسست على الكونفوسيوشية والمأثورات الشعبية المتواترة، ولقد سمى بعض الدارسين النهضة العربية الحديثة – فى القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين للميلاد – (الإحياء) أو (البعث)، وليس هذا بشىء لأن الإحياء أو البعث لايكونان إلا لميت اندثر وذهبت ريحه، ولايصح هذا مع النهضة العربية الحديثة لأنها حركة لحى، كان مضطجعا فجلس، كان جالسا فوقف، كان واقعا فمشى، الشأن فى النهضة العربية الحديثة، أن ثقافة العرب والمسلمين بعمقها القديم المصرى والشامى والعراق، قد شهدت عصر صعود هو الازدهاره العباسية من القرن الثانى الهجرى إلى السادس الهجرى – الثانى عشر الميلادى – وشهدت عصر خمود حتى مشارف العصور الحديثة فترت فى هذا العصر طاقتها على الخلق والإبداع ولكن لم ينقطع تواترها، ثم تحققت ظروف تاريخية اجتماعية نقلتها إلى عصر نهوض هو الذى نعيشه منذ فجر القرن التاسع عشر، لم يحدث لهذه الثقافة العربية انقطاع ولم تحدث معها قطيعة، ولقد عرفت هذه النهضة العربية – فى القرنين الماضيين – أربعة أجيال رائدة من العلماء والمفكرين والشعراء والكتاب واللغويين والبلاغيين، ولما كانت كلمة (التراث) مفتاحا لهذه النهضة، فإن كل جيل من الأجيال الأربعة الرائدة له مفهومه لهذه الكلمة المفتاح : التراث لدي الجيل الأول ديني، هو الباقيات

الأمهات من جهود الأئمة والفقهاء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والتراث لدى الجيل الثانى هو إبداع الشعراء الجاهليين والمخضرمين والأمويين والعباسيين، وهو -التراث - لدى الجيل الثالث فلسفى خلفه فلاسفة الإسلام الأربعة، الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد، ينضم إليهم الغزالى وابن خلدون وغيرهم وأما التراث لدى الجيل الرابع - الراهن - فهو مفهوم شامل ينتظم كل الحقوق المعرفية والإبداعية، كل ما وصل إلى الأجيال الحديثة وسقط فى وعيها واستقر فى حافظتها، من مروى ومؤدى ومجسد ومخطوط ومطبوع.

نقف عند جهود كل جيل لنقوم منجزه فى إقامة البنية الثقافية العربية الحديثة، وما تأسس عليها من نقد أدبى عربى حديث. ونقف فى هذه الصفحات عند جهود الجيل الأول.

تأسيس فكرى

كان أعلام الجيل الرائد الأول ممن تخرجوا فى الأزهر الشريف، فلا ريب فى أن الشيوخ الأزهريين قد كانوا طليعة المصريين فى بناء مصر الحديثة، كان حولهم آحاد من المدنيين الذين تلقوا العلم الحديث فى المدارس العليا المصرية ومن الذين عادوا من بعثاتهم - خاصة إلى فرنسا - بيد أن الكثرة من رواد الجيل الأول كانت من الشيوخ الأزهريين فكانت لهم القيادة والريادة وكانوا طليعة النهوض القرن التاسع عشر كله، نحن ها هنا لانؤرخ إنما نقف بالرصد عند البنية الثقافية والنقد الأدبى، وفى هذا الشأن فإننا ننص على أن الأزهريين كانوا البناة الأوائل للبنية الثقافية المصرية / العربية / الحديثة، ومن ثم كانوا واضعى الأصول والقواعد المبكرة للنقد العربى الحديث كان بين هؤلاء الشيوخ المفكرون والعلماء والفقهاء والمفسرون والمحدثون ، والأصوليون والبلاغيون ، والنحاة، وكان حولهم مبدعون من الكتاب والشعراء والمحررين، بل كان حولهم من يفتح سبلا للأنواع الصياغية الجديدة كأدب المسرحية والرواية والقصة القصيرة والسيرة - ذاتية وغيريه - وأدب الرحلة، وكانت بين أيديهم تقنيات جديدة لنشر اجتهاداتهم من مدارس عليا ودور نشر ومطابع وصحف وأندية وجمعيات،. لقد كانوا يقيمون البنية الثقافية الحديثة التى ينهض عليها - بداهة - نقد حديث، تمد البنية النقد بآفاق النهضة الحديثة - سياسية واجتماعية واقتصادية وعلاقات ومثل ومؤسسات - فيعمل النقد فى كل ذلك أدواته من النظر والتفسير والتحليل والتقويم ويعود بنتائجه إلى قاعدته موجها ومسددا الخطى، الأمر بين الاثنين - البنية والنقد - أمر تشابك وتداخل وتفاعل ، تأثر وتأثير.

وننتخب من بين أعلام الجيل الرائد ثلاثة شيوخ - وحولهم كثير لنرى

مـجـهودهم الثقافي البنيوى النهضوى الذى كان مـهادا لنقد أدبى عربى حديث. هؤلاء الثلاثة هم : رفاعة رافع الطهطاوى المتوفى ١٨٧٣، وحسين المرصفى المتوفى ١٨٨٩، ومحمد عبده المتوفى ١٩٠٥، ولم يكن هؤلاء من القادة الحاكمين المتنفذين، إنما كانوا من أهل الاجتهاد العقلى الحر المستنير، كان هدفهم الانتقال بمصر - كانت ولاية عثمانية - من مجتمع تقليدى إلى مجتمع عصرى، كانت غايتهم - استراتيجيا - الطرائق التى تنهض بها مؤسسات المجتمع العصرى، بما يحلق بهذه الغاية من تحديد الصياغات والمفهومات والعلاقات والواجبات والمسئوليات. ولايتم لهم ذلك إلا ببنية ثقافية عصرية نشطة.

تأسيس فكرى

أول ما يجتهد الرائد، نقل مصر من ولاية إلى وطن عصرى مستقل، وهنا تتبدى ضرورة تعريف الأمة «.. الأمة جملة من الناس تجمعهم جامعة ... فهى جملة من الناس تتخذ قطعة أرض محدودة بحدود أربعة تعرفها من علم تخطيط الأرض وتسميها اسما يميزها عن غيرها كمصر فيقال الأمة المصرية ...» (المرصفى: الكلم الثمان ص ٤- هذه الأرض التى تتخذها الأمة محلا لعيشها وحياتها هى الوطن، وقد بدأت الكلمة بما يشبه الحد والتعريف التعليمى وبظلال دينية وكلاسيكية وانتهت بالاستقلال بالدلالة العاطفية والمعنى الوطنى العصرى: الوطن فى اللغة محل الإنسان مطلقا فهو السكن بمعنى استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى اتخذوها سكنا وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك، لا وطن إلا مع الحرية، لا وطن فى حالة الاستبداد، وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية، إن ياء النسبة فى قولنا مصرى هى من موجبات غيرة المصرى على مصر، فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه (محمد عبده: الوقائع المصرية، عدد ٢٨، ١٨٨١)، ولايكون المجتمع حديثا إلا إذا أقام الإدارة والمؤسسات العصرية التى تعمل بصياغات دستورية وقانونية تحدد المسئوليات والسلطات والمفهومات والعلاقات وتنظم الحقوق والواجبات، وكان الطهطاوى فى صدارة من شغلوا بهذا الأمر ونهضوا بالنصيب الأكبر فى التأسيس والتأصيل. كان من مصادره فلاسفة حركة التنوير فى أوروبا ولاسيما مونتسيكيو وكوندورسيه وأمثالها من المفكرين الذين مهدوا للثورة الفرنسية. لخص الثورة الفرنسية وترجم الدستور الفرنسى - مرة يسميه الشرطة ومرة يسميه الميثاق - تحدث عن الحرية والحقوق الوطنية، يتعلق بالدستور مجالس للنواب والشيوخ،



وعانى الطهطاوى فى العثور على الأسماء العربية المناسبة، فمجلس الشيوخ لديه: أهل المشورة الأولى، ومجلس النواب: ديوان رسل العمالات (تخليص الإبريز ص ٧٩). أما حسين المرصفى فوضع كتابا قائما برأسه (الكلم الثمان) يرصد فيه واقع الأمة المصرية زمانه، ويحدد الكلم الثمان التى رآها لازمة لإدارة سياسة اجتماعية حديثة: الأمة والوطن، والحكومة، والعدل، والظلم، والسياسة، والحرية، والتربية، يقول مشترطا لقيام الحكومة رضاء الأغلبية: الحكومة تحصل من اجتماع طائفة من الأمة لإمضاء مقتضيات الطبيعة على وجه يقرب من رضاء الكافة فإذا لم تكن كذلك كانت شيئا آخر يطلب له اسم غير هذا الاسم (المرصفى: الكلم الثمان ٦٣)، وأما محمد عبده فيجعل الوحدة نفيا للاستبداد: إن استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة الأمة وجمع كلمتها (تاريخ محمد عبده، ط١ ص ٨٩١). ولا يتم لهذا المجتمع الحديث كيانه وبنيانه إلا بضم كل أبنائه - من ذكور وإناث - إلى حياته العامة، من هنا إقرار هؤلاء الرواد الحازم بمكان المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع وبحقها فى التعليم والعمل والمشاركة، لقد أعلن الطهطاوى ضرورة تربية المرأة وتعليمها وألح فى هذه الدعوة وجاهد جهادا مثمرا فى هذا السبيل وعرض فى كتابه (المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين) لتعليم البنت خاصة فأفاض القول وضرب الأمثلة من تعليم البنت اليونانية والأمريكية والفرنسية ثم عرج على المرأة العربية فكان رأيه أنها تتحلى بسجايا وصفات تؤهلها لاحترام الرجال، وساق أمثلة كثيرة على ذكاء البنت العربية فى مختلف العصور فذكر أمهات المؤمنين والنساء والشواعر والأديبات والملكات، وجاء فى فصل من ذلك الكتاب رأى متقدم لايذهب إلى وجوب تعليم الفتاة المصرية فحسب بل ويدعو كذلك إلى جواز خروجها للعمل: ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن المعاشرة فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال مايتعاطاه الرجال على قدر قدرتها وطاقاتها، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فالعمل يصون المرأة عما لايليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء (المرشد الأمين ٦٦).

إن هذا المجتمع المصرى الحديث لاتكتمل أركانه ولايمضى عمله فى اتجاه التغير والبناء والتقدم إلا بقاعدة التحديث: العلم، لقد تمكنت النهضات الحديثة غربا وشرقا حين توسلت بالعقلانية نظرا وبالعلم وتطبيقاته أداة، لقد صرف محمد عبده جانبا كبيرا من جهوده ودعوته إلى التوفيق بين الإسلام والعلم

الحديث مايناقض الإسلام الصحيح إذا أحسن فهمه وأحسن بيانه، وإن ضرورة تصوير الإسلام على صورة تتجانب مع العلم الحديث تستلزم أيضا استعادة مافى الإسلام من أصول جوهرية وليس ماكان منه مقصوراً بطبيعته على زمن ما أو مكان ما ... إن الدين من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة (المنار جـ ٨ ١٩٩٩).

ولم يكن هؤلاء الرواد الأوائل مفكرين مؤهلين مؤسسين فحسب، بل كانوا كذلك مبدعين موهوبين، ذلك أن هذا الوطن الحديث المنشود، له من مجده القديم التليد، وحاضره الناهض السعيد، مايجعله جديرا بالحب، والمنشد هنا الطهطاوى:

يا أهل مصر بر مصر فرض عين
فى البر نبذل عن رضى نفسا وعين
.....

وحماية هذا الوطن فرض عين كذلك:

من تعدى وطغى على حماكم يصرع

لقد صارت مصر الوطن الحديث المستقل قوة، وصارت عامرة، وصار ذكر نهضتها على الألسن والأقلام:

قوة مصر القاهرة
على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهرة
خصت بذكر حسن

ومنذ قديم إلى الآن - عبر الأطوار والأزمان والأدوار - فإن مصر قلب العالم، أم الدنيا ومركزها:

مركز الدنيا جميعا ... منذ أدوار وأزمن

إن هذا التأسيس الفكرى لنهوض مصر فى التاريخ الحديث قد مهد الطريق لنشوء نقد أدبى عربى حديث، ثقافى شامل.

وتأسيس فنى

يتعامل الناقد الأدبى مع لغة النص، يقف عند أصواتها وتركيباتها وهيئاتها وتشكيلاتها، لينتهى إلى تحديد موقف الشاعر أو الكاتب من واقعه ورؤيته العالمه وأسئلته حول كونه، فالأدب فن لغوى، بيد أن اللغة أوسع من أن تكون أداة

تشكيل ضرب من ضروب النشاط الإنسانى، إنما هى الظاهرة الإنسانية الأولى التى تحقق بها بشرية البشر، بها يتصلون ويتواصلون ويتعارفون، بها ينادون ويجيبون ويصيحون ويهتفون ويهزجون وينشدون ويغنون ويرجعون ، وبها يخطون ويكتبون ويقرأون ويدونون، وهى الحافظ الأمين لموروثات أسلافهم، والحامل الموثق لاتفاقاتهم ومعاهداتهم بخير أن هذه اللغة ذات البعد المعيشى الراهن والتاريخى العتيق تتبدى فى الأدب على نحو مخصوص، إنها الاستخدام الوحيد للغة الذى ينتقل بها من التقريرى إلى التصويرى ومن الأصلى إلى المجازى .. الأدب كيفية لغوية خاصة، فالمبدع يتعامل مع اللغة العادية بكيفية غير عادية، إن تنظيم الكلمات فى النص الأدبى يقوم فى النص على الوعى بالتناظر والتناغم والتناسب والإيقاع، وعلى الوعى بوجوهها الأخرى من تنافر ونشوز وتناقض،. يسيطر إيقاع العمل الفنى قبل تشكيله على المبدع، ويسيطر المبدع على الكلمات ليشكل بها هذا العمل، إن المبدع موجه بإيقاع مسيطر يطلب تشكيله، وعمل المبدع أن يلبى، بأن يخضع الكلمات لمطالب هذا التشكيل.

ولم يكن أولئك الأعلام الثلاثة من الجيل الرائد الأول - وآحاد غيرهم من جيلهم معهم وحولهم - مفكرين وعلماء فقط، بل كانوا مبدعين كذلك. وكانوا قد تربوا فى بيئة إبداعية ميتة، إنما كنت طاقتها الإبداعية قدخدمت فى القرون السابقة على النهوض، ولم يصطنعوا القطيعة مع بيئتهم الخامدة، إنما اصطنعوا -فعل أصحاب الريادة والفكر المسئول - التواصل بتجديد هذه البيئة ودفع طاقتها الإبداعية إلى التوهج من جديد: أثرت النهضة الوطنية فى طرائق التعبير الأدبى، ومن الطبيعى أن تكون الثورة على الأنماط الأدبية الباهتة جزءا لاينفصل من الثورة التى عمت جميع مناحى الحياة الحديثة، فلا عجب إذا رأينا أن الذين قادوا مصر إلى التحرر السياسى هم الذين رادوا النهضة الأدبية فيها فحرروا فكرها الأدبى من قيود وأغلال كانت تبهظه.

ورأس المجددين رفاعة الطهطاوى الذى أوغل فى التراث العربى الإسلامى، واتصل اتصالا حسنا بالثقافة الحديثة خلال اللغة الفرنسية، حرر رفاعة: التحفة المكتبية فى النحو. وحرر شرح لامية العرب، وساعده على عمله فى تجديد العربية اهتمامه الكبير بالصحافة والنشر، بل إنه التفت إلى أمر ذى خطر عظيم وهو الترجمة، عن التركية والفرنسية أساسا، فأنشأ سنة ١٨٣٥ مدرسة الألسن لتخريج المترجمين ورأس قلم الترجمة مع أول فرقة تخرجت فى المدرسة، وهنا دقيقة من دقائق التاريخ يلزم الوقوف عندها: مصر قلب العالم، جغرافيا، وتاريخيا، ولاتتحقق هذه المقولة إلا بترجمةماينتجه العالم. وقد قال أحمد لطفى السيد فجر القرن العشرين: قامت نهضتنا الأولى - يقصد الازدهارة العباسية

- إلا بالترجمة، ودعا إلى وزارة للترجمة وقال محمد مندور منتصف القرن: لن يفلح عملنا ولا دورنا فى العالم إلا بوزارة للترجمة، والحق أن عمل رفاعة الطهطاوى كان قريبا من هذه الدعوات، ويعنينا هاهنا أن اشتغال الطهطاوى - بثقافته القديمة الحديثة - بالترجمة والتأليف والصحافة قد كان دافعا للعربية إلى تجديد جوهرى، ومن آيات هذا التجديد أن الطهطاوى يقيم الأواصر بين أداة الأدب، اللغة، وأدوات الفنون الأخرى: .... وأما الفنون فإنها تنقسم إلى: فنون عقلية، وإلى فنون عملية: فالفنون العقلية مايكثر قربها من العلوم مثل علم الفصاحة والبلاغة وعلم النحو والمنطق والشعر والرسم والنحاتة والموسيقى، فإن هذه فنون عقلية لأنها تحتاج إلى قواعد علمية (تخليص الإبريز ٣٧١)، بل إن الطهطاوى يطرق - فى المستوى الأدبى للغة - بين المستوى المعيشى التاريخى والمستوى الإبداعى الخالق: ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتاب العلوم منظوما، والنظم هو أن يفصح الإنسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى، وهو يحتاج زيادة عن الوزن إلى رقة العبارات، وقوة الأسباب الداعية لنظمه (نفسه ٣٧٥). ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب فإن كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرها، نعم فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها فى لغة العرب وحصره فى البحور الستة عشر المستعملة هو الخصوص اللغة العربية، ومعرفة فن النظم لاتكفى فى نظم الشعر بل لابد أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة، وإلا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول (٣٧٧ نفسه). فبمعنى البلاغة عندهم مايقبله الطبع (٣٨٣ نفسه).

أما حسين المرصفى، صاحب: «الكلم الثمان» الذى وقفنا عنده فى التأسيس الفكرى، فله فى التجديد اللغوى والأدبى: الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، كان المرصفى لغويا بلاغيا مبدعا جهيرا، نحل فى كتابه الكبير القوانين والمقررات الصرفية والنحوية والعروضية والبلاغية، واعتمد فى هذا على الأصول والأمهات، بخاصة كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ومقدمة ابن خلدون، واحتشد لعمله بحافظة نشطة واعية استوعبت الخوالد من الإبداعات العربية جدد اللغة بتخليصها مما لاينفع فى الاستخدام، وجدد البلاغة بتخليصها من التفصيلات الجمة والحواشى والتقرير التى تعكر على الاتصال الصحيح وتعطل التذوق الحر. ولاتزال الوسيلة حية فاعلة إلى يوم الناس هذا، نعتمدها ونرجع إليها ونوجه طلابنا إلى مطالعتها، وكان محمود سامى البارودى لاصبر لديه على القواعد والمقررات بخاصة قواعد العروض، فلما تعلم على المرصفى وأخذ عنه، طابت نفسه، وتوهجت قواه الخالقة، فصار غير مدافع: رائد الشعر العربى

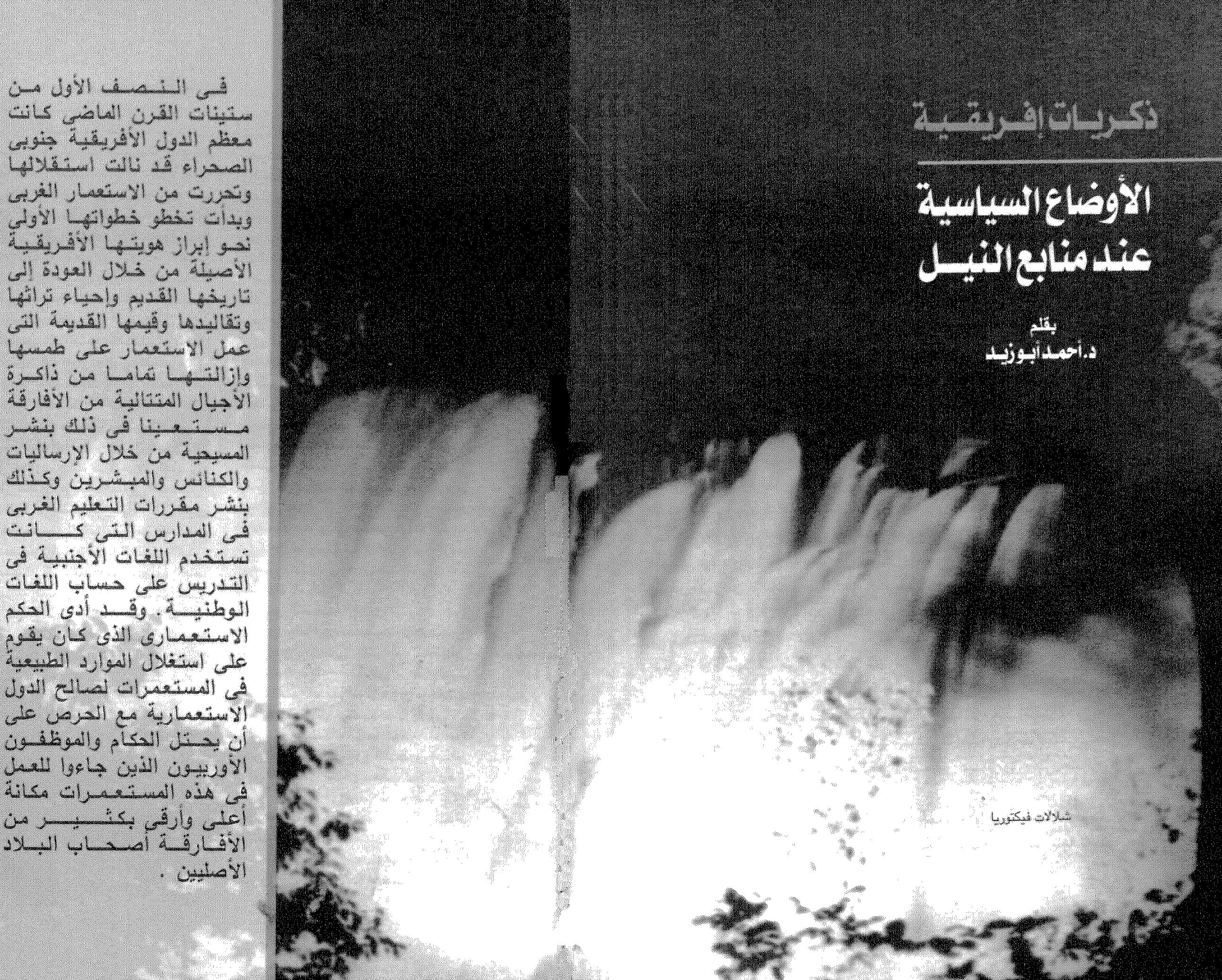


الحديث، ليأتى بعده شوقى ليصير شاعر العصر الحديث.

وأما محمد عبده فقد كان بعيد الأثر فى النهضة المصرية - والعربية والإسلامية - بكل مناحيها السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية والثقافية، في الثقافة اتصلت قضية الإصلاح الأدبى واللغوى عنده بقضية الإصلاح الدينى الذى قاده وبشر به، فقد رأى أن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم وأن المحافظة عليها وتنقيتها خدمة للقرآن نفسه، ولهذا جعل من همة المساهمة فى النهضة الأدبية والعمل على تقويم الأساليب وإصلاحها وتجديد أساليب الكتابة عن طريق تقديم النموذج الجيد من كتابته وكتابة تلاميذه والقضاء على الضعف الذى ورثته اللغة فى عصور الانحطاط مع تخليص الكتابة من القيود والسجع المتكلف وإرسال الكلام مطلقا مبينا عما يقصده الكاتب فى يسر ووضوح. وكانت خطته فى الإصلاح اللغوى والأدبى أن بدأ بإصلاح أسلوبه ليضع أمام الكاتبين من معاصريه النماذج الحية لينهجوا نهجها، ولم تقتصر جهود محمد عبده فى تطوير النثر العربى فى مصر على الكتابة فى الصحف والمجلات ووضع النماذج أمام الكاتبين، بل إنه أنشأ سنة ١٩٠٠ جمعية (إحياء الكتب العربية) فنشرت كتاب (المخصص) لابن سيده وغيره من أصول العربية كما وكل إلى سيد المرصفى تدريس الأدب بالأزهر فنهض بتدريس أمهات كتب الأدب العربى مثل كتاب (الكامل) للمبرد و(ديوان الحماسة) لأبى تمام، وكان لهذه الدروس الأدبية أثرها فى النهضة الأدبية فجر القرن العشرين، كما حقق محمد عبده جزءاً من مذهبه فى إصلاح الأدب واللغة أيام نفيه فى بيروت فنهض بتدريس الإنشاء فى المدرسة السلطانية، وهناك نشر (مقامات بديع الزمان)، و(نهج البلاغة)، وبعد عودته إلى مصر نهض بتدريس البلاغة العربية فى مصادرها المشرقة فقرأ على تلاميذه كتابى (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) للإمام عبدالقاهر وسعى فى نشرها ليكونا نموذجين للمحتذين.

وقد تتلمذ معظم الأدباء والشعراء المصريين فى النصف الأول من القرن العشرين على محمد عبده بطريق مباشر أو غير مباشر، فقد اتصل به إبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى وابنه محمد وحفنى ناصف وأحمد فتحى زغلول وأحمد تيمور ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى عبدالرازق وعلى عبدالرازق وحافظ إبراهيم وغيرهم كثيرون.

وقد وضح الآن - مما سلف - أن عمل الجيل الأول من رواد النهضة - من الشيوخ الأزهريين - قد كان مرحلة تاريخية لازمة لتأسيس بنية ثقافية حديثة، ولنشوء نقد أدبى عربى حديث. ■



ذكريات إفريقية

الأوضاع السياسية عند منابع النيل

بقلم
د. أحمد أبو زيد

شلالات فيكتوريا

في النصف الأول من ستينات القرن الماضى كانت معظم الدول الأفريقية جنوبى الصحراء قد نالت استقلالها وتحررت من الاستعمار الغربى وبدأت تخطو خطواتها الأولى نحو إبراز هويتها الأفريقية الأصيلة من خلال العودة إلى تاريخها القديم وإحياء تراثها وتقاليدها وقيمها القديمة التى عمل الاستعمار على طمسها وإزالتها تماما من ذاكرة الأجيال المتتالية من الأفارقة مستعينا فى ذلك بنشر المسيحية من خلال الإرساليات والكنائس والمبشرين وكذلك بنشر مقررات التعليم الغربى فى المدارس التى كانت تستخدم اللغات الأجنبية فى التدريس على حساب اللغات الوطنية. وقد أدى الحكم الاستعمارى الذى كان يقوم على استغلال الموارد الطبيعية فى المستعمرات لصالح الدول الاستعمارية مع الحرص على أن يحتل الحكام والموظفون الأوربيون الذين جاءوا للعمل فى هذه المستعمرات مكانة أعلى وأرقى بكثير من الأفارقة أصحاب البلاد الأصليين.

كما عمل المستعمرون الأوربيون الذين تملكوا المزارع الواسعة أو احتكروا لأنفسهم النشاط التجارى والصناعى على إبعاد الأفريقيين عن كل الأعمال التى تتطلب مهارات معينة وبذلك ظل هؤلاء السكان الأصليون يحتلون أدنى المراكز الاجتماعية والاقتصادية بحيث كان يعلوهم فى المكانة الملونون والآسيويون وفوق هؤلاء وهؤلاء المستعمرون الأوربيون البيض من إنجليز وفرنسيين وبرتغاليين وغيرهم. وبطبيعة الحال وتبعا لفلسفة الحكم الاستعمارى القائم على استغلال الشعوب والمجتمعات الخاضعة للاستعمار لم يكن المستعمرون الغربيون يعطون اهتماما كبيرا لتنمية تلك المجتمعات إلا فى الحدود التى تخدم مصالحهم هم الخاصة كما لم يأخذوا فى الاعتبار مسألة تقديم الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية إلا فى أضيق الحدود، وظهرت التفرقة العنصرية فى كل أنحاء أفريقيا جنوبى الصحراء وليس فقط فى جنوب أفريقيا، وكان شعور الأفارقة بفداحة الظلم المفروض عليهم من المستعمرين البيض بداية للتذمر والتمرد والعصيان الذى بدأت منه شرارة العنف ضد هؤلاء البيض، واتخذ العنف فى كثير من الأحيان شكلا منظما أوقع كثيرا من الخسائر فى صفوف المستعمرين الأوربيين وكانت حركة الماو ماو التى بدأت بين قبائل الكوكيبو بزعامة الزعيم السياسى الكينى جومو كنياتا أهم هذه الحركات وأخطرها خاصة وأن كنياتا نفسه كان على درجة كبيرة من العلم والثقافة كما كان يفهم تماما العقلية البريطانية، إذ كان قد تلقى تعليمه فى جامعة لندن ودرس الأنثربولوجيا على أيدى أحد كبار العلماء البارزين فى ذلك الفرع المهم من فروع المعرفة المتعلقة بدراسة الشعوب (البدائية) وهو برونيسلاف مالينوفسكى. واستغل كنياتا معرفته بافريقيا القبلية وخبرته عن الانسان البريطانى ودراسته للأنثروبولوجيا فى إدارة حركة الماو ماو بكفاءة نادرة أجبرت الانجليز فى آخر الأمر على الرحيل ومنح كينيا استقلالها السياسى . وما فعله كنياتا فى كينيا فعله زعماء آخرون فى بقية أنحاء القارة السوداء وسجل التاريخ أسماء الكثيرين منهم . وقد استلهمت هذه الثورات التجربة المصرية بقيادة عبدالناصر الذى أفلح هو أيضا فى إخراج الانجليز من مصر وكان رجال السياسة فى أفريقيا السوداء فى الستينات من القرن الماضى يعترفون بذلك صراحة وعقد بعضهم مثل نكروما فى غانا أواصر صداقة قوية مع الزعيم المصرى كمؤشر على وحدة الطريق الذى تسير فيه الدولتان

وفى النصف الأول من ستينات القرن الماضى أيضا وافقت جامعة الإسكندرية على إعارتى خبيرا أنثربولوجيا لمنظمة العمل الدولية – أو مكتب العمل الدولى وهو الإسم الأكثر شهرة – فى جنيف وكان يشغل منصب نائب رئيس تلك المنظمة حينذاك أحد كبار العلماء المصريين وهو المرحوم الدكتور عباس عمار الذى كان يشغل منصب أحد أعضاء هيئة التدريس فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة قبل أن يتولى إحدى الوزارات أيام جمال عبدالناصر حتى اختلف معه فأبعده عبدالناصر عن مصر لكى يتولى ذلك المنصف الرفيع فى

تلك المنظمة الدولية المهمة وكان ذلك كسبا كبيرا لمصر بغير شك، فقد كان عباس عمار من أفضل الشخصيات التى يمكن أن تمثل وطنها فى المحافل الدولية ويحمل أعباء الوظيفة/ الرسالة بكفاءة نادرة .

الأوضاع السياسية والاقتصادية

فى مكتب العمل الدولى أرسلنى عباس عمار إلى أفريقيا لكى أرصد على الواقع الأوضاع السياسية والاقتصادية فى عدد من المجتمعات الحديثة العهد بالاستقلال وأتعرف إمكانات تنفيذ بعض مشروعات التنمية التى تعتمد على حسن استغلال الموارد الطبيعية الغنية التى لم يحسن الاستعمار تطويرها لصالح الأهالى وكذلك تقدير كفاءة وقدرة الأيدى العاملة الوطنية على إدارة مثل هذه المشروعات ونوع التدريب والتأهيل الذى يمكن للمنظمة الدولية تقديمه لهم حتى يتولوا بأنفسهم الإشراف على تلك المشروعات التى كان يشترط أن تكون نابعة من رغبة الأهالى أنفسهم وفى ضوء اقتراحاتهم . وشملت الدراسة الميدانية مناطق قبلية فى يوغنده وكينيا وتنجانيقا (تنزانيا) فى شرق القارة ثم مناطق الأزاندى فى جنوب السودان وبعض المناطق فى نيجيريا وسييراليونى فى غرب القارة مع زيارات أخرى سريعة نسبيا فى بعض الدول الأخرى. وكان المد الثورى لا يزال مسيطرا على هذه المجتمعات مع الرغبة الصادقة فى الارتقاء بالأوطان هو السمة الغالبة والعامل الذى قام بتوحيد القبائل العديدة أو على الأقل التقريب بينها بحيث تناست أحقادها القديمة ولو مؤقتا، وبدلا من أن تتناحر هذه القبائل بعضها مع بعض كما كان الحال دائما وهو الوضع الذى كان الاستعمار يعمل على استمراره كوسيلة لترسيخ أقدامه اتجهت عداوات القبائل نحو المستعمرين الإنجليز ونحو الوافدين الآسيويين وارتفعت الأصوات بضرورة التخلص منهم سواء أكان هؤلاء المستعمرون (السابقون) الذين ظلوا مقيمين بعد الاستقلال يشغلون مناصب إدارية فى الحكومة الوطنية أم كانوا من أصحاب المزارع الكبيرة، كما ارتفعت الأصوات أيضا بطرد الآسيويين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم (طبقة) أعلى من الأفارقة وكانوا يتشبهون فى حياتهم بالانجليز دون أن يقبلهم المجتمع الأبيض الاستعمارى أعضاء فيه وبذلك كانوا يشغلون (منزلة بين المنزلتين) إن صح التعبير، فقد كانوا يرفضون الانتماء إلى الأفارقة السود بينما كان الأوروبيون البيض يرفضون اندماجهم فى مجتمعهم الاستعلائى المترفع. وبذلك ظهرت التفرقة العنصرية بأجلى مظاهرها مع اختلاف فى الترتيب فقد أصبح الأفارقة السود هم الذين يرفضون البيض والملونين على السواء ويتعالون - أو يحاولون التعالى - ويعملون على إيذاء مشاعرهم وإشعارهم طيلة الوقت بأنهم دخلاء غير مرغوب فيهم . وأفلحوا فى ذلك إلى حد كبير جدا حيث (تأفرقت) الوظائف والمناصب الرسمية فى مختلف الإدارات ، وهاجر الآسيويون إلى بريطانيا - المجتمع الأم - باعتبارهم ينتمون إلى الكومنولث وغرقت بريطانيا فى مئات الآلاف من هؤلاء المهاجرين الذين يؤلفون الآن نسبة لا بأس بها من السكان هناك .

فى يوغنده

فى يوغنده التى أحببتها من كل قلبى مثلما أحببت إقامتى الطويلة فى فندق بسيط ولكنه فسيح ومريح للغاية على شاطئ بحيرة فيكتوريا الرائعة المهيبة، حدثت لى حادثة طريفة مع وزير الموارد الطبيعية والمياه فى ذلك الوقت . وكان الوزير شابا رقيقا ومهذبا فى مثل سنى كما كان قد أمضى بعض السنوات فى جامعة كيمبردج البريطانية ، وحين عرف

أننى تخرجت فى جامعة أكسفورد قام بيننا نوع من الألفة التى كان يشوبها شئ مما يسميه الأنثربولوجيون (علاقات المزاح). فالعلاقات التقليدية بين أكسفورد وكيمبردج مزيج من الغيرة والتعالى والمحبة والتقدير التى تعبر كلها عن نفسها فى (التريقة) المتبادلة. وفى أثناء اللقاء أفاض الوزير فى حماس شديد فى الحديث عن أنهم فى يوغنده يؤمنون بمبدأ أفريقيا للأفريقيين وأن يوغنده مفتوحة لكل الأفارقة بغير استثناء وأن الحكومة على استعداد أن تمنح أى مساحة من الأرض لأى أفريقى يأتى إليها للإقامة مادام يزرعها لصالح البلد . وهنا سألته فى خبث: «سيدى الوزير أو على الأصح Mr. Minister، إننى مصرى كما تعرف، ومصر بلد أفريقى وأنت نفسك قلت منذ قليل إن أفريقيا تدين باستقلالها لمصر إلى حد كبير. فهل إذا تقاعدت أنا الآن من عملى وأتيت للإقامة فى يوغنده التى أحببتها بالفعل، فهل تعطوننى قطعة أرض أقيم عليها وأتولى زراعتها؟» وقال الوزير ضاحكا: « كلا بالطبع . لأن لون بشرتك أبيض بكثير مما نستطيع أن نتحمله » وكانت هذه إجابة لها دلالتها ، فالعنصرية القائمة على اختلاف اللون ظلت تحكم أفريقيا بعد الاستقلال وإن اختلفت الأدوار .

نظام طبقات العمر

ولم تكن تلك البحوث الميدانية التى قمت بها بتكليف من مكتب العمل الدولى هى بداية اهتمامى بالمجتمعات الأفريقية جنوبى الصحراء. فقد سبق لى أن تناولت فى إحدى الرسالتين اللتين تقدمت بهما لجامعة أكسفورد فى الخمسينات موضوعا طريفا مميزا للتنظيم القبلى فى مجتمعات شرق القارة وهو ما يعرف باسم (نظام طبقات العمر) . وبمقتضى ذلك النظام يتم تقسيم المجتمع الأفريقى رأسيا ليس بحسب التفاوت الاقتصادى وإنما بحسب التفاوت فى السن، بحيث إن كل فئة من الأفراد الذين ينتمون إلى فئة عمرية واحدة تقدر بخمسة عشر عاما يؤلفون طبقة واحدة متماسكة ينتمى أعضاؤها لمختلف الجماعات القبلية ويتولون وظيفة اجتماعية واحدة داخل البناء الاجتماعى . فطبقة العمر التى تتراوح أعمار أعضائها ما بين ١٥ – ٣٠ سنة مثلا تؤلف طبقة المحاربين الأبطال الذين يدافعون عن الوطن ، وحين تظهر طبقة جديدة تشغل وظيفة الحرب والبطولة تحل محل الطبقة القائمة التى يتم تصعيدها إلى طبقة الساسة الحكام الذين يتولون إدارة شئون المجتمع، حتى إذا ما تكونت طبقة ثالثة تتم زحزحة الطبقتين السابقتين بحيث تشغل أقدم الطبقات مرتبة الشيوخ وتقوم بالوظائف الدينية ومن تحتها الساسة والأبطال وهكذا . وهذا طبعا هو التنظيم التقليدى المتوارث الذى حل محله الآن نظام الدولة الحديثة ، وأصبح ذلك التنظيم جزءا من التراث.

إلا أن هذه الدراسة (الأكسفوردية) كانت تعتمد على المراجع وبذلك فهى تختلف اختلافا جذريا عن البحوث الميدانية التى قمت بها فى الستينات وأتاحت لى فرصة الاتصال المباشر بالناس كبشر وآدميين وليس كمعلومات على الورق . أى أن هذه البحوث الميدانية وضعتنى من الناحية العملية وجها لوجه مع تلك القبائل التى كتبت عنها رسالتى الصغرى فى أكسفورد وأتاحت لى فرصة تعرف الروح الأفريقية وجوانب كثيرة من

الثقافة الأفريقية التقليدية والثقافة (النخبوية) أيضا المتمثلة فى كتابات عدد من الروائيين والقصاصين والفنانين التشكيليين الذين لم أكن أعرف عنهم سوى القليل . وقد أثار ذلك الاحتكاك المباشر رغبة قوية فى ذهنى لمواصلة الاهتمام بأفريقيا السوداء بشكل عام وبالمجتمعات الافريقية التى تقع فى حوض النيل أو تتصل به بشكل أو بآخر والتى لها اتصال وثيق بمصر سواء فى الماضى أو الحاضر. ولا يزال هذا الاهتمام قائما حتى الآن ويظهر من حين لآخر فيما أكتبه حول أفريقيا والتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تطرأ عليها ودورها فى المجتمع الدولى وما تتعرض له من أزمات بفعل تطاحنها الداخلى بين القبائل أو بفعل القوى الخارجية التى لا تزال تطمع فى ثرواتها الهائلة .

عند منابع النهر

وكما ذكرت فى أكثر من مكان وفى أكثر من مناسبة أن بعض هذه الرحلات الدراسية أو البحثية التى قمت بها بتكليف من مكتب العمل الدولى حملتنى بوجه خاص إلى منابع نهر النيل وروافده الكبرى وأدرت على الطبيعة دور ذلك النهر العظيم فى الاتصال والتواصل الثقافى بين مصر وبقية دول حوض النيل ، كما رأيت رأى العين – وليس سامع كمن رأى كما يقول المثل – مدى قوة وفاعلية الجهود المصرية فى تطويع النهر وتطبيعه والتحكم فيه من خلال المشروعات التى أسهم فيها الرى المصرى، وهى جهود تحتاج لمن يدرسها دراسة أكاديمية متعمقة من ناحية ولكنها تحتاج من الناحية الأخرى إلى كتابات إبداعية تصدر عن معايشة النهر وتتبع رحلته والنظر إليها وإلى تاريخ النهر بعين الإنسان الأديب الفنان المبدع الذى يتجاوب مع الموضوع الذى يهتم به ويعيش فيه ويتغلغل إلى أعماقه . كذلك لمست عن قرب الامكانات الهائلة المتاحة لتنمية وتطوير تلك المجتمعات بقبائلها وشعوبها التى لا يزال جزء كبير منها يعيش داخل الغابات فى الوقت الذى يتم فيه تنفيذ كثير من المشروعات لتوليد الكهرباء وإدارة المصانع وتحويل بعض القرى الصغيرة إلى مراكز صناعية هامة كما هو الحال مثلا فى قرية جنجا التى تحولت إلى مدينة صناعية تستقبل مئات العمال من كل أنحاء شرق افريقيا وليس فقط من يوغنده.

ولم تنقطع صلتى بأفريقيا ، أو بالأحرى بشئون افريقيا بانقطاع عملى فى مكتب العمل الدولى وعودتى إلى الجامعة . فلا تزال المجتمعات الافريقية القبلية التى تحولت إلى دول حديثة تلعب دورا فعالا على الساحة الدولية تشغل ذهنى ومازلت أهتم بالتنظيمات والمنظمات السياسية والاقتصادية والثقافية الافريقية التى تشغل جانبا كبيرا من اهتمامى وقد اهتممت فى وقت من الأوقات وبشكل مكثف باتحاد الجامعات الافريقية الذى مثلت جامعة الاسكندرية فى اجتماعاته لبعض الوقت والذى لا يبدو أن له أثرا فعالا على الأقل بالقدر الذى كان ينبغى الوصول اليه – فى مجالات تبادل الاساتذة والطلاب والتقريب من المناهج والقيام بدراسات وبحوث ميدانية مشتركة فى مختلف دول القارة حتى تقوم العلاقات السياسية بين مصر والدول الافريقية على أسس قوية من فهم الثقافات المختلفة والاحترام المتبادل. وكما كنت أقول دائما فى مثل هذه المناسبات قد يمكن لمعيد الدراسات الافريقية التابع لجامعة القاهرة أن يقوم بدور بارز فى ذلك وإن كانت توجد دائما مشكلة تمويل مثل هذه البحوث . ولكن الأمل والرجاء لايزالان قائمين وعسى أن تحقق الأجيال الحالية والناشئة ما عجزت الأجيال السابقة عن تحقيقه من أجل الصالح المشترك . ■

نص تشكيلى

حجازى

الصعلوك المناضل

بقلم
عدلى رزق الله

يحلولى أن أذكر القارىء بأن ما أكتبه لا يمثل نقدا من قريب أو بعيد فأنا لا أملك أدوات الناقد أو قدرات المؤرخ، لكن يحلو لى أن أطلق على ما أكتبه بأنه مسمي «النص التشكيلى» . لا فضل لى فى تلك التسمية التى ترجع إلى كتابات سمير رافع، ورمسيس يونان، وأحاول الآن أن استكمل ما قد قدماه لنا وأن أحنى قامتى لهما ولإبداعهما ولما حاولا إنجازه لنا فى حقل الكتابة التشكيلية.



تعود معرفتى لحجازى يوم كنت طالبا فى كلية الفنون الجميلة فى نهاية الخمسينيات لتصافح عيونى رسوما خجلى تتميز فيما تميزت بالتواضع «وبالمصرية» الواضحة . حين أذكر كلمة «مصرية» هنا لابد لنا للعودة إلى تأصيل ظاهرة تمصير الصحافة والذى قام على أكتاف رائدنا - رغم إنكاره لحمل لقب الرائد - بيكار والذى اتفق معى على تسميته بـ «الأولانى» . ما أعظم تواضع هذا الرائد والذى رسم لنا أول غلاف مصرى - كتاب الأيام لطه حسين - بعد أن كان الأرمن العاملين بالحفر فى المطابع هم من يقومون بزخرفة الأغلفة ذاك الوقت . وعلى أكتاف بيكار إزدانت صحافة الأخبار برسوم مصرية بريشة بيكار الرومانسية الطابع . كانت الفلاحة الأنيقة الرشيقة هى طابع رسوم بيكار ،



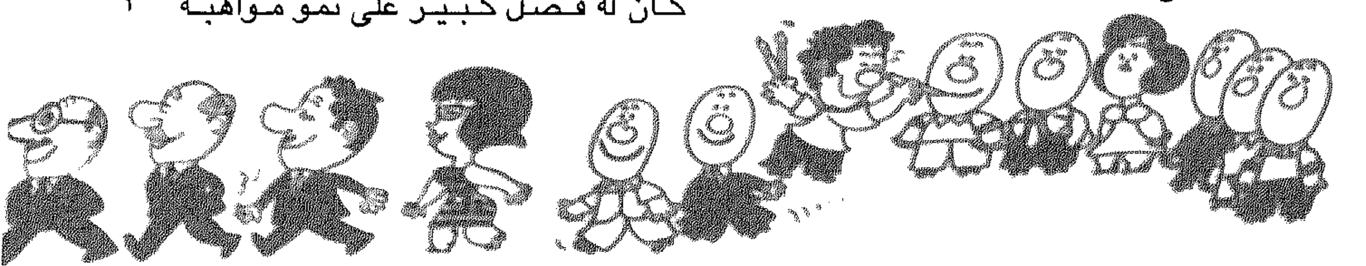


والتى تذكرنا برومانسية محلاها عيشة الفلاحة لمحمد عبدالوهاب .

كانت «دار الهلال» ، «ودار أخبار اليوم» هما بالإضافة إلى دار المعارف تقوم على أعمالهم الصحفية «الصورة» أساسا . كانت تلك الدور لا تتورع عن النقل عن الصحافة الغربية دون ذكر للأصول. وقد عاصرت فيما بعد تلك التجربة بل وعانيت منها الأمرين كما يقولون حين عملت بمجلتى «سمير» و«ميكى». كانت الأصول الغربية للمسلسلات، تنقل سواء من كتاب السيناريو مع تمصير الأسماء، وكذلك يفعل الرسامون ، فالكشافة فى الغرب يلبسون الأزرق وفى بلادنا يلبسون الكاكى، وهكذا نفعلها دون خجل أو إحساس بالعيب!!.

وهذا ما كان يحدث فى الصحافة ولا ننسى لحلمى التونى، وهو أحد من ساعدوا فى إعطاء نكهة مصرية حقيقية للأغلفة حين نشر بمجلة الكواكب أصلا لرسام أجنبى، كان رسام آخر ينقل نفس الرسم ويمهره بتوقيعه ، وكانت فضيحة ولا كل الفضائح .

لم يكن هدفنا الفضح حين ذكرنا ذلك، ولكن فقط لإعطاء صورة لما كان يحدث، وماتغير بفضل تغير شامل حدث مع صدور مجلة صباح الخير ، مجلة العقول الشابة والقلوب المتحررة، أو العكس وهو صحيح أيضا . فماذا حدث لكى يولد رسامنا حجازى بفضل هذا المناخ الذى كان له فضل كبير على نمو مواهبه

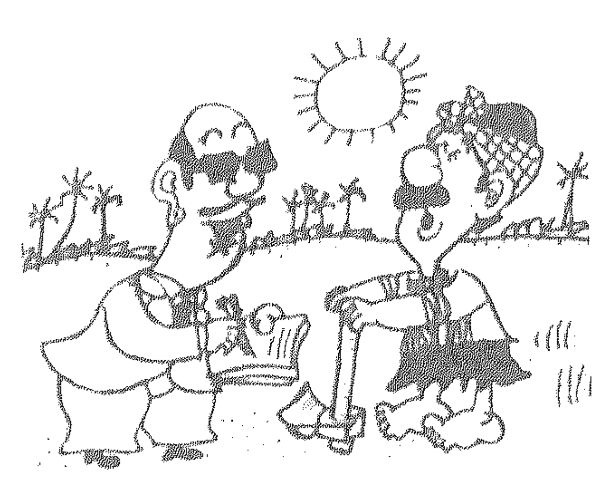


واستخدام كل إمكانياته فى رسوم نضحت بالمصرية والأصالة .

مدرسة صباح الخير

كانت دار روزاليوسف تتميزبأنها دار أقامتها ممثلة المسرح الأولى السيدة روزاليوسف ولهذا دلالة سواء لأنها امرأة تصدت مبكرا لاقتحام مجال الصحافة، ولأنها فنانة فى نفس الوقت لها جموح وطموح الفنان. تربى احسان عبدالقدوس فى أحضانها كأم ، وكصاحبة دار نشر، وكان له فضل فى إعطاء الموهوب حقا أحمد بهاء الدين رئاسة تحرير صباح الخير وهو شاب طموح واعد وحالم بالتغيير. رافق حسن فؤاد الموهوب الآخر والحالم أيضا رحلة قيادة سفينة تخلق مجلة تعتمد أساسا على شباب موهوبين فى بداية أعمارهم يملكون الحماس، والحماس والحلم . كانت الثورة قد ولدت ، وولد معها الطموح فى خلق وإظهار معدن مصرى أصيل . واجتمع فريق يحضرنى الآن ومن الذاكرة – ما قد ينسينى أسماء البعض لكن ضعف الذاكرة سيكون سبب التقصير ، لا سوء القصد – أسماء فريق الرسامين صلاح جاهين ، جمال كامل، هبة عنايت ، جورج البهجورى، ايهاب شاكر ، ناجى شاكر ، ممدوح عمار، الليثى ، وحجازى صاحبنا فى هذه المقالة . ومن الكتاب كامل زهيرى ، فتحى غانم ، صلاح عبدالصبور، أحمد عبدالمعطى حجازى، يوسف ادريس وآخرين بالطبع ويقود السفينة بالتقاسم أحمد بهاء الدين وحسن فؤاد يعاونه أبو العينين .

بماذا تميزت تلك الجماعة؟!



افندى – لكن بتشتكوا من ايه هنا ؟
فلاح – بنشتكى منكم !

١ – إعطاء الرسام ولأول مرة وضعا يوازى المؤلف من حيث الأهمية، ومثال ذلك تلك الصفحات الملونة التى كان يتقاسمها الرسام والكاتب ، يذهبان معا إلى «المولد»، أو مجتمع الصيادين ، أو.. أو.. كل مظاهر الحياة المصرية ، ومن الواقع فقد أصبح الإنسان العادى – المصرى – ولأول مرة هو بطل الأحداث ، وفاعل يستحق التقدير . من يستطيع فعلها غير جمال كامل وممدوح عمار ، وحسن الذى مات فى ريعان الشباب.

٢ – أصبحت الواقعية ، وتقديم الثقافة الجادة حلم كل الشباب، فمن ينسى أيام لها تاريخ لبهاء الدين.

٣ – الشعر ، وتقديمه ، وهنا تذكرنى حكاية حكاها لنا صلاح جاهين يوم كتب أول رباعية، وقدمها إلى بهاء قائلا له: هذا ما فعلت ولا أعرف هل يصلح للنشر؟!

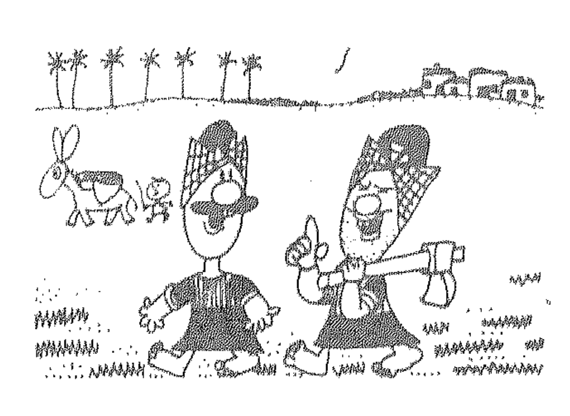
يقرأ بهاء ويعجب ، ويقول له أعطنى واحدة كل أسبوع من يرسم هذا العمل؟ رغم وجود الجوقة التى ذكرتها من الأسماء يختار بهاء النحات الشاب آدم حنين ، وكأنه يعرف مسبقا ما سيحدث ، يقرأ صلاح جاهين الرباعية ، ليرسم صموئيل حنين وقد كان اسمه كذلك آنذاك، ويبتدع ما سيصبح «اكليشيه» لكثير من فاقدى الموهبة حين يرسمون الشعر بعد ذلك وحتى الآن .

٤ – الإثارة ، وتقديم الأنوثة المحترمة – والتى لا تعتمد على صور فوتوغرافية – وكلنا يذكر غلاف صلاح جاهين ، والفتاة بالبيجامة ممسكة التليفون فى يدها، ويحضرنى الرسم الآن كأننى أراه بعينى . نموذج للفتاة المتحررة من القيود ، وغير المبتذلة فى آن واحد.

هذه لمسات قدمتها فقط لإيضاح المناخ الذى جاء إليه حجازى الأصغر فى العمر بسنوات قلائل .

من هو حجازي ؟

شاب تربى فى طنطا ، وحلم بدراسة الفن لكنه آثر أن يرحم والده سائق القطار من معاناة رأى هو دون موافقة الأسرة أن يبدأ طريقه فى العمل مبكرا . جاء إلى القاهرة مع زميل عمره «اسحق قلادة» والحالم معه بتغيير الواقع إلى الأفضل . إفترشا حجرة لا أثاث بها وحاولا العمل فى القاهرة، وواجهتهم الصعوبات الحقة. الحلم الكبير بعد قراءات تنبض بالثورة ويذكر منها حجازى دائما ميله إلى الشعر – وخاصة حفظه لأشعار بيرم التونسى ، وأذكر أن حجازى أسر لى يوما بأنه تصور بأنه



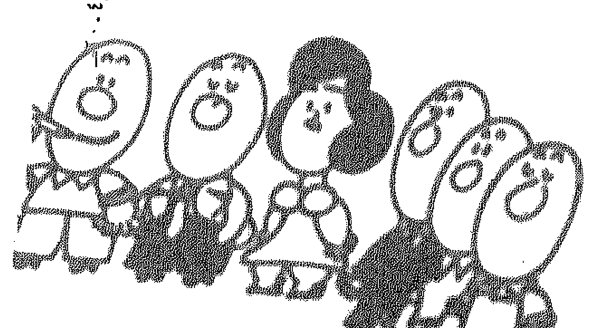
▬ بيشتغل فى مصر بالعمله الصعبه ٦ مرتبه ٢١ جنيه مصرى

▬ يا سلام ،، و لمّا الاثناشر جنيه مصرى يتحولوا للعمله الفلاّحى يطلعوا كام بريزه ؟!

سيكتب الشعر هو نفسه .

يرسم حجازى فى مجلات رسوما تعبيرية لم أرها بنفسى لكنى قرأت عنها فى الكتاب الجارما والذى لابد لنا من توجيه الشكر إلى محمد بغدادى الذى جمعها لنا وقام بكتابة تقديم للجزء الأول ، ووعدنا بأجزاء أخرى أرجو لها الصدور قريبا

صافحتنى أول رسوم لحجازى فى نهاية الخمسينات على صفحات روزاليوسف . كان جورج يتألق برسم الشخصيات ، وكان رجائى ونيس يرسم رسوما تعبيرية جريئة تتميز بالحالات النفسية المعقدة وتصاحب كتابات مصطفى محمود التقدمية آنذاك. كان



التاجر الكبير

التاجر الصغير

حجازي

«إعدام تجار المخدرات»!

جمال كامل وريشته الأنيقة تنقل لوحات من واقع حياة الناس. كان جاهين يرسم النكتة بتعليق لازع. وكان حجازى يضع خطواته الأولى ، ويتلمس طريقه بحذر وخفر، وذكاء وبساطة تصل إلى حد التلقائية. رويدا رويدا تترسخ قدماه وتنحاز فرشاته إلى فقراء هذا الوطن . هل انحازت أم هى عبرت عنه كواحد منه لم تغيره سعة الرزق أبدا، وكنت شاهدا على ذلك بعد أن تلامسنا وتزاملنا ، لكن هذا سيأتى ذكره فيما بعد .

إن أنسى لن أنسى يوم رسم حجازى أسبوعيا مع مقالات إحسان عبدالقدوس تحت عنوان «اختصر نصف طعامك ، رسم لأولاد فقراء يفترشون الأرض بجوار سلة قمامة ، أمامهم عظام سمكة لا لحم بها والتعليق «اختصر نصف طعامك» ، نقد ولا أقسى من ذلك ، يواجه ويناقض



مقالة رئيس التحرير، المتفهم والواعى والقادر على أن ينشر لرسام يحس بالفقراء إلى هذا الحد. إنه واحد منهم . وأذكر بأن رسوم نبيل تاج هى الرسوم الوحيدة التى تحضر إلى الذهن وتستطيع هى الأخرى التعاطف مع الفقراء بنفس القدر .

المرأة فى رسوم حجازى

المرأة المصرية، الأم، الأخت، تأكل المحشى، قوامها ممتلئ دائما تنز وتنضح بالأنوثة وخفة الدم . يقلده كثير من الرسامين ، تخيلت بعضهم يصل بهم الأمر إلى «شف» رسومه ، لكن لم يملك أحد فى رسومه بضاضة ، وأنوثة المرأة المصرية كما فعلها حجازى .



- يا سلام على الهدوء فى الريف .

- ياسلام على الهدوم فى البندر .

هم الانسان العادى. وبداية الإحساس مع الثورة التى حلمنا بأنها قد تحقق له أحلامه، وتتكون طبقة مستغلة. وعى سياسى مبكر وريشة حجازى تسخر ، وتلذع ، ببسوط لا يرحم ، وبوعى يصل إلى تلقائية رجل الشارع . فنان بسيط مؤمن ، لا تنازعه نفسه أبدا على مطامع وطموح الفنان ، من مجد أو ما شابه . تصوروا معى أن علاقة حجازى برسومه ظلت أبدا تنتهى فور النشر ، ولم يحتفظ بل ورفض الاحتفاظ بأصول رسومه ، حين عرضت عليه ذلك رفض رغم إيمانى بل وتمسكى بعكس موقفه مع فهمى لموقفه المتسق مع اختياره.

أذكر لكم رسمين لم ينشرا له وأثر خطبة السادات والتى تحدث فيها عن ديمقراطية بالأنياب ، وفرم أعدائه. كان رئيس التحرير آنذاك لويس جريس ، وكان للصحافة مكتب مباحثى يراجع الرسوم ويوافق على النشر أو لا يوافق .

رسم حجازى مفرمة كبيرة على قاعدة تمثال كانت موجودة بميدان التحرير - ازيلت بعد ذلك - وقال معلقا أخيرا وجدنا

تمثالا يليق بالقاعدة .

ثم رسم حجازى رجلا يعود إلى بيته ليجد امرأته وقد طبخت له «كفتة» ، ويعلق الرجل ساخرا وقائلا: إيه وليه اللى عاجبك اليومين دول فى الكفتة ، كل يوم كل يوم كفتة: رفض لويس إرسال الرسوم معترضا ، أرسلهما حجازى وعرف لويس ورحم حجازى بارسال ساع يعود بالرسوم قبل أن تصل!!

هكذا رسم حجازى كأفضل ما يكون رسام يناضل إجتماعيا وسياسيا بريشته . من الفقراء ولهم. لم تغره السلطة ولا الجاه ولا المال ولا المجد . رفض الأنوار والأضواء، وظل يرسم ويرسم ويناضل إلى أن توقف يوما عندما أحس بأن لا معنى ولا مغزى ولا عائد مما فعل . رسم الآلاف المؤلفة من الرسوم . كان يصحو مبكرا . يصل إلى روزاليوسف فى الخامسة يرسم حتى التاسعة أو العاشرة. عندما يبدأ الآخرون فى الحضور ينصرف إلى حياة يستهلك فيها نفسه وكأنه يعاقبها . يأكل ويعاقر ويشرب وكأنه يحاول الانتهاء من الحياة، رغم عشقه لها . لم يرضخ لتكوين أسرة، ولم ينجب أطفالا . كان يخاف أن يقترب منه أحد إلى الصداقة، وأسر إلىّ بذلك خوفا من اقترابى منه، ومانعا لى فى نفس الوقت .

حجازى رسام الأطفال

يبدو أن للنجاح رجالا وللفشل أيضا رجال. كما أن النجاح يحتاج إلى جهد فالفشل أيضا يحتاج إلى جهد . ولأن حجازى رجل عرف النجاح حين رسم للكبار، عرف النجاح أيضا حين رسم للأطفال . كنا فى الستينيات وكان أحمد بهاء الدين قد انتقل إلى دار الهلال يطورها ويطور مجلاتها . بدءا بالمصور وكان هو رئيس تحريرها . ثم طور الكواكب واختار لها رجاء النقاش رئيسا للتحرير ، وكذلك مجلة الهلال وأصبح كامل زهيرى رئيس تحريرها. جاء الدور على مجلة سمير ، وفى حوار دار معى فقد كنت نشطا فى محاولة تغيير ما ينشر للأطفال ، أخذت على عاتقى استقطاب كتاب أمثال فؤاد حداد، الابنودى ، سيد حجاب، سيد خميس، سمير عبدالباقى، يحيى الطاهر وزين العابدين فؤاد. قال أحمد بهاء الدين مشكلة مجلات الأطفال مشكلة رسامين ليس لدينا فى مصر رسامون للأطفال .

أجبته لما لا تجرب ما فعلته بصباح الخير، بل لديك الآن جماعة تخلقت وأصبح لها كيانها غير حالها عندما بدأتم، لما لا ندعو رسامى روزاليوسف للمساهمة بالاضافة إلى اللباد والذى كان قد ساهم فى الرسم لمجلة سندباد، ثم ساهم مع مصطفى رمزى فى انشاء مجلة كروان ، ورسم فى سمير حين حملت رسومه على يدى بعد أن ترك كروان . وفعلها أحمد بهاء الدين، دعا الجميع، وجاءوا ليزغرد قلبى، وحاول الجميع وأذكر فيهم ناجى، الليثى، ومن دار الهلال بهجت ، ثم اللباد وآخرون لا أذكر الآن أسماءهم . ورسم حجازى ليصبح الأكثر من الجميع ارتباطا، بل ونجاحا أيضا حيث قدم واحدة من أنجح ما رسم للأولاد من مسلسلات تحت اسم تنابلة الصبيان . سيناريو وفكرة مصطفى رمزى، ورسوم حجازى، ثم طورها حجازى ليكتب لها


عارفه إنها لجنة امتحان، بس ابنى
كان سهران طول الليل يذاكر، ونزل
من غير ما يفطر ولا يشرب شاى!



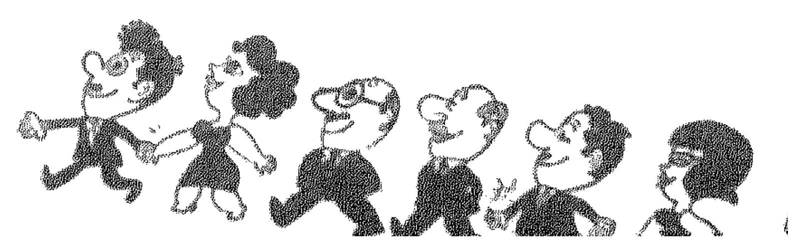
الخليج العربى
لا .. الخليج الفارسى
لا .. الخليج الأمريكى



مشكله صعبه: انسحاب إسرائيل من الأرض العربيه «المحتله».



مشكله أصعب: انسحاب أمريكا من الأرض العربيه «الغير محتله»!









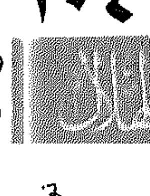
الخلافات العربية

الاحتلال الصهيوني

السيناريو أيضا ، ويحملها بكل أفكاره الاجتماعية، بل والسياسية ، ومازلت أعتبر تنابلة، الصبيان من أهم وأنجح مسلسلات الأولاد المصرية . اندمج حجازى فى الرسم للأطفال، وساهم برسومه فى دار الفتى فى فترتيها الأولى وكان المشرف الفنى والمدير اللباد ، ثم فى الفترة الثانية وكان لى شرف الاشراف والادارة . ثم قدم حجازى لمجلة «ماجد» جهدا كبيرا بل وتفرغ لها أو كاد فى السنوات الأخيرة .

كسب حجازى مالا كثيرا، بعشره دائما، لم يهو أن يغير من وضعه الاجتماعى مثلما فعل الكثيرون من حوله . رفض النجاح والنجومية وقد كان أهلا لهما ، ورأى فيما يحدث زيفا وضلالا . فنان بل وإنسان صعلوك بالمعنى الجميل للكلمة . عاش أفكاره كأنقى ما يكون الرسام الملتزم وحينما أحس بعدم الجدوى، صفى وجوده فى القاهرة . ورحل إلى طنطا ، منها جاء وإليها عاد .

إليك تحياتنا من القاهرة ، ينتابنى خاطر بأن حجازى قد لا يهتم بقراءة ماكتبته عنه ، لكننى كتبت لكم أولا وأخيرا ، بحب يستحقه منى ، بعد أن تلقيت أعمال حجازى كمتلق ، وبعد أن عاشرته كزميل أحترمه وأقدره ، وأتمنى أن تعرفوه مثلما عرفته . وأعترف بأننى أشعر فى نهاية هذا النص بأننى لم أكتب عن حجازى كما يستحق . ■



دائرة حوار

التكوين العلمى للإمبراطورية الأمريكية

مجتمعات طاردة ومجتمعات حاضنة

بقلم

د. هانى الحسينى

في العقد الثالث من القرن العشرين كانت أوروبا تبدو فى أوج مجدها برلين.. لندن باريس.. تلمع بالثروة وتزدهر بالفكر والعلم والثقافة، حتى ينظر لها كحواضر العالم بل إن مدنا أصغر مثل براج أو فيينا أو بودابست كانت تزخر بحياة ثقافية ونشاط علمى على أعلى مستوى

بعد ذلك بعشرين عاما كانت أوروبا محطمة ممزقة عواصمها العظيمة تعانى من الجوع والخراب، وجامعاتها ومعاهدها خاوية أو تكاد، بينما كان الجانب الآخر من الأطلنطى يبرق لا ببريق الثروة فحسب بل بالإنجازات العلمية الكبرى والإبداع فى جميع المجالات

بالطبع يرجع دمار أوروبا أساسا للحرب لكن لم يعد تألق الولايات المتحدة؟‹ وما سبب انتصارها فى الحرب‹ ،واستمرار هذا الانتصار لوقتنا هذا حتى تحول إلى ما يشبه سيطرة كونية هل بنيت الهيمنة الأمريكية على كفاءة رجال الأعمال والقادة العسكريين فقط ؟ وجيوش العلماء والمبدعين فى جميع الحقول تلك الجيوش التى مكنت الولايات المتحدة من فرض سيادتها العلمية والفكرية على العالم منذ بداية الستينيات، من أين أتت ؟ وكيف تكونت ؟

ربما نستطيع أن نرى أحد روافد هذا الدفق الحضارى من خلال مسيرة حياة «جون فون نيومان» ديسمبر ١٩٠٣ - فبراير ١٩٥٧) عالم الرياضيات الأمريكى المجرى الأصل، والذى يحتفل المجتمع العلمى العالمى هذه الأيام بمرور مائة عام على ميلاده .

وتثير مسيرة حياة «فون نيومان» العديد من الأفكار، حول دور العالم والتكنولوجيا (وبالذات الرياضيات!!) فى تكوين الإمبراطورية الأمريكية، وكذلك حول استقطاب الولايات المتحدة الأمريكية للكفاءات العلمية من جميع أرجاء العالم وأهمية هذا الاستقطاب فى تحقيق التفوق الأمريكى .

كما تشهد مسيرة حياته فى تصورى على بعض الظواهر التى كان لها عظيم الأثر فى تقدم الولايات المتحدة وكذلك فى مسيرة الحضارة بوجه عام، أجل مسيرة الحضارة بوجه عام. إذ لعلنا نتفق على أن بعض أهم الأختراعات والاكتشافات وأعظمها أثرا (بالنفع أو بالضرر) قد تمت فى الولايات المتحدة الأمريكية بين الأربعينات والستينات من القرن العشرين: من القنبلة الذرية الإنشطارية إلى الحاسب الإلكترونى وحتى بدء دراسة البيولوجيا الجزيئية وتركيب الدنا (DNA) .

إثنان من هذه الأعمال ساهما فيها بدور مهم .

ولد ««جون فون نيومان» فى بودابست بالمجر فى ديسمبر ١٩٠٣ لعائلة موسرة، وتلقى تعليمه الأولى فى المدينة نفسها حتى سن الثامنة عشر، حين بدأ يتنقل بين بودابست وزيوريخ : إذ كان يدرس فى الوقت نفسه الهندسة الكيميائية فى زيوريخ والرياضيات ببودابست فى عام ١٩٢٦ حصل فون نيومان على شهادة الهندسة الكيميائية من زيوريخ ودكتوراه فى الرياضيات من جامعة بودابست، فى تلك الأثناء كان فون نيومان (وهو مازال فى أوائل العشرينات من عمره) من علماء الرياضيات المعروفين، إذ نشر العديد من الأبحاث فى أسس الرياضيات ونظرية الأعداد ..

كانت بودابست آنذاك فى مرحلة تحول من العاصمة الثانية الإمبراطورية كبرى (الإمبراطورية النمساوية المجرية) إلى عاصمة دولة صغيرة نسبيا وبينما كانت مثل مدن كثيرة فى وسط أوروبا تنذخر بالموهوبين فى شتى المجالات فقد كان يخيم عليها جوكارثى عقب الحرب العالمية الأولى وتمزق الإمبراطورية أصبح الشعور الغالب لدى الشباب الموهوبين واللامعين هو ضرورة الهجرة، فقبل «فون نيومان» وظيفة بجامعة برلين والتى بقى فيها من ١٩٢٧ حتى ١٩٢٩ ثم انتقل إلى هامبورج فى العام التالى، شهدت هذه الفترة نشوء نظرية فيزيائية مهمة وهى ميكانيكا الكم التى بدأها الألمانى فيرنر هايزنبرج والنمساوى إدوين شرودنجر فى ١٩٢٥ إنشغل «فون نيومان» بوضع الأسس الرياضية لهذه النظرية الفيزيائية جاعلاً منها علما رياضيا بالأساس،وأصبحت صياغته لهذه الأسس هى الصياغة الدارجة المستخدمة إلى وقتنا هذا، وجعل هذا العمل العلمى من «فون نيومان» أحد علماء الرياضيات المرموقين فى العالم .

فى ١٩٣٠ ذهب فون نيومان إلى

الولايات المتحدة كاستاذ زائر فى جامعة برينستون لمدة عام، لكنه بقى بها حتى نهاية حياته فى ١٩٥٧ .

خلال حياته القصيرة نسبيا بحث «فون نيومان» العديد من موضوعات الرياضيات وتطبيقاتها، وكانت له بصمات فى أغلبها، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب الرياضيات المتقدمة من ذكر لإسمه لكننا نود أن نلقى الضوء فى هذا المقال لا على عبقريته العلمية الفذة،ولا على حياته الذاخرة بالنشاط والعمل ولكن فقط على مساهمته فى بناء الإمبراطورية الإمريكية

الاقتصاد الرياضي

وزع «فون نيومان» اهتماماته العلمية بين العديد من الموضوعات فى الرياضيات وتطبيقاتها، وكان أحد هذه الموضوعات هو ابتكار ودراسة النماذج الرياضية فى الإقتصاد فى عام ١٩٣٧ وضع «فون نيومان» نموذجا رياضيا للإتزان الاقتصادى، مقيما لأول مرة أسسا رياضية دقيقة للموضوع ومفضلا أن تدخل الرياضيات كأداة صياغة وتدقيق للمفاهيم بدلا من الاستخدام الشائع لها كمجرد أداة كمية أو وسيلة حساب،لقى هذا العمل اهتماما كبيرا من المشتغلين بالاقتصاد الكمى ومنهم عالم مهاجر آخر هو الاقتصادى النمساوى أوسكار مورجنستيرن والذى قدم فى بداية الأربعينات إلى جامعة برينستون حيث كان «فون نيومان» كان مورجنستيرن مهتما بدراسة قوانين المنافسة الإقتصادية، وكان على دراية باهتمام «فون نيومان» بهذا الموضوع الذى نشر فيه بحثا عام ١٩٢٨ متناولا ما يسمى بنظرية الألعاب ..

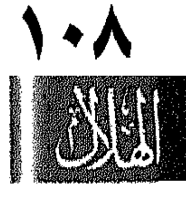
تقوم نظرية الألعاب على اعتبار أن أى مناقسة هى لعبة لها قواعد محددة كميا للمكسب والخسارة لكل من اللاعبين أو المتنافسين، وتبحث عن استرتيجية ملائمة لكل لاعب كى يقلل خسائرة لأقل حد أو يزيد مكاسبه لأكبر حد قبل دخول «فون نيومان» لهذا المجال كان علماء الرياضيات قد نجحوا فى دراسة الألعاب التى لها طرفان فقط وتكون بلا فائض أى أن كل ما يخسره طرف يكسبه الطرف الآخر فى ١٩٢٨ درس «فون نيومان» الألعاب التى لها ثلاثة أطراف، هنا ظهرت أهمية خلفية «فون نيومان» فى أسس الرياضيات التى مكنته من وضع صياغة دقيقة للموضوع حولته من مجموعة من الطرق المتناثرة إلى نظرية متكاملة .

استكمل مورجنستيرن مع «فون نيومان» هذه الدراسة فى كتابهما: نظرية الألعاب والسلوك .

الاقتصادى الذى نشر عام ١٩٤٤ يعتبر هذا الكتاب أحد الروافد الأساسية لما يسمى اليوم «بحوث العمليات» وهو فرع الرياضيات الذى يلعب دورا أساسيا فى علوم الاقتصاد والإدارة والذى مازالت الولايات المتحدة تحتل فيه موقع الصدارة، ويكفى أن نعلم أن الأمريكيين غنموا نصيب الأسد من جوائز نوبل فى الاقتصاد والتى غالبا ما منحت لعلماء الاقتصاد الرياضى أو القياسى .

مشروع مانهاتن

شارك «فون نيومان» فى مشروع مانهاتن، وهو المشروع الذى أنتج أول سلاح ذرى فى التاريخ. بدأ التفكير فى



السلاح الذرى مع بداية الحرب العالمية الثانية بمبادرة من مجموعة من العلماء على رأسهم الفيزيائى أوبنهايمر مستخدمين النفوذ المعنوى ل «البرت أنيشتين» فى إقناع القيادة الأمريكية لتوفير الدعم لهذا المشروع، بعد دخول الولايات المتحدة الحرب فى ١٩٤٢ أدركت الإدارة الأمريكية أهمية الفكرة واقتنعت بأهميتها فى كسب الحرب، فبدأت مشروعا عملاقا يهدف لصنع سلاح ذرى هو «مشروع مانهاتن» بدأ المشروع يأخذ شكلا واقعيا فى أواخر ١٩٤٣ بانشاء «معمل لوس الأموس الوطنى» فى صحراء نيومكسيكو ليجمع بضع عشرات من علماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات يعملون أساسا فى دراسة الإمكانيات العسكرية للتفاعلات النووية، ثم نجح فى انتاج أول قنبلة ذرية انشطارية فى أواخر عام ١٩٤٤ .

كان مشروع مانهاتن مشروعا عملاقاً بمعنى الكلمة، ولنر ما كتبه عنه عالم الرياضيات البولندى الأصل «ستانيسلاف أولام» دارت رؤوس العديد من الفيزيائيين - الذى كانوا بطبيعتهم من أصحاب الأبراج العاجية - لإدراكهم المفاجئ للأهمية العملية وأيضا العالمية والتاريخية لعملهم بهذا المشروع وأثر فيهم أيضا ضخامة الموارد المالية والمنشآت المعملية التى فاقت كل خبراتهم السابقة، ثم يصف الجو السائد فى المشروع وشعوره نحوه كانت لوس ألاموس مكانا شابا ففى سن الثالثة والثلاثين كنت واحدا من الكبار سنا، وما أثر فى بالذات كانت الكفاءة العالية للشباب وتنوع تخصصاتهم، كان الوضع يشبه أن تجد نفسك أمام دائرة معارف، أغلب الشباب كانوا ذوى تكوين يغلب عليه العمق دون الاتساع بينما يمتلك الأكبر سنا - وأغلبهم أوروبى النشأة ٠ معرفة أوسع نطاقا.. كما أثرت فى الموهبة الأمريكية المعروفة فى التعاون وروح الفريق المتميزين (فون نيومان، بور فيرمى، فينمان أوبنهايمر تيللر سيجرى ...) غير عادية، فلم يحدث أن شهد تاريخ العلم مثل هذا التركز».

كان «فون نيومان» من أوائل من أختيروا للعمل بمشروع مانهاتن، أهلته لذلك اهتماماته بالفيزياء وبالطرق الحسابية، وربما أيضا موقفه المساند لدور العلماء فى المجهود الحربى فأفاد المشروع بتذليل العديد من العقبات فى فهم التفاعلات النووية بين عدد كبير من الجسيمات وطور طرقا حسابية جديدة لهذه المسائل ، كان من بين العلماء المشاركين العديد من العلماء المهاجرين من أوروبا هانس بيته الألمانى وستانيسلاف أولام البولندى و«إدوارد تيللر المجرى إنريكو فيرمى و«أميليو سيجرى الإيطاليان، ونيلس بور الدانمركى.

ربما نشعر الآن بعدم ارتياح تجاه الأسلحة النووية وكذلك تجاه الاستخدامات العسكرية للعلم بوجه عام، لكن يبدو أن هذه المشاعر لم تكن سائدة فى ذلك الحين، فقد شارك العديد من كبار العلماء فى مشاريع عسكرية فى دولهم والقليل منهم أبدى فيها بعد ما



يدل على تأنيب الضمير في العديد من الحالات يمكن تفسير هذه المشاركة بالحماسة الوطنية وقت الحرب، لكن كيف يسرى هذا التفسير على العلماء المهاجرين من أوروبا للولايات المتحدة الأمريكية؟ كان العديد من هؤلاء العلماء - ربما أغلبهم - من اليهود الذين هاجروا هربا من الاضطهاد النازى موقف هؤلاء مفهوم نوعا، لكن «فون نيومان» رغم انحداره من عائلة يهودية لم يبد تدينا ولا ارتباطا خاصا بيهوديته بل إنه قد عمد مسيحيا عند زواجه، كما أنه كما رأينا قد هاجر أساسا لتحسين وضعه المهنى وقبل الحكم النازى أعتقد أن أحد دوافع هذه المشاركة الواسعة للعلماء في المجهود الحربى كان البحث عن دور أكبر للعلم في المجتمع، وهو دور كان هامشيا لحد ما قبل بدء الثورة التكنولوجية جاءت الحرب إذن لتعطى لهؤلاء العلماء الأفذاذ المهمشين فرصة لأداء دور أساسى يقدره المجتمع، ولاشك فى أنهم قد استغلوا الفرصة فأصبح للبرامج العلمية منذ ذلك الحين أهمية سياسية واجتماعية كبرى في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتابعت المشاريع العملاقة على نمط مشروع مانهاتن، فأنشئت لجنة الطاقة الذرية ثم وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) ثم مشروع حرب الكواكب حتى مشروع الجينوم البشرى .

يلفت النظر أيضا تعامل القيادة السياسية الأمريكية مع العلماء المهاجرين، إذ لم تشكك في ولائهم ودوافعهم وإنما حرصت على توظيفهم والاستفادة من قدراتهم فحققت بذلك تفوقا حاسما على أعدائها الألمان واليابانيين

الحاسب الإلكترونى

كان «فون نيومان» ذو قدرة حسابية يضرب بها المثل وذاكرة تفوق الخيال، فيحكى مثلا أنه كان في صغره يحفظ صفحات كاملة من دليل التليفونات بمجرد قراءتها ويسلى زوار أبيه بالإجابة عن أسئلة عن الدليل لكن عمل «فون نيومان» في مشروع مانهاتن أثار اهتمامه بمشكلة صعوبة الحسابات العددية، فأصبح من أشد المتحمسين لصنع حاسب الكترونى .

وضع «فون نيومان» عقليته الرياضية في خدمة هذاالمشروع فبدأ باقتراح أن تخزن خطوات برامج الحساب داخل ذاكرة الحاسب أو على وسيط متصل بها (كالقرص الصلب حاليا) ووضع التصميم المنطقى للحاسب الإلكترونى، كان نتاج هذه المشاركة صناعة أول حاسب إلكترونى في التاريخ عام ١٩٤٧، فلعلنا لا نبالغ أن الحاسب الإلكترونى (عماد التفوق الإمريكى في العصر الحالى) هو نتاج أفكار «فون نيومان» والتقدم في تكنولوجيا التصغير .

الخلاصة

يتضح لنامن هذا العرض السريع لبعض المنجزات العلمية ل «جون فون نيومان» أن الولايات المتحدة الأمريكية قد استقبلت منذ ثلاثينات القرن العشرين أفذاذ العلماء من القارة الأوروبية العجوز فوفرت لهم الظروف الملائمة للانطلاق وحرية البحث العلمى والتمويل الذى لم يسبق له مثيل، وأعطوها في المقابل مجدا علميا وتفوقا تكنولوجيا مطلقا، والأكيد أن الأمور مازالت تسير في هذا الاتجاه كما تشهد قصة «أحمد زويل». ■



نون الوقاية

لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

يقول أمير الشعراء :

مر من بعدك ما روعنى
أترى ياحلو بعدى روعك؟

ورد الفعل روع فى هذا البيت مرتين. فى الأولى لحقته نون زائدة، ولم تلحقه فى الثانية .

هذه النون هى التى يطلق عليها النحاة: «نون الوقاية» ، وهى تلحق الفعل عندما تتصل به ياء المتكلم، لأن هذه الياء تقتضتى ايقاعا كسر ما قبلها. فإذا كان ما قبلها متحركا بضمة أو فتحة لزم تغييرهما الى الكسر، تقول : معى قلم ثمين، فاذا أضفت القلم الى ياء المتكلم قلت : قلمي ثمين، فحلت الكسرة محل الضم فى قلم لكى تناسب الياء .

وتقول : أهديت صديقى كتابا، فإذا أضفت كتاب الى ياء المتكلم قلت : أهديت صديقى كتابى، فتحولت حركة الفتح الى الكسر لتناسب الياء. وكلتا الكلمتين، القلم والكتاب، اسم . ولذلك قبلتا الكسر عند اضافتهما الى ياء المتكلم، لأن الجر من خصائص الأسماء .

ولكن الفعل لا يجر، ومن ثم يستحيل أن تتصل به ياء المتكلم مباشرة، لأنها تقتضى كسر ما قبلها، والفعل لا يقبل الكسر، ومن هنا تخلصنا (عضويا فى البدء على التأكيد) من هذا الموقف ، بوضع نون بين الفعل وياء المتكلم، فتكسر النون بدلا من الفعل الذى لا يقبل الكسر، وسماها النحاة، «نون الوقاية» ، لأنها وقف الفعل من الكسر الذى لا يقبله.

أما الحروف فيختلف موقفها اذا اتصلت بياء المتكلم :

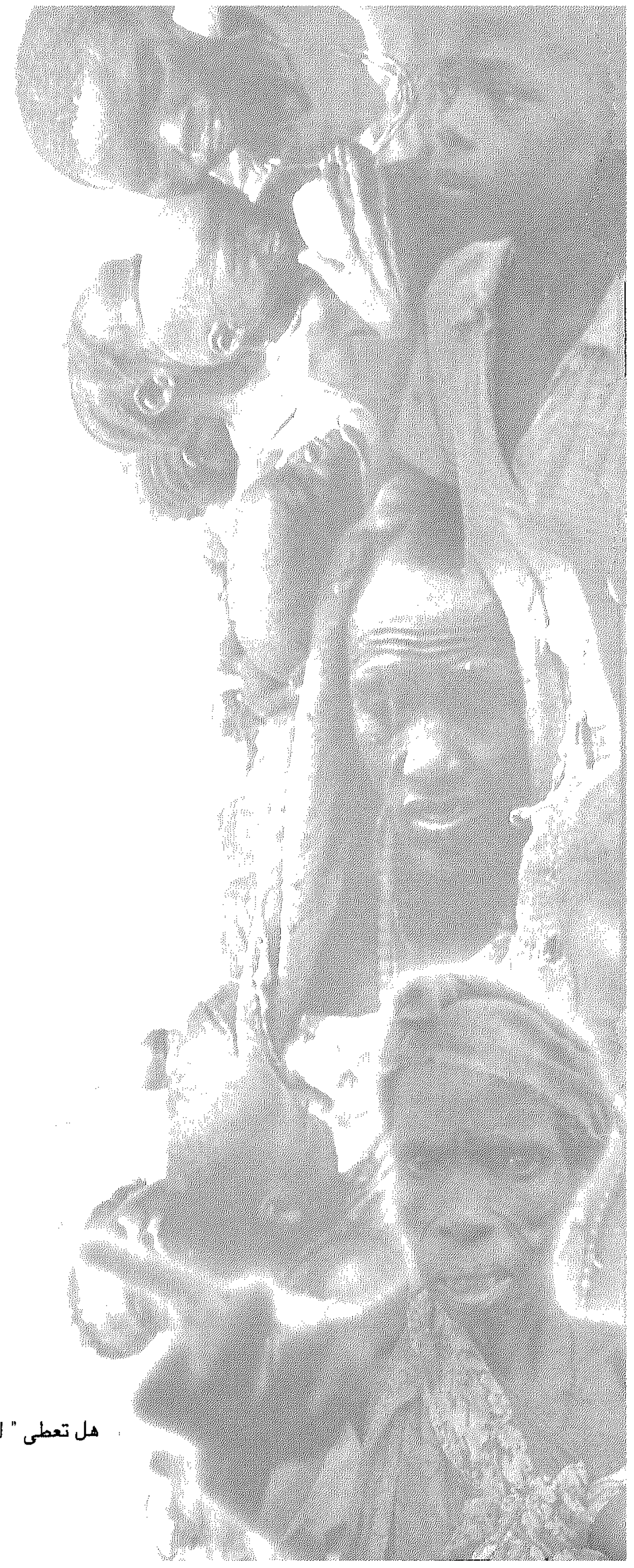
قسم لا يقبل النون اطلاقا وهو الباء واللام، تقول : بى شوق الى السفر، ولى مئة كتاب .

وقسم يتحتم وجودها معه، وهو : من وعن : تقول : منى وعنى .

وقسم يجوز فيه الأمران وهو : إن ، وكأن ، ولكن ، ولعل ، وليت تقول : انى وإننى، وكأنى وكأننى، ولكنى ولكننى، ولعلى ولعلنى، وليتى وليتنى».

فإذا سبق ياء المتكلم ألف أو سكون تحتم فتحها مثل : مناى – مبتغاى – الى – علىّ – بنُىَّ .

■



تـأثيرات العـولمة على التمتـع بحقـوق الإنســان

بقلم
د.منيـرزهـران

هل تعطى " العولمة " الفقراء الحق فى الحياة؟

إزاء ما أثارته العولمة من ضجة فى مختلف الأوساط السياسية والاقتصادية والاعلامية حول منافع ومساوىء العولمة، ومنها «الذى جمع مالا وعدده»، وما تمخض عنها من مغارم ومن تحمل عبئها: فقد ساد اتجاه فى المحافل الدولية على اعطاء الأمم المتحدة - باعتبارها أكثر المحافل ديموقراطية وتمثيلاً - الدور المحورى فى اعادة صياغة أسس العولة حتى تكون أكثر إنصافاً، كى تمتد مكاسبها لتعم الجميع، بحيث تصل إلى كافة الشعوب، وأن تشمل جميع القطاعات داخل كل بلد، وإزالة الغبن وتعويض الخسائر التى تحتملها الأطراف الأضعف والأكثر فقدا على حساب مدى تمتعها بحقوق الإنسان الفردية والجماعية.

وإذا كانت العولمة إحدى مظاهر التطور التاريخى والتكنولوچى، خاصة فى مجالات تكنولوچيا النقل والاتصالات والمعلومات، لما لها من آثار بعيدة المدى فى مختلف الميادين، التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فإن تنامى روابط الاعتماد المتبادل على المستوى الدولى بين مختلف الأطراف الفاعلة أدت إلى انعكاسات إيجابية وسلبية على مئات الملايين من البشر.

لهذا فإن من حق جميع الشعوب أن تشارك - من خلال حكوماتها وممثليها - فى عملية اتخاذ القرار إزاء أى ترتيبات لوضع قواعد جديدة للعولمة أو تعديل القائم منها لتنظيم وإدارة العمليات ذات الأثر العالمى - أى ذات الأثر العابر للحدود والقارات - أى العولمة وذلك وفقاً لمبدأ تقاسم المسئولية على المستوى الدولى.

العولمة وحقوق الإنسان

وللتأكد من تصحيح المسار بعد أن أدرك المجتمع الدولى أن للعولمة تحديات أثرت بدرجات متفاوتة على قطاعات عريضة من المجتمعات - وبصفة خاصة القطاعات الأكثر فقراً بمن فيهم محدودى الدخل من الرجال والنساء والأطفال والمسنين ومدى تمتعهم بحقوق الإنسان، فقد اتفقت على عدة قرارات من الجمعية العامة للأمم المتحدة وخاصة القرارات ١٦٥/٥٦ و٢٠٥/٥٧ الصادران فى ١٩ ديسمبر ٢٠٠١ و١٨ ديسمبر ٢٠٠٢ على التوالى، وقرار لجنة حقوق الإنسان رقم ٢٣/٢٠٠٣ الصادر فى ٢٢ ابريل ٢٠٠٣، على ... أن العولمة ليست مجرد عملية اقتصادية، بل لها

أيضاً أبعاداً اجتماعية وسياسية وبيئية وثقافية وقانونية تؤثر فى التمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان.

وتقاس انعكاسات العولمة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مختلف البلدان بمدى انفتاح اقتصادها، ومن تلك الانعكاسات مايؤثر على حقوق الإنسان سواء الفردية أو الجماعية. لذلك أعربت الجمعية العامة للأمم المتحدة عن قلقها ازاء الأثر السلبى للاضطربات المالية الدولية على التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وعلى التمتع بجميع حقوق الإنسان، وعبرت عن القلق من تأثير العولمة على اتساع الفجوة فيما بين البلدان المتقدمة والنامية، وفى داخل كل بلد، الأمر الذى ساهم فى تزايد حدة الفقر، وأثر تأثيراً سلبياً على التمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان، الفردية والجماعية ومنها الحق فى التنمية.

وهكذا جاء تأكيد الجمعية العامة للأمم المتحدة، ولجنة حقوق الإنسان، وهى إحدى اللجان الرئيسية المنبثقة عن المجلس الاقتصادى والاجتماعى، على الالتزام بتهيئة بيئة مواتية على الصعيدين الوطنى والدولى، تساعد على إعمال الحق فى التنمية والقضاء على الفقر بشتى الوسائل، ومنها الحكم الرشيد داخل كل بلد وعلى الصعيد الدولى، والشفافية فى النظم المالية والنقدية والتجارية ، والالتزام بنظام تجارى ومالى متعدد الأطراف يكون مفتوحاً وعادلاً وقائماً على قواعد يمكن التنبؤ بها، وأن تكون إدارته منصفة وغير تمييزية ، كما نبهت القرارات المشار إليها إلى تأثير التحول الهيكلى المصاحب لعملية العولمة على التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، أى حقوق الإنسان الفردية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما فى ذلك الحق فى التنمية أى حقوق الإنسان الجماعية

كيفية إعمال الحق في التنمية في ظل العولمة

وكان من المفترض - من الناحية الاكاديمية، ووفقاً لأنصار العولمة والتحرير بوضعهما القائم، أن تصبح العولمة قوة دافعة تعمل لصالح جميع البلدان بحيث تعم فوائده جميع سكان المعمورة، إلا أنه من ناحية الواقع العملى فإن مكاسب العولمة ومغارمها ليست موزعة توزيعا عادلاً أو متساوياً، مع ماتعانيه الدول النامية من صعوبات وما تواجهه من تحديات تتفاوت فى حدتها ونسبتها وفقا لمستوى النمو الاقتصادى والاجتماعى فى تلك الدول، وهذا ما اعترفت به المؤتمرات العالمية المختلفة التى عقدت فى السنوات الأخيرة ومنها مؤتمر قمة الألفية للأمم المتحدة الذى عقد فى سبتمبر ٢٠٠٠، وما أشار إليه سكرتير عام الأمم المتحدة فى تقريره الأخير المعروض على الدورة الثامنة والخمسين للجمعية العامة (المستند ٣٢٣ الصادر فى ٢ سبتمبر ٢٠٠٣) والمعنون



«تنفيذ أهداف قمة الألفية» والذى دعا فيه إلى ضرورة أن تعم فوائد العولمة الجميع، (يراجع مقالنا فى عدد نوفمبر ٢٠٠٣ لمجلة الهلال).

لذلك كان هناك اتفاق فى المحافل الدولية والمؤتمرات العالمية التى عقدت منذ التسعينات على الحاجة إلى اعتماد سياسات وتدابير على الصعيد الدولى للوفاء باحتياجات الدول النامية، بحيث يتم صياغة تلك السياسات وتطبيق تلك التدابير بمشاركتها الكاملة حتى تتأكد مختلف الدول من أن تلك السياسات والتدابير سوف تعمل لصالحها وأن شعوبها لن تدفع ثمنا لها لايتفق مع ماتجنيه من فوائدها.

كما اتفق المجتمع الدولى من خلال المؤتمرات العالمية على الالتزام باقامة نظم مالية ونقدية وتجارية دولية تتسم بالعدالة والشفافية والديموقراطية وعدم التميز، وتتمتع بالمصداقية بحيث تعمل لصالح الجميع بما فى ذلك الدول النامية، إلا أن تلك الأهداف لم يتحقق منها إلا النذر القليل.

والمشكلة المحورية هى أن الدول المتقدمة تنتهج فى تعاملها مع العولمة نهجاً تمييزيا يستند إلى ازدواجية المعايير، فغايتها هو تحقيق أكبر المكاسب مهما تحمل شركائها من الأطراف الأضعف من مغارم، ومع ذلك تحاول اقناع هؤلاء بأن قواعد العولمة فى صالحها ومثلهم فى ذلك كالشعراء الذين .. «يقولون مالا يفعلون»، وقد قال الله تعالى فى سورة الكهف «كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» صدق الله العظيم. فهم يدعون إلى انتهاج سياسات تتسم بالمغالاة فى التحرير وازالة القيود باعتبارها علاجا لجميع مشاكل دول العالم، الكبير منها والصغير، القوى والضعيف، ضمن نظرية الليبرالية الحديثة، بينما تقوم الدول المتقدمة بضمان الحماية والدعم للقطاعات غير القادرة على المنافسة فيها مثل الزراعة وصناعة الصلب، وتضع القيود أمام الصادرات الرئيسية لغالبية البلدان النامية، ومنها خاصة المنتجات الزراعية والمنسوجات والمصنوعات القائمة على كثافة اليد العاملة، وتفرض القيود على انسياب التكنولوچيا المتقدمة لخدمة التنمية فى دول الجنوب وتثقل كاهلها بمشروطيات يصعب تحملها ضمن برامج الاصلاح الاقتصادى وماتقدمه من قروض واستثمارات وتخفيف عبء الديون.

كما ترفض الدول المتقدمة تطبيق نظرية الليبرالية الحديثة إزاء حركة الأشخاص الطبيعيين عبر الحدود لصالح انتقال اليد العاملة بحثاً عن فرص العمل على غرار ماتفرضه الدول المتقدمة من حرية انتقال رؤوس الأموال. ولم تحدث زيادة فى عدد الدوائر الاقتصادية الفاعلة مثل الشركات والبنوك على المستويين الداخلى والدولى، بل العكس كان صحيحا فقد ازداد تركيز الملكية عن طريق التحالفات بين الشركات والدمج



والحيازة عن طريق الشركة عبر القومية التابعة للدول المتقدمة، والتى يكون نصيب صغار المساهمين فيها - وخاصة من مواطنى الدول النامية - ضئيلاً، ويغلب على الأمر أن هؤلاء ينعنون فى نهاية المطاف ويتعرضون للغبن ازاء المنافسة - غير المتكافئة - التى تمارسها الشركات الكبرى التى تتمتع بتفوق تكنولوجى مع تعاظم نفوذها الاقتصادى.

وقد نجم عن عملية العولمة الليبرالية تقلص فى دور الدولة وفى قدرتها الاقتصادية والمالية على ترجمة «الحق فى التنمية» على أرض الواقع، وتوفير الخدمات العامة فى مجالات التعليم والصحة والضمان الاجتماعى، وهكذا تجرى خصخصة تلك الخدمات وتسويقها تجارياً، وهو ما أدى إلى عدم المساواة فى التمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى العديد من الدول النامية.

وتحت غطاء معاملة المثل وشعار المساواة فى المنافسة رغم فوارق الثروة والكفاية - أى المساواة فيما بين غير المتساوين التى تدعو لها العولمة الليبرالية الحديثة ضمن النظام الاقتصادى الدولى القائم - يجرى تعميق عدم المساواة بين الغنى والفقير وبين الكبير والصغير ومن هنا يجرى إخضاع الدول النامية لهيمنة الدول المتقدمة وسيطرة شركاتها عبر القومية. وهكذا يصبح الحق فى التنمية بعيد المنال، خاصة من تنصيل الدول المتقدمة من التزاماتها ازاء الدول النامية، وتناقص حجم المساعدات الرسمية للتنمية إلى الثلث أو أقل وابتعادها كثيراً عن هدف تخصيص ٠,٧٪ من الناتج القومى الاجمالى للدول المتقدمة كمساعدات وادعائها تطبيق نظرية التجارة الحرة خير بديل عن المساعدات» .. «TRADE NOT AID»

التدابير القسرية الانفرادية وانعكاساتها على التمتع بحقوق الانسان.

تتخذ بعض الدول المتقدمة - مثل الولايات المتحدة - تدابير اقتصادية قسرية انفرادية كعقوبات تفرضها ضد دول بعينها مثل حالات كوبا وإيران وليبيا وسوريا والسودان، والعراق قبل غزوها فى مارس ٢٠٠٣. وتتجاوز آثار تلك التدابير حدود الدولة الاقليمية (التى تتخذ تلك التدابير) لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية. وتعتبر تلك التدابير انتهاكاً لأحكام ميثاق الأمم المتحدة، وخاصة المادة الثانية التى تنص - ضمن أحكام أخرى - على المساواة فيما بين الدول وعدم التمييز، كما تتعارض تلك التدابير على إعلان مبادىء القانون الدولى المتعلق بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول والصادر بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٦٢٥ (د - ٢٥) بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٧٠ الذى لايجيز لأى دولة أن تتخذ أو تستخدم التدابير الاقتصادية أو

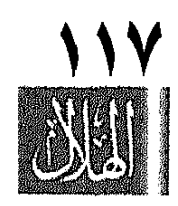
السياسية لإكراه دولة أخرى على التنازل عن ممارسة حقوقها السيادية والحصول على مزايا من أى نوع. وتتعارض تلك التدابير القسرية الاقتصادية مع ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول الصادر عن الجمعية العامة بالقرار ٣٢٨١ (د. ٢٩) بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٧٤ ، الذى نص فى مادته ٣٢ على أنه ليس لأى دولة أن تستخدم أو تشجع على استخدام تدابير اقتصادية أو سياسية من أى نوع للضغط على دولة أخرى بقصد اجبارها على التبعية لها فى ممارسة حقوقها السيادية.

ويلزم التذكير بأن التدابير الانفرادية القسرية المشار إليها تؤثر سلباً على التمتع بحقوق الإنسان الفردية والجماعية ومنها خاصة الحق فى التنمية، كما تنعكس سلبياً على العلاقات الدولية والتجارة والاستثمار والتعاون الدولى.

ورغم القرارات العديدة الصادرة من الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ولجنة حقوق الإنسان برفض بل وإدانة تلك الممارسات ، فلا زالت بعض الدول المتقدمة تمارس تلك التدابير القسرية الأحادية رغم ماتنطوى عليه من عقبات أمام التمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان وانعكاساتها السلبية على النشاط الاقتصادى والاجتماعى على المستوى الوطنى بالنسبة للدولة المستهدفة باعاقة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، حيث تلتزم الشركات عبر القومية بمراعاة تلك التدابير فى تعاملاتها مع مختلف الدول الأمر الذى يعتبر عقبة إضافية أمام تنفيذ إعلان الحق فى التنمية ناهيك عن انتهاك الاعلان العالمى لحقوق الإنسان والعهدين الدوليين للحقوق المدنية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لذلك أدانت لجنة حقوق الإنسان من جديد - فى قرارها رقم ٢٠٠٣/١٧ الصادر بتاريخ ٢٤ إبريل ٢٠٠٣، «مواصلة تنفيذ بعض الدول تدابير من جانب واحد واستخدامها كأدوات للضغط سياسياً أو اقتصادياً على أى بلد ، ولا سيما البلدان النامية، يصعب منع تلك البلدان من ممارسة حقها فى أن تقرر - بمحض إرادتها - نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولما للتدابير القسرية المتخذة من جانب واحد من آثار سلبية على أعمال جميع حقوق الإنسان لشرائح عريضة من سكانها، بمن فيهم الأطفال والنساء والمسنون والمعوقون والمرضى

ومع ذلك فقد اعتمد الكونجرس الأمريكى فى أكتوبر ٢٠٠٣ قانوناً بفرض عقوبات وتدابير قسرية ضد سوريا - تحت ذرائع مختلفة نفتها سوريا . مثل هذه التدابير القسرية الانفرادية تعتبر إحدى مظاهر العولمة باقحام توجهات السياسة الوطنية لبعض الدول المتقدمة وفرضها على الدول الأخرى.



مواجهة تحديات العولمة وحماية حقوق الإنسان

ولمواجهة تحديات العولمة يلزم تضافر الجهود على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية، والتضامن والتنسيق فيما بين الدول النامية للحيلولة دون فرض قواعد جديدة للعولمة من خلال التفاوض حول أية ترتيبات أو اتفاقيات دولية جديدة ذات صبغة عالمية، ويلزم التركيز على إنها، تهميش الدول النامية في النظام الاقتصادي والتجارى الدولي وادماجها بالكامل في ذلك النظام بتنفيذ الأحكام التي توفر معاملة خاصة ومغايرة لصالح الدول النامية ، وتعديل القواعد والأحكام التي تتضمنتها الاتفاقيات الدولية التي تسببت في اجحاف وأضرار لمصالح الدول النامية والتي أدت إلى تفاقم الفقر واتساع الفجوة فيما بين الدول المتقدمة والدول الفقيرة وتدهور حقوق الإنسان.

كما يلزم العمل الجماعى - من خلال المحافل الدولية المعنية، وخاصة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والمنظمة العالمية للتجارة ، لإدارة العولمة على نحو ديموقراطي . ويأتي في هذا الاطار إصلاح النظام المالي الدولي على نحو يؤدي إلى استقرار أسعار الصرف، ووضع حد للتقلبات التي تسببت في أضرار وخيمة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الدول النامية، ونشير بصفة خاصة للأزمات المالية التي تعرضت لها أندونيسيا والاكوادور ثم الأرجنتين وغيرها في التسعينات وبداية القرن الحادي والعشرين والتي أدت إلى تخفيض قيمة عملات تلك الدول وزيادة مديونيتها الدولية . فإصلاح النظام المالي الدولي يعتبر ضرورة طالما نادت بها الدول النامية وصمت إزاؤها الدول المتقدمة الآذان، هذا الاصلاح ضروري لاجتذاب تدفقات مالية تبث الاستقرار في اقتصاد الدول النامية وتحد من مخاطر هروب رؤوس الأموال في ظل تحرير حسابات رأس المال الذي فرضته مؤسستي بريتون وودز على العديد من الدول النامية ضمن خطط الاصلاح الاقتصادي.

كما يلزم أن تلتزم الدول المتقدمة - قولاً وعملاً - بالهدف المتفق عليه دولياً من تخصيص ٠,٧٪ من الناتج القومي الاجمالي كمساعدات رسمية للتنمية بعد أن انخفضت تلك المساعدات إلي أقل من ٥٠ مليار دولار بدلاً من ١٧٠ مليار دولار . هذا اضافة إلى تشجيع الاستثمار الأجنبي طويل الأجل بهدف زيادة الانتاج من أجل التصدير، حتى يمكن تحقيق الأهداف التنموية التي نصت عليه قمة الألفية للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ . فإذا لم يتوفر التمويل اللازم لبلوغ تلك الأهداف في الاطار الزمني الذي حددته القمة، أي عام ٢٠١٥، فسوف تتحول تلك الأهداف إلى سراب، ويتفاقم وضع الفقر في العالم ، ويتأثر سلباً التمتع بحقوق الإنسان الفردية والجماعية ومنها الحق في التنمية.

وبالنسبة للنظام التجاري الدولي،

يلزم أن تسوده الديموقراطية فى اتخاذ القرار ، وتكف الدول المتقدمة عن فرض أجندتها على الدول النامية والتى تشكل مايزيد عن ثلثى الدول الأعضاء فى المنظمة العالمية للتجارة ، ولابد من مراعاة الأچندة التنموية للدول النامية فى النظام التجارى الدولى من خلال التنفيذ الكامل والأمين لجميع اتفاقيات وقرارات جولة أوروجواى. وتفعيل المعاملة الخاصة والمغايرة لصالح الدول النامية ، والغاء الدول المتقدمة للدعم وجميع الاجراءات الحمائية التى تعوق نفاذ منتجات الدول النامية للأسواق الدولية، وتعزيز القواعد التجارية المنصفة للدول النامية، ومنحها صوتاً أكثر فعالية فى اتخاذ القرارات المصيرية.

وفيما يتعلق بمكافحة الفساد وضمان الحكم الرشيد فلابد أن ينطبق ذلك على جميع الدول متقدمة ونامية، كما يجب أن ينطبق على المستوى الدولى. فللفساد طرفان، ولا يمكن قبول اتهام مسئول فى دولة نامية بالفساد بغض النظر عن من ساهم فى هذا الفساد من الدول المتقدمة سواء كان مسئولا فى الحكومة أو من الشركات عبر القومية .

ويعتبر ارساء دعائم الديموقراطية والحريات الأساسية من بين دعائم احترام حقوق الإنسان وخاصة الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وخاصة الحق فى التنمية ، وهو الأمر الذى لاينطبق فقط على المستوى الوطنى فى جميع الدول ومنها الدول النامية وإنما ينطبق أيضاً على المستوى الدولى. فالديموقراطية حق ومبدأ لايقبلان التجزئة، فلابد من سيادة الديموقراطية على المستوى الدولى بحيث تنطبق على جميع المنظمات الدولية وأجهزتها بما فى ذلك مجلس الأمة ومؤسستى بريتون وودز المنظمة العالمية للتجارة. ■

كلمات عاشت

● ليس صحيحا أن هناك مستعمرين صالحين وآخرين أشرارا، هناك مستعمرون وحسب

سارتر

● أستطيع إرضاء جميع الناس، إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

معاوية بن سفيان

● الفنان ليس مصلحا، ولكنه صانع المصلح

توفيق الحكيم

● الإنسان الذى يمسه الحب يرى فى الظلام

مثل مكسيكي



الكثبان الرملية علي سطح المريخ تماماً كما في صحراواتنا

من يسكن الكوكب الأحمر ؟

علماء الجيولوجيا يبحثون عن الحياة على المريخ عبر دروب الصحراء الغربية

أمانى عبد الحميد

الأكثر قحولة وجدباً والأشد جفافاً على مستوى العالم أجمعه .. قال عنها الدكتور جمال حمدان إنها البيداء أكثر مما هى البادية .. إنها الصحراء الغربية أكثر صحاري العالم عزلة ووحشة . إلا أنها خلال العشرين عاما الماضية كانت محط أنظار علماء الجيولوجيا والفضاء . والغريب أنها بتضاريسها وهضابها وكثبانها الرملية لم تكن هى المحور الأساسى للاهتمام العلمى المتزايد . بل كان موجها لأهداف مختلفة تماما . لا تخطر على بال أحد . نابع من اعتقاد بأن هناك تشابها بين صحرائنا الغربية وسطح كوكب المريخ . وبعد اجراء الدراسات تحول الاعتقاد إلى حقيقة علمية مؤكدة !!



سطح الكوكب الاحمر من الفضاء

المريخ والصحراء الغربية

في محاولة لفهم غموض كوكب المريخ ، الذى كان اليونانيون والرومان القدماء يقدسونه . ويعتبرونه إله الحرب نظراً لأن لونه الأحمر فى السماء جعل لونه قريبا من لون الدم لذا أطلقوا عليه اسم (مارس) .

سألنا الدكتور مسلم شلتوت استاذ ورئيس مركز بحوث الفضاء والطاقة ومعهد بحوث البيئة الصحراوية جامعة المنوفية أكد أن الوديان والمجارى المائية الجافة على سطح المريخ من أكثر غوامض هذا الكوكب . علاوة على وجود أوجه تشابه غريبة بين الصحراء الغربية وبينه . فالأودية الجافة تتواجد فى كلا المكانين . وهى التى كانت فى يوم ما مليئة بالمياه فى مناخ مطير إلى مناخ جاف . فجفت هذه الأودية . ففى المريخ كانت البرودة سبباً فى تجمد المياه أما الصحراء الغربية فكان تزحزح حزام المطر إلى أماكن أخرى من العالم منذ آلاف السنين هو السبب .

أما التشابه الثانى فيؤكد د . «شلتوت» أنه فى الغلاف الجوى الجاف فالصحراء الغربية هى أكبر منطقة جافة فى العالم وتفوق فى جفافها

عشرات المرات جفاف ما يسمى بوادى الموت بصحارى الولايات المتحدة الأمريكية . والغلاف الجوى للمريخ جاف للغاية لتكثف بخار المياه به نتيجة البرودة الشديدة وتحوله إلى ثلج . أما التشابه الثالث فهو بسبب المياه الجوفية . حيث تسربت المياه الموجودة بالأودية بالصحراء الغربية منذ انتهاء العصر المطير إلى باطن الأرض منذ آلاف السنين مكونة ما يسمى بخزانات المياه كذلك التى أسفل واحات الصحراء وهذا ما أثبتته دراسات الاستشعار عن البعد سواء بالأقمار الصناعية أو الرادار . وهذا هو ما حدث فى المريخ فقد تسربت المياه إلى تحت السطح أو تجمدت على السطح ثم لوجود عواصف ترابية غطت هذه الثلوج بطبقات من الرمال تصل فى بعض الأحيان لعدة أمتار . وأثبتت دراسات الاستشعار عن البعد للأقمار الاصطناعية احتمال وجود مياه سائلة تحت طبقات الثلوج . ويوضح أن المياه الجوفية بالواحات المصرية والمياه الجوفية بالمريخ تتشابه فى وجودها على مسافات قليلة العمق لا تتعدى الأمتار . مما يجعل دراستها فى مصر مدخلاً لدراسة المياه الجوفية بالمريخ عن طريق اختبار معدات الدراسة بالواحات المصرية قبل إرسالها إلى المريخ .

أما التشابه الرابع فيوضح الدكتور «شلتوت» أن الصحراء الغربية بها عواصف رملية وترابية شديدة تسمى بالخماسين كذلك المريخ حيث اثبتت مركبتا الفضاء الأمريكيتان وجود عواصف رملية شديدة به . كذلك تتشابه تربة المريخ - التى تتكون أساسا من رمال تفصلها بعض الصخور الصغيرة - مع تربة منطقة شرق العوينات جنوب الصحراء الغربية مما يجعل المنطقة حقلاً لاختبار العربات (المينى روفر) و(الميكرو روفر) التى ستهبط على سطح المريخ لدراسة غلافه الجوى وتربته وهى تعتبر إنسانا آليا متحركا يتم توجيهه وتشغيله فى محطات أرضية لوكالات الفضاء .

أقدم منطقة زراعية فى العالم

وجدير بالذكر أن معامل الدفع النفاث (JPL) التابعة لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) بمدينة بسادينا بالقرب من لوس انجلوس قامت بتصميم جهاز لقياس المغناطيسية للطبقة تحت السطحية لدراسة المياه الجوفية تحت سطح المريخ . بهدف التعرف على إمكانية الوصول إلى أى مواد عضوية أو طياره وبالتالى إمكانية قيام حياة ولو أولية فى العصور السحيقة قبل تغير مناخه نحو البرودة .

والمدهش أن معامل (JPL) أى استخدام الأقمار الاصطناعية للاستشعار عن بعد استطاعت تحديد أول منطقة فى العالم بدأت فيها



الزراعة وذلك عن طريق ما تحدثه بقايا ومخلفات النباتات المزروعة من التربة . وأثبتت الدراسات أن أقدم منطقة قامت فيها الزراعة فى العالم هى منطقة غرب (اسنا) فى مصر . حيث زرعها قدماء المصريين فى فترة ما قبل التاريخ بالقمح منذ (١٨ ألف سنة) .

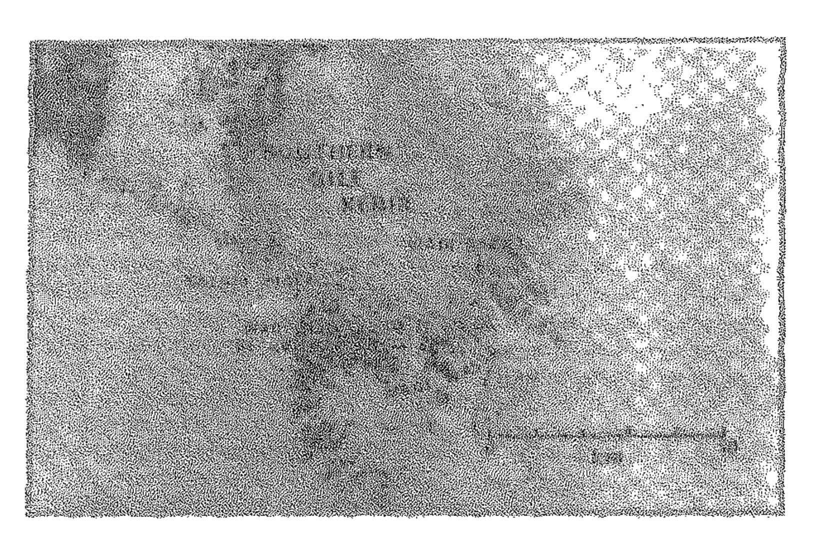
نقوش ورسومات عن حياة قديمة

وعن الحياة بالصحراء الغربية يؤكد هذا الاحتمال الدكتور على بركات استاذ النيازك والجيولوجيا فى هيئة المساحة الجيولوجية، موضحاً أن فى أهم الظواهر الموروفولوجية فى الصحراء الغربية وجود هضبة الجلف الكبير فى الجزء الجنوبى الغربى . فهو يقع فى أشد بقاع العالم جفافاً . إذ لا تزيد كمية مياه الأمطار على (واحد مم كل عام) كما أن الاشعاع الشمسى قادر على تبخير كمية من المياه تفوق التى تسقط على الأرض (٢٠٠ مرة) . حتى أن المرء لا يرى خلال تنقلاته سوى صحراء قاحلة تغمرها الرمال الصفراء فى كل صوب.

ويذكر الدكتور جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان) أن الصحراء الغربية أكثر تمثيلاً وتجسيداً من الصحراء الشرقية لفكرة الصحراء الحاره والصحراء الكبرى كما لا نزاع على أنها أكثر صحارينا عزلة ووحشة خاصة الركن الجنوبى الغربى منها بالذات فى الجلف والعوينات لم تطأه قدم انسان متحضر حتى ثلاثينات القرن الماضى بل وكما وصفها أحد العلماء الغربيين يعادل فى غموضه حتى الآن غموض صحراء القمر قبل أن يصل إليه الإنسان!!

ورغم الجفاف والعزله والغموض إلا أن الدكتور «بركات» يؤكد أن الشواهد الجيولوجية والبيولوجية والأثرية تثبت أن الجلف الكبير والمناطق المحيطة به تعاقبت عليها جماعات بشرية على فترات مختلفة . منذ العصر الحجرى القديم . تعود إلى الفترات الوسيطة من عصر الهولوسين . ويوضح أن المرء يستطيع أن يرى مخلفات وآثار الإنسان القديم فى كل مكان فى منطقة الجلف الكبير سواء فوق سطح الهضبة أو من حولها أو خلال الوديان التى تقطعها . وتتمثل آثار الإنسان بمختلف الأدوات الحجرية والدوائر الحجرية . وآثار الطرق التى كان يسلكها الإنسان علاوة على وجود نقوش ورسومات كان الإنسان القديم يصور من خلالها أنشطة ومظاهر حياته على الجلاميد الصخرية أو مكاشف الصخور أو على جدران وأسقف الكهوف . ويشير الدكتور «بركات» إلى وجود عدد من المواقع التى تحوى نقوشاً ورسومات تعود إلى إنسان ما قبل التاريخ منها : رسومات ملونة على جدران الصخور





خريطة توضح موقع الجلف الاكبر بالصحراء الغربية

بوادى «حمره» شمال الجلف الكبير . ورسومات «بوادى عبد الملك» ورسومات (كهف شاو) بالجزء الجنوبى الشرقى من الهضبة . ونقوش وادى صورة . ويوضح أن تلك النقوش «بوادى صوره» تكشف عن مرحلة زمنية كانت الحياة فيها مزدهرة هناك حيث عاش الإنسان ومارس فنونا مختلفه . وإن كانت تكثر داخل الكهوف وعلى أسطح الصخور . وأهم ما يلفت الأنظار وجود صور ورسومات لأناس يمارسون السباحة مما يدل على وجود مياه فى هذا المكان قديماً .

هل كانت هناك حياة على سطح المريخ !

كل تلك الاكتشاف عن مظاهر للحياة البشرية داخل الصحراء الغربية خاصة هضبة الجلف الكبير أشد مناطق العالم عزلة ووحشه جدد الأمل والايمان باحتمال وجود آثار محفوظة للحياة القديمة أو حتى بقايا حياة

تضاريس متشابهة بين الصحراء الغربية والمريخ

بدائية مازالت تعيش فى تربة المريخ خاصة أن جميع الدراسات والصور الفضائية التى تم التقاطها لسطح المريخ والقمر والصحراء الغربية تؤكد وجود تشابه في العديد من الخصائص الجيومورفولوجية! .

وبرغم جميع الدراسات والأبحاث لايزال السؤال مطروحاً . هل هناك حياة على المريخ ؟؟ وإذا كانت الإجابة هى النفى .. فهل كانت هناك حياة أو بقايا حياة على سطحه . كما اكتشفها العلم داخل مجاهل الصحراء الغربية.. ؟؟ لا تزال الإجابة

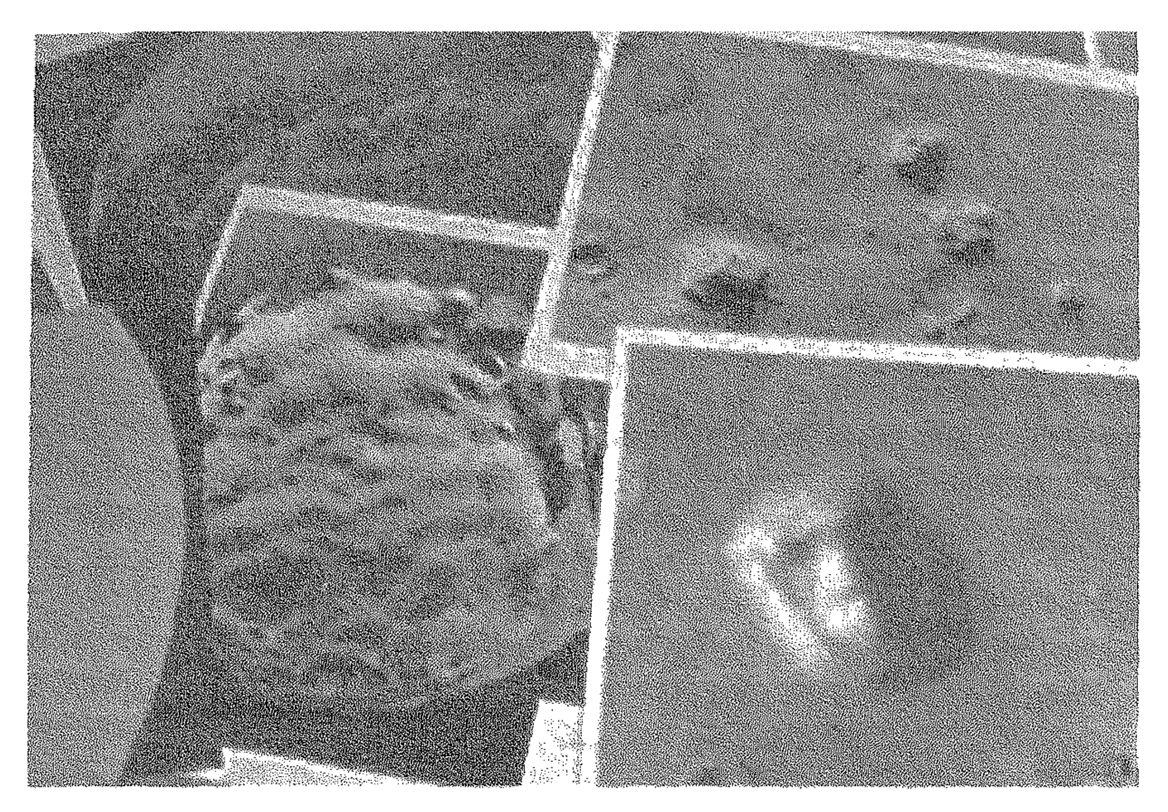


كتل صخرية علي سطح المريخ تشبه كثيراً مانراه علي الأرض

غير معلومة أو معلن عنها حتى يومنا هذا ؟!

فى عام ١٩٧٨ قامت بعثة من سبعة علماء من الولايات المتحدة الأمريكية وثمانية من العلماء المصريين بدراسة عميقة لمختلف الظواهر الطبيعية بالصحراء الغربية كان هدفها الأساسى فهم الأسباب الحقيقية وراء تشابه سطح الصحراء الغربية مع سطح كوكب المريخ . وأثبتت الأبحاث فى مجال الجيولوجيا الفلكية وجود تشابه فى العديد من الخصائص الجيومورفولوجية وبينت الصور الفضائية التى تم التقاطها لسطح المريخ والقمر والصحراء الغربية وجود هذا التشابه !!

تلك الحقيقة دفعت الكثير من الجهات العلمية إلى التسابق على دراسة الصحراء الغربية ورمالها وهضابها وتربتها وأحوال المناخ . مثل وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) والجمعية الدولية لاكتشاف الكواكب . ومعهد بحوث الفضاء الروسى . وتحولت الصحراء الغربية خلال الأعوام العشرين الماضية إلى حقل تجارب نشط . ووقع عليها الاختيار لتكون مكان اختبار معدات استكشاف المريخ قبل سفرها إليه . مثال ذلك اختبار الحفار الصغير الذى سيذهب إلى المريخ فى منطقة شرق العوينات . علاوة على اختبار جهاز المجس الكهرومغناطيسى الذى يقوم باستكشاف المياه تحت سطح المريخ . وذلك فى منطقة الواحات الخارجة .



لقطات لتربة المريخ أخذت بواسطة السفن الفضائية

كذلك جهاز تسجيل أصوات العواصف الترابية . كل تلك الدراسات والأبحاث والتجارب تم إجراؤها على أمل الوصول إلى إجابة شافية على التساؤل الذى طالما طرحه العلماء .. هل هناك حياة على المريخ أم لا ؟؟ وهل كانت حياة قديمة على سطحه وفنيت نتيجة لتغيرات مناخية أم لا ؟؟ وعندما اكتشف العلماء أوجه التشابه بين الصحراء الغربية والغلاف الجوى وتربة المريخ تجدد الأمل مرة أخرى فى إمكانية معرفة مزيد من الأسرار حول هذا الكوكب الغامض !!

الكوكب الأحمر

أثبتت الدراسات أن كوكب المريخ هو أكثر الكواكب شبها بالأرض . على سطحه جبال وأودية وبراكين ومجارى لأنهار جافة . وتغطى أقطابه الثلوج كما هو الحال فى الأرض . وله غلاف جوى يحوى سحباً ورياحاً وعواصف ترابية عدة وبه فصول مناخية مثل فصل الصيف وفصل الشتاء عندنا وإن كان المريخ يستقبل أقل من نصف ما تستقبله الأرض من الاشعاع الشمسى . لذلك فهو أبرد كثيراً من الأرض . ففى الصيف لا تتعدى درجة حرارته درجة ذوبان الثلوج المائية (الصفر المئوى) وفى الشتاء تصل إلى درجة تجمد ثانى أكسيد الكربون (١٨٠ درجة فهر نهيت تحت الصفر) . ■



فدوى طوقان

شاعرة أمام الباب المغلق !

بقلم
وديع فلسطين

للضاد أن تفاخر بشاعراتها: فدوى طوقان ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجي وجليلة رضا وجميلة العلايلى وروحية القلينى، فقد أقمن للشعر دوحة عذبة سواء بأشخاصهن أو بما فاضت به قرائحهن من طريف الشعر، وقد أسعدنى أن أعرفهن جميعاً وأن أفتقد الراحلات منهن.

أما فدوى طوقان، الشاعرة الفلسطينية الرائدة، فقد تحالفت عليها الظروف المعاكسة حتى قبل أن تولد فى مدينة السلط، إذ كرهت أمها أن تنجب مولوداً بعد ستة من البنين والبنات وحاولت عبثاً أن تجهض نفسها للتخلص من الجنين الذى تمثّل بعد ولادته فى فدوى. وإذا كانت الأمّ قد استكثرت هؤلاء الأطفال السبعة، فقد رزقها الله بعدهم بثلاثة آخرين، واكتمل عدد أبنائها عشرة، منهم ستة من البنين وأربع من البنات، وكان ترتيب فدوى السابعة فى هذا النسل.





● لماذا عاشت فدوى عدة قصص للحب فى الخيال؟ ومن هم الأدباء الذين كانت تراسلهم؟

خرجت فدوى إلى الحياة دون أن تسجّل لها شهادة كسائر الأطفال، فظلّت سنوات تجهل تاريخ مولدها ولا تحتفل بعيد ميلادها أسوة بزميلاتها. ولمّاً تجرأت وسألت أمها عن تاريخ ميلادها قالت إن الذى تذكره هو أنها كانت وقتها تنظف أكواز بنات فلسطين يعرف بالعكوف تهيئةً لطهيه، وكانت آلام المخاض تتنابها وقتذاك، ولفدوى أن تعتبر هذه الواقعة شهادة ميلادها! ثم تذكرت الأم أنها عندما كانت فى الشهر السابع من الحمل استشهد ابن عمها كامل عسقلان. وإزاء إلحاح فدوى، توجهت مع أمها إلى المقابر لتستخرج من شواهد القبور شهادة ميلادها. وقد أكد الباحث الأردنى الدكتور يوسف بكار أن عسقلان استشهد فى عام ١٩١٧، وهو إذن التاريخ المرجح لميلاد فدوى طوقان.

عاشت فدوى - شفاها الله وعافاها من الكسور المضاعفة التى تعالج منها بعد انزلاقها فى بيتها فى نابلس قبل بضعة أشهر - فى مرحلة الطفولة فى هذه المدينة الفلسطينية، وهى طفولة اقترنت بالظلم الغليظ الذى أوقعته عليها أسرتها لا لذنب إلاّ لأنها أنثى فى بيئة شديدة التحفظ. فوالدها صارم فى تربية بناته، ولاسيما فدوى بالذات، وكل خطواتها حتى فى طفولتها محسوبة عليها. وعندما وصلت إلى سن المدرسة، سمح لها بأن تتوجه من البيت إلى المدرسة فى صحبة ذوى القربى من سيدات الأسرة. وفى يوم أغبر، توجهت فدوى إلى منزل خالتها، فرآها غلام فى السادسة عشرة من عمره، وجرى نحوها وقدم إليها عوداً من الفلّ. فانفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ شاكرة لهذا المعجب الصغير. ولم تنس فدوى على مدى العمرٍ هذه التجربة التلقائية الجميلة من هذا الصبى الذى تصرف ببراءة عفوية معها. ولكن الأعين الساهرة كانت تراقبها، ولم تلبث أن وشت بها إلى شقيقها بطل حمل الأثقال الذى انهال عليها بقبضة يده الحديدية تنطلق من فمه عبارات التهديد والوعيد، وحكم عليها بألاّ تغادر عتبة البيت إلاّ إلى القبر! فأخذت فدوى تجتر آلامها فى صمت، ولم تجد سلواها إلاّ فى القراءة تعكف عليها فى «زنزانتها» كلما عثرت على كتاب فى البيت. وقررت أن تثقف نفسها. واستهواها الشعر بصورة خاصة، فإن استعصى عليها فهم عبارة قصدت أخاها الشاعر إبراهيم طوقان لكى



يشرح لها ما غمض من عبارات. ولمّا رأى إبراهيم أن شقيقته فدوى تهوى الشعر، قرّبها منه وصار يمثل الحضن الدافئ لها وسط هجير الحياة وجعل من نفسه معلماً لفدوى يمتحنها فى استظهار أبيات من الشعر، ويقوّم لسانها كلّما تعثر فى عبارة. وعندما سافر إبراهيم طوقان إلى بيروت للعمل أستاذاً فى جامعتها الأمريكية، تواصلت رسائله البريدية مع فدوى يشجعها ويرفع من روحها المعنوية ويحدثها عن الشعر والشعراء.

الحصار

ولكن الحصار الذى أحكم حول فدوى بينما أنوثتها تتفتح وصدرها ينمو وكأنه جريمة حاولت إخفاءها، دفعها غير مرة إلى محاولة الانتحار والتخلّص من حياة بغيضة تحسّ فيها بأنها شخص غير مرغوب فيه، وكم من مرة دخلت مطبخ الدار وهمّت بإشعال صفيحة الجاز، ولكنها جبنت إزاء آلام الحريق، ثم فكرت فى تناول السمّ، ولكن مَنْ يأتيها به، ثم إن آلامه لا تطاق. وأخيراً أقدمت على ابتلاع أنبوبة كاملة من الإسبرين فأنقذها طبيب الأسرة فى آخر لحظة.

أدركت فدوى أن حياتها مرتبطة بالشعر فهو دنياها وسلواها وعزاؤها، وعندما وقعت فى مجلة على قصيدة للشاعرة العراقية رباب الكاظمى، بعثت إليها بأبيات قالت فيها:

أرباح تاج الشاعرات ... أرباب فقُت النابهات
والله أنت خليقة ... بالمدح بين الآنسات
وأبوك قد أعطاك كنزاً ... زاخراً بالطيبات
الكاظمي، ما الكَاظمي ... هو ناظم للبيّنات
يا أيها الشعراء ... لا تقفوا أمام الشاعرات

كانت هذه القصيدة بكر قصائد فدوى، وهى قد اعتزّت بها لأنها خلت من أخطاء العروض والنحو. فجاءت هذه القصيدة شاهدةً على مولد فدوى كشاعرة مرجوّة الغد.

أخذت فدوى بعد ذلك تنظم أبيات ممهورة بإمضاءات مستعارة مثل «دنانير» أو «المطوقة» أو تقتصر على اسمها المجرّد «فدوى» وتبعث بها إلى المجلات الأدبية فى لبنان، وسعدت عندما رأتها منشورة، فشجعها ذلك على التواصل مع مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات، ولا سيما لأنها كانت واسعة الانتشار فى العالم العربى، فرحّب الزيات بقصائدها ونشرها باسمها الكامل «فدوى عبد الفتاح طوقان». وكانت «الرسالة» فاتحةً للشهرة الواسعة التى نالتها فدوى فى وقت كان فيه عدد الشاعرات قليلاً، كما هيأت لها فرصة للتعارف الشخصى مع الأدباء العرب. وعندما كتبت مقالاً فى «الرسالة» عن الشاعر على محمود طه أعربت فيه عن إعجابها بشعره، أهداها نسخة من ديوان «الملاح التائه» بعدما طرزها بعبارة إهداء جميلة، وبدأ يراسلها، ولكن

العيون الساهرة مزقت صفحة الديوان التى تحمل الإهداء ومنعت فدوى من مراسلته، فمات الشاعر وهو لايعرف سرّ الجفوة التى حدثت بينه وبين الشاعرة.

ولكن، هل للأنثى الرهيفة الحسّ كفدوى أن تكظم العاطفة التى تتأجج فى صدرها؟

لقد كانت تتلهف ولو على همسة حبّ. ولهذا رحّبت برسائل المعجبين التى كانت تتلقاها بفضل شهرتها البازغة، واستأثر باهتمامها الشاعر المصرى إبراهيم محمد نجا الذى أهداها عدداً من قصائده، وكذلك الأديب المصرى أنور المعداوى الذى أخذ يتلهى بقلبها البكر وهو بعجرفته (كما عرفته وابتعدت عنه) وبقصور باعه لا تؤخذ عواطفه المبثوثة مأخذ جدّ.

ومن الشعراء المصريين الذى عرفتهم فدوى شاعر الملاحم كامل أمين الذى تطوع للقتال فى حرب فلسطين وأصيب بسببها فقامت فدوى بتطبيبه قبل أن يستكمل الدكتور إبراهيم ناجى علاجه فى مصر.

● العوامل التى ساهمت فى صنع شاعرية فدوى وكيف صنع الحرمان منها شاعرة حزينة

المراهقة العاطفية

وليس أبلغ من فدوى نفسها فى وصف هذا الحب بالمراسلة حيث قالت فى سيرة حياتها:

«كانت مراهقتى العاطفية حادة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة. حب بالمراسلة. كنت أقع فى هذا الحبّ الخيالى وأغوص فيه، كنت جائعة إلى شئ غير موجود. ضائعة. وحيدة. لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل.

ظل قلبى حديقة للحب لا تذبل أشجارها أبدا. فى لحظات الحبّ يحسّ الإنسان بإنسانيته تتكثف، يخرج من القطب الجليدى المعزول ويرحل إلى الوهج والإشراق».

وعندما زارت فدوى مصر، التقت بالمعجبين لقاءً عادياً، اقتصر على المصافحة الباردة بلا أى مشاعر. لقد قتل الزمن حرارة العاطفة وانطوت صفحة دون أن تذرف عليها دمعة.

نشرت فدوى ديوانها الأول «وحدى مع الأيام» فى القاهرة فى عام ١٩٥٢، وعنوانه وحده يمثل وصفاً دقيقاً لمسيرة حياتها حتى فى المستقبل الذى كان مذخوراً لها. فقد عاشت مع الأيام وحيدة، قد تؤنسها رفقة الصويحبات، فإن خلت بعد ذلك إلى نفسها انكفأت على وحدتها وأرسلت فى الشعر أشواق قلبها الحائر قائلة:

قلبى به الحـيـاة وقـد عَمُقَت ومدّت، فيه كالأمد المدد
فـتـهـز أغـوارى نوازعـه صـخّـابة، دفـاقـة المدد
ويظل منتظراً على شـغفٍ ويظلّ مـرتقـبـاً على وَقَـذ
أحـلام مـحـروم تسـاوره مـتوحـد فى العـيش منفـرِدَ
ويودّ لو تمضى الحـيـاة به للحب، مصدر فيضها الأبدى

حياة تهفو إلى الحبّ، وأنّى لها أن تصيب منه حظوظا.

هي وأسرتها

ولّما استقرت لفدوى منزلة أدبية معترف بها سألها أبوها: لمَ تضيعين عمرك فى هذا الشعر الذاتى الوجدانى، ولمَ لا تساهمى فى خدمة قضية وَطنك؟ فكانت تقول له إنها عاشت كل عمرها فى عزلةٍ عن الحياة السياسية، فكيف تنفعل بهذه القضايا الكبرى وكيف تعبّر عنها؟ فهذه هى مهمة رجال السياسة الذين انغسموا فيها وعرفوا خباياها ودخائلها ومزالقها وويلاتها.

كانت فدوى تدين لأخيها الشاعر إبراهيم بالفضل الأول فى تنبيه مواهبها وتسديد خطاها والوقوف إلى جوارها فى الشدائد، فلّما توفى عام ١٩٤١ عن ستة وثلاثين عاماً وكانت فدوى فى الرابعة والعشرين من عمرها، نزلت وفاته عليها كالصاعقة، فقد كان يمثل بالنسبة لها كل شئ: فهو أستاذها ورائدها وصديقها و«مخلّصها» بتعبير فدوى، فأظلمت الدنيا فى وجهها لأنها افتقدت خير الحصن الذى كانت تلجأ إليه فى المحن، ولكن يعزها إلاّ شقيقها الأصغر الدكتور نمر طوقان، وكان طبيباً يعمل فى مستشفى الجامعة الأمريكية فى بيروت، وقد التقيت به هناك فى عام ١٩٥٥، واتفق عندما كانت فدوى تزور انجلترا للسياحة وللتقوية فى اللغة الانجليزية أن تلقت برقية من الأسرة فى نابلس تفيد بأن الدكتور نمر لقى مصرعه فى حادث سقوط طائرة صديقه المليونير اللبنانى إميل البستانى فى البحر، وكان ذلك فى عام ١٩٦٣. فعجّلت بالعودة إلى نابلس لتجدد أحزانها على الراحلين إبراهيم ونمر بصورة خاصة، وعلى الوالدين وبعض الأشقاء، وهكذا كانت الفواجع تلاحق فدوى غير مشفقة على روحها الرقيقة ونفسها المتعطشة إلى السلام الداخلى وقلبها الذى يهفو إلى الحبّ الإنسانى الشامل.



ملازمة بيتها في نابلس

ومن الفجائع التى هزّت فدوى هزاً عنيفاً اغتيال الشاب وائل ابن العلامة الفلسطينى عادل زعيتر فى روما فى عام ١٩٧٢ وكانت تربطها بأسرة زعيتر علاقات ود وجوارٍ حميم فى مدينتهما نابلس، فوقفت على وائل ديواناً بأسره عنوانه «على قمة الدنيا وحيداً». ولا غرو أن تجد فدوى اليوم فى جارتها نائلة عادل زعيتر أجمل صحبة، ولا سيما وقد ثقلت عليها الشيخوخة. واضطرت بحكم الكسور التى تعانى منها فى



ساقيها إلى ملازمة بيتها فى نابلس بالضفة الغربية، فلا تستطيع تلبية أى دعوة للمشاركة فى أى نشاط أدبى فى الخارج. ولعل آخر رحلتين قامت بهما إلى الخارج وهما رحلة إلى المغرب لتسلم جائزة الشعر بالبابطينية ورحلة إلى باريس للمشاركة فى برنامج للربيع الفلسطينى نظمه معهد العالم العربى، وهناك التقيت بها للمرة الأولى وقد تكون الأخيرة.

على أن فدوى طوقان ما كان فى وسعها أن تتجاهل المدلهمات التى تنصبّ على بلادها، فاستجابت - ولو بعد لأى - لدعوة أبيها إلى المشاركة بشعرها فى معارك المصير، بل خرجت تتواصل مع زملائها من شعراء فلسطين وتتعامل مع رجال السياسة هناك وهناك وتعبرّ عن مشاعرها إزاء المعاملات الوحشية التى يلقاها مواطنوها. وعندما حاولت ذات مرة عبور «جسر اللنبى» للتوجه إلى عمّان، لقيت من صنوف الذل والعذاب ما فجر على قلمها قصيدة نارية تمنّت فيها لو استطاعت أن تلتهم أكباد الذين حاولوا إذلالها. وتحولت هذه القصيدة من جانب الذين أذاقوها الذل إلى سخرية من فدوى لأنها اشتهت «صحن كبدة»!

● **كان لأخيها ابراهيم الفضل الأول فى تنبيه مواهبها وتنميتها**

ولعلّ فدوى هى من قلةٍ من الشاعرات العربيات اللائى سجلن سيرتهن بصراحة وأمانة وعفوية وصدق، وهى فى هذا تتوافق مع الشاعرة جليلة رضا التى لم تتحرج من تسجيل سيرتها بقلمها. فأخرجت فدوى هذه المسيرة فى جزءين هما «رحلة جبلية، رحلة صعبة» و«الرحلة الأصعب» واستدرك عليهما الباحث الأردنى الدكتور يوسف بكار بإصداره «الرحلة المنسية» التى استكمل فيها ما فات فدوى تسجيله عن حياتها وأدبها، كما أصدرت فدوى كتاباً عن شقيقها بعنوان «أخى إبراهيم» وأخرجت ستة دواوين هى : «وحدى مع الأيام»، و«وجدتها»، و«أعطنا حباً» و«على قمة الدنيا وحيداً»، و«أمام الباب المغلق»، و«الليل والفرسان»، و«تموز والشئ الآخر».

حياة حافلة بالألم والحب والعطاء هى حياة الشاعرة العربية الكبيرة فدوى طوقان. ■

فدوى طوقان

تروى قصتها مع الشعر

منذ صغرى أعلن عن نفسه ميلى الفطرى للشعر، كنت أجد متعة كبيرة فى ترديد محفوظاتى المدرسية منه، وأقف مملوءة بالانبهار والدهشة أمام ما يقع عليه بصرى من قصائد أو مقطوعات مطبوعة فى الكتب المدرسية أو فى الصحف التى كان يحضرها أبى وأخوتى إلى البيت، وذلك رغماً عن عجزى عن إدراك مضامينها .

كان هناك كتاب اسمه (الكشكول) يضم مجموعة من الطرائف والشعر والأخبار الأدبية والتاريخية وفى هذا الكتاب كان لى أول لقاء مع قصيدة (أيها الساقى إليك المشتكى)

وضعتنى القصيدة أو بالأحرى الموشح فى دائرة سخرية غامضة لعل منشأها موسيقاه الخارجية المنبعثة من طبيعة الوزن، والمتميزة بتنوع القوافى، مع الالتزام بقافيتى الشطرين الأخيرين من كل مقطع، مما أكسب الموشح ايقاعا يريح السمع ويهدهد النفس .

أما الكلمات فكان معظمها بالنسبة لى محملاً بمعان إنفعالية نفسانية غير التى قصدها الشاعر .

كان السقاؤون فى تلك الأيام يزودون بيوت البلدة بالماء باستثناء بعض البيوت القليلة،



لاسيما بيوت الاقطاع القديمة، والتى كان أصحابها يمتلكون حصصهم الخاصة بهم من مياه الينابيع العديدة فى البلدة .

وكانت المياه تصل إلى تلك البيوت بواسطة القنوات الفخارية تحت سطح الأرض وتصب فى البرك القائمة وسط ساحات البيوت الفسيحة .

وحين كنت ابدأ بالقاء المطلع «أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع» كانت كلمة الساقى تتخذ فى ذهنى معنى إنفعالياً خاصا مقروناً بصورة السقاء الكهل الذى كان يزود بيوت «حارة العقبة» بالماء ينقله اليها من (عين الكاس) شرقى البلدة .

كان مجئ السقاء إلى منزل خالتى فى (حارة العقبة) مبعث إثارة محببة لى، فمنذ يطأ بقدمه أول درجة من درجات السلم الخارجى المفضى إلى الدار، كان صوته يرتفع بالكلمات المألوفة : «ياساتر ياالله »، وذلك تنبيها للنسوة لكى يتوارين خلف الأبواب .



كنت أركض إلى السقاء وأقف بجانبه عند الزير الكبير، أرقبه وهو يرفع القربة عن ظهره بيديه القويتين، ثم يسندها إلى بطنه وقد جعل فوهتها المربوطة على فم الزير الواسع، وبعد ذلك يشرع بفك الرباط، فيندلق الماء العذب الفضى فى الزير الذى لم يكن ليمتلئ قبل أن يبتلع حمولة أربع قرب أو أكثر .

كان الساقى الذى يخاطبه الشاعر يمثل دائما فى خيالى متقمصاً شخصية السقاء الكهل، سقاء (حارة العقبة) ولما كنت أجهل ما هو (الزق) فى قوله (جذب الزق اليه واتكا) فقد استلزم الفعلان (جذب - واتكا) أعطاء كلمة الزق عندى معنى الوسادة .

أما النديم الذى هام الشاعر فى غرته، (ونديم همت فى غرته) فكنت أتخيله ابن جارنا بائع حلاوة الطحينة، ذلك الفتى الأسمر الطويل النحيل الذى كان يحمل اسم نديم . وهكذا كان يعطى خيالى للكلمات صوراً ودلالات خاصة به وحده، وكنت أغتنم فرصة غياب أبى وأبناء عمى وقت العصر فأرتقى السلم الخارجى المكشوف والمؤدى إلى أحد طوابق الدار العليا، وأقف متجهة نحو الشجر المنتصب فى صحن الدار، وأشرع فى القاء الموشح بصوت واثق مرتفع، مقلدة بذلك ابراهيم فى القائه للشعر، وأتخيل نفسى شاعرة تقرأ شعرها على الجمع المحتشد كما يفعل ابراهيم وأستغرق فى تخيل الصورة حتى يكاد يصبح الخيال فى احساسى حقيقة، فإذا انتهيت عدت إلى الانشاد مرة ثانية، ثم رابعة، وأنا فى حالة أشبه بالجذب الصوفى .

بعد ستة وعشرين عاماً، فى عصر يوم من أيام حزيران ١٩٥٥، وقفت فى قاعة (وست) فى الجامعة الأمريكية فى بيروت

لأواجه لأول مرة فى حياتى الحشد الذى دعته الدائرة العربية فى الجامعة للاستماع إلى مختارات من شعرى .

خلال الدقائق التى كان يقدمنى فيها الاستاذ جبرائيل جبور، وبينما أنا أجيل بصرى فى الوجوه أمامى، مر بعينى شريط سريع قصير، رأيتنى فيه بمواجهة الشجر المنتصب فى صحن الدار، ألقى على مسامعه القصيدة العزيزة (ايها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع، وابتسمت .

ربما بدت ابتسامتى فى ذلك الحين وكأنها تحية للحاضرين، وما كانت فى الحقيقة الا تحية لتلك البنت الخيالية البعيدة، المأخوذة بقصيدتها الموشحة وبالحالة الشعرية الصوفية الغامضة التى كانت تعتريها عند القاء الموشح على شجر الدار.

ثم تجاوزت مجرد انشاد الشعر إلى محاولة كتابته كان داخلى يمتلئ أحياناً بمشاعر غير واضحة وبانفعالات مبهمة، خصوصا إذا استمعت إلى الموسيقى والغناء

فهنا كنت أشعر بميل إلى التعبير عن شئ ما، شئ أحس به ولا أفهمه فأهرع إلى قلم وورقة سرعان ما تمتلئ بكلمات لا رابط بينها، ثم أذهب بالورقة المحملة بالألغاز إلى ابراهيم وأرجوه بصوت متردد أن يقرأ ما كتبت (من شعر) ولم يكن ابراهيم يخيب رجائى، بل كان يقرأ الكلمات ويبتسم لى ويربت على كتفى، وأنصرف أنا دون أن أسمع كلمة تشجيع أو تثبيط .

ظلت الموسيقى حتى اليوم تشعرنى بالصفاء الروحى، وتحرك فى داخلى تلك الحالة الغامضة المصحوبة بالرغبة فى كتابة الشعر .

ولقد التقيت فى كتاب (العهد القديم) ببعض أنبيائه الذين كانوا يستعينون بالموسيقى على تجلى الرب، فيهبطون من الأكمة، أمامهم رباب ودف وعود، وهم يتنبأون فيحل عليهم روح الرب .

كما ألتقيت باليشع الذى قال : الآن فأتونى بعواد، فلما ضرب العواد كانت عليه يد الرب .

أجل إن الموسيقى تثير الوجدان، وتحرك الخيال ، إنها تجعلنا نحلم ونرى عوالم غير منظورة، تعج بالحيوية والحركة.. الصدفة العجيبة!

أى دور تلعبه الصدفة فى حياتنا !

حادث تافة، أو خبر عادى، أو محض مصادفة تعترض طريق المرء، فيتغير معها مجرى الحياة، وتنعطف طريق السير انعطافة حادة قاطعة وتصبح الدنيا غير الدنيا والعالم غير العالم

لو لم يعترض ذلك الغلام طريقى ولو لم يحبسنى أخى يوسف بين جدران الدار الهرمة لاستمرت حياتى تسير فى اتجاهات المألوف العادى ولكنت واصلت

دراستى فى المدرسة العائشية حتى نهاية السنة الخامسة، وعندئذ ما كان ابراهيم ليفكر فى أن يجعل منى تلميذة له .

كان قد علم من أمى بسبب قعودى فى البيت، لكنه وهو الإنسان الواسع الأفق. الحنون، العليم بدخائل النفس البشرية، نظر إلى ذلك الأمر نظرة سبقت الزمن خمسين سنة إلى الأمام .

لم يتدخل، ولم يفرض إرادته على يوسف العنيف، لكنه راح يعاملنى بالحب والحنو الغامر .

وظلت تتجمع الأمور الصغيرة لتصبح جسراً ينقلنى من حال إلى حال

كل ما كان منتظراً هو فقط الصدفة العابرة ! ودق جرس الغيب ليعلن قدوم اللحظة، الصدفة .

أخى ابراهيم

كان إبراهيم قد وصل لتوه لتناول طعام الغذاء، وشرع يتحدث إلى أمى بفرح بينما هو يغسل يديه – عن تلميذين من تلاميذه كانا قد جاءا اليه فى الصباح بقصائد من نظمهما، خالية من عيوب الوزن والقافية وكم كان فخوراً ومسروراً وهو يتحدث عن الموضوع وبعفوية مطلقة، وبصوتى الخافت الضعيف قلت : «نيالهم!» وتعنى الكلمة بالفصحى هنيئا لهم

نظر إلىّ ابراهيم وصمت ثم قال فجأة: سأعلمك نظم الشعر، هيا معى.

كانت أمى قد سكبت له الطعام، ولكنه ترك الغرفة، ولحقت به، وارتقينا معاً السلم المؤدى إلى الطابق الثانى حيث غرفته ومكتبته .

وقف أمام رفوف الكتب وراح ينقل عينيه فيها باحثاً عن كتاب معين أما أنا فكان قلبى يتواثب فى صدرى وقد كتمت أنفاسى اللاهثة .

دقيقتان، واقبل علىّ وفى يده كتاب «الحماسة» لأبى تمام نظر فى الفهرس ثم فتح الكتاب عند صفحة بالذات .

قال : هذه القصيد، سأقرؤها لك وأفسرها بيتا بيتا ثم تنقلينها إلى دفتر خاص وتحفظينها غيباً، لأسمعها منك هذا المساء عن ظهر قلب .

وبدأ يقرأ :

قصيدة «امرأة ترثي أخاها» :

طاف يبغي نجوة
من هلاك فهلك
ليست شعري ضلة
أي شئ قتلك
أي شئ حسن
لفتي لم يك لك
كل شئ قاتل
حين تلقي أجلك
والمنايا رصد
للفتي حيث سلك

شرح لى معنى الأبيات،فشعرت بخيط



لقاء الشعر..بين فدوى طوقان وفاروق شوشة

رفيع من السوداوية يحز فى قلبى قال : لقد تعمدت أن أختار لك هذا الشعر لترى كيف كانت نساء العرب تكتب الشعر الجميل .

ونزلنا إلى غرفة الطعام وفى قلبى عالم جديد يضطرب بالانبهار والتوقع

فى المساء أسمعته القصيدة غيباً دون خطأ وتلكؤ فى تلاوتها .

حين أويت إلى فراشى ذلك المساء كنت أحتضن بين ذراعى دفترا ذا لون حشيشى باهت وقلما أزرق اللون، وعيداً من أعياد الشعور !

ها أنا أعود إلى الدفاتر والأقلام والدراسة والحفظ ها أنا أعود إلى جنتى المفقودة .

وعلى غلاف دفتر المحفوظات تلألأت بعينى هذه الكلمات التى كتبتها بخطى الردئ خط التلميذة فى الثالثة عشرة من العمر .

الأسم – فدوى طوفان

الصف – (شطبت الكلمة وكتبت بدلاً منها المعلم) ابراهيم طوقان الموضوع – تعلم الشعر

المدرسة – البيت

ولم تكن هذه بعينى كلمات، بل كانت شموسا وأقماراً قبلها كانت حياتى واقفة لاتسير مع الزمن ولا أعرف ماذا أفعل بها. أما الآن فها هى حياتى تتحرك، وها هو ايقاعها يسرع وأنا أشعر بتجددى وبعودة الثقة بالنفس من جديد .

ما أروع الخطوة الأولى ! ما أجملها ! ما أشد سحرها

أصبحت خفيفة كالطائر لم أعد مثقلة القلب بالهم والتعب النفسى فى لحظة واحدة انزاح جبل الهوان وابتلعه العدم، وامتدت مكانه فى نفسى مساحات المستقبل شاسعة مضيئة، خضراء كمروج القمح فى الربيع .

ويالرهبة الخطوة الأولى .

إن قوى الشر، الظاهرة منها والخافية لاتهادن أبداً، إنها تقبع دائما فى زوايا الدروب متربصة بنا مع الخطوة الأولى يبدأ العراك والصدام بين ارادة الحياة وقوى الهدم، سواء أكانت عشوائية أم مخططة ومرسومة سلفاً .

قالت أختى (فتايا) لأبى وهى تظن أنها تزف بشرى مثيرة : هل تعلم أن ابراهيم شرع يعلم فدوى نظم الشعر ؟

أشاح أبى، وواصل شرب القهوة المرة كانت حركة يده حين أشاح بها تحمل كل معانى الاستخفاف والاستهانة انكمش قلبى مع حركة يده، وتقلص .

انه لا يؤمن أننى أصلح لشئ - قلت هذا بينى وبين نفسى - انه لا يحمل لى سوى شعور اللا اكتراث. كأننى لاشئ، كأننى عدم وفراغ، كأننى لا لزوم لوجودى إطلاقاً .

وازدادت الفجوة النفسية بينى وبين أبى عمقا وإتساعا .

كما بدا هذا الحدث فى عيون عمتى وأفراد أسرة عمى مثار سخرية بادئ الأمر ثم تحولوا إلى أعداء حقيقيين . يعملون على قطع الطريق دون مسيرتى الجديدة.

وكان عليهم أن يتصرفوا حسب تكتيك خاص وذكى، فلم يكن من الهين اقناع ابراهيم بالعدول عما بدأه معى، فهو مستقل التفكير، صريح، جرئ، وصعب الانقياد إلى غير ما يؤمن به .

مضيت فى المسيرة مع ابراهيم والشعر لستة أيام متتالية فجأة توقف ابراهيم .

مسيرة الشعر

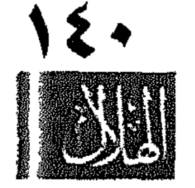
ثلاثة أيام مرت دون أن يدعونى لأسمع له آخر قصيدة طلب إلىّ حفظها وليختار لى قصيدة أخرى للحفظ .

مع هذا الصمت المفاجئ عاد الشعور بالثقل إلى قلبى، وبدأت كتفاى تتهدلان من جديد، وعاد ظهرى يحدودب وأنا أمشى، كما فى الأيام التعيسة السابقة .

كنت ذات طبيعة خجول، تعوزنى الجرأة واقحام نفسى على الآخرين حتى لو كان ابراهيم. انتظرت حتى يقول هو شيئاً ما، وكان انتظارى على هم وقلق .

فى صباح اليوم الرابع كنت قد قررت مبادرته بالسؤال، مستمدة بعض الجرآة من يقينى بمحبته الحقيقية لى ورفقه بى

وكعادتى كل صباح حملت إليه ابريق الماء الساخن لحلاقته اليومية وضعت



الوعاء الصغير على المغسلة، ووقف هو أمام مرآتها البيضوية الشكل متهيأ للقيام بعملية الحلاقة .

بدأ يمرر الفرشاة والصابون على جانبي وجهه وعلى ذقنه، أما أنا فوقفت بجانبه أنظر إليه من خلال المرآة وأبذل مجهوداً صامتاً لأبدأ بالسؤال، حتى أعانني الله في النهاية وفك عقدة لساني، سألته بصوت مرتعش: هل غيرت رأيك ؟ هل كففت عن ..

وانكسر صوتي وذاب، رغما عني، في دمعتين، وأجابني فوراً وقد أصبحت رغوة الصابون البيضاء تغطي نصف وجهه : كلا لم أغير رأيي، ولكنني توقفت لأ تأكد من صدق رغبتك في التعلم سنواصل اليوم الدرس هبطت الدرج بقامة منتصبة، وفتحت لي الدنيا ذراعيها من جديد المستقبل ينتظرني، أنه هناك، لاريب فيه، ولاشك !

وكان هذا كافياً لتبدل إحساسي بالوجود .

رباب الكاظمي

وجه بيضوي ممتلئ،عينان دعجاوان، غرة ناعمة سوداء تغطي الجبهة، وظل ابتسامة على شفتين مطبقتين مع وضع سينمائي للجسم والرأس .

لاتزال الصورة واضحة في خيالي بكل قسمات الوجه الذي لم تمحه السنون البعيدة من ذاكرتي، وتحت الصورة، أو فوقها، أو جانبها، الأسم المطبوع بخط عريض أسود : «الشاعرة العراقية رباب الكاظمي» .

لقد تخمرت في نفسي صورة مثالية لرباب ، فأصبحت مثلاً أعلى أطمح إلى بلوغه وكان للانطباعات الوجدانية والتأثرات النفسية التي تركتها في أعماقي تلك الصورة شأن كبير في توجه تفكيري للشعر قبل الحكم عليَّ بالاقامة الجبرية في البيت .

وحين بدأت محاولاتي الجادة في نظم الشعر كانت أول قصيدة كتبتها دون أخطاء عروضية أو نحوية موجهة إلى رباب الكاظمي :

أرباب تاج الشاعرات
أرباب فقت النابهات
والله أنت خليقة
بالمدح بين الأنسات (!!)
وأبوك قد أعطاك كنزاً
زاخرا بالطيبات
الكاظمي ما الكاظمي
هو ناظم للبينات
يا أيها الشعراء
لاتقفوا أمام الشاعرات

وحين توفي أبوها الشاعر عبد المحسن الكاظمي بعد ذلك بسنوات رثيته بقصيدة أعزى رباب من خلالها ..

« عن كتاب رحلة جبلية. رحلة صعبة
بقلم فدوى طوقان ■

سارة العقاد

بين الحقيقة والخيال

بقلم
أحمد حسين الطماوى

من تكون سارة ؟

تلك الرواية التى كتبها العقاد ونشرها عام ١٩٣٨ وشغلت النقاد فترة طويلة من الزمن ، هل هى شخصية متخيلة ؟ هل هى شخصية حقيقية ؟ الواقع أنها شخصية حقيقية تعرف عليها العقاد واسمها أليس داغر، وكانت مترجمة وصحفية وكاتبة ، وكانت أمها صحفية وكاتبة وشاعرة وكان زوجها صحفيا وكاتبا، وكان صاحبها العقاد كاتبا موسوعيا، وهو ما لم يعرف عنها من قبل ، وقد أوحت إلى العقاد بطائفة من الشعر وبرواية «سارة».

واللافت للنظر أن العقاد كتب روايته «سارة» بعد أكثر من عشر سنوات، من نهاية الأحداث ، ومع ذلك فقد كان متقدا مشتعلا ، متوهج الروح ، وكأن الحوادث مازالت تجرى، أو كأنه يشيع الحب وهو فى ملابس الحداد.

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى الكشف عن جوانب شخصية سارة «أليس» الحقيقية فى هذا المبحث غير المسبوق ، فلم يذكر أحد من قبلى كل هذه التفاصيل الدقيقة التى وفقت إليها.

الشخصيات التى نطالعها فى القصص والروايات والمسرحيات ليست جميعها متخيلة فكثير منها له أصل فى الواقع يستوحيه القاص ويستملى منه، وقد يصحف ويحرف للإخفاء والتمويه أو لمقتضيات الفن ، ولكن تظل ملامحها الحقيقية بارزة ، ويظل إيقاعها الحى الحقيقى يتوالى إلى أن تبدو وتظهر ويذهب العقاد فى كتابه «خواطر فى الفن والقصة» إلى أن زيفاجو هو باسترناك «فكل ما قاله بلسان الطبيب الشاعر فهو مما يقول باسترناك ويعتقد ويتحدث فيه عن خبرته وسعيه..» . ويذكر على أدهم فى



كتابه «على هامش الأدب والنقد» أن تورجنيف التقى ببازاروف بطل رواية «الآباء والأبناء» فى قطار ، ولمح فيه طرازا جديدا من الناس، وأدرك أنه فوضوى المذهب، وقبل أن تنتهى الرحلة كان الشاب قد ترك فى نفس تورجنيف أثرا واضحا . وقال لى عبدالمجيد نافع مترجم رواية «التلميذ» إن شارلوت وجرسلو بطلى الرواية هما زوجة جنرال فرنسى فى الجزائر، وعسكرى المراسلة الخاص به، أحب أحدهما الآخر ولما كان الزواج بينهما مستحيلا فقد اتفقا على أن يمضيا ليلة ممتعة معا وفى الصباح ينتحران، فانتحرت المرأة وجبن الجندى وقدم للمحاكمة وقد صورهما بول بورجيه فى رواية «التلميذ» . وهناك غير هؤلاء ولكننا لا نبحث عنهم.

وشخوص رواية سارة حقيقيون ، فسارة هى أليس داغر ، وهمام هو العقاد، وأمين الذى كان يراقب سارة هو الشاعر الباحث طاهر الجبلاوى والأستاذ زاهر هو د. صبرى السربونى ، والعشير القديم الذى لم يذكر اسمه فى الرواية هو الشاعر عبدالرحمن صدقى. لذلك لم يكن العقاد فى حاجة إلى التخيل ويكفيه من الخيال ما يجلى الصور.

ولسنا فى حاجة إلى ذكر حوادث الرواية لكثرة طبعاتها ولكثرة ما كتب عنهابأقلام كبار الكتاب مثل عبدالقادر حمزة والزيات وعلى الراعى وعبدالرحمن صدقى وعبدالحميد جودة السحار وغيرهم .. وغيرهم ، وإذا كان لابد من تلخيص سريع فإن هماما بطل الرواية ذهب فى يوم من أيام الخريف لزيارة الأستاذ زاهر (السربونى) فلم يجده وانما وجد صاحبة البنسيون التى يسكن عندها زاهر وبجوارها سيدة ، هى سارة، وتم التعارف بينهما ، وتتابعت اللقاءات ، ونشأت قصة حب بينهما ، إلى أن بدر منها ومن ابنها ما يدعو إلى الشك والريبة فقاطعها العقاد، ودفع بأمين (الجبلاوى) لمراقبتها إلى أن تبين غدرها وخيانتها .

وكان الدكتور السربونى قد عاد من باريس عام ١٩٢٤ بعد حصوله على الدكتوراه وكان يقيم فى منزل يحمل رقم ٢١ شارع الأهرام بجوار كازينو بالميرا بمصر الجديدة.

ومازال البيت قائما وإن جرت تعديلات فى طابقه الأرضى. وعلى هذا فتاريخ بدء العلاقة بين العقاد وصاحبته هو ١٩٢٤ لأنه يقترن بعودة السربونى من فرنسا ويساير ما قاله الجبلاوى والزيات وغيرهما من أن عمر العقاد كان خمسة وثلاثين عاما عندما أحب سارة والمعروف أن العقاد ولد عام ١٨٨٩، وقد امتدت علاقة العقاد بسارة إلى مطالع عام ١٩٢٦، فبعد القطيعة سافر العقاد إلى الإسكندرية ليسلو، ويغرق أحزانه فى أمواج البحر ومن هناك بعث برسالة إلى عبدالرحمن صدقى مؤرخة فى ١٢/٤/١٩٢٦ نشرها محمد محمود حمدان فى كتابه «من رسائل العقاد» يشرح فيها حالته النفسية على أثر القطيعة ، ولم يعد الصفاء مرة أخرى بين الحبيبين، أما سارة فقد عاشت فى مصر فترة ، ويقول عامر العقاد فى كتابه «لمحات من حياة العقاد - ١٩٧٠» «كانت لها بنت تزوجت فيما بعد من رجل من رجال التجارة فى فرنسا، ولحقت بها سارة عندما مات ذلك الرجل وورثت عنه



الفتاة وأمها ثروة طائلة ولا تزالان تعيشان فى باريس».

من هي ؟

دون العقاد فى مقدمة الطبعة الثانية من رواية سارة الصادرة عام ١٩٤٣ أن اسمها الحقيقى «أليس» دون أن يفصح عن بقية اسمها فظلت شخصية روائية غامضة إلى أن نشر عامر العقاد صورتها مع العقاد فى مجلة «المصور» بتاريخ ١٩٦٩/٣/٢١ وقال إن اسمها الحقيقى أليس وأنها «تنحدر من أسرة تعمل فى الصحافة نعنى بها أسرة الصحفى الكبير أسعد داغر الذى توفى عام ١٩٥٨» وهو كلام فيه التباس وخطأ إذ إن أليس ليست منحدرة من أسرة أسعد داغر، وإنما ملحقة عليها ، فقد كانت زوجته، وحملت اسمه فصارت تعرف باسم أليس داغر، وأسعد داغر هذا الذى نعنيه غير أسعد خليل داغر الذى كان يحرر فى المقطم والمقتطف والمتوفى عام ١٩٣٥.

ويقول يوسف أسعد داغر فى كتابه «مصادر الدراسة الأدبية جـ ٣ قسم ٢ ص ١٣٦٥ - ١٣٦٧» عن لبيبة هاشم : «بعد معركة ميسلون ١٩٢٠ سافرت (أى لبيبة) إلى الأورجنتين (الصحيح شيلى) فأصدرت فى سنتياجو بتاريخ ١٥ أيلول ١٩٢٣ مجلتها الشرق والغرب الأسبوعية فعاشت سنة، وتولت كريمتها أليس أسعد داغر شئون فتاتها فى غيابها». وهذا الكلام مهم جدا ومفيد لأنه يبين أن أليس بنت لبيبة هاشم ، ويوضح انتساب اسمها إلى أسعد داغر ، ومن جهة ثالثة يعرب عن اشتغالها بالصحافة .

ويوسف أسعد داغر الذى أشرنا ليس ابن أسعد داغر وإنما من الأسرة الداغرية الكبيرة، إذن أليس هى بنت لبيبة هاشم أو لبيبة ماضى القاصة الطليعية ، الشاعرة، الكاتبة المسرحية، والرائدة فى مجال الصحافة النسائية، وصاحبة مجلة «فتاة الشرق» التى أصدرتها فى الفترة من ١٩٠٦ إلى ١٩٣٩ والمحاضرة فى الجامعة المصرية ، هذا علاوة على أن لها فكرا تربويا قوامه أن تتعلم المرأة وتتقن فن التربية ولا تلتحق بالعمل إلا إذا كانت فى حاجة إليه، فالمرأة بالنسبة لها مربية أجيال وفاضلة ، وكانت تقول لا نريد من المرأة أن تكون فيلسوفة وهذا يعنى أنها امرأة محافظة ، ولكن يبدو أنها لم تفلح فى تطبيق نظريتها على ابنتها ، فكانتا متناقضتين.

تزوجت لبيبة ماضى من عبده هاشم (١٨٧٠ - ١٩١٦) فى مطالع عام ١٨٩٧ وانتسبت إليه وعرفت باسم لبيبة هاشم وأنجبت اثنين وهذا يؤخذ من خطاب تعزية بعثت به «مى» إليها عندما مات زوجها حيث قالت : «ولئن أوجعك بكاء ولديك فأنت الأم الراقية تكونين لهما خير أب» (سركيس مارس ١٩١٦) وإذا كنا نجهل ترتيب المولودين فإن عام ١٨٩٩ مناسب جداً لأن يكون تاريخ ميلاد أليس عبده هاشم، ولا ننسى أن العقاد قدر عمرها فى بداية التعارف بخمسة وعشرين عاما .

وتزوجت أليس وهى فى سن العشرين كما سيأتى أى عام ١٩١٩ من أسعد داغر (١٨٨٦ - ١٩٥٨) وهو صحفى كان يكتب

فى الأهرام ، وله مقالات كثيرة عليها مسحة علمية

نشرها منذ عام ١٩١٦ فى «فتاة الشرق» ويبدو أن تردده الكثير على «فتاة الشرق» قرب بينه وبين لبيبة فزوجته بنتها أليس ، ولأسعد داغر نشاط صحفى آخر فقد أصدر عام ١٩٢٧ بالاشتراك مع توفيق اليازجى مجلة «مصر الحديثة المصورة» وهى مجلة راقية كانت تعنى بشئون الأدب والمسرح وتعرض للمشاكل الاجتماعية، والموضوعات السياسية وكان من كتابها خليل مطران وانطون الجميل وأحمد زكى باشا وغيرهم من كبار الكتاب وفى ١٩٥٣/١٠/١٢ تولى إدارة جريدة «القاهرة» وكانت وجهتها قومية عربية ، وكان مستشاراً فى الجامعة العربية.

أليس الكاتبة الصحفية

نشأت أليس فى أسرة صحفية أدبية علمية، ففضلا عما ذكرناه عن أمها وزوجها كان جدها ناصيف ماضى عالماً فى الرياضيات وله فيها ثلاثة كتب غير مؤلفاته فى مسك الدفاتر والفلسفة الطبيعية والمنطق (فتاة الشرق يوليه ١٩١٨) وكان خالها نجيب ماضى صحفياً أديبا حرر فى «فتاة الشرق» كثيرا . ودعته حكومة فلسطين ليشغل منصب وكيل حاكم الناصرة ثم عينته حاكماً لمنطقة بيسان وتوفى عام ١٩٢٣ (فتاة الشرق نوفمبر ١٩٢٣)، فلا جرم أن سايرت أليس هذه الأجواء.

وقد رجعنا إلى «فتاة الشرق» فى العام ١٩٢١/١٩٢٠ فألفينا قصصا ملخصة عن الفرنسية ومقالات اجتماعية ممهورة بتوقيع «أليس داغر» ومنها مقال «السعادة البيتية وواجب الزوجة» تنتقد فيه بشدة المرأة النائحة والمرأة القوية المستبدة، والمرأة المتكبرة التى تحاول أن تحجب زوجها فى المجتمع، والمرأة الساهية والمرأة الثرثارة ، والمرأة المبذرة والمرأة العنيدة والمرأة المتقلبة والمرأة المعجبة بجمالها التى ترغب فى أن تكون موضوع اعجاب الناس بها دائسة بذلك على عواطف زوجها وشرف مقامها . فهذه المرأة تعرض ذاتها للاحتقار، أما السيدة الفاضلة لا تتوخى إعجاب الناس بها بل تتحاشى لفت الأنظار اليها بما يثقل حمله عليها وعلى زوجها».

والمرأة الفاضلة عندها هى التى تدير شئون منزلها «فإذا عاد (زوجها) اليه بعد عناء الأشغال قابلته بابتسامة ملكية وفتحت له كنوز قلبها .. وأسعد ساعة فى حياة هذه الزوجة هى الساعة التى يعود فيها زوجها من العمل وتستعد له وتصلح هندامها وتتناسى أتعابها ولا تفكر إلا فيما يجلبه لها من السعادة والهناء غير مثقلة عليه بمطالبها وتكون فى كلامها بعيدة عن الكذب لا تخجل من عمل تأتيه لأنها لاتعمل مايخجلها . وتنتصح بنصائح زوجها وتحترم مبادئه .. هذه هى الزوجة الكاملة التى تصلح لأن تكون ربة للبيت الشرقى فتملؤه غبطة وسعادة».

وهذا الكلام العذب يمثل رؤية جميلة من المرأة ، ومتى كانت الزوجة كذلك شع نورها على البيت والزوج لأنه يدل على عقل وافر وسريرة طيبة ، وجميل أن ينطلق من بين النساء صوت يستقصى عيوب النساء، ويطامن من خيلائهن وينتقد رعونتهن ويردهن إلى الصواب، فهى تقاوم نزوات المرأة ، وتعيب عليها شغفها بالاثارة مما

يعرض شرفها وشرف زوجها للانتقاص. ولكن خواطر أليس تدعو إلى التأمل وتثير الشجن، لا لخطأ فيها، ولكن لأن الكلام الصادق لايتنافى مع السلوك في الواقع.

ولها مقالة عن «المرأة الراقية في العالم» توازن فيها بين المرأة الأمريكية والمرأة الانجليزية والمرأة الفرنسية، والمرأة الألمانية وغيرهن من نسوة أوروبا. وتذكر الفروق بينهن من نواح عديدة مثل الجمال والعلم وإدارة شئون البيت : وتظهر المقالة سعة إطلاعها وتوجهات ذهنها وبخاصة نحو الجمال، ومن مقالاتها المفيدة مقالة «واجب المرأة إزاء نفسها» وتذهب فيها إلى أن المرأة العصرية يجب أن تحيط بالنهضة العلمية وتتابع شئون المجتمع والسياسة وأحداث الكون وترى أن هذا مفيد في تربية الطفل وتغذية عقله ، وتوصي المرأة الشرقية بتعليم تاريخ بلادها لأنه ينمي روح الوطنية في النفوس ، وتشير إلى أهمية الجغرافيا لأنها تزيد التاريخ وضوحاً هذا إلى جانب الإلمام بمبادىء العلوم الطبيعية لكي تجيب على اسئلة أطفالها. وعندها أن الفلسفة والأخلاق تعدان الأطفال ليكونوا نافعين في المجتمع، وتبين أن هذه العلوم مفيدة للمرأة لأنها تجعلها محدثة لبقة في مجالسها، وفي مقالة لها عن «السعادة وما يحول دونها» توضح أن السعادة في البساطة والعيش في جو نقي ملؤه الحقيقة.

وهذه المقالات التي كتبتها «أليس» تساير اتجاه مجلة «فتاة الشرق» وتتناسب مع أفكار أمها لبيبة، فقد كانت لبيبة تلح على ضرورة تعليم المرأة وتربيتها لتعد الأجيال الفاضلة، ومن ناحية ثانية كانت تركز على ترسيخ السعادة في البيت وذلك عن طريق تعزيز المحبة بين الزوجين وتحميل المرأة مسئولية ذلك.

وللسيدة أليس قصص ملخصة من الفرنسية مثل «الماضي لايموت» و«الخنجر الحي» وقصة بدون عنوان منشورة تحت عنوان فكاهات، وهناك قصة علمية فلكية أوردتها تحت عنوان «في الفضاء الواسع» تزعم أنها من قلمها ، واعتقد أنها ملخصة. وقد توقفت مقالاتها الاجتماعية وملخصاتها القصصية بعد عدد يوليه ١٩٢١ ، ويبدو أنها كانت تنشر ملخصات قصصية بدون توقيع، ذلك أن القصص الملخصة تواصلت في المجلة بنفس الأسلوب. وثمة ملاحظة أخرى وهي أن أسعد داغر لم يعد ينشر في« فتاة الشرق» منذ أواخر سنة ١٩٢٠، والظاهر أنه وقع خلاف بينه وبين أليس، ويلوح لنا أن هذا الشقاق استمر، لأن العقاد يقول في روايته «وليس لسارة زوج» والمقصود من هذه العبارة أنها لاتقيم مع زوجها .

أليس وسارة

إن الموازنة بين أليس وسارة بالغة الصعوبة لأننا لانعرف من أمر أليس مانعرفه من أمر سارة، فبالرغم مما إهتدينا اليه مازالت أليس غامضة والنظرة العاجلة أو المتأنية إلى أليس وإلى سارة تظهر فارقا كبيراً بينهما مع أنهما شخصية واحدة. وليس من أدواتي في

الموازنة غير ماكتبته أليس، وما دونه العقاد عن سارة.

تقول أليس فى مجال الزينة وإسعاد الزوج، على المرأة «أن تعرف مايتطلب الزوج منها» وحين يعود يجب أن «تستعد له وتصلح هندامها» أما سارة فتقول لهمام: «أو تحسب أن المرأة لا تتزين إلا لزوج أو حبيب؟ إنها لتتزين لنفسها، وإنها لتتزين للرجل الذى فى عالم الخيال» وتهكمت وهى تسأله : «أأرضى زوجا؟» فأليس تسعى إلى أرضاء الزوج وسارة تسعى إلى إرضاء نفسها لا إرضاء زوجها . وهذا التباين مرده إلى أن أليس تقول مايجب أن يقال فى مجلة يقرؤها الجمهور ولا تستطيع أن تشطح أو تحيد عن الصحيح لإحساسها بالمسئولية، أما سارة فإنها تفعل ماتريد وتساير أهواءها ونزعاتها.

وإذا كانت أليس تبدو من مقالاتها أنها محبة لزوجها تنتصح بنصائحه فإن سارة على عكس ذلك . تقول حسب رواية الجبلاوى التى مصدرها العقاد: «الحقيقة إننى مظلومة فى حياتى وخصوصاً فى الزواج، لقد جنى علىّ أهلى .. فقدت رحمة الأم وأنا صغيرة ، ولم أجد أهلى وأنا كبيرة .. كنت بنتا بريئة .. فلما كبرت كانت نفسى متفتحة للحياة وأفكر فى مستقبل سعيد لكن خاب أملى .. تزوجت فى العشرين من رجل فى الخمسين فلم استرح فى زواجى وكان أهلى يلحون علىّ فى الزواج منه لثرائه، ولكن هل الثراء كل شىء، لو تزوجت رجلاً يملأ عينى ويحقق معنى الرجولة كنت عشت سعيدة .. ولكن حظى خاب فى الزواج ووجدت قلبى فارغا من كل شىء ، ولم استطع صبرا على الفراغ الذى أعيش فيه» وقد قال العقاد مثل هذا الكلام فى فصل «كيف عرفها؟» وآثرنا رواية الجبلاوى التى أوردها فى كتابه «فى صحبة العقاد» لأن فيها زيادة وتفصيل. وأليس فى كتابتها تدعو إلى بساطة المظهر لتتحقق السعادة وتتساءل قائلة: «ماهذه التغييرات المدهشة التى نراها يومياً فى الأزياء؟» أما سارة كما يقول العقاد : «تقرأ أوروبا كما تعبد أزياءها».

أليس صحفية وكاتبة ومترجمة ، أما سارة فـ «قارئة حصيفة» «تقرأ (لهمام) أسفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحول المحدثين الغربيين..».

«تقرأ الشعر والنثر وتنتقد الصورة المتحركة». وقد يكون لإغفال العقاد كتاباتها مبرر وهو إخفاء معالمها الخارجية حتى لايحدد القارىء شخصيتها .

وعلى هذا النحو تجد فوارق بين أليس وسارة أو بين المثال والواقع.

الرواية

ورواية سارة وإن كانت حقيقية ، وجميع أبطالها من الأدباء والكتاب ، فإنها رواية نفسية تتناول الشك والتخمين، والحيرة والغيرة ، والوهم والحقيقة والرياء، والصفاء والكدر، والتذكر والسلو وغير ذلك من أحوال النفس . وإذا كانت رواياتنا تتراوح بين الرومانسية والواقعية ، فإن رواية سارة النفسية تدخل إلى نادى القصص أو معرض الروايات وتحتل الركن النفسى.

ويكاد يكون الشك هو بطل الرواية، فلم يكن فى مقدور العقاد طرح الوساوس والظنون من نفسه ثم يتأسى ويخلد



للراحة. وقد استغرق الشك وما نجم عنه من إضطراب وألم ورقابة صفحات كثيرة، ولولا هذا الشك ربما لم تكن هناك رواية سارة، كذلك فإن هذا الشك انتج أدباً نثريا فى الرواية. وأدبا شعريا نستطيع أن نطالعه فى ديوان «اشجان الليل» للعقاد وبخاصة قصائد «يوم الظنون» «الشك»، «الحب المريب» ، «اليقين» وغيرها.

ولعل الفصل الذى كتبه العقاد تحت عنوان «لماذا هام بها» هو من أعمق فصول الرواية النفسية فهو يرى أن «الرجل ليسره أن يستكشف المرأة .. ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه...» وتمضى مع هذا الفصل التحليلى لا لتعرف أسباب الهيام فحسب، وإنما لتتعرف على عقل العقاد الوثاب الناهض وهو يتعالى ويتسامح ليصل إلى الحكمة الكلية

* * * *

وبالرغم من أن رواية سارة غنائية ذاتية، فإنها رواية فنية ، فكاتبها لم يسرد أحداثها وفقا للتعاقب الزمنى، وإنما بدأها من قرب نهايتها أى منذ بدأ فكره يتأرجح بين الوصل والفصل حسبما يثبت له من براءتها أو إدانتها، وهى فترة يمكن أن تكون فاصلة بين ماكان وما سيكون . ويصح أن هذه البداية مناسبة لمقتضيات الفن، ويقول عبد الرحمن صدقى عن هذه البداية إنها تأتى «فى مقدمة الوسائل الفنية التى تضفى على الواقع صفة «الفن».

إن هذه البداية جاذبة لموضوع الرواية ومشوقة إلى معرفة ماسينتهى عليه الأمر .

ويقول العقاد : «ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال عن بداياتها وسبيل التاريخ أن تنطوى السير وتنصرم الدول ثم نقتفى مناشئها» ولا أذهب إلى أن هذه الطريقة هى الطريقة المثلى فى القص، وإنما لكل قصة طريقة تناسبها .

ولأن الرواية لاتشتمل على شخصيات عديدة ، فقد عنى العقاد بوصف جوانب كثيرة فى شخصيتى سارة وهمام، فقد أبرز فى همام شدة عشقه وعلو فكره ويقظته وأظهر فى سارة أوصافها الخارجية، وتسلل إلى باطنها واستظهره. ومع أن معظم الكلام دار حول سارة، فإننا نشعر أن هماما هو المسيطر على أجواء الرواية لأنه يتفلسف ويتتبع ويعرف أين يقف ومتى، وفى أى طريق يسير.

والحوارات فى الرواية لها دورها فى نقل الأحاسيس والفكرات، وإظهار مايدور فى النفوس من صراعات وبخاصة إذا كان هناك خلاف فى الآراء ، ويجب أن نشير إلى حوارين من حوارات الرواية لهما دورهما فى بناء الرواية : الحوار الأول الذى دار بين البطلين عند ماريانا وكان سبب التعارف وبداية الطريق، والحوار الثانى الذى دار بينهما عندما تلفظ ابن سارة بكلمات غرامية جعلت العقاد يشك فيها، فهذان الحواران فى زعمى من أهم الحوارات لأنهما بداية الغرام وبداية الفراق. ■

رحيل



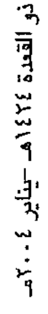
محمد شكرى

صاحب التجربة الأدبية الخاصة

بقلم
د. صبرى حافظ

لاشك أن رحيل الكاتب المغربى الكبير محمد شكرى فى الخامس عشر من نوفمبر ٢٠٠٣ يشكل خسارة فادحة للأدب العربى الحديث. ذلك لأن محمد شكرى ظاهرة فريدة فى أدبنا الحديث. وتجربة أدبية متميزة فيه، لها فرادتها ولغتها وعالمها الخاص الأثير. استطاعت ان تكتب لنا عالما مغايرا للعوالم التى عرفها أدبنا الحديث منذ بداياته فى مطلع القرن العشرين، وان تقتحم مجموعة من المناطق المسكوت عنها، وتكتبها بصدق وطزاجة وعفوية لفتت الى هذه التجربة المتميزة أنظار القراء والكتاب على السواء. وإذا كان محمد شكرى قد كتب عالم القاع الاجتماعى العربى من الداخل، وبطريقة صادقة الى حد الصدمة الجارحة لم يكتب بها من قبل، فإنه استطاع كذلك أن يأسر لنا تحولات مدينة طنجة المغربية على الورق، وأن يبلور لنا عبر أعماله المتتابعة ما جرى لها طوال نصف قرن من الزمان.

فقد كتب لنا فى وقت واحد تاريخها المغربى التحتى والوطنى الذى رافق سعى المغرب الحثيث للاستقلال، وتاريخها الأجنبى المترع بالتناقضات الناجمة عن تدويلها لسنوات طويلة، وانفلاتها من قبضة المواضعات الاجتماعية والأخلاقية لزمن غير قصير. وقد كتب عدد من الكتاب الغربيين وخاصة الكاتب الأمريكى الشهير بول بولز. عالم طنجة الدولى المترع بالتحلل والمتع واللذات الحسية أو «الهيدونية» والحرية التى لم تكن متاحة فى أكثر مدن الغرب تحررا فى ثلاثينات القرن العشرين وأربعيناته . وكتب عدد آخر من الكتاب المغاربة بعض ملامح مدينة طنجة المغربية ذات الطابع العربى الخالص . ولكن لم يتح لأحد أن يعرف عوالم طنجة المتعددة والمتباينة مثل محمد شكرى.



فقد أتاحت المقادير لمحمد شكرى أن يعيش تجربة طنجة فى العقدين التاليين للحرب العالمية الثانية بكل اتساعها . من قاعها الاجتماعى المغربى فى المدينة القديمة، المزدحم بالفقراء والسحرة والدراويش، المترع بالمسحوقين والبغايا والمعوزين، بالمجرمين والعاطلين . وان يكون واحدا منهم فى الشطر الأول من حياته. كما أتاحت له الظروف كذلك أن يكون واحدا من المغاربة القلائل الذين انخرطوا فى عالم المدينة الغربية المناقض كلية لمدينتها الشرقية القديمة. عالم المنطقة الدولية الحرة الملىء بالأجانب من كل حدب وصوب، عالم الفيلات الفخمة فى المرتفعات المطلة على البحر أو المحيط، والحفلات الاجتماعية الصاخبة، والسلوك الحسى المترع بالمتعة والتحلل. وكان هذا العالم الكوزموبوليتانى المؤتلق عامرا بالكتاب والمثقفين الأوروبين والأمريكيين من الفرنسى جان جينيه Jean Genet والانجليزى إيفيلين وو Evelyn Wough إلى الأمريكيين بول بولز Paul Bowles وزوجته جين وتينيسى وليامز Tennessee Williams وترومان كابوت Truman Capote وجاك كيرواك Jack Kerouac ووليام باروز William Burroughs وآلان جينسبيرج Allen Ginsberg وغيرهم. وهما عالمان قد يتلامسان ويتجاوران ولكن من المستحيل أن يتفاعلا أو يتلاحما، ولذلك فمن النادر أن نجد من استطاع أن يعيشهما معا من الداخل، وأن يكون قادرا على استبطانهما كليهما بنفس العمق والصدق والصراحة الجارحة

الكاتب المغربى محمد شكرى

كما هى الحال مع محمد شكرى ، لأن محمد شكرى نفسه هو ثمرة هذا الحوار بين شقى طنجة المختلفين. فقد عاش محمد شكرى النصف الأول من حياته فى قاع المجتمع المغربى وعاشر اللصوص والمهربين والمشردين وأبناء الشوارع. كما عاش الشطر الأول من النصف الثانى من حياته فى فىء المدينة الدولية الحرة فى طنجة . وكان لمعرفته بعالم الكتاب والمثقفين الدوليين فيها فضل تحوله من صعلوك كبير إلى كاتب كبير.

فقد ظل محمد شكرى حتى الأيام الأخيرة من حياته، وقبل أن يجعله المرض قعيد المستشفى يجمع بين جوانحه الجانبين معا: الصعلوك الكبير المتعطش لمتع الحياة الحسية ولذاتها اليومية

البسيطة والمترع بحب العدل والحرية والتمرد على المواضعات الجائرة، والذى أعاد مجد الشعراء الصعاليك فى الجاهلية، وإن بمصطلح يناسب العصر الحديث، والكاتب الكبير الذى استطاع أن يجدد الخطاب الأدبى المغربى، وان يغامر به فى بقاع لم يسمع فيها وقع لقدم مغربية او عربية من قبل، وأن يصوغ فيه لغة سردية جديدة، ويجلب إليه عالما فريدا من التجارب الإنسانية الشيقة. والواقع أن محمد شكرى جمع بين الجانبين لأن الحياة مكنته من أن يعيش بحق حياتين ما كان لهما أن تجتمعا فى إنسان واحد، لولا تفرد هذا الإنسان وإرادته المدهشة. وطاقته الإنسانية الفذة وقدرته على الفهم والعطاء والإبداع، فقد شاءت له الحياة أن يعيش حياة لا يمكن فى أعتى الأحلام تفاؤلا. أن تفضى إلى خلق كاتب كبير، ومع ذلك استطاع أن يتغلب على هذه الحياة الصعبة، وأن يقهرها بإرادة جبارة من حديد، إرادة لا تتسم بالصرامة، وإنما بالليونة والعفوية، وكأنها أدركت منذ البداية أن الديناصورات الصلبة العملاقة قد اندثرت، بينما استطاعت الأميبا القادرة على التأقلم والتكيف، وحماية نفسها وتجديد خليتها باستمرار من البقاء ملايين السنين. فهذا هو منطق الحياة المراوغ الذى يكسر الكيانات الضخمة المتخشبة، بينما يسمح للكائنات اللينة الهشة بالتكاثر والاستمرار.

طنجة مدينة حرة

وعندما جاء محمد شكرى إلى طنجة لأول مرة هاربا من أسرته فى تطوان عام ١٩٤٢ وهو صبى لم يتجاوز السابعة من عمره «فقد ولد عام ١٩٣٥» كانت المدينة تنقسم إلى مدينتين المنطقة العربية التى أعلنت منطقة دولية حرة عام ١٩٢٨ وازدهرت كمدينة دولية حرة بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معان ودلالات ، فقد توفرت فيها حريات لم يعرفها الغرب الأمريكى نفسه إلا بعد ذلك بعقدين من الزمان. والمنطقة الشعبية المغربية التى لا يقوم فيها المواطنون إلا بأدوار الخدم والشحاذين والعاهرات، والقوادين ومهربى المخدرات واللصوص والمجرمين وموفرى الأولاد للواطيين، وكان من الطبيعى أن يقع هذا الصبى الذى فر من الموت والجوع فى تطوان فى براثن محترفى هذه المدينة الشعبية . كان شكرى ينحدر من أسرة فقيرة من أسر «الريف» المغربى. فقد جاء الأب من «سوق احد بنى شيكر» وجاءت الأم من «أرهوابن» وعاشت الأسرة الفقيرة محنة الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينات ، والتى ضربت «الريف» المغربى بقسوة فى شكل مجاعة قاتلة، فر منها الأب بأسرته الى مدينة «تطوان» آملا فى أن يجد فيها مهربا من حظه العاثر فى ريف المجاعة. لكن هذا الحظ العاثر تعقبه فى المدينة التى فر إليها، ولاحقته فيها البطالة والحاجة وعدم القدرة على تلبية مطالب أسرته. وقد فاقم من هذا الوضع العاثر أن الأب كان ينفق القليل الذى يكسبه على الشراب والحشيش، ويعود فى آخر الليل إلى أسرة يضنيها الجوع. فـ«يفش» فيها إحباطاته المتراكمة بالقسوة وضرب الجميع، الأم والصغار على السواء. وكان الخال يحمى الأسرة فى كثير من الأحيان من بطش الأب الأعمى بها . ولكن هذا الخال توفى فجأة عام ١٩٤٢، وهو تاريخ فارق فى حياة محمد شكرى.

فبعد وفاة الخال بفترة وجيزة، وفى إحدى نوبات غضب الأب من شقيق محمد



شكرى الأصغر منه - وكان طفلا هادئا، ولكنه فى ليلة من الليالى لم يستطع الكف عن البكاء من ألم الجوع، فاغتاظ منه الأب الشرس لأنه لم يستجب لأمره بالسكوت، وضرب الطفل ضربة مصمية أسكتته إلى الأبد وقتلته فى الحال. وقد شاهد محمد الصغير - وهو فى السابعة من عمره - مصرع أخيه على يد أبيه، وتوعد الاب من يتفوه بكلمة عن هذا القتل العرضى بالموت، فخيم على الأسرة كلها مناخ من الرعب والموت المهيمنين. وجاء هذا المشهد الوحشى بعد وفاة الخال التى أثرت على الأم وطفليها ، فلم يستطع محمد شكرى الطفل ان يتخلص من أثر هذا كله عليه، ولم يتمكن من أن يتخلص من أثر هذا الموت الفعلى، والموت المعلق فوق رأسه لو تفوه بكلمة عنه، فقرر أن يهرب من بيت الأسرة حتى لا يلحق بأخيه الصغير. وترك محمد الطفل البيت إلى حياة الشوارع، ولما طارده الأب بحثا عنه ترك تطوان كلها، وفر إلى طنجة وهو فى السابعة من عمره. لتتلقفه فيها حياة لا تقل قسوة ورعبا عن تلك التى هرب منها. فقد عاش محمد شكرى الصغير حياة الشوارع القاسية . نام فى العراء، وطارده الخوف من الأب الذى يبحث عنه، والرعب من الشرطة التى تطارد المشردين أو من الجرذان التى تقضم أناملهم أثناء نومهم فى مداخل المحلات المغلقة، ومن المجرمين الذين يستغلون هؤلاء المشردين لمآربهم الإجرامية المتعددة. وأصبح هذا الطراد هو النغمة السائدة فى حياته لسنوات طويلة قادمة. سيطرت على صباه ومراهقته معا. ودفعته لحياة الجرائم الصغيرة، والعصابات الصغيرة والتشرد الدائم لأكثر من عشر سنوات.

وكما يقول لنا جان بول سارتر فى كتابه الجميل عن «القديس جينيه» - وهو دراسة نقدية شيقة لحياة وأعمال الكاتب الفرنسى الكبير جان جينيه - بأنه طرد من طفولته منذ وقت مبكر. نجد ان محمد شكرى قد طرد هو الآخر من طفولته مبكرا، وانقسمت حياته مثله إلى قسمين متميزين: حياة ما قبل معرفة القراءة والكتابة، وحياة ما بعد تعلمهما ، ولذلك أدرك هذا الصبى الذى طرد من طفولته النضج منذ وقت مبكر فى حياته وهو لم يتجاوز السابعة بعد، وإن كان نضجا قاسيا مفزعا. كان عليه منذ نعومة أظافره إن كان قد عرف شيئا من هذه النعومة الاصطلاحية، ان يتحمل مسئولية حياته، وان يساهم فى أحيان كثيرة فى رعاية أمه وبقية إخوته، بعد ما يئست الأم من أن يوفر لها الأب ولأولادها الرزق، وعملت فى بيع الخضر. وكان عليه دائما الهرب من بحث أبيه الدائم عنه، ومطالبته بنصيب مما يكسبه الابن من أى نشاط يقوم به . لكن محمد شكرى الصبى كان قد قرر منذ قرر ترك البيت قطع كل رابطة تربطه بهذا الأب، لكن الأب لم يفهم هذا القرار إلا بعدما نالته «علقة» انتقامية ساخنة على يدى صديقين لمحمد فى حياة الصعلكة. سارعا لإنقاذه عندما هجم عليه الأب وأخذ يوسعه لكما وركلا حتى أدمياه . انه يصف ذلك فى «الخبز الحافى» وكأنه ينطوى على نوع من الشفاء من ألم الهوان. والخلاص من عذاب الاب الذى لاحقه باستمرار «وتمنيت لو انى أشاركهما فى ضربه . لو كان فى مكان خال من الناس لشاركتهما . كان عزاء لى أن أراه يضرب على مرأى منى حتى يسيل دمه كما أسال دمى كلما ضربنى» (ص ٧٥).

أمى حتى سن الرشد!

لكن هذه الحياة الصعبة التى أدخلته

فى طوايا عالم المدينة التحتى والسرى معا من حياة اللصوص والبغايا الى أعمال المهربين وكل أشكال تحدى السلطة الوضعية. لم تستمر طويلا فى حياة محمد شكرى، لانه عندما بلغ سن الرشد عام ١٩٥٦، وهو العام الذى شهد استقلال المغرب، قرر أن يتعلم القراءة والكتابة وكأنه يفتح بوعى صفحة جديدة فى حياته كتلك التى يفتحها الاستقلال فى حياة المغرب ذلك لان محمد شكرى، الذى ظل أميا حتى بلع سن الرشد، وإن كان قد كشف رغم أميته عن موهبة لغوية واضحة . فقد تعلم بشكل شفهى الإسبانية والانجليزية أتاحت له التعرف على الجانب الغربى من المدينة وكان محمد شكرى قد تعرف فى بواكير شبابه على الكاتب المغربى محمد الصباغ، الذى كان يتردد بانتظام على أحد مقاهى طنجة الشهيرة، وأثار الصباغ إعجابه. وأراد أن يكون مثله، فوجهه الى ضرورة أن يتعلم القراءة والكتابة. وانتقل إلى العرائش حيث التحق بمدرستها الابتدائية وهو فى الحادية والعشرين من عمره. وفتحت له القراءة أبواب المعرفة على مصراعيها . فأخذ ينهل منها بلا حدود. بطريقة ساعدته على قطع خطوات فسيحة فى التعليم فى فترة وجيزة ، أتاحت له أن يصبح معلما فى المدارس الابتدائية بعد عشر سنوات من محو أميته لكن حلمه كان أن يصبح كاتبا لا مدرسا، فهو لا يطيق التراتب الوظيفى ولا روتين المؤسسة لذلك تسرع فى الكتابة، وبدأ فى نشر عدد من القصص والقصائد فى الدوريات المغربية والعربية المختلفة، سرعان ما لفتت له الأنظار. إذا كانت كتابته من البداية ذات مذاق فريد. ونكهة أدبية متميزة وتوثقت فى الوقت نفسه علاقته مع مجموعة الكتاب الغربيين الذين كانوا يقيمون فى طنجة فى هذا الوقت ، وخاصة جان جينيه وبول بولز وتينيسى وليامز. وفى جلسة جمعته مع بول بولز وعدد من الصحفيين والناشرين الغربيين، حكى لهم شيئا من قصة حياته . فاقترح عليه أحدهم أن يكتب سيرته الشيقة تلك، وتحمس بول بولز للفكرة، وعرض ان يترجمها للإنجليزية مع محمد شكرى لو كتبها . وكان الناشر الانجليزى المعروف بيتر أوين حاضرا، فتعهد أن ينشرها لو ترجمها بول بولز ووجد محمد شكرى نفسه – كما حكى لى وهو يقدم لى القسم الثانى من سيرته الذاتية الروائية لأخذه للنشر فى لندن، وأكتب مقدمة له – يقول إنه كتبها، وان عنده مخطوطتها مع انه لم يكن قد كتب شيئا منها على الإطلاق. فواعده بول بولز على الأسبوع القادم كى يأتى له بالفصل الأول للبدء فى عملية الترجمة. وفى الموعد المحدد جاءه فعلا بالفصل الأول الذى كتبه فى أيام قلائل اختلى فيها بنفسه فى مقبرة ، كما يقول لنا فى «الشطار». وفى اللقاء التالى جاء بالفصل الثانى . وهكذا حتى اكتملت الكتابة واكتملت الترجمة وصدرت «الخبز الحافى بالانجليزية أولا ثم بالفرنسية قبل أن تصدر بالعربية ليعانى من المنع اولا، ثم لتصبح واحدة من النصوص الجديدة والمهمة فى مجالها فى الادب العربى الحديث.

والواقع ان الطريقة التى كتبت بها هذه السيرة الذاتية الروائية هى السر فيما ينطوى عليه من عفوية وطزاجة . فقد انبثق النص. لا عن رغبة مسبقة فى كتابته. أو تعمل قصدى لإنشائه، وإنما ككل شئ فى حياة صاحبه – التى يرويها لنا فيه بتلقائية نادرة وصدق جارح – كاستجابة



فورية للحظة سرعان ما تتحول إلى تجربة يعيشها بكل كيانه. إنه واحد من النصوص العربية القليلة التى تم الاعتراف الجمعى والعالمى بقيمة التجربة التى ينطوى عليها قبل ان يكتب من هذه التجربة سطرا واحدا، لأن اعتراف مثقفين كبار من طراز جان جينيه، وتينيسى وليامز وبول بولز بأهمية التجربة ومطالبتهم صاحبها بكتابتها نفى من ساحة النص كلية أخطر ما تتعرض له النصوص السيرذاتية من مثالب، وأولها تعمد تبرير الكتابة عن الذات والتعلل بأهمية التجربة أو كاتبها على السواء. لان آخر ما يمكن ان تزعمه التجربة التى ينطوى عليها هذا النص العربى الرائد والجرىء هو أنها تجربة كاتب مهم. لأنها فى حقيقة الامر تجربة امى من قلب القاع الاجتماعى ، ومن أكثر هوامشه هامشية. وثانيها المصادرة المضمرة فى النص السيرذاتى بأنه ينطوى على قدر من الحكمة ويقدم خلاصة لتجربة، أو شهادة على مرحلة، أو مجموعة من المفاتيح لفهم شخصية كاتبها أو أعماله ولذلك يطرح محمد شكرى علينا من البداية نصه باعتباره «سيرة ذاتية روائية» فيموضعه تجنيسيا على الوتر المشدود بين جنسى السيرة الذاتية والرواية. ثم أضاف الى هذا التجنيس صفة أخرى مع الجزء الثانى من عمله «الشطار» فسماها «سيرة ذاتية روائية شطارية».

أدب الشطار

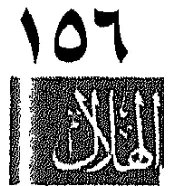
والواقع أن هذه الإضافة التجنيسية مهمة للغاية، لأنها تربط هذا النص الحديث بأدب الشطار والصعاليك والعيارين فى أدبنا العربى القديم، فهو منذ الشعراء الصعاليك فى الأدب الجاهلى أدب لا يعبأ بالمواضعات والتقاليد، وينحو دائما إلى الخروج عليها. كما أن أدب «الشطار» كما يدل عليه اسمه، مستقى من دلالة كلمة شطر كما نجدها في لسان العرب لابن منظور «شطر عن أهله شطوراً وشطارة اذا نزح عنهم وتركهم مراغما أو مخالفا وأعياهم خبثا: والشاطر مأخوذ منه وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثا . واخذ فى نحو غير الاستواء وهذا المعنى اللغوى كامن فى سيرة محمد شكرى الروائية بكل ظلاله وتنويعاته من حيث مجانبة الاستواء» بالمعنى التقليدى ، والخروج على الأعراف المألوفة بالتحدى والتمرد، ومجاله الاستواء بمعناها الحديث، وهو تأسيس مسار جديد، والخروج على التكرار والقطيعية، وأدب الشطار العربى القديم، مثله فى ذلك مثل سيرة محمد شكرى الشطارية ذاتها، أدب طالع من القاع او الهامش الاجتماعى ومناقض فى كثير من رؤاه ومنطلقاته للخطاب الرسمى السائد فى عصره، كتب عنه الجاحظ كتابا مهما قبل أكثر من عشرة قرون وهو (كتاب حيل اللصوص) وهو أدب الفقراء والجياع الذين طحنهم الفقر وأعيتهم البطالة بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العباد، وانهماكهم فى الميذان على حد تعبير المقريزى - فضاقوا ذرعا بغياب القانون، وعيبوبة السلطان وغباوة العسكر وأهل الدولة، أو لانهماك السلطان، فى القصف والعزف، وإعراضه عن المصالح الدينية والخبرات السياسية - على حد تعبير ابن حيان التوحيدى.

سيرة تتسم بالصدق الجارح

لكن سيرة محمد شكرى الذاتية سيرة روائية كذلك، بمعنى أنها شديدة الصلة ببنية الرواية الفنية السردية، وبما تنطوى عليه هذه البنية من خيال وابتداع، لكنها رواية من نوع خاص توحد فيها الأنا

الرواية بالأنا الكاتبة ، بالأنا التى عاشت التجربة وقاست من ويلاتها . كما يتم فيها جدل خلاق بين الشفهى والمكتوب، وبين المروى والمعاش فيكسبها ذلك مذاقا روائيا متميزا شديد الحداثة، ولكنه فى الوقت نفسه بالغ التلقائية والعفوية والتواضع، لأن حداثة هذه السيرة الروائية الشطارية لا تنبع من ادعاءات التحديث كما هى الحال مع الكثيرين وكتاباتهم المثقلة بالمغاظلات، ولكن من الصراحة الصادقة والعفوية الطازجة المنعشة، ومن القدرة على العثور على اللغة المناسبة لكل جزء من أجزائها الثلاثة التى تتعدد فيها اللغات وتختلف طبيعة السرد وايقاعاته من جزء لآخر، فهى سيرة اعترافية تتسم بالصدق الجارح، والقدرة على أن تصبح - كما يقول محمد برادة - سيرة لقراءة الذوات المغيبة والمهمشة. وسيرة فى الوقت نفسه لمرحلة مهمة فى تاريخ المغرب، وأهم من هذا كله لتاريخ مدينة طنجة التحتى وما عاشته من تحولات، لأن الجزء الأول منها «الخبز الحافى» يكتب مرحلة الطفولة والتصعلك والصبا، ويواصل مسيرة الراوى/ الكاتب/ البطل حتى سن الرشد. وبمحض المصادفة فإن محمد شكرى المولود عام ١٩٣٥ بلغ الحادية والعشرين عام ١٩٥٦ وهو نفس عام حصول بلده المغرب على استقلاله فتحولت معاناة هذا الانسان الطالع من حضيض المجتمع المغربى الى استعارة دالة على معاناة المغرب الطالع من تحت نير الاستعمارين الفرنسى والإسبانى، ورافق بلوغه سن الرشد بلوغ المغرب هذه السن بالاستقلال ووعود الحرية والعدل. فتحول الكتاب برمته الى استعارة روائية شفيفة، كانت لغتها الجديدة شارة على امتلاك المغرب ذلك لغته ومصيره .

أما القسم الثانى من هذه السيرة الذاتية «الشطار» أو «زمن الأخطاء» فقد سجل تحولا بارزا فى حياة الشخصية الراوية/ البطل/ الكاتب فى آن وفى حياة المغرب الذى بدأ يعانى هو الآخر من زمن الأخطاء، أخطاء مرحلة الاستقلال وتخثر الاحلام الوضيئة بالعدل والحرية. وكان نضج الوعى فيها قرين اتساع رقعة التجربة من ناحية، وجغرافيا النص من ناحية أخرى، حيث نكتشف فيها جوانب جديدة من حياة مدينة طنجة المغوية، ونقرأ معا تواريخها السرية بمواخيرها وحاناتها وبارات الأجانب فيها. ونتعرف بالإضافة إلى هذا كله على فضاءات مغربية أخرى من العرائش إلى تطوان، وأهم من هذا كله اتساع خريطة الانفعالات والعواطف الإنسانية الحميمة من عاطفة الابوة نحو طفلة فطيمة، الى مشاعر الزمالة نحو الكفيف «مختار» والحب العذرى لمعشوقته البتول، وصداقة حميد وسعيدة وعائشة. وتضع الرواية المعرفة والتعليم فى مكان ارقى من النجاح الاجتماعى والحصول على المال. حيث ينفس عليه صديقه القديم «التفرسيتى» ما حققه من تعليم فيشعر البطل /الراوى بقيمة ما انجزه، خاصة بعدما يعرف بسجن عبدالسلام وهرب السناوى رفيقى الصعلكة القديمة فى «الخبز الحافى» كما تقدم لنا الفصول الاخيرة لهذا الجزء الثانى دراسة شائقة فى جغرافيا مدينة طنجة البشرية. وأركيولوجيا تراكمات العابرين فيها من الأجانب والشعراء والكتاب والمحيطين ويتحول النص كله تحت وقع المعالجة الحساسة والمرهفة إلى وثيقة تحرر الذات من تواريخ القهر القديمة. وتحويل الكتابة ذاتها إلى أداة لاستنقاذ الذات من قهر



الماضي، وفتح آفاق التحقق والحرية أمامهما.

السعي وراء السعادة

ويصل هذا التحقق ذروته في الجزء الثالث من هذه السيرة الذاتية الروائية الشطارية «وجوه» والذي صدر قبل عامين ووجوه هي اخر نص طويل يكتبه محمد شكرى قبل رحيله، بعد نصه النقدى التأملي «غواية الشحرور الأبيض». وهي عمل بالغ الرهافة والعذوبة، الشاعرية. يكشف لنا عن معارج ارتقاء الذات من «الكارما» التي تنحو بالإنسان إلى إرضاء غرائزه والاهتمام بنزعاته الحيوانية الخالصة إلى «النيرفانا» التي يتخلص معها الانسان من هذه الغرائز التي تشده الى طبيعته الحيوانية، ويتسامى عليها الى معارج التعالي على كل ما هو دوني وخبيث، والسمو الى كل ما هو روحي ونوراني خالص .لأن «النيرفانا» تعلمه ان يلم شتاته ليتحد مع الوجود المطلق، بعدما يدرك ان ملذات الحياة أقل من عذاباتها، وان من الافضل ان يبحث الإنسان مع شوبنهور عن طريقة للتخلص من العذاب بدلا من السعي اللامجدى وراء السعادة المتوهمة ولذلك فقد اتسمت الكتابة في هذا الجزء الاخير بقدر كبير من الشاعرية التي تقترب من تخوم الحكمة بعدما استبدل البصيرة بالبصر، وأخذ يبحث عما يدور في داخل النفس البشرية قدر بحثه عما يتبدى من تصاريفها، واستقطر التجربة الإنسانية في شذرات موحية دالة، وعامرة بالبصيرة والحكمة، ويكتب لنا هذا الجزء كذلك تاريخ طنجة التحتى في العشرين سنة الأخيرة، وما عاشته من تحولات وانهيارات اجتماعية وعمرانية مصمية. ولا يقدم لنا هذا من خلال اى زعم تاريخي، وإنما من خلال حفنة من الشخصيات والوجوه الإنسانية التي تكتسب أكثر من معنى وتتراكب عبرها الدلالات الشخصية والتاريخية والمكانية والسياسية في آن.

وهذا التراكب العفوى في الدلالات – والذي يسرى في أرجاء هذه السيرة الثلاثة –هو سر أهمية هذا النص الرائد في أدبنا الحديث ومصدر جدته معا. لذلك انفق محمد شكرى أكثر من عشرين عاما في كتابتها. فبعد أن انتهى من كتابة الجزء الأول منها «الخبز الحافي» عام ١٩٧٢، صدر قسمها الثاني في طبعته اللندنية بعنوان «الشطار» وفي طبعته المغربية بعنوان «زمن الأخطاء» عام ١٩٩٢ ثم صدر قسمها الثالث «وجوه» عام ٢٠٠٠ ويرغم أهمية هذا العمل الكبيرة، فإن لكاتبه اعمال أخرى مهمة مثل رواية «السوق الداخلي» عام ١٩٨٥ ومجموعتين قصصيتين : «مجنون الورد» ١٩٧٩، و«الخيمة» ١٩٨٥ وكتابان عن علاقته الخاصة بكل من جان جينيه وتينيسى وليامز بالإضافة الى «غواية الشحرور الأبيض» وهو كتاب فريد في بابه، ليس فقط لأنه يكشف عن ثقافة الكاتب الواسعة، وإنما لأنه يقدم لنا بصيرته النقدية الثاقبة وعمق فهمه للأدب والحياة معا. و«ورد ورماد» ٢٠٠٠ وهو كتاب فريد آخر، لا مثيل له في أدبنا الحديث لأنه يضم مجموعة من الرسائل المتبادلة مع صديقه الكاتب المغربى الشهير محمد برادة والتي تكشف لنا الكثير مما كان يعتمل في أغوار كل منهما عبر مسيرة صداقتهما الطويلة. ■





لطائف أخبار الأول

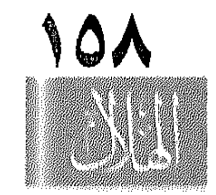
فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول

الإسحاقى المنوفى

أو التاريخ على طريقة ألف ليلة وليلة

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

نتشترك كثرة من قراء التاريخ مع جمهرة من دارسيه فى الاعتقاد بأن حقبة الاحتلال العثمانى لمصر كانت بمثابة (ثقب أسود) إبتلع ماتميزت به حقب سابقة من كتابات تاريخية مازالت آثارها الباقية تشهد برقى فن التأريخ آنذاك، وهو اعتقاد ربما تسببت فيه وغذته ندرة المتاح من كتابات تاريخية تنتسب إلى هذه الحقبة التى امتدت قرابة ثلاثة قرون (١٥١٧ - ١٧٩٨م)، وذلك إذا ما قورنت بوفرة ما وصل إلينا من حقب سابقة ممثلا فى كتابات مؤرخين عظام من أمثال المقريزى - ابن تغرى بردى - ابن حجر العسقلانى - شمس الدين السخاوى وابن إياس، وهى كتابات تميزت بموسوعيتها وضخامتها واشتمالها على عديد من الفنون، بما يشهد للعصر الذى انحدرت منه إلينا بالثراء المادى والفكرى

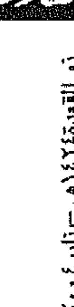


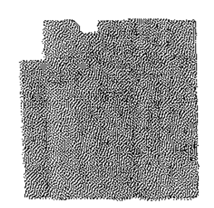
ولقد تصدت مدارس التارسخ العثمانى فى بعض الجامعات المصرية مثل جامعات الإسكندرية والقاهرة وعين شمس أخيرا لهذا الاعتقاد بالبحث عما هو متاح من كتابات تلك الحقبة لتحقيقه ومن ثم نشره، فكان من جراء ذلك أن أتيح لقراء التاريخ، ودارسيه أن يطلعوا فى السنوات القليلة الماضية على كتب اهتمت بمعظم سنوات الاحتلال العثمانى لمصر، نذكر من هذه الكتب مايلى:

«الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة» لمحمد بن أبى السرور البكرى، «تحفة الأحباب» ليوسف الملّوانى، - «الثورة المصانة فى أخبار الكنانة» لأحمد الدمرداش و«تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة» لمصطفى بن الحاج إبراهيم، وينتمى كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» للاسحاقى المنوفى الى تلك المجموعة من الكتب التى اهتم مصنفوها بتسجيل تاريخ الحكم العثمانى لمصر، وتجيء أهمية كتاب الاسحاقى هذا من عدة أوجه، منها أنه أول مـا طبع من هذه الكتب، حيث أخرجت المطبعة الشرفية بالقاهرة طبعته الأولى فى سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٣م، وذلك فيما ذكره يوسف إليان سركيس فى ثنايا ترجمته للاسحاقى وللكتاب بالجزء الثالث من كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة» (ص ٤٣١ - ٤٣٢)، ومنها أيضا تفرد هذا الكتاب بأسلوب للرواية التاريخية لايجده القاريء فيما سبقه أو تلاه من كتب، ومنها كذلك كذلك أنه أول كتاب عن هذه الحقبة لمؤلف من أبناء أقاليم مصر ... عاش وصنف ومات خارج القاهرة، ولما كنت قد شرفت بتقديم دراسة عن كتاب «الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة» لمحمد بن أبى السرور البكرى فى هلال يناير ٢٠٠٣م، فإننى أرجو بالدراسة الحالية لكتاب الاسحاقى أن أسهم فى إلقاء مزيد من الضوء على أحداث تلك الحقبة وعلى تطور فن التأريخ فيها.

قاض متعدد المواهب

ولد محمد بن عبدالمعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد المغنى بن على الاسحاقى المنوفى مؤلف كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» ببلدة منوف عاصمة مديرية المنوفية قرابة مطلع القرن الحادى عشر الهجرى أو فى إحدى السنوات الأخيرة من القرن العاشر الهجرى، كانت نشأة محمد بن عبدالمعطى بإحدى مدن الأقاليم المصرية - ومن ثم ابتعاده عن دائرة أضواء الشهرة المسلطة على المقيمين فقط بالعاصمة القاهرة - السبب الرئيسى فى قلة حظه من الشهرة حال حياته وبعد مماته، وهو مـا انعكس فى ندرة المتاح عنه من معلومات تعنى بتقديم ترجمة وافية، وتعد الترجمة التى أفردها المحبّى فى الجزء الثانى من كتابه «خلاصة الأثر فى أعيان

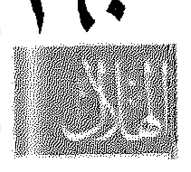




القرن الحادى عشر» للأسحاقى هى المصدر الأقدم والرئيسى لما تناثر عنه من إشارات فى بطون كتب التاريخ والتراجم.

أسباب تأليف الكتاب

لن يجد من يتصدى لتقديم كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» أو للتعريف به خيرا مما سطره الاسحاقى مؤلفه فى مقدمته عما حداه لتأليفه ومتى حدث ذلك وكيف رتب مباحثه، فعن أسبابه لتأليف الكتاب .. يقول الإسحاقى فى الصفحة الثالثة : «فعنّ لى أن أحبّر ما يليق بالجمع وأسطر مايروق بالسمع من حكايات باهرة، وأذكر من ولى مصر والقاهرة، ذاهبا مذهب الايجاز والتهذيب، آخذا عن النقل (المبرا) من التكذيب .. مما سمعت فوعيت وجمعت فأوعيت، مع إيراد ماشاهدته فى الزمن عيانا،وحققت عن معنى نوادره البديعة بيانا، فكان كتابا حسنا فى بابه ..ممتعا لمن تعلق بأسبابه، أنيسا تجل مؤانسته وجليسا لاتملّ مجالسته»، وأمام عن تاريخ تأليف الكتاب فإن الاسحاقى يحدد ذلك بقوله فى الصفحة الثالثة أيضا: «فجاء بحمد الله في حاشية نسيجه الرفيع وطرّه نسخه البديع (أى الكتاب) فى دولة رافع عماد المملكة الشريفة، مجدد نظام الدولة العثمانية المنيفة، شامل الرعايا بظل معدلته الوريفة، مجمل التخت الشريف بعزّ حضرته اللطيفة.. المختص بما استق أن يكون على الخليقة، الخليقة القائم من الالتفات إلى الصلاح والإصلاح بأرفع وظيفة، الراقى مراتب العز لما كمل طالعه سعدا وشرفا، الماحى بصوارمه من بغى فى الأرض بغيا وسرفا، من إقتدي بأبيه وجده في عدله وجده واقتفى سرّ سرير الملك مولانا السلطان مصطفى»، فإذا ما علمنا أن السلطان مصطفى ابن السلطان محمد قد تولى حكم مصر على فترتين، أولاهما فيما بين ثالث عشر ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف وثالث ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين وألف، وهى فترة امتدت لثلاثة أشهر وعشرة أيام، ثم عاد السلطان مصطفى إلى الحكم للمرة الثانية بعد مصرع ابن أخيه السلطان عثمان ابن السلطان أحمد فى تاسع رجب سنة إحدى وثلاثين وألف، وقد استمر السلطان مصطفى فى حكم مصر حتى خلع بعد سنة وأربعة أشهر، وتولى بدلا منه ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فى خامس عشر ذى القعدة من سنة إثنين وثلاثين وألف، ولما كان الاسحاقى قد أنهى روايته لتاريخ مصر فى كتابه «لطائف أخبار الأول...» قرب نهاية سنة إثنين وثلاثين وألف، فإن الراجح أنه بدأ تأليف كتابه هذا فى فترة الحكم الأولى للسلطان مصطفى، وفرغ من ذلك قرب نهاية حكم هذا السلطان، وأما عن كيفية ترتيب الإسحاقى لمباحث كتابه هذا، فإنه يقول عن ذلك: «وقد رأينا أن نقّسم هذا الكتاب الى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة» (ص ٣)، أفرد الاسحاقى مقدمة كتابه للحديث عن فضائل مصر ومرات ذكرها فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية المشرفة، ورتب الأبواب من الأول إلى الثامن للحديث عن: الخلفاء الأربعة – الدولة الأموية – الدولة العباسية – من حكم مصر من نواب الخلفاء

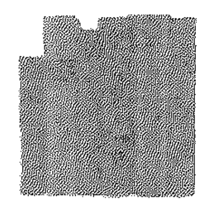


الراشدين وبنى أمية والعباسيين - دولة الفواطم - الدولة الأيوبية - دولة المماليك البحرية ودولة الجراكسة، وتحدث فى الباب التاسع عن الدولة العثمانية ومن حكم مصر من ملوكها، وجعل الحديث فى الباب العاشر عن من تصرف فى مصر من نواب آل عثمان ووزرائهم، وأما الخاتمة .. فإن الاسحاقى يقول: إنها «فى مواعظ ونصائح وسلوك وآداب السلاطين والملوك» (ص ٣).

رواية الإسحاقي التاريخية

تختلف الرواية التاريخية بين مؤرخ وآخر - وإن عاشا فى حقبة زمنية واحدة - باختلاف حصيلة كل منهما من عناصر تلك الرواية، وهى عناصر تشمل أسلوب السرد والاسناد والإحاطة بعلوم عدة إضافة إلى الإلمام بتقنيات السرد، فإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن مؤرخى العصر العثمانى قد انقسموا بين مؤرخين تقليديين ومؤرخين من الموظفين (د.صلاح أحمد هريدى - مقدمة «تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة» لمصطفى بن الحاج ابراهيم)، فإنه يمكن القول بأن نصيب الرواية التاريخية للمؤرخين التقليديين من عناصر الرواية كان بالغ الثراء، إذا ما قورن بنصيب رواية الصنف الآخر من المؤرخين البالغ الفقر من تلك العناصر، ولقد تميزت رواية الاسحاقى التاريخية بين روايات مؤرخى ذلك العهد بما حوته من تلك العناصر، وبما أحدث فيها الإسحاقى من تجديد جعلها وحيدة عصرها.

يختلف أسلوب الاسحاقى فى السرد التاريخى كثيرا عما درج عليه سابقيه من مؤرخين، إذ يبدو أسلوب الاسحاقى فى بنائه أقرب إلى الإشارات البرقية فى إيجازه وتتابعه، ويظهر الاسحاقى فى أسلوبه قدرة فذة على المزج بين التأريخ، والفترات الزمنية فى جانبه وبين الأحداث والوقائع التى يقصها فى أوجز عبارة ممكنة على الجانب الآخر، ومن أمثلة ذلك ما أورده من تلخيص مذهل لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى بضعة أسطر لاتجاوز نصف الصفحة من الكتاب، يقول الإسحاقى فى الصفحة العاشرة: «وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين فى ثانى عشر ربيع الأول لعشرى نيسان عام الفيل فى عهد كسرى أنوشروان وقد مضى من ملكه إثنان وأربعون سنة، وأقام فى بنى سعد خمس سنين، وتوفيت أمه وهو ابن ست، وكفله جده عبدالمطلب إلى أن توفى وهو إبن ثمان، وكفله عمه أبو طالب وخرج معه إلى الشام وهو ابن إثنتى عشرة سنة، ثم خرج فى تجارة لخديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة وتزوجها فى تلك السنة، وبنت قريش الكعبة ورضيت بحكمه فيها وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وبعث وهو ابن أربعين، ..» هكذا تتوالى الأحداث والأزمنة فى سيرة تستغرق المجلدات، ولكن الاسحاقى يوجزها بأسلوبه البرقى فى بضع سطور، حيث يحيط قارىء كتابه علما عبر هذه السطور بأهم ماحفلت به السيرة النبوية الشريفة من أحداث موثقة زمنيا وتاريخيا، ومن مثل ذلك أيضا ما أورده الاسحاقى عن غزوات السلطان العثمانى سليمان ابن السلطان سليم الأول، يقول الاسحاقى تحت عنوان (ذكر غزواته) «أول غزواته انكروس سنة ٩٢٧هـ، ثانى غزواته، رودس سنة ٩٢٨هـ، وعمل الناس لذلك تواريخ ألطفها (يفرح المؤمنون بنصر الله)، ثالث غزواته أنكروس ثانيا سنة ٩٢٩هـ، ... » هكذا يمضى الإسحاقى بأسلوب الإشارات



البرقية يسجل غزوات السلطان سليمان حتى يبلغ آخر الغزوات فيقول عنها: «... ثالث عشر غزواته غزوة سكتوار وهى آخر عزواته وتوفى فيها سنة ٩٧٤ هـ» (ص ١٥٠)، إن إسلوبا كهذا يبدو منقطع الصلة بالفترة الزمنية التى عاصرها الاسحاقى، ولكنه - أى الأسلوب - يبدو متوافقا مع عصرنا الحالى بايقاعه السريع وتلاحق أحداثه، وكأنما كان الإسحاقى سابقا لزمانه بأسلوب روايته ومبشرا بما سيأتى من بعده.

الإيجاز والاقتصاد

يمثل الاسناد حجر الزاوية فى الرواية التاريخية، لذلك أولاه الاسحاقى عناية فائقة فى كتابه هذا، وقد تميز لجوء الاسحاقى للاسناد وتحقيق الروايات بسمات خاصة ليتلاءم ذلك مع منهجه فى السرد،وهو منهج يعتمد - كما سبقت الاشارة - الإيجاز والاقتصاد فى بناء الرواية .. مع تلاحق المعلومات وحشدها فى سياق يماثل البرقيات وبعض الكتابات المعاصرة الشديدة الايجاز والتكثيف، إن تلك المقدرة لدى الاسحاقى أكسبت تراجمه صفات خاصة جعلتها أقرب إلى لوحات الفسيفساء منها الى التراجم التقليدية التى تشبه لوحة ذات لون واحد، لقد عُنيت التراجم التقليدية فى روايات من سبق الإسحاقى من مؤرخين بإثبات نسب المترجم له وذكر بعض أعماله وبعض ماقيل عنه .. إضافة إلى تاريخ وفاته وعمره، أما تراجم الاسحاقى فإنها تقول من خلال أضيق عبارة أشهر ماعرف عن صاحب الترجمة، وذلك من خلال مقاطع سريعة التواتر تجمع أسماء من سبعة من مؤرخين وخلاصة أقوالهم عن صاحب الترجمة،

فيض من الحكايات

يتحف الاسحاقى قارىء كتابه «لطائف أخبار الأول ... » بفيض من الحكايات تتدفق عبر صفحاته، وهو فيض لايتناسب فى عدده ولا فى تدفقه مع عدد صفحات الكتاب التى بلغت مائة وتسعين صفحة، ويمكن القول بأن كثرة ماحوته رواية الاسحاقى التاريخية فى هذا الكتاب إنما ترجع فى المقام الأول لاتقانه بعضا من تقنيات السرد، وهى تقنيات لم تدرج فى قوالب النظريات سوى فى القرن العشرين المنصرم، وتعد تقنية «توالد السرد» هى الأكثر استخداما من قبل الاسحاقى خلال الكتاب، وهى التى يمكن أن تعزى إليها كثرة الحكايات فى هذا الكتاب، ويتحقق توالد السرد، أثناء القص من خلال التسلسل أو عن طريق إحتواء كل حكاية لحكاية أخرى تحتوى حكاية ثالثة بدورها (سيلفيابافل: فصول- المجلد ١٣ - العدد ١ - ربيع ١٩٩٤، إن توالد الحكايات داخل العمل قد يتم أيضا فى شكل قصصى فرعية أخرى قد تكون ذات أصول مغايرة لأصول القصة الرئيسية (أحمد درويش: فصول - المجلد ١٢ - العدد٤ - شتاء ١٩٩٤)، وتعد ترجمة الملك العادل أبو بكر إبن الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب - وهو من ملوك الدولة الأيوبية المذكورين فى الباب السادس من الكتاب - مثالا جيدا لتقنية توالد السرد التى اعتمدها الإسحاقى فى روايته التاريخية، فبعد أن يذكر الإسحاقى بداية حكم العادل فى معرض الترجمة له، فإنه يوقف حديثه عن هذا الحكم ليتفرع الى الحكاية الأولى التى انتقاها لروايته



مما حفلت به كتب أخرى عن سيرة هذا الملك، تدور الحكاية الأولى حول حديث عبدالله بن طاهر وبعض الزهاد ممن اجتمعوا فى أيوان العادل عن العدل، يذكر حديث العدل الاسحاقى بحكاية رواها السبكى فى طبقاته عن موقف بين العادل وقاضى قضاة الديار المصرية شرف الدين محمد بن عين الدولة،

تسلم الحكاية الثانية الاسحاقى لحكاية ثالثة وردت فى كتاب «النصيحة» للشيخ أحمد بن عبدالسلام المنوفى. تقص الحكاية الثالثة ما حدث فى مجلس القضاء بدمشق عندما تداعى خصمان لدى نائب القضاء المدعو عبدالصمد الدمشقى، يحكى الاسحاقى هذه الحكاية فيقول : « فجاء أحدهما بكتاب العادل بالوصية عليه ، فلم يفتحه (الضمير هنا عائد على نائب القضاء عبدالصمد الدمشقى) وظهر الحق لخصم حامل الكتاب فقضى له، ثم فتح الكتاب ورمى به إلى حامله وقال كتاب الله قد حكم على حامل الكتاب، فبلغ العادل ذلك فقال: صدق ... كتاب الله أولى من كتابى »! (ص ١٢٦)، ثم يمضى الإسحاقى بعد ذلك فى سرد مجموعة من الحكايات حوتها كتب التاريخ ودارت كلها حول القضاء والعدل، وهى حكايات حدث بعضها فى عصور سابقة مثل حكاية القاضى الإمام أباخارم مع الخليفة المعتضد... أو فى عصور سحيقة مثل حكاية قضاة بنى اسرائيل الثلاثة والبقرة، فاذا ما انتهى الإسحاقى من سرد جملة الحكايات التى تولدت بين يديه ولا يربطها بصاحب الترجمة من صلة سوى العدل الذى اشتق منه اسمه (العادل) ، فانه يعود إلى الحكاية الأولى التى بدأ منها توالد السرد بجملة يكررها دائما كلما تفرغت به مسالك السرد، يقول الإسحاقى فى تلك الجملة دائما: « رجعنا إلى ما نحن بصدده من أمر العادل» (ص١٢٨)، لقد عمل التقاء أسلوب الإسحاقى ذى الجمل القصيرة المكثفة بتقنية توالد السرد على خلق عشرات من الحكايات التى توالت عبر صفحات الكتاب، وهو ماأمتع قراء الكتاب وضاعف من أعدادهم .

ما بين الاسحاقى
وألف ليلة وليلة

يربط توالد السرد بين كتاب الإسحاقى هذا وواحد من أشهر كتب التراث وهو كتاب «ألف ليلة وليلة»، ولما كان مؤلفو «ألف ليلة وليلة» المجهولين قد أتموا صياغة الليالى بمصر قرابة القرن العشرين الهجرى الذى يوافق السادس عشر الميلادى (أحمد درويش : فصول - المجلد ١٢ - العدد ٤ - شتاء ١٩٩٤ - ص ٢٥١)، ولما كانت هناك أيضا بعض من نسخ «ألف ليلة وليلة» يعود تاريخها إلى ما قبل العصر الذى عاش الإسحاقى فيه بقرون وقرون ، مثل تلك النسخة التى ذكر ابن النديم المتوفى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م فى كتابه «الفهرست» أنه قد رآها واطلع عليها، فإن مطالعة الإسحاقى لحكايات «ألف ليلة وليلة» بين ما طالع من كتب يعد أمرا مؤكدا، والا فمن أين جاء الإسحاقى ببعض حكايات «ألف ليلة وليلة» لينثرها فى ثنايا كتابه من خلال توالد السرد؟، فمن حكايات «ألف ليلة وليلة» التى ظهرت فى رواية الإسحاقى خلال هذا الكتاب ... نذكر حكاية وردان الجزار التى روتها شهرزاد فى الليلتين التاسعة والأربعين بعد المائة الثالثة والخمسين بعد المائة الثالثة من ليالى « ألف ليلة وليلة» ، وقد نقل الاسحاقى حكاية وردان الجزار بنصها وحذافيرها

من ذخائر المكتبة العربية

فى الصفحة رقم ١١٨ من خلال أحداث ولاية الحاكم بأمر الله، إن تلك الحقيقة لا تعنى أن «ألف ليلة وليلة» كانت المصدر الذى استمد منه الإسحاقى حكايات روايته التاريخية التى ضمها كتاب «لطائف أخبار الأول...»، لأن هناك العديد من المصادر الأخرى التى أثبتها الإسحاقى فى كتابه حال نقله عنها، ولكن القيمة الحقيقية لإثبات هذا النقل من «ألف ليلة وليلة» إلى كتاب الإسحاقى، إنما تكمن فى التأكد من أن الإسحاقى كان مطلعا على الليالى ، وأن المصدر الذى أخذ عنه الإسحاقى تقنية توالد السرد كان هو « ألف ليلة وليلة»، إن القارئ المتمعن لليالى سوف يتوقف عند مواضع توالد السرد التى برع فى استخدامها كتاب الليالى المجهولين ، فمن حكايات «ألف ليلة وليلة» التى اعتمدت توالد السرد لضرورة فنية نذكر الحكايات التالية: الولد الصائغ الذى اسمه حسن - الصياد والعفريت - التاجر والعفريت - والأحدب، لذا يمكن القول بأن التأثير الأهم لـ «ألف ليلة وليلة» على كتاب الإسحاقى لم يكن فى النقل المباشر منها، وإنما حدث ذلك بانتقال توالد السرد إلى الاسحاقى ... ربما من خلال واحد من مؤلفى الليالى المجهولين ، وهو ما أثرى كتاب الاسحاقى بتدفق السرد ووفرة الحكايات الشائقة .

قضيتان مهمتان

يتبقى فى نهاية هذاالعرض لكتاب «لطائف أخبار الأول فيمن ملك مصر من أرباب الدول» للاسحاقى المنوفى أن نتوقف عند قضيتين مهمتين تطرحهما قراءة الكتاب، تتعلق القضية الأولى بالبابين الأخيرين من الكتاب ، حيث شهد سرد الاسحاقى للأحداث فى هذين البابين تحولا غيربا ، فبعد أن طغى أسلوب السرد المقارب لمثيله فى «ألف ليلة وليلة» على رواية الاسحاقى فى الأبواب الثمانية الأولى من الكتاب ، ومع الأخذ فى الاعتبار أن أسلوب الاسحاقى فى كتابه كان قويا وخلوا من العامية ويتميز بنفاسة لا يصادفها القارئ فى مؤلفات مؤرخين كبار من عصور سابقة ولاصقة لعصر الإسحاقى ، فإن أسلوب الإسحاقى لسرد الأحداث والوقائع فى البابين الأخيرين من الكتاب جاء مختلفا ومقاربا لأسلوب كبار المؤرخين فى العصر المملوكى وبالأخص ابن إياس ، حيث مال الاسحاقى إلى المباشرة فى سرد الوقائع ، يسجل الأحداث فى سرد مباشر لا يداخله التوقف أواستخدام التقنيات الفنية للقص التى برع فى حشدها مع الأبواب الثمانية الأولى من الكتاب ، ويمكن القول بأن ذلك ربما يرجع لواقع المعايشة الذى مر به الإسحاقى مع أحداث هذين البابين ، وهو ما جعل المباشرة والتقريرية هما أمثل أدواته لسرد ما عايش فيهما من أحداث، يأتى هذا مقابلا لثراء المادة التاريخية المتاحة عن أحداث الأبواب الثمانية الأولى، مما أتاح للإسحاقى الكم المناسب من الحكايات والموضوعات الكافية للخروج من ضيق المباشرة إلى رحابة التجريب فى تقنيات القص .

أما القضية الثانية فإنها تختص بمجموعة من الصفحات المتناثرة فى النصف الثانى من الكتاب ، وهى صفحات من الأدب المكشوف أقحمت فى سياق

أحداث الرواية التاريخية من خلال توالد السرد ، فعلى سبيل المثال جاء اقحام قرابة صفحتين من هذه الصفحات بدءا من الصفحة رقم ١٣٣ بوضع كلمة فائدة كعنوان جانبى بين قوسين ، ثم اتبعت كلمة (فائدة) بالجملة التالية: «لا بأس يذكرها عند الاحتياج إليها وهى قال المنصورى فى اعتبار علامات المماليك والجوارى» لتتوالى بعد ذلك الأوصاف الحسية والحكايات المثيرة عن علاقات غريبة وأحوال أغرب لأناس لا يعلم المرء هل هم حقيقة من أهل هذا الكوكب؟ وتبدو لغة الإسحاقى فى هذه الصفحات مختلفة عن لغته العالية فى سائر أبواب الكتاب ، ولم لا وقد شابت العامية والألفاظ الفاحشة تلك الصفحات حتى يخال المرء انعدام الصلة بينها وباقى صفحات الكتاب، هو ما كشف عنه تأمل هذه الصفحات والتدقيق فيما حوته من حكايات وألفاظ خادشة للحياء، إذ أخطأ من قام بدس تلك الصفحات الصفراء فى سياق رواية الإسحاقى عندما استعان بزجل حوى مصطلح «عمود النور» فى البيت الثالث منه ، حيث جاء هذا البيت فى السطر الإخير من الصفحة رقم ١٢١ من طبعة الكتاب الأخيرة التى أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة خلال عام ١٩٩٨م فى سلسلة الذخائر، وهى طبعة مصورة من إحدى طبعات الكتاب التى أصدرتها المكتبة الأزهرية المصرية بالقاهرة فى عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م ، وقد سبقت هذه الطبعة للكتاب أربع طبعات ، أصدرت الثلاث الأولى من هذه الطبعات المطبعة الشرفية فى أعوام ١٣٠٠ و١٣٠٣ و١٣٠٤هـ كما ذكر يوسف إليان سركيس ذلك فى «معجم المطبوعات العربية والمعربة» وقد ذكر يوسف اليان سركيس أن الطبعة الرابعة والتى صدرت فى عام ١٣١٠هـ قد خرجت من المطبعة الميمنية، فاذا ماراجعنا عدد أوراق كل طبعة من هذه الطبعات كما أثبتها يوسف إليان سركيس فى معجمه، لوجدنا أن عدد صفحات الطبعات الثلاث الأولى قد بلغ مائتى صفحة، بينما كان عدد صفحات الطبعة الرابعة مائة وأربعة وثمانون صفحة ، وأما الطبعة الخامسة من الكتاب والتى أصدرتها سلسلة الذخائر ... فإن عدد صفحاتها كان مائة وتسعون صفحة ، إن اختلاف عدد صفحات كل طبعة من الكتاب إذا ما نظر إليه فى وجود مصطلح مثل (عمود النور) ينتمى إلى القرن التاسع عشر الميلادى وما بعده بالطبعة الخامسة منه ، يؤكد أن كتاب الإسحاقى الذى كتب فى القرن السابع عشر وقبل أن تعرف مصر (عمود النور) بحوالى قرنين من الزمان ... قد تم التلاعب فى مخطوطته الأصلية التى لانعرف مكانها الآن إما بالحذف أو بالاضافة، فإن كان الحذف من المخطوطة الأولى لا يعلمه إلا الله، فإن الاضافة ماثلة بين أيدينا فيما دسته أيد مجهولة من صفحات صفراء إلى الكتاب بهدف الربح الذى تدل عليه طبعات الكتاب الثلاث الأولى فى غضون أربع سنوات فيما بين عامى ١٣٠٠هـ و١٣٠٤هـ، إن القضية الأخيرة الماثلة أمامنا فى نهاية المقال مازالت فى حاجة لمزيد من البحث والتمحيص ، وهو ما لن يتحقق الا بظهور مخطوطة الكتاب الأصلية . ■

السينما

وخطر التليفزيون

بقلم
مصطفى درويش

والعام الثالث من القرن الجديد على وشك الرحيل ، لم يبق من زمنه سوى بضعة أيام ، وجدتنى مهموما ، بما استرجعته من أحداثه على شاشة ذاكرتى .

فمن واقع هذا الاسترجاع ، كدت أقطع ، وأنا على يقين أو ما يقرب من اليقين ، بأنه عام حالك السواد .

ولم لا يكون كذلك ؟ وفى ربعه الأول ضاعت الحقيقة الماثلة بين أيدينا ، فلم نرها ، لا عن علة فى البصر ، ولكن لأننا لم نعرف كيف نوجه البصر توجيها سديدا .

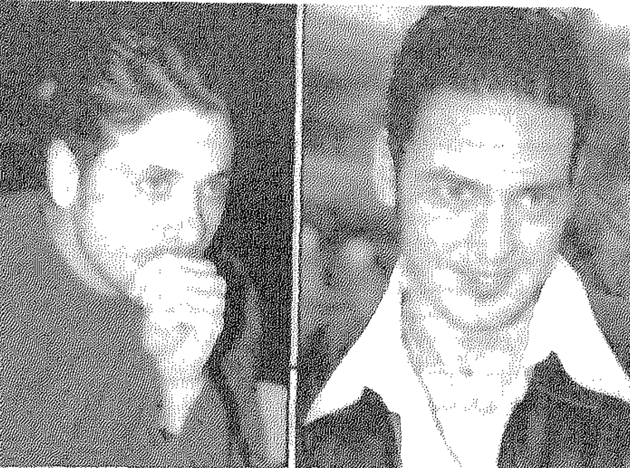
وما أن بدأ ربعه الثانى ، حتى كانت قد سقطت العاصمة بغداد

ومع اقترابه من منتصفه ، أخذت يد المنون تختطف ، بلا هوادة ، أرواح كوكبة من مشاهير السينمائيين الذين جدوا وأجادوا لعشرات السنين ، حتى انتزعوا المجد انتزاعا ، وحتى كدنا ننسى أنهم مثلنا ناس من الناس .

غرائب الأمور

ولم يكن قد بقى من العام سوى البعض من ربعه الرابع ، حين حدث





خالد ابو النجاء وأحمد عز نجمان صاعدان يخطفهما التليفزيون



مني زكي وعمر واكد في " نظرة عين "

فى بر مصر أمران غريبان

أحدهما :

اغلاق دور السينما ، بطول وعرض البلا د، أثناء شهر رمضان .

والآخر :

انخفاض عدد الأفلام الجديدة التى جرى عرضها فى دور السينما ، بمناسبة العيد ، إلى أربعة أفلام وحين حدث فى بلاد العم سام أمر عجب ، لم يحدث منذ أن القت الحرب العالمية الثانية سلاحها ، قبل ثمانية وخمسين عاما .

هذا الأمر جنوح ستديوهات هوليوود الكبرى إلى اختيار موضوعات معظم أفلامها التى من نوع الإنتاج الضخم ، والمعدة للعرض فى فترة الأعياد ، الممتدة من عيد الشكر (الخميس الأخير من شهر نوفمبر فى الولايات المتحدة ، حتى عيدى الميلاد ورأس السنة) ؛ اختيارها بحيث تدور وجودا وعدما حول كل ما يعد الرأى العالم العالمي . وبالذات الأمريكى ، لتقبل الحرب باعتبارها حتما محتوما .

علم قليل

ونظرالى ضيق المجال ، ولأسباب أخرى ، لعل أهمها ، إننى ما أوتيت من العلم إلا قليلا، فى كل ما يتصل بالسياسة وبحارها الواسعة ، المتلاطمة الأمواج ، أو بالحرب والسلام ، وما بينهما من فواصل وصلات ، قد يحول فهمها دون الزلل والخبط فى الظلام .

سأكتفى بأحداث الربع الأخير من العام ، المتصلة بعالم الأطياف ، فاعرض لها بشيء من التفصيل .

وابدأ بمصر ، حيث استبان لى ، قبل حوالى شهرين ، مع الاحتفال بظهور هلال رمضان ، وأثناء البحث عن دار سينما فى الجرائد اليومية بامل العثور على فيلم يستحق المشاهدة فى أولى ليالى الشهر الفضيل بأنه لا أمل فى العثور على ضالتى ، عندما لم تقع عيناى فى أية جريدة إلا على إعلانات عن دور سينما

مغلقة بحجة التجديد ، رغم إن بعضها مثل مجمع جالاكس جديد ، بل آخر صيحة فى التجديد ، ليس له من العمر سوى عام .

العدوان الكبير

وعندما قرأت ، وأنا غير مصدق ، إن التليفزيون يزمع عرض اثنى عشر مسلسلا أثناء الشهر الكريم .

وأن مخرجين كبار مثل على بدرخان ، خيرى بشارة ، على عبدالخالق ، نادر جلال ، أحمد يحيى هم الذين اخرجوا بعض هذه المسلسلات ، وأن محمد خان صاحب أيام السادات قد تكفل ، هو الآخر بإخراج فوازير رمضان .

ومعهم هاجرت إلى مسلسلات التليفزيون كوكبة من قدامى الممثلات والممثلين ، أذكر من بينهم على سبيل المثال فيفى عبده ، ليلى علوى ، صفية العمرى ، دلال عبدالعزيز ، الهام شاهين ، يسرا ، وحتى نبيلة عبيد ، نجمة مصر الأولى .

هذا عن نساء الشاشة ، أما رجالها ، فاذكر من بينهم على سبيل التمثيل يحيى الفخرانى ، محمود ياسين ، حسين فهمى أشرف عبدالباقى وممدوح عبدالعليم .

ولم تقتصر الهجرة على القدامى ، بل شملت كذلك نجوما صاعدة ، واعدة من الجيل الجديد.

لعل أميزهم عمرو واكد نجم ديل السمكة ومن نظرة عين وأحمد عز وخالد أبو النجا نجمى «حب البنات» .

وتساءلت لماذا هذا النزيف غير المسبوق فى تاريخ صناعة سينما ، تعد الوحيدة فى الوطن العربى من الخليج إلى المحيط .

لماذا هذا القفز الجماعى من مركب السينما ، طلبا للنجاة من مركب غارقة إلى حيث النعيم المقيم فى مركب خصم السينمائيين اللعين .

بعد أعمال طويل للتفكير ، وجدتنى أرجع نكسة السينما إلى زمن موغل فى القدم ، ذلك الزمن الذى وفد فيه التليفزيون إلى مصر ، قادما إلينا من بلاد العم سام

ضحالة المعلومات

وقتها ، لافتقار صانعى الأفلام إلى معلومات يستنبرون بها فى مواجهة هذا الوافد الغريب ، لم يحسوا بخطره على صناعة السينما عندنا .

وأغلب الظن أن عدم الاحساس هذا إنما يرجع ، فضلا عن ضحالة المعلومات الصحيحة ، إلى حملة الدعاية المكثفة التى صاحبت مجيئه إلى ربوع بلادنا .

فما أكثر ما قيل أشادة بإنجاز تشييد مبنى التليفزيون القبيح ، المطل على النيل ، وإثارة لاوجه الشبه بينه وبين إعجاز شق البحر الأحمر بعصا موسى السحرية فى سالف الزمان .

ولم تمر سوى بضعة شهور على بدء البث بواسطة ذلك التليفزيون الذى ولد

عملاقا ، إلا وزفت الينا بشرى مشاهدة جميع برامجه مجانا .

وبفضل هذا السخاء ، أو السفه بمعنى أصح ، ومع دخول التليفزيون الملون ، والاقبال على شراء أجهزته اقبالا منقطع النظير .

بفضل ذلك ، أخذ عدد المترددين على دور السينما في التناقص شيئا فشيئا .

وأخذ عدد الدور التى تغلق أبوابها نهائيا ، يزداد على مر الأعوام .

وكان أن تنبه السينمائيون للكارثة التى تتهدد فنهم الجميل ، وأخذ نفر منهم يدق ناقوس الخطر ، ولكن بعد فوات الأوان .

انتصار سياسة الكم

وفى زمن تعملق فيه الأقزام ، احتدم الصراع بين فئتين ، احداهما فئة كبيرة تناصر سياسة الكم فى التلفيزيون وأخرى صغيرة مناصرة لسياسة الكيف ، أى السينما .

وكعهدنا بالمعارك على أرضنا ، انتهى الصراع بلا نصر ، وبلا هزيمة لأى من الفئتين ، أو هكذا قيل لنا .

ولسوء حظنا ، كنا على استعداد أن نخدع بسراب ما يقال فالنصر كان فى حقيقة الأمر ، من نصيب الفئة المنحازة بالحق أو بالباطل للتليفزيون .

فاخذت ساعات ارساله ومسلسلاته تتضاعف أكثر من مرة ، واعتماداته فى الميزانية تتضخم كاورام المرض الخبيث .

نبيلة عبيد .. نجمة تليفزيون بدلاً من السينما

وكل ذلك ، كان بطبيعة الحال ، على حساب فن السينما ولأن حضارة الفراعين أخذت مدة احتضارها ، فى قول شهير للفيلسوف الإنجليزى «ارنولد توينبى» زهاء أربعين قرنا فالسينما ، هى الأخرى ، أخذت تحتضر زمنا طال إلى حوالى أربعين عاما .

وليس أدل على ذلك مما حدث لها فى شهر الصيام وما حدث لها بعده ، بمناسبة العيد السعيد .

اختفاء السينما

فلأول مرة فى تاريخ السينما ، ولعلها المرة الأولى فى دولة متحضرة ، تغلق دور

السينما أبوابها طوال شهر بالكامل ، وتختفى صفحات السينما من الجرائد القومية ، وكأنها رجس من عمل الشيطان ، مفسحة مساحاتها للإعلان عن المسلسلات .

ولأول مرة ، منذ سبعين عاما أو يزيد ، لم يتح لدور السينما أن تطرح للمشاهدة بطول وعرض البلاد بمناسبة العيد ، سوى أربعة أفلام جديدة ، أحدها مسرحية معلبة «كده أوكى» لصاحبها المخرج سمير العصفورى .

ومما يعرف عن المسرحيات المعلبة أنها ليست من فن السينما فى شيء .

فهى ، والحق يقال ، أشبه بالكائنات المسخ فى اساطير الأولين ، مثل تلك التى لها رأس إنسان ، وجسم حيوان أو العكس .

فلاهى هذا ، ولا ذاك .

ومن الأكيد ، إن هذا النوع المسخ الذى لاهو مسرح ، ولا سينما ، ضار بالفنين معا .

وكم نبه الكثير إلى خطر الانزلاق إلى عولبة المسرحيات ، ولكن لا حياة لمن تنادى .

ويطرح «كده أوكى» من عداد الأفلام السينمائية ينكمش الجديد الذى جرى عرضه فى دور السينما ، مع مجيء العيد إلى ثلاثة أفلام هى «أول مرة تحب يا قلبى» ، «بحبك وأنا كمان» و«ن نظرة عين» .

والفيلم الأخير كان عنوانه ، وهو فى مرحلة السيناريو «باحبك وحاتجوزك» .

ابتذال الكلمات

وأول ما يلاحظ على الأفلام الثلاثة أن بينها قاسما مشتركا هو كلمة حب ، تلك الكلمة التى كثيرا ما يساء استعمالها إلى درجة الابتذال .

وأكثر ها نجاحا فى الشباك «بحبك وأنا كمان» لصاحبه محمد النجار ، وهو فيلم غنائى ، بطولة مصطفى قمر ، يشوبه من عيب التخليط الشيء الكثير .

وأقلها نجاحا ، على جميع المستويات «أول مرة تحب يا قلبى» بطولة «جالا فهمى» إخراج «علاء كريم»، صاحب فيلم «آلجراج» الفائز عنه بجائزة أفضل مخرج من المهرجان القومى للسينما ، وذلك قبل بضعة أعوام .

وأصحاب الفيلم يرجعون فشله الذريع إلى مؤامرة كبرى ، دبرها بليل المنتج !!

أما أكثر الأفلام الثلاثة تميزا سينمائيا ، فهو من نظرة عين» العمل الأول لمخرجه ومؤلفه «إيهاب لمعى» .

ولو جنحنا إلى إجراء مقارنة بين لغة السينما فى فيلمه وبينها فى جميع الأفلام التى جرى إنتاجها وتوزيعها أثناء العام ، لجاءت المقارنة فى صالح فيلم «إيهاب» .

عودة الروح

فكم كان موفقا غاية التوفيق أولا فى اختياره «عمر واكد» و«منى زكى» ، هو لتقمص شخصية مخرج أفلام الافراح ، وهى لتتقمص شخصية العروس التى



أوقعها فى حبه ، يوم زفافها ، حتى انتهى بها الأمر ، عروسا له ، تزف إليه بدل العريس الأصلى .

وثانيا فى اختياره لاصحاب الأوار المساعدة بدءا من «سوسن بدر» لدور أم العروس و«أحمد راتب» لدور أبيها وإنتهاء بكل من «هدى سلطان» و «ماجدة الخطيب» الأولى لدور الجدة الحنون ؛ والثانية لدور الخالة اللعوب .

وكم كان موفقا فى تحريكهم على نحو أدى إلى نجاحهم فى أداء أدوارهم ببراعة فائقة ، فلم تصدر من أحد منهم حركة أو نبرة فيها غلط أو نشاز .

وإن كانت «منى زكى» قد عاب لياقتها البدنية أنها كانت حاملا ، أثناء التصوير !!

وكذلك كان موفقا فى تحريك المجاميع ، لا سيما معازيم الفرح فى منزل العروس ، وفى الفندق الفخم ، حيث الفرح والزفاف .

ومن مزايا الإخراج الأخرى اعتناء «إيهاب» بالتفاصيل أشد عناية ، واهتمامه بتكوين اللقطات ، وبدرجة الإيقاع الذى جاء سريعا ، لاهثا متلائما مع روح القصة المتأثرة إلى حد ما «بمخططة الأفراح» ، ذلك الفيلم الأمريكى الذى تقاسم بطولته «ماثيو ماكونوجى» و «جنيفر لوبيز» ، وجرى عرضه عندنا قبل عام .

وهنا ، لا يفوتنى إن أشير إلى أن تأثر المخرج ، وهو فى نفس الوقت كاتب



راسيل كراو في "سيد وقائد "، احد افلام هوليود الحربية

السيناريو ومصمم الديكور ، لم يكن تأثرا دون تصرف ، بل كان تأثرا محسوبا ، روعى فيه الاختلاف الكبير بين طريقة الحياة والتفكير عندنا ، وعند أبناء وبنات العم سام .

وهذا ، ولاريب ، أمر يحسب لرصيد مخرج جديد ، فيلمه الأول يدل على أنه صاحب روح مرحة ، وفهم عميق للغة السينما .

ولعله ، هو وأمثاله الواعدون ، يعيدون بأفلامهم الوعى بأهمية الفن السابع ، ويعيدون الروح إلى صناعة سينما كانت حديث الناس إلى عهد قريب . ■



الهطل

بقلم
مرفت رجب

ولما كنت من المتشبثين بخيط النور الأبيض للنهار يقطع ظلمة الليل ، تسرني رؤيته وهو ينشر نوره يلف به الدنيا مُزيحا ظلام الليل يغلبه فى غير جلبة، ولما كنت من الساعين للفوز بهذا الحلول المهيب أتلمس أبعاد رسالته اليومية بأن اليسر قادم لا محالة مهما استحكمت حلقات ضيق عسرٍ لا نرى منه انفلاتا، ولما كنت من الموقنين بأن ما يعرض على شاشاتنا وثيق الصلة بما نريده لأنفسنا ولبلادنا فى الحاضر كما فى مستقبل الأيام، فمن أجل ذلك حكمت على نفسى وفرضت، فى كل يوم حصة من كأسِ الفرجة تتجرعه ، والتوق يلف السعى يُمّنيه دوما بيوم يتبدل فيه ما فى الكأس من حنظل إلى شهد مراق .

كان المفروض أن أغتبط، ولا شك أننى سررت وأحسست بابتسامة الرضى تتشكل على وجهى، فضحكت منها ومن نفسى التى ذكرتنى بأن إذاعة هذا المسلسل تأتى بعد عام كامل من نشر أولى مقالاتى على صفحات «الهلال» (ديسمبر ٢٠٠٢) والتى نشرت بعنوان «السيد الوزير» وهو عنوان واحدة من أشهر الحلقات المتصلة المنفصلة التى تذاع على التليفزيون البريطانى، وكان عرضى المفصل لاحدى حلقاتها وسيلتى للاقناع بقيمتها ونجاحها، وكذلك لما تضمنته تلك الحلقة التى قمت بعرضها فى المقال من إشارات صريحة وضمنية لواقعنا المعاصر بما مكننى من التطرق إلى ما فيه من تردى أحوال الإنتاج الدرامى فى بلادنا مقارنة بما كان له فى السابق من أمجاد.

وبصراحة ، لم يكن المهم عندى أن أحداً قرأ فاقتنع فاستجاب، لكن المهم أن الهدف تحقق، وأن التمثيليات من نوع الحلقات المنفصلة بدأت تجد طريقها إلى شاشاتنا مرة أخرى، لكن الفرحة للأسف لم تتم ، ومع ذلك، وبرغم إدراكى الآسف أيضا أن إذاعة حلقات حكايات زوج معاصر قد تضر أكثر مما تنفع إن ركز الناس على عيوبها فنفروا من مثل هذا النوع من الإنتاج، بالرغم من كل ذلك إلا أننى عزمت أمرى أن أخصها باهتمام هذه السطور، دعما وتشجيعا وتشبثا بهذا الصنف من التمثيليات منفصلة الحلقات لعلها فى المرة بل المرات القادمة ، أن تمسك بما أفلت من بين أصابع الزوج المعاصر!!

أصعب الأسئلة

ولقد أتت تلك الحلقات بإجابات ميسرة على أصعب الأسئلة التى أربكت جميع مسلسلات رمضان وبلا استثناء ومن الممكن أن نبدأ هنا بأهم سؤالين أولاهما: أولاً موضوع المسلسل وثانيا : من يقوم بالأدوار .. ولقد نجح مسلسل حكايات زوج معاصر – منفصل الحلقات – فى أن تأتى كل حلقة منه لتعالج واحدة من المشكلات المعاصرة لشبابنا ومن فرط قرب الأحوال بما نلمسه فى أسرنا وجيراننا، ولبساطة المعالجة فى معظم الأحيان كان الطريق إلى مسرة القلب سهلا وهو يضحك من طرافة حل مشكلة الأب ذى الابن الوحيد والأم ذات الابنة الوحيدة ، فحين يلتقى الشاب بالفتاة ويتآلفان بما يمهد للارتباط بالزواج ، نجد الحلقة تنجح فى سبك تنامى العواطف بين أبى العريس وأم العروسة لتنتهى بالتبات والنبات والهنا إلى الممات لأبطال التمثيلية والانشراح والمسرة للمشاهدين الذين لا شك يسعدون بفضل الجمع بين سلاسة وواقعية تناول المشاكل، فمثلا البطلة الشابة تدرس فى الدراسات العليا فى كلية الهندسة، لكن سكنها فى الإسكندرية يصعّب متابعتها للمحاضرات فى القاهرة ويزيد من المشكلة أن لها عملا وأماً يربطانها بالإسكندرية ويأتى الحل المبتكر العملى فى شكل إعلان صغير تعلقه على لوحة الإعلانات بمدخل الكلية تحدد





فيه طلبها للعون ممن يرغب من الزميلات والزملاء فى إعارتها ما يفوتها من المحاضرات وإذا كان الشاب المهندس بطل الحلقة يجمع إلى الهمة فى الدراسات العليا إقداما على مساعدة زميلة ، فإن البريد الإلكترونى والتليفون ثم اللقاءات الشخصية تصعد الأمور إلى مبتغى جميع الأطراف ، وكل ذلك فى حلقة واحدة، ليأتى ما بعد بمواضيع أخرى، وعلى هذا النحو يتضح أن ما تناولته الحلقة مشابه لما قد يصادف الشباب فى بلادنا بصرف النظر عن فئتهم وتباين مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية وهو ما يتناقض بالكلية مع ما ورد فى زحام مسلسلات رمضان من إلحاح على التشوهات الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية فى حياتنا وكأنما الاتفاق بين الكتاب كان على التركيز على المفاسد بالخصوص، ولقد أفسح هذا النهج المجال لمبادرة البعض بالقول بأن هذا مقصود وإذا ما حاولت إحراجهم بالسؤال عما كان مقصوداً فى رأيهم أجابوا على السؤال بسؤال، كيف إذاً نفسر هذا الاجماع على كشف عورات المرحلة فى كل مسلسلات رمضان؟ والإجابة عندى أن المناخ العام هو الذى أنتج ما فسره البعض على أنه عمد وقصد مع سبق الترصد، فالذى حدث أن الكتاب على طريقة «أحلامك أوامر يا بك» فهموا الحملة الصحفية التى تصاعدت على مدى أيام وشهور ٢٠٠٣ تفضح ممارسات أنشطة الأعمال فى بلدنا وتحاصر القائمين عليها بما تم حبكه حولهم من اتهامات بالفساد – واقعية أو مفبركة – والتقط الكتاب من هذا الفهم أن هذا هو المطلوب وما يتوقع أن يعتمده القائمون على أمر الإنتاج الدرامى فى القطاعين الحكومى والخاص على حد سواء، ولما كان الكل يدق على وتر «أحلامك أوامر يا بك» ، ولما كان الكل – فى هذا الاتجاه – غافل عن الآثار السلبية لنشر الغسيل القذر على عموم المتلقين، ولما كان الكل إما جاهل أو متجاهل لهذه الأبجدية الإعلامية ولتداعياتها السلبية على اقتصادنا الوطنى بعد بعثرة كرامة رجال الأعمال ونساء الأعمال، وبعد الهزء من دوافعهم والتركيز الدائم على دناءة تلك الدوافع واعوجاج ما تلبس معها من مسارب، وقبل كل ذلك وبعده، نظراً للغياب الكامل لأى تنسيق فعلى ومراجعة مدققة للنصوص الدرامية ، كان من الطبيعى أن تأتى النتيجة على ما أتت عليه، لتفقد تلك الأعمال مسوغات ظهورها على الشاشة ، فهى وقد أتت خالية من أى إمتاع أو ترفيه أو تنوير شكلت فيما بينها مسوغات إدانة لكل من كان له بها صلة من قريب أو بعيد بعد أن أحكمت على البلاد والعباد قبضتها ليعم الهم والغم بغير حدود!!

وإذا ما اكتفينا بهذا القدر فيما يخص الاعتبار الأول وهو الموضوع المختار لأى عمل درامى، نستأذن فى الانتقال إلى الاعتبار الثانى وهو من يقوم بالأدوار ؟، وفى هذا أيضا نجح مسلسل «حكايات زوج معاصر» فيما خابت فيه جميع مسلسلات

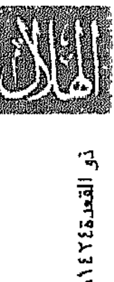


رمضان، فالذين قاموا بالأدوار الرئيسية فيه لم يتكرر ظهورهم فى بقية مسلسلات رمضان - باستثناءات قليلة - مما أتاح لنا قدرة على احتمال مشاهدتهم بعد أن جاءت بقية مسلسلات رمضان لتقضى بالكامل على أى قدرة فينا لاحتمال رؤية من مثلوا فيها ، وانني لا أملك هنا إلا أن أعبر عن شعورى بالمرارة والخسارة لأن هؤلاء الذين شاركوا فى أعمال درامية ظهرت فى رمضان فيهم ممثلون يعتز فن التمثيل المصرى بهم كما أنهم نجحوا من قبل فى تحقيق معزة لهم فى قلوب مشاهديهم لكن الاصرار على القيام بأدوار لا تناسبهم لا من حيث الشكل ولا الموضوع أفقد هذه المجموعة معظم أرصدتها الإيجابية وجعل البعض يطالبهم - بالجملة - بالاحتجاب الكامل عن الشاشة لسنوات قادمة ، حتى ينسى الناس ما اقترفوا فى حقهم من آثام، وحتى يتفرغوا لدراسة امكاناتهم الحقيقية وامكانات تطويرها، لعلهم أن يطوروا قدرتهم على حسن الاختيار، أما حكاية تكرار ظهور الممثلين فى أكثر من عمل يذاع فى اليوم نفسه فتلك كارثة أخرى زادت من غيظ الناس وضجرهم ، وجعلت مجموعة الممثلين موضوعاً دائما للسخرية والتندر!!

أما تواتر ظهور هؤلاء الممثلين فى برامج أثناء رمضان وبعده ، عزفا على لحن «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» فهو أمر لا يثير فى النفس سوى الإشفاق وإن كان البعض قد انبرى للتعليق بالقول إن من حق الكذابين أن يصدقوا بعضهم ، أما التعامل مع جماهير المشاهدين فى بلدنا على أنها جماهير من الهطل ، (جمع أهطل) فليس الرد عليه سوى بالقول بأن الهطل الفعلى هو فى صم الأذان عن السؤال الملح للجماهير ، فيما كان انفاق كل تلك الملايين التى يقال إنها أنفقت على مجمل تلك الأعمال؟؟!!!.. والهطل الحقيقى هو فى الظن بأن الأجيال القادمة ستعجز عن تحديد من هم «المفسدون فى الأرض».

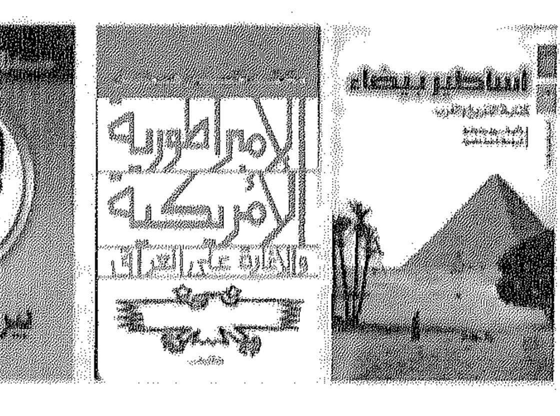
الخروج من المأزق

وفى بلدنا من قديم الأزل من يقول «اعطى العيش لخبازه» فخباز العيش البلدى، أى الذى يليق بأهل بلدى رجل حصيف عرّيف ، يعرف أنواع الدقيق والخبيز ويختار لكل منها ناره ودرجة صلابته، ومثله ينطبق على القائم بأى حرفة أو فن لذلك تساءلت ، من أين أتت مخرجة «حكايات زوج معاصر» بهذا اللون الكمونى الفاتح الذى يغطى مقاعد تأييد ظهورها فى كل الحلقات تقريبا والإشارة هنا إلى أن تصميم المناظر والأثاث خلا من أى تنسيق فى الألوان كما خلا حتى من الإلمام الفطرى بتجانس الألوان، أما عن مكاتب الموظفين التى تؤكد أنها وارد بائعى الروبابيكيا وسلق الأمور وخطابية الحوار فى بعض الحلقات فكل ذلك يهدد تجربة القطاع الخاص فى هذا النوع من الإنتاج، ومازال السؤال ملحاً لماذا فشلت التجربة عندنا ونجحت فى بلدان أخرى شقيقة أو صديقة مثل سوريا والهند ؟؟!! ■



حصاد عام مضى

كونه أشد الأعوام بؤسا وحزنا ودماراً . فإن حصيلة فكر معايشيه كانت تعمل هموماً لا نهاية لها . وتركت الأوضاع المتردية ظلالها على كتابات وقراءات رموز الفكر والإبداع . فأمريكا التى كانت يوما تمثل الحلم القابع وراء المحيط أصبحت هى أم المشكلات . وانصبت سلسلة من الاصدارات على مدار العام حول هيمنتها - التى تحولت إلى بطش عسكرى - وحول فلسفة الغرب الأوربى والأمريكى فى إعادة كتابة التاريخ . بل وحققت أعلى نسب مبيعات .







الأكثر توزيعا

جاءت حصيلة الكتب والاصدارات الأكثر توزيعا منقسمة بين موضوعين : الآثار والتاريخ ، واليكم احصائيات عدد من دور النشر بالكتب الأكثر تويجا :

المجلس الأعلي للثقافة ينال معجم تاريخ مصر . والكتاب المترجم «الفن والحياة فى مصر

الفرعونية أعلى نسب مبيعات على مدار العام . «أما الهيئة العامة للكتاب فتسير على نفس الخطى فيحقق كتابى «وصف مصر» و«عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » للجبرتى أعلى النسب . دار الكتاب الغربى نال كتابها «حرب صليبية بكل المقاييس» الكاتبة د. زينب عبد العزيز . كذلك مكتبة مصر نالت موسوعتها أعلام الفن العربى أعلى الأرقام . أما دار الفكر العربى يحصل كتابها «الدولة العثمانية» للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن على النسب الأعلى . يختلف الأمر نوعاً ما فى دار غريب التى يتصدر القائمة «تفسير القرآن الكريم» للدكتور عبد الله شحاته . كذلك دار قباء حيث يتصدر كتاب الدكتور احمد تيمور «العلاج بالأوزون» أما نهضة مصر فيحتل كتاب أنيس منصور «شارع التنهدات» النسب الأعلى . أما دار الهلال فيحتل كتاب «بيرم التونسى قيثارة الفن» لعبد الغنى داود رأس القائمة .

تراجعت نسب توزيع الأعمال الابداعية داخل دور النشر لكنها لا تزال تجمع حولها آراء المثقفين إيماناً بقيمة عدد منها . فنجد أن الأعمال الكاملة للشاعر المتمرد أمل دنقل لا تزال تحصد أعلى نسب مبيعات طبقا للمجلس الأعلى للثقافة وإن كان الدكتور جابر عصفور يختار رواية ابراهيم اصلان «خلوة الغلبان» كأفضل عمل ابداعى . فى حين اختلفت الآراء مثل رواية «نداء السنونو» لمروة الخطيب التى فضلها محمد جبريل فى الوقت الذى اختار روايته «ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله» كل من أحمد حسين الطماوى وحسنى سيد لبيب كأفضل رواية لعام ٢٠٠٣ (صادرة عن دار الهلال) . ويختار صبرى موسى رواية «نوة الكرم» لنجوى شعبان أما الروائى حسن نور ليختار عمل الشاب هشام علوانى «تغير الكائنات كأفضل رواية .





الامبراطورية الأمريكية
والإغارة على العراق
المؤلف: محمد حسنين هيكل
الناشر: دار الشروق

يبحث فى تاريخ الامبراطورية الأمريكية فى ظل ما يجرى فى العراق من ممارسات لقوى تثير الألم والوجع من الفكر العربى المعاصر . خاصة أن الولايات المتحدة التى عرفتها الدنيا نشأت مهجراً ومنفى وملاذاً لعينات مختلفة ومتناقضة من البشر . وبالتالى «لم تقم على قاعد شعب بعينه أو أمة بذاتها أو عقيدة حلت فى قارة من الأرض دبطت ناسها «بل نشأت وظهرت فى إطار مغامرة تاريخية نادرة . فاختلفت فى كافة الامبراطوريات التى ظهرت على مدى التاريخ (البريطانية الرومانية – النمساوية – الروسية – الاسلامية – البيزنطية).

لذا يؤكد هيكل فى كتابه أن «الامبراطورية الأمريكية لم تستطع فى أى وقت أن تستوعب فكرة الوطنية الموحدة أو فكرة القومية الجامعة أو فكرة الربط الدينى الواسع وبالتالى فإنها عند تعاملها مع أطراف تستند على مثل هذه الأسس . وقفت أمام حاجز ثقافى منيع أدى بها إلى مشاكل .....»

لذا نجد «هيكل» فى مستهل كتابه يؤكد أربع حقائق تمثل مشكلة المشاكل للعالم العربى . أولها صعوبة إقامة صداقة حقيقية مع الأمبراطورية الأمريكية ، ثانيها خطورة الدخول فى عداء مطلق معها وثالثها أن الانزلاق فى العداء إلى النهاية يصل بأصحابه إلى حالة الكراهية العاجزة تضرهم أكثر مما تصيب غيرهم ورابعها استحالة الصبر إذا توهم العرب أن بامكانهم تجاهل الامبراطورية الأمريكية وتركها لعوامل الزمن تعريها وتكسر شوكتها كما حدث لامبراطوريات سبقتها ..

أساطير بيضاء - كتابة التاريخ والغرب

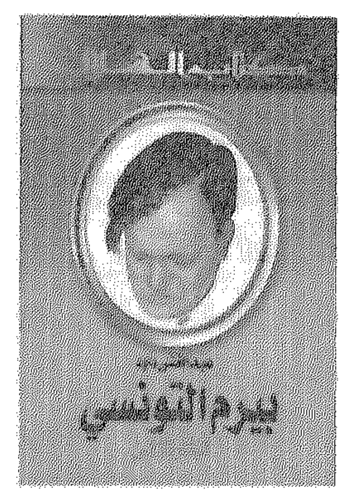
المؤلف: روبرت يانج ترجمة: أحمد محمود

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

ينتقد نظريات التاريخ المعاصرة التى تحمل الرؤى التاريخية الغربية للعالم خارج الحدود الأوروبية . وهى نفسها المشتقة إلى حد كبير من آراء كوجيف ولوكاش وهيجل والاساس الفلسفى للماركسية . ويقدم سلسلة من التحليلات لعدد من نظريات التاريخ والتعقيدات التى ارتبطت بها . ظهر خلال فترة التسعينات ليقدم «دراسات ما بعد الكولونيالية» ويتناول أعمال إدوارد سعيد وهومى بابا وجايا ترى سبيغاك بالبحث فى فصوله الأخيرة . ويتحدى دعاوى المعرفة من خلال اعتماده على نظرية التاريخ الجدلية التى يزعم البعض أنها موضوعية كما يقول «يانج» . لذا نجده يستعرض كافة الرؤى التاريخية التى ظهرت فى أوروبا ويقابلها بالرؤى الأخرى التى بدأت من العالم خارج الحدود الأوروبية. لذا نجد الأساطير البيضاء هى كما يرى جامعها «قصص تمثل أنواعاً شتى من التاريخ لا يمكن اختزالها رغم تشابهها إلى قصص أخرى أو إلى إطار واحد . فهى تواريخ روايتها يمكن روايتها بأشكال عدة وقولها بطرق مختلفة وتصورها بأكثر من منظور .. فالكتابة عن تواريخ دول القارات الثلاث . قارات الجنوب الثلاث تعنى الكتابة عن هفوات التاريخ نفسه عن الفضاءات التى طمسها البياض القاسي الذى لا يعرف الرحمة» فيتحدث عن مبالغات سارتر ودفاعه عن الماركسية وفكرها الجدلى على اعتبارها التفسير المشروع الوحيد للتاريخ ، وعن أوهام ميشيل فوكو والتى يعتبرها من أشد هجمات ضراوة عند نظريات التاريخ .

ويبحث فى استراتيجية فردريك التى تمكن الماركسية فى مواجهة ما بعد البنيوية وذلك عن طريق تجميع كل الماركسيات فى ماركسية واحدة واستيعابها تحت رعاية التاريخ الكلية .

ويقول «يانج» عن كتابه إنه محاوله للنظر للغرب من وجهة نظر مختلفة محاولة للقراءة من اليمين إلى اليسار بدلا من القراءة من اليسار إلى اليمين . ويطرح تساؤلات .. هل العالم عالم واحد أم اثنان أم ثلاثة ؟ هل الغرب واحد أم أكثر من واحد ؟ هل للغرب وجود على الاطلاق ؟



بيرم التونسي - قيثارة الفن
المؤلف: عبد الغني داود
الناشر: دار الهلال
كتاب الهلال

كثير من أعمال بيرم التونسي تكاد وتندثر وتنمحي آثارها . لذا صدر كتاب يبحث عن الأعمال المفقود أو الضائعة له . خاصة أنه ألف واقتبس وأعد ما يقرب من عشرين أوبريت جاء أغلبها في فترة ما بين الحربين العالميتين بالإضافة إلى حوار وأغاني حوالى خمسين فيلما سينمائيا وكتب مالا يقل عن عشر تمثيليات ومسلسلات وبرامج غنائية للإذاعة لقيت نجاحاً شعبياً كبيراً في زمانها . ويسرد التفاصيل التى ارتبطت بعلاقة «بيرم» بفن الأوبريت مثل أوبريت «شهر زاد» الذى قدمه لأول مرة عام ١٩١٩ ووقتها لم يكن يتجاوز عمره السادسة والعشرين

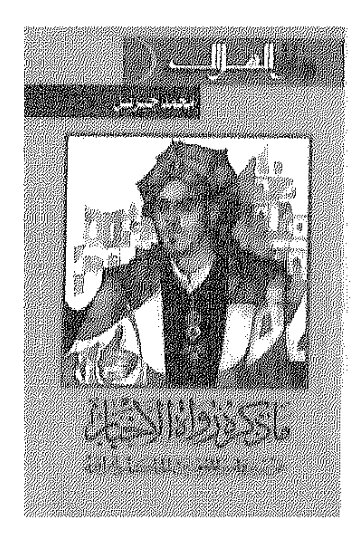
ثم تقديمه لأوبريت «ليلة من ألف ليلة» الذى قدمتهن فرقة فاطمة رشدى فى ١٩٣١ . «واوبريت عقيلة» والمقتبس عن نص مسرحية «ميديا» المأساة اليونانية التى كتبها «يوبيدس» وغيرها فى الأوبريتات أشهرها «يوم القيامة» و «عزيزة ويونس» و «مايسة» و «مدام بترفلاى» . ويقدم الكتاب عدداً من أعمال بيرم التونسى فى مسرح العرائس مثل «الشاطر حسن» الذى وضع ألحانه على اسماعيل وصمم ديكوراتها ناجى شاكر وأخرجتها مدام جينى بروقتش وهو عبارة عن مزج بين الحدوتة التقليدية فى جو فانتازى حيث يصيح الديك ليوقظ كل حيوانات وطيور المزرعة لينضم إليهم كل المخلوقات التى ترعب الأطفال مثل الغولة الحدأة وابو رجل مسلوخة . ويوثق الكتاب الأوبريت بكتابة أشعاره كلها . ويختتم «داود» كتابه باستعراض الأعمال السينمائية التى شارك فيها «بيرم» بأشعاره .



خلوة الغلبان
ابراهيم أصلان
الناشر: دار الشروق

حكايات بسيطة تدور حول يوميات أصلان مع أصدقائه قرنائه وحتى البشر الذين لا يعرفهم .. مجموعة تكتمل لتحكى حياة مبدع بتفاصيلها التى يرى البعض مدى عاديتها وإن كانت تغوص فى الأعماق وتكشف أكثر ماتستر عنها بصدق وبلا

موارية أو تجميل . وهى طريقة اصلان فى سرد تفاصيل الحياة بقسوتها وبغرابتها وبهمها الذى لا ينتهى . بداية بحواره القليل الكلام مع سائق التاكسى إلى جانب لقطاته الخاطفة من داخل أحداث عاشها مثل معرض القاهرة الدولى للكتاب ، لقائه بالعقاد ، عشائه مع عبد الوهاب البياتى ، وعلاقته بنجيب محفوظ ، وسفره مع جمال الغيطانى وذكرياته مع يحيى طاهر عبد الله . حتى يصف علاقته بالمكان المحيط به بدءا من كيت كات أمبابة مقر سكنه وبحى جاردن سيتى ومكتبه فى جريدة «الحياة» . عمل جديد على أصلان وإن لا يختلف كثيراً عما يتوقعه القارئ منه . منذ مجموعته الأولى «بحيرة المساء» وحتى روايته «مالك الحزين» يقدم عمله غير العادى بشكل واسلوب عادى جداً بلا تكلف أو تحذلق إنما بسلاسة الرجل الشارع البسيط .



ماذكره رواة الأخبار - عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمره
محمد جبريل
الناشر: دار الهلال روايات الهلال

الحاكم بأمره من أغرب حكام الدولة الفاطمية وأكثرهم إثارة للدهشة . سيرته التى تسردها كتب التاريخ تمتلئ بالحكايات التى تصل إلى حد الأساطير والخرافات .. عن الزهد فى الحياة والحكم والجاه وأخرى عن الوشايات والدسائس والخيانات ... وأختفى الحاكم بأمره ليضيف بذلك أسطورة جديدة إلى أساطيره الأخرى . ويظل لغز اختفائه تتحدث عنه الناس والمؤرخين حتى يومنا هذا . رواية جبريل هى محاولة لسرد تفاصيل حياة حاكم غريب الأطوار وسط عالم يستمتع فيه البشر والعامة بتصديق الخرافة .. وبالتالى جاءت روايته لتغزل التاريخ بالخيال حول حكم الفاطميين .

ولفترة عاشتها مصر لاتزال ظلالها تعيش بيننا من خلال الآثار الاسلامية البديعة داخل أسوار القاهرة القديمة التى بناها الفاطميون . تتناول الرواية قرارات الحاكم بأمره الغريبة مثل تحريم أكل الملوخية والجرجير والترمس .. وإصراره على تغيير عادات وسلوكيات الناس بالقوة والارهاب حتى أنهم اعتادوا رؤية الرؤوس المقطوعة والمعلقة على الرماح خارج أسوار المدينة على جبل الدراسة دون استغراب أو اندهاش . وتنتهى الرواية بلغز اختفاء الحاكم بأمره وتطرح التساؤل التاريخى هل قتلته أخته ست الملك بالسم أم قتله مجموعة من اتباعه بالمقارع والشوم أم أنه ارتفع إلى السماء ولن ينزل إلى الأرض الا عندما تأتى الساعة .. □



قصة قصيرة

سينما محرم بك

قصة : مصطفى نصر

يعرف طارق سينما محرم بك منذ طفولته، فبيته قريب جدا منها. يذكر طارق يوم أن جاءوا بمعظم تلاميذ المدرسة القريبة من السينما، سائرين فى صفوف منتظمة، والناس حولهم والتلاميذ الذين يعلقون شارة «الشرطة» فى المقدمة والخلف، يومها وقفوا صفوفا أمام دار السينما يتتبعون «بلانشات» فيلم «رد قلبى» شكرى سرحان فى رداء الضباط، والأميرة إنجى (مريم فخرالدين) بقامتها المديدة الرشيقة ووجهها الجميل.

أيامها كانت مدارس المنطقة التعليمية تدخل تلاميذها السينما. كل مدرسة لها يوم يحددونه مع إدارة السينما. فالفيلم يسجل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

والد طارق يعرف العاملين فى السينما فهو يذهب إليهم لإصلاح آلات العرض، يجلس معهم، يحكون له ويحكى لهم.

يدخل طارق السينما فى أى وقت يشاء ودون تذاكر. عندما يهل على

العاملين فى السينما، يصيحون فرحين: «أهلا طارق» يدخل صالة العرض ويأتون له بزجاجة مرطبات.

في ذلك اليوم جلس قريبا من البوفيه، وأمامه مائدة فوقها زجاجة مرطبات. لم يبدأ عرض الفيلم الذى جاء من أجله، ففتح رواية «آناكارنينا» وأخذ يتصفحها. اقترب مدير السينما منه، ربت فوق ظهره: كيف حال الوالد؟

– بخير. جئت لكى أرى فيلم «نهر الحب» فقد قرأت الرواية ولم أر الفيلم للآن. دخلت امرأة تميل للامتلاء، وجهها مستدير جميل. لم يلاحظ طارق دخولها أول الأمر لكن الجلبة التى صاحبتها جعلت المدير يترك طارق ويسرع إليها. التف العاملون حولها، ابتسموا لها كانت ترتدى عباءة سوداء معقودة حول رقبتها بـ «زرار» ذهبى. يبدو من ملامحها ومجوهراتها مدى غناها ابتسمت وهى تتحدث. تذكر طارق وجه أمه حينذاك فوجه المرأة قريب من وجه أمه. جلست أمام المائدة البعيدة والقريبة من باب صالة العرض. اسرعوا بوضع زجاجة مرطبات أمامها ابتسمت وضحكت فازداد وجهها جمالا واحمرارا ترك طارق كتابه وتتبعها.

اقترب أحد العاملين من طارق جلس بجواره دون أن يحس، فقد كان مشغولا بتتبع المرأة الجميلة. حول وجهها هالة من نور قال الرجل: ما رأيك؟

ضحك طارق فى براءة: فى أى شئ؟

– فى المرأة

– وجهها فيه وقار

ضحك الرجل حتى نظرت المرأة نحوه تاركة العديد من العاملين الذين مازالوا يلتفون حولها.

قال الرجل إنها تسكن قريبا من السينما غنية جدا، بلا رجل.

– لماذا؟

مط الرجل شفتيه:

قد يكون زوجها قد مات، أو طلقها أو.. كل ما أعرفه أنها بلا رجل.

– رأيتها كثيرا فى السينما، وفى كل مرة أطيل فى متابعتها.

– تأتى مرة أو مرتين فى الأسبوع وأحيانا ثلاثة.

– تحب السينما إلى هذه الدرجة؟

– لا أنها تأتى من أجل شئ آخر.

ثم أكمل دون أن يسأله طارق فى هذا الشئ الآخر: تأتى بشاب صغير يجلس بجوارها ويلبى رغباتها.

دهش طارق: إنها كالملاك.

دخل رواد السينما، تزاحموا. تابعتهم المرأة وهى جالسة مكانها وبدأ عرض الفيلم الأفرنجى قامت وهى تتابع طارق مبتسمة غابت فى ظلام السينما وعاد طارق إلى كتابه سأله محدثه ألن تشاهد الفيلم الأجنبى؟

– لا، جئت من أجل الفيلم العربى.

قال طارق بعد أن وضع الكتاب مفتوحا فوق المائدة: ولماذا لا تعترضون على وجود الشبان الذين يأتون معها؟

- نعترض؟! إنها تطعم كل العاملين فى السينما على حسابها، وتقدم الهدايا للجميع عادت المرأة ثانية، وكانت تدق الأرض بحذائها الذى يصل إلى ركبتها فى عنف وعصبية قال محدث طارق: الظاهر لم يعجبها رفيق اليوم.

اقترب العاملون منها. تحدثت فى عصبية ودقت المائدة بيدها أخذوا يهدئونها. ربت مدير السينما على ظهرها حانيا رجعت بظهرها إلى مسند المقعد العريض وتنفست بصعوبة. كان طارق يتابعها وكأنها لوحة جميلة لرسام مشهور، هدأت المرأة أحنت رقبتها قليلا وتحدثت مع مدير السينما. أحنى الرجال رقابهم ليسمعوا ما تقول تحدثوا معها، بعضهم ابتسم والبعض أظهر اعتراضه ودهشته اقترب بعضهم من طارق. كان فى مقدمتهم مدير السينما الذى وضع ذراعه فوق ظهر طارق وقال: الست تريدك.

- كيف؟

- أنت شاب قوى

قال الرجل الذى مازال يجالس طارق لقد قلت لك عن سبب مجيئها إلى السينما.

- لكننى لا أحب هذه الأشياء.

إنحنى مدير السينما حتى لامست شفتاه أذن طارق كلنا نسترزق من هذه المرأة.

وقف طارق فزعا: أرجوكم أرجوكم.

قالها فى صوت مرتفع فساروا بعيدا عنه عادوا إليها، تحدثوا معها وقال محدث طارق:

- حد لاقى

صاح طارق وقد وقف استعدادا للرحيل: لا، لا أستطيع

التفوا حوله ثانية أحدهم وضع يده فوق كتفه وأجلسه ابتسموا له: كن رجلا.

وقال آخر: لا تخف، لن نخبر والدك بذلك.

فجأة قامت المرأة من مكانها وجاءت إليه أرجوكم، أتركونا معا.

تباعدوا مسرعين جلست بجواره. ابتسمت له. وجهها جميل، عندما تفحصه طارق جيدا أحس أن الشبه بينها وبين أمه كبيرا جدا، حتى صوتها كان قريبا من صوت أمه:

- ما الذى يغضبك منى؟

إرتبك: أنا لست غاضبا منك، بالعكس..

وضعت يدها فوق يده المرتعشة أحس بالدفء.

- لماذا لا تريد أن تجلس معى؟

- إنك مثل أمى.

ضحكت: المفروض أن تطيعنى لذلك.

شد يده من يدها حضرتك امرأة جميلة لماذا تفعلى هذا؟

- ماذا أفعل؟

أعادت يدها ثانية فوق يده ترك يده لها وتابع وجهها المستدير الجميل: كلك براءة وقفت وشدته من يده: هيا بنا قبل أن يبدأ الفيلم العربى.

لكنه لم يتحرك تشبث بالمقعد أكثر: هيا بنا.

وقف، دفعها بعيدا وهو يصيح: لن أرى الفيلم من أجلك.

وأسرع خارج السينما هاربا. ■

المسرح فى الهناجر

النوبة

ليست دوت كوم

بقلم

مهدى الحسينى

النوبة أرض وتاريخ وبشر وذاكرة وثقافة وفن ونهر وخيال.. وحقيقة مضيئة ساحرة تمثل فى مستقبل مصر والسودان ووادى النيل وشعوب النهر من البحيرات العظمى حتى الاسكندرية .

وهم جماعة مبدعة بطبيعتها الغنية البسيطة، فالفن بطاقة هوية، فلا توجد جماعة تنتج فنا حقيقيا من نفس مظلمة أو ظالمة او حاقدة أو جاهلة، ولا - بالطبع - تنجم عن وجدان خائن. لابد من وجدان طاهر كى يزدهر فن وثقافة أى شعب. وهكذا كان النوبيون ويكونون أبدا.

حول هذا الموضوع المهم، وفى مسرح الهناجر، دارت وقائع العرض المسرحى المستوحى من ثلاثة أعمال روائية لإدريس على، كتبها الناقد حازم شحاته، واخرجه ناصر عبدالمنعم، وصمم مناظره محيى فهمى، وأزياء ياسمين حاكم، وأعد موسيقاه جمال رشاد، وقام بأدائه مجموعة من هواة التمثيل النوبيين، تساندهم الممثلة المتميزة منى جلال فى دور سيمون، والممثل منصور عبدالقادر فى دور العمدة، والممثل محمد حسيب فى دور البريطانى، والممثلة امل طارق فى دور غادة، ومستورة فى دور شايه، واسامة عبدالمنعم فى دور عوض، وعادل ميخا فى دور محروس، وقام بتنفيذ العرض مجموعة من فنيى الهناجر بقيادة خالد سرور.



المصدر الأدبي

اعتمد الكاتب «حازم شحاته» أعمالا روائية ثلاثة للقصاص المصرى النوبى «إدريس على» مصدرا لنصه المسرحى وهى وفقا لترتيب الأصدار كما يلى:

١ – دنقلة سنة ١٩٩٤

٢ – النوبى سنة ٢٠٠١

٣ – اللعب على جبال النوبة سنة ٢٠٠٢.

واقتنص من ثناياها ما يشبه الموضوع الواحد والخط الدرامى المتصل، وهذه مهارة تحسب له ، إلا أن الروايات الثلاث الأصلية فى حاجة إلى نقد طويل مفصل ليس هنا مجاله، كما أن ما أنجزه الكاتب المسرحى سوف نتعرض له فيما يلى.

في تقنيات الأعداد المسرحي وفنونه

أهم إيجابية تميز هذا العرض هى جدية الطرح والأداء، سواء عند المصدر، أو الكاتب المسرحى أو المخرج أو مجموعة المؤدين والمنفذين على أنواعهم ، الأمر الذى كان له أثر عميق على حرارة المشاهدة سواء اختلفت أو اتفقت مع العرض، حيث تكون العلاقة المباشرة مع الجمهور هى المقصد الأسمى، سيما وأن القضية قضية جماهيرية عامة ووطنية فى المقام الأول.

فى مطعم كمدينة عائمة فوق سفينة تجوب المتوسط – بديلا عن قرية نوبية مستقرة – يستحضر النوبى «عوض شلالى» وقد بلغ الستين – على شاشة الانترنت – شخوصا ووقائع مرت به منذ كان فى السابعة عشرة أى ١٩٦٣: الجد إدريس على – الجدة شايه – أخته آشا – سيمون عالمة المصريات القبطية المغتربة وزوجها كتبه العالم البريطانى النوبى الأصل – كنود شخصية غامضة من أصول نوبية غرب السودان، مسئول الاتحاد الاشتراكى بمحافظة أسوان – غادة وأبوها النوبى وأمها البولاقية وخطيبها. هذه براعة استهلال انجزت دخولنا إلى عالم المسرحية بتكثيف وسرعة مطلوبة.

مرت شخصية «عوض شلالى» بتحولات كثيرة كلها منطقية ومفهومة، دفعته نحو حلم مستحيل: وطن نوبى من دنقلة إلى أسوان، كان عضوا متحمسا فى منظمة الشباب يصدق كل ما يقال عن القرى النوبية الجديدة اليانعة المزدهرة التى سوف ينقلون إليها أمام السد، ويؤمن إيمانا مطلقا بـ «النظام» ومشروعاته ودعايته فيروجها بين سكان قريته «القديمة» وينفذ عن اقتناع وحماس كل ما يأمره به أمين الاتحاد الاشتراكى بالمحافظة ، ولكنه أمام ما أسفرت عنه الأيام من حقائق صادمة مريرة وقاسية يهرب مهاجرا ليستقر أخيرا كي يعمل جرسونا علي سفينة عائمة على البحر المتوسط، وهناك بعد ١٤ سنة يلتقى بسيمون فتتذكرة بلقاء قديم تم بينهما حين زارت قريته النوبية فى رحلة بحثية مع زوجها الذى ظنت أنه مات غرقا فى النيل، بينما فى الحقيقة أنه قتل فى خناقة عارضة مع نوبى آخر من جماعة «الكشاف» حول الهوية النوبية!! وتعرض هذه الباحثة الجميلة الناضجة عليه الزواج كى يشاركها حياة الغربة عن الوطن إلى ما لا نهاية، فهى غنية تحمل ثلاث

جنسيات : مصرية وفرنسية وانجليزية،ولكن، عوض يرفض مفضلا بديلا آخر.. هو الغربة فى الوطن. وها هو قد عبأة فى موقع فى الانترنت: «لن تجدها. إلا فى مكانين. قلبك أولهما، وثانيهما على هذا الموقع.. النوبة دوت كوم». ولكن هل صحيح أن النوبة لن توجد فقط إلا على الانترنت؟!! ألا توجد إمكانية نوبة جديدة «حقيقية» على شواطىء البحيرة حيث تمتد الى السودان بعد فتح الحدود؟ وهكذا يتبع الكاتب المسرحي مع عوض شلالى منهجا خاطئا: «اعمل كليك على أى صورة .. هتلاقى حكاية ورا حكاية.. رتبها زى ما انت عاوز .. المهم ابعت لى رأيك. يعنى إيه الوطن؟ والمدهش هنا أن العرض يفترض ان المشاهد - وهو من ورثة أقدم وطن فى التاريخ وأعرق حضارة - سوف يتساءل معه نفس السؤال هل يحول المواطن وطننا إلى مزق شتى عبر الانترنت لا الى سياق متواصل؟ وهل هناك إمكانية نوبة جديدة على شواطىء البحيرة حيث تمتد إلى السودان بعد فتح الحدود؟ واذا كان هذا الأمر صحيحا، فما هو وراء طرح هذا التساؤل الغريب على مواطنينا؟ يقول عوض: «ظلت النوبة جرحا باتساع خمسين سنة .. قررت استئصاله من روحى لأضعه أمامكم على هذا الموقع: النوبة.. دوت كوم هل هذا ممكن؟ هل يمكن ان يستأصل إنسان وطنه . روحه من ذاكراته وجسده؟ هكذا حولنا الوطن - عبر الانترنت - الى صور متفرقة لا كلية - ذات بعدين بدلا من جسم حى نابض ذو اربعة أبعاد فضلا عن الزمن والطاقة والأثر. فهل يستطيع عوض؟ وهل نستطيع نحن؟ وهل صحيح أن النوبة الآن توجد فقط على الانترنت وفى قلب كل نوبى وفى المراجع والخرائط القديمة وألبومات الصور؟

وعلى الجانب الآخر نجد «غادة» الفتاة البولاقية وقد شحنها أبوها رغما عن انفها على باخرة نيلية كى تتنوب، وفى استقبالها «عوض شلالى» صغيرا» على عتبات المراهقة، مع جدته «شايه وقريبه» محروس الأهبل الذى يعشق الغناء والجمال «لم يستفد من هاتين الصفتين دراميا وجماليا أما غادة فيطلقون عليها لفظة بنت الـ «جورباتية» أى الغريبة لأن أمها ليست نوبية، فتلقاها جدتها شايه المتشددة الصلفة بعنف، وهنا نكتشف عيبين فى صياغة هاتين الشخصيتين: الجدة احادية الجانب لا تعرف سوى الغضب، وكذا الحفيدة البولاقية لا تعرف سوى اللهو الدلع والابتذال. اذن فالصدام حتمى بينهما فنحن إزاء هويتين متطرفتين، وكان لابد من معالجة فنية أفضل لهما، وسأفرض أن «غادة» هذه لم تكن على هذه الدرجة من الدلع والعدوان تجاه البيئة النوبية، وأن شايه أيضا كانت جدة حنون رغم محافظتها، ألا يؤدى هذا التكوين المتوازن غرض الكاتبين على نحو أفضل مادامـا يطرحان قضية التباين فى الهوية؟ لو أن الشخصيتان كتبتا بأبعاد ثلاثية مكتملة ودرامية من داخل كل منهما ومن خارج كل منهما لاكتسبا ابعادا إنسانية لا استثنائية متعسفة كى تؤدى الغرض الفكرى، وكذا الأمر بالنسبة للأم البولاقية لو كانت قد رسمت كسيدة قوية من بنات البلد البولاقيات دونما ابتذال، ولو قدم الأب النوبى كرجل من العاملين



المطحونين الخاضعين لقهر المدينة واستعلائها عليه بسبب سمرته، فإن العرض فى هذه الحال يقدم ثلاث شخصيات ليست مدانة مسبقا، فيطرح قضية الهوية من زاويا موضوعية لا من نظرة خلقية ذاتية محدودة، وهكذا ندلف إلى موضوع الهوية مباشرة بلا عوائق.

هكذا تواصل الشخصيتان بتكوينهما هذا الصدام تلو الصدام حتى تختفى غادة فى ظروف غامضة، فى الأصل الروائى القتها جدتها فى الخور، وفى النص المسرحى مال الى الغموض وعدم الجسم موحيا بفكرة قتل شاية لحفيدتها ومرتبكا لأنه لم يقدم تفسيرا لهذا الاختفاء، كان لابد من حل أفضل لهذه الفتاة الحائرة بين ازدواج الهوية والثقافة والتربية لا ذنب لها فيه ثم نجد «آشا» شقيقة عوض التى تعانى حالة من الجدب العاطفى والاقتصادى والارهاق الجسدى من وطأة العمل المنزلى الشاق، غير أن هذا وحده لا يبرر تعاطفها مع غادة فتتخلى بسهولة عن ضفائرها وثقافتها وميراث أهلها الفنى، هى حقا فى حاجة إلى تحسين ظروف الحياة اليومية والعمل، ولكنها تكرر ما ورد على لسان غادة من مبالغات حول الحر والعقارب والذئاب، وتلك أمور بيئية يتعود سكان كل بيئة على التعامل معها والا هجر سكان الاسكيمو بلادهم بسبب الجليد وسكان خط الاستواء غاباتهم بسبب شدة الحرارة ووحوش الغابة، ومع ذلك فشخصية آشا مؤهلة – فى حال إعادة

لقطة من مسرحية النوبة .. دوت كوم

صياغتها – كى تكون مثيرا للصراع حيث انها من الممكن ان تتوحد وتتناقض فى آن واحد مع كل من الجدة شايه وغادة والبيئة، هنا سوف تكون شخصية أعمق وأخصب، ومع ذلك لا يصح التسليم بكل آرائها، وإلا أصبح حنين أهل النوبة إلى نوبتهم القديمة مرضا نفسيا لا مبرر له أصلا ، اما «دهيبة» أم آشا وعوض، فقد جاءت مطابقة من حيث البنية النفسية والدرامية للجدة شاية، وهى أيضا تكرار لحالة انتظار الزوج الغائب طويلا للعمل فى القاهرة، لذا لم نكن فى حاجة إلى وجودها إلا بشرط اختلافها نفسيا ودراميا مع الجدة.

وكذا نجلاء ومجموعة البنات اللواتى التففن حول غادة فكن اشبه بالكورس الذى لا وظيفة له. فهن قد تخلين بمنتهى السهولة حين تزعم ان شعرهن كريه الرائحة ومليء بالقمل، والمعروف عن النوبيين من الجنسين عادة الاستحمام يوميا فى النيل، ويتعلمن من غادة رقصة «هز ياوز» وهكذا، بينما على العكس من ذلك نجد أن الضفائر الافريقية أصبحت مودة الجميلات فى العالم كله وأن الرقص الافريقى بإيقاعاته وحركاته المنمقة موضع اعجاب من الاوروبيين وغيرهم، فهل تقصد المسرحية أن الشعر والرقص والغناء النوبى شيء يعوق التحضر والتمدن؟ هل نسلم باندثار الهوية الثقافية المصرية النوبية وان غادة هى دليل على نجاح عملية الطمس هذه؟ ان الثقافة والفنون النوبية هى نمط حياة كامل يضم العمارة والزى والزينة والموسيقى والغناء والادوات والاساليب والعمارة ولا يصح تجزئتها . إذن كان لابد من شخصية أخرى تعدل الميزان مع غادة.. ولتكن نجلاء.

كان عوض شلالى قد التقى العالم البريطانى النوبى «كتبه» حين زار النوبة قبل التهجير مباشرة ليبحث عن شخص يدعى «كنود» وهو من جنوب النوبة غرب السودان، زاعما ان لدى الأخير وثيقة مكتوبة على جلد الغزال تثبت الحلقة المفقودة التى يبحث عنها العالم فى تسلسل العرق النوبى وفقا لعلم الاجناس، هذا الرجل يمثل تطرفا آخر فى فهم موضوع الهوية إذ يبحث عن نقاء «العرق النوبى» ولعله كان يعتبر نفسه النوبى الوحيد، اما الباقون فهم اخلاط مع العرب والمماليك والترك، الامر الذى أودى بحياته فى معركة مع واحد من «الكشاف» كان متطرفا منحازا لأصوله هو الآخر، وفى لقاء بين كتبه وعوض يسأله الأول عن اسمه كاملا فيسرد عوض قائمة طويلة كلها اسماء عربية، ولكنه لا ينتبه - كما لم ينتبه الكاتب المسرحي أيضا - الى أن السلسلة تنتهى باسم «تود» وهى اسم مصرى قديم مصحف تعنى «ولد» او «ابن» بما يعنى أن لعوض جذر فرعونى، وفى ظنى ان هذا الأمر صحيح تماما. فالنوبيون قديما - حتى بحر الغزال حيث يوجد حوالى ١٠٠ هرم - كانوا يشكلون الجذور الافريقية للحضارة المصرية كما يقول عالم المصريات السنغالى شيخ انتاديوب فى موسوعته التى أصدرها ١٩٥٥ بباريس، او بمعنى آخر أن الحضارة المصرية القديمة هى العنصر المستمر بشكل أو بآخر - رغم تعاقب المراحل الحضارية على مصر استمرارا متفاعلا - غير ميكانى - حيث اندمجت مع كافة ما يناسبها من العناصر الأخرى التى وفدت إلينا، وأفادت منها بما يتواءم مع شخصية المكان ومقتضيات الزمان وحاجات البشر وعلاقات القوى المحلية والدولية، فالشاعر أحمد شوقى ومحمود سامى البارودى - على سبيل المثال - ينحدر كل منهما من اربعة اعراق أحدها مصرى، ومع ذلك يختاران طوعا الانتماء لمصر!! كان هذا عصر نهضة وبشائر ازدهار، أما الآن فإن الجار يؤذى جاره، والأخ يتبرأ من أخيه؟ والرجل يقتل أولاده، وعضو البرلمان متعدد الجنسية، والمواطن يتنكر للوطن، ولحسن الحظ أن هذه الأمور الرديئة لم تصبح قاعدة بعد، ولكننى



أخشى ما أخشاه، أن تنطوى هذه المسرحية - بحسن نية - على فكرة نخبوية كوزموبو ليتانية انعزالية غير واقعية وغير تاريخية، تروج ان لفظتى المواطنة والوطن اصبحتا فى عصر العولمة بغير ذات معنى. وأن حق المواطن فى وطنه التاريخى - سيما اذا حدث تغير بيئى أو حدودى أو اجتماعى - أصبح ضربا من المستحيل، وفى حين تنفى الأصول والاعراق - وهى حقيقة رغم كل شىء - بحجة محاربة التعصب أو أن ما تفرضه العولمة أصبح امرا واقعا، فإنها تنفى الأصول والحدود والحقوق التاريخية والقوميات، وبينما ينحاز الانجليز الى السكسون والفرنسيون الى الغال والروس الى السلاف الروس، والأمريكان إلى هوية مفتعلة مزعومة، نلغى نحن ما يجب ان ننحاز له، ونعاف ما نقتات به حضاريا وثقافيا، الا ما يقدم لنا من مؤقتات وعوارض تأكيدا للفكرة البراجماتية : نحن ابناء اليوم وحسب ودعكم من الامس!!

المسرحية مليئة رغم صغر حجمها بالتفاصيل المهمة والجديرة بالمناقشة، ولا يتسع المجال هنا للخوض فى كل شىء اثير فيها او بسببها، وإذا كانت تناقش قضية الهوية «ما معنى الوطن؟» فقد أخطأت الطرح، وكان الأجدى بها أن تتعرض لبطولة شعب حافظ على مواطنته المصرية وثقافته وآدابه وفنونة وزينته ومعماره ونخيله وقوانين تفاعله مع البيئة وشىء من اساليب حياته.. ونهره، رغم رياح الخماسين وفيضانات السدود. ولهذا أقول إن الخط الدرامى الخاص بالرباعى! كتبه وكنود وعوض وسيمون وما يتعلق بهم كان فى حاجة الى مزيد من الوضوح والعمق.

في فن الإخراج وتقنياته

لكل عرض عالمه الخاص حتى ولو كان لنفس الكاتب والمخرج ونفس الفكرة، والمخرج المسرحى هو المسئول الأول عن تجسيد هذا «العالم» بفضل هيئته الإخراجية من مصمم للسينوغرافيا مناظر وأزياء واكسسوار ومكياج واضاءة ومصمم للحركة الاستعراضية، وموسيقار، فضلا عن النص المسرحى بإيقاعه ولغته واحداثه وشخوصة وتفاصيله.

ووفقا لترتيب عمليات التلقى تكون الاضاءة فى أول لحظاتها بما تسفر عنه من المنظر المسرحى حيث يدور الفعل والحركة هى التى تقود ناظرى المشاهد الى عالم المسرحية، ولذا فقد رأيت أن الاضاءة هنا جاءت عادية أى مجرد إنارة، عدا بضع لحظات ، أى أنها لم تكن تحمل فكرة جمالية أو بيئية أو نفسية أو دلالة درامية، بل تنتقل بسذاجة من لوحة إلى أخرى ومن مشهد لمشهد على نحو آلى: إضاءة مختلطة ببعضها البعض تحدث لبسا فى الزمان والمكان أكثر من ارشاد المشاهد إلى حيث تكون بؤرة انتباهه، وليس كما قيل أن المخرج استخدم أسلوب المزج السينمائى فى الانتقال هنا أو هناك، وما تم هو العكس! فاللون والكثافة لم يعطيا أى دلالة ، اللهم الا مشهد الوداع الرومانسى بين سيمون وعوض فجاءت الإضاءة ناعمة بما يتلائم مع الموقف، وأيضا هذه الظلال المزدوجة فى مشهد التهجير وعويل النساء المتعارض مع الأغنية الناصرية الزاعقة، وهو بالمناسبة

من أروع مشاهد العرض من جميع الوجوه، كذلك هذا البروجكتور الأصفر الكبير الحاد فى منتصف خلفية المسرح، غير أنه لم يستخدم على نحو واع أو خلاق وانما استخدم استخداما شكليا فقط، فبينما كان من الممكن أن يوحى بفكرة غروب شمس النوبة واختناقها التدريجى المدروس من الأصفر الفاقع الى البرتقالى إلى الأحمر الى الاحمر الشفقى الى البنفسجى الى البنفسجى الداكن الى الاظلام التام. ويرجع اهتمامى هنا بالإضاءة كطاقة تعبيرية جبارة فى عالم هذا النص المسرحى، وهو ان هناك تصورا اخراجيا آخر: كيف أن النوبة البهيجة المزدهرة الوادعة فى حضن النيل عبر التاريخ، قد ارغم اهلها على هجرتها إما إلى أماكن أخرى أو الصعود إلى أعلى الجبل، ولتصوير هذه الانتقالات التاريخية والمكانية الفادحة يكون تكنيك «القطع» هو الأنسب والأكثر قدرة على صنع الصدمة النفسية الناجمة عن هذه الانتقالات والانهيارات، فهكذا ينتقل العرض من إضاءة بهيجة إلى أقل بهجة إلى مضطربة إلى بقع متلاحقة متناثرة.. وهكذا حتى تسقط النوبة كلها فى غياهب الظلام. كما لم تساعدنا الإضاءة على التمييز بين الزمنين اللذين يجرى العرض فى اطارهما، طبعا بالإضافة الى التفاوت الضرورى فى أسلوب الأداء وايقاعه (بالمناسبة الايقاع والزمن مضطربان تماما فى هذا العرض)، فأداء الشباب وايقاعه غير أداء الشيخوخة وكذا سرعته، وزاد عن كل ذلك هذا القصور فى صنع ابسط التغييرات اللازمة لإقناع المشاهد وهى تغيير لون الشعر وطرز الملابس.

هذا وقد غابت الجماعة الشعبية النوبية عن جسم العرض، فهذه القلة من الافراد لا يمكن ان يشكلوا حياة قرية نوبية شكلا وزيا وأداة، فالصوة النوبية على بساطتها ثرية ومدهشة (راجع تراثنا التشكيلى الغنى باللوحات عن النوبة.. وراجع كتالوجات الصور والمتاحف) وليست كالحة وفقيرة كما بدت فى صورة العرض، والنوبيون لا يمشون صفوفا كفرقة فنون شعبية غير اصيلة ركيكة التكوين، وبالطبع نحن لا نطالب بالمجىء بعشرة آلاف رجل وامراة وطفل على المسرح، ولكن هناك قاعدة تقول إن القليل المعقول، يمكن ان يوحى بالكثير .. لو كان هناك تصرف وخيال. وللحق فقد وضع المخرج قاعدة فيستدعى المجموعة اذا احتاج الموقف استدعاء اهل النوبة، واذا احتاج الموقف الى الحوار الثنائى أو الثلاثى فإنه كان يخلى المسرح.

هذا ولم نكن بحاجة إلى هذه الديكورات الخشبية المصطنعة حادة الاطراف، والتى صممت ونفذت فى تعجل فبدت كرتونية المظهر والملمس، ولا علاقة لها بروعة العمارة النوبية التى بهرت كتالوجاتها العالم، والتى بنى العبقرى حسن فتحى جل نظرياته المعمارية على أساسها . بينما لو طالب المخرج من المصمم القدير محيى فهمى أن يصوغ للعرض مناظر من الجريد وقحوف النخيل وأليافه، لكان الأمر اجمل وأسهل وأقل تكلفة، فمثلا يتحدث النص عن سرير الـ «عنجريب» المصنوع بالكامل من الجريد، ولكننا لم نشاهده فى العرض الا مغطى تماما بقطعة من النسيج، بينما الأصل أنه يجب ان يظل عاريا من جميع الجوانب

حتى لا تتمكن العقارب من تسلقه.. والأمثلة كثيرة، وبكل أسف فإن مظهر الديكور هنا يؤكد الفكرة الخاطئة التى تطل برأسها من ثنايا النص وهى النوبة أن كالحة ومكان حار وكئيب ملىء بالعقارب والقمل والثعابين والذئاب ولا يصلح لسكنى البشر فى حين أسف العالم كله على غرق هذا التراث الثقافى والشعبى والعريق على ضياع هذه الحياة البسيطة لقوم بسطاء الى الابد، فإننا نجد العرض يقدم مبررات جاهزة لهذا الضياع .. ولا يقدم ردا عليها.. أو حتى يتحاور معها بندية. رغم ما سبق كان استخدام المخرج لعمق المسرح قد اعطى امتدادا غامضا شعريا للهوية النوبية ومنح الخاتمة قوة وسحرا خاصا.

وأما بالنسبة للمؤثرات الموسيقية والغنائية ، سواء المصاحبة أو الداخلة، فقد كان استخدام أغانى شارل أزنافور مناسبا لمشاهد سيمون مع عوض، ولكن المشهد كان يجب ألا يقتصر على نغم واحد فقط بل على نغمتين، فهذا تصوير غير درامى لهذه العلاقة المزدوجة المتداخلة. ورغم جمال المقطوعات المختارة لموسيقى العرض ككل من الناحية الذوقية فى حد ذاتها، إلا أنك إذا سألت واحدا ممن لهم حد أدنى من الدراسة بموسيقات النوبة فإنه يجيبك أنها تقوم على السلم الخماسى وايقاعات محلية والدف الكبير جدا «الحانة» والطنبورة ما تبقى لدينا من الهارب المصرى القديم والغناء الجماعى نساء ورجالا فى ثناياها قليل من الأصوات الفردية وهذا النسق لم يتم الاستفادة منه، لأن الأمر ليس اختيار موسيقى مناسبة والسلام، وانما اختيار موسيقى بعينها لكى تعطى ثقافة وتأثيرا وطعما ولونا دراميا محددا.

ورغم كل ما سبق يظل العرض - بمبدعيه الثلاثة وفنانيه - علامة مشرفة علي صدر مسرحنا المصري الذي لن يصلح حاله الا بالجدية وعمق الطرح والشرف.

اقوال مأثورة

انظر من ينصح لك

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أنظر إلى من ينصح لك فإن دخل من حيث يضار الناس فلا تقبل نصيحته وإن دخل من العدل والصلاح فاقبلها منه

أكرم النفس

المرء حيث يجعل نفسه: إن صانها ارتفعت وإن قصرها اتصفت

عمرو بن العاص

في معرفة النفس

قال الإمام الشافعي: أنفع الأشياء أن يعرف الرجل قدر منزلته ويبلغ عقله ثم يعمل بحسبه.



فنان الغناء

سلامة حجازى

فى كتاب وأسطوانة

بقلم
فرج العنترى

• من هو صاحب الفضل فى اختراع «الطقطوقة» ؟

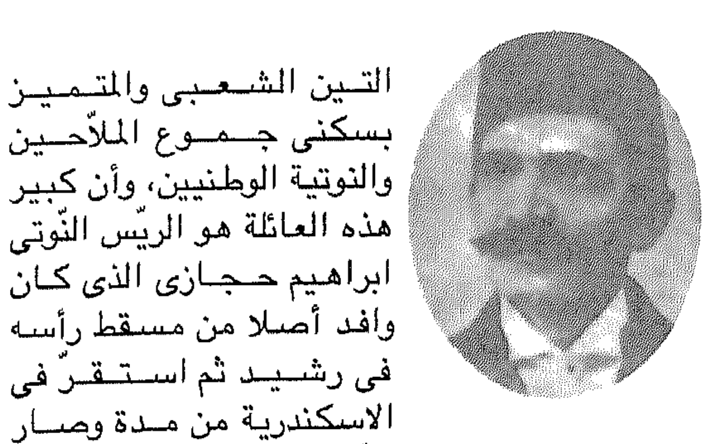
• أخطاء تاريخية وفنية فى رصد مسيرة الشيخ سلامة حجازى

الشهادة لله وللوطن ولقوميتنا العربية أن مجهوداتنا العلمية والجادة فى مهام الترشيد والتمدين لكتابات التأريخ الراصد لمراحل موسيقانا العربية مع توثيقها بالتدوين النغمى NOTATION ، وأساسا بالعمل لغربلة وتنقية وتعريب أوبرا الرطانات لمصطلحاتها الفارسية والتركية فى أجرومية «مقامات» السلالم «وضروب» الايقاع وفى قوالب المعزوفات والغنائيات وأيضا فى وجوب التوعية برسالتها التربوية والتذوقية فى المجتمع ، قد ظلت برغم «مؤتمرات التوعية برسالتها التربوية والتذوقية فى المجتمع ، وقد ظلت برغم «مؤتمرات الذهاب والإياب» مجرد أمل يراودنا حتى بدأت بشائر الصحوة والاستيقاظ فى كل من مرافق «البريزم» بديوان وزارة الثقافة ، وفى «مشروع الترجمة القومى» بالمجلس الأعلى للثقافة ، وأيضا وبالذات فى جهد «المشروع القومى للحفاظ على تراث الموسيقى العربية» بوزارة الاتصالات والمعلومات الذى أصدر من بواكير نشاطه مرجعا تراثيا فى «كتاب واسطوانة» وأربعة أبواب عن أنشطة فناننا الغنائى الشيخ سلامة حجازى .





٢
سلامة حجازي



وفيما يتعلق بالباب الأول من الكتاب سنجده يتعرض ابتداءً لسيرة المرحوم الذاتية، ثم لمستوى المسرح الغنائى المعاصر لفترته، ثم عمله بفرقة اسكندر فرح فى المدة من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٩٠٥ ، وعن عمله بفرقته الخاصة لمدة قصيرة فيما بين عامى ١٩٠٥ و١٩٠٦، وأخيرا عن الشواهد فى وداعه الأخير للحياة فى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

وأما عن الباب الثانى فسنجده سردا لمفردات أعماله الغنائية المسرحية، وفى الثالث نجد الغوائم التفصيلية عن كل انتاجه من السلامات والمارشات؟! والأدوار والمنولوجات والقصائد والموشحات والطقاطيق؟ والمسرحيات والروايات الغنائية فى تعدادها الذى بلغ نحوا من ٧٦ عملا، ثم الباب الرابع والأخير الذى نجده مجرد رسوم احصائية عن كميات المقامات وقوالب الصياغات التى استخدمها المرحوم فى نسب مئوية، وللقارئ الواعى أن يلحظ عدم أى رصد بالمرة لمقادير وأنواع الايقاعات بكاملها سهوا أو عمدا!!

وهذا مع تنبيه إعلامى بأن الحصول على جميع الاحصائيات قد تم باستخدام أحدث برمجيات الحاسب الآلى، وبأن كل التجهيز العام للمواد الموسيقية راجع إلى جهد كل من الاستاذة الدكتورة إيزيس فتح الله والأستاذ محمود كامل.

★★★

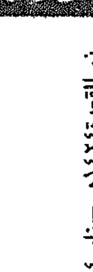
والاطلاع على محتويات الباب الأول يشير فى جانب السيرة الذاتية للشيخ إلى أن دار العائلة كانت فى حىّ رأس التين الشعبى والمتميز بسكنى جموع الملاّحين والنوتية الوطنيين، وأن كبير هذه العائلة هو الريّس النّوتى ابراهيم حجازى الذى كان وافد أصلا من مسقط رأسه فى رشيد ثم استقرّ فى الاسكندرية من مدة وصار عمدة فى الحىّ تبعا لشهرته فيه بالكرم السخىّ وبالتقوى وبالتعبد الصوفى فى زاوية للشيخ سلامة الرأس مع جمهرة «المريدين»، وأنه متزوج من «سالومة» ابنة أحد مشايخ عرب السلوم التى ولدت له فى عام ١٨٥٢ طفلهما الوحيد فأطلقا عليه اسم «سلامه» تيمنا وتبريكا بالشيخ الصوفى سلامة الرأس الذى كانت جميع عائلات الحى تستظل بروحانيته، ثم حدث أن أصيب الوالد ابراهيم حجازى بالتهاب رئوى أودى بحياته تاركاً زوجته مع طفلهما فى الثالثة من عمره، وأنها لسوء حظها تزوجت من شخص سكّير عربيد ومتلاف بدّد تركة المرحوم بدءا بالدار ثم بالسفينتين ثم انطلق يذيقها وابنها مرارة العيش بشكل ملحوظ فكان أن أسرع الشيخ سلامة الرأس بنفوذه الدينى فى الحىّ بانتزاع الطفل اليتيم من حضانة زوج أمه المتلاف للتعهد برعايته وتربيته وإلحاقه بكتّاب الحى ليتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم فى نصف اليوم الأول، كما ألحقه فى النصف الثانى بمحل حلاقة ليتعلم حرفة نافعة، وكان طبيعيا أن يتردد الغلام الذى أصبح فى سن العاشرة على زاوية كفيله الشيخ سلامة الرأس بانتظام لرؤية حلقات الذكر دوريًا واستماع أناشيدها بتشبّع غرس فيه عشق النغم بعمق، وخاصة صوت آلة

السلّامية التى عكف على محاكاة تنغيمها بصوته فى أوقات فراغه الليلى، ثم كان من مواظبته على حضور الأذكار أن استلفت نظر أعضاء الزاوية فقرّبوه منهم وأشركوا صوته معهم في ترديد آهات الصوفيين الممتدة، كما استعانوا به فى انشاد الأذكار ضمن «البطانة». وكان هو قد أتمّ حفظ القرآن الكريم فى سن الحادية عشرة فانتشر له فى الحى صيت بحسنِ الصوت وترتيل القرآن فتهافتت الأسرُ على طلبه بالأجر، وبالتالى كان طبيعيا أن يترك الارتباط بحرفة الحلاقة وأن يتكسّب بصوته ليتولى إعاشة أسرته بعد موت زوج أمه .

ثم حدث أن أصيب الشيخ سلامة الرأس بمرض أفقده بصره، فتولى الصبى سلامة الحافظ للجميل مهمة قيادة سيره بانتظام وعناية وثّقت الصلة بينه وبين طاقم العاملين فى مركز الطريقة الرأسية ولذلك فما أن توفّى شيخها حتى استخلفوه نقيبا عليهم وهو فى الخامسة عشرة حينذاك فأدار حلقاتها بنشاط وعبقرية، وأبدع فى الانشاد مما دعى إلى تهافت الكثيرين على الحضور فى الزاوية، فعمد إلى تقسيم أنشطة أذكارها بين عدة مساجد وتطوع من جانبه بأداء آذان الفجر في كل منها وحدث خلال هذه الزحمة فى نشاطه أن التقى بكبير منشدى القاهرة الذى كان فى زيارة للاسكندرية فأفاده بما يحسّن صوته فى تقوية القرارات ولمعان الجوابات.

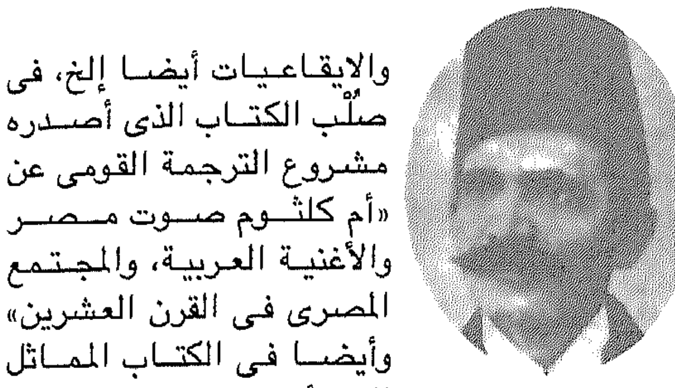
ولنا هنا وقفة مع حنجرة الفتى سلامة حجازى الذى بلغ سن المراهقة Adultness فى الخامسة عشرة من عمره بمقاييس «علم نفس النمو»، وما زعمته له سطور الكتاب فى صفحة ٢٢ من كفاءة حنجرته فى تخديمها للغناء وكأنما لم يحدث فيها عطب الخشونة الصوتية الذى يلازم فترة المراهقة كبقية خلق الله من الذكور إبّان هذه الفترة من العمر!! ذلك أن علم نفس النمو يؤكد لنا على أن تغييرا فيسيولوجيا ينتاب أجهزة جسم المراهق الداخلية والخارجية بسبب الزيادة فى كمّ الافرازات المنشطة للذكورة Ardrogen ، والتى تعمل على ظهور الخصائص الجنسية الثانوية التى من أهمها نمو شعر العانة والشارب والذقن وتحت الابط، والتغيير فى تصويت الحناجر إلى خشونة واضحة تشوّه الغناء وتتطلّب فنيا وطبّيا ضرورة الكف نهائياً عن الغناء حتى انتهاء مدة المراهقة فى سن الحادية والعشرين، لكن الكتاب زعم لفتانا المراهق سلامة حجازى حلاوة صوته فى أداء الأذكار وفى إطلاق آذان الفجر فى عديد من المساجد، وكأن مراهقته قد بطّلت فاعليتها الطبيعية بالتدليس الذى لم يجد له مراجعة وإنما وجد له تسطيراً فى مرجع توثيقى عصرىّ فى سنة ٢٠٠٣ الميلادية!!

ونقفز مع الكتاب إلى حوادث العام ١٨٨٢ الذى تعرضت فيه مدينة الاسكندرية للقصف بقنابل الاستعمار الانجليزى لإخماد الثورة العرابية الوطنية فتجد شيخنا قد هرب بعائلته إلى مدينة رشيد رأس أبيه ويبدأ فيها طورا جديدا من نشاطه الغنائى بجوقة تنقّل بها فى أنحاء البلاد والقرى المجاورة فيلاقى نجاحا ملحوظا أكسبه مبلغا كبيرا من المال، غير أن مصيبة فاجأته بموت والدته (وليس بموت زوجته وابنه كما جاء فى صفحة ٢٢ من الكتاب) فاضطر إلى العودة إلى الاسكندرية بعائلته، واهتم



بتكوين فريق من مهرة العازفين المحترفين، وتمكن من أن يجتذب لنشاطه نخبة من المؤلفين والشعراء الذين كتبوا له نصوص أغانيه بالفصحى المطعّمة بعبارات الغزل الحديثة والمعانى المهذبة، وتولّى هو مهمة التنقيح النغمى لأنواع القصائد القديمة «التى كان ملحّنة بأساليب عتيقة لاتتفق مع ذوق الجيل، فأسبغ عليها طابعا جديدا تجلت فيه عبقريته ونبوغه، وبذلك كان عهده متميزا بوضع حجر الأساس لبناء نهضوىّ فى الطرب والغناء المصرى.. (ص ٢٣) .

ولنا هنا وقفة عن غياب استشهاد الكتاب بالتدوين الموسيقى Notation لبيان الفرق بين القديم والحديث الذى طوّره العبقرى النابغة تبعا لأن الكتاب من أوله إلى آخره قد أغفل تماما وبشكل يستلفت النظر المعاصر فى تغييب عنصر أساسى فى التفرقة الموسيقية بين الأنماط، ولمستويات التأريخ، وهذا رغم أنه كتاب صادر من مرفق المشروع القومى لتأريخ وتوثيق التراث الموسيقى العربى، ومع علم الكافة والخاصة بأن التدوين الموسيقى أصبح الآن ميسورا بالنقل من التسجيلات والاذاعات ومن العزف والغناء مباشرة، والعلم أيضا بأن لدينا معاهد عليا للموسيقى فى أكاديمية للفنون تمارس فاعليتها فى بلادنا منذ نصف قرن، وعلى النحو الذى تمت ممارسته بالفعل فى التدوينات التوضيحية لأسلوب الفنانة أم كلثوم فى أدائها الزخرفى المتكرر بأكثر من لون للنموذج الواحد، وعن مكونات المقامات المستخدمة، والآلات المستخدمة،



والايقاعيات أيضا إلخ، فى صلْب الكتاب الذى أصدره مشروع الترجمة القومى عن «أم كلثوم صوت مصر والأغنية العربية، والمجتمع المصرى فى القرن العشرين» وأيضا فى الكتاب المماثل الذى أصدرته وحدة «البريزم» عن تاريخ وانتاج ملحننا العبقرى رياض السنباطى موثقا بالنماذج الموسيقية المناظرة والموضحة للدلالات فى كل أغنية مختارة من روائع قصائده وأغانيه، وبحيث لا يتبقى إلا الكتاب العصرى الأجْرد من ميزة النماذج الموسيقية بالتدوين الموسيقى اللازم فى إنتاج المرحوم الشيخ سلامة حجازى وعسى أن يكون ثمة علاج لأحواله!!

ونتحرك إلى الباب الثالث الخاص برصد مختلف الصيغ الغنائية للشيخ فنجد حالتى تصنيف مغلوطة التصنيف والانتساب إلى الشيخ كالطقطوقة والمارش. فالطقطوقة التى انفردت مصر بإبداعها وامتلاكها من دون كل الشقيقات العربيات قد تم إدراجها زورا وبهتانا فى غنائيات الشيخ فى حين أنها لم توجد إلا صدفة من تدريب نغمى للأصابع فاستولدها على يدى مبدعها وصاحبها الملحن الشعبى فى شارع محمد على، محمد على لعبه (١٨٨٥ -١٩٤٤) ولقيت دعما وترويجا من سلطانة الطرب المشهورة منيرة المهدية (١٨٨٥ - ١٩٦٥)، لكن القائمين على عملية التصنيف النوعى لموسيقى الكتاب أدرجوا خفائف أغانى الشيخ ذات الطابع الشامى والسورى فى زمرة الطقاطيق جزافا لما لم يبحثوا عن الحقيقة مع أننا نجدها واضحة تماما فى

كل من مجلة عالم الفكر الكويتية بعددها أكتوبر/ ديسمبر سنة ١٩٩٨ فى صفحة ٢١٠ ، وأيضا فى عدد أهرام الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ٢٠٠٢ بأن الطقطوقة من اختراع محمد على لعبة مما يتطلب تصويب هذا الخطأ فى الكتاب.

وأما عن إدراج صيغة المارش فى الصيغ الغنائية للشيخ، فالسائد حاليا وتاريخيا وكذلك فى الموسيقى نظريا وعمليا أن المارش صيغة عسكرية لطابور الجنود، وأن منها ما هو احتفالى للمناسبات الدولية ومنها ما هو جنائزى فى توديع موكب جنائز الراحلين العظماء العسكريين إلى رحمة الله، وأن موسيقى المارش ظلت دائماً للعزف بآلات النفخ النحاسية والخشبية وعلى إيقاع الطبول العسكرية الخاصة، وليست بالغناء أبدا كى تحتسب للمغنى الفلانى والعلانى كما احتسبت بالزور وبالبهتان على شخصية غنائية مصرية، ومصر بالذات هى صاحبة أشهر مارش للنصر فى أوبرا عايدة، ويتم عزفه بأبواق تم تصنيعها فى أوروبا على مقياس وتنغيم الأبواق الفرعونية التى اكتشفها الأثريون فى مقابر بنى حسن، ومرة أخرى هى مصر التى سجل لها علماء الحملة الفرنسية تدوينا لمارش مصرىّ التأليف والعزف بآلات نفخ وطبول ومصلصلات هادرة وبصحبة نشيد حماسىّ رسمىّ حيث لا تخت ولا غراميات، لكن مصر قد كتب عليها أن يصدر منها وعنها كتاب توثيقى رسمى بأن موسيقى المارش غناء لسلامة حجازى بالتخت والغناء فى الصفحات من ٩٩ إلى ١٢٠ مما يتطلب غسل هذه الإهانة فورا بدلا من السكوت على تشنيعها!!

وإذ لا يتبقى أمامنا فى الاطلاع والمراجعة من أبواب الكتاب إلا مشاهد الرحلة الدرامية لفناننا الغنائى رحمة الله فإننا نتناولها موصوفة ببلاغة ومصداقية الأستاذ الأديب عبد النور خليل فيما يلى من الوقائع:

«أصيب الشيخ بالشلل عام ١٩٠٩، وسقط على المسرح وهو يؤدى واحدا من أدواره الغنائية المشهورة، لكنه أبى أن يغلق الفرقة أو يعتزل العمل على المسرح، فكان يقف على المسرح مسنودا إلى مقعد ويؤدى دوره فى المسرحية وكأنما هو معافى وسليم تماما».

«ولقد كان حادث السقوط مريضا بالشلل على المسرح، مؤشرا إلى بدء النهاية فى حياة المطرب الشيخ سلامة حجازى رغم أنه لم يستسلم لليأس لحظة، وبدأ يقاوم السقوط فى زاوية النسيان، والبقاء على القمة ملء أسماع الناس وأبصارهم ، ولكنه اضطر فى عام ١٩١١ إلى اللجوء إلى فرقة جورج أبيض ليكون نجما للمسرحيات الغنائية التى بدأت تقدمها على مسرح الأوبرا، وظل يعمل فيها حتى عام ١٩١٤ - عام الحرب العالمية الأولى - ثم انسحب تحت ضغط المرض وقعد فى انتظار النهاية الوشيكة إلى أن توفّى فى الرابع من أكتوبر سنة ١٩١٧ وبجواره واحد من تلاميذه الشبان يسمعه اسطوانة له غنى فيها قصيدة لشاعر القطرين خليل مطران، كان الشاعر الكبير قد أطلقها امتداحاً له ولمواهبه، ورحل الشيخ سلامة حجازى: الشيخ المنشد المقرئ الذى كان صوته يوصف بأنه الصوت الذهبى لحلاوته وجزالته».■

وديع فلسطين

وأعلام عصره ..

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

أخذني هذا الكتاب بجزأيه: «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره». أخذني من نفسي، واستولى عليّ فكراً وعقلاً، شعوراً ووجداناً، حتي أنسيت أمري كله، ولم أعد أري، أو أسمع، أو أصادق إلا هؤلاء، الأعلام الأفذاذ الذين أفاض المؤلف في أحاديثه عنهم، أو أحاديثه إليهم، أو في أحاديثه إلي نفسه عن حياته مع هؤلاء، وهي حياة اتصلت لأكثر من نصف قرن بسنوات مع أولئك الأعلام.

أحاديث وديع فلسطين عن هؤلاء الأعلام ملأت مجلدين أنيقين ممتعين شكلاً وموضوعاً. أما عن الشكل فلما يمتاز به المجلدان من طباعة أنيقة، وإخراج بديع، وتجليد قيم.. وإن كان المؤلف قد عمد - في كتبه - إلي الاقتصار علي بضاعته من الكلام - الممتع - دون أن يشرك معه آخرين من أهل الفن، فلا صورة، ولا رسم، ولا شيء سوي الكلام .. ولو أنه أضاف إلي مجلديه صورة أو رسما لكل علم من هؤلاء لزادت المتعة .. ولكنه علي ما يبدو خشي علي قرائه أن يصابوا بتخمة، فقال: تكفيهم متعة القراءة، وغزارة المعلومات، وعذوبة الأحاديث.

والحق أن الكتاب - فى موضوعه - قد أوفى بالغرض منه إلى حد كبير، فهو لم يقصد إلى التأريخ لهؤلاء الأعلام، ولا إلى الدراسة المؤصلة لأدوارهم فى عوالم الفكر ، أو فى تاريخ الفن، أو فى عالم السياسة، كما أنه لم يقصد إلى مجرد التعريف بهؤلاء ، وإعطاء مجرد (نبذات) أو ما هو ميسور له من معلومات عنهم ، وكذلك فهو لم يقدم عدداً من المقالات تنشرها المجلات - أو الصحف - ثم يقوم بعد أن تكتمل عدتها بجمعها فى كتاب يخرج به إلى القراء ، يضاف إلى ما سبق له أن أصدره من كتب ، ثم يورد ذكره فيما بعد ضمن بيانه عن قائمة مؤلفاته ..!!

منهج الكتاب

وحتى يتحاشى المؤلف ما قد يثيره ترتيب هؤلاء الأعلام فى كتابه من مقولات ، أو اجتهادات - أو أوجه نقد أو عتاب - فقد التزم الترتيب الهجائى لأسمائهم فى تحديد مكانة كل منهم بين دفتى مؤلفه.. فكان أن احتل «المازنى» المكان الأول بحكم أن اسمه «إبراهيم» يبتدئ بالألف والباء .. وأن اسم أبيه عبد القادر فكان له بذلك السبق على «إبراهيم المصرى» وعلى الشاعر «إبراهيم ناجى» بحكم أن العين فى اسم والد المازنى تسبق الميم والنون فى اسم والدى الإبراهيمين الآخرين.

الصدق والموضوعية

ومن هنا فقد تميزت أحاديثه عن أولئك الأعلام بالصدق من ناحية ، وبأنها نابعة عن صداقة حميمة من ناحية أخرى.. وإن كان ذلك لم يحل دونه ودون أن يشير إلى بعض - وليس إلى كل - نواحى النقص والقصور بالنسبة للبعض منهم .. كما تميزت أحاديثه بحرصه على الاستقصاء - فى الحدود المتاحة - لإحصاء ثمرات إبداعاتهم، وللإشارة للأحداث المهمة فى مسيرة حياتهم ، فضلاً عن حرصه على ذكر تواريخ الميلاد والوفاة بالنسبة للغالبية منهم .. وهو ما قد يمثل إضافة مهمة بالنسبة لما هو معروف عن هؤلاء من معلومات لم تكن فى أغلب الأحيان موضوع توثيق - على الأقل بالنسبة لتواريخ الميلاد - إلا إذا ارتضينا أن تكون تلك التواريخ على وجه التقريب .

المازنى

وكان حديثه عن «المازنى» هو فاتحة أحاديثه عن أعلام عصره - وكانت فاتحة الحديث هى روايته للقائه الأول معه فى ندوة الثلاثاء التى كانت تعقدها «لجنة النشر للجامعيين» وكان مقرها «مكتبة مصر» بالفجالة التى أنشأها «سعيد السحار» وآزره فى إنشائها وقيامها شقيقه «عبدالحميد» ويصف «وديع» اللقاء الأول فيقول: (كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها «المازنى» بشحمه ولحمه وعن قرب شديد ، كنت قبل لقائه أحسبه على بسطة - فى الجسم (ونضيف : تتناسب مع ما تتميز به كتاباته من جرأة وإقدام) - فإذا هو ضئيل البنية ، ضاحك المحيا ، وخط الشيب شعره الناحل ، فإن تكلم التمعت عيناه ، له روح عالية من الفكاهة بل السخرية ، فهو يسخر حتى من نفسه ، ولا يستنكف من أن يصف نفسه بالصعلكة.. وإذا تكلم فعن حكمة وخبرة وبأسلوب حاسم) .

ثم يضيف قوله (وكان واضحاً أن «المازنى» مهموم بأسباب الرزق، وهو بسببها يرهق نفسه بالعمل فى الصحافة وبالترجمة والتأليف والإذاعة ، سواء فى مصر أو فى البلاد العربية.. وكان يدهشنى من «المازنى» أنه يستصغر من شأن نفسه حتى فى عناوين كتبه إذ اختار لكتاب من كتبه عنوان «قبض

الريح» ، ولآخر عنوان «صندوق الدنيا» ، ولثالث عنوان: «ع الماشى»، والرابع عنوان: «من النافذة»، والخامس عنوان : «حصاد الهشيم».. ونضيف ولسادس «خيوط العنكبوت».

وقد أشار إلى اشتغاله بالترجمة ومشاركته بنصيب كبير فى ترجمة مواد مجلة «المختار» التى صدرت فى الأربعينات، وإلى عدم اشتغاله بالسياسة وإن كان على علاقة طيبة برجالها ، ثم أشار إلى مشاركته فى «أخبار اليوم» ليس فقط بما كانت تنشره له من مقال أسبوعي، بل بما كان ينشره فى الصفحة الثانية منها التى لم تكن تظهر إلا فى الطبعة التى توزع فى الدول العربية إذ كانت صفحة تعليقات على الأخبار مع التركيز على مشكلات العالم العربى وكان المازنى يشارك بنصيب كبير فى تحرير هذه الصفحة.

على أن صاحب الأعلام وإن روى هذه الحقائق عن «المازنى»، فأنه لم يتعرض لدوره الرائد فى الأدب الحديث، سواء فى مجال الشعر أو النثر، ولم يعرض لما قدم من إبداعات، بل لم يشر إلى ما تميز به أسلوبه ومنهجه من السخرية العميقة ، والروح المرحة - والعالية فى الوقت نفسه - وكأن كل ما يهم القارىء هو أن يعرف عنه عدداً من الطرائف دون أن يحيط علماً بدوره الرائد سواء فى الدراسات أو الإبداع الرائع.. فى الشعر أو الرواية والقصة القصيرة.. بل وفى المقال الفنى الذى كان من مبدعيه .. ولعل صاحبنا يستدرك ذلك فى دراسات لاحقة ، واعتقادى أنه مؤهل لذلك .

ناجى

- وكان الشاعر الطبيب «إبراهيم ناجى» موضوعا لفصل ممتع وقد استهله صاحب الأعلام بوصفه لحياة الشاعر بأنها حفلت بالمظالم - ذلك أنه «عندما أصدر ديوانه البكر: وراء الغمام فى عام ١٩٣٤ فوجىء بحملة شرسة عليه وعلى ديوانه بل على شاعريته، شنها عليه طه حسين والعقاد فاستشعر ظلماً غليظاً واقعاً عليه ، وقرر هجر الشعر نهائيا ، بل هجر مصر والنزوح إلى عدم العودة» كان ذلك هو ما استهل به الكاتب حديثه عن ناجي، دون أن يبين لنا : من كان الظالم حقاً ومن كان المظلوم .. وهل كان كل ما قيل عن نقد ديوانه ظلماً خالصاً، ولم يكن فيه شىء من الحق ..!!

وقد انتقل صاحب الأعلام بعد ذلك مباشرة إلى ما حاق من ظلم بالشاعر فى أخريات حياته ، إذ فوجىء بقرار يصدر بفصله من وظيفته كمدير للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف ضمن من فصلتهم الثورة فى أول عهدها فيما عرف «بحركة التطهير»، وقد آذاه هذا القرار ، واستولى عليه اكتئاب قاتل ، ولم يحل شهر مارس من العام التالى للثورة حتى سقط ميتاً فى عيادته الخاصة فى اليوم الرابع والعشرين منه كما يذكر صاحب الأعلام .

ويشير الكاتب إلى ناحية خاصة تتعلق بأشعار ناجى إذ يذكر أنه (كان كثير المخالطة لأوساط الفنانين والفنانات ، وهو ما حدا بكثيرات منهن إلى الزعم بأنه كان متيماً بهن، وبأنهن كن البطلات فى قصيدة الأطلال التى ذاعت ذيوعاً واسعاً بعد ما غنتها أم كلثوم، فحققت له أمنتيه ، ولكن بعد أن أصبح خبراً من الأخبار - وجاء صالح جودت ، فأورد أسماء عدد من الملهمات فى حياة ناجى وكلهن (زوزو)... ورأيت على شاشة التليفزيون ممثلة من هؤلاء (الزوزات) فى تعلقه على الملا بأنها هى وحدها بطلة



الأطلال ، وقـامت ممثلة أخـرى من (الزوزات) بنشر رسائل من ناجي تؤكد أنها هي الوحيدة التي احتلت قلبه، وخلبت لبه...) ويضيف الكاتب أن الواقع أن قصيدة الأطلال لم تكن من وحي واحدة من هؤلاء ، وإنما حقيقتها تعبر عنها تلك الكلمات التي قدم بها ناجي القصيدة في ديوانه بقوله : «هذه قصة حب عاثر. التقيا وتحابا ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد، وصار هو أطلال روح ، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت».. وهي جارة قديمة عرفها في شبابه ، وهام بها.. ثم افترقا ولم يلتقيا أبداً إلا في أخريات عمره عندما التقت به مصادفة وسألته : ألا تعرفني؟ فأجابها بالنفي ، وعندما ذكرت اسمها استيقظ كل الماضي الذي ربط ناجي بهذه الجارة القديمة ، واعتذر لها عن غفلته .. ثم راح يسجل قصيدته الأطلال ومطلعها :

يا فؤادي رحم الله الهوى
كان صرحاً من خيال فهوى

- وإذا كان الكاتب قد روى الكثير من الطرائف عن ناجي وشعره، إلا أنه لم يعرض لهذا الشعر ، لا نقداً، ولا تحليلاً، ولم يتناول الحديث عن المكانة الحقة لناجي كشاعر ذي خيال متميز، وشاعرية رقيقة ، وما تعبر عنه أشعاره من صدق عاطفة ، وعمق شعور ، وعمق نظره إلى الحياة والناس ، وسمو في الفكر والخيال.. كل ذلك في ديباجة مشرقة ، ونسيج رقيق .

جميلة العلايلي

وكان من بين الأعلام الذين تناولهم صاحب الأعلام : «الشاعرة جميلة العلايلي» وهي شاعرة مجيدة، تتميز أشعارها بصدق العاطفة ، وذاتية التعبير ، وأصالة الشاعرية، التي تقوم على إحاطة كاملة ، ومعارف واسعة، وموهبة أصيلة تعهدتها بالعقل والرعاية حتى لكأنها (خنساء العصر) ولكنها لم تحقق ما حققت الخنساء من شهرة .. ربما لعدم إجادتها فنون الاتصال ، ولجهلها بأساليب الانتشار، وقد عاشت حياتها في مدينتها «المنصورة» مكتفية بأن تراسل الصحف والمجلات، التي كانت ترحب بأشعارها ومقالاتها النثرية التي تنشرها تعلوها صورتها الجميلة - وكان إنتاجها في أول عهدها - كما يذكر صاحب الأعلام - (يتسم بمسحة من الكآبة والحزن، لأن روح الشاعرة تشدها إلى الانطلاق، في حين أن بيئتها القريبة تشدها وراء الأسوار .. فالشاعرة تتحدث عن قلب كبير، وأحزان وتعذيب، ومدامع صبية ، ثم تتحدث عن السجن الذي يسلمها إلى «هذه الأغوار» في قسوة، مع أن روحها ظامئة ، وحب قلبها حب لافح هيهات أن ينطفي...».

وعلى أثر زواجها من الأديب «سيد ندا» انتقلت جميلة إلى «عين شمس» حيث عاشت حياتها التي حرصت على أن تكون وقفاً على الأدب، فأصدرت هي وزوجها مجلة «الأهداف» الشهرية التي انتظم صدورها نحو عشرين عاماً ، كما كانت لها ندوة أسبوعية عرفت بـ«مجمع الأدب العربي» الذي استمرت فترة .. وفي خلال ذلك أصدرت العديد من الكتب التي تنوعت أغراضها ما بين الإبداع الروائي والدراسة الأدبية، والنفحات الروحية، والتوجه النسوي - كما وصفها صاحب الأعلام - فلما مات زوجها وهي لم تزل في شبابها تفرغت لتربية ابنها «جلال» وابنتها المتبناه «سحر».. وكان من بين كتبها «أنا وولدي» الذي «يصور قصة فذة من قصص صمود المرأة ، وهي حائرة بين طغيان العاطفة وواجب الأمومة، وقد اختارت جميلة أن تنحاز

إلى واجبها ، ورفضت بكل استبسال أن توزع قلبها بين ابن اليتم ومازال مستقبله فى عالم الغيب ، وبين عاطفة مشبوبة عقدت العزم على أن تروض جموحها ، وتلزمها حدود الترفع والتسامى.. وانتصرت فى معركة وجدانية كبرى، وإن كانت هزمت فيها روحها ودفنت أشلاء ما اتقد من عواطفها ..».

وإذ كانت قضت سنوات عمرها المتأخرة مسمَّرة على مقعد متحرك بسبب كسور أصابتها، وما تحالف عليها من أمراض الشيخوخة .. فقد تحملت ذلك كله فى صبر ، وبقيت - ضمن ما سجلت - سيرة حياتها وذكرياتها فى كتابين مخطوطين .. وليت (كتاب الهلال) يستنفذ هذه المخطوطة التى ضمنتها سيرة حياتها ، فإنها لجديرة بالنشر.

وإذا كانت الشاعرة قد انتقلت إلى رحاب مولاها فى عام ١٩٩١، بعد أن أصدرت ما أصدرت من مؤلفات كان أهمها ديوانيها «صدى احلامى» و«نبضات شاعرة» إلى جانب العديد من الروايات والدراسات الأدبية - إلا أن ما كتب عنها من دراسات يعد نذراً يسيراً فقد جفاها الدارسون ، وأهملها النقاد ، ولم يرد ذكرها إلا لماما وعلى استحياء .. كما فعل صاحب الأعلام الذى ختم الفصل الذى كتبه عنها بقوله : «هذه محاولة لانصافها، وإن تطاول عليها العهد وشابها القصور» ولعل أهم أوجه ذلك القصور أنه اكتفى فى حديثه عن إنتاجها الشعرى والنثرى بالكلمات العاجلة، والعبارات المقتضبة التى نقلنا الكثير منها، والتى لا تدخل إلا فى مجال التعريف بصاحبة السيرة: فهل تجد جميلة من يتفرغ لإعداد دراسة عنها، وإنها لتصلح موضوعاً لرسالة جامعية متميزة؟ ثم هل تجد من يحيى تراثها ، ويعيد جمعه ، ترتيبه ونشره ؟ ومن يدرى .. فقد يتحقق شىء من ذلك!!

زكى مبارك

هذا وأيا ما كان اختيارنا للأعلام الذين ننوه عنهم ، فما يحق لنا أن نغفل الحديث عن «زكى مبارك».. فماذا قال صاحب الأعلام عنه؟

كانت بداية الحديث عنه قوله «لو اختصرت حياته لقلت : إنه أكبر أديب مشاكس عرفه العصر الحديث ، فلا أظن هناك أديبا عاش فى معارك متصلة، ومشاكسات غير متقطعة ، ومباكسات لا تنتهى كزكى مبارك».

وإذ تعرف صاحب الأعلام على صاحب هذه الشخصية فإنه يذكر عنها أنه قد بهره بعلمه ، ولكن بعض ما كان يعمد إليه من غشيان بعض المشارب التى لا تليق به، وظهوره فى ثياب لا تتناسب مع وضعه ومكانته ، ثم ما كان يعمد إليه من الطعن فى خصومه وهم من كبار الأدباء وأفاضل الرجال، حتى لقد قال عن طه حسين - وهو من هو علماً ومكانة وأدباً «لو جاع أطفالى لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه...» - كل هذا لم يرض صاحب الأعلام فكان موضع ملاحظته التى أثبتها فى حديثه..!!

وقد تحدث عن معارك زكى مبارك التى أثارها مع طه حسين حينا ، ومع أحمد أمين فى أحيان أخرى.. حيث ظل لمدة خمسة أشهر ينشر عن أحمد أمين فصوله القاسية التى جمعت فيما بعد فى كتاب يحمل عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربى» .. وهى الفصول التى ذكر عنها زكى مبارك أنها «أرقت جفون أحمد أمين خمسة أشهر كانت

عنده كألف سنة مما تعدون..» ومع ذلك فقد أضاف قوله : أنه إذا قابل أحمد أمين «فسأبدؤه بالتحية حيث ثقفته.. فلا يروعنى وجها أراه أهلا للكرامة والحب .. وسلام عليه من الصديق الذى لا يغدر ولا يخون».

على أن صاحب الأعلام يلخص الحديث عن هذه المعارك فى قوله، أنها «تنتهى دائماً بانتصار زكى مبارك، لأنه وحده القادر على المضى فى هذه المعارك حتى يجد خصمه ألا فائدة من الرد عليه، فإذا أفرغ الزكى ما فى جعبته - وجعبته لا تفرغ أبداً - أبداً - كان الخصم قد لاذ بسلامة الصمت ، وكان هو وحده الواقف فى الميدان..!».

كما نقل قول الزيات - صاحب الرسالة - عنه : «إن زكى مبارك لو استطاع تملق الظروف، ولو حذق شيئاً من فن الحياة ، لاتقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع، وجفاوة الصراحة، ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفى الناس، ويبقى ذلك المجهود العلمى الضخم الذى قدمه إلى الأدب العربى فى شتى مناحيه شاهداً على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته فى النهضة».

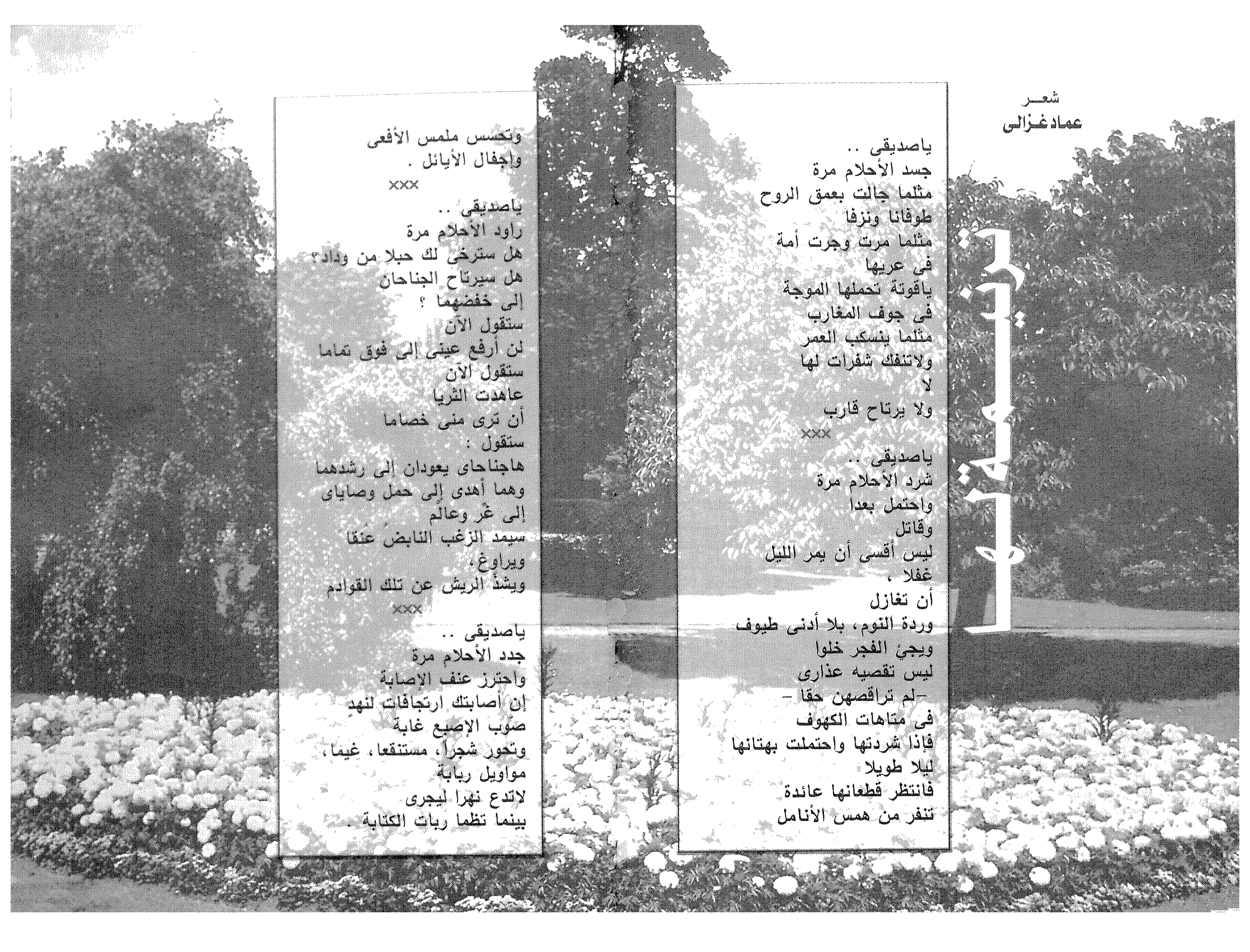
وقد سافر زكى مبارك إلى العراق، وأقام تسعة أشهر، كانت كلها عملاً وإخلاصا وإنتاجا، وكان بما تركه من أثر فيها ، وبما قدم من كتب عنها، مثالاً فريداً فى عطائه ووفائه ، دون أن يخوض هناك معركة واحدة ، سوى معركة مطالبته بإنشاء جامعة عراقية لأبناء العراق.. وقد صدر عن زكى مبارك وهو فى العراق، كما أصدر هو عن العراق أكثر من كتاب كانت من عيون الأدب ، ولعلنا نشير إلى كتابه «ليلى المريضة فى العراق» وقد كان فريداً فى بابه ، غير مسبوق فيما تضمنه من فصول .

ويذكر صاحب الأعلام أن زكى مبارك كان مكانه الطبيعى بين قادة الفكر فى عصره، ولكنه لم يكن يختار إلا مجالس صعاليك الأدب فى مشارب القاهرة - ولو تأملنا الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة المباركية لما وجدنا إلا سبباً واحداً هو الجحود، وهو سبب مازال متفشياً فى عالمنا العربى إلى يومنا هذا.. ولو أن الحياة أنصفت زكى مبارك، ووضعته حيث كان ينبغى أن يوضع لا نصرف إلى إعداد كتب جليلة أخرى من طراز النثر الفنى، والتصوف الإسلامى ، والشريف الرضى».

على أنه مما يحق لنا أن نشير إليه هو أن الصفحات التى خص بها صاحب الأعلام حديثه عن زكى مبارك - قد خلت تماماً من تقييم حقيقى منصف لأدبه : نثره وشعره ، بل لقد كانت إشارته إلى ديوانه «ألحان الخلود» غير كريمة.. وكذلك فقد خلت تلك الصفحات من الحديث عن «عاطفيات» زكى مبارك .. ولست أدرى كيف فات صاحب الأعلام أن يتحدث عن «مجنون سعاد» ومن تكون سعاد التى جن بها؟ وهل للشاعرة جميلة العلايلى صلة بذلك المجنون؟

*

على أن هذا السفر وإن لم يشف منا غليلاً فى الكثير من النواحى التى تتصل بالحديث عن أولئك الأعلام إلا أنه قدم لنا ولا شك فيضاً من المعارف والطرائف والمعلومات عن أولئك الأعلام المتميزين فى حديث يتسم بالسلاسة ، والعذوبة ، ويتصف بالصدق والإنصاف، فشكراً لوديع فلسطين وما نحسب إلا أن ثمة فى الطريق أكثر من جزء آخر عن أولئك الأعلام. ■



شعـــر

عمادغـزالى

ياصديقى ..
جسد الأحلام مرة
مثلما جالت بعمق الروح
طوفانا ونزفا
مثلما مرت وجرت أمة
فى عريها
ياقوتة تحملها الموجة
فى جوف المغارب
مثلما ينسكب العمر
ولاتنفك شفرات لها
لا
ولا يرتاح قارب

xxx

ياصديقى ..
شرد الأحلام مرة
واحتمل بعدا
وقاتل
ليس أقسى أن يمر الليل
غفلا ،
أن تغازل
وردة النوم ، بلا أدنى طيوف
ويجئ الفجر خلوا
ليس تقصيه عذارى
-لم تراقصهن حقا -
فى متاهات الكهوف
فإذا شردتها واحتملت بهتانها
ليلا طويلا
فانتظر قطعانها عائدة
تنفر من همس الأنامل

وتحسس ملمس الأفعى
وإجفال الأيائل .

xxx

ياصديقى ..
راود الأحلام مرة
هل سترخى لك حبلا من وداد؟
هل سيرتاح الجناحان
إلى خفضهما ؟
ستقول الآن
لن أرفع عينى إلى فوق تماما
ستقول الآن
عاهدت الثريا
أن ترى منى خصاما
ستقول :
هاجناحاى يعودان إلى رشدهما
وهما أهدى إلى حمل وصاياى
إلى غِرٍ وعالم
سيمد الزغب النابض عنقا
ويراوغ ،
ويشذ الريش عن تلك القوادم

xxx

ياصديقى ..
جدد الأحلام مرة
واحترز عنف الإصابة
إن أصابتك ارتجافات لنهدٍ
صوب الإصبع غابة
وتحور شجراً ، مستنقعا ، غيما ،
مواويل ربابة
لاتدع نهرا ليجرى
بينما تظما ربات الكتابة .

يمكن أن أطلق على تكويني في الصغر "تربية الذاكرة"

صلاح فضل

عندما يستشف المرء ما تراكم وراءه من حجب الماضى، ويحاول أن ينفذ ببصيرته إلى الجذور الأولى، يترك بالضرورة منطقة غائمة رجراجة، لا يستطيع أن ينفذ إليها إلا بلونها من إعادة التخلد وإعادة الخلق، وفى هذا شىء من الخطورة، حيث يرتبط الواقع بتمثلات الإنسان لنفسه، وأوهامه عن ذاته، وتصوراته لماضيه . وعندئذ يترجرج الحد الدقيق جدا بين التاريخ الشخصى، وبين هذه الاسهامات الذاتية ، ومع ذلك سأحاول فى هذه السطور أن أجتهد للإمساك بالعصب الصلب والحى لهذه الطفولة الأولى .

فقد نشأت فى بيئة قروية ، فى بيت اشتهر أنه بيت الشيوخ، علماء الأزهر ، الذين تخرجوا كلهم وحصلوا على العالمية منذ أن عرفت بهذا الاسم، فى سلسلة قيل إنها تمتد إلى سابع جد، وليس معنى ذلك أن الجد الثامن كان ينتمى إلى سلالة أخرى، لكن أبعاد الأرقام وأكثرها سحرا وفاعلية، هو رقم سبعة .

مايذكره جيدا تأكيدا لهذه السلالة المغرقة فى العلم بمعناه الدينى الذى كان شائعا فى الثقافة التقليدية، وليس بمعناه الحديث بطبيعة الحال، الذى لم يكن واردا على بال أحدهم إذن .

الشاهد الذى يستنقذه ماكان يرويه له بعض شيوخ القرية من أن جدته الكبرى أم أبيه أم جده، لم تكن تحسن القراءة والكتابة، لكن زوجها كان يترك لها رعاية الأطفال فى كتاب القرية، الذى يقع فى الحجرة المبطنة بالخشب فى مدخل بيتهم الكبير ، ريثما يمضى لقضاء بعض حاجاته، فكانت تقف بالمقرعة على رءوس هؤلاء الصبية، كما يروى لى أحدهم ، وهى لا تعرف القراءة والكتابة ، ولا تحفظ القرآن الكريم . فكان بعض الصبية الأشقياء يحاولون أن يناوشوها، بأن يتعمدوا الخطأ فى تلاوة بعض الآيات ، وإذا بالمقرعة تهوى على رءوسهم. كانوا يسألونها: نحن أخطأنا فما هو الصواب؟.. لم تكن تدرى ما هو

الصواب، لكنها كانت قد حفظت إيقاع القرآن الكريم ونغمه، وأى نشاز فيه كانت تدركه، دون أن تدرى كيف تصوبه .

نساء الأسرة كانوا هكذا وإن كان بعضهن ، إبتداء من جدتى المباشرة ، كانت تعرف القراء والكتابة .

أبي شاعرا

تفتحت عينى على لوحة مطرزة بخيوط ذهبية معلقة فى حجرة جلوسنا فى قرية «شباس الشهداء» محافظة الغربية حينئذ فى آخر الثلاثينيات ، ومحافظة كفر الشيخ الآن ، على مقربة من مدينة دسوق، حيث يكمن ضريح مولاى العارف بالله سيدى إبراهيم الدسوقى. كانت اللوحة المطرزة فيها أبيات من الشعر لأبى ، أخذها جدى وطرزها، وهى أبيات لا أحب أن أكررها كثيرا لأن فيها شيئا من الفخر كانت تبعث فى نفسى وأنا صغير كثيرا من الزهو، وكانت تمثل لى فى فترات العسر والمشقة والمآزق بعد ذلك، عندما سعيت فى دروب القاهرة، شبه معدم ، شيئا من العزاء والسلوى التى تمنحنى كثيرا من الزاد، كانت الأبيات تقول:

سلالة الفضل أهل الفضل والكرم

ومنزل العلم مألوف من القدم

عناصر الطهر فى أحسابهم عرفت

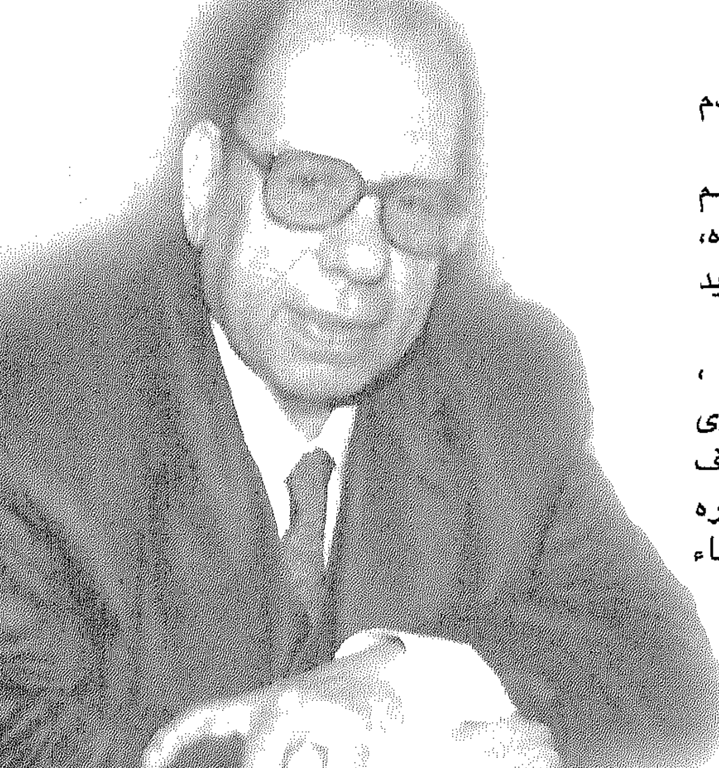
وآية النبل فى رقم من الشمم

كنت كصبى أزهو بآية الفضل هذه، دون أن أعرف ماذا تعنى على وجه التحديد

على أية حال عندما تفتحت مداركى ، كان حولى هذا المناخ العلمى الأزهرى القروى ، الذى يتمثل فى أب شاعر، اختطف بالموت والصبى لم يتجاوز الرابعة من عمره بعد، وهو مازال طالبا فى تخصص القضاء الشرعى بكلية الشريعة بالقاهرة، فى وباء التيفود ، كان من الممكن لو تأخر به العمر قليلا أن تنقذه حقنة بنسلين واحدة، لكن البنسلين لم يكن قد اكتشف حينئذ، ومات هذا الصبى الذى بكته رجال القرية ونساؤها على وجه أخص، لأنه كان على عكس ابنه الدميم كان معروفا بوسامته وجماله وأناقته ورقته الشعرية والشخصية .

أفدت كثيرا من هذا الميراث ، وإن لم أفد منه جسديا، لكن أفدت منه حب وعطف ورعاية ، أهل القرية نساء ورجالا لأننى ابن المرحوم . ورثت عنه أيضا دفترا شهريا ، قرأت فيه كثيرا من القصائد الطريفة، بعضهاعن حريق ميت غمر مثلا، بعضها عن غزلياته وهو شاب قبل الزواج، بعضها عن هجاء زوجته التى هى أمى، بعد أن تزوج بها ، بعضها الآخر عن طرائف من مثل هذه

وكان من الطبيعى أن أظن فى نفسى، أن علىَّ على الأقل وفاء لأبى وحفظا على تقاليد الأسرة أن أكون شاعرا ، وبالفعل





أخذت نفسي بكثير من قراءة الشعر وحفظه، وحفظت آلاف الأبيات الشعرية، ونظمت كثيرا من القصائد الشعرية .

وفي مرحلة باكرة جدا، وعلى وجه التحديد عام ألف وتسعمائة وتسع وأربعين ، وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة من عمري ، تزوج فاروق الأول ملك مصر زوجته الثانية الملكة الحسناء ، بنت الشعب ناريمان.. كتبت قصيدة في هذه السن لتهنئة الملك فاروق، جعلت الحرف الأول من الشطر الأول فيها ، الحروف التي يتكون منها الملك فاروق الأول ملك مصر. والحرف الأول من الشطر الثاني من كل القصيدة اسم الملكة ناريمان ملكة مصر، ونظمتها بهذا الشكل ، وخرجت مستوفية لقواعد الشعر العروضي الموزون المقفى، لكنني كنت قد فرغت للتو من حفظ الجزء الثاني من الشوقيات على وجه التحديد، فطرحت على نفسي بشكل مبكر في الحادية عشرة، وقبل أن أدخل السنة الأولى الابتدائية في معهد دسوق الديني، السؤال التالي: مثل هذا الشعر الذي كتبته ، هل يرقى إلى مستوى ما أحفظه من شعر شوقي ؟

ولم أتردد في الانتهاء إلى نتيجة قاطعة، إنه لا يرقى بأية حال ، وكانت أول ضربة قاسية ، وجهها الناقد المبكر الذي أخذ يستيقظ في على حساب الكاتب المبدع ، الذي كان يغط في غفلته ، وبلاهته وإعجابه بذلك.. إذا لم تستطع أن تكون في الذروة، فلتصمت عن قول الشعر ، وكانت هذه القصيدة آخر ما نظمت من شعر.. وأذكر هذه الحادثة على وجه التحديد، لأنها تدل على لون من الاعتساف المبكر، والعنف في معاملة الذات، أخذت به نفسي.

وعندما أتأمل سبب هذا العنف ، أجد أن افتقاري لأبي وأنا في الرابعة من عمري ، واحتمالي بظل جدي الذي كان يحنو عليّ حنوا بالغا، ويتابع تربيتي في المدارس : أولا، المدارس الأولية، لكنه أخرجني من السنة الثالثة، لكي ألتحق بكتاب واحد من تلاميذه وأحفظ القرآن الكريم ، ووهبني للأزهر. هذه الهبة أحزنتني أبلغ الحزن وأعمقه ، لأنني لا أعرف ما الذي كان يغريني أن أظل أفنديا ، ولا أتحول لكي أندرج في سلالة الشيوخ الذين نشأت من أصلابهم كنت على وجه التحديد أتمنى أن أكون طبيبا ، لا أعرف لماذا؟ .. ربما لأن ألبير فهمي الطبيب الوحيد الذي كان يأتي من عاصمة الإقليم دسوق ، أو عاصمة المركز دسوق ، إلى المستشفى لدينا ، كان يركب عربة «كاديلاك» بالغة الفخامة، وكان ذو وجه شبيه جدا بالملك فاروق، في استدارته وحمرته ، وكانت النساء تتطلعن إليه من شرفات المنازل، ومن فوق الأسطح ، كي يشاهدونه وهو ينزل متبخترا من سيارته ، لكي يمضي إلى عيادته ، لكي يطعن مائة رجل وامرأة في نصف ساعة بالحقن المضادة للبلهارسيا قبل أن يعود بسيارته إلى المركز .

ربما كان نموذج ألبير فهمي هو الذي أغراني في تلك السن بأن أكون طبيبا ، لكن أحبط هذه الآمال، ذلك النذر الذي نذره جدي ، بأن يحولني إلى التعليم الديني ، كي أعوض الفقيد الذي رحل مبكرا وهو أبي .

مفاجأ مذهلة

على أية حال حفظت القرآن الكريم في التاسعة ، فعقد جدي احتفالا في المنزل ،ودعا الفقيه الذي تولى تحفيظ القرآن ، وأولم له وليمة وبعضا من رفاقه وزملائه، وأقرب





عبد الناصر يسلم صلاح فضل شهادة الليسانس من دار العلوم

الأهل ، وبعد نهاية الوليمة استدعانى جدى لكى يختبر مدى اتقانى بعد أن ختمت القرآن الكريم.

وكانت المفاجأة المذهلة ، التى لم يبدو أن جدى قد فوجئ بها ، أننى نسيت تماما ما كنت قد حفظته ، فعلق تعليقا بسيطا جدا ، ومتسامحا جدا «ياصلاح إنت حفظك مثل حرث الجمال» ومن المعروف أن الجمال ذات خف عريض ، وأنها إذا حرثت الأرض فهى تقوم بتسوية ما حرثته أولا بأول ، مما يحتاج إلى أن يحرث مرة ثانية وثالثة، وهكذا .

وقال لى منذ الغد لاتذهب إلى الكُتّاب ، لكن أعد الحفظ هذه المرة كل ربعين فى يوم ، وليس نصف الربع كما كان المقنن للحفظ قديما ، ولك عن كل ربعين تحفظهما خمسة قروش ، وعد برتقال .. وبنظام المكافأة هذه ، أعدت حفظ القرآن مرة ثانية فى ستة أشهر أو أقل ، ثم عندما أكملت العاشرة ، قدم لى جدى أوراق الالتحاق بمعهد دسوق الدينى ، فقابله شيخ المعهد ، ورحب به وحياه باعتباره زميله ، ثم قال له إن اللوائح تمنعنا من قبول التلاميذ أقل من إحدى عشرة سنة ، فأمضى بى مرة أخرى ، ليعود فى العام القادم .

عندئذ أخذ الحزن يعتصر قلبى ، لأننى كنت أعتقد أننى قد حفظت القرآن وانتهى الأمر ، فماذا سأفعل فى هذا العام ؟..

أتى لى جدى ببعض المتون ، وبالألفية لكى أحفظها فى ذلك الوقت، وبالفعل تدربت ذاكرتى على الحفظ منذ ذلك الحين ، لكننى بقدر ماكنت سريع الحفظ، كنت سريع النسيان .

الأمر الذى استحضره بوضوح من تلك الفترة الآن على قدر كبير من الأهمية أولهما هو إحساس ممض لاذع بألم اليتم وفقد الأب ، ولا يسد فراغ الأب أحد آخر .

أذكر مثلا أنه نزل قريتنا فى أحد الأيام مغنى ربابة شبيه بأبى ، تركت المنزل ، وأخذت أجوب القرى خلفه ، يشدنى إحساس إليه بأنه ربما كان أبى قد عاد فى صورة أخرى ..

كنت عندما أجد رفاقى يمسكون بأيدى آبائهم أنزوى فى ركن وأبكى لأن يد أبى لا تمتد إلىّ كى أمسك بها .

هذا الشعور العميق باليتم ، عانيته بحدة

وقاومته وتحديته ، لكنه ظل ينخر فى قلبى فترة طويلة .

ربما كان الأمر الثانى الذى أذكره ، عاملا خفف لدى بعض هذا الأثر الممض ، الذى تركه غياب الأب..

بيتنا منتدى للشباب

كان بيتنا فى القرية منتدى لشباب القرية المتعلمين .. يعقدون فيه اجتماعاتهم ، ويثيرون فيه مناقشاتهم ، ويتحاورون فيه حول أمور السياسة والثقافة والأدب ، وأمور القرية، والمسائل العامة وغير ذلك ، وكنت أسبق عمرى فى مجالستهم، بل وربما مشاركتهم فى بعض هذه المناقشات ، ثم آخذ نفسى بقراءة مايتداولون حوله فى حواراتهم حتى أستطيع وأنا صبى صغير لاتكاد قامتى تعلو على ظهر الكرسى الذى أجلس ، أن أنطق فأسمعهم ، ولا أثير سخريتم .

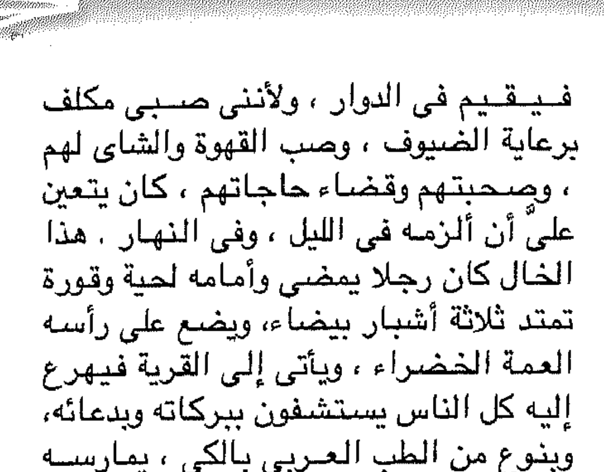
هذا البيت المنتدى عوض قليلا وبفعل أعمامى الذين كانوا فى معظمهم جامعيين ، بعض منهم أزهرى بكلية أصول الدين وبكلية اللغة العربية وهم أكبر منى ، والبعض مدنيون مثل عمى الذي كان طالبا فى كلية الحقوق . هذه البيئة، لنقل التى تقع على تخوم القرية والمدينة، لا من الناحية الجغرافية، ولكن من الوجهة الثقافية، من ناحية ارتباطها بالفكر والثقافة والتعليم ، والحياة العامة. ساعدتنى فى نشأتى على أن أنفتح بسرعة، وأن أعشق شيئا له أعظم الأثر فى حياتى ، بأن أصل فيه إلى درجة الإدمان ، ذلك الشئ كان هو القراءة.

أذكر مثلا أننى ومجموعة من زملائى ورفاقى فى الدراسة ، أو فى العمر وإن كانوا يدرسون فى المدارس المدنية .. كنا خلال شهور الصيف كلها ، التى تمتد أحيانا إلى أربعة أو خمة شهور ، نأخذ على أنفسنا عهدا بأن نقرأ فى اليوم كتابا على الأقل .. كتابين إذا كانا من الحجم الصغير ، وكتابا إذا كان من الحجم الكبير ، ثم نلتقى مساء ونأخذ فى السير على الطرق الزراعية فى ضوء القمر ، لكى نتجاذب الحديث ونتناقش فيما قرأنا من كتب فى النهار ، وياخزى من يبدو أنه لم يكمل الكتاب الذى تعهد بأن يقرأه .

أعتقد أن هذه العادة التى تأصلت لدى منذ تلك الفترة ، قامت هى الأخرى بتعويض ذلك الفراغ الوجدانى، الذى أشرت إليه بفقد الأب . التعويض المباشر كان يأتى من جانب آخر ، كان يأتى من الخيمة التى تظللنى حينئذ بعطفها وودها ، وهى خيمة الجد ، وكان الجد يؤثرنى بصحبته ، ويؤثرنى أحيانا بالسفر معه إلى بعض القرى المجاورة، ويحكى لى فى هذه الأسفار كثيرا من الحكايات ذات الطابع الدينى ، أذكر منها مثلا : أننا كنا فى سبيل زيارة عمتى ، أى ابنته المتزوجة فى قرية مجاورة، فذهبنا مشيا على الأقدام ، فحكى لى قصة أن الله إذا كان راضيا عن عبده ، أمر الملائكة أن تطوى له الأرض حتى يصل إلى غايته مبكرا وإذا كان غاضبا عليه أمر الملائكة بأن تمد له الأرض حتى ينهك قبل أن يصل إلى غايته .

هذه الصور الطفولية التى تستأنس ببعض مأثورات التراث ، كان لها فعل عجيب فى مخيلتى فى تلك الفترة من الصبا المبكر ، لكن الطابع العقلانى لجدى لم يسمح له بأن يتمادى معى فى هذه الحكايات، بل كان لنا قريب هو خال أبى ، وكان شيخا من شيوخ الطرق الصوفية، ويأتى إلى منزلنا





فـيـقـيم في الدوار ، ولأنني صـبي مكلف برعاية الضيوف ، وصب القهوة والشاى لهم ، وصحبتهم وقضاء حاجاتهم ، كان يتعين عليّ أن ألزمه في الليل ، وفي النهار . هذا الخال كان رجلا يمضي وأمامه لحية وقورة تمتد ثلاثة أشبار بيضاء، ويضع على رأسه العمة الخضراء ، ويأتي إلى القرية فيهرع إليه كل الناس يستشفون ببركاته وبدعائه، وبنوع من الطب العربي بالكي ، يمارسه لشفاء أمراضهم المستعصية في كثير من الأحيان ..

خلال سهراتي المطولة مع هذا الخال الأكبر .. خال والدى ، أخذ يحكي لي حكايات بالغة الطرافة والعجائبية، أشد غرابة في كثير من تفاصيلها من حكايات ألف ليلة وليلة مثلا ، وإن كانت تمضي على نسقها إلى حد كبير ..

حكاية الجنيات

من هذه الحكايات مازلت أذكر، وقد أثر هذا في تفكيري إلى حد كبير ، وسبب لي مأزقا فكريا وعقليا ، عايشني بعد ذلك سنوات طويلة حاولت أن أحله ، دون أن أنجح في ذلك ، واستعنت ببعض كبار المفكرين ليعينني على حله ، فلم أوفق في الوصول إلى هذا الحل .

كان يحكي لي مثلا عن زواجه بالجنيات ، وقصة معاشاته الطويلة، وتفاصيل بالغة البذخ والثراء والجمال ، في حكاية كيف يهيئن له البيوت التي يعيش فيها ، والأطعمة التي ينعم بها ، والملابس التي يرفل فيها ، والمتع والصحبة البالغة الرفاهية التي كان يدبرنها له، وكان من عادته أنه إذا قدم له الطعام مثلا، وليكن طبقا من الأرز واللحم ، ويأكل مما يليه ، إذا سقطت قطعة لحم أمامه ، امتنع عن الطعام ، لأن هذا يمكن أن يكون دسيسة لجنية أخرى تريد أن تسممه!

الشئ الطريف جدا في ذلك ، هو أن هذا الرجل لم يكن بحاجة إلى أن يكذب ، ولا أعتقد أنه كان يجارى فضولي الصبياني لكي يخترع لي هذه الأقاصيص والحكايات ، لأنه كان ينسبها لنفسه ، فنشبت في عقلي أسئلة حادة ، عن مدى مصداقية هذاالكلام ، هل حقا ومن الصحيح أن يتزوج إنسي بجنية؟! وجنيات متتاليات ، يعيش فترة مع واحدة، ثم يعيش فترة مع أخرى ثم يتركها ويقترن بأخرى وهكذا !

وظللت أحمل تلك الأسئلة في عقلي إلى أن حضرت إلى القاهرة، عندما كنت طالبا في معهد القاهرة الثانوى ، وانتقلت إلى الجامعة إلى كلية دار العلوم ، وفي السنة الأولى صحبت أحد أصدقائي الذى كان يتردد على مجلس الأستاذ عباس محمود العقاد ، والهدف الأساسي لي أن أسأله عن مدى صحة ذلك ، لأن العقاد كان يمثل بالنسبة لجيلنا المرجعية العقلانية والثقافية العليا ، التي يمكن أن نطمئن لصحة أحكامها ، وإلى سلامة وجهة نظرها ...

وتحينت الفرصة وسألت العقاد بالفعل عن هذا الأمر ، فإذا به يخيب ظني ، جنية بلغة، لأنه نظر إليّ وورد بصوته الأجش الساخر : يا مولانا هل حلت كل مشاكل الإنس والبشر على الأرض ، حتى تشغل نفسك بمشكلات الجن !

دعك من التفكير في ذلك.

وربما كانت هذه الطريقة البراجماتية، وعلى أية حال فهذا هو الحال الذى عملت به، هو أنني بالفعل كففت عن التفكير في هذه القضية وكففت عن التفكير فيما يتصل بالغيبيات كلها ، ثم أخذت أدرب عقلي على الطريقة العلمية في التفكير ، وعلى العقلانية في أخذ الأمور ، على المنطق في الاحتكام إلى طبائع الأشياء، وتركت ماعدا ذلك جزءاً

من مخلفات الأساطير فى القرية!

مساخيط في القرية

أسطورة أخرى من تلك الأساطير التى كان لها تأثير وجدانى بالغ فى نفسى ، ولم أهتد إلى شىء من تفسيرها إلا بعد مراحل من تقدم العمر، كان أمام منزلنا فى القرية تكوينان حجريان من الحجر الجرانيت البالغ فى الجمال والنعومة، والتكوينان يتميزان بأشكالهما البديعة وبالنحوت المنقوشة عليهما ، وربما كانا رأسين لعمودين من العمد الفرعونية القديمة أو شيئاً من ذلك ، وكان الشائع لدينا أن هذه المساخيط إنما هى المصير الذى ينتظر أى رجل أو امرأة، أو فتى أو فتاة ينتهك شيئاً من حرمات الدين، ومن قداسة العناصر المرتبطة به، كأن يتوضأ باللبن، أو كأن ينتهك شيئاً من المقدسات فسيسخط حجرا. وعملية المساخيط فى القرى المصرية ، كان التفسير الذى يقدم لها، تفسيراً أسطورياً بهذا الشكل، لكن كان الأثر الوجدانى الذى تتركه فى نفوسنا ونحن صبية ، أثرا عميقاً بأنها تمثل التكوينات التشكيلية النحتية التى نتعايش معها ، ونلعب عليها ونتحسسها، ونتشرب مافيها من جمال ودقة وإبداع فنى.

لم تكن الطبيعة الجميلة القروية فى الزراعة والحدائق والسماء الصافية ومناخ الدلتا على وجه التحديد ، هى مصدر استشفاف الجمال الطبيعى فحسب، بينما كانت تلك الآثار المتناثرة، المطمورة حينا، والمبعثرة فى طرقات القرية، وعلى مشارفها قربا من مدينة صان الحجر الأثرية، والتى تزخر بهذه الأشياء.

يرتبط بذلك أيضاً ماكنا نتداوله عن الكنوز المطمورة، وعن المغاربة، كانوا يستتنون الكنز المطلب ، وعن أن هذا الكنز هناك رقية مسحورة إذا اهتدى إليها أحد، استطاع أن يفتح الكنز ويعثر على هذا الذهب. وكانت فى أعماق كل بيت – فى تقديرى ربما – وفى بيتنا على وجه التحديد ، هناك تقاليد عائلية تتداولها الأجيال ، بأن المطلب هو فى هذه القائمة، وأننا لو اهتدينا إلى الرقية أو التعويذة الملائمة ، فسوف ينفتح لنا الكنز ، وسوف يتاح لنا.

ما أريد أن أستخلصه من هذه الومضات التى تأتى إلى ذاكرتى بطريقة عفوية، أمر أصبحت أؤمن به، عقلياً وعلمياً الآن، وهو أن الشخصية المصرية، شخصية متعددة الطبقات چيولوچيا، فى وعيها قليلاً ، وفى مخزونها اللاشعورى كثيراً .

من الطريف مثلاً أن قريتنا التى تسمى «شباس الشهداء» دائماً تحتفل بمولد هؤلاء الشهداء ، وتطلق عليهم أسماءهم : أن هذا سيدى محمد الصياد، وتلك سيدتنا آمنة إلى غير ذلك ، ولكننى على الإطلاع فى بعض الخطط والكتابات القديمة، أن اكتشف أن هؤلاء الشهداء لم يكونوا مسلمين حتى، إنما هم شهداء من عصر الرومان قبل الإسلام!.

معنى ذلك أن المذخور من التراث الفرعونى والقبطى والإسلامى كل هذا يتعايش فى أعماق قلوبنا ، وفى قاع وجداننا دون أن ندرى ، وهو الذى يصنع بعد ذلك مزاج تلك الشخصية المصرية، التى أتلمس مذاقها وملامحها بمحاولة استكناه أحداث تلك الفترة من الطفولة.

لكن لم يخل هذا مثلا من الملح الأساسى فى هذه الطفولة، وهو شىء من التمرد.

أذكر ونحن فى تلك المرحلة : ثرنا على تقاليد القرية، وعلى إيمانها الشديد بتلك



الغيبيات ، وعلى كمية اليقينيات التى تسلم بها، خاصة فى كرامات الأولياء، وبما يتصل بهذه العوالم الغيبية، وقررنا ونحن طلاب فى المعهد الثانوى والمدارس الثانوية؛ ثلاثة من الطلاب الذين يدمنون القراءة أن نخترع أحد الأولياء، وبالفعل نشرنا فى القرية شائعة عن حلم رواد أحد شيوخ القرية كبار السن عن أنه زاره واحد يسمى سيدى محمد، اخترعنا له اسما وأنه مدفون فى وسط المقابر فى هذا المكان، ويجب أن يصحو ويضع نصبا خشبيا على هذه المقبرة ، ويدعو للتبرعات ، ويقام له ضريح ، وبالفعل انتزعنا هذه الحركة ، وصنعنا وليا؛ وصدق الناس ذلك. وكنا نريد أن نبرهن على هشاشة وزيف كثير من تلك التقاليد القروية، ونحن طلاب فى المراحل الأولى التعليمية.

تربية الذاكرة

الذى استخلصه أيضاً من عصارة هذه الفترة الأولى، أن ما أخذت نفسى به أنا شخصياً فى التعليم الأزهرى، هو نوع مما يمكن أن أسميه تربية الذاكرة، وتربية الذاكرة مسألة فى غاية الدقة، لأنك تحفظ كثيراً ، لكن تستصفى مما تحفظ أنماط وهياكل وتصورات، تجلعك تدرك بعد ذلك مالا تعرفه بمعنى أنك تمتص أساليب الكتابة، وأساليب الشعر ، وأساليب التفكير، ثم تبدأ فى إنتاجها بطرائق موازية أو مخالفة لما تعودت عليه .. وبالرغم من هذا الاستغراق فى الطفولة فى عوالم الغيب التى تنفعنا فيها ثقافة القرية لدرجة مثلاً أننى أذكر الكتاب الأول ، الذى كنت حريصاً على أن أضعه موضع الاختيار والتجريب ، كان «شمس المعارف الكبرى» وكنت أعمل إلى نقل بعض التعاويذ والأحجبة والرقى منه، لكى أجرب هل يمكن أن تزرع هذا الحب أو الكره، أو غير ذلك، كما هو موصوف فى «شمس المعارف» بمربعاتها ومثلثاتها وأشيائها.

قطيعة العالم القروي

عندما انتقلت إلى القاهرة فى سن السادسة عشرة، حدثت قطيعة حقيقية بينى وبين هذا العالم القروى، كانت قراءاتى التمهيد الفكرى والعقلى والمعرفى لهذه القطيعة ، لكن حياة القاهرة بأضوائها وبمنتدياتها، بصخبها الشديد، بازدحامها بسيارتها و برجالها ونسائها، ومفاتنها المتعدد، كانت كفيلة بأن تنحو بهذا الفتى، منحى مضادا تماماً، لما كان آخذا فيه وغارقا فيه فى صباه.

كنت أقرأ مثلاً «أيام» طه حسين ، فاتهمه بالسذاجة وبالمكر، لأنه يصدق فى وصف أشياء، ويخفى أشياء أخرى..

طه حسين – مثلاً – لم يأت على ذكر كيفية مقاومته لنوازعه الجنسية التى لابد أنها كانت استبدت به فى مراهقته، وغاية ماهناك أشار إلى بعض ماكان يعترى رفاقه، ولا يعتريه هو بطبيعة الحال من الاحتلال ، كنت أعتبره منافقاً، يدارى الحس والذوق العامين، ولا يريد أن يصدم الناس، ويصدق فى التعبير عن عبثه هو مع نفسه.

كنت آخذ عليه أيضاً أنه ينسب إلى مشاعره فى الطفولة والصبا، أفكارا أعلى بكثير، مما يمكن أن يعترى طفلا فى مثل سنه، أو يدور بخلده، فسيطر نضجه على صباه ، وعلى مراهقته، وكأنه يكتب سيرته بأثر رجعى، بعقلية اليوم، وليس مستحضرا بعقلية الأمس.

كنت آخذ على العقاد مثلاً فى تلك السن الباكرة الأولى، التى لم أتردد فيها كثيراً على مجالسه، إلا بالقدر الذى يشفى شيئاً من فضولى لرؤيته، بعد أن قرأت أن هناك انفعالا حاداً، بينما كان يقوله من جانب،

وما يكتبه من جانب آخر، وأنه كان يراعى الناس فيما يكتب، ولا يصدق فى التعبير عن ذاته. إلا أنه فى حقيقة الأمر كما لمست فى بعض هذه الجلسات، كان شخصا مختلفاً، بعد ذلك هذه الأفكار نمت لدى، وإن كنت لم أكتبها، لأننى أريد أن أصدم الناس فيما يعظمونه ويقدسونه، وهذا أيضاً من النتائج التى أخذت نفسى بها. أن ليست مهمة الناقد هى إبطال الأساطير، أو تحطيم الأصنام كما كان يعبر العقاد بذلك ، وإنما مهمته هى بناء القيم والمفاهيم وتعديل الرؤى والصور بما يتوافق مع منظوره الجديد ، لأن جرح إحساس الآخرين، واغتيال مايعتزون به، لايمكن أن يؤثر فيهم، ولأن هدف الكتابة أدبا ونقداً، هى التأثير فى الآخرين، فينبغى أن نبقى على خيط معاوية معهم، ولا يخرج حسهم إلا عندما تقتضى الضرورة ذلك، وأرفق الوسائل وأشدها لينا وتعاطفا ودهاء فى كثير من الأحيان.

مقيم للشعائر الدينية

أعود إلى تلك الفترة الثانية ، وهى فترة القاهرة لأتذكر مثلاً أننى عانيت فيها أكبر ضائقة مادية مررت بها فى حياتى ، عندما كنت فى الثالثة الثانوية الأزهرية، ذلك أن جدى كان قد توفى، وعمى الذى كان قد أخذ على عاتقه رعايتنا، أخذ يبيع قطعة الأرض التى ورثناها، ثم لايكاد يرسل لنا من عائد هذا البيع، مايفى بحاجتنا .. كنت أريد أن أستقل، فتقدمت لإحدى الوظائف فى وزارة الأوقاف، هى وظيفة مقيم شعائر، ومقيم الشعائر هذا عبارة عن شخص يتولى زاوية، أو مسجدا صغيراً من جميع جوانبه، يؤذن حينما يحين وقت الصلاة فيها ، ويؤم المصلين، ولا بأس أن يكنسها أيضاً بعد أن تنتهى الصلاة ، ويغلق أبوابها ، ويحافظ عليها كحارس، فهو يتولى الزاوية من كل أمورها .. ابتداء من الأذان إلى إغلاق الباب.

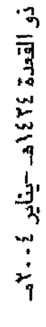
وكان راتب مقيم الشعائر هذا أعلن عنه ستة جنيهات، وتقدم عدد كبير معى من الطلاب، وهم يحتاجون إلى عدد يسير ، ففكرت فى أن أستعين بواسطة كبرى لكى أضمن التعيين فى هذه الوظيفة ، وذهبت فعلاً إلى إحدى الشخصيات اللامعة الكبرى، التى كانت تربطها صلة صداقة بجدى، وصلة قرابة أيضاً، وهو المرحوم، الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف دراز، الذى كان وكيلاً للجامع الأزهر، وكان حما الشيخ الباقورى وزير الأوقاف عندئذ.

ذهبت إليه أطلب منه أن يتوسط إلى زوج ابنته الشيخ أحمد حسن الباقورى حتى يعيننى.

كان يقيم فى شقة بجاردن سيتى فاستقبلنى هاشا باشاً وذكرنى بوالدى المرحوم وبجدى إلى آخره ثم سألنى عن مستواى الدراسى ، فقلت له أننى منذ دخلت السنة الإبتدائية ، وأنا أحافظ على مكان الأول دائماً، فى فرقتى ، وكنت من الخمسة الأوائل فى الشهادة الإبتدائية، على مستوى الجمهورية .. فإذا به يتخذ موقفاً مضاداً تماماً لما ذهبت أطلبه .. وقال لى سأخبر الشيخ أحمد الباقورى أن يمنع تماماً، ويصدر تعليماته بألا تعين فى أى مكان بوزارة الأوقاف.

لماذا يامولاى، وأنا آت إليك للإستعانة بهذه الحاجة؟!

قال : لأن هذا سيفسد مستقبلك، وسيضيع إمكانياتك وسيقف بك إلى حدود هى أكثر تواضعاً مما يمكن أن تصل إليه بجهدك وعلمك، فخرجت ساخطاً ممن أريد



أن أستعين به، فإذا به ينقلب ضدى بهذا الشكل الحاسم.

وأمضيت ليلة من العذاب والتفكير، لكننى أفقت فى الصباح على حقيقة مدهشة، وهى أن موقف الشيخ دراز رحمه الله، كان مؤشرا لى لطريق المستقبل. وأن علىَّ ألا ألجأ إلى الحلول السهلة، والبحث عن وظائف. وإنما استمر فى التحمل والكفاح والتفوق، حتى استطيع أن أتم تعليمى بالمستوى الذى أتطلعه.

وكان من الصدف فى تلك الفترة أن أخذت بعض الهيئات، مثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومثل إدارة الأزهر نفسها، فى الإعلان عن مسابقات، فأذكر منها الإعلان عن مسابقة، وموضعها: المفضليات حفظ ودراسة، فحفظت المفضليات ودخلت امتحان المسابقة، وفزت بالجائزة الأولى ، وكانت خمسون جنيها، أى مايساوى راتب سنة كاملة من الوظيفة التى كنت أبحث عنها فى مسابقة لشىء ممتع كنت أتلذذ بحفظه وبالكتابة عنه.

أخذت المسائل مسار آخر، عندما بدأت فى تلك الفترة ذاتها فكرة جوائز المتفوقيين ، فعندما حصلت على الثانوية الأزهرية تقرر لى مكافأة شهرية منذ السنة الأولى فى كلية دار العلوم قريبة جداً من مرتب المعيد بنفس الكلية.

وخلال السنوات الأربع التى وفقت فيها أن أحافظ على الامتيان، طولها ، وعلى المركز الأول بين مجموعتى، كنت أعيش فى بحبوحة من العيش، تجعلنى، أسخر من تلك اللحظات التى فكرت فيها أن اكتفى بخلع البدلة، وليس الجلباب والقبقاب، والعمل مقيم شعائر فى أحد الزاويا.

مضيفة لأهل قريتنا

نسيت أن أكمل الصورة لأنها طريفة، ولا تخلو أيضاً من بعض المغزى. عندما انتقلت إلى القاهرة لكى أصحب أعمامى الذين سبقونى فى الفترات التعليمية ، كانوا يسكنون فى شقق بحى الحلمية، ويتنقلون كل عام فى شقة، حتى اهتدى بهم الأمر إلى حجرة كبيرة، فى بيت كبير فى حارة «الجنبكية» بشارع «المغربلين»، فأقمت فى هذه الحارة فى قلب القاهرة المعزية.

كانت هذه الحجرة طريفة جداً، لأنها واسعة للغاية، لكنها مضيفة أهل القرية كلهم.. كل من يأتى ليعرض نفسه أو ابنه على القصر العينى، مريض أو ما عدا ذلك، أو ليراجع وزارة الإصلاح الزراعى، أو ليقدم طلباً إلى الأوقاف، أو إلى الشئون الاجتماعية، أو ليوسط أحد نواب الدائرة . كل من يأتى من قريتنا، فالفندق المجهز له دائماً هو حجرة «الجنكبية .. أكثر من ذلك كان معظم طلاب القرية الذين ينتسبون للجامعة يتخذون حجرة لا تخلو فى النهار من عشرة أشخاص، وفى الليل من عشرين شخصا ينامون فوق السريرين وتحتهما، وإلى جوار النوافذ.

وكان من المستحيل علىّ بطبيعة الحال، أن أجد وقتا لكى أذاكر فى هذه الحجرة، لأنها لا يمكن أن تخلو ساعة واحدة من نهار أو من ليل، فكان المكان الذى أذاكر فيه وأستمتع جداً هو المساجد الأثرية فى منطقة المغربلين، والغورية، من أمثال مسجد الرفاعى، والسلطان حسن، والوردانى، وغير ذلك ، ومن كثرة ما عرفت هذه المساجد، شممت ريحها، وتقلبت بين أعطافها، ونعمت بالتكييف الطبيعى فيها، طوال فترة الدراسة. ■

وللتكوين بقية



كيف نحول الكم المهدر إلي كيف بناء؟!

فى مقال الدكتور مصطفى سويف «الكم والكيف فى حياتنا» والمنشور فى عدد ديسمبر ٢٠٠٣ أطرح سؤالا جوهريا وهو: كيف يمكننا أن نولد التحول الكيفى فى حياتنا عن التغير الكمى.. أو بعبارة أخرى يمكننا أن نعطى الصدارة دائما للكيف على الكم، ولن يتأتى تحويل الكم الهائل المهدر فى حياتنا، إلى كيف فعال ومنتج وخلاق، إلا إذا أطلقنا الإرادة والقدرة الفردية الخلاقة، والتى تمثل رأس المال الإنسانى الوحيد الذى يملكه الإنسان من وراء رأس المال المادى . وإذا كان قوام رأس المال الإنسانى هو الأفراد، فإن مصلحة البشر فى المجتمع المصرى أن يمنح كل شخص من الفرص ما يتيح له أن يقوم بعمل منتج.

والقدرة والإرادة الإنسانية الفردية، شئ لا يجمع، ولكنه يستثار فى كل نفس على حده.

ويوم ينفض الإنسان المصرى عن نفسه روح الاحباط والتواكل والسلبية وتتوافر لديه فضائل الطموح والثقة بالنفس والرغبة فى التفوق، وتحديد الهدف والقدرة على التركيز الشديد. يومئذ يستطيع أن يحول الكم المهدر إلى كيف بناء للإنسان والمجتمع، وأن يحلق مع النجاح المتصل.

عمرو عبد المنعم حمودة
برما - طنطا

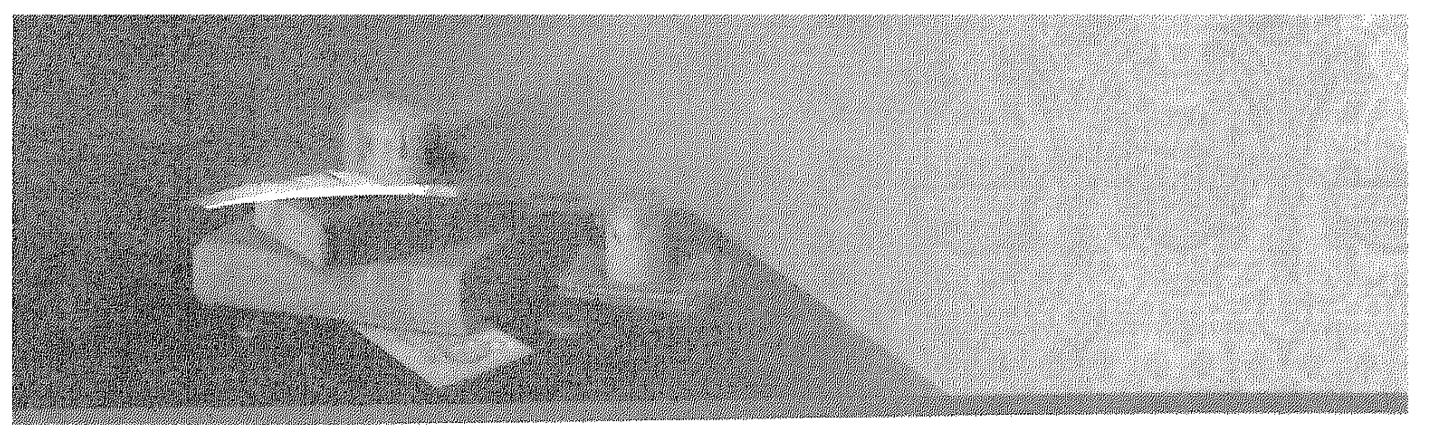




عودةُ الحلمُ الشريد



جاءتِ عيونكِ من دروبِ الشوقِ
نظرتُ الأسى
تلقى عليَّ اللومَ وتزيدُ الشجون
كم حدثتنى عن فراقٍ قاتل
وضياعِ عمرٍ فى أكاذيبِ الجنون
قالت: ترى هل تهجرُ يوماً دربَنَا
لتسودُ أيامى فى ظلال الياسمين
ومتى ارتمينا فى رياضِ العشقِ..
يزهرُ عشقُنا عطفاً وليناً
فيجئُ طيركَ صادحاً



يشدو لنا ويعيرُنا سحرَ العيون
وتلوحُ من عينيكَ أطيافُ المنى
وعلى جبينكَ من ضياء الفجرِ يأتلقُ السنى
كسحابةٍ ميساء تجتاحُ الوجودَ لتستكين
هو حُلمنًا المعهودُ

صابر صبري معوض

ماذا تريد انجلترا من العرب؟!

ما قرأت مقالا لابن أستاذى عالم اللغة والأدب أحمد أمين بك وأقصد د. جلال أمين إلا وقد أيقنت أن شموخ الوالد ثقافيا ووطنيا مازال متمثلا فى أبنائه، وإننى أعجب كثيرا بمقالاته فى الهلال ومنذ التسعينيات، حين تعمق اجتماعيا وسياسيا - ماذا حدث للمصريين والذى جمعتموه كتابا للهلال فى يناير «١٩٩٨ العدد ٥٦٥».

المهم أن مقال د. جلال أمين فى هلال ديسمبر ٢٠٠٣ «ماذا تريد أمريكا من العرب؟» يتصل من قريب أو من بعيد بما يحدث للعرب الآن، وليس المصريين فقط، بفعل الامبراطورية التى كانت لاتغيب عنها الشمس ثم غربت بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ وأعنى بذلك بريطانيا.. إذ يقول أستاذنا د. جلال ص ٧٢ «فبعد الهجوم الأمريكى على أفغانستان.. حدث الهجوم العسكرى الأمريكى البريطانى على العراق.. فجأة أصبح الاحتلال العسكرى المباشر ضروريا، بعد أن كنا نظن أن احتلال جيوش دولة أخرى مستقلة، قد أصبح تاريخا قديما لا يمكن أن يتكرر .

إن دور رئيس وزراء بريطانيا لا يختلف عن دور أنتونى ايدن فى عام ١٩٥٦ كما لا يغيب عنا أن بريطانيا هى التى احتلت العراق عام ١٩١٤، وكانت البصرة التى يتمركزون فيها الآن هى المدخل إلى أراضى النفط .

وليسمح لى د. جلال أمين بتغيير عنوان مقاله إلى: ماذا تريد انجلترا من العرب؟

د. سامي منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية



روح الفريق والنجاح في العمل

كلنا يحلم بمجتمع يحيا حياة كريمة، لكن ليس بالتمنى نحقق ما نريد، بل بالعمل وبالجهد والعرق.. والمثال على ذلك هو الدكتور أحمد زويل والذى شرفنا بعلمه وعبقريته، وأنه توصل إلى اختراعه الذى حصل به على جائزة نوبل بفضل جهده الشخصى ثم التعاون المتصل مع فريق من العلماء ساعدوه وتعاونوا معه حتى حقق اختراعه المبهر الذى أفاد العلم وسوف تتحقق نتائج مبهرة من خلال تطبيقاته لصالح البشرية.

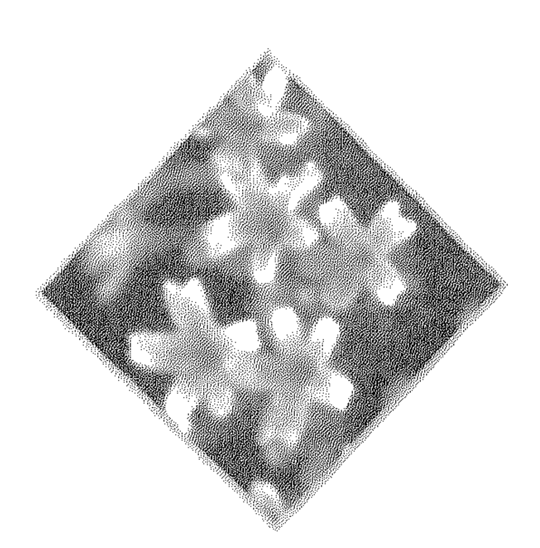
إننا فى أمس الحاجة سواء فى مصر أو عالمنا العربى والإسلامى إلى العمل والتفكير بروح الفريق.

إن التعاون والإخلاص فى العمل والحب والتسامح وحب الوطن والغيرة على مصالحه، كل هذا يوصلنا إلى أهدافنا، ويحقق لنا التقدم المنشود فى عالم لا يعترف إلا بالقوى.

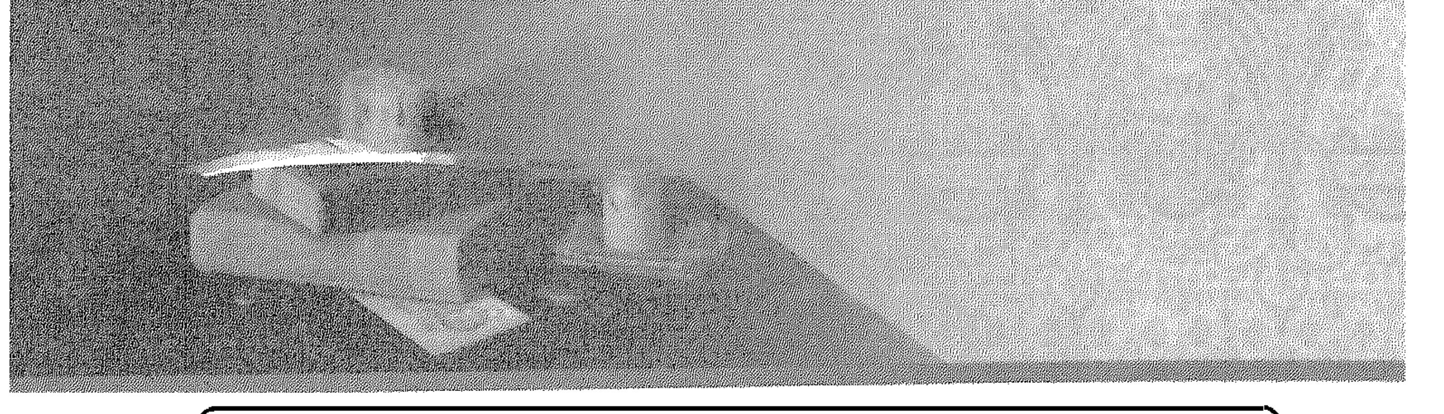
حسن عبد المجيد منتصر - فارسكور - دمياط

رُبَّمَا قلبي.. يعود!!

افتحي الباب
إيَّاك أَنْ تغلقيه
ربَّماَ قلبى.. يعَودْ
فى الصباحِ
في المساءِ
ربَّما أرسمُ من حلمى..
قواربَ الإيابْ
ربَّماَ أنقش هذا الليل طَيْفاً،
وثريَّاتٍ ..
تشيعُ الدفءَ فى نبض الوجودْ
تتدلَّى!
يصدح الشعر الجميل
والمدى دمعتينِ!!
افتحي الباب
إيَّاك أَنْ تغلقيه
ربماَ قلبى.. يعودْ!!



محمود المصلي - شربين - دقهلية



الهلال

تكنولوچيا النانو
وصناعة الماس من جزئيات الفحم!

ثورة علمية تنتظرنا .. هى أن يصنع الماس من الفحم وجزئياته.

فقد ثبت من خلال تكنولوچيا النانو، أنه من الممكن تفكيك الفحم العادى ثم إعادة رص الذرات لصناعة الماس.

ويقول بعض الباحثين إن الاحتمالات تبدو أوسع من أن يحيط بها الخيال.. وهو انقلاب جذرى فى العلاقة بين الصناعة والمواد الأولى.

وقد بدأ الاهتمام بتكنولوچيا النانو فى عام ١٩٩٥، حيث ذكرت كلمة «نانو» حوالى ٢٠٠ مرة فى مختلف المطبوعات العلمية، وازداد هذا الرقم إلى ٤٠٠٠ مرة فى سنة ٢٠٠٢ وحدها.

ويرى بعض العلماء فى هذه التكنولوجيا الجديدة تطورا لم يسبق له مثيل فى تاريخ العلم.

وذكر ريتشارد سمولر وهو كيميائى حاصل على جائزة نوبل لاكتشافه نانو أنابيب الكربون ذات الأهمية، أن ميزانية علوم وتكنولوچيا النانو تقع على رأس الميزانيات فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى بلغت سنة ٢٠٠٢ أربعة مليارات دولار، وقد سجل حوالى ٣٠٠٠ براءة اختراع منذ عام ١٩٩٥ ويقدر علماء وخبراء سوق النانو فى المستقبل القريب بحوالى تريليون دولار فى السنة.

هذه الصناعة دخلت حيز التطبيق فى مجموعة من السلع التى تستخدم نانو جزئيات الأوكسيد على أنواعه والألومنيوم والتيتانيوم وغيرها، خصوصا فى مواد التجميل والمراهم.

كما تمكن باحثون فى جامعة بسيول من إدخال نانو فضة، إلى مضادات حيوية. ومن المعروف أن الفضة قادرة على قتل حوالى ٦٥٠ جرثومة دون أن تؤذى الجسم، ويخشى البعض من تسلل الجزئيات الصغيرة جدا للنانو إلى جهاز المناعة فى الجسم.

لكن فى النهاية هل نرى فعلا هذا التقدم المذهل فى صناعة الماس من الفحم، وأيضا فى صناعة الدواء، وفى مجال أقراص الكمبيوتر القادرة على ضغط معلومات أكثر بآلاف المرات من الذاكرة الموجودة حاليا.



موسوعة الهلال الثقافية .. والمسرح

تناولتم فى موسوعة الهلال التى تعد إضافة مهمة قضايا حول المسرح وأود أن أشير إلى بعض المسهمين فى ميدان المسرح على وجه الخصوص بمدينة الاسكندرية بريادة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين حينما كان مسئولا عن إدارة جامعة فاروق الأول (سابقا) الاسكندرية الآن إذ جاء بكل من چورچ أبيض وعبد الوارث عسر كى يعلم أحدهما دروس القاء النصوص المسرحية ويدرس الآخر أعضاء فريق التمثيل بكلية الآداب على الأداء المسرحى.

قام محمود مرسى بدور أوديب وقد كان طالبا بقسم الفلسفة أما زميله الذى وصل إلى منصب نائب رئيس جامعة الاسكندرية د. محمد زكى عشماوى وكان وقتها طالبا بقسم اللغة العربية فقد أدى دور «تريسياس» العراف. لقد تخرج في هذه الجامعة أسماء لمعت فى مجال المسرح ومن بينهم نور الدمرداش والمخرج فاضل والفنانة سميرة عبد العزيز وسمير غانم ووحيد سيف ومدحت مرسى والدكتور سيد عبد الكريم وآخر العنقود الممثل محمود عبد العزيز . وغير هؤلاء.

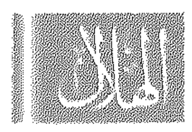
إن ما دفعنى إلى ذكر هؤلاء بابكم الجديد بالهلال الموسوعة الثقافية.

انحياز

انحزتُ إلى خصوبة الكلمة
لا خصوبة الرحم
أعلنتُ انشقاقى من كل القوالب
على وجهى تمردت
من دمي هربت
اخترت السباحة
فى زمنٍ يخاصم الماء
إخترتُ الكتابة فى عالم
لا تختار فيه النساء
الإ الخواتم والأساور وكفن الأزواج

إخترتُ وحدتى
فى زمن يضطهد النساء الوحيدات
المديح أو الذم
عندى سواء
لم أواعد رئيس تحرير أو ناقد
للسهر والعشاء
قلبى ملكى
عقلى ملكى
جسدى ملكى
ورأسى لا يعرف الانحناء

د. مني حلمي

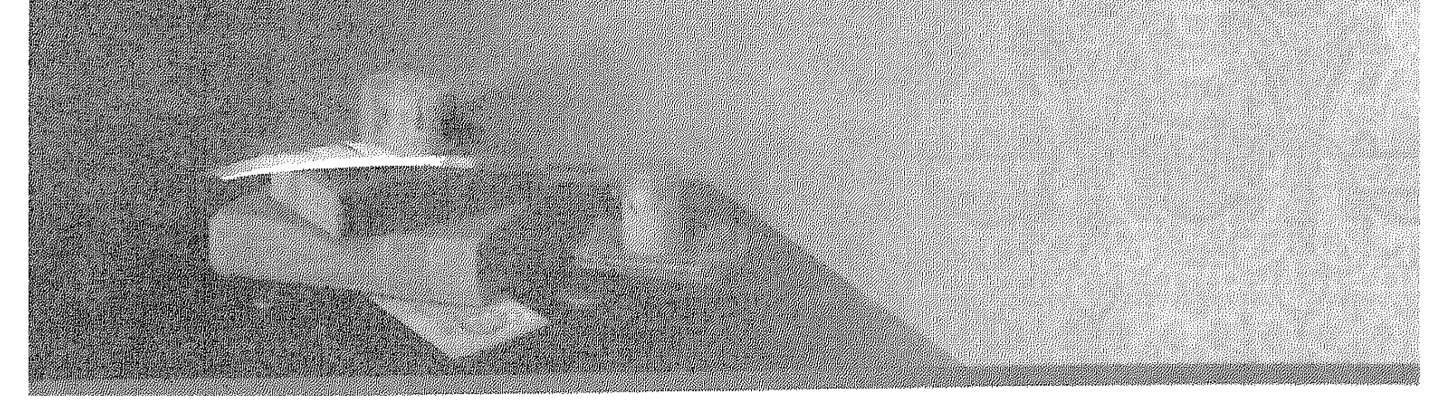


أن تسمع اللون وترى الصوت

قرأت المقال الذى كتبه الدكتور أحمد مستجير فى هلال ديسمبر الماضى بعنوان « تسمع اللون وترى الصوت» وأعجبت به إعجابا شديداً لكننى فوجئت بأن نفس الموضوع منشور فى «مجلة ثقافية أخرى

ابراهيم عثمان - الزرقا - دمياط

الهلال : نأسف لذلك ونحن لم نكن نعلم بأنه سوف ينشر فى مكان آخر .



أمنيات للعام الجديد

على مدى خمسين سنة رأينا الظلم الذى حدث للشعب الفلسطينى من تشريد لأبنائه وقتل ودمار نشاهده يوميا.. وعلى الرغم من خروج الاستعمار من الدول العربية، إلا أننا رأينا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ضم واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة إلى إسرائيل.

ثم حدث ما حدث بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وكيف خرج المارد الأمريكى مكشرا عن أنيابه ليحارب فى أفغانستان ويحتلها، ثم العراق وما يحدث فيه الآن..

وإننى كطبيب أرجو أن تتحقق أمنياتى للعام الجديد بتفرغ البشرية لمحاربة الأمراض والمدخل لذلك هو أن ترفع إسرائيل يدها عن فلسطين، وكذلك ترفع أمريكا يدها عن الشعب العراقى، وتتركه يحدد مصيره بيده فى جو من الديمقراطية التى تتشدق بها أمريكا.

وأتمنى أن تتحقق أمنية عزيزة على النفس وهى أن تتفرغ أمريكا لمحاربة الأمراض فى دول العالم الفقيرة، وأن تتعقب الأشخاص المسئولين عن أحداث ١١ سبتمبر ولا تعاقب الشعوب العربية والإسلامية جراء تلك الأحداث.

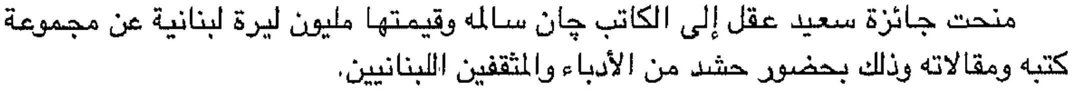
وأتمنى أيضا أن يترك للشعوب المغلوبة على أمرها تحديد مصيرها فى جو من الديمقراطية العادلة.

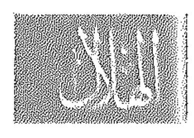
إن لدينا أمراضا كثيرة فى وطننا العربى: سوء التغذية والجفاف والحمى الروماتيزمية والتيفود حتى الكوليرا تعود من حين إلى آخر فى بلادنا العربية ينبغى أن تكرس الجهود للقضاء على مثل هذه الأمراض.

أيضا نقضى على الأمية التى انتشرت فى بلادنا ووصلت عند النساء إلى ٤٥٪..

أتمنى أيضا أن يعيش الإنسان العربى آمنا فى وطنه ينعم بالحرية والاستقلال.

د. جمال العطار





منحت جائزة سعيد عقل إلى الكاتب چان سالمه وقيمتها مليون ليرة لبنانية عن مجموعة كتبه ومقالاته وذلك بحضور حشد من الأدباء والمثقفين اللبنانيين.

وقال سعيد عقل فى بداية الحفل: جائزتى أقدمها اليوم إلى جان سالمه الذى يتميز فى أعماله بالعديد من المزايا ذات اللون المتفرد، وهو إنسان لا يعرف الكره ويحب الجميع.

وقد رد چان سالمه بقوله: على الرغم من أن صاحبها لا يعتبر من أصحاب الثروات الطائلة التى لا تتيح له ما لا تتيحه للآخرين، فهى جائزة نبيلة، تكبر بشرف واهبها، وغير مغموسة بدم برئ، كجائزة نوبل مثلا، بسبب نيران بارود صاحبها ودخانه الخانق، وخصوصا لأنها جائزة يمنحها سعيد عقل نفسه، الذى شغل الدنيا بأسرها، وملأ العالمين، واستلفت كل الأنظار، فسما نجمه فوق الشعراء النجوم، وكل أدباء عصره، فى نهاية الحفل تسلم المحتفى به شيكا بقيمة مليون ليرة لبنانية.



دماء العيون

دمـاء العـيـون على السـاقطينْ وهـم يسـقطون بتـيـه وطينْ
وقـد كـان بعـضـهمو عـاليـاً ومـا كـان قط من الهـابطين
يـريدون فنـاً ومـا فنهـم لغـيـر فـروج الهـوى والبطون
قـضى الابتـذال وإسـفافـهم عليـهم ومـاتوا وهم يخلطون

★

أينسـون أمجـادهم والورى يـراها لـهم فـوق هام السنين؟
أيلقـونهـا فى بطون الثرى وليست لغـيـر العلا والعيـون؟
عـجـيب هنا أمـر ناس لهم عـقـول وليسـوا لغـيـر الجنون
يبـيـعـون ديناً لهم بالدنا ومـا مـثله فى الدنا أى دين

★

هـو الدين يا قـوم إسـلامنـا بـه كل عـقل رشـيـد يدين
أنسـعى مع الغـرب فى هدمـه ونحـسب أنّا من المهـتـدين؟
جـمـيع الهـداية فى حكمـه وكل الضـلال مع المعـتـدين
لـنـا نـور إسـلامنـا إنـه من النور نور وحق مـبـين

حسن أبو الغيط - كفر مصيلحة - المنوفية

مع الأصدقاء

مساهمات كثيرة تصل إلينا من الأصدقاء فى القصة وفى الشعر، ونؤكد دائماً على ضرورة أن يتسلح الشاعر بأدوات من أهمها الوزن .

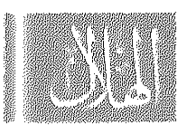
● القصيدة الأولى للصديق حسن عبد اللطيف - جامعة الدول العربية وعنوانها «سنعود» ، ننشرمنها هذه الأبيات:

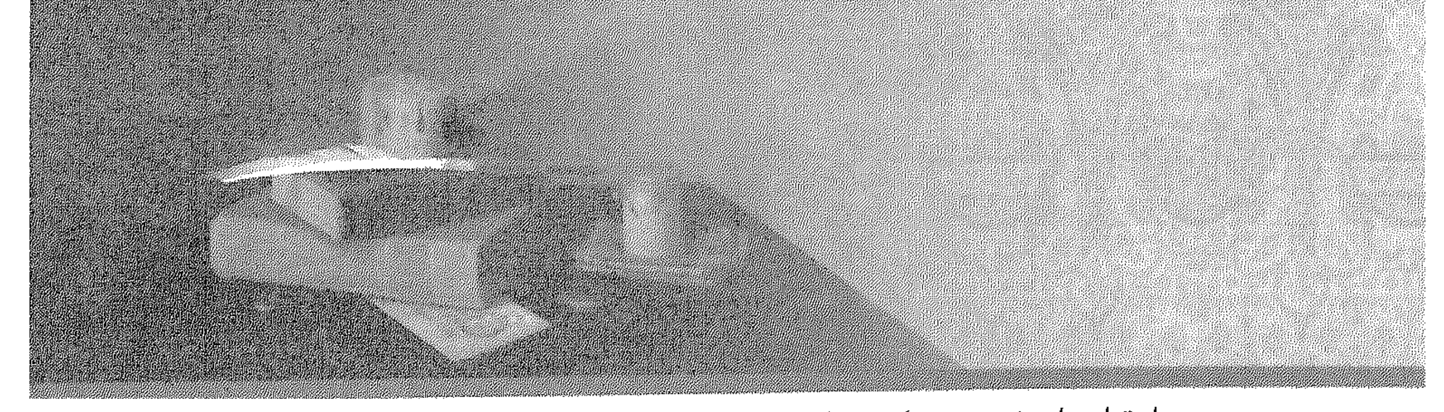
ونزرع أعـواد القمح عودا بعـد عود
ونعزف ألحان النصـر على أوتار عود
وتدق الأجراس بشرى باليوم الموعـود
ويلهو الأطفال ضاحكين حطمنا القيود
ونصلى هناك فنحن أولي منهم بـداود
ويختفى الظلم كما اختفى من قبلهم عاد وثمود

● أما الصديقة هدى عبد الله ابراهيم فننشر من قصيدتها بعنوان «كرسيان فى المقهى» هذه الأبيات

كرسيان يختلفان إلى المقهى
يتقاسمان الذكريات
ينساب فرح قلوبهم
يرتسم فى ألواحهم







يجرى امتداد تاريخهم منهم كنهر زاخر
ترى العرافة في الوجوه تبدو كرمز للصمود

● ننشر بعض الأبيات من قصيدة «إلى كوكب الشرق» للصديق رمضان بشير - قنا - أبو دياب شرق

أنت خلود
يستعصى على النسيان
أنت من تشتاق إليها
كل الآذان
أنت جبل.. حصن منيع
لا بل أنت
مملكة للروائع
والصوت الفنان
أنت اللحن الأول
في كل الأزمان

ونتواصل مع الأصدقاء فى الأعداد القادمة ونشكرهم على رسائلهم الرقيقة.

● محمود صالح - المنيا - ابراهيم عزازى - طنطا - عبد العزيز الدرينى - الشرقية - أحمد محمد الزهار - القاهرة - عفاف عثمان محمد - المنصورة - هشام ابراهيم - المحلة الكبرى - وائل عبد الرحمن - السعودية.

الكلمة الأخيرة

السلطان أسامة بن لادن

بقلم: إقبال بركة

ماذا لو انتصر بن لادن على أمريكا؟

سيخرج بن لادن وأتباعه من الكهوف التي يختبئون فيها ليعلن نفسه حاكما منتصرا على العالم كله، فمن الذي سيجرؤ على مقاومته بعد أن نحر «الشيطان الأكبر»، وأثبت أن الحضارة الغربية ليست سوى قصور من القش !! ما الذي سيعوق بن لادن عن تحقيق حلم اليوتوبيا الخاص به، وأن يكتسح كل العقبات نحو بناء الدولة الخيالية التي أهدر ملياراته الموروثة عن أبيه المقاول في سبيل إقامتها ؟!

وطبيعي أن يصبح صبيان الطالبان هم مساعدي وبطانة وحاشية الحاكم السوبر الجديد، وسيختار من بينهم وزراءه ليحكم بهم مملكته أو سلطنته الجديدة، التي ستفرض أفكارها ومبادئها على العالم ومن هنا يمكن أن نتنبأ بالخطوط العريضة للسلطنة الجديدة ويكفي أن نعود إلى السنوات التسع العجاف التي تحمل فيها الشعب الأفغاني حكم أولئك الطالبان، لقد عاش بينهم بن لادن سنوات طويلة، تأثر بهم وتأثروا به وامتزجت أفكارهم جميعا حتى تطابقت .فمن الطبيعي إذن أن تكون صيغة الحياة التي فرضها الطالبان على الشعب الأفغاني، ولم يبد بن لادن أدنى اعتراض عليها، هي الصورة المثلى في نظره ونظرهم لما يجب أن يكون عليه المجتمع البشري. ومن الطبيعي أن يبدأ المهدي المنتظر بن لادن فرض فرماناته السديدة على المهزومين الأمريكان والغربيين قبل غيرهم لكي يجعلهم عبرة لمن يعتبر ولأن المرأة هي الهاجس الأول للمراهقين والذين في قلوبهم مرض فإن السلطان بن لادن سيبدأ بفرض النقاب على نساء أوروبا، أولئك اللاتي أشعن الفجور في أنحاء المعمورة وكن فتنة للرجال وقدوة لنساء ولولاهن ما كنت النساء المسلمات من عربيات وأفريقيات وآسيويات تجرأن على التمرد وطالبن بحقوق لاتخص الا الذكور مثل حرية المشاركة السياسية وحرية العمل وحرية السفر إلى آخر تلك البدع والموبقات .

إن الفرمان الأول للسلطان بن لادن سيكون إخفاء مفاتن نساء أوروبا وأمريكا من شعور شقراء أو كستنائية مسترسلة إلى عيون زرقاء وخضراء إلى أجساد لينة رشيقة تثير الغرائز وتحرض على الفساد. ينبغي أن تعلم المرأة الغربية المتبرجة السافرة أن الله خلقها لكي يستمتع بها الرجل داخل حريمه، ولكي تعمر الكون بالتناسل، ما عدا ذلك بدع لا مكان لها في يوتوبيا الطالبان أو سلطنة بن لادن، وعلى كل من حصلت على دكتوراه أو ماجستير أو أي شهادة عليا أو متخصصة أن تستغفر الله وتتوب عما فعلت وتعود إلى رشدها وتبذل الليل والنهار في محاولة محو آثار العلوم من عقلها. إن المثل الأعلى للمرأة يجب أن يكون الحريم في عصر السلاطين العظام. وما كان يجيده هؤلاء النسوة الفاضلات داخل الحرملك من وسائل إسعاد أسيادهن الرجال والتفنن في إثارة شهواتهم وإشباع احتياجاتهم الجسدية هو أقصى ما يجب أن تتعلمه وتجيده كل نساء العالم، على النساء الغربيات أن يلجأن للدروس الخصوصية من فتيات علب الليل ونساء الجيشا اليابانيات، فهؤلاء لن يتم الاستغناء عنهن إذ سيتحولن إلى جوار وقيان يقدمن المتعة للطالبان وأتباعهم بعد عناء ومشقة اليوم الطويل الذي قضوه في النهي عن المنكرات العصرية والبدع الغربية.

وما أن ينتهي الطالبان وزعيمهم السلطان من القضاء نهائيا على أي مقاومة نسائية حتى يلتفتوا إلى عدوهم الأكبر أمريكا ورمز قوتها الذي بهرت به شباب العالم فراحوا يقلدون بناتها وشبانها. وسيأمر الطالبان وبن لادن بحرق كل مصانع التي شيرت والجينز في كل أنحاء المعمورة، ذلك الزي المبتذل الذي فتن الشبان وانتشر كالنار في الهشيم بين كل شباب العالم. بعد ذلك ستتوالى الأوامر والنواهي . لا مسارح ولا دور سينما وعلى كل من كان مفتونا بهم أن يحطم جهاز التليفزيون ويلقي به من النافذة هو وكل ما يملك من أجهزة راديو وفيديو وكاميرات تصوير .. الخ، بل ربما اشتط أحد فقهاء الطالبان فأعلن تحريم الكهرباء باعتبارها من ابتداع الفرنجة وهي تشجع الناس على السهر فيقلبون الليل نهارا ويتابعون البرامج التي ينقلها لهم الشيطان الأكبر عن طريق الأقمار الصناعية. ■



أون
www.elmoalemonline.com
0771555
مجاناً
العب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفيه
PUZZLE
و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين

الهلال

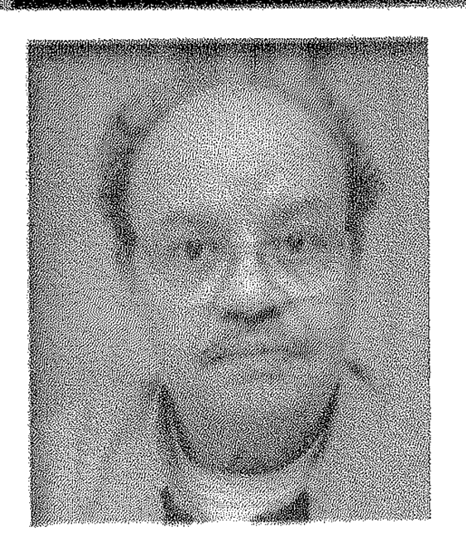
فبراير ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

القوالب المفرّغة

- أحزاب بلا تأثير ؟
- جامعات فقدت الاستقلال ؟
- جوائز لكبار المسئولين ؟



د. أحمد زويل
في الطريق إلى
نوبل ثانية



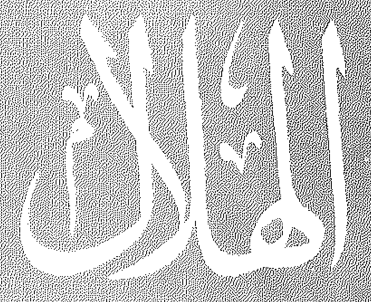
اللباد
وعين العشق
والثقافة



لوحة وفنان

الفارس النوبي

للفنان الالماني لودفيج - ١٨٩٥



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ذو الحجة ١٤٢٤ هـ - فبراير ٢٠٠٤م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب. ٦١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولارا.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

لا أحد يتدخل فيما تكتبه الصحافة

اختتم معرض القاهرة الدولي للكتاب فعالياته التي امتدت لمدة عشرة أيام في الفترة من ٢١ إلى ٣٠ يناير الماضي ، وذلك على عكس ما كان يحدث في الدورات السابقة بسبب إجازة عيد الأضحى .

كان الرئيس مبارك قد استقبل المفكرين والكتاب والصحفيين والمثقفين بمقر رئاسة الجمهورية قبيل افتتاح المعرض بيوم وتناول في اللقاء القضايا السياسية والاقتصادية وربما اختلف اللقاء الفكري هذا العام ، عما كان يحدث في السنوات السابقة ، حيث اللقاء المفتوح والحوار البناء بين الرئيس والمثقفين داخل معرض الكتاب والذي يعد بمثابة عيد للمثقفين المصريين الذين يبدون آراءهم بكل الصراحة والوضوح .

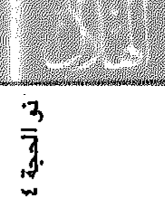
ولكن يبدو أن ارتباطات الرئيس ومشاوراته المستمرة مع القادة والزعماء العرب بسبب الأحداث المتلاحقة عربيا وعالميا ، كانت وراء اللقاء بهذا العدد المحدود من المفكرين والمثقفين ، وربما تكون هذه فرصة ليلتقي بهذه النخبة على فترات على مدى العام للحوار وتبادل الرأي في القضايا التي تهم الوطن ، وعلاقاتنا بالأشقاء العرب وبدول العالم ؛ والتأكيد على قضايا ملحة بهدف التوصل إلى حلول جذرية للصراع العربي الإسرائيلي والتأكيد على وحدة العراق ودفع العمل العربي المشترك .

ومن أبرز ما تناوله الرئيس مبارك في اللقاء أن الصحافة في مصر حرة ولا أحد يتدخل فيها بحكم الدستور والقانون ، وهي جزء من الممارسة الديمقراطية وحرية التعبير حيث قال : «علينا أن نتفق على بعض المبادىء وأن نعمقها ، ونبتعد في نقدنا عن التجريح وعدم استخدام ألفاظ سيئة سواء كان نقدا داخليا أو للآخرين ، لأن تجريح الشعوب أو القادة لا يحقق فهما للرأي، بل هو تعقيد أكثر .

فالنقد مطلوب بشرط عدم استخدام ألفاظ خارجة عن اللياقة ، فالصحافة المصرية هي الأقدم في هذه المنطقة ، وعليها أن تظل أيضا محافظة على قيم المهنة وسمو الكلمة .. وأرجو ألا نخرج في نقدنا عن أدب الحوار تحت أي ظرف من الظروف، وهذا رجاء وليس فرضا ، حيث انتهى عصر فرض الرأي على الصحافة أو الإعلام ، لأننا نعيش حرية حقيقية الآن ».

حضر افتتاح المعرض د . عاطف عبيد وشارك فيه هذا العام ٩٧ دولة عربية وأجنبية ضمت ٣١٥ ناشرا عرضوا خمسة ملايين كتاب .

شهدت هذه الدورة للمعرض عدة ندوات من بينها ندوة عنوانها «رفاعة الطهطاوي .. مجتمع المعرفة واللقاء بالآخر ».. وأيضا ندوة عن الاستعدادات العربية لمعرض فرانكفورت الدولي للكتاب



شارك فيها عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية ود. المنجى بوسنينه وابراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب ، حيث تمت مناقشة استعدادات الهيئات والمؤسسات الثقافية داخل الدول العربية للمشاركة فى معرض فرانكفورت الذى اختار الكتاب العربى ليكون ضيف شرف المعرض هذا العام.

أيضا تم تكريم المبدعين والمفكرين العرب ، بالإضافة إلى مؤسسات النشر وذلك لدورها فى إثراء الحركة الثقافة فى مصر والعالم العربى .

أيضا كان من بين أنشطة المعرض هذا العام الملتقى الفكرى للشباب وتمت فيه مناقشة أهم القضايا والمشكلات التى تهم الشباب ، حيث أقيمت ندورة عن مستقبل المشروعات الصغيرة بين التمويل والتسويق وكيفية إيجاد حلول عملية لمواجهة شبح البطالة .

كما ناقشت ندوة كاتب وكتاب مجموعة من أهم الكتب الصادرة فى مصر والوطن العربى ، ومن بينها العديد من الإصدارات التى ترد على الادعاءات المغلوطة التى ترددها بعض الدوائر الإعلامية الغربية ضد الإسلام .

كان كرنڤال الدعاية لملف كأس العالم لكرة القدم ٢٠١٠ واضحا فى كل سرايات المعرض وأرجائه ، خاصة وأن هذه الفترة تزامنت مع حضور لجنة الڤيڤا إلى مصر لتقييم المنشآت الرياضية المصرية والاستعدادات التى يمكن أن توفرها مصر ، خصوصا وأن المنافسة شرسة بين مصر والمغرب وجنوب افريقيا للفوز باستضافة المونديال .

والسؤال الذى يطرح نفسه بعد كل هذه السنوات لإقامة معرض الكتاب هو :

ما هى الفائدة التى تعود علينا من هذا المهرجان الثقافى السنوى الذى ننتظره ؟!

لقد آن الأوان أن نفكر فى العائد والمردود الثقافى ، حيث يمكن أن يسهم فى تغيير الواقع الثقافى الذى يعانى من انصراف الناس عن الكتاب والاتجاه إلى ثقافة تتصل بالسطحية متمثلة فى الثقافة التليفزيونية !

نود أن نصل إلى تقييم حقيقى لما هو معروض فى سوق الكتاب من كتب بصرف النظر عن جهة النشر ، فهل من الممكن أن يقوم معرض الكتاب بهذا الدور .

أيضا مطلوب التصنيف والتقييم للكتب التى تطرح فى المعرض ، كما ينبغى ألا تقتصر الندوات على عدد محدود من المفكرين وتلك الوجوه والأسماء التى تشاهدها فى كل دورة فضلا عن ضرورة مشاركة أكبر عدد من أساتذة الجامعة فى فروع المعرفة المختلفة ، وأن نتغاضى فى عملية الجذب الجماهيرى والذى يتم فى استقطاب المشاهير فى دنيا الفنون ، ضمانا لإقبال الجماهير ، حتى لو كان هؤلاء المشاهير لا يملكون ناصية الكلام ، وأن تتم الاستعانة بأسماء لها ثقلها الفكرى والعلمى ، خاصة أولئك الذين لا يسعون للأضواء ، ولكنهم شجرات مثمرة يجب الاستفادة منها .

ولكى تعم الفائدة لابد أن يتم المزيد من التعاون بين إدارة المعرض والتليفزيون لتغطية الندوات ونقلها على القنوات الفضائية والأرضية ..

كذلك ولكى يتحقق النجاح المنشود يجب دراسة السلبيات والايجابيات وأن يبدأ العمل للدورة السابعة والثلاثين فور الانتهاء من هذه الدورة لنضمن تحقيق المزيد من النجاحات للعرس الثقافى العربى على أرض مصرنا العزيزة .

* * *

وتهنئة من الهلال بمناسبة عيد الأضحى المبارك بالخير والسلام لأمتنا العربية والإسلامية .

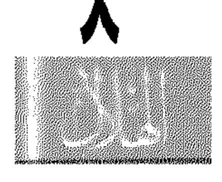
المحـــــرر

القوالب المفرغة

- أحزاب بلا تأثير!
- جامعات فقدت الاستقلال!
- جوائز تعطى لكبار المسئولين!

بقلم
د. مصطفى سويف

من أهم العوامل التى تتيح للخلل أن يستشرى فى الحياة الاجتماعية انصراف الأفراد إلى ما نسميه بالنظرة التجزيئية وعجزهم عن تجاوزها بالارتفاع إلى ما يشبه التصنيف لمفردات الأحداث بحيث يرون ما يجمع بين بعضها البعض من دلالات ويستشفون ما يقوم وراءها من علاقات، ومن ثم يتعاملون مع الدلالات أو المعانى الحقيقية لما يحيط بهم ويعالجون حاضرهم بما يناسبه، ويتدبرون مستقبلهم كما يريدونه لا كما يراد لهم. يصدق هذا القول على الحياة والأفراد فى مجتمعنا ، كما يصدق على الحياة والناس فى مجتمعات الدنيا بأسرها، فى حاضرها وماضيها ومستقبلها معا. ومن ثم فإن الغفلة عما ينطوى عليه من معان وما يوحى به من توجهات تعتبر غفلة من قبيل الخطأ الجسيم لأنها تصيب الناس فى جذر عميق من جذور اجتماعيتهم ذات الطابع الانسانى المتميز الذى يقوم على الترشيد الذكى المتواصل لحياتهم المجتمعية .





أقول هذا الآن وظروف الحياة الراهنة محليا وعالميا أصبحت تستدعيه أكثر مما كانت تستدعيه فى أى وقت مضى. ومع ذلك فما يعنينى فى هذا المقال هو ظروف الحياة فى مصر، أولا: لأن مصر من حيث هى دولة نامية فإنها تعانى من كثير من الآفات الاجتماعية / السياسية التى تكرس النظرة التجزيئية أكثر مما تدعم النظرة التجميعية/ التركيبية، وثانيا: لأن التعامل مع الموضوع الذى أطرحه فى الفقرات التالية يصبح أقرب إلى عقل القارئ ووجدانه بقدر ما يراه ماثلا فى المفردات المصرية التى تملأ علينا حياتنا اليومية، وثالثا: لأن انتماء نا المصرى هو الطريق الطبيعى إلى الانتماء العالمى، ومن ثم فإن الوفاء بمقتضيات انتمائنا إلى مصر هو الطريق إلى الوفاء بمقتضيات انتمائنا إلى العالم، ومن الجلى أن أمور العلاقات الدولية تتكشف يوما بعد يوم عن حقيقة مهمة مؤداها أن كل دولة مطالبة بأن تقدم ما يدعم عضويتها الفاعلة فى الأسرة الدولية .

هنا فى مصر

مسألة النظرة التجزيئية كما تتحقق عندنا فى مصر يمكن تناولها وتناول أضرارها من زوايا متعددة ، وقد اخترت لهذا الحديث أن أعالج هذه النظرة من زاوية أعتقد أنها أشد إفصاحا من غيرها من الزوايا عن المدى الشاسع للأضرار الاجتماعية المترتبة عليها ، وعن القسوة الشديدة التى تصيب بها جميع جوانب نشاطنا المجتمعى دون استثناء .

أما هذه الزاوية فهى ما أسميه تفريغ قوالب الحياة الاجتماعية من مضمونها السوى، وأما اتساع مدى الأضرار المترتبة على ذلك وشدة وطأتها فتتمثل فى حقيقة كون الحياة الاجتماعية تنتظم من أولها إلى آخرها فى قوالب أو مانسميه منظومات تتنوع فى مضامينها ، وفى مبادئ تنظيمها ، وفى مستوى حيوية الدور الذى تؤديه فى تماسك البناء الاجتماعى، وفيما تمنحه لهذا البناء من قدرة على النمو والارتقاء ، وما توفره له من حصانة ضد عوامل التحلل والفساد . ومن ثم فإن تفريغ هذه المنظومات من مضامينها الطبيعية من شأنه أن يصيب المجتمع فى نموه وارتقائه ، وكذلك فى صموده أمام عوامل التحلل والبوار ، وهو ما يعنى الإصابة فى صميم كيانه البشرى .

أمثلة للقوالب المفرغة

لا يحتاج المرء لكى يجد الأمثلة على هذه القوالب المفرغة أو التى

يجرى تفريغها إلا إلى التحلى بالنظرة الموضوعية الشاملة (أى التى لا تعجز عن إدراك علاقة الجزء بالكل)، والتنزه عن الغرض أو الهوى (الشخصى أو الفئوى)، وعندئذ سوف يكتشف أن الأمثلة تتناثر من حوله ... ما أكثرها، فلدينا أحزاب ولكن هل لدينا حياة حزبية (تعددية) فعلا؟ ولدينا جامعات ، ولكن هل المضمون السوى للمنظومة موجود؟ أعنى هل لدينا تعليم جامعى حقا؟ ولدينا جوائز تسمى جوائز الدولة للتفوق والتقدير ، ولكن هل يغلب على متلقيها وأعمالهم التفوق واستحقاق التقدير فعلا؟ ولدينا بحوث يتقدم بها أعضاء هيئات التدريس الجامعية للترقية ، ولكن هل تغلب على هذه البحوث صفة العلم والعلمية؟ ولدينا تلاميذ يندرجون تحت بطاقة التعليم (الأساسى والعالى)، ولكن هل يندرجون هكذا ليتلقوا العلم أم ليتلقوا «الشهادة»؟ ولدينا فرق رياضية وأجهزة رياضية وميزانيات تنفق وكلام فى الصحف وصور وتصريحات لا أول لها ولا آخر ، ولكن هل لدينا نشاط رياضى فعلا؟ ولدينا ... ولدينا... الخ. خلاصة القول أن لدينا هياكل منظومات مجتمعية كثيرة، شأننا فى ذلك شأن جميع المجتمعات العصرية والشبيهة بالعصرية ، ولكن جرى تبوير معظم المضامين المنظومية لهذه الهياكل فأصبحت قوالب مفرغة، وأضحت بذلك أسماء على غير مسميات ، وصار المطلوب هو الاسم ، وليس المسمى .

وتثير هذه الحقيقة عددا من الأسئلة، يأتى فى مقدمتها سؤالان رئيسيان:

أولهما : ماهى القوى الاجتماعية المسئولة عن هذا التفريغ، وكيف تم لها انجاز ما أقدمت عليه؟

والسؤال الثانى ماهى الدلالة الاجتماعية لهذا التفريغ ؟

كيف تم هذا التفريغ ؟

واقع الحال يشهد بأن التفريغ وقع بأيدينا نحن، أبناء هذا الوطن . هذه حقيقة أولى لابد من الاعتراف بها ، لا على سبيل الشعور بالذنب أو جلد الذات، ولكن على سبيل مصارحة الذات كخطوة أولى نحو محاولة الاصلاح . والحقيقة الثانية التى لابد من الوعى بها هى أن التفريغ جاء (ويجئ) كمحصلة إجمالية لتآزر عدد من العمليات قام (ويقوم) بها عدد من القوى الاجتماعية، وليس قوة واحدة، ولا علاقة لهذا التآزر بمفهوم الاتفاق المسبق أو غير المسبق أو النوايا الطيبة أو السيئة، ولكننا هنا بصدد نتائج طبيعية تترتب على توفر شروط



بعينها . والحقيقة الثالثة التى يلزمنا التنبه إليها أن العواقب السيئة التى تترتب على هذه العمليات والتفاعلات تقع على الجميع ، من أسهموا بالفعل أو بالقول ومن لم يسهموا ، وذلك لكوننا جميعا نعيش فى مجتمع واحد، والحياة الاجتماعية فى جوهرها تنطوى على معنى المسئولية التضامنية سواء أدرك الأفراد تلك الحقيقة أم لم يدركوها .

وفيما يلى مزيد من تفصيل القول فيما نحن بصدده ، تعددت القوى وتفاوتت العمليات التى تولت تفريغ منظوماتنا الاجتماعية من مضامينها الطبيعية ، فكان من بين هذه القوى الدولة أحيانا بما لها من يد غليظة، وكان من بينها بعض الفئات الاجتماعية أحيانا أخرى مدفوعة بمصالحها الفئوية ضيقة الأفق غالبا، وشارك بعض الأفراد أحيانا ثالثة بأنصبة تتفاوت فيما بين بعضها البعض بتفاوت حظوظهم من الأنانية، ومن التقرب إلى السلطان، ومن القدرة على إلباس الباطل ثوب الحق، والرذيلة ثوب الفضيلة.

أمثلة عايشناها ونعايشها

أضرب للقارىء بضعة أمثلة بقليل من التفصيل :

الأحزاب السياسية ..

كانت لدينا أحزاب سياسية منذ بداية القرن الماضى، لم تكن أحزابا جيدة (حسب معايير الأمم المتقدمة) ولكنها كانت أحزابا فعلا، فقد نشأت بصورة أقرب إلى التلقائية وجاءت نشأتها استجابة لاحتياجات مجتمعية / سياسية معينة، وكان بعضها يعبر عن مصالح شبه طبقية محددة.

وفى أوائل الخمسينيات من القرن الماضى اقتضى نظام الحكم الناصرى الأمر بإلغاء هذه الأحزاب وبتلويث سمعتها حتى لا تقوى على القيام من جديد فتناوىء النظام وفى السبيل إلى تفعيل هذا التلويث استعان النظام بأدوات الإعلام، ثم أضاف إلى التجريح الإعلامى عدداً من المحاكمات السياسية لبعض رموز هذه الأحزاب هادفا من ذلك إلى زيادة تركيز الجرعة، ودارت الأيام دورتها ، وانتهى النظام الناصرى، وجاء نظام الحكم الساداتى، ووصلنا إلى أواسط السبعينيات ، حينئذ اقتضت ضرورات اللعبة السياسية أن يكون لدينا ما يسمى بالتعددية الحزبية، فتفاوض رأس الدولة (هكذا مباشرة) مع عدد من الأشخاص على قيام عدد من الأحزاب، وفعلا أقيمت الأحزاب، (حسبما أشار رئيس الدولة)، وبعد قليل حق الغضب على ما سمى بحزب

الوفد الجديد، فتقرر تعليق قيامه، ثم جاء الدور على حزب التجمع، فكانت الأوامر تصدر بتعطيل جريدته عدة مرات فى الشهر الواحد، واستمر الحال على هذا المنوال لفترة ما.. وقال الرئيس السادات قولته المشهورة «إن الديمقراطية لها أنياب».. وذلك إشارة إلى أن الديمقراطية كما يراها لا ترفع بالضرورة اليد الثقيلة للسلطة التنفيذية، ثم أعيد تدشين حزب الوفد الجديد، وتشكلت لجنة حكومية للنظر فى مشروعات الأحزاب الجديدة لتقرر ما إذا كانت ترضى عن أى من المشروعات فتجيزه، أو لا ترضى فترفض إجازته، فى هذا الإطار تقوم الآن قوالب نسميها أحزابا، وللقارىء بعد هذه المقدمة التاريخية شديدة الإيجاز أن ينظر فى أمر هذه القوالب / الأحزاب وأن يحكم بنفسه : هل هذه قوالب ممتلئة فعلا بمضمون الحياة الحزبية كما تعرفها دول العالم المتحضر؟ أم هذه منظومات ينقصها الكثير من المضمون؟ فهى بذلك أقرب إلى القوالب المفرغة؟

الجامعات ..

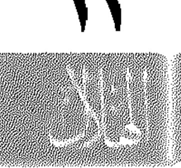
أضرب مثلاً آخر، الجامعات، ننظر أولاً من وجهة النظر القانونية، ثم نعرج بإيجاز شديد على الناحية التاريخية للموضوع، تنص المادة الأولى من قانون الجامعات المعمول به الآن (رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢) على عدد من العناصر باعتبارها لبنات أساسية فى تحديد ماهية الجامعة، وتحديد الوظيفة الاجتماعية الموكولة إليها.. وتقرر المادة فى ذلك ما يأتى: «تختص الجامعات بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعى، والبحث العلمى، الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها فى سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية فى ذلك المساهمة فى رقى الفكر وتقدم العلم وتنمية القيم الإنسانية ، وتزويد البلاد بالمتخصصين والفنيين والخبراء فى مختلف المجالات.. وتعتبر الجامعات بذلك معقلاً للفكر الإنسانى فى أرفع مستوياته ، ومصدرا لاستثمار وتنمية أهم ثروات المجتمع وأغلاها وهى الثروة البشرية..» هذه هى المادة الأولى فى قانون الجامعات.. ومن الواضح أنها تجمع بين عدد من العناصر الجوهرية فى تحديد ماهية الجامعة ورسالتها.. وهذه العناصر هى : أولا التعليم ، وثانيا البحث العلمى وثالثا التوجه إلى خدمة المجتمع، ورابعا الارتقاء الحضارى بالمجتمع وخامساً أنها معقل الفكر الرفيع وسادساً أنها مصدر لاستثمار ما يحيويه المجتمع من ثروة



بشرية. ومن الجلى أن تلخيص هذا الحصر يكمن فى اعتبار المفهومين الأولين التعليم والبحث العلمى هما الجذر، وهما بذلك الطريق إلى تحقيق ما تشير إليه المفاهيم الأربعة الواردة بعدهما فى نص المادة، هذا إذن هو التحديد القانونى لجوهر الجامعة كما ارتضته الدولة .

ونستمع الآن إلى كلمة التاريخ.. ننظر فيما يوحى به تاريخ نشوء الجامعة لدينا من تحديد لجوهرها، فى مقال نشرته فى هذه المجلة المرموقة فى يونيه ١٩٩٨ قدمت عرضا موجزاً لتاريخ الإنشاء فى أوائل القرن العشرين ، وختمت هذا العرض بتلخيص للنقاط الرئيسية الثلاث التى يشير إليها هذا التاريخ على النحو الآتى: «أولاً: أن الدعوة إلى إنشاء الجامعة صدرت أول ما صدرت من بين صفوف الشعب (لا من دواوين الحكومة).. وثانيا: أن الاستجابة الإيجابية التى استثارتها الدعوة صدرت كذلك من صفوف الشعب ، بدءاً بالترحيب، ومروراً بالاكتتابات لتمويل المشروع، ووصولا إلى تنظيم الخطوات التنفيذية والمشاركة فى القيام بها وثالثا: أن الرسالة الاجتماعية للجامعة تم تحديدها منذ بدء الدعوة على أنها رسالة حضارية فى المقام الأول.. فقد جاء فى تقرير اللجنة الدائمة التى شكلت لوضع أول لائحة داخلية لتنظيم شئون الجامعة ما نصه أن الغرض من إنشاء الجامعة هو «ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف أديانهم وذلك بنشر الآداب والعلوم».. هكذا كان القصد من إنشاء الجامعة، وكانت الملابسات المحيطة بهذا الإنشاء، حدث ذلك فى مطلع القرن العشرين.. ودارت الأيام حتى وصلنا إلى عشرينيات ذلك القرن، وتولت الحكومة مسئولية الإنفاق عليها وإدارتها.. وسرعان ما ضاقت الحكومة بموضوع حرية البحث العلمى فى هذه الجامعة، فكانت معركة كتاب «الشعر الجاهلى» لطه حسين سنة ١٩٢٦ (هكذا مبكراً).. ثم ما كادت هذه المعركة تهدأ حتى شبت معركة أخرى سنة ١٩٣٢ .

وفى هذه المعركة اشتدت جرأة الحكومة عنها فى المعركة السابقة، فاعتدت على استقلال الجامعة بنقل طه حسين من كلية الآداب إلى ديوان وزارة المعارف العمومية رغما عنه وتسبب ذلك فى استقالة مدير الجامعة، أحمد لطفى السيد، وفى حدوث قلاقل بين الطلاب، ثم دارت الأيام مرة أخرى ووصلنا إلى أوائل الخمسينيات، واشتدت جرأة الحكومة



درجات فوق درجات، وصدر قرار مجلس الثورة بفصل حوالى خمسين عضواً من أعضاء هيئة التدريس تراوحت مراتبهم الجامعية بين معيد وأستاذ كامل الأستاذية، وكانت جريمتهم فى نظر الحكومة أنهم عبروا فى اجتماع بنادى أعضاء هيئة التدريس الخاص بجامعة القاهرة عن اهتمامهم بالمستقبل الدستورى لمصر.. ثم دارت الأيام دورة تالية ووصلنا إلى بداية الثمانينيات ، وازدادت جرأة الحكومة درجات جديدة فنقلت قرابة عشرين من أعضاء هيئة التدريس رغما عنهم، بعضهم إلى السجن ، والبعض الآخر إلى وظائف إدارية فى دواوين الوزارات، ها هنا أترك للقارىء مرة أخرى بعد هذا العرض شديد الإيجاز (حول الجامعة وموقفها القانونى والتاريخى) أن يحكم بنفسه، وأن يستخلص العبرة مما جرى: ماذا بقى لشعب مصر من الجامعة كما خطط لها آباؤنا، منشئوها فى مطلع القرن العشرين؟ هل بقى لها البحث العلمى الحر؟ أم بقى لها التعليم الكفء؟ أم دام لها العمل على الارتقاء الحضارى بالمجتمع؟ فإذا قيل إن التحول يجرى على جميع مؤسسات المجتمع بمرور العقود والأعوام ، والجامعة شأنها فى ذلك شأن سائر مؤسسات البلد: فسيظل أمامنا سؤال محير: وماذا عن مضمون المادة الأولى فى قانون الجامعات؟ هل الجامعة - كما تحددها هذه المادة هى الجامعة التى نعرفها الآن على أرض الواقع؟ أم أن هذه الأخيرة ليست سوى قالب مفرغ، بينما يتحدث القانون عن منظومة لا يجمع بينها والقالب المفرغ إلا الاسم؟ جدير بالذكر هنا أن مطلب الإيجاز فى التأريخ لعلاقة الجامعة بالدولة اقتضى أن أقتصر على ذكر الأحداث الكارثية الكبرى فحسب، وكان ذلك على حساب عرض عشرات التدخلات الحكومية الصغيرة التى عبأت مناخ العمل الجامعى بالكثير من الشوائب المؤذية، وهو ما دعم (ولايزال يدعم) التهوين من شأنها فى نفوس الكثيرين من المواطنين ، بمن فيهم الأعداد الكبيرة من الطلاب وأهلهم ، ومن الأساتذة أيضا، ويعلم الله كيف ينتظر من الجامع من الضعف والهوان أن تقوم على «خدمة المجتمع والارتقاء به حضاريا»!

جوائز الدولة ..

أضرب مثلا ثالثا، جوائز الدولة وما يجرى حولها. فقد صدر القانون رقم ١٥٥ لسنة ١٩٦٢ وينص فى

مادته الأولى على إنشاء خمس جوائز تقديرية تسمى «جوائز الدولة للإنتاج الفكرى»، وثمانٍ وعشرين جائزة تشجيعية تسمى «جوائز الدولة لتشجيع العلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية»، وجاء فى المادة الرابعة من القانون ما يأتى: «يشترط فيمن يُمنح الجائزة التقديرية أن تكون له مؤلفات أو أعمال أو بحوث نشرها أو عرضها أو قام بتنفيذها. وأن يكون لهذا الإنتاج قيمة علمية أو فنية ممتازة، وأن تظهر فيه دقة البحث والابتكار، وأن يضيف إلى العلم أو الفن جديدا ينفع الوطن خاصة والإنسانية عامة».

ثم جاء فى المادة الخامسة من ذات القانون ما نصه : «تقدم الهيئات العلمية المشتغلة بالعلوم والعلوم الاجتماعية أو بالآداب أو بالفنون الجميلة كل عام إلى المجلس الأعلى المختص أسماء من ترى ترشيحهم لنيل الجائزة التقديرية مع تفصيل أسباب الترشيح...» ثم جاء فى المادة الحادية عشرة ذكر ما يُشترط فيمن يُمنح الجائزة التشجيعية. هذا عن القانون المنشئ للجوائز، والمنظّم لمنحها. وجاء فى المذكرة الإيضاحية لهذا القانون أن مصر سارت منذ سنة ١٩٤٦ على سياسة قويمة فى تكريم العلماء وتشجيع الباحثين، وذلك بإنشاء جوائز الدولة للعلوم والآداب والفنون وفى موضع آخر من المذكرة ورد ما نصُّه:

«وتطبيقا لذلك اقترُح إنشاء جوائز تقديرية تكريمية تتوج بها جهود العلماء والكتاب والفنانين عن إنتاجهم .. فى مجموعه». وتكلمت المذكرة بعد ذلك أيضا عن الجوائز التشجيعية. هذا هوالوضع القانونى لجوائز الدولة. وأعتقد أن القانون ومذكّرته واضحان كل الوضوح فى التعبير عن قصد الشارع وشروطه حول منح هذه الجوائز؛ فالقصد هو التكريم والتشجيع والمنح إنما يكون للعلماء والفنانين والأدباء. والهدف الأساسى هو إفادة الوطن والإنسانية.

ويثار هنا نوعان من الأسئلة: أحدهما يوجَّه إلى الجهات المرشحة لأسماء من يستحقون التكريم. والثانى يوجَّه إلى المكرَّمين. ونبدأ بالنوع الأول: هل يجوز (والقانون ومذكرته بهذا الوضوح) أن تتقدم بعض الجهات (بعض مجالس الجامعات مثلا) بترشيح بعض كبار موظفى الدولة؟ وخاصة من يشغلون مناصب رفيعة فى أجهزة السلطة التنفيذية؟ أم أن هذه الجوائز أُدخلت عنوة واقتداراً فى سوق وسائل التقرُّب، والمنافقة والوصولية؟

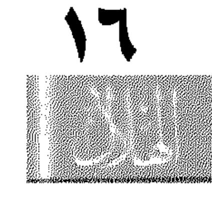
وننتقل إلى النوع الثانى من الأسئلة: هل يجوز حسب الحكمة المتوخاة من إنشاء هذه الجوائز أن يتصل كثير من المرشحين بأعضاء مجالس الترشيح ولجان منح الجوائز (عن طريق الوسطاء والهواتف.. إلخ) يرجونهم أن يمنحوهم الجوائز؟ وفى ظل هذه السلوكيات هل تبقى للجوائز أى بقية من معانى التكريم؟ أم أن هذه الجوائز أُدخلت (من جانب بعض المرشحين للتكريم) فى سوق التكالب على علامات الوجاهة وأصبحت من مغريات الاستحواذ بحق وبغير حق؟... وبعد هذا الذى نراه من جهات الترشيح ومن السادة المرشحين، هل يبقى لجوائز الدولة شئ من دلالتها ورسالتها الاجتماعية المتوخاة أصلا من إنشائه؟

أم أصبحت الآن قوالب مفرَّغة؟ ومع ذلك فالأمر الذى يهمنى فى هذا المقال أكبر من جوائز الدولة، ومن الجامعات، ومن الأحزاب؛ الأمر يتعلق بالتفريغ الذى يجرى على مشهد منا جميعا للمنظومات التى تخلع على حياتنا الاجتماعية معناها ومبناها، وهو تفريغ جاء (ويجئ) كمحصّلة لتآزر عدد من العمليات، قام (ويقوم) بها عدد من القوى الاجتماعية، وليس قوة واحدة، بعضها قوى رسمية تمثل أجزاء فى جهاز الدولة، وبعضها جماعات ذات مصالح، وبعضها مواطنون عاديون.

أسئلة كاشفة

تتراتب الأسئلة فيما بينها، وأفضلها ما يفتح الطريق إلى فهم الحقيقة دون مواربة. ومع ذلك فالعبرة فى نهاية الأمر بصدق الرغبة فى المكاشفة، مكاشفة النفس والغير. ثم يأتى الدور بعد ذلك على الشجاعة فى الإقدام على التغيير. تشهد القوالب المفرَّغة، فى معظم الحالات التى نعانيها، بأن التفريغ إنما تم كمحصّلة لفعلين تآزرا معاً، الضغط فى الاتجاه إلى التفريغ، والانضغاط أو الاستجابة المطاوعة فى التوجّه نفسه.

ويثار هنا سؤال بالغ الأهمية: لماذا الاستجابة الفورية واللّينة للضغط؟ ومع ذلك ففى المثال الخاص بالجامعة حدثت المقاومة فى واقعتين منفصلتين؛ فى سنة ١٩٢٦ أُقفل التحقيق مع طه حسين وحُفظت القضية بشجاعة وبدون استفزاز، وبقيت للجامعة كرامتها، وبقى لمصر أملها فى حرية البحث الجامعى. وفى سنة ١٩٣٢ اتسعت دائرة المقاومة وشابها بعض العنف، ولكنها انتصرت



كذلك لصالح الجامعة فى نهاية الأمر فما الذى حدث فى سنة ١٩٥٤؟ هذا سؤال مهم بأن يضاف إلى السؤال الأول، وهو سؤال مفتاحى ينبغى التعرض له والسعى إلى الإجابة الصادقة عنه. ولا أظن أن هذه الإجابة الصادقة تنحصر فى القول بأن الدولة كانت فى سنة ١٩٥٤ مكشّرة جدا عن أنيابها، قد تكون هذه إجابة صحيحة بعض الشئ، ولكن المسألة تظل بحاجة إلى مزيد من التفكير الجاد والمتعمق، وإلا فكيف نفسّر ما يحدث فى المثال الخاص بجوائز الدولة، حيث الضغط والانضغاط يتمان على مستوى بعض الجماعات والأفراد. هنا يلزمنا أن ننظر بإخلاص ونتحدث بإخلاص: ماذا عن التساند الشّللى كمظهر من مظاهر فساد التضامن الاجتماعى؟ وماذا عن عمليات تنشيط الوصولية التى تزداد اتساعاً وتقوى زخماً كبديل لمظلة الانتماء المنظومى/ الاجتماعى التى أصابها كثير من العطب؟ ثم ماذا عن بريق الإعلامية الذى يزداد تلميعه كل يوم عن سابقه، ويزداد التلويح به على مر الشهور والأعوام؟ ■

كلمات عاشت

● ليس ثمة علم محض من جهة ، وعلم تطبيقي من جهة أخرى ، بل هناك علم وتطبيقات لهذا العلم

العالم باستير

●علم من يجهل وتعلم من من يعلم ، فأنك اذا فعلت ذلك علمت ماجهلت ، وحفظت ما علمت

عروة بن الزبير

●إن الفكره ترتيب أمور معلومة ، ليتادي منها الي اي يصير المجهول معلوماً

ابن سيناء

●هدفي الأول أن أجعل للحوار قيمة ادبية بحتة ليقرأ علي انه أدب وفكر

توفيق الحكيم

●كل مذهب جديد إنما هو تعبير عن حركة تعم عالم الفكر وتطلب الانطلاق ، فلا تختصر علي فن دون فن

يحيى حقى

في الثناء على نظرية المؤامرة

بقلم
د. جلال أمين

بعد أن وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المشئومة ارتفعت الأصوات فجأة، بالتصريحات الرسمية والمقالات الصحفية فى الغرب، منادية بضرورة تغيير الأوضاع فى البلاد العربية. أى أوضاع بالضبط؟!

جميع الأوضاع: سياسية واجتماعية وثقافية وتعليمية. وما السبب بالضبط؟ سببان مهمان الإرهاب أولا، والتخلف الشديد عن ركب الحضارة الغربية ثانيا.

أما الإرهاب فيقصد به أن الذى حدث فى نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر كان كله من صنع رجال، ليسوا فقط مسلمين، بل وكلهم من العرب، فلابد أن المناخ السياسى والاجتماعى والثقافى العربى من الفساد بحيث أدى إلي تفريخ هذه العقول المصابة، ومن ثم فإذا أردنا استئصال هذا الفساد من جذوره، وهو الذى يحدث كل هذا التخريب للعالم المتقدم، الطيب والمسالم، فلابد من تغيير هذا المناخ السياسى والاجتماعى والثقافى.



وأما التخلف الشديد عن ركب الحضارة الغربية، فيشهد به عجز العرب عن اللحاق بركب التنمية الاقتصادية (انظر مثلا إلى ما حققته كوريا الجنوبية وتايلاند وسنغافورة، بل وحتى بعض الدول الإسلامية غير العربية، كماليزيا وأندونيسيا، من نمو اقتصادى سريع فى الثلاثين عاما الماضية، بينما كان أداء العرب الاقتصادى سيئا للغاية). كما يشهد به عجز العرب عن اللحاق بركب الديمقراطية (إذ فلتنظر كيف هبت رياح الديمقراطية فى كل مكان إلا البلاد العربية، حتى دول أوروبا الشرقية بما فيها الاتحاد السوفييتى نفسه، تحولت إلى الديمقراطية، وبقيت الدول العربية فى مكانها محكومة بحكومات تزيف الانتخابات أو لا تجرى انتخابات أصلا. ناهيك عن إسرائيل، واحة الديمقراطية فى صحراء واسعة من الدكتاتورية). أما عن التخلف الاجتماعى والثقافى فحدث عنه ولا حرج، إذ فلتنظر إلى كيفية معاملة المرأة فى البلاد العربية، وكيف تنتشر فى بعضها عادات وحشية كختان البنات، أو إلى انتشار الأمية وتدهور مستوى التعليم وضعف الإنتاج العلمى.. إلخ.

النتيجة لابد من التغيير والتغيير السريع .

جوقة التشهير بالعرب

كان أول ما يلفت النظر هو التناغم التام بين عازفى هذه النغمة وقيامهم جميعا بأداء النغمة المطلوبة فى نفس الوقت وفى تناسق بديع، وكأنهم سبق اتفاقهم على أدائها وتدربوا سويا عليها. كان أعلى العازفين صوتا فى الغرب، حيث شارك السياسيين والصحفيين كتاب ذوو أسماء مشهورة من أمثال برنارد لويس (الذى ظهر له كتابان فى التشهير بالعرب والمسلمين فى عام واحد)، وفؤاد عجمى وتوماس فريدمان، ولكن شارك فى العزف أيضا كتّاب صحفيون عرب ممن اشتهروا باستلهام موضوعاتهم من الغرب، بل وشارك أيضا فى العزف منظمة من منظمات الأمم المتحدة هى برنامج الأمم المتحدة للإنماء (UNDP) حيث نشرت تقريرا مذهلا، ظهر منه حتى الآن عددان أحدهما لسنة ٢٠٠٢ والثانى لسنة ٢٠٠٣، وتعد الآن التقرير الثالث، وكلها بعنوان «التنمية الإنسانية العربية»، فلم تترك نقيصة إلا ألصقتها بالعرب، وبذلت جهدا كبيرا حتى ينال التقرير شهرة واسعة فطبّل له وزمّر نفس الكتاب والصحفيين الذين حملوا لواء المناداة بضرورة تغيير الأوضاع العربية، ودأبوا على اقتطافه والإشادة به، مؤكدين دوما على أن كاتبى التقرير كلهم من العرب، فكيف يتهمون بالظلم أو القسوة؟ بل وشارك فى اقتطاف هذا التقرير سياسيون غربيون كبار وكأنهم كانوا ينتظرون صدوره بفارغ الصبر، ناهيك بالطبع عن الكتّاب والصحفيين العرب المشتركين فى نفس الحملة.

فشل الاقتصاد .. قديم

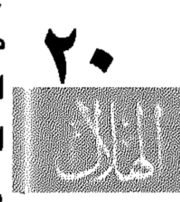
كان مما يلفت النظر أيضا فى هذه الحملة توقيتها وفجائيتها. فالنقائص التى تشير إليها نقائص قديمة، فلماذا تذكروّها الآن؟ إن عيوب الأداء الاقتصادى مثلا

معروفة ومشهورة منذ أن بدأ الاقتصاديون يرفعون شعار التنمية الاقتصادية وابتدعوا وصف الدول المتخلفة أو العالم الثالث. ومنذ ذلك الوقت، أى منذ نحو خمسين عاما، أحرز العرب تقدما فى بعض جوانب الحياة الاقتصادية وفشلوا فى بعضها، ومرّوا بفترات صعود وانتعاش اقتصادى وفترات هبوط وركود، وكانت بعض البلاد العربية أفضل أداء ، بصفة عامة، من غيرها، وكان سوء الأداء الاقتصادى فى بعض البلاد العربية راجعا فى الأساس إلى عوامل خارجية (كانخفاض أسعار البترول مثلا) وفى بعضها راجعا فى الأساس إلى السياسة الاقتصادية (كالإفراط فى الانفتاح الاقتصادى فى رأى البعض، والافراط فى التأميم فى رأى البعض الآخر). وكان سوء الأداء الاقتصادى فى أحيان أخرى راجعا فى الأساس إلى عوامل يختلف فيها الرأى حول ما إذا كانت خارجية أو داخلية، كقلة الاستقرار السياسى مثلا أو حوادث الاعتداء على السياح أو حتى شيوع الفساد، إذ يختلف الرأى حول ما إذا كان السبب الأساسى فى الفساد داخليا أو خارجيا، ويذهب البعض إلى إلقاء المسئولية عن التقلبات السياسية أو حوادث الاعتداء على السياح على عناصر خارجية.. إلخ.

فى ضوء هذا كله بدا مدهشا هذا التركيز المفاجىء على وصم الأداء الاقتصادى العربى كله ودون تمييز بين دولة عربية أو أخرى أو فترة أو أخرى بالفشل التام، وهذا الاتفاق المذهل على إلقاء المسئولية على العرب وحدهم وكأنهم يعيشون وحدهم على جزيرة مستقلة عن بقية العالم يمارسون عليها بمنتهى الحرية كل الموبقات والعادات السيئة.

غياب الديمقراطية أصيل

أما نقيصة غياب الديمقراطية فى البلاد العربية فهى أيضا قديمة وليس من المؤكد بالمرة أنها ترجع فقط، أو حتى فى الأساس، إلى عوامل داخلية. ذلك أن المستفيدين من غياب الديمقراطية فى البلاد العربية كثيرون بعضهم طبعا من الممسكين بمقاليد الأمور فى الداخل، والحريصين على استمرار حصولهم على مختلف الامتيازات الاقتصادية والسياسية، ولكن بعضهم أيضا فى الخارج «دول وشركات» ممن يفيدون من استمرار حصولهم على مختلف الامتيازات الاقتصادية والسياسية، ومن أجل هذا يحرصون على استمرار حصول بعض العناصر فى الداخل، من العاملين فى خدمتهم، على امتيازات مماثلة. بل وقد دأبت وسائل الإعلام والدوائر السياسية فى الغرب، بما فى ذلك هيئات الأمم المتحدة، على الإدلاء بتصريحات، بين الحين والآخر، تشيد بأداء هذه الحكومة العربية أو تلك، وبعظمة وحسن أداء هذا الزعيم أو ذاك، وباستمرار الصداقة والوئام بين هذه الحكومة الغربية أو تلك وبين مختلف النظم العربية. فلماذا هذا الانقلاب المفاجىء دون أن يصدر عن هذه النظم العربية أى عمل من شأنه أن



يعكر هذا الصفو وهذا الوئام؟

أهى أحداث ١١ سبتمبر؟ لا يمكن أن يكون هذا هو السبب، إذ لم يثبت أى دليل على وجود أى علاقة بين أى نظام عربى وبين منفذى أعمال سبتمبر أو المخططين لها، بل ولم تزعم أى حكومة غربية وجود مثل هذه العلاقة، والاجتماعات والمشاورات دائرة على قدم وساق بين الحكومات الغربية والحكومات العربية حول ما يجب عمله فى مختلف الأمور فيما يتعلق بالإرهاب وغيره، فكيف يتسق هذا كله مع هذا الهجوم المفاجىء والمركز على البلاد العربية، بل وبالذات على بعض النظم التى تتسم بوجود علاقات بينها وبين الولايات المتحدة أقوى من غيرها؟

•••

قل مثل ذلك عن النقائص المتعلقة بحالة التعليم والأمية والبحث العلمى وتخلف العرب عن غيرهم فى عدد الكتب المؤلفة والمترجمة، مما أكد عليه تقرير التنمية الإنسانية العربية المشار إليه إذ لم يجدّ فى أى من هذه الأمور جديد يستدعى الغضب المفاجىء، ناهيك بالطبع عن ختان البنات الذى يعود تاريخه إلى بضعة آلاف من السنين. وإذا كان الغرب قد صبر على هذه العادة كل هذه المدة، فليس من المفهوم لماذا يعتريه كل هذا الغضب فجأة، ولماذا الإصرار على استئصالها بين يوم وليلة بصرف النظر عن الظروف الاجتماعية العميقة التى ترتبط بانتشار هذه العادة؟

بين سطور الهجوم

لكل هذه الأسباب بدا هذا الهجوم المفاجىء والمنسق والبالغ القسوة على العرب من جانب وسائل الإعلام الغربية مدهشا وباعثا على الريبة والشك فيما إذا كانت وراءه أشياء لا يراد الإفصاح عنها. وعبّر بعض الكتاب عن هذه الريبة وهم يتوقعون أن يرموا على الفور بتهمة شاع توجيهها لكل من لا يقبل الظاهر من الأمور ويشك فى أن الأسباب المعلنة للتصرفات كثيرا ما تكون غير الأسباب الحقيقية. هذه التهمة بالطبع هى ما يسمى «بنظرية المؤامرة». وهى تهمة مدهشة بدورها لأكثر من سبب. فهى مدهشة أولا لأن موجّه التهمة لا يعتبر نفسه مطالبا بتقديم أى حيثيات يثبت بها صحة التهمة، أى يثبت بها خطأ الشخص الذى يعتبر أن الدوافع الحقيقية غير الدوافع المعلنة، بل يكتفى موجّه التهمة بأن يلفظ باسمها «ها هى نظرية المؤامرة» ثم يضحك ساخرا، وينتظر أن يكون هذا هو نهاية الجدل والنقاش.

وهى، أى هذه التهمة، مدهشة أيضا لأن التاريخ السياسى، القديم والحديث، ملىء بالأدلة على أن ما يقال فى العلن، خاصة من السياسيين، كثيرا ما يكون غير الحقيقة. ومن المعقول جدا أن نتوقع أن يكون العصر الحديث أكثر امتلاء بالأمثلة على اختلاف المعلن عن الحقيقة من أى عصر آخر، بسبب الأهمية التى تحتلها وسائل الإعلام الحديثة، وكثرة وسائل التأثير فى الجماهير، وسهولة اقناعهم بغير الحقيقة، وحاجة القائمين بالحكم إلى التشدق بالديمقراطية، سواء طبقوها بالفعل أو لم

يطبقوها، ومن ثم حاجتهم لكسب تأييد الناس لإجراءات وتصرفات كثيرا ما تكون غير قانونية أو غير أخلاقية، ومن ثم لابد أن يرفضها الناس لو عرفوا حقيقتها.

تشومسكى ونظرية المؤامرة

عندما وجهت هذه التهمة «تهمة نظرية المؤامرة» إلى الكاتب الأمريكى الشهير ناعوم تشومسكى مؤخرا، لرفضه ما يقدم من تفسير لتصرف معين للإدارة الأمريكية وتقديمه تفسيرا آخر، كان رد تشومسكى «إننى لا أفعل أكثر من ممارسة ما يجب أن يسمى بالتفسير المؤسسى للأحداث (institutional analysis)، لا أن يسمى بنظرية المؤامرة»، ويقصد بهذا أنه لا يفعل أكثر من الخوض بالبحث عن الدوافع التى قد تجعل مؤسسة سياسية واجتماعية معينة، تتصرف تصرفا معينا بصرف النظر عن الخطاب الإنشائى الذى يصدر عن الأفراد المتكلمين باسم هذه المؤسسة أو المدافعين عنها.

واستخدام تهمة «نظرية المؤامرة» هو نفسه، فى معظم الأحيان، عمل من «أعمال الارهاب»، إذ إن المقصود منه ليس مقارنة الحجة بالحجة، بل تحقير الخصم وتشويه سمعته بوصمه بشئ قريب من الجنون أو اللوثة العقلية أو المرض النفسى، الذى يدفعه إلي توهم أشياء لا وجود لها، وتخيل وجود أشباح وعفاريت، وهو أمر لا يحتاج إلى الجدل والنقاش بل إلى طبيب نفسى أو عقلى.

ثم حدث الهجوم على العراق

كان هذا هو الحال قبل الهجوم العسكرى على العراق، فلما حدث هذا الهجوم فى أوائل عام ٢٠٠٣، تضاعفت أسباب الشك فى أسباب تلك الحملة الإعلامية المستعرة ضد العرب والمسلمين. إذ حتى لو قبلنا الزعم بأن الذى أثار هذه الحملة الإعلامية هو ممارسة العرب للارهاب وتخلفهم فى مختلف نواحى الحياة عن ركب الحضارة الغربية، فهل يقبل العقل أن هذين هما أيضا السببان اللذان دفعا إلى شن حملة عسكرية على العراق ثم احتلاله؟

أما حجة القضاء على الارهاب لتبرير الهجوم العسكرى فتصطدم بعدة أمور تجعلها غير مقبولة بتاتا. أولاً: عدم ظهور أى دليل على علاقة النظام العراقى بما يسمى بالحركات الارهابية أو ما سمى بأسلحة الدمار الشامل. وثانيا: أن هناك حججا وجيهة للغاية تؤيد الاعتقاد بأن استبدال نظام للحكم بنظام آخر ليس طريقة فعالة لمكافحة الارهاب إذا كانت أعمال الارهاب يتم ترتيبها خارج نطاق نظام الحكم، ومدفوعة بعوامل اجتماعية واقتصادية لا يقضى عليها مجرد تغيير النظام الحاكم، وأن إخضاع بلد كالعراق لحكم أجنبى نتيجة لهجوم عسكرى قد يزيد من أعمال الارهاب بدلا من أن ينقصها. وثالثا: إنه إذا كان للنظام العراقى ميل طبيعى لممارسة الارهاب ضد الغرب، فكان لابد أن يرى المسئولون فى الغرب هذا الميل وأن يتصدوا له منذ زمن

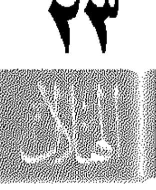
طويل، إذ إن هذا النظام الذى كان يحكم العراق وقت الهجوم العسكرى الأمريكى والبريطانى فى أوائل سنة ٢٠٠٣ هو نفسه الذى استمر يحكم العراق أكثر من ثلث قرن، أى منذ ١٩٦٨، ومرّ على انفراد صدام حسين بالسلطة أكثر من ثلاثين عاما، شهدت فترات من الوئام الشديد والوفاق بينه وبين دول غربية متعددة، بما فى ذلك الولايات المتحدة التى أمدته بمعونات اقتصادية كبيرة وأيدته وشجعته فى هجومه على إيران، (مما وثقه توثيقاً رائعا، يوما بيوم، كتاب حديث لناعوم تشومسكى بعنوان «هيمنة أم صراع من أجل البقاء؟: المشروع الأمريكى للسيطرة على العالم Hegomony or Survival America's Quest for Global Dominance, N.Chomsky, 2003. وفى رأى البعض شجعت هجومه على الكويت أيضا.

مبررات ساذجة

وأما تبرير الحملة العسكرية على العراق واحتلاله بالرغبة فى النهوض بأحوال العراقيين، ديمقراطيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، فمن الصعب أيضا قبوله. إذ منذ متى تتجشم دولة، كبيرة أو صغيرة، كل هذا العبء وتضحى بأرواح شبابها وبأموالها من أجل النهوض بأحوال شعب آخر، خاصة إذا كان هذا الشعب ينتمى إلى حضارة وثقافة مختلفة تماما؟ وتاريخ العلاقات الدولية لا يؤيد على الإطلاق تفسير الاحتلال بنزعات إنسانية وأخلاقية، والقول بهذا التفسير الأخير ينمّ بلا شك إما عن رغبة فى التضليل والخداع أو عن سذاجة سياسية منعدمة النظير.

كان هذا كله هو ما دفع الذهن إلى البحث عن أسباب أخرى للهجوم العسكرى على العراق، وإلى الظن بأن نفس هذه الأسباب قد تكون هى التى تفسر الهجوم الإعلامى أيضا. فالإعلام كثيرا ما يقوم بمهمة التمهيد والتبرير للأعمال العسكرية، فلماذا لا تكون دوافع التشهير المستمر بالعرب والمسلمين، الذى بدأ قبل الهجوم العسكرى، هى نفسها دوافع الهجوم العسكرى والاحتلال؟ وهى دوافع تتعلق بالنفط أو بحسم المنافسة بين الكتل الاقتصادية والدول الكبرى لصالح الولايات المتحدة، أو بإعادة ترتيب منطقة الشرق الأوسط بعد اختفاء الاتحاد السوفييتى، لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل، خاصة فى ضوء ما نراه من تحالف غير معهود فى قوته بين العناصر المؤثرة فى الإدارة الأمريكية والنظام الحاكم فى إسرائيل، أو تتعلق هذه الدوافع، على الأرجح، بكل هذه الاعتبارات جميعا.

فإذا قيل إن هذا هو بلاشك مما ينتمى إلى «نظرية المؤامرة» فما أعظمها إذن من نظرية، تلك التى تتفق إلى هذه الدرجة مع دروس التاريخ، ومع الفهم الواقعى للعلاقات الدولية وللطبيعة البشرية ومع أبسط قواعد المنطق السليم فى نفس الوقت. ■



صور من الترف الباذخ ليست فى ألف ليلة وليلة

بقلم
د. محمد رجب البيومى

يتحدثون عن ألف ليلة وليلة فيعدونها القصة الأولى التى صورت مباهج الشرق فى ترفه وبذخه ، والتى عرضت من ألوان النعيم وأفانين المغريات مالا يخطر على ذهن بشر ، وألف ليلة وليلة فى تسعين فى المائة من صفحاتها ، لا تصور واقعاً قد كان ، ولكنها تصور أحلاماً وأشواقاً لأناس محرومين لم يجدوا فى الواقع ما يروى ظمأهم اللاهب ، فجنحوا إلى الخيال الموهوم ، وافتروا على الخلفاء والوزراء والملوك ما لم يفعلوه ، ولم يكتبها فرد واحد بل أفراد يحتذى الخالف منهم السالف، يحاول أن يزيد عليه بما يبدع من خيال وما ينسج من تهاويل ، حتى تمت القصة البارعة فى عدة قرون ! وطاب للناس أن يذهلوا عن الواقع حين يحتسون كؤوسها المغرية ، فعكفوا عليها شاربين ناهلين.

وإذا كانت مباهج الترف قد أعجبت الناس فى قصة خيالية ، فقد كان من المنتظر أن يفتتنوا بمشاهد للترف الباذخ مماثلة ، وقعت فى دنيا الناس حقيقة ملموسة لا مراء فى تصديقها ، لأن الذى رواها شيخ رحالة لا نصيب له من الخيال ، بل ربما كان قلمه الضعيف

غير قادر على أن يحيط بكل ما شاهد إحاطة الأديب المصور الفنان ، فاكتفى بالتسجيل الفوتوغرافى ، ولكن ما رآه قد كان فى قوة نفاذه ، وعمق تأثيره مغنيا عن ريشة المصور الفنان ، فجاء ما سجله عن بعض مظاهر الترف فيما شاهد لا يقل روعة عما سجلته لجنة ألف ليلة وليلة التى لم تجتمع فى مكان ، ولكنها تسلسلت فى أزمنة شتى ، لتتوالى الحلقات فى السلسلة ، أخذاً بعضها برقاب بعض!

والرحالة الذى أعينه هو «ابن بطوطة» واسمه الذائع المستطير يغنى عن كل تعريف ، وليست رحلته بالمجهولة للذين هاموا بأقاصيص ألف ليلة وليلة ، فقد اشتهرت فى الشرق والغرب اشتهارا جعلها من أقوى



مصادر التاريخ اجتماعياً وسياسياً وجغرافياً ، وقد ترجمت إلى شتى اللغات شرقية وغربية ، وفى المقدمة التى نشرتها وزارة المعارف سنة ١٩٣٣ م سرد لأسماء من احتفلوا بترجمتها فى انجلترا وفرنسا وألمانيا باللغات الثلاث ، كما ختمت بقول الرحالة الشهير (سيتزن) متسائلاً «أى سائح أوربى يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة فى البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ، بل أى أمة أوربية يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم ، والقدرة على الملاحظة ، والدقة فى الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم؟» .

فى بلاد الترك بالمشرق

ولا يتحمل هذا المقال تتبع مظاهر الترف فى الرحلة ، ولكننا نكتفى بما سطره ابن بطوطة ، عن بعض مشاهدته فى بلاد الترك بالمشرق ، وأخص مملكة السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وهى واسعة فخمة تشمل إمارات القرم ، والكفا ، وسرادق ، والماجر ، وأزاق ، وخوارزم، وكل أمير يخضع للسلطان ويحاكيه فى إدارة إمارته ، ومن عجائب ما رآه الرحالة ، أن السلطان أوزبك ، أو أحد أمرائه، إذا أراد السفر من إمارة إلى إمارة ، خرج فى حشد عظيم جداً ، ومعه من الخيام ما يصنع بيوتاً ومساجد ومتاجر ، ويهيئ أسواقاً للبيع والشراء، حتى كأن المسافر يقيم فى بلد به كل شئ ولا ينقصه قليل أو كثير مما يباع فى عاصمة الإمارة ، وفى الرحلة من العلماء والصناع والتجار والزراع ، والجنود مالا يقع عند حصر ، ومع كل مسافر من يختاره من زوجاته وأولاده وجواريه ، وقد يصطحب الواحد أكثر من عشرة ممن يلوذون به ، والمسكن مهيأ ، والطعام موفور ! وقد لاقى الرحالة من كرم الضيافة ، وإحسان القوم ما جعله ثريا صاحب خيول وجوار وعبيد ، حتى كان وهو الضيف يسير مع أتباعه ، وكأنه أصيل من أبناء البلاد وليس بالضيف الغريب ، وقد لاحظ أن النساء لدى القوم ذوات سلطان آسر على الرجال، وقد رأى فى بعض الأسواق امرأة بين عبيدها تغشى السوق لتبيع ما معها من الغنم واللبن ، وجوارها رجل «لا يلبس الغالى النفيس من الثياب كما تلبس هذه



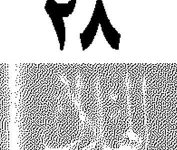
ارتحل ابن بطوطة من المغرب ووسط آسيا حتي وصل الي شرق الصين

المحلاة بالذهب ، الرافلة فى الحرير ، وهى تأمره وتنهاه فظنه أجيراً لديها . إن لم يكن عبداً ، ثم اتضح أنه زوجها ، وأنه كبقية الرجال يأتمر بأمرها وليس له معها فى شئون التجارة أمر ولا نهى. يقول ابن بطوطة «ويكون مع المرأة زوجها فيظنه من يجهل أمره أنه خادمها ، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم ، وهى فى أفخم لباس» .

فى موكب أمير

أول مشهد نسائى رآه ابن بطوطة فى هذه البلاد مشهد زوجة الأمير سلطية ، وكانت تركب فى عربة لها ، والعربة كما يصفها الرحالة ليست كما نعهد الآن ، ولكنها ذات مساحة متسعة تسمح للراكب أن ينام ، وأن يتنقل هو ومن معه من مكان إلى آخر، وكأنه فى منزل فسيح ، وهى على سعتها مجللة بالجوخ النادر ذى اللون الأزرق البراق ، ونوافذها مفتوحة للهواء والشمس ، أما الأميرة فيجلس بين يديها أربع من الجوارى الحسان بديعات الرونق ، رائعات البهاء والطلعة ، مر من وراء عربة الأميرة جملة من العربات تحمل من الجوارى والغلمان ما تظهر به عظمة الموكب ، إجلالاً للزوجة الرفيعة ، وقد قطعت العربات مسيرها إلى منزل الأمير ، حتى إذا بلغت الغاية ونزلت السيدة المبجلة اندفع إليها ثلاثون من الجوارى مما تحمل العربات ليرفعن أذيال ثوبها ، وهى مديدة ، ولها عرى مختلفة تأخذ كل جارية بعروة منها ، وترتفع بالثوب حتى لا يمس الأرض ! وهى فى هذا المشهد كما قال ابن بطوطة ذات تبختر واختيال ، حتى إذا بلغت مجلس الأمير نهض واقفا لاستقبالها ، وأجلسها إلى جانبه ، والجوارى من حولها يتطلعن إلى وجهها خضوعاً لما تأمر به ، فإذا جاءت الأقداح ، أخذت الأميرة قدحاً وقدمته إلى زوجها فشرب ثم فعلت ذلك بأمراء الأسرة الجالسين جوار الزوج ، ويدور السمر بين الأمير وزوجته فى الحفل العامر ، والقوم فى هيبة ينظرون إلى روعة المنصة فى جلال واحتفاء ، ثم يحضر الطعام بعد الشراب ، لتأكل الأميرة مع الأمير ، فإذا انتهت تقدم إليها بالهدايا التى أعدت من قبل ، وانصرفت فى موكبها تتقدم بعربتها الأنيقة ما خلفها من عربات الجوارى والأتباع ، إلى منزلها الكبير !

أما نساء الشعب لا من المترفات فحسب ، بل من الباعة والسوق ، فإن الواحدة منهن يكون فى عربتها الفسيحة ، وبين يديها الثلاث والأربع



من الجوارى الحسان ، يرفعن أذيالها ، يلبسنها غطاء الرأس المرصع بالجواهر ، وفى أعلاه ريش الطواويس ، وهن جميعا سافرات ، باديات الحسن لأن النساء هناك لا يحتجبن بل هن والرجال سواء .

مجلس السلطان الأعظم

كان السلطان الأعظم محمد أوزبك كما وصفه ابن بطوطة «شديد القوة ، كبير الشأن قاهراً لأعداء الله، حارب أهل قسطنطينية العظمى ، وبلاده متسعة ، ومدنه عظيمة وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا» وكان إذا سافر أبدى من السطوة والبهجة ما لم يسمع به من قبل ، ومن عادته أن يجلس كل أسبوع بعد صلاة الجمعة فى قبة تسمى «قبة الذهب» وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الذهب ، وقوائمه من الفضة الخالصة ، ورءوسها مرصعة بالجواهر . ويجلس السلطان بين زوجاته الأربع على السرير ، وعلى يمينه الخاتون الحائزة اللقب الملكة ، أما الثلاث الأخر فأميرات ، وكلهن يطلق عليهن لقب (خاتون) وتجلس بين يديه ابنته وعلى اليمين والشمال ولداه ، وهو يحضر المجلس قبلهن ، فإذا جاءت إحداهن ، وصلت إلى مجلسه فأخذ بيدها حتى تصعد إلى السرير ، ما عدا الملكة فإنه يستقبلها عند باب القبة ، فيسلم عليها ويأخذ بيدها ، ثم أطال الرحالة فى وصف مجالس الأمراء والوزراء وأبناء الملوك من أولاد عمه ، والعسكر المحيط بالمجلس المهيب ، ويظل الملك فى استقبال الوافدين حتى تحين صلاة العصر ، فإذا تم ذلك بدأت الملكة بالانصراف وتتبعها الأميرات كل إلى محلها ، وتحمل العربة الفخمة كلا على حدة ووراءها أكثر من خمسين جارية راكبات الخيل ، وخلف الجميع مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الموكب مائة من المماليك الكبار ركبانا ومائة آخرون مشاة ، وبأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهذا لا يقتصر على الملكة بل للزوجات الأربع هذا الموكب بجواريه وفتيانه ومماليكه ، أما منازل الزوجات ، فلكل منهن بيت به قبة من الفضة المموهة بالذهب ، وتكون الخيل

التى تجر عربتها مجللة بأثواب من الحرير المذهب ، وتجلس الخاتون وسط العربة وعن يمينها امرأة تلقب بالوزيرة ، وعن يسارها أخرى تلقب بالحاجبة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار ، فائقات الجمال ، ومن ورائها اثنان تسندان الكرسى ، وعلى رأس كل منهن التاج المكلل بالجواهر ، وبأعلاه ريش الطواويس وعليها ثياب من الحرير مرصعة بالجواهر ، ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين وقد لبسوا الحرير المذهب ، وبيد كل واحد منهم عمود من الذهب والفضة ، وفى الرجوع إلى المنزل يكون خلف عربة الخاتون مائة عربة ، وفى كل عربة الثلاث أو الأربع من الجوارى الأبكار ، وخلف هذه العربات ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر ، (رباه هل سمع بمثل هذا أحد) ومع كل عربة غلام موكل بها وهو متزوج بإحدى الجوارى الحاضرات !

مجلس الخواتين

هذا ، وقد تحدث الرحالة عن الخواتين الأربع واحدة واحدة فقال عن الخاتون الكبرى إنها أحظى نساء هذا السلطان عنده ، ويعظمها الناس من أجل ذلك ، ولكنها أبخل الخواتين واستدل على بخلها بأنه حضر مجلسها وهى قاعدة بين عشر من النساء كأنهن خادمات لها وبين يديها خمسون جارية ، وبأيديهن صحاف مصنوعة من الذهب والفضة ، وقد ملئت بما يسمى «حب الملوك» ، فسلمنا عليها ، ولم تتفضل بغير مناولتى قدحاً من (القمز) ولم يمكننى إلا أن أشربه ، وذقته ولا خير فيه ، ثم انصرفت ! أما الخاتون الثانية فلم يحظ الرحالة منها بطائل ، وقد وصف مجلسها بما نعرف ، ولكنها امتازت بقراءة القرآن الكريم فى مصحف لديها وقد شرب (القمز) فى حضرتها مضطراً !

والخاتون الثالثة هى (بيلون) بنت ملك القسطنطنية ، وقد رآها الرحالة جالسة على سرير مرصع ، قوائمه من الفضة ، وبين يديها نحو مائة جارية ، من روميات وتركيات ، ونوبيات ، والفتيان على رأسها ، والحجاب بين أيديها من رجال الروم، وسألت عنا ، وحين علمت أننا غرباء عن أوطاننا ، بكت ، ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها ، رقة وشفقة ، وأمرت بالطعام فحضر ، ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا ، وطالعونا بحاجاتكم ، وأظهرت الكثير من مكارم الأخلاق ، وبعثت فى إثرنا



بغنم وسمن وطعام كثير ، ودراهم وكسوة ، وثلاثة من جياد الخيل ، وعشرة من سائرها. أقول إن هذه الخاتون ابنة ملك القسطنطينية ، وقد تزوجت زواجاً سياسياً بعد حروب هائلة بين والدها ، وزوجها ، انتهت بالصلح ثم عقد المصاهرة ! ويخيل إلى أن بكاءها لم يكن شفقة على الغرباء فقط ، بل لتأثرها بفراق موطنها وأهلها ، لذلك فضلت الرحيل إليهم كما سيجئ !

والخاتون الرابعة بنت أمير الأمراء عيسى بله ، وقد أثنى عليها الرحالة ، وقال إنها من أفضل الخواتين وأرقهن شمائلاً ، وقد شاهد من كرمها وحسن خلقها مالا مزيد عليه فأنت ترى أن ابن بطوطة قد أعطى لكل زوجة حقها دون إسراف ، بل عبر عما شاهد وعاين ، وفي هذا دليل على أن الذين وصفوه بالمبالغة من معاصريه لم يكونوا على حق ، لأنهم أنكروا أحداثاً لم يتح لهم الحكم على ملابساتها ، وقد اعتقدوا أن كل بلاد العالم مثل بلادهم لا تختلف عنها في شئ . فأصدروا حكمهم على الرجال بما كدر نفسه ، وغير خاطره ، ولم يكن وحده الذى تعرض للتكذيب من الرحالة ، فإن سلفه الرحالة الكبير (مركوبولو) قد تعرض لمثل هذه الشبهات ، ولاقى عناء كبيراً كي يقنع معاصريه بصحة ما رآه ، ولكن الزمن قد أثبت عن يقين صدق ما قاله الرجلان ، فوق ما أثبت من شجاعتهما النفسية حين فرضا على نفسيهما اقتحام الأهوال ، والمجازفة بالحياة أحياناً وراء نهم علمى فى رؤية أحوال الناس ، ومشاهدة الغرائب التى لم تكن تخطر لهما على بال ، وابن بطوطة لم يتأثر بعواطفه الشخصية إطلاقا ، فقد تحدث عن أنواع من المظالم ارتكبها من أكرموه وأنعموا عليه ، ولو كان يستجيب إلى عواطفه الذاتية لأغفل حديث هذه المظالم ، ولكنه اعتقد فى صميم نفسه ، أنه مؤرخ قاض ، وسيحاسبه الله إذا تجاوز فى القول ، مادحا ، أو قادحا . وبهذا حفظت الرحلة مكانتها المحترمة فى التاريخ .

رحلة الخاتون الرومية

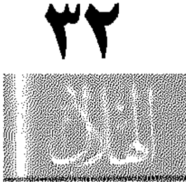
ذكرت أن الخاتون الرومية الثالثة (بيلون) قررت السفر إلى والدها بالقسطنطينية، لتضع حملها هناك، وقد اهتم

السلطان برحلتها فسافر معها هو والملكة وولى العهد مرحلة أولى من مراحل الرحلة ، وسارت زوجاته الثلاث مرحلة تالية بعد المرحلة الأولى لتتمة الوداع ، وكان العسكر الذى يحمى الزوجة مكونا من خمسة آلاف فارس ، مع عسكرها الخاص المكون من خمسمائة فارس . أما الخدم من المماليك والروم فكانوا مائتين ، وعدد الجوارى مائتان وأكثرهن روميات ! وإذن فيكون اللازمون لها أكثر من ستة آلاف !!

فإذا انتقلنا إلى غير الأناسيّ من الرجال والنساء فسنجد أن العربات التى أحاطتها أماماً وخلفا تبلغ أربعمائة عربة ! غير ألفى فرس لجر العربات ، وثلاثمائة من البقر ، ومائتين من الجمال ، فماذا يرى القارئ فى هذا الموكب الخاص برحلة أميرة واحدة !

ومن المراسيم التى اتبعت فى هذه الرحلة أن كل بلد تمر به الأميرة يستقبلها الحاكم مع عساكره حتى يبلغوا بها عاصمة تالية فيودعونها ، ليستقبلها حاكم المدينة مع عساكره ، ويسير بها إلى العاصمة التالية أيضاً، مع تقديم ما يجب من أمور الضيافة الباذخة من أفانين الطعام والشراب لجميع أفراد الرحلة ، وكان الرحالة يقابل الأميرة يوميا وهى تغمره بالهبات الجزيلة من خيول وبقر وغنم ، فاجتمع له نحو خمسين فرساً ، وأمرت وكيلها أن يزيد عليها خمسة عشر فرساً ، وقالت له : إن احتجت زدناك ! وقد باع الرحالة كل ما أخذ لأنه لا يحتاج إلى طعام أو شراب أو كساء ، فهو من رجال الرحلة ، وحاجته موفورة ! والأميرة تعلم ذلك ، ولكن مروءتها قد فاقت الحد .

ثم بلغت الأميرة حدود دولة أبيها، فقام أمير العاصمة بضيافة عظيمة للقادمين ، وجاءت أميرات القصر الملكى من القسطنطينية لاستقبالها ، ومع القادمين من الخيل والبغال مالا يحصر ، لأن العربات لا تستطيع السير فى الطريق الجبلى ذى الوعورة الشاقة ، وهنا تركت الأميرة من صحبها من رجال زوجها ليرحلوا عائدين ، مكتفية بالحرس الرومى فهى ابنة ملك البلاد ، ولها الإجلال والاحتفاء أينما تحل ! وقد أخبرها الرحالة أنه يريد الاستمرار فى الرحلة ليرى القسطنطينية وعظمة الملك بها، فوافقت مرحبة ، وسار الرحالة محوطاً برعاية الأميرة وتوصياتها بإكرامه ثم وصلت الأميرة إلى (الفنيكة) وهى مدينة ذات حدائق ، وبساتين وكنائس وقصور آهلة فنزلت فى قصر لأبيها أعد لاستقبالها ، حتى قدم أخوها



في خمسة آلاف فارس من كبار الجنود ، وقبل أن يراها ، غير ملابسه ، ولبس ثيابا بيضاء ، وجعل على رأسه مظلة مكللة بالجواهر ، وجعل على يمينه خمسة من أبناء الملوك ، وعن يساره خمسة آخرين يلبسون البياض وعليهم مظلات مزركشة بالذهب ، وجعل بين يديه مائة من الراجلين ، ومائة من راكبي الخيول ومعهم الرماح والسيوف المكسوة بصفائح الذهب والفضة ، ثم قسم الفرسان إلى عدة أفواج ، كل فوج فيه مائة فارس ، وعليه أمير .

وحان موعد اللقاء ، فركبت الخاتون بين مماليكها وجواريها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب والفضة ، وعلى الخاتون حلة مرصعة بالجواهر ، وعلى رأسها تاج مرصع، وفرسها مجلل بالحرير ، وفي يديه ورجليه خلاخيل الذهب ، وفي عنقه قلائد مرصعة ! والسرج مكسو بالذهب ، ومكلل بالجوهر ، ثم جاء أخوها ، وترجل عن فرسه لأنه أصغر منها ، وقبل ركابها ، فقبلت رأسه ، وترجل الأمراء وأولاد الملوك ليقبلوا ركابها ! وسار الركب حتى بلغ مدينة - قال ابن بطوطة إنه لا يتذكر اسمها - فإذا ولي العهد في عسكر من عشرة آلاف مدرع ، وعلى رأسه تاج، وعن يمينه عشرون من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم ، وقد رتب فرسانه كما فعل أخوه من قبل ، إلا أن الحفل كان أعظم وأروع وحين بلغ الركب القسطنطينية ، ودخلت قصر الوالد ، امتنع القوم عن مشاهدة اللقاء الحار بين الابنة والأب ! وقد علم ابن بطوطة أن الأميرة لما قربت من والديها ترجلت ، وقبلت الأرض بين أيديهما ، وقبلت حافري فرسيهما ، وهكذا فعل من بعدها كبار الحاشية !

وبعد فقد تحدثت كتب التاريخ عن زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وعن رحلة قطر الندى بنت خمارويه إلى زوجها الخليفة ببغداد ، وعن ما قيل في ذلك مما يقرب إلى الخيال ، ولكن رحلة الخاتون ، ولم تكن عروساً تزف إلى زوج ، بل كانت تسافر من مكان إلى مكان ، قد فاقت كل تصور يتيحه الخيال ، وهكذا نجد في رحلة ابن بطوطة الحقيقية مثل ما نجد في قصص الأحلام . ■

العرب.. والغرب

التأثير و التأثر *

بقلم

مصطفى نبيل

نحن والغرب والتأثيرات المتبادلة، ورؤية كل منهما للآخر، إحدى أهم القضايا الثقافية، وتدوين الرحيل إلى بلاد الغرب، نموذج حى على مدى تلك التأثيرات المتبادلة.

وهى علاقة ملتبسة، فتأتى من الغرب المعارف المختلفة، والتقدم العلمى، وتأتى منه أيضا محاولة التبعية والهيمنة!

نجد فى الغرب تطور العلوم وتاريخها، والأفكار الحديثة، ونحتاج إلى عملية تحديث كبرى كى نلحق بركب التقدم، ونحن ننتمى إلى عالم واحد، ونوع واحد، والتقدم البشرى العصرى هو جماع التجارب الإنسانية، بدءاً بقدماء المصريين ومروراً بالرومان واليونان والعرب.

ونحن العرب ندين بالكثير للغرب، كما دان الغرب بالكثير للحضارة الإسلامية فى العصور الوسيطة.

وتأتي معرفة الأجيال المعاصرة بالعلوم الطبيعية والطب والهندسة فى جميع فروعها من الغرب.

ويتميز التاريخ الحديث للغرب خلال القرون الأربعة الماضية، بالإنجازات المعرفية الكبيرة التى استطاعت أوربا بواسطتها الانتقال بالعالم إلى مرحلة جديدة، يحتل فيها مكانة عالية، واقترنت هذه الإنجازات العلمية بالاتجاه إلى تطبيقها فغيرت وجه العالم.

وظهرت ثنائية فى حياة الغرب.

تقديس الحياة وصناعة الأسلحة التى تدمر البشرية، التقدم التقنى العالى والسعى إلى الهيمنة على العالم، ومن ناحية أخرى الفنون والثقافة الإنسانية الجميلة وإشاعة الانحلال.

ويتساءل زائر أى بلد غربى هل ما يراه سماحة أم إباحة؟.. فالمجتمع الغربى المتحضر يحمل كل مزايا التحضر وآفاقه،

* من ورقة قدمت فى ندوة العربى « الغرب بعيون عربية »



مصطفى نبيل فى ندوة مجلة العربى الكويتية «الغرب بعيون عربية» - ديسمبر ٢٠٠٣

ولكنه يحمل عناصر البقاء والفناء معا، تسير هذه الدول على حبل مشدود بين السماحة والإباحية التى كانت على الدوام سبب انهيار الأمم.

تفوق عقلي ومعرفي واستغلال هذا التفوق من أجل السيطرة، وظهر الارتباط الوثيق بين الثقافة والسياسة، وظهرت أيضاً ازدواجية المعايير والنأى عن العدل.

وليست الرحلات المتبادلة بين الشرق والغرب، هى وحدها الكاشفة ، فهذه العلاقة تحتوى على عناصر العقدة النفسية، فهى علاقة عاطفية وليست عملية، يختلط فيها الإعجاب بالخوف، والحب بالكره.

فأي غرب نقصد، صورته فى بلادنا، مستبداً، غزانا فى عقر دارنا، أم صورته فى بلاده، تبهرنا نظمه وعلومه وفنونه، واحترامه للقانون والنظام.

ولا تكتمل ثقافة أحد إلا إذا عرف ثقافة الغرب أو زار أحد بلدانه.

ولم يكن غريبا الأعمال الأدبية بل والتشكيلية التى تناولت هذه العلاقة. وهناك قائمة طويلة من الروايات مثل «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم و«أديب» طه حسين، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقى و«موسم الهجرة للشمال» للطيب صالح و«أصوات» لسليمان فياض وحتى نصل إلى «أمرى كان لى» لصنع الله إبراهيم.. وقبلها «علم الدين» لعلى باشا مبارك.

إذن هو الغرب المحبوب المكروه المخيف.

فعند نهاية الحروب الصليبية، قامت النهضة الأوربية، وأخذت أوربا تخلع ثوب القرون الوسطى، وتوقف النمو أو كاد فى الشرق، وساد التقليد والجمود مما أدى

إلى اختلال توازن القوة بين الشرق والغرب، وانتهى بالسيطرة الكاملة للغرب على الشرق وبزوغ «الظاهرة الاستعمارية».

وحقا ما ذكره المؤرخ البريطاني السير ستيفن رونسيمان.. «علاقة الشرق والغرب، سلسلة طويلة للتفاعل والاختلاط، وكانت الحروب الصليبية حلقة مأساوية هدامة، فقد كان فيها الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف، وكثير من التقوى وقليل من التفهم، ولطخت المثل العليا بالقسوة والجشع، ولوث التفاني والجلد الإحساس الأناني الأعمى، واختلط أخيرا السمو الأخلاقي بضيق الأفق».

وجاءت موجة جديدة من اتصال العرب بالغرب مع صليل السيوف وقصف المدافع أي مع قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر منذ قرنين من الزمان، وكانت هناك بوادر نهوض في الشرق كما يرى البعض، وأجهضته الحملة الاستعمارية (محمود شاكر «في الطريق إلى ثقافتنا» وبيتر جران «ما بعد المركزية الأوروبية»).

ويرى البعض الآخر أن الحملة الفرنسية جلبت معها المطبعة لأول مرة والتي كانت بداية يقظة الشرق.

وجاءت حصيلة قرن ونصف القرن من الحكم الاستعماري سلبية تماما، سواء بالنسبة للنهضة بجميع جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، أو فيما يتعلق بالتعليم ومحو الأمية، وشكل الاستعمار حجر عثرة حقيقية في طريق النهوض والتقدم، وإلا فلماذا - مثلا - قرر مؤتمر لندن بعد هزيمة محمد علي تصفية المصانع التي قامت؟!

وواجهت حركة النهضة العربية إشكالية عظيمة، مازالت قائمة حتى اليوم، رغم التجارب والخبرات التاريخية، فتواجه الحضارة العربية طرقات عنيفة من حضارة أخرى أقوى وأكثر عنفوانا وتنجذب إليها في الوقت ذاته!

واختلط الأمران كالخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر، اللذين يصعب على العين أن تفرق بينهما.

فكيف نفصل في الحضارة الغربية بين التحضر من جهة والقوة والهيمنة من جهة أخرى!

وما هي الحضارة؟ أليست مستوى عاليا من الرخاء المادي، ودرجة عالية من التقدم الفكري؟.. وفي الوقت ذاته القدرة على الارتفاع بقيم الإنسان، وحماية حصانة المواطن ضد القهر والعسف، والحفاظ على حرية الإنسان وكرامته، ورقي ذوقه في مجالات الفنون والآداب والثقافة.

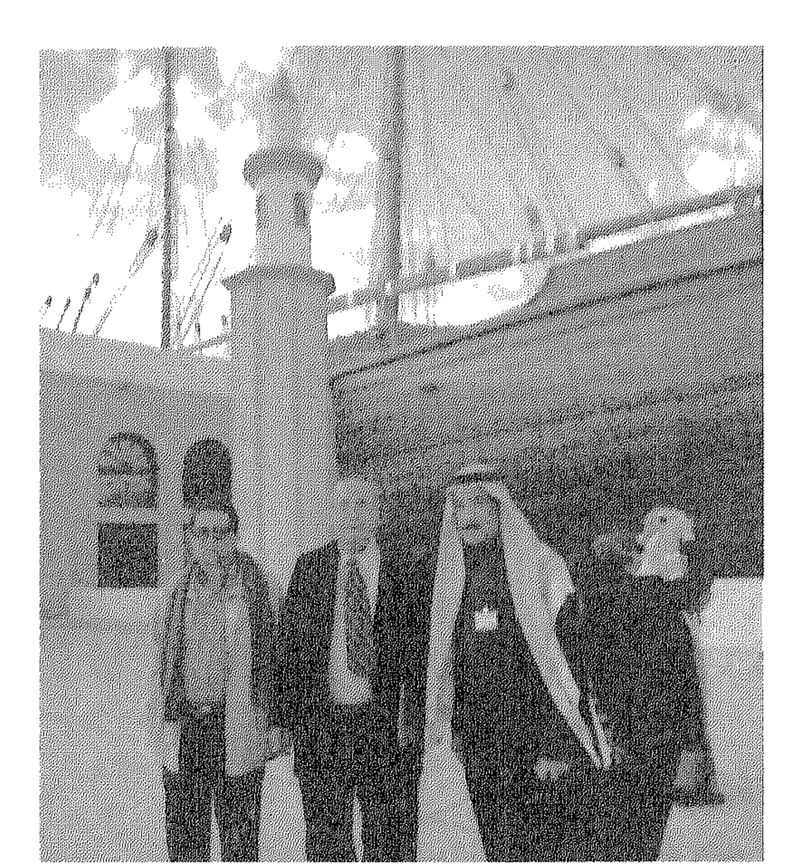
وهذه هي معاني الحضارة التي خلبت لب المسافرين والمتعلمين الأوائل من البلدان العربية إلى أوربا، وحتى حين جاءهم الأوربيون غزاة مستعمرين.

نجد الجبرتي في «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» يتعجب من أن سليمان الحلبي الذي قبض عليه متلبسا ومعترفا بعد قتله كليبر، ومع ذلك يقدم إلى المحكمة!

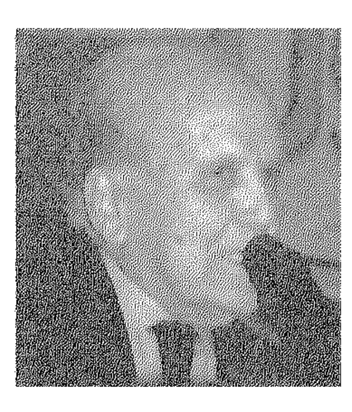
عدم التفاعل الخلاق

وشهدت العلاقة بين الشرق والغرب خلال القرون الأربعة السابقة، حلقات متتابعة مع الصراع والتوتر والمعارك الدامية والخاسرة، مما دفع الشرق إلى إيثار السلامة، ونأى في كثير من الأوقات عن الاستفادة بالقدر الكافي من علوم

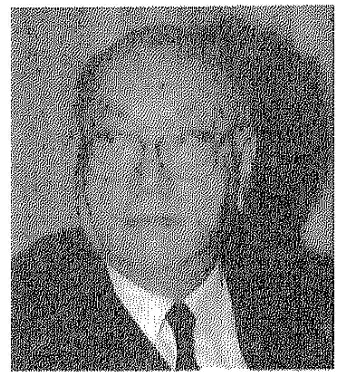




سليمان العسكرى وحسن حنفى ومصطفى نبيل في الكويت



عبد الهادى التازى - المغرب



أبو المعاطى أبو النجا

العصر، مما أدى إلى عدم التفاعل الخلاق مع مستحدثات العصر . ويتناول الجبرتى فى كتابه الاهتمام بالعلوم الانسانية وغياب العلوم «البرانية» من جامعة الأزهر أيام الحملة الفرنسية، ومع قيام الظاهرة الاستعمارية تحولت بلدان عربية إلى مجرد مستهلك لمنتجات وأفكار الدول الاستعمارية، ترسم السياسات لصالح هذه الدول وليس لصالح الشعوب العربية، وتعثرت الخطى - فمثلا - بين الذين يطالبون بأن تكون مصر قطعة من أوربا، أو أن يكون الشرق والغرب وحدة واحدة، وبين الذين يطالبون بإغلاق الأبواب حفاظا على التراث والهوية!

وأصبحت أعلى الأصوات أكثرها «كسلا» وهى أصوات المقلدين، سواء لمستحدثات العصر أو لما هو عتيق تخطاه الزمن، والبعد عن التفاعل الخلاق مع كليهما.

والمعضلة هى كيف نستفيد من تطور المعرفة البشرية، وتجنب الهيمنة السياسية، ونسعى للتحديث ونتجنب التغريب؟

لقد ظهر تيار يرفض أن نتخذ من الغرب نموذجا على اعتبار أن الغرب أصبح توسعيا مسيطرا وفى الوقت نفسه صاحب منهج متميز غير مجرى المعرفة فى العالم.

فمع أى الوجهين نتعامل، هل نتعامل مع إنتاج المعرفة فى أشد صورها تقدما، أم مع دعوة الخوف والتوجس من السيطرة والهيمنة؟!

ورغم هذه التساؤلات ورغم اعتراض المعترضين، فإن التعامل قائم بين الشرق والغرب، ولم يتوقف استمرار التفاعل بينهما سواء بين القوى المهيمنة أو التيار الرئيسى فى المجتمع العربى.

وقد تلا رحيل الاستعمار فى منتصف القرن العشرين، فترة لم تدم أكثر من عقدين، وهى فترة قصيرة واستثنائية.

وكل شئ يدل على أن المحصلة النهائية لقرن ونصف من الاستعمار الأوربى، لم يكن من الممكن أن تكون أفضل كثيرا مما كانت عايه، وأذكر عندما سألت بن بللا الزعيم الجزائرى المعروف عن تقييمه للتجربة العربية قال «لم نعط تحدى القوى الاستعمارى ما تستحقه من الاهتمام، واستخففنا بها، فكان ما كان».

والدول الاستعمارية كانت على استعداد لعمل أى شئ لكى تعطل التصنيع والنمو الديمقراطى وكذا التعليم والثقافة والتعاون بين البلدان العربية ولا أقول الوحدة العربية.

وهناك أكثر من محاولة ناجحة للنهوض، مرة فى عصر محمد على بمصر والتى انتهت بموقعة «نافارين» ومرة أيام ثورة عرابى وانتهت بدخول الإنجليز فى يوليو ١٨٨٢ والثالثة فى عصر عبد الناصر والتى ضربت فى يونيو ١٩٦٧

المعرفة المشوهة

وفى كتاب «الاستشراق» للدكتور إدوارد سعيد، الذى يتناول العلاقة بين الشرق والغرب والذى صدر عام ١٩٧٨، يؤكد فيه أن الاستشراق الذى يفترض أن يساهم فى الفهم المتبادل بين الشرق والغرب، هو إحدى أدوات الإمبريالية وارتباطها بالصهيونية.

لذا، فهى تحط من قدر الشعوب والثقافات الشرقية تبريرا لاستخدام العنف ضدها، مما أتاح معرفة مزيفة مشوهة للآخرين فى صور وقوالب اختزالية، هدفها التحكم والسيطرة والتلاعب.

وحل محل «الشرق» مجموعة من الأفكار والاستعارات والأساطير لتاريخ العرب والمسلمين، وتحارب اللغة القومية، وتفرض ثقافات بديلة، وقد أبرز «إدوارد سعيد» أن الغرب ليس شيئا واحدا، فهناك الحركات والقوى والتيارات المعادية للاستعمار.

والمثل على هؤلاء الذين لا يعرفون النزاهة «صمويل هنتنجتون» و«برنارد لويس» و«فريدمان» وهذه الأفكار الاختزالية، ومع تكرارها ، تتشكل الأفكار الشائعة والزائفة عن الإسلام، وركوده ومقاومته للحداثة وهوس العنف اللاعقلانى.

وعلى مدى القرن التاسع عشر، فإن المواجهة السياسية والعسكرية، قد شحذت همم المفكرين والقادة الذين يبحثون عن مكامن القوة فى الغرب، ويحاولون نقلها، وعن مكامن الضعف لديهم ويعملون على تلافيها، وجرى كل ذلك، سواء فى مجال الإنتاج أو الدفاع العسكرى، أو فى النظم والأساليب والأفكار والقيم، ومن الطبيعى أن تتشعب وجوه النظر وأن تتنوع التجارب.

وجاء الاقتحام العسكرى والسياسى فاضطربت المعايير، وشلت القدرة على التمييز وتاهت الفروق بين التجديد والتقليد، وبين الإصلاح والاستبدال الأعمى.





حسام السكرى ، مصطفى نبيل ، مسعود ضاهر ، صلاح عيسى ، سامى خشبة ،أثناء فعاليات الندوة

ولم يتبينوا مدى الجبر أو الاختيار فى تحديد ما يؤخذ عن الغرب، وما يترك من نظمهم وأفكارهم وأصول حضارتهم.

الغرب في عيون المفكرين العرب

ولكى نتعرف على رواية عدد من الرحالة العرب أو الذين عاشوا فى الغرب لفترة من الزمن، ونقلوا بعضا من أفكاره نتوقف عند ثلاثة هم رفاعة الطهطاوى وأسامة بن منقذ والسفير المغربى ابن عثمان المكناسى:

إن رفاعة منبهر أشد ما يكون بالفنون الصناعية والمعارف الجديدة، ويدرك الخطر الذى يعنيه سبق أوربا، «قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم، وهذا ما دعا محمد على إلى الاستعانة بـ «الافرنج» وأسباب البعثة إلى الغرب، وكان هدف رفاعة من كتابه تخليص الإبريز «حث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البدائية والفنون والصنايع، فالحق أحق أن يتبع».

ورفاعة لم يعمل من أجل التعريف ببلاد الفرنسيس فحسب، وإنما لحث «ديار الإسلام» على الأخذ بأسباب الرقى والحضارة.

نتوقف عند «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز».

أو - الديوان النفيس بإيوان باريس».

و«تخليص الإبريز - أى الذهب - فى تلخيص باريز» هو أحد الكتب الرائدة، ربما تفوق أهميتها حدود عصرها، وكاتبه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى، الذى لا يختلف أحد على ريادته فى نقل الثقافة الحديثة إلى الشرق، ولا على أثره العميق فى الثقافة العربية، بل ويرى البعض أن هذا الكتاب يعد أهم وثيقة أدبية فى مصر،

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وقصة حياة الشيخ ذات دلالات وإشارات متعددة.. وهو يشترك فى الكثير من جوانب حياته مع كل من د. طه حسين والإمام محمد عبده فخرج هؤلاء من رحم الشعب، يدركون معاناته وأوضاعه البائسة، وقدم كل من رفاعة وطه حسين لبلدهم أعمالا عظيمة، وجمعتهما الدراسة فى الأزهر الشريف ثم التعرف على الثقافة الغربية ببعثة كل منهما إلى فرنسا، وهو ما حدث مع محمد عبده، الذى عاش فى باريس وأصدر مع الأفغانى مجلة «العروة الوثقى» وهو صاحب القول الشهير «وجدت فى الغرب إسلاما بلا مسلمين، وفى الشرق مسلمين بلا إسلام».

ولعبت المصادفة دورا مهما فى حياة رفاعة، فلولا اختيار شيخه حسن العطار ما أخذ فرصة السفر إلى باريس مع البعثة المكونة من أربعين دارسا، حينما كان الفتى فى مقتبل العمر فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره، وعمل بنصيحة شيخه فى تدوين رحلته، وأخذ يسجل مشاهداته وانطباعاته.

وجاء هذا الكتاب «الرحلة» غنيا بالمعلومات والمعارف والأمثلة الحية والشواهد.

ويتضمن الكتاب فى صلبه العلاقة بين الشرق والغرب، ووضع فى رحلته خبرة خمس سنوات من العمل الدءوب واستطاع أن يمزج الشرق والغرب فى سبيكة واحدة، فاحتفى بإيجابيات الغرب بلا عقد وبلا أحكام مسبقة، كأى عمل علمى جاد، ومن خلال اكتشافه الغرب أعاد اكتشاف الشرق.

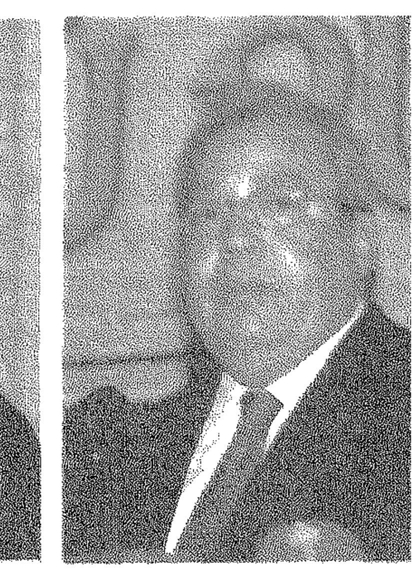
ولا يدهشنا أن نراه قد أفسح فى كتابه مكانا لترجمة الدستور الفرنسى، وترجمة لنصيحة الطبيب للحفاظ على الصحة العامة.

وإذا كان العالم الفرنسى شامبليون قد قدم الحضارة الفرعونية القديمة للعالم عندما فك شفرة حجر رشيد، فكذلك فعل الطهطاوى الذى فك شفرة النهضة الأوربية.. والتى قدم الكثير من جوانبها، وقدم للقارئ فى الشرق صورة فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الغربية فى ذلك الوقت.

ووصل رفاعة إلى النغمة الصحيحة، والمعادلة المتوازنة، ودعا إلى ضرورة الإمساك بحضارة العصر والتفاعل معها، ولم يكن حديثه عن الحضارة الأوربية مجرد ناقل لما يشاهده وإنما كان يناقش ويحلل ويعلل ويقارن، كل ذلك فى يقظة ذهن وبصيرة نافذة، يتجول فى شوارعها ويراقب أهلها، ولم يغب عن باله ما يجرى فى وطنه، ولم يكتف بالمقارنة ولكن رسم معالم النهضة فى الشرق، ونادى بسرعة العمل فى اللحاق بالدول الأوربية، ونقل خبرته ومشاهداته للقارئ، وأخذ يبحث عن أسباب النهضة فى مكونات حضارة العصر المتطورة، وأخذ يبحث عن إجابة سؤال.. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

وأهم ملاحظاته فى الإجابة عن هذا السؤال هى «تفوق هذه البلاد وبراعة أهلها فى العلوم البرانية والفنون والصنائع والرغبة فى جلب ذلك إلى الديار الإسلامية لخلوها منها».. ومع الأسف أنه حتى اليوم يغلب على الثقافة العربية الإنسانيات على حساب العلوم الحديثة.

وكانت رحلته - بحق - عملية وصل



د. جابر عصفور



د. قاسم عبده قاسم

بين الشرق والغرب، ولم يقتصر على مجرد التعريف ببلاد الفرنسيس، بل حث شعوب الشرق على الأخذ بأسباب التقدم، وأخذ يقارن ويلتقط الفروق ويحللها، وينادى للأخذ بأسباب النهضة الأوربية، ولا يرى فى ذلك أى شبهة تعارض مع ميراثه الفكرى.

ولم يمنعه شئ من البحث عن سر تقدم الغرب، يقول «إذا كانت البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم والرياضة والطبيعة، وإذا كانت البلاد الإسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها، فإنها فى حاجة إلى كسب ما لا تعرفه، وجلب ما تجهل صنعه».

فكان لقاء الشرق والغرب عند الطهطاوى لقاء وفاق، قدم خلال رحلته العلوم والفنون والصناعات، ولم يجد فى ذلك أى تعارض مع هويته.

المكناسى فى إسبانيا

ومن الشخصيات التى زارت الغرب وإسبانيا بالتحديد فى القرن الثامن عشر عام ١٧٧٩م، ووصف الغرب بعيون شرقية هو السفير المغربى ابن عثمان المكناسى.. والذى اتخذ موقفا مختلفا عن رفاعة.

ولم يلفت انتباه المكناسى خلال إقامته سوى الطغيان والفجور والذى عبر عنه فى كتابه «الإكسير فى فكاك الأسير» ولعل قراءة هذه الرحلة وتأمل علاقات الشرق والغرب فى ظروف متباينة يساهم فى تجاوز حالة الازدواجية، ويفسر سبب ضياع صوت الذين حصلوا على ثقافة الغرب، ولا يصل صوتهم إلى عقول وقلوب المتلقين، ويصبح المتحدث فى واد والمتلقى فى واد آخر.

وصف المكناسى فى كتابه معالم الحياة فى إسبانيا، وتناول الحجر والبشر، وتوقف عند الرقص وفن التمثيل ومصارعة الثيران، ومختلف مظاهر العلم والفن، ولم يفته وصف الطبيعة الساحرة .

سماحة أم إباحة ؟

وأول ما يلفت نظر الزائر لإحدى الدول الغربية العلاقة بين الرجل والمرأة، هكذا كان الحال مع ابن عثمان ومع رفاعة،

يقول المكناسي: «اجتمع بالدار التى نزلنا بها أعيان البلد، وبعد العشاء اجتمع نساء أعيان البلد، فتلكأت فى الخروج فألح علينا الحاكم فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن بما لا يناسب» ، ويقول فى موضع آخر.. «وردت الضامات نساء الأكابر» ، يقصد السيدات، وأحضرن الموسيقى التى لهن اعتناء كبير بها، ورقصن مع أكابر البلد نساء ورجالاً» ؛ ويصف ما شاهده فى المتنزهات بقوله: «وهووا من شفا جرف هار إلى بحبوبة الناس وبئس القرار» . ويضيف: «اجتمعوا ذات ليلة نساء ورجالا ورقصت النساء كما هى عادتهن، وترى الرجل جالسا مع امرأته وابنته ترقص مع أجنبى، ويناجى بعضهم بعضا ولا حياء لديهم مع ما هو معلوم بينهم وشائع من الفسق والزنا ولا يبالون بشئ فقد جبلوا على عدم الغيرة»!

وهنا يتفق ابن عثمان مع رفاعة فى الموقف من العلاقة بين الرجل والمرأة، ويسجل الطهطاوى خلال رحلته إلى باريس عام ١٨٢٦ تحفظاته ويصف الفرنسيين بقوله:

«ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عن الإسلام من الغيرة» ! ولكنه لا يقف عند ذلك، ولا يعتبره عقبة فى التفاعل والحوار.

رؤية أسامة بن منقذ

ويلاحظ أن هذا الموقف من العلاقة بين الرجل والمرأة موقف قديم، تستطيع أن تجمع أطرافه فى العديد من الكتابات العربية فمثلا فى كتاب الاعتبار لكاتبه الفارس العربى أسامة بن منقذ، الذى شارك فى الحروب الصليبية يبدى دهشته من هذه العلاقة ، وعندما يتطرق الحديث إلى عادات وتقاليد الإفرنج يجد الشرقى فى هذه العلاقة نقطة تمايز لديه والعكس صحيح.

ويلفت نظر أسامة ما تتمتع به المرأة عندهم من حرية، فأفاض فى نقد ذلك، وجاء على لسانه: «ليس عندهم شئ.. من النخوة والغيرة، يمشى الرجل مع امرأته ويلقاه آخر، فيأخذ المرأة وينفرد بها ويتحدث إليها والزوج واقف بعيدا ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت خلالها مع المتحدث تركها ومضى» .. ويبدى دهشته من أن بعض النسوة قد لبسن الشفوف المطرزة وجلسن على الدواوين يستمعن إلى أنغام العود والرباب.

ويحكى مستنكرا كيف جاء أفرنجى يوما ووجد رجلا فى فراشه مع امرأته فسأله: «أى شئ أدخلك عند امرأتى؟ فأجاب: كنت تعبان ودخلت أستريح.

قال: وكيف دخلت إلى فراشى؟ أجابه: وجدت فراشا مفروشا فنمت فيه قال: ولكن المرأة نائمة معك، أجاب: الفراش لها، فهل أمنعها من فراشها!

وقال الزوج غاضبا : وحق دينى إن عدت إلى ذلك مرة أخرى تخاصمنا» !! وهذا كل تفكيره ومبلغ غيرته.

ثم يروى قصة مدهشة أخرى.. شهدها حمام المعرة ، يرى أحد فرسان الإفرنج عربيا حليق العانة، ويطلب أن يعلمه حلقها وبعد أن علمه طلب منه أن يعلم «الداما» أى امرأته فأرسل فى طلبها وجاءت إلى الحمام واستلقت على ظهرها حتى علمها ورجلها قاعد ينظر!

ويتساءل مستغربا : «ليس فيهم غيرة ولا نخوة ومنهج الشجاعة العظيمة، وما



تكون الشجاعة إلا لمن لديه النخوة» !

وعلى أية حال.. نصل إلى السؤال الذى ينبغى الإجابة عنه حينما نتناول العلاقة بين الشرق والغرب وهو: كيف نصبح جزءا من المعرفة البشرية، و فى ذات الوقت نتجنب الهيمنة السياسية للدول الكبرى، وأيضا كيف ننجز التحديث وننأى عن التقليد ؟

بداية لابد من التسليم بوجود العقبة الرئيسية للنهضة خلال القرنين الماضيين والمتمثلة فى الاستعمار التقليدى حتى منتصف القرن الماضى ثم سعى الولايات المتحدة الأمريكية للهيمنة على العالم بعد ذلك.

ولكن ذلك لا يجوز له أن يقعدنا عن التعامل مع مستحدثات العصر، وإلا نكون قد ساهمنا فى تحقيق أهداف القوى الاستعمارية فى عزلنا عما يفيدنا ويساهم فى تقدمنا.

كما أن الغرب ليس شيئا واحدا فعند احتلال بريطانيا لمصر ظهر بلنت الذى دافع بحرارة عن القضية المصرية، بل وكلف محاميا بريطانيا للدفاع عن عرابى، وارتبط بصداقة وطيدة بكل من عبده والأفغانى ، وخلال حرب تحرير الجزائر قامت قوى فرنسية بتأييد استقلال الجزائر، وهكذا.

ومن ناحية أخرى فهناك فارق فى نواح كثيرة، مثلا بين فرنسا وبريطانيا وبين ألمانيا والولايات المتحدة.

كما أن المعرفة البشرية ليست فى الغرب وحده، فهناك الهند والصين واليابان وروسيا، وهناك أيضا دول أمريكا اللاتينية يمكن اكتساب المعرفة من بعض دولها.

ولا ينبغى أن ننسى أن الأفكار والمستحدثات لم تعد تنتظر الإذن من أحد.

وعلى التجربة العربية أن تتوقف عن التقليد وأن تستخدم النعمة الإلهية التى أنعم بها الله على الإنسان وهى استخدام العقل لا النقل ولا ننقل بلا عقل من الكتب الصفراء، نقلد ما يجرى فى الغرب.

فلنا ثقافتنا الخاصة، لأن لنا مشكلاتنا الخاصة مع صعوبة التعبير عن مفاهيم حضارة معينة باصطلاحات حضارة أخرى، فالحداثة منهج فى التفكير وطريقة فى البحث ومعالجة المشكلات.

والأجدر بالنظر البحث عن القواسم المشتركة، والتخلى عن الازدواجيات، والتخلى عن التطرف فى قبول ما يجرى فى الغرب، أو تطرف آخر برفض ما يجرى فيه!

ومن المستحيل البدء من حيث انتهوا ولابد من الاستفادة من كل تجارب الآخرين فالعزلة والانزواء أمران مستحيلان.

وأخيرا.. لماذا تقتصر الحداثة على المدن وحدها ولم تصل إلى الريف أو البادية، سواء فى عهد الاستعمار أو حتى بعد الاستقلال؟

ورغم كل مزاعم اللامركزية مازالت المركزية سائدة وتحول دون التطور الاجتماعى.

وإذا كان الاستعمار الأجنبى عقبة كأداء فى طريق الحداثة فالاستبداد عقبة أخرى محلية تحول دون إطلاق كل الطاقات نحو النهضة ■

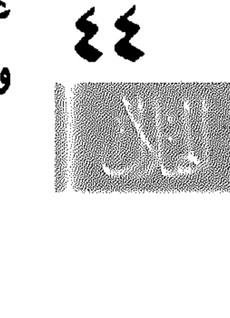
دائرة حوار

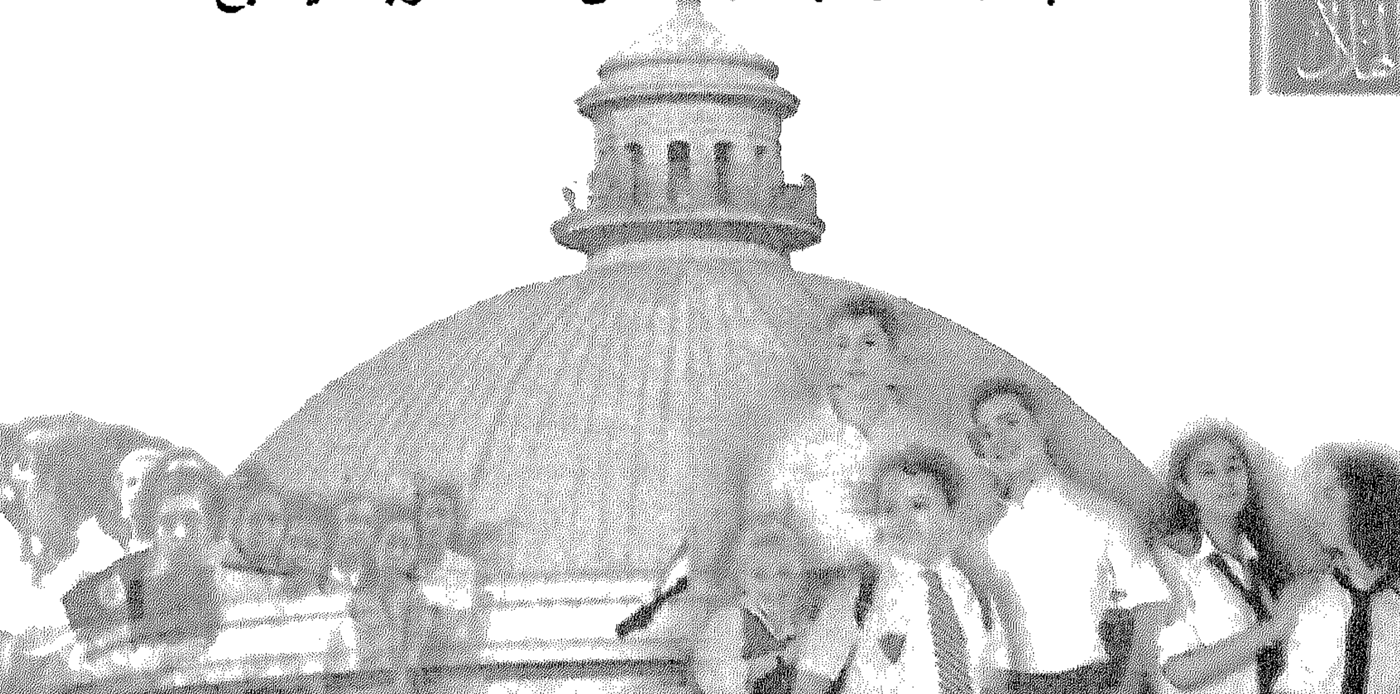
مستقبل الجامعات المصرية

في ضوء التغيرات السياسية المعاصرة

بقلم
د. محمد أبو الغار

تعتبر الجامعة ركنا أساسيا وجوهريا في عقل الأمة، فهي البوتقة التي تخرج منها الأفكار والأبحاث في كل فروع المعرفة، وتقدم الأمم مرتبط ارتباطا وثيقا بمستوى الجامعات فيها، ومن المعروف أن التقدم الأوروبى والأمريكى بنى أساسا على أبحاث علمية، تم استخدامها في الزراعة والصناعة والتجارة والتكنولوچيا بكل أنواعها، وكذلك فى آلات الحرب، ليصبح هذا





الجزء من العالم أقواها حربيا واقتصاديا وتكنولوچيا. وبهذا أصبح يحكم السيطرة على العالم كله، السؤال البسيط: من أين جاءت هذه الأبحاث؟.. والإجابة سهلة: كلها من الجامعات والمعاهد البحثية التى تبيع منتجها الفكرى لمراكز أبحاث مرتبطة بالشركات الصناعية والزراعية، التى تطور البحوث حتى يمكن استخدامها فى إنتاج السلع المختلفة، حتى تصبح منتجا نهائيا يستخدمه الجمهور ويصدر للعالم كله. ولذا تتنافس الجامعات الأمريكية على إغراء كبار العلماء من جامعات أوروبا، وصغار العلماء الواعدين من دول العالم الثالث للعمل بها، لأن ناتج أبحاث هؤلاء العلماء سوف يكون له مردود مادى ضخم للجامعة وللمجتمع الأمريكى كله .



وعقد الجامعة مع الأستاذ فى أمريكا يتكون من بندين أساسيين، التزام الجامعة بتوفير الحرية الكاملة للأستاذ ليبحث ويفكر، والتزام الأستاذ بنشر أبحاث عالية المستوى. وكلما ارتفع مستوى الجامعة كانت قادرة على إعطاء الحرية الأكبر والتجهيزات الأكثر للبحث العلمى، وهذا الأمر ينطبق أيضا على الدراسات الإنسانية، مع الاختلاف فى نوعية الأبحاث بالطبع. والأستاذ الذى يتكاسل عن البحث والإنتاج العلمى يفقد وظيفته، وعليه أن يبحث عن جامعة أقل مستوى تقبله للعمل بها.

أساس التعليم الجامعى

وعندما أنشئت الجامعة المصرية الحكومية فى عام ١٩٢٥، قال لطفى السيد أول رئيس لها: إن التعليم الجامعى أساسه حرية التفكير والنقد واستقلال الرأى، وليس الحفظ والنقل لكل ما يقال، والتربية الاستقلالية هى شرعنا منذ أول عام أنشئت فيه الجامعة.



وكان سعد زغلول واضحاً فى تأييد هذا الاتجاه، عندما انتقد خطبة أحمد زكى بك فى افتتاح الجامعة، عندما أحس بأنه بالغ فيها فى الحديث عن مجد الإسلام، واعتبر أن هذا لا يتفق مع افتتاح جامعة جديدة، تنظر للمستقبل وقال: إن هذه الجامعة لا دين لها إلاّ العلم. وقد استطاعت الجامعة المصرية الحديثة، فى ظل الالتزام بالمبادىء الجامعية الأساسية وهى الاستقلال والبحث العلمى، أن تقدم خريجين على مستوى عال. وقد قام الأساتذة بأبحاث على مستوى عالمى، وكلنا يذكر أساتذة العلوم وعلى رأسهم مصطفى مشرفة، وأساتذة الطب وعلى رأسهم عدد كبير من الباحثين العالميين.

مناخ جامعى سليم

وفى هذا الزمان كان التنافس العلمى بين أعضاء هيئة التدريس هو الحافز على الابتكار والإجادة، وكان يقوم بتحكيم الأبحاث العلمية فى كثير من الكليات العلمية محكمون أوروبيون ضمانا للحيدة والتأكد من الجودة. وكانت الجامعة مستقلة تماما. وحين تدخل وزير المعارف ونقل طه حسين عميد الآداب لوزارة التعليم، استقال لطفى السيد رئيس الجامعة احتجاجا على تعدى وزير التعليم على استقلال الجامعة.

ومنذ إنشاء الجامعة المصرية الحكومية وخلال الثمانية والسبعين عاماً الماضية، تلقت الجامعة المصرية ضربات ساحقة بقوانين جائرة، أفقدتها الاستقلال وأهدرت القيم الجامعية، وألغت التنافس العلمى، وهمشت أهمية البحث العلمى، وذلك فى أعوام ١٩٣١ (صدقى باشا) ١٩٥٤، ١٩٦٣ (كمال الدين حسين) ١٩٧٢ (فترة السادات)، ١٩٩٤، ٢٠٠٠ (العهد الحالى) بالاضافة إلى قانون الجامعات الخاصة.

أرباح الجور على الجامعة

ماهى النتيجة التى وصلنا إليها الآن؟ الدستور ينص على استقلال الجامعة، ولكن هل هى فعلاً مستقلة بينما مجالس الأقسام والكليات لا تنظر فى المسائل المهمة، التى تخص سياسة التعليم والتدريس، وإنما تقررها جهات من خارج الجامعة، أو من المجلس الأعلى للجامعات، ولذا فقد أعضاء هيئة التدريس تدريجيا الاهتمام بالبحث والتدريس والتفوق، وأصبح جزء كبير منهم كموظفى الحكومة، يعرفون أنهم سوف يحصلون على الترقية مرتين بعد الحصول على الدكتوراه، وسوف

يصبح جميعهم تقريبا أساتذة بعد عشر سنوات.

مخاوف من الطرح الإصلاحى

وفى محاولة من الحكومة لإصلاح حال التعليم الجامعى، أخذ مجلس جامعة القاهرة أخيراً قراراً بإنشاء كلية للدراسات العليا، ولكن لم تتضح تماماً معالم تطبيق هذا القرار، وهل سوف يكون لهذه الكليات الجديدة أماكن خارج الكليات الحالية، أم أنها سوف تأخذ جزءاً من المبانى الحالية، والتى تستخدمها الدراسات العليا فى أوقات مختلفة غير وقت استخدام الطلبة، وهل سوف يتفرغ بعض الأساتذة للدراسات العليا فقط؟ وإلى أن تتضح معالم هذا المشروع أخشى أن يصبح فى ثوبه النهائى هو مثلا كلية للدراسات العليا، داخل كلية طب قصر العينى، يقوم بالتدريس فيها نفس الأساتذة فى الأماكن نفسها، ويصبح موظفو الدراسات العليا فى قصرالعينى هم موظفي الكلية الجديدة، ولا يبقى إلا تعيين عميد جديد للدراسات العليا بجوار العميد الحالى.

والمعروف أن مثل هذه التغييرات الجذرية تتم بعد أن تقوم لجنة من الخبراء، وممثلة لجميع الأفكار، بعمل دراسة يتم طبعها وتوزيعها على من يرغب من أعضاء هيئة التدريس ، وكذلك المهتمون بشئون الجامعة من خارجها، ثم يعرض المشروع على مجالس الأقسام لإبداء الرأى، حتى تصل إلى مجلس الجامعة خلاصة الأفكار المختلفة لتتخذ قرارها على أساسه، وأنا كعضو فى هيئة التدريس لأكثر من ثلاثين عاما لم أسمع عن هذا المشروع إلا من الصحف.

جامعة دون دراسة!

وقرر مجلس جامعة القاهرة أيضا الموافقة على إنشاء جامعة أهلية داخل جامعة القاهرة، ويبدو أن هذا المشروع أيضا لم تتم دراسته، ولا أحد يعلم تفاصيله إلا من حديث صحفى مطول، أدلى به رئيس الجامعة لصحيفة الأهرام، وقال رئيس الجامعة: إن الغرض الأول من إنشاء الجامعة الخاصة، هو مواجهة طوفان الثانوية العامة، ولا يمكن أن يتحقق هذا الهدف لأن عدد الطلبة فى هذه الجامعة الخاصة لن يتعدى مئات الطلبة. أما عن طرق القبول المقترحة للجامعة فهى غير منطقية، لأن نظام القبول فى العالم حتى فى أمريكا لكليات القمة، يكون حسب درجات الامتحان المقابل للثانوية العامة. وأعتقد أنه سوف يكون من الصعوبة بمكان إعطاء محاضرات ودروس عملية، لطلبة تدفع وطلبة لا تدفع فى نفس المكان بنفس أعضاء هيئة التدريس، الذين من

المتوقع أن يتكالبوا على من يدفعون لأنهم سوف يتقاضون أجرا إضافيا على تدريسهم، أى أن هذا المشروع بهذه الطريقة سوف يولد بؤرة للحقد الطبقى، وينمى الشعور بعدم المساواة والاضطهاد، مما سوف تكون له آثار على السلام الاجتماعى فى الجامعة.

ويريد رئيس الجامعة أن تكون الجامعة الخاصة مستقلة أكاديميا وماليا، ويتم تحديث المناهج بها، والغريب فى الأمر أن ما يراد للجامعة الخاصة لا تريد الدولة تحقيقه فى الجامعة الحكومية، وخلاصة الأمر أن الجامعة قد وافقت على مشروع لم يسمع به أحد من أساتذتها، ولم تتضح معالمه بعد. وكيف يمكن للجامعة أن تتقدم بدون وجود حتى الحد الأدنى من الديمقراطية، التى تهذب القرارات الخاطئة وتصلحها، وتمنع كوارث قد تنتج من تلك القرارات غير المدروسة؟

ملكية الجامعة

أما قانون الجامعات الخاصة فقد كان هناك تخوف كبير عند الحكومة والمجتمع، ممثلا فى النقابات المهنية، من إنشاء جامعات يملكها أفراد والهدف منها هو الربح، وهو ما غير ممكن أن يحدث حتى فى أعتى الدول الرأسمالية كالولايات المتحدة، التى لا يملك الجامعة فيها أحد ولا يربح من ورائها أحد، فهى جامعات أنشئت بأموال المتبرعين، وأرباح الجامعة يستثمر فيها لرفع مستواها، والجامعة المصرية الأم هى أصلا جامعة أهلية، أنشئت من أموال المصريين أغنياء وفقراء، ولم يكن يملكها أحد أو يربح من ورائها أحد. وهناك تعارض شديد بين فكرة الربح بغرض الاستثمار وفكرة التعليم الجامعى؛ لأنه من الممكن التغاضى عن مستوى الطالب فى دخول الجامعة، أو فى النجاح من سنة إلى أخرى، مادام ذلك سوف يحقق ربحا للملاك، وهو أمر غير مسموح به على الإطلاق فى الغرب. فلماذا عندما قلدنا نظام الجامعات الخاصة فى الغرب طبقناه مبتورا مما أضر بالتعليم الجامعى ضررا بالغا؟

تجربة كلية الطب

وعندما أنشئت كليات الطب الخاصة فى مصر، تعهدت الجامعات الخاصة بإنشاء مستشفيات لتدريب طلابها، ولم يحدث ذلك والآن جميع طلبة الجامعات الخاصة يدربون لمدة ثلاث سنوات، هى نصف مدة دراسة الطب، فى قصر العينى



وعين شمس، بعد دفع مبلغ رمزى. وعندما شعر المجلس الأعلى للجامعات بهبوط مستوى طلاب الجامعات الخاصة، قرر تحديد حد أدنى للمجموع للالتحاق بها، وهو أقل بكثير من المناظر له بالجامعات الحكومية، ولكن الجامعة الأهلية ضربت به عرض الحائط، وانتقل الأمر لمجلس الشعب والمحاكم. وأعتقد أن مشروع الجامعة الخاصة قد يكون مجديا. إذا أنشئت من تبرعات وهبات وليس بغرض الربح، والأمثلة الواضحة فى الجامعات الأمريكية والألمانية والفرنسية.

فى الآونة الأخيرة قررت الدولة إنشاء هيئة قومية لاعتماد وضمان الجودة فى التعليم، كمحاولة لرفع مستوى التعليم، وتطبيقا لأحد النظم العالمية والمطبقة فى أمريكا بصفة خاصة. وهذه الهيئة القومية يجب أن تكون مستقلة تماما عن الحكومة، ومن المعروف أنه من الصعوبة بمكان أن تكون هناك هيئة مستقلة تماما فى مصر، وبفرض إمكانية ذلك فإن هذه الهيئة مطالبة بأن تعاير وتقيم مستوى الأستاذ الجامعى والطالب الجامعى، ومستوى المناهج الدراسية وطريقة امتحان الطلبة حسب المواصفات العالمية، والمقصود هنا المواصفات الغربية وبالتحديد الأمريكية، وحتى يمكن أن تعاير الهيئة، المزمع إنشاؤها، ذلك فإن الجامعة يجب أن تكون مستقلة تماما ماليا وإدارياً وفنياً، وأن تعود السلطة الكاملة لمجالس الأقسام والقرارات التى تهم سياسة التعليم لمجالس الكليات، وأن تحدد الكلية عدد الطلاب الذين سوف تقبلهم، وكل هذه الأشياء من المستحيل التصور بإمكانية الموافقة عليها سياسيا، لأن معناها إلغاء وظيفة وزير التعليم العالى وإلغاء سلطات المجلس الأعلى للجامعات، الذى سوف يصبح مجلساً بحثياً يمد الكليات بالبحوث، والدراسات التى تساعد على اتخاذ القرارات السليمة. لا أدرى هل درس المشروع أبعاد وتبعات إنشاء هذه الهيئة الجديدة، وأن الحكومة راغبة فى تطبيق عمل هذه الهيئة بصفة جادة؟!

أرجو أن يكون الأمر كذلك، عندئذ سوف يبدأ التقدم الحقيقى للجامعة لأنه فى ظل الظروف الحالية من المستحيل معايرة أية كلية، فى أى جامعة مصرية، بالمستويات العالمية وإذا أردنا التطبيق الجدى فعلينا إطلاق الحرية للجامعات المصرية، حتى تبدأ فى إصلاح نفسها وتتخلص من ترهلها وتبدأ رحلة جديدة لجامعة جادة ■

خلاصة القول:

بروتوكولات حكماء صهيون

بقلم
د. يوسف زيدان

الزوبعة المفتعلة التى أثيرت بسبب العرض المؤقت لنسخة من الترجمة العربية الأولى من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) بمتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، تعد حالة نموذجية للمعالجة العشوائية والتناول الغوغائى للوقائع .. وها هى التفاصيل :



بدء الزوبعة !

يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٣ نشرت صحيفة قاهرية خبراً كاذبا ملخصه أن كتاب (البروتوكولات) معروض بصدر متحف المخطوطات فى فاترينة الكتب السماوية بجوار (التوراة) وادّعت الصحافية التى نشرت الخبر الكاذب، أنها سألتنى عن السبب فى وضع (البروتوكولات) مع الكتب السماوية، وتحديداً بجوار التوراة، وأننى قلت لها : البروتوكولات أهم من التوراة! ولم تنس الصحيفة أن تضع مع الخبر صورة، لا لمتحف المخطوطات، وإنما لبعض حاخامات اليهود! ومن هنا .. بدأ تجلى الغوغائية والعشوائية، بل وسوء القصد والنية .

العجيب فى الأمر، أن الصحافية ذاتها، وهى التى تعلم أن الكتاب لم يوضع يوماً بجوار التوراة ، تابعت ذلك التهييج العشوائى، الغوغائى، سيئ القصد والنية فنشرت تغطية أخرى للموضوع نفسه يوم ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٣ وأرفقت هذه المرة صورة كتاب (البروتوكولات) فى الفاترينة التى كان معروضاً. بها، فلم ينتبه أحد إلى أن الصحافية دون أن تدرى، تكّذب نفسها بنفسها إذ أن الصورة المنشورة تدل

بوضوح على أن الكتاب كان فى فاترينة (الوثائق) لا (الكتب السماوية) وأن المعروض مع كتاب (البروتوكولات) هو وثائق : خرائط، حجج شرعية، وقفيات .. الخ .

والأعجب فى هذا الأمر، أن بطاقة فاترينة الوثائق تظهر فى الصورة! وقد ثورت الصحيفة بعض الأقلام ضد المكتبة، حين خيلت لمجموعة من المثقفين المصريين، أن الكتاب تم (سحبه) من مكتبة الإسكندرية تحت ضغوط خارجية! وهو ما أثار غضب أكثرهم، فصرح تصريحات نارية ضد المكتبة، بينما واقع الأمر أن فترة (عرضه) هى التى انتهت وبالأحرى أنهيت قبل موعدها بأيام بسبب الزوبعة الزائفة، وعاد الكتاب إلى مكانه (مع عدة نسخ أخرى) فى قاعة الكتب النادرة، ليكون متاحا للباحثين والدارسين المتخصصين، وليس لعموم المترددين على المكتبة (.. جدير بالذكر أن أى مكتبة كبرى بالعالم، تحوى عشرات النسخ من الكتاب فى اللغات المختلفة ! ولو كانت الصحيفة المصرية قد تحرت الدقة فى الموضوع الذى نشرته أولاً، أو كان المثقفون المصريون الذين نشرت الصحيفة تصريحاتهم الغاضبة على المكتبة فى المرة الثانية، قد تحروا الأمر - ولو باتصال تليفونى مع المكتبة - لما كان شئ من تلك الزوبعة قد افتعل .

وعلى الجانب الآخر، فى إسرائيل، بدأت الصحف تنشر الموضوع نقلاً عن الصحيفة المصرية فنشرت جريدتا : يديعوت أحرونوت، ومعاريف يوم ٢٧/١١/٢٠٠٣ الأخبار الكاذبة ذاتها، دون أن تتثبت منها .. ثم يتزايد الإيقاع الجنونى للغوغائية والعشوائية وسوء القصد والنية، مع هذا السيل العارم من مقالات الرفض والتهويل التى نشرتها المواقع اليهودية على شبكة الإنترنت، فإذا بالأصوات تعلو وتتصاخب، فتخلط الأوراق وتتفرع إلى قضايا أخرى - لإحكام إدانتى ! - فتقول إننى أنكر (الهولوكوست) لأننى كتبت يوما أن ضحايا هتلر من اليهود كانوا مليون شخص (فقط) وإننى معاد للسامية ولسوف أعود لمناقشة هذه (القضايا) فى السطور التالية، ولكن قبل ذلك، أود تأكيد أمر يخص (البروتوكولات) هو باختصار : إن هذا الكتاب المزيف أضر بالعرب كثيراً، ونفع كثيراً الإسرائيليين . فقد أعطى الكتاب للوعى العربى صورة مزيفة عن اليهود ، مالبث أن أدمنها الناس وغابت عنهم الصورة الحقيقية للمجتمع الإسرائيلى ، ذلك المجتمع الذى يقيم مع الغرب العلاقات، ويبنى المفاعلات الذرية فى ديمونة .. يبكى سويعة على ماضيه الحزين ، ويعمل ساعات فى بناء المستقبل بوادى السيليكون المسمى هناك (وادى الفلافل) الذى يتم فيه تطوير البرمجيات ومعدات الكمبيوتر ، وعلى الجانب الآخر، ظل كتاب (البروتوكولات) دوما ، مسوغا للانتحاب اليهودى الأبدى وحجة قوية تبرر التباكى والرثاء للذات، وتؤكد اضطهادهم على مر العصور .

التزيف

أما الرأى العلمى فى مسألة تزييف (البروتوكولات) وعدم صحته، فقد استقر

بعد دراسات مطولة إلى أنه وثيقة مزورة استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحافي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث، عنوانه «حوار في الجحيم بين ميكافيللي ومونتسكيو» . وهناك اقتباسات مباشرة - بل وحرفية - من هذا الكتاب الساخر، موجودة بنصها في البروتوكولات . ثم شاعت البروتوكولات بإيعاز من البوليس السرى الروسى، لتخويف الروس من اليهود ودفعهم للالتفاف حول القيصر . وقد استقصى د. عبد الوهاب المسيرى مناقشة الأمر في موسوعته اليهودية - التى شاركت فيها بقلمى قبل سنوات - وقد انتهى من مناقشة الموضوع إلى مانصه : والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها فى الإعلام المضاد للصهيونية أمر غير أخلاقى لأنها وثيقة مزورة، ولاتوجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة . وفى مقالة د. المسيرى بالموسوعة فوائد كثيرة، لمن أراد أن يراجعها هناك .

ونأتى الآن لمسالة (الهولوكست) التى أقحمت عنوة فى سياق هذه الزوبعة الزائفة .. وقد أقحمت (عنوة) وليس (مصادفة) فقد تم إدخالها فى الموضوع، بتعمد واضح، من عشرات المواقع اليهودية على الإنترنت، لتأكيد اتهامى بمعاداة السامية، لأننى أنكر الهولوكوست . ومن ثم، فليس مستبعداً علىّ، أن أضع البروتوكولات بجوار التوراة وأقول إنها كتاب سماوى أهم من التوراة !

وهنا، لدينا نقطتان للمناقشة، الأولى معاداة السامية والأخرى الهولوكوست فلنبدأ بخرافة (العداء للسامية) تلك التهمة الجاهزة للانطباق على كل من يخالف اليهود، ولو بالرأى :

مفهوم السامية

بحسب ما ورد فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الإنجليزية لسنة ١٩٦٦ الجزء ٢ ص ٨١، ٩٠) ودائرة المعارف الأمريكية (سنة ١٩٨٣، الجزء ٢ ص ٧٤ ، ٧٥) ودائرة المعارف اليهودية (١٩٩٢، ص ٥٨ - ٦٢) وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الجزء الثانى ص ٣٣٣) وعديد من المصادر الخاصة بالمسألة اليهودية والصهيونية .. فإن معاداة السامية AntiSemitism اصطلاح سياسى حديث أشاعه اليهود لتأكيد شكواهم الأبدية من اضطهاد الشعوب الأخرى لهم. وقد كان أول من استخدمه هو الصحافى اليهودى الألمانى فيلهلم مار فى كتابه الصادر سنة ١٨٧٩ بعنوان : انتصار اليهودية على الألمانية، من منظور غير دينى.

والسامية مفهوم عرقى ينطبق على جماعة بشرية، المفترض أنهم انحدروا من (سام بن نوح) وقد تم تمييز الساميين أولاً على أساس لغوى، لاعرقى ، وذلك للتفرقة بين اللغات السامية والآرية (الهندو / أوروبية) وبالطبع فإن العرب وفقا لهذا التصنيف للبشر - التصنيف غير العلمى - هم أكثر الأجناس سامية، ولا مسوغ للقدح فى ساميتهم، بعكس اليهود الذين تشكك الدراسات العلمية الأنثروبولوجية والتاريخية فى نقائهم العرقى، وهو الشك الذى تدعمه وقائع مثل وجود يهود ينتمون إلى أعراق آسيوية (مثل القبيلة الثالثة

عشرة) أو زنجية (يهود الفلاشا).

العجيب في الأمر أن دلالة مصطلح العداء للسامية صارت تقع فقط على معاداة اليهود دون غيرهم ! وهكذا لم يعد لفكرة (السامية) وجود خارج الجماعات اليهودية، وكأن العرب ليسوا ساميين ! ولايخفى هنا، أن الغرض من قصر دلالة المصطلح على اليهود، مع ما يتضمنه ذلك من سخف ومجانبة للموضوعية، كان لأغراض سياسية وأيديولوجية، منها جنى أقصى ربح ممكن من إشهار المصطلح - إشهار في اللغة العربية تعنى : جعل الشئ مشهوراً، وتعنى أيضا : رفع السيف فى وجه المخالف - ومنها تجنب الوقوع فى تناقض داخلي حين يشب الخلاف مع العرب، وإلا صارت المسألة مجرد خلافات عائلية لاتستوجب قلق العالم على اليهود، وهو على كل حال قلق مزعوم يسوغ دعم دولة إسرائيل (تلك الواحة الديمقراطية المحاصرة بالبرابرة العرب !) مع أن الكل يعرف أن دعم الغرب لدولة إسرائيل لايأتى من (القلق على اليهود المحاصرين) وإنما يأتى تلبية لمصالح غربية فى المنطقة العربية، أعنى المنطقة التى كانت تسمى (عربية) ثم صارت تعرف اليوم بالشرق الأوسط .. ولا معنى لأوسط، أو أدنى أو أقصى إلا من زاوية الرؤية الغربية (جغرافيا) .

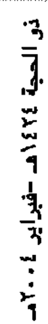
الورقة الرابحة

المهم، صارت تهمة معاداة السامية ورقة رابحة بيد متعصبى اليهود ، تستخدم دوما بنجاح - وتخيب أحيانا لعدم توافر الظروف المساعدة - وجنت منها إسرائيل كثيراً من الفوائد، ولاتزال تجنى .. بيد أن الإفراط فى استخدام هذه (التهمة) سوف يؤدى لا محالة إلى فقدان تأثيرها . وقد أفرط اليهود فى استخدامها، حتى إنها اليوم فقدت بالفعل كثيرا من فعلها وظهرت فى المقابل مصطلحات مثل : هوس عداء السامية .. المبالغة فى الاتهام بالعداء للسامية إلخ . وإننى ، كشخص عربى مفترض انتماؤه إلى العرق السامى، أرى أن متعصبى اليهود هم أكثر الناس معاداة للسامية نظراً لإفراطهم فى استخدام هذه التهمة الجاهزة للانطباق على مخالفيهم، ونظراً لأنها تنكر ساميتى المفترضة، التى هى صفة موروثة لنا نحن العرب، وصفة مشكوك فيها بالنسبة لكثير من اليهود .. إن عداء هؤلاء اليهود للسامية يؤكده تحويلهم الأمر إلى تجارة ناجحة ، صارت (السامية) معه استثماراً تجاريا وسياسياً، وفقدت معناها اللغوى العرقى والإنسانى . لم يعد لفظ السامية دالا على شئ إلا فى معرض دفاع الشخص الذى يتهمه اليهود بمعاداتها، عن نفسه.

وهنا، أرى من الواجب على اليهود أن يكفوا عن استخدام هذه التهمة الممجوجة، لأن التمادى فيها أكثر من ذلك سوف يقود إلى مواقف أكثر حرجاً لامجال لإيجاد حلول لها ، وإن اتهامى بمعاداة السامية كان أمراً سخيفا فى مجمله وتفصيلاته، وأن دعوتى للكف عن استخدام هذه التهمة، هو أمر فى صالح الأطراف كافة ولننتقل إلى المسألة الأخرى التى وعدت بمناقشتها .

إنكار الهولوكوست

كتب جابرييل بيتربرج المؤرخ والمفكر اليهودى ذو الأصل الأرجنتينى، مقالاً



بعنوان المحو Erasures بدأه بأن: هناك ثلاث أساطير مؤسسة لإسرائيل، تشكل أساس بناء الثقافة الإسرائيلية حتى يومنا هذا، هى أساطير:

١ - انكار المنفى والانتقاص من أهمية الزمن الممتد بين خروج اليهود من فلسطين وعودتهم اليها .

٢ - العودة إلى أرض إسرائيل والوعد الإلهى بذلك واعتبار هذه الأرض «خواء» حتى يعود إليها اليهود، ومن ثم فلابد من تطهير أرض المعاد «التى عاد إليها اليهود» من شاغليها ـ الفلسطينيين - باعتبارهم دخلاء على الأرض بعد عودة أصحابها .

٣ - العودة إلى التاريخ، بمعنى أن اليهود فى زمن الشتات كانوا خارج التاريخ، ولاسبيل للدخول فى تاريخ الإنسانية إلا بالعودة إلى الأرض، فالأرض هى التاريخ بالنسبة لهم .. وهى بالتالى، محل الإشغال (المؤقت) بالنسبة للعرب الفلسطينيين !

دلالة المصطلح

إلا أننى أرى أن ثمة أسطورة رابعة، لاتقل أهمية فى مجال (التأسيس) لدولة إسرائيل، هى أسطورة الانتحاب الأبدى على الظلم الذى واجه اليهود عبر العصور. وهى أسطورة أهم، لأنها أقدم وأدوم أثراً فى تشكيل الوجدان اليهودى .. بل هى ضاربة بأعماقها فى التاريخ، وتم استخدامها على نطاق واسع خلال القرون السحيقة، وتجلت فى شكاوى اليهود وانتحابهم منذ عريضة الفيلسوف اليهودى فيلون السكندرى التى حاول أن يتلوها على الإمبراطور كاليجولا فقاطعه الأخير وصرفه من بلاطه ... مروراً برسائل الشكوى المريرة التى تبادلها موسى بن ميمون مع يهود اليمن .. وصولاً إلى الإمعان فى إحياء وإعلاء واستخدام الهولوكوست .

كلمة هولوكوست مجلوبة من أصل يونانى يعنى حرفيا : إحراق القربان بالكامل . وهى تترجم إلى العبرية بلفظ (شواه) وإلى العربية بلفظ (المحرقة)..ووفقا لمعجم أكسفورد الكبير OED وقاموس أصول الألفاظ الإنجليزية لإيريك بارتريدج فإن دلالة الكلمة صارت منذ النصف الثانى من القرن العشرين، تقع تحديداً على الإبادة النازية لليهود، وصار معسكر الاعتقال النازى أوشفيتس Auschwitz علامة على تلك المحرقة ، التى صارت بدورها علامة على قمة التراجيديا الإنسانية، حتى إن فيلسوف مدرسة فرانكفورت اليهودى الشهير تيودور أدورنو يقول فى عبارة شهيرة له : لاشعر بعد أوشفيتس .. وهى لعمرى عبارة مؤثرة، شديدة الانفعالية، وقد ذكرتنى فور قراءتى لها أول مرة، بقول الشاعر الفلسطينى محمود درويش فى أنشودته الشعرية الرائعة مديح الظل العالى عن إحدى المذابح الفلسطينية مانصه.

صابرا، تقاطع شارعين على جسد
وصابرا لا أحد
صابرا هوية عصرنا حتى الأبد!

قلت يوماً: إن ضحايا النازى من اليهود كانوا مليون شخص، كان ذلك فى مقالة لى، نشرت منذ سنوات بعيدة واليوم، تستخدم هذه المقولة ضدى - بضراوة - من جهة اليهود، لتأكيد هذه التهمة المجوجة (عداء السامية) التى

أوضحت فيما سبق أنه لا معنى لها، وسأوضح الآن رأيي بالتفصيل في قضية المحرقة، أو ما اصطلح على تسميته هولوكست .

تردد الدعايات اليهودية على مسامع العالم، صباح مساء، أن عدد ضحايا الهولوكست الذين أدخلهم هتلر أفران الغاز، هو ستة ملايين يهودي وإن كان بعض اليهود يقول بعدد أقل، بل إن يهودا باور مدير قسم بحوث الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث (التابع للجامعة العبرية) يقول بوضوح إن رقم ستة ملايين لا أساس له من الصحة، وإن الرقم الحقيقي أقل من ذلك.

والذي أعتقده، أن القضية ليست في العدد المختلف عليه، وإنما في دلالة عملية (الإبادة المنظمة) التي هي عمل إجرامي بكل المقاييس، سواء كان عدد القتلى مليوناً واحداً أو ستة ملايين، ونحن كمسلمين نؤمن بأنه، وفقا لما جاء في القرآن الكريم (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) (سورة المائدة أية ٣٢) فالعبرة ليست بالعدد .

ومن ناحية أخرى، معروف أن ضحايا محرقة النازي بترتيب الأكثر فالأقل، هم البولنديون، السلاف، اليهود ، الغجر العجزة ، المنحرفون جنسياً .. وكان الدور سيأتي حتما على العرب لو انتصر الألمان في موقعة (العلمين) بمصر، وكان العرب حتما - لكثرتهم العددية - سيتصدرون القائمة إذ أن النازية لم تكن لتفرق بين اليهود والعرب .. فكلاهما عند هتلر : سامي .

جدير بالذكر هنا، أن اليهود (القرائين) لم يكونوا عند النازية أهلاً للمحرقة، بل فكرت النازية بجدية في التعامل معهم، باعتبارهم أهلاً للتعاون مع الجنس الآري الراقي! .. وجدير بالذكر أيضا، أن بعض ضباط النازية كانوا يهوداً وجدير بالذكر كذلك أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم اليهود للنازي، فكانت بلاد المغرب مهرباً لهم .. فهل يأتي يوم، تقوم فيه هوليوود بانتاج فيلم عن موقفه الإنساني، على غرار تحفة ستيفن سبيلبرج السينمائية: قائمة شندلر .

الهولوكوستات !

إن الإنسانية بائسة ومبتلاة بعظائم هولوكوست يشيب لها السامعون، وقد كان (اليهود) مرة واحدة، ضمن ضحايا تجل واحد من تجليات هذه الإبادة أو تلك المحرقة .. ومن قبل ذلك، ومن بعده، عشرات التجليات للهولوكوست القديم الحديث فمن ذلك ذبح هولاكو لمليون وثمانمائة ألف مسلم ببغداد ... أهرامات الجماجم التي بناها تيمور لنك خلال فتوحاته ليتباهى بكثرة ضحاياه الذين تجاوزوا مئات الألوف .. فناء القبائل الهندية على يد المستعمر الأبيض لأمريكا الشمالية .. مجازر الصرب ضد المسلمين في البوسنة .. مجازر كمبوديا .. جرائم صدام حسين ضد الأكراد .. أنهار الدم في أفغانستان .. قتل الجيش الإسرائيلي - يوميا - للفلسطينيين، بما فيهم الأطفال الرضع .

إنني أدعو اليهود، أن يكفوا عن التباكي على محرقتهم ، فقد مرت محرقة النازي من نصف قرن، وكانت حصيلة

(تعويضهم) خلال هذه الفترة وفيرة .. بينما المحارق التى تبيدنا نحن العرب والمسلمين لاتكاد تتوقف طيلة الزمان، وآخرها ما تقوم به اليوم دولة إسرائيل ضد العرب فى الأرض المحتلة

ثمن الدم

والعجيب فى الأمر، أن اليهود لم يثأروا لمحرقتهم من المسئولين عنها، وإنما اكتفوا بتحصيل أموال (التعويض) عنها من ألمانيا ويقال إن حصيلتها بلغت حتى الآن ما يزيد على المائة مليار دولار، دفعتها ألمانيا لإسرائيل تكفيراً عن ذنب تلك اللحظة المؤسفة فى التاريخ الألمانى المجيد واليوم ، يثأر اليهود من الفلسطينيين – والعرب عامة – الذين لايد لهم فيما جرى على يد النازى .. اليوم، تحتفل إسرائيل سنويا (يوم الرابع من شهر آيار / مايو) بذكرى الهولوكوست، وفى اليوم التالى مباشرة (الخامس من أيار / مايو) تحتفل بعيدها القومى : إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين .. فتأمل .

وفى المقابل من ذلك، نحن العرب والمسلمين، لا أحد سيدفع لنا تعويضاً عن المحارق التى التهمتنا قديما وتلتهمنا اليوم ولا أحد منا سيقبل تعويضا ماليا عن أرواحنا التى أزهقت سابقا، وتزهق اليوم تحت بصر وسمع العالم أجمع، وتتناقلها يوميا نشرات الأخبار التليفزيونية ولا أحد غيرنا يجرؤ على الكلام .

المسكوت عنه

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن طبيعة العلاقة التاريخية بين اليهود والعرب، كانت تقتضى من (شعب الله المختار) أن يتعامل مع العرب – والمصريين خصوصاً – على نحو أفضل كثيرا مما عليه الحال اليوم، ولا أبالغ إن قلت إن على اليهود أن يكونوا شاكرين وممتنين لمصر فوفقاً لما يرد فى النصوص الدينية (اليهودية) فإن أرض مصر احتضنت أجدادهم الأولين، قرونا طويلة، ثم عانوا – كغيرهم – من ظلم بعض الفراعين فسرقوا الذهب من المصريين وهربوا به، ولم يطالبهم أحد به حتى الآن مطالبة جادة ووفقا لما يرد فى تاريخنا (المشترك) الذى لاسبيل لإنكاره، تم على أرض مصر إحياء اليهودية عدة مرات ! ففى العصور السحيقة أنجزت فى الإسكندرية القديمة الترجمة السبعينية للتوراة، من اللغة العبرية التى كانت قد انطمست، إلى اللغة اليونانية التى كانت لغة الثقافة الإنسانية آنذاك، ولولا هذه الترجمة (الإسكندارنية) لكانت اليهودية قد اضمحلت، وربما اختفت .. ومن هذه الترجمة السبعينية عرف أشهر فيلسوف يهودى قديم (فيلون السكندرى) الديانة اليهودية، وقام بتأويل نصوص التوراة، تلك النصوص التى كانت قد أوشكت على التجمد، فنفخ فيه فيلون روح الدلالة، مستنداً إلى التراث الفلسفى الذى تشكل فى الإسكندرية القديمة وعرف باسم الأفلاطونية المحدثة ومعروف أن النصوص الدينية إن لم تتم لها عمليات التأويل والتفتيح الدلالى المتجدد، فإنها تخبو، ويغدو (الدين) آنذاك مسألة طقسية لا تشارك فى صياغة (ثقافة) من يؤمنون به.. وقد كان فيلون السكندرى يهودى الديانة، يونانى الثقافة، سكندرى المولد

والمنشأ والإقامة فجمع فيلون بين ذلك كله فى مزيج فكرى نجحت معه اليهودية فى البقاء من بعده قرونا تالية، فكان هذا الفيلسوف السكندرى - بحق - علامة على طريق اليهودية .. بل اعتبره البعض، من مقدمات المسيحية نظراً لأثره الفكرى فى آباء الكنيسة، من أمثال القديس أوريجين السكندرى .

وعلى أرض مصر، عاش أهم فيلسوف يهودى فى العصور الوسطى: موسى بن ميمون (ميموندين) الذى فر إلى مصر من الأندلس، فعاش وكتب أعماله كلها ونال شهرة فى عصره، حتى قيل إنه موسى الثانى واشتهرت من زمنه عبارة يهودية تقول : ما جاء منذ موسى حتى موسى مثل موسى ! وكان موسى بن ميمون المصرى الإقامة، مفكراً يهودى الديانة - بل حاخاماً يهودياً - إسلامى المحتوى، حتى إن بعض أساتذتنا فى مجال الفلسفة الإسلامية مثل د. إبراهيم بيومى مدكور كان يعده فيلسوفاً إسلاميا - لامسلماً - نظراً لقوة تأثير الفكر الإسلامى فى كتاباته ومؤلفاته التى أشهرها كتابه «دلالة الحائرين» وقد أحدثت أعمال موسى بن ميمون انتعاشة كبرى فى التراث اليهودى فبقى هذا التراث من بعده قروناً تالية . وما ينطبق على موسى بن ميمون من كونه انعكاسا للفكر الإسلامى فى صورة يهودية، ينطبق أيضا على الفيلسوف اليهودى البغدادى، الأقل شهرة ابن كمونة..

وفى العصر الحديث، وحتى قيام دولة إسرائيل فى فلسطين، كان اليهود آمنين بمصر يتوالدون .. يتاجرون .. يكسبون .. يتعلمون .. يسافرون .. يشاركون المصريين خير أرضهم . ولم يعرف تاريخنا الحديث حالة استهداف جماعى، لليهود العرب . حالة واحدة .

من هذه الزاوية، لا نعتقد أنه من قبيل المبالغة أن نقول إن على اليهود اليوم أن يكونوا شاكرين وممتنين لمصر ، واختم هذه المقالة بقولى:

إن الأمور ينبغى لها أن تسير، بعكس ما تجرى اليوم به .. فصحيح أن حربا اندلعت بيننا لسنوات، ثم انطفى أوارها ومددنا لهم أيدينا قبل سنوات بالسلام، فكان .. فليكن فى الأرض (المجهدة) التى نعيش عليها، السلام .. فثمة أمور إنسانية كثيرة، أهم من التنازع، علينا إنجازها .

ومن زاويتى.. أرى أنه لامجال للوصول إلى حل بين الفريقين، إلا بأن يتنازل اليهود عن بعض الأساطير، وأن يفرط العرب فى بعض الوقائع .. فيلتقى الجمعان فى منطقة متوسطة بين الوقائع العربية والأساطير الإسرائيلية والصعوبة هنا، أن التوجه للمنطقة الوسطى (خطر) من وجهة نظر الفريقين، فالعرب يرون الحال الواقع هو مستندهم الوحيد لمحاولة (البقاء) المستميتة واليهود يرون التنازل عن الأسطورة هو تخل عن مستند (العودة) التى ظل اليهودى يحلم بها منذ قرون.. ومع ذلك، فلا مجال للخروج من المأزق، إلا بالتنازل المطلوب من كل فريق : التنازل الصعب ■

الديمقراطية والإنترنت

مستقبل الانتخابات الإلكترونية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

عقدت في الفترة من ١٠ إلى ١٢ ديسمبر الماضي في جنيف أعمال القمة العالمية لمجتمع المعلومات التي ستعقد على مرحلتين: الأولى كانت في جنيف، والمرحلة الثانية في تونس عام ٢٠٠٥، تحت رعاية الأمم المتحدة وينظمها الاتحاد الدولي للاتصالات، وشارك في قمة جنيف ٦٧ رئيس دولة ورئيس حكومة ، إضافة إلى حوالي ستة آلاف من ممثلي المنظمات الدولية والأهلية والقطاع الخاص. وأعطى المؤتمر اهتماما بالعديد من الموضوعات الهامة والملتبسة في مجتمع المعلومات منها الفرص المتساوية لكل شخص لاكتساب المهارات والمعارف اللازمة لفهم مجتمع المعلومات واقتصاد المعرفة، بالاضافة إلى أهمية التعاون بين البلدان المتقدمة والنامية في بحوث تقنية المعلومات والاتصالات وإنتاجها وتسويقها ، وأمن الشبكات والخصوصية وحماية المستهلك، وكيفية تقليص الفجوة الرقمية، والاستعداد الرقمي ووصول خدمات الاتصالات إلى جميع المواطنين، التعليم الإلكتروني والجهود من أجل محو الأمية التكنولوجية، تطوير قطاع الأعمال التكنولوجية وسبل رفع كفاءته، استخدام تكنولوجيا المعلومات في تحسين الخدمات الصحية والريفية، وفي الحفاظ على التراث الثقافي والطبيعي، وتطوير صناعة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، وأهمية التعدد الثقافي واللغوي على شبكة الإنترنت والحفاظ على التقاليد والتراث الوطني للشعوب.

واتفق المشاركون في القمة على اعتبار تكنولوجيا الاتصال والمعلومات أداة تنموية هامة في تفعيل الديمقراطية والحكومة الإلكترونية والاستثمار في الموارد البشرية، وتمكين الجماعات المهمشة للوصول لمنافع التكنولوجيا وحماية حقوقهم وحرياتهم الأساسية والحفاظ علي تراثهم وثقافتهم المحلية ووضع التشريعات والقوانين اللازمة لوجود الشفافية والتنافسية ووضع المواصفات القياسية الدولية التى تساعد فى الوصول للخدمات عالميا بدون عقبات، وحرية الوصول إلى المصادر والتطبيقات، وشهدت بعض الموضوعات تقدما فى مناقشتها مثل حقوق الملكية الفكرية وتحقيق التوازن بين حرية الدخول وحماية الابتكارات ودعوة كل الفاعلين لمنع الاستخدام السيىء لتكنولوجيا الاتصالات مثل العنصرية والعنف واستغلال الأطفال. أما الموضوعات محل الخلاف فكانت قضايا أمن المعلومات والخصوصية وحماية المستهلك والبيانات والتحكم فى الشبكات وتمويل تكنولوجيا الاتصال لخدمة التنمية، وقضايا حقوق الإنسان ودور وسائل الإعلام وحرية الرأى والتعبير وإدارة شبكة الإنترنت على المستوى العام والفنى، وقد تناولنا فى مجلة الهلال طوال السنوات الثلاث الماضية بعض تلك الموضوعات بشيء من التفصيل، ونواصل فى الأعداد القادمة تغطية بقية القضايا والظواهر التى نعتبرها هامة فى مجتمع المستقبل، ونبدأ بقضية مستقبل التصويت الإلكترونى.

التصويت الإنترنتى

من المتوقع أن يكون للإنترنت دور واضح فى الديمقراطية ونظم الحكم فى القرن الحادى والعشرين. وبدأت فعلا الانتخابات الإلكترونية فى انتخابات الرئاسة الأمريكية لاختيار الرئيس الأمريكي فى نوفمبر عام ٢٠٠٠، وحملت معها بداية ثورة جديدة فى كيفية إجراء عملية التصويت الإنترنتى! حيث أجريت عملية التصويت عن طريق الإنترنت فى ولايتى كاليفورنيا واريزونا وهو ما ينقل العملية الديمقراطية إلى عصر الإنترنت. ويعتقد أن الرئيس القادم للولايات المتحدة فى انتخابات آخر هذا العام (عام ٢٠٠٤)، سيتم انتخابه والتصويت عليه من خلال الإنترنت على طول البلاد، فهناك شواهد يومية على أن الإنترنت تغير طريقة حياتنا كل يوم، بعضها واضح للعيان ومباشر، كما حدث فى التعليم، والعمل، والتسويق، وعلاقتنا الاجتماعية والأسرية، وبعضها غير مباشر وتظهر نتائجه تدريجيا مثل التأثيرات السياسية التى كانت أقل وضوحا بعض الشيء، لكن هناك حكومات بدأت تقدم خدماتها العامة من خلال الإنترنت، وبعض المرشحين فى الانتخابات فى الدول المتقدمة والنامية استغل الإنترنت فى عرض ونشر برنامجه الانتخابى، وتعبئة المؤيدين له، والمتطوعين فى حملات الانتخاب!

واليوم نتحدث حول الدعامة الأساسية فى ديمقراطيات العالم وهى حق التصويت! فالشكل السائد للتصويت فى دول العالم برغم اختلاف درجات تقدمها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، تقريبا شكل ثابت، حيث يذهب المواطن إلى موقع التصويت، المحدد له فى منطقته وينضم لجيرانه، ويسحب بطاقة التصويت، ويدخل كشكا له ساتر حيث تتوافر له الخصوصية والسرية وحرية الاختيار، وبعد أن يختار مرشحيه، يدفع بطاقة التصويت فى صندوق الأصوات، هذا الشكل العام يختلف فى تفاصيله من بلد لآخر، لكنه لا يختلف فى إطاره العام! وكلنا نعرف بأن عدد الناخبين يهبط باستمرار على مستوى العالم رغم التباينات المختلفة فى درجة الديمقراطية بين دول العالم، وأن هناك طرقا جديدة تسهل الاشتراك فى ممارسة التصويت.

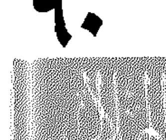
تناقص عالمى فى أعداد الناخبين

إن التجاهل واللامبالاة حينما ينتشران بين الناخبين، يعتبران شيئا خطيرا يهدد نجاح الديمقراطيات! هذا ما قاله جون كيندى منذ أربعين عاما! وكان وقتها ثلثا الأمريكان يصوتون فى الانتخابات الرئاسية! ومنذ ذلك الحين، استمر انخفاض أعداد الناخبين، مع تزايد مشاعر اللامبالاة، واليوم أقل من ٥٠ بالمائة من الأمريكان يشاركون فى انتخابات الرئاسة، وهذا الانكماش فى الناخبين أصبح ظاهرة فى ديمقراطيات العالم!

وعندما ننظر إلى عملية التصويت التقليدية فى الدول المتقدمة، نجد انها تعتمد علىّ تعليم وإعلام الناخبين من خلال إعلانات التليفزيون، أو الاعتماد على وسائل الإعلام الإخبارية لإتاحة الفرصة للناخب على معرفة الأحداث الرئيسية، ولكنها طرق ليست فعالة لجذب الناخبين، فعلى مستوى الولايات المتحدة الأمريكية انخفضت أعداد الناخبين من أقل من ثلثى إلى أقل من ٥٠٪! والنتيجة الأخطر من ذلك أن أقل من ٢٢ بالمائة من الناخبين فى سن الـ١٨ إلى ٢٤ سنة يدلون بأصواتهم رغم أنهم يمثلون مستقبل العالم! وثلث الناخبين غير قادر على التصويت، فعملية التصويت التقليدية تحذف أعداد كمية من الناخبين المتوقعين! وفى انتخابات فرنسا الأخيرة (ابريل عام ٢٠٠٢) فى المرحلة الأولى تخلف عن التصويت رقم قياسى حوالى ٢٨.٤٪ من الناخبين بعد كان حوالى ٢٢.٤٪ فقط عام ١٩٦٩! وفى دراسة مسحية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وجد أن ٧١٪ من الشباب المبحوث (١٨ - ٢٧ عاما) و٩٠٪ من الناخبين الذين يبحثون عن برامج المرشحين فى الويب سوف يصوتون على الإنترنت! ويعتقد أغلبية الأمريكان بأن تصويت الإنترنت يجب أن يكون خيارا لهم فى انتخابات الحملة الرئاسية القادمة فى نوفمبر هذا العام، وسوف تستسهل الأغلبية الواسعة فى الولايات المتحدة تصويت الإنترنت، وسيتمكنون من الدخول إلى المعلومات التى تؤثر فى قرارهم على التصويت لصالح اتجاه معين، بدلا من الطرق التقليدية !!

الإنترنت تجذب الناخبين

وإذا كانت الإنترنت غيرت طريقة العمل بشكل جذرى لا يخطر على بال أحد منذ ثلاث أو خمس سنوات! فإننا نزعم بأن الإنترنت ستكون لها تأثيرات عميقة وسريعة على الديمقراطية، والسياسة،



والانتخابات بشكل لا يمكن تخيله! ويتوقع أن نفس عملية التثوير هذه ستحدث فى عمليات الانتخاب ! فالتغيير الجوهرى الذى حدث فى الأعمال هو السماح للمستخدمين للوصول والنفاذ إلى كل المعلومات لاتخاذ القرار الذكى فى القيمة، وتفويضهم لتنفيذه، نفس الموضوع فى الديمقراطية فجوهر الديمقراطية هو الناخب المتعلم، الذى يستطيع ممارسة الديمقراطية فى التعليم ويصل إلى الذروة فى التصويت عبر الإنترنت!

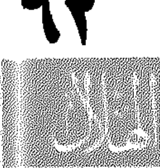
ولا أريد التقليل من تقدير التحديات المعوقة للتصويت على الإنترنت، ولكن نتفق أن الإنترنت ستوفر الإمكانية لتحسين العملية الديمقراطية فى بلاد العالم! فالعديد من الناس الآن يستعملون الإنترنت فى اتخاذ القرارات الأساسية فى حياتهم، والأغلبية بعد قليل جدا سيستعملونها بشكل حرفى ليس فقط فى العمل، بل أيضا فى اتخاذ قرارات الشراء المختلفة مثل السيارات والمنازل، وفى البحث عن نصيحة طبية، فلا يستغرب أن يكون التصويت الانتخابى أحد الخيارات فى الإنترنت.

لكن الذى يثيرنى أكثر، هل سيكون الناس متساوين في لعبة الانتخابات من خلال الإنترنت، خاصة مع انتشار ظاهرة الانقسام الاجتماعي الرقمي داخل الدول المتقدمة نفسها؟ Social divide وهو متعلق بالفجوة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات فى الدولة الواحدة، وتزيد عليه ظاهرة الانقسام الديمقراطى Demo-cratic divide وهو يعنى الفرق بين الذين يفعلون ، والذين لا يفعلون، الذين يفعلون هم الذين يستعملون أدوات التكنولوجيا الرقمية للمشاركة فى الحياة العامة، أو بمعنى أدق يشاركون فى المجتمع المدنى من خلال الوسائل الرقمية! وتلك الهواجس تقلق أيضا المتشككين فى الانتخابات الإلكترونية، وأثيرت كثيرا فى حوارات مؤتمر قمة المعلومات الأخير.

مزايا وعيوب الانتخاب عبر الإنترنت

مازال هناك من يشكك فى جدوى الديمقراطية الإلكترونية e-democracy والمنافع الموعودة لتصويت الإنترنت، وهم يميلون إلى التركيز على العوائق العملية فى الوصول غير المتساوى للإنترنت فى المدى القريب، وزيادة إمكانية الاحتيال والغش والتدليس، وفقدان الخصوصية، وقواعد وشروط عدم الأهلية للتصويت، وينادون بالتمهل وعدم التسرع فى تطبيق نظام التصويت الإلكترونى، فمع أنه طريقة سهلة وقليلة التكلفة للإدلاء بالأصوات إلا أنها تحتاج إلى ضمان عملية التأمين والسرية لكى نصل إلى النتائج المرجوة فعلى سبيل المثال يمكن لفيروس مثل فيروس الحب الذى هاجم مستخدمى الشبكة فى الفترة الماضية أن تتم برمجته لكى يهاجم أجهزة الكمبيوتر المركزية المسئولة عن عملية التصويت فيشلها عن العمل، أو أن يرسل آلاف الأصوات الوهمية إلى صناديق الاقتراع الإلكترونية فيتسبب فى افساد عملية التصويت بأكملها، وعمليات القرصنة هذه يصعب التنبؤ بها وتوقعها، كما يخشى المعارضون لتلك الفكرة أيضا من مناهضى التفرقة بين المواطنين الذين يستخدمون الإنترنت والآخرين الذين لا تتوافر لهم هذه الخدمة وهو ما سميناه ظاهرة

الانقسام الرقمى Divide diqital قد يسبب نوعا من التفرقة العنصرية، وهذه الأخطار قد تعرض الأمن القومى للخطر! حيث يجب النظر بدقة لتأمين عملية التصويت الإلكترونى، حتى لا يقوم أحد قراصنة الشبكة بتغيير النتائج فتحدث مشاكل يصعب التغلب عليها، والمتشككون قلقون فى المدى الطويل حول خطر فشل التمثيل الديمقراطى، ولكنها وجهات نظر، فالحقيقة أن الإنترنت تشكل طريقا للديمقراطية، والتصويت الإلكترونى من خلال شبكة الإنترنت له مؤيدون كثيرون يرون أنه يسهل عملية الاقتراع بحيث تصبح مجرد ضغطة على الفأرة والناخب يجلس فى بيته، وأنها سوف تجذب عددا كبيرا من الناخبين الذين يحجمون عن الذهاب لصناديق الانتخاب إما لانشغالهم فى أعمالهم أو لعدم رغبتهم فى تحمل مشقة الذهاب إلى اللجان الانتخابية ومواجهة الزحام الذى قد يتعرضون له، ومن خلال الإنترنت أيضا يمكن للجمهور تقييم الخدمات الحكومية، وجمع تبرعات الحملة الانتخابية ، والدخول على برامج المرشحين، ويسمح للناس على مسافات، بغض النظر عن الأحوال الجوية المشاركة فى التصويت. والإنترنت ستلعب دورا سياسيا هاما حول العالم فى الشهور والسنوات القادمة؟



تجربة الهند

وهناك إشارات كثيرة منها ما أعلنته وكالات الأنباء قريبا حول ٦٢٠ مليون ناخب فى الهند يستعدون للتصويت الإلكترونى هذا العام (٢٠٠٤)، فى الانتخابات الهندية العامة تفاديا لحدوث أى ممارسات غير ديمقراطية، ويرى المراقبون أن تصويت ٦٢٠ مليون ناخب بواسطة الكمبيوتر يعد أوسع ممارسة إلكترونية من نوعها على المستوى العالمى، وتسعى الهند لتطبيق هذا النوع من التصويت بغية تجنب الاغتيالات والتزوير والتصويت القسرى والتهديدات التى رافقت الانتخابات العامة السابقة. ويعتقد أن جميع تلك الممارسات غير الديمقراطية ستختفى مع استخدام طريقة التصويت الإلكترونى. وأن نظام التصويت سيجهز بأنظمة حماية مأمونة تقى عملية التصويت من أى تلاعب وتحفظ النتائج دون تغيير لحين بدء عملية فرز الأصوات. وجربت الهند استخدام طريقة التصويت الإلكترونى أول مرة فى الانتخابات البلدية عام ١٩٩٨. وتقوم الآن بتجربة نظام التصويت الإلكترونى على أكثر من ١٢٠ مليون شخص موزعين على خمس ولايات

كما سيجرب النظام أيضا فى ولاية آسام الواقعة جنوب غربى الهند والتى تشهد حربا حدودية مع بنجلاديش. وتمتلك الهيئة الانتخابية الآن ٣٠٠ ألف جهاز تصويت ويأملون أن يزداد هذا العدد هذا العام إلى ٥٠٠ ألف جهاز، وتسهل الإنترنت عملية الانتخاب للمناطق الريفية البعيدة حيث يصعب على الناس ، يوم الانتخابات الوصول ببساطة إلى مراكز الانتخابات، فهم يريدون ولا يستطيعون أن يصوتوا، وفى المناطق الحضرية ذات القاعدة السكانية الكبيرة، حيث يقفون طوابير وينتظرون وقتا طويلا لتتاح لهم الفرصة للتصويت، وهى كلها أشياء محبطة للناخبين، ويبدأون التفكير فى عدم تكرارها ! حتى نتيجة الانتخابات نعرفها بعد التصويت بعدة أيام، حتى تصل أصوات المواطنين المقيمين خارج البلاد! كل ذلك يمكن أن يتغير بتصويت الإنترنت، حيث تتم عملية التصويت ببساطة من

بيوت الناخبين أينما وجدوا! مستعملين توقيعا إلكترونيا ويشاركون فى العملية !

مخاوف وأخطار

لكن كيف نعرف أن الشخص الذى يشغل الحاسوب فى النهاية الأخرى هو الناخب الحقيقى؟ كيف نعرف أنه ليس تحت ضغط؟ كيف نضمن بأن الهاكرز (قراصنة ولصوص الكمبيوتر) لا يستطيعون الدخول وتغيير النتائج! كيف نتأكد من السرية والخصوصية؟ إذن هناك مخاوف حقيقية جدا تواجه تصويت الإنترنت! ويزيد على تلك المخاوف قلق آخر، فالولايات المتحدة الأمريكية الدولة المتقدمة فى تكنولوجيا المعلومات ٥٠٪ من الأسر الأمريكية فقط يمكنها أن تصوت من البيوت، فماذا عن أحياء الأقليات وأحياء الدخل المنخفض والفقراء، بل ماذا عن الدول النامية؟ وقليلة النمو؟ ومناطق فى الدول المتخلفة لم تدخل فيها تليفونات حتى الآن! حتى إذا توفرت الإنترنت لكل الناس، فهم ليسوا متساوين فى إتقان هجائية الكمبيوتر والإنترنت حتى يستطيعوا التصويت من على بعد، حتى إذا تمت عملية التصويت بمساعدة، فمن يضمن عدم تأثر الناخب باتجاهات من يقدم له المساعدة! فتصويت الإنترنت يخلق فائدة غير عادلة لجزء معين من الناخبين! فحكومات العالم مطالبة بالتصرف بشكل خلاق وذكى لتوسيع قاعدة المشاركة فى الديمقراطية، وهناك توقعات فى الدول الصناعية بأنه خلال ٥ – ٧ سنوات سوف يتمكن المواطنون فيها من الإدلاء بأصواتهم على الإنترنت وهم فى بيوتهم فى بيجامات النوم! وبنفس السهولة التى يشترون بها أسهما فى التجارة الإلكترونية اليوم! وسوف تجد تلك الدول طرقا جديدة لضمان المفاهيم الأساسية جدا للديمقراطية، مثل الحرية الشخصية، السرية الشخصية، وبالأحرى توفير الأمن من قراصنة الإنترنت. وهناك رأى يقول نعم الإنترنت ستغير طريقة حياتنا، وستؤثر على الحكومة والديمقراطية، ولكنها لن تحل أبداً محل صندوق الاقتراع التقليدى الذى يذهب إليه الناس للتصويت منذ مئات السنين، ولكنها أداة إضافية تسمح للناس بمواصلة التصويت كما يريدون؟ فهى تعطيهم خيارا إضافيا؟ والإنترنت لا تجعل التصويت أسهل فقط. لكنها تخلق الحافز للبحث عن المعلومات، وتخلق ارتباطات بين الأقليات، وبين العوائل، وأماكن العمل ، وتعطى فرصة كبيرة للاستطلاع! وتخلق وسطاء جددا، وتبين قائمة الخيارات بصراحة! وتسمح الإنترنت للناس بالبدء فى خلق خيارات جديدة.

شروط صارمة

وتصويت الإنترنت أساسه الدائرة الانتخابية، التى تضع على الإنترنت حاسبات تحت إشراف مسئولى الانتخابات فى مراكز الانتخاب، ويمكن أن تسمح للتصويت من أى دائرة انتخابية، وهناك مواصفات صارمة لسرية الناخب، وسرية الصوت، وسلامة الانتخاب، وعدم العبث بالاقتراعات الصحيحة، بحيث يوفر ١٠٠ بالمائة دقة فى التصويت. وبشكل واضح الإنترنت ستغير وسائل فعل المجتمع! فيزداد باستمرار أعداد الأفراد فى الدول الصناعية وبعض الدول النامية الذين يسجلون ضرائب دخلهم ويدفعونها من خلال الإنترنت، ويسجلون سياراتهم بدون

الحاجة للوقوف فى الصف فى قسم السيارات، وتنفق حاليا مئات الملايين لربط الجامعات والمدارس بالإنترنت، بمعنى أن حكومات العالم تتجه الآن لتقديم جميع الخدمات العامة لمواطنيها من خلال الإنترنت وهو ما يسمى الحكومة الإلكترونية، والحكومات عليها أدوار كثيرة حتى تدعم عملية التصويت بالإنترنت، فهى مطالبة بتقديم المعونة التقنية، وتعديل وسن القوانين المنظمة للعملية الديمقراطية مثل قوانين التوقيع الإلكترونى الذى يصبح وثيقة ملزمة قانونيا ، وتدريب الناخبين على استعمال مهارات الكمبيوتر والإنترنت وعمل تجارب ومختبرات ديمقراطية لعملية التصويت الجديدة ! وأصبح فى الإمكان الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية توقيع كل القوانين الجديدة إلكترونيا !

هل ستنقذ الإنترنت الديمقراطية ؟!

فى كتاب إلكترونى صدر عام ٢٠٠٠ عنوانه The E - Democracy «الديمقراطية بواسطة الإنترنت» الإصدار الثانى، من تأليف ستيفن كليفت وهو محاضر استراتيجى ومحرر بوكالة أنباء ديمقراطيات على الإنترنت، يتساءل فيه هل ستنقذ الإنترنت الديمقراطية؟! أو ستقودنا الإنترنت لاعتقادات كثيرة غير واقعية! فكل جديد يأتى فى تكنولوجيات الاتصال، تأتى معه مقولات كثيرة تبشر بإمكانيته! ويعتقد الكاتب أن الإنترنت مثل التليفزيون عندما فَعل الديمقراطية فى العالم وأنقذها وأسعفها! ففى السنتين الأخيرتين كانت هناك آلاف الانجازات المثيرة والمهمة التى تخدم ديمقراطية الإنترنت، أو الديمقراطية العلى الخط. وكانت خطوة التغيير سريعة ومتزايدة، على أية حال التحول الديمقراطى خلال استعمال الإنترنت يعتبر فقط خدش سطح لإمكانياتها. ويتوقع فى مدى العقود القليلة القادمة أن تتغير الديمقراطية نحو الأحسن، وأن تتطور طرق إلكترونية ومتشابكة تسمح للناس بتحسين حياتهم وتحسين العالم حولهم. فنحن فى بداية عصر ديمقراطية الإنترنت. وربما أكثر السمات الديمقراطية فى الإنترنت هى قدرة الناس على التنظيم والاتصال فى مجموعات وكيانات ضمن السياقات الجمعية الإلكترونية المجانية، فتوفر فرصا جديدة للمشاركة السياسية والمجتمعية والتصويت الانتخابى فى العقود القادمة! فالإنترنت تملك الفرصة كاملة لبذر بذور الديمقراطية على الخط فى القرن الجديد للأجيال القادمة، فالتصويت على الخط - فقط - مجرد جزء من ديمقراطية الإنترنت، بمرور الوقت، العديد من البلدان ستسمح للناس بالتصويت عن طريق تقنيتهم المفضلة، مثل السماح لناخب فى البيت بإكمال اقتراعه من المنزل وهذا لا يؤثر على قداسة العملية الانتخابية وأمنها، وفى سيناريو المستقبل يتوقع الكاتب، أن المواطن سيتسلم بطاقة التصويت فى البريد إذا كان مسجلاً نفسه كناخب فى البيت، ثم يعيد اقتراعه بالبريد أيضا، أو يستعمل هاتفه لعمل نغمة معينة ويوقع عليها بتوقيعه الصوتى! أو يستعمل التصويت عن طريق الإنترنت ويترك توقيعه الرقمى أو رقم هويته الشخصية. وأيضا ناخبو المكان الانتخابى، وهى الطريقة المعتادة مازال فى إمكانهم التصويت شخصيا فى الانتخابات بالذهاب إلى أماكن صناديق الانتخاب كالمعتاد، والناخبون «فى البيت» الذين لم يصوتوا حتى اليوم النهائى يمكنهم أن يقترعوا من

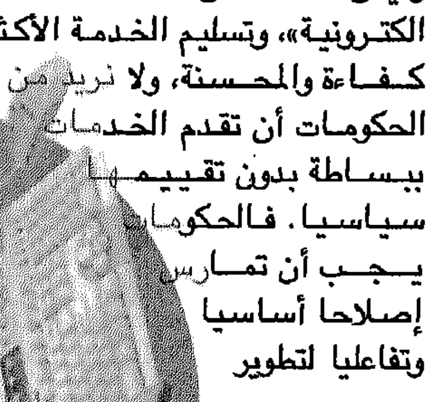
خلال مواقع الانتخاب المرتبطة بالإنترنت، ويؤكد الكاتب على أن مزايا تكنولوجيا التصويت والانتخاب لا تبرر استعمالها الرسمي من قبل أى حكومة. ولا حتى انتشار وسيطرة التكنولوجيات وتحديث طريقة الاستفتاءات هو القضية ، لكن القضية هل ستجذب تلك التكنولوجيات أعدادا وفئات جديدة من المواطنين لممارسة الديمقراطية التمثيلية؟! يجب أن تصبح تلك القضية أكثر بروزا! والقرار فى تطبيق التقنية فى الانتخابات الرسمية هو أولا اختيار سياسى، يضع فى حسابه كيف ستؤثر تلك التقنية على نتائج الانتخابات أكثر من كونها خيارا يريده الجمهور.

والكاتب فى كتابه لا يعارض التصويت على الإنترنت، ولكنه يشكك فى حدوث تلك التحويلات المتوقعة، فالانتخابات كما يقول هى «الخبز الأبيض» الذى يحمل سندويتش الديمقراطية! لكن الحشو الذى بين شطرى السندوتش هو الأهم لصحة الديمقراطية!

ويتوقع فى الولايات المتحدة، كما ذكرنا السماح للتصويت على الإنترنت أن يتم فى البيت خلال الانتخابات العامة المقبلة ، من خلال مبادرات الاقتراع التى يقودها المواطنون، وأن يقارن بين كلفة الانتخاب من البيت خلال الإنترنت، وكلفة الانتقال إلى التصويت، مع استكشاف امكانيات وزارة الدفاع فى امكانية التصويت على الإنترنت للقوات العسكرية المتمركزة فى ما وراء البحار، ومقارنة بين تجارب الدول فيما يخص هذا الموضوع، ومقارنة تكاليف العملية الانتخابية على الإنترنت بمثيلتها التى تتم بالبريد، بتلك التى تتم شخصيا. ونذكر أن التصويت على الإنترنت جزء صغير من جدول أعمال الديمقراطية الكاملة على الإنترنت. ونحن لا يجب أن نسمح للتصويت على الإنترنت بأن يصبح السيف الذى يسقط حركة الديمقراطية الواسعة على الإنترنت. والمسئولية فى ديمقراطية الإنترنت تشاركية بين القطاعات الديمقراطية الأساسية التى تغرق الإنترنت بالمعلومات السياسية الحكومية، وتلك القطاعات مثل أجهزة الإعلام ومجهزى خدمة الإنترنت والمرشحين والأحزاب السياسية، وكل مؤسسات المجتمع المدنى، حتى قطاع صناعة تقنية المعلومات الذى يطور أدوات الاتصال والمعلومات ويضع المعايير التى تؤثر أساسا فى الديمقراطية العلى الخط. والحكومة الإلكترونية فى أى دولة، أو ما يسمى الإنترنت الحكومى، المفروض أن يقدم كل المعلومات الديمقراطية مثل تقارير الميزانية واجتماعات وجداول البرلمانات، والسلطات التشريعية ، ومجالس المدينة، وحتى مجالس الحى، والمجالس التى تشرع القوانين، وأنشطة كل الخدمات الحكومية، وعلى الإنترنت تقارير أخرى مثل نشاط المسئولين المنتخبين، ونبذة عن حياتهم، كل ذلك للتقرب إلى المواطن.

الحكومات الإلكترونية

نحن نسمع الآن عن «حكم إلكترونى» وليس فقط «عن خدمات حكومة الكترونية»، وتسليم الخدمة الأكثر كفاءة والمحسنة، ولا نريد من الحكومات أن تقدم الخدمات ببساطة بدون تقييمها سياسيا. فالحكومات يجب أن تمارس إصلاحا أساسيا وتفاعليا لتطوير



الشرعية التى يتطلبها الحكم فى عصر المعلومات. فالحكومات لابد أن تتنافس مع توقعات المواطنين كمستهلكين تعودوا الجودة من مواقع الويب التجارية التنافسية.

فالأغلبية الواسعة للمستعملين للإنترنت الحكومي يريدون خدمة حكومية على الإنترنت جيدة وسريعة، للحصول على معلومات دقيقة ومفيدة، ومعطيات حول كيفية الأداء الحكومى فى كل إدارة، ومعرفة مصادر تمويلها واتفاقها. فالبرلمان الإسكتلندى وافق على قبول العرائض العامة الرسمية عن طريق الإنترنت. والعرائض طلب رسمي من واحد أو أكثر إلى البرلمان. وهناك أيضا يعرضون الاستشارات الحكومية على الإنترنت، فى هولندا تأسست آلية رد واضحة وإطار زمنى لضمان الإجابة على تعليقات وأسئلة المواطنين. هناك منتديات المناقشة الأولية على موقع الويب لرئيس الوزراء تونى بلير فى بريطانيا، وهذا قاد إلى حرص منتدياتهم السياسية على الإنترنت على تقديم خدمات عامة أفضل! مثل الردود الرسمية، وتقديم العرائض والاستشارات البرلمانية ومحاضر جلسات البرلمان البريطاني، واستضافة سلسلة من المنتديات التفاعلية الخبيرة المدعوة بالارتباط مع اللجان فى كل من مجلس اللوردات ومجلس العموم.

مستقبل ديمقراطية الإنترنت في العالم العربي

السؤال الآن هل ديمقراطية الإنترنت تصلح للعالم العربى؟ وهل تصلح انتخابات الإنترنت فى ظل الديمقرطية المقيدة الصورية السائدة فى العالم العربى! وهل تصلح مع تواضع وهشاشة البنية التحتية للإنترنت فى العالم العربى؟ واتساع الفجوة الرقمية ، وبروز الانقسام الرقمى الواضح بين أغنياء وفقراء المعلومات بين الدول العربية بعضها البعض، وعلى مستوى الدولة الواحدة؟ ونزعم هنا أن عوامل التخلف الاقتصادى والتكنولوجي والتقاليد الاجتماعية السائدة والعصبيات فى الدول العربية تلعب دورا معوقا للديمقراطية، حيث تعتبر العلاقات الشخصية والعائلية والقرابة، والاتصال الشخصى كلها عوامل محددة فى الانتخابات! ويمكن لانتخابات الإنترنت أن تكون الحل المناسب لذلك! وتكون أيضا الحل المناسب للبنية العربية الاجتماعية المحافظة والتى تحد من حرية المرأة فى الذهاب بمفردها إلى مراكز الانتخاب!. وهناك أيضا عدم جاهزية الناخبين العرب لممارسة الانتخابات الإلكترونية لضعف ثقافة الكمبيوتر والإنترنت! علاوة على عوامل السرية والأمان، ونقص الخبرة لدى الناخبين وعدم تعود مستخدمى إنترنت العرب على هذا الأسلوب فى الانتخابات، كلها عوامل اجتماعية قد تعيق التصويت على الإنترنت! ويزيد على ذلك قيمة الحرص على الخصوصية، والتى يمكن أن تقف أحيانا كمعوق للانتخابات الإلكترونية لأن قيمة الحرص على الخصوصية فى العالم العربى أكثر تعقيدا وعمقا بالمقارنة بالغرب !

وفى محاضرة قرأت عنها للدكتور عماد مصطفى فى مكتبة الأسد بسوريا قال : «الإنترنت منبر ديمقراطى عالمى، هى ملكنا بقدر ما نريد ، وهى ملك الآخر بقدر ما يريد، فإذا أردنا كانت لنا ، وإذا لم نرد كانت لغيرنا ■

أقوال معاصرة

● «الأجناس الأدبية بأشكالها المتعارف عليها ليست منزلة، والتجريب ضرورة »

الأديبة المصرية رضوى عاشور

● «الأحداث المزلزلة التى مرت بالأمة العربية، قد دفعت بالثقافة إلى الهامش، بل إلى الشتات، أو ما أسميه بالدوار الحضارى »

الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة

● «نظام، الطبقات القائم حاليا، جامد، وفى نفس الوقت عاجز »

مايكل كين

الممثل الإنجليزى الفائز بأوسكار مرتين

● «نخطئ إذا كنا نعتقد أن فى إمكاننا أن نفرض فكرة بالقوة أو أن نمنعها من الانتشار بفرض الرقابة عليها، وعلى أصحابها، لا الفرض، ولا المنع يليقان بالإنسان »

الشاعر أدونيس

● «إلغاء حصص الموسيقى يوفر على وزارة التربية مبالغ مالية تصرف لمعصية الخالق، ولا تعود بالنفع على الطالب ، بل بالعكس تميت قلبه عن ذكر الله»

النائب الكويتى ضيف الله بورميه

● «إسلام بلا اجتهاد، يعنى إسلاما بلا عقل »

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ٨٨

● «المدرسة هى المكان الوحيد فى حياة الطفل، حيث يمكن له أن يرى الآخر، باعتباره كائنا إنسانيا مساويا له»

وول سوينكا

الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ٨٦

● «لا نستطيع أن نخدم قضايا الحريات من تحت مظلة الديكتاتورية »

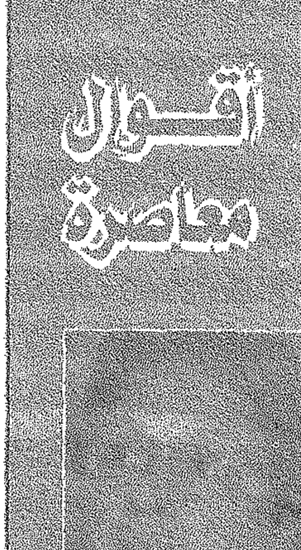
المفكر السورى محيى الدين اللاذقانى

● «إذا أمسكت الرقابة بروائى، فهو إما غبى، أو راغب فى الشهرة »

الأديبة الجزائرية أحلام مستغانمى

● «الخطاب العربى كما تنتجه وتستهلكه شريحة واسعة من الانتلجنسيا العربية، خطاب مريض بالغرب، أو بالأحرى بتقدم الغرب »

المفكر السورى چورج طرابيشى



رضوى عاشور



وول سوينكا



أحلام مستغانمى

فى الطريق إلى نوبل ثانيـــــــة



أهـم باحــثى القــرن العــشـريـن

بقلم
د. لطفيـة النــادى



مازال نبوغ د. أحمد زويل يعد بالكثير لدنيا العلم، فبعد رصده لديناميكية تكوين الجزيئات وترابطها وانفصالها، كانت محاولاته للسيطرة على تلك الجزيئات وتطويعها، للوصول بها إلى تكوينات جديدة أو تعديل علاقاتها الأصلية، فيما أطلق عليه علم الفيمتوكيمياء.. من ثم واصل د.زويل بحوثه لتصل إلى ٥٠٠ بحث، ولتكون جائزة نوبل بالنسبةله لا محطة وصول بل قاعدة انطلاق لآفاق أرحب.



الرئيس مبارك يمنح زويل قلادة النيل العظمى - ديسمبر ١٩٩٩

والكتابة الآن عن الدكتور أحمد زويل كمثل من يحمل شمعة مضيئة في جو عاصف، الشمعة تحاول الإبقاء على اشتعالها والعواصف تتضافر وتهب من كل جانب، هى لاتسعى لإطفائها لأنها لاتعلم بوجودها ولكن العواصف، ظواهر طبيعية لا تذر ولا تترك. هى لاتدرى ولكنها تؤثر، وفى رؤيتى كيف نبقى على تلك الشمعة أنوقد منها شعلة كبيرة تقف فى مواجهة العواصف، أم نحولها إلى مصباح تحميه أغلفة شفافة صلبة لا تتأثر بالعواصف ولا بالرياح، أم نحولها إلى مصادر ضوئية تكنولوجية جديدة تسطع وتبهر وتنطلق إلى الأمام دائما، تخترق العواصف ولاتشعر بها فهى أضعف من أن تؤثر فيها وهى لاتخترق العواصف فقط بل تخترق العوائق الصلبة وتمر فيها وقد تعانى بعض التغيير كضعف فى شدتها ولكنها تظل قادرة على التغلب على كل المصاعب ولاتبالى بوجودها وتشق طريقها دائما لتنير المكان وتشع الأمل وتبقى على دنيا العلوم والتكنولوجيا فى أبسط صورها وفى أعمق آثارها ..

وأنا أنظر من حولى لأرى د.أحمد زويل الباحث الجاد فيه صفات قد تخفى على كثيرين هى صفات الذهب الخالص الذى مهما علقت عليه شوائب أو تراكمت عليه أتربة لم تغيره لا فى طبيعته ولا فى بريقه وأؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يعطى العباد فى الأرض نعما كثيرة لايعلمها إلا هو، ومن عباده من يقدر تلك النعم ويحرص عليها ويزكيها ومنهم من هو دائم التبرم لايراها ولايدركها ونحن ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا دائما ممن يستمعون الحديث فيتبعون أحسنه، وممن يقدرون النعم

ويضعونها في مصافها ويحرصون عليها .. وكان لى استاذ جليل أ.د. محمد عبدالمقصود النادى رحمه الله الذى كتب لى خطابا لا أنساه أبدا أحافظ عليه لأتركه لأبنائى يقول فيه .. إن الجواهر دائما توجد فى الأرض مغطاة بالأتربة والشوائب .. وعلينا دائما أن نكتشفها وإذا وجدناها نصقلها ونبقى عليها ونضعها فى مكان الصدارة نرفع عنها الشوائب لتظل دائما براقة نباهى بها الدنيا وما فيها.

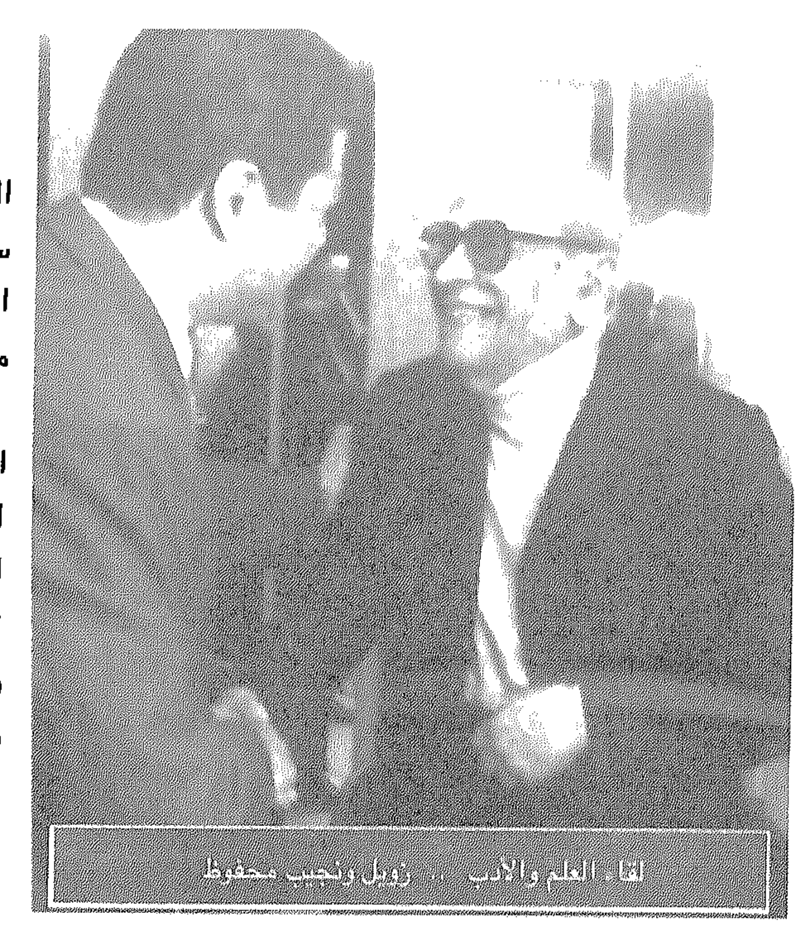
وأحمد زويل مثله مثل الماسة العظيمة الكبيرة المبهرة، جوهرة أصلها مصرى وجذورها مصرية، يفتخر بمصريته ونحن نقدره ونحترمه وأمريكا وجدت هذه الماسة العظيمة فأعطتها من اهتمامها الكثير ومنحتها الفرص لتزيح عنها أعباء كثيرة وقدمت له ما يساعده على أن يظهر بريق عبقريته وحماسه للعلم، وأمريكا من الدول التى تقدم لرعاياها دائما فرصا لظهور مهاراتهم ولديها العقول والقلوب المخلصة التى تكتشف وتصقل وتبقى على جواهرها لامعة وتضعها على هامات الطرق وأعالى المنصات فهنيئاً لها بأحمد زويل وهنيئا لنا بمعرفت.

● أبحاثه تجاوزت خمسمائة بحث وتلاميذه أربعمائة باحث

لقد تعرفت على أ.د. أحمد زويل لأول مرة فى عام ١٩٨٩ حيث حضرت له محاضرة علمية بالجامعة الأمريكية بقاعة إيوارت دعانى لحضورها صديقى العزيز أو قل ابنى المخلص أ.د. صلاح عرفة ودخلت القاعة متوقعة أن أرى رجلا مهيبا متكبرا مقطب الجبين زائغ البصر كمعظم الأساتذة الكبار الأجانب الذين سبق أن حضرت لهم محاضرات بالجامعة الأمريكية.. ولكنى لم أر ذلك .. فقلت فى نفسى ربما جئت مبكرا بعض الوقت وكان هناك على المنصة من يجهز أجهزة الاستماع والميكروفونات وأجهزة العرض والشاشات فلقد كانت هناك شاشتان وليست واحدة وبعض الشفافات وبعض الشرائح وجهازان للعرض وما إلى ذلك وعندما نظرت لساعتى لأرى موعد المحاضرة المعلن إذا بالاستاذ الدكتور صلاح عرفة يقدم أ.د.أحمد زويل وهناك من يضع له الميكروفون والبطاريات فى جيب جاكتته .. ما هذا .. هذا الرجل الذى يساعد على ترتيب أجهزة العرض .. شاب ضاحك السن مهذب المظهر وبدأت المحاضرة المبهرة وقدم اكتشافه العظيم لتصوير مولد الجزيئات

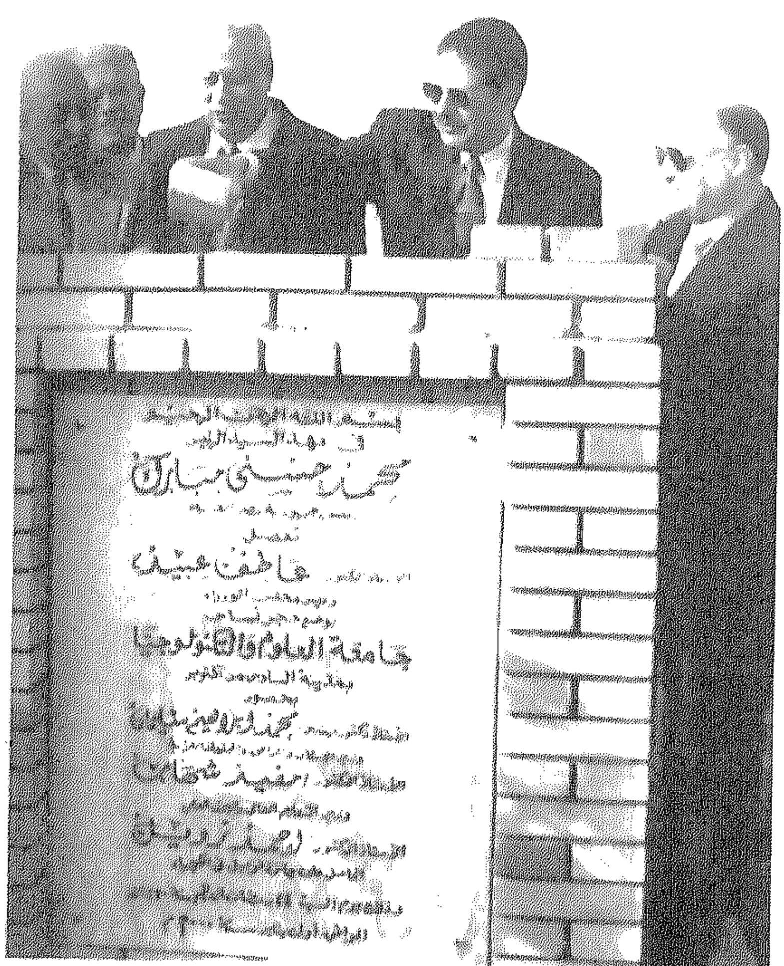
الكيميائية بأسلوب رائع سهّل فيه أصعب التصورات وعرض فيه مقدمة طريفة عن تاريخ التصوير وتغير سرعة التقاط الصور إلى أن انتهى بنا باستخدام الليزر فائق السرعة لتصوير تفكك الجزىء واندماج الذرات وتعرفها من دوران ومحاورة حتى تمتزج وتتزاوج أو تنفصل .. ياروعة العلم .. كنت قد قرأت عن هذا الاكتشاف العظيم .. ولكن حضور تلك المحاضرة أعطانى رؤية صادقة وواضحة عما قام به أحمد زويل ..

شغلنى الحديث العلمى عن متابعة مظهر هذا الرجل وبساطته فى عرض الصعب من الأمور العلمية التكنولوجية الجديدة .. هو لم يكتشف ولم يصمم جهاز ليزر الفيمتو ثانية .. ولكنه استخدمه لإثبات ديناميكية تكوين الجزيئات وترابطها أو



لقاء العلم والأدب .. زويل ونجيب محفوظ

في الاحتفال بوضع حجر الأساس لجامعة العلوم والتكنولوجيا بمدينة السادس من أكتوبر - ٢٠٠٠

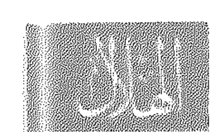


انفصالها وهو مالم يسبقه إليه أحد .. لقد فتح أحمد زويل مجالا جديدا فى علم الكيمياء .. سخّر فيه الفيزياء لدراسة الكيمياء الديناميكية ومايحدث فى أزمنة متناهية فى الصغر تقاس بالفيمتو ثانية وكان مقدارها حينذاك ١٩٠ فيمتو ثانية .. ماهذا الجمال والسلاسة التى يعرض بها أحمد زويل أهم أحداث القرن العلمية والتكنولوجية .. دعوت له فى نفسى فى تلك اللحظة التى استوعبت فيها الحدث بكل جوانبه العلمية، وعندما انتهى من محاضرته .. كنت أصفق له ليس لأنه انهى المحاضرة .. ولكن لأننى فهمت واستفدت أضعاف أضعاف ماقرأت .. وذهبنا إلى الشاى حيث قدمنى د.صلاح عرفة لأتعرف على د.أحمد زويل وسعدت جدا بهذا الموقف الذى رأيت فيه بساطة ومهابة فى الوقت نفسه وبشاشة لم أعهدها فى أمثاله .. مما شجعنى أن أحكى له عن تاريخ محاولاتى إدخال فيزياء الليزر وتكنولوجيته فى مصر منذ عام ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٩ عندما رأيته لأول مرة وبهت الرجل من قدرتى على المثابرة وقبل على الفور دعوتى له لإلقاء محاضرة بمركز علوم الليزر بكلية العلوم الذى لم يكن قد صدر له قرار بعد بإنشائه وإنما كان لايزال معملا لفيزياء الليزر .. وطلبت منه أن تكون المحاضرة أكثر علمية مما قيل بالجامعة الأمريكية حيث كان المستمعون من جميع التخصصات حينذاك، وتوقعت أن يحضر محاضرته بكلية العلوم كثير من العلميين الدارسين والمتعمقين فى علوم الليزر ..

وقبل د.أحمد زويل الدعوة وكانت أول محاضرة يلقيها بجامعة القاهرة فى عام ١٩٨٩وكانت غرفة المحاضرات صغيرة مملوءة عن آخرها وطرقات مبنى معمل الليزر مليئة بالباحثين الشبان .. وكانت محاضرة ممتعة تلتها زيارته لمعمل ليزر ثانى أكسيد الكربون الذى عمل عليه الرعيل الأول من الباحثين فى علم فيزياء الليزر وتطبيقاتها .. وكان د.أحمد زويل سعيدا جدا برؤية المعمل وطلاب البحوث وطفق يثنى عليهم ويشجعهم ويشجعنا بأنه يرى لأول مرة فى مصر مثل هذا الجهد وهذه البحوث فى مجالات علمية جادة.

وكنا قد تقدمنا بمشروع لإنشاء المعهد القومى لعلوم الليزر

○ الرئيس مبارك راعى العلم يمنحه أعلى وسام، ويوافقه على إنشاء جامعة التكنولوجيا

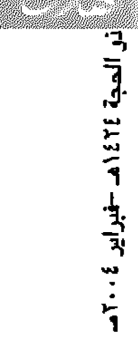


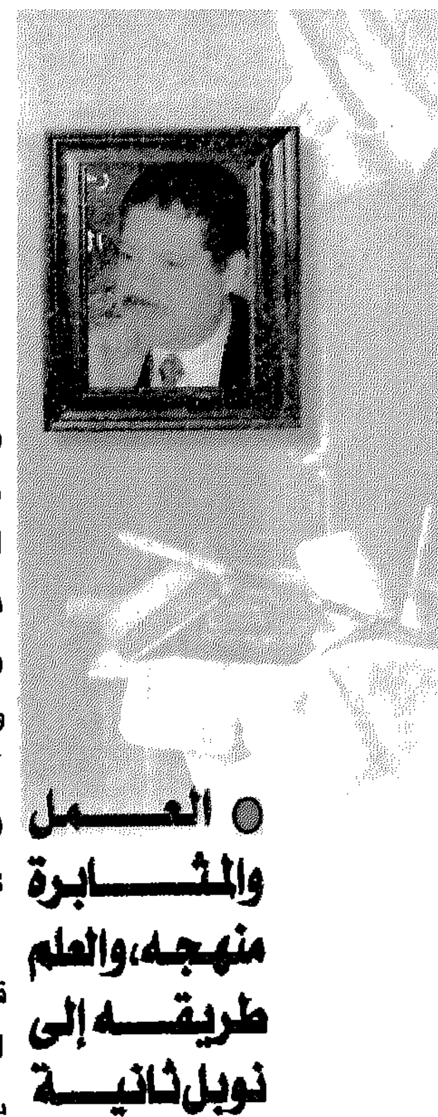


زويل وسط جموع العلماء فى أحد المؤتمرات



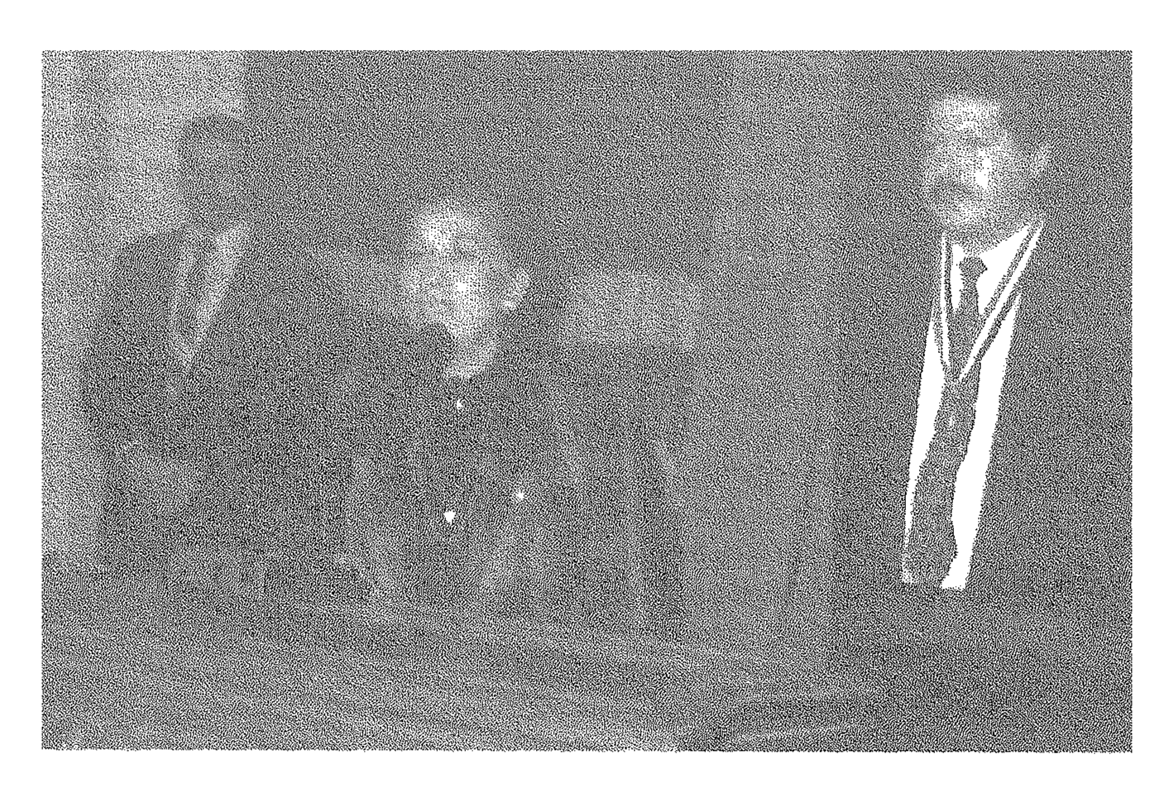
.. ويتشاور مع د. لطفية النادى التى تنصت باهتمام





كمعهد تابع لكلية العلوم وذلك فى عام ١٩٨٥ وكانت الأمور تسير ببطء وتعانى من صراعات لانفهم مغزاها ولانود أن نفهمها ولكننا كنا نثابر ونأمل فى فرج من الله سبحانه وتعالى لنضع جامعة القاهرة فى ركب التكنولوجيا المتقدمة العالية حتى هيأ الله لجامعة القاهرة رئيسا عظيما هو د.مأمون سلامة يؤمن بالعلم والعلميين ويؤمن بضرورة دفع عجلة التقدم وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٨٩ فوافق على إنشاء مركز ذى طابع خاص هو المركز القومى لعلوم الليزر وعينت مديرة له عام ١٩٩٠ .. وهنا تعمقت صلاتنا مع د.أحمد زويل الذى دعوناه لزيارة المركز وإلقاء محاضرة علمية وتشاورنا معه فى الخطة التى وضعناها للوصول بالمركز الى معهد واسميناه National Institute of Laser Sciences (NILS) إلا أن الأستاذ الدكتور زويل اقترح إضافة كلمة مهمة حولته إلى (NILES) وهو نهر النيل مصدر النماء والثراء لبلادنا وأصبح National Institute of Laser Enhanced Sciences وكان دائم الموافقة على رؤيتنا للمشروع وكان سعيدا جدا بتفاؤلنا وكثيرا ما قال ألا تظنين يالطفية أن نختصر بعض التخصصات مثل التطبيقات الطبية؟.. وكان هدفى من ذلك أن يدر هذا التخصص بعض العائد المادى على المعهد حتى نستطيع دائما أن نطور الأجهزة وأن نحافظ على صيانتها إلا أنه بالفعل مثل حجر عثرة على المعهد كما سنرى .. المهم دعونا مخلصين أ.د.زويل لإلقاء محاضرة عامة يشرح فيها تطور العلوم عالية التقانة إلى أن وصلت إلى مايقوم به من دراسات وماحققه من اكتشاف تصوير الجزىء الذى كان يستخدم فيه أعلى درجة من تجميع الأطياف الذرية والجزيئية واستخدام ليزر لتفتيت الجزىء عالى القدرة والشدة وفائق السرعة وليزر آخر يستخدم كمجس لما يحدث أثناء التفكيك والترابط وهنا كان الهدف محاولة السيطرة على الجزيئات لتكوين تركيبات جديدة أو إدخال تعديلات على تركيبها بعد تفهم خواصها وهو ما فتح الباب على مصراعيه لعلم جديد أشاد به جميع علماء العالم وانبهرنا به وهو علم الفيمتوكيمياء والدراسات الفيزيائية والكيميائية التى تصل إلى تركيبات الصبغات والأدوية التى تساعد فى التغلب على بعض الأمراض الشرسة وكان هذا

○ العمل والمثابرة منهجه، والعلم طريقه إلى نوبل ثانية

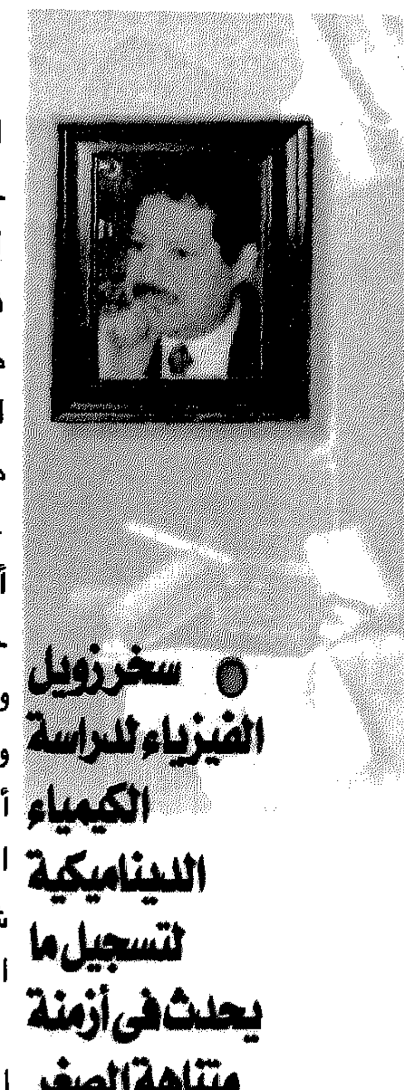


د. لطفية النادى تقدم زويل فى إحدى الاحتفاليات

أملنا.

وكانت محاضرة د.زويل فى عام ١٩٩١ بالقاعة الكبرى لجامعة القاهرة، مظاهرة علمية اكتظت فيها القاعة بالشيب والشباب وخيرة العلماء .. وحضرها نائب رئيس الجامعة لشئون الدراسات العليا والبحوث أ.دمحمد الجوهرى نائبا عن رئيس الجامعة أ.د.مأمون سلامة الذى كان يعزف دائما عن الظهور ويعمل فى صمت ويدفع عجلة العلم دائما بمثابرة وجهد بالغ لإيمانه الشديد بأن العلماء هم عباد الرحمن الصادقين الملتزمين لرفعة بلادهم بالإخلاص والدين . وقدم أ.د.زويل أرفع جوائز الجامعة بمنحه درع جامعة القاهرة كما قدم له عميد كلية العلوم الميدالية الذهبية لمركز علوم الليزر وتطبيقاتها عرفانا منه باهتمامه وتشجيعه للقائمين على تنفيذ وإدارة هذا المركز المهم بجامعة القاهرة وبكلية العلوم .. ولا أدرى الأسباب التى تدعو د.زويل لعدم ذكر هذه الاحتفالية الكبيرة وتلك الجوائز التى إن لم تكن ثمينة فى قيمتها فهى غالية فى جوهرها ومعناها.

وكنا طوال هذه الفترة نتابع تقدم أ.د.زويل فعندما رأيناه أول مرة كانت بحوثه تكاد تقرب مائتين وطلابه لايزيدون على ثلاثين طالبا ولكنه واصل التقدم وزادت إمكانياته من الأجهزة ومن الطلاب وبدأ فى إدخال تقنية جديدة أخرى بأن استطاع الحصول على شعاع قوى من الإلكترونات فى زمن يعادل ٢٠٠ فيمتو ثانية فى الفراغ وكان ذلك حدثا على مستوى العالم وواصل معه الجهد لاستثمار هذا



- سخر زويل الفيزياء للدراسة الكيمياء الديناميكية لتسجيل ما يحدث فى أزمنة متناهية الصغر

الاكتشاف والإنجاز العظيم فى دراساته.. وتوقعنا له الحصول على جائزة نوبل فى أوائل عام ١٩٩٤ ولكن سبقه لذلك بعض العلماء الآخرين ليس لأن إنجازاتهم أهم من إنجازاته ولكن بحكم السن فإن د.زويل كان فى ذلك الوقت لم يكمل بعد خمسين عاماً.. ولكن طلابه فى البحوث زادوا ونشره العلمى زاد وإحساس العالم العلمى فى جميع أنحاء المعمورة زاد بل فاق كل تصور.. وكان مؤتمر افتتاح المعهد القومى لعلوم الليزر على الأبواب فى مارس ١٩٩٤.. وسارع علماء العالم للاشتراك فيه حيث إن د.زويل قبل أن يشاركنى فى رئاسة المؤتمر.. لقد كان لاسمه فعل السحر فى جذب علماء حاصلين على جائزة نوبل مثل بلومبرجن وعلماء واعدين آخرين من أنحاء العالم ونجح المؤتمر نجاحا باهرا وافتتحه أ.د.مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة آنذاك خلف أ.د.مأمون سلامه ويرى فى الصور الأعداد الكبيرة من كل الجنسيات التى حضرت هذا المؤتمر وعرضت أبحاثها فيه مشجعة شبان الباحثين وملأتنا حبا لهذا العلم الرائع الذى أدخل بتقنيته الكثير على جميع التخصصات..

وفى هذا المؤتمر منح د.مفيد شهاب اللوحة التذكارية للمعهد الدكتور أحمد زويل، وكان الجميع مبهورا بالإنجاز الكبير الذى قمنا به من معامل وبحوث وإن كانت فى أول الطريق إلا أن تكريم كل العاملين فى المشروع كان إنجازاً رائعاً..

ثم انطفأت شعلة الحماس بعد عدة شهور لدينا بعد أن أدركنا المعاش ولم يحترم ويقدر ضرورة مواصلة العمل الجاد بهذا المعهد الذى تم فصله عن كلية العلوم ليرأسه أحد الاساتذة الأطباء.. هو ممتاز فى تخصصه.. ولكن تخصصات المعهد كانت ومازالت أكبر بكثير من تخصص أى طبيب لأنها تكنولوجيا عالية تتطلب علماً غزيراً ومثابرة مثل التى بذلناها على مر السنين من عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩٤ والمشروع كان مقررا له أن ينتهى فى عام ١٩٩٧.. وهنا لى وقفة شكر وامتنان للأستاذ الدكتور أحمد زويل الذى حاول أن يوضح للمسئولين خطأ هذا القرار.. إلا أننى رحلت عن القاهرة إلى دولة قطر.. وعملت هناك على إنشاء معمل جديد صغير لا يقارن بما قمت به فى مصر.. وهو معمل للاتصالات

باستخدام الليزر..

انقطعت صلتى بالمعهد ولكنها لم تنقطع أبداً ولو للحظة واحدة عن متابعتى لنشاط وتقدم أ.د.زويل الذى كنت أدعو له دائماً فى صلواتى أن يحصل على جائزة نوبل.. وتوج هذا العالم الكبير بحصوله على جائزة نوبل وعلى جوائز أخرى قبلها وبعدها وتنافست جامعات أوروبا وأمريكا بل وروسيا ودول شرق أوروبا فى منحه الدكتوراه الفخرية وكذلك الجامعة الأمريكية بالقاهرة.. أما جامعاتنا فلا حديث عنها.

أما رئيسنا العظيم حسنى مبارك فلقد احتفل به وأعطاه ومنحه أكبر وسام وشرفه بالحديث إليه وتكريمه وموافقته على إنشاء جامعة العلوم والتكنولوجيا فى مصر..

ونتساءل.. ما الذى حدث؟.. الذى حدث هو ما يحدث دائماً كلما كبر المصريون.. فلقد اندثرت آمالنا من قبل فى الطاقة الذرية.. وتلاها انهيار الآمال فى التكنولوجيا والتقانة العالية.. فهل يا ترى ستلحق جامعة العلوم والتكنولوجيا بهذين المشروعين السابقين؟ أما زويل فى أمريكا.. فهو مازال يزداد بريقا وتجاوزت أبحاثه ٥٠٠ بحث، وطلابه ٤٠٠ طالب.. ودراساته تعددت لتربط بين الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا لدراسة ماهية تركيب البروتينات والجينات.. وهو الآن يعمل بجد ويثابر فى سبيل الحصول على جائزة نوبل الثانية ندعو له دائماً بدوام التقدم والازدهار ولنا أن نستفيد من علمه بحضور المؤتمرات وعقدها سواء بمصر أو بالخارج..

★★★

لقد حان الوقت لكى ننظر بجدية أكبر لإنشاء وتذليل العقبات لإقامة جامعة العلوم والتكنولوجيا والتى احتفل بوضع حجر أساسها بمدينة السادس من أكتوبر فى الأول من يناير عام ٢٠٠٠ وشارك فى هذا الاحتفال الدكتور عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء وعدد من الوزراء ■

ماذا يعنى مجتمع المعلومات المصرى..؟

بقلم
د.أحمد درويش *

يشهد العالم حاليا تطورا هائلاً فى مجال الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ، وهو ما يطلق عليه البعض الثورة المعلوماتية ، وقد شملت هذه الثورة جميع مجالات الحياة ، وأحدثت تطورا ملحوظا بجميع المؤسسات العاملة بالمجتمع . من أهم هذه التطورات ظهور نموذج تعامل جديد بين المؤسسات وبعضها ، وبين الأفراد والمؤسسات . يتميز هذا النموذج بأنه لا ورقى ، إذ يعتمد على تبادل البيانات والطلبات الكترونيا ، كما أنه يستغل تكنولوجيا شبكات الحاسبات ، ومن ثم لايتطلب وجود الطرفين فى نفس المكان الجغرافي . الحكومات وإن كانت أبطأ الجهات تأثرا وأقلها تفاعلا مع التغيير إلا أنها

* المشرف على برنامج الحكومة الالكترونية



وبضغوط غير منظورة من المنافسة مع المؤسسات الخاصة لإرضاء العميل ، امتد تأثير نجاح هذا النموذج ليشمل الحكومات ، وبدأ العديد من الحكومات فى الكثير من الدول المتقدمة وكذلك النامية باستخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لتحسين كفاءتها، ولتقديم خدمة مميزة لمواطنيها وذلك من خلال مايعرف ببرامج الحكومة الإلكترونية .

ونظرا لخطأ المسمى الذى اشتهرت به هذه البرامج ، حيث إن لفظة الكترونية متحققة بالنظم الحكومية منذ أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، عندما بدأ استخدام الحاسبات فى الأعمال الحكومية، لذا فإنه من المناسب أن نبدأ بتعريف الحكومة الالكترونية ، وأكثر هذه التعريفات شيوعا هو استخدام تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لإحداث تطوير فى أساليب عمل الحكومات ، وكذلك فى مفهوم الحكومات عن نموذج وآليات تقديم الخدمات للمتعاملين (مواطنين - رجال أعمال - مستثمرين - موردين - مصدرين - شركات) . ويدخل فى نطاق ذلك تطوير المفهوم الكلاسيكى لخدمة المواطن ، فالمواطن طبقا لفلسفة الحكومة الالكترونية يعتبر عميلا للجهات الحكومية ،التى تحاول دوما إرضاءه عن طريق تقديم الخدمات الحكومية له ، بالشكل والأسلوب الذى يناسبه وبالسرعة والكفاءة المطلوبة فى أى مكان وكل وقت . وعلى ذلك فإن تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات هى وسيلة أو أداة وليست هدفا فى ذاتها.

قاعدة بيانات مشتركة

ويمكن تقسيم الخدمات التى تقدمها الحكومة الالكترونية إلى ثلاثة أنواع طبقا للفئة التى يتم تقديم الخدمة لها ، النوع الأول هو خدمات تقدم للجهات الحكومية (G2G - Government to Government) ، وبمعنى أدق هى عملية ميكنة الجهات الحكومية المختلفة وإنشاء قواعد البيانات الاقتصادية ، وكذلك شبكات الربط وتداول البيانات ، وتعد هذه المرحلة بمثابة حجر الأساس لأى برنامج حكومة الكترونية ناجح ، فميكنة الجهات والربط بينهما يعطيان الفرصة لتحسين الأداء وخدمة المواطن . أما النوعان الثانى والثالث فهما

خدمات الحكومة للمواطن Governmen to Citizen- G2C، وخدمات الحكومة لقطاع الأعمال Government to Business - G2B وكلاهما يهتم فى المقام الأول بتطوير الخدمة الحكومية ، فالنوع الأول يهتم بتقديم أفضل الخدمات للمواطن، والهدف من ذلك هو تحقيق مستوى مرتفع من الرضا العام بين المواطنين ، وكذلك تقليل الضغط والزحام على مراكز تقديم الخدمات الحكومية مما سينعكس بدوره على تخفيف الزحام فى العواصم والمدن الرئيسية ، والنوع الثانى يهتم بالمستثمرين والشركات فهو يقدم خدمات للمستثمر فى كل المراحل بدءا من قرار الاستثمار مرورا بجميع الخطوات من تراخيص ، جمارك ، تأمينات ، ضرائب وغيرها وقد أدى تنفيذ هذه الخدمة فى العديد من البلاد إلى زيادة معدلات الاستثمار بها ، وزيادة إقبال المستثمر عليها .

متطلبات الحكومة الإلكترونية

ونجاح برنامج الحكومة الالكترونية يعتمد على عدة عوامل ومتطلبات منها وجود بنية تحتية قوية للاتصالات ، تمكن المواطنين من التمتع بخدمات الحكومة الالكترونية عن طريق الشبكات مثل التليفون والإنترنت والتليفون المحمول وغيرها ، أما العامل الثانى فهو انتشار معدلات استخدام الحاسب والإنترنت بين المواطنين والشركات ، واستعدادهم للنمط الجديد لتقديم الخدمة . وفى هذا الصدد فإن أى برنامج للحكومة الالكترونية يجب أن يقترن ببرنامج يعمل على رفع معدلات استخدام الحاسب والإنترنت عن طريق توفير الحاسب بسعر مناسب وبالتقسيط وكذلك توفير خدمة الإنترنت بسعر رمزى، وهو ما بدأت به التجربة المصرية كما أنه لا مناص فى فترة السنوات الأولى من البرنامج من إنشاء مراكز خدمة متطورة ، تساعد المواطن الذى لا يملك التكنولوجيا على الاستفادة منها من خلال هذه المراكز.

القوانين والتشريعات المنظمة لعملية التعامل الالكترونى عبر الشبكات تعد أيضا من أهم الركائز للانتقال إلى النمط اللاورقى لإنجاز الخدمة ، حيث يتطلب نموذج العمل الجديد وجود تشريعات تحكم عملية التعرف على الهوية ، مثل قوانين التوقيع الإلكترونى وسرية البيانات ومحاربة القرصنة وغيرها .

جدوى المشروع الحكومى

وقد يتبادر إلى أذهان البعض تساؤل

عن جدوى مشروع الحكومة الإلكترونية ، وهل يؤدى تنفيذ البرنامج إلى مكاسب ومنافع للدولة ، وهل تغطى هذه المنافع التكاليف التى تتحملها الدولة لتنفيذ المشروع . وللإجابة عن هذا السؤال يمكننا عرض بعض المنافع المباشرة وغير المباشرة التى يمكن أن تتولد من تنفيذ مشروع ضخم مثل الحكومة الالكترونية . أما عن المنافع المباشرة فتتمثل معظمها فى تقليل تكاليف والنفقات المختلفة للحكومة ، ومن ذلك خفض للتكاليف المباشرة مثل التكاليف الإدارية ، وكذلك التكاليف الخاصة بالخدمات المشتركة بين الوحدات الحكومية لنفس العملية ، وكذلك هناك خفض ملحوظ للنفقات ، ناتج عن تحسين وتطوير الأداء . وهناك أيضا منافع متعلقة بتوفير الوقت والجهد والمال الناتج عن إنجاز الخدمة من المنزل بدلا من الذهاب إلى مقدمى الخدمة ، والانتظار لأوقات طويلة والذهاب أكثر من مرة والمعاناة من الاختناقات المرورية وغيرها أما عن المنافع غير المباشرة فتتمثل فى ازدياد حالة الرضا العام للمواطن ، وكذلك ازدياد معدلات الاستثمار نتيجة للخدمات المميزة التي تقدمها الحكومة . أما عن جدوى مشاريع الحكومة الالكترونية والعائد الاقتصادى من تنفيذها ، فقد أشارت النتائج التى قامت بها دراسة حديثة إلى أن نسبة العائد إلى التكلفة من تنفيذ مشاريع الحكومة الالكترونية هو ٩٢٪ للمواطنين و٥٤٪ لخدمات قطاع الأعمال و١٢٨٪ للخدمات المتبادلة بين الوحدات الحكومية .

وانطلاقا من هذه المقدمة يمكننا عرض تجربة مصر فى تنفيذ برنامج الحكومة الالكترونية ، وهو ما نطلق عليه مبادرة مجتمع المعلومات المصرى لتوصيل الخدمات الحكومية إلكترونيا ، وهو إحدى العلامات الأساسية فى طريق مصر لرأب الفجوة الرقمية وتحويل المجتمع المصرى إلى مجتمع معلوماتى متطور : وقد بدأت الشرارة بإعلان السيد الرئيس حسنى مبارك لمبادرة مجتمع المعلومات المصرى فى سبتمبر ١٩٩٩ ، وتلا ذلك إنشاء وزارة للاتصالات والمعلومات فى أكتوبر من نفس العام ، وقع على عاتقها تنفيذ هذا التكليف وكان برنامج الحكومة الالكترونية أحد ستة محاور جنبا إلى جنب مع التوصل / المعاملات الإلكترونية / التعلم الإلكترونى / الخدمات الصحية / توثيق التراث تشكل الركائز الأساسية للانتقال إلى مجتمع المعلومات .

أهداف المشروع

وقد حددت الحكومة المصرية رؤية

واضحة وبسيطة لتنفيذ المشروع وهى تقديم خدمات حكومية على مستوى عال من الجودة للجمهور أينما كانوا وبالشكل الذى يلائمهم بحلول عام ٢٠٠٧ . ولتحقيق هذه الرؤية حددت الحكومة عدة أهداف رئيسية منها مايتعلق بخدمة المواطن بالشكل والأسلوب الأمثل ، ومنها مايهدف إلى تشجيع الاستثمار عن طريق تبسيط الإجراءات وإنشاء بوابة الكترونية لتعامل المستثمر مع الحكومة ، وتوفير المعلومة الصحيحة والدقيقة التى تساعده على اتخاذ قرار الاستثمار ، وبالإضافة إلى تطوير الأداء الحكومى وخفض الإنفاق وتحسين مركز مصر فى النظام العالمى .

وتتبع الحكومة العديد من السياسات المتطورة فى تنفيذ البرنامج والتى تضمن مشاركة فعالة للقطاع الخاص ، وتشجع نماذج التنفيذ المبتكرة ، وتضمن نسبة من المشاركة بين الجهات الحكومية فيما يتعلق بتبادل المعلومات والتعاون فى تقديم الخدمة . ومن أهم هذه السياسات تلك التى تهدف إلى تهيئة المناخ القانونى المناسب لتنفيذ المشروع وتلك المتعلقة بجودة الخدمات .

أما عن الإطار التنفيذى للبرنامج فهو يعتمد على أربعة مشاريع رئيسية تعمل على التوازى لتحقيق الأهداف المعلنة . المشروع الأول هو مشروع إرساء البنية الأساسية ، وهو يختص بالأمور القانونية والتنظيمية فهو من جهة ينشر مفاهيم أمن وسرية الشبكات على الساحة التشريعية ، ومن جهة أخرى يدرس اللوائح المنظمة لعمل الجهات الحكومية ويطورها بالشكل الأمثل، الذى يتلاءم مع سياسات وأهداف البرنامج ، يهتم المشروع أيضا بالنواحى التقنية اللازمة لتنفيذ المشروع فهو يضع المواصفات القياسية لمشاريع الميكنة بالوزارات والجهات المختلفة ، وكذلك يطور من البنية الأساسية للحكومة برفع معدل انتشار الحاسبات وأحدث البرامج بها ، المشروع أيضا يعمل على تصميم وتنفيذ نظام لبنية المفتاح المعلن بالحكومة بالتعاون مع الوزارات والجهات المعنية وبيوت الخبرة وشركات القطاع الخاص . ومن أهم مكونات هذا المشروع بوابة الحكومة الالكترونية والتى صممت لوضع جميع الخدمات الحكومية على الشبكة بشكل متطور يتناسب مع احتياجات المواطن .

أما المشروع الثانى فهو مشروع تقديم الخدمات للمواطنين ، والقرى ، تبع فلسفة



متطورة فى خدمة المواطن والمستثمر تعتمد على توفير الخدمة على مدار ٢٤ ساعة خلال جميع أيام الأسبوع من خلال شبكة الحكومة ، وكذلك من خلال مراكز الخدمة الجماهيرية التى سوف يتم إنشاؤها فى جميع المحافظات والأقاليم المختلفة ، وذلك بمكاتب البريد والسنترالات ونوادى تكنولوجيا المعلومات وغيرها . والمشروع أيضا يهدف بشكل رئيسى إلى خدمة سكان المحليات والقرى، وذلك من خلال إنشاء مراكز خدمة متطورة فى المحافظات المختلفة ، تقدم خدمة مميزة ومميكنة لسكان المحافظات المختلفة.

مثال ذلك العديد من الخدمات التى تقدم من خلال بوابة الحكومة المصرية على الإنترنت ومنها الحصول على مستخرج من شهادة الميلاد أو بدل فاقد الرقم القومى (يقدم الطلب من على الإنترنت وترسل شهادة الميلاد أو بدل فاقد الرقم القومى إلى المنزل فى خلال ٤٨ ساعة بالبريد المخصوص الذى يسلم باليد) وسداد فاتورة التليفون وبعض الخدمات الأخرى التى يتوالى تنفيذها تباعا وندعو القارىء إلى زيارة الموقع وعنوانه www.egypt.gov.eg والموقع يقدم خدماته باللغة العربية .

أما المشروع الثالث فهو مشروع ميكنة نظم العمل وتطبيق نظام الأرشيف الالكترونى بالوزارات والجهات الحكومية المختلفة وهو مبادرة لاستغلال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فى رفع كفاءة الأداء الحكومى وخفض النفقات ، ويقدم المشروع فكرة الميكنة من خلال مجموعة من التطبيقات الالكترونية الموحدة لتخطيط موارد المؤسسة الحكومية والتي تتضمن نظم الحسابات ، والموازنة ، وشئون العاملين ، والمخازن ، والمشتريات . يتم تنفيذ هذا المشروع بالتعاون مع الشركات المصرية وهو يهدف من جهة إلى تطوير الأداء بالحكومة عن طريق إعادة هندسة دورات العمل ومن جهة أخرى إلى تشجيع شركات القطاع الخاص وبناء قدرة تنافسية تضمن لها وجودا فى الساحة المحلية والإقليمية .

والمشروع الرابع والأخير هو مشروع بناء الهيكل المعلوماتى وقواعد البيانات الاقتصادية ودعم القرارات ويهدف إلى توفير معلومات دقيقة لصناع القرار من خلال قواعد بيانات عملاقة تشمل جميع البيانات وتتصل ببعضها وتغطى عدة قطاعات اقتصادية مختلفة ، وسيوفر المشروع أيضا مصدر معلومات هائلا للمستثمرين لإتمام دراسات عن

مشاريعهم تساعدهم على تحديد العائد والمخاطر المتوقعة من التنفيذ .

انجازات المشروع

وقد حقق المشروع العديد من الإنجازات فى عدة مجالات . ففى مجال البنية الأساسية تم تنفيذ بوابة الحكومة المصرية على شبكة الإنترنت وموقعها http://www.egypt.gov.eg وهى بوابة الكترونية لتقديم العديد من الخدمات للمواطن والمستثمر ، تم كذلك وضع مواصفات قياسية لكل من نظم الشبكات والتراسل بالحكومة ، إدارة وتصنيف الوثائق ، التكامل بين التطبيقات وتأمين المعلومات . أما من ناحية تهيئة الجهاز الحكومى ورفع قدرته التنافسية ففى هذا المجال تم التعاون مع الشركات العالمية لإتاحة الفرصة أمام جميع الجهات الحكومية للتمتع بالتراخيص وأدوات التطوير الحديثة بسعر مخفض .

أما فى مجال تقديم الخدمات فقد تم تنفيذ العديد من الخدمات التى تخدم المواطن منها الاستعلام عن ودفع فاتورة التليفون ، وكذلك استخراج بدل فاقد الرقم القومى ومستخرج شهادة الميلاد بالتعاون مع وزارة الداخلية ، ومنها أيضا الاستعلام عن نتائج الثانوية العامة وخدمات التنسيق بالجامعات . أما عن خدمات المستثمرين فقد تم تنفيذ خدمات الاستعلام عن التعريفة الجمركية ، متابعة الإقرار الضريبى ، وحساب ضرائب المبيعات بالتعاون مع وزارة المالية والمركز الضريبى النموذجى الموحد .

وفيما يتعلق بميكنة العمل بالحكومة تم تنفيذ نظام العمل الجديد فى وزارة الاتصالات والمعلومات حيث تعمل جميع النظم فى الوزارة بالشكل الآلى الحديث ، كما تم البدء فى نشر النظم الحديثة لتخطيط موارد المؤسسة فى خمس وزارات أخرى، أما فى مجال الوثائق والأرشيف الالكترونى ، فقد تم تطبيق النظام فى مكاتب خمسة من الوزراء بالإضافة إلى مكتب رئيس الوزراء . هذا بالإضافة إلى مايزيد على ٢٨ مشروعا آخر لميكنة نظم العمل بالجهات المختلفة مثل النيابات والشهر العقارى وغيرها .

وبالرغم من هذه الإنجازات فمازال المشروع يواجه العديد من التحديات بعضها يتعلق بالأمور القانونية والتنظيمية ومنها عدم وجود إطار قانونى يشرع عملية إتمام المعاملات عبر الشبكة وكذلك عملية سرية تداول البيانات والمعاملات ، والبعض الآخر يتعلق بصعوبات فى

التنفيذ ناتجة عن غياب الوعي بفلسفة البرنامج وبالتالى مقاومة تنفيذه ، وأخيرا عقبات ناتجة عن المعدل المنخفض لانتشار الحاسب الآلى بين المواطنين وكذلك عدم وجود إطار ميسر للسداد الالكترونى حيث إن استخدام بطاقات الائتمان شفى مصر مازال محدودا . وقد اتخذت الحكومة العديد من الخطوات وتبنت العديد من المشاريع لتخطى هذه العقبات ، فمن جهة تم تشريع قانون للتوقيع الالكترونى وهو حاليا بانتظار العرض على مجلس الشعب، ومن جهة أخرى يقوم البرنامج بالعديد من حملات التوعية والتدريب على استخدام النظام الجديد ، كما تبنت وزارة الاتصالات والمعلومات مبادرة الإنترنت المجانى وحاسب لكل منزل والتى تهدف إلى انتشار معدل الحاسب الآلى بين المواطنين وكذلك قامت بإنشاء مايزيد على ٥٠٠ ناد لتكنولوجيا المعلومات .

ويركز البرنامج على مبدأ رئيسى وهو مشاركة المجتمع بجميع فئاته فى جميع خطوات تنفيذ المشروع من تخطيط وتنفيذ وتقييم للأداء وذلك من خلال عدة قنوات منها البحث الميدانى والمؤتمرات وورش العمل وغيرها ، والهدف من ذلك هو ضمان قيام البرنامج بأهم دور له وهو خدمة المواطن والمستثمر بالشكل الأمثل ■

أقوال عاشت

- ذمة البعض فى إمضائة والبعض ينكر حتي إمضائة

ميخائيل نعيمة

- يجب علي الأديب أن يهدم دون أن ينسي البناء

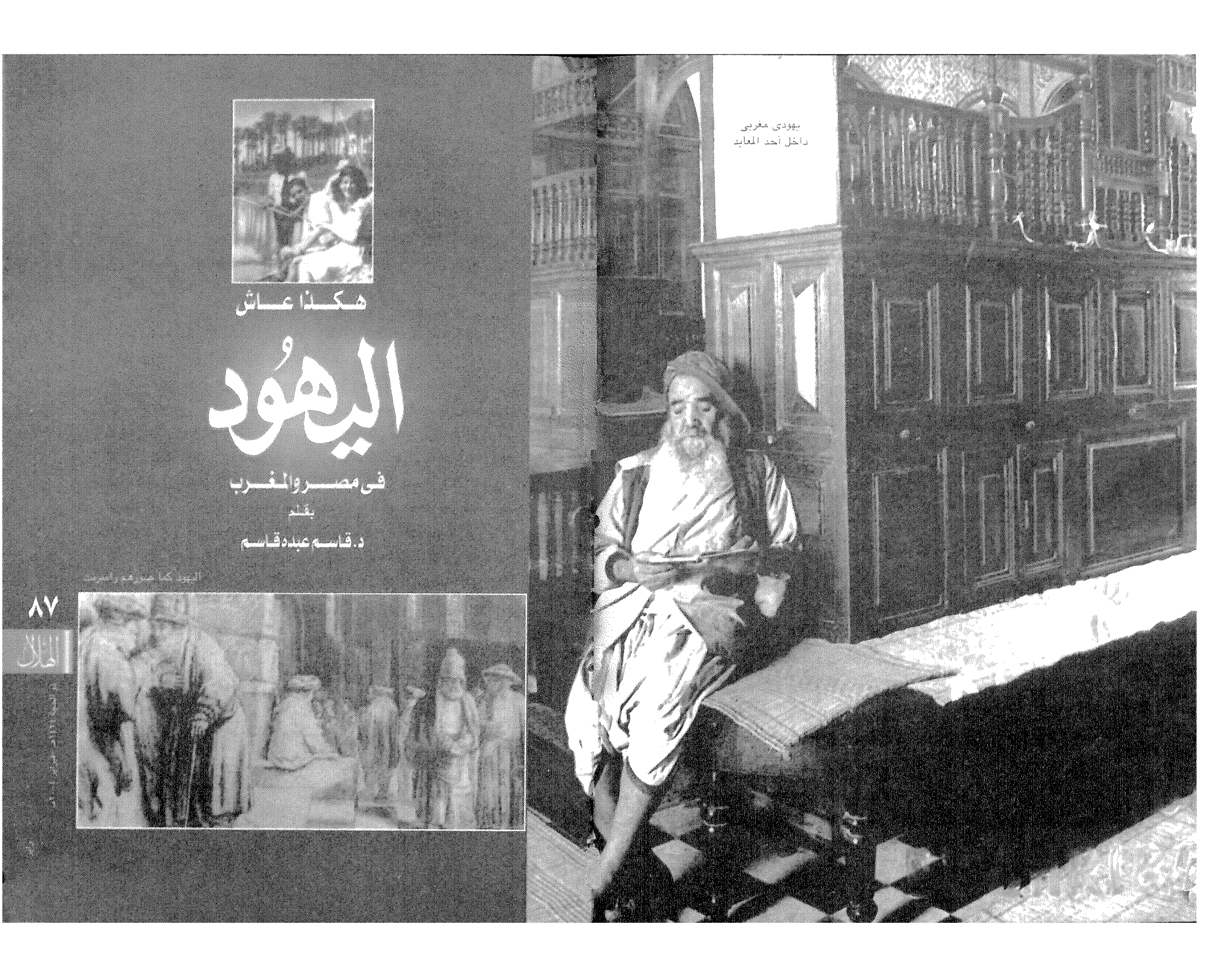
سلامة موسى

- الطمأنينة هي الدليل علي سوء طوية النفس

ليو توليستوي

- لأن الناس لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الموت والبؤس والجهل ، قرروا الا يفكروا فيه ، ليعيشوا سعداء

باسكال



هكذا عاش
اليهود
فى مصر والمغرب
بقلم
د. قاسم عبده قاسم
اليهود كما صورهم رامبرانت
٨٧
الهلال
يهودى مغربى
داخل أحد المعابد

كانت مصر قد تحولت إلى مركز حضارى وثقافى واقتصادى ذى جاذبية طاغية منذ منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ؛ وذلك بسبب الأحوال المضطربة فى المنطقة العربية وعالم البحر المتوسط من ناحية ، وقيام دولة قوية قادرة فى الداخل ومهابة فى الخارج هى دولة سلاطين المماليك التى كانت عاصمتها القاهرة من ناحية أخرى . إذ إن سقوط الخلافة العباسية ، وتصاعد نجاحات الإسبان الكاثوليك ضد مسلمى الأندلس جعل القاهرة بمثابة الحصن الأخير المدافع عن الحضارة العربية الإسلامية ؛ فقد تمكن سلاطين المماليك من دحر الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع وواصلوا هجومهم القوى على المعاقل الفرنجية فى فلسطين وبلاد الشام حتى تم لهم القضاء على آخر المعاقل فى عكا سنة ١٢٩٢ ميلادية ، ومن ناحية ثانية استطاع المماليك هزيمة المغول فى عين جالوت وإعادة الخلافة العباسية فى القاهرة كما واصلوا حروبهم ضد المغول الذين لم يلبثوا أن تحولوا إلى الإسلام وصاروا قوة مهمة فى عالم الإسلام فى غضون جيلين .

أدى هذا بطبيعة الحال إلى نتيجتين غاية فى الأهمية :

أولاهما ، أن القاهرة صارت ملاذا آمنا لكل الفارين من المغول فى الشرق والشمال أو الهاربين من محاكم التفتيش الكاثوليكية فى إسبانيا التى انحسرت مساحة الدولة الإسلامية فيها بشكل مطرد حتى تم النصر النهائى للكاثوليك الإسبان سنة ١٤٩٢ م .

وثانيتهما : أن التجارة العالمية تحولت إلى المرور بالأراضى المصرية ، وصارت الموانىء والمدن المصرية مناطق جذب

للتجار والعلماء والساعين إلى الرزق من كل مكان ، ولم يكن يهود المغرب والأندلس استثناء فى ذلك بطبيعة الحال .

بيد أنه ينبغى علينا أن نوضح أن اليهود فى مصر كانوا على الدوام من عناصر البناء السكانى المصرى منذ عصور موغلة فى القدم . ولم يكن اليهود فى مصر جالية أجنبية ذات خصائص اجتماعية / ثقافية متميزة ، وإنما كانوا جزءا من الجسد المصرى الكلى ، وباستثناء الدين الذي اعتنقوه فإن اليهود قد شاركوا بقية المصريين فى كل شىء آخر ؛ اللغة والعادات والتقاليد والخصائص الثقافية والسمات الاجتماعية العامة .

الهجرة إلى مصر

وإذا كان اليهود قد عاشوا حياتهم باعتبارهم مصريين ؛ فإنهم ظلوا على الدوام أقلية ضئيلة العدد لأسباب دينية وتاريخية موضوعية ، ومع هذا فإن الجماعة اليهودية فى مصر ظلت تستقبل فى الفترة التى يهتم بها البحث، أعدادا من المهاجرين من فارس والعراق وفلسطين لأسباب مختلفة ؛ أهمها الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية المضطربة بسبب الغزو المغولى والحروب الصليبية، كما أن أعدادا كبيرة نسبيا من المهاجرين اليهود إلى مصر جاءوا بفعل الحروب الدائرة بين المسلمين والكاثوليك فى إسبانيا والرياح السياسية والاقتصادية المعاكسة التى هبت على بلاد المغرب العربى آنذاك .

من ناحية أخرى، كان وجود اليهود فى المغرب قديما ويرجعه بعض الباحثين إلى موجات ثلاث من الهجرة اليهودية دفعت بأعداد من اليهود إلى بلاد المغرب العربى قبل الإسلام . وقد أتاحت الدول الإسلامية لليهود فى المغرب قدرا كبيرا من الحرية بحيث برز من يهود المغرب فى المناصب السياسية والإدارية فى مختلف دول المغرب ، كما أن حكام الدول المختلفة التى قامت فى المغرب قربوا اليهود ، بل إن بعضهم بنى لهم أحياء خاصة كما حدث فى فارس الجديدة. وقد عمل يهود المغرب فى كل المهن والحرف التى عرفها ذلك الزمان . ولكن الحروب المتواصلة بين حكام المغرب ، وتدهور الأحوال الاقتصادية ، واضطراب الأمور السياسية ، منذ القرن الثامن الهجرى فصاعدا جعلت من هذه المناطق مناطق طاردة لليهود القادرين ماليا بحيث هاجروا إلى مناطق أكثر أمنا ، ولم يكن هناك مكان أفضل من مصر فى تلك الأثناء .

وربما تكون ظروف اليهود فى مصر قد تحسنت بعد قيام الدولة الفاطمية التى يعتبرها المؤرخون العصر الذهبى لأهل الذمة من اليهود والنصارى ؛ وقد أدى هذا إلى زيادة هجرة اليهود إلى مصر أثناء ذلك العصر (٣٥٨-٥٦٤ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) . ومن ناحية أخرى شهد

احتفال يهودى في مصر



القرنان الثاني عشر والثالث عشر للميلاد تصاعد النشاط التجارى فوق مياه البحر المتوسط . وتكشف أوراق الجنيزا عن أن قسما كبيرا من يهود مصر آنذاك كانوا من المهاجرين أو من سلالتهم .

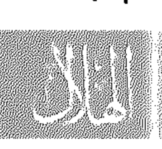
وقد أمدنا الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى الإسبانى بتقرير عن أعداد يهود مصر فى القرن الثانى عشر وذكر أنهم موجودون فى خمسة عشر مكانا بمختلف أنحاء البلاد ، والملاحظ أن النسبة العالية من هذه التجمعات اليهودية كانت فى المدن وفى الموانىء الرئيسية ، كما عاشت أعداد منهم فى الريف . كذلك أوضحت أوراق الجنيزا أن اليهود عاشوا فى ثمانية عشر مكانا آخر غير تلك الأماكن التى ذكرها بنيامين التطيلى .

الاعياد اليهودية في المغرب وتونس

الاسكندرية .. مقصد اليهود

وفى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى حدثت تطورات سياسية وعسكرية فى المنطقة العربية وحوض البحر المتوسط زادت من أعداد اليهود المهاجرين إلى مصر بصفة عامة ؛ فضلا عن أن الظروف السياسية الصعبة ليهود المغرب العربى دفعت بأعداد منهم إلى الهجرة إلى مصر بسبب الرواج الاقتصادى الذى نعمت به نتيجة تحول الطرق التجارية العالمية إليها .

وإذا استعرضنا الأماكن التى ذكرت أوراق الجنيزا أن اليهود أقاموا بها استطعنا أن نعرف أن نسبة كبيرة من يهود المغرب قد استقروا فى الاسكندرية ومدن غرب الدلتا التى كانت فى طريق



الهجرة من المغرب إلى مصر، ووصلت منهم أعداد إلى القاهرة بطبيعة الحال .

كان هناك عدد من اليهود المهاجرين من جنوب أوربا وصقلية يسكنون الاسكندرية أملا فى الحصول على عمل فى هذا الميناء المهم . ولكن أعدادا أخرى من يهود المغرب استقروا فى الاسكندرية أيضا . فقد ذكر الرحالة اليهودى ميشولام الثولتيرى ، الذى زار مصر سنة ١٤٨١ م ، أنه كان يسكن الاسكندرية حوالى أربعة آلاف يهودى ، ثم تناقصت أعدادهم حتى لم يعد بالمدينة سوى ستين أسرة يهودية ، وذكر ميشولام أيضا أن قسما كبيرا من الاسكندرية قد صار خرائب ولم يكن بالمدينة سوى معبدين يهوديين أحدهما كبير والآخر صغير .

كذلك فإن الرحالة اليهودى «عوبديا دا برتنورو» الذى زار الاسكندرية سنة ١٤٨٨ م ذكر أن عدد يهود الاسكندرية كان خمسا وعشرين أسرة فقط وتكشف وثائق الجنيزا عن أن يهود الاسكندرية كان بينهم عدد من اليهود الأثرياء العاملين فى التجارة العالمية ولكنها تدهورت بعد ذلك تماما لأسباب كثيرة . وعلى الرغم من تدهور المدينة فإن الإسكندرية ظلت مقصدا لليهود المغاربة الوافدين بحثا عن فرص العمل وكسب العيش . بيد أن الأحوال العامة للاسكندرية ظلت تتدهور باطراد مما أدى إلى تناقص أعداد سكانها ومن بينهم اليهود بطبيعة الحال .

واللافت للنظر أن المهاجرين اليهود لم يتوقفوا عن القدوم إلى مصر فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك ؛ إذ يحدثنا عوبديا أنه وجد بالقاهرة حوالى خمسين أسرة يهودية ممن أجبرتهم السلطات الإسبانية الكاثوليكية على نبذ دينهم ، وقد فروا إلى القاهرة لكى يعودوا إلى الديانة اليهودية . وقال هذا الرحالة إنه وجدهم فى القاهرة فقراء معدمين لأنهم اضطروا إلى ترك أموالهم وممتلكاتهم وعائلاتهم فى إسبانيا .

يهود المغرب فى مصر

ونستنتج من تقارير الرحالة اليهود ومن أوراق الجنيزا والمصادر العربية أن اليهود عاشوا فى ثلاثة وثلاثين مكانا على الأقل فى جميع أنحاء مصر، ويستلفت النظر أن أكبر الجماعات اليهودية عاشت على طريق الهجرة من فلسطين مثل بنها وبلبيس اللتين كانتا من أكبر أماكن تجمع اليهود المهاجرين من فلسطين إلى مصر ، ومن ناحية أخرى ، كانت الاسكندرية وزفتى والمحلة الكبرى وسمنود ودمسيس ودميرة ودمنهور .. وغيرها من أماكن التجمعات اليهودية الكبيرة على طريق الهجرة من المغرب إلى مصر .

فقد كانت مدينة المحلة الكبرى مركزا تجاريا مهما فى الوجه البحرى منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولأن





حمل اليهود أسفارهم
فى الحل والترحال !

هذه المدينة كانت عاصمة إقليم الغربية منذ وقت طويل فإنها جذبت عددا متزايدا من المهاجرين من شمال افريقيا كما اتخذها عدد كبير من المهاجرين اليهود من تونس والمغرب مستقرا ومقاما

ومنذ فترة بعيدة عاشت بمدينة المحلة الكبرى جماعة يهودية كبيرة العدد نسبيا ظلت موجودة بها حتى منتصف القرن العشرين على أقل تقدير ، ولاتزال إحدى مناطق هذه المدينة تحمل اسم خوخة اليهود . وتكشف وثائق الجنيزا التى ترجع تواريخها إلى القرن السادس والقرن السابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) أن المحلة الكبرى كانت بؤرة هامة لتجمع اليهود المهاجرين من بلاد المغرب العربى .

وقد اشتغل يهود المحلة بعدد من الحرف والصناعات والمهن ؛ منها نسج الحرير والطب وجباية الضرائب ، كما كان من بينهم عطارون وأصحاب حوانيت وصباغون وتجار يعملون فى التجارة العالمية ، وتكشف وثائق الجنيزا أيضا عن أن يهود مدينة المحلة الكبرى كانوا يمتلكون المنازل والعقارات ، كما أن عددا من المعابد اليهودية كان قائما فى هذه المدينة

يهود زفتى وميت غمر

وعلى مدى أجيال عديدة كانت مدينة «ميت غمر» بالغربية سكنا لجماعة يهودية كبيرة العدد أغلبها من اليهود المهاجرين من المغرب أو من سلالتهم ، وكان بعض اليهود فى ميت غمر تجارا على حين توزع الآخرون بين مختلف المهن والحرف . وتشير أوراق الجنيزا إلى أنه كان بهذه المدينة معبدان يهوديان .

وعلى الضفة الأخرى من فرع دمياط كانت مدينة «زفتى» تواجه «ميت غمر» وكانت بها هى الأخرى جماعة يهودية كبيرة ، وكان الأحبار والربيون من يهود هذه المدينة هم الذين يتولون المناصب الدينية الرئيسية فى الجماعة اليهودية فى الوجه البحرى كله ، وكانت بمدينة زفتى محكمة خاصة باليهود تتولى الفصل بينهم حسب شريعتهم . ولدينا عدد من وثائق الجنيزا تتراوح تواريخها بين سنة ١١٠٤ وسنة ١٢٣٢ م تشير إلى أن عدد يهود زفتى كانوا حوالى ستين عائلة أو تسعين عائلة تضم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة فرد على أكثر تقدير، ولم يكونوا كلهم من المهاجرين من شمال افريقيا وبلاد المغرب العربى بل كان بينهم عدد من المهاجرين اليهود القادمين من فلسطين.

وقد اكتسبت مدينة زفتى أهميتها بسبب نشاطها الاقتصادى المتنوع ؛ إذ كان التجار يفدون إليها لشراء الكتان الذى انتشرت زراعته فى المناطق الريفية المتاخمة لها . كذلك كان التجار يفدون إليها بخام الحرير الذى استخدمه أهالى زفتى فى صناعة المنسوجات الحريرية التى كانت أنوال النسيج المنتشرة فى

المدينة والقرى المحيطة بها تستخدمه . وقد اشتهرت النساء اليهوديات في مدينة زفتي بإنتاج نوع من النسيج على أنوالهن ذكرته وثائق الجنيزا باسم «شغل الريف» كان يباع في أسواق القاهرة كذلك كانت بالمدينة وكالة تجارية كبرى كان يتم تداول منتجات المدينة وما يرد إليها فيها . ونستنتج من وثائق الجنيزا أن مدينة زفتى ضمت عددا من اليهود القرائين إلى جانب اليهود الربانيين الذين كانوا أغلبية اليهود آنذاك .

لم تكن تلك بطبيعة الحال هي المدن التي اقتصر وجود اليهود عليها فقط بل إنهم انتشروا في عدد من المدن والقرى على امتداد الأراضي المصرية؛ ولكننا أردنا أن نرصد أهم أماكن تجمعات اليهود المهاجرين من المغرب العربي فقط.

ثلاث فئات عددية

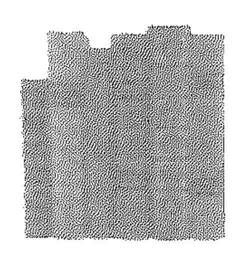
ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الجماعات اليهودية في مصر ، والتي ضمت عددا كبيرا من المهاجرين ، يمكن رصدها في فئات ثلاث وفقا لحجم الجماعة وأهميتها الدينية :

ففي العاصمة القاهرة كان يقيم رئيس اليهود الذي عرف باسم «الناجد» وحوله كانت تتركز السلطة الدينية والقضائية العليا حيث تدار الشئون الداخلية للجماعة اليهودية ولذلك كانت الجماعة اليهودية بالقاهرة أكبر تجمع لليهود في مصر .

أما الجماعات متوسطة العدد فكانت تقيم في المدن والموانيء المهمة مثل الاسكندرية ودمياط والمحلة الكبرى وزفتي في الغربية ، وبلبيس وبنها في الشرقية وقوص في الوجه القبلي .

وكانت الجماعات الأصغر عددا تقيم بالريف وتعتمد كثيرا في أمورها الدينية والقضائية على المعابد ورجال الدين اليهود في المراكز والمدن القريبة..

تكشف هذه الدراسة عن أن يهود المغرب قد وفدوا إلي مصر ضمن هجرات عامة جاءت إلى مصر من بلاد المغرب العربي تحت وطأة الرياح السياسية المعاكسة ، أو سعيا وراء الرزق ، أو هربا من الخطر الإسباني والبرتغالي المتصاعد ضد بلاد المغرب العربي أواخر العصور الوسطى .. أو ما شابه ذلك من أسباب . كما تكشف عن حقيقة أن اليهود في المدن والريف المصري لم يعيشوا بمعزل عن بقية المصريين سواء في سكنهم أو في الحرف والمهن التي امتهنوها . كما تكشف عن أن اليهود الوافدين كانوا يعاملون نفس معاملة اليهود المصريين بمقتضى المفاهيم القانونية المستمدة من الشريعة الإسلامية ، ولذلك فإنهم مارسوا شتى الحرف والمهن التي عرفها المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ■



من ذخائر الكتب العربية



للجاحظ

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

شهرته الجاحظ، وكنيته أبو عثمان، واسمه عمرو بن بحر، ولد بالبصرة ١٦٠هـ = ٧٧٦م، والبصرة يومئذ مهد العلم، ومنتدى الأدب ، ومركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى كله، وفيها أمضى طفولة شقية، فقد والده وهو بعد صغير، وخلّفه بلا ثروة يعيش منها، ولكن جو المدينة الثقافى جعل من ذهابه إلى الكتاب ضرورة، وفيه أظهر الصبى ذكاء خارقا، ونهما حادا إلى المعرفة، فلما اشتد ساعده أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم، يبيع الخبز والسمك فى الأسواق، ثم يغشى المساجد يلقى علماءها، يسمع منهم أو يجادلهم، ويتردد على سوق المربد قرب البصرة، وإليه يختلف الشعراء والخطباء، وشغله ذلك كله عن طلب العيش فضاقت به أمه، وذات يوم جاءها يطلب طعاما فقدمت له طبقا فيه كراريس ورق وقالت: كل، سخرية من

اشتغاله بالدراسة، واهتمامه بالقراءة، وانصرافه عن الكسب، فخرج إلى المسجد ممرورا ، ورآه يونس بن عمران، أحد كبار العلماء ، فأدرك حاله، وسأله عن شأنه، ولما وقف على أمره أعطاه خمسين دينارا، فأخذها الجاحظ منه ومضى إلى السوق، فاشترى دقيقا وطعاما وعاد إلى داره مزهوا، والحمالون من ورائه، فلما رأته أمه دهشت، وسألته: من أين لك هذ؟ فرد عليها متشفيا: من الورق الذى قدمته لى فى الطبق!.

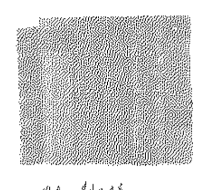
كان الجاحظ نهما إلي القراءة ، لم يقع في يده كتاب إلا أتى عليه، يكتري حوانيت الوراقين، ويبيت فيها للدرس والمطالعة، وله قدرة فائقة على الحفظ والرواية، فأكسبه ذلك معرفة واسعة، وثقافة منوعة، بين دينية، وأدبية، عربية ويونانية، وهندية وفارسية، وعاش فى عصر طافح بالقمم فى كل فن وعلم، فى الفقه والحديث والتوحيد، والعقائد والتصوف والفلسفة، والنحو واللغة والأدب. وغيرها.

ثم التقى بالنظام ، أبى إسحاق إبراهيم بن سيار، رأس المعتزلة على أيامه، وتتلمذ عليه وأعجب به أستاذا، واتخذ الاعتزال مذهبا، وأصبح أحد ثلاثة من كبار رجال المعتزلة، وله بينهم اتباع يسمون «الجاحظية».

وإلى جانب العلم المقروء كان صاحب رحلة، أمضى حياته متنقلا بين البصرة وبغداد، ورحل إلى دمشق، وزار أنطاكية، وثمة احتمال أنه جاء إلى مصر، فأكسبه التنقل وتنوع البيئات وتباين العيش، عمقا فى التجربة وشمولا فى النظرة، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس.

شيطان فكه

كان الجاحظ دميم الخلقة، جهم الوجه، جاحظ العينين، وبلغ فيهما الغاية، ومن ذلك لقبه، حتى أن الخليفة المتوكل عندما سمع بمنزلته من العلم والفهم استقدمه إليه فى سامراء ليؤدب ولده، فلما رآه استبشع منظره، فصرفه بعشرة آلاف درهم، وهذه النقائص الجسمية كانت وراء دعابته ومرحه وسخريته من نفسه، وتندره بأعز أصدقائه، واستخف بالعادات المرعية، والآداب السائدة، وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة الحياة، وتخفف من ثقلها، وأن تقديم الهزل بين يدى الجد



أنفع له، وأدعى إلى إقبال الناس عليه، فكان لطيف الروح، فكه المحاضرة، صادق المواساة، سريع البديهة حاضر النكتة، يقبل على الحياة مغتبطا بها، متفائلا لايرى منها إلا وجهها المشرق، يسجل الفكاهة ولو على نفسه، يقول: «ما أخجلني إلا امرأة مرت بي على صائغ يهودي، وأشارت إليه وقالت: مثل هذا، وانصرفت، فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إلى بفص، وأمرتني أن انقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: يا سيدتي، أنا ما رأيت الشيطان، فجاءت بك!

وأقبلت الدنيا على الجاحظ، وأقبل عليها يعب من متعها الحسية، ولم تجذبه الحياة الخاشعة التقية التي كانت تظل جانبا كبيرا من مواطنيه وشيوخه، فأضرب عن الزواج، وانصرف إلى التسرى. ولم يعقب ولدا، ولم يكن راغبا في الإنجاب.سأله أحدهم حين رأى رفاهيته: ألك ضيعة بالبصرة؟. فابتسم الجاحظ وقال: إنما أنا وجارية لي، وأخرى تخدمها، وخادم وحمار، أهديت كتاب «الحيوان» إلى ابن عبدالملك الزيارت فأعطاني خمسة آلاف دينار، وكتاب «البيان والتبيين» إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وكتاب «الزرع والنخل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لاتحتاج إلى تجديد ولاتسميد.

عقله وحريته

وكان يحرص دوما على أن تكون حياته الخاصة ملكا له، لايجاهر بمعصية، ولا يباهي بخطيئة، يؤثر الستر، ويبتعد عن مواطن الإثارة، ولا يرى في مداراة العامة عيبا، ويتخذ من مرضاتها مذهبا، مادام ذلك لايحمله على غير مايرغب فيه من الأفكار والعادات.

لكن البصرة مالبثت أن ضاقت بالجاحظ، أو لعل الجاحظ أحس أنه أكبر منها، فرحل عنها إلى بغداد، وفيها مثل دور الطالب من جديد، فتردد على مجالس العلماء والأدباء، ووجد عند شيوخها مالم يجده عند أساتذته في البصرة، وفيها استطارت شهرته، وسمع به المأمون فأراد أن يفيد منه، وأسند إليه ديوان الرسائل فلم يبق فيه غير أيام ثلاثة، تركه بعدها هاربا بعقله وحريته، لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم الدواوين وتقاليدها وما تقتضيه من وقار مصطنع، ولم يتحمل دسائس الزملاء الذين خافوا على أنفسهم من ذكائه وعلمه، ففارق أكبر وظيفة أدبية في ديوان الخلافة غير آسف، ووصف لنا بدقة جو الوظائف حينذاك، وحتى أيامنا هذه يقول: «فإن أولئك (الموظفين) لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة، قد لبسها الرعب، وألفها العزل .. فهم مع ذلك في تكدير وتنغيص، خوفا من سطوة الرئيس، وتنكيل الصاحب، وتغيير الدولة»

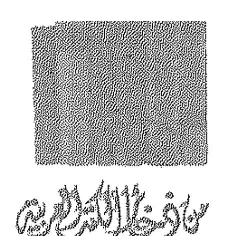
شهيد الكتب

عاش الجاحظ حياة طويلة، خصبة مثمرة، ونَدَع المبرد صاحب كتاب الكامل، يصف لنا أيامه الأخيرة، وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه، ووهنت أمامها قواه، وأصيب بفالج نصفى، فعاد إلى البصرة مسقط رأسه، ومهبط ذكرياته، يحتمى ببيته وأمسه، يقول المبرد: «دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له: كيف أنت؟، فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ماشعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة، أنا فيها». ولم يمت الجاحظ ضحية المرض، وإنما ذهب شهيد الكتب، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به، وهو جالس بينها يقرأ، فانهالت عليه وقلته، ولحدته ميتا بعد أن كانت شاغل حياته وسلوة عقله، عام ٢٥٥هـ =٩٦٨م.

أحاط الجاحظ بأكثر ما عرف على أيامه من علوم ومعارف، ولم يترك علما إلا وضع فيه مؤلفا، قد يكون كتابا ضخما أو رسالة صغيرة، وعالج قضايا لم يفكر فيها أحد قبله، فبحث فى طبائع الأشياء والحيوان والنبات والمعادن، وأقام علمه على أساس من المشاهدة والملاحظة والتجربة، وكتب فى المعلمين وبنى هاشم واللصوص وصفات الله وكيد النساء، وأربت مؤلفاته على ثلاث مائة وخمسين، بين كتاب مطول ورسالة مختصرة، لم تصلنا كاملة، وضاع معظمها، فنحن لانعرف شيئا - مثلا - عن كتابه «نظم القرآن» ،إلا ما أورده هو عنه فى كتابه «الحيوان » وما لدينا من بقية مخطوطاته تتقاسمه خزائن الكتب فى العالم أجمع، طبع معظمها وبقيت منها قلة لن يبعد بها الزمن حتى تطبع ، فأدب الجاحظ يجد من الدارسين عناية ومن القارئين إقبالا.

الحيوان خلاصة معرفية

يعد **كتاب الحيوان** أهم كتاب بين تراث الجاحظ ، سعة وعلما وشمولا، وأقلها شعبية، وأحسب أن عنوان الكتاب جنى عليه، لأن من لم يقرأه فعلا يتصوره دراسة فى علم الأحياء، يهم العلماء المختصين بالحيوان وحدهم، وكنت أحد هؤلاء الذين جهلوه لزمن طويل، حسبته كتابا علميا فى تشريح الحيوان أو التأريخ له، والتعريف بخصائصه وفوائده على أحسن تقدير، ومرور أكثر من ألف عام على تأليفه يجعل مافيه من علم قديم تجاوزه الزمن، ثم عرفت حقيقته طالب بعثة فى إسبانيا، فقد وجدتهم فى جامعة مدريد يعرفونه جيدا، ويتحدثون عنه فى إجلال، وعرفت أن جورج سارتون خصه بصفحات طوال فى الجزء الأول من كتابه «مقدمة لتاريخ العلم»، وأن المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس عرض لأفكار الجاحظ الفلسفية والكلامية وتأثيره فى نشأة الفلسفة الإسلامية فى الأندلس، ولما كانت ترجمة كتاب الحيوان إلى اللغة الإسبانية تتطلب جهدا مضنيا، لتنوع معارفه وسعة مادته، وتقدم سن بلاثيوس،



وسوء طباعة الكتاب إذ ذاك، فقد اكتفى بالتعريف به، صنفه أبوابا، وصنع كشافا لمادته باللغة الإسبانية، ليسهل على المستشرقين الرجوع إليه والإفادة منه، ونشر بحثه هذا في مجلة إيزيس (العدد ٤٣، المجلد ١٤، مايو ١٩٣٠) ثم أعيد نشره بعد وفاة بلاثيوس في أعماله المختارة، المجلد الثاني، مدريد ١٩٤٨، وقمت بترجمة هذه الدراسة إلى اللغة العربية في كتابي «دراسة في مصادر الأدب».

أوجز الجاحظ محتوى كتابه، وهو أعلم به من غيره يقول: «هذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو، كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الأبى كما يشتهيه الفطن».

أتم الجاحظ الكتاب، وهو مفلوج، في سن عالية، فجاء خلاصة تجاربه وثقافته، ففيه طبيعة وفلسفة وسياسة وفرق دينية، وقضايا جغرافية، وعرض لتأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر والأجناس البشرية، وفيه حديث عن الطب والأمراض التى تصيب الإنسان والحيوان، وعن المفردات الطبية، والعرب والأعراب وأصولهم وعاداتهم وعلومهم وخرافاتم، وأفاض القول فى القرآن والحديث والفقه والأديان، وجمع صفوة من الشعر العربى ونادره، ومن الأمثال والغرائب، وكسا ذلك كله أثوابا من فكاهة الجاحظ لاتجعلك تمل قراءته مهما أطلت، ونثر بين صفحاته قضايا تتصل بالجنس، إذا تأملتها وجدتها علما، ويراها المتزمتون مجونا.

أبواب وفصول الحيوان

يمكن كسر مواد الكتاب على خمسة أقسام كبرى. كل قسم منها يتضمن مواد مختلفة، تتصل به تكوينا أو نتاجا:

- **العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيماوية:**

وفيه عرض للحرارة والذرة والرائحة والصوت والفيزياء، والفلك واللون والماء والمناخ، والمغناطيس والهواء، ومايتصل بكل مادة من هذه المواد.

- **علوم الحيوان ومايتصل به:**

وفيه تصنيف عام لأنواع الحيوان: تمشى أو تطير أو تسبح أو تزحف، وحيوانات جوية ومائية وأرضية.. تعيش على اللحم، أو تأكل النبات أو تعيش عليهما معا.. وحيوانات جميلة، وأخرى قبيحة، أو حمقاء، وصفات وخصائص ترتبط حين تمرض، أو حين تدافع عن نفسها، وأشكالها ومساكنها وصفاتها الاجتماعية.

- **مشكلات تتصل بالجنس والتناسل:**

وفيه عرض للتناسل التلقائى، وملامح الجنس عند الإنسان والحيوان، وعلامات

البلوغ عند الغلام والفتاة، وعلم النفس الجنسى، وتحليل الغريزة الجنسية عامة، وعند المرأة خاصة، وتأثير الخمر والغناء فيها، والعلاقات الجنسية بين الحيوان، وبيوت البغاء فى الهند، ورذيلة اتصال الإنسان جنسيا بالحيوان، والاعتدال فى الجماع سبب طول الحياة، والختان وتأثيره فى اللذة الجنسية، ختان الرجال والنساء عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، ونساء الروم والهنود وفارس أشد شهوة وأكثر فجرا من العربيات وأكثر فجرا من العربيات لأنهن غير مختونات، والخصاء، والخصيان والتناسل وطرائقه عند عدد من الشعوب، وتغير طبيعة الخصى فى بعض صفاته، خصاء الحيوان، وحديث عن بعض الأساطير والخرافات المتعلقة بالحيوان.

● **أنواع الحيوان وفصائله:**

يشمل هذا القسم من المادة كل فصائل الحيوان وأنواعه، عرض لطبيعتها، مهما كان نوعها، وشكلها، وللصراع بينها من أجل البقاء.

● **قضايا تتصل بالإنسان:** وتشمل ثلاثة أفراع رئيسية : موضوعات تتصل بعلم النفس الإنسانى الفردى، وفيها تحدث عن النفس والمعرفة والنوم والشك واليقين والنسيان، والجنون والغضب، والعداوة بين الأفراد، وحب الوطن والشهرة، واللذة والانتحار، والمعمرين وحب الحياة، والقسوة فى التعذيب، والانتحار.

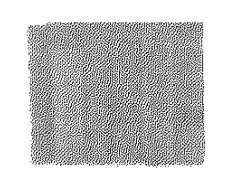
وموضوعات تتصل **بالسلالة وعلم الاجتماع** ، وعرض فيها لتأثير البيئة والمناخ والغذاء وغيرها، وخلقة الإنسان وتأثيرها فى نفسيته ، وصعوبة التأقلم على بعض الأجناس البشرية وبعض الحيوانات والنباتات، الذكاء والفراسة، الأجناس البشرية المعروفة على أيامه، وقابلية الهنود لتعلم اللغة العربية، ومعارف عرب الجاهلية فى الفلك والطبيعيات، وعن المهارات البشرية المختلفة، وعن المهن الحقيرة والمحترمة، والتى تصنع الثروة، وألعاب العرب، والأطباء والقواد والموسيقيين والراقصين، وألعاب الأطفال والشطرنج، وفن الملاحة وفن صناعة الفسيفساء والزجاج والفخار.

والفرع الثالث والأخير من القضايا التى تتصل بالإنسان موضوعات تدخل فى نطاق **علم النفس المقارن** وفيه تحدث عن الفرق بين الإنسان والحيوان والوحش، وغريزة الحيوان وذكاء الإنسان فيم يتفقان وفيم يختلفان ، لغة الإنسان ولغة الحيوان، وعن وسائل التعبير الخمس: اللغة المنطوقة والمكتوبة، ولغة الإشارات، ولغة الإنسان، ولغة الطفل، والخرس، الرموز الرياضية والأرقام الهندية، وكل شعب له كتابته أو مايقوم مقامها، وغيرها.

●**الديانات والفرق:**

وفى هذا الجانب تحدث عن الملحدين، واليهودية والمسيحية والبوذية والزرادشتية، وخلال حديثه عن هذه الديانات تكلم عن خروج آدم من الجنة والشجرة التى أكل منها، والأساطير المتصلة بالطوفان، ويأجوج ومأجوج، وبنى إسرائيل فى التيه، وأن الحواريين أصحاب عيسى كانوا صيادين ، وعن الأناجيل الأربعة، وعن فقر





رجال الدين البوذيين وعفتهم وصدقهم وصحتهم.

وتحدث عن **الإسلام**، موقف العرب منه، الموضوعات التى اختلف حولها المفسرون، وعلم الكلام، وحكمة البعث، ونار جهنم، والعقاب على المعصية فى الدنيا وفى الآخرة، الفرق الدينية، تعصب المتكلمين، الشيعة وتعصبهم، الزهاد المسلمين، الأولياء والفقهاء، ترجمة النظام المعتزلى، نقد كعب الأحبار الراوية.

وفى هذا الجانب يعرض لألوان من الخرافات، ويتحدث عن الجن والملائكة، وبيوت أقامتها الجن، وظهور الشياطين والجان فى شكل رجل أو ثور أو نسر أو غيرها. والجان تلهم الشعراء، والاعتقاد بأن الجان تعيش فى الخرائب مصدره الضغط النفسى الذى تحدثه الوحدة والصحراء، ويقص حكايات شياطين تجامع النساء ونساء يجامعن الشيطانات، والأرواح والجان والشياطين عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ويعرض لمفاهيم التنبؤ بالغيب، والتفاؤل والتشاؤم والحسد، والطلاسم التى فى المدن ضد الحيوانات الضارة، وهاروت وماروت والزهرة وغيرها.

● **الموضوعات اللغوية:**

وتتوزعها عدة محاور:

أولها **الشعر العربي**: حداثته، وأن المواهب الشعرية لاترتبط بالأسباب المادية، ولا العنصرية، ورواية الشعر وتدريسه، والسرقات الأدبية، الجمال والآراء النقدية. والحكمة والمثل ودورانهما حول الحيوان، والأمثال التى تتصل بالحمار.

وثانيها **الحكايات** : حكايات بذيئة، المؤمنون بالخرافات يفعلون ذلك سذاجة أم ذكاء، ألوان من الحكايات التى كانت سائدة فى المجتمع العربى إذ ذاك، أساطير تتصل بالعواجيز والعصافير.

وثالثها يتصل **بالأعلام** : أسماء بعض الطيور مشتقة من محاكاة أصواتها، أسماء تدعو إلى التفاؤل وأخرى تدعو إلى التشاؤم، إطلاق صفة يهودى على بعض الحيوان وعدم استخدام لفظ مسيحى، أسماء حيوانات تطلق على الإنسان احتقارا، وأخرى تطلق على الجوارى والنجوم والكواكب إطراء. التصغير، الأسماء العبرية، والمدح الذى يؤدى إلى الهجاء. اشتقاقات مضحكة، وصيغ لتصور المستحيل.

هذه رؤوس الموضوعات التى ضمنها الجاحظ كتابه إجمالا، والحديث عنده، حولها، يطول ويمتد، ويخرج - كعادته - من قضية إلى أخرى ثم يعود إلى الأولى. وثمة عدة ملاحظات : أن هذه المواد لاترد مجتمعة فى فصل واحد، فى جزء واحد، وإنما تأتى متفرقة موزعة على أجزاء الكتاب الثمانية. وبعض هذه المعارف تجاوزه الزمن فهو يقرأ تاريخا، وبعضها الآخر أثبته العلم الحديث، وجانب منها أدخل فى باب الخرافة والأسطورة، وكان

الجاحظ يعرف ذلك، ولكنه أوردها تسلية وترويحا.

الكتاب - كما نرى - ليس دراسة منهجية وتقنية لعالم الحيوان، وإنما سيل من الملاحظات العلمية غير المنتظمة، تختلط بالمأثورات الشعبية، والشعر والقصص والحكايات المتصلة بالحيوان.

المعرفة أولا وأخيرا

لايهدف المؤلف أصلا إلى تهذيب القارىء بقدر مايهدف إلى إيقاظه، واضعا أمام عينيه روائع عالم الحيوان، لكي يستطيع أن يتأمل بديع صنع الله، ويؤكد المؤلف فى أكثر من مكان على هذه الغاية، ومنها انبثق منهجه وخطة تحريره.

إنه لايكتب للتقنيين، وإنما لعامة الناس، ومن ثم يهرب من التزام أى منهج علمى منظم فى دراسة أنواع الحيوان المختلفة وتتبعها، ويحاول - على العكس - أن يبهج القارىء ما استطاع، فيورد فى بداية كل باب لونا من القصص والأشعار. وإذا لم يكن الكتاب علميا بخطته ومنهجه فإنه بمادته يأتى فى أعلى طبقة من العلمية، ويستمد المؤلف مادته من مصادر ممتازة، على نحو مايشير إليه هو نفسه فى مقدمة الجزء الأول من كتابه.

مصادر ومراجع

كان **المصدر الأول** للجاحظ فى كتابه عربيا خالصا، ممثلا فى القرآن الكريم، والحديث النبوى، والتراث العربى، قصصا وأشعارا وحكايات ونوادر وغرائب وأمثالا. وما أكثر ماتحدث العرب عن الإبل والخيل والأسد والضبع والذئب والثعلب والحمر الوحشية وعن الطيور وألونها، أحاديث فيها شيء من التجربة وشيء من الخرافة، وبعض المبالغة والتهويل، ويقيم الجاحظ نفسه هذا المصدر قائلا: «وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين، إلا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه فى أشعار العرب والأعراب».

من مصادر الجاحظ أيضا **كتاب الحيوان لأرسطو** ونقله ابن البطريق من اليونانية إلى العربية، ونقل عنه الجاحظ نصوصا ليست كثيرة، ولكنها ذات قيمة، ولم يقبل آراءه على علاتها، فكان ينقده، ولكنه يعرف قدره ويعتذر عنه، يقول: «مايليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لايحققها الامتحان، ولايعرف صدقها أشباهه من العلماء»، ويرد ذلك على المترجمين لكتابه، بأنهم لم يحسنوا النقل ولم يتوخوا الدقة والمطابقة، وأساءوا فى الإخبار عنه، ولعل أرسطو لو وجد هذا المترجم لبرىء إلى الناس من كذبه عليه، ومن إفساده معانيه بسوء ترجمته.

واستشهد أيضا من كتب جالينوس الطبية للتدليل على بعض النقاط المحددة المتصلة بالأمراض التى تحدثها لسعة بعض الحيوانات، وعلى غرائز بعض الطيور وقضايا أخرى، وهو يشير إلى كتب إقليدس، ولكتاب المجسطى أكبر كتب بطليموس الفلكية، وبعامة إلى كتب المنطق والطب والرياضيات والفلك والموسيقا

والزراعة والكيمياء والآلات والتقنية، وكتب أخرى مترجمة، ويبدو أن الجاحظ عانى كثيرا من سوء الترجمات فى زمنه، ففصل القول فى كتابه «الحيوان» عن الترجمة : مشكلاتها وقضاياها وأخطاء المترجمين، والشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يقوم بها، كلام لم يفقد شيئا من بريقه وجدته حتى يومنا، ولم تزد الدراسات المعاصرة حرفا واحدا على ماقاله الجاحظ فى هذا الباب.

وكانت **مدرسة المعتزلة** نبعا ثرا ارتوى منه الجاحظ ، فقد أثروا العصر العباسى الأول بالحوار والجدل والمنازعات الكلامية، فجاء كتابه معرضا طريفا لها، خاصة الجزءين الأول والثانى منه.

إلى هذه المصادر يجب أن نضيف ملاحظاته الشخصية وخبراته وتجاربه التى التقطها خلال رحلاته، أو من لقاءاته مع شتى طوائف المجتمع، فهو يسأل كل من يتوسم فيه المعرفة، ولايقف بهذا عند طبقة معينة، يجالس الملاحين ويسمع منهم من يقول : «سمعت حديثا من شيوخ ملاحى الموصل وأنا هائب له، ورأيت الحديث يدور بينهم، ويتحدث مع صائد العصافير، ويخالط الحوائين ويقف منهم موقف المستمع إلى الشكوى، يقول: «وشكا إلى حواء مرة، وأرانى حية منكرة».

لقد حاول الجاحظ دون أن يكون عالما بالحيوان مهنة أن يلتقط مادة كتابه فى فضول صابر لايمل، وصنفها فى إتقان كبير، وقدم لنا وثيقة بالغة الأهمية، صاغها الجاحظ فى أسلوبه الفريد المتميز، فجاء الكتاب عظيم الفائدة، بالغ المتعة والجمال.

كان كتاب الحيوان من أوائل الكتب التى نشرت فى مطلع النهضة المصرية الحديثة، طبعه للمرة الأولى الوراق المعروف الحاج محمد الساسى، وهو تونسى اتخذ من القاهرة مقاما، ونشط فى طبع كتب التراث، نشر كتاب الأغانى كاملا فى ثلاثين جزءا، وثنى عليه بطبع كتاب الحيوان فى أجزائه السبعة بين عامى ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م و ١٣٢٥هـ = ١٩٠٦م، وكأى طبعة تجارية غير محققة علميا، شابتها أخطاء كثيرة، دون أن يقلل ذلك من تقديرنا للجهد الذى قام به الناشر وشكرنا عليه، فقد مهد الطريق لمن جاء بعده.

وكتان الذى جاء بعده عالما جليلا، هو المرحوم عبدالسلام هارون الأستاذ فى كلية دار العلوم، الذى تكفل بالكتاب ضبطا وتصويبا وشرحا ومراجعة ومقارنة بين مختلف مخطوطاته الموزعة على مكتبات العالم، وانتهى به، فى عمل لايعلى عليه، إلى نسخة كاملة التحقيق، وأضاف إليه جزءا ثامنا، ضمنه فهارس كاملة متنوعة، تيسر الفائدة منه، ونشرته مكتبة الحلبى فى القاهرة عام ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م ■



تواجَد

سمعت بعض زملائي مرات ينكرون على طلابهم فى مناقشة الرسائل الجامعية استخدام الفعل تواجد بمعنى وُجد، ويقولون إنه لم يرد بهذا المعنى ، فعدت إلى المعاجم أسألها :

فى المعجم الوسيط، وهو أفضل المعاجم المعاصرة:

وجَد فلان وجْدا: حزن. ووجَد عليه مَوْجدة: غضب. ووجَد به وجْدا: أحبه. ووجَد فلان وُجدا وجدة: صار ذا مال. والواجد: الموسر، الغنى من الناس. ووجَد مطلوبه: أدركه. ووجَدَ الشئَ : علمه. ويقال وُجِد (مبنيا للمجهول) الشئ من عدم فهو موجود : نقيض عُدم فهو معدوم . وأوجد الله الشئ من عدم، أنشأه من غير سبق مثال. وأوجد الله فلانا أغناه وأوجده من بعد ضعف قواه. وأوجده على الأمر أكرهه عليه، وأوجده الشئ جعله يجده ويظفر به.

وكما ترى فإن كلمة تواجد لم ترد فى معاجمنا بمعنى الوجود كما يستعملها المحدثون، وإنما وردت فى المعانى التالية:

يقال تواجد فلان: أظهر الوجد. وتوجّد لفلان: حزن له. وتوجّد لفلانة: أحبها. وتوجّد السهر: شكاه.

فإذا أردنا أن نستخدم الفعل المجرد، وهو وجد للدلالة على معنى الوجود، استخدمناه مبنيا للمجهول، لأن صيغة المبنى للمعلوم منه متعدية، فيكون المراد وجوده متعلقا بالفعل على سبيل المفعولية.

وإذن إذا أريد تعليق الفعل على سبيل الفاعلية جئ به مبنيا للمجهول، أو استخدمنا إحدى صيغ المطاوعة، وفيها يتحول الإسناد من الفاعل للمفعول، وهذه الصيغ هى: انفعل، افتعل، تفعل، تفاعل.

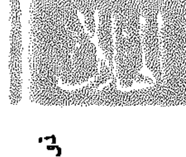
وقد اختار المحدثون صيغة تفاعل فقالوا: تواجد بالمكان، ومصدره التواجد، ومجئ تفاعل دون أن تعنى المشاركة بين اثنين يرد كثيرا فى العربية الفصحى، فنحن نقول: تداركه الله برحمته، وتفاقم الأمر، وتراكم السحاب وغير ذلك، وهو مما أقره المجمع اللغوى أيضا. وإذن لا خطأ فى أن تستخدم تواجد، بمعنى وجُد (مبنيا للمجهول) ■

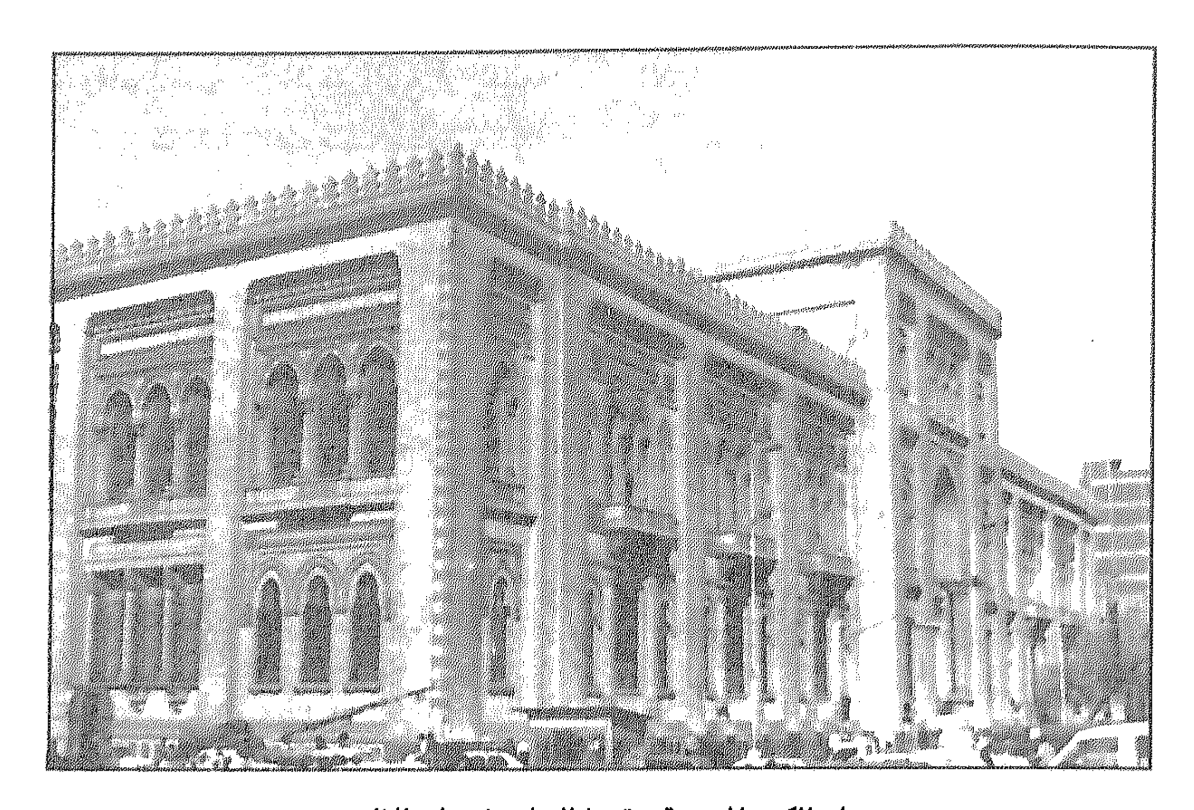
دار الكتب المصرية

ومائة عام من الثقافة (١٩٠٤ - ٢٠٠٤م)

بقلم
د. أيمن فؤاد سيد

عرفت مصر منذ فجر تاريخها «خزائن الكتب» فى طيبة وأون، ثم فى الإسكندرية التى حوت جنباتها أهم مكتبة عرفها العالم القديم. ومع الفتح الإسلامى لمصر وبداية عصر التدوين والتأليف عند المسلمين ساهم العلماء المصريون فى إثراء المكتبة العربية مع سائر علماء العالم الإسلامى، وكان من أوائل هؤلاء العلماء: عبدالله بن لهيعة والليث بن سعد وعبدالله بن وهب ويزيد بن أبى حبيب والإمام محمد بن إدريس الشافعى وعبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم. وتبع ذلك نشأة الجديد من خزائن الكتب التى جمعت بين جنباتها ما أنتجه الفكر الإسلامى طوال أربعة عشر قرنا.





دار الكتب المصرية بمقرها السابق فى باب الخلق

على مبارك
منشىء دار الكتب

د. أحمد مرسي
الرئيس الحالي لدار الكتب

وتظل مع ذلك أشهر هذه الخزائن «خزانة كتب الفاطميين» والتى يصفها المؤرخ الشيعى يحيى بن أبى طى ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م بأنها «كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها.. وأنها تحتوى على ألف وست مائة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيئ كثير.. وأن من عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى»، (أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ٥٠٧:١)، ومع استيلاء السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على مقاليد السلطة فى مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١٠٧٢م، تفرقت هذه المكتبة

وفقد أغلبها عن طريق البيع أو إلقائها على كيمان البرقيه شرق مدينة القاهرة الفاطمية.

خزائن كتب المدارس

ومع دخول الأيوبيين السنة إلى السلطة في مصر ثم مع خلفائهم المماليك عرفت مصر نظام «المدرسة» التى تعد مؤسسة التعليم الإسلامية الحقيقية، فحلت بذلك «خزائن كتب المدارس» محل خزائن كتب الخلفاء وخزائن دور الحكمة والعلم، يقول القلقشندى فى مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى: «أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب اكتفاء بخزائن كتب المدارس التى ابتنوها من حيث إنها بذلك أمس». (صبح الأعشى ١:٤٧٦) فاشتملت أغلب مدارس القاهرة التى أنشئت فى العصر المملوكي وكذلك المساجد الجامعة الكبيرة على خزائن كتب وقفت على طلبة العلم الذين يترددون على هذه المدارس ويتابعون الدروس التى يلقيها بها كبار العلماء والفقهاء. وفى العصر العثمانى شارك «الجامع الأزهر» - الذى أصبح المؤسسة التعليمية الأولى فى مصر - المدارس فى احتوائه على العديد من خزائن الكتب التى وقفها أصحابها على طلبة العلم المترددين على الجامع الأزهر.

ونتيجة الجهل بقيمة الممتلكات الثقافية التى تمتلكها مصر وعدم وجود تشريعات تحمى هذه الممتلكات وتمنع من الاتجار فيها أو نقلها خاصة بعد أن أخذت أوروبا توجه أنظارها إلى بلدان الشرق الإسلامى وانشاء قنصليات لها فى العواصم الكبرى، وتردد التجار والرحالة إليها انتشرت تجارة الكتب والآثار التى أدت إلى تسرب جزء كبير من الممتلكات الثقافية فيه (آثار ومنقولات ومخطوطات وأوراق بردى ووثائق الجنيزة)، عرفت طريقها إلى المتاحف والمكتبات العالمية والمجموعات الخاصة.

الكتبخانة الخديوية

وتنبه إلى خطورة هذا الوضع واحد من أبناء مصر المستنيرين هو على باشا مبارك الذى أقام دارساً فى فرنسا ضمن البعثة التى أوفدت لدراسة العلوم العسكرية ابتداءً من عام ١٨٤٤ والتى تعرف بـ«بعثة الأنجال» لأنه كان من بين اعضائها أنجال محمد على باشا ومنهم إسماعيل باشا الذى تولى الحكم بعد ذلك سنة ١٨٦٣م. شاهد على باشا مبارك فى باريس «المكتبة الوطنية» وأعجب بها إعجابا كبيراً، وعندما



تولى إسماعيل باشا خديوية مصر وأصبح على باشا فى موضع السلطة اقترح على الخديو إسماعيل إنشاء «كتبخانة» - أى دار كتب - على دور الكتب الوطنية فى أوربا واستصدر منه قراراً في ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٨٦هـ/٢٣ مارس سنة ١٨٧٠م أسند إليه فيه الخديو «جمع المخطوطات النفيسة التى لم تصل إليها يد التبديد مما حبسه السلاطين والأمراء والعلماء والمؤلفون على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم، ليكون من مجموع هذا الشتات نواة لمكتبة عامة»، ضمت فى أول عهدها نحو عشرين ألفا من المجلدات والمراجع ومجاميع الخرائط، هى كل ما أمكن إنقاذه فى هذا الوقت من تراث مصر المخطوط واوائل المطبوعات. يقول على باشا مبارك: «ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية أضاهى بها كتبخانة مدينة باريز، فاستأذنت الخديو إسماعيل باشا فى ذلك، فأذن لى، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضاً (أى فى سراى مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز) وبعد فراغها جمعت فيها ماتشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف زيادة على ما صار مشتراه من الكتب العربية والأفرنجية وغيرها، وجعلت لها ناظرا ورتبت لها خدمة ومعاونين، وعملت لها قانوناً لضبطها وعدم ضياع كتبها، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديو إسماعيل باشا وجعل بها النفع العام للخاص والعام». (الخطط التوفيقية الجديدة ٣: ١٠٠) .

دار كتب الجماميز

كان المقر الأول «للكتبخانة الخديوية» الطابق الأرضى بسراى مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل بدرب الجماميز بجوار ديوان المدارس، وأتيح الانتفاع بمقتنياتها لجمهور القراء والمترددين فى غرة رجب سنة ١٢٨٧هـ/ ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠م، وتعد بذلك أول وأقدم مكتبة وطنية على النظام الحديث تنشأ فى الشرق الأوسط.

واعتبرت محتويات الكتبخانة ملكاً لديوان الأوقاف لأنها كانت أعيانا وقفت قبل أو بعد خزنها.. ولأجل المنفعة العامة جعل حق ديوان الأوقاف شاملاً لكل ما يضاف فيما بعد من المؤلفات والأشياء، بقطع النظر عن اللغة أو المادة أو الجهة الواردة منها، وأنعم الخديو إسماعيل على ديوان الأوقاف بعشرة آلاف فدان للانفاق من ريعها على الكتبخانة.

وعندما ضاق بدروم سرايا

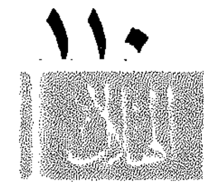
مصطفى فاضل باشا بمجموعات الكتبخانة التى أخذت فى النماء وخشية أن تتسرب رطوبة الدور الأرضى إلى المخطوطات فتفسدها، نقلت المخطوطات فى سنة ١٨٨٩م إلى السلاملك بنفس السراى فى المكان الذى كان يشغله ديوان المدارس.

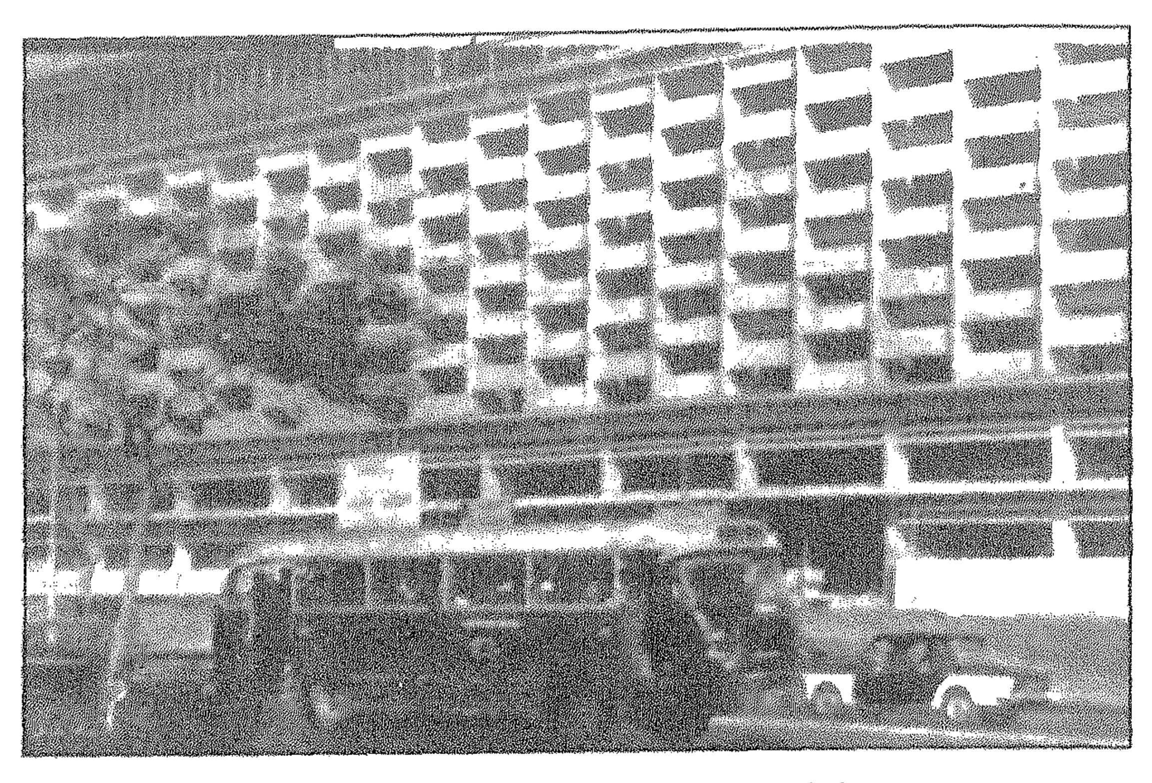
ومع تزايد رصيد الكتبخانة ونمو مقتنياتها أصدر الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٥م امرا بعمل مشروع لبناء مكان واسع يليق بحفظ ما فيها من الذخائر الأدبية والعلمية، ولكن لم يبدأ فى وضع تصميم هذا المشروع إلا بعد ذلك بعامين عندما طالب الدكتور برنارد موريتز Ber-nard Moritz ثالث مدير للكتبخانة (٢٥ أكتوبر ١٨٩٦ - ٣١ أغسطس ١٩١١م) فى تقريره الذى رفعه إلى وزارة المعارف فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٩٧ بضرورة الإسراع فى بناء محل جديد للكتبخانة، خاصة وأن المحل الموجود فيها لا يمكن وقايته بأية طريقة من الحريق، كما أنه على سعته غير مناسب لوضع الكتبخانة لأنه لم يبن لغرض ايجاد كتبخانة فيه، كما أن الدور الأول رطب جداً مما يسبب ضررا بالغا للكتب والمخطوطات.

مكتبة باب الخلق

وفى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م وضع الخديو عباس حلمى الثانى حجر أساس الكتبخانة الخديوية ودار الآثار العربية فى ميدان باب الخلق، وخصص طابقه الأرضى لـ«دار الآثار العربية» التى تحولت فيما بعد إلى «متحف الفن الإسلامى» - وطابقه الأول وما فوقه لـ«كتبخانة الخديوية» -دار الكتب المصرية فيما بعد- وانتقلت إليه الكتبخانة فى عام ١٩٠٣م، وفتحت أبوابها للمترددين عليها فى أول عام ١٩٠٤م. وتأثر تشييد المبنى بنظام المتحف البريطانى فى لندن الذى كان يضم حتى عام ١٩٧٤ كذلك المكتبة الوطنية البريطانية.

تحول اسم «المكتبة الوطنية» طوال تاريخها الذى يمتد الآن لأكثر من مائة وثلاثين عاما أكثر من مرة، ففى البداية عرفت بـ«الكتب خانة الخديوية» ثم «دار الكتب الخديوية»، وبعد إعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤م أصبحت تعرف بـ«دار الكتب السلطانية» ثم تحول اسمها مع إلغاء الحماية على مصر سنة ١٩٣٣ إلى «دار الكتب الملكية»، وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وإعلان النظام الجمهورى أصبحت تعرف بـ«دار الكتب المصرية».





دار الكتب المصرية بمقرها الحالى على كورنيش النيل

ظلت «دار الكتب» فى مبناها الواقع فى وسط ميدان باب الخلق «ميدان أحمد ماهر»، مهوى أفئدة العلماء والباحثين من العرب والمسلمين والمستشرقين لأكثر من سبعين عاما، الذين ترددوا عليها للاستفادة من مجموعاتها النادرة من المخطوطات والمطبوعات وأوراق البردى ومن العلماء والشيوخ القائمين عليها. فعرفت جنبات هذا المبنى التاريخى أعلاماً من أمثال: أحمد لطفى السيد وحافظ إبراهيم ومنصور فهمى وأمين مرسى قنديل وتوفيق الحكيم ويحيى حقى، الذين نولوا رئاسة الدار، ومن العاملين بها رجال أثروا المكتبة العربية وكانوا نعم العون فى إفادة المترددين عليها من أمثال: أحمد رامى ومحمد عبدالرسول ومحمد عبدالجواد الأصمعى وأحمد الزين وأحمد نسيم وعبدالرحيم محمود وأحمد عبدالعليم البردونى وفؤاد سيد ومصطفى الشوربجى ومحمد أبوالفضل إبراهيم ونصر الله الطرازى رحمهم الله أجمعين.

جامعة دار الكتب

كانت دار الكتب المصرية فى منتصف القرن العشرين الجامعة الحرة لمصر بكفاءة وجدارة يلتقى فيها الأعلام الذين كانوا ملء السمع فى هذا الوقت من أمثال: محمد كرد على

وخليل مردم وطه حسين وحسن حسنى عبدالوهاب التونسى وعبد العزيز الميمنى الراجكوتى وعبدالرحمن المعلمى ومحمد زاهد الكوثرى وخير الدين الزركلى وعبدالله كنون وحمد الجاسر ومصطفى جواد من العلماء العرب والمسلمين، وإغناطيوس كراتشكوفسكى ولويس ماسينيون وشارل كوينز وكارلو ألفونسو نلليثو وأمبرتو ريتزيتانو و أر.بى.سرجنت وروبرت رويمر وستنافورد شو من المستشرقين وغيرهم كثير.

والعارفون بالمخزون الفكرى الذى لمت شمله ووحدت أشتاته دار الكتب المصرية، يقدرون أنها بحق ذاكرة مصر الفكرية ومدخر التراث العربى الإسلامى حفظته على الآماد ونزلته خير المنازل.

أزمة دار الكتب

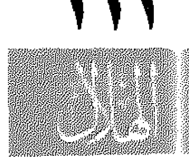
كانت بداية أزمة دار الكتب عندما ضمت إليها «دار الوثائق القومية» فى عام ١٩٦٥، وهى الدار التى أسست عام ١٩٥٤ لتحفظ الأرشيف القومى، فقد جاء هذا الضم عبئاً على دار الكتب وتهميشا لدار الوثائق أعاق كلا منها عن أداء رسالته على الوجه المنتظر منه ثم جاء ضم الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر إلى دار الكتب والوثائق القومية عام ١٩٧١ تحت اسم «الهيئة المصرية العامة للكتاب» ليمثل بداية تدهور عانت منه «دار الكتب» طوال نحو ربع قرن، حيث فقدت «دار الكتب» شخصيتها الاعتبارية واستقلاليتها وأصبحت مجرد إدارة مركزية تابعة للهيئة المذكورة، فتراجع دورها الثقافى وفقدت ميزانيتها المستقلة وأصبحت غير قادرة على متابعة الحركة الثقافية ولا على اقتناء أهم المطبوعات المنشورة خارج مصر خلال هذه الفترة، أو تقديم الخدمة المكتبية اللازمة للمترددين عليها لنقص إمكاناتها المادية والبشرية. وشهد العالم فى هذه الفترة تقدما علميا كبيراً فى مجال الخدمات المكتبية، ونظم المعلومات وطرق الحفظ والتخزين وكذلك الصيانة والترميم. وتخلفت دار الكتب عن الأخذ بأسباب هذا التقدم لتقهقر موقعها فى قيادة العمل الثقافى وافتقارها للعلماء والأخصائيين، وسبقتها فى مجال التحديث والتطوير العديد من المكتبات فى الدول المجاورة التى نشأت بعدها بعقود طويلة ولا تمتلك دار الكتب والوثائق القومية مقتنياتها أو قيمتها العلمية.

وجاء «مشروع تطوير دار الكتب

المصرية» الذى بدأ فى شهر مايو سنة ١٩٩٢ ليعيد إلى الدار مكانتها التاريخية، فصدر فى شهر مايو سنة ١٩٩٣ قرار رئيس الجمهورية رقم ١٧٦ لسنة ١٩٩٣ بإنشاء هيئة عامة تسمى «دار الكتب والوثائق القومية» تكون لها الشخصية الاعتبارية ومقرها مدينة القاهرة وتتبع وزير الثقافة. ومع ذلك فإن فصل «دار الوثائق» عن دار الكتب ضرورة يجب الإسراع فى تنفيذها، فهذا الوضع الذى يجمع المكتبة الوطنية والأرشيف الوطنى معاً غير متبع فى دول العالم، فللمكتبة الوطنية وظائفها وتخصصها ومصادر معلوماتها التى تختلف تماماً عن وظائف وتخصصات ومصادر معلومات الأرشيف الوطنى.

كانت فكرة تطوير دار الكتب تهدف إلى إعادة المكانة التاريخية والريادية فى منطقة الشرق الأوسط والأخذ بأسباب التقدم العلمى والتكنولوجى الحديث. كانت نقطة انطلاق مشروع تطوير الدار هو تطوير المبنى التاريخى لدار الكتب فى باب الخلق الذى نحتفل هذا العام بعيده المئوى الأول حيث يحول إلى مكتبة للدراسات الشرقية ينقل إليها رصيد الدار من المخطوطات وأوراق البردى والمصادر والمراجع والدوريات المتعلقة بالدراسات الشرقية ومركز تحقيق التراث ومتحف المصاحف والمخطوطات التاريخية والأنشطة الفنية والإدارية المتصلة بهذا النشاط من إبداع و وتصوير ومختبر صيانة وترميم ووحدة لبناء قواعد البيانات.. الخ. كان هذا هو مضمون كراسة الشروط والمواصفات التى قدمتها مع المهندس الاستشارى جمال بكرى وطرقت فى مسابقة عالمية فى ٧ يوليه سنة ١٩٩٣، أعلنت نتيجتها فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٩٤، وجار الآن تنفيذ المشروع الفائز الذى أدخلت عليه تعديلات كثيرة قد تخالف في بعضها فلسفة المشروع المطروح فى كراسة الشروط والمواصفات.

ويحدونا أمل كبير فى أن دار الكتب المصرية بجناحيها: المبنى الرئيسى على كورنيش النيل، ومكتبة الدراسات الشرقية بباب الخلق - التى نرجو أن تفتح قريبا بإذن الله- ستلقى وفق قوية فى ظل رئاسة رئيسها الحالى الاستاذ الدكتور أحمد مرسى، خاصة وأنها تحظى برعاية كبيرة من الوزير الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة وراعية الفنون والثقافة فى مصر السيدة الفاضلة سوزان مبارك حرم السيد رئيس الجمهورية



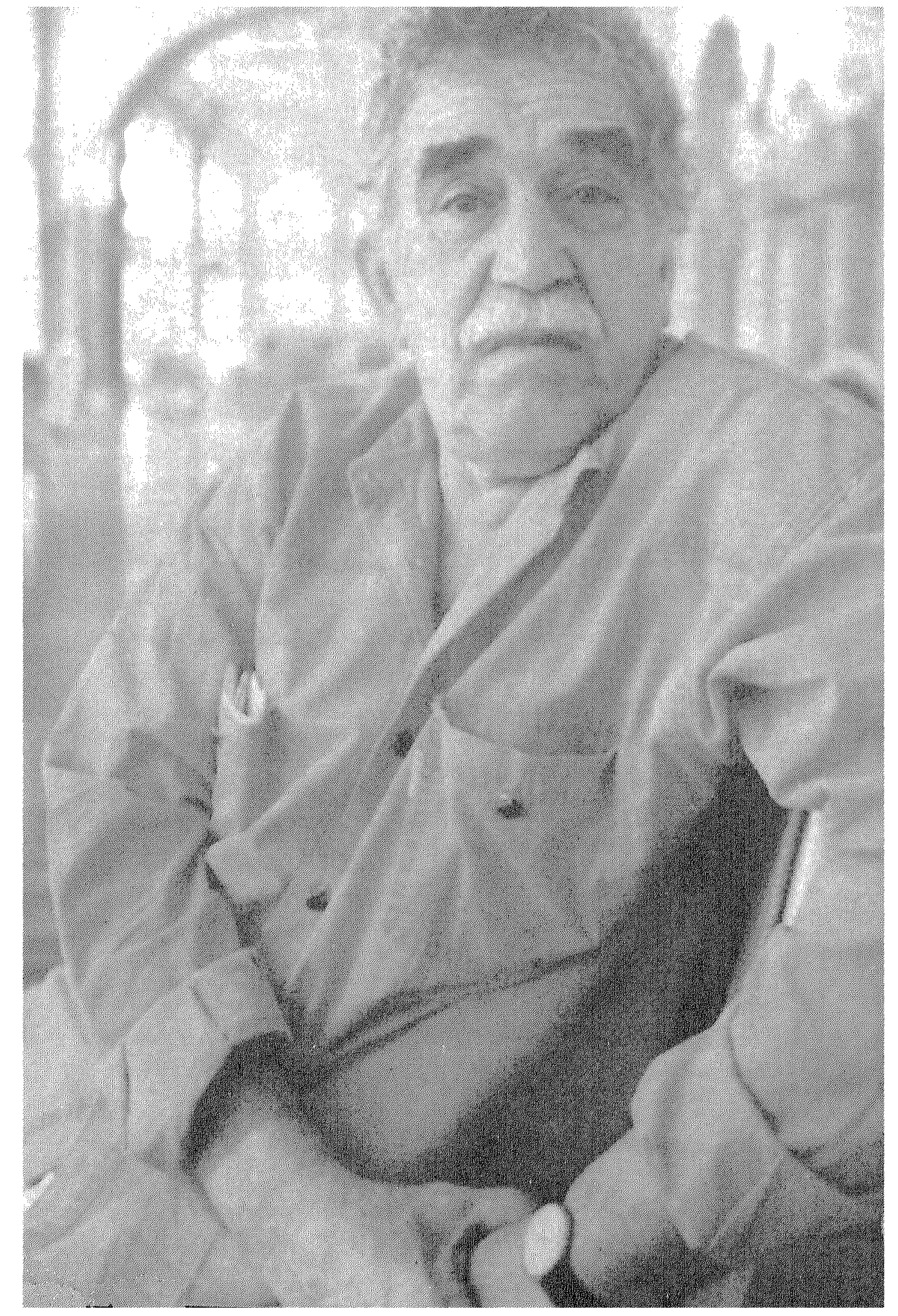
ماركيز.. وسيرتان

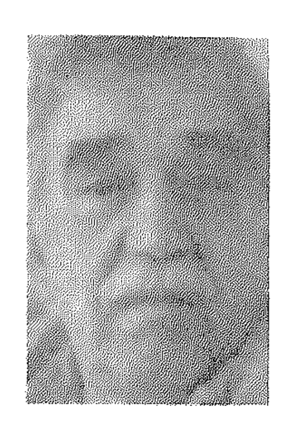
مائة عام من الصداقة والعزلة !!

بقلم

د. سليمان العطار

قامت سيلفانا باترنوسترو بنشر سيرة الكاتب الكولمبى جابرييل غارثيا ماركيز تحت عنوان «الوحشة والصحبة - سيرة شفوية».. اعتمد عملها على رحلة لها حول أرض السحر والرجال المسحورين والنساء ذوات الكرم المسرف حين يهبن الهوى فى عشق للعشق، إنها أمريكا اللاتينية حيث ولد وعاش معظم عمره ماركيز بين قرى مجهولة في غياهب المستنقعات أو مدن ملعونة بالإغراق فى ممارسة فن الحياة وبالابتسامة الدائمة فى مواجهة ظروف الفقر القاسية الفانتازيا. لقد مضت هذه الباحثة تطارد فى كل مكان هناك معارف ساحر الرواية وجيرانه وأصدقائه تسألهم عنه وعن حياته، فقالوا لها الكثير والمثير، وكأننا أمام «مائة عام من الصداقة والعزلة».. هل يستطيع أحد أمام أمواج الكاريبى (التى تلطم وجه الصباح حتى الاحمرار وتقذف بالقطرات المالحة قلب الليل حتى يصرخ بالموسيقى التى تعطى أسماء لرقصات الأمواج بجانب أسماء لأمواج النساء الليليات واهبات الحب والأشواق) ألا يشعر بالوحشة المتوحشة وبالحاجة الملحة إلى الصحبة حتى لو كان لا مكان لها إلا المواخير، التى رآها فوكنر.. السبيل الوحيد لإلهام الكتاب .





لقد آمن ماركيز بمقولة فوكنر فسكن في شبابه المواخير متعرضا للموت أكثر من مرة بصورة درامية حتى ندم وتاب عن إيمانه بمقولة فوكنر وليس عن سكنى المواخير، فلم يكن له سقف آخر أو مكان إلا الحدائق العامة وأرصفة الشوارع، التى حتى لم تعد تصلح لقرار مفاجىء للشرطة لمطاردة من يسكنونها لقضاء الليل، وبفضل إحدى صديقات ماركيز من بنات الليل، تهيأ له السقف واستطاع أن يجتاز امتحان مادة القانون الروماني في دراسته الجامعية.. هذا ما نعرفه من سيرة أخرى لماركيز نشرها في ثلاثة مجلدات لنفسه، مازلنا ننتظر ما تبقى من مجلدات حتى تكتمل لنا صورة حياته..

لكن السؤال المهم: لماذا تصبح مهمة السيرة الذاتية والسيرة التى كتبها عنه غيره؟ الإجابة في حالة ماركيز تكاد «تقفز إلى الذهن بسرعة خارقة، إنها رواياته وقصصه التى صنعت شخوصها من حياة قريته وأسرته وأصدقائه، ويا له من لوم كانت تبثه له أمه: «أيها الولد المفضوح، ليس هكذا ينبغي أن تنشر أسرار عماتك» أو «ليس هكذا أيها العاق تتحدث عن أمك».. إننا أمام سيرة لماركيز كتبتها سيلفانا، وسيرة ذاتية لنفسه كتبها عن نفسه . إنه ماركيز وسيرتان تفسران أسطورته الأدبية.

إن أهمية ما كتبته سيلفانا يكمل ما كتبه ماركيز عن نفسه لأن صاحب السيرة الذاتية حين يكتبها تتأمل الذات نفسها عبر رؤيتها للآخرين . إننا نرى ماركيز في سيرته الذاتية ناظراً لأصدقائه والآخر، لكن في سيرة سيلفانا نرى الآخر ناظراً إلى ماركيز. إنه اكتمال الصورة: أبطال روايات ماركيز يتحدثون عن أنفسهم إذ يرون ماركيز، وهو يتحدث عنهم إذا يراهم.. والرؤيتان تفسران في كمال أعمال ماركيز التى يقف على رأسها روايته المذهلة التى كررت «دون كيشون» لثرفانتس، أقصد رواية مائة عام من العزلة.

صدق ماركيز وصراحته

لكن أهمية السيرتين في رأيي هي أنهما إنذار لكتاب السيرة الذاتية من العرب: «أيها السادة إنكم لا تكتبون سيرتكم الذاتية، إنما هي وقائع تقل أهميتها عن مستوى قص السيرة الذاتية.. أرأيتم إلى أي حد كان ماركيز صريحا وصادقا وهو يتحدث عن فقره



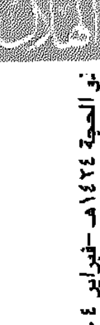
وتواضع أسرته وأهمية بنات الليل الأحمر فى حياته؟

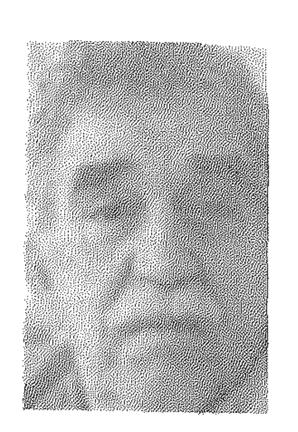
أرأيتم الصدق؟» ، إن السيرة الذاتية عند الكتاب العرب فى معظمهم عبارة عن محاولة لإخفاء السيرة الذاتية، وليس كتابتها.. إننا سوف نرى مع ماركيز (فى سيرته الذاتية) ومع أصدقائه وجيرانه ومعارفه (وهم يحدثون سيلفانا عنه) شيئا لا نعرفه: اسمه الصدق فى كتابة السيرة الذاتية أو السيرة.

لنتجاوز ذلك ونعود لسيرة ماركيز الذى كتب حياة قريته ووطنه كولومبيا فى عدد من أعظم روايات وقصص القرن العشرين.. باختصار إذا أحسنت وصف قريتك، فأنت تسلك أقصر طريق إلى العالمية، لكن كيف يتحقق ذلك من حياة ماركيز فى سيرتيه؟ إنهما خطوتان أولاهما أن تمتلك ذاكرة فيل كما يحكى لنا إدوارد داكونتى.. إن ماركيز امتلك ذاكرة الفيل التى وعت تفاصيل البيئة الدقيقة فى قريته «أراكاتاكا» التى تميز نهرها بالصفاء والأحجار البيضاء التى تشبه بيضا ينتمى إلى ما قبل التاريخ، وتميز مناخها بصيف جاف وشتاء مطير إلى حد الرعب.. أيضا تلك الذاكرة وعت الحواديت وقصص الرعب التى كانوا - يجتمعون حولها فى دكان جد داكونتى: ماركيز يصحبه جده الذى أعطى صورة «أوريليانو بوين ديا» فى مائة عام من العزلة. أما روز سيترون فيحكى لنا عن جدة لا تتوقف عن القص الذى حفظه ماركيز، بل ويعتقد روز أن القدرة على القص أمر وراثى، جعل من ماركيز استجابة لما يسمع من قصص (حسب داكونتى) إلى أن يذهب للنهر لملء زجاجات من الماء من نهر القرية لعله يستخرج مع الماء بعض الأقزام أو العفاريت التى تسكن النهر.. لكن كلها ذابت فى الماء لتعطيه طعما لا نظير له.

نستمر مع هذه الخطوة الأولى لماركيز نحو واقعيته السحرية:

إنها مرة أخرى جدته حسب ما يقوله غيبرمو أنجلو الذى يظن أن أعظم إلهاماته مصدرها جدته التى حذرته من تمشيط شعره ليلاً، لأنه لو فعل فسوف تضل إحدى السفن طريقها فى البحر إننا نكاد ندخل فى القيمة الرمزية لأحداث الحياة اليومية، والتى تكثر فى حياة القرية المصرية دون صدى فى الفن.. إن كنس البيت يوم سفر أحدهم معناها خطر على حياته وأنه لن يعود إلى البيت ، فيمتنعون عن كنس البيت.. وعمل تمثال من «الشبة» للحاسد وفقا عينيه يمنع الحسد، ودفن الشعر أو الأظافر أو أى جزء من الجسم بعيداً عن الأعداء يقى من شرهم ، وقدماء المصريين كانوا يصنعون سفنا على نمط سفن الغزاة ويحرقونها لتحترق سفنهم فى البحر.. إن ذاكرة ماركيز الفيلية اتسعت لهذا كله من تراث





شعبى وأسطورى ليصير وراء سلوك أبطال رواياته، فأين نحن من تراثنا فى أعمالنا الروائية؟!..

التعرف علي الأدب اليوناني

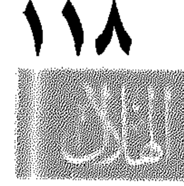
أما الخطوة الثانية، بجانب الذاكرة التى استوعبت أساطير القرية والجد والجدة وغيرهما من خلق الله الذين يحيون فى جو سحرى، هى امتلاك تقنية كتابة الرواية . لقد كانت حسب تعبير ماركيز فى سيرته الذاتية «الفرقة الموسيقية من عصابة الأصدقاء فى شبابه المبكر».. والذين التقت بهم أيضا سيلفانا . إنهم ليسوا مجرد أصدقاء لكنهم أساتذته الذين علموه «ما هو الأدب»، بفضلهم عرف «فوكنر» الروائى الفذ والذى عاش فى الأرض «التى عاش عليها ماركيز» شطرا من حياته لقد أعطوه أعماله ليقرأها وبفضلهم عرف الأدب اليونانى والرومانى وأعجب بـ «أوديب ملكاً» وبالأوديسة التى قرأها كثيراً، لكن الأهم بفضلهم عرف المواخير وأدمن فن الحياة.

مع هؤلاء الأصدقاء وعلى شواطىء الكاريبى ترعرعت فى قلبه رواية العمر، والعمل الذى يسعى أى أديب ليكتبه ليصل إلى القمة الباردة التى منها يلمس السحاب ويستمطره.

أنها رواية «مائة عام من العزلة».. لقد خطط حكايتها واستكمل فى ذهنه شخوصها ، لكنه عجز عن كتابتها، فبدأ كل ليلة يكتب فصلا من فصولها أو من فصول رواية أخرى تصب فيها، لكن الأمر ما قاله تولستوى «أنظر بحق إلى قريتك وسوف تصبح عالميا.. القرية، القرية، القرية».. كما يحكى لنا هيكتور روخاس: إن عصابة الأصدقاء فى «كارتاخينا» وقد تباحثت عن كل الآداب الأوروبية منتهية بفوكنر الأمريكى طرحت سؤالاً: متى تقول أمريكا اللاتينية كلمتها.. ولقد قالها ماركيز وجيل جليل من كتاب أمريكا اللاتينية، وخاصة من كتاب الرواية.

لكن لماذا عجز عن كتابة روايته التى كما يقول أصدقاؤه إنه كان يضعها تحت ذراعه لمدة تزيد على ربع قرن ؟ لقد تأكد أنها تحتاج لكاتب متمرس لم يكنه هو طوال هذه المدة.

لقد احتاج لعمل شاق من العيش والقراءة والكتابة اليومية ليمتلك فن الحكاية، التى امتلكها شفويا كما تحكى «ماريا لويسا إليو» إلى سيلفانا.. فى ليلة أعقبت محاضرة ذهبت مع آخرين إلى منزل صديق وجلست بجانب ماركيز



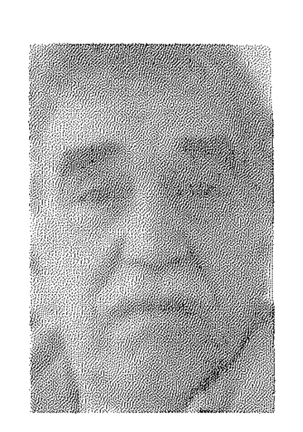
وحكى لها كل قصة «مائة عام من العزلة».. كانت تسأله فى تشوق كلما حكى شطرا منها : وماذا بعد ؟ قالت له : اذا كتبت هذا فأنت تكتب توراة .قال لها سوف اكتبها وأهديها إليك، فظنت أنه يسخر من سذاجتها ، لكنه هكذا كان عندما تأكد أنه صار المتمرس والخبير ليكتب مثل هذا العمل العظيم الذى منحه نوبل.

ومع ذلك عندما كتبها لم يجد ناشراً. لقد قالوا له «ألعب لعبة أخرى»، وعندما غامرت دار نشر أرجنتينية بطباعتها فوجئت بتوزيع مئات آلاف من النسخ واضطرت إلى إصدار ثلاث طبعات لها فى عام واحد.

الانعزال من أجل الكتابة

لقد بنت له زوجته غرفة سحرية فى بيتهم فى المكسيك لكى ينعزل داخلها للكتابة ، ومضى مع هوامشه وفصوله المكتوبة سلفا وذاكرته فى كتابة أعظم عمل روائى فى القرن العشرين حمله مباشرة إلى كثير من الجوائز قبل نوبل.. إن أصدقاءه يسمونه «جابو» وأحيانا يصغرون الأسم إلى «جابيتو». كلا الاسمين تصغير لجابرييل.. لكن ماذا دهى جابيتو بعد أن نال شهرة مخيفة، وثراء بلا حدود؟

يجيب أصدقاؤه بشيء من الأسى.. لقد أحب السلطة والمال، ونقطة ضعفه الرؤساء.. إنه يستطيع أن يرفع سماعة التليفون ليطلب تسع رؤساء جمهوريات بالتليفون أو رؤساء وزراء (فى مقام الرؤساء مثل فيليبى جونثالث رئيس وزراء اسبانيا) لكى يشرب كأسا مع أحدهم ويقضى ليلة من السمر. لقد صار مثلا صديقا لكلينتون أثناء رئاسته للولايات المتحدة عندما تعلقت ابنته فى رقبته وطلبت منه أن ترى ماركيز فى إحدى زياراته للولايات المتحدة ، أما الجنرال (عمر) ديكتاتور بنما فى زمن ماض على مائدة العشاء مع ماركيز يقول: «إن ماركيز صديق للديكتاتوريات»، فيسأل ماركيز بحدة «كيف؟» فيرد الجنرال «لأنك صديقى وصديق كاسترو». هل تغير الشهرة والثروة من الرجل؟ نعم لقد حدث هذا لجابو، لكنه مع ذلك فى سيرته الذاتية لم يخف ذلك الشاب الجائع الفقير المتشرد الذى تؤويه «المومسات» ، والذى أصبح مشهور اليوم وثرى القوم وصديق الرؤساء الحميم، حتى أنه يضع سنة فى العالم الاسبانى: أن كل رئيس يعلن على الملأ صداقته لأحد الكتاب المشهورين ، حتى أن أثنار رئيس وزراء اسبانيا الحالى فاجأ الناس بصداقته «بفارجاس يوسا» بديلاً عن «ماركيز» عند سلفه «جونثالث» رئيس الوزراء السابق.. لكن يبقى شيء نفهمه من السيرتين هو احتفال كولومبيا الصاخب بفوز ابنها بنوبل الأمر الذى لم نفعله مع نجيب محفوظ.



لقد سافر إلى السويد عدد غفير من كولومبيا بين فنانين وكتاب ومسئولين لحضور تسلمه للجائزة، أما نحن فقد تركنا ابنتى نجيب محفوظ وحدهما تتسلمان الجائزة، فكتب نجيب محفوظ «صدى سيرته الذاتية» لأننا لسنا مثل الأمريكان اللاتينيين نسامح ونتسامح مع حقائق حياة من يتأمل ذاته.. إن «صدى السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ أشبه بشخص فاضل مثل سيلفانا يكتب عنه فلم تقل قيمة العمل العظيم، لكننا نحس بأن صاحبه معاقب بعدم القدرة على الصراحة إلا داخل «حدود» لم يعرفها «ماركيز» فى كتابة سيرته، وإن عرفها معارفه وأصدقاؤه وجيرانه عندما تكلموا عنه ، فصارت سيرة سيلفانا «صدى لسيرته الذاتية» التى كتبها بنفسه عن نفسه:

ذاته تتأمل «ذاته العريانة» دون خجل عربى «تخجل به كل سيرة ذاتية» لعربى، فتدارى بدلا من أن تكشف وتعرى.

هل هو خجل الكتاب أم أنها القيود الاجتماعية الصارمة .. إن ابن الأزرق فى كتابه «بدائع السلك فى طبائع الملك» يحذر من الاقتراب فى الكتابة من الدين والسلطان والفلسفة، فماذا تبقى؟ الجنس: لقد كتب فيه القدماء بحرية أما نحن فقد أضفناه للممنوعات . أختم بنكتة أمريكية جنوبية: «لقد جاء منتج أمريكى لماركيز طالباً إذننا بعمل «مائة عام من العزلة» فيلماً، طلب ماركيز مائة مليون دولار.

قال له الأمريكى: ما رأيك أن نكتفى بعشرة أعوام من العزلة؟».. إنها أول مرة تصبح فيها رواية موضوعاً لنكتة.. إن هذا يعكس مدى شعبيتها، التى جاءت من أن الناس وجدوا أنفسهم فيها لأنها تنطلق من الواقع - وحتى يصير عالميا يمزج به فانتازيا الخيال ليسرع فى العودة إلى الواقع - هكذا أبدا فى صراحة تخلو من ممنوعات ابن الأزرق التى حفلت بها كتب التراث التى تحكم كتابنا، لأنها صارت سيدة الواقع المعاصر. فهل من مهرب؟

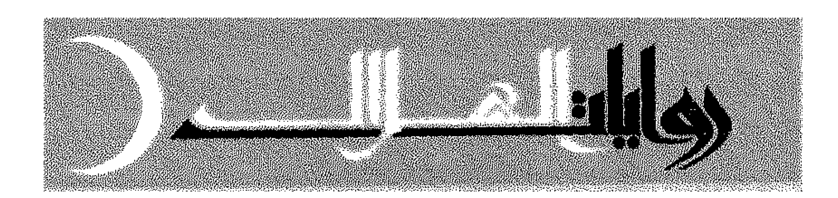
ربما فى قراءة سيرة ماركيز الذاتية وسيرته السيلفانية، بجانب جميع أعماله، إنها دعوة للتحرر من الخوف والخجل، لأن الأدب فى تصويره للواقع يحرر الواقع من جموده، ويفتح للناس - حتى لو غضبوا - بوابات المستقبل ، دون دفن الرؤوس النعامية فى رمال صحرائنا الحارقة. ■



بقلم
نبيل فرج

يصدر ٥ فبراير ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



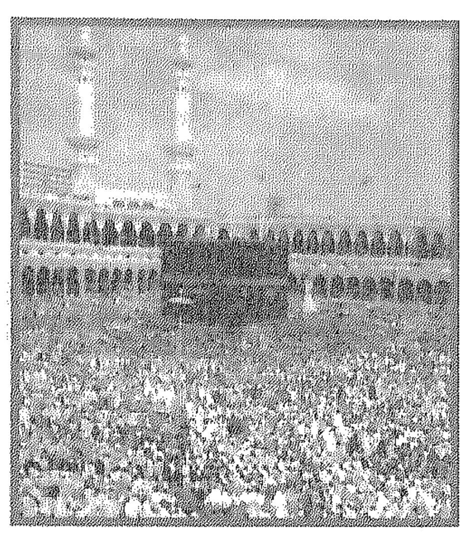
قصر الأفراح

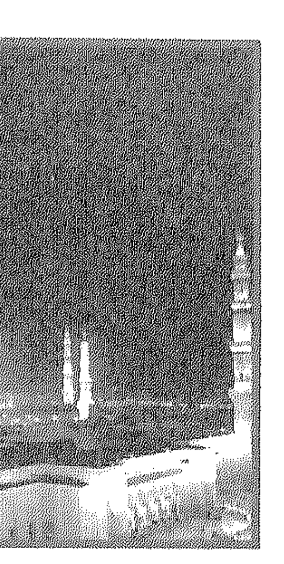
بقلم
محمد عبد السلام العمرى

تصدر ١٥ فبراير ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٢١
الهلال
ذو الحجة ١٤٢٤هـ - فبراير ٢٠٠٤م





الحرمان المكى والنبوى

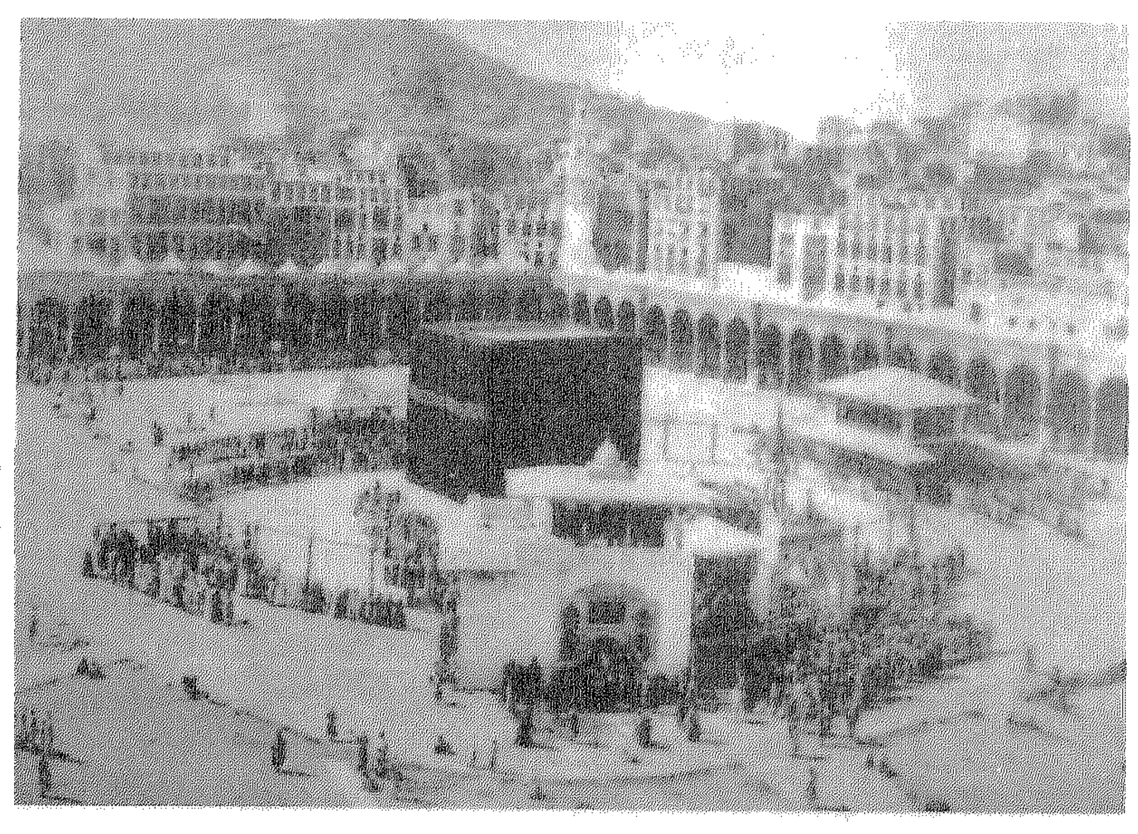
فى كتابات الرحالة الأجانب

بقلم
عرفة عبده على

ما بين روائع آيات الماضى، ومعاقد التاريخ من ضفاف النيل وطور سيناء إلى بيت لحم والناصرة وبيت المقدس إلى مكة والمدينة، إلى ما يحف بهذه الأصقاع من آثار قدسها الله، وما نهض فى أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية.. تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوروبا عن الشرق شكلت ما عرف بـ «علم الاستشراق»، تبدل إلى محاولة اكتشاف جديد للشرق القديم وانطلقت الرغبة فى معرفة أدق عن الآخرين، ترقب وترصد، فيما يمكن أن نسميه «تحقيق عن الشرق» -ENQUETE SUR L'ORIENT



قافلة الحج المصرية تدخل مكة عام ١٨٧٦ م



صورة نادرة للحرم المكى فى بدايات القرن العشرين

«بوركهارت»
أو الشيخ ابراهيم!

من أوائل الرحالة المستكشفين لبلاد العرب، في عصر الإمبراطورية العثمانية، المستشرق «جون لويس بوركهارت» الذي ولد بمدينة «لوزان» بسويسرا، في ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٤، وعندما أتم دراسته الأولية، ألحق بمدرسة «نوف هوتيل» الثانوية، وفي عام ١٨٠٠ التحق بجامعة ليبزج، ثم بجامعتي لندن وكمبريدج، ليحصل مجموعة من المعارف مثل اللغة العربية وعلم الفلك، علم المعادن والكيمياء والطب والجراحة، قبل أن ترشحه «الجمعية الأفريقية» للقيام برحلة استكشاف في افريقيا .

وأطلق لحيته، واتخذ هيئة شرقية.. وفي ٢ مارس ١٨٠٩، غادر إنجلترا، ليقضي ثلاث سنوات في سوريا متخفياً في زي تاجر مسلم، وفد من الهند، باسم الشيخ «ابراهيم» مزودا بتوصيات من ادارة شركة الهند الشرقية وتنقل ما بين حلب ودمشق وتعمق في دراسة اللغة العربية وآدابها، ثم توجه إلى لبنان وحوران، وكان أول أوروبي يشهد آثار «البتراء» ثم سلك طريق الحج إلى القاهرة وقام برحلة إلى بلاد النوبة، ومنها اخترق الصحراء إلى «سواكن» ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة وانجز رحلته في بلاد العرب (١٨١٤- ١٨١٥) زار فيها مكة والمدينة، أعقبها برحلة إلى سيناء وخليج العقبة، ثم استقر في القاهرة، حيث لاتزال ماثلة آثار أقدام نابليون على ضفاف نيل مصر، ووافته المنية في ١٥ أكتوبر سنة ١٨١٧، ودفن بلقب «الشيخ والحاج ابراهيم» في مقبرة خاصة، في الجنوب الشرقي من باب النصر «بالقاهرة الفاطمية» .

وفي كتابه الشهير «رحلات في بلاد العرب» قدم لنا انطباعاته في رحاب مكة والمدينة عارضا لجوانب من الحياة الاجتماعية بالمدينتين، وبعد أن أدى مناسك العمرة في شهر رمضان، قال:

«خلال شهر رمضان، ألف مصباح تضئ الجامع الكبير (الحرم المكي) تجعل من الليل أمانا لكل الغرباء في مكة... وان كان الليل في رمضان لايقدم تلك الاستعراضات البراقة والاحتفالات المرحة التي نراها في بلاد الشرق الأخرى !

مكة مدينة لطيفة التصميم، شوارعها- بصفة عامة - أعرض من شوارع المدن الشرقية، منازلها شامخة مبنية من الأحجار، النوافذ العديدة المطلة على الشارع توحي بانطباع أكثر حيوية ! .. وقليل منها يزدان بالمشربيات، ومثل مدينة جدة، فإن مكة تحوي عدداً من المنازل ذات الثلاثة طوابق، بعضها مطلي باللون الأبيض .

وفي الماضي، كان للمدينة ثلاثة أبواب لحمايتها، أحدها شيد في الجانب الآخر للوادي عند شارع «المعلاة» وآخر عند حي «الشبيكة» والثالث عند الوادي المفتوح تجاه حي « المسفلة» وقد تم ترميم هذه الأبواب في عام ٨١٦ و ٨٢٨ هـ وقد ظلت بعض أطلالها قائمة لنحو مائة عام .

المكان العام الوحيد في قلب المدينة، هو ذلك الميدان الرحب للجامع الكبير، لا أشجار أو حدائق تسر الناظرين ! ولاحياة للمشهد العام إلا في موسم الحج، الحوانيت المنتشرة بكل حي تكتظ



بوركهارت أو الشيخ ابراهيم بالزي الشرقى

لقطة للروضة الشريفة عام ١٩٥٠حيث دفن خاتم المرسلين في المدينة المنورة

سكة حديد الحجازية بشارع العنبرية فى المدينة المنورة - ١٩٢٥ م



أحد الشوارع المؤدية إلى الحرم النبوى بالمدينة المنورة فى بدايات القرن الماضى

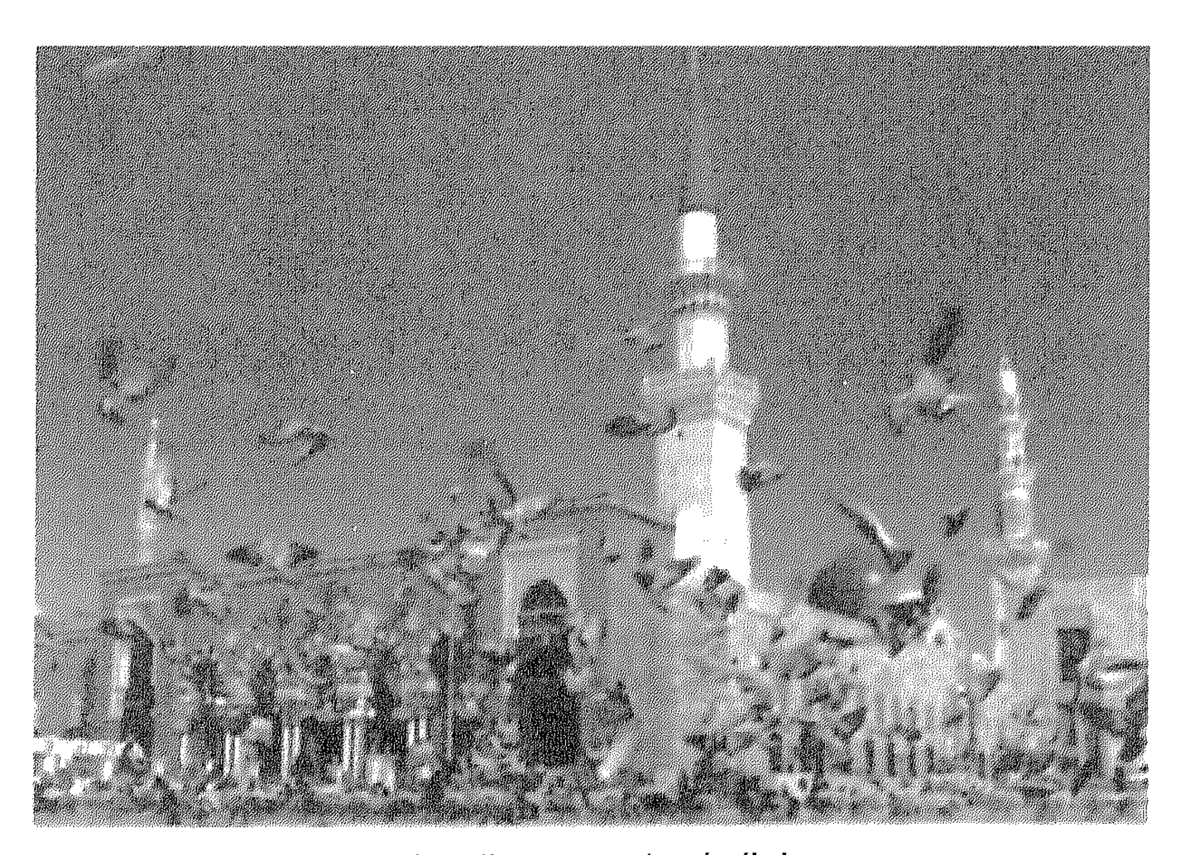
بالمعروضات باستثناء أربعة أو خمسة منازل ضخمة ملك لشريف مكة ومدرستين (تحولتا الآن إلى محال للغلال!) والجامع، وبعض المبانى والمدارس الملحقة به!.

ولايمكنك أن ترى تلك المعالم التى تشتهر بها مدن الشرق مثل الخانات اللازمة لراحة المسافرين، أو وكالات لتخزين البضائع، أو قصور عظيمة أو مساجد، وقد يمكننا أن نرجع هذا النقص الشديد فى المبانى العامة، إلى هذا التبجيل الخاص الذى يكنه السكان نحو «الكعبة» .. وهذا مايمنعهم من تشييد بناء آخر يمكن أن يضاهيها !»

وفى وصف الحرم المكى، يقول بوركهارت:

«الحرم من الداخل على شكل مربع تقريباً، تتوسطه بميل إلى الزاوية الجنوبية الكعبة.. وأبواب الحرم المكى ثمانية فى الجهة الشمالية وهى : الدريبة، المدرسة، المحكمة، الزيادة، القطبى، الباسطية، الزمامية ثم باب عمرو بن العاص، وفى الجهة الغربية ثلاثة أبواب : العمرة، ابراهيم ثم باب الحزورة وفى الجنوب سبعة أبواب. أم هانئ، التكية، الرحمة، أجياد، الصفا، بنى مخزوم، ثم باب بازان وفى الجهة الشرقية أربعة أبواب : بنى هاشم أو باب على، العباس، باب النبى ثم باب السلام.

وللمسجد ست منارات : منارة باب العمرة، منارة باب السلام، منارة باب على، منارة الحزورة، ومنارة باب الزيادة ومنارة السلطان قايتباى.. وصحن المسجد مكشوف تقطعه ممرات مفروشة بالحصى الصغير، والكعبة بوسط الصحن، وزواياها تسمى أركان : فالركن الشمالى يسمى الركن العراقى، والجنوبى يسمى الركن



حمام الحما وجانب من صحن الحرم النبوي

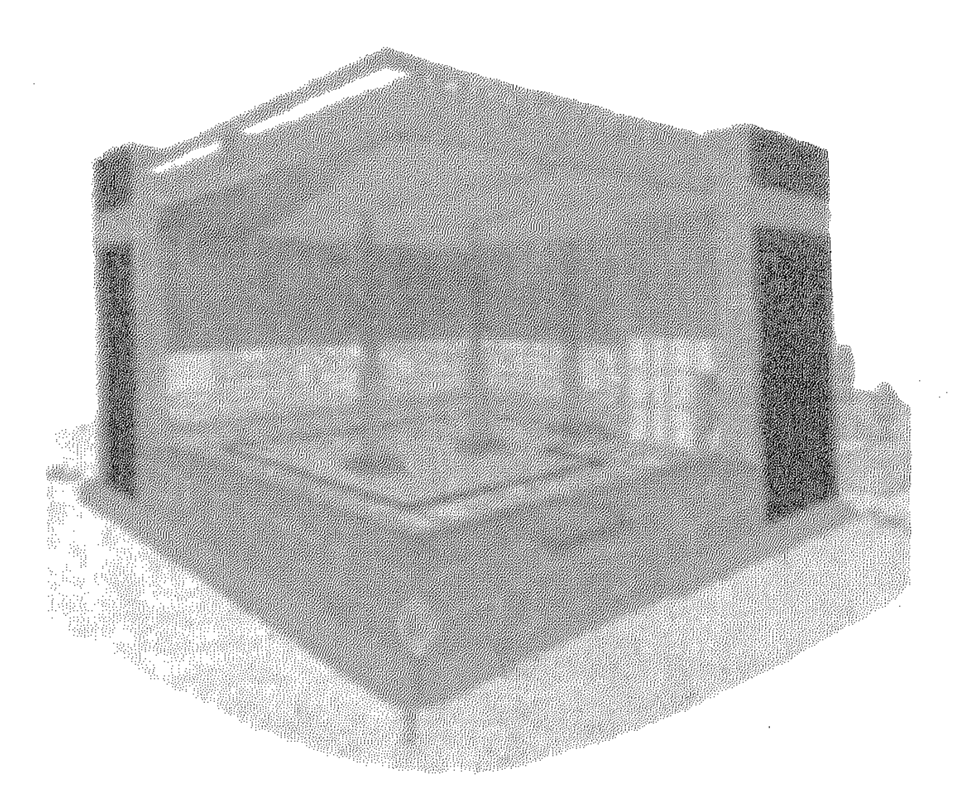
اليمانى، والغربى يسمى الركن الشامى، والشرقى يسمى ركن الحجر الأسود ... ويخرج من أعلى منتصف الحائط الشمالى «ميزاب» حتى لاتتجمع مياه الأمطار على سـقف الكعبـة، وهو الآن من الذهب الخالص، وقد أمر بصنعه السلطان عبد المجيد وبالركن الشمالى باب صغير يسمى «باب التوبة» وبداخل الكعبة ثلاثة أعمدة، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب وحائط الحجر الأسود، ويغطى جدرانها الحرير الأخضر نقشت عليه آيات مذهبة، كما يزدان داخلها بأكثر من مائة قنديل من الفضة والذهب المرصع بالجواهر»!

وعن انطباعاته عن المدينة المنورة يقول بوركهارت : «ترجلت القافلة فى إحدى ضواحى المدينة، حيث أودع المسافرون أحمالهم، وبدأوا على الفور فى البحث عن أماكن للإقامة بمساعدة مطوف محترف، وقد أمكننى الحصول - بعد قدر من المشقة - على شقة لابأس بها بشارع السوق الرئيسى للمدينة، تبعد عن الجامع الكبير بنحو خمسين ياردة .

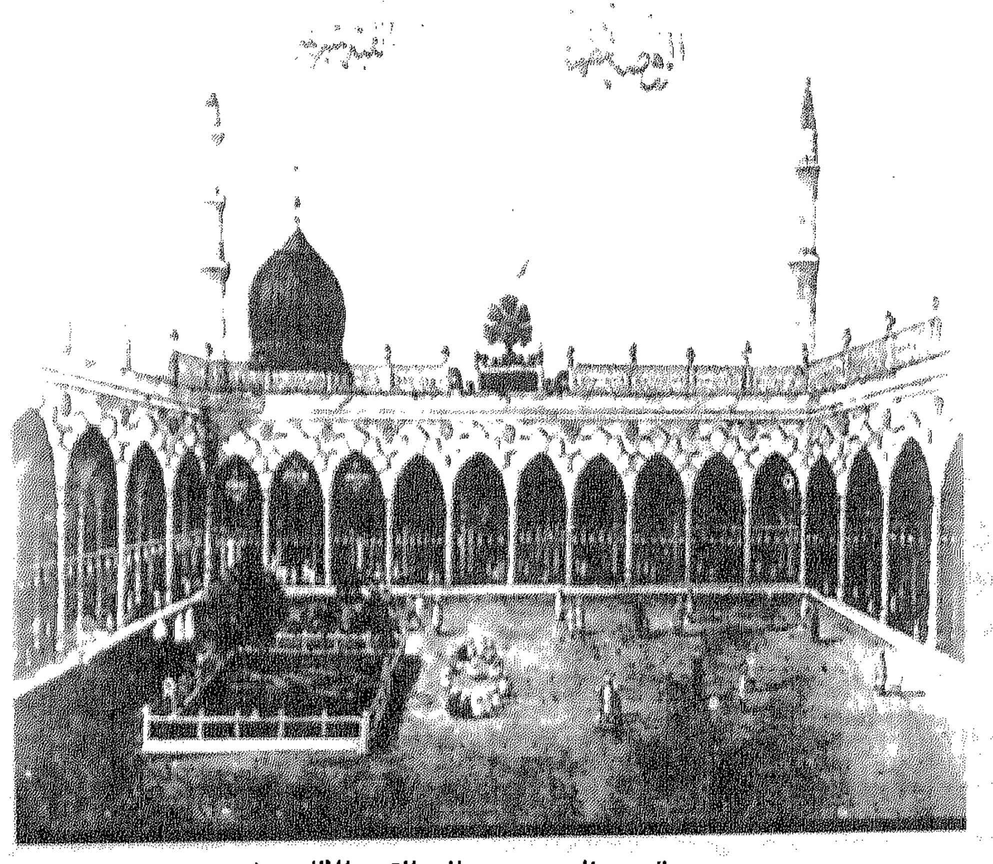
نقلت أمتعتى إلى مقر إقامتى، ثم طلبت من المطوف زيارة الجامع والضريح المقدس لمحمد ... ومثلما فى مكة، فالزائر فور وصوله إلى المدينة المنورة، لابد أن يؤدى هذا الفرض، قبل أن يشرع فى إنجاز شؤونه الخاصة، المناسك هنا أبسط وأكثر يسرا مما فى مكة وقد انتهيت منها فى نحو ربع الساعة» !

ڤارتيما .. أو الحاج يونس

وقد حرص كثير من الرحالة المسلمين والأوروبيين على زيارة المدينة المنورة وبعض الرحالة الأوروبيين الذين تظاهروا



قطاع للكعبة من الداخل



رسم للحرم النبوى يعود الى القرن الثالث عشر

بالإسلام، وطافوا بأرجاء العالم الأسلامى، كانت مهمتهم الحقيقية، رصدا شاملا للبلاد وتحصيناتها، والأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للشعوب الاسلامية ..ومن هؤلاء الرحالة الايطالى «لودفيكو دى ڤارتيما» .. أو «الحاج يونس» كما سمى نفسه ! .. الذى قام برحلته إلى الشرق فيما بين عامى ١٥٠٣و ١٥٠٩ فأبحر من البندقية قاصدا مصر ثم توجه إلى بلاد الشام، ليطوف بعدها ببلاد العرب (الحجاز) ثم اليمن فالخليج العربى وبلاد فارس وقد رحل دى ڤارتيما إلى المدينة المنورة، فى قافلة ضمت ثلاثمائة من الزائرين والتجار والمماليك وكتب فى نهاية اليوم الخامس عشر «وصلنا إلى جبل (هدية) محيطه نحو عشرة أميال يقطنه نحو أربعة آلاف يهودى قصار القامة، شبه عراة يميلون إلى السواد، لايأكلون إلا لحوم الغنم، وإذا وقع أحد المسلمين بين أيديهم سلخوه حياً !!. وكانوا يحومون حول الجبل كالماعز البرية!.. وعند سفح الجبل، وجدنا بركة يتجمع بها الماء فى موسم الأمطار، وبالقرب منها ثمانى شجيرات جميلات، عششت فيها «قمريتان» فكان مشهد أشبه بالمعجزة فى هذا الجو القاحل! فقد سافرنا خمسة عشر يوماً لم نصادف خلالها طيراً أو حيواناً.. وفى اليوم التالى، وعلى مسافة أربعة أميال من مدينة النبى، توقفت القافلة عند بئر، حيث اغتسل كل فرد من أفراد القافلة، وارتدينا ملابس الإحرام قبل دخول المدينة» .. وقال عن مسجد النبى» «يبلغ طوله مائة خطوة طولاً وثمانين خطوة عرضا ويوجد بابان فى كل جهة من جهاته الثلاث، أما الرابعة فلا أبواب فيها، والسقف يرتفع على عقود تمتد على أعمدة من الحجارة المطلية باللون الأبيض.. عند كل باب من الأبواب الداخلية، تجد عشرات من الكتب التى تتناول حياة محمد «*»: وشروحاً للعقيدة الإسلامية، وخلف حاجز معدنى مشغول بشكل جميل، توجد قبور محمد «*» وأبى بكر وعمر» .

ورحل «دى ڤارتيما» إلى مكة، وسجل انطباعاته عنها، فقال «إنها مدينة رائعة الجمال قد أحسن بناؤها، وتضم نحو ٦٠٠٠ أسرة ومنازلها جيدة .. وتمثل جبال مكة أسواراً للمدينة، وحاكمها «شريف» من سلالة النبى، ويتبع سلطان مصر...

وقد رأيت أعداداً كبيرة من الحجاج الذين يبتغون الغفران !.. أتى كثير منهم من بلاد الهند وفارس والشام وإفريقيا، وتروج هنا تجارة المجوهرات والبهارات والأقمشة والشمع والمواد العطرية !

فى وسط مكة تتوسط الكعبة الجامع الكبير، مبنى جميل يشبه «الكولوزيوم فى روما – Callesseum of Rome وله نحو تسعين بابا ذات عقود، كان يجلس تحتها نحو خمسة آلاف، رجالاً ونساء، يبيعون المواد العطرية ، ولا أستطيع أن أصف لكم روعة الروائح التى شممتها فى هذا المكان .. ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع الكعبة ست خطوات، وقد غطيت بالحرير الأسود الفاخر (الكسوة) وبابها من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان، على جانبيه «جرة» يقال إنها مليئة بـ «البلسم» وجدران الكعبة مغطاة برقائق من الذهب، وفى كل ركن من أركانها تتدلى حلقة كبيرة وثريات تتدلى

من السقف، مشغولة بالمينا ومرصعة بالذهب ويطوف الحجاج حولها سبع مرات، ويتمسحون بها ويقبلونها وبالقرب منها توجد «بئر زمزم» يقف عندها ثمانية رجال لسحب المياه، وعقب طواف الحجيج يأتون إلى هذه البئر، فيصب القائمون على البئر ثلاث «صفائح» على كل حاج - حتى الذين كانت ثيابهم من حرير! - طالبين من الله أن يطهر أبدانهم ويغفر لهم ذنوبهم !

ويرفرف فى سماء المسجد نحو ١٥ ألف حمامة، يقال : إنها من سلالة حمامة الغار! »

ريتشارد بيرتون

أما العالم الجغرافى والمؤرخ والانثروبولجى، مكتشف بحيرة تنجانيقا، والذى ترجم كثيراً من المؤلفات العربية والفارسية إلى الإنجليزية، الرحالة الأيرلندى الشهير «ريتشارد بيرتون» الذى بدأ رحلته إلى مصر وبلاد العرب والشام عام ١٩٥٣، وبعد أن طوف بنا فى مكة المكرمة، انتقل إلى المدينة المنورة ليصف لنا عمارتها وجبالها وأوديتها ودروبها وعادات أهل المدينة وتفاصيل حياتهم اليومية، وقد استضافه «الشيخ حامد» فى منزله بحي «المناخة» ويقول رغم أن منزل الشيخ حامد لم يكن واسعاً، إلا أن المناظر المتباينة التى تبدو من نوافذ (المقعد) تجعل منه مكاناً حيوياً، فناحية الشرق تشرف على ميدان بر المناخة وسور المدينة وما خلفه من منازل والباب المصرى، ومآذن الحرم النبوى وجبل أحد على البعد، ومن ناحية الشمال ترى مسجد محمد «*» وجزءاً من جدار الحصن .. والطبقة العليا فى مجتمع المدينة تأثرت بالفخامة التركية والمصرية فى معيشتها ...

وتحدث بيرتون عن قداسة المدينة والمكانة الرفيعة للمسجد النبوى، مشيراً إلى أن بعض المسلمين يعتقدون أن المدينة المنورة أكثر شرفاً وأعلى مرتبة روحية من مكة المكرمة، وأن النبى قد فضل المدينة «دار هجرة» وباركها كما بارك ابراهيم مكة .. وأهل كل من المدينتين يتباهون بالشرف الذى حازته مدينتهم !.

ويقول بيرتون عن المسجد النبوى الشريف :

« هذا المسجد الذى يحظى بالتبجيل والتوقير من كل مسلمى العالم، يبدو بسيطاً متواضعاً فى مظهره المعمارى، وهو متوازى الاضلاع طوله نحو ٤٢٠ قدما وعرضه ٣٤٠ قدما، يتوسطه صحن تحيط به أربعة أروقة ذات أعمدة رخامية تعلوها عقود مزخرفة .. وبطول الجدار الشمالى يوجد الرواق المجيدى «نسبة إلى السلطان عبد المجيد» أما الجدار الغربى فعنده رواق «بوابة الرحمن» وفى الجدار الشرقى «بوابة النساء» أما الجدار الجنوبى فيحوى أكثر المواضع قداسة فى المسجد وهى «الروضة الشريفة» .

« وقد بدأنا الدخول بالقدم اليمنى لنخطو أمام خط «المواجهة الشريفة» مردداً الدعوات التى كان يدعو بها الشيخ حامد.. عن شمالى، حائط منخفض مزخرف بنقوش عربية به أربعة أبواب صغيرة، يمكن العبور منها إلى الداخل حيث المحراب النبوى والمحراب السليمانى والمنبر، وكلا المحرابين من الفسيفساء الجميلة المختلفة ألوانها، والمنبر من الخشب الأرابيسك الرائع، ومن الباب الغربى الصغير، دخلنا إلى الموضع الشهير بـ «الروضة الشريفة» .. وإلى

الحرمان المكى والمدنى فى الرسوم الفارسية



اسمعیل از طلب سنگ باز آمده بود ابراهیم پرسید که آن سنگ را نیز که آورد ابراهیم گفت
سنگ ترا نگذاشت جبرئیل آورد از جانب ابراهیم و اسمعیل بر طاعت حق شکر کردند
و نماز اقامت نموده گفتند ربنا تقبل منا انک انت السمیع العلیم جبرئیل علیه السلام نازل شد

رسانید و سر بید طواف و مناسک حج و امور که در عرفات واقع می‌شود
مناسک ... بدیشان تعلیم کرد و چون ... بطواف بیت الله قیام نموده
... که ... خواست که ...
... نظر کرد ... اطراف ... اسمعیل ...
... سنگ ... که ... آن ... سیاه ...

الشرق ضريح النبى محمد «*» محاطاً بمقصورة من الخشب الخرط البديع .

والمشهد الذى يثير الإعجاب ليلاً، تلك الأنوار المنبعثة من الزجاج الملون فى الجدار الجنوبى، والنحاس المشغول الاصفر أو المطلى باللون الأخضر، وتنبهر العيون من أضواء القناديل وأنوار الشموع الضخمة.. ومن تعمق فى روح الشرق سيدرك معنى «الفردوس» الذى قصده المعمارى !!.

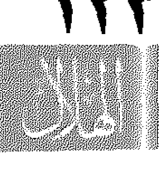
والضريح أو «الحجرة» كما يطلق عليه، كانت أساسا غرفة السيدة عائشة، يفصلها عن المسجد ممر عرضه نحو عشرين قدما، ويحيط بالقبر إحاطة كاملة سياج معدنى مزخرف بكتابات وأشكال نباتية رائعة، به أربعة أبواب :باب المواجهة، باب فاطمة الزهراء، باب التوبة والباب الشامى وهو الوحيد الذى يفتح لدخول الطواشية لتنظيف الأرضية وإضاءة القناديل ورفع الهدايا التى يلقى بها بعض الزائرين

وفى الجزء الجنوبى من السياج، توجد ثلاث طاقات ترتفع عن الأرض نحو خمسة أقدام الأولى تواجه قبر محمد «*» وتشتهر بـ شباك النبى والثانية تطل على قبر أبى بكر، والثالثة على قبر عمر بن الخطاب، وتعلو الحجرة الشريفة قبة خضراء، يرتفع عليها هلال ضخم مذهب والخيال المتوهج لبعض المسلمين جعلهم يتصورون أن هذا الموضع يصعد منه «نور ربانى» يهدى خطى الحجيج على بعد مسيرة ثلاثة أيام من المدينة المنورة»!

أما مآذن المسجد النبوى فعددها خمس لكن واحدة منها وهى المئذنة الكائنة فى الزاوية الشمالية الغربية للمسجد قد تهدمت وجار العمل فى إعادة بنائها، أما منارة «باب السلام» فتنتصب بالغرب من الباب الذى يحمل الاسم نفسه، وهذه المنارة (أو المئذنة) طويلة وجميلة تعلوها كرة ضخمة مخروطية من نحاس مذهب، أما منارة «باب الرحمة» ففوق منتصف الجدار الغربى تقريبا وهى أكثر بساطة من المنارات الأخرى، وفيها ممران فى الجزء الدائرى العلوى ويعلوها مخروط من النوع الشائع فى مصر وتركيا . وفى الزاوية الشمالية الشرقية توجد «المنارة السليمانية» نسبة إلى منشئها السلطان «سليمان القانونى» وهى مشيدة بشكل جيد كبرج حجرى مقسم إلى ثلاث طبقات متينة، والطبقتان إلسفليتان مضلعتان، أما الطبقة الثالثة فاسطوانية وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث لها منصة أو منبسط يحيط به سور دائرى لحماية الصاعدين من السقوط .

وأخيراً هناك منارة الروياسا Ruia-sa(كما كتبها بيرتون) فى الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد، وقد شيدت فوق البقعة التى كان بلال (رضى الله عنه) يؤذن فيها ليدعو المسلمين الأوائل الصلاة، وقد سميت بمنارة الرؤساء لأنها مخصصة للرؤساء من العلماء والحكام !.

وكلتا المئذنتين تنتهى ببناء بيضى (أهليجى) متين ينبثق منه عدد من المثلثات الخشبية وبالنسبة لهاتين المئذنتين وكذلك الأروقة فإنها جميعا تضاء بالمصابيح الزيتية فى المناسبات الاحتفالية كوصول قافلة الحج الدمشقية.ومن النظرة الأولى، يبدو عدم التناسق بين هذه المنارات، رغم الجمال والعظمة البادية فى كل منها على انفراد .. لكن بعد عدة أيام، وجدت عينى قد ألفت مشاهدتها ولم أجد صعوبة فى تذوق روعتها وشكلها النبيل !! ■





حفل وضع حجر الاساس للمتحف المصري عام ١٨٩٧

غلاف كتاب سجل أعمال البعثات الاثرية الإيطالية بمصر على مدى ١٠٠ عام

غلاف الكتاب الذي أصدره عالم الآثار الإيطالي بريشيا عام ١٩١٤ عن الإسكندرية المصرية

بقلم
مينا عبد البديع عبد الملك ●

مصر وإيطاليا حضارتان مرموقتان على جانبى المتوسط . كان لابد لهما من عبوره ، كان لابد لهما من لقاء . بدأ اللقاء الأول منذ آلاف السنين مفعما بجلال السبق لهما لتتوحد المشاعر كى تسود العالم آنذاك . وظل هذا اللقاء دفين الزمن إلى أن تم لقاء الزمن الحاضر وبالتحديد منذ مائة عام .. كان لقاء العلم والاكتشاف وهو الاستمرار الحقيقى لإسعاد الشعوب بما يثرى حاضرها ومستقبلها .

خلال مائة عام من التواجد العلمى والكشفى الإيطالى فى مصر تحققت للإنسانية أحلام لها طابع الواقع الملىء بالسحر والغموض لتلقى ضوء الكشف على حياة غابرة أعطت للماضى تفوقا إنسانيا مرموقا بين الحضارات . فقد مرت بمصر بعثات للتنقيب بدءا من المكتشف الرحالة «بلزونى» باكتشافاته الرائعة والمهمة لمقبرة نفرتارى ومعبدى أبى سمبل وغيرها مما بهر العالم وصولا إلى عصرنا الحالى والذى تطورت فيه العلاقات إلى مستوى أعمق وأهم وهو الحفاظ على هذا التراث الذى هو ملك للإنسان على مر العصور

● أستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

مصر وإيطاليا
مائة عام من التعاون

بهذه الكلمات سجل السيد فاروق حسنى – وزير الثقافة المصرى – خطاب الشكر الذى وجهه إلى الدكتورة «ماريا كازينى» الأثرية بالمعهد الثقافى الايطالى بالقاهرة على جهدها الكبير فى تجميع وثائق البعثات الايطالية المختلفة – على مدى مائة عام – بمصر، وتسجيل ذلك التاريخ الحافل بالاكتشافات والترميمات تلك التى هى موضع اعتزاز الشعب المصرى وتقديره.

ساهم فى تسجيل هذه الموسوعة القيمة ثمانية وعشرون أستاذا متخصصا من الجامعات الايطالية المختلفة : روما ، فلورنس ، بيزا ، باليرمو ، ليسى ، بولونيا ، تورينو ، نابولى، ميلانو ، ميسينا ، بويتير . وبتعضيد من الخطوط الجوية الايطالية «اليتاليا» .

الكتاب مقسم إلى سبعة أقسام مختلفة : فترة ما قبل التاريخ ، مصريات ، مصر اليونانية الرومانية ، برديات ، الحفاظ على الآثار ، الدراسات الايطالية فى المتحف المصرى ، ثم قسم الآثار بالمعهد الثقافى الايطالى بالقاهرة .

المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية

مع منتصف القرن التاسع عشر قام عالم الآثار الفرنسى أوجست مارييت – الذى خلف جاسترن ماسبيرو – بتأسيس مصلحة الآثار المصرية . عمل الباحث الايطالى لويجى فاسيلى مع ماسبيرو بينما كان السندرو بارسانتى – السكندرى المولد – مساعدا لمارييت والذى امتدت أعماله من الدلتا شمالا إلى النوبة جنوبا . فى تلك الفترة المبكرة كانت الآثار المصرية تعانى من التدمير الشامل والإهمال وتحتاج إلى عناية خاصة .

بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما قام أثرى إيطالى – سكندرى المولد «بوتى» بتأسيس المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية عام ١٨٩٢ وذلك بداخل مبنى بشارع رشيد (حاليا طريق الزعيم جمال عبدالناصر) وذلك بفرض حفظ آثار مدينة الاسكندرية التى كانت تظهر من أعماق الأرض مع أعمال الحفر لمنازل ومنشآت المدينة المختلفة . وبازدياد حركة العمران والاهتمام بالآثار القديمة للمدينة رأى «بوتى» أهمية إنشاء المتحف الحالى بالإسكندرية وفى عام ١٨٩٥ بدىء فى إنشاء الجناح الغربى ، وظل بوتى مديرا له حتى اكتمل المتحف فى عام ١٩٠٤ وفى الفترة (١٩٣١ – ١٩٥٢) تولى إدارة المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية إثنان من علماء الآثار الايطاليين هما ايفارستو بريشيا وأشيللى أدريانى .

ولكل من بوتى وبريشيا وأدريانى الفضل فى الحفائر التى قاموا بها فى مواقع عديدة بحثا عن الآثار اليونانية والرومانية سواء داخل نطاق مدينة الاسكندرية أو فى مدن مصرية أخرى جرت بها وقائع التاريخ اليونانى الرومانى مثل الفيوم والبهنسا والصحراء الغربية .

ومن أهم المواقع التى تم اكتشافها مناطق جبانات الشاطبى ومصطفى كامل والحضرة والتى يعود تاريخها إلى العصر البطلمى ، بالإضافة إلى البقايا المطمورة تحت الأنقاض حول عمود دقلديانوس بمعبد السرابيوم – وكذا كوم الشقافة وجبانة اللاتين ومنطقة كوم الدكة الأثرية .

وفى عام ١٩٣٦ كشفت الحفائر التى



مقابر منطقة مصطفى باشا

قام بها المتحف اليوناني الروماني عن معبد روماني من الطراز الأيوني يرجع تاريخه للقرن الثاني داخل محجر للرمال بمنطقة الرأس السوداء، وجدت به مجموعة من تماثيل رخامية لأرباب الاسكندرية القديمة إيزيس ، حريوقراط وهيرمانوبيس داخل إحدى قاعات هذا المعبد .

أول بعثة أثرية إيطالية جاءت إلى وادى النيل بتمويل من الحكومة الايطالية ، تم تكوينها بمعرفة أرنستو شيابارللى (١٨٥٦ - ١٩٢٨) الذى كان يشغل وظيفة أمين المتحف المصرى بتورينو وأستاذ المصريات بجامعة تورينو ، ومتحف تورينو قد تأسس بقطع أثرية يعود تاريخها إلى الفترة ما بين الدولة المصرية القديمة والمتوسطة والتى اكتشفت بمنطقة الجيزة عن طريق الحفائر التى قام بها شيابارللى وبمساعدة فرانسسكو بارينى .

أهم الاكتشافات الأثرية التى قامت بها البعثات الايطالية تلك التى كانت على حدود منطقة طيبة حيث مقبرة الملكة نفرتارى ، مقبرة الرسام مايا (الدولة الثامنة عشرة) بدير المدينة .

كذلك اهتم شيابارللى بتشكيل فريق عمل مكون من أستاذ علم الأجناس «جيوفاني مارو» ، وأستاذ المصريات «فرانسسكو بارينى» وأستاذ الترميم «فابريزو لوكارنى» حيث استخدموا طرقا فنية للمحافظة على رسوم مقبرة مايا ، وبعد ذلك أمكن فكها وإعادة تجميعها بمتحف تورين بايطاليا !

بحوث علي البرديات

مع بداية القرن العشرين حدث تطور فى البحوث التى تجرى على البرديات المصرية القديمة . ففى عام ١٩٠٨ تأسست «الجمعية الايطالية لبحوث البرديات اليونانية واللاتينية في مصر» ، وفي عام ١٩٢٨ استبدلت «بمعهد البرديات» بجامعة فلورنسا والتى قامت بإجراء حفائر فى المناطق الأثرية مما أدى إلى اكتشاف مجموعة قيمة من البرديات الوثائقية المكتوبة باليونانية . وقد أجريت

مصر وإيطاليا
مائة عام من التعاون

هذه الحفائر في مناطق هرموبوليس، أوكسينيموس (١٩١٠ – ١٩٢٨)، أنطينو (١٩٣٥ – ١٩٣٨)، الهيبى (١٩٣٤)، طبتينس، ثيادلفيا، ومدينة مادى، وكان الذى يشرف على هذه الحفائر «كارلو آنتى» من جامعة بادو الايطالية (والذى اختير ليخلف شياباريللي – بعد وفاته – فى إدارة البعثات الأثرية الايطالية). إيفارستو بريشيا (الذى صار أستاذا للآثار الكلاسيكية بجامعة بيزا عام ١٩٣١ وأستاذ التاريخ اليونانى الرومانى بنفس الجامعة عام ١٩٣٥)، آشيل فوجليانو (بجامعة ميلانو). وقد نتج عن هذه الحفائر اكتشاف عدد ضخم من البرديات اليونانية (بالإضافة إلى الديموطيقية والهيراطيقية كالتى تم اكتشافها فى مكتبة معبد منطقة طبتينس، بينما البرديات التى تم اكتشافها بمناطق انطينو، الهيبى، بعض مواقع بالفيوم، ثيادلفيا، طبتينس، ومدينة مادى ألقت مزيدا من الضوء على آثار مصر القديمة.

معبد التمساح

فى الفترة (١٩١٢ – ١٩١٣) قام بريشيا باكتشاف أثرى هام فقد عثر على معبد بقرية «بطن هريت» بالفيوم يسمى «معبد التمساح». وهذه القرية تمثل أطلال المدينة القديمة ثيادلفيا خلال العصر البطلمى، وقد كان التمساح هو الإله الرئيسى لتلك المدينة خلال تلك الحقبة. وتضم القاعة رقم (٩) بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية آثار هذه الاكتشاف. فمن أهم المعروضات بهذه القاعة مومياء للتمساح داخل خزانة زجاجية فى الجانب الشرقى من القاعة تعلو المحفة الخشبية التى كان يطوف بها كهنة المعبد قديما بمومياء التمساح داخل المعبد خلال طقوس العبادة الخاصة به، وتستقر هذه المحفة الآن على ركيزة خشبية رشيقة كانت تستعمل قديما لحفظ هذه المحفة بالمعبد.

وفى الجانب الغربى من القاعة يوجد باب المعبد الخشبى وتعلوه كتابة يونانية بخط أنيق تعلن عن أن مواطنا من الإسكندرية، قد أهدى هذا الباب للمعبد تكريما للملك بطلميوس الثامن (١٤٥ – ١١٦ ق . م) وكل من زوجته وأخته المعروفتين باسم كليوباترا. كذلك تعرض بالقاعة لوحتان من الحجر الجيرى مكتوبتان باللغة اليونانية بالحفر ويعلوهما مناظر للتماسيح، ويبين النص المكتوب على اللوحتين حق معبد التمساح فى حماية اللاجئين إليه وقد كان هذا الحق من الامتيازات ذات الصفة القانونية التى كان الملوك البطالمة يمنحونها لبعض معابد مصر خلال ذلك العهد البعيد ضمن سياستهم فى السيطرة على كل مصادر القوة فى البلاد بالمهادنة، وقد كان فى مقدمة هذه المصادر طائفة الكهنة المصريين فى طول البلاد وعرضها. وتوجد بالقاعة خزانتان توجد بهما مجموعة من الأوانى، وتماثيل الأرباب المصرية واليونانية ومن أجملها – كما يذكر الأستاذ أحمد عبدالفتاح مدير عام المتحف اليونانى الرومانى – تمثال خشبى لرأس التمساح، وتمثال للمعبودة هيكاتى المنحوت من الخشب، وهو من القطع النادرة التى عثر عليها لهذه المعبودة الاغريقية بمصر، وقد عثر على هذه القطع بداخل المعبد، والأبنية المحيطة به والمتصلة بشعائر عبادة التمساح فى أعياده والمناسبات المختلفة. وقد تم نقل



منظر عام لمقابر الشاطبى ، ويظهر أمامها مبانى كلية سان مارك

بوابات هذا المعبد والتمثايل المحيطة بها والهيكل الخاص بالمعبد من الفيوم وأعيدت إقامتها بالجانب الغربى من الحديقة البحرية للمتحف اليونانى الرومانى .

اكتشافات الفيوم

«آشيل فوجليانو» بدأ حفائره بالفيوم بمدينة مادى (١٩٣٥ - ١٩٣٩) على أمل اكتشاف برديات جديدة فقام بالتنقيب عن معبد كامل يرجع تاريخه إلى الدولة المتوسطة كان قد أنشأه أمنحتب الثالث هذا بالإضافة إلى اكتشاف أربعة ألحان لإسيدوروس مسجلة باليونانية تمدح فى الفرعون أمنحتب الثالث الذى بنى هذا المعبد .

فى عام ١٩٦٦ تم افتتاح اكتشافات مدينة مادى مرة أخرى بجامعة ميلانو تحت إشراف «إدا برسيانى» - حاليا بجامعة بيزا - ومازال يقوم بنفس الرسالة بجامعة بيزا .

حاليا يقوم متحف تورينو بإجراء بعض الاكتشافات متتبعا نفس الطريقة الناجحة التى قام بها «شيابارللى» و«جيليو فارينا» (خليفته فى إدارة متحف تورينو فى الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٧) و«سيرجيو دونادونى» أعاد العمل مرة أخرى فى منطقة أنطينو (الذى بدأ العمل بها بريشيا فى الفترة ١٩٣٧ - ١٩٣٨) مع معهد فيتاللى للبرديات بفلورنسا وتوصلوا إلى معلومات ذات قيمة تخص الفن والمسيحية فى مصر .

وحاليا يوجد عدد من أعمال التنقيب تم البدء فيها . ففى الفيوم اكتشفت جامعة بيزا مقابر تعود إلى الدولة الوسطى ، كما أن جامعتى بولونيا وليسى تعاونتا فى أعمال تنقيب على مدى سبعة أعوام تحت إشراف أستاذ المصريات «سيرجيو برنيجوتى» وأستاذ البرديات «ماريو كاباسو» . فى طيبة توجد حفائر وترميمات فى مقبرة شيشونج تحت إشراف «سيرجيو دونادونى» بجامعة روما - حاليا يشرف عليها «السندرو روكاتى» ، بينما مقبرة هاروا يقوم بدراستها «فرانسسكو

مصر وإيطاليا مائة عام من التعاون

تيـــرادريتي» بمتـــحف الآثار بميلانو و«مارلينا بترو» من جامعة بيزا..

منذ عام ١٩٧٤ صارت مقبرة باكترنف المهمة بسقارة موضع اهتمام الأثريين حيث تقوم جامعة بيزا بأعمال التنقيب والترميم.

بمنطقة الدلتا، يقوم «باولو جالو» من جامعة تورينو بالعمل بجزيرة نيلسون الواقعة بخليج أبي قير.

في خلال الثلاثين عاما الأخيرة، قام عدد من الايطاليين بأعمال التنقيب بمناطق مختلفة على أرض مصر تعود إلى عصر ما قبل التاريخ. فبعد «سيلفاتور بوجليسي» الذي أجرى بحوثا عام ١٩٦٠، قامت «إيزابيلا كانيفا» - من جامعة روما - بالعمل في اكتشافات منطقة مادي بينما قامت «بربارا باريس» - من نفس الجامعة - بالعمل في واحة الفرافرة، وكذلك «رودولفو فاتوفيتش» من المعهد الشرقي بجامعة نابولي قام بإدارة البعثة التي تعمل في منطقة الدلتا الشرقية. كذلك كانت النتائج التي توصلت إليها «لويزا بونجراني» بمنطقة وادي حمامات الواقعة في الصحراء الشرقية ذات أهمية تاريخية كبيرة.

إنقاذ آثار النوبة

شغل فيضان النيل منذ أقدم العصور بال المصريين، فبذلوا جهدهم ليحتفظوا بمائه، ومن هنا كان التفكير الجدي في العصور الحديثة لإقامة السدود والخزانات فأنشيء خزان أسوان عام ١٨٩٨ - ١٩٠٢ وتمت تعليته الأولى في عام ١٩٠٧ - ١٩١٢ ثم تمت تعلية ثانية عام ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ثم واجهت البلاد في أوائل الخمسينات مشكلة تزايد عدد السكان مع ثبات مساحة رقعة الأرض الزراعية وبالتالي فالحاصلات الزراعية لا تكاد تكفي السكان !!

من هنا اتجه التفكير نحو إنشاء السد العالي كضرورة قومية اقتصادية لتوفير الرخاء للبلاد. وعندما نادى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) بمشروع السد العالي لم ينس الآثار الخالدة على ضفتي النيل في بلاد النوبة، فالتفت إليها لينقذها قبل تنفيذ مشروع السد العالي.

وكما بدأت فكرة إقامة السد العالي تزداد عمقا في قلوب أصحابها لتوفير الرخاء لهذا الجيل وللأجيال القادمة، كانت فكرة إنقاذ آثار النوبة تزداد عمقا في نفوس المثقفين، لابقصد المحافظة على جزء من الحضارة المصرية القديمة يمتد من فجر التاريخ حتى العصور الوسطى فحسب، بل لاستكمال مراحل البحث والدراسة لهذه الآثار؛ ماهو ظاهر منها وما لايزال في عالم الغيب مطمورا تحت الرمال.

في يناير ١٩٥٩ مر بالقاهرة المدير العام المساعد لمنظمة اليونسكو واجتمع بالسيد وزير الثقافة والارشاد القومي - في ذلك الوقت، وعرض السيد الوزير أمر الآثار المهددة بالغرق وما تستطيع منظمة اليونسكو تقديمه لمصر من مساعدات لإنقاذ معابد النوبة وآثارها. ونقل المدير العام المساعد للمنظمة هذه الرغبة إلى المدير العام للمنظمة الذي رحب بالفكرة وبعث يستفسر عن نوع المساعدات المراد تقديمها ومداها، فأفادت وزارة الثقافة والإرشاد القومي بأنها مساعدات فنية ومادية تستهدف تنسيق الدراسات والأبحاث الخاصة بآثار النوبة السفلي،



إحدي مناطق عمل البعثة الأثرية الإيطالية ، حيث يتم ترميم بعض القوارير الفخارية

وذلك بإيفاد بعثات للتنقيب عن الآثار، وبعثات أخرى للدراسات الجيولوجية والاثنولوجية ، وتصوير الإقليم بالتصوير الفوتوجرامترى ، ثم استكمال تسجيل المعابد والمقابر والنقوش المنحوتة فى الصخر على طول ضفتى النيل فى النوبة السفلى ، ثم نقل المعابد التى يتيسر نقلها ، وإعادة تشييدها خارج المنطقة المهددة بالغرق ، وأخيرا حماية المعابد المنحوتة فى الصخر التى يتعذر - من الناحية الفنية والعملية - نقلها من أماكنها .

وعلى أثر ذلك وصل الخبراء إلى النوبة السفلى ، ثم قدموا تقارير ثلاثة: تقرير للأستاذين «أندريه كوين» و«جوزيف ديفو» عن حماية معبدى أبو سمبل وفيلة ، وتقرير للدكتور «جورج كينتش» عن الدراسات الجيولوجية للمنطقة المهددة بالغرق ، وتقرير للأستاذ «جازولا» عن نقل وحماية آثار النوبة من معابد فيلة وبجة فى الشمال حتى معابد أبو سمبل وأبو عودة وجبل الشمس فى الجنوب . وكان لهذه التقارير أثرها فى إيقاد حماس كثير من الدول التى أدركت أن إنقاذ آثار النوبة واجب إنسانى ، وليس عملا يخص مصر وحدها . وفى ٨ مارس ١٩٦٠ وجه الرئيس جمال عبدالناصر نداء دوليا لإنقاذ آثار النوبة وذلك من خلال رسالة بعث بها لمنظمة اليونسكو والتى وجدت استجابة تامة فى نفوس الأعضاء المجتمعين فى جلسة اليونسكو تردد صداها فى كلمة رئيس المنظمة ، ومما جاء فيها : (.. مصر هبة النيل .. هى أول جملة اغريقية تعلم ترجمتها عدد لاحصر له من الطلاب ، فلتتحد اليوم جميع شعوب العالم لكى لايطوى النيل فى أعماقه ، بسبب المشاريع البناءة التى ترمى إلى زيادة الخصب ومنابع القوى ، العجائب التى ورثناها نحن الأجيال الحاضرة من أجيال طوتها الدهور ..) .

ولبى كثير من دول العالم النداء ومنها الحكومة الايطالية الممثلة فى جامعتى ميلانو (بإشراف سيرجيو دونادونى)

مصر وإيطاليا مائة عام من التعاون

وروما (بإشراف أرتورو ستنيشو) والمتحف المصرى بتورينو (بإشراف سيلفيو كورتو).

كما كان لقسم التعاون الدولى بوزارة الشئون الخارجية الايطالية دور مهم فى نقل آثار معبد فيلة وذلك بالاستعانة ببعض الشركات الإيطالية والفنيين الايطاليين والمعماريين والأثريين.

المتحف المصرى بالقاهرة

فى عام ١٨٦٣ تم إنشاء مبنى لإدارة الآثار المصرية بحى بولاق بصفة مؤقتة تحت إدارة «أوجست ماربيت» (١٨٢١ - ١٨٨١) والذى سرعان ما تحول إلى متحف. كان أحد مساعدى «ماربيت» يدعى «لويجى فاسيلى» (١٨١٢ - ١٨٨٧) يقوم بمهمة تطوير النشاط الذى تقوم به مصلحة الآثار المصرية. كان فاسيلى فنانا إيطاليا أنهى دراسته فى أكاديمية بريرا الايطالية وعندما غادر ميلانو إلى مصر شارك الأثرياء من الأجانب الذين كانوا يقومون بإجراء حفائر أثرية على أرض مصر وأخذ يبيع لهم بعض العاديات التى كان يشتريها من محلات العاديات المصرية، وعن هذا الطريق كان اللقاء بين «فاسيلى» و«ماربيت» حينما باع له تابوت أحد فراعنة الأسرة السابعة عشرة وهو معروض حاليا فى متحف اللوفر بفرنسا.

وعندما فقد «ماربيت» أحد مساعديه ويدعى «بونيفوى» الذى توفى إثر ضربة شمس فى أثناء الحفائر التى كان يقوم بها فى صعيد مصر، تذكر «ماربيت» الفنان الايطالى «فاسيلى» وطلب منه الالتحاق بمصلحة الآثار، ومنذ ذلك الوقت رافق «فاسيلى» مدير مصلحة الآثار «ماربيت» فى عدد كبير من الاكتشافات الأثرية وأشرف بنفسه على عدد من أعمال الحفر نائبا عن مصلحة الآثار فى كل من الفيوم ودار أبو النجا. وبنهاية عام ١٨٦٥ عين أمينا للمتحف فى بولاق.

فى عام ١٨٨١ توفى «ماربيت» فأخذ الأثريون الألمان والفرنسيون فى البحث عن من يخلف «ماربيت» فى إدارة مصلحة الآثار، وفى نفس الوقت - ولمدة شهر - قام «فاسيلى» بإدارة المتحف فى بولاق، بعد ذلك اختير «جاستون ماسبيرو» لإدارة مصلحة الآثار. فى عام ١٨٨٤ اعتزل الخدمة ثم عاد إلى ايطاليا وفى عام ١٨٨٧ اغتيل.

المتحف المصرى بأيد إيطالية

لم يعد المتحف المصرى ببولاق يتسع لاحتواء الكمية الضخمة من الآثار المصرية التى نتجت من الاكتشافات العديدة التى تقوم بها البعثات الأثرية فى كل أنحاء مصر، فمن ثم تقرر فى عام ١٨٨٩ نقل متحف بولاق إلى منطقة الجيزة فى فيلا ملك لأسرة الخديو والتى سرعان ما تحولت إلى متحف.

وبعد بضع سنوات قليلة تكررت مشكلة ضيق مساحة المتحف أمام الكمية الضخمة من الآثار، لكن هذه المرة أمكن تدبير مبلغ من المال لبناء مبنى جديد للمتحف المصرى، أسند بناء المشروع الجديد إلى شركة بناء ايطالية يملكها «جاروزو» و«زافرانى» حيث استخدموا أحدث طرق بناء ومن هنا كان المتحف المصرى بالقاهرة أول مبنى يتم بناؤه من الخرسانة المسلحة. بدأ البناء فى يناير ١٨٩٧ وانتهى فى نوفمبر ١٩٠١ وتسلم مفتاح المتحف الجديد - بميدان التحرير - «السندرو بارسانتى» (١٨٥٨ - ١٩١٧) وهو مهندس ايطالى يعمل فى مصلحة الآثار. وفى يوليو ١٩٠٢ تم نقل محتويات

المتحف من الجيزة إلى ميدان التحرير .

أيضا اختير «بارسانتى» لإعداد المعابد والآثار المصرية لزيارات السياح، كما قام بتنظيف أبى الهول من الرمال وإعداد معبد الرمسيوم (معبد رمسيس الثانى) لاستقبال الزوار .

من أهم الأعمال التى قام بها «بارسانتى» هى قيامه بمد خط سكة حديد عبر دلتا النيل إلى منطقة تانيس الواقعة فى مركز الدلتا الشرقية ، وأمكن بذلك نقل عدد ضخم من الآثار التى تحوى تماثيل ومسلات بلغ وزنها العديد من الأطنان إلى القاهرة . أيضا كانت عملية نقل محتويات المتحف من الجيزة إلى القاهرة تمثل صعوبة بالغة، فأنشأ خط سكة حديد بين الجيزة والقاهرة واستعان بعربتى سكة حديد قامتا بعدد ١٩ رحلة لنقل الآثار الضخمة إلى ميدان التحرير . انتهى من نقل الآثار فى يوليو ١٩٠٢ حيث تم افتتاح المتحف رسميا فى ١٥ نوفمبر ١٩٠٢ .

فى الفترة (١٩٢٠ - ١٩٣٠) وصلت إلى المتحف كنوز توت - عنخ - آمون ، ومن هنا لزم الأمر إعادة تخطيط المتحف ولم يعد الدور الأرضى بالمتحف كافيا لاستيعاب الكمية الضخمة من الآثار ، لذلك تم غلق عدد من صالات العرض بالمتحف وتحويلها إلى مخازن..

اعتبارا من عام ١٩٦٠ بدأ التفكير فى إعادة تنظيم المتحف أو مضاعفة مساحته ولكن العائق الأساسى كان يعود إلى المبانى الضخمة التى تحيط به من الناحية الشمالية من جهة ميدان التحرير .

فى عام ١٩٩٠ تبرعت الحكومة الايطالية بتمويل دراسة تقوم على أساس نقل جزء من معروضات المتحف إلى متحف جديد يتم بناؤه على بعد بضعة أميال شمال أهرامات الجيزة ، وقد اشترك فى هذا المشروع عالما الآثار الايطاليان «سيلفيو كورتو» و«سيرجيو دونادونى» .

التعاون بين معهد الآثار بميلانو «سيغيش راكولتى» والمعهد الثقافى الايطالى بالقاهرة أثمر عن تنظيم معرضين فى المتحف المصرى بالقاهرة، أولهما عام ١٩٩٤ على اسم «لويجى فاسيلى» وأعماله فى مصلحة الآثار المصرية ، والثانى عام ١٩٩٨ خاص بالالهة ايزيس .

أيضا هذان المعهدان نظما معرضا خصص لبناء المتحف المصرى الجديد، وقد تمت إقامة هذا المعرض بالمنطقة الأثرية المخصصة له بالجيزة وكان ذلك فى عام ١٩٩٥ .

أيضا العمل التاريخى الذى قامت به «إيلاريا برتكوشى» التى رممت القناع الجنائزى «ليويا» حما أمنحتب الثالث . وقد تم هذا العمل بالتعاون مع خبراء المتحف المصرى بالقاهرة ، وهو الآن معروض بالمتحف المصرى .

هذا بالإضافة إلى مساهمة علماء الآثار الايطاليين فى القيام بالعديد من الدراسات بالمتحف المصرى بالقاهرة منها كتالوج خاص بأدوات الرسم عند المصريين القدماء ، ترميم البرديات المصرية واليونانية ، دراسات على الشرائح الرقيقة المسجلة عليها كتابات ديموطيقية ويونانية .

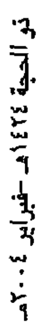
إن هذا الكتاب الرائع الذى جاء فى ٢٤٨ صفحة ويحتوى على ٢٥١ صورة ما بين ملونة وأبيض وأسود من القطع الكبير ، يمثل صورة مشرقة للتعاون البناء بين الحكومتين المصرية والايطالية فى مجال الآثار المصرية التى تمثل حلقة من حلقات تاريخ الإنسانية .■

الإمام والأميرة

الشيخ محمد عبده ونازلى فاضل

أمانى عبد الحميد

احتار كثيرون من هواة النميمة التاريخية فى تصنيف العلاقة التى جمعت بين الشيخ محمد عبده والأميرة نازلى فاضل ، لما لها من أثر عليهما معاً . ولا نعلم لماذا كل هذه الحيرة وأوراق التاريخ لم تذكر الإمام محمد عبده يوماً بولعه بفاتنة الأسرة العلوية ، وإنما ذكرته بأنه الإمام المصلح أحد رموز التنوير والعدل والإصلاح فى مصر . كما لم تذكر الأميرة نازلى كامرأة تحمل داخلها مشاعر خفية يصعب على المحيطين بها اكتشاف سرها . إنما ذكرتها بالأميرة المتمردة ، الناقمة على الأسرة المالكة وصاحبة أهم صالون ثقافى وفكرى فى نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . فلماذا كل هذه الحيرة على مدى أكثر من مائة عام مضت على وفاتهما ؟!





الأميرة نازلي فاضل   الإمام محمد عبده

صفحات التاريخ تحكى لنا عن علاقات وصداقات وخلافات نشأت بين أفراد الوسط الثقافى والأدبى والفكرى ... مظاهرها الخارجية لا تختلف كثيراً بين زمن وآخر . فبعضها قائم على المصالح وآخر مبنى على صراعات وتنافس ، وبين ذاك وتلك نجد علاقات من نوع خاص .. يسردها لنا التاريخ على استحياء عن تلاقى شخصين فى أفكارهما أو نضالهما .. أو قد يكون تلاقيهما أعمق ، فيصل إلى حدود الروح .. مما قد يشعل اللهفة والشعور بالرضا عند اللقاء أو النقاش بينهما . وقتها تنالهما ألسنة النميمة خاصة إذا كانا رجلاً وامرأة . فنجد من يصفهما بعلاقة تأثير وتأثر، ومن يحملها أكثر مما ينبغى ، ويصفها بعلاقة الحب الخفى ، وغير ذلك مما قد تحتمله أى علاقة إنسانية .

وهذا ماحدث مع الشيخ محمد عبده والأميرة نازلى فاضل . عندما توطدت علاقتهما فى أعقاب عودة الشيخ الإمام من منفاه ببلاد الشام فى عام ١٨٨٨ . نظرا لقيام الأميرة نازلى بمساع لدى صديقها اللورد كرومر ورياض باشا رئيس النظار بإيعاز من سعد زغلول محاميها الشاب وصديق الشيخ عبده . وذلك للضغط على الخديو توفيق لإصدار العفو عنه والسماح له بالعودة إلى مصر بعد نفيه فى أعقاب الثورة العرابية . ولدى عودته توثقت علاقتهما معاً . وأصبح الشيخ محمد عبده من أهم المترددين على صالون الأميرة .

وإن كان أهم ماجمع بين الأميرة والشيخ فى ذلك تأييدهما لأحمد عرابى وثورته وعداؤهما للخديوية .

حيث قال عنه الخديو عباس حلمي الثانى أحد أعداء الأميرة «إن الشيخ عبده يدخل عليه وكأنه فرعون» .

الشيخ المصلح

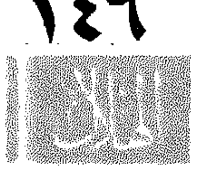
جاء محمد عبده من بلدته «محلة نصر» بمركز شبراخيت بمدينة البحيرة . محملاً بأفكار القرية ولأبوين فقيرين . وارثاً من أبيه قوة العزيمة والثبات والتعالى عن سفاسف الأمور ، ومن أمه رقة القلب والرحمة والسماحة . وصفه صديقه قاسم أمين «كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه ، وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوماً مدة حياته

كان يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله ...» .

جاء من قريته ليدرس فى الأزهر ويعيش سيرة من نوع خاص .. رحلة نابضة بالحياة والنضال .. منذ بدايته الأولى ظهرت نزعته الإصلاحية والتنويرية . خاصة عندما التقى بالإمام المفكر جمال الدين الأفغانى سواء فى مصر أو فى باريس ، لينشآ معا جمعية وجريدة «العروة الوثقى» . بل فى باكورة كتاباته الإصلاحية نجده يدافع عن تحسين حال المرأه فى المجتمع ، ومطالبته بتلافى النقائض البيئية التى تعيشها .

وكانت للإمام محمد عبده فتاوى تخطى بها فقهاء عصره خاصة فيما يتعلق بتعدد الزوجات . حيث ينتقد فى مقالاته التى كان ينشرها فى جريدة الوقائع المصرية غفلة الناس عن الفهم الصحيح لمعنى الزواج فنجده يقول «إن هذا الميثاق الذى أخذه النساء من الرجال لابد أن يكون منسبا لشئون الفطره السليمة ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هى الأقوى ماتعتمد عليه المرأة فى ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها ، والرضا بالاتصال برجل غريب عنها ، تساهمه فى السراء والضراء» .. ويرى أن هذا الميثاق الفطرى من أغلظ المواثيق وأشدها إحكاما .. كما كتب مقالاً آخر عنوانه «حكم الشريعة فى تعدد الزوجات» وصف فيه أنواع التعاسات والمظالم التى تضطرم بها البيوت من أثر تعدد الزوجات . وأوصى بالاعتدال والمحافظة على حرمات النساء وحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وعدم تطليقهن إلا لداع ومقتضى شرعى .

وظل طوال حياته يدافع عن حقوق المرأة وكرامتها خاصة حقها فى العلم والحرية والمعاملة الكريمة وذلك من خلال دروسه وكتاباته فى تفسير القرآ الكريم .



بل كان من أخطر ما أفتى به الإمام بالنسبة لتعدد الزوجات حيث رأى جواز منع التعدد بقانون تصدره الدولة . ويبرر ذلك بقوله : «لأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتما ...» لذا يرى الشيخ محمد عبده أن الاستثناء الوحيدة هو عقم المرأة مع رغبة الرجل في الإنجاب . ويقول في ذلك «عند ذلك يباح الزواج بثانية بعد رفع الأمر إلى القضاء . الذي يختص بالتحقيق من قيام الضرورة . أي أن الزواج بثانية لا يباح إلا بحكم من القضاء ..» .

ويبدو أن سيرة الشيخ محمد عبده ونزعته الإصلاحية وآراءه وأفكاره التنويرية كانت من أهم عوامل الجذب والتلاقي مع الأميرة نازلي فاضل . خاصة أنها في ذلك الوقت كانت أحد نجوم المجتمع الأرستقراطي المصري برغم من تشكيك الكثيرين في صدق نوايا بحجة أنها كانت انجليزية الهوى والتفكير . وكان كبار رجال الانجليز في مصر من ضمن رواد صالونها .

نازلي الأميرة المتمردة

داخل قصرها بدرب الجماميز استطاعت الأميرة نازلي اجتذاب صفوة قادة الرأي والفكر والسياسة في مصر . وذلك داخل صالونها الأدبي والثقافي الذي لعب دوراً كبير في تغيير فكر واتجاهات كثير من الرموز والعقول . حتى اعتبره البعض أحد ينابيع حركة التنوير التي دبت في أواصل المجتمع المصري خلال نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .

عاشت الأميرة حياة قصيرة مداها أربعين عاماً فقط . لكنها كانت حياة ثرية بالأحداث والتأثيرات المتبادلة بينها وبين كل من كان على صلة وثيقة بها . فهي أميرة من الأسرة العلوية عمها الخديو إسماعيل تربت وعاشت حياتها على النمط الأوروبي . فثقافتها غربية وتجيد اللغات الأجنبية خاصة الفرنسية . وكما يقول عنها محمد فريد في «مذكرات بعد الهجرة» تقابل الرجال على العادات الأوروبية وتكثر من شرب الخمور وتحيي ليالي موسيقية داخل قصرها .

وامرأة بمثل تلك المواصفات خلال ذلك الزمن كانت من الأمور غير المعتاده في المجتمع المصري آنذاك وكان من الطبيعي أن تكون كشعلة الضياء التي تجتذب إليها الفراشات الباحثات عن النور والدفء . فكانوا يطلقون عليها «محركة الرجال» كونها مبعث اعتزاز لدى كثير من رواد الفكر في مصر أي أنها لم تكن نموذج أنثوي يستهويه الرجل الشرقي العادي لكنها كانت النموذج الذي يبحث عنه الرجل المفكر الباحث عن العقل الجميل كوجه صاحبته . فهي بجمالها

ورقتها وأنوثتها ومن قبلهم عقلها الرزين وثقافتها العميقة استطاعت أن تصبح داخل مجتمع – لايزال نساؤه غير متعلمات أميات يقبعن خلف الحجاب والبراقع – النموذج الأمثل ، حتى قال عنها جمال الدين الأفغانى «تمثال الكمال والجمال حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى ، والمقام الأسنى» .

عاشت الأميرة حياتها تكره عمها الخديو إسماعيل وسلالته لأنه أضاع حق أخيه والدها مصطفى بهجت فاضل باشا .. فى الحكم فحملت داخلها طوال سنوات حياتها القصيرة عقدة الحكم والكراهية للأسرة الخديوية . ويبدو أن ذلك كان أحد الأسباب التى دفعتها إلى إقامة صالونها لتستقبل فيه مشاهير زمانها . خاصة ممن يتقابلون معها من كره أو رفض الحكم الخديو . لذا نجد أنها مالت إلى محمد فريد وابتعدت عن مصطفى كامل لأن الأول لم تكن علاقته بالخديو عباس حلمى وطيدة عما كانت علاقة «كامل» به .

وإن كان أكثر رواد الصالون تأثرا بأفكارها وبشخصيتها ، اثنين من أعلام النهضة المصرية . بل إن آراءهما وكتاباتهما قد أتخذت منحى جديدا يختلف عما سبقه هما الإمام محمد عبده وقاسم أمين .

وعندما ننظر لعلاقتها بالشيخ محمد عبده أحد رواد التنوير نجدها لاتختلف كثيرا عن علاقتها بسعد زغلول المحامى الشاب ولا عن علاقتها بقاسم أمين . ولكن الاختلاف الحقيقى كان من حجم وشكل التأثير المتبادل على العلاقة بينها وبين كل واحد منهم

تأثير متبادل

عرفت الأميرة الشيخ محمد عبده مستشاراً فى محكمة الاستئناف وداما صديقين منذ عودته من منفاه ببلاد الشام وحتى فرق الموت بينهما . ويذكر لنا الشيخ مصطفى عبدالرازق فى مقالة بمجلة الهلال عام ١٩٥٨ بعض تفاصيل تلك العلاقة بقوله «أدركت تلك الأميرة النقادة ، التى تعرف كيف تسوس مواهب الرجال ، ما للأستاذ من تفوق عقلى وخلقى ومن جمال فى نفسه وحسه فخصته بمكانه تجمع بين الحب والإجلال ، وكان الشيخ يجد فى كنف الأميرة مايغذى روحه الحساس وذوقه اللطيف ويجدد نشاطه للعمل ويرفه عنه من أحمال الوقار مالا يستطيع أن يرفهه إلا ذكية حسناء ...» كما يوضح الشيخ مصطفى عبدالرازق فى دراسة له عن أثر المرأه فى حياة الشيخ محمد عبده أن أثر الأميرة نازلى فاضل على الشيخ كان له ثلاثة وجوه «الأول أسلوبه الكتابى ، فألمح فى أسلوب الأستاذ فى العهد الأخير ميلا إلى العذابة والخفة كما فى الفصول التى كتبها فى مجلة المنار عن سياحاته ...»

، ويستنكر الشيخ عبدالرازق أن يكون سبب تلك الخفة وميل الشيخ محمد عبده للمزاح هو تعيينه عضواً فى مجلس إدارة الأزهر وتقلده منصب الإفتاء . كما يقول عن أثر الأميرة نازلى «الأثر الثانى المامه فى كتاباته بموضوعات لم يكن من قبل ليعرض لها مثل كلامه عن الرسوم والتماثيل محبذا بنحو قوله : «إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة وأحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة والأحوال البشرية ..» ، كذلك قول الشيخ عبده «إن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى» وقوله «أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك ..» .

ويرى الشيخ عبدالرازق أن الأثر الثالث فى علاقة الأميرة بالشيخ فكان يتعلق بعداوته بالانجليز .. حيث خفت حملته على انجلترا وسمح بصداقته الشخصية للورد كرومر صديق الأميرة دون تفريط فى حق البلاد أو العدول عن رأيه السياسى . رغم عداوته لإنجلترا التى شهد الشيخ تشريدها لأستاذة جمال الدين الأفغانى فى البلاد وإحباطها لمساعيه الإصلاحية كلها . وإن كان الدكتور عبدالمنعم الجميعى فى كتاباته «دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر الحديث» يرى أن تغير بعض مواقف الشيخ محمد عبده خاصة المتعلقة بعدائه للانجليز لم يكن سببها الرئيسى علاقته بالأميرة نازلى المحابية للانجليز ، ويقول «إن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم ووقف للانجليز بالمرصاد وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى وغيرها هجوما عنيفا وأنه بعد أن قابل الأميرة تغير موقفه تجاههم . ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخه وأن التجارب حنكته وصقلت أفكاره .....» ويضيف : «إن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة ولكن ليس إلى الحد الذى ينسيه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه ، وطالب الحاكم بإصدار دستور عادل لحكم البلاد» وإن كان الدكتور الجميعى يوضح أن إتقان الشيخ محمد عبده للغة القرنسية قد يكون نفحة من نفحات الأميرة . وإن كان التاريخ يذكر لنا أن الشيخ محمد عبده تعلم اللغة الفرنسية عندما سافر إلى باريس للقاء أستاذه جمال الدين الأفغانى ويلازمة قاسم أمين الطالب آنذاك والذى كان يتولى أعمال الترجمة والمعاونة فى إصدار جريدة «العروة الوثقى» أى قبل أن يتعرف على الأميرة نازلى ويتأثر بها . ■

أدبـــاء
وعشـاق





الناقد والشاعرة

أنور المعداوى وفدوى طوقان

بقلم
وديع فلسطين

أتناول هذا الموضوع بحذر شديد لأننى لم أكن طرفاً فيه يطوّع لى أن أستكشف خفايا القلوب وأستكنه ما تضمره من صحيح المشاعر أو زيفها . فالعلاقة بين رجل وامرأة - أياً كانت صورتها - هى من الأسرار الدفينة التى تظلّ رهن التكهنات، حتى ولو كانت هناك إشارات صريحة أو غامضة تومئ إليها. وسأتناول قضية الحب الصادق أو الموهوم بين فدوى طوقان وأنور المعداوى من ثلاثة عناصر هى: أنور المعداوى كما عرفته، ومجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات، والشاعرة فدوى طوقان.

أنور المعداوي

عرفت أنور المعداوى فى أواخر عقد الأربعينات من القرن الماضى، وكان يكبرنى بثلاث سنين، وجرى اللقاء فى دار «مجلة العالم العربى» بشارع إبراهيم باشا، وهى مجلة شهرية أصدرها يوسف شحاته بعد انفصاله عن دار المعارف وإنشائه داراً للنشر تحمل اسم «العالم العربى». واختار ناشر المجلة الأديب سيد قطب ليكون رئيساً لتحريرها، وهذا رغب فى استقطاب الأدباء الشبان للكتابة فى هذه المجلة الناشئة، ومنهم أنور المعداوى وكاتب هذه السطور. وكنت أنا والمعداوى شابين نتلمس طريقنا فى المجتمع الأدبى، وكان هو يعمل مدرساً للغة العربية فى مدرسة ثانوية، وكنت أعمل

فى الصحافة مع انجذاب إلى الأدب.. وصرنا نلتقى هنا وهناك دون أن يعكر صفو علاقتنا شئ، وإن كنت لاحظت فى المعداوى شدّة اعتداده بذاته واعتقاده بأنه فاق الأولين والآخرين على الرغم من تواضع عمله كمدرس فى مدرسة ثانوية.

وكنت وقتها أقيم فى الجيزة، وأتوافق مع الأديب على أدهم أو مع الشاعر محمود حسن إسماعيل على اللقاء فى مقهى عبد الله بميدان الجيزة لأنهما كانا يقيمان بدورهما فى الجيزة. وكنت أرقب على مسافةٍ من مجلسنا «شلّة» أنور المعداوى، وكانت أصوات مناقشاتهم وضحكاتهم تجلجل فى المقهى وكأنهم فى «محششة»، ولهذا حرصت على عدم الانضمام إلى هذه الشلة التى أدخلوها بعد ذلك تاريخ الأدب وجعلوا منها حاضنة للأدباء الشبان. ولأن المعداوى كان أضخمهم جسماً وأعلاهم صوتاً، فقد اعتبروه أستاذهم دون أن يوضحوا حيثيات أستاذيته التى تتلمذوا عليها.

وبقيت أتواصل مع المعداوى، فعرفت أنه غير راض عن عمله فى التدريس وبسبب إهماله تم الاستغناء عنه. ثم التحق بإدارة تابعة لوزارة المعارف عرفت باسم «إدارة السجل الثقافى» وكان مقرها فى شارع سليمان باشا الذى احتلت عمارة شركة مصر للتأمين مكانه بعد هدمه. وعندما اختير أنور المعداوى ضمن سكرتارية مجلة «المجلة» استصغر هذه الوظيفة لأنه كان يرى نفسه مؤهلاً لرياسة تحريرها، ومن ثم امتنع عن تسلم عمله فى المجلة ولم تقع الفُرقة بينى وبينه إلاّ عندما هاجم سلامة موسى فى مجلة «الرسالة» وقال إن سلامة موسى تناول قلمه ليكتب منذ ربع قرن، ومع ذلك فهو ينظر فيجد نفسه فى مؤخرة «الصفوف». وقد هالنى أن يصبح النقد على هذا القدر من الإسفاف، فكتبتُ مقالين فى «المقتطف» وفى مجلة «الأديب» اللبنانية أبرزت فيهما الدور الريادى الذى اضطلع به سلامة موسى، فما كان من المعداوى إلاّ أن انقضَّ علىّ وكتب فذلكة فى «الرسالة» ختمها بقوله: لو سئلت النملة رأيها فى الذبابة لقالت : «هذا فيل كبير!». ومادمت قد أصبحت فى رأى المعداوى مجرّد نملة، فقد قاطعته إلى آخر عمره عندما انتقل إلى قريته، وصار يهيم على وجهه يكلم نفسه، فقضت عليه عجرفته ولم يزد عمره وقتها على ٤٤ عاماً.

مجلة الرسالة

كان من عادة أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» أن يقضى أياماً فى ضيعته فى المنصورة حيث يكتب مقالة الصدر التى تحتل عادة صفحة ونصف الصفحة من مجلته وتنشر مرة كل أسبوعين. وكان يتناوب كتابة مقالات الصدر أدباء كبار، مثل عباس محمود العقاد وعبدالوهاب عزام ومحمد عبدالله عنان. ولأن المعداوى كان يدرك أن مجلة «الرسالة» هى أوسع المجلات الأدبية انتشاراً فى مصر والعالم العربى، فقد اتصل بالزيات وأقنعه بتخصيص باب أسبوعى له فى المجلة بعنوان «تعقيبات»

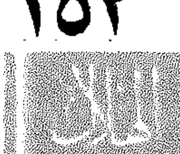
في حين لحق به زميله في إدارة السجل الثقافي عباس خضر وبات بدوره يحرر باباً أسبوعياً بعنوان «الأدب والفن في أسبوع»، وكان هذان الأديبان «يبرطعان» في مجلة «الرسالة» في غياب صاحبها، وكنت أقول عنهما إنهما مثل «قبضايات لبنان» بسبب مهاجمتهما لكبار الأدباء هجوماً شرساً، كما كانا يتحكمان في كل ما ينشر في المجلة من مقالات وقصائد يحملها البريد إلى إدارتها. بل إن المعداوي جرؤ ذات مرة فاحتل صدارة مقالات المجلة في غياب الزيات، ورغبة من هذين الأديبين في الظهور، بدآ يتحرشان بكبار الأدباء، فهاجم عباس خضر العقاد وأحمد زكي أبو شادي والشاعر إبراهيم ناجي، في حين هاجم المعداوي سلامة موسى وتوفيق الحكيم (وإن كان صالحه حول زجاجة كوكاكولا كما جاء عنوانا لمقال نشره في مجلة «الصياد» اللبنانية عندما كانت تطبع في مصر) وهاجم الشاعر نزار قباني فردّ عليه رداً مطولاً في جريدة «كل شئ» اللبنانية.

الشاعرة فدوى طوقان

في غياب الزيات في المنصورة ، كان المعداوي يفضن بريد المجلة ويتصرف فيه على هواه. وكانت فدوى طوقان تبعث بقصائدها إلى المجلة من نابلس مع رسالة موجهة إلى الزيات تحمل عنوانها في هذه المدينة الفلسطينية. فتلقف المعداوي رسالتها والتقط عنوانها وبعث إليها بنسخة مُهداة من كتابه «نماذج فنية» فشكرته على هديته، ومن هنا بدأ حبل المراسلة بين الطرفين اعتباراً من عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٥٤ عندما توقفت فدوى عن الرد على رسائله. وعندما علم من فدوى أن لديها رغبة في نشر ديوانها الأول «وحدي مع الأيام» في مصر، رحب بالإشراف على طباعته في مكتبة مصر لصاحبها سعيد جودة السحار.

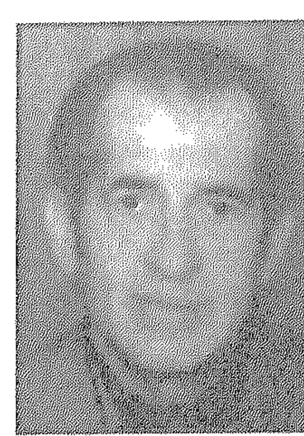
في خلال المراسلات بين الأديبين، بعث المعداوي إلى فدوى ببضع عشرة رسالة هي التي قام رجاء النقاش بنشرها والتعليق عليها، أما رسائل فدوى إلى المعداوي فلا نعرف عنها شيئاً على وجه القطع لأنها اختفت وقيل إن المعداوي أعدمها بنفسه.

وواضح من رسائل المعداوي أنه تدرّج في بث فدوى إعجابه ثم مشاعره، سواء أكانت صادقة أم زائفة ، واستدرجها إلى الاستمرار في مكاتبته مستغّلاً في ذلك بكارة عواطفها وشعورها بالقمع والكبت، مع وحدة الاهتمام الأدبي بين شاعرة وأديب. وعللت فدوى إقبالها على هذه المراسلة بقولها - دون أن تحدد اسم أنور المعداوي أو تذكره في سيرة حياتها المنشورة - : «قبل الخروج من (القمقم) كانت مراهقتي العاطفية حادة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة حب بالمراسلة! كنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه، وبيني وبين التجربة الواقعية جدران (القمقم) الأثرية. فكانت المراسلة والخيال هما ميداني الضيق والواسع في آن . كنت جائعة إلى شئ غير موجود،



ضائعة، وحيدة، لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل».

فالحقيقة المؤكدة التى أعلنت عنها فدوى طوقان بسنّ قلمها هى أن الأمر لم يتجاوز «حباً بالمراسلة» و«حباً خيالياً» و«خيالاً مشتعلاً». ولا نبعد عن الواقع إذا قلنا إن ما كان بين الطرفين هو إعجاب أدبى متبادل. ثم إن فدوى هى التى قامت بنفسها بقطع حبل هذه المراسلة عندما



د. علي شلش



رجاء النقاش

اكتشفت أن أنور المعداوى غير جاد فى العواطف المبثوثة، وأنه يتلاعب بعواطفها. كانت تنتظر من المعداوى أن يفاتحها برغبته فى الاقتران بها، أو أن يقول لها بصريح العبارة «لقد اخترتك لتكونى زوجتى أمام الله والناس»، ولكنه لم يفعل ولم يتخذ أى خطوة عملية فى هذا الاتجاه بسبب نرجسيته الطاغية التى تجعله عاجزاً عن أن يبذل شيئاً من أنانيته وحريّته لتكوين أسرة. فالإعجاب الأدبى المتبادل لا يكفى لاجتماع الشمل بين قلبين ما لم يكونا على استعداد لتبادل التضحيات المطلوبة فى رفقة العمر.

وقد حاول الدارسون التماس أعذار للمعداوى جعلته يحجم عن اتخاذ خطوة حاسمة تتوج هذا الإعجاب الأدبى المتبادل. فرجاء النقاش يؤكد أن الأمراض العضوية التى كان المعداوى يعانى منها، بما فى ذلك عقدة أوديب لفرط تعلقه بأمه، هى التى حالت دون تحقيق الزواج، ولمّح إلى أن المعداوى كان ناقص الرجولة بدليل أنه صارح فتاة برغبته فى الزواج منها بشرط ألاّ يكون بينهما لقاء حميم. فقالت الفتاة إنها تقبل هذا الزواج ما دام بينهما حبٌ، ولكنها بادرت إلى الاختفاء بعد ذلك. وحاول على شلش أن ينفى عن أنور المعداوى هذا القصور فنقل عنه قوله إنه كان يستقبل بنات الهوى فى بيته. وبنات الهوى - كما يعلم على شلش - هن طالبات مال ولسن طالبات قرب. ومادمن يتقاضين الثمن، فليتغاضين عن القرب لأنهن شبعن منه فى صنعتهن.

فلسفة الحب والهوى

ونعود إلى فدوى طوقان واعترافاتها، فهى حاسمة فى تحديد فلسفتها فى الحب والهوى حيث قالت فى سيرة حياتها: «بالنسبة لى، ظل الحبّ يحمل مفهوماً أوسع نطاقاً من كونه تأكيداً لأنوثة المرأة. ظلّ بالنسبة لى تأكيداً لإنسانيتى المسحوقة وإنقاذاً لها. ولقد بقيت طوال عمرى مشدودة إلى الحب (أى قبل المعداوى وبعده) مدفوعة بعاطفة شعرية يصعب توضيحها. كذلك ظلت استجابتى للحب، وبقى هو الشعلة الأكبر اجتذاباً فى

مجالات الحياة المختلفة. ولست أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن الحبّ كان عندى فكرة مجردة وعالماً مطلقاً هو الذى أحببته ، وظل (الآخر) بالنسبة لى تجسيداً لتلك الفكرة التى لم أستطع هجر آفاقها أبداً حتى أصبحت حاسة من حواسى وغريزة من غرائزى، تحمل الحرارة والنبض باستمرار، فأغطس معها فى حمام عاطفى ساخن يغسل أعماقى من الشوائب المرّة. ولم تكن لتلك الفكرة المجردّة شواطئ ولامرافئ أرسو عندها. كانت بحراً واسعاً تعلو أمواجه أحياناً حتى تستحيل إلى دوامة تدور بى وتلفنى فتفقدنى إحساسى بالعالم الخارجى من حولى».

وللذين يزعمون أن فدوى لم تعرف إلاّ حبيباً واحداً هو أنور المعداوى أذكرهم بأن الشاعر المصرى إبراهيم محمد نجا كان بدوره من الذين طارحوا فدوى المشاعر العاطفية، وقد سجّل فى ديوانه «أيام من عمرى» قصائده فى فدوى ومع ذلك لم تشر إليه فى سيرة حياتها ، ثم إن فدوى نفسها تعترف بأن القلب يمكن أن يحبّ أكثر من مرة حيث قالت فى سيرة حياتها: «لا غرابة فى أن يحبّ القلب الواحد أكثر من مرة. فمن الشذوذ أن يتجمهد قلب الإنسان عند شخص معين طوال الحياة . إنها ظاهرة طبيعية ان تنشأ فى القلب وتتكرر أكثر من علاقة، وفى كل مرة تكون للعاطفة نفس القوة السابقة والصدق والفوَحَان، ولا مكان هنا للأهواء العرضية والطيش والعربدة».

وقارئ سيرة فدوى طوقان لا يسعه إلاّ أن يلاحظ مدى جيشان عاطفتها بصورة جارفة وهى تتحدّث عن شاب انجليزى التقت به أثناء زيارتها لإنجلترا واكتفت بذكر الحرفين الأولين من اسمه وهما A.G. فهى تصفه بأنه «شقيق الروح» وأنه «جّنة لقيت فى ظلها الهدوء والسلام والراحة والسكينة. إنه إنسان مؤنس وديع. بجانبه كان يغيب شعورى الدائم بأنى قد أُلقى بى فى عالم أقوى منّى». وقالت إنها «عاشت معه فى فردوس أرضى. أين أنا غداً من هذه الجنة؟ لو يقف الزمن. لو أننى أملك الإمساك باللحظات الهاربة، اللحظات التى تتساقط قطرة قطرة فى محيط الزمن لتتلاشى فيه وتندثر ثم لا تعود، لا تعود أبداً. ها نحن معاً، نمارس رياضة المشى على طرف الغابة، يرهف تغريد الطائر حسّى. يتسلّل النغم إلى جنة قلبى مشبعاً بالهدوء والعزلة. تحتوينى فتنة غامضة.. يا لتلك الأيام مع ذلك الصديق الرائع. ما كان أغناها بالغبطة واكتساب المعرفة. لقد كان لكل شئ مذاق خاص فى إحساسى ووجدانى».

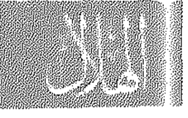
★ ★ ★

وصفوة القول إن رهافة حسّ فدوى واشتياقها الدائم إلى الحب فتحا قلبها لكل طارق، سواء باسم الإعجاب الأدبى، أو باسم العاطفة المشبوبة، ولكنها بقيت دائماً ظمآى بعدما خاب أملها فى أولئك المراسلين غير الجادّين. فلّما اقتربت من ذلك الشاب الإنجليزى المجهول، استردت جنّتها المفقودة وعاشت أحلى أيام عمرها ■



حيــويــة عرض مســرحى عــن « الالتبــاســات»

بقلم
صافى ناز كاظم



هذا العرض المسرحى «جواز على ورقة طلاق» ، الذى شاهدته مساء الجمعة ٢٠٠٤/١/٩ على خشبة المسرح الحديث بشارع قصر العينى ، يقدم نصا مسرحيا لألفريد فرج بلغ من العمر أكثر من ثلاثين عاما ، لكن المخرج أحمد عبدالحليم استطاع أن يبث فيه الحيوية من جديد. موفرا له مجموعة من القدرات المسرحية العالية ، لبها باقة ممثلين متوهجة الحضور بقيادة سامى مغاورى ، ويوسف إسماعيل ، وعايدة عبدالعزيز ، ووفاء عامر ، وهشام عبدالحميد ، وترتيب الأسماء بأبجدية الاقتراب من القلب .



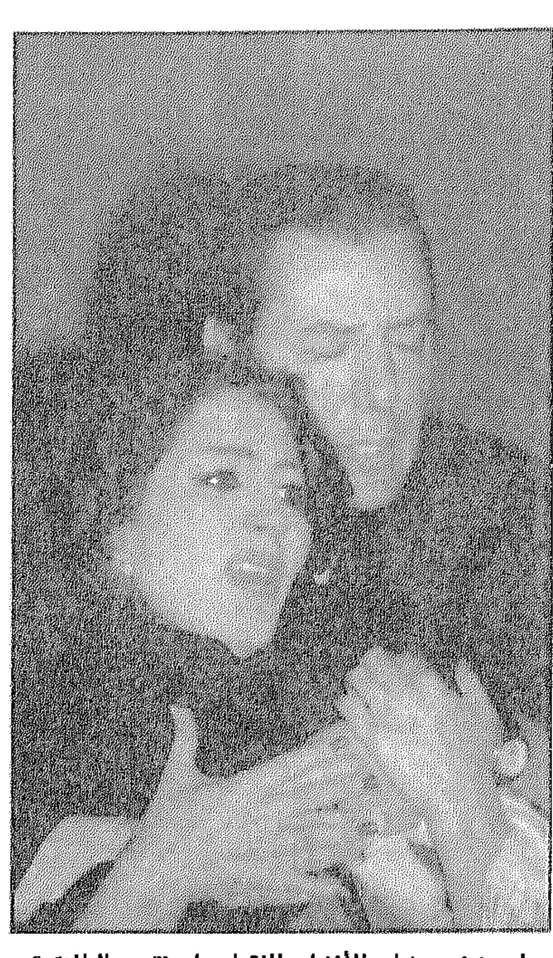
« صفية هانم » عايدة عبد العزيز وابنها «مراد» هشام عبد الحميد فى مشهد من المسرحية

العرض من فصلين، يبدأ من الساعة التاسعة والنصف مساء وينتهي مقتربا من الواحدة، صباحا، بما يعني أنه يستغرق مايزيد على ساعات ثلاثة، كان من الممكن جدا أن نهلك خلالها لولا ذلك الجسر الرحيم الذي اختاره المخرج أحمد عبدالحليم ليكون الصلة الرابطة بين الجمهور والخشبة وما يدور عليها من طرح لفكرة الاستعلاء الطبقى أو الاجتماعى أو الثقافى التى يمارسها الناس على بعضهم البعض، والتى دار الزمان دورته لتعود - للأسف - فى حاضرنا الآن بوضوح لتكشف لنا أنها لم تنمح أبدا فى أى لحظة من لحظات ماتصورناه يوما ثورة لإلغاء الفوارق بين الطبقات وإلغاء الألقاب وإقامة أسس العدالة الاجتماعية بترسانة القوانين الاشتراكية! وأعنى بـ «الجسر الرحيم» الثنائى الفنان: «سامى مغاورى» - يقوم بدور المؤلف و«يوسف اسماعيل» يقوم بدور المخرج - ويبدأ هذا الثنائى اللعبة بالتناوش حول المسرحية المرتجلة - زعما - التى اتفقا أن يقدماها لحضراتنا، فالمفترض أن المؤلف يريد «مسرحية لا فيها ضحك ولا ميلودراما، لا غنا ولا رقص، ولا الحاجات اللى بتحاول تغويكم بيها مسارح الغواية إياها .. لكن فيها حياتكم »، وكما يقرر المخرج «اتفقنا إننا نرتجل قصة حب .. قصة حقيقية حنألفها ونخرجها ونمثلها قدام عينيكم، مش حنخبى أسرار صنعتنا زى بتوع الألعاب السحرية .. لا حنلعب قدامكم على

المكشوف»، وكما نرى أننا أمام فنية مسرحية قديمة جدا من بدايات المسرح البريختى فى منتصف القرن الماضى، وهى فنية من الممكن جدا أن تخنقنا بالملل والسماجة إذا لم يتلطف المخرج ويختار لمن يحملها أذكياء يتمتعون بخفة ظل أصيلة وتلقائية، وبديهة حاضرة لتمرير ولقف الدعابة بإيقاع سريع وبراعة استثنائية وهذا ماتوفر، والحمد لله كثيرا، فى الفنانين «سامى مغاورى» و«يوسف اسماعيل».

★★★

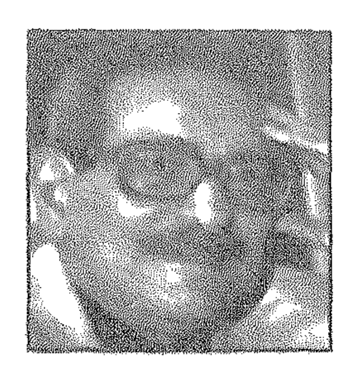
يأخذنا الثنائى - الجسر - إلى الفريق الذى على عاتقه «تمثيل» المسرحية «المرتجلة»: الممثل - (هشام عبدالحميد) - والممثلة - (وفاء عامر) - تشترط الممثلة أن تكون القصة من قصص الحب التى استهلكتها السينما، قصة حب بين غنى وفقيرة أو فقير وغنية: «حب فيه عراقيل وأحزان وأفراح»، لكننا نفهم أنها سوف تختلف فالعراقيل لن تنشأ من ظلم رجعى، غبى، فاقد للوعى السياسى والاجتماعى والإنسانى، كلا! فالممثل يقدم شخصية مراد الشاب الجامعى الذى يعتنق الفكر الاشتراكى، وهو ابن عائلة الأيوبى العريقة فى المواقف الوطنية والتضحيات المبدئية كما تعرفها أمه صفية هانم - (عايدة عبدالعزيز) - «جدك الشيخ الأيوبى الكبير كان زعيم فى برلمان عرابى باشا



مراد وزينب.. زواج الأغنياء والفقراء هل ينتهى بالطلاق ؟

فى المحكمة قال للمستشار الإنجليزى انتم تقدروا تكسروا رقابنا لكن مش حتقدروا تكسروا عزم الأمة، لما رجالة الملك قتلوا غفير فى أرض خالك مصطفى باشا رجع للملك النيشان بتاعه، أبوك عاش طول عمره استقالته فى جيبه، لولا سعد باشا عمره ماكان أخد البهوية لأن مافيش مستشار انجليزى ارتاح معاه، أنا يامراد طلعت مظاهرة المدرسة السنية أيام سعد باشا .. الرأى الجرىء كان دايما فى بيتنا .. لكن مش لازم عشان تدافع عن الضعفا إنك إنت تكون راجل ضعيف .. مهما

كـان رأيك فى السياسة أوعى تفتكر إنك ممكن تنسى أنت مين...».


الفريد فرج

كل هذه الخلفية العائلية «الواعية» تصبح «نقيض» وعيها لحظة أن يجد «مراد» نفسه فى غمرة حب مندفع تجاه «زينب»


أحمد عبد الحليم

التى يصفها المؤلف لنا: «بنت الأسطى سيد السواق فى شركة صغيرة».

اجتمعا فى حى السيدة العريق، هو ساكن الفيلا وهى جارته ساكنة البيت الشعبى، حين يطارده البوليس بعد اشتراكه فى مظاهرة من مظاهرات العهد الملكى قبل ١٩٥٢، يرمى بحقيبة الأوراق والكتب الممنوعة لتخبئها زينب فى «الفرن».

بعد أن يتم الإفراج عنه من المعتقل تقرر أمه ابعاده عن المطاردات البوليسية وكذلك عن زينب، التى لاتراها الأم «الواعية» كفئا له بل تقولها صراحة إنها لاتعدو أكثر من خادمة فى بيته، فيسافر إلى النمسا ليستكمل دراسته، خلال أربع سنوات تكون «زينب» قد قرأت كل أوراق الحقيبة فتكتسب الوعى والنضج، بينما يكون «مراد» قد بردت نار حماسته فى ملاهى أوروبا بين الكاس والطاس، وحين يعود بشهادته الدكتوراه فى التحريك الآلى «وده فن تكنولوجى رفيع»، يكون من الخبراء الوطنيين الذين حلوا محل «أفواج الأجانب اللى كانوا ماسكين مفاتيح البلد الاقتصادية والصناعية ورحلوا بعد سنة ١٩٥٦ .. الظروف فضلا عن الكفاءة الخاصة لمراد خلته يقفز سلم الوظائف لحد ما حصل أخطر حدث اقتصادى فى تاريخ مصر الحديث .. تأميمات ١٩٦١ فاحتل مراد مركز مدير الانتاج فى مصنع من المصانع ...» وهو المصنع الذى تكون «زينب» فيه واحدة من القيادات العمالية المنتخبة وهكذا يعود اللقاء بين «الحبيبين» بعد عشر سنوات.

★★★

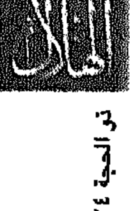
عشر سنوات انضجت «زينب» الفقيرة الكادحة وزودتها بالوعى الحاد بحقوقها وقيمتها مواطنة وإنسانة، لكن هذا الوعى لم يوصلها إلا إلى اكتشاف كذب الأقوال، وخواء الشعارات، فالفقير ظل مطاردا بعار «الفقر» والدونية، والعقلية الاستعلائية ظلت تناقض أقوالها وشعاراتها، فصار «الثورى» بهذا أكذب من «الرجعى» ذلك لأنه يقول مالايقدر على تحقيقه على أرض الواقع، وهكذا تتكرر «قصة الحب» التقليدية بين الغنى والفقيرة التى تحاربها

العراقيل الاجتماعية الرافضة للمساواة بين البشر، تعرف «زينب» المهانة حين تستسلم لمشاعرها الصادقة فلا يتزوجها «مراد» إلا لكى يجهضها، لايقبل منها نسلا، ليس هذا فقط بل يحاول أن يمسخها، لتنسلخ عن حقيقتها، ابنة السائق، لتكون الهانم اللائقة بمكانته، ولأن هذه هى المحاولة المستحيلة تطلب زينب «الطلاق». عند هذا المطلب كان يجب أن تنتهى المسرحية بما يشبه الرفض المنطقى للانسحاق من جانب «زينب»، والذى يكون بدوره، رسالة العرض المستفادة، غير أن ذلك لم يحدث فدخلنا فى معمعة «الالتباسات» بين نهاية يقرر فيها «مراد» طلاق «زينب» ليتزوجها من جديد، بعيدا عن زواج المضطر!، (ولانعرف كيف تغلب على تناقضه، وردم تلك الهوة بين القول والفعل، والشعارات والواقع، التى اشتهرت بها شريحته من الثوريين الكلامنجيين فى مرحلة مابعد ١٩٥٢)، وفى حفل الزواج تقع زينب ميتة انتحارا، (ولانعرف كذلك المبرر لهزيمتها المعنوية المفاجئة بعد وعيها الناهض)، وبين نهاية أخرى يقترح فيها الممثل والمؤلف والمخرج - داخل المسرحية المرتجلة - بضرورة أن تكون النهاية «سعيدة»، فتصحو العروس ويتم الزواج على أساس أن الحب الجميل يمكن أن «يلم الشرخ»!.

وأمام هذا «اللا معقول» وجدت نفسى أردد عبارة التساؤل الشائعة بين الجيل الجديد: «هوّه فى إيه؟» |

من حكم وأمثال الفراعنة

- لن يتحقق النجاح بالصراع والكفاح فهو فى حاجة دائمة للصبر والهدوء .
- الشحات الذكى لا يطرق إلا الأبواب الكبيرة .
- كل جار يمكنك أن تتخذ منه معلما أو تتلقى منه علما .
- حتي الطيور ترفع رأسها نحو السماء بعدما تطفيء ظمأها .
- الق فأسك بعيدا عن الشجرة التي تحميك بظلها وتطعمك بثمارها .
- إذا تشاجر كلبان على غنيمة تكون من نصيب الذئب الذى يأتى على صياحهما .
- من لا يغتنم فرصة تتاح له اليوم فى انتظار فرصة أكبر قد يأتي بها الغد يفقد الإثنين معا .




UNITING PEOPLE
EGYPT
2010
BID
توحيد للشعوب
مونديال ٢٠١٠
إرادة شعب
ومشروع قومي مصري
بقلم
حسن المستكاوى
د علي الدين هلال
محمد السياجى
كان من الضرورى خوض السباق.. والا انتظرنا ٢٠ عاما أخرى !
كرة القدم ليست مجرد لعبة ولهذه الأسباب غزت العالم !

من بريطانيا خرجت كرة القدم إلى العالم فانتقلت لأوروبا أولا، ثم إلى المستعمرات مع جنود الاحتلال، فى افريقيا، وآسيا، واستراليا، وحتى إلى أمريكا الجنوبية، وإلى البرازيل، حيث عرف شعبها الكرة على يد مواطن انجليزى يدعى تشارلز ميللر وقد ولد من أبوين انجليزيين فى مدينة ساوباولو البرازيلية ثم سافر فى مطلع شبابه إلى وطنه الأصلى حيث عشق الكرة، ولعب لنادى (ساوثامبتون) وعاد إلى البرازيل فى أواخر القرن التاسع عشر، ونشر اللعبة الجديدة .

ولم تعد كرة القدم مجرد رياضة أو لعبة مثل الألعاب، بل أصبحت مثار اهتمام ورعاية كل دول العالم، وجماهيرها ملايين، آلاف الملايين، ومن كل جنس ولون، والاهتمام بالكرة وصل لدى بعض المشجعين إلى حد الهوس، وهى درجة أعلى وأخطر من العشق فكيف نجحت هذه الرياضة ؟! وكيف أحبها كل شعوب الأرض؟ وكيف أصبحت اللعبة الشعبية الأولى والثانية ؟! ولماذا غزت العالم ولماذا هذا التنافس المحموم بين الدول من أجل الفوز بشرف تنظيم المونديال ؟، الإجابات ليست بالبساطة التى تظنها، وكل إجابة ليست كافية فى حد ذاتها لتبرير هذه الشعبية الفائقة. لأن الكرة تعدت حدود الرياضة، وأصبحت ظاهرة اجتماعية لكن دون شك هناك عوامل ساعدت على انتشار اللعبة بوجه عام، فهى تمارس فى أى مكان، لاتحتاج لملعب له تجهيزات خاصة، ولا أدوات أو معدات معينة يحتاجها الممارس، وهى فى متناول الجميع الطفل والشاب والكهل، وأية مجموعة تستطيع أن تلعب أية مباراة فى أى وقت، حتى ليلا على ضوء القمر !

ويقول علماء الاجتماع : (فى وسط القرن التاسع عشر ولد المجتمع الصناعى الذى أرغم عددا كبيرا من الناس على الاستعمال الآلى لقدراتهم على العمل - أى أن العامل من كل النشاطات الخلاقة الأخرى، وعليه فقد وجد الآلاف فى لعبة كرة القدم الجديدة التنظيم الجماعى الذى يعكس صورة من صور حياتهم وفى الوقت نفسه يعطى قيمة إضافية، بل وثقافية لاستخدامات الأطراف التى لا تستعمل فى العمل، أى الأرجل)!

وإذا كانت الكرة قد استطاعت غزو العالم بأسرة للأسباب السالفة فإنها أيضا غزته لأنها مسرحية متكررة (للصراع الجماعى) هذا الصراع المولود مع البشرية، وقد أصبحت الكرة رمزا من رموز الحرب، ولعل ذلك من أهم أسباب مصاحبة الشغب والعنف للعبة، بل ويرجع العلماء الحوادث الدموية الأخيرة التى شهدتها ملاعب انجلترا وأوروبا إلى (الفراغ العسكرى)، أى لأنه لاتوجد حروب، تماما مثل تعبير (الفراغ السياسى) والذى جعل الشعب يتحزب للأندية .. وعن الصراع الجماعى يقول الصحفى الفرنسى (چورچ زيفلير) الكاتب فى (الفيجارو) : (منذ الأزل والمظهر الذى

يحكم العلاقات الإنسانية هو الكفاح فعندما تهاجم جماعة ما جماعة أخرى، فإن رد المجموعة الأخرى هو حتما المواجهة ومنها يأتى التصادم والعنف!)

وإذا كان العنف هو الجانب المظلم للكرة، أو وجهها القبيح فإن لها جوانب أخرى مبهجة، وطريفة، وغريبة ووجوه جميلة أيضا، فبالإضافة إلى جماعية اللعبة، وملعبها الكبير، وحجم كرتها الصغير، الذى يكفى لمتابعة خطوط سيرها بسهولة، وتعدد خططها، وما تحويه من مناورات، ومحاورات، ومفاجآت متغيرة ومتجددة لهذا كله ستجد فى اللعبة القوة والحيوية والديناميكية، وهذا يخلق الإثارة والمتعة، والاستمتاع بموسيقى الأداء الجماعى الجميل الذى ينتهى بالأهداف، التى تأتى من المفاجآت فتهز القلوب فى المدرجات، كما تهز الشباك !

تقديم الملف إلى الفيفا

فى نهاية سبتمبر من العام الماضى سافر وفد مصري برئاسة د. فتحى سرور رئيس مجلس الشعب إلى زيوريخ فى سويسرا وتوجه إلى شارع هيتز جويج حيث يقع مقر الاتحاد الدولى لكرة القدم لتسليم ٦٠ نسخة من ملف مصر لاستضافة مونديال ٢٠١٠ إلى الفيفا وهو ما تكرر من جهة أربع دول إفريقية أخرى ترغب فى تنظيم أكبر بطولة لكرة القدم وهى المغرب وتونس وليبيا وجنوب إفريقيا وقد مكثت لجنة من ٤٠ متطوعا يرأسها محمد السياجى سكرتير عام الاتحاد المصرى خمسة أشهر فى إعداد هذا الملف الذى يتكون من ١٠٠٠ صفحة تقريبا واستعانت اللجنة بشركة فرنسية صاحبة خبرة وسبق لها إعداد ملف فرنسا لمونديال ١٩٩٨ وملف مدينة مونتريال لتنظيم دورة الألعاب الأوليمبية عام ١٩٧٦.

ووفقا لشروط الفيفا هناك ١٥ عنصراً لابد من تسجيلها فى الملف ومنها ما يتعلق بكل من الأمن والصحة والإستادات والبيئة والطاقة الفندقية وملاعب التدريب والمراكز الصحفية والإعلامية والمدن التى ستقام فيها المباريات والطرق والمطارات ودرجات الحراراة والرطوبة فى الدول التى تقدمت بطلب تنظيم المونديال لمراجعة ما جاء بالملفات التى قامت ومطابقته للواقع .

وبداية اتفق المصريون على نقطة أساسية وهى أنه كان من الضرورى خوض السباق لأنه ليس من المعقول أن يعلن الاتحاد الدولى أن إفريقيا ستنظم كأس العالم ولاتتقدم مصر ثم أن خوض السباق فى حد ذاته تجربة مهمة لأنه فرض إعادة مسح للبنية الرياضية المصرية كما أن الفوز بتنظيم البطولة يعنى نقلة اقتصادية ورياضية شاملة وتحقيق مكاسب مادية وسياحية هائلة وتفرض على الدولة بناء وتطوير ملاعب واستادات ومطارات وطرق فى ٥ سنوات بدلا من ٢٠ عاماً!

وكانت زيارة الوفد المصرى لمقر الفيفا فى نهاية سبتمبر الماضى مع وفود أربع دول أخرى مجرد عملية تسليم للملف وليس عرضا نهائيا فقبل أن تجتمع اللجنة التنفيذية للفيفا التى تضم ٢٤ عضوا للاقتراع على الدولة التى ستفوز بتنظيم المونديال ستعرض الدول الأربع المتنافسة ملفاتها مرة أخرى قبل ٢٤ ساعة من موعد الاقتراع المقرر له شهر مايو المقبل.

لكن ما هى فرص مصر ؟

يقول د. على الدين هلال وزير الشباب:

أولا كان من حق كل دولة أن تدخل

السباق وكان لابد أن ندخله نحن أيضا وإلا انتظرنا ٢٠ عاما أخرى حيث سبق وأعلن الفيفا عن مبدأ تداول القارات لتنظيم هذا الحدث الرياضى الكبير .



وقد حصلنا على الدعم الكامل من القيادة السياسية ومن الحكومة المصرية وكنا أول دولة إفريقية تعلن خوض السباق والملف المصرى متكامل وهو عبارة عن وثيقة مكونة من ١٠٠٠ صفحة وآلاف النقاط الصغيرة والملف يحتوى اتحاد الإذاعة والتليفزيون والجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء ومركز المعلومات بمجلس الوزراء وأرى أن فرصتنا ممتازة وماقدمناه إلى الفيفا لايحتوى أمنيات أو أحلاما إنما واقعا وقد صنعنا رأيا داخليا عاما حيث تكاتف المصريون من أجل تنظيم البطولة واستقبلت طوال الأشهر الماضية عشرات الشخصيات التى ترغب فى عمل أى شئ من أجل مصر وهذا الرأى العام هو المساند لنا فى حملتنا الخارجية ولا تتصورون درجة اهتمام الناس وكيف نتلقى آلاف الاقتراحات من جميع الأعمار، فحملة كأس العالم مشروع قومي للمصريين وفى حالة فوزنا بشرف تنظيم المونديال سنقدم بطولة تشرف كل إفريقى .

وأعتقد أن فرصتنا جيدة لكنها غير مؤكدة ولعلكم تذكرون كيف خسرت جنوب إفريقيا سباق ٢٠٠٦ بفارق صوت عن ألمانيا .لكن مصر تملك الحضارة والتاريخ ونحن أول دولة إفريقية مارست كرة القدم وانضمت للاتحاد الدولى، وفزنا ببطولة الأمم الإفريقية ٤ مرات ونظمناها ٣ مرات وسننظمها للمرة الرابعة عام ٢٠٠٦ ومصر أيضا دولة المقر للاتحاد الأفريقى لكرة القدم والعديد من الاتحادات الرياضية الأخرى على المستويين الإفريقى والعربى ونحن أيضا شعب من البنائين بنينا الأهرامات والسد العالى ومشروع توشكى وهذه بإيجاز شديد بعض مبرراتنا لدخول السباق وللفوز بهذا السباق .

المنافسة صعبة والفرصة كبيرة

وحول تجربته فى إعداد الملف والصعوبات التى واجهته وفرص مصر يقول محمد السياجى رئيس لجنة إعداد الملف :

لاشك أن المنافسة صعبة، وأننا بدأنا من الصفر، حيث أن المغرب لها خبرة سابقة بخوض التجربة ثلاث مرات وجنوب إفريقيا مرة واحدة، ولا أعنى بذلك أنهما المنافسان لمصر فقط فهناك تونس وليبيا، وكل منهم عنده نقاط قوة ونقاط ضعف ثم أننا نحترم جميع المنافسين فهكذا تعلمت على الأقل من ممارستى لكرة القدم كلاعب ومن تجربتى الطويلة معها فى الإدارة .

ومن ناحية الصعوبات فقد كانت أهمها خوض التجربة لأول مرة وعدم وجود بيانات متكاملة فى البداية عن المنشآت الرياضية مثل الاستادات ولكننا تجاوزنا ذلك بمساعدة جميع الأجهزة والوزارات المصرية .

ويقول السياجى : أعتقد أن فرصة مصر كبيرة لأسباب تاريخية وسياحية وجغرافية أيضا بجانب استقرار الأوضاع وحالة الأمن وتوافر الطرق والمدن القادرة على استقبال الملايين من جماهير كرة القدم فى العالم ويكفى أن الفيفا طلب توافر ٣٥ ألف غرفة بالفنادق ومصر لديها

أضعاف هذا الرقم .

ويضيف السياجي: رغم ذلك فإن البعض متشائم والتشاؤم ليس فى محله لأننا نعمل بجدية ونخطو خطوات ولانعلن عنها وهذا امر بديهى حتى لانفيد المنافس بأفكارنا لكننا نمضى فى طريقنا على أمل الفوز بهذا الشرف، وحتى لو لم نفز وهو احتمال وارد سنكسب خوض التجربة ومعرفة مالدينا من بنية تحتية رياضية . ونحن نتابع تحركات الدول الأخرى ونعرف ماذا تملك جنوب إفريقيا وما لاتملكه، وعندهم نقاط ضعف كبيرة ومنها الأمن .

وفى جميع الأحوال نحن نعمل من أجل هدفين، الأول هو تنظيم كأس الأمم الأفريقية عام ٢٠٠٦ على أحسن مستوى، والثانى المونديال عام ٢٠١٠ ومن أجل الهدف الأول هناك منشآت تبنى وعمليات تجديد تجرى فى بعض الاستادات ومنها استاد القاهرة .

انتهى كلام السياجي وقد أشرنا كثيراً ونكرر الآن أن دخول مصر السباق كان أمراً حتمياً فليس من المعقول أن يعلن الفيفا تنظيم كأس العالم فى إفريقيا عام ٢٠١٠ وتقف مصر بتاريخها ومكانتها موقف المتفرج، وكل ما علينا الآن أن نبذل أقصى طاقة وأقصى جهد من أجل الفوز بهذا الشرف ونحن ندرك أن دولاً مثل جنوب إفريقيا والمغرب تخوض السباق وهى تملك خبرة خوض المنافسة من قبل والأولى هزمت إنجلترا سيدة كرة القدم وخسرت أمام ألمانيا فى الدورة السابقة بفارق صوت بامتناع ممثل منطقة الأوقيانوس جاك ديمبسى عن التصويت وكل هذا نعلمه وتعلمونه، ومع ذلك نحاول، والدولة غير صامتة وتتحرك فى كل الاتجاهات ومن المحتمل أن نخسر السباق فى النهاية لكننا لم نقف موقف المتفرج !

ومن أهم مميزات الملف المصرى تنوع وتعدد المدن التى يمكن أن تستضيف مباريات المونديال ومنها الغردقة وشرم الشيخ والأقصر ومرسى مطروح وبرج العرب أو الساحل الشمالى بجانب القاهرة والجيزة والبحر الأحمر منطقة سياحية معروفة عالميا ومناخها وطبيعتها ساحرة والأقصر وأسوان عبق التاريخ، ومصر تعتز بهذا التاريخ الذى لايملكه غيرها فى القارة، ومرسى مطروح والعلمين لها مناخ جميل وبها مشاهد خلابة يختلط فيها لون البحر الأزرق بلون السماء .

والغردقة وشرم الشيخ والأقصر وأسوان ومرسى مطروح أيضا مدن تجيد فن التعامل مع الأجانب فكأس العالم ليس مباريات كرة قدم فقط وإنما يواكبها العديد من الأنشطة السياحية والثقافية والفنية .ومن شروط الفيفا توافر ٣٥ ألف غرفة فندقية وفى الغردقة حاليا ٣٠ ألف غرفة وفى شرم الشيخ ٢٨ ألف غرفة وتحت الإنشاء فى المدينتين ٣٠ ألف غرفة وفى مرسى مطروح ٥ آلاف غرفة بما فيها الموجودة فى الساحل الشمالى على البحر الأبيض إلى منطقة سياحية عالمية كما هو الحال فى تونس، وفى الأقصر ١٠ آلاف غرفة و ٢٥٠ فندقا عائما يمثلون طاقة فندقية تقدر بأكثر من ٢٠ ألف غرفة .

وفى الغردقة وشرم الشيخ مطاران دوليان وشبكة طرق رائعة وبنية تحتية متكاملة وفى شرم الشيخ قاعة مؤتمرات مميزة وفى الأقصر مطار دولى وفى مرسى مطروح مطار العلمين ومطار برج العرب ومطار مرسى مطروح، ويمكن تطويره، والمطارات فى غاية الأهمية أثناء البطولة لانتقالات الفرق والجماهير

بجانب الوسائل الأخرى البرية وبالسكك الحديدية..

وفى كأس العالم تقام عدة مباريات فى اليوم واختيار مرسى مطروح يعنى إمكانية إقامة مباريات عصرا لانخفاض درجة الحرارة صيفا وهو توقيت المونديال، بينما يمكن إقامة المباريات ليلا فى الغردقة وشرم الشيخ وأسوان والتكلفة الاستثمارية لبناء الاستادات يمكن توفيرها من حصة مصر من الفيفا، ومن الإدارة الإقتصادية لهذه المنشآت عقب انتهاء المونديال بتنظيم معسكرات للفرق الأوربية وبطولات موسمية. وقد اندهش الفرنسيون مثلا من استاد القاهرة العملاق الذى تقام فيه مباراة كل أسبوع ثم يتحول إلى جثة هامدة، فكيف لايكون منطقة جذب اقتصادية كما هو الحال فى العديد من الملاعب الكبرى فى العالم؟، ثم أن توافر مدن للإعاشة وللمباريات فى آن واحد سيوفر الكثير من المال والجهد والوقت بالنسبة لانتقالات الفرق والجماهير المصاحبة لها ؟!

نحن نملك الكثير لكن تبقى أساليب عرضه وكيفية إدارته وهو السؤال الصعب حقا ؟!

وتنظيم بطولة كأس العالم يعد مشروعا قوميا لما له من فوائد اقتصادية وسياحية واجتماعية ويكفى أن نعرف أن جنوب إفريقيا خصصت ملياراً و ٨٠٠ ألف دولار لتنظيم المونديال وأن المغرب خصصت ملياراً و ٢٠٠ مليون دولار، وأنه لم تخسر دولة بسبب تنظيم المونديال حسب قول الفيفا، والأرباح تتحقق من التسويق وحقوق النقل والترويج والرعاة الرسميين حيث ترعى منافسات الفيفا ٣٠



شركة تجارية كبيرة ويحصل الفيفا على الأموال من خلال لجانه المتخصصة ويقوم بتسليمها للدولة المنظمة التى تحصل أيضا على ما يقرب من نسبة ٧٠ ٪من حصيلة بيع التذاكر .

وفى مونديال ١٩٩٤ بأمريكا تحقق أكبر إقبال جماهيرى،٣,٥ مليون متفرج، وتابع مونديال ٢٠٠٢ حوالى ٣٨ مليار نسمة من الأرض خلال مجموع مباريات البطولة التى يصل عددها إلى ٥٢ مباراة..

وحققت كل من كوريا واليابان فائض ربح صافيا بلغ مليار دولار لكل دولة ويفرض تنظيم المونديال تطوير البنية التحتية من طرق وملاعب ومطارات ومستشفيات ومراكز صحفية وقاعات مؤتمرات .

ويقدم المونديال آلاف فرص العمل خلال البناء والاستعداد ويساهم فى تنشيط المنتج المحلى وفى كوريا واليابان على سبيل المثال أتاح المونديال ٣٥٠ ألف فرصة عمل ووصل عدد الغرف الفندقية التى شغلت خلال البطولة إلى ١٤٠ ألف غرفة، وعدد الغرف التى شغلها ضيوف الفيفا والفرق والإعلاميون والإداريون بلغ ٢٢٧٥٠ غرفة، وعدد غرف الشقق السياحية ١١٧ ألفا وعدد المتطوعين ٦٠٧٥٠ فردا وعدد المترجمين ١٢٥٥٠ وأقيم ٦٤ مركزا إعلاميا وكان متوسط إنفاق السائح يوميا ١١٠ دولارات .

ويبقى أن تنظيم المونديال يفرض نقلة حضارية شاملة فى المنشآت الرياضية والمطارات والطرق والفنادق والسلوك الرياضى والاجتماعى للمواطنين، كما يضع الدولة التى تفوز بشرف التنظيم على الخريطة السياحية العالمية لسنوات طويلة

قبل وبعد البطولة !

BOX أعضاء اللجنة التنفيذية للفيفا

اللجنة التنفيذية للفيفا تضم ٢٤ عضوا وهم الذين سيصوتون لاختيار الدولة التى ستنظم مونديال ٢٠١٠ وتحظر قواعد الاتحاد الدولى إجراء اتصال مباشر بهؤلاء الأشخاص وهم :

– السويسرى جوزيف بلاتر رئيس الفيفا منذ عام ١٩٩٨

– القطرى محمد بن همام نائب رئيس الفيفا ورئيس الاتحاد الأسيوى وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٦ .

– الكاميرونى عيسى حياتو نائب رئيس الفيفا ورئيس الاتحاد الأفريقى وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٠ .

– السويدى لينارت يوهانسون نائب رئيس الفيفا ورئيس الاتحاد الأوروبى وعضو فى اللجنة منذ عام ١٩٩٠ .

– الأرجنتينى جروندونا خوليو عضو اللجنة منذ عام ١٩٨٨ ورئيس اتحاد كرة القدم فى الأرجنتين .

– الأسكتلندى ويل دافيد إتش نائب رئيس الفيفا وعضو باللجنة منذ عام ١٩٩٠

– الكورى الجنوبى تشانج جونج جون عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٤ ورئيس الاتحاد الكورى .

– ممثل ترينداند وتوباجو جاك وارنر وهو رئيس اتحاد منطقة الكونكاكاف وعضو اللجنة منذ عام ١٩٨٣ .

– الاسبانى ماريا فيلار أنجيل عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ ورئيس الاتحاد الأسبانى ماريا فيلار أنجيل عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ ورئيس الاتحاد الأسبانى..

– التونسى سليم علولو عضو اللجنة منذ عام ١٩٨٨ .

– البلجيكى ميشيل دوج عضو اللجنة منذ عام ١٩٨٨ .

– الكوستاريكى دافيد إسحاق ساسو عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٠ .

– البرازيلى ريكاردو تاكسيرا رئيس الاتحاد البرازيلى وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٤ .

– التركى إيرزيك سينيس عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٦ ورئيس شرف الاتحاد التركى .

– الأمريكى تشاك بلازير سكرتير عام اتحاد الكونكاف وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٦.

– التايلاندى ورادى ماكودى سكرتير عام إتحاد تايلاند وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٧ .

– ممثل باراجواى د.نيكولاس ليوز عضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨ .

– البوتسوانى إسماعيل بامجى رئيس اتحاد الكرة البوتسوانى وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨

– المالى أمادو دياكيتى رئيس اتحاد الكرة فى مالى وعضو اللجنة منذ عام ١٩٩٨.

– الروسى د. فياشيسلاف كولوسكوف رئيس الاتحاد الروسى وعضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٠ .

– الألمانى جيرهارد مايروفور فيلدر رئيس الاتحاد الألمانى وعضو اللجنة منذ عام ٢٠٠١ .

– الفرنسى ميشيل بلاتينى عضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٢ .

– التونجى أهونجالو فيدسينالوهى عضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٢

– اليابانى جانجى أجيورا عضو اللجنة منذ عام ٢٠٠٢ ❙



كمال الشيخ

.. شروق دون غروب

بقلم
مصطفى درويش

ما إن بدأ العام الجديد حتى كان كمال الشيخ آخر السينمائيين الكبار المتخرجين فى استوديو مصر فى النزع الأخير من حياته، ينسحب بهدوئه المعهود منها، عن خمسة وثمانين عاما، إلا قليلا، أنفق منها خمسة وأربعين عاما على الأقل، وهو مرفوع الشراع، فى بحار تجربة صناعة الأطياف، منذ بدأ توليف «مونتاج» الأفلام، فى ذلك الاستوديو، وحتى عهد قريب، حين وقفت به السن عن التوق إلى الرحلة . بحثا عن آفاق جديدة لفن السينما، ذلك الفن الوليد، الذى أوقعه بسحر صوره فى غرام دام ثلاثة أرباع القرن، الذى ودعناه، قبل ثلاثة أعوام!.


محمود ياسين ومديحة كامل - الصعود إلى الهاوية

رشدي وسعاد - غروب وشروق

والحق، أنه مما اضره، ودفعه إلى التوقف عن الإخراج فى السنة السابعة من العقد الثامن من القرن العشرين، هو فشل فيلميه الأخيرين، «الطاووس» (١٩٨٢) و«قاهر الزمن» (١٩٨٧) فلقد كان فشلهما ضربة قاسية لكرامة مخرج فى مقام «الشيخ»، وكما يقال فى الأمثال كان القشة التى قصمت ظهر البعير، ذلك أنه، مما يعرف عنه انه فنان غير مكابر، يقطر رقة ووداعة.

ولأنه كذلك، فسرعان ما احس بما يحس به الفنان وحده، دون سائر الناس، فلم يرجع فشل فيلميه إلى انهيار السينما، كما يحلو للبعض أن يقول، وانما أرجعه لأمر لم يفصح عنه ابدا، ولو همسا، ذلك الأمر أو السر هو فى أغلب الظن ، نضوب معينه السينمائى، ربما لكبر السن، أو لأسباب أخرى.

ولأنه كان فنانا قنوعا، يكفيه أنه بلغ القمة بأربعة وثلاثين فيلما روائيا طويلا، فقد آثر الاعتزال بنفس راضية، مرضية، على اعتبار ما مضى من مشوار إبداعه السينمائى، تجربة بحلوها ومرها، وقد انتهت بانتهاء زمنها الجميل.

وعندى أن رصيده هذا من الأفلام ، فضلا عن اعتزاله وهو فى السبعين، قد سلكه مع الخالدين الذين نهضوا بالسينما المصرية، حتى ملأت الدنيا، وشغلت الناس


كمال الشيخ

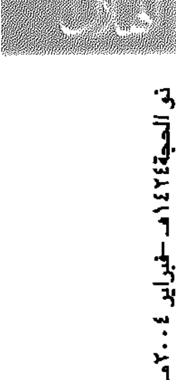
طويلا فى الوطن العربى من الخليج إلى المحيط.

لحن الخلود

ويحضرنى هنا من رصيده هذا ثلاثة أفلام، أقف عندها قليلا، لأن كل واحد منها يلقى بعض الضوء على أسلوب صاحبها، ورؤيته لفن السينما، وهى رؤية ثرية، تقطع بمعرفة عميقة بلغة العصر.

والأفلام الثلاثة هى. حياة أو موت (١٩٥٤)، واللص والكلاب (١٩٦٢) والصعود إلى الهاوية (١٩٧٨).

وأبدأ بفيلمه الثالث «حياة أو موت»



الذى اخرجه بعد انتهاء مرحلة التوليف «المونتاج»، من حياته، وبدء مرحلة الاخراج، بفضل فيلمه الأول «المنزل رقم ١٣» (١٩٥٢).

دهشة انفعال

أبدأ به، لأقول إننى شاهدته أول مرة، وبالمصادفة فى باريس حيث كان يعرض، بمناسبة تكريم معهد العالم العربي لصاحبه، وذلك بعرض بعض ما ابدعه من أفلام وكم كانت دهشتى، وأنا فى قاعة العرض بالمعهد أشاهد فيلما قديما، بلا ألوان، وله من العمر أربعون عاما، هذا إلى جانب أن معظم ممثليه «يوسف وهبى»، و«عماد حمدى» و«حسين رياض» قد انسحبوا من الحياة من سنين، ومع ذلك انفعل به، وكأنه فيلم جديد، خارج لتوه من معمل التحميض.



الراحل كمال الشيخ بين وزير الثقافة وسعد الدين وهبة أثناء تكريمه فى مهرجان القاهرة السينمائى



كان دائما محل تقدير لقاء ماقدم للسينما

أما لماذا اندهشت وانفعلت بحياة أو موت، فذلك لأنه، عكس أفلام ذلك الزمان، صور الواقع كما هو، فى شوارع القاهرة، دون أى تزويق. ولأنه بإيقاعه اللاهث، وببنائه الدرامى المحكم، قد نجح فى الاحتفاظ بجدته، وبقدرته على التشويق.

ووجدتنى اتساءل، وأنا أغادر القاعة، لماذا أنكروا على مخرجه الريادة فى الواقعية، ونسبوها إلى كل زعيط ومعيط، ونطاط الحيط.!!

واقعية مصرية

ففيلمه، والحق يقال، درة من درر الواقعية، ذكرنى بلقطات شوارع القاهرة، وميادينها، حيث كان يجرى البحث عن بنت صغيرة، تحمل إلى أبيها المريض بالقلب، زجاجة عبئت خطأ بسم زعاف، بدلا من الدواء.

أقول ذكرنى بلقطات لشوارع روما وميادينها، فى فيلم «سارقو الدرجات» لرائد الواقعية الجديدة «فيتوريو دى سيكا»، حيث يبحث الأب مع ولده الصغير، عن الدراجة المسروقة، دون أن يعثرا على أى أثر لها، رغم كل ما بذلاه من جهد، وما تعرضا له من إذلال.

ولا يفوتنى هنا، أن أذكر أنه عندما جاءنى الخبر الفاجع بنبأ انسحاب كمال الشيخ من الحياة، وجدتنى استرجع على شاشة ذاكرتى أمسية معهد العالم العربى بمدينة النور، فأسرع بوضع الشريط المسجل عليه «حياة أو موت» فى جهاز الفيديو، لأشاهده مرة أخرى غير أننى فى هذه المرة لم اندهش، ولم أتساءل، بعد الانتهاء من مشاهدته، بل ازددت يقينا على يقين بأن صاحبه كان رائدا بحق، لواقعية جديدة، على الطريقة المصرية،

تجاوز بها واقعية حارة العزيمة لأستاذه فى استديو مصر «كمال سليم».

سر الاختيار

هذا عن الفيلم الأول، أما الثانى، وهو «اللص والكلاب» فمأخوذ عن رواية بنفس الاسم، استوحى نجيب محفوظ موضوعها من حادثة حقيقية لهارب من العدالة، ومطارد من الشرطة، كتبته الصحافة بالسفاح، لارتكابه بضع جرائم قتل، على سبيل الانتقام من شركاء سابقين.

واختيار كمال الشيخ لرواية «اللص والكلاب»، لتكون أحداثها منطلقا لفيلمه السابع عشر، انما يرجع إلى جوها المشبع بالتوتر والمطاردات والتشويق، وهو الجو الذى يؤثره، ويتميز به أفضل ما أبدع من أفلام.

وعندما شاهدت، قبل بضعة أيام، تسجيلا له على شريط فيديو، وجدته كما شاهدته، وكتبت عنه، قبل أربعين سنة، فيلما رصينا، متئداً رزينا، زاخرا بابتكارات فنية، لا يتسع لشرحها المجال، وبتفاصيل معتنى بها اشد عناية ، فضلا عن أداء بارع لممثليه «شكرى سرحان»، «كمال الشناوى» «صلاح منصور» و«صلاح جاهين»، قوامه الاعتماد، لا على الكلام، بل على ملامح الوجه، وقدرة الجسم على التعبير.

باختصار وجدته، بعد كل هذه السنين، قد بقى منه فى نفسى شيء جميل، وذلك لأنه فن سينمائى حقيقى، أصيل. والآن، إلى «الصعود إلى الهاوية».

بداية أقول إننى لست بصدد تحليل سياسى - اجتماعى لظاهرة نجاحه، المنقطعة النظير، وانما بصدد ذكر واقعة، تشهد على مهارة كمال الشيخ فى اختيار الممثل المناسب للدور الذى يزمع اسناده إليه فى الفيلم .

من المعروف عن الفيلم أن بطولته قد انعقدت «لمديحة كامل»، حيث تقمصت فيه شخصية «عبلة كامل» التى ارتضت أن تعمل جاسوسة، ضد وطنها مصر، لصالح إسرائيل وأنه قد شاع، وقت عرضه، أن سعاد حسنى كانت المرشحة الأولى لأداء دور الجاسوسة، فلما اعتذرت، استبدل بها كمال الشيخ مكرها، مديحة كامل.

انتصار الحقيقة

إلا أنه، بعد ربع قرن من عمر الزمان، كذب كمال الشيخ هذه الشائعة، فى حديث معه، سجله، قبل ثلاثة أشهر، الناقد طارق الشناوى، لصالح إحدى الفضائيات، إذ كان من بين ما باح به فى هذا الحديث، أن سعاد حسنى هى التى طلبت أن تلعب دور الجاسوسة، وأنه هو الذى رفض الاستجابة لطلبها، لا لسبب سوى أنه شعر أن الجمهور سوف يتعاطف مع «سعاد» من منطلق تعلقه بها حبا، فيغفر لها خيانتها لمصر، وحتى يحقق الفيلم رسالته، عمل على اسناد الدور إلى ممثله ليس لها رصيد «سعاد» من حب الناس.

ثمن الخيانة

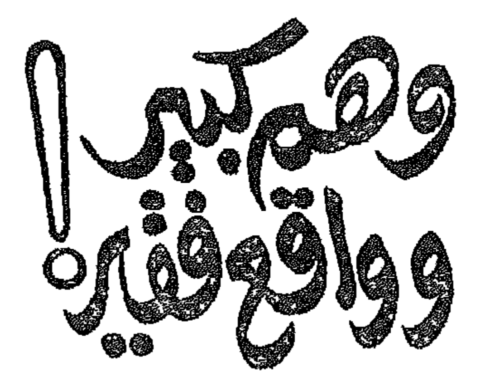
وكانت «مديحة كامل» الممثلة التى وقع عليها الاختيار ولأنها لم يكن لها ذلك الرصيد من الحب، فلم يتعاطف معها الجمهور، بالعكس كاد يطير من السعادة لحظة سقوطها، ورجل المخابرات، يقول لها فى الطائرة العائدة بها إلى أرض الآباء التى خانتها، بثمن قليل، مشيرا إلى تلك الأرض «هذه مصر ياعبلة»!!

وختاما، يبقى لى أن أقول إن الأفلام الثلاثة من الخصب والقوة، بحيث تركت فى السينما المصرية آثاراً بعيدة، عميقة.

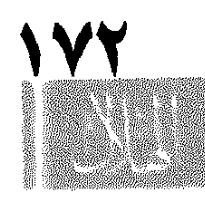
ولو أن المخرج لم يبدع سواها، لكان ذلك كافيا لبقائه فى ذاكرة الزمان ■



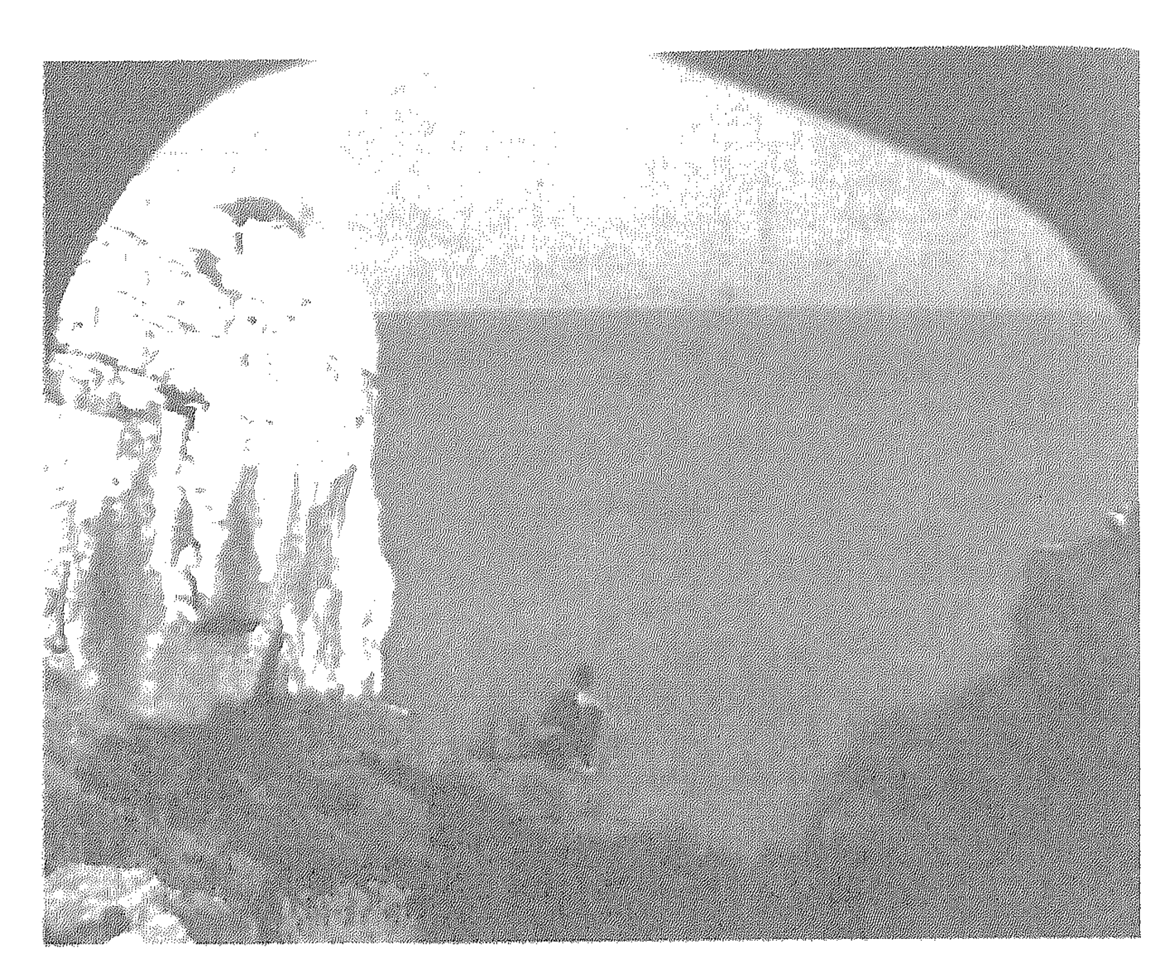
الأسطورة فى بينالى القاهرة الدولى



بقلم
د. صبرى منصور

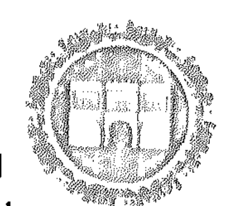


لا ندرى إلى متى سيظل المصريون غير قادرين على القيام بتنظيم احتفاليات ثقافية وفنية خالية من الأخطاء العديدة فى الإعداد والتنظيم والتنفيذ.. فتلك الأخطاء أصبحت سمة مميزة تصاحب نشاطاتنا ومؤتمراتنا، ويلحظها بسهولة كل من ساقته قدماه إلى معايشتها عن قرب، فيكتوى بآثارها السلبية التى يصل تأثيرها أحياناً إلى تحقيق عكس ما تهدف إليه تلك النشاطات والاحتفاليات. ويقدم بينالى القاهرة الدولى التاسع للفنون التشكيلية - والذى يقام كل



الفنانان السويسريان زيلكا ماروستيش وأندريا هلبنج - عمل مركب

عـامين - الدليل على أن بيننا وبين دقـة التـخطيط وسلامـة التحضير وشفافية التنفيذ زمناً بعيداً، وخاصة أنه لا يستفاد من أية ملاحظات موضوعية بناءة، أو اعتراضات منطقية ، حين يرى المسئولون أنهم فوق مستوى النقد وأعلي من تقبل النصح، ويعتقدون أن أى رأى مخالف هو رأى مغرض، لا يجب الاصغاء له أو الالتفات إليه. ففى شهر مايو عام ٢٠٠١ تناولنا فى مقال تم نشره فى هذا المكان بينالى القاهرة فى دورته الثامنة بالنقد، وأشرنا إلى سلبيات كثيرة قللت - فى رأينا - من قيمتـه ، وانتقصت من جدواه الثقافية والفنية، ويأتى بينالى هذا العام مثقلاً بنفس الأخطاء كما يسفر عن سلبيات جديدة فى نواحٍ عديدة.



بيان مبهم للبينالي

وتحت عنوان غريب التركيب «الأسطورة .... رهان الخيالي ، ورهان الفن!» جاء موضوع البينالي في بيان تم إرساله إلى الدول المشاركة العربية منها والأجنبية ، حتى يأتي إبداعها متناغما مع فكرته ومحققا لها، وفي ثلاث صفحات تضمن البيان خليطاً من الأفكار، في صياغة لغوية متكلفة، تعتمد على الألفاظ الضخمة التي لا تحمل معنى واضحاً، ولم يرهق صاحب البيان نفسه في مراجعة الأخطاء النحوية والإملائية وأخطاء الطباعة، مما جعل من البيان وثيقة لا يصح أن تصدر عن مؤسسة رسمية لها قيمتها الثقافية في بلدنا، وقد احتوى البيان أفكاراً خاطئة حين رأى أن الفن في المجتمعات الصناعية قد أصبح عاجزاً عن إنتاج «خاصية التخيل وذلك لأنه قد تجذر عميقاً في الحياة اليومية لتلك المجتمعات».

وهو اعتقاد طالماً تردد في حياتنا الثقافية وتدحضه تلك الاتجاهات الفنية التي ظهرت في أوروبا بعد عصر الثورة الصناعية خلال القرن التاسع عشر، ومازالت ممتدة في أساليب ما بعد الحداثة ، تلك الاتجاهات التي أعلت من قيمة الخيال ودوره في الحياة الإنسانية، فمنحته أهمية قصوى في العملية الإبداعية ، وتحت مسميات كالرمزية والسيريالية والميتافيزيقية والواقعية السحرية أبدعت أعمال فنية لفنانين عظام أمثال جوجان وسلفادور دالي وماجريت وإرنست وديلفو ودي كيريكو وكارا وغيرهم عديدين ممن استطاعوا أن يحققوا معادلة متوازنة بين غزو الآلة وبين انطلاق الخيال بلا حدود، كما امتد الإبداع الخيالي والأسطوري ليشمل فنوناً أخرى كالأدب والسينما، فمازالت نماذجه تلبي حاجة أساسية عند الإنسان.

ولقد أدى الفهم الخاطيء بكاتب البيان إلى إصدار أحكام قاطعة ونهائية لا تقبل الجدل أو المناقشة حين يقول بأن «الناتج الخيالي الذي هو روح الفن وتميمته الواقية، صار مستعاراً، ومقتلعاً من جذوره اقتلاعا» وبأن «زمن الأسطورة وزمن الحكايات الخرافية النبيلة قد انمحى».

ويستعرض البيان أفكار صاحبه عن ضرورة إعلاء شأن الأسطورة التي يجب ألا تسقط «باسم الصناعة أو باسم العلم أو باسم التكنولوجيا والبيوتكنولوجيا» ويعلن تحالف البينالي التاسع مع «الخيال، مع كل ما هو آدمي، مع الوحي الملهم في جنبات النفس البشرية» ثم ما يلبث أن يناقض هذا التحالف حين يعلن أن بينالي القاهرة ينادي «بالعلم باعتباره نسباً من هجين الأسطورة». ثم فجأة يخلق الكاتب هدفاً جديداً للبينالي، «إن البينالي حين يدوّن بيانه في نهاية العام الثالث من الألفية الثالثة، يود أن تكون المشاركات من فناني العالم بمثابة احتجاج على استطيقا الحرب» ويفسر تلك الاستطيقا بقوله المبهم «تلك الاستطيقا الجمالية - التي أخذت تجدول درجات تقبل الفن على أساس ذلك التشكيل المعجمي لآلات الحرب الدموية».

وينهي صاحب البيان بيانه بأنه يريد لمشاركات البينالي «أن تهزم العولمة حسب مفهوم سلطة تبديد البشر ، سلطة تحويلنا جميعاً إلى ممتثلين ومنصاعين» ثم يدعونا لكي نتأمل «الأسطورة للمرة الأخيرة في حياتنا قبل الطوفان».

البينالي يهدم فكرته

ويفهم من السطور الأخيرة في البيان أن هناك رغبة في الانفلات من أسر

أجـواء أسطورية.. للفنان الإسباني فرانشيسكو جارثيا

التبعية، وإعلاء شأن الإبداع الذى يقاوم عوامل محو ذاتيته، ويحافظ على معالم هويته، ويرفض التقليد والانصياع بدعوى مواكبة العالمية والعولمة.

وهكذا يبشر البيان بإبداع إنسانى جديد، ويمهدنا لاستقبال رؤى مختلفة تراهن على الخيال وعلى الأسطورة، وبعد كل ذلك تتجول فى أرجاء المعرض الذى انتشرت أعماله فى أربعة مواقع لمائتين وخمسين فناناً من خمس وخمسين دولة، لتجد أن كل ذلك الكلام الضخم مجرد كلام فى الهواء ، وستجد أن الفنانين يقدمون إبداعاً لا صلة له من قريب أو من بعيد بالمعانى المذكورة فى البيان، وربما كان لهؤلاء عذرهم ، فالبيان كما أوضحنا ملتبس المعانى، متعدد الأهداف ، ولا يعتمد على أفكار واضحة وإنما على كلمات وتعبيرات رنانة ، فإذا ما ترجمت أصبحت خالية المعنى فارغة المحتوى.

والمأساة الحقيقية هى أن مسئول البينالى نفسه هو الذى هدم فكرته ، وتخلى عن نبوءته التى بشرنا بها، وذلك حين جاءت اختياراته الشخصية للفنانين - ما بين ضيوف شرف أو دعوات وجهها شخصيا لبعض الفنانين - بعيدة فى مجملها عما أتعب نفسه فيه وأجهدنا فى قراءته ، وجهزنا نفسياً ووجدانياً لاستقباله.

بل ويبدو أن لجنة التحكيم نفسها لم تطلع على بيان البينالى ، أو لعلها اطلعت ولم تقتنع بما ورد فيه، فجوائزها الممنوحة ذهب أكثر من نصفها إلى أعمال فنية اعتمدت على التكنولوجيا ، وانصاعت للقوالب الفنية الجاهزة حسب مفهوم العولمة، ويعترى الإنسان شعور بالغيظ حين ينقب فى الأعمال المعروضة عن دلالة لموضوع البينالى، أو أىّ تضمين رمزى أو خيالى ، فلا يجد ذلك محققاً إلاّ فى بعض الأعمال القليلة التى لا تشفى غليله أو تروى ظمأه ، ويشعر كما لو أن هناك خديعة ما دبرت له، وأنه كان سليم الطوية، ساذج التصور حين تخيل أن ما قيل كان ممكناً رؤيته على أرض الواقع، ويتذكر فى النهاية أن شيمة نفر من المصريين الآن الاقتصار على إطلاق الكلمات الضخمة، وصياغة الشعارات المدروسة بعناية، والاكتفاء بالواجهة أو العنوان، ولا أهمية لشىء بعد ذلك.

مشاركات غير عادلة

وحين تتأمل كيف تمت مشاركة الدول المختلفة فى البينالى ستجد أموراً غريبة غير قابلة للفهم ولا تخضع لمبدأ سليم، فأولاً هناك مشاركات لدول أرسلت فنانين يمثلونها رسمياً، وثانياً هناك مشاركات لفنانين مدعوين شخصياً من قبل مسئول البينالى. وثالثا هناك مشاركات ضيوف شرف قام المسئول أيضا باختيارهم.

ويبدو أن تلك المشاركات والاختيارات لا تخضع لقواعد أو معايير موضوعية، فالسعودية - مثلاً - التى أرسلت رسمياً أضخم عدد من المشاركين بلغ اثنى عشر فناناً، ولم يكتف المسئول عن البينالى بذلك العدد ورأى أن السعودية تستحق تمثيلاً أكبر فقام بتوجيه دعوة شخصية لخمسة فنانين آخرين، ليصل العدد الإجمالى لفنانى السعودية إلى سبعة عشر فناناً، بينما تراوح عدد فنانى الدول الأخرى ما بين ثلاثة إلى خمسة فنانين، وهناك بعض الدول التى مثلها فنان واحد. بل إن عدد الفنانين السعوديين قد فاق عدد فنانى مصر صاحبة البينالى، ومعروف أن البلد الذى يقيم المعارض الدولية الكبرى على أرضه يجد فى ذلك فرصة لعرض أكبر

عدد من أعمال فنانيه. كما يثير تمثيل مصر فى البينالى أكثر من علامة تعجب، فقد رشحت رسمياً خمسة فنانين ورأى مسئول البينالى أن لديه صلاحية تجعله يختار أحد عشر فناناً آخرين، من بينهم أربعة كضيوف شرف، وسبعة آخرون، وجه الدعوة الشخصية لهم، والأمر المثير ، أن ستة من هؤلاء المدعوين شخصيا يقيمون فى دول أوروبا منذ أواخر السبعينات، والأمر الأكثر إثارة وغرابة أن واحدا من هؤلاء الستة المغتربين - وبصرف النظر عن ابتعاد أعماله عن محور البينالى وموضوعه - قد توفى عام ١٩٨٤!، وكذلك إذا أضفنا أن ثلاثة من ضيوف الشرف هم أيضا فنانون مصريون مقيمون فى الخارج منذ سنوات بعيدة، فيكون بذلك مجموع الفنانين المهاجرين الذين يمثلون مصر تسعة فنانين من بين ستة عشر فنانا ، ويبدو الأمر كما لو أن مسئول البينالى ينتصر لمجموعة الفنانين المغتربين، ويرى أنهم الأجدر بتمثيل مصر، حتى لو كان إبداعهم لا يحقق فكرة البينالى وهدفه، ويبدو متناسيا لفنانين يكابدون الحياة فى بلدنا ، ويثرون بإبداعهم الحركة الفنية المصرية، كما تنضح أعمالهم بالخيال والدلالات الأسطورية، ومن بينهم على سبيل المثال الفنانون أحمد عبدالوهاب وعادل المصرى ومحمد القبانى وعصمت داوستاشى والسيد عبده سليم وفتحى أحمد.

مؤهلات محدودة للجنة التحكيم

وعادة ما تكون هناك اعتراضات على تقييم لجان التحكيم فى مجال الفنون الذى لا يخضع لمعايير نهائية وقاطعة، ولكن تشكيل تلك اللجان من شخصيات ذات كفاءة عالية وخبرة عريضة فى المجال



وجه أسطورى ..للنحات الإيطالى بيترو كاشيلا

يمكن أن يمنح أحكامها درجة نسبية من المصداقية. ونجد فى بينالى هذا العام أن لجنة تحكيمه مكونة من ستة وليس سبعة أعضاء كما تنص المادة (٢٦) من قواعد وشروط البينالى نفسه، وذلك فضلا عن أنه من البديهى أن يأتى تشكيل لجان أى تحكيم مكونا من عدد فردى حتى تكون هناك أغلبية فى التصويت. كما سنجد أن أربعة من الأعضاء الأجانب فى اللجنة أحدهم نيجيرى ويعمل أستاذاً مساعدا للفنون، والثانى إيطالى دارس للقانون وناقد ونشاطه الأساسى تنظيم المعارض، والثالث سويدى فى الواحدة والثلاثين

ودارس للعلوم الإنسانية وإدارة الثقافة والحرف اليدوية وتنظيم المعارض وأنهى دراسته منذ عامين فقط، أما الرابع فهو تشيكي دارس للعمارة ويعمل مديرا للمعهد القومي للآثار، وكان عضوا في تحكيم جائزة معمارية كبرى في بلده.

وكنا نتمنى أن يعكس تشكيل اللجنة ومواصفات اعضائها وقدراتهم ما يؤهلهم للتفضيل والاختيار والتقدير، فإن أية مسابقة دولية تستمد قيمتها من قيمة أعضاء لجنة تحكيمها وما يتمتعون به من وزن ثقافي عالمي وخبرة طويلة وعميقة بعملية الابداع الفني التشكيلي.

أخطاء عديدة أخرى

ومازال هناك العديد من الظواهر اللافتة والأخطاء الواضحة التى تطغى على إيجابيات البينالي وعلى ما بذل فيه من مجهود، وتقلل من قدره كاحتفالية عالمية:

فدليل المعرض – وهو وثيقة تاريخية – جاء هزيلا فى مادته، مختلطا فى معلوماته. لدرجة أنه احتوى على صورة لعمل الفنان الفائز بالجائزة الكبرى غير العمل الموجود فعلا فى البينالى ، وهى إذا كانت قريبة الشبه والعناصر فإن ذلك لا يجيز وضعها كبديل للعمل الحقيقي، وإذا قيل إن عمل الفنان يتم تجهيزه فى المعرض ، وليس هناك من وقت لتصويره ثم إثباته ونشره بالدليل، فإنه كان من الممكن نشر فكرة العمل المبدئية التى من المفروض أنها قدمت للمعرض قبل الموافقة على تنفيذها، وذلك مثلما حدث مع أعمال فنانين آخرين فى مجال التجهيز فى الفراغ.

ولم يضم الدليل أية بيانات مفيدة عن الأعمال . فلا تدرى إلى أى مجال تنتمى ، وبأية خامة نفذت، وعلى أى حجم تكون. وهناك فنانون أفردت لهم صفحات عديدة ومعلومات مسهبة ومملة عنهم. بينما هناك آخرون كان حظهم فى الدليل بضعة سطور موجزة، وقد اختص مسئول البينالى، أحد الفنانين من ضيوف الشرف بمقال نقدى ليس دليل المعرض مكانه لأن فى ذلك تمييزا لا مبرر له عن الفنانين الضيوف الآخرين.

وهناك ظاهرة أثارت العديد من التساؤلات حول تكرار أسماء فنانين بعينهم فى دورات البينالى المختلفة ، حيث يكونون مرة عارضين لأعمالهم، وفى أخرى ضيوف شرف أو مدعوين بصفة شخصية أو أعضاء فى لجنة التحكيم، وما يمكن أن يلقى ذلك بظلال من الشك فى موضوعية الاختيار والترشيح، وتشتد التساؤلات عند المتابعين عن الفنان المصرى المقيم فى إيطاليا وتتم دعوته الشخصية من مسئول البينالى طيلة السنوات الثلاث الماضية، ليحصل فى كل مرة على إحدى الجوائز والتى توجها العام بالجائزة الكبرى.

كما أن هناك مبالغة شديدة فى تحديد عشرة فنانين كضيوف شرف فى المعرض، فقد احتلت أعمالهم قاعات العرض المميزة، وعرضت لهم أعمال كثيرة، وبدا الأمر كما لو أن المعرض الدولى قد خصص لهم ، بينما الفنانون المشاركون على هامش المعرض، ونحن نرى بأن التكريم يكون أقوى وأكثر تعبيرا عن التقدير لو كان هناك ضيف واحد أو اثنان ، أما هذا المهرجان من ضيوف الشرف فهو بدعة لا مثيل لها فى البيناليات العالمية.

أما اللجنة العليا للبينالى والتى تم تشكيلها من القيادات الإدارية والتنفيذية ،

تنويعات على وجه رومانى قديم.. للفنان الإيطالي إيميليو فارينا

ومع احترامنا لرئيسها وجميع أعضائها، إلا أن اللجان العليا للبيناليات يكون تشكيلها من شخصيات لها ثقلها الفنى والثقافى ، حيث إن مهمتها ليس تنفيذ البينالى وإخراجه لحيز الوجود، وإنما وضع استراتيجيته الثقافية وأهدافه العليا، ومراقبة مساره، وتحديد حكامه.

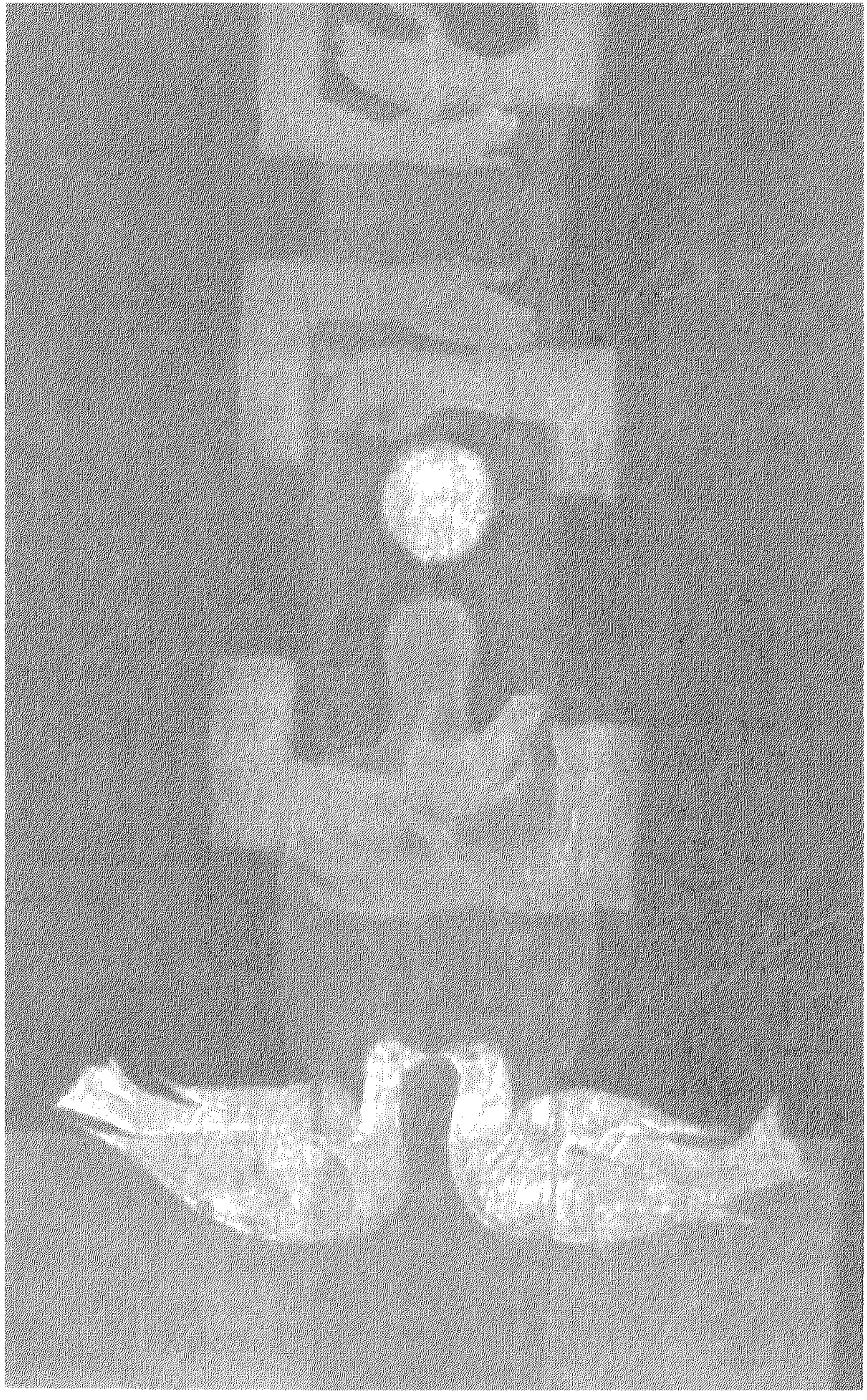
وتبقى الظاهرة غير المفهومة فى أن يتولى شخص واحد مسئولية القوميسير العام لبينالى القاهرة لمدة سنوات متصلة، فحتى لو كان ذلك الشخص عبقرى الأداء، موضوعى الفكر، فإن مسئولية البينالى كاحتفالية دولية يجب أن تكون جماعية التفكير والتنظيم حفاظا على عدم الشطط والانزلاق نحو القرارات الفردية والذاتية، وهو ما يكشفه كم الأخطاء والسلبيات التى حدثت، والتى كان يمكن تداركها لو كانت هناك آراء تتشاور حول القرار الصائب، وليس هذا المعرض العالمى بأقل منزلة وأهمية من المعرض القومى - وهو معرض محلى - الذى تشكل له لجنة من اثنى عشر عضوا من ذوى الخبرات والكفاءات المختلفة، تكون مسئولة عن وضع سياسة المعرض واختيار ما يعرض فيه من أعمال، مع أنه لا تخصص له مثل البينالى جوائز مالية ضخمة.

توجه مختلف للبينالي

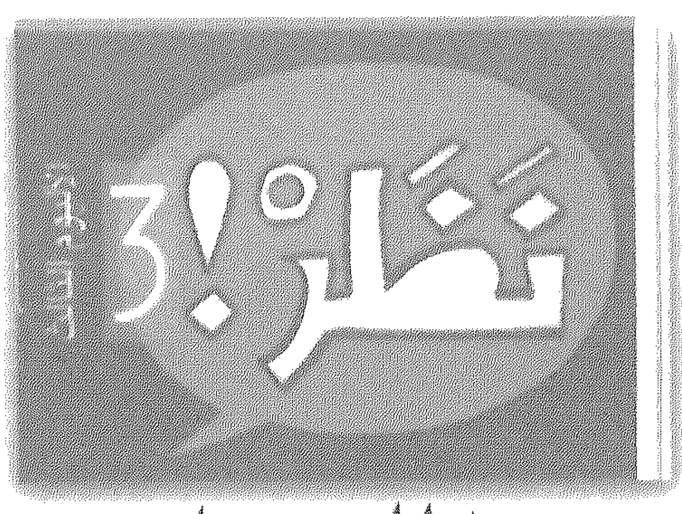
ويشير الفنان فاروق حسنى فى مقدمته للبينالى «إن الفنان يتحمل عبء التعبير عن الواقع، وهو الأمر الذى جعل العملية الإبداعية فى حالة تفاعل دائم مع معطيات مرتبكة، حيث تنامى صعود إقليميات وظهور قوميات جديدة تفرض أشكالا لتعددية الرؤى الثقافية، والذى يعد البينالى أحد محافلها فى المنطقة، والتى تطرح سبل التحاور والتفاعل على أرضية الحوار الحضارى».

وأيضا سبق أن نبهنا فى المقال الذى نشرناه عقب انتهاء دورة البينالى السابقة إلى ضرورة التأكيد فى أنشطتنا الثقافية على مخاطر الاندفاع نحو مجاراة أساليب التعبير الأوروبية، والسعى نحو تخليق أساليب مستقلة عنها ، لها مقوماتها الذاتية، كما اقترحنا أن يكون محور البينالى فى دورته التاسعة - الحالية - هو الذاتية الثقافية وكيف يمكن للفنون التشكيلية المعاصرة أن تكون وعاء لها، فربما كان ذلك التكريس لموضوع الساعة بمثابة الحث على إحياء العوامل الإيجابية الخلاقة عند الفنانين فى بلدنا وبلاد مثيلة له فى وضعه الثقافى، من أجل تجسيد أساليب تشكيلية متميزة تساهم فى إثراء الفنون العالمية، ولكى يكتسب بينالى القاهرة قيمة ثقافية حقيقية حين يكون مجالا لحوار جاد بين ثقافات متمايزة ومختلفة، مما يمنح مصر دورا رائدا وقياديا فى المنطقة وعلى مستوى العالم.

ونأمل أن يجد قطاع الفنون التشكيلية - وعلى رأسه الفنان أحمد نوار بما عرف عنه من كفاءة -الوسيلة المناسبة لضخ دماء جديدة للبينالى وتصحيح سلبياته ونقترح فى هذا الصدد الدعوة منذ الآن إلى عقد حوار بناء تدعى إليه الكفاءات المصرية الحريصة على قدر مصر ومكانتها الفنية والثقافية لتحديد هوية البينالى ومراجعة شروطه وقواعده، وتنقيتها من كل ما هو غريب وشاذ عن المعايير العالمية والمنطق السليم، وذلك تدعيما لدور البينالى ولكى تتحقق له المكانة الدولية الرفيعة التى يريدها له كل المخلصين ■



تركيب خيالى.. للفنان المصرى محمد أبو العزم



اللبـــاد

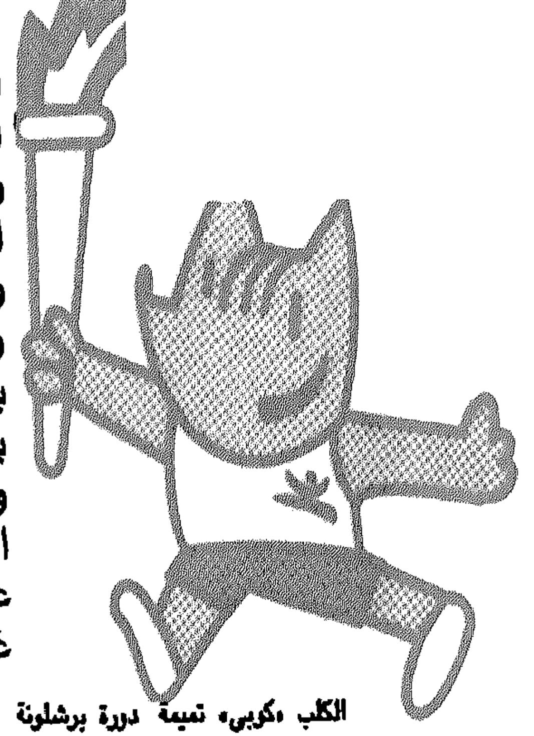
وعين العشق والثقافة

بقلم

صــلاح بيصــار

بلغة صافية رائقة.. مسكونة بخربشاتِ الحس الشعبى المشاكس.. صدر كتاب «نظر! - الألبوم الثالث» للفنان محيى الدين اللباد عن دار العربى للنشر والتوزيع.

وهو كتاب يعكس لفنون الصحافة وفن الكتاب وثقافة الأطفال.. خاصة الفنون الجرافيكية من الكاريكاتير والرسوم التعبيرية والأشرطة المصورة «الاستريبس» وحتى الرموز والشعارات والفواصل والوقفات والإشارات.. مع ملاحظات بصرية من هنا وهناك .. وهو يضىء على كل ما له صلة بهذه الفنون فى مختلف بلدان العالم.. لذا يمتد إلى التاريخ والأدب والسياسة وسيكولوجية الإبداع.. كتبه اللباد بعين العشق والثقافة.. بشعار بشارة الخورى: «إن عشقنا فعذرنا.. إن فى وجهنا نظر!» والذى غناه عبدالوهاب وعلى الحجار!.



الكلب «كوبى» تميمة دورة برشلونة

«ونظر!» من القطع الكبير.. أبيض وأسود من الداخل بالاضافة إلى اللون الأحمر على الغلاف.. رشيق فى إخراجه.. يشع بالحيوية رغم تقشف الورق.. جاء بمثابة استراحة للعين.. تنتشلنا من بحار الألوان التى تغرق فيها الصحف والمجلات حاليا.. أشبه بصوت الناى.. معزوفة بصرية.. تطرب ببساطة شديدة وبلا ضجيج.

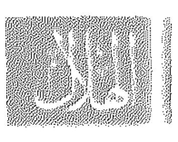
فوق الجميع

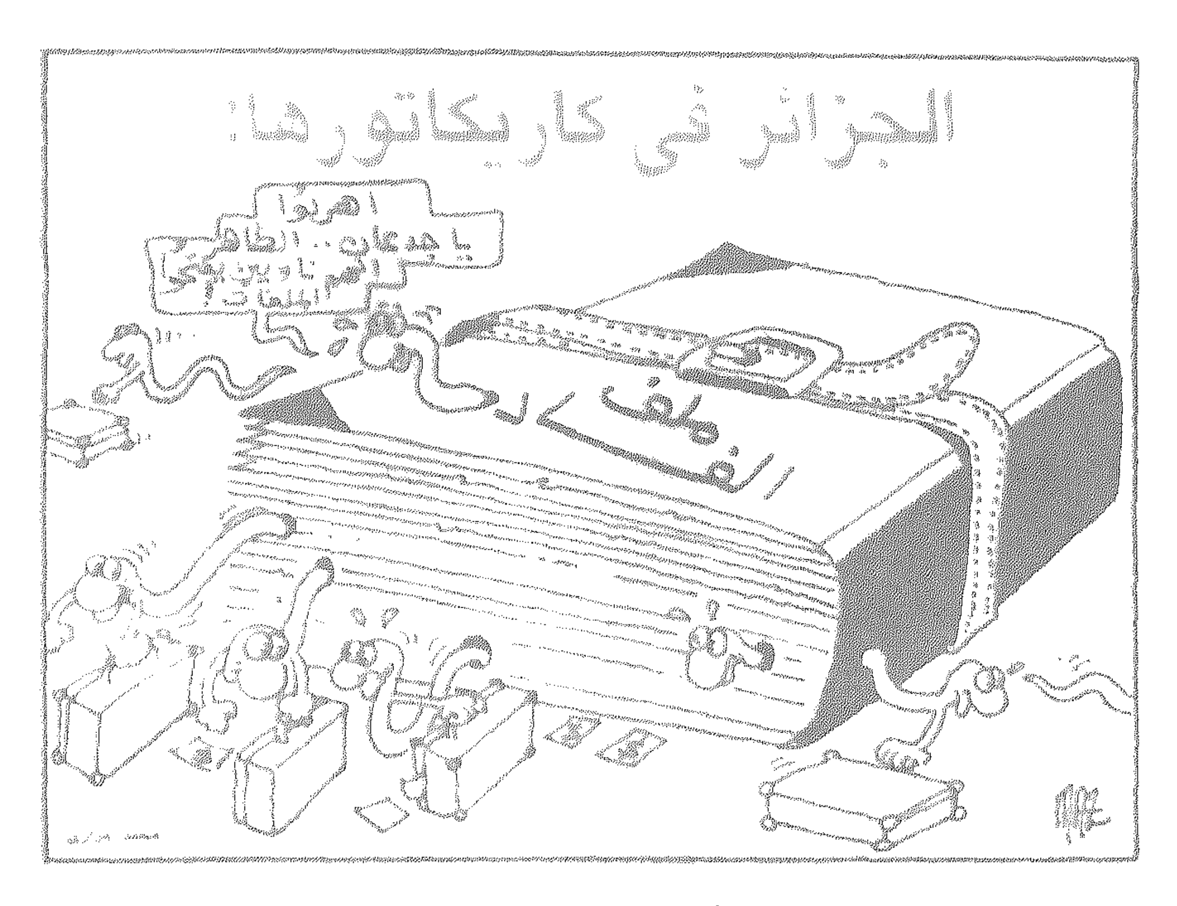
- بعنوان «هايل بوش» يشير اللباد إلى آلة الإعلام الأمريكية الجهنمية بقوله: عند بدء حرب الخليج.. تفرجنا - فى محطة تليفزيون CNN - على الرئيس بوش يلقى خطاب الحرب فى الكونجرس الأمريكى ورأيناه يلوح بقبضته وذراعه بجسم متشنج ووجه متقلص هاتفا: «يجب أن نجعل القرن الواحد والعشرين قرنا أمريكيا!».

ويضيف: فى تلك اللحظات الأمريكية الحاسمة تتشكل آلة إعلامية هائلة تعزف عبر آلاف وسائل الإعلام التى تتنوع من محطات التليفزيون العملاقة إلى فانلات الـ «تى - شيرت» المطبوعة نغمة واحدة وشعارات مكررة تصبح أمريكا فوق الجميع ليندفع مئات الملايين من الأمريكان صارخين فى نفس واحد: «هايل بوش!».

واللباد يؤكد على خطورة تلك الآلة ومدى نجاحها فيما هو أبعد من توحيد الشعارات على ألسنة الناس.. حين ينشر خمسة رسوم كاريكاتورية أمريكية نشرت جميعها فى يوم واحد هو ٢٦ أغسطس ١٩٨١ تعليقا على واقعة اقتحام المقاتلات الأمريكية المجال الجوى الليبى وإسقاطها لطائرتين عسكريتين كإنذار موجه إلى ليبيا بصفتها راعية للإرهاب.. العجيب أن الرسامين الخمسة رسموا فى نفس واحد نفس الفكرة بالضبط بدون أن ينقلها أحدهم عن الآخر!

- وهو يشخص حال الكاريكاتير العربى من خلال تحليله لازدهار الكاريكاتير الجزائرى: فقد تميز الأخير مع شقيقه من الأشرطة المرسومة - بين نظرائهما فى البلاد العربية - «بخصوصية وحداثة وألمعية وبمهارات حرفية ومعرفة متينة لأصول المهنة وبنجاح فى تحقيق تراكم معقول فى هذا الفن رغم أنه لم يستغل بعد.. ومع هذا يظل الأمل فى أن ينفتح عليه الكاريكاتير العربى الراهن فيجدد نفسه وينشط عقله وخياله ويغسل عينيه بعد أن ظل أسيرا لمدرسة صباح الخير يعتمد على اللفظ والحوار أو مقلدا لبعض مدارس كاريكاتير دول البلقان وأوروبا الشرقية إذا كان كاريكاتيرا





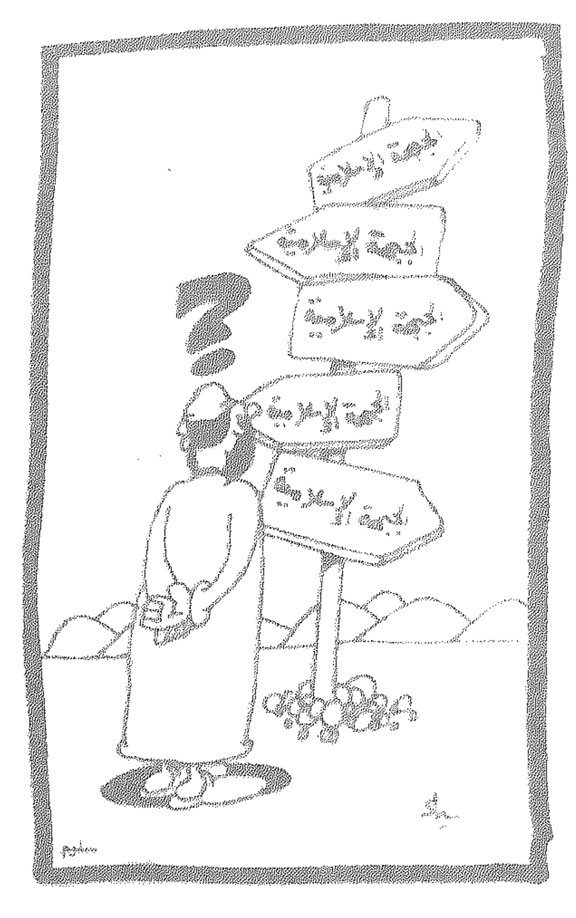
للرسام محمد مزارى

صامتا بلا تعليق».

واللباد يشير إلى تجربة مجلة «المنشار» والتى صدرت هناك بالفرنسية معبأة بالنقد والهجاء اللاذع والسخرية الحريفة وبدت كوجبة شهية مبهجة من السخرية السياسية الفوضوية الجميلة.. تمطع فيها «على حد تبعيره» أصحابنا «إيدو» و«ملواح» و«مازارى» من جيل الوسط ورسموا كاريكاتيرات كثيرة وساندتهم بقوة أعمال رسامى الجيل الأول المخضرمين «سليم» و«هارون» و«حنكور» وظهرت إلى جانب هؤلاء كاريكاتيرات طازجة جميلة لرسامين من جيل جديد لم نتفرج على أعماله من قبل «لقمان» و«ميميد» وبندين» و«يليم» و«معمرى» و«حليم» وغيرهم.

ولاشك فى أن اللباد يعد واحدا من بين قلة قليلة من رسامى الصحافة.. ممن يضيئون على فنون الصحافة منهم بهجت عثمان رحمه الله وبهجورى.. وهو متابع لكل ما يحدث لهذا الفن فى شتى بقاع العالم من بداياته الأولى وحتى الآن.

– وفى كتابه ينقلنا إلى عالم الرسام الأمريكى الرومانى الأصل «ستينبرج» بلغته الساخرة: يحتفل العالم الغربى هذه السنة بمرور ٥٠٠ عام على اكتشاف «كريستوفر



لرسام الكاريكاتير الجزائرى سليم

كولبس» لأمريكا عام ١٤٩٢ - بينما يقيم عـالم الهنود الحـمـر فى نفس الوقت.. المآتم والاحتجاجات بمناسبة الذكرى نفسها - وفى ذات التاريخ تحل ذكرى مرور ٥٠ سنة بالضبط على بدء اكتشاف «سول سيتنبرج» لأمريكا إذ وصلها مهاجرا من رومانيا عام ١٩٤٢ قرب نهاية الحرب العالمية الثانية. وبما أننا دائما «ما نتمحك» فى أول مبرر معقول لتقديم هذا الرسام العبقرى بدرجة «بيكاسو الكاريكاتير» ها هى المناسبة التاريخية تقدم لنا الفرصة على طبق من ذهب ومعقولية!

ومع رسوم ستينبرج.. يصفه اللباد بأنه : «إكتشف أمريكا بالرسم فى رؤية شاملة لها بصماتها الفارقة وروحها الخاصة المتنوعة: لقد رسم العنف المطبوع على سيمائها.. رسم التخلف وراء قشرة لامعة من التمدين والقدرة على الاستهلاك.. رسم الذعر وعدم الأمان ورسم التركيبة الفيسفسائية لمجتمع يظل المواطن فيه فردا غريبا».

جحا بالفرنسية

- وفى «الخواجات يكتشفون لنا مجلة كاريكاتورية ثورية مصرية قديمة» يشير إلى ذلك بقوله: شاطرين جدا هؤلاء الخواجات ولا يزهقون من النكش فى تاريخنا البعيد والقريب وفى حاضرنا أيضا وبالتفصيل .. كثير منا يعرف الرسام الأسبانى المتحضر «خوان سبانتيز» الذى افتتح لنا سكة الكاريكاتير على مستوى الاحتراف وقد يعرف بعضنا أعماله فى مجلة «الكشكول» التى صدرت لتهدم حزب الأغلبية الوفد وتهلهل سمعة زعيمه سعد زغلول.. لكن القليل منا يعرف أن سانتيز قد أسس بعد رحيل سعد مجلة كاريكاتورية أسبوعية.. تنطق بلسان حزب الوفد وتعارض وتهاجم إسماعيل صدقى رئيس الوزراء الديكتاتور العميل.. كان اسم هذه المجلة جحا وكان يكتب هكذا: Goho لأنها كانت تصدر بالفرنسية لتشرح لجمهور الأجانب داخل مصر وخارجها

بالكاريكاتير ما يجرى من أحداث سياسية فى بلادنا وتنقل لهؤلاء وجهة النظر المصرية الوطنية.. اكتشفت لنا تلك المجلة الباحثة الفرنسية «إيرين فينوليو» فى بحث مصرى نشر فى مركز الأبحاث الفرنسى بالقاهرة.

– وفى «ثوريون لكن ظرفاء» يتتبع اللباد بالرسم والكلمات تفرعات شجرة عائلة دوريات الكاريكاتير الفرنسى بدءا من مجلة «الشاريفارى» أو الدوشة والصادرة عام ١٨٣٢ والتى كثيرا ما فرجتنا كتب تاريخ الفن على رسوم «دوميية» و«جرانفيل» و«جافارنى» التى نشرت على صفحاتها وقد تحيزت رسوم هؤلاء الرسامين الكبار للشعب وللحرية والمساواة وهاجمت النظام الامبراطورى وصدر بعدها مجلة «الضحك» بصفحات شغلتها بكاملها الرسوم السياسية الملونة والتى كان من بين رساميها «هنرى تولوز لو تريك».. كما جاء بعدها «صحن الزبدة» تجديدا فى الرسم السياسى الساخر فى فرنسا وأوروبا فى فجر القرن العشرين «صدرت عام ١٩٠١» ولايزال أثرها ممتدا حتى الآن فى حفيدتها شارلى الأسبوعية التى تزامن صدورها مع اندلاع ثورة الشباب والطلبة فى أوروبا «١٩٦٨».

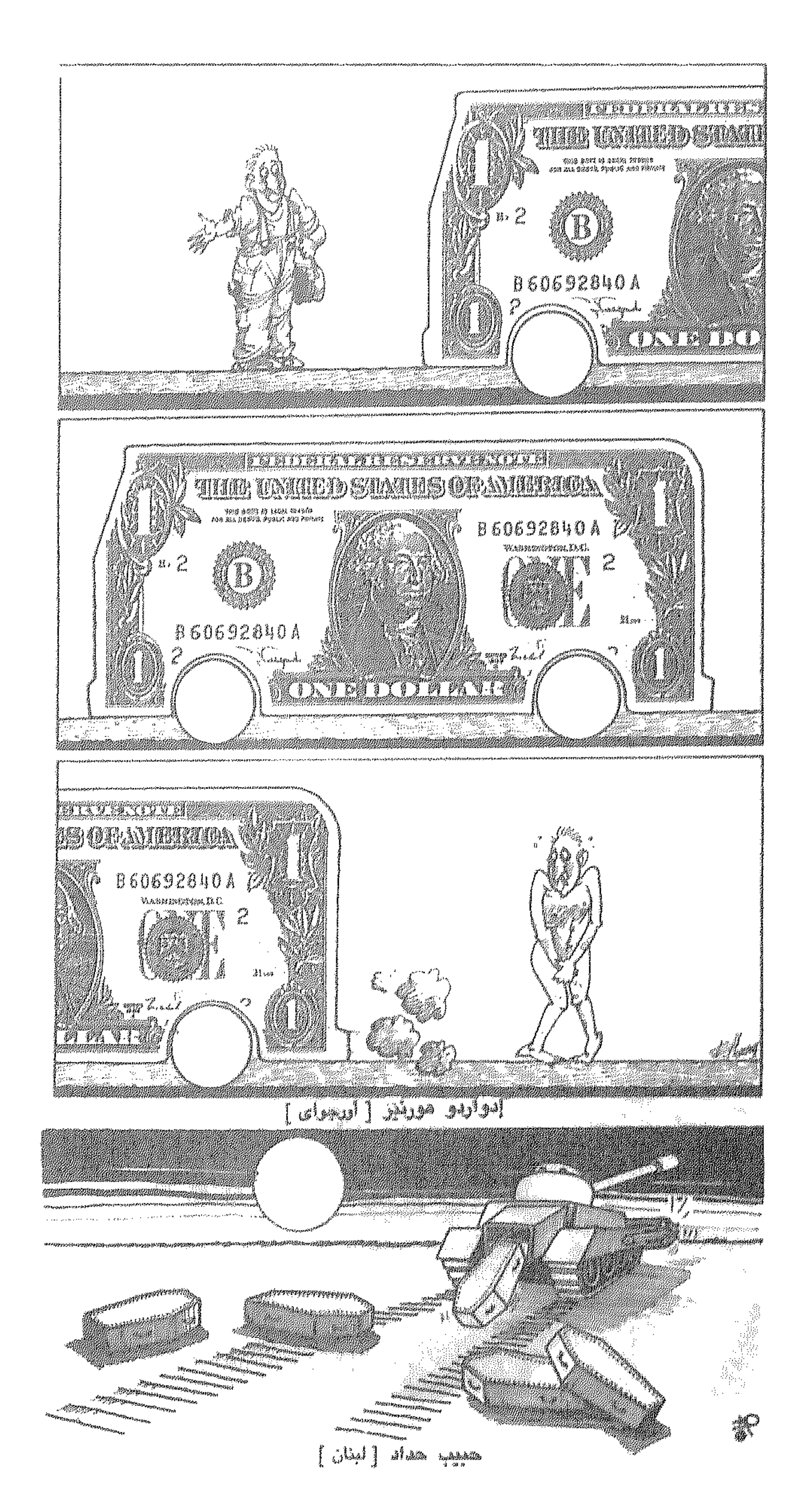
حديث الأربعاء

– ويصل اللباد إلى ذروة تألقه حين يأتى الحديث حول أستاذه وشيخه «على حد تعبيره» حسين بيكار وأول صدور لمجلة سندباد فى عددها الأول صباح الأربعاء، ٢ يناير ١٩٥٢.

«أشرق علينا مع «سندباد» ومع الكتب التى سنطالع فيها رسوم بيكار بعد ذلك عالم نظيف نقى مثالى وأنيق.. عالم مطهر من الفظاظة والقبح والبذاءة والفجاجة.. والتلوث بأنواعه.. فى سن العاشرة اخترت بيكار شيخا لى وتبعت شيخى وركبت أعالى البحار لأبحث عن الكتب التى رسمها فأخذت قطار كوبرى الليمون إلى محطة مصر ومشيت منها إلى شارع الفجالة حيث مكتبة دار المعارف وهناك وقعت على كنز بيكار الذى ظللت لفترة طويلة اغترف منه بالضبط كما فعل على بابا مع مغارة اللصوص فى الكتاب الجميل الاستثنائى الذى رسمه لصياغة كامل كيلانى.. مع مغارة اللصوص لتلك القصة عام ١٩٤٦».

– وهو يدهشنا وينعشنا بروح البحر المتوسط الفنية من خلال شعار دورة برشلونة وتميمتها.. «لايزال الشعار الرسمى البصرى لدورة برشلونة يعد اختراقا غير مسبوق لكل





إدواردو موريتز [أوروجواي]

حبيب حداد [لبنان]

من معرض الشمال في عيون الجنوب

خط سير رحلة الطيران التي انقطعت في الصحراء المصرية

الرسم المفتش رقم ٢ (فيل في بطن حية عملاقة)

50 Cinquante Francs

Banque de France

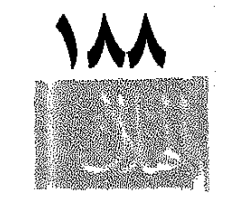
دو سانت إكزوبري

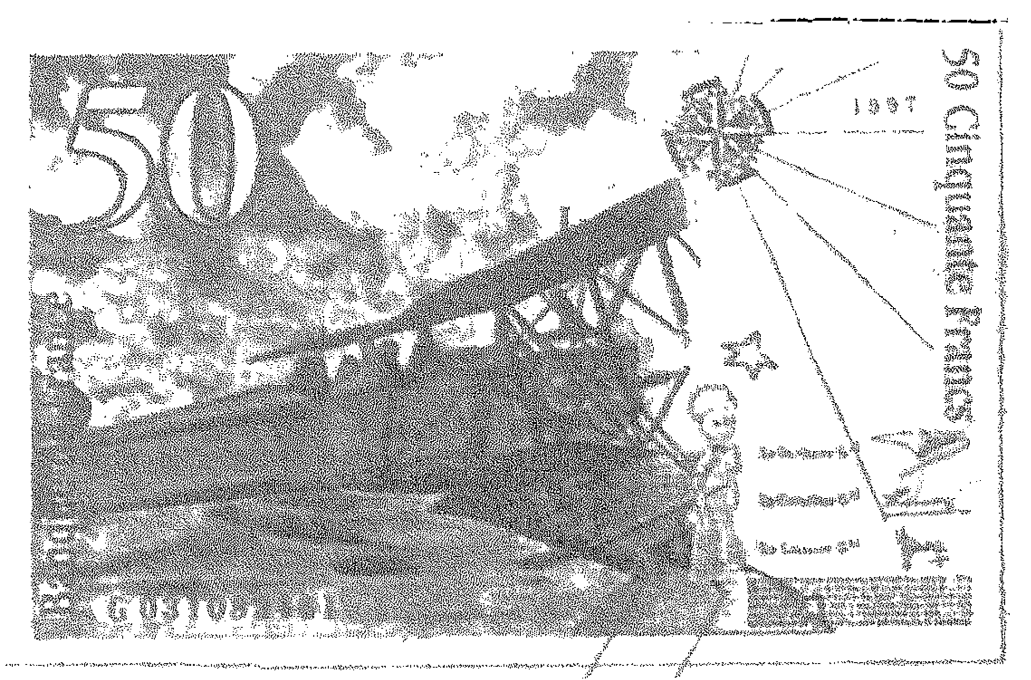
الأمير الصغير في قميص أخضر وسروال أبيض

موضع رسم الخروف ( ) مطبوعاً بالأبيض فوق الأبيض !

شكراً لإيزابيل بليه على العاكس الذي دلّني فيه على مكان الخروف في البنكنوت .. Merci Isabelle Plet !

أفكار العيال على أوراق المال !





الكاتب اكزوبري صاحب كتاب (الأمير الصغير) على ورقة عملة فرنسية من فئة الخمسين فرنكا

تصميمات شعارات الدورات الأوليمبية السابقة: ثلاث ضربات فرشاه حرة عابثة خلقت الشعار بلا حاجة لأدوات تنفيذ هندسية أما الرموز البصرية لألعاب الدورة فكانت مدهشة ليسر تناولها وبدت كأنها مرسومة بضربات فرشاة خطاط يابانى أو قصبة خطاط عربى أو فارسى وبلا استخدام لأدوات التنفيذ التقنية هى الأخرى.

واختارت برشلونة تميمة لدورتها تمثل كلب اسمه كوبى! تصوروا دولة محترمة تجعل شعار أول أولمبياد تقام فيها كلب؟ .. وقد بدى برسمه البسيط وكأن رسامه تلميذ طفل.. وأضفى كوبى المبتسم مرحا وعمقا طفوليا على الوجه البصرى للدورة وتحرك رسمه - بكفاءة - على المطبوعات واللافتات الاليكترونية العملاقة فى الملاعب وعلى شاشات التليفزيون ولبى كل المهمات التى ألقيت على عاتقه!!

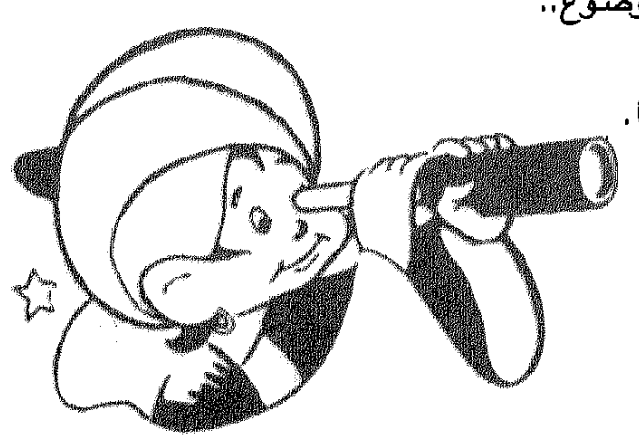
هذا قليل من كثير فى كتاب اللباد الممتع.. والذى نقلنا خلاله إلى عوالم بصرية كلها «نظر» .. أشبه بصندوق الدنيا .. الدنيا الكبيرة التى جاءت إلينا بالرسوم والكاريكاتير والملامح الإنسانية وامتدت أيضا من الكاريكاتير السوفيتى والكومنولث إلى الشمال فى أعين الجنوب الفنية مع كتابات حول إيهاب شاكر وبهجورى وحجازى وذو العينين «عبدالغنى أبو العيون» وعبدالفتاح الجمل وصلاح عيسى وسانت أكزوبرى صاحب «الأمير الصغير» والذى ظهر على ورقة عملة فرنسية جديدة من فئة الخمسين فرنكا مع تأملات فى بينالى براتسلافا لرسوم كتب الأطفال ومعرض بولونيا الدولى لكتب الأطفال وغيرها.

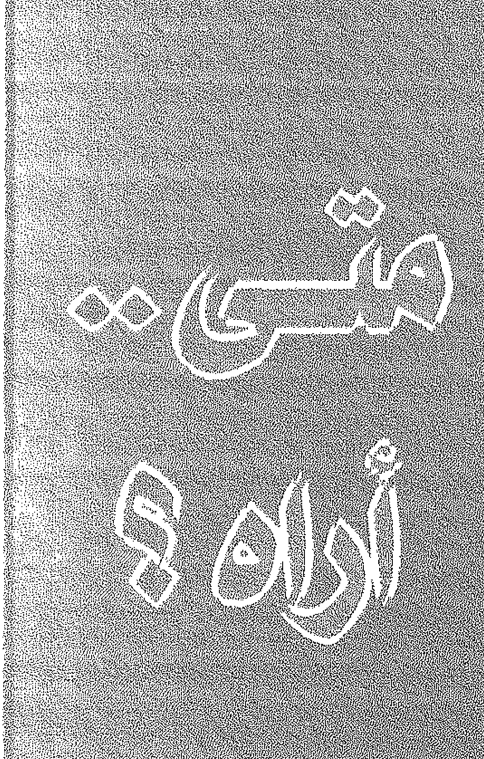
- ولكن .. إذا كانت هذه الموضوعات قد نشرت من قبل فى أكثر من مطبوعة تحت العنوان ذاته نظر، نشرت فى مجلات «صباح الخير» و«روز اليوسف» و«وجهات نظر و«الهلال» و«أخبار الأدب».. فقد كان من المهم كتابة تاريخ النشر.. حتى لا يلتبس الزمن على القارىء.. وعلى سبيل المثال حين يتحدث اللباد فى «أرنبة تبيض ذهبا» عن زيارته لكاتب الأطفال الهولندى الأشهر ديك برونا يقول: استقبلنا الكاتب الرسام «٦٥ سنة» .. هنا لا يعرف القارىء متى حدث ذلك.. «والمعروف أن ديك برونا من مواليد ١٩٢٧»..! وهذا يعنى أن اللقاء حدث منذ أكثر من عشر سنوات.. وفى موضوع «أنا أحب بهجورى» يشير إلى أن بهجورى ذهب إلى باريس منذ أعوام طويلة «لعلها زادت على خمسة عشر» رغم أن ذهاب بهجورى لباريس حدث منذ أكثر من ثلاثين عاما..! وفى مواضع كثيرة يتوه زمن الموضوع..

ومن هنا لزم التأكيد على أهمية تاريخ النشر.

تحية إلى محيى اللباد رساما ومصمما وكاتبا.

وكله «نظر!» —





أسائله - حبيبي - هل أراه ؟
يجئ جوابه : إن أذن الإله ؟
وفي شوق أسائل : هل قريب
لقائي .. أم بعيد في رؤاه ؟
فلا ألقي جواباً غير قول
يمني القلب أو يرضي هواه
بآمال عذاب في لقاء
يروي الشوق يطفي من لظاه
ويهدي النفس ماترجو رغاباً
هي الأمل المرجي من سناه
هي الحسن الجميل وقد تبدي
هي الحب الأصيل لمنتهاه
هي النور المصفي في رواء
ويأتي الخير فيضاً من صفاه
فهل يرضي حبيبي - بعد - عني
ليسعدني، فسعدي في رضاه
أم أن جوابه يبقي دواما
بأن القرب إن أذن الإله !
ولكني أظل - الدهر - أرنو
جمالاً أرتجيه .. ولا أراه
وما يكفي حديث في بعاد
يثير الحس، يذكي من جواه
ولن أحيي حياتي في ثناء
فلا أجد السبيل إلي لقاه ؟
ولا ألقي سوي الحرمان بعداً
ولست ببالغ أبداً حماه
نعم هو ذاك ما ألقي دواماً
يباعد - لايقارب - من حطاه
وإن ظل الحديث علي اتصال
فأسعد بالحديث .. ولا أراه



فهل ثم ارتواء دون لقيا

وهل يغني حديث عن رؤاه؟

هي الرؤيا الحبيبة لا أغالي

وقد حرمت عيوني من سناه

ومن أسف تقطعت الخيوط

فليس سوي مزيد من جفاه

وإن رق الحديث عن الفراق

بما يطوي حديثا عن هواه

وعن شوق يغالبه طويلا

فلا يبدي التلهف أن يراه

وأن يطفي لهيبا من فراق

ويهدي الروض فيضا من صفاه

سنحيي في عذاب ما حيينا

ويشقينا الفراق بمنتهاه

فياليلي الطويل.. أليس صبح

يوافي ثم يسفر عن رؤاه ؟

وأبصر حسنه وجهاً لوجه

أصافحه، وأنعم في رضاه

بإقبال .. وقرب .. ثم همس

يشيع النور فيضا من ضياه

ويغمرني بإشراق لنفسي

وإسعاد لقلبي في هواه

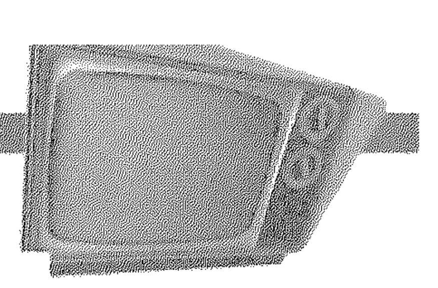
أحقاً ما أقول وما أمني

به النفس اللهوفة أن تراه؟

أسائله – حبيبي – هل أراه

يجئ جوابه : إن أذن الإله

إن أذن الإله ..





بقلم
مرفت رجب

الجائزة

كان لابد أن نقترب أكثر... إذ لم يكن ممكنا أن نكتفى بما لاح لنا على البعد.. فقد بدت هيئة الكتلتين الحجريتين محيرة وهى على البعد تكاد تطابق هيئة الكتلتين الحجريتين الممشوقتين فى شموخ على مدخل معبد إدفو فى صعيد البلاد.. ولقد آثرت أن يكون اقترابى سيرا على الأقدام لآخذ ما أشاء من الوقت فى تأمل ما هالنى فى المشهد .



تركت السيارة وبدأت التقدم من زاوية سمحت لى برؤية الكتلة الحجرية الأكبر وقد قامت كعملاق يفرد عباءته على مسافة غير بعيدة من الكتلتين، أو فلنقل إنها مصد طبيعى من الحجر المنبثق من قلب الصحراء فى كتلة واحدة، جاء انحناؤها من طرفيها باتجاه الكتلتين الحجريتين أمامها مشكلا هيئة القوس، يصد اندفاع الريح إن اشتدت هبتها ، ويبرز استقامة الكتلتين

وشموخهما أمامها فارضة على المكان من الأبهة والجلال ما يغريك بالاقتراب أكثر لعلك تلم بأسرار هذه التكوينات البديعة وقد حولت مشهد الصحراء الممتدة حولنا بغير حدود، إلى متحف طبيعى تتردد فى جنباته آيات التسبيح ...

غيرت اتجاهى فى السير مبتغية تعديل زاوية الاقتراب لأصل إلى نقطة شبه مركزية على أمل أن يمكننى وقوفى عندها من الإلمام بأطراف تلك التكوينات الحجرية المبهمة.. وبمجرد شروعى فى ذلك ، بدأت أتبين وجود كتلة حجرية أخرى تصورتها نتوءاً منبثقا من إحدى الكتلتين الرئيسيتين ، يوحى بهيكل تمثال أبى الهول، لكننى بمزيد من الاقتراب تبينت أنه ليس هيكلا واحدا وإنما هما هيكلان يرتفع الواحد منهما خلف الآخر وكأنهما توأمان لأبى الهول يقومان بدورهما بحراسة التكوينين الحجريين المنبسطين خلفهما على هيئة مدخل معبد إدفو.. يا سبحان الله العظيم ماذا أودعت يارب فى هذا التشكيل من أسرار؟!

ولماذا أتصور أن هاتين الكتلتين الشامختين وإن كانتا من الحجر الجيرى إلا أنهما محميتان من خلف بفعل ذلك التشكيل الحجرى القوس، ومن أمام بوجود تكوينى تمثال أبى الهول يخففان بدورهما من عنف ارتطام الريح إن عصفت بالمكان من هذا الاتجاه.. ولما كنت قد أطلت الوقوف وقد تسمرت قدماى، بدأت أرفع رأسى لعلى أحيط بتناغم تعرجات سطح ما ارتفع أمامى فى شكل معبدٍ صرحٍ مهيب، وحين امتد بصرى للخط العلوى للصرح هالنى ما رأيت فى لون السماء من زرقةٍ صافيةٍ داكنة لم أشهد لها مثيلا فى حياتى .. وناديت على صحبتى ألفتهم إلى تلك الدكنة الزرقاء الصافية، تشد البصر ليتأمل ويرى كيف تحافظ الزرقة على دكنتها فوق الصرح وكيف تتخلى عنها بالتدريج عند طرفيه على يمين ويسار، حتى تذوب تماما إذا ابتعد البصر قليلا عن حدوده .

عجبات

قال لنا سائق السيارة إن أهله سكان الواحات يسمون هذه المنطقة «عجبات» والإشارة واضحة إلى ما فى هذا الجزء من صحراء مصر الغربية من عجب وأعاجيب أو «عجبات» تتنوع أشكالها وألوانها على الطريق اللازم قطعه من الواحات البحرية إن كنت تريد الوصول إلى واحة الفرافرة، ولقد تابعنا الرحلة التى أخذتنا إلى «صحراء الكريستال» إشارة إلى ما يظهر فى رمالها وحجرها من نقاط هى إلى لمعة الماس أقرب فى

التشبيه كما أخذتنا إلى صحراء تلك الغاية من التشكيلات الحجرية المتجاورة المتزاحمة حيث يتنوع اقتراب كل منها من هيئة نبات عش الغراب (المشروم) وكذلك عرجنا على ما يعرف بالصحراء البيضاء، لكننا قررنا الاكتفاء بهذا القدر لنأخذ طريق العودة وعليَّ هنا أن أعترف أنني كنت صاحبة الدعوة للعودة فقد كنت أبتغي إلقاء نظرة أخرى على ذلك النوع من زرقة السماء قبل أن تضيع الفرصة إن غابت الشمس قبل أن نصل إلى المكان ولكننا حين اقتربنا ، بدا المشهد مختلفا تماما، فقد ذهبت دكنة زرقة السماء فوق الهيكل الحجرى الصرح، وصار كل ما يحيط به من سماء في لون السماء التقليدى وإن لم يخل من صفاء. شملت روحى أحاسيس فقد موجع لم يخفف منه سوى رجائى لصحبتى أن نعود ، فى يوم قريب - إن شاء الله - إلى نفس المكان ، وعلينا أن نكون فى «عجبات» فى مثل ساعة النهار التى زرناها فيها اليوم ، وأن نقترب منها نفس الاقتراب ، بنفس زاوية الاقتراب لنحظى بنظرة أخرى ، وتأمل جديد لنفس المكان وما يحيطه من ألوان ، فالآن ، والآن فقط تأكدنا من اختلاف الأمور تبعا لاختلاف زاوية النظر إليها ، وصحيح أن هذه العبارة تكررت علينا آلاف المرات، لكن ما رأيته فى تلك الزيارة لتلك البقاع من صحرائنا الغربية يعطيها أبعادا وأعماقا متباينة تثير فى الذهن من الأسئلة أكثر مما تقدم من الإجابات .

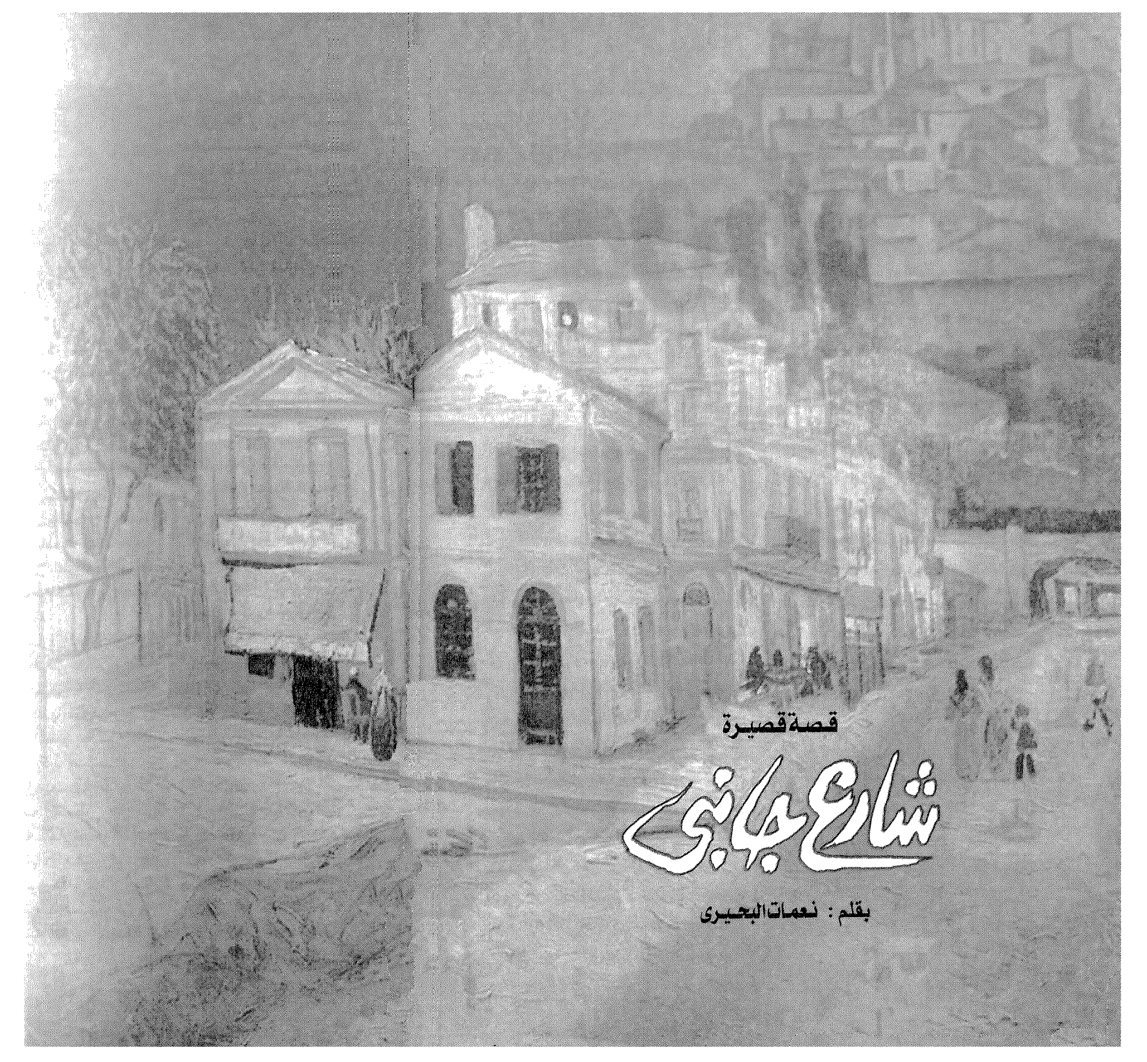
صاحب الجائزة

مضت أيام وأيام ، والصور ماثلة فى ذهنى، تفرض حضورها على كل ما يقع عليه بصرى فى القاهرة، وكل ما يمر من أحداث، وكل ما يصل سمعى وبصرى من قراءات وتحليلات تسلم نفسها لزاوية للرؤية واحدة، تتشبث بها، إما عن قصور أو استسهال أو عمد. وصارت الفكرة المهيمنة علىَّ تحدد نفسها بسؤال واحد وحيد، ماذا لو غيرنا زاوية الرؤية، وبدأت أتخيل أنواع الجوائز الفكرية والنفسية التى يمكن أن نفوز بها إن جربنا واجتهدنا حتى جاءنى مثال «هوارد زن» Howard Zinn، حافلا هو الآخر بالإيحاءات والأفكار. ولقد فاز الرجل بجائزة «أصدقاء لوموند الدبلوماسى» يوم الأول من ديسمبر ٢٠٠٣ وحين وقف لإلقاء خطابه فى هذه المناسبة بيَّن بالتفصيل تلك الدوافع التى حفزته لوضع كتابه «التاريخ الشعبى للولايات المتحدة» وبدأ كلامه بالإشارة إلى ١٩٧٠ عام

اتخاذه للقرار بوضع ذلك الكتاب بعد أن عمل أستاذا للتاريخ لعشرين سنة تلت مشاركته فى حركة الكفاح من أجل الحقوق المدنية فى الجنوب الأمريكى، وقضاء عشر سنوات فى الكفاح المناهض لحرب ڤيتنام. ويوضح لنا «هوارد زن» أن نشأته فى أسرة من الطبقة العاملة من المهاجرين ساكنى نيويورك فتحت عينيه على أمور شحذت ملكاته النقدية، وهو ما تعمق بعد ذلك أثناء عمله في موقع بحرى لثلاث سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية ثم بعمله على متن قاذفة قنابل كانت أثناء الحرب تقلع من انجلترا فى هجمات منتظمة على شاطئ فرنسا المطل على الأطلنطى .

ولقد وجدت ملكاته النقدية فرصتها الذهبية، حين أتيح «لهوارد زن» الحصول على منحة جامعية كانت مخصصة للمحاربين القدماء ، ومنهم أمثاله من الفقراء الذين يستحيل عليهم تحمل عبء الرسوم الباهظة للتعليم الجامعى، وهكذا حصل على الدكتوراه فى التاريخ من جامعة كولومبيا ، وعند هذه النقطة من كلامه وجدنا «هوارد زن» يتوقف برهة ليؤكد لنا أن خبراته فى الحياة هى التى كونت وعيه بأن ما يتعلمه فى الجامعة يتعمد إغفال كثير من العناصر المهمة فى تاريخ الولايات المتحدة. ويؤكد لنا «هوارد زن» Howard Zinn أنه لم يكن أبدا خاضعا لأى وهم بشأن ما يطلق عليه «الموضوعية» ذلك أنه كان دائما يدرك أن المؤرخ أو الصحفى أو أى مقدم على رواية للتاريخ يجد نفسه مجبرا على الاختيار بين عدد هائل من الأحداث، يذكر بعضها ويهمل البعض الآخر وهو ما يعكس مصالحه ، سواء أكان واعيا أم غير واع بتلك المصالح. ويحكى لنا فى هذا الصدد عما يثيره فى نفسه كلام المسئولين فى الولايات المتحدة عن ضرورة تعليم «الحقائق» للتلاميذ وكيف أن ذلك يذكره دوما بشخصية المتحذلق «جراد جرينج» Gradgrind فى رواية تشارلز ديكنز «أوقات عصيبة» Difficult Times حين كان يتحذلق على المعلم الشاب قائلا : «لا تُدرس سوى الحقائق، الحقائق» بينما نجد أن قيام أى كاتب أو مؤرخ أو صحفى بالكتابة عن أى «حقيقة» يتضمن حكما ، هو ذلك الحكم بأن هذه الحقيقة مهمة، أما الحقائق الأخرى فيتم إسقاطها لأنها فى حكم ذلك الكاتب ليست مهمة.

وفى ضوء ما سبق ، يطرح السؤال نفسه : لماذا تهمل شاشاتنا كل ماله صلة بصحراء البلاد ؟ وحول هذا السؤال تدور أسئلة أخرى ربما تدعونى لتناولها فى مقال آخر ، إن شاء الله ■



قصة قصيرة

شارع جانبى

بقلم: نعمات البحيرى

من جديد أزحت نثار الزجاج المكسور على جانب المطبخ وحاولت عمل شاى أخر، وصوت الضجيج وانتقاله من حالة إلى أخرى مثل جرس إنذار، وما أن ملأت البراد ثانية حتى أدركت أن الكبريت اختفى.. اختفى على الرغم من الحالة المستقرة التى أبدو عليها.

مع ارتباكات الشاى المسكوب والأكواب المكسورة، وتلك الحالة القلقة.. مزيج من الترقب والتربص من الجمع الغفير. هكذا أوحت لى الأصوات.

شعور حاد وكثيف بأننى تأخرت كثيرا، وأنهم منتظرون منذ ساعات وأيام، وربما سنوات، جاءتنى واحدة تناقشنى فى مسائل كثيرة أهمها هذه الحالة الغريبة والمدهشة والمستقرة على نحو ما من الشعور بالرضا والبهجة والتآلف منذ فترة، وتلقى حسدا وقلقا وتساؤلا من الجميع.

كنت أقول للجارة إذا ما حاصرتنى بأحيها أو قريب لها:

ألا ترغبين إلا أن أدخل وكر الزوجات اللائى

يفرغن الطاقات بكاء ونحيبا ونميمة، وحسدا على الوحيدات. كانت تحاصرني بنظرات غيرها من الجيران.. وكنت أضحك كثيرا وأنا أتذكر رواية قرأتها لكاتب لا أتذكر له اسما إلامعني عن مجلس قيادة الجنس الذيلي، الذي تشكل للإطاحة بالديكتاتورية اللاذيلية ولإقامة المجتمع الذيلي العظيم الذي حلم به الفلاسفة والشعراء الذيليون والذي استشهد في سبيله ما لا يحصى من خيرة الشباب الذيلي الطليعي..

لم أعبأ كثيرا بآراء الجارة ونظرات الجيران وخيرة الشباب الذيلي الطليعي. كنت مأخوذة بأصوات هؤلاء الذين في بيتي وينتظرون الشاي والذين قد يلقونني بالبخل الشديد وخاصة أنني لم أتمكن من تقديم طعام أو حلوى، ومازالت آراء الجارة تأتيني وأنا أنحني على الأرض باحثة عن علبة الكبريت.

كنت أتحرك في جميع الاتجاهات وهي تتحرك معي، وأذني المتعبة والتي كفت تماما عن العمل من نصيبها، العضو الوحيد الذي يتلقى آراءها في الحياة.

كلام كثير عن البيت والأطفال والحب والسعادة، صرت أسمعه كما أسمع شيئا من الطرائف القديمة، أو برنامج حدث في مثل هذا اليوم...

مازال نفس اليوم يتحرك في داخلي وكأنه الأمس حين كانت كلمة واحدة قلتها فنزعت سدادة صمته المطبق ليندفع الكلام مثل رذاذ متطاير. لم أحاول بعدها الحد من بهجته المفرطة، تلك التي أحسها كلما لاقيته، فينطلق بوصاياه العشر، آخرها ضرورة الخروج من القوقعة، فيمنحني من جعبته عناوين الأصدقاء القدامى الذين خلعتهم الذاكرة منذ زمن.

تصيبني عدوى البهجة فأتأبط ذراعه وهو يبتكر أرضا جديدة وخطوات، يأخذ بيدي ويجري في سباق ورهان، أن الفشل ليس قدرا، وأن الإنسان بحق قادر – لو أراد – على هتك ستر الغشاوة، فيهمس في أذنيّ أن هذه الخطوات تحديدا هي البداية، بعدها يزيح عن نفسي قشرة قوقعتي السميكة.

كان أبوه قبيحا وكانت أمه نحيلة فجاء إلى الدنيا يحمل مسئولية زواجهما الموفق، ولم أكن أطمح في رجل أكثر إثارة، وقد ولدتني أمي بقلب رحب وعينين واسعتين، لاترى من الدنيا إلا الجميل والصادق والحقيقي.

منذ رأيته أول مرة بين الرفاق وأنا أحسه من تلك النظرة العميقة المتوثبة إلى مكامن الغائر والغامض والمجهول، هذا غير عفوية الكلام والضحك والبكاء، بعدها تناولتنا العيون والألسنة من قوم صعاليك المقهى فراح يردد الذين كانوا

يراودوننى من آن لآخر عن نفسى:

«خطفها الواد «الديسنت».. خطفها الواد «الديسنت»».

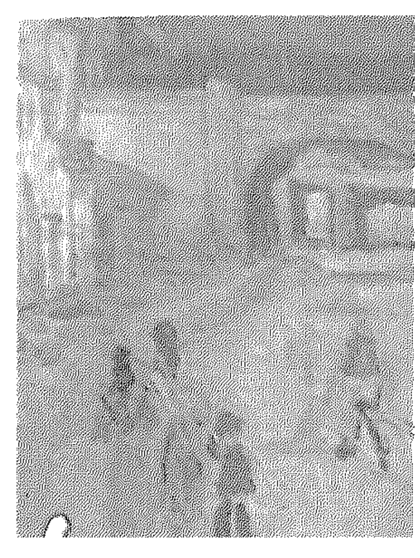
كان بالفعل رقيقا وخجولا وهادئا بلغات كثيرة، لكى يتناوله الصعاليك بنعوتهم الخشنة.

«الواد الديسنت.. الواد الديسنت».

.. سمعها أكثر من مرة، ومن أقرب أصدقائه، ولم يجد إلا أن يضحك ملء فمه وقلبه وعينيه ويهرع فى زهو إلى صديق مشترك، يحثه على مرافقته إلى بيتنا، ربما استطاع فك طلسم خريطة الخطوات معى إلى الأبد.

رآه أبى وهو يتوقف عند عتبة بيتنا مشدوها، سعل وهو ينظر إلى الأرض، بعدها تعثرت قدماه فى طرف سجادة غرفة الصالون، على الرغم من أنها لم تكن وثيرة على الإطلاق..

«غرفة الصالون» مكان لقاء الضيوف.. غرباء كانوا أم أقرباء.. لا أدرى من الذى أطلق عليها اسم «الصالون» ربما أحد الحلاقين المجتهدين فى هذا المجال..



بعد سنوات طويلة رأيته، فقلت له كلمتى التى تنتزع دائما سدادة صمته المطبق فينطلق بالكلام. كان هذا من فرط الغياب الذى كثف من داخله حضورا عميقا واضحا، فبدت الأيام التى تلت ذلك اليوم جديرة بأن تعاش.

حدثنى كما يحدث الجميع عن أخته التى طلقها زوجها وألقاها ببناتها الثلاث فى غياهب بيت فقير مظلم حتى راودها شبح الموت ذات صباح من بدايات الربيع ومواسم المرح فماتت.

حدثنى أيضا عن عمله الذى قايضه بحفنة رماد، وبيته الذى قايضه بغرفة صغيرة خلف مقهى قديم، يتقاسم ظلال جدرانها مع جرسونه النوبى الأخرس، ورغم هذا يشعر بالبهجة لا تبرح أرضه لأنه جاءنى وقد أحرق سفن العودة إلى ما كان، مطالبا إياى بألا نتحدث إلا عن أرض جديدة وقلب واسع وعينين طيبتين.

فى موعد آخر أزحت سجادة بيتنا جانبا، تلك التى أشيع أنه تعثر بطرفها ذات مساء، وقد تيقنت أن للحب أسبابه. بعدها رحت أستعيد حلمى القديم بأن نبتكر أرضا جديدة، لا ننزع فيها ذاكرتنا، ولا ننتظر الجن والملائكة أو معونات الرجل الأبيض، بل نجدل الخطوات بالخطوات.

لم يمر وقت طويل حتى استوقفنى صديق له وأنا أحرق الخطوات باحثة عنه، وكان الصديق يبدو حزينا باكيا، وكنت أتوجس من حزنه المفرط حتى سألته، فواتته الجرأة شيئا فشيئا ليخبرنى أن العزاء على نفس المقهى.. نفس المقهى القديم فى الشارع الجانبى. ■



اجرى يا لولا..
يوم السنجاب..
ورقة العشرين

موعد مع التجريب السينمائى

بقلم
الفاروق عبد العزيز

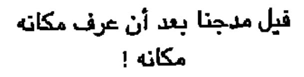
حمل التجريب على الدوام عبء تطوير الفنون فى علاقتها بالأشكال الموروثة من جهة، وبالجمهور المتلقى من جهة أخرى. والأصل فى التجريب هو أن فنانا يتناول شكلا تقليديا فى فن من الفنون ويغامر بإبداع رؤية جديدة لهذا الشكل، ويحقق الإبداع الجديد قبولا بدرجة ما لدى المتلقى، حين يختار الفنان أن يقدم «تجربة» فنية مثيرة للاهتمام بغرض فتح نوافذ جديدة لهواء «فنى» نقى لتجديد مخزون «رئة» المشاهد والمتذوق الواعى.

وتاريخ السينما خلال الأعوام المائة الماضية هو فى حقيقة الأمر تاريخ من التجريب، وكل ما اعتبره الدارسون فتوحات سينمائية هو واقعيا رؤى جديدة لفنانين مبدعين صاغوا أفكارهم فى أشكال سينمائية كانوا يجربونها للمرة الأولى. غير أن فريقا من الفنانين بعضهم موهوب وغالبيتهم بلا موهبة اقتحموا عالم التجريب لمجرد التجريب، وربما ماكان ينبغى عرض محاولاتهم تلك على جمهور واسع، الأمر الذى أدى إلى تخريب المفهوم الإيجابى

لمعنى التجريب الفنى، ولنتذكر أولا أن الفنان ضحل الموهبة هو الذى يفشل دائما فى تغليف رسالته بسجر الفن سواء كان عمله تجريبيا أم تقليديا.. ومثل هؤلاء الأدعياء يتشدقون دوما بأن لهم رسالة لم يفهمها المشاهد وأن أعمالهم «غامضة» لأسباب فى بطن الشاعر!.



لولا تجرى مع الأحداث مرة تلو مرة



فيل مدجنا بعد أن عرف مكانه مكانه !

اجرى يالولا

عندما شاهدت فيلم «اجرى يالولا اجرى» للمخرج الألمانى الشاب «توم تيكفير» للمرة الأولى، وجدته يستلهم عبارتين فى مطلع فيلمه كمصدر لفكرة الفيلم، الأولى مفادها أن دورة الاكتشاف البشرية لن تتوقف أبدا، بحيث أنه لو تصورنا أننا قد أحطنا بمعرفة شىء ما،. فإننا نجد أنفسنا أمام بداية دورة الاكتشاف مرة أخرى لندور من جديد.. ولنطرح نفس الأسئلة وهكذا!!

غير أن ما أثارنى هو اسم صاحب العبارة الثانية فى صدر الفيلم والتى تقول فى نفس المجرى أيضا، إن «مابعد المباراة هو ماقبلها»! .. المباراة ؟! الفيلم ليست له أية علاقة بأية مباراة!! ثم من يكون السيد هيربرجر هذا الذى قالها!!

فالعبارة الأولى حول المباراة تكملها عبارة أخرى لنفس الرجل تقول: «الكرة مدورة .. وزمن المباراة هو تسعون دقيقة. هذا هو كل ماهنالك وماعداه مجرد نظريات!!» .. حسنا من يكون السيد هيربرجر إذن؟ .. هو سيب هيربرجر مدرب كرة القدم الألمانى الأسطورى الذى قاد الفريق الألمانى إلى النصر فى مباريات كأس العالم فى عام ١٩٥٤.

بطل الملاعب تسببت نظريته عن «الكرة المدورة» فى إطلاق أكبر طاقة بصرية حركية على الشاشة منذ أن ظل جين هاكمان يجرى بلا نهاية طوال الخمس الأخير من فيلم جون فرانكنهايمر الكلاسيكى الشهير «العلاقة الفرنسية» الجزء الثانى فى عام ١٩٧٤.

وجرى لولا يستغرق الفيلم بكامله فى الوقت الذى تنتهى فيه الأحداث كل نصف ساعة تقريبا من زمن الفيلم نهاية مختلفة (أو لنقل ثلاثة أشواط مادامت الكرة مدورة!): مرة تلقى فيها لولا حتفها وأخرى

يموت فيها مانى والثالثة تنتهى نهاية سعيدة لكليهما، والفيلم مرئى من خلال عينى لولا التى تختار فى كل رؤية للحكاية إدخال عناصر جديدة على المقدمات الثابتة فتتغير النتائج، وهى هنا تمارس تجربة الاختيار فى كل مرة لكى تبدأ دورة جديدة بأسئلة جديدة وإجابات جديدة حول الحب والموت.

جدة التناول التجريبى

وهكذا فإن «اجرى يالولا اجري» هو فى النهاية فيلم يتبع خطا روائيا واضحا تماما لكل مشاهد. غير أن قوة أسلوبه تنبع من جدة تناوله التجريبى القائم على أركان السرد الروائى التقليدى من حدث وعقدة وحل ومن مغامرات مخرجه وكاتبه (والمشارك فى وضع موسيقاه توم تيكفير) فى دنيا الشكل.

لقد جعل من فيلمه قنبلة بصرية وصوتية تتمتع بطاقة حيوية كهربائية هستيرية على الشاشة . طاقة لاتكل ولاتمل، معبرة بوضوح عن ثقافة البوب المتفجرة كالألعاب النارية بقوة إبداعية هائلة وماهرة تجمع بين كل وسائط التعبير تقريبا من استخدام الأبيض والأسود حينا إلى الألوان حينا آخر، ومن التصوير السينمائى إلى الفيديو، ومن الأغنية المصورة إلى الأسلوب الإخبارى، ومن الرسوم المتحركة إلى ألعاب الفيديو، ومن العرض الدرامى المسرح إلى الأداء التمثيلى القائم على التقمص الوجدانى، ومن التصوير بالحركة البطيئة إلى الحركة السريعة، ومن الإيقاعات الصاخبة لموسيقى البوب والراب إلى الألحان الهادئة.. واختاروا ماتشاءون! ستجدونه هنا!!

على ضوء مقولة أن المباراة أكثر أهمية وإثارة من النتائج ، يلمس المشاهد أهمية القرارات الصغيرة والاختيارات المترتبة عليها، والتى قد لا نعى فى خلال ساعة ونصف من حياتنا فى يوم عادى أنها قد تؤثر فى مصير كل منا .

وربما لهذا اختار المخرج تيكفير أن يروى حكاية فيلمه فى زمنه الحقيقى، نحو ثلاثين دقيقة ، تعاد لثلاث مرات متتالية، وفى كل مرة تبدأ الحكاية - المباراة مع انطلاق صفارة الحكم من نفس الموقع (وهى هنا سماعة الهاتف التى تلقى بها لولا إلى سماء الغرفة بعد أن تتلقى خبر ورطة صديقها المغفل)، ورغم أننا نلتقى نفس الأشخاص فى كل حكاية، إلا أن نوع الاختيار الصغير أو الكبير الذى مارسته لولا وبدرجة أقل صديقها الأخرق مانى فى كل مرة، هو الذى يحدد المسار حتى نهاية الحكاية.

وبنفس المقدار تثيرنا فكرة عرض تصورات المخرج ، فى فلاشات خاطفة لثوان، لمصائر ثلاث شخصيات لا أهمية لها على هامش كل دورة من الأشواط الثلاثة، وهى فكرة تشبه زخرفة على الإطار المحيط باللوحة الأصلية كتأكيد بصرى: «ماذا لو؟».

مسابقة بلا لوائح

بقدر الأهمية الفكرية لفيلمه وربما تزيد، يجعل تيكفير من فيلمه احتفالية

بالسينما، فلولا يكاد يكون فيلما عن الوسيط البصرى الصوتى ذاته، وكأن السينما هنا هى مسابقة بلا لوائح داخلية أو خارجية .. فضاء فنى يمكن لأى وسيط آخر أن يقتحمه لتحقيق تناغم فنى منشود على الشاشة ،دون أن تنقطع محاولات تيكفير السيطرة على الزمن السينمائى بإبداع شكل يحاصر فيه الزمن الواقعى من أجل التحكم فى تأثير حكايته.

فهناك لقطة قسم فيها تيكفير الشاشة إلى مربعين تجرى فى القسم الأول منهما لولا فى محاولتها لأن توقف مانى عن حماقة أخرى وهى سرقة مسلحة لسوبر ماركت للحصول على المبلغ المطلوب، وفى المربع الثانى نرى مانى يهم بفعل ذلك. ولم يكتف تيكفير بهذا بل مد تحت القسمين مستطيلا مسيطراً حاكما على الكادر بأكمله هو لقطة لساعة عملاقة بعقاربها التى توشك على أن تتلاقى عند نقطة الصفر، موعد تسليم المبلغ لرجل العصابة وإلا...! موعد نهاية المباراة فى تمام الثانية عشرة ظهرا.

وهذا أسلوب يكشف عن مدى حضور الصورة عند المخرج تيكفير الذى صرح ذات مرة «بأن البداية عندى تكون دائما من صورة، تدخل صورة ما مخيلتى وما تلبث رغبتى أن تشتعل فى تحريكها، وقد تخيلت هنا صورة فتاة تجرى فى شوارع برلين مثل لولا وعكفت على تطويرها لكى أكتب وأصنع فيلما حولها .. وأعتقد أن فكرة صناعة فيلم فياض بالحيوية هى دافع أولى لدى صناع الأفلام. ومن هنا تأتى شعبية أفلام الحركة لأنها تتقاطع مع الإحساس بالسرعة.

وحينا فى كبسولة الزمن

يفيض مخزون الصفات السلبية لدى مذيع الطقس الشهير فيل كونورز (بيل مرى) فى فيلم هارولد راميس الأمريكى «يوم السنجاب» ١٩٩٣.

فهو مداح نفسه ، مغرور، أنانى ويفتقر إلى الإحساس، متعجرف، واهم لايعرف ذاته ولايقدر حجم نفسه! هو باختصار كوب فارغ، وجعجعة بلا طحن!.

وإذا قلبناالأمر على هذا الوجه أو ذاك فربما اكتشفنا مدى حاجتنا إلى معرفة ذواتنا لكى نتعلم كيف نحبها حقا، والأهم كيف نتطلع إلى «الداخل» أولا قبل أن نلوم «الخارج» - العالم الخارجى - على الشقاء أو الألم أو التجارب غير السعيدة التى نمر بها معه.

ورغم أن فيلم «يوم السنجاب» من إنتاج استوديو هوليوودى إلا أن فكرته وبناءه تجريبيان تماما.

فهذا فيل كونورز مذيع الطقس الشهير فى نشرة الأخبار التليفزيونية يكلف للعام الرابع على التوالى بتغطية المهرجان السنوى ليوم السنجاب. ويوم السنجاب له علاقة وثيقة بالطقس! ففى الثانى من فبراير من كل عام يخرج فى الصباح الباكر سكان مدينة بنستونى فى ضواحى فيلادلفيا الأمريكية إلى منطقة يحتفظون فيها بسنجاب! وفى حفل طقوسى يتكرر كل عام منذ العام ١٨٨٦

يفتح باب الجحر الصغير ليخرج السنجاب. فاذا كانت السماء صافية ورأى النسجاب ظله فسيعود من تلقاء ذاته الى جحره، وهو ما يعنى أن هناك ستة أسابيع من الطقس السيىء! أما إذا كان اليوم غائما فلن يرى السنجاب ظله، وهو ما يعنى ان بشائر الربيع قد هلت. وهنا سينطلق السنجاب ليلعب فوق الأرض.

ويطلق أهل المدينة على بطلهم التاريخى الشهير اسم فيل، وهو نفسه اسم بطل فيلمنا فيل كونورز، الكاره للبشر ولمهمة تغطية أخبار «فأر الطقس» هذا، كما أطلق عليه!

ما إن أدى فيل مهمته ساخرا كعادته، حتى سارع إلى الهروب من تلك المدينة الصغيرة ! ولكن عاصفة ثلجية تضطره إلى الانكفاء عائدا إلى فندقه فى بنستونى!

ليلة ونمر!

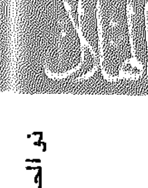
ويستيقظ فيل فى تمام السادسة صباحا كما استيقظ أمس على إيقاع أغنية للثنائى سونى وشير «أمسكت بك يا حلو»! ويستغرب فيل من التكرار! ويتعاظم استغرابه حين ينزل إلى بهو الفندق ليكتشف أن أحداث الامس تتكرر! وفى الشارع يلتقى نفس الأشخاص ونفس السيارات ونفس الشحاذين ونفس الحيوانات الأليفة! وهم يفعلون ما فعلوه بالأمس! المؤسف أن أحدا من فريق المحطة لا يهتم بما يجرى له لأن شهرته تسبقه: فهو لا يهتم إلاّ بنفسه!

وفى اليوم التالى تتكرر نفس الأحداث! ويبدا أن فيل كونورز قد نفى من الحياة العادية قسرا لكى يكتشف انه منفى من نفسه!

كان الرجل بحاجة إلى أن يوضع فى كبسولة زمنية مغلقة بإحكام بين السادسة صباحا والسادسة صباحاً من اليوم التالى .، تدور دورتها المحتومة رغم أنفه ورغم كل محاولات الانتحار والهروب المتلاحقة! وكلما تخيل أنه تقدم خطوة بعيدا عن الكبسولة يعود إليها مع دقات الساعة السادسة صباحا وعلى إيقاع أغنية شير وسونى «أمسكت بك يا حلو!!».

لا مهرب إذن ! إلا إلى الداخل لكى ينظر داخل نفسه ويعيد التعرف إلى ذاته من جديد. ففى أطول يوم فى حياته لن يأتى الغد أبدا، ما لم يغير ما بنفسه لتتغير علاقته بالعالم من حوله.

فكرة رائعة صيغت فى بناء تجريبى يقوم على إعادة سرد الأحداث مع رصد لتحولات البطل التى بدأت من حالة الإحباط الكامل من وقوع أى تغيير فى أحداث هذه الكبسولة الزمنية مهما فعل! هل أنا رجل نصف الكوب الملآن أم نصف الكوب الفارغ؟ هكذا ظل يردد رجل النصف الفارغ هذا فى سعيه نحو الخروج من النمط السلوكى الذى حبس نفسه فيه طيلة حياته! ويختار البطل المحاصر أن يتغير حين يساعد متشرداً عجوزاً، كان يتجاهله تماما فى يومه السابق وحين يكون إيجابيا مع مدرسة بيانو، وحين يتعلم حرفا جديدة كأن ينحت تماثيل ثلجية، والأهم حين يستخدم معرفته، بخبرة اليوم المتكرر، أن طفلا سيسقط من



فوق شجرة فى ساعة محددة، فيسارع إلى انقاذه!

بل إنه يتعرف من جديد على منتجة برنامجه التى كان يتعالى عليها ليكتشف فيها حبا يحتاجه. عبر وقائع هذه التجربة العملية فى حياته، يصل فيل الإيجابى مع الحياة الآن إلى أن يحدث مشاهديه من أمام مكان الاحتفال بلغة لم يعهدها من قبل:

«حينما رأى تشيكوف الشتاء الطويل، كان يرى فيه الجهامة والظلام وافتقاد الامل، ومع ذلك فإننا نعلم أن الشتاء هو مجرد خطوة أخرى فى دورة الحياة. ولكننى هنا الآن وانا واقف بين سكان بنستونى متمتعا بحرارة دفء بيوتهم وقلوبهم، لا يمكننى إلا أن أتخيل طقسا أفضل من شتاء براق طويل».

يا له من تغير ويالها من تجربة مذهلة بصحبة بيل مرى الممثل الكوميدى الممتاز الذى حافظ على خيط رفيع دقيق أمسك به هو وحده، مع النص الممتاز، بين حالة فيل الأولى الكارهة للبشر والعاشقة للذات على نحو سلبى، وبين حالته الأخيرة المحبة للبشر وللنفس على نحو إيجابى حين أدرك أن فى اليوم الواحد مخزونا هائلا من القبول والإبداع يماثل ما فى داخل نفسه من ثروات!

حينذاك عاش فيل يومه الصحيح الكامل فى يوم السنجاب!!

ورقة الفن الساحرة!

لم يحدث لى، ولا حتى طاف بخاطرى ان أسأل نفسى، ولو لمرة واحدة، السؤال التالي: من أين جاءت هذه الورقة المالية وإلى أين ستمضى؟! لابد ان تكون قد شهدت قصصا وحكايات!! وأيما كان صاحب السؤال. فهو إنسان ذو خيال خصب ومثير ولعله أضاف أسئلة أخرى لذلك السؤال الجوهرى من عينة: ماذا لو تسللت برفقة هذه الورقة لأتعرف على حيوات من وقعت فى أياديهم؟ ماذا سيحدث إذا رأيت بعض حكايات هؤلاء تتقاطع من بعض حكايات أولئك بسبب هذه الورقة؟! وهل يمكن ان تصلح هذه الحكايات موضوعا لقصة او لسيناريو فيلم؟! هذه هى نوعية الأسئلة التى طافت بخيال خصب لكاتب سيناريو أمريكى اسمه اندريه بوهيم قبل حوالى سبعين عاما!!

فى عام ١٩٣٣ بدأ الشاب أندريه فى كتابة سيناريو يجسد ما تخيله من رحلة ورقة نقدية قيمتها عشرون دولاراً بين ميلادها ومماتها. وفى عام ١٩٣٥ أنجز السيناريو لفيلم Twenty Bucks.

وطرق أول باب صادفه من أبواب استوديوهات هوليوود ، وكان مترو جولدوين ماير، وهو على يقين من أن مدير الإنتاج بالاستوديو سيقفز من الفرح بعد الإطلاع على فكرة هذا السيناريو المبتكرة تماما! ولكن مصيرا كمصير ورقة العشرين دولاراً كان ينتظره بشوق عند المنعطف!! فقد تناقلت السيناريو أياد كل مديرى الانتاج فى هوليوود .. من الاستوديوهات الكبيرة حتى شركات

الانتاج الصغيرة! ولكن لا أحد تحمس لانتاج السيناريو فى فيلم لأن الفكرة ببساطة كانت مبتكرة إلى حد الغرابة فى هوليوود الثلاثينات! فبناء سيناريوهات الافلام وقتها كان يقوم فى الغالبية الساحقة على حكاية حب تتخللها عقبات على أية خلفية ماشئت ضعها. اجتماعية معاصرة.. تاريخية.. حربية.. أو بوليسية أو غير ذلك. وفى أى قالب أردت.. درامى او كوميدى او بين بين! وكان هذا هو كل ما هنالك! فمن سيقبل من هؤلاء المنتجين المغامرة بمنح البطولة لورقة بعشرين فى شكل تجريبى غير مألوف للمشاهد؟!

انتهي المطاف بالسيناريو الى رف مهجور فى منزل الكاتب. ظل التراب ينهال عليه لحوالى ستين عاما (!) الى ان نفض الكاتب أندريه عنه الغبار وأعطاه لولده ليزلى ليقرأه. ووقع الابن فى غرام القصة وقرر أن يعيد كتابتها بهدف إضافة لمسات عصرية لها ! فما كان منه إلا ان أدخل نفسه فى سباق ماراثون لتحديث السيناريو الذى كتبه الوالد، ليترك فى النسخة النهائية قليلا من المشاهد الأصلية التى كتبها الأب محتفظا بالفكرة الأساسية بالطبع. وهكذا ولد السيناريو كنتاج للتفاعل بين مخيلتين ابداعيتين. الأب أندريه والابن ليزلى.

وبعزيمة متجددة انطلق الابن فى هوليوود مطلع التسعينات التى أصبحت أكثر تقبلا للأفكار التجريبية المغامرة، وما ان طرق باب اول استوديو صادفه حتى اعجب مدير الانتاج فيه بالسيناريو حتى أن الاستوديو قرر استخدام ممثلين لهم اسماء رغم ان ميزانية الفيلم لم تتعد ستة ملايين دولار فى عام ١٩٩٣.

معنى ان تنتقل الورقة النقدية من يد الى يد فى عمل درامى هو ان الباب الروائى مفتوح هنا على مصراعيه لجميع الاحتمالات. وأن «للصدفة» دورا فعالا فى بناء هذه الدراما. والمصادفة نقيصة فى البناء الدرامى التقليدى اذ لابد ان يتطور الحدث الدرامى من تلقاء ذاته اعتمادا على عوامل داخلية خالصة. أما فى الميلودراما (القائمة بطبيعتها على المبالغة الانفعالية) وفى الكوميديا فإن استخدام الكاتب للمصادفة مقبول ومبرر، لاننا نشاهد كوميديا فى النهاية. ولكن الكاتب ليزلى بوهيم والمخرج الوثائقى كيفا روزنلفلد، فى أول افلامه الروائية، اتفقا على ان استخدام المصادفة هنا نابع من القصة التى تدور حول انتقال عشوائى، فى معظم الاحيان، لورقة نقدية من يد الى أخرى، وانه من الضرورى ان تتداخل القصص المنسوجة حول الورقة وتتقاطع بحيث لا تبدو مجموعة من قصص قصيرة تم تجميعها فى فيلم واحد. ولذا سنجد ترابطا دراميا مقنعا بين اكثر من حكاية قصيرة من حكايات الفيلم! وهكذا فإن استخدام عنصر المصادفة فى الدراما الجادة يؤثر سلبا على مصداقية الدراما لدى المشاهد، فى حين أن توظيف عنصر المصادفة فى الكوميديا يمثل بالتأكيد قوة دعم رئيسية لها!



كتبت الناقدة ريتا كيمبلي في الواشنطن بوست تقول: إنه برغم ان السيناريو ظل على الرف لنحو ستين عاما منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٩٣ الا ان ورقة العشرين لم تحتفظ بقيمتها وحسب بل ارتفعت قوتها الشرائية. فهذا الفيلم غير المألوف يذكر البشر من ذوى العقول المغرقة فى حبها للمال، أن المال قد يستطيع أن يجعل العالم يدور ويدور. ولكن أروع الأشياء فى الحياة، وهنالك الكثير منها، لاتزال مجانية للجميع، ويعجز المال حتما عن شرائها.

كتب احد المشاهدين تعليقا على الفيلم قال: «اذا كنتم تشاهدون الفيلم لانكم تحبون واحدا من ممثليه فسيخيب املكم! فلا يوجد ممثل واحد فى هذا الفيلم يأخذ حيزا اكبر من الآخرين. وإن كان ممتعا مشاهدة الجميع. لكن اذا كنتم تريدون مشاهدة فيلم يختلف كثيرا عن افلام هوليوود التقليدية الشائعة ، فهذا عمل مكتمل الأركان تماما!

أحد أهم عناصر الجاذبية فى هذه التجربة الفيلمية هو الخيال الذى انجب فكرته! فمجرد متابعة رحلة الورقة من يد لأخرى دون أن يعلم المشاهد اليد التالية التى ستنتقل اليها، وأى جانب من جوانب الشخصية صاحبة اليد سيقدر له أن يراه الآن، يجعل من مشاهدة الفيلم كتجربة مفتوحة النهايات عملية ممتعة لا تنتهى بمجرد انتهاء المقطع الذى يدور فيه هذا الحدث او ذاك. ولهذا بنى الفيلم بناء تجريبيا على خلاف الغالبية الساحقة من الافلام على الرغم من ان البداية تتطور الى وسط وعقدة وحل لحكايات ابطالها من البشر. فما يعنينا هنا هو حكاية الورقة «البطلة» مع إضاءات مختارة من الحيوات التى صادفتها فى رحلتها.

ولعلنا كمشاهدين خرجنا بخلاصات مفادها ان الحياة اعجوبة وهى مغلفة بذلك القدر الهائل من الغموض! وإننا بهذا يجب ان نعترف بأن قدرتنا محدودة للغاية إزاء العوامل القدرية المفاجئة التى يمكن ان تغير من اى سيناريو نضعه لحياتنا فى أية لحظة.. حتى حين نتصور اننا قادرون على تقرير مصائرنا.. فهذه الورقة النقدية المغموسة فى القهوة والدم وأحشاء السمك والمذيلة بعبارة حب، هى دليل متحرك على هذا حين تدخل «حياتها» شخصيات وتخرج، ثم تعاود الظهور فى ظروف جديدة حين تتقاطع مساراتها أمام «عينى» الورقة التى قد تعنى رمزا عند البعض، وفاصلا عند البعض الاخر بين الحياة والموت!

وهنا يأتى اسلوب الاخراج الرشيق، فى توافق مع حيوية هذه الفكرة متشبعا تماما بمدرسة المخرجين الأمريكيين الموهوبين روبرت التمان ومارتن سكورسيزى القائمة على المغامرة بالأفكار والتجريب فى دنيا الاشكال الجديدة فى إطار من التعبير الإبداعى عن حالات انسانية.

ألم تكن هذه دوما هى حياة الفن وغايته؟ ■

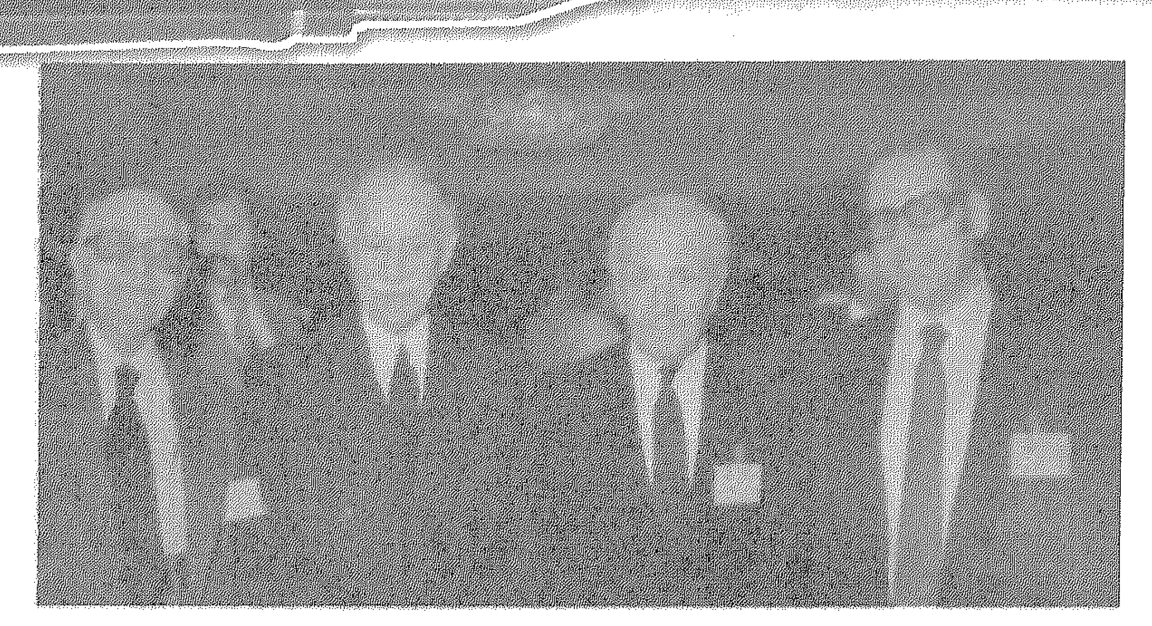
التفوق بالنسبة لى هدف لا أستطيع التخلى عنه.

صلاح فضل

استعرض د. صلاح فضل فى عدد الهلال الماضى بعضا من عناصر تكوينه ، فآلمنا بمشاهد يتمه صغيرا لم يتجاوز الرابعة ، يرى الأطفال بحوزة آبائهم ، وشد انتباهنا بالتماعه العلمى وانفراده بالمركز الأول ، طوال اختلافه إلى المعهد الثانوى الأزهرى ، وتركنا فى مساجد القاهرة الأثرية بحى المغربلين ، حيث كان مكانه المفضل ، لمدارسة مقررات كلية دار العلوم ، ليعود فى هذا العدد ويستكمل معنا الرحلة ..

عندما جئت إلى القاهرة ، وأخذت أتردد على منتدياتها الأدبية أخذ يتكون لدى نوع من الوعى المضاد تجاه قراءاتى الأولى ، ومن إعادة النظر فى الهالة ، التى كنت أضفيها على أشخاصى المحبوبين ، فى تلك القراءات. وأخذت أكتشف على وجه التحديد طريقة الشعراء المحدثين ، والروائيين المحدثين ، والثقافة المدنية . وأكثر ما ساعدنى على اكتشاف الثقافة المدنية ، ثم عن طريق صدفة بحتة ، أنا أدين لهذه الصدفة بجزء أساسى فى تكوينى .

كان عمى الأستاذ عبد الغنى رحمه الله قد دخل كلية الحقوق وكان فى السنة الثانية عندما انتقلت إلى القاهرة؛ وكان يحب أن يتكئ على الأريكة بحجرة «الجنابكية» ويغمض عينيه ، وأن أقرأ له



صلاح فضل وحسين فوزي وتوفيق الحكيم وحسين مؤنس فى مؤتمر المسرح بمدريد ١٩٨٣

مقررات كلية الحقوق ، ويتلقاها بالسمع بدلا من أن يتعب نفسه فى القراءة .. ولأن دراستى الأزهرية ، كانت عبارة عن تكرارات لا تنتهى ، فى حلقات مفرغة للمواد ذاتها من عام إلى آخر ، فلم تكن تقتضى منى أى مجهود .

شغب وممنوعات

وكان المدرسون ، وهذا هو الطريف يشترون صمتى ، بمعنى أننى كنت شديد الشغب عليهم ، لأننى أطرح الأسئلة الممنوعة ، والمحرمة ، وأحاول أن أحرجهم وأبحث لهم فى قراءاتى فى المراجع المعمقة التى نمتلكها فى البيت بحكم المكتبة الأزهرية المتوفرة لدينا .. بعض المسائل لكى أطرحها عليهم ، وأستمتع وهم يتحيرون فى الإجابة عليها ، بينما أكتم ضحكى لأننى أعرف الإجابة الصحيحة التى لا يستطيع المدرسون الإجابة بها ولايستطيع التشدد معى، أن يجعلنى أكف عن هذه المعابثات الصبيانية الظريفة ، إلا أن يتوددوا إلىّ ، ونصبح أصدقاء ، ونعقد اتفاقا وديا ، أنه لا إحراج بينى وبين كثير من الأساتذة .

كانت عادة العم هذه ، بدأت أقرأ له جميع مقررات كلية الحقوق ، فى القانون المدنى ، فى الجنائى ، فى الاقتصاد ، فى نظريات الالتزام ، فى الدستورى ، فى الدولى .. وأنا مازلت فى المرحلة الثانوية .

وكنت ليس مجرد قارئ مثل قارئ المكفوفين ، يتلو شيئاً دون أن يفهمه ، بل أحاول أن أناقشه فيما أقرأ ، حتى إذا جاء وقت الامتحان ودخل الامتحان ، وعاد إلىّ بالورقة الخاصة بالأسئلة ، كنت أقول له ، كان يمكن أن تجيب عن هذا السؤال بكذا وكذا ، وتجيب عن هذا السؤال بكذا وكذا ، فيضحك عمى ويقول لى : ليتك كنت قد ذهبت إلى الامتحان بدلا منى .

هاجس التفوق فى الجامعة !

وعندما دخلت كلية دار العلوم ، كانت هذه القاعدة القانونية هى المتكأ ، الذى

أعتمد عليه كى أستشرف نوعا آخر من الدراسات على مجموعة من عمالقة الفكر اللغوى والأدبى والنقدى فى مصر .

ولم أكن أكتفى بأساتذتى فى دار العلوم ، بل كنت أذهب إلى كلية الآداب، أحاول أن أسترق السمع إلى محاضرات طه حسين ، ومحاضرات الشيخ أمين الخولى ، ومحاضرات بعض الأساتذة الآخرين ممن أقرأ لهم وأسمع عنهم ، وأريد أن أراهم .

كان هاجس التفوق يمثل بالنسبة لى كابوساً مخيفاً ، لأنه ورطة لا أستطيع التخلص منها ، وكنت أشبه بالأسير الذى وضع فى القفص ، ولا مفر له من أن يكمل هذا الأمر ، لكن فى تلك الفترة فى المرحلة الجامعية ، أتيح لى أن أشهد نماذج من ثقافتين متعارضتين تماماً ، ومتقابلتين . إحداهما ثقافة عصرية من أساتذتى الذين درسوا فى الجامعات الغربية ، وتسلحوا بأقوى أسلحة العلم والمعرفة الحديثة فى اللغة والفلسفة والأدب والنقد ، وعرفوا منطق العالم فى الفكر ، وإنجازات العصر فى المعرفة والتطورات العلمية التى حدثت فى هذه العلوم .

هؤلاء يمثلون جانبا هو الذى يعتبر القدوة والمثال ، والنموذج الأكثر توهجا بين الأساتذة ، إلى جانب مجموعة أخرى من الأساتذة ، الذين اكتفوا بالدراسة المحلية فى الوطن ولا يتقنون اللغة الأجنبية ، ولا يعرفون شيئاً عن طريقة تفكير العالم، ولا عن تطورات العلم ، وهؤلاء غالبا ما كانوا يثيرون إشفاقى وسخريتى ، وكنت أكفكف جماحى ، كى لا أصطدم بهم ، وكى لا أكشف ما أجده من عوراتهم العلمية .

لكن سبب لى هذا مأزقا حقيقياً ، إذ ترسب لدى عبر سنوات التعليم الجامعى يقين جازم ، بأنه لامستقبل لى ، ولا سبيل إلى تحقيق طموحى والإمساك بحلمى الذى يبدو لى كنجم فى السماء ، أحاول أن أقبض عليه بيدى ، إلا أن أطير إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط ، وأن أخذ بأسباب العلم والمنهج ، والتقدم العلمى فى جامعات هذه البلاد .

فى تلك الفترة شبت فى مصر أزمة اقتصادية فى منتصف الستينيات ، وبالرغم من أننى تخرجت بالدرجة التى ألفتها وهى الامتياز مع مرتبة الشرف ، وعينت معيدا ، إلا أننى قاسيت واحدة أيضاً من أعنف التجارب التى مررت بها فى تلك الآونة .

كان ذلك يتمثل على وجه التحديد فى مسألة بالغة البساطة لكنها حاسمة فى تقرير مستقبلى .

كان عميد الكلية فى تلك الفترة واحدا من أكبر علماء اللغة والفكر اللغوى فى الوطن العربى ، وهو الدكتور ابراهيم أنيس ، فاستدعانى إلى مكتبه ، وقال لى سأعينك معيداً مع مجموعة من زملائك ، لكننى سأقيدك للدراسات اللغوية .

قلت له يا سيدى أشكرك وأقدر تماماً حرصك على وكرمك ، لكننى سوف أتخصص فى النقد ، لأننى وهبت نفسى ، ودبرت أمورى ، ورتبت كيانى العلمى والمعرفى على أن أمارس النقد الأدبى .

قال لى : هذه أحلام الشباب ، الذين يفتنون بالصحافة وبالإذاعة ، وماجد حينئذ من تليفزيون ، لكن عقليتك علمية ومنظمة ، وقد اخترتك ، ولا سبيل إلى مراجعة ذلك .

قلت له : أنت كعميد ، وأنا أيضاً لا أستطيع أن أتخلى عن عملى كمعيد ، لأن

هذا مصدر رزقى ، وسوف أقبل الوظيفة ، لكن أعدك أننى سأهرب منك فى أقرب فرصة ، لأننى لن أستمر فى الدراسات اللغوية .

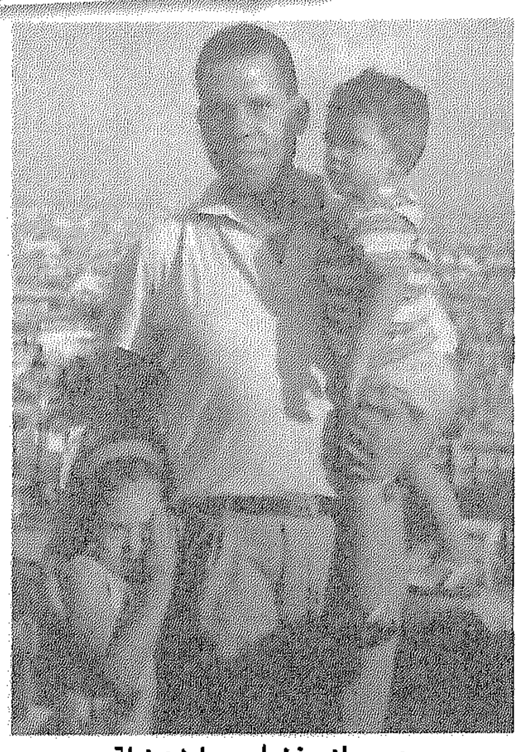
أسلمنى إلى استاذ عبقرى هو الدكتور عبد الرحمن أيوب ، وكان عبد الرحمن أيوب ، قد استحدث فى كلية دار العلوم معملا للصوتيات ، فقيدنى على قوة معمل معيد ، مشرفا على معمل الصوتيات ، يعنى أبعد ما يكون عن الأدب والنقد ، لكى أتعامل مع أجهزة ، ومع اختبارات صوتية بحكم الوظيفة ، ورضيت بذلك ، مضمرا أن أهرب إلى الأدب وإلى النقد فى أقرب فرصة للدراسة .

زاد الطين بلة فى تلك الفترة أن تغير العميد ، بعد أن كنت قد عينت ولا سبيل إلى مراجعة ذلك ، وكنت قد سجلت رسالتى للماجستير بإشراف الدكتور إبراهيم أنيس ، ووكلت فيها كى أختار موضوعا قريبا من الدراسات الأدبية .

قلت له إن ولعى بالأدب وبالنقد ، لن يتركنى أمارس دراسة لغوية بحتة ولا أريد أن أدرس شيئاً بين اللغة والأدب . فتسامح معى ، وأذن لى بأن أسجل موضوع الرسالة عن «نظام الجملة فى اللغة العربية» . كنت أضمر فى نفسى أن أركز دراستى على نظام الجملة الشعرية ، وبهذا أكون قد دخلت باب النقد من مدخل الدراسات اللغوية .

ابتسم مدركا ما أسعى إليه من تحايل ، كى أنفذ إلى دراسة الأدب وأذن لى بذلك ، وكان من العلم والخلق ، بحيث ارتضى أن أسجل معه .

عندما جاء العميد الجديد ، كانت بينه وبين العميد القديم بعض الإحن والخلافات الشخصية ، فأوقف تسجيل موضوعى ، واستدعانى إليه لكى أغير المشرف ، لأنه لا



د. صلاح فضل مع ابنيه نهلة وأيمن في باريس

يريد للعميد القديم أن يظفر بالإشراف على المعيدين ، ووجدت أن ذلك ، مع أننى كنت رافضا للعمل بقسم اللغويات ، مخالف لما استشعره من ولاء أخلاقي، فرفضت الامتثال لتعليمات العميد الجديد ، وظل موضوعى معلقا ، ووضعى فى الكلية معلقا ، إلى أن حدث شئ طريف جداً فى هذه الفترة، كان يتصل بأستاذى الأقرب والنموذج المثالى الذى احتذى به فى تلك الفترة ، وهو المرحوم الدكتور محمد غنيمى هلال .

تقدم د. غنيمى هلال للحصول على كرسى الأستاذية ، وغنيمى هلال كان أعلى ذروة وصل إليها الفكر النقدى فى الأدب المقارن ، وفى الدراسات النقدية ، لا فى الجامعات المصرية ، وإنما فى الجامعات العربية كلها فى تلك الفترة ، وكان إنتاجه الغزير وعلمه الذى مازالت الأجيال تنهل منه

، يضرب به المثل فى الإتقان والإلمام والعمق ، والكفاءة ، لكن لجنة الترقية للأساتذة ، آثرت منافسه وكان شئ من الشيوخ الأجلاء ، من الدارسين التقليديين الذين لا يضيقون شيئاً إلى المعرفة ، وأعطته الكرسى.

غضب غنيمى هلال غضبا شديداً، وأقسم أن يهجر جامعة القاهرة ، وتزامن ذلك مع مشروع عبد الناصر لتطوير جامعة الأزهر ، فعرض عليه الانتقال للعمل بكلية اللغة العربية فى الأزهر ، فذهب غضبا وحنقا على جامعة القاهرة ليعمل فى الأزهر

وأخذ يضع الخطط للنهوض بجامعة الأزهر ، ومن هذه الخطط إرسال البعثات ، وأعلن عام ١٩٦٥ عن بعثة لدراسة النقد الأدبى فى فرنسا .

حلم العمر !

تقدم كل معيدى أقسام اللغة العربية بكليات الآداب للحصول على هذه البعثة ، التى كانت لحساب جامعة الأزهر .

قانون البعثات كان صارما حينئذ ، وحدد بوضوح قاعدة الأفضلية ، كان يفضل الأعلى تقديرا ، فإذا تساويا فى التقديرات ، فالأفضل سنا ، وبكل المقاييس رشحت أنا ، مرشحا مصريا لهذه البعثة ، وأخذت أستعد لتحقيق حلم العمر ، فى السفر إلى باريس لدراسة النقد الأدبى ، نفس الطريق الذى مر به أستاذى غنيمى هلال ، ومن قبل محمد مندور ، ومن قبلهما طه حسين وتوفيق الحكيم إلى آخر السلسلة الذهبية من عشاق باريس .. مدينة النور ، ونور المدائن كما كان يسميها طه حسين .

أخذت أستعد ، وإذا ببرقية مفاجئة من البعثات تستدعينى للحضور ، لتقول لى : أن الضائقة المتصلة بالعملات الصعبة فى الدولة كانت وزارة على صبرى ، قد تولت الحكومة حينئذ ، قد أدت إلى قرار إلغاء البعثات .. ماذا نفعل فى مستقبلنا إذن ؟ ...

قيل لى .. إذهب إلى السفارة الإسبانية ، ولأن الإسبان لا يتوقع أن يعرف أحد لغتهم قبل أن يذهب إليهم ، فلم يسألونى عما إذا كنت أتقن الإسبانية أم لا ! وقبلونى على منحة .

تصادف فى تلك الآونة على وجه التحديد ، فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٦٥ أن كان لى بعض الأصدقاء ، وجمعتهم فى منزلى المتواضع فى المعادى ، وكنت حديث الزواج برفيقتى وزميلة عمرى ، التى سعيت للتعيين فى الكلية حتى استطيع الزواج منها ، وقبلت قسما غير قسمى لكى أتقدم وأنا موظف معيد فى الجامعة ذو مستقبل ، فلا يستطيع أهلها أن يرفضونى .

دعيت فى منزلى مجموعة من الأصدقاء حينئذ ، كان منهم ثلاث شخصيات أحدهم أصبح الآن وبعد ذلك من كبار الدعاة الإسلاميين ، والآخران من كبار اليسار ، وسهرنا سهرة فى البلكونة ، وتناقشنا فى كل شئ وفى الأسبوع التالى قبض على ضيوفى الثلاثة ، إما بتهمة الانتماء للأخوان المسلمين ، أو للتنظيمات الشيوعية !

أخذت أنتظر متى سيقبض على أنا بدورى ، لأنها كانت فترة عصيبة!

سعيت بكل طاقتى لكى أجرى إجراءات الحصول على المنحة الإسبانية والسفر ، وقلت لزوجتى التى كانت مدرسة فى التربية والتعليم، استكملى إجراءاتك ، وسأسبقك إلى الإسكندرية ، فإذا أدركتنى سافرت معى

على نفس الباخرة ، وإذا سبقتك إلحقيني في الباخرة التالية ، حتى أستطيع النفاذ بجلدي قبل أن أجد نفسي في اليوم التالي في السجن ، إما بتهمة الانتماء للأخوان المسلمين ، أو للتنظيمات الشيوعية ، مع أنني لم أكن أنتمي إلى أحدهما ، لكن من الذي كان يدري أن تسهر مع شاب زميلك ، ثم يقبض عليه في الأسبوع التالي ، معنى ذلك أن الدور سيأتي عليك !

مدريد والأزمة الاقتصادية

سافرت إلى إسبانيا بالمنحة ، وكانت التعليمات أن المكتب الثقافي في مدريد سيدفع لي الفرق بين المنحة ومرتب عضو البعثة ، لأن هذا ما تستطيع الدولة أن تسهم به . وأدركتني زوجتي لحسن الحظ على الباخرة ، وكانت معنا طفلتنا الأولى وعمرها أربعة شهور ، وذهبنا إلى مدريد . وبعد وصولنا بأيام قليلة ، فاجأني الدكتور حسين مؤنس الذي كان يعمل حينئذ مستشاراً ثقافياً لمصر ، ومديرا للمعهد المصري للدراسات الإسلامية ، بأن استخرج لنا بطاقات السفر للعودة .

قلت له : لماذا يا مولاي !

قال : لأن الأزمة الاقتصادية تفاقمت ، والدولة لا تستطيع أن تدفع لكم فروق المرتبات .

قلت له : لن أعود وسأكتفي بالمنحة التي كانت توازي حينئذ ما قيمته خمسة آلاف بيزته أي خمسا وثلاثين جنيها مصريا .

قال : إنه من المستحيل عليك أن تعيش بمفردك بهذا المبلغ ، فضلا أن تعيش مع زوجتك وابنتك .

قلت له سأتدبر شأني .. لا شأن لك بذلك ! لكنني لن أعود ، لست ممن يتراجعون ، وكانت ملحمة من الصراع ، ووقتها كان ممنوعاً التحويلات ، وكل شئ ممنوع ، لكنني استطعت بالتحدي والإصرار والعمل على أن أستمر .

بعد عامين فقط من هذا التاريخ ، كنت قد عينت في جامعة مدريد أستاذاً مساعدا للأدب العربي والترجمة ، وفرجت من أوسع الأبواب اقتصاديا ، لكنني ظللت معلقا بأن أتحول إلى باريس لأن كل من ذهبوا إلى مدريد ، قالوا اذهب لدراسة الأندلسيات ، وإسبانيا ليست الموطن الأمثل لدراسة النقد الأدبي ، ولا نعرف شيئاً عن آدابها .

أشار عليّ الدكتور حسين مؤنس أن أدرس موضوعا عربيا ، وأن أنتهي من الدكتوراه في عدة شهور ، وأن أحصل على اللقب وأعود ، فرفضت ، لأنني أريد أن أتكوّن ، أن أتعلم ، أن أتقن اللغة والثقافة .

أرسلت حوالي ثلاث مذكرات للرئيس عبد الناصر استنجد به لكي يحولني إلى الدراسة في باريس ، فكان يحيل المذكرات إلى البعثات ويردون عليّ بما أعرفه ، بما أشكو منه ، وكأنه حوار الصم !

حدث أمران في تلك الفترة ، غيرا كثيراً من وعيي بالموقف العام .

الأمر الأول : كنت أحمل معي راديو «ترانزستور» صغير وأستمع إلى محطة لندن العربية ، وكانت النافذة الوحيدة التي أطلع معها على أخبار الوطن ، لأنني استغرقت في دراسة اللغة والثقافة والأدب والجذور الكلاسيكية الإسبانية ، حتى أستطيع أن أتمكن من الدخول إلى مجال النقد الأدبي ، فسمعت في محطة لندن في عام ١٩٦٦ . أو أول عام ١٩٦٧ أن الرئيس عبد الناصر ومصر ، كانت تمول حركة انقلابية في إحدى الدول الافريقية ، وأنه عثر على حقيبة بها خمسة ملايين جنيه استرليني ، كان قد أرسلها عبد الناصر لدعم هذه الحركة الإنقلابية الفاشلة .

ذهبت فى اليوم التالى إلى الدكتور مؤنس أسأله : كم تكلف البعثات المصرية فى الخارج ، التى ألغتها الدولة لمأزقها ، وعدم قدرتها على توفير العملات الصعبة ، فنظر إلىّ مستغربا ليقول : هل تريد أن تنفق على المبعوثين ، بدل إعادتهم للوطن ؟

قلت له : أريد أن أعرف فقط .

فلم يهتم بالإجابة علىّ ، لكننى استدرجته ، حتى عرفت بأن هؤلاء المبعوثين ، لا يكلفون الدولة فى العام أكثر من نصف مليون جنيه تقريبا ، وهم يمثلون المستقبل العلمى لمصر.

يعنى أن تلك الحقيبة التى ضبطت وصورت ، لم تكن مجرد تشنيع استعمارى على نظام الرئيس عبد الناصر ، كانت تكفى لسد الحاجات التعليمية لمصر ، ثمانية سنوات للمبعوثين ، يستأنفون قيادة ورفع شعلة النهضة العلمية فى مصر.

وجاءت نكسة ١٩٦٧ لتمثل القشة التى قصمت ظهر البعير ، فى إحساس بالموقف السياسى لمصر ، لا يمكن أن يقارن شعور الخزى والعار، والانقسام الداخلى العميق ، الذى يشعر به المصرى فى الخارج - بما كانوا يشعرون به فى الداخل .

كنت أستأجر شقة فى مدريد مع زميل لى يأتى من جامعة بيرو بأمريكا اللاتينية ، يدرس الدكتوراه .. الشقة مكونة من أربع حجرات لكل منا حجرتين .. اضطررت لهجر هذه الشقة ، والبحث لى ولزوجتى عن مسكن آخر صغير ، حتى لا أواجه هذا الزميل ، لأنه كان يعايرنى صباح مساء بذل الهزيمة التى منينا بها فى سنة ١٩٦٧ ، وكنت عندما يسألوننى من أين أنت ؟ أتلجلج فى الرد ، وأتردد قبل أن أقول إننى مصرى !

كان الانكسار عميقا وغادرا فى أعماق القلب، الصورة من الخارج تختلف أساساً عن الصورة من الداخل، كانت الناس تلهو بألفاظ النكسة بالنكت عليها وبغير ذلك .

لكن حدث الأمر الثانى فى هذا الصيف ذاته ٦٧ ، بعدها بقليل اشتريت من مدخراتى أول سيارة صغيرة ، أقتنيها وأقودها ، وكانت وجهتى قبل أن أذهب لمشاهدة مدن الأندلس بالسيارة ، أن أذهب إلى باريس الكعبة التى حرمت من الحج إليها .

كان لدى عنوان أحد زملائى الأعزاء ممن سبقونى فى البعثة ، قبل إلغاء البعثات ، وذهبوا إلى جامعة باريس لدراسة الأدب المقارن ، فراسلته ، وذهبت مع زوجتى لزيارته ، وأقمنا فى فندق متواضع من فنادق الطلاب ، وكنت قد بدأت أقرأ ما يترجم إلى الإسبانية من بواكير النقد الحديث ، خاصة لبارت وچاك لوسون وغيرهما من أعلام النقد الجديد فى فرنسا وفى العالم .

أخذت أسأل زميلى عن آخر كتب هؤلاء الأعلام ، وماذا قرأ منها ، فوجدته لا يعرف شيئاً على الإطلاق ، وهو يدرس فى السربون

فطنت إلى شئ بالغ البساطة والأهمية ، أن المشكلة ليست المكان ، وإنما المشكلة هى فى تطلعك ومشروعك أنت ، وما تبحث عنه ، أيا كان المكان الذى أنت فيه ، ستحقق مشروعك ، وستقهر كل الصعوبات المكانية والزمانية .

منذ تلك اللحظة رضيت عن بعثتى ، وعدت تصالحت مع مدريد ، ومع الثقافة الإسبانية ، ومع ما تتيحه لى كنافذة ، أطلع منها على كل الثقافات العالمية ، لأننى أدركت





.. مع جارسيا جومث وحرمه ، في المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد - ١٩٨٢

أن اللغات الأوروبية ينطبق عليها ما كنا ندرسه قديما فى نظرية الأوانى المستطرقة .. أن ما يصب فى خانة يسرى فى بقية الخانات .

كان هذا نهاية مأزق البعثات بالنسبة لى ، وأخذت نفسى بصعوبة بالأصعب دائما ..

كانت هناك فجوات كثيرة فى معرفتى بالثقافة الغربية ، حاولت أن أملأها ، لكن اللحظة التى أريد أن أتوقف عندها ، عندما أنتهيت من الحصول على دكتوراه الدولة ، وانتهت زوجتى من الحصول على دكتوراه الدولة ، وقررنا العودة للوطن.

كنت مضطراً بحكم قانون البعثات ، أن أذهب إلى جامعة الأزهر ، لكى أتسلم وظيفتى ، التى وفدت لحسابها ، كان قد هجرها الدكتور غنيمى هلال ، من كثرة ما لقى من مضايقات ، وذهب إلى السودان ، حيث لقى حتفه مبكرا ، ودخلت إلى عميد الكلية أقدم له نفسى .

حرب داحس والغبراء

وبدأت سنة من الحرب العصيبة بينى وبين الكلية التى أعمل بها .. بدأت حرب داحس والغبراء .. عميل من دار العلوم يعمل فى الأزهر ! .. وأخذ بعض كبار الأساتذة ، يقول فى أول مجلس قسم أحضره ، كنا نظن أن الأفعى قد انقطع دابرها بسفر غنيمى هلال إلى السودان ، لكن يبدو أن لها أذنابا مازالت تطل علينا .. ابتسم بجوارى صديقى وأخى الأكبر وأستاذى فى الثانوية الأزهرية الشيخ أحمد الشرباصى ، وشدنى من يدى كى نذهب إلى الكافتيريا ونشرب الشاى ، ولا نستمر فى سماع مثل هذه السخافات ، لكن كانت سنة عصبية .

توقف معادلة شهادة الدكتوراة التى حصلت عليها لسبب بسيط ، وهو أن كل من ذهب إلى إسبانيا قبلى درسوا دراسات عربية ، لم تكلفهم مجهودا بطبيعة الحال ، وقضوها فى سنوات قليلة ، لكنهم حصلوا على الدكتوراه فى التخصصات الأندلسية ، أنا ذهبت لكى أتخصص فى اللغات الرومانية ، وفى النقد الأدبى ، ولم يذهب



أحد من قبلي ليتخصص في هذا المجال .. فلابد أن تحال أوراقي للمفتي ! . والمفتي هو المجلس الأعلى للجامعات كي يفتي بصلاحيتها للمعادلة ، أو عدم صلاحيتها .

بقيت في وظيفة معيد لمدة عام كامل ، قبل أن يصدر قرار المجلس الأعلى للجامعات ، بمعادلة شهادتي للدكتوراه والتعيين في وظيفة مدرس .

وهذا العام من أشد المحن التي مرت بي ، لأنني فكرت كثيراً لأن أعود إلى مدريد في تلك الفترة ، لأكتب في مدى شهرين ، رسالة الدكتوراه في أي موضوع عربي أتقنه، وأأتي لهم بشهادة في اللغة العربية ، حتى المعادلة ، حتى لا يتوقفوا عن تعييني هكذا .

لكنها كانت سلسلة من تلك الإحباطات الكبرى التي كان عليَّ أن أواجهها وظيفياً ، ولو أخذت في الاستمرار ، في ذكر هذه الإحباطات لاستغرقت التكوين كله ، لكنني أريد أن أنتشل نفسي انتشالاً ، لكي أتوقف عند أمور أخرى ، هي التي أريد أن أركز عليها .

الأمر الأول : وهو أنني عدت إلى الوطن لكي أمارس ما تصورته حلماً جميلاً ، رسالة الفكر والأدب والنقد ، لقيادة المجتمع ، وجدت أن المجتمع قد مضى في طريق لا يسمح للمثقفين بقيادته . بل يهمشهم تهميشا شديداً ، ولا يسألهم عن شئ ، ولا يتيح لهم فرصة المشاركة . فانكفأت على مادة التخصص التي أتقنتها كي أكشف عن تجليات التقدم العلمي التي حدثت فيها ، باعتبار أن هذا البناء المعرفي ، هو الإسهام الذي يمكن أن أسهم به في صناعة مستقبل أفضل لهذا الوطن.



الأمر الثاني : وجدت أن الحياة الثقافية في مصر قد أنحسر عنها ظل الشخصيات الكبرى ، العبقريات البارزة الشامخة ، مات طه حسين عام ١٩٧٣ - من قبله مات العقاد في الستينيات ، بقي الحكيم ، برز نجيب محفوظ ، تغيرت خارطة الأدب بالتأكيد .. تغيرت خارطة النقد ، وأكثر ما كان يمضي في خريطة النقد ، أن مندور قد ذهب معه ببهاء النقد ، ومن بقي من النقاد العرب في مصر حينئذ ، كانوا بقايا الأيديولجيين من اليساريين والأساتذة الذين لا ينصتون إلى الايقاع الإنساني ، ولا يعرفون التقدم المنهجي ولا العلمي في النقد الأدبي .

وعندما شرعت في كتابة أول كتبي «النظرية البنائية» خشيت أن أهاجم من اليساريين ، لأنه كتاب لا يتغنى بالماركسية ، ولا يقدس الجدلية المادية ، وإنما ينقدها ، فأرفقته بكتاب آخر يستكشف الجديد في التفكير الواقعي ، والجديد في المنهج الواقعي هو منهج الواقعية ، ونشرتهما معا في عام واحد ، هو عام ١٩٧٨ ، أي منذ خمس وعشرين عاما الآن .

الآن عندما ألقي نظرة : هذه هي بداية الإنتاج والتحقق ، وأستطيع أن أعتبرها إلى حد ما ختام التكوين ، بالمعنى الدقيق لكلمة التكوين ، التي لا ينبغي أن تمتد إلى ما بعد الأربعين .. عام ١٩٧٨ كنت قد أكملت الأربعين من عمري ، ولأنها سن الرشد ، ولأنها سن النبوة ، ربما كانت السن التي بدأت فيها الكتابة النقدية .

القرآن والبلاغة العربية

ما أخذه على هذا التكوين .. نقدي لهذا التكوين بأثر رجعي .. ربما كنت مدينا ، ومن الضروري أن أقر بذلك لأثر القرآن الكريم في

تغذيتى بالبلاغة العربية ، وإتقان شعرية اللغة العربية ، لكن لا أنسى أن هذا الإتقان جاء عن طريق الحفظ، وليس عن طريق الفكر ، وأنه بقدر ما ينمى الحفظ ، ملكة اللغة لدى الإنسان ، فإنه يأتى على حساب ملكة المبادرات الخلاقة ، والإبداع الحقيقى فى الفكر ، وربما كان ذلك هو الذى أحدث نوعا من التفاعل فى إمكانات التكوين ، كان بعضها حافزا قويا ، وبعضها الآخر كابحا عنيفا . هذه واحدة .

الثانية : أننى بالرغم من تحقيق النموذج المتداول فى المثل الشعبى : «الغزالة تغزل برجل حمار» وقد غزلت بالاسبانية ، وهى «رجل حمار» بالنسبة للغة عالمية إلى حد ما ، لكن لازلت أعتقد أن حرمانى من الفرصة الطبيعية فى استكمال بعثتى إلى فرنسا ، كان له تأثير عميق على مسارى .

حاولت أن أتجاوزه ، لكننى أدرك نتائجه ، وأدرك أكثر من ذلك وهذا هو الممض جداً ، والمؤلم جداً ، أن هذا الحرمان لم يتوقف علىّ ، بل شمل أجيالاً بعد ذلك ، من أساتذة الأدب والنقد فى الجامعات المصرية ، اكملوا دراساتهم فى الداخل ، وعطلت إمكاناتهم تماما عن أن يكتمل نموهم المعرفى والمنهجى والعلمى ، فى الجامعات الغربية ، بنفس النسق الذى شهدته الأجيال السابقة ، مما شل حركة التقدم العلمى فى الجامعات المصرية الآن ، خاصة فى العلوم الإنسانية .

ما أشهده من ضعف المستوى ، وتصور الهمة ، والزهو بالجهل ، والتبجح بأننا لسنا بحاجة إلى الغرب، ليس إلا نتيجة مباشرة لما ترتب على قرارات على صبرى سنة ١٩٦٥ من إلغاء البعثات فى العلوم الإنسانية . ما يقال بعد ذلك عبر أربعين عاماً ، من أن البعثات مستمرة ، كذب فاضح ، لأننا نشهده فى العلوم الانسانية لا تذهب بعثات منذ تلك الفترة ، وانقطع خط السلسلة الذهبية من العقول المصرية، التى تتهجن بالمعرفة ، وبالمنهج وتتمرس بالخبرة عبر سنوات طويلة ، فى الجامعات الغربية وتعود لتقود حركة الفكر فى الجامعة والمجتمع .

توقف هذا بفعل المؤسسة العسكرية والنظام الذى لا يعطى لهذا الجانب أحقيته

هى بالنسبة لى كانت مشكلة جزئية حللتها بطريقة ما ، وتجاوزتها لكن بالنسبة للأجيال التى تلت ذلك ، عوقت بشكل أساسى نمو الحركة المنهجية والعلمية فى الجامعات المصرية .

لم يفلت منها إلا أفراد قلائل عصاميون ، اخترقوا حواجز اللغة ، وهم معدودون على أصابع اليد الواحدة، لكن التيار توقف ، ولا يريد أحد أن يعترف بذلك .

الأمر الثالث والأخير الذى أريد أن أطرحه : إن غلبة ما يطلق عليه المدرسة الوطنية ، فى العلوم الإنسانية ، هو عجز عن الاسهام فى الثقافة العالمية ، وأن الوسيلة الوحيدة لنمو الفكر الإنسانى فى العلوم لدينا ، هى التواصل الخلاق مع التيارات العالمية ، وأن الدعوات التى يشيعها المنكفئون على أنفسهم لتبرير عجزهم، لا يمكن أن تحقق لنا الاضطراد فى التقدم .

ملاحظة شخصية أخيرة .. أشعر أن القليل الذى أسهمت به فى نمو المعرفة النقدية ، ليس إلا استمراراً فى النهر المتدفق العظيم ، الذى استشعر منبعه الأول ، عند رفاعة الطهطاوى مروراً بطه حسين ، حتى آخر أستاذ درس لى . ■

تطوير التعليم

أشكركم على افتتاحيتكم الحضارية المستقبلية «حول تطوير التعليم» والتى نشرت فى العدد الماضى، وهى بحق قضية الساعة ، ويجب أن تحتشد لها كل الطاقات الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية والثقافة العلمية التى أشرتم إليها فى ختام هذه الافتتاحية ، والتى كرس العلامة الدكتور أحمد زكى جهده فى جعلها من نسيج الثقافة العربية ، هى أول ما يجب أن تتبناه جميع الأجهزة والمؤسسات لأنه بدون العلم الحديث ، ومتابعة آلياته وتقنياته ، سنظل فى دائرة الاستهلاك والتبعية والتخلف .

وإننى أتساءل معكم .. ما العمل ؟! .. وهذا السؤال المصيرى يعد بداية للعمل الجاد .

ومجلة الهلال من المنابر الرائدة المؤثرة فى وجدان المثقفين والهيئات العلمية ، وحينما تتبنى هذا التوجه الحضارى ، ستتمكن مع جهود الهيئات الأخرى من إرساء قواعد العلوم ، ومعالجة الثقافة العلمية ونشرها فى أوساط المفكرين والمثقفين ؛ وهذا عبء حضارى أرى أن الهلال جديرة به وقديرة على تحمله والقيام به.

د. صابر عبدالدايم
وكيل كلية اللغة العربية - الزقازيق

الهلال : شكرا على ما جاء بهذه الرسالة التى نعتز بما تضمنته ولايمكن أن نؤدى هذا الدور إلا بمساعدة المثقفين ، وجهودهم ، كما على الهيئات العلمية والثقافية أن توفر المناخ المناسب للارتقاء بالثقافة فى كل مجالاتها وميادينها المختلفة ، ونرحب بالآراء السديدة فى هذه القضية المهمة «تطوير التعليم» .

إلى كل من يقول: أنا مصرى

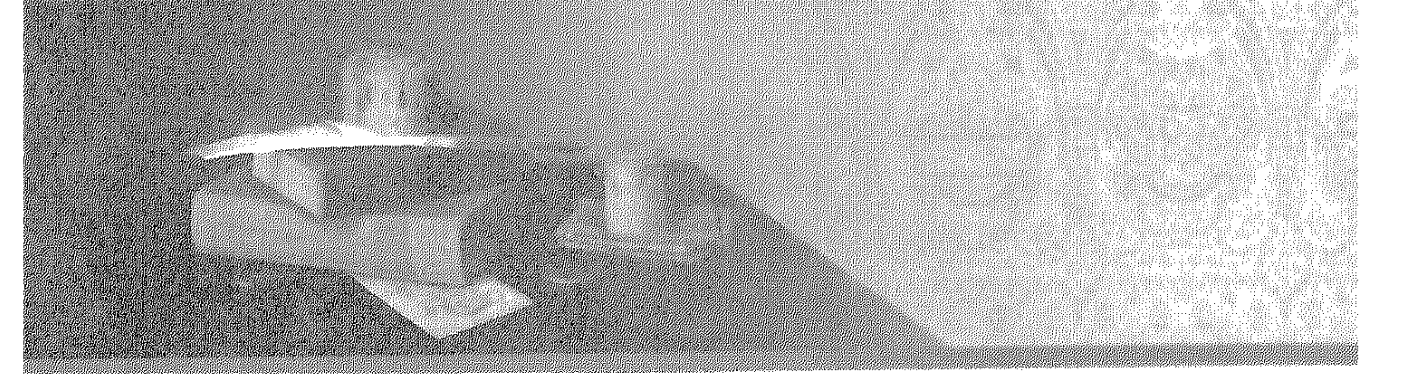
الشاعر سليم الرافعي طرابلس - لبنان

(في البدء كانت مصر .. فيا أيها الأحرار .. إن شعوركم بأزلية وطنكم دعاكم إلي التفكير في تكوين حزب يحمل اسم مصر .. فليشهد العالم أن الحقيقة لاتتبرج بزينتها ولكنها تحيا في صمت القدرة) .

إن تقلهـــا .. فـــأنت حـــر كـــريم — (أنا من مـــصـــر) والخلود نديم

حارت الأرض .. مادت الأرض .. فاسمع — صـــعـــقـــات الأهرام .. وهى تقـــوم

جـرحـهـا فى سـمـوه سـال عشـقـا — إن جـرح العـشـاق شأن عظيم



المحـــــاريب من دم تـتـــــجلى ... نبض الصخــر .. فــالصــخـور كلوم
شــيـد اللغــز هيكلا عـبـقــريا ... أيهــا الطين .. أيهــا التــرنيم!
قل لمن يســـمع التـــراتيل : إنى ... مـــغـــرم بالمكونات أهيم
يلثم النيل أرضـــهـــا لايبـــالى ... وطىء الأرض واغل أم صـــمـــيم
قطرات يحـملن شـعـبـا جـديدا ... غــاص فــيــه من مــصــر روح قــديم
فــاغــرفــوا منه حين يجرى شـفـاها ... باســـمـــه السرمدى تحكى الفـهـوم
الـفـــــــراعـين مـنـه آيـة رب ... أزلـى الإلهـــــــام لـيـس يـريم
والجـــيـــوش التى أثارت غـــبـــارا ... سـحـقـتـهـا الأهرام .. فـهى رمـيم
وقـــفـــة مــصــر فى الجـبـال تراءت ... كـيـف تعلو النسـور .. كـيـف تحـوم؟
يا طيـور الوجـدان فـوق الصحـارى ... سـمـع الليل شـجـوها والنجـوم
تتــرامى الكؤوس فى مــصــر .. لكن ... كـأسـهـا (النيل) شـعـشـعـتـه الكروم
وإذا أحــيت العــصــور علومــا ... فـهى (مـصـر) التى إليـهـا العلوم
ومـضـة فى الرؤى .. فكل انتـمـاء ... لســـواها فى العــالمين ذمـــيم
إن تقلهـــا .. فـــإنهـــا كلمـــات ... قـــالهـــا المجـد والجـلال الحكيم

نور الدمرداش..
وبداية المسرح بالإسكندرية

فى باب أنت والهلال وفى عدد يناير الماضى نشرتم لى لمحة سريعة عن بعض الذين اسهموا فى تنمية المسرح الجاد بجامعة الاسكندرية ، وشكرا لأنكم قد نشرتم ما أمددتكم به من أسماء هؤلاء وكلهم من آل الثقافة والهواية الجادة لفن المسرح ، حينما كان هناك مسرح ، بل لقد أنشأنا على نفقتنا الخاصة فرقة المسرح الحديث بالاسكندرية ، وأدارها نور الدمرداش، ولم يكن قد اعتمد بعد مخرجا بالمسرح القومى أيام إدارة الصاغ أحمد حمروش ؛ فلما دعى حمروش إلى الاسكندرية ، وشاهد ما قدمناه اعتمد الدمرداش مخرجا بالمسرح القومى ، وسمح له بإخراج مسرحية (تلميذ الشيطان) لبرناردشو ، ومن هنا دخل نور إلى عالم الإخراج بالتلفاز فقدم مسلسل «هارب من الأيام» .

كان كل فرد منا يسهم شهريا فى رأس مال هذه الفرقة التى استمر نشاطها ثلاثة أعوام من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٣ بمبلغ عشرة جنيهات شهريا إلى جانب حصة التأسيس لكل فرد منا بمبلغ ٢٠ جنيها شهريا ، إلى أن جاء المحافظ حمدى عاشور وأقام فرقة الاسكندرية المسرحية كأول فرقة من فرق المحافظات ، وذلك بمعاونة من المسرح القومى

لقد ضم أعضاء هذه الفرقة من قد أصبح مخرجا والآخر ممثلا ، ناهيك عن مناصب إما فى وزارة الثقافة ، وإما فى وزارة الخارجية .

إننى أشرف بأننى كنت واحدا ممن تتلمذوا على يدى كبار المخرجين ، بدءا بالأستاذ الرائد زكى طليمات وانتهاء بالفنان نبيل الألفى ومرورا بالفنان الذى ضحى من أجل مسرح جاد بمدينة الاسكندرية من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٣ الأستاذ نور الدمرداش ويكون فخرا أن يكون من بين تلاميذه المخرج محمد فاضل ، والفنانة سميرة عبدالعزيز والدكتور سيد عبدالكريم والفنان مدحت مرسى ، والأستاذ محمد غنيم سالم وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية سابقا والدكتور جمال بيومى السفير بوزارة الخارجية .

د. سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية
قسم اللغة العربية

متى ولد الموسيقار محمد عبدالوهاب؟!

أغرانى قراءة موضوع الموسيقار محمد عبدالوهاب بين سيد درويش وأحمد شوقى والذى نشر فى هلال ديسمبر ٢٠٠٣ خاصة أنه بقلم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ، فتوقعت دراسة أكاديمية تختلف عما نقرأ فى المجلات «الفنية» ، ولكن لابد لى من مصارحتكم بخيبة أملى ، فعلى الصفحة الأولى من المقال ما يكفى من هذا الخطأ الذى أورده الدكتور عبدالمنعم إبراهيم الجميعى - بكل ثقة - تاريخ ولادة عبدالوهاب (١٣ مارس ١٩١٠) ليضيف أنه بدأ حياته الفنية أيام الشيخ سلامة حجازى قبيل الحرب العالمية الأولى ، فكيف يستقيم مثل هذا القول ؟



فلقد نشبت الحرب المذكورة فى ١٩١٤ ، وولد عبدالوهاب فى ١٩١٠ ، وبدأ حياته الفنية يل نشوبها ، أى فى ١٩١٣ أو ١٩١٢ ، وهذا يعنى أن عبدالوهاب بدأ حياته الفنية قبل امه!!

حدثنا متعهد حفلات الموسيقار عبدالوهاب فى سوريا ولبنان ، حيث غنى عبدالوهاب فى ثلاثينيات القرن العشرين ، أنه قرأ على جواز سفره تاريخ ميلاده سنة ١٨٩٦ ، وهذا أقرب إلى المنطق ، فإذا كان قد بدأ العمل مع سلامة حجازى قبيل ١٩١٤ ، فإن عمره يومئذ يتراوح بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة .

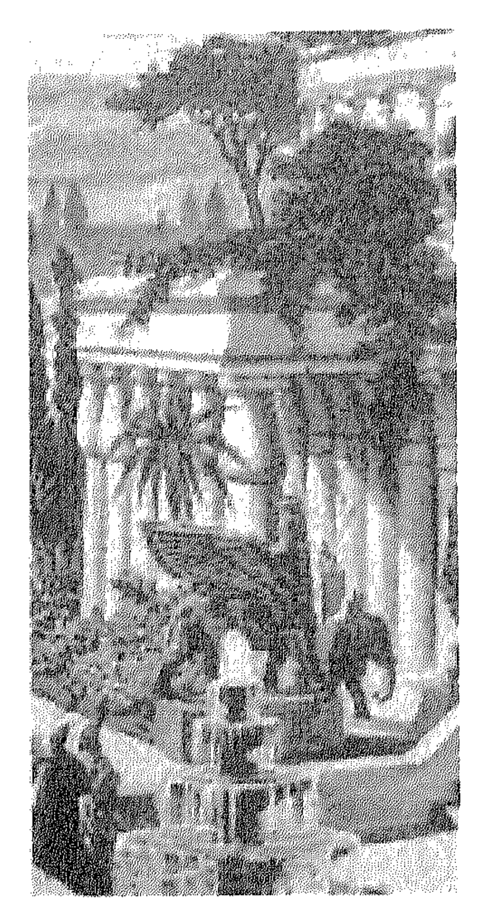
أما القول فى بداية المقال بأن عبدالوهاب (قد امتاز بخصوصية صوتية فى الأربعينيات والخمسينيات) فهذا يعنى أن الدكتور الجميعى لم يقرأ ما كتبه الأستاذ كمال النجمى رحمه



الله عما طرأ على صوت عبدالوهاب ، فى الثلاثينيات ، وعن الأسباب التى أدت إلى تراجع تلك الحنجرة الفريدة ، ولو فعل لربما كنا قد قرأنا تحليلا أكثر دقة.

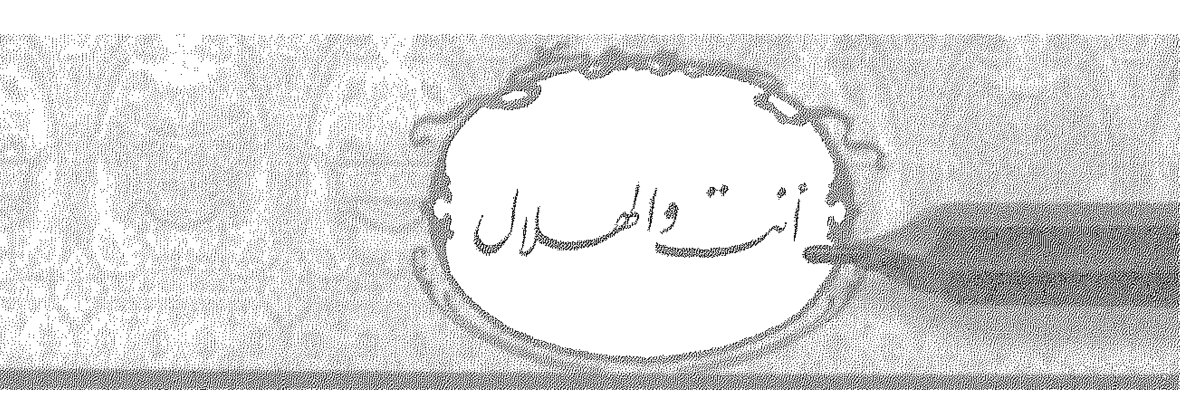
ثائر معيطة - اللاذقية - سوريا

بابل



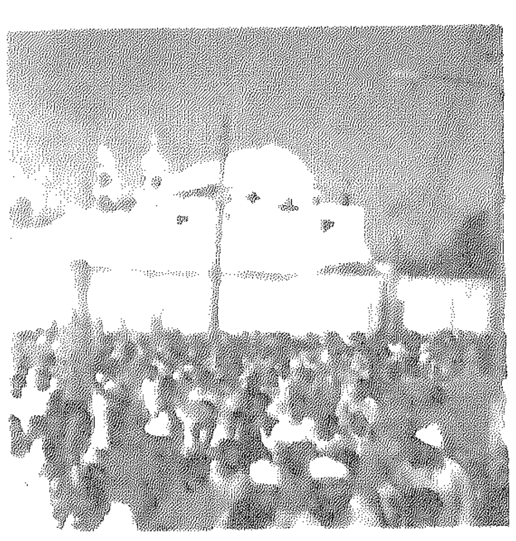
منبلج صبحك يا (بابل)
أيقنت أخيرا أن المضطجع جوارك..
نجم أزرق عائد من عتبات التاريخ المنهزم ..
إلى الفتح (الأموى)
قد أعلن فى ساعته
أن الحرية محض سفاح
بين الإرهاب وأحجار الطفل البدوى
ليفتش بين ثيابك ..
عن عطر الشرق النووى
ويقول : بتيه المنتصرين
إن الميثاق تعثر ..،
فى رفع رؤوس الأعراب ورايتهم
لترفرف فوق البر الشرقى
قد تبتسمى - لكن عدوك بالداخل
يتربع فوق العرش (الأموى)
فمن المذنب يا بابل ؟

صابر صبرى معوض



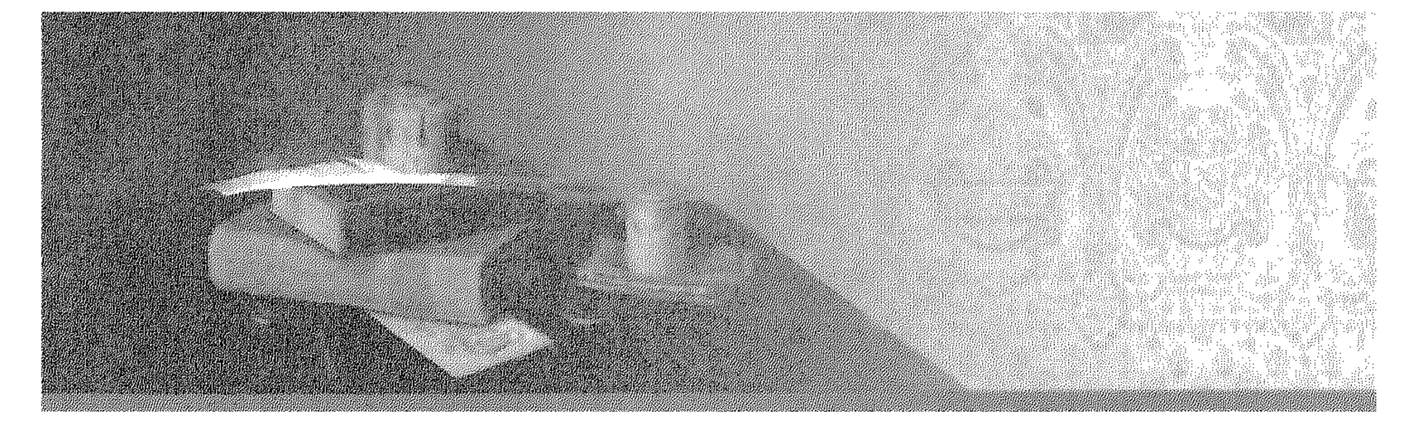
حياة أقباط مصر..
رصيد حضارى وتاريخى

قدم الدكتور ماهر شفيق فريد فى مقاله فى عدد يناير الماضى «أضواء على حياة أقباط مصر» رؤية بعيون غربية ، فعلى الرغم من الصور الفاتنة التى التقطتها عدسة كلاوديا إيفون وينز ، فإنها قصرت فى نقل الموروث القبطى بكل أصالته بما يعنيه من تفرد وتمايز ، ولم تعبر بصدق عن الأعراف والتقاليد والمعتقدات القبطية ، فهى فى ممارستها ليست مقصورة على الأديرة والكنائس أو بجوارها ، بل تمتد إلى أعماق الأعماق فى ربوع الدلتا والوادى، وأساءت عدسة المصورة الغربية إلى المصريين جميعا - مسلمين وأقباط - عندما رمتنا بثالثة الأثافى بتصويرها حياة «الزبالين» من الأقباط والمسلمين على السواء ، ويكرر هذا المشهد فى المقال بأن كثيرا من المشتغلين بجمع القمامة (الزبالون) من الأقباط ممن يربون الخنازير» . وللأسف الشديد فإن الصورة كرؤية لسائحة وصحفية مصورة أجنبية تنقل إلى العالم الخارجى فى أوروبا وأمريكا، ويساء توظيفها بسوء نية إعلاميا وإنسانيا فى محاولة لنيل من سمعة مصر وكرامتها .. لماذا لم تلتق المصورة الغربية بأعلام فى المجتمع المصرى من الأقباط من مفكرين وكتاب وأساتذة جامعات وصحفيين وإعلاميين ورجال أعمال وتجار لترسم صورة حقيقية لأقباط مصر المعاصرين بكل قطاعات مجتمعهم ؟



إن حياة أقباط مصر تاريخيا واجتماعيا وحضاريا هى أكثر خصوبة وثراء وعمقا ، وامتلاكا لرصيد حضارى وتاريخى ممتد ومتدفق مع نهر الزمن ، ربما لايستطيع أى كاتب أو مصور أو فنان أن يستوعبه وينقله ولو جانب منه بصدق وأمانة لاسيما إذا كان أجنبيا ، ولم يعايش المصريين، ودائما تأتى بشارة الرب : « مبارك شعبى مصر» .

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - مركز الغربية



حبر ودم

عندماتسفك الدماء
فى العراق أو أفغانستان أو فلسطين
أو أرض أفريقيا السوداء
عندما يسيل الدم
مثل النفط أو الأمطار
هل تنفع القصائد ؟
هل تجدى الأشعار ؟
هل يفيد حبر الأقلام
فى إنهاء العنف والطمع
وصنع السلام ؟
هل تواسى الدموع
قتلى الحروب ؟
الحرب والشعر
أمران لاينسجمان
هل يذهب الجنود
إلى الحرب وهم يغنون
هل بالجنة الموعودة بعد الموت يحلمون؟
أو هل يطمعون فى مكافأة
من الرؤساء والملوك؟
ما هذا العالم
الذى تحكمه القوة ؟
ما جدوى حبر الأقلام
والقنابل تسقط
على الأبرياء
عندما يصبح العالم
بحرا ملوثا بالدماء
كلنا نغرق
لا طوق نجاة
فى الأرض أو فى السماء .



د. منى حلمى

ابن رشد

هو الوليد بن أحمد بن رشد ولد فى قرطبة عام ١١٢٦ م وتوفى فى ١١٩٨ م وكان والده من مشاهير القضاة وقد أتيح لابن رشد أن يتلقى ألوانا مختلفة من الثقافات ، وبرع فى العلوم الشرعية والعقلية ، وتولى القضاء فى مدينة اشبيليه ثم فى قرطبة ، فشغل منصب أبيه وجده ، وأصبح يلقب بقاضى قرطبة .

عرفه العالم بشخصيته الفريدة .. فقد كان مفكرا حرا ، يجيد المساجلة والحوار ، ويأخذ الحياة مأخذ الجد ، فكان يثابر على البحث والدرس ، حتى قيل عنه : أنه لم يترك القراءة إلا ليلتين، ليلة وفاة أبيه ، وليلة الاحتفال بعرسه.

ويعد الفيلوس المسلم الوحيد الذى ترجمت أفكاره إلى لغات أجنبية وكان لايزال على قيد الحياة .

وقد شرح ابن رشد كتبا كثيرة لأرسطو أهمها : الطبيعيات والسماء والعالم والكون ، وما بعد الطبيعة والنفس ، ومن بين أهم كتبه «تهافت التهافت» الذى رد فيه على كتاب الغزالى (تهافت الفلاسفة) .

ودراسته للغة أفادته فى تكوين اتجاهه النقدى فى الفلسفة ، إذ أن الدارس لكتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد يلاحظ حسا نقديا ، فهو لايكتفى بمجرد رواية وترديد آراء غيره، بل يمحص هذه الآراء وينقدها نقدا دقيقا .

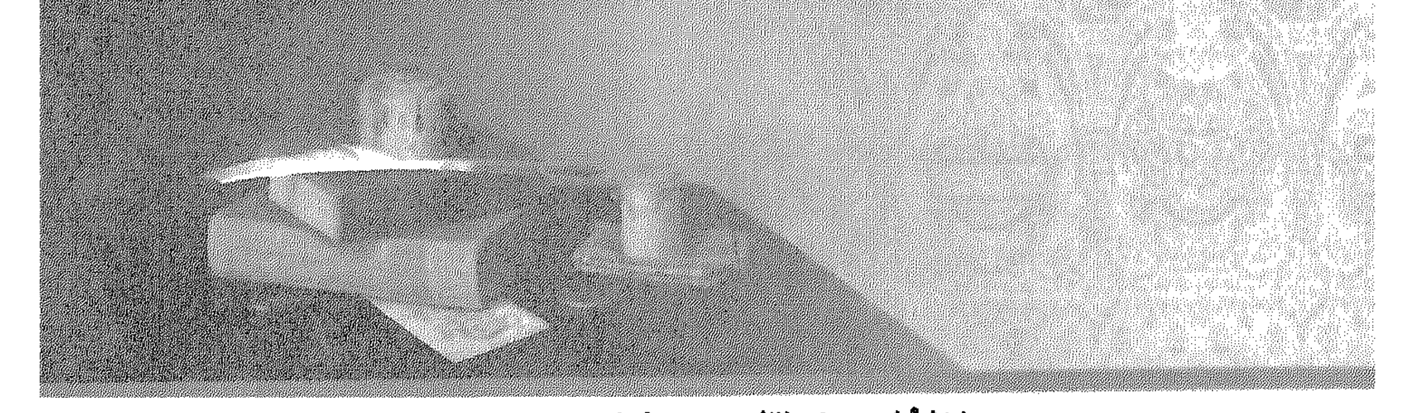
وابن رشد يؤمن بالمجتمع ، ولا يرى السعادة إلا فيه ، ويؤمن بأن سعادة الفرد فى سعادة المجموع ، ومصلحة الدولة يجب أن يكون لها الاعتبار الأول، وهى فوق مصلحة الفرد ، ولهذا فلاعجب إذا رأيناه ينتهز الفرص ليوجه حملاته على الحكام الجاهلين ، لأنهم لايقدرون الصالح العام .

وعلى الرغم من أنه حرص فى كتبه الفقهية والفلسفية على ألا يجابه الناس بكل ما يعرف ، وعلى أن يعرض آراءه بصورة غير مباشرة ، حتى لايصدم مشاعر قومه ، فقد هوجم بما لم يهاجم به مفكر قبله ، وألصقت به تهمة الإلحاد ، وأحرقت كتبه ، واستنكر الناس منه قوله بقدم العالم وإنكار حشر الأجساد . وما ذهب إليه من أن الله لايعلم عن الجزئيات أكثر مما يعلمه الحاكم عن جزئيات تنفيذ مرءوسيه لسياسته العليا .

لكن ابن رشد لم يسلم فى عصرنا هذا من القول بأنه ليس أعظم فلاسفة المسلمين وآخرهم ففى ذلك تهويل ومبالغة ، فلم يكن فيلسوفا ومجتهدا كالآخرين ، وهو ليس آخر الفلاسفة المسلمين ، فقد ظهر بعده فلاسفة عظام آخرون وكتابه «الكليات» محض كلام نظرى تقليدى .

ولم يكن ابن رشد كذلك عقلانيا عظيما ، بل ساعيا إلى المواءمة بين العقل والشرع كما فعل كثيرون من سابقيه ولاحقيه .





بين الشاعرين المتنبي وحافظ إبراهيم

قرأت المقال المهم الذى كتبه د.منير زهران فى هلال نوفمبر ٢٠٠٣ بعنوان «هل تعود الثقة إلى النظام الدولى» ووجدته يستشهد بهذا البيت :

رب ساع مبصر فى سعيه

أخطأ التوفيق فيما طلبا

ولكنه نسب البيت إلى أبى الطيب المتنبى ، والحقيقة أن البيت الشعرى هذا لشاعر النيل حافظ إبراهيم من قصيدة مشهورة تحت اسم «غادة اليابان» ومطلعها .

لا تلم كفى إذا السيف نبا

صح منى العزم والدهر أبى

وبعده مباشرة البيت الذى استشهد به صاحب المقال ، ويليه قوله هذا البيت الشهير :

مرحبا بالخطب يبلونى إذا

كانت العليا فيه السببا

ثم قوله :

إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى

ما أرى برقك إلا خلبا

والحقيقة أن مثل المتنبى لايختلط شعره بشعر حافظ إبراهيم وقصيدة حافظ إبراهيم نشرت فى الجزء الثانى من ديوانه ص ٧ من طبعة دار العودة فى لبنان

وتحياتي للكاتب الفاضل وللهلال

فرج مجاهد عبدالوهاب - عضو اتحاد الكتاب - شربين دقهلية

على الجارم المدافع عن العربية

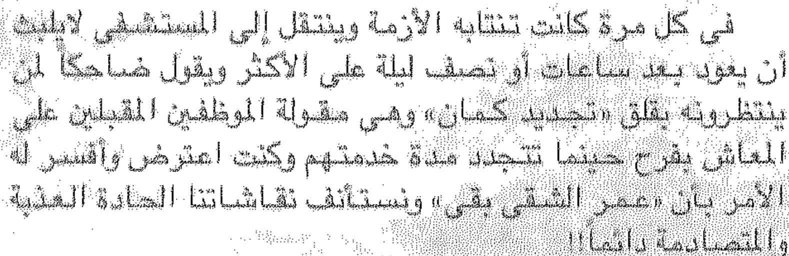
تحل فى هذه الأيام ذكرى رحيل الأديب والشاعر الكبير على الجارم الذى ولد فى ١٨٨١/١٢/٢٥ ورحل عن دنيانا فى الثامن من فبراير ١٩٤٩ وقد رثاه طاهر الطناحى مدير تحرير الهلال فى عدد مارس ١٩٤٩ بقوله «افتقد الأدب العربى - على غرة - أديبا من نوابغه ، وشاعرا من فحوله ، وصفيا أو فى أصفيائه .. أخلص للأدب، ووهب حياته لخدمته ، وامتزج بروحه ونفسه ، فكان أجمل طبعا وأصفى نفسا ، وأرق شعورا ، وكان الوفاء أبرز ما تحلى به فى صناعته وبين إخوانه وبنى قومه ، فأحبه عارفوه، وقدره كل من طالع آثاره البليغة ، وجاب رياض شعره الرائعة . وحظى بما فيها من جمال وجلال .

درس على الجارم على يد الشيخ محمد عبده ، ثم التحق بدار العلوم ، وأوفد ببعثة إلى إنجلترا عام ١٩٠٨ ، وفى عام ١٩١٢ عين مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف ، ثم كبيرا لمفتشى اللغة العربية ، وعضوا بمجمع اللغة العربية منذ إنشائه ، ثم عميدا لدار العلوم حتى بلوغه سن الستين عام ١٩٤٢ م .

وفى الهلال عدد أكتوبر ١٩٨٦ يقول د. رجب البيومى عنه «وحين انتقل شوقى إلى دار الخلد ، تألق الجارم شاعرا ، كما تألق عالما ، فصار ممثل مصر فى محافل العروبة ..» .

لقاء عند السد العالي

بقلم: محمد عودة

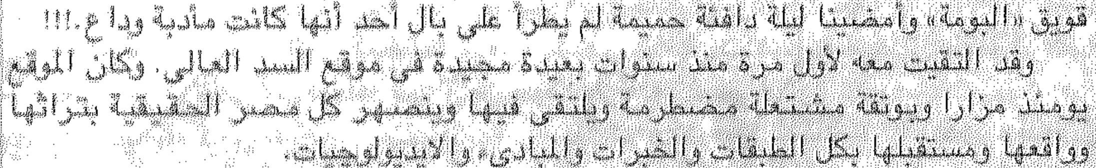




كمال القلش

فى كل مرة كانت تنتابه الأزمة وينتقل إلى المستشفى لايلبث أن يعود بعد ساعات أو نصف ليلة على الأكثر ويقول ضاحكاً لمن ينتظرونه بقلق «تجديد كمان» وهى مقولة الموظفين المقبلين على المعاش بفرح حينما تتجدد مدة خدمتهم وكنت اعترض وأفسر له الأمر بأن «عمر الشقى بقى» ونستأنف نقاشاتنا الحادة العذبة والمتصادمة دائما!!

وقبيل أسابيع أقام لنا بدون مناسبة مأدبة عشاء «بورجوازية» فاخرة وتسابقت شقيقاته الثلاث وملائكته الحراس فى إعدادها ولما سألناه عن المناسبة قال ببساطة «استعراض قوة .. وكرم شراقوه». وكنت انتمى معه إلى نفس المحافظة التى تتميز بعنصرية خاصة ويتناسى أهلها أنهم عزموا القطار وباعوا الثور لأم قويق «البومة» وأمضينا ليلة دافئة حميمة لم يطرأ على بال أحد أنها كانت مأدبة وداع.!!!



وقد التقيت معه لأول مرة منذ سنوات بعيدة مجيدة فى موقع السد العالى. وكان الموقع يومئذ مزارا وبوتقة مشتعلة مضطرمة ويلتقى فيها وينصهر كل مصر الحقيقية بتراثها وواقعها ومستقبلها بكل الطبقات والخبرات والمبادىء والايديولوجيات.

وكانوا ثلاثة من الكتاب الشبان أفرج عنهم بعد اعتقال طويل ، وبعد المصالحة الثورية من كل الفصائل وقرروا إعادة اكتشاف انفسهم والغوص فى الواقع وتمييز ماينفع الناس ويمكث فى الأرض.

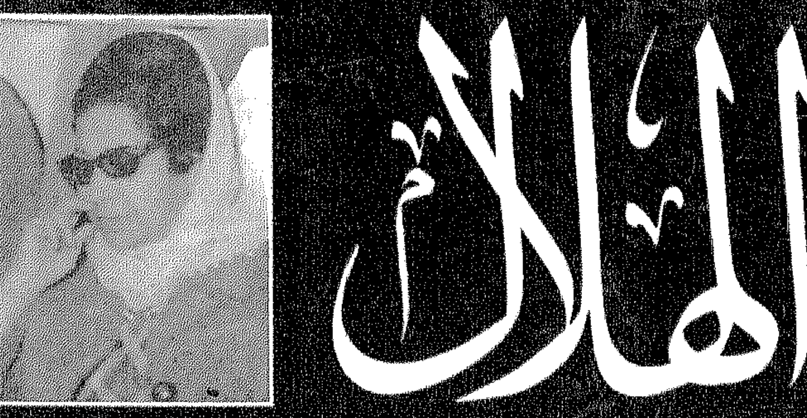
وخرج كتاب فريد لثلاثة كتاب شبان «عن السد العالى» والمشروع الذى غير تاريخ مصر وحياة شعبها والذى وفر أهم حاجياتها الماء والطاقة. وكانوا «كمال القلش» و«صنع الله إبراهيم» و «رءوف سعد». ولاشك سوف يبقى كتابا متميزا وأحد أهم المراجع عن مصر والمصريين!

وخلال أيام السجن ولياليه الطويلة كتب كمال القلش ورفيقه على ورق البافرة الذى نلف فيه السجائر قصة معركة بورسعيد التى عاشها وشارك فيها وسوف يظل أفضل ماكتب عن معركة أجهزت على الامبراطورية البريطانية وأنهت خمسمائة عام من عصر السيادة الأوروبية وكان بطلها شعب بورسعيد ومنهم طفل لم يتجاوز العاشرة وقوات الجيش التى حققت ثورة يوليو واستطاعا الحفاظ على المخطوط الفريد والخروج به ونشره واضافا بردية عصرية إلى «البرديات» النادرة التى سجلت تاريخ مصر وامجد صفحاته ، وفجأة غادرنا كمال القلش ببساطته وأصالته وبراءته وصلابته ودفئه الفكرى والروحى .. وحتى نلقاه.

ليرحمنا ويرحمه الله.



المعلم
أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
العب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفيه
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل



مارس ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

خفايا علاقة أم كلثوم ورامي

- آفاق جديدة أمام العمل العربي
- محنة المخرجات في عالم معاد للنساء

مصر من نافذة قطار



لوحة وفنان

ثرثرة على المدخل

القاهرة - ١٨٧٣

للفنان الإنجليزى: جون فريدريك لويس

زيت على خشب (٣٠×٢٠ سم)

محفوظة في متحف وايت وورث بجامعة مانشيستر

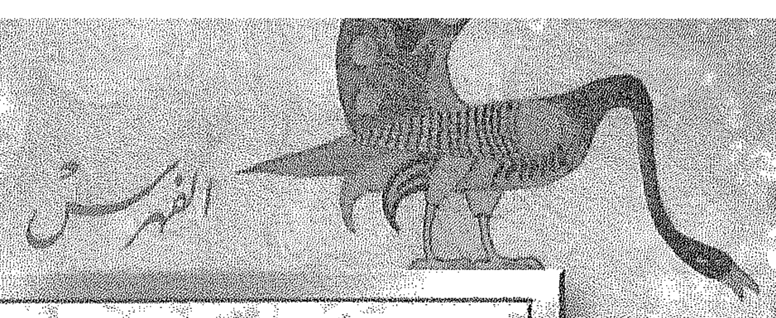
الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة محرم ١٤٢٥ هـ - مارس ٢٠٠٤م

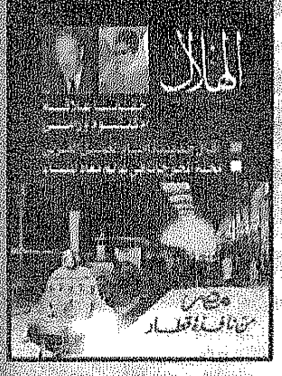
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب. ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت.٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ ,١دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



الفهرس

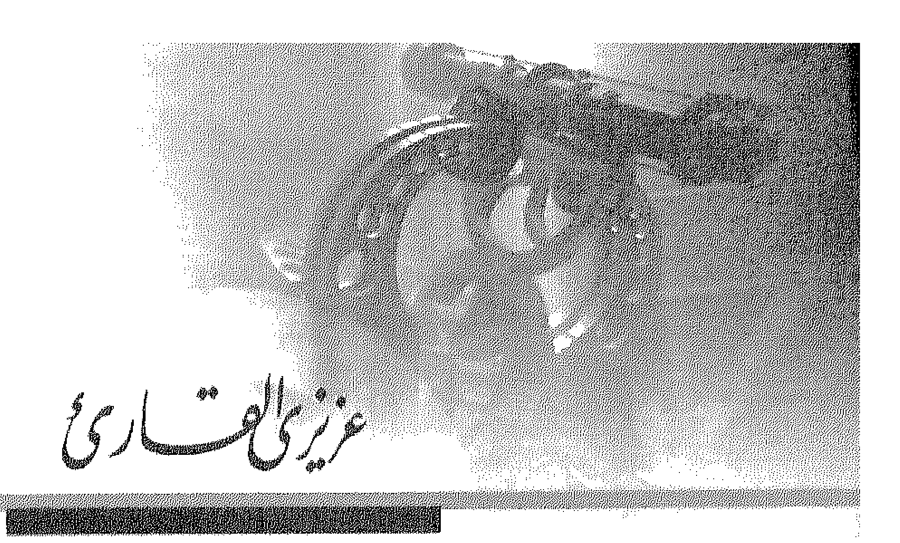


تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا، باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الموسيقى والغناء
«جزء خاص»

الأبواب الثابتة



العدل والحرية

ونحن نحتفل بذكرى عميد الأدب العربى د. طه حسين، ومع ندوة المجلس الأعلى .. طه حسين .. بعد ثلاثة عقود، نعيد قراءة بعض تراثه المجهول ، فقد كتب مقالا مهما فى يوليو ١٩٤٦، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، يتنبأ خلاله بالصراع الفكرى حول العدل والحرية .. وأفضل تحية لذكراه أن نعيد نشر فقرات منه وهو قطرة من بحر تراثه العميق الذى لا ينفد .

مسألة واحدة تلقى فى كل مكان متحضر، ويعجز الناس عن أن يجدوا لها حلا حاسما، أو جوابا قاطعا ساطعا .

أيمضى العالم إلى تحقيق العدل.. أم إلى تحقيق الحرية ؟! هذه هى المسألة، أو قل هى المشكلة التى تسلطت على العقول واستأثرت بها. ثم استأثرت بالتفكير السياسى كله فى أواخر القرن الماضى ، وثارت بسببها الحرب العالمية الثانية ، وصبت على العالم ما صبت من الشر والهول .

وانتهت الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية دون أن تجد إحداهما جواباً لهذه المسألة أو حلا لهذه المشكلة . وهى مسألة قديمة عرفها الإنسان منذ عصور بعيدة. ولا شك أن الفلاسفة قد استقصوا أمر الصراع بين الحرية والعدل فى أطوار الرقى الانسانى على اختلافها. ثم انتهوا الى ما انتهى اليه العالم من حيرة، فمنهم من آثر الحرية ،لأنها تحقق كرامة الانسان، وفريق آثر العدل لأنه يرضى حاجة الإنسان الى المساواة ، ويتيح له حظاً من الانصاف يعصمه من استعلاء القوى على الضعيف، وتحكم الغنى فى الفقير ، وتفوق القادر على العاجز .

وفريق آخر حاول ان يلائم بين العدل والحرية ، فلم يبلغ من هذه المحاولة شيئا ذا خطر ، لأن العدل المطلق والحرية المطلقة لايستطيعان أن يلتقيا إلا إذا قيدت الحرية وقيد العدل ، وانتقص كلاهما من أطرافه فشوه خلقه تشويها ما .

ومن الخطأ أن نظن ان هذا الصراع بين الحرية والعدل مقصور على بيئة إنسانية دون بيئة ، أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان ، وإنما الواقع الذى نستطيع أن نلاحظه فى كل وقت هو أن هذا الصراع قائم فى البيئات الإنسانية المثقفة ، وفى أجزاء العالم المتحضر، يقوى ويعنف حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة وتميل إلى الخمود ، ولكنه موجود دائما ومتصل على كل حال. ويكفى ان ننظر الى العالم المتحضر الذى نعيش فيه اليوم لنتبين ان الصراع بين الحرية والعدل

عنيف إلى اقصى غايات العنف في اوروبا وأمريكا.. والمهم ان نلاحظ مظاهر هذا الصراع، لنتبين الى أى طريق نحن مسوقون، وإلى أى غاية نحن مدفوعون .

فينبغي للشرق أن يوطن نفسه على أنه جزء من هذا العالم المتحضر الحديث الذى يضطرب أشد الاضطراب بهذا الصراع العنيف المتصل بين الحرية والعدل، متأثر سواء أراد أو لم يرد بهذا الصراع وبما يكون له من أثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والخير ان يوطن نفسه على ذلك وأن يعد له عدته .

وحسبه ان يعلم أن هذا ليس مقصوراً عليه، وإنما هو المصير المحتوم لكل جزء من أجزاء العالم بعد أن ألغيت مسافات الزمان والمكان ، فهو يتجاوز الدول ذات الحول والطول الى الشعوب التى تمثلها هذه الدول، فالشعوب نفسها مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، يريد بعضها ان يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعا للحرية لا متبوعاً، ويريد بعضها الآن أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافلة تتحقق إن سمح العدل بتحقيقها، ويضحى بها إذا لم يكن بد من التضحية بها فى سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس.

ثم تختلف الشعوب فى حياتها الداخلية نفس هذا الاختلاف بين الدول، فتكون فيها الاحزاب المتباينة التى يذهب بعضها مذهب الحرية الكاملة، ولا يتردد فى التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية، ويذهب بعضها مذهب العدل الشامل، ولا يتردد فى إهدار الحرية إذا اقتضى تحقيق العدل إهدارها .

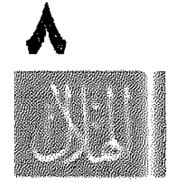
إذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة اخرى، ويتخذ الدين أساسا لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة ، وترقى إلى المثل العليا، وتؤمن بأن فى الانسان قوة لا تستطيع ان تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه فى الرقى، إلا إذا اتصلت بمصدرها الأول عن طريق الإيمان والثقة والأمل، أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب، كان فى نشوئه الخير كل الخير ، لأنه يصلح ما أفسدت الثورة، فيرد الى الدين مكانته فى القلوب وسلطانه على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ، ويكفل لهم فى الوقت نفسه سعيا متصلا إلى تحقيق العدل فى الارض . هذا بعد أن اضطرتهم أحداث القرن الماضى الى التفكير فى أن العلم ليس كل شيء ، وفى أن العقل ليس كل شيء، وفى أن الانسان لا يتألف من العقل والجسم فحسب، ولكن له ملكات أخرى لا ينبغي أن تهمل وحاجات أخرى لا ينبغي أن تزدرى . ومن أهم هذه الملكات ملكة الشعور، ومن أهم هذه الحاجات الحاجة الى الإيمان بقوة قدسية مديرة لشئون الانسان تسمو به الى الخير وتنهاه عن الشر، وتنأى به عن الموبقات . فالإنسانية بين اثنتين : إما أن تريد الشفاء ، فتسلك اليه طريقه المستقيمة وإما أن تؤثر المرض، فتشقى بآلامه وأثقاله حتى يدركها الفناء، وكذلك ستظل الانسانية مضطربة بين هذين المذهبين، مذهب العدل وما يقتضى من وسائل قد تكون منكرة فى كثير من الأحيان، ومذهب الحرية وما يستتبع من نتائج ليست أقل من وسائل العدل فكرا ، ومن يدرى لعل يوما من الأيام، قريبا أو بعيدا، يرى ذلك الفيلسوف الذى يبتكر للإنسانية مزاجاً معتدلاً من الحياة يتحقق فيه العدل من غير عنف، وتتحقق فيه الحرية من غير عنف، وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ، ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولاشقاء ■

الاحتلال.. النهايات والبدايات

صعود وسقوط الاحتلال
بين اللورد كيرزون والسفير بريمر

بقلم
جميل مطر

لم يستقر الرأى بعد بين علماء السياسة والاستراتيجية على توصيف الحالة الإمبراطورية الراهنة . توجد شواهد على أن العالم يعيش فى ظل نظام اكتملت له شروط الحالة الإمبراطورية، وشواهد أخرى تؤكد على أن العالم مازال يعيش فى ظل نظام دولى وإن تغيرت فيه بشكل جذرى موازين القوة، حيث أصبحت أغلب القوة تتركز الآن فى يد دولة واحدة وهى الولايات المتحدة . أما الذين يعتقدون أن الحالة الإمبراطورية قائمة فيختلفون حول تقييم هذه الحالة، هل الإمبراطورية الأمريكية تتقدم أم تتحسر؟ . بمعنى آخر هل هذه الديمقواطية حققت أهداف منظريها فى الولايات المتحدة ومنفذيها فى الخارج ؟ أم أنها لم تحقق بعد أكثر من زيادة النفوذ وإن بتكلفة باهظة ؟.



اللورد كيرزون　　صدام حسين　　معمر القذافى　　بول بريمر

رأينا مثلا فى الآونة الأخيرة كيف أن الولايات المتحدة واجهت، ومازالت تواجه صعوبات جمة فى محاولتها إجبار فرنسا بشكل أساسى، وأوروبا الغربية بشكل عام ، على التخلى عن مواقعها فى النظام الدولى والتراجع خطوات واسعة نحو مواقع متأخرة أبعد ما يمكن عن الموقع الذى تحتله الولايات المتحدة الأمريكية ، رأينا أيضا زعماء أمريكا اللاتينية يتصرفون فى القمة التى انعقدت بالمكسيك فى شهر يناير الأخير بشكل أقرب إلى المواجهة منه إلى التعاون مع الولايات المتحدة ورأينا أيضا كيف أن الولايات المتحدة خرجت من المؤتمر خاسرة بسبب هذه الدول التى أعلنت صراحة لحتجاجها على مطلب أمريكا من المؤتمر التركيز على دعم إجراءات الأمن والحرب ضد الإرهاب، ومطلبها تطبيق سياسات جائزة لتنفيذ مبادئ حرية التجارة من طرف واحد . احتجت معظم دول أمريكا اللاتينية على إغراق أسواقها بالسلع التى تدعمها الحكومة الأمريكية خلافا لمبادى حرية التجارة الدولية وقواعد منظمة التجارة العالمية .

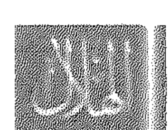
عدم إغضاب أمريكا

ورأينا، ومازلنا نرى، كيف أن العلاقات بين الولايات المتحدة ومنطقة الشرق الأوسط تتردى وبسرعة إلى مستوى متدن للغاية وبخاصة بعد احتلال القوات الأمريكية للعراق فى الربيع الماضى . تقول جميع المؤشرات

أن معظم الدول العربية تتصرف كما لو كانت قررت عدم إغضاب أمريكا خوفاً من تكرار ما حدث للعراق معها، أو خشية عقوبات جسيمة تفرضها عليها واشنطن ، بل أن الرئيس بوش اعترف في خطاب حال الأمة الذى ألقاه فى شهر يناير ٢٠٠٤ بأن الحملة العسكرية فى العراق جعلت ليبيا تتحول عن سياساتها الداخلية والخارجية على حد سواء . وعلى كل حال فإن موضوع ليبيا كغيرها من الدول العربية التى اتخذت قراراً أطلق عليه محلل سياسى عربى تعبير الانبطاح الاستباقى ليس دليلا كافيا على أن الإمبراطورية الأمريكية فى أوج قوتها فعلاقات العرب بالإمبراطوريات الأجنبية لم تكن دوماً أفضل مقياس لصعود أو إنهيار تلك الإمبراطوريات . وفى نفس الوقت تدل الحملات الإعلامية الأمريكية وتصريحات المسئولين الأمريكيين على أن هناك توترات شديدة تمر فيها العلاقات الأمريكية - العربية ، هذا بالإضافة إلى التصاعد الهائل فى الغضب الذى تشعر به الشعوب العربية بسبب التدخلات الأمريكية فى شئون الدول العربية وموقفها المتغطرس والمنحاز بعناد فى الصراع العربى - الإسرائيلى .

يذهب محللون للسياسة الدولية إلى القول بأن ما نشهده ويعتبره البعض حال إمبراطورية صاعدة ما هو فى الحقيقة إلا محاولة أمريكية للمبالغة فى استعراض عناصر القوة والنفوذ لديها . ويدللون على ذلك بالإعلان بصراحة عن حملات الضغوط التى تمارسها واشنطن ضد جميع دول العالم وبخاصة دول أوروبا الغربية والدول العربية والاتحاد الروسى . ويتساءل هؤلاء ألا يمكن أن تكون المبالغة فى استعراض عناصر القوة تهدف إلى الإيحاء بوجود حال صعود إمبراطورى، وإن كان واقع الحال فى السياسة الدولية يقول بغير ذلك .

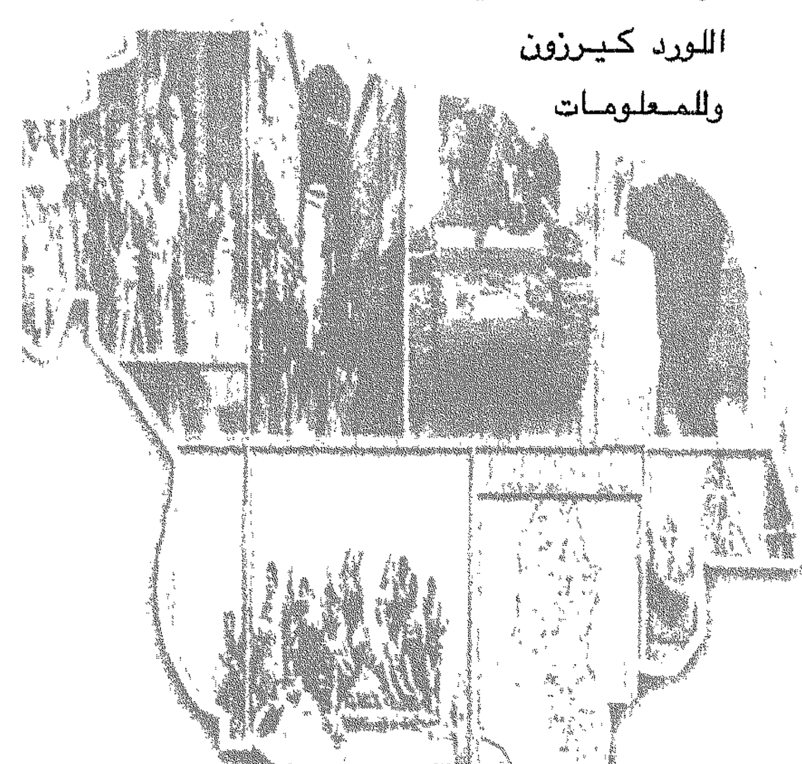
لذلك تتعدد المقارنات التى يقيمها بعض الباحثين والكتاب بين الحالة الراهنة للإمبراطورية الأمريكية وبين إمبراطوريات أخرى سابقة عليها تركزت معظم المقارنات على الإمبراطورية الرومانية باعتبار أن القائمين على الإمبراطوريتين الرومانية. والأمريكية اهتموا إلى جانب أمور أخرى بإعلاء دور القانون والتبشير بنسق قيم معين لترقية الهمج فى حال الإمبراطورية الرومانية، وتأديب وتهذيب ما يطلق عليه الأمريكيون الدول المارقة والفاسدة والإرهابيين والمتشددين الإسلاميين، ودول تمارس



الإسلام بطريقة لا تعجب الولايات المتحدة . يهتمون أيضاً بالإمبراطورية الإسلامية بالزعم أنها اعتمدت أسلوب استخدام السيف من أجل التبشير بعقيدة ومبادئ معينة . أما الاهتمام بالإمبراطورية البريطانية فإنه وإن كان يأتى فى مرتبة متأخرة فى هذه المقارنات، ربما بسبب اختلافات شديدة بين النهجين الأمريكى والبريطانى فى أساليب التوسع وحكم الشعوب الأخرى، إلا أننا لا ننسى أنه فى الحالتين لعبت رسالة ما دور المبرر الذى استخدمه منظرو الاستعمار البريطانى ومنظرو التوسع الإمبراطورى الأمريكى وإن اختلفت المسميات .

آخر المستعمرين الإنجليز

من بين هؤلاء المحللين الذين اهتموا بالمقارنة بين الإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية البريطانية الكاتب البريطانى الكبير «ديفيد جيلمور» والمحلل المعروف «إيان بوروما»، الأول كتب كتابا بعنوان «كيرزون: رجل الدولة الإمبريالى» ويقع فى ٦٨٤ صفحة . والثانى، أى بوروما، قام بعرضه والتعقيب عليه فى واحدة من أشهر الدوريات المتخصصة فى عروض الكتب . خلصت من قراءتى إلى نقاط استحقت التوقف عندها ثم الكتابة عنها . فقد اختار جيلمور شخصية كيرزون باعتباره آخر الرجال «العظام» فى تاريخ الاستعمار البريطانى حين كان نائبا للإمبراطور فى الهند . وهو الرجل الذى عاصر السنوات الأخيرة من عصر الاستعمار الغربى التقليدى . قرأنا الكثير فى فترة أو أخرى عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة التى أدت إلى انحسار الإمبراطورية البريطانية، وقرأنا العديد من الكتابات التى ناقشت خطوات التراجع فى هذه الإمبراطورية وكيف تنازلت لندن عن جزء بعد آخر من إمبراطوريتها التى لم تكن تغرب عنها الشمس . لكن أعجبنى عرض بوروما وبخاصة ما أورده من أسباب سقوط الإمبراطورية البريطانية ، استنادا إلى دراسته المتعمقة لحياة اللورد كيرزون والمعلومات



الوفيرة التى حصل عليها من الكتاب . أعجبنى أيضا أنه كان يكتب هذه الأسباب وعينه على الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلتها الراهنة...

سيكون من الصعب على قارئ يقرأ العرض الذى أعده بوروما أن يميز بين ما كتبه كتحذير للولايات المتحدة أو إنذار عساها لاتكرر أخطاء الإمبراطورية البريطانية لقد بدا انحسار الإمبراطورية البريطانية، حسب رأى بوروما، وربما جيلمور فى أعقاب الزيادة الكبيرة والمفاجئة فى أعداد القتلى من الضباط البريطانيين الذين سقطوا دفاعا عن الإمبراطورية أو عن رسالة الرجل الأبيض . هؤلاء الضباط فى غالبيتهم العظمى كانوا من أبناء الطبقة الارستقراطية الحاكمة فى بريطانيا ، وهى الطبقة التى اعتنقت الأفكار الاستعمارية وكانت الأكثر استفادة من الإمبراطورية البريطانية . ويبدو أن الزيادة فى أعداد القتلى من أبناء هذه الطبقة دفعتها للتفكير فى ضرورة الانسحاب من المناطق المتوترة وتهذيب خريطة الإمبراطورية . من ناحية أخرى كانت هذه الطبقة ذاتها تقترب بسرعة من نهايتها كطبقة حاكمة مسيطرة بسبب النهضة التعليمية الكبيرة التى شهدتها الجزر البريطانية فى أواخر القرن التاسع عشر، وبسبب التحولات الهائلة فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية . أدت هذه التطورات جميعها إلى بزوغ طبقة جديدة بدأ أبناؤها فى احتلال مراكز مهمة فى البيروقراطية البريطانية وفى أجهزة الجيش . وكان واضحا أن الطبقة الجديدة لم تكن على نفس درجة الإيمان بالفكر الاستعمارى والدور الإمبراطورى لبريطانيا .

من ناحية ثالثة حدث أن انتبه أبناء الطبقة الجديدة إلى التغيرات العالمية المتسارعة التى حدثت فى الفترة منذ مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبعضها كان بمثابة ثورة حقيقية فى النظام الدولى . إذ انتصرت اليابان على روسيا فى حرب ١٩٠٥، وهو الانتصار الذى هز أركان الإمبراطوريات الغربية فى آسيا خصوصا ، وفى أعقابه تصاعدت حدة المقاومة الوطنية فى كافة أرجاء العالم ضد بريطانيا . لقد اعتبرت الشعوب الآسيوية أن هزيمة دولة أوروبية على أيدى دولة آسيوية كافية لنفى مزاعم تفوق الرجل الأبيض وحقه فى فرض هيمنته على الشعوب الأخرى . ومن بين الشعوب التى تأثرت بهذا الانتصار

شعب مصر الذى استأنف على الفور نضاله الطويل ضد الوجود الاستعمارى البريطانى فى مصر.

فى نفس الوقت تقريباً نشبت الفوضى فى أرجاء روسيا ودول كثيرة فى أوروبا الشرقية، وهى التى مهدت للثورة البلشفية وتولى الشيوعيين الحكم فى روسيا . تصادف أيضا خلال هذه المرحلة أن برزت الولايات المتحدة كقوة عالمية كبرى فى أعقاب مساعدتها بريطانيا وفرنسا لإنهاء الحرب فى أوروبا . عندئذ تأكدت الطبقة الاستعمارية الحاكمة فى بريطانيا أنه ما كان ممكناً الحرب ضد الألمان بدون اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية وتأكدت أن الدفاع عن الإمبراطورية بالقوة البريطانية وحدها لم يعد كافيا ولا جائزا . ومنذ ذلك الحين لم تتخل بريطانيا عن هذا الموقف إلى أن جاء يوم تجاوزت الولايات المتحدة تقاليد الطرف المساعد ودخلت فى مواجهة صريحة مع الإمبراطورية البريطانية وكانت هذه المواجهة آخر تحدى فى حياة هذه الإمبراطورية .

المشهد قبل الأخير

أرى كثيرا من نقاط الاختلاف بين هذا المشهد قبل الأخير فى حياة الإمبراطورية البريطانية وبين المشهد الراهن فى حياة الإمبراطورية الأمريكية . فالشريحة الأعلى من الطبقة الوسطى الأمريكية مازالت فى قمة سطوتها وهيمنتها على النظام السياسى الأمريكى كما أن هذا الشريحة استفادت من التطورات الدولية ابتداء من انهيار الشيوعية وفشل كثير من تجارب التنمية على أسس اشتراكية فى العالم الثالث . استفادت كذلك من الصحوة الدينية التى رافقت انحسار «القومية» وتدفقات أفكار ونظريات العولمة وممارساتها وفى أقل من ثلاثين عاما استطاعت هذه الشريحة إقامة تحالف عقائدى مع التيار المتشدد الصاعد فى الكنائس الإنجيلية فى وسط وجنوب الولايات المتحدة . وأظن أن هذا التحالف هو الذى ضاعف من عدوانية التوسعية الأمريكية إذ أنه بعد أن كانت رسالتهم نشر الديمقراطية بالوسائل السياسية السلمية ، وجد الإمبراطوريون فى الولايات المتحدة فى معاداة الإسلام وفرض الحصار عليه أفضل وأسرع وسيلة لتجديد الإمبراطورية وحشد أنصار جدد لها !

من ناحية أخرى ، نجحت الولايات المتحدة فى تحويل مجرى المقاومة ضدها فى جميع الأقاليم التى تهيمن عليها حين وصمتها بالإرهاب ، وجعلتها تبدو تيارا



عالميا منظما يهدف إلى تدمير الحضارة الغربية لذلك بينما لم نجد فى عصر الإمبراطورية البريطانية حكومة فى لندن ترفع شعار من ليس معنا فهو ضدنا ، نجد فى الولايات المتحدة من يضع نظرية سياسية دينية إمبراطورية ويطلق عليها صدام الحضارات ، وآخر يقرر أن التاريخ انتهى لصالح ما تطرحه أمريكا من فكر وسياسة وممارسات . ومن اجتماع النظريتين تدفقت دماء جديدة فى الفكر الإمبراطورى الأمريكى إذ أصبح مقنعا لشرائح كثيرة فى الطبقة الحاكمة الأمريكية مبدأ «التوسع العقائدى الاستباقى» . وعلى عكس الحال فى عصر السلام البريطانى حين كانت المقاومة الوطنية متواصلة فى معظم المستعمرات ، تسابقت دول كثيرة فى عصر السلام الأمريكى لطرح «استسلام استباقى» تفادياً لمواجهة مباشرة حتمية على عمليات التوسع الإمبراطورى الأمريكى . يدعونا للتأمل فى هذا المشهد صورة إمبراطورية تستبق المقاومة ضدها بالغزو والاحتلال والحصار أحدها أو كلها معا، وصورة دول وتيارات ومذاهب تستبق هذه الممارسات الإمبراطورية بالاستسلام والخضوع والانسحاب على الذات، أحدها أو كلها معاً، وصورة «مقاومة معولمة» تتخذ صوراً متعددة وبعضها بالغ العنف.

دول بريمر .. محافظ بيروقراطى

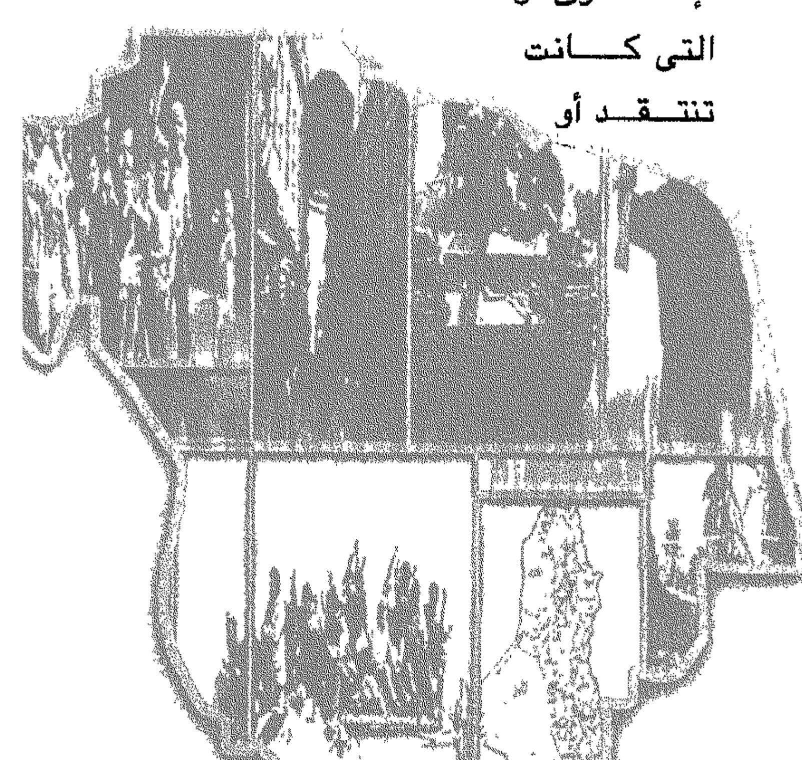
وفى أجزاء متعددة من العرض يناقش بوروما شخصية اللورد كيرزون كما ورد فى كتاب جيلمور. إلا أنه على غير المتوقع لم يعقد مقارنة واحدة بين كيرزون والسيد بريمر. ومع ذلك فبالقراءة المتأنية قد نفهم أنه أراد من القارئ أن يقوم بهذه المقارنة بنفسه. فمثلاً عندما يتحدث عن أراء كيرزون الاستعمارية لا يستطيع القارئ إلا أن يقارن رغماً عنه بين كيرزون وبريمر. ينقل جيلمور ومعه بوروما عن اللورد كيرزون فى كتابه «فارس والمسألة الفارسية» والصادر عام ١٨٩٢ والذى مازال يعتبر من أهم المراجع البريطانية وبخاصة الاستعمارية عن بلاد فارس، يقول: إن أساليب حياة الغرب قد لا تناسب الشعوب غير الغربية. وقد وقف كيرزون ضد كثير من المفكرين البريطانيين الذين حاولوا التبشير بطرق الحياة الغربية لتقلدها وتمارسها الشعوب الآسيوية وشعوب المستعمرات البريطانية فى كل مكان. كان يعتبر هذه المحاولات غير مجدية لا لشئ إلا لأن «للآسيويين طرقهم فى الحياة وهى طرق



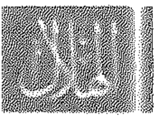
لا تشبه فى قليل أو كثير الطرق الغربية»، وإن إقناع شعوب المستعمرات بأن تمارس ثقافة الغرب وأساليبه فى الحياة يعتبر مضيعة للوقت. ولكنه يقول من ناحية أخرى إن الفرد الآسيوى سيفضل دائماً حاكماً آسيوياً يعامله معاملة غير طيبة عن حاكم أوروبى يعامله معاملة طيبة. أتصور أن بوروما عندما ينقل هذا عن كيرزون يريد أن يلفت النظر إلى آراء كثيرة تتردد حالياً على ألسنة مسئولين أمريكيين من أنصار الإمبراطورية ودعاة نشر مبادئها. ولا ننسى بأى شكل أن كيرزون هو سليل الطبقة الأرستقراطية التى كانت تلقن أبناءها فى مدرسة إيتون الشهيرة رسالة الإمبراطورية، وهى الرسالة الأقرب فى كل التاريخ الإمبراطورى إلى الرسالة التى بشرت بها روما.

تلقى بول بريمر تدريبه وتعليمه فى مدارس وجامعات نخبة القادة فى أمريكا. درس فى جامعتى ييل ومدرسة الإدارة فى هارفارد وقضى بعض الوقت فى معهد الدراسات السياسية والدولية فى باريس، أى فى معهد تفريخ النخبة ورجال الدولة فى فرنسا. وقضى فى السلك الدبلوماسى ثلاثة وعشرون عاما، إلا أنه لم يتول منصبا رئيسيا إلا مرة واحدة حين عينته الخارجية الأمريكية سفيرا لدى حكومة هولندا. بمعنى آخر لم يكن بريمر بارزا مثل جورج كينان وجالبريث أو أيكنز. المؤكد فى كل الأحوال أنه لم يكن ليبرالى الاتجاه. كان محافظا وبيروقراطيا ملتزما. المؤكد أيضا أنه لم يؤلف كتابا على مستوى كتاب بلاد فارس الذى كتبه اللورد كيرزون. كتابه الوحيد يحمل اسمه مع اسم شريك له فى مؤسسة التراث الأمريكى، إحدى أكبر قلاع الفكر الإمبراطورى الأمريكى، ولم يثر نشره اهتماما يذكر.

يكشف بوروما فى عرضه للكتاب عن حياة كيرزون أن العهد الإمبراطورى البريطانى كان غنيا بالأفكار سواء تلك التى كانت تجدد فى الفكر الإمبراطورى الإستعمارى أو تلك التى كانت تنتقد أو



تحاول على الأقل تحسين بعض عيوبه وقد ازداد هذا الوضع وضوحا عندما تعددت خلفيات رجال البيروقراطية الإمبراطورية فى لندن، إذ جاء منهم من كان يؤمن بأنه من الضرورى الاستفادة من تقاليد وتراث الشعوب الخاضعة للإمبراطورة البريطانية لتضيف بتراثها وحكمتها إلى مجد الإمبراطورية وإلى عملية التنويه والنهضة فى الغرب. كيرزون كان مؤمنا إيمانا راسخا بأن وظيفة المستعمر البريطانى فى الخارج هى حماية النظام البريطانى ولعله فى هذا لا يختلف عن بول بريمر حاكم العراق الأمريكى. كان مثل غيره من أبناء الطبقة الارستقراطية البريطانية يتحلى بدرجة عالية جدا من الغطرسة. ولكن غطرسته لم تقتصر على نظرته لشعوب المستعمرات، وإنما شملت كل ما هو ليس بريطانيا. كان كيرزون ينتقد الفرنسيين ويعتبرهم فى مستوى متدن بالمقارنة بالبريطانيين. كان يسخر من المطبخ الفرنسى الذى يستخدم الدسم، ومن الثقافة الفرنسية التى كان يطلق عليها الثقافة المخنثة. هنا لا يختلف كيرزون كثيرا عن عدد لا بأس به من أفراد النخبة السياسية الحاكمة الأمريكية الذين يسخرون من البطاطا المقلية التى أخذت اسم البطاطا الفرنسية، ومن كل ما هو فرنسى، ويشهرون بسمعة فرنسا وتاريخها فى أجهزة الإعلام الأمريكية. كيروزن من ناحية أخرى كان يكره المثقفين من أهالى المستعمرات. وكان بشكل خاص ينتقد شعب البنغال بمسلميه وهندوسيه، إذ اشتهرت البنغال بارتفاع نسبة التعليم وبرز بين البنغاليين عدد كبير من المثقفين والمفكرين. وقد انتقم كيروزن منهم انتقاما شديدا عندما أمر بتقسيم البنغال بين شرقية أى مسلمة وغربية أى هندوسية واستمر هذا الانقسام إلى يومنا هذا فبنغلاديش هى البنغال الشرقية التى رسم حدودها كيرزون منذ قبل الاستقلال بخمسين عاما أو أكثر ويقال: إن كيرزون كان يتكبر على صغار الموظفين فى البيروقراطية البريطانية العاملة فى الهند رغم أن الكل يعرف أن البيروقراطى الصغير، هو الذى حافظ على نسيج الإمبراطورية البريطانية فى كافة أنحاء العالم لأنه كان يعيش بين الشعب ويتعاطف معهم ويحل مشاكلهم ويسوى نزاعاتهم، هؤلاء كانوا ضد تقسيم الهند وإن كانوا لم يستطيعوا الوقوف فى وجه كيرزون الذى اشتهر فى الفكر الإمبريالى البريطانى بتخصصه

فى رسم الحدود بين الأعراق والطوائف. وهو التخصص الذى كان السبب فى نشوب حروب لا نهاية لها فى شبه جزيرة الهند ومناطق أخرى من آسيا.

نائب الملك

هنا أيضا يختلف بريمر عن كيرزون فالحاكم الأمريكى فى العراق لا يملك السلطات المطلقة التى كان يحوز عليها الحاكم البريطانى للهند. لذلك نتجاوز حين نطلق على بريمر لقب نائب الملك، أو شاه العراق، فالرجل تحد من قدرته على الحكم عديد من الاعتبارات لم تكن موجودة فى زمن كيرزون. فى الهند كان كل كائن بريطانى أو هندى، عسكريا كان أم مدنيا، يخضع لكيروزون. فى العراق يختلف الوضع. فالعسكر الأمريكيون يتلقون تعليماتهم من القيادة العسكرية فى قطر والموظفون العراقيون ينفذون من أوامر الحاكم بريمر ما ينسجم مع أوامر شيوخ عشائرهم أو توجهات مرجعياتهم الدينية أو القومية. ولا شك أن نقص الخبرة لدى بريمر وضعف مستوى مستشاريه يضعان قيدا على كفاءته وقدرته على تسيير أمور الحكم فى العراق. إذ بينما كانت الهند قلب الإمبراطورية وركيزة التفكير السياسى الإمبراطورى لا تحتل العراق أى موقع مهم فى الفكر الإمبراطورى الأمريكى، بدليل التخبط الذى تعانى منه الإدارة الأمريكية بسبب ندرة المعلومات عن العراق وعدم الدراية الكافية من جانب الأكاديميين ورجال الاستخبارات الأمريكية بشئون العراق الداخلية، بل المنطقة كلها، ومع ذلك يكاد لا يخلو خطاب لمسئول أمريكى من التلميح إلى أن واشنطن تمهد لأن يصبح العراق قلب الإمبراطورية الأمريكية فى الشرق الأوسط الكبير.

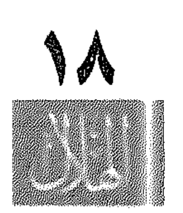
كيرزون، مثل غيره من مبعوثى قيادات الإمبراطورية العالمية، يردد شعارات ولا يمارسها، هو رغم أنه كان حامل رسالة التبشير بالديمقراطية ورسالة الرجل الأبيض إلا أنه كان يعلن على الملأ أن الديمقراطية لا تصلح للهند، فالهنود فى رأيه يفتقرون إلى كثير من شروط الديمقراطية وهى العدالة والمساواة والحقيقة لم ينس التاريخ الاستعمارى البريطانى لكيرزون أنه حذر ضد دخول الجيش البريطانى إلى بغداد وأن يكتفى باحتلال البصرة فى عام ١٩١٥ فى أعقاب دخول الأتراك الحرب مع الألمان ضد بريطانيا. كان هدف الحملة البريطانية التى خططت لها القيادة الموجودة فى الهند إبقاء الألمان والأتراك بعيدين قدر الإمكان عن الخليج وعن طرق الموصلات إلى الهند واحتلال

البصرة لضمان تدفق النفط، إلا أن اللورد كيتشنر، أحد أكبر أعداء كيرزون كان في صف احتلال بغداد، وانقسم رجال الإمبراطورية في لندن بين مؤيد ومعارض. كان هناك من يقول: إن احتلال بغداد سيؤثر إيجابيا على العرب ويجعلهم مؤيدين لبريطانيا في الحرب، وكان من هؤلاء اللورد إدوارد جراى، بينما رأى كيرزون أن احتلال بغداد سيعقد الحرب ويغضب العرب ويستهلك الطاقة الإمبراطورية البريطانية فيما لا فائدة من ورائه . ولم يؤخذ بكلامه . ففى ١٩١٧ تم الاستيلاء على بغداد وتأمينها بعد عامين من الفوضى ونشطت المقاومة المسلحة ضد الاحتلال وجرت أنهار من الدماء في العراق.

تحسين صورة الاحتلال

يبقى أن نشير إلى أن كيرزون كان مقتنعا كل الاقتناع بأهمية أن تحصل الدولة الإمبراطورية على موافقة الشعب في أي قطر مستهدف للاحتلال أو الإخضاع. فالشعب الراضي عن الاحتلال والساعي له يضغط حتما على حكامه المحليين ليستدعوا القوات الإمبراطورية. كان مقتنعا أيضا بأن أفضل وسيلة لحكم الشعوب من جانب دولة إمبراطورية هو أن يقوم حكم ذاتي تحت إشراف سلطة الاحتلال الإمبراطوري، في هذه الحالة لا تتحمل دولة الاحتلال الإمبراطورية مسئوليات الفوضى أو التقصير أو نقص الإنجاز وحدها . بل يمكن عندئذ ليس فقط تحميل المسئولية لأجهزة الحكم الذاتي المنتخب ديمقراطيا أو المعين تعيينا مباشرا من سلطة الإمبراطورية، ولكن يمكن أيضا تحويل الغضب الشعبي تجاه السلطات المحلية. وأظن أن قيادات في النخبة الإمبراطورية الحاكمة في أمريكا ومنها كولين باول، مؤمنة بهذه الحكمة ، فهى تسعى باستمرار إلى تحسين صورة الاحتلال في الدول العربية والترويج له وحث كافة المسئولون وأجهزة الإعلام على استخدام تعبير التحرير ورفض تعبير الاحتلال.

فرق جوهرى آخر بين كيرزون وبريمر، هو أن الأول كان يؤدى وظيفة هي من اختصاصه وتتفق مع خبرته وتدريبه، بينما الثاني اختير على أساس فهم خاطئ.. فقد تخصص بريمر عبر السنوات الأخيرة في موضوع الإرهاب، حتى اعتبرته الحكومة في واشنطن أحد أهم الخبراء في هذا الموضوع، فقد عمل في هذا المجال منذ العام ٨٦ حين عينه الرئيس ريجان سفيرا لشئون مكافحة الإرهاب ويبدو أنه اكتسب خبرته من

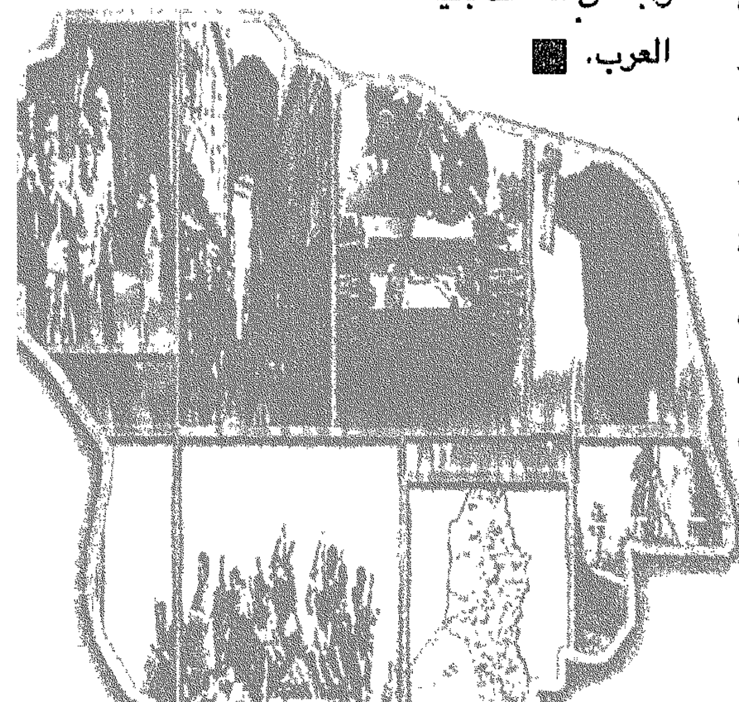


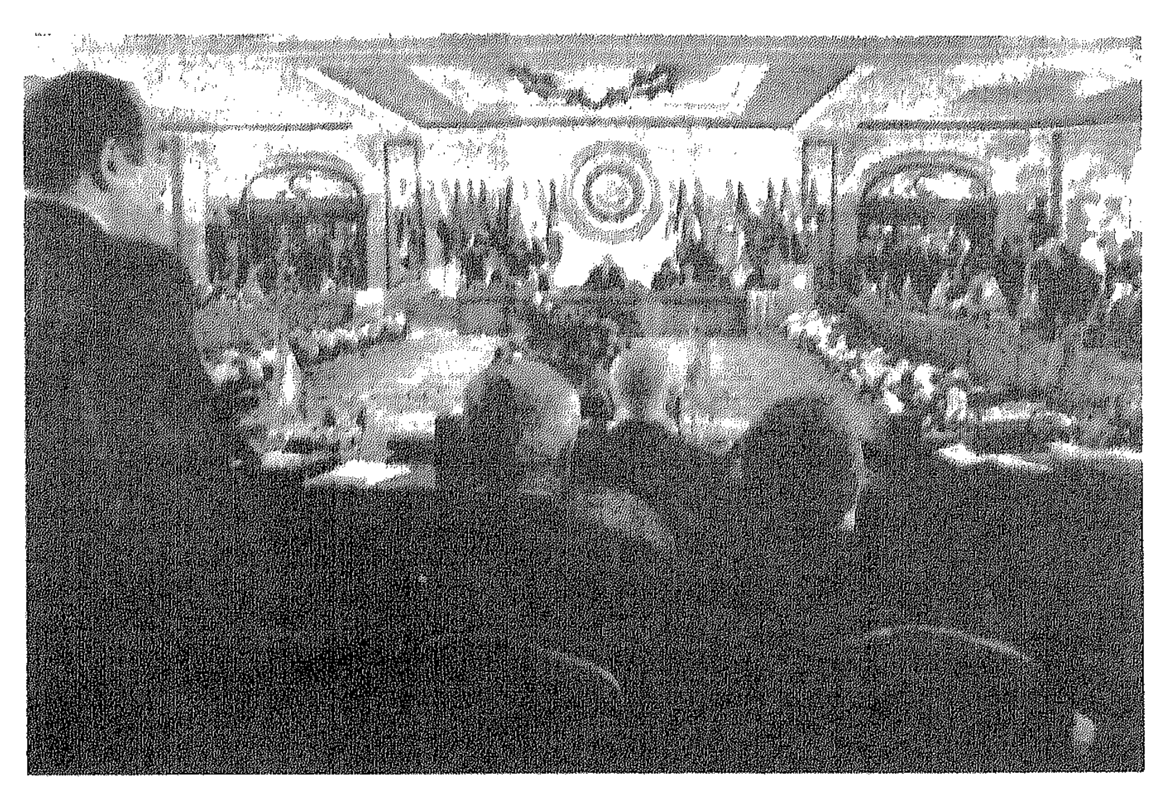
خلال عمله مع أوليفر نورث صاحب فضيحة الكونترا، حين قامت اللجنة التى كان يرأسها وفى عضويتها بريمر تبيع السلاح إلى إيران لدعم قوات الكونترا التى كانت تحارب جيش الساندينيستاس فى نيكارجوا، وكان بريمر أعلى مسئول عن مكافحة الإرهاب فى أمريكا عندما أسقط الإرهابيون طائرة بان أمريكان فوق لوكيربى فى استكلنده، واختلف الناس وقتها بين من يتهم بريمر بالتقصير لعدم يقظته ومن يمدحه لأنه تنبأ بموجة إرهابية قادمة، إذ نصح وقتها بإنشاء وزارة للأمن الداخلى ووضع إجراءات قوية لمكافحة الإرهاب، وهى النصيحة التى لم تنفذ إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

أخصائى إرهاب

وجاء اختيار بريمر حاكما لبغداد استناداً لاقتناع كان سائداً قبل أن يثبت زيفه، بأن حكومة صدام حسين متواطئة مع تنظيم القاعدة وأنها مستمدة بأسلحة تدمير شامل، أفهم أن تستغل الشريحة الامبراطورية فى الولايات المتحدة قضية الإرهاب لتحتل العراق وتجعله ركيزة توسعها فى العالم الإسلامى أو ما يسمى بالشرق الأوسط الكبير، ولكن لا أفهم أن تبعث إلى بغداد بأخصائى إرهاب ليحكم ويصنع عراقا نموذجا، كيرزون تخصص فى الاستعمار وفى عهده نمت وترعرعت الحركة الوطنية فى الهند، أما بريمر فقد تخصص فى مكافحة الإرهاب، وفى عهده نشأ الإرهاب فى العراق ثم نما وترعرع.

أخشى أن تتفاقم أخطاء الامبراطورية وممثليها فى بغداد فتتدهور أحوال العراق ويصير بالفعل نموذجا تشيد به وتقلده قوى الهدم والانفراط فى العالم العربى، أخشى بنفس القدر أن يسلك حاكم العراق ومعاونوه الطريق السهلة فيستعيرون من العالم العربى أبغض ما فيه من سياسة وفساد وتخلف، فيعود أسلوب الحكم عند العرب نموذجا صالحاً للتطبيق فى العراق.. لا أحد فى الشرق الأوسط الكبير يتمنى أن تصير بلده كالعراق فى وضعه الراهن، ولا أحد يتمنى للعراق أن يجمع بين الاحتلال الأجنبى وأبغض ما عند بقية العرب. ■





الجلسة الختامية لقمة بيروت - مارس ٢٠٠٢

آفاق جديدة للعمل العربى

بقلم

د. أحمد يوسف أحمد

فى أواخر الشهر الحالى (مارس ٢٠٠٤) تنعقد القمة العربية الدورية الرابعة فى تونس بعد طول مراوحة حول مكان انعقادها لتبحث عدداً من القضايا بالغة الأهمية، وعلى رأسها دون شك تطورات القضيتين الفلسطينية والعراقية وإصلاح جامعة الدول العربية، وسوف يركز المقال على هذه القضية الأخيرة ليس لأنها أهم القضايا المطروحة على القمة بالضرورة ولكن لأن بعض الغموض واللبس ربما كان محيطاً بها.

تبحث قمة تونس عدداً من المبادرات المقدمة من دول عربية بعينها، ولا نريد الآن أن نقع فى شرك مناقشة هذه المبادرات تفصيلاً، فثمة ماهو أهم من ذلك يتعلق بالخبرة الماضية لمحاولات إصلاح جامعة الدول العربية ودلالاتها، وبعض الاعتبارات الموضوعية التى يمكن أن تساهم فى تحديد مصير محاولات الإصلاح الراهنة، وأفكار حول السيناريوهات المختلفة لقمة تونس فيما يتعلق بالموقف من قضية إصلاح الجامعة

الخبرة الماضية لمحاولات الإصلاح

تأتى محاولات الإصلاح الراهنة فى ظل أزمة خانقة تلف النظام العربى بعد عجزه عن مواجهة تحدى الممارسات الإسرائيلية فى فلسطين والاحتلال الأمريكى للعراق، ولذلك فإنه من الأمور الإيجابية دون شك أن تكون هناك رغبة فى إصلاح جامعة الدول العربية بهدف تفعيل نشاطها ، غير أن إلقاء نظرة متفحصة على جهود الإصلاح السابقة يمكن أن يكون مفيداً فى استشراف مصير المحاولات الراهنة.

تكاد مبادرات الإصلاح أن تكون قد لازمت جامعة الدول العربية منذ نشأتها، وهو أمر جيد يدل على السعى إلى تعزيزها، غير أن له جانبه المظلم أيضاً على نحو ماسيجىء، فقد شهد عقد الأربعينات من القرن العشرين (١٩٤٨) مناداة بتنسيق السياسات الخارجية للدول العربية باعتبار أن ذلك ضروريا للحديث عن أمن قومى عربى، وشهد عقد الخمسينات من القرن نفسه وفى عدد من سنواته مقترحات بإنشاء اتحاد عربى لجعل الجامعة منظمة أكثر فاعلية وتكوين جمعية شعبية (أى برلمان بلغة اليوم) لإضافة بعد غير رسمى إلى جهود الجامعة العربية ، ناهيك عن الموافقة فى مطلع ذلك العقد على معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى، وهى معاهدة حلت - ضمن مساهمات أخرى - مفصلة نظام التصويت فى جامعة الدول العربية، إذ مكنت مجلس الدفاع الذى نشأ بموجبها من أن يصدر قرارات ملزمة بأغلبية الثلثين فى مقابل ميثاق الجامعة الذى يمكن أن تصدر القرارات فيه بالأغلبية ، لكنها فى هذه الحالة لن تلزم إلاَّ من وافق عليها، وفى عقد الستينات وافقت قمة الإسكندرية فى ١٩٦٤ على إنشاء محكمة عدل عربية لتقوم بدور فى حل المنازعات العربية العربية، وفى السبعينات دعت قمة الرباط ١٩٧٤ إلى تعديل الميثاق ليصبح أكثر ملاءمة لمتطلبات التطوير، وفى الثمانينات وافقت قمة عمان على عدد من الوثائق الاستراتيجية فيما يخص عملية التكامل العربى، وفى

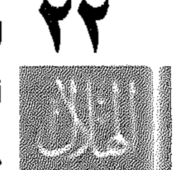
التسعينات وافقت قمة القاهرة ١٩٩٦ على محكمة العدل العربية «من حيث المبدأ»، ودعت إلى إقامة منطقة تجارة حرة عربية لتعزيز العلاقات التجارية بين البلدان العربية، وفي مطلع القرن الواحد والعشرين وافقت قمة القاهرة على بروتوكول دورية القمة.

ويظهر إمعان النظر في المحاولات السابقة أن بعضها قد وفق عليه كمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي (١٩٥٠)، ووثائق قمة عمان الاقتصادية (١٩٨٠) ومنطقة التجارة الحرة العربية (١٩٩٦) وبروتوكول دورية القمة (٢٠٠٠) بينما رفض البعض الآخر أو تعثرت محاولات الموافقة النهائية عليه كإنشاء محكمة عدل عربية أو تعديل الميثاق، غير أن النتيجة تبدو واحدة في الحالتين، بمعنى أن ما وافق عليه من مقترحات للتطوير لم يؤد إلى نقلة نوعية في العمل العربي المشترك، فلا معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي أفضت إلى أمن عربي قومي أو تكامل اقتصادي حقيقي، ولا وثائق قمة عمان الاقتصادية وضعت موضع التطبيق، ولا ما نفذ من برنامج منطقة التجارة الحرة العربية منذ ١٩٩٨/١/١ أحدث نقلة نوعية في التجارة البينية العربية، ولا دورية القمة العربية غيرت في طبيعة نتائجها، بينما نلاحظ في الوقت نفسه أن بعضاً من أهم إنجازات الجامعة كتصديها الناجح للتهديد العراقي بضم الكويت قبيل استقلالها في ١٩٦١ قد تم في إطار الهيكلية الحالية .

ويعني ما سبق أن قضية إصلاح الجامعة ليست قضية إصلاح قانوني فحسب وإنما هي قضية سياسية بالمقام الأول، وعندما يتوافر الشرط السياسي لفاعلية الجامعة - وهو أساساً الإدارة العربية المشتركة - سوف يكون الاصلاح ممكناً، بل سوف تعمل الجامعة على نحو أفضل ولو في ظل هيكلتها الحالية، ولا يعني هذا ألا نجتهد في مجال الإصلاح القانوني، ولكن معناه أن نتنبه لحقيقة أن هذا الإصلاح وإن بدا ضرورياً فإنه غير كاف، بل إن توفر الإرادة العربية المشتركة يعني إمكان تفعيل الجامعة وتعزيز دورها الحالي حتى في إطار وضعها الراهن.

حدود الإصلاح في قمة تونس

لا أريد أن أبدو متشائماً بشأن مايمكن أن تتوصل إليه قمة تونس بخصوص إصلاح جامعة الدول العربية، خاصة أن المناخ العربي الراهن لاينقصه مزيد من غيوم الإحباط واليأس، غير أن تجاهل الواقع من ناحية أخرى سوف يكون اختياراً مستحيلاً إذا كنا ننشد الجدية، ناهيك عن لا أخلاقيته. وللأسف فإن ثمة عوامل لايبدو تأثيرها معززاً لامكانات التفاؤل بأداء قمة تونس في قضية اصلاح الجامعة:



- هناك أولاً مفارقة أن «مظاهرات الإصلاح» تتم على خلفية من أداء عربى سيىء فى المرحلة التى سبقت هذه المظاهرات، فلم يتمكن العرب من شئ يذكر فى مجال التصدى للممارسات الإسرائيلية الاجرامية فى الأراضى الفلسطينية والممارسات الأمريكية المشابهة فى العراق، على الرغم من وجود «كم كبير» من القرارات ذات الصلة التى كان من الممكن أن تجدى فى مواجهة هذه التحديات ، وليس واضحاً لى كيف أن عقد النظام العربى الرسمى الذى انفرط بعد الاحتلال الأمريكى يمكن أن يلتئم مرة أخرى حول قضية إصلاح الجامعة مع أن الظروف العربية والإقليمية والعالمية كما هى لم تتغير.

- وهناك ثانياً: أن بعض مبادرات الإصلاح يبدو وكأنه يعكس روح «التنافس» أكثر منها روح الإصلاح وجوهره، وأعلم أن إثبات هذا الشك صعب علمياً الآن، وإن كان من الضرورى أن نشير إلى أن التحركات السياسية التى قام بها بعض من أصحاب المبادرات تكشف عن حقيقة التنافس هذه، مع أن ثمة قاسماً مشتركاً بين المبادرات يمكن البناء عليه، وهو ماحاول الأمين العام لجامعة الدول العربية القيام ببلورته لعرضه على القمة فى تقرير يقدمه إليها.

- وهناك ثالثاً : أن بعض المبادرات المطروحة يتعارض مع الحقائق البنيوية للنظام العربى الذى يقوم على فكرة سيادة الدول الأعضاء والمساواة فى هذه السيادة كما هو منصوص عليه فى الميثاق ، ولذلك فإن مقترحات مثل تكوين مجلس أمن عربى من عدد محدود من الدول ، أو جعل التصويت ملزماً للكافة إذا وقع بأغلبية الثلثين ، أو فرض عقوبات متدرجة على الدول التى لاتلتزم بسداد نصيبها فى ميزانية الجامعة أو بتنفيذ القرارات الصادرة عن هيئاتها المختلفة - مقترحات كهذه لن تصادف حماساً من قبل عديد من الدول العربية التى تخشى أى قيد على سيادتها، كذلك فمن غير الممكن أن يكون ثمة برلمان عربى فاعل يضفى بعداً شعبياً على عمل الجامعة بينما تغيب البرلمانات الفاعلة فى كل الدول العربية أومعظمها على الأقل.

- وهناك رابعاً: وأخيراً أن ثمة «ازدحاماً» واضحاً فى أفكار التطوير وآلياته المطروحة على الجامعة العربية، فهناك الاقتراح بجعل التصويت بأغلبية الثلثين ملزماً للكافة، وهناك الإقتراح بإنشاء مجلس أمن عربى من سبع دول عربية بالانتخاب لمدة محددة تتجدد العضوية بعدها، ويكون هذا المجلس مسئولاً عن الحفاظ على الأمن القومى العربى، وهناك الاقتراح بانشاء محكمة عدل عربية ومصرف للتنمية الاقتصادية

فى الوطن العربى وهيئة للمتابعة ومجلس أعلى للثقافة ... الخ، وليس من المبالغة القول بأن أكبر ضربة يمكن أن توجه للجامعة من الداخل يمكن أن تكون الموافقة على هذه المقترحات كافة، لكى تبدأ بعدها محنة التصديق ثم البحث عن موارد لتشغيل هذه المؤسسات الجديدة فى زمن شحت فيه موارد منظمات العمل العربى المشترك إلى حد بعيد ، وبعدها - أى محنة التصديق والتمويل - تأتى محنة الصدقية .

سيناريوهات القمة وأفكار للمستقبل

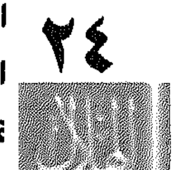
لن يخرج موقف قمة تونس من جهود الاصلاح الراهنة عن احتمالات ثلاثة : إما الرفض وإما القبول وبينهما القبول من حيث المبدأ.

وتظهر خبرة العمل العربى المشترك أن فضيلة الصراحة غائبة فى الدبلوماسية، فالذين لايوافقون على شىء يبدو فى نظر مقترحيه أو الرأى العام العربى مفيداً للأمة لا يخاطرون بصراحة الرفض التى تجلب عليهم متاعب شتى هم فى غنى عنها ، ولذلك فهم إما يوافقون على أمل أن تلحق القرارات الصادرة بهذه الطريقة بغيرها من القرارات، وتجد طريقها سريعاً إلى أرشيف الجامعة وأوراق الباحثين ، فإذا حدث أن بدت بوادر جدية للتنفيذ أمكن لهم الصمت أو التذرع بأية حجج تجعلهم فى وضع المستثنى من التطبيق والالتزام ، ولذلك فإن سيناريو الرفض غير وارد بالنسبة لقمة تونس.

ويبدو أن سيناريو قبول مقترحات التطوير محتمل إذن، فمن الصعوبة بمكان أن ترفض مقترحات التطوير ومن المفيد سياسياً أن يبدو القادة العرب وكأنهم يشعرون بجسامة المسئولية ويتصرفون من ثم طبقاً لهذا الشعور فيتخذون من القرارات مايعزز منظومة العمل العربى المشترك كى تصبح أكثر قدرة على مواجهة التحديات، ويجب أن يكون واضحاً - خاصة على ضوء ماتم استعراضه من خبرة ماضية - أن هذا السيناريو حال حدوثه لايعنى أن جامعة الدول العربية «سوف تتطور» وإنما هو يعنى فقط أن ثمة قرارات قد اتخذت بشأن تطويرها .

ويبدو فى تقديرى أن سيناريو «الموافقة من حيث المبدأ» مع إحالة المقترحات أو معظمها إلى «لجان لدراستها» هو السيناريو الأوفر حظاً، فهو يجمع بين الحسنيين إذ يظهر القادة العرب بمظهر الحريص على التطوير مرتين : مرة بالموافقة على مقترحاته وثانية باظهار الحرص على أن تكون هذه المقترحات أكثر جدية بإحالتها للدراسة ، وهذا السيناريو بالمناسبة وقع كثيراً فى محاولات تطوير سابقة ، وكان آلية للوأد الرحيم لها .

يبقى أن نضيف أن الواقع يشهد أحياناً تداخل أكثر من سيناريو، فمن الممكن مثلاً أن تتم الموافقة على مقترح



معين ويرفض آخر وتحال أفكار أخرى للدراسة، غير أن المحصلة العامة فى تقديرى لن تكون مفضية إلى تطوير حقيقى طالما بقيت السياسات العربية على ماهى عليه.

ما العمل إذن؟

يبدو من التحليل السابق أن ثمة تشاؤما بخصوص مصير محاولات إصلاح جامعة الدول العربية سواء فى قمة تونس القادمة أو فى أعقابها وإذا كان هذا التحليل صحيحاً فهل يفضى بنا إلى القعود وانتظار المصير المحتوم، أو المساهمة مع بعض الواهمين أو المؤمنين «بالشرق الأوسط الكبير» فى الدعوة إلى هدم الجامعة؟ لن يكون هذا بطبيعة الحال هو طريق المؤمنين بالرابطة العربية والمدركين لخطورة مايحاك للعرب من داخلهم ومن خارجهم. فهل لنا أن نتقدم بمنتهى التواضع باقتراح ذى أبعاد ثلاثة؟

– فى البعد الأول: نعمل على تفعيل ماهو موجود دون إصلاح أو غيره، فلدينا معاهدة الدفاع العربى المشترك بمجلس دفاعها ووثائق قمة عمان الاقتصادية وعشرات من قرارات القمم والمجالس الوزارية التى لو نفذنا منها نسبة محدودة لدبت روح جديدة فى النظام العربى دون أن نتكبد مشقة الخلاف حول مقترحات التطوير.

– وفى البعد الثانى: ننصح بوضع أولويات للتطوير ونتخير مقترحاً وحيداً نتصور أنه سوف يكون الأكثر فعالية فى تفعيل الجامعة، ونبذل قصارى الجهد لانجاحه، فإن نجح فتح الباب لغيره، وإن أخفق تعلمنا من دروس الإخفاق فيما هو مقبل من خطوات.

– وفى البعد الثالث: ننصح الدول ذات العزم الصادق على التطوير بأن تشكل فيما بينها نواة يتفق أعضاؤها على القيام بخطوة نوعية أو أكثر فإن نجحت هذه الخطى جذبت المزيد من الأعضاء إلى النواة ، وصرنا أقرب إلى نموذج الاتحاد الأوروبى الذى بدأ بست دول أخذ عددها يتزايد مع كل نجاح يتحقق، بمعنى أن زيادة العدد لم تتم على الأساس نفسه كما هو الحال فى جامعة الدول العربية، وإنما كان الأساس يزداد متانة بالتدريج ويستقل الأعضاء الجدد القطار من المحطة التى يلحقون به فيها وليس من محطة قيامه.

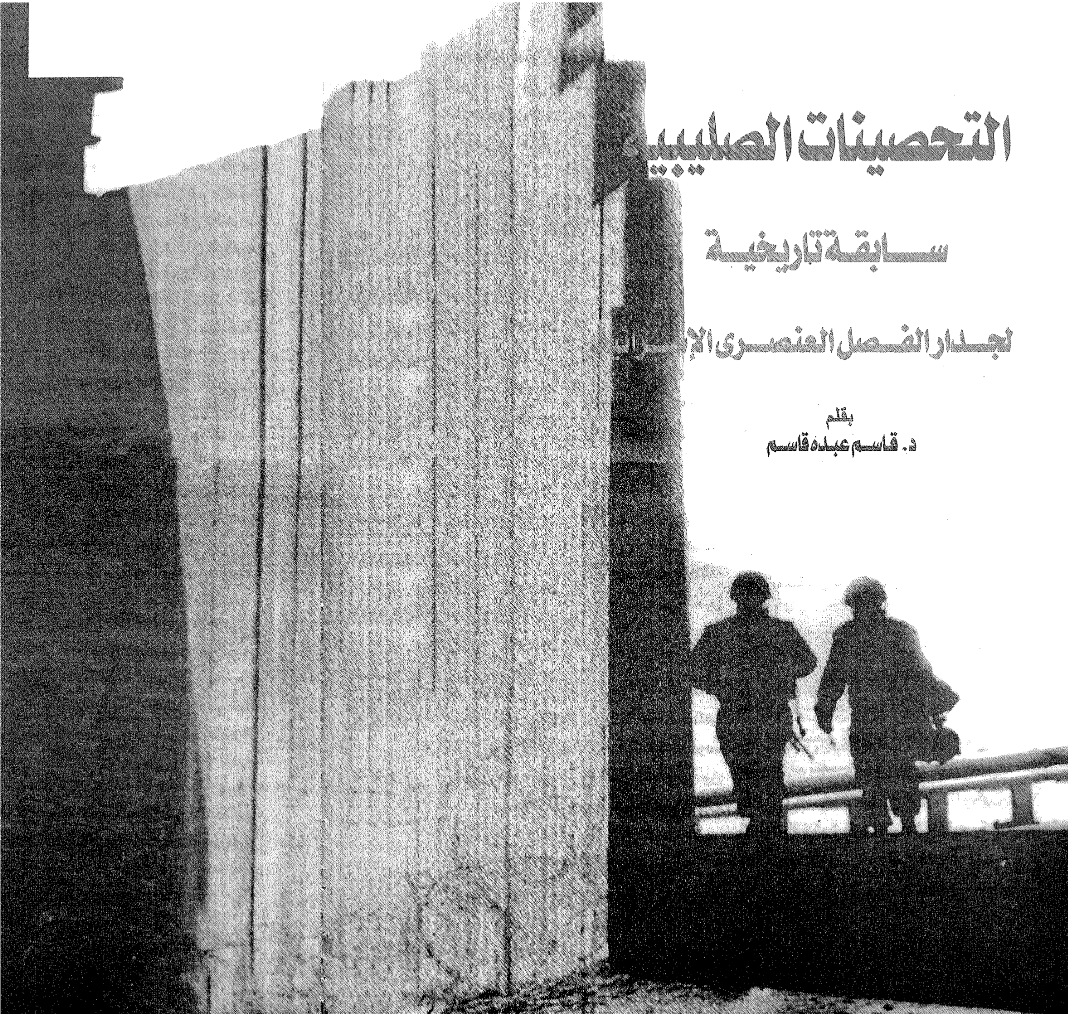
أما إذا بقينا ندور فى الحلقة المفرغة نفسها – مقترحات تفشل فتحبطنا أو تنجح فتزيدنا احباطاً لعجزنا عن تنفيذها لأن الخصائص البنيوية للنظام العربى هى نفسها لم تتغير، فقد حكمنا على أنفسنا بالركون إلى حركة هى أقرب إلى السكون، أو لعل السكون خير منها، فقد يكون سكون التأمل فى أعراض المرض بغية التوصل إلى خير طريقة لعلاجه. ■

التحصينات الصليبية

سابقة تاريخية

لجدار الفصل العنصرى الإسرائيلى

بقلم
د. قاسم عبده قاسم



يقول المؤرخ الإسرائيلى المعاصر، يوشع براور، الذى مات منذ سنوات قليلة فى كتابه «عالم الصليبيين» (ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، دار عين للدراسات والبحوث ١٩٩٩م) ، وهو أبرز من كتبوا عن الاستيطان الصليبى فى فلسطين والمنطقة العربية ، ليصف حال المستوطنين الفرنج:

«كانت نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس إلى أعدائهم واحدا إلى خمسة تقريبا . وبينما يبرهن هذا التقسيم الإحصائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى ، فإن هذا التقسيم الإحصائى نفسه يبدو أكثر أهمية عند النظر إليه من خلال إطار الجغرافيا السياسية للشرق الأدنى ، حيث لم يكن ربع المليون أوروبى «صليبى» يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب، وإنما كانوا يواجهون ملايين المسلمين من النيل إلى بلاد ما بين النهرين. ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم لمدى أكثر من مائة وخمسين عاماً. ذلك أن رابطة الدين المشترك، واللغة والثقافة المشتركة، لم تكن لتحول دون مسيرة التاريخ وخوض التجربة. إذ إن محاولات توحيد القوى الإسلامية، مثل محاولة صلاح الدين الأيوبى، لم تكن تعمرّ طويلاً بعد وفاة صاحبها، ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى السلطان بيبرس فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى..» .

هذه الكلمات التى كتبها يوشع براور، عن الاستعمار الاستيطانى الصليبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، تشى برؤية صهيونية معاصرة لمشكلات الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين. إذ إن مشكلة التفوق العددى التى أرقت الفرنج الصليبيين قديما، هى التى تؤرق الكيان الصهيونى الآن. وما الحديث عن القنبلة البشرية الفلسطينية والدراسات والبحوث التى تجريها الدوائر الصهيونية عن احتمالات الاكتساح السكانى الفلسطينى لأولئك الذين جمعتهم الحركة الصهيونية من أرجاء الدنيا لتقيم بهم دولتها العنصرية.

وإذا كانت التجربة الصليبية، عموما، تعتبر بمثابة «السابقة» التاريخية للتجربة الصهيونية، فإن المؤرخين الإسرائيليين بذلوا جهوداً جبارة لفهم ظاهرة الاستيطان الصليبى ومحاولة استخراج الدروس المستفادة من تلك «السابقة التاريخية». وربما كانت هذه الدراسات تهدف إلى كيفية حل معضلة المشكلة السكانية، واحتمالات الذوبان داخل هذا المحيط السكاني. لقد توصل الصليبيون إلى حل جزئى للمشكلة السكانية، وربما يكون الإسرائيليون قد استوحوا فكرة «الجدار العازل» من هذه «السابقة التاريخية» إذ يقول يوشع براور:

«ونظراً للتفوق العددى للمسلمين، تعين على الصليبيين أن يكونوا فى حالة حرب مستديمة. فقد أملى عليهم المنطق والحذر أن يتمركزوا فى مواقع محصنة، وقد صارت تلك الصفة هى العلامة المميزة للمملكة الصليبية. وبينما كان الفرنج الصليبيون فى بلادهم الأصلية يعيشون جميعا، سيداً وخادماً، فى المناطق الريفية بشكل دائم، فإنهم اضطروا فى الشرق إلى العيش داخل مدن وقلاع حصينة دونما استثناء أما الاستيطان الصليبى فى الريف الفلسطينى، فقد اتخذ شكل بيوت الضياع الحصينة التى تناثرت هنا وهناك حقا، ولكنها كانت دائما بالقرب من القلاع أو المدن المحصنة، وكان من النادر أن يسكن المهاجرون الغربيون القرى، وفى هذه الحال لم تكن تخلو من برج دفاعى إلا إذا كانت واقعة فى نطاق إحدى القلاع»..

التهرب من السلام

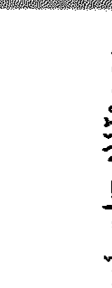
مرة أخرى تطل المشابهة بوجهها من بين السطور، إذ إن حالة الحرب الدائمة صارت بمثابة «الأسمنت» الذى يجمع شتات هذه الشراذم التى جمعتها الصهيونية من هنا وهناك. ولعل هذا يفسّر لنا حالة التهرب الدائمة من السلام على الرغم من كل التنازلات الثقيلة التى قدمتها القيادة الفلسطينية. إن الخوف من السلام لدى الإسرائيليين يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأنهم يمكن أن يذوبوا فى المحيط السكانى العربى الأوسع، بتراثه الحضارى وخلفيته الثقافية، وخبرته التاريخية. ولهذا تعين على قادة الدولة اليهودية أن يضعوا سكان هذه الدولة فى حالة حرب دائمة، تماما مثلما فعل أسلافهم الصليبيون.

أما مسألة التمركز في مواقع محصنة، والتى كانت سمة من سمات الوجود الصليبى، فإن تلك الأعداد الهائلة من الجنود الإسرائيليين، والعدد الكبير من حواجز التفتيش وغير ذلك من الإجراءات التأمينية، إنما هى نوع من التحصين فى ثياب عصرية. كما أن القيود المفروضة على العرب الذين يعيشون داخل الكيان الصهيونى تأكيد لروح التمترس وراء الحصون التى يعيش الإسرائيليون فى ظلها. ومن ناحية أخرى فإن ما ذكره المؤرخ الإسرائيلى عن أن الصليبيين لم يعيشوا فى الريف بشكل عام - وهو حقيقة تاريخية - يكشف عن أن الصهاينة قد استوعبوا هذا الدرس وكانت الكيبوتزات المسلحة هى الحل الذى توصلوا إليه. فضلاً عن أن المستوطنات اليهودية تقوم على أسس عسكرية فى الأساس. وها هى قطعان المستوطنين المسلحين وما يقترفونه من جرائم تؤكد على الطابع العسكرى للمستوطنات الزراعية اليهودية. إذ إن عسكرة الحياة الإسرائيلية يحقق عدة أهداف، تحقيق الشعور الدائم بحالة الحرب، توفير الحماية العسكرية الذاتية للمستوطنات الصهيونية، التغلب على عوامل نقص الموارد السكانية وسط محيط بشرى معادٍ وأكبر عدداً.

الأمن الذى لا يجىء!

ومن ناحية أخرى، فإن سياسة «الشعب تحت السلاح» التى تجعل من غالبية الإسرائيليين قوات احتياط فعالة للجيش الإسرائيلى، قد صبغت الكيان الصهيونى كله بالصبغة العسكرية. كما أن الصناعات العسكرية باتت أساس الاقتصاد الإسرائيلى، فضلاً عن أنها صناعات لا تزدهر ولا تتقدم فى ظل السلام الذى يخشاه زعماء إسرائيل خشيتهم على وجود الكيان الصيهونى نفسه. هذا الخوف من التفوق العددى للعرب، والذى يترجم نفسه إلى خوف من السلام ذاته، هو الذى جعل الدولة اليهودية تتبنى سياسات عسكرية تقوم على أساس تحقيق الكفاءة القتالية بأقل قدر من القوات العسكرية العاملة. وهو أيضا السبب فى «حل الفرصة الأخيرة» الذى تصورت حكومة شارون أنه طوق النجاة للكيان الصهيونى، وهو إقامة ذلك السور العجيب لحماية الإسرائيليين «المحبوسين داخل خوفهم» من الهجمات الفلسطينية المحتملة. إن من يقرأ تاريخ الاستعمار الاستيطانى الصليبى يمكن أن يفهم بسهولة نوازع الخوف التى تحرك الإسرائيليين الآن، وتتجسد فى ذلك الجدار العنصرى الذى ينشد الإسرائيليون من ورائه أمناً لا يجىء، وسراباً يفر من الرائين، يقول يوشع براور:

«ومن هذه المراكز الحصينة، التى كانت مدناً فى العادة، كان الصليبيون يحكمون البلاد. ولكى يكون وجودهم محسوساً وسيادتهم فعالة، فإنهم رصفوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة التى كانت تشبه نقاط المراقبة أو



نقاط الشرطة. وصارت شبكة التحصينات الواسعة، التي لم تشهدها المنطقة من قبل هي الشبكة الحاكمة للمملكة الصليبية. وطالما كانت القلاع والحصون والاستحكامات مصونة ظل الصليبيون يحكمون الأراضي المقدسة. بيد أنهم كانوا يحكمونها فقط طالما كانت حاميات قلاعها وحراسها، ودوريات الطرق قادرة على حفظ الأمن في الإقليم. وقد تجلت علامات واضحة تدل على قصور السيادة الصليبية بعد ثمانين عاماً من تأسيس المملكة. فقد تحصَّن جماعة من المسلمين الذين اتخذوا من دمشق قاعدة لهم وتحصنوا في أعلى جبال الجليل، وفرضوا الضرائب على السكان المحليين دونما مضايقة من السلطات الصليبية. وحدث بمحض المصادفة أن استثار وجود كمائن أولئك الفدائيين أفراد أحد الجيوش الصليبية وهم يعملون في تحصين أحد الممرات القريبة، فدمروا مخابئهم ووضعوا بذلك نهاية لنشاطهم. وقد أدى هذا الحادث إلى ضرورة أن تكون الدولة الصليبية والمجتمع الصليبي في حالة حرب دائمة. لقد تمهلت القدس السماوية في نزولها، وصار السلام حلما قاصرا على عالم النبوءات والأحلام بعيدة المنال. وكان على القدس الأرضية أن تُحكم ويتم الدفاع عنها بوسائل واقعية على الرغم من كل ما كانت تعبر عنه من قيم روحانية».

وجه التشابه بين كيانين

فهل يخفى على أحد أن يوشع براور كان يقصد إسرائيل على الرغم من أنه كان يكتب عن تجربة الاستعمار الاستيطاني الصليبي قبل سبعة قرون؟ وهل يمكن لأحد أن يغفل عن وجه التشابه - على الرغم من المسافة الزمنية التي تفصل بين الكيانين - بين الكيان الصليبي والكيان الإسرائيلي؟

إن روح التحصن ، والخوف من الأعداء أصحاب الحق والأرض الذين يحيطون بهذا الكيان الغريب هي التي ميزت تاريخ الصليبيين وتميز سلوك الإسرائيليين. وعلى الرغم من أن الوسائل اختلفت، بطبيعة الحال، بحكم الظروف التاريخية الموضوعية فإن الروح تظل واحدة في الحالين. فهل الحاميات ودوريات الطرق والحصون تختلف في جوهرها عن الوسائل العسكرية الحديثة التي تستخدمها القوات الإسرائيلية لضمان الأمن؟ وهل يختلف الهاجس «الأمني» لدى إسرائيل الحالية عن ذلك الهاجس الأمني الذي كان يحرك الصليبيين قبل عدة قرون من الزمان؟ أليس الجدار العازل الذي يبنيه الإسرائيليون الآن سوى تجسيد لهذا الهاجس؟

إن هذه الأسئلة، وما يتفرع عنها بالضرورة، تكتسي مشروعيتها من حقيقة أن التشابه شديد في جوهر الوجود الصليبي والوجود الصهيوني على الأرض العربية. فقد قام كل من الكيانين حول أيديولوجية تستمد خيوطها من الفكرة التوراتية عن «الشعب المختار»، و«الأرض الموعودة»، فقد ركز البابا إربان الثاني في خطابه إلى الجموع التي كانت تستمع إليه



فى كليرمون بجنوب فرنسا فى ذلك اليوم من شهر نوفمبر من سنة ١٠٩٥م على فكرة أن الرب قد «اختار» الفرنج لهذه المهمة التى وصفها بأنها مقدسة، كما ذكرهم بفلسطين «الأرض الموعودة» التى تفيض باللبن والعسل حسبما يقول الكتاب المقدس. ومن ناحية أخرى، كانت الخلفية الأيديولوجية ستاراً لمشروع استعمارى استيطانى يحرم المنطقة العربية من وحدتها ومن ثروتها على السواء. وكذلك فعلت الحركة الصهيونية سواء فى رعايتها ، أو فى مراحل تنفيذ مشروعها . وفضلا عن ذلك ، كان المشروع الصليبى فى القرن الحادى عشر والمشروع الصهيونى فى القرن العشرين مشروعاً غربياً وجهه الغرب ضد المنطقة العربية ويسانده بالأموال والرجال والقوة العسكرية. ففى تاريخ الحركة الصليبية، كانت كل الحملات الصليبية التى أعقبت الحملة الصليبية الأولى، دفاعاً عن المكاسب التى حققتها تلك الحملة، وتجسدت فى زرع الكيان الصليبى على الأرض العربية. وفى تاريخ الحركة الصهيونية يقف الغرب موقف الظهير المساند للكيان الصهيونى على الأرض العربية ذاتها، مسانداً بالمال والجيوش والدبلوماسية والضغوط الدولية، والتدخل العسكرى السافر إذا لزم الأمر «تأمل ما حدث فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م حينما تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية بجسر جوى يحمل الرجال والعتاد لإنقاذ الدولة اليهودية التى بات وجودها مهدداً بعد الانتصارات المصرية والسورية».

النفسية الخائفة وراء الجدار العازل

إن المغزى الحقيقى للجدار العازل، أو الحائط العنصرى الذى يقيمه شارون، يتمثل فى حقيقة تعرفها إسرائيل جيدا، وتجسدها كلمات المؤرخ الإسرائيلى يوشع براور الذى زعم أنه كان يكتب عن الصليبيين، إذ يقول:

«.. ولكن الهزيمة ذاتها كان لها معنى عند الصليبيين يختلف عن معناها عند أعدائهم. فقد كان لدى الأعداء احتياطى لا ينفد من القوى البشرية، وبالنسبة لهم لم تكن أكثر الهزائم قسوة تعنى أكثر من مجرد معركة خسروها، يتلوها تقهقر إلى قواعد آمنة بعيدة عن متناول الجيوش الصليبية فى حلب، ودمشق، أو القاهرة. أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يعبئون كل قواهم البشرية تقريباً فى حالات الهجوم الرئيسية، فقد كانت الهزيمة الواحدة ربما تعنى خسارة المعركة أو الحرب، بل حتى ضياع المملكة الصليبية نفسها. وهذا هو بالضبط ما حدث فى معركة حطين سنة ١١٨٧م، عندما كان معنى الهزيمة هو فقدان المملكة كلها».

ألا ينطبق هذا على إسرائيل؟ ومن ثم، فهل لنا أن نفهم النفسية الخائفة وراء الجدار العازل؟ وهل الجدار العازل إلا رمز ومغزى للخوف من السلام ومن الحرب ومن المستقبل؟!!



حزب الله
والواقع العربى

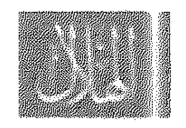
بقلم
د. محمد سليم العوا

فى ذكرى عاشوراء ١٤٢١ هـ، التى وافقت يوم ١٤/٤/٢٠٠٠م، ألقى السيد حسن نصر الله ، الأمين العام لحزب الله ، خطابا حضره نحو ستة آلاف شخص . لم يكن الاحتلال الإسرائيلى قد خرج يومئذ من جنوب لبنان ، لكنه كان قد أعلن تحديد شهر يوليو ٢٠٠٠ للانسحاب من الأراضى المحتلة فى الجنوب .

يومها وقف حسن نصر الله يخاطب أنصار الحزب وأعضاءه عن الموضوعات التى ستكون موضع اهتمام الحزب، بعد أن يتحقق الانسحاب، الذى وصفه بأنه حين يتم سيمثل «حالة انتصار تاريخى لامثيل له ، لكنه يمكن أن يتكرر» !

وحدد السيد حسن نصر الله هذه الموضوعات بأنها : «الأسرى والمعتقلون تحت يد العدو الصهيونى ؛ الأضرار التى أصابت لبنان وحقه فى التعويض عنها ؛ ميليشيا أنطوان لحد العميلة لإسرائيل ؛ الاعتداءات الصهيونية المستمرة على أراضى لبنان وسيادته بحرا وبرا وجوا ، اللاجئون الفلسطينيون وضرورة عودتهم إلى وطنهم » .

وكان هذا الخطاب إعلانا بأن مهمة الحزب الوطنية فى لبنان لن تنتهى بمجرد الانسحاب الإسرائيلى من الجنوب ، لكنها ستستمر فى شأن هذه القضايا - التى سماها حسن نصر الله ملفات يجب أن يعمل الحزب على إغلاقها - إلى أن يتحقق للبنان الحصول على حقه المشروع فى كل منها، بما فيها موضوع اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان وضرورة عودتهم إلى ديارهم .



بعد هذا الخطاب بأيام معدودة قرر العدو الصهيونى أن يخرج من لبنان بليل ، متخفيا عن أنظار المقاومة ، مستبقا الموعد الذى حدده لانسحابه بأكثر من شهرين (!) ولم يكن لذلك من سبب إلا أن جنود الاحتلال لم يعودوا قادرين على احتمال العمليات اليومية التى كان يقوم بها رجال حزب الله ضد الوحدات العسكرية للقوات الصهيونية .

وبهذا الخروج المبكر ، الذى لم يتوقعه أحد ، أخلى العدو الصهيونى الساحة أمام حزب الله ليبدأ العمل فى شأن الموضوعات التى تضمنها خطاب حسن نصر الله فى المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل ٢٠٠٠.

حسن نصر الله

☆☆☆

كان أول هذه الموضوعات هو موضوع الأسرى والمعتقلين ، وقد تابع العالم كله فى أواخر شهر يناير ٢٠٠٤ كيف تم التبادل الناجح بين حزب الله والعدو الصهيونى . تسلم حزب الله نحو أربعمائة وثلاثين أسيرا عربيا ، وتسلم رفات نحو تسعة وخمسين شهيدا من مختلف القوى الوطنية ومن المقاومة الإسلامية ، كانوا قد ارتفعوا شهداء فى معارك التحرير ضد العدو الصهيونى .

وتسلم الصهاينة أسيرا واحدا هو العقيد فى المخابرات الإسرائيلية «الحنان تننباوم» ، وجثث ثلاثة قتلى من الجنود الاسرائيليين كانوا قد لقوا مصرعهم على يد رجال المقاومة الإسلامية فى الجنوب اللبنانى .

وقد استمرت المفاوضات التى انتهت بهذا التبادل نحوا من ثلاث سنين، كان المفاوضون فيها من حزب الله عند موقف واحد ، وتذبذب الموقف الصهيونى من الرفض الكامل لكل اقتراح بالتبادل ، مقرونا بتهديد صريح بقصف بيروت إذا لم يفرج حزب الله عن العقيد الحنان تننباوم ، إلى القبول التدريجى بمطلب وراء مطلب - من مطالب حزب الله - حتى قبلها جميعا ، وتم التبادل فى الأيام الأخيرة من شهر يناير ٢٠٠٤ التى وافقت أيام الحج الأكبر لعام ١٤٢٤ هـ .

ويعود المتابع لسيرة حزب الله إلى خطاب السيد حسن نصر الله ، فى المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل ٢٠٠٠ ، ليجده قد قال عن قضية الأسرى : «الأسرى يجب أن يطلقوا جميعا بمن فيهم الشيخ عبدالكريم عبيد وأبو على الديرانى ، فإن بقوا فى السجون الإسرائيلية فإننا قوم لا نترك أسرانا ، ومن حقنا أن نفعل أى شىء من أجل إطلاق سراحهم» .

وكان مما فعله حزب الله أسر العقيد فى المخابرات الصهيونية الحنان تننباوم واتخاذه ورقة رابحة مضمونة فى التفاوض لإطلاق سراح الأسرى اللبنانيين والعرب .

وأسر الحنان تننباوم لم يكن عملية يسيرة ، بل كان نتيجة جهد استخبارى عالى المستوى ، ثبت فيه تفوق مخابرات حزب الله (الشعبية!) على مخابرات الصهيونية الرسمية التى ما فتىء الصهاينة يفخرون بقدرتها وإمكاناتها ! والقصة الكاملة لأسر هذا العقيد فى

المخابرات الإسرائيلية لايمكن الآن أن يباح بها ، فى نظر المسئولين فى حزب الله ، وهى يوم تعرف سيزداد كل عربى فخرا بهؤلاء الرجال الأبطال وبقدرتهم على العمل فى النطاق الأمنى المحلى والدولى التى لاتوازيها إلا قدرتهم على مواجهة العدو، بلا تردد ولا خوف ، فى ميدان القتال.

والصهاينة اليوم فى ورطة لايحسدون عليها فى مسألة هذا العقيد وقد شكلوا لجنة عالية المستوى من الكنيست (البرلمان) الإسرائيلى للتحقيق معه ، والتحقق من صحة أقواله . وقال بيان لهذه اللجنة : « إنه (أى تننباوم) تسبب فى ضرر أمنى يفوق الخيال» وإن هناك حاجة «لوقت طويل لتقدير الضرر الأمنى والاستراتيجى الذى سببه . وهو ضرر يفوق كل تصور» (الحياة ٢٠/٢/٢٠٠٤) .

وهذه اللجنة ، والمحققون الذين تستعين بهم ، تبحث بالوسائل كافة عن إجابة السؤال : كيف وصل الحنان تننباوم إلى لبنان ؟ وتحاول التوصل إلى أجوبة شافية فى هذا الخصوص !!

والواقع أن الأجوبة الشافية كلها فى جعبة الجهاز الأمنى لحزب الله . وهو الجهة الوحيدة التى تملك التفاصيل الصادقة لكيفية الإيقاع بهذا العقيد الإسرائيلى ، الجاسوس ، الذى تعتبره إسرائيل أخطر من «مردخاى فانونو» الذى أفشى الأسرار النووية لإسرائيل (؟!) .

وإسرائيل تعتبر الثمن الذى دفعته فى استعادته من حزب الله ثمنا مبالغا فيه ، وقال رئيس لجنة الاستخبارات فى الكنيست «يوفال شطانيتس» إنه «يجب توفير كل الوسائل لطاقم المحققين لانتزاع الحقيقة» ! (الحياة ، العدد نفسه) .

هذا هو وضع الأسير الإسرائيلى العائد إلى الأرض المحتلة .

☆ ☆ ☆

أما اللبنانيان ، اللذان ذكرهما السيد حسن نصر الله فى خطابه فى المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل سنة ٢٠٠٠ ، الشيخ عبدالكريم عبيد وأبو على الديرانى ، فقد عادا مع المئات الآخرين من إخوانهم ليلقوا الترحيب والفرحة ، والثقة التامة بثباتهم وصبرهم على الرغم مما لقوه من التعذيب البشع على يد الصهاينة فى سجون إسرائيل .

وهذا هو أحد الفوارق الكثيرة بين صنعنا فى أسرانا من أعدائنا وصنعهم فيمن يأسرون من رجالنا . إن الحنان تننباوم ، والمحققين معه من الصهاينة ، لم يستطيعوا أبدا ، ولن يستطيعوا ، أن يزعموا أنه أوذى أو عذب أو نكل به على يد آسريه من رجال حزب الله ، وأسرانا لاينكر أحد، ولا الصهاينة أنفسهم ، أنهم تعرضوا لصور من التعذيب لم تعرفها الإنسانية، ولا مارستها النازية ولا الفاشية ، فى سجون الكيان الذى يدعى أنه واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط . بل إن أبا على الديرانى نفسه رفض أن يغادر سجنه ما لم تعقد المحكمة العليا الإسرائيلية جلسة لتسمع فيها ادعاءه قبل سلطات العدو الصهيونى التى مارست ضده أبشع صور التعذيب وأدناها وأقساها . وقد استجيب لطلبه، وأدلى بأقواله أمام المحكمة الإسرائيلية، لإصراره على مقاضاة الذين عذبوه والدولة التى يمثلونها . وأكثر من ذلك دلالة ، على احتفاظنا بقيمنا الإنسانية مع أعدائنا ، أن الحاخام والطبيب ، اللذين تسلما جثث الجنود الصهاينة الثلاثة ، صرحا لوسائل الإعلام بأن الجثث كانت بحالة جيدة جدا ، وأنها كانت محفوظة بطريقة علمية سليمة ، وكانت مجمدة حتى أنهم تعرفوا على أصحابها من ملامح وجوههم فضلا عن وسائل التعرف

المعملية !

أفلا يحق لحزب الله أن يقول: هذا نحن وهكذا نصنع ، وهؤلاء هم ، وكذلك يفعلون ؟!

تحدث حسن نصر الله فى خطاب المحرم ١٤٢١ هـ = أبريل ٢٠٠٠ م عن موضوع الاعتداءات المستمرة على لبنان من جانب الصهاينة . وتعهد بتصدى المقاومة الإسلامية لهذه الاعتداءات . وقال : « لن نقبل أى اعتداء مهما كان صغيرا ومهما كان شكله ومهما كانت التضحيات» .

وهو تعهد لاتزال المقاومة حريصة على الوفاء به ، ولم تكن الجثث الثلاث التى سلمت للصهاينة إلا حصيلة معركة مع دورية صهيونية توغلت في الأراضى اللبنانية فتصدت لها المقاومة..

وقبيل إتمام التبادل بأيام قليلة توغلت جرافة صهيونية فى الأراضى اللبنانية فوجدت فى انتظارها نيران مدفعية حزب الله التى أحرقتها بمن كان فيها من الصهاينة .

وفى آخر خطاب ألقاه السيد حسن نصر الله فى بلدة جبيشيت، يوم ٢٠٠٤/٢/١٤ ، فى احتفال بذكرى الأمين العام السابق للحزب السيد عباس الموسوى (استشهد فى ١٩٩٢/٢/١٦) قال إن من حق المقاومة أن تنصب الكمائن وتزرع الألغام على الطرقات التى يسلكها الجنود الصهاينة للوصول للأراضى اللبنانية . وتعهد حسن نصر الله بالرد على أى محاولة لانتهاك السيادة اللبنانية . وهو تعهد تعلم إسرائيل قبل غيرها أن حزب الله سيفى به ، فذلك هو الخبر اليقين الذى لايستطيع أحد المكابرة فى صدقه ، منذ بدأت المقاومة الإسلامية نشاطها فى سنة ١٩٨٢ حتى الآن .

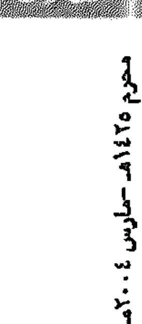
☆ ☆ ☆

وعندما جاء حسن نصر الله على ذكر العملاء الذين تعاونوا مع العدو الصهيونى تحت ما سمى بجيش لبنان الجنوبى ، قال فى المحرم ١٤٢١ هـ = ابريل سنة ٢٠٠٠ م إن «أمامهم ثلاثة خيارات : أن يرحلوا مع العدو الإسرائيلى ، أو يسلموا أنفسهم للقضاء اللبنانى ، أو يواجهوا رصاص المقاومة» .

وقد اختار هؤلاء العملاء الحلين الأول والثانى ، فمنهم من رحل مع الصهاينة ، ومنهم من سلم نفسه إلى القضاء اللبنانى .

فأما الذين رحلوا مع الصهاينة فقد توالت الأنباء عن احتقار العدو الصهيونى لهم ، وأنهم يحيون فى عشش من الصفيح والأخشاب القديمة سميت (معسكرات) ، وتدفع لهم دراهم معدودة من العملة الإسرائيلية لاتكفيهم لحياة الكفاف . ولما تجرأ نفر منهم على التظاهر مطالبين بتحسين أوضاعهم عاملتهم الشرطة الإسرائيلية بالقسوة والعنف اللذين تكفلا بألا يفكر فى العودة إلى الاحتجاج أحد !

وأما الذين سلموا أنفسهم إلى القضاء اللبنانى فقد قال حسن نصر الله عنهم (فى خطابه بمناسبة دفن رفات الشهداء الذين عادت أجسادهم فى التبادل الأخير إلى لبنان ، يوم ٢٠٠٤/١/٣١) : « إن الدولة لم تحاكمهم ، فهى عفت عنهم ، وهم موجودون فى الجنوب وفى البقاع الغربى وفى مناطق مختلفة . وأقول لهم على كل حال إن الحسنات يذهبن السيئات ..» ، وطالبهم بأن يدلوا من يثقون بهم فى كل منطقة على الأماكن التى دفنوا فيها بعض الشهداء الذين سقطوا فى معارك التحرير ، وتعهد ألا يسألهم أحد أو



يحاسبهم أحد ، وقال إن هذه حسنة وعمل صالح .. يمكن أن يقدمه هؤلاء الذين ارتكبوا كثيرا من الخطايا والجرائم ، ويمكنهم أن يقدموا هذا العمل الصالح لمجتمعهم ولشعبهم ولوطنهم !

فلم يتعامل حزب الله مع من خانوا الوطن ، وحملوا السلاح مع العدو الصهيوني ضد أبنائه ، بالانتقام (وهو مشروع) ولا بالكراهية (وهي مسوغة بسابق صنيعهم) ولكنه تعامل معهم بالمنطق القرآني الإنساني : « إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين» (هود : ١١٤) .

وهذا نموذج جديد يقدمه حزب الله على أن العمل السياسي ، والمقاومة المسلحة الإسلامية يستحقان من ذوي النفوذ والسلطان ، ويستحقان من الحكام ، ويستحقان من المفكرين وأصحاب الأقلام ، إنصافا أكثر مما يقدم لهما ، واحتراما حقيقيا مبناه الممارسة الحضارية الإنسانية للعمل السياسي الإسلامي والمقاومة الإسلامية التي تدل على أن الخير العام هو بغيتهما ، وأن النصر الحقيقي عندهما هو تحقيق مصلحة الأمة، لا تحقيق المجد الشخصي ولا المنافع الفردية مادية كانت أم معنوية .

☆ ☆ ☆

ويصف السيد حسن نصر الله المقاومة بأنها كما تمتلك «السلاح والبندقية والصاروخ والخبرة العسكرية والرجال الأشداء والإيمان الطاهر النقي ، فإن لديها خبرة وعقلا وتجربة راقية . وهي تعرف كيف تتعامل مع العدو في الليل وفي النهار : ماذا يقول، وماذا يفعل ، وماذا يخطط ، وهي مقاومة يقودها قلب وعزم . وهي ليست جبانة فتتخلى عن المسئولية ، ولا هي مجنونة فتذهب بوطنها وشعبها في وديان الهلاك» (خطابه في ٢٠٠٤/٢/١٤) .

وفي الخطاب نفسه يقول حسن نصر الله إنه ليس هناك مقاومة عشوائية ولا عمليات فردية ، ولكن تخطيط محكم وتصميم دائم على حماية لبنان ، وأن تجعل العدو لايستطيع التفكير في العدوان عليه !

وإن المقاومة داخليا «لن تدخل في خصومة ولا تنافس ولا محاولة إلغاء لأحد، ولا محاولة الحلول مكان أحد» !

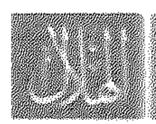
والذين يعرفون مسيرة الحزب على مدى الاثنين العشرين عاما ، التي عاشها حتى الآن ، يعلمون أن هذا الخطاب خطاب صدق ، وليس مجرد كلمات للاستهلاك المحلي أو لطمأنة القوى الخائفة لبنانيا أو عربيا من وجود حزب الله .

والذين وقفوا على التكوين العقدي للحزب يعلمون أن قيادته لاتتصرف إلا بناء على الحكم الشرعي الذي تتضمنه الفتوى المعتمدة ، وهو التزام يضمن التعقل الدائم ، والالتزام بمصلحة الأمة، والمحافظة على وحدتها ، وصيانة عوامل قوتها ، وتحريم اعتداء بعضها على بعض ، لأن ذلك كله هو مقتضى الأدلة الشرعية ، التي يقوم عليها الافتاء ، من الكتاب والسنة ، وفهم الأئمة ، ومواقف السلف المجاهدين في تاريخ الإسلام كله .

☆ ☆ ☆

وإذا كان حزب الله قد استطاع – في مسيرته كلها – الالتزام بهذه المبادىء ، وإقناع شبابه بتلك المعاني ، وتعامل لبنانيا وعربيا ودوليا على هديها، فإن نموذجه يكون أصلح النماذج للأحزاب العربية ذات التوجه الإسلامي ، والتجمعات الحركية الإسلامية في العالم الإسلامي وخارجه.





إن القدوة التى قدمها حزب الله للمقاومة الفلسطينية هى فى الذروة من الأهمية . فالمقاومة هى المقاومة ، والعدو هو العدو ، وإذا استطاع شباب حزب الله الانتصار عليه عسكريا واستخباريا وتفاوضيا فإن ذلك ليس ببعيد عن المقاومة الفلسطينية التى يحدوها العزم الذى لايلين لتحرير الوطن ، ويشد بنيانها الإيمان بأن أصحاب الحقوق لايملكون ترف التفريط فيها ، ويجمع صفوفها فى مواجهة المستعمر دم النساء والرجال الذين ارتفعوا شهداء - بتعبير حزب الله - فى سبيل استمرار شعلة المقاومة موقدة يستضىء بها المجاهدون ويصلى بنارها المعتدون الغاصبون .

ولاريب أن هناك اختلافات كثيرة ظاهرة بين الوضع اللبنانى عندما كان الصهاينة يحتلون الجنوب ، أو عندما اجتاحوا بيروت سنة ١٩٨٢ ، وبين وضع فلسطين كلها تحت الاحتلال الإسرائيلى .

لكن هذه الاختلافات يتضاءل أثرها بجانب اتحاد الظرف الموضوعى المتمثل فى معادلة العدوان والمقاومة . وهو الظرف الأساس فى اندحار كل معتد وانتصار كل مقاوم !

☆ ☆ ☆

فإذا نظرنا إلى الواقع العربى خارج فلسطين فإنه من الإنصاف الواجب أن نقرر أنه ليس عيبا أن تستفيد أحزاب وجماعات سبقت حزب الله فى النشأة والجهاد والعمل السياسى ، جميعا ، من تجربته فى هذه المجالات كافة . ولهذه الأحزاب والجماعات أسوة فى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ، الذى كان إذا حزبه أمر (أى اشتد عليه وضاقت به سبل الخروج منه) فزع إلى الفتيان يستشيرهم ، يبتغى حدة عقولهم (!).

والواقع العربى الرسمى ينظر بعين التهمة إلى كل تجمع إسلامى حركى أو حزبى - وأحيانا إلى كل تجمع إسلامى ولو كان نقابيا أو ثقافيا أو تعليميا أو رياضيا أو اقتصاديا !! - ومن المصلحة العربية العليا أن يعيد هذا الواقع الرسمى نظره إلى هذا الأمر برمته . وأن يحاور قادة تلك التجمعات ومفكريها ، وذوى الرأى فيها، بحيث ينتج هذا الحوار عقدا سياسيا ، كالذى اتخذه حزب الله عهدا على نفسه ، أن تكون القوة الإسلامية فى خدمة المصالح العامة للأمة ، لا لخدمة فئة أو جماعة أو طائفة ، وأن يكون مقابل ذلك هو الطمأنينة إلى القوى الإسلامية التى تعمل فى المجالات كافة ، واستيعابها فى إطار الشرعية القانونية والمشروعية السياسية ، التى تحول بأسنا كلنا ، وطاقتنا كلها ، إلى تحقيق التقدم الفعلى عمليا لا نظريا ، وواقعا يرى المواطن العربى ثمرته ويحس بأثره ويلمس بنفسه نتائجه ، لا أرقاما صماء لامعنى لها ، وإحصاءات كاذبة أو خادعة لانتيجة لها ، تزيد من عمق الهوة بين ذوى النفوذ ومن لا نفوذ لهم، وذوى الجاه ومن لا جاه لهم ، وأصحاب القرار ومن يشعرون صباح مساء أنهم لايسمع لقولهم وإن سمع فإنهم لايستجاب لهم .

☆ ☆ ☆

لو حدث هذا لكان أعظم صنيع خير صنعه حزب الله للأمة كلها ، وكانت يدا يحفظها له العرب كلهم الإسلاميون منهم وغير الإسلاميين ، بل والمسلمون منهم وغير المسلمين .. فإننا كلنا فى المعاناة والهم - حتى الآن - سواء !! ■



ماذا حدث للمصريين

فى معرض الكتاب؟

بقلم
د. جلال أمين

كان أول ما خطر ببالى عندما رأيت هذه الأعداد الغفيرة من رواد معرض القاهرة للكتاب، الذى أقيم فى يناير الماضى، وهم يجوبون طرقاته مصطحبين زوجاتهم وأولادهم، أو فى مجموعات من الشبان أو الشابات الذين تبدو عليهم هيئة طلاب الجامعات، وهم جالسون لتناول الطعام فى مقاهى المعرض، أو يفحصون الكتب قبل شرائها، أو يشترون مختلف البضائع المعروضة عليهم فى كل مكان، من لعب الأطفال إلى الأدوات المنزلية إلى الملابس..إلخ، أننى أمام عيّنة كبيرة ممن يمكن وصفهم بـ «المصريين مائة بالمائة». إنهم مجموعة من الناس المتجانسين تمام التجانس، أو ما يقرب جدا من التجانس التام، وكأنهم، وإن كانوا يسيرون فى جماعات متفرقة، قد اتفقوا على الخروج والمجىء معاً إلى المعرف فى نفس الوقت .

إنهم متجانسون بأزيائهم، وعلى الأخص النساء اللاتى لا تكاد تجد واحدة منهن غيرمحجّبة، ومتجانسون، نساء ورجالا، فى المستوى الاقتصادى لما يرتدونه من ملابس، بل وفى نوع النظارات التى يلبسها من يحتاج منهم إلى نظارة، إذ تكاد تكون كلها ذات إطار أسود رفيع ولا يحجب جزءا كبيرا من الوجه. والذكور من الشباب يكاد شكل شعرهم يوحى بأنهم ذهبوا جميعا إلى نفس الحلاق.. إلخ.

إنى لا ألاحظ هذا التجانس إذا سرت فى شارع من شوارع الأحياء الأكثر رخاء فى القاهرة، كالزمالك أو مصر الجديدة أو المعادى، بل ولا حتى إذا سرت فى شارع من شوارع وسط البلد، كطلعت حرب أو قصر النيل. قد تجد درجة عالية من التجانس، وإن لم تبلغ هذا القدر الذى لاحظته فى المعرض، فى فناء جامعة من الجامعات المصرية، وإن كنت قد لاحظت فى زيارة لى لإحدى كليات جامعة الاسكندرية مجموعتين متميزتين من الطلاب تقف إحداهما على بعد خطوات قليلة من الأخرى فى فناء الكلية، ولكن بدت المجموعتان وكأن فجوة عميقة تفصل بينهما، ولا يمكن لمن يراهما أن يخطئ فى تحديد المستوى الاقتصادى لمعيشة كل منهما، خاصة وأن المجموعة الأعلى دخلا، كما يبدو من ملابسها ودرجة الاختلاط الأعلى بين الذكور والإناث فيها، كانت أقرب من المجموعة الأولى إلى الكشك الذى يبيع أنواعا من المرطبات والمأكولات المستوردة الألذ طعما والأعلى سعراً.

لا يوجد هذا الانقسام فى معرض الكتاب. طبعا يمكن أن يحدث أن ترى سيدة غير محجبة بين الحين والآخر، ولكن هذا الأمر نادر، ومن الممكن أن ترى رجلا

يمكنك أن تقطع بأنه أعلى دخلا من الباقين، ولكن لعله ليس بالضبط من زوّار المعرض بل أحد المتكلمين فى إحدى الندوات، فحصل بسبب ذلك على تصريح بدخول سيارته إلى المعرض، والأرجح أنه سيترك المعرض بمجرد انتهائه من ندوته. وهناك بالطبع بعض الرجال المشتغلين بعمل من أعمال التنظيف أو كنس شوارع المعرض أو بيع بعض السلع الرخيصة، ممن ينتمون بلا شك إلى طبقة أدنى بكثير من طبقة روّاد المعرض، ولكن هؤلاء لا يدخلون فى الحساب، لا فى هذا التحليل الذى أقوم به الآن، ولا فى أى تحليل آخر.

كتب تقبل عليها الغالبية العظمى

هناك مظهر آخر من مظاهر التجانس، لا يقل أهمية عن كل ما ذكرت، ويتعلق بالغرض الأساسى من إقامة هذا المعرض أصلا، وهو نوع الكتب المعروضة والمشتراه. فالكتب فى الغالب الأعظم منها كتب دينية، وهذا هو النوع الذى تقبل عليه الغالبية العظمى من رواد المعرض، ويتمتع بأكبر قدر من الرواج، ومن ثم كان على الناشرين، أيا كانت اتجاهاتهم الفكرية، أن يعرضوه فى مكان بارز ويلوّحوا به لجذب أنظار الزائرين.

انظر مثلا إلى أسماء المكتبات المنتشرة فى المعرض، فالمكتبة هى إما مكتبة التقوى أو النور أو الاعتصام أو اليقين أو الوفاء أو الفضيلة أو الإيمان.. إلخ، ومن ثم فإنى عندما وجدت مكتبة تحمل اسم «مكتبة الثقافة الدينية» قلت لنفسى: «وهل فى المعرض أى ثقافة أخرى؟»

بل وحتى المكتبات العريقة فى علمانيتها اضطرت إلى وضع الكتب الدينية، أو المتصلة بشكل ما بالدين، فى مدخل المكتبة أملا فى استدراج المشترين إلى النظر فى الداخل. والميكروفونات تذيع بصوت عال آيات المصحف المرتل أو تعلن عن الطبعات الجديدة من هذا التفسير أو ذاك، وقد سجل الآن على اسطوانات حديثة للاستخدام عن طريق الكمبيوتر.

لا يمكن أن يعتريك أى شك فيما يسود الغالبية العظمى من زوار المعرض من ولاء حقيقى للدين، واحترام تام لكل ما يتعلق به وتمسك صارم بشعائره. يظهر هذا ليس فقط فى انتشار الحجاب على هذا النحو بين السيدات، وكثرة مطلقى اللحى بين الرجال، ولكن أيضا فى الكتب التى يختارون تصفحها والنظر فى محتوياتها وما يقررون فى النهاية شراءه منها. ومع هذا فلابد أن يلفت نظرك أيضا ما طرأ من تحول على مظاهر هذا التدين فى السنوات العشر الأخيرة، مما لابد أن يعكس تطورات طرأت على أفكار ونفسية هذه الشريحة الاجتماعية التى تقوم بزيارة المعرض، وهى تطورات لابد أن تعكس

بدورها، فى رأيى، تغيرات اقتصادية واجتماعية.

تغير طرأ على الحجاب

إذ فلتنظر مثلا إلى التغير الذى طرأ على الحجاب نفسه. نعم، مازال الكثير من السيدات، خاصة من الأكبر سنا، يفضلن ذلك الحجاب الذى يبدأ من منتصف الجبهة ويحيط بالرأس بما يشبه الخيمة ثم ينزل إلى منتصف الجسم فيغطى تماما الكتفين والصدر، وهو بهذا شديد الشبه بما ترتديه الراهبات. ويكاد هذا الحجاب يتحد مع الثوب نفسه، وهو ثوب فضفاض لا يظهر أيضا معه أى أثر لبداية أو نهاية هذا الجزء من الجسم أو ذاك .نعم مازال هذا النوع من الزى موجودا وبكثرة، ولكن الذى يلفت النظر الزيادة الواضحة فى نسبة المرتديات لنوع آخر من الحجاب، خاصة من الفتيات والسيدات الأصغر سنا . فالحجاب فى حالتهن من ألوان مختلفة وأنواع مختلفة من الأقمشة، وهو يُرتدى بحيث يكون ملاصقا للرأس ويحيط بالوجه إحاطة البرواز للصورة، وكأنه بدلا من أن يمنع العين من النظر يؤكد ملامح الوجه ويبرزها . وهو ينتهى فجأة تحت الذقن مباشرة، فلا يحجب أى شئ غير الشعر فإذا كان الأمر كذلك، فما الذى يمنع من إعطاء بعض الاهتمام بمنظر الوجه نفسه باستخدام بعض وسائل التجميل وإضافة بعض الرتوش هنا وهناك؟ ولكن الأكثر لفتا للنظر هذا التغير المدهش الذى طرأ على الأجزاء الأخرى من الزى، وعلى الأخص ظهور البنطلون وشيوعه شيوعا كبيرا بين الفتيات والسيدات من مختلف الأعمار إلا المتقدمات فى السن.

البنطلون وتحرر المرأة

لا يجب أبداً أن نستهين بشيوع ارتداء النساء للبنطلون فى مصر. فأنا مازلت أذكر بوضوح، إذ لا يعود هذا إلى أكثر من عشرين عاما، كيف كان ارتداء المصريات للبنطلون أمرا نادرا جدا، بل وعندما كان يعتبره الكثيرون خروجا عن اللياقة والحشمة الواجبة. كان ارتداء الثوب الفضفاض هو المتوقع من المرأة، واقترن البنطلون فى الذهن بالذكورة. بل لقد ظل هذا التمييز هو الشائع فى الغرب حتى الستينات، حتى لقد استخدمت بعض الشعوب الأوربية فى بعض تعبيراتها الدارجة ارتداء البنطلون كرمز لصاحب السلطة الحقيقية فى الأسرة. كان هذا التحول فى مصر فى النظر إلى البنطلون أمرا مهما إذن، إذ اقترن بدرجة لا يستهان بها من زيادة تحرر المرأة، وزيادة اشتراكها فى الحياة العامة وممارستها، أكثر فأكثر، لنفس الأعمال التى كانت من قبل مقصورة على الرجال.

هذا الانتشار للمرأة المصرية وزيادة نسبة النساء بين رواد المعرض والمشتركين فى مختلف الأنشطة الدائرة فيه، من بيع وشراء، ومساهمة فى

الندوات، والقيام بالكثير من الأعمال اليدوية، كالتنظيف وكنس الشوارع وتوزيع الإعلانات، مما كان مقصورا على الرجال منذ بضع سنوات، هو أيضا من الأشياء اللافتة للنظر في معرض الكتاب في هذا العام. وعندما يزيد العدد تقل الوحشة وتزيد درجة الشجاعة التي تشعر بها المرأة، ويعتريها شعور أقوى بالثقة بالنفس، وتصبح أكثر انطلاقا وحرية في التعبير عن نفسها، مما يظهر ليس فقط في الكلام والحركة بل وحتى في أسارير الوجه.

لاحظت أيضا تغيرا على بعض أنواع السلوك من جانب الشبان من الذكور مما قد يفسره إلى حد ما هذا التحرر الذي طرأ على الفتاة المصرية. هل هذا الحضور الأقوى والانتشار الأوسع من جانب الفتيات المصريات هو الذي يفسر هذا الاهتمام الأكبر الذي يبديه الشبان المصريون بمظهرهم وزيادة عنايتهم بطريقة قص وتصفيف الشعر ودرجة لمعانه؟ إن جرأة مجموعات الشباب المصري من الذكور على مفاتحة مجموعات الفتيات المصريات بالكلام أو إلقاء عبارات المجاملة السريعة، ناهيك عن المغازلة الصريحة، مازالت محدودة جدا، على الأقل في هذه الشريحة الاجتماعية المنتشرة في معرض الكتاب، ولكن ليس من الصعب عليك أن تلاحظ من باب خفي إحساس مجموعات الشبان الذكور بوجود مجموعة أو أكثر من الفتيات على بعد أمتار قليلة منهم، أو أن تلاحظ كيف أن إحساسهم بوجود الفتيات عن قرب كان له أثر لاشك فيه ليس فقط في حرصهم على أن يظهروا بالمظهر المناسب، ولكن أيضا في نوع ما يصدر عنهم من كلام قد يصل إلى سمع الفتيات.

دعاة أكثر عصرية

هل بمثل هذا يمكننا أيضا أن نفسر ظهور نوع جديد من الدعاة الدينيين من نوع عمرو خالد مثلا؟ دعاة أكثر «عصرية» بأكثر من معنى، سواء في المظهر العام ونوع الملابس التي يرتدونها، أو في طريقة الحديث بل وحتى في الموضوعات التي يختارون التركيز عليها في الدعوة الدينية وطريقة شرحهم لها. لقد صادفت في جولتي بالمعرض مكتبة يقتصر البيع فيها على كتب وأشرطة عمرو خالد مما يكفي للتدليل على مدى شعبيته، وعلى غلاف كل كتاب صورة كبيرة للمؤلف رأيت فيها وسامة واضحة (أو على الأقل ما يمكن أن يعتبره كثيرون وسامة واضحة) وأناقة ملحوظة، مما شجعني على اتخاذ خطوة أخرى وهي أن اشترى بعض هذه الكتب (الصغيرة والزهيدة الثمن) وأن أقرأها لأعرف ما إذا كان في محتوى الكتب وطريقة تناول الموضوعات الدينية فيها ما يتفق مع صورة المؤلف وشعبيته، ومع ما لاحظته من زيادة التحرر لدى النساء المصريات اللاتي سمعت أن فيهن كثيرات

يحملن إعجابا فائقا بطريقة عمرو خالد في الدعوة الدينية. فماذا وجدت؟

في كتاب بعنوان «محبة الله» وجدت المؤلف يقول:

«أذكر شابا صغيرا (١٨ سنة تقريبا) ذهب إلى أحد العلماء وسأله وقال له: «أنا على علاقة بفتاة كذا ويحدث بيننا كذا وكذا، فهل إذا تركتها يرضى عني ربي؟»

فقال له: «يا بني، إذا فعلت ذلك فلن يرضى عنك فقط، ولكنك سوف ترتفع مكانتك عنده جدا» وقد أقسم لي وقال: «عندما ذهبت إلى منزلي فكلمتها في التليفون، وقلت لها: «لن أكلمك مرة أخرى، لأن الله أغلى عندي من أي شئ آخر» وقال لي: «لقد أنهيت المكالمة وأنا مسرور، وأحسست في صدري بشئ، وكأنه يقال لي: سنبدّلك حباً بحب» (ص١٥) .

يلفت النظر أيضا في هذا الكتاب كثرة استخدامه لكلمات كالحب والشوق، في حديثه عن محبة المسلم لله، وهي كلمات لابد أن كان معناها في أول عهد الناس بالإسلام مختلفا بعض الشيء عن معناها الآن، بعد شيوع استخدامها للتعبير عن مشاعر مختلفة تماما في الكتب والأفلام والأغاني، مما يجعل استخدامها الآن يوحي بمعان عصرية أكثر جاذبية للجيل من الشبان والشابات، ولكنها قد تبعد عن المعاني التي يرمي إليها عادة الدعاة الدينيون.

من الواضح أن هذا الجيل من الشبان والشابات قد فعل كل ما يستطيع للتوفيق بين تقاليد الأسر التي نشأوا في ظلها ومتطلبات الحياة العصرية، فحققوا في ذلك درجات مختلفة من النجاح في الزى جمعت الفتيات بين الحجاب على الرأس (بعد تطويره وتجميله) وبين الملابس العصرية فيما عدا ذلك.

وفي التعبير عن مشاعرهم الدينية حاولوا بقدر الإمكان الجمع، على طريقة عمرو خالد، بين الالتزام بشعائر الدين والاستمتاع بالحياة، بقدر ما تسمح لهم ظروفهم المادية. وهم يريدون أن يحققوا طموحاتهم في التقدم المادي، الذي لم يحقق مثله آباؤهم وأجدادهم، والذي تلح وسائل الإعلام الحديثة على ضرورته ومزاياه، مع الاحتفاظ بقدر الإمكان بولائهم لتقاليد آبائهم وأجدادهم.

النجاح في الحياة

صادفت مثلا في سيرى، مكتبة مدهشة لم أكن رأيتها ولا سمعت عنها من قبل اسمها «مكتبة جرير». دخلتها فإذا بكل ما تعرضه للبيع من كتب من منشورات هذه المكتبة نفسها، وكان أول ما لفت نظري في هذه الكتب المستوى الفاخر لطباعتها، وأناقة الغلاف وجودة الورق. ولكن كان الأهم من ذلك موضوعات هذه الكتب. فكلها تقريبا يدور حول «النجاح في الحياة» بالمعنى الدنيوي البحت للنجاح. رأيت من بين هذه الكتب مثلا، ترجمة لذلك الكتاب العتيد الذي سمعنا

عنه لأول مرة فى أواخر الأربعينات، عندما بدأت الثقافة الأمريكية، بل وكل شىء أمريكى، يغزو حياتنا، وهو كتاب «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس؟» لمؤلفه الأمريكى ديل كارينجى، والذى قيل لنا وقتها إنه نجح نجاحا هائلا فى العالم بأسره، وبيعت منه ملايين النسخ بمختلف اللغات. كان بعضنا يتندر على الكتاب وقتها ويثير السخرية منه لما يحتويه من تشجيع على النفاق والكذب لمجرد كسب ما يسمى «بالأصدقاء»، ومن فهم ضيق جدا لمعنى النجاح يقصره على النجاح المادى البحت مما يتطلب نوعا معينا من «التأثير فى الناس» . ها قد وصل الكتاب إذن، بعد أن كانت قراءته مقصورة على حفنة صغيرة من المثقفين المصريين القادرين على اكتشاف خدعته، إلى أيدى الجماهير الغفيرة من المصريين، المتعطشين لهذا النوع بالذات من النجاح، والذين خضعوا لعدة سنوات لتأثير التليفزيون والمسلسلات الأمريكية، أو المتأثرة بها، مما يؤ[illegible] لفهم رسالة هذا الكتاب وأمثاله بسهولة.

أمثال هذا الكتاب تملأ رفوف مكتبة جرير بأسرها، وها هى أمثلة لعناوينها التى حرصت على تدوينها، إذ إنها تلخص فلسفة كاملة للحياة:

كيف تتخلص من القلق وتبدأ الحياة.

إذا كان النجاح لعبة فهذه هى قوانينها.

كيف تتمتع بالثقة والقوة فى التعامل مع الناس.

اكتشف القائد الذى بداخلك .

التغلب على القلق (بالتعاون مع الجمعية الأمريكية لأمراض القلق والخجل).

توقف عن الشكوى وابدأ النجاح .

العادات السبع للإقدام على التغيير بشجاعة .

اهتم بإنجاز ما تريد قبل الغذاء (تأليف.. المدرب الأول فى أمريكا على فن البيع).. إلخ

وكلها كتب مترجمة عن مؤلفين أمريكيين، وإن كانت الصفحة الأولى تبدأ بعبارة «باسم الله الرحمن الرحيم».

إلى جانب مكتبة جرير مباشرة مكتبة أخرى تبيع أسطوانات الليزر الحديثة المعدة للاستخدام عن طريق الكمبيوتر وتحتوى على مختلف أنواع الدروس للشبان الطامحين إلى اكتساب مهارات جديدة تساعد على زيادة الدخل، ولفت نظرى فيما تعرضه هذه المكتبة علبة كبيرة جذابة الألوان، رسمت عليها صورة فتاة محجبة وكتب إلى جانبها «نوران تتعلم اللغات»، فهى إذن تحتوى على هذا النوع من أسطوانات الكمبيوتر والأمل هو أن تلفت نظر هذا النوع من الشباب بالضبط،

من هذه الشريحة الاجتماعية بالذات، التى تميل إلى إطلاق اسم مثل «نوران» على بناتها.

هذه المحاولة للتوفيق بين العصرى والتقليدى، الوافد والموروث، تجد مظاهر لها فى كل مكان. فحتى المكتبات المتخصصة فى الكتب الدينية تجد فيها إلى جانب الكتب التى تشرح الشروط الواجب توافرها فى أداء الشعائر الدينية، رفوفا كاملة مخصصة للأجزاء المختلفة من كتاب «سلاح التلميذ» المعد لمساعدة التلاميذ على اجتياز الامتحان فى مختلف المواد، وموائد طويلة عليها عدد لا يحصى من روايات الجيب المترجمة، صغيرة الحجم وزهيدة السعر، والتى تحمل عناوين مثل «رجل المستحيل»، أو «عودة الشر» أو «سر الشحنة المزيّفة».. إلخ.

بين كتب الدين والتراث والكمبيوتر

من الواضح جدا لأى زائر للمعرض أن الجيل الجديد من هذه الشريحة الاجتماعية التى تملأ شوارع المعرض ومكتباته يتنازعه ميلان قويان، أحدهما إلى كتب الدين والتراث، والآخر إلى الكمبيوتر واللغات الأجنبية، وقد اكتشف التجار هذه الحقيقة قبلنا جميعا فحاولوا بقدر الإمكان الإفادة منها فى زيادة أرباحهم، وها هم يملأون صالات المعرض بخليط مما يمكن أن يشبع هذا الميل أو ذاك. ومهما ركز أحد هؤلاء التجار على إشباع أحد هذين الميلين، ربما بسبب ميوله الشخصية أو تاريخه، فإنه لا يستطيع مقاومة إضافة بعض الكتب أو السلع التى تشبع الميل الآخر أيضاً. تجد هذا مثلا فى الصالة الكبيرة المخصصة للكمبيوتر وكل ما يتعلق به، حيث يفاجئك لدى دخولك من الباب من يوزع عليك منشورات تشرح لك طريقة الحصول على لوازم الكمبيوتر بالتقسيط أو تقدم لك عروضا ميسرة للحصول على «أقوى القواميس الالكترونية» بالنقد والتقسيط على اثنتى عشرة دفعة شهرية. ولكن هناك أيضا منشورات للدعاية لأسطوانات سجلت عليها أحاديث دينية من مختلف الأنواع.. يجرى كل ذلك بينما تنبعث من جهاز للكمبيوتر، وضع فى مدخل الصالة مباشرة، موسيقى عالية للغاية، فإذا التفت إلى الشاشة رأيت صورا لراقصات خليعات تتتابع الواحدة منهن بعد الأخرى، على سبيل المزيد من الدعم لتسويق كلا النوعين من المنتجات، الموروثة والوافدة. على بعد خطوات قليلة من هذا الكمبيوتر شاهدت فتاة محجبة تقوم بتوزيع منشورات تحتوى على قواعد التقسيط، وهى تكاد تموت خجلا من اضطرارها للوقوف فى هذا المكان وسط كل هؤلاء الشبان المزدحمين حول الكمبيوتر الذى تتتابع هذه المناظر على شاشته. ■



الصّحافة

بين الأمس واليوم

بقلم
د. محمد رجب البيومى

الجريدة اليومية ذات رسالة حيوية جادة. ونود لها من الارتقاء والازدهار ما يوده القائمون على تحريرها، فإذا اتجه النقد الهادف إلى بعض أبوابها، فهو النقد المخلص العطوف، الذى يعاون على تسديد الخطأ، دون إجحاف بالجهود المبذولة، والعقبات التى تذلل فى صبر وأناة، والقصور الذى نلحظه فيها، مما يسهل تلافيه، إذا صدقت الهمم، وخلصت النيات، ووجوده الدائم هو نقص القادرين على التمام، الذى عده المتنبى من أفدح العيوب!

تطالع صفحة الأدب كل أسبوع، فتجدها صفحة أخبار الأدب لا صفحة الأدب، فالكلمات الخاصة بالكتب أنباء لا آراء، والأسماء التى تذكر لأدنى مناسبة ذات أخبار لاتتصل بالأدب إلا لأن بعض من تعنيهم قد وضعوا فى صفوف الأدباء، والندوات الثقافية لاتهتم الجريدة بنشر الدقيق من أفكارها

المتنازع عليها، بل برصد الصور، ورءوس الموضوعات، والمبالغة فى الاحتفاء بمتكلم وإهمال سواه مع أنه لم يقل شيئا ذا بال، وهى بهذا الاعتبار لاتخرج كثيرا عن صفحة الفن، مع الفارق البعيد لأن قارئى صفحة الفن من الجمهور العريض، ينتظر الأخبار لا الآراء ويرحب بالصور الأنيقة للجميلات من الممثلات، فهى غرض مقصود لذاته، فإذا قضى أربا من هذه الناحية فقد رضى عن الجريدة، أما قارئ صفحة الأدب فلا ينتظر صورا ولايريد أخبارا، ولكنه يريد توجيها وارتفاعا بمستواه، لذلك تسقط الصفحة من يده ، حين يدركه مثل النوم، فلا يسارع بإعادتها إذ قرأ العناوين سريعا فعرف كل شىء!!

الأدب .. بين الجريدة والمجلة

قد يقول قائل إن اكتفاء الصفحة الأدبية بشذرات موجزة عن الكتاب المعروض، أو بمعلومات خاطفة عن الموضوع ، المرصود، هو الأمر الطبيعى الذى يقدم «الساندوتش» لقارئ عادى، أما النقد التحليلى للكتاب، أو الإحاطة الشاملة للموضوع، فمن شأن المجلات الأدبية المتخصصة ، ولها قراؤها المتميزون، فإذا التزمت الجريدة اليومية منحى المجلة المتخصصة، فقد أثقلت على القارئ بما لايريد، وصرفته عن أخبار الأدب والأدباء معا، وهذا ما فطن إليه القائمون على الصفحة الأدبية، فلم يقدموا اللحم الدسم لذوى الأسنان الهشة من الأطفال، واكتفوا بكوب صغير من اللبن، وهو غذاء مفيد!

طه حسين
حديث الأربعاء
١
دار المعارف بمصر

وهذا التبرير الخطابى ينكره الواقع المعاصر لصفحة الأدب فى الجريدة اليومية من قبل ، فمنذ ظهرت جريدة السياسة اليومية سنة ١٩٢٣م، وقام على تحريرها الأديب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله، أخذت صفحة الأدب تقدم من البحوث الأدبية، والمقالات التاريخية، والتراجم الإنسانية ما أعطى للصحافة رسالة قوية فى اليقظة الفكرية،



وقد جمعت هذه البحوث فى مؤلفات مستقلة أصبحت مرجع الباحثين، وتعددت طبعاتها مرة بعد مرة، ورأت الصحف الأخرى أن السياسة قد سبقت بصفحتها الأدبية فسارعت باحتذائها، وهكذا كان للبلاغ وكوكب الشرق والأهرام والمصرى والوادى والجهاد صفحاتها المماثلة، وكتابها الأعلام من كبار الأدباء! ولن أرسل الكلام إرسالا هشا دون تمثيل مبين!

د. طه حسين

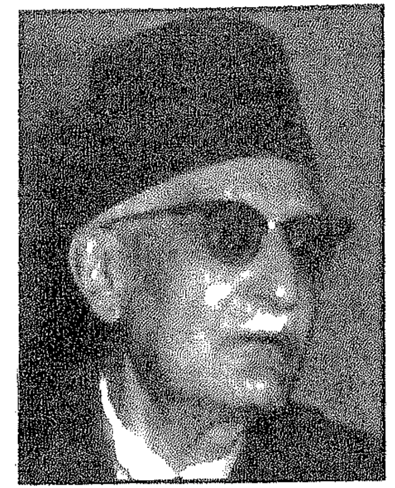
أساطين الكتاب فى الصفحة الأدبية

إن لدينا - مثلا - كتاب (حديث الأربعاء) بأجزائه الثلاثة للدكتور طه حسين، قد نشر أكثره على صفحات السياسة اليومية فأحدث معركة فكرية واتسعت أنهار السياسة لمعارك قلمية أدارها أمثال رفيق العظم وأحمد زكى باشا، وشكيب أرسلان على صفحات السياسية، وانتقل الصدى إلى جريدة المقطم فكتب الاستاذ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية مقالات نسفت دعوى الدكتور طه حسين فى الطابع المجونى العام للعصر العباسى نسفا، ورد الدكتور على بعض دون بعض، رد على من سالمه لهجة ومديحا واتقاء، وسكت عمن أوجعه وخزا وطعنا! كل ذلك فى صفحة الأدب اليومية بالسياسة! فهل قال قائل إن قارئ الجريدة اليومية ملول ساذج لايريد الدسم المرئ ؟!

ولا أترك جريدة السياسة دون أن أشير إلى هذا اللون الأدبى الجديد الذى ابتكره الأستاذ عبدالعزيز البشرى فى صفحة الأدب بالجريدة نفسها حين كتب (فى المرآة) ليصور أعلام الأدب والسياسة والفكر فى مصر تصويرا قلميا رائعا، أخذ على القارئين ألبابهم، وجعل كل وزير يترقب حذرا أن يصوره البشرى بما يسقط مكانته لدى القراء، وقد قال إسماعيل صدقى لبعض أصدقائه، إنه لم ينم الليل حين أخبره أحد محررى السياسة أن مقال الغد فى المرآة خاص به، وقد قرأ المقال قبل أن تكتحل عينه بالنوم صباحا واطمأن خاطره، فأرسل كتابا رقيقا للبشرى نشرته السياسة فى العدد التالى، وأعاد البشرى نشره، بمجموعة (فى المرآة)!

أما الاستاذ عباس محمود العقاد،

فأكثر كتبه قد نشر فى الصفحة الأدبية بالجرائد اليومية، كالمطالعات والفصول والمراجعات، وساعات بين الكتب وغيرها، مما نشر فى البلاغ اليومى، والبلاغ الأسبوعى والمساء والجهاد، والعقاد موجز البيان، دقيق المعانى، وقد يغمض ويصعب أحيانا، فهو لاينحدر كالسيل مثل طه، ولا يتخفف بالفكاهة مثل المازنى، ولكنه فى الصفحة اليومية أستاذ كبير مع تلاميذ متطلعين، وقد أحدث حركة فكرية مثالية بما بعث من آراء ظلت موضع الشد والجذب بينه وبين ناقديه! فهل قال أحد إن الجريدة اليومية لاتحتمل شموخ العقاد، ولا تمتد إلى أقصى مراميه، لم يقل ذلك أحد، وإنما أقبل القراء على آثاره فى العشرينيات حين لم تكن لدينا إلا جامعة ناشئة لم تكتمل كلياتها بعد، ولم يكن لدينا من المدارس الثانوية غير مالايتجاوز عدد الأصابع! أما الآن فى القرن الحادى والعشرين، حين تعددت الجامعات، وانتشرت آلاف المدارس، وتنوعت المكتبات وتعددت دوائر الإعلام من إذاعة مسموعة ومرئية ومسارح وقصور ثقافة، أما الآن فالصفحة الأدبية



عباس محمود العقاد

فى الجريدة اليومية صفحة أخبار، فإن زادت فبما هو شبيه بالأخبار! لماذا؟ لأن القارئ ساذج ترضيه السطحية، ويطمئن للقشور!

ولن استطرد فأذكر مقالات الاستاذ مصطفى صادق الرافعى في كوكب الشرق والبلاغ، أو مقالات المازنى فى الأخبار الواقعية والبلاغ، وهما لايقلان مكانة عن طه وعن العقاد، ولكنى أقول إن تألقهم جميعا قد سطع فى سماء الصفحة الأدبية فى الجريدة اليومية! فأبطلوا حجج الكسالى والمتراخين، ومن الحظ الحسن أن كتبهما التى جمعت هذه المقالات لاتزال ذائعة يتداولها قراء اليوم، مثل، تحت راية القرآن وحصاد الهشيم وقبض الريح، فما معنى هذا؟

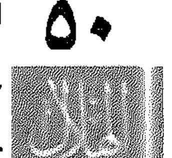
منطق الصفحة الأدبية

إن الذى يصف الصفحة الأدبية فى الجريدة اليومية بالشلل، ينتهى إلى عدة أشياء، أحدها الإيجاز المخل المبتسر فى تناول الموضوع، إذ من رأى المشرفين على هذه الصحف أن تتسع الصفحة لأكثر من ست مواد، فيأتى المقال غائما لايفصح عن وجه مشرق، وقد يكون مقدمة لا نتيجة لها، أو نتيجة لم تسبق بمقدمات، فيفقد

ثمرته المرتجاه، وقد قنع الناشر والكاتب بالعنوان والاسم، وكأنهما كل شيء، وهذا في الكثير الملموس دون أن نغفل الجد الصارم لدى نفر يكتبون مايفيد عن موهبة واستعداد، فماذا يضير لو اكتفت الجريدة بمادتين أو ثلاث على الأكثر، وامتلأت بهما الصفحة كما كانت تمتلىء من قبل بمقال واحد للدكتور طه حسين، ولكن كيف؟ ومن وراء هذه المواد المبتسرة أعمدة تتحدث عن أخبار أدبية، وكتب ستجد قريبا أو بعيدا طريقها للنشر، ومواعيد لندوات ثقافية، وصور لمن وردت أسماؤهم عرضا في الأخبار، هذا غير إعلانات أسفل الصفحة تتحدث عن كتب تباع مع الجرائد! وكل هذا في الصفحة الواحدة فإذا تركنا الإيجاز المخل، فإننا نشير إلى ظاهرة أخرى، تتجسد في تكرار أسماء معينة تسعد بصداقة القائم على النشر فيتاح لها النشر الدائم دون أن تكون لها مقدرة على العطاء المستمر، وإنما هو الشغف لملء الفراغ فحسب، وقد يكون لدى الناشر من المقالات مايقدم الجديد لأسماء لا يعرف أصحابها، ومن العسير في ضوء هذه المجاملات الشخصية أن تظهر هذه المقالات الجادة وهكذا تظهر الصفحة ذات الأنهار الثمانية مليئة بالحروف والكلمات دون مضمون مفيد

وإذا شاء أحد أن يمارى فيما أسطره من النقد فيسأل نفسه: أيرى فيما ينشر من هذه المبتسرات مايهيىء كتابا جادا يصبح أثرا رائعا من آثار المكتبة العربية ككتب هيكل والمازنى وطه والعقاد، بل ككتب الصف الثانى من أمثال محمد مندور وعبدالرحمن الخميسي وسعد مكاوى وقد انطلقوا جميعا في الصفحة الأخيرة من جريدة المصرى مع غيرهم ممن غابت أسماؤهم عن الذاكرة، فإذا كان الجواب هو استحالة أن ينشأ من هذه الهلاميات أثر يفيد القارىء، فقد كصح مانقول دون ارتياب.

ولعلى لا أغفل القول عن أمر ثالث يلوح في هذه المواد المبتسرة الكليلة وهو اتجاه بعض الخاطفين إلى الحديث عن مصطلح غربى، عفا أثره في موطنه، وعاد هناك كالطلل الدارس، وقد ظنه من الطرائف النادرة لا لأنه استبطن خوافيه، وولج إلى أعماقه، بل لأنه قرأ عنه مقالا في جريدة أجنبية ، وقد تكون جريدة عربية فمن يدرى ، ثم رأى أن يبهر القراء بما ألم، ولم تسعفه مقدرته العقلية، ولا لغته البيانية في الإفصاح عن بعض مافهم، ولكنه امتشق القلم، لينثر جملا متضاربة تتشاجر تحت عنوان المصطلح الحبيب لنفسه، وتقرأ ما



تقرأ فلا تعرف شيئا مما عناه الكاتب، فاللغة عربية الحروف فحسب، والمعانى لا تستقيم على سنن معهود، فقد يوجد مبتدأ لا خبر له إلا فى عقل الكاتب، وقد يوجد فعل يبحث عن فاعله فيستحيل وجوده، ومن القراء أمثالى من يظن أن مستوى الموضوع أرقى من أن ينحدر إلى العقول المتواضعة فيكتفون بالأسف على أن حرمهم الله موهبة الفهم الدقيق، إذ شاء أن يختص بها نفرا من ذوى النبوغ الفائق كهذا الذى تفضل بكتابة هذا الإبداع!

إن صفحة الأدب يجب أن تتحرر من أوهاقها الثقال، وأول خطوات هذا التحرر أن يكون القائم عليها ذا أمانة خلقية تلزمه أن يجهر بالحق متى تعين الجهر، ولى فى هذه الناحية واقعة أليمة فقد شاء أحد السارقين أن يسطو على عدة كتب مترجمة إلى العربية عن الإنجليزية فى علوم التربية والاجتماع وعلم النفس، فطبعها باسمه ، وقام بالنشر تاجر بيروتى ، وظهرت الكتب المسروقة متوجة بقلم المترجم السارق، وتحت اسمه ما يلى (مراجعة الدكتور محمد رجب البيومى عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة) وجاءنى النبأ الفاجع فعجبت إذ كيف أراجع كتبا عن الانجليزية وأنا لا أعرفها! فبعثت بأربعة أسطر فقط، إلى جريدة يومية أستنكر ما حدث ، ولم تسمح الجريدة لمظلوم أن يجأر بشكواه فاضطررت إلى النجدة بالمجلات التى أكتب فيها بمصر والبلاد العربية فكانت مجلة الهلال فى طليعة المنجدين، فيالله ! أتمتلئ صفحة الجريدة اليومية بأخبار الندوات الأدبية، وتشيد بالمراهقات اللاتى يبدأن الخطوات الأولى ثم تضن على مظلوم وقع فى بهتان الإفك بأربعة أسطر؟! أهذه رسالة الأدب التى يرعاها أساتذة الصحافة فى عهدنا السعيد ! ..لقد غابت المسئولية الخلقية غيابا مؤلما فهل ستعود؟

هذا بعض ما يقال عن الصفحة الأدبية فماذا نقول عن الصفحة الدينية؟

قشور الصفحة الدينية

إن مهمة الصفحة الدينية فى الجريدة اليومية أصعب بكثير من مهمة الصفحة الأدبية، فالصفحة الأدبية تواجه جمهرة القراء غالبا بكثير مما لا يعلمون فيجدون بها بعض ما لم يعرفوه من قبل، إذ أن هذه الجمهرة لم تلم بشئون الأدب نظرا لظروفهم المعيشية ،أما الصفحة الدينية فتتعرض لأمور أفاضت فيها إذاعة القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثين عاما إفاضة ملحة دائبة ولهذه الإذاعة أكبر نفوذ على السامعين، فهى المسموعة فى المتجر والمصنع والحقل والشارع

حتى الأمى الذى لا يفهم بعض ما يقال ، يطمئن إلى مجرد السماع، واثقا من ثواب الله فيه، وفرض على القائمين على هذه الصفحة أن يعوا ذلك جيدا، إذ لا يجوز أن يعيدوا أحاديث الإذاعة بعبارات مختلفة تنتهى إلى معنى واحد، بل عليهم أن يتعمقوا ما يعرضونه تعمقا، ينفح بالجديد من التحليل، والطريف من التفسير، فيشعر قارئ الجريدة المتواضع أنه يقرأ ما لم يسمعه من قبل، فيقبل عليه فى شوق، ولكن المشاهد غير ذلك ، فكلمات الإذاعة القرآنية بعينها هى كلمات الصفحة ، والمتكلمون هم الكاتبون فى أكثر الأحوال، هذا إلى الولوع بالإيجاز المخل على نحو ما أشرنا إليه فى حديثنا عن الصفحة الأدبية، وهذا الإيجاز يتجه دائما إلى القشور لا إلى اللباب وكأن المراد أن نملأ الفراغ فحسب!



عبد القادر المازني

وما يقال عن تبرير هذه الكلمات المبتسرة فى الصفحة الأدبية يقال عنها فى تبرير القصور الواضح فى علاج الموضوعات الدينية إذ يقال إن البحوث الدينية لها مجالها فى الصحف المتخصصة ، وإن القارئ يسأم المقال المستوعب الجاد فلا يلتفت إليه ، وإذا كنت فندت ما قيل عن ذلك فى صفحة الأدب بالاستشهاد بكبار الكتاب فى عهد الازدهار الأدبى، فأنا أفعل ذلك تماما فى مجال الحديث عن الصفحة الدينية فأقول إن كاتبا كبيرا كالأستاذ محمد فريد وجدى نشر كتابه (الاسلام دين عام خالد) متواليا فى الصفحة الدينية بجريدة الجهاد اليومية وقد لاقى احتفال الأستاذ محمد توفيق دياب إذ حرص على نشر المقالات الطويلة إشباعا لرغبة القراء وشكره الأستاذ وجدى فى مقدمة الكتاب حين قدم الطبعة الأولى منه ، لقد لمس الأستاذ توفيق دياب انجذاب القراء منذ سبعين عاما فأكثر إلى هذه البحوث المسهبة المستفيضة فآثرها بالاحتفاء . وكذلك فعل الأستاذ خليل ثابت رئيس تحرير المقطم حين أفرد لمقالات الشيوخ الكبار، يوسف الدجوى ومحمد شاكر، وعلى سرور الزنكلونى، ومحمد سليمان مساحات شاسعة وبعضها كان يتصدر نصف الصفحة الأولى من المقطم ثم تأتى البقية فى نصف آخر بالصفحة الثانية، وكانت

هذه المقالات مصدر رواج للجريدة إذ يقبل عليها القراء في نهم زائد! أفنقول الآن إن الوعي لدى قرائنا لا يتحمل غير ما يكتب في القصاصات ! نقوله بعد أكثر من ثمانين عاما، إذ أن مقالات هؤلاء الكبار نشرت في العشرينيات!

عبد العزيز البشرى

أخطاء واضحة

وحين تجدّ أمور هامة تشغل الذهن المصرىّ، كأحكام نقل الأعضاء والاستنساخ، وفوائد الاستثمار يقع القائمون على الصفحات الدينيّة بالجرائد اليومية في خطأ واضح يعقبه الاضطراب الشديد، إذ تُرسل كلّ صفحة مندوبا من محررّى الجريدة إلى كل من يتزيا بزُى أهل العلم، قد يكون إماما في مسجد، أو مدرّسا في معهد، أو أستاذا في كلية لتسأله عن حكم الله فيما جد، والمسئول عند نفسه عالم أزهرى يحمل درجة العالمية أو ما فوقها، فلابد أن يبدى رأيه في الحدث الجديد ولا يعنَيه إنْ كان أهلا للفتوى بتضلعه الدقيق، ومراسه الطويل أو أنه إنسان ينتسب إلى أهل العلم فقط، وهنا تخرج الصحيفة بعنوان ضخم يملأ مساحة الأنهار السبعة أو الثمانية، ثمّ بمستطيل طويل تحت العنوان الضخم يضم صُور هؤلاء الذين تبرعوا بالإجابة من غير ذوى الاختصاص ويقرأ القارئ فيجد من تضارب وجهات النظر ما يبلغ التناقض الصريح، واختلاف العلماء في الرأى الفقهى مشهور معروف، ولدينا في التراث التشريعي ما يُعرف بكتب الخلاف! ولكن أىّ علماء يقع بينهم الخلاف هم الفقهاء الأثبات الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد، فلهم أن يختلفوا بالدليل، ومعهم أسلحتهم الأصولية من القياس والاستحسان ومراعاة العرف إلى آخر ما هو مقرّر لدى هؤلاء! أمّا أن يبدى كلّ متعلم رأيه فيما جدّ من المسائل، وأما أن ينشر ذلك في جريدة سيّارة، فهذا ما يدعو إلى الاضطراب.

إن الفتوى التي يجيب عليها المسئول في الجريدة اليومية نوعان، نوع يتجه إلى المقرّر التعارف مما درس في كتب الفقه من أحكام متداولة تتعلق بالعبادات والمعاملات، وقد نص عليها المؤلفون. وهذا النوع المعروفة أحكامه مما يُجيب عنه كل دارس، ونوع جديد لم تقرّر فيه أحكام سابقة، وهذا لا يجيُب عنه إلى

هيئة مسئولة كمجمع البحوث أو لجنة الفتوى، ولا يجوز للجريدة ولا للإذاعة أن تخلط بين هذين النوعين، فتفتح الباب لكل قائل يرى فى نفسه كفاءة تفتقد الدليل، بل إننى للأسف الشديد قرأت فى رمضان الماضى فتوى تنتمى إلى النوع الأوّل، وقد ذاعت عنها الإجابة الصحيحة فى مناسبات متعدّدة حتى أصبحت من قبيل تحصيل الحاصل، ولكن المسئول تورط فذكر من الحكم ما هو خطأ يوقع فى البلبلة! لقد أفتى الأئمة الكبار عبد المجيد سليم ومحمود شلتوت وأبو زهرة بأن تناول القطرة بالعين فى شهر رمضان لا يبطل الصوم، واعتمدت الفتوى على الدليل المقنع، وأفتى بها من قرأها، وكنت أحد المفتين تابعا غير متبوع! كان هذا منذ سنوات رسخ فيها الحكم رسوخا لا يتزلزل، ثم طلعت علينا جريدة شهيرة فى رمضان الماضى بعنوان كبير يقول: قطرة العين تفطر فى رمضان وقد نسبت الفتوى لعالم مهما قيل عنه، فهو تلميذ لهؤلاء الثلاثة الأكبار، وكان عليه إذا خالف الرأى الذائع ألاّ يُلْقِي بالحكم مجردًا هكذا، بل يقول مثلا ذهبت لجنة الفتوى بالأزهر



محمد فريد وجدى

الشريف، وذهب الأئمة عبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة وغيرهم من كبار المعاصرين إلى جواز تعاطى القطرة فى رمضان، ولكنى أرى غير ذلك، على أن يكون النشر فى مجلة متخصّصة يقرؤها الدارسون، وليس فى صفحة يومية تورث البلبلة فى النفوس! وكان من واجب المشرف على الصحيفة أن يتريث فى نشر غير المشتهر، هذا إذا كان قد درس الحكم من قبل! ويظهر أنه لم يدرس شيئا!

ومما يتوجه إليه النقد فى هذا المجال أن نرى بالصفحة الدينية، سطورا موجزة فى هيئة كلمات ذات موضوع، تحت عناوين، أبو بكر الصديق، عمر، عثمان، خالد، الحسين، عمرو بن العاص وغيرهم من مشاهير الأعلام فى الدين والسياسة والزهد، وتقرأ فتجد ما هو معروف لتلميذ المدرسة الابتدائية، ولو كان ذلك فى مجلّة للطفل كالبراعم أو ميكى ونشر بحروف كبيرة ذات شكل بارز لقلنا إنه غذاء مناسب لبُرعم غض، أما أن نأتى

بهذه الذائعات المشتهرة ثم تكون ممهورة باسم كاتب متطلع، فهذا استهزاء بالقارئ، وملء فراغ يجب أن يشغل بما يفيد، ومن المضحك جدا أن يجلل المقال بصورة للكاتب العميق.

لقد قارنت منذ أكثر من عامين على صفحات الهلال بين العمود اليومى فى الصحافة فى عهدين مختلفين فكان السبق للعهد الأول، وهذا المقال يقطع بتفوق الماضى على الحاضر فيما ينشر بصفحتى الأدب والدين، وهى مشكلة تتطلب العلاج، لأننا يجب أن نتقدم لا أن نتأخر، وتتعاظم المفارقة حين نعلم أن المشرفين على صحف الأمس كانوا من منازلهم، لم يلتحقوا بكليات الإعلام الباهرة، ولم يأخذوا المذكرات الجامعية الرفيعة بالثمن الفاحش، ثم هم يصلون بالسفينة إلى الشاطئ فى مأمنٍ من العواصف الهوج! وما أقررهُ فى هذا المجال يؤمن به الذين قرأوا صحافة العهدين، وأكاد أسمع أصواتهم الموافقة، وإن لم ينطقوا بحرف تأكيداً لقول الشريف الرضى

فقلت نعم، لم تسمع الأذنُ دعوةً
ألا إن قلبي سامع وجناني

كلمات عاشت

* لم نعد فى عصر يستطيع الخطيب ، أو الكاتب ، أن يتفرغ فيه لانتقاء موضوعاته ، فقد أصبحت الموضوعات اليوم ، هي التي تفرض نفسها ، أو بالأحرى الموضوع ، لأنه لم يبق إلا موضوع واحد أمامنا : المحافظة على حياة وطننا وحياتنا

« جيردو »

* المعرفة لا يجب أن تمنع عن أى إنسان ، على أساس أن المعرفة تفيد فى الشر كما تفيد فى الخير ، لذلك يجب أن يصحبها تدريب أدبى ، وبث للقيم الخلقية .

« برنارد شو »

* أعتقد أن أكبر خطر يتهددنا - إذا افترضنا أن الجنس البشرى لم يفن نفسه فى حرب كبرى - هو أن نصبح معبئين كالجنود ، فنتيجة للاكتشافات العلمية والميول البيروقراطية ، يتعرض العالم للتنظيم ، إلى حد لا يصبح من السهل إطلاقا السكنى فيه .

« برتراند راسل »

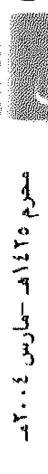


أسطورة النقود تنفجر..

ولغز التمويل ينحل !!

بقلم
محمد يوسف عدس

قد تسوق المصادفة للإنسان أحيانا - ومن حيث لا يحتسب - فرصة تيسر عليه بعض الصعوبات المعرفية، وهذه القصة واحدة من هذه المصادفات السعيدة التى أفادتنى فى فهم حقائق اقتصادية كانت



مـسـتـغلقـة علىّ، ومكنتنى من الربط بين نثـارها فانتظمت فى عقد واحد واكتسبت إضاءة جديدة.

مؤلف هذه القصة رجل اقتصاد كندى اسمه «لويس إيفين» أراد أن يبسط الأمور لغير المختصين من أمثالى حتى يتسنى لهم استيعاب القضية دون أن يصطدموا بالمصطلحات المعجمية أو الخلافات النظرية. ولا تكتسب هذه القصة المثيرة قيمتها الحقيقية من شهرة مؤلفها، بقدر ما تكتسبها من المضمون الذى تنطوى عليه والمغزى الإنسانى الذى تلمح إليه.

أما بالنسبة لى فقد كانت بابا جديدا إلى عالم من المعارف والأفكار والأشخاص، تبينت فيه أن عددا لا بأس به من المفكرين الغربيين يبشرون بنظام اقتصادى جديد متحرر من الفائدة، لأنهم يعتقدون أن النظام الاقتصادى التقليدى السائد قد تسبب فى خراب المجتمعات على مر العصور، وأنه كان دائما وراء الكوارث الاقتصادية والجشع الرأسمالى والحروب المدمرة ونهب ثروات الشعوب، وأحد أسباب الفقر والجوع التى تعصف بشعوب العالم الثالث.

تحطمت سفينة فى المحيط الهائج فغرق ركابها فيما عدا خمسة منهم، تعلقوا ببعض حطام عائم ألقى بهم على شاطىء جزيرة مهجورة، حيث ظلت عيونهم لساعات طويلة معلقة بالأفق البعيد، عسى أن تقترب منهم سفينة إنقاذ تعود بهم إلى حياة الحضارة والأهل بعد أن تقطعت بهم الأسباب، ولكن مازال الأمل يتسرب من نفوسهم حتى تبين لهم أنهم ماكثون فى هذه الجزيرة إلى ما شاء الله، فشرعوا يتجولون فى الجزيرة يستكشفون أرضها ويتعرفون على ما فيها، فقد أصبحت وطنهم الجديد.

كانوا خمسة رجال كنديين: فرانك وهو نجار ضخم البدن مفعم بالحيوية، وبول فلاح اعتاد على الصبر والحياة الشاقة، وجيم مرب ناجح للحيوان، وهارى متخصص فى الزراعة، وتوم خبير فى المناجم والتعدين.

الاستطلاعات الأولية رفعت روحهم المعنوية فلم تكن الجزيرة صخرة جرداء، ولكن بها حيوانات قابلة للاستئناس والاستخدام، قال جيم أنا كفيل بذلك. ووجد بول مساحات كبيرة من الأرض صالحة للزراعة، واكتشف هارى فى الغابة أشجار فاكهة مختلفة تحتاج إلى شىء من العناية، أما فرانك فقد وجد أن

أكثر أشجار الغابة مصدر لأخشاب جيدة تصلح لبناء المنازل، ثم جاء توم بخبر سعيد فقد تبين له أن التركيبة الصخرية للجزيرة تدل على وجود معادن كثيرة فيها.

تجربة مهمة

مضت الأيام سراعا وبدأت الجزيرة تزدهر بفضل العمل الدوب للرجال الخمسة. لم تكن ثروة الجزيرة من الذهب أو أوراق البنكنوت ولكن من أشياء ذات قيمة حقيقية، ثروة من الطعام والملابس والمساكن وغير ذلك من أشياء يحتاجها الإنسان لمواصلة حياته.

كل واحد منهم اشتغل في صنعته فأنتج فيها إنتاجا وفيرا، وما زاد عن حاجته كان يتبادل به على أشياء فائضة من إنتاج الآخرين.

لم تكن الحياة كاملة كما ينبغي أو كما اعتادوا عليها في الماضي، ولكنهم كانوا يعللون أنفسهم بأنها فترة ستنقضي ثم يعودون إلى وطنهم وأسرهم .

اعتاد الرجال أن يجلسوا معا كل يوم للحديث في شئونهم ومشكلاتهم ، ومن هذه المشكلات ان نظام المقايضة بالسلع له عيوب فالسلع لم تكن كلها حاضرة طوال الوقت، فالخشب الذي استخدمه الفلاح خلال الشتاء ليطهي طعامه ويستدفيء به لم يكن يستطيع مقايضته بالبطاطس إلا بعد ستة أشهر. وقد تتوافر لأحدهم كمية كبيرة من إنتاجه ويريد أن يستبدلها بسلع أخرى من إنتاج عدة أشخاص وفي أوقات مختلفة. كل هذا عقد نظام المقايضة وألقى بعبء ثقيل على الذاكرة، وانتهوا إلى أنه لو كان هناك نظام للنقود لاستطاع الواحد أن يبيع ويشتري بالنقود الأشياء التي يريدها في الوقت الذي يحتاجها فيه، ولكن للأسف ولا واحد منهم كان خبيرا بإنشاء مثل هذا النظام، إنهم يعرفون كيف ينتجون ثروة حقيقية من السلع والخدمات، ولكن كيف تنتج النقود التي هي رموز لهذه الثروة ، هذا شيء خارج عن نطاق خبراتهم.

رفيق جديد

في مساء يوم من الأيام وكان الرجال يجلسون على شاطيء البحر يتحدثون عن نفس المشكلة، ربما للمرة المائة رأوا قاربا صغيرا يقترب من الشاطيء وبه رجل واحد، علموا فيما بعد أنه الوحيد الذي نجا حيا من ركاب سفينة محطمة واسمه أوليفر. كانوا مبتهجين أن يجدوا رفيقا جديدا فأتحفوه بأفضل ما عندهم، ثم أخذوه في جولة حول الجزيرة وقالوا له : رغم أننا انقطعنا عن العالم ولكننا لا نشكو كثيرا فالأرض والغابة بهما خير كثير والحمد لله ولكننا نفتقد شيئا واحدا هو النقود، فقال أوليفر: حسنا.. يمكنكم ان تشكروا العناية الإلهية فأنا من رجال البنوك وفي أقصر وقت أنشيء لكم نظاما نقديا يحل مشكلاتكم، وبذلك يتوفر لكم كل شيء مما يتوفر للناس في الحياة الحضارية. هتفوا مسرورين: رجل بنكي، رجل بنكي!، كأن ملاكا قد نزل إلينا من السماء!

إله الحضارة

– يا سيد أوليفر ، باعتبارك رجل البنك عندنا فسيكون عملك الوحيد هو العناية بنقودنا فقط، لا حاجة بك للعمل اليدوي هنا.

قال: سوف أعمل على رفاهية هذه الجزيرة بكل طاقتي.

فقالوا: سنبني لك بيتا يليق بمقامك



المحترم، وحتى يتم هذا نرحب بك ضيفا فى بيوتنا.

قال : شكرا لكرمكم، ولكن قبل كل شىء علينا أن نفرغ حمولة القارب فهناك مطبعة وورق وأحبار وحروف، ويوجد برميل صغير أرجو أن تتناولوه بأكبر قدر من العناية. أفرغ الرجال القارب، إلا أن البرميل الصغير أثار كثيرا من فضولهم، فقال أوليفر: «إن هذا البرميل به كنز يفوق الأحلام، إنه مملوء بالذهب!».

شهق الرجال الخمسة فى نفس واحد وهتفوا: إله الحضارة قد نزل عندنا فى جزيرة الخلاص! الإله الأصفر، الذى يختفى دائما فلا تدركه الأبصار ولكن لديه قوة رهيبة، بوجوده وغيابه وتقلب أسعاره تتقرر مصائر البلاد المتحضرة!

– ذهب يا سيد أوليفر.. لابد أنك رجل بنكى عظيم!! يالمهابتك يا صاحب العظمة، أيها المبجل أوليفر.. يا أعظم كهنة الإله الذهبى! تقبل ثناءنا وتقديرنا وقسمنا لك بالولاء والإخلاص!

– نعم أيها الرفاق إنه ذهب يكفى لقارة كبيرة لا لجزيرة فحسب، ولكن الذهب يا رفاق ليس للتداول، فالذهب لابد من إخفائه، إنه روح النقود الجيدة، والروح دائما غير مرئية، وسوف أشرح لكم الأمر عندما تتسلمون أول دفعة من النقود.

وقبل أن ينصرفوا إلى حال سبيلهم سألهم أوليفر: كم من النقود تحتاجون لتصريف تجارتكم، نظر بعضهم إلى بعض وتشاوروا فيما بينهم حتى استقر الرأى على مائتى دولار لكل واحد منهم، ذهبوا إلى فرشهم ولكن عز النوم عليهم فقد امتلأ خيالهم بصورة الذهب فظلوا مستيقظين حتى مطلع النهار.

أما أوليفر فلم يضيع لحظة من وقته رغم ما أصابه من إجهاد، ذاب فى تيار حماسه لمستقبل هبط عليه كمدير للبنك ووزير لاقتصاد الجزيرة، ومع تنفس الصبح كان قد انتهى من إعداد حفرة دفن فيها البرميل وأهال عليه التراب وغرس فوقه شجيرة صغيرة فأصبح مكانه غير معروف من أحد سواه. ثم بدأ يشغل أدواته فى طباعة أوراق نقدية مجمل قيمتها ألف دولار، وقال لنفسه : لقد أصبح الشريد مدير بنك، كم هى مسألة سهلة أن تصنع النقود. إن السذج يظنون ان هذه النقود تستمد قيمتها من الذهب، ويجهلون هذه الحقيقة: وهى أن قيمة النقود تكمن فى المنتجات التى ستشتريها، يعنى فى قوتها الشرائية، فبدون المنتجات تصبح هذه الأوراق عديمة القيمة.. ولجهلهم جعلونى سيدهم!

من يملك النقود؟

فلما حل مساء اليوم التالى هرول الخمسة إلى أوليفر، وكان على المنضدة خمسة أكياس من النقود عندما بادرهم أوليفر قائلا: قبل



توزيع النقود أود أن ألفت أنظاركم إلى أمر مهم، أنتم تعلمون أن أساس النقود هو الذهب، والذهب عندى محفوظ فى خزينة البنك فهو ذهب أملكه، وترتيبا على ذلك تكون النقود نقودى، ولكن لا ينبغى أن تشعروا بحرج من ذلك، فسوف تتصرفون بالنقود كيف تشاءون، وسيكلفكم هذا أن تدفعوا إلى فائدة مقدارها ٨٪ وهى فائدة معقولة فى بلد تشح فيه النقود.

أجابوا جميعا بنفس واحد: لك ما تريد يا سيد أوليفر، هذا شىء معقول، فقال: نقطة أخيرة أيها الأصدقاء، البيزنيس بيزنيس (الشغل شغل) حتى بين الأصدقاء، قبل أن تأخذوا النقود على كل واحد منكم أن يوقع على ورقة تلتزمون بها أن تدفعوا الفائدة ورأس المال، وفى حالة الامتناع عن الدفع يحق لى مصادرة ممتلكاتكم.

الحل هو المعضلة

أصبحت نقود السيد أوليفر متداولة فى الجزيرة وأصبحت التجارة سهلة بل تضاعفت، وأضحى كل إنسان سعيدا بمجريات الأمور، وكان مدير البنك دائما فى موضع التقدير والاحترام والاعتراف بالجميل، فيما عدا شخص واحد هو «توم» المنقب عن المعادن.. لماذا يبدو مهموما وقد جلس وحيدا منهمكا فى حسابات ومعه القلم والورقة؟! فتعالى ننظر فى أمر توم:

لقد وقع توم مع زملائه على عقود تقتضى أن يعيدوا إلى البنكى نقوده فى نهاية العام. يعنى مائتا دولار بالإضافة إلى ستة عشر دولارا أخرى، ولكن توم لا يجد فى جيبه سوى حفنة قليلة من الدولارات ويوم تسديد الدين يقترب حثيثا. كان الرجل يفكر فى هذه المعضلة مليا منذ وقت طويل، ولم يجد لها حلا، والآن أخذ ينظر إلى المشكلة من وجهة نظر الجماعة ككل، قال فى نفسه: هل يستطيع كل من فى الجزيرة أن يدفعوا لأوليفر ١٠٨٠دولارا بينما كل نقود الجزيرة مجتمعة لا تزيد على ألف دولار فإذا دفعناها كلها إليه سنبقى جميعا مدينين له بثمانين دولارا غير موجودة أصلا، وبسبب هذا الدين يستطيع أوليفر أن يستولى على كل ممتلكاتنا ومنتجاتنا، يعنى يستولى على الجزيرة كلها ويخرجنا منها مفلسين، حتى لو استطاع قلة منا لديهم النقود ان يسددوا ديونهم هذا العام فسوف يأتى الدور على الجميع فى الأعوام التالية ويستولى البنك على كل شىء، لابد أن نعقد على الفور اجتماعا لنرى معا ماذا يمكن عمله فى هذه المعضلة.

استطاع توم بالأرقام ان يبرهن على صحة رأيه واتفق الجميع على أن صديقهم البنكى قد خدعهم وقرروا عقد اجتماع معه على الفور.

البنكى الخير

تولى فرانك شرح وجهة نظر الجماعة واستمع أوليفر بصدر رحب والابتسامة لا تفارق شفتيه. قال: كيف نستطيع أن ندفع لك ١٠٨٠ دولارا وكل ما فى الجزيرة من نقود لا يزيد على ألف دولار فقط؟! أجاب أوليفر: هذه هى الفائدة يا أصدقائى، ألم يرتفع معدل إنتاجكم؟ فقالوا: بالتأكيد ولكن النقود لم تزد مع زيادة الإنتاج، وأنت الوحيد الذى تصنع النقود وقد صنعت لنا ألف دولار فقط وتريد الآن أن تسترد ١٠٨٠ دولارا.. هذه استحالة!.

قال البنكى أوليفر: الآن استمعوا إلىّ يا

أصدقاء من أجل خير أكبر للجماعة عليها أن تكيف أوضاعها لظروف الزمن، إننى سوف أطالبكم فقط بسداد الفائدة وسوف تبقى معكم رؤوس أموالكم المقترضة.. مائتا دولار لكل واحد منكم، فأجابوا جميعا: بارك الله فيك يا سيد أوليفر، هل ستلغى المائتى دولار التى يدين بها كل واحد منا لك؟ رد أوليفر مبتسما: لا .. لا.. آسف، ليس الأمر هكذا، إن البنك لا يلغى الديون أبدا.. فستظلون مدينين لى بالنقود التى اقترضتموها، ولكنكم ستدفعون لى سنويا الفوائد فقط، فإذا دفعتهم الفوائد كل عام بأمانة فلن أطالبكم بسداد رأس المال.. ربما لا يستطيع البعض سداد قيمة الفوائد كل عام نظرا لتداول النقود... حسنا نظموا أنفسكم فى شكل دولة وأنشئوا نظاما للضرائب بموجبه يدفع الأغنياء ضرائب أكثر ويدفع الفقراء أقل.. اجمعوا قيمة الفوائد كلها فى مبلغ واحد وسوف أكون راضيا بذلك، وتأكدوا أن دولتكم ستزدهر. انصرفت الجماعة وقد اطمأنوا بعض الشيء ولكن لاتزال الشكوك تساور عقولهم.

تكاليف المعيشة أصبحت لا تطاق

أخذت الأمور تزداد سوءا فى جزيرة الخلاص، ارتفع الإنتاج ولكن انخفض بيع السلع إلى الحد الأدنى وأليفر يحصد فوائده البنكية بانتظام، فقد كانت الجماعة تضع مستحقاته جانبا وبذلك تجمدت النقود بدلا من سيولتها وانسيابها بحرية. الذين يدفعون ضرائب أكثر يشتكون من الذين يدفعون أقل، ولكى يعوضوا ذلك رفعوا أسعار سلعهم وعانى الفقراء الذين ليس لديهم مايدفعونه للضرائب من وطأة الغلاء فأخذوا يقللون من مشترياتهم حتى كسدت التجارة.

تدهورت الروح المعنوية وتسربت البهجة خارج حياة الجماعة، فلم يعد أحد يهتم بعمله كما تعود من قبل، ولِمَ يهتم والإنتاج يباع بصعوبة؟ وعندما يبيعون فإن جامع الضرائب يلاحقهم ليوفر لأوليفر قيمة الفوائد المستحقة على الديون ، ويخرجون هم من أموالهم التى حصلوها بجهدهم وعرقهم. إنها كارثة حقيقية أخذت تلقى بظلالها الكئيبة على علاقاتهم الاجتماعية، فأصبح كل واحد منهم يلقى اللوم على الآخرين ويتهمهم بأنهم السبب فى ارتفاع تكاليف المعيشة وسبب ماحل بمجتمعهم من تعاسة .

كان هارى يجلس وحيدا فى حديقته - ذات يوم - يفكر فى الموقف الذى صارت إليه الأمور فوصل إلى خلاصة: إن النظام النقدى الذى جاء به هذا البنكى والذى وصفه بأنه نظام تقدمى، هو الذى أفسد كل شئ طيب فى هذه الجزيرة. لا شك أن كل واحد من الجماعة كانت له أخطاء، ولكن النظام المالى الذى وضعه أوليفر من شأنه وطبيعة تصميمه أن يستثير فى الطبائع البشرية أسوأ مافيها من خصال، لذلك اعتزم هارى أن يعرض أفكاره هذه على زملائه فى محاولة لإقناعهم وتوحيد جهودهم لعمل مشترك ثم بدأ بجيم الذى لم يكن من الصعب إقناعه قال: أنا لست عبقريا ولكنى منذ وقت طويل أشم رائحة سيئة فى نظام هذا البنكى الذى حط علينا من حيث لا نعلم .

استطاع هارى أن يقنع زملاءه واحدا بعد الآخر، وقرر الجميع فى النهاية أن يجتمعوا

مع أوليفر مرة ثانية ويواجهوه بمشكلاتهم .

انتفاضة الجزيرة

تفجرت عاصفة من الاستياء والغضب في مجلس أوليفر، قالوا له: النقود أصبحت نادرة في الجزيرة يارفيق لأنك تأخذها منا أولا بأول!، إن لدينا أفضل تربة وأطيب المصادر الطبيعية ولكن منذ وصلت إلينا وأحوالنا تتدهور من سيئ إلى أسوأ، ديوننا تتراكم علينا حتى أغرقتنا إلى الأعناق!.

- هل تريدون مزيدا من النقود؟ حسنا، إن برميل الذهب يصلح لإصدار آلاف من الدولارات، وسوف أقرضكم ألف دولار أخرى على الفور لمعالجة أزمتكم المالية .

قالوا: معنى هذا أن ديوننا سترتفع إلى ألفي دولار بدلا من ألف واحدة وسنضطر لدفع فوائد الديون حتى آخر أعمارنا .

قال البنكي : هذا صحيح .. ولكني سوف أقرضكم المزيد من النقود كلما احتجتم إليها، وعندما ترتفع قيمة ممتلكاتكم، ولن تدفعوا لي أبدا إلا الفوائد المستحقة. اجمعوا ديونكم في دين واحد وهو ما نسميه اصطلاحا «الدين الموحد» وتستطيعون أن تضيفوا إلى هذا الدين سنة بعد سنة وتصبح الفوائد مركبة .

قالوا : ونرفع نحن الضرائب سنة بعد سنة لسداد فوائدك؟!.

قال : طبعا، هذا واضح، ولكن عوائدكم من العمل ستزيد عاما بعد عام أيضا .

قالوا: ومعنى هذا أنه كلما نمت الجزيرة بسبب عملنا وجهدنا زادت ديوننا !!!.

قال البنكي: أتعرفون لماذا؟.. لأن هذا بالضبط مايحدث في كندا أو في أي مكان آخر من العالم المتحضر، ذلك لأن درجة حضارة الدولة تقاس دائما بحجم ديونها للبنوك.

قالوا متعجبين: وهذا هو النظام المالي السليم يامستر أوليفر؟!.

قال: ياأيها الرجال المحترمون الطيبون كل النقود السليمة مؤسسة على الغطاء الذهبي، والذهب في البنوك، يخرج إليكم على شكل ديون، والدين الوطني شئ حسن لا غبار عليه، إنه يمنع الناس من الشعور بالرضا الزائد عن الحد ويخضع الحكومات لصوت الحكمة العالية المطلقة التي تجسدت في رجال البنوك. إنني كبنكي أحمل شعلة الحضارة هنا في هذه الجزيرة الصغيرة، وسوف أملي عليكم السياسة الحكيمة وسوف أنظم لكم مستوى معيشتكم وأوضاعكم المالية .

انزعج الحاضرون من هذه النغمة الجديدة ومن الصلاحيات والسلطات التي فرضها هذا البنكي الدخيل عليهم ، والتي تطلق يده حرة تتصرف بشئونهم حسب مشيئته وهواه دون مراعاة لحريتهم هم وحقوقهم الأصيلة فقالوا له :

ياسيد أوليفر، إننا أناس بسطاء، لم نتعلم كثيرا ولكننا لا نريد هذا النوع من الحضارة عندنا في الجزيرة، ولذلك لن نقترض منك بعد اليوم سنتا واحدا، قل ماشئت: مال حسن أو غير حسن نحن لن نتعامل معك بشئ من هذه اللحظة .

صاح فيهم البنكي مستنكرا. أيها الرجال المحترمون إنني أشعر بعميق الأسف لهذا

القرار الذى تورطتم فيه بسبب نصيحة تعيسة جاهلة، ولكن إذا قررتم الاستغناء عن خدماتى فتذكروا أن معى توقيعاتكم، ادفعوا لى كل شئ مرة واحدة، رأس المال والفوائد جميعا .

قالوا : ولكنك تعلم أن هذا مستحيل ياسيد أوليفر فليس فى الجزيرة كلها ما يكفى من نقود لسداد ديونك، فحتى لو دفعنا كل مالدينا من نقود فسوف نبقى بعد ذلك مدينين لك دائما وأبدا .

قال غاضبا : وماذا أفعل لكم؟ ألم توقعوا باختياركم وبإرادتكم الحرة؟!.

الذئب يسيطر على الصحافة

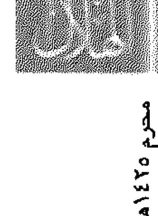
لاحظ أوليفر خلال مناقشاته مع الرجال الخمسة أن بينهم إثنين محافظين وثلاثة ليبراليين، كما لاحظ وجود خلافات فى الرأى بين كل من الفريقين . كذلك فإن انطباعه السابق عن هارى أنه أكثر الخمسة حكمة وبعد نظر فهو يرى أن الجميع لديهم نفس الاحتياجات ونفس التطلعات وأن مصيرهم مشترك ، وأن اتحادهم من شأنه أن يحدث ضغوطا على السلطة ويمنعها من ممارسة الاستبداد عليهم . ومن ناحية أخرى يرى أوليفر أن هذا الاتحاد الذى يدعو إليه هارى لا يمكن احتماله فهو يعنى - بكل بساطة - نهاية سلطانه على الجزيرة، فلا يستطيع دكتاتور مالى أو غير مالى أن يقف أمام شعب متحد متعلم واع . ومن ثم صمم أوليفر على افتعال فتنة سياسية بين سكان الجزيرة تمزق وحدتهم وتضعف قوتهم .

وهكذا قام بتحويل مطبعة النقود إلى طباعة الصحف، فأصدر صحيفتين أسبوعيتين: واحدة سماها «الشمس» وخصصها لليبراليين والأخرى سماها «النجم» وجعلها للمحافظين، وحدد الاتجاه الفكرى لصحيفة الشمس فى هذا الإطار : إذا كنا قد فقدنا السيطرة على مصائرنا فإن ذلك راجع إلى وجود خونة بيننا باعونا لرجال الأعمال ، وجعل الخطاب السياسى لصحيفة النجم: إن حالة الدمار الذى لحق بنا وباقتصادنا وهذا الدين العام المتفاقم ترجع المسئولية فيه إلى سياسة هؤلاء الليبراليين الذين لا يعبأون بالمصلحة الوطنية.

ونجحت الفكرة الجهنمية فاستغرق الفريقان فى صراع صحفى عنيف، ونسى الجميع القيود التى كبلهم بها أوليفر الخبيث ..

لحظة تنوير واكتشاف الأسرار

وحدث فى أحد الأيام أن ذهب «توم» فى تجواله على الشاطئ إلى بقعة نائية فى الطرف الآخر من الجزيرة، حيث رأى جسما على شكل قارب نجاة تخفيه عن الأنظار بعض الأعشاب الطويلة، فاقترب منه وتحقق أنه قارب مهجور وفارغ فيما عدا صندوق خشبى يرقد فى قاع القارب، وهو بحالة جيدة. فتح «توم» الصندوق فوقع بصره على بعض أدوات عديمة القيمة، ووجد تحتها شيئا يشبه «ألبوم» الصور فتناوله بيده فإذا به كتاب مبسط فى «الاقتصاد بدون فوائد»، من مطبوعات هيئة مالية أو جمعية ادخار شعبية تسمى نفسها "Social Gedit" .. دفع توم حب استطلاع شديد فجلس وبدأ يتصفح الكتاب ويقرأ بشغف، وكلما قرأ زاد اهتمامه، والتمع وجهه بضوء المعرفة التى ساقها الله إليه. ياالله هذا شئ كان يجب أن نعرفه منذ وقت طويل: النقود لا تكتسب قيمتها من الذهب



الذى فى البنك، ولكن من السلع التى تشتريها، من القوة الشرائية للنقود .

وهذا الكتاب يعلمنا كيف نصنع النقود ببساطة، ويتلخص السر كله فى نوع من المحاسبة (مسك الدفاتر) .. أرقام تسمى أرصدة تنقل من حساب شخص إلى شخص آخر تبعا لحركة البيع والشراء ، والمحصلة النهائية هى مجموع الإنتاج لا مجموع الديون، فكلما زاد الإنتاج فلابد أن تزيد كمية النقود، ولن يكون هناك فى أى لحظة فوائد تدفع على إصدار النقود الجديدة، ولا يقاس التقدم - كما يدعى ذلك البنكى الأفاق - بحجم الدين العام ، وإنما بإصدار أسهم متساوية لكل فرد، وتنضبط الأسعار وفقا للقوة الشرائية العامة بواسطة ما يسمى بمعامل السعر .

لم يستطع توم أن يكبح جماح نفسه فهب قائما، وعاد مهرولا ليشارك زملاءه هذه الاكتشافات الباهرة . وتحول توم بين يوم وليلة إلى معلم ناجح علم إخوانه ما أفاء الله عليه به من فهم للاقتصاد الصحى المبرأ من الفوائد والربا .

قال لزملائه: استمعوا إلى جيدا، هذا ماينبغى أن نفعله دون انتظار للبنكى أو برميل ذهبه، وبدن التوقيع على ديون جديدة، سوف أفتح حسابا باسم كل واحد منكم على ورقة مقسمة إلى عدة أنهر أو أعمدة، فى العمود الأيمن سأضع قيمة الأرصدة المضافة التى تجمع إلى حساب كل عميل وفى العمود الأيسر سأضع حساب المبالغ التى تخصم من حسابه . كل واحد يريد مائتى دولار .. حسنا سوف نكتب ٢٠٠ دولار كرصيد دائن فى العمود الأيمن لكل واحد منكم . فإذا اشترى فرانك سلعا من بول بمبلغ عشرة دولارات، فسوف تخصم عشرة دولارات من حساب فرانك وبذلك ينخفض رصيده إلى ١٩٠ دولار، بينما يرتفع الرصيد الدائن لبول ليصبح ٢١٠ دولارات ، فإذا اشترى جيم من بول شيئا بثمانية دولارات فسوف نخصم ٨ دولارات من حساب جيم ليصبح ١٩٢ دولارا فقط بينما يرتفع رصيد بول إلى ٢١٨ دولارا.. وهكذا نستمر فى نقل أرقام من حساب شخص إلى حساب شخص آخر بنفس الطريقة التى تنتقل فيها النقود من جيب شخص إلى جيب شخص آخر، فإذا احتاج شخص ما إلى نقود ليتوسع فى مشروعاته الإنتاجية نصدر له المبلغ المطلوب لأرصدة جديدة حتى إذا تمكن من بيع منتجاته نضيف المبالغ التى حصلها إلى رصيده الدائن .. وبنفس الأسلوب نعامل الأشغال العامة التى يقوم بها المجتمع ، تدفع من أرصدة دائنة جديدة، وبهذه الطريقة تزداد أرصدة العملاء شيئا فشيئا دون الافتئات على أرصدة الآخرين، ومن ثم يستفيد كل واحد من التقدم الذى يحققه المجتمع ككل وهذا ما يسمى بالأسهم الوطنية، وبهذا الأسلوب تصبح النقود وسيلة للخدمة وليست ديونا تقيد الأعناق.

استطاع كل واحد أن يفهم النظام المالى الجديد، وفى اليوم التالى تسلم البنكى أوليفر رسالة وقعها الخمسة تقول: سيدى الفاضل إنك بدون ضرورة ما قد أوقعتنا جميعا فى الديون والفوائد، وقمت باستغلالنا أسوأ استغلال، ولذلك لم نعد فى حاجة إليك بعد اليوم فى إدارة نظامنا المالى، من الآن فصاعدا سوف نحصل على كل ما نريد من

نقـود بدون ذهبك المخـفى عن الأنظار وبدون ديون، وبدون لصــوصـيــة، إننا سننشئ على الفور نظامـا مـاليـا جديداً فى هذه الجزيرة، وسـوف تحل الأسـهم الوطنيـة مـحل الدين الوطنى العام، فإذا أصررت على أن تحصل على نقودك فسوف نعيدها إليك كاملة ولكن بلا سنت واحد زيادة، لا فوائد ولا غيرها.

وقع أوليفر فى حيرة شديدة وحل عليه يأس مقنط، وهو يرى إمبراطوريته تنهار على رأسه، تحطمت أحلامه كلها وضاع مستقبله فماذا يصنع؟ لم يعد الجدل مع هؤلاء الناس يجدى، لقد فهم الجميع اللعبة البنكية فلم تعد النقود والأرصدة الدائنة سرا بالنسبة لهم بقدر ما لم تكن بالنسبة له، لقد استهوت عقولهم فكرة الاقتصاد الخالى من الفوائد والربا، وسوف تنتشر عقيدتهم بسرعة كبيرة على حساب فلسفتى الربوية، فهل أطلب منهم الصفح والمغفرة؟ هل أصبح واحدا منهم؟ أنا الممول البنكى المبجل؟!! لا يمكن أن أقبل بهذا ما حييت!.. الأفضل لى أن أعتزلهم وأضع بينى وبينهم الحواجز قدر ما أستطيع.

سقوط القناع عن الزائف

لكى تحصن الجماعة نفسها ضد أى مطالبات يقوم بها أوليفر فى المستقبل قررت أن تحمله على أن يوقع على وثيقة يعترف فيها أنه قد استعاد كل ما كان يملك عندما وصل أول مرة إلى الجزيرة، حصروا ممتلكاته وأثبتوها فى الوثيقة: القارب والمجاديف، والمطبعة الصغيرة وبرميل الذهب.

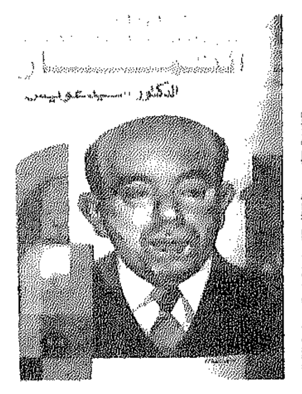
كان على أوليفر أن يدلهم على المكان السرى الذى أخفى فيه الذهب، فأخرجه الرجال من الحفرة التى دلهم عليها، ولكن بدون ذلك الإجلال الذى أحاطوه به فى المرة الأولى عندما نقلوه من القارب، فقد علمهم كتاب «الاقتصاد بدون فوائد» احتقار الذهب.

لعب الفأر فى صدر خبير المعادن الذى كان يساعد فى استخراج البرميل من الحفرة، فقد شعر أنه أخف من أن تكون حمولته ذهبا خالصا، وتشكك أن يكون الذهب مختلطا بشئ آخر، ذلك إذا كان البرميل ممتلئا، فلما أفضى الرجل بشكوكه إلى أصحابه لم يفكر فرانك طويلا وإنما هوى بفأسه على البرميل بضربة واحدة أطاحت بالغطاء وانكشف ما فى البرميل، وصاح الجميع : أى ذهب هذا؟!.. ولا ذرة من الذهب، كل مافى البرميل صخور، مجرد صخور لا قيمة لها!..

لم يستطع الرجال أن يتغلبوا على الصدمة المروعة: لا تقل لنا إن هذا الأفاق قد استطاع أن يخدعنا إلى هذا الحد، هل كنا نحمل على أكتافنا رؤوس خراف عندما طرنا فرحا وابتهاجا لمجرد أن نطق باسم الذهب على مسامعنا، هل رهنا كل ممتلكاتنا فى مقابل بعض أوراق تستند فقط على كمية من الصخور عديمة القيمة؟!.. يالها من سرقة مغلفة بأكاذيب!، عندما نفكر أن بعضنا قد عبس فى وجه بعضنا الآخر، وأصبح كل واحد منا يكره أخاه ويرى فيه مصدر البلية التى ابتلينا بها ندرك فداحة ما أوقعنا فيه هذا الرجل الشرير المزيف .. ياله من شيطان رجيم!.

استشاط فرانك غضبا ورفع فأسه مرة أخرى، ولكن قبل أن يهوى بها على رأس البنكى أوليفر كان قد أطلق ساقيه للريح واختفى فى الغابة. ■





سيرة د. سيد عويس الذاتية في ثلاثيته التي نشرها بكتاب الهلال



والتاريخ الذي يحمله على ظهره

بقلم
مصطفى نبيل

أطلت علينا في فبراير الماضي ذكري مولد د. سيد عويس ، شيخ علماء الاجتماع في مصر ، وقبل رحيله في ١٦ يونيو ١٩٨٩ ، نشر في كتاب الهلال سيرته الذاتية في ثلاثية تحت عنوان «التاريخ الذي أحمله علي ظهري» كما أصدر في كتاب الهلال كتابه «لا للعنف» . وثلاثيته سيرة ذاتية من نوع خاص، و«لا للعنف» كأنه نبوءة بما شهده العالم ، دعا خلاله إلي إنقاذ البشرية مما يهددها.

وكلما أعدت قراءة ثلاثيته، وجدت ما هو جديد وشيق في دفتر أحول حياة مصر الاجتماعية ، وكأنك تعيد اكتشاف مصر ، فهو يعنى بالدرجة الأولى تفاصيل الواقع المصرى والحياة الاجتماعية التى لمسها وعاينها ، وهى عنده «محاولة قراءة بعض سطور من موسوعة المجتمع المصرى» ومحاولة تفسير بعض ما يجرى فى بلادنا ، وكما يحدد طبيعة المشكلات الاجتماعية، يرسم الطريق من أجل وضع حل لها.

عويس .. عالم اجتماع خرج من رحم الحارة المصرية بتقاليدها وثقافتها ، فاكتسب حكمتها

وتكاد تكون هذه السيرة من أميز السير الذاتية ، وتستهوينى قراءة السير الذاتية ، واستمتع بقراءتها ، وهى أفضل طريقة تروى حياة المرء ، فهو يعرف وقائع ودوافع وتفاصيل هذه الحياة .

وإذا كان المرء يميل بطبعه لإخفاء عناصر ضعفه، فطبيعة الذاكرة أنها انتقائية وأنها أيضا مراوغة .

ولكن هذا لا ينطبق على هذه السيرة ، فهى فى الحقيقة سيرة ومسيرة الأحوال الاجتماعية فى مصر، وهى أيضا تسجيل أمين لتجربته وخبرته فى العمل فى حقل الدراسات الاجتماعية .

ويدرك طبيعة ما هو مقدم عليه ، يقول «أنا بشر ، قد تخوننى ذاكرتى أحيانا ، وقد أقول أشياء وأسكت عن أشياء أخرى، ولكن ما سأقوله هو الصدق .., فالملاحظ أن ذات الإنسان لها وجوه عديدة ، فصورتى عن ذاتى غير صورة من حولى من الناس عنها ، وهى غير الصورة التى أعتقد أنها الصورة التى يراها من حولى من الناس وهى أيضا صورتى الحقيقية» .

ومعظم مادة سيرته جاءت من خلال عمله الميدانى ، وسط الناس ، ومزج بين ذلك العمل وبين الدراسات الأكاديمية ، كما نجده خرج على النمط السائد «للسيرة الذاتية العربية» عندما تناول بلا خجل بعض جوانب العلاقة بين المرأة والرجل . وها هو يقول.. «إن ما حدث من مصاعب طبية لأبى وأدى إلى وفاته ، هو محاولة أن يمارس حقوقه الزوجية ، بينما داهمته أزمة ضيق النفس» ..

أين الطريق ؟!

يكتب سيد عويس قصة العمل الاجتماعى فى مصر ، وهو مشحون بأكثر ألوان القلق نبلاً ، ومن خلالها يبحث عن الطريق عن انتشال المجتمع من وهدة التخلف والفقر والأمية .. وهو فى كل خطواته يبحث عن وسائل العمل وأدوات الفعل المؤثر .

ونمضى معه ، نصحبه وهو يتحول إلى شخص آخر تماما ، بعد أن كلف بأول دراسة «حالة حدث» كلف بها فى بداية عمله عام ١٩٣٨ فى الحقل الاجتماعى ، كان مقصده بيته فى حى الخليفة الذى

يعرفه والذى تربى فيه ، ولكن لم يتمكن من الوصول إلى العنوان إلا بصعوبة بالغة ..

وكانت مفاجأته الأولى أن أسرة بكاملها وأثاثها تعيش فى حوش مع الأموات ، .. «وهو ما لم أتصور حدوثه، كنت أفهم أن تعيش أم أرمل فى حوش مع ابنها الوحيد الذى مات على أمل أن تلحق به ، ولكن أن تعيش أسرة بكاملها فى حوش قرافه وتتخذه مسكنا لم يكن فى الحسبان ! ، وفوجئت وفجعت ، وها أنذا أواجه حقائق الحياة - وجها لوجه - التى يعيشها بعض أبناء وطنى ، على قدر ما عرفت وعلى قدر ما كان حولى من حلالات فقر مدقع إلا أننى لم أجد مستوى من الفقر أقل مما وجدت عندما كنت أقوم بدراسة هذه الحالة ، حالة أول حدث جانح !

ولم أتبين من محتويات الأثاث سوى الحصير الذى ينام عليه كل أعضاء الأسرة ، ورأيت وجوها آدمية مثل الأشباح ، لم أتبين ملامح وجوه الأطفال ، التى اختفت وراء القذارة والذباب .

وعندما خرجت من «الحوش» الذى كنت فيه ، أحسست أن عينى استبدلت بهما عينين أخريين ، وأحسست أننى لا أرى أشياء أو أناساً إنما أرى ظواهر ومواقف وعلاقات اجتماعية تدعو إلى العمل .

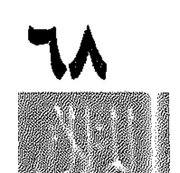
وكان شعورى بالضآلة أمام ما أرى جارفاً . وتركت المكان والقصة تعتصر قلبى وتملك على حواسى»

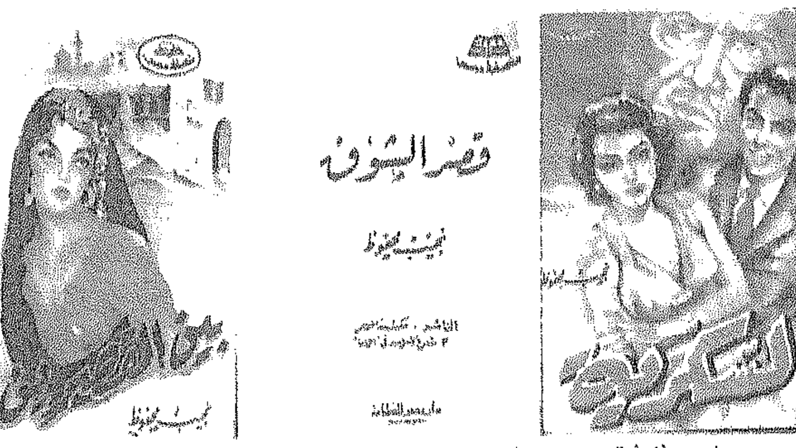
وكانت تجربته الأولى التى ساهمت فى عثوره على الطريق الذى عليه أن يقطعه .

إطلاق اللحية !

وقبلها خاض تجربة روحية من نوع آخر ، انتهت بانضمامه إلى الجمعية الشرعية وارتدائه الجلباب وإطلاق لحيته وحلق شاربه ، ويقدم تفسير هذا التوجه .. لعل ذلك يرجع إلى الإحباط الذى يواجه جيلنا بعد فشل ثورة ١٩١٩ ، وعجز هذا الجيل عن تحقيق أهداف الثورة فى الاستقلال ، واتجهنا إلى الاهتمام بالأمور الدينية أكثر من الاهتمام بالأمور العامة أو الأمور الشخصية» ويضيف .. «أصبحت متدينا أعيش حياة العزلة النسبية عن المجتمع وما يدور فيه» ، واندفع معه - فى هذه المرحلة - كثيرون ، واتجه البعض إلى التصوف ، وانتعشت الجمعيات الدينية، والتحق بالجمعية الشرعية وكان تأثير الشيخ محمود خطاب السبكى عليه كبيراً ، وكان من رفاقه الشيخ سيد سابق والكاتب الكبير خالد محمد خالد ، وبذل نشاطا وجهداً كبيرا من خلال هذه الجمعية.

وعندما عمل فى مصلحة الحدود ، اتهمه رئيسه بالدروشة الدينية والإهمال، فذهب إلى الحلاق ، «وارتديت البدلة وخلعت الجلباب .. وأصبحت إنسانا آخر ،




سارت ثلاثية عويس على نفس الخط الاجتماعي لثلاثية نجيب محفوظ !

بعد أن كنت أشعر كأنني فى سن الستين ، رجعت شاباً فى سن الرابعة والعشرين .. وأستطيع أن أعيش حياتي ، أذهب إلى أى مكان وأقابل أى شخص دون ما حرج ، ولن يكون مصدر ثقافتي قاصراً ، بل سيكون أمامي المسارح والمتاحف والسينما ، وسأنصت إلى الموسيقى وأستمع للأغاني .. وسأعيش بين أعضاء المجتمع حراً طليقا لا يعصمنى من الزلل سوى ضميرى» .

ورأى أنه من الضرورى فهم الواقع المصرى لكى تتحقق أولى خطوات الإصلاح ،وخرج من هذه التجربة معتبراً أن دراسة الواقع المصرى هى الخطوة الأولى للاستدلال والاستقراء الذى يقود إلى الطريق ، ومن أجل دفع المجتمع للمشاركة الإيجابية فى تغيير هذا الواقع المرير ، ودعا الجميع إلى المشاركة فى العمل الاجتماعى الهادى بديلاً عن العمل السياسى الهادر !

وأخذ يتجول فى مواقع العمل الاجتماعى .. «عندما زرنا ملجأ شارع منصور كان الواقع الذى شهدناه أليما .. دخلنا من باب الملجأ، فماذا وجدنا .. ؟ أطفالا لا تزيد سن الواحد منهم على سنتين واقفين صفين ، وإذا بكل طفل يتعلق برجلى كل واحد منا صائحا .. بابا .. بابا..

وشعرت بجسامة المسئولية الواقعة علينا ، وأخذت أقارن بين ما يفعله زملائى من أعضاء الجمعية الشرعية من الأعمال الصالحة ، وبين ما يفعله المسئولون عن أطفال ملجأ شارع منصور».

ولا يفوته أن يلحظ من خلال التجارب التى يسجلها عظم الفجوة بين ما يحتاجه الواقع الاجتماعى وبين ما تقوم به المؤسسات الرسمية التى تتعامل معه وتعالجه .

وهو هنا يدعو إلى العمل الأهلى ، ويشيد بتجربة جمعية الرواد، والتى كان

ضمن صفوفها د . إبراهيم حلمي عبد الرحمن ومريت غالى ويعتبرها إحدى التجارب الرائدة .

يقول .. «عندما زرنا «محلة الرواد بالطيبى» عام ١٩٣٨ ، وهى ثمرة جهود جماعة مصرية أطلقت على نفسها «جماعة الرواد» ، تركت فى نفسى بعض الآثار الطيبة . علما بأن جماعة الرواد تألقت على يد نخبة من الشباب المصرى الذين عادوا من بعثاتهم فى الخارج وأصبحوا بعد عودتهم من قادة المجتمع ، وعندما لمسوا المشاكل التى يعانى منها المجتمع ، واستقر رأيهم على أن الهدف ، تكوين المواطن الصالح الذى يؤمن بالمثل العليا ويعمل على تحقيقها، ويشعر بواجبه نحو المجتمع ، ويبذل الجهد فى خدمته تحت شعار «قوة الوطن فى قوة الفرد» .

وأقامت مراكز اجتماعية فى عدد من الأحياء تعمل على خدمة أهل الحى ويشير أيضا إلى جماعة إنقاذ الطفولة المشردة برئاسة الدكتور على إبراهيم وعملها على إنشاء مؤسسة لإيواء الأطفال المشردين .

ويتحدث عن مساهمته بعد ذلك فى إنشاء جمعية للعمل الاجتماعى بحى بولاق سنة ١٩٤٧ ، فليس غريبا على من يشغله الواقع الاجتماعى أن يسعى إلى فهم مفردات هذا الواقع ، وأن يتناول مثلا ظاهرة غريبة يختلط فيها الجهل بالسذاجة ، عندما يرسل البعض برسائل إلى من لا يملك من أمره شيئا ، إلى ضريح الإمام الشافعى ، وهى دراسة عميقة وفريدة ، تتلامس مع الوجدان الشعبى ، ويقترب من هذا الوجدان بوعى وبغير استعلاء، فقد سبق أن كتب هو نفسه رسالة إلى الإمام يناشده أن ينجح فى الامتحان !

يدرس هذه الظواهر الاجتماعية بفهم ، ويحمل شحنته من الإعزاز والحب للمجتمع الذى ينتمى إليه ويبحث ملامحه ومشاكله ويستعرض الملامح التى يكتبها البسطاء ، شاكين أو متضرعين ، ولفت نظره فى هذه الرسائل جرائم غير منظورة تقع ومشاكل اجتماعية غير معلومة وطموحات وصرخات ألم للبسطاء من المواطنين، سيدة تستغيث بالإمام قبل أن تسقط فى الضياع ، وأخرى تكتب .. «أنا هدى بنت نبيهة ، وقعت فى عرضك ، فانتشلنى ! وأخرى .. تطلب من الإمام أن يزوجها فلانا الذى تحبه، وثالثة . تسأله التحقيق فيمن سرق «دكر البط» من فوق السطوح ، وآخر يسأل هل ابنته ثيب كما يدعى البعض ، أم أنها لا تزال عذراء ! «بعض هذه الرسائل يصل بالبريد أو باليد والبعض عليه ورقة دمغة !

ومن سواه يغوص فى أعماق الشخصية من خلال «هتاف الصامتين» الذى يصنع من كلماتهم التى تكتب على الحافلات وسيارات النقل ، حكاية تكشف الكثير ، فتدل على أحلام البسطاء وقيمهم ، ويقف طويلا عند كلمات مثل «ربنا يكفينا شر المستخبى» ويعتبرها تعبيرا عميقا عن



المخاوف التاريخية للشعب المصرى .. وهو يرصد ويدرس دلالة الأمثال والتعبيرات الشعبية .

الإصلاح عنده يبدأ من دراسة الواقع ، وعدم الاستعلاء عليه ، كما سبق وذكرت، والعمل وعدم انتظار الإذن من أحد . فما يدعو إليه هو ضرورة العمل الاجتماعى قبل ظواهر التدين الكاذبة ، ويظهر أيضاً اهتماما كبيراً بقضية الأمية ، فمن العسير أن يقوم المجتمع بالتنمية مع انتشار الأمية، ويرى أنه لا يجوز أن تقتصر أساليب علاج الأمية على أحد أطراف المشكلة وهو «المتلقى» ولا تلقى بالاً إلى «المعلم» .

ويقول بالحرف الواحد.. «فالحاجة فى ضوء خبرات طفولتى وشبابى ومهنتى إلى تغيير المجتمع المصرى إلى الأفضل ماسة .. وإن السياسة لابد أن تكون معرفة ما هو كائن موضوعياً ، لكى نغيره إلى ما يجب أن يكون .. فالسياسة يجب أن تكون محو الأمية والقضاء على الفقر ومكافحة الأمراض» .

ألا ترى فيها يقوله سيد عويس تشابها مع ما سبق وقاله عدد من الرواد مثل الإمام الشيخ محمد عبده الذى يعتبر التعليم هو الخطوة الأولى نحو النهضة ، أو طلعت حرب الذى يرى أن الاقتصاد المستقل يسبق ما عداه فى سبيل النهوض بالبلاد ، ود.أحمد زكى الذى يرى شيوع الثقافة العلمية هو الخطوة الأولى نحو التقدم.

وهؤلاء جميعاً يرون ضرورة العمل فى الداخل ، وأن مادة العمل هى الواقع وضرورة تغييره ، وأن ذلك ينعكس بالضرورة على موازين القوى ويؤثر تأثيراً إيجابيا فى السياسة ، والتى إذا تجاوزت ذلك تصبح «طحن بلا طحين» أو «حرث فى البحر» ، فالخروج من أسر التخلف هو أول المهمات ، وله آلياته وتداعياته التى يجب أن يدركها المثقفون والمصلحون ويتبعون خطاها .

ثلاثية سيد عويس

إن ثلاثية سيد عويس «التاريخ الذى أحمله على ظهرى»، والتى تلقاها القراء باهتمام كبير لما فيها من صدق وعمق، وترجمت إلى اللغة الفرنسية ، والتى تقف فى أهميتها إلى جانب «شخصية مصر» لجمال حمدان ، و«تكوين مصر» لشفيق غربال ، وكل من هذه الأعمال تسهم فى فهم أبعاد الشخصية المصرية .

والمدهش حقا أن تسير ثلاثية سيد عويس بالتوازى مع ثلاثية صاحب نوبل «نجيب محفوظ» ثلاثية عويس وصف للأحوال الاجتماعية وثلاثية محفوظ عمل درامى يتناول الأحوال الاجتماعية لذات الفترة التى يعالجها عويس .

ولنتابع معاً هذا المشهد ، الذى يصف فيه سيد عويس ظهور الجد ونزوله من الدور الثانى فى طريقه إلى العمل .. «يهرع جميع من فى البيت يسابق بعضهم

بعضا ، واحدة تحمل الأواني وما تبقى من الطعـام ، وأخرى تحمل أرغفة الخبز ، وثالثة تحمل الطبلية ، ذاهبين بكل هذا إلى إحدى الحجرات لإخفائها .. ويقف الجميع فى نصف دائرة ، فإذا نزل الجد ووصل إلى آخر السلم ، يقول مشكرا - وكأنه قرفان - «صباح الخير» ويردون .. «صباح الخير يا سيدى»، ثم يوزع المصروف ويعطى أوامره على ما يريده من الطعام ، أو ما يعن له من نزوات !

وما أن يدير ظهره حتى يهرع الجميع ويحضروا الطبلية وأوانى الطعام الذى لم يتم أكله . ويعودوا ويستأنفوا تناول طعام الإفطار...»، ألست هنا أمام سى السيد الذى قدمه نجيب محفوظ!

هذا علاوة على رصد انعكاسات الأحداث السياسية على الحارة متقاربة مع الفترة التاريخية لثلاثية نجيب محفوظ وهذا مشهد آخر يرويه سيد عويس خلال ثورة ١٩١٩ ، الجد يضرب حفيده بالكرباج ، لأنه سار فى المظاهرات المطالبة بالاستقلال ويقول له صارخاً .. «مالهم الانجليز يا ولد يا خنزير، مش هم اللى جابوا الترماى ، .. مالهم الإنجليز مش هم اللى جابوا الكهرباء » ، وتتوسل نساء البيت لكى يتوقف عن ضرب الحفيد قائلات .. «معلش يا سيدى حرم خلاص» .. ولكن يصرخ الحفيد تحت ضربات الكرباج قائلا :

«تحيا مصر ، تحيا مصر ، يسقط الإنجليز .. يسقط الانجليز» .

ولعل هذا الجد يخشى على حفيده من عساكر الانجليز ، أو لعله مثل بعض مرتفعى الصوت اليوم ، تغريه تكنولوجيا الغرب ، أو أنه يصدق ادعاءاته بالدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان !

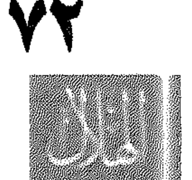
وتستمر ذات أجواء ثلاثية نجيب محفوظ ، بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ، وعندما ينقل جلسات الأب فى الوكالة التى يمكلها ، وحوار الأصحاب ومناقشتهم فى الأمور السياسية ، تكاد تكون أمام أحمد عبدالجواد وصحابه . «كانوا جميعا من أعضاء الحزب الوطنى ، حزب الزعيم مصطفى كامل ، وكان بينهم الأديب كامل كيلانى ، ومنهم ضابط الجيش عبد العزيز راشد ، ومنهم صاحب المكتبة الشيخ إبراهيم يوسف».

ثم يروى أثر تجنيد أبناء الحارة من سكان حى الخليفة كعمال فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى، ويرصد التغيرات التى حدثت لمن عاد منهم .

الاستمرارية الثقافية

ويؤكد فى سيرته أنه «لكى تتضح الرؤية ، فإن كل شىء له تاريخ ، وأنه لكى نفهم الحاضر علينا أن نفهم الماضى البعيد والقريب »

لهذا نجده يهتم بالتراث الثقافى المصرى منذ مصر الفرعونية وحتى اليوم وانتهى إلى وجود عناصر ثقافية مستمرة . فالدين لم يتغير فى هذا المجتمع على طول



عمره سوى مرتين .. أما جنس المصريين فلم يتغير فى جملته من خلال عمر المجتمع المصرى .. بل إن العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كما هى أيام المصريين القدماء، ولا يعنى ذلك أن مصر لم تأخذ شيئا من الثقافات الأخرى ، ولكنها كما أخذت أعطت ، وما أخذته لم يمس الأصيل الذى بقى مع غيره عبر الأزمان !

فالدين المسيحى عندما دخل إلى مصر فى عام ٦٤م ، لم يجد شعب مصر أرضا جرداء ، لأن مصر كانت تعرف «أوزيريس» واستشهاده ، ثم بعثه، كما كانت تعرف شقيقته «إيزيس» قبل أن يطرق أذنها صوت البشارة المرقسية عن «الفادى المخلص» ، وأنه «مريم العذراء» .

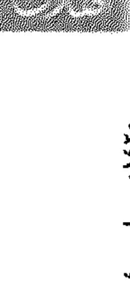
ولم يجد الدين الإسلامى عندما دخل إلى مصر سنة ٦٤٢م فى شعب مصر أرضا جرداء . لأن مصر كانت تعرف الوحدانية الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار ، فالتاريخ يذكر أن آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة أمنمحتب الرابع (أخناتون) كان أول الموحدين .

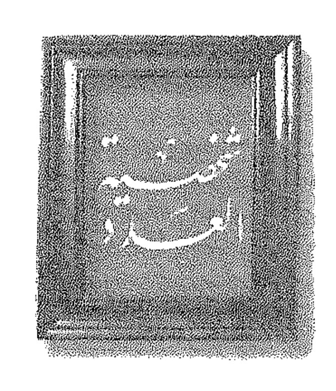
وتمكنت مصر رغم النير الرومانى من غزو غزاتها فى عقر عقولهم ، ومنحت مصر العالم المتحضر نبضه الروحى وعقيدته الدينية .

ويخلص إلى أن سمات الثقافة المصرية هى التدين والصبر وتقديس الأم واحترام الأكبر سنا وتقديس الموت والجنوح إلى مقاومة الظلم وما أسميه الدين الشعبى - يقول د . سيد عويس - فيتميز بالتسامح فى أداء العبادات ويرفض التشدد .

ويرى أن الإصلاح يبدأ بتغيير وضع المرأة وحصولها على حقوقها المتساوية ، فالنساء حاملات العناصر الثقافية فى المجتمع، «ونساء مصر جئن إلى العالم لا ليعترضن ولكن ليرضخن!» ، والصبى فى التراث الثقافى المصرى هو الذى يمنع العدو . ويرجع فضل ما وصل إليه فى حياته إلى أمه التى ربته يتيما . ويصل إلى لب قضية الإصلاح بالقول .. «يبدو أن الغنى الفاحش والفقر المدقع ، هذا الفارق بينهما هو الذى يولد العنف ، .. فالملاحظ أن الغنى الفاحش وخاصة إذا كان غنى غير مشروع وظاهرة البطالة وبخاصة فى محيط القادرين من أعضاء المجتمع، لها علاقة متينة بظاهرة العنف .. وهناك ألوان من الجرائم ترتكتب بقصد الحصول على عمل» .

وصاحب السيرة عالم اجتماع لا يستطيع أن يبدع إلا تحت سماء بلاده ، خرج من أعماق الحارة المصرية بتقاليدها وثقافتها ، ولكنه اكتسب أيضا حكمتها، وتعلم منها العمل الدءوب والصبر حتى يتحقق العدل والحرية . ■





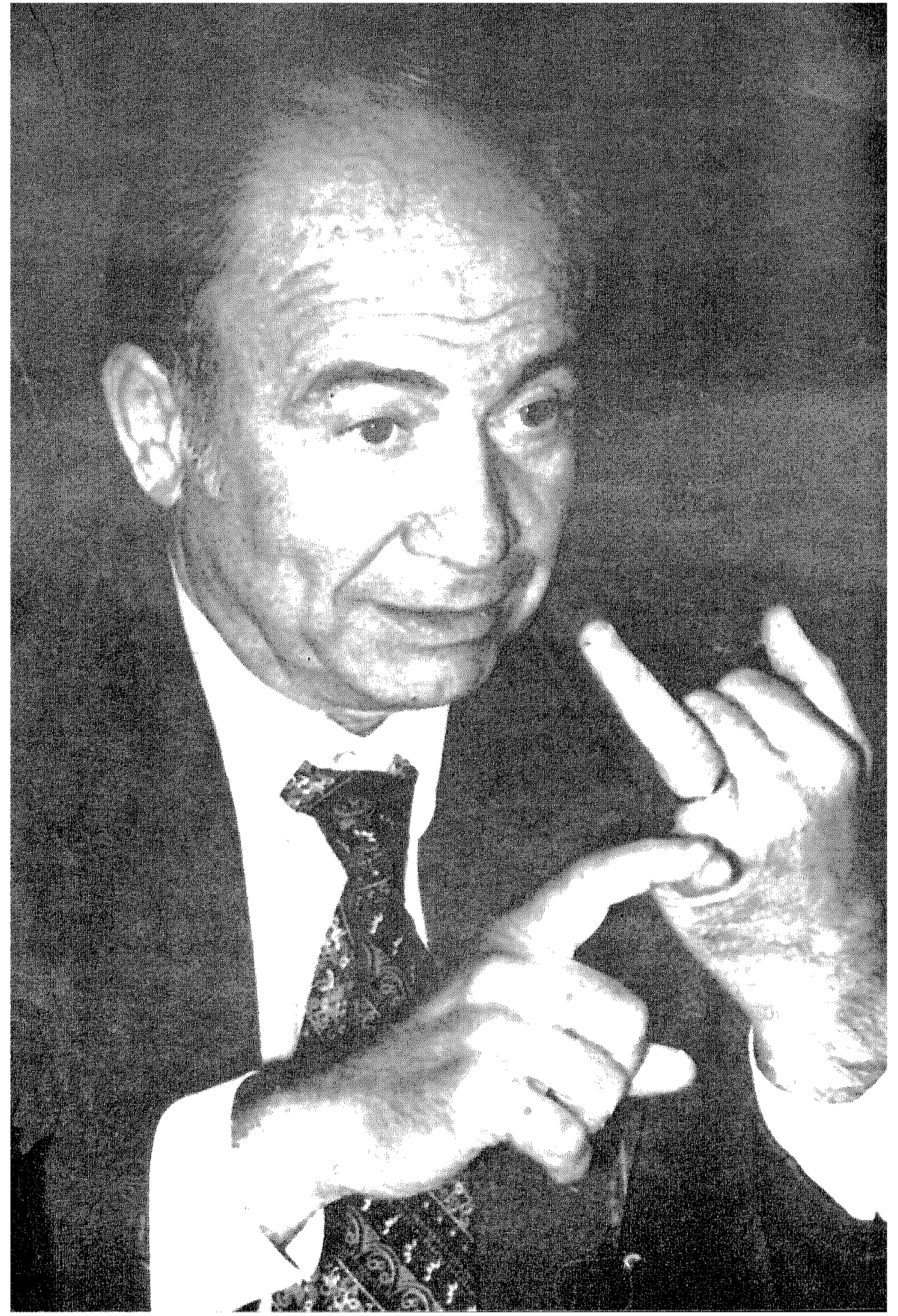


الثائر الحالم

بقلم
د. عاصم الدسوقى

لم يخطئ من قال إن الإنسان ابن ظروفه ووليد الأحوال التى يتفتح عليها وعيه، فهى التى تشكل ملامح تفكيره الأساسية، وتصنع رؤيته لكل ما يصادفه من حوادث ومواقف، وتصبح أساسا لشخصيته وعلامة عليها بحيث يصعب التفريط فى أى ركن من أركانها مهما كانت الإغراءات ومهما كان الثمن الذى قد يدفعه مقابل أن تبقى صورته كما انطبعت عند الآخرين أول مرة. ولعل خالد محيى الدين يعتبر صورة مثالية للشخصية التى صنعتها ورسمت معالمها ظروف معينة حرص على أن يحافظ عليها، وإن لم يخل الأمر فى سبيل ذلك من القيام بمناورات هنا وهناك....

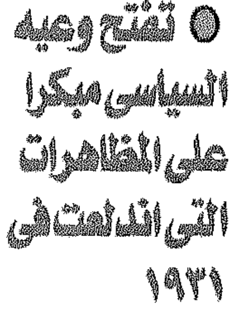
لقد تفتح وعيه السياسى مبكرا على المظاهرات التى اندلعت فى ١٩٣١ ضد حكومة إسماعيل صدقى باشا بسبب إلغائه دستور ١٩٢٣ . ولكن وهو فى تلك السن المبكرة من عمره أضمر وعيه أن هناك أكثر من وجهة نظر فى الموضوع الواحد حسب التكوين وحسب المصالح، إذ لاحظ أن جده وهو من كبار الملاك آنذاك كان يشعر بامتنان لإسماعيل صدقى الذى قام بتسوية ديون الملاك الزراعيين لدى البنوك الأجنبية وكانت أرضهم مهددة بالسقوط فى يد الأجانب وفاء للديون أما خاله العائد من فرنسا يحمل درجة الماجستير فى الاقتصاد ومعها مجمل الأفكار الليبرالية، كان ضد إسماعيل صدقى باعتباره ديكتاتورا يدعم الحكم المطلق للملك فؤاد .



ثم تقوم مظاهرات ١٩٣٥ لتوحيد صفوف الأمة - وهو فى المرحلة الثانوية - وتنتهى بعقد معاهدة ١٩٣٦ ليثور جدل كبير بشأنها عما إذا كانت معاهدة صداقة وتحالف مع انجلترا أم أنها معاهدة تبعية والتزامات،فتنشأ لديه كراهية مبكرة للإنجليز . وما أن تتواتر أنباء تهديد هتلر للمصالح الإنجليزية والفرنسية يختلط فى وعيه العداء لانجلترا بالإعجاب بهتلر، ومن ثم الإعجاب بشخصية أحمد حسين زعيم جمعية مصر الفتاة وكلماته الساخنة فى جريدة «الصرخة» لسان حال الجمعية .

ثم يتعرف مبكرا أيضا على جانب من فساد الحكم فى مصر فى أعلى مستوياته عندما التحق بالكلية الحربية فى نوفمبر ١٩٣٨ بشهادة الثقافة العامة وليس بالتوجيهية كما هو معتاد، ويعلم أن قبول دفعة بالثقافة العامة ذلك العام راجع إلى أحد أصهار الملك واسمه إبراهيم خيرى الذى كان إبنه متعثرا فى التوجيهية.

وفى الكلية الحربية تبلورت لديه مشاعر الكراهية ضد الإنجليز بدرجة أوضح عندما يشاهد يافطة باسم المستشار العسكرى البريطانى مكتوبة بالإنجليزية على باب مكتبه بالكلية وكان مجدى حسنين قد لفت نظره إليها ، فقام بنزعها ووضعا مكانها أخرى باللغة العربية ، وتزداد محنته عندما يقوم الإنجليز بسحب دبابات الجيش المصرى لميدان الحرب بعد هزائمهم أمام الألمان فى دنكرك، وكان قد تخرج فى سبتمبر ١٩٤٠ ملازما ثانيا بسلاح الفرسان (الألاى الأول دبابات)



● تفتح وعيه السياسى مبكرا على المظاهرات التى اندلعت فى ١٩٣١

أستاذ فى الوطنية

ثم تتكثف تلك المشاعر بحادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهيرة عندما يفرض الإنجليز على الملك حكومة النحاس باشا التى اعتبرت إهانة بريطانية مريرة للبلاد وللملك وللجيش، فحضر اجتماعا عاصفا بنادى الضباط للرد على تلك الإهانة لم يسفر عن شئ وآنذاك وجد فى حسن عزت مثلا أعلى واعتبره «أستاذه فى الوطنية»، وقرر أن ينخرط فى عمل سياسى من أجل تحرير مصر .

وفى تلك الأثناء يلتقى أيضا بالضابط عزيز المصرى المعروف بوطنيته فلم يجد عنده حلا فى مواجهة الإنجليز إلا باغتيال

أعوانهم من السياسيين المصريين واحدا إثر واحد حتى ينفض العملاء لكنه لم يقبل أسلوب الاغتيال حتى ولو كان وجوبا شرطيا فى العمل السياسى للتخلص من الخصوم، ذلك أن الوازع الدينى الذى يحض على الرحمة وفعل الخير، كان قويا عنده، فقد نشأ فى تكية الطريقة النقشبندية بدرب الجماميز التى كان جده لأمه شيخها، ولايزال يحرص على حضور مولد سيدى على السماك وقد تبدى هذا الوازع فيما بعد فى وقوفه ضد إعدام الملك فاروق، وضد إعدام خميس والبقرى عمال كفر الدوار، وضد إعدام عدلى لملوم الذى وقف ضد تطبيق الإصلاح الزراعى .

روح وطنية ودينية

ولا بد أن الضابط عبد المنعم عبد الرء وف عضو جماعة الإخوان المسلمين أدرك ما يتمتع به خالد محيى الدين من روح وطنية ودينية معا فأراد أن يجنده فى الجماعة، ففى نهاية ١٩٤٤ رتب لقاء بينه وبين جمال عبد الناصر ليظفر بهما فى الجماعة وأخذهما للقاء الصاغ محمود لبيب مسئول الجناح العسكرى فى الإخوان بجزيرة الشاى بحديقة الحيوان وتناول الحديث كيفية تحرير الوطن بيد الشباب .

وآنذاك كان خالد قد عرف عثمان فوزى الضابط بسلاح الفرسان الذى أخذ يمده بكتب عن الماركسية كان لها تأثيرها فى تنمية التفكير العلمى لديه وأهمها كتاب روجيه جارودى «الإقتصاد محرك التاريخ» الذى جعله يربط بين تحرير الوطن وتحرير المواطن وعلى هذا أخذ يسأل جماعة الإخوان المسلمين عن برنامجها الاجتماعى دون أن يظفر بإجابة . وكان عبد الناصر قد أخبره بأن هذه الجماعة لن تقدم شيئا للقضية الوطنية وأنها تريد استغلال الضباط ليكون الجيش أداة لهم ولما اكتشف عبد المنعم عبد الرءوف تردد خالد وناصر فى الإندماج بالجماعة رتب لهما لقاء بالإمام حسن البنا الذى رأى استثمارا لخبرتهما العسكرية إلحاقهما بالجهاز السرى للإخوان تحت قيادة عبد الرحمن السندى، وفى بيت قديم بالدرب الأحمر أقسم الإثنان على المصحف والمسدس يمين الطاعة للمرشد والبيعة الكاملة، ورغم هذا ظل عبد الناصر مستريبا من الجماعة، وظل خالد يبحث عن البرنامج الإجتماعى، فبدأ كلاهما فى الابتعاد تدريجيا عنها منذ ١٩٤٧ .

الاشتراكية أحد ملامح تفكيره

وفى تلك الأثناء (يناير / فبراير ١٩٤٧) التقى خالد بأحمد فؤاد وكيل النيابة وزميله القديم بمدرسة الناصرية الإبتدائية وكان آنذاك عضوا بمنظمة

إيسكرا الشيوعية فوجد خالد نفسه عضوا فى تلك المنظمة حيث تعلم فيها القراءة المنهجية، وكان أول كتاب يكلف بقراءته وتلخيصه وتقديم عرض له فى الخلية كتاب «الإشتراكية: أين ولماذا وكيف» فأصبحت الإشتراكية أحد ملامح تفكيره ورؤيته للمشكلات السياسية والاجتماعية القائمة ثم يلتقى مصادفة بالملازم سيد جاد فى القطار أثناء عودته من مهمة بالصعيد الذى يخبره بعد أن أفرط فى شرب الخمر أن القصر الملكى يعرف أنه، أى خالد، هو أحد الضباط اليساريين لكن لا يملك دليلا ضده (كان سيد جاد آنذاك عضوا بالحرس الحديدى الذى شكله الملك لحمايته بإشراف طبيبه يوسف رشاد).

وهنا روع خالد، وبدأ يخشى على مصيره، وأدرك أن كلام سيد جاد حقيقى وليس هزلا بتأثير الخمر، وأنه قد يفصل من الخدمة العسكرية ويكون الشارع مصيره . ومع هذا الإحساس بالخطر والخوف من المصير فكر فى أن يلتحق بكلية التجارة بالتوجيهية العسكرية فى العام الدراسى ١٩٤٧ / ١٩٤٨ . ونجح عبر وساطات معينة أن ينتقل من سلاح الفرسان إلى التدريب الجامعى بجامعة فؤاد الأول بعيدا عن شبهة البقاء فى القشلاق العسكرى من ناحية، وليكون قريبا من محاضرات الجامعة من ناحية أخرى .

○ فى الكلية الحربية تبلورت لديه مشاعر الكراهية ضد الإنجليز

وأظن أن هذا كان السبب الرئيسى لانسحابه من منظمة إيسكرا وليس كما قال : إنه اكتشف أن مسئول الخلية يعمل باشكاتب فى سلاح الفرسان، بدليل أنه لم ينسحب من منظمة حدتو التى انضم إليها بعد ثلاث سنوات (١٩٥٠) بتأثير أحمد فؤاد الذى كان قد ترك إيسكرا هو الآخر، وكان مسئول الخلية ميكانيكيا بسلاح الطيران (الرفيق بدر - سيد سليمان رفاعى)، ولم يحتج على جمال عبد الناصر الذى التقى بهذا الرفيق أيضا وأبدى اعتراضه لخالد قائلا له «هل ترضى أن تتلقى أوامر من ميكانيكى»، ولم يكن السبب أيضا أنه استمع فى إيسكرا إلى حديث مضطرب عن الماركسية اختلط بالإلحاد مما يتعارض مع قاعدته الدينية لأنه صرح فيما بعد أنه قبل قراءة الماركسية كان قد ألحد حوالى عامين ثم عاد إلى حظيرة الإيمان فلما قرأ الماركسية ظل مؤمنا .. وليس السبب أيضا قوله: إنه نقل إلى سلاح الحدود،

وأن إيسكرا اعترفت بقرار تقسيم فلسطين (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) .

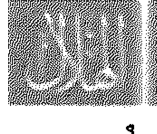
وهكذا عندما انضم إلى الخلية الأولى لتنظيم الضباط الأحرار التى تكونت فى صيف ١٩٤٩ (وكان قد انتهى من امتحانات الفرقة الثانية بكلية التجارة شعبة المحاسبة) كانت الاشتراكية قاعدته الفكرية التى بمقتضاها يمكن تحرير الوطن سياسيا وتحرير المواطن اجتماعيا بالقضاء على الإنجليز وعلى النظام السياسى القائم..

وفى ١٩٥٠ تدعمت صلته بصديقه القديم أحمد فؤاد بعد أن أصبح مسئولا بالحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ورتب لقاء فى بيته حضره ناصر الذى أبدى إعجابه بتحليل أحمد فؤاد للموقف السياسى - الاجتماعى، ومن ثم حدثت الصلة بين حدتو وتنظيم الضباط الأحرار الذى بدأ يفتح باب عضويته للشيوعيين. لكن عبد الناصر أصر على أن يكون انضمامهم بصفة فردية وغير ممثلين لتنظيم حدتو، وكذلك فعل بالنسبة لكل من كان يريد الانضمام ويكون عضوا بأى منظمة سياسية خارج الجيش .

مع الضباط الأحرار

فى تنظيم الضباط الأحرار بدأ خالد ينشط إذ قام بتكوين خلية سلاح الفرسان، واشترك فى صياغة أول منشور أصدره التنظيم (خريف ١٩٥٠) بعنوان نداء وتحذير، وشارك فى إرساله إلى كل القيادات العسكرية، وأعد بالاشتراك مع أحمد فؤاد فى سبتمبر ١٩٥١ برنامجا بأهداف التنظيم يدعو إلى القضاء على الإستعمار الأجنبى وأعوانه الخونة فى وادى النيل، وتكوين جيش وطنى قوى لكن عبد الناصر رأى الاكتفاء بتداول البرنامج بين أعضاء التنظيم ورفض نشره منعا لاستعداء الإنجليز ولفت أنظارهم ويشهد خالد بأن هذا الرأى «كان رؤية ثاقبة للمستقبل من عبد الناصر» . كما وافق عبد الناصر على طلب جمال سالم الذى كان قد عاد من الولايات المتحدة من رحلة علاج بعدم الزج بالاستعمار الأمريكى فى المنشورات، وبأن تتضمن المنشورات رفض الشيوعية، فاعترض خالد ونجح فى إقناع لجنة قيادة التنظيم بالاستمرار على ما هم عليه . ثم لاحظ أن عبد الناصر بدأ ينتقد الشيوعية ويخطئ من نظرية أن الاقتصاد يحرك الحوادث قائلا» : عن الصراع السياسى صراع على السلطة .

وعندما حصل خالد على بكالوريوس التجارة صيف ١٩٥١ أنهى إنتدابه للتدريب الجامعى وعاد لسلاح الفرسان (قائد ثانى الكتيبة الميكانيكية) ولما تم الاستيلاء على قيادة الجيش فجر الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ عاد إلى سلاح الفرسان ليبقى بين رجاله وزملائه، وتقرر أن يعمل «ضابط مخابرات السلاح على أن تكون مهمته غير تقليدية بل تكون سياسية يستطلع من خلالها



رؤى الضباط وآفاقهم فكان مكتبه ملتقى ضباط الفرسان يطرحون عليه رؤيتهم وهمومهم ومشكلاتهم وخلافاتهم فتوطدت علاقتهم به أكثر وأكثر .

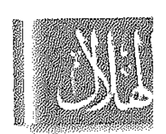
كيف بدأ الصدام مع مجلس قيادة الثورة ؟!

ثم بدأ الصدام مع مجلس قيادة الثورة يأخذ مجراه تدريجيا، وكانت شيوعيته التى لم يخفها هى الصخرة التى اصطدمت بها الرؤى والإرادات فى الوقت الذى كان فيه عبد الناصر يحرص على بقاء الثورة بعيدة عن التبعية لأى إيديولوجية قائمة شيوعية كانت أو إسلامية وكانت البداية عندما عرض فى مطلع أكتوبر ١٩٥٢ مشروع قانون بالعفو الشامل عن المعتقلين السياسيين اعتبارا من ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ (تاريخ توقيع معاهدة ١٩٣٦) وحتى ليلة الثالث والعشرين من يوليو وعرف أن العفو لا يشمل الشيوعيين فاحتج، ولم يناصره أحد حتى يوسف صديق أحد أعضاء حدتو ثم طلب منه مجلس قيادة الثورة إيقاف علاقته بأحمد فؤاد أو إيداع أحمد فؤاد السجن حتى لايتصل به (أكتوبر ١٩٥٢) كما اعترض وحده على منع إقامة إتحاد عام للعمال، وعلى مشروع قانون عقد العمل الفردى (مارس ١٩٥٣) الذى يحرم على العمال القيام بالإضراب ويسمح بالفصل التعسفى ووقف عبد الناصر معه لمواجهة تيار يقول إن السماح بالإضراب من شأنه أن يخيف رأس المال حتى تم التوصل إلى حل وسط باقتراح عباس عمار وزير الشئون الإجتماعية بمنع الفصل التعسفى بسبب النشاط النقابى.

وعندما شرع مجلس قيادة الثورة فى مناقشة الوضع السياسى بعد نجاح الثورة كان خالد وحده من أنصار دعوة البرلمان للانعقاد رغم تحذير السنهورى رئيس مجلس الدولة ونائبه سليمان حافظ وكذا على ماهر من دعوة هذا البرلمان الذى يضم أغلبية وفدية بل ومن إجراء إنتخابات جديدة وعندما قرر مجلس قيادة الثورة توزيع أعضائه على الوزارات المختلفة، كل واحد يشرف على وزارة أو اثنتين لضبط الأمور، كان من نصيبيه وزارتا الصحة والصناعة فاستغرب لهذا الاختيار، وكان يرى نفسه أكثر تأهيلا لوزارة المالية بحكم حصوله على بكالوريوس المحاسبة ويبدو واضحا والحال كذلك أن جمال عبد الناصر وقد عرف اتجاهات خالد أراد أن يبعده عن المسئوليات التى يمكن أن يؤثر فى

○ كانت شيوعيته التى لم يخفها هى الصخرة التى اصطدمت بها الرؤى والإرادات





مسارها بأفكاره واتجاهاته

ناصر يرفض الاستقالة !

فلما نشرت وثيقة أهداف الثورة التى كان خالد قد صاغها مع أحمد فؤاد ورفض ناصر طبعها للتوزيع كما سبقت الإشارة، استاء عبد الناصر، وعرف أن الضباط الأحرار من أعضاء حدتو وراء نشرها فطلب من خالد أسماء الضباط الشيوعيين سلاح الفرسان فرفض ولكن تمت مصادرة جريدة «الكاتب» ثم «الواجب» لسان حال حدتو وعلى هذا بدأ خالد يشعر بالعزلة فى مجلس قيادة الثورة ومن ثم إلتصاقه أكثر وأكثر بزملائه فى سلاح الفرسان وفى أعقاب الجدل حول مشروع قانون عقد العمل الفردى تقدم باستقالته من المجلس فى ٣١ مارس ١٩٥٣ ليعود إلى سلاح الفرسان حيث زملائه الذين يشعر بذاته بينهم، لكن عبد الناصر رفض قبول الاستقالة .

ثم جاء ت أزمة مارس ١٩٥٤ التى أقام عليها خالد سمعته الديمقراطية فى مواجهة الدكتاتورية، وهى الأزمة التى وجد نفسه فيها مع نجيب دون اختيار، وكان كل منهما يعمل على استغلال الآخر لتقوية جانبه وقد بدأت هذه الأزمة عندما قدم نجيب استقالته من رئاسة الجمهورية فى ٢٣ فبراير (١٩٥٤) احتجاجا على قيام مجلس قيادة الثورة بانتزاع سلطاته بتوجيه من عبد الناصر وقبيل ذلك كان نجيب قد اختار خالد ليصحبه فى رحلة إلى بلاد النوبة دون أن يأخذ أى عضو آخر من المجلس ربما لما لمسه من مواقفه المعارضة داخل المجلس وفى الرحلة طرح خالد على نجيب أن يتبنى قضية الديمقراطية، وعودة الحياة النيابية وإجراء الإنتخابات أفضل من أن يربط معاركه بالحفاظ على سلطاته، لكن نجيب لم يهتم بالأمر ولست أدرى كيف طرح خالد على نجيب هذا الاقتراح وهو يعلم منذ البدايات أن محمد نجيب من أكبر المتحمسين لإنفراد مجلس قيادة الثورة بكل السلطات، وأنه من أنصار إطالة الفترة الإنتقالية لمدة أكثر من السنوات الثلاث المقررة، وأنه كان قد أعد نفسه من البداية ليستمر حاكما !! هل أراد خالد أن يستخدم نجيب واجهة لتحقيق مطلب الحياة النيابية أم أنه كان يسعى للخلاص منه حيث يعلم أن ناصر لن يوافق على هذا المطلب؟

ومما قد يؤكد من هذا التحليل أن خالد رغم علمه سلفا بحقيقة موقف نجيب نراه يقترح فى اجتماع مجلس قيادة الثورة الذى كان ينظر فى تصفية الخلاف بين نجيب والمجلس أن يعلن المجلس عودة الحياة النيابية وفى هذه الحالة سوف يتراجع نجيب فيتحول الصراع أمام المراقبين من صراع شخصى على السلطة إلى صراع سياسى حول المبادئ فلما قدم الإقتراح لنجيب نظر إليه مبتسما دون تعليق وفاجأ الجميع بتقديم استقالته فى ٢٣ فبراير وكان قد حررها فى ٢٢

فبراير ورغم كل هذا اعترض خالد على على قبول استقالة الرجل كما تجمع مختلف الروايات المعاصرة.

حصان طروادة !

وفى اليوم التالى لإعلان إستقالة محمد نجيب يوم ٢٥ فبراير أى يوم ٢٦ فبراير وكان يوم جمعة تم اجتماع فى سلاح الفرسان لاتفصح المصادر عمن دعا إليه، ولم يحضره خالد وحضره حسين الشافعى الذى فوجئ بمطالب الفرسان بعودة نجيب، وإقرار الديمقراطية، وتحديد موعد لعودة الجيش للثكنات مع أن نجيب - كما فهمنا من مذكرات خالد (والآن أتكلم) - لم يقدم استقالته بسبب الديمقراطية وإنما بسبب منازعته السلطة ورغبته فى الانفراد بها . فهل كان نجيب هو حصان طروادة بالنسبة لخالد ؟! ثم حضر عبد الناصر جانبا من مناقشات اجتماع الفرسان وطلب منهم الانتظار حتى يعرض الأمر على مجلس قيادة الثورة

○ كان رومانسيا حالما وفارسا نبيلا وسياسيا يبحث عن الممكن أكثر منه ثوريا

وفى مبنى القيادة حضر خالد محيى الدين بعد خروجه من حفلة سواريه بالسينما واقترح ناصر الذى أدرك مرامى محور نجيب - خالد، أن يتولى خالد رئاسة الوزارة وأن يعمل بسرعة على عودة الحياة الدستورية وعاد جمال مصطحبا خالد إلى سلاح الفرسان وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا من فجر يوم السبت ٢٧ فبراير ليعلن للمجتمعين الموافقة على حل مجلس القيادة، وعلى عودة نجيب لرئاسة الجمهورية، وعلى تكليف خالد بتشكيل حكومة انتقالية لمدة ستة أشهر تجرى انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور دائم، وعودة أعضاء المجلس إلى الثكنات، وهنا ضجت القاعة بالتصفيق، وتوجه خالد مغتبطا إلى نجيب لإبلاغه بالقرار ولكن عندما عاد إلى مبنى القيادة ليبلغهم بموافقة نجيب كانت الأمور قد تغيرت، إذ تمت محاصرة سلاح الفرسان وطالب البعض باعتقال خالد .. إلخ وانتهت الزوبعة بعودة نجيب يوم ٢٨ فبراير، وإصدار قرارات الخامس من مارس الشهيرة التى تقضى بانتخاب لجنة لوضع الدستور وبموجبه يعاد تشكيل الأحزاب ويكون لمجلس قيادة الثورة سلطة سيادية ووافق نجيب عليها بعد أن انتحى به خالد جانبا لدقيقتين وكان مترددا متشككا.

وفى ٢٥ مارس عرض البغدادى على مجلس القيادة إلغاء قرارات الخامس من مارس بعد أن تحلقت القوى المعارضة للثورة

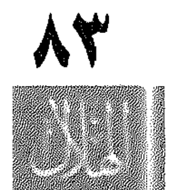
من أنصار النظام القديم حول نجيب استغلالا لتلك القرارات واقترح خالد تشكيل جديد لنظام ديمقراطى يحرم بمقتضاه من حق الترشيح للجمعية التأسيسية كل من أيد من قبل القوانين المقيدة للحريات، وكذا رؤساء الأحزاب السابقة، والخاضعين للإصلاح الزراعى لكن عبد الناصر لم ينخدع باقتراح خالد، وأدار المناقشة حول الأخذ بأحد اختيارين: إما إلغاء قرارات الخامس من مارس، وإما رفع جميع القيود عن عودة الأحزاب والإفراج عن جميع المعتقلين وبعد مناقشات دامت خمس ساعات تم إلغاء قرارات الخامس من مارس .

غير أن خالد يقول : إنه لم يحضر هذا الاجتماع وكان مختفيا بالإسكندرية، بل إنه لم يوقع على قرارات الخامس والعشرين من مارس، على حين أن جمال حماد أظهر وثيقة عليها توقيع خالد على القرارات فى اجتماع ٢٩ مارس (آخر ساعة فى ٢٨ يولية ١٩٩٣)، ونفى خالد توقيعه بشكل قطعى قائلا : إنه لم يوقع إلا على استقالته بتاريخ الثانى من إبريل ١٩٥٤ (آخر ساعة فى ٤ أغسطس ١٩٩٣)

فارس نبيل

ويبدو واضحا أن خالد محيى الدين من أزماته المتتالية مع رفاقه بمجلس قيادة الثورة كان رومانسيا حالما وفارسا نبيلا وسياسيا يبحث عن الممكن أكثر منه ثوريا يسعى إلى تحقيق المستحيل بتجاوز كل الأطر القائمة .. فهو لم يقتنع مثلا بأن أى ثورة هى إجراء استثنائى فى تاريخ الشعوب تصحبها إجراءات استثنائية بالضرورة ولا تقودها العاطفة، وأنها لايمكن أن تخضع لنصوص دستورية قانونية وضعت سلفا لنظام تمت الثورة عليه، بل إنها تحتاج لقوانين جديدة تعبر عن التحولات الجديدة، وإلا لماذا تقوم الثورة إذا كانت سوف تبقى على فلسفة النظام القديم ومن هنا نراه يعجب من وقوف عناصر سياسية مثل السنهورى وسليمان حافظ وفتحى رضوان ضد الدستور والديمقراطية، ومن قول الدكتور سيد صبرى أستاذ القانون الدستورى «إن البلد فى وضع ثورى وبحاجة إلى خطوات ثورية وإلى فقه ثورى» وبالتالى لم يستوعب الدعوة إلى تطهير الأحزاب ثم إلغاؤها كما لم يستوعب قيام ناصر بتحجيم نشاط مجلة التحرير لزيادة النغمة الشيوعية فيها .

كما لم يستوعب أن ينفرد مجلس قيادة الثورة بكل الأمور دون مشاركة من جميع الضباط الذين قام كل منهم بدور ليلة الثورة وخاصة ضباط سلاح الفرسان، ومن ثم نراه يغمض عينيه عن قيام سلاح الفرسان وأسلحة أخرى بتشكيل جمعيات عمومية من الضباط لتناقش أمور الحكم وتصدر قرارات ملزمة !! وكانت فكرته المثالية تقوم على التوصل إلى حل يكفل احترام أراء الضباط



الأحرار فأوجد بهذا منظمات موازية لمجلس القيادة الأمر الذى كان مثار استهجان عبد الناصر وغيره.

ولم يدرك أن إلحاحه على الديمقراطية برغم نبل الغرض وإعادة الحياة النيابية والحزبية، والثورة بعد وليدة لم يتجذر عودها بين الناس، من شأنه عودة حكم كبار ملاك الأراضى الزراعية وأصحاب رأس المال التجارى والصناعى على حساب عامة الشعب التى قامت الثورة من أجلهم .

صداقة حميمة مع عبد الناصر

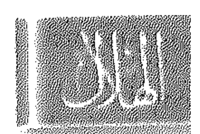
على كل حال .. لقد غادر خالد مصر إلى باريس ومنها إلى جنيف بترتيب مع جمال عبد الناصر على أن يفترقا أصدقاء وزملاء سلاح لا يخون أحدهما الآخر وظل خالد محتفظا بنقائه الثورى حريصا على الثورة التى أسهم فى نجاحها فنراه يرفض أن يستثمر أحد خلافه مع عبد الناصر، فقد أراد محمود أبو الفتح صاحب المصرى أن يستثمر إعتراضه على عقد اتفاقية الجلاء ١٩٥٤ فأبى ..

ثم يعود إلى مصر فى ٤ ديسمبر ١٩٥٥ ليبدأ صفحة جديدة من حياته بعيدا عن السلطات السياسية، ولكن أكثر قربا من تكوينه ومن اهتماماته، إذ يتولى رئاسة تحرير جريدة المساء لنشر الفكر الإشتراكى ١٩٥٦ - ١٩٥٩ وينجح فى انتخابات أول مجلس أمة عام ١٩٥٧ عن دائرة بلده كفر شكر ويظل يفوز بهذه الدائرة فى كل الانتخابات التى أجريت بعد ذلك حتى بعد أن تغير اسم المجلس إلى مجلس الشعب أيام السادات.

وفى ١٩٦٢ يحصل على الميدالية الذهبية للسلام، وفى ١٩٦٤ - ١٩٦٥ يتولى رئاسة تحرير أخبار اليوم وأمانة الصحافة باللجنة المركزية للإتحاد الاشتراكى العربى وعندما اندلعت مظاهرات الشباب فى مارس ١٩٦٨ احتجاجا على أحكام محاكمات قيادات الطيران المسئولة عن هزيمة ١٩٦٧ يطلب منه عبد الناصر الرأى فيقدم ورقة بشأن أهمية التغيير السياسى، ولم ينس طموحه القديم فركز على أهمية الإنتخابات الحرة والإصلاح الاقتصادى والتعبئة من أجل المعركة، وهى أفكار وردت فى بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذى صاغه هيكل وفى ١٩٧٠ يحصل على جائزة لينين للسلام وكان أول مصرى يحصل عليها، وآنذاك كان سكرتيرا عاما

○ ظل خالد محيي الدين مؤمنا بالتعايش السلمي طريقا لتحقيق التحرر الوطني والتقدم الاقتصادي والاجتماعي





للمجلس القومى المصرى للسلام وعضو مجلس السلام العالمى.

اتهام باطل !

وبعد رحيل عبد الناصر وانفراد السادات بالسلطة يعترض خالد على قرار السادات بإلغاء المعاهدة مع السوفييت قائلا «إن هذا الإجراء لا يخدم مصر» وسرعان ما اتهمه موسى صبرى المقرب من السادات بالعمالة للإتحاد السوفييتى . ولكنه وجد فى قرار السادات بإنشاء منابر للرأى فى أبريل ١٩٧٦ فرصته لممارسة العمل السياسى «بأسلوب ديمقراطى» فيتولى منبر اليسار الذى سرعان ما تحول إلى حزب سياسى باسم التجمع الديمقراطى الإشتراكى العربى ولم ييأس من مطالبته بتغيير السياسة الإقتصادية عن طريق إلغاء الاستيراد دون تحويل عملة، والحد من الشراء وإعادة تخطيط الاقتصاد القومى، وإعادة النظر فى قوانين الانفتاح ثم جاء ت انتفاضة ١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧ لتؤكد صحة وجهة نظره وفساد وجهة نظر الحكم ورأى فى سياسات السادات فاشية من نوع ما وخاصة فيما يتعلق بالقوانين المريبة التى أصدرها مثل قانون العيب، وقانون حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى .

***

لقد ظل خالد محيي الدين مؤمنا بالتعايش السلمي طريقا لتحقيق التحرر الوطني والتقدم الإقتصادي والاجتماعي، ومؤمنا بأن طريق الديموقراطية في مصر مرهون بتحقيق العدالة الاجتماعية وفي خطوة لها مغزاها قام بالتنازل عن رئاسة حزب التجمع ضاربا بذلك مثلا في «الديمقراطية» وغامزا بطرف خفي لرؤساءالأحزاب الآخرين ويكفيه فخرا أن سيرته عطرة بين الناس، نظيف اليد، عفيف النفس، لم تطله شائعات استغلال النفوذ والسلطة والجموح التي طالت كثيرين غيره ولم تجد مجلة روز اليوسف إلاه لتمنحه عن جداره وسام الإحترام» في عام ٢٠٠٠

أمد الله في عمره ومتعه بالصحة والسلام.. ■

المراجع

- خالد محيي الدين، .. والآن أتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٩٢
- أحاديث معه وعنه في الصحف الآتية : المصور ٢٤ /١٩٧٠/٤ ، روز اليوسف. ١٩ /١٩٧٦/٤، ٧/ ١٩٧٧/٣..

الأنباء الكسويتية ١٩٨٤/٤/١٦ ، ٤/١/ ١٩٨٦. ١٥ / ٦/ ١٩٨٨ الوطن العربي ٥ / ٦/ ١٩٨٦، وآخر ساعة في ٢٨ / ٧/ ١٩٩٣، ١٩٩٣/٨/٤ ومجلة أكتوبر ٢٣ / ٤/ ١٩٩٥ ، والأهالي ١٩٩٥/١١/٨ . ومجلة روز اليوسف ١٠ / ٦/ ٢٠٠٠

- عاصم الدسوقي، أزمة مارس ١٩٥٤، الهلال، مارس ٢٠٠٢

أقوال معاصرة

• « أعتقد أن الزواج يستمر أكثر مما يلزم، ويجب أن ينقطع وقتا ما »

إدوارد البى
الأديب المسرحى الأمريكى

•«لم أر فى حياتى شيئا أجمل من تواضع الكبار، ولا رأيت أقبح من غرور الصغار »

الكاتب اللبنانى سمير عطا الله

« ظهر ضيق الصدر، وضيق الذهن والأفق وزيادة الشك فى الآخر، والانزواء، كإفرازات العصر الهزيمة واليأس والانكسار »

الدكتور كمال أبو المجد
وزير الإعلام الأسبق

• « لو عاد سقراط، فقد لايموت، لكن من المؤكد أنه كان سيدان »

الفيلسوف والكاتب الألمانى
ينسى سونتجن

• « التخلف الحضارى فى هذا العصر هو حرام بعينه، بل أشد أنواع الحرام لأنه يهدد الوجود الإسلامى فى الصميم »

الكاتب البحرينى محمد جابر الأنصارى

• « الدين لايمكن أن يكون مشروعا سياسيا»

جان بيير رافاران
رئيس وزراء فرنسا

•« إذا لم يبادر الحكام العرب إلى حلق رؤوسهم من تلقاء أنفسهم، فإن آخرين سيحلقون هذه الرؤوس على رغم أنوفهم »

الرئيس اليمنى على عبد الله صالح

•« يريد المتشددون إخفاء جسم الديكتاتورية القبيح برداء الديمقراطية الجميل »

محسن ميردامادى
عضو مجلس النواب الإيرانى

•« أشعر بيد التاريخ تربت على كتفى »

رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير

•«لا أحد يصبح ممثلا، إن لم يكن قد ولد ممثلا »

النجمة الفرنسية ايزابيل هوبير


كمال أبو المجد


جان بيير رافاران


تونى بلير

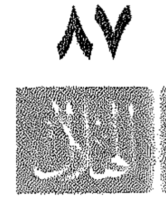
بعض ما تعلمته من صلاح جاهين

بهاء جاهين

بنوتى لصلاح جاهين ليست عادية، فأنا لست ابنه بالجينات فقط، ولكنى ابنه الشعرى أيضا.. وإذا كانت بنوتى الشعرية لصلاح جاهين يشاركنى فيها الكثيرون - ممن تتلمذوا على يديه من خلال قراءتهم لقصائده - فإنى أفخر بأني كنت الصبى الوحيد فى ورشة أسطاها صلاح جاهين، إذ أسعدنى زمانى بأن أنشأ فى بيت هو سيده، فمنذ قصائدى الأولى ويده الخبيرة الحانية توجهنى وتكشف لى الصنعة عملياً وشفهياً.



صلاح جاهين وابنه بهاء



وصلاح جاهين من الآباء الذين يؤمنون بأن كل جيل عليه أن يلقن خبرته الثقافية والحياتية للجيل التالي: وعليه فقد كان دائم الحكي لي عما مر به من تجارب وما استوعبه من خبرات وما استخلصه من هذا وذاك من حكمة ومن آراء تلخص تلك الخبرات والتجارب. فمثلاً حين كنا نمر بمناطق من القاهرة القديمة كان يلفت نظري للمآذن، ويشرح لي الفرق بين مآذن العصر المملوكي ذات الاستدارات ومآذن العصر العثماني التي تشبه القلم الرصاص أو إذا سارت بنا السيارة بحذاء مجرى العيون يشير إلى السور موضحاً أن في أعلاه مجرى كان يستخدم في العصر المملوكي لنقل مياه الشرب.

***

لم يكن صلاح جاهين إذن مجرد أب بيولوجي أو حتى شعري لي، بل كان أباً ثقافيا أيضا، استقيت منه الكثير من معارفي ومداركي، وآرائي في الفن والحياة، ومن أهم ما فعله في حياتي إهدائي الكتب.. ومن أهمها روايات دستويفسكي في ترجمتها العربية الرائعة التي قام بها سامي الدروبي ونشرتها هيئة الكتاب في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات.. كنت حينها في الثالثة عشر ومازلت أذكر الثورة الفنية التي أحدثتها هذه الروايات في رأسي.. وأعتقد أنها هي التي صنعت مني شاعراً، أو على الأقل فجرت الكامن المكنون في صدري من شعر، وحين بلغت عامي الحادي والعشرين أهداني أبي في عيد ميلادي دائرة المعارف البريطانية، ومازلت استخدمها حتى الآن.

دروس مستفادة

ومما تعلمته منه قيمة العمل وإتقان العمل، وقيمة الواجب والتفاني في أدائه، أذكر أنه أصيب في أعوامه الأخيرة بآلام مبرحة في العمود الفقري لم تكن تجدي معها المسكنات .. وكان عليه في نفس التوقيت كتابة أشعار مسرحية إيزيس للحكيم التي أعاد المسرح القومي تقديمها في أوائل الثمانينات وأخرجها كرم مطاوع.. فكان صلاح جاهين يتحامل على نفسه حيث يخف الألم قليلاً، ويقوم إلى مكتبه وينحني عليه ليكتب. وحين انتهى رفع رأسه من الأوراق قائلاً.. «أهه أنا دلوقت راضي عن نفسي» وظننت حينها أن ما قاله مجرد كلام ، وليس وراءه ما وراءه، ولكنني حين أتأمل الموقف الآن أرى بوضوح أنه كان درساً موجها لي.

العمل .. والألم

كان صلاح جاهين مثلاً أعلى في المثابرة على العمل، فكان يعمل أكثر من عشر ساعات يومياً.

وكان أحيانا يقبل أعمالاً لا يتحمس لها لمواجهة أعباء العيش، والإنفاق على الأسرة، ومن خلاصات تجاربه التي كان أحياناً يسر بها لي:

«لكي تنجح لابد أن تعمل.. والعمل دائماً ينطوي على بعض الألم، حتى وإن كانت فيه لذة.. فلكي تنجح لابد أن توطن نفسك على تحمل ذلك الألم».

ومما تعلمته منه أيضا السعي إلى التجديد دائما..

فإذا كان صلاح جاهين أحب النجاح، فإنه كره تكرار نجاحه، مثلا حين نجحت «الليلة الكبيرة» أو الرباعيات أو فيلم «خلى بالك من زوزو» أو فوازير نيللى، لم يحاول صلاح جاهين تكرار التوليفة الفنية أو الوصفة التى أعجب مذاقها الملايين ، بل كان دائماً ينطلق بعد نجاح عمل له إلى وصفة وتوليفة مختلفة تماماً.

البساطة فى كل شىء

ومن قواعد الفن التى تعلمتها منه البساطة والمصرية.

كان ينصحنى قائلاً: «حين تكتب لا تقل الشمس تشرق من الغرب .. قل الشمس تطلع من الشرق.. ضارباً مثلاً على فضل البساطة على التحذلق والتغريب أى السعى للغرابة من أجل الغرابة.. وكان صلاح جاهين يعتقد أيضا أن البساطة وحدها لا تكفى بل يجب فى كل عمل فنى - سواء كان قصيدة أم أغنية أو حتى رسمة كاريكاتورية - أن تظهر ملامح الشخصية القومية، أى يجب أن يكون الفن مصريا، عاكسا ملامح التراث الشعبى الموروث أو الواقع المعاش.

ومن أهم الكتب التى شكلت وجدان صلاح جاهين فى هذا الصدد كتاب «فى الأدب الشعبى» لأحمد رشدى صالح التى ألهمت نماذجه من الموروث الشعرى الفولكلورى صلاح جاهين بعض أشعار ديوانه «عن القمر والطين» (١٩٦١) وكتاب «سندباد مصرى» للدكتور حسين فوزى، وتاريخ الجبرتى كتابه الأثير وخاصة الجزء الرابع منه الذى سجل يوميات الحملة الفرنسية وظهر أثر ذلك الكتاب فى ملحمة «على اسم مصر» التى كتبها صلاح جاهين وهو يعالج من الكمد فى أحد مستشفيات موسكو عام ١٩٧١.

رحابه تضم حدود الوطن

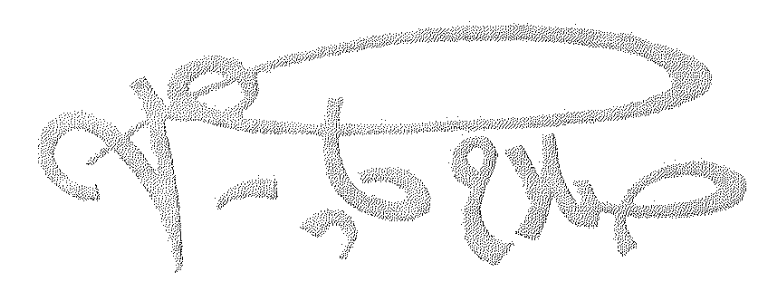
وإذا أردت أن ألخص صلاح جاهين فى سطور قليلة، لقلت إنه الثراء الإنسانى غير المكترث بنفسه، والرحابة التى تضم فى حضنها حدود هذا الوطن بطيره وناسه وزرعه وبهائمه ونيله وصحرائه وسمائه، الطفل الأب اللعبى الحكيم.. كان يقول لى:

ما الفن إلا لعبة.. وإلا فقل لى لم نكتب سطوراً تحت بعضها وفى أواخرها قواف!! إن كان كل ما نريده التعبير عن معنى أو وجهة نظر فلم لا نكتبها فى شكل مقال؟:

كان لعبه جاداً، وهمه عاماً، وإرادته قوية، وطفولته أبوية، وكل تجلياته عبقرية، وحياته كلها مثلاً حياً - لى ولغيرى ممن عرفوه وأحبوه - للتواضع دون ضعة، والثقة دون ذرة غرور، والحب والعطاء دون ثمن ودون انتظار لثمن ، والحنان الرجولى، والقوة الوديعة، والصبر الجميل، والروح الشفافة..

كان يحنو علىّ كما تحنو الأم على الوليد، ويلعب معى كما لو كنا طفلين فى نفس السن، بل أحياناً كان ينظر لى بعيون كلها دهشة وحكمة ويقول:

أحس أنك أبى.. ■



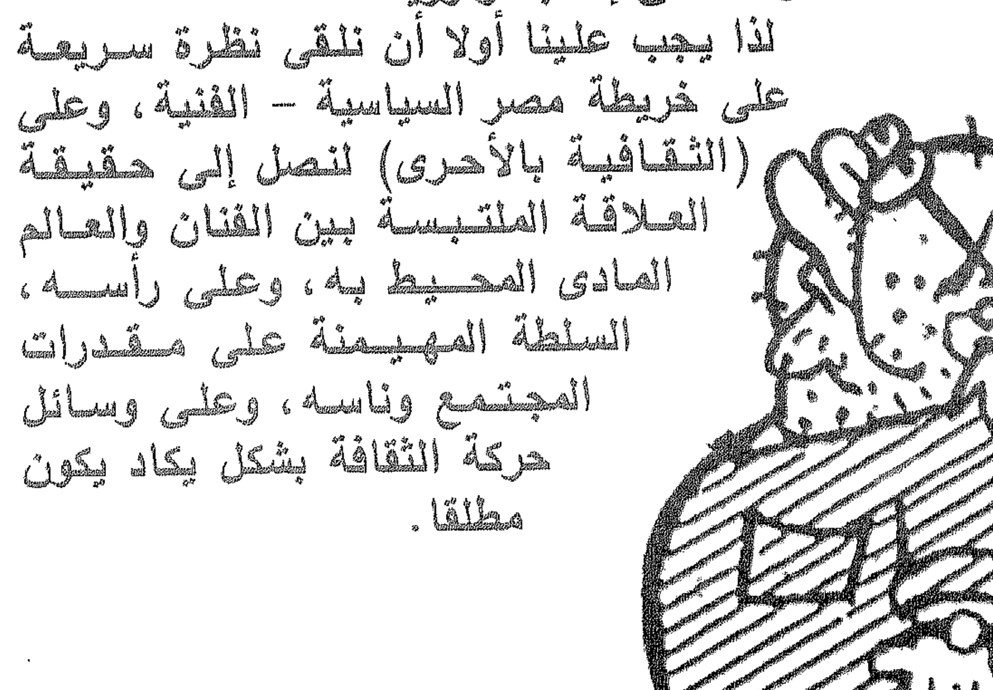
ومأزق الفنان فى العالم الثالث

بقلم
عبده جبير

بعد كل ما قيل وتم تداوله بخصوص صلاح چاهين، سيكون علينا أولا أن نقر (ونعترف) بأن هناك مسألة تسمى «مسألة صلاح چاهين»، وهى المسألة التى تطرح نفسها فى تجلياتها العامة، لتكون «مسألة الفنان فى مجتمعات العالم الثالث»، ومصر نموذج واضح وصريح من جهة، لكنه يحمل تعقيدات كبرى، نتيجة لظروفها الخاصة.

هذه الظروف الخاصة هى على وجه التحديد: قيادة الدولة للعمل الثقافى إنتاجا وتوزيعا.

لذا يجب علينا أولا أن نلقى نظرة سريعة على خريطة مصر السياسية - الفنية، وعلى (الثقافية بالأحرى) لنصل إلى حقيقة العلاقة الملتبسة بين الفنان والعالم المادى المحيط به، وعلى رأسه، السلطة المهيمنة على مقدرات المجتمع وناسه، وعلى وسائل حركة الثقافة بشكل يكاد يكون مطلقا.



- يا بيه يا بيه ..
عايز أيه ؟
- « ميدو » بالألف والا بالهيه ؟
ليه؟
- عايز أكتب اسمي على ورقة الاجابة !

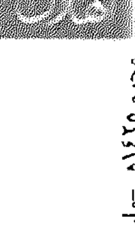
استحوذت مشاكل التعليم على جانب كبير من رسومه

١ - كلنا يعرف ما كان يجرى قبل «ثورة» ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، والضرورات التى حتمت تغييرا كان لابد منه ليتفادى المجتمع الأزمة المركبة التى كان المجتمع المصرى يمور بها فى العهد الملكى .

ففى الوقت الذى كانت القوى السياسية المصرية مشغولة ببرامج «إصلاحية»، وأيضا بمهاترات لم تؤد إلى أى نتيجة، شاء القدر أن يتخلق من رحم المجتمع تلك الجماعة العسكرية التى استطاعت فى غفلة من الجميع ، تكوين تنظيم سرى صغير ومحكم، لتنقض على السلطة، وتتخلص من كل القوى الأخرى في المجتمع، واحدة بعد الأخرى، لتنفرد بكل مقدراته.

٢ - نأتى إلى هذه الجماعة الصغيرة التى سميت «الضباط الأحرار » ، لنقرأ «عقلها» وأفق تفكيرها ، فنجد أنها، ربما كانت مؤهلة لقيادة البلد عند العدو المشترك فى ذلك الوقت (الاستعمار الإنجليزى) بنجاح، كما أدارت معركة إقصاء كل القوى السياسية الأخرى، بنجاح أيضا، لكنها، أدارت المجتمع على المستوى المدنى بطريقة عشوائية .

وقادتها يعترفون فى لهجة فيها الكثير من الفخر، بأنه لم يكن لديهم برنامج سياسى/ اجتماعى/ اقتصادى/ ثقافى لإدارة المجتمع واستغلال موارده فى هذه المجالات، استغلالا لا يقف عند حد الخلاص من الخصوم وسلبياتهم القديمة، بل





كيف يربي المدرس الجاهل جيلا من التلاميذ؟

لبناء مجتمع عصرى يقوم على المشاركة الفعالة والطوعية المبنية على اقتناع بفكر سياسى محدد، لأن هذه الجماعة نفسها، كما سلف، ليس لديها فكر سياسى محدد، فكانت النتيجة: موجات من التجريب المتوالى فى كل مجالات الحياة، لم تؤد إلا إلى النتيجة التى حدثت بالفعل:

– انكسار عسكرى ، أدى إلى انكسار سياسى، أدى إلى حالة من التيه، أدت بأنور السادات ، وهو عضو أساسى فى الجماعة، إلى محاولة الخروج من هذا التيه بتغيير كامل للخط القديم، إلى خط جديد، لم يكن لديه أيضا برنامج محدد، كما لم يستند إلى القوى الحقيقية الفاعلة فى المجتمع ، فكان هذا الفراغ السياسى العميق الذى تعانيه مصر .

٣ – عند هذه النقطة ليسمح لى القارئ



ببعض التفصيل .

ففى اعتقاد الكاتب أن أخطر ما فعله أنور السادات ليس فقط، اتفاق كامب ديفيد، على خطورته التى أدت إلى انقلاب شامل فى المنطقة، بل ذلك الانقلاب فى بنية المجتمع السياسية، من نظام الحزب الواحد، إلى شكل هجين وغريب من التعددية الانتقالية غير القائمة على أساس حقيقى: أى دستور جديد متكامل، يصوغه فقهاء الأمة، لبناء مجتمع سياسى متعدد حقيقى، يعبر عن القوى السياسية الحقيقة فى المجتمع .

ما فعله أنور السادات ، فى هذا المجال، هو ما يمكن أن يقوم به «عمدة» قرية محدود التفكير ليعالج أزمة وطن ليس له ملامح القرية.

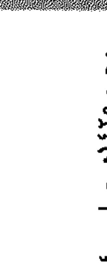
ما فعله أنور السادات بالضبط، بعد أن جاءه إلهام التغير، أنه قام بزيارات ليلية وهو متخفٍ فى عباءة ليعقد صفقات مع أشخاص بعينهم، للاتفاق على تقسيم وتوريث الحياة السياسية فهؤلاء الأشخاص (وما يمثلونه)، مما جرى على النحو الذى جرى عليه، ولأن السادات كان يرى أن الحياة السياسية هى: يسار (أى يسار؟) ويمين (أى يمين؟) ووسط (أى وسط؟) هكذا على هذا النحو الميكانيكى سلم اليسار لخالد محيى الدين، واليمين لمصطفى كامل مراد، وأمسك هو بالوسط .

وطبعا كانت النتيجة هى ما هى عليه الآن: مجرد أشباح ورقية لا أحزاب سياسية حقيقية، وإن كانت بعض الأحزاب (وعلى رأسها التجمع ثم الأحزاب التى خرجت للنور بعد نضال قانونى، العمل، الوفد، الناصرى) وهى تقبل القسمة كانت تعرف الخلل الموجود فى النص الدستورى والقانونى وجاهدت بشرف من أجل تغييره.

إذ أن طريقة السادات الفردية هذه لا يمكن أن تكون أساسا صالحا لحياة سياسية حية وفاعلة.

٤ – لقد كان البديل الوحيد المفروض للقيام بتغيير كبير، من مجتمع الحزب الواحد إلى مجتمع تعددى أن يقوم فقهاء الأمة بصياغة «كتاب الأمة» الذى هو الدستور والقوانين المطبقة لهذا الدستور التى هى جزء مكمل وضرورى لتطبيقه بشكل صحيح، مما كان سيعنى قانون أحزاب (وانتخابات) حقيقى يمكن القوى السياسية الحقيقية الفاعلة فى المجتمع من التعبير عن نفسها فى أحزاب حية، تخرج بالمجتمع من أزمته الدستورية، ليسير فى اتجاه التعددية الحقيقية .

٥ – وهنا، أيضا، لابد من استطراد لازم حتى نصل إلى «مسألة صلاح چاهين» .



فها هي سلطة يوليو تمسك بكل شئ في يدها، إن يكن في مجال الوسائل، أو في مجال الغايات، ولنتقدم أكثر لنوضح، لقد أضحت الصحف، والمجلات، ودور النشر ووسائل الإعلام المختلفة (التليفزيون ، والإذاعة) والسينما أيضا في أيدى السلطة، التي لم تعدم في بعض المراحل شخصيات تولت هذا المنبر أو ذاك وكانت على هذه الدرجة أو تلك من الكفاءة.

.. لكن هذا كله عنى ببساطة أنه لا وجود لنتاج الفنان بين أيدى أو أسماع أو أعين الناس إلا إن تعامل الفنان مع هذه السلطة، تعاملا، أحيانا، كان يعنى «التعاون» وفى الغالب كان يعنى الخضوع الكامل للفنان أمام السلطة .

وإذا كانت هذه السلطة ترى أنها دوما على حق، وأن فكرها ، الذى هو ليس بفكر عميق، هو الفكر الصحيح، فقد عنى هذا على المستوى التطبيقى، إنك، كفنان، لا يمكنك أن تتلاءم، مع هذه السلطة لو كانت رؤيتك للفن (والعالم والأشياء) مختلفة بشكل جذرى، وكثير من الفنانين والمفكرين الموهوبين، عصفت هذه التبعية بمواهبهم، (إلا من رحم ربك) أو عاشوا فى عزلة، وفى مرحلة السادات لم يكن أمامهم إلا الهجرة الداخلية، أو إلى الخارج، أو أصيبوا بالاكتئاب، كما حدث بالضبط مع صلاح جاهين، الذى حاول التغلب على اكتئابه بالعقاقير وصلاح عبدالصبور، الذى حاول التغلب على اكتئابه بالشراب، فكانت النتيجة واحدة: موت مبكر خسر خلاله المجتمع موهبة كبيرة .

من جهة ثانية فإنه لا يمكن لمثل هذه السلطة أن تمتلك رحابة صدر، تجاه تمرد أو حلم الفنان (الذى هو بطبيعته حلم بالمستقبل) فهى لا ترى فى الفنان أو المثقف إلا جزءا من ماكينتها المعدة للاستمرار فى السلطة، وهكذا يجد الفنان نفسه فى مأزق كبير.

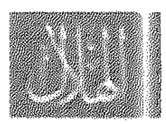
٦ - وأظن أن أكثر الفنانين تعرضا لهذا المأزق هم فنانو الكاريكاتير، فهم لا يستطيعون الرسم على أنفسهم، كما يمكن للشاعر أو الروائى أن يكتب على نفسه، أى يستطيع العثور على ناشر مستقل أو ينشر بعيدا عن الصحيفة اليومية يعكس فنان الكاريكاتير الذى لا مكان له سوى فى المنبر العام من الصحف والمجلات .

إن المأزق الأهم فى حياة أى فنان هو



ـــ مش فاهم الرسام ده .. بيجيب الحوان الحلوة دى كلها منين ؟

اهتم چاهين كثيراً بالمرأة في رسومه !



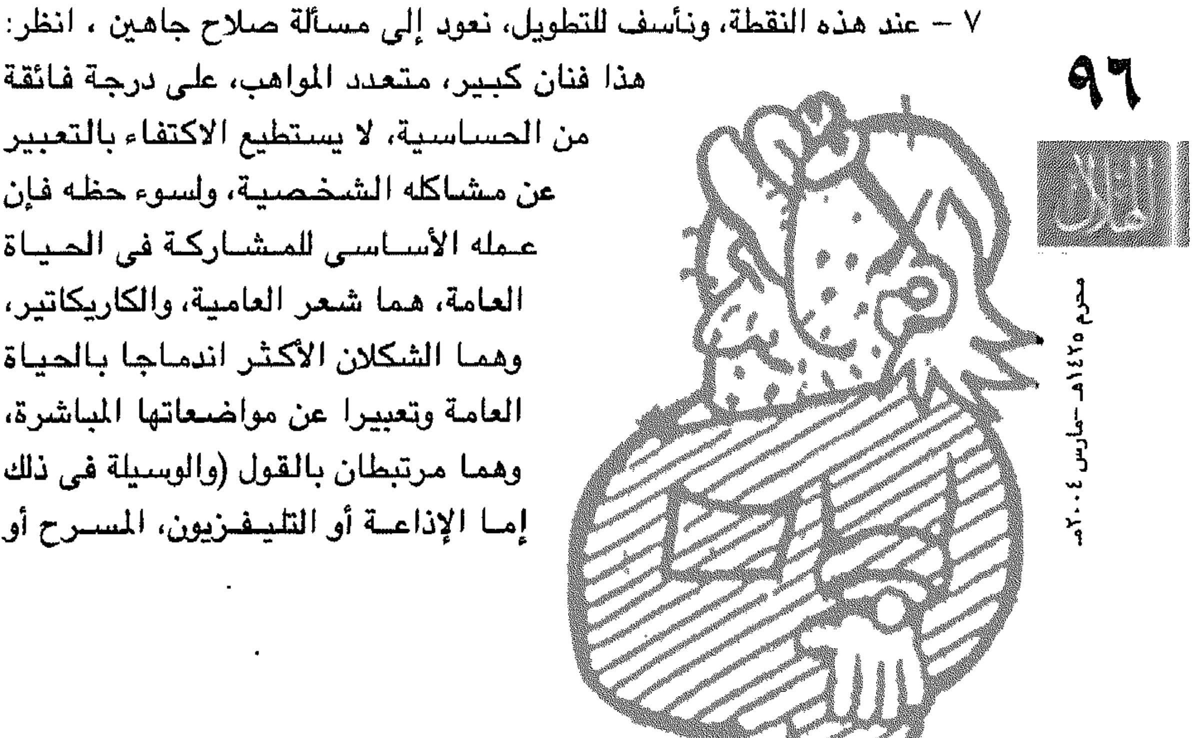
أنه يريد فعلا أن يخلص لفنه دون أن يكون متأثرا بالمشاكل اليومية التى قد تضره، فحتى الفنان الثورى الجاد يريد أن تكون ثورته من خلال ما هو إنسانى، وجاد وعميق، وهذا قد يبتعد به عن جمهوره المفترض، وللإلحاح الذى يحس به من تفاقم الأزمات، فإنه على استعداد أن يقدم تنازلات فنية، وأحيانا فكرية لمتلقيه مقابل أن يستمر فى تقديم عمله للناس، وهنا المأزق الحقيقى إذا لم يكن هذا الفنان قادرا على خلق حياة تحميه من هذا المنزلق حتى ولو ضحى بهذا الفن، كما فعل بهجت عثمان وأحمد حجازى، وهما فنانا كاريكاتير، لا يقلان أهمية عن صلاح جاهين، فرحلا إلى ما رأيا أنه أجدى من الكاريكاتير فى مرحلة ساد فيها الابتذال . فلجآ لرسوم الأطفال، أى للأجيال الجديدة التى قد تحمل الرسالة بشكل مختلف هذه

ـ أنا أقولك ازاى تتخلص من الدبان .. تجيب نضارة معظمة وانبوبة بوتاجاز .. وتقلب النضارة المعظمة وتبص على انبوبة البوتاجاز .. تلاقيها صغرت بقت انبوبة بايروسول .. تروح ماسكها ورابخ بيها الدبانة .. تروح ميتة !

تميز بخفة الدم المتناهية ..

المرة .

٧ – عند هذه النقطة، ونأسف للتطويل، نعود إلى مسألة صلاح جاهين ، انظر: هذا فنان كبير، متعدد المواهب، على درجة فائقة من الحساسية، لا يستطيع الاكتفاء بالتعبير عن مشاكله الشخصية، ولسوء حظه فإن عمله الأساسى للمشاركة فى الحياة العامة، هما شعر العامية، والكاريكاتير، وهما الشكلان الأكثر اندماجا بالحياة العامة وتعبيرا عن مواضعاتها المباشرة، وهما مرتبطان بالقول (والوسيلة فى ذلك إما الإذاعة أو التليفزيون، المسرح أو



المنتدى المباشر) أو الرسم في منبر جماهيري (وهو هنا المجلة أو الصحيفة على وجه التحديد) وكل هذه الوسائل في يد السلطة بلا منازع .

٨ - وبشكل عام فإن التقييم الإجمالي لقيمة صلاح چاهين يمكننا أن نجده في هذه الجملة البليغة للشاعر الكبير أحمد عبدالمعطي حجازي (الذي صاحب جاهين في فورة طلوعه في صباح الخير) ويقول:

«لم يكن صلاح جاهين يرى فنا منفصلا عن الحياة، لكن الحياة لم تكن بالنسبة له شعارا يرفع به موهبة متهافتة، بل كانت حافزا للاكتشاف والإضافة، وأنت حين تسبح في النهر العميق المتدفق لا تتبع الموج بل تقاومه وتظهر عليه. هذا هو الجدل الذي وقاه شر السطحية والخطابة الكاذبة والعاطفة المصطنعة التي تفيض بها أغلب أعمالنا. وخصه هو بإبداع فريد طازج، مزيج من السخرية والبكاء، الطيش والحكمة. ذلك هو فن الشعب حين يرتفع عن ابتذال الظرف ويصبح تاريخا للروح» .



سخر من كل شيء .. حتي من نفسه !

٩ - أما التقييم الخاص فلا تجد غير «أسطى» آخر من أهل «الكار» لكنه يتمتع بشجاعة الحق أحق أن يتبع «فلا تتسرب إلى نفسه غيرة أهل «الكار»، وإنما روح العدل التي يتمتع بها كبار الفنانين الذين يستحقون عن جدارة صفة «الأسطى» ذلك هو محيي الدين اللباد الذي إن قال في موضوع الكاريكاتير فعلينا أن نفسح له مجمل المكان .

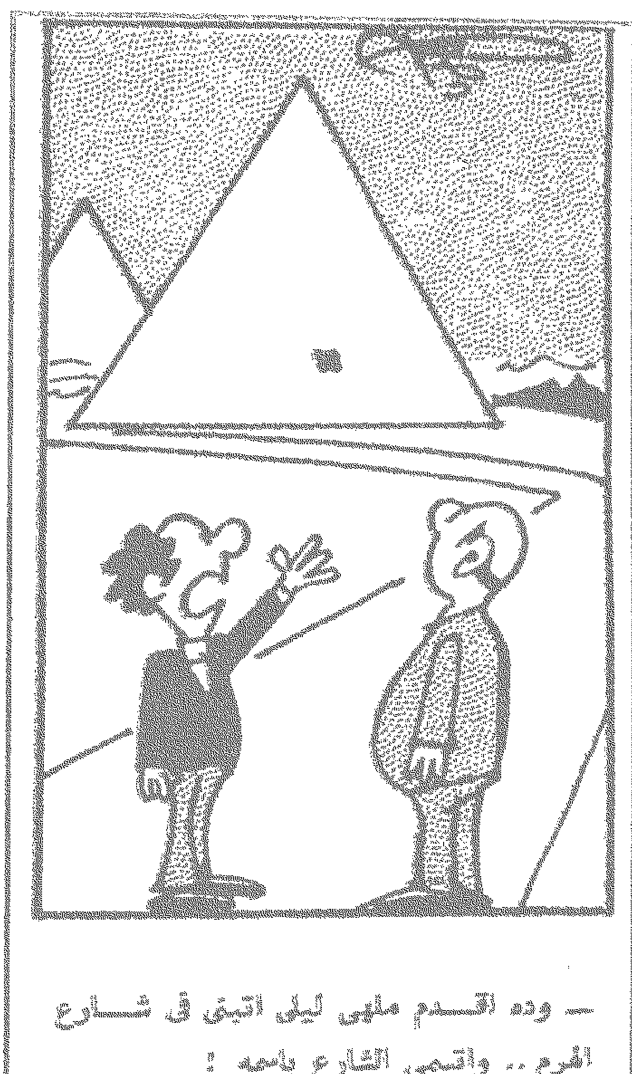
يصف اللباد أولا صلاح جاهين بأنه صاحب الرقم القياسي، ويشرح ذلك موضحا:

«عندما يسجل البطل الرياضي رقما قياسيا جديدا في لعبته، فإنه بذلك يحدد

القدرة القصوى للنوع الانسانى فى تلك المهارة فى ذلك التاريخ، وعندئذ يشعر الناس - حتى وإن كانوا لا يمارسون اللعبة - بأن البطولة التى سجلت قد شملتهم، ويشعرون بالفخر وبالقدرة على تحدى الضعف والموت، ويتوهمون أن بإمكانهم - يوما - أن يبلغوا مثل هذا القدرة، وبهذا ينعمون بالأمل والتوازن والقوة والتفاؤل .

هكذا كان «صلاح جاهين» فى الكاريكاتير .

بالنسبة للقراء وضمنهم رسامو الكاريكاتير ، كان الرقم القياسى الذى ينتظره الجميع كل صباح، هو كاريكاتيره الملئ بالملاحة والذكاء والوعى والعبث والمرح الطفولى والقدرة المعجزة على التلخيص وعلى التواصل» .



السخرية ليست من الهرم .. بل من جهل المعاصرين !

لكن اللباد وهو يوضح موقع جاهين على خريطة الكاريكاتير يكتب تحت عنوان آخر صاحب حق الاختراع ويقول : «فى العام السابق لانطلاقه صلاح جاهين على صفحات صباح الخير ، فى يناير ١٩٥٦ كانت خريطة الكاريكاتير كالتالى:

كان «عبدالسميع» (أكثر الرسامين شهرة وشعبية وتأثيرا فى هذا الوقت) قد ترك مجلة روزاليوسف إلى أخبار اليوم لينضم هناك إلى «صاروخان» و«رخا»، بينما كانت مجلات دار الهلال: «المصور»



و«الهلال» و«الاثنين» تزدحم برسامين أوربيين: «برنى» و«برنار» و«كيراز» و«فيدروف» ومن خلفهم بعض الرسامين المصريين يقومون بتمصير رسوم ما يقدم اليهم من كاريكاتير أجنبى قد ترجمت تعليقاته، وكان «طوغان» نجما فى جريدة الجمهورية يقدم رسوما سياسية رمزية قوية الخطابة وزاعقة الشعارات الوطنية، وكان زهدى ينشر مثلها فى روزاليوسف من أرضية يسارية تقليدية، بينما لم يكن فى جريدة الأهرام رسام كاريكاتير واحد .

كان هناك حائط سميك يفصل الكاريكاتير إلى نوعين لا صلة بينهما : «كاريكاتير سياسى» كانت موضوعاته هى «السياسة» نفسها بلا لف أو دوران.. وكان أبطاله هم رجال الدولة أو السياسة ومعهم شخصية رمزية تنوب بوجودها عن «الشعب» .

كان القسم الآخر هو «الكاريكاتير غير السياسى» وكان نكتا وقفشات وتهريجا نمطيا لا علاقة له بما يجرى فى حياتنا، ولا نستطيع أن نعرف منه ما موقف رسامه السياسى أو الإنسانى ولا رؤيته الاجتماعية، ولا ثقافته .. أبطاله أشخاص شوه مظهرهم بمبالغة شديدة ليكونوا «مضحكين».. لم تكن هناك علاقة بين هذه الشخصيات النمطية، وبين واقعنا اليومى.. ولم يكن هذا النوع من الكاريكاتير سوى ترجمة بالرسم لنكت وقفشات وشخوص المسرح الفكاهى التجارى فى ذلك الوقت» .

ويقول اللباد إنه فى العام ١٩٥٥ فتحت روز اليوسف بابها أمام عدد من الرسامين الشبان، وهناك تقابل جاهين مع جورج البهجورى الذى كان يرسم رسوما كاريكاتورية مدهشة، أصيلة، غريبة، استطاع أن يخلط فيها - بسلاسة نادرة - مراجعه من فنون مصر القديمة والقبطية والإسلامية والشعبية، مع ما تعلمه من راغب عياد وحامد عبد الله، مع ما فى وجدانه الصحى شديد الطيبة بدون أن يتأثر بما يفعله الخواجات.

وكان هناك أيضا حسن فؤاد ينشر فى الكتب والمجلات والصحف رسوما لافتة للنظر لشخوص ومواقف لم يسبق لها الظهور فى هذا المجال. كان يرسم المعتاد الذى نراه حولنا كل يوم فى الزحام، فى أحياء القاهرة الوطنية، وفى قرى الريف المصرى، كانت رسومه تعكس وجدانا غنياً، وثقافة فنية حديثة، ووعيا اجتماعيا، وانحيازا سياسيا، وحبا لوطنه وشعبه وللثقافة والتقاليد المحلية.

لابد أن صلاح جاهين قد تأثر كثيرا بجورج وحسن، كان الشكل بالغ المصرية الذى اكتشفه جورج فى رسومه، وكانت الشخصيات والمواقف والأماكن التى اكتشفها حسن فؤاد كانت فتوحا جديدة مهمة جذبت اهتمام جاهين، وبها عثر على



الطريق الموفق والمناسب - بالضبط - للموضوعات والأفكار التى سيقلب بها - بعد قليل - فن الكاريكاتير فى مصر كما تقلب «فردة الشراب».

يضيف اللباد أنه وبعد سنة من الرسوم المتفرقة فى روز اليوسف فوجئ القراء منذ العدد الأول لمجلة صباح الخير (١٣ يناير ١٩٥٦) بكاريكاتير جديد، مختلف، صادم، مدهش ومبهج، كان هذا هو كاريكاتير صلاح جاهين الذى تعرف فيه القراء «على أنفسهم وأقربائهم وزملائهم وجيرانهم ومعارفهم وشاهدوا فيه - لأول مرة - الأماكن التى يألفونها: البيوت القاهرية البسيطة والريفية الفقيرة بتفاصيلها الحميمة».

وأعتقد أن هذا الميلاد الجديد لصلاح جاهين فى صباح الخير، وإن كان قائما، طبعا، على موهبته الكبيرة، إلا أنه كان أيضا قد تدفق بفضل رعاية ودفع واهتمام منشئ هذه المجلة أحمد بهاء الدين، الذى من المعروف أنه أيضا كان وراء دفع جاهين لكتابة رباعياته التى أخرجت أهم ما فيه من طاقة شعرية.



المذيعة التي لا تخطىء !!

وصلاح جاهين الشاعر هو صنو جاهين رسام الكاريكاتير الكبير.

***

نعود إلى ما أسميناه «مسألة صلاح جاهين» فنؤكد على أنه إذا كان رسام الكاريكاتير قد وجد فيما كان يجرى من أحداث فى الفترة الناصرية، روحا وطنية جعلته متوافقاً مع نفسه ومع مجريات



- الاوراق بيطلع غيرها كل سنه ! .. المصيبة فى الشجرة !

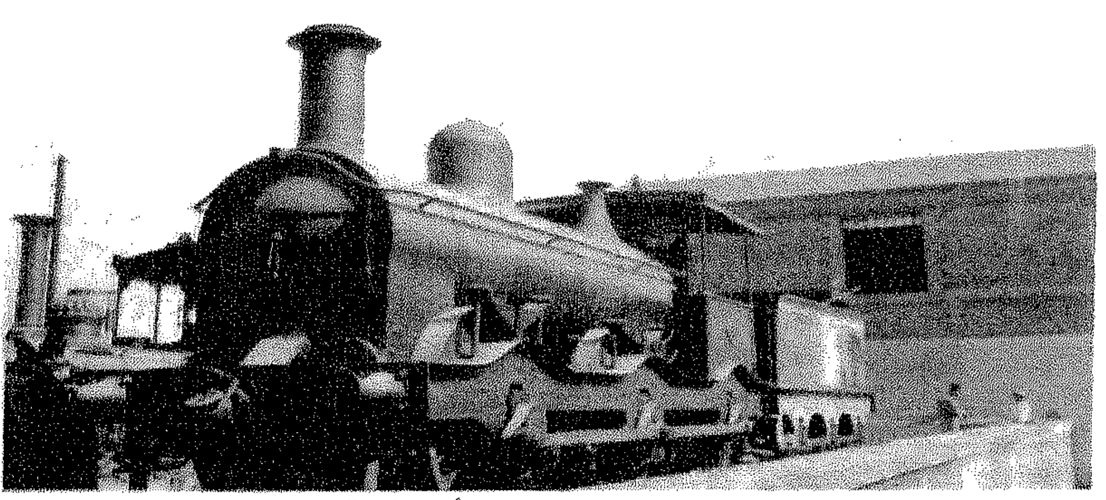
عبر جاهين عن انهيار السينما المصرية في كثير من الرسوم

الأمور، إلا أننا نظن أنه وجد نفسه فى فترة السادات ، وهو قد انتقل منذ وقت إلى الأهرام، كبرى الصحف المصرية، وأصبح كاريكاتيره هو افتتاحية العدد الاجتماعية اليومية، إلا أننى أظن أنه قد بدأ بالمأزق الذى وجد نفسه فيه .

فالتوجهات العامة للمرحلة لم تكن بالتأكيد مما يمكن أن يتحيز له جاهين، كما انه وبحكم طبيعة تكوينه لم يكن بإمكانه التخلى عن موقعه أو متلقيه الذى ينتظره كل صباح، ومن هنا بدأت علامات الاكتئاب تظهر عليه ، عاناها كما يمكن أن يعانيها أى فنان حساس يجد نفسه فى مثل هذا المأزق، فانتهت به إلى موت جاء قبل الأوان، ليختطف منا فنانا كبيرا كان يمكن أن يستمر فى العطاء لسنوات وسنوات، على الرغم من أن ما أعطاه لم يكن بالهين ولا اليسير . ■

مصر

من نافذة أول رحلة قطار



أول قطار للركاب فى السكة الحديد المصرية

بقلم
د. محمد المهدى

- كيف رأى الفنان جوتييه الحياة بمصر فى القرن التاسع عشر؟
- الفلاحة وطفلها على ظهر حمار تشبه لوحة العائلة المقدسة!
- الفلاح بثوبه الأزرق كأنه رمز اندماج الماء والأرض والسماء..

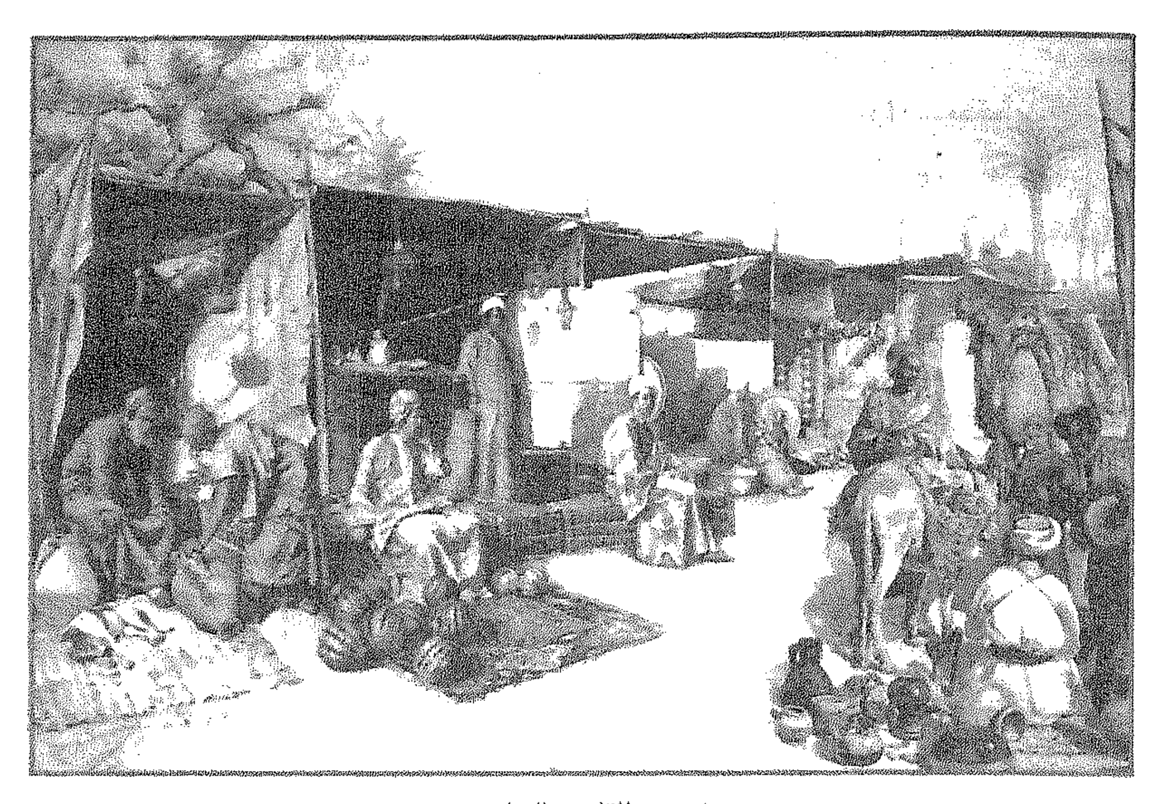


بائعات الماء والبرتقال –
فيلكس كلمنت ١٨٧٢



نزل جوتييه فى فندق شبرد القديم بميدان الازبكية

الزمـان ... الجمـعـة ٩ أكـتـوبر عـام ١٨٦٩ . والمكان مدينة مرسيليا . جوتييه فى مرحلة النضج من العمر، يخرج من فندقه وكله حماس ليتوجه إلى سفينته المتجه إلى الشـرق ... الشرق كـان عنده حلمـا من أحـلام ألف ليلة وليلة .... وأيضاً مصدر إلهامه الروحى والعقلى . كان قد زار المعرض المصرى الذى أقيم فى باريس عام ١٨٦٧ ، وشاهد فيه معالم على طريق الشرق. جاءته الفرصة هذا العام للتأمل القريب. ليشهد كمراسل صحفى مع غيره من الأدباء والفنانين، والصحفيين افتتاح قناة السويس. يحلم (تيوفيل جوتييه) بألا تتوقف رحلته عند مصر، لابد وأن يستكملها إلى الأراضى المقدسة .. إلى القدس. ومنها إلى الشام ... ومنها .. وفجأة يمر أمامه عند منعطف الطريق جناز يتقدمه شمامسة بأردية بيضاء ... ماهذا الشؤم، جناز يوم الجمعة ... هذا دين كيف تراني سأسدده؟



سوق شعبى بالقاهرة للفنان سينيوريني

جوتييه الشاعر، والأديب والناقد التشكيلى الفرنسى صاحب المزاج الحساس يصدمه الجناز، كما يحكى فى ذكرياته ، ولكنه يستأنف سيره إلى سفينته وان داخله القلق . وعندما يصل إلى الميناء يرى السفينة (موريس) راسية ، فيطمئن إلى أن الرحلة لم تلغ . يتقدم سائلا عن غرفته على ظهرها . وما يكاد يضع قدمه على أول درجة من درجات سلم الهبوط حتى يتعثر ويسقط.

آه ... ليس السقوط هو الذى آلمه، ولكنه الشؤم الذى كان يلح عليه. يقول جوتييه أنه تماسك رغم شعوره بأن كتفه يكاد ينخلع من جسده، أخذ يردد بينه وبين نفسه : «يبدو أننى سددت دينى».

كانت رحلة «جوتييه) تضم من رجال الأدب، والفن ، والصحافة بعض نجوم ذلك الزمان: شارل بلانك. لويزه كوليه. بيرشيرل والفنان المعروف العاشق للشرق أيضاً أوجين فرومنتان .. وغيرهم.

وتعلق الكاتبة لويزه على حادث جوتييه فتقول:

– يبدو ان جوتييه نتيجة لوهمه ظل فى غرفته بالسفينة بكامل ملابسه . وعندما أراد النوم، هم بتغييرها بعد أن تجمعت الخيالات فى رأسه . حينذاك سمعته ينادى ويئن مستغيثاً بصوت خفيض . اسرعت اليه وساعدته على خلع سترته، وعاونته حتى تمكن من الوقوف، وأرسلنا

فى استدعاء الدكتور روكا. كان جوتييه شجاعاً فبمجرد أن أعاد له الطبيب العظمة المكسورة إلى مكانها ، وعلق ذراعه فى عنقه، حتى صعد معنا إلى سطح السفينة رغم الضباب الكثيف ورداءة الطقس.

وتضيف الكاتبة المعجبة بجوتييه:

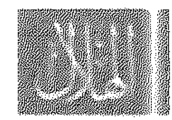
- لقد ضاعف الشحوب الرخامى فى اليوم الثانى من صفاء وجهه . كان يثير دهشتنا مايبدو على جبهته من صلابة. كان شعره الطويل الذى مشطه له أحد الأصدقاء يحيط بجبته البراقة، ونظراته تبدو أكثر نضارة عنها بالأمس، وكانت وجناته المنتفخة المعبرة عن صفاء ملامح وجهه تبدو مشدودة من كتمانه الألم الشديد، وعندما انتشر نور الصباح على رأس الشاعر، أعاد اليه وسامته الأصلية.

قدر لـ (جوتييه) أن يظل حبيس ذراعه، فلم يحقق أحلاما روادته للتأمل القريب، والانتقال الكثير، والمقارنة المتأنية. اكتفى بالنظرة البعيدة - رغم ضعف بصره - والحركة القليلة ، والمقارنة الفلسفية. وقبل نصيبه ، ولكنه شعر بالأسف لأنه لم يحقق ما حققه من تأملات وكتابات حول أسبانيا وإيطاليا، واستنبول (القسطنطينية فى كتابات الغرب)، أو مشارف الشرق. ارسل إلى جريدته خمس أو ست مقالات نشرت بين فبراير ومايو عام ١٨٧٠، واعيد طبعها بعد ذلك فى كتابه (الشرق).

تأملات (جوتييه) ستكتفى برحلة القطار، وسطح فندق شبرد بالقاهرة. ولكنها رغم محدوديتها فإن لها عمقها وطرافتها وجدتها. كانت أول عين فنان تسجل على شريط الذاكرة رحلة شرقية من نافذة قطار،.فأول خط حديدى سار بين الاسكندرية والقاهرة كان قد انتظم أيام افتتاح قناة السويس. ومن نافذة هذا القطار المتمهل تداخل الأخضر، والرمادى، أو النيلى ... انفصلا ، واتحدا فى عين الناقد التشكيلى جوتييه ... ومنهما خرج لنا بتأملات خاصة بمصر، وعامة بشرق الأحلام والإلهام.

رحلة القطار

ونبدأ الخط من أوله .. يقول (جوتييه) عن الاسكندرية عندما وصل اليها : «تبادل التحية والبدء فى نقل الحقائب ، لم تكن مهمة سهلة فى وسط الزحام. كان البحاره يقومون بسحب الحقائب من قاع السفينة ، بينما كان الحمالون يتنازعون لحملها مع تبادل اللعنات والسباب بشتى اللغات، ويصل تدافعهم على حافة السفينة أو السلم إلى حد يهدد بسقوطهم فى البحر، وعندما هدأ نسبياً موج الحقائق، تمكنت بمعونة صديق من النزول، لجأت فى المؤخرة إلى صندوق كبير وجلست عليه، ثم استأنفت المسير ووصلت إلى الشاطىء الرملى. احتوانى هذا الشاطىء بشمسه

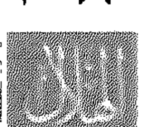



المحرقة كحمام بخار. وبدأت أفواج متنوعة تتعاقب أمام عينى ... اقباط، وفلاحين، وبرابره، ويونان، وملطيين يتخللهم زنوج، يشرف على تموجاتهم موظفى الخديو بملابسهم النبيلة، وطرابيشهم الرسمية. كانوا مكلفين باستقبال الضيوف القادمين من أوروبا وارشادهم إلى فنادقهم. وكانت المشكلة تبدو أمامى كيفية حفاظ المسافر على حقائبه، فقد كانت تمتد عشرين ذراعاً عند ظهور أول حقيبة. ويتنازع اثنان أو ثلاثة من العمالقة الأقوياء بدفعات عنيفة لحمل صندوق قبعة صغير أو حقيبة يد، ومن يحصل منهم على الحمل ينطلق به إلى المدينة دون سؤال عن وجه المسافر أو من يكون..!».

أخيرا وصل (جوتييه) إلى فندق انجلترا ، وفى اليوم الثانى بدأت رحلة القطار من الاسكندرية إلى القاهرة. كان بعض الكتاب السابقين على جوتييه قد كتبوا عن الرحلة من الاسكندرية إلى القاهرة على ظهر مركب صغير. وقرأ (جوتييه) كل ماكتب تقريبياً عن مصر والشرق ... قرأ (فلوبير)، و(شاتوبريان)، و(جيراردى نرفال)، و(مكسيم دى كامب) وغيرهم. ولكن كانت جلسة جوتييه فى مركبة الدرجة الأولى البيضاء، ذات الجلد الأخضر الفاخر، وتأملاته القطارية تجربة جديدة أثارت شغف القراء فى باريس . لقد تعمقت عينه نسيج اللوحة فصور بالكلمة قائلاً:

«المحبة التى يكنها الفلاح لأرضه، هذه الملحوظة يستطيع أن يدركها حتى المشاهد قليل الوعى، وحينما نراه يروح ويجيء على هذه الأرض المروية ندرك أنها من عنصره . بملابسه الزرقاء التى تشبه ثوب الكاهن، يبدو وكأنه يقود اندماج الماء بالأرض. هذان العنصران اللذان إذا تشربا بسخونة الشمس جعلا الحياة تزدهر. ولا يمكن أن ترى هذا التالف بين الأرض والإنسان فى مكان آخر. كما لا يمكن أن تلحظ أهمية الأرض بأكثر مما تبدو هنا . انها تبسط ألوانها على كل شىء، المنازل عليها لون الأرض، والفلاح بلونه البرونزى، والأشجار معفرة أيضاً بتراب الأرض. والمياه محملة بالطمى. الكل يخضع لهذا النظام المنسق. وقد قمت بتسجيل هذه الملاحظات اثناء دفعات القطار .. وكنت أحدث نفسى فأقول : لايحتاج الفنان لكى يصور هذه اللوحة الا لهذا اللون الذى يسمونه لون المومياء، مع قليل من الأبيض وزرقة السماء ... والحيوانات أيضاً تبدو وكأنها ترتدى نفس الرداء. الجمل اشقر اللون . الحمار رمادى، الجاموس ازرق غامق. الحمام رمادى. والطيور الشقراء كانت أيضاً تدخل فى اطار اللوحة العام. ومما يثير الانتباه هو عدم خلو لوحة الريف من حركة الآدميين، انهم يتحركون دائماً على

المصرية على حافة النيل - ليون بيلى ١٨٦٣



حافة القنوات، ويشغلون المساحة، ولا تلحظ هذا الازدحام فى القرى الفرنسية ... أنه شىء يأخذ المتأمل ويسليه .. تتحرك الجماعات فى ذهابها لأعمالها داخل اطار نافذة القطار .. تتجدد اللوحات دائماً فى تتابع واتساق والاطار ثابت. ان اللوحة تنطق دائماً بخطوط جانبية لما يمر بداخلها. الجمال، والابقار، والثيران تحرس زوجة الفلاح المترنحة على ظهر الحمار، تحمل وليدها ... قافله تشبه العائلة المقدسة».

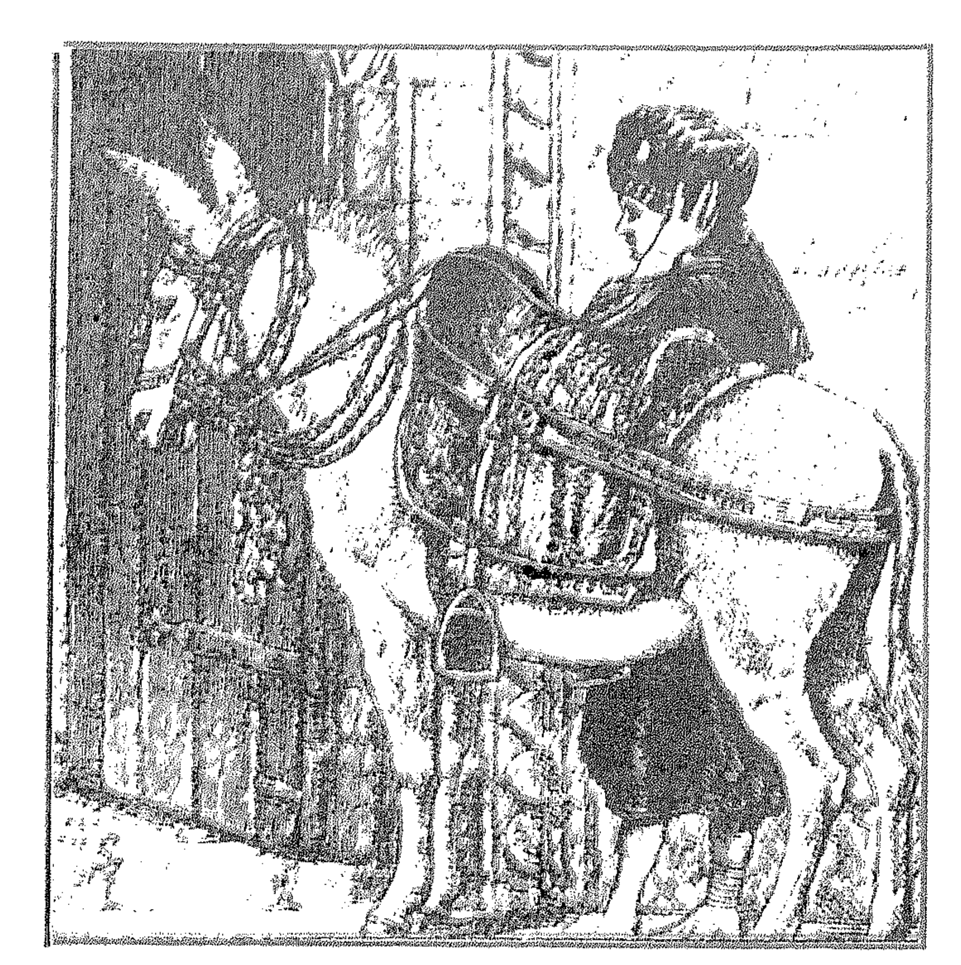
ثم يأتى دور النيل داخل نافذة القطار فيتناوله تناولا تشكيليا، ويضعه فى موضعه اللائق من اللوحة، فيقول «النيل يصب بغزارة على الجانبين منبسطا



فلوبير



شاتوبريان



حمار قاهرى - بريس دافين ١٨٣٠

عريقا، مثل سيل الطمى الأحمر اللون، يكاد يلتقط شكل الماء ... منتفخ مندفع لاتقهره الكثافة ... أنه نهر من التربة، وتحاول السماء ان تضع عليه لمسات انعكاس ضعيفة مبعثرة من زرقتها فوق لمعان أمواجه». نيل شهر اكتوبر ... نيل الفيضان يشهده جوتييه بعين الفنان، وعين الشاعر، وعين الأديب.. فتأتى لقطته بأبعاد متعددة وصياغه موجزة، وعمق فلسفى درامى، ويصل القاهرة فيقول «هذه هى القاهرة التى طالما تبادلت الحديث عنها مع فلوبير، ومكسيم دى كامب، وجيرار دى نرفال، والتى سجلوها بمقالاتهم الممتعة فأيقظوا فينا حب المعرفة».

تأملات سطح شبرد

نزل (جوتييه) فندق شبرد فى ميدان الأزبكية «لقد اسكنونى فى أحلامى». وهذا الميدان انذاك كان قلب حى الارستقراطية .. حديقة الفندق خططها بستانى فرنسى على طريقة حديقة (مانسو)، والفندق تديره تقاليد فرنسية. ولكن النكهة الداخلية والخارجية شرقية. العمارة الداخلية

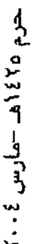
وحركة الناس فى الميدان . شجرتى خروب ضخمتين تظلان الميدان فيجلس فى فيئهما بعض البدو وجمالهم، وخادمة صغيرة شبه عارية تتقدم إلى الساقية تملأ جرتها . وألوان متعددة تروح وتجيء .. من تركى ، إلى أرمنى، إلى قبطى، إلى ابن بلد ، إلى خاتون... ومشربيات مذهبة موزعة فى مربع الميدان تؤكد لـ(جوتييه) أنه انتقل فعلا إلى عالم الشرق. ولكن أى خسارة، إنه مايزال يتأمل لوحته من بعيد . لوحة الميدان يكتبها من سطح الفندق، فقد حذره الطبيب من الدخول فى زحمة الناس.

وحينما وصل (جوتييه) بعينه إلى الخاتون (سيدة المجتمع آنذاك) وجدها على ظهر الحمار النشيط المزركش الشهير الذى سجلته فرشاه (مارمييه) و(جيروم) و(لوتى) ... ويتعاطف (جوتييه) مع الحمار أكثر من الخاتون، ومعه حق فإن أناقة الأول كانت بادية، بينما كانت الخاتون محجبة يتبعها خصى فخور!

ويكتب (جوتييه) عن صديقه وموضع اعجابه فيقول «يقال إنه لايوجد أقل من ثمانين ألف حمار فى القاهرة ... انى أقول حمير لا أرواح (كلمة حمار بالفرنسية ANE وكلمة روح AME وخشى الكاتب الخلط بينهما) فكم هى لطيفة هذه الحمير، انها فى غاية النشاط ، والمزاج المرح، وليست ذات سحنة حزينة كحميرنا المغلوبة على أمرها، الباكية، الشاكية من سوء التغذية وكثرة الضرب والاحتقار. وربما كانت حمير الشرق تعلم أن الفيلسوف الاغريقى (هوميروس) كان قد شبهه الملك (اجاكس) بالحمار . وهو تشبيه لايحمل معنى التحقير الا فى الغرب . وربما علمت أيضاً حمير الشرق ان أحد أجدادها قد حمل السيدة العذراء وطفلها عيسى من فلسطين إلى شجرة الجميز بالمطرية.

وتدور عدسة (جوتييه) من فوق السطح، وتسقط على القراداتى، وتنتقل إلى ساحر الثعبان فى لحظة انتفاخ رقبة الحية وهى تتلوى منتصبة فى بطء، وتنظر حولها فى غضب ... يتأمل (جوتييه)، ثم يعود للتراث، ويستنتج «الحية بقوامها، وانتفاخ صدغيها هى الجعران المقدس، الذى يظهر كثيراً فى اطار المعابد، وفوق أبوابها الضخمة، وأعلى هامات الآلهة والفراعنة . أنه انطباع فريد أن يرى الإنسان الزخارف حيه تتحرك .. وكنا نظنها فى الماضى رموزا هيروغليفية».

لم يكن (جوتييه) متفلسفا، أو مصورا، أو ناقدا فقط فى شريطه الأدبى القصير، ولكنه كان أيضاً صاحب حس واقعى، لاينسى فى المدينة، أو فوق سطح الفندق



ما انطبع فى ذاكرته عن الريف، أو من نافذة القطار . المرأة الريفية ذات الثوب الأزرق منطلقة فى همة للبحث عن الرزق، لاتعبأ بما يحدثه الريح من تموجات على ثوبها المشوق «كالراية المتموجة» بعضهن ممسكات على راحة اليد المعكوسة اناء مستطيل كالابريق. والآخريات ثبتن الجرار الفخارية أو النحاسية الصفراء على الرؤوس ، لا يشغلهن هم اليوم عن حمل صغير على الكتف، وربما سحب طفل ثان باليد الأخرى. أما نساء المدينة الناعمات المحتشمات داخل الحجاب الحزين المصنوع من نسيج أسود لامع يعلن بوميضه عن قدوم يستوجب من صاحب الذوق السليم، أو الهدف الخبيث الالتفات، يحدث الوشاح الطويل الأبيض خطا فى وسطه يمتد من الأرض وينتهى عند الفم والأنف، ويتيح للعين السوداء الواسعة المكحولة فرصة الظهور فى ومضات قلقه تنم عن حركة داخلية ذات مغزى . هؤلاء النسوة يقول عنهن جوتييه:

«أحياناً كن يرفعن اذرعهن ويهززنها برقة تكشف عن اساور ذهبية وفضية، وكانت هذه الحركة ترفع اطراف ارديتهن فتلتقط عيوننا اطراف سراويلهن المصنوعة من الاطلس الحريرى الأصفر ... واسعة كالفساتين، أما القميص الضيق فمن المخمل المبطن حتى يقرب النهدين تحت قميص شفاف من قماش متماوج».

ولكن المدينة لاتحوى فقط الناعمات. انها ككل المدن تحوى المتناقضات ... شقاء أو استرخاء . يكتب (جوتييه) فى آخر مقاله عن القاهرة تحت عنوان (مايرى من فندق شبرد) عن سكان المدينة ... السقائين وعذابهم تحت ثقل القرب . الخدم فى تناقض مظهرهم مع مهمتهم... فى ملبسهم المزركش، وخصورهم المحبوسة، وصدرياتهم المطرزة بالذهب، واكمامهم المسترسلة إلى الكتف. فى مهمتهم الشاقة التى تقتضى الجرى وراء العربة الانجليزية ، أو النمساوية الطابع التى يركبها اسيادهم الباشوات، يدفعون المارة بعيداً عن انفاس السيد المترفع.

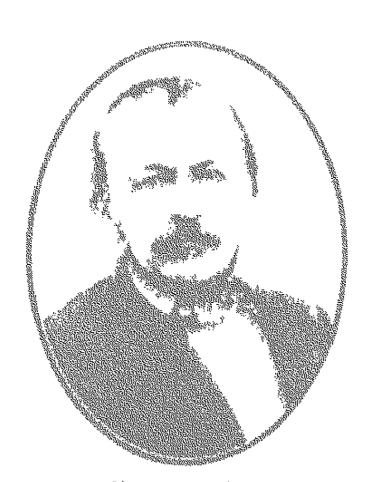
ويكتب عن التناقص بين التركى المطربش، أو المتفرنج بالريدنجوت، وبين البدوى بمظهره الخشن ومهابته بملابسه الفضفاضة من الصوف. أو بين الارناؤطى بشاربه المفتول، وزخارفه ذات اللون الأحمر، وخنجره المثبت فى الخصر، وبين النوبى بأذرعه العارية القوية. هذه اللقطة صورها كثيرون قبل (جوتييه) وبعده، وعبرت عن التناقض فى التركيبة الاجتماعية آنذاك، والتى صدرت عن تناقض الوضع السياسى والاقتصادى.

ولكن لـ(جوتييه) لقطة ينفرد بها على

شـريطه ... أنه يتـرك حـشـد الآدمـيين، ويدخل حـشـد الحـيوانات، وتسجليه لها يأخذ ابعـادا فلسـفيـة ، ودينيـة لحضـارة الشرق. ولا تتعجل فى الحكم على العبارة ان قلقت منهـا ، أو الرجل ان قلقت منه. يرى (جـوتييه) الجمل يمر أمامـه بظهـره الأحدب، وسيقانه المفككة، وخفيه المدكوكين فى الأرض، وخصره النحيل بخصلات من صـوف كـثيف، ورقبتـه الطويلة، وشـفتـه المتدلية، وعينه الراضـيـة، فـيتـذكـر بداية العـالم، وأيام نزول الكتب المقـدسـة ، والأنبـيـاء الأوائل، ودور الصـحـراء التى أخـرجت الجـمل الصـامت، والدفـقـات الروحية، هذه الصحراء تبدو هادئة بدائية فى مظهرها، ولكنها ثورية فى جوهرها ثم ينتقل إلى الثور الأسود بوبرته البيـضـاء، وعـيـونه المتـحـدية، وتعـادله مع البـقـرة الهـادئة، وقـرونهـا التى تزين رأسـهـا دون هدف عـدوانى .. هذا التـعـادل هو مـزاج شرقى أيضاً.

هذه المملكة التى قدر لها أن تقوم على خـدمـة الانسـان ، يعـتنى بهـا الفنان (جـيروم) أيضـاً فى كـتـابه (الحـصـاد فى مـصـر) وكـتب عنهـا قـصـيـدة نحـتـيـة الأوصاف.

جوتييه فى مصر .. يأمل أن يستكمل رحلة الشـرق ، ولكنه يتـذكـر سـوء حظه، واقـتـصـار رؤيتـه على الاسكندرية، وعبـور الدلتـا، وتأمل الأرض، والنهـر ، والفـلاح،


جيرار دى نرفال

والقرى الواسعة الهادئة بألحانها البسيطة ثم لقطات سـريعـة لمظاهر الحـيـاة على الشريط الأخضر.

فى القـاهرة يسـتـرجع أسـفـه ... أين أحلامه بمشاهدة آثار مصر القديمة، وآثار مصر العربية؟

ان اقصى ماستطاع تسجيله هو رؤية الأهرامـات من بعـيـد وسط الغـيـوم اثناء رحلة القطار، وقباب المساجد ومآذنها من على سطح الفندق . وظل يحلم بالشـرق وهو فـى قلب الشـرق، وتجـددت حـسـرته عندمـا قـرر زمـلاءه السـفر إلى الصـعـيد.، فـيـقـول فـى ليلة رحـيلهم «اننى سـأتركـهم يسـتـكملون لى عـالـم الأحـلام، جـيـروم ، وفرومنتان، وتورنوموين، وبيرشير، وبيرتولو، وشيفينير، وايزامبيرت. لقد رحلوا جميعاً الليلة على مـركب بخـارى سـيـصـعـد بهم النيل. وكـان بإمكانى مشـاركـتهم الرحلة، ولكن مـا الفـائدة، فليس فى امكانى ركوب الحـمـيـر، أو الخـيـل، والجـمـال فـى الذهاب



استوحى الفنانون مشهد « رحلة العائلة المقدسة » فى لوحاتهم عن مصر فى القرن التاسع عشر

لمشاهدة الآثار التى تبعد أحياناً عن النهر أكثر من فرسخ. وكان من الحكمة البقاء حتى تلتئم عظامى. وبقيت فى فندق شبرد، وحاولت الا أحرم نفسى من بعض الزيارات الخفيفة. ذهبت بالأمس إلى بولاق ميناء القاهرة النهرى، ثم القصر المعد لاستقبال الأمبراطورة أوجينى التى ستحضر اليوم، أنه قصر فخم تختلف الاراء فى ذوقه، ولكنه بالتأكيد تكلف نفقات مفرطة لحد الجنون».

كان هذا سيناريو (جوتييه) الناقص عن الشرق، ولو قدر له استكماله لجاء أكثر حيوية، وأعمق أثرا مما كتبه السابقون عليه خاصة فلوبير، وجيرار دى نرفال، ومكسيم دى كامب. وهم الثلاثة المطاردون لخيال (جوتييه) بما كتبوه عن الشرق. وسبب أسفه فيما كتبه من لقطات سريعة ■



كتاب
تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة

البيرونى
أبو الريحان محمد بن أحمد

بقلم
محمد بركة

يعجب القارىء لسير علماء العرب عندما يطالع سيرة وترجمة العلامة محمد بن أحمد، الملقب بالبيرونى والمكنى بأبى الريحان، ومثار هذا العجب ليس من الكم الهائل من المؤلفات التى أنجزها البيرونى، وإنما من الكيف الذى اجتمعت به كل هذه العلوم فى جوف رجل واحد.

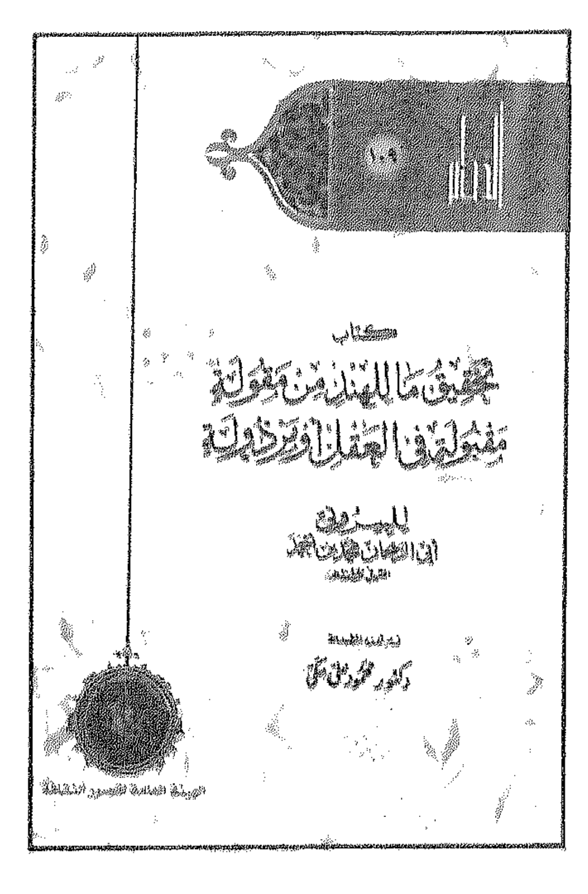
وإذا كانت الموسوعية صفة ملازمة لعلماء العرب فى عصر البيرونى، فإن اعتماده على التجريب يجعله فى طليعة من ألفوا فى العلوم التطبيقية كالفلك والصيدلة والجغرافيا والميكانيكا.. وغير ذلك الكثير.

ويجىء كتاب البيرونى الذى نعرض له «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» كدرة التاج من بين أعماله، فقد اجتمع لهذا المؤلف سببان من أهم أسباب النجاح على الإطلاق ، وهما براعة المؤلف وجاذبية المؤلف، وكيف لا وقد عايش البيرونى منَ تحدث عنهم وتفاعل معهم.. وليس من سمع كمن رأى..

والبيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ) (٩٧٣-١٠٤٨م) واحد من أهم علماء العربية، ولد فى الشمال الشرقى لإقليم خوارزم فيما يعرف الآن بأوزبكستان، التى كانت جزءا من مملكة مترامية الأطراف هى مملكة فارس، ولقب بالبيرونى - كما يقول ياقوت الحموى فى معجم الأدباء - نسبة لكلمة «البرانى» الفارسية والتى تعنى المغترب، وهذا لاغترابه عن بلده معظم حياته.

عندما فتح محمود الغزنوى خوارزم أخذ معه البيرونى إلى مقر ملكه فى غزنة (أفغانستان حاليا) سنة ١٠١٨م - ٤٠٨هـ ، وكان يرافقه فى حملاته العسكرية التى انتهى فيها إلى فتح الهند، ومن ثم عندما أتم البيرونى مؤلفه هذا (تحقيق ما للهند...) رفعه إلى محمود الغزنوى ، الذى كان يرعى البيرونى ويمنحه الكثير من المال والحرية.

والحقيقة أن الكتب لاتذكر الكثير عن أخبار نشأة البيرونى، ولا من تلقى العلم على أيديهم، غير أن كل ما نعرفه هو شغفه البالغ بالعلم والمعرفة وتبحره فى علوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والفيزياء ، إلى جانب اتقانه للغات كثيرة منها اليونانية والفارسية والسنسكريتية . ورغم ثقافته الموسوعية فقد ركز جهده الأساسى فى العلوم

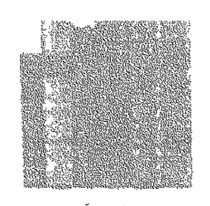


الطبيعية من رياضيات وفلك، كما اشتهر فى الثقافة العربية باهتمامه بالجغرافيا والفلك وعلم الأنواء الجوية .

وعلى الرغم من كثرة مؤلفات البيرونى، والتى يصل عددها فى بعض الروايات إلى مائة وعشرين مؤلفا، فقد ضاع معظم هذا الإنتاج ، ولم يبق منه إلا ما يشهد ويدلل على مكانة الرجل ورفعة شأنه من أمثال:

* «الآثار الباقية عن القرون الخالية» .. وهو خلاصة للتقاويم الفلكية والشعبية المختلفة ، ويقدم وصفا لجميع التوقيتات والأعياد المعمول بها عند مختلف الشعوب.

* «تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن».. وهو كتاب فى الجغرافيا والرياضيات.



* «القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم» .. وهو موسوعة موجزة فى علم الفلك وحساب التوقيتات، وحساب المثلثات والرياضيات والجغرافيا .

* «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» .. وهو يتناول الكثير من المصطلحات الهندسية والفلكية ووصفا للأجهزة الفلكية.

* «الجماهر فى معرفة الجواهر».. وهو مؤلف مهم فى الجيولوجيا ، يبحث فى التعدين والأحجار الكريمة بصفة خاصة.

* «الصيدنة فى الطب» .. وهو كتاب فى علم الدواء ، أورد فيه أسماء العقاقير وتأثيراتها مستعينا بأحد الأطباء.

* «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» .. وهو موضوع هذا العرض :

حول الكتاب

يتوزع كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة.. » على ثمانين بابا، كل باب يشتمل على عدة مباحث، ويقع حسب طبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد فى ٥٤٨ صفحة بخلاف الفهارس.

يذكر البيرونى فى مفتتح كتابه أسباب تأليفه له، وهو أنه كان استجابة لما طلبه إليه أبو سهل الإيرانشهرى من وضع كتاب يصحح فيه أخطاءه الناتجة عن نقله لروايات العوام. أى أن الكتاب انتقائي نقدى ، يميز المنقول عن الهند من مقبول أو مرفوض الكلام حين عرضه على العقل، وأضاف البيرونى ما رآه عند اليونانيين فى نفس الباب.

بدأ البيرونى فى سرد أحوال الهند، موضحا سبب عدم معرفة العرب المسلمين بأمور هذه البلاد، وأن هذا راجع إلى اختلاف اللغة لفظا ودلالة ، وتباين المعتقد الدينى.

وكان أول ما حظى باهتمام البيرونى لدى الهنود هو عقيدتهم وتصورهم للذات الإلهية ، وهو يميز بين مستويين من الاعتقاد لديهم؛ اعتقاد الخاصة وهم يؤمنون بالله الواحد الأزلى من غير ابتداء أو انتهاء ، مدبر فى ملكوته. وهو تصور يتفق مع العقيدة الإسلامية. والمستوى الآخر من الاعتقاد وهو مستوى العامة الذين يدينون بالتجسيم وعدم فناء الروح وحلولها فى عدد من الأحياء ، وهو ما يعرف بعقيدة التناسخ . ويقارن البيرونى بين عقيدة الهنود وعقائد اليونانيين المؤمنين بتعدد الآلهة ، ويذهب إلى مقارنات أخرى مع ما يدين به العبرانيون مستشهدا بما ورد فى توراتهم ، وبعقيدة «مانى» المنتشرة بين الفرس، وهو فى هذه المقارنات يستخدم مصطلحات الهنود بألفاظها مع ترجمتها إلى العربية ، ويفعل نفس الشىء فيما يتعلق بالمنقول عن اليونانية .

الفلسفة الخلقية للهنود

تحتل الفلسفة الخلقية للهنود مساحة كبيرة فى كتاب البيرونى ، وهى مرتبطة بالمعرفة ، ففى عقيدتهم أن الخلاص بالعلم لايكون إلا بالتغلب على الشهوات والغضب، والالتزام بالسيرة الفاضلة والدين الذى لايخرج عن مجموعة أصول مثل الطهارة وملازمة الصوم والتقشف ، والبعد عن الكذب والسرقة والزنا.

والتقشف عند الهنود هو أخذ الإنسان قدر حاجته، وترك ما عدا ذلك، ثم يضيفون إلى ذلك ترك اللحم والامتناع عن قتل الحيوان.

وفى كلام البيرونى عن المجتمع الهندى يفصل القول عن ظاهرة من أبرز ما يتميز به، وهى نظام الطبقات ، فيقول إن السياسة والدين اجتمعا على تصنيف الناس فى طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والاختلاط، إذ يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة ، ولايرخصون لأحد فى تجاوز رتبته ، ويعاقبون من لم يكتف بطبقته ، وينبه البيرونى إلى أن الهنود أورثوا الفرس نظامهم هذا.

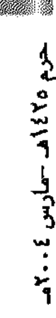
ويفرد البيرونى فصلا حول بداية عبادة الأصنام عند عدد من الشعوب القديمة كالهنود والرومان، كذلك تعرض لكتاب الهنود المقدس المعروف باسم «بيذ» ويقول إن معناه «العلم بما ليس بمعلوم»، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى فى عقيدة البراهمة ولا يعلم تفسيره، ويتلوه كهنة الهندوس «البراهمة» تلاوة من غير فهم لتفسيره . ويتضمن «بيذ» الأوامر والنواهى والثواب والعقاب، ومعظمه تسابيح وتراتيل ، وهم لايبيحون كتابته ، وإنما هو مقروء بألحان يعجز القلم عن كتابتها.

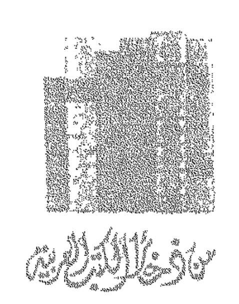
أطرف فصول الكتاب

ومن أطرف فصول الكتاب الفصل الذى يتناول كتب الهنود فى النحو والشعر، وفيه يقول البيرونى : «إن نحوهم هو الذى يصحح به الكلام ويؤدى إلى البلاغة فى الكتابة والفصاحة فى الخطاب، وكان سبب وضع النحو أن أحد ملوكهم قال كلمة لإحدى جواريه فهمت منها شيئا وهو يقصد شيئا آخر لتشابه نطق اللفظين، فغضب الملك، وذهب إلى أحد القديسين فوضع له قوانين يسيرة هى مبادىء علم النحو ، وتلا النحو كتاب «جند» وهو فى وزن الشعر، المقابل لعلم العروض العربى ، وهم لايستغنون عنه لأن كتبهم منظومة فى مجملها ، حتى تسهل على التلقى والمدارسة » ، وهو ما ينتقده البيرونى ويأخذه عليهم .

وينتقل البيرونى إلى الحديث عن كتب الهنود فى سائر العلوم ، مثل علم النجوم الذى يعول الهند عليه لتعلقه بأمور ملتهم، كما يتناول مؤلفاتهم فى الطب، فالطب عندهم مرتبط بالنجوم، ومن أهم كتبهم الطبية كتاب «برجايت» الذى يزعمون أن مؤلفه هو «براهم».

الآداب الهندية





من ذخائر الكتب العربية

وللآداب الهندية مكان فى بحث البيرونى ، ويشير من ضمن ما أشار إلى كتاب «بنج تنتر» المعروف لدينا باسم «كلية ودمنة» ، فيقول إنه تردد بين الهندية والفارسية والعربية على ألسنة قوم لايؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب «برزويه» قاصدا تشكيك ضعاف الاعتقاد فى الدين وجرهم إلى مذهب «المانوية» ، ويصرح البيرونى بأنه كان يود ترجمة هذا الكتاب من جديد.

كذلك يستعرض البيرونى فى كتابه وحدات الموازين والمكاييل عند الهنود، وأنواع وأشكال خطوطهم وحسابهم، ويذكر المواد التى كانوا يكتبون عليها عارضا مقابلها فى عالم الإسلام مثل الجلود والقراطيس وورق البردى ، كما يستعرض طرفا من عاداتهم وأساليبهم من عدم حلق الشعر وتضفير اللحى، وقيام النساء بأمور الحرث والزرع وخلود الرجال إلى الراحة، ولبس الذكور ملابس النساء ، واتخاذهم الأقراط والأساور.

الزواج عند الهنود

كما يسجل البيرونى العادات الهندية الخاصة فى الزواج، ومنها أنهم يتزوجون فى سن صغيرة، ويكون الزواج بعقد بين الأبوين لأبنائهم بغير مهر ، وإنما يؤدى الزوج صلة للمرأة بحسب قدرته، وهو مال يجوز ارتجاعه إلا أن تهبه المرأة عن طيب خاطر، ولايفرق بين الزوجين إلا الموت، إذ لاطلاق عندهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربع محرم، أما المرأة المتوفى عنها زوجها فليس لها أن تتزوج ، وهى بين أمرين، إما أن تظل أرملة ما بقى من عمرها أو تحرق نفسها، ويجوز لكل رجل من أهل الطبقات أن يتزوج من طبقته أو فيما دونها، ولايحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ، وينسب الولد إلى طبقة الأم دون الأب.

المحظور والمباح

ويصف البيرونى المباح والمحظور لدى الهنود فى المأكل والمشرب ، فيقول إن ذبح الحيوان محظور عندهم على الإطلاق ، ولكن لأن الناس يشتهون اللحم بطبيعتهم، فقد بقى الحظر بالنسبة للبراهمة رجال الدين فقط، وبقى العامة يأكلونه فيما عدا لحم البقر ، فهم لايأكلونه ، وكذلك الخيل والحمير والإبل والأفيال.

وكان لأساطير الهنود وتقاويمهم الفلكية ، وأعيادهم، وعلم التنجيم وجداوله مكان وافر من الكتاب ، على الرغم من عدم دقة هذه الجداول فى نظر البيرونى ، غير أن منطلقه كان تحقيق ما لهؤلاء القوم من مقولة .. مقبولة فى العقل أو مرذولة. ■

لا أبـا لك ! (١-٣)



بقلم : د.الطاهر أحمد مكى

كلمة أب من أقدم الألفاظ العربية، توجد على الصورة نفسها تقريبا فى كل اللغات السامية: العربية الجنوبية القديمة والحبشية والعبرية والآرامية والسريانية والأكادية .

تطلق الكلمة على من كان سببا مباشرا فى إيجاد الشئ وظهوره ماديا، فيقال للرجل الذى كان سببا فى إنجاب الابن أب، أو معنويا فيقال أرسطو أبو المنطق، والخليل بن أحمد أبو النحو والعروض، وأينشتاين أبو القنبلة الذرية .

وعلى صاحب الشئ الذى اشتهر به فينسب إليه .

ويطلق على الأب والأم تغليبا، وفى القرآن : «كما أخرج أبويكم من الجنة».

وعلى العم تغليبا، وفى القرآن، حكاية عن بنى يعقوب : «قالوا نعبد إلهك، وإله آبائك : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق» وكان إسماعيل عم يعقوب .

وفى الشعر يخاطب أبو فراس الحمدانى بنى عمه فيقول :

بنى أبى ! فرق ما بينكم

واش على الشحناء مطبوع

ويضاف الأب إلى غيره فيصبح كنية، مثل : أبو ذر الغفارى، وأبو سفيان. وتجئ هذه الكنية فى أسماء الأمكنة أيضا، فيقال : أبو سنبل، وأبو قير، وحتى فى الطيور، فهناك أبو قردان .

وتأتى لتأكيد المعنى، تقول : بأبى أنت !، أى فداؤك أبى، يقول أبو تمام :

بأبى فتى ودعته   تاهت بصحبته الرفاق

ويقال فى المدح والتعجب: لله أبوك! وتجمع أب على آباء، وفى القرآن :«الله ربكم ورب آبائكم الأولين».

وعندما تثنى ترجع الكلمة إلى أصلها البعيد، وهو : أبو، فيقال أبوان، وكانت الأشورية البابلية الوحيدة التى احتفظت فيها الكلمة بالواو دائما، على حين سقطت هذه الواو فى بقية اللغات السامية الأخرى عبر الزمن .

وأب ، والأسماء الشبيهة بها، وهى على سبيل الحصر: أخ وحم وهن وذو بمعنى صاحب، لها فى العربية إعراب خاص بها، شرط أن تضاف لغيرياء المتكلم، تقول : هذا أبوك قادم وقابلت أباك فى الطريق ، ومررت بأبيك يعمل.

ومن العرب من يلزمها الألف فى كل الحالات : الرفع والنصب والجر .

من كلمة أب سكت جملة تتردد كثيرا فى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى وهى : لا أبالك !، وقد شغل جمّاع الشعر وشراحه الأوائل بإعراب هذه الجملة ، و لكنهم مروا بمعناها سراعا، أو ألمحوا إليه على نحو لا يشفى غليلا. والتعليل عندى أن الجملة، وهى ضاربة فى القدم، وصلتهم مجردة من السياق الذى قيلت فيه لأول مرة، فجهلوا معناها الدقيق، وأعرض بعضهم عن تفسيرها، وألمح إلى المعنى ظننا، مستنبطا من سياق الجملة التى وردت فيها . ■

للحديث بقية

نهاية قصة الحب

بقلم
محفوظ عبد الرحمن



قالت لى السيدة عطيات – أو عطية كما كان يناديها زوجها أحمد رامى – بدون غضب: لم يكن رامى يحب أم كلثوم كما قلت! وكان ذلك فى حفل أقامته إحدى الجهات احتفالا بمسلسل أم كلثوم، وقابلت فيه لأول مرة السيدة الفاضلة فضلا عن أولادها: الدكتور محمد والأستاذ توحيد والسيدة إلهام.

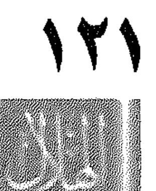
وفى لحظة فكرت فى موقف هذه السيدة، والناس يتحدثون عن حب زوجها لامرأة أخرى. وأسعفتنى القريحة كما يقولون فقلت معتذرا: إنها ضرورات التأليف كما تعرفين! لكنها بعد هذا الحديث بقليل قالت لى: كان رامى يحب أم كلثوم ومن كان لا يحبها ؟!

بين رامى وأم كلثوم

ولاشك أنها من أشهر قصص الحب فى مصر فى القرن العشرين، وقد شبهها أحد النقاد «بروميو وجوليت»! وشهرتها أتت من شهرة صاحبيها ، فأم كلثوم هى أشهر امراة عربية منذ «شجرة الدر» حتى الآن، أو هذا ما أظنه. وهى المرأة التى بلغت فى فن الغناء شأوا لم يسابقها فيه مغنية أخرى فى تاريخ العرب، وهى مالكة أفئدة الناس خمسين عاما ونيفا. وأحمد رامى البطل الثانى للقصة هو واحد من شعراء مصر الكبار، وتمتع رغم تعففه بشهرة عريضة، وبرغم تحوله إلى العامية بنسبة كبيرة، إلا أنه ظل شاعرا متميزا فضلا عن نشاطه الأدبى والفنى العام فلقد كتب قصصا وحوارا للافلام السينمائية.

فضلا عن أن شهرة هذه العلاقة أتت من حرج إعلانها فى مجتمع محافظ خاصة وأنها بدأت عام ١٩٢٣ وانها كانت تتجدد مع كل أغنية يكتبها لها.

وكان أول لقاء لهما فى عام ١٩٢٣ وبعد أن عاد أحمد رامى من بعثته فى فرنسا لدراسة فهرسة الكتب، وكان يعمل فى دار الكتب.






وكان قد جاوز الثلاثين ومرت عليه بالطبع أكثر من قصة حب، كادت إحداها تصل للزواج، لكن الزواج لم يتم. ولاشك أن فترة فرنسا فعلت فى نفسه مثلما فعلت فى توفيق الحكيم، لكن المرأة كانت امرأة عامة، ولم تكن له قصة معينة تذكر. وقصائد رامى فى باريس لا تتوقف عن المرأة بل يلفت نظرنا حنينه إلى أبيه الذى فقده صغيرا.

مع العودة إلى مصر لاشك ان الشاعر الشاب كان مهيأ لقصة حب.

أما أم كلثوم فلقد كانت أصغر منه إذ كانت فى الخامسة والعشرين على إحدى الروايات. ولاشك أنها كانت أقل استعدادا لقصة الحب فلقد شغلها ولاشك أنها تتحول من مطربة ريفية تائهة بين القرى والدساكر إلى مطربة مهمة فى العاصمة تسعى إلى منافسة سلطانة الطرب منيرة المهدية وفتحية أحمد وتوحيدة.. وإن كان هذا الطموح لا يلغى مشاعرها.



وكان بين رامى وأم كلثوم أغنية «الصب تفضحه عيونه» التى لحنها الشيخ أبو العلا محمد. يقال إن الشيخ أبو العلا أخذ القصيدة من رامى قبل سفره إلى باريس ولحنها وغناها. وعندما أتت أم كلثوم إلى القاهرة وقد تبناها الشيخ أبو العلا، وكانت معجبة به أشد الإعجاب، طلبت منه أن تغنى الأغنية. وقبل ذلك مرحبا.

ولكن أم كلثوم «كتبت» فى عام ١٩٤٨ أن القصيدة أطلعها عليها الشيخ أبو العلا فأعجبت «بخفة وزنها، ورقة ألفاظها ومعانيها . فطلبت إليه أن يلحنها . وأخذت أغنيها فى الحفلات العامة والخاصة، وكلما رأيت شدة الإقبال على سماعها، ازداد إعجابى بها وبنظمها الموفق الجيد»

.

ويداعبنا الشك فى رواية أم كلثوم فلا نظن أنها فى ذلك الوقت المبكر - وكانت لاتزال تلبس ملابس الرجال - قادرة على أن تطلب من الشيخ أبو العلا أن يلحن لها رغم إعجابه الشديد بها ولقد «كتبت» أم كلثوم هذه الشهادة بعد وفاة الطرف الآخر فيها. أما أحمد رامى فما كان يكذبها فى شىء كهذا. فضلا عن أنه كان غائبا عند تلحين القصيدة وغنائها لأول مرة.

ولأن أحمد رامى كان محبا للغناء وأهله فلقد سمع بمجرد عودته عن فتاة ريفية اسمها أم كلثوم تحصد إعجاب الناس بهمة عالية. وأنها غنت له «الصب تفضحه عيونه» وذهب رامى ليسمعها فى الأزبكية.

وتكاد أم كلثوم فى شهادتها تقول إنها تعرفت على رامى عندما حضر ليسمعها لأول مرة وعندما جلس فى الصف الأول متتبعا الغناء بعناية ملحوظة.

وقد يكون هذا صحيحا. اذ تقول الروايات الأخرى إن رامى صعد إلى

المسرح بعد الوصلة الأولى وهنأها وقال لها: «انا غريب وأريدك أن تغنى قصيدتى» فقالت له فورا: حاضر ياسى رامى!!

هل تعرفت عليه لأن هذه القصيدة هى القصيدة التى غنتها لشخص على قيد الحياة، أو لمعرفتها - أيضا - أنه غائب فى فرنسا،.وربما سمعت - وان لم يذكر أحد هذا - أنه قد عاد من بعثته. وفى كل الأحوال كانت تحيتها لرامى دون أن يعرفها بنفسه بصراحة دليلا على الذكاء وسرعة الخاطر.

وغنت ام كلثوم:

الصب تفضحه عيونه
وتنم عن وجد شجونه
إنا تكتمنا الهوي
والداء اقتله دفينه

ولابد أن رامى تأثر تأثرا كبيرا، فهو رجل يملك أحاسيس مشتعلة، والمطربة كانت تملك من الجاذبية ما يؤثر فى أى رجل. وأكبر دليل على تأثر رامى أن قصيدته التالية بدأت بـ «صوتك».

وكان اللقاء الأول لرامى وأم كلثوم فى آخر حفلاتها. وبعد ذلك سافرت إلى رأس البر حيث قضت شهور الصيف فى ضيافة أمين بك المهدى الذى كان عاشقا للموسيقى والغناء وكان قد تعرف هو وأسرته على أم كلثوم منذ وقت مبكر.

وعندما عادت أم كلثوم غنت فى «تياترو البسفور» وعندما ارتفع الستار رأته فى الصف الأول ، فغنت له قصيدته. وأثناء الاستراحة ذهب لتحيتها مع بعض أصدقائه الذين قالوا لها إنه يكتب قصيدة جديدة يقول فيها:

صوتك هاج الشجو فى سمعى
وأرسل المكنون فى أدمعى،

وأسمعها أبياتا أولى من القصيدة. وطلبت منه أن تغنيها، فرحب لكنه قال إنه لم يتمها بعد. تقول أم كلثوم فى شهادتها.

«ووعد بأن يزورنى بعد أيام فى منزلى بحى عابدين». ليقدمها لى بعد أن يتمها».

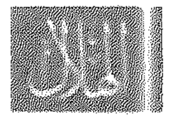
وهى صيغة لا نعرف منها إذا كان هو الذى اقترح زيارتها، أم أنها كانت هى التى دعته. ونميل إلى الثانية لحياء رامى.

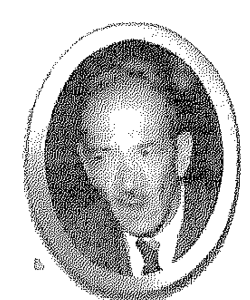
وبدأت قصة الحب. وكان ستارها تعليم وتثقيف أم كلثوم، فلقد كان رامى يأتى لها بكتاب أو أكثر فى يوم الاثنين وهو يوم إجازة دار الكتب. وفى الأسبوع الثانى يناقشا فيما قرأت.

رامى والتحول إلى العامية

وكان العاشق قد قدم تضحيته الكبرى عندما تحول للكتابة بالعامية وهو الذى كان مخلصا للعربية. وربما كان أحمد شوقى هو الذى شجعه عندما كتب بالعامية لمحمد عبدالوهاب،، لكن أحمد شوقى توقف عند بضع أغان. أما رامى فلقد تحول إلى العامية حتى لم يعد الناس يذكرون له إلا روائعه بها.

ولا نعرف هل تجاوبت أم كلثوم مع طلب رامى فبادلته حبا بحب أم أنها توقفت عند استثمار هذا الحب. ويبدو أن أم كلثوم توصلت إلى فكرة مؤداها أنه طالما رامى يحبها دون زواج سيبدع شعره الجميل. وأنها إذا تزوجت فلن يكون لديه دافع عاطفى لكتابة هذا الشعر. وهى فكرة كانت سائدة فى تلك الفترة وربما تكون موجودة حتى الآن. وقد لاحظت أن أم







كلثوم عندما تصل إلى فكرة تؤمن بها، ولا تغيرها.

وكانت من الأفكار التى تسيطر عليها مثلا حرصها على ألا يعرف أحد شيئا عن حياتها الخاصة، بل أحيانا عن عملها. إذ لم تكن تعلن اسم الأغنية التى ستغنيها إلا أمام الجمهور.

شهادة أم كلثوم حول رامي

وقصة الحب فى تلك الفترة أشد غموضا من أى وقت آخر. وإن كنا نتخيل أنها «معركة» بين شاعر يقدم أرقى الاحاسيس ولقد «كتبت» أم كلثوم عن رامى فى شهادتها أنه: مجموعة روحانية من الأحاسيس الملهمة والثورة العميقة المكبوت، والهدوء الرزين، مع ظرف نادر» وخيال محلق وخاطر سريع، وإخلاص لذات الإخلاص.

وانا لم اعرف احمد رامى عن قرب لكن ما قالته ام كلثوم هو ما قاله كل عارفيه فى سطور محددة .

ولم يقدم الشاعر أحاسيسه فقط. بل قدم أستاذيته التى صنعت فى النهاية مع أستاذية القصبجي، أعظم مطربة فى الشرق. ولكن يبدو أن فكرة العلاقة الروحية سيطرت على أم كلثوم.

سار أحمد رامى رحلته مع أم كلثوم فكتب أول أغانيه بالعامية:

خايف يكون حبك ليه
شفقة علي
وانت املي في الدنيا دي
ضي عينى

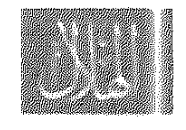
أم كلثوم ملحنة لأغاني رامي

وفى السنوات الأولى غنت له ١٤ أغنية فى عام واحد «١٩٢٦» وفى عام آخر غنت له خمس أغان منها اثنتان من تلحينها (١٩٢٨) ولقد لحنت ام كلثوم ثلاث أغان كلها من تأليف رامى. وفى عام آخر غنت له ١٧ أغنية «١٩٣١» وإذ عرفنا ان الأغنية تحتاج إلى نقاش فى كلماتها، وتحتاج إلى مراحل فى التلحين وإلى تجارب كثيرة حتى تخرج إلى الناس، فمعنى هذا أنهما كانا يقضيان معا وقتا طويلا، ثم كانت القارعة.

فلقد احتفل معهد الموسيقى العربية بأم كلثوم وكان قد احتفل من قبل بمحمد عبدالوهاب. وألقى أحمد رامى قصيدتين فى المناسبتين. ولكن سرى تعليق بأن القصيدة التى كتبها رامى فى أم كلثوم هى نفسها التى كتبها من قبل فى عبدالوهاب مع تغييرات طفيفة. ونشرت روز اليوسف كاريكاتيرا بهذا المعنى.

وبالطبع صدمت أم كلثوم صدمة كبيرة فلقد كانت تؤمن أن أحمد رامى هو المتعبد فى محرابها، فضلا عن أن المنافسة بينها وبين عبدالوهاب كانت قد اشتدت . فلا منافس أمامها غيره.

ويبدو أن أم كلثوم تجاوزت الحدود المعقولة فى غضبها من رامى، الأمر الذى جعله يقطع علاقته بها. وعندما سافرت فى



عام ١٩٣٥ إلى فلسطين لتقيم حفلات في القدس ويافا وحيفا أيام أن كانت عربية رفض أن يودعها. وحتى عندما عادت ودخلت المستشفى وأجرت عملية الزائدة الدودية التى أجراها لها الجراح الكبير الدكتور على إبراهيم وكانت آنئذ عملية خطيرة. لم يزرها إلا عندما سألت عنه وشكت أنه لم يزرها.

وعادت قصة الحب لكن بدستور جديد. لقد تزوج رامى من عطيات التى حذرها الجميع من أن رامى يحب أم كلثوم. فقالت ومن لا يحبها؟!.. لقد قبل كل منهما ألا يتجاوز هذا الحب حدوده ليتطور إلى الزواج.

رامى رقم واحد

ورغم أن أم كلثوم عرفت وغنت لشعراء آخرين مثل بيرم التونسى وعبدالفتاح مصطفى وطاهر أبو فاشا وعبد الوهاب محمد وغيرهم إلا أن أحمد رامى ظل رقم واحد فى فنها. وحسب الدراسة التى أجراها المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى كتب ٤٦,٧٪ من أغانيها. أى النصف تقريبا. والشاعر الذى يليه مباشرة هو بيرم التونسى كتب ١٢,٣٨٪ من أغانيها.

وكان أحمد رامى مستمعا مثابرا يجلس فى نفس المقعد، وكان يسمعها غالبا مغمض العينين. وحدث مرة أو مرتين أن تاخر فى الدخول إلى الصالة فأعادت ما غنت فهى تغنى للناس وله.

واستمرت علاقة الحب بين الوصل والهجر إلى أن تحولت الى صداقة عميقة. فلقد أدرك كل منهما أن ما كان بينه وبين الآخر أكبر من أى زواج او قصة حب.

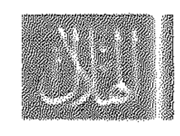
وفى نهاية ١٩٧٤ أو بداية ١٩٧٥ زارها فى فيلتها بالزمالك، وقضى معها وقتا طويلا يستعيدان ذكريات الماضى، وربما تحدث عن الأصدقاء الذين رحلوا فى رحلة الحياة. محمد القصبجى الذى بدأ معهما الرحلة والذى لحن لأم كلثوم اكثر من ٢٢٪ من أغانيها ولم ينافسه سوى زكريا أحمد ولم يسبقه سوى رياض السنباطى. وربما تحدثا عن غير القصبجى. ومن يدرى ربما استرجعا قصة حبهما، وأبديا الرضا أو عدم الرضا.

وعندما جاء وقت الرحيل رفضت أن تتركه وصحبته فى سيارتها إلى حدائق القبة لتقضي معه أطول فترة. وكأنه لقاء وداع، فلقد زاد المرض عليها بعد ذلك حتى جاءت النهاية فرحلت أم كلثوم فى ٣ فبراير ١٩٧٥. ورغم الحزن الذى ساد الجميع، إلا أن البعض التفتوا ليروا أحمد رامى رفيق رحلة العمر. وليحاولوا معرفة مدى ألمه

وقال رامى:

ما جال في خاطري أني سأرثيها
بعد الذي صغت من أشجي أغانيها
قد كنت أسمعها تشدو فتطربني
واليوم أسمعني أبكي وأبكيها

وقصص الحب تنتهى عادة أما قصة حب رامى وأم كلثوم فهى قصة باقية على الأقل بتلك الأغانى التى مازالت تسحرنا وتدفع الفرح إلى قلوبنا والدموع إلى عيوننا. ■



سيد درويش
فنان الشعب

بقلم

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي *

إن تاريخ الموسيقى العربية يتوقف طويلا أمام بصمات سيد درويش الخالدة في فن الموسيقى والطرب بمصر. فقد نجح فى تخليص الغناء العربى من التكرار الممل والبشارف التركية والطرب المخدر للنفوس، وتضمين الغناء بمضامين ذات دلالات شعبية ووطنية، كما استطاع أن يكون المجدد الأول فى الموسيقى العربية، والمؤسس الحقيقى للمسرح الغنائى المصرى.

لقد اختار القدر البيئة التى ينبغى أن تبدأ فيها نشأة سيد درويش، إنها البيئة الشعبية الخالصة الآهلة بالسكان والمهمومة بالبحث عن لقمة العيش وليس فى حياتها سوى التفكير فى هموم الوطن ومشاكله. تلك البيئة الوطنية هى حى «كوم الدكة» الشعبى القديم بالاسكندرية مسقط رأس سيد درويش ومسرح طفولته، والتى كانت صالحة لظهور عبقرية مصرية قادرة على تصوير الحياة الشعبية المصرية بكل معانى الكلمة وهى شخصية سيد درويش الذى كان كثير الانفعال بالحوادث التى تحمل بين خصائصها الوطنية الصارخة والتوجه الاجتماعى لذلك جاءت أغانيه معبرة صادقة أصيلة فى شعبيتها كما كان انتشارها بين الناس يتسم بالسرعة، خاصة وانه كان يلتقط ألحانه من أفواه عامة الشعب ثم يصيغ منها نغما أصيلا شجيا فيه سمة المصرية التى يبحث عنها علماء الفلكلور الشعبى. كما أن فيها الموسيقى الجميلة الجامعة بين الشرقية والغربية. لقد وفق سيد درويش في جعل الأغنية تعبيرا عن التطورات اليومية لحياة المجتمع، ونطقت ألحانه بمر الشكوى من استغلال الأجانب لموارد البلاد وثروتها، كما عزف بموسيقاه على وتيرة الغيرة الوطنية والإصلاح الاجتماعى والاقتصادى، وارتفع صوته بشكوى أصحاب الحرف والعمال الكادحين من وطأة العمل وما يلاقونه من عنت ومشقة وظروف قاسية فانفعل بآلامهم خاصة وأنه كان يتعايش معهم وينفعل بما يحدث لهم، وعندما يحس بأمواج الألحان تتذخر فى

★ أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة القاهرة فرع الفيوم

صدره كان لا يهنأ له العيش قبل تدوينها.

طريقة جمع سيد درويش لألحانه؟

لقد كان سيد درويش يمشى فى الشوارع ويستمع إلى هؤلاء الناس، ويلتقط طريقتهم من أفواههم. ماذا يقولون؟ وكيف يعيشون؟ وما هى حكاياتهم الحلوة والمرة، ثم يحوِّل كل ذلك إلى ألحان تجمع بين العبقرية والذوق. ومما يذكر أنه ما يكاد يسمع أحد باعة «الطرشى» يغنى لسلعته فى أحد شوارع شبرا حتى ينزل إليه ويتابعه متأثرا بنغماته الشعبية، وأنه كان يتنقل فى حى عابدين ليستمع فى حارة «السقايين» إلى نداء هذه الطائفة وهم يعلنون عن الماء الذى يحملونه فى قربهم. ومما يروى أنه كان ذات مرة يسير فى منطقة بحى بولاق فسمع بائعا صعيديا يقف إلى جوار جدار وهو ينادى على نوع من البلح بنداء طريف يُشكِّل نغما استرعى انتباهه فأوحى إليه ذلك بلحن جديد مبتكر على وزن النداء الذى سمعه من بائع البلح، وكان ذلك هو ميلاد اللحن المشهور «مليحة جوى الجلل الجناوى».

غناء سيد درويش للحرفيين والعمال

لقد غنى سيد درويش أغنيات لمعظم الحرفيين فى المجتمع المصرى، عكست همومهم وظلت تنتقل بين أفواه الناس مثل لحن «السقايين» الذى عبر فيه عن معاناة أفراد هذه الحرفة بعد أن تعرضت أرزاقهم للخطر نتيجة لاستغناء الناس عنهم بعد أن مدت شركة المياه مواسيرها إلى معظم أنحاء القاهرة هذا إلى جانب الألحان. التى تعبر عن معاناة أصحاب الحرف الأخرى مثل «الشيالين» و«المراكبية» و«الجزارين» و«الموظفين» و«الحمارين» و«العربجية» وألحان عن «الحشاشين» و«البرابرة» و«السودانيين» و«المغاربة» و«الصعايدة» وغيرهم فكانت أغانيه بمثابة سبيكة فنية تعكس هموم هؤلاء الناس، وكانت كل أغنية من أغانيه الشعبية تحمل فى تكوينها جوهر طبيعة الغرض منها وايقاعه لدرجة أننا نسمع فى أغنية الشادوف إيقاع ارتفاع الدلو بالماء، وجريان الماء فى الأرض الشراقى، ونسمع الفلاح وهو يُشرك الشادوف فى همومه وأحلامه، ونفس الأمر بالنسبة لأغنية المحراث وايقاع سنِّه حيث يغوص فى باطن الأرض زاحفًا ليفجر سطحه بمشاعر من التربة السوداء تتفتت كما يقول «خيرى شلبى» فى «صحبة العشاق» معرضة كل ذرة فيها لحمام الشمس وحضن الماء.

أغانى سيد درويش الاجتماعية

أما عن أغنيات سيد درويش التى تتعرض للسبوع والطهور والخطوبة والزفاف فقد عبرت عن مشاعر وأحاسيس ناطقة من فرط صدقها بأعذب الألحان والأنغام كما كانت كلماتها ذات تأثير قوى خاصة وأنها كانت من التراث الشعبى الذى نظمه له «بيرم التونسى»، ومن الأزجال والأدوار الشعبية التى لُحنت بمعانيها ولغتها ومظاهرها اليومية مما أدى إلى تقبل الجماهير لها بسرعة فائقة خاصة وأنها عبرت عن واقعهم واتفقت مع مناسبات حياتهم، فإذا أنجبت السيدة الحامل بنتا استشف سيد درويش من الروح الشعبية صورا مناسبة لذلك منها «لما قالوا دى بنيه.. قلت يا ليلة هنيه..

تكنس وتطبخ لى وتملا لى الميــه» وإذا أنجبت ولدا لحن لها «لما قالوا دا ولد .. انشــد قلبى وانســعــد«١»» وإذا خطبت الفتـاة لحّن لهـا «ست البنات يا فـوز يا مركبة مليانة لوز» وإذا جاءت ليلة الدخلة لحن لهــا أغنيـات فض البكارة «قــولوا لأبوها الدم بَلْ الفـرشــة.. قـولوا لأبوها يروح بقى يتـعـشى» وهكذا كـان سـيـد درويش مــعــبــرا عن طوائف الشــعب المصرى وطبقاته وآلامه وعاداته وتقاليده ومعاناته، فتجاوبت معه نفوس الجماهير التى وجدت فـيه أصـداءً لمشاعرها حـتى أطلق على أغـانيه «أغانى الشـعب» كمـا لقب بفنان الشـعب خـاصـة وأن أغـانيـه عبرت عن توجه اجتماعى مأخوذا من روح الشعب، ومعبرا عن آماله وآلامه فضمن الغناء بمضـامـين اجـتـمـاعيـة ذات دلالات عميقة جعلت من الغناء أداة تثقيف بجانب أنه أداة امتـاع وإلى جانب ذلك فقد تطرق سـيـد درويش فى أغـانيـه إلى مـوضـوع قضية المرأة والطاقات الانسانية المحبوسة فـيـهـا مواكبـا فى ذلك دعوة قـاسم أمـين وتحدث عن الصنايعية المظاليم، وعن حب الوطن، والفتنة الطائفية كما ارتبط بصلة قـوية مع رجال الحـركـة الوطنيـة فـهـاجم الاسـتـعـمـار الانجليـزى ودافع عن ثورة الشــعب فى عـام ١٩١٩ ولحن نشــيـدا اختارته مصر شعارا موسيقيا لها وفيما يلى نعرض لذلك.

سيد درويش والأغانى الوطنية

اهتزت مشـاعر سيد درويش بعد أن سخّـر الانجليـز آلاف العمـال المصـريين خـلال الحـرب العـالمـيـة الأولى فـأبدعت قريحته الأغنية الشعبية الشهيرة التى كان يرددها مجموعات العمال والفلاحين الذين أرغـمـوا على السـيـر فى ركـاب القـوات البـريطانيــة وازداد حنينهم لوطنهم، وشوقهم إليه فصاغ اللحن، وهذه الكلمات

بــلدي يا بلدي وأنــا بدي أروّح بلدي
ياعزيز عيني يا ولدي أنا عاوز أروح بــلدي

وعندمـا قـامت ثورة ١٩١٩ انصـهـر سيد درويش فى لهيبها، وأبدع فنا غنائيا جديدا، وكانت موسيقاه هى التعبير الفنى لهذه الثـورة، وأصبحت الأناشيد الوطنية هى صوت الشعب المصرى الأكثر تأثيرا وترديدا خـلال الثـورة، وقد اشـتـهـر منهم نشـيـدان لسـيـد درويش أحدهمـا نشـيـد الأفندية الذى كان يردده طلبة المدارس فى مظاهراتهم واجـتـمـاعـاتهم وكـانت كلمـاته تقول:

يا عم حمزة إحنا التلامذة
ما يهمناش السجن ولا المحافظة
من غير لحاف والعيش حاف
ما يهمناش يا عم حمزة

والنشـيـد الثـانى كـان نشـيد المشـايخ الذى كـان يردده طلبــة الأزهر ومـدرســة القـضـاء الشرعى، ومـدرسـة دار العلوم وكانت كلماته تقول :

اضربونا بالرصاص
فالحياة في القصاص
إضــربونا بالمدافــع
مالأمر لله دافــع

«١» هذه الأغنية من أغانى التراث وقد غيرً سيد درويش فى ألفاظها، فمن المعلوم أن عوام المصريين كانوا يفضلون أن يولد لهم ولد على أن تولد لهم بنت وهذا ما تؤكده الأغنية التراثية التى تقول الأم فيها لما قــالوا دى بنيــة انهــد ركن البــيت على ولما قــالوا ده ولد، انشــد قلبى واتسند.



وإلى جانب ذلك فقد أخرج سيد درويش مع نجيب الريحاني، وبديع خيرى الاستعراض الوطنى العظيم الذى حضره سعد زغلول والعديد من رجالات مصر الذين سمعوا بافتخار إلى نشيد من ألحان سيد درويش وهو:

قوم يا مصري مصر دايما بتناديك
خد بنصري نصري دين واجب عليك
رد سعدي قبل ما يضيع بين ايديك
إوعي مجدى يروح هدر أدام عنيك

يضاف إلى ذلك أن سيد درويش نزل المعركة ضد الانجليز بنوعية جديدة من المنشورات الوطنية فى شكل غنائى لقنه للجماهير، وقام باعة البلح بترديده فنتيجة لتحريم السلطات البريطانية ذكر اسم سعد زغلول، وفرضها الرقابة على نصوص الأناشيد، وإحكام قبضتها على المسارح لحن سيد درويش أغنيته الرائعة (يا بلح زغلول) تعبيرا عن الصدى المكبوت فى النفوس والتى يقول فيها:

يا بلح زغلول ياحليوة يا بلح
يا بلح سعدي زغلول يا بلح
سعد وقال لي ربي نصرني
وراجع لوطني زغلول يا بلح

كما لحن سيد درويش العديد من الأناشيد الوطنية الأخرى ومن أشهرها:

أنا المصري كريم العنصرين
بنيت المجد فوق الأهرامين

وهكذا أرّخت أغانى سيد درويش الوطنية لتاريخ مصر النضالى بعد أن صاغها بكل إبداع، وخاض بها حربا ضد الاحتلال، كما أتاحت ثورة ١٩١٩ له مناخا مناسبا لرسالته الفنية فانبعثت على يديه الألحان المصرية الصميمة.

وقبيل منتصف سبتمبر ١٩٢٣ أعد سيد درويش نشيدا وطنياً ليُغنيه مع طلاب وطالبات المدارس فى حفل استقبال سعد زغلول بعد عودته من المنفى، وكانت كلماته تقول :

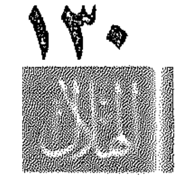
مصر وطننا سعدها أملنا
كلنا جميعا للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا ، هلالنا وصليبنا
أن تعيش مصر عيشة هنية

وسافر سيد درويش إلى الإسكندرية ليقيم مع شقيقته فى حى محرم بك حتى تحفظ المجموعة النشيد. وفى اليوم المحدد للاحتفال وهو ١٥ سبتمبر كانت المجموعة قد حفظت النشيد، وانتظرت حضور سيد درويش ولكنه كان قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة. وحضر سعد زغلول الاحتفال وعزفت المجموعة نشيد «بلادى بلادى لك حبى وفؤادى» ورددت الجماهير هذا النشيد بقوة وحماسة، وأبدى سعد زغلول إعجابه باللحن الشعبى العظيم، وسأل من الذى وضع هذا اللحن؟ وقيل له سيد درويش، فقال سعد أين هو لأحييه؟ فقيل له لقد مات، وتم دفنه، ومن المعروف أن هذا النشيد تخطى حدود الزمن، واستقر فى وعى الملايين نشيدا وطنيا لمصر كلها«٢».

تراث سيد درويش وضرورة المحافظة عليه

وهكذا كان سيد درويش نتاجا عبقريا

«٢» اختار مصر هذا النشيد شعارا موسيقيا للسلام الوطنى بعد عقد معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل عام ١٩٧٩.



ليقظة الشعب المصرى، فقد تفتحت عبقريته على نبض الشارع المصرى، وعلى الرغم من أن عمره كان قصيرا فقد كان عمرا غنيا بدروب الفن الغنائي، وحافلا بالإنتاج الفني الغزير فقد أضاف للموسيقى العربية أكثر مما أضافه أصحاب الأعمال الطويلة من الموسيقيين.

لقد ولد سيد درويش والغناء كان فنا ارستقراطيا منعزلا عن الشعب، ومات بعد أن حقق امتزاجاً خاصا بين الموسيقى الفنية والشعبية وقرَّب بين فن الخاصة والعامة، ورفع صوت طوائف الشعب فى موسيقاه وخلّف مقدارا كبيرا من التأليف الموسيقية التى تجمع بين الكآبة والألم والشعور بالسمو النفسى والروحى. ومع كل ذلك فقد انحسرت موجة سيد درويش بعد وفاته، ومُنعت أغانيه من التداول والتدريس فى معهد فؤاد الأول للموسيقى (الموسيقى العربية) وقامت حملة فى الصحف ضد موسيقاه بحجة أنه ملحن خارج عن القواعد والأصول، واستطاع أصحاب التيار المحافظ أن يعزلوا موسيقاه لفترة مما دفع شاعرا مثل بيرم التونسى إلى الدفاع عن سيد درويش وفنه فى زجل قال فيه:

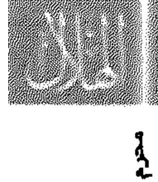
من بعد موته يعام
طلعت علينا أقوام
هو العظيم ياناس
فى أرضنا يتداس

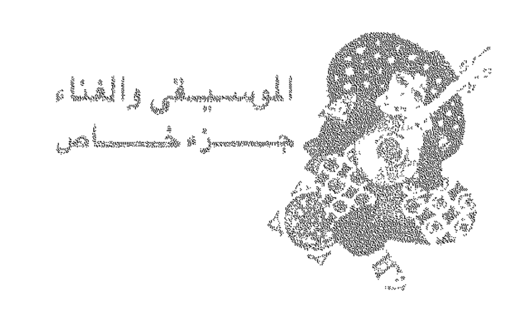
ودفع أديبا مثل عباس العقاد إلى القول «يخطئ من يفهم أن وظيفة سيد درويش كانت فرنجة الموسيقى العربية والنقل من أوربا إلى مصر». وجعل أديبا مثل توفيق الحكيم يقول «كان التجديد عنده متصلا بفنه ممزوجا بدمه، شيئا يتدفق من ذات نفسه كما يتدفق السيل الهابط من القمم، وكانت الألحان تتفجر منه كأنها تنفجر من ينبوع خفى»، وجعل رائد المسرح العربى زكى طليمات يقول «إن سيد درويش كان رائدا من رواد الموسيقى المصرية الحديثة».

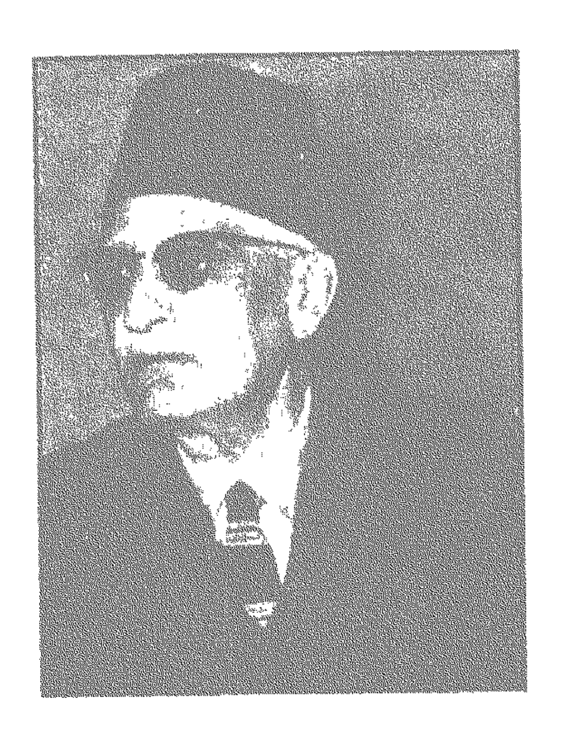
وإلى جانب ذلك فقد قامت مجموعة من المثقفين بتكوين جماعة أصدقاء سيد درويش لجمع تراثه ونشر موسيقاه والدفاع عنها. والحقيقة أن ما فعله درويش كان ثورة حقيقية فى عالم الغناء لم يترك فيها الجوانب المشرقة من التراث، ولم يترك ما فى المدنية الأوربية من محاسن.

تلك كانت حياة فنان عظيم استطاع أن يضع أسس عصر غنائى كامل تغيرت بموجبه الأذواق تغيرا تاما، فجعل الأغنية الوطنية تحمل فى كلماتها وألحانها ملامح بارزة من شخصية الإنسان المصرى وطابعه ومزاجه وحركاته، وترك لفنه من الآثار ما سيظل نصبا تذكاريا شامخا لموهبته الفائقة التى أكدها على مدى سنوات حياته القصيرة رغم كل العقبات التى واجهته.

وعلى أى حال فبعد وفاة سيد درويش كاد الغناء العربى يفقد هويته لولا ظهور فئة من الملحنين والمطربين ساروا على منهاجه، واستلهموا روحه وذوقه وتعبيراته فى بناء الألحان مثل زكريا أحمد ورياض السنباطى والقصبجى وعبد الوهاب وغيرهم مما ساهموا بنصيب كبير، وكانوا بمثابة جسر المقاومة الذى ابتناه سيد درويش فانطلقت بدائع فن الغناء العربى الحديث على حناجر المطربين والمطربات وعلى رأسهم أم كلثوم. ■









العقاد ناقداً موسيقياً

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

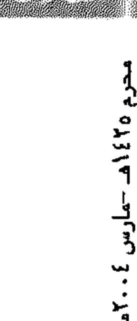
تمر فى الثانى عشر من شهر مارس الحالى الذكرى الأربعون لرحيل عملاق الأدب العربى: عباس محمود العقاد، وبالرغم من انصرام هذا الردح من الزمن بعد رحيل العقاد، فإن ما صدر عن أدب هذا العملاق من دراسات ومقالات، لا يتناسب بحال مع غزارة ونفاسة ما أثرى به الأدب العربى من إنتاج أقل ما يوصف به العبقرية والشمول .

والعقاد الذي يرتبط اسمه بالعبقريات والدراسات السياسية والفلسفية والنقدية، ويتصف أدبه عند عامة القراء بالعمق والصعوبة ، لم يجد غضاضة في أن يكتب عن الموسيقي والغناء وأهل الغناء مجموعة مقالات يمكن أن تفصل من سياق إنتاجه وتدرج في كتاب منفصل.

الموسيقى الأسوانية.. كانت منهل العقاد ومنبع ثقافته الموسيقية

ولقد لامس الغناء وجدان عباس محمود العقاد فى سنوات صباه التى قضاها بمسقط رأسه : مدينة أسوان، ففى أسوان - وهى آخر المراكز الحضرية المصرية باتجاه الجنوب - تعد الموسيقى طقساً من طقوس الحياة اليومية، تصافح الأسماع نهارا بالأسواق ومساء بالأفراح والموالد والمناسبات، بل تتردد خلف سرادقات العزاء ممثلة فى «العديد» (بلغة أهل الصعيد) الذى لا يعدو أن يكون لوناً من ألوان الغناء، وللموسيقى الأسوانية والغناء الأسوانى طابع مميز يجتذب الآذان، وهو طابع يعد نتاجاً لتعدد روافد الموسيقى والغناء الأسوانيين، فمن رافد فرعونى وآخر عربى وثالث نوبى..

اكتسب الغناء الأسوانى والموسيقى الأسوانية طابعهما المحبب لدى شعب يتميز بالطيبة والوداعة، لذلك يمكن القول بأن عشق أهل أسوان الفطرى للموسيقى والغناء هو المنبع الأول الذى نهل منه العقاد ثقافته الموسيقية، بينما مثلت مدرسة أسوان (الأميرية)، على حد تعبير العقاد نفسه، النبع الثانى الذى ارتوت منه نفسه المتفتحة لكل جميل فى الأدب والعلم والفن مزيداً من الثقافة الموسيقية، يتحدث العقاد فى يومياته عن تلك المدرسة فيقول: «يوم كنت من تلاميذها غير منتسب إلى فرقتها الموسيقية والرياضية، ولكننى كنت أشترك فى الحفلات العامة كما يشترك فيها سائر تلاميذها، فقد ألقينا فى يوم



واحد أربعة أناشيد من صباح ذلك اليوم إلى مغربه ، وأولها مترجم عن الإنجليزية يبتدىء بهذه الفاتحة المرددة :

الساعة نصف وثمان
أخشى تأخيرك للدرس
اذكر قانون العرفان
قم واستحضر درك الحدس

أما الأناشيد الثلاثة الأخرى فقد كان منها السلام الوطنى وهو نغمة واحدة ترددها الفرق الرياضية بألفاظ مختلفة ، ثم كان منها نشيد الاستقبال ومطلعه :

نور الأنام بدا لنا
وضياؤه قد عمنا

ثم نشيد التوديع ومطلعه :

سر يامليكا للسودان
فلك السلامة كل آن

ويستطرد العقاد بعد ذلك فيعدد ما حفظه فى مدرسته الأولى من أناشيد فيقول: «ولا نظن أن الأناشيد التى كنا نحفظ ألحانها كانت تقل عن عشرة فى جملتها ، غير الألحان التى رويناها بالتلقين ممن سبقونا فى الدراسة على نظامها (الأميرى) المتبع فى مدارس (النظارة) على عمومها» (عباس محمود العقاد: يوميات – جزء ٣ – ص ٣١٤: ٣١٥)، هكذا شكلت سنوات الصبا فى أسوان اللبنة الأولى فى اهتمامات العقاد الموسيقية .

مؤرخ الإسلام

ولد عباس محمود العقاد في ٢٨ يونيو من عام ١٨٨٩ بمدينة أسوان، وجاء إلى القاهرة فى عام ١٩٠٤ ليعمل موظفا، ولقى وجه ربه بالقاهرة فى يوم ١٢ مارس من عام ١٩٦٤م، وخلال قرابة خمس وسبعين سنة عاشها العقاد.. أثرى الأدب العربي بأكثر من ثمانين كتابا خلا المقالات الصحفية ، وهو إنتاج ضخم عالج العقاد من خلاله شتى مباحث الفكر والأدب.

عمل العقاد بالكتابة والصحافة معا، وتنوعت كتاباته بين الشعر والنثر، ويعود تاريخ إصدار ديوانه الأول إلى عام ١٩١٦، ثم توالت بعد ذلك مجموعاته الشعرية مثل : «وحى الأربعين» – «هدية الكروان» «عابر سبيل» و«أعاصير مغرب»، وقد طبع قالب المقالة غالبية إنتاجه النثرى الذى نذكر منه: «الفصول» – «مطالعات فى الكتب والحياة» – «مراجعات فى الآداب والفنون» و«ساعات بين الكتب»، ويمثل النقد الأدبى جانبا مهماً من الإنتاج النثرى للعقاد، ومما يذكر فى هذا المجال اشتراكه مع الكاتب والأديب إبراهيم المازنى فى إصدار كتاب «الديوان»، وقد عكف العقاد فى السنوات الأخيرة من عمره على الترجمة لأعلام الإسلام، فقدم للمكتبة العربية والإسلامية سلسلة «العبقريات» التى تضمنت عبقريات: محمد (صلى الله عليه وسلم) – الصديق – عمر – الإمام على – ذو النورين (عثمان بن عفان) – خالد (بن الوليد) – عمرو بن العاص – بلال بن رباح – الحسن أبو الشهداء – الصديقة بنت الصديق – فاطمة الزهراء ومعاوية بن أبي سفيان، بل إن تراجمه امتدت لتتناول سيرة البعض من مفكرى الإسلام وفلاسفته مثل: ابن سينا – ابن رشد – الإمام الغزالى – الإمام محمد عبده – عبدالرحمن الكواكبى

والشاعر محمد إقبال.

جاءت العبقريات في سياق اهتمامات العقاد الإسلامية، وهي اهتمامات تشعبت لتعالج عديداً من القضايا التي عرضت للإسلام والمسلمين في مطالع القرن العشرين الميلادي ، ومن هذه القضايا - بل وأهمها - الدفاع عن الإسلام ومواجهة أباطيل خصومه من المستشرقين والمغرضين، فقدم في معرض دفاعه هذا الكتب التالية : «مطلع النور» - «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» و«ما يقال عن الإسلام»، إن المجال يضيق بذكر كل ما كتبه العقاد دفاعا عن الإسلام، ولكن المقلّب لكتبه لن يجد بداً من أن يتفق مع الكاتب الراحل محمد عبدالغني حسن في أن يطلق على العقاد لقب «مؤرخ الإسلام» (محمد عبدالغني حسن : الهلال - أبريل ١٩٦٧ - ص ١٠٠).

ما بين الموسيقى والعلوم

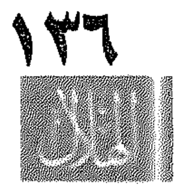
شكّل التأريخ للإسلام وقضاياه شطرا كبيرا من اهتمامات العقاد الفكرية، تلك الاهتمامات التي جعلته يدلي بدلائه في منابع فكرية متعددة ضمت الشعر والدين والفلسفة والسياسة والعلوم والفنون ، ليخرج تلك الدلاء وقد امتلأت بجواهر الفكر ممثلة في أبحاثه وكتبه، وهي اهتمامات استمدت مصادرها واكتسبت ثراءها من انطواء العقاد وموسوعيته بالإضافة إلى مكتبته الكبيرة التي ضمت قرابة أربعين ألف مجلد في مختلف فروع المعرفة، لذلك فان اهتمامه بالموسيقى والغناء - الذي قد يثير دهشة البعض - يعد استكمالا لجانب مهم من مشروعه الفكري، شأنه في ذلك شأن كبار المفكرين ممن زهت بإبداعاتهم عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية، ومن هؤلاء المفكرين نذكر من أعلام العصر العباسي كل من الكندي والفارابي وابن سينا، ممن يقف التاريخ شاهدا على إبداعاتهم الموسيقية التي ضمت تصنيف الكتب وعزف البعض منهم على الآلات الموسيقية إلى جانب الاسهام في علوم شتى ضمت الفلسفة والطب والرياضيات واللغات والفقه والدين، حيث مثل رخاء العصر ورعاية حكامه للفنون التربة الحاضنة لهؤلاء الأفذاذ، ولم تحل تشنجات البعض من المتعصبين والجهلة بينهم وبين الاشتغال بالموسيقى والغناء أو الكتابة عنهما إلى جانب اشتغالهم بالعلوم الدينية، بل إن البعض من فقهاء ذلك العصر تصدوا لتأليف الكتب والمقالات التي تفند دعاوى القائلين بتحريم الموسيقى والغناء، ولعل أشهر الأمثلة على ذلك هو الدراسة الفقهية الرائعة عن موقف الإسلام من الغناء والتي ضمنها الإمام أبو حامد الغزالي كتابه الشهير «إحياء علوم الدين».

يمكن للمتأمل والمدقق في سيرة العقاد أن يستكشف مراحل تطور اهتماماته الموسيقية، حيث تطورت تلك الاهتمامات عبر مراحل رئيسية ثلاث، ونظراً لطبيعة الحياة الفكرية لعملاق كالعقاد، فإن مراحل اهتماماته - التي تعبر بالطبع عن فكره وإنتاجه - لابد وأن تتسم بصفات خاصة تميزها، فإذا ما أعملنا ذلك المبدأ على ما مرت به اهتمامات العقاد بالموسيقى والغناء من تطورات، لوجدنا أن

المرحلة الأولى من اهتمامه بالموسيقى والغناء - والتى شغلت سنوات صباه وشبابه الباكر - قد اتصفت بالاستماع والقراءة ، بينما تميزت المرحلة الثانية بتقديم العقاد البعض من شعره ليتحول إلى أشعار غنائية، وبالطبع فإن تلك المرحلة واكبت سنوات التألق الفكرى والإعلامى للعقاد ، ثم تجىء فى النهاية المرحلة الثالثة التى اختصت بالكتابات النقدية عن الموسيقى والغناء العربيين، وهى كتابات توزعت بين منابر صحفية عدة تنقل بينها العقاد فى رحلته مع الكتابة الصحفية ، وتتناثر هذه الكتابات الصحفية بأعداد يصعب حصرها وعلى مدار عشرات من السنوات، لكن الذى حفظ منها ووصل إلينا هو ما تضمنته المقالات التى دأب العقاد على نشرها تحت عنوان «يوميات» بصحيفتى «الأخبار» و«أخبار اليوم» فى السنوات الأخيرة من حياته .

شهد عام ١٩٠٤م وصول العقاد إلى القاهرة للمرة الأولى، كان مجىء العقاد فى هذا العام من أجل الخضوع للكشف الطبى قبل تعيينه موظفا بالحكومة، وبعد أن استقر به المقام فى القاهرة.. تحول ليعمل فى عام ١٩٠٧م بالتحرير فى صحيفة «الدستور» التى كان يصدرها محمد فريد وجدى وفى صحيفة الشيخ على يوسف الشهيرة «المؤيد»، فى تلك الأيام.. كانت روح الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى ربوع مصر قد أتت ثمارها ، ممثلة فى نهضة عمّت المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية ، وكان المسرح الغنائى يبدأ آنذاك نهضته الكبرى على يد سلامة حجازى، بينما كانت ثورة الغناء الأولى فى القرن العشرين التى قادها شيوخ من أمثال أبى العلا محمد ودرويش الحريرى على وشك أن تطلق من رحم ثورة ١٩١٩م إلى ساحة الغناء المصرى قادة الثورة الثانية من أمثال سيد درويش وزكريا أحمد ومحمد القصبجى إبان السنوات الأولى لمقام العقاد بالقاهرة، ليجد العقاد مسارح القاهرة ومغانيها تصدح بكل جديد فى الموسيقى العربية، فيملأ أسماعه المتعطشة - بحكم ما ألفته بأسوان - بكل ما هو جديد وأصيل من تلك الموسيقى ، ولتتبلور بذلك اللبنة الثانية فى تكوينه الموسيقى.

وعندما تنقل العقاد فى عمله الصحفى إبان عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين بين صحف : كوكب الشرق - المؤيد الجديد - الضياء - مصر - الجهاد وروزاليوسف، كانت الجاليات الأجنبية وقوات الاحتلال البريطانى ترفد الغناء المصرى ومن ثم الموسيقى العربية بكثير من الموسيقات الأجنبية، تلك الموسيقات التى وجدت فى شركات الاسطوانات ومحطات الإذاعات الأهلية ومن بعد ذلك محطة الإذاعة الحكومية واجهات لعرض الكثير من أعمالها الجادة، وإذا ما تذكرنا أيضا ما كانت تقدمه دار الأوبرا الملكية من الموسيقات والأوبرات العالمية، التى كانت تستقدم لها الفرق الشهيرة للأوبرا والعزف الموسيقى من مختلف الدول الأوروبية، فإنه يمكن القول أيضا بأن العقاد قد وجد فى ذلك اللبنة الثالثة من



تكوينه الموسيقى، وبطبيعة الأمور .. فإن تلك اللبنة وسابقاتها ممن شكلن تكوين العقاد للموسيقى لم يقمن وحدهن بإعطاء هذا التكوين ملامحه المعروفة لنا الآن، وإنما ساهمت فى ذلك أيضا حصيلة قراءاته الموسوعية فى كل فن وعلم، والتى كانت بينها ومن أهمها قراءاته عن الموسيقى، وهى قراءات أتاحت له أن يحيط علما بكل ما وصل الينا من تراث الموسيقى العربية فى عصور ازدهارها ببغداد والأندلس ، لقد كانت تلك القراءات بمثابة المادة اللاصقة التى ضمت لبنات تكوينه الموسيقى إلى بعضها، وأعطت ذلك التكوين سماته المعروفة لقارئ العقاد فى كل زمان ومكان .

اتخذ اهتمام العقاد بالموسيقى والغناء خلال سنوات بداياته - التى لقبت فى هذا المقال بسنوات «الاستماع والقراءة» - أشكالا عدة، ولعل عدد ما ترك بعد رحيله من اسطوانات جمعها خلال تلك الحقبة يكون أشهر هذه الأشكال وأكثرها دلالة ، لكن هناك أشكالاً أخرى قد لا تعرفها الكثرة الغالبة من قراء اليوم، فمن ذلك نذكر أنه عندما أطلقت الإذاعة المصرية فى السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ١٩٣٩/١٢/١٩م ولأول مرة أغنية المطربة أسمهان الشهيرة: «دخلت مرة فى جنينة»، أسرت تلك الأغنية التى نظم كلماتها الشاعر عبدالعزيز سلام وصاغ لحنها الغنائى من قالب المونولوج الملحن مدحت عاصم أسماع المصريين، واكتسحت ما عداها فى سوق الاسطوانات وطلبات المستمعين، ولندع الآن الباحث اللبنانى فكتور سحاب يصف لنا ما حققته تلك الأغنية من ذيوع وانتشار ، يقول فكتور سحاب فى رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الماجستير فى التاريخ: «ومن قصص إقبال الجمهور المصرى على أغنيات أسمهان، أن عباس محمود العقاد، الأديب الكبير، روى أنه كان يتجول بالترام وعلى الأقدام فى شوارع القاهرة بحثا عن نسخة اسطوانة (دخلت مرة فى جنينة)، ولم يتيسر له الأمر، لرواجها العظيم» (فكتور سحاب: السبعة الكبار فى الموسيقى العربية المعاصرة - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٢٨٣)، هكذا كان اهتمام العقاد فى مطلع الأربعينات وقبله وبعده بالغناء ، وهو اهتمام جاء على قدر حصيلة العقاد من هذا الفن الجميل بالسماع والقراءة .

العقاد شاعرا غنائيا !

كان من الطبيعى فى حالة مفكر مثل عباس محمود العقاد أن يترك بصمته على فن أحبه كفن الغناء، وكيف لا؟ .. والرجل بحكم موسوعيته عالج فى كتاباته فنونا شتى لم يكن الغناء والموسيقى أصعبها بحال، اتخذت بصمة العقاد أو بقول آخر إضافته لفن الغناء شكلين مختلفين ، وقد تمثلت الإضافة الأولى فيما قدمه العقاد من شعره ليلحن ويصبح شعراً غنائياً، وأول هذا الشعر هو نشيد «قد رفعنا العلم» الذى قدمه العقاد حوالى عام ١٩٣٤ - وإبان وزارة عبدالفتاح يحيى باشا - ليصبح نشيدا قوميا لمصر، ويتكون هذا النشيد من ست فواصل .. وتضم كل فاصلة بيتين، وقد بدأ العقاد

نشيده بالبيت التالى :

قد رفعنا العلم
للعلا والفدا
فى عنان السماء

واختتمه العقاد بالفاصلة التالية :

فارخصى يانفوس
كل غال يهون
كل شىء حسن
إن رفعنا الرءوس
فليكن ما يكون
ولتعش يا وطن

وقد لحن النشيد عبدالحميد توفيق زكى وتغنت به المجموعة، ودأبت الإذاعة على تقديمه فى برامجها حتى الخمسينات من القرن العشرين، ومما هو جدير بالذكر هنا أن مجموعة من محبىّ العقاد وأصدقائه رأت أن تكرّم العقاد على نظمه لهذا النشيد، فأقامت لذلك حفلا بمسرح الأزبكية ترأسه زعيم الوفد: مصطفى. النحاس باشا فى مساء الجمعة ٢٧ أبريل من عام ١٩٤٥م.

لم يكن نشيد «قد رفعنا العلم» هو الشعر الوحيد الذي قدمه العقاد ليلحن ويغنى، حيث قدم العديد من قصائده لتغنيها المطربة نادرة أمين، والتى كان العقاد شديد الإعجاب بصوتها، وقد ذكر المؤرخ والملحن عبدالحميد توفيق زكى أن عدد ما قدمه العقاد لنادرة أمين من قصائد قد بلغ أربع قصائد (عبدالحميد توفيق زكى: المعاصرون من رواد الموسيقى العربية - ص ٣٥)، ومن هذه القصائد نذكر قصيدة «فى الهوى قلبى زورق يجرى» التى لحنها رياض السنباطى وتغنت بها نادرة أمين للمرة الأولى فى العاشرة والنصف من مساء الاثنين ١٩٣٩/٩/١١م، وفيما يلى مطلع هذه القصيدة التى نشر نصها الكامل بالصفحة السادسة عشرة من العدد رقم (٢٣٤) من مجلة «الراديو المصرى» الصادر فى ١٩٣٩/٩/٩م :

فى الهوى قلبى
زورق يجرى
أين يمضى بى
نهره الخمرى
ليتنى
أدرى

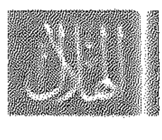
ومن قصائد العقاد التى تغنت بها المطربة نادرة أمين فى الأربعينيات قصيدة «يا ساعة الصفو»، وقد لحنها رياض السنباطى أيضا وشدت بها نادرة أمين للمرة الأولى فى الحادية عشرة من مساء الأربعاء ١٩٤٨/٦/٣٠، فأين هذا الشعر الجميل مما يخدش الأذن والحياء الآن من كلمات الأغانى الشبابية؟!

الكتابات النقدية

مثلت الكتابات النقدية التى نشرها العقاد فى عديد من الصحف إضافته الثانية والمهمة لفن الغناء، فقد جلت تلك الكتابات التى استندت لعلم يتسم بالغزارة والموسوعية الكثير من قضايا الغناء والموسيقى العربيين، وتوزعت تلك الكتابات بين الصحف على مدار ما أنفقه العقاد فى الكتابة من سنوات، مما يجعل الاحاطة الكاملة بكل ما كتبه عن الغناء والموسيقى فى مقال كهذا ضرباً من المحال، ولعله من حسن الطالع أن فطن العقاد فى أيامه

الأخيرة لأهمية أن يجمع شوارد ما كتب من مقالات صحفية فى مجلدات تيسر مطالعتها وتحقق حفظها، فصدر الجزء الأول من تلك اليوميات عن دار المعارف بالقاهرة قبل رحيله بقليل، ثم تتابع صدور الأجزاء الباقية عن نفس الدار حتى اكتملت أربعة وأربت صفحاتها على الألفين ، ومن بين تلك اليوميات التى جاوز عددها المئات.. كانت هناك أربع وعشرون منها أفردها العقاد لقضايا الغناء والموسيقى العربية، وهى بالطبع غير مقالاته عن الموسيقى الغربية ومؤلفيها، وتوزعت اليوميات الأربع والعشرين على أجزاء اليوميات بالكيفية التالية، واحدة فى الجزء الأول وهى: (تاريخ الموسيقى العربية: ص ٢٣٢)، وسبعة عشر فى الجزء الثالث قدمت بالعناوين والصفحات التالية: (دور سيد درويش: ص ١٩٩) - (فن الغناء تقدم طولا وعرضا ولكن لم يرتفع: ص ٢٠٣) (الموسيقى اللانغمية : ص ٢٥٩) - (الموسيقى اللانغمية أيضا: ص ٢٦٤) - (الاشتراكية والغناء : ص ٢٧٧) - (ضبط النغم : ص ٢٨٦) - (رواد أهملناهم : ص ٢٩٠) - (صالح عبدالحى : ص ٢٩٣) - (نغمات الجاز تصيب السامع بالمغص : ص ٢٩٦) - (الرائد سيد درويش : ص ٣٠٠) - (أغانى الأمة .. دليل على رقيها: ص ٣٠٢) - الهوس بفن التصوير فى المغرب: ص ٣٠٦) - الأناشيد الوطنية: ص ٣١١) - (والأناشيد مرة أخرى: ص ٣١٤) - (أفلاطون والغناء: ص ٣١٩) - (بين الأصوات الوافية وبساطة الألحان: ص ٣٣٠) و(هل الانقطاع للمنولوج يصرف المستعد عن الأدوار المسرحية: ص ٣٣٢)، يتبقى بعد ذلك ست من يوميات العقاد التى تحدث فيها عن الغناء والموسيقى العربية وجاءت جميعها فى الجزء الرابع من اليوميات، وفيما يلى عنوان كل منها ورقم الصفحة التى بدأت فى الجزء الرابع: (إعادة النظر فى لقب «المطرب»: ص ١٠٧) - (الشجاعى صحح اسمه ومضى يصحح الأسماء كلها: ص ١٢١) - (ماركة البنت فى أغنية اليوم: ص ١٣٢) - (ذكرى سيد درويش: ص ١٨٦) - (موسيقانا فى أربعين سنة: ص ١٩٤) و(الشعر قبل مهرجان الشعر: ص ١٩٧)، ويكشف هذا الرصد لمقالات العقاد عن الغناء والموسيقى العربية أن هناك ثمة خطأ قد شاب طباعة مقالة (موسيقانا فى أربعين سنة)، التى جاءت فى سياق يوميات العقاد المنشورة بالجزء الرابع من يومياته، حيث استبدل موضوع اليوميات التى نشرت فى صحيفة «الأخبار» بتاريخ ١٩٦٣/٩/١٨م بموضوع آخر عن الثورة البلشفية.

وبالرغم من تعدد موضوعات يوميات العقاد الأربع والعشرين التى تحدث فيها عن الغناء والموسيقى العربيين، إلا أنه يمكن القول بأن ما عالجه العقاد فى تلك اليوميات لم يخرج عن مبحثين رئيسيين، اختص المبحث الأول منهما بالترجمة لعدد من أعلام الغناء والموسيقى العربيين ممن يعتقد العقاد بأهمية ما أضافوه لهذا الفن، ولكن العقاد يبتدع فى ترجمته منهجاً يجعل منها - أى الترجمة - مزيجاً من التعريف بالشخصية ومناقشة القضايا



التى يثيرها المبحث الثانى، وهو المبحث الذى أداره العقاد حول قضايا الغناء ومشكلاته، ولنضرب هنا بيومياته التى نشرت فى ١٨/٩/١٩٦٣م بصحيفة «الأخبار» مثلا على منهجه فى الترجمة لأعلام الموسيقى والغناء، فقد تحدث العقاد فى تلك اليوميات عن فنان الشعب سيد درويش بمناسبة انقضاء أربعين سنة على وفاته ، ثم تفرع من حديثه عن سيد درويش إلى تقييم الغناء حال كتابته لليوميات، فبعد أن أثنى على ما تحقق للغناء من تقدم خلال الأربعين سنة التى انقضت بعد رحيل سيد درويش، إلا أن رأيه النابع من الاستماع والعلم يرى أنه على الرغم مما طرأ على الغناء فى تلك العقود الأربعة: «فلا يكفى أن تتكاثر الأدوار والاحاديات (المونولوجات) .. ولا يكفى أن يتكاثر عدد المغنين والمنشدين على طابع واحد» ليكون ذلك تعبيرا عن تقدم الغناء، «وإنما المنتظر أن تكون الكثرة تنويعا بغير تكرار، واختلافا فى الطابع والجوهر وليس مجرد اختلاف فى الحناجر والأصوات» (يوميات : جزء ٤ – ص ١٨٧).



مضى العقاد ينافش فى يومياته بفهم العالم الذواق الكثير من قضايا الغناء العربى والموسيقى العربية، فتصدى فى اثنتين من يومياته نشرتا بصحيفة «الأخبار» فى ٧/١٢/١٩٦٠م و١٤/١٢/١٩٦٠م لما يصل إلينا من تقاليع الغرب الموسيقية مثل الموسيقى السريالية التى أسماها البعض الموسيقى اللانغمية (يوميات: جزء ٣ – ص ٢٥٩، ص ٢٦٤ – ٢٦٥) ، يقول العقاد عن تلك التقليعة الموسيقية إنها لا تخرج عن : «محاكاة القرقعة والفرقعة والضجيج والعجيج واصطناع الخلط والخبط واجتناب الانتظام والانسجام» (يوميات: جزء ٣ – ص ٢٦٥)، ويبدى العقاد أيضا فهماً دقيقاً لتطور الغناء المصرى فى معرض مناقشته لدعوة أطلقها قارئ لصحيفة «الأخبار»، تمنى القارئ فى دعوته لو أن الزمن توقف عند نجوم الغناء فى آخر القرن التاسع عشر من أمثال عبده الحامولى وألمظ ويوسف المنيلاوى وداود حسنى وسلامة حجازى وغيرهم ، بدأ العقاد مناقشته دعوة القارئ بالثناء على هؤلاء الرواد وإبداعاتهم، ولكنه يجمل رأيه فى أمنية القارئ أن يتوقف الزمن عند هؤلاء الرواد فيقول بأن الاستماع لغناء هؤلاء الرواد ما هو إلا: «خطوة من خطوات الزمن تذكر وتستعاد ولكنها لا تعود للبقاء ولا لإلغاء ما بعدها من الخطوات» (يوميات: جزء ٣ – ص ٢٩٠ – ٢٩٢).

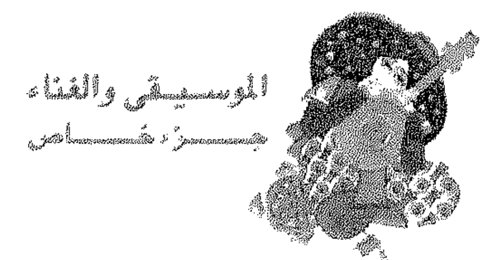
هكذا مضى العقاد فى يومياته يتحدث عن الغناء والموسيقى حديث العالم المحب، وهو فى حديثه الذى حفظته لنا تلك اليوميات يشخص مشاكل الغناء العربى والموسيقى العربية ويقترح لها ما يراه – من وجهة نظره – مناسباً من حلول، ولعل ما اقترحه فى يومياته التى نشرت بتاريخ ١٣/١١/١٩٦٣ فى صحيفة «الأخبار» وتحت عنوان «الشعر... قبل مهرجان الشعر» يقدم أبلغ دليل على ذلك ، فقد

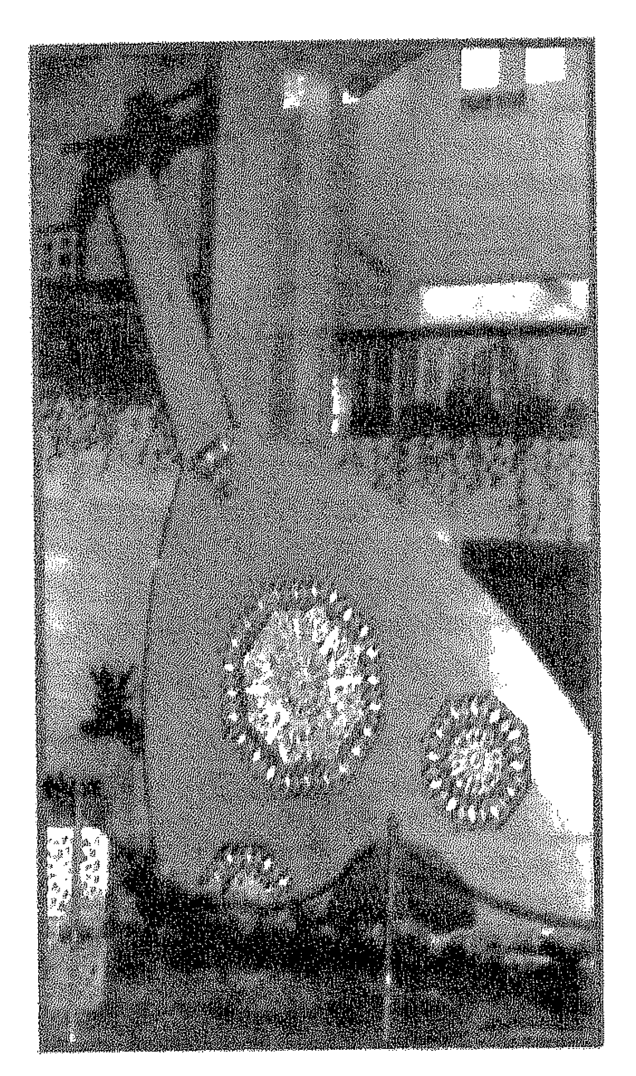
ناقش العقاد فى تلك اليوميات ميل البعض والحاحهم على استخدام العامية فى الشعر الغنائى ، وتغييب الشعر العربى بلغته الفصحى وأوزانه العروضية عن أسماع الشعب بحجة أن العامة لا يفهمون أو يتقنون الحديث بالفصحى، ويدلل العقاد على زيف تلك الحجة بأن عامة الشعب المصرى كانوا: «يتغنون على قوارع الطرقات بأناشيد سلامة حجازى (قبل نصف قرن من تاريخ نشر تلك اليوميات) فى الحماسة والغزل، وأشيعها على الأفواه قصيدة الفخر على لسان صلاح الدين:

إن لم أصن بمهندى ويمينى
ملكى فلست إذن صلاح الدين

وأخيرا ..

إن العقاد فى مقالاته الأربع والعشرين التى أفردها للحديث عن شئون الغناء والموسيقى العربية فى يومياته، يتفوق كثيرا على من نلحق بأسمائهم الآن ألقاب الناقد الموسيقى أو الناقد الفنى والمؤرخ الفنى، لأن عملاق العبقريات والفلسفة وغير ذلك من ثمار الفكر العالى، كان عملاقا أيضا فى حديثه عن الموسيقى والغناء وما يلم بهما من مشاكل وأزمات، ولم يكن تصديه لهذا النوع من الكتابات على سبيل التفاخر بالقدرات وطول الباع، وإنما كان ذلك لدرء المطاعن التى لحقت بهذا الفن الجميل على طول سنوات ضعف الأمة العربية وتمزقها، وهو ما أثبته فى يومياته التى كتبها تحت عنوان: «فن الغناء تقدم طولا وعرضا ولكن لم يرتفع» ونشرها فى صحيفة «الأخبار» بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٢م، يصف العقاد فى تلك اليوميات نظرة الكثرة الغالبة من قراء ذلك الزمان إلى الكتابة الأدبية عن الغناء والموسيقى فيقول: «هذا الغناء تكتب عنه مقالة افتتاحية على أيام النهضة القومية؟، نعوذ بالله!، ذلك هو الهزل والابتذال، إن لم يكن ذلك هو الكفر بدين اللياقة والعرف المأثور» (يوميات: جزء ٣ - ص ٢٠٣)، ولكن العقاد يرفع عن فن الغناء ما لحقه من أدران النظرة الدونية لبعض الجهال والمتعصبين فى إحدى يومياته، وهى التى حملت اسم «أغانى الأمة.. دليل على رقيها»، حيث يتفق مع مقولة أفلاطون الشهيرة بأنك إذا أردت أن تعرف مدى رقىّ أمة فاستمع إلى أغانيها، ويضيف العقاد إلى ذلك فيقول: «ولا نعرف شيئا تنطوى عليه خلائق الأمم وعاداتها يخفى على من يستمع إلى أغانيها، وقد نمتحن هذه الحقيقة بتجربة ميسرة لكل من يريدها، وهى تأليف مجموعة صغيرة من مائة أغنية من أغانى الغزل والفخر والحداد والفكاهة والمناجاة على اختلاف بواعثها ، فاننا سنجد بعد مراجعة هذه المجموعة أننا نستطيع أن نحكم منها على أخلاق الأمة وآدابها وما تعمله القوانين والشرائع فيها» (يوميات : جزء ٣ - ص ٣٠٥)، رحم الله العقاد.. فقد كان عملاقا فى كل ما كتب وفى كل ما اعتنق من أفكار. ■





مستقبل العود وموسيقانا آفاق لاحدود لها

بقلم
نصير شمه



محرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م

منذ سنوات وأنا أخطط على ورق أفكارا حول إعادة بناء الموسيقى داخل الشخصية العراقية، ولدى كثير من الملاحظات حول وجود الموسيقى فى المعاهد والكليات المتخصصة فى هذا الفن، وبنفس الوقت أجد أن هذا الشكل الفنى الذى يعيد هندسة روح الإنسان وعقله فى الداخل لم يتغلغل كفاية، نتيجة للظروف غير المستقرة التى مر بها بلدى طوال ٣٠ عاماً. أشد ما يشغلنى هو كيفية الدخول والانطلاق لهذا المشروع الذى أرى ضرورته، تشبه بناء الحياة الاقتصادية والسياسية والعمرانية، خصوصاً أن القسوة غيرت من ملامح الشخصية العراقية ولا يمكن معادلتها دون انصهار علم الجمال بكل أشكاله وروح هذا الإنسان.

أعتقد أن الخلفية التاريخية لتذوق الفن للشخصية العراقية ستساعد على إقامة هذا البناء خلال فترة زمنية قصيرة. وهذا البناء يبدأ من سن مبكرة وصولاً إلى سن الكهولة مروراً بالمدارس والمعامل والمستشفيات والحياة العملية عموماً. هذا شاغلى الأساسى منذ سنوات. الذى يدفعنى للتفكير بإطار أنطلق منه بهذه الأفكار هو فضل الشخصية العراقية فى بنائى كموسيقى.

مستوى تذوقها، ثراؤها الثقافى، رغبتها فى استقبال الجديد، ودعمها المحب لما تراه مهماً. وهى أسس تمكننى مع زملائى من تأسيس أو ترسيخ هذا البناء.

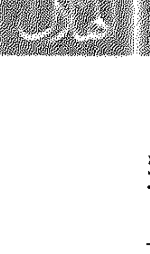
وحتى تبقى الموسيقى جزءا من يوميات الإنسان علينا أن نخرج بها من حيزها العلمى المتوفر فى المعاهد والكليات الموسيقية المتخصصة إلى كل ماهو عام وغير متخصص. والرافد هو المتخصصون والمتذوق هو العامة. وهذا ا يتم بمعزل عن دولة لها مؤسسات ولها قدرة على تسيير برنامج كهذا يمتد تأثيره على أكثر من ٢٤ مليون نسمة.

وحين أقول بشىء من التركيز عن المجتمع العراقى فقط لأن حجم الضرر كان كبيراً عليه طوال ثلاثة عقود. لكن مشروعى الشخصى يشمل الإنسان المطلق فى كل مكان.

موسيقانا ومستقبل العود

الشاغل الآخر هو مستقبل العود وموسيقانا حين وضعت فكرة بين العود **العربى أردت من خلاله أن أؤسس نظاماً شاملاً لطرق تدريس عالية الجودة ومتخصصة ومتنوعة لا تعتمد على عزفى** فقط وعلى مؤلفاتى بل على مدارس متعددة. وأيضاً أثبت قياسات العود التى تختلف من محافظة إلى محافظة داخل القطر الواحد. وهذا ما بدأ العمل عليه منذ انطلاقة فكرة بيت العود منذ خمسة أعوام. بدأنا نضع أشكالا عملية للقياسات المقترحة والدقيقة للآلة الموسيقية بالتعاون مع صناع مهرة من أرجاء الوطن العربى وأسسنا (من خلال البيت) كادر تدريسى من الشباب والذين تتراوح أعمارهم بالعشرينات، وبدأت أضع لشكل المناهج التدريسية التى أرغب فى تعميمها لأنها نابعة عن تجربة وخبرة وإلمام بمدارس مختلفة. عسى أن يتركز مجهود العازفين والأساتذة على الإجادة فى العزف والتأليف وتطوير المهارات. بدلاً من البحث عن العلل الموجودة فى الصناعة والآلة.

بعد مرور عام على انتقال بيت العود إلى مكان عريق ومستقل (منزل الهراوى) ستنطلق الورشة الخاصة لصناعة العود داخل البيت واليوم كل أعضاء بيت العود الذين يتراوح أعدادهم الستين عازفاً وعازفة يمتلكون آلات بنفس القياسات ونفس الشكل، وهؤلاء سيعممون طرق التدريس والصناعة إلى محيط أوسع. كذا إصدار الكتاب الخاص بى الذى سيكون



شاملا لما سيحتاجه العازف من معلومات كاملة بكل ما يتعلق بآلة العود.

تحديات ايجابية

أهمية الورشة ضمن بيت العود العربي تشبه إلى حد ما مختبرا علميا صناعيا لتطور صناعة آلات العود. من استخدام الخشب وتجفيفه إلى حجم الصندوق الصوتي وقياس زند العود وكل ما له علاقة بنقاء الصوت وجودته. ومنذ أعوام وأنا أعلم اثنين من صناع العود كل ما أتوصل إليه من أفكار ليمتلك العازف آلة أحسن مما لديه وبالفعل توصلنا إلى نتائج ايجابية كبيرة وحتى تخفيض أسعار العود الجيد الذى أصبح خارج تناول الطلبة.

اضافة إلى تطوير البحث فى أساليب العازفين وشرحها وتاريخ الآلة الموسيقية وهذا أصبح جزءاً من البرنامج السنوى لبيت العود الذى أصبح فى تناول الجمهور المتابع لنشاط بيت العود العربى.

مستقبل كامل أعضاء بيت العود المهنى من الأمور التى تشغلنى بإلحاح، مستقبلهم تأمين حياة متوازنة تبعدهم عن النزول عن قيمة العلم الذى تحصلوا عليه. انتشارهم فى بقاع العالم من خلال بيوتات للعود تربطهم بالمقر الأم.

إحياء ثقافتنا العربية

الشاغل الآخر هو اعطاء صورة عميقة عن ثقافتنا العربية فى أرجاء العالم، وهذه تتطلب منى تمريناً متواصلاً يومياً يمتد **لساعات وقراءات وسماع كل ماهو جديد وكل ماهو مهم من القديم، وتواجد فى المحافل الدولية المهمة وتقديم أفضل العروض المتقنة والمشبعة بروح الصوفيين المجهولين وفطاحل الشعراء وفلاسفة العرب القدامى وإرث الموسيقى الثرى. خلط هذه النقاط وتقديمها عادة موسيقية تمنع المتلقى من التنحنح والتحرك داخل كرسيه وسط صالة الحفل. الاتقان** والجودة والعمق أسس أى عمل فنى يجب أن تقدم من خلاله أنفسنا وما يقف خلفها من ثقافة وثراء وتنوع. اضافة إلى طبع اسطوانات منتشرة فى كل أنحاء العالم تحمل للإنسان كل الضفاف الأخرى أفكارنا وأحلامنا ورؤانا الموسيقية ونظرتنا لشكل الحياة وجوهر فلسفتنا.

هذا ما أريد أن أبوح به وهناك المخفى الذى سأحققه إن توفر وقتاً أعيشه.. أحلامى التى تتحول إلى شاغلى هى أحلام يقظة. دائماً أغير مسارها لتصبح منهاج حياة. ما تحقق منها يقف عند حدود الحلم لغاية اثنى عشر عاماً الأولى من عمرى. مابعد ذلك أحاول أن أوفر الوقت الكافى لتجسيدها كواقع.

ماسبق ذكره هو ما يشغل نصير شمه مهنيا.. لكن ما يشغل هذا النصير على صعد أخرى آفاقه منتشرة فى اتجاهات بعيدة داخل وخارج الروح لا حدود لمداها. تبدأ من انطلاق جملة موسيقية. ولا تنتهى عند تغلغلها داخل روح صافية تتلقفها وتسكن ضمن ذبذباتها. ■

١٤٥



محرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م



صنع الله إبراهيم



.. و مصداقية أمريكانلى

أمريكانلى = أمر « صنع الله » عجب !

بقلم
صافى ناز كاظم

كان لابد أن أقرأ كتاب صنع الله إبراهيم المعنون « أمريكانلى = أمرى كان لى » ، وذلك لسببين شخصيين ، الأول : أننى كنت أول من قدم صنع الله إبراهيم فى الصحافة المصرية « العلنية » عندما انبهرت عام ٦٦ - ١٩٦٧ بروايته القصيرة جدا ، المكثفة جدا ، الموجعة جدا ، « تلك الرائحة » ، ورغم أننى لم أكن قد خبرت وقتها ظلم الاعتقال وإهانات المراقبة وسماجة التحقيقات الأمنية ، إلا أننى - بانتمائى لآلام الوطن - كتبت أشيد بفنه الثاقب ، (وكان المقال يشيد أيضا بقصة قصيرة لجميل عطية عنوانها « خطبة هامة وسط قوارير الزيت » ، وبقصة قصيرة غريبة لمحمد مبروك إبراهيم هى : « صوت صمت نزف نصف طائر » - أو مايقترب من هذا - كنت فرحة باكتشافى لأصوات شابة من جيلى فى عنفوان غضبها . وكنت فرحة على وجه الخصوص لأن « صنع الله » و« جميل » مثلى من مواليد أغسطس ١٩٣٧ ، برج الأسد !) .

ومازلت أذكر بحثى المضنى عن صنع الله إبراهيم حتى وجدته وطلبت منه التفضل بالحضور إلى دار الهلال لنلتقط له صورة، فجاء بوجهه النحيل، شديد الشحوب، وملامحه التى تعطيه قسمات المرتجف من البرد، المغتصب للضحكات بسبب الألم المبرح أو التهكم المرير، وظل يؤكد فرحه بترحيبى بروايته وبأن صورته «ستظهر فى المجلة»، على حد تعبيره، الذى لم أفهم إذا ما كان ساخرا أم صادقا، وكانت تلك الصورة التى التقطها مصور دار الهلال عام ١٩٦٧/٦٦هى الأولى، على وجه اليقين، التى يحتفظ بها أرشيف دار صحفية للأستاذ صنع الله إبراهيم. لم أكتف بهذا الاستقبال لرواية صنع الله، ولكنى - كعادتى فى حالة الحماس - حملته فوق رأسى أنوّه بروايته «الرائعة» لكل رائح وغاد، وإذ كنت فى زيارة لبيت الصديق الراحل الأديب الفنان غسان كنفانى فى إحدى ضواحى لبنان، أبريل ١٩٦٧، قابلت المترجم الإنجليزى الشهير «دنيس جونسون - ديفيز»، وأبدى اهتمامه بمعرفة حركة الأدب الحديث فى مصر فرشحت له «تلك الرائحة»، وحين قال إنه لم يسمع عنها أو عن مؤلفها من قبل، قلت له: تماما فلم يكن من الممكن أن تسمع عنها أو عن مؤلفها وهو فى غياهب السجن والاعتقال.المهم أن ترشيحى أنتج لقاء طيبا بين «صنع الله» و«جونسون - ديفيز»، وظهرت الترجمة الإنجليزية الرائجة لـ «تلك الرائحة».

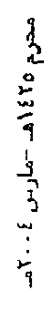
السبب الشخصى الثانى: هو ما تضمنه كتاب «أمريكانلى» من تفريغ لبعض حوارات الفيلم التسجيلى «أربع نساء من مصر» الذى أخرجته المصرية/الكندية تهانى راشد عام ١٩٩٧ وكنت واحدة من السيدات الأربعة.

أما الأسباب الموضوعية لإقبالى على قراءة «أمريكانلى» فكانت رصيد إعجابى بأسلوب وفن كتابة صنع الله إبراهيم، وتقديرى لإيقاعه الشيق السريع، لأننى لا أطيق الملل والإملال والكتابة الطاردة التى تدفعنى بقبضتها لأشيح عنها.

لم تفتنى رواية كتبها «صنع الله»، حتى وإن لم يهدها إلىّ، قرأت كل أعماله، ماعدا كتابه الذى ملأنى بالتقزز «التجربة الأنثوية» - فألقيت به بعيدا بعد صفحات قلائل، فى الوقت الذي شكرت له «ذات» وضحكت وأنا أقرؤها حتى دمعت عيناى من الصدق والحزن معا.

* * *

تأخذ الهواجس الجنسية ركنا رئيسيا فى البناء الفنى لأعمال «صنع الله إبراهيم»، يعبر عنها بوضوح وصراحة من دون أن يقدسها أو يبتذلها. يخيل إلىّ



أحيانا أنه يزدريها ويمتهنها، فهو يوظفها غالبا للتعبير عن القهر والحصار والتضييع. هناك ذلك التجسيد الحسى للأزمة والوحدة والاغتراب وقلة الحيلة، لابد عنده من تلك «اللطشات» الحسية الغالبة على السياق لإنزال «الجاد» إلى مستوى «العبث»، نتيجة لهذا التوق إلى كشف الزيف ومعاقبته هو والكذبات بالتفاهة والتسفيه.

☆☆☆

حين أقبلت على قراءة «أمريكانلى» - ٤٨٤ صفحة - لم أتخوف من طولها وأوراقها الكثة، فعهدى أن خفة الظل وفن الكتابة عند «صنع الله» يهونان كل صعب، فدخلتها، غير متحوطة من الزلات والمقالب حتى بدأت أشكو رتلا تفصيليا من التفاصيل، غير المؤدية إلى كوّة للإنقاذ، أمسك بخناقى وزهقت روحى. تركت الكتاب فترة، ثم عدت إليه فى محاولة ثانية وأخيرة، قلت إنه ليس «رواية» بالمعنى المفهوم لهذا الجنس الأدبى، إنه تقرير «يروى» فيه تجربته ومشاهداته وتأملاته حين استضافته إحدى الجامعات الأمريكية ليحاضر عن نفسه. لابأس، لكن لماذا حاول أن يغطى ذاته بقناع وهمى لأستاذ تاريخ يحاضر عن التاريخ؟ القناع وهمى وغير محكم ويطل من ورائه بشفافية كاملة الكاتب الروائى صنع الله إبراهيم الذى استعاض عن القلم والورقة بالكتابة المباشرة بالكمبيوتر، ولعل هذا هو السبب فى أنه نسى نفسه وظل «يدردش» حتى كبّت الطابعة فى حجره ٤٨٤ صفحة لاتخلو من أخطاء مطبعية وثرثرة لم تدعمها الهوامش المفيدة للتعريف بهذا وذاك، فكل تعريفاته فقدت مصداقيتها حين دلفت إلى تفريغه لحوارات الفيلم التسجيلى «أربع نساء من مصر». كانت التفريغات نموذجا فريدا لتجسيد أغنية الطفولة :

«خواجه إلياس،
كب العدس على القلقاس،
فى البيييرا!».

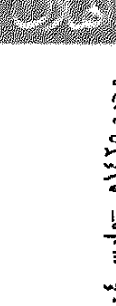
خلل رهيب أحدثه صنع الله فى اقتباساته من الفيلم الذى يقدم أربع شخصيات مختلفة تمام الاختلاف فى المنطق وفى المفردات والمجادلات وإن اتفقت فى الموقف الذي يرفض الكيان الصهيونى، والهيمنة الأمريكية، والدكتاتورية والبطش السلطوى الظالم. شخصيات الفيلم تجمع وداد مترى اليسارية المسيحية، أمينة رشيد

الماركسية، شاهندة مقلد الوطنية المؤيدة لكل القـوى المهـتـمـة برفع الظلم عن الفلاحين، وكاتبة هذه السطور التي تنطلق في كل أمورها بهدى عقيدتها الإيمانية المسلمـة. هذا التـبـاين في مكونات كل شـخـصـيـة جـعل لكل واحـدة أسلوبها ومنطقها الذي لاينسحب منها إلى غيرها، لكن هاهو «صنع الله إبراهيم» ينسب كلام «شاهندة» إلى «أمينة رشيد» - ص ٤٢١ - ممزوجا ببعض فقرات من كلام «أمينة» وينسب كلام «أمينة رشيد» إلى «صافي ناز» - ص ٤٢٠ - بما لايتفق مع الحقيقة ولا مع التأثير الدرامي للفيلم، وكلمات من أقوال «وداد متري» إلى شاهندة، مع الإشارة إلى بيت ابنة وداد، «ريم سعد لوقا» في ريف الفيوم، على أنه بيت شاهندة وهلم جرا ...!.

هرعت إلى شـاهندة وقلت لهـا : «هل رأيت عـصـيـدة صنع الله إبراهيم في كتابه أو تفريغه السيريالي اللامنطقي لفيلم أربع نساء من مصر؟»، قالت شاهنده : «لقد انزعجت جدا وحين نبهت صنع الله إلى كل هذه الأخطاء قال: مش مهم من قال ماذا، المهم إثبات الكلام الذي قيل!».

قلت : «وما أهمية كلام يقال من دون إثبات قائله؟» هل يجوز أن أبدو في الفيلم بشخصيتي المرتدية للزي الإسلامي الشرعي ثم ينسب إليّ كلام «قيل» على لسان أمينة رشيد يحدد رفضها الكامل للاتجاه نحو الالتزام الإسلامي وتعزوه إلى تأثير وفود القادمين من الخليج والسعودية متخمين بـ «البترو دولار» - كما تقول أو تتهم - ومتراجعين عن «الحضارة»، كيف يمكن أن ينسب إليّ أنا بالذات كلمات مثل: «التبعية ليست فقط للدول العظمى، وإنما أيضا للسعودية والدول البترولية والهجرة الواسعة، لكن الناس لايريدون المقاومة، يقولون عشان إيه؟ وأدّى هذا كله إلى موقف جديد من الحياة، فردية شرسة، بعدي والطوفان، طالما أنا أوكي. شعور قوي بعدم الحيلة، الناس ترى النتيجة. إيماني يستند إلى اختيار أخلاقي أكثر من التفاؤل الحقيقي.المستقبل يبدو لي شديد الظلمة» .هذا كلام «أمينة رشيد» برؤيتها وتحليلها الماركسي، ولايمكن أن يكون كلام «صافي ناز كاظم» برؤيتها وتحليلها الإيماني الإسلامي. كيف يتصور صنع الله إبراهيم أن الأمانة تجيز له هذا التشويه، وبمنتهى البساطة يحسم بفتواه غير الشرعية: «المهم إثبات الكلام الذي قيل»!

قلت لشاهندة: «صنع الله إبراهيم فقد مصداقيته، ولعله يعاني من عته الشيخوخة أو الزهايمر الشهير!». ■



أدباء يقدمون أجيالا جديدة

"لهوالأبالسة" و "طفل شقي اسمه عنتر"

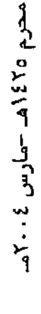
كتابات جديدة عن عالم جديد

بقلم

سلوى بكر

يقف البعض عاجزا إزاء تفسير ظاهرة الإبداع الجديد المتدفق فى القصة والرواية العربية الآن، وهناك من يعزو بروز هذه الظاهرة إلى الرغبة الكامنة لدى البعض فى التعبير عن الذات وهمومها، أو إلى تحقيق مكانة فى عالم الثقافة والأدب، وهذه التعليلات فى مجملها لا تخرج عن نطاق علم النفس، ويمكن الرد عليها ببساطة، إذ أن كثيراً من كتاب الرواية والقصة الجديدة هم متحققون بالفعل بشكل أو بآخر فى مجالات أعمالهم ودروب حياتهم .

وربما يكون من الأنسب تفسير ظاهرة التدفق الإبداعي الجديد ضمن اطار تدفق المتغيرات الدولية والمحلية وتلاحقها المجنون طوال الوقت فسقوط دول، وتهاوى أفكار، وصعود جماعات اجتماعية وهبوط غيرها كانت على القمة، وتناقضات العالم المعاصر التى تصل إلى حد المهازل المسرحية





سهير المصادفة



.. وعوالم عشوائية

والعبث الوجودى ، كل ذلك دفع بعشرات الناس للإمساك بالأقلام، أو لمس أزرار الكمبيوتر للتعبير عن رؤيتهم لهذا العالم الذى بات غريباً ولايمكن قبوله أو تفسيره ضمن أطر المنطق المعتاد ولعل غياب الأطر السياسية الفاعلة، وقدرتها على التحليل ،والتفسير والفعل والحركة فى الشارع العربى دفع الكثيرين لأن تكون الكتابة بديلا ووسيلة للتعبير عن الذات، وعن العالم المحيط وبغياب العمل السياسى بإعتباره ضرباً من الابداع والفن، فقد لجأ هؤلاء إلى الفن والإبداع الأموى والأكثر تأثيرا وهو الإبداع الأدبى فى صورته القصصية والروائية.

فالكتابات الجديدة وإن بدت للوهلة الأولى وفى مجملها منشغلة بالذات، أو منكبة على عوالمها، إلا أنها تفصح فى النهاية عن مأزق حياتى وهو مأزق الاضطرار إلى الانسحاب من المتن إلى الهامش المجتمعى، والعيش خارج السياق أو خارج النص الاجتماعى بكل ما فيه من قيم ومتعارف عليه من مفاهيم وقواعد تنظيم علاقاته وأعرافه، ويرتكز هؤلاء المنسحبون إلى أن هذا المجتمع فاقد للمنطق الإنسانى فى العدالة الاجتماعية وتداول الإدارة بين الأجيال وتبدل المواقع فالكبار فيه هم كبار إلى الأبد، والصغار يظلون إلى جانبهم أقزاماً لاينمون ولا يكبرون رغم مالديهم من خبرات وامكانات .

ومعظم ابطال الروايات والقصص الجديدة هم نماذج معبرة عن هؤلاء المنسحبين، فهم غارقون فى هموم أجسادهم ويتعاطون المخدرات ويتعاملون مع هموم المجتمع برفض واستعلاء ولامبالاة فى أفضل الأحوال، كما أنهم لا يراهنون على أى فكر أو فعل سياسى، وبعد هذه الكتابات ينحو

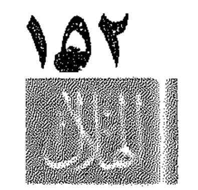
إلى تحطيم التابوهات أو المحرمات وانتهاكها على نحو صارخ كموقف احتجاجى ضد «المجتمع» ، الذى لا يسمع ولا يرى ،ولا يسمح لهؤلاء الشباب بالتعبير أو التكلم عما يجيش فى صدورهم وبدواخلهم، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع أصوات احتجاجية بالمقابل ضد هذه الكتابات، كما أن بعضها قوبل باحتفاء نقدى من البعض الذى وجد فيه «سكة» جديدة للكتابة وشجاعة أدبية، وقدرة على اختراق «المسكوت عنه» واجتياز مالم يجتز فى الكتابة الأدبية من قبل .

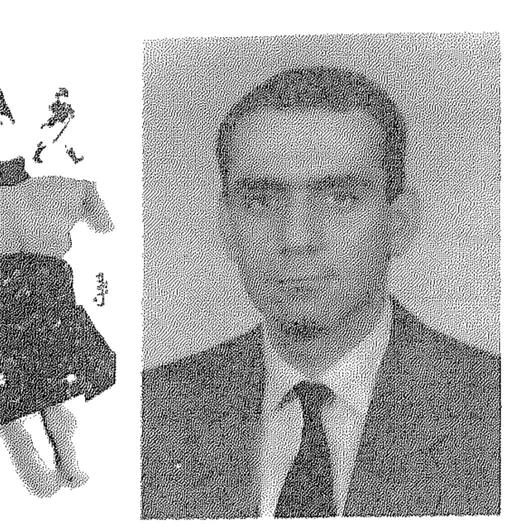
كتابة أخرى

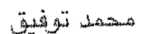
كانت هذه الكتابات الرافضة برز نوع آخر من الكتابة توازى زمنيا مع هذه الكتابات لكنه آثر الاشتباك مع المجتمع وهمومه، وجاء رفضها بعيداً عن الشعور بالذات وتضخيم همومها أو فصل هذه الهموم عن هموم المجتمع، بل سعت هذه الكتابات إلى الكشف عن الخرائط الوعرة المعقدة لتضاريس البنية الاجتماعية الجديدة، والتنبيه إلى ما بها من مثالب وعيوب وتعتبر رواية «عمارة يعقوبيان» لعلاء الاسوانى والتى صدرت لأول مرة منذ سنوات هى الرواية المفتتح لهذا الاتجاه من الروايات الجديدة، كما يمكن رصد روايتى سهير المصادفة «لهو الأبالسة » ورواية محمد توفيق المعنونة «طفل شقر اسمه عنتر» ضمن هذا التيار المشار إليه، وهو تيار لاتغيب عن عينه تعقيدات المجتمع، ويسعى إلى فك طلاسم هذه التعقيدات عبر الرصد الروائى .

مهمشون ومشوأون

فى رواية سهير المصادفة «لهو الأبالسة» يتكشف عالم بات من الصعب تجاهلة ولو بالعين المجردة فالتجمعات السكانية العشوائية التى نمت كالفطر حول المدن الكبرى فى مصر، خلقت معها أنماطا بشرية جديدة لها عوالمها وعلاقاتها الناتجة والوثيقة بطبيعة المكان العشوائى الذى تعيش فيه، وتسعى «لهو الأبالسة» للكشف عن العوالم الإنسانية العشوائية، فالذين تم استبعادهم بسبب الفقر وتدنى المستوى الاقتصادى والاجتماعى، والذين يلفظهم الريف وقراه المتدهورة ، هم المكون الإنسانى لهذه العشوائيات التى تغوص فى عوالمه الرواية . فالمعشوأون تدور حياتهم فى فلك كل ما هو عشوائى مثلما كان ميلادهم فعلاً عشوائيا أيضا . وهؤلاء المستبعدون، والذين لايمكن تصنيفهم اجتماعياً لم يحصلوا على أية خبرات تعليمية تؤهلهم للانخراط فى المجتمع، والدخول إلى «الهيئة الاجتماعية»، بالمعنى المتعارف عليه، وهم يعيشون بلا خدمات دون كهرباء أو مياه شرب نظيفة







محمد توفيق

.. ومبالغات منطقية

أو أية شروط ذات حد أدنى للحياة الآدمية الإنسانية .

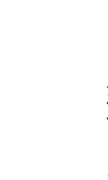
لقد ساد فى أدب الحقبة الستينية وما تلاه نماذج لأبطال اصطلح على تسميتهم بالمهمشين، غير أن مهمش الستينيات لايتشابهون مع أبطال « لهو الأبالسة»، فالأولون كانوا يشكلون ظاهرة محدودة قدمت فى الأعمال القصصية والروائية من باب الغرائبية أو الطرافة غير أن أبطال المصادفة هم نماذج باتت تشكل ظاهرة مجتمعية، فهم ملايين من أبناء المجتمع العاطلين عن العمل الفاقدين لأى خبرة بل هم قنابل موقوتة قابلة للانفجار لأنهم وكما يقول بول ايلوار الشاعر الفرنسى :

الذين بلا خوف

بلا قبعات

وهم الذين يموت أفضل من فيهم بسبب المرض والجهل والجوع ودون أن يلحظهم أحد، فبطلة رواية «لهو الأبالسة» الساردة للنص الروائى، هى دارسة عادت من موسكو لتعيش فى هذه العشوائيات وترصد عالمها وتقرنه طوال الوقت بعالم كان يسمى ذات يوم «الاتحاد السوفيتى»، وهو العالم الذى عاشت فيه حيناً ودرست فى جامعاته.

إن الروائية تعقد المقارنة المتوازية بين العالمين، حيث عالم السوفيت الذى بدا حلما ذات يوم، ولكنه راح وتبدد وعالم «حوض الجاموس» موضوع الرواية الذى يعيش فى الظلمات الدائمة بسبب غياب الكهرباء وظلام العقل الذى ترتفع فيه الخرافات بمجرد أن تغيب الشمس لتطفو على سطحه الأشباح والعفاريت والجن، وكل ما تغذيه مئات الكتب المطروحة على أرصفة المدن الكبرى من أفكار تمتهن العقل وتنحيه عن طريق الحياة الحقيقية.



وهذا التوازى الروائى بين عالم حوض الجاموس فى لهو الأبالسة وعالم السوفيت المتلاشى، يطرح أسئلة لابد منها عن أفق منتظر لمحرومين معشوئين فى هذا المكان المفترض روائياً أو أى مكان عشوائى آخر حقيقى فى العالم، حيث راهنت الملايين من أمثال هؤلاء المعشوئين على حكم بالعدالة الاجتماعية والمساواة الإنسانية فى بلدان نهبت فراراً من الاستعمار ورأت أن تجربة السوفيت ربما كانت تجليا أمثل لهذا الحلم، من الممكن إنجازه على الأرض .

طفل شقى اسمه عنتر

وتتواصل رواية «طفل شقى اسمه عنتر» لمحمد توفيق، مع رواية سهير المصادفة فى طرحها لنماذج مهمشة فى المجتمع المصرى الراهن، عبر تدفق سردى شديد الثراء فى تفاصيله فعالم الرواية الذى يبدو شريانه الرابط هو النيل فى إشارة رمزية إلى أن العمل قابل للامتداد مع امتداد النهر العظيم علي كل الخريطة المصرية، يتوقف منذ بدايته عند عسكرى المرور الشاويش أشمونى الذى يفتتح بعينيه مشاهد الرواية الأولى، حيث يقف عند تقاطع كورنيش النيل فى المعادى وأمام واحدة من عماراته الشاهقة ليزيح الستار عن عالم سكانها الغرائبى، حيث يثير لغز مقتل راقصة العديد من التساؤلات ليس حول مقتلها الغامض فقط، ولكن حول القتل غير المرئى الحادث لملايين الناس كل يوم فى المجتمع، عبر أساليب الفساد، وتراجع الضمير لدى الذين يهيمنون على مقدراته، حيث برز الانحطاط الاقتصادى والتفسخ الاجتماعى، ورغم أن الرواية لاتستقبل بعالم «المعشوئين» كما هو الحال فى لهو الأبالسة لسهير المصادفة، إلا أنها تقدم نماذج لها اهميتها من حيث الدلالة الاجتماعية وتوصيفها للمهمشين فى مصر الآن، فالمهمش هو كل انسان منتج وقادر على العطاء ولديه إمكانات لهذا العطاء،عبر الخبرة والتعليم .

إن حثالة الطبقات وفقا للتعريف الماركسى والتى سادت كتعريف التهميش حيناً فى الأدب خلال كتابات الأجيال السابقة، كباعة الدبابيس وعلب الكبريت فى الشوارع، وصابغى الحمير فى الأسواق ورواد الخمارات والحانات الشعبية القذرة، لم يعودوا هم المهمشون فى الأدب الآن طالما أن التهميش الحقيقى فى المجتمع بات وبفعل الحراك الاجتماعى المتواصل يعنى استبعاد كل الطاقات الإنسانية المنتجة حقاً وصاحبة القدرات الخلاقة والإبداعات الأصيلة، إن هذا الحراك المستمر أدى إلى استبعاد كل الخبرات الأعلى، طالما أن الاقتصاد بات قائما على المضاربة والسمسرة فى

أفضل الأحوال وليس على الإنتاج الحقيقي الدافع للنمو والازدهار فالدكتور عبد الملاك فى «طفل شقى اسمه عنتر» لمحمد توفيق، عاد بشهادة دكتوراه فى الهندسة الوراثية من الولايات المتحدة الأمريكية بعد خمس سنوات دراسة فيها، لكنه يجد نفسه مهمشاً وبلا عمل بل ويكتشف أن حبه القديم الوحيد ممثلا فى زميلته فرح قد سرق منه أيضا، وهو يضطر لأن يلعب دور المشعوذ الأقرب إلى البهلوان بدلاً من العمل فى تخصصه، فهذا هو الدور المتاح له ضمن هذه الهزلية الاجتماعية الجديدة التى هى أقرب إلى العبث .

فارص أم واقعية سحرية

والملاحظ أن السرد فى الروايتين ينحو إلى مبالغات منطقية، وصفها البعض بأنها ضرب من الواقعية السحرية اللاتينية فى الأدب، غير أن الجنوح اللاواقعى الذى يتبدى مثل سقوط البيانو وأثاث الشقة فى رواية طفل شقى، أو النمو اللامنطقى لشجرة اللبلاب والدم المتدفق فى ارجاء المكان، والمرأة التى تضاجع حمارها هو فى الحقيقة جنوح ومبالغة خيالية أقرب إلى الفارص المسرحى فهذا التطرف فى رسم الشخصية أو المشهد يبدو ومقبولاً إلى أبعد حد، ضمن حدود عالم الروايتين وما يمثله من جنوح لايصدق ومبالغة عبثية فى الحياة المعاصرة التى يعيشها الناس . ■

كلمات عاشت

* لم يطرق أبى الهجاء إلا نادرا جدا ، لأنه يراه غير خليق بالشعر الرفيع

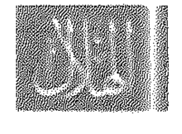
« حسين شوقي » في كتابه أبي شوقي

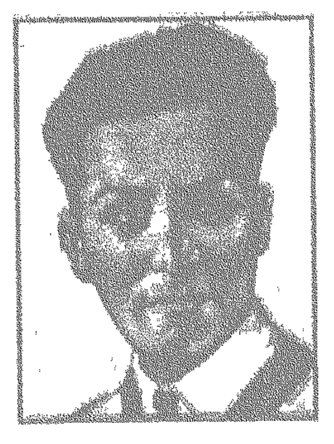
فاذهب كما ذهب الربيع مضى
فقد شيعته مدامع الزهر
واهدأ كما هدأ النسيم قضى
فى هدأة الأضواء والشعر
ماكنت إلا أمة ذهبت
والعبقرية أمة الأمم
أو شعلة أبصارنا خلبت
ومنارة نصبت على علم

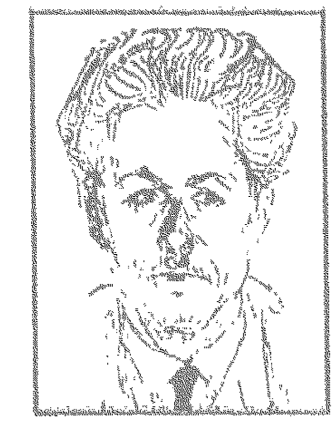
« الشاعر إبراهيم ناجي » علي قبر شوقي

* ليس الإنسان كومة أسراره الحقيرة ، إنه ما يصنعه

« أندريه مالرو »

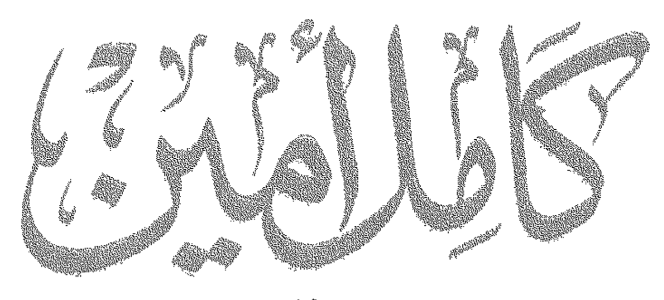



أبو القاسم الشابى

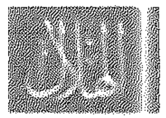

كامل أمين

من حديث الشعر والشعراء

الحياة الملحمية لشاعر الملاحم



بقلم
وديع فلسطين



محرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م

إذا قيل شاعر الملاحم، انصرف القول إلى ثلاثة من شعراء العصر الحديث هم أحمد محرم والشاعر اللبنانى بولس سلامة والشاعر كامل أمين، ولكن حياة كامل أمين كانت ملحمة دهرية منذ ما ولد فى طنطا فى الخامس عشر من مايو ١٩١٥ وإلى أن لقى وجه ربه فى التاسع عشر من سبتمبر ٢٠٠٣ ، بعد معاناة طويلة مع المرض وبترت فى أثنائها ساقه، وتسمر فى فراشه فاقد الأمل فى أن يتلقى ذات يوم هاتفا من جهة من جهات الثقافة المتعددة سواء لمواساته أو لإسداء يد إليه فى العلاج أو فى الاهتمام بشعره الذى تتهدده عوامل الضياع.



رشيد سليم الخورى



فدوى طوقان

بولس سلامة

ولما ازدادت مرارته من ذل المرض، طلب من ابنته أن تجلسه على الكرسى المتحرك وخرج إلى حيث تلعلع شاشة التليفزيون ببرامج الشخلعة وقال فى سورة غضب : إنى أبصق على هذه الدنيا.

بل إن وفاته - وهو شاعر ذو تاريخ ومنزلة - لم تنتبه إليها جميع وسائل الإعلام، بما فى ذلك صفحات الأدب وصحفه، لولا كلمة منصفة من الصحفية ابتسام الهوارى.، وكلمة بليغة من استاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.

ولأن ظروف الحياة التى عاشها كامل أمين كانت مورثة للقنوط، فقد ساق فى عام ١٩٦٣ أبياتا تنبأ فيها بنهايته الأسيفة ، حيث قال:

ها أنا أمضي عن الدنيا كما يمضي القطيع
وسياط الدهر تهوى فوق ظهرى وأطيع
وأرى الساعات تمضى، وأرى عمرى يضيع
وسأمضى بعد حين حيثما يمضى الجميع

بين الكفاح والاعتقال

خاض كامل أمين الحروب ثلاث مرات، مرة كمجند فى الحرب العالمية الثانية، و مرة متطوعا فى حرب فلسطين، ومرة متطوعا أثناء العدوان الثلاثى فأدى بذلك لا ضريبة وطنية واحدة، بل ضرائب ثلاثا أصيب أثنائها إصابات بليغة فحاولت الشاعرة فدوى طوقان فى الحرب الفلسطينية إخفاءه فى بيتها وتطبيبه، وعاد إلى مصر ليستكمل العلاج على يدى شاعر الأطلال الدكتور إبراهيم ناجى.

وعرف كامل أمين السجون مرتين إذ ألقى القبض عليه فى محاولة اغتيال الزعيم مصطفى النحاس باشا لشبهة لم تثبت عليه، وتكرر اعتقاله فى عام ١٩٦٧ حيث قضى فى السجن ثلاث سنوات، وكان وقتها يعمل فى وظيفة متواضعة فى وزارة الأشغال، فتم نقله منها، مما اضطره بعد الخروج من السجن إلى قبول العمل فى إحدى الشركات.

وكان قد توهم أن استقلاله بالعمل لحسابه الخاص يهيىء له حياة الاستقرار، فالتحق بكلية الحقوق بجامعة عين شمس وعمل بالمحاماة بعد تخرجه ولكن المحاماة عاندته فلم توفر له أسباب العيش المستقر مع أسرة قوامها زوجة (هى ابنة رائد أدب الأطفال كامل كيلانى وولدان توفي واحد منهما صغيرا، وخمس بنات، فاضطر إلى هجر المحاماة ملتمسا لنفسه وظيفة تؤمن له راتبا شهريا فى إحدى الشركات، كما أسلفنا.

اعتزاز بالنفس

وعلى الرغم من الظروف القاسية التى اعترضت حياة كامل أمين، فقد كان شديد الاعتداد بنفسه، يرى نفسه كشاعر متسنما قبة الجوزاء فى حين أن كل الناس، بما فيهم الشعراء دون منزلته، وقد عبر عن ذلك بأبيات صارخة قال فيها:

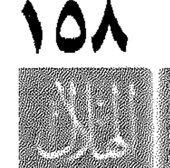
إلى الذين سمائى فوق عالمهم
وفوق كل عظيم فوقهم قدمى
العائشين مع الموتى مناصفة
كالحلم فى العين، بل كالدود فى الرمم
لئن حييت ومد الله فى أجلى
لأسفكن دم الكتاب فى قلبى
وأجدعن أنوفا لو صنعت لها
أنفا من العاج، بعد اليوم لم تقم
ممن أخاف، وسيف الله فى قلمى
ومن أهاب ، وصوت الحق ملء فمي

ملاحم كامل أمين متعددة، بعضها منشور وبعضها مازال مخطوطا، وهى فى جملتها تعتمد مادة التاريخ فى أذكر منها «ملحمة القادسية» و«ملحمة عين جالوت»، و«ملحمة حطين» و«الملحمة المحمدية»، و«ملحمة السموات السبع الأولى» و«ملحمة السموات السبع الثانية»، و«ملحمة أكتوبر» و«ملحمة إخناتون»، و«ملحمة الخوص» وفيها يرثى نجله الراحل، وله من الدواوين «المشاعل» و«نشيد الخلود» و«عندما يحرقون الشجر» و«النور الأخضر»، أفلا يستحق هذا التراث الشعرى أن تنبرى لنشره هيئة من هيئات ثقافتنا، إن لم يكن وفاء للشاعر الراحل، فتقديرا لهذا العمل الملحمى، والشعرى المتفرد فى يومنا الحاضر.

وكانت رابطة الأدب الحديث قد أقامت حفلا لتأبين كامل أمين غابت عنه وسائل الإعلام جميعا. ربما لانشغالها بسهرات رمضان ومسلسلاته وفوازيره، فألقيت كلمة فى هذا الحفل قلت فيها:

عطاء وتجاهل

كانت حياة كامل أمين ملحمة من الملاحم التى لم ينشرها على الملأ، فقد خاض المعارك، وجرب السجون والمعتقلات. وتلطم فى تحصيل أسباب الرزق لكى يقيم أود



أسرة كبيرة، واختار لنفسه طريق الشعر الشاق، وهو شعر الملاحم، فسخر موهبته لنظم ملاحم تقع فى آلاف من الأبيات حتى وإن جافته أسباب النشر وكانت آخر ملاحم حياته تجربة المرض فى شيخوخة أربت على ثمانية وثمانين عاما ، فقضى بقية عمره مقعدا دون إذلال لأنه كان عميق الإيمان مستسلما لأقداره، لا يشكو ولا يتضجر، فذهب إلى لقاء ربه دون أن يسمع كلمة عطف أو رعاية من الأجهزة الرسمية، بل دون أن تهتم حتى صحف الأدب بنشر خبر وفاته لأنه من شعراء يترسمون الفحول فى إنجازاتهم، وليس من شعراء الخزعبلات الشعرية!.

ولقد ران عليّ حزن شديد عندما علمت من أسرته الصابرة أنه ظل محتفظا بكبريائه الشماء، فأبت عليه نفسه أن يعكر صفو أحد من زملاء الشعر والنثر، ولا طرق باب واحد من سدنة أجهزة البيروقراط، ولا نافس زيدا فى مسابقات الشعر المحلية والنفطية ، ولا تملق وزيرا أو كبيرا، ولا استصرخ أهل الأريحية فى نداءات منشورة في الصحف، وإنما عزت عليه نفسه وتمنعت روحه المستعلية فلم تندّ عنها حتى عبارة: آه!.

هذا هو كامل أمين، وله من اسمه نصيب فى سمو الخلق وأصالة الوجدان، فهو كامل بحق، وهو أمين بصدق، وهو فى حياته الملحمية مجاهد حتى.وإن أنكر الناس عليه جهاده.

وهذه ملاحمه ودواوينه. ما نفذ منها ومازال مخطوطا، تنتظر أن ترى النور ولا تستجديه من أحد، لقد أدى كامل أمين رسالته ومضى، وبقى على المجتمع الأدبى - إن كان له وجود - أن يستكمل رسالته بطبع هذه الأعمال الكاملة ليستوحى منها الجيل الجديد معانى البطولة والوطنية والفداء وبذل الأرواح رخيصة فى سبيل الوطن أو المبادئ أو العقيدة.

أيها الصديق الراحل، كم ألوم نفسى على التقصير المتطاول معك، فقد مضت سنوات دون أن أسأل عنك، ولكننى كنت أدرك أننى لا أستطيع لك شيئا ولا أملك من أمرى ما يخفف عنك بعض معاناتك، فتغاض عن تقصيرى، وإن كنت لا أغفر لنفسى، وأحمد الله الذى رزقك بأسرة كانت بارة بك، وأحاطتك بعواطفها ومشاعرها وحبها، وأغنتك عن استجداء الرحمة من الغير، وهى قد عاهدتك على أن تبقى أسرة مترابطة يشرفها أن تنتسب إلى كامل أمين.

الاستشهاد بالشعر

ومادمت استغرقت هنا فى حديث الشعر والشاعر، فإن لى وقفة مع الذين يستشهدون بالشعر فى كتاباتهم المنشورة، دون أن يتحروا نصه الصحيح أو نسبته إلى قائله، وأخشى ما أخشاه، ونحن فى عصر يلقف فيه الناس الثقافة لقف عجلان، أن تشيع على الألسنة وفى الدراسات الأكاديمية الأغاليط التى يتورط فيها الكاتبون عند الاستشهاد بالشعر.

فللشاعر المهجرى رشيد سليم الخورى المكنى بالشاعر القروى قصيدة عنوانها

«بين البشر والبقر» نظمها عندما كان الاستعمار الأجنبي جاثما في ربوع بلادنا العربية، وقارن فيها بين البقر الذي يراه سارحا في مروج البرازيل لايعاني شيئا من الإذلال الذي يعانيه أبناء وطنه تحت نير المستعمر، فقال مخاطبا البقر:

طوباك سارحة في القفر طوباك
إن كنت أحسد مخلوقا، فإياك

وكان مما قاله في هذه القصيدة:

تشكين فصل الشتاء البارد القاسي؟
ماذا أقول أنا في عشرة الناس؟
نامي على الثلج، نامي، ليس من باس
فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وإن تكن هاطلات الغيث تنشاك
طوباك، فالقطر غير الدمع طوباك

وختم القصيدة بقوله :

طوباك في مربع الحرية الخصب
بين الأزاهر والأمواه والعشب
لو تعلمين عن الإفرنج والعرب
وما يلاقيه في الأوطان كل أبي
ماكنت تخشين من سكين سفاك
طوباك فالموت غير الذل طوباك

وقد نظم الشاعر القروي هذه القصيدة في إحدى جولاته بالقطار في البرازيل لكي يبيع ما يحمله من عروض البضاعة، وفي أثناء عودته من هذه الجولة ركب البحر، فهاج نوء عظيم كاد يغرق السفينة ، وخاف الناس خوفا شديدا، أما هو فكان همة الأكبر أن يجد وسيلة ينقذ بها قصيدته، ولو هلك. فالقصيدة نظمها الشاعر القروي، والحديث فيها موجه الى البقر لا البشر ومع ذلك جاء لوذعي من كتاب الأركان الصحفية فنشر في جريدته المعمرة فذلكة بعنوان «مع الشتاء البارد» زعم فيها - حسب ظنه - أن الشكوى من فصل الشتاء في هذه القصيدة هي لميخائيل نعيمة. ثم قال: «إن مشكلة الشاعر أنه يبحث عن قلب فيه إحساس، وهذا القلب اليوم في ندرة العنقاء والخل الوفي» فالشاعر لم يكن يبحث عن قلب - لعله قلب الحبيبة - وإنما كان يخاطب البقر ولا البشر! ودع عنك أن اللوذعي قد كسر الأبيات التي استشهد بها مادام يعتمد على الذاكرة الخؤون.

وقرأت ذات مرة لكاتبة في إحدى المجلات استشهادها بالبيتين:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القبة الشماء



ونسبت هذين البيتين الى المتنبى مع أن قائلهما شاعر تونس أبو القاسم الشابى ..

وإذا كان لابد من الاستشهاد بالشعر، فللمستشهد أن يتخلص من خيانة الذاكرة بأن يقول كما قال الشاعر، دون تحديد لاسمه، وهو ما أفعله شخصيا إذا ما عز على نسبة أبيات إلى قائلها.

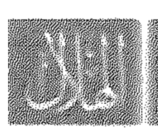
الأيام الأخيرة للشاعرة فدوى طوقان

ودعت الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوفان عالم الفناء في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر الماضى عن عمر يناهز السادسة والثمانين، وقد بدأت رحلة الفناء عندما سقطت فى منزلها قبل نحو خمسة أشهر وتعرضت لكسور مضاعفة زاد من صعوبة علاجها أنها كانت تعانى إلى جانب ذلك من داء السكرى ومن ارتفاع الضغط، وفى أثناء مرحلة العلاج فى المستشفى أصيبت بجلطة بسيطة فى المخ، وتصادف وقتها أن كان فى نابلس طبيب فلسطينى يعيش فى ألمانيا ويتابع أحدث تطورات الطب فى علاج الجلطة، فاستطاع أن يشفى فدوى من هذا العارض، ولاسيما لأن احتمالات الشفاء منه لدى المتقدمين فى السن أكبر من احتمالات علاجه لدى الشباب، على ما أفاد هذا الطبيب النطاسى.

وبعد شهور قضتها فدوى المستشفى نقلت إلى منزلها لمتابعة العلاج الطبيعى، ولم تكن تستطيع المشى إلا بالاستناد إلى عكازين وفى مصاحبة المرضات خشية أن تفقد توازنها، وبسبب فقدانها للشهية، كانت تكتفى بأقل القليل من الطعام حتى صارت «جلدا على عظم» فتدهورت صحتها من جديد ونقلت إلى المستشفى وصارت تنادى أمها وأباها وشقيقها مرحبة بالانضمام إليهم، وجاءت لحظة الختام المحتومة لتثير عاصفة من الحزن على رحيلها فنعاها الرئيس ياسر عرفات قائلا إنها جبل من جبال فلسطين وكانت فدوى غير متهيبة للموت مادامت تموت فى بلادها وتدفن فى ثراها، وقد عبرت عن ذلك بقولها:

كفاني أموت علي أرضها
وأدفن فيها
وتحت ثراها أذوب وأفني
وأبعث عشبا علي أرضها
وأبعث زهرة
تعبث بها كف طفل نمته بلادي
كفاني أظل بحضن بلادي
ترابا ، وعشبا، وزهره

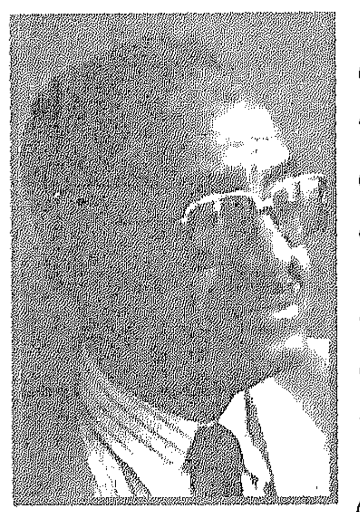
وها قد تحققت أمنية فدوى طوقان، فاحتضنها ثرى فلسطين كما احتضنت هى قضية فلسطين فى حياتها وشعرها ووجدانها وقلبها. ■



نجيب محفوظ ظالماً !!

عرض ونقـــد

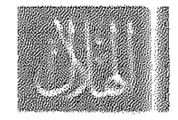
عبد المنعم الجـداوى



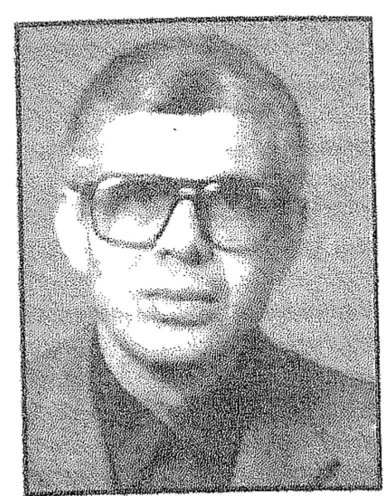
رحل الكاتب عبد المنعم الجداوي وهو يمسك بقلمـه ، الذى طالما غمسـه فى مداد المقالة الأدبية ، ترويحا لنفسه بعيدا عما تخصص وبرع فيـه من مقال التحليل الاجتماعى للجريمة .

رحل كاتبنا الكبير تاركا بين جدران مؤسسة دار الهلال أصداء ضحكاته ورحيق قلمـه ، فلروحـه المحلقة التحيـة.. ولنفسـه المطمئنة الجنة .

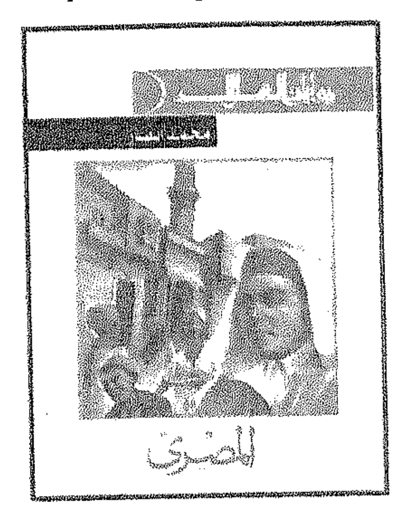
.. الهلال



هكذا امتد ظلم عبقرية «نجيب محفوظ» إلى كل من ينطق العربية ، وهذه اعترافات كاتب مغربى ، ضاع عمره فى محاولتـه أن يكتب عن «تطوان» كمـا كتب «نجيب» عن «القاهرة» ، وأن يأخذ من حوانيتها وأزقتها ما أخـذه «نجيب» من «زقاق المدق» ، و «الغـورية» ، و«خان الخليلى» ، ولما نفدت منه الأيام ، وأفلس زمنيـاً وذهنيا ، سجل اعترافه ، وفشله ،ومعاناته بصدق شديد ، فكان نجاحـه ، وكانت روايته التى أسماها «المصرى» وكان أولى به أن يسميها «رواية الرواية التى لم تكتب» .



الكاتب المغربى محمد أنقار



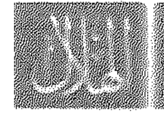
« المصرى » .. فى ظلال نجيب محفوظ

الكاتب مغربى ، والرواية اسمها «المصرى»، وهى تدور فى مدينة «تطوان» والذى يدور هو المدينة لا الأشخاص .. المدينة بأحيائها المعدمة والغنية، والشعبية، والراقية.. الأسواق والرواد.. التجار، والعمال، الذين يتعاملون، والذين يحتالون ، ومن يجرى خلفهم الدولار، ومن يلهثون خلف «الدرهم»، ولا يعثرون عليه، وقد يقعون فى أيدى القانون قبل أن يصلوا إلى «الدراهم» التى يريدونها حلالا ، ليواصلوا مسيرة الحياة .. كل هؤلاء لايغيبون عن سطور رواية «المصرى» صفحة واحدة، وأنت فى دهشة من أول سطر..! فلا تكاد تعرف سر هذه الضجة التى احتواك المؤلف «محمد أنقار» فى طياتها بعبقرية يحسد عليها.. فهو قادر على أن يجعلك قارئا ، وأنت لا تطلب غير ذلك.. ثم بعد صفحات ودون أن تدرى تعرف أنك لم تعد قارئا ، وأن المؤلف دون إذنك نقلك من موقعك ، وغير علاقاتك مع أشخاص الرواية ، فإذا بك صرت واحداً منهم.. تزاحمهم فى نواديهم، ومقاهيهم، وترى ما فى بيوتهم دون استئذان، وسواء قبلت أو رفضت فأنت فقدت حريتك بكامل رغبتك، وفى نشوة تشعر أنك تعايش أشخاص الرواية، وأنهم من موقعهم ينظرون إليك.. تقترب منهم حتى ترهقك أنفاسهم، وتسمع حفيف ملابسهم، ورائحة عرقهم.. فتبتعد بعداً يوشك أن يخرجك من بين السطور.. فتعود إلى موقعك داخل السطور.. أو بمعنى أدق داخل «تطوان». تضرب فى شوارعها، وأزقتها، ودروبها ليلا أو نهاراً.. تبحث عن شىء لا تعرفه.. لتجد نفسك فى نهاية الرواية وفى وقت واحد فى «تطوان» ، وفى «القاهرة»، وفى «تونس» وفى بغداد وكما أن كل هذه المدن مدائنك ، فأنت أيضا إبن لكل هذه المدن..!

قصة رواية

فى هذه الأوراق لن نجد رواية تقليدية كالروايات التى عرفناها.. لأنها فى حقيقتها قصة رواية لم تكتب، معاناة أديب.. تمكن منه عشق الرواية، فأحب وهوى «نجيب محفوظ» وأشخاص رواياته حبا مرضيا، شغله عن ممارسة حياته بشكل طبيعى، رغم أنه مدرس محترم، وزوج ناجح، وأب لمجموعة من الأولاد والبنات، وشقيق لإخوة وأخوات، ولهم أبناء هو العم والخال لهؤلاء وهؤلاء.. ورغم كل هذا شغف «بالقاهرة الجديدة»، والثلاثية.. وامتزج بالشخصيات، والأماكن، والحارات، والأزقة، والتهم «زقاق المدق» وصافح «المعلم كرشة»، وتصدى «لحميدة» يحاول انقاذها، وتمنى لو قفز من «المغرب» من قلب مدينته «تطوان» إلى «قهوة الفيشاوى» بالقاهرة، وأمسك بخناق «نجيب محفوظ» ورجاه أن يغير مصير «حميدة»، لأنها لا تستحق كل هذه البهدلة، وهو لن يكون وحده، وإنما سوف يكون معه «رفيق عمره» من الكتاب إلى التخرج إلى التوظف فى التعليم الإعدادى والثانوى، ثم عشقهما سويا ذلك الساحر

الذى اسمه «نجيب محفوظ» وأشخاص رواياته، وفى شطحة خيالية. يقول «أحمد الساحلى» لصديقه «عبدالكريم» أنه سوف يكتب يوما ما رواية كروايات (نجيب محفوظ) يجعل فيها «تطوان» مكان القاهرة وأسواقها مكان «الفيشاوى»، ويشفق عليه «عبدالكريم» من هذا الطموح المرعب الذى هو أقرب إلى الجنون، ويحذره أن يقف بأحلامه عند القراءة والاستيعاب ، وذلك نعمة طيبة تتلاءم، وتنسجم مع مواهبه لو حاول تجاوزها أهلك روحه، وأتلف نفسه دون طائل.. ! لكن «الساحلى» يرفض قبول نصيحة تحد من قدراته الأدبية التى لا يعرف قدرها سواه، ويروى لصديقهما المحامى «بنعيسى» عن رغبته فى استثمار موهبته ويشجعه المحامى، فهو الآخر من المعجبين بالرواية القاهرية، ولكنه يتمنى أن يكتب «الساحلى» رواية مغربية «تطوانية» تدور فى أسواق «تطوان» ومقاهيها ، وتتحدث عن الحوانيت، وأصحابها، ورجال المقاهى وكلهم جميعا كالمعلم «كرشة» ، ولهم سمات معينة.. ويسمع «الساحلى»، ويزداد جنوناً إلى حد أن الفكرة تختلط بكريات دمائه البيضاء والحمراء، فيرى فى المنام أنه مع صديق له يقتحمان مطبعة تطبع رواية جديدة «لنجيب محفوظ»، ويظل الحلم فى كيانه إلى أن يقترب من سن الإحالة إلى المعاش ويخرج زميله «عبدالكريم» إلى التقاعد، وبعدها بأسبوع واحد يدركه الموت.ويضطرب داخليا، فزميله يسبقه بعام واحد، ويحزن على صديق عمره، لكنه يفكر فى الكتابة، وكيف أنه كان يظن أنه سوف يكتبها قبل التقاعد، فلما اقترب موعد التقاعد وفاجأه موت صديقه.. اكتشف مروعاً أن الموت قد يأتيه كصديقه بعد التقاعد بأسبوع واحد، وهى فترة ضيقة قد لا يتمكن فيها من كتابة الرواية، وعليه فلا بد أن يرى مدخلاً جديداً لحل مشكلته ، وينشغل فى مشاكل تلك المرحلة الخطيرة من عمر الإنسان.. فالأولاد لهم مشاكلهم بعد أن كبرت معهم، وأصبحت تتعداهم إلى الأم والأب، ومشاكل الاستعداد النفسى للتقاعد، وخطوات تسليم العهدة، وخلو الطرف، ومن المستحيل الكتابة فى موازاة هذه المشاكل حتى لو حلت جميعها، ولكن الكتابة لابد أن يجهز لها بأن يبحر فى «تطوان» من جديد، وأن يغوص فى حوانيتها، ورجالها ، ونسائها، وأسواقها ونواحيها حتى الباعة الذين يفترشون الأرض، والنسوة اللائى يتسولن، ويقفن فى أماكن محددة، وسمات الذين يفدون إلى «تطوان» كتجار من الأرياف أو كزبائن يبحثون عن بضائع لا توجد إلا فى «تطوان».. الملابس ، الملامح، الأشكال ، السمات، الحوارات، صراخها وهمسها، وحينما يبدأ الغوص فى «تطوان» ليعد نفسه للكتابة يسأل ماذا فعل «جارسيا»، وماذا يفعل «برنارد شو»؟ وماذا قال كتاب الرواية، وماذا قال «نجيب محفوظ» عن إعداد نفسه للكتابة .. وأثناء ذلك تقتحم حياته قصة غرام ابنه بابنة الجيران ، وهم ناس دونهم فى العراقة، وتقول أمه إنها لن



تسمح بهذه الزيجة إلا على جثتها، وتتجمع العائلة فى كتلة ضد هذا الزواج الذى سوف يسىء إلى كل العائلة.

مواجهة لا طاقة لأحد عليها

والكاتب المؤلف «محمد أنقار» .. يطرح كل ذلك أمام القارىء بضمير المتكلم، فهو على لسان «أحمد الساحلى» يقول حكايته مع عشقه لكتابة الرواية، وإصراره على تحقيق هذا الحلم المستحيل، حتى بعد أن أحيل إلى المعاش، وتصور بكامل ذهنه أن الباقى من عمره قياساً على صديق عمره «عبدالكريم» سبعة أيام..!!

وهو دون أن يدرى وضع نفسه، والقارىء معه فى مواجهة لا طاقة للبشر عليها ، مواجهة بين سكون، ورحيل، وصرخات صامتة، وحاضر يضربه الماضى، ويجرجره المستقبل، فتسيل دماؤه على جانبى الليل والنهار، وعليه إن استطاع أن يكتب وحده الرواية التى تدمدم داخله ، وهو حتى هذه اللحظات الحرجة. لم يصل بها فى ذهنه إلى بداية أو وسط أو نهاية، ولم يستقر على أشخاصها رجالاً ونساء، ولا من أين يبدأ..؟ من الأسواق أم من البيوت ؟ وماذا يعطى القارىء فى روايته ؟ وهل لديه ما يعطيه مثل «نجيب محفوظ»؟ أم أنه يكتب ليقدم «تطوان» وأهل «تطوان» وأسواقها فى جولة سياحية؟ .. وعاد يقرأ رواية جديدة صدرت «لنجيب محفوظ»، وينقب بين سطورها عن هذا الشىء الجذاب الذى يعطيه المؤلف العبقرى لقرائه وهل بالضرورة الملحة أن يكون هو لديه ما يفيد القارىء أم أنه يكفى أن يضع مدينته مكان «القاهرة»، وأشخاص أسواقها وأزقتها مكان الآخرين..؟ وسيف الزمن مسلط عليه، فالأسبوع الذى بقى له بعد التقاعد يوشك أن ينتهى ، وهو لم يبدأ بعد فى تحقيق حلم عمره الذى حتى هذه الأيام التى يعتبرها أخيرة.. لم يتحقق..!!

متاهة الكلمات والعبارات

وكلما فاضت الرغبة فى الكتابة من حسامه، وشعر بالفتح العبقرى يفجر فقاقيع النبوغ فى ذهنه يهجم على الورق الأبيض، ويشهر القلم بحبره الأسود على بياضه الناصع، فإذا به يقف وحده فى متاهة عبارات وكلمات بعضها يريد البداية وبعضها يريد النهاية، وفى تضاربها تطيح بإرادته وبالقلم، ويعتصم بالسكون اللذيذ، وينسحب منه الوعى ، ويروح فى سبات عميق!..

ويفيق ثائراً يحتدم غضباً يعاود ما سجله من جديد لعله يعثر على بداية . فلا يجد سوى سطور فوقها تاريخ قديم عن زيارته ورصده لمقهى «تطوانى» كان يعده ليكون بدلاً من «الفيشاوى» وجاء فى السطور «فى أيام الصباح كان يحلو لنا أن نصعد الدرجات القليلة المختفية فى الركن الأيمن «للغرسة الكبيرة» تفضى بنا إلى السطح فنطل على الساحة البهيجة المزدانة أطرافها بأعراش الكرم الخضراء مدعومة بقوائم خشبية وقد جلس تحتها



البائعون يفترشون حصرا ويشربون الشاى، ويتسامرون دون جلبة».

ومراقبة الأماكن كان أسهل ألف مرة لديه من رصد الأشخاص الذى كاد يكلفه حياته، لاسيما وهو يحاول أن يحملهم على الكلام ليقف على طريقتهم فى إلقاء الجمل والعبارات وتراكيبها اللحنية فى الانبساط والغضب وحين المعارك وفى حوارات البيع وكل ذلك مع متاعب أمراض الشيخوخة في المعدة، والركب، والعيون، وأزمات الجهاز التنفسى ..!

ثم يصرخ «محمد أنقار» بلسانه أو بلسان «أحمد الساحلى» قائلاً: «كيف يمكننى الربط بين وصف السوق والصفحات القصصية التى سبق أن كتبتها عن «تطوان» فى مرحلتى «مدرسة المعلمين» و«زواج عبدالكريم» . ثم هل المطلوب أن أصف أم أروى وقائع المكان أم أجمع بينهما؟ وسلمت بأن الجمع هو الأليق لولا أنى قدرت صعوبة ذلك واعترفت بفقر إمكانياتى للقيام بتلك المهمة»..

لم يبق سوى الرحيل

وتتساقط أيام الأسبوع الرهيب، وكلما شيع جنازة تلكأ هناك بين القبور ووقف يناجى «عبدالكريم»، ويشكو إليه «تطوان» و«الحلم»، و«نجيب محفوظ»، وأمراضه والوقت الذى يطبق عليه، ويهمس فى أذن عبدالكريم :«ثق بى إنى استجديت الدروب العتيقة بحب أبدى وحمت حولها كما النحلة بين ثقوب الخلية، والآن لم يبق سوى المضى فى الطريق إليك..»

فى المقابر ضريح «سيدى على المنظرى» يقال إنه أول من بنى «تطوان» ، يلجأ إليه المؤلف فيقول: «ها هى أمانتك أعيدها إليك.. أنت بنيت المدينة وأنا عجزت عن وصفها.. أرجو المعذرة فأنا لست أول الفاشلين ولا آخرهم.. «أحمد عاكف» قد فشل.. «عثمان بيومى» نفسه فشل.. أما «كمال عبدالجواد» فهيهات أن أحذو حذوه»..

وهؤلاء أشخاص فى روايات «نجيب محفوظ»..

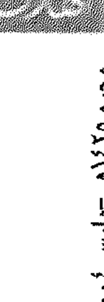
يشتد النغز فى معدته، يشعر أنه يحتضر.. يقول لـ « عبدالكريم»..

– منذ أن ولدت وأنا احتضر.

فيرد عليه قائلاً:

– ومع ذلك لا يجب عليك ان تقارن صور الموت بالليزر والأشعة ، إنك قاصر فى اقتحام المجهول.. اعترف بذلك.. زر الطبيب فى الغد إن بقيت حياً. وسلم الأمر لمن خلقك..

وتنتهى رواية «المصري» التى كتبها الكاتب المغربى «محمد أنقار» فى «١٨٣» صفحة عن «تطوان» المغربية لكن تحت ظلال شجرة مصرية اسمها «نجيب محفوظ».. إنها محاولة، واعتراف ، وطموح إلى عبقرية فى الحكى والقص نرجوها له، لأنه يستحقها وعليه أن يكتب، وسوف يقرأ الناس هنا وهناك ، كما قرأوا من قبله «لنجيب محفوظ» الذى لم يظلمه ، وإنما هو الذى ظلم نفسه..!! ■



كشف حساب

أجمل روايات أوروبا ٢٠٠٣

بقلم
محمود قاسم


باتريك موديانو

لوكليز يو.

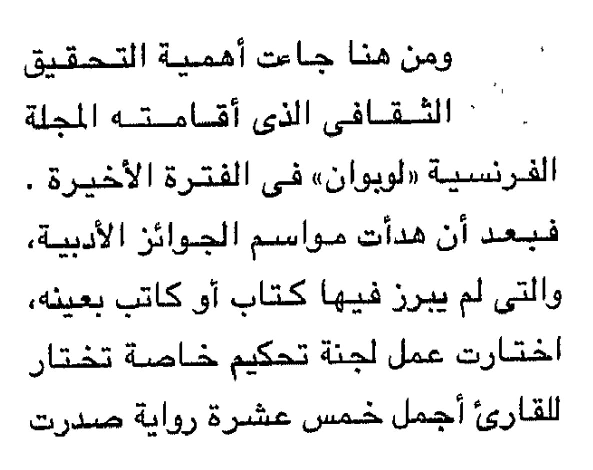

اميت


مارتن اميس

من الصعب أن تقرأ كل هذه الكتب، أيا كانت شهوتك للقراءة.

وفى الصحافة الأدبية العالمية، فإن بعض المحررين يقومون بمساعدة قرائهم فى اختيار الكتب «الواجب» قراءتها وذلك بأساليب عديدة، منها بالطبع عمل عرض جذاب لبعض هذه الكتب، أو نشر قوائم المبيعات بشكل منتظم.

لكن ليس الكتاب الأكثر مبيعا دائما هو الكتاب الأفضل صحيح أنه يعكس أذواق الناس واهتماماتهم وقد يكون أحيانا هذا الكتاب رواية أو كتابا سياسيا أو فكريا لكن الكتب الجيدة لا تحتاج إلى قراءتها فقط يوم صدورها وإنما يمكن للقارئ أن ينتظر ليفعل ذلك فى وقت لاحق.


ومن هنا جاءت أهمية التحقيق الثقافى الذى أقامته المجلة الفرنسية «لوبوان» فى الفترة الأخيرة. فبعد أن هدأت مواسم الجوائز الأدبية، والتى لم يبرز فيها كتاب أو كاتب بعينه، اختارت عمل لجنة تحكيم خاصة تختار للقارئ أجمل خمس عشرة رواية صدرت

للناس فى العام الماضى، ويمكن للقارئ الذى اقتناها، أو فى طريقه إلى أن يفعل ذلك، أن يضع هذه الكتب فى الأولويات، خاصة فى بلد يلتهم الناس الكتب فور صدورها.

لجنة التحكيم

على طريقة الجوائز الأدبية، تم تشكيل لجنة تحكيم من أدباء وصحفيين موجودين فى الساحة منهم جاك بيير أميت (الذى فاز بجائزة جونكور ٢٠٠٣)، وكلود آرنو- وجان بول انتوفن ، ومارك لامبرون (فاز من قبل بجائزة جونكور) ومارى فرانسواز لوكلير ، وكريستوف ميرسيه ، والأديب المخضرم فرانسوا نورسييه وفيليب نورى وكريستوف أوندبوا ، وجيل بودلوفسكى وميشيل شنايدر ، والبير صباغ.

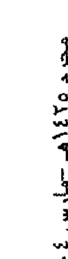
وتبعا لهذه الأسماء الكثيرة فقد تم استبعاد العديد من الكتب التى صدرت فى العام الماضى من تأليف أعضاء لجنة التحكيم والتى تدخل فى إطار شبهة المجاملة، مثل كتب الناشرين الصادرة فى مؤسسات يكتب فيها هؤلاء الأدباء والتى بلغ عددها أربعة وعشرين كتابا مما يعنى أنها يمكن أن تدخل فى دائرة الاختيار، خاصة أن كتابا بارزين من طراز لوك بيسون، أصدروا كتبا مهمة فى هذه الفترة وكل جريرته أنه يكتب فى المجلة التى أعدت هذا التحقيق المهم.

الكتاب أم الرواية ؟

أول ملحوظة ، أنه تم اختيار خمسة عشر كتابا هذه المرة، وليس عشر روايات مثلما حدث فى المرة السابقة، وذلك بسبب اتساع دائرة الاختيار. أما الملحوظة الأهم فإن الكتب المختارة لم تكن كلها روايات مثلما يحدث عادة، بل هناك دراسات أدبية وتاريخية وجمعت أسماء الكتاب بين أجيال عديدة ، فهناك أدباء مشهورين مقروئين مثل لوكليز يو وهناك كتاب فازوا بجوائز كبرى من قبل مثل بييركومبسكو صاحب جائزة جونكور ، أما الملحوظة الثالثة فهى أن الكتب المختارة لم تكن كلها فرنسية بل تم اختيار الكثير من الروايات والكتب المترجمة مثل رواية «تجربة» للكاتب البريطانى مارتن آميس ورواية «راقص» للكاتب الايرلندى كلوم ما كان وأيضا رواية «نجمة البحار» للايرلندى أيضا جوزيف أوكنور ثم «ملكة الجنوب» للروائى الأسبانى الشاب أرتورو بيريز - ريفين.

يعنى هذا أن الرواية أو الكتاب يجىء فى دائرة الاهتمام قبل اسم الكاتب فهناك كاتبان من ايرلندا فى الأربعين من العمر وموضوع هذه الروايات لا يقترب من السياسة تقريبا ، كما أن رواية مثل «راقص» لم تكن محلية بالمرة فالكاتب الايرلندى منبهر بسيرة حياة واحد من أشهر راقصى الباليه فى القرن العشرين هو رودلف نورييف الذى هاجر إلى الولايات المتحدة فى منتصف السبعينات وعاش هناك ، وقام ببطولة فيلم عن حياة فالنتينو عام ١٩٨٠.

لم ينتبه أحد قبل الكاتب «ماكان» أن فى حياة نورييف ما يشبه أساطير التاريخ، وأنه يمكن تتبع هذه المسيرة فى



صياغة إبداعية قيل عنها إنها مختبر للإعجاب.

أما الكاتب الايرلندى الثانى، فهو ليس بعيدا عن الفن، انه شقيق مطرب الروك سنير أوكنور وهو يذهب فى روايته «نجمة البحار» إلى التاريخ الايرلندى، وبالضبط عام ١٨٤٧ ، أو ما يعرف بعام المجاعة الايرلندية، وتدور الرواية فى سفينة تتجه إلى نيويورك كل ركابها من الذين عانوا من الجوع ، وعليهم البحث عن الشبع بأى ثمن فهناك حياة مشرقة تنتظرهم وأحلام ودهشة وكلما اشتد بهم الجوع زادت أحلامهم ورؤاهم لما ينتظرهم.

الأكثر انقرائية

الكاتب البريطانى مارتن أميس (٥٢ سنة) هو الأكثر انقرائية فى السنوات الأخيرة وهو ابن الكاتب المعروف كنجسلى آميس ، ويكاد يضارعه فى موهبته وأهميته وفى روايته الأخيرة «تجربة» يتابع التوغل فى أسباب العنف فى الحياة المعاصرة خاصة فى بريطانيا حيث يروى فيما يشبه السيرة الذاتية كل ما شاهده ومر به من أحداث عنف أو سمع عنها فى حياته.

أما الأسبانى بريفيث فالقارئ الأوربى يعرفه من خلال روايته السابقة ومنها «لوحة المحامى» ، وتقول مجلة لوبوان أنه الكاتب الأكثر أهمية فى إسبانيا المعاصرة، مولود فى قرطاجنة الإسبانية عام ١٩٥١ منبهر بالكاتب الفرنسى الكسندر ديماس ، وبكافة الروائيين الذين كتبوا عن البحر ، وقد كرس حياته للكتابة عن العوالم نفسها، وفى «ملكة الجنوب» يبتدع شخصية مستوحاة من رواية «الكونت دى مونت كريستو» فيتخيل أن لبطل الرواية أدمون دانت ابنة عم وأنها تبحر فى إحدى السفن من أجل القيام بتجربة أقرب إلى تلك التى عاشها ابن عمها.

الكتاب يكسب

ليست كل الكتب الأكثر أهمية من الروايات كما أشرنا، وقد حظى كتاب عن المفكر الفرنسى شاتوبريان للمؤلف مارك فومارولى بدرجة الصدارة ضمن الكتب الخمسة عشر الممتازة، والكتاب بعنوان «الشعر والرعب» وهو عنوان غريب لكتاب يقدم صورة حية لمفكر وأديب شغل بال الناس طوال قرون ، امتزجت حياته بالشعر والحب والسياسة والايدولوجية، وقد غاص المؤلف فى كافة هذه الوجوه للكاتب وأضاف حسا خاصا على الشخصية التى اختارها.

والجدير بالذكر أن كتابا مشابها قد لاقى النجاح نفسه للمؤلف أصدره قبل عامين باسم «مذكرات الجانب الآخر من المقبرة».

أما الكتاب الثانى ، غير الابداعى ، فى هذه المجموعة فيحمل عنوان «تاليران، الأمير الساكن» للمؤلف ايمانويل دوفارسكويل، الذى يعود أيضا إلى التاريخ الفرنسى القديم ويقدم سيرة حياة أحد رجال السياسة وهو ريشيليو ، ويغوص فى هذه السيرة لواحد من أكثر

من أثروا في تاريخ فرنسا وهو نفس السياسي الذي جعله الكسندر ديماس بطلا لروايته الشهيرة «الفرسان الثلاثة» وغيرها.

أهم ما في هذا الاختيار على الاطلاق هو أن الروائي باتريك موديانو لايزال في الصدارة، وهو الكاتب الأكثر أهمية فعلا منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن، والذي تمت ترجمة بعض أعماله في مصر منها «شارع الحوانيت المعتمة» (روايات الهلال) و«الحي الضائع»، (الروايات العالمية)، فقد حققت رواية موديانو الأخيرة «حادث عادي» نجاحا لا يقل عن بقية رواياته التي يعزف فيها الكاتب على تفاصيل حياة الناس العاديين الذين نلقاهم كل يوم من حولنا في كل مكان.

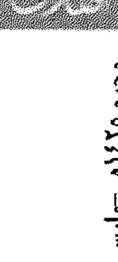
تدور أحداث الرواية في باريس في شارع الأهرامات حادث عادي أبطاله امرأة مجهولة، ورجل مليئ بالطاقة، وحكاء يتذكر ماضيه من خلال ما شاهده، تتوافد صور الطفولة وأوراق الشباب، ووجوه شبحية عرفها، نسي أسماء أصحابها، تبقى منها هالات غير محددة هي تقريبا نفس الوجوه التي ألقاها من قبل في كافة رواياته السابقة.

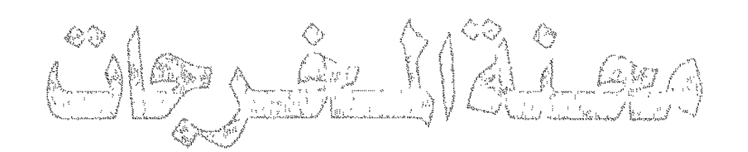
ويعود الكاتب الفرنسي بول كلوديل إلى عام ١٩١٧ في روايته «النفوس المحترقة»، من خلال قصة مصرع قزمة جميلة، ويقوم مخبر تحر بالبحث عن أسباب قتلها والفاعل، ونحن هنا لسنا أمام رواية بوليسية، بل هناك تكشف حقيقي لما يدور في أوروبا أثناء الحرب العظمى والجدير بالذكر أن هذه الرواية فازت في نوفمبر الماضي بجائزة رينودو.

كما أن الكاتبة الشابة لور مورا تعود إلى الحقبة نفسها في روايتها «ممر الأوديون» من خلال امرأة تدعى أدريان مونييه قامت بتأسيس مكتبة في ميدان الأوديون في عام ١٩١٥، وقد شجعت هذه التجربة نساء أخريات على إنشاء مكتبات مشابهة مما جعل من هذه المنطقة سوقا خاصا للنشر وتصنيع الثقافة.

وإلى عام ١٩٦٣ يعود الكاتب الشهير لوكليز يو بروايته الجديدة «ثورات»، إنه العام الذي تم فيه اغتيال جون كيندي، وأيضا هو العام الذي هبط فيه لوكليز يو فوق كوكب الأدب، هذه الرواية الجديدة تدور أحداثها منذ العام الثاني للثورة الفرنسية ١٧٩٠ وحتى عام ١٩٦٩، حين هبط الإنسان فوق سطح القمر لكن الكاتب لا يتحدث عن كيندي ولا عن الثورة ولا القمر، بل عن أسرة غامضة، كمية أسرارها أكثر بكثير مما يعرفه الناس عنها.

هناك بالطبع كتب أخرى، بالغة الأهمية منها «نوافذ على العالم» لفردريك بيجبرر و«حياتي وسط الظلال» لريشار ميليه وداعاً لفرنسا الغابرة» حول مصير فرنسا وأوروبا وسط العولمة المتجددة بجنون، ولا شك أن هذه الكتب تعكس أحوال الابداع، والكتب في أحسن أحوالها كما أن هذا التحقيق قد يدفع صحفنا ومجلاتنا أن تغير الأسلوب العظيم لاختيار «الأفضل» مع نهاية كل عام. ■





فى عالم معاد للنساء

بقلم

مصطفى درويش

النساء أينما كن مضطهدات، سواء أكن فى الهند، أو أفغانستان، فى الولايات المتحدة أو فى اليابان.

وإذا كان ثمة فرق يميز بلدا عن بلد فى هذا الشأن، فينحصر فى درجة الاضطهاد...

فمثلا هوليوود، حيث للنساء منزلة كبيرة، خاصة فى كل ما يتصل بمهنة التمثيل، لم تسلم هى الأخرى من اضطهادهن، وذلك بتمييز الرجال عليهن فى مهنة الإخراج، التى تعتبر، بحق، عصب صناعة الأفلام.

فنادرا ما نرى اسم امرأة بوصفها مخرجة لفيلم مع أسماء صانعيه، وهى تظهر تباعا على الشاشة البيضاء.

المرشحون الخمسة لأوسكار أفضل مخرج تتوسطهم صوفيا كوبولا

فباستثناء «ك-١٩، صانعة الأرامل»، ذلك الفيلم الذي عرضت فيه مخرجته الأمريكية «كاترين بيجلو» لمأساة بحارة غواصة روسية، تحمل رؤوسا نووية، أثناء الحرب الباردة، أقول باستثنائه، لم أشاهد أى فيلم آخر لمخرجة أمريكية، بدءا من شروق شمس القرن الواحد والعشرين، وحتي يومنا هذا.

وهنا لا يفوتني أن أذكر أن صاحبته تعد أول امرأة فى تاريخ السينما، تتاح لها فرصة إخراج فيلم بتكلفة إنتاج جاوزت التسعين مليون دولار.

أوسكار والنساء

هذا وليس أدل على التمييز الذكورى للرجال على حساب الجنس اللطيف فى مجال الإخراج، ما هو ثابت على وجه اليقين، من أنه لم يجر ترشيح أية مخرجة لجائزة أوسكار، خلال ستة وسبعين عاماً، عمر تلك الجائزة إلا مرتين.

كما لم تتوج بها أية مخرجة، إلا مرة واحدة.

وفى مرتى الترشيح، لم تكن المخرجة أمريكية، وإنما من جنسية أخرى.

مرة إيطالية «لينا فيرتمولر» عن فيلمها «الجميلات السبع» (١٩٧٦) ومرة أخرى نيوزيلاندية «جان كامبيون» عن «البيانو»، ذلك الفيلم الذى خرج من مهرجان كان «١٩٩٣» بجائزته الكبرى «السعفة الذهبية».

وخرجت صاحبته من حفل توزيع جوائز أوسكار «١٩٩٣» فائزة بجائزة أفضل مخرجة، لأول وآخر مرة فى تاريخ مصنع الأحلام.

انهيار الأسوار

وعلى كل، فالآن، وبعد مائة عام سينما، أو يزيد، وبعد مرور أكثر من عشرة أعوام على فوز أول مخرجة بجائزة أوسكار.

ها نحن نشهد سور الانحياز للرجال ضد النساء فى مجال الإخراج، وهو على وشك السقوط والانهيار.

فلأول مرة فى تاريخ هوليوود تلمع أسماء كوكبة من المخرجات الواعدات الصاعدات، وذلك بفضل أفلام من إبداعهن، تحظى بثناء النقاد، فى شبه اجماع، وترشح للعديد من جوائز المهرجانات والاحتفالات السينمائية، والكرة الذهبية، وبافتا، وأوسكار.

ومن بين هذه الأفلام أذكر «روعة أمريكية»، «متوحشة» «ثلاثة عشر»، «أحد يجب أن يعطى» و«فقد فى الترجمة».

والفيلم الأخير للمخرجة «صوفيا كوبولا» ابنة المخرج «فرانسيس فورد كوبولا»، صاحب ثلاثية، الأب الوحى، ذلك الحدث السينمائى الكبير.

«وفقد فى الترجمة» ثانى فيلم تخرجه «صوفيا»، بعد «انتحار العذراوات» الذى قامت بإخراجه قبل خمسة أعوام.

وهو مأخوذ عن سيناريو من تأليفها،

ومن بين مزاياه، قلة تكاليف إنتاجه التي لم تصل حتى إلى أربعة ملايين دولار، رغم تصويره في طوكيو التي تعتبر واحدة من أغلى مدن عالمنا.

هذا، ولم يستغرق تصويره سوى سبعة وعشرين يوما.

ترشيحات بالجملة

وعنه رشحها اتحاد المخرجين بالولايات المتحدة كأفضل مخرجة كما رشحتها الأكاديمية البريطانية «بافتا»، ضمن خمسة مخرجين لجائزة أفضل مخرجة.

وقريباً من نهاية يناير أعلن عن ترشيحها هي والسيناريو لجائزتي أوسكار أفضل مخرج وسيناريو.

وبذلك أصبحت أول مخرجة أمريكية يجرى ترشيحها لأوسكار.

والمنافسون لها، كلهم من الرجال، بطبيعة الحال وهم البرازيلي «فرناندو ميرليس» صاحب «مدينة الرب» و«النيوزيلاندي»، «بيتر جاكسون» صاحب ثلاثية «سيد الخواتم»، وترشيحه عن جزئها الأخير «عودة الملك» والاسترالي «بيتر وير» صاحب «سيد وقائد- الطرف الأقصى من العالم» والأمريكي «كلينت ايستوود» صاحب «النهر الغامض».

وأغلب الظن، أنه عند الإعلان عن الفائزين والفائزات يوم التاسع والعشرين من فبراير لن تكون أوسكار أفضل مخرج من نصيب «صوفيا»، وإنما من نصيب صاحب ثلاثية «سيد الخواتم».

شق الطريق

وعلى العموم، فصوفيا بفوزها بالترشيح لأوسكار أفضل مخرج، قد شقت الطريق للنساء.

والمأمول أن يلعب فوزها دوراً في إضعاف التمييز الذكوري للرجال علي حساب النساء عندنا، حيث تعاني المخرجات منه، ربما بدرجة أكبر، وأكثر تأثيراً.

وآية ذلك، قلة عددهن، بحيث قد لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة..

هذا إلي أنه نادرا ما تلمع أسماء جديدة لمخرجات، ونادرا ما تتاح لمن يبتسم لهن القدر من بينهن، حينا من الزمان، فرصة إخراج أفلام روائية طويلة، بانتظام.

مولد مخرجة

ومن هنا الحماس عند سماع اسم المخرجة الشابة «كاملة أبو ذكرى» يتردد في وسائط الإعلام، مبشراً بأن مسيرتها في دنيا صناعة الأفلام الروائية الطويلة قد ابتدأت بفيلم جديد اسمه «سنة أولى نصب».

ولأنها عانت من التمييز الذكورى طويلا. فلم تتح لها فرصة إخراج فيلم روائى طويل، إلا بعد انقضاء عدة أعوام على إخراجها فيلمها الروائى القصير

خالد سليم
وداليا البحيرى وأحمد عز ونور
فى « سنة أولى نصب»

«قطار الساعة ٦» الذي يدور حول رجل ريفي عجوز «أدى دوره الفنان الراحل محمد توفيق»، يصحو من نومه، ويرتدى ملابسه، لا لعمل شئ سوى انتظار قطار السادسة، الذي يفترض أن يكون ابنه العائد من الحرب، مستقلا له.

ويصل القطار دون ابنه، ومع ذلك لا ييأس العجوز ويقوم يوميا بالرحلة إلى محطة القطار، وكله أمل فى أن يجنى ثمرة الانتظار.

النهج السليم

فقد كنت على يقين أو ما يقرب اليقين من أنه لو أتيحت لها فرصة إخراج فيلم روائي طويل، بعد معاناة الانتظار رغم فيلمها الجميل، أن تبث فى فيلمها الجديد شيئاً من معاناة المرأة، فى مجتمع لا يقيم وزنا لقضية مساواة النساء بالرجال، فى الحقوق والواجبات.

أى أن تسير على نهج، المخرجات الشابات اللائى سبق لهن أن أخرجن أفلاما عرضن فيها بوضوح وجلاء لبعض القضايا المتصلة ببنات حواء.

ومن بينهن أذكر على سبيل المثال «صوفيا كوبولا» و«سميرة» ابنة المخرج الإيرانى «محسن ماخمبلباف»، ذلك الرائد الرائع، الذي يقف لدعاوى الملالى بالمرصاد.

فكلتاهما بدأت الإخراج بأفلام تنتصر لقضايا المرأة، الأولى بانتحار العذراوات، «١٩٩٩»، والثانية بفيلميها «التفاحة» «١٩٩٨»، و«السبورة» «١٩٩٩»، ذلك الفيلم الذى جرى اختياره قبل أربعة أعوام للمشاركة فى المسابقة الرسمية لمهرجان كان، حيث فاز بجائزة التحكيم.

ومما قوى يقينى بأن المخرجة ستنجح فى فيلمها الأول إلى مناصرة المرأة، مثلها

فى ذلك مثل «صوفيا» و«سميرة» قيام فيلمها على سيناريو من تأليف كاتبة وأستاذة مرموقة فى معهد المسرح، الدكتورة «سميرة محسن».

ولكن، خابت توقعاتى، عندما شاهدت «سنة أولى نصب».

قوة التعبير

فقد وجدته منقطع الصلة بمشاكل المرأة، وما تعانيه فى مجتمعنا.

لا يحاول الاقتراب منها، ولو من بعيد.

فضلا عن إنه لا يختلف موضوعا وشكلا، عن أى فيلم للمخرجين الشبان، الذين ملأوا الدنيا صخبا، بشعارات لا تقول فى نهاية الأمر، شيئاً.

فقصته ليست جديدة، وذلك لأن فيها من ملامح الأفلام المصرية القديمة والحديثة الشئ الكثير.

ولن أعرض لتفاصيل القصة التى تدور حول شابين، دفعتهما البطالة والحاجة إلى النصب والاحتيال، فذلك شئ يطول.

وإنما أكتفى بأن أقول بأنها ليست مستمدة من بيئتنا، ولا قريبة من نفوسنا، ولا نابعة من تقاليدنا وعاداتنا وتصرفاتنا، فضلا عن أنها حافلة بالمفاجآت واللقاءات المفتعلة بين بطلى الفيلم «خالد سليم» و«أحمد عز» وبطلتيه «داليا البحيرى»، و«نور».

نصف مسئولية

يبقى لى أن أقول:

أولاً: أن المخرجة وإن كانت ليست صاحبة القصة إلا أنها مسئولة عنها نصف مسئولية.

فهى التى ارتضت أن يتمحور حولها الفيلم.

أما مسئوليتها الكاملة، فهى عن الإخراج الذي جاء مفتقدا لأى شئ جديد.

ثانيا: أن الممثلين باستثناء «خالد سليم» كانوا عناصر طيبة، آلات جميلة وطيعة، فى يديها.

أما لماذا استثنيت «خالد سليم» نجم الفيلم الذى جمع بين التمثيل والرقص والغناء، فذلك لأنه أمام عين الكاميرا، كان جامدا، كجلمود صخر، عاجز عن التعبير.

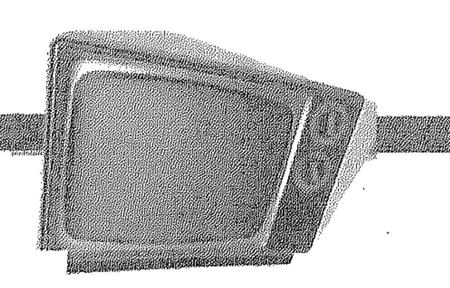
ثالثاً: أن «أحمد عز» تقدم كثيراً كممثل، ولعل الفضل فى ذلك يرجع إلى «كاملة»، صاحبة الفيلم، وقدرتها على تحريك الممثلين على أحسن وجه.

الطريق الآخر

وختاما، فالأكيد أن كاملة أبو ذكرى باختيارها «سنة أولى نصب» ليكون أول أفلامها، قد اختارت طريق الاستسهال.

وحتى لا تحيد عن طريق مناصرة المرأة وقضاياها، فيما هو آت لها من أفلام، عليها أن تتعلم الكثير، لاسيما من أفلام «صوفيا» و«سميرة» بما تحمله من معان سامية. وأفكار رائدة..■





بقلم
مرفت رجب

الجائزة «٢»

تنفسنا الصعداء فلقد أوقف السائق السيارة بعد أن خاض بنا ما ظننته مغامرة بغير ضرورة، كان أثناءها يغوص بنا غياهب الجانب الغربى من الطريق المتجه إلى واحة الفرافرة ولما لم تكن الفرافرة بغيتنا، ولما كنا من قبل قد توقفنا عند منطقة «عجبات» ونهلنا من أعاجيبها ما ملأ أرواحنا بزاد خلته يكفينا لسنين، كان السؤال يلح على رأسى، هل يستعرض السائق قدراته على صعود المرتفعات والهبوط منها بسلاسة السابح بطل عبور البحار على ما فيها من أنواء ولكنه حين توقف وقال تفضلوا، نزلنا، وقبل أن نستجمع كياننا الذى بعثرته أهوال المغامرة جاء صوته: «من هنا .. شوفوا» وإذ بأصواتنا جميعا من صدورنا فى تسبيحة جماعية مأخوذة بما انتشر قبالتنا على الصحراء الممتدة على مدى البصر من كتل حجرية بدت لأول وهلة كأنها عشرات الخيام المصطفة فى شبه انتظام مخيمات الحجيج فى عرفات، وماهى بخيام .. وإنما هى تنويعات حجرية على هذا التكوين الربانى الأخاذ .

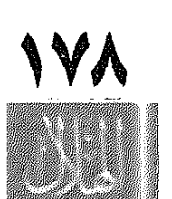


تتابعت الأسئلة المتعجبة على ذهني من أين أتى هذا السائق بمواهب التشويق وترتيب المشاهد بما يكثف الانبهار ويثير في الوجدان أن هذه الشحنة من الانفعالات والأفكار. لم يكن بالقطع مصوراً تليفزيونيا ولا كانت له سابق خبرة بعالم السينما وحرفياتها إنه مجرد سائق محترف قدمه لنا صاحب الفندق الذي أقمنا فيه على أنه سائق ماهر من أبناء الواحات الأصلاء .. جاء كل ذلك وغيره مما رأيته في تلك الرحلة ليعمق الإحساس بضآلة ما نعرفه عن أهل مصر من سكان الواحات وما يحيط بهم من صحاري حافلة بالكنوز والحكايات لا نجد لها أثراً على شاشاتنا، وكأن قرار التجاهل قد اتخذ مع سبق الإصرار والترصد . هل هناك وجه شبه بين مثل هذا القرار وبين موقف كتاب التاريخ من الأمريكيين الذين عارضهم هوارد زن في كتابه «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة الأمريكية» والذي فاز عنه بجائزة لوموند الديبلوماسي لعام ٢٠٠٣.

الأكاذيب

يؤكد لنا هوارد زن على ملمح رئيس غائب عن التاريخ الرسمي للولايات المتحدة وهو ما يجعل فكرتنا عن الماضي مشوهة - بل والأخطر من ذلك - أنه يوقعنا في أخطاء بشأن الحاضر ويبدأ في ضرب الأمثلة بادئا بالنص الوارد في الدستور الأمريكي «نحن الشعب» We the People ويشرح لنا خداع العبارة، ففي عام ١٧٨٧ قام خمسة وخمسون شخصا بوضع الدستور ، كانوا جميعا من البيض مالكي العبيد أو التجار وكانوا عازمين على تكوين السلطة التي تمكنهم من حماية مصالح طبقتهم . ويحكي لنا هوارد زن كيف أن مصالح الحكام تتخفى دائما وراء ستار يسمى «المصلحة الوطنية» .

ولقد حرص أستاذ التاريخ الأمريكي Howard Zinn صاحب كتاب «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» أن يضمن كلمته التي ألقاها وهو يتسلم الجائزة عن ذلك الكتاب ، مجموعة من الأدلة التي استقاها من خبرات عاشها ، فيقول، «إن خبرتي الشخصية في الحرب، وبالتالي في تاريخ كل التدخلات العسكرية الأمريكية ، توقظ شكوكي في كل مرة استمع فيها إلى مسئول أمريكي كبير يتحدث عن «المصلحة الوطنية» أو عن «الأمن القومي» تبريرا لسياساته . فبمثل تلك المبررات قام الرئيس الأمريكي هاري ترومان في عام ١٩٥٠ بشن ما أطلق عليه مهمة بوليسية Police Action ، وهو العمل الذي راح ضحيته مليونا شخص في كوريا، وبمثل تلك

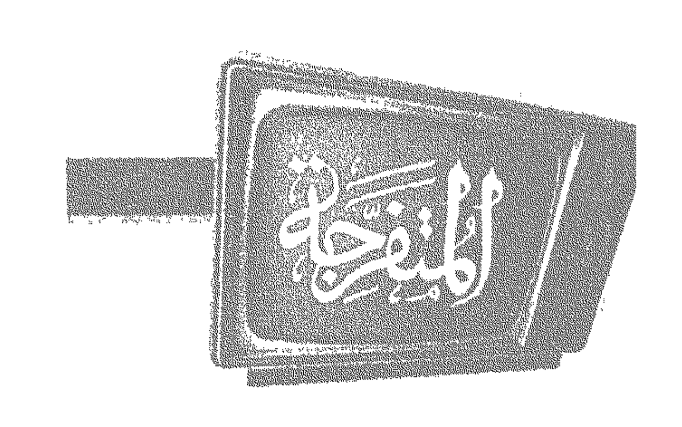


المبررات قام ليندون جونسون وريتشارد نيكسون بالحرب الفتاكة فى الهند الصينية، وبنفس المبررات قام رونالد ريجان بغزو جرانادا Grenade فى عام ١٩٨٣ ، كما قام بوش «الأب» بالهجوم على بنما فى ١٩٨٩ ثم على العراق بعد عامين من ذلك التاريخ وبالمثل بدأ كلينتون عمليات ضرب العراق بالقنابل بدءا من عام ١٩٩٣، ولقد استخدموا جميعا نفس المبررات ثم يأتى دور «بوش الجديد» ليشرح لنا قيامه بغزو العراق بدافع من «المصلحة الوطنية» ويالها من مسخرة!! إذ لم يكن من الممكن لهذه المقولة أن تحظى بأى قبول فى الولايات المتحدة دون تغليفها بالعديد من الأكاذيب الحكومية والإعلامية بشأن «أسلحة الدمار الشامل» وروابط مزعومة بين العراق والقاعدة. ويمضى المؤرخ الأمريكى هوارد زن فى كلامه ليؤكد لنا أن «الانخفاض الحالى الملحوظ فى شعبية جورج بوش يرجع إلى تزايد حجم إدراك مزيد من الأمريكيين لحجم التزييف والكذب فيما يصل إليهم من معلومات رسمية .. ويأتى هذا التراجع فى شعبية بوش بالرغم من التعاون الوثيق بين الحكومة والاعلام وهو بشكل عام ما تتسم به الأنظمة الديكتاتورية وليس الديمقراطية .ويمضى زن فيقول «لقد بدأ مفهوم الحرب القصيرة الخالية من الآلام يذوب تدريجيا مع زيادة حالات قتل الجنود الأمريكيين بالمئات، والجرحى يصلون إلى الألف وربما الألفين، حتى إن الممثل الأمريكى شير Cher ظهر على إحدى القنوات التليفزيونية المشفرة ليحكى عما رآه فى واحدة من مستشفيات واشنطن من جنود فقدوا بعضا من أطرافهم ، إما الذراع أو الساق أو الاثنين ويتعجب شير من ضياع شباب هؤلاء المحاربين ، كما يتعجب من مبررات تلك الحرب .

ونعود لمتابعة ما استمعنا إليه من كلام المؤرخ الأمريكى هوارد زن الذى يوضح وجهة نظره قائلا: «نحن نحاول أن نوضح للأمريكيين ما يلتزم الإعلام الصمت بشأنه ، مثل هؤلاء العشرة آلاف وربما الثلاثين ألف عراقى من المدنيين الذين راحوا ضحية تلك الحرب، ذلك أننا نتمكن - بفضل الاحتلال الأمريكى للعراق - من مهاجمة المدنيين وسجن الأبرياء بصرف النظر عن عمرهم، وقذف الأحياء السكنية بقنابل زنة ٢٥٠ أو ٥٠٠ كج .

ويعود المؤرخ للإشارة المباشرة لكتابه الفائز بالجائزة ويقرر: «حين عزمت على كتابة التاريخ الشعبى للولايات المتحدة، اخترت أن أحكى تاريخ الحروب التى خاضها الوطن، ليس من وجهة نظر جنرالات الحرب أو السياسيين الدوليين، وكذلك من وجهة نظر زوجاتهم وآبائهم وأمهاتهم الذين يفاجأون فى يوم من





الأيام بتسلم برقية تعزيهم فى موت ذويهم فى الحرب .

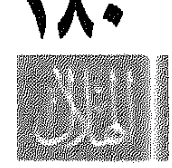
ولقد كانت رغبتى كذلك، أن أحكى تاريخ الولايات المتحدة من وجهة نظر «الأعداء». المكسيكيون الذين تعرضوا للغزو الأمريكى، والكوبيون الذين استولى الأمريكيون على أراض لهم فى ١٨٩٨، والفلبينيون الذين عانوا أوائل القرن العشرين من حرب كريهة مدمرة راح أثناءها أكثر من ستمائة ألف فلبينى ضحية معارضتهم للأمريكيين الذين كانوا قد عقدوا عزمهم على غزو الفلبين .

ويفاجئ زن Zinn سامعيه بطرح السؤال «ماذا يحدث للسياسة الخارجية للولايات المتحدة إذا ما محونا من نفوسنا، من عقولنا وأرواحنا كل ما يتصل بالحدود الدولية، لننظر لكل طفل على أنه واحد من أبنائنا بصرف النظر عن مكانه على الأرض . لو كان ذلك قد حدث، لما ألقيت مثل تلك القنبلة الذرية على هيروشيما، ولما ألقيت قنابل النابالم على فيتنام أو أفغانستان أو العراق »...

«إننى حين أمسكت بالقلم لأسطر صفحات كتابى هذا كنت مشحونا بكل ما عشته – بداية – مع والدى فى مجتمع السود ثم من بعد فى الجامعة، مكافحا ضد التمييز العنصرى..

ولقد كنت على طول الخط آخذا فى حسبانى أن ما نتعلمه فى دراستنا للتاريخ ينحى جانبا كل ما ليس له صلة بالبيض، ومن المؤكد أن الهنود كانوا أكثر عرضة للإغفال، أما السود فإنهم يظهرون فى ذلك التاريخ كعبيد ثم كبشر محررين فى الظاهر ، ولكننا دائما نجد الرجل الأبيض يلعب أول الأدوار ... حتى على مستوى المراحل الأولى من الدراسة فى المدرسة، لم يكن مسموحا أن يتاح لنا معرفة أن وصول كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد كان مرادفا لإبادة الشعب الهندى الذى كان يعيش على جزيرة اسبانيولا (وهى المقسمة حاليا بين جمهوريتى هايتى والدومينيكان» علمونا الكثير عن توسع الدولة الجديدة، لكن أحدا لم يعرفنا أن ذلك التوسع كان يعنى طردا قسريا للهنود من كافة أنحاء القارة...

إننى ، على طول دراستى للتاريخ، لم أسمع أحداً يتحدث عن القتل المتكرر للسود بينما الحكومات ماضية فى صمتها الأصم منتشية بالدستور الضامن للمساواة فى الحقوق ... إن هدفى من كتابة «التاريخ الشعبى» هو أن أساهم فى خلق الوعى بالصراع بين الطبقات وبالظلم وغياب العدالة بين الأجناس ، وكذلك لأنبه إلى الغطرسة الأمريكية .



كما أننى بالمثل أريد أن أسلط الأضواء على مقاومة مؤسسة السلطة، وعلى رفض الهنود أن يموتوا وأن يبادوا وكذلك على تمرد السود على العبودية ثم على الفصل العنصرى ثم على اضرابات الطبقة العاملة... ذلك أن حذف تلك الأعمال من نماذج المقاومة - مهما كانت ضآلة ثمارها - يؤدى إلى الاعتقاد بأن السلطة لا يتمتع بها سوى من يملك القوة والثروة . إننى آمل فى التذكير بأن المعوزين (من العمال والملونين والنساء) بمجرد أن ينظموا أنفسهم ويبدأوا فى إظهار احتجاجهم على مستوى الوطن فإنهم يتحولون إلى قوة لا تستطيع أية حكومة أن تغفلها ببساطة» .

ويختتم المؤرخ الأمريكى Howard Zinn كلامه بعبارة صريحة صراحة ما سبقها من شهادات: «إذا كان للتاريخ أن يبدع ويبشر بمستقبل لا يلغى الماضى، يجب أن نقدر الإمكانات الجديدة ونكشف عن كل ما تم سجنه فى الظلام .. وآمل فى أن يتشكل مستقبلنا من لحظات التضامن المحفورة فى ذاكرتنا من قرون الحروب المتعاقبة ».

وتشبثاً منى بنبرة الأمل التى أنهى بها هوارد زن كلامه عن كتابه الذى أهله للجائزة، فإننى أفضل أن أنحى جانبا كل ما يطرأ على الذهن من ملابسات التواطؤ على صحارى بلادنا بما فيها من ألوان الحياة البشرية والنباتية والحيوانية وما يصيب تراثها وبقاعها من تشوية وانتهاك، ذلك أننى مازلت متشبثة بالأمل فى ظهور مجموعة من المبدعين المتخصصين فى فنون الانتاج لشاشاتنا، ينجزون لصحراء مصر ما أنجزه هوارد زن لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ولن تكون الجوائز ساعتها من نصيبهم وحدهم، وإنما ستشمل أهل مصر أجمعين. ■

كلمات عاشت

ربما قامت عظمة المهنة ، قبل كل شيء ، بتأليف البشر ويضمهم بعضهم إلى بعض .. حينما يشدنا إلى إخوتنا هدف واحد ، خارج عنا حينئذ . فقط ، تتنفس الصعداء ، لأن الاختبار يعلمنا أن الحب لا يتحقق ، بأن ينظر كل منا إلى الآخر ، بل بأن ننظر معاً فى اتجاه واحد .

« أنطوان اكزوبيري »

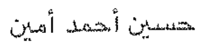
إن دعاة التفوق العنصرى الأبيض يتوهمون أن المعركة ، معركة أعداد ، وأنها معركة عنصرية ، وأنها معركة بين الأسلحة الحديثة ، والأسلحة البدائية ، ولكنها ليست كذلك، إنها معركة الحق ضد الباطل ، والخير ضد الشر .

« البرت لوتولي»



محمود شاكر



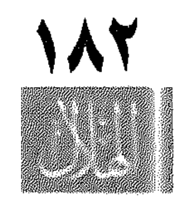


حسين أحمد أمين

مرارة محمود شاكر في حلوق الجميع اليوم

بقلم
عبدالرحمن شاكر

أكتب هذا المقال في مجلة الهلال العريقة التي فتحت صدر صفحاتها لى، منذ أكثر من عشرين عاما، فى وقت أوصدت فيه أمامى منافذ أخرى للتعبير.. تعقيبا على ما كتبه السفير حسين أحمد أمين فى جريدة القاهرة، بتاريخ ٣ فبراير الفائت، عن لقائه بالأديب الكبير الراحل محمود محمد شاكر، وتابعه فى ذلك معجبا بما كتب، على صفحات ذات الجريدة بتاريخ ١٠ فبراير، كاتب أقرأ اسمه لأول مرة، وهو الأستاذ محمد محمود عبدالرازق، الذى تكلم عن لقاءين له بالأديب الراحل، ويأتيني هذا المقال بعد أن وصلت إلى ذات الحالة، التى وصفها حسين أحمد أمين فى كلامه عن عمى الأستاذ محمود شاكر، بأنه «قد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب» !



وأذكر يوم ١٦ ديسمبر ١٩٨٢ كنت في دار الشروق أحادث صاحبها

المعلم حين أخبرني أنه ينوي القيام في الثامنة مساء بزيارة لمحمود شاكر في منزله ...

بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته .. ولما كنت شديد

مقابلة شاكر منذ قراءتي لكتابه الفريد «أباطيل وأسمار» والمقدمة الممتازة لكتابه عن المتنبي، ومن

تقدير لجهوده الفذة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، و

في دائرة المعجبين به من مواهبه رغم حدة طبعه وسلاطة لسانه، فقد رحبت بمرافقة المعلم

خائفا مسرورا شيء من الوجل والرهبة والخشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضا من

مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «حائط المعلم العزيز».



حسين أحمد أمين يكتب عن:
شيخ محققي التراث العربي

تكلم حسين أحمد أمين وتابعه كثيرا عن «فظاظة» الأديب الراحل «وسلاطة لسانه»، وطعنه فيمن يسمونهم رموز الثقافة العربية، ونسي كل من الكاتبين أن الأستاذ محمود قد نشأ في جيل كان من أكبر أعلامه الثقافية، كل من المرحوم عباس محمود العقاد، والمرحوم مصطفي صادق الرافعي.

وكما روى المرحوم سعيد العريان في كتابه «حياة الرافعي»، كان العقاد يسمي الرافعي «المهندار الأصم» حيث كان الأخير فاقد السمع، وفي مقابل ذلك كان الرافعي يسمي العقاد «أحمق الدولة»، فضلا عن الكتاب الذي ألفه الرافعي في هجاء العقاد وسماه «على السفود» ولم يضع اسمه عليه، بل ترك ناشره إسماعيل مظهر، يكتب على غلافه أنه بقلم «إمام من أئمة الأدب العربي»! فضلا عن موروث الأدب العربي من أهاجي المتعاصرين، مثل «نقائض جرير والفرزدق» وأهاجي حماد عجرد لبشار بن برد وابن الرومي للبحتري وهلم جرا!

على أن أشد «هجاء» وجهه محمود شاكر إلى لويس عوض هو وصف عمله بأنه «لعب ولغوصة» في كلام العرب، وبأنه «شرلتان»، وذلك لأن الدكتور لويس قد أقدم على عبث شديد باللغة، حينما حول «الصليان بالياء» في قصيدة للمعري وهو نبات تأكله الأبل، إلى صلبان بالباء وزعم أنها في وصف حلب! وزعم أن «وردة كالدهان» في ذات القصيدة، بل في القرآن الكريم وتفاسيره هي «روزامسكيتا» الواردة في ثقافات أخرى، بينما المقصود هو حمرة اللون فحسب، كما بين شاكر في كتابه «أباطيل وأسماء»، وغير ذلك كثير، منها قراءته لما ذكره الجبرتي عن لجوء الإماء الحبشيات إلى معسكرات الفرنسيين بأنها كانت «لما علمنه من رغبة القوم في مطلق الأنثى»، وتفسيرها بأنها رغبتهم في تحرير المرأة! ولم تكن رغبتهم تعود مجرد الرغبة «البيولوجية» في الأنثى.

أما ما كتبه المعجب بالصورة التي رسمها حسين أحمد أمين لشاكر عن «ادعاءاته الظالمة» فيما يتعلق «بسرقات توفيق الحكيم من الكتاب الأوروبيين». فقد سبقه إلى ذلك من قديم المرحوم

أحمد رشدى صالح فى جريدة الأخبار عن سرقة فكرة الحوار مع الحمار من كاتب أسباني، وقد نشرت بعض الصحف صفحات من كتب الحكيم وبجانبها صور من أصولها الأوروبية، وأظن أن المرحوم الأستاذ يحيى حقى هو من كان يدل الأستاذ شاكر على ما يسطو عليه الحكيم من كتابات الكتاب الفرنسيين، وإذا كان لى أن أدلى بشهادة خاصة ، فقد عرض التليفزيون المصرى فى إحدى سهراته فيلما فرنسيا تدور قصته عن الصديق الذى يقع فى غرام صاحبتة أو خطيبة صديقه دون أن يدرى ، واقتبس منها توفيق الحكيم قصته التى صورت فيلما بعنوان «رصاصة فى القلب» ولا يعنى ذلك أن كل أعمال الحكيم مسروقة من آخرين كما تساءل الكاتب متنكرا !

السطو والاستشراق

ويقودنا ذلك إلى قضية السطو ومتابعة المستشرقين فيما يذهبون إليه من أحكام مغرضة على الثقافة العربية والإسلامية.

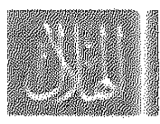
لقد انفصل محمود شاكر عن السرب الأدبى الذى كان عميده هو أستاذه المرحوم الدكتور طه حسين، أقول انفصل مبكرا فى سن التاسعة عشر وترك كلية الآداب فى السنة الثالثة قبل موعد تخرجه بعام واحد ، لأنه اقتنع بأن الدكتور طه فى كتابه عن الشعر الجاهلى ، قد ارتكب خطأين: الأول منها هو «سطوه» على مقالة المستشرق مرجليوث ، فى هذا الموضوع مما يعتبر مخالفة للأمانة العلمية، والثانى هو متابعته لرأى هذا المستشرق فيما ذهب إليه من ادعاء أن الشعر الجاهلى لا أصل له، وأنه كله قد وضعه الرواة بعد ظهور الإسلام، وقد حاول أحد أساتذة «الفتى محمود شاكر» وهو المستشرق الإيطالى نالينو أن يثنيه عن عزمه على ترك الجامعة، فكان شرطه لذلك أن يعترف الدكتور طه بأنه أخذ كتابه عن مقالة مرجليوث، وقد عاد الدكتور طه بالفعل عن هذا الطريق ولكن فى وقت متأخر، حينما راح يشرح بعض قصائد الشعر الجاهلى فى «حديث الأربعاء» أذكر منها شرحه لمعلقة لبيد بن ربيعة العامرى ومطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

وعلى ذكر مالينو، فربما يهم الأستاذ حسين أحمد أمين أن يعلم، أنه قد عرض على الأستاذ محمود شاكر أن يذهب معه إلى إيطاليا، لكى يمنحه درجة الدكتوراه مباشرة من إحدى الجامعات الإيطالية، عن كتابه «المتنبى» الذى صدر فى عام ١٩٣٦ فى عدد خاص من المقتطف، وحاز به الأستاذ محمود وهو فى السابعة والعشرين شهرة واسعة، جعلت بعض الصحف بعد ذلك، ومنها «الدستور»، تنشر مقالاته فى صدر صفحتها الأولى، كما كانت تفعل الأهرام بالنسبة لقصائد أحمد شوقى أمير الشعراء ، وتكتب تحتها اسمه وتقول «بقلم الأديب النابغة فلان»، وحينما توفى والده المرحوم الشيخ محمد شاكر عام ١٩٣٩، كتب أحد من أنبوه فى الصحف: «من أولاده الكاتب اللوذعى الذى لا يشق له غبار الأديب المؤرخ الأستاذ محمود محمد شاكر».. وهلم جرا، وبعد ذلك يأتى حسين أمين وسواه يزعمون أنه كان ينفس على مشاهير الأدباء شهرتهم ولذلك كان يهاجمهم، بعد أن «فشل» فى أن ينتج بقدر ما أنتجوا من أدب !

والواقع أن حكاية الإنتاج هذه، كانت لها قصة فى حياة محمود شاكر،





لقد كان صديقاه أحمد حسن الزيات وسعيد العريان، يأخذان عليه انصرافه عن الإنتاج، وانكبابه على القراءة، وهذه القراءة، مضافا إليها تحقيق بعض عيون كتب التراث، كانت هي مصدر المعرفة الهائلة التى اكتسبها هذا الرجل بالثقافة العربية والإسلامية على النحو الذى اعترف ويعترف به حتى من خاصموه وحملوا عليه مثل الكاتبين اللذين نعقب على كلامهما الآن! وهذه المعرفة هى التى جعلت أستاذه طه حسين الذى اختلف معه فى مقتبل العمر، يوعز إلى الوزير السابق المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقورى، أيام كان صديقا للأستاذ شاكر ، بأن يتقدم بسجل إنتاجه إلى مجمع اللغة العربية ففعل ، واختير بعدها عضوا بالمجمع.

وللعلم أيضا، فإن خلاف محمود شاكر مع أستاذه طه حسين لم يفسد للود قضية بين الرجلين، وقد اصطحب محمود شاكر صديقه الشاعر الكبير الراحل محمود حسن إسماعيل، إلى الدكتور طه مطالبا إياه برفع غبن لحق بالشاعر أيام كان يعمل فى وزارة المعارف وكان الدكتور طه سكرتيرا عاما لها، فاستجاب لطلبه قائلا: «حاجتك مقضية ياسيد محمود»!

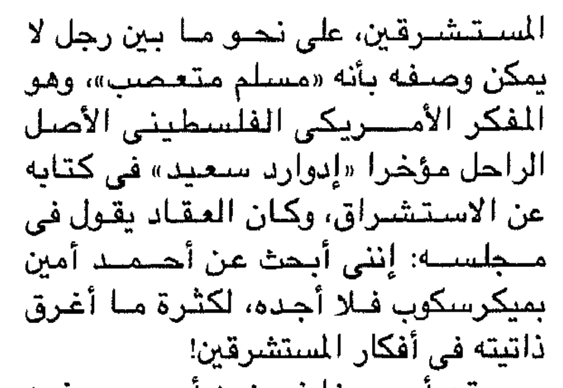
منتهى الفشل

يتحدث الكاتبان اللذان نحن بصددهما عن فشل محمود شاكر! إذا كان الرجل قد فشل فى شىء فهو فى دفع البلاء عن أمته العربية والإسلامية، والخطر الذى كان يراه مبكرا من تدهور تعليم اللغة العربية وآدابها وتحصيل الثقافة العربية والإسلامية على نحو صحيح، والوقوع فى الشراك والدسائس التى كان ينصبها الاستعمار الغربى لهذه الأمة مستعينا بطلائع غزوة من



طه حسين

لويس عوض

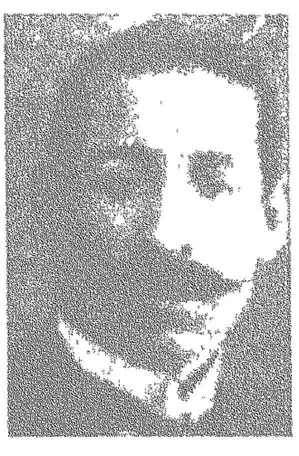


المستشرقين، على نحو ما بين رجل لا يمكن وصفه بأنه «مسلم متعصب»، وهو المفكر الأمريكى الفلسطينى الأصل الراحل مؤخرا «إدوارد سعيد» فى كتابه عن الاستشراق، وكان العقاد يقول فى مجلسه: إننى أبحث عن أحمد أمين بميكرسكوب فلا أجده، لكثرة ما أغرق ذاتيته فى أفكار المستشرقين!

وقد أصبحنا فى زمن أصبحت فيه العداوة ظاهرة مستعلنة فى الدوائر الاستعمارية الغربية للحضارة العربية والإسلامية، وخطر هذه العداوة على هوية هذه الأمة بادية للجميع باسم العولمة، التى تعنى الأمركة، وخاصة بعد الغزو الأمريكى مؤخرا للعراق، وأصبحت المرارة التى كان يستشعرها محمود شاكر من قديم إزاء الغزو الغربى غصة فى حلوق سائر العرب والمسلمين، وقد وقع قلب العالم العربى والإسلامى من جديد فى كماشة أحد طرفيها هو احتلال أكبر قوة عسكرية فى العالم للعراق، والطرف الآخر هو العدوان الصهيونى المدعوم أمريكيا على فلسطين، وأصبحت العروبة والإسلام والمقاومة الوطنية عند هؤلاء مرادفات للإرهاب!

أما على المستوى الشخصى، فإن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله، قد رأى







عباس محمود العقاد   مصطفى صادق الرافعي

فى أخريات أيامه أكثر من كتاب مطبوع عبارة عن رسالة جامعية عنه، ومازال رسائل أخرى يجرى إعدادها فى مختلف الجامعات عن علمه وأدبه النادرين!

كتب الدكتور مجدى وهبة، مقالة بالإنجليزية بعنوان «غضب مرتقب» ترجمها إلى العربية شقيقى المرحوم زهير شاكر، يقول فيها :

«لا جدوى من أن تمثل جانب الإسلام نماذج مثل طه حسين، أو المثقف شبه الماركسى الحديث، أو حتى من يسمون بالإسلاميين «المعتدلين».. إذا كان الهدف هو قيام حوار على أساس واقعى. لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مع صورته فى المرآة، حتى ولو كانت هذه المرآة تشوه ملامح الصورة شيئا ما، بل لابد له أن يواجه الحقيقة الواقعة، وإحدى صور هذه الحقيقة هو الغضب الذى عبر عنه محمود شاكر».

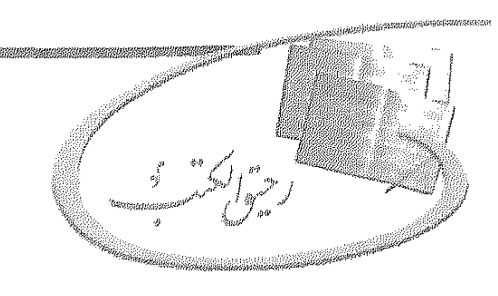
ذلك ما كتبه هذا الأستاذ الجامعى تعقيبا على كتاب «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود شاكر، وأى حديث عن حوار الحضارات لا يستغنى عن مثل هذا الخطاب.

وعسى أن يصل هذا الحوار - إن صحت النوايا - إلى غاية صحيحة، لا نكون نحن فيها الطرف المقلوب، سياسيا وعسكريا، وفكريا أيضاً !

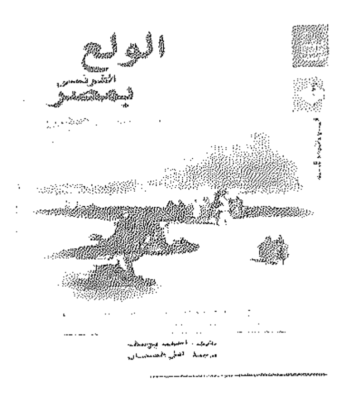
لقد كانت «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» آواخر ما خطه قلم الأستاذ محمود شاكر، رأيه فى الاستشراق، قد سجله من قديم فى مقالة له بمجلة الرسالة فى العدد ٣٥١ عام ١٩٤١، حينما قال: «ينقسم أمر المستشرقين إلى عملين أحدهما عملهم فى الكتب العربية القديمة التى نشروها من بدء توجههم إلى هذا الغرض، والآخر ما كتبوه فى دراساتهم فى الآثار العربية وما أرخوه من تاريخ الإسلام، وتاريخ آرائه فى مذاهبه العلمية والفلسفية».

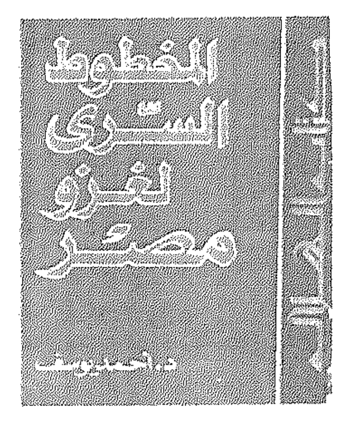
وبعد أن يفيض الكاتب فى وصف عمل المستشرقين فى نشر الكتب العربية يقول: «ومجّد الناس همة هؤلاء المستشرقين الأعاجم - وحق لهم - وجعل جماعة ممن لُيس عليهم يدفعون القول بعد القول فى تعظيمهم والمغالاة فيهم بغير الحق.. ثم مضى ذلك وانسحب التبجيل على آرائهم فى الفكر الإسلامى والتاريخ العربى كما انسحب على أعمالهم فى نشر الكتب.. وأين هذا من ذاك؟».

وينسحب ذلك على موقفنا عموما من الحضارة الغربية المتطورة علميا وتكنولوجيا، فإذا كان كثير من مبدعات هذه الحضارة يبهرنا بل ويفيدنا ، فهل يفيدنا أن بعض مبدعاتها «التكنولوجية» تفتك بأهلنا فى كل من العراق وفلسطين ؟ أم أن علينا أن نميز بعقولنا بين ما ينفع وما يضر؟! ■



الكتاب:
الولع الفرنسي بمصر
من الحلم إلى المشروع
المؤلف: د. أحمد يوسف
ترجمة: أمل الصبان
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة





سبق وأصدرت سلسلة كتاب الهلال سنة ١٩٩٤ أول ترجمة عربية لكتاب «المخطوط السرى لغزو مصر» تأليف د. أحمد يوسف عن نص مجهول وغير منشور كتبه الفيلسوف الألماني ليبنيز عام ١٦٧٢ وأرسله إلى الملك لويس الرابع عشر أقوى ملوك أوربا حينئذ يدعوه فيه إلى أن يعبر البحر إلى مصر للاستيلاء عليها لوقف المد العثماني الإسلامي.

وبالرغم من صدور النص الأصلي للكتاب في سلسلة «كتاب الهلال» إلا أن المجلس الأعلى للثقافة قام مؤخراً بنشر «المخطوط السرى لغزو مصر» ترجمة أمل الصبان في المشروع القومي للترجمة مع ذكر أنه «النص غير المنشور الذى قدمه ليبتنز للويس الرابع عشر» كما جاء على غلاف ذلك الإصدار.

وهناك عدة ملاحظات:

كيف يعاد نشر كتاب في المشروع القومي للترجمة سبق نشره باللغة العربية في سلسلة كتاب الهلال الواسعة الانتشار والذى تناولته العديد من الأقلام بالتعليق والدراسة منذ صدوره حتى اليوم.

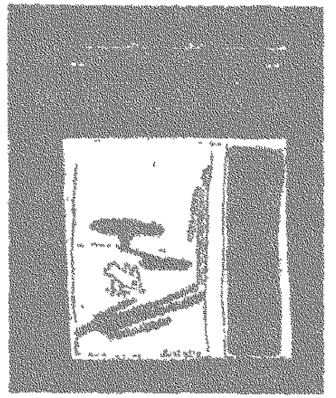
إن الإشارة إلى أن ذلك «نص غير منشور» غير حقيقي فكيف ذلك وقد قمنا بنشره قبل عشر سنوات باللغة العربية.

إن اسم الفيلسوف الألماني هو ليبنيز وليس ليبتنز كما جاء في تلك الترجمة الجديدة.

ولا يغير من الأمر شيئاً وضع عدة عناوين على غلاف الإصدار الجديد مثل «الولع الفرنسي بمصر : من الحلم إلى المشروع».

إن الترجمة الجديدة لكتاب د. أحمد يوسف لم تشر من قريب أو من بعيد للترجمة السابقة التي صدرت في سبتمبر ١٩٩٤ عن كتاب الهلال.

يجب في مثل هذه الأعمال مراعاة الدقة والتحرى قبل التسرع خاصة فيما يصدر عن المشروع القومي للترجمة.



الكتاب: دفاعا عن الإنسان - دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة
المؤلف: د. عبد الوهاب المسيرى
الناشر: دار الشروق

برغم الإيمان بالإنسانية المشتركة التى تجمع الجنس البشرى إلا أن هناك خصوصيات مختلفة تحمل تركيبات إنسانية لا حدود لها تميز الإنسان الفرد عن بقية أقرانه البشر بل وتميزه عن الكائنات الطبيعية والمادية .

لذا يقوم «المسيرى» باستخدام نماذج تحليلية مركبة .

وهى نماذج يدخل فى تركيبها عدد من العناصر المتنوعة المتداخلة بل والمتناقضة منها السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى والحضارى، حتى يتمكن من الإحاطة فى معظم جوانب الظاهرة الإنسانية ، ويرى أن التعبير عن احترام إنسانية الإنسان وتركيبته يكمن فى استخدام النماذج المركبة فى تحليل بعض الظواهر والأحداث والجماعات الوظيفية داخل التاريخ البشرى.

ويحاول على مدى اثنى عشر فصلا أن يحلل مجموعة من النماذج يطلق عليها اسم الجماعات الوظيفية ويفسر ظاهرة فشل بعضها.. مثال ذلك الجماعات الوظيفية اليهودية والمماليك كجماعة وظيفية قتالية.. كذلك يفسر ظاهرة «الماشيح» وهو المسيح المخلص اليهودى وفكرة الخلاص عند اليهود والتى سيعودون بها إلى صهيون، كذلك يحلل أهم الحركات الدينية اليهودية فى العصر الحديث بوصفها كما يقول «المسيرى» حركة مشيحانية دينية يهودية خلقت تربة خصبة لظهور الصهيونية وهى حركة الحسيدية والصهيونية ، كما يغوص الكتاب داخل بعض الجماعات الوظيفية الأخرى مثل الحلولية والعلمانية الشاملة.

ويضعها فى سياقها الاقتصادى والتاريخى والاجتماعى والثقافى والدينى ، ويفسر ظاهرة المحرقة النازية ليهود أوروبا من خلال وضعها فى السياق الغربى الحديث.

إلى جانب وضعها فى سياقها الألمانى واليهودى.

والجزء الأخير من الكتاب يتناول ظاهرتين ترتبطان بالوطن والوجدان العربى فى العصر الحديث وهما حملات الفرنجة والجماعات اليهودية، والماسونية حيث يقدم رؤية مركبة تدرس العناصر الدينية والاقتصادية والحضارية التى أدت إلى تجريد حملات الفرنجة ضد المسلمين أى المواجهة العسكرية بين العالم العربى والعالم الغربى خلال الحملات الصليبية والتى أصبحت محط الاهتمام بعد ظهور

الدولة الصهيونية للتماثل وبين تجربة الفرنجة أو الصليبيين وبين تجربة الصهاينة ، كذلك ظهور الماسونية حيث يرى الكثيرون من أصحاب النماذج الاختزالية أن الماسونية حركة عالمية إلحادية.. ولكن «المسيرى» يرى أن دراسة الماسونية بدقة .. تؤكد أن هناك حركات ماسونية شتى تختلف باختلاف ظروف نشأتها وتطورها .. ويفسر لنا نشأة وتطور الماسونية من خلال استعراض بعض أنواعها مثل الماسونية الربوبية والإلحادية موضحا أن الماسونية هى «بنت محيطها الحضارى والتاريخى والجغرافى .. فقد كانت المانية فى المانيا وانجليزية فى انجلترا، وفرنسية فى فرنسا.. وتغيرت هى نفسها مع تغير أوروبا، ويفسر طبيعة العلاقة بين الماسونية واليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية.

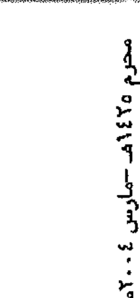
وفى نهاية الكتاب يقدم «المسيرى» تحليلا لمفهوم المتحف والذات القومية موضحا أن رصد مفهوم المتحف على اعتباره مبنى وصالات وقاعات وغرف يعتبر مفهوماً قاصرا.

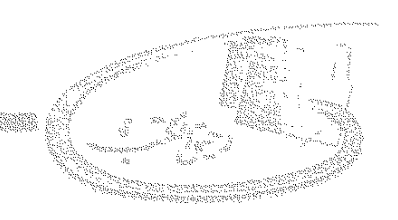
فالمتحف من خلال تبنى نموذج تحليلى مركب هو متحف متعدد الأبعاد ويقول: «سيكون بوسعنا حينئذ أن نميز بين متحف وآخر وأن نرى المتحف فى علاقته بالنموذج المعرفى الكامن وراءه ويكشف علاقة المتحف بالذات القومية حيث يرى أن المتحف يجب أن يكون تعبيرا عن رؤية الذات القومية لنفسها وتجسيداً لوعيها بتاريخها وحاضرها ومستقبلها .. لذا نجد الدول تنفق الملايين لتقيم المتاحف وتفتحها بالمجان لجماهيرها دون أن تسأل عن العائد المالى.

لأن العائد المتوقع هو عائد ثقافى حضارى اجتماعى سيترجم نفسه إلى عائد مادى بشكل غير مباشر.. إذ أن الإنسان المنتمى المحدد الهوية إنسان منتج ملتزم أما الإنسان غير المنتمى الذى لا جذور له.. إنه إنسان تعصف به الأيديولوجيات والموضات غير قادر على البذل أو العطاء..

الكتاب: عشية أفول الامبراطورية - أسئلة حول موقعنا فى عالم الغد
المؤلف: كريم مروه
الناشر: الفارابى

وسط عالم ملئ بالمتغيرات المتناقضة، حافل بالاضرابات المتلاحقة مما يجعلنا نعيش حقبة انتقالية بين عصر مضى وعصر جديد قادم من تاريخ العالم. يطرح كريم مروه فى صيغة تساؤلات وتصورات يصعب إجاباتها. اشكالية «فى أى عالم هو عالم الغد القادم؟! وما هو موقعنا منه؟» يواجه القارئ فى مقدمة كتابه بأن أسئلته وتصوراته تشمل العالم المعاصر كله بما فى ذلك بلداننا الجزء الضعيف والمتخلف فيه . يستعيد أحداث الماضى ويعيد قراءتها فى صيغة جديدة متحررة من أية أفكار





مسبقة.

حيث يرى أن الذهاب إلى المستقبل لا يتحقق إلا من خلال القراءة النقدية للماضي، ومن خلال الاستفادة من دروس الأحداث والتجارب السابقة. مبرراً أن التاريخ لا يصنع مرة واحدة. وإنما في عملية تواصل تنقل العالم من حقبة إلى حقبة تليها.

وفي واقع قديم إلى عصر جديد. خاصة أن الجديد لا يولد من فراغ ولا يهبط في الغيب بصورة تلقائية. إنما يولد قطعاً من رحم القديم...»

الكتاب عبارة عن مجموعة من الرؤى النقدية والتحليلية لتاريخ عالمنا المعاصر. فنجد «مروه» بدأ كتابه بدراسة حول «كتلة تاريخية جديدة لصياغة مستقبل العالم» ومن خلالها يحلل أسباب انهيار المنظومة الاشتراكية العالمية. ويستنتج أن أهم أسباب الخلل هو ذلك النابع من عمق التجربة الاشتراكية نفسها. ويرجع إلى سياسات «ستالين» ونهجه المدمر في كل الميادين قبيل الحرب العالمية الثانية. في وقت كانت الرأسمالية لديها قدرة أكبر على تجاوز تناقضاتها وتجاوز أزماتها.

ويستنتج أن انهيار التجربة الإشتراكية أعطى الفرصة للرأسمالية لكي تتطور في اتجاه ما يعرف بالعولمة الرأسمالية بالمعنى السياسي والاقتصادي والثقافي والقيمي. وأعطى لنظامها صفة النظام العالمي الجديد. لذا نجده يؤكد على حاجة العالم إلى حركة جديدة لمواجهة كل ما يتصل بظاهرة العولمة الرأسمالية المتوحشة التي تهدد الشعوب. لذا يقترح أن يكون شعار العولمة البديلة هو شعار الحقبة التاريخية التي تمر بها البشرية. وذلك من خلال برنامج ملموس وفي حركة عالمية تتكون في كتلة تاريخية من نوع جديد.

ويقدم الكتاب قراءة نقدية في حقبة نصف قرن وتاريخ الأمة العربية ليدعو من خلالها إلى الديمقراطية بكل معانيها وإلى تحمل جميع القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى جانب الدولة ومسئولياتها للخروج من الأزمات التي تحيط بمجتمعنا. بالإضافة إلى دعوته للتضامن الكامل لمواجهة مصيرنا كدول وشعوب لها ثقافاتها الخاصة. وفي سبيل ذلك نجد «مروه» يجدد دعوته إلى الثورة. حيث نشرها في مقال عام ١٩٤٧ بعنوان «لابد من الثورة» في جريدة «الرأي العام». وها هو يجدد الدعوة إلى الثورة حيث يرى أن هناك تزامن وترابط أربع قضايا مثيرة للقلق والجدل على الوجود الإنساني في بلادنا.

تبدأ تلك القضايا بالأوضاع داخل بلده لبنان وتمتد إلى فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي ثم الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق ورابعها قضية الاستبداد المستشري داخل أنظمة الحكم العربي (جمهورية/ملكية).

ويواصل «مروه» في كتابه تقديم دراسات تحليلية نقدية لأهم الأحداث التي مر بها العالم خلال الفترة الماضية مثل: أحداث ١١ سبتمبر والتي أطلق عليها «أحداث دراماتيكية وتحولات قيد التكوين». وتناول أيضا الإرهاب وجذوره السياسية

والاجتماعية والايديولوجية. ودور العلم فى رسم مستقبل العالم وغير ذلك من قضايا عن الديمقراطية والاشتراكية والاستبداد.



الكتاب: مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة
المؤلف: أحمد بلبع
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

عن الرق كظاهرة اجتماعية ظهرت واستفحلت على مر العصور حتى تحولت إلى مؤسسة متكاملة الأركان، مستقلة بكيان لها سلطاتها ونفوذها ومسئولياتها. وصارت لها قواعدها وأعرافها وسنت لها قوانينها وشرائعها. يقدم أحمد فؤاد بلبع دراسة جادة متعمقة فى تاريخ نشأة وتتطور الرق فى كل عصر أو مجتمع أو حضارة. نتعرف من خلالها على أعراف وقواعده الخاصة، وشرائع وقوانين تنظيم حياة الرقيق، وعلاقتهم بالمجتمع. ونوع المعاملة التى يلقونها . وما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق - إن كان لهم شيء منها - بل وتتعمق الدراسة فى أسباب الرق ووسائل امتلاك الرقيق، ومصادر الحصول عليه . وتحدد أنواع وطبيعة العقوبات التى يحق للسيد أن يوقعها على رقيقه إذا أخل بواجباته أو قصر فى خدمته. كما تتناول وضع المرأة والغلمان داخل مؤسسة الرق حيث كانت المظاهر تختلف باختلاف الحضارات والمجتمعات والمراحل. واهتمت أيضا بعملية انتشار البغاء فى كل المجتمعات والحضارات حيث كان القرين للرق ويسير معه جنبا إلى جنب. علاوة على الخصاء إحدى أشد ممارسات الرق قسوة وشذوذا وغرابة. كذلك ابتكار وسائل للتعذيب فقط لإرضاء شهوة التعذيب المريضة لدى الساديين فى كل مجتمع. وبالطبع تكون الطبقات الدنيا فى المجتمع هى المستباحة لاسيما الرقيق.

يستعرض الكتاب تاريخ الرق فى المجتمعات البدائية القديمة وفى اليابان والصين وارتباطه بالدعارة والبغاء. كما يدرس مفهوم الرق فى الشرائع الهندية القديمة وتطوره داخل المجتمعات الهندية المتلاحقة انطلاقاً من بعض الشرائع مثل شريعة «منو» والفقه الهندوسى، ثم يستعرض النظم القانونية فى بلاد وادى النهرين وطبقاته وأسبابه وملامح قسوة الأحكام الجنائية والقصاص التى يتعرض لها الرقيق عند الأشوريين. ثم ينتقل إلى المجتمع الفارسى ليكشف لنا أوضاع المرأة وعلاقتها الزوجية والتفريق بين الزوجة الرئيسية والزوجة الخادمة. ومجتمع عرب الجاهلية وأسباب الرق عندهم مثل السبى والتسرى، البغاء والتبنى، السفور والنقاب وكافة

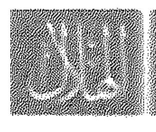
أشكال التمييز عندهم. كما يتناول الرق عند الحضارات المختلفة مثل قدماء المصريين، والعبرانيين، اليونانيين والرومان.

ثم يدرس الكتاب الرق في الديانة المسيحية والكنائس المسيحية . خاصة موقف الكنيسة من تجارة الرقيق وأطوار الديانة نفسها. ويتناول بالشرح اضطهاد المسيحيين في المراحل الأولى ثم محاكم التفتيش وممارسات التعذيب. ويكشف عن مفهوم مصطلح البغاء الدينى الذى كان يُمارس داخل الأديرة والكنائس وفى ختام الكتاب فى الفصل الحادى عشر تنتقل الدراسة إلى استعراض أهم ثورات الرقيق على مر العصور مثل ثورة صقلية الأولى والثانية وإن كان أهم تلك الثورات، ثورة سبارتاكوس التى كانت نهايتها. هى عبارة عن نهاية مأسوية لثورات الرقيق.

الكتاب: اللوبى - القوة السياسية اليهودية والسياسة الخارجية الأمريكية
المؤلف: إدوارد تيفنان
ترجمة: حسن عبد ربه المصرى
الناشر: المشروع القومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافة

كثيرة هى جماعات الضغط الأمريكية الموالية لإسرائيل تنتشر فى جميع أرجاء الولايات المتحدة، تمارس عملها منذ بدايات الخمسينات من القرن العشرين تتلون وفق ألوان الطيف السياسى والمدنى والدينى التى يعج بها المجتمع الأمريكى.. تتغلغل حتى تصل إلى مؤسسات صنع القرار.. وبرغم كثرة عددها إلا أن من أشهرها منظمة النداء اليهودى الموحد، الكونجرس اليهودى الأمريكى، مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية، وأشهرها وأخطرها بلا منازع لجنة العلاقات العامة الأمريكية والإسرائيلية التى تُعرف باسم «ايباك». ولم تأت شهرتها من فراغ. إنما نبع من قدرتها على جمع أموال التبرعات المعفاة من الضرائب وإرسالها إلى إسرائيل، وقدرتها على جمع الأموال اللازمة لدعم الحملات الانتخابية للمرشحين لمجلس النواب والشيوخ الأمريكيين وكذلك لمنصب رئيس الجمهورية علاوة على شبكة علاقات عامة واسعة ومتشعبة.. كل ذلك مكنها من الآراء التى تميل إلى مصلحة إسرائيل.

ومن هذا المنطلق يطرح إدوارد تيفنان الصحفى السابق لمجلة التايم تساؤلاً حول حقيقة وحجم الدور الذى تقوم



به جماعات الضغط اليهودية داخل الولايات المتحدة. وذلك من خلال تتبع السياق التاريخي لتطور العلاقات الأمريكية الإسرائيلية منذ نشأة الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ كتتويج لنجاحات الصهيونية.

ويكشف باستفاضة سنوات الحرب والسلام في الشرق الأوسط. حيث سجلت الهبات المالية لأفراد الجماعة اليهودية الأمريكية أرقاماً قياسية في أعقاب انتصارات حرب الأيام الستة. بل قفز حجم المساعدات الأمريكية الاقتصادية التي تُقدم لإسرائيل من ١٥ مليون دولار عام ١٩٦٧ إلى ٧٥ مليون دولار في العام الذي تلاه. ويتتبع الكاتب جميع التحركات السياسية الإسرائيلية داخل الحكومة الأمريكية. خلال تلك الفترة حتى عبور القوات المصرية قناة السويس في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ واقتحامها خط بارليف. ودور منظمة «إيباك» في الضغط على نواب الكونجرس في الأعوام التي تلتها لتبني خطة «إعادة النظر» التي تقوم على اعتبار إسرائيل السد المنيع الذي يمكن أن يواجه تمدد النفوذ السوفييتي في منطقة الشرق الأوسط....

ويكشف الكتاب أيضا خفايا الحملات الانتخابية للرئاسة الأمريكية ودور الجماعات اليهودية (اللوبي) في تحريكها أو حتى تغيير مسارها على عدة مستويات ومع مختلف الرؤساء الأمريكيين (كندي/جونسون/نيكسون/ كارتر/ ريجان).

وإن كان من أهم فصول الكتاب ذلك الذي يبحث في حالة الحرب التي شنتها المنظمة اليهودية «إيباك» من أجل إتمام سيطرتها على واشنطن. حيث أن نشاط المنظمة اتخذ منحى جديدا بعدما تم اكتشاف أن الإحسان الذي يقدمه الكونجرس الأمريكي للدولة اليهودية قد يتسبب في تدمير دولة إسرائيل إذا اعترض عليه أي سيناتور متزمت بشكل قد يكون أسرع في تدمير الجيوش العربية مكتملة. لذا بدأت «إيباك» في توفير مقومات الهيمنة عن طريق تحويلها إلى حركة جماهيرية لتسييس اليهود الأمريكيين ودفعهم إلى القيام بالدور الإيجابي الذي من شأنه خدمة مصالح إسرائيل.

وعلى مدى عشرة فصول يواصل الكتاب سرد خفايا دور المؤثر الذي تلعبه المنظمات اليهودية الضاغطة على جميع مستويات القرار السياسي الأمريكي. خاصة المتعلق بالسلام في الشرق الأوسط. وقوة إسرائيل المتزايدة داخل المنطقة.



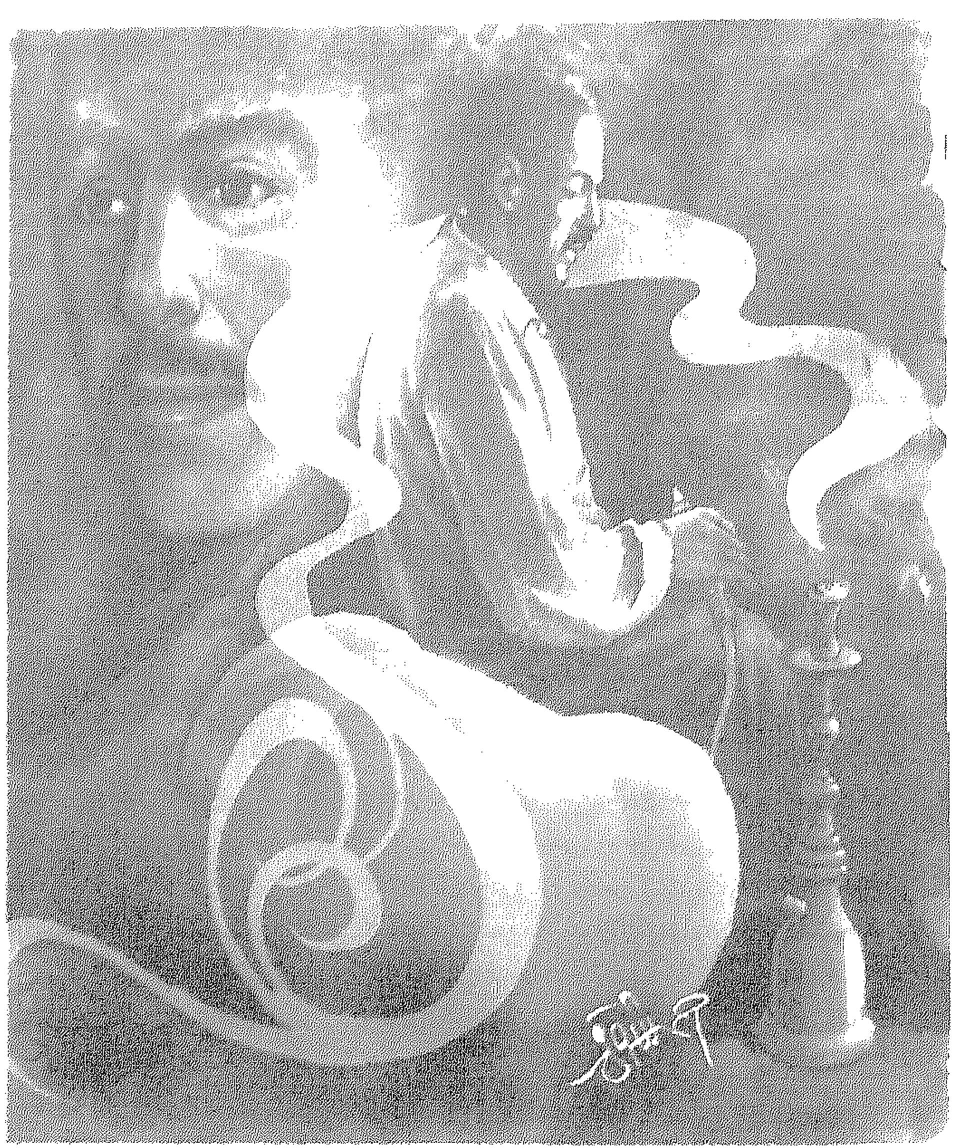
قصة قصيرة



بقلم
عصام راسم

كنا لم نلتق منذ فترة طويلة. كان صاحب الدراسة . رأيته من ظهره فعرفته .. مدة سنة أو أكثر لم نتقابل . مثل كل شيء، يد الدنيا تتصرف في علاقاتنا . تجمعنا وتطرحنا براحتها. وهي الظروف المعاندة، تجعل المرفوض، من داخل أعماقنا، هو القاعدة الضامة بيننا وبين العالم، وما هو مرغوب لكوننا الداخلي بإلحاح، تجعله شيئا طارئاً، ومكوثه بيننا مكوث الصدف العبثية المضحكة. كنت أحب هذا الشخص كحبي لما هو طارىء، ورغبتي في أن أجعل الصدف الرائعة - الطارئة - قاعدة تقوم عليها حياتي ، وليس العكس - أي لا تكون قاعدة حياتنا مقامة على ماهو ليس مرغوب ورائع - عرفته من ظهره والعرج الخفيف الذي مسه من داء شلل الأطفال.

كان جسده الطويل النحيف ، يهبط ويصعد، وبحدة مكتومة، مع كل خطوة يخطوها إلى الأمام، يمشي بهدوئه المعتاد ، مجتازاً زحام الناس فوق طوار الشارع الضيق . يفتح في اختلاط الأبدان ببعضها، شريطاً رقيقاً من الوسع، حتى يعبر بجسمه الخفيف . كان يغالب هزيمة العاهة الطفولية القديمة، وينسكب كماء في قناته الرقيقة التي شقها برفق بين لحم الناس العابرين إلى حالهم. لمحته خفيفا وطارئا وسط قاعدة، هي بشر عاديون يمشون في شارع عادي. صعد صوتي فوق رؤوس المارة، فلم يسمع ندائي. رغم سلامة ساقاي من شلل الأطفال لم استطع اللحاق به، فناديت اسمه، وفجرت أحرفه وسط الشارع، فصارت الحروف القليلة لاسمه، صدفة رائعة، تغاير قاعدة الأصوات المنبعثة من أركان الطريق. لم ينتبه وظل مستمرا في تدفقه الهادىء إلى الأمام. الغيت نفسي . وأجلت جدالي مع سخافتي الخاصة التي استعمرت فضائي من بداية صباحي، وركضت نحوه . لم يصدق عينيه حين شاهدني. أجذبه من كتفه، وأوقفه قبالي. في البدء لم يعرفني تمام المعرفة . شبه عليَّ لمدة نصف دقيقة، ثم ارتمى في أحضاني. منه عرفت أننا لم نتقابل منذ خمس سنوات. منه عرفت أنني تغيرت لحد ما ، شكلي تغير. شيب قليل يجاهد ليفترش السوالف، ليشق طريقه لبقية فروة رأسي، إنه يتحايل ليحتل ملامحي



ريشـة : أحمد شوقى

أيضاً. وهو كذلك كان شكله قد تبدل لحد كبير، لدرجة تخيلت أننى لو كنت رأيته من الأمام وليس من ظهره، لكنت قد أخيب فى التعرف عليـه. وهذه هى إحـدى الصدف الطارئة الرائعة، وهى لاتتمثل فى أننى قابلت صاحبى صدفة، وإنما تتمثل فى أننى لمحت صاحبى من الخلف .. من ظهره.

قبل أن ألقـاه، ونقف على الطوار، لنتحدث لفترة طويلة عن الطماطم، كنت جالساً على المقهى منذ الصباح الباكر، منتظراً ، لسيارة العمل، التى ستقلنى إلى «السد العالى» حيث عملى. جاءت السيارة فلم أذهب لعندها، وظللت انفث كتل دخان المعسل إلى فوق .. زمر السائق لى لينبهنى،

وعندما أشحت له بيدى قامت العربة وانطلقت للبعيد حتى غابت، وظللت جالساً، ابك الدخان. كانت تفاعلات غبية تتلاكم فى رأسى، وعدة خيارات تتزاحم قدامى. رغبة شقية تنخس أخرى، لينشب الصراع داخلى، ويرتفع غبار المعركة المجهولة، ويطمس أفق رؤيتى . كانت تلك حالتى،

قبل أن ألقى صديقى، ونتحدث عن الطماطم .. كنت أجهل الخيار المناسب فى هذا الصباح. كله تساوى أمامى، ولا يفعل لى دهشة تخدشنى بالتحفز والرغبة فى المرور إلى غاية أريدها. كله واحد لا فرق ، صار جلوسى على المقهى مساو لزيارة والداى فى «صحارى»، وعدم زيارة أباواى ندا لزيارتهم، حتى وقت أن أكتشف وأنا جالس على المقهى، أننى لى أكثر من شهرين لم أزرهم، سيرى فى الشوارع، مثله مثل رجوعى إلى بيتى، أن أذهب خجلا إلى أحد أصدقائى، لأستلف منه مبلغا من المال ، يعيننى إلى نهاية الشهر، لا يفرق هذا كثيراً عن ذهابى إلى هامش المدينة، القاطن به ابن عمى، الذى اقترض منى مبلغاً كبيراً ذات يوم ليس بقصى، أن أروح لصاحبى فى مكتبه الحكومى مكسوفاً كامشا فى بعضى، مثله مثل رمحى إلى ما وراء واجهة المدينة الفخم، حيث هناك فى الهامش يسكن ابن عمى ، دخولى على هذا حابياً وجلا، متساو مع دخولى على ذاك منفوش منفوخ الأشداق. زاعقا فيه مطالبا بحقى. كله واحد، ذلك الصباح مكفهر السمات، ساخن الملمس، كئيب أمامى دون سبب واضح. رميت بصقة دخان كبيرة من حلقى، وقمت. موجات الهواء الواهنة، المنبعثة من آثر قيامى الفجائى، فجرت قذفة الدخان، فثارت رائحة المعسل وصعدت لعينى وحرقتنى. بعد عدة خطوات مشيتها فى اتجاه مكان ما أجهله، تذكرت النادل. عدت إليه وحاسبته، وبدلاً من الطلوع للخارج ثانية، رجعت إلى مقعدى القديم، وطلبت الشاى الرابع، وحجر المعسل الخامس. للمرة الثالثة جاءنى النادل مرحبا بمغادرتى. كان وجهه ناشفاً وتعابير الضيافة البشوشة التى استقبلنى بها فى السابق، انزوت، وفرت إلى مسارات غيبية. كان الرجل قد مللنى تماماً ، بل صار يكرهنى جداً فى هذه اللحظة، وعيناه تضغط علىَّ بحدة وتدوسنى لتحت، إلى أن الأمس رخام المقهى الممسوح جيداً. كان يبطلنى بعنفه الصامت هذا، ويمسح فى قدر من المحبة، أردت أن أعطيه له قبل أن انصرف انصرافى الأخير. أخذ الفلوس من يدى الممتدة ناحيته، ومال قليلاً بجزعه ونزع بعجلة الكوب الزجاجى الفارغ من فوق المائدة وانحنى أكثر فأكثر وحاصر النارجيلة بذراعه ونهشها من فوق الأرض بقسوة، ونفخ بحس عال. حقيقة هو يكرهنى فى تلك اللحظة. أنا أتعبنه ، صار سائماً منى ويبغضنى لحد ما، وأنا منذ الصباح أكره هذا الصباح، وأشياء أخرى، ولا أشأ أن آتورط فى ضحايا جدد. وأنا أمشى فى وسط ضوضاء الطريق، أصبحت قادراً أيضاً على توسيع رقعة ضحاياى. وأنا سائر ، أدرت رأسى جهة المقهى القريب، وحدجت بعينى . كان هناك واقفاً ويتابع انصرافى بوجه حجرى ونظرات لاتلين. كنت قد استطعت الآن أن أكرهه جيداً. الطماطم مجنونة. هى ثمرة مستديرة، استدارة اللغز المحكم الإغلاق. تستعصى على الإدراك كالأحجبة. من يتعامل ، معها، لابد أن يفهمها ويدرس منهجها الغامض، حتى يروضها الطماطم تكشف اقتصاد السوق، وتعرى حالة الناس، من خلال أقدامهم أو أحجامهم عنها. زراعتها تحتاج عناية خاصة. طريقة ريها تختلف من نوع لآخر. هى قد ترفع مستوى من يزرعها إلى عنان السماء، قد يصير غنيا، وقد تجعله يضيع ويشحذ. الطماطم يوم فى الواطى، ويوم فى العالى.

– أنا بأحب الدمعة



خالص.

- الموضوع مش دمعة وبس.

- أنت بتزرعها..!؟

- لأ .. بأتاجر فيها.

صاحبي القديم، جعلني أحب الطماطم جداً، كان يتكلم عنها كخبير زراعي، أو كقسيس، يعظ في الناس، ويرسخ في أعماقهم السحيقة، تعاليم السيد المسح. كان متحمساً للطماطم. كشريعة حياة يواجه بها غباء العالم، كان مؤمناً بها بشدة ووله. فهم كل أسرار حياتها، وعلاقاتها بالناس، لذلك هو صار شيئاً مهما بين المزارعين، والتجار، وأصحاب شوادر الخضار في مختلف الأماكن. وكلما تعمق في سرده عن اكتشافه اختاره بعد جهد وتقلب وتضارب، كنت أحس. أنه يخف أكثر، ووجهه يشف، وتروح منه تعاريج الزمن التي صدمتني، لحظة أن أوقفته لأسلم عليه. ورأيت جسده النحيف يكاد يرتفع من فوق الأرض ويركب الفراغ العلوي المتكيء فوق هامات الذاهبين والراجعين في الشارع.

في كل مرة أطلب منه أن نرجع إلى المقهى القريب. لنقعد ونشرب حاجة ساقعة، ونكمل كلامنا، كنت أراه يهز كتفيه رافضاً، ويقول وهو يغرس أصابع يديه في جيوب منطاله الجينز: «لأ لا.. أنا مستعجل .. بعدين نبقى نتقابل ونقعد براحتنا»، ولدهشتي كنا نستمر ماكثين في مكاننا مدة أخرى جديدة. ثم تخرج إحدى يديه وتذهب إلى جيب القميص العلوي، وتخرج بعلبة سجائر مستوردة، يفتحها وينكت سيجارة في حنكة ويقيد بها النار، ويشرع في مص دخانها. كان يفعل هذا دون أن يعزم عليّ بواحدة، برغم أنه لم يكن يعرف إنني منذ شهور أقلعت عن تدخين السجائر واتجهت إلى الشيشة. أكثر من مرة دخن أمامي ونحن واقفين، دون أن يعطيني واحدة. هو أيضاً لم يسألني عن أحوالي، فقط احتضنني وباسني، وعندما مرت فترة الصمت الأولى التي اجتاحت بداية اللقاء، أسرعت وسألته، فتفجر أمامي حديث الطماطم، وما سبقه عن شكلي الذي تغير. وحدثني أيضاً عن عائلته، وعن أخيه الأصغر «مخائيل»، الذي كبر وحتما سيعاونه في تجارة الطماطم بعد إتمام دراسته. قال .. «الحمد لله ..» وكررها مرات عديدة بإيمان كامل، وببهجة صافية انبسطت قدامي على جسده فأزادت من خفته.

- مخاييل في الليسانس السنة دي..

- ياه .. كبر مخائيل!! كان كد كده!!

حديث الطماطم - بغير شعور - أجبرني على التسامح قليلاً، مع لون الصباح الكالح، خصوصاً بعد تدرج عمر النهار إلى الكبر، واشتداد عوده، في ظروف كأنها طارئة وغير خاضعة لنظام كوني معتاد. كان الجو خريفياً، مقبلاً على أوائل الشتاء، وبه لسعة من برد هينة تقدر الأبدان على استيعابها بالألبسة الخفيفة، ذات الأكمام، كان صاحبي مستمراً في الحديث عن اختياره الذي نجاه من شظف العيش، ونجى سلسال العائلة أيضاً. كان يتحدث مسترسلاً وكأنه يقدم لي أجوبة عن أسئلة تضج في رأسي. قلت في سري هي الطماطم.. لكن كيف؟.

قبل أن أناقشه في اختياري الذي حددته منذ لحظات، أخرج علبة الدخان، وأشعل لنفسه سيجارة.

أنت بطلت سجاير؟ مش كده.

- أنت عرفت ازاي!؟؟

أخذ شهيقاً دخانياً عميقاً، وحدق فيّ ولم يرد، وضم ذراعيه إلى صدره، وراحت يده الفارغة من حمل السيجارة، تملس ببطء على كوعه البارز من كم قميصه

النصفى، ثم أطلق كائنات دقيقة من فمه، لها لون رمادى باهت، راحت تتفكك، وتتلاشى ، قبل ان أسأله عن كيفية العمل بالطماطم، رن تليفونه المحمول، المعلق فى حزام الوسط، وصنع بعض الضوضاء بيننا والقلق . قال : «طيب .. طيب..»، ثم علق الهاتف الصغير فى منطاله، وأسرع عازما على المغادرة. وهو يمد يده مصافحاً، قلت له سؤالى الذى بدأ يخبط ويزرع فى دماغى عن الطماطم. كنت قد حزمت أمرى، هى الطماطم.

– معلش .. أنا مستعجل دلوقتى .. خد العنوان.

– ده عنوان البيت.!؟

– أيوه .. ابقى تعالى فى الليل .. بعد العشا.

وتبخر فى الزحام واختفى فجأة. فى الليل وأنا ارتقى درجات السلم الحلزونى الخافت الضوء، حددت السؤال وخلصته من أى زوائد أو إضافات غير مجدية، جعلته واضحاً ومجلواً، هو بالضبط عن الطماطم، وكيف أدخل إلى عالمها ، الذى بدل حال الصاحب، وجعله كما صار ثريا بالمال، صار كذلك ثرياً بالمعارف التى تخص الطماطم

وملحقاتها ، من زراعة، وجنى، وبيع وشراء، وما يكتنف صلتها بالناس من غموض، ثم وبمنتهى الصراحة، كيف أصبح مثله خبيراً فى تلك الثمرة. قديماً كان يسكن نفس المنطقة التى بها بيت عمى، فى هامش المدينة، الآن يقطن هو وأهله حى أطلس. أمام العمارة العالية، حديقة واسعة. عن اليمين واليسار تتناثر الحدائق والعمارات. الحى هادئ . أمام باب الشقة وقفت، ورفعت ذراعى. بعناية ضغطت الجرس، الصوت جاء من خلف الباب مكتوما. الموسيقى الخفيضة، انقطع صدحها بعد أن رفعت أصبعى عن الجرس المستطيل بجانب ضلفة الباب.

– أنت مخائيل؟.

ظهر أمامى وجه عشرينى متحفزا مبهوتا لحد ما من رؤيته لى. من ورائه أطلت رأس صلعاء تحمل ملامح لصديقى القديم وأخيه الأصغر كانت الملامح صافية. تشى ولا تحسم بالشبه الرابط بين الثلاثة، لها خصوصية السن السبعينى المهيب، وفى نفس الوقت تشارك الولدين فى تفاصيل صغيرة غير محددة أو ملموسة. هو الأب الذى جنى صنيع الطماطم فى أخريات أيامه، الاثنان وقفا فى مواجهتى مستفسرين.

الأب فتح باب الشقة لآخره، وأزاح برفق مخائيل، ليقصيه عن اهتمامى، وتقدم ببطء حتى تعدى الباب من الخارج بشبر أو أقل، وكأنه يفدى إبنه بنفسه فى ساحة قتال محفوفة بالخطر، يراها هو فقط. جاء الأب فى المقدمة وانعزل الابن فى الصف الخلفى الآمن.

كانا الاثنان يلعقانى بعيونهم الواجسة. كانا خائفين بعض الشىء. الأب زر عينيه قبل أن يتكلم، وحدق فيهً. التعاريج ظهرت صريحة أسفل العينين، وطلعت التجاعيد للإمام وسطت على كل قورته العريضة، لا أعرف لماذا شعرت أننى مقبل على حدث قد يؤذينى، أو يكسرنى لأجزاء. أردت أن ارجع للخلف قليلاً، أن ألف وأجرى فوق جثة الليل الممدود على سريره بالخارج. أخلع حذائى وأجرى حافى القدمين وأوغل فى هذا العتم الخارجى المحتمل، حتى أختفى من هذا الهجوم النظرى العارم. لكن لماذا!؟ فهذا الصغير مخائيل، الذى كبر، بعدما كان يحضر لنا الشاى ونحن نذاكر – أنا ، وأخيه الأكبر – فهذا مخائيل الذى كان وهو صغير يتواطأ معنا فى بعض الأمور، مثل شرب السجائر فى غرفة المذاكرة، أو ذهابنا إلى السينما دون علم الكبار. كان يتعاون معنا

فى كسر مشقة الأوامر الصارمة الحاكمة لتصرفاتنا ونحن طلبة.. وهذا والد صاحبى ، هو رجل يجمع بين القسوة والحنان، النسب المشاعرية تفرزها غدة الحكمة، فنتلقاها - أنا وابنه، حين تجمعنا حجة المذاكرة - بغير رفض كامل أو قبول خالص. كان حيادى. على حافة المعقول يقف. لماذا أتقهقر هاربا!؟.

فى تلك اللحظات الصغيرة الصامتة التى جمعتنا كنت متيقنا كلنا يريد أن يفر من قدام الآخر، والسبب غير مدرك للفريقين. رغم كل ذلك . كانت هذه لحظة طارئة جيدة، صدفة أخرى رائعة تجتمع بى فى هذا اليوم، بكل آلامها النفسية المبهمة، هى صدفة طارئة رائعة. أنا أعرفهما ، وهما إلى الآن يجهلان شخصى. إنها مسافة زمنية لاتتجاوز الثوانى القليلة، لكنها كانت كفيلة بتلويثنا بالشكوك والإحساس القلوق بهبوط خطر ما غامض فيما بيننا. كانت ثوان صغيرة، دسمة بالأسئلة، تؤهلنا لقبول القادم مهما كان فادحاً مزلزلاً. الأب الهرم، المتعرج بفعل أحداث الأيام استطاع صيد نبرات صوته من أعماق غائرة، ورشقنى بالسؤال. النبرات الواهنة وضعت حداً لعفاريت الهلاوس التى أسرتنا جميعاً منذ قليل، وأرجعت إلى أمام باب الشقة، واقعاً كان قد انزوى فى آخر ركن من الدنيا. الواقع رغم علاته يكون صدفة طارئة أحياناً أيضاً يكون أخف وطأة من بعض الصدف الفجائية.

- أنا فلان الفلانى .. صاحب سامح .. هو موجود!؟

- ايه .. .. ..!!!!؟

بعد أن جمعانى من أمام المدخل، وحطانى على أحد المقاعد بالصالة، ورتبا أعضائى من جديد، كنت قد بدأت أفيق وأعى ما حولى. رنوت لهما طويلاً مذهولاً غير مصدق، وكانا هما أيضاً يتساوياً معى فى الذهول وعدم التصديق. رفعت نظرى عنهما وذهبت إلى الأرجاء مستكشفا. كانت الصالة ضيقة، مفروشة بأثاث بسيط. عن يمينى «نيش» موضوع به أوان صينية دقيقة واضحة من خلف الضلف الزجاجية القصيرة. عن يسارى تلفاز مفتوح مكتوم الصوت، يبدوا أنهما اخفضا الصوت نهائياً وقت أن رننت جرس الباب.

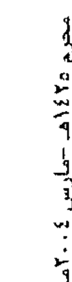
أنا جالس الآن على مقعد لانتريه قديم، متسخة حواشيه. أمامى فى الحائط معلقة صورة للسيد المسيح مصلوبا وصور عائلية أخرى، كل أفرادها يبتسمون. بجوار السيد، صورة كبيرة لصاحبى، وكان هو أيضاً يبتسم، شكله لم يتغير عن آخر لقاء لنا منذ خمس سنين.

فى أعلى الإطار وفى القرن الأيمن للصورة، علق شريطاً أسودا عريضاً يؤكد ما قالاه لى هما الاثنان منذ برهات .. «تعيش أنت من خمس سنين!!. قمت متثاقلا وقصدت الباب الذى مازال مفتوحاً. ما شعرته تحقق لجميعنا. نزلت الدرجة أثر الدرجة، تاركاً خلفى جنازة صغيرة، تفيح منها النهنهة الكتومة والحسرة. صدر الأب لم يستطع أن يكفى ذهولى ودهشتى وسقوطى وانكسارى لأشلاء. وتذكيرى له بجروحه القديمة المقفلة. ومخائيل وقف حائراً غير مصدق لما قصصته عليهما متلعثما عن سامح، وعن الطماطم.

- طماطم!!!!؟

بعد أن أفقت أن هب الأب مكدوداً على المقعد المجاور ورنا للصورة المعلقة على الحائط ولمعت مقلتاه وساح الماء بمهل من الاثنين. كارثة التذكر وقعت، وأمضت القلب من جديد.

فى الخارج الواسع، استقبلنى الشارع بهدوء، وساعدنى العتم الخفيف على الاختباء من أعين المارة القلائل. كنت كلما نسيت موت صديقى. أتذكر حديث الطماطم. ■



جماليات الشرق

فى إبداعات الغـــرب

بقلم

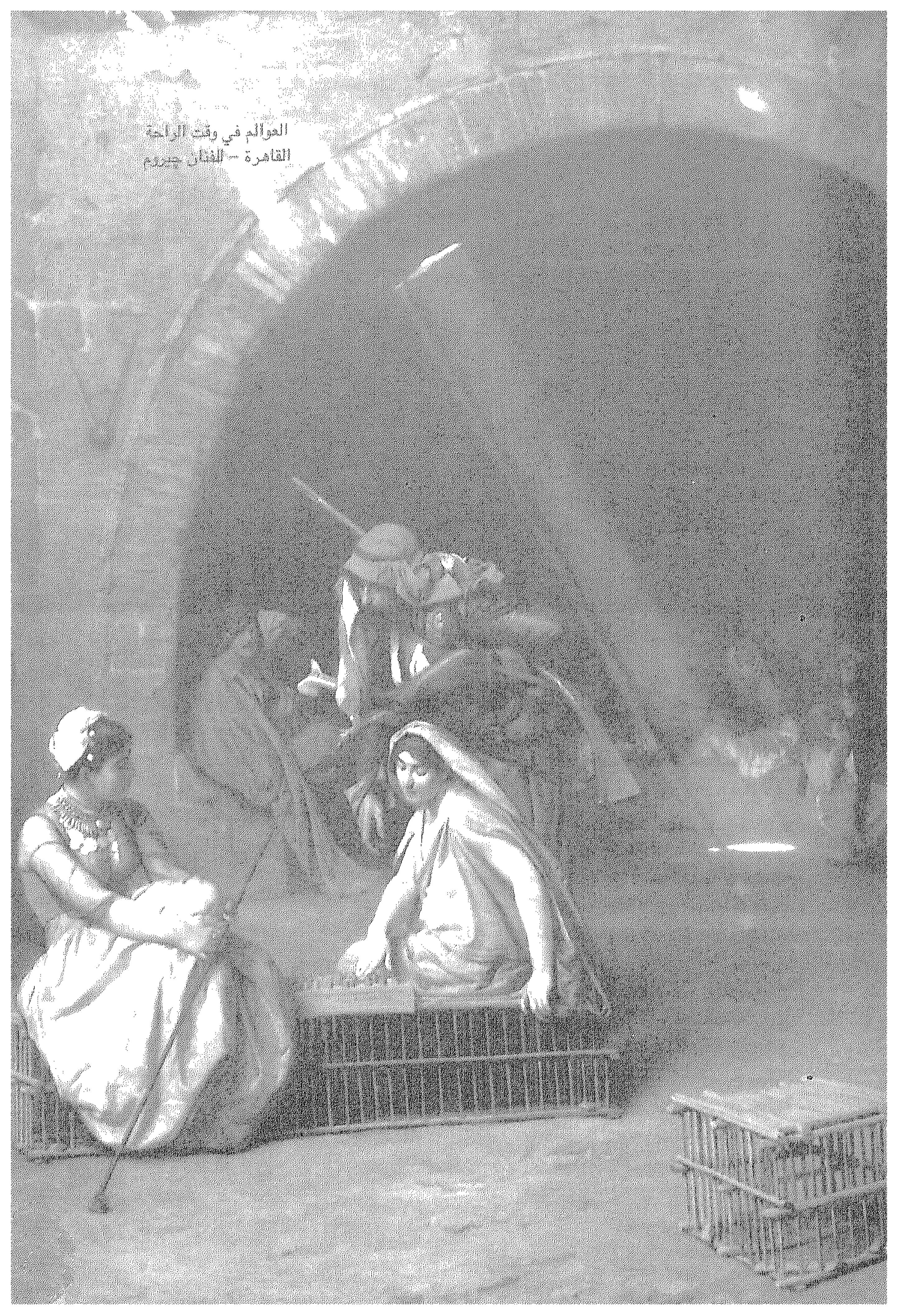
جمـــال قطـــب

كان حدثا مروعا شهده تاريخ مصر المحروسة فى عام ١٥١٧ عندما اقتلع الغازى العثمانى سليم الأول نحو ألف وثمانمائة من الفنانين والصناع المهرة من جذورهم الضاربة فى أعماق الأصالة والعراقة والإبداع الإسلامى المفعم بروح العقيدة .. تلك التى بلغت ذروة روعتها فى أواخر عهد دولة المماليك، شاهدة على عبقرية الزمان والمكان وريادة الفن المصرى فى الدولة الإسلامية الكبرى على اتساع رقعتها فى أرجاء المعمورة آنذاك! ولم يكتف الغزاة العثمانيون بأن استولوا على هذه المواهب النادرة كغنائم حرب وأرسلوا بهم إلى عاصمة الخلافة العثمانية وهى في عنفوانها وسطوتها العالمية التى كانت لاتقهر فى القرن السادس عشر .. بل إن سليم الأول خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة بالذهب والفضة وما غنمه من كنوز وتحف ثمينة .. كما ذكر محمد بن إياس فى مؤلفه الذى يؤرخ لتلك الفترة العصيبة من حياة المصريين تحت الاحتلال : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» .. أي أنه هرم البلاد من فنانيها، ومن إبداعاتها التى كانت بمثابة القدوة التى يحتذى بها من الأجيال التالية.

وهكذا انكسرت حلقة الوصل بين فنون المراحل المزدهرة السابقة ومستقبل عقيم حرمه الغزاة من توارث الملكات العبقرية فى ساحة الإبداع المصرى فرعونيا وقبطيا وإسلاميا أنار الوجدان على مر العصور!

وعاشت مصر بعدها فيما يشبه الفراغ الفنى إلا من محاولات متواضعة ممتزجة بتأثيرات تركية ركيكة توارت فيها روح الأصالة والإبداع. وسارت الأمور متثاقلة مستكينة تحت سطوة الهيمنة العثمانية، حتى هب الإعصار الفرنسي على بلادنا عام ١٧٩٨ بعد أن وهنت قبضة الأتراك وكادت تندثر أقاليم إمبراطوريتهم العجوز، فتحركت المياه الراكدة حتى أضحت أمواجا عاتية اختلط فيها هدير المدافع وضجيج العجلات بإبهارات الحداثة والإثارة وتألق المعاصرة!

وأخذ نابليون وضباطه من بعده يتفننون فى اجتذاب أبصار المصريين



العوالم في وقت الراحة
القاهرة – الفنان جيروم

شرفة على النيل للفنان الفرنسى يوجين جيرو- ١٨٧٨

وبصائرهم، فهذه الحفلات والمعارض والكتب المصورة والمنشورات الإعلامية وفرق الموسيقى ومراسم الفنانين تزخر بها أحياء القاهرة .. وتلك أحياء كاملة حولها الفرنسيون إلى مجمعات مبدعة ساهرة سامرة على غرار أحياء مونمارتر ومونبارناس فى باريس .. وتبارى الفنانون فى إنشاء مراسمهم الخاصة يصورون فيها النساء الجميلات ورجالات القاهرة من زعماء ومشايخ وأعيان .. بعث جديد شهدته القاهرة والإسكندرية وبعض المدن الأخرى . وهكذا هبت روح المعاصرة والانتعاش الوجدانى الذى رافق الحملة الفرنسية المحاربة وما صاحبته معها من جيوش المبدعين فى جميع التخصصات ومجالات الفكر الإنسانى وأسباب الدعاية والإبهار والغواية، والعمل على استيعاب العالم الجديد، والتطلع إلى عاصمة النور والحضارة على الأرض الفرنسية .. وكان هذا هو هدفهم الاستعمارى من الشعوب التى ترزح تحت حكمهم. وفى نهاية الأمر، قدم الفرنسيون مصر على طبق من ذهب لمحمد على، فبسط نفوذه عليها مبهورا بالدرس الفرنسى فى التحضر والتحديث، كوسيلة لتحقيق طموحاته فى منافسة الباب العالى، بل والتفوق على الإمبراطورية العثمانية المتهالكة!

وكان ما كان من أمور الكر والفر والتنافس والسيطرة وشئون السياسة، ولكن مايهمنا فى استعراضنا هذا هو الفن الذى عاود الظهور فى بلادنا مرة أخرى بعد غفوة طويلة عمرها ثلاثمائة عام منذ الهجمة العثمانية وانهيار دولة المماليك حين كانت مصر رائدة فى إبداعات الفنون الإسلامية.



«اسكتش» لوجوه مصرية للفنان جاباني- ١٨٩٠

مصر وحكاية الاستشراق الفنى

كان من الطبيعى أن تدين أسرة محمد علي بالولاء والعرفان لفرنسا .. فكانت تطلعاتها الحضارية تدور فى فلك النموذج الفرنسى كقدوة للحضارة الأوروبية فى العالم الحديث، كما جاء حصاد الوجود الفرنسى فى بلادنا لبضع سنوات متواصلة على نحو إعلامى مثير لما سجله الفنانون والباحثون عن طبيعتنا وعاداتنا وتقاليدنا .. وبالتالى انتشر هذا الكم الهائل من الفنون والمطبوعات والقصص والذكريات فى ربوع أوروبا كدعاية ونداء إلى الأوروبيين عامة والفنانين بخاصة لأن يشدوا رحالهم إلى القاهرة ، ففيها آثار جميع الحضارات التى توالت على العصور التاريخية المتعاقبة .. وفيها سحر الشرق بأجوائه الدافئة وتقاليده المتوارثة الأصيلة وتراثه العجيب الذى يدير رؤوس الباحثين عن الغرائب والأسرار .. ويداعب خيال الفنانين المنقبين عن الجمال ومكامن الإلهام!

وتوالت البعثات إلى فرنسا .. كما توافدت جموع الفنانين الذين استقدمتهم أسرة محمد على للاستفادة من إبداعاتهم فى قصورهم وتسجيل صورهم وإضفاء روح الجمال الأرستقراطى على حياتهم الباذخة.

وهكذا أقيمت جسور الصداقة بين الدولة المصرية والحضارة الأوروبية .. وبدورهم، استدعى الفنانون الذين حظوا بالإقامة بين ظهرانينا أصدقاءهم مدفوعين إلينا بأحاسيس وجدانية رائعة تفجر طاقاتهم وملكاتهم العبقرية التى تهيم بالجمال حيثما كان، لاسيما بجماليات الشرق التى حلموا بها لكثرة ماسمعوا

عنها!

وهنا لابد لنا أن نفرق بين نوعين من المستشرقين وقد تباينت أغراضهم ومقاصدهم ومآربهم حسب قناعتهم وأهوائهم : فكان بعضهم من الإمبرياليين العنصريين الباحثين عن السلبيات لغرض في نفوسهم ونفوس من عملوا لحسابهم .. أما البعض الآخر من الوافدين على بلادنا - وهم من نعنى بهم - فكانوا من المحبين العقلانيين المبهورين بحضارة الشرق وسماحته وجمالياته الملهمة .. إنهم الفنانون العظام الذين تفاعلوا مع طبيعتنا الخلابة وذابوا عشقا فى حب الإنسان والأرض والتاريخ والتراث .. فأبدعوا روائعهم الخالدة فى شرقنا العربى .. وأصبحت أعمالهم مدرسة فنية تعد من أجمل مدارس الفن العالمى وهى مدرسة «الأوريانتاليزم» Orientalism، وتعريفها العلمي: أنها مدرسة غربية استمدت موضوعاتها من جماليات الشرق، وهى مدرسة واقعية ذات مسحة رومانسية.

وبهذا التعريف نرى أن هؤلاء الفنانين لم يكتفوا بنقل الواقع مهما كان جميلا ومثيرا، بل تباروا فى إضفاء روح الجمال والشاعرية على هذا الواقع الذى انفعلوا به وتفاعلوا معه ..

الجذور ومنابع الإلهام

وإذا كانت الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها من الأحداث والانسياق إلى التغريب سببا مباشرا فى ظهور «الأوريانتاليزم» ووصوله إلى ذروة ازدهاره كما وكيفا فى القرن التاسع عشر، إلا أن تأثير الإلهامات الشرقية على الوجدان الغربى له جذور ممتدة فى أعماق التاريخ إلى أبعد من ذلك بكثير، فالحروب الصليبية وما عادت به الجيوش الأوروبية الغازية من انطباعات وذكريات، وما تناقله الرواة من المواقف والأحداث فيما بين الواقع والخيال والحقائق والأساطير، كان كل هذا بمثابة الكشف عن كنوز الأسرار وإثارة المشاعر والأحاسيس التى تحلق في أطياف الأحلام والمغامرات .. حتى أضحت كلمة «الشرق» رمزا ملهما ممتعا مقترنا بالكشف عن العجائب والغرائب!

ناهيك عن الأحداث الجسام التى واكبت سقوط الدولة البيزنطية «الرومانية الشرقية» فى عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح ورحيلها من القسطنطينية إلى موطنها الأصلى فى إيطاليا .. فعادت بعد هذه القرون الطويلة محملة بحضارة شرقية أضيفت إلى الحضارة الرومانية الغربية .. وبذلك امتزجت الحضارتان، وبلغ التأثير الشرقى مداه فى عصر النهضة الذهبى الذى تربعت إيطاليا على عرشه فى القرن السادس عشر، ومنها انتقلت هذه الإلهامات الشرقية العبقرية إلى باقى الدول الأوروبية .. وطوال هذه القرون التحولية دأب الفانون على البحث عن مكامن الجمال فى بلادنا الشرقية وفى الأندلس وفى كل أرض اتسمت بالطابع الشرقى وتراثه العريق!

وفى القرن الثانى عشر، أقدم الأديب الفرنسى الشهير انطوان جالان على ترجمة قصص ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية، ومنها ترجمت إلى عشرين لغة أجنبية فى وقت واحد ليقرأها العالم أجمع منذ ذلك الحين، ولتلهب مشاعر الفنانين وتدفعهم دفعا إلى مايشبه الهجرة الجماعية إلى بلادنا ليشهدوا تلك الأساطير الواقعية أو ذلك الواقع الأسطورى الذى رواه جالان بأسلوبه الجذاب وشاعريته الممتعة التى تجلت فيها موهبته الروائية وهو يحكى على لسان شهر زاد من مخدعها المعبق بالعطور والبخور .. عن أسرار القصور وأجنحة الحريم وعظائم الأمور وخوارق الجن والأسحار فى أقصى الأرض وأعمق البحار! وكان من الطبيعى أن يتأثر الفنانون قبل غيرهم بهذه الدراما الموحية للكاتهم المبدعة بعد أن تمثلت هذه





الأساطير فى أذهانهم عالما مثيرا اختلطت فيه الرؤية بالرؤيا والحقيقة بالخيال .. وما الفن إلا خيال ينطلق من عالم الواقع .. أو واقع يحلق فى أطياف الخيال!

وكانت هذه العوامل كفيلة بأن تستنهض الهمم وتستحث الخطى نحو الهدف وبلوغ أمل الفنانين الأوروبيين فى الهجرة إلى بلادنا الشرقية..

وحظيت مصر - والقاهرة بصفة خاصة - بالنصيب الأوفر من استقبال هذه المواهب الفنية الوافدة ، لتفردها بآثار الحضارات المتعاقبة عبر قرون التاريخ ولطابعها الشرقى الأصيل فرعونيا وقبطيا وإسلاميا فبدأت الهجرة إلينا فى أول الأمر بأعداد قليلة لها طابع المغامرات الفردية .. ولكنها مافتئت أن تحولت إلى ظاهرة جماعية أثناء وبعد الحملة الفرنسية حتى وصلت إلى ذروتها فى القرن التاسع عشر.

وتألقت حركة الاستشراق الفنى عندما استقر الفنانون فى القاهرة والإسكندرية وبعض المدن المصرية الأخرى وسجلوا فى روائعهم كل ماوقعت عليه أعينهم فى أرضنا الطيبة! وطاب لهم المقام بيننا .. وأصبحت مصر وطنهم الثانى .. وكثير منهم اندمج فى العائلات المصرية بالمصاهرة فصارت مصر وطنهم الأول .. وازدهرت الفنون الاستشراقية التى ملأت الفراغ الوطنى بعد أن انقطع التواصل المحلى بين السنوات العجاف وبين أمجادنا العريقة الماضية .. واستمرت هذه الهجرة الإبداعية حتى انحسرت شيئا فشيئا مع إطلالة القرن العشرين إلى أن تلاشت نهائيا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .. ثم توالت الأحداث العالمية والتحولات المصيرية بإيجابياتها وسلبياتها وأفكارها الفلسفية وتشنجاتها الانفعالية وتعقيداتها الأيديولوجية .. مما أسبغ على الفن أنماطا مستحدثة تواكب هذه المتغيرات اللاهثة ..



الفلاحة المصرية للفنان وليم هولمان - ١٨٦٠

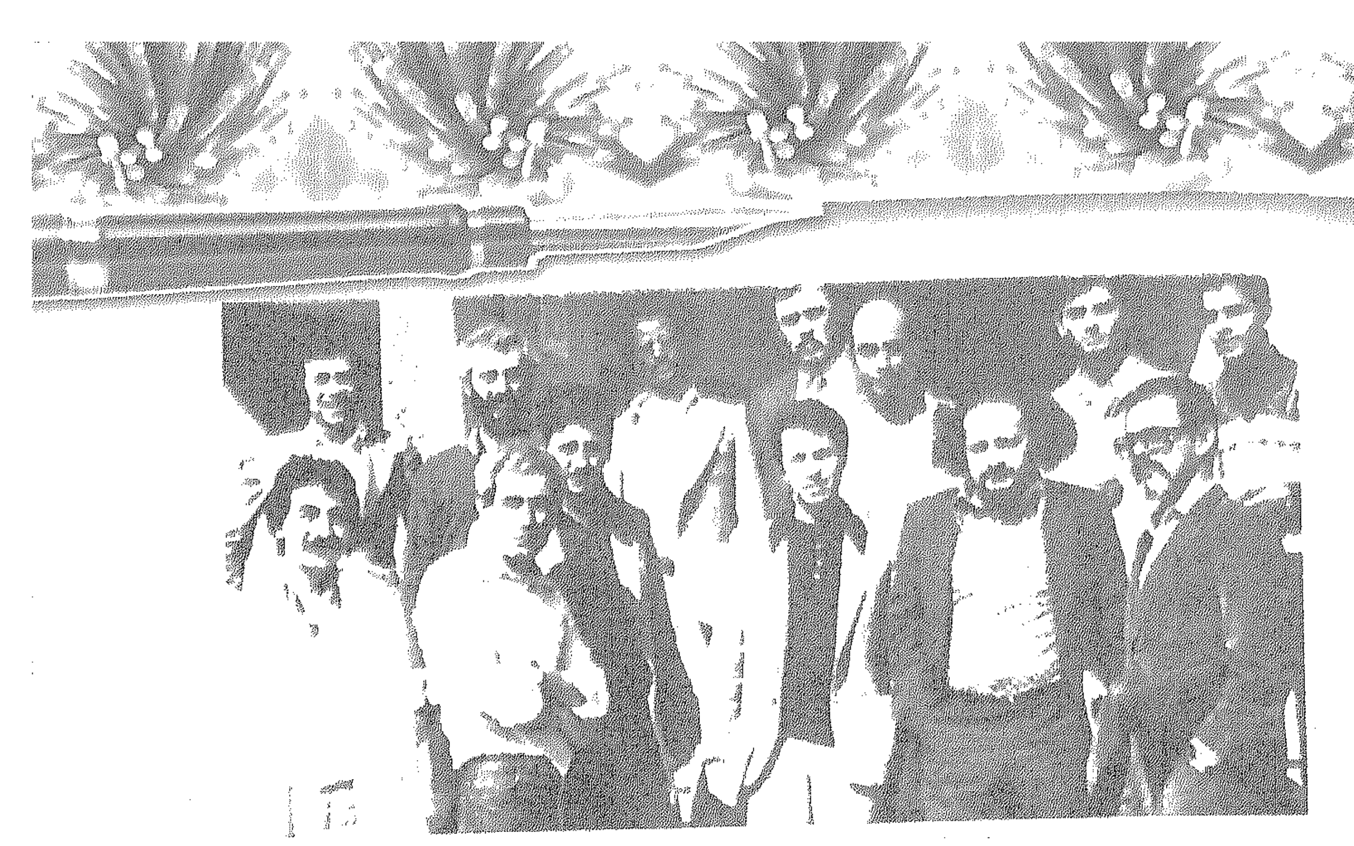
وملأنا نحن الفراغ الفنى وأخذنا ننافس بفنانينا فى المنتديات العالمية بعد أن شهدت بلادنا افتتاح أول مدرسة للفنون الجميلة عام ١٩٠٨، ما لبثت أن تفرعت إلى العديد من الأكاديميات والمعاهد الفنية المتخصصة. ولكن ظل التأثير الأوروبى والمستشرقون بفنونهم الغربية .. قدوة لنا حتى يومنا هذا من وجهة النظر الأكاديمية، كما استقل العديد من فنانينا بطابعهم التراثى الخاص .. مستلهمين جذورنا الضاربة فى أعماق الزمن البعيد أو القريب .. جاهدين لأن يكون لنا فننا وملامحنا وهويتنا المميزة. ■

سأندهش إذا وافانى الموت

مصطفى الحسينى

هنا فى لبنان، حيث أعيش، سألنى عن ما بلغت من السنين صديق شاب يقل عمره كثيرا عن نصف عمرى، فلما أجبته بما بلغت قبل سؤاله بأيام قلائل، قدّم لى ما هو متعارف عليه من عبارات التهنئة والتمنيات بالصحة وطول العمر. ثم أردف ذلك بسؤال عن ما إذا كانت فكرة الموت تراودنى، أى إذا ما كان فكرى مشغولا باقتراب القضاء المحتوم.

لم يفاجئنى أو يزعجنى سؤاله، فالشاب شغوف بالفلسفة التى يقوم بتدريسها فى إحدى الجامعات اللبنانية رغم صغر سنه. كما أننى أذكر أننى عندما كنت فى مثل عمره، كنت أعتبر من بلغوا الخمسين مسنين انقضت أيامهم. لكننى بقدر ما لم يفاجئنى سؤاله، فاجأنى جوابى الذى أتى تلقائيا دون أى تفكير: الحقيقة أننى سأندهش كثيرا إذا مت.



صورة فى بيروت ما قبل الاجتياح الاسرائيلى ، من اليمين فارس قرة بيت ، سيد خميس ، خالد أبو خالد ، محمد نور ، يوسف عبد لكى ، على فرزات ، ومن الأسفل : مصطفى الحسينى ، جورج بهجورى ، العربى الصبان ، ناجى العلى ، عبد الهادى الشماع

لم يكن ما فاجأنى فى ذلك الجواب هو ما يحتويه من تناقض العبث، فمن البديهى أن الميت لا يشعر ولا يعرف ولا يدرك أنه مات، ناهيك عن أن يدهشه ذلك. ما فاجأنى أن ذلك الجواب لم يأت تلقائيا فحسب، إنما أنه لم تلحق به شائبة من المزاح أو محاولة التفكه أو الممازحة - وإن كان الشاب - لحسن حظى - قد ضحك، ففهمت أنه أخذه شعلى واحد من تلك المناحى، وإلا لحسبنى مجنونا .

أدركتنى المفاجأة أو أدركتها، فرحت أتأمل ذلك الجواب، فكان أول ما انتبهت إليه أننى مازلت أنظر إلى كثرة من أصادفهم من الكهول والشيوخ والذين يغلب أن يكونوا أصغر منى سنا، على أنهم من كبار السن الذين يستحقون منى توقير الأعمار، وفى بعض الأحيان واجب الرعاية أو المساعدة .

☆ ☆ ☆

وفى اليوم الثالث من شهر أغسطس العام ٢٠٠٣ بلغت الثامنة والستين، حسب الأوراق الرسمية. أما حسب رواية أمى رحمها الله، فقد بلغت تلك السن فى اليوم التاسع من شهر مايو من السنة نفسها. سبب اختلاف الوثيقة عن الرواية هو أننى ولدت فى قرية عائلة والدتى «ساحل الجوابر» التى كانت حينئذ تابعة لمركز تلا بمحافظة المنوفية، ثم أصبحت وبقيت حتى الآن تابعة لمركز الشهداء بالمحافظة

نفسها، بعد أن ارتقت تلك البلدة فى سلم التصنيف الإدارى من بلدة إلى مركز. قبل ولادتى ذهبت أمى لزيارة أهلها ولتلد «عند أمها» حسب عادة كانت شائعة - وربما لاتزال- بينما كان بيتنا فى شبين الكوم، عاصمة المحافظة نفسها، حيث كان أبى يعمل ولم يدخل اسمى إلى سجل المواليد إلا بعد عودتى مع أمى إلى بيتنا.

تقابل «ساحل الجوابر» قرية أخرى أصبحت ذات شأن فى تاريخ مصر المعاصر، هى «ميت أبو الكوم» مسقط رأس الرئيس أنور السادات الذى أوشك أن يجعل منها عاصمة ثانية للبلاد. أما مقتضى هذا الذكر فهو أنه فى عام ١٩٥٦ ربطت المصادفة بينى وبين السادات عندما عملت فيما كان يسميه «المكتب السياسى» فى صحيفة الجمهورية التى كان يرأس مجلس إدارة «دار التحرير» التى تصدرها. وكانت «الجمهورية» تنشر على صفحتها الأولى كل يوم تقريبا مقالة كتبت باسمه.

كان ذلك «المكتب السياسى» يتبع السادات مباشرة وكان يشغل نصف طابق بمبنى «الجمهورية» فى شارع الصحافة. وكان مكتب السادات يقع ضمنه، مما أتاح لى تعاملا مباشرا معه. وبحكم القرب بين «ساحل الجوابر» و«ميت أبو الكوم» فإننى أعرف عن التاريخ الشخصى للسادات - عن طريق الرواية الشفهية المتواترة - أكثر كثيرا مما أورده عنه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه «خريف الغضب» لكن هذا ليس مقامه.

كان المرحوم على الدالى يدير عمل ذلك المكتب السياسى ويشرف على التحرير فيه المرحوم أحمد رشدى صالح ويتولى على جمال الدين إخراج الصفحتين الأسبوعيتين اللتين كان المكتب ينتجهما: الصفحة العربية و«صفحة باندونج» وعندما التحقت بذلك العمل عن طريق المرحوم حسن فؤاد أو بتدبير منه شرح لى على الدالى أن وظيفة الصفحة العربية هى تحريض بقية الصحف المصرية على الاهتمام بالشئون العربية، حيث كان ذلك الاهتمام ضعيفا. أما «صفحة باندونج» فوظيفتها الترويج لأفكار «الحياد الإيجابى» على ضوء قرارات مؤتمر باندونج الذى انعقد فى أندونيسيا فى العام السابق أما بقية «أعضاء» المكتب الذين انضممت إليهم فهم المرحوم أحمد فوزى عطا الله وألفريد فرج ويوسف صبرى والمرحوم محمود أبو وافية الذى كان «عديل» السادات.

لا يخفى ما كان فى تسمية أحد أقسام التحرير فى الصحيفة بذلك الأسم الفخم - المكتب السياسى - من تعبير عن ميل

السادات إلى إحاطة نفسه بمظاهر الأهمية حتى لو كانت بلا مضمون ولا سلطة .

فجأة اختفى أنور السادات من مكتبه واختفت السكرتيرتان اللتان كانتا تعملان معه واختفى ذكره وإنما إلى حين وحل محله ضابط آخر هو أمين شاكر، فكان أول ما اتخذ من قرارات حل المكتب السياسى وتوزيع «أعضائه» على أقسام التحرير.

فى خضم ما أصاب عملنا من اضطراب عرفنا قصة اختفاء السادات المفاجئ، أجرى مراسل لصحيفة «لو سوار» البلجيكية معه حديثا سأله فى سياقه عن ذلك المكتب السياسى فأوقع السادات نفسه فى ورطة، قال إنه My inner Cabinet تحدث بالإنجليزية ولا أظنه كان يعرف معنى ذلك المصطلح الذى قد يترجم إلى « إنه وزارتى الداخلية».

حسب ما تردد آنذاك، ويبدو أن أحدا من المقربين من الرئيس جمال عبد الناصر لفت نظره إلى التسميات والأوصاف التى يستخدمها السادات وأظن أن الرئيس لم يكن يتساهل فى شئ يتعلق بانفراده بالسلطة .

وهكذا دفع السادات ثمن ولعه بالفخفخة، حتى لو كانت فى الألفاظ .

رغم أن الفترة التى عملتها فى ذلك «المكتب السياسى» كانت قصيرة إلا أنها أتاحت لى نوعا خاصا من الاطلاع على دخائل السياسة المصرية وعلاقاتها العربية والدولية .

كان من أهم ما يرد إلى «المكتب السياسى» من مصادر، تقارير جهاز المخابرات العامة عن الأوضاع العربية والدولية وتقارير سفراء مصر فى عواصم العالم إلى وزير الخارجية وما يرسل منها مباشرة إلى مكتب الرئيس..

فتح ذلك النوع من الاطلاع مداركى على أبعاد للسياسة تختلف عن ما كنت أعرف وأظن حتى ذلك الحين كانت معرفتى بالسياسة تدور ما بين ما كنت أقرؤه فى الصحف والكتب وكان أهمها عندى الأعمال النظرية وكتب التاريخ، وما كنت أكتسبه من خلال تجربة مضطربة من عضويتى فى المنظمة الشيوعية «الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى» المعروفة اختصارا باسم «حدتو» كانت خبرة تتوزع بين المحافظة على السرية فى كل شئ والدقة فى المواعيد لأسباب تتعلق بالأمن وتوزيع المنشورات والملصقات الصغيرة وتنظيم جمعيات للنشاط الثقافى فى جامعة القاهرة حيث كنت أدرس القانون والمشاركة فى تنظيم المظاهرات عدا عن ذلك كانت خلافاتى مع «حدتو» هى العنصر الغالب على علاقتى بها أظن الآن - فى إدراك لا حق - أن مصدر الخلافات التى

انتهت بخروجى من الحركة الشيوعية أننى لم أكن أحب السرية ولا الالتزام النظرى بمعرفة ضحلة بالماركسية تفرضها القيادات الشيوعية جميعا وأننى لم أكن مقتنعا بكفاءة القيادة التى أتاحت لى فترة احتجاز قصيرة (٤٠ يوما) فى ربيع ١٩٥٥، أن أتعرف على بعض أعضائها عن قرب .

أذكر بهذه المناسبة النكتة التى أطلقها صديقى ابراهيم فتحى، الذى كان زميل ذلك الاحتجاز. سمعته صدفة يقول ضاحكا «ياحلاوتك فى الملس * يا أم عبد الحى» . فلما سألته عن من تكون روى لى نكتة عن أمراة فقيرة كانت تسكن بمفردها غرفة فى حى فقير كانت تغادر غرفتها مرتدية الملس الذى يخفى معالم الجسد لتشترى حاجياتها ثم تعود لتغلق باب غرفتها حتى اليوم التالى. لم تكن تخالط أحدا وذات يوم اكتشفت جاراتها أنها ماتت بهدوء فى غرفتها فلما شرعن فى إعدادها للدفن اكتشفن ما كان الملس يخفيه من جفاف عودها وضموره كنّ فى حاجة إلى كلمات يشيعنها بها، فرحن يرددن : ياحلاوتك فى الملس يا أم عبد الحى .

عندما ولدت كان أبى يعمل بمصلحة المساحة بوظيفة مساعد مهندس وإن كان يصر على استخدام لقب المهندس، ليس من باب الإدعاء أو التبجح – فيما أظن – إنما مقتنعا بأن له فى ذلك حقا أسوة بخريجى مدرسة الفنون والصنائع التى اكتسب المتخرجون فيها صفة المهندسين، بعد أن سميت مدرستهم – بعد تخرج دفعات عديدة فيها – كلية الفنون التطبيقية فلماذا لا تسرى المعاملة نفسها على المتخرجين فى «مدرسة المساحة»، وهو واحد منهم ؟ هذا حسب ما بقى فى ذاكرتى من لغة المذكرات التى كان يكتبها باسم «رابطة خريجى مدرسة المساحة» التى شارك فى تأسيسه .

ولم تكن تلك هى «المعركة» الوحيدة التى استغرقته ولم يكسبها

كان أبى قد التحق بالجامعة الأمريكية فى القاهرة فى سنة إنشائها – ١٩١٨ – على ما أظن ولم يكن بها من مستويات الدراسة إلا اثنان : الأدنى منهما يحصل الناجح فيه على شهادة تسمى باللغة الإنجليزية Matriculation، تعادل البكالوريا فى زمانه أو التوجيهية فى

* نوع من الثياب ترتديه الريفيات فوق ملابسهن ، يتميز بالتجعيد والكشكشة ويخفى معالم الجسم

زمانى أو الثانوية العامة الآن، وكان قد حصل على الشهادة المصرية التى كانت تسبق تلك الأخيرة وتسمى الكفاءة تلى تلك الشهادة الأمريكية التى تؤهل للالتحاق بالجامعة سنة تمهيدية تساعد الطالب على اختيار موضوع دراسته الجامعية ويسمى الطلاب فيها Fresh-menويقصد بها الطلاب المستجدون .

حسب رواية أبى أنه نجح فى المرحلتين لكن الجامعة الأمريكية لم تفتح الكليات الموعودة فى السنة الأكاديمية التالية ونصحت الطلاب الراغبين فى مواصلة دراستهم بالسفر إلى الخارج، لكن أباه رفض أن يفارقه ولده البكر وأعاده إلى القرية - ساقية أبو شعرة ليعيش بطالة أبناء أعيان الريف إلى أن زارهم قريب لهم كان يعمل مديرا لمصلحة المساحة ويحمل لقب بك «ابراهيم بك زكى» فنصح أباه بأن يرسل ابنه الأكبر إلى مدرسة المساحة الحديثة الإنشاء والتى تتبع المصلحة التي يديرها ويبدو أن أبى وجدها فرصة للتخلص من حياة الريف بعد أن خبر حياة اللهو فى القاهرة تحت رعاية خاله عبد العزيز، الذى لن يلبث أن يأتى ذكره

لكن خيبة الأمل فى إتمام التعليم العالى، خاصة بعد أن لاحت فرصة إتمامه خارج البلاد، لم تفارق أبى حتى نهاية حياته، على ما أظن .

كانت خيبة الأمل تلك تلوح من وقت لآخر فى حلم لم يفارقه بما كان يعتبره فرصة ضاعت للالتحاق «بكلية هارو» Harrow College وهى ثانوية إنجليزية خاصة يلتحق بها أو بنظيرتها إيتون Eaton أبناء الطبقات العليا فى بريطانيا وبعض أبناء أغنياء المستعمرات البريطانية أظن أنه سمع عن «هارو» أو عرف بها من بعض من كان احتك بهم من الإنجليز فى سياق هوايته لكرة القدم فى «النادى المختلط» الذى أصبح فيما بعد «نادى الزمالك» ويبدو أنه كان يتطلع إلى الالتحاق بجامعة بريطانية وربما لم تكن، في ذلك الزمان لتقبل ما حصل عليه من الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

أيضا أمضى أبى وقتا وبذل جهدا - دون طائل - فى كتابة الرسائل باللغة الإنجليزية يدافع عن ما تصوره حقا له فى عضوية رابطة خريجى الجامعة الأمريكية بالقاهرة

☆☆☆

فى تاريخنا العائلى الشفهى أن جدى لأبى شحاتة على حسن عيسى، أو شحاتة أبو عيسى، كان لردح من حياته، رجلا موسرا، يملك الاراضى ويتاجر فى محاصيلها كان من علامات يسره أنه كان



يوظف كاتبا قبطيا أسمه المعلم داوود يمسك حساباته وكان هو الذى علم أبى القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، فلم يذهب إلى كُتّاب مثل أقرانه فى جيله، وهو ما ذهبت أنا إليه فى جيلى وأنه بعد أن بلغ سن الإلتحاق بالمدرسة الابتدائية انتقل إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة القربية الابتدائية التى مازالت باقية فى موقعها نفسه خلف الجامعة الأمريكية وليعيش فى كنف خالة له، عرفتها أنا باسم ستى أم زكى، ولم أعرف، حتى مطلع شبابى أن ابنها الأكبر، الذى أصبح اسمه عنوان أمومتها، كان اسمه «الرسمى» عباس وأنه رفيق الصبا والشباب لأبى وشريك مغامراتهما وطيش شبابهما – وقد أطلعنى على طرف من ذلك استخدمته فيما بعد لتليين موقف أبى من بعض مغامرات مطلع شبابى وطيشه .

كان راعيهما إلى المغامرات خالهما «جدى عبد العزيز» الذى كان بملابسه الريفية الفاخرة يقودهما إلى دور اللهو فى شارع عماد الدين وساحل روض الفرج وكان من طرائفه أنه عندما كانت واحدة من فتيات الكباريهات تسأل عن عمله، كان يقول: أنه مفتش مراجيح وقد بقى حتى نهاية حياته، رغم ما لحق به من فقر محافظا على فخامة الثياب وحسن المظهر لم أعرف له أبدا مصدراً للرزق عدا عن ما سمعت به بعد وفاته من أنه اقتطع أجزاء كبيرة من حديقة بيت صهره محمد عرفة وبنى لنفسه بيتا متواضعا عاش فيه مع آخر زوجاته – عزيزة – التى لم ينجب منها وباع أجزاء من الأرض لآخرين .

☆ ☆ ☆

فيما أعيه من طفولتى، كانت ستى أم زكى تعيش فى بيت يشبه القصور يقع فى شارع فى امبابة مازال يحمل اسّم زوجها – محمد عرفة – الذى كثيرا ما شاهدته يجلس بمفرده فى غرفة الاستقبال فى سلاملك ذلك البيت لايصلنى من معالم حياته إلاّ صوته الذى كان – فى تصورى – يخرج من «لغلوغه» متكسّرا متقّرقا وصوت الجرس الفضى الذى كان يستخدمه لاستدعاء خادمة لا أذكر اسمها

كان من علامات وجوده أيضا دخول قريب لنا كنا نسميه « غم أمين أبو عيسى» ليقضى معه أوقاتا قصيرة فى الأيام الأولى من كل شهر، وكان شقيقه «عم محمد أبو عيسى» زوجا لعمتى حمدية « التى أحمل لها منذ طفولتي حبا شديدا ربما كان مرجعه ما أصبحت فيما بعد أدرك أنه نوع من الحنان الرقيق الممزوج بالحزم تغدق منه علينا– أنا وإخواتي وأبنائها وكل من

دخل إلى فلكها من أطفال العائلة والجيران، الغريب أنه حتى الآن لا أعرف بالضبط نوع صلة القربى بين أبى و «عمتى حمدية» وزوجها عم محمد أبو عيسى »

ذلك أن قرية «ساقية أبو شعرة» موطن عائلة أبى تضم عائلة واحدة مترامية الأطراف إن جاز التعبير وربما إذا جرى استقصاء الأحياء الذين تعود أصولهم القريبة إليها تجاوز تعدادهم المائة ألف .

أصل تلك العائلة حكاية تشبه الأساطير وقد تكون كذلك .

فى أربعينات القرن الماضى كنا نعيش فى «مدينة» الأقصر «المشهورة» بما تحتويه من آثار فرعونية حيث كان عمل أبى وكان كثيرا ما يتغيب لأيام قد تطول فى مهمات تتعلق بعمله من ذكريات تلك الفترة أن زارنا فى بيتنا ذات يوم اثنان أو ثلاثة من الصعايدة عليهم مظهر الأعيان مصحوبين بعدد من القفف تحتوى العدس والفريك والتمر - على ما أذكر ما عرفناه بعد ذلك هو أن هؤلاء أقارب لنا من بلدة اسمها «قوص» بمحافظة قنا وأن أبى وبعض العاملين معه انقطعت بهم السبل ذات ليلة عن العودة إلى موقع المخيم الذى كان مقرا للمشروع الذى يعملون فيه، فاستضافهم عمدة أقرب قرية، ضمن واجبات العمدة حيال من تنقطع بهم السبل من موظفى الحكومة و «الضباح رباح» .

وكما يحدث فى سمر ليال من هذا النوع سأل العمدة أبى عن أصله وفصله، وما أن ذكر أبى اسم عائلته ومسقط رأسه حتى راح العمدة يسرد له أسماء من جيل أبيه وأن واحدا من إخوته متزوج من «بحراوية» من هناك وأطلع أبى على « شجرة عائلة» شفهية يحفظها عن ظهر قلب تروى تلك الشجرة أن أصل تلك العائلة المترامية الأطراف يرجع إلى الحجاز وأنهم بطن أو فخذ من قبيلة تعاون رجاله مع حملة ابراهيم باشا ابن محمد على على تلك البلاد فى عشرينات القرن التاسع عشر وأنه عند انسحاب قوات الحملة المصرية خشى هؤلاء المتعاونون على أنفسهم، فاقتفوا أثر الحملة عبر البحر الأحمر إلى مصر وأنهم عندما وصلوا إلى صعيدها بدأ الرؤوس من رجالها مع ذراريهم يغيرون على القرى - على عادة البدو فى ذلك الزمان ومن يسترخص منهم قرية أو يعجبه معاشها يستولى عليها ويطرد أهلها منها بقوة البأس وأنه هكذا استولى «حزين» منهم على قرية قرب إسنا جنوب الاقصر واستولى دنقل - الجد الأعلى لعائلة العمدة - على «الكراتية» قرب قوص

شمال الأقصر واتجة الباقون شمالا فاستولى «حزين» آخر على قرية قريبة من كوم حمادة غرب دلتا النيل واستولى عيسى وعقل وبكر ونصر على محلة الإمام الشعرانى واتهموه بالجنون وأطلقوا على المحلة اسم «ساقية أبو شعرة»، تلميحا إلى ما ألحقوا بالإمام من أذى أجبره على مغادرتها إلى القاهرة حيث استقر فى الحى الذى نسب إليه - باب الشعرية، بعد أن أحاط به تلاميذه ومريدوه .

أما فى محلة الشعرانى نفسها، فقد طرد البدو أهلها كعادتهم لم يستبقوا منهم إلا أهل بيوت ثلاثة «العسكرى» الذى يمثل الدولة و«المزين» الذى ليس منهم من يعرف حرفته و«سيدنا» وإمام الجامع ومعلم «الكتاب» و«المأذون» بعقد الزواج وحله بالطلاق لم يكن لهم عنه غنى .

بقيت تلك العائلات زمنا خارج «العائلة» المغيرة إلى أن تشابكت معها بالمصاهرة .

مما قد يوحى بأن فى تلك الرواية شيئا من الصحة، أنه حتى عهد قريب كان رجال «العائلة» يتباهون بما اقترفوه أو يدّعون اقترافه من جرائم قتل خصومهم أو من تجرءوا على ما يزعمون لأنفسهم من هيبة وكان شبابها المقيمون خصوصا أبناء الأعيان يتفاخرون فيما بينهم بقدراتهم فى مجال السرقة، خصوصا فى وضح النهار تسوية لحسابات غير معترف بها أو استيفاء المطالبات غير مستجابة بغض النظر عن الحق فيها أو لمجرد اظهار البراعة أى لأغراض لا يرونها متصلة بالإجرام ولأسباب ليس من بينها الحاجة. كأنما السرقة من شيم الفروسية وقد شهدت أنا نفسى فى «ساقية أبو شعرة»، فى ستينات القرن الماضى، على مائدة غداء دعانى لها قريب لى كان يشغل منصبا مرموقا فى الدولة، شابا من أقاربنا كان بين المدعوين إلى الوليمة وهو يبلغ مدعوا آخر، هو أيضا من أقاربنا أن «نحاس بيتكم عندى إن كنت عاوزة إبعت خده بس أدفع المبلغ اللى طلبته منك امبارح» وتضاحكا دون ضغينة وشاركهم الآخرون الضحك

☆ ☆ ☆

كان عم أمين أبو عيسى يدخل إلى غرفة محمد عرفة كالمتسلل يحمل دفترا مستطيلا مما يستخدم لتسجيل الحسابات ويحاول إخفاءه فى طيات جلبابه يغلق الباب خلفه فى هدوء ثم لا يسمع من داخل الغرفة صوت ولاهمس وبعدما لايتجاوز ربع الساعة يخرج عم أمين من الغرفة كالمتسلل كما دخل .



فيما بعد، أيضا فى مطلع شبابي عرفت طرفا من قصة حياة محمد عرفة من خلال حكايات جلسات السمر التى ألفتها حينا من الزمن فى مطلع شبابى، مع ابنه الأكبر عم زكى عرفة ومن حكايات صهره وخال أبى «جدى عبد العزيز»، الذى عرفت من خلال تلك المسامرات أنه كان الراعى «لشباب ابنى أختيه - أبى و «عم زكى عرفة» - « يّعرفهما بالدنيا» فى أماكن اللهو .

فيما بعد ومن خلال تلميحات أمى الساخرة حول «الخواجة لما يفلس يدور فى دفاتره القديمة» فهمت أن وظيفة «عم أمين» مع محمد عرفة، أنه كان يقوم بتحصيل ماله من ديون لدى آخرين وأن محمد عرفة كان حريصا على كتمان ما يتعلق بموارده، حتى يحميها لنفسه من مطالب أبنائه الذين لم يكمل أى منهم تعليمه وأصبحوا يعملون فى وظائف صغيرة ويعيشون عيشة الفقراء، إلا من المسكن الذى تبدو عليه مظاهر العز من الخارج بينما يدب فى داخله الخراب .

الطريف أنه بعد وفاة محمد عرفة بسنوات كثيرة، فكر بعض من تبقى من أبنائه وأحفاده فى بيع ذلك البيت الكبير، لكنهم اكتشفوا أنه ليس ملكا لأبيهم وأن ملكيته مازالت مسجلة باسم «ناعوم» وأنهم حتى لا يستطيعون الحصول على ترخيص بترميمه أو هدمه ربما لذلك مازال «متن» ذلك البيت قائما بعد أن تمزقت حديقته الكبيرة، التهم بعضها التنظيم ليمد شارع محمد عرفة حتى يتصل بالطريق الذى كان الحد الجنوبى الكتلة عمران امبابة واستغرق بناء المساكن أجزاءً أخرى منها .

أما «ناعوم» المالك القانونى لبيت محمد عرفة فليس في ذاكرتي من شأنه سوى أطراف حكايات للمتها ذاكرتى من ما روته أمي عن واقعة قتله أمام كباريه الكيت كات على مدخل امبابه بيد قريب لنا اسمه محمد أبو بكر، فيما اعتبره جزاء وفاقا على سوء معاملته لأبناء «ساقية أبو شعرة» الذين يسكنون إمبابة التى كانت مهجر العاطلين منهم، بمن فيهم الوارثون المفلسون الذين لم يبق لهم من العز إلاّ غطرسة أغنياء الريف التى تزداد حدة مع الإفلاس روت أمي، لا أعرف استنادا لأى مصدر أن محمد أبو بكر ترّصد ناعوم عند مغادرته الترام فى محطة الكيت كات فى موعد عودته اليومي وأنه تظاهر بأنه يحجز مائدة في الملهى الشهير ويتجاذب الحديث مع الموظفة الجميلة، بينما يترصد وصول ضحيته ومن تحت إبطه الأيسر أطلق النار على ناعوم من مسدسه الذى

حرص على أن تخفيه ملابسه الريفية فأصابه فى مقتل وهو على بعد أمتار منه ثم تظاهر أنه التفت باتجاه ضحيته عندما سمع صوت الرصاص فاندفع وألقى بنفسه على الجثة وهو يهتف باسم صديقه وحبيبه ناعوم أرجّح أن أمى سمعت هذه الرواية من محمد أبو بكر نفسه أو منقولة عنه يبدو من تلك الروايات التى سمعت معظمها من أمى أنه كان هناك نوع من التشابه بين الجانب العملى فى حياة كل من محمد عرفة «وناعوم» ذلك أن دافع محمد أبو بكر الذى كان من أعيان قريتنا لقتل ناعوم زعمه أن ذلك الأخير كان يؤجر لبعض أبناء القرية الذين هاجروا إلى إمبابة قطعا من الأرض التى كان هو يستأجرها بمساحات كبيرة من وزارة الأوقاف وأنه كان يطرد من يتخلف عن دفع الإيجار

لكن يبدو أيضا من تلك الروايات أن من خلفيات مصرع ناعوم أنه هو الذى خلف محمد عرفة فى استئجار أراضى الأوقاف، بعد أن ألغت الوزارة عقدها مع محمد عرفة لتخلفه عن أداء التزاماته لها، كما يبدو أن «ناعوم» كان فى البداية مجرد واجهة لمحمد عرفة ثم غدر به فى تلك الخلفيات أيضا أن وزارة الأوقاف استولت على مساحة كبيرة من الأرض ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فدان حسب الروايات المتواترة من أملاك جد أبى لأمه عمر نصر، كان رهنها للوزارة ضمانا لالتزامات صهره محمد عرفة فى استئجار أراضى الأوقاف بقيت هذه القصة أو القضية حية إلى ستينات القرن الماضى حيث قام تحالف بين «جدى عبد العزيز» وبين شقيقى عادل، رحمهما الله لاسترداد تلك الأراضى التى احتفظت بها الوزارة بعد أن استوفت من ايرادها ما كان لها من مستحقات لم يطالب بها أحد لكثرة ورثة عمر نصر وتزايد أعدادهم مع تعاقب الأجيال وكان بعضهم لا يعرف شيئا عن ذلك الموضوع وقد أكتشف أخى عادل بعد وفاة جدى عبد العزيز أن حليفه كان قد خدعه إذ توصل إلى تسوية مع وزارة الأوقاف ضمنت له راتبا مدى الحياة مقابل التوقف عن ملاحقة القضية، التى كانت الوزارة تزعم أن معظم مستنداتها مفقودة .

أما عادل رحمه الله فقد تحولت خديعة حليفة له إلى حكاية طريفة يرويها ضاحكا ومترحما على حليفه على ما جرى به طبعه السمح لا يأخذ عليه سوى أن التسوية كانت ظالمة

كان لأبى عدد كبير من الخالات وخال واحد هو جدى عبد العزيز ولم يكن أبى يعرف معظم أولئك الخالات فالرواية

المتناقلة عن ذلك الجد أنه تزوج فى حياته من ٢٣ امرأة كلما أعجبته إمراة طلق واحدة من نسائه ليتزوجها لكنه احتفظ بزوجته الأولى - جدة أبى لأمه وأم جدى عبد العزيز

يروى أن جد أبى ذاك كان ذات مرة خارجا من محكمة فى بولاق بالقاهرة عندما رأى بجوار مبناها امرأة تبيع البرتقال أعجبته فاشترى برتقالها وتزوجها وهذه كانت تذكر فى أوساط العائلة باسم «زينب البولاقية» وكان من بقى على صلة بالعائلة من ذريتها يعرفون بتلك الكنية وأنه لم يكن يسمح لأى من مطلقاته لا بالزواج من بعده لأنه لايأكل أحد من صحن أكل منه شيخ العرب ولا بالعودة إلى أهلها لأنه كفيل شرعا بنفقتها إنما كانت تحال إلى «بيت المطلقات» الذى كان حراما عليه .

ويقال أنهن تفرقن بعد موته وصحبن أطفالهن الذين لم يكن من بينهم ذكور ولم يبق فى ساقية أبو شعرة» إلا من كن من «العائلة» واحدة من بنات أولئك الخالات بنات الغريبات هى التى تزوجت أثناء حياة أبيها فى عائلة دنقل .

حتى ذلك الحين كانت الصلة بين أطراف هؤلاء البدو ماتزال قائمة .

☆ ☆ ☆

هل أبعدنا طول الاستطراد بالتداعى عن ما قلته لصديقى الشاب من أننى فى «الحقيقة سأندهش كثيرا إذا مت »؟

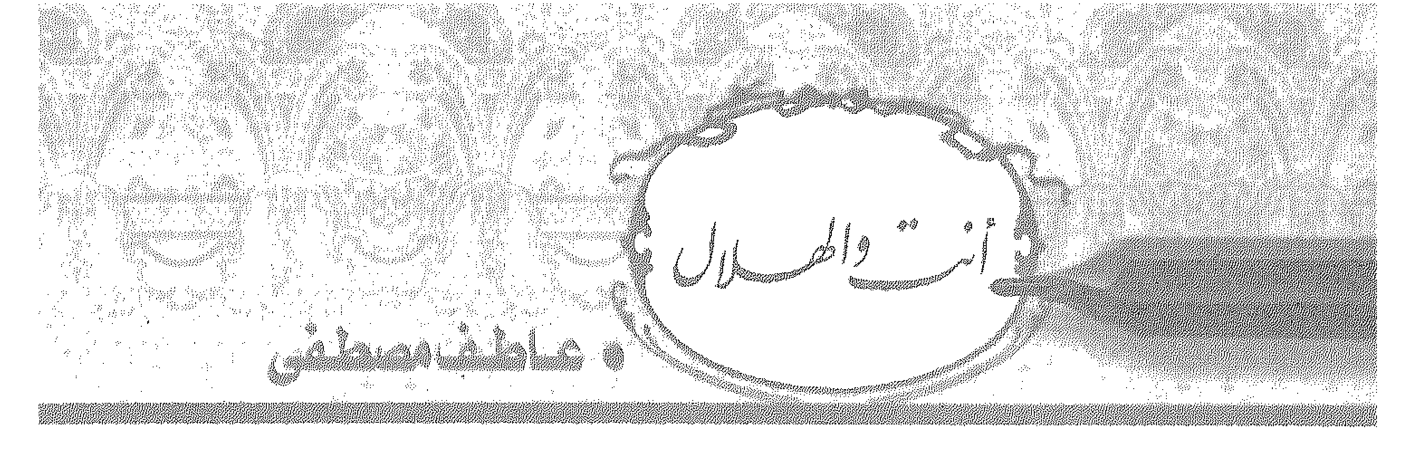
المسألة التى أقف أمامها هى أننى مكتمل اليقين بأن مآلى الموت مثل سائر الأحياء، لكننى متيقن الشعور، إن كان فى المشاعر يقين، بأننى سأندهش كثيرا إذا مت».

والمسألة أيضا أننى أعلم علم اليقين، مثلى مثل غيرى أن الموت نعمة على البشر، إن لم يكن لسبب فلأنه يقيهم ملل الخلود وينقذهم من التحول إلى عبء زائد فى التزاحم على رقعة سطح الأرض والتدافع على نصيب من أرزاقها ومواردها وهوائها ويطهر حياة أعقابهم من ما يلحقه بالحياة خلود الناس من تلوث الأنفاس والفضلات والأفكار .

والمسألة كذلك أننى أدرك - فلسفيا، لو سمح لى بالتفلسف - أن الموت هو ناظم الحياة وضابط إيقاعها وأنه مصدر وعى الإنسان بالزمن وأنه دافعه إلى التحقيق والإنجاز والتحقق . وأنه لولا هاجس الموت المتيقن ما أنجزت البشرية شيئا من الكثير الذى أنجزته فميّزها عن سائر الأحياء .

رغم ذلك فإننى سأندهش كثيرا إذا وافانى الموت .

هل هذه من حصيلة «التكوين»؟ ■



مقالان أعجباني

فى هلال فبراير ٢٠٠٤ حرت كثيراً وأنا أحاول نهماً - رغم سنى وبصرى الذاويين - أن أنجز في محبة قراءة ما يوائمني من زخم موضوعات هذا العدد، وأراني دائبا والحمد لله على المتابعة، خاصة مع مقالى أستاذى الدكتور محمد رجب البيومى والدكتور «صديقى الكبير» الطاهر أحمد مكي. فى مقال الأول عن «صور من الترف الباذخ ليست فى ألف ليلة وليلة»، وفى مقال الثاني «من ذخائر الكتب العربية - الحيوان للجاحظ».

ولقد أبهجني مقدرة الدكتور البيومى فى ثلاثة عشر سطراً «ص٢٤» أن يجمع جمعا مانعا - وهذا غير معود فى الموضوعات النقدية - مصادر أحلام ألف ليلة وليلة، وكيف أذهلت قارئيها فى سويداء فهمهم العاطفي، طوال عصور حياتهم، مما جعلنى أتمنى أن يحذو شبابنا حذو شيوخنا الراسخين فى استمرار ترسيخ قدواتهم فى تجاريبهم الكتابية.

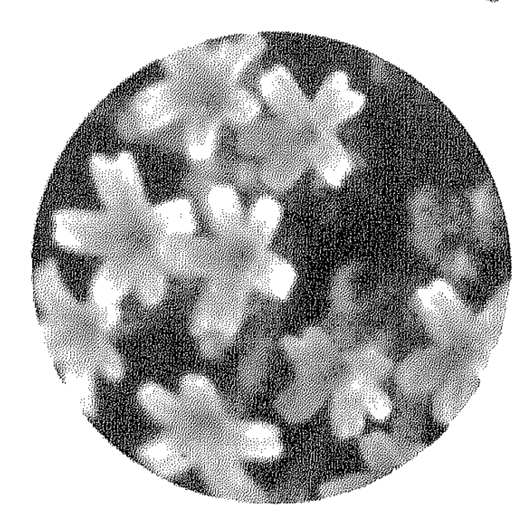
ولم يكن مقال د.الطاهر مكى إلا استمراراً على النهج الأصيل، الذى يثير لدينا ذكريات شيوخنا الذين عرفونا بأدب الجاحظ. - تلاميذ طه حسين - فى سنوات طلبنا الأولى من الخمسينيات بالجامعة، وأخص منهم الدكتور محمد طه الحاجرى.

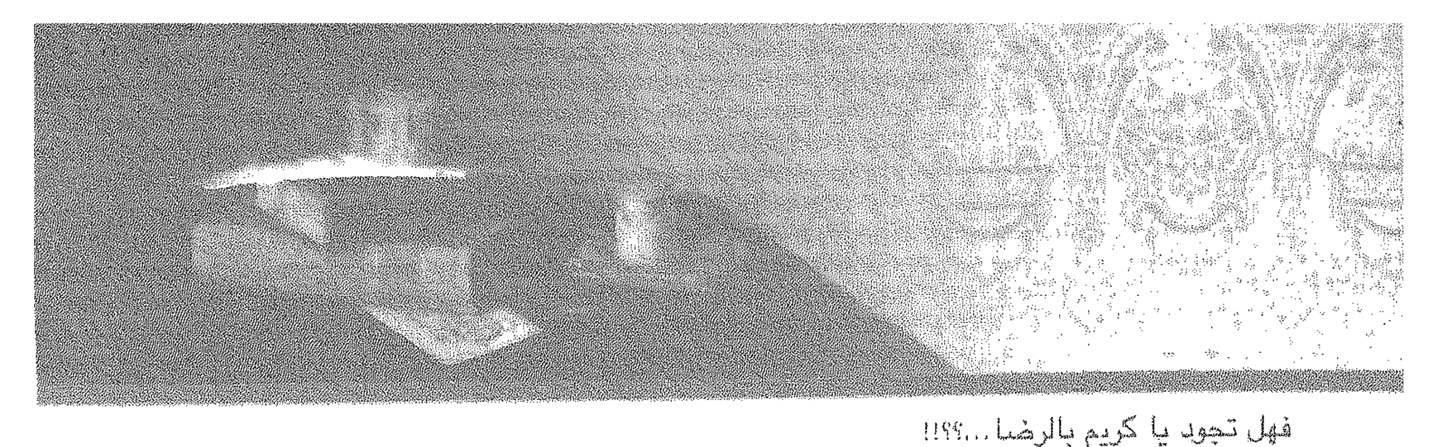
د.سامى منير عامر
الإسكندرية-كلية التربية - قسم اللغة العربية

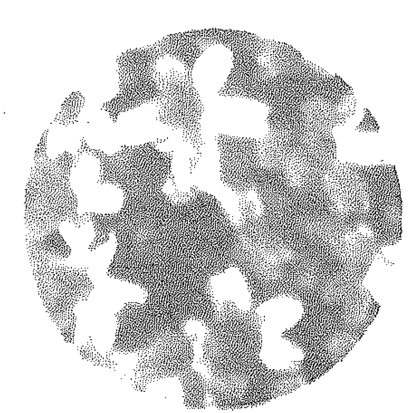
- الهلال: نشكر لكم هذا الاهتمام من خلال كتاباتكم المفعمة بالحب، وأيضاً ذلك الحرص على الاهتمام بكل ما كتبه أستاذنا الدكتور شكرى عياد عن لغة النقد فى بابه الشهير فى الهلال «القفز على الأشواك».

أنشودة البراءة

«كريم» يا أنشودة البراءة
يا صوت موسم الوضاءة
يا عطر إيقاع الطفولة الجميلة
يا نبض قلبين تعانقا
وللحياة غردا
ونسجا من العبير حلم أيام ظليلة
وأنت شمس أشرقت
فى ليلنا الشتوى يا كريم
فأدفأت أيامنا المرتعشة
وعلقت فى القلب قنديل الأمان
وأطلقت فى الروح أسراب الضياء والحنان
***







فهل تجود يا كريم بالرضا...؟؟!!
وهل يهل نجمك السعيد
في عامنا الجديد؟؟!!!
وهل يضئ وجهك الوضئ أيامنا؟؟!!
وهل تعيد بسمة الحياة في عينيك أحلامنا؟؟!!!

***

وعن زماننا الغريق في الدخان
هل ترحل الغيوم والأحزان؟؟!!!
وهل على وجوهنا
تشرق يا كريم بسمة البلابل المهاجرة؟؟!!!
وهل تعود للحقول..
.. خضرة الحياة والسواعد المسافرة؟؟!!!

د.صابر عبدالدايم

دراسة تتناول الشاعرة جميلة العلايلي

طالعت باهتمام ما كتبه د.أحمد السيد عوضين في عدد يناير ٢٠٠٤ بعنوان «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره»، وما يهمني في هذا المقام، هو ما ورد من حديث عن الشاعرة جميلة العلايلي، إحدى رائدات جماعة أبولو، وجميلة من هؤلاء الأعلام الذين أغفلتهم الأضواء، وأهملت إبداعاتهم مجاهر النقاد، مع ما تحمله إبداعاتهم من قيمة، وما يمثله إنتاجهم من تنوع ووفرة تجعلهم في مصاف الريادة، ومع أن الاستاذ وديع تحدث عن صنيعه، بأنه محاولة لإنصافها، وإن تطاول عليها العهد، وشابها القصور، وعلق د.عوضين على هذه العبارة بالدعوة لدراسة جميل العلايلي وأدبها قائلا: «فهل تجد جميلة من يتفرغ لإعداد دراسة عنها ، وإنها لتصلح موضوعا لرسالة جامعية متميزة؟ ثم هل تجد من يحيي تراثها ويعيد جمعه، وترتيبه ونشره ومن يدري فقد يتحقق شئ من ذلك؟

أود هنا أن أبشر بأنه قد أوشك أن يتحقق ما دعا إليه د.عوضين في الهلال، فقد قدر لي منذ عامين أن أسجل موضوع أطروحتي للماجستير بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة تحت عنوان «جميلة العلايلي: حياتها وشعرها دراسة فنية».

إنني أتمنى ألا يكون جهد الباحثين الراغبين في دراسة جوانبها الإبداعية، جهداً مكرورا ومعاداً، وأهيب بهم تناول جوانبها الإبداعية الأخرى، من قصص وروايات، ومقالات صحفية وأدبية، ودراسات نقدية.

أحمد محمد شبل - باحث بجامعة المنوفية



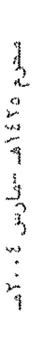
أين الحقائق والثوابت؟

أين الجمال بعينك الزرقاء؟! ... من كنت بحرا أزرقا ينثال
ضاع الجمال وضعت، ضيعك الأسى ... بعد الأسى يتبخر الشلال
تتبخر الأحلام والشعر الذى ... ألفته، تتفتت الأجبال
أين الثبات بكوكب؟ من قهره ... سيدور دوما والحياة سؤال
الفيلسوف مهرطق متحذلق ... أما الطبيب فساحر دجال
كم من عقار كان كشفا رائعا ... قالوا : هو الشافى، هو الآمال
وتراجعوا .. قالوا اكتشفنا انه ... ضار فظيع ساحق قتال
والعالم النفسى مجنون به ... مس كأن حديثه أدغال
(لاوعيه) متذمر متثائب ... و(الوعى) صخر حوله أسمال
فى رأسه (سيجموند) يخلع نعله ... ويضاجع امرأة.. وكم يختال
ويقول : إن الجنس أعظم عقدة ... فى عمرنا فتصدق الأجيال
ويجى (يونغ) بفكرة أخرى بها ... غيم الدجى وبها الغموض جبال
لم يثبت العلماء شيئا إنهم ... يتخبطون وعلمهم أظلال
أين الحقائق والثوابت فى الدنا؟ ... كل الحقائق فى الحياة خيال

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

لماذا هذه الردة فى العقلية العربية؟!



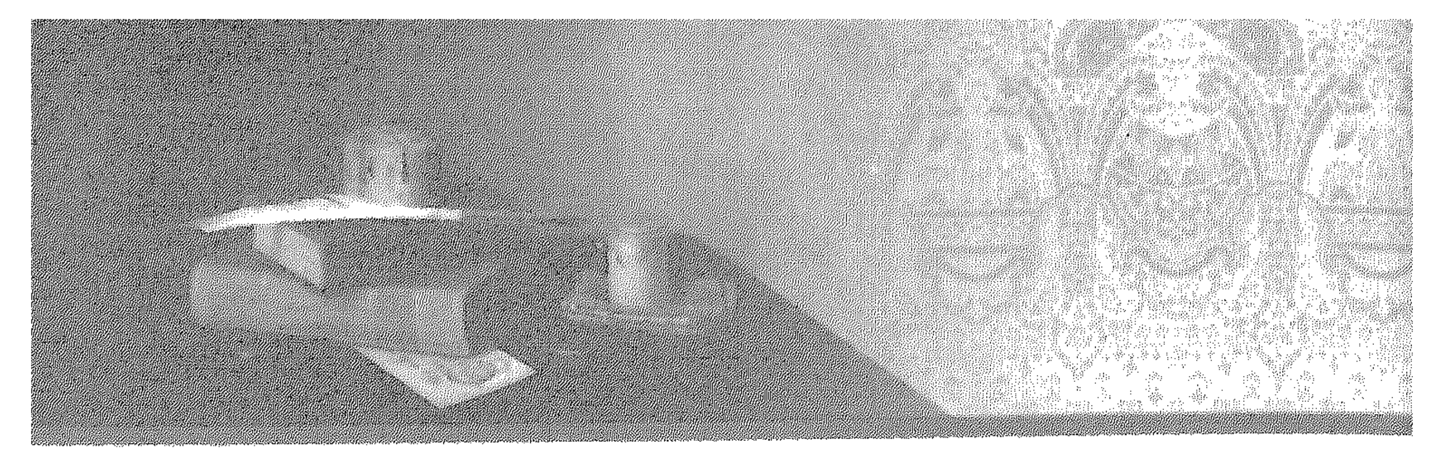


ولقد رأيت فى مقالكم ما يتواشج بقوة، مع الحديث بأسى عن حالة الردة فى العقلية العربية، بعد أن أمسك بتلابيب بشائر النهضة رفاعه رافع الطهطاوى، كيف تقدمت فنلندا، رغم إغراقها فى التخلف أيام ابن فضلان، وكيف تأخرت إيطاليا عن دول أوربا، رغم أنها كانت البادئة بالتقدم فى عصر النهضة، وتكمن الإجابة فى نموذج وحدة النسيج الألمانى.

هل تفككت الخيوط العربية قبل أن تستكمل السدى تلاصقها مع اللحمة؟

أعادنى موضوع البحث «العرب وعلاقتهم بالغرب» إلى مقالكم فى نوفمبر ٢٠٠٣، الذى قدم مداخلة بين على مبارك ومحمد عبده وأحمد أمين وقلينى فهمى ومحمد فرغلى، نماذج متنوعة من المشارب والثقافات والطبقات، والديانات، وكانت حلقات الوصل بين القرن ١٩ والقرن العشرين، وقرأت جميعاً الغرب، انشغالا بهموم الشرق، وهى حالة لخصها الراحل د.حسين فوزى حين قال ما معناه «أنه يتجه إلى الغرب حبا فى الشرق».

دعانى هذا أيضاً لأن أسترجع ماورد بمقالكم، عن فرقة الحشاشين فى ثلاثة أعمال



«زيدان، ويارتول، ومعلوف»: الفارق بين العمل الأول والأخير، ما يقارب القرن.

ويدل الانشغال بهذه القضية الآن، على اتجاه يجافى التاريخ الإيجابى فى مسار الفكر العربى، ويقطع السبيل على تواصل الأجيال، من عصر الرواد المتنوع الثقافات، مع الاتفاق حول وحدة القضية المطروحة، إلى عصر الشباب، وجيل كنا نأمل فيه استجلاء البصيرة وليس الحيرة.

أود أن تتابعوا الكتابة حول هذه الخيوط الخفية، ما انقطع منها وما يمكن أن يكون قد بقي.. ولعله يكون مشروع كتابكم القادم.

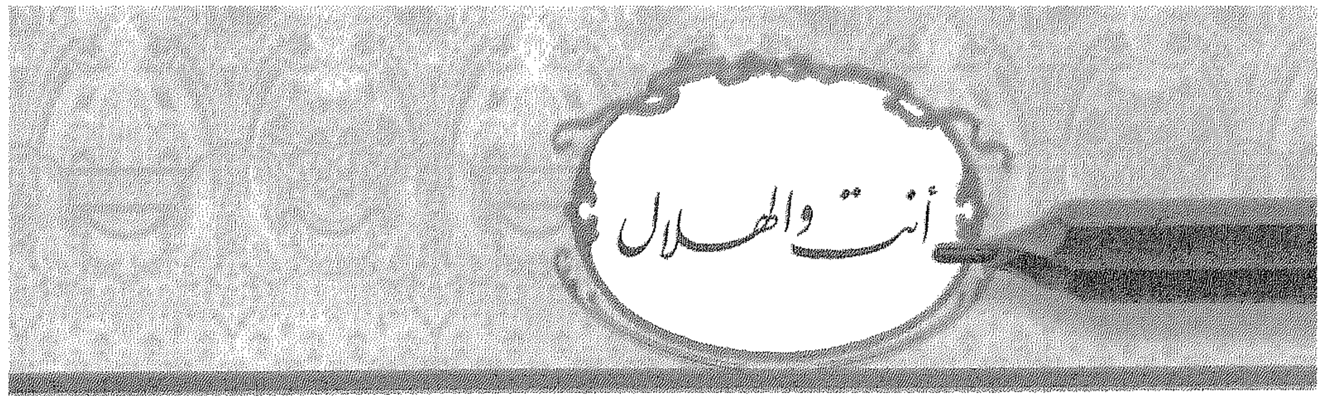
د.محمد المهدى

مستشار دار الآثار الإسلامية المجلس الوطني- الكويت

الليل قارب منتهاه

الليل قارب منتهاه — ستعود للأصل الحياة
هذا الظلام سينتهي — والصبح يشملنا سناه
ليل نضيق بظلمه — وظلامه وبمحتواه
سيزول بعد جنونه — فينا ويكفى ما جناه
صرنا بلا ثمن نرى — ممن بلا عين نراه
كم ذا نباع ونشترى — بيد العمى تبت يداه
هل نحن أم أعداؤنا — لله نحيا فى هداه؟
عند الإله جزاؤنا — هو من يجازى لا سواه
هل نحن أرخص منهمو — أجبياهم فوق الجباه؟
للمؤمنين عليهمو — فضل وجاه اى جاه
كم يقتلون حياتنا — دون التفات للحياة
فاذا دافعنا نحن عن — أحيائنا صرنا الجناة
قولوا لكل من ادعى — كذبا يراجع ما ادعاه
بالصدق ينفلح من سعى — بالصدق يرتاح السعاة

حسن أبو الغيط
كفر مصيلحة - المنوفية



دفاعا عن الشعراء

يظن البعض أن الشاعر انسان يهيم فى دنيا الخيال، ويثرثر بكلام لا يفهم معناه، أو على الأقل لايؤمن به، وقد ساعد على ذلك أن القرآن الكريم قد أيد هذا المعنى فى آخر سورة الشعراء .

ولكن على هؤلاء الناس أن يعلموا أن هناك شعراء مستثنون فى الآية الكريمة، واذا كان هناك شعراء منافقين ، فهناك من هم صادقون مع أنفسهم ومع الآخرين.

والشعر كما نعلم هو لغة المشاعر والأحاسيس ، ومن الطبيعى أن يحلق الشاعر فى الآفاق تبعا لطبيعة الشعر، التى تفرض نفسها عليه فرضا، لا فكاك منه !

فلو كان الشعر كلاما واقعيا خاليا من الخيال، لأصاب النفس بالرتابة والملل، فسر جمال الشعر، ورقة معانيه، هو تلك الطبيعة الخيالية، التى يتفوق فيها الشعر على النثر العادى.

والشاعر وهو يبدع يعيش لحظة تأمله بكل جوارحه، ولا أبالغ إذا ماقلت إنها تكاد تنسيه العالم بأسره، فإذا ما حاول أن يجسد تلك اللحظة الخاطفة التى تشبه الومضة فى قالب لفظى، نرى فيه المعانى تلبس ثوبا قشيبا، ويطالعنا بريقها الأخاذ، وقدرتها الفذة على التأثير فى النفس ، وكلما أوغلت أو تمادت الصورة فى تأثيرها، كانت الصورة حسنة فى موضعها .

فإذا ما فقدت الصورة هذه الخاصية ، حق لنا أن نتهم الشاعر فى شاعريته، ونرميه بالتقليد الأعمى، وعدم نضج شاعريته، وركاكة أسلوبه، وضعف روح الابتكار فى شعره،وليقف الشاعر أمامنا موقفا يلام عليه .

السيد التحفة - شبراخيت - ش احمد عرابي

معركة الكراسى

خلا الكرسى .. فاستلت سيوف ... وتاهت عن مخارجها الحروف

لكل مبارز جيش عريض ... من الجوعى، وموعده رغيف

يصول .. وللوساطة ألف وجه ... لكل هنيهة وجه أليف

وكم وعد الوسيط، وكم تعدى ... على وعد له .. فيأتى الخريف

وكرسى يتيم، كيف يحظى ... به تحت السما قلب نظيف؟

وقد حطت على شمس الطوايا ... بقايا الليل .. فابتدأ الوجيف

رماد كل جمر كانت يوما ... يعاند حظه وهو الضعيف

فكيف أرى بلادى اليوم ترضى ... على الكرسى معتركا يطوف

وترضى للكفاءة أى قبر ... اذا لم يرض وقفتها الرصيف؟

فيا أسفا على بلدى ، أخيرا ... مظالمنا بجبهته كسوف

وحيث يفوز مغتصب فينفى ... جهود حياتنا .. يأتى النزيف

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج

أ

أبو نصر الفارابى

٢٦٠ هـ (٨٧٤م) - ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م)

الهلال

ولد أبو نصر الفارابى فى «وسيج» وهى قرية صغيرة تقع فى ولاية «فاراب» من بلاد الترك، لكن والده كان قائدا عسكريا.. ومن أصل فارسى، حصل على علومه فى بغداد، وألم بالأدب والرياضيات، وتشهد مؤلفاته فى الموسيقى، على سعة دراسته للرياضيات، كما يبدو من مؤلفاته العديدة والمتنوعة، أنه كان يعرف الفارسية والتركية، الى جانب العربية، غير أن كتاباته بالعربية رغم سموها، كان يشوبها بعض الغموض.

حينما وقعت بعض الاضطرابات السياسية فى بغداد، آثر الفارابى أن يقيم فى حلب ، واستقر فى مجلس سيف الدولة، وفى آخر أيام حياته ركن الى الخلوة بين مظاهر الطبيعة، حتى توفى فى دمشق، بعد أن وقف حياته على التأمل الفلسفى، فصار أستاذا لكثير من المفكرين ولاسيما ابن سينا .

وقد سمى ارسطو بالمعلم الأول، أما الفارابى فقد سمى بالمعلم الثانى، لأنه قام بتأليف كتاب يجمع ويهذب ماترجم قبله من مؤلفات المعلم الأول .

يعد من أعظم العلماء النظريين والعمليين فى صناعة الموسيقى، ومؤلفاته زادت على مائة كتاب ومجلد فى جميع العلوم الانسانية من فلسفة الى منطق، الى علم الطبيعة ومابعد الطبيعة، وعلم الموسيقى والسياسة والاخلاق والخطابة والشعر. اضافة الى الكيمياء والهندسة.

والفارابى هو صاحب الفضل الأول على الفلسفة الاسلامية، لأنه هو الذى وضع أساسها، ورتب مسائلها، ولهذا يعد أول فلاسفة الإسلام بلا منازع، ولذلك يلقبونه بالمعلم الثانى، تمييزا له عن أرسطو المعلم الأول للفلسفة اليونانية، كما يلقبونه بصاحب المدينة الفاضلة، كما لقبوا أفلاطون بصاحب الجمهورية.

والتجديد الذى ينسب للفارابى، أنه لم ينظر الى الفلسفة نظرة المقلد، وانما نظر اليها نظرة المجتهد، وأنه كان يدعو الى الحقيقة، وبهذا يكون قد فتح باب الاجتهاد ومهد الطريق من بعده .

وهو أول من صاغ الفلسفة الإسلامية فى ثوبها الكامل، ووضع أصولها ومبادئها، كذلك نجد عنده مذهبا فلسفيا متكاملا يمتاز بظاهرتين رئيسيتين لعلهما جديدتان فى ذلك الوقت، وهما نزعة روحية واتجاه صوفى، وعنده النزعة الروحية والاتجاه الصوفى يلتقيان فى نواح كثيرة، وهو ماكان له عميق الأثر فيمن جاء بعده من فلاسفة الاسلام، وفى هذا تختلف جهوده عن جهود الكندى الذى تصدى للفلسفة بالشرح والتهذيب دون أن يكون له مذهب فلسفى ينسب اليه .

ويرصد المهتمون بالتجديد للفارابى عملين تجديديين فى إطارهما تدخل كل اسهاماته الفلسفية.

الأول : كان فى كيفية اصلاح الحكم .

والثانى : فى تهذيب ماترجم قبله من علوم الفلسفة وترتيبه وترتيبا علميا منهجيا يسهل طريق البحث .

هذا الى جانب تأثر غير المسلمين بإسهاماته الفلسفية، للنهوض بعلومهم، الى درجة ان الفارابى يعد واحدا من الحكماء الأربعة فى تاريخ الفكر الانسانى بوجه عام .

قصة قصيرة

الوجع الضائع

نملأ الكراسي، أمامنا شباكان.. واحد نسلم فيه الوصفة الطبية، والثاني نتسلم منه الأدوية..

الصيدلانية، تنادي بنبرة عالية مستعلية : نورة مصلح ، سعدة الحمود، هيا مبيريك.. تتقافز النسوة أمام النافذة التي تظهر جزءاً من وجه الصيدلانية، ترمي لهن الأدوية (حبة مساء، وحبة ليلاً، وهذه حبة عند الوجع) وتستمر تجادلها إحداهن الدواء ليس هو، تتجادل معها ثم ترفض الكلام وتعيدها للطبيب، تنفعل المرأة، يكاد يتطور الموضوع الى تشابك بالكلمات.

لكن الصيدلانية تنسحب.. يخيم السكون، بعد أن حاولت سيدة حايلية التدخل للتخفيف.. يسود الصمت، ثم يتململ الكلام فيهمهم، ثم ينطلق تتجاذب الحاضرات أطراف الكلام.. الأمراض، العين، الحسد ، السحر، الأدوية الشعبية في عقر دار الطب الحديث..

صامتة أنا ..

تستحثني جارتي للكلام .. تسألني : ماذا يؤلمك..؟!

أمد يدي الى رقبتي .. تقول : «هالأيام الهواء متغير وكل الناس حلوقها توجعها..» لا أعلق، تستفزني للكلام: متزوجة..؟!

أشير علامة لا ..

أين تعيشين..؟ عند أمك..!!

أهز رأسي لا ..

عند اخوانك..؟!!

تشتغلين..؟!

اهز رأسي لأسفل لأعلى

نعم ..

تفرح ، تلتقط رأس خيط .. وأين تشتغلين..؟

أصمت .. وأنا أضع يدي على حنجرتي ..

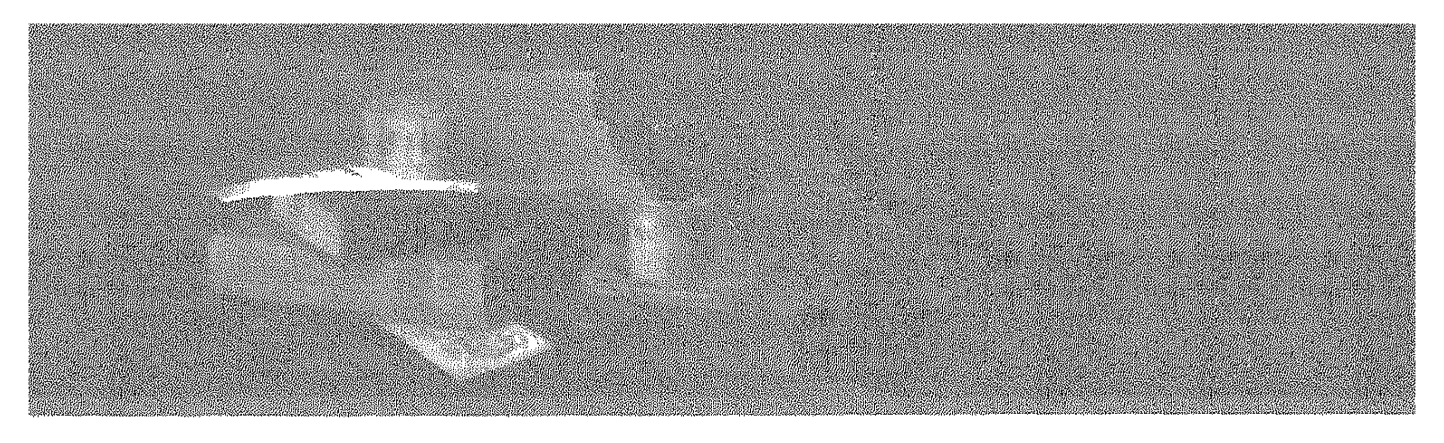
بالرئاسة..؟!

لا ..

بالمدارس الأهلية ..؟!

لا ..

حيرتها ، أين لامرأة يمكن أن تعمل بغير تلك الجهات..؟



تتفحصني جيدا. كفي، ومابدا من قدمي..
أقول عن لوني تلطفا سمراء، ولكني فحمية اللون تهمهم المرأة المجاورة لها.. تلتقط الهمهمة، وتقول بما يشبه الهمس : طقاقة..؟!
أشير : نعم .
تفرح وكأنها وجدت حلا للكلمات المتقاطعة ..
ترد : إيه .. هذا وجع الحلوق .. والبارحة ليلة خميس .
أكاد أشهق ضحكا .. وأنا أمسك بحنجرتي .. فعلاقتي بالأغاني لا تتعدى سماعها بين آونة وأخرى ..
وكل ما في الأمر انني لم أرغب الكلام.. وكل ما يؤلمني نغزة خفيفة على كتفي الأيسر .. تخدر كل ذراعي ..
وأحالتني طبيبة القلب للفحص بالرنين المغناطيسي .

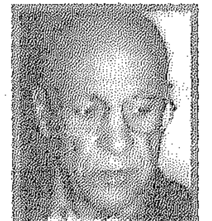
شريفة الشملان - السعودية - الدمام

الأقصى

أخـــا الاســـلام هيـــا الى النداء	فـــقـــد نادى من الأقـــصى النســـاء
وقـــد صـــرخت مســـاجـدنا ونادت	وأولى القـــبلتـــين له بكاء
وقـــد حـــرقـــوا الحـــدائق والمدائن	وذبحـــوا الناس واغـتـصـبوا النســـاء
فـــهـيـــا يا أخـــا الاســـلام هيـــا	فـــإن النصـــر آت من الســـمـــاء
فـــقـــد قـــربت نهـــاية كل ظـالم	وأوشـك ان يـكون لـنـا رخـــاء
فـــهـيـــا يا أخي للنصـــر هيـــا	فـــوقت الجـــد آت والعـــلاء
فـــهـيـــا الى فلسطين الحـــبـيـــبـــة	فـــإن الاقـــصى يبكي في النداء
فـــهـيـــا فـــانفـــروا طوعـــا وكـــرها	فـــلا عـــدل ســـوى عـــدل الســـمـــاء
فـــمـــا بقـيت ســـوى الأطفـــال تهـتف	وتـلك النســـــوة بحت بالنـداء

أحمد نادي عبدالرحمن بهلول
نادي أدب ديروط - أسيوط

الكلمة الأخيرة



جوائز الدولة

بقلم: د. محمود الربيعي

هل بقي مكان للاستشهاد بالمتنبي في عصر العولمة؟ إنه إذن القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

ومعنى قوله هذا أن تسمية هذه الجوائز باسم الدولة مضر، وأولى بها في مرحلة أن تسمي «جوائز الحكومة»، وفي مرحلة ثانية «جوائز وزارة الثقافة»، وفي مرحلة ثالثة «جوائز النخبة المختارة» أو «جوائز تأليف القلوب»، أو «جوائز احتواء الشاردين»، وفي مرحلة رابعة «جوائز إيصال بعض المساعدات المادية إلى المحتاجين»!

شارتها «أدبية ثقافية» وحقيقتها «سياسية» بالمعنى الواسع الغامض للكلمة، وهو معنى «المواءمة»، وتحيط بها تساؤلات يصعب تجاهلها في كل مراحلها. تصل إلى صاحب موهبة متوسطة بحجة أنه مريض، ويحتاج عائدها المالي للعلاج، وتحجب عن صاحب موهبة رفيعة بحجة أنه غني ويتمتع بالصحة، فتفرغ بذلك من محتواها الحقيقي. قواعدها على الورق لا تنقصها «الإنشائية» المغالية في الضبط، والتحري، والتجرد، لكن صورة العدالة المحيطة بها – كما استقرت بالتجارب في نفوس كل من اقترب منها – مهزوزة باطراد!

أحوالها عند القائمين عليها دائما على ما يرام، والذي يقول بغير ذلك عرضة لأن ينال نصيبه من الصفات التي تتراوح بين «المشكك» و«الطامع»، و«الموتور»، و«الحاسد» و«عدو النجاح» و«الحقود»!

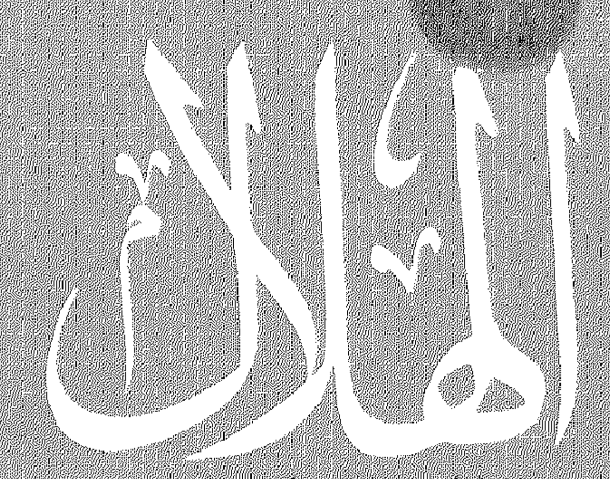
لا يجدي في جبر صدعها أن تغير قوانينها، أو ترفع قيمتها المادية، أو حتى تغير أسماؤها، وإنما قد يجدي أن تتغير «العقلية» التي تحكمها، والتي حولتها من معنى «التقدير» إلى معنى «المكافأة»، فاصطف الطامعون فيها في «طابور» طويل، يحلم كل من فيه بأن يسمع اسمه حين يأتي عليه الدور، ونشط أصحاب الحيل، والسعي الحثيث، إلى الوصول إلى الأبواب وإدمان قرعها!

في تقاليد الثقافة العربية أن من طلب «الولاية» لا يمكن منها، فلماذا لا نقول بالمثل إن من طلب الجائزة لا يعطاها؟ لكننا نرى الأمر على العكس من ذلك في موضوع الجوائز فمعظمها يشترط له «التقدم» الصريح لها، وأقلها لا يشترط التقدم، لكننا نعلم أن «الإيعاز» و«التعرض» و«العمل الدائب الصموت من وراء ستار» أنواع من «التقدم بالقوة» للجوائز، وهو أشد فعالية وتأثيرا من «التقدم بالفعل»!

إذا أرادت «الدولة» أن «تقدر» صفوة أبنائها فعليها أن تسعى إليهم، ولا تجعلهم يسعون إليها، وسبيلها إلى ذلك أن تجعل مقاييس هذا التقدير معلنة للجميع، ومعترفا بها من الجميع، ومقنعة للجميع، وقابلة للمناقشة من الجميع. أما إذا تركتهم يسعون إليها – لغرض في نفس يعقوب – فلتعلم أنه لن يقف على بابها سوى المدربين على معرفة من أين تؤكل الكتف، وإنهم لكثيرون، والغريب أنهم يصلون دائما إلى هذه الكتف، ويأكلونها!




المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
0777 1555
مجانًا
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل

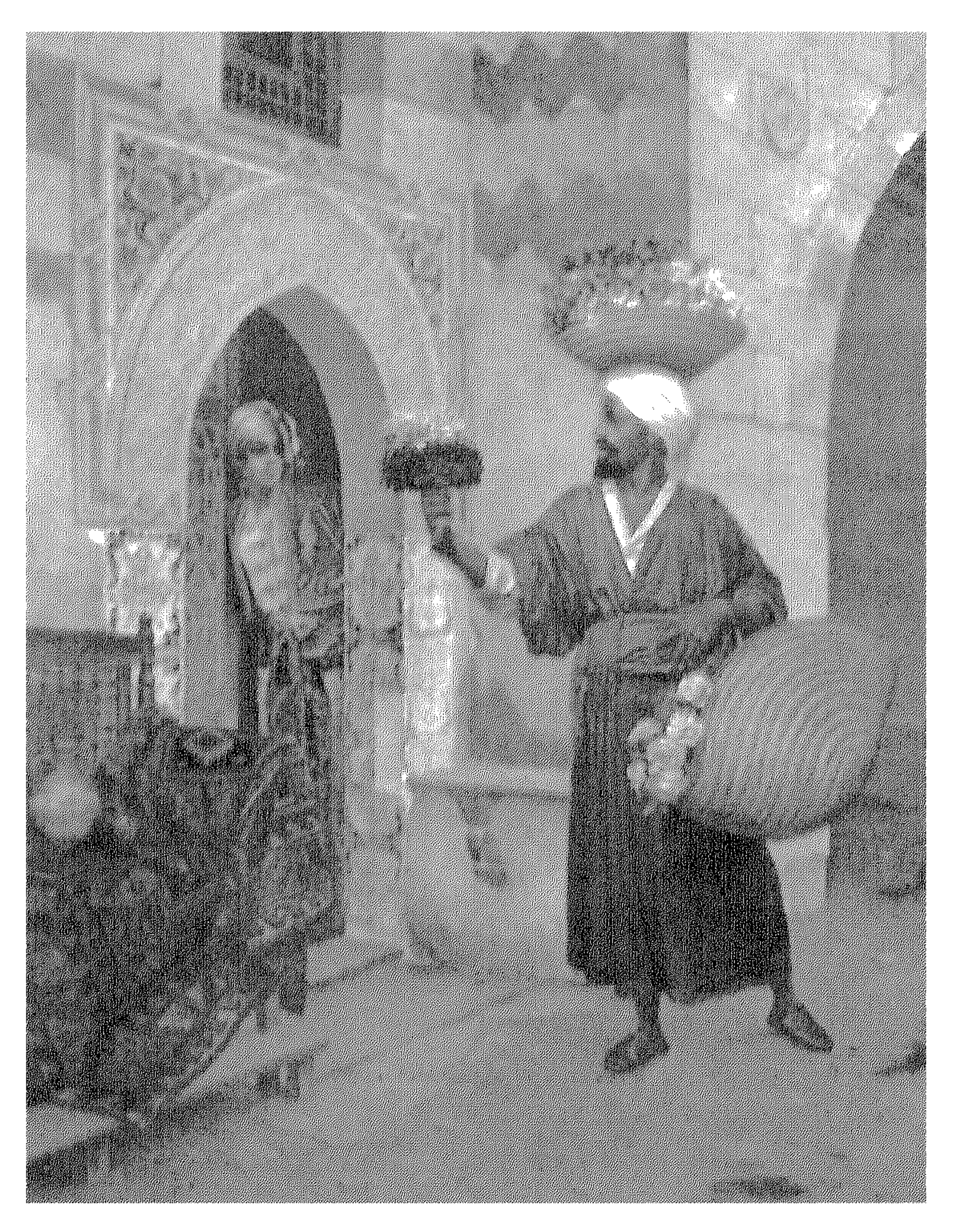


ابريل ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

- القراءة والكتابة فى خطر!
- هل يتكلم العلم العربية؟
- قصة حب الرافعى ومى

صاحب صلاح الدين الأيوبى يروى سيرته

لوحة وفنان



« بائع الزهور »

زيت على خشب ٨٠×٧, ٦٣ م
للفنان الألماني : رودلف إيرنست
(١٨٥٤ - ١٩٣٢)

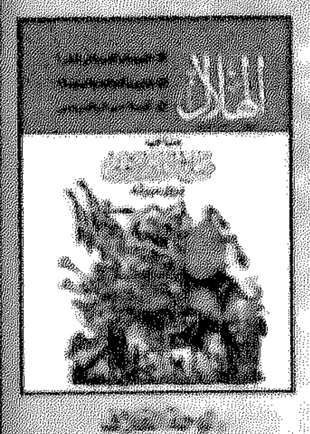
الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة صفر ١٤٢٥ هـ - أبريل ٢٠٠٤م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١.٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



لوحة الغلاف

لنافخى الأبواق وقارعى الطبول لتشجيع جيش المسلمين فى معركتهم ضد العدو.
من كتاب «فضائل القلم» «رسمه وكتبه الواسطى»

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً باقى دول العالم ٤٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

قــوة السينمـا



صـــلاح أبو ســـيف

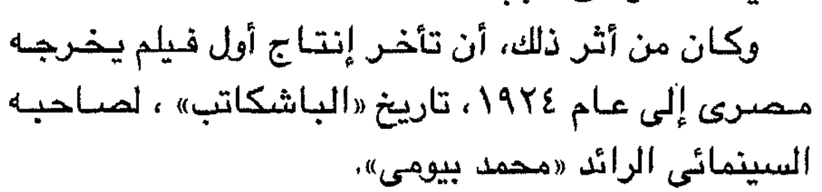
السينما لغة العصر ، ما فى ذلك شك، ومن هنا حماس المصريين لها، منذ أن كانت فنا وليدا، لم يروا من صوره المتحركة إلا أقل القليل، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأديب يحيى حقى عن نشأته، وهو صغير، فى أسرة تعشق السينما رجالا وصبيانا.

«لا يخرج حديث مائدة العشاء عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة، وعن ترديد أسماء الممثلين فى إيطاليا وألمانيا وأمريكا، والمقارنة بينهم».

وفى البداية، لم يكتب لذلك الحماس أن يترجم إلى لغة السينما، فى أفلام مصرية لحما ودما، فاستيراد المعدات اللازمة لصناعة السينما ، وبناء الاستوديوهات، ودور العرض المجهزة بأحدث الآلات، كل ذلك، وهو أمر لازم لإقامة بنية سينمائية صناعية متكاملة، لم يكن فى الإمكان تحقيقه، لأكثر من سبب.



يوسف شـــاهين



وكان من أثر ذلك، أن تأخر إنتاج أول فيلم يخرجه مصرى إلى عام ١٩٢٤، تاريخ «الباشكاتب» ، لصاحبه السينمائى الرائد «محمد بيومى».

وبدءا من ذلك التاريخ الموغل فى القدم، والسينما فى تطور وصعود وارتقاء، بفضل كوكبة من الفنانات والفنانين ونفر بعيد النظر من رجال الاقتصاد.

ومع ثورة الضباط الأحرار ، قبل اثنين وخمسين عاما ازداد الاهتمام، بالسينما ، صناعة وفنا. فكان أن جرى التخطيط لإنشاء المعهد العالى للسينما، وصندوق دعم السينما، فضلا عن إقامة مهرجانات للترويج لما تنتجه صناعة السينما فى مصر من أفلام سواء أكانت روائية، أم تسجيلية، ولتتويج مبدعيها بما يستحقون من جوائز مالية، والأهم ما يستحقونه من تقدير وتكريم.

وليس ثمة شك فى أن المهرجان القومى للسينما المصرية أهم هذه المهرجانات. ولا غرابة فى هذا.

فأية صناعة سينما فى مشارق الأرض ومغاربها لها مهرجان سنوى، بل أكثر من مهرجان، فعلى سبيل المثال السينما الأمريكية لها مهرجان أوسكار، والسينما الفرنسية لها مهرجان سيزار.


شادى عبد السلام

وعلى كل، فما هى إلا أيام من أبريل، وينعقد فى ميعاده السنوى المهرجان القومى العاشر للسينما المصرية.


توفيق صالح

والمأمول أن يكون منطلقا لسينما مصرية مسايرة لروح العصر ، متحررة من الأغلال لسينما وطنية، نابضة عن أهدافنا السياسية والاجتماعية، تكون حديث الناس من الخليج إلى المحيط، ففيلم جاد نابض من هذا النوع، يستطيع أن يصل إلى القلوب والعقول، بأسرع واجدى من ألف بحث ومقال، ولوحة وتمثال.

وقديما قال أرسطو «لايهمنى من يضع قوانين الأمة اذا وضعت أنا أغانيها».

ولو عاش فى عصرنا لاستبدل بالأغانى الأفلام!! ■

المحرر

القراءة والكتابة فى خطر

مستقبل القراءة والكتابة فى عصر المعلومات

بقلم
د. أحمد محمد صالح

دان سبيربير Dan Sperber باحث في العلوم الاجتماعية في مركز CNRS بباريس ، تركزت أعماله حول العلاقة التبادلية بين الإدراك المعرفي والعلوم الاجتماعية ، ومن أشهر كتبه «أنثربولوجيا المعرفة ١٩٨٥» والعلاقة بين الاتصال والإدراك المعرفي مع ديردري ويلسون Deirdre Wilson عام ١٩٨٦ ، وتفسير الثقافة عام ١٩٩٦ . ومتخصص فى أبحاث تأثيرات الويب على القراءة والكتابة وانتشار المعرفة ، وله محاضرة منشورة علي الانترنت عام ٢٠٠٢ باللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية ، يعلن فيها قرب انتهاء عصر القراءة والكتابة .

هل قرب انتهاء عصر القراءة والكتابة؟!

ويحاول دان في بداية المحاضرة أن يكسب القارئ معه ويقول : أنت وأنا نعيش في بيئة ، اللغة فيها كلية الوجود، ودائما على شكل محفزات صوتية أو بصرية مباشرة ، فإذا قرأت هذا النص، فأنت تستعمل بسهولة لغة منطوقة ومكتوبة بنفس الوقت! وكل يوم نحن نتعامل ونعالج نصوصا مكتوبة أكثر من النصوص المنطوقة . ونميل إلى تقييم القدرة على القراءة والكتابة بنفس القدر الذي نقيم به إدراكاتنا الحسية الأساسية وقدراتنا الآلية ، وننظر إلى معرفة القراءة والكتابة كضرورة أساسية إلى إدراك ذاتنا ، نحن ننسى بسهولة بأن الكتابة اختراع حديث العهد في تاريخ الجنس البشري، ومنذ بضعة أجيال فقط أصبحت معرفة القراءة والكتابة العالمية هدفا منشودا ، وأن هذا الهدف أبعد ما يكون عن الإنجاز . وحتى عندما نتذكر بأن الكتابة حديثة العهد ، وأن معرفة القراءة والكتابة بمفهومها الواسع مصطلح جديد الانتشار ، نعتبر الأمر مفروغا منه وأن تلك المفاهيم ستبقى على معناه ، ثم يبدأ دان في طرح الأطروحة الأكثر جدلا ويدافع عنها ويقول : «إن الثورة في تقنية الاتصال والمعلومات قد تحول قريبا الكتابة إلى أثر ماض : حيث سيستبدل بها الخطاب المنسوخ آليا ، بينما ستبقى القراءة» .

وبدون التكهن والتنبؤ ، دعونا نتأمل مليا في محاضرة دان الذي يتجرأ أكثر ويزعم بأن كلا من الكتابة والقراءة قريبا ستصبحان أشياء من الماضي، وتظهر ممارسات بديلة تكون علامة فارقة في التأريخ الإنساني ، وستكون رجعة مرة أخرى للوراء ! فقريبا جدا ، ويمكن تكون موجودة الآن ، إمكانية الدخول إلى المعلومات المخزونة بشكل شفهي وسماعي ، حيث توجد حاسبات ناطقة ستجعل من الممكن أخيرا استبدال كل اللغة المكتوبة باللغة المنطوقة ، ونحن سنكون قادرين على خزن واسترجاع المعلومات ببساطة من خلال النطق والاستماع ، والنظر إلى رسومات وليس في النصوص . بهذه الخطوة الهائلة للأمام ، والحقيقة هي خطوة إلى الماضي ، نكون أوشكنا على إعادة تكوين الثقافة الشفهية على أساس تقني موثوق وأكثر كفاءة . ويجادل دان على أية حال ، ويشير إلى عدم وجود تناظر وتماثل ذي علاقة بين الكتابة والقراءة يؤكد بقاء القراءة .

الماضي والحاضر

وقبل أخذ نظرة خاطفة إلى المستقبل ، دعونا ننظر إلى الماضي والحاضر ، ونذكر بأن الأطفال في أغلب المجتمعات الإنسانية التي وجدت، يصبح فيها الأطفال مؤهلين كالكبار بدون أي مساعدة من التعليم الرسمي، فهم يكتسبون اللغة ، والمعرفة بمحيطهم

الاجتماعي والطبيعي ، ويكتسبون تقنيات وقواعد السلوك ، والقصص والحكايات ، والأغاني ، وبقية المكونات الثقافية بدون أي تدريب أو تدريس رسمي في المدرسة. وربما تم مساعدتهم بالنصائح والتصحيحات من البالغين والأطفال الآخرين ، لكن مثل هذه المساعدة التربوية في رأي دان تجيء في دعم عملية تلقائية من الاكتساب ، وهي مختلفة تماما عن التعليم المؤسساتي ، الذي يستخدم لإرسال المعرفة والقدرات التي نادرا ما تكتسب عفويا ، لذلك إذا لم يتعلموا بشكل منتظم ومستمر ، من غير المحتمل أن تستقر تلك المعارف كعناصر في الثقافة . وهنا نتفق مع دان خصوصا في ضرب التناقض بين امتلاك اللغة وبين مهارة الكتابة في الشروط العادية ، حيث يحدث امتلاك اللغة آنيا وعفويا بين الأطفال في عمر مبكر جدا والمساعدة التربوية (التي تغيب عمليا في بعض المجتمعات) تلعب في الأكثر دورا هامشيا . وبالمقارنة بينها وبين اكتساب مهارة الكتابة والقراءة نجد أنها تحدث على أية حال خلال عملية طويلة ومركزة من التدريب المتعمد المتفاعل مع معلم ، هل لأن أنظمة الكتابة أكثر تعقيدا من اللغات ؟ العكس تماما هو الصحيح كما وضح في المحاضرة ! فاللغة مثل الانجليزية، أو الأمهرية ، أو الصينية أكثر تعقيدا من أبجدية ومقاطع ونظم الكتابة . وفي الحقيقة، اللغويون لم ينجحوا حتى الآن في تزويدنا بقواعد واضحة بالكامل لأي لغة ، بينما أنظمة الكتابة مستندة على قواعد واضحة بالكامل . والاختلاف الرائع في أنماط اكتساب وامتلاك اللغة من ناحية ومهارة الكتابة من الناحية الأخرى يرجع أساسا للاستعداد النفسي، فالبشر مهيئون لاكتساب لغة مجتمعهم عفويا وآنيا، ولا يملكون مثل هذا الميل لاكتساب مهارة الكتابة . بالأحرى ، كان لابد لأنظمة الكتابة أن تتكيف مع الادراكات الحسية للإنسان واستعداداته الآلية التي ظهرت قبل اختراع الكتابة . وهكذا ظهرت أنظمة الكتابة ، وانتشرت واستقرت مطلقا قبل اختراع الكتابة نفسها ؟

القراءة و الكتابة مكون خاص

والكتابة في رأي دان لم تظهر كمكون مشترك وعام في ثقافة المجتمعات الحديثة ، لكنها ظهرت كمهارة متخصصة تزاول من قبل الكتاب المحترفين في خدمة الدولة ، ولأن الطلب على هذه المهارات كان كافيا اقتصاديا لانتاجها ، من خلال حافز اقتصادي أو اضطرار من المستعمل النهائي، حيث تصبح أقلية من الناس متخصصين في الكتابة عندما يتغلبون على صعوبة المعرفة الادراكية في امتلاك مثل هذه المهارات، وباستثمار ثقيل في تدريب تطبيقي . ويصبح تدريس مهارة الكتابة نموذجيا موضوعا في الترتيب الثاني بين المهارات التعليمية ، وقد أدى تطوير الكتابة إلى تراكم وتنويع النصوص المكتوبة ، وعلاوة على ذلك فإن التحويلات الاقتصادية والسياسية المرتبطة سببت انخفاض تكلفة اكتساب معرفة القراءة

والكتابة بالمقارنة بارتفاع منافعها لنسبة مستمرة التزايد من السكان . وأصبحت منافع معرفة القراءة والكتابة أعظم من تكلفتها فى المجتمع الحديث لأغلبية السكان ، وأصبحت الأمية وصمة عار وثمنا فادحا فى حق الشخص ، ويرصد دان فى محاضرته عاملاً مهما آخر ساعد على تعميم معرفة القراءة والكتابة ، وهو ما يسمى بالآلية . فمهارة الكتابة عندما تكتسب بشكل صحيح ، تصبح الكتابة نوعا من العملية الآلية : واى واحد يمكن أن يكتب دون أن يكون مدفوعا بأى انتباه واعٍ إلى الحركات اليدوية التى تضمنها . (وهذا أيضا صحيح وينطبق على مهارة الكتابة على الآلة الكاتبة) . وأكثر الأشكال المبكرة للكتابة ، مثل الخط المسمارى فى السومرية التى نشأت فى العراق ، والكتابة الآرامية والسريانية والمندانية والعربية القديمة بموادها وأدواتها ، لم تصل للسلاسة والسهولة الآلية التى نشعر بها الآن عند الكتابة . ونفس الموقف فى القراءة ، هى أيضا مجرد شكل آخر من أشكال نماذج التعرف والتمييز البصرى الآلى . وهكذا توجد حقيقتان توضحان انتشار وذيوع معرفة القراءة والكتابة : الحقيقة الأولى بأن منافعها أصبحت أعظم من تكلفتها لأكثرية متزايدة من الناس . والحقيقة الثانية تقول إنه بمجرد دفع التكاليف الأولية لاكتساب مهارة معرفة القراءة والكتابة تكون تكلفة استعمال هذه المهارات تافهة نسبيا . وهناك ترابط بين الحقيقتين إذا كان توزيع التكلفة والمنافع امتد على فترة أكبر فى حياة الأفراد ، أو فى عبارة أخرى ، إذا كانت التكلفة الحدية لإتقان الكتابة والقراءة لم تسقط بشكل مثير فجأة ، ومن ثم تقل درجة الاتقان . (هذا بالمناسبة كان يحدث فى حالة الكتابة على الحجارة أو فى الطين) ومع تكرارات منخفضة فى استعمال الكتابة والقراءة ، ستوجد نصوص مكتوبة أقل للقراءة ، وينتظم فى قراءتها قليل من الناس . والنتيجة ، ستنخفض منافع الكتابة والقراءة ، وقد لا تقارن إيجابيا بالتكلفة ، ماعدا مجموعة صغيرة من الكُتَّاب المحترفين . فى الحقيقة أن تعلم الكتابة والقراءة عملية سهلة ومربحة عموما ، والأكثرية من الذين يقرأون ويكتبون ، يكونون قادرين على المشاركة فى معظم المنافع بنفسهم ، ويملكون حافزا كبيرا فى امتلاك واكتساب أطفالهم تلك المهارات .وهنا يتساءل دان سبيربير Dan Sperber فى محاضرته ويقول : إذا كان الأمر كذلك، كيف إذن نشك فى مستقبل الكتابة والقراءة ؟! ويقدم جوابا قصيرا مباشرا على ذلك هو أن الكتابة ليست هى الطريق الوحيد لإنتاج النصوص المكتوبة !

..وكان السكرتير يكتب

حتى عهد قريب ، كان العديد من الناس الأغنياء أو أصحاب السلطات يأمرون سكرتيرهم بالكتابة بدلا من الكتابة بأنفسهم . بعض الأعمال الأدبية والتاريخية ، مثل فردوس ميلتن المفقود أو نابليون أمليت ولقنت لأسباب السرعة ، أو قد يكون مسألة ضرورة كما فى حالة ميلتن الكبير السن ، والذى فقد بصره ،

ومع ذلك ، إذا اعطينا الاختيار ، سوف يفضل معظمنا أن يكتب بنفسه ، السبب الرئيسى لذلك من وجهة نظر دان سبيربير ، بأنك عندما تملى على الآخرين تفقد السيطرة على نصك بالمقارنة مع الكتابة بنفسك حيث السيطرة أكبر . على أى حال من الأحوال ، الإملاء والتلقين التقليدى كان شكلا من العمل الدينى ، وليس طريقا للكتابة . الآن ، تقنيات المعلومات الجديدة أوشكت أن تزودنا بشكل مبتكر من الإملاء بدون العيوب القديمة حيث يمكن السيطرة على النص ، وغيرت تكنولوجيا المعلومات تقسيم العمل بحيث لن يكون بين رب العمل والمستخدم ، لكن بين الناس والمكائن ! وتطورت بسرعة برامج تمييز الصوت التى تحول الخطاب إلى نص على مدى السنوات القليلة الماضية ، حيث تسمح للكلام فى الخطاب المستمر الطبيعى ، وفى سرعة تحادثه أن ترى كلماته تظهر على الشاشة . فى الوقت الحاضر ، نسبة الخطأ مازالت ملحوظة جدا ، وتتطلب تلك البرامج تدريبا أوليا ، ويؤكد دان أن العديد من المستعملين الذين لايحتاجون فعلا مثل هذه البرامج قد يصبحون فاقدى الثقة فيها نتيجة عيوبها ، ويتوقع التغلب على تلك العيوب فى ظرف سنوات قليلة ، وستتمكن الماكينة من تمييز صوت المتكلم ونسخ خطابه مع قليل جدا من الأخطاء ، بل ستنفذ الماكينة أوامر المتكلم وهو يتدفق فى الخطاب ، مثل أوامر المراجعة والتدقيق الإملائى والنحوى والتأكيد لكى تطاع من البيانات التى ستنسخ . وسيصبح الأمر أسهل على الماكينة بالمقارنة بالسكرتير . عموما سيكون من السهولة إعطاء التعليمات إلى الحاسوب أو إلى أى أنواع من العدد ، والآلات والمركبات والمكائن الأخرى بشكل شفهى أكثر من إصدارها خلال لوحات المفاتيح ، والماوس (الفأر) والأدوات اليدوية الأخرى . المكائن بالتالى ستكون قادرة على تزويدنا بالمعلومات بشكل شفهى أكثر من تقديمها من خلال الشاشات . فالتقدم فى تقنية النطق للنص ، ستمكن المكائن من القدرة على قراءة النصوص المكتوبة جهوريا ، وبصوت طبيعى جدا ، وتفاعلات اللغة الطبيعية الشفهية بالمكائن ستصبح المعيار الأساسى بدلا من الاستثناء .

وهنا للكاتب تحفظ مؤقت على رؤية دان سبيربير ، فرغم المتابعة لأخبار التقدم فى تكنولوجيات المعلومات بحكم التخصص والاهتمام ، لكنى لم أسمع عن التقدم فى برامج تمييز الأصوات منذ ١٥ سنة على الأقل من الآن ، ولم يحدث هذا التحول الثقافى الذى تبشر به المحاضرة . حتى إذا تقدمت تلك التقنية وتحسنت ، فالناس الذين ندعوهم الأميين (تعبير هجومى) سيكونون قادرين على استعمال تلك التقنية ، ويجب أن تصلهم ، ومع ذلك أزعم أن الناس سيستمرون فى حتمية أن يملأوا الاستمارات الحكومية المختلفة (شهادات الميلاد والوفاة وطلبات العمل والإعانة الاجتماعية .. الخ كتابة) وسيستمرون فى القدرة على قراءة وفهم إشارات

الكمبيوتر يكتب بدلا من الإنسان !

الشـــارع من مـــرور وعناوين بدون الاستعانة بالماكينة !

على أية حال تقنيات النطق الجديدة التى تحـول النص المطبـوع إلى خطاب مسـمـوع أو الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب سوف تغير حياة الناس فعلا ، خاصة الذين يلاقون صعوبات فى الكتابة والقراءة نتيجة عاهة أو تلف فى حاسة السمع أو البصر أو أجهزة النطق، أو أجهزة الدماغ ! والسبب الواضح لعدم استفادة واستغلال ملايين الناس الأميين حول العالم لهذه التقنيات هو فقط الفقر، فالفقر هو السبب الأول فى أمـيتـهم . وقريبا فى رأى دان سبيربير ستـقارن تكلفة ومنافع الكتابة والقراءة ليس فقط بالأمـيـة لكن أيضـا بتلك الطرق البديلة لإبداع وإدخال والوصول إلى النصوص ، والتى زودتنا بها التقنيات الجديدة . والسؤال الآن الذى تطرحه المحاضرة كيف يمكن أن تؤثر هذه التقنيات على مستقبل الكتابة والقراءة؟!

الاختيارات الفردية

بينما الخطاب المنطوق حدث يتجلى فى وقت معين ، نجـد النص المكتوب جسم له ديمومة كبيرة فى الفضاء عندما تنقش الكتـابة على الحجـر (الآثار المصرية) أو له ديمومة قليلة جدا مثل الكتابة على السبورة وأقل فى حالة الكتابة على رمال البحر. بسبب هذا الاختلاف فى صيغة الزمن والمكان لوجود الخطاب المنطوق، كانت الكتابة مناسبة لاستعمالات مختلفة . وتطوير الكتـابة لم يؤد إلى انحدار الخطاب المنطوق . وا ، يقدم دان دليلا على مقولته بأن الخطاب المنطوق يستـعمل أقل ، أو يستـعمل بأقل جودة ، فى المجتمعات المثقفة أكثر من المجتمعات الأمية . لكن العكس هو الصحيح تطوير الكتابة أدى إلى ظهور استعمالات جديدة للغة ، فى الشبكات الاجتماعية الأكبر والكثيفة، وفى الفرص الجديدة لاستعمال الخطاب أحدث تطويرا عظيما فى فن الخطاب .

ويتساءل دان سبيربير ماذا سيحدث إذا أصـبـحت تقنيات التـحـويل الآلى للخطاب المنطوق إلى نص speech to text أو تحـويل النصـوص إلى خطاب منطوق text to speech من الأدوات العادية الآن فى عملية الاتصال بين كل الناس ؟ جوابه المباشر أن ذلك سيسبب ظهور استعمالات إضافية للغة ! وسيتم إزاحة الكتابة كأداة والاستغناء عنها ، وحرص دان سبيربير على ضرورة التمييز بين نشاط الكتابة (سواء الكتابة اليدوية أو الطباعة) ، والنص المكتوب ، ونشاط القراءة ، وقدم عدة سيناريوهات ، السيناريو الأول استـعـمال تقنيات تحـويل الخطاب المنطوق إلى نصـوص بشكل منظم مع ندرة استخدام تقنيات تحـويل النصـوص إلى خطاب منطوق

(سيناريو معقول) ، وهذا يؤدى على الأقل إلى تهميش نشاط الكتابة نفسه مع استمرار أهمية ومكانة النص المكتوب ونشاط القراءة، السيناريو الثانى إذا استعملت تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نصوص وتقنيات تحويل النصوص إلى خطاب منطوق بشكل منتظم هنا ستكون نهاية نشاط الكتابة وأيضا نشاط القراءة ، وعلى ذلك سيعتمد النص المكتوب على المكائن التى ستستعمل لغة الماكينة لتشفير المعلومات وجعلها ملائمة للتحويل من وإلى الخطاب المنطوق ، ولغة الماكينة تستعمل أكوادا ورموزا لاتبدو مثل نصوصنا المكتوبة ، وسواء انتهت أو لم تنته المجتمعات باستبدال نشاط الكتابة والقراءة بتقنيات التحويل فإن ذلك لن ينتج مباشرة من قرار جماعى مستند على رؤية النتائج الاجتماعية الحضارية، لكن ينتج من تراكم القرارات الفردية. لكن إلى أى مدى ، سوف يتبنى الأفراد هذه التقنيات الجديدة ؟ وتحاول المحاضرة الاجابة على مستويين الأول تحويل الخطاب المنطوق إلى نص ، والثانى تحويل النص إلى خطاب منطوق ، ثم تستعرض نتائج هذا التحول الثقافى ، وفى حدود المساحة نكتفى فى عجالة هذا الشهر بالمستوى الأول .

تحويل الخطاب المنطوق إلى نص

يتوقع دان سبيربير فى محاضرته أن تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص ستمكن الأفراد من إنجاز أهداف مختلفة ويتابعون النصوص المكتوبة، وأن التبنى لتلك التقنيات سيتم لأول وهلة وعموما على استحياء . فماذا نفعل بنص مكتوب لايعتمد على الكتابة باليد ، أو تمت طباعته ، أو أملى على السكرتير ، أو حتى نسخ بماكينة التصوير . القليل من الاستثناءات لن تستسيغ هذا الأمر مثل الرغبة فى شم الورق المعطر والمحمل برسالة غرامية مكتوبة بيد الحبيب ، على كل حال تعميم تلك التقنيات لن تقف أمامه عقبات كثيرة مثلما حدث فى انتشار وتعميم برامج معالجة الكلمات وأشهرها برنامج word . وعلى الفرد أن يختار إنتاج النص المكتوب بواسطة تلك التقنيات أو بشكل آخر من أشكال الكتابة ، ولن يصبح مثل هذه القرار بالغ الأهمية وستقرره اعتبارات عملية واعتبارات متعلقة بتذوق وطعم الكتابة الناتجة . وتقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص له فائدة عملية واضحة ورئيسية فهى أسرع عدة مرات من الكتابة اليدوية أو حتى الطباعة . وله ضرر عملى واحد واضح : فالخطاب المنطوق صاخب ولا يستطيع مستعمله أن يشعر بارتياح كطريقة لإعداد النصوص فى أكثر الأعمال ، حتى إن حدث ذلك فى قاعة الدروس ، أو حتى فى المنزل ، على أية حال ، إذا أظهر الخطاب المنطوق أنه النمط الفعال فى إنتاج النصوص المكتوبة ، ربما نحتاج تنظيم مكان العمل ، فتصور معى صالة التحرير وكل محرر يتكلم بصوت مسموع لإعداد مادته لكى تسجل الماكينة ، وربما أيضا نحتاج وسائل تقنية جديدة لتسيطر على

الضوضاء، الحجة الرئيسية فى رأى دان سبيربير التى قد تجىء لاستمرار نشاط الكتابة ليس لها طبيعة عملية بقدر ماهى ذات طبيعة ثقافية . فالكتابة باليد تسمح للواحد بالتعبير عن الفكرة بطريقة غنية وأكثر سيطرة بالمقارنة بالخطاب المنطوق . فالكاتب يمكن أن يكتب ، ويصحح ، ويعيد الكتابة ، وفى النهاية ، ينتج نصاً خاليا من الترددات وحيرة تصليحات الكلام الشفهى ، وخصوبة وغنى الأسلوب للنص المكتوب تأتى تحديدا من استغلال هذه الإمكانيات . ويجب ملاحظة أن هذه الإمكانيات ليست من نتيجة نشاط الكتابة بحد ذاته ، لكن فى استطاعة الكُتَّاب أن يقرأوا ما يكتبون كما يكتبونه . وتخيل بأنك تكتب، وتستطيع أن ترى فقط الكلمات التى تكتبها ، ثم أصبحت الكتابة التى كتبتها غير مرئية وغير قابلة للمسح : وهنا ستفقد الكتابة كل مزاياها التى تتفوق بها على الخطاب المنطوق . والأسوأ أن الكتابة أبطأ من الخطاب المنطوق ، وكمية النص التى يمكن للكاتب أن يحملها باختصار فى الذاكرة ستكون أصغر ، فالكتابة تنتج جملاً أقصر وأسهل من تلك المنتجة فى الخطاب المنطوق . تخيل من الناحية الأخرى بأن الذى أمرت به على الماكينة يمكن أن يظهر فورا ويقرأ على الشاشة ، وعلاوة على ذلك ، يمكن أن يصحح بسهولة بواسطة الأوامر الشفهية (وربما بعض الأوامر اليدوية أيضا) هذا التفاعل الشفهى جوهرى بالماكينة يعرض فرصا مماثلة لإمكانيات كتابة النصوص . لكن الإمكانية المبدعة للكتابة فى رأى دان سبيربير لاتجىء من حركات اليد لكن من تلك الرؤية التى تراها العين . بكلمة أخرى الذى يجعل لعملية الكتابة الشىء الثمين والفريد استثنائيا هو القراءة الآنية للذى يكتب ، وأن هناك سببا جماليا مهما لتفضيل تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب . على أية حال حين نقارن بين تحريك القلم على الورقة أو الضغط على مفاتيح الآلة الكاتبة أو لوحة مفاتيح الكمبيوتر للكتابة وبين الخطاب المنطوق يكون الأخير أكثر طزاجة وطبيعية أكثر بكثير من الحالة الأولى . فى بادىء الأمر ستبدو عملية الإملاء على الماكينة صعبة ، لكن عندما نتغلب على الصعوبة ، ربما تصبح أكثر راحة وخالية من الاصطناعية والتكلف ، وتجنبنا التوتر العضلى ، والتململ من الكتابة وسماع صوتنا الخاص وهو يعبر عما يدور فى نفسه من خلال اللغة. وعندما ستكون تلك التقنيات متاحة للجميع ، قد يدرك العديد من الناس مصدر المضايقات الدائمة التى كانوا يعانون منها عند الكتابة باليد ، وإذا أثبتت تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب فعاليتها ومناسبتها ، قد ينتهى ذلك بالناس إلى ترك نشاط الكتابة جملة بدون أن يقرروا عمل ذلك أو حتى يلاحظوا أنهم فعلوا ذلك ، تماما كما حدث مع نشاط الكتابة باليد عندما تحول إلى الضغط على لوحة مفاتيح الآلة ! فالتأثير المتراكم للقرارات الفردية على المستوى الثقافى صعب توقعه، لكنه احتمال جدير بالتوقع والدراسة . (ونكمل فى العدد القادم) . ■

عرقلة وتعطيل الارتقاء والنهضة

بقلم
د. مصطفى سويف

من الدروس الأولية في موضوع ارتقاء الإنسان ، مسألة اتساع مساحة الرؤية ، واتساع أفق العمل؛ وهو ما يعنى أن أحد المبادىء الأساسية المنظمة لمسار الارتقاء ، كما تتبعه قدراتنا (الفكرية والعملية والوجدانية) هو اتجاهها جميعا نحو مزيد من اتساع المحيط الذى تغطيه ، ومن هذا المنطلق تجدنا نقيم الفكر الناضج على أنه يأخذ فى الاعتبار أعدادا متزايدة من العوامل المسئولة عما يتصدى لحله من مشكلات ، والفعل الناضج على أنه يتجه إلى توسيع دوائر تأثيره ، وكذلك نقيم الوجدان الناضج من حيث كونه يتجه إلى مزيد من رحابة الطيف الذى يتسع له ، ومن أوضح المظاهر التى تتكامل فيها قدراتنا لتفعيل هذا المسار فى الحياة الاجتماعية الاتجاه فى نشاطاتنا المختلفة إلى مزيد من الأفعال آجلة العائد (وهو ما يعنى تغطية مساحة زمنية واسعة فى المستقبل المنظور) على حساب النشاطات عاجلة المردود (أى ذات الأفق الزمنى الضيق) . وقد علمتنا أنواع منوعة من الخبرة أن النشاطات ذات المردود العاجل غالبا ما تتراوح فى نتائجها بين العقم من ناحية والإضرار بنا وبالمحيطين بنا من ناحية أخرى ، فى حين أن الأعمال التى نخطط للإقدام عليها ، ونحن نعلم أن عائدها يأتى بعد حين ، غالبا ما يأتى عائدها هذا نافعا لنا وللغير معا .

ورغم أن هذا الكلام يعتبر من الدروس الأولية فى ارتقاء الإنسان ، ورغم أنه يتحقق فعلا فى جوانب أعمالنا المختلفة على غير وعى منا غالبا ، وبوعى منا أحيانا ، مع ذلك فعندما ننظر فى شئون العمل العام كما يمارسه الكثيرون من شاغلى الوظائف العامة لدينا (وخاصة شاغلى الوظائف العامة العليا) نجد أن العكس هو الصحيح ؛ فالتفضيل والإنجاز يتجهان غالبا إلى اختيار الأفعال سريعة المردود على حساب الأعمال بطيئة العائد ، وفى المقال الراهن أتناول هذه الحقيقة ممثلة تفصيلا فى مثال واحد من بين عشرات الأمثلة الشائعة الآن فى حياتنا ، وأحاول إسقاط الضوء على دلالتها ضمن الآفات التى تضرب فى جذور حياتنا الاجتماعية .

مشكلات فى المؤسسة التعليمية

قد يلحظ القارىء أننى أكثر من الحديث عن المؤسسة التعليمية فى مقالاتى التى أنشرها فى هذه المجلة ، مجلة الهلال الرصينة ، وهذا صحيح ، ولى فى ذلك مبررات عدة ؛ منها الأهمية البالغة لهذه المؤسسة فى تشكيل حاضر الأمة ومستقبلها ، ومنها ضخامة هذه المؤسسة بالكم الكبير من العناصر البشرية الذين تضمهم تحت مظلتها والكم الأكبر من العلاقات الإنسانية التى تربطهم بمحيط اجتماعى أوسع كثيرا من حدودها، وهو ما يعنى أن صلاحها أو فسادها يمس دوائر واسعة فى حياتنا الاجتماعية ، ومنها أيضا انتمائى المهنى لهذه المؤسسة أكثر من انتمائى إلى أى مؤسسة مهنية أخرى فى المجتمع ، وهو ما يجعلنى أكثر دراية بأمورها منى بأمور غيرها من مؤسسات المجتمع ، ومع ذلك فأنا أدرك بنوع من البصيرة الحدسية أن المشكلات التى أتناولها فى أحاديثى عن مؤسسة التعليم لها ما يناظرها (فى معالمها الرئيسية) فى سائر مؤسسات المجتمع، كالمؤسسة القائمة على شئون الصحة ، والمؤسسة القضائية التشريعية ....الخ.

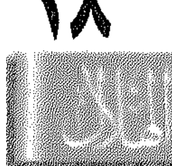
مجانية التعليم

من أخطر القرارات التى صدرت فى تاريخ المؤسسة التعليمية عندنا قرارات مجانية التعليم ، قرار المجانية فى التعليم الأساسى (الممتد حتى الثانوية العامة) ، ثم المجانية فى التعليم الجامعى . (صدر الأول فى بداية الخمسينيات على يد آخر حكومة لحزب الوفد ، وصدر الثانى فى أواسط حكم عبدالناصر) . وانصافا للحقيقة والتاريخ فقد شهدت بنفسى تعبيرات الترحيب الحار بكل من القرارين على نطاق مجتمعى شديد الاتساع ، ولعل هذه الحقيقة المجتمعية / التاريخية نفسها أن تكون من أهم دواعى الوقوف عندهما

من حين لآخر والنظر فيهما بنظرة تحليلية موضوعية تتناسب وعمق تأثيرهما فى تشكيل مجتمعنا المصرى المعاصر . ثم إن مرور حوالى نصف قرن على صدورهما والعمل بمقتضاهما يتيح للمواطن الجاد أن يشهد ويدرس عددا كبيرا من النتائج المباشرة وغير المباشرة ، المرغوب فيها وغير المرغوب فيها ، مما ترتب على هذين القرارين ، ومن ثم يتيح لنا قدرا كبيرا من الموضوعية فى استخلاص الأحكام التقويمية الصائبة الخاصة بهما وما كان لهما من تأثير فى مسيرة العملية التعليمية ، وما يتخلل هذه المسيرة من نقاط ضعف ونقاط قوة ، كما يتيح لنا قدرا معقولاً من الثقة فيما ينبغى التخطيط له من تدابير لزيادة عوامل القوة والاقلال من عوامل الضعف .

نعود بالذاكرة أولا إلى أواخر الاربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضى ، وقت صدور القرارين الشهيرين ؛ فقد كانت مصر حينئذ فى حالة غليان اجتماعى وسياسى ؛ كانت الدعوة إلى الاصلاح السياسى على أشدها (فى مواجهة عبث القصر ، والسياسيين ، وألاعيب الاستعمار الإنجليزى) ، وكذلك كانت الأصوات الداعية إلى الإصلاح الاجتماعى عالية بما فيه الكفاية (حول موضوع الفروق بين الطبقات وغياب العدل الاجتماعى) . فى ذلك الجو الاجتماعى / السياسى صدر القرار الأول ، واعتبر قرارا ثوريا لأنه صدر عن حكومة تحكم باسم حزب الأغلبية (الوفد) ، ولأنه جاء كاستجابة صادقة لمطلب التطوير الاجتماعى / السياسى . ثم تداعت الأحداث بسرعة متنامية ، وفى خضمها قامت حركة الجيش فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، وفى الوقت نفسه بقى المناخ العام مشبعا بمطلب الإصلاح والتطوير الاجتماعى / السياسى ، وتبنى نظام الحكم الجديد هذا المطلب ، فقدم عددا من الإصلاحات ، كان من بينها الإصلاح الزراعى ، وإعلان قيام النظام الجمهورى ، ثم كان إعلان مجانية التعليم الجامعى فى أوائل الستينيات (فى ظل مناخ التأميم ودعاوى الاشتراكية) .

فى هذا السياق التاريخى بروافده المتعددة رسخ فى الوجدان العام أن القرارات المتعلقة بمجانية التعليم جاءت كخطوة (ضمن خطوات أخرى) على الطريق إلى تحقيق مطلب العدل الاجتماعى ، ومع ذلك ، ورغم كل ما تنطوى عليه من دلالات بالغة الأهمية فقد عوملت معاملة التعليمات والتوجيهات والأفعال سريعة المردود ، بمعنى أن السياسيين استغرقتهم فرحة الجماهير بصدور القرارات فلم يلتفتوا إلى مترتباتها



، وساعدهم على ذلك (كما هى العادة) إعلام يقوم أساسا على جهود الشراح ممن لايكفون عن التغنى بعظمة القرارات وعظمة القيادة التى أقدمت على إصدارها .. إلى آخر هذا النوع من التغنى الذى يصدق عليه القول بأنه يزيد عن الحد فينقلب إلى الضد ؛ والضد هنا هو الانصراف إلى هذه الطنطنة بدلا من التنبيه إلى ضرورة البدء فورا باتخاذ التدابير اللازمة لحسن تنفيذ هذه القرارات صونا لها من تراكم الآثار الجانبية (غير المرغوب فيها) على مر الأعوام والعقود شئنا ذلك أم أبينا .

النتائج غير المحسوبة

علمتنا تجارب الحياة ، وستظل تعلمنا أن أى قرار نتخذه لعلاج مشكلة ما ، لابد وأن تترتب عليه، إلى جانب النتائج المرجوة، نتائج أخرى غير مرجوة أو غير محسوبة ، وأن بعض هذه النتائج تكون ما يسمى آثارا جانبية للعلاج ، وهى غالبا آثار ضارة بدرجات متفاوتة ، هذا صحيح بالنسبة للعلاجات التى نتناول بها مواقف الحياة فردية كانت أم مجتمعية ، بل وصحيح بالنسبة للعلاجات الطبية والطبية النفسية .. الخ . ومن هذا المنطلق يتكلم كثير من علماء النفس المهتمين بدراسة عمليات التفكير عن واحدة من أهم الوظائف العقلية التى يجب العناية بتدريبها ، وهى وظيفة «النفاذ»، أى الوظيفة التى يستخدمها الشخص فى أن ينفذ بخياله إلى تصور نتيجة أو نتيجتين أو أكثر مما سوف يترتب على هذه الخطوة أو تلك من خطواته ، ومن ثم يحتاط مسبقا فى مواجهة ما يمكن أن يكون غير مرغوب فيه من بين هذه النتائج وذلك بإدخال التعديلات أو التحويرات المبكرة المناسبة فى صميم بنية القرار .

والسؤال المطروح فى هذا الموضع من الحديث هو : إلى أى مدى كانت القيادات المسئولة عن القرارات المذكورة، والدوائر اللصيقة بها ، تتبنى هذا النهج فى التفكير ؟ وفى صياغة قراراتها ؟ أعنى نهج تصور النتائج مقدما ، المرغوب فيها وغير المرغوب فيها ؟ بعبارة أخرى ، إلى أى مدى كانت القيادات المسئولة تتعامل مع هذه القرارات باعتبارها قرارات بعيدة العائد ؟ معظم الدلائل تشير إلى أن هذا النهج لم يكن من المناهج المعتمدة عند أهل الحل والربط ، ومع ذلك فسواء كان هذا النهج معتمدا، ولكن بصورة مشوبة بالكثير من الأخطاء، أم لم يكن معتمدا أصلا فنحن نملك الآن رصيدا من الخبرة تجمع لنا على امتداد قرابة الخمسين سنة الماضية يتيح ، بل ويستوجب النظر واستخلاص الأحكام بقدر معقول من الموضوعية ، والاستبصار ، والشعور

بالمسئولية ، ولعل الخمسين سنة الماضية بكل مالها وما عليها أن تكون كافية لردنا إلى الحكمة الشعبية القائلة بذهاب السكرة ومجيء الفكرة ، وفى الفقرات الباقية من المقال الراهن أذكر عددا من النتائج غير المحسوبة (المباشرة وغير المباشرة) مما ترتب على صدور القرارات بصورتها التى صدرت بها ، وسوف أخص بالذكر ما توالى من نتائج على التعليم الجامعى ، أما التعليم العام فلعل وعسى أن تتاح لنا فرصة لتناوله فى مقال آخر بما هو جدير به من عناية .

النتائج المباشرة

فيما يلى أكتفى بذكر البعض (دون الكل) من النتائج المباشرة (غير المحسوبة) التى توالت على التعليم الجامعى .

أولا : الزحام

ظاهرة الزحام هى السمة الرئيسية التى تسم جميع الكليات فى جامعاتنا ، الآن وبالأمس القريب ، وتزداد كثافته سنة بعد أخرى بصورة لامثيل لها فى معظم جامعات الدول المتقدمة . ولا يقتصر وجود الزحام على الحرم المحيط بالكليات بل يمتد إلى طرقاتها الداخلية ومدرجاتها . ولهذا الزحام (فى الحرم) أضراره التى لاتقع تحت حصر ، بدءا من الأضرار الصحية إلى الأخلاقية ... الخ، وللزحام فى المدرجات أضراره النوعية الإضافية ، وهى أضرار مدمرة لعملية التدريس تدميرا تاما ، وذلك من خلال الفوضى عالية النبرة والفوضى المكتومة ، وما يحدثانه معا من خروج عن الانضباط بصورة يعجز معها الأستاذ عن السيطرة على الموقف ، بصورة تؤدى إلى التدنى بمعنوياته ، وإلى تشتيت الطلاب بدرجة تجعلهم عاجزين عن توفير الحد الأدنى من الاستيعاب المطلوب .

ثانيا : زيادة نسبة الطلاب إلى أعضاء هيئة التدريس

وتأتى هذه الحقيقة كترجمة لتزاحم الطلاب، إذ يقترن بالقلة النسبية لأعداد أعضاء هيئة التدريس ، وهذا كله صحيح بالنسبة للطلاب المنتظمين وطلاب الانتساب الموجه على حد سواء ، وإلى القارىء بعض الحقائق فى هذا الصدد ، فقد حدد المجلس الأعلى للجامعات ما اعتبره المعدلات النمطية لما يخص عضو هيئة التدريس بأنها تتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ طالبا فى الكليات العملية و ٣٠ إلى ٤٠ طالبا فى الكليات النظرية ، ومع ذلك فالمعدلات كما تحققت فعلا فى خلال السنة الدراسية ٢٠٠٠/٢٠٠١ كانت على النحو الآتى : ٢١٠ طلاب فى التجارة ، و٢٠٦ فى الحقوق ، و١٩٦ فى السياحة والفنادق ، و٨٦ فى الخدمة الاجتماعية ، و٧٠ فى الآداب ، هذا بدون طلبة الانتساب الموجه ، فإذا أضيف هؤلاء أصبحت المعدلات على النحو الآتى : ٣٩٧ فى التجارة ، و٤٣٢



فى الحقوق ، و١٥٠ فى الخدمة الاجتماعية، و١٢٤ فى الآداب ، هذا عن الكليات النظرية. والحال فى كثير من العملية ليس أفضل من ذلك بكثير ؛ فالمعدلات فى كليات التربية النوعية ١٧٢ ، وفى التربية ١٠٣ ، وفى الصيدلة ٦٧ ، وفى الاقتصاد المنزلى ٥٥ .

ثالثا : اعتماد أسلوب التلقين أو الإملاء

لكل ظاهرة شروطها ، ويفرق المتخصصون فى مناهج البحث العلمى بين نوعين من الشروط :

شروط ضرورية ، أى لابد من توفرها لكى تظهر الظاهرة ، ولكنها لاتكفى لتفسير هذا الظهور ، وشروط كافية ، أى أنها تكفى لتفسير الظهور ، وقد تولد أسلوب التلقين فى التدريس الجامعى كظاهرة تقوم وراءها مباشرة عناصر الزحام الشديد فى المدرجات كشروط ضرورية وكافية .

وفى هذا الإطار فإن أى كلام عن ضرورة التدريس باتباع أسلوب الحوار وتوليد المعانى كناتج تفاعلى بين الأستاذ والطالب يعتبر فى ظل هذه الظروف من لغو الحديث لا أكثر ولا أقل ، وكذلك الحال بالنسبة للكلام عن إقامة علاقة مباشرة بين الطالب والأستاذ، فهو ضرب من اللغو الذي لا طائل من ورائه ، إضافة إلى كونه تضليلا عن الهدف الحقيقى الذى ينبغى لجهود الإصلاح المخلص أن تتجه إليه إذا كان لها أن تقوم وأن تكون مجدية فى إعادة عملية التعليم الجامعى إلى مسارها الطبيعى .

النتائج غير المباشرة

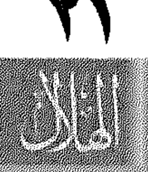
وإلى القارىء فيما يلى ذكر أهم النتائج غير المباشرة (غير المحسوبة) التى توالت أيضا على التعليم الجامعى لكى يتراكم أثرها مع تأثير النتائج المباشرة فيدعم بعضها بعضا فى تدمير التعليم الجامعى شكلا ومضمونا .

أولا : الدروس الخصوصية

أفاض الكثيرون غيرى من الكتاب الأفاضل فى الحديث ضد الدروس الخصوصية . وفى كتاباتهم ما فيه الكفاية. وكل ما أريد أن أضيفه هنا هو أن هذه الدروس الخصوصية هى إحدى النتائج غير المحسوبة التى ترتبت بصورة غير مباشرة على قرار مجانية التعليم الجامعى بالصورة التى نفذ بها ، وما ترتب على ذلك من تزاحم فى قاعات الدرس وتدهور لعملية التدريس ، فهى ظاهرة مشروطة بالشروط الضرورية والكافية التى أدت إليها ، والكلام عن جشع الممارسين لها وفساد ضمائرهم .. الخ كلام لامعنى له ولا جدوى منه

ثانيا : التعجل فى إنشاء كثير من الجامعات الإقليمية

أنشئت كثير من الكليات والجامعات



الإقليمية لمواجهة الأعداد المتزايدة من الراغبين فى الالتحاق بالتعليم الجامعى ، وفى مناخ الضغط الذى أصبح سمة شائعة فى مجال التعليم الجامعى أنشئت كثير من الكليات والجامعات دون تدبير لاحتياجاتها من أعضاء هيئة التدريس ، وكان قرار السلطات المسئولة لحل هذه المشكلة هو الاعتماد على نظام الانتداب من الجامعات القائمة فعلا ، ولما كانت الكثير من هذه الجامعات الأخيرة تعانى أصلا من نقص شديد ناجم عن اختلال النسبة بين الزيادات الطلابية وأعضاء هيئات التدريس فقد ترتبت على الانتدابات الجديدة مشكلات تراكمت فوق مشكلاتها الأصلية . والنتيجة النهائية لهذا كله أن أصبح لدينا فى العام الدراسى ٢٠٠٠ /٢٠٠١ عدد ٢٩ كلية لاتوجد بها درجة أستاذ ، و٢٤ كلية لايوجد بها أستاذ مساعد واحد ، و٨ كليات لايوجد بها مدرس واحد . بل أكثر من ذلك ، أنه (فى حدود السنة الدراسية المشار إليها) توجد ثمان كليات لايتوفر بها عضو هيئة تدريس واحد فى أى درجة من درجات أعضاء هيئة التدريس .

عود على بدء

جدير بالذكر أننى لم أقصد بهذا الحديث أصلا إلى حصر مشكلات التعليم الجامعى لدينا ، كذلك لم أقصد إلى استثارة الأذهان لصياغة حلول لهذه المشكلات ، ولكنى قصدت إلى مناقشة قضية أكبر من التعليم الجامعى بكثير ، لأنها تمس الوطن كله فى حاضره وفى مستقبله ، وهى قضية تتناول آفة من الآفات الأساسية التى تصيب حياتنا الاجتماعية وتنخر فيها عند الجذور ، وتتلخص فى أن التوجه الغالب على شاغلى الوظائف العامة العليا فى الدولة يتعاملون مع الأعمال والقرارات التى تعرض لهم من منطلق تفضيل الأعمال أو القرارات سريعة المردود على الأعمال والقرارات بطيئة العائد ، وهو ما من شأنه أن يمضى بالفرد وبالمجتمع فى حالتنا نحو تعطيل الارتقاء ، وتكريس التخلف . وهذا ما يبدو واضحا فى ثنايا المثال الذى قدمته ، مثال التعليم الجامعى وما أصابه من آثار جانبية (غير محسوبة) سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ، ترتبت على قرارات تنشد المردود العاجل ولم تحسب حساب العائد الآجل سواء أكان خيرا أم كان شرا .

وكان من الممكن أن أختار لهذا الحديث مثالا مشكلة أخرى مثل تعاطى المخدرات ، أو ثالثة مثل مشكلة الإسكان ، أو رابعة مثل تلوث البيئة أو خامسة مثل قرار إلغاء الصف السادس فى التعليم الابتدائى ثم قرار إعادته .. الخ ولكنى



قصدت قصداً إلى اختيار قرار مجانية التعليم الجامعي لأنه يجسد نموذجا يمكننا أن نتعلم منه الكثير. ولايعني هذا الحديث الإشارة من قريب أو من بعيد إلى الدعوة لإلغاء مجانية التعليم الجامعي . إنما المغزى الحقيقي لهذا الحديث يتجلى في تقديمه نموذجا للقرارات التي تسعى أساسا إلى تحصيل المردود العاجل دون التدبير المبكر لآليات الصيانة ضد التوابع الضارة غير المرغوب فيها . وفي تقديري أن هذا النموذج من القرارات (والأعمال) هو الغالب في تصريف شئون الدولة عندنا ، وأنه يعتبر واحدا من أهم الآليات المسهمة بنصيب كبير في تعطيل ارتقائنا ، وهو في الوقت نفسه إفصاح بالغ الدلالة عن هذا الارتقاء المعطل.

في ختام هذا المقال ينبغي طرح عدد من الاسئلة حول نموذج القرارات والأفعال التي تتعجل المردود .

ما الذي يدفع البعض إلى تبني هذا الأسلوب بدلا من أسلوب القرارات والأعمال محسوبة العائد البعيد ؟ هل يجوز تفسير هذه الحقيقة تفسيرا نفسيا خالصا بالرجوع إلى نزوع البعض للاندفاع في مقابل نزوع البعض الآخر إلى الروية في التفكير والتدبير والفعل معا ؟ أم أن هذا التفسير يعتبر رأيا ساذجا كما أن إسقاطاته المجتمعية تعتبر مضللة ؟ أظن أن الأمر هنا بالغ التركيب والتعقيد ؛ إذ لابد للإجابة المدققة من أن تحسب حساب المناخ الاجتماعي المحيط بصدور هذه القرارات والأفعال ، هل هذا المناخ يشجع الانفراد بإصدار القرارات أم يشجع طلب المشورة ؟ وهل للتفكير النقدي أي فرصة لأن يرى النور في هذا المناخ؟ ومن هم الذين تطلب منهم المشورة ؟ من هم من حيث التوجه الفكري / الاجتماعي/ السياسي ؟ ومن هم من حيث التطلعات أو الطموحات الشخصية ؟ وهل بين المستشارين من هم خبراء في الموضوع المطروح للمشورة ؟ أم أن الخبراء مستبعدون، وصناعة القرار حكر للسياسيين وحدهم؟

هذه الأسئلة وأمثالها جديرة بأن تطرح للمناقشة ، لأن العواقب المترتبة على هذا المستوى من الأعمال والقرارات (الذي مثلنا له في هذا المقال) لاتقع على المؤدين والمقربين فحسب، لكنها تطال المجتمع بأسره. ومن الواضح أن العالم كله ، بما فيه مصر ، مقبل على مرحلة من تاريخه لاتحتمل ترف الإدارة بأسلوب القرارات المتعجلة ، ولا تحتمل تعطيل مسيرة الارتقاء لأي عضو من أعضاء الأسرة الدولية ، سواء أكان هذا العضو من الصغار أم كان من الكبار. ■

مشروع

الشرق الأوسط الكبير

الأسباب الحقيقية والمزيفة

بقلم
د. جلال أمين

لابد أن تعتري المرء دهشة شديدة ، بعد أن يقرأ سطورا قليلة مما يسمى بمشروع «الشرق الأوسط الكبير» ، الذى طرحته الولايات المتحدة منذ أسابيع قليلة علي مجموعة الدول الصناعية الثمانى ، وسوف تقوم هذه الدول بمناقشته فى مؤتمر يعقد فى يونيو القادم فى الولايات المتحدة .

فطبقا لنص هذا المشروع كما نشرته صحيفة الحياة اللندنية فى ١٣ فبراير ٢٠٠٤ ، يبدأ ذكر ما سمى «بالنقائص» والعيوب العربية ابتداء من السطر الثالث . وبعد فقرة واحدة قصيرة يبدأ هذا المشروع فى تعداد هذه النقائص مثل :

- «مجموع إجمالى الدخل المحلى لبلدان الجامعة العربية الـ ٢٢ هو أقل من نظيره فى إسبانيا» .

- «حوالى ٤٠٪ من العرب البالغين (٦٥ مليون شخص) أميون ، وتشكل النساء ثلثى هذا العدد ..» .

وهكذا تذكر نقيصة بعد أخرى من «نقائص» العرب ، مما يخلق ، طبقا لأول جملة فى المشروع «تحديا وفرصة فريدة

للمجتمع الدولي» .

فرصة لأى شيء بالضبط ؟

للإصلاح طبعا ، والنهوض بهذه البلاد العربية البائسة .

إصلاح أى شيء بالضبط ؟ والنهوض بهم في أي ميدان ؟

في ثلاثة ميادين حددها تقريران صدرا خلال العامين الماضيين عن برنامج الأمم المتحدة للإنماء . يحيل إليهما ويقتطفهما نص مشروع الشرق الأوسط الكبير بين الحين والآخر ، ويؤكد على أن واضعي هذين التقريرين من العرب ، فلابد أن كلامهم عن نقائص بلادهم صحيح ، طبقا للمبدأ الشهير «وشهد واحد من أهلها» . هذه الميادين الثلاثة التي حددها تقريرا برنامج الأمم المتحدة للإنماء المعنونان «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢ ثم للعام ٢٠٠٣» هي :

- الديمقراطية .
- المعرفة
- ما سمي «بتمكين المرأة» ، أي زيادة الفرص المتاحة أمام المرأة ومضاعفة قدراتها .

ولكن مشروع الشرق الأوسط الكبير يعطي أيضا حيزاً لا بأس به لميدان رابع أسماه «توسيع الفرص الاقتصادية» .

★★★

لابد أن يكون أول ما يخطر ببال أي شخص عربي يقرأ نص هذا المشروع لأول مرة ، وبروح محايدة تماما ، هذا الخاطر : «يالها من سخافة ورزالة ! إذ ما شأنكم بنا وما الذى دعاكم للتدخل فى شئوننا ؟

هل شكونا لكم من حال الديمقراطية والمعرفة وأحوال المرأة عندنا ، وهل طلبنا منكم المساعدة في النهوض بها ؟» .

وكلما فكر المرء فى الأمر ازداد غيظا

فأولا : هذه الأحوال التى يشكون منها ، أيا كان تقييمنا وتفسيرنا لها ، قديمة جدا ، ولم يجد فيها جديد . فحالة الديمقراطية والمعرفة والمرأة ، والتنمية أيضا ، حالة قديمة تعود إلى عدة عقود إلى الوراء ، بل وربما عدة قرون . فما الذى يجعلكم تهتمون بإصلاحها فجأة وفى هذا الوقت بالذات ؟

وثانيا : إن علاقاتنا السياسية والاقتصادية الوثيقة بكم (أى بالولايات المتحدة) قديمة جدا بدورها . ففى مصر تعود هذه العلاقة الوثيقة إلى منتصف السبعينات ، منذ حل الرئيس الأمريكي نيكسون ضيفا على مصر وأعلنت مصر سياسة الانفتاح الاقتصادى ، وبدأت محادثات فك الاشتباك مع اسرائيل ، وعادت العلاقة الحميمة كذلك (وبمباركة من الولايات المتحدة) بين مصر والمؤسستين الماليتين الشهيرتين : البنك الدولى وصندوق النقد . ومنذ ذلك الحين تدفقت المعونات والقروض من هاتين المؤسستين ومن حكومة الولايات المتحدة على مصر . فلماذا لم تشتكوا من وجود

كل هذه النقائص قبل الآن ؟ وقد كان من أسهل الأمور عليكم أن تلفتوا النظر إليها ، ولو برفق ، بل وأن تلمحوا من بعيد إلى أن استمرار هذه العلاقات الوثيقة معكم ، واستمرار معوناتكم لنا يتوقفان على تحقيق هذه الاصلاحات . فلماذا لم تفعلوا ذلك ، وقد كان من المؤكد أن تكون له آثار إيجابية للغاية ؟

أما الدول العربية الأخرى ، فكثير منها كان على علاقات وثيقة وحميمة أيضا (ولا يزال) بالولايات المتحدة حتى من قبل مصر ، بما فى ذلك دول الخليج كلها (بل وحتى العراق فى ظل العشرين سنة الأولى على الأقل من حكم صدام حسين) فلماذا الغضب المفاجيء الآن ؟

★★★

الشيء الوحيد الذى ورد فى هذا المشروع ويمكن أن يتصور كتبرير لهذا التدخل الآن هو أن هذه الأحوال السيئة فى البلاد العربية هى التى أنتجت ظاهرة الإرهاب العربى والإسلامى، وأن هذا الإرهاب يهدد أمنكم وأمن الأوربيين كما اتضح من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، ومن ثم فلابد من تدخلكم لإصلاح الأحوال حتى تضعوا حدا لهذا الإرهاب ولا يتكرر ما حدث فى ١١ سبتمبر . هذا هو معنى العبارة التى وردت فى نص مشروع الشرق الأوسط الكبير التى تقول

«ساهمت النواقص الثلاث التى حددها الكتاب العرب لتقريرى الأمم المتحدة حول التنمية البشرية للعامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ - الحرية والمعرفة وتمكين النساء ، فى خلق الظروف التى تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الثمانية . وطالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فى المنطقة ، ستشهد زيادة فى التطرف والارهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة» .

هذا الزعم بأن الغرض من مشروع الشرق الأوسط الكبير أو أحد أغراضه، القضاء على الإرهاب من نوع ما حدث فى ١١ سبتمبر ، غير مقنع البتة لأكثر من سبب .

هناك أولا الشك فى أن ما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ هو بالفعل نتيجة إرهاب إسلامى عربى ، وهو ما لم يقم عليه دليل قاطع حتى الآن . إن هناك شكوكا قوية عبر عنها كتاب عديدون ، ليسوا فقط من العرب بل ومن الأوربيين والأمريكيين ، فى أن ما حدث فى ذلك اليوم حدث بأيد أمريكية أو على الأقل بمساعدة أيد أمريكية أو عرف به أمريكيون قبل حدوثه وسكتوا عليه . وقد كانت هذه الشكوك من القوة وتستند إلى أدلة دامغة بحيث أدت بالإدارة الأمريكية إلى وضع قيود شديدة على التعبير عن هذه الشكوك وتهديد أى شخص تسول له نفسه الخوض فيها . (مما يجعلنا أيضا نشك فى إخلاص الإدارة الأمريكية لقضية نشر «المعرفة») .



ولكن دعنا من هذا ، ولنفرض جدلا أن ما حدث فى ١١ سبتمبر هو بالفعل نتيجة إرهاب عربى إسلامى . ولنفرض أيضا أن ما يسمى بالإرهاب العربى الإسلامى هو حقا ظاهرة مستقلة عن أى تدخل أجنبى ، وليس من صنع أو نتيجة دعم ومساعدة من أجهزة مخابرات خارجة عن العالم العربى والإسلامى ، قدمت له هذا الدعم فى البداية بغرض الإطاحة بالنظام الشيوعى ، ثم استمرت تستخدمه لأغراض أخرى مستجدة من أمثال «مشروع الشرق الأوسط الكبير» . لنفرض أيضا أن هذا «الإرهاب العربى الإسلامى» ظاهرة إسلامية عربية خالصة ، تعمل بوحى من مصادر عربية وأنبتتها تربة عربية . حتى لو افترضنا جدلاً هذا وذاك ، فبلازال القول بأن الإرهاب هو نتيجة هذه النقائص العربية الثلاث فى الحرية والمعرفة وتمكين المرأة ، قول غير مقنع البتة لعدة أسباب .

أولا : أين هو ذلك التحليل العميق الذى أجريتموه وبين على وجه قاطع أن سبب الإرهاب هو نقص الديمقراطية أو نقص المعرفة أو سوء أحوال المرأة ؟

إن الارهاب الذى تشكون منه هو إرهاب موجه إليكم أنتم ، فما الذى يضمن لكم أن حكومة عربية ديمقراطية وتعبر عن مشاعر وآمال شعبها تعبيراً مخلصا ، لا تمارس هى نفسها أعمالا إرهابية ضدكم ، أو تشجع بعض الأفراد على القيام بمثل هذه الأعمال ؟

انظر مثلا إلى حكومة كالحكومة الإيرانية التى أتت بها فى ١٩٧٩ ثورة شعبية فى إيران ، وكانت تتمتع بتأييد ساحق من الشعب الإيرانى . ألم تصدر فى ظلها فتوى من الإمام الخمينى بإباحة دم الكاتب البريطانى «سلمان رشدى» لتأليفه رواية اعتبرت معاديه للإسلام ؟ يبدو إذن أن استتباب النظام الديمقراطى فى بلد لا يكفى للقضاء على أعمال الإرهاب فى بلد آخر .

أما نقص المعرفة كسبب للإرهاب ، فما رأيكم فى هؤلاء الشبان العرب الذين تزعمون أنهم قادوا الطائرات التى فجرت برجي نيويورك الشهيرين ووزارة الدفاع الأمريكية ؟ ألم يبلغوا غاية التفوق فى العلم والمعرفة بحيث استطاعوا قيادة طائرات وسيطروا على أجهزة على درجة عالية من التعقيد ؟ المهم ، ألم يثبتوا أن التطرف والإرهاب لا يتعارضان مع درجة عالية جدا من «المعرفة» ؟ أم أنكم تقصدون بالمعرفة شيئا آخر مثل المعرفة بالآداب العالمية والإنسانيات ؟ فلماذا لم توضحوا هذا الأمر إذ أن إحراز تقدم فى هذه الأمور الأخيرة أمر أسهل كثيرا من غيره ؟

وأما سوء أحوال المرأة العربية كسبب من أسباب الإرهاب ، فما رأيكم فى هؤلاء الفتيات والسيدات الفلسطينيات اللاتى تعدوهن طبعا فى

عـداد الارهـابيين ، واللاتى فـجـرن أجسادهن استشهاداً وغضباً لحقوق قومهن وأملا فى أن يكون الاستشهاد مهرا لاستعادة فلسطين ؟ ألم تكن هؤلاء السيدات والفتيات على درجة عالية من التعليم واستقلال الرأى والثقة بالنفس ، ومع ذلك ، أو بسبب ذلك ، قمن بهذه العملية التى تعتبرونها قمة الأعمال الإرهابية ؟ فهل حقا يتعارض النهوض بأحوال المرأة مع ما تخشون منه من «إرهاب» أم أنكم تقصدون بالنهوض هنا نهوضا من نوع خاص جدا ؟

★★★

الأقرب إلى العقل إذن أن الدواعى الأساسية للإرهاب والتطرف نتجت ، لا عن سوء أحوال الديمقراطية والمعرفة والمرأة فى بلادنا ، بل عن العلاقة الوثيقة بيننا وبين الولايات المتحدة وطبيعة هذه العلاقة ، من ناحية ، وعن موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية واسرائيل من ناحية أخرى، هذا إذا افترضنا أن ما يسمى بالإرهاب هو حقا إرهاب «عربى إسلامى» جاء من وحى أشخاص عرب ومسلمين يفكرون ويعملون باستقلال عن أى تدخل خارجى . فإذا صح هذا التشخيص فإن مشروع «الشرق الأوسط الكبير» من شأنه أن يزيد من احتمالات الإرهاب بدلا من أن يقللها ، إذ أن هذا المشروع من شأنه أن يزيد العلاقة بيننا وبين الولايات المتحدة قوة ويزيدها تبعية ، وسوف يسمح ، فيما يبدو بمزيد من المعاملة غير العادلة للفلسطينيين ، إذ أن ذكر قضيتهم وسوء معاملتهم لم يرد أصلا فى المشروع ، بل إن الدولة الوحيدة ، من بين دول الشرق الأوسط الكبير كله ، التى حظيت فى نص المشروع بكلمة طيبة واحدة هى إسرائيل .

وثانيا : فلنفرض جدلا أن نظاماً أكثر ديمقراطية وأكثر اهتماما بالتعليم والمعرفة وأكثر احترامات للمرأة سوف يقضى على الإرهاب . فكم يحتاج هذا الأمر من الزمن يا ترى ؟ إن هذه الأمور كلها بطيئة الأثر بطبيعتها ، ولا تحدث نتائجها الطيبة إلا فى المدى الطويل . فهل أنتم حقا مستعدون للصبر على الإرهاب كل هذه الفترة ، أم أن هناك طرقا أسرع جدا وأكثر فعالية للقضاء على الإرهاب ، وهى وضع حد للإرهاب المضاد ، كالإرهاب الاسرائيلى فى فلسطين مثلا ، أو الإرهاب الأمريكى فى العراق ، أو كليهما معاً ؟

وثالثا : إذا كانت هذه الاصلاحات الثلاثة وأمثالها هى الكفيلة حقا بالقضاء على الإرهاب كما تفهمونه وتعرفونه ، فلماذا يا ترى لم تفعلوا شيئا بشأنها طوال الثلاثين عاما الماضية (أو أكثر) وهى فترة كان لكم فيها (ولا يزال) نفوذ كبير فى معظم البلاد العربية ، وكان باستطاعتكم بقليل من الجهد ، وبدون تهديد بالضرب والاحتلال ، أن تجعلوا النظم العربية أكثر ديمقراطية والتعليم

أكثر انتشاراً والمرأة أكثر تحررا ؟ خاصة وأنه طوال هذه الثلاثين عاما كانت هناك بوادر وعمليات كثيرة تشبه العملية الإرهابية الأخيرة في نيويورك مثل ما حدث من اعتداء على السياح أو الأقباط في مصر ، ومن تفجيرات في الكويت والسعودية .. الخ

***

إذا كانت كل هذه التساؤلات والشكوك في محلها فلا بد أن يكون لرفع شعارات الإصلاح الأخيرة ، بما في ذلك مشروع الشرق الأوسط الكبير، أهداف أخرى لا علاقة لها بالإصلاح ، من بين هذه الأهداف الأخرى ، السيطرة على نفط العراق مثلا ، والاستئثار بمجالات الاستثمار والتسويق (ليس في العراق فقط بل وفي سائر بلاد الشرق الأوسط الكبير) على حساب أوربا والدول الصاعدة بسرعة في شرقي آسيا وعلى رأسها الصين ، وإعادة ترتيب المنطقة العربية لصالح إسرائيل ، ذات الصلات الحميمة مع حكام البيت الأبيض وفي سبيل تحقيق مثل هذه الأهداف التي تتعارض مع مصالح العرب ، لا بأس من استخدام مثل هذه الشعارات الجميلة التي تبدو وكأنها تحقق مصالح العرب ، كالديمقراطية والمعرفة وتمكين المرأة والتنمية . فرفع شعار الحرية والإصلاح الديمقراطي مثلا يسهل مهمة احتلال العراق ومن ثم وضع اليد على آبار النفط . وتغيير مناهج التعليم باسم إصلاح حال المعرفة والنهوض بالمرأة ، يسهل مهمة تطويع التلميذ العربي لقبول التعاون مع إسرائيل . وإنشاء قنوات تليفزيونية بتمويل أمريكي باسم إصلاح حال المعرفة والإعلام ، يساعد على تطويع المستهلك العربي وتدريبه على استهلاك سلع أمريكية وإسرائيلية . وإنشاء بنك للشرق الأوسط باسم التنمية ، الذي ورد ذكره في نص مشروع الشرق الأوسط الكبير ، يسمح بإشراك إسرائيل في توزيع واقتسام إيرادات النفط العربية وما قد يرد إلى المنطقة العربية من معونات خارجية .. الخ

لا عجب إذن أنه بينما لا يشمل نص المشروع من النقد والاتهامات إلا النقد والاتهامات الموجهة للدول العربية دون غيرها ، يقدم المشروع على أنه مشروع «للشرق الأوسط الكبير» ، وكأن الهدف هو ضم شمل الغنيمة على مغتنمها ، أي تهيئة الفرصة لتقديم الفريسة ، وقد تم إخضاعها ، لتلك الدولة التي أصبحت مستعدة تماما لإكمال عملية الافتراس .

***

عندما وصلت خواطري عن مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى هذه النقطة تذكرت المنشور الذي وزعه نابليون بونابرت على المصريين لدى قدومه لاحتلال مصر في ١٧٩٨ ، وتذكرت أن بين مضمون هذا المنشور شبها بما

تضمنه مشروع الشرق الأوسط الكبير، رغم مرور قرنين بين المنشور الفرنسى والمشروع الأمريكى .

فعدت اقرأ نص منشور نابليون كما ورد فى كتاب الجبرتى ، فإذا بى أجد من أوجه الشبه أكثر مما كنت أتوقع .

لقد بدأ منشور نابليون بداية ورعة للغاية ، فيقول مطلعه :

«باسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد ولا شريك له فى ملكه» ثم قدم نابليون نفسه إلى المصريين على أنه نصير للديمقراطية والمساواة:

«من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته» . ثم قدم تبريرا لمجىء الجيش الفرنسى إلى مصر قريبا جدا من تبرير الأمريكيين لمشروع الشرق الأوسط الكبير الذى يذكر .

«التطرف والإرهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة» . باعتبارها «ظروفا تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الدول الثمانى» أما منشور بونابرت فيعبر عن هذا التبرير بالطريقة الآتية :

«من زمان مديد ، السناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى» .

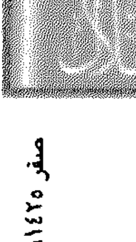
(وقد لاحظت هنا ركاكة اللغة العربية التى كتب بها المنشور ، ورجحت أن سببها هو أن المنشور لابد كتب بالفرنسية أولا ثم طلب من أحد المصريين ترجمته ، وهو ما ذكرنى بركاكة الكثير من العبارات العربية الواردة فى تقريرى التنمية الإنسانية العربية اللذين استند إليهما نص المشروع الأمريكى وتكرر اقتطافه منهما ، مما رجحت معه عندما قرأتهما أن هذه الأجزاء من التقريرين لابد أن كتبت بالإنجليزية أولا) .

ثم يمضى المنشور ليعد المصريين بالتقدم والازدهار فى ظل الحكم الفرنسى ، مما ذكرنى بالكلام عن التنمية والتقدم فى ظل مشروع الشرق الأوسط الكبير . فيقول المنشور :

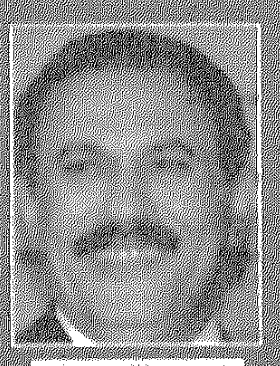
«من الآن فصاعدا» لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة» ..

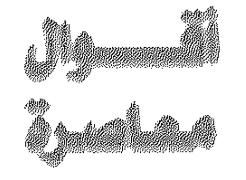
ولكن منشور بونابرت لا ينسى أن يقرن الوعد بالوعيد ، مثلما يفعل الأمريكيون الآن بالضبط ، إذ يوجهون تهديداتهم بين يوم وآخر لحكومات «الدول المارقة» التى لا تستجيب لنداء «الإصلاح» . فيقول منشور بونابرت :

«المادة الثانية : كل قرية تقوم على (أى تقف ضد) العسكر الفرنساوى ، تحرق بالنار» ■




د. علي جمعة


علي عبدالله صالح




بنازير بوتو


بيل كلينتون

● « من علامات فساد الزمان، الإفتاء بغير علم».

الدكتور على جمعة – مفتى الديار المصرية

● « أنا مجرد عسكرى فى لعبة شطرنج كبيرة» .

سامنتا مورتون
الممثلة الإنجليزية التى جرى ترشيحها لأوسكار مرتين

● « مهمة الكاتب ، حتى وإن كانت عسيرة، إزالة الغشاوة» .

الكاتب السودانى
محمد إبراهيم الشوش

● « تمجيد التدخين فى أفلامى لطخ يدى بالدماء، وأصابنى بالسرطان » .

من اعترافات جو استرهار – كاتب السيناريو الأعلى سعرا فى هوليوود وصاحب سيناريو – الغريزة الأساسية

● « الديمقراطية سيئة. ولكن أسوأ منها عدم وجودها » .

رئيس جمهورية اليمن على عبدالله صالح

● « أمريكا تعطيك الفرصة للتنقيب فى عقلك » .

د . يامينى ناريانان – هندية حاصلة على درجة دكتوراه من جامعة أوكلاهوما

● « الرغبة فى الإصلاح ليست جديدة، إنها تعود إلى القرن التاسع عشر عندما اتصلنا بأوروبا، وأدركنا مدى تخلفنا » .

الكاتب العراقى خالد القشطينى

● « أشعر باليتم وضياع الطريق والهوية » .

الكاتبة الفلسطينية – سمر خليفة

● « الجنرالات لا يخضعون للمحاسبة، فيما يؤخذ المدنيون ككباش فداء لأخطاء العسكريين » .

بنازير بوتو – رئيسة وزراء باكستان الأسبق وزعيمة حزب الشعب – الباكستانى المعارض

● « البشر لا يحتاجون إلى الجذور ، مقدار حاجتهم إلى الأصول » .

أمين معلوف – الأديب المنحدر من أصل لبنانى

● « الوقوف فى وجه التقدم ليس ممكنا » .

الشيخة سبيكة بنت إبراهيم آل خليفة
عقيلة عاهل البحرين

● « عندما نفكر نربح، عندما نستعمل عواطفنا يربحون هم » .

من قول للرئيس الأمريكى السابق– بيل كلينتون فى أثناء الحملة الانتخابية

ليس هكذا يتم الاحتفال

بـ طه حسين !

بقلم
د. محمد رجب البيومى

الدكتور طه حسين مفخرة من مفاخر الأدب العربى المعاصر، فقد ترك من الآثار الأدبية القيمة ما أحدث دويا بين النقاد، وكانت له جرأة تدفعه إلى الجهر أحيانا بما لا يرضاه الكثيرون، وهو يرحب بعدم الرضا، ويعده دليلا على اليقظة والاستقلال، ومن طبيعة الرجل الكبير أنه لا يصبر على مراجعة آرائه حين تسنح فى خاطره ، بل يسارع إلى تسجيلها فى مقال عاجل يشغل القراء، أو فى كتاب ثائر يظن أنه سيبعث الضجيج الذى يرحب به كثيرا كثيرا، وهو يعترف بهذه العجلة فى التأليف والنشر ويسجلها فى مقدمات كثير من كتبه، فهو يقول فى مقدمة كتابه (من حديث الشعر والنثر) من لى بالوقت الذى يمكننى من إعادة النظر فى كلام مضت عليه أعوام، ومن لى بفراغ البال الذى يتيح لى أن أفكر فيما قلته أمس وأنا رجل مضطر دائما إلى أن أفكر فيما أقوله اليوم أو غدا.



ويقول فى مقدمة كتاب «حديث الأربعاء» كنت أرجو أن تتيح لى الأيام شيئا من فراغ البال يمكننى من النظر فى هذه الفصول وتهيئتها للجمع والنشر، ولكن الأيام لم تتح لى ما كنت أرجو وما أحسب أنها ستتيحه لى قبل أمد بعيد.. ومعنى ذلك كله أن على قارئ الدكتور إذا أراد أن يستند إلى رأى أذاعه ، أن يحاول استقصاء ما كتب فى هذا المجال، فربما يكون قد تعجل القول فى أمر فأتى بما هو موضع للنقد، ثم عن له أن يصحح ما قاله، فكتب ما يناقض قوله السابق، وهذا ما حدث كثيرا فيما قرأته من آثار الكاتب الكبير، ولا معابة عليه فى ذلك، ولكن الذى يوجه إليه النقد من اقتصر على رأى سابق للدكتور وعده موضع حكمه، فأطلع قارئه أو سامعه، على ما يجب تصحيحه والتعقيب عليه، لا سيما إذا كان موضع الخلاف جوهرياً تترتب عليه نتائج حاسمة لا تقبل التردد والارتياب، وأى مسألة أقوى خطراً، وأبلغ أهمية، من رأى للدكتور فى عروبة مصر ومكانتها من الأمة العربية فقد أسلف الدكتور فى هذه القضية ما كان موضع النقد الصارم من كبار الدارسين، ثم مضت الأيام، فعاود الدكتور بحثه متأملاً فاحصا، حتى اهتدى إلى خطئه فيما قرر، وكتب ما ثبتت له صحته بعد التأمل والتدبير! أفيجوز إذن لبعض الفضلاء الذين تحدثوا فى ندوة أدبية عن طه حسين أن يعتمد على الرأى السابق وحده، وأن يعده سدرة المنتهى التى اطمأن إليها الأديب الكبير؟ فيظلمه بذلك ظلماً بينا لا لبس فيه! وما أمثل لذلك إلا بمثال من يكتب سيرة تاريخية لخالد بن الوليد سيف الله المسلول، فيتحدث عن عدائه للدعوة الإسلامية فى أول أمره، ثم يفيض فى مواقفه العدائية للإسلام فى غزوة بدر، وفى هجومه الصارخ على المسلمين فى أحد حيث قلب بهذا الهجوم ميزان المعركة تماما! ويقف بالقول عند ذلك تاركاً الصفحات البيض التى سجلها خالد بعد إسلامه فكانت غرة فى جبين الفتح الإسلامى ! أئذا فعل ذلك من تعرض لسيرة خالد، أفيكون مصيبا أم غير مصيب؟

بعد ثلاثة عقود !

أقامت لجنة الدراسات الأدبية والنقد، بالمجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع كلية الآداب قسم اللغة العربية ندوة موسعة استمرت يومين تحت عنوان (طه حسين بعد ثلاثة عقود) وقد دارت بحوث شتى فى محيط طه حسين يهمنى منها الآن التعقيب على متحدث فاضل قرر أن طه حسين يرى مصر ترتبط بثقافة البحر الأبيض دون ارتباطها بالثقافة العربية، وهذا ما أكده طه حسين فعلاً، وألح على تقريره فى كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) وقد قوبل حينئذ بنقد عاصف من كبار المثقفين أذكر فى طليعتهم المفكر العربى الكبير الأستاذ ساطع الحصرى، حيث أفرد عدة مقالات قوية لدحض هذا الزعم، ولم يجب الدكتور بشىء ما على ناقديه، حيث كان من ديدنه أن يلقى بالحجر الثقيل فى الماء ليحدث دويا يأخذ الأسماع، ويقرأ ما كتب دون أن يرد إلا إذا كان محاوره عباس العقاد أو المازنى أو هيكل، فهؤلاء الثلاثة كان طه لا يجرؤ على إغفال قولهم ، لما يعرف من تأثيرهم الأدبى لدى القراء، ثم أجمعت الأمة بعد عشرين عاما على ضرورة الوحدة العربية. ورأى الدكتور أن يبارك هذا

الاتجاه فألقى خطبة رنانة في مؤتمر أدباء العرب المنعقد في القاهرة ابتداء من ١٩٥٧/١٢/١٥، وحضره ممثلون عن أدباء لبنان وسوريا والعراق والكويت والبحرين واليمن والسودان وتونس والمغرب وليبيا والأردن والجزائر وفلسطين، هذه الخطبة نسخت كل ما قاله في كتاب مستقبل الثقافة في مصر، وأعادت الدكتور طه إلى عروبته الأصيلة زائدا عنها ، مبتهجا ببعثها الواقعي بعد أن كانت حلما يتردد في النفوس الرائدة، وكان على الباحث في ندوة المجلس الأعلى أن يلتفت إلى ذلك، في هذا الوقت بالذات، لأن أقلاما غير مسئولة أخذت تتنكر لعروبة مصر، وترسل من النفثات المريضة في الصحف المأجورة ما يزعج المخلصين من أبناء الوطن العربي، وهؤلاء في رأيي لا يكتبون عن عقيدة، ولا يثبتون على رأى لأن ذبذبتهم الفكرية تحول دون ثباتهم الواعي، كان على الباحث أن يظهر تراجع الدكتور عما قرره من قبل، بدل أن يعطي هؤلاء المندفعين اسما كبيرا يصولون به، هو اسم الدكتور طه حسين، ومهما يكن من شيء فالحق لا يعرف بالأشخاص، ولكن يعرف بالمنطق لدى الصيال!

مناقشات جوهرية

ليس من المعقول أن أعرض في مقال متواضع ، كل ما ساقه الدكتور طه حسين من شبهات حول عروبة مصر، وأعقب عليها بما فنده الكبار من أخطاء وقع فيها الدكتور متسرعا كعادته دون أن يلوذ بالاتئاد، ولكني أكتفي بثلاث نقاط ذكرها الدكتور، وأختار الرد عليها من نقدات من تعرضوا لها بالتوهين، ومن مقارنة الشبه العائمة بالإجابات المقنعة ينجلي الحق دون ضباب.

١- يقول الدكتور طه «إذا أردنا أن نلمس المؤثر السياسي في تكوين الحضارة المصرية وفي تكوين العقل المصري، وإذا لم يكن بد من اعتبار البيئة في تقدير هذا المؤثر، فمن اللغو ومن السخف أن نفكر في الشرق الأقصى أو الشرق البعيد، ومن الحق أن نفكر في البحر الأبيض المتوسط وفي الظروف التي أحاطت به، والأمم التي عاشت حوله، وإذن فالعقل المصري ليس مثلا شرقيا إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وقد نشأ هذا العقل المصري متأثرا بالظروف التي أحاطت بمصر، وعجلت في تكوينها، ثم نما في أوربا، وأثر في الشعب المصري من الشعوب المجاورة وتأثر بها، وكان من أشد الشعوب تأثرا بها العقل المصري وتأثيرا فيها العقل اليوناني» .

هذا القول الذي يجعل الشرق محصورا في اليابان والصين والهند ويهمل إهمالا تاما البلاد العربية المجاورة ومنها مشرق الإسلام في الجزيرة قد فطن إلى فساده الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقال في الرد عليه «إن وضع المسألة في هذا الموضع تتجلى فيه مهارة الدكتور في المناقشة فقد قسم الدنيا قسمين اثنين لا ثالث لهما، قسم تمثله الصين واليابان وإن شئت فضم إليهما الهند وإندونيسيا وقسم تمثله فرنسا وانجلترا، وإن شئت فضم إليهما كل دول أوربا وأمريكا، ولابد حينئذ أن تكون مصر أمة غربية لأنها تفهم الانجليزي

والفرنسى أكثر مما تفهم الصينى والياباني، ولكن لا ريب نجد وجه المسألة يتغير لو كان الشرق الذى سيواجهك به غير الصين واليابان، أى لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثله الشرق العربي والمغرب العربي، ومصر بينهما حلقة اتصال» .

٢ - ويقول الدكتور طه «ليس من الشعوب التى نشأت حول بحر الروم فرق عقلى أو ثقافى، وليس بيننا وبين الأوربيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج »

فيرد عليه الأستاذ الكبير ساطع الحصرى قائلا:

لا أدرى كيف يستطيع أحد أن يدعى ذلك بصورة جدية، فإن الفروق فى الطبع والمزاج من الأمور التى تشاهد على الدوام بين الأمم الأوربية نفسها، وهى تبدو للعيان بين الانجليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى، حتى بين الشمالى والجنوبى من الفرنسيين والشرقى والغربى من الألمان والسهلى والجبلى من الطليان وبين الريفى والمدنى والصانع والتاجر والمثقف والعامى من هؤلاء، فكيف يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه، انى أميل إلى أن الدكتور طه لم يكتب هذه العبارة عن تأمل واقتناع» .

٣ - يقول الدكتور طه «إن الإسلام لم يغير العقل المصرى، ولم يغير عقل الشعوب التى اعتنقته بل إن الإسلام قد مد سلطان العقل اليونانى وبسطه على بلاد لم يكن زارها إلا لماما، وإذا كانت أوربا لم تتأثر عقليا بالإنجيل فإن مصر لم تتأثر بالقرآن»،

فيقول الدكتور زكى مبارك ردا على ذلك:

حديث الأربعاء ١

«وإن الديانات تفترق وتجتمع، ولكن هذا لا يمنع من أن هناك خصائص للعقلية المسيحية والعقلية الإسلامية، وهذه الخصائص تخفى على العوام ويدركها الخواص، وكيف لا توجد هذه الخصائص بين دينين مختلفين مع أننا نعرف أن هناك خصائص متعددة فى الدين الواحد. إننا نعرف أن للكاثوليكية خصائص وللبروتستانتية خصائص، وإننا نعرف أن للعقلية الشيعية خصائص، وللعقلية السنية خصائص، فكيف جاز لك يا سيدى أن تتوهم أن الإسلام لم يغز العقلية المصرية بتغيير وتبديل.

إن الموجة الإسلامية التى طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين والتى قضت بأن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد، هذه الموجة العاتية لا يمكن أن يقال بأنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية، والعقلية الإسلامية هى شئ غير العقلية اليونانية بلا جدال» .

هذا قليل جدا، لا يمثل واحدا فى المائة مما كتبه كبار النقاد فى نقد آراء الدكتور طه فى مستقبل الثقافة، ويكفى أننى أثرت شهية القارئ الدارس فى

تتبع هذه الآراء تتبعا بصرا وقد كانت مجلات الرسالة والثقافة ودار العلوم في سنة ١٩٣٩ مسرحا لهذه الآراء، وكانت بحقائقها الصادمة سببا في تعديل جوهري لهذه الآراء، قام به الدكتور طه حسين حين ألقى خطابه الحافل في افتتاح مؤتمر الأدباء العرب سنة ١٩٥٨م، ومن الحظ الحسن أن مجلة المجلة الصادرة بتاريخ يناير سنة ١٩٥٨، قد نشرت خطاب الدكتور في صدر العدد منوهة به، كما أن الجزء الأخير منه قد قرر على طلبة المدارس الثانوية في درس النصوص فصار مشتهرا على أوسع نطاق، وفي هذا ما يدل على اتجاه حميد للدكتور، وشجاعة فائقة في الرجوع إلى الحق، وأذكر أن الدكتور حسين فوزي رئيس تحرير المجلة قد أثنى ثناء طيبا على خطاب الدكتور، وقال في المقدمة التي يفتتح بها المجلة كل شهر «أنا لا أتهم بالغلو، ولا أرمى بالتحيز عندما أقول إن خطيبا من خطباء المؤتمر وقف يمثل عندي العروبة في أعمق معانيها وأقومها ألا وهو الدكتور طه حسين» ولعل القارئ قد اشتاق إلى أن يقرأ بعض ما قال الدكتور إذ ذاك فأسوق إليه هذه الفقرات:



لقد تحدث الدكتور طويلا عن أثر الأدب العربي في نهضة الأمة العربية، وعن أثر الدين الذي كان هو العامل الأول أو المؤثر الأول في انتشار العرب خارج جزيرتهم ثم في تكوين هذه الأمة الجديدة ومن المحقق أن البلاد التي يتألف منها العالم العربي الحديث لا يمكن أن تكون مؤلفة حقا من عناصر عربية خالصة، وإنما هي عربية بلغتها، عربية بشعورها وعقلها ووجدانها وعربية بدينها سواء كان هذا الدين إسلاما أو نصرانيا، هي عربية بهذا كله، آثرت العروبة على غيرها وأصبحت أمة عربية جديدة كونها الإسلام، وكونها دون إكراه أو إجرام أو عنف ثم قال الدكتور ما نصه.

«إذا كان الأدب قد أدى واجباته إلى الآن فينبغي أن يؤدى هذه الواجبات في تقوية القومية العربية، وتكوين هذه الوحدة العربية التي ورثها العرب عن أسلافهم وعن آبائهم الأول، تكوين هذه الوحدة التي أضاعتها الأحداث والخطوب، يجب أن تعود وأن تتم، ويجب أن تكون الأمة العربية واحدة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وأن يكون العرب كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وألا يذهب العرب هذه المذاهب المتفرقة، قوم يخلصون للفكرة العريقة، وقوم يخلصون ببعض قلوبهم، ولا يخلصون بها كلها، كل هذا يجب أن يزول والوحدة العربية يجب أن تتحقق، وليس إلى تحقيقها الصحيح من سبيل، إلا أن ينهض بها الأدباء فهم بناة القومية العربية، وهم الحفظة عليها، على نموها وقوتها، وعليهم ألا يريحوا أو يستريحوا حتى يتم تكوين هذه الوحدة، وحتى تمضي الأمة العريقة في طريقها إلى الحياة الراقية المجيدة السعيدة» .

هذا الكلام الرائع رد حاسم على كل ما قاله من قبل، وهو بتدفقه الجياش، وبحرارته الدافئة ينبئ عن إخلاص أكيد للوحدة العربية، وإيمان بمستقبلها إذا سلكت النهج القويم. ■

لغويات

لا أبا لك ١-٢

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

تعرف اللغة العربية ألوانا من الجمل المسكوكة، ضاربة في القدم، نلتقي بها في الشعر القديم، الجاهلي والعباسي، تروى كما هي، ونستخدمها تقليدا، وتجهل نحن، والذين سبقونا، السياق الذي قيلت فيه، وتاريخ التركيب، فيغم علينا فهم معناها بدقة، ويصعب تحديد المراد منها، ولم يشغل جامعو الشعر قديما، وشراحه، وعلماء النحو، أنفسهم بتفسيرها وبيان معناها، وإن شغلوا بإعرابها، وبيان أوجه الخلاف فيه من هذه الجمل تعبير: لا أبا لك.

يقول زهير بن أبي سلمى، وهو شاعر جاهلي:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا - لا أبا لك - يسأم

إلى من يتوجه زهير بالخطاب : إلى نفسه على طريقة الالتفات أم إلى غيره؟ وماذا يعني بقوله: «لا أب له »؟ يمدحه أم يذمه أم يعاتبه، أم يريد شيئاً آخر لم يفصح عنه؟

لم يقل لنا ثعلب صانع ديوان زهير وشارحه شيئاً، واكتفى بأن يذكر: «قوله لا أبالك يلوم نفسه»، ولكن يلوم نفسه على ماذا، لم يفصح ونحن لا ندري..

وفسر التركيب الأعلم الشنتمرى، وهو أندلسي، في شرحه المعلقات فقال: «إنها كلمة تستعملها العرب في تضاعيف كلامها عند الغلظة والجفاء وتشديد الأمر»، ويقف عند هذا الحد، ويبقى كلامه مرسلا يحتاج إلى فضل بيان وتحديد، فهذا التفسير يصلح لاستخدام بشار بن برد لها حين يقول:

أعمى يقود بصيرا - لا أبا لكم
ضلّ من كانت العميان تهديه

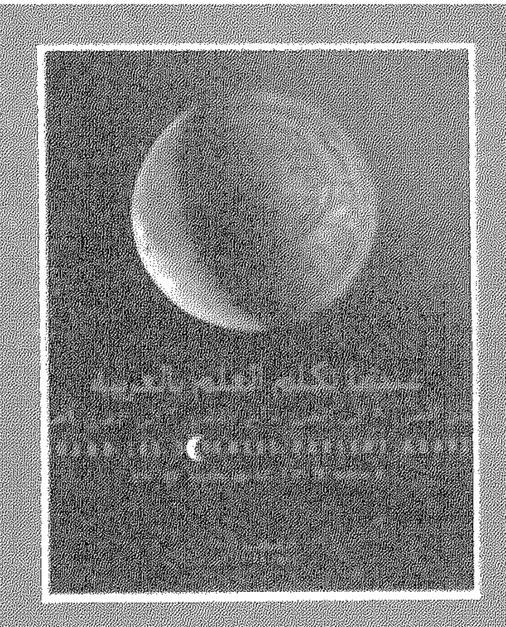
ولكنه لا يصلح لتفسيرها في بيت زهير السابق أو في بيت عنترة حين يقول:

فاقنى حياءك - لا أبا لك - واعلمي
أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

لم يقتصر استخدام التركيب على الشعر، وإنما انتقل إلى النثر، ونلتقي به في بعض الأحاديث النبوية، وقد راج، وأصبح مثلا، يقال لمن له أب فعلا، ولمن ليس له أب، وحين دققت النظر في جملة من هذه التراكيب رجحت عندي معان ثلاثة تفوح منها، حسب السياق: التعجب والحث والزجر. ويكون القصد في الأول وصف من يتجه إليه الخطاب بأنه عصامي لا كفيل له، بنى نفسه بنفسه، ودلالته على المعنيين الآخيرين واضحة، يكون معها لونا من النهر أو التهديد أو الدعاء عليه، أو للغلظة والجفاء وتشديد الأمر كما قال الأعلم الشنتمرى . وقياسا على هذا التعبير قيل، على قلة، لا أم لك، وفي هذه الحالة تكون للذم فحسب!

لقد شغل العلماء أمر إعراب الجملة عن معناها، وهو ما سنعرض له في حديث تال:

«للحديث بقية» ■



هل يتكلم العلم بالعربية مرة أخرى؟ سؤال الآتي يخرج من رحم الماضي!

بقلم
د. فيصل الحفيان

- العلم العربي رحلة استثنائية للعقل الإنساني مع المعرفة
- عناق بين التجريد والتجريب والملاحظة والتقنين والعلم والفن
- مغامرة فرنسية في تاريخ العلم العربي
- دروس المغامرة: صرخة في أذن الأنا الذاهل وصفعة للأنا الحاقد
- لغة راقية للتعارف والاعتراف والكشف والاكتشاف

سؤال كبير لا تكفي للإجابة عنه مقالة، ولا حتى كتب. وقد رأيتني أميل إليه على الرغم من أن السطور الآتية هي عن تظاهرة كبيرة شهدتها القاهرة في العام الماضي ورفعت لافتة «عندما تكلم العلم بالعربية».

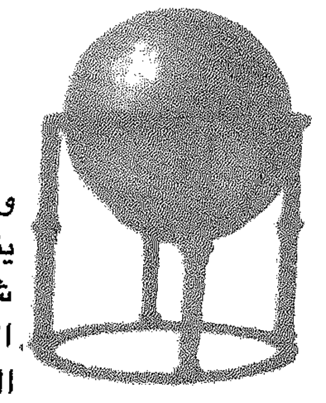


... الذي لا يقدر على النهوض

ان لا يوجد امثل السنور فيمرض ويدق ويسقط على الارض

مريضة ... عليهم الا فانه يبرأ وان ...

... اذا اطعمتهم ... في ...



العنوان عن المستقبل، وما تحته عن الماضي . قد يتوهم بعضهم أن ثمة خللا أو شرخاً أو انفصاماً، ولكن الحقيقة مع قليل من إنعام النظر تتبدى، فالاحتفال بالماضي، والحديث عنه، قد يكون إذا ما وضع في إطاره الصحيح مقدمة للاستشراف ؛ استشراف المستقبل، ذلك أنه (الالتفات إلى الماضي وإثارته) يشير بداية إلى وجود حياة في الكائن الذي أحس بكيانه، وأدرك أنه قدم شيئاً ذا قيمة يوماً ما، وليس هناك مايمنع من أن يؤدي الدور مرة أخرى. واستشراف المستقبل لايتحقق بدون أساس من الأمس، الأمس الذي يعطي القوة، ويمنح الدافع. الماضي والمستقبل إذن وجهان لورقة واحدة ، والسؤال بصيغة المستقبل لاينفي أن نتحدث عن الماضي.

مغامرة باتجاه الماضي

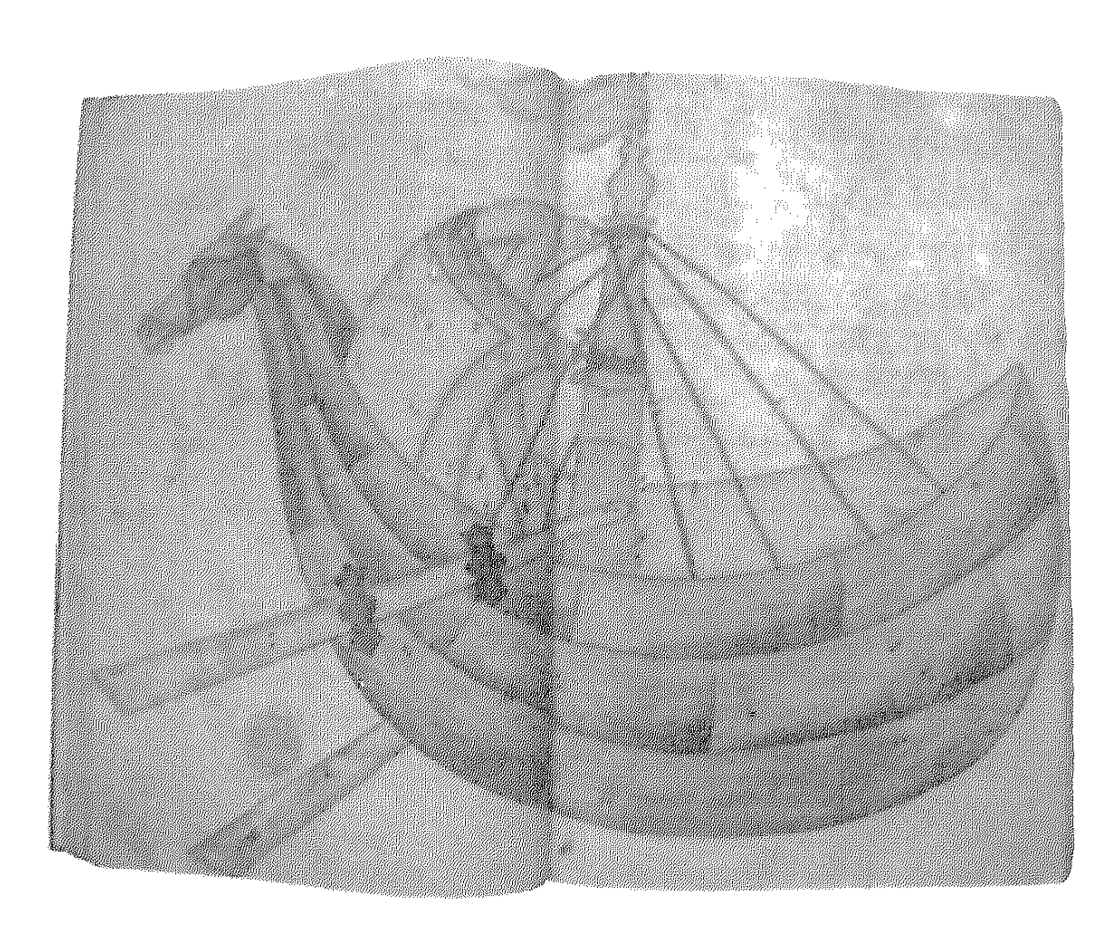
بعض الناس يهوون المغامرة ، وبعض الشعوب تهوى أيضاً المغامرة . والفرنسيون أفراداً وشعباً من هؤلاء الهواة . لكن المغامرة (الفرنسية) هذه المرة من نوع خاص، فهي ليست مغامرة تقليدية، بالدلالة اللغوية للفظ وإيحاءاته الحاضرة، وإن اشتركت معها في لذة الكشف والاكتشاف والإثارة والدهشة. المغامرة - كما نعرفها - فعل باتجاه المستقبل يحمل في طياته المخاطرة، ويخدم غرض صاحبه أو أغراضه، ويرضي مزاجه وطبيعته . أما المغامرة التي هي موضع حديثنا فإنّ بوصلتها تتحرك في الاتجاه المعاكس، تدير ظهرها للحاضر والمستقبل، وتنطلق بقوة إلى التاريخ (الماضي). وعلى الرغم من أن المخاطرة فيها ليست صارخة، لكنها قائمة. أما العنصر الأبرز فيها فهو إثارة العلم، واكتشاف الآخر. وبطل المغامرة هنا يدخل أرضاً ليست له، لكنه يشعر أن الإنسان هو الإنسان، وأن العلم هو العلم، ولا أقل من أن يتحاور الإنسان مع أخيه، يعرفه، ويعترف به، ويجد في علمه؛ علم الأمس، قاسماً مشتركاً يجمع بينهما.

هي مغامرة فرنسية في تاريخ العلم العربي، في ثمانية قرون (من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي) قرون طويلة كان فيها وجه العلم عربياً إسلامياً ولسانه أيضاً عربياً إسلامياً. وتمكن عرّاب المغامرة من خلال فكرته الجريئة والقيم النبيلة التي تحملها (لذة العلم، والاعتراف بالآخر واكتشافه والتحاور معه) أن يجذب إليه رفاقاً من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وسويسرا، بالإضافة بالطبع إلى شركائه الرئيسيين من العرب، من مصر وغيرها من البلاد العربية .

سباحة ضد التيار

وإذا كان المغامرون (الفرنسيون والألمان والسويسريون) لم يبعدوا كثيراً عن مواقف بلادهم السياسية إزاء ما كانت تتعرض له إحدى أهم عواصم العلم العربي، فإن رفقاءهم من الإسبان والإيطاليين قد خرجوا برؤاهم الثقافية والحضارية من قيود المصالح السياسية والاقتصادية لبلادهم. وتحقق عنصر المخاطرة ، فقد كانت سباحة ضد التيار، حتى لأولئك الذين لم تعترض عصا القوة على مغامرتهم، فالعصا الغليظة جداً لاتفرق بين السياسيين والمثقفين ، وتستطيع أن تطال، وتعاقب الأطراف جميعاً.

لقد بدأت المغامرة باتجاه تاريخ العلوم



لوحة من كتاب « صور الكواكب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفى - دار الكتب المصرية

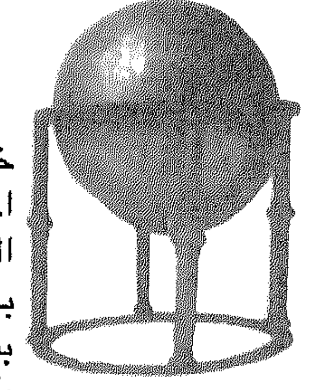
العربية ، لكن المغامرة بطبيعتها لاتعرف الحسابات، ولا تخلو من المفاجآت، وهكذا فإنَّ الإغراءات ومتعة الاكتشاف لم تلبثا أن فتحتا أبواب العوالم الأخرى (غير العلوم) : الفكر والفن والثقافة والشعر والموسيقى ، حتى اللعب (وإن كان عن طريق العلم). لم يكن ممكنا أن يتوقف المغامر عند حد ، حتى لاتنتفى الفكرة الأساسية التى من أجلها دخل التاريخ، وارتضى الإبحار فيه، دون شروط أو قيود مسبقة.

صورتان متناقضتان

عام ٢٠٠٣ رحل عنا فأصبح ماضياً أو رحلنا عنه باتجاه الآتى، لكنه سيظل مزروعاً فى داخلنا زمناً طويلاً، لأسباب كثيرة لاتخفى ، وما يهمنا من هذه الأسباب أنه كان إطاراً لصورتين متناقضتين أشد التناقض، مختلفتين أقوى الاختلاف: صورة قاتمة تملؤها خطوط سوداء دامية هى حرب وحقد وتخريب وهمجية ، وصورة مضيئة تشع نوراً ومصالحة وسماحة وبناء وحضارة وتقدما.

الصورة الأولى كانت هناك مزروعة على امتداد رقعة كبيرة من شرقى الوطن العربى . أما الثانية فكانت معلقة فى كل مكان من أرض الكنانة، وأرض النور، ولكل صورة أبطالها: جنود ودبابات وصواريخ وطائرات، أو عقول وأقلام وفكر وكتب وفنون . وبين الصورتين وحولهما صور أخرى كثيرة مملوءة خوفاً وضعفاً وتواطؤا وانكساراً وانطواء تحت راية الأقوى، أو نابضة عزة وقوة وتعاطفاً وشموخاً وألقا.

لنترك الصورة القاتمة حتى لا تمتد



خيوطها السوداء إلى صورتنا المضيئة فتطفئها. لقد كان العام الراحل عاماً مختلفاً بحق للتراث العلمى العربى بفضل تلك التظاهرة الضخمة بكل ما تعنيه الكلمة من معان ، فهذا التراث - شأنه شأن أصحابه - مظلوم، لم يشهد التفاتاً إليه - إلا على مستوى نفر قليل من المتخصصين - منذ عقود، وربما جاز أن نقول منذ قرون ! ولم يتوقف الأمر عند مجرد التفات ، بل تجاوزه إلى الاحتفال ، ثم تحول الاحتفال إلى تظاهرة، جمعت بلاداً عربية عديدة، ومؤسسات أكاديمية وثقافية وإعلامية وفنية وخدمية؛ وقدمت نشاطات ذات مستوى جاد ورصين، بعيداً عن القشور والضجيج، واستقطبت أساتذة، ومتخصصين وعلماء متنوعى المعارف، رفيعى المستوى، وأثارت موضوعات تتسم بالشمول والابتكار والتنوع، وخاطبت مختلف الشرائح الاجتماعية والسنية والتعليمية.

الأنا .. والآخر

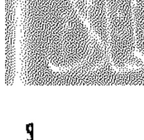
وإلى *الالتفات والتظاهر الاحتفالى* تنبه صاحب هذا التراث «الأنا المتردد» لأهمية تراثه، وعادت إليه بعض ثقته بنفسه ، فى مقابل «الأنا» الذاهل أو المبهور أو الحاقد الذى عرفناه وألفنا وجهه، واعتدنا سماعه، وهو يتكلم ويكتب ويحاضر، مهوناً من شأن هذا التراث وأهله، مؤكداً فى كل مناسبة أنه «تراث من الماضى» تجاوزه الحاضر، ففقد قيمته ودوره، ولا يتردد كثيراً قبل أن يؤكد أنه أصبح معوقاً، وأننا إذا أردنا إحياءه فإن علينا أن نقتله!

وقبل كل ماقلنا من إيجابيات (٢٠٠٣) لتراثنا العلمى لابد من التوقف عند نقطة مهمة للغاية تتمثل فى أن الذى بادر إلى تبنى التظاهرة العلمية هو «الآخر» ممثلاً بالمركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ، وقد كان «الآخر» هذه المرة منصفاً فى مقابل «الآخر» المتحيز الذى عرفناه وألفنا وجهه أيضاً، حتى لم نعد نرى غيره.ولا يغيب - بالطبع - أن الآخر «الفرنسى» باحتفاله بالعلم العربى قد قام بعمل حضارى تجاوز فيه *أشواك الغرور والأنانية* ، غرور الحاضر وأنانية النفس البشرية، وارتقى إلى مسألة فهم التداول الحضارى، وقوانين الزمان، وتكامل الإنسان على وجه الأرض، ودورات الحياة التى لاتتوقف، شأنها شأن الكوكب الذى نعيش عليه وفيه.

وأخيراً فإننا لانستطيع - على الرغم مما أسلفنا من محاولة إبعاد خطوط الصورة القاتمة - أن ننسى أن عام (٢٠٠٣) الذى كان عام العلم العربى هو نفسه الذى شهد سقوط بغداد ، عاصمة هذا العلم فى تلك الفترة الزمنية التى كان لسان العلم فيها عربياً .

لحظة الانطلاق

مازلت أذكر مطالع العام الماضى، وكم مرة تم تأجيل *لحظة انطلاق* نشاطات التظاهرة ، بسبب إرهاصات الحرب على العراق، ومازلت أذكر كيف أن الأمر كاد يصل تحت تأثير ظروف السياسة وحساباتها المعقدة إلى إلغاء التظاهرة من أساسها. وتعاضدت مع ذلك عوامل أخرى تتصل بالظروف الاجتماعية السائدة فى مكان انطلاق التظاهرة، ونشاطاتها، حيث الناس مشغولون بما يقال وما يحدث وما سيحدث، الحرب بإرهاصاتها وعواقبها شغلت الجميع واستأثرت باهتمامهم، وطغت على أى أمر آخر. كان هناك خوف حقيقى من أن يئد ذلك كله ماتم التخطيط له، إذ بدون الناس، مشاركين وجمهوراً ،



صفحات مخطوطة من كتاب « فوائد الأعشاب » للغافقي، ١٥٨٢م - متحف الفن الإسلامي



لا معنى لشىء، ولا قيمة له. وثمة أسباب أخرى إضافية مثل أن تفهم التظاهرة على غير وجهها، أو يحسب بعضهم أنها جاءت لتشغل أو تلهى عما يحدث من عدوان فى أماكن أخرى.

لكن الأمور سارت فى الاتجاه الصحيح، ورجحت الكفة الصائبة، وغلبت الأهداف النبيلة تلك الحسابات والظروف والتوقعات. بمختلف اتجاهاتها ومستوياتها، وذلك بفضل العقول التى كانت تخطط، والنوايا الصادقة التى أخلصت العمل والغاية.

شركاء .. فى المغامرة

قلنا إن الاحتفال تحول إلى تظاهرة، والشواهد على ذلك كثيرة، فقد شارك بالإضافة إلى فرنسا ومصر، كل من ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا. كما شاركت منظمات عربية وإقليمية، منها جامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد المخطوطات العربية، ومعهد البحوث والدراسات العربية) ما نوميد (مركز مخطوطات البحر المتوسط).

نرجع إلى البلاد المشاركة، فنجد أن عدد الجهات المصرية التى تعمل فى مصر (القاهرة وعدد من المحافظات) قد بلغ نحو أربعين جهة، تشمل الوزارات والمؤسسات التابعة لها، والجامعات، والجمعيات، والمعاهد العربية والأجنبية، والوسائل الإعلامية بمختلف أشكالها، والفرق الفنية، والمكتبات والهيئات، هيئات الخدمات الوطنية، والصناديق الثقافية، والقطاعات الفنية، والمتاحف، والمجالس المتخصصة.

فى فرنسا وصل العدد إلى (١٧) جهة، تبدأ بوزارة الخارجية من خلال الإدارة العامة للتعاون الدولى والتنمية، وتنتهى بمؤسسة الكهرباء، وبينهما قصور، ومراكز تاريخ العلوم بأنواعها، ومراكز الأبحاث المختلفة، ووسائل الإعلام، وعلى رأسها التليفزيون.

من إيطاليا حضرت جامعة فلورانس، ومن ألمانيا جامعة فرانكفورت، ومن إسبانيا جامعتا برشلونة ومدريد.

هؤلاء جميعاً كانوا شركاء فى تظاهرة العلم العربى، فى تجسيد حقيقى لشعار حوار الحضارات والثقافات، بعيداً عن التنظير والأبراج العاجية والسفسطة التى لاطائل من ورائها.

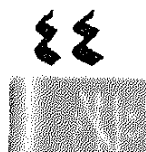
وإذا كان هؤلاء هم الشركاء فلنا أن نتصور عدد المشاركين الذين مثلوا هذه الجهات، على اختلاف اهتماماتها وتخصصاتها.

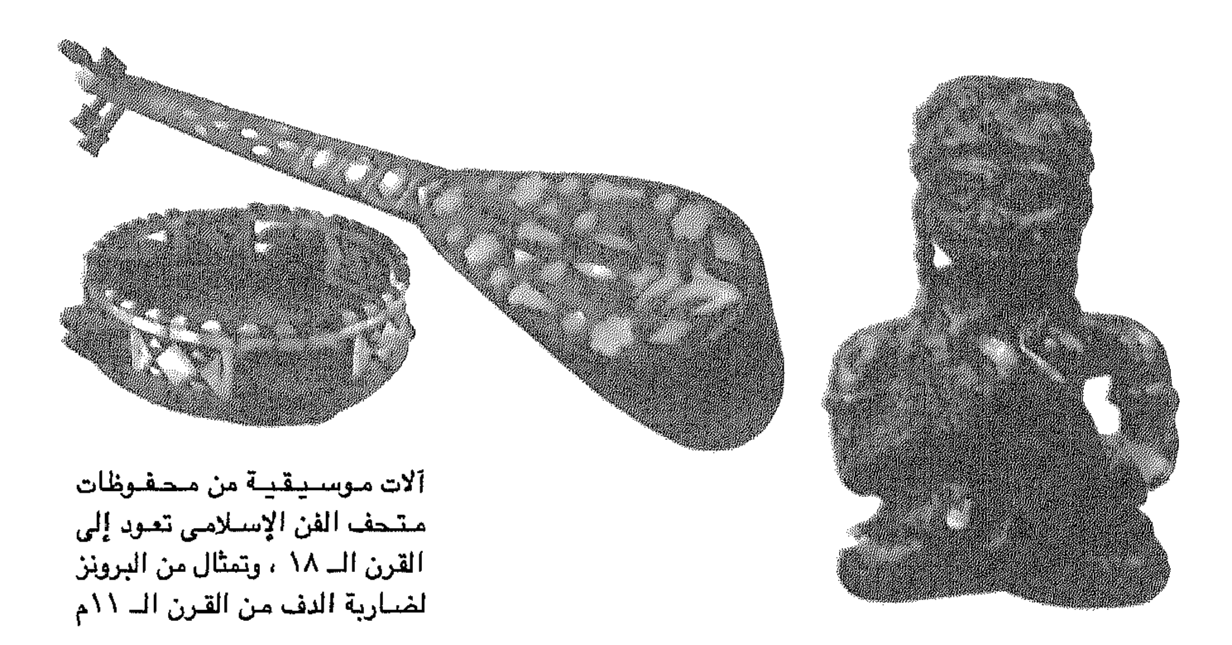
حوار المعارض

ثمانية قرون كان العلم فيها عربياً، من القرن الثانى حتى التاسع الهجرى/ الثامن حتى الخامس عشر الميلادى. حركة زمنية ممتدة، على مساحة جغرافية تستغرق معظم الكوكب الذى نحيا فيه، فهل استطاعت التظاهرة أن تعبر أو تشير إلى ما حدث فى هذا الزمان والمكان الممتد الواسع ؟

كانت هناك معارض؛ ثابتة ومتنقلة، بأكثر من لغة، توزعت على القاهرة والاسكندرية وبورسعيد، واحد من هذه المعارض حاول إجراء حوار راق بين تنويعات حضارية، فجمع بين معروضات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وصور المخطوطات العلمية المحفوظة فى دار الكتب المصرية.

ومعرض آخر نظر إلى التراث العلمى العربى فى سياقه المكانى، فهذا التراث فى جزء منه ليس بالقليل هو نتاج المنطقة العربية، وهى منطقة تعد طبيعياً جزءاً من





آلات موسيقية من محفوظات متحف الفن الإسلامى تعود إلى القرن الـ ١٨ ، وتمثال من البرونز لضاربة الدف من القرن الـ ١١م

حوض البحر الأبيض المتوسط، هذا المعرض الذى ضم (٢٠) ملصقاً حكى قصة نشأة علم الفلك فى حوض المتوسط منذ القدم حتى عصر النهضة، وأقيم فى محافظتين: القاهرة، وبورسعيد.

معرضان (ثالث ورابع) للصور التى التقطت من المتحف الزراعى فى القاهرة، انطلق أولهما من فكرة تتساءل كيف يمكن للعلم أن يمس حدود الخيال؟ فى حين كان ثانيهما تحت عنوان «من الغلال إلى الخبز»

وإلى جانب المعارض السابقة كان هناك معرض للوحات مائية تمثل النباتات المجففة، وهى أيضا من مقتنيات المتحف الزراعى بالقاهرة، وهذا أيضا انطلق من فلسفة أن الرسومات واللوحات هى جزء من أدوات العلم، ويمكننا بواسطتها أن نقترب من أسرار هذه الأحياء المائية .

المعرض السادس ركز على التاريخ الطبيعى والإنسانى لمنطقة الدلتا من خلال خرائط ترجع إلى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى.

خاتمة المعارض استخدام وسائل الاتصالات المرئية، وكان عبارة عن معرض متنقل متفاعل يتضمن (١٢) لافتة متناهية الدقة، و(١٢) تجربة علمية من التراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى خمس معروضات نموذجية، وقرص مدمج متفاعل ثنائى اللغة، وموقع إنترنت .

هذه المعارض التى أشرنا إليها لم تبق فى صورتها بل تحولت إلى (كتالوجات) وكتب وأفلام وثائقية ، أفلام عن البيمارستانات الإسلامية، ومقياس النيل، والعود العربى ، والمزولة الشمسية، والعصر الذهبى للإسلام، و(على مقربة من النجوم) و(رحلة فوق سطح القمر، ومنحنى بلا نهاية، وهل الكون متهالك؟ وفى مجال النجوم).

يلاحظ بالطبع على هذه الأفلام كيف أنها سجلت المنشآت الحضارية والآلات الفنية، والحضارية، كما تجاوزت ذلك إلى التاريخ، وإلى الكون، وأثارت أسئلة تستنفر الفكر، وتحثه على التأمل والتحليق، وتدعوه إلى الانطلاق والتخيل .

أدوات .. وكتب

ومن أجمل ما انجزته التظاهرة



واستدعت فيه التاريخ الحضارى العربى الإسلامى استدعاء حيا تلك الأدوات التي بنيت اعتمادا على المواصفات والمقاييس التراثية، فقد تم بناء اسطرلاب، كما تم صنع وشاح يمثل عنصراً زخرفيا من الخزف، ويعود إلى القرن ١٢ هـ / ١٨ م.

ولم تغب الكتب، فقد وضعت خطة لنفض الغبار عن مخطوطة فى الخيل لابن الأحنف (ق ٧ هـ / ١٣ م) كما تقرر نشر مخطوطة أخرى تحمل عنوان (مصالح الأبدان والأنفس) لأبى زيد البلخى (من رجال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) ويعد أول كتاب عربى يربط بين صحة البدن والنفس، ويتحدث عما يسمى تراثيا بـ(حفظ الصحة) وبمصطلحنا اليوم (الطب الوقائى)

الأطفال .. وعناق الحوار

الأطفال كانوا أيضا على الخريطة فهم الأوْلى بمعرفة تراثهم إن كانوا عرباً مسلمين، وبمعرفة جزء مهم من تاريخ العلم الإنسانى إن لم يكونوا كذلك، فى إشارة واضحة إلى بناء الجسور، جسور الحوار بين الأجيال الجديدة، فالمستقبل لن يكون كما نريد إذا لم نتعارف، ويحترم كل منا الآخر .

ماذا قدمت التظاهرة للأطفال سلسلة من الكتيبات بالعربية والفرنسية تحت عنوان (ثقافة وتراث) وقد تنوعت لتشمل التعريف بلغة مبسطة ومركزة بأعلام مثل ابن سينا، ومنشآت مثل البيمارستانات، ومقياس النيل بالروضة، وأدوات مثل المزولة الشمسية، ومعارف مثل (التقاويم) وصناعات مثل (صابون لتنظيف الجلد وعلاجه) وفنون هندسية مثل (الهندسة فى فن الزخرفة الإسلامية).

وكما الحال فى المترو فقد جرى إطلاق (حافلة علوم) جابت شوارع القاهرة وحطت رحالها أمام المدارس، واستثارت الطلبة فى مجالات الرياضيات من خلال تراث الفنون الزخرفية الإسلامية. وبهذا العناق الحميم بين التجريد والمتعة البصرية أمكن الوصول إلى العقول والقلوب. هذه الحافلة صبت رافداً جديداً أيضا فى ما قُدِّمَ للأطفال والشباب وأقامت ثلاث ورش، خاطبت من خلالها شرائح عمرية تبدأ من سن الخامسة وتنتهى بسن السابعة عشرة.

والشباب .. يحلق مع النجوم

والشباب فى هذه الايام، ذلك الملتصق بالأرض، المشغول بالأشياء القريبة منه، كان لابد من دعوته إلى التحليق مع النجوم ، مع القمر وأطواره وحركته ومع الأرض التى يعيش عليها لتحديد موقعها ودورانها ومع الأرض أيضا وعلاقتها بالشمس وما يترتب على ذلك من فصول .

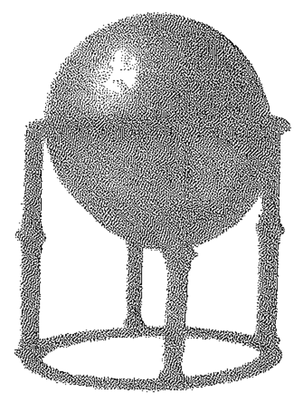
وليس بعيداً عن تلك الدعوة الجميلة دعوة أخرى للعب بالضوء تلك اللعبة التى كانت معروفة فى التراث العربى الإسلامى، ويمارسها الخلفاء من خلال ما عرف بـ (المشكال).

والعلم توأم الفن، فإلى جانب الهندسة والنجوم والكواكب وألعاب الضوء أقيمت ورشة لتعليم مبادئ العزف على العود ولقاءات للتعريف بهذه الآلة الموسيقية العربية الأصلية والتعريف بالمخطوط (كتاب الأمس قبل ظهور الطباعة) وأيضا بالحديقة العربية، وبدور علم النبات فى خدمة فن التجميل وبأشعة إكس فى خدمة التراث، ومعالجة الزجاج وأشياء أخرى.

استدعاء المدينة الاسلامية

المدينة العربية الإسلامية منارة العلم

من المخطوطات الفارسية التي ترجع الى القرن الثامن عشر الميلادي وفيها يبدو ابن سينا بين تلاميذه من طلبة العلم - وهى من المخطوطات المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة



والحضارة والثقافة والأدب والفن في ذلك الزمن الذى احتفت به التظاهرة، ومن حقها أن تستدعى، وتكون حاضرة لتحقيق التواصل والاتصال بين الماضى والحاضر .

من أجل المدينة استقلت التظاهرة مترو الأنفاق بالقاهرة وقدمت أسئلة لركابه، وحاولت من خلالها استثارة عقولهم بالتاريخ وللتاريخ .

ومن أجل هذه المدينة أقيمت مزولة شمسية أفقية كبيرة بالقلعة تبلغ حوالى مائة متر مربع، ويمكن من خلالها ملاحظة تحرك الظل، واكتساب بعض المفاهيم الفلكية. ومن أجلها ايضا أستدعى بيت الحكمة الذى أقامه الخليفة العباسى المأمون، وبيت الحكمة الذى ينسب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله وكان الاستدعاء بلغة العصر باقامة نموذج افتراضى على الإنترنت.

تساؤلات عميقة

والمتخصصون لم يكونوا بعيدين عن التظاهرة ،فقد التقوا فى سيمنارات ومحاضرات وورش علمية، وبحثوا دور العلوم؛ تاريخا وحاضرا، فى فهم العالم الذى نعيش فيه، وبناء العلاقات بين بنى البشر، والتقريب بينهم، وتوحيد رؤاهم، كما تدارسوا دور المدرسة المصرية الحديثة لتاريخ العلوم، وكيف انتشر علم الفلك العربى فى العالم الإسلامى وفى أوروبا، وتلك الرحلة التى قامت بها كل من الكيمياء العربية، والرياضيات العربية والبيزنطية إلى الغرب، واسهام المدرسة اليونانية بمدينة الإسكندرية فى العلوم العربية.

وكانت هناك تساؤلات حول : هل نحن محتاجون إلى تاريخ واحد للعلوم، أم تواريخ للعلوم؟ وكيف يمكن للعلوم أن تنتج نوعا آخر من العلاقة بين البشر؟ وهل من ضرورة للترجمة؟ وما هى الرهانات والتحديات التى تواجهها العلوم فى عصر العولمة ؟ وكيف يمكن أن تكون لغة ما لغة عالمية للعلوم ؟ وما هو تأثير العولمة على اللغات المختلفة؟

تساؤلات عميقة وكبيرة، وبالتأكيد لن تجد إجابات قاطعة، لكن بذوراً وضعت فى التربة، ولعل هذه البذور تشق للأرض قريباً، ليتغير كثير مما يعيشه الإنسان اليوم من تناقضات، ويتحقق بعض ما يحلم به ويتطلع إليه.

حكاية من ألف ليلة

كيف استدعت التظاهرة إنجازات الماضى الفكرية والعلمية والأدبية؟ لقد رجعت إلى المخطوط، ذلك «الوعاء» المعرفى الذى كتبه العرب المسلمون بمداد من دمائهم، حرفاً حرفاً ، ونقطة نقطة، وسجلوا على صفحاته، جلداً، وورقاً، حياتهم، وثمرات عقولهم، ونبضات مشاعرهم، ورؤاهم، وخيالاتهم، وتجاربهم، ورحلوا تاركين ذلك الكتاب، ليقاوم ورقه الضعيف ومداده عوامل الزمن والإهمال والحروب والأحقاد والتعصب الفكرى والهمجيات، لقد فقد منه الكثير، ولكنه لم يمت. حكايته كانت أغرب من حكايات علاء الدين وألف ليلة وليلة ألا يستحق هذا الحامل لحضارة القرون الطويلة أن يحتفى به؟!

أخذ الاحتفاء اتجاهات عديدة، فقد تم عبر سلسلة من المحاضرات التعريف بالبرنامج الأوروبى لمخطوطات البحر الأبيض المتوسط، ورصدت حياة ومسيرة مخطوط عبر الزمن، وتم التوقف عند المجاميع المخطوطة والحياة الفلسفية فى



ساعة على هيئة فيل- من «الجامع فى بيان العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل» للجزرى - متحف الفن الإسلامى

اليمن فى القرن الخامس عشر، وعند مخطوطات نصير الدين الطوسى، ومخطوطات ابن سينا وابن النفيس وابن الهيثم، وموروث المخطوطات العربية فى إسبانيا.

حميمية العلم العربى

ولم يكن العلم العربى فى ذلك الزمن يعيش فى جزيرة بعيدة معزولاً عن بقية العالم، بل كان على اتصال وثيق وحميم، بمبادرات منه، وبفضول من الآخر، هذا الاتصال والتواصل عبرت عنه التظاهرة فى ندوات كشفت عن التأثير الكبير لابن الهيثم على دراسات الرسم المنظورى فى إيطاليا فى عصر النهضة، وعن تمثل الغرب فى العصور الوسطى لعلم الضوء العربى، وعن ترجمة وتمثل العلم فى القرن التاسع (بغداد) وعن تأثير الموسيقى الأندلسية فى إسبانيا.

وإلى جانب ذلك لم يكن بدٌّ من تتبع كيف تكونت النظرة الفرنسية للعلوم العربية، وكيف كان تنقل العلماء وراء انتشار الأفكار حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وكيف تحقق التضامن العلمى بين نواحى المتوسط. وليس بعيداً عن العلوم، (الأدب)، فالأدب العربى كان له تأثير كبير فى الأدب الغربى.

موضوعات تحيط بقضية من أخطر قضايا المجتمع الإنسانى: وهى نقل المعرفة والفكر والأدب والظروف التى يتم فيها ذلك والغايات التى تتحقق.

مساءلة الماضى

لكن الماضى بكل ما حقّقه ليس محمياً من المساءلة، فالمساءلة هذه هى التى تستخلص منه أفضل ما فيه، وترمى به بذرة معطاءة فى تربة الحاضر الخصبة، من أجل مستقبل أجمل نوراً، وأشد توهجاً. على أن المساءلة هنا ليست بمعنى النقد فحسب، ولكنها بمعنى التساؤل، وهذا أشمل وأعلى، إذ الماضى يعطينا دروساً منوعة، دروساً من خطئه، ودروساً من صوابه بنفس الدرجة.

فى هذا الإطار، وضمن محور «مساءلة الماضى من أجل إعداد أفضل للمستقبل» أثيرت فى ندوة مسألة «الأصول التاريخية لحقوق الإنسان فى العالم العربى والإسلامى» وفى أخرى قضية الوحدة فى التنوع، وهى فكرة أساسية للجغرافيا، وقد رمت إلى أن تقول: إن فكرة الجغرافيا هذه ينبغى أن تنتقل إلى البشر، وفى ثلاث ندوات قضية «الكون» مرة من حيث نشأته ومصيره، وأخرى فى علاقة الشعراء معه، وثالثة فى قياسه. تُرى هل يفرِّق هذا الكون بين الماضى والحاضر والمستقبل؟ وكيف نظروا إليه فى الماضى؟ وماذا عن نظرتنا نحن ومدى اتفاقها أو اختلافها معهم؟ والنظرة بالطبع نظرة مزدوجة، علمية وشعرية.

وانطلاقاً من الماضى كيف يمكن أن نستعد بالأدب فكرياً للقرن المقبل. هذا موضوع ندوة استشرافية تثير سؤالاً فى غاية الخطورة والأهمية.

والمساءلة تطرقت أيضاً إلى المنشآت العلمية العربية الإسلامية، والعلوم العربية فى مصر فى عصر المماليك، والرياض (الحدائق) العربية، وتاريخ العلوم فى التعليم الابتدائى والثانوى، وأهمية الترياق فى تقدم علوم النباتات.

الشعر والموسيقى

العلم والموسيقى والشعر، المسافة بينها ليست بعيدة، كما قد يتصور بعض الناس، وقد حظى العود العربى بسلسلة من اللقاءات بهدف الاحتفال به، والكشف عن تقنياته وأشكاله. والعود العربى ليس نوعاً، فهناك العود اليمنى، والقرطبى

و(الجزائر)، ومن العود والربابة انبثق الرقّ والكمان الأوسط، ومن العود توالدت أنواع عديدة لدى العرب والغرب.

لقد كانت الموسيقى علماً يُعنى به الفلاسفة والفلكيون والرياضيون، فالموسيقى فكر، وصدى لجمال الكون وطبيعته، وهى أيضاً علاقات ونسب بين الصوت والزمن. هل نعيد إلى الذاكرة كتاب الكندى الفيلسوف والفلكى والرياضى العربى المسلم «الموسيقى الكبير» لنرى صدق ما قلنا.

أما الشعر فهو أرقى ما يعبر به الإنسان عن نفسه وعن الكون وعن كل شىء وهو أيضاً ليس بعيداً عن العلم، فموضوعهما واحد، لكن النظرة تختلف والمعالجة تتباين، ما أجمل أن نرى إحدى ظواهر الكون (النجوم) فى مرايا متباينة، مرايا الشعراء، ومرايا الموسيقيين، ومرايا رجال العلم، ثلاثة أنواع كل منها تنقل إلينا زاوية، ومن الزوايا المختلفة تتكشف العلاقات، والتأثيرات والتأثرات المتبادلة، ثم إن الشعر عالم وحده، والشعراء لهم لغة خاصة فى الحوار مع الكون وظواهره والتفاعل معها. بهذه الرؤية عُقدت ندوتان إحداهما «عندما يتحدث الشعراء والموسيقيون ورجال العلم عن النجوم» وثانيتهما «الشعراء والكون».

☆☆☆

أن تحتفى بأى شىء «عربى إسلامى» فى الوقت الذى تشوه فيه صورة كل ما هو عربى إسلامى وتجعل منه الآلة الإعلامية شيئاً متخلفاً دموياً إرهابياً، لابد أن تكون شجاعاً أولاً، ومنصفاً ثانياً، وذا قضية ثالثاً.

هذه العناصر الثلاثة تحققت فى تظاهرة «عندما تكلم العلم بالعربية» أما الشجاعة فقد ألمحت إلى الظروف التى قامت فى ظلها الاحتفالية. وأما الإنصاف فإن مجرد تبنى التظاهرة بنشاطاتها المتنوعة والثرية دليل عليه، وأما القضية فهى المسألة الأخطر التى ينبغى التوقف عندها بعض الشىء، لأنك لكى تحتفى بعلم منسوب لأمة، لابد أن تكون معترفاً بقيمة هذا العلم، وإسهام الأمة التى أنتجته فى مسيرة الحضارة الإنسانية. ومثل هذا يكتسب أهميته ليس من اعتراف الآخر وتبنيه، ولكن قبل ذلك من إعادة الثقة المفقودة لأولئك الذين اهتزت ثقتهم بدورهم فى ما مضى، وقدرتهم على تجاوز واقعهم اليوم، واستشرافهم لمستقبل يكون امتداداً لماضٍ كان العلم فيه لا يجيد غير العربية، وهو ما يثير تساؤل العنوان: هل يتكلم العلم بالعربية مرة أخرى؟. ■



اصطرلاب من النحاس يعود الى ١٤٨٦م – متحف الفن الإسلامى

كى لا تخرج الأمة العربية من التاريخ والجغرافيا

بقلم
عبد القادر النيال *

لا أريد أن أكون متشائما، لكننى لا أجد فى هذا العالم ما يحمل على التفاؤل. إنه عالم لا مكان فيه للحالمين بمستقبل أفضل.. عالم لا إنسانى، يسود فيه النفاق والمعايير المزدوجة والغدر والخداع.. عالم تهدر فيه القيم، ويقتل فيه الأطفال، وتجوع فيه الشعوب المستضعفة، وتستباح فيه الأوطان.. عالم تهيمن عليه دولة عظمى واحدة غاشمة، هاجسها الوحيد هو إحكام قبضتها وتوسيع سيطرتها على الشعوب من أجل تحقيق مصالحها، حتى ولو أدى ذلك إلى سحق كل من يقف فى طريقها.. دولة تمتلك من أسباب القوة ما لم يتح لدولة أخرى فى التاريخ.. دولة ينضوى تحت جناحيها كل من يخشى بطشها أو يطمع فى الحصول على فتات موائدها.. حتى الدول الكبرى من الدرجة الثانية تنساق فى ركابها، ولا تقوى على مواجهتها.

* باحث سورى

في هذا العالم المتوحش تقف الأمة العربية وهي في أشد حالات الضعف والتشتت والضياع.. تتكالب عليها كل القوى الطامعة في ثرواتها وأراضيها ومواردها.. بلاد محتلة، وقواعد عسكرية تجثم فوق أراضيها.. وشعوب مكبلة بألف قيد وقيد.. وأنظمة متصارعة تسعى كل منها لتحسين موقعها على حساب الأمة العربية بأسرها.. وثروات طبيعية مستنزفة، واقتصادات محاصرة. وموارد مرتهنة، وفئات حاكمة بعضها متواطيء وبعضها الآخر مرتهن أو خائف.

معضلة التغيير

إذا كان العالم على النحو الذى ذكرت، وكان ذلك هو حال الأمة العربية، فهل من سبيل للتغيير لكى لا نركن إلى الأوهام، علينا أن نعترف بأن إمكانات التغيير فى المستقبل القريب تكاد تكون معدومة.. فمن الخطأ الاعتقاد بأن ميزان القوى فى العالم يمكن أن يطرأ عليه تعديل فى الأجل القصير. كذلك من غير المحتمل أن تتخلص الأنظمة العربية من تبعيتها، وأن تتحرر من مخاوفها، وأن تعلو فوق مصالحها الآنية خلال أمد قريب.. ولا اعتقد أن مناشدة ضمائر الأنظمة العربية لنبذ الخلافات فيما بينها، وتغليب المصلحة القومية على مصالحها الذاتية الأنية يمكن أن يسفر عن نتائج ملموسة. فالأنظمة العربية قد ذهبت بعيدا فى انحرافها عن الخط القومى إلى الحد الذى يتعذر عليها التراجع . حتى لو رغبت الأنظمة العربية المرتهنة تصحيح مسارها فإنها غير قادرة على القيام بخطوة كهذه بعد أن كبلت نفسها بقيود يتعذر التخلص منها، وعزلت نفسها عن الجماهير العربية، مصدر قوتها الأساسية.

أقول ذلك ليس من أجل تبرير مواقف الأنظمة العربية، فالأضرار التى ألحقتها هذه الأنظمة بالقضية العربية يستحيل تبريرها. كذلك من الخطأ الاستنتاج من قولى هذا بأنه دعوة للثورة، فالظروف الموضوعية والذاتية غير مهيأة لذلك، فضلا عن أن «التجارب الثورية» للعديد من البلدان النامية قد ألقت ظلالا من الشك على قِدرة النهج الثورى على تحقيق تقدم مستدام خال من الانتكاس والارتداد للخلف. كما أننى لا أرمى من هذا القول الى الترويج للاعتقاد بأن أبواب التغيير موصدة بشكل نهائى. إن ما أريد أن أؤكد عليه هو أن مفتاح التغيير يكمن فى الجماهير العربية، وإن الديمقراطية الحقة هى الصيغة الوحيدة التى تتيح للجماهير تحمل مسئوليتها. إن جميع



الهزائم العربية في العصر الحديث مردها تغييب الجماهير العربية عن ساحة الصراع. لعقود عديدة جرى إبعاد الجماهير العربية عن المشاركة في المعركة المصيرية للدفاع عن وجودها وتحقيق مشروعها القومي النهضوي، تارة باسم التحرير، وتارة أخرى باسم الوحدة العربية أو العدالة الاجتماعية.. وكان طعم الحصاد مر كالعلقم. لم نخسر الأرض فحسب، بل فقدنا معها الإرادة أيضا. واقترن ذلك بتفاقم التشرذم العربي، وتزايد سوء توزيع الثروة والدخل على المستويين القومي والقطري..

مسئولية الأحزاب العربية

ولا تقع مسئولية ما حدث على الأنظمة العربية وحدها، فالأحزاب العربية بمختلف تياراتها واتجاهاتها تتحمل قسطها من المسئولية التاريخية فيما آل إليه حال الأمة العربية. لسنا هنا بطبيعة الحال بصدد تقويم تجربة الأحزاب العربية، فذلك يتطلب بحثا مستفيضا يتجاوز حدود هذا المقال بيد أنه يمكن القول أن إنسياق معظم الأحزاب العربية وراء رغبتها للوصول إلى الحكم بسرعة وبأية وسيلة، وسعيها للانفراد بالسلطة، قد أتاح فرصة ذهبية أمام قوى داخلية وخارجية لتغذية الخلافات فيما بينها، ودفعها للدخول في صراعات دموية انتهت بإنهاكها جميعا. ولم تكتف تلك القوى بتسعير الصراع بين الأحزاب العربية، بل عملت على شق وحدتها وشرذمتها، وذلك باللعب على المصالح الشخصية لبعض قادتها، ودغدغة أحلامهم بالسيطرة . ولعل مما ساعد تلك القوى على تحقيق مأربها هشاشة مؤسسات الأحزاب العربية، وغياب الممارسة الديمقراطية الحقيقية في داخلها، وتمحور تنظيماتها حول أشخاص قادتها.

لم تفقد الأحزاب العربية من جراء صراعتها قطاعات مهمة من جماهيرها فحسب، بل خسرت نفسها ايضا. كانت الجماهير تلتف من حول تلك الأحزاب باعتبارها تحمل وعدا بمستقبل أفضل، وصاحبة مشروع نهضوي حضاري لتجاوز واقع التخلف والتبعية والتجزئة. لكنها اكتشفت أن الهاجس الأساسي لتلك الأحزاب هو الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها بأي ثمن. ودفعت خيبة الأمل الجماهير إلى الإنكفاء على ذاتها، والانسحاب من الحياة السياسية، والانشغال بهمومها المعاشية التي أخذت تضغط عليها بشدة نتيجة لإتباع نمط من التنمية حابى فئة قليلة على حساب الجماهير العربية.

الإحباط وتبدد الحلم

ولم يكن الحزبيون من مختلف التيارات والاتجاهات بأفضل حال من الجماهير العربية. فالصراعات داخل كل حزب التى اتسمت بالعنف فى أحيان كثيرة، لم تفض الى سلسلة من الانشقاقات فحسب، بل دفعت بأعداد غير قليلة من الحزبيين للابتعاد عن الحياة العامة، يغالبون إحساسا ممضا بالاحباط وخيبة الأمل والغربة والفشل. كان من الصعب عليهم أن يصدقوا أن الحلم الذى حملوه فى نفوسهم عشرات السنين، ونذروا أنفسهم له. وضحوا من أجله قد تبدد كالسراب، كانوا يراقبون الأحداث بألم ومرارة،وهم يشاهدون الأمة العربية تنزلق إلى هاوية لا قرار لها.

فى خضم هذا العالم المتوحش، ووسط حالة السقوط العربى المريع والمفجع، يجرى تكريس الهيمنة الأمريكية وفرض عملية التسوية المذلة مع الكيان الإسرائيلى على الأمة العربية. هذه الهيمنة التى أريد لها أنْ تضع نهاية للمشروع القومى العربى النهضوى، وذلك من خلال تكريس التجزئة وتغذية الولاءات الأثنية والطائفية داخل المجتمعات العربية، وإلحاق الاقتصادات العربية بالاقتصاد الرأسمالى العالمى، واحتواء البلدان العربية ضمن ترتيبات أمنية ومشاريع إقليمية، ومحو ذاكرة الأمة العربية وتحطيم القدرات الذاتية العربية، ومحاصرة الثقافة والقيم الوطنية والقومية، ومصادرة الإرادة العربية، ونشر القيم وأسلوب الحياة الغربية، وملاحقة كل من يرفض الرضوخ بتهمة الإرهاب.

غياب الدور الجماهيري

وما كان للانهيار العربى الذى أفضى إلى هذه الحالة أن يحدث لولا تهميش الجماهير العربية وإقصائها عن ساحة الصراع. لقد بدأ هذا الانهيار منذ أن عمدت الأنظمة العربية إلى كبت الجماهير العربية وممارسة مختلف ألوان القمع عليها خوفا على سلطتها ومصالحها. وإذا كان من أمل للخروج من هذا النفق المظلم فيتجلى فى عودة الجماهير العربية لأخذ مواقعها فى ساحة العمل الوطنى والقومى. إن بقاء الجماهير العربية ونخبها الواعية على هامش الصراع المصيرى لا يمكن أن يخدم سوى الكيان الإسرائيلى والقوى العالمية المهيمنة التى تقف وراءه، ويسهل بالتالى تنفيذ الأهداف النهائية لعملية الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية.

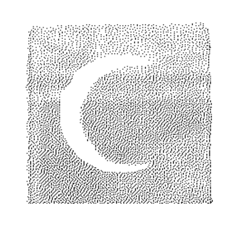
قد لا تكون عودة الجماهير العربية للمشاركة بفعالية فى الحياة العامة

بالأمر اليسير. فالجماهير العربية التى فقدت ثقتها بالأحزاب السياسية العربية سوف يصعب عليها التعامل معها مجددا. وما لم تعمد الأحزاب السياسية العربية الى ممارسة النقد الذاتى بجرأة وصدق وصراحة، وإعادة النظر فى أساليبها وبنيتها التنظيمية وخطابها السياسى وعلاقاتها بالأنظمة العربية، فسوف يتعذر استعادة ثقة الجماهير العربية بها. كما أن وطأة الهموم المعيشية لا تتيح للجماهير العربية سوى فسحة ضيقة للانشغال بالشأن العام.

مهمة المنظمات الأهلية

على أن أعراض المعاناة النفسية والضياع الفكرى التى تعانى منها الجماهير العربية لا تنطوى على الاحباط والقنوط فحسب، بل تحمل فى طياتها بذور الغضب والرفض الذى يمكن أن يتحول الى فعل لمواجهة مخاطر الهيمنة اذا توافرت صيغ العمل المناسبة. وغنى عن القول أن اتفاقات التسوية بين بعض الأنظمة العربية والكيان الإسرائيلى لا يمكن أن تضع نهاية للصراع العربى الإسرائيلى، طالما أنها تجاهلت جذر المشكلة. واذا كانت الانظمة العربية قد قيدت نفسها بالاتفاقات التى وقعتها تحت ضغط ظروف اتسمت بخلل جسيم فى موازين القوى، وعلى أرضية واقع عربى مأزوم ومتآكل، فلا أقل من أن تفسح المجال للجماهير العربية ونخبها الوطنية لمتابعة الصراع من خلال منظمات أهلية غير حكومية تعمل على مقاومة الاحتلال والتطبيع، ومقاطعة البضائع والشركات الأمريكية والإسرائيلية وتلك المتعاونة معها والمساندة لها، والزود عن الثقافة العربية، ومحاربة الفساد، والدفاع عن حقوق الإنسان وتجديد الفكر القومى العربى، واستنهاض الطاقات العربية، وتوسيع الممارسات الديمقراطية والمشاركة الشعبية.

وحتى لا نغرق فى الأوهام، علينا أن نعترف بأن المهام المطلوب القيام بها جسيمة للغاية، وأن التصدى لتحقيقها لا يخلو من مشاق وآلام ومعاناة، وأن القوى الداخلية والإقليمية والدولية المناهضة لمسيرة الجماهير العربية تمتلك من أسباب القوى مما يجعل من مجابهتها أمرا بالغ الصعوبة والخطورة. ولكن. هل هناك من سبيل آخر للحؤول دون خروج الأمة العربية ليس من التاريخ فحسب، بل ومن الجغرافيا أيضا. ■



كتاب الهلال

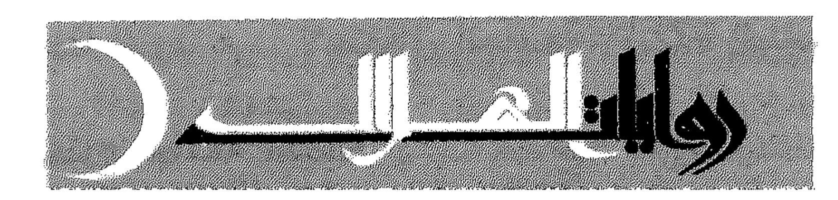
تأملات فى أحوال مصر والعرب والعالم فى منتصف القرن الواحد والعشرين

بقلم

د. جلال أمين

يصدر ٥ ابريل ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



٥٧



صفر ١٤٢٥هـ - أبريل ٢٠٠٤م

الساعات

بقلم

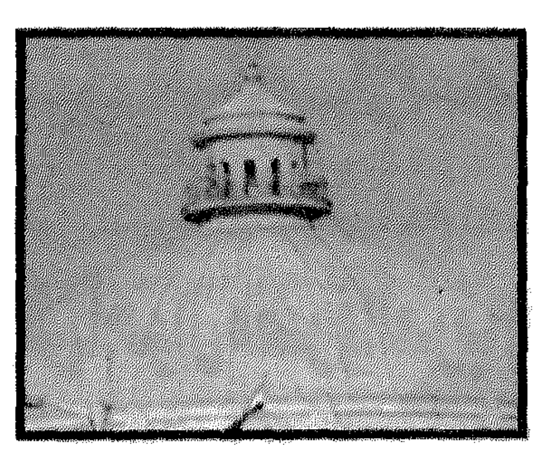
مايكل كننجهام

ترجمة

محمد عيد ابراهيم

تصدر ١٥ ابريل ٢٠٠٤

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



من يحتاج لجامعة مستقلة؟

بقلم
د. هانى الحسينى *

فى ٩ مارس الماضي احتفل الجامعيون المصريون بذكرى استقالة أحمد لطفى السيد من رئاسة الجامعة عام ١٩٣٢ احتجاجا على نقل الدكتور طه حسين من الجامعة دون موافقتها، فأصبح هذا اليوم عيداً لاستقلال الجامعة، وبهذه المناسبة نطرح سؤالا :

هل نحتاج لجامعة مستقلة ؟

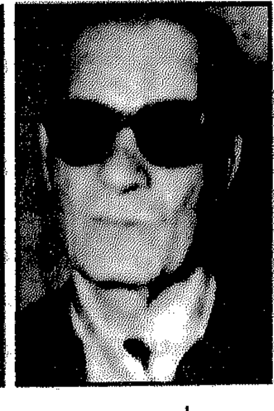
ربما ترى السؤال فى غير محله، فتتساءل أولا ما هى الجامعة المستقلة ؟ وعن أى شيء تستقل؟ هل يعنى الاستقلال أن تنعزل الجامعة عن المجتمع؟ أو ألا يؤدى الاستقلال بالضرورة لعدم خضوع الجامعة للسلطة السياسية؟

من الطبيعي أن يتردد المرء تجاه فكرة الاستقلال هذه، أليس من الضرورى أن تخدم الجامعة المجتمع؟ وهل السلطة السياسية إلاّ المعبر عن مصالح هذا المجتمع؟ كيف نضمن أن تقوم الجامعة بدورها الضرورى من قبول الأعداد الكبيرة وإعدادها لسوق العمل لو لم تخضع لسلطة سياسية تحدد لها أولويات القبول وسياسة التعليم؟ وكيف نحافظ على أن تقوم الجامعة بالأبحاث العلمية الضرورية للمجتمع إذا تركنا تقرير توجهات البحوث للباحثين أنفسهم، بما هو معروف عن العلماء من عدم اكتراث بالمشكلات الحياتية الآنية؟ ثم أليست الدولة هى الممول الرئيسى للجامعات ؟ وبالتالى ألا يحق لها التدخل فى شئونها على الأقل للرقابة على المال؟ أو بشكل آخر: هل يعنى الاستقلال ألا تعتمد الجامعات على الدولة فى التمويل

* كلية العلوم - جامعة القاهرة.

كل هذه الأسئلة هى أسئلة مشروعة، بل وضرورية، كى نجيب عن السؤال الأساسى: هل نحتاج لجامعة مستقلة ؟

قبل أن ندخل فى هذه الحلقة من الأسئلة، أود أن أدعوك - عزيزى القارئ - لأن تلاحظ أن الجامعة المصرية ولدت مستقلة استقلالا تاماً .



د. طه حسين



أحمد لطفي السيد

الجامعة المصرية ولدت مستقلة



فعندما اجتمع مؤسسو الجامعة المصرية فى ١٩٠٦ اختاروا أن ينصوا فى بيانهم على أن الجامعة «ليس لها صبغة سياسية، ولا علاقة لها برجال السياسة ولا المشتغلين بها، فلا يدخل في إدارتها، ولا فى دروسها، ما يمس بها على أى وجه كان». يذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا النص كان يهدف إلى طمأنة سلطات الاحتلال الإنجليزى والنأى بمشروع الجامعة عن الأهداف السياسية لمصطفى كامل والحزب الوطنى. لكن هذا النص أرسى لدى الجامعيين منذ تلك اللحظة مفهوم استقلال الجامعة عن السياسة والسياسيين في إدارتها وتعليمها، وإن كان لم يبعد الجامعيون - طلابا وأساتذ - بأى وجه عن المشاركة فى الأنشطة السياسية والوطنية.

كانت الجامعة المصرية عندما أنشئت فى ١٩٠٨ مؤسسة مستقلة فعلا، فرغم حصولها بدءًا من ١٩١١ على إعانة سنوية مقدارها ٢٠٠٠ جنيه من وزارة المعارف، فإن الجامعة ظلت محافظة على استقلالها: لم تتدخل الحكومة لا فى تعيين الأساتذة ولا فى مناهجهم التى يدرسونها، ولم تحاول أن تضع أحد موظفيها فى الإدارة العليا للجامعة بل أن الجامعة استقلت ببعثاتها التى كانت تحدد وجهتها وموضوعاتها دون استشارة أى جهة حكومية.

لكن ذلك الاستقلال التام وصل بالجامعة لطريق مسدود، فلم تستطع الجامعة المواءمة بين مواردها المالية القليلة ومصروفاتها الضرورية، كما أن الطلب عليها من الدارسين اصطدم بعقبة عدم اعتراف الحكومة بشهاداتها وعدم التزامها بتعيين خريجيها . اضطرت الجامعة إذن للبحث عن ارتباط أوثق بالإدارة الحكومية، ساعية لإيجاد مصدر تمويل مستقر واعتراف بدرجاتها العلمية، فأنشئت الجامعة المصرية الحكومية وانضمت لها الجامعة المصرية الأصلية لتصبح كلية الآداب بها. فى ذلك الانتقال لم تضح السلطات الجامعية بمبدأ الاستقلال، فنص اتفاق ضم الجامعة لوزارة المعارف على أن:

«تكون الجامعة المصرية معهدا عاما محتفظة بشخصيتها المعنوية وتدير شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت إشراف وزارة المعارف العمومية كما هى الحال فى جامعات أوروبا»، كما نص أول قانون لتنظيم الجامعة - صدر فى ١٩٢٧ وعدل فى ١٩٣٣ و١٩٣٥ - على أن الجامعة «تدير أموالها بنفسها» ويقوم على إدارتها مدير الجامعة (يدير الجامعة ويمثلها أمام الجهات الأخرى) ومجلس إدارة الجامعة (يختص بالجوانب المالية والإنشائية) ومجلس الجامعة (يختص بالجوانب العلمية والإدارية). كما نلاحظ أن ذلك القانون قد راعى التوازن فى المسئولية بين المعينين من قبل السلطة السياسية والمنتخبين، فبينما يعين مدير الجامعة بمرسوم فإن وكيل الجامعة ينتخب من مجلسها والذى يتكون فى أغلبه من أعضاء منتخبين من مجالس الكليات. استمر هذا الوضع حتى أزمة مارس ١٩٥٤، حيث أنهت حكومة الثورة استقلال الجامعة بادئة بحملة «التطهير» ثم بتغيير قانون الجامعات فى ١٩٥٦ ناسفة كل جوانب الاستقلال الجامعى. منذ ذلك الحين أصبحت الجامعات المصرية تابعة للسلطة السياسية وملحقة بها.

* * *

كان غرضى من هذا العرض التاريخى أن أبين أن الجامعة المصرية نشأت مستقلة وحافظت على استقلالها حينا من الزمن ثم فقدت قليلا منه تحت ضغط الحاجة للدعم الحكومى وانتزع منها ما تبقى بتأثير شهية سلطة الثورة للاستئثار بكافة مراكز التأثير فى المجتمع.

ونعود لطرح الأسئلة التى بدأنا بها:

كيف يتسق مبدأ الإدارة المستقلة للجامعة مع اعتماد الجامعة ماديا على الدولة؟ أو بشكل آخر ما هى حدود رقابة الدولة (أو حتى المؤسسات الخاصة المانحة) على إدارة الجامعة لما تُمنح من أموال ؟

هل تستطيع الجامعة أن تنفصل بسياستها البحثية عن مطالب المجتمع والدولة ؟بل هل يمكن للجامعة أن تتجاهل الضغوط الاجتماعية والسياسية بشأن ترويج أو منع بعض اتجاهات البحوث ؟

هل تستقل الجامعة بتحديد سياسة القبول فيها؟ أى هل يحق لها أن تحدد بشكل مستقل أعداد المقبولين للدراسة فى التخصصات المختلفة؟ أم أن عليها أن تلتزم (كما يحدث عندنا) بالواجب الاجتماعى الذى تحدده الحكومة، فتقبل ما يفرض عليها من طلاب ؟

بين الفكر والمادة

فى عام ٢٠٠١/٢٠٠٢ بلغت موازنة جامعة القاهرة أكثر من ٩٧٠ مليون جنيه، مولت الدولة منها ٧٤٠ مليون جنيه وحصلت الجامعة على الباقى من إيرادات أنشطتها وخدماتها، أى أن التمويل الحكومى يبلغ ٧٥٪ من مجمل الميزانية. فى نظام القيم الراهن يبدو أن هذه الأرقام ترتب حقوقا للحكومة لدى الجامعة . ربما، لكن أى حقوق ؟ هل من ضمنها حق الحكومة فى الإشراف المباشر على إدارة الجامعة؟ أو حق الحكومة فى تحديد التوجهات التعليمية والبحثية لأقسام وكليات الجامعة ؟ هل يحق

لوزير التعليم العالى «أن يصدر توجيهاته» للجامعات حتى بشأن قرارات مجالسها ؟

قد تكون إحدى الإجابات أن الجامعة توفى بالتزاماتها تجاه الدولة بتقديم الخدمة التعليمية لحوالى ١٩٣ ألف طالب. المشكلة فى هذه الحجة أن الدولة تدفع بأموال يسهل تقديرها رقميا بينما ترد الجامعة الدين بخدمة فكرية قد يُختلف على تقدير قيمتها.

تدهور المستوى!

لا شك فى أنك لاحظت كما لاحظ العديد من الكتاب والمواطنين تدهور مستوى خريجى الجامعات، وربما ترجعه مثل الكثيرين لعيوب فى التدريس الجامعى وفى تكوين الطالب فى التعليم قبل الجامعى، لكن ربما يفوتك أن هذا التدهور هو أيضا نتاج «سياسة الجامعة» فالنجاح فى الجامعة أصبح شبه أوتوماتيكى، تضخمت قواعد الرفع والرأفة والنقل للفرقة الأعلى لطلاب راسبين فى بعض المقررات، حتى أصبح رفع النتيجة جزءا من حقوق الطلاب. فى المقابل تم إدخال نظام الفصلين الدراسيين مع الاحتفاظ بتنظيم معقد ومكلف للامتحانات يؤدى لأن تنحسر أسابيع الدراسة لحوالى عشرة أسابيع فى كل فصل دراسى، مما لا يتيح للطالب الوقت لهضم المقررات والعمل الجاد لينجح بمجهوده هو. كل هذه التبديلات والمخترعات جاءت «بقرارات سياسية» أو نتيجة «لقرارات سياسية»، نظام الفصلين الدراسيين: قرار سياسى، زيادة أعداد المقبولين عن القدرة الاستيعابية للكليات: قرار سياسى، يؤدى لتكدس الطلاب وصعوبة السماح برسوبهم حتى لا يزيد التكدس. حتى التفاصيل: يصدر رؤساء الجامعات قرارات بقواعد الرفع والنقل حتى لو خالفت هذه القواعد منطق التخصص، فينقل الطالب الراسب فى مواد أساسية لفرقة أعلى مع أن استيعابه لمواد الفرقة الأعلى قد يكون مستحيلا دون النجاح فى تلك المواد الأساسية. ورؤساء الجامعات (المعينون)، رغم كونهم أساتذة جامعيين ، إلا أنهم يتبعون إشارات السياسة التى تصعد بهم أكثر من منطق العلم والتخصص.

أيضا يستحيل فى النظام الحالى تعديل المناهج بشكل مستمر، إذ يتطلب أى تعديل فى اللوائح الداخلية للدراسة فى الكليات أن يوافق عليها المجلس الأعلى للجامعات ووزير التعليم العالى.

بالمثل تتبع الجامعات طموحات الساسة فى البحث العلمى، ويظهر هذا لو تابعنا المشاريع التى تحظى باهتمام إعلامى والمشاريع التى تجابه بهجوم أو تحاط بالصمت. ولعلك تذكر الحملة التى صاحبت فوز «أحمد زويل» بجائزة نوبل، ومشاريع إنشاء «جامعة تكنولوجية» تحت رعايته، ثم ما تمخضت عنه هذه الحملة من تلاسن بين أحمد زويل وأحد المسئولين، كما لعلك تذكر ما ملأت به وسائل الإعلام أسماعنا حول «ثورة الجينات» و«الهندسة الوراثية»، فماذا أنتجنا من كل ذلك ؟ وحملة أخرى مازالت مستمرة عن «تصدير البرمجيات»، بينما لا نرى دورا للدولة فى رعاية شباب الباحثين فى علوم الرياضيات والحاسب، ونرى تراجعا متواصلا للحجم النسبى للمنتجات المصرية فى سوق البرمجيات العربية.

فى الواقع تتدخل الاعتبارات السياسية فى تعيين المعيدين وفى توظيف موارد الجامعة فى المشاريع البحثية المختلفة، كما يؤدى انعدام الديمقراطية والشفافية فى

الإدارة الجامعية إلى فقدان الجامعيين لأى سلطة جماعية على اتخاذ القرارات بشأن البحث العلمى، ويبقى الأمر رهينا بالعلاقات الشخصية أو بالنوايا الحسنة لبعض المسئولين.

على جانب آخر نرى تدخلا سياسيا من نوع مختلف: محاولة «تعقيم» النشاط الطلابى، بمنع كل ما يثير حماس الشباب من أنشطة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، وتحديد شديد لحرية التعبير داخل الجامعة . نتيجة هذا المنع وهذا التحديد انحسار النشاط الطلابى، وفقد الطلاب حماسهم ومبادرتهم، فأصبحت الجامعة بلا روح، وطلابها يدورون يومهم وراء جمع الملخصات ونماذج الامتحان بحثا عن نجاح دون فكر.

بل أن هذا الجو الخامد انتشر حتى فى وسط هيئة التدريس، فلم يتحمس الأستاذ إذا كان لا يؤخذ رأيه فى القرارات الأساسية لمؤسسته الجامعية؟ المسئولون المعينون يفرضون اختياراتهم فى أغلب الأمور ولا يعبأون برأى زملائهم ، إذ لم يكن لهؤلاء الزملاء دور فى الوصول بهم إلى كراسيهم .

هل يكفى ذلك لإقناعك بأضرار السيطرة السياسية على الجامعات؟

لنحاول الآن أن نكون ايجابيين، ما هو البديل؟

لا يكفى أن نستبعد التدخل الحكومى كى تصبح المؤسسات الجامعية مستقلة، فكيف تدار مثل تلك المؤسسات الضخمة من داخلها ؟

متطلبات الاستقلال

لمفهوم الاستقلال الجامعى شقان: الاستقلال العلمى والاستقلال المالى والإدارى.

الاستقلال العلمى يعنى ألا تتدخل أى جهة خارجية فى تحديد محتوى ونظام التدريس والأبحاث فى الجامعة ولا توجهاتها العلمية ، يقوم الاستقلال العلمى على تعدد المستويات: فعلى مستوى التخصص يترك لمجالس الأقسام تقرير المسائل العلمية والتدريسية، وعند العمل بين تخصصات مختلفة يعمل مجلس الكلية على التنسيق والتوفيق بينها، أما فى الأعمال أو الدراسات ذات الاتساع أو الجديدة تماما فيحال الموضوع لمجلس الجامعة. الاستقلال العلمى إذن يلزمه تحديد واضح لحدود مسئولية المستويات المختلفة فلا تتعارض. يحتاج الاستقلال العلمى أيضا لدرجة عالية من المناعة للنقد أو حتى التهجم الخارجى، فبعض الدراسات أو الأبحاث الجديدة والمجددة قد تصطدم بعدم قبول اجتماعى، وعلى الجامعة فى مثل هذه الحالة أن تدافع عن طلابها وأساتذتها فى ممارستهم للدراسة الجادة والبحث العلمى الذى يحتاج لجرأة التجديد ويحتمل الخطأ – بل يحتاجه – كما يحتمل الصواب. يمكّن هذا الاستقلال أعضاء هيئة التدريس من التجديد لا فى البحث فقط بل أيضا فى التعليم، بإعطائهم القدرة على تعديل محتويات المقررات بشكل مستمر دون انتظار موافقات من جهات عليا كالمجلس الأعلى للجامعات.

الاستقلال المالى والإدارى يعنى أن تستقل الجامعة بإدارة مواردها البشرية والمادية. لابد أن تكون للجامعة موارد محددة منها ما يأتى من الحكومة ومنها ما يأتى من الأفراد والجهات الخاصة ومنها ما تحصل عليه الجامعة نتيجة تقديم خدماتها، ولا يحق لأى جهة تقدم جانبا من موارد الجامعة أن تتدخل فى إدارتها سوى فى حدود

الرقابة القانونية على المال العام. وتملك الجامعة أصولها من منشآت وتجهيزات وأراض دون أن يشاركها في هذه الملكية وحقوق التصرف فيها شريك. يعطى هذا الاستقلال للجامعة مرونة كبيرة وقدرة على التجديد، فيمكنها أن تنشىء وحدات بحثية أو تدريسية جديدة ، أو تحول مسار الوحدات القائمة دون عقبات إدارية.

لا يكتمل هذان الشقان إلا بجمعهما في غلاف من ديمقراطية وشفافية الإدارة، مما يعنى نظاما قائما بالأساس على أن يختار الجامعيون من يندبونه لإدارة مؤسساتهم بجميع مستوياتها وأن يتمتعوا بالوسائل اللازمة للرقابة على الإدارة.

ويحتاج استقلال الجامعة أيضا لمنح طلابها حرية أكبر في أنشطتهم والعودة لمبدأ عدم التدخل في الأنشطة داخل الجامعة، لتتحول الجامعة إلى واحة للفكر المتجدد والتعبير الحر تطلق في المجتمع نسائم التجديد مداوية تيبسه وجموده.

الناحية العملية

هل يمكن أن يتحقق هذا التصور المثالي ؟

يتحقق هذا المفهوم المثالي عن استقلال الجامعة إلى حد كبير في الجامعات الأوروبية: فمثلا ينص قانون التعليم الفرنسي على أن «المؤسسات العامة العلمية والثقافية والمهنية والتي تقوم بالتعليم العالي والبحث العلمي تتمتع بشخصية اعتبارية وبالاستقلال العلمي والتعليمي والإداري والمالي، وتتم إدارتها بصورة ديمقراطية بمشاركة كافة أفرادها من طلاب وأساتذة وموظفين وشخصيات خارجية..، وتحدد هذه المؤسسات سياستها التعليمية والعلمية بشكل مستقل مع احترام القوانين والتعاقدات التي تربطها»(٢)، ويحدد هذا القانون أيضا قواعد انتخاب رؤساء الجامعات ومجالسها وصلاحياتهم ... إلخ.

سؤال أخير.. كيف نضمن حق المجتمع تجاه المؤسسات الجامعية ؟

يمكن أن ترتبط الجامعات مع الدولة بعلاقات تعاقدية ، تمول فيها الدولة الجامعة، وتقدم الجامعة في المقابل خدمات تعليمية وبحثية مقومة ماديا. وتكون الرقابة على تنفيذ كل طرف لواجباته في يد جهاز من «الحكماء» ذو استقلال مماثل للمجلس الأعلى للقضاء . لا يعنى هذا أن تكون لدينا سلطة رابعة أو خامسة إلى جانب السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وإنما أن يكون لهذا المجلس سلطة محدودة بما يخص تمويل التعليم.

فهل ترى الآن أننا قادرون على بناء جامعات مستقلة تفي بحاجات الوطن والمواطن؟

وهل توافق على أننا نحتاج لجامعات مستقلة؟

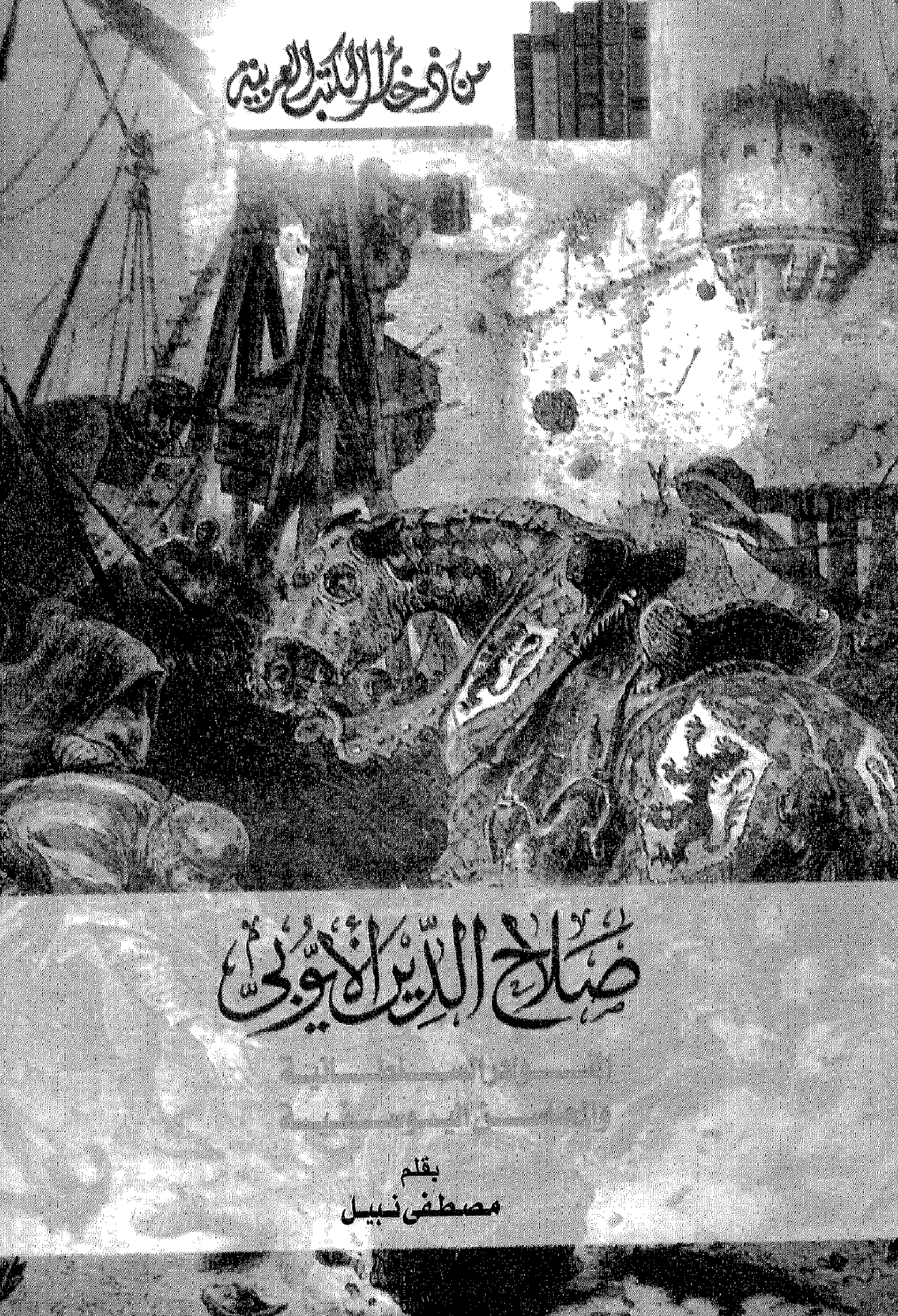
وهل نعمل جميعا كي يصبح هذا الاستقلال واقعا؟ ■

---

(١) اعتمدنا في هذا العرض التاريخي على كتاب د. رؤوف عباس: تاريخ جامعة القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤.

(٢) قانون التعليم الفرنسي: الجزء الثاني – الكتاب السابع – العنوان الأول حول انشاء واستقلالية المؤسسات العامة ذات الطبيعة العلمية أو الثقافية أو المهنية.




من ذخائر الكتب العربية
صلاح الدين الأيوبي
بقلم
مصطفى نبيل



على طريقة ملوك أوروبا ، تصور فنانو القرون الوسطى صلاح الدين مرتدياً التاج ، مع الحفاظ على العمامة وسيفه الأحدب

ريتشارد الأول ، ملك إنجلترا الذى عرف بـ « قلب الأسد »



« النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية » سيرة حياة صلاح الدين ، أبرز أبطال عصره ، سجلها القاضى بهاء الدين بن شداد ، الذى صاحب صلاح الدين وخالطه وجالسه ، وله معرفة عميقة به ، والكتاب وثيقة مهمة تنقل التاريخ الحى لعصر بأكمله ..

وساهمت معاصرة ابن شداد لصلاح الدين فى الإلمام بدقائق وتفاصيل حياته وأعماله ، وتفوق ما يكتبه المؤرخ فى عصر لاحق من ناحية، إلا أنها تقود إلى التأثر بالمعارف والقيم فى عصرها ، وتحيز كاتب السيرة - على الأرجح - لمعاصره .

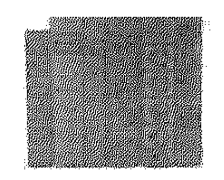
ويزخر التاريخ العربى بالتراجم لأبرز الشخصيات ، فيكتب مثلا محمد المدينى البلدى سيرة ابن طولون ، ويترجم محيى الدين بن عبدالظاهر للظاهر بيبرس ، وتغنى هذه التراجم الدراسات التاريخية المعاصرة .

التحق كاتب السيرة بهاء الدين بن شداد بصلاح الدين بعدما كان قاضيا فى حلب ، والتقى بصلاح الدين وهو يحاصر قلعة «كوكب» فى الشام، وأصبح من أقرب خلصائه ، يصحبه ويستشيره .

وألزم بهاء الدين نفسه فى مقدمة كتابه .. بإبداء ما حققت من حسناتها .. وما سفرت ، إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبرا يقارب العيان .. وحول علاقته بصلاح الدين ، يقول .. «كان الله قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته ، .. وسير إلى بعد لقائه .. أنه لن يمكننى من العودة إلى بلادى .

***

وبداية .. هذا المقال ليس سردا لوقائع الحروب الصليبية، ولا سردا لما سجله بهاء الدين ، فعلاوة على أن هذه الوقائع باتت معروفة ، وفى متناول من يطلبها ، وإنما اقتصر على تناول بعض الوقائع فى إطار دلالتها ، فليس هنا مجال التأريخ لهذه الحرب الطويلة المتشابكة .



ويعنيني ماهو معاصر ، فكثيرا ما يردد القادة الغربيون هذه الأيام كلمة «الحروب الصليبية » ، أي الحروب الدينية المقدسة ، كما أني من المؤمنين بأن على البشرية أن تتجاوز الصفحات المظلمة من ماضيها ، ولا تقف عند أحقاد الماضي ، وأن تنبذ الحروب ، وأن تقيم حضارتها الحديثة على ركائز من العدل والحرية ..

ولكن ها هو الرئيس الأمريكي جورج بوش يذكرنا بها وهو يشن حملته على الإرهاب بعد ١١ سبتمبر ، ثم يعود ويتراجع ، وتكررت ذلة اللسان مع عدد من قادة الغرب ، وكثيرا ما جاء على لسان تاتشر عندما كانت رئيسة الحكومة البريطانية كلمة «الحروب الصليبية» ، ومازلت أذكر عندما زارت موسكو ، وصفت رحلتها بأنها «حملة صليبية» !

ويرى المؤرخ البريطاني توينبي أن الحروب الصليبية هي التي أدت إلى قبول بريطانيا الانتداب على فلسطين ، وهي وراء صدور وعد بلفور ، وخلف تأييد بريطانيا للهجرة اليهودية إلى فلسطين .

ولم يمح من الذاكرة بعد قول القائد البريطاني اللنبي عندما دخل القدس .. «ها قد عدنا يا صلاح الدين» !!

والسؤال الذي مازال يتردد هو، هل كانت الحروب الصليبية حروبا دينية؟!



لم يستخدم هذا المصطلح الرجال الذين قاموا بالحملة الأولى ، بل ولم يستخدمه المؤرخون المسلمون الذين عاصروا هذه الحروب ، فلا تعثر على هذا المصطلح على لسان مؤرخنا بهاء الدين بن شداد ، ولم يرد في كتابات ابن الاثير أو المقريزي وابن تغرى بردى، وأطلق الجميع عليهم كلمة «الفرنج» ، مدركين أنها مغامرة استيطانية .. وإذا كان الكاتب يستخدم هذا التعبير ، فلأن هذا هو المصطلح السائد ، بعدما جاءت جيوش الغرب تحت راية الصليب .

ولم تكن هذه الحرب صراعا بين المسيحية والإسلام ، إنما «صراع قوى» وصراع مصالح ، يقوده الجهل ، وتستطيع الغوغائية أن تحيل أنبل المشاعر إلى نار حارقة .

وأفصحت هذه الحرب عن حقيقتها عندما أخذت الصبغة الدينية تقل مع الزمن حتى خلال هذه الحرب ، ويميل العديد من المؤرخين المعاصرين ، إلى أن دوافع هذه الحرب كانت بعيدة كل البعد عن الدين ، وأنها كانت إحدى نتائج الصراع بين البابا والملوك والأباطرة في أوروبا ، وأنه كان يأمل من وراء إشعالها أن تتزايد سلطته ، وأن تتوحد الكنيستان البيزنطية والرومانية تحت رئاسته ، ومن ناحية أخرى رغبة الكثير من القوى الجديدة في تجاوز النظام الإقطاعي ، وحتى يمكن للفرسان تحقيق طموحاتهم .. بدأت الحروب تقل داخل فرنسا ، وبدأت هجمات المغيرين تخف حدتها ، إلا أن الجماعات المسلحة المحلية لم تتفكك ، وفقد العديد من القيادات سواء الكونتات أو الأدواق سيطرتهم ، وأصبح إرسالهم للشرق، وإعطاء غطاء مقدس ضروريا لما يقومون به ، فوجود مبرر ديني لاستخدام القوى بجعل العمل العسكري ممكنا ومبررا ، ويذهب الجنود إلى الموت راضين !

كما نظر البابوات ورجال الدولة إلى هذه الحرب باعتبارها وسيلة ناجعة لتوجيه الجذوة القتالية من الداخل إلى الخارج ، من حرب بعضهم بعض إلى حرب الاغيار

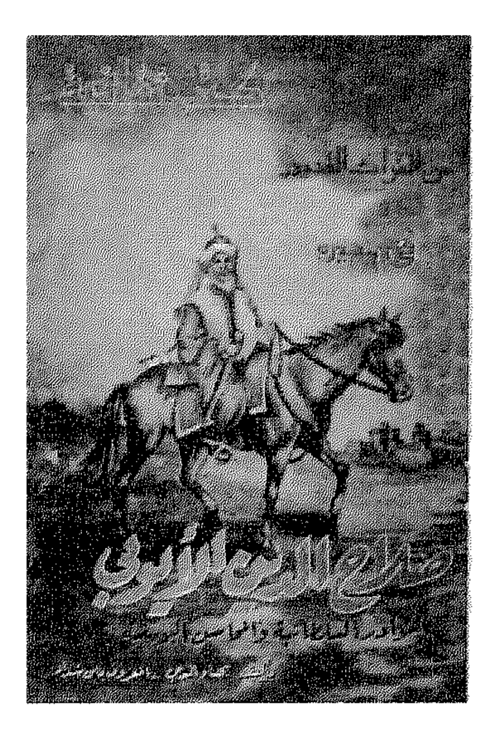
هذا ما يؤكده السياق الذى اشتعلت فيه الحرب ، وجاءت الشرارة الأولى عندما وجه امبراطور الدولة البيزنطية طلبا إلى البابا ليدعو أمم الغرب إلى نصرته ، بعد أن تساقطت مدنه وقلاعه أمام السلاجقة الأتراك .

وكان السلاجقة قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا ، وفقد البيزنطيون معظم أراضيهم فى آسيا فى معركة مانزكرت عام ١٠٧١ م . وشعر الامبراطور كومنينوس بالخطر فطلب من البابا المساندة .

وألقى البابا أربان الثانى البريطانى فى حشد كبير بكليرمون إحدى المدن الصغيرة جنوب فرنسا يدعو أتباعه للحج المسلح حتى يتم غفران ذنوبهم ، ودعا إلى حملة مقدسة تحت راية الصليب .

وفى كلمته التى نقلها وليم الصورى ، مؤرخ الافرنج يقول البابا .. «لست أنا الذى أدعوكم ، ولكن الرب هو الذى يحثكم ..»، ونادى الفرسان بالتوقف عن الصراع فيما بينهم ، وأن يقدموا المساعدة لإخوانهم فى الأناضول، وعليهم بعدها أن يحرروا إخوانهم من عبودية الكفار .. !، وأن يسيروا إلى أورشليم ويحرروا مقبرة المسيح ! والرب هو القائل بصوت أشعيا .. ميراثى إسرائيل ، .. « إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل ، تملكها الآن شعب هو ابن الجارية المصرية هاجر الذى يتعرض لأبناء المرأة الحرة - سارة -.. حتى قالت: «أطرد هذه الجارية وابنها» .

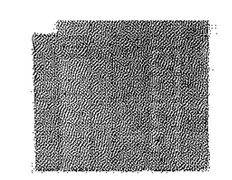
ولم يخف البابا الدوافع الحقيقة لتلك الحملة عندما قال .. « هذه الأراضى التى تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل



جانب وتحيطها سلاسل الجبال ، وتضيق بأعدادكم الكبيرة ، وهى لاتفيض بالثروات الكبيرة ، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقوم بزراعتها ..» .

وكانت هذه هى الشرارة التى أشعلت حربا استمرت قرنين من الزمان فى مغامرة الغرب فى القرون الوسطى .

وإذا رجعنا إلى «دائرة المعارف البريطانية» التى يستحيل اتهامها بالتحيز للشرق والإسلام نجدها تقول إن أحد أسباب هذه الحرب هو إطلاق القوة الزائدة فى غرب أوروبا من عقالها ، والدليل ما نجده فى صفحات التاريخ من صراع بين ملوك وأمراء أوروبا الغزاة ، صراع لا على القدس ، ولكن على اقتسام أجزاء واسعة من البلاد الإسلامية ، ثم تؤكد دائرة المعارف البريطانية أن المسيحيين الارثوذكس الشرقيين اشتركوا فى مقاومة الغزو الأوروبى البيزنطى ، ورفضوا الخضوع للكنيسة الكاثوليكية، وتؤكد دائرة المعارف ، أن الشرق الإسلامى لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين ، وهذه الحرب هى التى تسببت فى بعض حالات الاضطهاد الدينى كإحدى



صور رد الفعل .

وهذه هي الأسباب التي من أجلها فكر الغرب في «غزو الشرق» هدفه الذي لم يتغير ، أو إقامة دويلات أوربية (مستوطنات) داخله ، تتحكم في بقية المنطقة الاستراتيجية ، الغنية ، والقريبة .

وهكذا وفي هذا السياق ، قامت إسرائيل التي وصفها أحد القادة العسكريين الأمريكان أنها حاملة طائرات غربية في الشرق الأوسط !

ولعلنا لم نبعد كثيرا عن سيرة صلاح الدين وحديث ابن شداد ، عندما نلمح في سرده كيف أن الأغراض الدنيوية كانت أقوى من الأغراض الدينية ، وكيف قامت حركة ضد تأثيرات الشرق على المستوطنين الذين استوطنوا هذه الممالك وجاءوا مع الحملات الصلبية .

وكلما قلبت صفحات النوادر السلطانية توالت المشاهد .

.. عندما طال القتال وأنس البعض بالبعض ، بحيث أن الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال ، وربما غني البعض ، ورقص البعض ، لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال .. قالوا يوما .. إلى متى نقاتل الكبار وليس للصغار نصيب ، تريد أن يتصارع صبيان .. وهكذا.



والغريب والمدهش أن هناك أفكارا تتناسخ وتعاود الظهور في أشكال جديدة ، والتي تساهم في إشعال الحروب وقتل الأبرياء ... مثل :

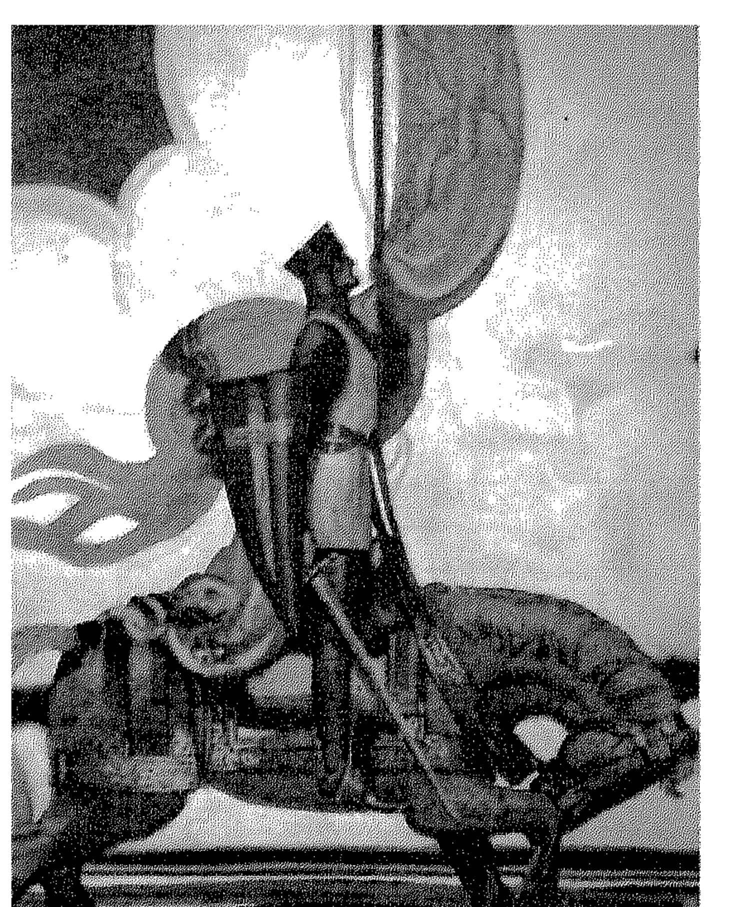
- زعم شعب من الشعوب أنه شعب الله المختار ، هذا ما زعمته الحملة الصليبية، وهم يحملون رسالة الرب .. وهذا ما يزعمه الصهيونيون اليوم .
- التشبه بالنبي موسى عليه السلام ، الذي قاد أتباعه من مصر إلى الأرض الموعودة .
- انتظار عودة المسيح عليه السلام.

ملامح شخصية

ولم يترجم حياة صلاح الدين بهاء الدين بن شداد وحده ، وإنما سجل سيرته أيضا عماد الدين الأصفهاني ، ولكن ابن شداد كان الأقرب لصلاح الدين ويلاحظ أنه تجنب الحديث عن حياته الشخصية ، فمثلا لم يتناول زواجه السياسي ، من أرملة نور الدين عصمة الدين خاتون ابنه معين الدين ، لكي يعطي شرعية لخلافة نور الدين ، ويشير بهاء الدين إلى الجانب السياسي .. « لم تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلا لاينهض بأعباء الملك .. تجهز للخروج إلى الشام، .. أصل بلاد الإسلام ..» .

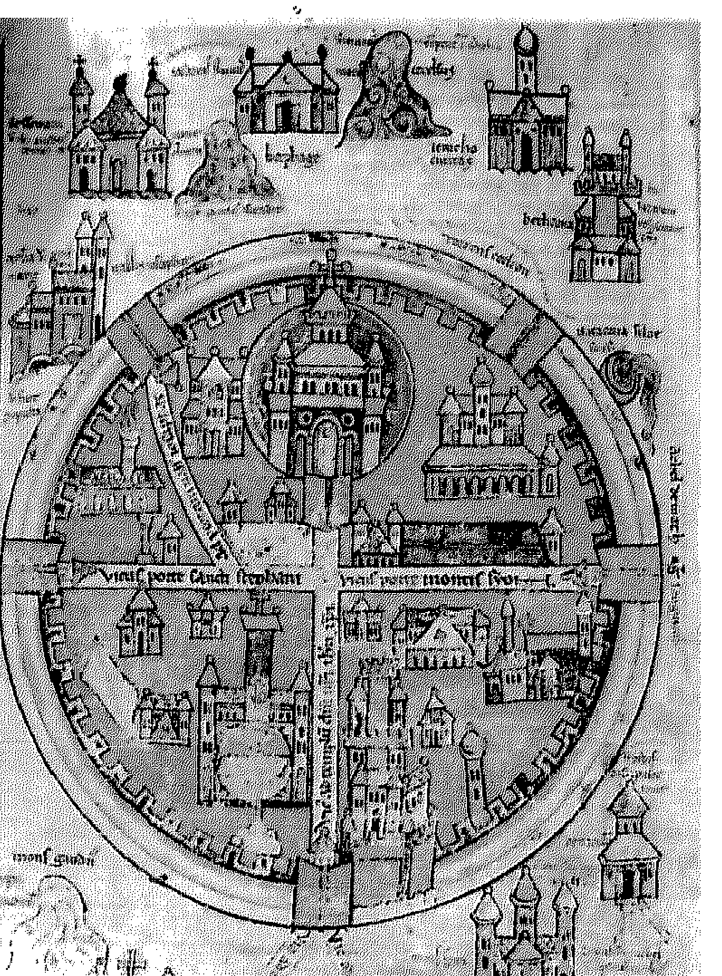
وقدم ابن شداد ملامح صلاح الدين الشخصية في العديد من المشاهد والحكايات. ويقول في وصفه .. «إنه قضى حياته صابرا على مر العيش وخشونته ، مع المقدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى .. ».

ويورد نصيحة صلاح الدين لابنه وهو الذي قضى حياته بين صليل السيوف محذرا من سفك الدماء .. «أحذرك من الدماء ، والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لاينام .. ولاتحقد على أحد فإن الموت لايبقي أحدا .. واحذر ما بينك وبين الناس ، فإن الله لايغفر إلا برضاهم .. ».



الصورة المثالية للمحارب الصليبى فى مخيلة فنانى القرون الوسطى، كما تصورها الفنان جراهام سيمون

خريطة تصور « مملكة القدس » بعد الاستيلاء الصليبى عليها ١٠٩٩ م مأخوذة من «تاريخ الحروب الصليبية» لروبرت مونك



وهذه بعض السمات الشخصية لصلاح الدين تتابعت فى ترجمته مشاهد نزول صلاح الدين على رأس أمراء جيشه ، وعدم فرض رأيه ، وهو دائم طلب المشورة فى أمور الحرب والسلام .

وكان مولده بقلعة تكريت ، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل .. واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة ، ثم ذهب إلى مصر مع عمه.

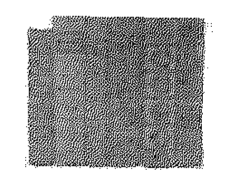
وكان من جالسه لايعلم أنه جليس السلطان ، بل يعتقد أنه جليس أخ من الإخوان . ويدلل على كرمه .. منذ رحيله من حران ، قال .. « انظر من بالباب من الوافدين ، وهذه ثلاثمائة دينار قسمها عليهم بالقلم بأقدارهم ..» وسمعته يوما يقول «يمكن أن يكون من الناس من ينظر إلى المال ، كما ينظر إلى التراب» ، ويضيف «فكأنه أراد بذلك نفسه» .

لقد بلغ كرم صلاح الدين حدا كبيرا ، وهذا بهاء الدين يقول .. «كان خازنوه يخفون على الدوام بعض المال للطوارىء ، لأنهم كانوا يعلمون أنه لو عرف السيد بذلك المخزون لأنفقه فى الحال .

وإذا أضاف إليه البعض لقب السلطان، ولكنه هو نفسه لم يستعمله قط .

.. وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد ، عظيم الاهتمام به ، .. وأنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا فى الجهاد .. ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا إلى آلته ، ولا اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه .. وقنع بالدنيا بالسكون فى ظل خيمة .. ولقد ألف له كتب عدة فى الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا» .

ويصف مقدرته وعنادة فى القتال وموقفه عند الكسرة .. يقول .. «لقد انهزم المسلمون فى يوم المصاف الأكبر بمرج



عكا ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو ثابت القدم فى نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم، ويخجلهم حتى يرجعوا للقتال ، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم .. » ، وفى مشهد آخر يصور صلاح الدين وهو يتألم من مرض ألم به ، ومع ذلك يمتطى جواده ويحمل سلاحه ويستمر فى القتال .. «أما صبره فلقد رأيته بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعتراه .. بحيث لايستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئا على جانبه إذا كان فى الخيمة ، وامتنع عن مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر ، يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب، وهو صابر على شدة الألم ..»، ويصفه وكأنه يحدد مواصفات الحاكم الصالح .

.. «وكان رحمه الله كثير المروءة ، ندى الوجه ، كثير الحياء ، منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف ، يكرم الوافد وإن كان على غير دينه ، وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة، حافظا أنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، عارفا بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث يستفيد محاضره منه مالا يسمعه من غيره .. وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحدا إلا بالخير .. وطاهر اللسان، فما رأيته أولع بشتم قط .. فما أحضر بين يديه «يتيم» إلا وترحم على مخلفه ، وخبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه ، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ..» .

ويذكر ابن شداد .. أنه مات ولم يوجد في خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة ودينار واحد من الذهب ، وهو الذى كان تحت يديه خزائن الأرض .

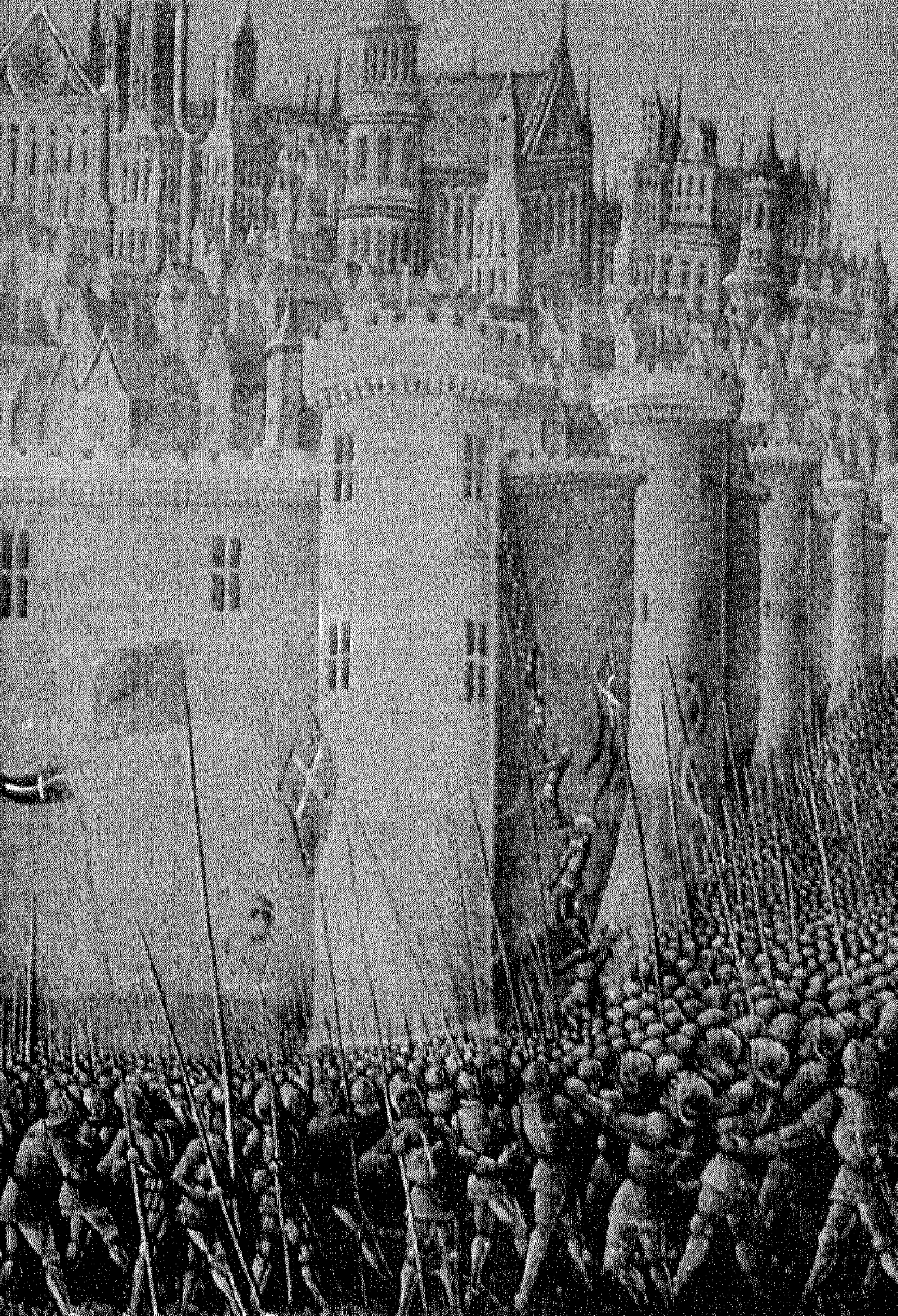
ويصف يوم وداعه .. «كان يوما لم يصب الإسلام والمسلمين مثله ، منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة – قلعة دمشق – والبلد والدنيا الوحشة .. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم فظننت هذا ضربا من التجاوز والترخص إلا يوم وفاته ، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل القضاء لفدى بالنفس، ولو تقبل تضحياتنا لكنت أنا وغيرى، قد أعطينا حياتنا له .

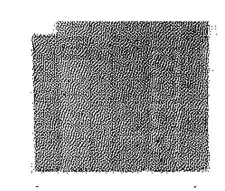
ومات عن نحو سبع وخمسين سنة، وملك مصر أربعا وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة» .

مكانته ..!

وتأتى مكانته من أنه قضى معظم حياته وهو يقاتل ، رجل قوى صلب عنيد وحد الدول الإسلامية وانتصر فى حطين واسترد القدس، ورغم أنه لم ينتصر في كل معاركه ، إلا أنه لم يتوقف لحظة عن القتال ، وكانت حطين أكبر من نصر عسكرى ، فهى بداية القضاء على الحملة الصليبية ، وهى بالنسبة للصليبيين أكبر من مجرد هزيمة عسكرية ، فخلالها أسر ملك بيت المقدس وسقط فرسان الصليب وقضى على غالبية جيش مملكة بيت المقدس .

◀ حصار أنطاكية » والاستيلاء عليها ١٠٩٧ ، كانت البوابة لرئيسية لوصول الصليبين إلى القدس





وأجمع الأصدقاء والأعداء على مروءته واستقامته الشخصية ، فلا يعد إلا ويوفي بما وعد ، ولا يعاند ، إذا واجه صعوبة تركها ولكن لا يتخلى عن هد فه أبدا ، بل يعود إليه بعد استكمال شروط الانتصار ، ولا يخاف الصلح إذا اقتضت الضرورة ذلك ، ولم يخرق هدنة وقعها ، فكانت شخصيته تحمل من السجايا ما يؤهله لبناء الدولة التى امتدت من شمال العراق وديار بكر حتى اليمن جنوبا ونهر الفرات فى الشرق ونهر النيل فى الغرب ، وجمع القوة الإسلامية بين يديه ، وكانت قبل قيادته تقصر على عواصم الشام والجزيرة، وما عدا ذلك فى يد الفرنج أو تحت الحكم الفاطمي . وكان الشرق نهبا للاقتتال ، وتورطت هذه الإمارات فى الحروب والمنازعات .

وعند رحيله كانت القاهرة ودمشق وبغداد صفا واحدا ، لذا كان ظهور صلاح الدين استجابة لحاجة ماسة، فسرعان ما رجع صلاح الدين إلى روح الدين ، وخلال فترة لم تتجاوز عشر سنوات ، أصبح قائدا معترفا به من الجميع .

وقد عمل على تجنب



المواجهة إلا عندما يكون قادرا عليها ، وأدرك أهمية توافر المعلومات فى إدارة الصراع ، فبث عيونه فى كل مكان ، ترصد تحركات الفرنجة ، وذكر ابن الأثير أن زوجة الأمير الصليبى بوهيميد الثالث كانت تنقل إليه تحركات الجيش وأخباره .. وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه ، وامتزجت عنده الفروسية بالرحمة ، وبفضل ذلك مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر ، وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية التى سبق وارتكبتها جيوش الفرنجة ..

كما كان دهاء صلاح الدين السياسى لايقل عن مقدرته العسكرية ، فقد وحد المسلمين ، وقلب على الفرنجة لعبة الإيقاع بين أعدائهم ، وأوقع بينهم مدركا طبيعة المصالح التى تحركهم ، فأوقع بين بيزنطة وروما ، واستمال تجار الدول الايطالية بالتجارة مع مصر .

وصفه الرحالة ابن جبير بقوله .. «لا يأوى لراحة ، ولا يخلد لدعة ، ولايزال سرجه مجلسه» .

ووصفه عبداللطيف البغدادى .. «إن القريب منه لايستطيع سوى أن يشعر بحب ممزوج بالهيبة» .

ووصفه مؤرخ الفرنجة ويليم الصورى .. « حكمه مفعم بالحصافة ، شجاع فى الحرب، كريم لدرجة الإسراف .. ».

ولا يفوتنى أن أذكر أن الكتابة التاريخية فى هذا العصر وصلت إلى أرقى مستوى ، وهذه الكتابات دليل حى على مدى التنوع والثراء الذى وصل إليه التدوين التاريخي ، حتى أن بطلا مثل صلاح الدين ، يتعرض لكثير من النقد من ابن الأثير ، وخاصة عندما يتخلى عن حصار صور ، الأمر الذى أدى إلى قوة أعدائه ، بل ورآه مسئولا عن تحصينها وإمدادها بالمحاربين «فصلاح الدين هو الذى جهز جنود الافرنج وأمدها بالرجال والمال من التاركين لعكا وعسقلان والذين أعطاهم الأمان ..» .

رمز الوحدة

أقول .. الوحدة هي أكبر إنجازاته وطريقه للنصر والقيادة .. ونلمح بوضوح فى حكاية القاضى ابن شداد، أن هزائم الشرق كانت مرهونة بانقسامهم وصراعاتهم وخلافاتهم ، وأن صلاح الدين هو رمز وحدتهم .

وعندما كسب الصليبيون الجولة الأولى فى هذه الحرب ، ونجحوا فى احتلال كل من الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس .. كان «الانقسام» هو الجنرال الذى يعمل إلى جانبهم .

وكما كانت القدس هدف الحملة ، كانت أيضا الدافع للوحدة ..

وقبل صلاح الدين توزعت البلاد على أمراء الأتراك الشراكسة ، وعندما سعى الخليفة العباسى لإقامة جيش موحد للخلافة ، قام عماد الدين زنكى حاكم الموصل بإنزال الهزيمة بهذا الجيش ، وعندما عين الخليفة الفاطمى الحافظ ابنه وزيرا تآمر على أبيه .. «واستبد بالأمر ، وقتل كثيرا من أمراء الدولة ، مما جعل الأب يدس السم لابنه ليتخلص منه .. ».

وقبل الغزو الصليبى شهدت الشام صراعا مريرا بين السلاجقة والفاطميين وينقل د. سعيد عاشور عن المؤرخ ابن العديم قوله .. «كانوا (الأمراء) يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه !» ، والأدهى أنه لم يتوقف الأمراء عن التحالف مع الإمارات الصليبية فى صراعهم بين بعضهم البعض . وكانت الأسر العربية ترقب انهيار السلاجقة ، ولم يتدخل أحد لإنقاذ أنطاكية ، ويروى ابن الأثير .. « كان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ، وصاحب دمشق – بأننا لانقصد سوى البلاد التى كانت للروم».

ولم يكن فى نهاية القرن الحادى عشر حاكم مسلم واحد قوى ، بل كان هناك عدد من الأمراء المحليين المتنازعين، وعندما ظهر عاهل قوى ، عماد الدين ونور الدين وبعدهما صلاح الدين ، عجز الصليبيون عن الاحتفاظ بإماراتهم.

وبدأ العالم الإسلامى يقظته وأخذ يشهد غضب الأهالى العاديين ، ولم تعد هذه الحروب تعنى الحكام وحدهم، وأخذ هؤلاء يتساءلون عن تخاذل الحكام وفرقتهم ، وأخذ الفقهاء والعلماء والقضاة يخطبون فوق المنابر، ويدعون إلى الجهاد ، وظهرت الكتب التى تحض على الجهاد ، كما أثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الغضب .

وأدرك الجميع أن الصليبيين جاءوا من أجل البقاء ..

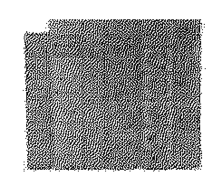
وحان الوقت بعد إدراك الأهالى لطبيعة الخطر أن نشهد تحركا تلقائيا.. يقدمه بهاء الدين .. «تبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص فى ردهم فلم يفعلوا، ولقد أمر من الرجالة ضربهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى قتال شديد ، وأسر الافرنج جماعة من الرجال وقتلوا جماعة .. وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا .

هذا وقضى صلاح الدين ١٣ شهرا فى قتال الفرنجة ، و٣٣ شهرا فى حملات من أجل وحدة المسلمين ، وبعد ما تحققت الوحدة ، شرع فى محاربة الجيوش الغازية ، أى أنه نجح فى إقامة الإطار السياسى الذى يمكنه من تحقيق النصر . وكانت كل الظروف تدعوه للعمل ، ويبرز هنا كزعيم مميز، لديه الفطنة والحس السياسى والرؤية العامة ، الذى يعرف ماهو مطلوب، ويعمل على إعداد أرض المعركة والسيطرة على مختلف القوى ، ثم دفعها لكى تعمل من أجل تحقيق أهدافه .

صلاح الدين فى مصر

كانت مصر بموقعها وبشرها ومواردها





كفيلة ، بترجيح كفة أحد الطرفين المتصارعين على حدودها الشرقية فى أرض الشام ، وغدت مصر الجائزة الكبرى التى يسعى إلى الفوز بها الجراكسة أو الافرنج .

هذا بعد تراجع الدولة الفاطمية وخروجها من الشام ، إما بسبب هزائمها أمام الجراكسة الأتراك وإما نتيجة ضربات الافرنج .

فقد استولى الصليبيون على القدس بعد فرض حصار على المدينة المقدسة استمر خمسة أسابيع فى يونيو ويوليو ١٠٩٩ ، وتمكن الصليبيون من اقتحام المدينة يوم الجمعة ١٥ يوليو ، وأبيحت القدس للسلب والنهب والقتل وطرد منها اليهود والمسيحيون الشرقيون ، وقامت مملكة بيت المقدس الصليبية .

وخرج بلدوين ملك بيت المقدس عام ١١١٦ م فى حملة إلى خليج العقبة ، وبنى قلعة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، وشيد قلعة فى جزيرة فرعون حتى يحول دون تدخل الجيش المصرى فى الشام .

وتحقق فى عهد نور الدين قدر من التوازن بين السلاجقة والصليبيين لذا عمل



كل منهم لكسب مصر إلى جانبه ، ووصلت قوات بلدوين إلى الفرما – أول المراكز الأمامية فى مصر والتى تقع شمال بورسعيد الحالية ، وبعدها غزا عمورى الدلتا سنة ١١٦٣ م ، ووصل إلى بلبيس ، وأغرقه الفيضان فى دلتا النيل ، وانسحب «بعد أن قتل من أهلها خلقا كثيرا وخرب وأحرق جل دورها ..».

وكانت الخلافة الفاطمية فى هذه الأثناء فى الطور الأخير من عمرها ، بعد أن أنهكتها الكوارث وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيدى الوزراء – كما ذكرت – حتى أنه لم يكد يضرب الفرنجة الحصار على أنطاكية حتى أرسل الوزير الفاطمى الأفضل يطلب من الفرنجة اقتسام البلاد ، انطاكية لهم وبيت المقدس للفاطميين ، ولم يدرك المسلمون فى هذه المرحلة طبيعة الخطر، وظنوا أن تلك الحملات ليست أكثر من الاشتباكات السابقة بين الدولة البيزنطية والإسلامية على التخوم بينهما .

وهنا بدأ نجم صلاح الدين يبزغ عندما صحب عمه أسد الدين شيركوه، ولم يتجاوز عمره السابعة والعشرين على رأس جيش بناء على طلب شاور لمساعدته ضد ضرغام الذى يسعى للتحالف مع الفرنجة .

ويتناول كاتب سيرته بهاء الدين هذه المرحلة بقوله .. « إن صلاح الدين كان موضع ثقة عمه الذى لايفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ، ثم عاد ودخلها للمرة الثانية سنة ١١٩٦ م . ثم اختاره الخليفة الفاطمى وزيرا سنة ١١٧١ م ، ومن يومها وهو صاحب الكلمة العليا فيها .

ويسجل القاضى ابن شداد اختيار الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه وزيرا .. « وأطلق عليه لقب الملك المنصور، ووافاه الأجل بعد شهرين وخمسة أيام، وتولى صلاح الدين الوزارة باعتباره أقل أمراء جيش نور الدين شأنا ، ولقب بلقب الملك الناصر ، ولم يكن عمره تجاوز

واحدا وثلاثين عاما ...».

ويضيف .. « استتبت الأحوال .. وبذل المال ، وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها ، .. فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد والاجتهاد، ناشر مذهب أهل السنة ، غارس فى البلاد أهل العلم والفقه والتصوف» .

وتمكن صلاح الدين من القضاء على الخلافة الفاطمية لأن الحكم كان فاطميا والشعب سنيا ، ودعى فى القاهرة فى أول جمعة سنة ٥٦٧ هـ للخليفة العباسى ، فى ظل الخليفة الفاطمى الذى كان على فراش الموت ، وسقطت الدولة الفاطمية بعد نحو قرنين، «ولم ينتطح فيها عنزان» على حد قول ابن الأثير ..

ولم يكن بهاء الدين بن شداد محايدا ولا منصفا ، وهو يتناول هذه الوقائع ، وخاصة عندما يقول .. «كان لوصولهم إلى مصر – قوات أسد الدين – وقع عظيم ، وخافه أهل مصر،.. وعرف أنها بلاد بغير رجال!!، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال !

وهو هنا واقع تحت تأثير ذلك الصراع الذى دار بين شاور وضرغام، ثم بين شاور وصلاح الدين، وكان يعيد قول شاور وهو يدعو نور الدين إلى إرسال حملة لتأييده ضد ضرغام ، ثم انقلب على الحملة واستخدمها حتى يضرب خصمه بسيف نور الدين ، وهو الذى أحرق الفسطاط ، وظلت النيران مشتعلة أكثر من خمسين يوما، .. كما «اتفق شاور مع الافرنج ضد أسد الدين، .. وجرت بينهم حروب كثيرة..» كما ينقل ابن شداد .

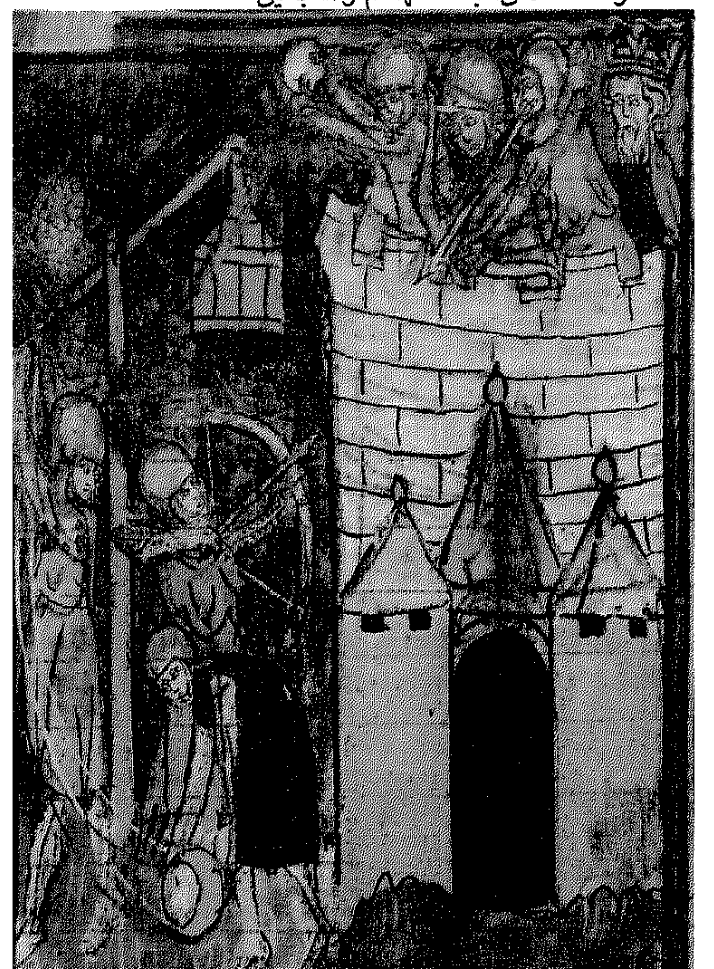
كما أن هذا الحديث إحدى نتائج الصراع القديم بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وعندما كانت الحرب مشتعلة بينهما فى الشام ، وعند انتزاع الجراكسة الأتراك دمشق وبيت المقدس من الفاطميين

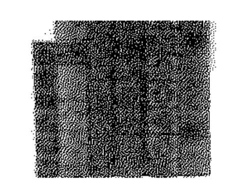
وكان انفراد صلاح الدين بالحكم فى



بورتريه لصلاح الدين الأيوبى كما صورته المخطوطات الفارسية – ١١٨٠ م

لوحة تخيلية من القرن الرابع عشر ، تتناول حصار « القدس» بالسهام والمنجنيق





مصر مقدمة لمرحلة حاسمة ، فمن الطبيعى الاستجابة إلى منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا ، وتصبح مصر ميدانا أساسيا فى مواجهة الغزو ، وأكدت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل تلك المرحلة التاريخية . وبدأ صلاح الدين طريقه الطويل ، وقضى فى مصر ست سنوات لإعادة ترتيب الأوضاع الداخلية . يقول عندما احتدم الصراع بعد وفاة نور الدين إلى أمراء نور الدين بالشام « .. لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه ..» .

وأقام فى مصر المدارس والمستشفيات، وطهر الترع وقوى الجسور ونظم الضرائب ، إلى جانب تحصين البلاد وأقام قلعة الجبل ، وأعاد بناء ما تهدم من سور القاهرة ، كما قام ببناء حائط كبير خارج القاهرة عن طريق الاسكندرية ، مع إعداد البلاد للحرب الطويلة ، واختار مكانا بارزا القلعة فوق صخور جبل المقطم والتى تشرف على القاهرة ، مما يمكن المدافعين من صد أى عدوان، وأحاط قلعته بخندق عميق ، ووصف ابن جبير القلعة سنة ١١٨٣ م ، بأنها حصن حصين المنعة ،



ووصف الخندق بأنه «ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر ، حجبا من العجائب الباقية ، وأمر صلاح الدين بعمارة أسوار الاسكندرية، وأبراجها .. «وتردد على ثغرى دمياط والاسكندرية ، وشاهد ما استجد من السور الدائر ، وتفقد الأسطول» .

وأمدت مصر بالفعل المعركة بالرجال والسلاح والتموين ، وكثيرا ما يتكرر قول ابن شداد معلنا وصول العسكر والميرة إلى أرض المعركة من مصر ، وتمكن الأسطول المصرى من مواجهة الأسطول الصليبى ، ومثلا يقول عند حصار عكا .. «وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات ، وصلت من مصر » .

وأصبحت مملكة بيت المقدس بين شقى الرحى بين مصر والشام ، كما أن القواعد البحرية فى دمياط والاسكندرية سلبت الصليبيين سيادتهم البحرية .

وبقى أن أقول إن رمز عصر صلاح الدين فى مصر ، خصى أبيض هو بهاء الدين قراقوش (العقاب) الأسدى ، ويضرب به المثل حتى اليوم كرمز للطغيان ، وهو الذى أنجز المشروعات التى كلفه بها صلاح الدين بيد من حديد، كما جاء شنق الشاعر عمارة اليمنى فى القاهرة ، بتهمة التآمر من أجل إعادة الحكم الفاطمى ، وجاء بعدها مصرع شهاب الدين السهروردى ، بأمر من صلاح الدين ، وبتحريض من علماء حلب وفتوى منهم، ويروى ابن شداد «أن صلاح الدين كان كثير التعظيم لشعائر الدين .. مصدقا ما وردت به الشرائع ، مبغضا الفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة .. أمر ولده بقتل شاب نشأ ، يقال له السهروردى قيل إنه كان معاندا للشرائع ، وعرف السلطان فأمر بقتله..»!

وهو مؤشر واضح أنه فى ظل الحروب ، يتقلص هامش الحرية ، ولايوجد أى تسامح مع احتمالات الاختراق ، ولا شطحات الصوفية !!

وربما يمكن تفسير مقتل السهروردى ،

مخطوطة تعود إلى ١٢٨٢ ، من كتاب الألعاب لألفونس سيج ، تصور لعبة الشطرنج كلعبة عربية شعبية جذب غموضها الأوروبيين مع قدوم الحملات الصليبية ، واعتبروها تدريباً على التفكير الرياضى والمنطق الهادئ

وبيع مكتبة القاهرة الفاطمية على ضوء رغبة صلاح الدين توحيد الجميع تحت لواء مذهب واحد .

«وفى الخامس من محرم سنة ثمان وسبعين رحل السلطان قاصدا الشام ، ولم يعد بعدها إلى مصر»!

وحقا .. لقد نجحت هذه الدولة فى مهمتها التاريخية . فى مواجهة الغزو ، ولكنها فشلت فى إدارة المجتمع ، وفشل ورثة صلاح الدين فى الحفاظ عليها موحدة ، وانتظرنا دورة تاريخية مقبلة ، عندما ظهر قطز والظاهر بيبرس والمماليك ، الذين قضوا على بقايا الصليبيين والمغول معا .

بين اللين والخشونة

ومما يسترعى الانتباه ، أن صلاح الدين كان يحارب ويفاوض ، يستخدم اللين والخشونة معا ، ولم يتنازل لأحد عن غايته ، ولكنه ميز بين المهم والأهم .. وكما جاء على لسان ابن شداد .. «فانظر إلى هذه الصناعة باللين تارة والخشونة أخرى..» ، فكان على طول جهاده لايغلق إمكانية الاتصال والتفاوض مع من يقاتلهم، ولم يترك يوما الغضب أو الإحباط أو التعصب محركا له ..

كان طرفا الصراع فى أحد فصول الحرب الصليبية ، بين كل من صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا ، وكادت تقترن هذه الحروب باسمهما معا ، وتجلت صفات ريتشارد القتالية بجموحها وشجاعتها ، بنواقصها وفضائلها . فى مقابل شخصية صلاح الدين التى رأى فيها الملك البريطانى القسوة والعنف ، ويعود ريتشارد وينفى هذا الادعاء ، بعدما أظهر صلاح الدين حكمة وحصافة عميقتين نحو هذا الملك الأوروبى ، وتبارى كل منهما حتى يتفوق على الآخر فى الشهامة والشجاعة .

ويحكى بهاء الدين صفحات حول المفاوضات والحروب التى جرت بين الطرفين ، ودارت المفاوضات بين الملك العادل شقيق صلاح الدين وملك الانجليز ، حتى اقترح أن يتزوج الملك العادل بأخت

ريتشارد الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية ، ويكونا معا حاكمين للدولة الجديدة ، ويشترك الزوجان فى حكم فلسطين ، على أن يسترد المسيحيون «صليب الصلبوت» ، على أن يسمح لهم بزيارة كنيسة القيامة ، وفوجىء الصليبيون بقبول صلاح الدين بذلك ، وبدأ الصليبيون فى التراجع ، وادعوا ضرورة موافقة الكنيسة على زواج الأرملة ، كما أبت جوانا أن تمكن مسلما من نفسها !

وعرف صلاح الدين أن ريتشارد يخادع ، ويأمل أن يعارض صلاح الدين ، فيغضب بذلك الملك العادل ، واضطر إلى كشف لعبته المزدوجة ، ويعلق كاتب سيرته «رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة» .

واستمرت المفاوضات واستمرت المعارك ، ووافق صلاح الدين على أن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور إلى يافا، أما البلاد الداخلية فتبقى فى أيدى المسلمين ، وتم عقد صلح الرملة فى ٢ سبتمبر ١١٩٢ م . على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، ويعلق ابن شداد قائلا: «ولم يكن الصلح من إيثاره» !



بين الحقيقة والخيال

يتوق البشر عادة ، إلى نقل البطل من الحالة الإنسانية إلى «الأسطورة».. والأسطورة فى أحد معانيها ، حنين جارف إلى الماضى .. ولا تهدف الأسطورة إلى وصف أحداث تاريخية بدقة ، بل هى محاولة للتعبير عن دلالتها ، أو السعى إلى قبول أحداث تاريخية وقعت بالفعل ، ولكن محاولة للتعبير عن دلالتها ، أو توجيه الانتباه إلى حقائق غير متسقة بالضرورة ومغزاها الحقيقى أنها تصف الوجدان والحياة الباطنية للجماعات ..

والمدهش أن صلاح الدين أسطورة حيه فى الكتابات الغربية والعربية معا.. وما من قائد مسلم آخر تعلق به خيال أوروبا مثل صلاح الدين .

وأخذت أسطورة صلاح الدين تتشكل فى عصر «دانتى» ، فنجد فى كتاب «الكوميديا الالهية» ، تجرى الاساءة إلى خمس شخصيات مسلمة، ووضع دانتى صلاح الدين فى الفئة الثانية فى عالم النسيان بين الأبطال فى العصور القديمة !

وأختير بطلا فى الكثير من الأعمال الروائية الرومانسية ، ففى القرن الثالث عشر ، نجد أن صلاح الدين يسلب قلب اليانور أكويتين الملكة الفرنسية ، بعد سماعها عن شجاعته ، وتتناوله روايات أخرى كفارس يتمتع بسجايا الفروسية .

ويكتب السير ويليم سكوت رواية تاريخية تعالج الحروب الصليبية وبطلها صلاح الدين ، وهى «الطلسم» .

ونجد فى التراث العربى ، أنه سافر إلى مصر فى المرة الثانية على كره منه ، ولم يكن هذا الضابط المغمور طموحا ، والذين يعرفون بداياته أنه كان يمكن أن يكتفى بأن يكون أميرا من أمراء جيش عمه ، ولكن دفع به القدر إلى مالم يخطر له على بال ، ورغم ضآلة دوره فى القتال

كانت « القدس » محور الصراع بين المسلمين والفرنجة على مدار التاريخ

الذى نشب ارتفع شأنه ووصل إلى الحكم، ووجد نفسه وريث أغنى أسرة حاكمة عربية فى الشرق .

ويروى ابن الأثير مؤرخ الحروب الصليبية ، امتناعه عن مرافقة عمه أسد الدين إلى مصر ، وقوله «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت فى الاسكندرية مالا أنساه !!» ويعزف البطل هنا عن المغريات ولكنها تسعى إليه

ويزيد الأسطورة ألقا تواضع صلاح الدين ، ويروى ابن شداد ..

«كنت أسير بجوادى إلى جانب السلطان قبالة الفرنج ، فأقبل نحونا أحد كشافة الجيش ومعه امرأة تنتحب، وتقرع صدرها ، فقال لنا : « لقد خرجت من عند الفرنج ، تريد مقابلة رئيسنا فاحضرناها .. وقالت المرأة .. دخل أمس لصوص خيمتى وسرقوا ابنتى الصغيرة ، وقضيت الليل بطوله أبكى ، فقيل لى إن ملك المسلمين رحيم ، سوف نتركك تذهبين إليه ، .. وها أنا ذى أتيت عاقدة عليك كل الآمال..، فتأثر صلاح الدين وفاض الدمع من عينيه ، وأرسل فى البحث عن الطفلة .. وأقبل فارس يحمل الطفلة .. وما أن رأتها الأم حتى ارتمت على الأرض ومرغت وجهها بالتراب» .

ويطول الحديث ولا ينتهى عن صلاح الدين ، ويكفى تأثيره على ألف ليلة وليلة ، فى حكايات مثل حكاية نعمان وولديه ، وحكاية نور الدين ، ومريم الزنارية ، والصعيدى وزوجته الفرنجية وغيرها . ■



جدار الفصل العنصرى له لون أخضر

بقلم
محمد يوسف عدس

«المرض الذى يهدد مستقبل الولايات المتحدة هو وجود سكان سود فى أراضيها .. فالبيض والسود يعيشان فى وطن واحد ولكن فى مجتمعين منفصلين غريبين .. هذان الجنسان مرتبطان أحدهما بالآخر ولكن بدون امتزاج .. ومن ثم فهما لايستطيعان الانفصال كلية ولا يستطيعان الاتحاد».



وردت هذه العبارات في كتاب بعنوان «الديموقراطية في أمريكا» لمؤلف فرنسي اسمه «أليكسيس دى توكفيل» كان معجبا بالديمقراطية الأمريكية فرحل إلى أمريكا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وعاش هناك يبحث تلك التركيبة الإنسانية الاجتماعية الفكرية التى أثمرت هذه الديمقراطية العظيمة، كان مدققا ثاقب النظر ولكنه ألف الكتاب بروح المحب العاشق، ومن هنا اكتسب أهمية تاريخية ومرجعية متصلة، فقد لاحظت كما لاحظ قبلى الصديق الكريم الدكتور جلال أمين الذى تفضل مشكورا بإهدائي نسخة من هذا الكتاب - أن الاستشهادات المرجعية والاقتباسات من كتاب «دى توكفيل» لاتزال يتردد صداها في كثير من الكتابات الأمريكية والإنجليزية المعاصرة.

وسوف نرى في هذه المقالة أن عبارات «دى توكفيل» التى صورت الحالة العنصرية في أمريكا منذ أكثر من قرن ونصف القرن تنطبق على الأوضاع العنصرية الجارية والتى شهدت تفجرا مثيرا في تسعينات القرن العشرين.

وقد تناولت أجهزة الإعلام الأحداث والصدمات الدموية التي جرت في لوس أنجيلوس سنة ١٩٩٢ وصورت كاميرات التليفزيون كيف انهالت الشرطة البيضاء بالضرب على شاب أسود حتى فارق الحياة، وكان رد الفعل عنيفا غاضبا من السود في كل أمريكا.

فقر ينتزع الروح

الصحفى «جافين إيسلر» يصف حالة مجموعة من السود المشردين في شوارع واشنطن بلا مأوى وقد اجتمع منهم ثلاثة وثمانون شخصا في بيت من بيوت الصدقة .. يقول: «كلهم - بلا



استثناء - يعانون من أمراض أعجزتهم عن الحركة .. من بينها الالتهابات الرئوية والدرن والسكرى وأمراض أخرى متنوعة بسبب ڤيروس الإيدز .. بعضهم قطعت إحدى قدميه بسبب ضربة صقيع فى شتاء واشنطن المهلك .. لا تستر أجسادهم سوى مزق من ملابس قديمة .. وقد اعتادوا أن يجلسوا فى الطرقات يتسولون من المارة بينما تمر عليهم سيارات ليموزين مكيفة وفاخرة مزودة بزجاج ملون يحجب مناظرهم عن أعين ركاب هذه السيارات وهم أقوى وأشهر رجال السياسة فى العالم، كأنهم لايريدون أن يروا حقيقة ما يجرى فى شوارع المدينة، وهى ليست كغيرها من المدن وإنما عاصمة أعظم دولة فى العالم، ويقال إنها أعظم دولة فى التاريخ الإنسانى كله!.

تقول «د.جويتشوس» المشرفة على العلاج فى بيت الصدقة: «أنا هنا منذ سنة ١٩٧٦ .. ولا أرى أمامى حتى الآن سوى أوضاع تتفاقم سوءا يوما بعد يوم ..» .. وتقارن بين خبرتها فى واشنطن وبين خبراتها الطبية فى بعثات بالعالم الثالث فتقول: «لقد شاهدت فقرا مدقعا فى زائير مثلا ولكننى كنت أرى أملا فى عيون الناس هناك، أما هنا فلست أرى بصيصا من أمل فى عيون هؤلاء الضحايا .. إنما أرى فى العيون يأسا مقنطا .. إننا نتحدث فيما بيننا ونصف مدينتنا هذه بأنها جزء من العالم الرابع، ونقصد بذلك أنها مدينة موجودة فى قلب رخاء مفرط لاحدود له. ولذلك فإن الفقر فيها ينتزع الروح من صدور البشر».

ويعلق إيسلر قائلا : ليس فى الولايات المتحدة شىء يماثل فى قدرته على إشعال الغضب بسرعة الريح الهائجة - كالمشكلة العنصرية، خصوصا عندما يصاحبها - كما هو حادث بالفعل - ذلك الفقر المذل والخوف المروع من الجرائم، ثم يضيف: «ما من واحد تحدثت معه خلال سنوات طويلة من إقامتى فى الولايات المتحدة عن هذه القضية إلا وقد أبدى استياءه من استمرارها وتطورها إلى الأسوأ حتى بلغت ذروتها فى عقد التسعينات .. إن

خطر نشوب صراع دموى بين السود والبيض هو هاجس مستمر فى عقول الأمريكيين كأنه كابوس مرعب».

ويؤكد هذا أحد المواطنين السود فيقول: « من المحتمل جدا أن يكون عندنا هنا بوسنة أخرى.. أعنى حربا أهلية بين البيض والسود فالرجل الأبيض مسلح حتى أسنانه » .

أمريكا المنقسمة على نفسها

صدر فى الولايات المتحدة - منذ أكثر من قرن - إعلان تحرير العبيد ثم تلا ذلك نضال طويل مرير حتى أصدر كيندى إعلان الحقوق المدنية فى ستينات القرن العشرين، وظن الناس فى خارج أمريكا أن عذابات الأمريكيين السود قد انتهت وأن القضية العنصرية قد أصبحت مجرد تاريخ تجاوزه الزمن، ولكننا نفاجأ بأحداث جسام تزلزل المجتمع الأمريكى، فنشهد سلسلة من الاغتيالات يذهب ضحيتها الزعيم الزنجى القس مارتن لوثر كنج صاحب النهج السلمى ونبذ العنف فى المطالبة بتحقيق الحقوق المدنية للسود، تمتد يد خفية لتنهى حياته وهو على المنصة أمام عشرات الآلاف من مناصريه وهو يلقى خطابه التاريخى الشهير «عندى حلم..»، ثم لا يلبث زعيم زنجى آخر «مسلم» أن تغتاله اليد الخفية على نفس النمط، ومن قبل تم اغتيال الرئيس الأمريكى جون كيندى صاحب المبادرات الشهيرة فى إعلان الحقوق المدنية للسود، واغتيل بعده أخوه روبرت كيندى وكان مرشحا للرئاسة، ربما خشية أن يتابع سياسة سلفه وأخيه التحررية، فى كل هذه الاغتيالات بدأت التحقيقات وانتهت إلى نتائج هزيلة وتقارير مشبوهة ومثيرة للجدل، خصوصا بعد اغتيال «أزوالد» المتهم بقتل الرئيس وهو فى حماية رجال الأمن الذين ألقوا القبض عليه، اغتاله شخص مريب سرعان ما تبخر، وكأن هناك إصرارا على تبديد الحقائق ودفن معالم الجريمة وأدلتها إلى الأبد. فى هذا المناخ المتوتر المظلم تجد الشائعات وقصص المؤامرات طريقها إلى عقول الناس الذين لا يفهمون ما الذى حدث وكيف حدث ولأى سبب حدث؟! وتتولى الأفلام السينمائية تفسير المستغلقات فتشير بأصابع الاتهام إلى متآمرين فى داخل أجهزة الاستخبارات الأمريكية وإلى شخصيات فى مراكز عليا وإلى مراكز قوى عنصرية ذات نفوذ هائل فى المجتمع تعمل من وراء ستار، وتظل أمريكا منقسمة على نفسها إلى أمتين منفصلتين غير متساويتين أمريكا البيضاء وأمريكا السوداء على حافة حرب عنصرية. ولقد صدق أحد المعلقين السياسيين عندما قال: «إن الهوة العنصرية فى أمريكا لم تتلاش ، وانما ازدادت عمقا وخطرا حتى بلغت ذروتها



فى التسعينات وأصبح اجتيازها أمرا مستحيلا».

ينابيع الغضب

يظل الكلام عن القضية العنصرية فى أمريكا كلاما نظريا حتى تدعمه الحقائق والأرقام والدراسات الميدانية، وفى هذا الإطار يحشد لنا الصحفى الكاتب جافين إيسلر فيضا من الحقائق والاحصاءات ضمن كتابه «ولايات الغضب الأمريكية» تعززه دراسات أخرى جادة وإحصاءات رسمية موثوقة. من بين الاحصاءات أن ٩٠٪ من الأطفال السود يعيشون فى أحياء فقيرة ترعاهم الأم وحدها ، أما الآباء فلا وجود لهم إلا فيما ندر، وأن ثلثى المواليد فى أمريكا من أمهات سود جاءوا من طريق غير شرعى.. يعنى خارج إطار العلاقات الزوجية، وأن أكثر من ٤٠٪ من الأسر السوداء يعيش أفرادها تحت خط الفقر بينما لا تزيد النسبة عند البيض على ٧٪ فقط، وهناك إحصاءات وحقائق أخرى مذهلة سترد فى سياقها المناسب. والمهم هنا أن نؤكد أننا نتحدث عن مجتمع تفشت فيه البطالة والمخدرات والفقر والجريمة لدرجة أن الرجال والأطفال فيه يعيشون فى حالة من الخوف الدائم من الموت المفاجىء الذى قد يحل بأحدهم فى أى لحظة.

ولابد أن أعترف أن أى مقالة بل أى كتاب مهما أفاض فى هذه الحقائق لا يمكن أن يستوعب المشهد العنصرى فى أمريكا بكامل تفاصيله، وعلى أحسن الفروض قد نتمكن من إطلالات سريعة خاطفة على الوجه الغاضب للعلاقات العنصرية المزمنة فى المجتمع الأمريكى.

من هذه الإطلالات الخاطفة نذكر ما حكاه «جافين إيسلر» عن خبرة شخصية صادفته أو صادفها وهو فى تاكسى يقوده شاب أسود اسمه «بن» يقول: توقف «بن» ليسمح لسيدة بيضاء يزيد عمرها على الستين عاما أن تعبر الطريق . فلما اقتربت منه نظرت إلى وجهه لم تشكره وإنما تغيرت ملامح وجهها وامتلأت عيناها بمزيد من مشاعر الخوف والسخط فعلق «بن» بمرارة قائلا: آه من تلك النظرة التى تطل من عينى شخص أبيض إذا وقع نظره على وجه أسود! كأنه قد رأى لصا أو

مغتصبا أو قاتلا أو مثيرا للشغب فى منطقة بيضاء آمنة.. وكأن هناك رابطة لا فكاك منها بين السلوك وبين لون الجلد!.

الأسود والأخضر

قلت إن هناك دراسات عديدة تتناول جوانب عميقة الغور فى المسألة العنصرية تتفق فى مجموعها على ثلاثة أمور رئيسية:

أولا : يوجد إجماع على أن المحاولات التى اتخذت لمواجهة الفقر والخوف المتفشيين فى المجتمعات السوداء قد باءت جميعها بالفشل الذريع وتجلى انهيارها التام على عقد التسعينات، واتضح أن ستين سنة من السياسات المعلنة والتصريحات السياسية عن شن حملات جادة على الفقر والجريمة كانت أضغاث أحلام ووعودا انتخابية فارغة.

ثانيا : ليست الدراما العنصرية ذات لونين أسود وأبيض فقط وإنما هناك لون ثالث يفصل بينهما هو الأخضر، ذلك هو الدولار الأمريكى ذو الوجه الأخضر، فقد حفر المال فى الولايات المتحدة خطا فاصلا بين البيض والسود وأصبح الأغنياء البيض ومعهم قلة قليلة من السود الأغنياء فى جانب من هذا الخط وعلى الجانب الآخر يعيش الشعب الأسود اليائس يتلظى بنار الفقر والرعب من القتل المتربص فى كل ركن.

ثالثا : تصديقا لتنبؤات «أليكسيس دى توكفيل» منذ قرن ونصف القرن لاتزال هناك أسباب واقعية متراكمة من الشك وعدم الثقة، والخوف من أن الطرف الآخر يمتلك قدرة كامنة على الثورة والعنف تتفجر مع أوهى إثارة فإذا الشرارة الصغيرة تتحول إلى حريق هائل.

هذه العوامل الثلاثة يتداخل بعضها فى بعض لتصنع ينبوعا من الغضب لا ينضب فى قلب العلاقات العنصرية بين الأمريكيين السود والبيض، أحد الشواهد على هذه الحقيقة وأقربها الاضطرابات العنصرية التى اجتاحت لوس أنجليس سنة ١٩٩٢ وتردد صداها فى كل الولايات المتحدة وشاهد أحداثها الناس على شاشات التليفزيون فى جميع أنحاء العالم.. لذلك لا أجد ضرورة للخوض فى تفاصيلها من جديد.

المسيرة المليونية السوداء

فى التسعينات أيضا عرفنا شيئا عن المسيرة المليونية التى دعا إليها لويس فراخان الزعيم الزنجى.. احتجاجا على الأوضاع المتردية للشعب الأسود بسبب المعاملة السيئة والإهمال والعنصرية الكامنة، كانت وجهة المسيرة هى العاصمة الفيدرالية واشنطون فتدفق إليها مئات الآلاف من الشبان السود من جميع أنحاء الولايات المتحدة، وقد قيل وقتها إنها أكبر مسيرة احتجاج سوداء

على العنصرية البيضاء فى كل التاريخ الأمريكى، وهذا هو القدر الذى علمناه من الإعلام الأمريكى والعالمى.

أما التفاصيل المهمة ذات الدلالة فقد تكفل بها الصحفى الانجليزى «جافين إيسلر» الذى حضر المسيرة وتابعها وكتب تقارير مفصلة عنها.. يقول : كان سكان واشنطون البيض يشعرون بقلق شديد وتبدو فى سلوكهم وأحاديثهم عصبية ظاهرة.. كانوا يخشون أن يتفجر الموقف لأى إثارة غير منظورة فتتفجر ثورة عارمة ودمار وتخريب كالذى حدث فى لوس أنجليس.

ويضيف: قبل المسيرة بيومين علم أحد جيرانى البيض أننى ذاهب لمتابعة المسيرة وتصويرها فنظر إلىّ بدهشة واستنكار قائلا : «لا أظنك جادا فى الذهاب إلى المسيرة!. ألا تخشى وأنت رجل أبيض أن تحدث اضطرابات فيصيبك مكروه؟.» وقال لى صحفى أبيض: «من المفروض أن أذهب أنا أيضا لتغطية أحداث المسيرة ولكنى سوف أترك حافظة نقودى فى المكتب احتياطا من حوادث السرقة» وحذرنى صديق ثالث: «من المؤكد أن تقع حوادث عنف فى مثل هذه الحشود السوداء» ولذلك فكرت فى الحصول على إجازة من العمل هذا اليوم حتى لا أخاطر بالخروج إلى الشارع».

وذكرت امرأة ابنها كان على موعد تدريبات رياضية مع فريقه فى هذا اليوم ولكنها علمت أن الملاعب كلها قد أغلقت وأرجئت جميع التدريبات.

«أما فى القطاع التجارى فقد أغلقت جميع الأعمال والمحلات فى شمال غرب واشنطون كلها تحسبا من أعمال العنف.. وأصبحت الشوارع خاوية على عروشها.. منظر لم أشهد مثله من قبل على مدى سنوات طويلة من إقامتى فى واشنطون».

كانت الرسالة المتداولة بين جميع البيض أن هذه المسيرة ليست مجرد اجتماع لمئات الآلاف من إخوانهم الأمريكيين المتضررين يعبرون عن استيائهم ومطالبهم العادلة، وإنما هو غزو أسود لواشنطون تقوم به عصابات مخيفة لإثارة الرعب والفوضى فى

الولايات المتحدة.. شباب سود.. مليون مجرم من أمثال ويلى هورتون قد انفلتوا من عقالهم.. وبالمناسبة ويلى هورتون هذا هو شاب أسود أثار عاصفة إعلامية عندما اعتدى على شاب أبيض واغتصب صديقته البيضاء.. وعلى الرغم من أن هذه حادثة عادية تقع كل يوم فى أمريكا يرتكبها السود والبيض على السواء إلا أنك لا تفهم لم كان التركيز بالذات على هذا المجرم الأسود حتى أن جورج بوش الأب استغل هذه الحادثة فى انتخابات الرئاسة ضد «مايكل دوكاكيس» منافسه الذى كان حاكما ولاية ماسا شوسيتس حيث وقعت جريمة القتل والاغتصاب.

يقول إيسلر: عندما وصلت المسيرة إلى واشنطون دخلت بين جموع المتظاهرين وتحدثت إلى عدد كبير من الشبان السود الذين استقبلونى بترحاب ومودة.. لم تكن تنقصهم الثقافة ولا روح المرح والدعابة.. كان من بين ما لفت نظرى قميص يرتديه عدد كبير من الشبان مكتوب عليه بخط كبير عبارة «Justice? Justus » وهى عبارة استنكارية فيها نوع من اللعب بالكلمات والمقصود بها «هل العدالة تقف ضدنا فقط؟».

دراسات إحصائية

من أفضل الدراسات الإحصائية ما قام به «أندرو هاكر» وضمنه فى مقال نشر فى «واشنطون بوست» ٣٠ يناير ١٩٧٧ معتمدا على إحصاءات لجهاز الاستخبارات الفيدرالية، نستخلص منه الحقائق التالية:

الأمريكيون السود يشكلون ١٢٪ من سكان الولايات المتحدة، و١٣٪ من عدد المدمنين على المخدرات و٣٥٪ من المقبوض عليهم فى تهم الاتجار بالمخدرات و٥٥٪ من الذين ثبتت إدانتهم، ويمثلون ٧٤٪ من الذين صدرت ضدهم أحكام بالسجن فى مختلف الجرائم، وقد بلغ عدد السود المسجونين سنة ١٩٩٥ رقما مذهلا «مليون وستمائة ألف رجل» وهذا العدد يساوى عدد الرجال والنساء الذين يعملون فى مختلف فروع القوات المسلحة الأمريكية، ويجب أن نضيف إلى هذا ثلاثة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفا من السود تحت الإشراف والرقابة البوليسية.

ويؤكد علماء الجريمة أن أسوأ الأخبار لاتزال قادمة على الطريق فجرائم الأحداث بين السود فى تصاعد مخيف.

ويتنبأ «جيروم ميللر» أحد علماء الجريمة أن نسبة المسجونين من الرجال السود البالغين سوف تصل إلى ٥٠٪ عام ٢٠١٠م. فإذا بدت هذه النسبة الآن غير قابلة للتصديق فينبغى أن نتذكر أن نسبة الأبناء غير الشرعيين بين المواليد

السود التى تنبأ بها الخبراء فى الستينات وكانت حينئذ غير قابلة للتصديق - تحققت فى عقد التسعينات.

وفى دراسة قام بها مجموعة من الباحثين فى جامعة كورنيل بعنوان «حال الأمريكيين» وجد أن ثلثى الرجال السود فى منطقتين فقيرتين يتاجرون فى المخدرات وأن ما يكسبه الواحد منهم فى اليوم يتراوح بين ٨٠٠ إلى ٩٠٠ دولار، حتى الأطفال الصغار ابتداء من سن الثامنة يمكن أن يكسب الواحد منهم خمسين دولارا ليقوم بمراقبة الطريق وينبه تاجر المخدرات عندما تقترب سيارة الشرطة من المكان، ولأن الأطفال منخرطون فى هذه التجارة الخطيرة معرضون هم أيضا للقتل فى أى لحظة عندما تشتعل الحرب بين العصابات المتنافسة، والأطفال السود الذين يعرضون أنفسهم لهذه المخاطر تضطرهم ظروف أسرهم التعيسة إلى هذا العمل، فبحسب ما كشفت عنه دراسة كورنيل فإن ثلث أطفال أمريكا السود يعيشون فى حالة من العوز والضنك .

الموت والرعب

التقى إيسلر بعدد من رجال العصابات السود الذين يجوبون الشوارع فينشرون فيها الموت والرعب، يدعى أحدهم «سويت بى».. كان يلبس فى أصابعه أربعة خواتم ذهبية كبيرة، فهو رئيس عصابة.. أراه منديلا أصفر هو رمز عصابته وشرح له أنها من أكبر وأنشط العصابات فى شيكاغو وعندما تطرق الحديث عن العنف قال: أستطيع أن أبيع لك مسدسا «نصف أوتوماتيكى» ٩ ملليمتر بثمانين دولارا فقط وإذا رغبت فى بندقية كلاشينكوف أبيعها لك بمائتين وخمسين دولارا.. واعترف بأن رصاص أعدائه استهدفه مرتين الأسبوع الماضى ولكنه رفض أن يدخل فى تفاصيل هذا الهجوم.. قلت له هل أبلغت الشرطة؟ قال مندهشا: ولم أفعل هذا؟.. لا طبعا.. قلت ولم لا؟ فقال سوف أعتنى أنا وأتباعى بهذا الأمر.

يقول إيسلر: فى منطقة ليتل روك التى يعنى بها «سويت بى» وهى بلدة صغيرةلايزيد عدد سكانها على ١٨٠

ألف تحدث فيها ٦٧ جريمة قتل فى السنة، ومقارنة بأيرلندا الشمالية - فى أثناء الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستانت خلال التسعينات - كان عدد القتلى مائة قتيل بينما يبلغ تعداد سكانها مليونا وسبعمائة ألف ، فإذا طبقت نسبة القتلى فى ليتل روك على بلفاست لتوقعنا ثمانمائة قتيل لا مائة فقط.

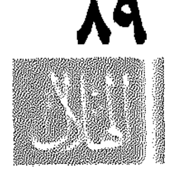
وعموما إذا كنت فى أمريكا فأنت معرض للقتل خمس مرات أكثر مما إذا وجدت فى ايرلندا الشمالية.. ففى هذه البلاد العجيبة يموت ستون أمريكيا بالرصاص كل يوم. لقد أصبح انتشار الأسلحة والمخدرات وجرائم القتل أوبئة أشد خطرا من الإيدز فى المجتمعات السوداء.

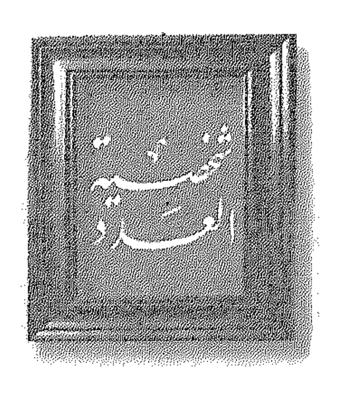
فإذا أضفت إلى ذلك الفقر والتشرد والبطالة المتفشية والأسر المتهرئة، وقطعان الأطفال الذين لا يعرفون لهم أبا ولا يجدون بجوارهم أما ترعاهم - ذلك إذا كانت هى ليست فى حاجة إلى رعاية وتربية - إذا فعلت ذلك تكتمل أمامك صورة مجتمع تتصدع أركانه وتنهار قوته ويوشك على الاندثار.. كأنه يمارس عملية انتحار منظمة، أو قل إنها واحدة من قصص المؤامرات السرية غير المستغربة على العقل الأمريكى، لتدمير القوة السوداء حتى لا تتحول إلى خطر على مستقبل الولايات المتحدة!

من قصص المؤامرات الخفية التى يتداولها بعض الأفارقة الأمريكيين مما له مغزى فى هذا الإطار - أن الطائرة التى حملت أسلحة إلى عملاء أمريكا فى نيكاراجوا، فيما عرف بفضيحة «إيران - كونترا جيت» كانت تحمل فى عودتها مخدرات سربتها كالعادة أجهزة المخابرات إلى المجتمع الأسود!

ومن الحقائق المخفية أن الحكومة الأمريكية قامت بإجراء تجارب طبية عرفت باسم Tuskejee وهى تجارب غير نمطية ولا يتم الإعلان عنها، فى هذه التجارب ترك الباحثون متعمدين رجالا من السود يصارعون مرض «السفلس» بدون علاج لدراسة تطور المرض فى الجسم البشرى حتى قضى عليهم جميعا.

وهكذا نجد أنفسنا أمام حالة عنصرية نمطية يحكم العلاقة فيها بين الأسياد والعبيد قدر هائل من الكراهية المتراكمة وانعدام ثقة مزمن وخبرات مريرة وعنيفة لم تتوقف فى وقت من الأوقات.. براكين كامنة قابلة للتفجر فى أى لحظة.. إنها حقا كما يقول «دى توكفيل»: مرض عضال يهدد مستقبل الولايات المتحدة. ■







بين الرواية والتاريخ

بقلم
د. سامية محرز*

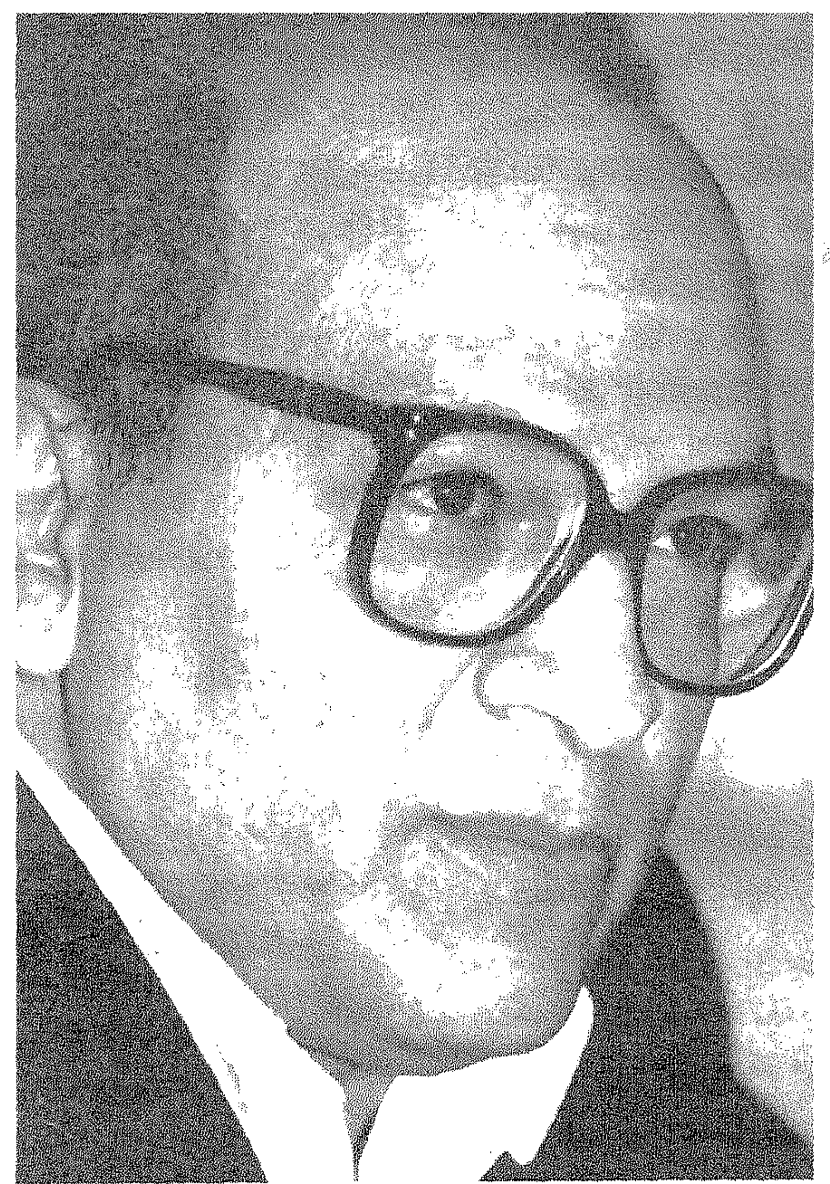
ولد جمال الغيطانى عام ١٩٤٥ فى صعيد مصر، وانتقل مع عائلته فى سن مبكرة إلى حى الجمالية التاريخى فى القاهرة، الذى أصبح فيما بعد جزءا لا يتجزأ من مسرح أعماله الإبداعية وقاسما مشتركا بين تاريخه الشخصى والفنى وتاريخ الكاتب الكبير نجيب محفوظ، الأب الروحى وحجر التكوين الأساسى للغيطانى فى مسيرته الأدبية.

قد أفرد الغيطانى لهذه العلاقة القوية مع حى طفولته ومع ابنها ومؤرخها عملا جميلا عنوانه «نجيب محفوظ يتذكر» (١٩٨٠) حيث يستهل الكتاب بجولة مع كاتبنا الكبير فى حوارى وأزقة حى الجمالية. يتوقفان معا عند بعض معالم الحى القديم التى وردت فى أعمال محفوظ: المقاهى، الجوامع، الأسبلة، البيوت، كلها لا تزال قائمة رغم الزمن ورغم تقلباته وتحولاته منذ أن عاش فيه الكاتبان سنوات مقتبل العمر كل فى مرحلة مختلفة من تاريخ الجمالية .

وفى واقع الأمر فإن هذا النص الوثيقة، نص «نجيب محفوظ يتذكر»، له أهمية مزدوجة . فهو بالطبع نص يؤرخ لنجيب محفوظ نفسه وعلاقته بالمكان: تأملاته وذكرياته عن ذلك الحى العتيق وتطور تاريخه الأدبى الملتحم بمعالمه وشخوصه التى تسكن أعماله الروائية. ولكنه فى ذات الوقت نص عن الغيطانى نفسه وعلاقته هو بنفس المكان. فبقدر ما يكتب الغيطانى عن محفوظ فى هذا الكتاب بقدر ما يكتب تاريخه هو باعتباره الابن الأصغر للجمالية، الشاهد الجديد على ملامحها المتبدلة، كاتب «الحارة» ومدون همومها وأحلامها ، تلك الحارة التى وظفها محفوظ فى أعمال كثيرة توظيفا رمزيا ، فورثها عنه

---

* قسم الدراسات العربية - الجامعة الأمريكية - القاهرة



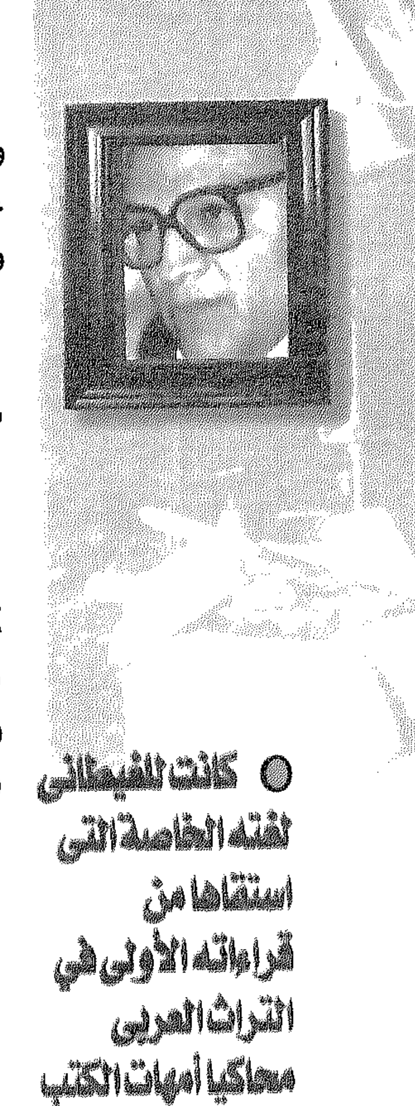
جمال الغيطانى ليكمل خط معالمها وتتبع مصائر أولادها .

روافد الغيطاني الابداعية

وقد تضافرت مجموعة من العوامل الشخصية والعملية والثقافية فى تشكيل العمل الأدبى لدى الغيطانى، وأثرت جميعها على توجهاته فى الكتابة منذ منتصف الستينات من القرن الماضى. فنراه يحول فجيعته الشخصية فى وفاة والده المبكرة إلى رمز قومى محورى فى كتاباته يعبر من خلاله عن تجربة جيله فى الستينات تجربة اتسمت بالغربة والإحساس باليتم المبكر . ونراه يستفيد من عمله فى تصميم السجاد فى مطلع حياته محولا إياه إلى مرجعية فنية وتقنية يوظفها فى بنية النص وآليات الكتابة الإبداعية . ثم نجده ينحت لغته الخاصة من خلال قراءاته الأولى في التراث العربى محاكيا أمهات الكتب فى التاريخ والتصوف الإسلامى، من ابن إياس والمقريزى إلى ابن عربى وابن خلكان

أما انتماؤه لجيل الستينات الذى عاش صدمة الهزيمة عام ١٩٦٧، فقد كان نقطة محورية في الثورة على الأشكال الأدبية المهيمنة، ومقاومة ظروف الاعتقال السياسى بالكتابة الإبداعية ، ومراوغة الأشكال الرقابية بأشكال القص التجريبى. وأما مسيرته الصحافية بدءا بالتحاقه بجريدة الأخبار فى السبعينات، ثم عمله كمراسل حربى على الجبهة المصرية طوال الحرب المصرية الاسرائيلية، وفيما بعد على الجبهة الايرانية العراقية ووصولا إلى منصبه الحالى كرئيس تحرير جريدة «أخبار الأدب» الأسبوعية - كل هذه التجربة أمدت نصوصه بنبضها الحى فى تمثيل الواقع المعاش سواء كان فى مجال الرواية والقصة أو فى مجال أدب الرحلات والمشاهدات أو فى مجال المذكرات والسير. فموقع الغيطانى المتميز فى قلب المؤسسة ودوره فى التعبير عن المتغيرات الجذرية التى طرأت على الشارع المصرى فى كل تجلياته الثقافية والاجتماعية

والسياسية على مدى أكثر من ثلاثة عقود ، جعلت منه شاهدا على عصر، وجعلت من أعماله مجملة تاريخا مغايرا للمدينة والمجتمع فى آن .



○ كانت للغيطانى لغته الخاصة التى استقاها من قراءاته الأولى فى التراث العربى محاكيا أمهات الكتب

محاور القص الغيطانى

وتعتبر أولى مجموعات الغيطانى القصصية اللافتة، «يوميات شاب عاش منذ ألف عام» (١٩٦٩) بمثابة حجر الأساس فى البناء المعمارى العام لأعماله الابداعية من قصة ورواية. فقد استطاع الغيطانى منذ البداية تحديد مجموعة من المحاور الرئيسية المحركة لعمله القصصى، يعبر من خلالها عن هواجسه كمثقف عضوى، ويشارك بها فى صياغة «ضمير الأمة» لا سيما فى عكوفه على البحث عن العلاقة بين القص والواقع، الرواية والتاريخ ، الأصالة والمعاصرة، المثقف والسلطة، الأدب والسياسة، الكاتب والمجتمع .

كل هذه الهواجس الأولى نجدها متبلورة منذ تحفته الروائية «الزينى بركات» (١٩٧٤)، ذلك العمل الفذّ الذى كتبه الغيطانى فى الخامسة والعشرين من عمره وكان ولا يزال يحتل موقعاً خاصاً فى الكتابات النقدية والدراسات الأكاديمية العالمية لما يتميز به من نضج مبكر فى صياغة اللغة القصصية، والبنية الروائية، والأسطورة السياسية.

فرواية «الزينى بركات» تخلق عصراً بأكمله وتتخذ من التاريخ المصرى فى العصر الوسيط (١٥٠٧ - ١٥١٨) محوراً رئيسياً لكتابة الواقع المعاصر (١٩٥٢ - ١٩٦٧) أى أنها توظف التاريخ توظيفا رمزياً وتطرح على القارئ رؤية دائرية وتوازٍ كابوسى بين تراجعات الماضى والحاضر، والهزائم التاريخية والمعاصرة وآليات القهر والقمع على مر التاريخ . وتتجلى عبقرية الرواية فى تعريتها المرعبة للعلاقة بين المثقف والسلطة من خلال علاقة سعيد الجهينى الطالب الأزهرى فى النص مع شخصية الزينى بركات المراوغة وشخصية زكريا بن راضى الباطشة. ويجتمع الاثنان، المحتسب والبصاص على تدمير سعيد وتنتهى الرواية بأنينه المدوى أبداً «آه، أعطبونى، وهدموا حصونى...».

آليات السرد ومنابعه

أما عن توظيف اللغة فى نص «الزينى بركات» فنستطيع القول إنه مفتاح آخر لتطور سمات الغيطانى الأسلوبية. فهو

يحاكي أسلوب ابن إياس في التدوين التاريخي للعصر الوسيط من جهة، ويتماهى مع خصائص أسلوب المتصوفة من جهة ، ويخرج علينا بنص يمزج بين الحالتين. وقد تحدث الغيطاني في أكثر من مناسبة عن الجهد الكبير الذي بذله كي يتمكن من كل هذه الأدوات والأساليب المتنوعة في اللغة العربية ونثرها، حتى أنه كان قد درّب نفسه على نقل صفحات بأكملها من المؤلفات التراثية «على مهل وبأناة» لا لشئ إلا المحاولة تشربة لسر الأسلوب ونفاذه إليه والوصول في الأخير إلى لغته الخاصة التي أصبحت فيما بعد تميز أعماله الإبداعية كلها سواء كانت عن الماضي أو الحاضر.

وتتوالى أعمال الغيطاني فيما بعد موظفة كل هذه الآليات السردية، ففي «وقائع حارة الزعفراني» تعتمد الرواية في مجملها على اللغة التقريرية وأسلوب الملفات «المحايد» أما «كتاب التجليات» (١٩٨٣ - ١٩٨٧) فيعاود الخوض في التراث الصوفي المتماشي مع تجربة النص ذاته وعلاقتة بالغربة والموت والزمن والذاكرة .

وفي خطط الغيطاني (١٩٨٠) يصطف كاتبنا المعاصر مع مجموع كاتبي «الخطط» من المؤرخين، المقريزي، علي مبارك ويطرح على قرائه تخطيطاً جديداً تنبئياً للقاهرة الحديثة .

مسئولية إبداعية

وعلى الرغم من مسئوليات الصحافة وضغوطها العملية، فقد توالت أعمال الغيطاني الإبداعية بشكل منتظم يذكرنا بانضباط كاتبنا الكبير نجيب محفوظ، نذكر من بين هذه الأعمال - على سبيل المثال لا الحصر - في مجال القصة والرواية «أرضي .. أرضي » (مجموعة قصصية، ١٩٧٢) الزويل (رواية، ١٩٧٤) ، حكايات الغريب (مجموعة، ١٩٧٦) ذكر ما جرى (مجموعة ١٩٧٨) رفاعي (رواية، ١٩٧٨)، «رسالة البصائر في المصائر» (رواية قصصية، ١٩٨٩)، «متون الأهرام» (١٩٩٤)، «حكايات المؤسسة» (١٩٩٧).

وأما عن أعمال الغيطاني في مجال أدب الرحلات والمذكرات فنذكر على سبيل المثال «المصريون والحرب»- (١٩٧٤)، «حراس البوابة الشرقية» (١٩٧٥)، «مصطفى أمين يتذكر» (١٩٨٣) .

وكل هذه الأعمال ، خاصة الابداعية منها، تطالب القارئ باستمرار المشاركة الفعلية في قراءة الحاضر والماضي معا معتمدة في كثير من الأحيان على زحزحة الفواصل بين الإبداع والتاريخ ، الروائي والمؤرخ ، المتخيل والواقع ■

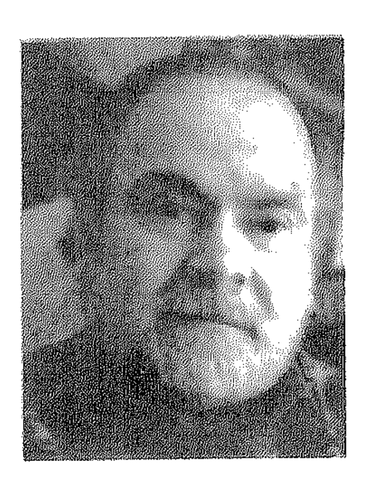




بقلم
صافى ناز كاظم

قراءة ممتعة فى سيرة ذاتية بالعربى المكسر!

بجهوده الذاتية، أصدر الفنان عصمت داوستاشى الجزء الأول من «ذكريات سكندرى، ١٩٤٣ – ١٩٦٣»، من سلسلته «كتالوج ٧٧»، يحتوى سيرته الذاتية فى السنوات العشرين الأولى من حياته، منذ مولده مارس ١٩٤٣ حتى مبتدأ دراسته فى كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية، وقد أعطى هذه المرحلة عنوان «الرملة البيضاء»، آملا أن يكون الجزء الثانى: «الرملة الحمراء»، ١٩٦٣ – ١٩٨٣ والجزء الثالث: «الرملة السوداء»، ١٩٨٣ – ٢٠٠٣، حتى إتمامه سن الستين. والكمية المطبوعة ٥٠٠ نسخة فقط، وسعر الواحدة خمسة جنيهات..


عصمت داوستاشى


.. ولوحة من معرضه عام ٢٠٠٠

يقول عصمت داوستاشي في تقديمه لمذكراته: «أكتبها وأنا أشعر بوهن الذاكرة وبداية تلاشيها لأسجل أحداثا وأماكن وظروف وناس رأيت الآن وقد تجاوزت الستين من عمري أنها أشياء جديرة بالتسجيل وبالكتابة عنها والإشارة إليها قبل أن يسحبها النسيان إلى العدم. ولا أستطيع أن أقول إنها سيرة ذاتية، لأنها بحق ذكريات سكندري، عن مدينته وأسرته والظروف التي شكلته، إنها عالمي الخاص، مدينتي الاسكندرية ..» ، ولا يستغرق الكتاب سوى ١٥٦ صفحة تشمل بعض الصور العائلية القديمة للجد والجدة والوالد والعائلات الصديقة ومن ورد ذكره - مؤثرا - في الذكريات مثل «بابا سري» شيخ تكية «البكتاشية»، التي تم نقلها عام ١٩٥٢ من المقطم، عند مغارة الشيخ المغاوري ، إلى اسطبلات الأمير عمر ابراهيم بالمعادي .وينقسم الكتاب إلى أربعة فصول : ١ - الجريتلية، ٢ - البكتاشية ، ٣ - شوارع وحواري وبيوت، ٤ - سحر الكتب، هذا طبعا بعد عنوان: «زمن البراءة والحب والاكتشاف» ، الذي يعرف من خلاله: «الرملة البيضاء، شاطيء يتوسط الميناء الغربي لمدينة الاسكندرية خلفه مباشرة فنار المدينة.. وبجواره جزيرة رأس التين حيث قصر



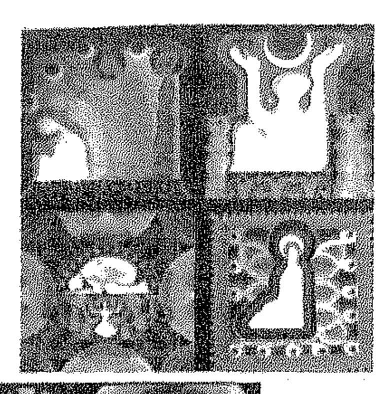
الجد إبراهيم ويسميه داوستاشي زوربا الاسكندراني لأنه جمع بين حياته وكفاحه في الإسكندريه وكريت

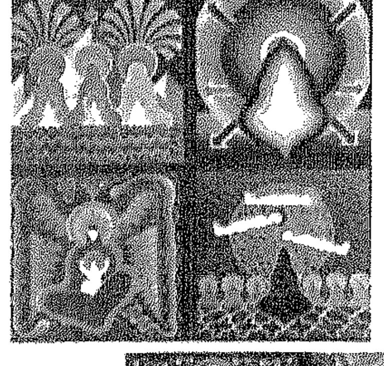


داوستاشي مع باباسري في ملابس دراويش البكتاشية عام ٦١ - ١٩٦٢

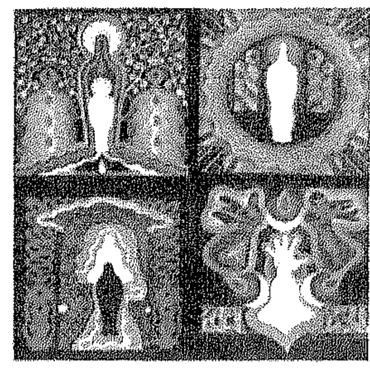
الملك، وهذا الشاطىء الساحر الصغير المفروش بالرمال الناصعة البياض عبارة عن جزيرة صغيرة تصل إليها بالمراكب الشراعية، ولم يكن يذهب للاستمتاع برمالها ومياهها الصافية إلا عدد قليل من الناس.. كان معظمهم أجانب في ذلك الزمن ، نهاية الأربعينيات من القرن الماضي، كنت وقتها طفلاً صغيرا فى السادسة أو السابعة من عمرى، وكان جدى إبراهيم - الذى يعمل قهوجى فى مقهى الحاج مصطفى الجريتلي.المواجه لباب خمسة بالجمرك - يسلمنى لريس المركب الشراعى ... ليذهب بى إلى الرملة البيضاء للفسحة ثم يعود بى مرة أخرى إلى المقهى. كنت أقبع داخل المركب خائفا من البحر .. تغمرنى رائحة الميناء ... كنت أرى الأجانب.. يونانيين أو طلاينة يستحمون ويلعبون بحرية ومرح.. ومازالت الرمال البيضاء فى كيانى وروحى وقلبى.. منذ ذلك الزمن البعيد امتلأت بالنقاء والحب وظللت ذلك الملاك الصغير المتشبث بحبال الشراع، المنتظر العودة للديار، الذى يرى ويستمتع بكل شىء إلى أن يحين وقت الرحيل الأكبر، فينطلق ويطير.»

على الرغم من هذا المفتتح المتفائل، لا يجد عصمت داوستاشى غضاضة فى أن يناقض نفسه قبل نهاية الكتاب بصفحات قليلة، فيقول صفحة ١٢٢: «حين أعاود قراءة السطور السابقة





لوحات معرض عصمت داوستاشى (وتريات إسلامية) من وحى أشعار صافى ناز كاظم الصوفية



أكتشف أننى لم أكتب الكثير، لدى ما أقول بين السطر والآخر، ولكن وبصدق أشعر بأن كل هذه الذكريات سخيفة وساذجة، فطالما لم يدفعنا الماضى إلى مستقبل أفضل فهو ماض وتاريخ فاشل ومحبط، لأننا الآن وغداً ننحدر إلى أسوأ ما نكون، ولعل الصمت كان أفضل من هذا البوح الرومانسى الذى نميل إليه».

والحقيقة أننى وأنا أقرأ ذكريات



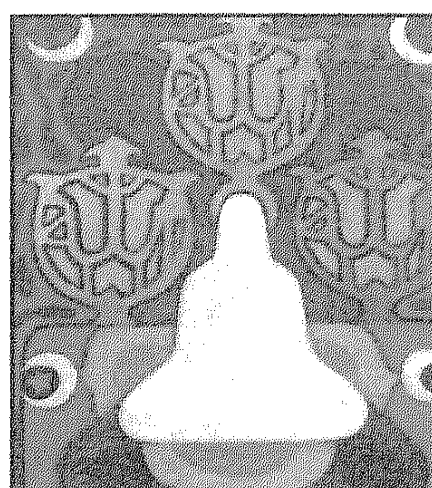
الجدة خديجة شبرا هانم ووالدتها وابنها عبد الحليم (والد داوستاشى)

داوستاشى لم تهمنى تلك التناقضات فى مشاعره وأقواله، وتقلبه بين المرح والفرح وبين «العكننة» والتذمر ونوات الجهامة والاكتئاب، أليست هى أيضا طبيعة البحر بين زمجرة الموج العالى اللاطم وبين إشراقه الهادىء الناعم «والموجة تجرى ورا الموجة عاوزه تطولها»؟

أمتعنى كتاب داوستاشى وظللت - فى كل أحواله - أقرأه وأنا مبتسمة، بل لم يفتنى أن أضحك فى بعض فقراته وأقهقه.

يكتب عصمت داوستاشى بسلامة نية متناهية، يقول: «.. جعلنى الأستاذ السبعينى مدرس اللغة الانجليزية أكره كل لغات الدنيا، كان يعاقبنا بالضرب بقسوة، يجعلنا نقف فى صف ويضرب أول الصف ويطلب منه أن يعود لآخر الصف، وهكذا حتى نسمع صوت جرس انتهاء الحصة، فيكلفنا بواجب جديد نحفظه لنعود فى اليوم الثانى، تقريبا نفس مجموعة الصف إياها، إلى الضرب من جديد، وكانت توصية أبى له بالاهتمام بى - لأن جراج السبعينى الذى يمتلكه الأستاذ يقع أمام ورشة أبى فى أبى الدرداء - كانت التوصية وسيلته لمزيد من الضرب مع رفعى من أذنى

الإثنتين لأعلى حتى أن أذنى تمزقتا ومازالت آثار هذه الجروح بها حتى الآن. من يومها لم ينطق لسانى لا الانجليزية ولا غيرها ، وكان نطقى العربية بصعوبة كبيرة . لقد كرهت بالجملة كل لغات الدنيا واهتممت فقط بالفن واعتبرت الرسم هو لغتى الحميمة ، وحين كتبت ذلك فى امتحان دبلوم عالى، بعد تخرجى من الفنون الجميلة، أسقطنى الفنان حامد عويس فى الامتحان وأخرجنى من إتمام الدبلوم، وحسنا فعل . » ، يستشعر داوستاشى دائما عائق اللغة، لكن هذا لم يمنعه أبداً من أن يقول، والغريب أننى لم يداخلنى الملل لحظة واحدة وأنا أقرأ كتابه، مع درايتى بكل أخطاء اللغة، نحواً وهجاء وصياغة، بالإضافة إلى الأخطاء المطبعية الكثيرة، لا يكتب داوستاشى بالفصحى أو بالعامية، إنها لغته الخاصة التى تبدو كأنها تفريغ لتسجيل صوت عصمت داوستاشى وهو يحكى على سجيته، ولا يكف عن تذكير قارئه بنقصه اللغوى، حتى وهو يفتخر ببراعة ابنه عبدالله – الذى تخرج أخيراً فى كلية الحقوق – « .. يحمل ملامح بلده – مصر – وطباع أهل بلده ولغتهم الجميلة التى

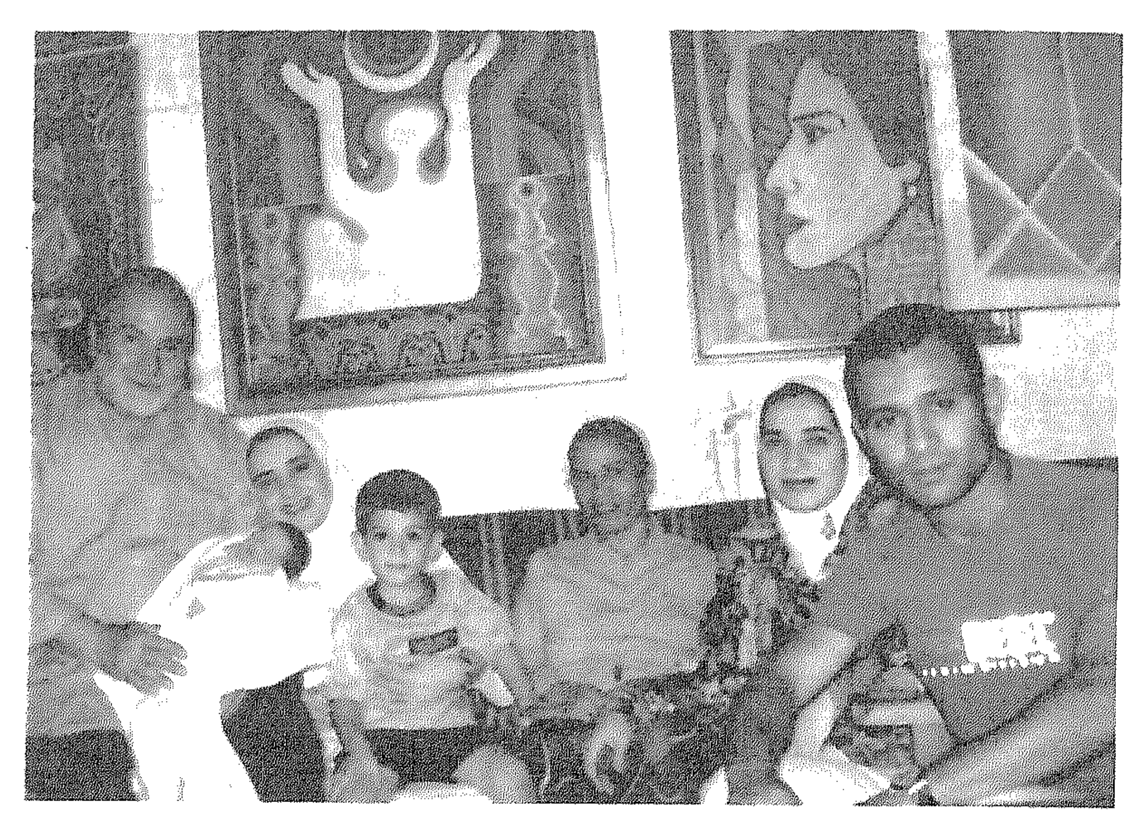


تتميز بخفة الدم والفهلوة اللذين ينقصانى فى لغتى، إن كانت لى لغة أصلاً..»

☆☆☆

فى فصل «الجريتلية»، يحكى «داوستاشى» عن أصل عائلته التى اضطرت إلى الهرب من جزيرة «كريت»، بعد الحرب العالمية الأولى، فراراً من الاضطهاد الدينى الذى جعل التعداد المسيحى فى الجزيرة يتربص بإخوانهم المسلمين، من أهل الجزيرة الذين يحملون نفس الملامح والسمات ويتشاركون فى الأرض واللغة والمواطنة . كان المسلمون من أهل الجزيرة مستهدفين فى كل وقت بالقتل والاغتيالات مما أدى إلى هروب الكثيرين – كما يذكر داوستاشى – «إلى تركيا أو بلاد الشام أو مصر خاصة مدينة الاسكندرية، وإلى سواحل شمال افريقيا خاصة مدينتى سوسة وبنغازى فى ليبيا، وأصبح فى كل مدينة ساحلية بحوض البحر الأبيض المتوسط جالية جريتلية مسلمة أشبه بالقبيلة .. وقد ولدت أنا فى مدينة الاسكندرية لأجد نفسى منتميا إلى القبيلة الجريتلية السكندرية من جهة والدى.....» .

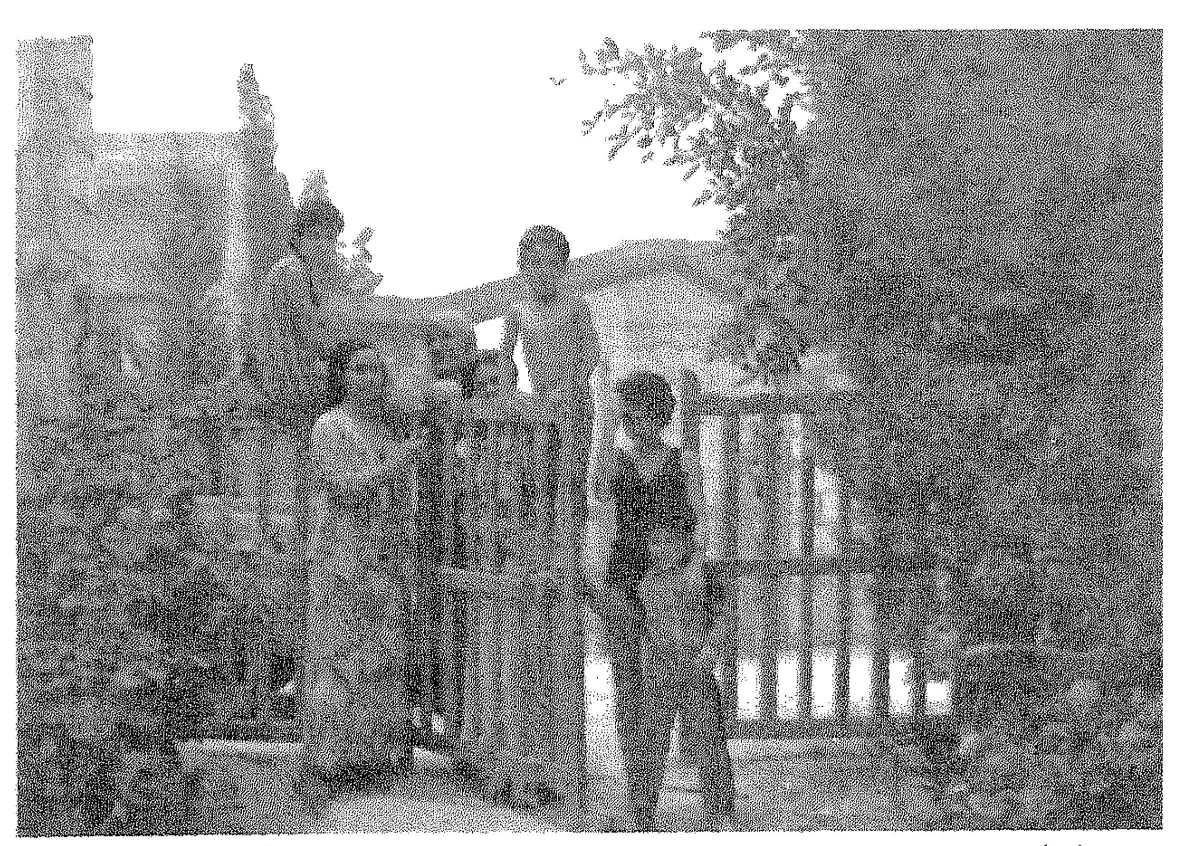
ويشرح عصمت سبب لقبه داوستاشى قائلا: «... حتى أواخر



أحدث صورة لأسرة داوستاشي مع أحفاده نور وشادى وأولاده عبد الله وسحر وسامية وزوجته الفنانة فاطمة مدكور



بابا سرى فى مجلسه كما رآه عصمت وهو طفل يحاكمه على التهامه حقلا كاملا من الفول الحراتي بحديقة التكية وجعله يقول « أكره السلطة والحكام وأى مهيمن إلا الله سبحانه وتعالى »



« ما أن أدلف من بوابة حديقة مرسم بيت داوستاشي ، المشابه لتكية البكتاشية ، حتى أعرف أنني دخلت في طقس يشبه الرؤيا » ، صافي ناز عند مدخل البيت مع الفنانة فاطمة مدكور وأولادها آل داوستاشي – ١٩٨٦

الستينات لم أكن أعرف حكاية اسم داوستاشى» لكنه قابل فى ليبيا واحدا من أقربائه اسمه «حسين إليفاتشى..... وعندما سألته عن اسم إليفاتشى...... أجابنى بأن اسم أسرتى أنا الآخر هو داوستاشى وأخبرنى أن جدى إبراهيم عندما حضر إلى مصر لم يذكر هذا الاسم مطلقا، وهكذا عندما عدت فى إجازة للإسكندرية بحثت فى أوراق الأسرة وعثرت على وثيقة زواج جدى إبراهيم بجدتى خديجة شبرا هانم، وكان لقب جدى فى هذه الوثيقة هو دواستاكى.... داوستاشى ... الاسم المتداول الشعبى لدواستاكى.... اسم ....

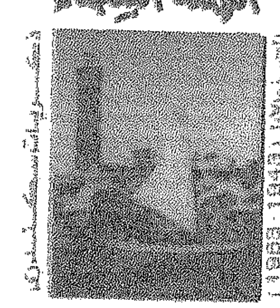
كريتلى صرف، وهكذا عرفت لماذا كانوا ينادوننى وأنا صغير باسم – (تاشى) – فالحروف النهائية الألف والشين والياء حروف تضاف لجعل الاسم أكثر حميمية فى نطاق الأسرة..... ومنذ ذلك التاريخ استعملت هذا اللقب داوستاشى كاسم شهرة لى، أوقع به لوحاتى، وكنت معروفا قبلها باسم عصمت عبدالحليم، وكانت معظم رسائلى تصلنى وقد سبق اسمى لقب السيدة أو الآنسة لأن عصمت اسم مشترك بين الجنسين، ولكن بعد أن جعلت اسم الشهرة.... عصمت داوستاشى اختفت تماما صفة الآنسة أو السيدة التى كانت تسبق اسمى ....



حتى فى الأخبار القليلة التى كانت تنشر عن أنشطتى الفنيـة.... حـتى أواخـر الستينات...» ويحكى عن واقعـة هروب جده إبراهيم والد والده «...كان جدى وأحد أقاربه خارجين من المقهى فى قريتهم المجاورة لخانيه، عاصمة كريت، حين أطلق عليهما الرصاص فقتل قريبه فوراً، هكذا كان يتم تصفية المسلمين من أهل الجزيرة ، ثم استدعوا جدى للتجنيد ليرتدى ملابس الجنود اليونانيين ليحارب أهله.... فقرر الهرب من الجزيرة كلها، وهكذا تم لفه فى سجادة والمرور به من المنطقة الجمركية إلى السفينة المتجهة للاسكندرية .... وعندما وصلت السفينة الاسكندرية ذهب مـصطفى أفندى الجريتلى، صاحب مقهى باب ستة، كقهوجى يرتدى ملابسه التقليدية فوطة وغطاء رأس ويمسك بصينية عليها أكواب الشاى والقهوة ودخل الميناء من باب الجمرك كعادته فى توصيل الطلبات ، والتقى بجدى إبراهيم داخل السفينة، وأعطاه ملابس القهوجى والصينية .. أخذها جدى وخرج بها من المنطقة الجمركية وهكذا وجد نفسه فى المدينة. هذه الحكاية سمعتها من جدى مباشرة ومن جدتى وأحكيها للمرة الأولى، وعندما سألت عن سبب اختفاء اسم داوستاشى، علمت أن جدى لم يذكره فى أوراقه بمصر لأن اليونانيين كانوا يرسلون

صافى ناز مع عصمت داوستاشى فى حديقة بيته / مرسمه فى بيطاش العجمى عام ١٩٨٦

جواسيسا يبحثون عن الجريتلية الهاربين من التجنيد والقبض عليهم وترحيلهم مرة أخرى إلى كريت، التى أصبحت يونانية بالكامل... كان جدى يسمع وهو يعمل بالمقهى ، بعد وصوله ، من ينادى اسم داوستاشى فيتجاهل هذا النداء تماما، وإلا قبض عليه كهارب من العسكرية اليونانية، وهو الذى هرب... حتى لا يضطر لأن يقاتل أهله من المسلمين ويحاربهم ...».

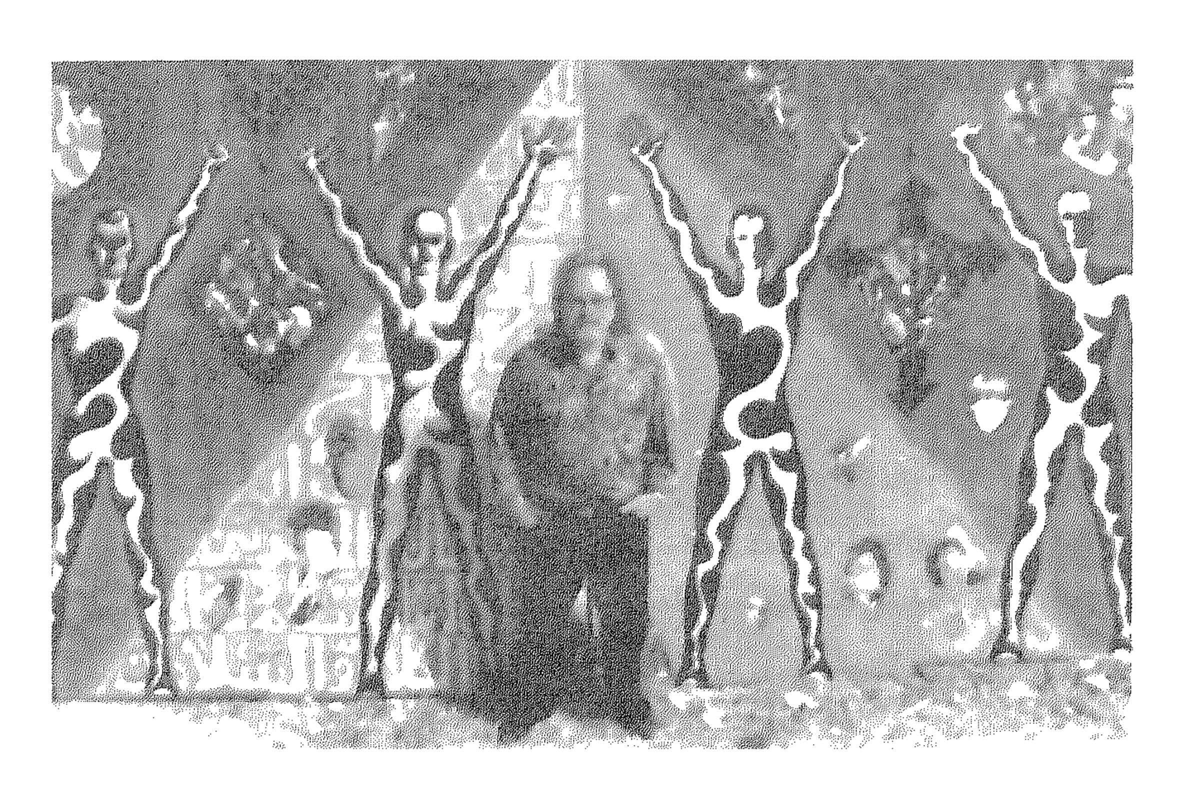


بعد أن تزوج الجد إبراهيم الجدة خديجة شبرا هانم، من القبيلة أو الجالية الكريتلية، تمت ولادة عبدالحليم إبراهيم، أبو عصمت، سنة ١٩٢٠ بالاسكندرية، ويقول عصمت: «فى الاسكندرية عاش جدى وجدتى عيشة فقيرة للغاية...» ومع ذلك استطاعا أن ينهضا وأن يتركا فى ذاكرة الحفيد الحنين الأبدى إلى تدليلهما: «.... عايشت الحياة الجريتلية فى منزل جدتى والحياة المصرية فى منزل أمى وتكونت هكذا شخصيتى، مزيجا من الحياتين اللتين كونتا شخصيتى السكندرية البحر متوسطية عن حق».

* * *

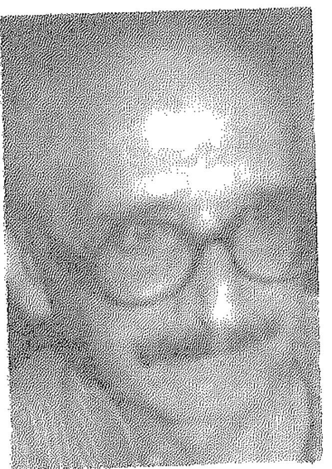
عام ١٩٨٣ أرسل عصمت داوستاشى إلىّ خطاباً شيقاً ممتلئاً بالرسوم والحكايات والكلام الطيب، وكتبت فى زاويتى «مونولوج»، التى كنت أنشرها وقتها فى مجلة الكواكب، أتساءل: «.. لكن من أين جاءت هذه الداوستاشى وما معناها؟..» وفتح هذا التساؤل باب الصداقة التى تجمعنى به وبزوجته الفنانة النحاتة فاطمة مدكور منذ ذلك التاريخ. كانا يكتبان معا فى مجلة د. يحيى الرخاوى «الإنسان والتطور»، وأدهشتنى فاطمة بكتاباتها الجديدة تحت عنوان «رحلة لا مجدية». بعد ذلك تركت فاطمة مدكور النحت لأسباب صحية وفكرية، فالنحت يتطلب قوة جسمانية لم تعد موجودة بما يكفى عند فاطمة، التى بدأت تشكو الإرهاق السريع، بالإضافة إلى الطبيعة التأملية التى تشكل جوهر شخصيتها الثقافية، والتى قادتها لترى أنها لم تعد ترتاح إلى «فكرة» النحت من الأساس. واستمرت فاطمة فى الكتابة، تدون أفكارها بأسلوبها الطليعى الخاص جداً، حتى بلغ بها التأمل الثقافى إلى الزهد كذلك فى التدوين ، وإن لم تكف عن التعبير من خلال حديثها المنطلق بتدفق كلما وجدت أذنا مصغية .

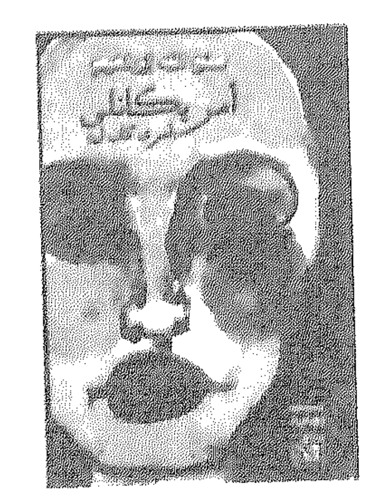
على مدى كل تلك السنوات، الواحدة والعشرين، منذ ١٩٨٣ حتى الآن، تحولت معرفتى بأسرة عصمت داوستاشى وفاطمة مدكور إلى صداقة وطيدة متغلغلة فى القلب، وإن انقطع التزاور بمساحات هائلة من البعد الزمنى. هناك دائما إحساسى بأنهما ملاذ آمن دافئ أستطيع، فى أية لحظة، أن أهرع إليه



عصمت داوستاشى فى تشكيل فنى مع إحدى لوحاته

وأختبئ فيه، من الضيق ولطشات الاكتئاب، من دون مقدمات أو استئذان . هما، بتوأميهما، سحر وسامية، وابنهما، الذى أسمياه آتون فى مرحلة عشقهما للفراعنة حتى احتج هو شخصيا عندما اشتد ذكاؤه فغيره باختياره إلى «عبدالله»، ببيتهما الفنى الأعجوبة فى بيطاش العجمى. ما أن أدلف من بوابة حديقة ذلك البيت - المشابه للتكية البكتاشية - حتى أعرف أننى دخلت فى طقس يشبه رؤيا النائم: أسمع وأرى ولا أتكلم ولا أشارك ، محايدة، هادئة، منتظرة، بعد الخروج، أن أصحو من الحلم حتى أحكيه وأفسره خيرا اللهم اجعله خيراً! فاطمة فى تلك الرؤيا تتكلم بإيقاع التفكير، الذى حين يتوقف لا يصمت فهو يبحث فقط عن التعبير الصائب والكلمة التائهة. مشحونة طيلة الوقت بالفرز بين المقبول والمرفوض. سحر وسامية وعبدالله استكمال زخرفى لهذه العائلة فى إطارها «فوق الواقعى»، وعصمت داوستاشى فى حركة عمل دائبة، مغلق الفم ، مسهب فى تشكيل الأشياء فى «دروته» الخاصة، التى يكون فيها شديد الحضور وكامل الترحال ، مستميتا فى البحث عن نافورة المياه التى يريدها لحديقته حتى تكتمل عنده أركان «التكية» التى كانت ملعب طفولته . ■





صنع الله إبراهيم

ورواية الحاضر بوصفه تاريخا

بقلم

إبراهيم فتحى

يواصل صنع الله إبراهيم فى أحدث رواياته أمريكانلى (أمرى كان لى) منهجه الفنى الذى تميز به منذ أن نشر روايته الأولى «تلك الرائحة» ١٩٦٦، إنه يحاول إعادة اكتشاف كل شىء وتحريره من الصور المتداولة الملتصقة به. وكل شىء عنده يشمل الأحداث والأفعال والأفكار السياسية وطرق الكتابة وموضوعات الكتابة، وهو يعتبر نفسه روبنسون كروزو يقدم العالم، ويقدم إحساساته ومشاعره فى تلقائيتهما الفورية المباشرة، بعد نزع الأردية الاستعارية والمجازية المفروضة عليها، وفى «أمريكانلى» يلعب دور كولومبوس معاصر يعيد اكتشاف أمريكا مركز العالم، ويسترجع من خلالها تاريخه الشخصى وتاريخ مصر وتاريخ العالم العربى باحثا عن أصول وبدايات.

إنه كمؤلف يرتدى قناع مؤرخ أكاديمى مصرى ذهب إلى أمريكا ليحاضر فى معهد التاريخ العالمى، وقد ترك له مدير المعهد حرية اختيار الموضوع الذى يحاضر فيه، واقترح أن يتناول تجربته الذاتية كمؤرخ، والمنهج الذى اعتمده لنفسه فى البحث التاريخى، وهذا المركز أو المعهد أسسه أمير نفطى بنى فى صباه قصرا كلفه ٣٠٠ مليون دولار، ثم حصل على عمولة قدرها مليار دولار عن عقد تليفون بلده مع شركة التليفون والتليغراف الأمريكية، ودفع فى تأسيس المركز عشرين مليون دولار.

وبدءا من البداية يطرح الروائى مسألة موضوعية الكتابة التاريخية، وواقعية الكتابة الروائية للتساؤل.. فالرواية الخيالية الفنية ورواية التاريخ عند المؤرخين يشتركان فى هدف تحويل حركة الواقع والمجتمعات والحياة الإنسانية إلى أبنية للمعنى وقد تشيد الرواية وقد يشيد العرض التاريخى نصوصا لها زمنها الخاص وموقعها الخاص وتمثيلات أفراد وجماعات، إن صنع الله فى قصه المتخيل للحاضر بوصفه تاريخا يقدم عملا فنيا يهتم ببناء شخصيات ليست راكدة متحجرة أو سطحية، بل مكتملة قادرة على الإدهاش بطريقة مقنعة كما يهتم بالجمع بين فورية الأحداث التفصيلية والاتساق الكلى للعالم المصور، ويجعلنا صنع الله نحس بمضامين التاريخ واتجاه حركته وانعكاس ذلك الاتجاه (قلبه) أو تحوله، فى نسيج حياتنا اليومية، والتاريخ فى هذه الرواية يصنعه البشر ويصنع البشر، ولانرى فى كل رواياته الحركة التاريخية كأنها مخطط تجريدى أو كروكى متخشب، فهو لايكتب روايات ذات قضية جاهزة أو ذات مفتاح.

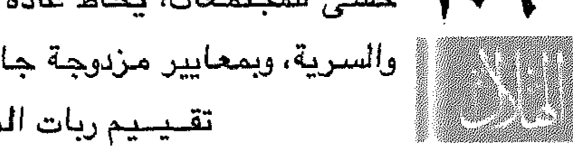
وعلى الرغم من أن الرواية متخمة بأفكار كثيرة جدا، وراويها يمتلك طاقة ذهنية متفجرة، فهل عاقه ذلك عن أن يكون روائيا مبدعا؟ إن مشاكل التأليف الروائى ، التى تتشكل من حلقات يمكن أن تمتد إلى مالانهاية، تتناول التوتر بين حميمية وجوده الخاص وبين موقفه العام. فالرواية إشكالية، بمعنى أن فعل الكتابة، تسجيل المحاضرات وسياقاتها الخاصة الشخصية والسياسية، هو جزء محورى من طريقة بناء النص الروائى، أى أن كتابة الرواية جزء محورى من مادة تناول الرواية نفسها، لذلك تستكشف الرواية العلاقة



المتناقضة بين الحياة كما يعيشها الناس وفكرتهم عنها، وتصوير الفن لها، كما أن الحياة الجنسية للبروفيسور شكرى، قناع صنع الله، ملغمة بالإذلال والقلق والإحباطات والاستمناء (كل روايات صنع الله كذلك دون «نفاق»).

الخاص والعام

وهذه الحياة الحميمية الجنسية المسهبة تحاول أن تقفز إلى المجال العام لتتكلم لغة التمرد، وتمثل مجالا ممكنا لحرية متخيلة لم تخنقها قيود تقليدية، فالتخيل رغم مايحيط به من تعاسة وإملاق يحاول تصوير حلم علاقة مساواة نقية خالصة بين الذكور والإناث بعيدا عن إملاءات سلطة الموقع (استاذ وطالبة)، أو الامتياز الطبقى (حبيبته السابقة التى تزوجت غيره أكثر استقرارا). ونجد فى هذه الرواية التاريخية استكشافا لتاريخ عاطفى حسى للمجتمعات، يحاط عادة بالخفاء والسرية، وبمعايير مزدوجة جامدة فى تقييم ربات البيوت وكاسبى العيش، فالرجال يتطلبون (كما فى



قصة كلينتون والمتدربة) تنوعا جسديا جنسيا قبل الزواج وبعده، وتحكى الرواية عن تغيرات ضخمة فى العلاقات الحميمية بين الرجال والنساء. عن حق النساء فى الممارسة الجنسة والتمتع بها دون حفظ أنفسهن للعريس المأمول، فالفتيات فى الرواية (معظمهن طالبات أمريكيات) متاحات احيانا فى لقاءات عرضية سريعة، يحصلن على اللذة ويمنحنها، أما العلاقات طويلة المدى عندهن فتتطلب شخصا ملائما اقتصاديا وثقافيا، وتبدو الفقرات الجنسية الطويلة فى الرواية، أى تلك العلاقات الشخصية الطافية بحرية، نقاط ربط بين الجسد وهوية الذات والمعايير الاجتماعية المرنة، فالجنس فى الرواية تعتبره التعليقات والتقييمات المعلنة وتقييمه من زاوية إعادة انتاج شكل العائلة والذوات المنخرطة فى تراتب العمل وتصنيف السلوك الفردى الملائم للمراكز الاجتماعية المرموقة، فهو من ناحية المعلنة وتقييمه من زاوية إعادة انتاج شكل العائلة يخضع جزئيا للضبط والقمع (فى تاريخ الراوى) فى المدرسة ومكان العمل والحياة الاجتماعية عموما التى تخلق أجسادا مطيعة متحكما فيها لا تتحرك أو تسلك

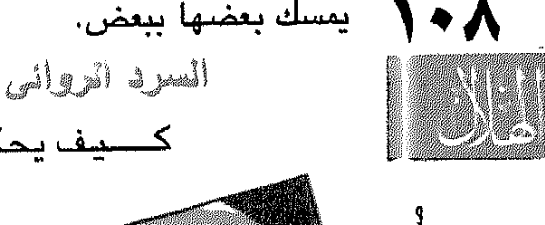
تلقائيا بحافز الرغبة، ولكنه من ناحية أخرى فى الولايات المتحدة، يعتبر مع الجسد شيئا يملكه الفرد، وتسهب الرواية فى الحديث عن المثقفين أو نسبة عالية منهم يعتبرون الاستمناء طريقة لتحسين الاستجابة أو مصدرا للذة عبر الأخيلة المنطلقة، وفى هارفارد حلقة دعارة الطالبات تأخذ الواحدة فى اللقاء ٣٠٠ دولار، فلو «اشتغلت» ساعة كل يوم تحصل على أكثر من راتب البروفيسور وتبدو الأنشطة الجنسية فى الرواية بناء عقليا اجتماعيا يعمل داخل مجالات الامتياز والنفوذ والسلطة وليست مجرد استثمارات بيولوجية (وإن اختفت الرواية أحيانا بتلك الاستثمارات فى طابعها الفزيولوجى الغليظ) تجد منفذا أو لاتجده، ويوضح السرد الروائى أن الجنس الآن ظاهرة لها طابع المؤسسة، شديدة الثقل: آلاف الكتب والأفلام والأشرطة والصور والعيادات وحوانيت البيع، وقد تومئ بعض الفقرات المطولة إلى أن الجنس يكاد يكون نواة للتجربة الانسانية بكاملها وقد يبتلع نظرات الراوى، يسقط بصره عادة على الأكتاف العارية البيضاء، والأثداء الثقيلة التى يظهر أعلاها واهتزازها، والشورتات البيضاء

القصيرة للغاية التى تبرز جمال الأفخاذ والسيقان حتى المنفرج منها، والركب المتبادعة التى تدفع الدماء فى عروقه، ولكنه من ناحية أخرى يسدل طابعا مأساويا هجائيا على صورة الجسد فأجزاء اللحم التشريحية المحاطة بالرغبة المراهقة يربطها فى صباه حينما كان يقطعها من صفحة أخبار اليوم أيام الملك، بما فى ظهرها من صور سياسية تشوه الزعماء الوطنيين المعادين للاحتلال، كما أنه لكى يصل فى خياله ما بين أسفل صدر المرأة وأعلى الركبتين، شاهد لأول مرة صور عشرات من النساء كاملات العرى: فلسطينيات من أهالى دير ياسين فى أبريل ١٩٤٧ جردتهن عصابات مناحم بيجين من ثيابهن بعد اغتصابهن وذبحهن وتكويمهن على شاحنات عسكرية، تمام الجسد الأنثوى، الجنسى والقتل، فالبحث عن المرأة (الخاص) مرتبط دائما بالبحث فى التاريخ (العام)، فقد تميزت

الرابطة بين الزوجين من روابط القـرابة الأوسع وإعطاؤهمـا دلالة خـاصـة فى مشروع يبدو برا ورحمة وعاطفية. البيت العش الهـادىء دعم وجـدانى بدلا من نفعية وصرا ع السوق. الآن بعد حبوب منع الحمل والعوازل الطبية هناك جنس متحرر من جولات مزمنة للحمل والميلاد والنزيف والحـمى والموت، لذة خـاصـة بالأفراد ومعاملتهم الشخصية ثم الإيدز والموت، ويرتـبط الجـنس فـى الرواية بالهوية الذاتية فى تغير اشكالها مع الانتـقـال فى المكان والزمـان، وفى أسلوب حياتها مونيكا التحقت متدربة بالبـيت الأبيض ١٩٩٥ بفـضل نفـوذ والدتهـا التى قـدمت تبرعـات كـبيـرة لحملة كلينتـون الانتـخـابيـة، لقـاءات الجنس الشفوى والرئيس يواصل مكالمة مع مـستـشـاره السياسى، السيـاسـة والفعل الجنسى، كل الأمور فى التاريخ يمسك بعضها ببعض.

السرد الروائى التاريخى

كـيـف يحكى الراوى سـيـرته الذاتية فى «أمـريكانلـى»؟



لقد تمثل منذ طفولته أطرا حكائية من أهله ومن مـدرسـتـه ومن الكبـار وهم يحكون مـايجـرى لهم وعليـهم، أى تمثل طرزاً معينة، صيغا معينة، للبدء والحركة والختام، للتبرير والتقييم ظل يستخدمها فى وصف تجـاربه ووقـائع حـيـاته الخـاصـة، وحـينمـا يحلى ذكـرياته لاتواجـهـا فى المحل الأول الانطبـاعات والصور الذهنية فى تفردها وانعـزالها بل الشكل المقـرر المقنن من الحكى فالذات ليست ذرة خصوصية، أو فردا له جوهر فطرى، أو نواة موحدة يمكن أن تحكى قصة معزولة تماما، خيطا منفلتا من نسيج علاقاتها، ويبنى الراوى ذاته ذهنيا وانفعاليا وحسيا انطلاقا من حكايات سـمعها وهضمهـا عن آخرين وبناها عن نفسـه، وذات البروفيـسور شكرى قصة أعاد كتابتها أمامنا دون انقطاع، ليخبرنا عن حياته اتى ينتجها ذهنيا، مغفلا الكثير مؤكدا أشيـاء بعينها هل يؤلف أو يصوغ مـفـردات كثيرة فى نسق تفسيرى، فى نموذج يتخيل، تركيب سردى، هو خصوصيته؟ نفس الشـخص طول الوقت يواصل البقاء، إنه يزاول تجارب وأحداث حياته فى العائلة والمدرسة والجامعـة، فى تقلبات الخط كما يفسرها أمام طلبته

وطالباته من خلال تعبيره عن إحساسه بقصة حياته، ويعرض نفسه وكل ما حدث له محاصرا بقصه وبقص الآخرين بلغة هذه القصص ويبدو، أمامنا أنه يحيا حياته فى مصر وأمريكا كما لو كان يرويها، متحددا بحكايات عن نفسه، ذاته ليست فى الرواية شيئا وحده فى البيت أو الفصل الدراسى أو فى حمام الجامعة فوق القاعدة البلاستيكية للمرحاض هل هى وجهه وانعكاس فخذيه منقولين عبر المرآتين الصغيرتين؟ أم كيانا يشيده يخترعه أحيانا بواسطة حكايتها وكتابتها؟ إنه يقدم ذكريات كثيرة تتحول إلى سريان دمه وطريقته فى النظر والالتفات ووعيه بنفسه، ولكنه لايحكيها لصالحه ولايغفل الأجزاء غير المريحة من ماضيه أو يضع عليها أجمل الوجوه أحيانا يقوم بالتقريع بدلا من التجميل، ولكن كل استرجاع قد يحمل تغييرا مهما حاول تدقيق الفهم وتقديم سرد استقرائى كل ولائه للواقع. أن المؤرخ فى الرواية مشتاق لتنظيم تجارب حياته المبعثرة فى شكل يريد أن يعطيه معنى وأن تمتلك المعطيات امكانات جمالية وسمات موجبة، رمزية التاريخ عنده رواية والرواية تاريخ، هل تقترب ذاكرته

من «الحقيقة» فى صراحتها المؤلمة الفاضحة الجارحة؟ أغرم بتلميذ في مدرسته الثانوية له شفتان جميلتان طالما سعى إلى تقبيلهما دون فائدة. تساؤل حول تصميم الحكى، أين بدأ وأين انتهى . كان من الممكن أن يبدأ من موضع آخر وما من نهاية ضرورية محكمة . اللغز الذى شوقنا لتتبعه أى الرسائل والأزهار الغامضة التى وصلته لم نعرف من أين أتت، ولا ماهى أهدافها، ولم يهتم السرد بإدماج الأحداث المتفرعة الاستطرادية المشتتة فى خط قصصى متتابع منتظم . فالواقع مرعب عبثي. ويناقش السرد تصنيع الواقع وتزييفه في أجهزة الإعلام. الوقائع يعاد ترتيبها من جانب الشركات العملاقة . الميديا والأكاديميا متداخلتان. هناك وهم أن الباحث التاريخى أو الروائى يستطيع أن يكتب ما يشاء ويبيعه للناشر الذى يعجبه ويبيع حقوق نشره مسلسلا لإحدى المجلات ثم تستطيع شركة

توزيع عرضه فى المكتبات، وخلال ذلك يشتريه ستوديو سينمائى ويحوله الى فيلم ويبيع الحقوق للتليفزيون، كل هذا دون اعتراض من الدولة !!. ولكن الوكيل والناشر مملوكان فى الغالب لنفس الشركة التى تملك المجلة وشركة التوزيع والمكتبة وستوديو السينما وسلسلة دور العرض والقناة التليفزيونية. المهم أن الكتاب (البحث أو الرواية) يجب ألا يتعدى موضوعه خطوطا حمراء معينة وإلا احتاج معجزة لكى يفلت من كل هذه الحواجز (المنافسة موجودة ولكنها بين احتكارات الأقلية). الرسائل الجامعية لا تقر إذا خشى المشرفون أنها يمكن أن تؤثر على حظ الجامعة من المنح التى تقدمها الشركات الكبرى .

ويشبه المؤرخ الروائي فى الاهتمام بطريقة عرض الوقائع . ما التاريخ؟ إن المنظورات المختلفة تستقى معانى وحقائق مختلفة من نفس الأحداث من خلال تفسير الشواهد الوثائقية فالماضى ليس كيانا متشيئا يتم عرضه بحياد فى ذاته ولذاته. بل إن اهتماماتنا ومصالحنا الحاضرة الضيقة الأفق تعيد تفسيره . الراوى يبنى «الحقائق بإضفاء معنى خاص على الأحداث. الوثائق لا تتحدث بنفسها بل يتحدث عنها المؤرخ أو الراوى الذى يضم الوقائع والاحصائيات المتناثرة عن الماضى فى هيكل يبدو منطقيا متكاملا

الروائى فى أمريكانلى يعيد تنسيق الوقائع وترتيبها وتقديمها وتأخيرها وتغيير أوزانها النسبية بنجاح محققا القيمة الفنية فى الدلالات الانسانية والترابط البنائى الشكلى والرواية ترفض الزعم بأن الحياة لا تحكى قصصا فهى عشوائية فى تشوش فوضوى سيال، ولكنها لا تزعم أن الروائى يجب ألا يترك نهايات كثيرة دون حسم ، فالحياة الفردية فيها الكثير من اللاعقلانية واللاوعى وهى لا تختزل حياة الإنسان إلى الوظيفة الاجتماعية رغم أنها تستكشف الأبعاد التاريخية للوجود الانسانى .

كما لا تقف عند تصوير وضع محدد أو المجتمع فى لحظة معينة. فالتاريخ فيها ليس خلفية تفسيرية ديكورية بل هو عنصر مكون لأنماط الذاتية والفردية . إن مصائر الأفراد

فى الرواية يجرى تعقبها عبر لوحة واسعة من التغيرات الاجتماعية والأحداث التاريخية ، ويضىء الاجتماعى الفردى، ولكنه لا يستنفده ، كما تتفاعل دلالة كل منهما دون اختزال الفردى الى الاجتماعى. الحيوات الفردية مستغرقة فى صراعات وازمات وتشنجات وتقلصات واضطرابات عبر قرن كامل. وهناك تجاوزات وانتهاكات ، وتفريغ انفجارى لتسلطات جنسية كأنها تحديات وجودية للروتين الخانق والموت فى الحياة. الراوى يدرس فى سمينار وهناك متلقون ومتلقيات داخل النص طلبة مروى لهم ،يصغون لخطابه ويقاطعونه بالتعليقات والاسئلة. ويقدم الراوى ما يشبه ان يكون مونولوجا دراميا . هو فى الستين ويحس بعمره ويأسره جمال الفتيات ويقع فى شرك علاقة عابرة مع احداهن، فالنص يشكل فعلا كلاميا طويلا، أحيانا يكون فى موضع الأب وبعد المحاضرات يصارع شعورا بالغثيان القلق ازاء جلده المرتخى المتهدل، والمجاعة الجنسية لمراهقته فى منتصف القرن .

وهو يقترب هنا من مجتمع التساهل، من جيل يستقى استنتاجاته عن العالم وطبيعة التجربة ومباهجها من الأعضاء التناسلية. ولكن مالدى الفتيات من حيوية وفتنة يجعلانه يشعر بسنوات عمره ثقيلة فوق نبضه . ويتخيل أن الزواج النفعى، فى مشاهدته لبعض العلاقات . فى علاقة مقصورة على واحدة مملة لا تتمشى مع الاشباع الشهوى. ويبدو أن تخيلات الراوى الشبقية تذهب الى أن المضاجعة وحدها هى التى تجعل شيخوخته حية فليست مجرد احتكاك ومتعة ضحلة بل كأنها انتقام من موت وعقم وهزيمة .

وتعمل الرواية على تحدى خيال الثقافة المهيمنة فى ، انتهاكها للافتراضات المقرة عن العلاقة بين الكاتب والقراء كما ينبغى .

المشهد الثقافى العربى

وثمة استعدادات ضخمة لتنظيم مؤتمر دولى ضخم عن الثقافة العربية عشية القرن الحادى والعشرين بقيادة الأمير النفطى ، واسع المعرفة الذى يدافع عن التعددية وحرية التعبير، المؤتمر سيدعو مائة من صفوة المثقفين

العرب يعبرون عن انفسهم دون أى رقابة ليضعوا استراتيجية ثقافية واضحة للقرن القادم، فالعلم العربى يتعرض لخطر فقدان الهوية . ولن نلخص وقائع المؤتمر وزيفه وتشويهه لفكرة الهوية وكشفه للمؤرخ عن حقيقة دعوته وتوظيفه لخدمة مالا يعتقده .

فالرواية إذ ترسم الملامح الذهنية لبطلها تستطرد فى مناقشة الروايات التاريخية الاوربية والعربية وشروط إمكانها وحدودها .

فالمؤرخون فى مصر يعملون فى ظل المؤسسة الأكاديمية الرسمية مثل أقرانهم الامريكان ، يكتبون التاريخ الآمن الذى لا يتعارض مع الخط العام للنظام .ويكشف النص ما يسمى بالمؤرخين الجدد فى إسرائيل وعلاقتهم بالمخابرات العسكرية . فهو يعيد بناء الوقائع ويستخلصها من الأردية الايديولوجية التى تزيفها ومن أكاذيب الميديا. لأن التاريخ عنده لا يكتفى بتسجيل «الوقائع» بل يمحص الواقعة داخل سياقها الحافل بالصراع ويفتش خلفها. إنه يقدم رواية أخرى، تقوم بتبعيد وتغريب الصور الزائفة عن المجتمع الأمريكى والإمبراطورية الامريكية . والتاريخ الأمريكى فالراوى مؤرخ يستقى الأحداث ، من مصادر مختلفة ويوازن بينها ، ولا يقدم وثيقة اجتماعية أحادية الجانب بل يحاكم المصادر ومسلماتها وتتصارع الروايات والاتجاهات الايديولوجية فى التأريخ. ومن أمتع الاشياء فى الرواية تلك الحوارات العميقة بين اتجاهات المدارس التاريخية بعد الكشف عن جذورها المسكوت عنها عادة. فهنا لن نجد الروح الخاصة بالعاديات والمخلفات الأثرية بل تداخل الماضى والحاضر ومدى تأثير ماضينا الجمعى الذى تنقذه الرواية من الأكاذيب فينا. انه الرد يمتلك قدرة على دخول طرائق الحياة والمناخ الفكرى للفترات التى يتعرض لها ببحث مستفيض واستبصار ومفارقات . فالتحرير الوطنى والسياسى مكسب يحتوى بعض الخسائر. والاهتمام بالتاريخ لا بوصفه مسارا مجردا بل مؤثرا فى الحيوات الفردية . وهو استعارة تفسر بعض جوانب الحاضر.

والناس يكابدون التاريخ ويعانونه لا

فى تفاصيله السطحية وتغير عاداتهم ، فالحياة نفسها لها منطق أعمق فى التغيير . وهذه الرواية لذلك رغم الاستطرادات الفكرية والمناقشات المتفرعة التى تثقلها والناتجة عن الرغبة التى لامبرر لها فى قول كل شىء والوصول الى الكلمة النهائية لمست هذا المنطق الأعمق للحياة .

إنها شبكة من ا لصيغ السردية المتقاطعة التي تعمل على تعديل المعطيات واعادة بنائها ، وليست تراكبا من مستويات متعددة للمعنى . وقد تعطى الصدارة لصيغة سيرة شخصية، أو تجربة حسية، أو التساؤل عن مسألة معلقة أو صيغة سمات لبناء الأفراد أو محددات السلوك والأفعال أو الصيغة الثقافية التى تقدم اعلاما ومعرفة واسعة متعددة الأنواع. وهذه الصيغة الثقافية ربما طغت على ماعداها دون



مبرر فى الكثير من الأحيان ، ووقفت عند تقديم معلومات مهما تكن مهمة وكاشفة ونفاذة فقد غلبت جانب الاهتمام التأملى. ولكن تصميم الرواية مع ذلك ربط الجمالى الشكلى بالتاريخى الاجتماعى .

ففيها تركيز على لحظات حاسمة حرجة ، قد تكون كوميدية او رثائية، إن الأمم لا تخلق نفسها وفقا لأفضل مثلها العليا، بل تشكلها قوى متعددة قد لا يعرف أبناؤها إلا القليل عنها، وهذا الأساس بكيف قام الماضى بصنعنا ، تقدمه المخيلة التاريخية في الرواية بأفضل الأشكال . ■

كلمات عاشت

● إن النقص الذى يعتور النقد الفنى الحديث، يرجع إلى أنه لاينبثق من طبيعة الواقع العربى ولا بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة أنماط أوروبية لاعلاقة لها بنا.

«أحمد حسن الزيات»

● المسرح لا شأن له بالواقع، إن ميدانه هو الحقيقة التي يصل إليها من خلال الأسطورة.. والسينما على العكس ، يهمها الواقع الذي قد يتضمن لحظات من الحقيقة.

«جان بول سارتر»

● كل الذى أدريه أننى سأموت، وأنا أتساءل: لماذا لم أكن أفضل مما كنت؟!

«توفيق الحكيم»



بقلم
وديع فلسطين

إذا كان مصطفى صادق الرافعى (١٨٨١ - ١٩٣٧) روميو، فهل كانت مى (١٨٨٦-١٩٤١) جولييت؟
إن المأثور من قصة روميو وجولييت أن الحب بينهما كان متبادلاً، وأنهما في سبيله اختارا أن يجمعهما قبر واحد، فهل كان الحب بين الرافعى ومى من طرفين أو من طرف واحد ملأ الدنيا حديثاً عنه فى حين تكتمت مى أخباره حتى وافاها الأجل بعده بأربع سنين. وفى هذه السطور أجتهد فى استقصاء جوانب هذا الحب من جملة من الآثار المنشورة، سواء ممن عاصروا الرافعى ومى أو من الدارسين لحياتهما فى فترة تالية.

كان اللقاء الأول بين الرافعى ومى أشبه ما يكون بالمصادفة، فقد أقيمت فى عام ١٩٢٣ حفلة لتأبين الأديب فرح أنطون (١٨٦١-١٩٢٢) فتصافحا وتبادلا عبارات التقدير، وانتهزت مى هذه الفرصة لكى تدعو الرافعى إلى حضور ندوتها الأسبوعية التى كانت تقيمها فى بيتها مساء كل ثلاثاء، فلبّى دعوتها لأول مرة فى نفس تلك السنة ١٩٢٣، ثم تبادلا المؤلفات، ولكن الرافعى لم ينتظم فى الحضور إلا عاماً واحداً وانقطع عن جلسات الصالون فى عام ١٩٢٤.

كان الرافعى أديباً شامخاً فى عصره، حتى وصف الزعيم سعد زغلول باشا كتابه «وحى القلم» بأنه فى بيانه «كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الحكيم». ولكن الرافعى، على رفعة منزلته الأدبية، كان يشغل وظيفة متواضعة فى محكمة طنطا حيث كان يقيم مع زوجته وأم أولاده. وكان راتبه بضعة جنيهات حتى استطار فرحاً عندما جاءته علاوة قدرها خمسون قرشاً، كما أخبرنى تلميذه وصديقى الشيخ محمود أبو رية .. كما كان يعانى من علة الصمم المطبق، حتى ان أستاذى فؤاد صروف (١٩٠٠-١٩٨٥) أخبرنى أنه كان يتبادل الحديث مع الرافعى عندما يزوره





فى مكتبه فى مجلة «المقتطف» فى وريقات صغيرة، وكان يتبع نفس هذا الأسلوب، وهو كتابة وريقات يضمّنها آراءه فى ندوة مى دون أن يسمع له صوت، فكيف يشارك فى المناقشة وهو لا يسمع ما يقال فيها، حتى إن العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وصف الرافعى فى ندوة مى قائلاً «إنه كان يلجأ إلى أسلوب المفاجأة بالكتابة الذى لا يغنى الاطلاع عليها عن السماع» إشارة إلى صممه.

قطيعة المحب

ويروى كامل الشناوى (١٩١٠-١٩٦٥) فى كتابه «الذين أحبّوا مى» أن الرافعى كان يسافر بالقطار من طنطا إلى القاهرة كل يوم ثلاثاء فيصل من محطة القاهرة إلى الصالون رأساً. وفى حين كان رواد صالون مى يتأنّقون فى ملابسهم وحلاقة ذقونهم، فإن الرافعى كان يفتقد هذه الأناقة، ويدخل الصالون وعليه كل ما فى الطريق من غبار. ولحه حافظ إبراهيم (١٨٧١-١٩٣٢) يوماً وقد جاء فى بدلة جديدة فقال له: أنت متنكر يا صادق، فأين التراب الذى يغطى بدلتك دائماً؟!

ويروى الشناوى أن الرافعى زار مى فى ميعاد مضروب، وكان فى مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها، ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته، وجلس الرافعى مستريباً ينظر، وأبطأت به الوحدة وثقل عليه أن تكون لغيره بينما هو أحوج ما يكون إليها، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبته وقالت له نفسه. ما أنت هنا وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف؟ فاحمر وجهه وغلى دمه ورمى إليها نظرة ونظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب. واستمهلته فما تلّبث، وكتب إليها كتاب القطيعة.

ولا بأس أن أذكر هنا أننى كنت من فترة أراجع مجلات نشرت فى الثلاثينات من القرن الماضى، فرأيت فيها إعلانا متكرراً عن عقار - لعل اسمه العنبرول إذا لم تخنّى الذاكرة - وفى الإعلان صورة للأديب مصطفى صادق الرافعى مع عبارة بخط يده يزكّى فيها هذا العقار. فهو قد سبق الفنانين والفنانات فى الإعلان عن المنتجات، ولكن المؤكد أنه لم يكن يتقاضى أجراً شبيهاً بالأجور الفلكية التى تنهال على أولئك الفنانين والفنانات من بند الإعلان.

إن الرافعى، على منزلته الأدبية المرموقة فى عصره أديباً وباحثاً وشاعراً ومفكراً قد استولى عليه اعتقاد بأن مى




تحبه، فتحول إلى «مهووس» بمي لا يكتم مشاعره، بل يعلنها في كتب أصدرها تباعاً هي «السحاب الأحمر» و«رسائل الأحزان» و «أوراق الورد»، وهي كتب حشد فيها الرافعي كل حصيلته اللغوية والبلاغية، وكل سرحات عقله من الخيال، فقال في محبوبته شعراً ونثراً كثيراً بلغ الذروة في «أوراق الورد». ومع ذلك، فإنه عندما فرغ من إعداد هذا الكتاب وصفه «بكتاب الشيطانة»! والكتاب يضم رسائل متخيلة متبادلة بين الرافعي ومي ، فلا حملها إليها سعاة البريد، ولا بعث بها إليها مع رسول، ولا جاوبته على أي منها.

اعترافات الرافعي

فماذا قال الرافعي في هذا الحب المجنون الذي يؤكد محمد سعيد العريان (١٩٠٥-١٩٦٤) أنه حب ثانٍ سبقه حب لفاتنة لبنانية مجهولة عرفها في شبابه الأول.

يقول الرافعي: كان لها في نفسي مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني. فبدّلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيال خضوعاً لا يضرّها. وما أريد من الحب إلا الفن، فإن جاء من الهجر فن، فهو الحب.

كما قال : أحببتها جميلة لأوْجِدَ بها الجمال في معانيّ وذوقي، ورقيقة لأُسيل منها بالرقة في عواطفي ونزعاتي، وظريفة لأزيد بها في نفسي طبيعة مرح وابتهاج، ومتوازنة لتدخل في طباعي الانسجام والوزن وصحة التقدير، وناعمة لتخلص بروحي من خشونة الضرورات القاسية في الحياة، ومُتَفتِّرة لألقي من تفتّرها على بعض أيامي فتنقلب حبيبةً بما تمنع وتصدّ، ورشيقة لتهب خيالي سرّ التوثب والحركة، وجذّابة لأجد بها المغناطيس الذي يجذبني في الإنسانية إلى مصدري الأعلى. وأحببتها وهي بجملتها فن وجمال روحي، لأرجع وأنا يحملني حسّ وانفعال وإدراك.

وهو يصف رسائله المتخيّلة بأنها رسائل تطارحها شاعر فيلسوف روحاني وشاعرة فيلسوفة روحانية، كلاهما يحب صاحبه. وما أحسب حبّ هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان في كل حوادثه إلا تأليفاً من الأقدار. فروحه القوية فرض عليها أن تحبّ، فلما أحبتّ فرض عليها أن تتألم، فلما تألمت فرض عليها أن تعبّر، فلما عبّرت فرض عليها أن تسلو.

أهدى الرافعي إلى محبوبته زجاجة من العطر الثمين، وبعث معها برسالة - حقيقية أو متخيلة - جاء فيها: يا زجاجة العطر، اذهبي إليها، وتعطري بمسّ يديها، وكوني رسالة قلبي لديها، وها أنذا أنثر القبلات على جوانبك، فمتى لمستك فضعي قبلتي على بنانها، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنوّ نظراتها وحنانها، وألمسيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها.

ثم بعث إليها برسالة شعرية وصفها بأنها «رسالة للتمزيق» كان ممّا قاله فيها :

فوالله إن الحبّ خير محاسني
ووالله إن الحب شرّ عيوبي

وفي وصفه للحبّ قال: النهار يفتتح بالشمس، والليل يفتتح بالكواكب، أما الحب فلم يفتتح إلاّ بوجهك يا حبيبتي. والشمس والكواكب نار، ولكنها على الدنيا نور. أما وجهك فنور، ولكنه على قلبي نار. أتجهلين؟ أتعرفين؟

كان الرافعي في مجلسها ذات يوم،

فامتد بينهما كلام قالت في آخره «أنت متوحش»، فقال لها: وأنت متوحشة، ثم كتب إليها رسالة قال فيها: ماذا أقول في متوحشتي الجميلة؟ ولو قالت لي «أكرهك» لما وقفت الكلمة عندها عند هذا الحدّ، لأنها من أشياء قلبي فيكون معناها: أكرهك لأني مكرهة أن أحبك. أكرهك لأنك أخضعتني وجعلتني مكرهة أن أحبك. أكرهك لأن كلمة أكرهك هي التي أظن أنها تخفي أمام نفسك تواضعي لك في نفسي.

وقال في آخر رسائله الوهمية: لا أقول إن روضة الحبّ قد انتهت إلى أيامها المقشعرة التي تظهر فيها كل أشجارها حاملة من اليبس والتجرد إعلان آخر الفصل. ولكني أقول.. والسلام عليها.

هل كان هناك حبّ واقعي؟

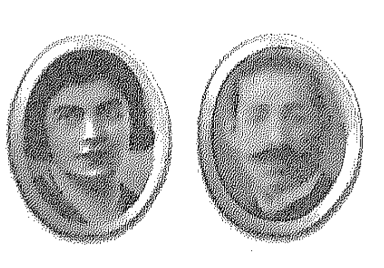
هل كان هناك حب واقعي متبادل بين الرافعي ومي أو أن الأمر كله محض خيال يداعب الرافعي ويعذّبه دون أن تحسّ به مي؟ المؤكد من كل ما وقفت عليه من أخبار هذه العلاقة أن الرافعي كان كمن يفرض خيالات حبه على ميّ حتى يقنعها بأنه هو وحده فارس أحلامها الذي لايباري، على الرغم من أن قلب مي كان في تلك الفترة مشدوداً إلى جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) كما يتضح من الرسائل الواقعية لا المتخيلة التي تبادلاها ونشرتها الأديبة سلمى الحفار الكزبري في كتابها «الشعلة الزرقاء» ونشرت فصول أخرى منها في مؤلفات الدكتور جميل جبر ووداد سكاكيني والدكتور فاروق سعد. لقد بلغ الرافعي حداً من جنون الحب أو هوسه جعله يتسقط أي عبارة لمي لكي يتخذ منها دليلاً قاطعاً على انجذاب مي إليه.

وقد روى الشيخ محمود أبو رية (١٨٨٩ - ١٩٧٠) أنه كان في صحبة الرافعي في طنطا ذات يوم فجاءت جريدة الأهرام وفيها مقال للآنسة مي وردت فيه عبارة من كلام لها سبق نشره، فقرأه بشغف، ثم التفت إليّ وقال بلهفة: أنظر يا أبا رية. ووضع إصبعه على عبارة من المقال: إن هذه الكلمة العابرة لم تكن في الأصل، وإنما وضعت هنا وكأنها رسالة لي منها. ومن ثم عرفت أن الآنسة مي كانت تحمل لي حبا، ولكنها تتلطف في إبدائه، وإن كانت تتحرج عن إظهاره للناس، وأضاف أبو رية قوله: ومما أقرره هنا أن الرافعي ذكر لي أنه استشار السيدة الكريمة زوجته في حبه لمي حتى لا يمس بهذا الحب الطاهر أمانة الزوجية الوثيقة.

العريان يؤكد الحب

ويقول محمد سعيد العريان، وهو من ألصق الناس بالرافعي وكتب سيرته وقدم «لأوراق الورد»: كانت قصة حب، ثم انتهت كما ينتهي كل حب، بين اثنين تكون الفلسفة والكبرياء بعض عناصر وجوده، وافترق الحبيبان على غير ميعاده، وفي نفس كل منهما حديث يهتم أن يفيض به. وفعل الفراق بالرافعي ما فعل، فأنشأ كتابيه «رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» يصف فيهما من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته، فلما استفرغ ما كان في نفسه من خواطر الحب المتكبرة، ونفس عن غيظه بما ذكر من معاني البغض والهجر والقطيعة ليخدع بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه، هدأت ثائرته بعد عنفوان، وفاءت إليه نفسه، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه، فعاد إلى حالة بين الغضب والرضا، وبين الحب والسلوان فاستراح إلى اليأس لولا اثارة من الحنين تنزع به إلى الماضي، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئ من بعد





بالشعر والحكمة والبيان. يرحمه الله، لقد مات ولكن قلبه مازال حيا ينبض، يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه، فيجد فيه صورة من قلبه.

وفى موضع آخر قال العريان إن الرافعى أحب مى حبا عنيفا جارفا لايقف فى سبيله شئ، ولكنه حب ليس من حب الناس، حب فوق الشهوات والغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية.

نعمات فؤاد تسخر من هذا الحب

على أن هذا الحب الجارف فى نظر صاحبه وتلميذه قد وجد من يستخف به أو ينكره، فالباحثة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد تقول فى كتابها عن الرافعى: «ترى لو كان الرافعى يرى فى نفسه الرجل الكفء لمى الأديبة المرموقة وسيدة المجتمع المشهورة، هل كان يعمد إلى كل هذه التخريجات والتركيبات والافتعالات فى غزله؟ إن المسألة بالنسبة للرافعى كانت عملية إبهار، ولكن المسكين خرج من الجهد المضنى الذى بذله فى «أوراق الورد» بنتيجة عكسية، فبدلا من أن يبهر مى، بهر سعيد العريان!

والسيدة سلمى الحفار الكزبرى التى كادت تتخصص فى مى وأصدرت عنها عدة كتب قالت إن الأمر فى العلاقة بين الطرفين لا يعدو كونه اندفاعا عاطفيا من الرافعى قابلته لياقة ومودة من مى، كما كان الحال بين مى ومن عرفتهم من أهل الثقافة، سواء فى مراسلاتها معهم أو فى لقاءاتها بهم فى صالونها.

أما الأديبة وداد سكاكينى (١٩١٣ - ١٩٩١) فتؤكد أنه قد تواتر الدليل والشهود على أن هذا الحب كان من طرف واحد اصطنعه صاحبه ليجد فيه ينبوع الشعر والحكمة والبيان، وكان فيضا من الهواجس والتهاويل صور فيها فلسفته فى الحب والجمال.

وكان صديقنا الصحفى أسعد حسنى قد استعانت به مى كى يقوم عنها ببعض المهام التى تكلفه بها، كترتيب مكتبتها والتوجه إلى مكتب البريد لإرسال خطاباتها وما إلى ذلك من أعمال السكرتارية.. وكانت تأتمنه على بعض أسرارها ، وعندما رغب سلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) فى زيارتها فى بيتها للمرة الأخيرة قبيل وفاتها، رافقه فى الزيارة أسعد حسنى كى لا تمانع فى استقبالهما فى وقت كانت فيه توصد أبوابها أمام الزائرين ، وقد نشر أسعد حسنى عندما تولى رياسة تحرير مجلة «العالم العربى» كلاما يوثق به حول مى، وقد أعفانى الدكتور فاروق سعد مؤلف كتاب «السر الموزع للآنسة مى» من التنقيب عن كلامه فى أعداد المجلة القديمة، فنقل عن أسعد حسنى أنه سأل مى عن حقيقة العلاقة بينها وبين الرافعى بعد صدور كتاب «حياة الرافعى» لمحمد سعيد العريان ، فأجابته وهى تبتسم: لم تزد عن حدود التعارف العابر السطحى. وعندما أهدانى بعض كتبه أرسلت إليه شكرى وتقديرى، ولم يكن فى رسائلى إليه إلا إجابة عن مسائل وجهها إلى فى شئون أدبية. قالت مى ذلك والدهشة ترتسم على وجهها للجرأة على التاريخ التى أوحت إلى من أرخ حياة الرافعى بكتابة ما كتب.

بعد عشر سنوات من القطيعة

أما أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة فقد سجل فى كتابه «مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا» أن الرافعى كان محبا عاشقا، وقال: ولا يظن

ظان أن الرافعي لفرط جديته في الحياة ورهبنته في محراب لغة القرآن ورحاب الدين، كان متعسفا في حياته متشددا في أحاسيسه غليظا مع نفسه ومع الناس، لقد كان الرافعي قلبا بين جنبيه أرق من أنداء الصباح، وروحا أنقى من حياء العذارى، لقد كان الرافعي محبا عاشقا، ثم قال: لقد قص عليّ صديقي المرحوم محمد سعيد العريان أن الرافعي كان متماسكا في حبه لمي، وقورا في صلته بها، لا يترخص أو يصطنع الظرف ولا يتهافت أو ينافق تقربا إليها كما كان يفعل غيره من العاشقين، ثم حدث منها ما جعله يغضب لكرامته فانصرف عن مجلسها وقاطعها عشر سنين.

ويقول الشكعة إن الرافعي طلب من العريان ذات يوم أن يصاحبه إلى بيت مي، فقد قرر أن يزورها ويجدد ماضي صلته بها . لقد تأنق الرافعي في ذلك اليوم أناقة ملحوظة، وأمسك بعصاه إمساك الشباب الفتيان لا إمساك الكهول المتهالكين وظللنا نضرب في الأرض سعيا إلى دارها، وكلما قربت الدار، تباطأ الرافعي في مشيته، حتى إذا وصلنا إليها قال الأديب الكبير : لا يا سعيد، سوف لا أصعد إلى زيارتها ، لقد مرت على آخر لقاء بيننا عشرة أعوام طوال، لا شك أنها غيرت مني وغيرت منها، وأخشى أن ينكر كل منا صاحبه بفعل السنين، وإني أريد أن يحتفظ كل منا للآخر بصورة الشباب الوضيئة. ويستطرد العريان قائلا: وانصرفنا عائدين وإلى حيث كنا قافلين.

الرافعي يغار من مي

وفي حين كان الرافعي يطارح مي أسباب الهوى، كان يغار منها غيرة لم يستطع كتمانها. فقد لاحظ أن الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧) منشئ مجلة «المقتطف» كان يقدم مقالات مي على سواها من المقالات، ومنها مقالات الرافعي، فلما تكرر منه هذا الأمر بعث برسالة إلى الدكتور صروف يعاتبه لأنه لا يراعي أقدار الأدباء في ترتيب المقالات في المجلة، فكيف تسبق مقالة مي مقالة الرافعي؟ فرد عليه الدكتور صروف موضحا أن المجلة ليس لديها «بروتوكول» تراعيه في نشر المقالات، وإنما تراعي في ترتيب المقالات زمن ورودها إلى المجلة وقال إنه يعرف أن كثيرين من الذين لهم الكعب الأعلى في الإنشاء يجلون قدر مي ويمدحونها بالكلام والكتابة، وقد رأيت إسماعيل باشا صبري (١٨٥٤ – ١٩٢٣) يقبل يدها في بيتي!

●●●

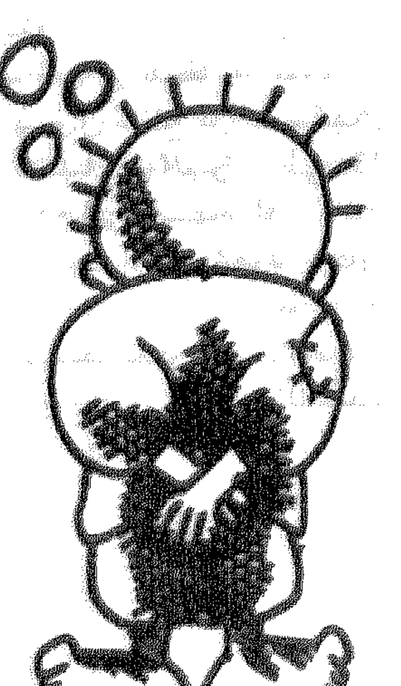
وفي اعتقادي الذي لا ينتقص من القيمة الأدبية لمصطفى صادق الرافعي الذي لم أعرفه وإن كنت نعمت بصداقة المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعي (١٨٨٩ – ١٩٦٦) وبمودات الشاعر الكبير سليم الرافعي – أن الرافعي كان مهووسا بمي في حين كانت مي تحترم أدبه وتقدر علمه وتلتمس له أعذارا في عواطفه المبثوثة في كتبه الثلاثة التي ناجاها فيها بلغتي الشعر والنثر عساها تؤثره وحده بحبها .

ولا يسع المرء إلا أن يفترض جدلا أن مي استجابت لمطارحات الرافعي وارتضت أن تكون زوجته الثانية، فهل كان يفرض عليها أن تقيم معه في طنطا وأن تكف عن عقد صالونها وأن تمتنع عن استقبال الرجال في بيتها؟ إن الجواب على هذا السؤال لا يحتاج إلى اجتهاد، لقد كانت لكل منهما شخصيته القوية المتفردة، وكان حريا بهاتين الشخصيتين أن تصطدما لو قدر لهما أن تجتمعا تحت سقف واحد مع ضرة وأولادها ومع غيرة الرافعي الشديدة ومع راتبه شديد التواضع! ■

ناجى العلى

لك المجد يا حنظلة

بقلم
أحمد عز العرب

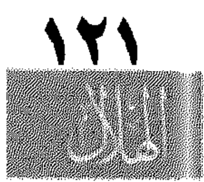


أى رسم يمكن أن يرسمه الآن ناجى العلى ؟

لو أن رصاصات الاغتيال طاشت عن هدفها ولم تصب الفنان الشهيد ولو أنه خرج فى التاسع والعشرين من أغسطس (آب) ١٩٨٩ من

المستشفى إلى مقر عمله، فهل نستطيع أن نتخيل الصورة الكاريكاتورية التى نراها اليوم بتوقيع، ناجى العلى؟

ليس هذا بالفرض المستحيل، فمجمل أعماله لم يكن لها سوى موضوع واحد هو (القضية الفلسطينية). وبتفصيل أدق يمكننا أن نقول إن كل ما أبدعه ناجى العلى لم يخرج عن كونه تصويرا أميناً لتعليقات الفقراء من أبناء الشوارع والبساتين على ما يجرى من تطورات الصراع فى فلسطين. صحيح أنه لم يرسم إلاَّ فقراء المخيمات لكن من قال إنهم يختلفون عن غيرهم من فقراء العرب؟





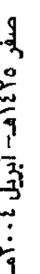
لقد كان بحق صوت من لا صوت لهم من أبناء الأمة العربية. ومضت سيرته الذاتية موازية تماماً لكل ماتعرضنا له وكل ماحل بقضية شعبه من انكسارات وصعود بحيث أصبح بسيرته وفنه هو الصورة الدالة بامتياز على (الفلسطينى).

بدايات لاتنتهي

كانت صورة (الفلسطينى) فى وعى ووجدان أبناء جيلى، صورة غائمة تخيلية. كنا قد سمعنا عن مجازر اللد والرملة والجليل وسمعنا عن تواطؤ الخونة وتخاذل الحكام، ولم نكن قد شاهدنا شيئاً من ذلك، فلم تكن الأقمار الصناعية قد اعتلت فضاء الكون تبث لنا صوراً مما يجرى فى الطرقات والمخيمات، فاستخلصنا مما سمعناه صورا تعبر عن شجاعة مفتى القدس الحاج أمين الحسينى وأشعار هارون هاشم رشيد. وتوهمنا حينها أنه لولا تخاذل أو تواطؤ بعض حكامنا لما جرت نكبة ١٩٤٨. لذلك استبشرنا بذهاب هؤلاء الحكام وظهور آخرين جدد أكثر إخلاصاً ووطنية وبوسعهم كما وعدونا أن يناصروا الأخ (الفلسطينى المقهور) وأن يعيدو له الحق السليب.

لكن الأمر - كما تعلمنا من تجاربنا الذاتية فيما بعد - لم يكن بهذا القدر من التبسيط.

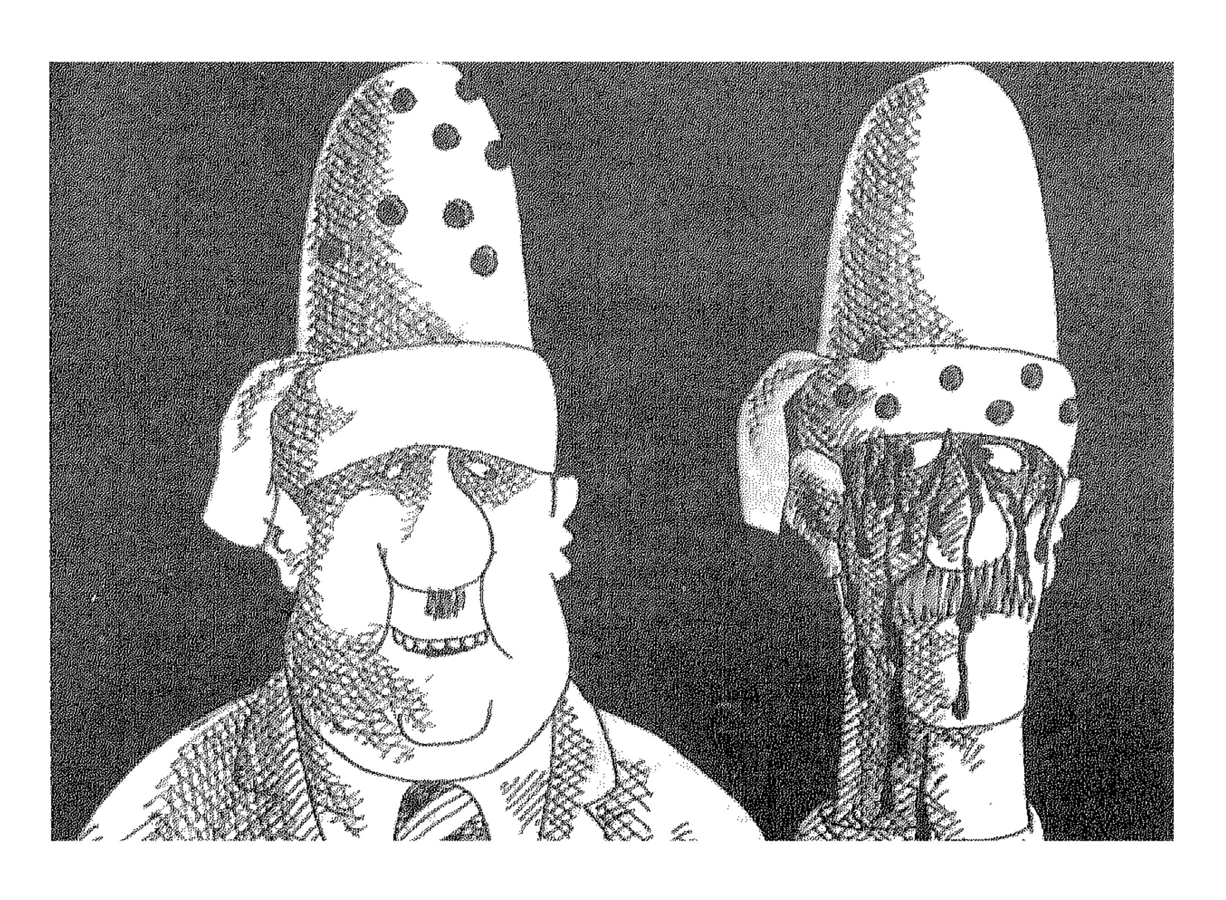
فعلى سبيل المثال : فإن شخصاً مثلى ما كان له أن يعارض حكم (الضباط الأحرار) فى مصر. ففضلاً عن الروح الوطنية المتدفقة فى رجال هذا الحكم



الجديد فإنه قد أتاح لأمثالى فرصة التعليم الجامعى المجانى ورفع عن آبائنا سطوة أصحاب الأعمال وملاك الأرض والمساكن، والأهم من ذلك كله أنه منحنا الشعور بانفتاح بوابات الحلم على اتساعها.

برغم ذلك كله فقد لازمنى شعور بالقلق والريبة، نبع من وقائع الحياة اليومية كما عايشتها وعايشها الملايين من صور صعود المنافقين والانتهازيين مع إزاحة لأصحاب الكفاءات والنوايا الحسنة وحكايات يتناقلها الناس عن المغيبين فى المعتقلات بسبب أفكارهم أو أرائهم المخالفة للنظام، لذا بقيت بينى وبين هذا النظام الوطنى مسافة فاصلة لم تلتئم خصوصاً وقد عاينت قدراً يسيراً مما تعرض له المعتقلون.

قبل أن تحل بنا النكبة الثانية (١٩٦٧)، كانت الدراسة بالجامعة قد أتاحت لنا مخالطة بعض الزملاء العرب والفلسطينيين وبفضل معايشتهم عن قرب لم تعد صورة (الفلسطينى) غائمة فى وعينا كما كانت وتكشفت لنا أبعاد جديدة لما كان يدور فى غزة والضفة والأرض المحتلة. وكنا لفرط جهلنا نتوهم أنه لم يعد بها سوى العجزة المستسلمين أو الخونة القابلين للحكم الصهيونى وإذ بنا نتعرف على عالم جديد زاخر بالحياة وفياض بنماذج البطولة، ليست تلك البطولات الزاعقة، وإنما بطولة الحفاظ على القلب الفلسطينى نابضاً



بالحياة. وبدأنا نتعرف على أسماء : توفيق زياد ومعين بسيسو ومحمود درويش وأميل حبيبي.

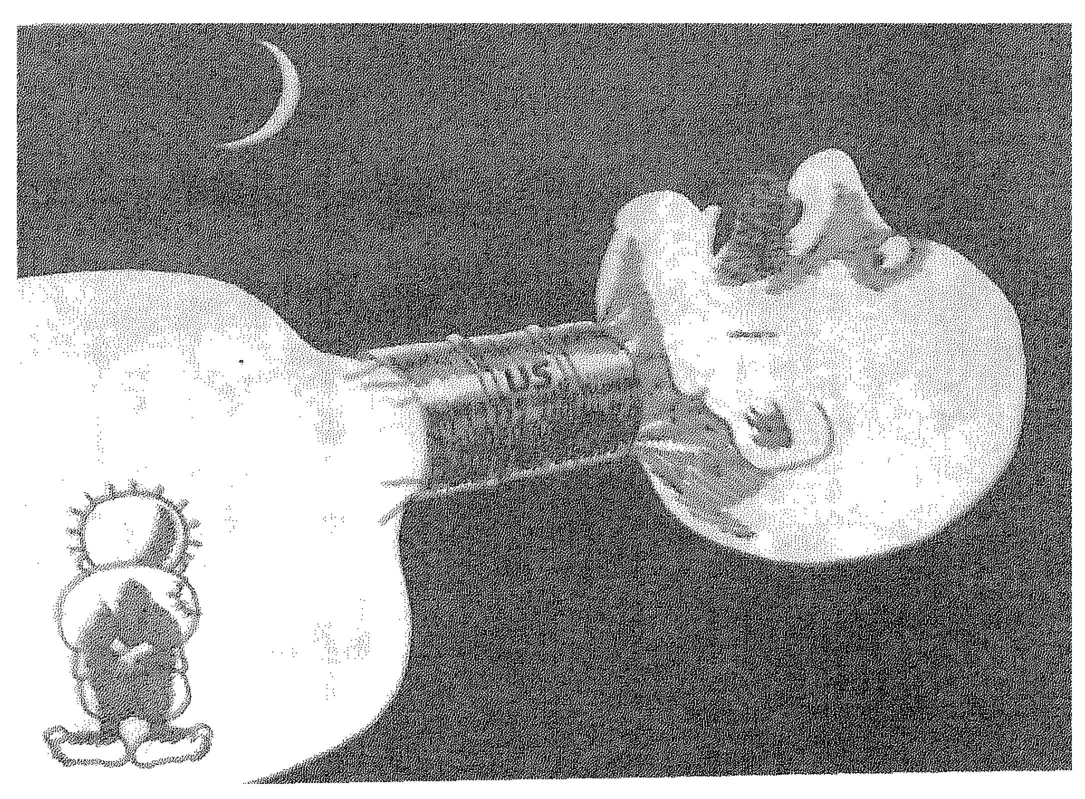
ولا أنسى ذلك الزلزال النفسى الذى خلفه عندى زميل غزاوى إذ ورد فى حديث عابر إسم القوات الدولية الفاصلة على الحدود المصرية، ذكر لى اسمها عرضاً، فاستوقفته وإذ لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل وكانت لتلك (القوات) أسوأ الذكريات عندنا لما جرى من مذابح للفلسطينيين تحت سمع وبصر مراقبى (الأمم المتحدة).

حاولت التأكد من صحة كلماته، فتعجب لدهشتى وكأن وجود تلك القوات الدولية حقيقة لايجهلها أحد سواى. فدارت بى الأرض. فإما أن زميلى كاذب فيما يقول وإما أن كل مانسمعه من بيانات سياسية ترددها أجهزتنا هى الكذب عينه.

وفى الحالتين فإن القلق هو نصيبى الوحيد . حتى حلت الكارثة فتبين الصدق من الكذب وتفجرت فى نفوسنا ينابيع الغضب.

.. ورحيل لاينتهي

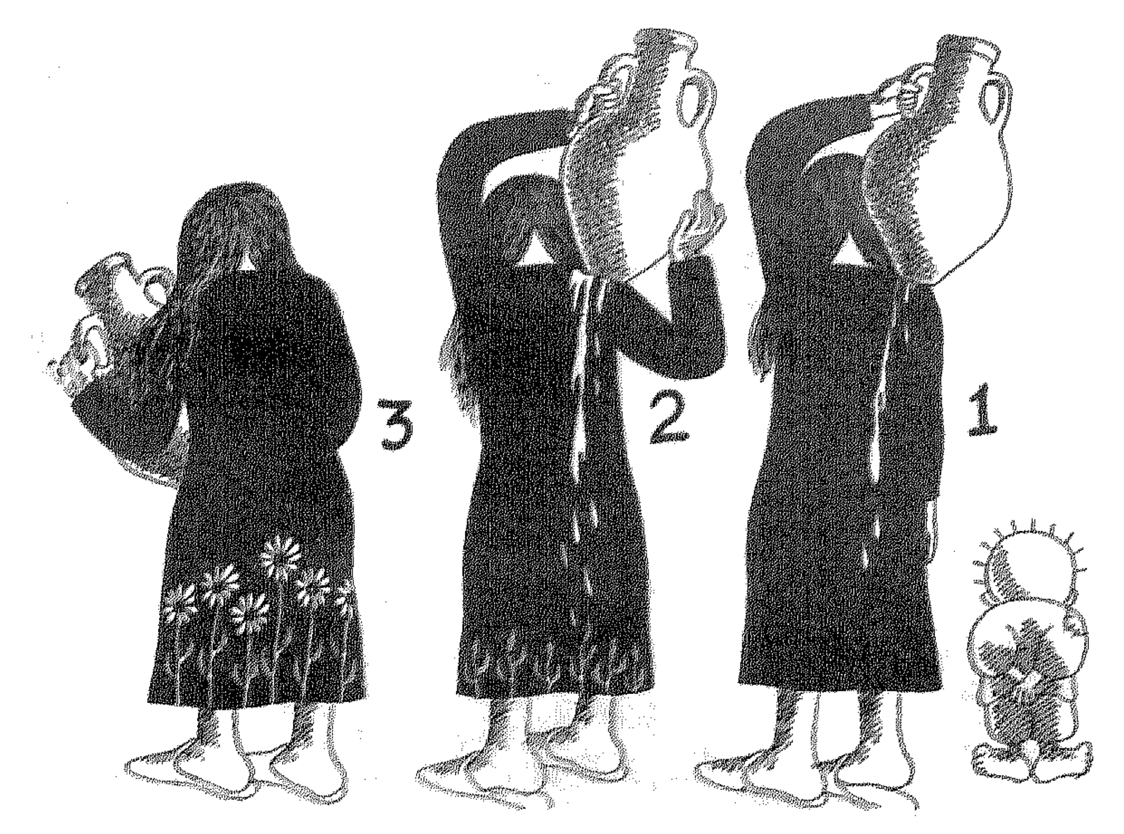
كان ناجى العلى طفلا لم يتجاوز التاسعة يوم حلت النكبة الأولى. إذ ولد عام ١٩٣٧ بقرية صغيرة اسمها (الشجرة) قرب طبرية. وكانت تلك المنطقة مسرحاً لعدد كبير من العمليات الإرهابية



الصهيونية والمجازر التى ارتكبتها عصاباتها لإقتلاع فلاحى القرىْ العربية من الأرض. وبعض تلك المجازر سجلتها تقارير مراقبى الأمم المتحدة ولازالت محفوظة فى أرشيف وثائقها . وسجلت شهادات بعض معاصريها من اللاجئين فى بحوث ودراسات عدد من الكُتَّاب العرب مثل: وليد الخالدى والياس شوفانى وصالح عبد الجواد وحليم بركات . كما اعترف ببعضها عدد من المؤرخين الإسرائيليين الجدد فى استعراضهم (لأهوال حرب الاستقلال).

وقدر لناجى العلى أن يعايش تلك الأهوال فى مرحلة سنية مبكرة وأن يشارك أهله الفرار إلى مخيم اللاجئين فى (عين الحلوة) بجنوب لبنان. وفى هذه المرحلة من عمر الإنسان تكوَّن ذاكرته البصرية والوجدانية بالغة الحساسية تلتقط أدق التفاصيل وتختزن أرهف المشاعر. وتركت تلك التجربة فى نفس ناجى أثرها العميق الذى رافقه طوال حياته وشكل تكوينه النفسى ووعيه الفطرى.

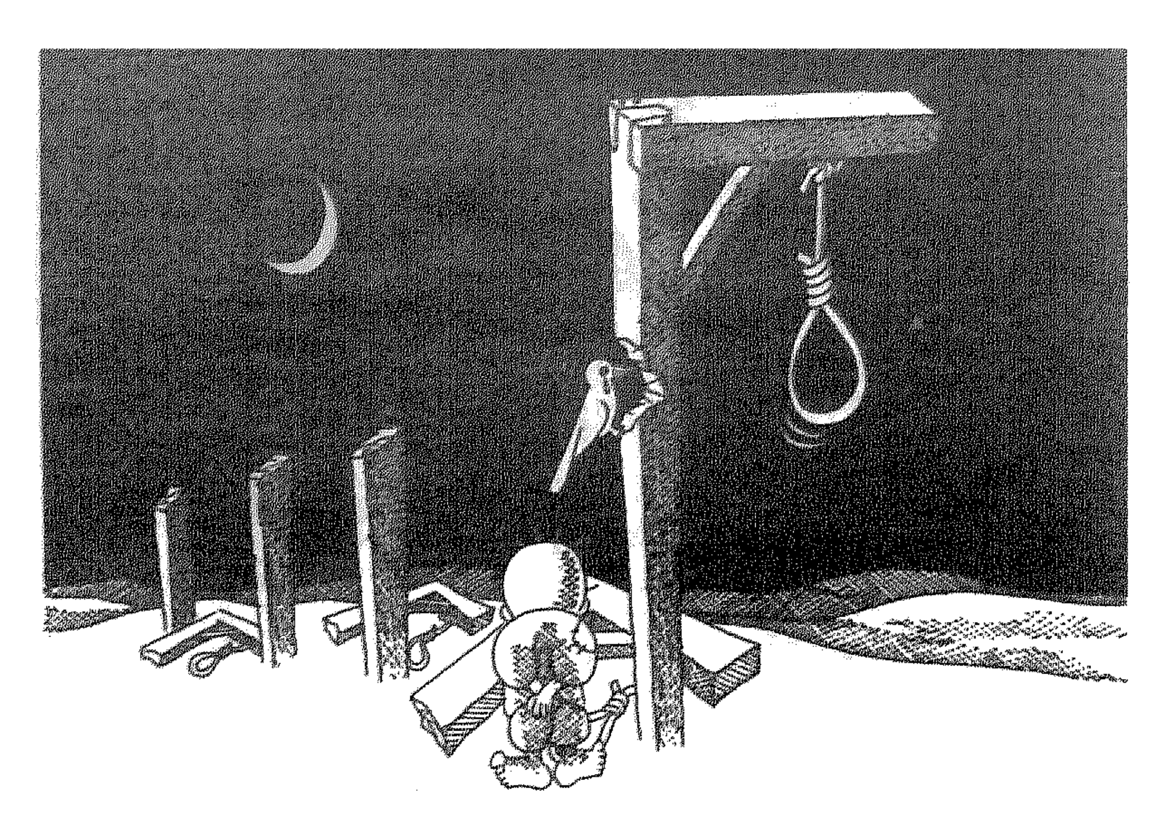
لم يتمكن الطفل الصغير من متابعة الدراسة المنتظمة، واضطر للعمل فى البساتين ليوفر قوته ونفقات تعليمه الصناعى المتوسط ليتمكن من العمل فى بعض الورش الصغيرة بمدينة طرابلس . حتى بلغ عامه العشرين فسعى لعمل أفضل فى السعودية. ولم تطل إقامته هناك أكثر من عامين عاد بعدهما إلى لبنان ليستكمل دراسة الفنون الصناعية



التطبيقية . إلا أنه لم يتمكن من ذلك، ولما أتاح له غسان كنفانى أول فرصة لنشر رسومه بمجلة (الحرية) انتقل من عين الحلوة إلى بيروت، ومنها إلى (الطليعة) الكويتية حتى استدعاه (طلال سلمان) إلى بيروت من جديد ليشارك فى تأسيس صحيفة (السفير) ويبقى بها حتى وقع الغزو الإسرائيلى للبنان وحصار بيروت، فتابع رحيله إلى الكويت من جديد فى صحف (السياسة) و(القبس). فلما ضاق برسومه بعض أصحاب النفوذ انتقل للعمل فى (القبس الدولية) بلندن.

وبعد شهور طالته رصاصات الغدر فى الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٨٧ ومضى فى غيبوبته بالمستشفى حتى فاضت روحه فى التاسع والعشرين من أغسطس من نفس العام.

على هذا النحو مضت حياة الشهيد فى نزوح دائم ومن سفر إلى سفر .. من وطن بديل إلى بديل آخر ويبقى وطنه الحقيقى الوحيد فيما إكتنزه بداخله من أيام الطفولة غير السعيد . ولأننا لا نرى من الأشياء ولا نتعرف إلا على تلك التى نحملها بداخلنا، ولأن «كل بئر ينضح بما فيه» لذلك ظلت رسومه تعكس تلك المرارة والقتامة التى رافقته ولذلك أيضاً كان لابد أن تكون مختلفة عما استقر فى وعى قراء الصحف العربية لمفهوم (الكاريكاتير) شكلاً ووظيفة.



هنا يحق أن نتساءل إذن عن سر الاعجاب الشعبى بتلك الرسوم المغايرة القاتمة. هل تغير المزاج العام للقراء؟ وما الذى يجذبهم إلى هذه الرسوم؟

صباح الغضب

كان الجمهور العربى قد استيقظ مذعوراً فى صبيحة النكبة الثانية (يونيو ١٩٦٧) ليجد نفسه فى العراء تماماً بين أطلال عالم تقوضت أركانه فى ساعات، وكأنه عالم من الكرتون الملون عشنا بداخله حتى أطاحت به ركلة قدم، وبهلع بدأ الكل فى البحث عما يحتمون به أو يلجأون إليه .. عالم جديد .. أو لغة جديدة وأناس مغايرون لمن تركنا لهم مقاليد أمورنا.

وبدت صورة العقل الجماعى العربى وكأنه قد فقد رشده فى سعيه المحموم للخروج من المأزق لايميز بين من خذلوه ومن خانوه، ولا يدرك الفرق بين النقد الذاتى والانتحار الجماعى لأفراد الأمة .. بركان غضب هائل لايعرف فى أى مسار يسير فى هذا المناخ العارم تحولت أبيات شعراء مثل: أحمد فؤاد نجم ومظفر النواب إلى نضال يتناقلها الناس ويغمدونها فى الجميع وراجت النكات الشفاهية التى تنهش فينا نحن المواطنين البسطاء بقدر ماتحقر المسئولين عنا، وتكاثرت الكتابات والدراسات (العلمية) التى ردت العجز والسلبية إلى «طبيعة الشخصية القومية» وكأنه قدر علينا أن نبقى عاجزين متخلفين وفقا لجيناتنا الوراثية أو سماتنا التى توارثناها ولا حيلة

الديمقراطية

لنا فى تبديلها!!

قليلون جداً فى عالمنا العربى يومها من حاولوا الاحتفاظ بتوازنهم النفسى والعقلى وأدركوا الفرق بين الغضب المدمر الذى ينهى وجودنا وبين الغضب الساطع الذى بشرتنا به فيروز والرحبانية.

وتعلق الناس بقسم عبدالرحمن الأبنودى (أحلف بسماها وبترابها) ورددوا بأسى بالغ وحسرة متعلقين بالأمل (إحنا بلدنا للنهار) .

من هذه الفئة القليلة كان ناجى العلى فكانت أول رسومه المنشورة بمجلة الحرية رسماً عبارة عن خيمة على شكل هرم يخرج من قمته بركان ترتفع فوق سحبه يد بعلامات النصر.

وتتابع الرسوم تصور الفقير العربى متشبثا بالأمل، وتفضح الوقار الزائف للحكام وتسلطهم الغبى.

كانت تلك الرسوم متوافقة مع المزاج العام وتحقق لشاهديها متعة جمالية وإضاءة فكرية، فهى قد جاءت على هواهم متحازة إليهم ترد لهم الاعتبار الذى طالما انتهكه الحكام وتبث فيهم الأمل وتحقق لهم النيل ممن تسلطوا عليهم فتحقرهم وتحيلهم إلى كائنات هلامية مزرية الشكل. وتوافقت الحاجة الجماعية الملحة للتجديد مع تلك الرسوم التى كانت غريبة على العين.

لكن إلى أى حد كانت رسوم ناجى تجديداً فى الكاريكاتير؟





في تقديري أن رسومه وإن جاءت مختلفة عمن سبقوه من الرسامين وأغلبهم من المصريين لسبق ظهور الصحافة في مصر عن غيرها من البلاد العربية، فإن هذه الرسوم لم تكن مقطوعة الصلة بما قبلها. والتجديد في الفن والثقافة كالتجديد في الحياة لاينبع من فراغ ولا يجلب من غير التربة الثقافية وإلا لكان بدعة أو تقليعة لاتدوم طويلاً. وبقدر ماجاءت رسوم ناجي مختلفة بقدر ماجاءت وثيقة الصلة بما أنجزه السابقون عليه في الكاريكاتير.

- هذا الفقير حافي القدمين الذي جعل منه ناجي محوراً لرسومه ألا ينتمي بشكل أو بآخر إلى هؤلاء الفقراء الذين صورهم (حجازي) لأول مرة في الكاريكاتير وجعل من حياتهم اليومية مادة لعمله؟

- ثم هذا الأسلوب الفني في استخدام الحيل الجرافكية والتخفف من التعليقات اللفظية ألا يقترب من تكنيك محيي اللباد وتوظيفه للعلاقات بين الخطوط والمساحات عوضاً عن التعليق اللفظي؟

لولا خشيتي من تلك الروح القبلية السائدة بيننا اليوم وخوفي من الإتهام بالتعصب لفصلت أكثر في شرح مبلغ انتماء رسوم ناجي بما قبله.

وإن كنت أرى في هذا الانتماء المعنى الصحيح للأصالة والتجديد وهو مايضاعف من التقدير الفني لما أنجزه الشهيد.

رحمه الله. ■

الفن المصرى الحديث

بقلم
د. صبرى منصور

لا ينفصل الفن التشكيلى عن نواحى الحياة المختلفة فى المجتمع المصرى المعاصر ، والتى تتطلب السعى نحو إصلاحها وتحديثها ، فهو يحتاج إلى مناقشة قضاياه ، وتوفير المناخ الثقافى السليم لازدهاره وتألقه ، ليكون مناظراً فى قيمته وأهميته لفنون الدول التى قطعت شوطاً هائلاً فى طريق التقدم والحضارة . فلقد عرف المصريون الفن التشكيلى فى صورته الحديثة منذ ما يقرب من مائة عام ، وجاء ذلك مواكباً للصحوة المصرية فى أوائل القرن العشرين بعد قرون طويلة من السبات الحضارى ، وذلك إلى جانب تعرفهم على فنون أخرى كالمسرح والسينما والموسيقى والباليه التى أتاحت الفرصة للمصريين للتواصل فيما بينهم وبين أنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين الآخرين من ناحية أخرى بأسلوب غير أسلوب التواصل المباشر ، وهى درجة من درجات الرقى والتحضر فى تاريخ تطور الإنسان .



صاحبة الأساور الزرقاء – محمود سعيد



فهل استطاع المصريون أن يعبروا بالفن التشكيلى عن أنفسهم ؟

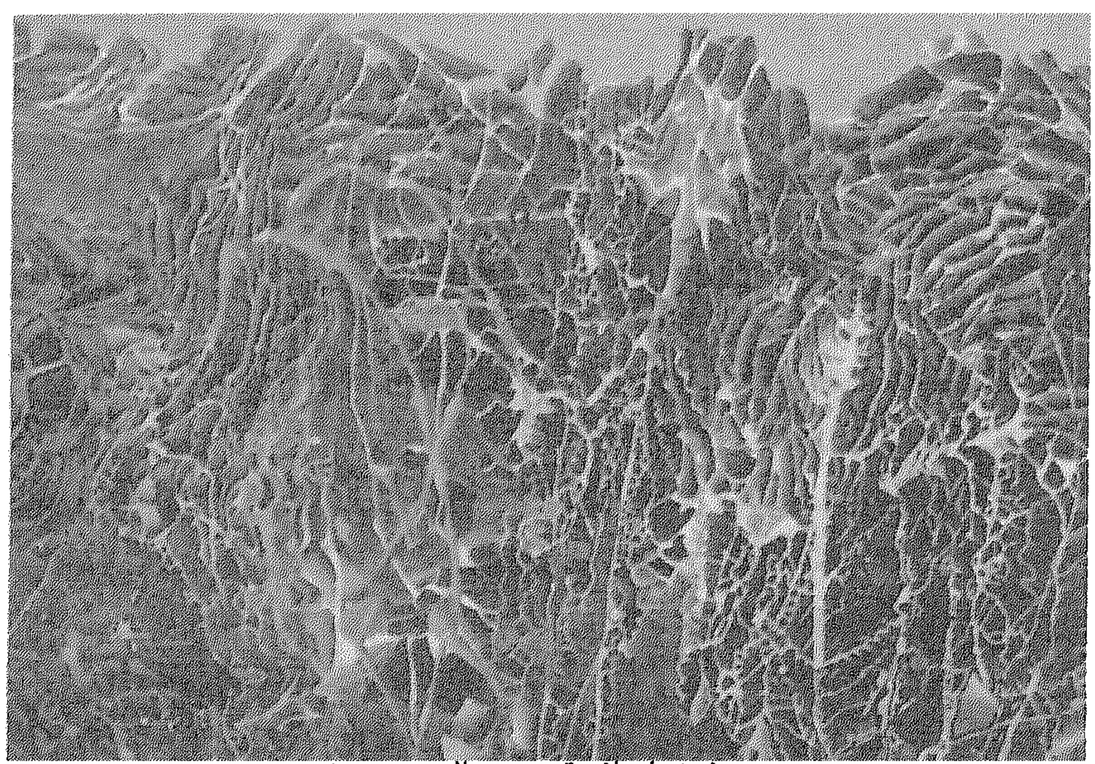
وهل يقدم إبداعهم الفنى للعالم رسالة ذات خصوصية ثقافية ؟ .. وقبل أن نطرح إجابة عن هذا التساؤل ، فإن هناك قضايا تتصل به اتصالاً وثيقاً ، ورغم أنها قضايا سبق تناولها بشكل أو بآخر ، إلا أنها بحاجة إلى اختبارها من زوايا جديدة ، ومناقشتها بعقل متفتح ، حتى تأتى الإجابة واضحة ومقنعة .

وتشمل هذه القضايا : الخصوصية الثقافية التى تعد الفنون وعاءها وحامل رسائل شعوبها الوجدانية والروحية ، والعلاقة غير الإيجابية السائدة بين فنوننا والفنين الأوربى والأمريكى ، وفكرة العودة للقديم وإحياء التراث الفنى المصرى عبر عصوره المختلفة ، والعلاقة بين الفنان وأجداده من المبدعين القريبين منهم والبعيدين ، وما هى العناصر التى تتكون منها الذات الثقافية المصرية ، وعلاقة التعبير عنها بالموضوع من جهة وبأسلوب صياغته الفنية من جهة أخرى ، ومن يتلقى رسالة الفنان المصرى ويتفاعل معها وجدانياً لتتحقق فائدتها وتفى بالغرض منها .

الفن وخصوصية الثقافة

تشمل صيغ الحياة لأى شعب عناصر الدين والعادات والتقاليد والعلم والفن ، وهى التى تخلق ثقافة هذا الشعب ، وتسهم فى تحديد ملامح هويته ، وتميزه عن غيره من الشعوب ، كما تخلق لديه الوعى باختلافه عن الآخرين ، وإذا انتفى ذلك الوعى ، واضمحلت معالم ثقافة الشعب فإن عوامل بقائه ومقومات وجودها نفسها تتعرض للفناء والتحلل .

ولقد ظل دور الفن فى التاريخ حاملاً للثقافات المتنوعة للإنسان ، وكما تظهر لنا آثاره الباقية فإنه كان خير من يجسد التوجهات الحضارية، ويمثل أفكارها خير تمثيل ، بل إنه كان وسيلة من الوسائل الفعالة فى تعميم ونشر الصيغ الحضارية الأخرى . حين حمل فى معظم العصور التاريخية مسئولية الدعوة الدينية ونشر قيمها ، والتعبير عن نصوصها ، وخير مثال على ذلك فنون مصر القديمة ، والفن المسيحى فى القرون الوسطى . كما كان الفن خير من تتبلور فيه اتجاهات التحول فى الأفكار النظرية والفلسفية الكبرى ، والتى صاحبت الثورات الفكرية والاجتماعية ، مثلما نجده فى عصر النهضة الأوربية ، عندما تبنى قيم التحول الجديدة نحو الإنسان باعتباره النموذج والمثال ، وكذلك فى الفن الأوربى الحديث عندما جسدت الأساليب الفنية العديدة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين مبدأ تقديس الحرية المطلقة للإنسان الفرد .



فيضان إفريقى - عز الدين حمودة

وتلك الخصوصية التى تبدو أساسية فى الفنون ليست مطلوبة فى مجالات علمية أخرى كالطب والهندسة ، وذلك لأنها مجالات تخدم البشرية جمعاء ، ومع أنها فى بعض الأحيان تطوع نفسها وفقاً للظروف المختلفة لكل شعب ، إلا أن نظرياتها وأسلوب تطورها متماثل عند البشر جميعاً ، ولا تستلزم الاستقلالية التى تصبح حيوية بالنسبة لأشكال الفنون .

ولقد مكنت الثورة الصناعية فى العصر الحديث شعوب أوربا وأمريكا الشمالية من تحقيق تفوق حضارى كان من شأنه شعور الشعوب الأخرى بالحاجة إلى نقل ثقافة الغرب ، مع ما يمثله هذا النقل من إحساس بالخطورة على سمات حضارتها ومعالم هويتها ، حين يؤدى بها إلى التقليد الأعمى ، وتلك إشكالية من أهم الاشكاليات التى تواجهها فنون الدول النامية . فإذا كانت هناك مرحلة كان لابد فيها من التبعية الثقافية التى كانت نتيجة منطقية للتبعية السياسية فى عهود الاستعمار الأوربى ، فإن الدول النامية وهى فى مرحلة إعادة صياغة مجتمعاتها يجب أن تلتفت إلى ضرورة حث قوى الإبداع فيها على اتخاذ خطوات نحو فنون أكثر استقلالية ، وتعبر عن خصوصيتها الثقافية بشكل أكثر وضوحاً وتحديداً ، وهو ما تحتاجه مصر ضمن تطلعاتها إلى

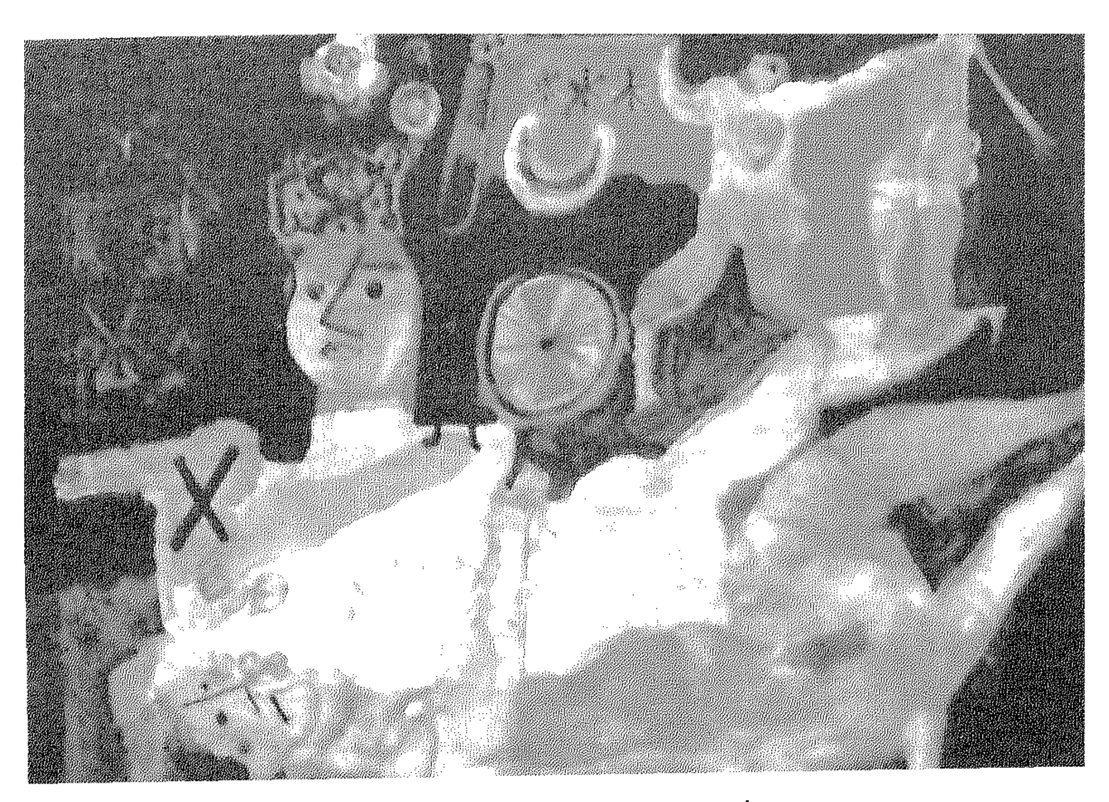
تطوير وتحديث حياتها المعاصرة .

نحن والفن الغربى

ولقد كان طبيعياً - منذ قرن من الزمان - أن تتجه أبصار المصريين المقتحمين الجدد لعالم الإبداع الفنى صوب الغرب ، صاحب التقاليد الراسخة فى مجال الفنون ، ليتمثلوا إنجازاته الكبرى ، وينقلوا أساليبه الفنية ، ويحتذوا نماذجه الشهيرة . ويتعلموا تقنياته ومهاراته ، وفى النهاية أن ينسجوا على منواله إنتاجهم الفنى ، وبالفعل ظهرت أعمال فنية كشفت عن مهارة المصريين العالية وحساسيتهم الفنية المرهفة ، ولكن ظل وضع الإبداع الفنى ثابتاً على النهج الاتباعى ، الذى كان يتأكد وجوده أحياناً ، ويقل تأثيره فى أحيان أخرى ، وذلك تبعاً للظروف السياسية والاجتماعية فى مصر ، ولكنه فى جميع الأحوال كان عاملاً ضاغطاً على الإبداع المصرى ومعوقاً لعوامل تشكله ونضجه واستقلاله . وسيطرت على ساحة الإبداع ما عرف بقضية الأصالة والمعاصرة ، حيث تبنى دعاة الأصالة فكرة الفن القومى الذى يتصل بعناصر التراث المصر الفنى بشكل أو بآخر ، فى حين نادى أصحاب الدعوة للمعاصرة إلى نبذ القديم واقتفاء أثر المدارس الفنية الغربية واتباع تعاليمها ، بينما كان هناك فريق معتدل فى توجهه ، لا يعطى ظهره للتراث وإنما يحاول أن يمتد بخيوط منه ، وينتقى من بين عناصره ما هو مفيد فى التعبير الفنى الحديث ، كما أنه لا يرفض الاستفادة من أفكار مدارس الفن الغربى ، فيما بدا كمحاولة توفيقية .

ولقد أدلى كل بدلوه فى هذه المسألة التى بدت كمعضلة لا حل لها ، وأدى الخلط وعدم الوضوح فى تحديد المصطلحات والمفاهيم إلى التباس مازالت آثاره السلبية ممتدة حتى اليوم .

وتكشف المتابعة الفاحصة لمسيرة الفن المصرى منذ بدايته الحديثة أن تأثير الفن الغربى بدءاً من جيل الرواد الذى تلقى تعليمه الفنى - سواء فى مدرسة الفنون الجميلة أو فى مراسم الفنانين الخاصة - على أيدى الأجانب ، ووفق مناهج الفن الغربية ، لم يخفت وتقل سطوته إلا فى مرتين ، الأولى منهما حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وما صاحبها من إثارة للنزعة الوطنية فى المجتمع المصرى ، والتى دفعته إلى البحث عن عوامل استقلاله ، فطال ذلك مجال الفن التشكيلى رغم أنه كان مازال وليداً ، وتجسدت تلك النزعة بشكل واضح فى لوحات محمود سعيد وراغب عياد وتماثيل مختار . أما المرة الثانية فقد جاءت مصاحبة لعودة نفس النزعة الوطنية بشكل أكثر وضوحاً وحدة من خلال المشروع الوطنى الذى تبناه عبد الناصر فى الخمسينات والستينات ، وانعكست



من أعمال الفنان الراحل سعيد العدوى

آثارها على شتى أنواع الإبداع الفنى ، وفى الفن التشكيلى نجد صداها ظاهراً فى أعمال فنانين عديدين من بينهم تحية حليم والسجينى والجزار وندا ، وتميزت تلك الفترة بالبحث عن جماليات تشكيلية جديدة وذات صلة حميمة بعناصر الثقافة المصرية وخصائصها المميزة .

وفيما خلا هاتين الفترتين فإن الفن الغربى كان ومازال يلقى بظلاله على الإبداع المصرى ، وخاصة منذ وقوع النكسة عام ١٩٦٧ وما صاحبها من انتكاسة للمشروع القومى العام ، وخفوت صوت الداعين لإحياء الروح المصرية الأصيلة المبدعة . وإذا أضفنا تلك التغييرات الاجتماعية السلبية ، والسلفية الفكرية المعادية للفنون ، مما أدى فى النهاية إلى تكريس أنواع الفنون السوقية والسطحية ، وعدم حفز أسلوب البحث والتفكير والمعاناة والتجويد ، مع تشجيع استعمال ما هو جاهز ومعد سلفاً وسبق تجريبه وأثبت رسوخه فى الغرب ، كل تلك العوامل قد ساهمت فى وقف نمو وانطلاق الفن المصرى الحديث كما كان يرجى من أمة مصدر فخرها اليوم هو فنونها التشكيلية ولكن فى عصرها الموغل فى القدم .

درجات متفاوتة من التأثر

ولقد اختلف الفنانون المصريون فى مدى وكيفية تأثرهم بالفن الغربى ، وذلك

تبعاً لمقدار الموهبة والنضج الفنى والوعى الثقافى عند كل منهم ، ولأن هناك مساحة واسعة من التأثر تبدأ بمجرد تبنى الفكرة النظرية للأسلوب ولكن الفنان يضيف لمسته الذاتية وإضافته الشخصية مثل تجريد رمسيس يونان وفؤاد كامل ، وتنتهى بالتقليد المباشر والنسخ لبعض أعمال الفنانين الغربيين ، كما أن هناك الفئة التى تتبنى أساليب الفن الغربى وكأنها هى التى أبدعتها وابتكرتها ، فتراها تدعو إليها بكل قوة ، وتهاجم وتقاوم بضراوة أى حديث عن خصوصية الثقافة ومحلية الفن وكأنه وصمة حضارية وتخلف فكرى ، فهى لا تكتفى بنقل الأفكار والصيغ التشكيلية الجاهزة - وذلك فى حد ذاته أمر مشين - وإنما تتخطى ذلك إلى إثارة الخلط والتشويش على المبدأ الصحيح فى الإبداع باعتباره عملاً ذاتياً فى المقام الأول يحمل ثقافة صاحبه ورؤيته الشخصية ، وتتخفى تلك الفئة وراء تعبيرات غامضة ومقولات خاطئة ، مثل مواكبة الحداثة الفنية ، أو أن الفن لغة عالمية ولابد أن يتخاطب الجميع بمفرداتها

والمقصود بالتعبير الأول أن هناك شكلاً أوحد لا بديل له للحداثة الفنية هو ذلك الذى يوجد فى الغرب ، وكأنه ليس ممكناً أن تخلق الشعوب حداثتها المعبرة عنها والمشتقة من عناصر ثقافتها ، وفى ذلك التعبير إلغاء للروح الحيوية المبدعة وافنائها ، كما أن فيه امتهانا لقدرة الإنسان وإمكانياته فى التحليق بعيداً عن القوالب المعروفة والمستهلكة ، كما أنه يعنى انتظارنا دائماً لما هو أكثر حداثة .

أما مقولة أن الفن لغة عالمية ، فهو بالفعل لغة عالمية لأن قيمه وعناصره التى تكونه مفهومة ويتم إدراكها لدى جميع البشر فى أى مكان من العالم ، وإدراك القيم الجمالية كالخط واللون والمساحة والتصميم ومجمل العلاقات التشكيلية لا يحتاج إلى مترجم ، فلا يجب أن تفسر عالمية الفن على أنها صياغات معينة يلتزم بها الجميع وإلا تخلفوا ، فمن خلال القيم الجمالية يمكن الحصول على صيغ لا نهائية من أشكال التحديث .

كما يثير بعض الداعين لتقليد الفن الغربى مقولة أن هذا الفن قد تأثر هو نفسه بفنوننا القديمة وفنون الأمم الأخرى كالفن اليابانى والفن الزنجى ، ولكن ذلك التأثر كان بمثابة إثراء الفن الأوربى بعناصر جديدة لم تفقده انتماءه لتاريخه المتصل ، ولم تقض على معالمه ، وهناك فرق بين أن يتضمن فى نسيجه ملامح من هنا وهناك أو استعارات فنية وبين عملية النقل والتقليد ، فالمهم هو المحافظة على انتمائه الكلى فى مجمله النهائى . وذلك ما توضحه أعمال بيكاسو التى تأثر فيها بمعالجات الفن الزنجى ، وجوجان الذى تأثر بالفن المصرى القديم ، وماتيس الذى تشكل الزخرفة الاسلامية بعضا من ملامح أسلوبه ، وقد ظلت أعمال هؤلاء



من أعمال الفنان رمسيس يونان

منتمية قلباً وقالباً للفن الغربي .

ويقرر «إدوارد لوسى سميث» وهو من أهم النقاد المعاصرين فى أوربا فى كتابه «الحركات الفنية منذ عام ١٩٤٥» أن «الحداثة قد أصبحت أحد الأشياء التى تحسدها الدول المتخلفة ، وتحاول أن تقلد صورة منها . نقلاً عن الدول المتقدمة» كما يرى سميث أن فنانى الهند واليابان اللتين اضمحلت حضارتهما التقليدية فيما بين الحربين العالميتين قد حاولوا إعادة البناء وفق النموذج الغربى ، ولم يوفقوا فى سعيهم .

«ورغم أن فنانين يابانيين مثل التجريدى جيرو يوشيهارا كانوا متميزين بلاشك بسبب لمساتهم الذاتية النابعة من الخط التقليدى اليابانى إلا أنهم لم يبهرونا كما فعل كبار الفنانين فى عصرهم ، فقد انحسرت أهمية هؤلاء الفنانين على المستوى الوطنى المحلى ، ولم تتخطاه إلى المستوى الدولى» . كما يقرر بأن ظاهرة الفن الشعبى المكسيكى لم تتكرر . وتلك رؤية لناقد غربى وتقييمه للنماذج المقلدة للفن الغربى واعتبرته نهاية المطاف لعملية الإبداع الفنى .

ولهذا فإنه يجدر بنا أن يأتى بناء فننا الحديث معتمداً فى أساسه على المقومات الثقافية الذاتية ، وعبر تحولات طبيعية غير مفتعلة، ومن خلال آليات واعية ذكية تحث العناصر الأصيلة على الإبداع الفنى المستقل والمعبر عن خصوصية الثقافة المصرية فى طورها الحديث .■



في ثقافة القرن

بقلم
د. أسامة أبو طالب

سوف تتسع رقعة معالجتنا لموضوع التراث كى تعتمد التعامل معه باعتباره «إرث الحضارة العربية الإسلامية على جميع أصعدة إنجازاتها» الروحانية والمادية من إنجازات علمية إلى عطاء إبداعى أدبى أو فنى بكل أشكاله وصيغه الفردية أو الجماعية الشعبية، سواء وصلتنا متواترة بالسرد الشفاهى أو محفوظة بالكتابة أو محمية ضمن دائرة موروث الفرجة العامة مع متطلباتها ورفقتها من فنون سمعية وبصرية؛ والتى هى أساس المشاهدة المشاركة الحية. ذلك لما مثلته هذه الحضارة من قدرة على تقبل حضارات وثقافات أخرى دون إحلال أو ابتلاع متعسف أو تذويب قسرى؛ بل فى إفراز منتج نهائى متفرد ذى نكهة خاصة وطابع خاص «يسمحان بالاعتراف بأصولها ومصادرها الحضارية والثقافية السابقة بقدر مايؤكد انتسابها لهذه الحضارة ويمثلها!



ما هو مستقبل ثقافتنا وتقاليدنا وأعرافنا ؟

يتضمن بحث هذا الموضوع إذن - أو تشـمل هذه النظرة - الموروثين الدينى المسيحى والإسلامى كما يتجليان فى أشكال الاحتفالية الشعبية ذات الطابع الدينى - أو ماأطلق عليه دين الحرافيش! «والذى هو نتاج تراكمات ثقافية عديدة ذات طبقات متتابعة سواء كانت متناغمة أو متناقضة. حيث صيغ هذا النتاج الثقافى ذو الشكل الدينى على مهل وبالتدريج عبر العصور وإن إتمام هذا النتاج الثقافى (الفنى) النهـائى يتـوقف على المطبخ السوسيوثقافى إن جاز التعبير. وعلى ذلك يمكن تفسير تأثر بعض الممارسات والطقوس الإسلامية القبطية الحالية - فى مصر مثلا - ببعض المعتقدات والأديان والثقافات المصرية القديمة منذ العهد الفرعونى(١). وهو مايمكن رصده فى بلدان عربية أو إسلامية أخرى من ذوات الحضارات قبل المسيحية أو الإسلامية. حيث يمثل ذلك الموروث بتقاليده الحية مكونا مهما من مكونات العقل والوجدان العربى الجمعيين فى اختلاطهما الصاهر المركب معا. والذى - بالتوافر على دراسته العميقة وتحليله العلمى المستقرىء الواعى - يمكننا أن نصل إلى نتائج ذات قيمة تساعد على معرفة دوافع الفعل الإنسانى وأهله وإنجازاته فى هذه المنطقة الحية المؤثرة من العالم ، والتى تعتبر - ومازالت رغم عوامل الارتداد ومسببات النكوص - منجم القوة الروحية الهائلة فى هذا الكون!

التراث العربى والعولمة..

ماهو موقف هذا الإرث الثقافى الكبير إذن وما يحدث على ساحة الأرض نابعاً من الغرب أو مفرزاً من العقل الأمريكى بالتحديد؛ متخذا تسمياته

(١) على فهمى : دين الحرافيش فى مصر المحروسة. ص ٤٢ - ٤٣.



الجديدة عولمة أو كونية. منذرا بكل مايمكن أن تفعله أو تهدد بفعله تلك التسميات من قدرة على التغيير الاجتماعي في المنطقة العربية؛ وبأي شكل أو صيغة من صيغ الابتلاع أو التذويب أو التأثير دون أن نعرف إلى أين تذهب وإلام تنتهي؟ وما هو موقفنا من فعلها المتدافع؟

هل نكتفي بموقف المتفرج السالب المنفعل أم بموقف المراقب الراصد حتى ولو كان متمتعاً بـ «وعي سلبي» مؤلم معذب؟.. وهل يمكننا القول بأن هناك سعيا حقيقياً واعياً مدروساً وقادراً على تحديد حجم هذه الظاهرة المكتسحة ومداها وقوة تأثيرها كي يكون بإمكانه حشد قوة مواجهة لموجاتها في اتجاهات آمنة أو حتى أقل خطراً إن لم يكن لاستغلالها وتحويلها إلى تيار دافع في «واقعه المحلي» ذي قدرة على المواءمة والاتساق مع الحركة العامة لتيار العولمة هذه ليستفيد منه ويفيد. وليحاوره أو يتجادل معه دون



أن يعلن عليه الحرب أو يقاطعه. وفي الوقت نفسه يضمن الحفاظ على هويته وفردانية ملامحه دون أن يذوب فيه أو يضمحل مستسلماً له.

وبمعنى آخر : ماهو مستقبل «ثقافتنا القديمة» - أو «تقاليدنا» وأعرافنا الأدبية والفنية ومعاييرنا الأخلاقية وممارستنا الاجتماعية - باعتبارنا أصحاب ثقافة وحضارة معا؟.

وأيضاً إلى أي مدى وبأية صيغة يمكن أن تظل فنوننا التراثية باقية تحظى بالاحترام وفق نظرة متوازنة سواء ظلت كامنة في أشكالها التقليدية القديمة أو حركها الاستغلال ودفعها التطوير كي تتخذ أشكالاً حديثة من التجليات كمحصلة لإعادة التناول بالتأويل والتنشيط والاستلهام والتخصيب وفق نظرة علمية - متوازنة أيضاً - بمعنى أنها تنظر إلى الظاهرة وتتناولها في سياق انبعاثها ومنظومة حياتها ومسيرتها تاريخيا واجتماعياً ضمن حركة التغير والتطوير والتقدم والموازنة والمحادثة لها على كوكب الأرض؛ وبما يخلص التعامل معها واستثمارها - حضاريا - من منطلقين يمثل كل منهما تطرفا معوقاً غير فاعل. حيث ينطلق «الأول» من نظرته العابدة المصنمة لهذا الإرث؛ وبما يجعل من المساس به أو محاولة تحريكه - إلى

زاوية الفحص وإعادة التفهم - نوعاً من الكفـر أو شكلاً من أشكال الخـروج والخيانة!

بينمـا يجنح «التطرف الآخـر» إلى نفيه وإنكاره مشاركته فى صناعة التقدم؛ بل ويدعو إلى ادانته وتجريمه واعتباره «جميعا» سبباً من أسباب النكوص ذريعة من ذرائع التخلف وحججه وأدواته!

فى حين تنأى النظرة الموضوعية عن هذين الموقفين الدوجماطيقيين - العابد والمتعالى - كلاهما فتطالب بالغربلة والفرز والانتقاء وترحب - بل وتوجب - بإعادة النظر الدائمة وتجديد التناول والتأويل والتخريج على ضوء ما يحققه «العصر العالمى» بتقنياته ومناهجه وأدواته استجابة لرغبة واعية منها فى المحافظة على جوهر التراث باعتباره قيمة صنعتها تراكمات الخبرة وليس مجرد منتج اعتراضى عابر يمكن تنحيته جانبياً بعيداً عن مسيرة تحديث العقل وبناء ثقافته وحضارته العصريين!

«تبويش» الفنون العربية

كيف ينجز ذلك «التعامل العصرى» - مع مفردات التراث الدينية والأدبية والفنية إذن - وإلى أى مدى يمكن أن نسوغ قبوله لأجيال تبتعد عنه إلى وسائط عالمية لاتنكر نظرتها المتعالية إلى «فنون العالم القديم» وممارساته الدينية

ما هو مصير خيال الظل والأراجوز والسامر والحكواتى؟

والثقافية والاجتماعية وما يتعلق بها من تناولات على مستوى الفكر أو بساط الفعل فى مناخ لاينكر ابتعاده المتواصل عن ثقافة «الكتاب» وبالتالى تعاليه على ممارسات فنية شعبية تقليدية مارسها الأجداد وأدوا بها دوراً سياسياً واجتماعياً ناقدا وناجزا مثل «خيال الظل والأراجوز والتحبيظ والسامر والحكواتى على ساحة إحداث الصدمة والتغيير بالفرجة والأداء المسرحى الحى»!.

ماهو موقفنا من الأغنية العربية التقليدية وفنون الطرب القديم الذى لم يعد وحده مهدداً بالمجافاة وهجر الأذن والذوق؛؟ بل تجاوزهم فعل الإهمال والتعالى ليصيب بفعله التدميرى ممارسات فنية قيمة ذات تاريخ أحدث، ونعنى بها الأغنية العربية منذ مطالع الستينيات عاطفية كانت أم وطنية ، علاوة على ندرة إنتاج هذا النوع الوطنى بالذات - أو ترديه - بعد إخفاق المشروع القومى الوحدوى العربى وفشل محاولات

ومؤسسات إحيائه؟!

وألا يمثل تجاهلنا لـ«وحدة» هذه الفنون العربية التقليدية - سواء كانت فنون العرض والأداء الحى أو فنون الشاشة - والتخلى عن إدراك قيمتها وتناقص اعترافنا بدورها الذى حققته كمعبر تاريخى حقيقى عن عقل ووجدان أمتنا فى لحظات تاريخية فاعلة من حياتها؛ خطرا يهدد القاعدة الصلبة والأرض «القومية» الوحيدة التى تحملت فرقتنا، وأظهرت قيمتها فى تحقيق تماسك إنسانى وحضارى بيننا كبشر دفعت بهم ممارسات السياسة وأطماع الآخر وغيبة الجدل ومصادرات التعبير وتجريم الاختلاف وافتقاد الأمن إلى التجزىء والتجزر والنكوص والارتماء إما فى أحضان الماضى وعبادته - لوذا به وخوفاً من «الحاضر غير المدرك» والمستقبل الغامض غير المستقرىء جيداً - أو إلى نفيه نفيا قاطعا مجملا يتهمه ويحمله عبء ما وصلنا إليه من قهر أو هبوط وتخلف وعجز!

إن من الثابت الذى لايمكن على الإطلاق إنكاره أن سلسلة التقاليد الحية التى تمثلها ممارسات الأدب والفن العربيين قد لعبت دوراً ناجزا فى تحقيق وحدة أخرى أكبر وأكثر ثباتاً من التوحيد السياسى بين أبناء هذا الشعب. وأن هذا الدور الذى ظل صامداً يمثل الملتجأ الأساسى الأقوى بعد سقوط جسور التواصل السياسى والتوحيد الفوقى المفروض من أعلى - فى بعض تجارب السياسة العربية وممارستها - يتعرض الآن إما لهزات التشكيك فى قيمته وجدواه . وإما لمحاولة مدركة قاصدة متعمدة لما نطلق عليه «عملية تبويش» مزلزل للأرض بتسريب المياه إلى أساساتها! حيث تجرى عملية تحريك أو إزاحة للمنتج الفنى العربى القيم - حديثه وقديمه - واستبداله بمنتج آخر سوقى وعارض ومتدن يتمحك فى المنتج الغربى ويقلده غافلاً عن كونه إفراز مرحلة حالية من حضارة ديناميكية ومشهد معاصر من مسيرتها .

الهوية الثقافية .. والآخر!

وفى حين تحظى المسيرة برصد «المفكر والمثقف الغربى» ودراساته وتحليلاته؛ يفتقد «معملنا القومى» هذا الرصد أو لا يعترف به حين تبدو وتطل محاولاته. ومن ثم نضطر إلى اللجوء إلى «تحليلات الآخر» والقياس عليها



وتطبيقاتها مع القيام بتهجين نظرته ونظرياته في تربة عقولنا وأرض أفكارنا إلى أن تحدث كارثة الافتقاد المطلق للهوية واكتمال حلقاتها في أجيال قادمة ربما تحدث بينها وبين تاريخها وفنونها وآدابها قطيعة معرفية كارثية مدمرة! وخاصة في غياب دور المثقف الحقيقي وكف فعله المؤثر وعزلته غرقا في ممارساته النظرية أو تمسحاً في مدد السلطة أو سعيا إلى نعمة مراكزها!..

وما حالة العزوف التي يعانيها المسرح العربي من جمهوره وخصام مشاهديه له - بعد رحلة تواصل وإنجاز تاريخية رائعة لعب فيها دوراً أساسياً في قضايا تحرير العقل وتحرير المرأة وتنوير الوطن وتثويره والتقريب بين لهجات لغته الأم وكسر العزلة وتثبيط العداوة بين مذاهبه الدينية والعقائدية - إلا شاهد حقيقي على حالة التردي التي نعيشها!

وما استبدل منتج كتابته وعروضه القيمة بمنتج آخر هابط مبتذل رخيص وترويجه بدأب وتمكن وإصرار ومقدرة؛ سوى عرض ظاهر لحالة التردي الكامل «المقصودة» للذوق الفني العربي . تبدأ بأن يستدير الكاتب لمجتمعه معطياً واقعه ظهره ومتخليا عن دوره في أن يكون «ناقداً ورافضا وإصلاحيا متمرداً» إلى السقوط في هاوية تكريس التافه

إلى أي مدى وبأي صيغة يمكن أن تظل فنوننا التراثية باقية؟

والمتردي والرخيص والتكسب أو الإثراء من جراء الإضافة - بفنه - لمستنقعاتها المفتوحة لابتلاع القيمة وتدشين الزائف ودعمه وترويجه!

ومن هذا المنطلق يتم «تسليع» الثقافة والفن العربيين التقليديين بعد تشويه ملامحهما وعزلهما عن سياقهما الفكري والحضاري؛ ليصبح «المقدس» مشاعاً منتهكا و«الرفيع» هابطا، مثلما تشتعل المنافسات «الإقليمية» بين الدول العربية معلية شأن اللهجات المحلية، ومحيية باعثة للعرقيات المنصهرة في بوتقة «الكل العربي» والمكونة لمركبه الفسيفسائي التاريخي - الذي كان صلدا ومتمسكاً وباعثا على الإعجاب - حتى يتم لفعل التجزئة لصالح الآخر الطامع العدو أن يتم ويكتمل ويفعل! فيما نحن غارقين في جحيم إجبار أنفسنا على الاعتراف إما بنظرية المؤامرة المحاكة ضدنا؛ أو الإقرار بصراعنا كحضارة تقليدية تعاني من عجزها مع حضارة أخرى تتسيدها



مادياً وعسكرياً وتوشك أن تكون ثقافيا كذلك!.. أو أن نتعلق بسراب - نعلل به أنفسنا ونطمئنها - من «حوار الحضارات» فيما يشبه تجميلاً عاجزاً يخفف من اعترافنا بحالة «صدام» - داهم لانقدر عليه - ويروج البعض إلى الاعتراف المستخذى به والذى يمثل حالة مزرية من الاستسلام للآخر كحل وحيد يرون أن نقبله برغبتنا بدلا من أن يفرض علينا عنوة وقسرا وبما يضمن تكريس الواقع وتثبيت الصورة أو الإمعان فى النكوص والارتداد إلى ممارسات معتقدية وثقافية وتقاليدية سبق للعقل العربى الناقد أن محصها وأثبت فسادها وتجاوزها فى رحلة تنوير حقيقية معتمدة ومثبتة!

هموم الثقافة العربية

إن مدخل الإنقاذ يبدأ من الاعتراف الشجاع بأننا نعيش حالة فادحة من التناقض والازدواجية والأداء الشكلى الزائف لقيم وتوجهات حقيقية ونمارسه ونروج له : فبينما نقرأ عن الثقافة وأهميتها لايمارس مثقفونا - ولا غالبيتنا بالطبع - متطلباتها.

والنتيجة أننا لانصدق مثقفينا لكننا نتعايش معهم ونسمعهم! مثلما يجهر غالبية مثقفينا بعدم تصديق السلطة أو بفقدان الثقة فى توجهات مشروعاتها دون أن يقدموا مشروعاً حقيقياً للتطوير ويدافعوا من أجل تمريره وتجربته وممارسته!

ومن هنا ربما يصبح إلقاء بعض الأسئلة نوعاً من الكشف المجدى عن حالة مرفوضة والإضاءة على فعل واجب.

فهل يلعب الفن : المسرح، السينما وإبداعات فنون الكتابة العربية - ذات التاريخ - فى التأثير الإيجابى على المواطن وتحقيق تنمية بشرية فاعلة ذات حس تاريخى ووعى بالحاضر واستشراف علمى موجه للمستقبل وصائغ له؟

وهل أفلحت لوائحنا فى تشجيع البحث العلمى ومؤازرة تجارب تطبيقه عمليا والاستفادة من نتائجه ومبتكراته؟

وهل نجح نظامنا التربوى فى خلق المواطن القارىء وصنع المواطن المنضبط الواعى المتحلى بالرشد والاعتدال والمتخلص من أمراض التطرف والتعصب والجنون بالآخر الغربى واحتقار منتجاته وصناعاته الوطنية؟

وهل استطاعت التربية الوحدوية التى استمرت زمنا فى جعلها مطلباً

حـقـيـقـيـا - قـابلاً للتـوريث - أمـا أنهـا فشلت مثل فشل التجربة الاشتراكية على أيدى مطبقيها وفى وطننا العربى كذلك؛ فشل التجربة الحزبية فى أن تصنع لها متحزبين منتمين عن اقتناع فاكتفت بالتمسح فى ترديد عبارات المعارضة فى نفس اللحظة التى تمد فيها اليد طالبة العون من حكومة الحزب المنافس الحاكم كى تقوى على مهاجمته وتوهم المنتمين لأحزابها بأنها تعرض من أجلهم؟

هذه هى قضية الأداء الشكلى إذن؟؟ سد الخانات بدلا من ملئها بالصحيح والمفيد؟ الحديث عن المعارضة بدلا من ممارستها. الدعوة لنبذ التطرف والتعصب بينما تؤمن به نفس العقول الداعية وتقترفه بانتظام؟

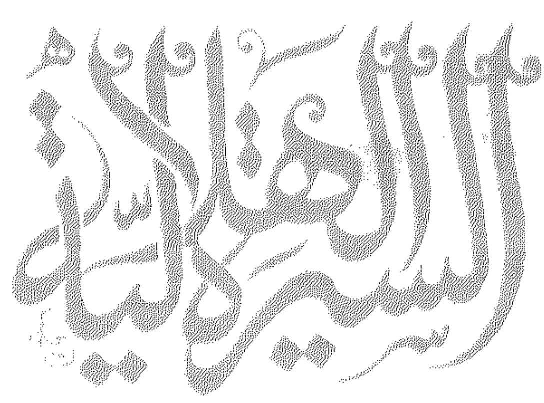
وهل نجح نظامنا الزراعى فى تحقيق اكتفاء غذائى تكاملى يشملنا جميعاً ويفيدنا كافة بانفتاحه على علم زراعى غربى متطور وبارتكازه - فى نفس الوقت - على قاعدة عريقة من الخبرة فى الزراعة وتنمية الثروة الوطنية كما مارسها الأجداد بدلاً من التسابق الحالى إلى الأخذ «بتجديدات مشبوهة» وتقليد غير مدروس والاقتتال على حلبة تنافس إنتاجى مكرر لا يؤدى لغير الكساد فيما تترك الزراعات والمحاصيل والخبرة الوطنية مهجورة إلى حد الموت!

وهل تمكن نظامنا التعليمى - فى كل

من الثابت أن التقاليد الأدبية والفنية العربية لعبت دورا فى وحدة أبناء العروبة..

الدول العربية بلا استثناء - أن يعد مواطن العصر الآخذ بأسباب التقدم والمتسلح بمعرفة تراثه معرفة ناقدة حقيقية فى نفس الوقت؛ وأن يجهز مواطن المستقبل كذلك؟.. وهل سلحناه بإيمانية الانتماء مع رحابة قبول الآخر والتعايش المتوازن معه" ودعمناه بما يقلل من مسافة الإنجاز العلمى والتكنولوچى الفاصلة بينهما، أو يعوضها بإنجازه الثقافى المتميز والمتأصل تاريخيا بما يضمن تحديثه وتطويره بدلا من السقوط فيما أشرنا إليه من انبهار عاجز أو رفض متخلف مريض ومغلق!

أسئلة كثيرة وهموم أكثر لن يجيب عنها أو يحلها ويفض من اشتباكاتها سوى جهد علمى حقيقى متمتع بنظرة ناقدة ورؤية محايدة وأدوات وتقنية علمية وموقف يعى موقعه من تقاليد الماضى وثقافة العصر! ■

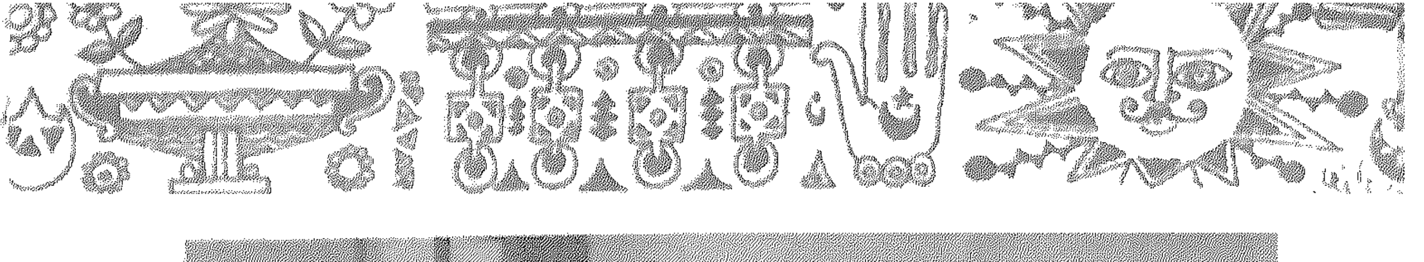


شــعـــر المنســـــيين وضــمـــيرهـم الشـــعـــبى

كـيـف نـحـمـيـهـا ؟

أمانى عبد الحميد

أجزاء كبيرة فى السيرة الهلالية أصبحت مهددة بالاندثار بعد موت عدد كبير من شعرائها ورواتها العظام فى مصر . ماتوا ودفنوا معهم أجزاء كبيرة من أشعارها الموروثة . لم يورثوها لأحد من بعدهم . القليل منهم علم أبناءه أو تلاميذه مثل جابر أبوحسين ،آخر من ورث تلميذه سيد الضوى قبل وفاته . فكيف لنا أن نحافظ على تراثنا الشفهي من الاندثار . هل بإدراجه ضمن قائمة الروائع العالمية للتراث الإنسانى الشفاهى غير الملموس ، أم إقامة متحف خاص به ، أم عقد الندوات والدراسات والقيام بجمعه وتوثيقه بالطرق العلمية ، أم أن الأمر يحتاج إلى ضرورة الحفاظ على قدرة البشر على ممارسة موروثهم الشعبى وعدم التخلى عنه ؟





سيد الضوى آخر رواة السيرة الهلالية وبجواره عبدالرحمن الأبنودى

من المثير للإعجاب أن تنجح بعض الثقافات الشعبية الفطرية فى التشبث بالحياة . تقاوم الاندثار فى ظل عصر العولمة - الذى يحاول أن يقضى على كل اختلاف ثقافى - والذى بدأ يسحب البساط من تحت أقدام عصر مضى . كان فيه للتقليد والموروث بعض القيمة كمصدر إلهام للأجيال المتعاقبة ، وضرورة من ضرورات الحياة ، وعلاقات البشر بعضهم ببعض من أفراح أو أحزان ، ينطبق القول على السيرة الهلالية كجزء من أدب شعبى متوارث جيلا بعد جيل شفاهة . وبرغم أنها أشعار مجهولة المؤلف لكنها قاومت الاندثار (ماتبقى منها) بفضل بعض من الجماهير المغمورة ، أولئك الذين يعيشون ملاصقين لواقعهم القريب من الأرض ، البعيد عن لهاث المدينة ومركز

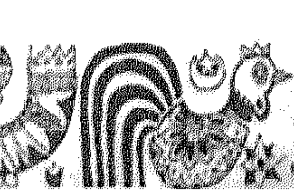
السلطة . وبفضلهم أصبحت السيرة الهلالية ملحمة متكاملة ودخلت ضمن التراث الإنسانى وقائمة الروائع العالمية من التراث غير الملموس التى أعلنتها منظمة اليونسكو في مايو ٢٠٠١ .

ثقافة قابلة للزوال

أعلنت منظمة اليونسكو قائمة تضم تسعة عشر عملاً فنياً اعتبرتهم أهم روائع التراث الشفهى وغير الملموس للإنسانية . ووقتها أعلن مدير عام المنظمة كواتشيرو ماتسورا أن القائمة الجديدة تهتم بالجوانب غير المادية فى الثقافة - أى المنتجات السريعة الزوال مثل القصص واللغة ذاتها، أو المعتقدات والقيام ، أو رقصات الأفراح والأعياد ، ندب الجنازات، الغناء والمهارات والحرف والأساطير ، وكل مايعطى الثقافات حيويتها . جاء إعلان القائمة بعد مداولات طويلة حول تحديد مفهوم مصطلح الثقافة والتراث غير الملموس أو المحكى أو الشفهى . برغم أن الاهتمام بدأ منذ زمن طويل بالثقافة الشعبية الشفاهية منذ القرن الثامن عشر تقريبا ، خاصة بين علماء اللغة والتاريخ والفن الشعبى . كما أن المناقشات داخل اليونسكو نفسها أثيرت حول قائمة التراث العالمى منذ عام ١٩٧٠ واستمرت حتى صدور القائمة فى باريس .

والمعضلة الأساسية هى كيفية الحفاظ على هذا المجال المتسع من التراث . خاصة وأنه أصبح يقترب من الاندثار ، فكثير من التقاليد الشعبية بدأت تفقد قدرتها على التوارث بين الأجيال الجديدة. فلم يعد الناس يحرصون على تعلمها أو تعليمها لأولادهم . فنجد على رأس القائمة الهنود الخمسة الذين مازالوا يتكلمون لغة «الزبارا» فى غابات الأمازون ، كذلك ثقافة شعب «الجاريفونا» فى أمريكا الوسطى والمكونة من لغتهم وموسيقاهم ورقصاتهم على اعتبار أنهم آخر سلالة عبيد أفريقيا والمهددين بالفناء هم ولغتهم المنطوقة وأوبرا «كونكو» التقليدية بالصين أحد أقدم التقاليد المسرحية الصينية ، أو مسرح «نوجاكو» اليابانى ، رقصة «كويتيا تام» فى الهند أحد المسارح الراقصة الذى يبقيه حياً خمس عائلات «شاكيار» فى الجزء الجنوبى من الهند فقط . كذلك دخل القائمة عدد من المهرجانات التى يجتمع فيها الناس مثل ميدان جامع الفناء العجيب بالمغرب حيث يجتمع الرواة الشعبيين من كل صوب .

وللأسف الشديد أكدت إحصائيات اليونسكو أن الوعى بقيمة التراث الشفهى بدأ يتناقص فى ظل انتشار مفاهيم العولمة . فالموارد الثقافية مثلها مثل الموارد الطبيعية أصبحت معرضة للخطر . بل اندثر بعضها بالفعل . وعلى

حملت «السيرة الهلالية » أفراح البسطاء وأحزانهم، انتصاراتهم وانكساراتهم ، كما كان بطلها المغوار أبو زيد الهلالي !

سبيل المثال أنه من بين ستة آلاف لغة مازال يتم التحدث بها على كوكب الأرض ، يتنبأ علماء اللغة بأن ٥٠٪ إلى ٩٥٪ من تلك اللغات لن تعيش ، وستندثر بحلول القرن القادم . خاصة أن أغلبها لغات غير مكتوبة . وعندما تموت لغة ما فإن كثيرا من المعارف والمعلومات والتعبيرات التى تراكمت على مدى الأجيال تموت معها .

وإن كان إصدار القائمة التى ضمت منذ بدايتها «١٩» تسعة عشر عملاً يمثل الروائع العالمية للتراث الشفهى والمعنوى للإنسانية ، استطاع أن يزيد من قوة التشبث بالتقاليد المنتقاة ويقوى الذين يمارسونها ، حتى ولو أنها مغرقة فى المحلية . لأن عليها أن تعيش وتزدهر



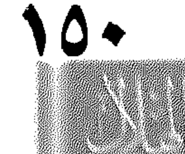
حتى تكون مصدر إلهام للأجيال القادمة

متحف للسيرة الهلالية

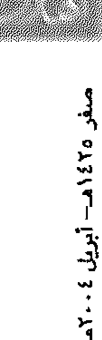
وخلال الفترة الماضية تمكن مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى برئاسة الدكتور فتحى صالح والذى يتبع مكتبة الإسكندرية . تمكن من إدراج السيرة الهلالية ضمن قائمة روائع التراث الإنسانى العالمى غير الملموس على اعتبار أنها أحد عناصر التراث الشفهى الموروث عبر الأجيال منذ مئات السنين وقارب على الاندثار نظراً لوفاة عدد كبير من رواته وعدم توارثه بشكل يحفظه من الزوال . فإذا علمنا أن شعراء السيرة الهلالية والربابة العظام فى مصر ماتوا جميعا ودفنت أجزاء كبيرة من أشعارهم الموروثة معهم .

ومن هنا جاءت أهمية قائمة الروائع العالمية للتراث الشفهى والدور الأكثر صعوبة المطلوب منها وهو الحفاظ على قدرة البشر على ممارسة موروثهم الشعبى وعدم التخلى عنه . وذلك عن طريق توثيقه وتسجيله ودعم عملية ممارسته والاستمرار فى تقديمه . على سبيل المثال لايدرك أهل المدينة مدى قيمة شاعر الربابة لدى سكنى القرى والنجوع البعيدة . ففى أقاصى الريف الهادىء تشتعل مشاعر أهله وحماستهم عندما يزور قريتهم أحد شعراء الربابة . حيث يحتفون به ويظلون مشدوهين بأدائه الارتجالى وربابته التى تلازم يده ، وهو يتغنى بالقصص الشعبى الذى لايعرف القرويون غيره أمثال حكايات أبوزيد الهلالى ، الزير سالم ، سيف بن ذى يزن، الزناتى خليفة . أما أهل المدينة فصلتهم بالسيرة والربابة لاتتعدى عدد من الحفلات الساهرة خلال ليالى رمضان من كل عام .

عبدالرحمن الأبنودى بدأ رحلة البحث عن السيرة الهلالية وأشعارها من أفواه شعراء الربابة . يعترف فى حديثه مع «الهلال» أنه لجأ إلى السير الشعبية هربا من نكسة ١٩٦٧ . وخلال ٣٧ عاماً لم ينته بعد من جمع ملحمة السيرة الهلالية . «فأحداثها لم تنته بعد فهى مستمرة ، أطرافها منتشرة فى جميع أطراف مصر وتمتد إلى تونس السودان، وليبيا وحتى حدود تشاد ونيجيريا .. «ويبدو أن ماجمعه الأبنودى تحول إلى حجر أساس أول متحف للفنون الشعبية الشفهية فى مصر، داخل بلدته الصغيرة «أبنود» التابعة لمحافظة قنا، ويقول عنه أنه يضم تسجيلات صوتية ومرئية عن السيرة.. التى هى شعر البسطاء المنسيين، فالدارسون اهتموا بجمع شعر الشعراء الرسميين المقربين من السلاطين والأمراء والسلطة، وأهملوا مايقوله الناس

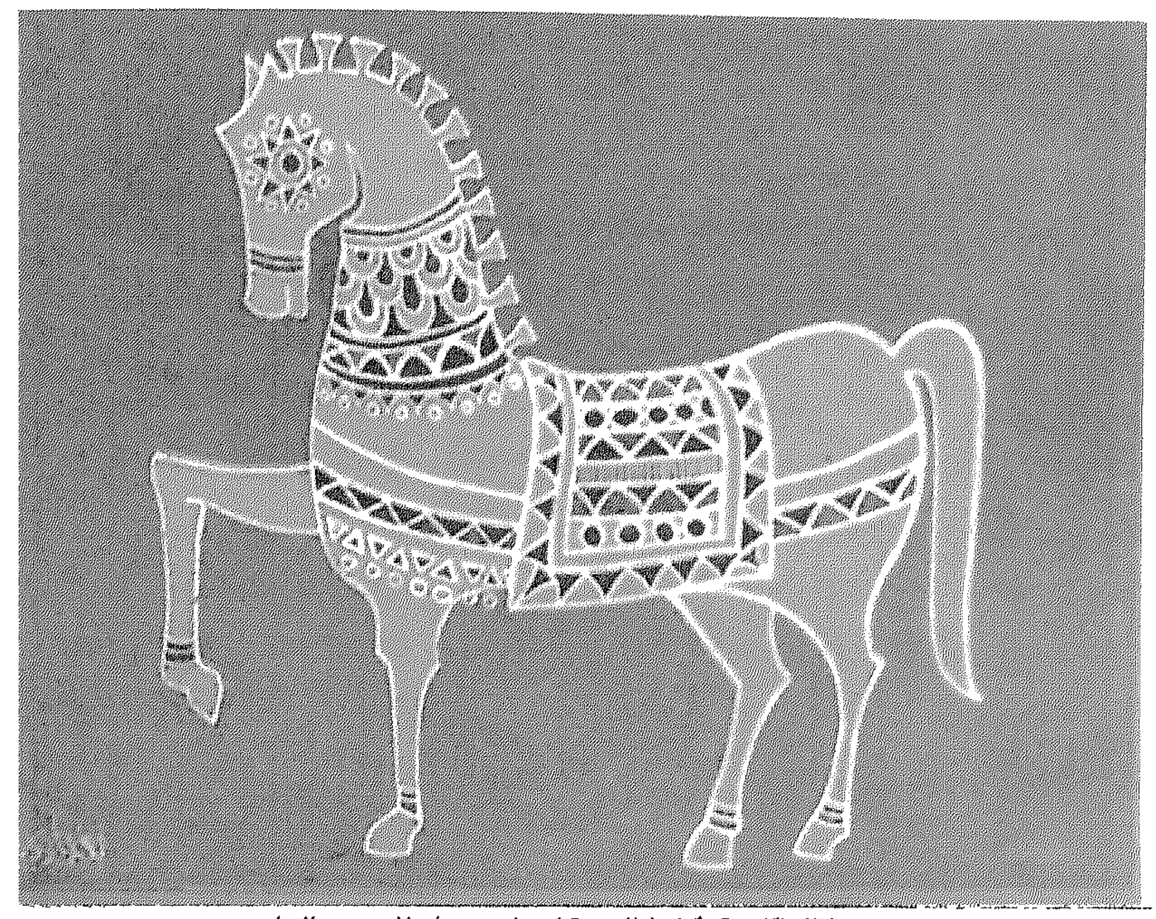






«السيرة الهلالية » ملحمة متكاملة بفضل أجيال متعاقبة من الحفظة والرواة ..

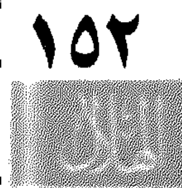
العاديون، برغم أن السيرة الهلالية ملحمة شعرية متكاملة تبدأ أحداثها قبل ظهور الإسلام بخمسة قرون واستمر تكوينها أزمنة متعاقبة، نابعة من الضمير الشعبى وينطقها الشعب بلغته البعيدة عن لغة مصطلحات أهل السلطة، فهى صادقة شفافة بخلاف شعر القصور المليء بالرياء والمديح!!.. وتظل المسألة معلقة بحياة رواة السيرة ويحكى «الأبنودى» أن هناك راويا اسمه



رسومها الفولكلورية بألوانها الشعبية ارتبطت بوجدان المستمعين اليها

«عبدالسلام» هو فى الأساس بائع طعمية فى «الأقصر» لكنه راويا للسيرة يأتيه العمال من كل صوب ليستمتعوا بطريقة سرده وروايته، فكل راو لديه مجموعة من المريدين يسيرون وراءه من بلد لبلد، ليستمتعوا بطريقته الإرتجالية فى السرد، مثل سيد الضوى آخر من تبقى من شعراء الربابة ومن رواة السيرة الهلالية وللأسف الموت أسرع بكثير من عمليات التوثيق والدليل موت عدد كبير من أغاني العمال كما يؤكد «الأبنودى»، كان العمال يتغنون بأغانٍ خلال عملهم، اليوم قاموا باستبدالها بشرائط الكاسيت الجديدة، أو بالسماع لمحطات الإذاعة المختلفة وتوقفوا عن الاستمتاع برتم غناهم المتواصل مع رتم عملهم وسرعة أدائهم.

ويرى «الأبنودى» أن موافقة اليونسكو بضم السيرة الهلالية فى قائمة التراث العالمى غير الملموس شجع وزارة الثقافة على الإسراع فى إقامة متحف خاص بالسيرة الهلالية ببلدة «أبنود»، من المقرر أن يضم المتحف تسجيلات صوتية وسمعية ومرئية وشاشة سينمائية









هل إدراجها ضمن قائمة التراث العالمى يكفى؟!

وبروجكتور، علاوة على غرفة لاستضافة أى دارس جاد للسيرة، كما يضم المتحف ـ وهو الأول من نوعه فى مصر والوطن العربى ـ كل الكتب والإصدارات التى تناولت السيرة الهلالية منذ ابن خلدون وحتى عبدالحميد يونس وغيرهم، كذلك كل المخطوطات وآلات الربابة التى كان شعراء السيرة يستخدمونها فى غناهم.

توثيق السيرة

وفى الوقت نفسه تقدم مركز التوثيق الحضارى والطبيعى بدراسة جادة حول السيرة الهلالية لمنظمة اليونسكو تتضمن تعريفا كاملا بها وخطة متكاملة لعمليات التوثيق لمفردات السيرة، وإن كان من أهم ماجاء فى الدراسة إصرار المركز على وضع برنامج لتدريب كوادر بشرية ماهرة يكون لديها القدرة على جمع وتوثيق الأشعار من جميع المحافظات المصرية وذلك طبقا لمعايير وقواعد علمية، وإن كان المركز يحلم بإنشاء نظام دراسى للأجيال الجديدة تتعلم من خلاله مفردات تراثهم القديم قبل أن يندثر ويفقد صلته بالبشر، ويتحول إلى تراث

متحفى لايمارس طقوسه أحد.

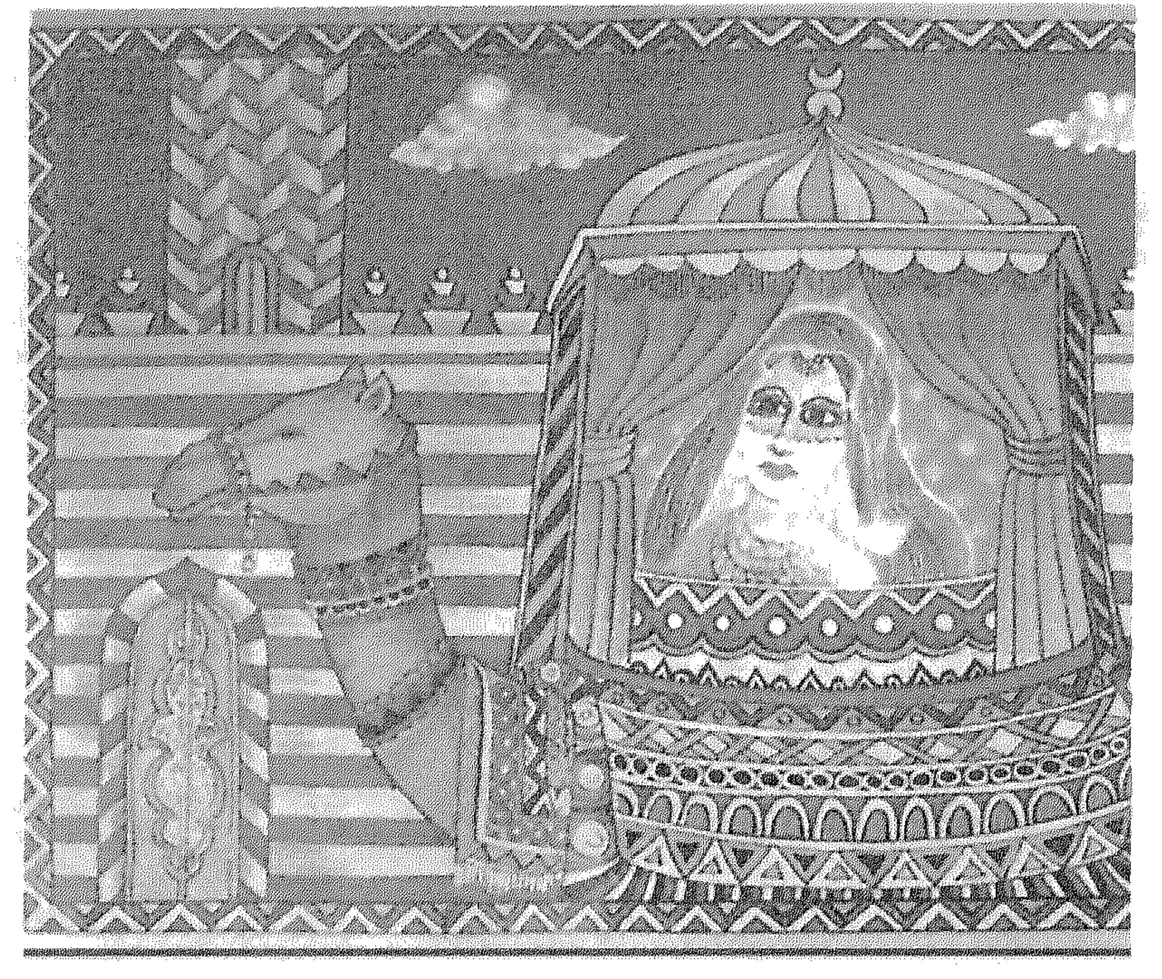
وتقترح الدراسة المقدمة فترة خمس سنوات يقوم خلالها المركز أولا بالتعريف بالسيرة الهلالية كملحمة شعبية شفاهية، ثم القيام بتدريب المتخصصين فى مجال جمع الفولكلور المصرى خاصة السيرة وثالثا توثيق جميع المعلومات التى تم جمعها على وسائط مختلفة مثل الكتب وأشرطة الفيديو واسطوانات الليزر وباللغات الثلاث (العربية ـ الانجليزية ـ الفرنسية) علاوة على إقامة ندوات، سيمنار، حلقات نقاش، وموقع الكترونى على شبكة الأنترنت.

ومن أهداف الدراسة هو التركيز على جمع وتوثيق كل مايتعلق بالسيرة، وليس الأشعار فقط مثل الملابس، الرقصات، الأدوات الموسيقية، وطرق توريثها من جيل إلى آخر، وطرق التعبير والسرد المختلفة، كذلك يسعى المركز إلى ترجمة السيرة الهلالية ـ بعد جمعها ـ إلى اللغة الانجليزية وإعادة نشرها بالكامل، باللغتين العربية والانجليزية.

وبالرغم من أن الميزانية المقترحة والتى من المفترض أن تمولها منظمة اليونسكو تبلغ (٢٦٠ ألف دولار) خلال فترة السنوات الخُمس.. البرنامج الزمنى لتنفيذ بنود الخطة، فإنها تعتبر ليست بالضخامة مقارنة بدورها فى الحفاظ على السيرة الهلالية كتراث شفهى موروث، ولكن السؤال المطروح أمامنا هو لماذا لم يتم التنسيق بين وزارة الثقافة التى قررت إقامة متحف للسيرة الهلالية ببلدة «أبنود» وبين مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى الذى تبنى مشروع إدراج السيرة ضمن قائمة التراث العالمية ويسعى إلى الحصول على تمويل من المنظمة الدولية لجمعها وتوثيقها، لماذا لم تتوحد الجهود بين مركز التوثيق والجهود التى بذلها عبدالرحمن الأبنودى فى جمع أشعار السيرة، والتى أصدر منها جزعين في إطار مشروع مكتبة الأسرة ولايزال كما يقول «الأبنودى» حوالى سبعين جزءاً لم يتم نشرهم من قبل، تحتاج إلى تمويل من أجل أن تخرج إلي النور.

وإن كان مركز توثيق التراث الحضارى قد أدرج ضمن دراسته موافقة الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية على المشاركة فى تسجيل كل النصوص الهلالية التى تمتلكها لدى المركز، وذلك من خلال أعضائها شعراء ورواة السيرة وهم عنتر هلال، محمد على، عنتر رضوان، فاروق القناوى، إسماعيل عبدالصمد، كما أدرج بيان للدكتور أحمد مرسى أستاذ الفولكلور بكلية آداب جامعة القاهرة ومدير المركز المصرى للفولكلور والتراث الشعبى،





«خضرة الشريفة» ، «الجازية » .. وغيرهما من بطلات السيرة،
كان لهن كبير الأثر فى تصعيد الأحداث وتطورها

الذى أكد فيه أن السيرة الهلالية المصرية هى الملحمة الشعبية الشفاهية الوحيدة المكتملة، بخلاف السير الشفاهية المنتشرة فى بعض الدول العربية، موضحا أن تلك السير هى أجزاء ناقصة من السيرة الهلالية وأحيانا مقحمة عليها، أما سيرة بنى هلال المصرية هى السيرة المكتملة العناصر مثل الشعر والموسيقى والسرد والأداء الغنائى.

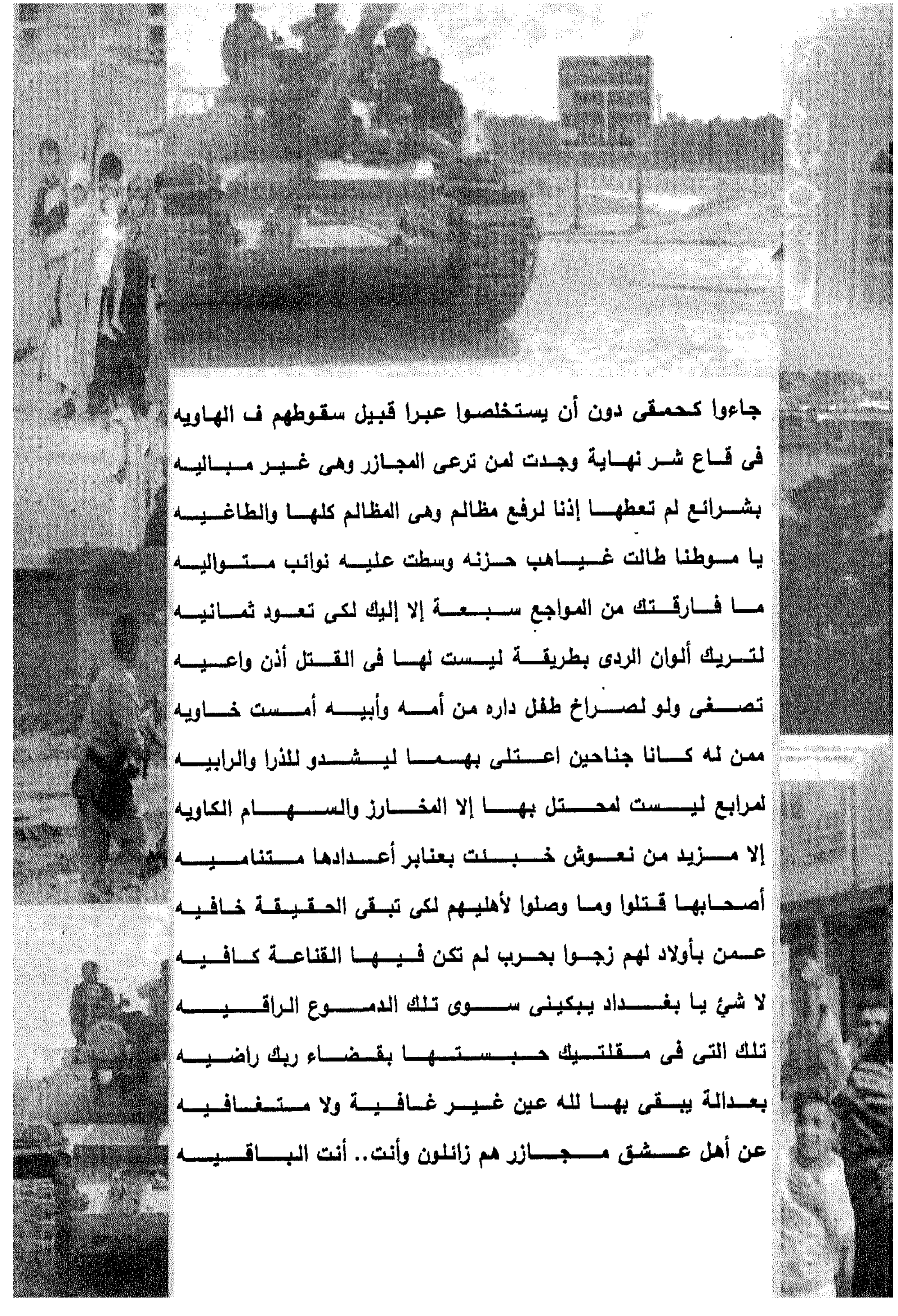
وبرغم كل تلك الجهود التى تسعى إلى الحفاظ على موروث السيرة الهلالية، لكن من الضرورى السعى إلى حفظها فى ذاكرة البسطاء من المصريين لتحمل أفراحهم وأحزانهم وانتصاراتهم وانكساراتهم كبطلها المغوار أبوزيد الهلالى، يتوارثها جيل بعد جيل، ولايفقدون الصلة بها حتى لاتموت وتندثر مع النسيان. ■



لا شئ يا بغداد يبكينى سوى تلك الدموع الراقيه
تلك التى فى مقلتيك حبستها بقضاء ربك راضيه
تأبين أن تتأوهى وتكابرين على الجراح الداميه
تتضرعين لخالق حتى يرد إليك ثوب العافيه
لتعود ثانية بهية وهى فوق حصانها متباهيه
تسمو على أوجاعها رغم العواصف والرياح العاتيه
رغم انهيار جدارها وأنين نهر فراتها وعويل ماء الساقيه
بغداد يا وطن البنفسج والأقاحى والطيور الشاديه



يا سحر كل قصيدة لا ينتهى للشعر فيها قافيه
يا صرخة مجروحة راحت تدوى فى سماء عاليه
لتقول كم دخلت ربوع المشرق العربى فى الماضى جيوش غازيه
فعلت كثيرا إنما لم تقترف إثما بحق شواهد تحكى حكايات السنين الخاليه
بغداد لا تتساءلى إن أصبحت كلمات شعرى قاسيه
فأنا كمذبوح غدوت بعيد ما نهشتك أنياب الوحوش الضاريه
دخلوك من بوابة ما كنت أحسب أنها من دون حراس تجول وحاميه
ما كنت أدرك أننى يوما سأبكى مثلما تبكى الثكالى وهى تمشى حافيه
بمدافع زفراتها زفرات نار حاميه
يكوى بها قلب على خفقانه مازلت يا بغداد أنت الغاليه
مازلت قادرة على أن تنهضى من بين أنقاض الفجيعة ثانيه
لتقاومى أعتى وأفتك هجمة قادت جحافلها رعاة الماشيه



جاءوا كحمقى دون أن يستخلصوا عبرا قبيل سقوطهم ف الهاويه
فى قاع شر نهاية وجدت لمن ترعى المجازر وهى غير مباليه
بشرائع لم تعطها إذنا لرفع مظالم وهى المظالم كلها والطاغيه
يا موطنا طالت غياهب حزنه وسطت عليه نوائب متواليه
ما فارقتك من المواجع سبعة إلا إليك لكى تعود ثمانيه
لتريك ألوان الردى بطريقة ليست لها فى القتل أذن واعيه
تصغى ولو لصراخ طفل داره من أمه وأبيه أمست خاويه
ممن له كانا جناحين اعتلى بهما ليشدو للذرا والرابيه
لمرابع ليست لمحتل بها إلا المخارز والسهام الكاويه
إلا مزيد من نعوش خبئت بعنابر أعدادها متناميه
أصحابها قتلوا وما وصلوا لأهليهم لكى تبقى الحقيقة خافيه
عمن بأولاد لهم زجوا بحرب لم تكن فيها القناعة كافيه
لا شئ يا بغداد يبكينى سوى تلك الدموع الراقيه
تلك التى فى مقلتيك حبستها بقضاء ربك راضيه
بعدالة يبقى بها لله عين غير غافية ولا متغافيه
عن أهل عشق مجازر هم زائلون وأنت.. أنت الباقيه

توم كروز ــ الساموراي الأخير

انحدار من أفلام أوسكار إلى صايع بحر!

بقلم
مصطفى درويش

نادرا مايفوز فيلم بإحدى عشرة جائزة أوسكار فعلى امتداد ثلاثة أرباع القرن لم يفز بمثل هذا العدد من الجوائز سوى «بن هور» (١٩٥٩) و«تيتانيك» (١٩٩٧) غير أنه ، قبل شهر ، وبالتحديد اليوم الأخير من فبراير ، انضم إليهما «سيد الخواتم - عودة الملك» لصاحبه المخرج النيوزيلاندى «بيتر چاكسون» ، عندما أعلن فى حفل الأوسكار ، بمسرح كوداك ، خبر فوزه بجميع الجوائز التى كان مرشحا لها ، وهو أمر غير مسبوق ، وذلك رغم أن عددها كان مماثلا للعدد ، الذى فاز به هذان الفيلمان ، وهو غير قليل .

سيد الخواتم والأفلام

والجوائز التي حصدها ، أولها وأهمها بطبيعة الحال ، جائزة أفضل فيلم ، تلك الجائزة التى لم يكن ينافسه من أجل الفوز بها سوى أربعة أفلام هى «فقد فى الترجمة» لصاحبته «صوفيا كوبولا» أول مخرجة أمريكية ترشح لأوسكار .

و«سيبسكويت» لصاحبه «رونالد تيم» ، و«النهر الغامض» لصاحبه كلينت إيستود و«سيد وقائد» لصاحبه المخرج الإسترالى «بيتر بير» أما الجوائز العشر الأخرى ، فهى المخصصة لأفضل مخرج وتوليف (مونتاج) ومكياج وتصميم ملابس وتصميم مناظر وسيناريو مأخوذ عن قصة ومؤثرات بصرية وأغنية وموسيقى تصويرية وميكساج صوت .

ولأن الفيلم نيوزيلاندى لحما ودما ، فقد علق النجم «بيلى كريستال» مقدم الحفل على كثرة الجوائز التى حصدها قائلا :

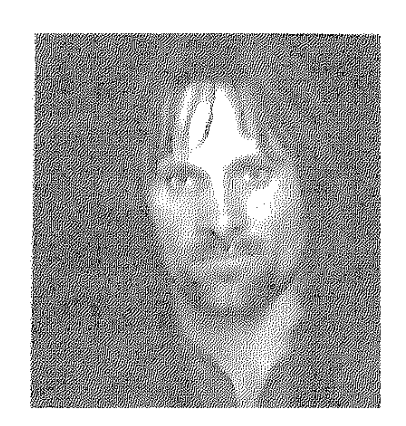
الآن لايوجد فى نيوزيلاندا أحد إلا وقد فاز بجائزة أوسكار .

و«سيد الخواتم - عودة الملك» الجزء الأخير من ثلاثية ، جرى عرض أول أجزائها ، قبل عامين ، وثانيها قبل عام .

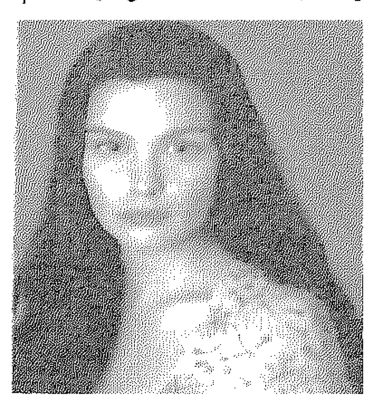
وأحداث الثلاثية مستوحاة من ملحمة أسطورية أبدعها خيال الأديب الانجليزى «تولكين» ، قبل خمسين عاما .

محور الشر

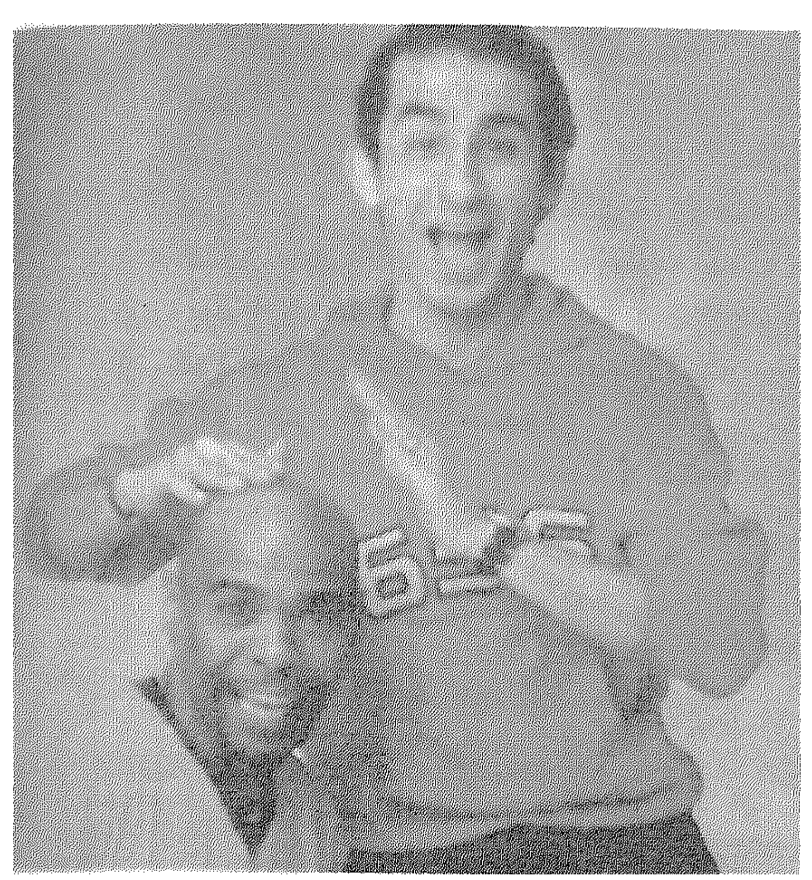
ولأن المخرج «جاكسون» متمكن ، بفضل موهبته من صنعته ، استطاع أن يشد أعصابنا بجزء الثلاثية الأخير ، الذى قاربت مدته الساعات الثلاث وأن يعلق عيوننا ببياض الشاشة وسوادها حيث سحر عالم الأساطير بأرواحه وأشباحه وكائناته الغريبة ، وأبطاله ، تتوج مغامراتهم بالانتصار على الأشرار ويجعلنا نحس ، بعد أن ينتهى الفيلم ، بقدر من راحة البال .

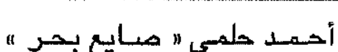


فيمو مورتنسن .. الملك العائد فى سيد الخواتم



.. و ليف تايلور الملكة العائدة





أحمد حلمى « صايع بحر »

ولم لا ، وقد تحقق المستحيل ، بانتصار الإنسان على قوى الظلام ، بعد أهوال يشيب لها الولدان .

وهنا ، لايفوتنى أن أذكر ، أن الفيلم يقول من بين ما يقول إن الدنيا لا تؤخذ إلا غلابا ، بعد معارك طاحنة بين الخير ، وأكثر من محور من محاور الشر ، الأمر الذى يذكرنا بعبارة وردت على لسان الرئيس الأمريكى فى بيانه أمام الكونجرس عن حالة الاتحاد ، بعد بضعة شهور من تدمير برجى مانهاتان .

الحرب والسلام

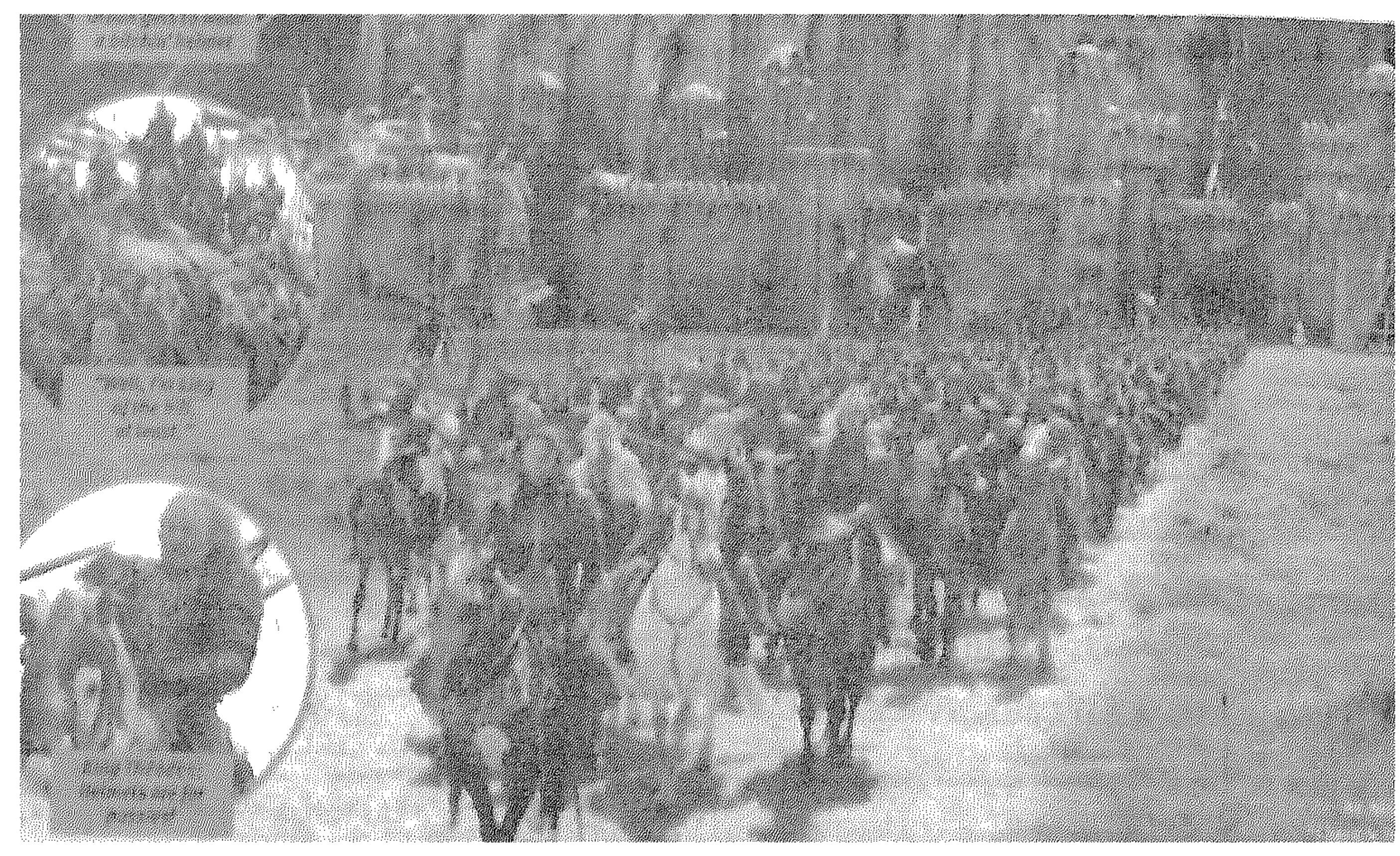
وما يقوله «سيد الخواتم» يردده أكثر من فيلم جرى ترشيحه لبعض جوائز أوسكار .

ومن بين هذه الأفلام أقف قليلا عند كل من «الجبل البارد» و«سيد وقائد» و«الساموراى الأخير» .

وأول الأفلام الثلاثة ، صاحبه «أنطونى مينجيلا» السابق له الفوز بأوسكار أفضل مخرج عن فيلمه «الانجليزى العليل» (١٩٩٦) .

وفيلمه الأخير «الجبل البارد» تدور أحداثة أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، التى انتهت بتحرير العبيد .

وعنه فازت النجمة «رينيه زيلفجر»


لقطات من « سـيـد الخـواتم »

بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة .

ولعله من المفيد أن نذكر بأنها لعبت دور سفاحة شيكاغو «روكسى» فى الفيلم الاستعراضى «شيكاغو» الذى خرج من مهرجان الأوسكار ، قبل أكثر من عام متوجا بجائزتى أوسكار أفضل فيلم ومخرج «روب مارشال» .

أما الفيلمان الآخران ، فأحدهما «سيد وقائد» بطولة راسيل كراو الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه فى فيلم «المصارع» (٢٠٠٠) ، وأحداثه تدور فى أعالى البحار ، أثناء الحروب النابوليونية بين فرنسا وبريطانيا ، حيث يكتب النصر فى نهاية المطاف لسيدة البحار .

والآخر «الساموراى الأخير» لصاحبه المخرج «إدوارد زفيك» .

الأصالة والحداثة

وموضوعه متمحور حول الصراع بين الأصالة والحداثة فى اليابان ، قبل قرن وربع القرن من عمر الزمان .

ففى ذلك الزمان الموغل فى القدم تحمس «ميجى» الإمبراطور الإله لتحديث بلاد الشمس المشرقة ، بعد عزلة عن العالم الخارجى استمرت زهاء مائتى عام.

وتحقيقا لهدفه هذا ، تبنى ما لدى

الغرب من علم وتقدم وتنظيم وأساليب فى الحرب والتقاضى والمحاكمة ، لم يكن يحسنها اليابانيون ، فتخلفوا عن ركب الحضارة .

غير أن سياسته لقيت مقاومة ، أخذ عودها يشتد تحت زعامة محاربين أشداء «ساموراى» ، وسائلهم فى النزال وسائل عتيقة ، عفا عليها الزمان ، كالسيوف والرماح والنبال .

والغريب فى أمر الفيلم أن مخرجه ، ونجمه الأول «توم كروز» فى عرضهما للصراع بين الجديد والقديم ، قد جنحا إلى التعاطف مع المحاربين البواسل «الساموراى» ، وهم يبذلون الروح فداء للوطن ، وقيمه النبيلة التى تجمع بين الشجاعة والشرف والصدق والإخلاص والوفاء .

وهذا التعاطف يبدو واضحا فى تصوير المعركة الأخيرة ، حيث نشاهد فلول جيش الساموراى ، وهى تباد بنيران المدافع والرشاشات المستوردة من بلاد العم سام .



الساموراى الأخير أمريكى

والأكثر غرابة ، أنه لم ينج من هذه المذبحة سوى محارب واحد ، غير يابانى ، الأمريكى «ناتان الجيرن» (توم كروز) ، الذى اقتنع بقيم الساموراى ، أثناء أشهر الأسر ، فمارسها فى حياته عن إيمان !!

ومن الغرائب الأخرى ، عدم ترشيح «توم كروز» لجائزة أفضل ممثل رئيسى ، والاكتفاء بترشيح الممثل اليابانى «كين واتانابى» عن أدائه لدور قائد الساموراى «كاتزو موتو» ، الذى تنتهى به المعركة الأخيرة وقد أسلم الروح ، شاهرا سيفه ، فى ساحة القتال .

ولكنه لم يفز بأوسكار أفضل ممثل مساعد ، وبدلا منه فاز بها الممثل الأمريكى «تيم روبنز» ، عن أدائه لدور رجل شوهه الإغتصاب ، وهو صبى ، فى الفيلم الرائع «النهر الغامض» .

وبالمناسبة ، فجائزة أفضل ممثل رئيسى كانت من نصيب النجم «شين بين» عن أدائه لدور صديق «روبنز» وقاتله وفيلم «النهر الغامض» يقترب من الختام .

التضحية بالجمال والقوام

أما جائزة أفضل ممثلة رئيسية ، فكانت من نصيب «شارلى ذيرون» ، وهى ممثلة من جنوب إفريقيا .

وقد فازت بها بفضل أدائها لدور قاتلة عشوائية انتقاما من الرجال فى فيلم «وحش» للمخرجة الصاعدة الواعدة «باتى جينكينز» .

ومن بين الأسباب التى رجحت فوزها ، إنها ، ورغم أنها ست حسن وجمال ، أرتضت تقبيح وجهها ، حتى يبدو مقنعا تقمصها لشخصية القاتلة «إيلين وورنوس» التى جرى إعدامها فى ولاية فلوريدا ،

لثبوت قيامها بقتل سبعة رجال مع سبق الإصرار .

كما ارتضت أن تزيد وزنها بمقدار أربعين رطلا (حوالى عشرين كيلوجراما) .

وكعهدنا بمصنع أحلام هوليوود ، عمل على عرض معظم أفلامه المرشحة لجوائز أوسكار ، والفائزة فيما بعد ببعض منها ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، أثناء الشهر الذى يبدأ بالترشيحات ، وينتهى بإعلان اسماء الفائزات والفائزين .

وفعلا ما أن انتهى العيد الكبير ، حيث يمتنع عرض الأفلام الأجنبية بقوة القانون ، حماية للسينما المصرية ، حتى سارع أصحاب الأفلام الأمريكية المرشحة لأوسكار بعرضها فى دور السينما عندنا .

سر غلبة الإنتاج الكبير

وبطبيعة الحال لم يكن بينها فيلما المخرجتين «صوفيا كوبولا» و«باتى جينكينز» .

الأول لأنه ليس من أفلام الانتاج الكبير التى تحقق إيرادات مضمونة لموزعيها ، فهو فيلم مؤلف لم يكلف صاحبته سوى حفنة من الدولارات .

والثانى لأنه من ذلك النوع الذى اعتادت رقابتنا الرشيدة الحيلولة بيننا وبين مشاهدته ، حماية لنا من أنفسنا .

يبقى لى أن أقول إنه فى الوقت الذى كنا فيه ، نحن المصريين ، نشاهد بطول وعرض البلاد «النهر الغامض» و«سيد وقائد» و«سيد الخواتم» و «الساموراى الأخير» ،كان لايتاح لنا أن نشاهد من إنتاج السينما المصرية سوى أفلام هابطة ليس فى وسعها أن تقول شيئا .

دروس فى الردح والابتذال

أفلام مبتذلة تحمل كل العداء للذوق والجمال ومن بينها أذكر على سبيل التمثيل «شبر ونص» و«كيمو وأنتيمو» و«صايع بحر» أكثر أفلام الموسم إنحطاطا وابتذالا ، حيث ينحدر الحوار إلى ردح فاحش ، وآية ذلك هجاء «حنتيرة (أحمد حلمى) لأم خطيبته السابقة بقولته لها يا اللى أمك ما قالتش لا» وحيث يستجيب حنتيرة لإغراء المعلم تاجر المخدرات ، فيقوم بتوزيع السموم البيضاء فى أحد شوارع الأسكندرية ، حتى كاد يبيع للمحافظ تذكرة هيروين .

وحيث يسرق ، ويرتكب غير ذلك من الآثام ، فلا يعاقب بل يكافأ ، رغم صيعنته من فاتنة الحى ، حبيبة العمر ، وسط زغاريد الأم ، ورقص أبطال الفيلم الصايعين .

كل ذلك باسم الانتصار للمهمشين ومن عجب أن ينحدر قلم ناقد كبير ، حاصل علي أكثر من وسام ، فيصف صايع بحر بأنه فيلم مدهش .. قصة ومناظر وتمثيلا .. وأين ؟

فى قاهرة وزارة الثقافة !!

■

اللعب فى الدماغ

ندوة مثيرة وعرض مهم فى مسرح الهناجر

بقلم
مهدى الحسينى



فى أدبيات النقد المسرحى ، لا يوجد موافقة على طول الخط ولا معارضة على طول الخط ، لأن المسرح بالذات فن مركب من عناصر عديدة لا تأتي على منصته - غالباً - كاملة التناسق أو تامة التكوين ، خاصة وأن المبدع الأساسى للعرض - أى المخرج - له شركاء قد لا يقلون عنه أداء ووعياً ، كل فى حدود مهمته أو دوره ، وقد يتكاملون معاً أو يتفاوتون أو يتكاملون إلا قليلا .. وهكذا شأن أى عمل جماعى ، هنا لا يملك الناقد من أمره إلا أن يراعى هذا النقص أو تلك الزيادة ، وأن يفسر ذلك الميل أو يفهم هذا المنعرج .. وهلم جرا .



السخرة الإعلامية العربية والعالمية في مشهد التليفزيونات

فالناقد المتجرد البرئ لا يحمل مسبقاً مواقف أو آراء أو قوالب أو مقاييس أو أحكاما أو شعارات ، وإنما يحمل - فقط - خبرات نظرية وميدانية ومعارف لا يستعين بها في فهم العرض وتقييمه ، إلا بعد أن يكتمل فى ناظريه، ويصبح ملء سمعه وعقله وروحه ، أى بعد المشاهدة .. بل والمشاهدة لأكثر من مرة ، وبعد مراجعة النص إن وجد ، ثم عقد مقابلات فنية مع أبرز المبدعين ، ولا بأس مع بعض المشاهدين ، فالعرض المسرحى لا شئ بدون جمهوره . هنا يختلى الناقد بنفسه وأوراقه وما تحصله من علوم ومعارف ليكتب مقاله الذي يعبر فيه عن خلاصة وعيه وانفعاله بالعرض الذي شاهده ، وهنا لا يكتب رأياً قاطعاً .. ولكن علي سبيل الترجيح .

هذه خاطرة أدونها هنا بعد مشاركتي فى الندوة التى عقدها مركز الهناجر للفنون حول العرض المسرحى «اللعب فى الدماغ» بعد انتهاء الليلة المسرحية مساء الخميس ١٢ فبراير الماضى ، ذلك أن قيمة فن المسرح تكمن في حيويته التامة ، حيث لا يختلف أثر المسرحية بين النقاد فحسب ، بل بين مبدعيها كذلك ، وبين صفوف المشاهدين أساساً ، فالعرض المسرحى - فى الليلة الواحدة - ليس كيانا واحداً ، بل هو عشرات ومئات العروض .. وإلى ما لا نهاية بعدد امتداد لياليه على المنصة وبحسب أعداد المشاهدين ، لذا لم أنزعج لاختلاف مع ما ورد فى كلمتى الموجزة من معايير أظنها صحيحة ، ولكن انزعاجي كان لأمر آخر جاء فى وقائع الندوة :

(١) أن البعض تطرق إلى قضية مصير «الفرق المسرحية الحرة» كموضوع أساسى وكما لو كانت الندوة معقودة من أجل مناقشة هذه المسألة .

(٢) تطرق البعض لمناقشة العرض من زاوية وحيدة هو ما ورد فى ثناياه من أفكار سياسية ، وليس عرضاً فنياً عن قضية تكون السياسة هى البعد المهم فيها ، شرط أن يرد بصيغة جمالية ، فى حين أننا نرى أن الأجدى للمناقشات والدعوات والشعارات السياسية أن تتم فى قاعات الأحزاب السياسية والنقابات وليس فى قاعة مسرحية .

(٣) أن البعض أخذ فى تزكية المخرج والمؤلف والفرقة دون الولوج إلى عالم العرض

الفنى بتقييم جمالي لما أبدعه هؤلاء من فن وحرفة فضلا عن ملاحظتى العامة ، وهى جنوح المصريين – فى مثل هذه المناقشات والاجتماعات – إلى الرغبة فى مناقشة كل شئ دفعة واحدة ، بل والوصول إلى تقييمات نهائية فى كل الموضوعات ، مع البعد التام عن مبدأ أن لكل مقام مقال ، وأن لكل مجال ما يناسبه ، وأن لكل موضوع حدوده التى تحدد نوعيته فلا نخرج منها إلى موضوعات أخرى كالعادة . حقا إن كل شئ مترابط ، ولكن الحبال – بهذه الطريقة الخاطئة – تكون طويلة ومتداخلة ومعقدة .. فتقل الفائدة ويتعرج الطريق ، فنخرج وقد أفرغنا شحنة انفعالاتنا وأرضينا ذواتنا . لا أكثر !

كان الأجدى أن يركز المتحاورون على الفن والحرفة فقط : النوع المسرحى للعرض وتقنياته ومزاياه ومنزلقاته ، والنص المتصور والإخراج والموسيقى والأغانى والاستعراض والمنظر المسرحي والأزياء ، والاكسسوارات والتنكر والاضاءة ، والميزانسين والإيقاع جملة وتفصيلا ، وتقنيات الممثلين ومزاياهم وأساليب أدائهم و مهارات كل منهم وطابعه ، كان الأجدى أن تنصب الندوة على هذه الأمور وحسب ، هنا سوف يتمكن كل صاحب رأى أو موقف أو انطباع أن يسجله من خلال هذا النوع من النقد أو التذوق الفنى ، علماً بأن الشعارات لا تدوم ، والانفعالات لا تشفى غليلاً ، بل تتبقى الأفكار العميقة والحقائق الواضحة البسيطة والمشاعر الصادقة .

وليطمئن أصحاب المواقف الوطنية والغيوريون على الطبقات الشعبية والمعادون للهجمة الاستعمارية على المنطقة حيث أنهم لو ركزوا على التقييم الفنى والتحليل التقنى ، سوف يخدمون صناع هذا العرض أكثر .. وأكثر ، وسوف يستطيعون الحصول مستقبلاً على مسرحيات أخرى جديدة ، من نفس المبدعين ونفس المخرج ومن غيرهم – لكن بأسس فنية أعمق وأدق وأرقى ، مع تسليمنا مبدئيا بقيمة عرض «اللعب فى الدماغ» الذى نحن إزاءه الآن .

ولا يفوتنى هنا أن أنوه بمبادرة الهناجر لانتاج هذا العرض لفرقة «الحركة» من جماعات المسرح الحر ، ثم عقد ندوة موسعة لمناقشته ، فى وقت تقاعس فيه البيت الفنى للمسرح عن عقد ندوات لمناقشة عروضه .

قالب «الريڤيو المسرحى»

لاحظت ميل عدد من الفرق الشابة إلى هذا الشكل المسرحى الجذاب والمعروف بمرونته وتعدد أنواعه وألوانه وأساليبه وتأثيراته وأغراضه ، ولكننى أخشى أن يكون فى الأمر استسهال أو مزاحمة ، أو عجز عن لم شعث موضوعاتهم وقضاياهم ومشاعرهم وتجاربهم وأمانيهم .. فى عروض متماسكة ، فأغلب هذه العروض – كما لاحظت – تكتفى بالتعامل مع العارض والمؤقت فقط ، وبعضها لا يلمس الحقائق بعمق ووعى كافيين .. فيقنع بالظاهر دون الجوهرى وبالنتائج دون مسبباتها ، وآخرون يميلون إلى التسلية والاستعراض والفكاهة فيسوقون اسكتشاتهم الخفيفة دون العناية بدقة اختيار مفردات العرض ودلالاتها وعلاقاتها معا .. ابتداء من الموضوع وانتهاء بالحرفية ، فلا يفكرون فى هدف كبير أو أثر عميق أو إحساس خاص أو معنى ذى شأن .

علماً بأن قالب «الريڤيو» المغرى ، فن له تاريخ سابق على ظهوره فى مصر مع مطلع القرن العشرين ، فهو على عكس القالب الأرسطى المحكم وأقرب إلى القالب الملحمى ، وإن استفاد من التعبيرية والبرشتية والعبث فدمجها فى سياقه علاوة المسرح الشعبى . وهو أشبه بالريبورتاجات الذى تتقلب صفحاته أمام ناظريك وفقا لفنون المسرح .. لا وفقا



لحرفيات الصحافة ، فالمسرح فن أعمق وأشمل وأكثر بقاء وفاعلية : لوحات إثر لوحات ، متحولة دوما ، تصوغ نفسها على هيئة غير محكمة قصداً ، وإن كان يحكمها فكر ما .. ومزاج وذوق وطابع ما .. وفن وحرفة ما .. تتعاقب بالإيقاع وتترابط بخيط ما وفقا لحرية الاختيار وليس وفقا للحتمية الدرامية ، تنطلق من شخصية أو واقعة أو حدث أو أزمة أو سؤال أو أطروحة أو فضيحة أو اقتراح أو فكرة ، فتظل تمضى بفضل الاختيار الموفق لنقطة الهجوم هذه حتى تصل إلى نقطة نهاية مغلقة أو مفتوحة ، أما القوام فأجزاء تتلاحق وتتدفق وتنمو وتتقدم - كاشفة منجزة - فى اتجاه ما تستهدفه وما تبتغيه ، لهذا يتم التنقل بحرية عبر الزمان والمكان ، دون مشهد رئيسي ولا ذروة ولا حل ، وإنما سياق ونسق ، قد تكون نهايته سؤال جديد أو إجابة حاسمة أو فاجعة أو دعوة على عشاء وهمي أو تحريض على الثورة .

وكما لا تتشابه المجلات والريبورتاچات المصورة من حيث طوابعها وأساليبها وأشكالها وأغراضها وتأثيراتها ، تختلف أيضاً أنواع الريڤيو المسرحي إلى مالا نهاية ، فلعله أفاد من فنون الميوزكهول ، ومن المنوعات المصاحبة لعروض السيرك ، ومن عروض الفنانين الجائلين فى الموالد والسوامر والأحواش والمقاهى فى الريف والمدن ، وقد يتخلله الرقص والغناء والعزف والتمثيل والتهريج والاكروبات وألعاب الخطر ، وقد يلجأ إلى مشاهد العنف والغرام والانتصار والفشل ، وقد يلجأ إلى السيوف الخشبية والرسم على الوجوه والأقنعة والتنكر والباروكات ، وغالبا ما يسيطر على عروضه مزاج الكوميديا والفارس والهجاء والمراوغات والمقالب والمسخرة والفكاهة . حقا إنه عالم ساحر صاخب مثير ، غير أنه قد يغرى بالتعجل والسطحية والابتذال .

الريڤيو فى مصر

عرفت مصر بذرته الأولى فى صيغة الفصول المضحكة التى تمت بين فصول المسرحيات الكبيرة فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، وعرفته على يد چورچ دخول (كامل الأصلى) والفار وغيرهم من كبار الساخرين .. ومن المسيرى وحمام العطار ، وقدمه الريحانى وستيفان روستى معا أثناء الحرب العالمية الأولى فى صيغة عروض الفرانكو آراب ، حيث رسم الريحانى شخصية (كشكش بك) عمدة كفر البلاص الذى جاء إلى القاهرة بعوائد القطن ليلهو بها بين الحسناوات فى المراقص والبارات ، فيخسرها عائداً مفلساً إلى قريته ، بينما يكسبها ستيفان روستى صاحب الكباريه ، ومن خلال هذا الخط البسيط يقدم الريڤيو عدداً من أغنيات الفرانكو آراب الساخرة المصحوبة بـ (نمر) الرقص والفكاهة ، وكأنها هى غطاء للمعنى العميق القائم خلف هذه الصيغ / اللوحات / المشهدية البراقة الضاحكة . وأيضاً يقدم ابراهيم رمزى (دخول الحمام) كما يقدم على الكسار - صيغته الخاصة بالخادم الأسمر الذكى الفقير المغلوب على أمره مع أمين صدقى ..

وهكذا استمر الأمر حتى ظهور نذر الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ .

وفى سنة ١٩٣٩ تلتقى الراقصة بديعة مصابنى مع الفنان المشرد عزيز عيد - وكانت قد اتفقت مع مكتب الدعاية من أجل الحلفاء على تقديم برامج ترفه بها عن ضباط التحالف وتهاجم دول المحور والنازية والفاشية وتدعو للديمقراطيات الغربية - وذلك فى كازينو بديعة (مكانه الآن فندق شيراتون القاهرة) ولما لم تكن موفقة فى تحقيق تلك المهمة التى كانت أكبر من قدراتها ، فإنها عرضت على عزيز عيد أن يتولى عنها هذه المسئولية الجسيمة ، فيدلف الفنان الخبير إلى كواليس الملهى ليلتقى بمصمم الرقصات ومايسترو الچاز باند النحاس

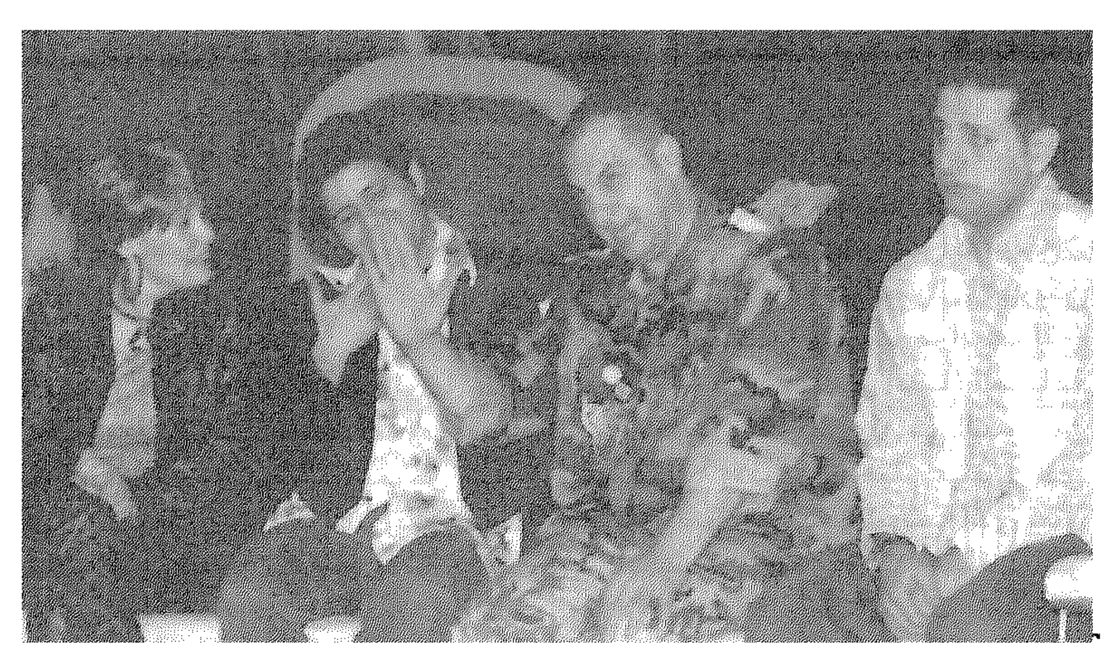
الشائع آنذاك ، ليعرف منهما طبيعة «النمر» التى يقدمانها لرواد الملهى ، بعد ذلك التقى بالباقين من مهرجين ومونولوجستات وراقصات وراقصين وممثلين كوميديين ولاعبى سيرك وموسيقيين ، وليشاهد بروفة حية لكل الفقرات فإذا به يعيد ترتيبها ترتيبا خاصا رابطا إياها - عن قصد - برباط واه أو مرن ، بحيث يسهل عليه التعديل والتبديل وفقا للمتغيرات الفنية الخاصة أو الاجتماعية والسياسية العامة ، وبعد الانتهاء من هذه العملية الفنية التنظيمية أخذ العرض صيغة الريڤيو المتماسك ، فأعطى أبعاداً ومعان لم تكن فى حسبانهم إذ أصبح عرضا مشوقا مسليا ، وفى نفس الوقت محمل بالسخرية من دول المحور ، وكبار شخصياتها دون السقوط فى سطحية المباشرة ، وحين رحل عزيز عيد سنة ١٩٤٢ ، فإن المخرج فؤاد الجزايرلى قد تولى عنه هذه المهمة حتى نهاية الحرب سنة ١٩٤٥ .

وفى سنة ١٩٧١ كانت مصر تتفجر احتجاجا على استمرار الاحتلال الصهيونى لسيناء وفلسطين والجولان منذ هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، وبالفعل استغل هانى مطاوع المخرج البازغ حينها فرصة اختياره مخرجا لمنتخب التمثيل المسرحى فى جامعة القاهرة ، فقدم أول ريڤيو بعد طول انقطاع باسم «البعض يأكلونها والعة» ، وكانت لوحات منفصلة شبه متصلة تسخر من أوضاع ونماذج شائعة إجتماعياً وسياسياً فى ذلك الحين ، وتخاطب روح التمرد والاحتجاج الوطنى ، على الهزيمة وأسبابها ، وحين كتبت مقالا فى ملحق ثقافى لصحيفة لبنانية فقد أبديت تحيزاً لهذا النوع من العروض الذى يعالج قضايا الواقع المعاش رغم تحفظى على البنية الاعتباطية للوحاته وغياب خط ما يصل ما بينها ، والتقط المخرج سمير العصفورى الخيط كى يضع عرضه من هذا النوع «كلام فارغ» فى مسرح الريحانى بشارع عماد الدين وكأنه يعيده مرة أخرى إلى موطنه الأصلى ، وأتبعه بعرض ثان باسم «كلام فارغ جداً» طارحاً فيهما أزمة الشباب الحياتية المجسدة فى أزمة السكن والدخل والزواج والجنس فى ظل وعود - لا تتحقق - من قبل الحكومة بحل هذه المشاكل ، وبالطبع لا يتبقى فى الذاكرة من هذه العروض جميعاً سوى بعض ملامح هذا الشكل الفنى «الريڤيو» وشئ من ملامح الممثلين الظرفاء ، ذلك أن هذه العروض أجيزت تحت ظروف الرقابة المشددة ومحظورات انتقاد النظام ، فجاءت غير متعرضة لأسباب الظواهر وقوانينها ، أى فاقدة للبنية التحتية التى تضمن لها البقاء .

ومع مطلع الثمانينات بمناسبة شهر رمضان قدمت مع المخرج عبد الرحمن الشافعى نوعاً آخر من الريڤيو يعتمد على الثقافة الشعبية وبعض اللمحات الفولكلورية ، حين فككنا الصورة الاذاعية / العرائسية (الليلة الكبيرة) للمبدعين صلاح چاهين وسيد مكاوى وحولناها إلى عرض غنائى استعراضى ساخر فى ٤ ساعات بسرادق حديقة الخالدين بالدراسة (مكانه الآن دار الافتاء) ، هذا وقد راعينا المرونة التامة حتى يستوعب العرض بين فقراته وثناياه فرق الفنانين الشعبيين القادمين من مختلف أقاليم مصر ، وفرق السيرك والموسيقات الشعبية ، وبعض المطربين والمطربات الراغبين فى المشاركة فى احتفالات الثقافة الجماهيرية بشهر رمضان ، ولم يكن الأمر مجرد (عرض منوعات) ، وإنما خطوطا وشخصيات جذبناها من صميم نص صلاح چاهين لنمدها على طول العرض ، وفى داخله كى تشكل كل هذه الفقرات اليومية والعارضة قواما مسرحياً واحداً ، كنا نعالج غربة الريف فى زحام المدينة ونومئ إلى تلك التغيرات الجسيمة الماثلة فى الأفق.

إذن ففى تجربتنا الوطنية على نحو قرن ، ثــروة من فن «الريڤيــو» غزيرة التنوع ،





اللوحة المتكاملة للفساد السياسي كما يراها خالد الصاوى مؤلف ومخرج العرض

نستطيع أن نفيد منها فى طرح قضايانا «الساخنة» دون أن نتجاهل الأعماق والأسباب ، بأن لا نسقط فى شراك الدعاية والإعلام أو التعجل أو مجرد الاحتجاج والسخرية أو الاكتفاء بنقد المظهر دون الجوهر .

«اللعب فى الدماغ» العام.. هل يمكن تصنيعه ؟

هذه هى قضية العرض منذ لحظاته الأولى ، فمنذ تدفق وحدة صغيرة شرسه من جنود المارينز الأمريكان إلى صالة كافتيريا الهناجر ، وكأنما العرض يوجه انذاراً إلى كل الشعوب العربية (وغير العربية) ، بأن من لا يطيع سوف يسحق وفى خضم هذا الجنون والإرهاب يعيش جمهور المسرحية لحظات عصيبة تدفع به - عبر المقاعد والممرات - إلى حيث منصة العرض ، وهناك تستقبل المذيعة التليفزيونية (جسدت دورها بحنكة واتقان الفنانة نرمين زعزع) الچنرال توم فرانكس (قام به الكاتب والمخرج خالد الصاوى) كى تجرى معه حواراً - على الهواء مباشرة - حول مشروعاته الاستعمارية ، وذلك بعد أن يغنى فريق الممثلين أغنية تبدو متفائلة ولكنها محملة بالمفارقة والتحذير مما يحيط بنا من مخاطر ، وهنا يغنى الچنرال أغنيته المكتظة بالتضليل والمراوغة والأكاذيب ، فيرد عليه الشباب بأغنية متمردة مليئة بالتحريض، مشهد افتتاحى - بعد المقدمة - مشحون بالمواجهات والتحديات تمت بطريقة ساخرة كاشفة وبأساليب تمزج بين السمع بالمشاهدة والحركة والموسيقى والرقص والمنظر المسرحى ، ومختلف وسائل الأداء والتعبير الممكنة والتى يمتلكها الممثلون من تعبيرات الوجوه وحركات الأيدى والأرجل وأصوات الاحتجاج ومواجهة التهديد.

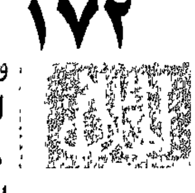
العرض يتميز بالحيوية الشديدة ، وتجدد فى الصورة المسرحية وديناميها المستمرة والمتواصلة، فالديكور متحرك كما لو كان يشارك فى عملية التمثيل ، والتغيرات تتم عياناً ،

والخدع مشكوفة عمداً ، والعلاقات واضحة تماماً ، والاضاءة (صممها محمد حسنى) تشكل لوحة تشكيلية حية غاية فى الحداثة والتعبير والتألق ورغم تغيرها كل لحظة إلا أنها تحافظ على جمالياتها ، والألحان معبرة ساخرة كانت أم شجية أم محرضة (ألحان خالد الصاوى توزيع ورؤية عمرو اسماعيل) والغناء مفعم بالانفعالات ومشحون بالأفكار (الغناء لمحمد عبد الوهاب الذى أظهر موهبة تمثيلية خاصة وبالذات فى استخدام تعبيرات الوجه .. ومعه أوديت شاكر .. وكذا خالد الصاوى التى يصور فيها عجرفة الچنرال الأمريكى ساخراً منها) والاستعراض فى مكانه وليس مقصوداً فى حد ذاته (تصميم مراد عبدالله) والأشعار قوية المعانى رغم مباشرتها بعض الشئ (كتبها خالد الصاوى أيضاً) الصياغة الفنية للمفارقات المتلاحقة محكمة ومتجددة ، ولم يلجأ العرض للف والدوران فى التعبير عن مقاصده ، بل حدد الخصم بشخوص الچنرال «توم» وحليفه الانجليزى (هيثم عامر) الذى قام بدور مستر بوش أيضاً ، وباقى عناصر المارينز والعولمة (حمادة شوشة الذى يمثل بمنتهى الاستمتاع)(حقا كان التمثيل رائعاً وسلساً وبسيطاً رغم قيام أغلب الممثلين بأكثر من دور مثل فاطمة السروى المارينز ، والمذيعة الخليجية والنجمة الصاعدة والفتاة الضحية ، والمتميز شهاب ابراهيم الذى قام بدور البروفيسير وأدوار أخرى وحمادة بركات فى الشاب أشرف ، وسيد فؤاد فى دور الريچسير والزوج القواد والأب المجرم ، وقام عطية الدرديرى بأدوار الصعيدى والزوج المتواطئ ، هؤلاء الذين صنعوا عالم المسرحية على نحو آخاذ .

غير أن ثمة (تطويل) ما فى السياق و (لبس وتكرار) فى علاقة الشاشة الخلفية للفيديو بروچكتور بالعرض أخل بالإيقاع ، وتحميل المجرمين المطحونين من المحتاجين المنحلين كل المسئولية والتغاضى عن جرائم الطبقة الجديدة ، وضيق ما يبدو فى أفق العرض من الناحية الفكرية ، واكتفاء بالإثارة دون التحليل والاحتجاج دون التسبيب، وغياب للقوى التى تساند الچنرال وترسله إلى المنطقة أو تستدعيه ، وعدم تعرضه للظروف والأسباب والملابسات التى أسست لهذه الكارثة التى نحياها ، أما نهاية العرض فهى تدعو للتساؤل . هذه الأمور قد تعيدنا لمناقشة هذا الشكل الفنى وإمكانياته غير المرئية والتى لم يستخدمها العرض : إنه الريڤيو .

سر النجاح ..
وسر الفشل ..

كان الإقبال على العرض استثنائياً لأنه لعب على الأوتار الحساسة : السخرية من وحشية المارينز ممثلى الإمبريالية الأمريكية ، والسخرية من التحالف بين انجلترا الشريك المقهور لخطط العدوان الأمريكى ، فى إطار من إدانة خطط إعلام السماوات المفتوحة بلا مبرر وبلا صدق ، والتى تزعم الديمقراطية والحرية بينما هى برامج انتقائية سواء فى الضيوف أو فى المتحدثين من الجمهور العادى (حيث تكسب شركات التليفون مبالغ طائلة) وكذا كشف شخصية المذيع أو المذيعة المزيفة التى تقوم بهذا الدور ، وأيضاً التعامل مع بعض (حالات) مثل الشاب أشرف الذى أقام علاقة شائنة مع زوجة صديقه مبرراً ذلك بالبطالة والعجز عن إيجاد فرصة عمل وعن الزواج ، ومثل الممثلة مشروع النجمة التى لا أصل لها ولا فصل ولا تعليم ولا فن ولا ثقافة ، ثم الأبوة الزائفة لقواد يقدم زوجته لأحد الأثرياء العرب أو تقديم زائف لثورتنا العرابية .. وأخيراً تقديم بروچكتور لچورچ بوش الحقيقى .. ثم مثوله شخصياً بممثل على منصة العرض لتدير معه المذيعة حواراً !! ولكن ما هو الفيصل بين ما هو مسرحى .. وبين الإثارة السياسية السطحية والمباشرة ؟



ظاهر الأمر عرض احتجاجي على ما يحدث فى المنطقة ، تحملت الأغانى والأشعار عبء تقديم معانيه الساخرة الكاشفة فأرضت صناعه وجمهوره معاً، أضف إلى ذلك الشكل الباهر فى السينوغرافيا فى أغلب عناصرها ، وأيضاً الطابع الهزلى الحاد المحبب للمزاج المصرى فضلا عن عشقه للموسيقى والرقص والغناء ، إذن فـ (الطبخة) سائغة تماماً . شكل العرض «ريڤيو» ومضمونه سياسى إجتماعى ساخر ، والإعلام هو التيمة المعتمدة ، ولكن (الفعلة) الرئيسيين غائبون ، والأوضاع والتشريعات والقوى (الفاعلة) لم يمسسها العرض ، بل تعرج الخط المسرحى حسبما شاء صانعه ، فلم يمض فى الطريق المتوقع : فقد جاء الچنرال والمارينز . ما الذى جاء بهم ؟ المطامع الامبراطورية الأمريكية الاستعمارية . من الذى سمح لهم ؟ الأنظمة العميلة والضعيفة . ماذا تفعل تلك الأنظمة ؟ تدعى الوطنية وتضعف شعوبها وتقهرها وتفرط فى ثرواتها وهويتها القومية وثقافتها الوطنية . وماذا تفعل الامبريالية في هذه المجتمعات ؟ إنها تدير الفساد وتنظمه وتدعمه وتورطه ثم تتخلص منه ليجئ فساداً جديداً حتى تنهب ثرواته وعقوله وأسواقه وثقافته .. وهكذا . وعلى من تعتمد الامبريالية داخل هذه الأوطان ؟ على الطبقة الجديدة الكوميرادورية الدنيئة والجشعة والأنانية قصيرة النظر ضيقة الأفق الجاهلة رغم إدعائها العلم والمعرفة والفاشية رغم إدعائها الديمقراطية والمخربة رغم زعمها بالتنمية ، وكيف حال الجماهير الشعبية ؟ إنها مقهورة مسلوبة الارادة يطال أجزاء منها الفساد والعفن والجريمة واللامسئولية . وماذا تفعل الجامعات ؟ تحولت إلى دور للمحفوظات وطلاب الترقيات والدرجات وتهمل بل وتضطهد العلماء الحقيقيين المستقلين . وماذا تفعل الأحزاب والبرلمانات ؟ إنها صورية لا سلطة لها ولا رأى . وما هو دور الإعلام ؟ إنه منظومة قهر العقل وخلق الأصنام والأكاذيب وما وظيفة الأمن ؟ قهر المواطن جسديا دون التوجه نحو العدو الحقيقى . وماذا تفعل المقاومة < تخطئ وتصيب حتى تجد طريقها - بعد وقت - بسبب حرمانها من قادتها الطبيعيين الصادقين . وماذا يفعلون مع المقاومة ؟ يحاولون رشوتها وإفسادها والوقيعة بين صفوفها ثم تهديدها ثم سجنها ثم تصفيتها . هذه هى المنظومة الشاملة والحقيقية لعرض آخر يتناول نفس الموضوع الذى حاولت «مسرحية اللعب فى الدماغ» أن تقدمه .

إننا نتساءل لماذا اقتصر هذا العرض على الفقر الفكرى الناجم عن التغاضى عن الوقائع الجسيمة التى ألمت بعالمنا الثالث كله ، وما دمتم تتحدثون عن (النضال) دعونا نسألكم : أين لصوص البنوك والحسابات السرية فى سويسرا ؟ أين ارستقراطية الطبقة الجديدة والساحل الشمالى ؟ أين الوكلاء الكبار للشركات عابرة القارات والمتعددة الجنسية والتى تديرها المخابرات الأمريكية ؟ أين شركات البترول والصلب العالمية ؟ وأين عقولنا التى سرقت منا بعد أن حوصرت هنا؟ أين أسواق الغذاء والدواء ؟ أين حاملات الطائرات والطلقات المعجونة بالمواد النووية ؟ وأين الصحف الكبرى وشبكات التلفزيون العملاقة وتكنولوچياتها التى لا نملكها والتى تسيطر على فضاءات الشعوب وآفاقها ؟ فى الحقيقة .. لم يطرح العرض إلا ما نعرفه ؟ ولم يفرغ إلا شحنات الغضب فى نفوسنا .. بينما لم يضف إلينا وعيا جديداً ■





بقلم
مرفت رجب

إجهاض الوعى

رفع الفتى ذراعيه وهو يتحرك باتجاه القلب من الجمع مؤكداً انعدال المزاج ، وقد انفرجت أساريره فى تأكيد للإشارة واضح ، لكن زعيم «القعدة» لا يكتفى ، فلا يلبث أن يلح على الفتى بالسؤال ، «مرضى» ، يعنى «مرض» ، ومع استمرار الفتى فى تغليظ القسم بأنه «مرض» تضجَ الصالة بالضحك الصاخب تكاد تتصدع جنبات المسرحَ من فرط قوته وهو ضحك لا يخلو من صراخ ، ذلك الذى ينبع من هول الكشف والتعرية ، فما كان الفتى يعلن عن رضاه عن أمر مسبوق أو متوقع .. وإنما جاء التسليم الكامل وإعلان الرضا تنازلا تاما عن حقوقه فى أدنى مستويات الكرامة الإنسانية ، تلك التى يفرط فيها على رءوس الأشهاد ، وهو يترك زوجته لتكون شركا بينه وبين صديقه ، والأخير لا يكتفى بالمشاركة فى الفراش وإنما هو يجاوز ذلك إلى تولى إدارة أعمال مواهب الزوجة ، وهى فنانة تسعى للصعود !!

لم يترك لنا البرنامج التليفزيونى فرصة لالتقاط الأنفاس فعلى عكس كل البرامج التليفزيونية المذاعة على أثيرنا ، جاءت مسرحية «اللعب فى الدماغ» محققة لأبعد الغايات من استخدام تقنية «اللقطة» .. أو فلنقل إن كلا يعرف مقصده ، كما يعرف السبيل إليه ..

لماذا ؟ ولماذا ؟ !

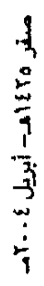
لكن.. لماذا اختار صاحب «اللعب فى الدماغ» لمسرحيته شكل البرنامج التليفزيونى (المفتوح) ، أى المذاع على الهواء مباشرة وهو الشكل الذى استشرى على شاشاتنا

بذريعة إتاحة مشاركة الجمهور الذى يتصل بمقدمى البرنامج تليفونيا ليسمع المشاهدون ؟ لابد أن الفنان الفذ خالد الصاوى يعرف أن اللقطة قادرة على نقل شحنات من المعانى والعواطف تتصاعد بحذق ترتيب اللقطات لتكون لدى المتلقى فهما أعمق لموضوعها ، يجعله أقدر على تكوين الرأى السليم بشأنها ، فهو لذلك يفهم ما يمكن أن تشكله لقطات ذكية تتتابع فى سياق واحد إيجابى ، ولابد أيضا أنه وضع يده على قوة الفتك بأى إدراك أو وعى إن جاء تتابع اللقطات تنويعا على لحن التشتيت وبعثرة الإدراك طريقا إلى الإجهاض البيّن للوعى ..

أما دليلى على ما سبق فهو أن خالد الصاوى كتب المسرحية وجعل أرضية المسرح تضم ما يمكن أن تكون دوائر متعددة صغيرة ، لكن كلا منها يكفى لحركة شخصين أو ثلاثة هم أبطال اللقطة ، وجعل الإضاءة تنساب فى سلاسة لتصب أشعتها على الدائرة موضوع اللقطة بما يحقق تسارعاً مذهلاً فى تتابع اللقطات يعلّى القدرة على التعمق فى المعانى وتناقضها إن لزم الأمر ومن ذلك تتفجر الضحكات..

ويمكننا إذ ذاك أن نطرح السؤال ، كيف أوصلتنا المسرحية للحظة إعلان الشاب الزوج كامل ارتياحه لوجود هذه العلاقة «الشرك فى الزوجة» بينه وبين صديق العمر .. وكيف جاءت تلك اللقطة مفجرة لكل هذا الضحك الممتزج بالصراخ الذى منه قد تتدفق دموع ؟!

لم يخطر بأى بال يتابع المسرحية ، وقد بدأت بمشهد صاخب يكاد يطابق ما يتكرر علينا فى البرامج التليفزيونية إياها . أنها ستصل إلى ذروة من هذا النوع ، لكنها إذ تفعل تفهم من عساه لم يفهم بعد ، أبعاد كون بطل المسرحية الجنرال الأمريكى «توم فوكس» ضيفا مقيماً فى برنامج تليفزيونى حشدت له البطلة المذيعة مواهبها فى تدليل الضيف بلا حدود .. وتئن جنوبنا ألماً من قدرة المذيعة على إطلاق الضحك فينا وهى تتفنن فى ابتكار أساليب الاستخذاء الملاعب للضيف ، فتمط الكلام على طريقة فلانه، وتتحرك فى لولبية على طريقة علانة ، وتلهث فى دفق الكلام على طريقة مذيعة أخرى غلبانه ، وتستأثر بالثرثرة نيابة عن الضيف كما توالى المقاطعة لتذكر الجميع بجميع أوجاعهم من تنوع الابتلاءات فى هذا الاتجاه .. طيب .. لكن كيف وصلنا لتلك اللقطة ، ذروة استسلام «الزوج» للواقع الجديد، أو فلنقل للواقع القائم الذى اكتشفه حديثا وقبله معلناً تمام الرضا، وكيف لا والسائل هو الجنرال توم فوكس .. والمسألة بسيطة هكذا جعلها التليفزيون، فالبرنامج يبدأ مع المسرحية وقبل أن تنقضى الدقيقة الأولى تكون المذيعة قد نطت وفطت وهللت وهى تستقبل الجنرال توم فوكس ، ولأنها مذيعة تليفزيون فلقد قدمته على أنه حبيب الكل ، وجعلت تكيل له من ألوان وأشكال الإعجاب والوله مع كل إشارة منها أو لفتة ، وفى كل جملة استخدمتها فى تقديم الفقرات التى لابد طبعا أن تشتمل على مسابقة بلهاء ومتسابقين .. !! وجوائز بالهبل ، ولا عجب أن يكون الفائز فى مسابقة يديرها توم فوكس هو ذلك



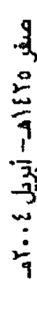
المتفرجة

اللاعب على كل الحبال ، يشارك صاحبه فى نشاط عمله ، (يعنى بيننا مصلحة) ، لكن النشاط يستوعب الزوجة «انتصار» ليقوم توم فوكس بتقديم الجائزة للشاب خاطف زوجة صديقه ويكمل جميله بإعطائنا جميعا درساً موجزاً يبلور جدوى وجوده بيننا ، والذى هو تحقيق مثل هذا النوع من التفاهم الهادىء .. لكن السؤال مازال قائما كيف حقق توم فوكس هذا التحول الذى أسماه بالتفاهم الهادىء؟!

التليفزيون!

فى مقال «الصفعة» المنشور فى نفس هذا الموضع تقريبا من مجلة الهلال عدد اكتوبر ٢٠٠٣ كتبت فى أثر التقدم التقنى على المنتج التليفزيونى ، وبينت كيف أن جميع التسهيلات التقنية التي تشمل فيما تشمل ، المونتاج الالكترونى وإمكان تجميع الوسائط السمعية البصرية والإذاعة والمونتاج أثناء البث الحى والألوان والموسيقى والرسوم والألعاب الالكترونية ، إلى آخر قائمة ما يندرج تحت التقدم التقنى كل ذلك أصبح مسخراً لخدمة شىء واحد وحيد ألا وهو تحقيق ما أسميه «بالتلوث المعرفى» وهو الذى يؤدى بالبشر إلى عكس ما ابتغوا أصلا من سعيهم لاستخدام هذه الوسائط فإذا كان الهدف الأصلى هو الإمتاع بالمعرفة ، لتحقيق الاستنارة الكافية لاتخاذ القرارات السليمة فى المجتمع سعيا لتمكين أفراده من مساءلة من يحيدون عن أى صواب بما يؤثر بالسلب على سلامة ورفاهة المجتمع بكافة أفراده ، فالآن تأتى مسرحية «اللعب فى الدماغ» لتقدم مثلا حياً غير مسبوق فى تجسيده لقدرة التليفزيون على تحقيق ما أسميته من قبل بالتلوث المعرفى وهو المؤدى بالحتم إلى إجهاض الوعى

وكما فى التليفزيون ، رأينا المسرحية تحشد إمكانات التقدم التقنى ، ومنها الأبسط كالتليفون وكذلك الأكثر حرفية مثل الشاشة العريضة الممتدة فى خلفيه المسرح تعرض زوايا مخالفة للقطة الحية التى تجرى أحداثها على المسرح أمام أعيننا وإذا كان معظم المعروض على تلك الشاشة هو نتاج عمل حامل كاميرا تليفزيون المارينز المتحرك بحذق فى زوايا المسرح ، فإن بعضه نتاج تسجيلات تماثل أو تناقض محتوى أو شكل المشهد الممثل على المسرح والمسألة هنا ليست لمجرد استعراض الإمكانات الفنية ، ولكنها عامل مضاف لقوى التشتيت الفتاك المنطلق تباعا يغير اللقطات بتعاقب الثوانى ولا نقول الدقائق التى تستغرقها اللقطة . أما إن سألنا عن محتوى اللقطات فكل منها يستدعى شبيهاً له فى التليفزيون يفضحه فتنفجر منا الضحكات ، وإذا كان التليفزيون يخلط الجد بالهزل بغير مسوغ ، ويتعمد بتر اللامع من الأفكار والمعانى ليفسح المكان والوقت للمبتذل أو التافه منها ، مطلقا بذلك كل أسلحة إثارة الغيظ والسخط لينصرف إليها غضبنا بدلا من أن ينصب على مسببات الغيظ الأهم والأجدر بحشد الجوارح لمقاومتها ودحرها ، فى المقابل يجد المشاهد . اللقطات فى مسرحية اللعب فى الدماغ



تفعل نفس الشىء لينقلب ما رأيناه فى بداية المسرحية من ثورة الزوج على صديقه الذى أغوى زوجته ، ونراه فى مشهد الذروة وقد ذهب عنه كل أثر من غل أو كبرياء ، وأعلن تمام الرضا . ولا عجب فقد كانت اللقطة السابقة تركز على ما ظهر على الشاشة فى خلفيه المسرح للفحص التليفزيونى لرأس صدام حسين بعد السقوط ..

المسخ والنسخ .

وهكذا يجدنى القارىء العزيز ، أواصل اللف والدوران ، أحاول أن أقترب مما أنجزته هذه المسرحية الفريدة فى تاريخنا المسرحى ، ولم أصل بعد إلى ما يرضينى بأننى فعلت، ولعل الأقرب للمنطق هنا أن أقر وأعترف أننى مهما حاولت ، ومهما حاول غيرى ممن كتبوا عن هذه المسرحية بأى شكل من أشكال التحليل أو النقد ، فأقصى ما يمكننا أن نصل إليه هو الإسهام فى الاحتفاء بهذا العمل الفنى القادر بكل جدارة على المنافسة على المستوى العالمى . وإذا كنا حتى الآن لم نسمع أو نقرأ فى أى مصدر عربى أو أجنبى عن مسرحية تتناول خطورة التليفزيون كسلاح متحكم فى أدوات إجهاض الوعى ، وأن يتم للعمل الفنى ابتكار الصيغ والأساليب الفنية النابعة أصلا من مضمونه ليجعلها بذلك محققة لتفرد فى اختيار الجزئيات وأساليب تكثيفها وترتيبها بحيث تنتهى بنا إلى أثر كلى من التنوير والمتعة فإن ما ابتكرته يستعصى على المقارنة وفى هذا أجدنى اتجه بالعمد إلى تجنب الإشارة إلى مواطن أخرى للقوة ينفرد بها هذا العمل لأننى أتمنى أن تتاح عروض أخرى للمسرحية أشمل من العروض التى تجاوزت الفترة المحددة للعرض بمسرح الهناجر والذى ما كان ليفعل إلا استجابة مشكورة من مديرته الاستاذة د . هدى وصفى بعدما واصلت الجماهير تدفقها على أبواب الهناجر بغير انقطاع نريد عروضا أشمل ، بمعنى أن تنتقل المسرحية للعرض على مسارح أخرى فى جميع مدن وقرى مصر ، وأن تكون «اللعب فى الدماغ» على رأس ما يمثل فن المسرح المصرى فى أى مسابقة أو مهرجان مسرحى إقليمى أو دولى .. نريد أن يطمئن الناس فى بلادى إلى أن شبابهم بخير، نريدهم أن يتأكدوا أنه بالرغم من سيول التفاهة والركاكة والابتذال والانحلال والاسفاف والإضعاف مازال شبابنا بخير ، نريدهم كذلك أن يثقوا أن التمييع والتتويه والمسخ والنسخ للأصول والجذور والثوابت لم يصب أدمغة شبابنا .. وإذا كانت السهام مصوبة الآن لتكريس تداعيات خيبة لم يكن للشعوب من ذنب فى وقوعها .. فإن الهجمة تكاد تريدنا أن نركن إلى أنها جزء فينا أصيل أو عجز فى الطبع قديم .. ويأتى خالد الصاوى ومعه هذه الباقة من زهرات وزهور شباب مصر ليأكدوا أن منابع الإبداع المصرى لم تنضب بل إنها دوماً فى ازدهار ، وإنهم كذلك يؤكدون .. أن الشعوب لا تنسى وإن لاذت بالسكوت .. كما وأنها تغضب وتكظم غيظها إلى أن يجعلها الله أداة قضائه العادل .. ■

عبقرية الصورة

مكتب الأطفال

فاطمة المعدول والدهشة قبل كل شيء

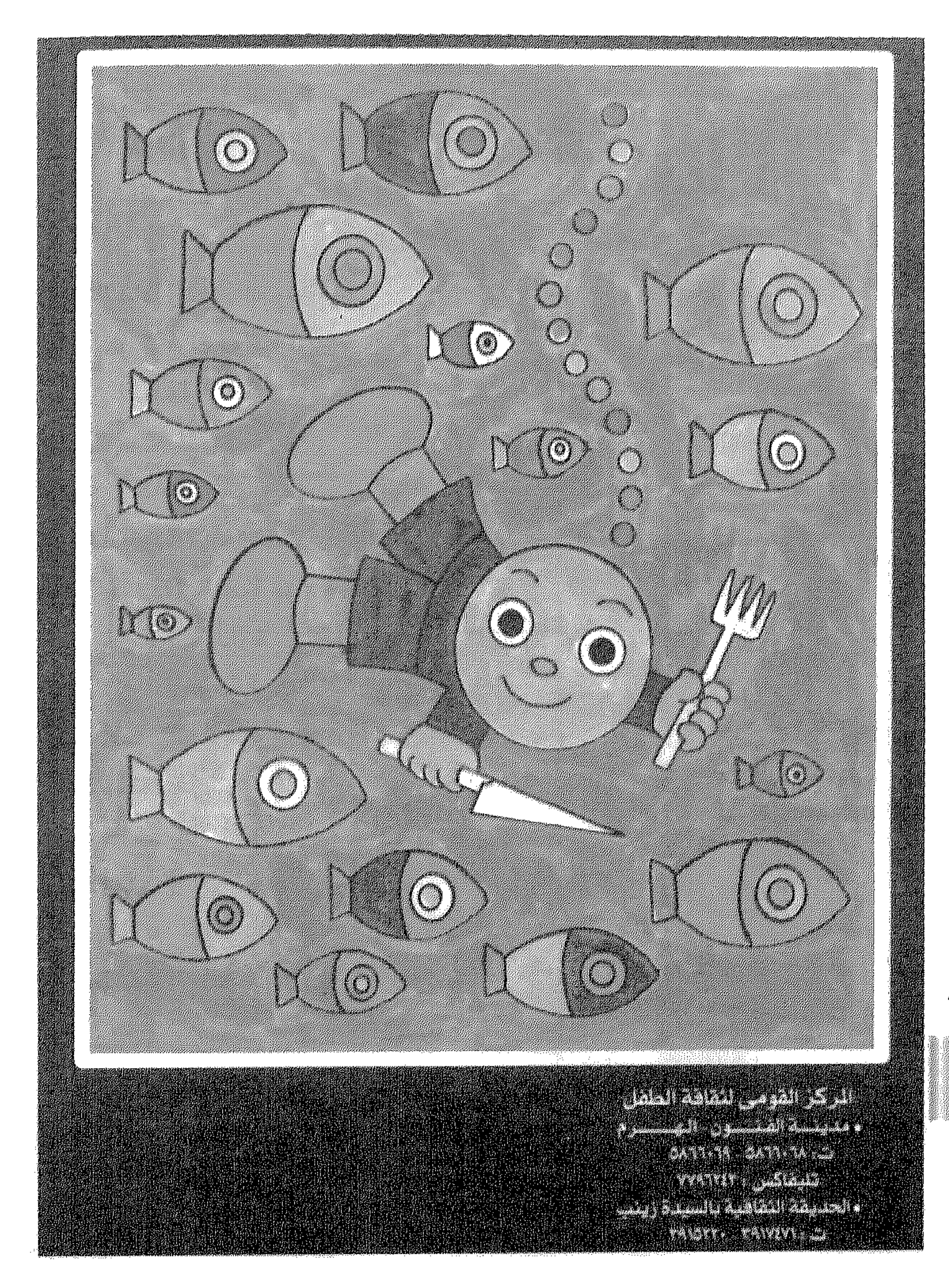
بقلم
محمود قاسم

من المهم أن تكون مخلصا فيما تفعله.
يبدو هذا واضحا في مختلف الأنشطة الخاصة بالطفل التي مارستها فاطمة المعدول في حياتها الوظيفية، والمهنية، وأنشطتها المختلفة.
والذين يعرفون فاطمة المعدول عن قرب، يعرفون أن مفتاح شخصيتها هو الإخلاص تجاه المحيطين بها، أيا كانت درجة قرابتهم لها، وأيضا لما تمارسه من أعمال.





وقد اتضح هذا في أنشطتها الخاصة بمسرح الطفل، حين كانت تعمل في الثقافة الجماهيرية، وقد اختارت دوما أن يكون للطفل المعاق مسرحه الخاص به، ممثلاً، وكاتباً، ومتفرجاً، فجعلت لهذا الطفل كيانا حقيقيا، وفنا خاصا بها. ثم حين تولت إدارة المركز القومي لثقافة الطفل نجحت في عمل العديد من المشاريع الناجحة ،



خاصة فى مجال الإصدارات ، وأخيرا فى مجال سينما الأطفال.

وقبل ان نتناول بعض الإصدارات الأخيرة التى صدرت عن المركز، فان



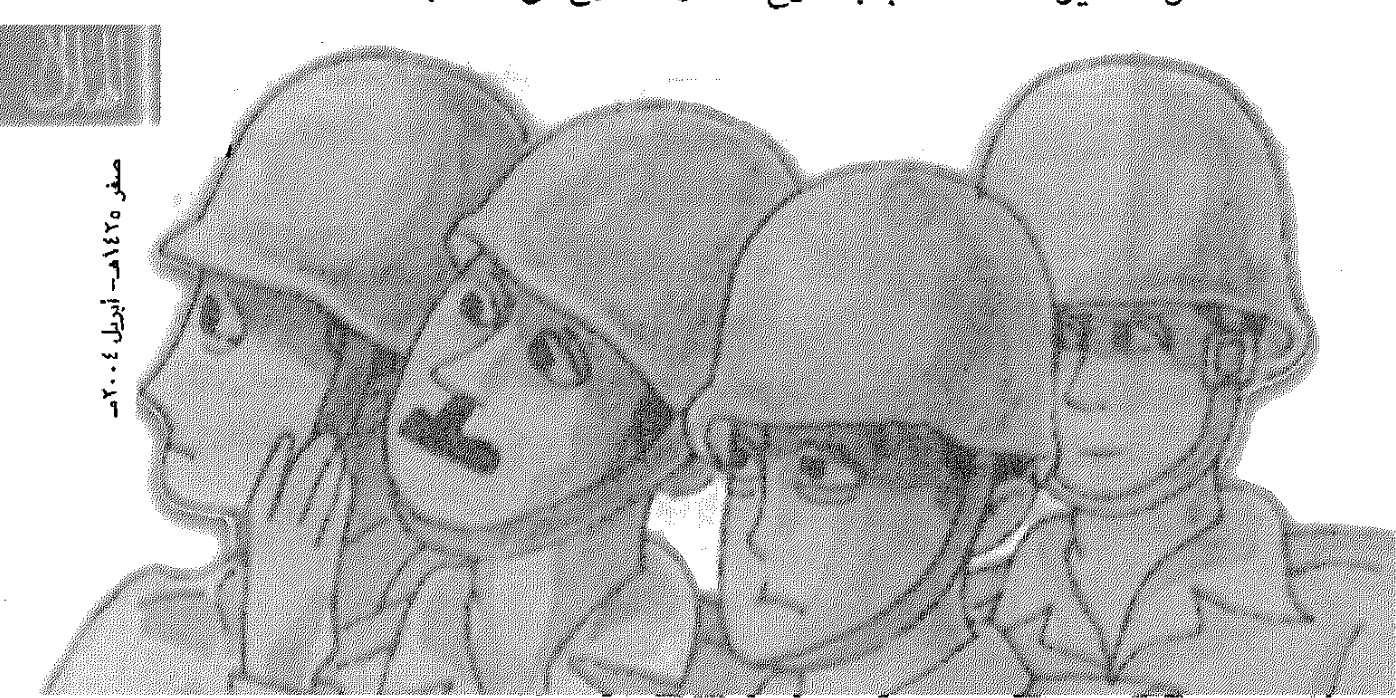
الافـــلام التى اشـــرفت على انتاجها وإخراجها للأطفال ، قد لاقت استحسانا كبيرا فى مـهـرجـان سـيـنمـا الاطـفـال الأخير، وتنافست على الجوائز الكبرى وكانت تستحق الإشادة، والحصول على الجوائز.

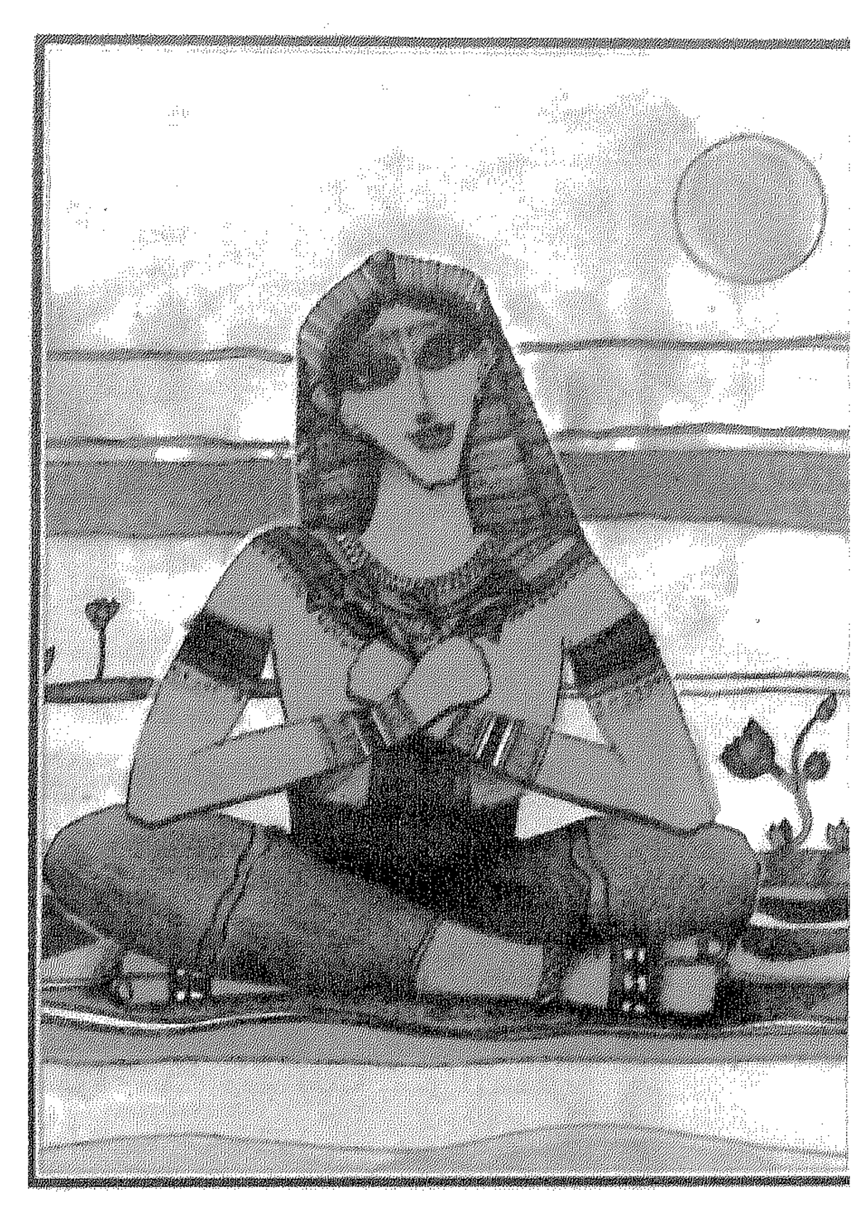
فاطمة المعدول ، حصلت بدورها على العديد من الجوائز عن كتب الاطفال التى قامت بتأليفها وإعدادها، سواء عن دار الشروق، أو عن المركز القومى لثقافة الطفل، فنالت جائزة التسامح من منظمة اليونسكو ، كما حصلت على جائزة السيدة سوزان مبارك - المحترفين - أكثر من مرة.

الخروج عن النمطية

أهمية الكتب المنشورة فى المركز، أنها بالفعل كتب أطفال، فيها الصورة عمل مبهج للغاية، وفيها محو ملحوظ لأمية العين، فقد استعانت بفنانين لديهم حس عال بالرؤية، ومعرفة مؤكدة بما يمتع بصر الأطفال، والكبار، وايضا فان هذه الكتب تم اختيارها بعناية، من حيث المؤلفين الذين قاموا بكتابتها.

وقد تميزت هذه الكتب بالتنوع الملحوظ: تنوع فى الكتاب والرسامين،





وأيضا فى القطع المختار لكل كتاب، فليست هناك نمطية فى اختيار قطع الكتاب، فقد تجد كتيبا صغيرا، لا يتجاوز قطعه الـ١٠ سم ، وآخر يصل إلى ٤٠ سم طولا أو عرضا، وهذا يتناسب مع هوس الصغار بالتنوع والتغيير، وسرعة الإحساس بالملل والنمطية.

اتفرج يا سلام

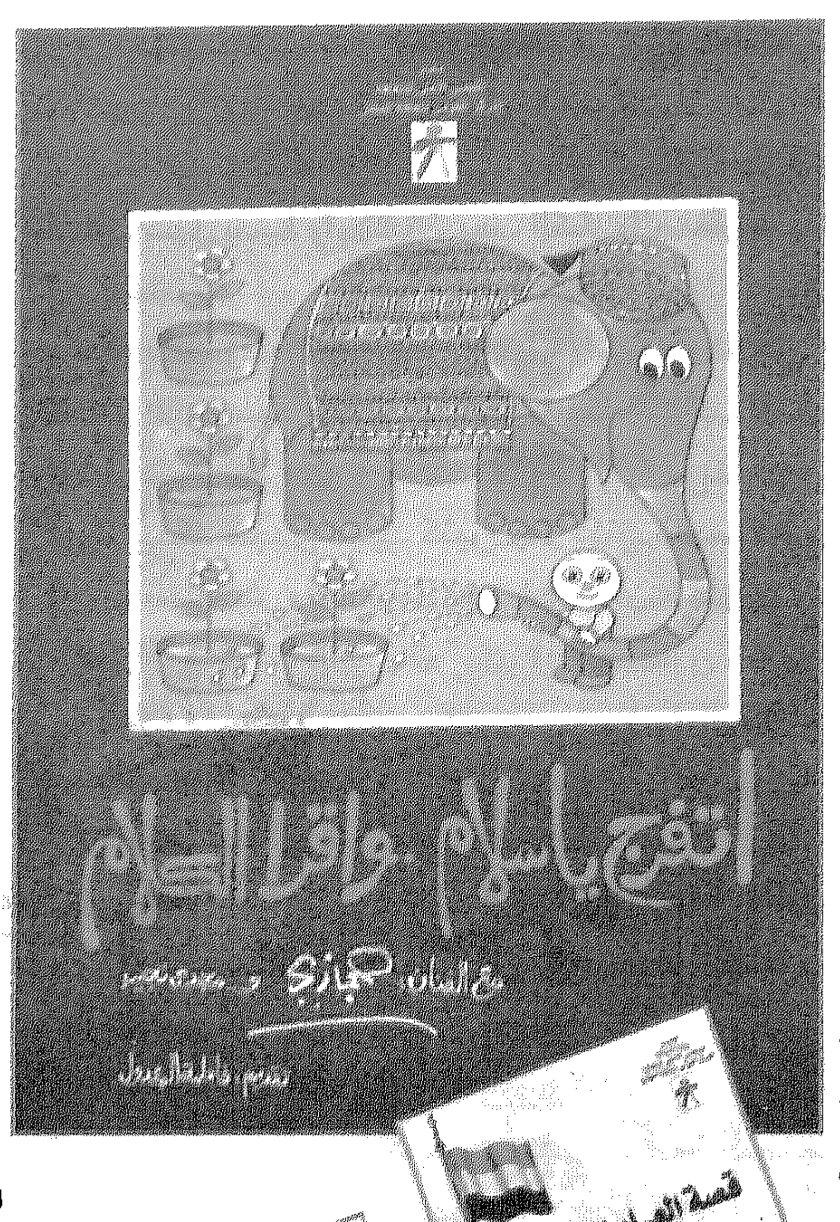
من أبرز الكُتاب الذين قاموا بالتأليف: نادر أبو الفتوح، يعقوب الشارونى، منى ثابت، والراحل الجميل محمد صدقى، ومجدى نجيب، وشوقى حجاب، ود. عماد أبو غازى، وسميرة شفيق.

أما أبرز الرسامين فهناك حجازى، هبة عنايت، محسن رفعت، صلاح بيصار، محمود الهندى، عبدالرحمن نور الدين، وليد طاهر، رشا منير، وإيهاب شاكر.

يجب ان يستلفت كتاب «اتفرج يا سلام واقرأ الكلام» انتباهك، ليس فقط لأنه رحلة فنية مع أعمال الفنان الكبير احمد حجازى، ولا ان الذى قام باختيار الرسوم هو مجدى نجيب، ولكن ايضا للاخراج البالغ الرقى للكتاب، ابتداء من القطع المختار له ، ٣٢ سم ارتفاعا



× ٢٣ سم عرضا.
وهو يسمح بفرد اللوحة. او الرسمة المختارة كى «تملأ العين» كما يقال، كما يمكن التأمل والابحار فى العالم الرائع الذى يعبر عنه الفنان.



وقد اختار المخرج الفنى للكتاب «مجدى نجيب»، ان تكون المقدمتان فى بداية الكتاب مكتوبتين بخط يدوى متعدد الالوان، المقدمة الاولى بقلم فاطمة المعدول نفسها التى تقول «فى طفولتى كانت تدهشنى رسومات حجازى، لم افهم كل ما يقصده فى بعض الاحيان. لكننى كنت دائما احب رسوماته واعماله التى تبعث فى نفسى السعادة والبهجة بجانب الدهشة».

وتستكمل قائلة: «حين عملت فى مجال ثقافة الطفل، أدركت لماذا أحببت حجازى . وانا صغيرة، فهو بسيط بساطة الاطفال، عميق عمق اعظم الفلاسفة. يصل بأعماله الفنية الى اعماق الحياة المصرية والإنسان المصرى باسلوب سهل بسيط واستحق ، بحب الكبار والصغار معا، ان يتربع على قمة الفن الساحر.

«إنه فيلسوف الخط والريشة الاول، واختيار المركز له وصديقه الفنان الشامل المبدع مجدى نجيب لكى يقدما هذا الكتاب لاطفال مصر، هو شرف واختيار نسعد به».

ولم يبتعد مجدى نجيب كثيرا وهو يكتب مقدمته، عن ما قالته فاطمة المعدول، «ستندهش وأنت تتأمل رسومات الفنان حجازى.

ستراها تتحرك
تهمس
تصرخ
تنتقد .. تسخر.. وتضحك
فى وقت واحد
وحتى أطفاله الذين يرسمهم،
عيونهم مليئة بدهشة
البراءة، والتساؤل
وكذلك طيوره
وحيواناته.. وكل
رسمة من
رسوماته تحكى
حكاية، حتى ولو
كانت بلا تعليقات
او شروحات» .

يوميات طفل
فنان

الكتاب الثانى المهم ،

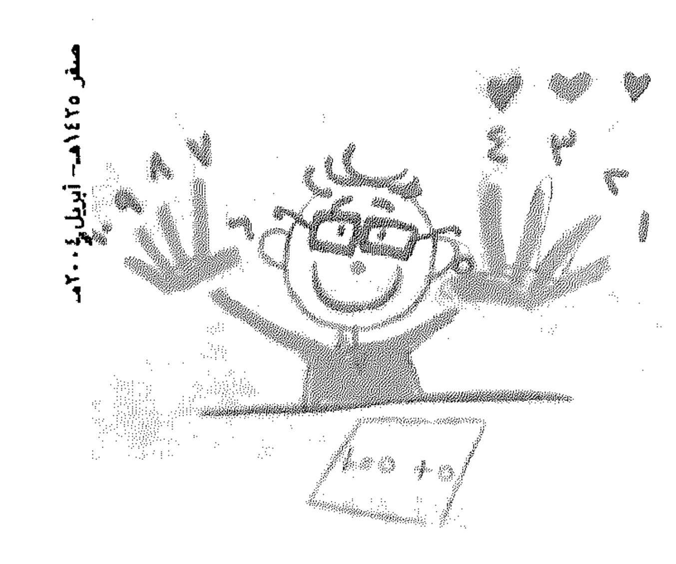
والذى تلعب فيه الصورة دورا بارزا هو، «يوميات طفل فنان»، تأليف محمد صدقى (١٩٢٣ - ٢٠٠٤)، ورسوم هبة عنايت، كان ذكاء فاطمة المعدول، هو اختيار قصة لكاتب قيل انه مكسيم جوركى مصر، دافع دائما عن العمال، ومكاسبهم. وقد كتب صدقى هذه القصة وهو فى السابعة والسبعين من العمر، فاستعاد طفولته البعيدة وهو يكتب عن الطفل محفوظ الذى يدون يومياته، ابتداء من الخميس ٤ يناير عام ٢٠٠١، وحتى ٢٢ فبراير من العام نفسه.

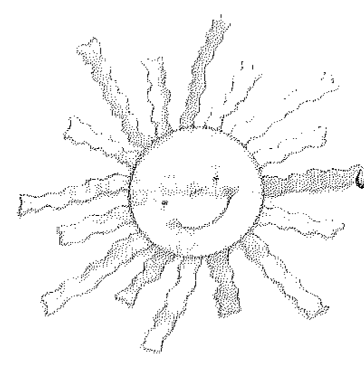
الطفل الفنان هنا قروى. إنه محمد صدقى فى طفولته «أتم والدى دراسته فى المعهد الدينى بالاسكندرية، ويشترى يوميا جريدة الاهرام ليحكى ما فيها من أخبار وحوادث لأصدقائه ليلا على مقهى الصفطاوى..

«هذه المقهى تقع قريبا من دمنهور. ليلة أمس حلمت خلال نومى بأننى اقدم لوحتى الجديدة الى الاستاذ رشدى مدرس الرسم ليعلقها فى لوحة المدرسة الزجاجية كما يراها زملائى، ولكننى وجدت فى الصباح عند استيقاظى ان الكراسة وعلبة الالوان قد اختفيتا».

عصافير الحب

فى كتاب «عصافير الحب» لشوقى حجاب، ورسوم وليد طاهر «٣٠ سم × ٢٠ سم» بدا الفهرس بالغ الجدة والحداثة، فقد بدا شغف المشرفين على المشروع بالشعر العامى وذلك ضمن اختيار شعراء مصر الكبار للأولاد والبنات فى





سن التكوين بهدف التعرف على التراث الشعرى المصرى والعربى.

من هذه القصائد مثلا،

النيل أسمر بيجرى

من أول الزمان

الخير يملالى حجرى

النيل يقول كمان

النيل شريان فى قارة

افريقيا الأفريقية

وقلبه فيه حرارة

الإنسان والغيطان

ويعيدا عن الإبداع، فقد كتب أستاذ التاريخ عماد أبو غازى عن «قصة العلم المصرى» من رسوم محمود الهندى «٢٠ × ٢٠ سم»، وهو كتاب تعليمى، وتعريفى، تلعب فيه الصورة دورا بارزا، بالإضافة الى المعلومات الجانبية، مثلا فى حالات الحداد تنكس الاعلام إعلانا للحزن، فعلم الدولة جزء من وجدان مواطنيها.

ومن بين هذه المعلومات: «كان السلطان الظاهر بيبرس أبرز سلاطين المماليك البحرية، فقد قام بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد سقوطها فى بغداد وعلى يد

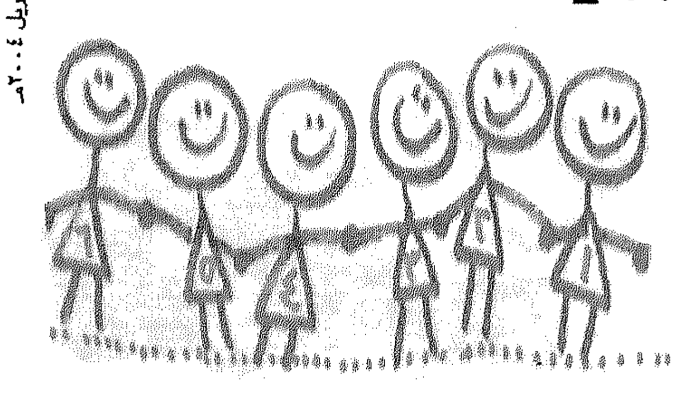
المغول، فأصبح اللون الاسود شعارا لدولة المماليك فى مصر والشام والحجاز منذ ذلك الحين».

ويقول الكاتب إن العثمانيين استخدموا العلم الاحمر عندما استوطنوا آسيا الصغرى ، نقلا عن دولة السلاجقة، ثم أضافوا إليه الهلال الأبيض بعد احتلالهم للقسطنطينية فى القرن الخامس عشر الميلادى، فقد كان الهلال شعارا لهم منذ القدم.

الفراشة لزميلتها:
ـ شايفة الحوت اللى مركب دش!

تاتا تاتا

ولا يمكن ان نتحدث عن إصدارات المركز دون التوقف بإجلال عند مجلة «تاتا تاتا» التى صدر العدد الرابع منها فى شتاء ٢٠٠٤، وهى مجلة فصلية لطفل ما قبل المدرسة، باعتبار انها المجلة الاولى والفريدة من نوعها التى تتوجه الى قارىء تلعب الصورة بالنسبة له دورا مهما، ولذا فإن هوية المجلة، هى الهوية نفسها لأغلب مطبوعات المركز، حيث تعتمد على الصورة، وعلى القصص المكتوبة بخط يد كبير حر، ومساحة الصورة هنا أكبر من أى مساحة للكتابة، وهى تضم المعلومات ويرسم المجلة فنانون متميزون منهم حجازى، محسن رفعت، صلاح بيصار، رشا منير وآخرون من الذين يرسمون كتب المركز. ■



قصة قصيرة

عندما يموت الملوك

بقلم
محمد السيد سالم



بريشة: أحمد شوقى

.. بطريقة مفاجئة وغريبة تقف عربة سوداء فارهة أمام أبواب مستشفى الدكتور (رمزى عبد العليم) عند أطراف المدينة يهبط سائق السيارة فى رداء خاص، يصعد فى ارتباك درجات السلم القليلة، يواجه موظف الاستعلامات الذى كان مشغولا فى مكالمة هاتفية، وقد تمدد بجواره أحد حراس المستشفى يشاهد فى بلاهة تليفزيونا يذيع أخبارا ملونة عن جيوش تحرق بلادا وبيوتا وحقولا بالصواريخ والطائرات والمدافع ويصور بعض جثث مسجاة فى عرض الطرق، تبدو كتماثيل خشبية وجوهها زرقاء وعظامها بارزة وعيونها مفتوحة تراقب جنودا يجمعون الشباب ويسوقونهم معصوبى الأعين، مقيدى الأيدى قرب جماعات واقفة تنظر إلى ركام بيوت مهدمة ومبتورة ومتصدعة بعيون سوداء جوفاء ووجوه بيضاء من الجوع، جافة من الخوف.

.. السائق حين لا يتلفت إليه أحد، يطرق بيده على مكتب الاستعلامات بطريقة أحدثت صوتا مدويا ثقب جو المستشفى الهادئ

– ماذا تريد أيها السيد ؟

– أريد أن تترك هذا الهاتف وتسرع باستدعاء الدكتور رمزى عبد العليم.

- ماذا قلت ؟
- أخبره أن مولاى الملك يحتضر.
موظف الاستعلامات ورغم جهله بشخصية هذا الملك ، وإدراكه أنه لايمكن لأحد أن يجرؤ على ازعاج الدكتور رمزى وخصوصا فى مثل هذا الوقت من الليل، إلا أن الأمر كان كما يبدو أخطر من كل هذا وذاك، لهذا فلابد من أن يصحو صاحب المستشفى الخاص ومديرها، وعلى الفور انتفض موظف الاستعلامات وقطع مكالمته ليتصل بالمدير الذى زمجر فى بداية الأمر، ولكنه انتفض واقفا حين سمع مسألة جلالة الملك وأسرع يغير ملابسه وينزل فى عجلة وهو يحمل حقيبته، السائق الخاص يرفع يده بالتحية ويتقدم ليفتح له باب سيارته
- إلى أين نمضى ؟
- إلى مولاى الملك.
- من هو مولاك الملك ؟
- إنه ملك الموت
تنطلق السيارة كقذيفة لحظة أن ارتطمت هذه الكلمات المألوفة المخيفة فى رأس الطبيب الذى اندهش قبل أن يبتسم ويتأكد أنه فى وعيه، ولكنه يتراجع فى فزع حين يرى وجهها مضطربا شاحبا ينعكس على المرآة الصغيرة التى تعلو رأس السائق، يلقى برأسه للوراء يلاحظ أن مقاعد السيارة ترتدى اللون الأسود الداكن. السيارة تندفع فى الظلام دون صوت كما لو كانت لاتتحرك تصعد طريقا جبليا تنحدر به شقوق سود لايمكن سبراغوارها.
- لا .. لا يمكن أن أكون فى حالة عادية، هادئة سواء كنت أحلم أو فى قلب واقع فهذه أول مرة منذ أن خلق الكون أتحرك حيا نحو الموت حسب طلبه وداخل سيارته، أتحرك نحو معجزة، رحلة خارقة لم تصادف أى إنسان قبلى..
يسند الطبيب رأسه للخلف، يشعر بدهشة تختلط ببهجة، ينتظر لحظة الوصول دون أن يخشى الموت عند نهاية الطريق، وعلى أى حال يمكن أن يلقى حتفه فى بيته وعلى فراشه دون الحاجة إلى اختراق جبل واجتياز شقوق متعرجة على الجانبين
.. تتوقف السيارة، ينحنى السائق بعد مغادرة السيارة، ويفتح بابها فى احترام وهدوء .
- تفضل ياسيدى
يهبط الاستاذ، يتقدم نحوه أحد الخدم ويقوده إلى ساحة ضيقة، وضوء خافت ينبعث من مصباح زيتى قديم، يحس بسكون حزين يشيع كما لو كان يتحرك ليلا فى ساحة سجن، يسرع الخادم أمامه، يصعد سلما ضيقاً ملتويا والأستاذ فى أعقابه
- أرجوك أن تخبرنى الآن فيما يريدوننى
— يلتفت الخادم إلى الأستاذ وهو يضع أصبعه على شفتيه، وعند باب فى نهاية دهليز ضيق طويل، يطرق الخادم الباب فى هدوء يتسرب صوت واهن من الداخل .
- من أنت ؟
- لقد وصل الطبيب يامولاى
- دعه يدخل
ينفتح الباب، يفيض الدهليز الضيق بضوء براق يغطى الدكتور رمزى وجهه بيديه، وبعد لحظة يعاود التقدم نحو الغرفة التى بدت ممتدة وخاوية يهتف الخادم فى اضطراب .
- تفضل بالجلوس أيها الطبيب، حالا سوف

يكون جلالة الملك هنا.

.. يجلس الأستاذ على أقرب مقعد، يتطلع حواليه في اضطراب وضيق وهو يدرك أن أمرا مخيفا على وشك أن يحل.

.. يظهر ملك الموت وهو يتجه نحو الطبيب، ويقول في إعياء .

– اضطررت لاستدعائك هنا أيها الطبيب الماهر اغفرلي إن كنت أزعجتك .

ينهض الطبيب ينحني للملك وقد هبط الهدوء بكل ثقل على المكان وهو يحس بشئ ساخر يعبث في عقله، فهو ابدا لم يكن يتخيل أن يكون الموت كما يراه الآن، حقا إنه لم يكن يتوقع هيكلا عظميا يحمل منجلا، ويلتف بملاءة بيضاء ولكنه كان يتوقع أن يواجه شيئا يفوق ما هو طبيعي، كيانا أكثر جلالا، وأشد هولا غير هذا القزم العجوز الضئيل الذى جف عوده، وغطت التجاعيد وجهه، هذا هو ملك الموت، ميكروب عضوى ضخم، لايعبر عنه إلا ذلك الرداء القرمزى الثقيل .

– إننى أيها الطبيب الاستاذ فى خطر، أنا مريض جداء وأخاف من أن أموت .

.. ينظر الطبيب إلى الموت فى إرتباك .

– لا أفهم ما تقصد يامولاى .

– فى الحقيقة أنت تفهمني جيدا، ولكن يبدو أن الموقف غريب، ويبدو هكذا لأن ملك الموت يخشى الموت، أليس كذلك؟

– إن جلالتكم تمزح لاشك .

– لو كنت أمزح ما كنت بعثت فى طلبك، ما كنت وضعت كل ثقتى فيك .

– يامولاى لا أعرف كيف أعبرلكم عن امتناني لهذه الثقة .

– والآن قم بفحصى، لا أدرى كيف وصل أمر مرضى إلى هذا الحد.

– ربما الإرهاق فى العمل، الذى يبدو على كوكب الأرض مخيفا رهيباً.

– ولم لا والحروب تأكل الرجال، تمضغ أذرعتهم وسيقانهم وعيونهم، ثم تترك لى مهمة الموت .. مهمة صعبة كل يوم تزيد وتزيد حتى أثقلت كاهلى، قصمت ظهرى .

– لا أعرف ماذا أقول لك يامولاى، وأنت بالفعل في حالة صحية ليست على ما يرام.

– ومع ذلك عشت حياتي سليما كالبحر، ترى هل أصبحت عجوزا، أم مريضا، إن شيطان الحروب والمعارك والعدوان يعلم أن قلبى يؤلمنى وعقلى وأعصابى، ومع ذلك لا يرحم، لايتوقف، حتى أصبحت أحس بآخر أنفاسى، فإذا لم تشفن فأنا ميت، وسوف أتوقف للأبد عن ملاحقة ضحايا حروب قادمة، وكوارث على الطريق .

.. ملك الموت ينكمش فى مواجهة طبيب يلهث بعد أن نجح ملك الموت فى اثارته، الأمر إذن لم يكن أضحوكة، فالموت بالفعل يعاني مرضا.. وياله من مرض غريب، مخادع نجح فى شق طريقه إلى هذا الجسد المنهار بعد ملايين السنين.. حقا إنه أمرلا

يمكن تصديقه إذا استطاع الطبيب رمزى أن يشفى ملك الموت، ويخلصه من مرضه الوبيل وعجزه الخطير، سيكون بلاشك حدثا صارخا ومثيرا سوف يهز أركان الأرض

.. وفى لحظة لم يستطع الطبيب أن يتمالك نفسه، ويفرك يديه فى اغتباط

– الصبر يامولاى الصبر، ولاداعى للقلق، سنرى أولا ما هو الداء، حتى نصل للدواء

يشرع الطبيب بالانقضاض على جسد الموت، يفحص فى اهتمام كل جزء فيه يتحسسه أعلى وأسفل وهو يبتسم فى رقة يسأله الملك :

– ماذا هنالك ؟

– لاشئ يثير القلق، لاشئ سوى عملية جراحية بسيطة للغاية، وبعدها ستكون سليما يامولاى كالبحر .

يتطلع الطبيب إلى وجه الموت بنظرة غريبة وقد تأكد أنه على وشك الموت، وإذا أريد إنقاذه فيجب أن يتدخل مبضعه فى أوردة قلبه وشرايينه، ومع ذلك فالأمل كما يبدو ضعيفا)

الطبيب يتجنب نظرة أمل تبرق فى وجه ملك الموت، ويخرج أدواته الطبية وآلاته من حقيبته يأمر الخادم بأن يأتى له بماء وأقمشة نظيفة، القلق يجتاح الملك وهو ينظر إلى ما يحدث حوله .

– هل ترانى سوف أعيش بعد إجراء العملية؟

– إنها لعبة أطفال لقد نجحت فى أكثر من أربعة ألاف عملية مثل هذه العملية إننى أقوم بها وعيناى مغلقتان، وبيدى اليسرى، وسترى هذا بنفسك ياصاحب الجلالة ارجوك ألا تخف .

الخجل يعترى ملك الموت بسبب جبنه قبل أن يسلم نفسه للتخدير، الطبيب يتأمله وقد راح فى سبات عميق .

– أخيرا وصلت إلى يدى أيها السفاح العنيد، والفناء الرهيب، إن حركة واحدة من مبضعى يمكن أن تخلص العالم من شرورك وتصبح أعظم خدمة للبشرية وفرصة نادرة وثمينة لاتعوض .

يتوقف الطبيب فجأة عن التفكير حين أدرك أن الأمر لابد له من عقل وتدبير .

– لا .. لم يكن لعواطفى حق الاندفاع هكذا فملك الموت مريض، وقد ائتمننى على حياته، إننى ومهما كان الأمر طبيبا ولست قاضيا يحكم بالإعدام وينفذه، إن واجبى أن أعالج هذا المريض مهما كان وأحاول بكل طاقتى أن أنقذه

.. يرفع الطبيب مبضعه وقد إزداد إضطرابه، وارتجف بدنه وهو يحس بمواجهة الجنون يندفع الدم إلى وجهه، يدوى الطنين فى أذنيه

– جنون ما أفكر فيه أمام تلك الفرصة الثمينة النادرة التى لا يمكن أن تتاح لى مرة أخرى، ولكن هل يمكن لى حقا أن أنقذ هذا السفاح، الذى غالبا ما يباغت البشر بمنجله دون موعد، هل يمكن لى أن أنقذه حتى يأتى إلى فراشى غداً ويقبض روحى .. لا .. إن موت هذا الموت معناه أن أعيش للأبد .

.. يمد المبضع فى مهارة، يغرزه عميقا فى أحد شرايين القلب، ينبثق الدم، تخمد الحركة فى أنفاس الصدر، ينحنى الطبيب على الملك، يتأمله، يتأكد من موت الموت

.. يغسل الطبيب يديه

في هدوء، يتفرس في وجه الخادم الذى انتصب حزينا بجوار الفراش يتأمل الوجه الباهت الساكن.

- من المؤسف أن يموت الملك رغم نجاح العملية، حقا تؤسفنى هذه النتيجة الحزينة، ولكن ربما اختلف الأمر لو أنه بعث فى طلبى، قبل أن تتفاقم حالته.

.. تجتاح الطبيب موجة من الابتهاج رغم صوته الهادئ، غير المنفعل، يغادره الإحساس بالذنب والشعور بالجرم، لم يعد يتذكر إلا أنه قد أهدى البشرية عملا فذا لم يكن فى الحسبان سوف يجعله خالدا على وجه هذه الأرض، حتى كاد يرى العالم ينحنى له تقديسا وابتهاجا، ويرى صوره وتماثيله تغطى ولابد جدران المحافل العلمية والعالمية، وتلمع على صفحات وسائل الإعلام التى سوف تغرقه بالشهرة الداوية كرجل قضى على الموت وأحاله إلى ذكرى مؤلمة انتزعت صفحتها من كتاب التاريخ ..

.. يصطحبه الخادم إلى الدهليز الطويل، والدرج الملتوى حيث تنتظره فى الساحة السيارة السوداء الفارهة، يتخذ الطبيب مقعده، تمضى السيارة فى صمت نحو طريق الجبل، يتأمل الأستاذ ظلام الليل بوجه باسم راض بكل ما يحمله بعد رحلة هذه الليلة..

وفجأة تدوى صيحة حادة، تتوقف على أثرها السيارة لتواجه ماردا ضخما يقف بجوار السيارة، ليبدو ظله ضوء ناصع تشوبه الزرقة، وقد لمع بجانبه الأيمن منجل عريض النصل، ملطخ بالدماء، يتقدم إلى الطبيب، ينحنى إليه فى وقار :

- عفوا ياأستاذ

يناوله مظروفا كبيرا، يتطلع الطبيب إلى المارد فى دهشة .

- ما هذا ؟

- لقد نسيت أتعابك ياسيدى، وحقك فى أن أشكرك على ما تكبدته من مشقة رغم أن .

- لا شكر على واجب، وقد كان يجب على جلالة الملك الذى أهمل صحته أن يبعث فى طلبى مبكراً حتى يمكن أن.

- هذا ما كنت أقوله دائما لأبى .

- أتقصد أنك..

- نعم أنا ابنه وبالطبع سوف أرث مهمته، وما يعزينى أنه مات فى الوقت المناسب .

- الوقت المناسب ؟!

- بالطبع، خاصة أن مواسم الحروب الآن مزدهرة كما ترى والصراعات صارت جحيما فى كل الانحاء،والضحايا أصبحوا بلا حدود.، لهذا فإن مهمة الموت أصبحت ثقيلة، لابد أن تؤدى بكل الجهود والطاقة، وترى لو أبى ظل حيا، هل كان يقدر على آداء المهام الجديدة بصحته الواهية وعجزه الواضح، اعتقد أنه كان لابد أن يرحل حتى أصل أنا فى موعدى

يستدير المارد ويمضى مسرعا حتى يختفى بين الجرف .

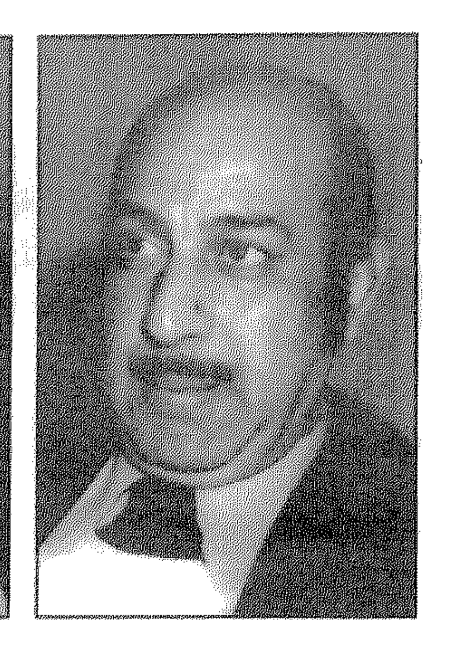
وتنطلق السيارة إلى سفح الجبل ■

بين الطويل والشريف

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

يبدو التاريخ لمتأمله كحلقات متصلة من الصراع بين الجديد والقديم، الجديد بحكم بحثه عن موطئ قدم في باحة التاريخ، والقديم بحكم دفاعه عن موقعه فى تلك الباحة، وتنطبق هذه الملاحظة على ما يجرى بين الدول تماما كانطباقها على ما يحدث بين الأفراد ، وقد كان العلامة الأشهر عبدالرحمن بن خلدون - فيما أعتقد - هو أول من قال بذلك فى شأن الدول، إذ يقول ابن خلدون فى مقدمة تاريخه الشهيرة بأن الدول الجديدة تطاول الدول القديمة على ما تتمتع به من وفرة الرزق وسعة النعيم واللذات، وهو بالضبط ما يحدث بين الأفراد فى شتى مسارب الحياة، فما أن تبرق موهبة نجم فى أفق فن من فنون الحياة، حتى يبدأ الصراع ويحتدم بينه وبين سابقيه، كل يريد الصدارة ويسعى للاستئثار بأضواء الشهرة ومغانم المجد

والغناء من أكثر فنون الحياة اتساقا مع تلك الملاحظة التى يمكن القول بأنها تكاد تجرى مجرى القانون أو القاعدة، حيث حفظت لنا كتب التاريخ حكايات ما دار بين الجدد من نجوم الغناء وسابقيهم ممن كانوا ملء



كمال الطويل



محمود الشريف

الأسماع والأبصار حتى الأمس القريب، ولعل أشهر تلك الحكايات هو ما حفظه لنا أشهر كتاب اهتم بأخبار الغناء والمغنين في تاريخ العربية، وهو كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، حيث يروى أبو الفرج في فصول كتابه الكثير مما دار بين الجدد والقدامى من أهل الغناء أثناء صراعهم بحثا عن مكان جديد أو دفاعا عن مكان قديم في قصور حكام وأمراء العهد الذى أرخ له الأصفهاني ، فمن ذلك ما أورده الأصفهاني في ثنايا ترجمته لاسحاق بن إبراهيم الموصلي عن محاولة المغني المعروف - في ذلك العهد - «مخارق» الكيد لإسحاق عند الخليفة الواثق، فقد تعمد مخارق أن يفسد لحناً أداه أمام اسحاق وفي حضرة الواثق، فلما أبدى إسحاق امتعاضه مما سمعه من مخارق، وكان اللحن من وضع الواثق الذى عرف عنه إتقانه صناعة الغناء، فإن حيلة مخارق أثمرت طرد إسحاق من مجلس الواثق.. ثم نفيه إلى بغداد فيما بعد ، وذلك على الرغم مما حوته الكتب من حكايات وحكايات عن صداقة ربطت بين الواثق وإسحاق، وهى صداقة سوغت للخليفة أن يستشير - في بعض الأحيان - إسحاق فيما يلحن من غناء، إن حكايات الصراع بين الجدد والقدامى من نجوم الغناء والتي حفظتها لنا كتب التاريخ أكثر من أن تحصى هنا، ولعل أشهر تلك الحكايات هو ما دار منها حول أبي الحسن على بن نافع.. موسيقار الأندلس والمسلمين الأكبر الذى عرف بلقبه

الأشهر «زرياب» ،فعندما علا نجم زرياب في بلاط هارون الرشيد بغنائه وتجديده فى أساليب التلحين والغناء وبتطويره لآلة العود، ضاق به أستاذه إسحاق الموصلى وأشاع فى حضرة هارون الرشيد أن به مسا من جنون، بل وأضاف إسحاق إلى ذلك أن شيطانا من الجن يلهم زرياب ألحانه، وإزاء مالقى زرياب ببغداد من مكائد إسحاق الموصلى والبعض من سابقيه من الموسيقيين، فإنه قنع من الغنيمة بالإياب ورحل بفنه - مؤثرا السلامة - إلى الأندلس، ليصنع هناك ما صنع للموسيقى العربية من تجديد وابتكار.



الشيخ محمود صبح

أم كلثوم

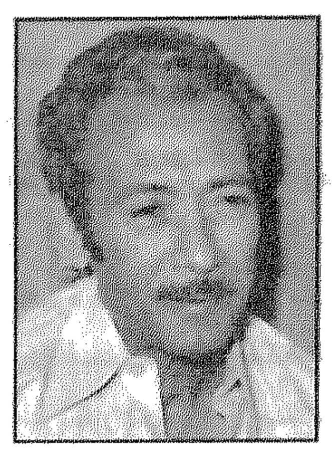
بين عبدالوهاب وأم كلثوم وسابقيهم

لم تكن علاقة الجدد من نجوم الغناء بسابقيهم فى القرن العشرين المنصرم بأفضل من مثيلتها بين نظرائهم من نجوم الغناء فى العصر العباس وغيره من العصور، وليس هناك أبلغ مما لقيه كل من محمد عبدالوهاب وأم كلثوم على أيادى سابقيهم من نجوم الغناء ، للتدليل على طبيعة، العلاقة بين الجدد والقدامى من أهل الغناء خلال سنوات القرن المنصرم، فعندما سطع نجم محمد عبدالوهاب فى سماء الغناء العربى بعد لقائه فى صيف عام ١٩٢٤م بأستاذه ووالده الروحى: أمير الشعراء أحمد شوقى بك، كان ذلك إيذانا بقرب مغيب نجوم كانت تتلألأ فى تلك السماء من أمثال صالح عبدالحى وعبداللطيف البنا ومحمود صبح، فاجتمعت تلك المجموعة من كبار المطربين بزعامة الشيخ محمود صبح على مهاجمة الوافد الجديد إلى دنيا الطرب، والذى كاد يسحب البساط - بساط المجد - من تحت أقدامهم ، وقد انفرد الشيخ محمود صبح بطريقة من ابتكاره فى الهجوم على منافسيه ، فكان إذا أراد مهاجمة محمد عبدالوهاب مثلا، فانه ينتهز فرصة غنائه فى إحدى محطات الاذاعات الأهلية، ليتوقف عن غنائه بعد أحد المقاطع ويوجه عبر الميكروفون -





منيرة المهدية



فؤاد حلمي

محمد عبد الوهاب

وعلى الهواء مباشرة - ما يريد أن يهاجم به عبدالوهاب أو غيره، ومن أمثلة هجوم محمود صبح على محمد عبدالوهاب ما نقلته د. رتيبة الحفنى عنه بعد أن توقف عن غناء وصلته فى إحدى الاذاعات الأهلية، قال محمود صبح فى ميكروفون الاذاعة مخاطبا محمد عبدالوهاب فى بث مباشر من أندر ما شهدته الاذاعة فى تاريخها: «مش عاجباك دى يا واد يا عبدالوهاب؟... طب اسمع دى.. سمعت الرعد فى ودانك !!» (د. رتيبة الحفنى: محمد عبدالوهاب.. حياته وفنه - ص ١١١) ولقد انتهى ذلك الهجوم والكثير مثله بانزواء المهاجمين فى ظلال النسيان، وانفراد محمد عبدالوهاب بمركز الصدارة فى الغناء العربى.

لم تكن أم كلثوم عندما بدأ نجمها يلتمع فى آفاق الغناء العربى أفضل حالا مع سابقاتها من محمد عبدالوهاب مع سابقيه، فعندما هز صوتها الصادح عرش الشهيرات من مطربات العقد الثالث من القرن العشرين وفى طليعتهن منيرة المهدية وفتحية أحمد، كان ذلك إيذانا بانطلاق حملة شعواء اتخذت من بعض الصحف والمجلات منابر للهجوم على النجمة الجديدة ومحاولة وأدها قبل أن يشتد عودها، وقد اتخذت تلك الحملة أساليب متعددة، أهونها اتخاذ الفلاحة الصغيرة القادمة من طماى الزهايرة مادة للتندر فى مجالس البعض من مطربات ذلك الزمان، مثل فاطمة قدرى التى كانت تسخر كثيراً من ارتداء أم كلثوم لجبة وعقال أثناء غنائها، واشتدت تلك الحملة على أم كلثوم لتصل إلى أشرس أساليبها،

عندما تقولت مجلة «المسرح» في عددها الصادر في ١٩٢٧/١/٣١م على أم كلثوم وقالت عنها إنها قد تعرضت لحادث اغتصاب وهي بنت صغيرة في طماي الزهايرة (د. رتيبة الحفني: أم كلثوم معجزة الغناء العربي - ص ٥٦) وبالرغم من ذلك.. انطفأت أضواء الشهرة من حول المهاجمات ودلفن إلى التاريخ ليصبحن بعضا من صفحاته، بينما سارت أم كلثوم لتواصل مشوارها الذي نعرفه.. تحيطها أضواء الشهرة وقلوب الجماهير.

بين الطويل والشريف

بلغ الغناء المصري والعربي أوج ازدهاره وإنتاجه قرابة منتصف العقد الخامس من القرن العشرين ، عندما ضخت سنوات المخاض لثورة يوليو وما مضى من عمر الثورة حتى ذلك الحين دماء جديدة تدفقت في عروق الغناء فأنعشته وأفعمته بالحيوية والانطلاق، تمثلت تلك الدماء الجديدة في مجموعة الشعراء والملحنين والمطربين والمطربات التي ظهرت في الفترة بين آخر الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات، ومما لاشك فيه أن كمال الطويل كان في الطليعة من تلك المجموعة، وذلك بما قدمه من ألحان في سنوات بدايته التي امتدت فيما بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٦م ، نذكر من ذلك ألحانه لأغنيات مثل: (الغورية واسكندرية) لمحمد قنديل - (إلهي ليس لي إلاك عونا) لفايده كامل - (لأ يا حلو لأ) لمحمد مرعي - (عجباني وحاشته وقل ادع الله) لشادية - (ياشمعدان حارتنا) لنجاح سلام و(على قد الشوق ولا تلمني) لعبدالحليم حافظ.. وغيرها كثير، كان التركيب الطبقي لملحني الغناء المصري عند منتصف الخمسينيات - إذا ما استعرنا ذلك من علم الاجتماع أو التاريخ الإسلامي - يشتمل على طبقات أربع، الطبقة الأولى وهي طبقة الرواد التي ضمت كلا من: زكريا أحمد - محمد القصبجي - محمد عبدالوهاب - رياض السنباطي - فريد الأطرش ومحمود الشريف، بينما تجيء في الطبقة الثانية أسماء من لمع من ملحنين إبان سنوات الحرب العالمية الثانية مثل محمد فوزي - أحمد صدقي - عبدالعظيم عبدالحق - عبدالعزيز محمود - عبدالحليم نويرة - سيد مكاوي وفؤاد حلمي، أما الطبقة الثالثة فقد ضمت أسماء من قادوا ثورة التغيير في الموسيقى العربية طوال النصف الثاني من القرن العشرين، وتبرز في هذه الطبقة أسماء: كمال الطويل - محمد الموجي - بليغ حمدي - رءوف ذهني - منير مراد وعلى إسماعيل، ويحل في الطبقة الرابعة من عملوا بالتلحين إلى جوار العزف وقيادة الفرق الموسيقية ومن وضعوا لحنا واحداً أو ألحانا قليلة.. بالإضافة إلى من عملوا في تلحين أغنيات

لم تحظ بإقبال المستمعين.

إن توزيعاً طبقياً كهذا.. يظهر مدى ما كان عليه الغناء المصرى - والعربى بعامة - فى ذلك العهد من ثراء، وهو توزيع يكشف أن غناء تلك الأيام قد شهد كل ألوان الطيف الموسيقى، وبالرغم من ذلك.. كان هناك وقتها من يقول بأن الأغنية المصرية والعربية تعيش عصر أزمة ، ومن هؤلاء .. كانت مجلة «الإذاعة» ومن منطلق تلك الرؤية.. انتهز حسن إمام عمر: معد ومقدم برنامج «نجوم الفن» فرصة لقائه بكل من محمد عبدالوهاب ويوسف السباعى وفريد الأطرش ومحمود الشريف وعبدالحليم حافظ وحسن فايق وشكرى سرحان وليلى فوزى ونادية فهمى ، فى سهرة قدمت مجلة «الإذاعة» مقتطفات منها فى تحقيق نشر تحت عنوان «سهرة الأسبوع الإذاعية» على الصفحات (١٨، ١٩، ٥١) بالعدد رقم (١١٠٦) الصادر فى ١٩٥٦/٥/٢٦م ، انتهز حسن امام عمر تلك الفرصة ليطرح على بعض المشاركين فى الندوة أسئلة من نوعية: ما رأيك فى الأغنية المصرية؟ وما رأيك فى الجيل الجديد من الملحنين؟ وقد كشفت إجابات تلك الأسئلة عن موقفين متعارضين، فبينما هاجم الروائى يوسف السباعى - سكرتير ما يسمى آنذاك بالمجلس الأعلى للفنون والآداب - جيل القدامى من الملحنين، وشدد على أن أفكارهم هى العقبة التى تمنع تطور الموسيقى والأغنية المصرية، جاء رأى محمود الشريف معارضا لذلك تماما، حيث عبر الشريف عن رضاه بما وصلت إليه الأغنية المصرية من مستوى، وهاجم الشريف فى نفس الوقت الجدد من الملحنين قائلا: «دول اللى بدأوا من النهاية.. ما داقوش النضال والتعب والجهاد.. وشخصيتهم لم تتحدد بعد.. وأنا لا أعترف بهم.. » (ص ٥١).

انصب هجوم محمود الشريف على الجدد من الملحنين ولم يوجه لملحن بذاته ، ولكن كمال الطويل عّده هجوما على شخصه.. تماما كما هو هجوم على طبقته أو جيله من الملحنين، فانبرى سريعا لتفنيد ما حمله هجوم الشريف على جيله من اتهامات .. بل ولمهاجمة الشريف نفسه، جاء رد كمال الطويل فى العدد التالى من مجلة «الإذاعة» وتحت نفس العنوان: «سهرة الأسبوع الإذاعية»، كان رد الطويل على اتهام الشريف لجيله من الملحنين كما يلى: «اكتب.. ويمنتهى الصراحة وحياتك.. قول إن الملحنين الجدد هم: منير مراد والموجى وكمال الطويل ورءوف ذهنى (لم يكن بليغ حمدى قد ظهر بعد)، هم عماد الحركة الموسيقية الجديدة (!!!)، هم اللى طوروا الموسيقى المصرية من الجمود والسطحية وضيق الدائرة التى كانت تسير فى حدودها إلى آفاق أوسع

ومعان أجدد» (الإذاعة: العدد ١١٠٧ - ١٩٥٦/٦/٢ - ص ١٩)، لم يكتف الطويل بهذا الصاع لرد صاع الشريف، وإنما آثر - رحمه الله - أن يرد الصاع بصاعين !، فانتقل من حديثه لكاتب الموضوع: أبوالمجد الحريرى إلى مهاجمة محمود الشريف بقوله: «أنا أتحدى أى ملحن من الملحنين الموجودين باستثناء عبدالوهاب والسنباطى.. أن يرى فى ألحانه القديمة جملة موسيقية متماسكة أو لحنا فيه ترابط من الناحية الفنية!!، الملحنون القدامى كان انصرافهم الكلى إلى التعبير (البدائى).. بصرف النظر عن القيمة الموسيقية فى المقدمة والصلة الموسيقية بين (الجمل) الغنائية ، والوحيد المتطور تطورا حقيقيا هو عبدالوهاب وبعده السنباطى، وهكذا انطلقت واحدة من معارك أهل الغناء، تطايرت فيها الاتهامات.. وقرعت الحجة بالحجة، فى مشهد لا أعتقد أنه من الممكن أن نرى له مثيلا فى عصرنا الحالى الذى لا ينطوى إلا على الخواء!.

المدافعون عن الشريف

لم يكن إدراج اسم محمود الشريف هنا فى الطبقة الأولى من ملحنى الغناء المصرى، إبان منتصف الخمسينيات من القرن العشرين ، وليد عاطفة أو نتاج رأى شخصى، وإنما كان ذلك بسبب طول عهده باحتراف الغناء والتلحين، ولأجل ما أضافه لفن الغناء من أعمال مثلت مرحلة هامة من مراحل تطوره، فقد بدأ محمود الشريف رحلته مع الفن فى عام ١٩٢٧م بالغناء فى السهرات والحفلات الخاصة وفى الإذاعات الأهلية بمدينة الاسكندرية ، ثم عمل كمطرب وملحن وممثل بدءاً من عام ١٩٢٨م ولعدة سنوات فى مجموعة من الفرق الفنية بمدن الاسكندرية والمنصورة والقاهرة، حتى انتهى به المطاف خلال عام ١٩٣٢م فى فرقة بديعة مصابنى.. ليشارك فى تلحين وغناء استعراضاتها الشهيرة، عرف الشريف طريق الشهرة عندما بدأ يغنى فى الإذاعة المصرية منذ عام ١٩٣٧م، حتى تحقق لاسمه البريق والذيوع فى عام ١٩٣٨م بعد أن تغنى محمد عبدالمطلب بلحنه الخالد لأغنية «بتسألينى بحبك ليه»، ثم توالت أعماله بعد ذلك، فلحن عشرات بل مئات الأغنيات فى عشرات من الأفلام الغنائية الناجحة خلال الأربعينيات والسنوات الأولى من الخمسينيات، وإضافة إلى ذلك، فإن الشريف أثرى الغناء المصرى بعديد من البرامج الغنائية الإذاعية الناجحة مثل: قسم - عذراء الربيع - جلنار وبالوما، كل ذلك بجانب عشرات من الأغنيات الإذاعية الجميلة التى تنوعت بين عاطفية ووطنية ودينية، كان هذا الزخم الهائل من الانجاز معروفا من محبى فن الغناء قبل الخاصة

من أهل هذا الفن، مما أغضب مجموعة من ملحنى الطبقتين الثانية والثالثة لما حمله رد كمال الطويل من تجريح فى القيمة الفنية لألحان محمود الشريف.

كان أحمد صدقى هو أول من أدلى بدلوه من الملحنين فى هذه المعركة، فعندما سأله أبوالمجد الحريرى الصحفى بمجلة «الإذاعة» ومفجر المعركة عن رأيه فيما قاله محمود الشريف عن الملحنين الجدد فى عدد سابق من المجلة، أجاب أحمد صدقى قائلا: «ما أقدرش أقول إننا لا نعترف بالملحنين الجدد، ما أقدرش أحكم عليهم من دلوقت ! نصبر عليهم، يمكن شخصياتهم الفنية تتحدد فيما بعد» (الإذاعة: العدد ١١١٠ - ١٩٥٦/٦/٢٣ - ص ٣٤)، ولما سئل أحمد صدقى عن رأيه فيما تحدث به كمال الطويل عن محمود الشريف، كانت إجابته كما يلي: «قولوا له.. رفقاً بالقوارير ياسى كمال.. إنت ما عملتش تطور فى الموسيقى، إنت صحيح اليومين دول نجم لامع، ولكن لا يبهرك هذا اللمعان، وانتظر.. شوف الأيام.. هل حاتقدر تطفر بالموسيقى طفرة غير الموجودة، إنت ما عملتش غير ألحان ناجحة فقط، ولكنها ليست طفرة وليس فيها جديد عما كان موجوداً.. ولم تغير فى الموسيقى شيئاً»، هكذا اتسم رد أحمد صدقى على كل من محمود الشريف وكمال الطويل بالعقلانية، وذلك بالرغم من كونه - أى أحمد صدقى - أقرب إلى الشريف فى الطبقة والبداية والتكوين منه إلى الطويل، ولكن رأى البعض الآخر من الملحنين فى تلك المعركة كان شيئاً آخر.

أفردت مجلة «الإذاعة» قرابة ثلاث صفحات من عددها رقم (١١١٤) الصادر فى ١٩٥٦/٧/٢١م لاستطلاع آراء أربعة من الملحنين فى أحداث هذه المعركة، وقد قالت المجلة فى معرض تقديمها لهؤلاء الملحنين إنهم من شبان الموسيقى والألحان، والملحنون الأربعة بترتيب حديثهم إلى المجلة هُم: عبدالعظيم عبدالحق - حسين جنيد - فؤاد حلمى ومنير مراد، وهم بالطبع أقرب فى الطبقة والبداية إلى كمال الطويل ، فيما عدا عبدالعظيم عبد الحق الذى كانت بدايته سابقة لهذا الجيل من الملحنين بعشر سنوات على الأقل، ولنبدأ هنا بآخر من أدلوا بآرائهم فى هذه الندوة الصحافية التى أدارها أبوالمجد الحريرى أيضا، فعندما سأل أبوالمجد الحريرى آخر من استطلع آراءهم من هؤلاء الملحنين فيما نسبه كمال الطويل إلى الشريف وجيله، كان رد منير مراد واضحاً وقاطعاً: «ومن أنا حتى أهاجم هؤلاء العمالقة؟» (الإذاعة: العدد ١١١٤ - ١٩٥٦/٧/٢١ - ص ٥٣)، ولكن رد

الآخرين كان شيئا مختلفا، فقد قال عبدالعظيم عبدالحق في ختام حديثه الذى تناول فيه بالشرح والتوضيح الأسباب الحقيقية وراء تلك المعركة: «إن الرجل (يعنى بذلك كمال الطويل) الذى بدأ حياته بـ (إلهى ليس لى إلاك عونا) وانتهى بـ (أبوس النار ماتحرقنيش.. أبوس خدك يلهلبنى).. يجب أن نصلى من أجله!»..(ص١٩) والأغنية الثانية التى أشار إليها عبدالعظيم عبدالحق فى حديثه هذا.. هى من ألحان كمال الطويل وتغنت بها المطربة نادية فهمى فى فيلم «الجسد»، وقد أثارت تلك الأغنية استهجان الجميع.. مما تسبب فى منع إذاعتها، كانت الأسباب الخفية لتلك المعركة من وجهة نظر عبدالعظيم عبدالحق تكمن فى الدعاية المضللة التى تلاحق كل ناجح، مما يجعله متورطا فى محاولته مواصلة النجاح بالانزلاق إلى الإنتاج السريع وفى الدفاع عن مكانته التى تحققت بكل الأساليب ، ويرى عبدالعظيم عبدالحق أن انسياق كمال الطويل وراء الإنتاج السريع قد أوقعه فى محاذير الاقتباس، وهو ما عبر عنه بقوله: «فاتجه (أى كمال الطويل) إلى الموسيقى الغربية الخفيفة يختار من جملها ما يناسبه، ثم يسمعها للمؤلفين الخصوصيين (!!) ليضعوا له على وزن تفاعيلها معانى أكيدة النجاح».. (ص١٨)، وعندما التقى أبوالمجد الحريرى بالموزع والعازف وقائد الأوركسترا والملحن حسين جنيد ليستطلع رأيه فيما حدث بين الطويل والشريف، قال حسين جنيد على الفور: «من الخطأ بالنسبة للحن اشتهر ببعض أغان ناجحة (من وجهه نظر رجل الشارع)، أن يتورط مثل هذه الورطة، وانا مشفق كل الاشفاق على السيد (الطويل) لما أقحم نفسه فيه من تعرض لعمالقة الفن الذين دخلوا التاريخ رغماً عنه !، ومع احترامى للأغانى (القليلة) الناجحة للأخ كمال ، فيهمنى أن أسجل للتاريخ وحده أن إمكانياته الفنية ترتبط بالظروف الحالية» ! (ص ١٩) ، وعلامة التعجب بعد حديث حسين جنيد من لدن كاتب المقال ولم ترد فى أصل الموضوع المنشور بمجلة «الإذاعة»، وذلك لأن حسين جنيد أظهر فى حديثه قدرته على الفهم الصحيح لما يدور حوله من أمور وعلى قراءة ما وراء حجب الأيام القادمة، فقد غربت أضواء البداية عن كمال الطويل بسقوط نظام ثورة يوليو فى نكسة يونيو ١٩٦٧م، وواصل كمال الطويل مشواره بالصورة المتقطعة التى شهدناها بعد عام ١٩٦٧م معتمدا على موهبته ولاشىء سواها.

كان فؤاد حلمى الذى بدأ مشواره مع التلحين فى منتصف الأربعينيات .. أشد من التقى بهم كاتب الموضوع: أبوالمجد

الحريرى عصبية وسخرية فى رده على ما طرح عليه من أسئلة حول المعركة بين الطويل والشريف، فقد سخر فؤاد حلمى بشدة مما قاله كمال الطويل حول ما قام به هو وجيله من تطوير للموسيقى العربية، فقال فؤاد حلمى عن ذلك: «يكفى كمال الذى اعترف بأنه لا يعزف أية آلة موسيقية، ويلحن بفمه وأصابعه، أن تطوره الفنى مستمد من الأرائك والترابيزات (المناضد)..» (ص ٥٣)، ويشير فؤاد حلمى بقوله (يلحن بفمه وأصابعه) و(الأرائك والترابيزات) إلى ما صرح به كمال الطويل فى أحاديث صحافية، من أنه يضع ألحانه عن طريق الصفير بفمه أو بالنقر على كرسى أو منضدة، كان فؤاد حلمى قد بدأ حديثه بتحدى كمال الطويل قائلا: «إنى أتحدى كمال وأبواقه، أن يعطى لحنا منفرداً ويلحنه فى يوم أو ثلاثة، لأنه للآن لم يخرج وحده لحنا كاملا!» (ص١٩)، ثم اختتم فؤاد حلمى هجومه باتهامه للطويل باقتباس ألحان أنجح أغنياته من ألحان لملحنين آخرين!، واستشهد فؤاد حلمى فى معرض التدليل على صحة اتهامه بنماذج من أغنيات الطويل وما يقابلها من ألحان أخرى، فيما يرى أنها المصدر الذى اقتبس منه الطويل ألحانه.

دروس مستفادة

وبالرغم من عنف ما انطلق فى تلك المعركة من آراء واتهامات ، فإنها توقفت بعد حديث الملحنين الأربعة فى عدد مجلة «الإذاعة» رقم (١١١٤)، وانقطعت أخبارها فيما تبع ذلك العدد من أعداد، ويتبقى هنا أن نحاول الآن تخمين أسباب قيامها وانتهائها السريع وما شهدته من تدخل أطراف خارجية ، ولعل السبب فى قيامها يرجع إلى ما أثر عن محمود الشريف وكمال الطويل من اعتداد بالنفس وثقة بما اختصهم الله به من موهبة، وإن ذلك يمكن أن يكون أيضا سببا معقولاً لانتهائها السريع، لأن المعتد بنفسه والواثق من موهبته لا يصر على خطأ انساق إليه فى اندفاعة أو زلة لسان، وأما ما شهدته المعركة من مداخلات لأطراف خارجية.. فإنه يكشف عن أمرين، أولهما هو ما دأبت عليه الصحافة الفنية من افتعال المعارك بين أهل الغناء والفن بعامة، وكانت الوسيلة لذلك.. إما باختلاق الوقائع أو باصطياد العثرات، ومنها عثرات الألسن التى يتم النفخ فيها، وأما الأمر الثانى.. فإنه يتمثل فى معاناة البعض من أهل الغناء أو الفن من تحيز بعض الأقلام الصحافية، وهى تلك الأقلام التى كانت تغدق بالمديح على البعض وتغرق فى التجاهل والإهمال الكثرة الغالبة. ■

أتاتورك ومنيرة المهدية

ومسائل مصرية

بقلم

د. محمد حرب



لم يكن مصطفى كمال أتاتورك - كما يظن كثير من المثقفين المسلمين والعرب - مجرد ضابط عثمانى كبير قام بقيادة بلاده فى حرب ضروس ضد القوى الأوروبية المتحدة التى كانت تجثم على صدر بلاده، وحسب، وإنما كان مصطفى كمال باشا مثقفا ثقافة مدنية عالية، يجمع بين اطلاعه على الثقافة الشرقية وعلى الثقافة الغربية التى تغلغلت فى المجتمع العثمانى فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو ابن ثقافته وثقافة عصره التى اتجهت للفكر الغربى.

رأى مصطفى كمال أتاتورك، عندما تولى دفة الأمور فى بلاده، أن على تركيا الأخذ بالطريق الغربى للتقدم. كان أتاتورك يضع نصب عينيه نجاح الحرب التى يقودها وهى حرب الاستقلال التركية ضد المحتل الأوروبى المشترك، وهى قوات التحالف البريطانى والفرنسى والإيطالى واليونانى. ولما انتصرت بلاده في حرب استقلالها، رأى أتاتورك أن تتجه بلاده إلى أوروبا تستقى منها منابع حياة جديدة. وهذا ما يفسر اتخاذه عدة قرارات فى هذا السبيل مثل تغيير حروف اللغة التركية من حروف عربية إلى حروف أوروبية (لاتينية)، وإلغاء الخلافة واتخاذ التقويم الغربى أساسا للعمل فى تركيا، حتى أنه أمر بجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد، بدلا من الجمعة، مسايرة للمصارف العالمية والأوروبية. وبالإجمال جعل أتاتورك لدولة تركيا الجديدة التى أوجدها، أسس اللحاق بالمدنية الأوروبية الغربية فى الظاهر وفى الاساس من اتخاذ القبعة غطاء لرأس الاتراك إلى اتجاهات الدولة التركية من صناعية وتقنية وتكنولوجية وثقافية وموسيقية وفنية وتعليمية.

أتاتورك ومنيرة المهدية

عندما دعت الحكومة التركية، سيدة الغناء العربى - وقتها - المصرية السيدة منيرة المهدية - والأتراك شعب يتذوق الفنون - استقبلها أتاتورك استقبالا يليق بشهرتها. استمع أتاتورك إلى غناء منيرة المهدية، وطرب كثيرا لصوتها ولأدائها ولفنها، فقد كان اتاتورك يعشق الموسيقى الكلاسيكية الشرقية. وبعد انتهاء الحفل، هنأها معا أتاتورك وأظهر إعجابه بفنها، ومع ذلك فقد أردف متسائلا: «هل لك فى الموسيقى الغربية؟»، وأجابت بالنفى، فقال لها أتاتورك : « ان صوتك رائع ويحتاج إلى الموسيقى الغربية ليفصح عن مكنوناته وسيحقق لك شهرة عالمية » ، وأوصاها بذلك.

أتاتورك وعزيز على المصرى

وعندما أرادت مصر فى عهد الملك فؤاد، مدربين عسكريين لتدريب الجيش المصرى، اتجهت إلى نقره عاصمة تركيا الحديثة، ولما وصل الأمر إلى أتاتورك نظر فيه، وقال إن عندهم - أى عند المصريين - عزيز باشا، وهو فيه الكفاية لتدريب الجيش المصرى. فقد كان أتاتورك يرى فى عزيز باشا المصرى شخصية فذة، قادرة على حل كل الصعاب.

والمعروف ان عزيز على المصرى كان ضابطا فى الجيش العثمانى، وكان زميلا لمصطفى كمال. وكان الاختلاف بينهما فكريا فقط، فقد كان عزيز المصرى «عزيز أفندى وقتها» عضوا فى الاتحاد والترقى، أما أتاتورك فلم ينضم إلى جمعية الاتحاد والترقى. وتعرض عزيز المصرى إلى حقد وحسد كبار الاتحاديين مثل أنور وجمال. ولم يتلق عزيز المصرى من أتاتورك إلا كل تقدير.

أتاتورك وطربوش السفير المصرى فى أنقره

كان الطربوش هو غطاء الرأس - القومى - فى مصر، لكن أتاتورك أصدر فى تركيا مرسوما يبطل ارتداء الطربوش وأغطية الرأس التقليدية، وإبدال ذلك بالقبعة الأوروبية لمن أراد أن يرتدى شيئا على رأسه. وبلغ حماس أتاتورك فى هذا أن قام بجولة فى أنحاء تركيا للدعاية إلى لبس القبعة.

وفى حفل دبلوماسى فى أنقره، فوجىء أتاتورك بالسفير المصرى مرتديا طربوشه، وأشار أتاتورك إلى عدم ضرورة أن يلبس سفير مصر طربوشه فى بلد مثل تركيا

صدرت فيه قوانين تمنع ارتدائه. واحتج السفير المصرى على ذلك. واحتجت معه كل صحف مصر وقتها. لكن أتاتورك استطاع تسوية هذه المسألة، وعادت العلاقات بين مصر و تركيا إلى أقوى مما كانت عليه.



الشيخ علي عبد الرازق

وبمناسبة قانون القبعة الذى فرضه أتاتورك على الأتراك، نذكر أنه كان قد أمر بتأليف وتلحين نشيد قومى لتركيا الجديدة، وعقدت مسابقة فاز فيها الشاعر محمد عاكف، وسمى هذا النشيد باسم نشيد الاستقلال، والذى يخاطب فيه التركى بقوله:

لا تخف ! فلن ينطفىء أوار هذا العلم الأحمر «لون علم تركيا» السابح فى الشفق.

حتى يخمد آخر موقد من مواقد البيوت في بلادى
نجم شعبي، هو هذا العلم، نجم شعبى المتألق.
إنه ملكى أنا ، إنه لى ولأمتى.
يا أيها الهلال الذى تتوسط علم بلادى
لا تقطب جبينك ضيقا وقلقا
فأرواحنا فداء لك.
اما الاستقلال فإنه حق لشعبى هذا
المؤمن بالله . الذى يعبد الله.
عشت حرا منذ الأزل، وسأحيا حرا إلى الأبد.

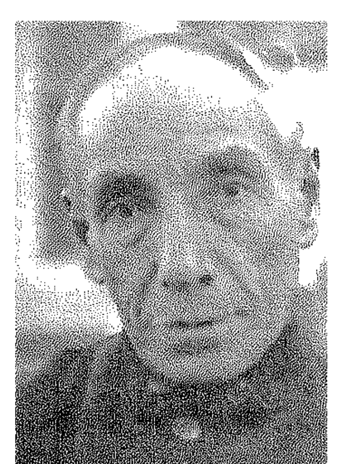
وعندما أصدر أتاتورك قانون الزى والأزياء وجعل مظهر الزى الرسمى أوروبيا، أمر بالضرورة باستبدال الطربوش – وكان غطاء رأس شائع فى تركيا وفى الدولة العثمانية وقتها – بالقبعة الأوروبية. ويقال إن الشاعر المرموق محمد عاكف صاحب النشيد القومى التركى هذا أصبح محرجا من الظهور بين تلامذته ومحبيه بغير الطربوش الذى اعتاد على ارتدائه على رأسه، فهاجر إلى مصر، وأقام فى حلوان، وكانت – وقتها – من أجمل ضواحى حى القاهرة وأكثرها نقاء جو. وفى أثناء مقامه فى مصر، انتدب لتدريس اللغة التركية فى كلية الآداب جامعة القاهرة ومن تلامذته المميزين الدكتور عبدالقادر القط، استاذ الأدب العربى فى جامعة عين شمس والناقد الأشهر فى زمانه.

ومع ذلك ، وعندما أصاب الحنين الشاعر محمد عاكف وعاد إلى تركيا، وجد كل استقبال جميل، ولم يغضب أتاتورك عليه.

وعلى ذكر الشعر والشعراء، يبدو أنه لم يصل إلى علم أتاتورك تلك المدحية الرائعة التى نظمها فيه أمير الشعراء العرب أحمد شوقى والتى وصف فيها أتاتورك بأنه خالد العرب. وحث فيها أحمد شوقى، أتاتورك ليقوم بتجديد خالد العرب، وهو بالطبع خالد بن الوليد. ولم نعثر – حتى الآن – على اشارة لهذا فى المصادر التركية.

أتاتورك والأزهر الشريف

كان أتاتورك قويا وجريئا، واضحا وصريحا، فعندما اقتنع بعدم جدوى الخلافة العثمانية أمر بإلغائها. وفوجىء العالم الإسلامى وقتها بهذا الحدث الكبير. وقام طلبة



الفريق عزيز المصري

الأزهر، الذى يعرفه الأتراك باسم «الأزهر الشريف» ، بمظاهرة صاخبة تحتج وتعارض إلغاء مؤسسة الخلافة. ولم يكن - كما يبدو - أتاتورك قد توقع هذا . وأثرت هذه الحادثة فيه. ويبدو أنه بناء عليها، أى على حادث المظاهرات الأزهرية فى القاهرة، سحبت حكومة التركية اعترافها بشهادات الأزهر.

لكن أتاتورك استحسن كتابا أصدره أحد علماء الأزهر، وهو الشيخ على عبدالرازق، وهو كتاب الإسلام وأصول الحكم، فقد ترجم هذا الكتاب - فى حينه - إلى اللغة التركية وانتشر انتشارا واسعا وذلك ليقوى - وان لم يكن فى حاجة - شرعية إلغائه للخلافة.

أتاتورك ومصطفى صبرى

كان الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى أواخر الدولة العثمانية أيام السلطان محمد وحيد الدين آخر السلاطين العثمانيين. وكان مصطفى كمال باشا ياوراً للسلطان مرافقا له. وكان هذا الشيخ قوى الشخصية حاد المزاج. وقد نصح السلطان وحيد الدين، وحذره من مصطفى كمال، لكن وحيد الدين كان مقتنعا بشخصية ياوره الذى أصبح أتاتورك فيما بعد، كما كان مقتنعا بقدرته العسكرية. ومن هنا وجدنا الشيخ مصطفى صبرى مضادا للثورة الكمالية، وكان منتقدا لبرنامج أتاتورك فى تحديث تركيا، مما أدى إلى اعتباره عدوا من أعداء الثورة وضمن قائمة الممنوعين من دخول تركيا وكان الشيخ قد هاجر منها إلى اليونان ثم الحجاز، واستقر به المقام فى مصر. وهاله ما يكنه المثقفون المصريون ذوو الاتجاه التغريبى من اعجاب بالغ بأتاتورك وبالتغريب، وهذا ما دفع الشيخ إلى كتابة كتابه الشهير «موقف العقل» ليهاجم به كل الداعين إلى حركة التنوير الغربية النمط: أتاتورك ، وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم. وطبع هذا الكتاب أول ما طبع فى مصر. وحرم دخوله تركيا فى حينه.

أتاتورك وجمال عبدالناصر

حدثنى سفير تركيا فى مصر والذى جاء بعد نقل ياشار ياقيش إلى فيينا - بالمناسبة ياشار ياقيش كان ومازال محبا لمصر ولشعبها - وهو الذى اصبح أول وزير خارجية فى حكومة حزب العدالة والتنمية الذى يقوده رجب طيب اردوغان - وسفير تركيا الذى اتحدث عنه توفى أثناء عمله فى الخارجية التركية، أقول إنه حدثنى قائلا: إن فى مكتبة الكلية الحربية فى مصر كتاب الذئب الأغبر الذى أصدرته دار الهلال «المصرية طبعا» للكاتب الانجليزى ارمسترونج صديق أتاتورك. ويقول هذا السفير - الذى لا أذكر اسمه - ان عبدالناصر قرأ الكتاب وهو طالب بالحربية وقد أشار الرئيس المصرى بقلمه على بعض فقرات، يبدو أنها كانت مناط إعجاب عبدالناصر.

وينبغى القول هنا إن أتاتورك قد أوجد ببرنامجه الإصلاحى الشامل لدولته تركيا على النمط الغربى اعجابا من المثقفين المدنيين المصريين كتابا أو زعماء، نهجوا على منواله، وأثر الكتاب منهم فى الرأى العام المصرى ومنهم الأميرة قدرية حسين. ■

عندما قررت أن أكون عظيماً مثل طه حسين

مصطفى الحسيني

من كُتَّاب الشيخ عبد الرحيم وعريفه الشيخ جودة فى امبابة إلي كتَّاب شيخ عبد الرحيم آخر فى «ساحل الجوابر» - قرية عائلة أمى، حيث قضيت فترة أظنها شهوراً . كان الشيخ الأول كفيفا بينما عريفه مبصر . وكان الشيخ الثاني كفيفا ولم يكن له عريف. وما بقى فى ذاكرتي عنه هو ثقة نساء القرية به ثقة تشبه الغرام. كما أذكر أنه كان يحب لوناً غريباً من الطعام لم أعرف أحداً غيره يأكله؛ فول جاف مجروش يطبخ مع الكزبرة الخضراء وكثير من الشطة. بينما كان سميّه فى امبابة ذا كلف ملحوظ بالحلاوة الطحينية التى كان يجهزها فى شطائر يدسها بجوار الوسادة التى كان يقتعدها فى صدر غرفة الكتاب. وكنا ننتهز فرصة غياب الشيخ جودة لأمر أو لآخر، فتمتد أيدينا إلى تلك الشطائر لندس فى بعضها الشطة.

لا أظن أنى استفدت كثيراً من الوقت الذى قضيته بين الكُتَّابين. كنت لسبب ما نفورا من ذاك النوع من التعليم . بالتأكيد تعلمت القراءة والكتابة ومبادىء الحساب . لكننى لم أحفظ القرآن الكريم ولا حتى جزءاً منه كما يجدر بتلاميذ الكتاتيب. وكنت أرى صديق تلك المرحلة من طفولتى وزميلى فى الكتاب، خلف ، ابن «عمتى حمدية» جالساً وقد أسند اللوح الصفيح(١) على ركبتى اللتين أتخذ لهما وضعا يشبه وضع حامل اللوحات وهو ينسخ السورة من القرآن بالقلم البسط(٢) والحبر الأزرق على صفحة اللوح اللامعة، حتى إذا امتلأت محاها بخرقة مبتلة ليكرر عملية النسخ حتى يحفظ السورة ويسمعها لأبيه «عم محمد أبو عيسى». كنت أشفق عليه وعلى نفسى، فأنا ذهبت إلى بيتهم لأستدرجه للخروج إلى اللعب.

من الكُتَّابين إلى مدرسة الجرن(٣) الأولية بامبابة أيضاً. الجرن الذى تقع المدرسة على حافته هو جرن محمد عرفة – زوج خالة أبى الذى سبق ذكره. ما بقى فى ذاكرتى من تلك المدرسة التى خرجت مثيلاتها من النظام التعليمى المصرى منذ زمان بعيد هو قطرى أفندى الذى كان يعلمنا ثلاثة مواد : الموسيقى التى كان يأتى إلى درسها حاملا العود . والصحة التى كان تعليمه لها يليق بهيئته، إذ كان بادى الصحة والأناقة والنظافة. ومادة كانت تسمى الأشياء تقوم على التعريف الأولى بمبادىء العلوم أو الطبيعة.

لم أمكث طويلاً بتلك المدرسة إذ كنت قد قاربت الثامنة – سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية فى ذلك الزمان والتى كانت مرحلة ثالثة من مراحل التعليم بعد الكُتاب والمدرسة الأولية .

التحقت بمدرسة امبابة الابتدائية التى كانت تقع على الطرف الجنوبى للبلدة، يفصلها عن بيت محمد عرفة، العلامة العمرانية البارزة، ترعة ومساحة عريضة من الحقول يحيط بهما طريق غير مرصوف يتخذ شكل قوس يقترب من شكل الزاوية القائمة.

تكاد ذكرياتى عن تلك المدرسة تنحصر فى ضيقى بالطربوش الذى كان اعتماره إلزاميا بحكم القانون باعتباره رمزا للوطن. لا أعرف لاسبب ضيقى بالطربوش ولا حكمة اتخاذ تلك القلنسوة الحمراء التى تشبه سطلا مقلوبا تتدلى من مركز سطحه العلوى خصلة من الخيوط السوداء، رمزا للوطن، بينما تتميز مصر بألوان ثلاثة هى الأخضر الذى تزهو به على ضآلة نسبته فى مساحتها، لكنه المصدر الرئيسى للعيش على أرضها،



والرملي الذي يغطي معظم مساحتها لكنها تكاد تنكره ولون التراب الذي منه خلقنا وإليه نعود.

لم يطل مقامي في تلك المدرسة أيضاً. انتقل عمل أبي وبيتنا إلى المنيا التي توصف عادة بأنها «عروس الصعيد» - وهي بالفعل تبدو مستحمة ومجلوة.

بالانتقال إلى المنيا دخلت حياة عائلتنا مرحلة من التجوال استغرقت سنوات تعليمي من الثانية الابتدائية في تلك المدينة الحلوة إلى حصولي على شهادة «الثقافة» التي كانت تسبق التوجيهية بسنة واحدة من مدرسة دمنهور الثانوية، مروراً بسنوات أربع في «الأقصر».

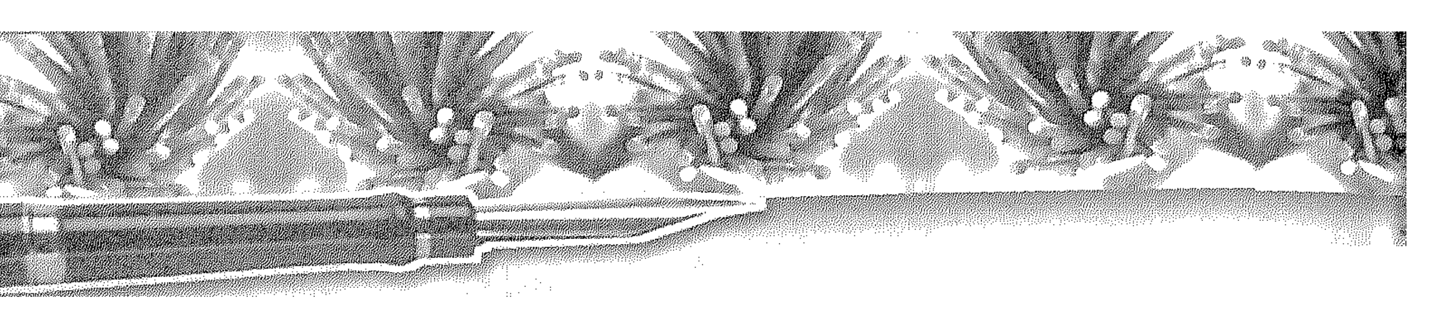
في المنيا ألحقني أهلي بمدرسة حسن كاشف التي وعيت فيمابعد أنها كانت ضمن قطاع تعليمي من سوء الحظ أن جرى التخلي عنه ضمن واحدة من خطط «تطوير» التعليم و«تحديثه». كان ذلك القطاع التعليمي يتبع مجالس المديريات التي تغير اسمها فيمابعد إلى محافظات. كانت مجالس المديريات منتخبة من «نخبة ناخبين» - إن جاز التعبير. كانت هناك شروط تأهيل للترشيح والاقتراع تتعلق بحجم الملكية أو مقدار مايدفعه الشخص من الضرائب. كانت «وزارة المعارف» هي مرجع مناهج التعليم فيها كغيرها من المدارس، لكن المدرسين فيها كانوا يختارون من بين أبناء المدينة أو البلدة أو القرية التي تقع فيها المدرسة. كانت لهذا الشرط ميزتان: إحداهما أنه كأنما كان المدرسون مسئولين عن عملهم أمام أهلهم قبل مسئوليتهم أمام رؤسائهم، والأخرى أنهم لم يكونوا ينقلون من مدارسهم إلى مدارس أخرى، الأمر الذي يضمن قدراً من الاستمرار والاستقرار في العلاقة بين المدرسين والتلاميذ.

من سوء حظي أن أهلي اعتبروا التحاقي بتلك المدرسة مجرد سد لفجوة زمنية تستكمل السنة الدراسة التي بدأتها في امبابة، التحقت بعدها بالسنة الثانية بمدرسة المنيا الابتدائية، بعد «امتحان قبول «أظن أني اجتزته بصعوبة .

التحقت بمدرسة لم أقم فيها صداقة ولم تبق لي من أيامها ذكريات سوى واقعة واحدة كانت ذات أثر بليغ في حياتي سيأتي ذكرها.

في تلك المدرسة أيضاً - كسابقاتها - لم يطل بي المقام، نقل أبي إلى الأقصر وانتقلت مع شقيقي بهي وعادل إلى مدرستها الابتدائية، بهي في السنة الرابعة التي هي نهاية تلك المرحلة من التعليم وعادل وأنا في السنة الثالثة .

في تلك المدرسة «تفتحت» - إن جاز التعبير . لم تعد لي مع المدرسة ولا مع





إحدى المناسبات
التى جمعت
مصطفى الحسينى
مع كبار الكتاب
والمثقفين ..

التعلم مشكلة . لكن ذلك - فيما أظن - لم يتحقق إلا بعد حادثة دامية .

منذ أن عرفت المدرسة كرهت الرياضة البدنية، مع أنى لم أكن كسولا. فى تلك المدرسة الجديدة كان معلم الرياضة البدنية - وهنا معرفة وإدراك لاحقين - كما فى مدارس غيرها ، واحداً من جنود الجيش المحترفين السابقين، كانوا يحالون إلى المدارس الصغيرة أو النائية لتولى تلك المهمة إلى جانب ضبط النظام فى المدرسة.

فى الأول من تلك الدروس وعلى ماجرت العادة طلب المعلم، حامد أفندى، أن يتخذ من لا يريد المشاركة فى الدرس خطوة إلى الأمام. ثم أخذ يسأل كل منا عن سبب عدم مشاركته.

كانت الأسباب المقبولة هى المرض أو ادعائه . عندما وصل إلىَّ قلت ببساطة :إننى لا أريد لأننى لا أحب «الألعاب» كما كنا نسميها. أمرنى حامد أفندى بصرامة أن أعود إلى الصف. لم أتزحزح من مكانى. كانت بيده عصا هى فى الأصل ساق كرسى من الخيزران، رفعها فى وجهى وهو يكرر الأمر. برقت فى كيانى خشية أن يضربنى بها على رأسى. دون تفكير، اختطفتها من يده ووجهتها إلى جبهته التى انبثق منها الدم. ألقيت بالعصا وأطلقت ساقى للريح باتجاه حديقة المدرسة. كانت الحديقة جيدة التنسيق

مقسمة إلى حقول صغيرة مربعة تفصل بينها ممرات ضيقة منحتنى فرصة لمراوغة حامد أفندى الذى كان يجد فى أعقابى. أحسست أن صدرى يكاد ينشق من اللهاث. اتجهت، يائساً، إلى الدرج الخلفى لمبنى المدرسة متجها بسرعة إلى غرفة الناظر التى اقتحمتها لاهثاً. لم أكن رأيت الرجل البدين ذو القامة القصيرة والوجه المستدير إلا عن بعد، حيث يقف كل صباح على الشرفة الأمامية للمدرسة يراقب «طابور الصباح». وسط اللهاث حاولت أن أتكلم . لا أتذكر تعبير وجهه وهو يأمرنى بحزم أن لا أتكلم وأن أجلس على مقعد أشار إليه . لم يلبث حامد أفندى أن دق على الباب المفتوح وأطل مدمى الوجه. سمعت الصرامة فى صوت الناظر الذى أمره أن يذهب إلى «غرفة الإسعاف» وأن لايعود إلا عندما يستدعيه. ظهر «فراش حضرة الناظر» فأمره أن يأتى بكوب من عصير الليمون. كنت مازلت أحاول أن أتكلم، أشار إلىَّ بالسكوت وأمرنى بشرب عصرالليمون. بعد أن هدأ لهاثى وانتظم تنفسى سألنى عماحدث وروبته. سألنى باستنكار هادىء إن كان يجوز أن يضرب التلميذ معلمه . لا أذكر من جوابى سوى قولى له إنه لو ضربنى بتلك العصا الغليظة لشج رأسى. سألنى عن اسمى وعمل أبى. ثم نادى الفراش وأمره أن يصحبنى لأغسل وجهى ثم إلى فناء المدرسة. بعد ذلك أكملت اليوم المدرسى كأن لم يحدث شىء.

لكن المفاجأة كانت فى «طابور الصباح» فى اليوم التالى. انتظمت الصفوف وعندما انتهت طقوس الطابور الذى كان يشرف عليه حامد أفندى وأعطى إشارته بالتوجه صفاً صفاً إلى حجرات الدرس، أشار الناظر بالتوقف وانطلق يتحدث بصوت قوى ولهجة حازمة. خلاصة ما قال أن المدرسة شهدت فى اليوم السابق حادثاً مؤسفاً؛ أن حامد أفندى رفع فوق رأس أحد التلاميذ الصغار(٤) عصا غليظة لم يكن هو يعلم بوجودها . وأن التلميذ رد عن نفسه. وهذا خطأ . كان عليه أن يلجأ إليه كما فعل فى نهاية المطاف. لكنه هنا يوجه الكلام إلى المدرسين:

إن الضرب فى المدارس ممنوع بحكم القانون وأن أى مدرس يلجأ إليه سيحال إلى التحقيق وينال جزاءه. ثم يوجه حديثه إلى التلاميذ الكبار؛ واجبهم حماية زملائهم الصغار.

بعد تلك الواقعة أصبحت المدرسة لى



بمثابة فردوس صغير. أذهب إليها فرحاً وأغادرها مشتاقاً إلى العودة.

أذكر من مدرسى تلك الفترة مدرسين لمادة الحساب: فوزى أفندى مسعد وزكريا أفندى بسطا . كان كل منهما يستهل الدرس بإلقاء مسألة حسابية نتسابق إلى حلها دون كتابة، فيما كانا يسميانه «الحساب العقلى». وكان زكريا أفندى المديد العريض البدين مع خفة حركة مدهشة، ينطق كلمة «عقلى ممدودة» باتساع خطوته الواسعة إلى حجرة الدرس.

كما أذكر يوسف أفندى إدريس(*) الذى علمنا اللغة العربية فى تلك السنة الثالثة الابتدائية. لكن ذلك لم يكن أهم ماتعلمت منه. مازال أذكر عبارته التى كان يلقيها بشىء من التنغيم «القليل من الكثير». كان قد نظم نوعاً من «الجباية» سماه قرش الطالب. كان يقتضى من كل طالب فى المدرسة (٣٦٠ طالباً) قرشاً واحداً كل شهر. لايفرق بين غنى وفقير. لم يكن القرش فى ذلك الزمان وفى بيئة يغلب فيها الفقر أمرا هيناً، لكنه حسب ماشرح، سيستخدم تلك النقود فى شراء ماينقص بعض التلاميذ الذين كان بعضهم يأتى إلى المدرسة بثياب رثة أو حافى القدمين. وكانت حكمته فى المساواة فى الجباية أن لايشعر فقراء التلاميذ أنهم يتلقون صدقة. فما يساهمون فيه لا يمكن أن يكون صدقة جارية عليهم. ولم تكن الـ ٣٦٠ قرشاً التى تجمع كل شهر مبلغا صغيراً، إذ كان ثمن الحذاء الكاوتشوك عشرة قروش.

أذكر أيضاً صديق أفندى الذى كان يعلمنا الجغرافيا والتاريخ معا ويربط بينهما.

كما أذكر مدرساً آخر للغة العربية هو أحمد السيد البسيونى، سريع البديهة حاضر النكتة، لم أشعر أبداً فى وجوده بتلك المسافة الفاصلة بين المدرس والتلميذ. كان شاباً أعزب، يدعو بعض من يختارهم منا فى أيام الجمعة إلى مسكنه حيث يعد لنا «الفتة واللحم المسلوق» ويروى لنا شعرا كثيراً يحفظه. كون فى المدرسة جماعة للتمثيل كان أخى بهى من أبرز أعضائها واختار لتدريب الفريق مسرحية «مصرع كليوباطرة «لأحمد شوقى.

على أن أكبر أثر لتلك الفترة التى امتدت أربع سنوات من حياتى المدرسية، ترجع إلى ناظر المدرسة ولسبب غير الواقعة الدامية التى سبق ذكرها ومعالجته له.

كنا فى سنة ١٩٤٦ وفى بداية سنتى الثالثة الابتدائية نفسها. كان «طابور الصباح» قد اكتمل وتهيأت صفوف التلاميذ للسير إلى حجرات الدرس . لكنه – مرة أخرى – أوقف السير بإشارة من يده ثم ارتفع صوته غاضباً يوبخنا على

أننا نريد الانتظام فى الدراسة بينما الحكومة «تقتل زملاءكم على كوبرى عباس»(٥) ويحضنا على الخروج فى مظاهرة قادها محمولا على عنق من تناوب على حمله من التلاميذ الأشداء.

فى السنة التالية أضيفت إلى المدرسة «فصول ثانوية» لاستيعاب من أنهوا فيها دراستهم الابتدائية فى العام السابق، بدلا من أن يضطر من يريد منهم مواصلة التعليم إلى الالتحاق بمدرسة قنا الثانوية على ماجرت العادة.

فى السنة التالية انتقلت إلى تلك «الفصول الثانوية» ودخلت بداية المراهقة ومن معالمها أننى تعلمت «التزويغ» من المدرسة. كنا «شلة» من فصول مختلفة، نحضر «طابور الصباح» والدروس الأولى حتى الثالث الذى تعقبه «الفسحة الأولى». أثناءها كنا نتسلق نخلة مائلة تجاور سور المدرسة من الداخل لنقفز إلى شجرة تجاوزه من الخارج كى ننطلق إما إلى منطقة آثار الكرنك شمال المدينة، أو عبر النيل إلى وادى الملوك غربها. كان بيننا من يهوى التصوير الفوتوغرافى: جميل سوريال وأخى بهى، ومن يهوى الرسم: رمسيس عزيز وميلاد قلادة. ومن يهوى الكتابة (الإنشائية الوصفية) أخى عادل وعبد الحميد محمد يحيى وأنا. وكان معنا آخرون لا أذكرهم.

ذات يوم وجدنا أنفسنا وقد جمعنا «فراش حضرة الناظر» من حجرات درسنا المتفرقة أمام باب غرفته، فلما اكتمل عددنا أدخلنا إلى حضرته الذى أشار لنا بالجلوس ثم بدأ يتحدث كأنه يتداول أمرا مع أقران له. أبلغنا أن فى أمرنا مايحيره : فنحن – على قوله – تلاميذ نابهون. لكنه لاحظ من خلال بيانات رصد الحضور والغياب أننا نتغيب عن معظم الدروس. وأنه يريد أن يعرف أمورا ثلاثة : كيف نغادر المدرسة وإلى أين نذهب وماذا نفعل. تطوعت بشرح الأمر برمته . وإذا بوجهه يتهلل ويتحدث إلينا عاتبا علينا عدم إبلاغه بمشروعنا. وأبلغنا أنه سيخصص لنا من أدوات «جمعية الرسم» وميزانيتها ما يكفى لإنتاج «جريدة حائط» نعرض فيها انتاجنا الأدبى والفنى. وأننا سنخرج من باب المدرسة «بكرامتنا»، شريطة أن يحرم من تلك الميزة من يتراجع أداؤه المدرسى. كانت المرة الأولى التى يسمع فيها أحد منا عن «جريدة حائط» ففسر لنا أمرها.

فى السنة الدراسية التالية كان محمد عبد الرحمن بك الزمك قد نقل إلى «ديوان الوزارة» مفتشا عاماً للجغرافيا.

وألغى خلفه «واصف بك» كل ماأنشأ وأرسى.

وفى نهاية تلك السنة الدراسية انتقلنا – مرة أخرى مع عمل أبى – من الأقصر فى أقاصى الصعيد إلى دمنهور فى شمال غرب الدلتا.

***

لم أشعر فى حياتى بالغربة كما أذكر أننى شعرت بها فى مدرسة المنيا الابتدائية. بالتأكيد لايعود السبب إلى المدرسة ولا أنا أعرف سبب ذلك الشعور.

أظن أننى كنت فى سن التاسعة صبياً نفوراً وعنيداً ومزاجيا. كنت أتعامل مع المدرسة والدراسة فيها من خلال تلك الخصال. لا أذكر من المدرسين الذين كانوا يعلمون فصلى فى تلك السنة سوى ثلاثة:

شعراوى أفندى، الذى كنت أنفر منه أشد النفور. كان سمينا مترهل السمنة، لاتفارق يده مسطرة خشبية ثقيلة، يقبض على طرفها على نحو من يتهيأ لاستخدامها فى الضرب على الأيادى بحافتها الحادة. وكان يفعل ويصحب الضرب بتوجيه شتائم مقذعة إلى التلميذ المخطئ أو المهمل. كرهته لحظة أن رأيته وقررت فيمابينى وبين نفسى أن لاعلاقة لى به ولا بما يعلم؛ اللغة العربية والدين. أثناء الدروس كنت أجلس ساهياً منصرفا بكليتى إلى ما لم أعد أذكر. لم أكن أؤدى ما يكلفنا به من واجبات مدرسية. ولم أكن أجيب عن أسئلته. وإذا وجه نحوى مسطرته لم أفتح كفى لتلقى العقاب. كنت أبقى يدى منقبضة وبظهرها أزيح مسطرته بحركة قاطعة كان يسرنى أن أظنها كانت تخيفه، إذ لم يكن يعيد المحاولة أثناء الحصة نفسها. ثم كانت لى معه معركة مستترة سيأتى ذكرها.

المدرس الثانى هو محمد أفندى إسماعيل الذى كانت مادته مبادىء العلوم والحساب. كان طويلاً ممتلىء القوام بغير سمنة واضحة. أحمر الشعر والوجه الممتلىء بالتجاعيد دون شيخوخة، له أنف بارز أكثر إحمراراً من وجهه. كانت كراهيتى له أقل من كراهيتى لشعراوى أفندى. لكن «عقابى» له كان هو نفسه: تجاهله هو والمواد التى كان يعلمها.

أما المدرس الثالث الذى أتذكره فهو فوزى أفندى أندراوس الذى كانت اللغة الإنجليزية مادته. وكانت تلك السنة بداية دراستنا لها. كان أنيقاً يشع بالنظافة. لاأتذكره إلا مبتسما. قررت أن اللغة الانجليزية هى مادتى.

ما أن وزعت علينا شهادات امتحان «الفترة الأولى» واطلعت على دراجاتى حتى قررت تمزيق الشهادة التى كان يفترض أن يوقع أبى عليها ثم أعيدها إلى المدرسة. كانت درجاتى فى جميع المواد صفرا، باستثناء اللغة الإنجليزية التى حصلت فيها على ٤٩.٥ من خمسين

درجة. رغم الخيبة الواضحة فى المواد الأخرى فرحت بما حققت فى مادتى المفضلة لمدرسى المفضل. إلا أن المأزق كان ينتظرنى فى البيت، فأخى عادل، الذى تخلف عن بدء التعليم بسبب عاهة خلقية أعاقت قدرته على النطق حتى تم تصحيحها بالجراحة، كان فى فصل آخر بالسنة الدراسية نفسها. وقد حمل شهادته إلى البيت مزهوا إذ نجح فى المواد كلها وأحرز ترتيباً متقدماً على معظم أقرانه.

زعمت أن فصلنا لم يتسلم شهاداته. لكن كذبتى كانت مفضوحة وأكدها عادل فى اليوم التالى عندما أبلغ الأسرة كلها أنه سأل زملاء لى فى الفصل وأنهم جميعاً تسلموا شهاداتهم. تمسكت بكذبتى فى عناد ثم التزمت الصمت.

لكن قراراً آخر كان يتشكل داخل دماغى. سأضع مزاجى جانباً وسأتفوق على عادل فى امتحان الفترة الثانية. فى الفصل، لم يتغير شىء من أدائى، ربما لذلك كان أدائى فى الامتحان التالى مفاجأة للمدرسين الذين أعتقد أنهم كانوا قد نفضوا أيديهم منى. نجحت فى المواد كلها وكان ترتيبى هو الثانى على فصل يضم أكثر من ٣٠ تلميذاً.

***

فى تلك السنة الباردة الجافة من حياتى المدرسية، جاورت فى حجرة الدرس تلميذاً أجد الآن من الغريب أننى لا أذكر اسمه. اذكر أنه كان ضعيف البنية شاحب الوجه كثير السعال.

ذات يوم قال لى أن خاله رجل مهم جداً . تحدى الأزهر وانتصر عليه . وأن اسم خاله طه حسين. لم أكن سمعت بالاسم. لكن زميلى ذكر أن خاله ألف كتباً كثيرة.

لا أذكر أنى سألت أحداً عن طه حسين . لكن الاسم استقر فى وعيى وقررت أن أكون «رجلاً عظيماً» مثله. بدت لى المسألة سهلة: قررت الامتناع عن حضور درس الدين الذى كان شعراوى أفندى يلقيه علينا كل خميس. لجأت فى البداية إلى فناء المدرسة. لكننى كنت أجد نفسى وحيداً وملحوظاً فيه. قررت التغيب عن المدرسة فى أيام الخميس، فكنت أغادر البيت فى الصباح كالعادة برفقة الشقيقين بهى وعادل. عند باب المدرسة أفترق عنهما وسط الزحام لأتجول فى شوارع المنيا حتى نهاية اليوم المدرسى القصير. هكذا تعرفت على شوارع المنيا وأحببتها وأصبح لى فيها أصدقاء سريون، أجمل من أذكر منهم «نعمات الجزارة»، امرأة حادة الجمال كانت تسكن بالقرب منا، لاحظت تسكعى فى وقت المدرسة فنادتنى لتزجرنى وتهددنى

بإبلاغ أهلى، لكنى احتلت عليها بالملاطفة وبالحديث عن غلظة شعراوى أفندى ويبدو أنى بهرتها بالكلام عن ابن بلدها طه حسين «الذى تحدى الأزهر». تواطأت معى وأصبحت أقضى إلى جوارها وقتا جميلاً فى بيتها بعد أن تفرغ من مساعدة زوجها الجزار فى عمله. لم أكن أشبع من التملى فى جمال وجهها. ولم تكن غافلة عن ذلك فكانت تزجرنى عن «البحلقة» فيها ثم تحتضننى ضاحكة.

لم يفت شعراوى أفندى تغيبى عن المدرسة أيام الخميس، فأخذ يترصدنى فى درس اللغة العربية أيام السبت ليسألنى عن سبب ذلك الغياب، فكنت أتذرع كل مرة بوعكة أو أخرى فيعلق هازئاً: «كنت إقرى (إقرأ) عليها سورة».

فى السنة التالية، بعد انتقالنا إلى الأقصر قررت أن آخذ مسألة «عظمتى» على خطى طه حسين مأخذ الجد. توجهت إلى مكتبة فى شارع كليوباطرة كانت تنظم استعارة الكتب مقابل اشتراك يسير. لم أدفع قيمة الاشتراك إلا بعد أن وجدت بين ما فيها من كتب اثنين لطه حسين أحدهما الجزء الأول من «الأيام».

وكما ترى لم أبلغ من قامة طه حسين أى مبلغ.

لكن، هل كانت تلك هى بداية التكوين؟

(١) و(٢) : اللوح الصفيح والقلم البسط من أدوات التعليم فى الكتاتيب الأول لوح معدنى مصقول لامع يستخدم للكتابة القابلة للمحو بسهولة، يكتب عليه بالقلم البسط المصنوع من نوع الخيزران المجوف الرفيع، يبرى على شكل قلم يشق طرفه المدبب حتى يعلق به الحبر بعد غمسه فى «الدواة».

(٣) الجرن : مساحة واسعة من الأرض، مستديرة أو مربعة، تستخدم لدرس محاصيل الحبوب من القمح والشعير. الاسم فى اللغة الفصحى هو: البيدر.

(٤) كانت مدارس «المناطق النائية» ومنها الأقصر معفاة من شروط السن فى التعليم. كان يزاملنى حتى السنة الثانية الثانوية فريد بشير الذى غادر المدرسة فى تلك السنة، ليتولى عمودية قرية نقادة بعد وفاة أبيه.

(*) غير يوسف إدريس الكاتب المعروف الذى تعرفت عليه بعد ذلك بثمانى سنوات.

(٥) الإشارة هى إلى «حادثة كوبرى عباس» بالجيزة، حيث فتحت حكومة إسماعيل صدقى باشا ذلك الكوبرى على النيل أثناء عبور مظاهرة من طلاب المدارس وجامعة فؤاد الأول عليه. فمات عدد من الطلبة غرقا. ■



مقالات متميزة تثرى العقول

بعد قراءتى للهلال - عدد مارس الماضى رأيت هذا التنوع الذى يبدو للقارئ حديقة غناء بورودها وأزهارها.. فهذا مقال أستاذنا الجليل د. محمد رجب البيومى : «الصحافة بين الأمس واليوم» وأسلوبه العذب السلس، وبلاغته التى ينتشى بها القارئ، يقارن بين الصفحة المخصصة للأدب وأخباره فى صحافة الأمس وصحافة اليوم ، ليجعلنا نترحم على ماض تولى ، كان يولى الأدب اهتماما كبيرا .

وهذا مقال د. جلال أمين «ماذا حدث للمصريين فى معرض الكتاب» يأخذك معه عندما يستعرض زوار المعرض من رجال ونساء وفتية وفتيات وأطفال فى عمر الزهور ، فتراك وأنت تتجول فى ساحات المعرض وجنباته ، تسمع حوار المتحاورين وهمساتهم ، وأنت تراهم حولك غادين رائحين ، يستعرضون ما تقع عليه أعينهم من كتب ومعروضات وهذا رئيس التحرير فى مقاله عن الراحل سيد عويس «والتاريخ الذى يحمله علي ظهره» أمامك جانبا من ثلاثيته التى أبان فيها جانبا من سيرته الذاتية متنقلا معك فى التاريخ ، مصورا جانبا من الحياة الاجتماعية لقطاع من المصريين ، فكأنك تعيش معهم وتشعر بأحاسيسهم .

العدد تتنوع فيه الموضوعات ، ويثرى ذلك العقول بكل جديد فى مجال الثقافة والمعرفة ، خاصة ذلك الجزء المتميز عن الموسيقى والغناء وما كتبه عبدالرحمن شاكر دفاعا عن عمه تعقيبا على مقال للأستاذ حسين أحمد أمين متجنيا على علم من أعلام المحققين المحترمين .

ولا أستطيع فى عجالة أن أكتب عن مقالات العدد كلـه التى هى بمثابة زاد يفيد كل عاشق ومحب للثقافة . وذلك يدفعنى للمطالبة بالمزيد من هذا الجهد المتميز .. وألست معى أن الهلال تؤكد فى مطلع كل شهر أنه بالفعل كما يقول المثل العامى المعروف «الدهن فى العتاقى» .

محمد السيد نمير
العجمى - ادكو - بحيرة

بحار التمنى

يقولون عنى ..
ضللتُ الطريق
وأدمنتُ شعر الهوى والنضار
وأمست خطاى كما الموج ..
حين يشد الغريق ..
لخوض البحار
يرون التمنى ..
ظلام طويل
ولكن قلبى يراه النهار
فلا تعجبين ..
لسهدى وصمتى
فإن بقائى محض انكسار
حياتى جراح
بدون اختيار أتيتُ إليها
وأرجع منها بدون اختيار

صابر صبرى معوض - المنصورة



الجائزة وصفوة المبدعين

الصفحة الأخيرة في العدد الماضى بعنوان «جوائز الدولة» أحسست من خلال قراء تها أن أستاذنا محمود الربيعى مازال ربيعا نقديا ، فقد استهل موضوعه (المعاصر) ببيت من عند المتنبى (وهو من القرن الرابع الهجرى) يعنى به أن وضع الأمور فى غير موضعها الصحيح فى عصر العولمة مفسدة أى مفسدة ، ذلك أن (منح) تلك الجائزة مهما تموهت مسمياتها وأهدافها - إلى غير مستحقيها من المبدعين - يشجع أهل الإلحاح والوساطات من متوسطى الموهبة على مداومة البحث عن أنجز أساليب (من أين تؤكل الكتف) حتى يتم التوصل إليها .

ويرى د. الربيعى أن على من يتحكمون فى تقرير أمر استحقاق هذه الجائزة أن يغيروا من عقليتهم واضعين فى اعتبارهم ضرورة أن تسعى تلك الجائزة إلى صفوة أبناء مصر من المبدعين الموهوبين الذين تأبى كرامتهم إلا أن تتمسك بقول القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى فى مقدمة كتابه «الوساطة» .

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى

لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

أأشقي به غرسا وأجنيه ذلة

إذا فابتياع الجهل قد كان أحزما

ويمضى الربيعى بنا منبها - من طرف خفى - ذوى المواهب الأصيلة إلى أن يستعيدوا تذكر شعارهم الذى قد تناساه بعضهم كثيرا وهو :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

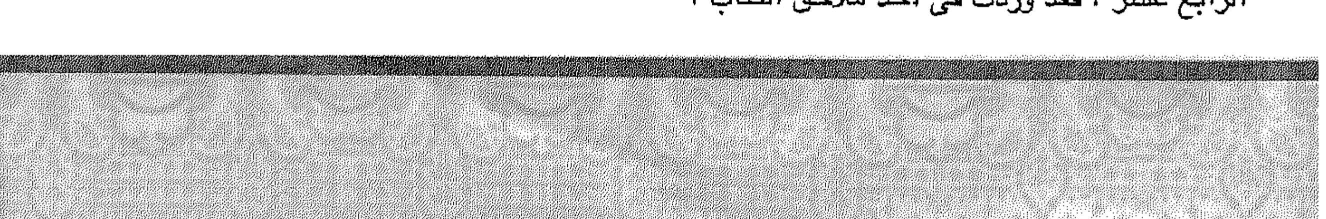
ولو عظموه فى النفوس تعظما

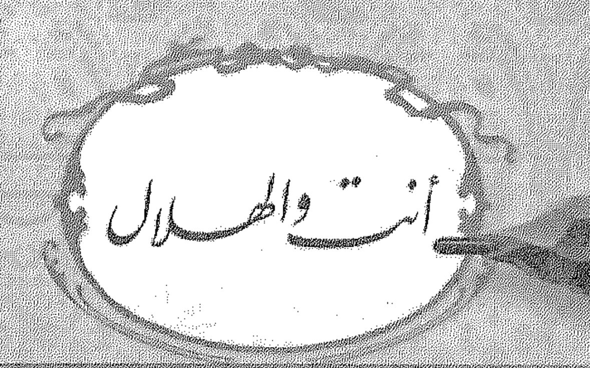
د. سامى منير عامر
الاسكندرية - كلية التربية قسم اللغة العربية

حول كتاب المخطوط السرى لغزو مصر

إيماء لما نشر بمجلة الهلال عدد مارس ٢٠٠٤ فى باب رحيق الكتب عن كتاب الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع ، تأليف : أحمد يوسف ، ترجمة : أمل الصبان ، أوضح اللبس الذى وقع فيه كاتب التعليق حيث أورد أنه سبق وأصدرت سلسلة كتاب الهلال سنة ١٩٩٤ أول ترجمة عربية لكتاب المخطوط السرى لغزو مصر تأليف د. أحمد يوسف عن نص مجهول وغير منشور كتبه الفيلسوف الألمانى ليبنتز عام ١٦٧٢ وأرسله إلى الملك لويس الرابع عشر حينئذ يدعوه فيه إلى أن يعبر البحر إلى مصر للاستيلاء عليها لوقف المد العثمانى الإسلامى ... إلخ.

وقالت : إن نص مذكرة ليبنتز التى قدمها للويس الرابع عشر ، فقد وردت فى أحد ملاحق الكتاب .





* إن عبارة «النص غير المنشور» فقد وردت على غلاف الطبعة الفرنسية للكتاب ، وأعتقد أنها ترجمة أمينة لعنوان الكتاب الأصلى والذى لا علاقة له بكتاب د. أحمد يوسف والمنشور فى سلسلة كتاب الهلال بعنوان «المخطوط السرى لغزو مصر» والحق أننى لم أر من قبل كتابا يوضع عليه عنوان أحد ملاحقه لا عنوانه ، وموضوع دراسته الحقيقى ، فهذا العنوان الذى لا يحبذه كاتب التعليق كثيرا ، هو لب الموضوع وأساسه .

* لم يكن ثمة مجال لذكر أن الترجمة الجديدة لكتاب د. أحمد يوسف لم تشر من قريب أو من بعيد للترجمة السابقة وأن مذكرة ليبنتز هى مجرد ملحق فى داخل الكتاب الفرنسى، والترجمة المنشورة هى ترجمة جديدة لنص المذكرة .. وأى نص قيم يمكن بل ويجب ترجمته أكثر من مرة .

د. أمل الصبان

* * *

ولتسمح لى الاستاذة المترجمة بذكر الملاحظات التالية :

١ - الكتاب الفرنسى هو نسخة من الكتاب العربى خطها كاتب واحد ، وإن كان الكتاب الفرنسى طبعة جديدة ومنقحة ، وليست كتابا جديدا بالمرة وهناك فارق بينهما ، أحدهما يتوجه للقارئ العربى ، والآخر يتوجه للقارئ الفرنسى ، فيصبح الغزو للقارئ الفرنسى ولع بمصر يتنامى من الحلم إلى المشروع ، ويصبح ديليسبس رمزا لفرنسا .

٢ - من المدهش حقا أنه في ص ١٩٥ من الكتاب ، ذكر بمؤلفات الكاتب، لا توجد ضمنه «المخطط السرى لغزو مصر» الذى نشره الكاتب فى كتاب الهلال عام ١٩٩٤ .

٣ - فى رسالة من د. أحمد يوسف يقول بالحرف الواحد رأيت أنه من المفيد إعادة ترجمته - أى الكتاب - لأننى لم أكن راضيا تماما عن ترجمتى!.



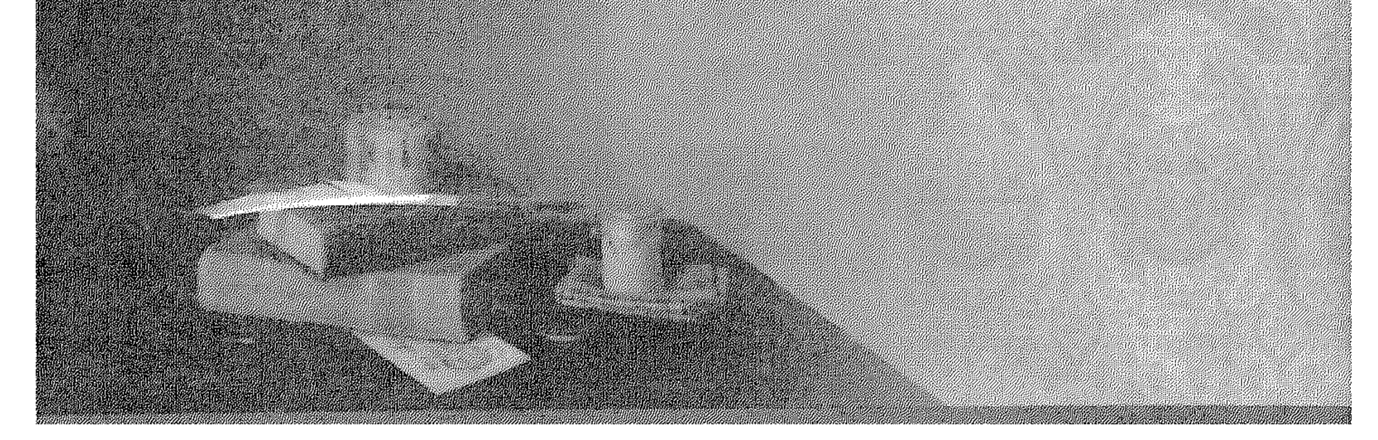
٤ - لا يجدى إدعاء التعالى والقول .. لم يطلع على الكتاب ، ولم يتصفح فهرسه .. فهذه حجة العاجز ، وما يتبع ذلك من «جرأة» على الحق عند القول «لأدرك أن الكتاب الصادر عن دار الهلال ، هو كتاب آخر تماما ، وأيضا لا صلة له بالكتاب المترجم .

وعنوان الكتاب لكل من له عينين ، واحد وهو «المخطوط السرى لغزو مصر» وهى تعنى هنا أن الكتاب «لا يعرف من عنوانه..» .

٥- وأطلقت المترجمة لفظ العبيد المماليك ، وادعت أنهم طلبوا من لويس « المقدس » أن يتوج ملكا على مصر ، وهى واقعة تاريخية ليس لها أصل !

٦ - أن كل ما سبق نشر نص المخطوط فى الكتاب الفرنسى ، هو تمهيد لنشر هذا المخطوط .

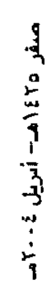
٧ - وتتجاهل أن غلاف الكتاب الفرنسى وصف المخطوط أنه «النص غير المنشور» وهى التى تقول فى ردها .. إننى لم أر من قبل كتابا يوضع عليه عنوان أحد ملاحقه لا عنوانه!!» .



الشـوق يغـرينى

سألت الله ينبوعا
من الأشعار يغشانى
سألت الله مملكة
كما المنفى
فلا طعن ... ولا أصفاد
سجّان
سألت الله ملهمة
تشق الصدر عن حلمى
تهدهدنى
تضم ضفاف وجدانى
وخلت الأرض
أمنية
بها أحيا
فسرت العمر فى وهم
ولا أدرى
بأى الحتف أوطانى
فدمع العين يذرفنى
وحد النصل فى جرحى
يمور ينزف شريانى
هى إمرأة
بنهر الشوق تغرينى
تعذبنى
وتترك فىّ شيطانى
وتجرفنى
لغور المر فى غيظ
تكبّلنى
تسوق علىّ أشجانى
هى امرأة
فلى مجرى بقاياها
تلملمنى
بشط السهد تلقانى

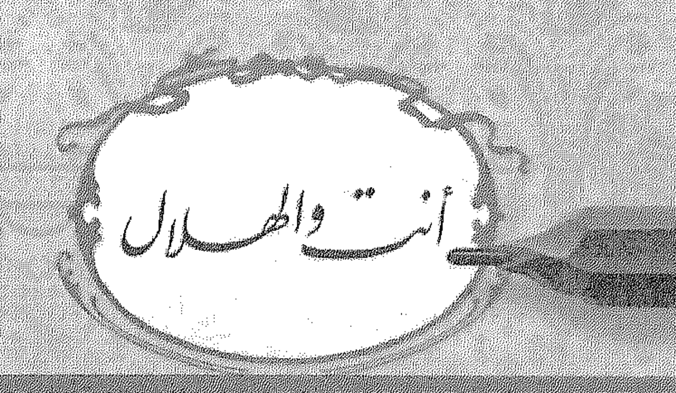
عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس دقهلى



ظواهر الوجود وحساسية التلقى فى أدب إبراهيم أصلان

فى أعمال إبراهيم أصلان القصصية والروائية تمتزج ظواهر الوجود بحساسية التلقى فى تكوين واحد هو النص ، بحيث تحيل كل منهما إلى الأخرى فى علامات إبداعية، أو تستبدل كل منهما وجود الأخرى فى حركة لا تنتهى من الدلالة ، التى تنتشر فى المتلقى دون حدود فاصلة بين الوهم ومحاكاة الواقع والواقع نفسه ، بوصفه علامات للتلقى عند السارد والقارئ على حد سواء ، وأعتقد أن القارئ المنتج الأول لأعمال أصلان ، هو سارده الذى يقدم لنا قراءة للظواهر فى صورة الظواهر نفسها ، لنعيد النظر فى مفهوم التلقى والتأويل ، وكأن شخصيات السارد قراءة لوجوده المحير والمربك مثل أى ظاهرة إبداعية .

فالكتابة المحايدة للظواهر فى (وردية ليل) لا تعنى (التسجيل) بالدرجة الأولى ،



كما هو متوقع نقديا ، وإنما تشير إلى ما هو الواقع بوصفه أثرا منتجا فى الوعى ، فى الوقت نفسه ، فالحيادية هنا تجرب مفردات الواقع تشكيليا .

وفى (يوسف والرداء) تستبدل الخصوصية المكانية معرفة (الأنا) إذ يستحيل الإدراك دون أن يكون جزءا من المتاهة الإبداعية . وحول حساسية التلقى بوصفها ظاهرة يبدو هذا فى المغالطة اللغوية فى (فضل الله عثمان) بين رجلين أحدهما يتحدث عن بوتاجاز بستة فرن ، والآخر يغالطه ويقول ستة شعلة ، ثم يتحول غضب الآخر إلى ظاهرة للغياب فى فضل الله عثمان.

فى (وردية ليل) ينتج ألم الإمساك بالكوب الساخن من جانب سليمان، وقع خطوات غير مرئية وراءه ، كأثر لألم التلقى ، وتحويله لظاهرة إبداعية غير معروفة ، وتمتد آثار الصوت فى الذات من الحذر إلى اللامبالاة .. وهكذا يصير التلقى جزءا من النص والعلاقة عند أصلان .

محمد سمير عبدالسلام – المنيا

عتاب

لا تسألوا قلبى الحديثَ بحبّكم ... فكفَاهُ أنْ عادَ الحديثَ مِرارا

لكنْ سلوا قلباً تسَمَّع للهوى ... لم يتخذْ غير السّكوت شعارا

باللّه ، هل تُغْنى الفعالُ عن الهوى ... لتبين عن حبٍّ تحدَّرَ نَارا؟

أو ما رأيتِ الزهرَ يرقُصُ نشوةً ... ما إن تُقَبلِّه الشموسُ نهارا

ويظلُّ يَهْزَجُ مُذْ تُصَافح كفُّهُ ... كفُّ الندى، أرأيتِ زهراً ثارا ؟!

فالحبُّ لو تَدْرينَ إنْ وثقَتْ به ... نفسُ المحبِّ تفجّرت أنهارا

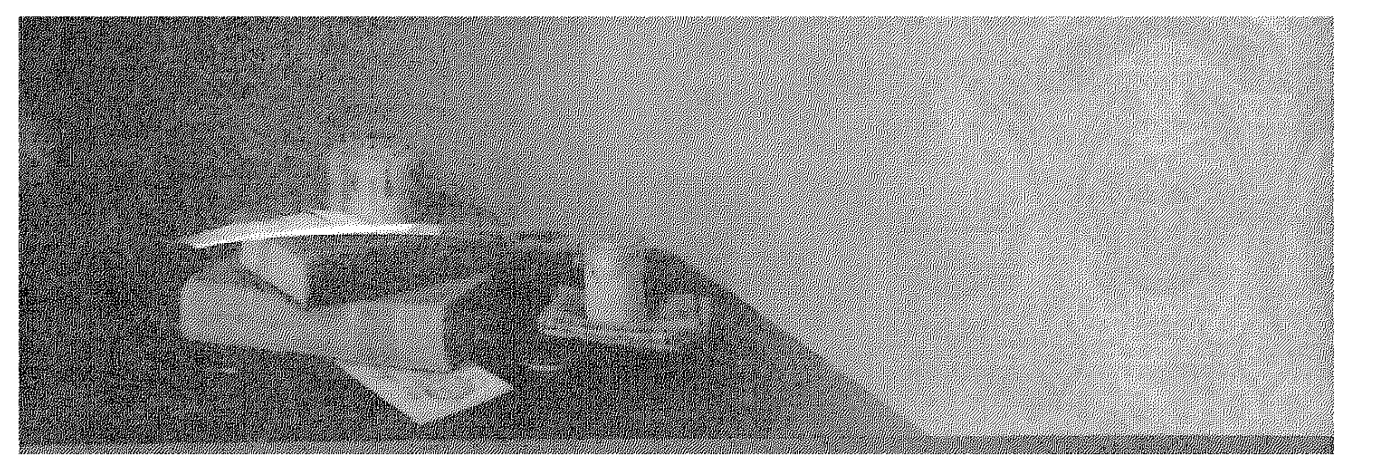
ما ضرَّهُ أنْ قال: «أنتِ حبيبتى» ... فترجّعُ الأصْدَاءُ «أنت» مرارا

ويُعيدُ قلبىِ ذكرهَا لا يَرْعَوىِ ... أيلامُ أنْ زادَ الحنينُ أوارا ؟!

أحمد محمد الدماطى

الشهداء – منوفية





ب البيروني

الهلال

٣٦٢هـ/١٩٧٣م - ٤٤٠هـ-١٠٤٨م

أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى عالم وفيلسوف .. وهو من أصل فارسي.

ولد بضاحية خوارزم ودرس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ، أغلب مؤلفاته باللغة العربية ، إلا أنه كان بارعا فى الكتابة بالفارسية.

وقد أجمع النقاد على أن مؤلفاته فى التاريخ من أفضل المراجع لحياة الشعوب الشرقية، وفى كتابه «تاريخ الهند» نقل الأرقام الهندية، وكتب مقالات فى الأسطرلاب والأفلاك، وقال إن الأرض كروية، وأن جميع الأجسام تنجذب نحو مركز الأرض، وذلك بفضل طريقة ابتكرها البيرونى حيث قام بعمل خريطة مستديرة للعالم، ونقلها من صورة الأرض الكروية إلى الورق المسطح لأول مرة، كما ابتكر طريقة جديدة لعمل النماذج الجغرافية المجسمة، وكان يقضى ساعات يومه فى النهار والليل لتأليف كتاب فى الفلك اسمه «التحديد» .

بحث فى كتابه «الآثار الباقية» الذى ترجم للانجليزية سنة ١٨٨٧ عن الشهر واليوم والسنة عند مختلف الأمم القديمة، من أشوريين ويونانيين إلى وقت وجود البيرونى، وهو أول مبحث للأشهر الفارسية والعبرية والرومية والهندية والتركية يبين كيفية «استخراج التواريخ بعضها من بعض» .

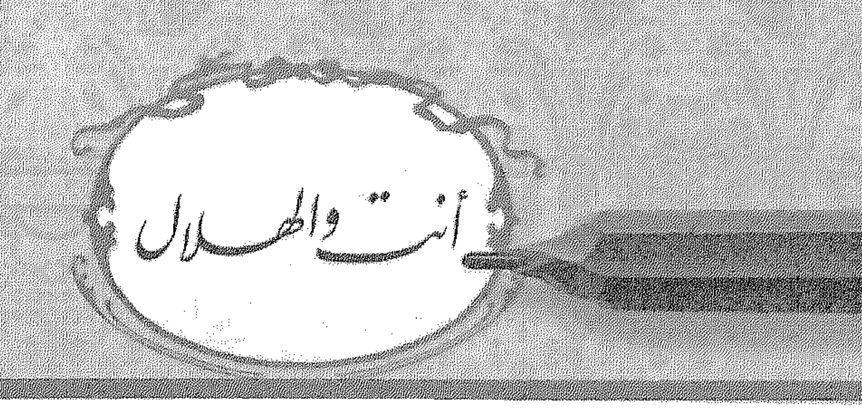
وله كتابه القيم «تحقيق ما للهند من مقولة معقولة فى العقل أو مرذولة» أهداه السلطان مسعود بن محمود الغزنوى، فكافأه نظير الكتاب حمل فيل مع راكبه من الفضة الخالصة، واعتذر البيرونى عن قبول الهدية فى شمم وإباء بأنه لا يحتاج إلى شئ فى الدنيا نظير كتابه هذا !.

ويعد أكبر أعمال البيرونى أنه عدل من رسم الأرقام الحسابية العربية، وهى الأرقام الهندية التى أدخلها إلى العربية، وهو صاحب الفضل الأول فى ابتكار الكسر العشرى .

يقول عنه «لويس ماسينون» المستشرق الفرنسى: لقد فهم البيرونى تمام الفهم الدور العالمى للغة العربية، بوصفها بين اللغات السامية، أهم لغة حضارة ، وأدرك مقدرتها على التركيز والتجربة، وتراكيبها عن طريق الاشتقاق، بدلا من الزوائد، وقيمتها فى توحيد المتكلمين بها.

وتقديرا لفضل البيرونى على العلم أنشئت فى «طشقند» بأوزبكستان جامعة تحمل اسم «جامعة البيرونى» وأقام المتحف الجيولوجى فى مصر تمثالا له، وأصدرت الهند عنه مجلدا تذكاريا بعدة لغات، وفى عصرنا الحديث تهتم بالبيرونى جامعات لينينجراد وبرنستون وبرلين، وتحقق أبحاثه وتحاول العثور على بعض الأبحاث من كتبه المفقودة.

ويعد عالمنا الكبير من أفضل علماء المسلمين الذين أضافوا الكثير من المعارف والنظريات فى كل العلوم .



الخطاب الإسلامي والمستقبل

الخطاب الإسلامى منذ بدايته لم يعن فقط باللحظة الراهنة، وكيفية التعامل معها، بل عنى بتوجيه الأنظار نحو المستقبل ، بحديثه عن عالم الغيب وما بعد الموت من جنة ونار، بل بحديثه عن الصراع بين الروم والفرس وأخباره عن الروم فى بضع سنين: قال تعالى : ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين .. الآية**﴾ .

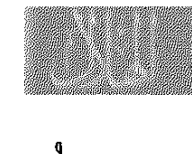
والمتأمل فيما سطره العقاد فى كتابه «الإسلام فى القرن العشرين» فى الفصل الأخير بعنوان «الغد» يجده سباقا كعادته دائما فى الحديث عن الإسلام، وأهم المشكلات التى يمكن أن تواجه المسلمين، فيقرر العقاد أن «الغد غيب مجهول، ولكننا نستطيع أن نستعد له، ونحسن الاستفادة منه، ولا نفاجأ بما تحمله لنا الأيام من حوادث وصروف إذا توافر أمران :

* حسن قراءة التاريخ وسير الأمم والحضارات .
* وأن يقوم فهمنا للإسلام على هدى وبصيرة .

والعقاد بنظرته الثاقبة تلك، يشير إلى ما عانى منه المسلمون من تطرف وتعصب وتشدد، كان من نتائجه زيادة المشقة والتعسير على الناس، وتنفيرهم من مبادئ الإسلام ، مع أن التيسير من المبادئ التى أكدها القرآن: ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾، ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ .

والفكر الإسلامى مطالب بتقديم رؤية واضحة للتعامل مع عشرات القضايا ومن بينها : قضية الديمقراطية والحرية، الموقف من حوار الحضارات، تحديد الموقف من تحرير المرأة ، واقرار قيم التعددية فى الفكر والممارسة .

السنوسى محمد السنوسى - القضلية - بسيون غربية

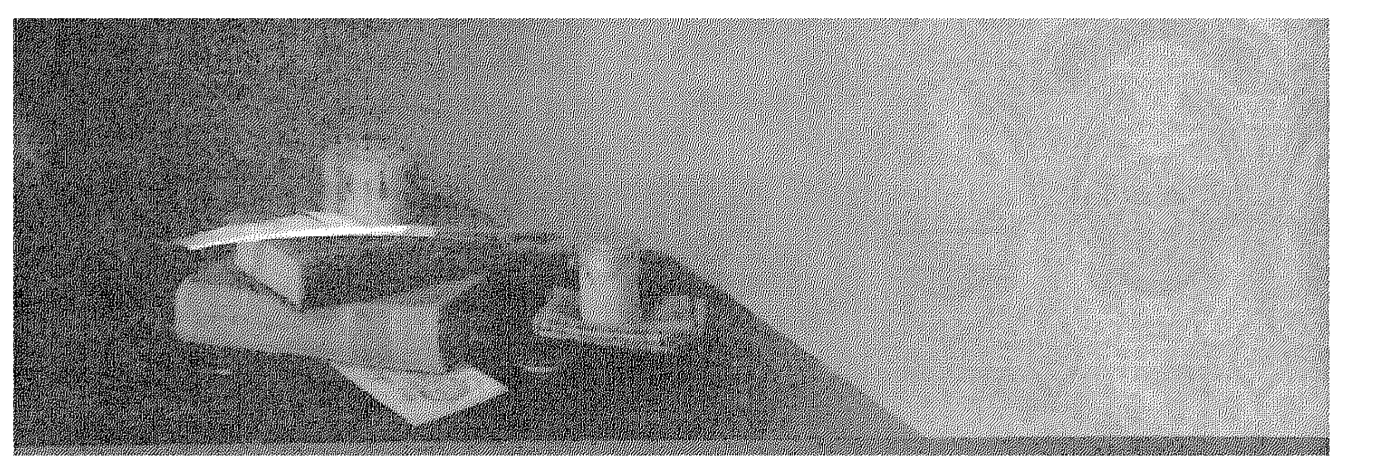


قصة قصيرة

الموعد

كنت سائرا أحث الخطى لأدرك موعد بدء الحفل، أتفادى المارة المهرولين كأنه يوم الحشر، أتحاشى نظرة طفل مارق من أمه أو تائه جاء يسأل عن طريق كل مافى ذهنى أن أصل فى موعدى وقع نظرى عليها، وبعد حيرة لم تستمر سوى ثوان عرفتها ما أن تلاقت نظراتناحتى وجدت فى عينيها نظرة امتزجت فيها الرغبة بالدلال، كدت أمشى إليها فهرولت مبتعدة بخطوات مثقلة. عبرت إلى الرصيف المقابل دلفت إلى شارع جانبى وسارت فيه مرقت وراءها اقتربت منها وناديت فلم تلب وسارعت إلى أول الشارع حتى وصلت الميدان فاستوقفتها السيارات المسرعة. هرعت لألحقها ما إن دنوت حتى عبرت الطريق بين احتجاج سائقى السيارات هرعت بالمثل وعندما عبرت كانت قد توارت عن ناظرى وقفت أبحث عنها وعن أى طريق سلكت لقد ضاعت فى الزحام التفت ورائى لأعود لطريقى فرأيت ساعة الميدان وفيها أدركت أنها ضاعت وضاع موعدى!

محمد فريد هزاع



قراءة فى العدد الماضى

وصلتنا رسائل كثيرة تتناول عددا من المقالات المنشورة بالهلال يبدى فيها القراء آراءهم ومن بينها .

● يقول ابراهيم متولى من بلقاس دقهلية: أعجبنى مقال الدكتور قاسم عبده قاسم «التحصينات الصليبية وجدار الفصل العنصرى الاسرائيلى» والذى أكد فيه أن النفسيه الاسرائيلية نفسية خائفة، لذا فهى تعزل نفسها وراء هذا الجدار العازل الذى يؤكد خوفهم من السلام ومن الحرب ومن المستقبل .

لقد جاء هذا المقال المهم فى موعده، وليؤكد حقيقة أن قلاع وتحصينات الصليبيين انتهت واندثرت بهزائمهم، وكما حدث من قبل سوف يحدث لجدار الخوف أو ما يسمى بجدار الفصل العنصرى الاسرائيلى... كما يتساءل أين أحلام الصهيونية وكيف كانوا يتحدثون عن دولتهم من النيل إلى الفرات، وهم يخشون الآن من الشعب الفلسطينى الثائر الذى يحارب بأجساد أبنائه من الشهداء .

● أما عن مقال وديع فلسطين المنشور فى عدد فبراير ٢٠٠٤ بعنوان «أنور المعداوى وفدوى طوقان» وهجومه على أنور المعداوى الناقد المرموق فيقول أحمد سلام من المعادى ما هذا التجريح الذى وجهه كاتب نشهد له بالحياد فى كل ما يكتب فى الهلال، وما سبب ذلك ؟

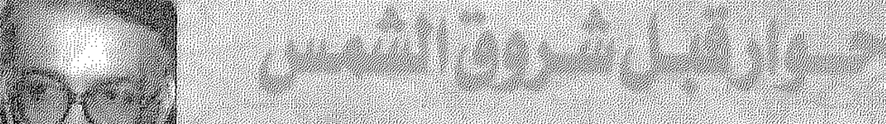
ونقول للقارئ العزيز: إن هذا هو رأيه ونحن فى الهلال اعتدنا ألا نحجر على رأى كاتب من كتابنا ، أو حتى من القراء .

● ورسالة مقتضية من قارئ يعيش بعيدا فى أسوان وهو يتابع كل ما يكتبه الأديب صنع الله إبراهيم .. القارئ اسمه اسماعيل عمر .

قال بالحرف الواحد .. ما هذه القسوة من الكاتبة صافى ناز كاظم فى مقالها أمريكانيلى = أمر «صنع الله عجيب، وكيف تقول ما قالته عن صديق كما تزعم، أو كاتب قدمته للحياة الثقافية بمثل هذه القسوة خاصة فى السطور الثلاثة الأخيرة من مقالها المنشور فى عدد مارس الماضى.

* ونقول للقارئ العزيز: إن هذا هو رأى الكاتبة ونحن أيضا لا نحجر على رأى الكاتبة.

الكلمة الأخيرة





قال: أصبح الحديث عن الإصلاح السياسي والديمقراطي ملء السمع والبصر في كل أرجاء العالم العربي. هل اكتشف الحكام العرب فجأة أن الإصلاح السياسي أمر عاجل لا يحتمل التأجيل؟

قلت: لا لم يكتشف الحكام العرب ذلك ، بل كانوا يعلمونه ويقاومونه ويلقون بدعاة الإصلاح في غياهب السجون بحجج سياسية وتشريعية مختلفة. في كل النظم القانونية العربية تشريعات وضعت خصيصا لمن يجرؤ على رفع صوته المطالبة بالإصلاح السياسي وإجراء الانتخابات النظيفة ، وتداول السلطة عبر صناديق الانتخابات ، ووقف ممارسات القمع والتعذيب ومختلف انتهاكات حقوق الإنسان. كان القمع يستخدم تارة تحت شعارات حماية الدين ، وتارة أخرى تحت شعارات حماية الثورة ، وتارة ثالثة حماية للأمن الوطني ، ومرات كثيرة بدون أي شعارات إطلاقا . وكم من الأحرار العرب سقطوا صرعى بمقصلة القمع مجردين فوق ذلك من شرفهم السياسي.

قال: لماذا كل هذا؟

قلت: لمجرد تأمين احتفاظ الخليفة العربي والسلطان العربي والأمير العربي والرئيس العربي والملك العربي بكرسي الملك والسلطنة والرئاسة والخلافة.

قال: الشرعية العربية إذن هي شرعية القمع.

قلت: نعم هي شرعية القمع، ولكن ما يبعث على الأسى أننا قد أصبحنا مقموعين بلا ثمن، فلا الأوطان تحررت ، ولا التنمية تحققت ، ولا التراب الوطني نجحنا في الحفاظ عليه.

قال: وما الجديد إذن في الأمر حتى يرتفع خطاب الديمقراطية وحقوق الإنسان اليوم في العالم العربي وبواسطة حكامه أنفسهم.

قلت: الجديد هو الضغط الذي وصل إلى حد التهديد من الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين ، والذي تبلور مؤخرا فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير.

قال: ولكن هذا المشروع ليس به أي تلويح بممارسة ضغوط.

قلت: إرادة أمريكا لدى الحكام العرب لا راد لها. وأمامهم رأس الذئب الطائر.

قال: أشعر بخزي شديد أن ينكل الحكام العرب بشعوبهم عندما تطالب بالحرية ثم ينصاعون لإرادة أمريكا دون مقاومة. أكاد أكره الديمقراطية التي تأتي عن طريق جلادينا.

قلت: ويشعر الديمقراطيون العرب بحيرة بالغة اليوم عندما يجدون أنفسهم في نفس الموقع الأمريكي، يتحدثون بنفس اللغة ويطالبون بنفس المطالب.

قال: ولكن من قال إن الأمريكيين يطالبون حقا للشعوب العربية بالحرية والديمقراطية ؟! إن هدفهم الحقيقي هو تطويع الرأي العام العربي ومحاولة امتصاص الغضب الشعبي العربي تجاه الولايات المتحدة. وسوف يفشلون قطعا في ذلك لأن توجهات الرأي العام العربي تجاه أمريكا ليست رهنا بوجود نظم ديمقراطية داخلية ، ولكنها رهن باتباع أمريكا سياسة أكثر عدلا.

قلت: وكيف تقرأ المستقبل ؟

قال: ستسفر عملية الاحتيال الكبرى التي تمارسها أمريكا ويمارسها الحكام العرب عن مزيد من السخط الشعبي العربي. أمريكا تحتال على الشعوب العربية حين تزعم أنها تريد لها الديمقراطية، والحكام العرب يحتالون على أمريكا وعلى شعوبهم عندما يزعمون أنهم في طريقهم إلى الإصلاح الديمقراطي، وتبقى الشعوب في النهاية سيدة مصيرها. وعندما تشرق الشمس سينقشع الضباب. ■



www.elmoalemonline.com
0771555
مجاناً
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
بضمان

الهلال

مايو ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

عرائس الجزائر

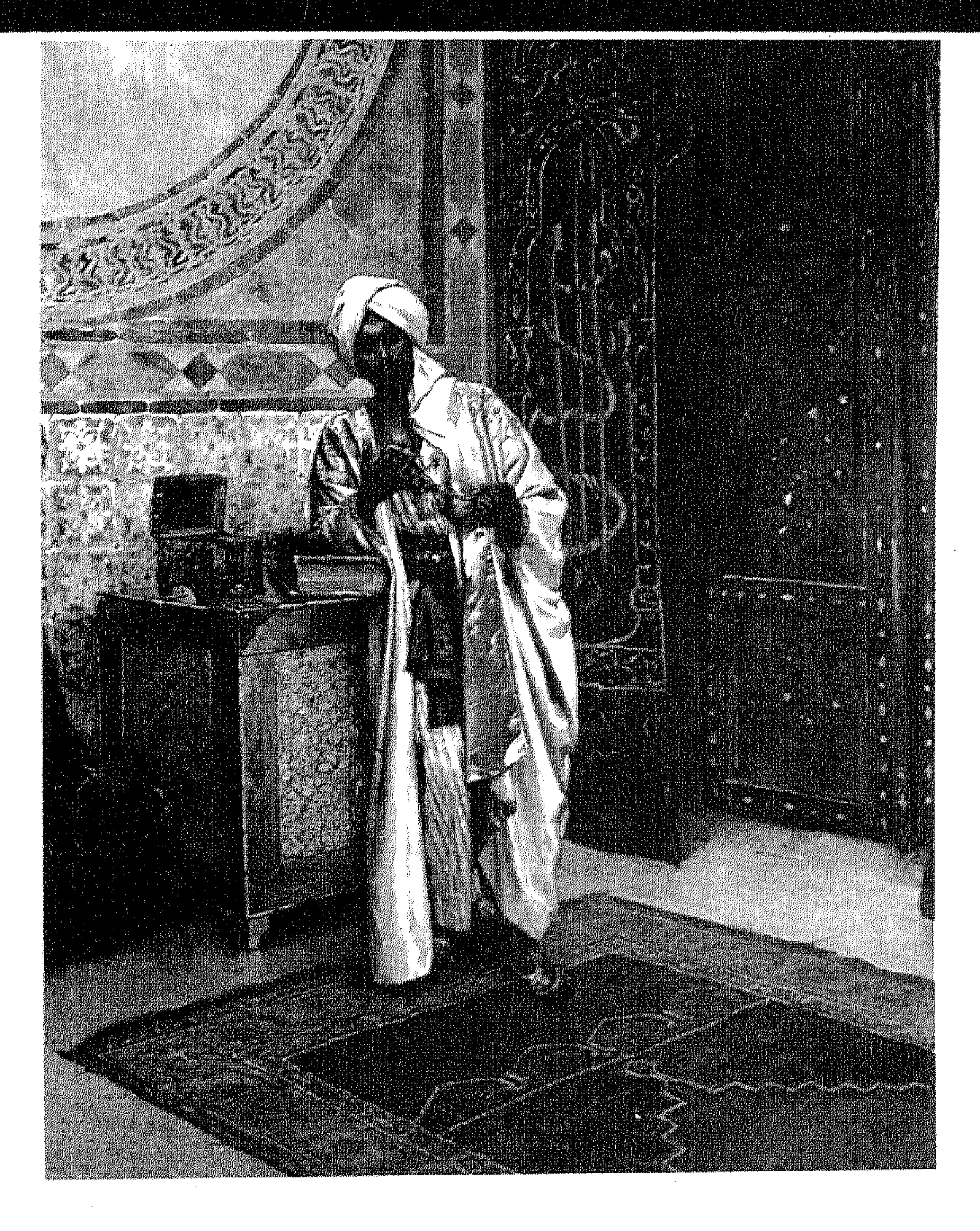
القصة الكاملة لمنظمة حماس

أكذوبة التنمية الإنسانية

الإمبراطورية الأمريكية والشرق الأوسط الكبير

جزء خاص

لوحة وفنان



المراكشى الذى يعشق جواهره

زيت على خشب ٧٣×٥٨
للفنان الألمانى : رودلف إيرنست
متحف الفن الحديث لندن



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ربيع أول ١٤٢٥ هـ -مايو ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبوطالب — المستشار الفني

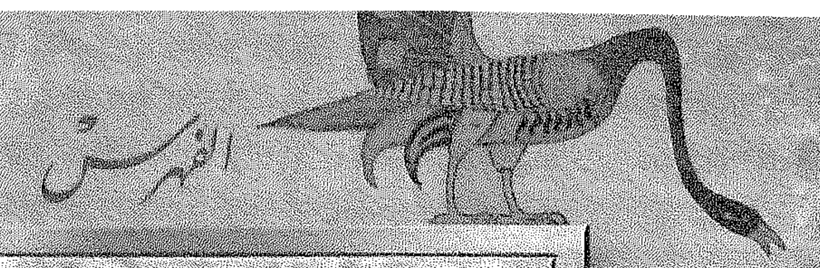
عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة ـ لبنان ٤٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١,٥ دينار ـ الكويت ١ دينار ـ السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار ـ قطر ١٠ ريالات ـ دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم ـ سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات ـ المغرب ٣٠ درهما ـ الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال ـ غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا٤ يورو ـ سويسرا ٥ فرنكات ـ المملكة المتحدة ٢,٥ جك ـ امريكا ٨ دولارات





تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

من هنا نبدأ

بداية لايشعر بقيود العبودية سوى الأحرار .. فالديمقراطية مثل أعلى تسعى الجماعات للوصول إليه ، يوجه ويقود جهد البشر ، وليس مجرد نظام للحكم .

والديمقراطية ليست وصفة سحرية ، ولا تقتصر على وجود برلمان وانتخابات ، وليست لها صيغة وحيدة للعمل ، تحل المشكلات وتتخطى العقبات تلقائيا ، بل هى رحلة دائمة ومتجددة ، طويلة وشاقة . والتخلف والاستبداد أهم مشكلات الديمقراطية ، فمن الصعب أن تعى الشعوب حقوقها كاملة ، وأن تمارس هذه الحقوق ، بدون حكم القانون ، وقوة المؤسسات ، ووجود القضاء المستقل .

ولا تكتمل الديمقراطية بدون نظام تعليمى يسلح أبناء المجتمع بالقدرة على اقتسام الثروة وتبادل السلطة ، ويجعل المنافسة عادلة بين أبناء المجتمع الواحد ، وماهى قيمة الديمقراطية التى لاتزود الشعب بقسط وافر من الثقافة العامة ، ولا تسلحة بالوعى والقدرة على التمييز فى شئون بلاده !

فالديمقراطية فى النهاية هى الإطار لنظام يقوم على رأى عام يقظ ، وهى تعيد التوازن من جديد داخل المجتمع ، وهى البديل عن الاضطرابات والانفجارات غير المحسوبة .

وهى أيضا إطار مؤسسى يبين كيفية اختيار الحاكم ، وشيوع الإحساس بالشرعية من أهم نتائج الحكم الديمقراطى ، فيأتى الحاكم تعبيراً كاملا عن الشعب ، وتظل هذه العلاقة قائمة بين الحاكم والمحكوم ، مصدر قوة للوطن والحاكم معاً ، فإيمان الشعب بأحقية السلطة وجدارتها هو جوهر الشرعية ومعناها العميق ، فالقوانين تخرج فى ظل الديمقراطية من اختيار ووجدان الشعب ، تعبر عنهم ، ويصبح من الطبيعى الخضوع لها .

وتستمد الشرعية قيمها من طريقة وجود السلطة ،أى الأسلوب الذى اتبعته للوصول إلى الحكم ، ومن غير هذه الصلة المعنوية وهذا الخيط الرقيع الواصل بين الحكم والشعب لا توجد الشرعية .

وهى إذن عنصر حاسم فى قوة الشعب ، سواء فى الداخل فى إنجاز النمو ، أو فى مواجهه التحديات الخارجية ، فاستناد الديمقراطية إلى الفرد يقابل بإذعانه للحكومة ، مما يؤدى إلى حكومة شرعية ، يعاد تأكيدها من خلال انتخابات ، بالتالى القدرة المستمرة على التصحيح وإعادة التوازن .

فمبدأ السيادة تملكه الأمة وحدها ، وليس لأى جماعة أو أى فرد أن يمارس سلطة لم تخوله الأمة إياها صراحة بعد أن مضى الزمن الذى كان يستمد فيه الحاكم سلطاته من السماء ، أو يفرض حكمه عن طريق قانون القوة وبعد أن انتصرت فكرة قوة القانون .

والديمقراطية مثل الهرم الذى يقف على قمته السلطات الثلاث التشريعة والتنفيذية والقضائية ، إلا أن قاعدته تقوم على المبادرة الفردية وتتكون من الجمعيات الأهلية والنقابات والمحليات ، وكلها تنشأ وتعيش بالاختيار الحر للأهالى .

والديمقراطية لها تاريخ طويل حافل فى بلادنا ، وخاض من أجلها أجيال وراء أجيال معارك ضارية ، ودفع الكثيرون فى سبيلها التضحيات وكانت المفارقة المؤسفة، أن الكثيرين فقدوا حريتهم الشخصية عندما طالبوا بالحرية لشعبهم !

وشغلت قضية الحرية المصلحين منذ فجر النهضة العربية ، ومن أبرز دعاة الحرية ، جمال الدين

الأفغانى ، الذى أدرك أن تخلف الشرق يعود إلى غياب العدل ، وعدم تقيد الحكومات بدستور ، ومن أبرز حملة مشاعل الحرية عبدالرحمن الكواكبى، الذى نادى بالحرية من خلال كتابه «طبائع الاستبداد» ، كما أن محمد عبده له رأى قاطع يدعو إليه فى أن الاستبداد أحد معوقات النهضة ، حتى أنه انتقد إصلاحات محمد على باعتباره حاكما مطلقا .

وقد لايعرف الكثيرون أن عمر الحياة النيابية فى مصر يصل إلى نحو قرن ونصف ، وأن مصر شهدت مجلس شورى القوانين فى وقت لم يكن له مثيل فى الشرق، والذى صدرت لائحته فى أكتوبر ١٨٦٦ فى عصر الخديو إسماعيل ، وتحرم هذه اللائحة الفقراء من الاشتراك فى الانتخابات .

وبعد قيام الثورة العرابية صدر دستور عام ١٨٨٢ ، والذى ينص على حق الانتخاب «لكل مصرى من رعايا الحكومة سواء أكان مولوداً فى مصر أو مقيما فيها مده لا تنقص عن عشر سنوات ، وأن يدفع للحكومة خمسمائة قرش فى السنة ، أى حق الانتخاب لدافعى الضرائب وحدهم ، مضافاً إليهم العلماء والقسس والحاخامات والمدرسون والحائزون للشهادات من المدارس العليا ، وأرباب الوظائف والضباط والأفوكاتية والأجزجية والأطباء والمهندسون» .

ويرى عدد من المؤرخين أن هذا المجلس النيابى كان أكثر تقدما من بعض المجالس فى الدول الأوربية .

وأسقط هذا الدستور التدخل العسكرى الأجنبى عند الاحتلال البريطانى لمصر ، ومن أيامها وتوحدت المطالب الوطنية فى الديمقراطية (الدستور) مع الاستقلال الوطنى .

ويصدر دستور سنة ١٩٢٣ بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى تعرض لمصاعب مختلفة ، فقد كان ينظم العلاقة بين ركائز ثلاث ، الاحتلال والملك والحركة الوطنية ، ورغم أنه ألغى إلا أن الشعب نجح فى إعادته ، أما فى عهد ثورة يوليو ، التى أعلنت أن أحد أهدافها .. «إقامة حياة ديمقراطية سليمة» ، فلم تحقق الديمقراطية ، ويلمس المؤرخ طارق البشرى طبيعة أزمة الديمقراطية فى هذه المرحلة بالقول .. «من أهم أسباب الانتكاس الحادث لثورة ٢٣ يوليو ، مايتعلق بالأسلوب التنظيمى الذى بنيت به هياكل النظام ومؤسساته ... وهو أسلوب فرضته التجربة التاريخية على رجالها بقدر ما شاركوا فى تأكيده .. فلدينا «شكل تنظيمى» يتصل بصميم أوضاعنا التاريخية خلال المائتى عام الأخيرة» !

●

وتواجه الديمقراطية تحديات عديدة ، تحول بين بعض الدول والقدرة على إقامة نظام ديمقراطى ، وإحدى هذه العقبات غياب التقاليد الراسخة لحرية الرأى ، أى شيوع التعصب وغياب السماحة ، نتيجة طول النظم التسلطية . ومن العقبات أيضا ظهور طبقة رأت أن مصلحتها الإبقاء على أوضاع تحقق مصالحها ، ويخشون وقوع أى تغيير يؤدى إلى الفوضى أو فقدان السيطرة ، ومن هذه العقبات أيضا ضعف أو غياب قوة اجتماعية تعتمد على هياكل ومؤسسات اقتصادية واجتماعية .

ومعروف أن الانكماش والركود الاقتصادى ، أحد الأخطار على الديمقراطية فهو يعنى الخوف الذى يولد الشك ، ويصبح المواطنون على استعداد للاستجابة إلى أية أصوات تدعو إلى التمرد ويضطهد الحكم معارضيه بشده حين يشعر أن هناك مايهدر الأسس القائم عليها .

ويقول هارولِ لاسكى فى هذا المجال .. «للتاريخ قاعدة مؤكدة هى أن النفوذ المطلق تسرى سمومه فى أوصال أصحابه ، يفرضون معاييرهم فى الخطأ والصواب على الآخرين ، ويوقنون أن صلاح المجتمع يتوقف على بقائهم فى مناصبهم» .

وفى مجال عقبات الديمقراطية ، لايمكن إغفال سيادة الأوضاع القبلية أو الأوضاع الطائفية ، عندما تتحول العشيرة أو الطائفة بديلاً للمواطنة ، وأيا كانت الوثائق الديمقراطية ، فإن الممارسة يمكن أن تجعل النصوص بلا معنى .

لقد بدأت بشائر الحرية فى كثير من أنحاء العالم، فثورة المعلومات أخذت تغير العالم ، وأخذت الفضائيات والإنترنت تزيل الحواجز السياسية والثقافية ، وأخذت الطبقة الوسطى تصبح أكثر قوة وأشد نفوذاً» . ■

البعد العلمى للثقافة

بقلم
د. مصطفى سويف

أعتقد أن جمهرة القراء الأفاضل يشاركوننى الاعتراف بصعوبة الاتفاق على وضع تعريف جامع مانع للثقافة. ولعلنا نذكر فى هذا الصدد كثيرا من المناقشات التى سبق أن أثيرت فى صحفنا وتبين من خلالها أن الموضوع يتسع للعديد من وجهات النظر المتباينة، ومع ذلك فنحن نكثر من الحديث عن المثقفين وواجباتهم وحقوقهم، ونتحدث كثيرا عن أن فلانا متعلم لكنه ليس مثقفا، ونتحدث كذلك عما نتمنى أو نرجو أن تقوم به أجهزة الإعلام من خدمات لنشر الثقافة، ونتكلم أيضا عما نتطلع إليه من أن تقوم وزارة الثقافة من دعم للثقافة والمثقفين ، وكثيرا ما نتحاور فيما بيننا حول ما إذا كان نشاط بعينه يصنف أو لا يصنف باعتباره من بين النشاطات الثقافية. والشىء الذى يمكن استخلاصه من هذه الأحاديث والمناقشات جميعا أن هناك حدا أدنى من الاتفاق بيننا حول ما نعنيه بمفهوم الثقافة، رغم كوننا لا نستطيع أن نمسك به ونحدد ماهيته فى إطار تعريف جامع مانع

من هذا المنطلق، منطلق الوقوف عند الحد الأدنى من تحديد المعنى، ومن منطلق أننى لا أستطيع أن أتكلم عن البعد العلمى للثقافة دون أن أبدأ بتحديد ما أعينه عندما أستخدم كلمة الثقافة، لذلك أبدأ بتقديم ما أعتبره نواة أساسية يدور حولها مفهوم الثقافة فى ذهنى.

نواة لتحديد مفهوم الثقافة

أشير بمفهوم الثقافة إلى منظومة معرفية أساسا، ولكنها تنطوى فى الوقت نفسه على بطانة وجدانية، وتشف كذلك

عن مؤشرات سلوكية. وبما أنها منظومة فهى تقوم بدور الإطار لتغيرات متلاحقة فى المكونات المحتـواة، وتكون هذه التغيرات ذات توجه معين، ومعنى ذلك أن الثقافة كما يحملها المثقف فى نفسه ليست حالة ثابتة «ستاتيكية» ولكنها عملية دينامية، كما أن التغيرات التى تجرى فى إطارها ليست عشوائية لكنها ذات توجه نحو مزيد من التحرير والتعديل، سعيا وراء تحقيق نمط من التوازن الذى لا يكاد يستقر حتى يختل جزئيا ليسعى نحو توازن جديد. هذا تعريف مؤقت، يمكن أن يفى بالغرض المطلوب فى حديثى الراهن. وهو بهذه الصورة أقرب إلى أن يكون تعريفا بالرسم منه إلى أن يكون تعريفا بالجنس والفصل النوعى كما يقول أهل المنطق.

وللثقافة بهذا المعنى عدة أبعاد أو جوانب رئيسية، أوضحها ثلاثة:

بعد معرفى، وآخر وجدانى، وثالث سلوكى.

فأما البعد المعرفى فيضم مجموعة من المعانى ذات مصادر متعددة «كالآداب والفنون والعلوم والحكم والأمثال.. الخ» . وتتفاوت هذه المعانى فيها بينها من حيث درجة التجريد أو التجسيم، كما أنها تنتظم فى شُكل حزم بحيث تعتبر كل حزمة بمثابة منظومة صغرى لا تكف مكوناتها عن التفاعل فيما بينها ، كما أن هذه المنظومة لا تكف عن التفاعل وسائر المنظومات المحيطة بها. وتتجلى هذه الحقائق كلها فيما يطرأ على معلوماتنا من تغيرات محدودة النطاق أحيانا ومتسعة النطاق أحيانا أخرى، كما تتوجه هذه التفاعلات جميعا نحو تحقيق أنماط من التوزان القابل أبدا للتجديد.

ويشير البعد الوجدانى للثقافة إلى مجموع العناصر الخبرية «نسبة إلى خبرة» التى تترسب فى نفوسنا نتيجة للتعرض المباشر لآثار فئة من المثيرات تنهال علينا من بعض جوانب الإطار المجتمعى، الحضارى الذى يحيط بنا «كالفنون بوجه خاص». وتتسم هذه الآثار الخبرية بأنها تتفاوت فيما بينها على تدريج متصل يتراوح بين التقبل والسرور من ناحية والنفور والامتعاض من ناحية أخرى. ولعل أوضح ما يكشف عن هذا البعد الوجدانى للثقافة رصيدنا الخبرى من التعرض للأعمال الفنية فى مجالات الموسيقى والفنون التشكيلية، فنحن فى تعاملنا المباشر مع هذه الأعمال لا نتعامل على المستوى المعرفى فحسب «كأن أعرف مثلا أن محمود سعيد رسم لوحة تسمى «ذات الجدائل الذهبية» ولكننا نتعامل فى الوقت ذاته من منطلق الشحنات الانفعالية العامة والنوعية التى تستثيرها فى نفوسنا



أعمال تلك الفنون ونختزنها فى ذاكرة خاصة بالرنين الوجدانى غير اللفظى. ومع ذلك فأنا أضرب مثلا هنا الأعمال الموسيقية وأعمال الفنون التشكيلية لأنها ربما كانت من أكثر الأعمال الفنية استثارة للشحنات الوجدانية غير المتلبسة بالألفاظ، غير أن هذه الشحنات تستثار أيضا بواسطة أعمال تنتمى إلى الفنون الأخرى كالشعر والمسرح والرواية. الخ. بل إنها تستثار أيضا من خلال تعرضنا لبعض الأعمال العلمية، فنحن نتكلم أحيانا عن خبرات جمالية تمر بنا أثناء قراءتنا بعض الأعمال العلمية، وذلك لتوفر خصائص معينة فى طبيعة البرهان الذى يقدمه الباحث، وسلاسة العلاقة بين هذا البرهان ومعمار النظرية التى ينتهى إليها البحث. على أى حال هنا فى هذا النوع من الشحنات الوجدانية التى نخبر فيها درجات متفاوتة من الرضى والسرور والنشوة يتمثل البعد الوجدانى للثقافة.

ونأتى بعد ذلك للجانب السلوكى للثقافة، أو ما يمكن أن نسميه بعد الفاعلية، ويبدو هذا البعد بجلاء فيما نبديه فى أحاديثنا أحيانا من اعتراض على بعض السلوكيات «العلمية» التى يقوم بها فلان «رغم ما نعرفه عنه من أنه مثقف» «كأن يتجه إلى أداء بعض الطقوس الشعبية ابتغاء التغلب على إحدى المشاق النفسية التى يعانى منها»، فى مثل هذه الحالات التى نواجهها عادة بإبداء الدهشة أو الاستنكار نكشف عن أننا ندرك الثقافة على أنها تنطوى على بعد سلوكى نحو مواقف الحياة، ولا ننظر إلى الثقافة باعتبارها تقتصر على كونها حصيلة لمجرد التلقى، تلقى المعلومات أو الشحنات الوجدانية بغرض التخزين والاكتناز.

خلاصة القول إذن أن مفهوم الثقافة كما أتبناه فى هذا المقال ينطوى على أبعاد ثلاثة. هى : البعد المعرفى، والبعد الوجدانى، والبعد السلوكى.

البعد العلمي للثقافة

عندما نتكلم عن البعد العلمى للثقافة تتبادر إلى الذهن معان متعددة، منها نوع المعارف، وحجمها، تلك المعارف التى تتناول مفردات مستمدة من العلوم المختلفة كالكيمياء والفيزياء. الخ.. وتدخل ضمن ثقافة المثقفين نتيجة لما يقومون به من اطلاع على مصادر المعرفة العلمية المتاحة، ومنها الكيفية التى يمكن بها تكوين مقياس لما نتصور أنه مستويات ثقافية نستطيع عن طريقها أن نقيس المقامات المتفاوتة للمثقفين. ومنها كذلك الكيفية التى يمكن بوساطتها صياغة برامج تربوية لتنشئة الصغار على طريق الثقافة ومنها أيضا تصميم خطط بحثية للدراسة العلمية لواقع الثقافة والمثقفين

وعلاقة هذا الواقع بالإطار الحضارى للمجتمع. هذه المعانى وغيرها تتداعى إلى الذهن عندما نقف أمام هذا العنوان «البعد العلمى للثقافة» ، غير أنى لن أتناول الموضوع فى مقالى الراهن إلا من الزاوية الأولى، زاوية المعارف التى تتناول مفردات مستمدة من العلوم المختلفة تدخل ضمن ثقافة المثقفين نتيجة لاطلاعهم على هذه العلوم الجارية. وربما أتيح لى من الظروف فى المستقبل المنظور أن أفرد لكل زاوية من زوايا النظر الأخرى مقالا يلقى بعض الضوء على ما تنطوى عليه هذه الزوايا من معان وإيحاءات.

البعد العلمى للثقافة بالمعنى الذى أفرد له هذا المقال يدخل فى سياق البعد المعرفى للثقافة، بمعنى أن البعد العلمى المقصود هنا جزء من كل، الجزء هو العلم والكل هو المعرفة. فإذا تركنا سياق المعرفة الثقافية الواسع وتفرغنا لتركيز الضوء على البعد العلمى فلابد من الحديث عن هذا البعد من زاويتين. زاوية الماهية أو طبيعة هذا البعد، وزاوية الوظيفة، وظيفته بالنسبة للبنية الثقافية التى تحمله بمعناها الفردى والاجتماعى.

ماهية البعد العلمى للثقافة

فى سياقنا الراهن يمثل البعد العلمى للثقافة كل ما يترسب فى أذهاننا نتيجة لاطلاعنا او تعرضنا بوجه عام للتأثر، بنواتج النشاط العلمى بصوره الأكاديمية «كما تتمثل فى المؤلفات والأحاديث والعروض الفيليمية العلمية.. إلخ»، وبصوره التطبيقية «كما تتمثل فى استخداماته المتعددة فى حياتنا الاجتماعية، فى الزراعة، والصناعة، والصحة.. إلخ» وجدير بالذكر هنا أننا نقصد الاطلاع والتعرض خارج نطاق دائرة النشاط التخصصى، من هذا القبيل اطلاع المشتغلين بالفنون والآداب على بعض الأعمال العلمية فى صورتها الأكاديمية أو تعرضهم للجوانب المعرفية اللصيقة بتطبيقاتها. وكذلك اطلاع المشتغلين بالعلم على بعض نواتج العلوم الواقعة خارج مجالات تخصصهم ودون أن يكون القصد من هذا الاطلاع خدمة التخصص خدمة مباشرة. كل ما يترسب فى الذهن بهذه الصورة يشغل مواقع مختلفة داخل مجال ما يسمى بالبعد العلمى للثقافة.

ولكن ماهية البعد العلمى لا تتمثل فى التراكم المترتب على عملية ترسب المعلومات هذه فحسب، فالصوة أعقد من ذلك بكثير، ذلك أن حقيقة العمل العلمى كما تتجلى للمطلع عليه إذا تم الاطلاع بقدر معقول من التفصيل والتدقيق تشف عن عدد من العناصر غير المتجانسة فى طبيعتها تدخل جميعا ضمن مكونات البعد العلمى للثقافة، لأنها «أى هذه

العناصر» تسهم معا فى إقامة البناء الداخلى لمنظومة العلم . وقد حاولت أن أصنف هذه العناصر فى فئات حسب طبيعتها فوجدتها تنتظم فى خمس فئات، على النحو التالى: **أولا - فئة المعلومات،** كأن تثبت فى ذهنى بعض المعلومات عن الوظائف التى تقوم بها «الناقلات العصبية» كالدوبامين، والأستايل كولين داخل خلايا المخ ، أو كأن تستقر عندى معلومات مؤداها أن مناطق المخ التى تنشط عندى حينما أشاطر شخصا عزيزاً علىَّ مشاعره وهو يتألم فى أحد مواقف الحياة تكون مماثلة تماما لنشاط مناطق المخ عنده فيما عدا أن المنطقة الحسية الحركية المعنية بتألمه تنشط عنده ومثيلتها لا تنشط عندى ... إلى آخر تلك المعلومات العلمية التى نلتقطها من هنا وهناك ولا تكاد تقع تحت حصر .

ثانيا - فئة العناصر المنهجية: من هذا القبيل أن تثبت فى الذهن بعض المفاهيم الرئيسية التى تمس جوانب فى منهج البحث العلمى، مثل مفهوم الفرض العلمى، ومفهوم العينة الممثلة لجمهور بعينه ، ومفهوم معامل الارتباط الذى لا ينطوى على علاقة سببية، ... إلخ.

ثالثاً : فئة تضم عناصر من تاريخ العلم: من هذا القبيل سير بعض العلماء وكيفية اقترانها بنشاطهم العلمى، رجال مثل جاليليو، ونيوتن ، وروناك فيشر، وابن سينا، وابن الهيثم، وابن خلدون، ومن هذا القبيل أيضا عناصر تاريخية حول طبيعة التطورات العلمية المتلاحقة وكيف أن الجديد فيها غالبا ما يستوعب القديم وقلما ينسخه .

رابعا - فئة المقامات المشتركة بين العلوم الطبيعية البيولوجية والعلوم الاجتماعية. من هذا القبيل فكرة الاحتمالات، وفكرة التنبؤ، وقابلية الظواهر للقياس الكمى، والمجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة.

خامسا - فئة العناصر الأقرب إلى أن تندرج تحت فلسفة العلم: مثال ذلك طبيعة التفسير العلمى، وطبيعة القياس الكمى ومستوياته ومناطق التداخل بين منظومة العلم والمنظومة الأخلاقية .

هناك إذن خمس فئات من العناصر تسهم فى تكوين البعد العلمى للثقافة، هى : المعلومات ، والعناصر المنهجية ، والتاريخية ، وعناصر المقامات المشتركة بين العلوم الطبيعية / البيولوجية والعلوم الاجتماعية ، ثم عناصر من فلسفة العلم. وفى هذه الفئات الخمس تتجلى ماهية البعد العلمى للثقافة .

وظيفة البعد العلمي للثقافة

هناك زوايا متعددة للنظر فى مسألة الوظائف المختلفة التى يؤديها أو يمكن أن يؤديها البعد العلمى للثقافة. وفى هذا الصدد نستطيع أن نميز بين زاويتين

اثنتين على أقل تقدير، أما الزاوية الأولى فتسلط الضوء على أثر هذا البعد على تكوين رأى اجتماعى عام على صلة بالعلم، وبأحوال المؤسسة العلمية فى المجتمع .

وأما الزاوية الثانية فتتناول أثر هذا البعد على البنية الثقافية نفسها كما يحملها المثقفون ويحاولون تفعيلها .

وأبدأ بالحديث فى إطار زاوية النظر الأولى. منطلق الحديث هنا هو أهمية ألا يتخلف المجتمع عن مواكبة مسيرة العلم المعاصر متمثلا فى أحدث جبهات تقدم، لأن هذا التخلف يهدد المجتمع فى شئونه الحياتية جميعا، بدءاً بالغذاء والصحة ووصولا إلى الأمن وحق أبناء المجتمع فى الرفاه. ومنطلق الحديث أيضا هو أهمية أن يكون المجتمع مشاركا فعلا بنصيب ما فى إنتاج العلم، وفى صناعة التقدم العلمى المقبولة حسب المعايير العالمية، ولا يكتفى بأن يكون مستورداً للعلم متمثلا فى خبرائه وتقنياته ، لأن جميع الدلائل تدل على إمكان أن تحبس عنه هذه السلع العلمية (أعنى الخبراء والتقنيات) ما لم يكن لديه ما يقدمه فى هذا المضمار على سبيل المقايضة ، فإما أن يقايض بمنتجات علمية من صنعه ، أو يجبر على المقايضة بأقدار من ثروته الوطنية أو من إرادته السياسية. ولما كان السياسيون المحترفون ينشغلون عادة بمواجهة المشكلات المباشرة والتدبير للحلول العاجلة بينما يحتاج إنتاج العلم إلى الخطط بعيدة المدى آجلة العائد ، لذلك وجب أن تكون هناك ضغوط مجتمعية على رجال السياسة لتكريس جزء من جهودهم للتفكير والتدبير لشئون التقدم العلمى على المستوى الاجتماعى، ولا يكفى لتفعيل هذه الضغوط أن تبذل من قبل المؤسسات الرسمية ولكن لابد من أن تقوم وراء ضغوط هذه المؤسسات ضغوط مجتمعية واسعة النطاق، يقودها رأى عام مثقف، يحمل فى عقله وفى ضميره البعد العلمى، ولا يكف عن الحث والدفع والمطالبة بصوت عال وبمطالب واضحة مفصلة. هذا عن الوظيفة الأولى

أما عن الوظيفة الثانية للبعد العلمى، وهى أثر هذا البعد على المنظومة الثقافية كما يحملها المثقف ففى هذا الصدد لابد من الاهتمام بجميع مكونات البعد العلمى كما أحصيناها. ومع ذلك ، وأمام القيود التى تفرضها محدودية المقال الراهن ، فربما أجزتُ لنفسى إعطاء الأولوية لمكوّنين اثنين على وجه التحديد هما فئتا العناصر المنهجية والعناصر التاريخية . جدير بالذكر هنا أن مواضع القوة فى العلم متعددة، ولكن أقوى هذه المواضع هو المنهج، ذلك أن المنهج هو المسئول الأول عن التقدم المتواصل

للعلم، وعن نموه التراكمي، وعن قابلية نتائجه للتطويع في أشكال تطبيقية مختلفة، ويتحقق ذلك كله (أي التقدم ، والنمو التراكمي، والمطاوعة) بفضل خاصية بالغة الأهمية للمنهج العلمي، هي ما يمكن أن نسميه خاصية التصحيح الذاتي.

ويمكننا جميعا أن ندرك هذه الخاصية إذا نظرنا عن قرب في بعض العناصر المنهجية، وفي الكيفية التي تؤدي بها هذه العناصر دورها في تسيير دفة العلم. نأخذ مثلا عنصر «الفرض العلمي». فالفرض العلمي فكرة تطرأ على ذهن الباحث، وهي تنطوي على تنبؤ، «إذا صح كذا فسيحدث كذا»، ونحن في حياتنا اليومية كثيرا ما نمارس هذه الصيغة الفكرية ولكن بطريقة غير منضبطة، أما في مجال العلم فالفكرة/ الفرض هي مشروع تجربة علمية، فإذا نجحت التجربة وتحقق التنبؤ قُبِلتْ الفكرة/ الفرض وأصبحت نواة لقانون علمي أو خطوة على الطريق إلى بناء نظرية، أما إذا فشلت فلابد من الانصراف عنها والبحث عن غيرها من أفكار قد تكون أجدى بالنسبة لمسيرة البحث. هكذا يحدث التصحيح الذاتي للمسيرة، ولفكرة الباحث أولا بأول. وللتصحيح الذاتي مداخل أخرى متعددة في كيان العلم. ولنتأمل فيما يمكن أن يحدث في ذهن المثقف الجاد الذي يحرص على الاطلاع على بعض المؤلفات العلمية، ولنتساءل: أليس وارداً أن يفيد هذا المثقف من هذه المفردة المنهجية على سبيل التعميم أو المحاكاة؟ ومع ذلك فما أتحدث عنه هنا إنما يحدث على مستوى المثقف الفرد، فكم يكون الأثر كبيرا إذا تصورناه يحدث على مستوى أعداد متزايدة من مجموع المثقفين. وفي هذا السياق نفسه يمكن التنبيه إلى عدد كبير من العناصر المنهجية الأخرى في العلم؛ من هذا القبيل مفهوم العّينة، ومفهوم الاحتمالية، ومفهوم الاقتران الذي قد لا ينطوي على علاقة سببية، وعشرات من العناصر المنهجية المماثلة. ولنا أن نتخيل كم يكون تأثيرها عظيما إذا أُحسِنَ توظيفها لزيادة كفاءة المنظومة الثقافية في مجموعها.

ونترك الآن مسألة المنهج، وننظر في أمر مكوّن آخر من مكونات البعد العلمي، ننظر في المكون التاريخي. أعني عناصر تاريخ العلم؛ ننظر في عنصر الإسهام العربي في التاريخ العلمي للعلم، كثيرون بيننا يعرفون أن الحضارة العربية في العصور الوسطى كان لها إسهاماتها في تاريخ العلم، هذا أمر لا شك فيه، ولكن المهم في هذا الشأن ألا تظل هذه المعلومة عامة أو جوفاء، المهم أن تمتلىء هذه المعلومة بمضمون يثريها فيزيد من

قابليتها للتفعيل فى نفوس حامليها، المهم أن تحتوى ثقافتنا على قدر معقول من المعلومات المفصَّلة عن سير العلماء العرب القدامى، وعن إسهاماتهم العلمية؛ مثال ذلك بحوث البصريات عند ابن الهيثم، أو وصف ابن سينا لأعراض الاكتئاب، أو وصف داود الإنطاكى للآثار السلوكية المترتبة على تعاطى القنَّب .. إلخ مثل هذه العناصر المستمدة من تاريخ العلم من شأنها أن تزيد من استبصارنا بالجذور الحضارية المتشعبة للعلم الحديث، ومن ثم تزيد من قدرتنا على تصحيح كثير من الأخطاء الشائعة فى الكتابات المتعددة حول تاريخ العلم.

أعتقد أن كل ما يدخل فى تكوين البعد العلمى من مكونات إنما يزخر بإمكانات لا حدود لها فيما يتعلق بالتحليل الوظيفى لهذه المكونات وما يمكن أن يترتب على هذا التناول التحليلى الوظيفى لهذه المكونات من إثراء للرأى العام ومن تفعيل للخزانة الثقافية كما يحملها المثقفون. وإذا كنت قد اقتصرت فى حديثى على التحليل الوظيفى لمكونين اثنين من مكونات البعد العلمى فما ذلك إلا مراعاة لدواعى محدودية هذا المقال. وفى يقينى أن القارئ يستطيع أن يكمل بنفسه مسيرة هذا التحليل فيما يتعلق بالمكونات الثلاثة الأخرى: المعلومات، والمقامات المشتركة بين العلوم الطبيعية/ البيولوچية، والمفردات الأقرب إلى فلسفة العلم.

فى ختام هذا الحديث أجد لزاما علىَّ أن أشير إلى بضعة تعقيبات لا يستقيم الحديث بدونها:

أولا: يثير هذا الحديث بصورة ضمنية مسألة الشروط التى يجب أن تتوفر فى المؤلفات العلمية التى يمكن للقارئ غير المتخصص أن يقرأها ويستوعب مادتها العلمية.

ويحضرنى الآن شرطان أساسيان هما: (١) التبسيط غير المخل، و(٢) الأمانة والنزاهة فى الالتزام بروح العلم، بمعنى الامتناع عن البَثّ الأيديولوچى فى ثنايا الكتابة العلمية.

ثانياً: يثير هذا الحديث، وبصورة ضمنية أيضا مسألة الحاجة إلى أن تكون ثقافة المثقف متوازنة، بمعنى أن تُكامل بين شقين: شق الدراية بالآداب والفنون والإنسانيات من ناحية ، وشق المعرفة بالعلوم من ناحية أخرى. وفى رؤيتى أن تحقيق التكافؤ بين شقى هذا البناء المتكامل من شأنه أن يدفع بحامله إلى مزيد من الفاعلية فى الحياة الاجتماعية.

ثالثا: يثير هذا الحديث كذلك سؤالا شديد الجذرية: لماذا الثقافة؟

كيف يكون التحليل الوظيفى للثقافة؟ ■

فى محنة الدروس الخصوصية

التعليم اليوم صورى وليس حقيقيا !

بقلم
د. محمد رجب البيومى

كنت أزور بعض الناس للحديث فى موضوع مشترك ، وقد أراد إشعال السيجارة فلم يجد الكبريت، فانطلق يدعو ابن البواب ليشترى له المطلوب من محل فلان! هكذا عين صاحب المحل، وانطلق المسكين فوجد المحل موصدا، فرجع يخبره بما كان، فما كان من صاحبى إلا أن انفجر فى وجهه، وقال لى إن هذا الولد مثال الغباء، وقد طرد من المدرسة لأنه تخلف، ولم يجز الامتحان ! وظهر التألم على وجهى بعد أن آثرت السكوت، فسألني عما اعترانى، فقلت له إنى تألمت لسببين لا لسبب واحد، فأنت الذى حددت له اسم البائع، وقد التزم بقولك فلا ملام ، ثم إنه طرد من المدرسة لتخلفه وكان من المتوقع أن يتخلف فجميع سكان العمارة، يتعبونه نازلاً صاعداً فى شراء ما يلزم بعد أن يأتى من المدرسة وليس فى حجرة أبيه بأسفل العمارة مكان يصلح لاستذكار دروسه إذا أراد ذلك بعد تعب اليوم الطويل ، والمدرسة اليوم كما نعلم لا تعطى درساً ما يساعد على النجاح، وأنت وأنا نعطى الدروس الخاصة الضرورية لأبنائنا وبدونها لن ينجح تلميذ مهما ارتاح فى منزله، ولم يكن خادما يذهب ويجئ ! فالتلميذ المسكين لم يتخلف لإهماله، ولكن احتياج والده قد أعده ليكون خادما لا تلميذاً.

والمدرسة من ناحيتها - للأسف - مدرسة صورية لا حقيقية، تعد الفصول والمدرس والحصص الدراسية إعداداً لا يفيد غير من يأخذ الدرس الخصوصي من المدرس! أفيكون التلميذ بعد ذلك مثال الغباء ، وقد طرد من المدرسة لأنه متخلف كما تقول ! إنه ذو حظ تعيس !

تكافؤ الفرص

رجعت ضائقاً محزوناً أفكر في حالة التلميذ الفقير في المدرسة بين الأمس واليوم ، كان التلميذ قديماً في ما قبل المرحلة الجامعية يجد الجو المدرسي الملائم لتلقي الدروس ، فالأستاذ يؤدي واجبه كأحسن ما يكون والتلميذ الفقير يجد ما يجد التلميذ الثري من الإقبال والاهتمام ، فميدان التسابق متكافئ لا شذوذ به ، وإذا رجع إلى منزله استطاع أن يراجع ما أخذ من الدروس دون حاجة لدرس خاص ، وهو يعلم أن المدرسة فرصته الوحيدة ، لإشراق مستقبله ، وأبوه يؤكد له ذلك بمظهره ومخبره ، فيؤثر الاجتهاد ، ويجتاز الامتحان بنجاح !

كان تكافؤ الفرص عاملاً رئيسياً في إيجاد الطبقة المتوسطة في الشعب ، وهي التي تقوم بالدور الرئيسي في التقدم الاجتماعي ، لأن اجتهاد أبناء الفقراء في المدرسة قد دفعهم إلى الصفوف الأمامية فنالوا الوظائف المناسبة ، ولديهم من الكفاح الذي مرنوا عليه من قبل ما يدفعهم إلى الجد الصارم في مزاولة أسباب الحياة ، ثم جاء دورهم في الإنجاب ، فحرصوا على مستوى مشرف لأبنائهم لم يحظوا به من قبل . فوجد جيل جديد من هؤلاء يعتمد على نفسه بإرشاد المسئولين من آبائه ، واتصلت الحلقات لتؤدي إلى المزيد ، ولا يمكن في الظروف الأليمة للمدارس اليوم أن تواصل رسالتها في تقدير المجتهد ، وتزكية النابه ، فتكون النتيجة أن يرسب التلميذ الفقير ، وأن يخرج إلى المجتمع عاطلا لا يجد ما يعمل ، وتلك هي المأساة !

الفقر مدرسة النبوغ

أعرف أن الفقر مدرسة النبوغ ، وأن الألم يلهب فيلهم ، ولكن متى ؟ إذا فتحت النوافذ للمعرفة ، ووجد التلميذ البائس جوا يساعده على النمو التعليمي . أما أن تحقق المدرسة إخفاقاً تاماً في رعاية هذا المتطلع إلى الحياة الكريمة . وأما أن يضيق به والده البائس فيرميه إلى الشارع دون اهتمام فإن طوفان التشرد سيمتد بأوبئته الوخيمة دون انقطاع .

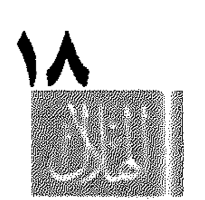
والتشرد نكافحه بالمسكنات فقط ، فالملاجئ والاصلاحيات ، لا تستوعب أكثر من عشرة في المائة ممن لا يزالون يجمعون أعقاب السجائر ، ويتسللون إلى

الجيوب فى الزحام الحاشد بوسائل المواصلات ، ويخطفون حقائب الصغار من طلاب المدارس ويبحثون فى المزابل عن فتات الطعام شركة مع القطط والكلاب، بعض هؤلاء هم تلاميذ المدارس الذين لم يعرفوا سبل النجاح ، فضاق بهم ذووهم ممن يضيقون بنفوسهم قبل أن يضيقوا بأبنائهم، فرموهم إلى الطريق ، وفيهم من اعتمد عليهم فى أكل عيشه ، فحبب لابنه أن يسرق وأن يتسول ليعود مساء إليه بما يمسك رمقه! ولازال شعار محو الأمية بعد ذلك نطلقه مقرونا برسالة التعليم الابتدائى ، فلم تمح الأمية ، ولكنها فتحت بابا واسعا للمتشردين !

كان المغفور له الاستاذ عبد العزيز جاويش قد قدم مشروعا عمليا سنة ١٩٢٥ م إلى وزير المعارف محمد توفيق رفعت باشا ، يدعو فيه إلى أن تكون المدرسة الأولية ذات رسالتين رسالة تربوية وهى محو الأمية ورسالة عملية ، وهى تهيئة التلميذ منذ بدء حياته إلى عمل صناعى أو زراعى تضمن له الكسب إن خرج من المدرسة الأولية واكتفى بها ، بحيث تكون مسائل التربية التعليمية مقتصرة على الضرورى الذى يمحو الأمية ويلم بمبادئ الحساب والدين والكتابة فقط لتجد التربية العملية نصيبها فى إعداد العامل والزارع فى الريف على نحو أخص ، ولو أخذ بهذا الاقتراح ، وقامت الوسائل الصحيحة على تنفيذه، لوجد التلميذ الذى لم يوفق فى دروس الثقافة له بابا للارتزاق بما أتقن من حرفة قد تكون السباكة أو التجارة أو الزراعة أو الحدادة ، وحينئذ يجد باب الرزق. والمدارس الفنية الآن لا تؤدى رسالتها على الوجه المنشود مع أنها تلى المرحلة الإعدادية، فإذا كنا لا نستطيع الآن مواجهة الدروس الخصوصية فى مدارس الحضانة والمدارس الابتدائية وإذا كان أبناء الفقراء يتعثرون فى خطواتهم لعدم قيام المدرسة بواجبها المنوط بها ، فإن الواجب الحتم لذلك هو أن نعود إلى اقتراح الاستاذ عبد العزيز جاويش ، لأنه يفتح باب العمل للتلميذ حين تضيق أمامه سبل الدراسة المنتظمة فيخرج إلى العالم الفسيح دون نصير .

المجانية المزعومة

وحين أكرر فزعى لفراغ المدارس من مضمونها الحقيقى الذى أنشئت من أجله ، أجد من يعارض هذه الحقيقة السافرة ، مستدلا بما تنشره الجرائد عن تقدم التعليم باتخاذ الوسائل الحضارية من انترنت وتليفزيون ، وأجهزة لم تكن معروفة من قبل ، ولكن ذلك كله شئ، والخواء الفارغ فى تأدية المدرسة رسالتها على الوجه المنشود شئ آخر ،



والحديث فى هذا شبيه بالحديث عن المجانية المزعومة فى التعليم ، لأن أولياء الأمور قد زهقت أرواحهم بنفقات الدروس الخصوصية التى أصبحت قضاء وقدرا لا محيد عنه ، ويتمنون بفارغ الصبر أن تمحى المجانية وتعود المصروفات المدرسية مضاعفة مضاعفة لتمحو بلاء الدروس الخصوصية ، ولو كانت المدرسة تقوم بواجبها على النحو المنشود لما باع الآباء الضرورى من أثاث المنزل ، والكمالى من حلى الزوجة ، واليسير الضئيل من العقار ليطفئوا بلاء هذه الدروس ، ثم ماذا بعد ذلك كله ! ماذا بعد التخرج من الجامعة ، وقد بلغت الروح الحلقوم لدى الأب والأم ، إنها البطالة الصارخة التى تجعل حامل الليسانس والبكالوريوس مثل الذى لم يتعلم حرفاً واحداً فى سنة دراسية ! بل ربما يفوقه بما مارسه فى الحياة العملية من مهارات لم تهيأ له ، أليس هذا هو الواقع المرير ؟

البحث عن العلاج

والمشكلة التى يشير إليها عنوان هذا المقال لا تزال قائمة لا تجد أدنى حل يريح .. أفنترك التلميذ المسكين الذى لم يوفق إلى اجتياز سنوات التعليم الابتدائى هكذا ؟؟ أنتركه حيث لا يهتم به ولى أمر يرعى حقوق الأبوة ، بل يكون فى بعض أحواله كما أسلفنا من قبل عاملاً أساسياً فى انحدار فلذة كبده إلى أسوأ الدركات ، أم نبحث عن علاج منقذ لهذه الزهرات الغضة التى تفاجئها عواصف الرياح بما يعجل ذبولها السريع ؟

إن الرأى الذى أراه ، أن تقوم جوار المدرسة الابتدائية التعليمية ، المدرسة الابتدائية العملية ، فتتلقى الذين لم يستطيعوا الانتظام المدرسى ، ليتعلموا الحرف المهنية التى تهيئهم للحياة ، فتكون بها فصول للزراعة والحدادة والسباكة والنجارة بحسب ما تتطلبه البيئة المحلية ، فإذا قضى التلميذ سنوات الدراسة بهذا النمط من التعليم ، فإنه سيتجه تلقائياً إلى الكسب الشريف، وسيجد من يرحب به فى مجالات الإنشاء والتعمير ، وينجو من سيطرة والد قد يضطره إلى مالا يليق ، إذ فى محاضر بعض مراكز الشرطة انحرافات شائنة لابناء صغار كانوا ضحية توجيه الآباء المنحدرين ، بل ماذا أقول حين أجد فى بعض هذه المحاضر انحرافات لبنات صغيرات كن ضحايا التوجيهات الآثمة للأمهات والآباء معا ، ولابد أن يكون بهذه المدارس العملية فصول للفتيات الصغيرات حيث يدربن على ما يليق بهن من فنون التطريز والأشغال المنزلية

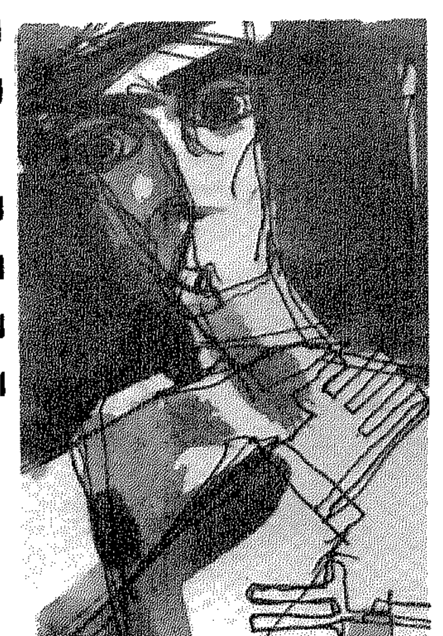
، والحياكة مما يؤهلن للكسب الشريف ، وهنا يبدأ الإنقاذ العملى للتلميذ المسكين !

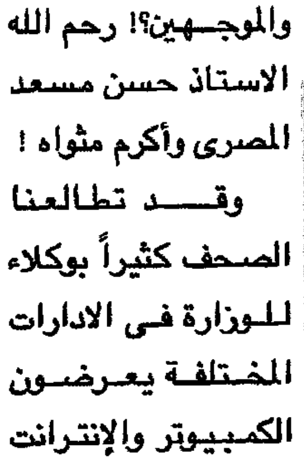
إن المسألة الخافية عن كثير ممن يتحدثون عن بلاء الدروس الخصوصية أنها منعت كثيراً من أبناء الفقراء عن التعليم فى المرحلة الأولى ، وبخاصة حين قررت اللغة الانجليزية على التلاميذ وأصبح الدرس الخصوصى - بلا مراء - أداة النجاح ، والذى سيواصل حضوره دون درس سيتكرر رسوبه ، ويقذف به إلى الخلاء ، ومع اشتداد أعباء الحياة ، سيعجز ولى الأمر الفقير فيما بعد التعليم الابتدائى عن مساعدة بعض بنيه فيكتفى بواحد أو إثنين ، وقد يكون فيمن أجبروا على الامتناع من ذوى الذكاء من كان يرجى لهم حسن المستقبل إن سارت الريح رخاء دون إعصار ، وبذلك تفقد الأمة من أعضائها الصلاب ممن كان يرجى منهم أن يكونوا عونا على النماء الاجتماعى ، فأصبحوا قانعين بالكفاف ، فلماذا لا يتحدث التربويون عن هذا الخطر الذى بدت مظاهره على نحو صريح ، ولماذا تعقد المؤتمرات متحدثة عن المناهج والتطور المتخذ من وسائل الحضارة فى المعامل والفصول ما يعد جديداً فى بابه ، ثم لا يلتفت المتحدثون إلى الذين سيحرمون لعجز الآباء ، واشتداد الأزمة المالية على نحو لا يبشر بالانفراج، بل لماذا لا يسكت المتحدثون كل يوم فى مؤتمرات المرأة عما يكررونه دائماً من التطلع إلى حقوق مظهرية يعدونها وسيلة التقدم الحضارى ثم يسكتون عامدين عن هوان المرأة الذليل فى القنوات الفضائية حين تبدو كالعارية فى الغناء ، وحين تبدى من أنواع التبذل الشائن فى القبل والعناق والاحضان والارتخاء ما يجعلها سلعة تباع بأرخص الأثمان ، وقد كادت تستغنى عن ورقة التوت هل فكر الداعون إلى حقوق المرأة فى اجتماعات مظهرية لا خير من ورائها، فيما يشاهدون من بلاء ماحق سيمزق الأسر شر تمزيق ! لقد كنا نطلب من هؤلاء احتجاجاً قولياً فقط يظهر أنهم يحافظون على كرامة المرأة المهدورة ، ولكنهم فى رأيى لا يعدون ما تظهره القنوات العابثة موضع اعتراض ، بل لعله فى رأيهم بعض الخطوات السريعة فى طريق التقدم المنشود ، ثم أليست رعاية الطفل الفقير ، والعمل على رفع مستواه التعليمى من أوائل ما تتوجه إليه الفاضلات من المتحذلقات أم أن المرأة شئ ، والطفل شئ آخر، مع أنه لديها كل شئ فى الحياة !

ضياع حق الفقير

لعلى استطردت قليلاً فإن القلم

يقودني كثيراً دون أن أقوده، ولكني أعود إلى الموضوع فأعلن أن التلميذ الفقير ضاع حقه نهائياً الآن ، لأن المدارس كما يشهد الله ويشهد جميع العارفين ليست إلا فصولا وأدراجاً فحسب ، فالمدرس في تسعين في المائة ، لا يقوم بواجبه إطلاقاً ، مكتفياً بالدلائل المظهرية من إعداد كراسة التحضير وكتابة السبورة وأغرب ما يفاجئنا في هذا الأمر أن المدرسة الاعدادية والمدرسة الثانوية بكل واحدة منهما أكثر من خمسة وكلاء مع المدير والناظر وطابور المدرسين الأوائل ، فماذا يفعل هؤلاء؟ ولماذا لا يختص كل وكيل بدور من أدوار المدرسة فيمر على كل مدرس بالفصل ، ويراجع السبورة ، ويوقع على الكراسات ملاحظاً خطوات التقدم التدريجي ، فإذا استشعر المدرس أنه محاصر تماما بالرقابة اليقظة أدى واجبه ، وأتاح للتلميذ الفقير أن يجد ما يعينه على المذاكرة حين يتعذر الدرس الخصوصي على أمثاله ، أذكر أني كنت في الستينات مدرساً بالمنصورة الثانوية ، وكان الناظر من الحزم والجد بحيث يواصل المرور يومياً على الفصول والمدرسة حينئذ كالجامعة إذ بها إثنان وثمانون فصلاً ، والعمل برعاية الناظر يؤدى على أحسن ما ينتظر أذكر أن مدرساً للرياضة كان عند الناس من المقربين للناظر، وقد تلقى هذا الناظر الاداري الحازم ورقة من طالب مجهول تقول إن المدرس يكتفي بكتابة مسألة حسابية على السبورة ، ويتركنا بعد ذلك دون أن يشرح شيئاً، فما كان من الناظر الاستاذ مسعد المصري رحمه الله إلا أن جال جولة أولى في مبدأ الحصة ، وشاهد المسألة على السبورة ، وظن المدرس ، أنه بعد هذا المرور لا يعقل أن يجئ مرة ثانية ، ولكنه قبل انتهاء الحصة بثلاث دقائق اتجه إلى الفصل ، ورأى المسألة الحسابية هي هي دون أن يصنع المدرس جديداً ، فتحقق من صدق الشكوى ، وطلب من المدرس أن يعجل بالحضور إليه ليختار مدرسة أخرى إذ إن مثله في خموله لا يجوز أن يكون من أعوانه ! هذه اليقظة الادارية ذات الإخلاص الصارم تمت بمجهود إنسان واحد فكيف بطابور الإداريين والموجهين؟! رحم الله الاستاذ حسن مسعد المصري وأكرم مثواه !





وقد تطالعنا الصحف كثيراً بوكلاء للوزارة في الادارات المختلفة يعرضون الكمبيوتر والإنترانت



وبعض المستحدثات ويزهــون بأنها أصبحت من مستلزمات الطلاب ، فكانت دليلا على التقدم المدرسى ، والواقع المرير أن التلميذ لا يستفيد منها شيئاً ذا بال ، إذ لا يقوم المدرس بجهد ما غير التنبيه على الدرس الخصوصى بالمنزل وهكذا تقدم الاطباق الشهية مليئة باللحم والفاكهة والحلوى وليس لدى التلاميذ أسنان تساعد على الهضم ! والصور كل يوم تملأ الصفحات !

إن مشكلة الطالب الفقير فى عصر الدروس الخصوصية مشكلة قائمة لا سبيل إلى تجاهلها ، لأنه لا يحصل فى المدرسة قليلاً ولا كثيراً ، وسيتقهقر فى الامتحان لا محالة ، وإذا تكرر رسوبه طرد إلى الشارع لا لأنه لم يجد المدرس الموجه ، بل لأنه تلميذ فاشل ! وهو فى أعماقه يعلم أنه ليس أقل جدارة من الناجحين ، ولكنهم ، أخذوا الدروس وباء بالحرمان.

إن الفقر المادى لا يعيب التلميذ ، ولكنه يعيب مجتمعه الظلوم ، وقد كتب الأستاذ فتحي رضوان فى كتابه (أفكار الكبار) فصلاً بارعا عن الدكتور زكى مبارك قال فيه إنه نشأ فى الأزهر، والأزهر مدرسة الفقراء ، لأن التعليم به بالجان، لذلك سطع فى مصر بين نجومه من أبناء الفقراء من كانوا من أعلام العصر، وأخذ الأستاذ فتحى رضوان يذكر من هؤلاء النوابغ محمد عبده والمراغى وشلتوت وطه حسين وأحمد أمين والمنفلوطى ودراز وأبا العيون والغاياتى والهلباوى ومحمد أبا شادى والهيهاوى ومحمد ابراهيم وعبد الوهاب خلاف وأبا زهرة وعبد الله النديم وآخرين يجدهم القارى فى ص ٥٤ من الكتاب ، وأزيد على ما ذكره الاستاذ فتحى رضوان فأقول إن الازهر فى هذا العهد كان المعهد الوحيد الذى يخاف فيه الأستاذ من التلميذ ! أجل يخاف الاستاذ من التلميذ إذ لابد أن يوجد فى كل حلقة من حلقات العلم ثلاثة أو أربعة

من الطلاب ، قد ذاكروا الدرس مذاكرة تامة قبل ميعاده ، وتربصوا بالأستاذ فى شرحه ، فلا يتركونه دون أن يجيب عن أسئلتهم الدقيقة ، وقد يخطئ المراد فى مسألة ، فيتصدى له الطلاب فى حرية مكفولة ، لا تعرف الانزواء ، وهنا يكون الدرس ، شبيها بالحومة ! فهل يوجد الآن فى أى معهد مدنى أو دينى هذه الحرية المفرطة فى السؤال والجواب ، وتأكيدا لذلك استشهد بما ذكر الدكتور طه حسين فى الجزء الثانى من الأيام حين قال عن حوار قام بينه وبين بعض الاساتذة وهو طالب مبتدئ فى الازهر «لقد أتعب الفتى - يريد نفسه - شيخه حوارا وجدالاً حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط «الله يحكم بينى وبينك يوم القيامة !! ص ١٣٠ من الأيام ! لقد كان الأزهر يومئذ متنفسا لأبناء الفقراء ووجدوا فى دروسه ما سبق بهم إلى التقدم فى مضمار الحياة ! فأين يجد الآن من تتقاذفهم الطرقات دون نصير ! أين يجدون الدرس المستوفى والمدرس القويم ؟

ويح التلميذ الفقير ، حين ينبذ بالعراء وهو مذموم ! لأن والده لا يقوم بنفقات المنزل إلا بشق النفس ! فمن له بمئات الجنيهات تبذل لولد واحد ، ولديه عدة أولاد ! إن أكثر القائمين الآن على شئون البلاد فى جميع مرافقها ، من الذين تعلموا بالمدارس حين لم يكن هناك مجال للدروس الخصوصية ، وبانتظام الدراسة التعليمية آنذاك استطاعوا أن يأخذوا أرقى الشهادات وأن يكونوا من ذوى الشأن فى إدارة البلاد ، ولو كان الأمر حينئذ هو الأمر المشاهد اليوم لما استطاع الكثير منهم مواصلة التعليم ، ولكان حظهم البائس كحظ تلاميذ اليوم ، أفلا ينظرون إلى معاناة الفقير الذى لا يملك نفقات الدروس الخصوصية فى ضوء ما كان يتهددهم لو ووجهوا بهذه الأعباء ! ولست بذلك أضائل من مكانتهم فى المجتمع ، فالمرء بعمله وجده لا بماله ونسبه وقد كان والد اسماعيل صبرى باشا الشاعر العظيم متواضعاً فى وظيفته . وحين بلغ اسماعيل صبرى مبلغه من النبوغ فى الأدب ، والرفعة فى المناصب ، تحدث عنه حاقدوه بما يسئ بتواضع أبيه فرد عليهم شوقى رداً مفحماً حين قال فى رثائه .

إن فاته نسب الرضى فربما
جريا لغاية سؤدد وطراف
شرف العصاميين صنع نفوسهم
من ذا يقيس بهم بنى الأشراف ؟
قل للمشير إلى أبيه وجده
أعلمت للقمرين من أسلاف ؟

وفى هذا بلاغ !!



أكذوبة التنمية الإنسانية

بقلم
د. جلال أمين

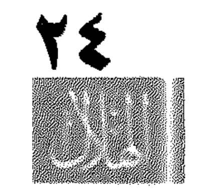
لم يكن وصف بعض بلاد العالم بأنها بلاد «متخلفة» وصفا شائعا بل لعله لم يستخدم علي الاطلاق ، قبل نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن من المدهش كيف شاع استخدامه بعد تلك الحرب ، ورددته الألسنة ، وتكرر ظهوره في عناوين الكتب والمؤتمرات والندوات ، بل وأصبح له أساتذة متخصصون وأقسام خاصة في جامعة بعد أخري من الجامعات الأوروبية والأمريكية .

هكذا استيقظنا في صباح أحد الأيام فوجدنا أننا ننتمي إلي بلاد «متخلفة» وانشغل الاقتصاديون بمحاولة تعريفنا تعريفا دقيقا ، حتي يعلم بأمرنا من لم يكن يعلم .

قامت مجموعة من الخبراء الذين انتقتهم هيئة الأمم المتحدة لهذا الغرض (فى ١٩٥١) بتعريف البلاد المتخلفة بأنها تلك البلاد ذات متوسط الدخل المنخفض بالمقارنة بالولايات المتحدة . وسرعان ما انتشر هذا التعريف وأصبح أكثر التعريفات شيوعا .

وما أكثر الجداول التى أعدت ونشرت والتى ترتب بلاد العالم ، بعضها فوق بعض ، طبقا لهذا المعيار ، وهو متوسط الدخل . واختلف الاقتصاديون فقط فى تحديد المكان الذى يوضع فيه الخط الفاصل بين البلاد المتخلفة والمتقدمة ، فالمتشددون اعتبروا البلاد المتخلفة تلك التى يقل متوسط الدخل فيها عن ربع متوسط الدخل فى الولايات المتحدة بينما اكتفى المتساهلون بعشر هذا المتوسط أو ثمنه .

لم يخطر ببالنا قط فى ذلك الوقت ، أى منذ نحو خمسين عاما ، نحن الطلبة المشغولين بقضية التقدم الاقتصادى ، أن مثل هذه الجداول ترتكب خطأ فاحشا، إذ تعامل طائفة كبيرة من البلاد والأمم والثقافات نفس المعاملة ، لمجرد أنها تشترك فى خصيصة واحدة تهم الاقتصاديين أكثر من غيرهم ، وهى انخفاض متوسط الدخل ، رغم ما بين هذه البلاد والأمم والثقافات من اختلافات شاسعة فى كل شىء آخر تقريبا ، من طبيعة المناخ إلى نوع



التضاريس ، إلى خصائص اللغة ، إلى درجة التجانس العرقى إلى طبيعة الدين السائد ، فضلا عن اختلاف التاريخ ، ونوع العلاقة بين كل من هذه الأمم والدول الأوروبية الاستعمارية ، وقربها أو بعدها عن أوروبا وأمريكا . إلخ ، رغم أن هذه الاختلافات المهمة كانت تتطلب سياسات اقتصادية مختلفة وترتيبا مختلفا للأولويات ، وأساليب مختلفة فى مخاطبة الجماهير وكسب تعاطفهم مع مايراد تطبيقة من سياسات .. إلخ .

أهمل الباحثون فى التنمية الاقتصادية كل هذه الأمور إهمالا شنيعاً ، فهم إما لم يشيروا إليها فى كتبهم وبحوثهم بكلمة ، أو ذكروها فى جملة عارضة أو وضعوها فى هامش ، حتى يتفرغوا لمهمتهم الوحيدة وهى بحث طرق زيادة الدخل ، وما يتطلبه هذا من زيادة الادخار ، والاستثمار أو معونات واستثمارات أجنبية ، أو تحرير أو تقييد التجارة ، أو زيادة ، أو تخفيض الضرائب .. إلخ .

وكأن هذه المتغيرات الاقتصادية كلها لا تتوقف هى نفسها على تلك الأشياء الأخرى التى جرى إهمالها ، من عادات وتقاليد ودين ولغة وعلاقات اجتماعية بين أفراد الأمة بعضهم البعض ، وعلاقات سياسية مع الدول الأقوى والأكبر .

من بين مالم يخطر ببالنا قط فى ذلك الوقت التمييز فى داخل هذه المجموعة من البلاد المسماة بالمتخلفة ، أى ذات متوسط الدخل المنخفض ، بين بلاد ذات حضارات عريقة وأخرى ليس لها مثل هذه الحضارات . أو بين بلاد عرفت نظام الدولة المركزية القوية منذ آلاف من السنين ، ودول لم يمض على إنشائها خمس سنوات أو أقل ، إن وضع هذين النوعين من البلاد فى جدول واحد والحديث عنها كلها وكأن مايحتاجه النوع الأول من وسائل للنهوض الاقتصادى هو نفس مايحتاجة النوع الثانى ، كان يشبه مرور وابور الزلط أو البلدوزر على طريق ملىء بالمرتفعات والمنخفضات والمبانى والآثار فسواها كلها بالأرض وقضى على أى سمة تميز كلا منها عن غيرها .

كان الأجدر بالباحثين فى أمر نهضة هذه البلاد أن يلتفتوا إلى أن عملية «إصلاح» يمكن أن تحدث بعد مرور هذا البلدوزر ، حتى لو أدت إلى تنمية اقتصادية ، يمكن أن تحدث ضررا بالغا وتخريبا شديدا فى تلك الامم ذات الحضارات العريقة ، والتى أجريت عليها عملية «الإصلاح الاقتصادى» دون أى مراعاة لأثرها على ثقافة وتقاليد هذه الأمم وقيمها الاجتماعية والخلقية . كان لابد أن نتوقع هذه النتيجة المؤسفة التى حدثت بالفعل ، وهى أنه بعد ثلاثين أو

أربعين سنة من هذه التنمية الاقتصادية التى لا تلقى أى بال للتراث الحضارى والثقافى لأمم فقيرة حقا ، ولكنها عريقة فى مضمار التحضر ، لابد أن تتحول هذه الأمم إلى مسخ لثقافة وحضارة دول أخرى متفوقة عليها حقا اقتصاديا وتكنولوجيا ولكن ليس بالضرورة فى غير ذلك من أمور .

قد يعترض على هذا بالقول بأن كثيرين من الاقتصاديين كانوا يتوخون الحذر عن وصف بلادنا بأنها متخلفة فيقولون إنهم لايقصدون بالتخلف إلا التخلف الاقتصادى ، ولم يقصدوا قط أن هذه الدول متخلفة بالضرورة ثقافيا واجتماعيا ، فالاقتصادى على أى حال ليس مؤهلا ، بوصفه اقتصاديا ، للحكم على أى شيء غير الاقتصاد . ولكن هذا الاعتذار غير كاف بالمرة ، والدليل على ذلك هو ماحدث بالفعل لثقافة وحضارة هذه البلاد «المتخلفة اقتصادياً» خلال الخمسين عاما الماضية .

ذلك أنه كان من واجب الاقتصادى أن يدرك من البداية أن الجسم الاجتماعى جسم حى لايمكن تقسيمه إلى أجزاء : هذا اقتصاد وهذا سياسة وهذا علاقات اجتماعية وهذا دين وهذا لغة . إلخ كان عليه أن يدرك منذ البداية أن أى إجراء «اقتصادى» لابد أن يؤثر فى السياسة والمجتمع والثقافة .. إلخ ، كما أن أى عملية جراحية تجرى على جزء من المعدة لابد أن تؤثر فى بقية أجزاء الجسم . ومن ثم كان لابد أن يراعى فى اختيار أساليب الإصلاح الاقتصادى ، الذى يمكن أن يحدثه كل أسلوب منها من آثار على نمط الحياة الاجتماعية ككل . لم يكن يجوز مثلا أن يختار المكان الذى تجرى فيه إقامة صناعة جديدة أو أسلوب الإنتاج الذى ينبع فيها ، وما إذا كانت تتم فى ظل ملكية خاصة أو عامة ، وطنية أو أجنبية ، بسرعة أو ببطء .. إلخ ، لم يكن يجوز اتخاذ هذه القرارات بناء على حساب العائد الاقتصادى وحده كان لابد أن يؤخذ فى الاعتبار ليس فقط أثر هذه القرارات على صحة الناس وراحتهم وعلى حجم العمالة والبطالة وعلى توزيع الدخل ، وهى أمور تدخل فى نطاق الاقتصاد أو قريبة الصلة به ، وكله كان لابد أن يؤخذ أيضا فى الاعتبار أثر هذه القرارات على ولاء الناس لتقاليد أمتهم ولغتهم القومية ومعرفتهم بآدابها وتاريخها ، وولاء الفرد لدينه وأسرته وعلى أنماط الحياة والسلوك ، من معمار وموسيقى وعلاقات اجتماعية .. إلخ.

الذى حدث هو عكس ذلك . فقد اتخذت هذه القرارات فى الغالبية العظمى من الحالات بناء علي الاعتبارات الاقصادية وحدها ، وكانت النتيجة تنمية اقتصادية متفاوته فى درجة نجاحها أو فشلها اقتصاديا ، ولكنها فى كل



الأحوال فاشلة فى صيانة الثقافة والحضارة الخاصة بكل أمة . فإذا بالأمة التى سارت شوطا أبعد فى التنمية الاقتصادية هى أيضا التى سارت شوطا أبعد فى التنكر لتراثها وتقاليدها .

* * *

ما الذى شجع على حدوث هذا المسخ والتشوية لثقافات وحضارات الأمم الفقيرة ؟

شجع عليه أولا مايحتله التغلب علي الفقر من أولوية فى سلم الحاجات الإنسانية . فالشخص الجائع لايفكر والحرمان الاقتصادى الشديد يصعب معه الاهتمام بمشكلات الثقافة والحضارة . وكلما اشتد الفقر كلما بدا الاهتمام بمشكلات الثقافة والحضارة ترفاً .

وشجع عليه ثانيا أن الحضارة والثقافة السائدة ، وهى الحضارة الغربية ، تتسم بإعلاء شأن الاقتصاد على ماعداه من جوانب الحياة .

إنها حضارة نشأت وترعرعت فى ظل الرأسمالية ، وانتشرت فى كثير من البلاد بدافع الاستعمار الاقتصادى ، فحملت ثمارها الثقافية والحضارية بذور إعلاء الاعتبارات الاقتصادية على ماعداها .

وشجع عليه أيضا شيوع فكرة التقدم التى لا تميز بين التقدم فى مضمار الاقتصاد والتكنولوچيا وبين التقدم فى غيره ، والتى تنطوى على الاعتقاد بأن التقدم الاقتصادى والتكنولوچى ينطوى بالضرورة على تقدم فى سائر نواحى الحياة ، وأن التنظيم السياسى والعلاقات الاجتماعية والقيم والأفكار . وأنماط السلوك التي تسود فى مجتمع متقدم اقتصاديا وتكنولوچيا هى كلها بالضرورة أكثر تقدما من تلك التى تسود المجتمعات الأفقر والتى تطبق تكنولوچيا أقل تقدما . إذا كان الأمر كذلك حقا ، فما وجه القلق علي مايمكن أن تجلبه التنمية الاقتصادية من تغيرات فى الثقافة أو القيم أو أنماط السلوك ؟

هذه الاعتبارات الثلاثة تكفى لتفسير ماكنا نشعر به فى بداية عهدنا بدراسة التنمية الاقتصادية بأولوية التنمية الاقتصادية على ماعداها ، وعدم توقفنا ، ولو لحظة واحدة ، للتفكير فيما يمكن أن تحدثه هذه التنمية الاقتصادية من تخريب فى جوانب أخرى من حياتنا .

هذه الاعتبارات الثلاثة ربما كانت أيضا تكفى لتفسير موقف رجل مثل الزعيم الهندى نهرو الذى كان متعاطفا بلاشك مع قضية المحافظة على التراث والثقافة الوطنية ولكنه كان على استعداد لتقديم اعتبارات التقدم الاقتصادى والتكنولوچى عليها ، على الأقل بمقارنته بزعيم هندى آخر هو المهاتما غاندى

الذى رفض التسليم بهذه الاعتبارات الثلاثة رفضا باتا : رفض مقولة أن التقدم التكنولوجى يعنى بالضرورة تقدما ثقافيا وحضاريا ، ورفض الاعتراف برقى الحضارة الأوربية أصلا ، بل رفض تقديم الحاجات الاقتصادية على غيرها من الحاجات الإنسانية .

ولكن العامل الأساسى الذى حسن الأمر ، وغلب الاعتبارات الاقتصادية على غيرها فى تطور العالم الثالث ، وقضى بإهمال قضايا الثقافة والاستقلال الحضارى ، كان شيئا أبسط من هذا بكثير ، وهو أن أصحاب القرارات النهائية والحاسمة فيما يطبق ولا يطبق من أساليب التنمية ، كانوا هم أنفسهم ينتمون إلى حضارة وثقافة مختلفة عن تلك المهددة بالتنمية الاقتصادية أو على الأقل كانوا ممن تربوا وترعرعوا فى ظل حضارة وثقافة مختلفة ومن ثم لم يساورهم أى شك فى أنها الحضارة الوحيدة الجديرة بالاقتداء . إنى أقصد بالطبع ممثلى المصالح الأجنبية من ناحية (من شركات ودول أجنبية وهيئات دولية تعمل لحساب هذه الشركات والدول) والعاملين فى خدمتهم من سياسيى الدول الآخذة فى النمو ، من ناحية أخرى . فهؤلاء وهؤلاء فرضوا علينا مشروعات وصناعات وطرقا فى الإنتاج وسلعا استهلاكية وإنتاجية وطرقا للترفية ووسائل إعلام تنتهى كلها بفرض نمط معين من أنماط الحياة ، وأنواع معينة من السلوك ، وطموحات وآمال من نوع معين تنتمى كلها إلى نفس نمط الحياة والسلوك والطموحات لأصحاب هذه الشركات وممثلى هذه الدول والمؤسسات الدولية ، دون أى اعتبار لما يعنيه كل ذلك من ضمور وانسحاب لأنماط السلوك والقيم والطموحات المحلية.

* * *

بعد ٤٠ سنة من هذه «التنمية الاقتصادية» النشطة ، بفترات صعودها وهبوطها ، بنجاحاتها وفشلها ، كانت الصورة العامة ، كما كان لابد أن نتوقع، بائسة تماما من الناحية الثقافية والحضارية ، وهى ما وصفته من قبل بالمسخ الذى يجمع بين هويتين أو شخصيتين ، ويتسم بالقبح الشديد فضلا عن فقدانه لأى شخصية ، ومن ثم عجزه عن أن يقدم أى مساهمة متميزة للثقافة الإنسانية . إذ انشغل سياسيو ومثقفو وفنانو أمم العالم الفقيرة بتقليد وتكرار مايفعله سياسيو الغرب ومثقفوه وفنانوه . وعندما شرع الاقتصاديون عندنا وعندهم فى تقديم كشف الحساب عن مكاسب وخسائر هذه الأربعين عاما (٥٠ - ١٩٩٠) لم يضمنوا كشفهم بندا يتعلق بالثقافة والحضارة ، بل اقتصروا فقط على البنود الاقصادية ، كمتوسط الدخل ومعدلات الادخار والاستثمار

ودرجة التصنيع ومن تدفق الاستثمارات الأجنبية .. إلخ بل ولم يتناولوا حتى أثر التغيرات الثقافية والسلوكية على المتغيرات الاقتصادي ، بينما كان من الممكن جدا أن يكتشفوا أن كثيرا من أوجه الفشل الاقتصادي قد يكون راجعا إلى تغير فى أنماط السلوك والقيم والأخلاق والحياة الثقافية بوجه عام .

رغم أن نتيجة الأربعين عاما لم تكن سارة حتى من حيث النمو الاقتصادى نفسه ، إلا فى عدد محدود من البلاد ، معظمها فى جنوب شرقى آسيا ، حظيت دول العالم الثالث أو الفقير بترقية من جانب المعلقين والباحثين فى أمور التنمية والتخلف ، المنتسبين للعالم الصناعى أو المتقدم ، ومن الهيئات الدولية المتكلمة باسمه ، فأطلقوا على بلادنا وصفاً أرقى وأكثر تهذيبا من وصف «الدول المتخلفة» (under developed) كما كانت عادتهم فى الخمسينات والستينات ، وسمونا «دولا نامية» (developing) وهو وصف وإن كان أكثر تأدبا من وصفنا بالتخلف فإنه ليس أفضل منه كثيرا من حيث تصويره للحقيقة . إننا لم نكن «متخلفين» بل فقط فقراء ، كما أننا لسنا دائما فى حالة «نمو» بل كثيرا ما نكون فى حالة ركود أو تراجع اقتصادى ، وإن كنا دائما فى حالة «تغريب» ، باستمرار ودون انقطاع . ولكن حيث أننا كنا دائما ولا نزال نفعل مايطلب منا بالضبط ودون اعتراض ، كان من الضرورى تهنئتنا وتشجيعنا على الاستمرار فى نفس الطريق ، ومن ثم أطلقوا علينا هذا الوصف المشجع «الدول النامية» . وإمعانا فى تطميننا وتهدئة خواطرنا قيل لنا إن كل أوجه الفشل فى أدائنا الاقتصادى يمكن التغلب عليها باتباع مايسمى بسياسات «التصحيح الهيكلى» ، وهى فى نهاية الأمر لاتعنى أكثر من مزيد من فتح الأبواب أمام سلع الغرب واستثماراته ، بما فى ذلك بيع مصانعنا ومرافقنا العامة للأجنبى .

أما أوجه الفشل فى الأداء الاجتماعى ، إذ لوحظ زيادة كبيرة فى أعداد الفقراء والمعوزين حتى فى حالات النمو الاقتصادى السريع ، فقد وعدونا بالاهتمام بالأمر بدليل الإعلان عن معيار جديد لتقييم الأداء لايقتصر على الجوانب الاقتصادية البحتة ، كمتوسط الدخل ومعدلات الادخار والاستثمار والتصنيع .. إلخ ، بل يشمل ماسمى بجوانب «التنمية البشرية» أى تلك المتعلقة بالإنسان كآدامى ، وليس فقط باعتباره مستهلكا ومنتجا للسلع والخدمات.

هذا المعيار الجديد ، معيار «التنمية البشرية» (Human Develop-ment) قامت بالإعلان عنه هيئة الأمم

المتحدة للإنماء (UNDP) في سنة ١٩٩٠ ، وقيل إنه سوف يتم بناء عليه ترتيب البلاد المختلفة من حيث تقدمها أو تأخرها في مضمار «التنمية البشرية» ، ويقوم هذا المعيار على ثلاثة مؤشرات :

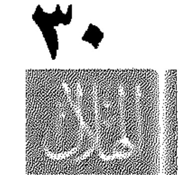
١ - متوسط الدخل ٢ - والعمر المتوقع لدى الميلاد ٣ - وحالة التعليم أما متوسط الدخل فقد أستعير من معيار التنمية الاقتصادية القديم ، وأما العمر المتوقع لدى الميلاد فأهميته ترجع إلى أنه يعكس التقدم والتأخر في أمور مهمة للإنسان كحالة التغذية ومستوى الخدمات الصحية ، وأما التعليم فهو أيضا مهم لرفاهية الإنسانية وتقدمه .

كان من السهل الاعتراض على هذا المعيار الجديد (التنمية البشرية) بالقول بأنه لايزال يتجاهل أشياء أخرى مهمة ، كمستوى البطالة ، ودرجة المساواة في توزيع الدخل ، وهي أمور اقتصادية بدورها ، كما أنه يتجاهل تماما مايحدث للجوانب الثقافية والحضارية ، مما يجعل هذا المعيار الجديد ليس أفضل كثيرا من سابقه ، الذي يعيش التقدم والتأخر بمتوسط الدخل وحده . ولكن بصرف النظر عن هذا الاعتراض (الذي لاشك في صحته) فإن من المهم أن نلاحظ الخسارة التي لحقت بنا بتسمية هذا المعيار الجديد (التنمية البشرية) . إذ مهما كان اعتراضنا على معيار متوسط الدخل واقتصاره على قياس جانب واحد من جوانب حياتنا فإن أصحابها كانوا على الأقل متواضعين إذ كانوا دائما على استعداد للاعتراف بأنه لايتجاوز ميدان الاقتصاد ، ومن ثم لايقول لنا شيئا عما حدث لجوانب الحياة الأخرى .

أما تسمية المعيار الجديد بهذا الاسم الفخم ، معيار «التنمية البشرية» فتكمن خطورتها في الإيحاء بأننا الآن نتكلم عن مختلف جوانب الحياة الإنسانية ورفاهيتها، وهو بالطبع غير صحيح .

★ ★ ★

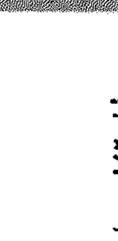
مضت عشر سنوات أخرى ، نسينا فيها أكثر فأكثر مايصيب حياتنا الثقافية وأنماط سلوكنا وقيمنا وعلاقتنا الاجتماعات من تغيرات كانت جديرة بإثارة القلق والأسف . ثم ظهر فجأة في سنة ٢٠٠٢ تقرير مدهش ، من نفس المنظمة (UNDP) ولكنه خاص بالبلاد العربية وحدها ، ويحمل عنوانا أكثر إدهاشاً وهو «التنمية العربية الإنسانية» Arab Human Development تجرأ هذا التقرير على الادعاء بأنه يقدم لنا معياراً أكثر شمولا للتقدم الإنساني والتخلف ، ومن ثم استعاض في ترجمته للفظ الانجليزي (Human Devel-opment) التنمية البشرية ، كما فعلت التقارير السابقة ، بعباره «التنمية الإنسانية» الأقرب في اللغة العربية إلى الجوانب النفسية والمعنوية في الإنسان . وزعم هذا التقرير أن من



الأفضل الاستغناء عن متوسط الدخل استغناء تاما فى قياس التقدم الإنسانى والتخلف ، والاعتماد على ثلاثة مؤشرات أخرى هى : الحرية أو الديمقراطية ، والمعرفة ، وما أسماه «بتمكين المرأة» (women empowerment) أى الارتفاع بمستوى المرأة ورفع القهر عنها. وراح التقرير يقارن الدول العربية بعضها ببعض ، وكذلك بالدول الأخرى ، فى هذه الأمور الثلاثة .

هكذا انتقلنا عبر خمسين أو ستين سنة ، من التنمية الاقتصادية إلى التنمية البشرية إلى التنمية الإنسانية وفى كل خطوة كان استخدام لفظ «التنمية» يبدو كريها أكثر فأكثر ولا تقبله النفس إلا بصعوبة أكبر فأكبر . ذلك أن لفظ التنمية أو النمو يوحى بزيادة العدد أو الحجم أو صفات مادية يسهل قياسها فأنا أنمى ثروتى أو أموالى بإضافة القرش إلى القرش أو فدان الأرض إلى فدان ، أو أنمى ثروتى الحيوانية بزيادة عدد المواليد من قطعان الماشية أو الماعز ، ومن السهل أن أقيس هذا النمو أو ذاك بأرقام قاطعة الدلالة على ماحدث . أما «التنمية الإنسانية» فعبارة غامضة لايمكن أن تؤدى إلا إلى اللبس ، وقد تستخدم أيضا للتضليل ، وهى لهذا السبب عبارة قبيحة وفاسدة الذوق . وهى عبارة تهبط بأمور تتعلق ببعض من أسمى أهداف الإنسان وصفاته إلى مستوى العد والجرد ، وتختصر تطورا معقدا أشد التعقيد ومتعدد الجوانب فى مؤشرات بسيطة وسطحية للغاية .

خذ مثلاً هدفا كالحرية ، أو وصف الإنسان بأنه حر أو مسلوب الحرية . إن للحرية عشرات المعانى ، ومجالات ممارستها متعددة ومتشعبة ، والقيود التى ترد عليها قد تأتى من عشرات المصادر ليست الدولة إلا مصدرا واحدا منها . فحريتى قد تقيدها الدولة أو المؤسسة الدينية أو العرف الشائع أو رب العائلة أو شيخ القبيلة أو المدرسة أو الحزب أو الرقيب على الصحف أو على الإذاعة والتليفزيون ، ناهيك عن الفقر كقيد على الحرية ، والمرض والعجز والشيخوخة ، وضيق المسكن وصعوبة الانتقال من مكان لأخر وملوثات البيئة وارتفاع مستوى الضجيج .. إلخ إذا كان الأمر كذلك فكيف يتسنى لأحد أن يزعم أن الحرية تقاس بعدد مرات الذهاب إلى صناديق الانتخاب (دون الالتفات حتى إلى ما إذا كانت الأحزاب المتنافسة ذات برامج متشابهة أو مختلفة) أو عدد المسجونين بسبب آراء سياسة ، (بصرف النظر عن عدد المحرومين من تحقيق رغباتهم الطبيعة بسبب الفقر) وأن الدولة تعتبر متقدمة فى مجال الحرية إذا زاد عدد مرات الانتخاب وقل عددا المسجونين



السياسيين ومتخلفة إذا حدث العكس ، بصرف النظر عما يحدث فى سائر المجالات الأخرى ؟ ثم إن كلاماً مشابها جدا لهذا يمكن قوله عن حالة المعرفة إذ من الغنى عن البيان أن هدف المعرفة ، بقدر ماهو هدف سام وشريف ، هدف معقد ومتعدد الجوانب وله عشرات الوسائل والمصادر . كما أن وصف شخص ما بأنه يتمتع بمعرفة كبيرة أو واسعة ليس من السهل قياسه . فالمعرفة ليست هى مجرد جمع المعلومات ، وإلا كان الكومبيوتر أكثر الكائنات معرفة، ودائرة المعارف «أكثر معرفة» من صاحبها . ونحن نعرف أشخاصا واسعى المعرفة وبعيدين كل البعد عن الحكمة ، وأن الحكمة كثيرا ما تكون مطلوبة أكثر من المعرفة ، بل وأن كثرة المعرفة قد تؤدى هى نفسها إلى قلة الحكمة ، إذا كانت من نوع المعرفة التى «لاتنفع الناس» ، أو إذا أدت كثرتها إلى اختلاط الأمور أمام صاحبها فأضعفت قدرته على التمييز بين النافع والضار . لايمكن إذن فى تحديد الهدف الاكتفاء بكم المعرفة بل لابد من التطرق إلى نوعها . ومتى سلمنا بأهمية «نوع» المعرفة فإن قياس التقدم والتخلف فى مجال المعرفة يصبح من أصعب الأمور إن لم يكن مستحيلا ، ويحسن بالمرء فى هذا المجال ، كما رأينا أيضا فى مجال الحرية، أن يتحلى بالتواضع والتأنى والحذر قبل أن يظن نفسه «أكثر تقدما» فى مجال المعرفة من غيره ، وقبل أن يرتب الناس والأمم بعضهم فوق بعض فى مجال «المعرفة» ، زاعما أن بعضهم أفضل من غيرهم ، لهذا السبب ، فى مضمار «التنمية الإنسانية» .

والأمر لايقل وضوحا فى مجال الارتقاء بأحوال المرأة أو تحريرها ، أو بحسب تعبير تقرير التنمية الإنسانية «تمكين المرأة» . لايمكن أن ينكر أحد أن المرأة المصرية أو العربية تعانى من بعض صور القهر التى يتعين التخلص منها . ولكن أى امرأة فى العالم لا تعانى من صورة أو أخرى من القهر ؟ وأى مرحلة من مراحل التاريخ عرفت مساواة بين المرأة والرجل ؟ إن من الخطأ الظن بأن الأمم المتقدمة اقتصاديا وتكنولوچيا لابد أن تكون قد نجحت أيضا فى تحرير المرأة من كل صور القهر . ذلك أن التقدم الاقتصادى والتكنولوچى قد يؤدى بذاته إلى زيارة استغلال المرأة اقتصادياً ونفسيا ، إما خضوعاً لمنطق تعظيم الأرباح فى ظل الرأسمالية ، أو لمنطق تسويق السلع فى ظل المجتمع الاستهلاكى، أو لمنطق تشجيع الفردية والاستقلالية فى ظل المجتمع التكنولوچى الحديث ، أو لكل هذا معاً كما حدث فى معظم دول الغرب التى تجتمع فيها سمات الرأسمالية مع سمات المجتمع الاستهلاكى والتكنولوچى الحديث .

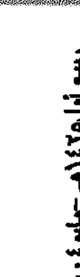
لا عجب إذن أن يبدو الكلام عن تمكين المرأة (women empower-ment) أدعى إلى إثارة الضحك والسخرية منه إلى معاملته معاملة الكلام الجاد . بل إن العبارة نفسها «تمكين المرأة» تفضح سخافة الهدف . فهى ، خاصة فى اللغة العربية ، عبارة غير مكتملة ، إذ أن كلمة «تمكين» بالعربية لا يكتمل معناها إلا إذا اقترنت بالبوح بالشىء الذى يراد تمكين المرأة منه . ومتى حاول المرء الإجابة على السؤال عما يراد تمكين المرأة منه اتضح تعقد الهدف وصعوبة الحسم بما إذا كانت أمة ماقد نجحت أكثر من غيرها فى الارتقاء بأحوال المرأة . فتمكين المرأة من المال قد يفقدها استقلالها وحريتها إزاء الشركة التى تكسب المال منها ، وتمكينها من الاستقلال عن الزوج قد يفقدها التمتع بمكانتها كأم وربة أسرة . إلخ .

هنا أيضاً لابد من بعض التواضع. ومع جميع الأحوال يجب تجنب هذا التعبير السخيف «التنمية الإنسانية» ، الذى يقدم على افتراض ضمنى بأن الرقى الإنسانى هدف بسيط يمكن قياسه بالأرقام كما يقاس الطول والقصر ، وإخضاعه للقياس بالعدد أو الحجم أو الوزن كما تعرض السلع والحيوانات ويقاس حجمها ووزنها .

إن صور الرقى كثيرة كما أن صور القهر كثيرة ، وكثيرا ما تنجح أمة فى التخلص من صورة من صور القهر لتقع فى صورة أخرى منه . ولا يجب أن يعمينا نجاح أمة فى إحراز تقدم اقتصادى أو تكنولوجى عن فشلها فى إحراز تقدم فى جوانب أخرى من جوانب الحياة الإنسانية.

ولكننا للأسف معرضون دائما للوقوع فى هذا الخطأ . فالشخص القوى ماديا له سحره وسطوته ، وكذلك الأمة القوية اقتصادياً وتكنولوجيا ، حتى لنظن أن تقدمها فى هذه الأمور لابد أن ينطوى على تقدم فى سائر الأمور . وهذا الخطأ الشنيع يشبه فى رأيى ماقد يحدث إذا اعتدت قبيلة على قبيلة أخرى ، فألحقت بها هزيمة ساحقة وسيطرت عليها سيطرة تامة . إذ ينظر أفراد القبيلة المهزومة ويلاحظون أن أفراد القبيلة المنتصرة لهم جميعا أنوف ضخمة لايكاد يشذ منهم أحد عن ذلك . فظنوا أن هناك علاقة وثيقة بين الانتصار فى الحروب وحجم الأنف ، وراحوا يحاولون المستحيل لتكبير حجم أنوفهم ، فإن لم يستطيعوا ذلك بالشد والجذب ، ركبوا على وجوههم أنوفا صناعية كبيرة الحجم .

كم يبدو شكلهم مضحكا حينئذ وكم يثيرون الرثاء لحماقتهم ، بالضبط كما يبدو لنا تقريرا «التنمية الإنسانية العربية» الصادران فى العامين الماضيين عن برنامج الأمم المتحدة للإنماء ■





الإمبراطورية الأمريكية

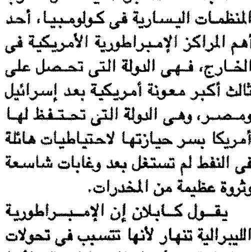
نصائح ضد الأفول

بقلم
جميل مطر

تيودور روزفلت — بوش الأب — بوش الابن — كوندليزا رايس

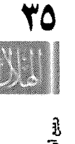
بفضل السياسة الخارجية الأمريكية فى السنوات الأخيرة اكتسبتُ هواية جديدة. أقبلت على قراءة ما يكتب فى الولايات المتحدة وخارجها عن الأساليب الإمبراطورية فى التوسع وحكم الشعوب وبناء الأمم . كثيرون هذه الأيام الذين يضعون النظريات ويقدمون النصائح للطبقة الحاكمة الأمريكية عن كيفية حماية الإمبراطورية من خطر الاندثار الذى تعرضت له الإمبراطوريات «الليبرالية» السابقة وأهمها البندقية وبريطانيا. ولما كان الصديق السفير نبيل العربى يعرف عنى هذه الهواية فقد بعث لى بمقال طويل كتبه كبير المنظرين للإمبراطورية الأمريكية «روبرت كابلان» سجل فيه عدداً من القواعد التى وصفها بأنها ضرورية إذا أرادت الولايات المتحدة أن تحتفظ بمكانتها وقوتها الإمبراطورية الحالية.

وقبل أن يفصل «كابلان» فى القواعد قال لنا ما لم أكن أنا شخصياً أعرفه بهذا التحديد أو الدقة. قال إنه عندما ذهبت القوات الأمريكية إلى العراق منذ عام كانت القوات الخاصة الأمريكية منتشرة فى ٦٥ دولة فى العالم. كانت فى نيبال تدرب قوات الحكومة على حربها ضد الثوار الماويين.



وكانت فى الفليبين تشترك فى الحرب ضد جماعات أبو سياف، وتحارب المنظمات اليسارية فى كولومبيا، أحد أهم المراكز الإمبراطورية الأمريكية فى الخارج، فهى الدولة التى تحصل على ثالث أكبر معونة أمريكية بعد إسرائيل ومصر، وهى الدولة التى تحتفظ لها أمريكا بسر حيازتها لاحتياطيات هائلة فى النفط لم تستغل بعد وغابات شاسعة وثروة عظيمة من المخدرات.

يقول كابلان إن الإمبراطورية الليبرالية تنهار لأنها تتسبب فى تحولات ديناميكية فى أرجاء الإمبراطورية، ولأنها بمحاولتها نشر أفكار الديمقراطية تضعف سلطة المستبدين من أصدقاء أمريكا وتقوى ساعد القوة المعارضة، فضلاً عن أنها تعرض نفسها لمواقف محرجة من جانب حليفاتها كما حدث من جانب تركيا والمكسيك وألمانيا وفرنسا حين عارضت أمريكا لأن شعوبها كانت ضد التدخل فى العراق.



أعداء الامبراطورية الأمريكية

كان أفضل للولايات المتحدة أن تتدخل فى العراق بهدوء وتضرب بسرعة وفى السر، هكذا ينصح إليوت كوهين أستاذ التاريخ العسكرى فى جامعة جونز هوبكنز الأمريكية. يقول أن الرومان كانوا يتصرفون على هذا النحو . وينقل عن تيودور روزفلت قوله «تكلم بنعومة واقبض على عصا غليظة». وبريطانيا التى كانت، حتى مائة عام فقط، تتحكم أساطيلها فى محيطات العالم وغير قابلة للهزيمة، هى الآن قوة من الدرجة الثانية فى أوروبا والتى تقودها ألمانيا وفرنسا، والصين تزداد قوة بمعدلات متسارعة ، والأمم المتحدة نقيض النظام الإمبراطورى لأنها تكره الحرب، كل هؤلاء أعداء للإمبراطورية الأمريكية.

تقوم الولايات المتحدة، فى أنحاء شتى من العالم ، ببناء أمم أو إعادة بناء دول سقطت أو كادت تسقط أو تتأهل للسقوط. فى تلك الدول تقوم القوات الخاصة الأمريكية باتخاذ قرارات دون العودة إلى واشنطن أو قيادتها فى فلوريدا وجورجيا. يؤدى جنود القوات الخاصة ظائف بالغة الأهمية، فهم فى كولومبيا يدربون الجيش الكولومبى على القتال بشجاعة أكبر. يتسامرون مع شيوخ القبائل فى أفغانستان والعراق للاستفادة من نفوذهم ومعلوماتهم لشن عمليات ضد المقاومة ولإثارة نعرات قبلية وطائفية إن احتاج الأمر. ذهبوا إلى اليمن ليبحثوا مع السلطات فيها عن نوع القوات التى تحتاجها فى المرحلة الحالية. هل هى فى حاجة إلى قوات بحرية خاصة لحماية السواحل؟ ، أم قوات خاصة للمدن أم قوات متدربة على حرب العصابات فى الجبال؟ . يناقشون مع قطاعات المجتمع المدنى فى منغوليا والحكام المحليين وسائل حماية الاستقرار ضد تمرد تدفع إليه الصين أو روسيا . وفى رومانيا يقومون بجهد كبير لبناء جيش جديد وقياس استعداد جنود رومانيا لإدارة حرب حديثة. هؤلاء وغيرهم من الجنود الأمريكيين المنتشرين فيما لا يقل عن ٦٥ دولة هم حسب تعبير كابلان، حراس القيم الإمبراطورية ووكلائها فى الخارج، هؤلاء يجب أن تقيم لهم حكومة واشنطن قواعد عسكرية فى الدول وفى دول أخرى.

قواعد تلتزم بها الامبراطورية

قام روبرت كابلان، استعدادا لكتابة المقال، برحلة أخذته إلى أربع قارات ليدرس على الطبيعة أوضاع الامبراطورية الأمريكية، وليخرج بعدد من الشروط والقواعد التى يجب أن تلتزم بها الإمبراطورية. تقول القاعدة الأولى أنه ليس شرطا

فى السياسى الذى يدير إمبراطورية عصرية أن يتمتع بفصاحة تشرشل أو بإنسانية روزفلت . ليس مطلوبا منه أن يبشر بأربعة عشر نقطة مثل الرئيس ولسن ولا بحريات أو بنظريات أو أحلام

الأهم من كل هذا أن يعزز وجوده على الأرض برجاله الذين هم الضمان الوحيد لتوسع الإمبراطورية وسلامتها. وينقل عن أحد مؤرخى الاستعمار البريطانى قوله: أن أفضل رجال الإمبراطورية هم هؤلاء الذين يمارسون الرياضة والمنفتحون والحساسون للبيئة الثقافية التى يحرسون فيها قيم الإمبراطورية عارفون بالعادات والتقاليد المحلية لأنهم بهذه المعرفة يكسبون ثقة القادة المحليين

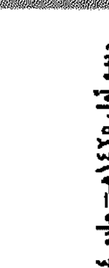
اجتمعت هذه الصفات فى أربعة وخمسين جندياً من جنود القوات الخاصة غيروا مسار القتال فى الإكوادور. كل جندى فيهم تدرب على أن يكون قاتلاً فى لحظة وإنسانياً فى لحظة أخرى، وأن يجيد لغة البلد التى يعمل فيها.

تفترض القاعدة الثانية فى القوات الخاصة الإمبراطورية سرعة الحركة. ويعتبر كابلان الإسكندر الأكبر النموذج لكل قائد إمبراطورى. فقد استطاع الهيمنة على بلاد فارس فى عام ٤٠١ قبل الميلاد دون أن تكون لديه خطة مسبقة باستثناء تصريحه لقادته الميدانيين بأن يفكروا ويخططوا وينفذوا دون العودة إليه . ما لا يعرفه الكثيرون أن أهم صفة تتمتع بها جنود الإسكندر الأكبر كانت قدرتهم على إقامة علاقات شخصية وصداقات مع القادة المحليين

لقد وافقت رومانيا وبلغاريا على الدخول فى حرب العراق لا لشىء إلا لأن القوات الأمريكية المقيمة فى كلا الدولتين نجحت فى العلاقات الشخصية مع النخبة السياسية الجديدة فيهما .

مهارة الاحتلال!

تبقى القاعدة الثالثة على أهمية أن تكون إمبراطورية روما دائماً نصب أعين القيادة الإمبراطورية الأمريكية. فالولايات المتحدة عندما سمحت بتعددية الهجرات فى النصف الثانى من القرن الماضى أى صارت هى نفسها مثل روما، أى صارت بشكل آخر «مجتمعاً دوليا». كانت روما الإمبراطورية فى أزهى عصورها تمنح المواطنة للنخب فى البلقان والشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وحدث أكثر من مرة أن تولى حكم الإمبراطورية رجال من أسبانيا وأقاليم أخرى فى الإمبراطورية. وأمام أمريكا فرصة لإحياء روما. وأول نصيحة يجب أن تلتزمها هى تجنيد أكبر عدد ممكن فى قواتها المسلحة من أبناء الشرق الأوسط، واستخدام القادة المحليين كسفراء للإمبراطورية وقادة لجيوشها حتى لو كانوا حديثى العهد بالجنسية الأمريكية. يفخر كابلان بأن القيادة العسكرية الجنوبية تضم عديداً من العناصر المكسيكية والكوبية وأنها قررت اعتبار اللغة العربية «مهارة احتلال» وشرطاً ضرورياً من شروط الانضمام للقوات الخاصة. ينصح أيضاً بأن تقيم القيادات العسكرية فى المواقع الخارجية مثل قاعدتها فى دولة قطر أو كما كانت فى بنما حتى عام ١٩٩٧. وينصح أيضاً بمنح القادة الإقليميين حريات كبيرة فى



اتخاذ القرار فى مواقعها الخارجية.

وفى النصيحة الرابعة يشير إلى أهمية اختراق قيادات الأمن الداخلى والقوات المسلحة فى جميع دول العالم . يقول أن رؤساء الدول والحكومات يتغيرون ولكن يبقى حرس رئاسة الجمهورية . هؤلاء لا يتغيرون . كذلك القوات الخاصة المحلية التى يتم تدريبها على أيدى الأمريكيين فهى لا تتغير، والسبب ببساطة، أن هؤلاء، أى حرس الرئاسة والقوات الخاصة، يتكلف تدريبهم جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة. ثم يتساءل كابلان، أيهما أهم بالنسبة لواشنطن: أن يكون فى تركيا وباكستان ديمقراطية قوية وجيش ضعيف أم جيش قوى وديمقراطية أقل؟ . ويعتقد أن الإجابة واضحة ولا تقبل الشك ، ولكن لا يجيب . ويضيف أن ما لا يعرفه الكثيرون أنه تبين أن الرسالة التى تصل للسياسيين الأجانب عن طريق الضابط الأمريكى المسئول عن تدريب القوات المحلية تكون مقنعة أكثر من الرسالة التى تصل عن طريق شخصية مدنية أمريكية وحتى لو كان وزير خارجية أمريكا ، بل وأى شخصية سياسية ومحلية كبيرة. لذلك يجرى تدريب القوات الخاصة الأمريكية على كيفية تلقين المبادىء الأمريكية كحقوق الإنسان والديمقراطية لنشرها داخل جيوش العالم .

إن القوات الخاصة الأمريكية الموجودة فى بعض دول القوقاز ووسط آسيا وبخاصة فى أوزبكستان وجورجيا وطاجكستان تؤثر فى الحياة السياسية أكثر مما يؤثر فيها الدبلوماسيين والمدنيين الأمريكيين الذين تزدحم بهم عواصم تلك الدول. والمعروف على كل حال أنه فى العصر الإمبراطورى يصعب التمييز بين العمل العسكرى والعمل الدبلوماسي، إلى درجة أن القوات الخاصة الأمريكية هى التى تكفلت بصياغة القوانين الجديدة فى دولة بارجواى وهى التى وضعت مشروع الدستور الجديد فى عام ١٩٩٤. ويقول كابلان : أن القوات الخاصة الأمريكية تقوم حاليا بتدريب ضباط اليمن على كيفية التعامل سياسيا مع رجال القبائل ويعالجون المرضى فى منغوليا وفى أمريكا الوسطى وفى بوليفيا .

ويشير كابلان ، ويؤيده فى ذلك خبراء آخرون فى الشئون الامبراطورية الأمريكية، إلى أهمية مايسمى باقتصاديات القوة، أى تحقيق أقصى عائد بأقل تكلفة. التزمت بهذه القاعدة القوات الأمريكية منذ بداية الحرب الباردة وتزداد أهميتها باستمرار نقص الموارد. وستكون النتيجة الحتمية

للالتزام بهذه القاعدة الاستخدام المتزايد لحروب المخابرات والحروب السرية.

من أين يبدأ الإصلاح؟

وتثير قضية بناء الأمم أسئلة كثيرة تتعلق بحدود الإصلاح ومدى الحاجة وإبراز خطأ القائلين بضرورة إصلاح المجتمع بكامله. يذهب تيار إلى أهمية التركيز على جوانب معينة في المجتمع بإصلاحها والتوسع منها إلى جوانب أخرى. فإذا كان من الصعب مثلاً إصلاح القوات المسلحة بدون إصلاح المجتمع حينئذ يجدر التركيز على قيادات الجيش من كل الرتب وعدم انتظار إصلاح المجتمع. وفي حالة الحرب يتعين على القوات الخاصة الأمريكية والمحلية المدربة تحت إشراف هذه القوات التركيز على الأهداف الدقيقة والاستراتيجية فقط وعدم التوسع في نطاق الحرب. لقد أبرزت إن اقتصاديات القوة أهمية القوات الخاصة في العمل الإمبراطوري الأمريكي لأنها وإن تكلفت غالياً فإن عائدها أكبر بكثير من عائد القوات العادية ذات التكلفة الأرخص. ومن أمثلة اقتصاديات القوة فكرة أو استراتيجية المهمات الفردية سواء كان الفرد يقوم بعملية عسكرية خطيرة أو يعمل مستشاراً ومدرباً لفئات خاصة في دول أخرى. هذا الفرد سيكون رصيداً هائلاً في المستقبل، لأنه سيكون ، إن آجلاً أو عاجلاً، مستشاراً استراتيجياً لأمريكا في شئون الدولة التي عمل فيها وتقاليدها ونخبها.

ومن القواعد التي ينصح بها كابلان ماجرى تجربته من قبل، مثل تشكيل مجموعات صغيرة من الرجال تكلف بمساندة أو قلب نظام حكم في دولة أخرى. والشائع، ولكن غير الموثق، أن الولايات المتحدة توقفت عن هذه الممارسات بعد اكتشاف اشتراكها في مؤامرة إسقاط أيندي رئيس جمهورية شيلي واغتياله في أوائل السبعينات يتأكد الآن مرة أخرى للنخبة الحاكمة في واشنطن أن الدور الذي قامت به القوات السرية في إسقاط أيندي واغتياله نموذجاً صالحاً ويجب العودة إليه. فالأعمال السرية مأمونة أكثر من الأعمال الحربية التي تتطلب تعبئة واسعة في الجيش وفي السياسة والدبلوماسية وفي الإعلام.

ويقول كابلان أنه يجب عدم الاهتمام كثيراً بالجوانب الأخلاقية في الحروب السرية. وقد جرت العادة أن تسبق الأعمال العسكرية، وبالتالي فهي منفصلة أخلاقياً عن مبدأ إعلان الحرب الذي يعقبه الغزو المسلح.

الوحشية مطلوبة

ويقول كابلان من ناحية أخرى يجب أن يتعود الرأي العام الأمريكي على أن الحروب وحشية بطبيعتها، وأن الوحشية في الحروب مطلوبة من أجل دعم الإمبراطورية. لقد كتب أحد كبار المؤرخين العسكريين كتاباً عن وحشية الاحتلال العسكري للفلبين خلال الحرب الأمريكية فيها منذ عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٢. وقال أن وحشية ماحدث هناك واستغلال الانقسامات الطائفية والدينية كانت أموراً مدبرة ولازمة. والمؤكد أنه في المناطق التي لم يتم فيها بعد تصفية المقاومة المسلحة الإكثار بشدة من

الجنود والإقلال من المتطوعين لأغراض المساعدة الإنسانية. فالمتطوعون، أحياناً بل وغالباً، يشكلون عقبة فى طريق تقدم القوات الأمريكية فضلاً عن أنهم أداة إعلامية قد تكشف عن وحشية بعض الأعمال العسكرية، الأمر الذى لايخدم إطلاقاً أهداف الحرب وأهداف الإمبراطورية الأمريكية فى الخارج.

هزيمة أمريكا:

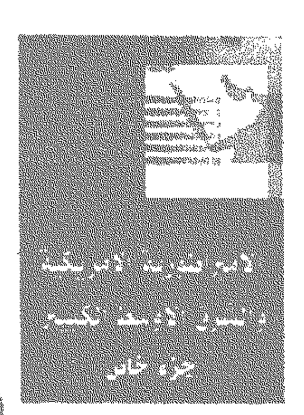
أما «أم القواعد» فهى أنه لا شىء يعلو فوق المهمة العسكرية. لامهمة أخرى ولا رسائل ولا التزامات أو مواثيق دولية، لا اتفاقات ولا أمم متحدة ولا مجلس أمن ولا رأى عام، لاشىء على الإطلاق يعلو فوق المهمة العسكرية. مشكلة «الإمبراطوريين» فى أمريكا هى الرأى العام الأمريكى وضغوطه وشدة استجابة النخب السياسية لهذه الضغوط. كانت فيتنام النموذج الذى يجب أن لايتكرر مرة أخرى فى أى عملية من العمليات العسكرية الأمريكية فى الخارج. لاينسى دعاة الإمبراطورية الأمريكية ودعاة العمل العسكرى الخارجى ثورة الرأى العام الأمريكى على كل توسع فى العمليات التى قامت بها القوات الأمريكية فى فيتنام. اضطرت هذه القوات إلى الانسحاب مراراً ورغماً عنها تحت ضغط الرأى العام وفى النهاية أدى هذا الضغط إلى هزيمة أمريكا على أيدى الفيتناميين. يقول كابلان إنه لا شىء على الإطلاق يجب أن يحد من حرية الجيش الأمريكى فى أى دولة فى العالم فى التوغل داخل الدولة وفى كل المواقع المحيطة بهذه الدولة إن استدعى الأمر هذا التوغل لحماية نفسه وحماية المصالح الأمريكية.

الحرب الشاملة أو المتكاملة مفهوم مشتق من نص صينى كتبه إثنان من العقداء فى جيش تحرير الشعب الصينى. يقول النص «إنه فى القرن العشرين قد يحتوى نزاع عسكرى معين على أنشطة عسكرية تقليدية وحروب اقتصادية وتجارية وقانونية» تسعى الحرب المتكاملة إلى إحداث صدمة لدى الأعداء بالهجوم عليهم فى أكثر من موقع وفى أكثر من قطاع وضد أكثر مصلحة من مصالحهم. ولعب الإعلام دوراً مهماً فى هذه الحرب. إذ تؤثر أجهزة الإعلام فى صنع السياسة رغم أنها لاتتحمل مسئولية نتائج هذه السياسة. وقد استخدمت الولايات المتحدة فى العراق هذا الدور بشكل لم يحدث فى حروبها السابقة. إذ اهتمت أشد الاهتمام بالإعلام العالمى وأهملت إهمالاً شبه كامل الإعلام الأمريكى. بذلك تفادت ثورة الرأى العام الأمريكى وحاولت إحداث الانقسام فى صفوف

الأعـداء الفـعليين فى العـراق والأعـداء الذين اعـترضـوا على الحرب الأمـريكيـة فى أوروبا. ويفـخـر كـابلان بـأن الولايات المتحدة التى اشتهرت بنجاحها فى بيع منتجـات لاتريدها الشـعـوب الأخـرى تسـتطيع أيضـاً أن تسـوق سـيـاسـة خارجية بطريقة جيدة. يجب أن يتوافر لدى الولايات المتـحـدة محـاورون يستطيعون التحدث فى فضائيات العالم العـربى بإحدى اللهـجـات السـائدة فى العالم العربى. ويعترف بأن هذه المهمة تزداد صعوبة إذا كان الهدف مجتمعات تسود فيها الأمية وتنتشر فيها الشائعات ونظريات المؤامـرة، أى فى مـجـتـمـعـات تنتقل فيها الأخبار شفهية فقط. فى هذه الحالة يجب تفـادى المواجـهـة المبـاشـرة والتركيز على تشـتـيت انتبـاه المواطنين المحليين على قـضـايا داخليـة وبرامج ترفيهية تافهة أو مثيرة للجدال.

أما النصيحة التى يعتقد المؤلف أنها يجب أن تأتى قـبل أى نصـيـحـة أخـرى فـهى «أن يعلو دائمـاً الصـوت الأمـريكى كـصـوت منتصـر». إن الطلب على الأمن فى الداخل أدى إلى الرغبة فى الهـيمنة على الخـارج، وهى حكمـة مقـتبسـة من نموذج الإمـبـراطورية الرومـانيـة. إلا أن لغة الانتصار يجب أن تستند فى النهاية على ثقة الشعب الأمريكى فى منعة أمنه الداخلى. وأمنه القـارى ولذلك سـتكون العقود القادمة عقوداً حاسمة فى التاريخ الأمـريكى، وسـيـتـعين على واشنطن أن تدير إمـبـراطورية فى مـواجـهـة شـعـور متزايد بأنها دخلت مرحلة الأقوال وعدم الجـدوى. يعلق كـابلان أن ونسـتـون تشرشل كان يتنبأ للولايات المتحدة أن تكون خليفة للإمبراطورية البريطانية. أما نحن (أى أمـريكا) فـيـجب أن لا يهـدأ لنا بال طالما لم يبزغ أمامنا احتمال مماثل للنبوءة التى تنبأ بها، بمعنى آخر يتعين على الأمريكيين منع تحقق نبوءة مماثلة.

إن المشكلة الكبـرى فى نظر حـمـاة الإمبراطورية الأمريكية هى مايطلق عليه تعبير الإمبراطورية المترددة. وأظن أنهم على حق فى هذا. إذ أنه حتى الآن ورغم كل الجـهـود التى بذلت فى الأعـوام الأخـيـرة لبناء أسـاس داخلى قـوى فى الولايات المتـحدة يمكن أن يقوم عليـه أو فوقه إجمـاع وطنى مناصر للإمبراطورية لم ينجح هذا الأمـر حـتى الآن. فالأمريكيون منقسمون. ومازالت نسبة كبيرة فى النخبة السياسية الأمريكية تخشى عواقب الاندفاع الإمبـراطورى الأمريكى. ومع ذلك يتفاعل بعض أنصار الإمـبـراطورية بمسـتـقـبل المشـروع الإمبـراطورى استناداً إلى أن التركيبة السكانية الأمريكية الجديدة تبشر بقرب حـصـول هذا الإجـمـاع. إذ أن نسـبـة مـتـزايدة باسـتـمـرار من السكان الأمريكيين من أصـول أسبانية لن تقف بحكـم ثقافتها السياسية عائقاً باسم الديمقراطية أو الليبرالية فى وجه هذا الاندفـاع الإمـبـراطورى. بل إن هذه الملايين الجـديدة التى تتـحـدث الأسـبانية فى الولايات المتحدة وتتلعثم عندمـا تتحدث اللغة الإنجليزية أو تفكر بها لاترى غضاضة فى قيام نظام فى أمريكا يقـيد الحريات والديمقـراطيـة وبتوسع فى الخارج على حساب الدول الأخـرى حـتى لو كـانت فى مـواطنهـا الأصلية، أى فى أمريكا اللاتينية ■



الشرق الأوسط الكبير
والإصلاح على الطريقة الأمريكية !!

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

أتحفتنا الإدارة الأمريكية فى شهر فبراير الماضى بمبادرة للتطوير والإصلاح سميت بالشرق الأوسط الكبير لم يكن في المبادرة جديد بصفة عامة لابالمعنى التاريخى ولا فى اطار الموقف الراهن، فمن المنظور التاريخى مثلت الترتيبات الشرق أوسطية حلما أمريكيا مستديماً لمستقبل الوطن العربى، فلم تبد الولايات المتحدة الأمريكية فى أى وقت من الأوقات حماسا للتفكير فى مستقبل هذا الوطن وفقاً لخطوط عربية . قد يكون الأمر راجعا إلى وعى بخبرة التاريخ الذى يفيد بوضوح بأن العرب ما تجمعوا إلا وشكلوا كتلة مؤثرة في التفاعلات الدولية، وقد تكون آخر حلقات هذه الخبرة هى الحقبة الناصرية التى ارتفع فيها المد القومى العربى إلى المستوى الذى ألحق فيه الضرر بالمصالح الأستراتيجية الأمريكية فى المنطقة، وقد يكون التأثير الصهيونى الذى يخشى بدوره تجمع العرب مسئولا هو الآخر عن ديمومة الحلم الأمريكى الشرق أوسطى للمستقبل العربى، لكن النتيجة تبقى واحدة فى كل الأحوال : أن السياسة الأمريكية ألقت بثقلها دوماً وراء نظام شرق أوسطى لا عربى .

إنجلترا
لندن
الإمارات الألمانية
باريس
مملكة فرنسا
فيينا
البندقية
جنوة
بولندا
روسيا
لتوانيا
قبائل آق قيونلو
ملدافيا
البحر الأسود
بلاد الشركس
سينوب
سمسون
إستانبول
طربزون
أنقرة
قونية
ملطية
أضنة
أنطاليا
الموصل
أنطاكية
حلب
حماة
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
صيدا
حيفا
القدس
غزة
الإسكندرية
القاهرة
القلزم
أيلة
المدينة المنورة
بغداد
البصرة
العراق
تبريز
تفليس
باكو
قزوين
برشلونة
سردينيا
روما
مملكة الصقليتين
صقلية
مالطة
تونس
سوسة
جربة
بنزرت
عنابة
الجزائر
وهران
تلمسان
بليدة
إيالة الجزائر
البحر المتوسط
طرابلس
بنغازي
إيالة طرابلس
رودس
أزمير

أما فى إطار الموقف الراهن فلم تحمل مبادرة الشرق الأوسط الكبير أى جديد أيضا فمنذ توصلت الإدارة الأمريكية الحالية فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى ذلك الاستنتاج القاضى بأن الوطن العربى بات معملاً لتفريخ الإرهاب بسبب نظمه الاستبدادية وتخلفه التعليمى والإقتصادى أخذ رجال الإدارة الأمريكية سواء فى البيت الأبيض أو فى وزارة الخارجية الأمريكية يمطروننا من حين لآخر بوابل من الأفكار الخاصة بضرورة تطويرنا ديمقراطياً وآليات ذلك وحتمية تغيير المناهج التعليمية العربية لتخليصها مما يحض على كراهية الآخر فيها . إلى أن جاءت المبادرة الأخيرة لتجمع هذا كله وتعطيه اسم الشرق الأوسط الكبير بحيث بدت وكأنها «أم المبادرات».

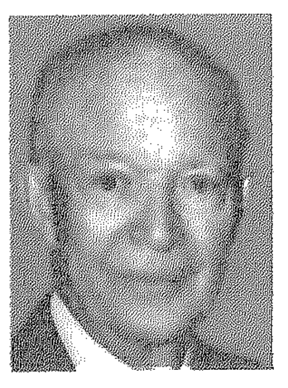
مع ذلك فإنه يمكن القول بأن التدقيق فى مبادرة الشرق الأوسط الكبير يكشف عن أنها قد تضمنت جديداً بأحد المعانى، فهى المرة الأولى - فى حدود ما أعلم - التى تطلق فيها الولايات المتحدة مبادرة فى هذا الإطار الواسع وتجعل هدفها الرئيسى هو الإصلاح الداخلى، ذلك أن جميع المشروعات الشرق أوسطية السابقة تميزت إما بكونها ذات طابع أمنى (كمشروع قيادة الشرق الإوسط فى مطلع خمسينيات القرن العشرين ومشروع حلف بغداد فى منتصفها) وإما بكونها ذات طابع وظيفى (كمشروع جونستون للمياه خلال الفترة نفسها) وإما بكونها ذات طابع يجمع الأمرين معاً (كمبدأ أيزنهاور فى ١٩٥٧ وشرق أوسطية أوسلو فى أعقاب توقيع الاتفاق الفلسطينى - الإسرائيلى فى ١٩٩٣) لكن حلم الشرق أوسطية الأمريكى هذه المرة اتخذ خصوصيات الداخل العربى هدفاً له .

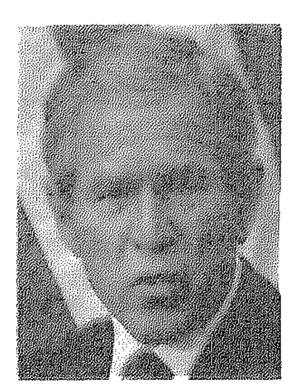
عن مضمون الشرق الأوسط الكبير

باستثناء ما سبقت الإشارة إليه فإن المبادرة لم تأت بجديد نوعياً يختلف عن الأفكار التى تبارى رجال الإدارة الأمريكية فى البيت الأبيض ووزارة الخارجية فى طرحها منذ ما يزيد عن السنتين، وإن تميزت بأنها قد غرقت فى تفاصيل مملة تعكس غياباً حقيقياً للقدرة على الإبداع، بنيت المبادرة على مثلث للإصلاح تشير أضلاعه إلى تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح وبناء مجتمع المعرفة وتوسيع الفرص الإقتصادية، وهى محاور جذابة بطبيعة الحال، وتكاد أن تحظى باجماع من النخب العربية، بل هى حرية بأن تحصل على تأييد أى نخبة تسعى إلى التغيير فى أى مكان فى العالم لكن إمعان النظر فى الأفكار التى تضمنتها المبادرة لتجسيد هذا المثلث فى واقع الشرق الأوسط الكبير يكشف عن سطحية بالغة

تنم عن غياب حقيقى لفهم مدى تعقد المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى المنطقة .

ففى مجال الديمقراطية على سبيل المثال تتحدث المبادرة عن «تقديم مساعدات تقنية عبر تبادل الزيارات أو الندوات لإنشاء أو تعزيز لجان انتخابية مستقلة لمراقبة الانتخابات والاستجابة للشكاوى وتسلم التقارير» وكذلك «تقديم مساعدات تقنية لتسجيل الناخبين والتربية المدنية إلى الحكومات التى تطلب ذلك، مع تركيز خاص على الناخبات» وذلك فضلا عن الإشارة إلى الزيارات المتبادلة والتدريب على الصعيد البرلمانى ومعاهد للتدريب على القيادة خاصة بالنساء «ومبادرة وسائل الإعلام المستقلة» من خلال آليات تتمثل فى زيارات متبادلة للصحافيين فى وسائل الإعلام المطبوعة والإذاعية ورعاية برامج تدريب لصحافيين مستقلين وتقديم زمالات دراسية الخ، وجهود مكافحة الفساد من خلال التشجيع على تبنى «مبادئ الشفافية ومكافحة الفساد» الخاصة بمجموعة الثمانى، ومناقشة استراتيجيات وطنية لمكافحة الفساد وتعزيز خضوع الحكومة للمساءلة، وتعزيز المجتمع المدنى من خلال تشجيع حكومات المنطقة على السماح لمنظمات المجتمع المدنى بالعمل بحرية، وزيادة التمويل المباشر للمنظمات المهتمة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، وتبادل الزيارات وإنشاء شبكات إقليمية وتمويل منظمة غير حكومية تعمل فى اتجاه التوصل إلى تقويم سنوى للجهود المبذولة من أجل الإصلاح القضائى أو حرية وسائل الإعلام فى المنطقة .


دوايت أيزنهاور


جورج بوش

وفى مجال بناء مجتمع المعرفة تحدثت المبادرة عن تعزيز جهود محو الأمية، وعن ترجمة المؤلفات الكلاسيكية لدى مجموعة دول الثمانى فى مجالات الفلسفة والأدب وعلم الإجتماع وعلوم الطبيعة، وإعادة نشر الكتب الكلاسيكية العربية النافذة والتبرع بها إلى المدارس والجامعات والمكتبات العامة المحلية، ودعت المبادرة إلى عقد «قمة الشرق الأوسط لإصلاح التعليم » قبل انعقاد قمة مجموعة الدول الثمانية الصناعية الكبرى، ومبادرة التعليم من خلال الإنترنت، ومبادرة لتدريس إدارة الأعمال ! وفقا لنموذج معهد البحرين للمصارف والمال، وهو مؤسسة بمدير أمريكى ولها

علاقة شراكة مع عدد من الجامعات الأمريكية .

وفي مجال توسيع الفرص الاقتصادية تضمنت المبادرة ما أسمته بمبادرة تمويل النمو من خلال «إطلاق حرية الخدمات المالية وتوسيعها في عموم المنطقة» وكذلك مبادرة التجارة التي ركزت على انضمام بلدان المنطقة إلى منطقة التجارة العالمية، وإنشاء مناطق في الشرق الأوسط الكبير للتركيز على تحسين التبادل التجاري في المنطقة، وإقامة مناطق تشجيع التعاون الإقليمي في تصميم وتصنيع وتسويق المنتجات، وإنشاء « منبر للفرص الاقتصادية » يجمع مسئولين كباراً من مجموعة الدول الثمانية الصناعية الكبرى والشرق الأوسط الكبير، مع امكان عقد اجتماعات جانبية لمسئولين وأفراد غير حكوميين لمناقشة القضايا المتعلقة بالإصلاح الاقتصادي .

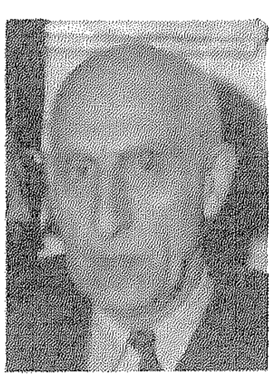
رؤية نقدية

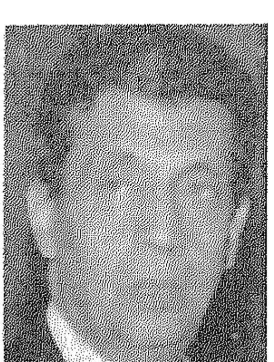
لاشك أن المبادرة على النحو السابق يمكن أن تكون متضمنة لأفكار مفيدة وفق النموذج الأمريكي في نظم الحكم والثقافة والاقتصاد، غير أن إمعان النظر في المبادرة يفضي إلى العديد من الملاحظات التي نتخير منها الملاحظات الأربعة التالية :

ترتبط أولى الملاحظات بأن مطلقي المبادرة قد حددوا الشرق الأوسط الكبير بأنه الدول العربية بالإضافة إلى إسرائيل وتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان، وهي مجموعة غير متجانسة من الدول على الأقل بحكم وجود إسرائيل من بينها، ولايخفى أن هذه الدول تعاني من مشكلات مختلفة بدرجات متفاوتة ولا يمكن أن توصف لها الحلول نفسها خاصة وأن مبادرة الشرق الأوسط الكبير حرصت على أن تبدو وكأنها تنطلق من حاجة داخلية ماسة للتغيير عبر عنها تقريرا التنمية الإنسانية العربية الصادرين عن الأمم المتحدة في عامي ٢٠٠٢و ٢٠٠٣ ولم يلتفت معدو المبادرة فيما يبدو إلى أن معنى الاستناد الحصري إلى التقريرين هو أن الرؤية المتضمنة في المبادرة لاتنسحب إلا على البلدان العربية .

أما الملاحظة الثانية فتشير إلى أن المبادرة قد أغفلت تماما دور العوامل الخارجية في وصول الأوضاع العربية إلى ما وصلت إليه من حال أمعنت المبادرة في نقده ولا نريد الآن أن نضيع الوقت في جدل ممتد حول مسئولية العوامل الخارجية عن التخلف العربي خاصة وأن مسئوليتنا عنه واضحة للغاية، ولكن يكفي أن نذكر أن هذه العوامل تلعب في الوقت الراهن دوراً بالغ الخطورة في تكريس الإحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية أو الإحتلال الأمريكي للعراق ومن عجب أن

التقريرين اللذين استندت إليهما المبادرة قد أشارا بوضوح إلى هذه الحقيقة، فقد أشار التقرير الأول (٢٠٠٢) إلى الاحتلال الإسرائيلي وكيف أنه شكل عقبة كؤوداً في وجه التنمية الإنسانية يترتب عليها إهدار خطير لفرص التنمية الإنسانية في البلدان العربية وليس في فلسطين فحسب حيث تمتد معاناة الإحتلال إلى عموم الشعب العربي وإن اقتصر جانب من أوخم عواقبه على حدود فلسطين، وقد شدد التقرير الثاني الصادر في عام ٢٠٠٣ على المعنى نفسه وفصل في بيان العواقب الوخيمة للاحتلال الإسرائيلي وممارساته على فرص التنمية الإنسانية في فلسطين والوطن العربي، وأضاف حديثاً مماثلاً عن تداعيات احتلال العراق على التنمية الإنسانية في الوطن العربي منتهياً إلى أن تبعات غزو العراق واحتلاله لاتتوقف عند حدوده، وسيكون لتطور الأوضاع في العراق إضافة لذلك آثار مهمة على التنمية الإنسانية في عموم الوطن العربي، إذ بالنسبة للمنطقة العربية ككل جسدت هذه الحرب مخططات إعادة تشكيل المنطقة العربية من الخارج خدمة لأغراض قوى أجنبية». وحرص التقرير بعد ذلك أن يوضح أن هدفه في مواجهة ما سبق هو «حفز رؤية استراتيجية تبلورها النخب العربية عبر عملية إبداع مجتمعي وطنية تتوخى إعادة تشكيل المنطقة من الداخل خدمة للتقدم الإنساني فيها» وقد اشير إلى هذه المعاني جميعا في صراحة ووضوح سواء في الكلمة التي ألقتها د.ريما خلف هنيدى المدير الإقليمي لمكتب الدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي في تدشين التقرير الثاني في أكتوبر ٢٠٠٣، أو في تصدير التقرير الذى كتبه «مارك مالوك براون» المدير العام للبرنامج .


محمد مصدق


عمروموسى

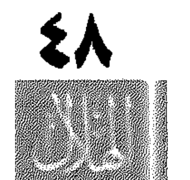
أما الملاحظة الثالثة فتتمثل في أن المبادرة قد تحدثت في غير موقع - استشعاراً من واضعيها بحساسية فرض التغيير من الخارج - عن «التعاون مع البلدان المعنية وأشارت كذلك إلى أنها تأخذ في إعتبارها أن القوة الدافعة للإصلاح الحقيقي في الشرق الأوسط الكبير يجب أن تأتي من الداخل وإلى أن المساعدات التي ستقدمها مجموعة الثمانية سوف تتم استناداً إلى «الجهود التي تبذل بالفعل في المنطقة»، غير أن إمعان النظر في الآليات المقترحة يشي

بالتدخل الصارخ فى أخص الشئون الداخلية للبلدان المعنية، فسوف تنشئ مجموعة الثمانية وتوفر التمويل لمراكز يمكن للأفراد أن يحصلوا فيها على مشورات قانونية، وتزيد التمويل المباشر لمنظمات الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتمول منظمة غير حكومية لغرض تقويم الجهود المبذولة فى مجال الإصلاح، وترعى قمة الشرق الأوسط لإصلاح التعليم التى ستكون ملتقى لقيادات الرأى العام المتطلعة إلى الإصلاح والقطاع الخاص وقادة الهيئات المدنية الاجتماعية فى المنطقة ونظرائهم من الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبى «لتحديد المواقع والمواضيع التى تتطلب المعالجة، والتباحث فى سبل التغلب على النواقص فى حقل التعليم» وهكذا.

وأخيراً فإن الملاحظة الرابعة تشير إلى أن النخب العربية لايمكن لها أن تفصل فى رأيها بين المبادرة وبين ما تعرفه عن خبرة السياسة الأمريكية فى محاولاتها السابقة لتغيير النظم من الخارج. صحيح أن فضلا ما يمكن أن ينسب لهذه السياسة فى تأسيس نظم ديمقراطية ليبرالية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كما فى حالتى اليابان وألمانيا على سبيل المثال، لكن وزراً كبيراً ينسب للسياسة نفسها فى التحالف مع نظم غير ديمقراطية للغرض ذاته وليست حالة د. محمد مصدق فى إيران فى مطلع خمسينيات القرن العشرين أو سلفادور الليندى فى شيلى فى عقد السبعينيات من القرن نفسه سوى مثالين على عديد من الحالات المماثلة بل إن الأداء الأمريكى فى العراق حتى الآن يكشف عن السوءات نفسها، فالمفارقة أن الولايات المتحدة التى تملأ أذاننا صراخا حول وجوب الديمقراطية تتبنى الآن نهجا غير ديمقراطى فى العراق فى الوقت الذى تصر فيه القوى السياسية الحية فى العراق على ديمقراطية حقيقية، وأخيراً وليس آخراً فإن الدنيا مليئة بنماذج غير ديمقراطية تحمل تهديداً للولايات المتحدة الأمريكية بموجب المعايير التى تطبقها الولايات المتحدة على البلدان العربية فلماذا لاتطيح بنظمها بالطريقة نفسها ؟ بل إنه من الطريف أن المبادرة نفسها تعترف بأن الوطن العربى يسبق أفريقيا جنوب الصحراء فى مؤشرات عديدة فلماذا لاتوجه الولايات المتحدة إهتمامها بالتغيير إلى أفريقيا أولاً ؟

المواجهة العربية

يلاحظ أن عدداً من النظم الحاكمة فى دول عربية مهمة قد استنفر فى أعقاب طرح المشروع بأكثر ما استنفر بسبب احتلال العراق، وأعلن مسئولون رفيعو المستوى فى هذه النظم رفضهم إملاء التغيير من الخارج وأكدوا أن التغيير يجرى بالفعل بإرادة ذاتية وإن



وجبت مراعاة الظروف الخاصة بكل دولة، وانطلقت أجهزة إعلام عربية تفند مبادرة الشرق الأوسط الكبير، وعلم أن دولاً بعينها قد قدمت مبادرات خاصة بها للتطوير الداخلى عرضت فى الدورة الأخيرة لمجلس الجامعة العربية لاتخاذ قرار بشأنها تمهيدا لرفعها إلى مؤتمر القمة التى كان مفترضا أن تعقد فى تونس فى نهاية مارس. وثابر قطاع مهم من النخبة العربية المثقفة على رفض مشروع الهيمنة الأمريكية ومنه مبادرة الشرق الأوسط الكبير ومع ذلك فإن النجاح فى هذه المواجهة يفترض شروطاً ضرورية لاغنى عن توفيرها إذا أريد للنظام العربى أن يجتاز بسلام هذا الامتحان الجديد .

أول هذه الشروط أن مواجهة المشروع الأمريكى لمستقبل المنطقة لايمكن أن تكون جزئية بمعنى أن تقبل السياسة الأمريكية تجاه فلسطين أو العراق أو يسكت عنها بينما يتم التصدى فقط للشق المتعلق بالتغيير الداخلى فى هذا المشروع ذلك أنه من البديهى أن نجاح المشروع الأمريكى المتعثر فى العراق ومشروع الوكيل الإسرائيلى المتعثر فى فلسطين سوف يصل باحتمالات النجاح فى مواجهة «الشرق الأوسط الكبير» إلى حدها الأدنى إن لم يكن إلى الصفر، حيث سيصعب حينذاك التمسك بالقول بأن كل تغيير آت من الخارج يتأبط شراً ولو على نحو غير مباشر، وسيقوى منطق المطالبين بفرصة للشرق الأوسط الكبير..

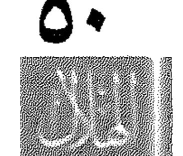
وثانيها أن نجاح المواجهة يتطلب جبهة عربية واسعة فى المواجهة تضم أولاً أكبر عدد من الدول العربية وهى مسألة تحيطها صعوبات واضحة بالنظر إلى أن ثمة نظماً عربية تظاهر المشروع على نحو واضح أو على الأقل تطالب بإعطائه فرصة، وهناك نظم عربية أخرى قد لاتقوى على الاعتراض عليه صراحة كما أن هذه الجبهة يجب أن تحشد من خلفها أوسع قطاعات ممكنة من النخب والجماهير العربية ومن الواضح أن الاتجاه الغالب بين هذه النخب والجماهير مستفز من السياسة الأمريكية بصفة عامة رافض لتدخلاتها غير أن هذا وحده لايمكن أن يصلح أساساً لمواجهة ناجحة إذ يجب أن تكون هناك إرادة تغيير حقيقى تنعكس فى سلوك يحظى بالصدقية فى اتجاه التطوير الداخلى من قبل النظم العربية وهذا ينقلنا إلى الشرط الثالث .

ثالث الشروط إذن أن المواجهة لايمكن أن تستند إلي القول بأننا نعرف أكثر من غيرنا حاجتنا إلى التطوير الداخلى وأننا شرعنا فيه بالفعل بما يعطى معنى أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، إذ لاشك فى أن خطى التغيير بطيئة وغير كافية ومتعثرة فى معظم

الأقطار العربية إن لم يكن فى جميعا، وقد نذكر مجرد تذكرة بأن قرارات «قمة أنشاص» فى ١٩٤٦ - أى منذ أكثر من نصف قرن - قد اختتمت بإجماع القادة العرب « على ضرورة تيقظ شعوبها تيقظا كاملاً إزاء الخطر الصهيونى الذى يهددنا وإزاء أى خطر خارجي آخر وأن نعمل على إنهاض شعوبنا وترقية مستواها الثقافى والمعاشى بحيث تصبح قادرة على مجابهة أى عدوان خارجى مداهم». كان الخطر الشيوعى وقتها يلوح فى الأفق بالإضافة إلى الخطر الصهيونى بطبيعة الحال، ووجد القادة حينذاك أنه لا بأس من إعلان نية السعى من أجل التطوير الداخلى، ولأن ذلك لم يحدث فقد شملت الوطن العربى موجة تغيير عارمة بعد أقل من عقد من الزمان،ولعل الدلالة تكون مفيدة خاصة وأن التركيز على الديمقراطية فى مشروع الشرق الأوسط الكبير من شأنه أن يغرى قطاعاً من المتقبلين للتدخل الأمريكى وربما قطاعات من المحايدين بتبنى منطق إعطاء فرصة للدور الأمريكى، أو القول بأنه ليس من المعقول أن ترفض الديمقراطية لمجرد كونها مطروحة علينا من الولايات المتحدة الأمريكية وهو ما ينقلنا للشرط الرابع .

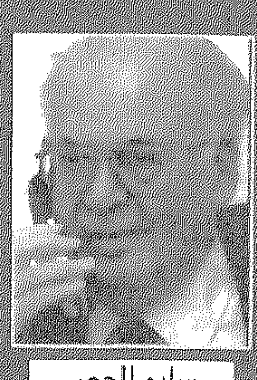
يتعلق الشرط الرابع إذن بضرورة أن تكون المواجهة مستندة إلى أساس فكرى راسخ يكشف بمنتهى الموضوعية حقيقة الديمقراطية الأمريكية، والواقع أنه ما من منطق يستحق المواجهة السياسية والفكرية فى الظروف الراهنة أكثر من المنطق الذى يبدأ بتصديق الطرح الديمقراطى الأمريكى لمستقبل الوطن العربى فالأمة العربية ليست مدعوة للقبول بخيار ديمقراطى أمريكى بأى حال فالديمقراطية بالنسبة للولايات المتحدة وسيلة وليست غاية بدليل ما حدث مع إيران وشيلى مما سبقت الإشارة إليه وما يجرى فى العراق الآن أيضاً.

ولأن الشروط السابقة صعبة، والخبرات العربية القريبة فى مواجهة الشرق أوسطية غير مشجعة، فإن ثمة شكاً فى القدرة العربية على الوفاء بمتطلبات هجوم مضاد وناجح على مشروع الشرق الأوسط الكبير، وسوف يكون ارتباك هذا الهجوم العربى المضاد - إن وقع - أسوأ من القعود عن المواجهة بكثير، فهل من تدبر رشيد يكفل للعرب الانتصار فى معركة الشرق الأوسط الكبير؟ أم أنه سوف يتعين عليهم أن يكتفوا بدور المراقب أو المهاجم المتردد حتى تتكفل عوامل التآكل الذاتى بأن يذهب هذا المشروع كسابقيه إلى أرشيف التاريخ ؟ ■



• «المستقبل سيكون أنثوياً لأسباب كثيرة ، لعل أبرزها أننا نتحول من نمط الإنتاج الصناعى الثقيل الذى يتطلب قوة عضلية إلى العمل بأدمغتنا ، أمام شاشة الكمبيوتر »

البارونة سوزان جرينفيلد
أول امرأة ترأس المعهد الملكى فى بريطانيا


سليم الحص

•«عندما يفرغ الحاكمون من كلامهم ، حينها يتكلم المحكومون والظاهر أن حكامنا فرغوا من كلامهم ، والسلطة فى خراب »

برهان علوية
المخرج اللبناني صاحب فيلم كفر قاسم

• « فى لبنان حرية كثيرة ، وديمقراطية قليلة»

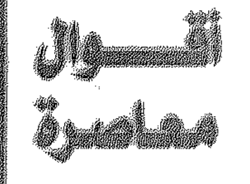
سليم الحص – رئيس وزراء لبنان الأسبق

•« بقدر ما يحاول القذافى أن يظهر كشخص عادى، يصبح شخصا غير عادى ، إنه أغرب شخص عادى فى العالم ».

براين وتكر – المعلق البريطانى

• « فيما نقوم بتخريب كوكبنا هذا ، بدأنا الآن نبحث كيف نخرب كوكباً آخر»

الكاتب روبن ماكى عن المخططات الأمريكية لكوكب المريخ



• «الواحد يجب أن يعلم ، ولو القليل ، قبل أن يعلق على شئ لا يعرفه »

روجر آلن – المستعرب الأمريكى

• «أنتم تريدون الحياة ، ونحن نريد الموت »

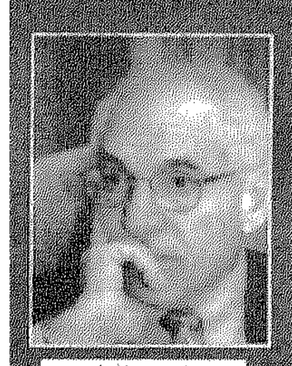
أبو دجانة الأفغانى
الناطق بلسان القاعدة فى أوروبا

• «المجتمع العربى ليس لديه استعداد لرعاية المواهب وصقلها » .

المستعرب اليابانى نوبواكى نوتوهارا

• «التعصب الدينى يمكن أن يؤدى فى أى مكان إلى أن يتولى السلطة نظام مشابه لطالبيان »

صديق باراك
المخرج الأفغانى صاحب فيلم أسامة


فاروق الباز

• «الدولة الريعية النفطية لعبت دوراً سلبياً ، أضعف الرغبة فى المشاركة السياسية لدى السعوديين ».

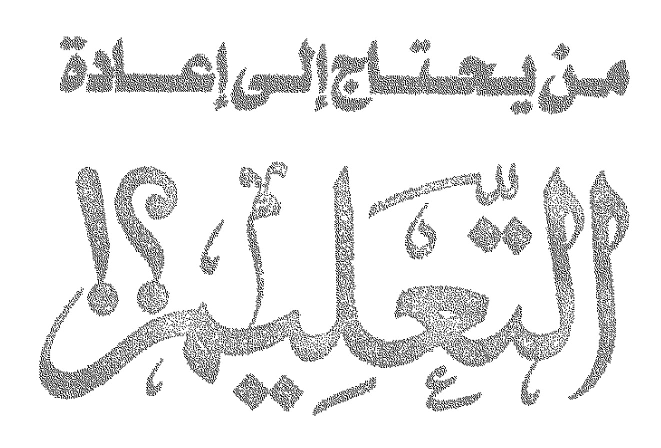
الكاتب السعودى عبد العزيز الخميس

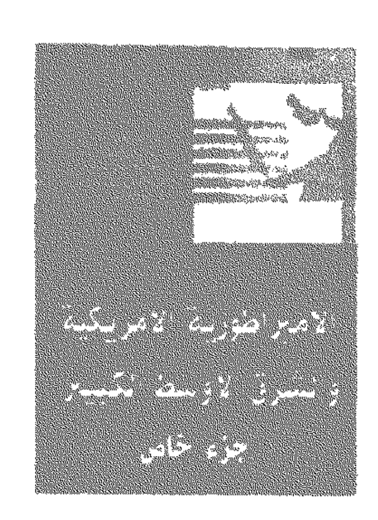
•« يوجد فى العالم العربى كله ، بما فيه مصر خلل عام فى الفك »

العالم المصرى د. فاروق الباز

• «الجهاد فى مفهومه الحقيقى، وسيلة لحماية التعارف والاختلاف، أى حماية الحرية فى الاختيار »

د. عبد الحميد الأنصارى
عميد كلية الشريعة فى قطر سابقا





بقلم
عبدالرحمن شاكر

فى صفاقة لم يسبق لها مثيل ، تضمنت المبادرة الأمريكية لإصلاح ما يسمونه «الشرق الأوسط الكبير» ، ويقصدون به العالم العربى وتخومه الاسلامية المجاورة ، إصلاح التعليم الدينى فى هذه المنطقة ! ولو كان حديثهم عن إصلاح التعليم ينصرف إلى تعليم التكنولوچيا والعلوم البحتة كما كان يطلق العرب على العلوم الطبيعية والرياضيات ، أو فى مجال الانسانيات الديمقراطية التى يتشدقون بها ، أو الاقتصاد «الحر» ، لكان الأمر مقبولا ومعقولا ، أما إعادة تعليم أبناء هذه المنطقة أمور الدين، فهذا أمر مدهش ، وذلك لأن العقائد التى يؤمن بها هؤلاء القوم أو يظهرون الإيمان بها ، كاليهودية والنصرانية ، إنما وجدت أولا فى هذه المنطقة قبل أن تصل إليهم .

والوضع الطبيعى أن يأتوا إلى هذه المنطقة لكى يتعلموا منها ما يكون قد فاتهم فى علوم الدين .. أما أن يأتوا إلى المنطقة التى توصف عن حق بأنها «مهد الأديان السماوية» لكى يقفوا منها موقف المعلم ، فهذا هو العجب العجاب !

الأمر إذن عندهم ، هو أن الغالبية العظمى من أبناء هذه المنطقة قد اعتنقت الإسلام ، الذى ظهر بعد ظهور المسيحية وقبلها اليهودية بقرون ، ولا يشك عاقل ، فى أن أتباع هاتين الديانتين قد دخلوا فى حوار طويل عريض مع الإسلام عند ظهوره ، ولم يتركوا حجة يعترضون بها على ما خالفهم فيه إلا قالوها أو كتبوها ، فماذا فى جعبة يهود أمريكا أو نصاراها ليعلموه للمسلمين ؟! التسامح

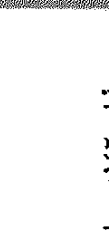
الدينى مثلا ؟ إن تاريخ هذه المنطقة يشهد لها بعد أن غلب عليها الإسلام أنها كانت الأكثر تسامحا فى العالم كله مع «أهل الكتاب» وهى الصفة التى أطلقها الإسلام على اليهود والنصارى ، ولقد ظل من بقى على هاتين الديانتين من أبناء المنطقة شركاء حقيقيين فى الحضارة العربية الإسلامية التى انتشرت وازدهرت فى حدود الصين شرقا إلى جنوب أوروبا غربا فى الأندلس ، كانت لهم مساهماتهم فى العلوم والفنون والآداب ، بل فى شئون الحكم أيضا حيث كان منهم وزراء لبعض خلفاء المسلمين ! ولم تعرف هذه المنطقة المذابح الهمجية التى عرفتها أوروبا فى اضطهاد المخالفين فى العقيدة ، مثل المذابح التى شنها القياصرة الروس على اليهود فى بلادهم ، وصولا إلى «الهولوكست» التى يتشدقون بها فى عهد قريب جدا فى ألمانيا النازية فى القرن الماضى مباشرة ، فضلا عن الحروب المتطاولة ما بين مختلف الطوائف أو المذاهب المسيحية ، والتى ما تزال بقاياها حتى الآن تمثل مشكلة فى إيرلندا الشمالية.

لا أحد يملك فى هذه الدنيا أن يعلم المسلمين فى بلادهم معنى التسامح الدينى ، وهم الذين كانت بلادهم ملجأ من الاضطهاد الدينى فى أوروبا ، مثل لجوء اليهود الذين فروا من محاكم التفتيش فى الأندلس بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، إلى دولة الخلافة العثمانية فى الأستانة ، أو «اسلامبول» كما سماها الأوروبيون وينطقها عامتنا : «اسطنبول» !

الغرض الصهيونى

لقد خلت مبادرة «إصلاح الشرق الأوسط الكبير» التى قدمتها الإدارة الأمريكية من أية إشارة إلى حل ما يسمى «بقضية الشرق الأوسط» وهى الصراع القائم فى فلسطين ، بين مغتصبيها من الصهاينة وأصحاب البلاد من الفلسطينيين العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، وكان ذلك سببا فى رفض الدول العربية للمشروع، وأصبح مفهوما لدى الرأى العام العربى ، أن هذه المبادرة إنما تهدف إلى إدماج الدولة الصهيونية ، مع استمرار عدوانها واغتيالها لحقوق الشعب الفلسطينى فى المنطقة العربية والإسلامية ، بحيث تكون لها السيطرة على المنطقة بأسرها ، ليس من خلال تفوقها العسكرى الساحق فحسب ، بفضل المؤازرة الأمريكية غير المحدودة لها ، بل أيضا من خلال التفوق العلمى والتكنولوچى المكفول لها أيضا أمريكيا، بحيث تكون لها اليد العليا فى المقدرات الاقتصادية لشعوب المنطقة ، وأخيرا تتطلع عبر الراعى الأمريكى لها لكى تكون مقبولة ، بل ومرحبا بها عبر إعادة التعليم التى تدعو إليها المبادرة الأمريكية ، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم الدينى .

يزعم الساسة الأمريكان أصحاب



تلك المبادرة ، أنهم يريدون إخلاء برامج التعليم الدينية مما يدعو إلى كراهية الآخرين ، فهل تتضمن هذه البرامج مما يحض على هذه الكراهية، أكثر مما يحتويه العهد القديم من كتابهم المقدس ؟! ولكن العرب والمسلمين يعلمون أن ما تحتويه تلك النصوص إنما يتعلق بعهود بالغة القدم ليس منها ما يتعلق بالأوضاع الراهنة ، إلا بقدر ما يستغلها سفهاء الصهاينة لتسويغ أغراضهم العدوانية .

لو أن النصوص الدينية لدى العرب والمسلمين كانت تحض على كراهية الآخرين ، على النحو الذى يصورها به الساسة الأمريكان أصحاب المبادرة ، لما بقى فى هذه المنطقة مخالف للعقيدة الإسلامية ، منذ أصبح الإسلام هو عقيدة الأغلبية فى أبنائها ، وبلغت الدولة الإسلامية أوج مجدها وقوتها قبل أن توجد الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها بزمان طويل ؟

لم يكن هناك أمريكان فى هذه الدنيا حين أمر القرآن الكريم المسلمين بألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، فهل يريد الساسة الأمريكان أن يترك المسلمون ذلك ، وقول نبيهم «من آذى ذميا فقد آذانى» يقصد بالذمى من دخل ذمة المسلمين وعايشهم فى سلام من أهل الكتاب اليهود والنصارى ؟

أغلب الظن أن اليمين المسيحى الصهيونى المسيطر على الإدارة الأمريكية إنما يريد للمسلمين أن يتخلوا عن مبدأ المساواة بين البشر الذي دعا إليه الإسلام طبقا لقول نبيهم: «كلكم لآدم وآدم من تراب» أو قوله «ليس لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود فضل إلا بالتقوى» لكى يؤمنوا معهم بكلمة مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانى الذى يدينون به :

«إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف والغرباء .. وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التى تأكل، مايتساقط من فتات مائدة أسيادهم، تماما كالمرأة الكنعانية» ! (أنظر كتاب «المسيح اليهودى ونهاية العالم» للزميل الصحفى المختفى رضا هلال ، رحمه الله حيا كان أو ميتا !)

على أن مارتن لوثر إذا كان قد قال ذلك فقد كان يقصد الأصلاء من بنى إسرائيل ممن أرسل إليهم المسيح وكانوا أمة من الموحدين ، وليس الأدعياء الصهاينة الذين يتعبد لهم الساسة الأمريكان الآن ويساعدونهم فى اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها وإبادتهم !

جريا وراء الكذب

لم يكن إدعاء أن العراق يملك أسلحة نووية ، أو بالأقل أسلحة دمار شامل هو الكذبة الوحيدة التى انطلق وراءها الساسة الأمريكان لشن الحرب

على ذلك القطر العربى واحتلاله ، بل لقد أعلن أحد المسئولين الأمريكان السابقين أن الحرب التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على ڤيتنام، والتى لقيت فيها نكالا مريعا ، نرجو أن يتحقق مثله قريبا فى العراق، إنما كان جريا وراء كذبة أخرى عن قيام الڤيتناميين بقصف سفن حربية أمريكية فى مياه المنطقة المجاورة لها !

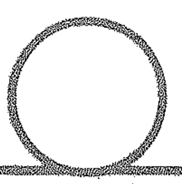
على أن الكذبة الكبرى التى يجرى وراءها الساسة الأمريكان هى إدعاء اليهود الأشكناز الذين اغتصبوا فلسطين والذين جاء وا من روسيا وشرق أوروبا ، وما يزال المهاجرون الجدد إلى «إسرائيل» يأتون منها، إنما «يعودون» إلى بلادهم أرض اسرائيل !

ولقد سبق أن رحبت على صفحات «الهلال» بانضمام الزميل الصحفى الراحل المرحوم وجيه أبو ذكرى إلى قافلة الواعين من الكتاب العرب بقصة «الخزر» الذين اعتنقوا الديانة اليهودية فى القرن الثامن الميلادى وهم يشكلون حاليا أكثر من تسعين فى المائة من يهود العالم ، ومنهم نشأت الحركة الصهيونية وهم يشكلون مادتها البشرية الأساسية .

واليوم أعود إلى الترحيب بقلم جديد ، انضم إلى ذات القافلة الواعية، وهو قلم الزميلة الصحفية الأستاذة مها عبدالفتاح ، بما كتبته على صفحات «أخبار اليوم» بتاريخ ٦ مارس المنصرم ، وذكرت فى مقالها عددا كبيرا من المراجع من بينها مصادر أمريكية تكشف عن الأصول الحقيقية لهؤلاء الأدعياء ، ونفت ما يدعونه من الانتساب إلى «السامية» وقالت إن أصولهم تعود إلى «يا بيت» الابن الثالث لنوح ، وتقصد ما هو منصوص عليه فى سفر التكوين من أن جدهم «أشكناز» الذى يعرفون به هو «أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح» ، فكتبت «يافث» «يا بيت» ، ربما كما ينطقها بعض الأوروبيين .

إننى أتمنى أن يكون كل المسئولين عن الإعلام العربى ، والساسة العرب قد قرأوا ما كتبته الأستاذة مها فى مقالها المذكور ، لكى يجابهوا الساسة الأمريكان بأنهم هم الذين يستحقون إعادة التعليم إذا كانوا يجهلون بالفعل حقيقة من يساندونهم من الصهاينة مغتصبى فلسطين ! أما إذا كانوا يعلمون ويتعمدون الكذب مثلهم فلا أحد عاقل يستمع إلى كلام الكذابين !

أما ما يزعمه الساسة الأمريكان من أن برامج التعليم العربية والإسلامية تحض على الكراهية وأنها هى مصدر ما يسمونه بالإرهاب ، فليعلموا أن مصدر تلك الكراهية هو ما يفعلونه هم وحلفاؤهم الصهاينة .. لو كانوا يعقلون ■

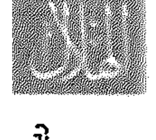


دائرة حوار



هذا الشرق الأوسط الكبير

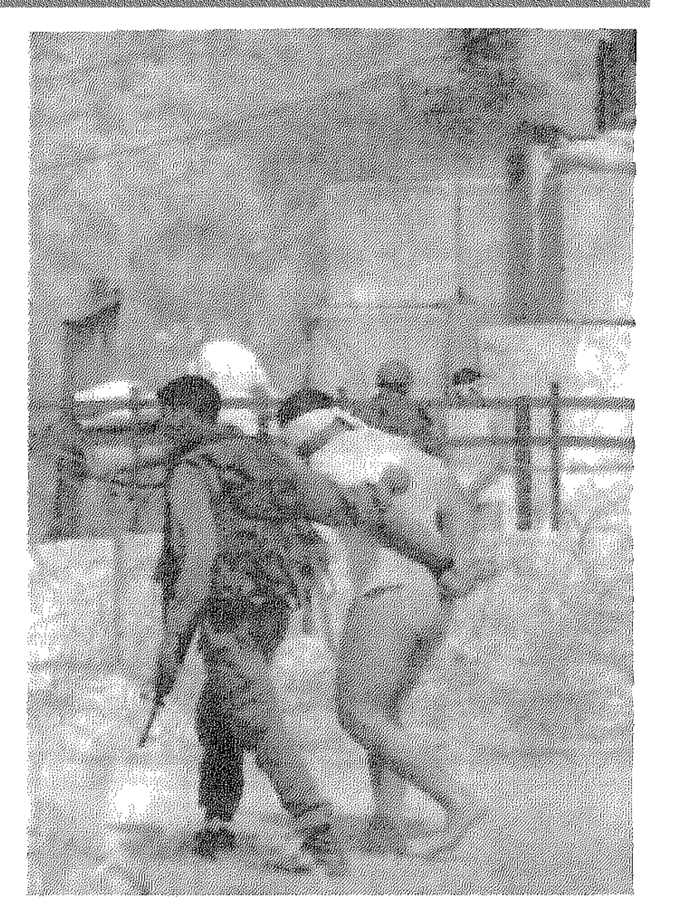
بقلم
د. رفعت سيد أحمد



ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

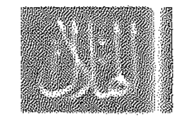
لاشك فى أن منطقتنا العربية مقبلة على مرحلة تحولات مهمة علي الصعد المختلفة سياسياً وثقافيا واقتصاديا، الخطير في الأمر أن هذه التحولات تأتى هذه المرة بإرادة وضغوط خارجية وتأتى ملتحفة بعباءات زائفة، كان أحدثها وأخطرها هو ما سمى بمشروع «الشرق الأوسط الكبير»، والذى صيغ علي شكل وصايا تبشيرية تعد المنطقة بالرخاء والحرية والمعرفة الواسعة، فى تبسيط مخل لقضاياها، ودونما انخراط جدى فى البحث عن جذور معاناتها وسر تخلفها المقيم .







إعادة إنتاج الهيمنة من زمن (العولمة)



«المشـــروع» أثار الجــدل والحـوار الموسع فى أرجـاء المعـمـورة وبخـاصـة فى بلادنا، التى يدمن فيها غالبا المثقفون والساسة تلقى المشاريع والأفكار والحوار حولها دونما محـاولة جادة لأن يقـومـوا هم بإنتـاجـهـا، حـتى عندمـا فتح الله على

واضـعي تقريرى (التنمية الانسانية) بتمـويل من الأمم المتـحـدة وهم من المثـقـفين الذين نحـتـرمـهـم - على المسـتوى الشـخـصى - كـانوا أشـد جلداً للذات من غيرهم وأقل تحليقا فى الأفق بحـثـاً عن الأفكار الجـديدة المبشرة، والقادرة على حل معضلات

أوطانهم، الأمر الذى مثل (فرصة ثمينة) لإعداد متربصين، من أمثال واضعى مشروع «الشرق الأوسط الكبير» للاسترشاد بتقريرى التنمية الانسانية سالفى الذكر، إذ لم يجدوا ما هو أشد قتامة وأقل نفعاً لهذه الأوطان، من أرقام ونتائج تلك التقارير .

مخاطر المشروع

أولا : يبدأ المشروع بفقرة مهمة ذات دلالة يقول فيها (يمثل الشرق الأوسط الكبير تحدياً وفرصة فريدة للمجتمع الدولى، وساهمت النواقص الثلاثة التى حددها الكتاب العرب لتقريرى الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية للعامين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ فى (الحرية - المعرفة - تمكين النساء) فى خلق الظروف التى تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الـ (٨) وطالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فى المنطقة سنشهد زيادة فى التطرف والارهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة) أنظر النص الكامل للتقرير فى (صحيفة الحياة - لندن ١٣ / ٢/ ٢٠٠٤ ص ١٠) إن هذه العبارة تمثل فى تقديرنا كشفاً عن النوايا الكامنة خلف مشروع «الشرق الأوسط الكبير»، وأيضاً هى تكشف عن مدى هشاشة المشروع واحتمالية سقوطه السريع إن هم بدأوا فى تطبيقه بمثل هذا الفهم السطحى لمشكلات المنطقة .

(١) فمن ناحية أولى تكشف عبارة (يمثل الشرق الأوسط الكبير تحدياً وفرصة فريدة للمجتمع الدولى) البُعد الانتهازى للمشروع والذى يعتبر هذا الشرق الأوسط مجرد (تحدى) أى مجرد مفعول به وليس فاعلا فى تشكيل المجتمع الانسانى المتقدم والواحد، وان هذا الشرق الأوسط بات يمثل (خطراً) على مجموعة الثمانى خاصة فى مجال (الارهاب) و(الجريمة الدولية) و(الهجرة غير المشروعة) وهذه أكاذيب غير صحيحة لأن هذه الأخطار موجودة فى صلب الحياة السياسية للمجتمع الغربى والهجرة غير المشروعة) على سبيل المثال تأتى من بلدان عدة منها من لاعلاقة لها جغرافيا بهذا الشرق الأوسط الكبير الذى حددته واشنطن فى مشروعها، فتأتى مثلا من فيتنام أو أندونيسيا

وأحياناً من كوبا وأمريكا اللاتينية أو من دول جنوب الصحراء الأفريقية، وكذلك (الجريمة المنظمة) التى بات مصدرها الرئيسى عصابات المافيا داخل المجتمعات الغربية وبخاصة الأمريكية منها، أما (الإرهاب) فقد أضحى بمثابة مشجب (إسلامى) جاهز لتعليق كل الموبقات العالمية عليه وصار مرادفاً لكلمة (الإسلام).

إن التحليل الموضوعى للعديد من مفكرى الغرب يصل بشأنه إلى أنه قد أضحى ظاهرة داخلية متغلغلة فى نسيج المجتمعات الغربية وليس وافداً عليها مع عدم إنكارنا لوجود أشكال منه وافدة من شرقنا الإسلامى، وهى مرفوضة من كل صاحب عقل رشيد، ولكن قصر (الإرهاب) على هذه المنطقة دون العالم أجمع يعد تبسيطاً مخلاً للأموز .

(٢) من ناحية ثانية تكشف العبارة الموحية التى بدأ بها المشروع عن سطحية فريدة فى فهم حقيقة مشاكل المنطقة، والتى حصرها المشروع فى ثلاث (الحرية – المعرفة – تمكين النساء) وأسقط عمداً قضية الصراع العربى الصهيونى بأبعادها الانسانية والحضارية والاقتصادية والسياسية وبتأثيراتها حتى على منتج لهذه المنطقة من (الإرهاب) و(الجريمة المنظمة) إلى (الهجرة غير المشروعة) ويسقط أيضا المشروع قضية احتلال العراق بكل مآسيها على المنطقة وتفتيتها لنسيج تماسكها السياسى، وتقدمها المعرفى، بل إن تعمد المشروع إغفال هاتين القضيتين المتفجرتين يؤكد من جانب آخر أهدافه ومراميه حين يريد تعويم القضيتين فى إطار خلق مشكلة أكبر اسمها الشرق الأوسط الكبير وبدلاً من أن يقدم على حل جدى حقيقى، ومواجهة فعالة للأزمتين، قفز عليهما قفزة بهلوان، أو مهرج يتصور أنه بذلك يتخلص من صداعهما المزمن والذى كان هو بالأساس من أوجده، وبالتالى تقع عليه مسئولية حله، أن التجاوز والقفز على هاتين المشكلتين تحديداً سوف يفجران المشروع برمته من داخله، وسيؤكدان دون عناء أن كل الأفكار والمبادرات البراقة التى قدمها المشروع لاقيمة لها ولا جدوى منها على الأرض، ما بقى على هذه الأرض احتلال عنصرى إحلالى، احتلال ينتج – كالغدة السرطانية – أضراره كل صباح وبدون توقف وهى أضرار لا تصلح معها (روشتة) العلاج

الأمريكية سالفة الذكر .

ثانيا: المشروع ينظر إلى الشرق الأوسط الكبير نظرة (اقتصادية) وجغرافية عامة تلغى الخصوصيات، والتجارب والأبعاد التاريخية لكل بلد على حدة ولكل منظومة إقليمية على حدة حيث يدخل دولاً مثل (باكستان - أفغانستان - ايران - اسرائيل) على دول عربية سميت فيما مضى (بالوطن العربى) لها سمات وخصائص لغوية وثقافية وسياسية تكاد تكون واحدة وتجمعها مظلة سياسية واحدة اسمها (جامعة الدول العربية) والأخيرة رغم وهنها السياسى البين، إلا أن لها تاريخها واجتماعاتها الدورية بل ومبادراتها الخاصة بإصلاح البيت العربى من الداخل، إن إدخال الدول الأربع السابقة على هذه المنظومة العربية، يعنى إما عدم ادراك لخصوصيات المنطقة وهذه مصيبة، أو تعمد عدم الادراك لتلك الخصوصيات والعمل على تحطيمها بمثل هذا المشروع، وتصبح هنا المصيبة أشد وأعظم .

بل إننا نلاحظ أنه حتى داخل المنظومة العربية ثمة تفاوت فى طبيعة التشكيلات الطبقية والنظم السياسية والثقافية وانساق القيم السائدة وأنماط التحالفات الدولية بل وعمق التجارب التاريخية وبالتحديد فيما أسماه المشروع بـ (النواقص الثلاث : الحرية - المعرفة - تمكين المرأة) اذ لا يمكن على سبيل المثال أن توضع خبرة وعمق تجربة مصر وسوريا والعراق مع خبرة وتجربة بعض دول الخليج أو موريتانيا فى مجال الحرية أو المعرفة أو حتى قضية تمكين المرأة، ومحاولة تنميط الجميع بنمط واحد يمثل سوء قصد أريد به خلط كل الأوراق كى يسهل بعد ذلك تمرير مشاريع الهيمنة السياسية والاقتصادية باسم «الاصلاح » وهو منها برئ .

ثالثا يقوم المشروع فى مجمله على فكرة فرض الحل من الخارج دون حتى مجرد استشارة أصحاب الشأن فيه ولو على سبيل (جبران الخاطر) وفى هذا ليس فحسب استعلاء مقيت على أصحاب المكان والزمان المراد تحديثهم أو إصلاحهم، بل به أيضاً إعادة انتاج فج لمنطق الاستعمار القديم الذى كان يمركز العالم كله

حول ذاته، ويفترض لنفسه رسالة حضارية لتمدين العالم الخارجي وفقاً لثقافته وحضارته وتدريجياً يتحول هذا (التمركز حول الذات) إلى استراتيجية استعمارية قامعة للشعوب الأخرى، ومستنزفة لثروات الشعوب وخيراتها، تماماً مثلما حدث مع تجربة الاستعمار القديم للشرق العربى والإسلامى وهو تمركز يؤدى فى النهاية إلى تخليق نقيضه أى الثورة عليه، والتمرد المسلح على قيمه واستراتيجيته وهو ما سيحدث مستقبلاً .

وإضافة إلى ما سبق واذا علمنا أن الولايات المتحدة قدمت هذا المشروع خلال شهر (فبراير ٢٠٠٤) إلى مجموعة الدول الثمانى (ألمانيا - فرنسا - انجلترا - اليابان - أسبانيا - ايطاليا - كندا - أمريكا) كى تقوم بقراءته والتعليق عليه تمهيداً لمناقشته فى اجتماعها المقبل فى (سى ايلاند بولاية جورجيا الأمريكية) فى يونيو ٢٠٠٤، وأن يسبق ذلك عرضه على قمة الأطلسى التى ستعقد فى اسطنبول بتركيا أيضاً فى ذات الشهر (يونيو٢٠٠٤)، وهو الشهر الذى من المفترض أن يشهد تسليم السلطة فى العراق للعراقيين مع حل سلطة الاحتلال (التحالف) وإعادة تجميع هذا الاحتلال فى خمس قواعد عسكرية كبرى فى العراق تكون قريبة من مصادر النفط والشركات الأمريكية الذى تمتصه، إذا علمنا كل هذا فإننا نكون أمام مخطط خبيث لإعادة ترتيب المنطقة وفقاً للأجندة الأمريكية بعد أن تكون - كما تتخيل وبعض الخيال خطأ- قد أغلقت الملف العراقى وبدأت فى فتح وترتيب الملفات الأخرى ومنها ملف سوريا وايران .. ثم وبالأساس ملف الشرق الأوسط الكبير، وهى ملفات تأتى كلها فى سياق حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية لجورج بوش وكأنها تستهدف مجتمعة الدعاية المجانية له للعمل على إنجاحه بدعوى أنه يعيد ترتيب المنطقة ويعيد إصلاحها، بما لا يهدد مصالح (الناخب) الأمريكى وأمنه، وأيضا بما لايزعج اللوبيات الحاكمة فى واشنطن وعلى رأسها اللوبى اليهودى ولوبى (السلاح) ولوبى (النفط) .

★★★

رابعا : بعد هذه الحقائق تطل عدة تساؤلات يأتى فى مقدمتها : هل كل ما تخطط له (أو تتمناه) الادارة الأمريكية تجاه هذه المنطقة

يتحقق؟وهل أمريكا جادة فى إشراك خصوم الأمس (أوروبا القديمة) أو توريطهم فى هذا المشروع أم الأمر مجرد مناورة من أجل الانتخابات الأمريكية؟ وإذا لم يكن مؤامرة، لماذا لم تأخذ أمريكا بمقترحات (فيشر) وزير خارجية ألمانيا التى قدمها أمام مؤتمر ميونخ للسياسات الأمنية الذى عقد يوم ٧ / ٢/ ٢٠٠٤ وفيها ربط دقيق بين مصالح الدول الغربية ومصالح العرب وأيضاً فيها تأكيد على ضرورة حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً؟ وإذا لم يكن الأمر مجرد مناورة ستعود بعدها واشنطن للعمل منفردة فى المنطقة برمتها فلماذا لم تأخذ بالمبادرة الفرنسية / الألمانية التى صيغت تحت عنوان (شراكة استراتيجية لمستقبل مشترك مع الشرق الأوسط) طرحت للحوار أوائل مارس ٢٠٠٤ وفيها (تأكيد موسع على ضرورة التشاور والتنسيق والتفاهم مع بلدان منطقة الشرق الأوسط عبر حوار جماعى قوى فى وجه أى محاولة لفرض نموذج من الخارج، وضرورة التوازى بين تسوية الصراع العربى الصهيونى وإنشاء حكومة مسئولة فى العراق من جهة ومسيرة الشراكة المقترحة من جهة أخرى) .. وفقاً لنص المبادرة (انظر صحيفة الحياة ٧ / ٣/ ٢٠٠٤) وأخيراً لماذا لم تأخذ المبادرة الأمريكية بالمبادرات التى قدمتها مصر والأردن بل والجامعة العربية، وهل هذه المبادرات الإصلاحية لا تأتى على هوى المستعمر الجديد، أم لأنها تستحضر إسرائيل فى كل بنودها باعتبارها الخطر الأبرز لوأد أى إصلاح أو تقدم جدى فى المنطقة؟

تساؤلات عدة، ليست بحاجة إلى إجابة فإجاباتها معروفة ولكنها بحاجة إلى رؤية للتحرر والانعتاق، وهى رؤية، نستطيع بها أن نصنع محاكمة عادلة لمشروع الشرق الأوسط الكبير ونستطيع أن نقدم من خلالها مقاربة جادة للرد عليه أم ترك تلك التساؤلات عالقة مع المضى أمريكياً وبالقوة فى فرض المشروع فإن ذلك سيولد، شاء الأمريكيون أم أبوا، ردود فعل واسعة ستعادى المشروع قبل أن يولد، وان ولد فسيكون مشوهاً سيتبرأ منه ساعتها الجميع وقد يساهمون معاً وبقوة فى دفنه. ■

الامبراطورية الأمريكية
والشرق الأوسط الكبير
جزء خاص

في مفارقة القوة الأمريكية

لماذا لا تستطيع القوة الأولى الوحيدة فى العالم التصرف بمفردها؟

بقلم
د.السيد أمين شلبي

جوزيف ناى Joseph Nye هو عميد مدرسة نظم الحكومات فى جامعة هارفورد وهو وكيل وزارة الدفاع السابق فى عهد كلينتون، وهو منذ نهاية الثمانينات مشغول بالقوة الأمريكية وقدراتها وأبعادها ومكانها بين القوى الأخرى وذلك منذ أصدر فى عام ١٩٩٩ كتابه Bound to Lead والذى أراد أن يرد به على دعاة مدرسة الاضمحلالDeclinist الذين تصوروا أن القوة الأمريكية تتراجع بشكل نسبى مقابل قوى أخرى صاعدة، وفى الكتاب الذى نقدمه اليوم يركز ناى على أن القوة ليست وحدها كافية لحل المشكلات الدولية مثل الارهاب والتدهور البيئى ومنع الانتشار النووى وبدون الاعتماد على الأمم الأخرى ومن هنا دعوته للسياسة الأمريكية لكى تعيد توجيه مسارها للتعاون مع الآخرين والتعامل معهم، وكما أوصى إعلان الدستور الأمريكى، بالتهذيب وليس بالغطرسة والإملاء وعدم الاستماع إليهم.

وفى هذا السياق يعالج المعركة التى تدور فى الولايات المتحدة الأمريكية بين دعاة العمل المنفرد Uni-lateral والعمل المتعددMultilateral ، وهو وإن كان من الواضح أنه من دعاة التعاون والعمل المتعدد إلا أنه لايأخذ هذا على إطلاقه بل يضع معايير اللجوء إلى كلا الأسلوبين.

وعلى الرغم من أنه فى كتابه الأول Bound to Lead قد توقع أن تظل الولايات المتحدة الأمريكية فى مركز القيادة وأنها ستظل تمسك بعناصر القوى التى تميزها عن غيرها إلا أنه ينبه إلى أن للقوة أخطارها وهو فى

كتابه الجديد يطور في مفهوم القوة وعناصرها، ويعتبر أن القوة هي القدرة على التأثير على النتائج التي تريد الولايات المتحدة الأمريكية تحقيقها وتغيير سلوك الآخرين لتحقيق هذه النتائج، وفي سياق القوة فإن القوة العسكرية تظل عامل حاسم في بعض المواقف ولكن من الخطأ التركيز بشكل ضيق على الأبعاد العسكرية للقوة الأمريكية، وعنده أنه إذا أرادت الولايات المتحدة أن تظل قوية فإنها تحتاج إلى التركيز على القوة اللينة Soft Power ويميز بينها وبين القوة الصلبة Hard Power التي تركز على الدوافع والحوافز أما القوة اللينة فهي الطريق غير المباشر الذي يعتمد على الثقافة والأيديولوجية وجاذبية القيم لممارسة القوة التي تجعل أمما أخرى يمتلكها الإعجاب بهذه القيم وتريد تقليدها وتتطلع إلى مستواها من الرخاء والانفتاح وبهذا المعنى يدعو «ناي» إلى جدول أعمال للسياسة الدولية بشكل يعتمد على الجاذبية والإقناع والنموذج والاستماع للآخرين أكثر مما يعتمد على القسر والزجر، كما ينبه إلى أن الغطرسة واللامبالاة بآراء الآخرين والتفسير الضيق للمصالح القومية والعمل المنفرد هو طريق أكيد لتقويض هذه القوة اللينة، ومن كلا القوتين اللينة والصلبة يتكون مزيج القوة ومصادرها وسوف يكون من الخطأ الأكبر للولايات المتحدة الأمريكية أن تعتمد على بعد واحد من عناصر القوة أو تعتقد أن الاعتماد على القوة العسكرية فقط سوف يضمن قوتها.

الهيمنة الحميدة!

ويعطي «ناي» اهتماما بتحليل مفهوم الغطرسة ومناقشة «المحافظون الجدد» الذين يدافعون اليوم عن سياسة خارجية عمادها ما يسمونه الهيمنة الأمريكية الحميدة Benign American Hegemony واعتبار أنه مادامت القيم الأمريكية جيدة وتمتلك القوة العسكرية فإن الولايات المتحدة يجب أن تتصرف وفقا لذلك.

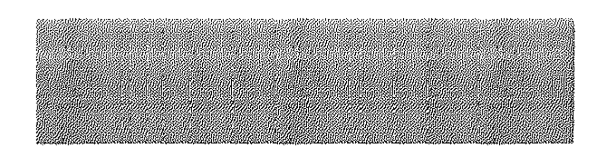
أما «جوزيف ناي» فهو يعتبر أن تحديد المصلحة القومية لكي تتضمن المصالح العالمية هو العامل الحاسم في تحديد ما إذا كان الآخرون سوف يرون الهيمنة حميدة أم لا، ومن ثم فإن أي تركيز على القطبية الواحدة والهيمنة والعمل المنفرد وما يصاحب ذلك من غطرسة سوف يؤدي إلى تفتيت القوة اللينة والتي هي جز أساسي من الحل وينطلق ناي في «تحليله» للقوة الأمريكية من أنها ليست أبدية وأنها إذا بددت قوتها اللينة من خلال المزيج من الغطرسة واللامبالاة سوف يزداد تعرض أمريكا للخطر والإسراع في تفتيت تفوقها.

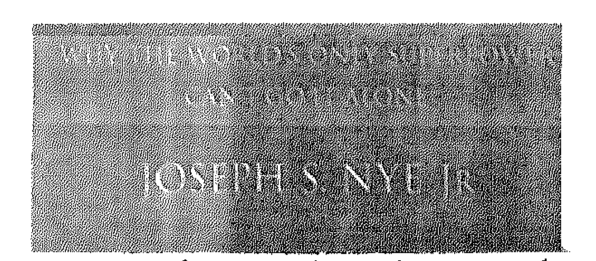
ويطرح «ناي» سؤالا مركزيا وهو إلى متى سوف يستمر التفوق

الأمـريكى، ومـا الذى يمكن فـعله بهـذا التـفـوق؟ ويميـز بين من يعتـبـرون أن التفوق الأمـريكى، هو ببسـاطة نتيجـة لانهيار الاتحـاد السوفييتى وأن هذه هى «لحظة القطب الواحـد» التى سوف تكون قـصيـرة وهو مـا يعنى أن على الولايات المتـحـدة أن تدخـر قـوتهـا وأن ترتبط بالعالم بشكل فقط، وبين من يجادلون من أن القوة الأمريكية ضـخمـة وأنها سـوف تدوم لعـقـود وأن لحظة القطب الواحـد يمكن أن تصبح عهدا من القطبية، ومن وجـهـة نظر «ناى» فـإن التفوق الأمـريكى سـوف يدوم فـى هذا القرن ولكن بشـرط أن تستطيع الولايات المتحدة أن تستخدم تفوقها بشكل عاقل وإذا ماتحقق عدد من الافـتـراضـات: منهـا أن التـقدم الطويل الأجل للقدرة الإنتاجية سـوف يسـتـمـر، وأن المجـتـمع لن يتـعـرض للتـحلل، وأن الولايات المتـحـدة سـوف تظل مـحـتـفظة بقدرتها العسكرية ولكنها لم تصبح ذات طابع عـسكرى زائد، وأن الأمـريكان لن يصبـحـوا مـتـغطرسـين فى قـوتهم بشكل يبـددوا فـيـه قـوتهم اللينة وأنه لن تقع سلسلة من الحـوادث الكارثيـة تحـول بشكل عـميق الاتجـاهات الأمـريكيـة فى اتجـاه منعـزل، وأن الأمـريكيـون سـوف يحددون مـصلحـتهم القومية بشكل واسـع الأفق يشمل المصالح العالمية.

حقيقة القوة فى عالم اليوم

فى توصـيفه لأوضـاع القوة فى عالم





ركز «جوزيف ناى» فى كتابه على أن القوة ليست وحـدها كـافـيـة لحل المشكلات الدوليـة

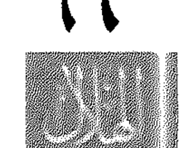
اليـوم يرفض «ناي» مـفـهـوم عـالم القطب الواحد، وكذا القطبية المتعددة ويعتبر أن كـلا منهـمـا مـضلل أمـا حـقيـقـة القـوة فى العـالم فـهى أشبـه برقعـة الشطرنج ثلاثيـة الأبعـاد، حـيث تقع فى قـمـتـهـا القـوة العـسكرية، وهى أحـادية القطب بشكل واضـح، وحـيث أن الولايات المتـحـدة هى القـوة الوحـيدة التى تمتلك أسلحـة عـابرة للقـارات، وقـوات جـوية وبحـرية وأرضـيـة قـادرة على الانتـشـار عـالميـا، ولكن وسط الرقـعـة فـإن القـوة الاقـتـصـادية مـتـعـددة الأقطاب حـيـث تمثل الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة ، أوروبا، اليـابان ثلثى الناتج العـالمى، وفى هذا البـعـد الاقـتـصـادى فـإن

الولايات المتحدة الأمريكية ليست قوة مهيمنة وأن عليها أن تساوم أوروبا كطرف متساو، وهذا الوضع هو الذى جعل بعض المراقبين يسمونه عالم هجين من تعدد وتفرد الأقطاب Hybrid Uni - Multi Lateral World أما قاع رقعة الشطرنج فتشغله العلاقات عابرة القوميات التى تعبر الحدود وتقع خارج حدود سيطرة الحكومات وهذا المجال يضم لاعبين غير حكوميين من رجال البنوك الذين يحاولون بلمسات إلكترونية مبالغ تتعدى ميزانية حكومات، وكذلك إرهابيين وفى قاع الرقعة هذا فإن القوة موزعة بشكل واسع بحيث لن يكون هناك معنى للحديث عن القطبية أو التعددية أو الهيمنة.

ويستخلص «ناي» من هذا التوزيع للقوة أنه إذا كنت إزاء لعبة ثلاثية الأبعاد فسوف تخسر إذا ما ركزت فقط على البعد العسكرى وفشلت فى أن تلاحظ الأبعاد الأخرى ومدى الترابط بينها.

فى هذا التوزيع المعقد للقوى فإن مايزيد من تعقيد الموقف بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، أن هناك الكثير والكثير من الزهور التى تقع خارج سيطرة حتى أكثر القوى قوة، فالولايات المتحدة الأمريكية تفتقر إلى المتطلبات الأولية لحل الصراعات الداخلية للمجتمعات الأخرى وإلى التحكم ورصد الصفقات عبر القومية التى تهدد الأمريكيين فى الداخل وإزاء هذا يرى «ناى» أنه ليس أمام الولايات المتحدة إلا أن تقيم تحالفات دولية لكى تتعامل مع تهديدات مشتركة وتحديات تجعلها تتعلم بشكل أفضل كيف تشارك مثلما تقود - وينقل فى هذا عن محلل بريطانى «أن مفارقة القوة الأمريكية فى نهاية هذا القرن هى أنها من العظمة بحيث لاتتحداها قوة أخرى، ولكنها ليست عظيمة بما فيه الكفاية لكى تحل مشكلات مثل الإرهاب الدولى، والانتشار النووى فالولايات المتحدة تحتاج إلى مساعدة واحترام الأمم الأخرى».

وفى استعراضه للمعركة بين دعاة العمل المنفرد ودعاة العمل المتعدد، ورغم وضوح أنه يقف إلى صف الفريق الأول، ويرى أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تعمل مع الأمم الأخرى حول المشكلات العالمية بطريقة متعددة، ويتفق مع الرأى القائل بأن الولايات المتحدة لاتستطيع أن تضمن مصالحها بشكل منعزل، على الرغم من هذا فإنه لايقبل العمل المتعدد على إطلاقه ويضع عددا من المعايير للاختيار بين أساليب العمل المنفرد أو المتعدد فهو لايستبعد العمل المنفرد فى الحالات التى تتعلق بمصالح حيوية تتصل ببقاء الولايات المتحدة، ويقدم أزمة الصواريخ الكوبية نموذجا على ذلك كما يدعو إلى الحذر فى الترتيبات المتعددة التى تتدخل فى قدرة



الولايات المتحدة على خلق سلام مستمر فى المناطق المضطربة، إلا أنه يعتبر العمل المتعدد والتعاون مطلوبا وجوهريا فى القضايا ذات الطابع التعاونى الحقيقى والتى لاتستطيع أن تديرها الولايات المتحدة بدون مساعدة دول أخرى مثل قضايا التغير المناخى وانتشار الأمراض المعدية واستقرار الأسواق المالية العالمية والنظام التجارى الدولى وانتشار أسلحة الدمار الشامل وتجارة المخدرات واتحادات الجريمة الدولية والإرهاب الدولى، ففى كل هذه المشكلات التى تتصل بالمصالح القومية الأمريكية لايمكن أن تتحقق إلا بالمشاركة والتعاون مع بقية العالم.

ويستخلق «ناى» فى النهاية أن مفارقة السياسة الأمريكية تكمن فى أن السياسة تتغير بطريقة تجعل من غير الممكن لأقوى دولة فى العالم منذ الإمبراطورية الرومانية أن تحقق بعض أهدافها الدولية الحاسمة وحدها، فالولايات المتحدة تفتقر إلى كل من الطاقة والقدرة الدولية والداخلية لحل صراعات تعتبر داخلية لمجتمعات أخرى، وأن تراقب وتتحكم فى تطورات عبر القومية تهدد الأمريكيين فى الداخل، وفى الكثير من قضايا اليوم الرئيسية، فإن القوة العسكرية وحدها لاتستطيع ببساطة أن تحقق النجاح وأن استخدامها فى بعض الأحيان قد يأتى بنتائج عكسية.

وقد جاءت الأحداث لكى تثبت للإدارة الأمريكية صحة وجهة نظر «جوزيف ناى» عن صعوبة التصرف بمفردها وبمنأى عن المجتمع الدولى ومنظمته الدولية، فبعد النجاح العسكرى الخاطف فى العراق اكتشفت الإدارة الأمريكية أنها لا تستطيع بمفردها تحمل أعباء ما بعد الحرب واستمرار وجودها، سواء على المستوى العسكرى، أو البشرى أو الاقتصادى، لذلك عادت إلى الأمم المتحدة، التى كان أقطابها حتى وقت الحرب يعتبرونها غير ذات موضوع Irrelevant، لكى تضفى أولا الشرعية على وجودها، ولكى تقنع دولا أخرى للاشتراك فى قوة دولية تشاركها العبء العسكرى فى العراق، فضلا عن مساهماتها فى أعباء إعادة الإعمار فى العراق، وهكذا إنهار أحد الافتراضات المهمة التي روج لها خبراء وأقطاب الإدارة الأمريكية وهى أن أمريكا قادرة على التصرف المنفرد إن لم تنصاع القوى الدولية الأخرى الاختبارات والمواقف الأمريكية، هذا فضلا عن افتراضات أخرى تثبت الأحداث كل يوم عدم صحتها ■



حماس
القصة الكاملة

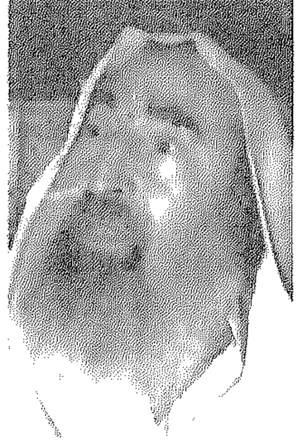
• تتبنى المؤسسات وتقاوم الاحتلال
• فى غزة أنشأت أول جامعة داخل الخيام

بقلم
د. عادل حسن غنيم

تزامن تأسيس حماس مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧م، ولذلك فإن حماس تعتبر يوم الثامن من مارس ١٩٨٧م تاريخ بدء الانتفاضة التاريخ الرسمى لتأسيسها وهناك عدد من العوامل السياسية والاقتصادية كانت وراء تلك الانتفاضة، لكن العامل الرئيسى هو تفاقم الصراع بين الشعب العربى الفلسطينى وبين قوات الاحتلال الإسرائيلية التى أمعنت فى إجراءات الاستيطان والقمع والاضطهاد .

فلقد حدث فى ٨ ديسمبر ١٩٨٧م أن داهمت شاحنة عسكرية إسرائيلية أربعة من العمال الفلسطينيين وقتلتهم وبناء علي ذلك فقد نسبت أجهزة الإعلام الإسرائيلية قيام الانتفاضة إلى المشاعر التى تفجرت إثر هذا الحادث، ولاشك أن هذا الحادث كان استفزازاً حقيقاً للجماهير، لكنه لايعدو أن يكون مجرد الشرارة التى اطلقت المخزون الثورى الكامن لدى الجماهير .


عز الدين القسام


أحمد ياسين


عبد العزيز الرنتيسي

وكان ذلك اليوم هو اليوم الأول لانتفاضة ١٩٨٧م ، وفى مساء اليوم التالى (٩ديسمبر) اجتمع المكتب السياسى للإخوان المسلمين فى غزة واعتبر الحادثة هى اللحظة المناسبة للانخراط عملياً ضد الاحتلال، وفى ذلك الاجتماع تم صياغة البيان الأول لحركة المقاومة الإسلامية، واعتبر الاجتماع اللقاء التأسيسى لحماس، كما اعتبر الحاضرون مؤسسى حماس، وهم : الشيخ أحمد ياسين، وعبد العزيز الرنتيسي، وصلاح شحادة، ومحمد شمعة، وعيسى النشار، وعبد الفتاح دخان، وإبراهيم اليازورى .

ويعتبر الشيخ أحمد ياسين هو مؤسس حركة حماس وأباها الروحى، وقد ظل الشيخ رغم كبر سنه وظروفه الصحية الصعبة نموذجا للقيادة الثورية التى لم تعرف يوماً أى ضعف أو استكانة، ومن يتابع تصريحاته سوف يجد على الدوام ثباتاً وتحدياً وإصراراً على المقاومة، غير آبه بسلطان أو نفوذ مصمماً على الجهاد حتى تحقيق النصر أو الشهادة .

وقد حرصت إسرائيل على تصفية الشيخ أحمد ياسين باعتباره رمزاً للمقاومة الفلسطينية حيث اغتالته فى هجوم صاروخى نفذته ثلاث طائرات عسكرية من طراز أباتشى لدى خروجه من مسجد قريب من منزله فى غزة فجر يوم الاثنين ٢٢ مارس ٢٠٠٤م، حيث أشرف إرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى شخصياً على تنفيذ العملية. كما كان صلاح شحادة رئيس أول تنظيم عسكرى لها ، وكان شحادة فى طليعة من ألقى القبض عليهم وحوكموا بتهمة تنظيم عمليات عسكرية بعد انتفاضة ١٩٨٧ م بحوالى عام واحد، وقد ظل يؤدى دوره حتى استشهد فى أواخر يوليو ٢٠٠٠ م إثر هجوم لطائرتين إسرائيليتين من طراز إف ١٦ على منزله فى غزة، ولا يعرف الباحث فى تاريخ العالم الحديث والمعاصر عمليات اغتيال لمواطنين يقاومون الأحتلال يتم تنفيذها بالطائرات بواسطة الصواريخ سوى فى إسرائيل التى لا تجد فى المجتمع الدولى من يردعها .

دور عملي في مقاومة الاحتلال

وهناك مجموعتان من العوامل اسهمتا فى تأسيس حماس، المجموعة الأولى متعلقة بتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية على صعيد فلسطين، والمجموعة الثانية متصلة بالتطور الفكرى والسياسى للحركة الإسلامية فى الأرض المحتلة، وبشكل خاص فى قطاع غزة، وبالنسبة للمجموعة الأخيرة حدث تعاظم بضرورة الانتقال إلى القيام بدور عملى فى مقاومة الاحتلال، كما أن تجربة التنظيم العسكرى الذى شكله الشيخ أحمد ياسين فى أوائل الثمانينيات واكتشف عام ١٩٨٤م زادت من الاقتناع باهمية المقاومة فى تلك المرحلة.

وبقراءة البيان الأول لحماس الصادر فى ١٤ / ١٢/ ١٩٨٧م تبدو لنا ملاحظة سياسية مهمة وهى أن هناك خلطاً بين اليهود

والصهاينة، فاستخدام كلمة اليهود ليس لها ضرورة باعتبارهم الذين يتبعون الدين اليهودى وليسوا جميعهم صهاينة، أما كلمة الصهيونية فتعنى هؤلاء اليهود الذين احتلوا أرضنا وانتزعوا خيراتنا وتعاونوا مع الاستعمار من أجل تنفيذ أهدافهم المشتركة وقد تطورت رؤية حماس بعد ذلك إلى التفريق بين اليهودية والصهيونية، وتوجية العداء نحو الحركة الصهيونية .

وأما ميثاق حماس الذى يحتوى على خمس وثلاثين مادة، والذى صدر فى ١٨ أغسطس ١٩٨٨م فأهم ملامحه ما يأتى : أن الإسلام هو منهج هذه الحركة التى تتكون بنيتها الأساسية من مسلمين ويمتد بعدها المكانى إلى أى بقعة من بقاع الأرض، وأن الصراع الدائر فى فلسطين هو صراع حضارى مصيرى لا يمكن إنهاؤه إلا بزوال سببه .

ولاشك أن الميثاق يتضمن أشياء إيجابية عديدة مثل ربط قضية تحرير فلسطين بدوائر ثلاث، وهى الدوائر الفلسطينية والعربية والإسلامية، ومثل اعتبار دور المرأة المسلمة فى معركة التحرير دوراً لايقل عن دور الرجل واستعداد الحركة لمساندة كل الحركات الوطنية العاملة على الساحة الفلسطينية .

استراتيجية حماس

وتبنى حماس استراتيجيتها فى مواجهة الاحتلال الصهيونى الاستيطانى لفلسطين على عناصر أربعة : الأول، حشد طاقات الشعب الفلسطينى وتوجيهها نحو الصمود ومقاومة العدو الغاصب باعتبار هذا الشعب هو المستهدف الأول من الاحتلال الصهيونى، وعليه يقع العبء الأول فى مقاومة الاحتلال .

والثانى، أن ساحة المواجهة مع العدو هى فلسطين، وأما الساحات العربية والإسلامية فهى ساحات مؤازرة للشعب الفلسطينى

الثالث، أن مواجهة العدو ومقاومته فى فلسطين يجب أن تظل متواصلة حتى النصر والتحرير

والرابع، أن العمل السياسى هو إحدى وسائل الجهاد ضد العدو الصهيونى، ويهدف إلى تقوية صمود الشعب فى مواجهة الاحتلال .

والواقع أن الحركة الإسلامية بشقيها : الإخوان المسلمون فى غزة، والجماعات الإسلامية الأخرى فى الضفة الغربية، قد اكتسبت وزناً وموقعاً مهمين فى الساحة الفلسطينية منذ بداية الثمانينيات حتى صارت فى مجموعها تمثل حسب آخر استطلاعات فلسطينية وإسرائيلية ودولية ٧٥٪ من القوى الجماهيرية المنظمة .

وقد تبلور التنسيق بين المنظمات الإسلامية إلى بناء جبهة تلتف حول برنامج يصب فى خدمة النضال المشترك ضد العدو الصهيونى تحت اسم تنظيم «الواثقون» وقد انضم التيار الإسلامى فيما بعد إلى عضوية المجلس الوطنى الفلسطينى فى أبريل ١٩٨٧م.

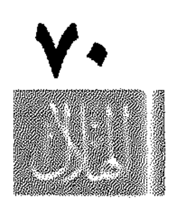
ورغم الأدلة القاطعة على الدور المتميز للتيار الإسلامى الفلسطينى فى انتفاضة ١٩٨٧م إلا أنه امتنع عن الإشادة ببطولاته، والتزم بالتنسيق مع كافة القوى خاصة المسيحيين والحزب الشيوعى.

وطبقاً لتعريف أصحابها، فإن حماس حركة جهادية تسعى إلى تحرير فلسطين بكاملها من البحر إلى النهر، وتستند فى فكرها ووسائلها ومواقفها إلى تعاليم الإسلام ، وتعمل على إقامة دولة إسلامية مستقلة فى فلسطين .

وتلتزم منظمة حماس فى قراراتها بالشورى إلى حد كبير ، قد ساعد على هذا التوجه التزام مؤسسها أحمد ياسين به، ومع أنه الشخص الوحيد فى الحركة الذى كان قادرا على فرض رأيه الفردى، لكنه لم يستخدم هذا الحق، مما جعل المنظمة تلتزم بقرارات الأغلبية.

دور مهم للمسجد

واعتباراً من أواخر ١٩٩٠م أصبح هناك ناطق رسمى باسم حماس خارج الأرض المحتلة، وبعد قيام السلطة الفلسطينية فى مناطق الحكم الذاتى فى أبريل ١٩٩٤م،



أصبح رموز حماس يتحدثون باسمها ، واستطاعت حماس تثبيت وجودها من خلال العمل الانتفاضي والعسكرى، أو من خلال العمل الاجتماعي والأهلي، مما مكن حماس من الاستحواذ على شعبية كبيرة جعلتها منافسا مهما لنفوذ منظمة التحرير الفلسطينية. وفى إحدى وثائق الحماس ما يشير إلى أنها حازت على تأييد ما يزيد على نصف الشعب الفلسطيني في غضون سنوات قليلة . لكن ورد في مذكرة أخرى مؤرخة في أبريل ١٩٩٠ ما يعني أن ثقل حماس في الساحة الفلسطينية يتراوح بين ٤٠ - ٥٠٪ . وعندما تقدمت حماس بمشروع تحالف القوى الفلسطينية، حددت فيه نسبة تمثيلها في القيادة المركزية بـ ٤٠٪ والفصائل الأخرى ٤٠٪ والمستقلون ٢٠٪ .

ومنذ نشأتها اعتمدت حماس على المساجد والمؤسسات الخيرية في تحويل خطابها الاجتماعي إلي واقع ملموس، وساهمت في هذا الإطار المئات من مساجد الضفة الغربية وغزة فضلا عن عشرات الجمعيات والمؤسسات الإسلامية الأخرى .

وخلال الانتفاضة الأولى لعبت المساجد دوراً مهماً في بلورة فكرة الهوية، وتحرير الذات العربية من الانكسار ، وقد بلغ عدد المساجد في الضفة الغربية حوالى ٨٥٠ مسجدا لعب خطباؤها دوراً مهماً في عملية التعبئة، وأصبحت أيضا منتديات سياسية، وكانت وسيلة إبلاغ توجيهات الانتفاضة للشعب .

لكن هذا الوضع لدور المساجد تغير بعد وضع سلطة الحكم الذاتي يدها على جميع المساجد ضمن حملة منظمة ضد المؤسسات التي كانت تسيطر عليها حماس إثر سلسلة التفجيرات التي وقعت في القدس وتل أبيب في فبراير ومارس ١٩٩٦م.

كتائب عز الدين القسام

وفي البداية كانت عمليات كتائب عزالدين القسام لا تستهدف الا جنود الاحتلال وأدواته العسكرية والمستوطنين باعتبارهم جنود احتياط في جيش العدو، وكانت تحرص علي الا يقع ضحايا من المدنيين . ولكن الممارسات الاسرائيلية التعسفية وعدم تفريق جيش العدو ومستوطنيه بين المجاهدين والمدنيين العزل جعل كتائب القسام تعتمد سياسة الرد بالمثل التي تقرها القوانين والأديان السماوية، ولم يكن ذلك سياسة ثابتة لدى كتائب القسام، وإنما كان سياسة استثنائية فرضتها حكومة اسرائيل.

– وتتبع حماس سياسات محددة في مقاومة الاحتلال أهمها: أن تكون مواجهاتها مع قوات الجيش الإسرائيلي وتشكيلاته المساندة، وأن تمارس حق الدفاع عن النفس ضد وحدات عملاء الاحتلال ومستوطنيه المسلحين، وأن تركز العمليات على الأهداف العسكرية، وأن تتجنب أية أهداف أخرى خاصة المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ، وعدم التمثيل أو التشويه أو الإمعان في القتل في حالة الاشتباك المسلح، وعدم الاعتداء على أي أشخاص أو مصالح غربية في الأراضي المحتلة أو خارجها، وعدم القيام بأية عمليات خارج فلسطين المحتلة .

وقد احتل العمل العسكرى موقعاً أساسياً في فكر حماس وممارستها واستراتيجيتها خاصة منذ تأسيس جناحها العسكرى عام ١٩٩٢م، ولم يشكل هذا العمل مصدراً مهماً من مصادر شعبية الحركة فقط، بل شكل مصدراً أساسياً لشرعيتها ونقطة خلاف شبه دائم مع السلطة الفلسطينية منذ عام ١٩٩٤م .

وخلال عامى ١٩٩٣، ١٩٩٤م تصاعد النشاط العسكرى لحماس ونفذت سلسلة من العمليات الانتحارية في قلب الكيان الإسرائيلي ضد حافلات ومستوطنين، وسقط خلالها عشرات الاسرائيليين ، وتوجت تلك العمليات بسلسلة عمليات تفجير في فبراير ومارس ١٩٩٦م – أي بعد الانتخابات الفلسطينية – مما أدى إلى تجميد بدء مفاوضات المرحلة النهائية. وطبقاً لإحدى الإحصائيات، نفذت حماس عام ١٩٩٣م

(١٣٨) عملية، ترتب عليها مقتل ٧٩ قتيلاً حسب إعلان السلطات الإسرائيلية.

وإثر دخول السلطة الفلسطينية الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٩٤م زادت صعوبات العمل الفدائي رغم تحسن نوعيته، وقامت حماس بتنفيذ خمس عمليات فدائية ضد الكيان الاسرائيلي انتقاما لمجزرة الحرم الإبراهيمي التي ارتكبها ضابط اسرائيلي ضد المصلين أثناء تأديتهم صلاة الفجر، والتي ترتب عليها استشهاد ٢٩ شخصاً وجرح أكثر من ثلاثمائة، وتمكنت حماس في العمليات الخمس من قتل ٣٩ إسرائيلياً وجرح ١٥٨. وفي ٥ يناير ١٩٩٦م استشهد يحيى عياش، وقد ردت حماس على استشهاده بعدة عمليات قتل خلالها ٤٥ إسرائيلياً وجرح ١١٣ طبقاً للمصادر الاسرائيلية.

الالتزام بالثوابت الإسلامية

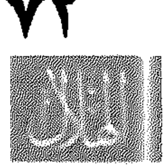
وعندما أثيرت فكرة تكوين قيادة مشتركة لكل الفصائل في انتفاضة ١٩٨٧م، لم يكن لدى حماس مانع من المشاركة في تلك القيادة على عدد من الأسس من أهمها التزام هذه القيادة بالثوابت الإسلامية الوطنية للشعب الفلسطيني المستندة لحقه الكامل في فلسطين، ورفض كافة مشاريع التسوية السياسية المطروحة مادامت تنتقص من السيادة الفلسطينية الكاملة، وعدم تقديم أية تنازلات عن أي من الحقوق.

وبمناسبة إعادة تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني في أبريل ١٩٩٠م والدعوات التي وجهت لحماس للاشتراك في المجلس، قدمت حركة حماس مذكرة إلى رئيس المجلس الوطني الفلسطيني عبدالحميد السايح تطالبه بمراعاة عدة اعتبارات منها أن يكون الانتخاب وليس التعيين وهو الوسيلة الأساسية لاختيار أعضاء المجلس، وإذا تعذر ذلك فيجب أن يعكس التشكيل أوزان القوى السياسية على الساحة، وتعديل الميثاق بما يتفق مع عقيدة الشعب الفلسطيني المسلم وتراثه الأصيل، وأوضحت الحركة استعدادها للمشاركة في المجلس الوطني الفلسطيني

بناء على عدد من الاعتبارات من أهمها رفض التفريط بأي جزء من أرض فلسطين، ورفض اعتبار الكيان اليهودي كياناً شرعياً ومعترفا به، والتأكيد على الخيار العسكري، وأن تحصل حماس على حقها المتناسب مع حجمها في جميع مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية.

وكانت حركة حماس في الوقت نفسه عاملة على التنسيق بين الفصائل الفلسطينية المختلفة حرصاً منها على تكامل أدوارها وتوحيد مواقفها، وبناء على ذلك فقد تقدمت في أبريل ١٩٩٢م بمشروع للفصائل الفلسطينية - بشأن تكوين لجنة التنسيق الفلسطينية العليا - يحدد أهداف تلك اللجنة والسياسات والمبادىء التي تحكمها. وفي أعقاب توقيع اتفاق أوسلو، تقدمت في سبتمبر ١٩٩٣م للفصائل الفلسطينية العشر بمشروع تحالف لقواها المختلفة يوضح كيفية تكوين القيادة المركزية للتحالف وهيئتها التنفيذية.

ونتيجة لما قامت به حماس في أوائل عام ١٩٩٣م من لقاءات واتصالات مع عدد من ممثلي الدول الغربية بشأن القضية حول موضوعات المبعدين الفلسطينيين والممارسات الصهيونية القمعية ونية الخارجية الأمريكية إدراج أعمال حماس ضمن الأعمال الإرهابية، صدرت من بعض القوى تأويلات رأتها حماس خاطئة، فأذاعت بياناً حول طبيعة تلك الاتصالات، وأوضحت به أن ذلك يأتي انسجاماً مع سياسة الحركة التي تهدف إلى الانفتاح والحوار مع كل الدول والأحزاب لكن الباحث يرى في ذلك تحولاً إيجابياً في أساليب الحركة، حيث أن الحركة سبق أن أعلنت في المادة ١٣ من ميثاق حركتها أن ما يسمى بالحلول السلمية والمبادرات والطروحات والمؤتمرات الدولية مضيعة للوقت، لكن الحقيقة أن تلك الاتصالات التي قامت بها حماس تدخل ضمن هذه المبادرات والحلول السلمية لبعض جوانب القضية وليس في ذلك إساءة إلى



حماس، كما أن ما قدمته من عروض ومبادرات بهدف التوصل إلى وقف لإطلاق النار وفق شروط عادلة يدخل أيضاً فى إطار ذلك التطور الإيجابى فى أساليب الحركة.

ولقد كان من المواقف التى زادت من تقدير المراقبين المحايدين لتوجهات حماس أنها أعلنت أنها تحرم مبدأ الاغتيال السياسى، كما ترفض الوصول للأهداف السياسية عبر العنف، كما تحظر على كوادرها العسكرية استهداف المدنيين الإسرائيليين خلال مقاومتها للاحتلال العسكرى.

عمليات مقاومة مشتركة

وأما بالنسبة لنظرة حماس إلى منظمة التحرير الفلسطينية فقد تدرجت من الاعتراف المتحفظ فى البداية إلى التحفظ الكامل ثم إلى تجاهل موضوع الاعتراف مع انعقاد مؤتمر مدريد، ثم تطورت الأمور بعد ذلك إلى الاتهام بالتفريط والتنازل الكلى مع اتفاقى أسلو والقاهرة، ثم إعلان حماس بأن المنظمة لم تعد تمثل الشعب الفلسطينى وطموحاته، وقد خفت حدة الهجوم كثيراً منذ دخول السلطة الفلسطينية مناطق الحكم الذاتى فى أواسط ١٩٩٤م إذ أصبحت السلطة محل الهجوم والاتهام بدلاً من المنظمة.

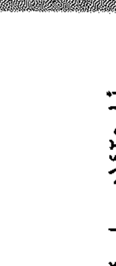
وأما عن علاقة حماس بفتح فقد واجهت حماس فى البداية صعوبات كبيرة فى التعامل مع حركة فتح، وحدث توتر واشتباكات بينهما، لكن بعد حدوث عدة لقاءات بين الطرفين جرى أكثر من اتفاق بهدف التنسيق وتجاوز الحساسيات، وتحسنت العلاقات مع اندلاع انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠م حيث ازداد اقتراب فتح من سياسات حماس فى المقاومة والانتفاضة.

وترى حماس أن سلطة الحكم الذاتى هى أحد إفرازات اتفاق أوسلو، وهى ترفض المشاركة فى المؤسسات السياسية للحكم الذاتى، وبناء على ذلك فقد قاطعت انتخابات المجلس التشريعى للسلطة كما رفضت الاشتراك فى الحكومة، لكنها فى الوقت نفسه ترفض الاقتتال مع السلطة أو التورط فى حرب أهلية معها، رغم قيام سلطة الحكم الذاتى بحملات اعتقال وملاحقة لكوادر حماس خلال الفترة من ١٩٩٤م حتى بدء انتفاضة ٢٠٠٠م حيث خفت حدة تلك الممارسات وإن لم تتوقف حتى بالنسبة لقيادات حماس. ففي منتصف عام ٢٠٠٢م تصدى عشرات من أنصار حماس لأجهزة الأمن الفلسطينية وحالوا دون اعتقال عبدالعزيز الرنتيسى، كما تحدى الشيخ أحمد ياسين قرار الإقامة الجبرية الذى فرضته السلطة الفلسطينية عليه فى منزله، وقاد مظاهرة مناوئة لواشنطن فى مدينة غزة.

وأما بالنسبة للمشاركة الوزارية فقد سبق أن رفضت حماس عرض الرئيس عرفات بالانضمام إلى مجلس وزراء معدل خلال عام ٢٠٠٢م، وأكد إسماعيل أبوشنب أحد قيادات حماس معارضة الحركة لأى شكل من المشاركة فى أى مؤسسة مقيدة باتفاقات أوسلو، لكنه مع استمرار الحوار بين الفصائل الفلسطينية، ازداد الاقتراب بين حماس والسلطة الفلسطينية وضاقت هوة الخلافات رغم تمسك كل طرف لمنطلقاته.

فبمناسبة ما أثير مؤخراً حول انسحاب إسرائيل من قطاع غزة، أبدت حماس استعدادها من حيث المبدأ للمشاركة فى إدارة شئون القطاع بعد الانسحاب، ورحب ياسر عرفات فى الوقت نفسه بتشكيل قيادة وطنية موحدة تضم جميع الفصائل فى فلسطين بما فيها حماس.

وكان مساعد الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية قد حذر من مشاركة حماس فى مؤسسات السلطة الفلسطينية زاعماً أن حماس مؤسسة إرهابية. لكن صائب عريقات وزير شئون المفاوضات الفلسطينى أعلن أن السلطة الفلسطينية ترفض تحذيرات الإدارة الأمريكية من مشاركة حماس فى مؤسسات السلطة، مؤكدا أن ذلك شأن فلسطينى داخلى.



وأما عن العلاقة بين حماس وحركة الجهاد الإسلامي فكانت أكثر تميزاً من سائر الفصائل باعتبارهما الأقرب عقائدياً.

علاقات متميزة

وأما عن علاقات حماس على المستوى العربي فقد حافظت بشكل عام على علاقات طيبة مع البلاد العربية، فقد تميزت علاقات حماس السياسية مع السودان وإيران بمستوى رفيع، وبدرجات طيبة مع سورية ولبنان، وحافظت على خطوط اتصال دائمة مع دول الخليج، وعلى علاقات لم تنقطع مع مصر والسعودية واليمن، وعلى علاقات متذبذبة مع المملكة الأردنية الهاشمية وإن كانت مستقرة في المرحلة الأخيرة، وترجع هذه العلاقات الطيبة مع معظم البلاد العربية والإسلامية إلى أسباب عديدة أهمها هو عدم تدخل حماس في شئون البلاد العربية الداخلية، وعدم الدخول في محاور صراع بين تلك الدول، وعدم إنشاء فروع لها في تلك البلدان، وحفاظها على إتباع سياسة وسطية مع الكثيرين، واتخاذ موقف مماثل من حرب الخليج الثانية، حيث طالبت بالانسحاب العراقي من الكويت وانسحاب القوات الأجنبية . أما على المستوى الشعبي فقد كانت علاقات حماس أفضل كثيراً منه على المستوى الرسمي، حيث حظيت بتقدير شعبي كبير وتأييد معظم تيارات المعارضة العربية والإسلامية.

أما بالنسبة لموقف إسرائيل من المنظمة فقد شنت إسرائيل حملة شاملة ضد حماس في مايو ١٩٨٩م أدت لاعتقال معظم قياداتها وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسين، لكن المنظمة كانت قادرة على تقديم قادة جدد وعلى متابعة النضال وتصعيده.

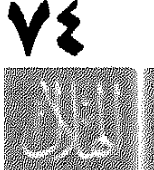
وقد نجحت حماس في معركة إعلامية مع إسرائيل عندما قامت الأخيرة بإبعاد ٤١٥ مواطناً فلسطينياً غالبيتهم العظمى من كوادر حماس حيث أمكن توفير جو عربي وعالمي مناصر لتلك الحملة اضطرت معه إسرائيل إلى إعادتهم.

ومنذ فوز شارون بمنصب رئيس وزراء إسرائيل في فبراير ٢٠٠١م تصاعدت عمليات الفصائل وبضمنها حماس مما أدى إلى تصاعد الانتفاضة الفلسطينية، وبلغ رد الفعل من جانبإسرائيل درجة غير مسبوقة من الاغتيالات لكوادر المقاومة فضلاً عن أعمال القتل والتجريف والهدم واجتياح أراضي السلطة الفلسطينية ، واستخدام كل الأسلحة الحربية الإسرائيلية ابتداء من البندقية حتى الطائرات المقاتلة إف ١٦، كما تصاعدت أعمال العنف المضاد من جانب المقاومة الفلسطينية بما في ذلك العمليات الاستشهادية، وهكذا تصاعد إرهاب الدولة على يد شارون حتى بز كل سابقيه، وليس هذا بغريب على شارون صاحب التاريخ الدموي السابق ، وأبرزه مذابح صبرا وشاتلا ومخيم البريج في قطاع غزة.

موقف الغرب من حماس

وعلى المستوى الدولي لم تعلن حماس الحرب المفتوحة على الغرب، ولم تطالب بطرد مصالحه في المنطقة، كما أنها لم تقترب من العمليات الخارجية كخطف الطائرات واحتجاز الرهائن أو اغتيال إسرائيليين في مدن خارجية. ومع ذلك وصفت أغلب عمليات حماس دولياً بالإرهاب وبخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية، مما أثر في حماس إقليمياً، وتصاعدت الإدانات على استحياء من كثير من الدول العربية والإسلامية، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة.

وقد استنكرت حركة حماس الموقف الأمريكي الداعم للإرهاب الإسرائيلي الذي جاء على لسان وزير الخارجية الأمريكية كولن باول، وأعطى الضوء الأخضر لإسرائيل بتصعيد عدوانها على الشعب الفلسطيني بقوله إن هدم منازل الفلسطينيين وتدمير مطار غزة رد على حادث تهريب سلاح، فطالبت حماس السلطة الفلسطينية باعتبار الولايات المتحدة شريكاً لإسرائيل في العدوان على الشعب الفلسطيني باعتبارها وسيطاً غير نزيهولعل مايؤكد عدم النزاهة هذه ماأعلنه الرئيس الأمريكي عقب اغتيال الشيخ ياسين من تأكيد حق إسرائيل



فى الدفاع عن نفسها.

ورغم المواقف الإسرائيلية والأمريكية المحبطة، فقد حاولت السلطة الفلسطينية مراراً تهدئة الأمور فى فلسطين ، فقد سعت السلطة الفلسطينية منذ أعلن الرئيس عرفات عن مبادراته لتثبيت وقف إطلاق النار فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠١م لتهيئة الأجواء لاستئناف محادثات التسوية السلمية. وأكد ياسر عرفات أن وقف إطلاق النار قرار استراتيجي اتخذته القيادة الفلسطينية ويجب الالتزام به .

وفى تصريحات لمجلة نيوزويك الأمريكية فى ٢١ يناير ٢٠٠٢م قال عرفات إن شارون يسعى لخلق توترات بين الفلسطينيين مشيراً إلى أن الجانب الفلسطيني يعمل كل ما يستطيع عمله على المستوى السياسي وفى مجال الأمن من أجل وضع حد للعمليات الاستشهادية لكن السلطة الإسرائيلية لم تتجاوب مع تلك المحاولات، مما دعا السلطة الفلسطينية إلى إيقاف تلك المبادرة.

وقد استمرت إسرائيل فى تصعيد الأمور ومتابعة سياسة التدمير والتقتيل والتصفية وهدم المنازل والاعتقالات بشكل وحشي ويومى، ورغم توقف أعمال المقاومة أحياناً بعض الوقت حرصاً من الفصائل الفلسطينية وعلى رأسها حماس لإعطاء فرصة للجهود الدبلوماسية كما حدث فى تلك الهدنة التى عقدت لمدة ثلاثة أشهر وانتهت فى ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٣م بهدف وقف العدوان والإفراج عن جميع الأسرى والمعتقلين فى السجون الإسرائيلية، لكن إسرائيل كانت تتحين فرصة أو حادثة فردية أو عارضة كي تستأنف تجاوزاتها وعدوانيتها مطالبة بتوقف المقاومة تماماً قبل استئناف أى حوار. وفى تقديرنا أن حماس ليست هى المسئولة عن تردى الأوضاع فى فلسطين باستمرارها فى رفع راية المقاومة، لكن إسرائيل هى التى تتحمل المسئولية الأساسية لما يحدث فى فلسطين، فهى دولة توسعية لاتريد السلام، لأن السلام سوف يحد من حركتها ويعطل توسعاتها ويقضى على إحلامها.

والمتتبع لموقف إسرائيل من حماس خلال انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠م سوف يلحظ أن إسرائيل قد صفت كثيراً من قيادات حماس متصورة أن ذلك سوف يشل حركة المقاومة أو يضعفها، لقد استشهد من قادة حماس كثيرون وعلى رأسهم صلاح شحادة، وإسماعيل أبو شنب، ويحيى عياش، وجمال سليم وجمال منصور، و قائد الحركة ورمزها الشيخ أحمد ياسين ، و أخيراً د. عبد العزيز الرنتيسي. وكانت الحركة بعد استشهاد كل من هؤلاء الرموز تزداد قوة وفعالية وتقوم بعمليات استشهادية مؤثرة وفعالة سواء داخل الخط الأخضر أو خارجه.

ولا شك أن اغتيال الشيخ أحمد ياسين بشكل خاص يثير تساؤلا منطقياً وهو إلى أين تتجه حماس بعد استشهاد الشيخ خاصة بعد إعلان وزير الدفاع الإسرائيلى عقب اجتماع عسكرى كبير أنه ينبغى إضعاف حركة حماس حتى يمكن تطبيق خطة الفصل مع الفلسطينيين؟

يعتقد اعتقاداً جازماً أن حماس سوف تتابع دورها فى خدمة القضية الفلسطينية محققة مزيداً من النجاح ومزيداً من التقارب مع فتح وسائر الفصائل الفلسطينية من أجل مواجهة ذلك التصاعد الذى تفرضه إسرائيل مدعمة من القوى الاستعمارية المختلفة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل من أهم الأسباب التى تجعلنا نتوقع دوراً لحماس خلال مرحلة مابعد الشيخ أحمد ياسين كون هذه المنظمة تدار بشكل جماعى يعتمد على الشورى مما يوفر على الأغلب مناخاً طيباً لحسن اتخاذ القرار.

إسرائيل سوف تضطر عاجلاً أو آجلاً إلى الحوار مع السلطة الفلسطينية والتسليم بالحد الأدنى من المطالب الفلسطينية، وسوف يسجل التاريخ ويكتب المؤرخون الجدد فى إسرائيل يوما ما أن استمرار حماس فى مقاومة الاستعمار الإسرائيلى كان عاملاً أساسياً فى تراجع إسرائيل وانسحابها من الضفة الغربية وقطاع غزة وفى الحفاظ على قدر من الكرامة العربية. ■

هل نعلن وفاة



هل نعلن وفاة القراءة ؟

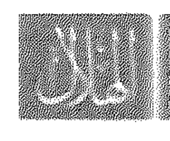
بقلم
د. أحمد محمد صالح

فى العدد السابق بدأنا قراءة وتأمل محاضرة دان سبيربير Dan Sperber الباحث فى العلوم الاجتماعية فى مركز CNRS بباريس، والذى يعلن فيها قرب انتهاء عصر القراءة والكتابة! وإمكانية الدخول إلى المعلومات المخزونة بشكل شفهى وسماعى، حيث الحاسبات الناطقة التى تمكنا من استبدال كلّ اللغة المكتوبة باللغة المنطوقة. وسنكون قادرين على تخزين واسترجاع المعلومات ببساطة من خلال النطق والاستماع، والنظر إلى الرسومات، وليس فى النصوص، وإذا أثبتت تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب فعاليتها ومناسبتها، قد ينتهى ذلك بالناس إلى ترك نشاط الكتابة جملة بدون أن يقرروا عمل ذلك أو حتى يلاحظون أنهم فعلوا ذلك، ونكمل فى عجالة اليوم تأثيرات استعمال تقنيات تحويل النص المكتوب إلى خطاب منطوق.

يشرح دان ببساطة تقنيات تحويل النص إلى خطاب منطوق، بأن واحدا عنده نص مكتوب يقرأ له بدلا من أن يقرأه بنفسه. كما هو الحال مع بعض الناس الأغنياء أو أصحاب السلطة الذين يستعملون السكرتيرات لكى يملين عليهن ولا يكتبون بأنفسهم، وإذا كان عندهم نصوص تقرأ لهم من قبل قراء مستأجرين. وعندما يقرأ لك النص فهو يختلف تماما عن الذى تقرأه بنفسك. وتساهم نغمة صوت القارىء فى الطريقة التى تستطيع بها ترجمة النص وفهمه. وفى بعض الحالات تكون القراءة من الآخرين ممتعة مثل الممثل الذى يقرأ قصيدة، أو الأم التى تقرأ قصة إلى طفلها، لكن عموما، نحن نفضل أن نترجم ما قرأنا فى صوتنا الصامت الخاص. علاوة على ذلك. نحن قد لا ننمو ونحن مولعون بنغمة صوت الحاسوب، لكن ربما نحاول أن نكون متحفظين ولا نتأثر بالكمبيوتر فى تفسيرنا للنص. وبينما نشعر باللذة والإثارة لسماع قصة أو قصيدة تقرأ جهوريا، وهناك أنواع أخرى من النصوص يفضل بكثير فهمها متى قرأتها لوحدك. مثل هذه النصوص التى تكتب نموذجيا لكى تقرأ بشكل صامت ، وصعب أو مستحيل أن تتلى على مستمعين . فأى شخص يشعر بالضجر والملل حتى الموت حين يسمع عالم أو باحث يقرأ جهوريا بصوت عال محاضرة مكتوبة، وأظن هذا ما سوف يحدث إذا قرأنا هذه المقالة بصوت عال !

ولفهم ذلك لابد من توضيح دور ذاكرة المدى القريب فى عملية الإدارك والاستيعاب خلال الاستماع إلى الخطاب المنطوق (سواء كان الخطاب التلقائى أو قراءة جهورية لنص مكتوب)، فكل معلومة تعطى من خلال الصوت المنطوق يجب أن تعالج وتحتفظ بها فى ذاكرة المدى القريب لفترة طويلة وكافية للسماح بحل شفرتها اللغوية، أو نفقد تلك المعلومة (بالرغم من أن بعضها يمكن أن يعاد بناءه من السياق). ويعقد دان سبيربير مقارنة بين المنطوق والمكتوب ويؤكد على أن النص المكتوب مزود بذاكرة إضافية خارجية للمدى القريب، وهى مؤثرة وفعالة، وتخزن النص وتمكنا من مسح النص ذهابا وإيابا كما نريد، وهذا يسمح للقراء بمتابعة النص فى سرعتهم الخاصة، فى المقابل حالة الخطاب المنطوق يكون الاستماع مقيد بسرعة المتكلم، وفى النص المكتوب يمكن للقارىء أن يقشط النص بنظرة خاطفة أولا وبعد ذلك يطالعه بتفكير وإمعان. ويمكن أن يختار العودة إلى بعض المقاطع التى مر عليها إذا أدرك صلتها بأثر رجعى، أو يدقق فى اتساق وتماسك النص. لكن عندما يقرأ النص المكتوب، تطلق وتحرر الطاقة الإضافية التى تزودنا بها نغمة الصوت بإشاراتها وإيماءاتها، وتكسب مدى وعمق ما أنت قادر على فهمه وانتزاعه واستخلاصه من النص.

وفى النص المكتوب يستطيع القراء أن يروا صفحة كاملة ويدخلون أى جزء آخر من النص بسهولة، وهو غير متاح مع الخطاب المنطوق. والكتّاب يمكنهم أن يستعملوا جمل أكثر تعقيداً، ويمكن أن يبرزوا وينظموا نصهم بالفقرات، والعناوين الأساسية والثانوية، ويمكنهم أيضا أن يرتبوا خطوط النص بإضافة الهوامش، والمراجع، أو ملاحق، ويتاح لهم أن ينتجوا أنواع جديدة من الأجسام



اللغوية والتخطيطية فورا، مثل القوائم والجداول المنظمة والأشكال البيانية، حتى في العروض الشفهية، أكثر المعلمين والمحاضرين وجدوا من المفيد أو حتى الضروري تزويد الحضور بالنص المكتوب والوثائق التخطيطية الأخرى للقراءة أو الفحص، مثال الكتابة على السبورة، والنشرات والملخصات، والآن تستخدم الشاشة لعرض البيانات، والعديد من الفورمات المتداولة للنص المكتوب في العروض البصرية تستغل وتوظف تأثيرات الذاكرة القصيرة الأمد، ومن المحتمل بعض هذه الوظائف يمكن أن ينجز بالمكائن الناطقة، لكن ليس كلها. على سبيل المثال، قد يكون من السهل أن تطلب من الماكينة قراءة مدخلات قاموس قصير أسهل من التفتيش باستعمال الحروف الأبجدية. ومن الناحية الأخرى، التجول، والتصفح من المحتمل أن يبقى، أكثر فعالية عندما يكون بشكل بصرى بالمقارنة بالصوتي.

طرائف المكائن الناطقة

شهد العالم المتقدم في السنوات القليلة الماضية موجة جديدة من المعاكسات التليفونية الغامضة والتهديدات العجيبة الصادرة عن أجهزة تكنولوجية عبر الهاتف، ويبدو أنها موجة جديدة من الإنزعاجات التقنية بعد أن سيطرت تماما على حياتنا ثورة التكنولوجيا والاتصالات. والمجهولون الغرباء الذين يحاولون مضايقة الناس وتهديدهم عبر الهاتف، ليسوا هؤلاء الأفراد المرضى والمخبولين، بل إنهم آلات وماكينات ذكية تعمل بشكل آلي، فمثلا ماكينات المشروبات الساخنة والباردة المنتشرة في شوارع العالم الآن مبرمجة على أنها تتصل آليا بمراكز صيانتها إذا دعت الحاجة أو تتصل آليا طلبا لمزيد من عبوات المشروبات، ونتيجة لأخطاء في برمجتها لا تتصل تلك الماكينات بمراكز خدمتها بل تتصل بأرقام هواتف منزلية، وفي إنجلترا وصلت الشكاوى من تلك الظاهرة إلى حوالي ٨ آلاف شخص يعانون من معاكسات ماكينات المشروبات أو المأكولات أو مستودعات الغذاء أو حتى مراحيض عامة عمومية تعمل بشكل آلي، وأصبح الأمر مزعج للغاية في البلاد المتقدمة التي دخلت فيها ثورة الاتصالات، وأصبحت هواتف آلاف المواطنين مشغولة دائما بمكالمات أجهزة الرد الآلي وشركات التسويق. ومشكلة المضايقات التليفونية بسيطة إذا كان هناك شخص هو الذي يتصل، فيمكن ردعه بالكلمة أو مراقبة البوليس للخط إلخ، لكن ماذا تفعل إذا كان الذي يعاكسك في التليفون ماكينة سجائر أو مشروبات أو مستودع مأكولات أو مرحاض عمومي آلي ويتكلم معك بصوت بشري. ففي بريطانيا انزعجت سيدة من التكرار اليومي لمكالمة في الرابعة صباحا، يتصل بها المرحاض العمومي الآلي ليخبرها أن الصابون نفد منه! في أمريكا سيدة تتلقى كل ساعة ونصف بالضبط مكالمة هاتفية ولمدة ٦ شهور متوالية. وتبين أن طالب المكالمة هو مستودع نفط تمت برمجته بشكل خاطىء، وأصبحت هذه الظاهرة متزايدة مع زيادة أعداد الماكينات الآلية والذاتية الناطقة وتزايد استخدامها خاصة في الدول المتقدمة، ونحن هنا في مصر

الحمد لله لا نعاني من معاكسات الكمبيوتر إلا في فواتير التليفونات والكهرباء، وقبل ذلك نعاني من كمبيوتر الداخلية عند حساب الأصوات في الانتخابات، أو مراجعة جواز سفرك في المطار، فعادة كمبيوتر المطار يضعني في قوائم المشبوهين والمطلوبين. فنحن نحمد الله على مشاكل التخلف.

ونرجع مرة أخرى لمحاضرة دان سبيربير الذى يؤكد من وجهة النظر العملية، أن الاستماع إلى نص أبطأ بكثير من القراءة. هو أكثر ضوضاء أيضا (لكن هذه يمكن معالجتها بسهولة بالسماعات). العقبة الأقوى في رأيه أمام هجر وترك القراءة هو الدور الذى تلعبه، ليس في الوصول إلى النصوص، لكن في إنتاج النصوص، وكما أشارت المحاضرة، فان القيمة الحقيقية في نشاط الكتابة ليس الحركات اليدوية ولا الطباعة على لوحة المفاتيح، لكن في إمكانية أن نقرأ ما نكتب كما نكتبه! ومع كل هذه الاعتبارات، من غير المحتمل أن ينجح التأثير المتراكم للقرارات الفردية للاستعمال المنتظم لتقنيات تحويل النص المكتوب إلى خطاب منطوق ويؤدى إلى هجرة نشاط القراءة والمطالعة على المستوى الاجتماعي والحضاري.

النتائج والمضامين الثقافية

إذا تأملنا في مضامين أفكار دان سبيربير تظهر الحقيقة التى تعلن أن كل منافع نشاط الكتابة اشتق من القراءة. حتى الفوائد الظاهرة للكتابة على الخطاب المنطوق تجيء من حقيقة بأنك كما تكتب، تقرأ ما تكتبه. فالكتابة جوهريا تكلفة دفعت مقدما لكى تكون قادرة على الربح من القراءة. هذه التكلفة في رأى دان كانت ومازالت مستحيلة

ماذا تفعل إذا كان الذى يعاكسك فى التليفون ماكينة سجائر أو مشروبات أو مستودع مأكولات؟!

التجنب ولا مفر منها! لكن ليس لزمن طويل قادم، فعندما تصبح التقنية قادرة على تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب بشكل صحيح كما يتجلى، ويمكن تعديل النسخة وتنظيم النص بواسطة الأوامر الشفهية هنا فقط يصبح نشاط الكتابة لايعود بفوائد ومنافع كافية لتبرير كلفته . على النقيض من ذلك، فإن قراءة الماكينة جهوريا للنص دائما أقل جاذبية من أن يقوم الفرد بالقراءة بنفسه! فالتأثير المتراكم للقرارات الفردية لاستعمال هذه التقنيات الجديدة سيسبب قريباً، على المستوى الاجتماعي والحضارى، قرب اختفاء نشاط الكتابة، بينما سيستمر الناس في نشاط القراءة. والقرارات الفردية التى يتحدث عنها دان سبيربير ستتخذ من قبل الناس الذين دفعوا فعلا التكلفة الرئيسية بانغماسهم في نشاط الكتابة والقراءة، وتلك التكلفة، ليست تكلفة استعمال هذه المهارات، لكن تكلفة اكتساب تلك المهارات . حتى لو تحولت هذه التكلفة المدفوعة وفضلت الانتقال إلى الإنتاج الشفهى للنصوص المكتوبة، لأننا ببساطة لم نتوقف حتى الآن عن النشاط الذى تعلمناه وهو الكتابة باليد رغم أن معظمنا لا يتوقف أيضا عن الكتابة بالضغط على لوحة المفاتيح.

مستقبل تعليم الكتابة

وعندما يتوقف مزاولة نشاط الكتابة طبعا (ما عدا نشاط الخطاطين)، يتساءل دان سبيربير ماذا سيحدث في تعليم الكتابة نفسها؟ ويبين أن تعليم الكتابة يتضمن دائما تكلفة أكثر عندما يقارن إلى تعليم القراءة. فالقراءة يمكن للفرد أن يتعلمها لوحدها، بينما تعليم كتابة يفترض أولاً ويستلزم القدرة علي القراءة وطالما تعليم الكتابة وتعليم القراءة مرتبطان بشكل منتظم نحن لا نستطيع السيطرة علي المقارنة بينهما لتقدير التكلفة المرتفعة فى تعليم الكتابة بالمقارنة بتعليم القراءة. علاوة على ذلك، حتى المقارنة المسيطر عليها لا تسمح لنا حقا بتقدير اقتصاد الجهد الذى ينتج عن تعليم الأطفال القراءة فقط، وأدبيات علم أصول التدريس pedagogies قديما وحديثا تبين لنا أن هناك قليل جدا من الاستثناءات، مثل حالات الطلاب المصابين بعاهات يجب أن يستهدف تعليمهم كلتا المهارتان معا. وإذا تعلم الطفل القراءة لوحدها، فعلم أصول التدريس يؤكد على أهمية التعليم مجددا، مع الانتباه إلى الدور الذى يمكن أن تلعبه تلك الحاسبات فى تلك العملية، ونزعم أن استعمال التقنيات الجديدة، يمكن من تعليم القراءة لوحدها بطريقة سهلة عن تعليم الكتابة والقراءة معا. وكل هذا يعنى فى محاضرة دان سبيربير عندما نستبدل نشاط الكتابة بتقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص مكتوب، فالقراءة لوحدها هى التى ستعلم ويتم تدريسها! وهكذا سيتم تحرير أوقات الأطفال، والمعلمين، والآباء على أن توظف فى أشياء أخرى!؟ بالتأكيد هذا التصور غير واقعي. فمثل هذا التحول الثقافى عملية معقدة ويواجه عوامل مختلفة من القصور الذاتي. ويعتقد دان أن الناس فى البلدان المتقدمة، ربما يكون عندهم اهتمام أعظم في وفاة الكتابة، لكن الأطفال لم يستطيعوا أن يحكموا على ذلك التحول الثقافي، وعلى أية حال لن يسألهم أحد ! لكن الأجيال الأولى للبالغين التى ستنتقل إلى الإملاء على الماكينة بعد سنوات من ممارسة نشاط الكتابة ستدفع ثمن تعلمها. لكن هناك عدة حقائق ستجعل هؤلاء البالغين مدافعين بحرارة بالغة عن تعليم الكتابة، منها الألفة والحميمية فى ممارسة نشاط الكتابة، وغياب التمييز بين تعليم الكتابة وتعليم القراءة، والإحتقار أو الشفقة على الناس الأميين، كل تلك المشاعر ستتلاقى فى دفاعهم عن تعليم الكتابة، والمعلمون هم أول هؤلاء المدافعون الذين تدربوا بالصبر والصمود على تدريس الكتابة، ولن يعترفوا أبدا بأن كل هذه المعرفة قد تكون قديمة وبالية، ويلتمس دان سبيربير العذر العاطفى لهؤلاء المدافعون عن الكتابة، بالرغم من أنهم قد لا يمارسون الكتابة بأنفسهم، لأنهم سيشعرون بأنهم يدافعون عن الثقافة ذاتها ضد الأسوأ من الأميين، وأنصار سياسة الأمية الذين سيهللون لتلك التقنيات، ويتوقع دان سبيربير بأن تعليم الكتابة سيعيش طويلا ويعمر بعد زواله. هذا السيناريو يبقى تعليم الكتابة كنشاط دراسى إلزامى، وهو ليس السيناريو الوحيد المعقول، ولكنه يهمل عوامل مختلفة يمكن أن تغير ذلك. فالتعليم عموما فى

رأى دان من المحتمل أن يخضع لتغيرات جذرية كنتيجة لتطوير التقنيات الجديدة، فاكتساب مهارة القراءة قد يحدث مبكرا جدا وعفويا أكثر نتيجة التفاعل بالمكائن، وهذا يؤدى إلى تمييز حقيقى وانفصال بين تعليم القراءة وتعليم الكتابة، وقد تنتهى الكتابة بلعب دور رئيسى فقط فى دروس الكتابة بالفصول الدراسية، ويتناقص دورها فى تعليم مواد البحث الأخرى، فى مثل هذه الشروط، تعليم الكتابة سيفقد معناه بسرعة بين الأجيال الجديدة للبالغين التى يمكن أن تغرى باعادة تعليم الكتابة اختياريا.

حتى هذا السيناريو المعدل لا يأخذ فى الحسبان تنويع الحالات عبر البلدان، فأغلب مصادر التعليم فى بلدان عديدة مستثمرة فى تعليم معرفة القراءة والكتابة، ومحو الأمية، حيث يعتبر جزء عظيم من السكان عائق رئيسى فى التنمية الاقتصادية. فى مثل هذه البلدان، استعمال تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص speech- to- text أو تحويل النص إلى خطاب منطوق text - to - speech ، متوقف على التكلفة، إذا كانت تكلفتها منخفضة، وقد تكون طريق بارز إلى تعجيل الترقية الاجتماعية للأفراد والتنمية الاقتصادية الجماعية. إذا كان الأمر كذلك، فى هذه البلدان، فالتعليم يجب أن يفكر مجدداً ويقوم على قاعدة جديدة: بينما ، فى الوقت الحاضر، تحتل مهارة الكتابة مرحلة مركزية فى التعليم، وهى فى المستقبل قد تكون مهارة عاطلة تقريبا. ويفترض دان سبيربير، أنه حتى لو نتج من تراكم القرارات الفردية البسيطة والمعقولة، هجرة الكتابة وتعليمها ربما نتيجة ذلك تحدث تأثيرات

الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة من الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهربة على الكمبيوتر فوارة متلاشية.

ثقافية رئيسية. هذه التأثيرات صعب التنبؤ بها فى الوقت الحاضر.

التحول الثقافى

من السهولة الكلام عن العودة إلى مرحلة الشفوية. لكن نقف مبهورين أمام التأثيرات العميقة للكتابة على الحضارات الإنسانية التى أعطت الفرصة لتراكم المعارف والخبرات والثقافات الإنسانية واحتفظت بها إلى الأبد ضمن حدود الذاكرة الطويلة المدى للإنسانية. فهل تستطيع تقنيات المعلوماتية الجديدة أن تفعل ذلك رغم أنها تسمح بأشكال جديدة من التراكم الثقافى وأنماط جديدة فى تخزين واسترجاع المعلومات؟! ويحلل دان سبيربير الاحتمالات ويقول أن تعميم الإنتاج الشفهى للنصوص المكتوبة من المحتمل أن ينتج عنه تأثيرات مهمة على النصوص نفسها. هذه التأثيرات قد تكون مشابهة لتأثيرات تبديل الكتابة اليدوية بالطباعة، وبعد ذلك استبدال الطباعة البسيطة ببرامج معالجات الكلمات. هذه التحولات لم تدرس بشكل منتظم. لكن ربما يكون لتركيب النصوص المكتوبة بواسطة الصوت تأثيرات أعمق. فقد ظهرت أشكال مختلفة من الكتابة تفاوتت بتفاوت اللهجات الشفهية والمكتوبة. فهل العودة إلى العضو الطبيعى للتعبير اللغوى يضع

حداً لهذا التفاوت، أو سيسبب ظهور لهجات جديدة؟ والرموز ذاتها التى استعملت فى أنظمة الكتابة المختلفة نتجت من تفاهم وتوفيق بين حاجات اليد وحاجات العين والطباعة، والآن الحاسوب، جعل من الممكن تطوير حروف جديدة، على أية حال، مازالت متماثلة بما فيه الكفاية مع الحروف والأشياء المكتوبة باليد، لكن دان يرى أن هذا القيد وهو التماثل يمكن أن يختفى كليا' ويتوقع تتطور وانبثاق أنظمة كتابة جديدة ، موجهة بشكل خاص باعتبارات الهندسة البصرية الإنسانية البصرية Vis- ual Ergonomics وعلم الجمال EsthetiEs . والإنسان يمكن أن يتخيل أى شىء لكن التنبؤ المنطقى والمبصر فى منتهى الصعوبة لسرعة تلاحق المتغيرات والتقنيات الجديدة. فهو صعب لكن ليس مستحيل.

المستفيدون

الحقيقة أن دراسات دان سبيربير التى لخصت نتائجها فى تلك المحاضرة تثير العديد من الأسئلة المثيرة، أكثر مما تعطى إجابات! خصوصا ضمن سياق الانتقال من الكتابة اليدوية إلى الطباعة ثم إلى لوحات المفاتيح وبعد ذلك (على أمل) تحويل الخطاب إلى النص وتمييز الأصوات، وأزعم أن هناك فئتين فى المجتمع هى التى يمكن أن تستفيد من هذه التقنيات فورا، وأقصد الفئة الأولى الذين يعانون من مرض الإجهاد المتكرر.
RSI (Repetitve - Stress - INJU- RY) بسبب الطباعة، والتى تعتبر بالنسبة لهم أكثر النشاطات الغير طبيعية والضارة لهم التى أحدثتها ثورة الحاسوب. الفئة الثانية المستفيدة مباشرة هم الناس الأميون الذين لم يتعلموا الكتابة والقراءة ربما تلك التقنيات تساعدهم تماما، لكن السؤال المطروح هل يمكن أن ننظر إلى تقنيات تحويل الخطاب إلى النص والعكس كمستوى نهائى فى تقدم الإنسانية من بداية احتكار المعلومات والأفكار النخبية (الرهبان فى الأديرة) إلى انتشار الأفكار والمعلومات وذيوعها، وأخيرا الإبداع الذاتى والاستقلالية (الإنترنت)؟! أشك أن هناك سقف تقف عنده التقنيات الجديدة! من ناحية أخرى نقدت المحاضرة النموذج التقلدى لمعرفة القراءة والكتابة (الكتابة زائد القراءة) وأكدت على الفجوة الكبيرة بين تعليم معرفة القراءة والكتابة ومستويات معرفة القراءة والكتابة فى المجتمع، فهناك ملايين من البشر يعانون من الأمية الهجائية وملايين أخرى تعانى من الأمية الوظيفية خاصة فى الدول المتخلفة، والسؤال كيف تنجح تلك التقنيات فى سد تلك الفجوة؟! وهل تنجح تلك التقنيات فى عبور الفجوة بين المجتمعات المتخلفة حيث ملايين الأميين وبين المجتمعات الصناعية الغنية حيث الأكثرية المتعلمة؟ أعتقد أن ذلك سيعتمد على كلفة الوصول إلى هذه التقنيات (مكائن وبرمجيات ملاءمة) كما أشار دان سبيربير. هذه الكلفة يجب أن تقارن إلى كلفة تعليم الكتابة والقراءة، التى تكلف تكلفة مرتفعة فعلا بالنسبة للمجتمعات التى تنظمها، وأيضا للأشخاص الذين يستثمرون وقتهم فى تعليم هذه المهارات. ولم يقدم دان سبيربير أرقاما للمقارنة وهو يتحدث عن التقنيات والتكاليف المستقبلية، لكنه

توقع، فى المستقبل القريب نسبيا، أن تكون تكلفة التزود بتلك التقنيات أكبر من تكلفة تعليم مهارات القراءة والكتابة على مستوى الأشخاص والمجتمعات، ومن غير المحتمل أنها ستكون مربحة وتحقق منافع للأشخاص والمجتمعات بدلا من الإستثمار فى تعليم مهارات القراءة والكتابة، وإذا كان هذا صحيح، فإنه على المدى الطويل قد تساعد التقنيات الجديدة على تجسيد الفجوة الاقتصادية بين المجتمعات الأفقر والأغنى على أية حال، تلك التقنيات فى رأى دان قد تخلق نوعا جديدا من الفجوة الثقافية، لها بعدين الأول فى المجتمعات الأكثر تقدما من المحتمل أن تعليم الكتابة سيستمر حتى ولو لم تستعمل الكتابة بشكل عادى بعد الآن (مثال لغة اللاتينية التى مازالت تعلم بالرغم من هجرتها كلية منذ قرون). ورغم عدم وضوح القيمة الإدراكية المعرفية لمثل هذا التعليم، لكنه سيكون عامل التفاضل والتمييز «للنخبة» من الناس الذين تعلموا هذه المهارة الممتازة، وبين الآخرين المستعملين لتلك التقنيات (كما هو الحال مع تعلم اللغة اللاتينية، فهو علامة عودة إلى نخبة ثقافية فى المجتمعات الغربية). والأكثر أهمية، أن البلدان الأفقر قد تلجأ ليس فقط إلى تقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى النص لكنها قد تلجأ أيضا، وأكثر بكثير من البلدان الأغنى، إلى تقنية إنتاج النصوص المنطوقة، وتتجاوز ليس فقط الكتابة، بل والقراءة أيضا. هذا قد يثبت أن تلك التقنيات مربحة على العديد من المستويات الرئيسية للتنمية الاقتصادية، وقد يؤسس ذلك فجوة ثقافية أصيلة، ليست فى الرمز فقط، بين أولئك الذين تعلموا المهارات التى تسمح بتصحيح وتركيب النص المتقن، والآخرين وهم الأغلبية. البعد الثانى، يبين أن معرفة القراءة والكتابة التقليدية دمجت بين فوائد الذاكرة طويلة المدى وفوائد الذاكرة قصيرة الأمد . فهل استبدال الكتابة بتقنيات تحويل الخطاب المنطوق إلى نص واستبدال القراءة بتقنيات تحويل النص إلى خطاب منطوق يحفظ كلتا أنواع الفوائد؟ الإجابة عند دان سبيربير أن تلك التقنيات ستحافظ فقط على فوائد الذاكرة الطويلة المدى لمعرفة القراءة والكتابة وتترك وتتخلى عن فوائد الذاكرة القصيرة الأمد، وهذا قد يكون حسنا لأعمال البزنس، لكنه من الواضح ليس للعديد من أشكال النشاط الثقافى.

وأخيرا بعد هذه الرحلة مع أفكار دان سبيربير المقلقة على مدى شهرين فى مجلة الهلال، نذكركم بمقولة الأستاذ محمد حسنين هيكل منذ عدة سنوات فى إحدى كتبه، كتب يقول «لا أعرف أهو تحيز رجل لما ألف وعرف، أو أنه حكم فى الموضوع، بصرف النظر عن متغيرات العصور. لكنى على شبه اقتناع بأن الكتاب المطبوع على ورق له العمر الطويل، وأنه الحاضر على الدوام، مهما اشتد من حوله الزحام، بمعنى أن الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة من الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهربة على الكمبيوتر فوارة وهى مثل كل فوران متلاشية. أى أن الكلمة المكتوبة على الورق بناء صلب: حجر أو معدن، وهكذا كل بناء، وأما غيرها فهو صيحة متغيرة - خاطفة، ولامعة وبارقة!». ■

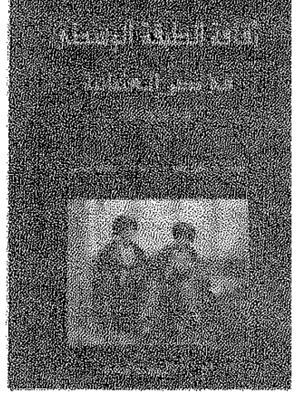
شاهد عيان يصف مصر العثمانية:

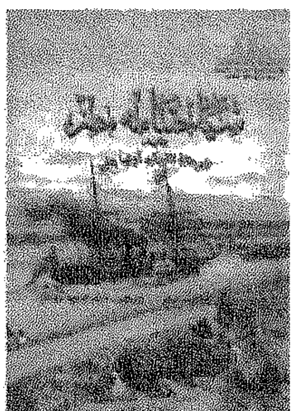
مصر

في القرن السابع عشر

بلد بلا شعب أو شعب بلا ملامح!!

بقلم:
مصطفى نبيل





تسود الحياة الثقافية بعض المسلمات حتى تصبح من البديهيات، وكثيراً ما تتردد على ألسنة الكتاب.

ومن هذه البديهيات ما يدهشك عند الحديث عن مصر العثمانية، وكأنها بلد بلا شعب، أو شعب بلا ملامح، مجرد ولاية عثمانية تابعة، خلال عصر تميز بالجمود والتخلف.

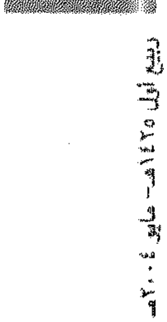
وتتوالى الدلائل والبراهين على غير ذلك .

صدر مؤخرا كتابان يعيدان الاعتبار لمصر العثمانية، ويؤكدان أنها لم تكن مجرد مرحلة جمود وظلام وتقليد!

أحدهما كتاب «ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية»، للدكتورة نللى حنا، والذى نشر ضمن مطبوعات الجامعة الأمريكية، وترجمه للغة العربية د. رءوف عباس.

والكتاب الثانى .. «سياحة نامة مصر» للرحالة التركى أوليا چلبى، شاهد عيان يتناول مشاهداته فى رحلة إلى مصر العثمانية فى القرن السابع عشر وأصدرته دار الكتب، وسبق أن ترجمه

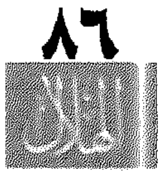
أحد الإيوانات من داخل جامع قايتباى - القرن ١٥م



محمد على عونى وراجعه د. عبدالوهاب عزام.

ويلتقى الكتابان ويتلامسان فى الكثير من المسائل، ويؤكدان على دور الطبقة الوسطى وأنها ركيزة العمل الثقافى، أحدهما عن طريق التنقيب والتحليل، والثانى عن طريق المشاهدة والرصد ويؤكدان أن الحكم العثمانى لم يكن أسوأ كثيراً من حكم ملوك وأمراء أوروبا فى ذات الفترة، وأن الدولة العثمانية التى حكمت الشرق ثلاثة قرون، لم تكن كلها سنوات تخلف، تحارب العلم والمعرفة، ولم تكن مصر مجرد بقرة حلوب!

وهناك الكثير من الكتابات التى تنحو هذا المنحى، ومنها ما جاء على لسان جرجى زيدان فى «تاريخ آداب اللغة العربية»، «تعيش مصر العثمانية فى عصر الانحطاط لذهاب دولة العرب، واستبداد سواهم »، «وانحصرت آداب اللغة العربية فى كتب الفقه والدين، وحتى أشعارهم أكثرها فى مدح النبى، وأكثر المؤلفات الفقهية شروح وحواش.. وفسدت ملكة اللسان، وجمدت القرائح، وأصبح الكاتب يهمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع..».



وتوالت الكتابات التى ترد على هذه الفكرة، والتى تزعم أن النهضة الحديثة، جاءت إلى الشرق مع مدافع نابليون ومصاحبة للحملة الفرنسية، وأبرز هذه الكتابات ما جاء فى كتاب «فى الطريق إلى ثقافتنا» للكاتب الراحل محمود شاكر، وكذلك الكاتب الأمريكى بيتر جران الذى اعتبر ظهور كتاب «تاج العروس» للزبيدى دلالة على وجود ثقافة مزدهرة فى العصر العثمانى.

فهل يمكن أن يكون التحديث والإصلاحات فى عهد محمد على إلا إذا كان من تولوا القيام بها أناس تعودوا تقبل الأفكار الجديدة؟!

هناك إذن عمق تاريخى للثقافة المعاصرة ، فلم تأت من الوالى العثمانى ولا نتيجة سياسات من الخارج أخذت بها مصر العثمانية.

ويأتى كتاب د. نللى حنا لكى يحرك المياه الراكدة، ويقدم حججاً جديدة على حيوية الأهالى فى مصر العثمانية، والمتمثلة فى طبقة وسطى نشيطة، وكما يقول د. رءوف عباس فى تقديمه للكتاب وفى تفسيره لعدم العناية بمصر العثمانية.. «كان من سوء حظ تلك القرون الثلاثة – العثمانية – أنها وقعت بين عصرين، كان لمصر فيهما شأن كبير.. عصر المماليك وعصر محمد على، وحكمها ولاة عثمانيون يستخدمون فى حكمها قوى من بقايا المماليك،.. وغاب عنا أن نظام الحكم العثمانى تضمن عناصر إيجابية، وعندما أصبحت مصر تتعامل مع سوق واسعة ».

وإذا كانت د. نللى قد أبرزت معالم

واجهة الإيوان أو المقعد المطل على فناء المنزل فى «بيت الأمير» - القرن ١٧ م

طبقة وسطى لها ثقافتها، فقد أكدت تنوع الثقافة الدينية، واستجابتها للتحولات الاجتماعية، وتوافقها مع حاجات المجتمع، وتوصلت دراساتها، وهى الرائدة فى ذلك النوع من الدراسات، التى تعتمد على مادة تاريخية من خلال حصر التركات فى المحاكم الشرعية، ووثائق الأوقاف، والتى دللت على اتساع الطبقة الوسطى بانتشار الكتب عقب انخفاض أسعار الورق.

وهذا التنوع الثقافى أكثر مما يظن الكثير من المؤرخين، ودليل وجود فئات وجماعات فى مساحة وسط بين الخاصة والعامة، وهو إحدى نتائج نظام التعليم، وانتشار الكتب، ووجود أعمال أدبية وعلمية رغم غلبة الكتب الدينية وانتشار ثقافة الكتب والمقاهى والصالونات الأدبية، ورسمت دراسة د. نللى حنا ملامح ثقافة القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهى تختلف تماما عن الصورة النمطية السابقة، التى استقرت لدى العديد من المؤرخين المحدثين.

وهناك كتاب رائد فى هذا المجال، وهو كتاب «الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى» لمؤلفه محمد سيد كيلانى، ومن أبرز الكتب التى صدرت أيام مصر العثمانية، «سيرة الظاهر بيبرس»، و«الأميرة ذات الهمة»، و«هز القحوف» للشيخ يوسف الشربينى، و«تاج العروس» لمرتضى الزبيدى.

ويمكننا أن نلحظ ظهور أعمال أصيلة، تكشف عن وعى بالماضى القومى، وبعض المكانة للأفكار ومخترعات الغرب، والحرص على الحفاظ على اللغة العربية والهوية الوطنية.

ليس حكما بالبراءة

وليس فيما أقول عدم التسليم بما عانته مصر فى ظل الحكم العثمانى، فقد شهدت مصر ركوداً بسبب تقاعس الولاة العثمانيين عن القيام بالمشروعات العامة، وحتى لم تحافظ على القائم منها. وكما يذكر د. شفيق غربال.. «لا تجد بالنسبة لمصر وسوريا أى تغيير بسبب خضوعهما للحكم العثمانى، فلم يمس شيئاً أساسيا!».

وليس هذا حكما بالبراءة على الدولة

العثمانية، ولكنه البحث عن دور أبناء البلاد، وبالتالى لا تتجاهل الصفحات الدامية للحكم العثمانى فى مصر، يوم جريان الدم أنهاراً فى حوارى القاهرة، والذى يصفه وصفاً مؤلما إبن إياس، واعدام سلطان مصر أيامها طومان باى على باب زويلة، ولا يمكن إعفاء هذه الدولة من تحمل المسئولية عن الغزو الفرنسى لمصر، والاحتلال البريطانى، وإصدار الأستانة فرمان إدانة العاصى عرابى!

والدولة العثمانية ذاتها، هى التى تخلت عن اللغة العربية، واتجهت إلى العمل على تتريك الولايات العربية.

سياحة نامة

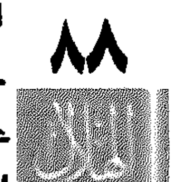
وإذا كان كتاب «ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية» قد أبرز ملامح هذه الطبقة، فقد جاء كتاب «سياحة نامة مصر» لكى يقدم النماذج الملموسة على وجود هذه الطبقة، وهى الجماعة أو الحفنة التى تحتل الوسط بين خاصة الناس وعامتهم، أو من أطلق عليهم حينا «أوساط الناس» أو «مساتير الناس».

ويورد أوليا جلبى - والتى تعنى بالعربية السيد الولى - توالى الصور خلال رحلته فى تقسيم المجتمع إلى الخاصة من أهل السلطة ومن دار فى فلكهم، وعامة الناس الذين يطلق عليهم الحرافيش أو الغوغاء أو الدهماء.

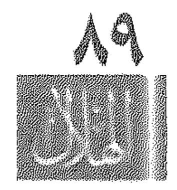
وهى رحلة ذات أهمية خاصة، فهى لمحة ضوء، ولحظة صدق نادرة، عن مرحلة تندر الدراسات حولها، ومن الذين زاروا مصر فى هذه المرحلة التاريخية، حسن الوزان أو «ليون الأفريقى»، والرحالة الألمانى «كريستان نيبور» وعدد من الرحالة الفرنسيين وغيرهم.

وزار أوليا جلبى مصر مرتين الأولى عام ١٦٧٣م والثانية عام ١٦٧٦م وقضى فى إحداهما ثمانى سنوات، وجاءت زيارته لمصر كجزء من رحلاته فى بقاع العالم المختلفة، وهو يرى مصر بعين المعمارى الذى يرصد بدقة الأعمال المعمارية الأثرية، ويتحدث عنها حديث العالم، ويقدم مصر بعين المؤرخ الذى يروى تاريخ مصر منذ الأزل وحتى تاريخ زيارته بعد العودة إلى كتب التاريخ المختلفة، ولا تخلو كتاباته من عدد من الأساطير والخرافات والنوادر التى تعبر عن المفاهيم والقيم السائدة فى عصره، ويظهر من خلال رؤية عين ثاقبة وقدرة تحليلية كبيرة، وهو مولع بالأرقام والاحصاءات فلم يترك شيئا لم يذكر حصره من القصور إلى الحارات وحتى الحمير! وكثيراً ما يستطرد وينتقل من موضوع إلى آخر !

والرحلة بحكم طبيعتها تقدم بعض المعلومات التى تحتمل الخطأ والصواب، ولكن قيمتها أنها تقدم مشاهد حية فيها نبض وانفعال شاهد عيان.



مدخل جامع وضريح السلطان برقوق - القرن ١٤ م



وأهميـة المجلد العاشـر أنه يتناول مصر ووصف حياة المصريين والجماعات التى يتكون منها المجتمع، ويركز على عادات فلاحى مصر وتقاليدهم، ومصر عنده ولاية ممتـازة لدى السلطنة العثمانية، والقاهرة العاصمة الثانية بعد استانبول وهى درة الحكم العثمانى.

شاهد عيان

ونقتصر هنا على عرض بعض جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية التى رواها، والتى تستعرض حياة الأهالى وأعمالهم، فى الرحلة التى يصل عدد صفحاتها إلى ما يزيد على ٦٥٠ صفحة غنية بالتفاصيل.

بدأت رحلته إلى مصر سنة ١٠٨٢هـ - ١٦٧١م .. «الحمد لله دخلنا مصر القاهرة، لكى ننعم بكسب الهواء، ونجدد شهوة الصفاء.. وشاهدنا مصر القديمة التى يتحسر عليها الملوك، والتى تدعى الفسطاط، وقد امتلأت الدنيا بأبنيتها الأثرية.. فكانت الفسطاط قلعة عظيمة عامرة على ساحل نهر النيل، وكانت نادرة الدهر، وهى مدينة عتيقة ليست لقصة تاريخها غاية، ولا لحكاياتها وروايات مجدها وشأنها نهاية، فهى من حيث المنظر خير الأقاليم، ومن حيث الخير أوسعها ، ومن حيث القرى أكثرها.

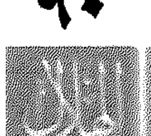
وتحتوى الأراضى المصرية على كنوز عظيمة ورقائق جسيمة، وخبايا كثيرة، فليس فيها موضع يخلو من كنز خفى، لأن أهلها لايزالون يدفنون أموالهم فى الأرض.

ويتأمل باب زويلة ويقول.. «لم أر فى حياتى ورحلاتى بابا عاليا فيه ما فى هذا الباب من الفن والجمال..».

ويصل فى حديثه عن الطبقة الوسطى التى تتكون من العلماء والتجار.. «.. إن عدد العلماء والقضاة والمدرسين يبلغ مائة وأربعة وسبعين ألفاً، هذا ويكاد علماء الحديث والتفسير يختصون بمصر، وفيها أكثر من اثنى عشر ألفاً من الأئمة والخطباء وأحد عشر ألفا من المشايخ الكرام، وفى الجامع الأزهر وأروقته زهاء إثنى عشر ألفا من العلماء الذين بين أيديهم الكتب.

والأزهر هو منبع النخب المصرية،.. ليس كمثله جامع فى الدنيا، فعدد طلابه ١٢ ألفا يسكنون حوله، وبه تسعة آلاف مكتبة زاخرة بالكتب، ومطبخ الجامع الأزهر مفتوح دائما للفقراء، وفى جوانبه أربعة وخمسون رواقا، أى أماكن أقوام من خمسين بلداً، وكل رواق حافل بالعلماء، وسكان أى رواق لا يعرفون عدد سكان رواق آخر.. وهو حافل بالعلماء المصريين الذين يقومون بإلقاء الدروس فى سبعين مكانا، وداخل الجامع وخارجه ١٢٠٠ مصباح توقد كل ليلة».

وخلاصة القول عند رحالتنا.. «لا



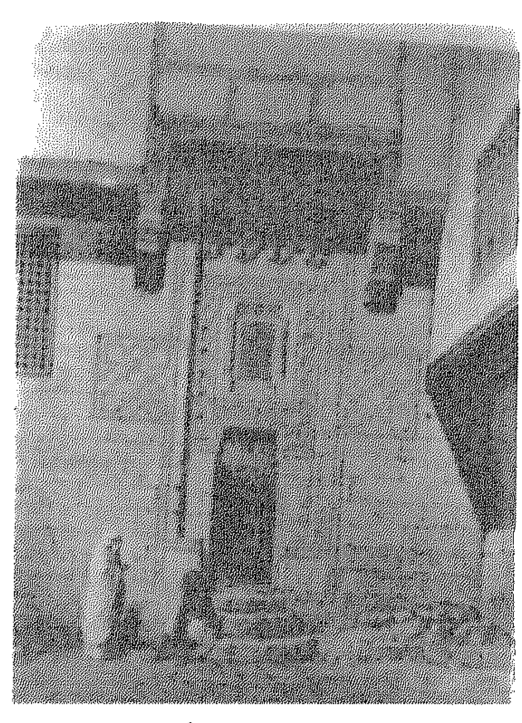
يحدث اضطراب فى مصر إلا وخرج علماء الأزهر صائلين، وجولتهم خطرة جداً.. إلى حد أن قاتلا أو لصا إن اعتصم به تائبا متطهراً، فلا يقدر الحاكم على انتزاعه.

ولم يتطرق رجلنا على ما يدرس فى الأزهر، وهل يقتصر على الدين أم أن هناك موضوعات أخرى؟

ونجد أن بعض الرحالة الفرنسيين، الذين زاروا مصر خلال الدولة العثمانية وتناولوا الحديث عن الأزهر أجابوا على السؤال فيذكر فرمنال.. «أن التلاميذ يدرسون فى الأزهر الطب والفلك والفلسفة» ويقول دورفال عن علماء الأزهر.. «هؤلاء الرجال مسلمون بالفطرة، يمتازون بالجد والاستقامة»، وينضم جرانجيه إلى فرمنال بقوله.. «الأزهر كلية عظيمة يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ، وله استقلال ملحوظ..».

ونعود إلى أوليا جلبى الذى يقول.. «لجميع الفقراء من طلبة الأزهر رزق مقرر صباحاً ومساءً، وهو صحن من حساء الأرز والعدس ورغيف، وفى كل ليلة جمعة يقدم إليهم الأرز واللحم والبصل والحلو.

ولما كان المصريون يؤمنون بفضل الأزهر فهم يتصدقون عليه كثيراً، ويؤدون زكاة أموالهم له، كما أن صرراً وعطايا ترسل إليه من سائر البلاد،



باب الحريم الخارجى فى « بيت الأمير» – القرن ١٧ م

وأوقافه هائلة يقصر اللسان عن وصفها.

ولا يوجد بلد فى العالم به نسبة عميان كبيرة بقدر مصر، ففى الأزهر من حفظة القرآن من ألفين إلى ثلاثة آلاف قارىء أغلبهم من العميان.

أما المدارس فيوجد فى القاهرة ٦٨٠ مدرسة، يطلق على الواحدة منها «دار الحديث»، ولم يذكر طبيعة الدراسة، وهل تقتصر على الدين أم يدرس بها الحساب والعلوم الأخرى؟!

وهناك ألفا مدرسة للصبيان، كلها وقف أهلى، أى أقامها الأهالى لتعليم أولادهم ولأعمال الخير، وهى ثلث مدارس مصر.

وهناك جهود كبيرة للتعليم ومحو

الأمية يشهد على ذلك الكتاتيب فى قاهرة القرن السابع عشر، ويكفى أن تعرف انتشار هذه الكتاتيب التى يصل عددها إلى ألفين وخمسة عشر كتابا، يتعلم فيها الصبية الحروف الهجائية، ولهذه الكتاتيب أوقاف دائمة، ويوجد بعض هذه الكتاتيب فوق الأسبلة، ومن عادة أعيان القاهرة أن يبنوا الكتاتيب فوق الأسبلة.

المعامل والمصانع

ويلفت النظر فى رحلة أوليا جلبى وصفه لعدد من المعامل التى تصنع فيها الأدوية وصفا دقيقا، ووصفه أيضا لصناعات مختلفة رأى أن بعضها يفوق غيره من أمثاله فى العالم.

وشاهد تصنيع ترياق الفاروق الذى يصنع فى مستشفى السلطان قلاوون، ومعجون العقرب الذى يشفى من لدغة العقرب وغيرهما من الأدوية.

وقدم وصفا لصناعة السكر وتفريخ البيض وصناعة النشادر، ولا يخفى أثر الصناعة على غيرها من النشاطات وما يسبقها من التدريب وما يتبعها من التسويق، ويوصى بمشاهدة مصنع السكر... فهو من الأماكن العجيبة، وأيضا مصنع النشادر، ومصنع ملح البارود، وإنتاج معدن النطرون، وهو مادة كالملح يستعمل فى صناعة الزجاج، فهو يذيب الزجاج فى نار خفيفة ويحوله إلى سائل.

ويقوم بجولة على الصناعات والحرف اليدوية، صناع البسط وعددهم ثلاثمائة، يزاولون حرفتهم فى عشرين مصنعاً، ينسجون الزرابى وبسط مزركشة يقصر اللسان عن وصف جمالها، وما ينسج فى القاهر ليس له وجود فى سائر البلاد، ويتوقف عند صناعة السرر من سعف النخيل، ويتعجب من تفريخ البيض، عندما يضع الفلاح إحدى عشرة بيضة فى روث الخيل، ويمضى على ذلك عشرون يوماً، وإذا بأحد عشر كتكوتا تخرج منها وتجرى على الأرض.. وهو عمل لا يقدر عليه سوى أهالى قرية «برما» الواقعة فى قضاء إبيار، ويعلق على ذلك قائلا.. «إن الذى لم ير كيفية صناعة هذه الفراريج بمصر لا يمكنه أن يتصور مدى شيطنة ومهارة الفلاح المصرى!».

الغريب أن تفريخ البيض لفت أيضا انتباه «كارستن نيبور» الرحالة الألمانى الذى زار مصر فى مطلع سنة ١٧٦٢م، والذى أظهر دهشة كبيرة عندما فوجىء بوجود صناعة تفريخ البيض التى تعرفها أوروبا، وتحدث أيضا عن صناعة النشادر، وتعرض فى رحلته لنظام الحكم الذى رأى فيه بعض ملامح الديمقراطية... فنظام الديوان فيه سمات الديمقراطية، فكان الديوان يعزل الوالى، وعندما يرسل مبعوثا إلى الوالى يطلق

عليه «أبو طاقية»، والذى يقوم بفرش البساط الأحمر تحت قدميه، إشارة إلى رغبة أعضاء الديوان في عزله.. ويتكون الديوان من البكوات ورؤساء القوات والعديد من وجهاء القاهرة وشيوخ الأزهر والنقباء من رؤساء الحرف وشهبندر التجار، ويروى الرحالة الألمانى ما شاهده من أعمال مسرحية، وفرق تجوب القرى وتقدم أعمالها، ويستنكر قيام الرجال ذوى اللحى بدور النساء (رحلة إلى مصر. كارستن نيبور ترجمة د. مصطفى ماهر).

حياة مصر الاجتماعية

ويسرف الرحالة التركى فى وصف الأعيان والاحتفالات والمواكب والتشريفات التى تميز بها هذا العصر، ويعدد أيضا صور التكافل الاجتماعى، فهناك أماكن عديدة تقدم كل يوم قدورا كبيرة صباحاً ومثلها بعد العصر من الحساء للفقير والغنى والصغير والكبير، ولا يمنع أحد من دخولها، ويصف شوارع القاهرة وحواريها بالنظافة، قبل ظهور الشركات الأجنبية. .. «يجمع الزبالون الزبالة بكنس شوارع القاهرة، كنسا نظيفا بحيث لا يدعون فيها ذرة من النفايات».

موكب القاضى.. يقيم القاضى فى قصر عظيم، كان قصر الخليفة المعز لدين الله، والحاصل أن إحقاق الحق فى مصر من أصعب الأمور وبعيد الاحتمال، وذلك لأن إحدى الجهات لابد أن تتدخل بالشفاعة والرجاء والايماء والإشارة بكل إصرار وإلحاح، وقد يحصل أن يتدخلوا فى الأمر ويتسببوا فى صدور حكم ظالم وقرار جائر.

ومن يحتاج للفتوى يذهب إلى الأزهر فينال أحد علمائه بضعة فلسات ويأخذ الفتوى كما يريد، كما يحصل خصمه على فتوى مناقضة!، وفى مصر عشرون ألف عالم يتصدون للإفتاء ويخترعون مسائل غريبة وعويصة، وقضايا عجيبة يتفننون فى معالجتها، ولا شك فى أن مصر بلد غريب الأحوال جدير بالاطلاع ، وله علماء كثيرون يشاركون فى علوم كثيرة وفنون عديدة، وليس لحكمائه أمثال ونظراء فى الكون، إذ هم فى غاية الذكاء والألمعية.

ويستلفت انتباهه ظاهرة مازالت قائمة حول بناء مسجد فى ركن داره، يصلى فيه هو وأتباعه.. «إن المصريين كانوا فى الأزمان الماضية جد مغرورين حتى أن المرء إذا ملك عشرة أنفار استنكف العبادة فى مساجد أخرى، فخصص ركنا فى داره أو بنى مسجداً خاصا، فكان فى مصر مائة وسبعة وسبعون ألف محراب!!

المقلدون والمضحكون

يبلغ عدد مقاهى قاهرة القرن السابع عشر ستمائة وثلاثة وأربعين مقهى، وبعض هذه المقاهى يستوعب ألفا

باب أحد منازل شارع شيراوى بالقاهرة - ١٤ م



من الرواد، ويصف هذه المقاهى ، بأنها مجهزة بالفسقيات والمقصورات، ومن أشهر هذه المقاهى، مقهى الغورية، ومقهى باب الفتوح، ومقهى الجمامين، وهى تقدم الدخان، وبها المقلدون والمضحكون للتسرية عن الرواد.

وتعيش القاهرة أيامها على إيقاع النغم، فلا تستطيع فرقة موسيقى القلعة التوقف عن العزف ومغادرة القلعة، فيعزفون كل ليلة بعد العشاء، ولكل فرد من أفراد الفرقة الموسيقية راتب كبير، ويعزفون على آلاتهم مقاطع موسيقية شجية، قبل الفجر فتدمى قلوب العشاق، وبمجرد أن ينتهى الأذان تشرع فرقة القلعة فى العزف من جديد.

الحمير والجوارى

ولم أكن أتصور أن مصر العثمانية تسمح بالبغاء، ولكن رحالتنا يذكر.. مما اختصت به مصر دون الولايات العثمانية الأخرى، وجود بيوت للبغاء، رغم شدة تدين أهلها، ويقتصر العمل فى هذه البيوت على الجوارى، ونساء من مختلف شعوب الأرض، وفى القاهرة ثمانمائة بغى، يجتمعن فى باب اللوق، تحت رقابة ثلاثة موظفين واحد منهم فى القاهرة، وواحد فى بولاق، وواحد فى الفسطاط، ويطلق على كل واحد من الثلاثة «شيخ العرصات».

ولا يمكن للبغى قضاء الليل فى غير بيتها، والقوادة مهنة ملحقة بالبغاء، يحترفها ثلاثمائة من النساء السابقات فى المهنة، ويطلق على الرجل العامل فى هذه المهنة «ديوث»!

ويدهش رحالتنا ذكاء الحمير، ففى مصر حمير كثير، يكاد المرء يظن أنها مستولية على البلد!، إذ يسمع من الحمارين أصواتا عالية تردد ، ظهرك، جنبك، يمينك، يسارك !

وأول مقام موسيقى تسمعه صبحاً هو نهيق الحمير، ويركب أعيان مصر الحمير، ويعدون بها كأنهم يتسابقون، فحميرها ذكية جداً، وسريعة جداً أيضاً.

★★★★

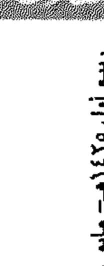
ومصر لديه أم الدنيا، تطعم الدنيا كلها كأنها أمها، فإذا خربت الدنيا، أصلحتها مصر، وأطوارها وعاداتها وقوانينها بعيدة عن التعبير باللسان والتحرير بالقلم.

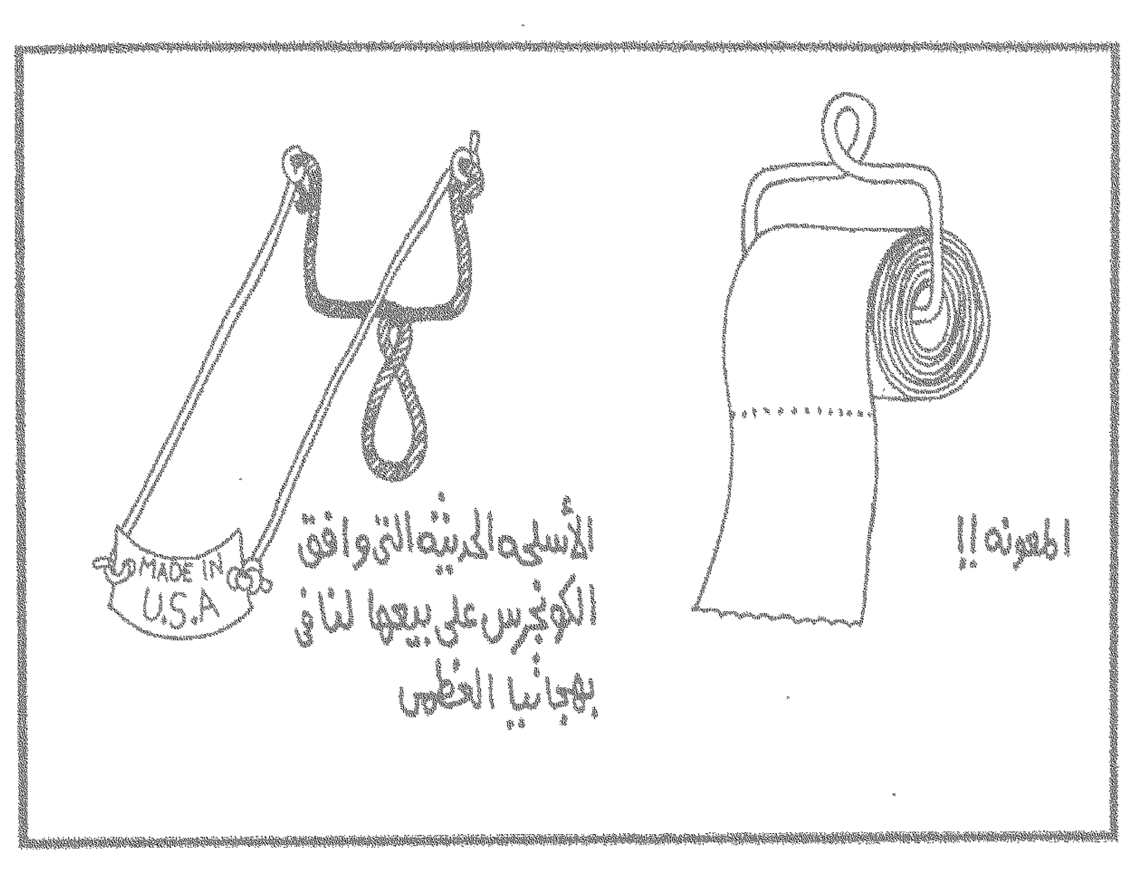
أما أنا - أوليا جلبى - الفقير كثير التقصير ، قليل البضاعة ، كثير السياحة، فقد حركت قلمى العاجز على قدر الطاقة فوصفتها كأنها قطرة فى بحر أو ذرة فى الشمس.

بلاد يحصل فيها مثل أحوالها، وجاءت شهرة مصر بأم الدنيا من ذلك، فأى ملك على ظهر الكرة الأرضية ملك هذا القدر.

★★★★

هكذا كانت ، وهكذا ستكون ■





حكومة وأهالي في

بهجاتيا العظمى

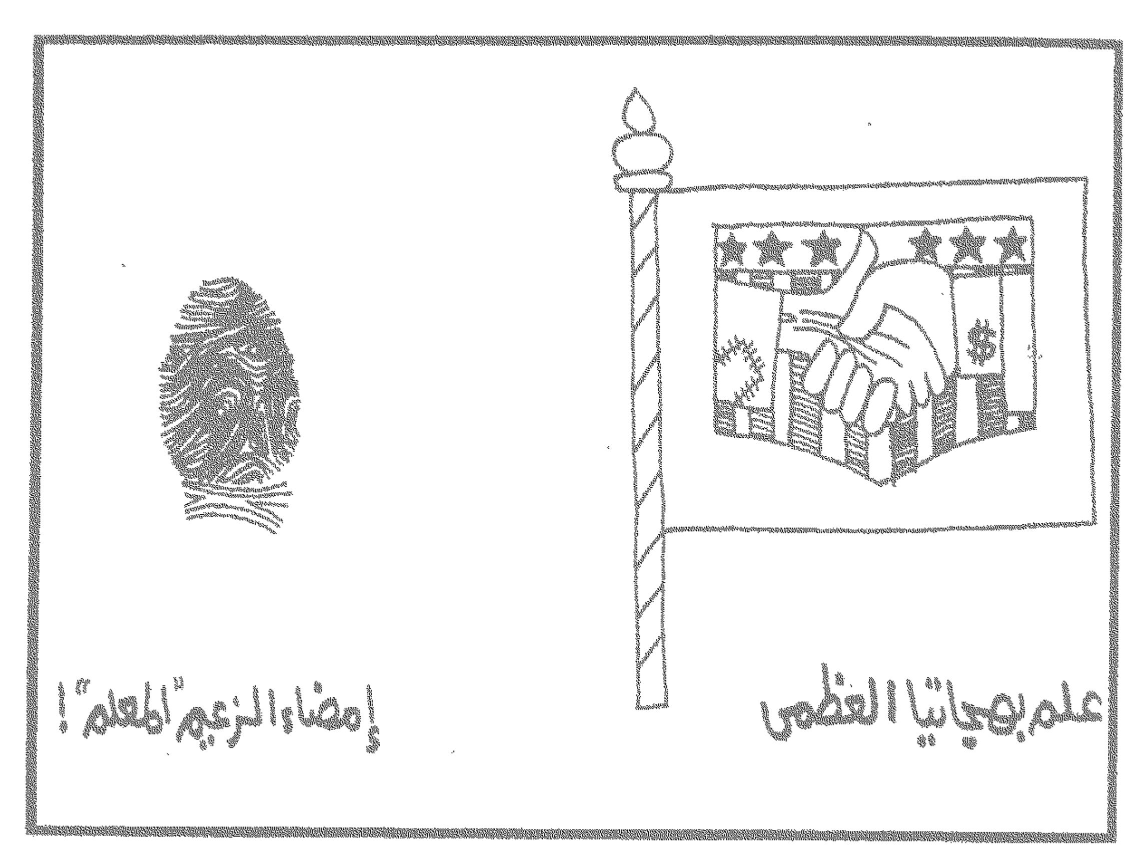
بقلم
د. سامي منصور





بهجت عثمان ..

فنان ملتزم بقضايا مجتمعه ، محترم لمسئولية رسام الكاريكاتير . ناقد عنيف وإن كان عنفه أملا **في أن يكون النقد أداة للتغيير إلي الأفضل .**



وصفات مثل هذه لفنان تجعل عملية الكتابة عنه بالغة الصعوبة، وتزداد الصعوبة عمقا واتساعا إذا كان الكاتب، فى مثل حالتى، واحدا من أصدقاء بهجت عثمان جمعتنا الأيام والليالى على مواقف سياسية واجتماعية بل وشخصية واحدة، إلى أنه كان يطلق على مجموعة الأصدقاء «أبناء الجالية المصرية بالقاهرة» !!

ورحل بهجت ورحلت معه من حياتنا كثير من الأشياء الجميلة، ولم يبق لنا غير فنه، ذلك الفن النادر الذى ارتبطت به وأصبحت أتعايش معه يوميا ... !

فقد وضعت على باب حجرة مكتبى لوحته عن الانتفاضة الفلسطينية الأولى وهى من شعر سميح القاسم يقول فيها «وطفل أنا حين ألعب .. وعاصفة حين أغضب .. وحين أثور .. تعيد البراكين لى سرها» . رسمها بهجت بإحساس يستوقف كل من يدخل مكتبى .

وفى منزلى وضعت لوحته من الفن الشعبى، «السيدة والحنطور» فى موقع لابد أن تكون آخر ما أراه قبل مغادرتى المنزل، لتكون لوحته عن الانتفاضة هى أول ما أراه حين أدخل مكتبى وبين اللوحتين رحلة عمر لفن بهجت عثمان .

وبهجت فنان متعدد المواهب مارس الفن بأكثر من أداة، وفى أكثر من مجال، ولكنه فى كل المجالات كان واحدا، بمعنى أنه كان برؤية سياسية واجتماعية واضحة لم تستطع التزامات الحياة ومشاغلها بل ومشاكلها أن تصرفه عنها .

وقد أتاح تجميع أعمال بهجت فى جريدة الأهالى فى كتاب، هو الثامن من نوعه فى تاريخ المكتبة العربية، أن نرى ذلك الموقف النضالى لفنان مهموم بوطنه وأمته . وجاء كتاب بهجت «حكومة وأهالى» تعبيراً صادقا عن التزام بهجت بهموم الشعب والوطن وفى نفس الوقت تعبيراً أميناً عن



يا أخى اكتبلك شوية أغانى ..! تهشليات ..!! بدل ما انت عريان كده و فاضىا
الفمرة أقول لك إن إسمه الكاتب الجالس القرفصاء مش أبو الهول
صحيح ..؟ وبيكتب فى مقبرة إيه علشان ابقى أقراله ..!!
إوعى تهاجم الاهرام المدرجه .. دول عاملين عندنا إعلانات ...
ما تنساش تحط لنا رقصتين شرقى عشان يبقى فيلم رائع
وحايعرف مشاكلنا إزاى و هو قاعد القرفصاء كده ؟!
يابنى هو بيكتب لك ؟!! ده بيكتب للسياح
ده معمينه كده بس عشان قريب الباشكاتب الجالس القرفصاء ..!!

أنا أقعد تلات آلاف سنة أكتب
عن مشاكل المواطنين ورزقنا مش حاشتكي

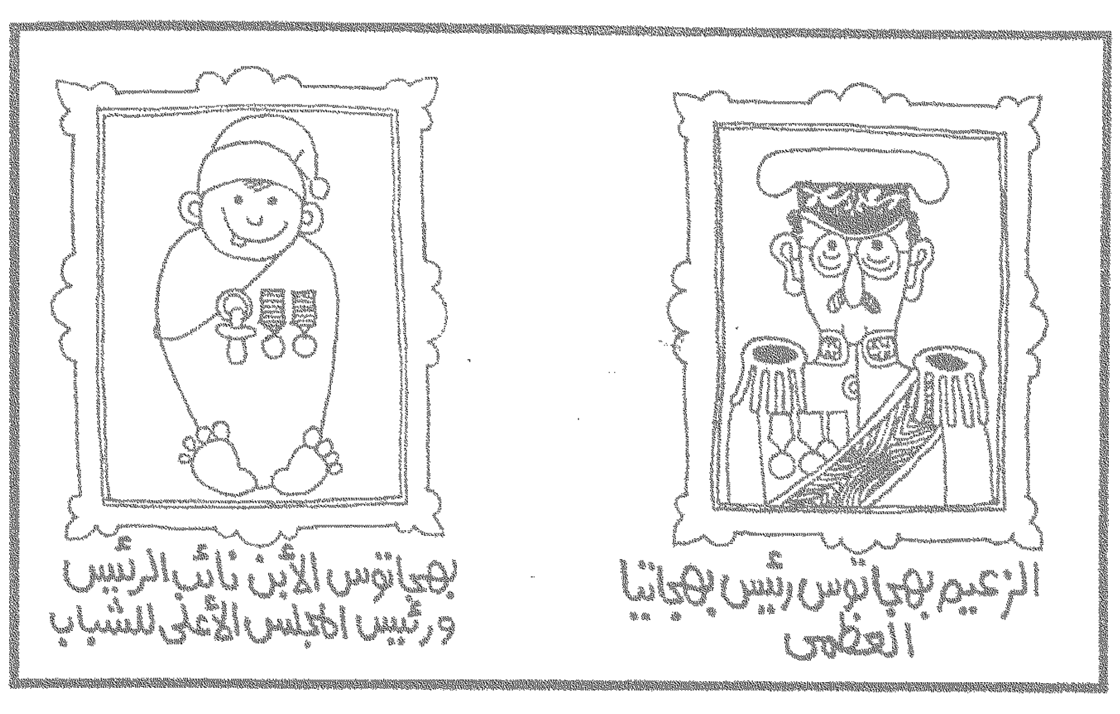
وعملت إيه بيشرف
الكلمة... بزملاتك
راكبين عربية رمسيس

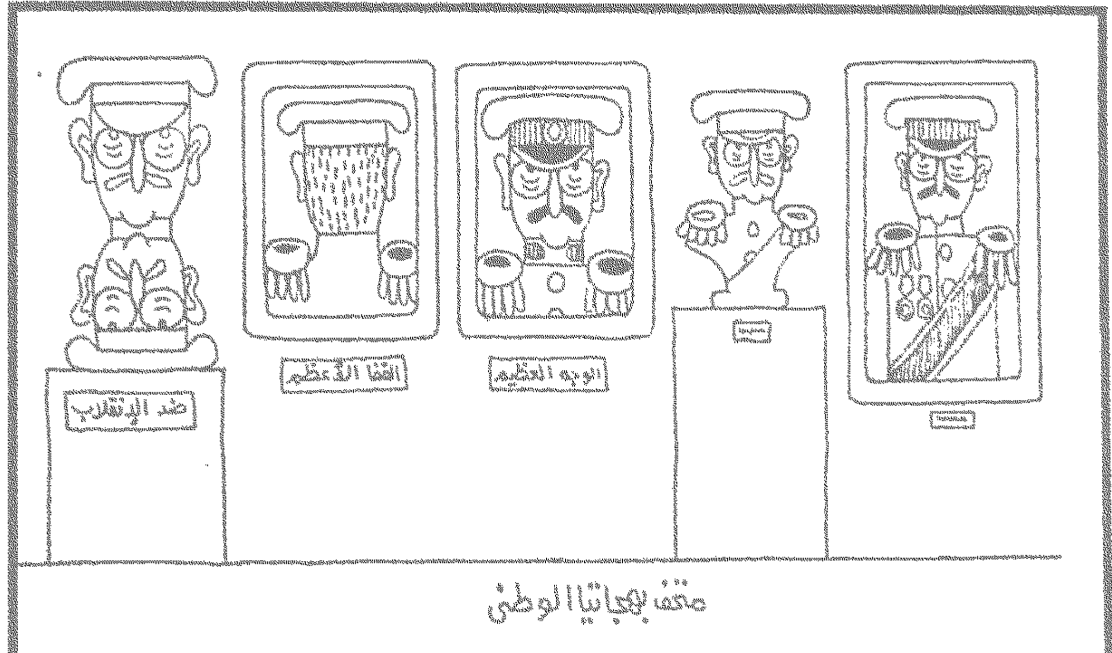
ده كلام مش
مفهوم... يابني
أكتب هيروغليفي

الكاتب المصري أريح الزمن
القرفصاء !! عشان
نقدر ننام في الشغل كمان



الكاتب الجالس القرفصاء





موهبة بلا حدود وثقافة غير مغلقة . فأن تجمع رسوم لفنان كاريكاتير هو أمر ممكن ولكن أن يكون الكتاب كله له خط واحد، هو حكومة من جانب وأهال من جانب آخر فهو يعنى أن بهجت لم يكن يرسم للحظة ولكنه يرى بعين أبعد من الموقف اللحظى وأعمق من مجرد الحدث .

وقد تجلى هذا فى تقديم صلاح عيسى للكتاب عندما قال «ربما ساد ظن خاطئ بأن الكاريكاتير - كالمقال السياسى - تعليق يومى مباشر على حدث، يفقد جانبا من حضوره حين يبرد الحدث أو يتباعد أو يخفت وهجه.. وتلك فكرة ثبت خطؤها .. خاصة إذا كنا أمام «الفنان الموقف» صاحب الرؤية



السياسية والاجتماعية المتكاملة والمقاتل من أجل قضية ..

إن الفن الجميل، ومنه المقال السياسى والرسم والصور الكاريكاتيرية ، لا يفقد بالزمن قدرته على إثارة البهجة والفكر في نفس الذى يتلقاه .. إن السخرية التى تنفجر من روح حساسة وعقل مفكر، تظل قادرة على النفاذ عبر الزمن، وتحتفظ كذلك بقدرتها على أن تمنحك البسمة التى تغسل الروح ولاتكتفى بالانفراجة بين الشفتين »

وكان كتابه الثانى «بهجاتوس رئيس بهجتيا العظمى» وسام شرف لهذا الفنان، وهو يرسم ويصور كل حاكم هزلى يحكم شعبه ويسرق ماله ويفتح السجون له .

- ويكفى بهجت عثمان أن يقدم كتابه الثانى الأستاذ الدكتور على الراعى، والذى يتحدث عنه بأنه «زميل»، ليتأكد لنا بوضوح ثقافة وموقف بهجت تجاه الأحداث .

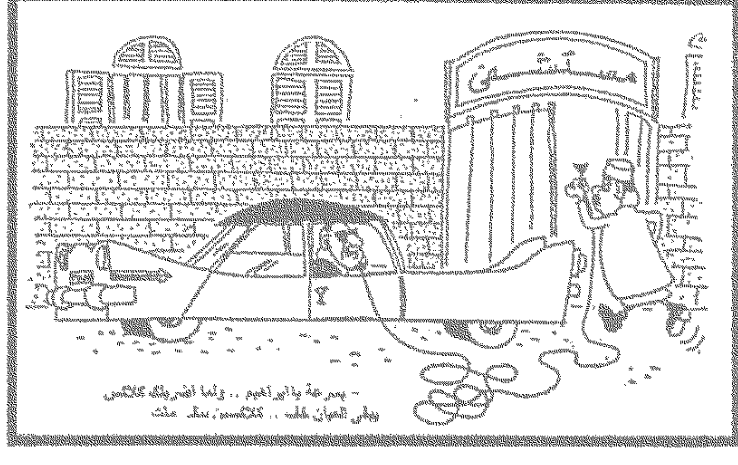
يقول د. على الراعى فى مقدمته..« بهذه الرسوم يمضى الفنان المبدع بهجت عثمان فى طريق اختطه لنفسه منذ مدة، وهو يقضى بأن يترك جانبا النقد الفردى العابر لظواهر متفرقة من حياتنا الاجتماعية والسياسية، ويختار الموضوع الواحد المتصل، يتأملة من عشرات الزوايا، ويلقى عليه الضوء بعد الضوء فإذا جوانبه تتكشف لنا بوضوح، وتصبح الرسوم المتفرقة كلا واحدا متسقا .. وبهذا يصبح الرسم الكاريكاتيرى بحثا فى أحوال الوطن على شكل رسوم، ويستحق أن يجمع فى كتاب وأن تضمه المكتبات».

تجربة لتثقيف أطفالنا

وإذا كان البعض يرى أن بهجت حين وصل الموقف إلى حالة من التدنى فى السبعينات ابتعد إلى فن الطفل، فإننى أرى العكس بأنه لم يعتزل ولا أصابه اليأس، بل لقد قرر أن يخوض تجربة تثقيف أطفالنا بالوطنية والشجاعة باعتبار أن الطفل هو الأمل .. وإذا كان الجيل الحالى - فى ذلك الوقت - قد تمزق فإن الطفل هو الأمل .

وقدم مجموعة من الكتب تحولت بها كتب التراث مثل كليلة ودمنة إلى كتب مرسومة





برشاقة ومبسطة بعلم عميق لتكون سلاحا من أجل المستقبل .

وقد قدم بهجت مجموعة من المعارض كان التراث الشعبى بطلا فيها، مع مجموعة من الألوان المشرقة أو التى يصفها الفنانون بالألوان الساخنة .

إنك عندما تطالع رسوم بهجت لاتضحكك لمجرد الإضحاك كما يقول الكاتب طلال سلمان - فهو ليس المهرج.. إنه صاحب نكتة مبدع، لكن النكتة ليست نكتة لذاتها .. إنها طلقة سخرية لاذعة لاتخطئ هدفها، فيختلط الدوى بالقهقهة، فإذا ما هدأت موجة الضحك العارمة انبعثت فى النفوس المعرفة اليقينية بمواقع الخطأ والخلل الواجب إصلاحها ..»

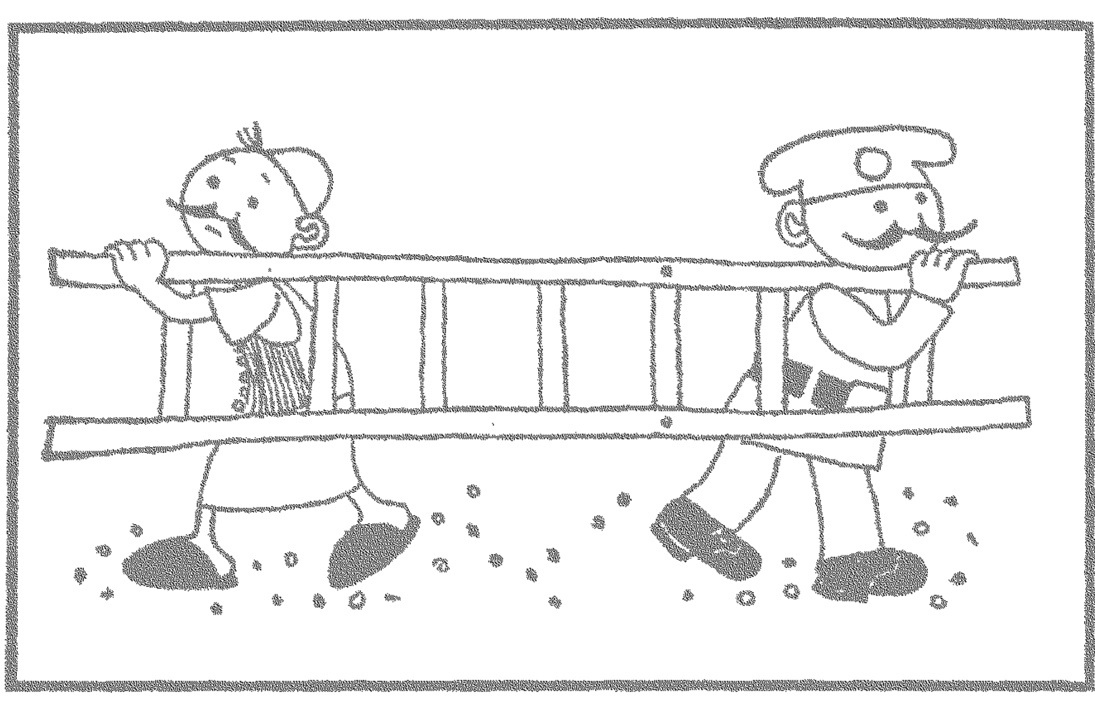
وإذا كانت البساطة فى التشكيل هى أسلوبه فإن الشعب بأنشطته وتطور حياته هو الشاغل .

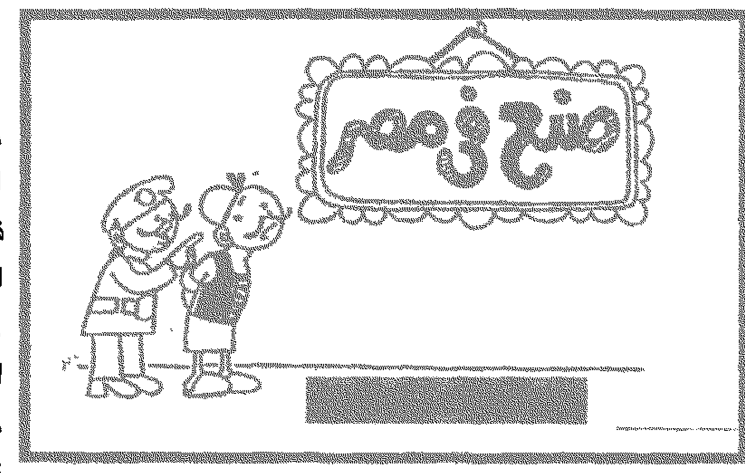
وقد شاركته فى بعض المعارض رفيقة حياته الفنانة بدر . ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إنه يندر أن يتزوج شخص فنانا كان أو غير فنان من زوجة تشاركه بعض الصفات وتكمل له بعضا آخر .

أثر رحيل بدر

لقد جمع الإثنين ذلك الشعور بالبراءة ، فقد كانت بدر، وهى تعد «عرائس» مسرح العرايس، كأنها طفلة تلعب بعروستها وهو ماتراه فى أعماق بهجت .

وكان رحيل بدر هو نقطة الانسحاب





الحقيقية لبهجت بل وزحف المرض على عينيه مما ترك شعورا لديه بقرب الرحيل ليلحق برفيقة حياته وهو ماحدث فعلا . ورحل بهجت ولكن بقى ذلك الفن الرفيع سلاحا لمن لا سلاح لهم .

وأكون صادقا تماما حين أقول إننى أفتقد بهجت الإنسان والفنان . فقد كنت وخاصة فى السنوات الأخيرة قبل رحيله التقى به فى الصباح الباكر والناس نيام لنتحدث عن سقوط الأصدقاء فى بئر الحياة وسقوط الوطن فى مخالب الاستعمار الجديد .

بين الواقع والأمل

لقد كانت الجلسة مع بهجت تعيد لى التوازن بين الواقع والأمل، وكانت سهراتنا فى الماضى فى منزله أغلب الأحيان فى صالون يجمع عددا من المثقفين وحديث بالغ العمق والاتساع فى ثقافة متنوعة وإن كانت هموم الوطن تجمعنا على أمل .

وأرجو أن يعذرنى القارىء إذا قلت بكل صدق إن رحيل بهجت واعتزال مجموعة رفاقه من فنانى الكاريكاتير قد عاد بفن الكاريكاتير إلى حالته الأولى.. ارسم بخطوط بلا موقف ولا طعم . وربما كان الجيل الحالى من رسامى الكاريكاتير أكثر صعوبة فى التعبير لغياب روح النكتة ليس من فن الكاريكاتير فحسب بل من حياتنا وأصبح الواقع نفسه هو نكتة قبيحة لم يعد فى قدرة أحد أن يقول نكتة أمامها !! ■



عبقرية الأقصوصة المخزنجية

بقلم
خيرى شلبى

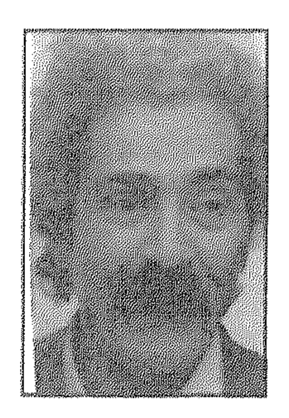
سأظل أفخر دائما بأننى كنت أول صوت ارتفع مهللا بالفرح على صفحات جريدة الأهرام ابتهاجا بميلاد قاص غنائى شاعر اسمه محمد المخزنجي بمتنسبة صدور أول مجموعة قصصية له بعنوان: (الآتى)، تلك التى صدرت عن دار الفتى العربى في ثمانينات القرن الماضى. كانت أقاصيص تلك المجموعة مكتوبة - فيما هو مفترض - - للفتية، أى أولئك الذين يعيشون فى مرحلة عمرية فيما بين الصبا والشباب، وذلك حسب توجهات دار الفتى العربي - الفلسطينية - التى آثرت أن تلعب دورا تربويا من خلال فنين عريقين هما : القص والتشكيل، القلم والريشة، ولاشك أنها قد وفقت الى حد كبير فى تقديم فن عظيم يخدم الأغراض التربوية النبيلة لدار الفتى العربي، ويستطيع أى باحث أن يعود الى قوائم مطبوعاتها المتنوعة من القصص، الى الشعر، الى الأساطير الغنية بالدلالات، الى الحواديت المكتنزة بالأفكار الى نصوص تاريخية ذات توجه قومي، ولسوف يتأكد حينئذ - الى احترامه لدار الفتى العربى - أن القاص محمد المخزنجى كان أبدع وأنبل هدية قدمتها دار الفتى العربى لقراء العربية!



مجموعة (الآتى)، فيما أذكر بعد مضى ما يقرب من ربع قرن من الزمان، كانت ولا تزال علاقة بارزة فى أسلوب القص العربى الحديث، ومحطة فى موقع استراتيجى خطير الشأن فى سكة فن القصة القصيرة، على رصيفها لافتة تقول لمن يجيد الرؤية والقراءة إن المشوار الجبار الذى قطعه فن القصة القصيرة المصرية قد كلل بالنجاح فى إنجاب «بطن» جديدة من بطون القصة سوف تثرى القبيلة القصصية بعلاقات جديدة ودماء جديدة وملامح جديدة تزيدها فتوة وتجذرا فى التربة المصرية الخصيبة.

إحكام البنيان

كان أستاذنا يحيى حقى قد جرب فن الأقصوصة المكثفة التى يتراوح طولها بين نصف صفحة وصفحة إلى صفحتين . يتكامل فيها البنيان بإحكام شديد بحيث تنسق تفاصيله المعمارية مع تفاصيل رؤية فنية. إلا أن الصورة الفنية لأقاصيص يحيى حقى - المتناثرة فى مجموعتيه : «أم العواجز» و«الفراش الشاغر» - كانت دائما فوق مستوى الواقع، بعضها ذو مذاق شعرى صرف، ومعظمها بمذاق فلسفى خالص وإن كان يشف عن مستويات متعددة للتلقى، حيث تتجلى براعة الأستاذ فى رسم صورة فنية ناطقة تصلح أن تكون هدفا فى ذاتها كبناء فنى مبهج للنظر مريح للخواطر، ومن هذا المدخل نفسه يطمح الكاتب فى أن يتعمق



إبراهيم أصلان

القارئ فى الصورة ويعطيها مزيدا من التأمل لاستخلاص معطياتها الانسانية والفلسفية.

نفس التجربة خاضها القاص الكبير - أستاذنا الثانى - يوسف ادريس حينما بث الحياة فى فن الأقصوصة، ولعل أقصوصة «نظرة» فى مجموعته الأولى «أرخص ليالى» من الفرائد التى اغتنت بها القصة المصرية فى توجهاتها الواقعية الحداثية. الأقصوصة لا تزيد على أسطر معدودة، وهى أشهر من أن تلخصها سيما وأنها غير قابلة للتلخيص باعتبارها تلخيص التلخيص للواقع المصرى آنذاك. وقد وصل يوسف ادريس بفن الأقصوصة الى مستوى فنى أكثر إحكاما وتجليات من القصيدة الشعرية فى أرقى مستوياتها، ولا أظن أن قراءة ينسون أقصوصة «مارش الغروب» وغيرها من الأقاصيص البديعة ذات النفس القصير جدا .

وفى جيلنا حاول كل من يحيى الطاهر عبدالله وإبراهيم أصلان كتابة فن الأقصوصة، وحدثت بينهما مباراة أسبوعية استمرت على صفحات جريدة

المساء أكثر من عامين قدما خلالهما كثيرا من النماذج الطيبة وإن كان كلاهما قد أحجم عن ضمها فى كتاب .

عقلية ناضجة

على أن أقصوصة المخزنجي جاءت شيئا مختلفا، عبقريا مافى ذلك شك، لدرجة أن المخزنجي وهو شاب حديث السن آنذاك كان يشى بعقلية جماعية فنية، حيث لا نشعر مطلقا أنه مجرد فرد يؤلف أقاصيص طريفة، إنما يداخلنا اليقين بأن العقلية الناضجة التى نحتت هذه الأقاصيص على هذا النحو من الدقة والاتقان والشمولية لابد أن تكون عقلية أمة بأكملها ، والواقع أن الله يختص بهذه الموهبة بعض أبنائه الموهوبين من أمثال فؤاد حداد وصلاح جاهين وبيرم التونسى وأحمد شوقى، حيث الواحد من هؤلاء قادر على تمثل العقلية الجماعية ومحاكاتها وامتلاك مفرداتها، ففى الكثير من قصائد بيرم التونسى وفؤاد حداد وصلاح جاهين تحس أن الأمة كلها قد شاركت فى تأليفها بما يفيض لديها من مخزون شعورى جماهيرى يعكس أصواتا متعددة وأفكارا متباينة تتجادل فى ضفيرة فنية يجد كافة القراء أنفسهم فيها .

أقاصيص مجموعة «الآتى» كانت ولا تزال تذكرنا بمستويات شاهقة من الفن القصصى التربوى الإنسانى الخالص عن فيلسوفى الأطفال - الكبار قبل الصغار - إيسوب فى خرافاته البديعة وهانز كريستيان أندرسن فى قصصه وحواديته الغنية بالدلالات والمعانى والقيم الأخلاقية العظيمة.

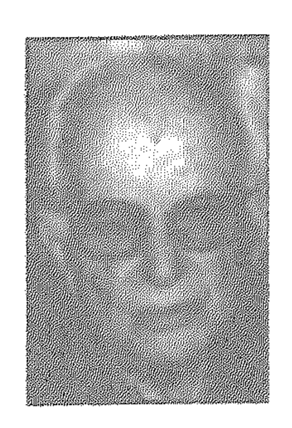
وصلت الأقصوصة فى مجموعة «الآتى» الى درجة الأمثولة، أو الحكمة الدامغة الشبيهة بالنظرية العلمية لايأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها. كل أقصوصة تقوم على بناء فنى أشد إحكاما من بناء القصيدة الشعرية المتماسكة، أقاصيص أشبه بحبات اللوز، أو الفستق بالأحرى، القشرة لا تقل أناقة ورصانة وجمالا عن الثمرة نفسها، القشرة نفسها عمل فنى قائم بذاته ليكون وعاء مناسبا لهذه الثمرة الدقيقة المليئة بالعناصر الغذائية المتعددة.

ولأن محمد المخزنجى كان فى الأصل شاعر عامية التقيته ذات يوم بعيد من عقد سبعينات القرن الماضى ضمن براعم اقليم المنصورة فى أمسيات الثقافة الجماهيرية ، لذا فإن القصة عنده تأتى من منطلق شعرى، وتلتزم بنيان القصيدة: مجموعة من الصور الفرعية الدقيقة تؤدى الى تكوين إنسانى متكاتف متضافر يشف عن تجربة شعورية انعصرت فى كوبة صغيرة أو أنبوب اختبار . ولأنه - المخزنجي - كان طالبا بكلية الطب يدرس التشريح فإن قدرته على الاحتفاظ بالنسب كانت مذهلة، بمعنى أن الأقصوصة مكونة ربما من بضعة أسطر ولكنها حافلة بجميع التقنيات المستخدمة فى بناء القصة الطويلة أو

الرواية. الأقصوصة أحيانا مجرد لقطة، ولكنها بالنسبة للواقع أشبه بالخلية الحية بالنسبة للجسد المأخوذة منه، فيها كل تفاصيل الأصل وجيناته الوراثية. الا أنها ليست هكذا فحسب، إنما هي هكذا لأنها ستريك في مراياها كل تفاصيل الواقع الإنساني المصري.

المفارقة في نهر الحياة

المدهش حقا في تلك الأقاصيص قدرة الكاتب - مع أنه كان لايزال شابا حديث السن - على استكشاف المفارقة العميقة في نهر الحياة اليومية، وهي مفارقات جارية كالنهر ولهذا لا يلحظها إلا صاحب موهبة شديدة الحساسية تجاه الواقع وما يضطرم فيه من حيوات - وقدرته على اكتشاف المفارقة الانسانية - الناعمة جدا أحيانا وغير الزاعقة - لاتقل عن قدرته على الإمساك بالمفارقة والنفاذ الى ما تحتويه من مضمون شعوري انساني، والأقصوصة عنده لا تقدم المفارقة نفسها رغم صلاحيتها كشكل قصصي حافل بإمكانيات الحكي الى مالانهاية، إنما هو يمسك بالجوهر الانساني الثمين للمفارقة، يترجمه الى موقف درامي، الى لقطة شعرية ناطقة، الى معزوفة موسيقية ذات بداية ووسط ونهاية حتى وإن كانت مجرد جملة واحدة فإن مدارج الانفعال فيها تتسق مع تصاعد الانفعال، الى أهزوجة، الى وشم مدقوق على ظاهر يد أو في عصفورين أخضرين على فودي فلاح يميز



يحيي حقى

بهما نفسه عن الدخلاء من غير المصريين . وفي كل أقصوصة ثمرة شهية المذاق مع فكرة صادمة تهز الوجدان وتفتق الأذهان على منابع الحكمة في الحياة، وفي كل أقصوصة غذاء جديد، روحي أو معنوي أو فكري أو شعوري، وفي كل أقصوصة رصيد جديد من الحكمة والوعي النوراني يضاف إلى رصيد القارىء فكأنه قد عاش هذه المكتشفات، إن فعل القراءة لأصحاب المواهب الفذة يتحول إلى ممارسة للحياة، للشعور، للفكر، للتأمل، إن الكاتب الموهوب هو من ينسيك أنك تقرأ، إذ هو يضعك مباشرة في قلب الفعل الحيوي دون مقدمات، يحيلك إلى طرف أصيل في الفعل الفني الذي يبدأ تخلقه الفعلي بمجرد وقوع بصرك على السطر الأول..

رؤية مبهجة وعبارة صافية

لهذا فأنت بعد قراءة «الآتي» للمخزنجي ستختلف عنك قبل القراءة، ستشعر أن هذا الكاتب الموهوب ذا الرؤية المبهجة والعبارة الصافية قد فتح عينيك ووعيك على مالم تكن ـ لفجاجتك عدم

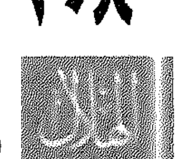
المؤاخذة ـ تعنى بالانتباه عليه أو تستعلى عليه باعتباره من سقط المتاع، ستكتشف أنك قد خسرت الكثير من الكنوز والمعانى الإنسانية المشرقة بعدم انتباهك من قبل لما يتدفق به نهر الحياة اليومية فى الشارع والحارة والدكان والمطعم والأتوبيس، وبخاصة بسطاء الناس الذين هم فى الأصل خميرة الشعب وعجينة الأمة، من الأعرج إلي الأكتع إلي البائع السريح إلى الفلاح الفقير إلى العامل المعدم إلى الشريد والمتسول والموظف الغلبان، إن الحياة بمعناها الحقيقى الأصيل لاتتجلى بأجلى وأوضح معانيها إلا فى حياة هؤلاء البسطاء من الناس، إنهم نبات الحياة، شاربو العرق الإنسانى، هم منبع الحكمة والمعانى المشرقة الموسعة للمدارك فى اكتشاف الشرف الحقيقى فى العناء الإنسانى الخلاق.

هكذا تألقت عبقرية المخزنجى فى مجموعته الثانية (رشق السكين) التى اعتبرها ـ وبأعلا صوت ـ من عيون الأدب العربى الحديث، لقد حققت ذروة عالية جدا لما يمكن أن تصل إليه الأقصوصة، حيث وصل فى هذه المجموعة الفذة إلى مستوى لغة الخطاب الإنسانى، مثل كليلة ودمنة وخرافات إيسوب وحكايات هانز كريستيان أندرسون، يمكن أن نستخدمها فى خطابنا اليومى كالمأثور الشعبى، إن حياتنا كمصريين بنوع خاص تقوم على الحواديت والحكايا، نتخاطب بالحدوتة الأمثولة، الواحد منا يرد على من يحاوره بقوله: فى يوم من الأيام حصل كذا وكذا، أو: كان فيه مرة واحد صفته كذا فعل كذا أو قال كذلك كذا فحدث.. إلخ، أو: كان على بن أبى طالب أو عمر بن الخطاب يمشى فى الشارع ذات يوم فوجد كذا ... إلخ، وخذ عندك ملايين الحكايات المأثورة التى راكمها التراث الشفاهى وحولها إلى لغة خطاب كالمأثور الشعبى، وإذا كان المأثور يتكون من بضع كلمات تحتوى على درس عميق أو عصارة تجربة مفحمة فإن المأثور الحكائى يتكون من بضع صور وحوارات موجزة فى إطار سردى تتكون منه طرفة أو ملحمة حمالة أوجه.

أقاصيص المخزنجى فى مجموعة «رشق السكين» تبلغ هذا المستوى الرفيع من التراكم الإنسانى المعصور فى أوان قصصية حمالة أوجه تصلح للتعبير عن مواقف كثيرة ومعانى كثيرة شرط أن تكون مفحمة فى كل وجه من وجوهها.

وإنى لأشعر بكثير من الصدمة والمرارة لأن هذه المجموعة القصصية العظيمة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار لتضع كاتبها فى مكانته اللائقة به كواحد من كبار كتاب اللغة العربية فى عصرنا الراهن فى فن كاد ينقرض لشدة صعوبته فأصبح هو فارسه الأوحد الذى بعث فيه الحياة لقرون طويلة قادمة.

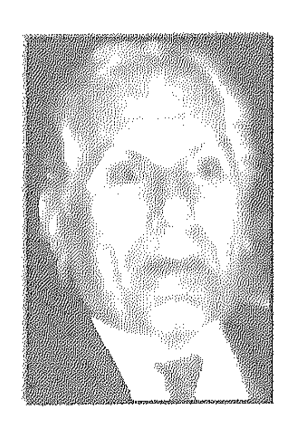
صدمتى ليست قوية ومرارتى ليست حارقة لأننى أعرف أن المجموعة لم تحظ



بحقها الواجب من الإعلان والدعاية، ثم إنها لم تطبع إلا مرة واحدة ضمن سلسلة «مختارات فصول» وهى لاتطبع أكثر من ألفى نسخة، ولا أدرى لماذا لا يعاد نشرها فى سلسلة مكتبة الأسرة؟ إن كانت قد نشرت بالفعل فى مكتبة الأسرة ـ وأنا غير متأكد ـ فإن عدم درايتى بخبر نشرها دليل على أنها نشرت بشكل محدود، فكم من أعمال أذاعت الإعلانات الملحاحة أنها نشرت فى مكتبة الأسرة ثم هرولت لأبحث عنها بين فروشات الباعة فلا أجدها مطلقا، إن كان ذلك لنشاط التوزيع وسرعة النفاد فلماذا لا يعاد طبعها مثنى وثلاث ورباع!..

مجموعة .. نموذج لأدب الأقصوصة

بل إننى أطمح إلى أبعد من ذلك، أن تقوم وزارة التربية والتعليم بشراء هذه المجموعة وتوزيعها على طلبة المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية كنموذج لأدب الأقصوصة فى حداثتها المزهرة، ستضرب الوزارة عدة عصافير بحجر واحد، ستسهم فى تربية التلاميذ بما فى هذه الأقاصيص من زاد إنسانى عميق من شأنه تهذيب النفوس وبناء الأخلاق وتشييد الضمائر.. وفى نفس الوقت ستربى الذائقة الفنية عند التلاميذ ونسقيهم حب الأدب والفن القصصى من خلال هذه المجموعة ذات الأسلوب الأدبى الفنى الرفيع، سيسحب التلاميذ لغتهم العربية



يوسف إدريس

من خلالهما، يتعلمونها حقا، سيتكون عندهم إحساس بها يساعدهم على اكتشاف حمولات المفردات من ثقافات وتجارب.

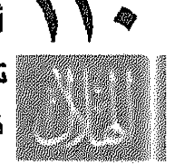
وكان المخزنجى ـ شأن كل أبناء جيله ـ قد ارتحل إلى بلد عربى شقيق يعينه على بناء حياته الزوجية، فاشتغل فى مجلة العربى الكويتية، هجر الطب والأدب إلي الصحافة الثقافية، فكان ذكيا جدا، أسلم نفسه للرحلات والاستطلاعات التى لاشك أضافت إليه الكثير من الخبرات والمعارف، لكنه لم ينس موهبته القصصية فكتب مجموعة «الموت يضحك»، ثم ألحقها أخيرا بمجموعة «العزف على الماء»، وبقدر ما افتقدت عبقرية المخزنجى فى الكثير من قصص الموت يضحك أرانى قد التقيتها بكامل وهجها فى مجموعة العزف على الماء، ولكن الحديث عن هاتين المجموعتين يحتاج «لقعدة» مستقلة، أتعشم أن تجمعنا فى يوم قريب جدا إن شاء الله. ■

الرحبانى «خواجة إلياس» يكب «فعلا» العدس على القلقاس!

بقلم
صافى ناز كاظم

إلياس رحبانى هو الشقيق الأصغر لعاصى ومنصور رحبانى، قابلته خلال رحلتى الثرية الأولى للبنان صيف عام ١٩٥٩، ربما كان ذلك فى بيت الأديب «ميخائيل نعيمة» بقريته الجبلية. الذى أذكره عن إلياس أنه كان غاضبا محتجا كارها - من يومه - للموسيقى الشرقية، لكنه كان يعبر عن رأيه بلغة ظريفة يتقبلها من حوله بالابتسام والضحك، كأن الأمر لا يعدو مزاحا لا يتطلب من الأخوين رحبانى، منصور وعاصى، سوى التعقيب المختصر: «هيك هوّ إلياس»!

كنت جالسة أمام المذياع المرئى أناضل لكى أهرب من حصار الدماء على جانب أو الرقص المروّع على الجانب الآخر، حين أطل وجه إلياس رحبانى، عفوا من دون قصد منى، فى برنامج «هالة شو» بقناة روتانا. لم أتعرف عليه، ليس بسبب أن ملامحه قد تغيرت بعد ٤٥ عاما، ولكن لأننى كنت قد نسيتها تماما. عندما قدمته الدكتورة هالة بدا وجهه منزعجا كأنه قد تورط فى مأزق اجتماعى يريد الفكاك منه ومن مجاملاته. كانت غادة رجب قد انتهت من غناء قطع من تراث فيروز بفشل ذريع وصوت مختنق. وإلياس يقلب ناظريه بحثا عن باب الخروج دون طائل، مما جعل «د.هالة سرحان» تسرف فى تحية المغنية الشابة، التى خسرت مساحات هائلة من صوتها منذ بدأت مشوارها الفنى، ولم يجد «إلياس» مناصا من أن «يفش» غلّه فى الموسيقى الشرقية بعصبية أضحكتنى وذكرتنى بمقولة أخويه «عاصى ومنصور»: «هيك هوّ إلياس». بعد أن دخل «إلياس» بحكايته الطريفة عن المعجب الذى أرسل خطابا إلى «فيروز» تحت عنوان «الآنسة فيروز زوجة الأخوين رحبانى»، انطلق فى هجومه على «الموسيقى الشرقية» فأصبح بحق «خواجة إلياس» الذى يكب «فعلا» العدس على القلقاس، وهو يؤكد أن التراث الموسيقى الشرقى والعربى غير موجود «أصلا»، وليس به أى شئ من آلات العزف سوى «الربابة»، وهل معقول أن نعيش العمر كله ندق على الربابة؟ هكذا تساءل بلهجته اللبنانية «المهضومة»



وأسلوبه الحاد، ويواصل، وهو يتلفت بين جمهور «روتانا» المترنح بالجينز الملتصق، وصيحات العرى المتنوع من باريس ولندن ونيويورك، فيقول: «كل شئ لدينا غربى، انظروا... هادا لبسنا غربى، السيارة غربية، الفيولين غربى، كل ما فينا غربى... ليش يعنى صايرين نزعق فى الموسيقى بالوطنية؟».

لم ترد عليه د . هالة بما يذكره بالعود – وهل ينسى أحد العود؟.. عود الموصلى وعود زرياب فى القرن الثامن الميلادى، وآلة القانون الفارابية، بين نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى، وقبلهما آلة الهارب الفرعونية، التى يسميها القاموس «آلة الكنارى»، والناى والأرغول، والمزامير – (هل كانت مزامير سيدنا داوود شرقية أم غربية؟!) – والدف ، وإيقاعات الحداء للجمال وهى تدب صابرة متحملة بالفن وحشة البيداء. أشار «خواجة إلياس» فى استعلاء إلى الآلات الوترية فى الأوركسترا كأنها وليدة ذلك الغرب الفرانكفونى، الذى أعلن انتماءه إليه، يختال، كأنها التى سبقت العود والقانون والسنتور و«الربابة» وليست متطورة منها ، ويا إلياس مين دلعك، ملقتش حد يردنى!

لست بصدد اقناع إلياس رحبانى أو أى أحد بترك حبه للغرب، فمن يكره نفسه لايمكن أن تجبره على حبها، لكن الذى لابد أن يعرفه أصحاب نزعة اضطهاد الذات : «ذاته» أو «ذات الأمة»، أنهم ليسوا «كل» الذات، ولا «كل» الأمة، حتى يصرخوا «كل مافينا غربى»، من المؤكد أن جمهور «روتانا» ليس «كل مافينا» ، فلا يجوز أن يسخر هؤلاء ممن يجد فى ثقافته وفنونه وتراثه المتعة والخلاص والكنف والملاذ والنهضة بالنفس من النفس . لا يجوز تسفيه «الوطنية» لأن بعض النصابين تاجروا بها، ولا يجوز الغضب من العدالة الاجتماعية، لأن اللصوص تحت لافتاتها هربوا بالزكائب ، فوق الأكتاف، محملة بالدولارات، ولا معنى للنافس فى إثبات أننا أمة قد أفلست وتضعضعت ولا أمل إلا فى الإجهاز عليها لتموت تماما وتخلصنا ، من دون ترك الفرصة حتى لأنفاس مقاومة يزفر بها صدر الجسد النازف .

لو شاء السيد إلياس رحبانى أن يعرف الحقيقة عن تراث الموسيقى العربية والإسلامية ، ربما يكون مفيداً لثقافته أن يقرأ كتاب «الموسيقى فى الحضارة الإسلامية» للدكتور محمد صالح المهدى، الذى صدر فى لندن عام ٢٠٠٢ عن دار الفرقان للتراث الإسلامى

لكن المهم الآن هذا التساؤل البرئ أو الساذج :

.ما المشكلة فى أن يكون لدينا التخت والأوركسترا؟

ما التعارض فى أن تحب السيمفونية وتتلذذ بالموال والليل والعين والميجانا والعتابا ؟

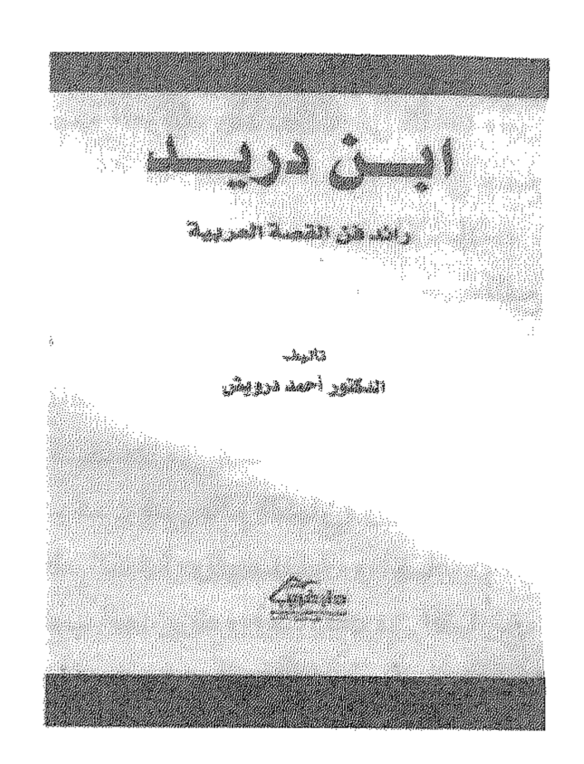
ألا تكمن المشكلة حاليا فى ذلك الخلط المتصاعد بين «بوابة» الغناء و «بوابة» أسواق الرقيق الأبيض؟ ■

«أحاديث ابن دريد» أول مجموعة قصصية فى الأدب العربى

بقلم
د. أحمد درويش

كتاب «أحاديث ابن دريد» والذى يعد أول مجموعة قصصية عربية، حالت ظروف وأسباب تاريخية دون أن يحتل مكانته التى يستحقها فى ريادة النثر القصصى العربى.

وأول هذه الأسباب . وهو عدم العثور، حتى الآن، على النص الكامل لأحاديث ابن دريد. وهو نص يبدو أنه كان متضمنا فى كتاب كبير يحمل عنوان «أمالى ابن دريد» وكان يتكون من سبعة أجزاء، ظلت متداولة حتى القرن السابع الهجرى، أى بعد وفاة ابن دريد بنحو ثلاثة قرون، ولم يبق من هذا الكتاب سوى جزء صغير، طبع بعنوان «تعليق من أمالى ابن دريد» بتحقيق السيد مصطفى السنوسى سنة ١٦٨٤ . إضافة إلى مخطوطة لابن دريد أشار بروكلمان إلى وجود أوراق منها فى المكتبة الخالدية بالقدس تحت عنون «الأخبار المنثورة» واحتمال أن تكون مكونة من ستة أجزاء.



ولابد أن يضاف إلى ذلك أهم ما بقى من هذه الأحاديث ممثلا فيما نقله أبو على القالى تلميذ ابن دريد، عندما ذهب إلى الأندلس وأملى على طلابه فى حلقات «الخميس» التى كانت تعقد بمسجد قرطبة، مجموعة من أحاديث ابن دريد، كانت يبدأها دائما بعبارة «حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله» وبقيت هذه الأحاديث فى كتاب «الأمالى لأبى على القالى»، أهم أثر احتفظ لنا به التاريخ من هذه الأحاديث القصصية الرائدة.

وهناك سبب رئيسى آخر أسهم فى حجب شهرة هذه الأحاديث. وهو ظهور فن المقامة على يد بديع الزمان الهمذانى الذى كان تلميذا مباشرا لابن دريد، وقد تعود الدارسون على أن ينسبوا اليه والى مقاماته، ريادة الفن القصصى ، مع أن بديع الزمان نفسه اعترف بتأثره المباشر بأحاديث ابن دريد التى استلهم فكرتها ثم عارضها، وقد جاءت الإشارة إلى اعتراف بديع الزمان الهمذانى. فى كتاب «زهر الآداب» لأبى اسحاق بن على الحصرى القيروانى المتوفى عام ٤٥٣ هـ، عندما قال فى حديثه عن «الهمذانى» :

«ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى، أغرب بأربعين حديثا، ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها فى معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، عارضها بأربعمائه مقامة فى الكدية»، وهذا النص الذى يثبت أن «المقامات» كانت شديدة التأثر بأحاديث ابن دريد ، لا ينبغى أن يفهم منه المعنى الحرفى ، لعدد الأحاديث الأربعين، وعدد المقامات الأربعمائة، فالمراد كثرة العدد فى التجربة الأولى ، ومحاولة الزيادة عليه فى التجربة الثانية، وقد تنبه الدكتور زكى مبارك إلى نص زهر الآداب وأشار اليه فى رسالته التى قدمها لنيل الدكتوراه من جامعة السوربون.

الذيوع والانتشار

على أنه ينبغى أن يشار إلى أن بديع الزمان لم يكتف بمجرد نقل الفكرة عن أستاذه، ولكنه طورها بطريقة استفاد فيها من بعض السلبيات التى تصاحب عادة، التجارب الرائدة، مما أعطى للمقامات

فرصة أكبر للذيوع والانتشار.

وأهم نقاط التطوير، هو الانتقال بالفن القصصي من مرحلة «الإيهام بالصدق» في أحاديث ابن دريد، إلى «التصريح بالخيال» في مقامات الهمذاني، ذلك أن ابن دريد كان حريصا على أن يصدر كل حديث بسند الرواة الذين تلقاه عنهم فيقول مثلا «أخبرنا عبدالرحمن عن عمه الأصمعي» قال: «سمعت أعرابيا يقول كذا» أو اخبرنا الرياشي عن ابن سلام قال: بلغنى ان الاحدمى دخل على يزيد بن عبدالملك»، وهذا الحرص على السند من ابن دريد كان يثقل حركة القصة من ناحية، ويجعلها قريبة من الخبر التاريخى من ناحية أخرى، مع أن معظمها كان من خيال ابن دريد، وقد حرص الهمذانى فى المقابل على اسقاط «سلاسل الإسناد» فخفت حركة القصة، وعلى أن يصرح بالخيال من خلال ابتكار شخصية موحدة تروى كل المقامات، وهى شخصية عيسى بن هشام» وشخصية تتولى بطولتها وهى شخصية المغامر، «ابو الفتح السكندرى» وكلتا الشخصيتين من خيال الهمذانى.

على أن الجزء الباقى من أحاديث ابن دريد، يحمل من الخصائص الفنية، ما يؤهله لأن يحتل موقع الريادة فى فن القصة العربية، وقد عمدنا فى كتابنا «ابن دريد رائد فن القصة العربية» الى جمع كل ما رواه «القالى» من هذه الأحاديث، وإعادة ترتيبها وتصنيفها فى سبع مجموعات وفقا لموضوع الحديث او القصة فهنالك أحاديث فى عالم الأعراب والبادية وأحاديث من عالم الطرائف والنوادر و«أحاديث فى عالم الكهان» و«أحاديث من عالم النساء والصبابة» و«أحاديث من جنوب الجزيرة» و«أحاديث من التاريخ» وأحاديث من عالم الحكمة والفصاحة، وتبلغ الأحاديث التى اخترناها ووضعناها نحو مائتى حديث أو قصة وقد يكون بعض هذه الأحاديث مجرد «مشهد قصصي» مثل قوله «رأيت أعرابيا يصلى وهو يقول فى دعائه: أسألك الغفيرة، والناقة الغزيرة، والشرف فى العشيرة، فإنها عليك يسيره» أو يكون الحديث «موقفا قصصيا» يروى بالنثر أو بالشعر مثل موقف الأعرابى الذى قيل له: من لم يتزوج أمراتين لم يذق حلاوة العيش، فتزوج امرأتين ثم ندم على ذلك فأنشأ يقول:

تزوجت اثنتين لفرط جهلى
بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا
أنعم بين اكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحى وتمسى
تداول بين أخبث ذئبتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى
عتاب دائم فى الليلتين
وألقى فى المعيشة كل ضر

كذاك الضر بين الضرتين

وهناك أحاديث يتحقق من خلالها ما يمكن ان يسمى بالحكاية ذات العناصر القصصية المتشابكة، مثل حكاية ملك من ملوك الجنوب. ولدت له بنت واحـــدة، فعزلها عن جنس الرجال، وجعل جميع أعوانها من النساء حتى تولت هى الملك فجعلت جميع حاشيتها ووزائها من النســاء فى محاولة للاستغناء عن عالم الرجال، ولكن مستشاراتها عندما رأين الحزن يسيطر عليها برغم أنها تملك كل شيء، أشرن عليها بالزواج . فسألتهن عن أهميته وفوائده، وأخذت كل واحدة تشرح ، حتى اقتنعت ، ورشح الخطاب حتى وقع الاختيار واستقامت الحياة.

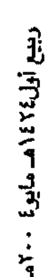
وتعكس أحاديث ابن دريد كثيرا من الشرائح والطبقات الاجتماعية والفكرية والنفســية التى تصلح مجالا للفن القصصى مثل طبقة المحرومين، الذين كانوا يتخذون من فن الكدية وهو فن طلب الإحسان من خلال الوسائل الأدبية أو الفنية وهى طبقة دار حولها كثير من الابداع القصصى فى أحاديث ابن دريد ومقامات الهمذانى ، كما تخصص فيها بعض شعراء ذلك العصر مثل ابى دلف الخزرجى، والاحنف العكبرى وكتبت حولها بعض المؤلفات مثل كتاب «المحاسن والمساوىء» للبيهقى، وهذه الطبقة وما تثيره من انتاج فنى فى التراث العربى القديم، تذكر بمثيلاتها الآن فى العواصم والمدن الغربية ، حيث يقف المغنون والشعراء والرسامون فى محطات المترو، يقدمون فنونهم ويضعون قبعاتهم المقلوبة ، لكى يلقى فيها المارة بعض اموالهم.

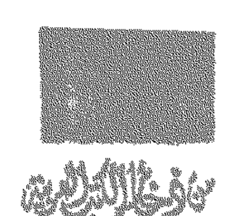
نمو الفن القصصي

وتظهر أحاديث ابن دريد جوانب من عوالم أخرى فى الحياة العربية وقابليتها لنمو الفن القصصى، مثل عالم الأعراب بتناقضاته مع عالم المدينة، وتجسيده لعالم البداوة والغفلة وقلة الخبرة الممزوجة بالمكر، وهو يعكس فى الوقت ذاته الفصاحة والنقاء والبعد عن التكلف.

وهنالك عالم النساء وهو عالم تحفل به أحاديث ابن دريد من زوايا متعددة ويعكس فيما يعكس «قيمة المرأة فى التراث الشعبى وحكاياته المتخيلة ، ومن الحكاية من يمثل المرأة الاميرة والحاكمة والزوجة العاشقة التى تعبر عن حبها لزوجها، او عن ألمها لأنه فارقها، او تصرح وهى فتاة بحبها لابن عمها شعر أو نثرا.

وهنالك عالم المعوقين والحمقى الذى تعكس بعض أحاديثه وقصصه جوانب سخرية عميقة مثل قصة هذا الغلام الاحمق الذى يقول لأمة إننى واثق بأننى سأكون عظيم الشأن. وتقول أمه .. كيف وليس فى المدينة ، من هو أحمق منك؟ فيقول لها: والله مارجوت هذا الأمر، إلا من حيث يئست منه، أما علمت أن هذا زمن الحمقى، وأنا أحدهم. إن كثيرا من العوالم والشرائح النفسية والاجتماعية





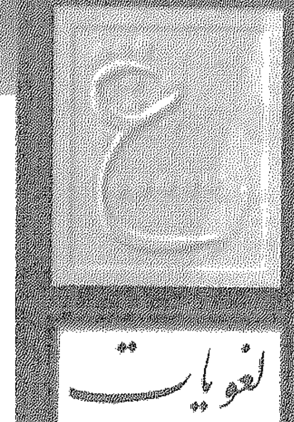
والفكرية والتاريخية العربية، تتجلى صورها على استحياء، فى هذه المجموعة القصصية الأولى فى التراث الأدبى العربى «أحاديث أبن دريد» والتى لم نعثر الا على جانب قليل منها، فى كتابات أبى على القالى، وغيره من المخطوطات التى أشرنا إليها، ولكن الخصائص الفنية لهذا الجزء القليل تدلنا على أننا أمام رأس جبل عظيم من الجليد المختفى فى بحر التراث الهائل، والذى يستحق عناء البحث عنه.

تمثل شخصية أبى بكر محمد بن دريد العمانى البصرى ظاهرة لافتة للنظر فى تاريخ القرنين الثالث والرابع الهجرى، اللذين يمثلان فترة من أزهى فترات الأدب العربى.

فقد امتد عمر ابن دريد ما يقرب من قرن بين عامى ٢٢٣ و ٣٢١ هـ وظل محافظا على حيوية الذهن وغزارة الإنتاج حتى آخر عمره. وأدهش العلماء الأقدمين لمقدرته على الجمع بين «الابداع» والتأليف فقد كان شاعرا وقصاصا مرموقا، إلى جانب كونه من كبار علماء اللغة والأدب ، ومن هنا جاءت عبارتهم الشهيرة: «ما ازدحم العلم والشعر فى صدر رجل ازدحامهما فى صدر ابن دريد وخلف الأحمر» كان ابن دريد عمانى الأصل ، ينتمى إلى حضارة الجنوب القحطانية التى كان لها مذاق مختلف عن حضارة الشمال العدنانية ، وقد قضى معظم عمره فى الشمال ، فى البصرة التى كان امام النحو اللغة بها. او خراسان او فى بغداد التى كان استاذا بها تتلمذ عليه معظم أعلام القرن الرابع الهجرى، مثل المسعودى المؤرخ، وأبى سعيد السرافى النحوى وابن خالويه عالم الغة الشهير والآمدى ناقد العصر الذى وازن بين ابى تمام والبحترى، وأبى الفرج الاصفهانى مؤرخ الأدب الشهير وأبى على القالى الذى حمل علم ابن دريد إلى الأندلس، ودون بعض آثاره الأدبية ، والمتنبى الشاعر الكبير الذى مر على مجالس ابن دريد، وبديع الزمان الهمذانى، صاحب المقامات والذى ينسب اليه عادة ، ريادة فن القصة عند العرب، مع انه ، كما سنرى كان متأثرا فيها بأستاذه ابن دريد.

وقد ارتبطت شهرة ابن دريد بمعجم الجمهرة الذى يعد اول المعاجم العربية التى يسرت سبل البحث عن معانى الكلمات بترتيبها الالفبائى، وبقصيدته الشهيرة «مقصورة ابن دريد» التى تحولت فى العصور التالية الى قصيدة تعليمية فى أرجاء العالم الإسلامى، وخاصة فى البلاد غير الناطقة بالعربية، حيث يجد المتعلمون فى «المقصورة» كنزا من الكلمات والتراكيب. واشتهر كذلك، بكتابه «الاشتقاق» الذى عد اول كتاب فى تفسير «أسماء العرب».■





بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

لو لم يتضمن هذا التعبير خروجا على قواعد النحو ما عرض له النحاة وغيرهم من رواة الشعر، ولتركوه لقارئه يفهم منه ما يستطيع ، مع أن دلالة أى كلمة أو جملة بدقة تتوقف على معرفة السياق الذى قيلت فيه، وهو ما نجهله بصدد التركيب الذى معنا . فلفظ «أبو» فيه من الأسماء الخمسة، أو الستة، إذا شئت، ولها قاعدة خاصة بها فى البناء النحوى، فهى تعرب بالواو رفعا، والألف نصبا، والياء جرا، شرط أن تكون مفردة، غير مصغّرة، مضافة لغير ياء المتكلم. وإذن فمن حقها أن تكون: «لا أبَ لك»، بالفتح دون ألف، لأنها منصوبة غير مضافة.

كان ابن الأنبارى، أبو بكر محمد، المتوفى ٢٣٨هـ - ٩٢٩م ، أول من تعرض لهذه القضية، فذكر في شرحه «القصائد الست الطوال»: أنها مبنية على لغة من يلزمون الأسماء الخمسة الألف دائما، فى حالات الرفع والنصب والجر، يقول رؤبة:

إن أبـــاها وأبـــا أباها
قد بلغا فى المجد غايتاها

ورأى أبو جعفر النحاس، المتوفى ٣٣٨ هـ - ٩٠٥ م ، أن اللام زائدة، والتقدير: لا أباك، وهى هنا مضافة لغير ياء المتكلم، فلا خروج على القاعدة، وإعرابها: «لا أبا» مبتدأ والخبر محذوف، والمعنى: لا أب لك موجود أو حاضر مثلا.

ويدعم هذا الرأى أن مثله ورد فى بيت شعر جاهلى دون لام، يقول شبيل بن ورقاء، جاهلى أدرك الإسلام، وأسلم على وهن ، فكان لا يصوم رمضان، فسألته بنته: ألا تصوم؟

فرد:

تأمرني بالصوم، لا درّ درّها
وفى القبر صوم لا أباك طويل

على أن هناك لغة ضعيفة تجعل الأسماء الخمسة منقوصة، أى حُذف منها الحرف الأخير، وتعرب بالحركات على الباء، فيقال: أبُك، وأبَك، وأبِك، يقول رؤبة يمدح حاتما الطائى:

بأبِه اقتدى عدىّ فى الكرم
ومن يشابه أبَه فما ظلم

●●●

جاء تركيب «لا أبا لك!» على غير المطرد من القواعد، فى لهجة من لهجات غير شائعة، تختلف نطقا وإعرابا، ومنذ أصبح للعربية نحو ونحاة حسمت المدرسة البصرية فى النحو الأمر، فقررت «ما جاء على غير القاعدة المطردة يُحفظ ولا يقاس عليه»، وهو اتجاه يحفظ للغة وحدتها، وللقواعد كرامتها، وأتمنى على علمائنا الأجلاء، فى مجمعنا الموقر للغة العربية، ألا تنزلق بهم شعارات التيسير التى تُرفع فى وجه العربية هذه الأيام تشهيرا بها، فيتخذوا من شاذ اللجهات والروايات سندا يبنون عليه قاعدة، تهدم البناء اللغوى السليم، وتنتهى باللغة العربية إلى فوضى تجعل منها ثوبا «ضم سبعين رقعة، مشكلة الألوان مختلفات» كما يقول شاعر النيل، حافظ إبراهيم. ■

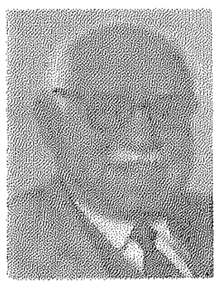
من تجربتي في







وديع فلسطين



أحمد حسن الزيات



محمد عبد القادر المازني

بقلم

وديع فلسطين

لعل القارىء يلتمس لى عذرا إذا ما رأنى أدير الحديث حول الذات، فكيف أتحدث عن «تجربتى» دون أن أكون محور الحديث، ولو فى بعض جوانبه، وإنما أسوق طرفا مما صادفته أو عانيته في الإطلال من كوة الصحافة على الأدب وعالمه.

عندما كنت أدرس الصحافة طالبا فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، اختارتنى إدارة الجامعة لكي أتولى رئاسة تحرير مجلة الطلاب الأسبوعية واسمها «القافلة» وهى مازالت تصدر حتى الآن بقسميها العربى والانجليزى كما كان شأنها منذ صدورها، وكان على بوصفى المسئول الأول عن تحرير القسم العربى فى المجلة أن أكتب مقالا بتوقيعى فى كل عدد أتناول فيه أى قضية تخطر على البال ولاسيما مايتعلق منها بالحياة الجامعية أو بأمنيات الطلاب فى تلك الفترة وطبيعى أن أسلوبى فى ذلك الوقت كان أسلوبا عاديا يكتبه طالب لقراء من الطلاب.

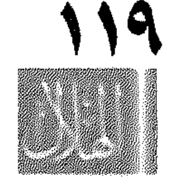
وفوجئت ذات يوم باستدعائي من قبل أستاذي فؤاد صروف، الذي كان يرأس وقتها تحرير مجلة «المقتطف» إلى جانب عمله في الجامعة، وقال لي إنه يتابع ما أكتب في «القافلة» ولكن علي أن أهتم بأسلوبي حتى لايظل أسلوبا دارجا مثل مراسلات الدواوين أو حتى أسلوب كتبة العرائض المحترفين، فقلت له إنني وإن آثرت اللغة الانجليزية إلا أن الذي حببني في اللغة العربية أستاذاي السباعي بيومي والسيد شحاتة، فقال: إن الدراسة المعهدية وحدها لاتكفي لتجويد الكتابة، ونصحني بأن أطالع بعناية المقالات التي تنشر في مجلات أدبية وعلمية محترمة مثل «المقتطف» و«الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات و«مجلة التربية الحديثة» التي كان يحررها الدكتور أمير بقطر وتصدر عن الجامعة، فقلت له إنني أدرس الصحافة وآمل أن أعمل بها بعد تخرجي، وليس من مطامعي أن أحشر بين الأدباء، ولكنه قال لي إن أكبر الصحفيين والذين ينشرون في الصحف هم الذين يتميزون بأسلوب أدبي راق، فكليات الآداب قد تخرج مدرسين ولكنها لاتخرج أدباء، واستشهد بطائفة كبيرة من كتاب ذلك العهد قائلا إنهم ما احتلوا هذه المنزلة الرفيعة إلا بسبب أسلوبهم المشرق، ومنهم طه حسين والعقاد والمازني وهيكل باشا وتوفيق دياب ولطفي السيد وأنطون الجميل وخليل ثابت وعبدالقادر حمزة ومحمد زكي عبدالقادر وأحمد الصاوي محمد وغيرهم.

وعملا بنصيحة أستاذي فؤاد صروف، اجتهدت في متابعة هذه الكتابات في الحدود التي سمحت بها ظروفي كطالب جامعي مضطر إلى التوفر على دروسه توفراً تاما فهي التي يحاسب عليها حسابا عسيرا من أساتذته، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان!.

وبعد تخرجي في عام ١٩٤٢ - وأنا اليوم أقدم خريجي هذه الجامعة وأقدم أساتذتها - حاولت اقتحام عرين المجلات الأدبية، محاولا قدر الإمكان صقل أسلوبي، فبعثت بمقال عنوانه «الأديب من أين يبدأ؟» إلى مجلة «الثقافة العربية» التي كانت تصدر في سوريا، وفوجئت بعد نشره بمقال للأديب محمد فهمي عبداللطيف نشره بتوقيع «الجاحظ» في مجلة «الصباح» لصاحبها محمد مصطفى القشاشي هاجمني فيه هجوما شرسا لأنني جاهل في اللغة العربية، وعنوان المقال يشهد على هذا الجهل المطبق لأنه عنوان «خواجاتي»، أما الصياغة العربية السليمة فهي «من أين يبدأ الأديب؟» وليس «الأديب من أين يبدأ؟»، وأقول بين عضادتين إنني صرت بعد ذلك صديقا لمحمد فهمي عبداللطيف، بل إن آخر يوميات له نشرها في «الأخبار» كانت تتناول بحفاوة كبيرة كتابا لي عن الشاعر إبراهيم ناجي، وتوفي بعد نشر هذه اليوميات.

شرف لم أحلم به!

وفي محاولاتي الأولى، ترجمت أقصوصة عنوانها «كف القرد» وبعثت بها إلى مجلة «المقتطف» التي نشرتها في عدد صادر في عام ١٩٤٣ وكان من عادة المجلة أن تنشر إعلانا تنوه فيه بالموضوعات المنشورة في العدد الجديد، وألفيت اسمي منشورا إلي جانب بعض باشوات ذلك الزمان، وهو شرف لم أحلم به في تلك السن المبكرة، ثم جربت حظي مع مجلة «الرسالة» فبعثت إليها بالبريد بمقال مترجم عن الكاتب المسرحي هنريك إبسن فنشرته في عددها الصادر في سبتمبر ١٩٤٣،



وكنت أفضل دائما أن أبعث بمقالاتى بالبريد لاعتبارين: أولهما أننى كنت مازلت حديث السن وخشيت أن تهمل تلك المقالات لأن كاتبها شاب فى أول الطريق، وثانيهما لأننى أردت أن أحتكم إلي رأى محرر المجلة، فإن رأى المقال صالحا للنشر قام بنشره بغض النظر عن كاتبه، ومجرد النشر كان تزكية اعتززت بها أكبر اعتزاز.

كنا فى ذلك الوقت نمارس الكتابة الأدبية باعتبارها عملا إضافيا إلى جانب العمل الصحفي الأساسي، ولم نكن نطلب عن ذلك أجرا ولا كان أصحاب المجلات يقررون لنا مكافآت عما نكتب، كان جزاؤنا الأكبر هو نيل شيء من الشهرة، والاستفادة من التصويبات التى كان المحررون يجرونها على مقالاتنا، واعتبار النشر فى حد ذاته شهادة بأن المقال جدير بالذيوع، ومع أننى نشرت فى مجلات أدبية كثيرة فى الداخل والخارج، إلا أن المجلات التى خصصتها بالكتابة الدوية هى «المقتطف» و«الرسالة» و«منبر الشرق» لصاحبها على الغاياتى فى مصر ومجلة «الأديب» فى لبنان لصاحبها ألبير أديب، فالأولى كتبت فيها على مدار عشر سنوات، والثانية نشرت فيها مقالات متباعدة على مدى خمس عشرة سنة والثالثة على مدى أربعة عشر عاما والأخيرة على مدى أربعين عاما، ولم أتقاض مليما واحدا عن كل هذا الجهد.



عودة الرسالة من جديد

وكان الزيات قد عطل مجلة «الرسالة» فى عام ١٩٥٣ كاحتجاج صامت على الظروف غير المواتية التى حلت بالمجلة، إذ قطعت عنها اشتراكات وزارة المعارف، وتغالظت مطالبات الضرائب، وانخفض التوزيع انخفاضا حادا بعد ضياع فلسطين فى عام ١٩٤٨ لأن المجلة كانت منتشرة فيها انتشارا واسعا، فأغلق الزيات المجلة وباع مطبعتها إلى الأديب عمر الدسوقي.

وعندما ارتأت وزارة الثقافة فى عام ١٩٦٣ إعادة إصدار «الرسالة» باعتبارها من أنشطة الوزارة، هاتفنى الزيات قائلا إنه يريد الاستعانة بكتاب الرسالة القدامى فى عهدها الجديد، ودعانى إلي الكتابة فيها، كما دعا أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى وصديقنا محمد عبدالله السمان، وقال إنه إذا كان ضن علينا بأى مكافأة فى الماضى، فإن الوزارة كفيلة بدفع مكافآت للكتاب فى العهد الجديد للرسالة، الذى لم يزد على عامين اثنين، ولم يفكر الزيات فى الاستعانة لا بأنور المعداوى ولا بعباس خضر مع أنهما كانا يتمترسان فى المجلة وكان لكل منهما مقال فى كل عدد، وكانا عند إصدار المجلة فى عهدها الجديد مازالا على قيد الحياة، فالمعداوى توفى فى عام ١٩٦٥ وعباس خضر فى عام ١٩٨٧، ولعل الزيات كان قد ضاق بهما.

وعندما اضطرتنى ظروف الإزاحة من العمل الصحفى فى مصر إلي قبول العمل فى مكتب شركة أرامكو فى القاهرة، أصبحت مجلة «قافلة الزيت» الشهرية من جملة اختصاصاتى، وكانت المجلة وقتها مجرد نشرة تعنى بموضوعات تتعلق بأنشطة الشركة فى السعودية وموظفيها وعمالها، ومباريات كرة القدم وأخبار الزواج والمواليد الخاصة بالموظفين وما إلى ذلك، فاقترحت على أسرة تحرير المجلة أن نحولها إلى مجلة ثقافية تحمل إلى أولئك الموظفين مادة تفيدهم فى توسيع آفاقهم، وبعد تردد وافقت أسرة التحرير على اقتراحى الذى أكدت فيه أننى سأستكتب

كبار الكتاب، ولابد بالتالي من دفع مكافآت سخية لهم كي يقبلوا التعاون مع المجلة وبمجرد الموافقة على اقتراحي، اتصلت بالعقاد الذي رحب على الفور بدعوتي، ودفعنا له أكبر مكافأة وقتها وهي خمسون جنيها في حين كانت المكافآت المرصودة للكتاب في بعض المجلات لاتزيد على خمسة جنيهات، ووسعت دائرة الاستكتاب فشملت الأمير مصطفى الشهابي والدكتور محمد مندور وعزيز أباظة باشا ومحمود تيمور بك والدكتور منصور فهمي باشا وأحمد حسن الزيات وإسماعيل مظهر وشيخ الأزهر عبدالرحمن تاج وعبدالرحمن صدقي والشيخ أحمد الشرباصي ومحمد عبدالله عنان وغيرهم، وكنت بدوري أكتب فيها ولكن متطوعا على اعتبار أنني موظف في مكتب الشركة في القاهرة.

ويبدو أن إقرار مبدأ منح الكتاب مكافآت سخية ـ ولعلي المسئول عنه ـ قد فتح الباب على مصراعيه أمام حتى ناشئة الأدب، بل لصوص الأدب، فصاروا يغرقون المجلات العربية بمقالاتهم طمعا في مكافآتها التي لاتفرق بين كاتب كبير وكاتب ناشيء، ولاسيما لأن المسئولين عن هذه المجلات هم أصلا موظفون حل عليهم الدور في الترقية فقيل لهم: كونوا رؤساء تحرير، فكانوا، مع أنه ليس لهم سابق ممارسة للكتابة الأدبية، بل ليست لهم دراية بأقدار الكتاب، فصندوق بريد المجلة يكتظ يوميا بالمقالات والقصائد والأقاصيص التي يبعث بها كل من يتوهم في نفسه بأنه أديب، وما على المسئولين إلا انتقاء مايروق لهم من المقالات وهي في كثير من الحالات مقالات لمن لم نسمع بأسمائهم من قبل تتصدر فهارس المجلات، وجدت غير مرة بعد دفع المكافأة المرصودة أن تبين للمسئولين أن الكاتب قد سرق مقالا لكاتب كبير لعله مازال على قيد الحياة!.

السرقات الأدبية

وعندما صدر معجم البابطين للشعراء في طبعته الأولى، تبين أن «شاعرة» من الاسكندرية انتحلت لها قصائد من شاعر معاصر، فنشرت في المعجم منسوبة إليها، فكانت فضيحة لا «للشاعرة» وحدها بل لمن أشرفوا على المعجم «الموثق» لعجزهم عن اكتشاف هذه السرقة العلنية قبل اندساسها في المعجم.

كتبت مرة مقالا في مجلة «صوت البحرين» التي كان يصدرها الأحرار والمجاهدون في البحرين، واخترت لها عنوانا هو «الاستعمار وهل يمكن أن يكون ثقافيا؟» رددت فيه على الأديبة اللبنانية روز غريب التي تطيرت من فتح مكتبة أمريكية في زحلة وطالبت بإغلاقها. وقلت في مقالي ما مؤداه أهلا بالمكتبات من جميع الأنواع تفتح في جميع المدن العربية، فما أحوجنا إلى الاغتراف من جميع ألوان الثقافة، وقلت إننا لانعتبر شكسبير أو برنارد شو أديبين استعماريين بسبب جنسيتهما الانجليزية، وإنما نعتبرهما أديبين إنسانيين نستمتع بأدبهما ونعده من تراثنا الفكري، ولم يكد المقال ينشر، حتى توالت المقالات في تسفيه آرائي بإمضاءات مثل «فتى الصحراء» و«ابن الهيجاء» واستمرت المجلة تنشر هذه المقالات على مدى سنة كاملة، ولم يقف إلي جواري في هذه الحملة إلا أستاذنا الأزهري الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.

رسالة شكر

وبعد احتجاب جميع المجلات الأدبية غير الحكومية في عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣، ومنها «الرسالة» و«الثقافة» و«الكاتب

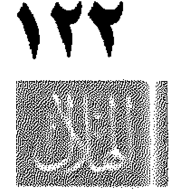
المصرى» و«الكاتب» و«مجلة علم النفس» ومن قبلها جميعا مجلة «المقتطف» التى عاشت ٧٧ عاما، فكر فتحى رضوان عند اختياره وزيراً للإرشاد القومى فى إصدار مجلة «المجلة» بشرط عدم الإشارة إلى أنها من مطبوعات وزارته، واختار الدكتور محمد عوض محمد أول رئيس لتحريرها، والشاعر حسن كامل الصيرفى سكرتيرا لتحريرها، ومع أن الوزير أراد أن يوهم القراء بأن هذه المجلة ليست حكومية مائة فى المائة، فقد أقام حفلا كبيرا ـ شهدته ـ فى القاعة الذهبية فى قصر الأمير محمد على بالمنيل إيذانا بصدور المجلة، وكنت قد قررت ألا أكتب فى المجلات الحكومية لاعتقادى بأنها مجلات «موجهة» لايملك الكاتب فيها حريته الكاملة، ولكن اتفق مع صدور هذه المجلة أن أغلقت قناة السويس بسبب العدوان الثلاثى، فاقترح على الدكتور محمد عوض محمد أن أكتب للمجلة موضوعا عن أثر إغلاق القناة فى مرور البترول العربى إلى أوربا وأمريكا، واستجبت لرغبته متبرعا بكتابة هذا المقال الذي نشره فى العدد الثانى من المجلة تاليا لمقاله مباشرة، ومازلت أحتفظ برسالة شكر من الدكتور محمد عوض محمد لأننى اعتذرت من عدم قبول أى مكافأة. وكانت لى بالدكتور عوض علاقة كريمة بدأت منذ عهد التلمذة الجامعية عندما اعتمدت على كتابه «سكان هذا الكوكب» فى رسالتى الجامعية التى كان موضوعها «كيف تعالج مصر مشكلة الاكتظاظ بالسكان» وكانت طبعا باللغة الانجليزية.

وعندما اختير الدكتور حسين فوزى رئيسا لتحرير «المجلة» هاتفنى صديقى الشاعر حسن كامل الصيرفى راجيا أن أكتب مقالا عن سلامة موسى بمناسبة وفاته، قائلا إن هذه هى رغبة الدكتور فوزى ـ ولم أكن أعرفه، ولبيت دعوته حتى يظهر المقال فى الشهر التالى للوفاة مباشرة، ولم يكد المقال يظهر حتى انبرى له «المشاكس» حبيب الزحلاوى، فكتب تعليقا ناقما لم يكتف فيه بالهجوم على سلامة موسى وعلى كاتب المقال، وإنما أصابت سهامه آخرين منهم الدكتور أمير بقطر وكمال الملاخ، ولما تلقى الدكتور حسين فوزى مقالة الزحلاوى قال للصيرفى: هؤلاء الشوام لابد أن يتعاركوا، فقد كان يحسبنى شاميا، ولكن الصيرفى أكد له أننى من قرارة الصعيد، ولما رفض الدكتور فوزى نشر هذا المقال، أدرجه الزحلاوى فى كتابه «شيوخ الأدب الحديث» الذى أوغل فيه فى هجاء جميع كبار الأدباء ولم تسلم منه حتى جاذبية صدقى!.

مقال غاضب!

ثم أصدرت وزارة الثقافة مجلة «الثقافة» فرأس تحريرها فى العام الأول جنرال الأدب يوسف السباعى، وتخلى عن الرياسة فى العام التالى للدكتور عبدالعزيز الدسوقى، ولم أنشر فى هذه المجلة حرفا واحدا اتساقا مع مذهبى وهو عدم التعامل مع النشرات الحكومية، ومع ذلك لم أسلم من مقال غاضب نشره عنى الدكتور الدسوقى قال فيه إننى أحتاج إلى علاج نفسى!.

ولم أشأ أن أرد عليه مادام قد ارتأى إحالتى إلى طبيب نفسى! ولكن صديقيه بادرا إلى إنصافى فى المجلة نفسها، هما الناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى والقاص محمود البدوى، ثم انضم إليهما الروائى والفنان التشكيلى أمين ريان، وتصافيت بعد ذلك مع الدسوقى عندما وجه



إلي رسالة اعتذار رقيقة.

كتاب لم يسمع به النقاد!

ولكتابي «قضايا الفكر في الأدب المعاصر» حكاية لابأس من أن أرويها. كنت أعرف الشاعر السعودي محمد حسن عواد، وكان يحرص على لقائي كلما حل في القاهرة، وذات يوم تلقيت منه رسالة يقول فيها إن ابن شقيقته محمد سعيد باعشن يعتزم إصدار جريدة أدبية أسبوعية عنوانها «الأضواء» ورجاني أن أشجعه في هذا المشروع، فلبيت دعوته متطوعا وكتبت سلسلة من المقالات الأدبية هي التي تألف من مجموعها هذا الكتاب، وعند صدوره، قام صديقي اللبناني فوزي عطوي بإعادة نشر جميع فصول الكتاب في حلقات متتابعة وبعناوين ضخمة في جريدة «بيروت المساء» لصاحبها الوزير الأسبق عبدالله المشنوق، ثم قام صديقي الشاعر اللبناني سليم مكرزل بإعادة نشر جميع هذه الفصول في مجلة كان يصدرها عنوانها «الغربال»، ثم قامت دار الجديد في بيروت بنشر الكتاب في طباعة أنيقة، ومع أن فصول الكتاب هي فصول في النقد، ومع أنني أهديت منه نحو ٤٠٠ نسخة، فإن نقاد هذا الزمان لم يسمعوا به!.

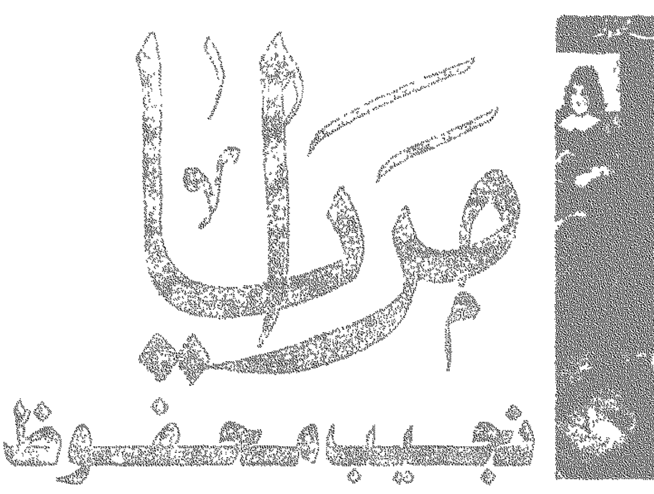
وفي رحلتي مع الأدب لم أصطدم أبدا بالرقباء ولم يتعرض أي مقال لي للمنع أو الحذف، على النقيض من المقالات السياسية التي طالما عانت من سطوة الرقيب بل جهله في حالات كثيرة، وكنت في بعض الأحيان أتحايل على الرقيب السياسي متخذا من «باب الكتب» في الجريدة منفذا مأمونا. زارني في مكتبي بالجريدة ذات يوم نجل المجاهد الفلسطيني الكبير محمد على الطاهر، وأنهى إليّ أن البوليس هاجم بيته في الفجر وساقه إلى المعتقل، وطلب أن أنشر هذا الخبر في الجريدة، ولكن الرقيب بادر بحذفه، وعندئذ تحولت إلى «باب الكتب» في الجريدة وتناولت كتابا من مؤلفات أبي الحسن - وهذه هي كنيته - وقلت فيه «لو كان الأستاذ الطاهر كله ذنوب فحسبه هذا الكتاب شاهدا على صدق وطنية المجاهد الكريم وبلائه في مكافحة الاستعمار البريطاني وزميله الصهيوني»، وكان من عادة الرقيب أن يكتب عبارته التقليدية «لامانع من النشر» على مقالات «باب الكتب»، وهكذا أفلت كلامي من سيفه المصلت على الرقاب والضمائر.

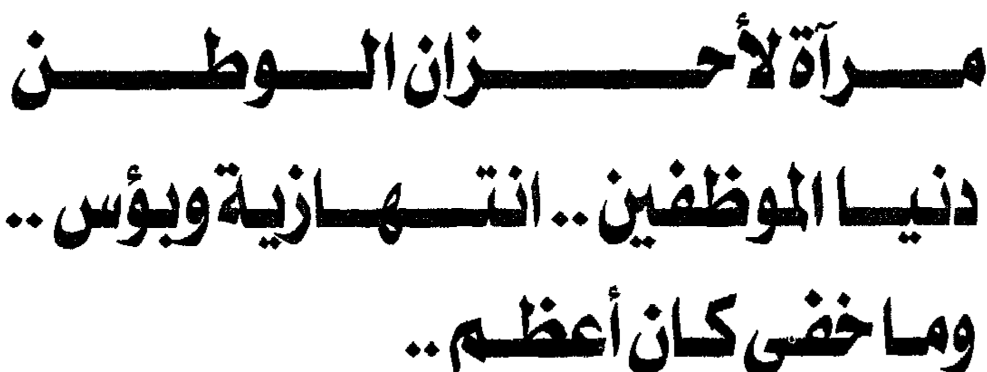
شرف الكلمة

وقد عرفت معظم الذين تولوا رئاسة تحرير مجلة «الهلال» أو أشرفوا عليها ماعدا مؤسسها جرجي زيدان، فقد عرفت شكري زيدان بك والدكتور أحمد زكي بك وصالح جودت وكمال النجمي والدكتور حسين مؤنس وإبراهيم المصري وسلامة موسى وطاهر الطناحي، وعرفت رجاء النقاش في فترة لاحقة، فلم يدعني إلى الكتابة في المجلة إلا رئيس تحريرها الحالي مصطفى نبيل، ربما بإيعاز من الزميلة العزيزة صافي ناز كاظم.

وحرصت على مدى العمر أن أتفادى الخوض في المعارك الأدبية حتى لا أشغل القارىء بأمور قد لاتهمه، و«عقمت» قلمي من جميع الموضوعات الشائكة، وآمنت بشرف الكلمة منذ ما عاقرت فنون الكتابة، وهو ما كنت أحاول غرسه في طلابي، عندما كنت أشتغل بالتدريس الجامعي.

وبعد، أرجو ألا ينطبق عليّ قول القائل: مادح نفسه يقرؤك السلام! ■

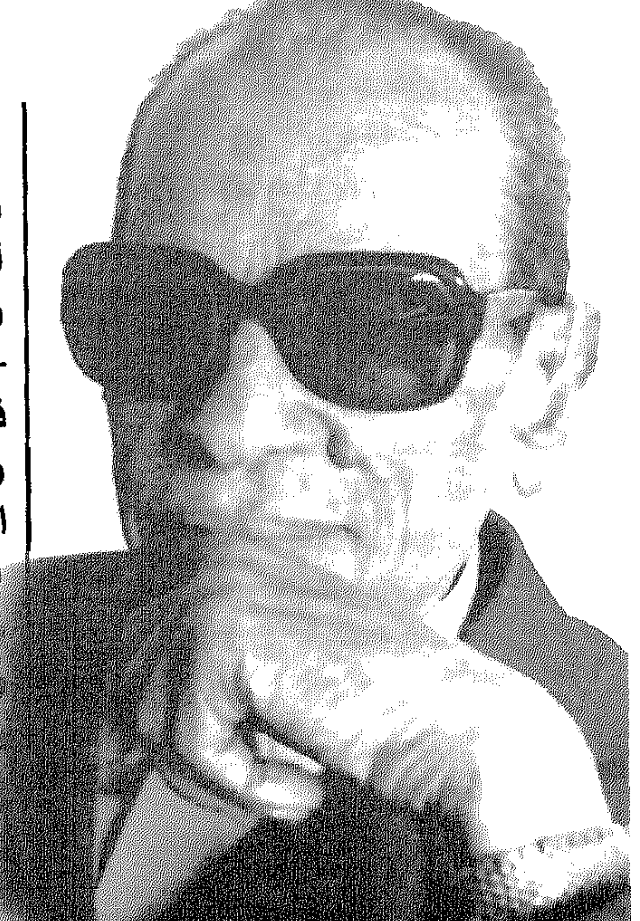




مرآة لأحزان الوطن

دنيا الموظفين.. انتهازية وبؤس..
وما خفى كان أعظم..

بقلم
د. فهمى عبد السلام



من إدارة السكرتارية ينطلق بنا كاتبنا الكبير إلى دهاليز وزارة الأوقاف وحجراتها وأروقتها المظلمة ، ويؤلف لنا من دهاقنة الوظيفة الميرى رواية عن دنيا الموظفين ، رواية صغرى داخل روايته الكبرى - المرايا - وهو الموظف العتيد الذى عاش عدة عقود فى دنيا الوظيفة الميرى . وسنبدأ بالقاع ، وقارئ المرايا سيتعرف بلا شك على نجم القاع الوظيفى فى وزارة الأوقاف ، صقر المنوفى فراش إدارة السكرتارية ، «الجاسوس بالسليقة ، ولحساب نفسه ولحساب الآخرين ، يتطوع لإفشاء الأسرار ويهمس بها وهو يقدم قهوة الصباح» .

نحن إذن أمام شخصية «النمام» ، وهذا النموذج الإنساني المدهش سبق أن التفت إليه ديستويفسكي ورصده خلال تحفته البديعة «الأبله» ، وقارئ الأبله لابد أن يتذكر «ليبوتين» العجيب الذي كان يذرف الدموع حزنا إذا ما مر يوم لم يتصيد فيه فضيحة أو وشاية . وهذا السعي المحموم والبحث الدءوب عن عورات الناس وفضحهم سمة أساسية من سمات النمام ، وهذه الشخصية لا تظهر كما قال ديستويفسكي إلا خلال أزمنة التحولات الاجتماعية الكبرى وإبان الفترات الانتقالية ، والنمام شخص ذكي بلا جدال ، ولا يخلو من موهبة دون شك ، لكن أزمنة الاضطرابات أشبه بالطوفان الهائل الذي يكتسح الفقراء الأذكياء أصحاب المواهب، والنميمة عند هؤلاء أشبه بسلاح الانتقام، فإذا كانت الأقدار قد حكمت عليهم بالبقاء في القاع ومهانة القاع، فلا بد من الانتقام من المجتمع ومن الدنيا اللذين غلباه على أمره ، ولن يجد سوى النميمة ليطعن بها الجميع غدرا، كما غدر به الجميع ..

صقر النمام

إذا ما تركنا نمام ديسويفسكي - ليبوتين - الذي يحتاج إلى دراسة وحده ، سنرى كيف رصد كاتبنا نمامه صقر المنوفي ، الذي ليس نماما فحسب ، لكنه طفيلي أيضا ..

صقر المنوفي أشبه بقلم المباحث وحده ، فما من فرح أو مأتم إلا ولديه علم به ، فيحضر أول الليل مع العاملين ويعاون بكل همة، وفي نهاية الليل يحتل مكانه فيظفر بوليمة عشاء ، فما تمر ليلة إلا وهو في وليمة فأي «باشا» يدانيه في هذا الحظ الغذائي المنعدم النظير ؟

هذا الكلام عن صقر المنوفي - وهو نميمة في حد ذاته - لم يأت إلا من عباس فوزي وهو نمام كبير آخر ..

يحدثنا نجيب محفوظ عن نمامة خفيف الظل العجيب صقر المنوفي أن حياته - فيما عدا تلك الولائم الفاخرة - جرت كما تجرى حياة بقية الفقراء ، فهو يسكن في حجرة أرضية بعطفة دعبس في الحسينية ، ومتزوج وله ولدان وبنت أهمل تربيتهم كعادة الفقراء ، وأعد خطة للثراء بدأت إبان الحرب العالمية ، وانطلق من بيع حلل وحلي ذهبية ورثها عن أمه ، وتجمع لديه مبلغ راح يستثمره بإقراض الموظفين بربح فاحش ، منتهزا الغلاء الذي عم البلاد أثناء الحرب ، وهذا نشاط غريب بالنسبة إلي مسلم من الفقراء ، لكن صقر أقدم عليه وتمادى فيه ، واشتهر بين صغار الموظفين الفقراء وما أكثرهم ، فأقبلوا عليه ، وأصبح مصدرا لحركة سرية فتنامت نقوده وتراكمت .

واستمر صقر في تنفيذ خطة الإثراء بصبر ودأب وخلال ربع قرن اشترى بيتا صغيرا ، وحتى بعد أن تحسنت حالته المالية لم يغير من مظهره أو في سلوكه شيئا ، فظل في وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظفين يعتبر سيدا لهم من الناحية الاقتصادية ، ويسعى إلى الولائم والموائد للاستمتاع بالولائم المجانية ، وظل يتشمم الأخبار والفضائح ليفشي الأسرار والسقطات ويعري العورات ويهمس بها وهو يقدم قهوة الصباح .

فتحي أنيس

وأعجوبة نجيب محفوظ الثانية من أهل القاع الوظيفي هو فتحي أنيس ، طويل رشيق عظيم القسمات إذا رأيته حسبته موظفا كبيرا أو سليلا لأسرة عريقة ، لكنه لم يكن سوي كاتب قيد بالابتدائية ، ومرتبه ثمانية جنيهات يعول بها زوجته وخمسة أطفال وأما وشقيقتين مطلقتين ، ولم يكن أمام فتحي أنيس إلا أن يتسول أحيانا فيقول لزملائه في بساطة :

- من يعطني ثمن سندوتش فول وله

الجزاء الأوفى في يوم القيامة .

وكان اللاذع عباس فوزى يقول عنه:

- أنظر إلى عبث الطبيعة .. جادت عليه بمظهر يليق بموظف استقبال فى الخارجية ، لكنها ضنت عليه بما ينفق أو ما ينفع الناس .

أو يقول عنه :

- إنه حى لا يرزق .

ويخبرنا نجيب محفوظ عن تحايل فتحى أنيس على جوعه الدائم مستغلا منظره ، فكان يتقدم إلى أسرة ما كخاطب لابنتهم ، فيقابل بالترحيب من ناحية المبدأ حتى يتم الاستعلام عنه ، وفى الفترة الموضوع فيها تحت الاختبار ، يزور الأسرة فيستقبله رب البيت ، ويتعمد البقاء حتى وقت الغداء أو العشاء ، ولما يدعى إلى المائدة يلبى وهو يقول :

- لا يأبى الكرامة إلا لئيم !

ثم يأكل فى وحشية كأنما يخزنه ليجتره بقية الأيام ، وتجئ الاستعلامات فى غير صالحه طبعا، فيعتذرون عن عدم قبوله ، فيذهب وقد فاز ببعض أكلات خيالية ، ويواصل غزواته فى أنحاء المدينة حتى تتسرب أخبارها إلى الموظفين الذين جعلوه نادرة تروى .

أما عبدة سليمان فيسجل لنا نجيب محفوظ أنها كانت أول موظفة تعين فى وزارة الأوقاف ، وهى سمراء بضة أقرب إلى الامتلاء خفيفة الروح ومتوسطة الجمال، وحاصلة على البكالوريا ، وتم تعيينها فى إدارة السكرتارية ، ويذكر لنا أن وجود موظفة بينهم كان حدثا كبيرا ، وأن إدارة السكرتارية شهدت اهتمام الموظفين بمظهرهم ، وسرعان ما يهمس صقر المنوفى فى أذن نجيب محفوظ «الراوى» قائلا ..

- صاحبتك من السيدة زينب !

- وماله ؟

- السيدة زينب مأهولة بالطلبة ولذلك الكثير من بناتها .... (ويشير بيده إشارة مثيرة) .. وها هو النمام صقر المنوفى يمارس هوايته ، وبعد فترة طويلة أصبحت عبدة سليمان عادة يومية لا تثير الاهتمام ولا تلفت الأنظار ، وصقر المنوفى مازال مصرا على ممارسة النميمة المجانية ، فيعود إلى الراوى ليقول له :

- لا تصدق أن فتاة «شريفة» تقبل بالعمل وسط الرجال .

يرد عليه نجيب محفوظ :

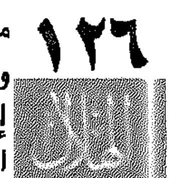
- لكنها مؤدبة حقا وتصد عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعاية .

- سياسة حلوة .. حفاظا على كرامتها كموظفة وللإيقاع بالمغفل ابن الحلال .

والنمام يحزنه أن يرى رجلا فاضلا أو امرأة شريفة ، ويعد وجودهما إهانة شخصية له ، لكن للأسف كان سوء ظن صقر المنوفى بعبدة سليمان فى موضعه ، إذ لم يمر طويل زمن حتى كانت حكايتها على كل لسان ، وأصبحت سيرتها موضع نميمة الموظفين وحياتهم الفارغة التى تتعيش على الفضائح وسقطات الناس .

العادل

تبدأ الحكاية عندما لاحظ أهل إدارة السكرتارية أن محمد العادل ، يتحجج بزيارة صديق له فى الإدارة كى يحوم حول عبدة ، وكان محمد العادل على الرغم من تفاهة وظيفته وبدائية تعليمه شخصا شهيرا فى الوزارة ، فهو ابن شقيق محمد باشا العادل عميد الأسرة الكبيرة ، وزوج كريمته ، والباشا ووكيل الوزارة تربطهما صداقة قوية ، وبرغم ضآلة مرتب محمد العادل كان يرتدى أفخم البدل وينفق عن سعة من نقود زوجته، ومن ناحية المظهر فكان جميلا له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم ، وقوبلت زيارات محمد العادل للإدارة بالاستهجان ، وأبدى عباس فوزى رئيس الإدارة امتعاضا



صامتا خوفا من نفوذ محمد العادل ، أما الراوى - نجيب محفوظ - وهو المسالم الدمث فلم يتحرك ، إلا أن عبدالرحمن شعبان مترجم الوزارة نارى الطباع قام وحمل محمد العادل من أعلى جاكتته وسار به إلى الباب قائلا:

- لو رأيت وجهك هنا سأكسر لك دماغك .

وسرعان ما مارس صقر المنوفى نشاطه أولا عندما قدم تقارير - وهو يقدم القهوة - أن محمد العادل يطارد عبده حتى مشارف السيدة وأنه يلح فى جنون على أن يتعرف عليها وأنها تصده ، وسرعان ما تقدمت عبده بطلب إجازة لمدة أسبوع ، فلم يهتم أحد من الإدارة ، إلا أن صقر المنوفى سرعان ما جاء بالخبر والغمز أن محمد العادل طلب إجازة لمدة أسبوع هو الآخر .

تعود عبدة سليمان من الإجازة وقد فقدت من روحها شيئا ثمينا لا يمكن تعويضه ، عاكفة على العمل وهى حزينة واجمة كأنها راجعة من قرافة ، وما أن يسألها عبدالرحمن شعبان «مالك يا آنسة» حتى تنهمر دموعها وتحكى لهم أنها تزوجت من محمد العادل ، الذى اقنعها بالزواج السرى حتى لا تعلم زوجته أو عمه الباشا ، وأنها قبلت وسافرا إلى الإسكندرية ومكثا أسبوعاً هناك ، وأنه فى نهاية الاسبوع قال لها إن استمرار زواجهما فيه تهديد لحياته كلها ، وأنه طلقها بالأمس فقط ، وهمس صقر المنوفى فى أذن الراوى قائلاً .

- إنها طريقة جديدة للعشق !

ونالت عبدة من اللوم قدر ما نالت من التعاطف ، وتطوع كثيرون لمساعدتها فى إجراءات القضية الشرعية ، ونما الخبر إلى الزوجة والباشا ، واستدعى وكيل الوزارة - بإيعاز من الباشا - عبدة فوبخها واتهمها بإغواء الولد الأرعن !! وطالبها بالتنازل عن القضية فى نظير أن يحفظ لها حقها ، لكنها صارحتهم بأنها حبلى وبذلك ازدادت الأمور تعقيداً

النحال !

ومن الزواج السرى ينقلنا الكاتب الكبير إلى الشذوذ الجنسى ، وكله فى وزارة الأوقاف . وبطل الشذوذ هنا هو شرارة النحال وقصة صعوده ، وهى دراما كما يقول أهل السينما تراچيكوميك ، كوميديا سوداء بها من الضحكات بقدر ما بها من الدموع .

كان شرارة النحال عامل تليفون فقيراً أقرب إلى السعادة ، فى الدرجة الثامنة فى العشرين من عمره ويعمل بابتدائية حديثة ، لكن شرارة كان يلفت إليه الأنظار «بجمال وجهه ورقة شمائله ورشاقة قده» ، وكان صقر المنوفى يعاتبه ممازحاً ويقول له .

- اخلع بدلتك والبس فستاناً وأنا أضمن لك عريساً خلال أربع وعشرين ساعة.

يبدأ الصعود حينما خلت درجة سابعة لوفاة شاغلها ، ويحدثنا نجيب محفوظ الموظف عن أحزانه الوظيفية لأن حملة المؤهلات العليا لم يكن يتم ترقيتهم حنقاً من الرؤساء أصحاب الابتدائية القديمة ، وأن الترقيات كانت تتم دون قواعد ، واشتعلت افئدة أهل الدرجة الثامنة للحصول على الترقية - والراوى كان منهم - فسعى كل واحد إلى أحد الكبراء ليشفع له ، وانهالت كروت التوصية على وكيل الوزارة ، وتمت ترقية أحد الموظفين ، وفجأة استبعد القرار بقرار جديد آثار دويا كبيرا فى دنيا الوزارة أن الذى ترقى كان شرارة النحال ، وأنه لم يترق فحسب إنما تم انتدابه للعمل فى مكتب وكيل الوزارة وهو مجد وظيفى كما تعلمون عظيم !

كيف تم ذلك ؟! العلم عند النمام الأعظم

صقر المنوفى الذى حكى الحكاية لنجيب محفوظ .. إن وكيل الوزارة كان قد قرر ترقية موظف آخر، وطلب شرارة مقابلة الوكيل ، وطردته السكرتارية شر طردة، وقبع شرارة فى الممشى حتى إذا خرج سعادة الوكيل فى وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدى، إنه مسئول عن أسرة كبيرة وإنه لا وساطة له إلا الله وسعادته ، وأن الوكيل نظر إليه بنظرة لا تخلو من ضيق وامتعاض ؛ إلا أن شيئاً فى وجه شرارة جعله يعيد إليه النظر فى اهتمام ، ولبث الوكيل ينظر إليه كأنما لا يريد أن يسترد بصره .

وسكت صقر المنوفى (عن الكلام المباح) وهو يبتسم فى خبث ، فسأله نجيب محفوظ :

- أى شىء تقصد ؟!

فانسحب صقر من أمام المكتب وهو يقول :

- فى العشق ياما كنت أنوح ..

الحقيقة أن ذلك الموقف الدرامى صاغه نجيب محفوظ بعبقرية واقتدار ، وهو درس للكتاب فى معالجة مثل ذلك الموضوع الشائك - الشذوذ الجنسى - بأستاذية ، وفى «العشق ياما كنت أنوح» تصل الفكاهة الرائعة إلى أقصاها ، وليتخيل القارىء الكريم سعادة الوكيل وهو ينوح لأن غلامه قد هجره وبلا رحمة ، فقد جمع نجيب محفوظ خفة الظل المدهشة والقدرة الفائقة على التعبير و «المجون» وكل ذلك بلا كلمة نابية واحدة .

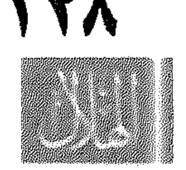
ونتابع مع أستاذنا الكبير قصة شرارة النحال ، الذى كانت انطلاقته من ضراعة أشبه بتضرعات فاطمة رشدى ، ليصعد بسرعة الصاروخ ويتحول خلال فترة وجيزة إلى أهم «رجل» فى مكتب سعادة الوكيل ، ربما أهم من مدير المكتب نفسه . ليرتدى أفخر الثياب وتنهال عليه الهدايا أشكالاً وألواناً ، وتصبح الابتسامة التى يمنحها شرارة هدية يتفاخر بها المتلقى وهو يحمد الله المنان . ثم تأتى مفاجأة أخرى أن يتولى الوزارة وزير من «أهل ذلك» لتتفجر أزمة لم ترد لأحد على خاطر!

الذى دبر «المؤامرة» كان موظفاً كبيراً وكانت تربطه خصومة بسعادة الوكيل ، وحدث الوزير الجديد عن سكرتير الوزير «الجميل» ، ودبر الموظف الكبير لقاء بين شرارة والوزير لعرض بعض الأوراق التى طلب الوزير الاطلاع عليها ، وقيل إن الوزير اقتنع «بكفاءة» شرارة «من النظرة الأولى». وأن الوزير طلب نقل شرارة إلى مكتبه، ورحب شرارة ترحيب شاب لا حدود لطموحه، وأبلغ الوزير سعادة الوكيل برغبته فى نقل شرارة إلى مكتبه، فثار الوكيل وصارح مبلغه أنه «لا يستغنى عنه» .

غضب الوزير وأصدر قرارا بنقل شرارة إلى مكتبه فما كان من الوكيل إلا أن اعتزل فى قصره، وكان الوكيل والوزير ينتميان إلى حزب واحد، وقيل إن رئيس الحزب وبخ الرجلين كى لا يتسرب خلافهما «الأيديولوجى المبدئى» إلى صحافة الوفد، فعاد سعادة الوكيل إلى العمل كاظما غيظه وهو فى وضع النائح عشقا على خطف غلامه الجميل.

المؤذن!

ومن شرارة النحال الصاعد كالصاروخ إلى صاروخ صاعد آخر فى سماء وزارة الأوقاف يقدمه لنا نجيب محفوظ فى بورتيريهاته الرائعة، إنه عدلى المؤذن الذى يرتبط بصداقة سطحية مع الراوى منذ أيام كلية الاداب، إذ كان عدلى يعمل موظفا فى إدارة الجامعة وحصل على الليسانس وهو يعمل، وقفز قفزة صغيرة عندما اعتمد عليه دكتور انتهازى فى الجامعة كموظف، وأوصى الدكتور ابراهيم عقل بـ «عدلى» عند



وزير الأوقاف، وشغل منصبا كبيرا «رئيس المكتب الاستشارى»، وأثبت عدلى طاقة خارقة، واتصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة، واحتفظ لشخصيته بالاحترام «مع عدم الحيد إلى ما يمس الكرامة إلا عند الضرورة القصوى فرفع الانتهازية إلى أرفع مراتبها».

لم يعرف عن عدلى أنه صنع خيرا فى حياته ! ولم يتورع عن إيذاء شخص طالما وسعه الإيذاء، وكان يجد سعادة فى الشر والتحدى والايقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء ولم يكن يهمه أن يكون محبوبا وخيل إلى الراوى أنه يعمل بشغف أن يكون موضع النقمة والبغض والحسد، وكرهه الموظفون كإبليس وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته التى لم تتزوج، ومنهم من فسر عزوبية عدلى بشذوذ جنسى يخفيه بصرامته وعنجهيته وظل يصعد ويصعد حتى أصبح مديرا عاما قبل ثورة يوليو.

... لم يتورع عدلى عن إيذاء نجيب محفوظ رغم زمالتهما القديمة وصلتهما العلمية فى قسم الفلسفة، كانا وهما موظفان يلتقيان فى سليمان باشا، ويسيران كزملاء رغم فارق الدرجة، ويتناولان إفطارهما فى الأمريكين، ثم يمضيان فى طريق الوزارة معلقين على الأحداث والمارة والأشياء. «كان يبدو فى تلك الفترة ودودا لطيفا ضاحكا محبا للمزاح ويحكى النكت عن الملك وعن الساسة والحاشية، أو يدعونى إلى زيارة مسكنه الجديد فى المعادى، ثم قد يستدعينى بعد ذلك بربع ساعة فيطالعنى بوجه جديد، وجه صارم بارد، يأمر ويكلف وينذر بلا رحمة وبلا ذوق وأغادره وأنا أضرب كفا على كف، ومرة فضفضت بما فى نفسى فبحت بما يكربنى للأستاذ عباس فوزى فقال لى:

– عنده انقسام شخصية ابن القديمة، نحن موعودون فى هذه الوزارة بكافة أنواع الشذوذ.

ورشحت لجنة شئون الموظفين الراوى – نجيب محفوظ – لدرجة خالية، وذلك بعد مقارنات طويلة بينه وبين منافسه الذى كان كاتبا بالسجلات، ورفعت اللجنة قرارها فوقعه الوزير، وغادر الراوى الوزارة مترقيا متلقيا التهانى، ولما رجع إلى الوزارة صباحا فوجئ بإلغاء القرار وترقية المنافس بدلا منه، وكاد الراوى أن يفقد عقله على حد تعبيره، وبالبحث علم أن موظفا كبيرا بالديوان الملكى اتصل بالأستاذ عدلى المؤذن موصيا بالمنافس فما كان من عدلى إلا أن سارع بمقابلة الوزير وأخبره بالتوصية، وفى الحال تمزق قرار ترقية الراوى وتحرر قرار جديد بالترقية الجديدة وذهب الراوى إلى عدلى – الزميل القديم ورفيق سليمان باشا والأمريكين منفعلا وناقشه فيما سمع من أنباء، لكنه ظل طيلة الوقت صامتا باردا حتى «تعبت وبخت» ثم قال فى هدوء:

– أعدوا بيانا بالميزانية الجديدة للنشر فى الصحف.

وخرج نجيب محفوظ الصابر كشعب مصر على الظلم وقد صمم أن هذا فراق بينه وبين عدلى المؤذن، واستفسر عن «صلة المنافس وهو على قد حاله مثلنا» بالسراى فقيل له:

– صلى وسلم على سيدنا لوط.

حرب فلسطين!

... راح نجيب محفوظ يتابع شخصياته الدرامية رفاق رحلة الوظيفة، ونبدأ بعبدة سليمان ومحمد العادل، على الرغم من الطلاق، إلا أنهما لم يشبعا من بعضهما، فاستمرت علاقتهما وبدون زواج هذه المرة وفى تكتم شديد حتى عن عيون صقر المنوفى التى لا تنام، حتى استدعى الوكيل ذات يوم عبدة ومحمد وهددهما بالنقل إلى



الأقاليم إذا لم يقطعا علاقتهما الآثمة، وحدث هذا بحضور الباشا نفسه، والتقطت آذان السعاة الحوار الغاضب، فأذاعه صقر المنوفى بطريقته السادية، ونقل محمد العادل إلى وزارة الزراعة، وتزوجت عبدة سليمان من مقاول قبل أن يربى ابنتها على شرط أن تقدم استقالتها، ففعلت، وكان هذا على عهد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وانقطعت أخبارهما عن الراوى حتى رآها صدفة بعد عشرين عاما فى ميدان التحرير، وكانت بدينة جدا وفى الخمسين، وأخبرته أن زوجها المقاول مات منذ عامين فقط، وأنها رزقت منه بثلاثة ذكور فى كليات الطب والصيدلة والزراعة وأن ابنتها تزوجت من ضابط.

أما مصير محمد العادلى فكان رهيبا، إذ قامت الثورة وطبقت قوانين الإصلاح الزراعى، بعدها بعام واحد مات الباشا، ولم يتبق لابنته إلا ما تستطيع أن تربى به أولادها، فامتنعت عن إعطاء زوجها أى نقود، فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذى اعتاده، فاختلس وفصل من عمله وهو يعيش الآن كالمتشردين، واضطر إلى العمل فى الاسكندرية منادى سيارات!

أما فتحى أنيس «الحى الذى لا يرزق» على حد تعبير عباس فوزى، فقد جاء صقر المنوفى ليقول للراوى ذات صباح:

– أخيرا وفق ابن الشحاذة!

– من؟

– فتحى أنيس

وبقية «النميمة» أن فتحى أنيس تزوج من أرملة غنية جدا فى الستين من عمرها، وقيل إنه تزوج بموافقة زوجته الأولى إيثارا لسعادة الأولاد على سعادتها، وصح الخبر – كما تصح أخبار صقر المنوفى – إذ ظهرت آثار النعمة على فتحى أنيس فى ملبسه وصحته ورونقه، ورغم كل شئ أثار حسد الكثيرين، وكان عباس فوزى يتهكم عليه وسأله ذات مرة:

– كيف تطاوعك نفسك على معاشرة مومياء؟

فيجيبه فتحى أنيس فى بساطة وصراحة:

– عندما يملأ الإنسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كؤوس من الويسكى فإنه يستطيع معاشرة عزرائيل نفسه!

وعقب حرب ٤٨ ماتت الأرملة مخلفة عليه ثروة طائلة ولم يفلح فى إخفاء فرحته حتى فى الأيام الأولى للحدث، واستقال من وظيفته، وفكر فى إنشاء عمل حر، حتى هداه تفكيره إلى فتح مقهى كبير فى التوفيقية، وتحمل خسائر عام أو عامين حتى يتقن مهنته الجديدة ثم نجح المشروع نجاحا منقطع النظير.

أما عدلى المؤذن وشرارة النحال، وهما من الأقوياء المؤذين، فقد تنافسا منافسة رهيبة، وواصل كل منهما وصوليته المقيتة كل على طريقته، حتى قبيل الثورة كانا يتنافسان على منصب وكيل الوزارة، وقامت الثورة وقدم عدلى المؤذن شكايا كيدية للجنة التطهير، لكن لم يثبت شئ على شرارة وقامت الثورة بترقية شرارة الذى كان قد تزوج!!، وقيل إن ابنه الضابط شفع له عند القيادة، واعتبر عدلى المؤذن أن ترقية غريمه هى أكبر ضربة تلقاها فى حياته، وسرعان ما وجد نفسه بين موظفين جدد لم يعرف لهم أصلا ولا فصلا، واختفى أغلب معاونيه فى التطهير ورجع يخطب ود نجيب محفوظ كالسابق، وانظر يا عزيزى القارئ الكريم إلى شخصية كاتبنا الكبير المتسامحة الخيرة، إذ غفر لعدلى كل بشاعاته وقسوته ورجعا يتلاقيان فى سليمان باشا إلا أن كاتبنا الكبير صاحب الحس الأخلاقى الرفيع، والذى يتعذب حينما يرى الناس أوغادا بلا خلاق، فيشعر بالغبطة لزوال

سلطان عدلى المؤذن الانتهازى الوضيع ويسجل:

«وشعرت لأول مرة فى حياتى بأن موجة العدالة تجتاح العفونة المتصلة بلا هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد وبلا اعوجاج وفى نقاء وطهر إلى الأبد».

وحاول عدلى التسلل إلى القيادات الجديدة فلم يفلح، وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف فى بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥ وعندما مات يسجل كاتبنا الكبير.

«ولا أنسى ساعة انتشار خبر الوفاة فقد خرج الموظفون على تقاليدنا المرعية وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات شامتة.

– الله يجحمه

– فى ألف داهية

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها، شيعها عشرة أنفار؛ قريب واحد، وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة وعقب وفاته بيوم واحد انتحرت شقيقته العانس».

أما خصم عدلى المؤذن اللدود شرارة النحال الذى لم يعتمد على جماله وحده فقد حصل على الكفاءة والبكالوريا وليسانس الحقوق، وتزوج ورزق بولد وبنت، وقدم عام ٥٢ إلى لجنة التطهير فلم تثبت عليه شيئا، ورقى إلى وكيل وزارة، ثم عين رئيسا لمؤسسة عقب تطبيق الاشتراكية! وهو الذى ألف كتابا فى أفضال الأسرة العلوية ومكارمها، وآخر ما سمعه عنه نجيب محفوظ أن صديقا رآه فى مكة عام ١٩٧٠ وهو يؤدى فريضة الحج!

أما النمام الأعظم صقر المنوفى فقد أثرى من الربا الفاحش واشترى البيت الذى يسكنه، وهدمه، وأقام محله عمارة صغيرة من أربعة أدوار، ورغم ثرائه ظل طفيليا فى الولائم وفراشا يقدم القهوة ويشى بالأسرار والسقطات، وجاء العقاب الإلهى فى أولاده فالبنت هربت وهى فى سن المراهقة، والبكرى عمل صبى قصاب ومات فى مشاجرة، والأوسط عمل فراشا فى وحدة صحية واختفى عن أسرته، وحزن صقر حزنا عميقا واعتقد أن ما أصابه فى ابنه وفى ابنته لم يكن إلا انتقاما إلهيا لإثرائه بالربا الفاحش فكف عن الإقراض وحج إلى بيت الله، وحينما أذاع صقر سر عبدة سليمان وأنها أصبحت عشيقة العادل بطريقته السادية ذكره عبدالرحمن شعبان بأن له ابنة هربت ، فبكى صقر من التأثر وانكمش على نفسه وغادر الحجرة.

أما المفاجأة الكبرى أن صقر المنوفى تم القبض عليه عام ٥٢، أن ابنة الكواء جاءته بالبدلة وكان صقر وحده فى الغرفة فاعتدى عليها وهى قاصر وعام ١٩٦٠ كان الراوى فى الفيشاوى فرأى صقر المنوفى مقبلا عليه بعد خروجه من السجن بأشهر وكلما سأله الراوى عن حاله أجاب فى اقتضاب: الحمد لله.

وعلم الراوى بأن زوجة صقر ماتت وهو فى السجن وأنه يعيش وحيدا وراح الراوى يواسيه ويشجعه فقال صقر:

– أنا راضى بما حدث فهو جزاء حق، لكن لم لا يعامل الله سبحانه بالمثل أشخاصا مثل شرارة النحال أو عدلى المؤذن؟

وهكذا تسدل الأقدار ستائرها على شخصيات دنيا الموظفين، ونسمع خلالها هدير الحياة وتلاطماتها الهائلة، وتحية إلى أستاذنا القدير على تحفته الرائعة ودرته الجميلة. ■

عرائس من الجزائر

- تفاؤلا بالكرى معتقدات وطقوس الزواج
- وإيماننا بأساطير وتعاويذ السحر والحسد

أمانى عبد الحميد

عندما تقرأ هذا الكتاب تتأكد أن العروسة أو الدمية ليست مجرد لعبة يلهو بها الأطفال. إنما هى نتاج خصب ارتبط به أفق الإنسان . وهى الوسيلة الأسبق فى لجوئه إلى التجسيد أو المحاكاة. فمنذ القدم استعان البشر بالعروسة ليجسدوا الخالق لكى يستوعبوا قواه الخارقة ويمارسوا أمامها عقائدهم وإيمانهم. وظلت على مدى التاريخ تعنى الرمز الملموس لكل انفعالات الإنسان وخيالاته وعلاقاته بكل ما هو معنوى غير ملموس. تلك العلاقة الخفية والوطيدة بين الإنسان والدمية وذلك الإرث الضخم من الأساطير والقصص الخيالية والعادات والمعتقدات استطاعت زينب الميلى أن تسردها وترسمها وتجسدها من كتابها «عرائس من الجزائر» .

زينب الميلى الصحفية الجزائرية استطاعت أن تنطلق فى تجربتها الانسانية الأليمة إلى إبداع فنى رفيع حيث قامت بتصميم عرائس بعدد المناطق الجزائرية وألبست كل واحدة زى منطقتها. حتى أصبح أمامها عدد من الدمى تحمل أثوابها وملامح وجوهها تاريخ وتراث تلك المناطق ومعالم شخصيتها وهويتها.

تقول زينب فى كتابها «عرائس من الجزائر» انتمى إلى جيل بنات لا يعرفن العرائس الجاهزة ولا يقتنين الدمى المعروضة فى واجهات المحلات. وكان الآباء يمنعون بناتهم من شراء الدمى الفرنسية خشية التغريب والتفرنس. لذا كانت الأمهات والجدات يقمن بعمل العرائس. «دُمانا كانت بدائية. عرائس تخاط من الكتان وتحشى إما بالصوف أو بنخالة القمح بعد الطحن أو بالنجارة الناعمة. عيونها وشفتاها وخصلات شعرها من الخيوط والقماش».

حكايات ذات دلالات

قدمت فى كتابها سبعاً وأربعين عروسة مختلفة الأشكال والأزياء. من شمال وجنوب الجزائر ومن مرتفعاتها ووديانها وحتى من أعماق صحاريها. بعضها للبنات وأخرى دمى للبنين. كل عروسة تحمل ملامح بيئتها وتحمل معها أرثا كبيرا من الأساطير والحكايات التى تحوم حول اليوم المشهود لزفاف العريس بعروسه، فبرغم اختلاف البيئة والمكان إلا أننا نجد دائما الطقوس والعادات التى يجب احترامها. والإيمان بها واتباع مفرداتها المتمثلة فى الزى أو الحلى أو حتى الحركة التى تصدر من العروس. حتى يتمتع الزوجان بحياة هنيئة تخلو من عيون الحسد وهادئة لا تؤذيها الأرواح الشريرة. معظم تلك العادات تختلف باختلاف المستوى الفكرى والثقافى وبتفاوت المستوى المادى الذى ينعمْ به أهل المكان. لكنها جميعها مستوحاة من الجذور والمنابت العميقة. بعضها أسطورى خيالى يصل إلى حد الخرافة، وبعضها دينى يرتبط بطقوس العبادة. والآخر يتجلى فى طقوس الزواج

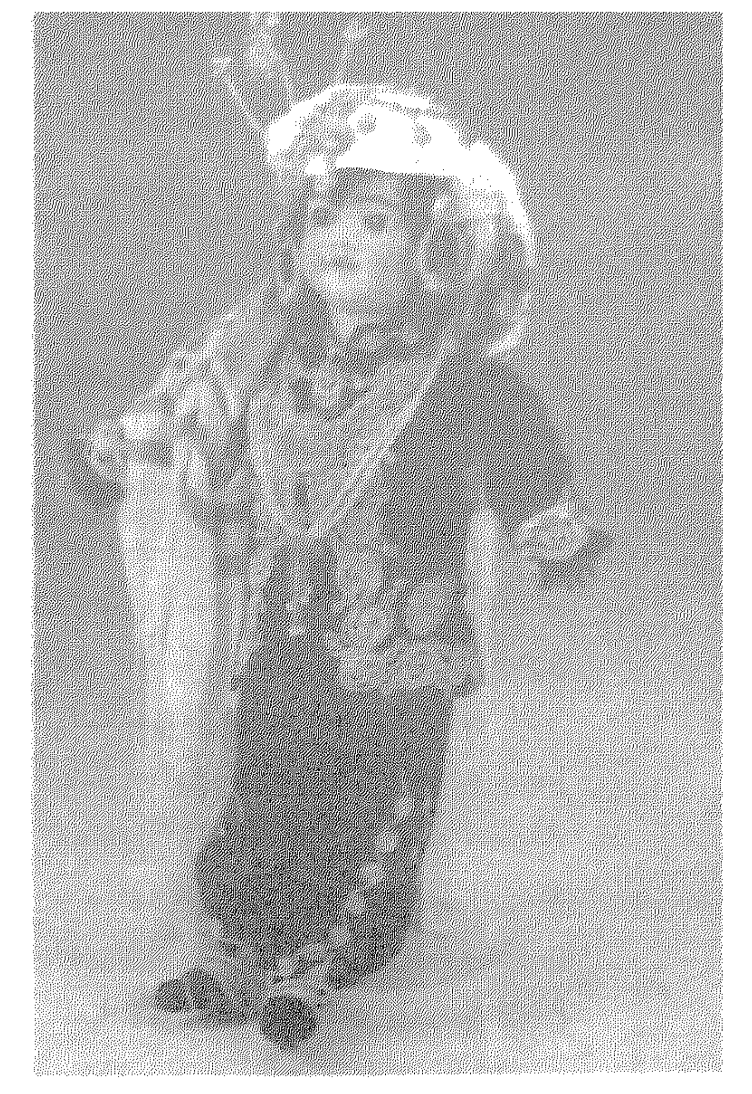


«محمد» أو «حمه» أول من يختن فى العائلة

والميلاد داخل الجزائر . على اعتبار أنها بلاد مترامية الأطراف ومتعددة البيئات. لذا تختلف تلك الطقوس والعادات من مكان لآخر. فثوب الزفاف له مواصفات ترتبط بالمعتقد السائد فى المنطقة. الحلى التى تتزين بها سواء من الفضة أو الذهب أو حتى من العاج والخرز كل قطعة لها دلالاتها. حتى الاسم الذى تحمله العروس يكون نابعاً من بيئتها. قد يكون متماشياً معها أو حتى متعارضاً تماماً كما سنرى. وبما أن المعتقدات والأساطير ترتبط بشكل كبير بحالة العجز الذى قد يشعر به الانسان أمام أية قوى قاهرة أو مظاهر لا يفهم أسبابها. لذا كان الإنسان يلجأ لأعمال السحر والتمائم أو الطلاسم، كلها تساعده على التخلص من موقف ما لا يقدر على مواجهته. أو حتى الشفاء من مرض ما أو أذى ما.

لذا اهتم الإنسان بصنع التمائم على شكل حلىّ لتحميه وتبعد عنه الشياطين والأرواح الشريرة وعلى العروس ليلة عرسها أن ترتدى إحدى تلك الحلىّ أو التمائم لتنعم بحياة تخلو من الأذى.

وهذا ما كشفت عنه زينب الميلى فى كتابها الذى يرصد أهم ملامح التفاؤل والتشاؤم عند الجزائريين والتى



«دوجة » عروسة من العاصمة ترتدى « الكراكو» الجاكيت القطيفة المطرز بالذهب وحليها ذو الطابع التركى



بداى » بدوى من الهوقار ـ الملثمين – يضع على صدره تعويذة بها ورقة كتبت عليها آيات قرآنية لجلب الخير وإبعاد الشر



« محبوبة» أى المفضلة لدى الجميع ، ترتدى الذهب ، وشعرها يظل منسدلا حتى اليوم الثالث من الزواج

تعود جذورها إلى تاريخ بعيد قد يرجع إلى ما قبل ظهور الأديان السماوية.

لكن البشر هناك قد يكونون غيروا فى طريقة النظر إليها. بعد دخول الديانات. قاموا بتحويرها أو جعل بعضها لا يتعارض مع العقيدة الدينية.

وإن كان لا يختلف كثيراً عما ورثوه في الماضي.

عرائس الأمل

كل عروسة عليها أن تحمل في ثوبها وشكلها وحليّها إرثا كبيرا توارثته الأجيال المتعاقبة. فهي تحمل ملامح بيئتها. عروسة منطقة النماشة بالأوراس تحمل اسم «جغمومة» حيث إنها مناطق يشح فيها المطر وتقل فيها عيون الماء. لذا تحمل البنت اسم الإناء الذي يدلى إلى البئر ليحمل الماء أي جغمة الماء. أما ثوب زفافها فيتكون من أجزاء كثيرة وإن كان أهمها «الدباغة» الذي يمتص الدهن من رأسها، و«التلثيمة» التي تحميها من حبات الرمال، والجبين الذي ترتديه على رأسها، وعندما تضعه على صدرها فهذا يعني أنها «تاقيارت» أي بكر لم يسبق لها الزواج.

وتضع سلاسل تتكون من قطع نقدية فضية هي في الأغلب مهر وصداق المرأة. وبها توضع صيغة فضة عبارة عن جعبة مستطيلة مجوفة تسمى «صيغة السر». ويرجع تاريخها إلى أن تلك المناطق لم يكن بها نفوذ سواء عثماني أو فرنسي.

وكان الرجال يتزوجون أكثر من امرأة، وعندما يموت قد لاترث المرأة نصيبها في إرث زوجها. لذا يحرص والد البنت على صناعة «صيغة السر» تلك ليضع داخلها عقد الزواج أو ما يقوم مقامه. ترتديها المرأة طيلة حياتها، حفاظاً على حقوقها الشرعية.

ترتدي البنت الملحفة وهي الزي الرئيسي للمرأة الريفية وبالصحاري الجزائرية. لونها يختلف باختلاف الموقع الجغرافي، ففي أعراش قبائل النماشة اللون الأحمر هو المفضل، ومن بعده الأصفر، وفي حالة الكبر يتحول اللون إلى لون باهت أو غامق. وفي مناطق أخرى تختار المرأة اللون السماوي أو الحبري.

وإن كانت النساء يفضلن أن تكون الملحفة مزينة بحبات الرمان رمزا لكثرة الإنجاب. وبعد دخول الكهرباء أصبحت الملحفة يتم تطريزها برسم المصباح لتدل أن صاحبتها لبستها مثل دخول الضوء إلى بيتها.

أما «علجية» فاسم يطلقونه على السبايا سواء من الذكور أو الإناث خاصة في «واد سوف» بالقرب من تونس ومن تحمل هذا الاسم تحمله تبركا بأن تكون ذات جمال وحسن مزيج من الجمال العربي والغربي فهي سمراء تغطي رأسها بمنديل من الحرير وشعرها ضفائر منسدلة على كتفها طول الأيام السبعة للعرس ومن «واد سوف» نرى دمية لذكر يطلقون عليه اسم «محمد» وينادونه «حمه» للتدليل وهو الولد الأول الذي يختن في العائلة يرتدي الطربوش

القانى الحمرة الصوفى والمطرز بالقيطان الأسود وعليه يضع بوكشاش أو الوزعة المصنوعة فى الفضة للتفاؤل ولرد العين والحسد ويرتدى قطعة فى الصوف الأبيض تكون لأحد المعمرين فى العائلة تبركا به حتى يعمر الولد كصاحبها.

خيط الروح

أما «خولة» فهى عروس من منطقة تلمسان تحمل سمات الجمال الجزائرى وشمال أفريقيا تميل إلى السمنة لأن بعض العائلات كان تطلب مهر البنت بما يعادل ميزانها من الشحم واللحم وهى ترتدى كميات كبيرة من الذهب واللؤلؤ والجواهر والخواتم والخلخال الذى يشبه خلخال بنى مزاب ومصنوع من الذهب.

«أم هانى» عروس من منطقة شاويسة النمامشة شائعة فى المناطق البربرية حيث تعمل المرأة على حصد الزرع وتربية المواشى وصناعة الصوف وغزله أما الرجل فدوره ينحصر فى جز الخرفان وعمليات النسج للخيوط فقط. ومن الغريب أن تلك المناطق اشتهر فيها الرجل بضرب زوجته بعصاه على رأسها تأديبا لها لعنادها لذا ترتدى المرأة «الشمبير» وهو كم هائل من المحارم والأقمشة لتحمى رأسها من الضربات، وتتزين العروس هناك بالفضة ولا تلبس الذهب، حليها مطعم بالزجاج الأحمر لحب القبيلة لذلك اللون حتى سميت قبيلتهم بالعرش الأحمر.

«زمردة» اسم يطلق على البنت فى المناطق التى شهدت نزوحاً من الأندلس خاصة بعد سقوط غرناطة ترتدى جاكيت من القطيفة المطررزة بنوع من الخرز يسمى السمسم الأسود وتترك شعرها طويلا منسدلاً لأنه لم يعرف المقص تتزين بعقود مختلفة الأشكال والأطوال مصنوعة كلها من الذهب الخالص منها عقد يسمى «خيط الروح» لالتصاقة برقبتها وإن كانت تلبسه ليلة زفافها على رأسها موضع التاج .

«غنيمة» اسمها يرجع إلى غنائم زمن الحرب ترتدى محرمة من الحرير الذى تشتهر به مدينة « تلمسان»

ومن قسنطينة تحمل العروسة اسم «منوبة» يدللونها باسم «بوبة» تضع فوق رأسها نسيجاً حريرياً بخيوط مذهبة ويزينونه بقطعة من الذهب الصغيرة هرمية الشكل يسمونها «مخ الشاشية» والتي لاتلبسها تكون إما عجوز أو أنها من عائلة متواضعة جدا وهناك ما يسمونه بالمحبوب نظرا لأن المحب الراغب في الزواج يهديها لفتاته، قطعة أيام الخطبة والثانية في المناسبات أو الأعياد والثالثة عند الزواج، ويسمى بهارة الشاشية السلطاني اقتباساً من السلاطين الثلاثة للدولة العثمانية أورخان، حراد الأول وبايزيد. وترتدى العروس قندوره قطيفة مطرزه بالذهب لونها عنابى ومطرزه برسوم زهرة القرنفل والسوسن التى تشتهر بها الزخرفه الإسلامية، وفى المدن غير البحرية يطلق أهلها على عروسهم اسم «بحرية» تيمنا بالبحر خاصة من مدينة «تبسة» التى تحمل اسم جبال تبسة داخل تخوم الصحراء الجزائرية. وترى «زينب» فى كتابها أن أهل المدن البحرية أكثر انفتاحاً خاصة فيما يتعلق بخروج المرأة، ويقول هناك أن المرأة لاتخرج الامرتين، الأولى عندما تغادر أهلها إلى بيت زوجها الثانية عندما تخرج منه إلى القبر، لذا كان البحر بالنسبة لأهل مدن الداخل محاطا بهالة من الأساطير فمن معتقداتهم أن الشخص المسحور يستطيع أن يتخلص من مفعول السحر إذا غطس فى ماء البحر وشرب من أمواجة المالحة وإن هو أخذ منه كميات مياه وسكبها على عتبه منزله أبطل مفعول السحر نهائيا لذا ظلت عروس تبسة تحمل اسم البحر .

نزول السر

ومن قلب الصحراء أيضا عروسة تحمل اسم ابنه الناقة البيضاء المهارى وهو «مهرية» وذلك لشغف أهل بلدة نقرين بالنوق والمهارى حيث يتباركون عندما تكون المولودة ناصعة البياض لأن السمرة هى المنتشرة بينهم. تضع العروس على رأسها قطعة على شكل يد كتميمه لها مصنوعة من الفضة المزركشة وداخلها حجابا به أسماء الله الحسنى ليحميها من لسعات العقارب التى يكثر وجودها عندهم خاصة فى فصل الصيف، وأقراطها تتشكل على هيئة حيوان خاصة الأسد وبها زخارف أفريقية وفى منطقة الحضنة أطلقوا على عروسهم السمراء اسم «قرمية» المأخوذ من اسم طائر القرمى الذى يتميز بجمال وكبر عيونه السوداء ترتدى ملحفة غريبة الصنع ونادرة فهى مصنوعة من الحرير الطبيعى الخالص عليها زخرفة إسلامية وتمسك بأكتافها خلالات فى الفضة وفى يدها أساور كثيرة أما عروسة الهوقار يطلقون عليها اسم «فاطنة» ويقصدون بذلك الفطنه والذكاء



ترتدى عقود من الخرز والعاج الأفريقى ملونة إيمانا بانها تمائم تبعد عنها الشر ولسعات الأفاعى. فستاتها يكون دائما من اللون الغامق عليه رسومات تحمل صليب الصحراء وهو يختلف عن الصليب المسيحى .

ومن العادات الغريبة تلك التى يعتقد بها أهل مدن شرق الجزائر مثل سوق أهراس وبعض العائلات من عنابه وبنى حزاب الا يظهر من العروس ليلة عرسها شئ على الإطلاق حيث يتم تغطيتها من رأسها إلى أخمص قدمها لذا أطلقوا عليها اسم «المغبزة» فهى تجلس على فراش بالأرض ولاتترك مكانها طوال النهار حيث تعتقد النساء المسنات أن تغليف العروس يجعل خدودها تحمر وهذا يعنى أن السر نزل عليها فالاحمرار جزء من الجمال، وعندما تصل العروس إلى منزل زوجها تعطيها حماتها بيض لتكسرهم على الباب قبل دخولها حتى تكون زوجة كثيرة الإفراخ مثل البيضة ومن نفس المعتقد يطلق أهل المناطق البربرية على عروسهم «الفروجة» أى الدجاجة الصغيرة وأحياناً الفلوسة أى الدجاجة ذات العرف الأحمر أو«النونابة» أى التى يكثر ريشها خاصة ذا اللون الأحمر .

الرجال الدمى

كما قدمت زينب الميلى فى كتابها عدد من العرائس أو الدمى التى تمثل الذكور فى مختلف بقاع الجزائر مثل عريس حمدان أو «البرنوس» حيث يرتدى برنوس مصنوع من صوف الغنم أو الخروف الأبيض، وآخر مصنوع من وبر الجمال يكون لونه أزرق وينتشر فى مناطق غرب الجزائر ودمية أخرى تحمل اسم «عاشور» لكل صبى يولد ليله عاشوراء ويكون على والديه إلباسه الطربوش الصوفى المزين بالهلال والنجمة ويرتدى قميصاً من الحرير

«العارم» اسم مأخوذ من الطيور المهاجرة ، ويطلقه البعض على البوم حتى يبعد التشاؤم ويصفون به جمال العيون وكبرها



الأبيض المقلم يسروالا عربيا يرجع طرازه إلى العهد العثمانى. أما فى قرية «العقلة» فى منطقة النماشة فيطلقون على الولد اسم «بوتوته» وهو مستمد من شجرة التوت البرى فالمرأة التى يطول انتظارها للحمل أو لإنجاب الذكر تقوم بزيارة الولى الا صالح فى بلدتها وتقدم لله الوعد أو النذر وإذا رزقت بالولد تصنع له قدوارة أو جبة فى الصوف الناعم لتضعها فوق رأسه تقوم بحياكتها إحدى الجدات أو الأكبرهن عمراً تبركاً بأن يصل لعمرها. وفى صدره توضع رجل ضبى أو ضربا يكون قد اصطاده رجل



عريس قبيلة «صنهاجة » البربرية الذى يقيمون بالصحراء ويعرفون بالرجال « الزرق »

يحمل اسم محمد أو أحمد وإذا لم يصطده أحد يحمل هذا الاسم يتولى ذبح الضربيان أحد يحمل الاسم وفى المناطق الناطقة باللغة البربرية يسمى الذكر باسم «بداى» يكون ملثم ويرتدى السبحة حول عنقه ولاتفارقه تماماً كأهل الهوقار. أما فى الشرق فيطلقون على الذكر الذى يولد أيام القر الشديد أو البرد القارس المصحوب برياح وثلوج اسم «بوقرة». أما قبيلة «صنهاجة» البربرية فعريسها الملثم يطلقون عليه اسم «تاترى تانتوفا » أى النجم الذى يظهر مباشرة بعد غروب الشمس قبل ظهور كل النجوم، ومن عاداتهم ألا يسموا مولودهم الذكر قبل مرور سبعة أيام على ولادته خوفا من أن يحلى فى عيون الموت فيخطفه، والغريب أن ابناء القبيلة الذين يسكنون الصحراء يطلقون عليهم اسم «الطوارق» وعلى رجالهم اسم الرجال الزرق والمرأة عندهم هى التى تملك حق طلاق الرجل لذا لايوجد عندهم تعدد الزوجات وعباءة العريس مصنوعة فى خيوط الصوف الناعمة ويرتدى حزاما طويلا من جلد الجمل يكون مصبوغا بمواد مثل الأعشاب ومطليا بمادة الصلصال التى يقومون بتجهيزها بطريقة خاصة حيث يبول عليها البعير ويخلط بمخ الغزال وزهيم النعام وهو مادة دهنية اعتقاداً منهم بأن ذلك يحمى العريس من الإصابة بالعقم أو العجز

الجنسى وتبعد عنه الشياطين والأرواح الشرير .

الشمس والقمر

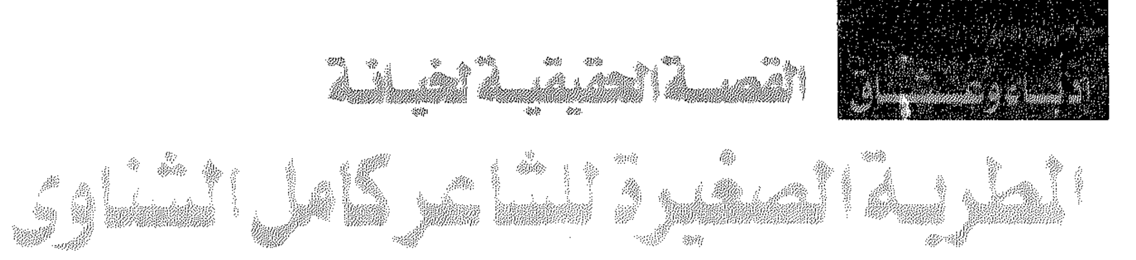
كما سرد الكتاب عددا من الحلى والأدوات والآنية التى ارتبط بها أساطير ومعتقدات آمن بها أهل الجزائر سواء فى البدو أو الحضر. مثل «الجبين» الذى ترتديه المرأة البدوية فوق رأسها بعد أن تلفها بعدد من الأغطية القطنية أو الحريرية. ويختلف الجبين فى مكان لآخر. فنساء النماشة يتشاءمن من الذهب ويطلقون عليه الشمس التى تقترن بالجفاف والقحط لذا يفضلن صنعه منه الفضة ويسمونه القمر لما يمثله من هدوء وبرودة النسيم، وهو حليه ترمز إلى حالة المرأة إذا كانت متزوجة أم لا. كذلك يسرد أساطير القميص المطرز بأشكال وزخارف إسلامية حيث تؤكد الحكايات ارتباط القميص «برداء المسيح» رغم أن العروس ترتديه ليلة عرسها داخل ثوب زفافها .

أما «الطاسة» التى تشبه القبعة الكاملة التطريز يستعملها أهل الحضر وتلبسها النساء الشابات أيام العيد، أما المسنات فلا يضعنها أبدا. وتتدلى من أحد جنباتها خيوط ذهبية ملوية وترمز إلى المرأة المسلمة. فلا ترتديها اليهودية على اعتبار أن الطاسة تشبه العمة التى يرتديها مشايخ المسلمين فى حين تلبس المرأة باختلاف ديانتها شاشية القرن أحد أهم قطع الزينة الضرورية والأغلى ثمنا.

والطريف أن للرجل أيضا لوازم زينة لكى ترمز إلى مكانته الاجتماعية والاقتصادية ومنزلته وقبيلته أو عشيرته مثل «إدرذام» وهى قطعة يحملها فارس الحضر و«الخرج» التى يحملها أهل البدو فى رحلاتهم.

وهما قطعتان معدتان لوضع البارود، وتكون مطرزة أو مصنوعة بالكامل من الفضة الخالصة. كما تستعمل كحافظة للنقود ولا يحملها إلا الثرى أو صاحب الجاه.

والكتاب ثرى بالتفاصيل الكثيرة التى تتناول أزياء أهل البدو والحضر وأهل السواحل والصحارى . ولا يسعنى استعراض كل ما جاء فيه لكننا كنا نأمل أن مجهودا مماثلا فى مصر. فتراثنا لا يخلو من تلك التفاصيل سواء التى تتعلق بالأزياء أو الحلى أو حتى طقوس الزواج وليلة العرس. فالمرأة فى مدن القنال ترتدى ثلاثة أثواب زفاف بثلاثة ألوان أبيض ووردى وأزرق.. وفى واحة سيوة تبدأ بغزل ثوب زفاف البنت يوم ولدتها وفى سيناء ترحل الفتاة قبل عرسها إلى الجبل - رفيق دربها - لتودعه وتبيت بين دروبه ولا ترجع إلا ليلة زفافها. وبالتالى لدينا من الحكايات والمعتقدات التى تحتاج إلى التدوين برغم اندثار أغلبها. ■



القصة الحقيقية لخيانة

المطربة الصغيرة للشاعر كامل الشناوي

بقلم

يوسف الشريف

يكاد يجمع الذين عرفوا عن قرب الشاعر كامل الشناوى، أنه برغم القصائد الوطنية العديدة التى نظمها، إلا أنه يستحق عن جدارة لقب «شاعر الحب» الذى خلعه عليه عباس محمود العقاد، وذلك أن الحب كان دائما طعامه وهواءه ومحور حياته!

وهو عندما دعا الشعب فى قصيدته الوطنية إلى كراهية الإنجليز «تعلم كيف تكره» ، فكأنما كان يحرض نفسه، ويحاول أن يجبرها على شىء لاتعرفه، فهو قد حاول طوال حياته أن يكره، ولم يستطع!

كان كامل يكتب فى كل أغراض الشعر، وصفا، ومديحا، وحماسا، ورثاء. لكن ظل الحب يستحوذ على غالب اهتماماته وإبداعاته الشعرية.

ولأنه لم يتزوج قط، كان شعره أداته، ووسيلته، وملهاته التى يستشرف عبرها الجمال ويتنفس بها الحب، فإذا لم يسعفه الوحى والخيال شعرا، استعاذ بلمحاته الشعرية المنثورة، وهى رسائل الحب التى كان يبثها إلى آخر معشوقاته، وكان يكتبها تحت عنوان «ساعات» فى صحيفة الجمهورية التى كان يرأس تحريرها، وفى قصاصات أوراقه التى صدرت بعد وفاته فى كتاب بعنوان «حبيبتى» وعلى مايبدو أن هذه الرسائل ظلت حبيسة مكتبه دون أن تطاوعه نفسه على نشرها فى حينها لأسباب خاصة مجهولة!.

قلب ساعة الانقلابات

يقول مصطفى أمين فى كامل الشناوى العاشق: «كان برغم بدانته سريع التنقل وخصوصا فى حبه وهواه، قلبه مثل برامج السينما التى تتغير كل أسبوع، وكل رواية تعرض على شاشة قلبه هى «آخر صيحة»، وهى «أقوى ما عرض حتى الآن»، فإذا انتهى عرض الفيلم، ارتدى الفيلم الجديد نفس الثوب، وتحلى بنفس الأوسمة والنياشين، وفى الفترة التى كان يحب فيها كامل الشناوى، يصف محبوبته بكل الأوصاف الحلوة والنعوت الضخمة، ثم ينسدل الستار عن المعشوقة فجأة، وتحل مكانها المعبودة الجديدة، وهكذا كان قلب كامل الشناوى مثل جمهوريات أمريكا اللاتينية، مليئة بالانقلابات والتغيرات!.

ولأن الإنسان مطبوع على الحب طفلا وصبيا وشابا وكهلا وشيخا، لذلك عرف كامل الشناوى الحب فى كل دورات حياته تباعا، فحتى المطربة الصغيرة، وهى كانت أشهر محبوباته وأخرى معشوقاته وهو فى معمعة الكهولة، نظم فيها شعرا ملتهبا مشبوب العاطفة، كما سبها نثرا صارخا كضربات ملاكم جبار!

عن حبه الأول يقول: «لا لست أذكر على وجه التحديد كيف كانت قصة حبى الأول، كل ما أذكره أننى كنت صبيا لم أدخل بعد مرحلة الشباب، كان حبا ساذجا لم ينته إلى غير الشوق و نسيان، كانت تربطنى بها أواصر قربى، كنا نلتقى فى منزلنا أو منزلها كل يوم، أحسست نحوها شعورا غامضا، وجدته يدفعنى إليها وفى الوقت نفسه يبعدنى عنها. كنت أتمناها زوجة، ولكنى كنت أتهيب أن أهمس إليها بكلمة حب واحدة، كان الحديث يدور بيننا قصيرا جادا، وحركت هذه الحادثة شيئا حلوا جميلا فى قلبى كنت نسيته لأن العيون حولنا كثيرة، كنت صبيا صغيرا لم يزل يخشى الحب .. وافترقنا .. و .. لما كبرنا التقينا مصادفة، جمعتنا المفاجأة المدهشة فى منزل الأسرة بعد سنين طويلة من عدم اللقاء. كانت حبيبتى قد تزوجت وأنجبت، وفى لحظات هادئة صارحتها بما كان فى نفسى نحوها وأنا صبى، تصصت عليها شعورى زمان، وضحكت هى الأخرى من

هواجس نفسى، وقالت إنها كانت تبادلنى نفس المشاعر والأحاسيس فى ذلك الحين، ولكن الوقت قد فات، وهكذا دارت بى الأيام دورتها، وكما أحببت فى صباى أحببت فى شبابى، وإلى الآن مازلت أتشبث بالحب، ولم أكن فى شبابى سعيدا بالحب، ومن هنا يمكن الإجابة عن السؤال: هل أنا مع الحب .. شقى أم سعيد؟!..

ذلك كان اعتراف كامل الشناوى يوما عام ١٩٦٠ .. حب الصبا المكتوم الذى ضاع، وشقاء شبابه بالحب .. فماذا بقى له من مؤهلات الحب ومشاعره فى كهولته؟

أن يضيع الحب فى مرحلة الطفولة والصبا .. فذلك أمر مفهوم فى سيرة كامل الشناوى .. فربما كان السبب يرجع إلى بيئته الدينية ونشأته المحافظة فى الريف، وربما كان للبدانة والانطواء دخل فيما حدث.. ثم من منا لم يحب ولم يضع منه الحب فى بواكير العمر؟

ولكن كيف يشقى الإنسان بالحب فى مرحلة الشباب والفحولة، وإذا فشل مرة فى الحب أو أكثر فمن الطبيعى أن يواصل تجاربه العاطفية مع غيرها وغيرهن من المحبوبات حتى يلتقى بالحب ويتواصل معه، لكننا فى حالة كامل الشناوى نكتشف أنه لم يع الدروس المستفادة من تجاربه.. وأنه ظل يستعذب الفشل فى الحب أو التعلق بأوهام الحب!.

يقول أنيس منصور: أنا لا أصدق كثيرا مايقوله الشعراء لأنهم يتغنون بالعذاب والهوان ويجدون لذة فى ذلك، وإن حاولت أن تمد يدك لواحد منهم فإنه لن يطاوعك، وسوف يسخر منك، لأن الشاعر لايريد علاجا لعذابه، بل عذابه هو العلاج، وشقاؤه هو الشفاء .. ولذلك فأنا أصدق كامل الشناوى ألف مرة عندما يقول:

أنا عمر بلا شباب
وحياة بلا ربيع
أشتري الحب بالعذاب
أشتريه فمن يبيع

الشائع عن كامل الشناوى فيما رواه عن نفسه، أن أول حب قاهرى فى حياته كان فى مقتبل العشرين من عمره وزمانه عام ١٩٣٠ ومكانه المعادى، واسم محبوبته مدموزيل «س».

كانت «س» آية فى الجمال والرقة، رقة العود والصوت والسلوك، لكنها تختلط فيها الكلمات العربية بالفرنسية فتتحول على شفتيا موسيقى وسحرا!

ذهب إلى خالها يتلقى على يديه دروسا فى اللغة الفرنسية استعدادا لدراسة الحقوق فى «السربون» بعد أن تيقن والده الشيخ سيد الشناوى أن ابنه فاشل لامحالة فى الاستمرار بالدراسة على غراره فى صحن الأزهر الشريف.

فلما التقى بالمدموزيل «س» عدة مرات على انفراد، ويحث عن الشيطان ثالثهما كما تعلم فى الأزهر، لم يجد أمامه سوى لوحة ربانية لاشرقية ولا غربية، لكنها مزيج حضارى فريد ونبيل، كانت قطعة من الفن والجمال والثقافة، من الحقيقة والخيال، كلماتها تغريد، وسكناتها نسائم، ونظراتها ضياء الفجر!

من أجلها خلع العمامة من قلبه وعقله قبل أن يخلعها عن رأسه، سمع منها لأول مرة عن نظرية «داروين»، وأسمعته السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وعلمته أصول الإتيكيت، وفتحت أمامه آفاقا رحبة على دنيا جديدة!.

لم تخل مواقفه معها من طرائف ومآزق، كان أول الأمر يسير معها فيسبقها ويسرع حتى تظل خلفه كعادة الرجال مع النساء فى عائلته، وإذا قابلها أحد معارفها ابتعد عنها، فتناديه فيأتى خجلا كأنه ضبط فى موقف شائن!

ورأى الرجال فى عائلة «س» يقبلون أيدى النساء، وفكر فى أن يقلدهم. وعندما التقى بها نسى نفسه وهو يقبل يدها، فهم برفع يدها على جبهته كما يفعل عادة مع



والده ووالدته وعمه، لكنه أدرك حرج الموقف بسرعة وتوقف!

وكامل الشناوى تغزل كثيرا فى محبوبة الصبا بشعر مزيف لايعبر عن نفسه، كان فى جملته تقليدا لمعانى وألفاظ الغزل التى قرأها فى قصائد الشعراء، فهو قد شكا من الهجر وهى تلازمه، وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك أحد سواه، بعث إليها بالسلام على جناح النسور وهى بجواره!

لكن ما أن افترقا حتى اختلى بنفسه وهو يسترجع السعادة والنشوة ساعات اختلائه بها، وذلك النور الذى كان يشع من ملامحها، وسحر حديثها ورقتها و.. يقول كامل الشناوى إن أول قصيدة نظمها فى حياته تعبر عن مشاعره الحقيقية كانت فى محبوبة المعادى المدموزيل «س».

المعادي أو نفحة من هواها
تودع النفس في شذاها الشجونا
المعادي فقد تركت في فؤادي
في رباها مشردا مجنونا

الفنانة زهور

على أن كامل الشناوى روى لى أنه هم بالزواج وكاد يقع فى حبائله عام ١٩٤٥. وكانت المحبوبة إحدى قريباته وهى فى الوقت نفسه حفيدة الكاتب الصحفى الشهير محمد التابعى، وقد وصفها كامل الشناوى بكونها بارعة الجمال.. رقيقة .. خجولة .. شديدة الأنفة. منطوية على نفسها..

وعندما أبرقت العائلة إلى التابعى تطلب موافقته وكان فى رحلة صيفية بالخارج، كان رده بالاعتذار عبر تأجيل الموضوع برمته إلى حين عودته.

ومرت شهور، وبينما كان التابعى وكامل الشناوى فى ضيافة السيدة أم كلثوم بمصيف رأس البر .. اختليا وكل منهما لديه مايقول للآخر و.. بادر التابعى قائلا: تريد ياكامل أن تسألنى لماذا عارضت زواجك من «...»؟.

قال: نعم.



كاميليا مصطفى أمين

قال التابعى: أنت يا كامل مولع بالسهر طول الليل .. تقوم الليل كله .. وتنام النهار كله .. فماذا تفعل زوجتك الشابة طول الليل و.. وافقه على استبعاد فكرة زواجه!

وقد ظل كامل الشناوى يختزن بالألم ذكرى تلك الواقعة التى لم يعرف بها أصدقاؤه وكثير من أقاربه، وبعد عشرين عاما تذكر الفتاة التى كان يرنو إلى الزواج بها.. وكيف اضطر أهلها إلى الإسراع بزواجها عندما أدركوا تعلقه بها وتعلقها به.. وكتب قصيدة يقول فيها

كل ما أذكره أنا انتهينا
وتولاني الضياع
حين أبصرت الوداع
لاتثر حولي ضجة
فلقد أصبحت زوجة

ويروى أصدقاء كامل الشناوى أن أعمق قصة حب مكتملة الأركان خاض تجربتها فى السابعة والعشرين من عمره، وهى التى أطلقت ملكاته الشعرية الرومانسية من عقالها العاطفى، وفجرت مشاعره المكبوتة، وأججت فيه عزائم الرجولة، فلم يعد يأبه لا بالتقاليد ولا بالشهرة أو المكانة الاجتماعية!

حدث ذلك عام ١٩٤٧ .كان لايزال يملأ الدنيا أملا وشعرا عذبا حالما، وكانت محبوبته غانية اسمها «روز»، وكان اللقاء فى كباريه بديعة مصابنى.

كان قد ذهب إلى هذا المكان مع جمع من أصدقائه يستروح من عناء العمل

الصحفي، فوجدها تتهاوى على مائدته، وكان الصحفيون انذاك لهم من الأهمية فى هذه الأمكنة الليلية ما لأثرياء الحب وتجار القطن والعمد وجنود الحلفاء من جاذبية مادية، ودون الدخول فى تفاصيل العلاقة وكيف انتهت إلى فراق، كانت له كعادة الشعراء العرب القدامى ما يشبه الوقفات أو الزيارات للإطلالة العاطفية، وكثيرا كلما استبد به الحنين إلى ماضى الفحولة والعطاء العاطفى المتبادل.

أذكر أنه صحبنى إلى «روز» فى أوائل الستينات، لبنانية الأصل، أوربية السلوك، ورغم أنها كانت فى العقد الخمسين، إلا أنها كانت لاتزال تضج بالحيوية والنشاط والجمال والدلال رغم بصمات السهر التى تخلفت حول عينيها، ولاحظت أن شعرها الذهبى بات كالح اللون، وأن قوامها رغم اكتنازه لايزال يتقن فنون التثنى والإغراء والغواية!

كانت روز تملك وتدير بارا «حانة» يحمل اسمها فى أحد الممرات الجانبية عند تقاطع شارع شريف مع شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة، و .. ازيك ياكامل بك .. وازيك ياروز وضحكات مجلجلة وانطلقا سويا فى حديث الذكريات الودود المتبادلة ما كان يصلنى فى المكان البعيد الذى جلست فيه حتى لا أقطع عليهما خلوة الحب الغارب.

لم أسأله عنها ولم أكن أعرف علاقته السابقة معها إلا بعد عامين، حين جمعتنى الظروف به صيف عام ١٩٦٣ فى شقته التى استأجرها فى حى الأزاريطة بالإسكندرية، وكان قد فرغ من لعب «البوكر» مع بعض أصدقائه الفنانين وراح يداعبهم بسخرياته وآيات ظرفه، أذكر بينهم المذيع جلال معوض وزوجته الفنانة ليلى فوزى، والفنان صلاح ذو الفقار وحرمه، والسيد بدير وزوجته المطربة شريفة فاضل، وتحية كاريوكا والناقد الفنى جليل البندارى.

تحية كاريوكا التى كانت تعرف الكثير من مغامرات كامل الشناوى العاطفية مع الفنانات والغانيات، طلبت منه فجأة أن يروى قصيدة «العيون» التى نظمها فى محبوبته الغانية روز.. وفى نبرات متوهجة بالألم وذكريات الشباب الغض الإيهاب، عرفنا أن قصته العاطفة معها انتهت كالعادة إلى فراق .. قال:

لا وعينيك يا حبيبة روحي
لم أعد فيك هائما فاستريحي

سكنت ثورتي ، فصار سواء
أن تليني ، أو تجنحي للجموح
واهتدت حيرتي ، فسيان عندك
أن تبوحي بالحب أو لا تبوحي
وخيالي الذي سما بك يوما
يا له من خيال كسيح

وإلى نهاية القصيدة التى يقول فيها:

لا وعينيك !
ما سلوتك عمري
فاستريحي
وحاذري أن تريحي

الفنانة كاميليا

الشائع أن أغنية «أنت عمرى» كانت أول لقاء فنى مشترك بين عبدالوهاب وأم كلثوم، وهذا غير صحيح، فقد سبق هذا الحدث لقاء آخر كان موضوعه الفنانة الجميلة كاميليا.

كان ذلك عام ١٩٤٥ والمناسبة عيد ميلاد أحد أصدقاء كامل الشناوى الذى لبى الدعوة وبصحبته الفنانة السينمائية الفاتنة كاميليا، وكان بين المدعوين السيدة أم كلثوم وعبدالوهاب وتوفيق الحكيم ومصطفى أمين وفكرى أباظة والدكتور عبدالوهاب مورو.

حاولت أم كلثوم أن تداعب كامل الشناوى فاتهمته بأنه يتحيز فنيا لكاميليا ويحابيها باهتماماته الصحفية، وحاول أن يقطع عليها طريق السخرية فاعترف أمام الجميع بتحيزه لكاميليا عاطفيا، لكن أم كلثوم أحرجته وقالت: إذا كانت عاطفتك صادقة تجاه كاميليا إذن فقل فيها شعرا من وحى اللحظة.

وعلى الفور بادر محمد عبدالوهاب وقال أنا مستعد كذلك لتلحين هذا الشعر فورا وقالت أم كلثوم وفي هذه الحالة أعلن استعدادي لغناء اللحن في الحال!

ولما وافق الحاضرون على هذا الرأي، لم يجد كامل الشناوي بدا من أن ينتحي جانبا حتى فرغ من نظم أبيات من الغزل في كاميليا وقال فيها:

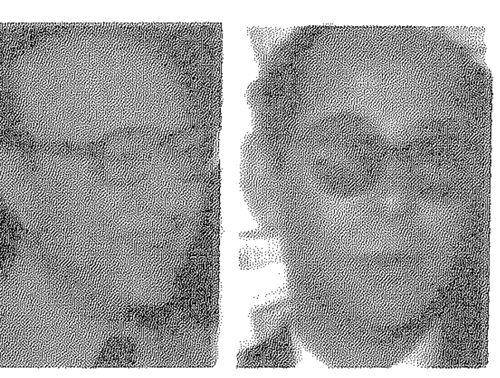
لست أقوي علي هواك ومالي
أمل فيك فارفقي بخيالي
إن بعض الجمال يذهل قلبي
عن ضلوعي فكيف كل الجمال

وقرأ عبدالوهاب القصيدة ولحنها على العود وغنتها أم كلثوم واستعادها الحاضرون مرات ومرات حتى مطلع الفجر.. ولم تكن كاميليا تفهم العربية الفصحى، فكان توفيق الحكيم يترجم لها الأبيات إلى الفرنسية.

والمتتبع لقصة كامل الشناوي العاطفية مع كاميليا يلاحظ أمرين لهما ما وراءهما من الدلالات والمعاني، فهو والملك فاروق كانت لهما علاقة بالفنانة كاميليا، وعلى ما يبدو أن ذلك ما تشي به أخر قصائده عند افتراقه عنها، وهو شعور مزيج من الكبرياء والإحساس بالخطر:

يا كبريائي لقد كلفتني خطرا
فيك المنايا مطلات بأنياب
تمرد الليل لا أغفو به أبدا
حين رأي الفجر مسفوحا علي بابي

بعدها ارتبط كامل الشناوي بعلاقات عاطفية طائشة في غالب الأحوال، بعد أن أعياه البحث عن شبيهة لمحبوبة المعادى المدموزيل «س» في رقتها ونحافة عودها وكان يسمى هذا اللون والشكل من الجنس اللطيف تارة «كوكيت» وأخرى «منيون»، بل إن صديقه الشاعر صالح جودت نظم قصيدة بعنوان منيون أهداها إلى نجاة الصغيرة إرضاء لصديق صباه كامل الشناوي وفيها تخاطب الفتاة المنيون حبيبها



عبد الرحمن الخميسي — محمد عبد الوهاب

البدين قائلة:

أحبه.. أحبه.. ويزدهيني حبه
ورفرته، تعجبني ورقلتي، تعجبه
كأنني في إصبعه حينما أقربه
سيجارة تؤنسه.. تدفئه.. تلهبه
كأنني عصفورة.. زقزقتي تطربه
يضمني في يده.. ويحتويني حبه
أكاد من تيهي به أكله.. أشربه

والشاهد أن علاقات كامل الشناوي العاطفية بهذه الأحجام والأنماط الأنثوية التي عرفها في كهولته لم تتجاوز الحب الروحي أو الرومانسي لا الحب الحسي أو الجنسي على حد وصف الشاعر العربي القديم:

أهوي الملاح وأهوي أن أجالسهم
وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب.. لا إتيان معصية
لا خير في لذة.. من بعدها سقر

لا تكذبي

عندما صدر ديوانه الوحيد «لا تكذبي»، كان بمثابة صرخة ضد خيانة المرأة، حتى أن أحد الشعراء كتب مقالا يعلق فيه على الديوان تحت عنوان «شاعر يحب الخائنات» وأحصى عدد محبوباته في الديوان بأكثر من قصائده الثلاثين وصفحاته التي لم تتجاوز ١٠٦ صفحات وكتب أحد النقاد يقترح على كامل الشناوي تغيير العنوان من «لا تكذبي» إلى لا تكذب، ربما لأنه يتقاسم المسئولية في خيانة محبوباته، عبر عجزه عن إرواء عطش



تلك الأنماط الأنثوية البرعمية.

على أن أول بيت في ديوانه كان بداية النهاية لأكبر وأعمق وأشهر قصة حب في حياته كلها:

لا تكذبي إني رأيتكما معا
ودعي البكاء فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جري
من عين كاذبة فأنكر وادعي

والحديث عن بطلة القصيدة كثير، ومتناقض، فمن قائل أنه ضبطها متلبسة بخيانتها العاطفية مع صباح قباني مدير تليفزيون دمشق، أو شقيقه الشاعر نزار قباني، ومن قائل أنه المخرج عزالدين ذو الفقار، بينما الكثيرون - وأنا معهم - يجزمون بأنه كاتب أديب شاب يعتبره النقاد - ولايزال - أقدر من كتب القصة القصيرة في مصر والوطن العربي.

ومن عجب أن هذا الأديب - يرحمه الله - التقاني بعد صدور كتابي «آخر ظرفاء ذلك الزمان» حول سيرة حياء أستاذنا كامل الشناوي، وبادرني فيما يشبه العتاب لأني لم أذكر اسمه صراحة، باعتباره الخائن في قصيدة لا تكذبي، وكتبت اعترافه في حينه بمجلة روز اليوسف!

أذكر أوائل عام ١٩٦٢ أنني صحبت كامل الشناوى إلى حوانى «جروبى» حيث، دفع فاتورة مشتريات بمبلغ مائة وخمسين جنيها، وإذا بثلاثة عمال يحملون أمامنا إلى سيارة «بوكس» صناديق الجاتوه والبتى فور وتورتة ضخمة بيضاء ذات عدة أدوار لم تقع عيناني على مثلها سوى في الأفلام السينمائية.

كانت المناسبة عيد ميلاد مطربة مشهورة «منيون» صغيرة الحجم، رقيقة الصوت، وإلى شقتها بالزمالك، دخلت مع كامل الشناوى حيث كان المدعوون محدودى العدد من الأصدقاء والصحفيين والفنانين والأقارب.

فلما جاءت لحظة إطفاء الشموع، إذا بمحبوبة كامل الشناوى وملهمته تختار كاتب القصة القصيرة وتمسك بيده ليساعدها في قطع التورتة بالسكين، وكأنها كانت تقطع في أوصال قلب الشاعر الكبير، وحاول طوال الحفل أن يستر ألمه وإخفاقه وفشل، وهو الذى دخل الحفل منذ قليل هاشا باشا يكاد يرقص طربا ومرحا، ولم يحتمل الموقف فانصرفنا وكان لايزال في الليل ساعات.

ذهبنا إلى شقة الشاعر عبدالرحمن الخميسي في حى معروف وكان مفلسا، ومن النافذة نادى جاره الفنان سعيد أبو بكر وقال له إن كامل بك في ضيافته.. وهات معاك أربعة كيلو كباب وأى حاجة نشربها!

لكن كامل الشناوى لم يتناول غير قطعة واحدة من اللحم دون أن يلامس الكأس شفتيه، إذ كان في حالة لم أعهده فيها من قبل على مدى السنوات العشر التي لازمته خلالها في أخريات حياته، عيناه مغرورقتان بالدموع وقد امتقع وجهه، وكف عن أجمل صفاته ومواهبه.. وهي الحكي والسخرية وآيات ظرفه حتى خشيت أن يحدث له مالا تحمد عقباه.

بعد قليل طلب من فكرى الجوهرى مدير أعمال الخميسى أن يحضر له تاكسي ولاحظت أنه على غير عادته لم يدعوني إلى مصاحبته و..

هناك في شقة المطربة الصغيرة قالت لي باتعة مديرة منزل كامل الشناوى وكاتمة أسراره.. دق الباب، فتحت الخادمة، لم يستأذن في الدخول.. وحتى رأى كل شئ ماثلا أمامه يستحيل إخفاؤه أو انكاره!

وبينما اقرأ بابه الأسبوعي في صحيفة الجمهورية «ساعات» أدركت ما حدث رغم أنه غير في بعض التفاصيل وأغفل ذكر الأسماء: «كان المفروض أن أكون معهم، أشاركهم الاحتفال بعيد ميلادها. فهي صديقة. وهم أصدقائي. ولكنهم نسوا أن يدعوني إلى الاحتفال. وتداركوا نسيانهم فذكروني في سهرتهم، وقدموا إليها هداياهم وكانت سيرتي أبرز ما في الهدايا. وضعوا أمامهم التورتة. ومع التورتة مزقوها

بالسكين»!

قال لى الأستاذ مصطفى أمين إنه الوحيد الذى استقبل كامل الشناوى فى أعقاب فاجعته العاطفية فى مطربته الصغيرة، ولما حكى لى القصة بكل تفاصيلها المثيرة، حرضته على أن يجسد مشاعره فى قصيدة، فكانت دموعه تختلط بحبر القلم الذى يكتب به، ثم حرضته بعد اكتمال القصيدة على أن يقرأها على مطربته الصغيرة فى التليفون حتى يشفى غليله، وقرأ عليها القصيدة وهو يكاد ينتحب، وعندما انتهى قالت وكأن الأمر لا يعنيها: كويسة خالص.. ممكن أغنى القصيدة دى يا كامل بك»؟

المعروف أن إحسان عبدالقدوس كتب قصة الشاعر الكبير مع محبوبته فى جريدة الأهرام تحت عنوان «وعاشت بين أصابعه»، وقالت لى السيدة نرمين القويسنى مديرة مكتب الأستاذ إحسان إن المطربة الصغيرة ألحت عليه أن يغير من بعض التفاصيل وكان قد نشر من القصة فصلين، لأنها فوجئت بلعنات الناس تنهال عليها عبر التليفون، وفى خطابات الذين قرأوا القصة وعرفوا العذاب والآلام التى عاناها كامل الشناوى فى حبه من طرف واحد، بل إنها عادت وطلبت شراء القصة بعد نشرها لإنتاجها فى فيلم سينمائى بشرط ألا تسأل لماذا لم تشرع فى إنتاج هذا الفيلم ورفضت أسرة إحسان العرض.

على أن كامل الشناوى لم يتوقف عن هجاء محبوبته شعرا ونثرا .. فهو القائل فى القصيدة التى غناها عبدالحليم حافظ:

حبيبها لست وحدك
حبيبها أنا قبلك
وربما جئت بعدك
وربما كنت مثلك

***

فلم أزل تلقاني
وتستبيحي خداعي
بلهفة في اللقاء



أم كلثوم — احسان عبد القدوس

برجفة في الوداع
بدمعة ليس فيها
كالدمع.. إلا البريق!!
برعشة هي نبض
بغير عروق
حبيبتي وروت لي
ما كان منك ومنهم
فهم كثير.. ولكن
لا شئ تعرف عنهم

ثم ينهى القصيدة قائلا:

ما أنت يا قلب؟
قل لي:
أأنت لعنة حبي؟!
أأنت نقمة ربي؟
إلي متي أنت قلبي؟

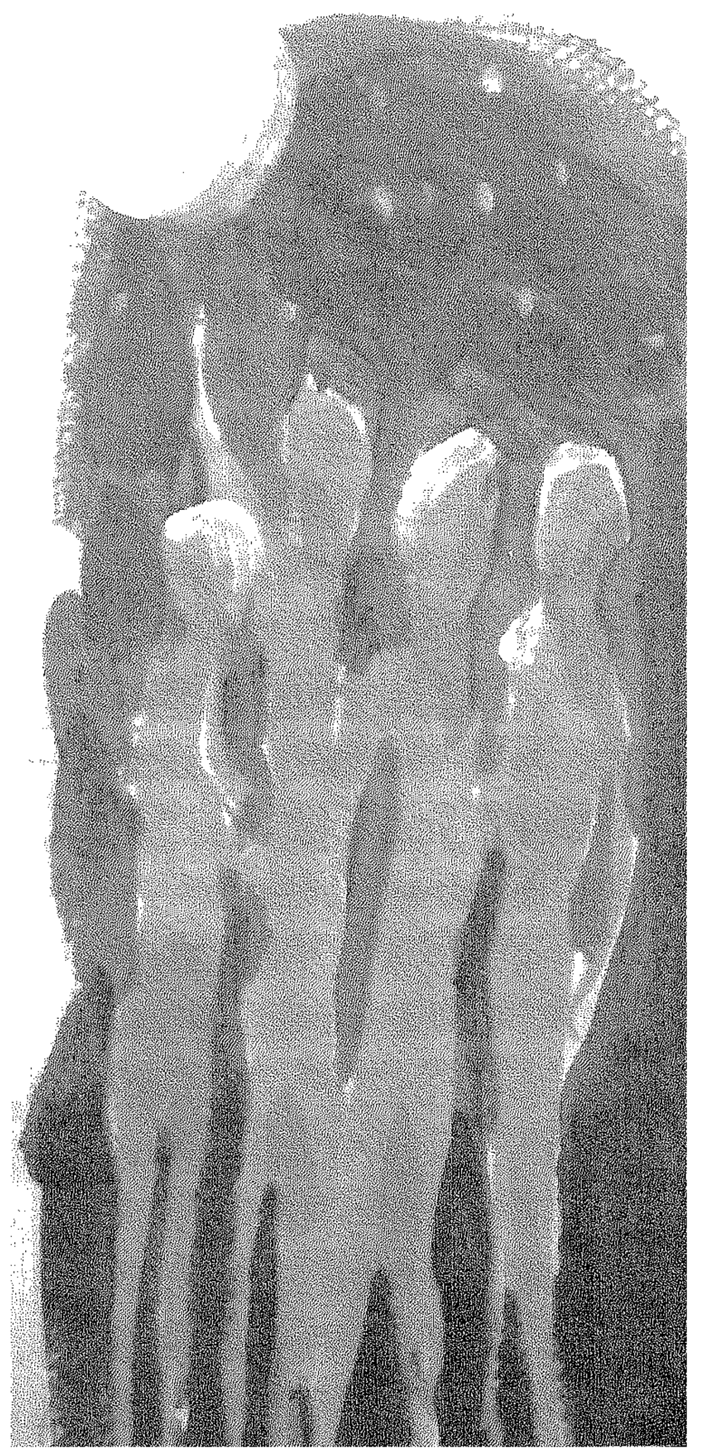
وفى رسائله النثرية الكثير من ألوان هجائه وذمه لمحبوبته «المنيون» التى يصفها بقوله: إنها تحتل قلبى، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها.. تكنسه، وتمسحه، وتعيد ترتيب الأثاث.. وتقابل فيه كل الناس.. شخص واحد تهرب من لقائه.. صاحب البيت! ■

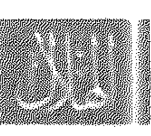
كيف ضاعت حبات

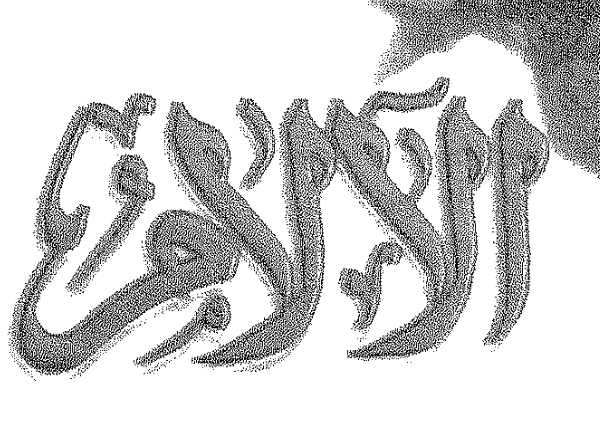


شعر
يسرى خميس

أناشدها طوال الوقت
أن تبقي علي هذا الرماد
لأنه قلبي
يمكننا به نبني
قصوراً في ربي النهر
بساتيناً لفرط الحب والرمان والفشل
أراجيحا تبعثرنا علي مر الزمان
لعله يأتي
يمر ويلقط الحب
يهاجر
في مخالبه رماد القلب
واسعة بلاد الله
ومر الوقت مر الوقت
لم تسمع لصوت القلب
لم يأت
وجاءت طلقة الصياد غادرة
وبعثرت الرماد الماس
لم تبق علي أثر







بين فقدان الوعى وداء النسيان

بقلم
مصطفى درويش

كتب المفكر أحمد بهاء الدين فى مؤلفه القيم «أيام لها تاريخ» إن الإنسان في أولى محاولات تعريفه سمى حيوانا ناطقا فلما تبين ان الببغاء تنطق سمى حيوانا ضاحكا وبعدئذ عندما تبين أن القرود هى الأخرى تضحك سمى حيوانا عاقلا وأخيرا، بعد أن تبين أن جميع الحيوانات تعقل، وإن كان بمقدار يختلف حسب نوع الحيوان. استقر الرأى على تسمية الإنسان، حيوانا ذا تاريخ. لماذا؟

لأنه من بين جميع الحيوانات. قد تميز بالقدرة على اختزان التجارب التى مر بها، ثم استرجاعها حينما يشاء، على النحو الذى يراه مفيدا له فى الحاضر، أو فى مستقبل الأيام.

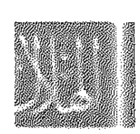
مشاهد من العنف السادى مازوكي فى افلام جيبسون

فائت، وفقا لما خطه قلم صاحب المؤلف القيم «تستطيع أن تصطاد الفأر الذى فى بيتك بنفس الطريقة التى كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم - مصيدة وقطعة جبن».

الناس والفئران

وذلك يرجع إلى أن اصطياد الفئران بنفس الطريقة حدث مرارا وتكرارا على مر السنين، إلا أن أحدا منهم، ولو من باب الاستثناء، لم يفطن إلى أن مصيدة وقطعة جبن، انما تعنى فقدان الحرية، فالحياة فى نهاية الأمر.

والإنسان إذا أصابه داء النسيان، لا يتذكر من ماضيه شيئا، أصبح إنسانا بلا تاريخ، لا يفطن إلى المصيدة وقطعة الجبن، مثله فى ذلك مثل الفئران.



وما يقال عن تردى الإنسان حال فقدان الذاكرة، ينصرف كذلك إلى الأمم والشعوب، إن هى نسيت ما مر بها من تجارب ، لاسيما ما كان منها متصلا بتاريخها القريب.

أما لماذا الاسترداد على شاشة الذاكرة الآن لما جاء فى «أيام لها تاريخ»، عن تسمية الإنسان، والفرق بينه وبين الفئران، فى حالة اذا ما تساءل القارئ، فذلك لأنه يحدث فى بر مصر، هذه الأيام. ضجة مماثلة لضجة أفتعلت، قبل نصف قرن من عمر الزمان، كان القصد الأوحد منها هو خداعنا .

ضجة الوصايا العشر

وابدأ بالضجة الأولى لأقول أنها حدثت، وعقد الخمسينات من القرن الماضى، يقترب من منتصفه، وبالتحديد عام ١٩٥٤ .

ففى ذلك العام غادر المخرج الأمريكى الأشهر «سيسيل دى ميل» عاصمة السينما هوليوود، متجها إلى العاصمة المصرية ، حيث جرى استقباله ، وهو وطاقم فيلمه المرافق له، استقبال الابطال.

وحيث بادرت رقابتنا اليقظة بالموافقة على سيناريو «الوصايا العشر»، مع التصريح لصاحبه «دى ميل» بتصوير جميع مشاهده على أرض مصر، دون أى استثناء.

ومع بدء التصوير، بمشاركة آلاف الجنود المصريين، بوصفهم جنود فرعون مصر، أخذت الصحف والمجلات تشيد بصاحب الفيلم، وحفيدته الحسناء، وتتغنى بما ستجنيه مصر من فوائد جمة، من جراء تصويره فى ربوعها، وبمشاركة جنود جيشها العظيم.

قصة حب

وكان من بين ما تغنت به كثيرا، حكاية، وكأنها من حكايات ألف ليلة وليلة، حكاية وقوع الحفيدة الحسناء فى أسر حب ضابط شاب من سلاح الفرسان.

وكيف انتهى بها ذلك الحب، زوجة فى أحضان الشاب الوسيم.

وكيف كان منطلقا لاختياره، بواسطة جدها، لأداء دور سائق عربة رمسيس الفرعون اللعين . فى مشهد الوصايا العشر المحورى، حيث ينفلق البحر الأحمر ، كالطود العظيم، لينجو النبى موسى، ومن معه أجمعين، أى بنو إسرائيل . ثم يغرق الله الآخرين، أى فرعون مصر، ومن معه من جنود مصريين.

هذا، ولم يمر سوى عامين إلا قليلا، على التصوير فى بر مصر، إلا وكان الوصايا العشر، يجرى عرضه بحى مانهاتان، نيويورك ، إثر العدوان الثلاثى، بأيام، وبالتحديد ، يوم التاسع من نوفمبر لعام ١٩٥٦، وذلك احتفالا باجتياح القوات الإسرائيلية لشبه جزيرة سيناء.

السراب

هكذا خدعنا . قبل خمسين عاما بسراب الوصايا العشر فهل تعلمنا من الدرس الأليم؟

للأسف لم نتعلم منه شيئا .

فيكاد ألا يتذكر أحد كيف خدعنا بسراب زمان ظنناه جميلا.

ولأننا فى حالة نسيان. وكأننا بلا تاريخ، أصبحنا بلا مناعة، تقينا السقوط، ضحايا تكرار الخداع.

مولد يا دنيا

فمرة أخرى يجيئنا من عاصمة السينما، وراء المحيط، فيلم يهلل له ويكبر، فى شبه اجماع، وكأننا فى حلقة ذكر، إنه فيلم سمى آلام المسيح.

فها هوذا، يوسف شعبان، نقيب الممثلين يبعث برقية الى صاحب الفيلم، الممثل العالمى، والمخرج العبقرى، من بين ما جاء فيها أنه أى السيد النقيب، واياه أى المخرج، وكل العرب فى خندق واحد ضد الصهيونية ، وضد اليهود الذين قتلوا المسيح.

والآن ينتظر السيد النقيب وكل العرب ، وهم على أحر من الجمر ردا من الممثل العالمى، والمخرج العبقرى!

وفوق هذا، ها هو ذا عدد من صحفنا الرافعة راية الجهاد عالية، تتلقف البرقية النارية، وتضيف إليها صفحات وصفحات تصف الفيلم بأنه الأعظم فى تاريخ البشرية، وتوجه إلى أى ناقد يجنح قلمه إلى التطاول على الفيلم الأعظم تهمة العمالة والخيانة ، وممالأة الصهيونية العالمية وفضلا عن ذلك تنتشر شائعات تزعم أن الممثل العالمى والمخرج العبقرى، وقد اكتشف دناءة اليهود، وكراهيتهم له، فعلى وشك إنتاج فيلم عن العرب والإسلام، وتكريس جهده وماله، فى خدمة القضايا العربية، فى مواجهة طاغوت اليهود، قتلة الأنبياء.

كشف المستور

وفى هذه المرة، ربما بفضل ثورتى المعلومات والاتصالات، لم تمر سوى

مريم «أم يسوع» دور جسد الانفعالات الإنسانية



بضعة أيام على الترخيص بهرولة منقطعة النظير «للآلام» بالعرض العام، وبست نسخ ، بدلا من النسخ الخمس المقررة للفيلم الأجنبى، كالمعتاد، ألا وقد انكشف المستور . عندما طيرت وكالات الأنباء خبر انهماك صاحب الفيلم الممثل العالمى، والمخرج العبقرى فى دراسة امكانيات إنتاج وإخراج فيلم تاريخى ضخم عن ثورة المكابى، تلك الثورة التى يعتبرها بنو إسرائيل واحدة من أهم أحداث تاريخهم أو أساطيرهم.

والسؤال هل فيلم «الآلام» الذى كان مدار حماس واهتمام جعلا كل شىء من أمره غريبا حقا، يستحق من الناحية الفنية هرولة الترخيص له بالعرض العام، رغم مخالفة ذلك للمادة الثانية من قرار وزير الإعلام والثقافة رقم ٢٢٠ لسنة ١٩٧٦ بشأن القواعد الأساسية للرقابة على المصنفات الفنية التى جاءت ناصة فى بندها الثانى على حظر إظهار صور الانبياء عموما، لاسيما الرسول والمسيح اللذين جاء ذكر اسميهما بالتحديد؟

عنف سادو مازوكى

بداية، قد يكون من اللازم، المفيد أن أذكر أن شهرة «ميل جيبسون» منتج الفيلم ومخرجه، لم تبدأ إلا بفضل قيامه بأداء دور «ماكس المجنون» فى ثلاثية «ماد ماكس» تلك الثلاثية التى انطوت على كمية من العنف لم نعهدها من قبل فى الأفلام.

واتبع ذلك بأداء دور شرطى فى رباعية تحت اسم «السلاح القاتل» ، وهى الاخرى كان فيها من العنف الشىء الكثير.

وبعد فوزه بأوسكار أفضل مخرج عن «القلب الشجاع» ذلك الفيلم الذى شاهدنا فيه عنفا، من ذلك النوع الذى يشيب له الرضع فى حجور الأمهات.

انتماء ذكرى لقوى العدوان

وقبل «الآلام» بحوالى عامين ، جنح الى التمثيل، دون الإخراج، فى فيلمين أحدهما «كنا جنودا» وهو من الأفلام الأمريكية القليلة التى خرجت عن قاعدة عدم جواز تمجيد بطولة المحاربين فى حرب «فيتنام» لأنها كانت حربا غير عادلة ، ضد نضال شعب من أجل الاستقلال.

والفيلم الآخر «علامات» ، حيث لعب دور رجل دين كاثوليكى يواجه احداثا، لا تفسير لها فى الفيلم الا بروحانيات . أقرب الى الخزعبلات.

ويلاحظ ان جنوحه هذا، جاء مواكبا لازدياد قوة التيار اليمينى المتشدد، المتأثر بفكر المحافظين الجدد، ذلك الفكر الذى له الغلبة الان فى توجيه سياسة الولايات المتحدة ، خاصة بعد العدوان على مبنى البنتاجون والبرجين التوأم فى مانهاتان.

والذى يمكن استخلاصه مما تقدم أن

إخـراج «جـيـبسـون» للآلام كـان أمـرا متوقعا، فى ظل المناخ السياسى السائد حاليا فى بلاد العم سام.

وإنه باخراجه وانتاجه له، يعتبر آخر المبشرين فى السينما الأمريكية ، بعلامة الصليب.

فـالآلام قـائم على سـيناريو ألفـه «جـيـبسـون» مـشـاركـة مع «بينيكت فيتزجيرالد».

عداء للتجديد

وقد استوحياه من الأناجيل الأربعة، ومع تـأثره الى حـد كـبـيـر بفكر «أنا كاترين ايمرسون» وهى امراة متصوفة عاشت فى القرن التاسع عشر، حيث تمسكت بأهداب تعليم دينية تقليدية غير مسايرة لروح العصر، بل قل تحمل عداء شديدا لأى تجديد.

وعلى غـيـر المعـتـاد لم يعـرض السيناريو لحياة المسيح عيسى بن مريم من المهد الى اللحد.

وإنما اكتفى منها ببضع ساعات لم تزد عن اثنتى عـشـرة سـاعـة، هى الساعات الأخيرة، التى انتهت، كما جاء فى الأناجيل، بتسليمه الروح، بعد عذاب شديد.

ومثلما تبدأ أفلام الرعب فى سينما مـصنع الأحـلام بهـوليـوود، يبدأ الآلام . بليل وضباب، وقمر تطارده سحب ملؤها الغضب، وحية تسعى فى غابة موحشة، حيث تدور معركة بين الحواريين، والجنود الرومـان، تنتـهى بـالقـبض على المخلص، تمهيدا لتسليمه الى مجمع الكهنة، حيث تجرى محاكمته بتهمة ادعائه إنه المسيح المنتظر.

وأثناء تلك المعـركـة، يسـتل أحـد التـلامـيـذ سـيـفـه ويقطع بـهـا أذن أحـد الجنود.

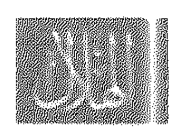
غـيـر أن المخلص يرجع أذن الجندى الى مكانها سليمة، ويأمر تلاميذه بإغماد السيوف.

والغـريب انه رغم هـذه المعـجـزة التى أعادت الى الجندى أذنه. لم يتأثر الجنود، واستمروا فى غيهم يعمهون، بل أخذت وحشيتهم تزداد على مر الساعات.

نكسة فنية

ولن أحكى شراء ذمة يهوذا بثلاثين قطعة من الفضة ولا حكاية قبلته التى صارت رمزا للخيانة، ثم انتحاره تكفيراً عن جريمته وتحت جثته المشنوقة، جثة حيوان نتن. تأكلها الديدان كما لن أحكى تفاصيل المحاكمة ولا هتافات الرعاع بالموت الزؤام، فـذلك شىء يطول. فـضـلا عن انه غير مجد .

فكل ما جاء فى فيلم «جيبسون» عن حياة المسيح قبل ربطه بجذع شجرة تمهيدا لتعذيبه بجميع أنواع الإيلام، سبق لنا أن رأيناه ، بأسلوب سينمائى أكثر رقيا فى أفلام أخرى، اذكر من بينها على



سبيل المثال «انجيل متى» رائعة بازوليني، المخرج الإيطالي الذي جاءه الموت بالقتل، قبل تسعة وعشرين عاما في «أوستيا» ، قريبا من روما، حيث مدينة الفاتيكان.

الاختزال.. لماذا؟

أما ما انفرد به الفيلم، وتميز به في رأي صاحبه، عن غيره من الأفلام السابقة التي تناولت السيرة العطرة، فهو اختزالها فيما مر بصاحبها من عذابات تفوق طاقة الإنسان بتصويرها بشكل دموي، سادي و مازوكي، فهو، أي المخلص، لا يظهر بعد صدور أمر الحاكم الروماني «بيلاطس»، ويؤدي دوره «خريستو نعوموف شوبوف» بتعذيبه ، إلا والجنود الرومان يسوقونه، ويصفعونه ويوسعونه ضربا، بعصي وسياط ، يوخزونه بقطع من حجارة وشظايا من زجاج ، حتى اذا ما انهكه التعذيب وضعوا على رأسه إكليلا من الشوك، انغرس في لحمه المسلوخ، تسيل منه الدماء، ملطخة جسمه العليل، مخفية وجهه، بحيث لا نستطيع أن نرى من معالمه شيئا.

ثم ساروا به، وهو يئن تحت ثقل صليب ضخم، ظل يحمله. هو ويهودي آخر، حتى وصلا به الى جبل الجماجم حيث دقوا، بغلظة وقسوة، كفيه بالمسامير.

وهنا. لا يفوتني أن أذكر أن المشهد الذي جاء ذكره في الأناجيل في بضع كلمات، استمر في الفيلم عشرين دقيقة بالتمام.

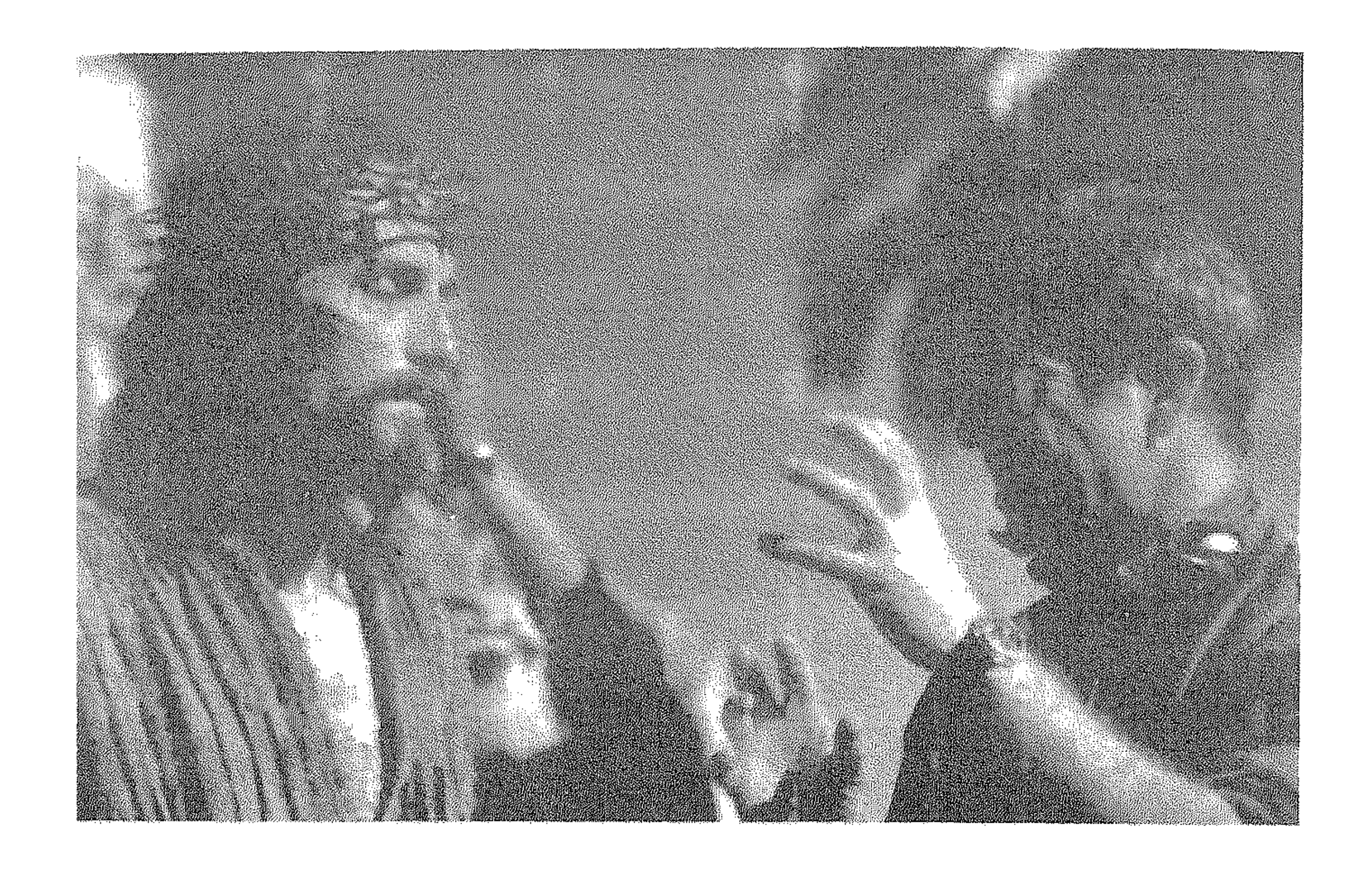
وأخيرا. وأنا أقترب من ختام العرض لهذا الفيلم الكئيب والذي ارتأى أحد النقاد انه أحد أسوأ الأفلام التي شاهدها في الأعوام القليلة الماضية.

الشيطان امرأة

أرى من المناسب أن أقول ،أولا أن قمة الكاريكاتورية في الفيلم ظهرت بوضوح في رسم شخصية الشيطان ، كما قال بحق ذلك الناقد الذي اعتبر الالام أحد أسوأ الأفلام فقد بدأ في شكل امرأة بلا شعر، وكأنها حسب قوله. قد خضعت للعلاج الكيمائي الذي يوصف في بعض حالات السرطان. ويتسبب في سقوط شعر المريض، بما في ذلك حواجبه ورموش عينيه.

وكان أسوأ المشاهد التي ظهرت فيها تلك المرأة الشيطان ذلك المشهد، خلال تعذيب المخلص، حيث رأيناها تحمل طفلا مشوها. أشبه بمخلوقات الفضاء في أفلام مصنع الأحلام وبالمناسبة جرى اسناد دور الشيطان للممثلة «روزا ليندا شيلينتانو».

وهكذا وصم صاحب الفيلم المرأة بجعل الشيطان أنثى كأنه يقول بهذا أن المرأة هي المتسببة في لعنة الرجال.



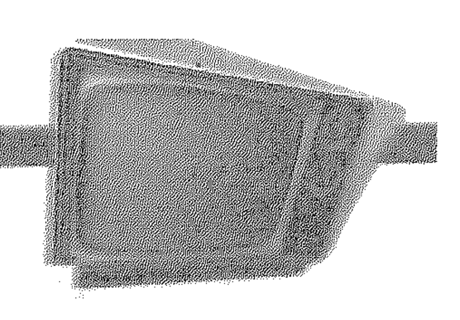
ثانيا : أن «جيم كافيزيل» المتقمص لشخصية المخلص لم يعطه «جيبسون» فرصة اظهار براعته في الآداء، تلك البراعة التي تبدت في «الخط الأحمر الرفيع» رائعة المخرج المقل تيرينس ماليك» وذلك قبل ستة أعوام.

فطوال الفيلم ، وباستثناء لقطات قليلة منحصرة في استرجاع الماضي، لم نراه إلا مضروبا، أو مصلوبا، ولم نسمع من صوته إلا الانين.

ثالثا: أن الفاتنة «مونيكا بيلوتشي» في دور مريم المجدلية ، والممثلة اليهودية المتزمتة، «مايا موجنشتيرن» في دور مريم العذراء، كانتا النقطة المضيئة الوحيدة وسط ظلام، كله تعذيب وإيلام.

دعوة للمحبة أم الكراهية

ورابعا : إن قصر عرض الفيلم، وهو يدور وجودا وعدما حول آلام مخلص رسالته الدعوة الى المحبة والسلام قصره على الكبار، رحمة بالصغار، وحماية لهم من العنف الذى جاء فيلم جيبسون مشوبا به، على نحو غير مسبوق، لما ينهض دليلا على إنه فيلم يستغل بطريقة تجارية، غير إنسانية سيرة عطرة، بالإهدار لرسالة قوامها نبذ العنف، وتبنى المحبة بين الناس!! ■



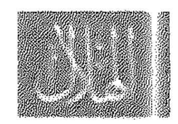


بقلم
مرفت رجب

التليفزيون يقحم المناظر الفاضحة على بيوتنا !

قالها الخبير بكل الوضوح والصراحة.. «نكتفه» ولما بدت الدهشة على المحاورة، شرح لها بكلمات قاطعة : «المطلوب فى هذه الحالة أن نحرمه من أى قدرة على الحركة، حتى لا يتمكن من إلحاق الأذى بنفسه أو بمن حوله».

ولو كان أى من القراء الأعزاء مكانى ، لحدث له ما حدث لى بالتمام والكمال، فقد كانت تلك العبارات كافية لأقع فى أسر برنامج لم يكن لى به سابق معرفة، ولكن جدية المتحدث ولباقة المحاورة تكفلتا بضمان تعلقى بالشاشة حتى نهاية البرنامج.



فقد جاء السؤال التالى للمحاورة مشبعاً لما ثار فى نفسى من شغف للتعرف بالمراد شل حركته ، والأسباب المبررة لذلك ، «لمَ هذه القسوة وقد دعوت فى الحالة السابقة إلى الاكتفاء بالتجاهل» أجابها الخبير على الفور.. «فى الحالة السابقة كان عبثه محاولة منه لشد الانتباه ، لذلك طلبت أن يكون الرد هو التجاهل التام، مهما تكررت وتنوعت أساليب ذلك العبث، أؤكد أن علاجها هو التجاهل أما إذا جاءت تصرفاته مؤذية لنفسه أو لغيره ، فلابد عندئذ من شل حركته بالكامل، ولفترة كافية، ولو كرر توجيه الأذى نكرر بالمثل شل حركته، والمؤكد أنه عند نقطة ما، سيفهم ويتوقف عن توجيه الأذى».

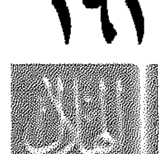
وقبل أن يتبادر إلى ذهنى الخاطر بأن الخبير متخصص فى التربية، جاءت الأسئلة والإجابات التالية لتعرفنى بأن الموضوع هو مشاكل التعلم عند ذوى الاحتياجات الخاصة سواء أكانوا من متوسطى أو محدودى الذكاء.. أما عن عناصر إخراج البرنامج من حيث تتابع المتحدثين من خبراء ومحاورين فقد

كانت من التركيز والتنوع، بحيث تمكن مشاهد البرنامج من الإلمام بكل المحاور التي بحثها ذلك المؤتمر الذي انعقد بمدينة الرياض ، على مدى ثلاثة أيام من التاسع والعشرين إلى الحادي والثلاثين من مارس ٢٠٠٤.

وهكذا نجحت القناة الثانية لتليفزيون المملكة العربية السعودية أن تنقل لنا عبر ذلك البرنامج الناطق باللغة الانجليزية ما يكفينا للاقتناع بالمستوى الرفيع لذلك المؤتمر من حيث التنظيم وجدية وكفاءة المشاركين من الأطباء والمعلمين فقد ناقشوا ضيوف المؤتمر من صفوة الخبراء في كل صغيرة وكبيرة لها صلة بالتعامل مع ذوى الاحتياجات الخاصة وما إن انتهى البرنامج حتى وجدت السؤال يتبلور فى ذهنى ألا يمكن الاستفادة من أساليب التعامل مع ذوى الاحتياجات الخاصة فى معالجة أعراض الإعاقة المستشرية على شاشاتنا؟!!!.

ليست هذه السطور هى أول كتاباتى المنبهة لآثار أعراض الإعاقة الزاحفة على شاشاتنا بكل ثبات وشراسة، وهى بعون الله لن تكون الأخيرة ، ولست وحدى فيما يلم بى من ذعر من هول ما هو قائم ، فلقد تواترت جهود الأقلام تصرخ بكل أشكال التحذير.. ولكننى بالفعل مندهشة من سكوت علماء النفس والاجتماع عن القيام بعمل منظم علمى يخرج بدراسة شاملة لآثار أغانى الفيديو كليب وتخصيص قنوات تليفزيونية تكرس لها ساعات من الإرسال متصلة.. وهى قنوات مفتوحة ومتاحة للجميع سواء عن طريق الاشتراك الشرعى أو عن طريق أساليب أخرى غير قانونية ، ولكنها جعلتها متاحة لكل البيوت والمقاهى والمطاعم المكتظة دوما بالشباب ، ولمن يسألنى عن السبب فى قيامى بالربط بين الموجة الجديدة من الأغانى المصورة Video clip والإعاقة أقول.. هذه ليست أغانى، فإذا كان الغناء هو القيام بالجمع بين الكلمات والألحان ليؤديها صوت أو أصوات قادرة على تحقيق الغاية الفنية من هذا النوع من الفنون، فإننى أقول إن اضافة الأجساد العارية أو شبه العارية على النحو السائد فى أيامنا ينقل هذا المصنف من خانة الغناء إلى خانة الدعارة.. وإذا كان الثابت تاريخيا أن تراخيص الغناء مختلفة عن تراخيص ممارسة الدعارة حيث إن الأخيرة تندرج فى إطار يدخل فى صميم سلطات المسئولين عن حفظ النظام والأمن العام، وهم الذين غيروا عبر التاريخ موقفهم من إباحة الدعارة إلى منع ممارستها، فهم فى الحالتين يجتهدون فى تطبيق القوانين المنظمة لهذا النوع من النشاط.

أما عن تراخيص الغناء، فهى من نوع مختلف ، بدأ تاريخيا بشكل ديمقراطى صرف.. فالجمهور يحدد بشكل مشاهير وفورى قبوله أو نفوره من القائم بفعل الغناء فى مولد أو عرس أو «سبوع مولود».. ولما بدأت الإذاعات الأهلية ، كانت المحطات تتنافس فى استقطاب مشاهير المغنين إلى أن جاءت الإذاعة المصرية لتتكفل بالمهمة،حتى صار الغناء فى الإذاعة علامة على تميز الصوت وجمال الأغانى . ويشهد تاريخ الإذاعة المصرية فى معظم النصف الثانى من القرن العشرين بأنها اجتهدت فى تقديرها للمهمة، وخصصت لذلك لجنتين من أرفع لجانها، اختصت الأولى





بإجــــازة الأصـــوات ، وركزت الثانية على إجـــازة نصوص الأغاني، وحتى لاتضيع السطور بعيداً عن الغرض الأساس من كتابتها، فإننى أدعو الباحثين الإعلاميين إلى دراسة تاريخ هاتين اللجنتين بما يبين قيمة ووزن الأعضاء، ونوع قرارات الإجازة أو المنع، من واقع محاضر اللجنتين، وتتبع ثغرات التسيب وظروفها، وما أدت إليه من ظهور الهابط المتردى على الشاشة إلى أن وصلنا إلى ما نحن الآن بشأن محاولة توصيفه من أعراض الإعاقة المنتشرة على ما يسمى بقنوات الأغانى ..

وإذا كانت الإعاقة تعنى عند البعض قصوراً فى قدرة حركة الذهن أو البدن عن الإتيان بالفعل الملائم للظرف الملائم فإننى أقول إن المشاركين فى أفعال الدعارة المعروضة على شاشات الأغانى يعانون من أعراض إعاقة واضحة، وهى من أنواع الإعاقة المؤذية للنفس وللغير، والتى تستدعى نوع العلاج الذى وصفه الخبير المشار إليه فى مقدمة هذه السطور حين دعى إلى ضرورة الإسراع بشل حركة المعاق، لمنعه من إلحاق الأذى بنفسه أو بالغير .. والسؤال الآن هو، كيف تحقق ذلك .. ومن الذى سيمنحنا السلطة؟ وما هى الإجراءات اللازمة ؟! ومن هى الجهة أو الجهات التى ستخول سلطة التنفيذ ؟

الانتخاب .. الانتخاب .. الانتخاب

إننى أطالب بتشكيل جمعية أهلية أو مجموعة عمل أو هيئة منتخبة لدراسة ما ورد فى سطور هذا المقال وكل الكتابات المماثلة فى الموضوع، وأقترح أن تكون المهمة هى تشخيص الحالة واقتراح الإجراءات ، وحتى تكون هذه الجماعة ممثلة - بقدر الإمكان - لكل فئات وتوجهات الشعب، فإنى أقترح أن تقوم كل كلية أو معهد علمي جامعي بانتخاب ممثلها فى هذه الجماعة، مع مضاعفة العدد الممثل للكليات والمعاهد المتخصصة فى علم النفس وكذلك أن تنتخب كل مؤسسة صحفية من يمثلها .. ويحتاج الأمر فى هذا الصدد إلى مراعاة بعض الشروط اللازمة.

أولا: انعدام الصلة بأى من جهات الإنتاج الغنائى سواء منه العام أو الخاص.

ثانيا: انعدام الصلة بأى من وحدات إنتاج الإعلانات.

ثالثا: عدم المطالبة بأى مقابل مادى أو معنوى للجهد والوقت المبذولين فى هذا السبيل.

رابعا: الاستعداد ، عن طيب خاطر ، لتحمل كل أساليب القمع والترويع المادى والمعنوى المتوقعة من أصحاب المصلحة ، وهم جماعة «المعاقين» ممن اختلط عليهم توصيف الأغانى بتوصيف الدعارة، ومن ذلك يكونون الثروات.

خامسا: أن تتبنى رياسة تحرير مجلة الهلال أمر ما يلزم لاستكمال تشكيل هذه الجماعة والتعجيل بإنجاز المهمة المطلوبة منها فى أسرع وقت ممكن.

والرأى عندى أن الشواهد تدعونا للتصرف بنفس أساليب تعبئة الجيوش حال الإغارة على الأوطان، وإذا كانت الإغارة هذه المرة تتم بأيدى نفر من أبناء الوطن هم من المرضى أو من المضللين ، فإن أذاهم يتسرب إلى نفوس أبناء الوطن كافة.. ولا أريد هنا أن أفصل فى

بيان العلاقة بين مشاهدة تلك المصنفات الداعرة وبين زيادة حالات الاكتئاب بين المشاهدين، وإنما أريد أن أترك تفصيل ذلك وبيانه ليأتي من أصحاب القول الفصل في ذلك من علماء النفس ، فهم بالتأكيد أدرى منى وأقدر على شرح تأثير دخول تلك الصور وجعلها جزءاً من المكونات المعرفية للفرد وهم كذلك أدرى وأقدر على التفصيل في بيان عمليات المقارنة التلقائية والفورية وهي مقارنة قد تضع الذات في مقارنة بما هو معروض .. كما قد تضع المعروض في مقارنة مع المحيطين ، وخاصة من هم في الدائرة الخاصة للفرد..

أترك ذلك لعلماء النفس فبينهم في بلادنا أعلام ، نأمل في أن يكون وجودهم في الجماعة المطلوب تشكيلها عامل حفز على بلورة ما يرقى إلى الوفاء بما هو مأمول.

والآن

أما الآن، وإلى أن تنقضى الساعات أو الأيام الفاصلة بين نشر هذا المقال وتكوين جماعة العمل المشار إليها فيه فإننى - كغيرى - لا أستطيع أن أكتفي بالانتظار ومن جانبي أرى وجوب طرح بعض الأفكار لعلها تكون موضوع بحث وتداول من جانب كل المهتمين بالأمر.

أولا: تخصيص قناة تليفزيونية لإذاعة كل الحفلات الموسيقية والغنائية التي ينظمها محترفون متخصصون ومن الممكن البدء بإذاعة كل الحفلات التي تم تسجيلها من دار الأوبرا والمسارح التابعة لها والتي تستطيع أن تملأ ساعات من الإرسال بالمئات وعلى أعلى مستوى.

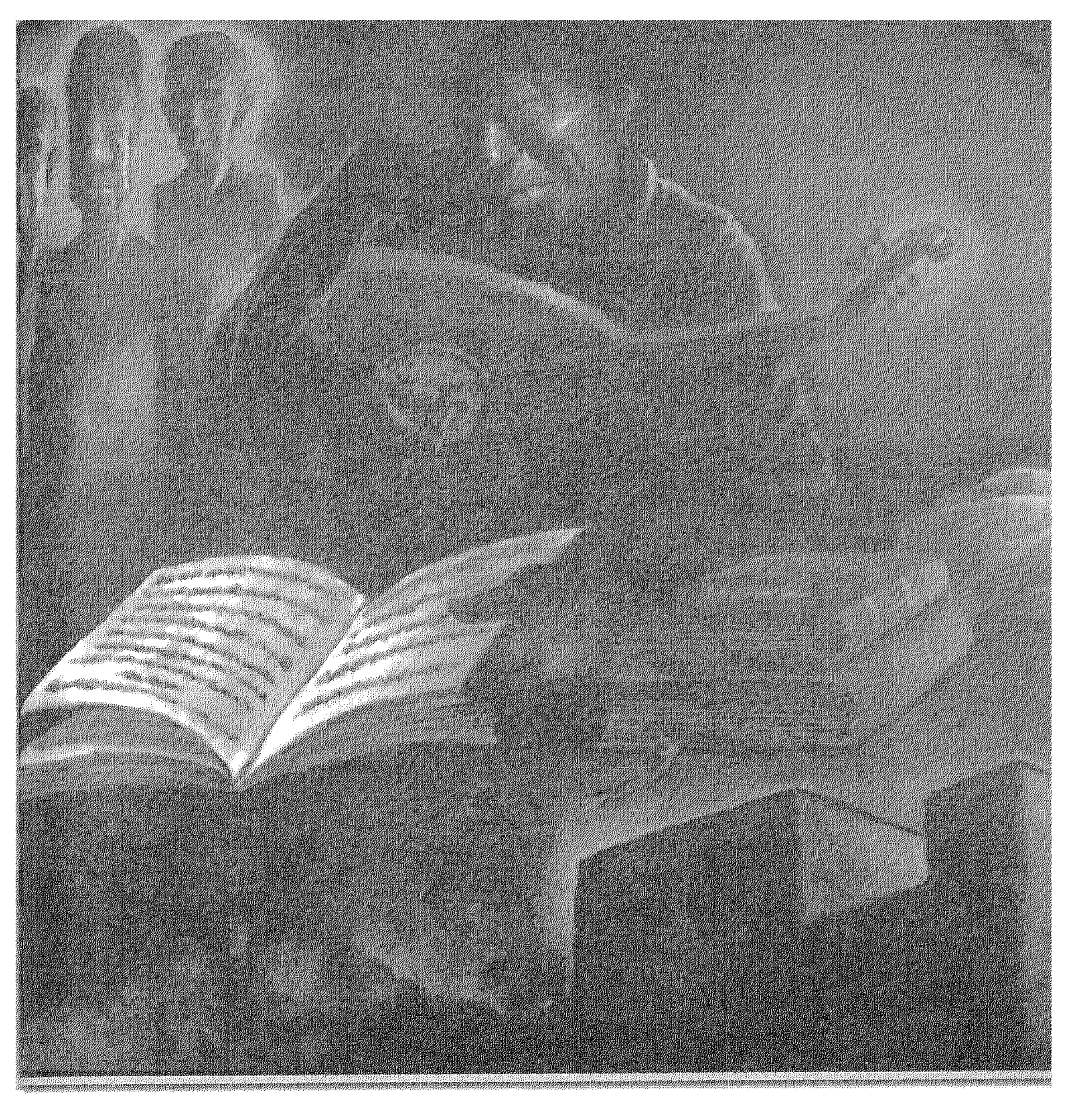
ثانيا: تخصيص قناة تليفزيونية لشباب الموسيقيين من الدارسين المعاصرين والتابعين في المعاهد الموسيقية المصرية تعرض برامج عنهم وعن دراستهم وإبداعاتهم ، وكذلك عن أساتذتهم المعاصرين منهم، والسابقين مع تحقيق توازن في ساعات الإرسال للموسيقى والغناء الشعبي والتقليدى وعزف المصريين كذلك للمؤلفات الأجنبية.

ثالثا: توقيع الاتفاقات اللازمة بين دار الأوبرا المصرية واتحاد الإذاعة والتليفزيون بما يسهل عمليات التنسيق اللازمة لحفظ حقوق الملكية وحقوق الأداء العلنى للمبدعين .

رابعا: أن تكون مجموعة العمل المنتخبة مشاركة في كل الخطوات الممهدة لتنفيذ النقاط الثلاث السابقة، بحضور كل الاجتماعات التحضيرية والمشاركة فيها بالرأى والاستمرار في ذلك ، لتتحول مهمة تلك الجماعة المنتخبة إلى متابعة أداء هاتين القناتين بعد بدء البث الفعلى لبرامجهما.

خامسا: تحويل قنوات الدعارة المعروفة حاليا بقنوات الأغانى إلى قنوات مشفرة، وذلك بإخراجها من حزم القنوات المفتوحة واتخاذ الإجراءات اللازمة لعدم إتاحتها للمقاهى والمطاعم وأماكن تجمع الشباب.

هل نكون بذلك قد اقتربنا من الأخذ بنصحية الخبير.. لعلنا نفعل.. «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة». صدق الله العظيم ■



عود عمران

قصة قصيرة

بقلم
محمد كرزون - حلب

كان يراودني من حين إلى آخر شوق عارم لسماع ترنيمات شاد.. فتقتحم على كل أنواع «الملتميديا» لتفرض نفسها، فأعافها جميعا.. فأنا فى شوق لسماع صوت بشرى مباشر، من الحنجرة إلى الأذن، ولا بأس إن كان يحتضن عوده، أو يعانق كمانه.. أو يلثم نايه.. فأجد نفسى وقد سرت فى الطريق ماشيا إلى بيت «عمران».. أدعوه لزيارتى، أو أدعو نفسى للدخول إلى بيته.

والحق أن عمران صار يفهم الغرض من زيارتى، فإن كان مزاجه عامراً رحب وأوسع لى طريق الدخول.. وإن كان مزاجه معكراً نفث فى وجهى نفثتين محملتين بالهموم.. مع مدة من الصمت الطويل.. فأفهم، فإما انسحب وأعود أدراجى إلى بيتى بواسطة «تاكسى أجرة» هذه المرّة.. وإما أدخل لأستمع إلى شكواه من هذه الدنيا التى ندر فيها الذوق والتذوق!

وكان يبدو وكأنه لا شكوى له من أحد بعينه، قريباً كان أو صديقاً.. أكثر همومه عامة.. إلى الحد الذى كنتُ أسمع منه صدى لشكاوى الآخرين ومعاناتهم أكثر من همومه الشخصية.

وما أبرع عمران وهو يصول ويجول بين طبقات أصواته، ومقامات الموسيقى العربية، وأصابعه تلاعب الأوتار بخفة عجيبة.. ما أروعه وقد تملكه الطرب ودخل ملكوت الإبداع.. وما أسعدنى وأنا أعيش لحظات صافية لا يعكر صفوها معكر.. وما أشقانى عندما ألوم نفسى: لماذا لم أصادق الموسيقى بدل الهندسة الميكانيكية؟! لقد حوّلت هذه الهندسة اللعينة تفكيرى إلى أن الحياة عبارة عن أقراص مسننات كبيرة ومتوسطة وصغيرة، وكل مسنن يدفع غيره ويندفع بقوة من غيره.. والكل يدور، ولكن لا يدرى لماذا يدور، ولا إلى متى يدور، ولا لمن يدور.. حتى بت أشعر أن مسننات حياتى بدأت تتآكل وتتعثر وتطقطق، ولم يعد ينفع معها زيت الآلات فى مرونة حركتها وتخفيف ضجيجها الرتيب.. وليس لها من مصير إلا الإهمال أو الصهر وإعادة التصنيع.

محظوظ عمران.. الحياة عنده كلها أوتار.. ولكل وتر نغمة جميلة .. الحياة جمل موسيقية متتابعة، ولكنها ليست متدافقة .. هكذا كان يبدو لى هذا الرجل.. إلى أن أدخلنى ذات يوم بفعل قوة جذبه التى لم تنفع معها قوة نبذى.

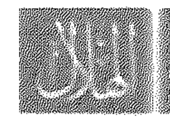
– يا صاحبى .. لا موسيقى بعد اليوم.. لا غناء.. لا طرب.. يا صاحبى.. الحياة.. ما الحياة؟ دعنى ألخصها لك بكلمات .. فى كل مرة تأتينى فأستمع إلى منطقك.. وتستمع إلى أوتارى.. اليوم أريدك أذناً لا فماً لتستمع إلى منطقى.. هذرى.. جنونى.. سمه ما شئت.. اليوم أريدك مستمعاً.. مستمعاً وحسب !!!

بدا على بعض الغباء، وبعض البلاهة، من هول المفاجأة .. ولكننى سرعان ما عاد إلىّ شعورى الإنسانى النبيل الذى طالما صفاه عمران بعزفه الصافى من كل شائبة.

– معك أنا يا عمران.. أسمع.. وأفهم!! معك وبين يديك..

وقمت لأجلس قربه وأضع يدى على كتفه.. ويدى الأخرى على صدره:

– أنفث ما فى هذا الصدر من دخان.. واحك



ما تريد.

اعتدل عمران.. وخفف من ثورته.. ثم نهض يعمر إبريق الشاي.. المنكه بنكهة الليمون:

- عشرون عاماً.. وأنا أظن أن كل الأصدقاء مثل صديقي العود.. قصتي - يا صاحبي - باختصار.. ليس هناك من صديق كالعود.. لا تؤاخذني.. فأنا لم أر منك في أي يوم تصرفاً قبيحاً.. ولكن في نفس الوقت لم أجربك.. لم يحدث أنْ..

وصمت برهة، ثم عاد إلى القول:

- ومن يدري ؟ فقد تكون مثلهم !!!

وعاد إلى الصمت من جديد.. وعمران لا يدري كيف يخرج من مأزق انتقاده لي، ورغبته في (الفضفضة) و(بث الهموم).. فرأيت أن أبادر إلى إخراجه إلى بر الأمان:

- كل ما تقوله صحيح.. وأنا لم أزعل.. ولن أزعل منك.. ياشيخ حرام عليك كل هذا التفكير قبل الدخول في الموضوع.. ادخل في صلب الموضوع.. ولا يهمك.. أنا معك.. في الماضي معك.. وفي الحاضر والمستقبل معك.. ياشيخ حرام عليك تتعب نفسك!!!

وفجأة، انقض عمران على صندوق خشبي كبير في زاوية الغرفة، أخرج ورقة:

- انظر، ما تاريخ هذا التنازل؟! سبعة عشر عاماً.. منذ سبعة عشر عاماً تنازلت لهم عن كل ميراثي من والدي عندما رأيتهم مختلفين.. وقلت لهم: يكفيني من ريحه هذه العمامة وتلك المخطوطات.. وكتابه الوحيد في (المناجاة).. وضحكوا في سرهم.. أنا متأكد أنهم قد ضحكوا في سرهم، لأنني - كما يعرفونني - بحثت عن الأشياء الروحية .. المعنوية، وتركت مال الدنيا لهم .. وظنوني مسكيناً، ولكن هم المساكين.. تركتُ لهم البيت الكبير، والمحل الذي في السوق القديمة.. وبعض الأملاك الأخرى.. تنازلت عنها جميعاً مقابل العمامة وبعض الكتب.. واليوم يتهمونني بأني استأثرت بكل شيء.. صحيح أن العمامة والكتب هي عندي كل شيء، ولكن تركوها لي بإرادتهم، وتركت لهم كل شيء برضا وطيب نفس.. لقد باعوا كل التركة وتقاسموا ثمنها فيما بينهم.. ولم يبق من أشياء عينية سوى ما بقي عندي.

حتى هذه اللحظة لم أجد مشكلة في كلام عمران.. لم أجد ما يثير .. ولا أخفي أن بعض الملل قد ظهر عليّ.. ولكن لم يكن في يدي حيلة.. على أن أتابع إلى الأخير.

كان الشاي قد صار جاهزاً.. صب بعضاً منه في فنجاني.. وشعر بتململي.. وبدأ يبدي اعتذاره غير المباشر، وحاول أن يغير الحديث، ولكنني استعدت نشاطي، وصحوت لأمري معه، وبإصرار قوي مني طالبته بالمتابعة:

- مؤتمر !! يا سيدي مؤتمر حول جدي.. الآن اكتشفه الباحثون، فصار كل ما مسته يديه ثمين، وكل ما وضعه على رأسه ذا قيمة.. إحدى المنظمات الثقافية الدولية اكتشفت أن والدي - رحمة الله عليه - كان ناثراً مجدداً من خلال كتابه الذي احتفظت به، والذي طبع منه أقل من ألف نسخة عندما كان على قيد الحياة.. ويعلم الله كم عانينا من تلك النسخ، عشر سنين لم يبع منها أكثر من مئتي نسخة.. إلى أن جاء الحاج أمين

الكتبى، فأخذها بربع قيمة كلفتها.. وفرحنا وقتها، وفرح والدى بتلك الصفقة.. وظننا جميعاً أن القصة انتهت وانطوت.. واليوم يُعقد مؤتمر خاص بهذا الكتاب.. وفود من بلاد متعددة.. ودعوات خاصة للمشاركة فيه لمن بقى من أصدقائه، مع تكريم خاص لأولاده أو أحفاده.. وقد سمعت أن اللجنة المنظمة للمؤتمر قد عرضت مبلغاً ضخماً لقاء حصولها على المخطوطة.. لا أخفيك أننى قلت لهم: اشتروا البيت الذى بعناه وحولوه إلى متحف صغير، ولكن أخوتى عارضونى وطلبوا أن لا أذكر مثل هذا الاقتراح، فماذا يقول الناس إذا سمعوا أننا فرطنا فى البيت من أول شهر بعد وفاته؟! وبصراحة، المبلغ الذى سيدفعونه للبيت لن يأتينا منه شىء، ولن نستطيع الانتفاع من البيت لأن إدارة المتحف ستشغله.

بدأت أشعر أن رواية من نوع غريب تنسج.. وصار عندى فضول إلى سماع تفاصيلها كاملة.

– وماذا حصل بعد ذلك؟

– ما حصل هو دعوى مقامة ضدى بأننى أستأثر بميراث والدى ولا أدع الورثة ينتفعون به.. فأنا أمنعها عنهم قاصداً أو أكتم عنهم (ثروة قومية) باستئثارى بـ (مناجاته) والدخول فى الجو الروحى العظيم الذى تركه لنا قلمه.. ولا أقدم قائمة بالكتب التى كان لها الأثر فى ثقافته وشخصيته.. أو كراسته التى دون فيها بعض المعلومات عن شيوخه وتلامذته.

هل تصدق أن أتهم بكل هذه الاتهامات؟!

وهممت بسؤاله: لماذا تحبسها عنهم، ولكنى فضلت أن يسترسل فى حديثه لعله يكشف جوانب أخرى لم أفهمها بعد.

ودون أن يدرى، ذهب إلى عوده.. وأزال عنه الغلاف القماشى.. ركنه بقربه.. وهم باستئناف الحديث، ولكنه فضل أن يخبئ الكثير.. وفجأة قال:

– لا أحد يستحق الكتاب أكثر منى.. إننى أشم منه رائحة أبى.. عطر مداده.. عبق فكره الصافى عندما يتضرع إلى الله .. لا أطمئن إلا عندما يكون بقربى.. لن يسرقوه منى.. لن أمكنهم من النيل منه.. لا أحد يفهمه مثلى.

نسى كل ما قرر فى حق صديقنا (الموسيقى) وهجرانه لها.. انكب عليه يدندن بأوتاره ما تيسر من نفسه.

كانت سهرة من أجمل سهرات عمرى، وربما أجمل سهرات عمره أيضاً.. ولم أستطع أن أقاوم الدموع التى انسلت من عينى.

فى نهاية السهرة غلف عمران مخطوطة أبية بقماش من الحرير الأخضر، وأعطانى إياها، وهو يقول:

– فليأخذوها.. لقد حفظتها .. بكل مقاطعها وحروفها.. بكل خلجة من خلجات أبى عندما كان يناجى بها ربه.. أرجوك خذها وسلمها لهم، فلست أنا من أحبس مناجاة أبى التى ملأت الآفاق.. هذه أمانتى إليك، فهل تساعدنى؟! ادع ربنا أن يهيىء لهذا الكتاب من يفهمه.. لا من يأخذ به شهادة عليا لينتفع بها فى دنياه.

وكان ذلك آخر عهدى بعمران. ■

بين التكرار وأسباب المعاصرة

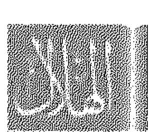


بقلم
د. محمد عرابى

لاشك في أن القاهرة تحتل المركز الأول في إدارة حركة الثقافة والفن منذ نشأة الفن الحديث.. وفي الآونة الأخير ومنذ منتصف الثمانينيات - وبين القاعات الخاصة وقاعات المؤسسة الثقافية - وهي تموج بحركة فنية تبدو في ظاهرها نشطة بصورة لم يسبق لها مثيل من حيث الكم، وأما الكيف فشأن آخر يجب التوقف عنده لعلنا نتبين إلي أين تسير الوجهة .

وربما يبهرنا زخمها بمظهره الخادع .. ولكن عند اتساع الرؤية لتشمل الصورة بأطرافها المترامية نتأمل تفاصيلها فنجد أنفسنا أمام إشكالية مهمة وهى تشابه الموضوعات وتكرارها بصورة تفصح عن انفصال الفنان عن اللحظة الراهنة و إن بدا فى بعض الأحيان مرتبطاً بملامح مكانية محلية. فمن بين ما شهدناه - فى هذه الجولة - ما يبدو سجين الحكاية الأسطورية أو الشعبية فى قوالبها الفنية التى سيطرت على صاحبها منذ زمن،

وفى نفس الإطار- وإن اختلفت الصورة قليلا - نجد ما يشير إلى أن صاحبها قد آثر السلامة واكتفى بتصوير مظاهر وموضوعات بيئية تتعلق بملامح مكانية أكثر من كونها تمس الحياة الإنسانية ، فتأتى الأعمال فى قوالب لا تحمل من صاحبها سوى ما تعلمه من حرفة الرسم والتلوين فى إطار أكاديمى مستفيداً من إنجازات الانطباعية، ولا يمكن لنا أن ننكر دور هذا النوع من الأساليب الفنية فى مواطن أخرى فى حياتنا الثقافية أو اليومية بعيداً عن مقام ذلك النوع من



فاطمة فخرو وإنسانها الأسطورى



محمد الطحان يعزف على وتر الجنوب

الإبداع الذى ننشد فيه الجدة والأصالة والخصوصية ...

الحداثة الغربية

وعلى الجانب الآخر هناك من يحاول الإمساك بأسباب المعاصرة باحتمائه فى أساليب وقوالب فنية أفرزتها الحداثة الغربية، ربما يكون قد تم تجاوزها أو انبثقت فى ظل ما أصاب الحياة الغربية من أزمات ثقافية من فرط إحكام قبضة الساسة ورأس المال على وسائط التعبير الفنى المختلفة وشيوع النزعة المادية وذلك دون الإلمام ببواعثها وأغراضها فتكون النتيجة أشكالا فنية مشوهة ليس لها هدف واضح الأمر الذى يفرض علينا إعادة طرح السؤال الدائم وما يتبعه من أسئلة متعلقة وهو : لماذا الفن اليوم؟.. وما هى طبيعة الاحتياج الإنسانى له فى هذا الزمن ؟ .. وعلى أية صورة أو كيفية تكون جدة العمل الفنى وأصالته ؟... ولابد أن تأتى الإجابات فى ظل سياق عالمى قد تعرى وفضح فكرة تطور الإنسان فى ظل الحضارة الغربية الراهنة، وأفصح عن وحشيته الكامنة تحت دخان أنظمة وأيديولوجيات براقة المظهر، الأمر الذى يجعلنا نضيف تساؤلات أخرى: هل مازال للفن والفنان دور فى حركة الحياة؟ وإن كان هذا ففى أى خندق يقف؟ هل يكون مع مقاومة ذلك الوحش الكاسر المدمر؟ أم فى خندق الأقوى؟..أم يكتفى بزخرفة الحياة



وينسحب خارج دائرة الصراع وحركة التاريخ ؟.

بالطبع لانبغى إجابات شفوية نظرية حتى لانقع فى المحظور فنقول ما لانفعل، وليس لدينا ما يؤدى إلى التسرع فيبقى باب المناقشة مفتوحا لعلنا نهتدى إلى إجابات عملية شافية، وعلى أية حال فهناك ما يجب الإشارة إليه فى هذه الجولة لكى تتضح لنا الصورة أكثر.. فيظهر النشوقاتى فى الـ «تاون هوس» Town House إحدى قاعات العرض الخاصة التى تتبنى ما تطلق عليه من وجهة نظرها الأفكار الحداثية أو الطليعية، ويقدم لنا تجربة فنية ربما تبدو مغايرة لما عرفناه به فى حقول التسابق والتجريب التى تتبناها المؤسسة الثقافية .. فهو يصيغ تكويناته الفنية - هنا - تحت فكرة الموت عبر وسيط ربما يخيل للبعض أنه أصبح تقليدياً فى خضم التقنيات المستحدثة التى فرضت نفسها فى حقل الفنون الجميلة فغيرت فى بنية مفاهيمها وخصائصها، إذ أنه يعتمد على الرسم والتلوين فى تجسيد رؤيته للموت عبر الجسد الإنسانى وطاقاته التعبيرية، وبغض النظر عما تحمله أعماله فى هذا المعرض من قيمة فنية.. فإن ما تعكسه من ملامح الأسى والألم - وان لم يكن هذا جديداً بصورته المجردة - يبدو قريباً فى هذا المضمون من تلك الصورة القاتمة التى تشكلها الأحداث

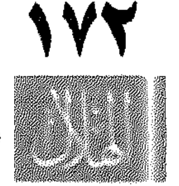
العالمية وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط، تلك الصورة التى تحيى بداخل كل منا وتكتم كل ألوان التفاؤل، ومن هذه الوجهة فإن أعماله فى هذه اللحظة الراهنة تذكرنا بقضية علاقة الفن بالمجتمع أو الزمان والمكان، وماهية القيمة الجمالية وعلاقتها بالتعبير، إذ ربما يعلو التعبير عنده عن لغة الشكل أو العكس فالمهم أنه مازلنا نلمس حلقة مفقودة يجب البحث عنها فى إطار خبرته وتجاربه المستقبلية .

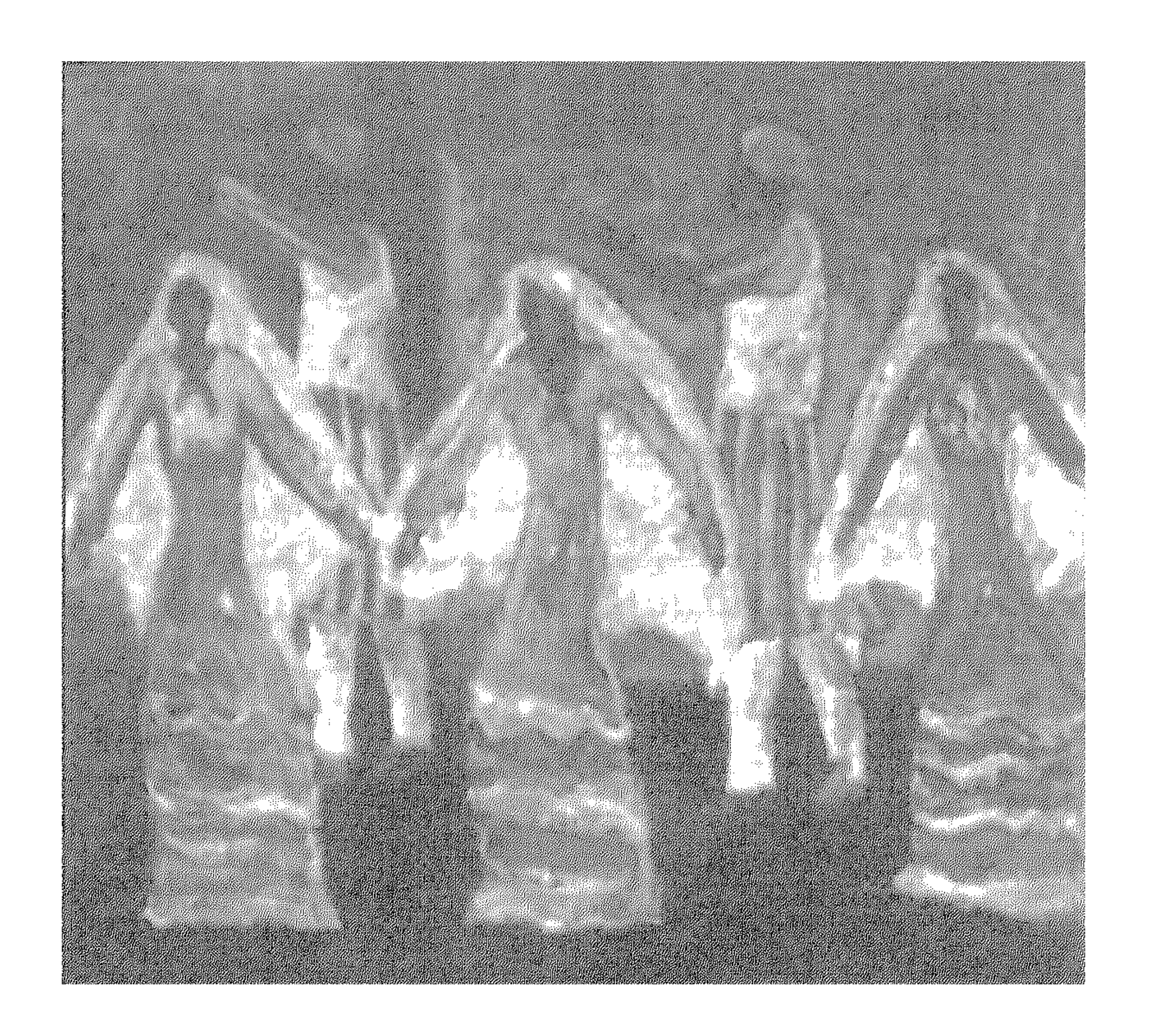
البحث عن الهوية

وأما «محمد الطحان» فيصر على احتمائه بالحياة الشعبية المصرية وتراثها الإبداعى وما تحمله من ملامح ثقافية خاصة، تلك التى تلازمه مثل ظله منذ أن عرفته فى ثمانينيات القرن الماضى مصوراً وإنساناً صاحب حساسية وقناعات فنية خاصة تنخرط فى منعطف البحث عن الهوية المصرية فى إطار التراث الشعبى وفى هذه المرة يتخلى عن تكويناته السابقة التى كانت تعتمد على استلهامه روح الفن الشعبى برموزه وجمالياته بغض النظر عن الدلالة الرمزية المتعارف عليها، حيث كان اللون والملمس يؤديان دوراً مهماً فى تجربته الفنية، فبعد أن كانت حبيسة البعدين على جدار أو واجهة من واجهات البيوت بملامسها التى تفيح برائحة الأزمنة، فهو يخرج من هذه الدائرة المحدودة إلى فضاء أرحب بين رطوبة الأرض النيلية وحرارة شمسها، حيث يطبع إنسانها صورته الباطنة على جدرانها ويتنفس فيه عبق الحرية محتمياً بدفء «اللمة» فى صور أو مظاهر فلكلورية يختلط فيها الموروث أو التقليد أو الطقس بالاحتياجات الإنسانية الدائمة للحرية والولوج فى عوالم أرحب خارج دائرة الحياة اليومية برتابتها ومحدوديتها، إذ تتبلور فى صور تعكس ما تنطوى عليه الذاكرة من أبعاد ثقافية يجسد منها «الطحان» ما هو مجرد من الأبعاد الغيبية أو ما يرتبط منها بعالمنا الأرضى المحسوس فلا ترى فى أعماله تلك الأجواء الفوقية بغموضها وآفاقها الخيالية .

إطار أسلوب فنى يفصح عن امتلاكه لحرفة عالية فى رسم الوجه الآدمى من منظور مفهوم المحاكاة ومكتسبات المدرسة الانطباعية .

وفى منطقة أخرى من فن التصوير، وفى قاعة ٥ × ٥، تظهر البحرينية العراقية «فاطمة فخرو» مواليد ١٩٤٣ برؤية تصويرية تفصح عن جرأة مثيرة للتقدير والإعجاب إذ تظهر متحررة من قيود وتقاليد الموروث الثقافى أو الاجتماعى، التى من شأنها الحد من حرية الإبداع والتحليق فى ممالك الخيال للإفصاح عن خبايا النفس ودوافعها المتعلقة بالحياة، فهى وإن بدت حالمة بالحرية إلا أنها لم تنقل من عالمنا الأرضى الملموس صاحب الأبعاد الحسية، وذلك رغم ما يبدو على أعمالها





عمل للفنان محمد الطمان يستنهض ذاكرة الحياة المصرية

من رؤية خيالية تتضح فى إنسانها الأسطورى المحمل بدلالات رمزية - ربما أفصحت عنها أساطير رمزية قديمة - تجسد من خلالها العلاقة السحرية الأزلية بين المرأة والرجل أى «ما بينهما من رباط مقدس» أعطته له معظم الحضارات الإنسانية .. ربما تتنوع صورته فى إطار جوهر واحد، وهنا فى عالم «فاطمة» يظهر الرجل في تكوينه الإنسانى برأس ذكر البجع - أو الأوز - بلونه الأبيض، ويحمل حورية حمراء فى علاقة عضوية تبيح بما بينهما من تواصل إنسانى بصورة رمزية تحمل أوجهاً متعددة من التأويل لاتتبرأ مما تحمله الفنانة فى أعماقها من أبعاد ثقافية ونفسية خاصة بها فى هذا الإطار، فربما تبدو العلاقة بينهما متكافئة أو متكافلة أو ربما تتفوق فيها المرأة قليلا، فالحورية أو المرأة الأسطورية الحمراء ليست من ذلك الطراز الأنثوى الضعيف أو المستكين أو الذى يرتدى قناع الاستحياء إذ نراها

ثانية تمتطي جواد ذاتها الجامح لتنفلت من تشرنقات التقاليد بطاقة روحية ذاتية مستقلة عن أى دعم خارجي، وعلى الرغم من ذلك فإن حلمها يخرج من إطار الذاتية ليكون حلما إنسانياً عاماً فى هذا الزمن .

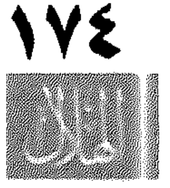
حوار ميلودرامي

فعلى الرغم من أنها تتناول أكثر الموضوعات شيوعاً إلا أنه يكتسب عندها أبعاداً رمزية خاصة، وتأتي الطبيعة لتمثل العنصر الثالث في هذا الحوار الميلودرامي، إذ تبدو متجردة من معظم الملامح التى تربطها بهوية مكانية أو ثقافية محددة، ففى بعض الحالات تتجلى بأبعادها القطرية فى إعصار ليلى أزرق يتأرجح بين صورة تلاطم أمواج البحر أو سماء ملبدة بغيوم تحركها رياح عاتية، وفى حالات أخرى تتجلى فى أشجار خريفية قائمة متعرية السيقان وتتسم بغلظة وخشونة ربما تشير لما يموج به الواقع من قيود وغلظة وخشونة تستهدف الإنسان فى أى مكان، وعلى أى حال فإن أعمالها تتميز بصدق وصراحة شديدين مع النفس دون مواربة... وتحمل الكثير من الدلالات والإيحاءات الرمزية ليس أمامنا متسع لتحليلها وقراءتها بصورة كاملة.

وعلى الجانب الآخر يظهر منصور المنسى بأحدث إبداعاته فى فن النحت مع أربع فنانات هن : «نهى عبد الحفيظ» و«أماني دهب» و« رشا محمود» و «نجوى » فى معرض جماعى بساقية عبد المنعم الصاوى تحت عنوان «وجدانيات» حيث تتنوع إبداعاتهن بين فن الحفر والكولاج والرسم والكمبيوتر جرافيك، ويشكل هذا العرض حالة تتكامل لتطرق أبواب المعاصرة وتمسك بأوتار اللحظة الراهنة، خاصة على مستوى الوسائط التقنية وما يحمله الشكل ومعالجاته الفنية من مضمون، ومن جانب آخر ترتبط مباشرة بالتراث المصرى.. إذ نجد «نهى عبد الحفيظ» تستلهم بعض الأشكال أو الرموز المصرية القديمة مثل «نوت» الهة السماء وغيرها فى إطار تقنيات الكولاج وقوالب الطباعة التقليدية

وتأتى «أماني دهب» من خلال التصوير لتجسد وجهة نظرها ومشاعرها تجاه القضية الفلسطينية «الجرح الدائم» بإشاراتها الرمزية المباشرة فى صياغات فنية تتسم بمسحة تعبيرية يكتسب فيها اللون والخط بعداً مهماً، وفى إطار التعبير بالأبيض والأسود تأتى «نجوى» بجرأة فائقة لتجسد عالمها فى تكوينات عضوية ظلية تتحرك فى فضاء أبيض شريطى مفتوح .

وأما «رشا محمود» فترتاد أكثر التقنيات أو الوسائط الفنية حداثة محتمية فى الفن الإسلامى أو العربى أو ما يطلق عليه على سبيل الخطأ الزخرفة لإسلامية، وتحاول الاستفادة من إمكانات الصورة الرقمية من حذف أو إضافة وتأثيرات لونية أو ملمسية وغيرها



مما هو متاح فى برامج معالجة الصور وذلك لصياغة تكوينات فنية تتصف بملامح فنية خاصة تشير إلى خبرتها الأكاديمية فى معالجة الشكل والتكوين، ولكن لابد من الوضع فى الاعتبار أن التقنية الرقمية تعتبر من الوسائط المسيطرة بإمكاناتها الواسعة إذ تتطلب رؤية وحساسية فنية عالية من أجل ترويضها والانفلات من سحر مغرياتها .

ويأتى منصور المنسى فى هذه المجموعة متفرداً برؤية فنية متبلورة فى أسلوب فنى يتمسك بلغة الشكل وخابراً بأسرار حوار الكتلة مع الفراغ، إذ يستمد مفرداتها من الكائنات الحية سواء إنسانية أو حيوانية وخاصة تلك التى تزاملت مع الإنسان المصرى منذ فجر تاريخه فحفرت لنفسها فى ذاكرته دلالات رمزية، فنرى فى أعماله البومة والثور والإنسان والأفعى، فهو يعيد صياغتها فى تكوينات معمارية تتسم بالصرحية ومحملة بدلالات رمزية إيحائية، أحيانا توحى بنوع من القوة والرسوخ، وفى أحيان أخرى توحى بحركة حلزونية تتشابه - فى بعض الأعمال - مع معطيات الآلة الحديثة ومكوناتها، ومن هذه الوجهة تحمل أعماله ملامح عصرية مع احتفاظها بملامح محلية خاصة .. تتجلى فى انعكاس ملامح المكان بتجلياته الطبيعية والإنسانية فى تكويناته : سواء كان ذلك على مستوى الأسلوب الفنى، الذى يستمد ملامحه من مكتسبات الفن الحديث وتراثه النحتى القديم أو كان على مستوى المضمون .

وفى كلية الفنون الجميلة بالزمالك يظهر «طاهر عبد العظيم» ليلفت الانتباه بعنوان معرضه: ألوان من بلدنا وذلك إلى ظاهرة مسميات المعارض فى هذه الأيام التى غالبا ما تأتى فى إطار الدعاية عن المعرض، حيث تحرى الجانب التشويقى ولفت الانتباه، بغض النظر عن مدى ارتباطه بمضمون المعرض، ونعود إلى أعمال طاهر عبد العظيم فنراه يستقى تكويناته من مناظر الحياة الشعبية القديمة بخطوطها المائلة وملامسها الرطبة ذات الألوان المحايدة، حيث تتحول إلى مساحات منسوجة من عجائن لونية سميكة تتنوع فى درجاتها عبر انتقالات لونية هادئة، فيبدو المشهد كما لو كان فى منطقة «شبه الظل» أى لانجد ذلك النوع من التباين الحاد بين الضوء والظل المميز للطبيعة المصرية، وتظل ملامح المنظر كامنة فى بنية العمل الفنى بصورة تجعلها وسيلة لبناء فنى يميل إلى التسطيح والاختزال فتبدو أعماله أشبه ببحث فى بنية التكوين وعلاقاته اللونية أو الملمسية بغض النظر عما يحمله العمل من أبعاد أخرى سواء تعبيرية أو عاطفية أو خيالية أو حتى واقعية، ولكنها تفصح عن خبرته فى مجال التصوير وعن ذهنية منهجية تتجه بخطوات ثابتة فى البحث نحو هويتها الفنية . ■





حوارات القاهرة
المثقفون والأزمة العراقية
تأليف: علي سعيد علي الفاتح
الناشر: مكتبة مدبولي

حوارات صحفية جريئة، أجراها الصحفيان على سعيد وعلى الفاتح مع بداية الحملة الأمريكية على العراق وحتى بعد سقوط بغداد فى ٩ ابريل ٢٠٠٣، تدور حول رؤية عدد من الشخصيات السياسية والفكرية تنتمي إلى مختلف الاتجاهات الموجودة على الساحة العربية والمصرية. وتكمن أهمية تلك الحوارات أنها استطاعت أن تجمع بين التحليل الفكرى وبين التحليل السياسى لوقائع سقوط بغداد برغم أنها لم تخل من الحماسة الزائدة التى تغلب عليها الرطانة القومية كما يذكر صلاح عيسى فى تقديمه للكتاب.

حوارات تجمع عددا من الرموز فى مختلف الاتجاهات، تبدأ بحوار مع أحد رموز الإسلام السياسى المهندس أبو العلا ماضى وكيل مؤسسى حزب الوسط. وتنتهى بحوار مع نورى عبدالرازق المثقف والمفكر اليسارى السياسى والذى يقيم بالقاهرة منذ عام ١٩٧٣ على اعتبار أنه أحد رموز المعارضة العراقية ويعمل سكرتير عام منظمة التضامن بين الشعوب الآسيوية والأفريقية، إلا أنهما اتفقا على إدانة الأنظمة المستبدة ونظام صدام حسين على وجه الخصوص.

كما يستعرض الكتاب عددا فى الحوارات مع عدد من الشخصيات أمثال الدكتور أسامة الغزالي حرب والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله، الدكتور حسن حنفي والدكتورة دلال البرزى، الدكتور رفعت السعيد، الدكتور سعيد النجار وسليمان العسكرى وضياء الدين داوود، وفهمي هويدى، محمد سيد أحمد، محمد عودة، ومراد وهبه، مكرم محمد أحمد. وإن كان أخطر ما جاء فى الكتاب ما جاء على لسان فخرى كريم المثقف العراقى وعضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى العراقى سابقا. أكبر وأهم الأحزاب العراقية المعارضة للنظام البعثى. يصف فى ختام حواره حال المجتمع العراقى بعد تسييده بثقافة الاستبداد بقوله: «لقد صار الاستبداد ثقافة المواطن حتى فى زوايا البيت. فالأب مستعد للوشاية بابنه والمرأة بزوجها والنظام يكافئها ويسميها «الماجدة» ويكافىء الأب الذى يضرب ابنه بالرصاص لأنه هرب من الجندية والنظام عود الطفل فى المدرسة كتابة تقارير بصيغة موضوع إنشائى مدرسى عما يقوله والده عن شخص السيد الرئيس. ثقافة الاستبداد هى ابتسار الأدب العراقى فى أدب الحرب وابتسار الشعر فى قصائد مديح القائد المهيب وابتسار الرواية العراقية فى الروايات التى تمجد صدام حسين..».

الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي

المؤلف: مجموعة من المقالات

الناشر: مكتبة مدبولي

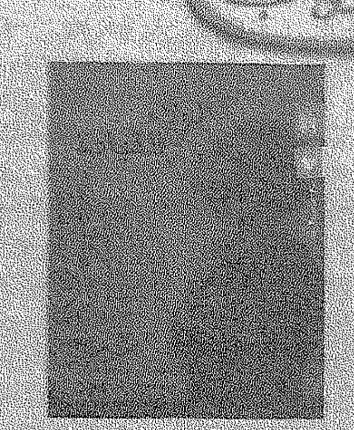
مجموعة من المقالات البحثية التي صدرت ضمن فعاليات ندوة «الدولة الوطنية في ظروف العولمة»، وذلك كأول لقاء فعال بين مركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة، ومركز البحوث والدراسات الاستراتيجية بجامعة دمشق. تناولت الندوة الجوانب الاقتصادية والسياسية لقضية الدولة الوطنية وذلك وفق تعميق مفهوم قضية الإدماج في النظام الرأسمالي العالمي الوحشي والمسمى بالليبرالية الجديدة.

في القسم الأول تتناول أوراق البحوث المقدمة المفهوم والنظام الدولي، وفيه يوضح الدكتور سمير أمين في بحث عن العولمة ومفهوم الدولة الوطنية أن الحديث عن العلاقات المعقدة والمتغيرة بينهما لابد أن ينطلق من نقد الخطاب السائد للعولمة. بل ولابد أن يرد على مقولات بأن العولمة هي نهاية التاريخ خاصة أنها ظاهرة تتضمن نوعاً من الثبات خلال الفترة التاريخية القادمة، أما الدكتور محمد دويدار يناقش الفلسفة الاقتصادية لمنظمة التجارة العالمية وأبعادها القانونية حيث يرى أن فهم اقتصاديات المنظمة الجديدة يحتاج إلى التعرف على خصائص حركة الاقتصاد الدولي في العقود الماضية، وعلى جهود تنظيم الأسواق الدولية من خلال المنظمات الاقتصادية الدولية، وذلك كمحاولة للتعرف على كيفية تحويل الاقتصاد الدولي إلى سوق واحد لا تعرف الحواجز أمام حركة السلع سواء المادية أو الخدمية أو التكنولوجية.

أما القسم الثاني يضم ورقة بحثية للدكتور منير الحمش حول موضوع آليات وأدوات الاختراق والهيمنة الأجنبية وذلك من خلال تناول دور صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومؤسساته، ومنظمة التجارة العالمية والشركات متعددة الجنسيات في إطار شبكة العلاقات الدولية والنظام الرأسمالي العالمي وفرض جدول أعمال اقتصادي وسياسي على الدولة الوطنية، مما يشكل مساساً وتعدياً على سيادتها. ويحاول البحث في السبل أمام البلدان النامية للانعتاق من أسر الرأسمالية العالمية وشباك العولمة في الوقت الذي تعمل الرأسمالية العالمية على إضعاف الدولة وتهميشها.

وإن كان القسم الثالث يتناول قضية الهيمنة الاجتماعية والإعلامية. حيث يتناول عبدالغفار شكر مسألة اختراق المجتمع المدني في الوطن العربي خاصة مع تزايد نطاقه المنظم من ٢٠ ألف مؤسسة في منتصف الستينات إلى ٧٠ ألف مؤسسة في أواخر الثمانينات، ويوضح البحث أن المجتمع المدني في الوطن العربي يمر بمرحلة انتقالية بالغة الصعوبة والتعقيد تتشابك فيها الأبعاد العالمية والدولية علاوة على المتغيرات الداخلية والتيارات القارسية والثقافية في ظل رؤية الكثيرين بأنه كحصان طروادة الذي يمارس الغرب من خلاله غزو مجتمعاتنا وإحكام قبضته عليها.

وتواصل الأبحاث استعراضها المتعمق لقضية العولمة من خلال تناول عدد من الموضوعات المتعلقة مثل الهيمنة المعلوماتية والإعلامية وآثارها للدكتور محمود السيد. كذلك يتناول العولمة من خلال خبرات التعامل مثل تجربة المواجهة في الصين وكوريا للدكتور شوقي جلال، ثم عن الدول العربية وإطارها القومي إزاء العولمة لكل من جميل مطر والدكتور أحمد برقاوي والدكتور الطيب تيزيني.



الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول

تأليف: روى متحدة

ترجمة: أشرف كيلاني

ناشر: المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

يتناول كتاب روى متحدة الجديد السلوكيات والروابط الاجتماعية التي أعطت شكلاً للحياة السياسية في المجتمع الإسلامي الأول الذي ظهر منذ أكثر من ألف عام.

ويصف الطرق التي اتبعها أفراد المجتمع لصياغة تعهداتهم والتزاماتهم تجاه بعضهم البعض جيلاً بعد جيل مما شكل الحياة السياسية داخل المجتمع.

اعتمد الكتاب على تحليل مادة الحكايات التي حفلت بها تلك الفترة مبرراً ذلك بأنها مادة أكثر بساطة من التحليلات والأبحاث والمقالات التي تتناول بناء المجتمع خاصة التي تم وضعها خلال القرنين العاشر والحادي عشر. فالكاتب يرى أن المسئولين الحكوميين والعلماء ورجال الأدب الذين كان عملهم مصدراً للغالبية العظمى من تلك الحكايات لم يتحرروا من تأثير مناصبهم وشخصياتهم ورغم أنها تمتلئ بالتفاصيل بهدف جعلهم أشخاصا واقعيين ومن ثم يمكن تصديقهم.

وانصب اهتمام الكاتب بسلوكيات الأفراد وليس الجماعات لأنها أقدر على إعطاء وصف دقيق لشكل الحياة السياسية، فنجده يقدم وصفاً للبناء الاجتماعي الذي كان قائماً في غرب إيران وجنوب العراق خلال القرنين العاشر والحادي عشر والسلوكيات والروابط الاجتماعية المختلفة من خلال الأشكال المختلفة للولاء والالتزام والقيادة في فترة غلبت عليها الفوضوية على الشئون العامة في أعقاب سقوط الخلافة الإسلامية.

ويذكر «متحدة» أن محمدا صلى الله عليه وسلم قبل أن يقود مجتمعا سياسيا كان واضحاً بأن الرؤية الأخلاقية للإسلام لها مضامينها السياسية. فالإسلام دين ينظر فيه إلى الحياة العامة على أنها مسئولية جماعية للمجتمع وقام القرآن الكريم بإعطاء التنظيمات التي يجب على المجتمع أن ينهض بالمسئولية وفقا لها.

وعندما كان محمد ﷺ على مدى الاثنى عشر عاماً الأخيرة من حياته القائد الفعلي لمجتمع سياسي، فقد تأكد الجانب السياسي للعقيدة الإسلامية وتطور على نطاق واسع، وعندما توفي محمد ﷺ لم يعد هناك ملهم إلهي للمجتمع الإسلامي سرعان ما تفجرت النزاعات حول اختيار قائد جديد. وعندها ظهر إجماع تدريجي للمسلمين على أنه يجب أن يكون للمجتمع الإسلامي قائد واحد.

ويؤكد على اتفاق جماعة المسلمين على منزلة القرآن وهو الحافظ الأول الذي تركه محمد ﷺ لأمته، وعلى سُنته النبوية وهي الحافظ الثاني كوسيلة لنشر تعاليم الإسلام. أما الحافظ الثالث وهو آل محمد ﷺ كان سببا لكثير في الخلاف. اعتقاداً من البعض أن محمد ﷺ أراد لأسرته أن تخلفه في قيادة الأمة ، ومع ذلك فعند وفاة محمد لم تقبل غالبية المسلمين النظرية التي تمحورت حول آل محمد ﷺ لذا عند مقتل الخليفة الثالث عثمان كان ذلك إيذانا ببداية أول حرب أهلية في الإسلام، واستمر المنحدرون من نسل على أو العلويين يلعبون دوراً مهما في العالم الإسلامي، واعتبر معظم المسلمين

أنه واجب ديني إظهار علامات احترامهم العظيم للعلويين، ومن ثم يبحث الكتاب في الولاءات المكتسبة وهي كما يرى «متحدة» ولاءات إيجابية استخدمها الناس كأساس للتعاون وتتجلى في أفضل صورها أوقات الشدة.

وفي الفصل الثالث يتناول ولاءات الطبقة أي المصلحة المشتركة التي تتسم بالوعي الذاتي والتي تجعل الفرد يضع نفسه ضمن طبقة لها نفس المصالح، فيشرح مفهوم المرء، الطبقة، الرعية، الأعيان الرئاسة والرئاسة بين العلماء، الأحداث والعيارون، الطوائف، ويختتم الكتاب بفصل عن مفهوم الملكية والعدالة وشكل المجتمع خلال فترة البحث.

معجم «المكنز الكبير»
المؤلف: د. أحمد مختار عمر

هذا المؤلف كما جاء على غلافه «معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات».

وليس من سبيل إلى وصف هذا المعجم الفريد الجديد إلاوصفه بأنه مجموعه معاجم في معجم واحد، بل إن هذا الوصف لا يوفيه حقه من التقدير، فهو لا يجمع هذه المعاجم ولا يضيفها إلى بعضها أو ينسقها، لكنه يفعل ما هو أرقى وأنقى وأعقد وأعرض وأروع وأرفع من هذا بكثير، إنه يقدم مستويات متعددة من العمل المعجمي في نفس اللحظة، وكأنه صورة متقدمة من فن التصوير الذي كان يعرف - ولا يزال - بأنه الإيحاء بوجود بعد ثالث، فإذا بهذا «المكنز» يقدم لنا كل الأبعاد الممكنة وغير الممكنة بما فيها بالطبع البعد الرابع المرتبط بالزمن بل بما فيها بعض ما لا تتكفل به إلا الحاسة السادسة.. وهو يفعل هذا من خلال فكرة ذكية تعمد إلى استغلال كل مدخل لكل ما يمكن من استخدام وتوظيف لغوى وأدبى ودلالى بل ومجازى أيضاً.

بهذه الفكرة الذكية التى قد تبدو - الآن وبعد إنجازه عمله العظيم - بسيطة تمكن هذا العالم الجليل من أن يطوع مفردات اللغة وجذورها لقراءة جديدة تنطلق من حيث تبدأ كي لا تنتهي إلا وقد أحاطت باللغة واستقصتها استقصاء علميا محددا كفيلا بأن يستوعب كل ما هو متصل بالمدخل من قريب أو بعيد.

وإني أكاد أتخيل عالمنا الجليل وقد جلس إلى هذا المعجم وأخرج الدنيا كلها من اهتماماته حتى إذا صفت له نفسه أخذ ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الطبيعة وإلى ما وراء الدنيا وما وراء الحياة وما وراء الطبيعة، ثم يمعن في هذه النظرة وكأنه لا يرى في كل شيء إلا بعض صورة من غيره، حتى لو كان هذا بالتضاد أو التشابه أو التخالف أو الترادف أو التكامل أو التفاضل، وهو معنى باستخدام كل قدراته العقلية من تحليل وربط وتركيب وتجريد وتجسيم وتشبيه وتصور وتخيل واستنتاج واستنباط واستقراء، وهو في كل هذا قادر قدرة منحها له الله سبحانه وتعالى على أن يصل في سرعة البرق إلى هذه القرارات اللغوية التى تستلزم جهود المجامع وتستنزف جهود الإدارات وربما لا تصل بعد هذا كله إلى بعض ما وصل إليه.

ولو أن مسار القرون يتنبأ به من خلال بداياتها فإنه يمكن لنا القول بأن القرن الحادي والعشرين سيشهد نهضة توظيف اللغة العربية إلى آفاق لم تصلها طوال تاريخها على نحو ما تبدى في وضع هذا المعجم العظيم في بداية هذا القرن الذي ربما يكون من حظه في نظر خلفائنا أن يعرف بأنه القرن الذي شهد في بدايته وضع «المكنز الكبير» وصدور طبعته الأولى.



مشــــروع

من أجل حماية الوثائق والأوراق الشخصية

بقلم
د. رءوف عباس

تعد الأوراق الشخصية (أو الخاصة) مصدرا لا غنى عنه لكتابة التاريخ المعاصر لأى أمة متمدنة، ونعنى بها الأوراق التى تتجمع لدى الشخصيات العامة، التى تلعب دورا فى الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية. وقد تتخذ تلك الأوراق طابع «المراسلات الخاصة» التى تتلقاها الشخصية العامة ممن يدخلون فى دائرة نشاطها، أو من تربطهم بها روابط الصداقة. وقد تتخذ صورة «اليوميات» التى يبثها صاحبها مكنون نفسه، وما تمنعه طبيعة عمله، أو وضعه الإجتماعى، أو علاقاته الإنسانية عن البوح به للآخرين.

ولعل أبرز مثال لذلك يوميات سعد زغلول التى نشرتها دار الكتب بعنوان «مذكرات سعد زغلول» بتحقيق بالغ التواضع قام به عبدالعظيم رمضان وقد تتخذ الأوراق الشخصية طابع «المذكرات» التى يكتبها صاحبها عادة اعتمادا على يومياته وقد لا ينشرها فى حياته، ويوصى بنشرها بعد وفاته بعدد معين من السنين.

وفى بلادنا تتضمن «الأوراق الشخصية» لمن يتولون مناصب عامة، وثائق الدولة الرسمية، التى يجمعها شاغل المنصب العام «رئاسة هيئة أو وزارة أو رئاسة الوزراء» عند تركه للمنصب باعتبارها أوراقه الشخصية رغم أن بينها ما قد يكون نسخة فريدة من مذكرة مهمة أو سرية، ورغم ما تتعرض له هذه الأوراق «الخطيرة» من تلف وضياع عندما يلبى من جمعها نداء ربه، فيبددها الأبناء وهذه الظاهرة لا نجد لها أثرا فى البلاد المتقدمة التى تضع ضوابط قانونية للحفاظ على وثائق الدولة، فعندما كتب ونستون تشرشل مذكراته عن «الحرب العالمية الثانية» حصل على إذن خاص من مجلس الوزراء بالاطلاع على الوثائق التى كانت لاتزال فى مرحلة السرية، واطلع عليها وفق ترتيب خاص بالأرشيف القومى «دار المحفوظات العامة»، رغم أن تلك الوثائق صدرت منه، أو قدمت له، أو شارك فى صنعها عندما كان رئيسا للوزراء خلال الحرب، ولكنه لم يحملها معه عند تركه المنصب كما يفعل أصحاب المناصب الرفيعة عندنا. وكلنا نذكر ما نشره «الأهرام» فى صدر صفحته الأولى من تغطية لترك رئيس وزراء أسبق لمنصبه، من أن موظفى رئاسة الوزراء خرجوا فى وداع سيارة نقل حملت «أوراقه الخاصة» وبعض الملابس الرسمية التى كان يحتفظ بها فى مكتبه ولا يدهشنا أن يبلغ «نزيف» الوثائق الرسمية التى حملها معه شحنة سيارة نقل، فقد قضى الرجل فى المنصب ما يزيد على الثمانى سنوات.

***

هذه مقدمة طويلة - لابد منها - لكى نقف على أهمية «الأوراق الشخصية» كمصدر لكتابة التاريخ المعاصر، لأنها تخص أناسا لعبوا أدوارا أساسية فى صياغة أحداث ذلك التاريخ، لذلك فكرت مجموعة من المؤرخين العرب فى مشروع لإقامة مركز عربى «خاص»

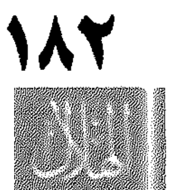
يجمع الأوراق الشخصية من عائلات من رحلوا من الساسة والشخصيات العامة، وترتيبها، وتصنيفها وفهرستها وإتاحتها للباحثين للاطلاع. أو الحصول على نسخ بصورة من بعضها وفق مادرجت على العمل به دور الأرشيف فى مختلف بلاد العالم المتمدن.

وكان الدافع للتفكير فى المشروع - فيما علمت - ما سمعه أصحاب المشروع من كثرة العروض التى يتلقاها مركزا دراسات الشرق الأوسط بجامعتى أوكسفورد ودرام ببريطانيا من عائلات الساسة العرب - على وجه الخصوص - لإيداع أوراقهم الشخصية بأحد المركزين حتى أصبحت الطاقة الاستيعابية لهما عاجزة عن تلبية الطلبات التى يتلقيانها. وقيل فى تبرير حرص تلك العائلات على إيداع الأوراق الخاصة لمورثهم فى أرشيفات معاهد أجنبية خارج الوطن العربى، بدلا من إيداعها دور الوثائق الرسمية فى بلادهم، أنهم يخشون أن تتعرض - عمدا - للتلف، أو يساء تخزينها وحفظها أو يتم حجبها عن الباحثين، على أساس أن الأمور فى بلادنا تسير حسب إرادة المتربع على كرسى السلطة، وأن قوانين الحفاظ على الوثائق وإتاحتها للباحثين، قلما تحظى بالاحترام. وخاصة أن كل نظام يرى فى نفسه منقذ البلاد والعباد من الضياع، ويعتبر أن ما جاء به هو الحق بعينه، وأن ما كان قبله باطلا، لذلك تفتقر النظم الحاكمة فى الوطن العربى إلى الوعى بالتاريخ وبأهمية الأرشيف القومى كمستودع لذاكرة الأمة وسجل لتجاربها. ونادرا ما تعى تلك النظم دروس التاريخ، فتقع فى نفس الأخطاء الفادحة التى وقع فيها أسلافها، فلا عجب أن يخشى أصحاب الأوراق الشخصية من عواقب إيداع تلك الأوراق الأرشيف الوطنى لبلادهم.

مراسلات محمد فريد

ولكن بقاء تلك الأوراق بيد تلك العائلات لا يخدم تاريخ البلاد من قريب أو بعيد لأنها تظل بمعزل عن متناول الباحثين وأذكر - فى هذا السياق - المراسلات الشخصية التى كان يبعث بها الزعيم محمد فريد لعائلته أثناء وجوده فى منفاه الاختيارى بأوروبا، إلى عائلته بمصر، والتى رأيت نماذج منها عند المستشار عبدالخالق فريد، وعلمت أنها تزيد على المائة وستون خطابا.

وقد توفى عبدالخالق فريد، ولا نعرف أين توجد تلك الخطابات الآن. وكذلك



خطابات نوبار باشا التى كان يرسلها لعائلته أثناء وجوده بأوروبا فى مهام كلفه بها الخديو اسماعيل، أو أثناء وجوده هناك فى أواخر عهد اسماعيل، وقد شاهدت بعضها - أيضا - عند حفيده مريت غالى الذى رحل منذ سنوات ولا نعرف مكانها الآن. فوجود الأوراق الشخصية لدى العائلة لا يضمن الاستفادة منها كمصدر لكتابة التاريخ. وقد تقع - فى نهاية المطاف - فى يد من لا يقدر قيمتها من الورثة، فيتم إهدارها أو ضياعها.

وضمت المجموعة التى فكرت فى مشروع إقامة «مركز عربى للأوراق الشخصية» د. نادية البغدادى، وهى ألمانية من أصل عراقى وتعمل بجامعة وسط أوروبا ببوادبيست (المجر)، ود. بسمة قضمانى، وهى - فيما أعلم - سورية الأصل وتعمل بمؤسسة فرانكلين بالقاهرة والأستاذ فاروق مردم بك، وهو سورى يعمل بمعهد العالم العربى بباريس والأستاذ جميل مطر الباحث والكاتب المصرى المرموق مدير المركز العربى للتنمية للقاهرة.

وتفتق ذهن أصحاب المشروع عن ضرورة عقد إجتماع تحضيرى لوضع الأسس العامة التى يصاغ على أساسها المشروع، يتخذ شكل مائدة مستديرة يدعى إليها بعض الشخصيات العربية والأجنبية من أهل الاختصاص، ومن أصحاب الخبرة بالوثائق، والمشتغلين بدراسة التاريخ العربى المعاصر. واختير معهد العالم العربى بباريس مكانا لاستضافة الاجتماع (دون أن تكون له صلة رسمية بالموضوع فلا يدخل المشروع ضمن دائرة اهتماماته)، وتولت مؤسسة فرانكلين بالقاهرة مسئولية تحمل نفقات الإقامة فى باريس للمدعوين للاجتماع، وتحملت جامعة وسط أوروبا نفقات السفر للمدعوين من الخارج.

وبدأ الاجتماع بعرض عام لفكرة المشروع قدمته كل من نادية البغدادى وبسمة قضمانى، وشاركهما العرض فاروق مردم بك، وسلم الجميع بأهمية تجميع الأوراق الشخصية وضرورتها الحيوية ولكن تركز النقاش حول نقاط رئيسية أراها بالغة الأهمية، هى: الشكل القانونى والتنظيمى للمركز المقترح، مكان إقامته ، مصادر تمويله، كيفية أدائه لمهامه، العلاقة بين المركز وأصحاب الأوراق الشخصية ، طرق ووسائل إتاحة هذه الوثائق للباحثين ومدى إمكانية نشر

بعضها نشرا علميا محققا.

مواصفات المراكز البحثية

أما عن الشكل القانوني، فأقترح أن يكون المركز مؤسسة خاصة مستقلة لا تهدف لتحقيق ربح، يديرها «مجلس أمناء» يختار أعضاءه من بين الخبراء المشهود لهم بطول الباع في هذا المجال، وتكون للمركز لائحة أساسية تحدد كيفية اختيار أعضاء مجلس الأمناء وصلاحياته، والجهاز الفنى والإدارى للمركز، وطريقة عمله، والجوانب المتصلة بالحقوق القانونية لأصحاب الأوراق الشخصية فيما يودعونه أرشيف المركز من أوراقهم، ونوع الضمانات التى تقدم لهم مقابل تفويض المركز حق التعامل مع تلك الأوراق وفق الأصول المتعارف عليها دوليا لمثل هذا النوع من النشاط.

مرونة فى بيروت

واقترح أصحاب المشروع مدينة بيروت مقرا للمركز المقترح، وحجتهم فى ذلك أن القانون اللبنانى أكثر مرونة من غيره من القوانين العربية الأخرى، فى إتاحة مساحة واسعة من الحرية لهذا المركز للعمل، ولخلو لبنان «تقريبا» من الأجهزة الحكومية التى تعنى بمطاردة مثل هذا النوع من المراكز بحجة «الدواعى الأمنية» وقيل أيضا أن وجود المركز فى بيروت يبعث الطمأنينة فى نفوس أصحاب الأوراق الشخصية، ويشجعهم على التعامل مع المركز المقترح كما أن بيروت ربما كانت أيسر العواصم العربية دخولا للقادمين من خارج لبنان من الباحثين الذين يترددون على المركز.

أما عن مصادر التمويل التى يعتمد عليها مثل هذا المشروع الطموح الذى يحتاج إلى تخصيص مقر خاص ملائم، مجهز بكل وسائل الحفظ المادى «أرشيف الأوراق» والالكترونى بما يحتاج إليه من معدات متطورة، هذا فضلا عن تكلفة الأجور والرواتب للعاملين بالمركز «نفقات الادارة» وغيرها من نفقات ضرورية، فقد رأى أصحاب المشروع أن يكون التمويل معتمدا على الهبات المالية التى تقدمها بعض الشخصيات العربية الثرية، والتبرعات التى يجود بها الأفراد والمنح الأجنبية التى يتم الحصول عليها من الجهات والمؤسسات المعنية بتشجيع مثل هذا النوع من النشاط العلمى.

أما عن العلاقة بين المركز المقترح وأصحاب الأوراق الشخصية فترتكز على «الثقة» التى يوفرها الوضع القانونى والنظام الأساسى للمركز، وموقعه فى بيروت. وأن يكون إيداع الأوراق أرشيف



المركز دون مقابل مادى، أو مقابل قيمة رمزية، أو حتى السماح للمركز بالحصول على صورة رقمية لتلك الأوراق، مع احتفاظ أصحابها بها. ويلتزم المركز باتباع تعليمات أصحاب الأوراق فيما يتعلق بالإتاحة.

أما عن طرق حفظ الأوراق الشخصية التى يحصل عليها المركز، فقد دار حديث طويل استغرق جلسة كاملة خصصت لهذا الغرض، تم فيها استعراض تجارب الأرشيفات الأوروبية فى هذا الصدد. وقدمت نادية الرزينى (مؤسسة ومديرة مركز الرزينى للأوراق الشخصية بمدينة فاس بالمغرب) تجربتها الخاصة فى إقامة مركز للوثائق والأوراق الخاصة بعائلتها ذات الأصل الأندلسى، والتى يرجع تاريخها إلى قرنين من الزمان. فقامت بتجميع تلك الأوراق والحجج فى بيت العائلة بمدينة فاس الذى حولته إلى أرشيف ومتحف خاص بالعائلة، وبينت كيف أن التجربة جذبت انتباه عائلات فاس، فأودعت ما لديها من أوراق بمركز الرزينى.

اين تقام تلك المراكز؟

وتحول الحديث إلى ضرورة التركيز على الحفظ الرقمى باستخدام الوسائط الإلكترونية الحديثة، وقدم سليم تمارى عرضا عن آخر ما تم التوصل إليه فى هذا المجال، وتعددت الآراء حول أفضل البرامج والوسائط التى يمكن استخدامها، وبدا الحديث فى تلك التفاصيل غريبا سابقا لأوانه، ذكرنى بالمثل الفلاحى المصرى «يشترى الوتد قبل الجاموسة» وبقصة بائعة اللبن التى قرأناها بكتاب المطالعة فى بداية التعليم الابتدائى قبل ما يزيد على نصف القرن. فها نحن نتجادل حول أفضل النظم والبرامج والوسائط الالكترونية التى تستخدم فى المركز الذى لم ينشأ بعد، مع إدراك ما يتسم به التطور فى هذا المجال من سرعة الايقاع، وأن ما قد نفضله اليوم يصبح «دقة قديمة» عندما نصل إلى مرحلة التطبيق.

واتفق على أن تكون الإتاحة مطلقة للراغبين فى الإطلاع على ما لدى المركز من مقتنيات الأوراق الشخصية لأغراض البحث العلمى، مع إمكانية الحصول على صور ورقية أو رقمية من تلك الأوراق وفق ضوابط خاصة يضعها مجلس الأمناء.

وقد دار حوار طويل حول مدى ملاءمة الأوضاع الحالية فى الوطن



العربى لإقامة مثل هذا المركز فى الوقت الراهن، وشكك البعض فى جدوى اختيار بيروت مقرا للمركز، واقترح البعض الآخر أن يقام المركز فى بلد أوروبى، أو حتى فى قبرص لتوفير الثقة الكافية فى المشروع وجديته وطمأنة أصحاب الأوراق الشخصية على سلامة التعامل مع أوراقهم، والحرص عليها وحسن استخدامها، أو عدم إساءة استخدامها، وتعلل أصحاب هذا الرأى بأن من يستطيع السفر إلى بيروت للاطلاع على أوراق معينة يمكنه السفر إلى باريس أو لندن أو ليماسول طالما توفرت لديه إمكانات السفر. وبرر ذلك كله بعدم توفر الضمانات الكافية التى يحتاجها أصحاب الأوراق الخاصة التى تجعلهم يثقون فى التعامل مع المركز لو كان مقره بإحدى العواصم العربية.

ولم نحبذ فكرة إقامة المركز فى «المهجر» لاجتذاب ثقة أصحاب الأوراق الشخصية فيقبلون على التعامل معه، لأن ذلك - لو تم - لن يفيدالباحثين العرب فى دراسة تاريخ بلادهم المعاصر، لبعد الشقة وصعوبة الحصول على «منح» دراسية تمكن الباحث من السفر إلى الخارج على نحو ما يحدث فى بلاد الغرب. وقلنا أن من الأفضل أن نبحث عن «صيغة قانونية» مناسبة لخدمة هذا الهدف مثل إعداد قانون نموذجي للحفاظ على الوثائق القومية تتبناه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليسكو)، وتوضع على ضوئه قوانين الحفاظ على الوثائق فى دول الجامعة العربية، ومن بينها الاهتمام بالأوراق الشخصية.

ومن الممكن أن يضع المركز المقترح صياغة مثل هذا القانون النموذج بين أولوياته، لأنه لا يمكن لمركز هكذا أن يضع يده على «جميع» الأوراق الشخصية فى الوطن العربى، ولأنه من المنطقى والأفضل أن تشجع الأرشيفات الوطنية فى البلاد العربية على الاهتمام بالأوراق الخاصة والحرص على جمعها وتوفير الضمانات لأصحابها، وحفظها بطرق مناسبة وإتاحتها للباحثين.

غير أن اقتراحنا هذا كان صرخة فى واد، واتجهت المناقشات إلى ما سبق أن تناولناه من نقاط تتصل بالبناء الهيكلى للمركز وطريقة تعامله مع أصحاب الأوراق الخاصة، ووسائط حفظ وإتاحة ما لديه للباحثين.

وانفض الاجتماع على أن نحاط علما بمضبطة وافية له ولما طرح فيه من

اقتراحات (لم تصلنا حتى كتابة هذا المقال) وعلى وعد بعقد اجتماع آخر فى مكان وزمان يحددان - عندئذ - للنظر فى الخطوات التنفيذية للمشروع.

وخرجت بانطباع أن المسألة ليست مجرد استطلاع لرأى «الخبراء» حول مشروع إقامة مركز «اقليمى» للأوراق الشخصية، وأن هناك خطوات ربما تكون قد اتخذت فى هذا الصدد بالفعل، وربما كان هذا الاجتماع لاستيفاء بعض متطلبات الجهات الممولة للمشروع «الواهبة» العربية أو «المانحة» الأجنبية، فقد أغلق تماما باب الحديث عن تفاصيل قضية التمويل، كما لف الغموض الإجابات التى قدمت عن الأسئلة الخاصة بكيفية تشكيل مجلس الأمناء، وطريقة اختيار أعضائه، ومن لهم اليد الطولى، والكلمة الفصل فى هذا الصدد. رغم أنها مسألة لها - فى رأيى - الأولوية عن قضية وسائط الحفظ ووسائل الإتاحة التى استغرق النقاش حولها وقتا طويلا.

على كل، لا يعنى ذلك أننا نشك فى حسن نوايا أصحاب المشروع، ولا نتساءل حول دوافعهم، فالمسألة مهمة، وتحتاج إلى تحرك سريع لإنقاذ مجموعات كبيرة من الأوراق الشخصية التى لا يمكن أن يكتب تاريخ دقيق لبلادنا فى غيبتها، قبل أن تذروها رياح الإهمال والتلف. وهناك أوراق تتصل بتاريخ الحركة العمالية فى مصر والحياة الحزبية - على سبيل المثال - أتيح لى الاطلاع عليها فى الستينات لدى أصحابها، لا أعرف مستقرها الآن، ولم يطلع عليها أحد بعدى، وقس على ذلك الكثير من الأوراق الخاصة المخفية بدء بأوراق مصطفى النحاس باشا التى كانت لدى فؤاد سراج الدين وانتهاء بأوراق العديد من الشخصيات التى تولت مناصب وزارية، ونزحت معها ما ضمته المكاتب من وثائق الدولة، وهو نموذج يتكرر - بالمناسبة - فى كل البلاد العربية.

لقد آن الأوان - حقا - لوضع الضوابط القانونية التى تمكن دور الوثائق القومية «الأرشيفات الوطنية» من الحصول على هذه الوثائق، مع وضع الضوابط الكفيلة بالحفاظ عليها وإتاحتها للباحثين فذلك أفضل كثيرا من ترك هذه الوثائق تقع فى أيدى مؤسسات خاصة، لا يدرى أحد شيئا عن القنوات التى تصلها بجهات قد يكون من مصلحتها حجب تلك الوثائق عن الباحثين العرب. ■

المدرسة السعيدية

صانعة التاريخ

بقلم
د. سلمان أبوستة

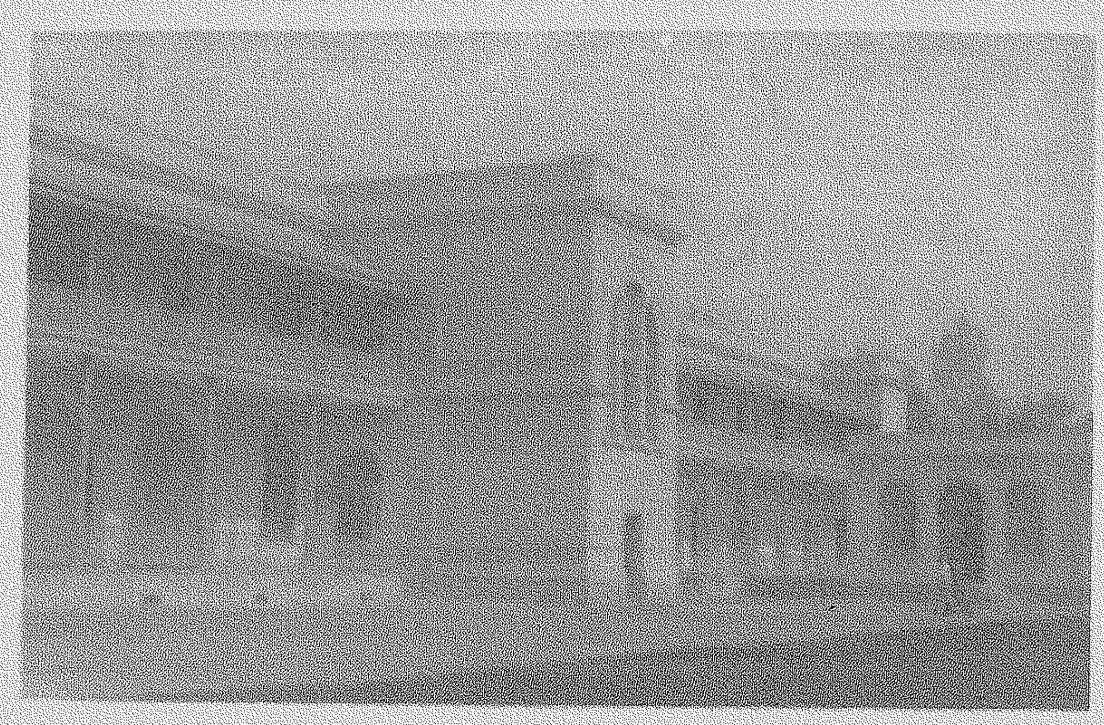
هناك صروح للعلم تكتسب إسما وتاريخا ليس بسبب مبانيها المميزة، بل لما تخرجه من شخصيات تصنع التاريخ وتؤثر فيه فهل منا من لايعرف أكسفورد أو السوربون أو الأزهر أو القيروان؟

فى هذا السياق، وإن بدرجة أقل كثيراً تأتى مدرسة السعيدية، الجارة الصغيرة للجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول ثم جامعة القاهرة فيما بعد)، التى أنشئت مثل الجامعة فى مطلع القرن العشرين . فقد أنشئت المدرسة السعيدية عام ١٩٠٦ وانتقلت إلى مبناها الحالى عام ١٩٠٨ .

لقد تمتعت السعيدية منذ إنشائها بميزات عديدة كانت مبانيها فخمة، تحتوى إلى جانب الفصول، على فيلا لسكن الناظر، الذى كان إنجليزيا فى البداية، ثم مصريا يحمل لقب بك، وتحتوى على مسرح، ومكتبة ومعامل ومصلى، وملاعب واسعة وقل أن يدخلها آنذاك طالب لاينتمى لأسرة علم أو مال أو مركز ربما لاقتصار طالب العلم على تلك الفئات .

لقد أصبح تاريخ المدرسة هو تاريخ طلابها الذين برزوا فى ميادين عديدة. لقد كانت المدرسة هى التربة التى نموا فيها، والتى يعزى إليها نجاحهم وتفوقهم فيما بعد ، وليس مقياس النجاح دائما هو الشهرة، إنما هو دور الشخص فى تفعيل المجتمع وتحسين حاله وتنويره وتركه عند وفاته أحسن حالاً بقليل مما كان عليه عند مولده .

أما الشهرة، فهى علم الناس باسم الشخص لابقيمته للمجتمع وقد تكون الشهرة لمن أصاب حظاً، أو اقترف إثماً، فهى بالقطع ليست مقياس النجاح .



المدرسة السعيدية عام ١٩٣٤

وحظ السعيدية بخريجيها النابهين من النجاح كبير وهو ما عبر عنه كتاب «عظماء ومشاهير السعيدية» الذى أعده خريج السعيدية اللواء فاروق رجب وبذل فيه جهداً كبيرا لجمع المعلومات من مصادر متناثرة، لعدم وجودها فى مكتبة المدرسة ، لقد تصفحت الكتاب بشوق، فها هى مدرستى التى تخرجت فيها منذ حوالى خمسين سنة أمامى بكل ماضيها الناصع ورغم أن جهد المؤلف جهد طيب، ليس له الكثير ممن ينافسونه، لكنه أشبه بدليل أصحاب المراكز وأصحاب الشهرة .

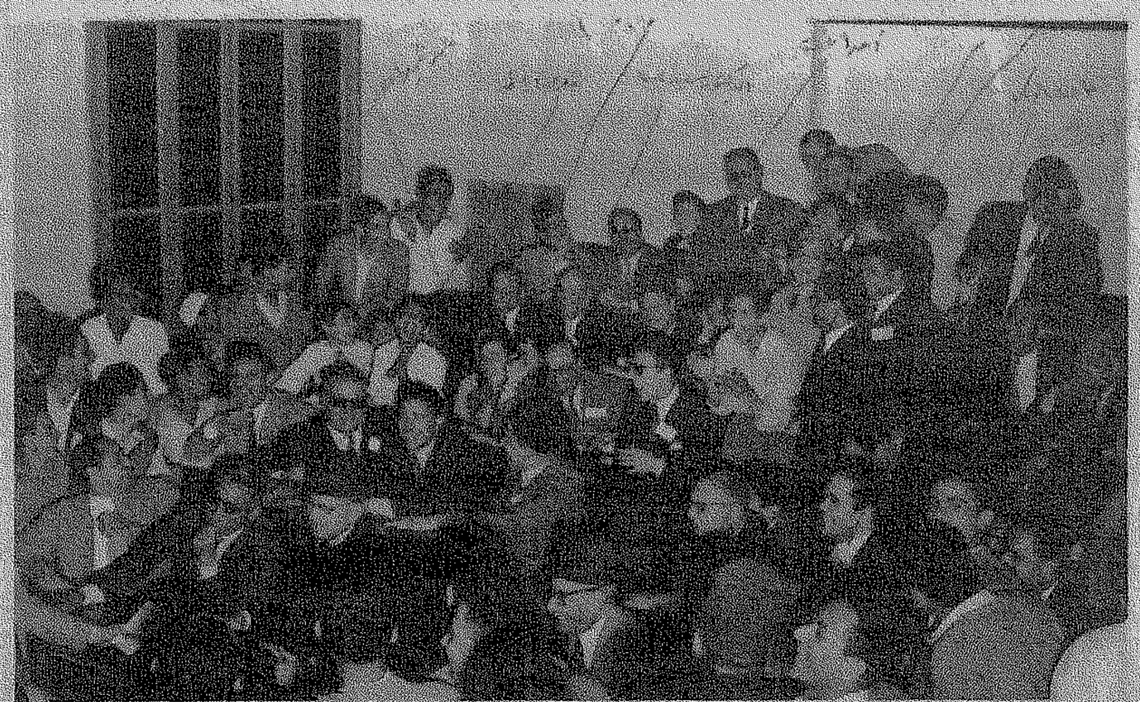
غاب عن الكتاب ما صنعته المدرسة بأجيال من الطلاب انطلقوا فى مشارق الأرض ومغاربها، يخطون طريقهم ويتركون آثارهم فى حقول بعيدة عن الشهرة، أو بلاد بعيدة عن جغرافيا مجتمع القاهرة الوزارى .

أين ذكر حمزة أبو الفضل، الطالب القروى البسيط المخلص لدينه والوفى الأصدقائه الذى أتى من البدرشين ليختلط بأبناء الذوات؟ أين هو الآن ؟ لابد أنه نشر النور حيث ذهب .

أين ذكر جلال بهجت الذى كان يتحرق شوقا فى شبابه الغض إلى الدفاع العسكرى عن الوطن ، فقضى نحبه شهيدا عام ١٩٦٧ ؟

أين ذكر محمد شرابى ابن مصر البار الذى أصبح بارزا فى العمارة فى ألمانيا؟ أين غيره من الطلاب الذين صنعوا لأنفسهم ولبلادهم أمجادا علمية وتجارية فى أوربا وأمريكا ؟

أين الكثير من الطلاب الذين لايمكننى حصر أسمائهم الذين انخرطوا فى الحركات السرية السياسية، والذين انتهى الأمر ببعضهم إلى السجون والمعتقلات، أو بالاستشهاد فى الحركات الفدائية ؟ أين الطلاب العرب، غير المصريين الذين شاركوا إخوانهم فى المعارك الوطنية فى العدوان الثلاثى على السويس وفى حرب



خريجو مدرسة السعيدية من الوزراء والسياسيين والكتاب ، بينهم الكاتب الكبير فكرى أباظة الذى كان يحرص على حضور مهرجان السعيدية السنوى

١٩٦٧ ؟

أين هؤلاء ومثلهم من أبناء اللاجئين السياسيين فى مصر، مثل أولاد عبد الكريم الخطابى، المجاهد الجزائرى الكبير؟ ما الذى تعلموه فى مصر، وما الذى علموه لزملائهم المصريين؟

انطباعات جميلة

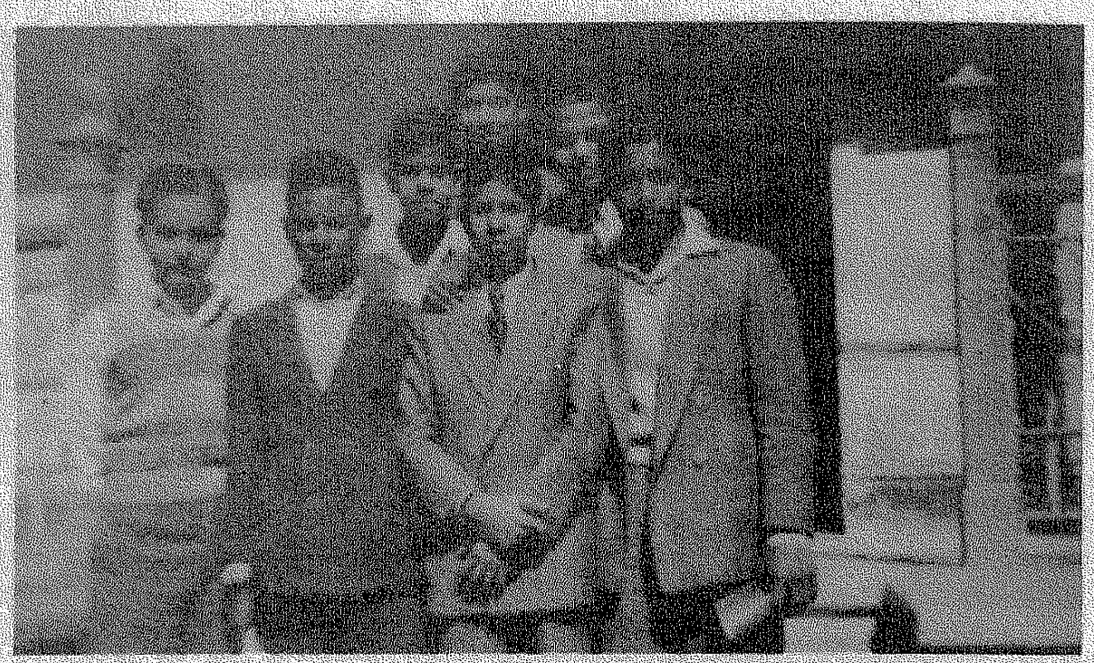
كنا نتلقى العلم والتربية من أساتذة مختارين بعناية ، يدركون طبيعة الرسالة التى يؤدونها، وعلى رأسهم ناظر المدرسة محمد أحمد بنونة الذى كان والداً عطوفاً ومربياً فاضلاً ، كنا نقارع أستاذ اللغة العربية الحجة بالحجة فى حصة الإنشاء والخطابة، وهو يدربنا على حسن استعمال المنطق والملفظ، ويوجه عقولنا الناشئة نحو حسن التفكير والتدبير .

أما مدرس اللغة الفرنسية، فكان فرنسيا مستشرقا نكافح معه فى التفاهم بالفرنسية كما هو يكافح بتعلم العربية ومدرس اللغة الإنجليزية كان نشيطاً دءوباً ولكنه كان يستعمل أسلوب الحفظ العقيم واستبدال الكلمات الإنجليزية بمرادفاتها العربية. وهو أسلوب عانيت الكثير لأتخلص منه أثناء دراستى فى انجلترا، ولو أنى لم اقبل به طوعاً فى الأصل.. ومدرس الرسم كان فناناً يعشق مهنته، ولذلك لم يجد صعوبة فى نقل موهبته إلى الطلاب .

وآخرون تركوا فى أنفسنا انطباعات أغلبها جميل وكلها مفيدة ولم تكن علاقة التلميذ بأستاذه هى الجيدة فحسب، بل كان عددنا الصغير واختيارنا المعتنى به واسم مدرستنا العريق من أهم الدوافع لتنمية الطاقات والمواهب الكامنة فى هذا الجيل الناشئ .

أذكر بوابة السعيدية ومبانيها الشامخة، حينما دخلتها تلميذا فى خريف ١٩٤٩ ، بعد حصولى على الابتدائية من مدرسة حلوان فى صيف ذلك العام أذكرها بكل رهبة وأنا الفلسطينى اللاجئ





من طلاب المدرسة السعيدية عام ١٩٥٣ : جلال بهجت ، سلمان أبو ستة ، حمزة أبو الفضل ، سامى كامل السيد من يمين الصف الأول ، وبيدو فى الصف الثانى : جمال أحمد مصطفى ، عصمت عبد المطلب أحمد

إلى مصر من العدوان الصهيوني في عام النكبة ١٩٤٨، يشحنني الغضب ويدفعني إلى الرغبة في الإنجاز والتفوق . وادخل المدرسة وأتعرف على أصدقاء العمر، مصطفى نبيل الصديق النبيل، الذى أصبحت عائلته هى عائلتى فى المنفى، ومحمد شرابى الصديق الملتزم الذى أصبح أستاذاً مشهوراً فى العمارة فى جامعة ألمانية قبل أن يقعده المرض .

ولست أنسى المنافسة الشريفة والصداقة الخالصة بينى وبين عصمت عبد المطلب حول الحصول على أعلى الدرجات فى الامتحانات . لقد كنا نذهب إلى المدرسة سوياً كل صباح مشياً على الأقدام، أمر عليه فى بيته قرب كوبرى عباس وأنا قادم من المنيل ونتحدث فى الدروس والمدرسة وأحلام الشباب طوال رحلة المشى إلى المدرسة لقد أصبح عصمت من أشهر الأطباء فى الأمراض النسائية وحصل على أعلى الشهادات من بريطانيا .

الغضب من فداحة النكبة، والحزن لضياع الوطن تحولا إلى طاقة مشحونة أعانتنى، بجهد الأساتذة المربين والمشجعين، على الحصول على أعلى الدرجات كل عام، ولقد توج هذا الجهد بحصولي على الترتيب الأول على القطر المصرى فى شهادة الدراسة الثانوية القسم العام (الثقافة) عام ١٩٥٣ والأول أيضا فى شهادة القسم الخاص (التوجيهى) عام ١٩٥٤ على القطر أيضا .

وهذه هى المرة الوحيدة فى تاريخ السعيدية التى يحصل فيها أحد طلابها على الترتيب الأول فى امتحان للقطر كله فى عامين متتاليين وهذا ما سجلته لوحة الشرف التى سجلت عليها إنجازات طلاب المدرسة منذ إنشائها عام ١٩٠٨ .

شهد النصف الأول من الخمسينيات أحداثاً وطنية مهمة وعلى رأسها ثورة ٢٣ يوليو . وكنا فى سن غضة تتأثر وتنفعل

خصوصا للاجئ مثلى رأى بعينه احتلال اليهود لأرضه وهدم بيوتها وذبح الأبرياء فيها ، ورأى تقدم الجيش المصرى ثم انسحابه من أرض فلسطين تتبعه أمواج بشرية من اللاجئين من القرى التى احتلها الصهاينة وطردوا أهلها منها، ورأى بسالة المتطوعين الفلسطينيين والمصريين وخصوصا الإخوان المسلمين فى الدفاع عن الأرض العربية، لذلك لم يكن عجيباً أن أذكر هذا كله فى خطبتى فى يوم السعيدية فى أول عيد لثورة ٢٣ يوليو بحضور أحد الضباط الأحرار، وأعتقد أنه كمال الدين حسين، وكانت كلمة الطلبة قد أوكلت إلىّ فى هذا اليوم.

عشق للصحافة

كانت الكتابة والصحافة من أهم هواياتى، ومن أجل إشباع هذه الهواية، حصلت على ما يسمى بدبلوم كلية الصحافة المصرية بالمراسلة فى السنة الثانية ثانوى، وكان لها عنوان فى أحد الأحياء الشعبية . وهى ترضى غرورك بتسميتك صحفياً مقابل رسوم متواضعة .

ومالبثت أن مارست المهنة هاويا بإصدار وتحرير ورسم مجلة الحائط التى كانت تعلق على حائط الفصل ويقرأها بعض الطلاب للاستفادة الجادة أو حتى لاستدرار النكت لكن المدرسين كانوا يشجعون هذا التوجه بالنقد والإرشاد والتشجيع، وفى السنة النهائية أصدرت مجلة السعيدية المطبوعة لذلك العام، ولا أنسى ابتسامة المربى الفاضل محمد أحمد بنونة ناظر المدرسة وهو يسلمنى نسخة مطبوعة من المجلة التى حررتها وانتظرت صدورها بشوق .

بين الماضى والحاضر

تذكرت كل هذا، وأنا أتجول فى مبانى المدرسة العام الماضى، ودهشت للمقارنة بين الماضى والحاضر، ليس فقط بالتناقض المعروف بين نظرة الطفل الذى كان يرى الأشياء كبيرة والبالغ الذى يراها على حقيقتها، بل لمرأى الاهتراء والتحلل فى المبانى وسوء نظافتها ولم يكن هذا الانحدار فى المبنى وحده، بل فى المعنى أيضا .

الطلاب يسرحون ويمرحون دون رادع من مدرس أو مراقب، ولم يكن باديا عليهم أى تقدير لقيمة المكان أو تاريخه .

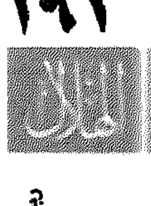
ورأيت مسئولين فى المدرسة، لاأدرى ما هى وظيفتهم، يقف كل واحد فى مبنى، ويحمل عصا، لعل لها منافع أخرى غير الوعيد بالعقاب وقد حسبت أن هذا العصر قد ولى منذ زمن .

ربما يكون التدهور فى أحوال المدرسة بسبب ضعف الحال، فقد أخبرنى ناظر المدرسة أن عدد الطلاب أصبح ستة آلاف طالب، بينما كان أقل من العشر فى زمنى.

ربما كان هذا العدد الكبير هو السبب فى إنشاء البنايات الجديدة عديدة الأدوار، وعديمة الطراز والذوق التى نشبت كأعشاب برية بين المبانى القديمة الراقية وأصبحت هذه الأخيرة تشبه «عزيز قوم ذل» فقد تساقط ظاهرها كقشور بيض مكسور .

وعدت أبحث فى المكتبة الراقية ذات الطاولات الخضراء والتى كنا أحيانا نتناول فيها شاى الساعة الخامسة، فوجدتها فى مكان آخر وقد اتسعت مساحتها وهبط رونقها وعبثاً بحثت عن مجلة السعيدية التى أصدرتها عام ١٩٥٤ أو غيرها من الأعداد، فلم أجد لها أثرا كأنما أتى زلزال قضى على تاريخ هذه المدرسة العريقة فى غفلة من الزمن .

أما الحوائط التى كانت تزينها لوحات



الشــرف التى تجـدها عــادة فى أعـرق المعاهـد شـاهدة على تاريخـهـا، حـافـزة لأجيالها الجديدة، فـقد امتلأت بإعلانات فـارغـة مـتناثرة هنا وهناك كـأنهـا سـور حديد، أما لوحات الشرف، فقد اختفت .

وعبثا حاولت البحث عن هذا الكنز فلم يسعفنى أحد ولكنى ثابرت إلى أن وجدت من دلنى عليـهـا وياليـتنى مـارأيت هذا المنظر . دخلت غرفة واسعة ملآنة بحطام الأثاث والمكاتب والطاولات المكســورة، وأعاننى حارسوها على إزالة هذا الركام، إلى أن عثرنا على لوحـات الشـرف وقـد تحطمت واجـهـاتها واتسـخت وتقـشـرت حروفها .

وقـد حـاولت إنقـاذ هذا التـاريخ من الاندثار، فـوكلت لبـعض الحـرفيين إعـادة صنع هذه اللوحات وإعادة تخطيطها علها تعـود إلى بيتـهـا المخـتـار على جـدران المدرسة السعيدية .

إن كــان لحــال هـذه اللوحــات التى وجـدتهـا وصـف صـادق فـهـو مـثل مـبنى المدرسة القديم «عزيز قوم ذل».

وإن كـان هناك عـذر لضعف الميزانية وتضـاعـف أعـداد الطلاب، فـمـا العـذر فى اقتلاع لوحـات الشرف من مكانها ورميها فى كـومة المهـملات، كيف يقتدى الطلاب بسابقيهم ويعتزون بمدرستهم، إذا مسح تاريخها وأصبحت بلا جذور؟

هذه الكوكبة من المشاهير والعظماء التى سجلها كتاب السعيدية، ألم تجد من بينهـا من يجتـمع أمـرها على جـمع مـبلغ مـائة ألف جنيـه، لتنظيف المدرسة داخلها وخارجها وإعادة صبغها وترميمها، وإحياء تاريخـهـا بتـزيين حـوائطهـا بإنجـازات خريجيها وعمل متحف صغير توضع فيه أمثلة من أعمالهم، وإعادة افتتاح المكتبة ذات الطاولات الممتدة بغطائها الأخضـر وصفوف الكتب القيمة على جدرانها كما كـانت قـبل ٤٠ عـامـاً، وذلك بـأن يتـبـرع خـمـسـون خـريجـا على الأقل، كل بألف كتاب، لكى تحوى المكتبة، مع ما كان فيها إن لم تطله عادية الزمن، حوالى مائة ألف كتاب؟

لماذا لاتضع جمعية الخريجين برنامجا مع إدارة المدرسة على تربية الطلاب خارج مقررات الدراسة تربية تدعو إلى الاعتزاز والثـقـة بالنفس، وبالفـعل الجـدى المثـابر وباحـتـرام المبادئ وبتـحـمل المسـئولية ، وليكن لكل خـريج سـواء فى علمه أو عـمله تلاميذ من المدرسة يتواصل معهم ويفيدهم بتجربته، كأب روحى ومعلم صديق .

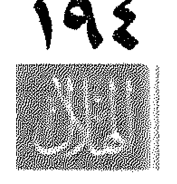
إن جـامـعـات أكـسـفـورد وكـامـبـردج وهـارفــارد لاتكاد تتـسلم مــســاعـدات حكومـية، لكنها من أغنى الجـامـعات، لأن دخلهـا يـأتى من الأمـوال التى يهـبـهـا خريجوها أو يتركونها لها فى وصياتهم.

هل يمكن أن نقـتـبس هذا التـقـليـد المفيد؟ وهل يمكن أن يدرج هذا فى جدول جـمـعـيـة الخـريجين القـادم، إلى جـانب «اسـتـعـادة الذكـريات» وطرائف الماضى؟ وهل يمكن أن تكون قدوة التـلاميذ ليست فى المشـاهير والعظمـاء فـحسب، بل أيضا فى كـفـاح الآخرين ونجـاحـهم وفـائدتهم لأمـتـهم دون أن تظهـر صـورهم بالضرورة فى الصحف وعلى التليفزيون .

حـينئـذ يكون الصـرح علمـا وعـمـلاً وتاريخاً يقتدى، ولا يكون مـجرد بناية قد اهترأت أركانها ■

دروايش الصوفية فى « زفة المولد» بالأعلام والبيارق والطبول والطاسات

قايتباى وخيمة من عجائب الدنيا !



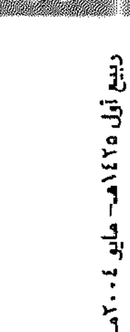
المولد النبوى.. ومشاهد الخلافة الفاطمية

بقلم
عرفة عبده على

عبر مختلف عصور الدول الإسلامية، عرفت مصر عددا كبيرا من الأعياد والاحتفالات، التي ارتبطت بعقائد المصريين ودياناتهم، فقد كان لكل من المسلمين والنصاري واليهود، أعيادهم ومواسمهم، التي اتخذت الاحتفالات بها - مظاهر محددة - ارتبطت بعادات وتقاليد الشعب المصري.

ففى عصر الدولة الفاطمية، التى نشأت حاملة لواء زعامة الإسلام والخلافة – فى ظروف سياسية ودينية خاصة – كان الفاطميون حريصين على إعادة صياغة عقل الشعب وروحه وحياته العامة والخاصة، وفقا لتوجهاتهم ورسومهم، فنرى الحياة الاجتماعية المصرية، فى ذلك العصر، اتخذت مظاهر خاصة، تألقت بألوان من البذخ والترف والفخامة، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية فكانت هذه الحياة – مرآة للدولة الفاطمية – طبعت بمنهاجها السياسى والدينى والعقلى، وعلى الرغم من تحفظ الشعب المصرى فى مشايعة الدولة الجديدة فى غاياتها المذهبية، فقد استمتع بالفيض الفاطمى وروعته فى مواكب الخلافة، ورسومها الباهرة، ومآدبها الشهيرة، وعطائها المأثور، ومازال كثير من آثار تلك الرسوم والاحتفالات فى أعيادنا وتقاليدنا الدينية المعاصرة.

وقد انتهت الينا صور ومشاهد للمواكب الاحتفالية والمواسم الفاطمية، بأقلام مؤرخين معاصرين لذلك الزمان، مثل : ابن زولاق والمسبحى وابن الطوير وابن المأمون وكانت الاحتفالات بالمولد النبوى من أبرز مشاهد الخلافة الفاطمية، فيذكر المؤرخ العلامة المقريزى عن ابن المأمون «.. واستهل ربيع الأول ، ونبدأ بما شرف به الشهر المذكور، وهو ذكر مولد سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لثلاث عشرة منه وأطلق ماهو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم، ومن الأصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة، ومن الخزائن برسم المتولين والسدنة للمشاهد الشريفة التى بين الجبل والقرافة، التى فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد، وما يتولى تفرقته سناء الملك ابن ميسر أربعمائة رطل حلاوة وألف رطل خبز» ..



وكانت الآداب الفاطمية والأسمطة الرسمية والشعبية، من الأحداث الشهيرة فى ذلك العصر، كما كان الخلفاء الفاطميون يشهدون هذه الاحتفالات والأعياد، فى أحد المناظر الملكية، ويحتشد العامة لمشاهدة الخليفة عند ظهوره بالمنظرة، أو لرؤية موكب قاضى القضاة، والانعامات والهدايا تشمل كل الأمراء وأرباب الرتب وأصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام، الخطباء والقراء وسدنة المشاهد ..

وعن «ابن الطوير» يقول المقريزى :

.. فإذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول، وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة، عشرون قنطارا من السكر اليابس، حلواء يابسة من طرائفها، وتعبى فى ثلثمائة صينية من النحاس، فتفرق فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب، وكل صينية فى قوارة من أول النهار الى ظهره، فأول أرباب الرسوم قاضى القضاة ثم داعى الدعاة، ويدخل فى ذلك، القراء بالحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشاهد.. فإذا صلى الظهر، ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم الى الجامع الأزهر، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى، فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة، ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه، فإن كانت الدعوة مضافة اليه وإلا حضر الداعى معه بنقباء الرسائل فيركبون ويسيرون الى أن يصلوا الى آخر المضيق من السيوفيين، قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين، فيقفون هناك وقد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق، ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك، وكنست الطريق فيما بين ذلك ورشت بالماء رشا خفيفا، وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر، ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة، وإلى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة، فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم، فيقربون من المنظرة ويترجلون قبل الوصول اليها بخطوات، فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشوق لانتظار الخليفة، فتفتح إحدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل، وعلى رأسه عدة من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم، ويفتح بعض الاستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ويده اليمنى فى كمه ويشير به قائلا: أمير المؤمنين يرد عليكم السلام، فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته وبصاحب الباب بعده كذلك، وبالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعيين أحد، فيستفتح قراء الحضرة بالقراءة ويكونون قياما فى الصدر وجوههم للحاضرين وظهورهم الى حائط المنظرة، فيقدم خطيب الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل الى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم، فيقول : وأن هذا مولده الى ما من الله به على ملة الإسلام من رسالته ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ثم يؤخر، ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ثم خطيب الجامع الأقمر، والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرأون، فإذا انتهت خطابة الخطباء، أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ورد على الجماعة السلام ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس، ويجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام الى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولا نقص».

والموالد الخمسة الأخرى، التى أشار إليها المقريزى هى : مولد الأمام الحسين (٥ ربيع الأول) ومولد فاطمة الزهراء (٢٠ جمادى الآخرة) ومولد الإمام على (١٣ رجب) ومولد الإمام الحسن (١٥ رمضان) ثم مولد الإمام الحاضر .

وفى عصر الدولة الأيوبية، أبطلت كل مظاهر الاحتفالات الدينية، فقد كان السلطان صلاح الدين يوسف يهدف إلى توطيد أركان دولته، لمواجهة ما يتهددها من أخطار خارجية، واقتلاع المذهب الشيعى،

بمحو جميع الظواهر الاجتماعية التى ميزت العصر الفاطمى..!

خيمة .. من عجائب الدنيا!!

وفى أوائل عصر سلاطين المماليك، اتخذ الاحتفال بالمولد النبوى من العظمة والإبهار، ما يتناسب مع شهرة المجتمع المصرى من رفاهية، وكان السلاطين حريصين على مشاركة رعاياهم الاحتفال بهذه المناسبة .. ويروى «السخاوى» ما شهده في عهد الظاهر برقوق ، عندما حضر الاحتفال الرسمى بالقلعة، فيقول : «فرأيت ماهالنى، وأظن ما أنفق فى تلك الليلة على القراء الحاضرين وغيرهم نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب العين، مابين خلع ومطعوم ومشروب وغير ذلك، بحيث لم ينزل واحد منهم إلا بنحو عشرين خلعة من السلطان والأمراء»..

وتميز عصر السلطان الأشرف قايتباى، بما لم يسبقه إليه أحد من السلاطين، حيث أمر بصنع خيمة عظيمة «جاءت من عجائب الدنيا» .. وقد أبدع ابن اياس فى وصفها وتخليد ذكرها ، فيقول فى أخبار ربيع الأول سنة ٩٢٢ ، عصر السلطان الأشرف قانصوه الغورى «وفى يوم الاثنين حادى عشر عمل السلطان المولد النبوى الشريف على العادة، ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايتباى ، قيل إن مصروفها ستة وثلاثون الف دينار، وهذه الخيمة كهيئة قاعة وفيها ثلاثة لواوين، وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة عالية، لم يعمل فى الدنيا قط لها نظير، وهى من قماش ملون، وهذه الخيمة لا ينصبها الا ثلاثمائة رجل من النواتية ، فنصبها بالحوش، ونصب الشربدارية فى الحوش أحواض جلد ممتلئة بالماء الحلو، وعلقوا شوكات بالكيزان الفاخرة، وزينوا بالأوانى الصينى والطاسات النحاس، وأوسعوا فى زينة الشرابخاناه أكثر من كل سنة ، ثم جلس السلطان فى الخيمة، وحضر الاتابكى سودون العجمى، وسائر الأمراء من المقدمين وغيرها، وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس من المباشرين على العادة، ثم حضر قراء البلد قاطبة والوعاظ على العادة، ثم مد السلطان السماط الحافل وأوسع فى أمره، وكان ذلك اليوم مشهودا وأبهج مما تقدم من الموالد الماضية»!

وكان الاحتفال عادة، يبدأ عقب صلاة الظهر، وينتهى عند ثلث الليل، وعندما يستقر السلطان فى مقامه بصدر الخيمة، جالسا الى يمينه شيخ الإسلام، وعن يساره قاضى القضاة، ويأخذ الأمراء وأرباب الدولة وكبار العلماء أماكنهم المخصصة، يبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن، فيتعاقب القراء، وكلما انتهى أحدهم، أنعم عليه السلطان «بخمسمائة درهم فضة»!

مدح الرسول وآل بيته

ثم يتعاقب الخطباء ، ويهب السلطان لكل منهم «صرة فيها أربعمائة درهم فضة ومن كل أمير شقة حرير».. وبعد صلاة المغرب، تمد أسمطة الحلوى السكرية مختلف ألوانها و«يتخطفها الفقهاء» للتوسعة على أبنائهم، حتى اذا انتهى الطعام، يبدأ المنشدون فى مدح الرسول وآل بيته ، ثم يتوافد الخليفة والقضاة والأمراء والأجناد، طائفة بعد أخرى، فيقبلون الأرض بين يدى السلطان، فينعم عليهم جميعا بالخلع و«يجبر خاطرهم» بالمنح، أما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر، فتأتى طوائف الفقراء والدراويش ومعهم رئيس المنشدين ورئيس المشببين ويستمرون فى الذكر، والسلطان جالس و«يده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه»، والخازندار يأتيه بكيس بعد كيس، حتى قيل إنه فرق في الفقراء ومشايخ الصوفية والزوايا فى تلك الليلة اكثر من أربعة آلاف دينار».. وفى صباح يوم المولد، يوزع السلطان كميات من القمح على الزوايا والربط ويترقب عامة الناس الاحتفال بالمولد النبوى «فيعملون الولائم لذلك، ويزيدون فى العبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم» كذلك اعتاد كثير من

الناس إحياء الذكرى الكريمة في منازلهم، وتطرف بعضهم في الاحتفال، فأتوا بالمغاني وآلات الطرب وتسابقوا في اللعب بالدف والشبابة، ويصدح القوالون بالقصائد والمدائح النبوية، فإذا ما انتهى الإنشاد، تقام حلقات الذكر، على حين تطل النساء من المشربيات واسطح المنازل لمشاهدة وقائع الاحتفالات، كذلك كانت تقام داخل البيوت، احتفالات نسائية بهذه المناسبة، حيث تلتف النساء حول احدى الواعظات او المتفقهات في الدين لسماع حديثها .

في زمن العثمانلي..!

ثم تبدلت الأحوال في عصر مصر العثمانية، وتواضع الاحتفال بالمولد النبوي فيتحسر ابن اياس على ما كان من بهجة الأيام السالفة، فيقول عن أحداث سنة ٩٢٣»: وفي يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول، كانت ليلة المولد النبوي، فلم يشعر به أحد من الناس، وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد من اجتماع القضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطاني، والأسطمة التي كانت تعمل في ذلك اليوم، وما كان يحصل للمقرئين من الشقق والأنعام، فبطل ذلك جميعه، وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرض الحواصل التي بها ، فرأى خيمة المولد فأباعها للمغاربة بأربعمائة دينار، فقطعوها قطعا وأباعوها للناس ستائر وسفر، وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا، لم يعمل في الدنيا مثلها قط.. وكانت كهيئة القاعة ولها أربعة لواوين وفوقهم قبة بقمريات والكل من قماش، وكان فيها تقاصيص عجيبة وصنايع غريبة.. وكانت من جملة شعائر المملكة فاتباعت بأبخس الأثمان، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها، وفقدتها الملوك من بعده، فحصل منه الضرر الشامل، وهذا من جملة مساوئه التي فعلها بمصر» !

وفي أحداث ربيع الأول سنة ٩٢٤ هـ ، يقول المؤرخ ابن اياس :

«.. وفي يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول، كانت ليلة المولد النبوي، فصنع له ملك الأمراء (خاير بك) مولدا لم يشعر به أحد من الناس، فقيل حضر عنده عشر جوق من القراء والوعاظ وبعض فقهاء ، فرسم لكل جوقة من هؤلاء بأشرفين فضجوا من ذلك.. فرسم لك جوقة بأربعة أشرفية لا غير، وقيل إن ملك الأمراء أخلع على الوعاظ في ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعد ذلك وأعطاهم مبلغا يسيرا ، ثم بعد العصر، مد سماطا في المقعد الذي بالحوش، ليس بكبير أمر، تخاطفته العثمانية على لمح البصر، وبات أغلب الفقهاء بلا عشاء!.. وأين الحسام من المنجلي!.. بالنسبة لما كان يعمل في مولد السلاطين الماضية من الأسمطة الحافلة والشقق الحرير التي كانت تدخل على جوق القراء والوعاظ، ولاسيما ما كان يعمل في موالد السلطان الغوري، فكان يصرف على سماط المولد فوق عشرة آلاف دينار، وكان يحضر عنده في تلك الخيمة العظيمة، التي لم يسمح الزمان بمثلها أبدا، القضاة الأربعة، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف، غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاس والقماش، فأين ذلك النظام العظيم.. كيف ذهبت أوقاته؟ فيا أسفي على تلك الأيام، كأنها كانت منامات »!

أيام الجبرتي ..!

ويرحل بنا المؤرخ العظيم «عبدالرحمن الجبرتي» الى زمن الحملة الفرنسية، يوم تقلد الشيخ خليل البكري نقابة الأشراف، في يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول لسنة ١٢١٣ هـ ، وفيه «سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم، فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك. وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوية معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم، وأرسل الطبلخانة الكبيرة الى بيت الشيخ البكري، واستمروا

يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء»!



فتح عينك .. تاكل ملبن !

وواقع الأمر أن حرص نابليون على إظهار احترامه لعقيدة المصريين وشعائرهم وتقاليدهم، كان جزءا من «التوظيف السياسى» للعنصر الديني من أجل استمالة المصريين ، فعقب هذا الاحتفال بيومين، كتب بونابرت الى الجنرال مارمو يطلب منه زيارة الشيخ البكرى بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى، وأشار الى أنه يجتمع برؤساء الدين فى القاهرة، كما أرسل إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية نسخة من "Courrier de Egypte" العدد الأول، الذى يحوى مقالا عن الاحتفال بالمولد، ليقوم بترجمته وطبعه.

وفى يوم الثلاثاء الحادى عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ ، يقول الجبرتى عن احتفال ذلك اليوم : «عمل المولد النبوى بالأزبكية، ودعا الشيخ خليل البكرى - سارى عسكر الكبير - مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج القناديل واصطناع مهرجان»..

ثم طلب بونابرت من الحكام الفرنسيين للمديريات، توزيع منشورات باللغة العربية على الأهالى، لإخبارهم بالاحتفال العظيم الذى أقيم بالقاهرة «وقد استمع القائد العام لقصة المولد، ثم أقبل على الصلاة يحف به كبار المشايخ» !

ولم يذكر الجبرتى شيئا عن احتفال سنة ١٢١٥، الا أن جريدة «الكورييه» تشير فى عددها» اغسطس ١٨٠٠« الى مناسبة المولد النبوى، وتقول : «مهما تكن آراؤنا الدينية ، فالواجب يقتضى بأن نعتبر محمدا رجلا يسمو كثيرا فوق بقية الرجال الذين عاشوا عصره، ويمتاز عليهم، وهو بفضل عبقريته ومعارفه وشجاعته أهل الإعجاب الأجيال التالية» .. كما عرضت الجريدة جانبا من نشأة الرسول، وموجزا لأصول العقيدة الإسلامية.

لقد أدرك الفرنسيون ما للعقيدة من أثر فى التنظيم الاجتماعى فى المجتمع المصرى، فأكثروا من استخدام الآيات القرآنية، وحرصوا على إحياء الشعائر والاحتفالات الدينية والأعياد القومية، بل إنهم شجعوا عقيدة الشعب فى الكرامات، فشاركوا فى الاحتفال بموالد بعض الأولياء !

رؤية إنجليزية

ثم جاء المستشرق البريطانى الشهير «إدوارد لين» ew. Lane الذى أبدع فى دراسة ووصف تفصايل الحياة اليومية المصرية، فى كتابه «شمائل وعادات المصريين المحدثين».. على نحو لم يبلغه أحد



مدح الرسول على أنغام الربابة ..

من المستشرقين، حتى أنه أتقن لغة الحديث باللهجة المصرية.. وقد وصف لنا الاحتفالات بمولد النبى عام ١٨٣٤، فيقول:

«تجرى احتفالات المولد فى الحى الجنوبى الغربى من الساحة الرحبة المعروفة ببركة الأزبكية، التى تتحول فى موسم الفيضانات إلى بحيرة كبيرة.. حيث تنصب خيام وسرادقات للدراويش الذين يجتمعون كل ليلة للاحتفال وإقامة حلقات الذكر.. ويتجمع الناس فى النهار للاستماع إلى الشعراء والرواة، ومشاهدة المشعوذين والمهرجين، وقد أجبرت الغوازى على التخلى عن الرقص!.. وترى فى بعض الشوارع المجاورة المراجيح، وباعة المأكولات والحلوى، وتكتظ المقاهى بالرواد..

وكانت الليلة الحادية عشرة من الشهر القمرى، وكان القمر يشع نوراً فى السماء، فيضفى على الاحتفالات روعة وبهجة.. ومررت بشارع سوق البكرى، لأحضر جانباً من حلقات الذكر، كانت الشوارع التى مررت بها محتشدة بالجموع الغفيرة، ولم أصادف إلاّ القليل من النساء.. وعلقت فى المكان - بسوق البكرى - الذى شهد تجمعاً ضخماً من الناس «ثريا» رائعة كبيرة تضم نحو ثلاثمائة قنديل»!.

الدوسة!..

ويمضى إدوارد لين مغرقاً فى وصف أدق تفاصيل حلقات الذكر والإنشاد، ومواكب الدراويش، معرباً عن دهشته من احتشاد الأقباط لمشاهدة تلك الحلقات التى استمرت حتى آذان الفجر.. وفى اليوم التالى، شاهد عرض «الدوسة» المميز الذى يختص به دراويش السعدية، فقال:

«توجهت فى اليوم السابق لليلة المولد إلى الأزبكية قبيل الظهر، فلم أشاهد غير بعض الدراويش والشعراء والمهرجين، وقد استقطب كل منهم حلقة من المتفرجين، ثم بدأت جموع الناس تتزايد فى انتظار استعراض الدوسة، الذى يقام كل عام فى مثل هذا اليوم.. قصد شيخ الدراويش السعدية - السيد محمد المنزلاوى - مسجد الحسين، بعد أن قضى شطراً من الليلة السابقة فى خلوته، مردداً بعض الصلوات والأدعية الخفية، وبعد أن أدى صلاة الجمعة، توجه فى موكبه إلى دار الشيخ البكرى، الذى يرأس جميع طوائف الصوفية فى مصر، وتقع هذه الدار بالجهة الجنوبية لبركة الأزبكية، وفى طريقه انضمت إلى موكبه، مجموعات من الدراويش السعدية، وفدوا من أقسام مختلفة بالعاصمة وشيخ السعدية كهل، أشهب اللحية، وسيم المحيا، جميل الهيئة، أبيض الوجه، وكان يلبس فى هذا اليوم: بنشاً وقاووقاً أبيضين، وعمامة من الموسلين الزيتى اللون داكن، تعبر مقدمها منحفة قطعة الموسلين الأبيض، وكان يركب جواداً متوسط الارتفاع والوزن وإنى أذكر ذلك، لسبب يتبينه القارىء الآن، ودخل الشيخ بركة الأزبكية، يتقدمه موكب عظيم من الدراويش وأتباعه..

وفى طريقه من هذا الميدان، وقف الموكب على مسافة قصيرة من منزل الشيخ البكرى،

حيث انبطح عدد كبير من الدراويش وغيرهم - لم أستطع أن أحصيهم عداً - انبطحوا جنباً إلى جنب، متلاصقين بقدر الإمكان، وأرجلهم ممدودة وأذرعهم تحت جباههم، وكانوا يهمسون على الدوام باسم الله، ثم جرى إثنا عشر درويشاً، حفاة أغلبهم، على ظهور رفقائهم، وكان بعضهم يضرب الباز ويصيحون الله!.. ثم دنا الشيخ، فتردد حصانه - دقائق معدودة - قبل أن يطأ ظهر أول المنبطحين، ولكنه خطا أخيراً بالدفع والحث من الخلف، ثم مشى دون خوف ظاهر، بخطوة عالية، على ظهورهم جميعاً، يقوده شخصان، وكان أحدهما يطأ الدراويش المنبطحين فوق أرجلهم أحياناً، والآخر فوق رؤوسهم ، وهتف المشاهدون في الحال بصوت ممدود: الله!

ولم يظهر على أحد ممن داسهم الحصان أنه أصيب بسوء ، بل وثب كل منهم واقفاً، بعدما مر الحصان عليه وتبع الشيخ، ويقال إن هؤلاء والشيخ أيضاً يستعملون كلمات (أى يرددون اسما أو أدعية) فى اليوم السابق، حتى يمكنهم احتمال خطى الحصان دون ضرر، وإن بعضاً لم يهيأوا كالسابقين، اجترأوا على الانبطاح ليمر الحصان عليهم، فلقوا حتفهم، أو أصيبوا بضرر بالغ، فى أكثر من مناسبة!

ويعد هذا العمل: كرامة، أحدثتها قوة غير طبيعية، منحت لكل شيخ من شيوخ السعدية المتتابعين.. ويقولون أيضاً إن الحيوان درب لهذا الغرض ، ولكن إذا كان الأمر كذلك اعتبر هذا من الوقائع المثيرة للدهشة، إذ أن دوس الحصان الآدميين هو عمل ينفر منه الحيوان بشدة، كما هو معروف، وقد رفض شيخ السعدية الحالى عمل الدوسة عدة سنوات وبعد توسل شديد، قبل أن يفوض القيام بها إلى شيخ آخر، نجح فى أدائها بالرغم من أنه كان ضريراً!..

وقد توفى هذا الشيخ الضرير، عقب ذلك، فاستجاب شيخ السعدية إلى التماس دراويشه، وأصبح منذ ذلك الوقت، يقوم بعمل الدوسة بنفسه دائماً..

وبعد أن قام الشيخ بهذا العمل الفذ، دون حدوث ما يعكر صفو ذلك اليوم، ركب إلى صديقه الشيخ البكرى، ودخل إلى قصره بصحبة بعض الدراويش»!!

وتجدر الإشارة إلى أن الاحتفال بعمل الدوسة، قد أبطل فى عهد الخديو توفيق كما أشار «أحمد شفيق باشا» فى مذكراته، الذى حدثنا عن حفلة «الأشاير» و«عملية الدوسة».. فقال:

يجتمع فى ذلك اليوم، ارباب الطرق الصوفية، بميدان باب الخلق، ويسير الموكب بأهم شوارع المدينة، وكانت تضم جماعة من المشعوذين، منهم من يأكل الزجاج والثعابين، ومنهم من يضرب شدقه بدبوس ذى رأس غليظ، فى عنف وقسوة، بل كان بعضهم يضع حد السيف على بطنه حتى يعلو عليه شيخهم، ثم يبل بريقه موضع السيف أو موضع الدبوس ليشفى، وعندما يصل موكب الأشاير إلى ساحة المولد النبوى أمام صيوان البكرى، يقرأ رجال كل طريقة الفاتحة، وأمامهم شيخهم بحضور ولى الأمر والمدعوين، وبعد ذلك ينبطح الكثيرون على وجوههم فى صف كبير، ثم يمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه، يقوده اثنان من اتباعه، وهم يعتقدون أن سينالهم من جراء ذلك خير كثير، وكان الناس يروحون عليهم بمراوح يدوية، أو بملابسهم أثناء انبطاحهم على الأرض فى الحر الشديد، وقد أبطل الخديو توفيق باشا هذه الحفلات العنيفة المزعجة، التى كانت خاصة بطريقة السادة السعدية، المنتسبين إلى سعد الدين الجبائى».

الاحتفالات فى عهد الأسرة العلوية

ومنذ عهد الأسرة العلوية، أصبح عبء تنظيم احتفالات مولد النبى مسئولية نقيب

الأشراف، الذى يتلقى دعماً من الخزانة العامة للمساهمة في النفقات، كذلك كانت محافظة القاهرة وإدارتها تخصص أطنانا هائلة من الأرز واللحوم والزبد والشاى والخشب، أيضاً إدارة الممتلكات الخديوية (الخاصة الخديوية) كانت ترسل أطناناً من السكر، وأدوات المطابخ..

وأصبح بيت السادة البكرية، وساحته الشهيرة بالأزبكية، يشرف برعاية الاحتفال الرسمى للمولد، وغدا بديلاً لاحتفالات الحوش السلطاني بالقلعة، وعنهم يقول على باشا مبارك فى خططه: «وللسادة البكرية فى ظل الدولة المحمدية العلوية من العناية ما يتحدث بزائد شرفه الركبان، ويفتخر به هذا الزمان على غيره من الأزمان، لاسيما فى عهد الحضرة الفخيمية الخديوية وعصر الطلعة المهيبة التوفيقية، فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوى الشريف إلى حده الأعلى..

وذلك أنه فى العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام، تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة، يدعى إليها جميع مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا، والوجوه والأعيان والذوات، فتدخل أرباب الطرق بالطبول والبيارق، رافعى أصواتهم بالذكر والصلاة على رسول الله، ثم يعين لكل واحد من السادة الصوفية ما يخصه من ليالى المولد الشريف».. ويضيف قائلاً:

«وفى الحادى عشر من الشهر المذكور - الذى هو ختام المولد الشريف - تزدان خيمة لسيد البكرى بتشريف الجناب الخديوى، يهدى السيد بفرجيه سمور من الحكومة السنية.. وفى ليلة الثانى عشر منه، يقرأ المولد النبوى الشريف فى خيمة السيد باحتفال فائق يحضره الجناب الخديوى والنظار والعلماء والأعيان».

وكان مما يزيد مشهد الساحة رونقاً وبهاء ما قامت به الخاصة السنية من تشييد لسرادق ضخم يتحلى بأبهى زينة أطلق عليه «خيمة الحضرة الفخيمية الخديوية».. بجانب خيمة السيد البكرى التى عينتها له الحكومة.. وقد أشاد على باشا مبارك بلياليها: «تكون زاهية بالتلاوة والدلائل والأذكار، باهية من أضواء الشموع بسواطع الأنوار زاهرة أيامها بالخيرات وأنواع المبرات فى إطعام الطعام وبذل الإكرام»!

وفى ٢٥ من شهر صفر، كانت الطرق الصوفية تجتمع بالقرب من ميدان «باب الخلق» حاملين بنودهم وراياتهم، متوجهين فى موكب إلى قصر الشيخ البكرى - نقيب الأشراف - بالأزبكية، حيث ينتظرهم مشايخ الطرق والتكايا وسدنة الأضرحة وبعض الأمراء والأعيان، الذين حضروا «وليمة فاخرة» تلبية لدعوة الشيخ البكرى، ثم يتلي فرمان المولد، ويحدد لكل طريقة يوم لإقامة الذكر بقصر البكرى، أو للمرور فى موكب أمام القصر.

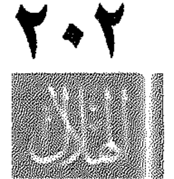
وفى اليوم التالى، يجتمع قراء القرآن بقصر البكرى، ويتلى أيضاً «حزب البكرى» وقصة «المولد النبوى».. وفى المساء، يدعى الأمراء والعلماء والوزراء وكبار رجال الدولة، لحضور استقبال مشايخ الطرق، والاستماع إلى إنشاء قصة المولد، وفى هذا الحفل، كان نقيب الأشراف يمنح رؤساء الطرق عباءة الشرف، من الصوف الفاخر، عادا مشايخ «الرفاعية» و«السعدية» فيتسلمون عباءات خاصة من الجوخ!

وخلال تلك المراسم، يستمر توافد مواكب الطرق، وحلقات الذكر، داخل وخارج قصر البكرى، كما كانت تنصب السرادقات والخيام لهذا الغرض فى ساحة الأزبكية.

الاحتفال الآن

وعن الاحتفال بالمولد النبوى فى ذلك العصر، يقول أحمد شفيق باشا:

«يبدأ المولد فى ٢٥ صفر، بأن يجتمع رجال الطرق الصوفية بميدان باب الخلق، وكل طريقة معها أعلامها، وعند تكاملها تسير فى موكب، ينشد رجالها ترانيم، كل طريقة بنغمتها، مع دق الدفوف وقرع البازة، إلى أن يصلوا مركز مشيخة الطرق



الصوفية، حيث يستقبلهم السيد البكرى، فتقرأ الفاتحة والصلوات والتسليمات، ثم يجتمع مشايخ الطرق لديه فيعلن افتتاح المولد النبوى الشريف، ثم ينصرفون. وفى عصر يوم ٢٨ صفر يجتمع القراء لقراءة آى الذكر الحكيم، وفى مسائه يدعى الأمراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان لسماع قصة المولد الشريف، ثم يأتى أرباب الطرق المختلفة، جماعات جماعات، كل أهل طريقة بدورهم، وأمامهم حاملو الفوانيس الخاصة بهم – وهى فوانيس كبيرة مغطاة بقماش أبيض رقيق بدل الزجاج – فيستقبلها السيد البكرى، وبعد قراءة الفاتحة والصلوات والتسليمات، يقام مجلس الذكر، وينشدهم الشيخ الشنتورى ويستمر إحياء الليالى فى سراى السادة البكرية لغاية يوم ٤ ربيع الأول».

الليلة الختامية

فى ليلة ١٢ من ربيع الأول، ختام ليالى المولد أو «الليلة الكبيرة» كان الخديو يتصدر الاحتفال فى سرادق نقيب الأشراف، فى حضور حاشيته وأعضاء الحكومة والأمراء وأعيان الدولة، وفى مذكراته عن هذا «الحفل الرسمى» يقول «أحمد شفيق باشا»:

«وفى المساء، تمد الموائد فى سرادق البكرى للمدعوين، وبعد صلاة العشاء، يشرف الصيوان – الجانب الخديوى – لسماع قصة المولد النبوى الشريف، وفى ختام قراءة القصة، يوزع الحلوى وشراب الليمون على الحاضرين، وينصرف بعد ذلك سموه إلى سرادقه، حيث يبدأ بالألعاب النارية.

ويزدحم الناس فى هذه الليلة ازدحاماً لا مثيل له لمشاهدة هذه الأذكار، وسماع أناشيدها، ورؤية النيازك.. وينتهز الشباب فرصة الزحام، فيكثر الغزل بين الفتيات والفتيان، وتمشى رسائل – اللب والفستق – ونحوها بين العربات التى تحمل الجنسين، مما يجعل من الليلة مهرجاناً: حظ الفتنة فيه أكبر من حظ الدين، إن كان للدين حظ فى أمثال هذه الحفلات»!!

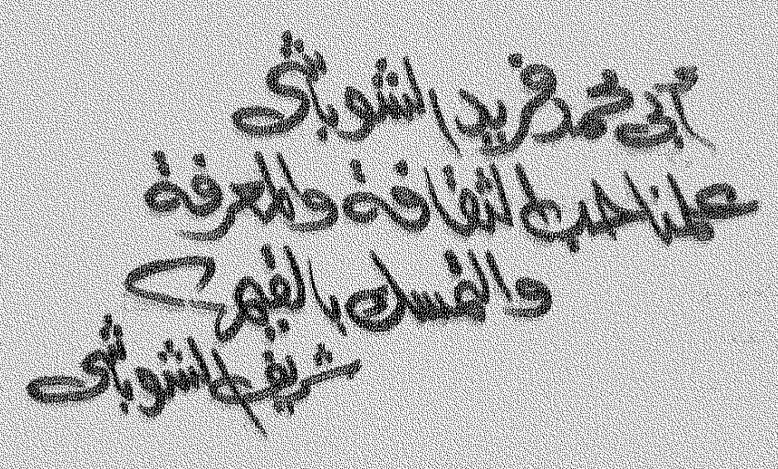
فى عهد الملك فؤاد، انتقلت ساحة الاحتفال بالمولد النبوى إلى العباسية، حيث تولت وزارة الأوقاف، وبعض الهيئات الحكومية، إقامة سرادقات خاصة، طوال فترة الاحتفالات، يرتادها الزائرون من كل صوب، يستمتعون بأطايب الطعام والمشروبات، وبسماع أشهر القارئين والخطباء والمنشدين.

أما فى عهد الملك فاروق، وبالتحديد عام ١٩٤٥، فكان الاحتفال بالمولد النبوى فى صحراء قايتباى، أو ما يطلق عليها «ترب الغفير» ويصف شاهد عيان هو «حسن السندوبى» وقائع الاحتفال، فيقول:

«قبيل الظهر بساعة، بينما هذا الجمع الحاشد فى الانتظار، إذ تعالت هتافات الجماهير المحتشدة على قوارع الطرق المؤدية إلى ساحة المولد، بحياة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، وحياة مصر الخالدة، فكان ذلك إيذاناً بوصول الموكب الملكى الفخم، وقد أقبل جلالته بوجهه المشرق على هذه الجموع، مشيراً بيده الكريمة إشارة التحية والسلام.. وبعد أن صدحت الموسيقى بالسلام الملكى، وقف فاروق وحاشيته يستعرض بعض فرق الجيش.

ثم بارح جلالته السرادق الملكى، قاصداً تشريف سرادق السادة البكرية، وما هو أن أشرف عليه حتى نهض حضرة صاحب السماحة السيد أحمد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وحوله جمع من كبار المشايخ، لاستقبال جلالته بما يليق بمقامه الكريم ولما شرف جلالته – حفظه الله – صدر المجلس الخاص، قام حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف وأخذ فى إلقاء قصة المولد الشريف»! ■

التكوين



عائلة الشوباشى عائلة جاذبة .. فكل من اقترب منها أحبها وانضم إليها، سواء من الأصدقاء، أو الأدباء والمفكرين، وأيضا مثلما فعلت فريدة الشوباشي بزواجها من علي، وأيضا الشاعر عبدالرحمن الخميسي، الذى تزوج من فاتن الشوباشى، وأصبح صديقا وفيا لأبى محمد مفيد الشوباشى، والذى كان يحلو له أن يلتقى بمحبيه وبأفراد أسرته داخل مكتبته التى تحولت إلى صومعة للقراءة، وللندوات التى كان يحضرها العديد من النقاد والشعراء.

.. أبى الشاعر والناقد محمد مفيد الشوباشى، ولد بمدينة الاسكندرية فى ٨ سبتمبر ١٨٩٩م، وعاصر الاستعمار فى بداية القرن العشرين، وثورة ١٩١٩، والمقاومة المسلحة ضد الاستعمار الانجليزى، وأدرك ثورة ٢٣ يوليو، وهو فى قمة مجده الأدبى، وكان لهذه المتغيرات فى عقله وقلبه، وفى عطائه الفكرى والأدبى، تأليفا وترجمة وإبداعا.



الشاعر عبد الحميد السنوسي



الشاعر محمد مفيد الشوباشي ومعه ابنته
فاتن . وكانت من أحب ابنائه الى قلبه

تلقى أبي تعليمه بمدرسة يقوم منهجها على إتقان اللغة الانجليزية، والتي تعد البذرة لشجرة ثقافته الأجنبية، مما جعله فيما بعد في صدارة الذين اهتموا بأدبائها، مثل عبدالرحمن شكري والمازني والعقاد وزكي نجيب محمود، وبفضل هذه النشأة، تمكن من ترجمة بحوث كثيرة من عيون الأدب الغربي، ولا سيما في القصة والرواية، والدراسات الفلسفية والنقدية، ويعتبره النقاد أحد الكتاب المؤسسين الكبار الذين جمعوا بين الثقافة الأدبية والثقافة القانونية وعلى رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقي ود . محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم ويحيى حقي ود . محمد مندور.

ثم عمل محاميا بالاسكندرية واستمر يزاول هذه المهنة حتى عام ١٩٤٧، واكتسب طول فترة عمله هذه خبرة عملية بالحياة والمجتمع، في وقت كان يرتاد فيه الندوات الأدبية، يلقى فيها الشعر والنثر ويتبادل الرأي مع روادها ، وكان من نتاجها ديوانه وحي الشاطئ وفوزه بجائزة المجمع اللغوي في الشعر عام ١٩٤٧ .

ثم ترك الاسكندرية وجاء إلى القاهرة، والتحق بوظيفة مراقب في إدارة الثقافة العامة، ثم مديرا للتشريعات والشئون القانونية بوزارة المعارف، وظل يعمل بهذا المنصب حتى سنة ١٩٦١ حيث أحيل للمعاش .

أنشأ صالونا أدبيا بمنزله في حي المعادي، ثم انتقل إلى منزل جديد في شارع الساحة بحي عابدين، ولم تكن ندواته الأدبية والشعرية مقصورة على بيته، بل امتدت إلى مكتبة أنشأها باسم

(مكتبة عصر الذرة) .

ووقفت أمي إلى جواره في رحلته لتهيئ له أفضل جو يمكنه من البحث والإبداع، وحفزه للمضي إلى الأمام، على الرغم من ظروف الحياة التي كانت تقسو في بعض الأحيان، وقد حزن كثيراً لفراقها، كما ضاعف من هذه المحنة فقد شقيقتي فاتن في حادث أليم، وكانت من أحب أولاده إلى نفسه. ولو توقفت لأتعرف على بعض ماقيل عن أبي أجد د . حسن فتح الباب يشير في كتابه «نقاد الأدب - محمد مفيد الشوباشي»: «كان من حسن الطالع أن عرفت الأستاذ محمد مفيد الشوباشي، فأدى تعرفي هذا إلى تغيير جذري في مسيرة حياتي، على مستوى الفكر والشعر والنقد والثقافة العامة.. لقد أسهم بنصيب كبير في تصحيح وعينا وتعميقه، وإثراء ثقافتنا، وغدت كتاباته من مكوناتنا الفكرية الأساسية ..

لقد رأيت فيه المنارة والمرآة.. كان القدوة والرمز للأستاذ المعلم بأدق معنى للكلمة، والإنسان النموذجي الذي يطابق فعله قوله، ولا تشوب شخصيته وسيرته نرجسية أو انفصام، أو غرور مثل بعض المثقفين. وكان صاحب رسالة، يعرف أن لكل موقف ثمنه. وظل عزيزا شامخاً، في تواضع الكبير حتى آخر حياته ويعد أول المفكرين الذين أصلوا نظرية الواقعية في الوطن العربي ونلمح ذلك في كتابه (الفلسفة السياسية) كما ترجم كتاب (الأدب والفن في ضوء الواقعية) للناقد الفرنسي جون فريفيل، وهو من الكتب المهمة التي أثرت في تطوير حركة النقد الأدبي في الخمسينيات وما بعدها، فضلا عن دراسات كثيرة من بينها دراسة «بين الأدبين العربي والإغريقي» ودراسة «الفكرة والواقع في كتابة القصة» .



أبي .. مثلي الأعلى

أنتمي إلى أسرة الشوباشي التي تربطها علاقة قوية بالثقافة، ويعود الفضل في ذلك إلى جدي محمد الشوباشي، والذي كان محاميا معروفا في جيله، وكان أول نقيب للمحامين بالاسكندرية وعندما قامت ثورة عرابي، انحاز جدي إلى هذه الثورة، ولما غزا الانجليز مصر في عام ١٨٨٢ هرب إلى تونس، ثم إلى باريس خوفا من بطش الانجليز، وشارك في إصدار صحيفة العروة الوثقى، التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ولم يدم إصدارها أكثر من عامين، وبعد ذلك صدر عفو من الخديو عن كل الذين شاركوا في ثورة عرابي، وبدأ العفو بالمدنيين، ثم تم العفو بعد ذلك عن العسكريين، وعاد جدي مرة أخرى إلى مصر، وبدأ يعمل في مجال المحاماة، وهو الذي أورث أبي حب الثقافة والولع بالمعرفة .

أما أبي فكان مثلي الأعلى، وهو كما أشرت في المقدمة كاتب معروف في جيله، وقد كان من حظ أبنائه أن يشاهدوا في المنزل كل يوم خميس ألمع نجوم الثقافة والفكر في مصر، في منتصف القرن العشرين .

كانت بداية وعيي في بداية الخمسينيات إلى جانب إخوتي على وسعيد



شريف الشوباشى فى السابعة من عمره يرتدى زى مدرسة الليسيه

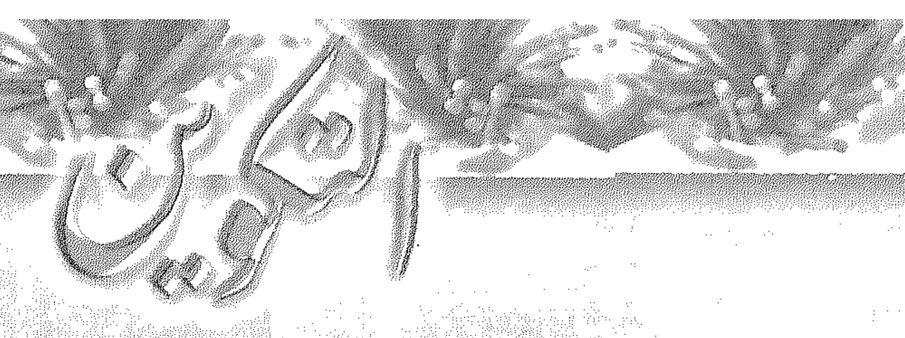
الجد الذى شارك فى ثورة عرابى

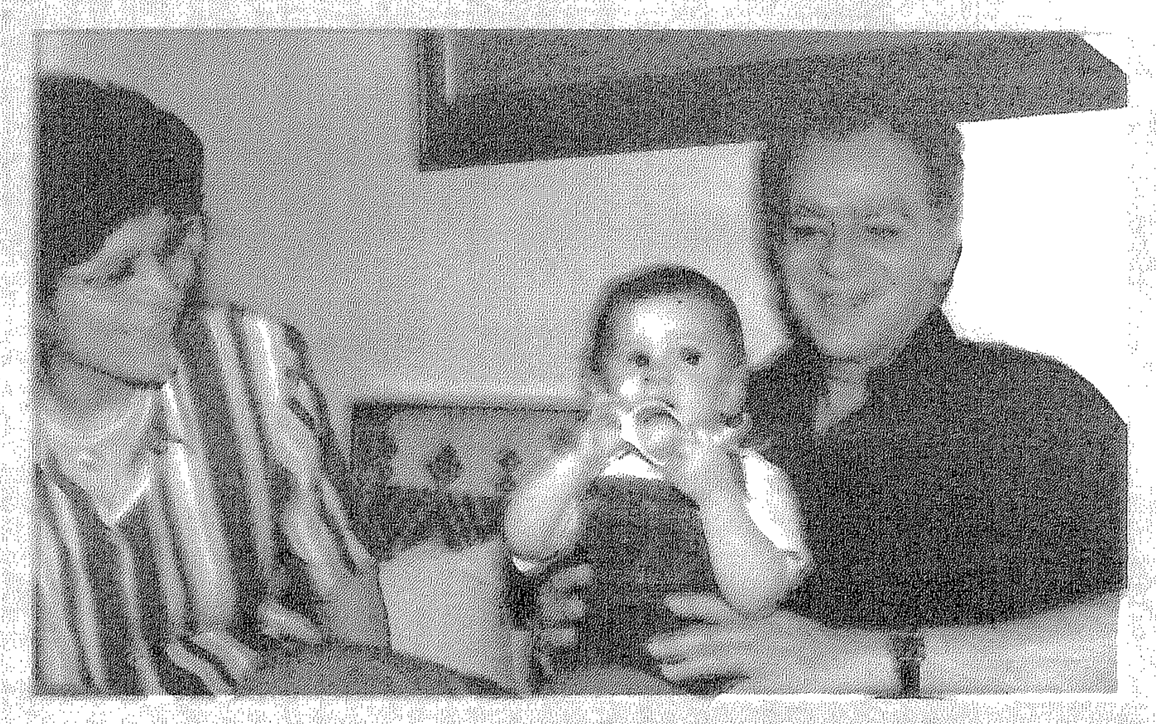
وفاتن وهدى. وأكاد أتذكر هذا التجمع الثقافي، والذى كان يضم الدكتور محمد مندور وعبدالرحمن الشرقاوى والدكتور لويس عوض والأديب يحيى حقى، فضلا عن شباب الأدباء، ومن بينهم عدد من الأدباء العرب، يحضرون ندوة الخميس، التى شهدت حوارات في كل جوانب الثقافة والفكر.

كنت صغيرا وأنا أشاهد هذه الندوة التى تلقى فيها قصائد الشعر، وتحتدم فيها المناقشات والآراء العديدة، وذلك كله رسخ لدى انطباعا بأهمية الثقافة والعلم، وأنا أرى كبار المفكرين فى بيتنا وبينهم أبى وهم يتحاورون حول كتاب قرأه أحدهم، أو يناقشون قضية فكرية مهمة تشغل بال المثقفين فى ذلك الوقت، فضلاً عن أنها - أى تلك الندوة وغيرها - كانت تعد المدرسة الأولى التى فتحت لى أبواب الثقافة على مصراعيها.

نهلت من كل ما ألفه أبى، خاصة كتابه «الفلسفة السياسية» و«أثر العرب فى الحضارة الأوربية»، وكان يعد من أوائل الذين أدركوا أثر العرب الثقافى فى الحضارة فى عصر النهضة الأوربية، وبالإضافة للجهود الذى بذلها أبى فى البحوث الكثيرة التى ألفها ونشرت فى العديد من الدوريات أصدر رواية بعنوان «الخيط الأبيض» ، وهى رواية مهمة جدا، وللأسف الشديد لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار.

أبى هو الذى غرس حب الثقافة والمعرفة، من خلال مكتبته المتاحة لى





علي وفريدة الشوباشي مع ابنهما نبيل

ولشقيقي الراحل علي، فقد كان يوصي بكتاب معين لقراءته وللاستفادة بما يضمه هذا الكتاب من قضايا فكرية، وأذكر أنه أوصاني بقراءة كتاب «أسس الفلسفة» للكاتب الفرنسي جورج بوليتزر، وهذا الكتاب يعتبر بالنسبة لي طاقة نور حيث أفادني كثيراً .

أدرك وأنا طالب في الجامعة أن لغتي العربية «ركيكة» وقد أزعجه ذلك جدا ، وحرص على أن ألازمه يوميا في المكتبة لكي أقرأ له .. وفي البداية كانت أخطائي النحوية كبيرة، وظل يتابعني، وهو يعلمني النطق الصحيح وقواعد اللغة ، حتى تمكنت من امتلاك ناصيتها، بفضل توجيهاته وارشاداته .

ذكريات لا تنسى

حينما تخرج أبي في مدرسة الحقوق جامعة الاسكندرية عمل محاميا، وكان من أعز أصدقائه الأستاذ عبدالحميد السنوسي وهو شاعر معروف آنذاك بالاسكندرية، وله شعر رقيق وجميل جدا، وزيادة في المودة والصداقة التي جمعت بينهما تزوج عبدالحميد السنوسي من عمتي، واشترك مع أبي في مكتب للمحاماة في الاسكندرية في عام ١٩٤٧، وقد اشتريا سيارة سويا، لتوصيلهما، فلم تكن الحياة وقتها سهلة مثلما نرى الآن .

كان من بين ذكريات أبي التي حدثني عنها.. عندما عاد سعد زغلول من المنفى، ذهب عبدالحميد السنوسي لاستقباله

وألقى قصيدة ترحيبا بزعيم الأمة، وكان أبى يذكر لى هذه القصة بفخر شديد!.

ومن بين الذكريات المهمة التى رواها لى أبى، أنه حضر جلسة تاريخية فى البرلمان المصرى، أعلن فيها سعد زغلول رفضه بعد مقتل «السير لى ستاك» سنة ١٩٢٤، حين وجه الانجليز للوزارة فى ذلك الوقت إنذارا بدفع مبلغ كبير جدا من المال، على سبيل التعويض لأسرة السير لى ستاك، فضلا عن اعتذار رسمى من الحكومة المصرية لبريطانيا. وعلى الفور ذهب سعد زغلول إلى البرلمان وأعلن رفضه لهذه المطالب البريطانية.. بل وكان رده حاسما وهو الاستقالة!

عمل أبى مديرا لمكتب وزير الحقانية محمد باشا سعيد، بعد تخرجه فى مدرسة الحقوق مباشرة، أما كيف حدث ذلك فهذا ما رواه أبى «بأنه بعد تخرجه فى مدرسة الحقوق، فوجئ بمحمد باشا سعيد، والذى كان صديقا حميما لجدى محمد الشوباشى، يتصل به، وقال له لقد علمت بأنك قد تخرجت فى مدرسة الحقوق، وطلب منه أن يعمل معه، وتدرج فى وظيفته إلى أن شغل منصب المدير الفنى لمكتب وزير الحقانية.

أخى على الشوباشى

وإذا كان حديثى ينصب على عائلتى فذلك يحتاج منى إلى محطات أتوقف عندها، لكى أشير إلى دور الأشخاص الذين كانوا يعيشون فى هذا البيت الذى ملأه أبى علما وثقافة وحنانا وحبا لكل أفراد عائلة الشوباشى... ويجئ دور مهم لأخى الأكبر على الشوباشى، والذى توفى منذ سبع سنوات..

وعلى لم يكن أخى فقط، لكنه كان بمثابة صديق أثير إلى نفسى ووجدانى، حيث شجعنى باستمرار على القراءة، وكنا نتبادل الرأى، ووجهات النظر فى الأدب وفى الفن، وقد أفادنى كثيرا.

وعلى الرغم من المخزون الثقافى الذى تكون لديه طوال مشواره، ظل حتى بلغ من العمر اثنين وستين عاما، ولم يقدم إبداعه، وتجربته الثقافية والفكرية.. وكنت دائم السؤال.. لماذا لا تكتب، وتقدم ما لديك من رؤى ثقافية؟!.. كان من المفترض أن يبقى على حتى سن الخامسة والستين بعمله فى وكالة الأنباء الفرنسية بباريس، لكنه فضل أن يتركها قبل هذا الموعد بثلاث سنوات.

ثم بدأ يكتب، وكان أول كتبه رواية «ثالثة رابع». ثم كتب «مدرسة الثوار» عن تجربته فى السجن فى أواخر الخمسينيات، وتحديدا عام ١٩٥٨ بمعتقل بالواحات الداخلة، وكلنا يعرف أن من يكتبون عن تجربة السجن، يتناولون ما شاهدوه من ألوان التعذيب والضرب والهوان. أما على فكتب عن مدى استفادته من تلك الفترة التى قضاها فى السجن، وعدها بمثابة مدرسة يتعلم فيها المعتقل أو المسجون الكثير، خاصة إذا كان ضمن مجموعة من كبار المثقفين المصريين فى ذلك الوقت. ثم كتب بعد ذلك «أحلام بدرية».

وبداية سفر على إلى باريس كانت فى عام ١٩٧٢ واستقر بها، وخلال فترة حكم السادات لم يحضر إلى مصر، لأنه كان معارضا لسياسته، ومع بداية حكم

الرئيس مبارك، كان حنينه إلى مصر يتزايد يوما بعد يوم، فبدأ يتردد على مصر، ويغير موقفه من الدبلام.

كان قد تزوج من فريدة الشوباشي في عام ١٩٥٧، وانضمت إلى أسرة الشوباشي والتي كان أبي يعد الرمز والقدوة لها، خاصة في جميع تصرفاته، وبشكل دائم، حيث كان كل كلامه ينصب على الثقافة ويحرص على أن يكون ذلك في ثوب جميل وأخاذ، وبعيدا عن أمراض المثقفين، الذين يظهرون نوعا من التعالي.

وبانضمام فريدة إلينا اكتسبنا عضوا جديدا في عائلة ثقافية تكتب الشعر والقصة وتهتم بالفكر والأدب، ويقام في منزلها كل خميس من كل أسبوع ندوة، يشارك فيها عدد كبير من مثقفي ذلك العصر الذهبي للثقافة المصرية والعربية.

أصبحت فريدة عضوا مهما في أسرتنا، واكتسبت اسم الشوباشي وكونها اختارت هذا الاسم، فذلك رمز له دلالته على اقترانها بهذه الأسرة وجدانيا وثقافيا، حيث أصبحت اعلامية لها دورها المهم من خلال ما تقدمه، وبالمناسبة فريدة تلعب دورا مهما في احياء ذكرى أبي والذي توفي عام ١٩٨٤، وأيضا إحياء ذكرى زوجها على والذي مرت على وفاته ثلاث سنوات!

حينما دخلت فريدة أسرة الشوباشي، عاشت بيننا في منزل يتنفس كل أفراده الثقافة والعلم، وهي سعيدة بذلك الجو، ومن بين ما أذكره ونحن في غرفة الطعام، إذا سقطت «شوكة» من احدنا وهو يتناول طعامه.. على الفور يذكر أبي بيتا من الشعر، يتضمن هذا الحدث العارض، وبعد لحظات قد يشتد الريح في الخارج، ونسمع صوت النوافذ تغلق وتفتح بصوت عال، فإذا بأبي يلقي بيتين من الشعر جادت بهما قريحته على الفورا

لكل هذا ولاستعدادها الفكري والثقافي، بدأ ابداعها وكتبت فعلا عددا من القصص القصيرة، أذكر منها قصتها الجيدة «عبارة غزل»، وكان منزل على وفريدة في باريس مزارا لكل مصري يعرفهما، خاصة من مثقفينا الكبار وأذكر من بينهم كامل زهيري ومحمد عودة ود. يوسف ادريس وجمال الغيطاني والشاعر الفلسطيني محمود درويش، لدرجة ان البعض أطلق على بيت على وفريدة في باريس، «بيت العمدة» وهذه الكوكبة التي كانت تزورهم كثيرا ما شهدت سهرات ثقافية في كل ألوان الثقافة، وطرح كل القضايا بدءا من حب مصر والهموم التي تشغل كل مثقف غيور على وطنه.

وعبدالرحمن الخميسي ينضم للأسرة

كان منزل الشوباشي في مصر يستقطب المثقفين والمبدعين في جميع مجالات الثقافة والابداع.

ومثلما كان لعلى الشوباشي دور لكي يجتذب فريدة الشوباشي لتنضم للأسرة، كان لفاتن الشوباشي دور في أن تجتذب احد رموز الثقافة المصرية، الكاتب عبدالرحمن الخميسي، فبزواجهما عام ١٩٦٢ انضم للأسرة عنصر بارز ومهم.

كان عبدالرحمن الخميسي في ذلك

الوقت نجما من نجوم الفن، والثقافة وبالمصادفة كان قد كتب فيلمه الشهير «حسن ونعيمة» والذى شهد ميلاد نجمين مهمين فى مجال التمثيل والغناء، وهما الفنانة سعاد حسنى والفنان محرم فؤاد، كما ألف وقتها ايضا تمثيلية بعنوان «البهلوان المدهش أحمد كشكش» بطولة سميحة أيوب وتذيعها الإذاعة المصرية.

وعبدالرحمن الخميسى كان شخصية مختلفة تماما عن أبى، فعلى الرغم من أنهما شاعران مهمان وأديبان كبيران إلا أن شخصيتهما كانت مختلفة تماما..

وأذكر حينما كتب أبى رواية «الخيط الأبيض» كان عبدالرحمن الخميسى متيما بها، وكان يتمنى أن يحولها إلى مسرحية، وبالفعل بدأ فى إعداد بعض موادها، لكنه كما يعرف كل المثقفين فى أثناء حياته كانت تشغله أمور قد تنسيه مشروعات مهمة جدا.

أبى كان ملتزما طوال حياته، يحب بيته جدا، ولا يخرج الا لشىء مهم، إلا أن عبدالرحمن الخميسى كان على النقيض من ذلك تماما، فهو يحب الخروج ويعشق السهرات.

ولكى نتعرف على بداية اللقاء.. أتذكر يوم جاء إلى بيتنا، وطلب الزواج من أختى فاتن.. لن أنسى أبدا مدى الحب الذى شاهدته فى عينى عبدالرحمن الخميسى لأبى، ومنذ اليوم الأول للقاء تبادل أبى معه هذا الحب وتلك المودة، التى ظلت تجمع بينهما.

كان الخميسى انسانا جميلا، خفيف الظل، سريع البديهة، حاضر الذهن دائما،

شريف الشوباشى

ويعد بالنسبة لى فى هذا الوقت الذى دخل فيه اسرتنا اكتشافا مهما جدا.

لقد تعلمت منه الكثير.. وتحضرنى هنا مقولة: ان الرجل حينما يتزوج يترك المنزل، او بمعنى أصح المنزل ينقص واحدا من افراده. وتصدق هذه المقولة بالفعل فلقد زاد بيتنا شخصا مهما جدا هو عبدالرحمن الخميسى المفكر والأديب الفنان والإنسان، تماما كما انضمت فريدة الى منزل أسرة الشوباشى.

منزل عبدالرحمن وفريدة كان قريبا من منزلنا بوسط القاهرة، وكنا دائما إما عندهم، وإما يأتون إلينا بشكل منتظم. فما بين أبى وبين عبدالرحمن الخميسى كان يتسم بالود وبالتقدير والاحترام، وكثيرا ما كانت المناقشات تدور حول

الثقافة والشعر والفلسفة ، فهو كشاعر ، كانت له رؤية فلسفية عميقة في الحياة.

وعبدالرحمن الخميسي يعرفه أصدقاؤه ومحبوه، أذكر من الطرائف أنه كان يجلس مع عدد من أصدقائه في مكان عام، وجيبه خاو من المال، ويود أن يكرم أصدقاءه، لكن من أين؟! وإذا به يلمح ملحنا يجلس بعيدا، فقام على الفور وكتب أغنية شعبية تقول «ماتزوقيني ياماما.. أوام ياماما.. دا عريسي حياخدني بالسلامة ياماما»، وقدم هذه الأغنية للملحن وعلى الفور تسلم منه المقابل وكان خمسة جنيهات، كانت لها قيمة مادية في ذلك الوقت. وأحضر بها الطعام والشراب وأكرم أصدقاءه!

كان له أصدقاء من بينهم كامل زهيري ورجاء النقاش ومحمد عودة وغيرهم، وكان له أصدقاء لا يعرفهم إلا هو منهم إبراهيم زاغو وسمير ولي الدين والد الفنان علاء ولي الدين.. وكان بالنسبة لهم المثل الأعلى، يتركون بيوتهم ويذهبون معه إلى كل الأماكن التي يرتادها وكان أصدقاؤه يطلقون عليه «القديس».

وبعد وفاة زوجته فاتن ظل على صلة مستمرة بأولاده خالد الخميسي وهند الخميسي.

كان له فضل كبير علي، فعندما تخرجت في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الفرنسية عام ١٩٦٧ ، لا أنسى أنه أخذني وذهب معي إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط ولنلتقي بالأستاذ محمد عبدالجواد، وقال الخميسي لي إن هذه مدرسة صحفية، وقلت لكنني أحب الأدب، واقتنعت في النهاية برأيه وكان ذلك بداية عملي في هذا المجال الصحفي منذ عام ١٩٦٧ والذي عملت من خلاله صحفيا بمجلة «المصور» بدار الهلال بعد فترة عمل في الوكالة ومن دار الهلال انتقلت للعمل بالأهرام ومديرا لمكتبها في باريس منذ عام ١٩٨٥ . ثم للعمل ، مع بدايات عام ٢٠٠٢، وكيلا بوزارة الثقافة لشئون العلاقات الثقافية الخارجية، ثم رئيسا لمهرجان القاهرة السينمائي.

أسرة تحترم الثقافة

هناك شخصيات في عائلتنا لابد من الإشارة إليهم.. هدى الشوباشي وتخرجت في معهد السيناريو ، وشاركت في تنظيم مهرجان الإسكندرية السينمائي لعدة سنوات، وكانت عضوة نشطة في جمعية الفيلم أيضا نبيل الشوباشي وهو الابن الوحيد لأخي علي، وتربى طوال حياته في فرنسا في بيئة تموج بالثقافة، وتزوج من فرنسية ولكنه عاد إلى وطنه مصر ليعيش بها ويعمل حاليا في التليفزيون وهو محب للثقافة وقارئ متميز جدا.

أما خالد الخميسي ابن أختي فاتن فقد أنتج وأخرج عدة أفلام تسجيلية وتمثيليات تليفزيونية.

والبرعم الأخير في العائلة فهو عمرو الشوباشي.. أيضا تربى طوال حياته في باريس وعاد إلى مصر، وهو يعمل الآن في قناة النايل تي في ، عاشق السينما، وشارك كمساعد مخرج مع يوسف شاهين في فيلم «سكوت حنصور» ومع رضوان



الشاعر عبد الرحمن الخميسي



خالد الخميسي

الكاشف في فيلم «الساحر» ومع سمير سيف في فيلم «معالي الوزير».

ولأنني أنتمي إلى أسرة تعشق الثقافة، فلا أستغرب أن شخصا ينشأ في جو يتحدث فيه الجميع عن الثقافة والأدب، والعلم، والمعرفة، واحترام الثقافة، لا أستغرب أن يكون هذ الشخص مولعا بالثقافة ومحبا لها. وبالتالي ليس من الضروري أن يكون مبدعا، ولكن يكفي أن الأساس قوي ومتين.

وللأسف الشديد فإنني ألاحظ أن هناك اتجاها في مصر للاستهانة بالثقافة وهذا شيء مخيف وينذر بخطر كبير. فالبعض يقول «ياعم هذا رجل مثقف» وكأنها نكتة أو نوع من التهكم.. وانني أحذر من هذه الاتجاه.

إن أكبر اهانة توجهها الى فرنسي هي أن تنعته بالجهل، ولا انسى انني شاهدت رجلا فرنسيا في برنامج على الهواء في التليفزيون يضرب آخر، لأنه كال له الاتهامات وحين قال له «انت رجل جاهل» قام هذا الشخص وضربه على الفور!

لذلك ينبغي ألا نقلل من أهمية الثقافة ونعمل على ازدراء الجدية وازدراء العلم والمعرفة، بحجة أن الهموم تحيط بنا من كل جانب وبالتالي ننصرف عن القراءة وعن الثقافة بوجه عام.

علينا أن نعود لما كنا عليه في زمن مضى، نهتم بالثقافة ونقدسها ونحترمها، ونضعها في المكان اللائق بنا.

فنحن شعب عرف الحضارة منذ آلاف السنين، ولا ينبغي أن نرتد الى الوراء، بل نواصل هذه المسيرة التي عرفتها كل شعوب العالم عنا. ■

الهلال وأنا

بقلم
مصطفى الحسينى

يبدو العنوان انعكاسا على مرآة لعنوان الفصل قبل الأخير من الهلال: «أنت والهلال».
وموضوع المقال لايعدو ذلك.

★★★

الحقيقة أن متعة قراءة «الهلال» ، يدخل عليها، بل أخشى أن أقول إنه يتدفق إليها حتى يكاد يجتاحها مايعكرها، مع أنها متعة كبيرة قل أن تنافسها ولاحتى أن تضاهيها متعة قراءة أى مجلة ثقافية عربية أخرى، خصوصا بعد أن تحولت المجلات الثقافية العربية أو معظمها إلى «ظواهر غريبة» عسيرة على الفهم.

صفة «الظواهر الغريبة» لاتنطوى على أى جنوح إلى المبالغة ولا على أى استخفاف، بل إنها قد تنطوى على مبالغة فى التقدير أو على إسراف فى وصف الأمر الواقع.

ربيع أول ١٤٢٥هـ - مايو ٢٠٠٤م

فتلك المجلات أصبحت تتمايز بين أنواع ثلاثة:

أكثرها «رصانة» هى التى ينشر فيها بعض الأكاديميين فى العلوم الإنسانية «أبحاثهم» التى أرادوا أن يحرزوا بنشرها حسنيين: الهروب من إخضاعها للتحكيم العلمى الدقيق؛ ونشرها كأنها عرضت عليه. إذ يعتقدون، مع الجهات غير الأكاديمية التى تنشرها أنه يكفى أن تضع جهة غير أكاديمية على مجلة تصدر عنها عبارة أنها «مجلة محكمةٌ»، حتى يحسب لهم مانشروا فيها عندما يسعون إلى ارتقاء درجة أعلى على السلم الأكاديمى . ولعلهم يحصلون

فعلا على ذلك.

«فضيلة» ذلك النوع من المجلات أن كتابها هم تقريبا قراؤها.

النوع الثانى شائع ذائع ، والحقيقة، أن له على الأرجح نوعا من الفائدة، إذ يتوجه إلى نوع من القارئ العام يفيده بأطراف من المعلومات وهوامش، تيسر له أن يكون متحدثا فى المجالس وأن يخوض فى آخر مستجدات العالم، لكن دون أن تعينه على تنشيط تفكيره والتوصل إلى تقديرات عقله. والتقدير هو أهم فضائل العقل، بل قد توهمه أنه قبض على المعرفة من مجامعها. إنها الوسيلة السابقة على الإنترنت للحصول على المعلومات.

أما النوع الثالث فهو تلك المجلات المتباهية بكتابها «النجوم» الذين يكتبون عن «الحداثة» وما «بعد الحداثة» و«البنيوية» و«التفكيك» وما إلى ذلك، بينما يعيشون فى بلاد ومجتمعات لم تبلغ أبدا تخوم تلك الحداثة من حيث هى جوهر حياة يعيشها مجتمع أفرز عناصرها وعواملها ومقوماتها. لكن الكتاب «النجوم» - الذين لايكاد يستضىء بهم أو يسترشد أحد. نجوم فى نظر بعضهم بعضا ولدى الآخذين بـ «الموضة» حتى فى أمور العلم والعقل - يظنون الحداثة زيا فكريا أو أدبيا، أو أنها صيغة أدبية أو مذهب فى النقد.

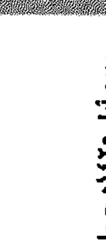
من «فضائل» تلك المجلات أن قراءها أيضا هم كتابها، لذلك تصرخ وتستصرخ بين آن وآخر أنها توشك على التوقف بسبب «ضيق ذات اليد» وتهيب بأصدقائها ومحبيها تطلب منهم النجدة. وتعتبر حالها من معالم «أزمة الثقافة» ومن الأدلة على استشرائها، وخطرها. دون التفات إلى أن معوقها الحقيقى هو «ضيق ذات الإحساس»، فهى وكتابها يعيشون بعقولهم وينتحلون لأنفسهم وجدانا لايمت إليهم. لكن من رذائلها أنها تجتذب شبابا فى غضاضة تكوينهم يؤدى بهم تطلعهم إلى المعرفة إلى الانبهار بما تطالعهم به تلك المجلات. لكن العزاء أن كثرة هؤلاء الشباب لاتلبث أن تنصرف عنها.

ليست كذلك «الهلال».

ميزتها الكبرى أنها تنشر ماينشط تفكير قارئيها ويوسع معرفتهم إلى ما يتجاوز آفاق مألوف اهتمامهم، فينفتحون عليها لتضيف إليهم.

كتاب الهلال يتداولون مع القراء، لا يعلمونهم، ناهيك أن يمنوا عليهم بالحكمة.

سأذكر كتابا بأسمائهم على سبيل المثال لا الحصر، وعلى غير ترتيب. وهم من المواظبين أو المتواترين: مصطفى سويف، رشدى سعيد، أحمد مستجير، شكرى عياد (رحمه الله)، أحمد عبدالرحيم مصطفى (رحمه الله)؛ تلميذاه وخلفاه: رءوف عباس وعاصم الدسوقى، جميل مطر، طارق البشرى (المُقل)، صافى ناز كاظم، محمود عبدالفضيل، مهدى الحسينى ... (ولأن حامل الاسم الأخير شقيقى سأبين لماذا أذكره فى هذا السياق: تقرأ له عن المسرح



مايحفزك على المشاهدة، وإن أحبطك قصر أعمار العروض المسرحية. وما يجعلك تتأمل فعل القائمين به؛ في الفن كما في الحرفة).

بهؤلاء وغيرهم تقرأ الحاضر ناظرا إلى المستقبل، تقرأ الحاضر متأملا ما به من قصور. تعيد النظر إلى الماضي وتعيد النظر فيه. تقرأ عن العالم مايحفزك إلى السعي إلى فهمه وعن العلم ما يفتح شهيتك ولا يشفي غليلك.

هذا بعض، غير قليل، من متعة قراءة «الهلال».

لكن ، وكما يقول الإنجليز، لابد لكل جملة من خصر هو «لكن» ؛

لكن هذه المتعة يجتاحها فيروس خبيث هو أخطاء الطباعة ؛

ليست مبالغة القول إن بعض المقالات، لاينجو سطر واحد منها من أخطاء الطباعة.

وقانا الله رذيلة «قطع الأرزاق»، لكن «الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». (حديث شريف).

لماذا لاتبدل «الهلال» فريقها من المصححين اللغويين؟

وما دمنا في حديث اللغة، أظن أن «الهلال» بحاجة إلى محرر لغوي، وغني عن الذكر أنها وظيفة معروفة في صناعة النشر، لا يسلم كاتب من زلل اللغة. مهمة «المحرر اللغوي» المنشود أن يقرأ مادة المجلة كلها، ناظرا في سلامة اللغة واستقامتها، متداولا مع الكتاب عند الحاجة.

عودة إلى كتاب «الهلال» وما يكتبون:

سأجازف بقول إنني كلما قرأتماينشر لاثنين من كتابها المواظبين، أحسست أنني تناولت وجبة لايسيغها الطبيب.

المشترك بين محمد رجب البيومي ووديع فلسطين، أنهما يكتبان عن «ماض جميل». هنيئا لهما ولنا بما عشنا جميعا من جمال الماضي. لكن الجمال وقيمته مرهونان بامتداده في الحاضر والمستقبل إن كان من شأنه أن يمتد، بما نتعلم منه. لكن الماضي، مهما بلغ، ليس نموذجا للحاضر والمستقبل ولا قدوة. قد ينطوي الماضي على طاقة مخزونة، عندئذ تكون العبرة في معالجته بكيفية إطلاق تلك الطاقة نحو الحاضر والمستقبل ، في كيفية تحقيق «انشطار ذرتها».

بغير ذلك، تصبح رواية الماضي لونا من أقاصيص السمر. لابأس.

***

أحيانا، يساور القارئ المواظب أن المجلة تبدأ أشياء ثم لاتواظب عليها أو تفعل ذلك ، إنما على وهن. المثال الواضح هو «دائرة حوار». بدأت؛ في ثمانينات القرن الماضي، تطرح موضوعا يتجاذبه عدد من الكتاب في العدد نفسه وقد يستطردون به إلى عدد يليه، ثم أصابها الوهن؛ أصبح الموضوع يطرح ثم يترك، ثم ازداد الوهن حتى أصبحت الدائرة بيانا لاحوار حوله.

بالطبع، ليست هذه كل شوائب الهلال؛ فهناك ماتنشر من باهت الشعر والقصة القصيرة. ألا تريد الهلال أن تكتشف شاعرا يملأ صوته العصر الذي

تنفتح آفاقه على مابعد زمن صلاح عبدالصبور وأمل دنقل؟ وقصاصا ينقل ذاكرة القصة العربية إلى العصر الذى رحل دونه يوسف إدريس؟.

***

فى درب آخر، نجد فى «الهلال» ضيقا ملحوظا وربما متزايدا فى أفقها العربى، وهو ضيق مطرد. بينما كان من مميزاتها منذ صدورها أنها كانت مجلة للثقافة العربية. يبدو هذا النقص فادحا بفعل عوامل وأسباب ليست «الهلال» مسئولة عنها، إذ نعيش منذ عقود مايمكن أن نسميه زمن تمزق الثقافة العربية أو تمزيقها، وهو ما ليس هنا مجال الخوض فيه.

وإن تكن «الهلال» غير مسئولة - قطعا - عن التمزق أو التمزيق؛ فإن من واجبها - حكما - العمل على التدارك؛ بالرتق (أضعف الإيمان) والوصل - أفضل الجهاد.

أرجح الظن أن ذلك لن يكلفها كثيرا وربما ولا قليلا، سوى قدر من الجهد الثمين. فالمؤكد أنها ستجد فى بلدان العرب الأخرى كتابا ذوى باع وقيمة يختارونها حاملا لأفكارهم، دون أن تحبطهم أو «تردغهم» مكافآتها القليلة التى يقبلها أقرانهم من كتابها الحاليين.

والمفترض أن يعين «الهلال» فى مهمة وصل ماتمزق أو انقطع، ماتحقق وانتشر وشاع من سهولة الاتصال وسرعته.

***

من باب الاستطراد فى مسألة سهولة الاتصال وسرعته، دعنا نسأل: لماذا لاتفكر «الهلال» فى إصدار طبعات متعددة لها فى عدد من البلدان العربية؟ ذلك أولى بإعادة نسج خيوط الثقافة العربية، خصوصا إذا اكتسبت الطبعات المتعددة قدرا من التمايز ذى المراجع المحلية أو الإقليمية، يجعل منها روافد يغذى بعضها بعضا. وذلك أجدى من تصدير كميات محدودة من المجلة إلى بلد عربى أو آخر. تصل دائما متأخرة، بعد أن يكون قارئها، حتى الذى ينتظرها، قد فقد الإحساس بوتيرة المجلة الشهرية التى يفترض أن تصله فى موعدها فى أول كل شهر.

***

ولايعوض القارىء عن مايفوته من متعة وفائدة قول إن الجمال لايكتمل إلا بنقصه، أو أنه كما قال شاعر (لا أعرف اسمه!):

إذا تم شىء بدا نقصه

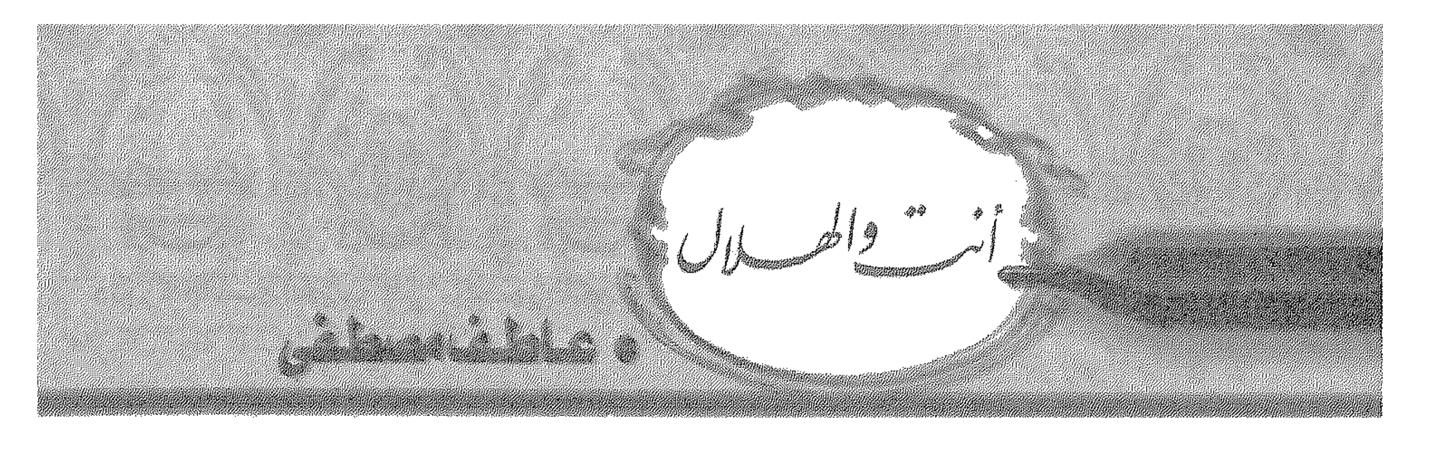
ترقب زوالا إذا قيل تم

لاشىء يتم . هذه حكمة استمرار الحياة، لكن الحياة، بذات دفعها، تتحرك دائما نحو الكمال، دون أن تبلغه أبدا. وهذا مايتمناه قارىء «الهلال» هذا لما بقى له من مجالات الثقافة.

تذييل :

أرسلت هذه السطور عن طريق البريد الإلكترونى، حتى لاتضطر «الهلال إلى تنضيدها.

هذه - طبعا - خشية من أخطاء الطباعة. ■



ماذا تريد أوروبا من العرب؟!

أصبحت صفحة (الكلمة الأخيرة) من مجلة الهلال كل شهر بحثا موجزا، ذا خطوط محددة، أحس خلاله بجهد كاتبه، هذا ينطبق تماما مع ماكتبه الشهر الماضى د. محمد نور فرحات بعنوان (حوار قبل شروق الشمس) وخلاصتها كالتالى: «هل إكتشف الحكام العرب فجأة أن الإصلاح السياسى أمر عاجل لا يحتمل التأجيل؟

لا.. بل كانوا يعلمونه ويقامونه ، ويلقون بدعاة الإصلاح من الأحرار العرب صرعى بمقصلة القمع، مجردين فوق ذلك من شرفهم السياسى بحجج سياسية وتشريعية مختلفة.. مؤداها أن الشرعية العربية إذا هى شرعية القمع!

ولكن هؤلاء الحكام العرب ينصاعون لإرادة أمريكا دون مقاومة، ونحن نكره الديمقراطية التى تأتى عن طريق جلادينا!.

ورغم إيجازى السابق لأهم ما جاء بمقال د. نور فرحات فإننى عدت بذاكرتى إلى ما كتبه الراحل الكبير أحمد بهاء الدين فى كتابه «شرعية السلطة فى العالم العربى».. الصادر سنة ١٩٨٤ ص ٦ تحت عنوان «نحن والحاضر».

«أعتقد أنه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماما بالنسبة لكل شىء ، وحتى التحديات الخارجية، سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد.

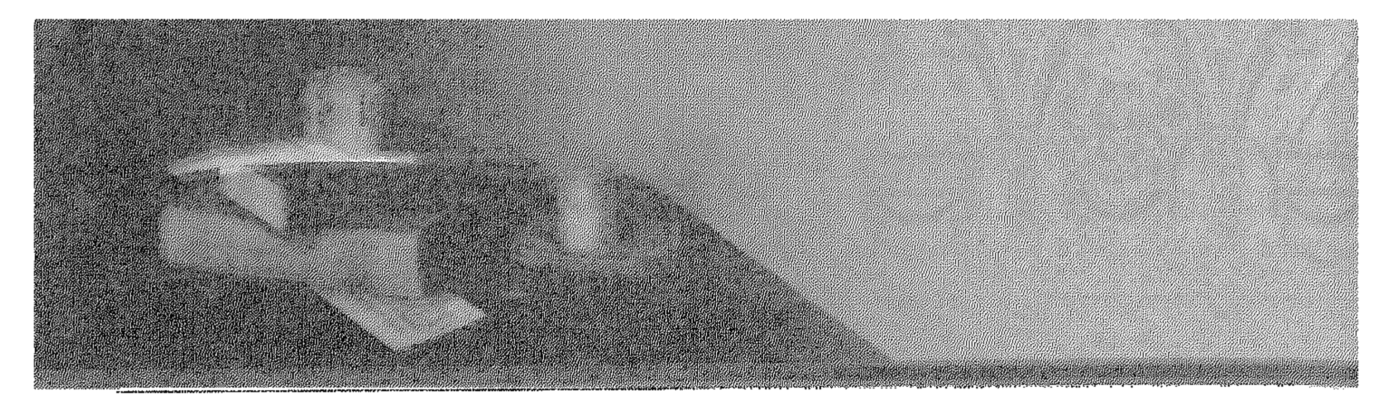
ويقول الأستاذ بهاء مذكرا العرب ص ٢٩٣.

«إن» أوروبا قوية.. كانت تحب أن ترى دائما عالما عربيا ضعيفا ، لأن عالما عربيا موحدا ، كان يعنى إضعاف «أوروبا»، وذلك بما كان يتمتع به هذا العالم العربى من حضارة سابقة متكاملة.. وهذا يسبب لأوروبا مشكلة.. والظروف السياسية والاقتصادية الآن (١٩٨٤) قد تغيرت بالطبع، ولكن الرواسب لا تحدث بسهولة.

قد يهم الأوروبيون بترولنا، ولكن قد تزعجهم وحدتنا على وجه اليقين، فهل تناسينا نحن العرب.. ذلك الآن سنة ٢٠٠٤ بعد أن تكاثر الأكلة على قصعتنا!! وليسمح لى أستاذنا د. نور فرحات أن يكون عنوان مقاله «حوار قبل غروب الشمس»!.

د. سامي منير عامر
كلية التربية
جامعة الأسكندرية





البجاحة!

قذفوا
على أرضى القنابل
ثم قالوا:
أنت قاتل؟
«أنت شر قد سرى»
فليقاتل!!
سرقوا من الأرض المشاعل
ثم قالوا:
«هذا إظلام القبائل»
«صار يعلو فيه باطل»
نحن جئنا
«كى تنير الليل فى أرض القبائل»
نمحو إرهابا يقاتل
كل عاقل!!
وضعوا - بأيدينا - السلاسل
ثم قالوا:
قد أتينا
«كى نحرر فى القبائل!!
من كل طاغية وسافل!!
نحن جئنا .
كى ما نزرع فى السنابل!!
كى يصير الخير طائل!!
للقبائل
دفعوا
على أرضى القوافل
ثم قالوا
نحن جئنا

كى ما نثرى فى الوسائل
كى نحرك كل خامل...
دمروا الأرض
وقالوا:
قد أتينا
كى نعمر كل زائل..!!
زرعوا المصائب حولنا
أثقلوا - فينا - الكواهل
ثم قالوا:
قد أتينا
كى نحقق كل آجل
فوق أرض - كم رجونا -
أن نرى فيها السواحل!!
وطن تناثر وانتهى
وصار زائل
والبجاحة فى تواصل
تقتل.. تعربد فى الدنا حول القبائل
تثرى الأ باطل
ونحن ننظر حولنا
نرجو الجحافل
أن تكون رحيمة
إن ما تقاتل
من أجل خير قد بدا
يأتى القبائل..!!

محمد عواد
شارع حسين كمال - الدقي



قولوا لأمريكا : لا .. ولو لمرة واحدة !!

اغتالت الطائرات الإسرائيلية الغاشمة الشيخ أحمد ياسين فى مارس وقبل أن يمر شهر على هذا الاغتيال الجبان وبنفس الأسلوب الهمجي لعصابات إسرائيل قتل الدكتور عبد العزيز الرنتيسي.. وكما مزقت القذائف الصاروخية الشيخ المقعد وكرسيه .. بنفس الأسلوب القذر فرقت الصواريخ جسد الدكتور الرنتيسي كما قتل الحارس الشخصى له وآخر فضلا عن إصابة عشرة من أبناء الشعب الفلسطيني .

العالم العربي والإسلامى ودعاة الحرية والمتشدقون بالسلام والمطالبون للأمن ومحاربة الإرهاب .. كل هؤلاء شاهدوا السيناريو الحزين يتكرر، والفلسطينيون من هول صدمتهم، أو من هول الصدمات خرجوا إلى الشوراع لايدرون ماذا يفعلون .. وإلى أين ذاهبون ؟!

،، ماذا يريدون ؟.. وماذا أعددنا للرد عليهم بديلا للشجب وللاستنكار والخوف والهلع من أمريكا وتساؤلنا صباح مساء، متى يحل السلام ؟!

ياسادة العرب ويامسلمى العالم، يا من تشكلون سدس العالم كله أفعلوا شيئا لوجه الله، حتى ولو بالمقاطعة وياحكام العرب قولوا بالصوت العالى لا يا أمريكا .. توقفى عن التحيز والانحياز لهذا الشارون قولوها مرة ولاتخافوا فالله لن ينساكم

أحمد فوزي - مدينة السادس من أكتوبر

علينا تسقط الأمم

علينا تسقط الأمم	وكل الغربان تزدحم
وتأكلنا هنا أكلا	وتهضمنا فنتهضم
ونحن الأمة الأولى	وكم كانت لنا قدم
وقمتنا هى الأعلى	وكانت تحتها القمم

★★★

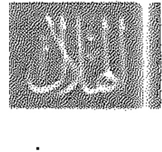
تفرقنا .. فجاءتنا	كلاب الغرب تلتهم
فهذى القدس ضيعتنا	تئن وفوقها صنم
وفى بغدادنا أمم	من الأجناس تقتسم
وكم بلد لنا أخرى	مع الأنجاس تصطدم
وهيمنة لغانية	تراودنا وتستلم
وكل العالم الجارى	يجاريها ويحترم
وقد عرفت خطورتها	ولو هى بعدها عدم

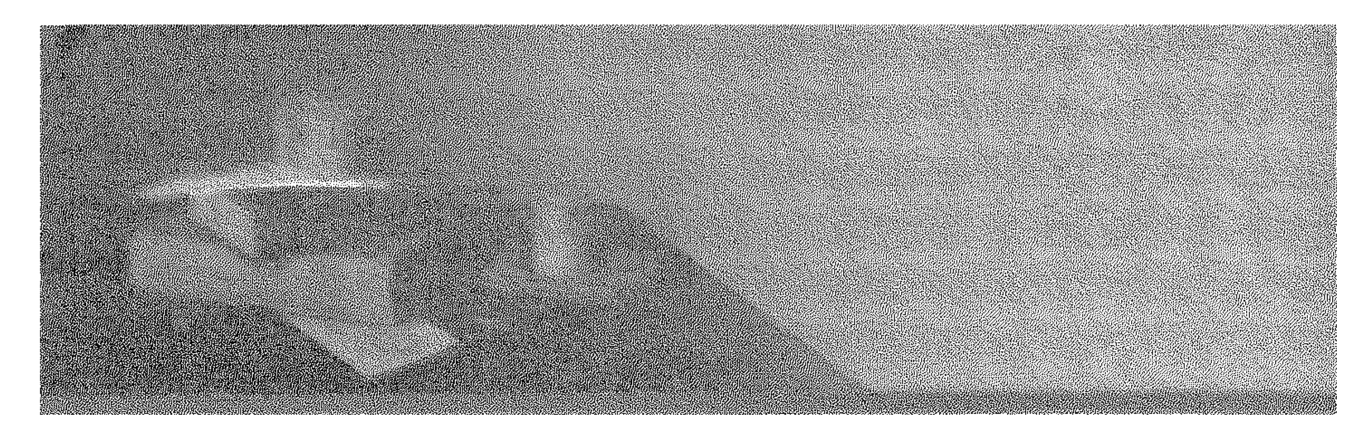
★★★

عجبت لأمة هديت	تضل وحولها أمم
عجيب أمر أمتنا	وتلك الأصل والشمم
لها قيم بها تحيا	تموت فأين ذى القيم؟!
وأين الحكم والدنيا	إليه العمر تحتكم؟!

حسن أبو الغيط - كفر المصيلحة - المنوفية







الشيزوفرنيا الأمريكية

المؤرخ هو ضمير الماضي ..

لكن الفرنسي تسفتان تودروف تجاوز دوره كمؤرخ لما حدث في الماضي، بل هو شاهد على الحاضر يبدي رأيه فيه، ويشارك في صناعته..

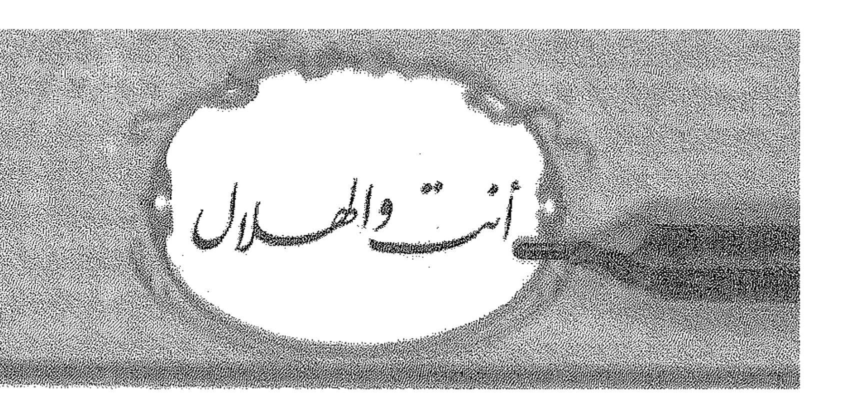
تودورث ينتمي أساسا إلى ثقافة البلقان، حيث ولد في بلغاريا عام ١٩٣٩، وتلقى ثقافته الأولى هناك، وبعد تخرجه حاملا شهادة التاريخ البلغاري، وصل وهو في الرابعة والعشرين من عمره إلي باريس،وصارمواطنا فرنسيا، فدرس التاريخ الأوروبي وعشق الثقافة الفرنسية، وأصبح أهم المؤرخين المعاصرين، لأنه لم يكن مجرد عين راصدة على ما حدث في التاريخ، بل كان محللا مضيفا وجهة النظر والفلسفة. كما صار من كبار المدافعين عن الديمقراطية

وأمام مؤرخ وفليسوف من طراز تودروف، وهو مؤلف الكتاب الشهير «ذكريات الشر، أغواء الخير» عام ٢٠٠٠ كان لابد أن يدلي برأيه فيما يحدث الآن من حولنا،خاصة حرب العراق ومن هنا جاءت أهمية كتابه الأخير «الفوضى العالمية الجديدة» وأهمية هذا الكتاب أن مؤرخا معجباً بالديمقراطية على الطريقة الأمريكية قد قرر التعبير عن صدمته فيما يسمى بالشيزوفرنيا الأمريكية .

جاءت غرابة هذا الكتاب أن تودروف ترك تأريخ الماضي المنصرم، وانتقل إلى الحاضر المسيار الملئ بالعنف، والفوضى غير المتوقعة، وهو يرى في ذلك أنه لم يكن له أن يتحمل ما يدور من حوله دون أن يعبر عن وجهة نظره، وليس أمامه عمراً ينتظره كي يضع ما حدث في العراق في ميزان التاريخ .

يقول تودروف أن أمريكا لم تتغير قط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وأن ما فعله السفير الأمريكي في بلغاريا عام ١٩٤٧ من خلال مناهضة الشيوعية، لايختلف عم يفعله الأمريكيون اليوم وهم ينصبون عدائهم للأسلام، لم يتغير شئ قط في سياسة أمريكا .. إنها نفس السياسة: البحث دائما عن خصم لدود لمعاداته، ومحاولة كسب أصدقاء ..

كما يرى تودروف كمؤرخ وفليسوف، وقارئ لخريطة العالم الحالي، أن السياسة الخارجية الأمريكية تبدو متأرجحة بين المواقف الإنعزلية والمحافظة، وبين الرغبة في السيطرة على كل ما يخص شئون العالم.



ضحكة عينيها

إن أطبقت ياحلوتى سحائب الأحزان
أو أمطرت، أو أرعدت، أو زمجر البركان
أوهز شوقى عاصف قد قوض الأركان
أو ظل عودى يشتكى من قسوة الألحان
أو بت أحمل مهجة قد هدها الطوفان
يكفينى أن تتبسمى، أوتضحك العينان

أحمد محمد الدماطى
(الشهداء - المنوفية)

من فن الخطابة.. في حفل افتتاح جامعة الإسكندرية

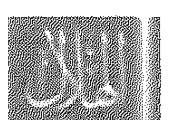
لطه حسين أثر مهم فى أساليب الخطاب الرسمى فى حياة مصر، حيث ملك بعبقريته الفذة ناصية اللغة العربية، وفى هذه السطور من خطاب طه حسين الذى ألقاه فى يوم افتتاح جامعة الإسكندرية الرسمى فى ٨ فبراير ١٩٤٣ نرى أسلوبه الذى يخلو من الركالة ونلمح فيه الاهتمام الكبير باللغة العربية السليمة، وكان الملك يحضر هذا الحفل

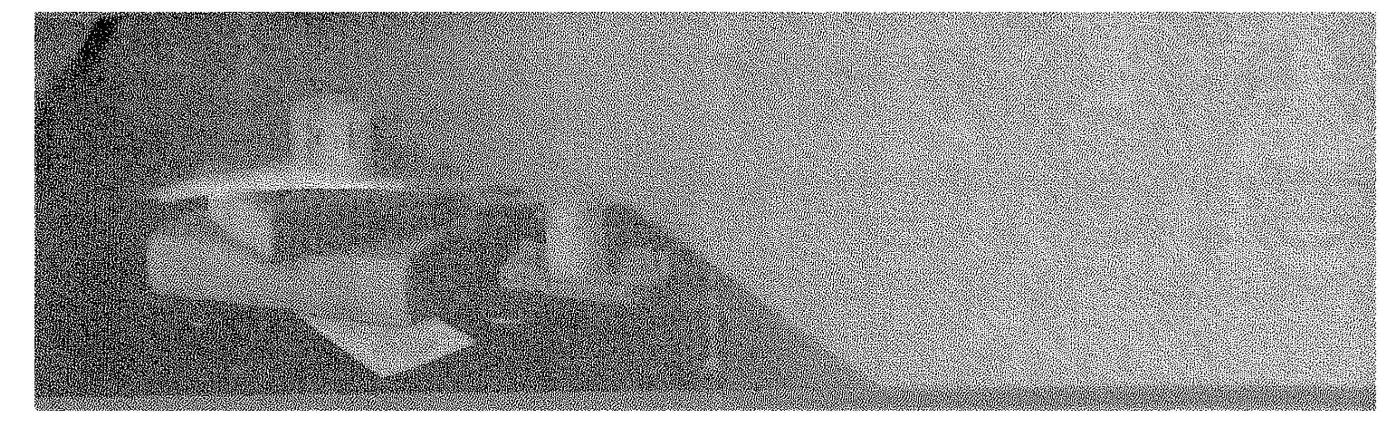
يقول : «أحب شئ اليك، وأثر شئ عندك يامولاى أن تؤدى كل مصرى حظه من الواجب الذى تفرضه عليه الحياة المصرية على أتم وجه وأكمله فى غير نفور ولاتقصير، والواجب الذى تفرضه الحياة المصرية على الجامعيين، هو أن تخلص عقولهم وقلوبهم وضمائرهم، للعلم يحبونه كما تحبه، وينصرونه كما تنصره، ويتخذونه كما تريد أن يتخذ وسيلة إلى معرفة الحق ما أمكن الوصول إلى الحق، وأداة إلى تقويم الخلق، وتنقية الضمير وتصفية الذوق وتثقيف الشعب على اختلاف طبقاته، وتكوين أجيال مخلصة للحق مؤثرة للعدل ، قادرة على أحتمال التبعات والنهوض بالواجبات الوطنية مهما تكن ومواجهة مصاعب الحياة التى تزداد تعقدا من يوم إلى يوم .

والجامعيون يأخذون أنفسهم بأن يقفوا على هذا كله جهودهم وأوقاتهم،وأن يبذلوا فى سبيله صفوة ما يملكون من قوة وأيد.

والجامعيون يأخذون أنفسهم أيضا بأن تكون جهودهم كلها خاصة لمجد الوطن العزيز، وبالسعى إلى هذا يبلغ المصريون غايتهم إذا جدوا واجتهدوا وأخلصوا، وعلينا العهد بأن نكون دائما فى طليعة الجادين المجتهدين المخلصين.

أحمد عبد الفتاح - مدير عام متاحف - آثار الإسكندرية





أم كلثوم.. فنانة احترمت فنها فخلدها هذا الفن

لانمل أبداً من سماع أغاني أم كلثوم، والتي تتميز بالكلمات الرصينة والألحان الرائعة، في زمن كان الإبداع فيه هو السمة الغالبة .. فالكل في ذلك الوقت كان يحترم ذاته، لذا جاءت حفلات كوكب الشرق في مطلع كل شهر، لتملأ سماء القاهرة بدفء الأشقاء العرب الذين كانوا يأتون لهذه المناسبة ونرى كيف توحد العرب حول صوت سيدة احترمت الفن، فأعطاها الفن تلك الألقاب .. كوكب الشرق، وسفيرة الغناء العربي، وغيرها من الألقاب التي يعرفها من عاش تلك الحقبة المهمة فى حياة مصر إننى حبا فى فن أم كلثوم حرصت على مشاهدة المسلسل المهم الذى كتبه الكاتب المبدع محفوظ عبد الرحمن، وأخرجته المخرجة أنعام محمد على، ولاحظت ثراء الفترة التى عاشتها أم كلثوم، ولقاءاتها مع كبار الشعراء والساسة والصحفيين ورجال الاقتصاد وفى مقدمتهم طلعت حرب مؤسس بنك مصر، وأيضاً تعرفنا من خلال هذا المسلسل على محمد القصبجي وزكريا أحمد ورياض السنباطي وعلاقاتها بعبد الوهاب ومن قبل منيرة المهدية ثم بالكتّاب الكبار من أمثال بيرم التونسي وأحمد رامي وغيرهما ممن كتبوا لها أجمل الكلمات.

الذى دفعنى للحديث عن أم كلثوم متابعتى لها وانشغالى بكل ما يكتب عنها، فضلا عن اهتمامى بجمع كل ماكتب عنها

سناء علي - السعودية المدينة المنورة.

الهلال : لقد تناولت وسائل الإعلام هذا المسلسل فى أكثر من مناسبة، وماكتب عن أم كلثوم فى تلك الفترة - يمكن أن يجمع فى كتب

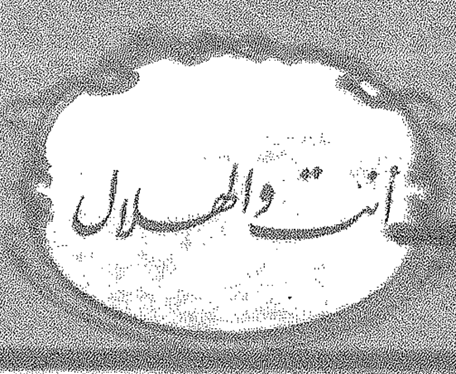
مدح ابن خلكان

هو الأديب والمؤرخ شمس الدين أحمد بن خلكان .. ولد بالموصل، ويتصل نسبه بالبرامكة .. عمل بالتدريس فترة بمدارس دمشق، وتولى نيابة القضاء فى مصر والشام أثناء ولاية الملك الظاهر .. من مؤلفاته أبناء الزمن، وفيات الأعيان ويشتمل على ٨٤٦ ترجمة للأعيان والمشاهير حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى، وترجم إلى عدة لغات وقال الشاعر فيه هذا الزجل :

زى البدر ماضيه يهل — زى الفجر مانوره يبان
شمس الدين طل على الدنيا — بكلام كله حكم وبيان
وياما ألف كتير — عن أبناء الزمان
واهتم بالوفيات إذا — كانوا من الأعيان
وكان مؤرخ وقاضى — وكان مدرس كمان
وكان خل هو وكان — أديب وكاتب شهير
وضم أغلب كتاباته — فى كتاب مميز مثير
وصاحبه شمس الدين — قضى فى كتابته سنين

محمد أمين عيسوي - الإسماعيلية



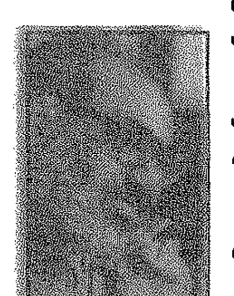


رثاء قلب

علام ياقلب تنعى من أسقاك كأس الأفراح أشجانا
وتشكو من خانك وأذاقك العذاب فنونا وألوانا
وتغنى بصبابتك وعزف على وتر بال أتراحك ألحانا
اللوم عليك إذا مثلته مجداً خالداً فقد مثلته زيفا وبهتانا
دارة القمر تدثرت بالصدق لم تنل منه إلا عنوانا
كذبت .. خانت .. وما كنت تدرى ولا كنت خوانا
وعدت ووعودها كاذبة وكانت دوما للكذب ظمآنة
ليست عليك عزيزة فالخائن لايعد فى عرف الأخلاق إنسانا
لها الشكر إذ علمتك أن الورد الناضر يحوى السم أحيانا
لنا الله يجزينا عن نوايانا ويجزيها عنا كل إحسانا

محمد فريد هزاع - القاهرة - بنك ناصر الاجتماعى

الكاتب علاء الديب ذهب للعلاج فحكموا عليه بالسجن !!



بعد معاناة طويلة مع المرض دخل أديبنا الكبير علاء الديب مستشفى وادى النيل لكى يعالج على نفقة الدولة والتى خصصت له - مشكورة- خمسين ألف جنيه.

وأجريت له جراحة عدة مرات، مما جعل التكاليف تزيد قرابة ثلاثين ألف جنيه لايمتلك منها كاتبنا حتى أقل القليل نظرا للمعاناة الطويلة قبل دخوله المستشفى وما تكلفه .

حينما أراد علاء الديب أن يغادر المستشفى أحضروا له إيصال أمانة إلى أن تصل بقية النقود من نفقات العلاج التى تتحملها الدولة.

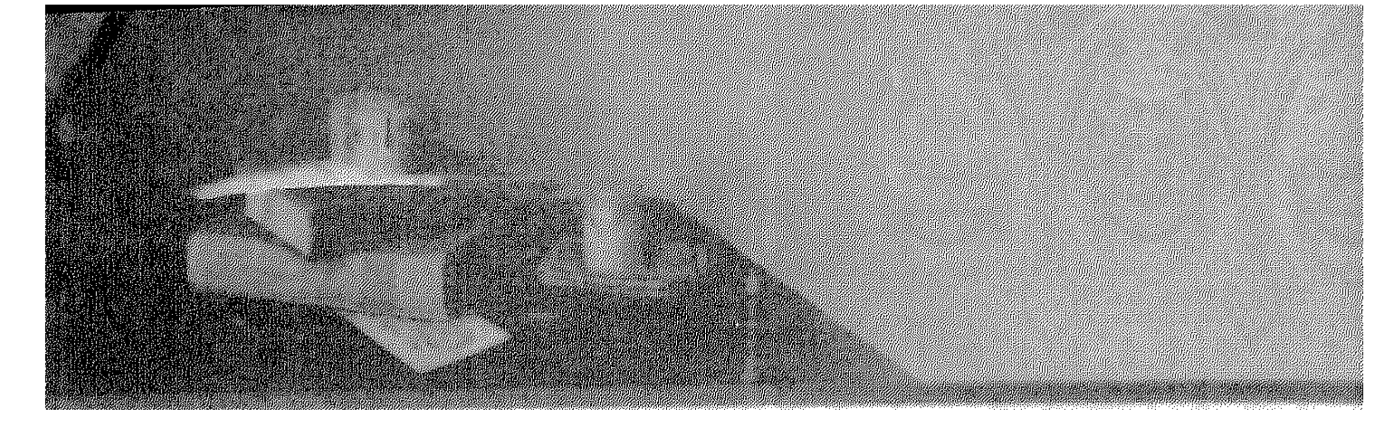
وفوجىء بأن مدير المستشفى قدم هذا الإيصال إلى النيابة وليحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات!

وإننى أتساءل وكلى دهشة وعجب .. هل كاتب وروائى كبير حاصل على جائزة الدولة التقديرية يشغل منصب رئيس لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة يحكم عليه بالسجن لأنه يعالج على نفقة الدولة؟..

أين نقابة الصحفيين؟!.. وأين اتحاد الكتاب ، وأين وزارة الثقافة ؟ وأين مؤسسته التى يعمل بها «روز اليوسف» ولماذا لايعامل كاتبنا مثل غيره من الذين يسافرون إلى الخارج. وتقدم لهم كل التسهيلات حتى يتعافوا تماما.

إبراهيم محمود حمدان - حلوان - المعصرة

الهلال : نحن نناشد المسئولين أن يتدخلوا وبسرعة ، لأن ماحدث إساءة كبيرة لرمز من رموز الأدب فى مصر ، حتى لاتضيع هيبة مثقفينا بهذا الشكل المهين أمام الرأى العام.





ج جمال حمدان ١٩٢٨ ـ ١٩٩٣



أحد عشر عاما مرت على وفاة واحد من أبرز الكتاب الذين تغلغلوا في شخصية مصر، واستطاع أن يؤلف كتابه الشهير شخصية مصر في أربعة أجزاء وتصل صفحاته إلى ٢٥٥٠ صفحة، تضمن ٧٤١ مرجعاً أجنبيا و ٣٥٠ مرجعا عربيا .

ولد جمال حمدان في ١٩٢٨بقليوب، وتخرج في قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة عام ١٩٤٨ وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ريدنج بلندن، كما حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٩ عن كتابه «جغرافية العالم العربي» ويشهد هذا الكتاب على براعة جمال حمدان في جمال الأسلوب وعذوبته وهو يكتب عن جغرافية البلاد العربية.

حصل أيضا على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية ١٩٨٦، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

كانت له نظرته ورؤيته في الحياة، وكان صاحب رأى لايحيد عنه، فلم يواصل تجربة التدريس وترك الجامعة ليتفرغ تماما البحث العلمي منذ عام ١٩٦٣ وعكف في منزله بالدقي لايغادره إلا للضرورة لينجز مشروعه الثقافي من خلال ما أصدره من كتب هي الفريدة من نوعها في المكتبة العربية

من بين كتبه:

- ٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية ١٩٧٤
- الاستعمار والتحرير في العالم العربي ١٩٧٢
- اليهود انثروبولوچيا ١٩٧٠
- شخصية مصر (٤ أجزاء)
- سيناء «كتاب الهلال»
- القاهرة «كتاب الهلال»
- العالم الاسلامي المعاصر (كتاب الهلال)
- القاهرة : تأليف ديزموند سيتوارت ترجمة د. جمال حمدان ١٩٧١ كان لديه مشروع لانجاز عدد من الكتب تحت الطبع من بينها الصهيونية واليهودية ١٠٠٠ صفحة لم يعثر لها على أثر بعد وفاته في ١٨ إبريل من عام ١٩٩٣، وحامت شبهات حول وفاته بسبب عزمه على إصدار هذا الكتاب المهم !

في كتابه «شخصية مصر» نلمس من الموضوعات التي عالجها شخصية ظاهرة الطغيان عنده، لأن العوامل التي تساعد على إحكام الطغيان ان البلد المعمور، صغير المساحة صارم الحدود، عالم متناه كالزقاق المغلق، سهل متواضع، ليس فيه من معاقل الاتجاه أو دروب الهروب على نحو ما تعرف البيئات الجبلية الصحراوية مثلا حـ ١ ص ٥٦٥أيضا يقول : «ليس أمام الإنسان المصرى الرافض الا متاهات الصحراء أو مفازات النوبي فالأولى لجأ اليها آباء الكنيسة أيام الرومان، والأخرى لاذبها المماليك أيام مذبحة القلعة الشهيرة .. حتى الصحراء لعامل الجفاف والقسوة، لم يكن من السهل أن تكون مهربا.

بقلم: شكـــري فـــؤاد

حسنا فعلت ورشة العمل التي نظمتها حركة «سوزان مبارك الدولية من أجل السلام» التي عقدت في ١٤ مارس ٢٠٠٤ عندما حددت أول مكونات السلام، وأنا أعني هنا السلام الاجتماعي، بضرورة نبذ فكرة العدو باعتبارها فكرة تثير العداوات ينبغي أن تحل مكانها فكرة السماحة.

وكان قد استلفت نظري منذ مدة أن المواطن المصري - وربما العربي بشكل عام - تسيطر عليه فكرة أنه يعيش في مجتمع يحيط به الأعداء من كل جانب وهم في أغلب الأحوال أعداء من داخل مجتمعه ومعارفه وينعكس هذا في عدد الأمثال الشعبية التي يتداولها في أحاديثه وتجعل له في كل خطوة يخطوها عدوا يتربص به، ولا أظن أن هناك شعبا آخر لديه هذا الكم من الأمثال التي تجسم العداوات المحيطة بأفراده.

إذا خرجت من منزلك إلى الشارع فخذ حذرك لأن الأعداء يملأون المكان من حولك لذلك «فوت علي عدوك جعان ولا تفوت عليه عريان».

وإذا أتاك خير أو ظفرت بشيء يعجبك سواء كان طعاما طيبا أو شرابا عذبا فالنصيحة الأولى لك هي «ماتقولش لعدوك عليه».

وإذا كان لك أحباء «يبلعون لك الزلط» فلا يطمئن قلبك لأن إلى جانبهم أعداء «يتمنون لك الغلط».

وإذا اشتكى لك صديق من مرض أو مصيبة حلت به فقبل أن تهوّن عليه سارع بالقول «إن شاء الله عدوك» أو «في وش (وجه) العدو».

وإذا كان الحديث عن وضع بائس فهو «لايسر عدوا أو حبيبا» والعدو يأتي دائما أولا.

ويجتمع أصحاب المهنة الواحدة في العالم كله في نقابة أو جمعية يتضامنون فيها معا لحماية مصالحهم وتحسين أحوالهم أما عندنا «فعدوك من كارك» أي عدوك هو زميلك في مهنتك.

وحتى إذا كان المثل يحض على مكارم الأخلاق فهو يدور أيضا حول فكرة العدو «إن جاء عدوك لحد بابك قل له مرحبا بك».

إن تغيير المفاهيم الثقافية والقيم الاجتماعية يحتاج إلى وقت طويل وعمل متصل دءوب لابد أن نبدأ به الآن وإلا استمر المستأجر عدوا للمالك والمدرس عدوا للطالب والرئيس عدوا للمرءوس وحل العداء محل المودة والإخاء والتسامح. ■


مصر للطيران
EGYPTAIR

الهلال

عشيقة نابليون فى مصر

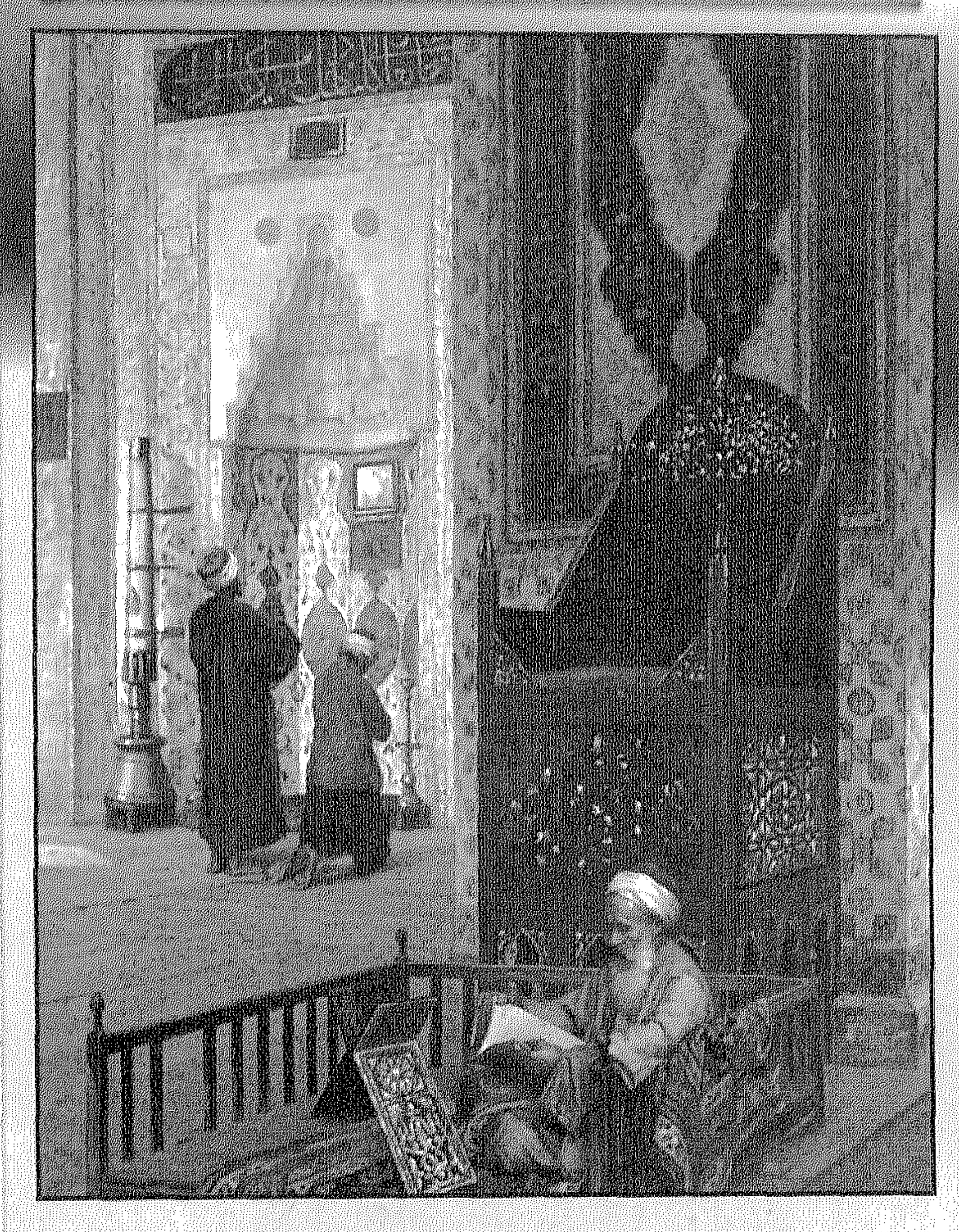
هذا الزمان

الشباب: مهاجرون داخل الوطن

يونيه ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

الحرف التقليدية والمأثورات الشعبية

لوحة وفنان



محراب مسجد رستم باشا
بالقسطنطينية

زيت على خشب ٥,٩٢×٥,٧١
للفنان الألماني : رودلف إيرنست
متحف الفن الحديث - لندن

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة ربيع ثاني ١٤٢٥ هـ - يونيه ٢٠٠٤م

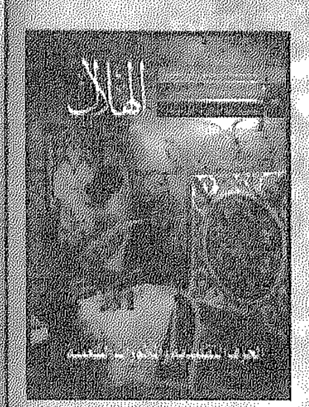
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس

دائرة حوار



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



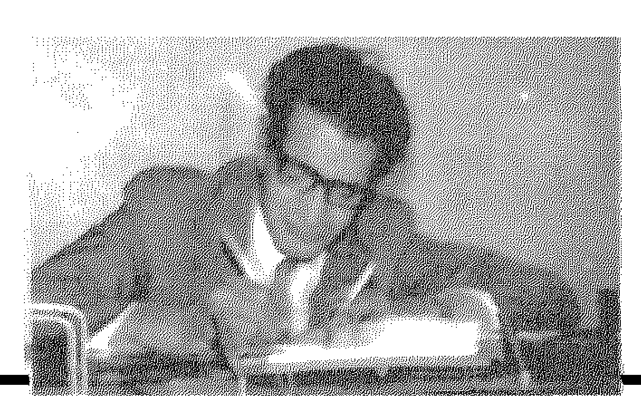
محمد رجب البيومي

الدكتور محمد رجب البيومي من أبرز كتاب مجلة الهلال على مدى أكثر من خمسين عاما، اتسمت كتاباته بالعقلانية والموضوعية، ويناقش كل القضايا بهدوء رغبة منه فى الإصلاح، انطلاقا من رؤية إسلامية سمحة، كانت دوما هى السمة التى ميزته فى كل كتاباته الأدبية والشعرية، فقد برز ذلك فى مقالاته الأخيرة حول قضايا التعليم والثقافة وكشفه لبعض العادات السيئة التى استشرت فى مجتمعاتنا خاصة المصرية، مثل المبالغة فى مهور الزواج والمبالغة فى مظاهر العزاء والمتاجرة فى زواج الصغيرات، وغيرها من القضايا التى تهم المجتمع والناس ومستقبل الوطن، وهو فى كل ذلك يستعرض الجوانب المضيئة من تاريخنا الثقافى والأدبى والاجتماعى، حتى نتخلص من عيوب أفسدت مجتمعنا واستشرت فيه .

والدكتور البيومى مثله - لدينا فى الهلال - مثل الراحل الكريم الدكتور شكرى عياد يعتبر الهلال قبلته التى يوجه إليها مقاله الشهرى الذى يكتبه بكل العناية والاهتمام، بل ويحرص على أن يصل قبل موعده المعتاد، ويطمئن على وصوله ناسيا أنه رئيس تحرير مجلة الأزهر، واضعا فى اعتباره اتساق فكرته التى يطرحها مع منظومة العدد الجديد من الهلال ونحن نعتبره فى المقابل من أهم كتابنا خاصة بما يحظى به من إنتاج أدبى مشهود يتمثل فى دواوين شعرية ومسرحيات نال عنها الجوائز فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ومجمع اللغة العربية، من بينها المسرحية الشعرية «انتصار» و«فوق الأبوة» وديوانه الشعرى «صدى الأيام» ورجب البيومى والذى ولد عام ١٩٢٣ حفظ القرآن كله صغيرا، وثقف نفسه من خلال مكتبة والده، حيث بدأ وهو صغير السن يقرأ كتاب «كليلة ودمنة»، ثم قرأ ديوان حافظ إبراهيم، وتعلق بالشعر والأدب، وهذا شجعه على كتابة المقالات.. ففى المرحلة الابتدائية أرسل تعليقا أدبيا لمجلة الرسالة تعقيبا على مقال نشره أحمد حسن الزيات فى مجلة الرسالة، ولعشقه للأدب كان يحرص على قراءة كل ما يكتبه العقاد والمازنى وعبدالرحمن شكرى وأحمد أمين ومحمد فريد أبوحديد.

ويقول عن أحمد حسن الزيات «لقد فتح مجلة الرسالة لمقالاته وهو طالب، وكان يرشده إلى مراجع أدبية كثيرة.. وبتشجيعه صار كاتبا وهو طالب قبل أن يوظف ويحترف الكتابة بداية من عام ١٩٤٥.

أما محمد فريد وجدى «فقد وجهنى إلى الكتابة الإسلامية، وقال له إن الكاتب الإسلامى لا يصح أن يكتب عن الراقصات أو أرباب السوء الخلقى، لأن الذى يكتب فى كل موضوع



ينافى الرسالة التى تخصص فيها يكون كاذبا بينه وبين نفسه».

أما الذى كان له تأثير كبير فى الناحية الاجتماعية المتقيدة بنماذج الإسلام فهو الشيخ محمد الغزالى، لأنه كان صديقى وأستاذى فى آن واحد، ويمتاز عن جميع الدعاة بحرارة أسلوبه وقوة نبضه وإخلاصه الزائد لما يعتقد من سمو الإسلام ومبادئه، وأحاول أن أحتذيه».

و د. محمد رجب البيومى يستحق منا أن نتوقف عند مسيرته والتى تقترب من الستين عاما، كان عطاؤه فيها يمتلىء بقضايا تهم الباحث والقارىء الذى يستزيد من تاريخنا الثقافى والأدبى والاجتماعى والسياسى، ويركز على شخصيات من التاريخ الإسلامى الملىء بالسير العطرة، وأيضا نماذج أدبية وشعراء أثروا حياتنا بإنتاجهم الفكرى، ويبرز ذلك من خلال بعض مؤلفاته: «الأزهر بين السياسة والفكر» «موسوعة النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» وصدرت فى ستة أجزاء، «صلاح الدين الأيوبى» «هارون الرشيد» «فى ظلال النبوة » «حديث القلم » والذى اشتمل على موضوعات فى النقد الأدبى، فبعضها مع طه حسين والعقاد والمازنى وأمين الخولى وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وله آراؤه السديدة حول مصادرة بعض الأعمال الأدبية والأدب المكشوف: «المصادرة تزيد الانتشار، فكل مصادرة فى هذا العالم ترفع من المصادر، ونحن لا نؤيد المصادرة ، «أما بالنسبة للأدب المكشوف ، فيجب علينا أن نفهم ما هى رسالة الأدب؟ فالأدب ارتقاء بالمشاعر والأحاسيس، فإذا قرأت قصيدة مكشوفة فى وصف المرأة فهل ترتقى مشاعرك؟ والإجابة واضحة، ويزداد التأثير على الشباب فينام طوال الليل مؤرقا.. أما إذا قرأت قصيدة غزل عفيف تدعو إلى السمو فإنك تشعر بالراحة».

ولأنه مهتم بالشعر وله دواوينه فله رأيه فى السؤال الذى يطرح دائما الآن عن تراجع الشعر وازدهار الرواية: «فعلا الشعر تراجع وذاع صيت الرواية عندنا، والسبب فى ذلك أن المجلات والصحف أحتفلت بالرواية ولها الحق فى ذلك لأن القارىء أقبل على الرواية، وزهد فى الشعر لغموضه، وقارىء الرواية هو الجمهور.. أما قارئ الشعر فهو المثقف.. فكان على المجلات والصحف أن تهتم بالمثقف وتجعل للشعر نصيبا، ولكن ببحثهم عن الربح اهتموا بالرواية».

وكاتب بحجم الدكتور رجب البيومى وبثقافته الأدبية المتنوعة، وبدوره المتواصل فى مجال الإبداع يستحق من «الهلال» ومن قرائه التحية والثناء على مواصلة المشوار بفكره الممتلىء بحيوية المبدع كما لو كان فى سن العشرين، متعه الله بالصحة ليواصل مع مجلته الأثيرة إلى نفسه وإلى قرائها كل جديد ومتجدد فى ميدان الثقافة العصرية التى لا تحيد عن مبادئنا وأخلاقياتنا العربية الأصيلة.

المحـــــرر

الشباب .. مهاجرون داخل الوطن!

بقلم
د. صلاح قنصوه

لم يعد الواقع الاجتماعى فى مصر مستقراً بقدر ما أصبح حركة مضطربة نحو أفق مفتوح، ونداءً صارخاً أو خافتا إلى التغيير، ودعوة معلنة أو مضمرة إلى بنية مختلفة لا تكشف عن معالمها إلا فى مستقبل قريب أو بعيد.

ويشارك الواقع الاجتماعى، على هذا الوجه، الشباب نفس خواصهم الأساسية بوصفهم كيانا واعداً أو متوعداً، مبشراً أو منذراً.

١ - الوضع والوعي

ليس الشباب فئة واحدة متجانسة، بل يمكن تصنيفهم على مستويين:

الأول من حيث وضعهم من هيكل المجتمع كفلاحين أو عمال أو طلاب، أو طلاب، أو عاطلين.

والثانى من حيث درجة الوعى بدورهم ومسئوليتهم وحقوقهم، وتصورهم للمستقبل الذى ينبغى أن تمضى إليه خطوات التغيير.

وربما كان الفريق الذى يعنينا أكثر من غيره، ويشد انتباهنا فى حديثنا عن الشباب هو الفريق الواعى، بدرجة ما، بدوره ومكانته، والمعانى لأزمته، فرغم كونه أقل عدداً، إلا أنه أعلى صوتا، ويقود غيره من الشباب، وقد يغرى سائر فئات المجتمع للانجذاب نحوه.

كما ينبغى أن نفرق بين النظرة الموضوعية المحايدة إلى الشباب، ونظرة الشباب إلى أنفسهم من جهة توزيع الأدوار على مسرح المجتمع الذى فى سبيله إلى التحول والتغير. فالكبار، أو الجيل السابق، ينظر إلى الشباب، من حيث هم أفراد كمجرد مشروعات ناقصة تنتظر بين الكواليس لأداء دور معين يوما ما على مسرح الكبار. فهم إذن مشروعات مواطنين، وليسوا مواطنين كاملين.

كما ينظر الكبار إلى الشباب، من جهة كونهم وضعا أو حالة، كمرحلة انتقالية بين فترتين هما الطفولة والرشد. ومن ثم فإن

الكبار يتهيأون فى الحالين للقيام بدورهم فى تشكيل الشباب وصياغتهم على النحو الذى يلائمون بمقتضاه الوضع الراهن للمجتمع الذى استقرت فيه سلطة الجيل السابق ورسخت بالتالى أساليب التعامل معه.

إذن، فنحن بإزاء مسألتين هما: طبيعة «الوضع الراهن»، وعمليات إدماج الشباب فى ذلك الوضع الراهن عن طريق كافة مؤسسات التربية والتعليم، والمؤسسة الدينية، ووسائل الإعلام.

ولا تختلف هاتان المسألتان فى معظم المجتمعات المستقرة. إلا أن ما حدث فى مصر قد اتخذ وجهة أخرى سواء من ناحية «الوضع الراهن»، أو من ناحية محاولات ادماج الشباب فيه.

فقد كان الإيقاع متسارعاً فى التقلبات المباغتة فى السياق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى مصر.

ولم يكن ذلك بفعل ثورة شاملة، بقدر ما كان نتيجة قرارات وممارسات متضاربة تهبط بين الحين والآخر من قمة السلطة إلى قاعدة الجماهير.

وقد أفضى ذلك إلى تشتت ملامح الصورة الوطنية وتمزقها واعادة تجميعها بين وقت وآخر وفقا لقرارات سياسية واجراءات اقتصادية تنتقل أحياناً من النقيض إلى النقيض.

وكان لابد أن تتفكك وحدة الانتماء، أو على الأقل، يتخلخل الشعور بالانتماء لأنه لم يترك لحرية الاختيار أو تلقائيته بين أعضاء الوطن. بل إن حرية الموافقة والتصفيق لقرار ما، إن كانت هذه حرية، كانت مقيدة محدودة بلحظة صدور القرار التالى الذى قد ينقلب على القرار السابق.

ومن ثم أصبح على المواطن أن يكيف مشاعره وحماسته وأفكاره بما يتفق مع تذبذب البندول والاقتصادى - السياسى فى انتقاله المفاجىء من اتجاه إلى آخر.

وقد أدى هذا إلى أن يتخذ المواطن موقف المتفرج فى ركن آمن، مما راكم شعوراً بالانفصال عن القضايا الوطنية الكبرى.

٢ - تسرب الشعور بالانتماء

جعلت السلطة وأجهزة اعلامها من مهامها تحديد أو تضييق مواصفات أو شروط الانتماء إلى الوطن وفقاً لقراراتها المتعارضة فيما يتصل بالسياسة الخارجية أو الداخلية على السواء.

«فالاشتراكى الوحدوى القومى» هو الوطنى فى زمن، وكذلك «المصرى صاحب سبعة آلاف سنة حضارة والمرتبط بالعالم الحر» هو الوطنى الوحيد فى زمن آخر.

وقد تجتاح القرارات أحياناً اسم الوطن التاريخى ليغدو مرة «جمهورية عربية متحدة» واقليما جنوبيا، أو ليعود ثانية إلى «مصر» شرط أن تتوحد مع شخص الحاكم رب العائلة، ويصبح انتقاد سياسته انتقاداً لمصر!

وفى كل الأحوال، انتزعت السلطات حق التفويض فى التعبير وحدها عن الوطن.

فاتخذ المواطنون منها موقف التكذيب النفسى لمعظم ما تقول. وكأن هذا التكذيب درعاً سيكولوچيا لحماية المواطن من مغامرات السلطة الجديدة ومفاجآتها.

ولأن هذا الدرع النفسى لم يتخذ صورة معارضة سياسية صريحة على المستوى الواقعى، فإن المواطن قد انكفأ على ذاته التى لم تفرخ سوى عدم التصديق أو الجديدة، واللامبالاة، والسخرية واطلاق النكات للتنفيس أو التعويض.

فالواقع أن ما حدث لفترة طويلة سابقة رغم تعدد السياسات وتعارضها، هو التعبئة السياسية للمجموع التى تزامنت وتوازت مع التفريغ السياسى للأفراد. بعبارة أخرى، «تقوير» المواطنين مما يمكن أن يكون لديهم من مواقف أو آراء خاصة، وإعادة «حشوهم» بالشعارات العامة السائدة فى كل حقبة سياسية!! وربما كان آثار ذلك أن



«الكوسة» تعد من أفضل أنواع الخضر للحشو!

وعلى أية حال، فقد سعت الأجهزة الحاكمة إلى جمع الناس تحت شعارات معينة لا تسمح بالخروج عنها وكأنهم كيان واحد متجانس. وفي الوقت نفسه، بذلت قصارى جهدها في افراغ المواطنين من فرديتهم السياسية بما تنطوي عليه من مواقف واتجاهات خاصة مختلفة قد لا تتفق مع شعارات التعبئة الرسمية. وحينئذ، تولد الشعور بغياب الهدف المشترك الواضح والمقتنع به لدى الجميع. ويعني هذا في نهاية الأمر فقد الفرد شعوره بالمواطنة.

فمفهوم الوطن لا يعني التواجد معاً في بقعة جغرافية، بل يمثل وحدة الانتماء، والمشاركة، والأمان الاقتصادي والسياسي.

وفي ظل الأوضاع السابقة تحللت روابط المواطنة التي تعني قدراً من المشاركة في تحقيق أهداف محددة تجلو أبعادها ووسائلها قنوات الحوار الديموقراطي. ولا تعني المواطنة الاتفاق والتجانس، بل تعني الموافقة المتبادلة على حق الآخرين، في أن يكونوا أطرافاً في الحوار أو الاختلاف حول قضية مشتركة كل واحد منهم.

ولنتأمل أو نسترجع ما كان يحدث في سياقين سابقين ومتعارضين. ونحن لا نشير هنا إلى مشروعية الشعارات التي رفعت وأعلنت، أو إلى صحتها أو إلى سلامتها، بل ينصرف حديثنا إلى ما لحق الشعور بالانتماء من تدهور وتسرب.

ولئن قيل إن شباب اليوم لم يعانوا أو يعاصروا هذا السياق أو ذاك، إلا أنهم يعايشونه لأن آباءهم القائمين بأمر دمجهم في الوضع الراهن قد أشربوا من قبل معايير تلك الفترات، وتأثروا بنتائجها، ومن ثم لا يمكن استبعادها من وعي الشباب الحاضر أو لاوعيه.

ففي السياق الأول، شمل «التأميم» الحوار حول الحرية والعدل وغيرهما لأن الحوار لم يعد من حق الأفراد فهو ليس ملكية خاصة، وكان لابد من تدخل الدولة لاستخدامه على الوجه الأفضل حيث أن الدولة تعرف مصلحة الجماهير أكثر من الجماهير نفسها وللدولة وحدها الحق في إدارة الملكية العامة للحوار.

ولهذا لم تقنع الدولة بتأميم المرافق فقط، بل جاوزتها إلى محاولة تأميم الفكر والسلوك. ولا يختلف التأميم أو حق السلطة في توجيه الفكر في أي تأميم اقتصادي آخر بوصفه صيغة من صيغ الاحتكار القديم، أو رأسمالية الدولة، أو الفاشية.

وحينما ينتزع من الناس ملكيتهم لأهم مقومات المواطنة وهو الحوار، فإنهم يتجردون من الاحساس بالانتماء إلى وطن واحد. ولا يبقى لديهم سوى اللهفة على بلوغ النجاة، النجاح الفردي، والمعنى واحد، وهو ايثار السلامة والعافية، والتزاحم أو التسابق على تحقيق المنفعة الفردية المباشرة، أو حتى قصيرة الأمد.

وفي هذا السياق، لم تعد مسارات الحياة أو مشروعات المستقبل عند المواطنين متوازية، يمضي كل منهما في طريق صاعد إلى هدفه، بل أصبحت متقاطعة يصطدم فيها الواحد مع الآخر.

فما دام الأفراد عاجزين عن التخطيط لأنفسهم، ولم يعد بلوغ الأهداف جائزة يحصل عليها أصحاب الكفاءة في العمل، فلابد إذن من إقامة الجسور العلوية لاختطاف الأهداف قبل أن يصل إليها الآخرون. بل قد يصبح منع الآخرين من بلوغ أهدافهم، هدفاً في ذاته، لأن تهديداً خفيا متوقعا من الغير يتربص بكل فرد. كما لا يدري المرء أي سلاح قد يشهره رفاق الدرب في وجهه، أو يطعنون به ظهره.

وعند تسرب الشعور بالأمان من ثقوب

انقطاع الصلة بين الأسباب والمقدمات من جهة، والنتائج من جهة أخرى، وغلبة الوسائل غير المشروعة وغيبة المشاركة فى تحديد المصير، عند كل ذلك، يحس الأفراد أنهم ليسوا مواطنين، بل مجرد «سكان» يقطنون بقعة واحدة.

فهنا يفتقد الشعور بالانتماء الذى قد تحدد وفقاً لشروط النخبة الحاكمة. ويصبح التعريف الاجرائى للانتماء هو التحالف مع النخبة، أو إمكانية الانتفاع بالسياسة المهيمنة والتربح منها. فالمنتمون إذن هم المنتفعون أو المسايرون.

ويتطلب هذا النوع من الانتماء الرسمى أو الأميرى مهارة خاصة يتدرب عليها ذلك الطراز من المنتمين، وهى احتقار الذات أو التخلص من أعباء الحياء. فكلما ازداد احتقار المرء لنفسه وقل حياؤه وخلع عذاره، ازداد اندفاعاً واقتراباً من تحقيق أهدافه.

وذلك لأنه تخفف مما يثقله من ضمير أو كبرياء أو كرامة، وأصبح الطريق أمام تطلعاته ممهداً، ناعماً، آمناً. وتلك آلية معروفة فى «التوربين النفاث» الذى يندفع إلى الأمام بقدر ما ينفثه من الخلف. وهكذا يترنم بالشعارات والمبادىء بينما يعمل على النقيض منها تماماً!

أما فى السياق التالى، فقد كان على الضد من الممارسات والشعارات السابقة. ففى الانفتاح أطلق سراح الأفراد الذين تدربوا من قبل على التوجس من بعضهم البعض، والإيقاع فيما بينهم. وعندما انطلقوا خارج القفص تحول السكان القدامى إلى زبائن ينبغى انتزاع أقصى ربح منهم أو إلى منافسين لابد من تدميرهم.

ولقد كان الانفتاح حريا أن يتوجه إلى إقامة رأسمالية وطنية بالمعنى المألوف فى بلدان العالم الغربية الرأسمالية حيث تتنافس فى تصدير سلعها وتشغيل مواطنيها ورفع مستوى معيشتهم غير أن ما حدث لدينا كان بخلاف ذلك نتيجة التوجس من نكث السلطة لوعودها ورغبة فى الربح الخاطف المضمون وتأثر بنمط السلوك العدوانى السابق وتدفقت الأموال ولكن ليس من الخارج بل من جيوب المواطنين الآخرين ومدخراتهم الذين تحولوا إلى مجرد زبائن أو فرائس للغش والاحتيال والنصب الصريح.

ولم تعد قضية الغاية أو الهدف العام مطروحة فى ظل هذا النوع من الانفتاح فالقرارات لا تصدر بشأن الغايات بل فقط بصدد الوسائل أى وسائل الحصول على أقصى ربح وأسرعه، ولم يعد الربح من أجل الحياة بل الحياة من أجل الربح. ومن ثم ساد سباق محموم تحت شعار الربح من أجل الربح. وتركزت الثروة القوة والمتعة فى قبضة أقلية متسلطة تضع معايير السلوك وقيمه على أساس مفهوم ضيق للنجاح يجعل المال سيدا لكل نشاط وطنى أو قومى وغدت القيم الإنسانية نوعا من الأسهم المالية التى تخضع للمزايدات والمناقصات فى سوق المزاحمة الدموية والتدافع بالمناكب.

ومن النتائج المباشرة لهذا الطوفان الانفتاحى الذى جاء على غير أساس راسخ من الشعور بانتماء مشترك لأهداف قومية واضحة، أن قيم الثقافة أصبحت قيما تجارية أى سلعة واعدة بالرواج والربح فى السوق. ولذلك أصبحت تعبيرا وترجمة مباشرة عن الحاجات والمطالب التى خلقها المجتمع الاستهلاكى المغترب تلك الحاجات التى تكشف عن الرغبة فى التعويض أو الهروب من كل صور الحرمان.

وتأتى فنون الانفتاح لتلبية تلك الحاجات بالأحلام الوردية وأفلام أو مسلسلات العنف والجنس. وينتهى الفن كخلق وابداع ليتربع فى محلات عرض الثقافة كبضاعة أو سلعة.

وإلى جانب مسارح القطاع الخاص ونوادى الفيديو شجع الانفتاح على تداول كتب التراث والنصوص وتنافست وسائل



الإعلام على استضافة نجوم الفكر الدينى، كما كان المماليك يتنافسون قديما على تشييد المساجد واشتعلت المنافسة أيضا فى القطاع الخاص للمجال الدينى فامتلأت الصحف وتزاحمت الندوات بالحديث عن الدين المستثمر حديثا وارتفع الصخب الإعلانى عن بيوت الخبرة الدينية التى افتتحها علماء الدين الذين يرون أنهم ليسوا أقل شأنا من غيرهم أصحاب الخبرة الاقتصادية والهندسية ولابد أن يكون لهم حظ معلوم وحصة مخصصة فى كبرى المناصب والاستثمارات.

ولعل الانفتاح لو قدم إلى ساحة ممهدة لكان انجازا طيبا أو لو جاء فى هداية خطة رشيدة، ولكنه للأسف أعلن كجرس الحصة الأخيرة فى مدرسة للمشاغبين الذين يتربص أو يتوعد الواحد منهم للآخر خارج أسوار المدرسة.

ومع تباين السياقين الشمولى، والانفتاحى، إلا أنهما شريكان فى جذر واحد هو نظر السلطة إلى مجموع المواطنين على أنهم قطيع، مرة قطيع من الأغنام، والمرة التالية قطيع من الذئاب ومن ثم لم يكن يعامل المواطن بوصفه ذاتا بل بوصفه موضوعا تفرض عليه الأهداف والوسائل.

وترتب على هذا أن الانتماء للوطن لم يعد قضية المواطن الخاصة أو الشخصية بقدر ما كان مهمة السلطة التى تحدده وتقرره، تمنحه أو تمنعه ومع أن الانتماء موضوع مشترك إلا أنه لا يتحقق إلا على المستوى الذاتى بحيث يتمثله الفرد ويستدمجه فى نفسه.

٣ - عمليات ادماج الشباب

ومهما يكن من أمر، فكل ما تقدم ينصرف إلى ما أطلقنا عليه منذ البداية طبيعة الوضع الراهن الذى تتجدد فيه عقلية الكبار أو الجيل السابق وتتأسس فيه معايير الفكر والسلوك التى يصنع منها الكبار نماذج الاحتذاء والمثل العليا التى يسعون إلى صوغ الجيل الجديد أو الشباب وفقا لمواصفاتها وشروطها ويبقى أن نتحدث عن عمليات ادماج الشباب فى ذلك الوضع الراهن عبر قنوات مؤسسات التربية والتعليم ووسائل الإعلام.

تهدف هذه المؤسسات جميعا إلى نقل خبرات جاهزة دون المخاطرة بالمحاولة والخطأ وإعداد الفرد لكي يكون متجانسا ومتوافقا مع الوضع السائد ولا نتوقع من تلك المؤسسات أن تقدم شيئا مغايرا لما استقرت عليه الأوضاع فى الفترات السابقة، فلا يمكن بطبيعة الحال أن يقدم الأب لولده ما يحس به الولد نفسه، بل يقدم له ما استقر فى عالمه هو، وأصبح أمرا راسخا لا خلاف حوله، فالتربية والتعليم بوجه عام يجريان فى خط ذى اتجاه واحد يبدأ من الأكبر إلى الأصغر وحقائق الحياة تصدر عن مرصد واحد هو مرصد الكبار وليس لحياة الصغار أو رؤيتهم أى اعتبار فى هذا الصدد.

وكما أدار الآباء من الجيل السابق ظهورهم للنخبة الحاكمة تفعل ما تشاء أو تراه فى شئون الوطن، كذلك أدار الشباب ظهورهم للآباء لأنهم فشلوا فى أن يكونوا قدوة ومثلا أعلى يجدر بالاحترام أو الاستماع إلى نصحه.

وإذا ما انخرط الشباب فى التعليم سرعان ما يكتشف الهوة الهائلة بين الشعار والواقع فهدف التعليم المثالى خاصة إذا كان بالمجان هو إتاحة تكافؤ الفرص أمام الجميع. بعبارة أخرى، وضع كل المرشحين للمواطنة على بداية خط سباق واحد، غير أن ما يحدث أمر مختلف تماما فخط نهاية السباق هو كليات الجامعة التى أنيط بمكتب التنسيق مهمة بورصة الأوراق المالية فى تحديده للمجموع الصالح لكل كلية فى كل عام حيث تتفاضل الكليات بحسب

حجم الدخل المنتظر عند التخرج ومن ثم تتفاوت المجاميع المطلوبة من سنة لأخرى ففى فترة الستينات كانت الهندسة تحظى بالمجموع الأكبر، وما لبثت الطب والصيدلة أن تبادلت معها المواقع، ثم وجدنا السياحة الفنادق تحتل مكانة رفيعة أملا فى تلقى نفحات سخية من العملة الصعبة.

وأخيرا حدث انقلاب فى ظل البطالة المتفاقمة فارتفعت مجاميع كليات التربية التى تبشر بالحصول على الوظيفة فى مدارس وزارة التعليم.

ولكن كيف يبلغ الشاب خط النهاية فى ذلك السباق؟

لا تمضى الأمور يسيرة هينة، بل تنطلق فى سباق لاهث أصبح فيه حقن المتسابقين بالمنشطات أمرا طبيعيا، وهذه المنشطات هى الدروس الخصوصية والمصاريف الباهظة فى التعليم الخاص فالأماكن أو الأهداف محدودة ولابد من التغلب على الآخرين ودفعهم بعيدا عنها للوصول إليها. وعندما يجد مكانا فى الجامعة ويحصل على شهادة التخرج بعد هذه الأهوال يفاجأ بأن الطريق لا ينفذ أو يؤدى إلى تحقيق أمل من آماله العريضة المشروعة. وفى أغلب الأحيان يدفعه الإحباط إلى اتخاذ موقف عدائى من الواقع الذى يرفضه وينكر القواعد المعتادة المقبولة للتعامل مع هذا الواقع المتجهم وحينئذ قد يقدم بسهولة على ارتكاب الجريمة أو يهرب إلى المخدرات أو يتخذ موقفا متطرفا من الدين.

وهو فى كل ذلك يحس بالعزلة والغربة عن الوطن لأنه يدرك أنه وحيد تكاد تتخطفه الطير وأكبر الظن أن هذا الشعور راجع إلى إخفاقنا فى تعليمه وتدريبه على أن يكون مواطنا منتميا مشاركا مسئولا.

وكيف كان ذلك؟ لننظر أسلوبنا فى التعليم لاريب أنه يقوم على التعامل مع التلميذ أو الطالب بوصفه جوالا أو زكيبة تثقب قاعدتها ويغلق ثقبها بسدادة عند كل عام دراسى ليحشوها المعلمون طوال العام ثم تنزع السدادة عند الامتحان ليفرغ ما فيها ثم تغلق فى العام التالى.

وهكذا حتى التخرج فتنزع السدادة ولا يبقى لدى المتخرج فى جوفه العقلى معرفة نافعة أو أسلوب تفكير، أو شخصية متميزة.

أضف إلى ذلك حظر الاشتغال بالسياسة فهى أم الكبائر فى الجامعة، فليس للطالب أن ينتسب إلى حزب من الأحزاب المصرح بها، وليس له أن يناقش أمرا أو يقترح حلا لمشكلة وطنية كبرى، وحسبه خدمة البيئة والدعوة إلى وقف تلوثها.

ولقد علمنا أن ثوراتنا وكفاحنا ضد المستعمر كانت فى معظمها على يد الطلاب كما شاهدناها فى أفلام السينما دعك من كتب التاريخ المترعة بالتفاصيل وأسماء الشهداء والمعتقلين.

كيف نحول بين شبابنا وبين المشاركة فى شئون وطنه إن علينا أن ندربه على إدراك ما يدور فى وطنه وعالمه ومناقشة الآراء والمقترحات المختلفة لحل مشكلات وطنه بحيث يكون واعيا بالصعاب التى يمر بها وطنه، ويكون قادرا على التحمل والصبر والمبادرة على مواجهتها بدون ذلك، سيتفاقم إحساس الشباب بالغربة عن بلده وسيتحين الفرصة للهجرة منها لأنه لا يحس بالانتماء لها أو يشعر بالأمان فيها وقد نجح حتى الآن فى صنع جيتوات (جمع جيتو) خاصة يتحدثون فيها بلغتهم الجديدة (روش طحن) ويرقصون على إيقاع أغنياتهم الصاخبة وأرجو ألا يستبد بهم الشعور بالعزلة فيحملهم على المطالبة بالانفصال! ■



العروبة ليست عرقا حتى ننكرها!

بقلم
د. عاصم الدسوقى

إن الذين يقولون بعدم عروبة مصر ويدعون إلى الفرعونية وينادون بإعادة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية بدعوى الأصالة، يقعون فى وهم كبير ولا يدرون أنهم يتطوعون لخدمة أهداف العولمة فى محو الشخصية القومية، ولخدمة أغراضها فى تفكيك الكيانات الكبرى التى تعتز بقوميتها. وإذا نجحت دعواهم بتشجيع من أركان النظام العالمى الجديد وسدنته فسوف لا تعود مصر إلى فرعونيتها كما يحلمون، بل سوف تعود إلى ما قبل الملك مينا الذى نفخر به موحد الوجهين القبلى والبحرى !!.

قبل إعلان جامعة الدول العربية فى مارس ١٩٤٥ وقيام مصر بدور أساسى فى إنشائها كانت العروبة أحد تيارات الهوية المطروحة على ساحة التوجهات الفكرية فى مصر منذ مطلع القرن العشرين على الأقل، إذ كانت هناك دعوة الجامعة الإسلامية التى نادى بها جمال الدين الأفغانى فى إطار مواجهة الإستعمار الأوروبى للعالم الإسلامى، والرابطة الشرقية التى يدعو أصحابها إلى تكاتف الشرق لمواجهة الغرب الإستعمارى، والفرعونية التى تبلورت مع اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون (١٩٢٢) ومن ثم الحنين إلى إستعادة شخصية مصر الغابرة، ثم رابطة البحر المتوسط التى تولاها طه حسين عميد الأدب العربى



بدأت مصر تحتضن قضايا العروبة منذ تأسيس الجامعة العربية ١٩٤٥ ، والنص على أن تكون مصر مقرها

وبلور أركانها فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر (١٩٣٨) وخلاصتها أن مصر تنتمى إلى ثقافة البحر المتوسط اليونانية - الرومانية أكثر من الثقافة العربية، وهذا يفسر قيامه بإنشاء قسم الدراسات اليونانية واللاتينية (الدراسات الكلاسيكية) فى كلية الآداب لتنمية تلك الثقافة فى وجدان المصريين. ولا ننسى فى هذا الخصوص رابطة وادى النيل (مصر والسودان) التى تولى أمرها الحزب الوطنى زمن مصطفى كامل وتلقفها من بعده أحمد حسين زعيم مصر الفتاة.

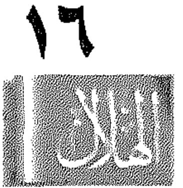
ومن الطبيعى أن يكون هناك أنصار لكل توجه من هذه التوجهات يدخلون بالضرورة فى جدال كبير دفاعا عن الفكرة التى يؤيدونها، ويجتهد كل منهم فى استخدام الدين والتاريخ والإجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافية لإثبات صحة توجهه. وكانت مصر قبل العمل بقانون الجنسية المصرية فى عام ١٩٢٩ ولاية عثمانية فى إطار الرابطة الإسلامية - الشرقية رغم الإحتلال البريطانى (١٨٨٢) ورغم إعلان استقلالها فى ١٩٢٢ وإصدار الدستور فى ١٩٢٣ الذى خلا من نص بشأن الهوية.

ومن الملاحظ أن من بين تلك التوجهات جميعا حظت الرابطة العربية بنقد شديد ومتواصل منذ فترة مبكرة بدأ بالهجوم على العصب الرئيسى للعروبة ألا وهو الفصحى، وتعظيم العامية والدعوة لأن

تكون لغة كتابة كما هى لغة حديث. ففى عام ١٨٨١ دعا مدير دار الكتب المصرية زبيتا Spita وهو مستشرق فى مقاله «قواعد اللغة العربية» لاتخاذ العامية لغة للكتابة بدلا من الفصحى. وفى ١٩٠١ كتب مستشرق آخر وهو فيلمور Willmore تحت عنوان «العربية المحكية فى مصر» يدعو إلى الاقتصار على العامية أداة كتابة وحديث لأنها حية ومتطورة عكس الفصحى الجامدة وعلى أن تكون بحروف لاتينية. وفى فبراير ١٩٠٢ نشرت المقتطف مقالا دون توقيع تحت العنوان نفسه يساند دعوة فيلمور للعامية مؤكدا على أن إرتباط المسلمين باللغة العربية ليس ضروريا فهناك مسلمون كالأتراك لا يتكلمون العربية.

وانضم قاسم أمين إلى هذه الدعوة فأيد فى كتابه «كلمات» (١٩٠٨) الدعوة للعامية بحجة عجز الفصحى عن مواصلة التقدم ونقل الأفكار كما دعا إلى تسكين أواخر الكلمات وعدم التقيد بالإعراب. كذلك فعل أحمد لطفى السيد فكتب فى صحيفتى المقتطف والمقطم (١٩١٣) قائلا: إن الفصحى لم تعد اللغة التى تتناسب مع روح العصر. ثم كتب سلامة موسى فى وضوح وصراحة فى الهلال (١٩٢٦) قائلا: إن الفصحى لغة بدوية رجعية والعامية لغة حضارية، والثقافة بنت الحضارة وليست بنت البداوة. وتلاه طه حسين فى الهلال (يناير ١٩٣٤) وطالب بإصلاح الفصحى لأنها بحالها لا تصلح لغة للتقدم والرقى. وفى العدد نفسه دعا أحمد أمين للعامية بدعوى أن الفصحى من أكبر المشكلات التى يعانى منها الأديب. ولو أن الدعوة للعامية مسألة أقدم من هذا بكثير جدا ولكن لم يكن لدعاتها هدفا سياسيا معينا مثلما حدث فيما بعد، فقد وضع يوسف المغربى (المتوفى ١٦١٠) قاموسا للعامية المصرية ولم يكن يجد بأسا فى الكتابة بها بل لقد كتبت نوادر جحا بالعامية فى منتصف القرن السابع عشر (١٦٥٠).

ويبدو من ظاهر الحوادث بعد أزمة طابا عام ١٩٠٦ بشأن ترسيم حدود لولاية مصر العثمانية - الإنجليزية أن اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر كان يشجع إيجاد «جنسية» مصرية تشمل كل من يقطنون مصر بصرف النظر عن المعتقد والعرق والأصل. ومن هنا حفلت الأعداد الأولى من صحيفة «الجريدة» (وقبل إنشاء حزب الأمة بنحو عام) بافتتاحات تحت عنوان «الوطنية فى مصر» دعت إلى إيجاد جنسية مصرية لاتتعارض مع الرعوية العثمانية. فلما استولت جماعة الإتحاد والترقى على الحكم فى الدولة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨ وبدأت سياسة التتريك التى مهدت لإلغاء نظام السلطنة وإعلان الجمهورية أخذت «الجريدة» تعلن بقلم أحمد لطفى السيد وبلسان حزب الأمة (١٩٠٨ - ١٩٠٩) عن «المصرية» التى أساسها المنفعة والمصلحة وعدم الذوبان فى الجامعة الإسلامية. ثم



اتضحت فكرة «المصرية» هذه عند محمد على علوبة أحد الذين انشقوا على الوفد وانضم إلى الأحرار الدستوريين عندما صرح فى ١٩٤٠ بخطأ فكرة الوحدة العربية وأنها غير قابلة للتنفيذ وغير مجدية ولا يصح إضاعة الوقت فى مناقشتها أو مجرد التفكير فيها، وأن أقصى ما يمكن تحقيقه إقامة وحدة ثقافية بين الأقطار العربية (مجلة الرابطة العربية فى ٦ مارس ١٩٤٠) أو إقامة تعاون روحى بين «الأمم العربية» كما يقول محمود تيمور (الهلال فى ديسمبر ١٩٤٠).

الشقيقة الكبرى

وبإقامة الجامعة العربية فى مارس ١٩٤٥ والنص على أن تكون مصر مقرها وأن يكون أمينها العام مصريا أصبحت مصر زعيمة العرب أو الشقيقة الكبرى فى أقل الأحوال، وبدا أن سؤال الهوية قد حسم لصالح عروبة مصر فتوقف الهجوم على العروبة. وأكثر من هذا بدأت مصر تحتضن قضايا العروبة فنجد بعض أعضاء مجلس الشيوخ (جلسة ٢٨ مايو ١٩٤٥) يطالبون الحكومة بالنظر فى خير الوسائل لمواجهة إنزال قوات فرنسية مسلحة فى سوريا ولبنان لفرض معاهدة عليهما مما يتنافى مع سيادتهما ويخالف ميثاق الجامعة العربية وصرح النقراشى رئيس الوزراء بأنه رأى أن يتصل بحكومات بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية للمحافظة على سيادة البلدين.

وفى الوقت نفسه حذر البعض من المحاولات التى تبذلها القوى الإستعمارية لإعطاء الجامعة العربية صبغة دينية وإبعادها عن صفتها القومية ونبه إلى خطورة الفكرة التى تنادى بإخراج مصر من الجامعة العربية بدعوى أنها ليست عربية لأن فى هذا تفريقا للصف العربى الذى يجب أن يتوحد ضد الإستعمار (كتاب عبد المعبود الجبيلى وشهدى عطية الشافعى «أهدافنا الوطنية» ١٩٤٥). ثم كان اشتراك مصر فى حرب ١٩٤٨ لإنقاذ فلسطين من يد الصهيونية خطوة ملحوظة فى طريق عروبة مصر.

عروبة مصر

وعلى هذا فإن عروبة مصر كانت أمرا محسوما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ لكن الجديد والأهم أن جمال عبد الناصر جعل من العروبة منهجا أساسيا ومرجعية حاكمة فى السياسة. وفى هذا الخصوص تم النص فى دستور ١٩٥٦ فى مادته الأولى على أن «مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة والشعب المصرى جزء من الأمة العربية». وخاض عبد الناصر معارك ثورة يوليو ضد الغرب الإستعمارى وضد الإقليمية والعنصرية باسم القومية العربية. وهنا تعاظمت العروبة وتوارت الهويات الأخرى. لكن خصوم العروبة وأعداؤها لم يركنوا إلى اليأس بل كانوا يتحينون الفرصة للطعن فى العروبة بطريق غير

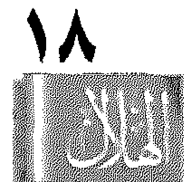
مباشر، ففى عام صدور دستور ١٩٥٦ يقرر سلامة موسى فى كتابه «الأدب للشعب» أن الفصحى لا تصلح للشعب الديموقراطى لأنها لغة الملوك والأمراء والفقه الإسلامى والأدب العربى لا الأدب المصرى، والعامية هى اللغة الديموقراطية التى تعبر عن الشعب. ويبدو واضحا أن سلامة موسى كان يردد ما ذهب إليه لويس عوض من قبل حين نشر ديوانه بلوتو لاند في ١٩٤٧ مؤيدا العامية ولأن الفصحى لغة السادة والعامية لغة العبيد وهى إشارة خفية وغير مباشرة إلى السادة هنا هم الغزاة العرب والعبيد هم المصريون. وفى هذا الإطار يمكن فهم استخدامه للعامية عندما كتب «مذكرات طالب بعثة» فى عام ١٩٤٢ ونشرها فى ١٩٦٦.

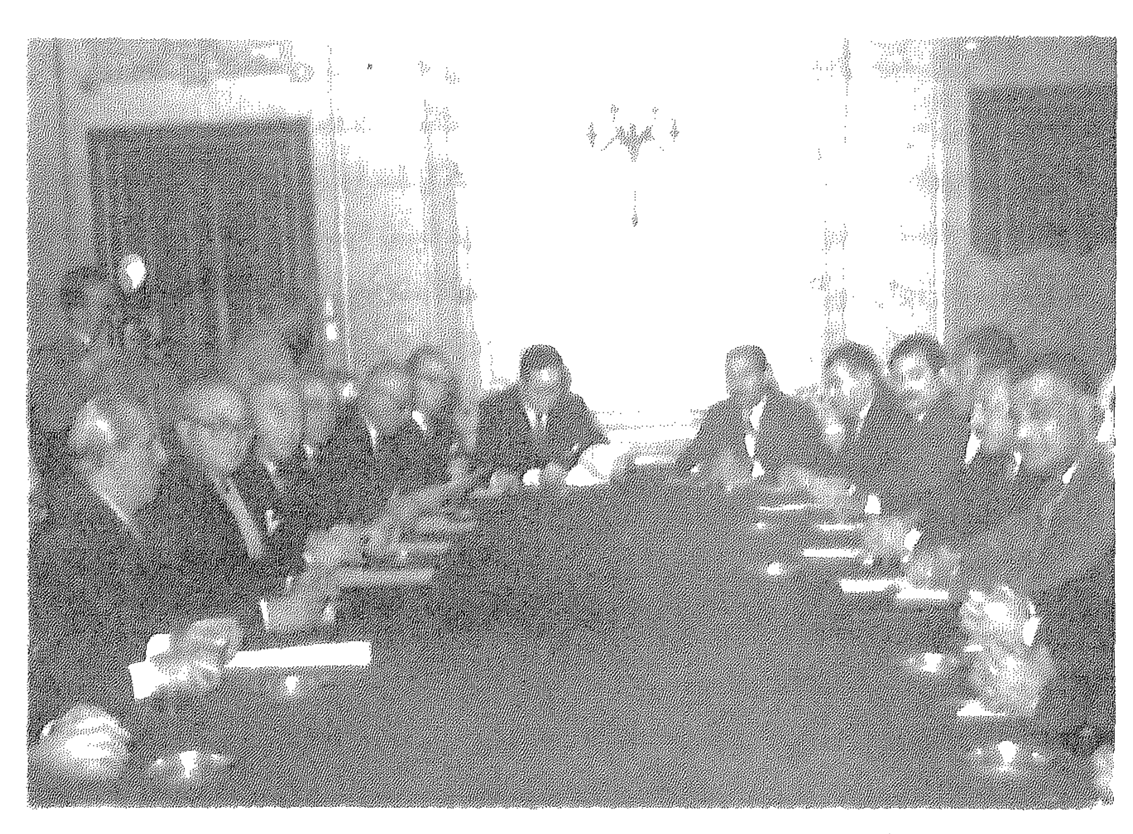
وفى كل الأحوال فمن الملاحظ أنه بعد صدور دستور ١٩٥٦ انكمش حجم خصوم عروبة مصر وانفتح المجال واسعا لأنصار عروبتها ففى عام ١٩٥٦ أصدر محمد مصطفى عطا كتابه «نحو وعى جديد» يدعو فيه إلى قيام إتحاد عربى مكين يواجه الأحلاف المطروحة على الساحة العربية. ويكتب على رفاعى محمدى - مفتش الوعظ العام بالأزهر - كتابه «وحى النهضة الوطنية فى الخطب المنبرية» ويقول: إن ثورة مصر أيقظت وعى العرب لأن مصر كانت دائما محط آمال العرب. وفى ١٩٥٧ يكتب مصطفى عبد اللطيف السحرتى كتابه «إيديولوجية عربية جديدة» مؤكدا أن مصر ولدت بعد الثورة بوعى جديد وعمت أرجاءها روح القومية العربية التى تتوائم مع التطور التاريخى لمصر وخصائصها الوجدانية والروحية والثقافية.

وبعد إعلان وحدة مصر وسوريا (فبراير ١٩٥٨) تتوالى الكتابات عن عروبة مصر ففى عام ١٩٥٨ يكتب إسماعيل القبانى عن الوحدة الثقافية العربية، وفى عام ١٩٦٠ يكتب حسين نصار «مصر العربية» ويكتب صلاح عبد الصبور «أفكار قومية»، ويكتب على حسنى الخربوطلى «المجتمع العربى»، ولمعى المطيعى «المجتمع العربى»، وأميل شوقى «فى مجتمع عربى جديد»، ومنير الشريف «حب العرب لقوميتهم»، وتنشر دراسة للأدب فى ظلال القومية العربية بإشراف محمد قدرى لطفى.

وهكذا ظل المصريون يرون فى العروبة رداء يصون ذاتهم، وسياجا يحمى مصالحهم الإستراتيجية البعيدة فى ظل قيادة جمال عبد الناصر، ودخل أعداء عروبة مصر الشقوق، ويئست القوى الكبرى وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية من نزع العروبة عن مصر.

فما الذى قلب الأمور وشجع خصوم عروبة مصر على الظهور مرة أخرى ليقولوا بفرعونيتها وبعدم عروبتها وبضرورة التخلص من آثار الاحتلال العربى الذى دام طويلا!!.





توالت الكتابات عن عروبة مصر ، خاصة بعد إعلان وحدة مصر وسوريا في ١٩٥٨

مزايدات!

يبدو واضحا دون لبس أو مزايدات أن الخطوة الأولى فى طريق نفى عروبة مصر بدأت مع ذهاب السادات إلى القدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ بصرف النظر عن النيات الطيبة وراء هذه الزيارة إذ ثارت مناقشات حادة بين المثقفين حول تأثير التوجهات الجديدة على عروبة مصر، فكتب توفيق الحكيم داعيا إلى حياد مصر فى الأهرام (٣ و ١٢ مارس ١٩٧٨) وفي الأخبار (١٨ مارس ١٩٧٨)، وأيده فى ذلك حسين فوزى سندباد مصر فى الأخبار (٢٢ مارس ١٩٧٨)، وكتب لويس عوض فى ٧ أبريل «الأساطير السياسية» حيث اعتبر أن الوحدة الإندماجية بين العرب نوعا من الأساطير السياسية لأنها تفترض أن شعوب المنطقة من الخليج إلى المحيط أمة واحدة ليس فقط ثقافيا وحضاريا ولكن عرقيا وعنصريا فتصبح العروبة والحال كذلك فى رأيه لونا من ألوان النازية، مع أنه يعلم تماما أن العروبة لم تك يوما أحد الأعراق التى حددها علماء الأجناس البشرية فى العالم؟!.

ثم جاءت اتفاقية «السلام» مع إسرائيل فى مارس ١٩٧٩ لتصيب عروبة مصر فى مقتل خاصة مع النص القائل بأن للإتفاقية أولوية على إلتزامات أحد الطرفين تجاه أطراف أخرى، مما يعنى فى أبسط الأحوال نسف إتفاقية الدفاع

العربى المشترك. فلما أبدى بعض زعماء العرب امتعاضهم مما حدث وشكلوا جبهة الصمود والتصدى ونقلوا مقر الجامعة العربية من القاهرة وعينوا أمينا لها غير مصرى خلافا للميثاق رماهم السادات بالجهل والحماقة ومضى فى طريقه غير مبال. وقد أدت هذه السياسات إلى انتعاش خصوم عروبة مصر فتجدد حديث الشكوك حول عروبة مصر مرة أخرى وراجت الأفكار التى تقول بأن مصر خسرت كثيرا بعروبتها وأنها أقحمت نفسها فيما عاد عليها بالضرر. وأذكر فى هذا الخصوص أن أحد أساتذة التاريخ الحديث أعلن أنه سوف يكرس بقية عمره للكتابة عن مصر المصرية وليس مصر العربية التى خسرت كثيرا بالإنتماء العربى.

ثم أقدم صدام حسين على غزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ وأعلن ضمها للعراق فانقسم العرب فيما بينهم حول تقدير هذا التصرف ما بين منتقد ومؤيد، ثم زاد الانقسام حدة عندما اصطنعت الحكومة الأمريكية «تحالفا» دوليا لإقصاء القوات العراقية عن الكويت. وآنذاك كان جدار برلين قد تحطم (نوفمبر ١٩٨٩)، وبدأ تفكيك الإتحاد السوفييتى، وكذا قوميات البلقان (١٩٩٠ - ١٩٩١)، وأعلن الرئيس الأمريكى (بوش الأب) عشية الاستعداد لضرب القوات العراقية (مارس ١٩٩١) تدشين ما أسماه «الجلوبالية Globalism ، أى النظام العالمى الجديد المعروف بين جمهرة المثقفين بالعولمة».

العولمة.. وتدمير الشخصية القومية

وبدأ المراقبون يتعرفون تدريجيا على مظاهر هذه العولمة وملامحها فيما شاهدوه من تفكيك الكيانات القومية إلى دول جديدة على أسس انثروبولوجية لغوية أو عرقية أو دينية حسب مقتضى الحال. ولنا أن نراجع على سبيل المثال تفكيك كل من يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، وسلخ جزيرة تيمور الشرقية من إندونيسيا، والعمل على تفكيك السودان، والإعداد لتفكيك العراق ودول قومية أخرى وخاصة العربية منها والإسلامية على الأسس نفسها، وبات معروفا أن العولمة تعنى تدمير الشخصية القومية القائمة على وحدة اللغة ووحدة العقيدة وخاصة فى البلاد العربية - الإسلامية. والهدف البعيد من هذا النهج إضعاف الكيانات القومية الكبيرة لإتاحة الفرصة واسعة أمام رأس المال فى دول الغرب الأوروبى - الأمريكى لتوسيع استثماراته كيفما يشاء بعد أن تكون منظمة التجارة العالمية قد تمكنت من إلغاء كل الحواجز وإسقاط كل القيود تحت شعار تحرير الإقتصاد والمنافسة الحرة.

ثم إزدادت «العولمة» وضوحا بالهجوم الأمريكى على أفغانستان (٧ أكتوبر ٢٠٠١)، ثم بغزو العراق (مارس ٢٠٠٣)، ومساندة إسرائيل التى تقوم منذ وصول شارون للحكم فى نهاية عام ٢٠٠٠ بعولمة

فلسطين المحتلة عن طريق تمزيق أوصالها للقضاء على مشروع الوطن الفلسطينى عمليا ومحوه من ذهن الفلسطينيين أنفسهم ومن ذاكرة العرب نهائيا.

وأمام غول العولمة هذا الذى أصبح يهدد الرابطة القومية والدينية.. العربية والإسلامية على وجه الخصوص.. عاد أعداء عروبة مصر من جديد إلى الظهور على المسرح يسندهم مناخ العولمة الذى يحول دون تقارب عناصر القومية الواحدة، ويحتمون فى رداء جماعات السلام وحتمية المثول للواقعية. واستجاب هؤلاء وأولئك للنداء الأمريكى (أو فهموا الفولة كما يقول العامة)، وشرعوا يكتبون ضد عروبة مصر بهدف أن تنسلخ عن قوميتها حتى لقد قالوا بأن مشكلات مصر الاقتصادية سببها الانتماء العربى.

ولكى يسند العنصريون الجدد فكرتهم أجهدوا أنفسهم كثيرا فى إثبات أن المصريين ليسوا عربا، وإنما هم «مصريون»، وكأن العروبة عرقا، وهذا غير صحيح، بل إن العروبة رابطة قامت على أساس اللغة. فقد أورد ابن عساكر فى تاريخه مقولة النبى محمد صلى الله عليه وسلم «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم.. وإنما هى باللسان فمن تكلم العربى فهو عربى»، وذلك حين أنكر جماعة من العرب على سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى أن يكونوا عربا يحسب لهم حساب ويمتازون بوضعية خاصة بين الصحابة أو حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا يعنى أن العروبة لا علاقة لها بالعرق منذ البداية.

كما ذهبوا إلى القول بأن انتشار الإسلام بين المصريين لا يعنى إقصاء لغتهم الأصلية والتكلم بالعربية، ويدللون على ذلك بأن الإسلام انتشر فى بلاد فارس وظل الفرس يتكلمون لغتهم الأصلية، وانتشر بين الأتراك لكنهم لم يتكلموا العربية، كما أن سيادة الإنجليزية بين الأمريكيين لايعنى أنهم إنجليز أصلا، وكذلك الحال بالنسبة للإنجليزية والفرنسية فى بلاد القارة الإفريقية، واعتقدوا بذلك أنهم قد برهنوا علميا على دعواهم وأقاموا الدليل على صحتها. وفاتهم أن يتعرفوا على الأسباب الكامنة وراء احتفاظ شعوب اعتنقت الإسلام بلغاتها الأصلية، وتخلى شعوب أخرى عن لغاتها وتبنى اللغة العربية، وذلك فى ضوء مفهوم المنحنى الحضارى للشعوب، واستسهلوا القول بإرغام المصريين على التكلم بالعربية.

كما لم يلتفت هؤلاء إلى المصلحة التى ترفضها الجغرافية - السياسية والتى لابد وأن تجعل المصريين عربا بالمنفعة وبعيدا عن «شبهات» العرقية و«الإكراه» اللغوى. وفى هذا الخصوص.. أليست أوروبا عدة لغات وعدة أعراق وعدة مذاهب وعقائد ومع ذلك أقامت شعوبها الاتحاد الأوروبى والسوق الاقتصادية الواحدة ذات العملة الواحدة ولم يقل أحد الأوروبيين إن أوروبيته «الجديدة» تقضى على وطنه الأم حتى يتبرأ منها!!.

بوش وسياسة نسف الجسور مع العرب

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

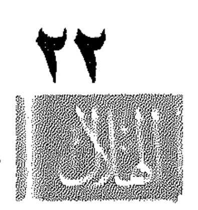
فى الرابع عشر من شهر إبريل الماضى وقف الرئيس الأمريكى جورج بوش إلى جوار صديقه العزيز مجرم الحرب أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل ليواصل إمعانه فى التنكيل بالشرعية الدولية. تعودنا من سياسته أن تكون بلا أساس من قواعد القانون الدولى التى تعارفت عليها الأمم المتحضرة، أو قرارات صادرة عن المنظمة الدولية الأم. ألم ينفذ عدوانه على العراق على هذا النحو مدعياً أنه ونظامه يمثلان خطراً داهماً بسبب ما فى حوزته من أسلحة دمار شامل لم يتمكن من أن يظهر لنا منها بعد احتلاله للعراق «مثقال ذرة» أو «حبة خردل»؟

نقلة نوعية أم تطور طبيعي

بمنتهى البساطة صرح الرئيس الأمريكى فى ذلك المؤتمر الصحفى بأنه «من غير الواقعى أن تكون نتيجة مفاوضات الوضع النهائى عودة كاملة وتامة إلى خط هدنة ١٩٤٩»، وأكد أن أية تسوية نهائية للقضية الفلسطينية يتعين أن تضع فى اعتبارها عناصر جديدة على الأرض، وأضاف: «إن إسرائيل لها مطالب بشأن بعض أراضى الضفة الغربية التى يقول الفلسطينيون أنها أراضيهم»، ومضى يقول مانصه: «هناك وقائع جديدة على الأرض تشمل وجود تجمعات سكانية إسرائيلية كبيرة فى الضفة العربية، وعلى هذا فإن أية تسويات نهائية يجب - من وجهة نظره - أن تراعى تلك التغيرات الديموجرافية، وتكون مقبولة لدى الجانبين.

أما حق العودة فقد تحدث بوش بصورة تنفى أى حق فى عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى داخل حدود ١٩٤٨، وقال أنه سيتعين التوصل إلى حل لمحنتهم من خلال إقامة دولة فلسطينية وتوطين اللاجئين فيها وليس فى إسرائيل. تضمنت تصريحات الرئيس الأمريكى تكراراً لمواقف رسمية سابقة تؤكد معنى الانحياز المطلق لدولة إسرائيل كدولة «يهودية»، ولم يفته أن يستمر فى التلويح بجزرة الدولة الفلسطينية غير محددة المعالم التى يتعين على الفلسطينيين قبل أن ينعموا بجنتها أن يجتثوا «الإرهاب» من بين صفوفهم بحيث يصبحون بلا حول ولا قوة عندما يحين أوان رسم معالم هذه الدولة.

فى كلمات قليلة إذن أقر رئيس الدولة العظمى فى عالمنا بأن القوة يمكن أن تضيع حقوقاً، وتنشىء حقوقاً، ولم يفته أن يؤكد على دعمه للعنصرية بتأكيده على الطابع اليهودى لدولة إسرائيل، فأبناء الشعب الفلسطينى الذين



طُردوا من أراضيهم بالقوة الغاشمة عبر السنين بدءاً من عام ١٩٤٨ ومروراً بعام ١٩٦٧ وانتهاءً بمايحدث منذ سنوات لايستطيعون العودة إلى وطنهم وفق كلمات الرئيس الأمريكي حتى ولو كانت قرارات الدنيا كلها وقواعد قانونها الدولي في صفهم، بينما المهاجرون الغرباء الذين قد لايكون بعضهم قد قضى على أرض فلسطين أكثر من شهور قليلة لديهم الحق في الاحتفاظ بما استولوا عليه من أراض فلسطينية بالقوة المسلحة على الرغم من كل قواعد القانون الدولي، وعلى الرغم من أن ديباجة قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ونصه والمناقشات التي دارت قبل إقراره تنفي جميعها أي حق لهؤلاء الغاصبين في الاحتفاظ بما استولوا عليه، بل إن أرض فلسطين مازالت مستباحة لأي مهاجر يهودي لم تربطه بها علاقة أصلاً لمجرم الحرب الذي يحكم إسرائيل في الالتزام بتحقيق أمن إسرائيل كدولة يهودية في إشارة واضحة وخبيثة لفكرة خطيرة ستكون لها تداعياتها المستقبلية المشئومة هي فكرة النقاء العنصري.

حدث هذا في بساطة شديدة عبر دقائق قليلة من مؤتمر صحفي جمع بين الرجلين في واشنطن يوم الرابع عشر من أبريل الماضي. كان وقع الصدمة شديداً لكن المفاجأة ما كان ينبغي أن تكون كبيرة. مبعث الصدمة ربما يعود إلى أننا تعودنا أن نستمع إلى خطاب سياسي أمريكي رسمي يلتزم على استحياء بقواعد القانون الدولي والقرارات الدولية ذات الصلة ونراقب في الوقت نفسه سياسة تأييد شبه مطلق لإسرائيل، ولعل الأمل كان يحدو بعضنا دوماً - أو على الأقل من حين لآخر - في أن يحدث من التغيرات يوماً مايجذب السياسة العملية - ولو قليلاً - إلى الخطاب السياسي الرسمي، لكننا في الرابع عشر من أبريل الماضي أدركناأن أوان التطابق بين الخطاب الرسمي والسلوك الفعلي قد حل. بدا مذاق هذا التطابق مراً كالعلقم في حلوق العرب وقد اختار الرئيس الأمريكي لإخراجه وقتاً شديد الفجاجة والاستخفاف بأصدقائه العرب.

غير أن أركان المفاجأة في مضمون ما تم بدت غائبة، فقد تعودنا لعقود على منحنى صاعد من منظور تأييد إسرائيل ميز السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي. لم يشذ رئيس أمريكي واحد عن هذه القاعدة، وإن بدا نفر قليل منهم قادراً على أن يقول «لا» جزئية لإسرائيل هنا أو قضية هناك سرعان ما كان التخلي عنها - أي عن «لا» المعارضة - يتم لأسباب معروفة، ووصلت الإدارة اليمينية الحالية في البيت الأبيض إلى ذروة من ذرى هذا التأييد خاصة في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر . وقد نذكر أن الرئيس الأمريكي قد وقف في يونيو ٢٠٠٢ ليلقي بخطاب كارثة مثل نقلة نوعية هائلة في السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل، ففي ذلك الخطاب المشئوم أعاد بوش وللمرة الأولى في سجل تلك السياسة تكييف الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني باعتباره صراعاً ضد الإرهاب، وبالتالي فإن مصدر الأزمة لدى بوش كما ظهر من خطابه لم يكن هو احتلال جاثم على صدور الشعب الفلسطيني منذ ١٩٦٧ - بل منذ ١٩٤٨ - وإنما وجود حفنة من الإرهابيين ترتهن السلام، على رأسها قيادة إرهابية مسئولة عن هذا كله. ولم يكن هؤلاء الإرهابيون المقصودون في خطابه سوى فصائل المقاومة الفلسطينية الباسلة، ولم تكن قيادتهم سوى تلك القيادة التي بات إعتدالها مضرب الأمثال. وعليه فإن أي تقدم نحو السلام الأمريكي بات مرتهناً بدوره باجتثاث الإرهابيين وقيادتهم، أي بالقضاء على فصائل المقاومة وإجراء إصلاحات داخلية من شأنها أن تقضي بالضرورة إلى تغيير القيادة الفلسطينية حتى ولو أعاد الشعب اختيارها، وكانت هذه هي المقدمة المشئومة للإلحاح الأمريكي على إصلاح تحتاجه الدول العربية بحق وإن كانت وصفته الأمريكية بدت طريقاً لاستكمال التبعية للولايات المتحدة أكثر مما بدت طريقاً لحياة ديمقراطية سليمة.

شغلتنا الإدارة الأمريكية بعد ذلك بخارطة طريق ملغومة مؤسسة على الأفكار السابقة - أي على أن نقطة البداية هي القضاء على الإرهابيين وقيادتهم - لكن الثمرة فيها للفلسطينيين تمثلت في حدود «غيرمحددة» لدولة «مؤقتة» مع غياب تام للحديث عن مستقبل المستوطنات القائمة طالما أن أقصى ما تضمنته خارطة الطريق ارتبط بتفكيك «المراكز

الاستيطانية المتقدمة» التى أقيمت بعد مارس ٢٠٠١ فقط، وتجميد النشاط الاستيطاني. أما قضية اللاجئين فتحدثت الخارطة عن إيجاد حل عادل ومنصف و«عملى» لها. إلى أن جاء الرئيس الأمريكي فى مؤتمره الصحفى مع حليفه مجرم الحرب ليضع العلامات بوضوح على الخارطة: لا عودة لحدود ١٩٤٩، وعلى الفلسطينيين أن يقبلوا واقع الاستيطان، وأن يتخلوا عن حق العودة لوطنهم طالما أنهم سوف يعطون دولة لا يعلم إلا الله مساحة الأرض التى ستقام عليها ويستطيعون بعد ذلك أن يمارسوا فيها حق العودة كما شاء وا.

لم يكن هناك جديد نوعياً إذن فى موقف الرئيس الأمريكي، وأقصى حديث ممكن عن الجديد هو أن تصريحاته الأخيرة مثلت امتداداً طبيعياً لتطور الموقف الأمريكي كما عبر عنه فى خطابه فى يونيو ٢٠٠٢ وفى خارطة طريقه التى جسدت لاحقاً فلسفة هذا الخطاب، وإن بقيت الفجاجة صارخة والاستخفاف بالعرب عامة وبالأصدقاء منهم خاصة هائلاً.

لم يكن هناك توقيت فيما يبدو أكثر إلحاحا لممارسة تلك الفجاجة وهذا الاستخفاف فى الوقت الراهن، فالرئيس الأمريكي يعانى من ورطة حقيقية وضع نفسه فيها فى العراق بسياسة بنيت على الأسس نفسها: مجافاة أبسط قواعد القانون الدولي والقرارات الدولية ذات الصلة ناهيك عن الكذب، وهى ورطة مرشحة لمزيد من التعقد مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية التى ستحل بعد شهور قليلة، وهو لا يستطيع أن يتحرك بسهولة - إن استطاع الحركة على الإطلاق - بعيداً عن يمينه المسيحى المتعصب أو عن اللوبى الصهيونى ذى الأنياب التى يمكن أن تدمى حملته الانتخابية.

دفاع بوش:

لم يكن العرب وحدهم هم الذين أصابتهم الصدمة من جراء تصريحات الرئيس الأمريكي، ومن الأمور الجديرة بكل احترام وتقدير حقا تلك الرسالة التى وجهها ما يربو على خمسين دبلوماسياً أمريكياً سابقا من ذوى الخبرة بشئون المنطقة إلى الرئيس الأمريكي اعتراضا على سياسته المعلنة فى مؤتمره الصحفى مع شارون، فى تلك الرسالة التى تعكس بحق عقل الدبلوماسية الأمريكية وضميرها بدا أن كاتبيها يعارضون سياسة رئيسهم على نحو أكثر جذرية من دوائر عربية عديدة، فقد أفاضت الرسالة فى نقد سياسة بوش كونها أيدت خطة شارون التى تتحدى قرارات مجلس الأمن.. التى تقضى بأن تعيد إسرائيل الأراضى المحتلة، وتتجاهل القوانين الدولية التى تعتبر المستوطنات الإسرائيلية غير شرعية، وتهزأ بقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الذى تم تبنيه فى ١٩٤٨، والذى يؤكد حق اللاجئين فى أن يعودوا إلى ديارهم، أو يتلقوا تعويضا مناسبا عن فقدان ممتلكاتهم وعوناً لإعادة التوطين فى بلد مضيف إذا اختاروا أن يفعلوا ذلك، ولفت نظرى أن دبلوماسيين أمريكيين رفيعى المستوى يتحدثون عن القرار ١٩٤ وعن حق العودة فى وقت بات يتهم فيه البعض منا من قبل دوائر عربية رسمية وغير رسمية بأنه غير واقعى أو حتى مفارق لعصره إذا تحدث عن حق العودة ناهيك عن التمسك به.

فى الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي زادت رسالة الدبلوماسيين الأمريكيين حديثاً صريحاً عن رفض تأييد بوش المطلق للاغتيالات غير القانونية التى يرتكبها شارون، وجدار إسرائيل الذى يشبه حائط برلين وإجراءاتها العسكرية القاسية فى الأراضى المحتلة، واستبعاد الفلسطينيين من المفاوضات الأمريكية - الإسرائيلية - وأشارت كذلك إلى الآثار بالغة الخطورة لمواقف بوش واستشهدت بقول ياسر عبد ربه وزير الإعلام الفلسطينى السابق تعليقا على هذه المواقف : «أعتقد أن الرئيس بوش أعلن موت عملية السلام اليوم»، بل زادت بأن وصفت هذا القول بأنه يعبر عن رد الفعل السائد عند الناس، كذلك أشارت الرسالة إلى أن خطة شارون تضعف خريطة الطريق للسلام، و«تنقض سياسة أمريكية قائمة منذ وقت طويل فى الشرق الأوسط».. وتبرهن على أن الولايات المتحدة ليست شريك سلام غير متحيز، وحذرت من أن هذه السياسة تضع الدبلوماسيين والمدنيين والعسكريين الأمريكيين الذين يؤدون مهماتهم فى الخارج فى موقف يتعذر الدفاع عنه، بل وينطوى على خطورة، ناهيك عن أنه يكلف الولايات المتحدة «صدقيتها ومكانتها

وأصدقاءها».

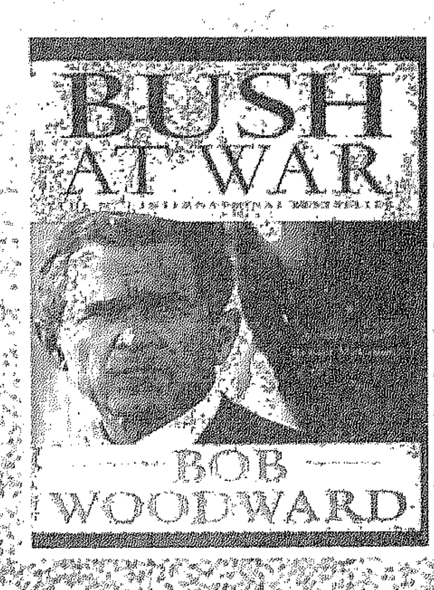
أدرك بوش فيما يبدو أو لعل أحداً قد نبهه إلى أنه نسف بموقفه هذا ما تبقى من جسور بين الوطن العربى والإدارة الأمريكية الراهنة، وأنه حتى أولئك المسئولين، والمثقفين العرب الذين مازالوا يتمسكون ببعض دعائم هذه الجسور التى نجت من عملية بوش التخريبية لابد أنهم فى موقف بالغ الصعوبة أمام الرأى العام العربى، ولذلك بدأ دفاعاً واسع النطاق عن نفسه حاول أن يصل من خلاله إلى الرأى العام العربى، لكن دفاعه كشف عن مزيد من الارتباك والمراوغة ناهيك عن عدم الفهم، يقول جورج بوش على سبيل المثال فى حديثه إلى صحيفة الأهرام الذى نشر فى ٨ مايو الماضى: «إننى مندهش إلى حد ما يا سيدى من أن النقاش قد بدأ بالفعل حول النتائج النهائية فى الوقت الذى لم يبدأ فيه بعد إنشاء الدولة، هو إذن مندهش من نفسه لأنه هو تحديداً الذى بدأ هذا النقاش باستباق كل شىء وحديثه عن عناصر الواقع التى يجب أن تنعكس على تسوية قضيتى المستوطنات واللاجئين ، ويجيب على سؤال لرئيس تحرير الأهرام كتلميذ خائب يكتفى بقول نعم أو لا عندما يسأل سؤالاً بالغ التعقيد، قال له إبراهيم نافع: «إن حق اللاجئين فى العودة إلى أراضيهم والحصول على تعويضات منصوص عليه من الناحية القانونية فى عدد من قرارات الأمم المتحدة فاكتفى الرئيس الأمريكى بأن قال «نعم» ليراوغ بعد ذلك فى إجابته عن السؤال التالى قائلاً: إن قضية اللاجئين هى إحدى قضايا الحل النهائى وهذا أمر يتم التفاوض عليه بين الفلسطينيين والإسرائيليين مكررا بعد ذلك مقولته عن عودة اللاجئين: ما سوف يحدث هو أن عندما تقوم دولة فلسطينية فإنه سيكون من حقهم العودة إليها، فالحل التفاوضى الذى يحاول أن يختبىء خلفه لا يمكن أن يتضمن إذن عودة اللاجئين إلى ديارهم الأصلية، وعندما يسأل عن اتفاقه مع مقولة أن الوقائع العملية القائمة على الأرض تعنى ضم أراضى الآخرين يجيب إجابة طريفة لا يمكن توقعها:

«أعتقد أن ما يعنيه ذلك هو أنك سترى مع مرور الوقت ومع قيام دولة فلسطينية أن الضفة الغربية سيقيم فيها فلسطينيون.. كأنه لا يدرى أنهم يقيمون فيها بالفعل، وأن ذلك لا علاقة له بدولته الموعودة وكأنه يستكثر على أصحاب الأرض أن يقيموا فى أرضهم والتى سبق أن أشار إلى أنهم «يقولون» إنها أرضهم، سئل بوش فى موضع آخر: «هل توافقون على منح الفلسطينيين خطاب ضمانات مشابها «لخطابه لشارون» ينص على أن أى ضم لأراضى الضفة يجب أن يكون محدوداً للغاية وأنه يجب على إسرائيل أن تنسحب من كل الضفة الغربية تقريباً بما يتسق مع قرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢، ٣٣٨، وكانت إجابته: «لا سوف أقوم بتكرار الأمور التى قلتها علنا اليوم فى خطاب أقوم بتوجيهه للفلسطينيين» ، وعندما يتصور المرء أنه يعنى ما ذكره بشأن الطبيعة التفاوضية لأى تسوية نهائية - بغض النظر عن القيود التى وضعها بتصريحاته على عملية التفاوض - سرعان ما يطالع باقى إجابته وهى (أى الأمور التى قالها علنا): إننى أعتقد أن هناك فرصة، وإنه من المهم أن تعثر السلطة الفلسطينية على قيادات مؤمنة بالإصلاح لديها الاستعداد للتقدم ولعب دور قيادى، أى أن رسالة ضمانات بوش لإسرائيل تتحدث عن أرض يتم استيعابها وشعب يحال دونه ودون العودة إلى وطنه، بينما رسالة ضماناته للفلسطينيين تكتفي بمطالبتهم بتغيير أنفسهم استثماراً لفرصة شارون الذهبية.

ماذا نحن فاعلين إزاء هذا التحول الخطير وتداعياته المقبلة؟ تعود العرب دائما أن «يظهروا مزيداً من المرونة كلما حلت بهم الخطوب ، مع أن دروس التاريخ تفيد بوضوح أن المرونة مع طالبى الهيمنة - ناهيك عن الاستسلام لهم - لا تفضى إلا إلى مزيد من فتح شهيتهم لاستكمال التهام الضحية، تكتب هذا المعنى بوضوح دماء، أراقتها الآلة العسكرية الإسرائيلية ، ودماء أخرى زكية سوف يريقها الصهاينة وقد اطمأنوا إلى أن سيد العالم قد أخلى لهم الطريق تماماً كى يرسموا عليه خريطتهم كما يشاءون إلى أن يقيض الله سبحانه وتعالى للمقاومين من أبناء هذه الأمة أن يوقفوا هذا العبث بقيم الإنسانية ومصائر الشعوب إنه على نصرهم لقدير. ■

بقلم

محمد يوسف عدس



مؤلف هذه الكتاب هو «بوب وودوارد» نائب رئيس تحرير «واشنطن بوست» .. عمل مراسلا صحفيا لأكثر من ثلاثين سنة .. وألف ثمانية كتب .. إثنان منها أعتبرا من أكثر الكتب مبيعا فى أمريكا .. كتب عن الرئاسة الأمريكية أربعة كتب ، كما كتب عن البنتاجون .. والمخابرات المركزية والمحكمة العليا .. اكتسب خبرة كبيرة وشهرة مرموقة من كتابته ولقاءاته العديدة مع الرؤساء وكبار القادة السياسيين على اختلاف مواقعهم ومنازعهم .

يقول عن كتابه : إنه قصة الرئيس بوش خلال المائة يوم التى أعقبت الهجوم الإرهابى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م .

مصادر معلوماته عن مجريات الأمور فى هذه الفترة يحددها بثلاثة مصادر رئيسية :

أولها : مذكرات عن خمسين اجتماعا لمجلس الأمن القومى إلى جانب اجتماعات أخرى مهمة نوقشت فيها واتخذت القرارات المتعلقة بالحرب .

ثانيها : مذكرات أخرى ويوميات ووثائق اقتبس منها فقرات لاستكمال أجزاء من هذه القصة .

ثالثها : مقابلات صحفية مع أكثر من مائة شخصية قيادية فى مجالى اتخاذ القرارات وتنفيذها .

معظم هذه الشخصيات تمت مقابلتها أكثر من ست مرات .. إما للمتابعة أو لمزيد من التحقيق فى واقعة أو خبر معين . وقد سمح أكثر من قابلهم بتسجيل أحاديثهم .. فيما عدا بعضهم الذى اشترط مسبقا عدم ذكر اسمه فى الكتاب .

أما الاستنتاجات والأفكار والانفعالات التى نسبها لأصحابها فقد جاءت إما عن طريق الملاحظة المباشرة أو عن طريق صديق أو زميل على معرفة وثيقة بهم .

التقى المؤلف بالرئيس بوش مرتين : الأولى فى سبتمبر ٢٠٠١ لمدة تسعين دقيقة ، والثانية فى ٢٠ أغسطس ٢٠٠٢ م وذلك بمزرعة الرئيس الخاصة فى كروفورد (تكساس) لمدة ساعتين وخمسة وعشرين دقيقة . يقول : إن الرئيس قدم فى هذا اللقاء الأخير إجابات محددة ومفصلة عن ردود فعله تجاه الأحداث وعن منطقه فى تبرير الحرب.

ويختم «وودوارد» مقدمة كتابه بقوله : «هذا هو جهدى فى الحصول على أكبر قدر من الحقيقة».

يحتوى الكتاب على ٣٨٢ صفحة تدور جلها حول الحرب الأفغانية فيما عدا ثلاثة وأربعين صفحة الأخيرة تناولت الإعداد للحرب العراقية .

يستعرض المؤلف فى بداية الكتاب شخصياته الرئيسية كأنه يقدم شخوصاً مسرحية : ثلاثة وعشرون شخصية من الولايات المتحدة على رأسهم الرئيس جورج دبليو بوش ، وثمانية من حلفاء أمريكا فى أفغانستان .

وكأى قصة أخرى تنطلق من نقطة

درامية يصف لنا المؤلف لقطة رومانسية عن اللحظة الحاسمة فى عقل بوش عندما قرر أنه ذاهب إلى الحرب لا محالة :

الجانب «الجوانى»

قصة الحرب على أفغانستان بوجهها «البرانى» تكاد تكون معروفة بتفاصيلها لكل من تابعها عبر الفضائيات العالمية والصحف . ولكن الجانب الأهم من هذا الكتاب - فى نظرى كقارئ ومحلل هو الجانب «الجوانى» (ولا أقول السرى بالضرورة) لهذه الحرب ، وأعنى بهذا على وجه التحديد : الخطط والأفكار والمقترحات التى وضعت أمام مجلس الحرب وكيف دار حولها الحوار والأخذ والرد ، وكيف تطورت الأفكار والخطط فى ضوء الاحتكاك بالواقع الجارى وردود الأفعال داخل الولايات المتحدة وخارجها يوما بيوم.

المؤلف معنى أكبر عناية بالشخصيات المحيطة بالرئيس بوش والتى تتدافع من حوله لدفعه فى مسارات واتجاهات بعينها أو العدول عنها .

رامسفيلد

من أبرز هذه الشخصيات «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الذى كان له أكبر الأثر فى دفع الأمور تجاه الحرب فقد كان أول من التقط الفرصة السانحة وأول من عبر عن المزاج النفسى الذى سيطر على الرئيس بوش وهو الرغبة العارمة فى انتقام فورى موجع ، عندها أكد لبوش : «أن الولايات المتحدة قد تعرضت للهجوم وأنا كوزير للدفاع سأحضر إليك فى أقرب وقت لكى نبدأ الحرب» ورد بوش على الفور وبوضوح شديد : «هذا بالضبط ما أريده».

يتعمق المؤلف فى خلفية رامسفيلد السياسية والمزاجية ، فيكشف لنا عن طموحاته السابقة فى الرئاسة الأمريكية منذ عهد الرئيس فورد حيث كان يرى فى بوش الأب منافسا قويا ينبغى إزاحته من الطريق فعمل على أن يحد من نشاطه السياسى بإسناد ادارة المخابرات المركزية إليه ، وكان يقلل من شأنه حيث قال عنه إنه رجل علاقات عامة وليس لديه سياسات ذات قيمة ولا أهداف واضحة ، ويرى أن «الذى ليس لديه هدف كبير يرتكب جريمة كبيرة ».

ورامسفيلد - فيما يصفه المؤلف - عنيد يزادد عناده عندما لا تتحقق طموحاته تحقيقا كاملا ، وكان اهتمامه فى الشهور الثمانية الأولى بوزارته «الحالية» يدور حول نقطتين ، أولهما : أن القوات المسلحة لابد من إعادة بنائها وتطوير قدراتها الدفاعية ضد الصواريخ ، وردع الإرهاب ومواجهة التهديدات الجديدة على منشآتنا الفضائية وأنظمة المعلومات .

ثانيهما : أنه كان يصف لكل من يدور فى فلكه أو يقترب منه قراءة كتاب «روبرتا وولشتتر» بعنوان «بيرل هاربر : تحذير وقرار» بل كان يهدى نسخا من هذا الكتاب إليهم ويوصيهم بالتركيز على مقدمته التى كتبها «توماس سيلنج» . وهذه نقطة على جانب من الأهمية ، فالمقدمة تحتوى على نقد شديد لتخبط الإدارة الأمريكية وأخطائها التقليدية عندما تقتصر فى تقديراتها للأخطار على الاحتمالات القريبة أو المألوفة ولا يمتد خيالها إلى الأخطار بعيدة الاحتمال .. ثم إذا بها تفاجأ بوقوع الكارثة فجأة ولا تدرى ماذا تفعل إزاءها ! . فهل كان رامسفيلد يهيئ الأذهان لوقوع كارثة قريبة على غرار كارثة بيرل هاربر!؟.. المؤلف لم يتعمق فى هذه النقطة كثيرا ، ولكنها قد تثير لدى القارئ تساؤلا حول الظروف التى لا تزال غامضة فى قضية الهجوم التى لا تزال غامضة فى قضية الهجوم على برجى التجارة العالمية والبنتاجون فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م .

رجل مفتون بذاته

يمدنا الكتاب بوقائع كثيرة تكشف عن جوانب مثيرة فى أخلاق رامسفيلد وأسلوب معاملته مع الآخرين : يقول أحد الضباط من الذين عملوا مع رامسفيلد بصفة دائمة بأنه «رجل مفتون بذاته إلى حد الجنون ولكنه يخفى هذه الحقيقية بذكاء شديد ، وأنه يضرب

خصومه بلا رحمة وفى نفس الوقت يحرص على إظهار انطباع الهدوء وضبط النفس وكأنه لم يفعل شيئا .

وقال عنه آخر : إن أى شخص يعارض رامسفيلد فهو فى خطر وقد يكون مصيره أن يمسح من الوجود» .. «إنه يطرد جنرالات كبار من مكتبه وهو يقول موبخا : «عد إلى للحديث مرة أخرى عندما تعرف عن أى شىء تتحدث» يقول المؤلف : «لعل ذلك راجع إلى ثقته بنفسه أكثر مما ينبغى وإلى شكوكه فى كفاءة مرءوسيه» .. «ويبدو فى نظر الكثير من العاملين فى البنتاجون أنه لغز كبير» .

ويقول أحدهم : «إن رامسفيلد يكره استخدام اللغة الإسلامية السائبة التى تفتقر إلى التحديد .. ويكره الأخطاء فى كتابة التقارير التى تقدم إليه .. ويريد أن تكون يده محيطة بكل شىء .. ولا يجب أن يذهب أحد جنرالاته بأى معلومة أو يقدم استشارة إلى الرئيس إلا من خلاله هو ..» .

وسوف يلحظ القارىء لهذا الكتاب أن مجمل التعليقات التى صدرت من المحيطين برامسفيلد توحى بأنه يتمتع بعقلية دكتاتور صغير .

كان رامسفيلد يبحث عن أى معلومات مفيدة فى وثائق وزارته عن أفغانستان يمكن أن تساعده فى وضع خطة ناجحة لغزوها كما وعد الرئيس ، ولكنه لم يجد ما يشفى غليله .. ولعله قد أدرك من البداية أن هذه الحرب هى بالضرورة حرب وكالة المخابرات المركزية التى تملك كل المعلومات عن أفغانستان ، وأن دور الجيش فيها دور محدود .. فهذه البلاد قد تم تدميرها من قبل خلال سنوات طويلة من الحرب ضد الاحتلال السوفييتى ثم الحرب الأهلية ، فلم يعد فيها أهداف مرموقة يمكن التصويب عليها وقصفها وإحداث فرقعات مدوية تأخذ بالألباب وتعصف بالخيال مثلما حدث فى الهجوم على برجى التجارة العالمية بنيويورك .

كذلك كان يدرك منذ البداية أن الهدف الرئيسى المعلن وهو القضاء على تنظيم القاعدة وإحضار بن لادن «حيا أو ميتا» كما يشتهى الرئيس ليس من شأن الجيوش ولا تستطيعه .. فهؤلاء الناس يعيشون فى أكواخ من الطين وفى خيام وكهوف جبلية ، وينتقلون بسهولة فى أرض يعرفهم ويعرفونها ، والباحث عنهم سيكون كالباحث عن إبرة فى كومة من القش .

خطط الغزو العراقى

أكثر من هذا أن رامسفيلد - فيما يبدو - كانت لديه خطط مبدئية لغزو العراق جاهزة لتفعيلها فى الوقت المناسب وكان يتمنى أن يقنع الرئيس بوش بأن يبدأ حربه على الإرهاب بالعراق لا بأفغانستان ، فكان دائم الضغط فى مجلس الحرب على موضوع حرب العراق أو على الأقل فتح جبهتين للحرب إحداهما فى أفغانستان والثانية فى العراق فى آن واحد ، ولطالما أدلى بتصريحات إعلامية أن الولايات المتحدة تستطيع أن تحارب فى أكثر من جبهة واحدة وتنتصر . ولكنه كان يواجه - فى مجلس الحرب - بصد متواصل من جانب بوش وتشينى وكولين باول . ومع ذلك لم ييأس فظل يلح على هذه النقطة كلما تبدت له نقاط ضعف فى خطة الغزو الأفغانية .

كان إدراكه المبكر بإمكانية فشل الحرب الأفغانية فى تحقيق أهدافها المعلنة يدفعه بعنف نحو العراق .. ومن تبريراته : أنه إذا بدا قصور فى تحقيق الأهداف العسكرية فى أفغانستان فإن إنجازات الغزوة العراقية سوف تعوض - فى الإعلام - الإخفاقات الأفغانية أو تبعدها عن مجال التركيز الإعلامى .

رامسفيلد لم يكن لديه أدنى شك فى أفكار نائبه «بول وولفويتز» الذى كرس جهده لجعل العراق هى الهدف الأول والأساسى للحرب على الإرهاب . وكان يخطط لغزو العراق سيناريوهات مفجعة ، منذ فترة من الوقت ، من هنا جاءت مقولة رامسفيلد الملحة .. فتح جبهة عسكرية أخرى - الآن وليس فيما بعد - مادامت العراق واردة بالضرورة

على أجندة الرئيس فى حربه على الإرهاب »

بوش

كان الرئيس بوش مثل أبيه مثابرا على إملاء مذكرات يومية يودع فيها أفكاره وملاحظاته .. وكانت له أيضا تجليات أفضى فيها بمكنون صدره فى لقاءات حميمة مع «بوب وودوارد» نقتبس بعضها لما له - فى نظرى - من دلالات كاشفة :

- لقد وقعت اليوم «بيرل هاربر» القرن الواحد والعشرين .

- هذه حرب لابد فيها من استئصال أعدائنا وتدميرهم .

- أنا لست عسكريا .. أعترف بذلك . ولذا لابد لى من الاعتماد على مشورة ونصائح : رامسفليد وشيلتون ومايرز وتنيت .

- إننى الآن رئيس فى حالة حرب .. والجنود والمواطنون والعالم كله يسلطون عيونهم على مستوى رد الفعل والطاقة الدافعة له والقناعة التى تدعمه.

- أما بالنسبة للفكرة الشائعة عنى عند الناس من حيث أننى خفيف الوزن .. لا أعبأ بالتفاصيل .. متحفظ .. منطو على نفسى .

وربما أيضا جاهل .. وأننى كما يقولون (التكسانى المخمور) فهذه كلها أفكار وشائعات يجب تبديدها بقوة .. وسوف يعرف العالم أننى شخص آخر .. ربما ستكون صورته شيئا لا يصدقه عقل !

وعندما تحدث بوش إلى قيادات الكونجرس فى البيت الأبيض قال لهم: «هذه ليست عملية واحدة وإنما قد تتلوها عمليات أخرى .. ولذلك سوف تستمر الحكومة فى الحرب إلى أجل غير مسمى . وقال أيضا : «ليس العدو مجموعة واحدة بعينها ولكنه حالة عقلية تبث كراهية عميقة .. إنهم يكرهون المسيحية ويكرهون اليهودية .. إنهم يكرهون كل شىء إلا أنفسهم .. ودول العالم عليها أن تختار» .

فإذا كان هذا الكلام يدل على شىء فإنما يدل على حالة عقلية انتابت بوش فى هذه المرحلة عبر عنها بعبارته المشهورة «إرهاب إسلامى» ورد فعله على هذا الإرهاب هو «حرب صليبية» . ويصف كولين باول هذه الحالة من الغضب والهياج النفسى بقوله : «إن الرئيس قد مل العبارات الخطابية .. إنه يريد أن يقتل شخصا ما !!» .

چورج تنيت

كان يتصرف مدركا أن الغزوة الأفغانية لعبته هو قبل أى شخص آخر. فهو يملك كل المعلومات وكل الملفات ويعرف طريقه بوضوح . ومن ثم فقد كان دائب السعى لاستكمال عدته صلاحيات جديدة تطلق يده للعمل دون خوف من معقبات ، وأموال يرشو بها الحلفاء ، ودعم سياسى ودبلوماسى وعسكرى من الرئيس وبطانته .

كان يريد من الرئيس على وجه التحديد أن يصدر قرارات تحله من كل قيد قانونى وأخلاقى تعوق رجاله عن الاغتيال والبطش والتنكيل بالأعداء .. وكان يريد تسهيلات فى دول الجوار لتحريك رجاله وقواته الخاصة فى أراضيها على الأخص مطارات لطائرات «بريديتور» الموجهة بدون طيارين .. وقد منحه الرئيس كل ما يحتاج إليه بسخاء وبلا أدنى تحفظ .. وقام بتكليف أجهزة إدارته بالتفاوض مع دول الجوار خصوصا باكستان وأوزبكستان .

حروب سرية

فى جلسة من جلسات مجلس الحرب جاء «تنيت» ليعرض إنجازاته فى مجال الحرب على الإرهاب خارج أفغانستان فتبين من حديثه أنه مع رجاله يقودون حربا سرية فى ثمانين دولة حول العالم فى محاولة لاختراق أجهزة مخابرات هذه الدول وأنظمتها الأمنية . وهنا صاح بوش : جهد رائع يا «تينت» .

واستكمالا لدور المخابرات الأمريكية فى تتبع المشتبه فى علاقتهم بتنظيم القاعدة أشار «تينت» إلى إجراء اتصالات مكثفة بدول مهمة مثل مصر والأردن وبلاد أخرى فى إفريقيا، ووصف هذه البلاد بأنها لا تراعى عادة



هل يساعد الأوروبيون الامريكين في العراق أم يتفرجون عليها بشماتة

الحريات المدنية ولا تلتزم بالإجراءات القانونية ومن ثم تجد طلبات الـ سى أى ايه استجابة فورية وترحيبا من السلطات فى هذه البلاد .

اجتمع «تينت» مع رجاله ليشرح لهم مهمتهم الجديدة فى أفغانستان فقال : «أمامكم مهمة واحدة أساسية .. انطلقوا للبحث عن أعضاء القاعدة واقتلوهم .. إننا سندمرهم .. أحضروا بن لادن .. أريد أن أرى رأسه فى صندوق لأطلع الرئيس عليها .. لقد حصلنا على صلاحيات جديدة بلا حدود للقتل والاغتيال» !

أقرأ وكأنى أمام مشهد من أفلام آل كابونى .

أما فى أفغانستان فإن جهود جورج تينت تحتاج إلى وقفة قصيرة . حيث نجده يعرض سياسته أمام مجلس الحرب بصراحة لا موارية فيها .. إنه يعتمد على التناقضات التى تفرزها التركيبة العرقية وتاريخ الصراع القبلى ، للسعى نحو تفكيك الجبهة الداخلية والقضاء على المقاومة .. ويمتد اهتمامه إلى الحرب الدعائية فهو صاحب الخط الدعائى الذى تبنته وسائل الإعلام الأمريكية داخل أفغانستان . ذلك الخط الذى يصور الغزو الأمريكى على أنه صراع دموى بين الأفغان من جهة والعرب الدخلاء من جهة أخرى .

وأن ما تفعله أمريكا هو المساعدة فى تحرير أفغانستان من ديكتاتورية طالبان وتنظيم القاعدة .. يقول «تينت»: «يجب أن ينسى الأفغان أن العرب قد جاءوا إليهم لتحريرهم من الاحتلال السوفييتى .. فالعرب هم الغزاة وهم الأعداء الغرباء» .. ويضيف «لقد اتصلنا بآلاف القبائل وكانت رسالتنا إليهم أن أفغانستان يجب أن تنهض ضد

العرب .. لقد خان الملا عمر ووقف مع الجانب الخطأ» ، ويعود «تينت» مرة أخرى ليؤكد في حديثه «إننا نحتاج إلى تصوير هؤلاء العرب على أنهم هم الدخلاء والغرباء .. إننا نرصدهم ونرصد مواقعهم وأجهزتهم ونسعى لتدمير بنيتهم الأساسية .. نريد من الأفغان أن يستهدفوا العرب ويقتلوهم .. إنهم هم المشكلة ، وليس الأمريكيين» .

وقد أبرز تينت نقطتين مهمتين في الدعاية الجديدة لتسويقها في العالم: إن هذه ليست حربا ضد الإسلام ، ولا ضد الأفغان .. وأكد للرئيس بوش أن لديه معلقين مسلمين في كل مكان مكلفون بالقيام بهذه المهمة الدعائية لحساب الولايات المتحدة !!

أضاف رامسفيلد – في هذه الجلسة – قوله : «إننا نريد مخابرات نشطة تقوم بتنفيذ سياستنا في التفريق بين طالبان والقاعدة ومحاولة صرف طالبان عن الالتفاف حول الملا عمر» .

«أما الرئيس بوش فقد فاجأ الجميع باقتراحه ضرورة أن تكون أولى قذائفنا في أفغانستان من الطعام والدواء للشعب الجائع .. لابد من الأخذ في الاعتبار الجانب الأخلاقي في الحرب .. هناك نظام أخلاقي أنزله الرب ولا ينبغي أن نتغاضى عنه» !

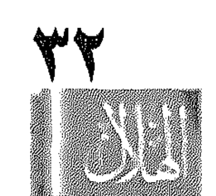
ويعلق المؤلف على هذا بقوله : «لقد وافق الجميع على هذا الاقتراح حتى رامفسيلد نفسه صاحب القلب المتحجر» .

سوف يلاحظ القارئ أن هذا الكلام كله إنما هو خطاب إعلامي لتحسين صورة الغزو الأمريكي في أمريكا وخارجها .. حتى تسمية الغزوة الأفغانية بأنها عملية «العدالة المطلقة» جرى تعديلها بسبب اعتراض علماءالإسلام عليها باعتبار– أن العدالة المطلقة من اختصاص الله وحده ولا يستطيعها أحد سواه .. ومن ثم اقترح رامسفيلد تسميتها ENDURING FREEDOM .

استجابة مثيرة

كان كولين باول مكلفا بالاتصال بحكومات آسيا الوسطى وباكستان بصفة خاصة إلى جانب دول أخرى ونجد في كلام باول الصريح في مجلس الحرب نقاطا تستحق التأمل فقد كشف عن مدى الإذعان بل التهافت الذى ابدته السلطات الحاكمة في هذه البلاد إلى حد يصعب فهمه أو تصديقه .. قال: «إن رئيس طاجيكستان بدون أي شروط ولا تحفظات وبلا ثمن قدم للأمريكيين كل ما طلبوه ، ولم تكن لديه سوى رغبة واحدة هي أن يبقى الأمر سرا وأن تكون الاتصالات معه هو بصفة شخصية . أما باكستان وهي الأكثر أهمية في الحرب الأفغانية فقد كانت استجابتها مثيرة لذهول كولين باول نفسه . فقد كانت العلاقات الأمريكية الباكستانية متوترة منذ إعلان امريكا مقاطعتها لباكستان في أعقاب إعلانها عن تجاربها النووية . وكان باول يرى أن أي عمل ضد أفغانستان أو القاعدة لن يكتب له النجاح إلا بمساعدة باكستان .

أعد أرميتاج مساعد وزير الخارجية قائمة ناقشها مع باول تشتمل على سبعة مطالب ، منها مطلب بعينه كان باول وارميتاج يعلمان أنه لا يمكن تنفيذه في الولايات المتحدة نفسها ، ذلك هو منع كل تعبير يشتم منه دعم للإرهاب ضد الولايات المتحدة، قدم أرميتاج هذه المطالب مدونة في ورقة واحدة إلى الجنرال محمود أحمد مدير المخابرات الباكستانية وقال له : «هذه المطالب ليست للمناقشة أو التفاوض» ثم تبع ذلك مكالمة من كولين باول إلى الرئيس برويز مشرف، قال له: «نحن في حاجة إلى من يقف بجانبنا ويحارب معنا» .. ولدهشة باول سمع صوت مشرف على الطرف الآخر من الخط يقول له بلا تردد : «إن باكستان سوف تساند الولايات المتحدة في كل هذه المطالب السبعة» . ولكي يثبت جديته طرد محمود أحمد من إدارة مخابراته ، فهو معروف بعلاقاته الحميمة مع طالبان وكانت له تحفظات على الحرب الأمريكية أشار



إليها فى كتاب نشر له فيما بعد .

توجه مشرف إلى البيت الأبيض لزيارة العتبات المقدسة وعندما حظى بلقاء الرئيس بوش أبدى له مخاوفه العميقة أن تتخلى عنه الولايات المتحدة فى النهاية فنظر إليه الرئيس فى عينيه وقال له «أخبر الشعب الباكستانى أن رئيس الولايات المتحدة لن يتخلى عنكم.

وكان بوش صادقا فيما وعد فهو لا يستغنى عن باكستان نفسها ولكنه يستطيع أن يستغنى عن مشرف ويستبدله بغيره عند الضرورة .. ثم إن الكلام المعلن لا يدل على حقيقة المكنون فى الضمائر .. فالإعلام الأمريكى يثنى مثلا على الديكتاتور الأوزبكستانى فى العلن لأنه سمح بمنح قواعد بلاده الجوية للأمريكيين ، ولكن تينت فى مجلس الحرب يلعنه ويصفه بأنه «متسول سخيف» ، وذلك لأنه اشترط فقط بعض التسهيلات المالية والمساعدات لبلاده .

فى مجلس الحرب والقادة بمعزل عن أعين المتطفلين وفى لحظات الانطلاقات العفوية تنكشف بعض مكنونات الصدور ، وتتضح حقائق لاتجد طريقها عادة إلى العلن ، خصوصا عندما يصفون الشعوب الأخرى أو الشخصيات التى تعمل معهم .. إنهم حلفاء وأصدقاء فقط أمام الكاميرات أما فيما بينهم وبين أنفسهم فشىء آخر : إسلام كريموف رئيس أوزبكستان وصفه تينت بأنه متسول سخيف ، وسخر كولين باول من الأوزبكيين لأنهم يطلبون أكثر مما يستحقون : « اتفاقية دفاع مشترك وتعاون ودعم اقتصادى وحب ، ويريدون برهانا على دوام هذا الحب !».

حامد قرظاى هو رجل المخابرات الأمريكية البشتونى ، وهو كما وصفه تينت «مفيد» لأنه لديه مهارات فى العلاقات العامة وأنه يستطيع إقامة علاقات مع الأشخاص الآخرين بسهولة . أما قائد قوات التحالف الشمالية فاسمه عندهم «فهيم الزئبق» لقدرته على المراوغة وهو شديد الطمع فى المال والمناصب .

وعن الشعب الأفغانى والسخرية بثقافته يقول أحدهم :

« أنت لاتستطيع شراء الأفغانى ولكنك تستأجره فقط لبعض الوقت حتى يأتى شخص آخر ليدفع ثمنا أكثر! .. إنه عالم لايعرف الولاء الدائم ولا نصف الدائم .. ولوردات الحرب الأفغان وراء أمرين : عندما ينضب المال عندك أو عندما يتخلى عنك النصر» .

وقف العمليات فى رمضان !

وعندما رفع بعض القادة العرب التماسا إلى البيت الأبيض لوقف العمليات العسكرية فى شهر رمضان الكريم قال بوش فى مجلس حربه : « علينا أن نجد حلا لحكاية رمضان هذه» .. واقترح ارسال قوافل اغاثة وحث طالبان على أن يسمحوا بمرورها إلى الناس .. فإذا رفضوا يكونوا هم الذين انتهكوا شعائر الإسلام ولسنا نحن» . وسرعان ما جاءه التعزيز من وولويفتز على لسان الجنرال فرانكس القابع فى قطر ، والذى التمس النصيحة من أصدقائه العرب فى المنطقة فأفتوا له بجواز الحرب فى رمضان قالوا : إن الحرب لم تنقطع فى شهر رمضان خلال سبعة وثلاثين عاما من النصف الثانى من القرن العشرين بالمنطقة ، وكان القتال معظمه بين عرب وعرب آخرين ، وأمسك بوش على الفور بالهاتف واتصل بولى العهد السعودى فقال له « إن أمريكا لن تتوقف عن الحرب فى رمضان».

كولين باول والملف العراقى

رحلت قوات طالبان عن كابول واختفت فى الجبال ودخلت قوات التحالف الشمالى والقوات الأمريكية الخاصة إلى العاصمة .. هنا شعر الأمريكيون أن أفغانستان لم يعد فيها أهداف عسكرية ذات قيمة كبيرة وأن المرحلة التالية بما تشتمل عليه من عمليات مطاردة لفلول طالبان والقاعدة وتأمين كابول كلها لاتنطوى على مايثير شهية الإعلام ولا تشكل انتصارا بل قد تأتى بهزائم وانتكاسات

ينبغى تحويل الأنظار عنها .. ومن ثم برز ملف العراق بقوة وإلحاح .. وحانت فرصة رامسفيلد ونائبه وولفويتز مهندس السيناريو العراقى .

كان البعض يريد من بوش أن يتريث قليلا حتى تستقر الأوضاع فى أفغانستان ، وتتبين تداعيات الغزو وعلى الأقل تحقيق وعد الرئيس وأمنيته فى إحضار بن لادن حيا أو ميتا .. من هؤلاء كان جورج تينت وكولين باول .. ولكن الرئيس لم يلتفت إلى نصائح هؤلاء فقد كان مدفوعا بعقيدة غريزية أنه يحقق رسالة هبطت عليه من السماء ، ويؤمن بأنه رجل القدر الذى بعثه الرب لتغيير العالم بقوة السلاح !

ولكن كولين باول كان أكثر الجميع استمساكا بموقفه المعارض لحرب العراق ، ويرى أن هذه الحرب سوف تجلب على أمريكا مشاكل لا قبل لها بها، ورأى أنصار الحرب ضرورة إبعاده عن أضواء المسرح فى مجلس الحرب فاخترعوا له مهمة دبلوماسية يعلمون أنها محكوم عليها بالفشل مسبقا : أن يذهب إلى شارون لاقناعه بتهدئه الأوضاع فى فلسطين والانسحاب من أراضى السلطة الفلسطينية التى اقتحمها مؤخرا .

وبذلك تتهيأ الأجواء لغزو العراق .. وفى الوقت نصحه كل من ديك تشينى ورامسفيلد أن يتجاهل عرفات ولا يلتقى به .. لم يقتنع باول بهذه النصيحة فشارون وعرفات هما طرفا الصراع وأى تهدئة جادة لايمكن أن تأتى بدون عرفات .. فلما التقى بعرفات قامت القيامة فى الإدارة الأمريكية وأصبح الجميع ضده .. وسخر منه شارون وعاد الرجل بخفى حنين ، وأصبح منبوذا .. لايجد الفرصة للتعبير عن رأيه فى الموضوع العراقى بمجلس الحرب .. ولم يجد مفرا من أن يطلب مقابلة خاصة مع الرئيس على انفراد لاقناعه بوجهة نظره التى تتلخص فى النقاط التالية :

سوف يتزعزع الاستقرار فى الشرق الأوسط .. وستكون الأنظمة الصديقة فى مصر والسعودية والأردن فى حرج شديد وستتعرض للانهيار ، وسيزداد الغضب والإحباط ضد الأمريكيين .. وستغير الحرب كل شىء فى الشرق الأوسط .. وستقضى على جهود التعاون فى محاربة الإرهاب ، وستعوق كل العلاقات السياسية والدبلوماسية والاستخباراتية والاقتصادية .. وستكون تكاليف احتلال العراق بعد النصر العسكرى باهظة جدا ..

وسيصل التأثير السلبى على الاقتصاد إلى الداخل الأمريكى .

سأل باول الرئيس مستنكرا : كيف ستكون صورة أمريكا فى العالم وهى تنصب جنرالا أمريكيا ليحكم دولة عربية – مكارثر فى بغداد!؟

والنجاح المطلوب من هذه الحرب ، ما هو معياره ؟ من السهل أن تقول إننا قادرون عليه عسكريا ، ولكنك لن تصل إلي نجاح حقيقى فأزمة الشرق الأوسط لاتزال قائمة وملحة ، ويتطلع العرب والمسلمون إلى حل سلمى لها .. وقد يستخدم صدام أسلحة الدمار الشامل ! .. إننا لم نعثر بعد على بن لادن ولا الملا عمر فى أفغانستان .. وعند صدام كل الحيل والمكر للاختفاء فلا نستطيع العثور عليه !

كلام حكيم لرجل مخلص لبلاده وهو وزير خارجيتها ومن خلفه خبرة عسكرية فى الجيش لمدة خمسة وثلاثين سنة وقد شارك فى إدارة حرب الخليج الثانية ، وكان مستشارا سابقا فى مجلس الأمن القومى ولكن من يقرأ ومن يسمع !! الخطأ القاتل الذى وقع فيه كولين باول يتجلى فى واقعتين :

أولا : أنه بحسن نية صدق أن إدارته تريد حقا حلا سلميا للقضية الفلسطينية .

والثانى أنه كان يؤمن بمصداقية أجهزة مخابرات بلاده التى «استغفلته» عندما قدمت إليه تقريرا مزودا بالصور الدالة على امتلاك العراق أسلحة دمار شامل فلما عرضه على مجلس الأمن أثار سخرية العالم عليه .. وثبت فيما بعد بالدليل العملى أنه لا توجد أسلحة دمار شامل بالعراق وأن التقرير كان مزيفا .

فى الواقعة الأولى صدق ما أعلنه بوش بنفسه أمام العالم فى كلام صريح موجه إلى شارون عندما قال : «على الإسرائيليين أن ينسحبوا فورا .. وعندما أقول انسحبوا فورا فإننى أعنى ما أقول..!»

وفى الواقعة الثانية صدق مخابرات بلاده وكأنه لا يعلم أنه جهاز صناعته الكذب والتلفيق .. ويبدو أن منافسى كولين باول من أنصار غزو العراق وتركيع العرب قد أوغروا صدر بوش عليه وأرادوا أن يدفعوه إلى الانتحار السياسى .

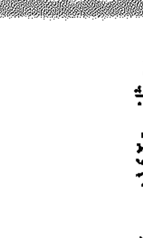
بوش فى آخر لقاء

يكشف «وودوارد» عن حقيقة مشاعر الرئيس بوش تجاه كولين باول فى حديث طويل معه لم يذكره بخير ولم ينسب إليه ميزة أو إنجازا إلا فى واقعة واحدة وهى نجاحه فى باكستان .. سأله وودوارد عن إسهامات كولين باول فأجابه بكلام كثير ملتو عجيب قال : «باول دبلوماسى .. ومن الطبيعى أن يكون لدى الرئيس دبلوماسى ما ..!» «ثم انتقل إلى الحديث عن نفسه فقال : «أنا أعتبر نفسى دبلوماسيا .. ولكن لا يبدو أن أحدا يلحظ هذا .. لا أدرى لم؟!» وأخذ بوش يتراوح فى حديث مرتبك غامض لا معنى له قال : «أنا أدعى أننى دبلوماسى .. ولكن مهما يكن الأمر فإن «باول» شخص دبلوماسى ولديه خبرة فى الحرب .. دعنى أتذكر له شيئا .. نعم لقد وجدت شيئا .. إنه كان ممتازا مع مشرف .. فبمفرده استطاع أن يجتذبه إلى قافلتنا .. نعم كان ممتازا فى هذه المهمة .. كذلك كان مهتما بفكرة أن يؤلف تحالفا فى حرب أفغانستان .. ثم تحول بوش سريعا لينهى الكلام عن باول فاقترح أن يذهب مع المؤلف إلى نزهة بالمزرعة ، وقفز إلى سيارته الخاصة وتبعه كلبه «بارنى» إلى المقعد الخلفي ليستأنف الحديث فى الهواء الطلق .

يقول «وودوارد» : لقد كرر بوش خلال المقابلة الحديث عن غريزته أو ردود فعله الغريزية اثنتى عشرة مرة .. وكرر عبارة «أنا لا أتبع الإرشادات المدونة فى الكتب إنما أتصرف وفق دوافعى الجوانية» ، وكان من الواضح لى أنه مفتون بمركزه كرئيس وسياسى وقائد عام للقوات المسلحة .. وكثيرا ما كان يكرر عبارة «أنا كرئيس» أو «ينبغى على الرئيس .. كذا» . كذلك يتضح من كلامه أن له رؤية خاصة تنطوى على طموحات قدرية فى إعادة تنظيم العالم واستخدام الضربات الاستباقية إذا لزم الأمر ، وينحو إلى الانفراد بالعمل لتقليل معاناة البشر وإقرار السلام فى العالم على حد زعمه. وهو يفعل كل هذا مدفوعا بإيمان بغريزته المقدسة فغرائزه هى دينه الثانى .

يتحدث بوش كثيرا عن خصائصه كرئيس موهوب من نوع فريد فيقول : «أنا نوع من الناس يحب أن يتأكد أن كل المخاطر خصوصا فى الحرب قد جرى تقديرها بدقة ، وينسى أحيانا ما قاله آنفا فيتناقض مع نفسه دون أن يدرى .. قال مرة : «إن العالم يرقبنا عن كثب ولكنه سوف يذهل بالنتائج التى سنحققها فى العراق» . ثم ينقض هذا فى موقف آخر حيث يقول : «أنا لم أطلع بعد على مقترح لحظة ناجحة لغزو العراق .. وعلى أن أكون صبورا ودقيقا» .

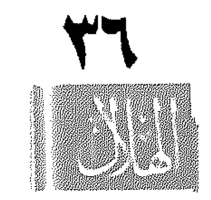
بدأ غزو العراق فى ١٩ مارس ٢٠٠٣ وسرعان ما سقطت بغداد وانهار النظام العراقى ، وأعلن بوش نهاية العمليات العسكرية وتم احتلال العراق ، وكان هذا أقصى ما تستطيعه الآلة العسكرية الأمريكية .. ثم بدأت تداعيات الغزو تتوالى : فظهرت مقاومة عراقية شرسة ، وأخذت تتعاظم الخسائر الأمريكية فى الأرواح والمعدات ، وأدركت أمريكا أنها فى مأزق كبير ، فإذا بها تعود إلى الأمم المتحدة التى نبذتها من قبل واحتقرتها .. واضطرت أمريكا إلى استخدام لغة جديدة غير التهديد والتحقير ، وأصبحت تستجدى المساعدة من الدول الأخرى ، أسهم الرئيس تتدنى فى الرأى العام الأمريكي ويقف رامسفيلد وولفويتز وتشينى فى قفص الاتهام . ■



حقيقة المشروع الأمريكى عن «الشرق الأوسط الكبير»..!

بقلم
د. محمد عبد الشفيع عيسى

أثار المشروع الأمريكى عما أسموه «الشرق الأوسط الكبير» جدلا واسعا على المستويين الرسمى والشعبى فى الوطن العربى. ونسهم فى هذا الجدل بمقالنا الحالى اعتمادا على النص المترجم إلى العربية والمنشور بجريدة «الحياة» اللندنية يوم ١٣-٢-٢٠٠٤ . ونقدم فى هذا المقال قراءة فى هذا النص، وليست قراءة كاملة له. وهى قراءة «نقدية» وليست قراءة وصفية أو حيادية بالمعني التقليدى، علما بأنه لايوجد «حياد» أصلا فى الحياة الثقافية لأى مجتمع. فكل قراءة تعبر فى الحقيقة عن «موقف معين لصاحبها، مع وجوب أن تتوافر فى تلك القراءة الاشتراطات العلمية والموضوعية الواجبة. ونلخص قراءتنا على هذا النحو فى الحقائق التالية:



أولا: إن المشروع موجه بصورة دقيقة ومحددة إلى دول الوطن العربى بالذات، رغم الإشارات العديدة إلى ما أسموه «الشرق الأوسط الكبير» والذي عرفوه بأنه يشمل البلدان العربية بالإضافة إلى باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا وإسرائيل.

ولم تتوجه نصوص المشروع بشىء إلى «إسرائيل» ولم تطالبها بأى استحقاق فى أى مجال من المجالات الخاصة بما أسموه النواقص الثلاثة فى دول المنطقة، وهى: الحرية، والمعرفة، وتمكين النساء،

ويذكر المشروع بوضوح هنا - استنادا إلى تقرير مؤسسة «فريدوم هاوس» الأمريكية للعام ٢٠٠٣ - أن (إسرائيل البلد الوحيد فى الشرق الأوسط الكبير الذى صنف بأنه «حر»).

ولعلنا نكتفى بالإشارة إلى أن إسرائيل - بغض النظر عن الجدل حول شرعية وجودها عن طريق الاستعمار الصهيونى لفلسطين أصلا - تقوم حاليا باستعمار استيطانى واحتلالى لبقية فلسطين التاريخية، بالإضافة إلى الممارسات السياسية ذات الطابع العنصرى الصريح ضد (الأقلية) العربية فى إسرائيل سعيا إلى تكريس إسرائيل كدولة (يهودية) - فضلا عن انعكاسات التفرقة العنصرية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية لعرب ١٩٤٨ .. كل ذلك بالإضافة إلى ما يشوب النموذج الإسرائيلى للممارسة السياسية من عيوب جوهرية ناجمة عن عدم التوازن بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وعن إفساح المجال باستمرار أمام صعود أكثر التيارات عنصرية وتحكمها فى عملية اتخاذ القرار السياسى عبر آليات (توزيع الأدوار) و(سياسات المساومة والتوفيق).

ونعود إلى الإطار الجغرافى للشرق الأوسط (الكبير) لنرى أن إضافة الدول الأربع: باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا (وجميعها دول إسلامية) لايغير من الأمر شيئا: وهو أن المشروع يوجه خطابه الفكرى والسياسى إلى الدول العربية دون غيرها، وهو ما يتضح من جميع الإشارات الصريحة للواقع الراهن، واستحقاقات التغيير، فى نص المشروع.

التدخل الأجنبى بشكل أكبر

ويدعونا هذا إلى التساؤل عن سر تخصيص مثل هذا المشروع للبلدان العربية دون غيرها وفى هذا الظرف التاريخى بالذات .. أهو التمهيد لتعميق التدخل الأجنبى - بصورة أشد مما هو متحقق الآن..! - في الشئون الداخلية للوطن العربى، ليتحول إلى اختراق وتغلغل نظامى ومباشر، وعن طريق حمل أوروبا لتصير شريكا أمريكيا مفضلا فى ذلك..؟!

ثانيا: يقرّ الكثير من المثقفين العرب - ونحن منهم - بأن الوطن العربى قد أفلتت منه فرصة تاريخية كبرى لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية عبر نصف القرن الماضى، وهو مايتضح من تتبع جميع مؤشرات هذه التنمية.

ويرى تيار ثقافى رئيسى - ونحن منه أيضا - أن هذا الواقع المأساوى وليد نوعين من العوامل: أولهما العوامل الخارجية، وخاصة إقامة إسرائيل حيث تسببت على الأقل فى أمرين:

١ - إضفاء الطابع العسكرى على الحياة السياسية العربية، إذ أدى الصراع العربى الإسرائيلى ومضاعفاته المستمرة، بصورة مباشرة وغير مباشرة، إلى تعميق الاعتماد على المؤسسة العسكرية كآلية رئيسية محركة لبناء النظم السياسية .. وأدى ذلك إلى المساهمة فى التضييق على الهامش

الديمقراطى الضيق أصلا، بفعل عوامل بنيوية سابقة من العهد الاستعمارى وما قبله.

٢ - تزايد الإنفاق على التسلح، أو محاولة التسلح، فى المجالات التقليدية وفوق التقليدية، بالإضافة إلى العمل على اقتناء بعض الرموز التسليحية التى قد توحى بتقريب الشقة فى ميدان الردع غير التقليدى مع إسرائيل.

وقد أدت «العسكرة» و«نفقات التسلح» إلى التأثير سلبا على مسيرة التنمية العربية، انطلاقا من الممارسة الإسرائيلية فى نهاية الأمر وإلى حد كبير.

أما النوع الثانى من العوامل المحددة للتنمية فهى العوامل الداخلية والتى تتمثل فى الاختلالات الجوهرية للأبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية فى الوطن العربى، والتى تترجم حالة (الضعف والانقطاع الحضارى) التى أعقبت مرحلة (الازدهار الحضارى العربى الإسلامى).

التفاوت الاجتماعى والطبقى

وتتجلى أبرز اختلالات البنية الاقتصادية فى ضعف وتخلخل الهيكل الاقتصادى وانعدام العدالة فى توزيع الثروات والدخول. أما اختلال البنية الاجتماعية فيتجسد فى التفاوت الاجتماعى والطبقى الواسع. وأما البنية السياسية فتعانى من احتكار السلطة بيد فئات اجتماعية تستند إلى مزيج من أسانيد تقليدية للشرعية كتملك الثروة العقارية والمالية أو السيطرة على أجهزة العنف أو الاعتماد على العصبية العائلية والقبلية أو (المناطقية)، أو توجيه الوعى الاجتماعى والثقافى عبر قنوات معينة.

وتعود هذه الاختلالات بدورها إلى أسباب أعمق منها، ترتد بعيدا فى التاريخ.

ثالثا: إن (مشروع الشرق الأوسط الكبير) يتذرع، شأنه شأن المبادرة السابقة لما سمى (بالشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط) - بالتقرير العربى للتنمية الإنسانية والصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى عامى ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣.

وهذه قصة أخرى يطول الحديث فيها. فقد أخذ يصدر هذا التقرير منذ عامين، وأسهم فى إعداد أوراقه الأولية عدد من أفضل الباحثين العرب. ولكن يؤخذ على هذا التقرير عيبان رئيسيان:

١ - أنه أرجع مظاهر التخلف العربى إلى العلل الداخلية وأهمل أو استبعد بشكل رئيسى العلل الخارجية. وطالما نبّه بعض الكتاب إلى هذا العيب الجوهرى منذ اليوم الأول لصدور ذلك التقرير ومن بينهم جلال أمين ونوال السعداوى، ولكن القائمين على أمر هذا التقرير لم يقدروا هذا الجانب حق قدره، وإن اعترفوا ببعض الأخطاء المنهجية مثل الاعتماد المفرط على تقارير المؤسسة الأمريكية (بيت الحرية).

وقد أدى هذا العيب إلى خلل جوهرى تال فى بنية التقرير، وتوجهاته البحثية، وأدواته التحليلية - مما أتاح لصقور الإدارة الأمريكية الحالية والذين يسمون (المحافظين الجدد المجانين) الاعتماد على تعميماته الجارفة لإدانة مسيرة التطور

العربى بمجملها، وليس مجرد إدانة نماذج الممارسة القائمة.

٢ - إن التقرير العربى المذكور لما يسمى بالتنمية (الإنسانية..!) قد تراجع عن بعض الإنجاز الفكرى لتقارير التنمية (البشرية) التى يصدرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائى لأعضاء الأمم المتحدة ككل منذ أكثر من عشر سنوات. فقد كانت هذه التقارير الأخيرة تقترب نسبيا من الحقيقة فى العالم (الفقير) عن طريق التركيز على مشكلة (الفقر) بمظاهرها المختلفة، وبيان المظاهر المختلفة لهذه المشكلة ومن بينها سوء توزيع الأصول - أصول الثروة كالأراضى - والدعوة إلى شعار (مهاجمة الفقر) أو (تخفيف حدة الفقر) كهدف رئيسى للعمل الاجتماعى.

وصحيح أننا نرى أن تقارير التنمية البشرية نفسها لم تصب كبد الحقيقة، فلم تعط الاهتمام المناسب لقضية الاختلال الهيكلي وبالتالى ضرورة التحول الهيكلى وإعادة توزيع الثروة والدخل فى البلدان الفقيرة، ولكن تلك التقارير كانت أقرب إلى الواقع من ذلك التقرير الجديد الذى أخذ يعطى نفسه سمتاً لامعاً بالإشارة البراقة إلى صفة (الإنسانية) ، كما أخذ يقفز فوق الواقع قفزاً ويحرق المراحل، بالوصول مباشرة إلى محاولة تطبيق المقاييس الأمريكية للحرية ومجتمع المعرفة وتمكين النساء..!

وياليت المشروع الأمريكى عن (الشرق الأوسط الكبير) قد أخذ ذلك التقرير (الإنسانى) كما هو، بل إنه أخذ منه ما يناسبه، وطرح جانباً أو قلل من أهمية مالا يتفق مع توجهاته الفكرية والسياسية، وبطريقة انتقائية معيبة.

الديمقراطية والحكم الصالح

رابعاً : إن المشروع الأمريكى عن (الشرق الأوسط الكبير)، اتفاقاً منه مع معطيات تقرير (التنمية الإنسانية العربية..!) لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى، حدد ثلاث أولويات هى: تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح، وبناء مجتمع معرفى، وتوسيع الفرص الاقتصادية .

وبداية، فليس من الواضح كيف تسهم أمريكا وأوروبا فى تحقيق هذه الأولويات فى الدول العربية..؟ هل بالضغط السياسى؟ أو بالأدوات العسكرية؟ أم بالإقناع؟ وقد فتشنا فى النص عن شئ من ذلك فلم نجد سوى أداة رئيسية - هى تقديم التمويل اللازم لتشجيع العمل بسياسات معينة فى مجال الأولويات الثلاث المذكورة، وأن يتم ذلك بصورة مباشرة من خلال الدعم المالى المقدم للجمعيات الأهلية والمنظمات أو المؤسسات غير الحكومية أو لبعض أجهزة الدولة إن لزم الأمر.. وفى التحليل النهائى، فإن ربط المعونة بالأولويات الأمريكية هى الأداة المقترحة لتحقيق ما يسمونه بالإصلاحات. وهكذا تعطى سياسة المعونة الانتقائية والمشروطة، الأولوية كأداة للسياسة الخارجية الأمريكية، مع السعى إلى جعل الدول العربية عامة فاعلاً مشاركاً مباشراً فى الشئون الداخلية للدول العربية، عن طريق (شراكة) مفروضة مع حكوماتها أو عليها.. أى أن يصبح العامل الخارجى، فاعلاً داخلياً، عن طريق الاختراق الخشن أو التغلغل الناعم سيان..!

وهكذا يمكن أن نجد - فى حال تطبيق المشروع الأمريكى - مزيدا من التداخل بين الأطراف الخارجية - الأمريكية والأوروبية - وجمعيات حقوق الإنسان ودعم أو تنمية الديمقراطية والجمعيات النسائية وهيئات إقراض الشباب والمنظمات النقابية والمهنية فى البلاد العربية .

هذا كله من حيث الشكل أو الأسلوب.

أما من حيث المضمون والاتجاه فإن الإصلاحات ذات الأولوية فى المشروع الأمريكى لا تركز على القضايا الجوهرية التى تتبناها بعض القوى الوطنية العربية مثل: الإصلاح الدستورى والقضاء على جذور الفساد وتأسيس ثقافة وطنية حقيقية ومواجهة الخلل فى توزيع الثروات والدخول والتنمية الجذرية للقطاعات الصناعية والعلمية والتكنولوجية للاقتصاد الوطنى - لا ليس هذا كله مما يرد فى نصوص المشروع الأمريكى، وإنما نجد توصيات مكررة، تم مسخها من خلال الممارسات المعيبة للتمويل الأجنبى والمعونة الخارجية فى الفترات الماضية، فاستنفدت الغرض منها .

بعض هذه التوصيات المكررة الممسوخة يركز على جوانب عامة، مثل الدعوة إلى دعم قدرات القطاع الخاص (دون إشارة إلى الدور الحاسم للدولة ووظيفتها العامة أو الاجتماعية)، وإلى رفع الحواجز على التعاملات المالية بين الدول (ونرى أن عدم وجود الضوابط على حركة رأس المال الأجنبى كان من بين عوامل الأزمة الآسيوية لعام ١٩٩٧) ودعم إطلاق حرية الخدمات المالية (ونرى أن فى اتفاقات الجات مايكفى وزيادة) وتشجيع إقامة المناطق الحرة..! وتشجيع الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية مع اهتمام خاص باتفاقية الملكية الفكرية واتفاقية المشتريات الحكومية (ومن المعروف أن هاتين الاتفاقيتين تعملان فى خدمة الشركات الأمريكية عابرة الجنسيات فى المقام الأول وخاصة شركات الأدوية ومؤسسات الاستشارة الهندسية ومقاولات الإعمار).

والبعض الآخر من التوصيات يركز على جوانب جزئية وكثير منها مطبق بالفعل وليس فيه من جديد أو من مفيد فى كثير من الأحيان، مثل: رعاية أمريكا وأوروبا لبرامج تبادل زيارات أعضاء البرلمانات، وتعزيز لجان مراقبة الانتخابات، وتدريب النساء على المهارات الانتخابية، والمساعدة القانونية والقضائية، وبرامج تبادل زيارات الصحفيين وتدريبهم وتشجيع جمعيات حقوق الإنسان وزيادة التمويل (الأجنبى) المباشر للمنظمات غير الحكومية من قبل مؤسسات مثل (مؤسسة الدعم الوطنى) .

خامساً : من المعروف أنه بانهيار الاتحاد السوفييتى أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى (الكاسب الأكبر)، وكان هناك كاسبون بدرجات متفاوتة فى شرق آسيا وربما فى غيرها، ولكن (الخاسر الأعظم) كان هو العالم الإسلامى والوطن العربى والإقليم العربى - الإفريقى. وتعود جردة المكاسب والخسائر إلى جملة أسباب تاريخية

معقدة، على الصعيدين الداخلى والخارجى.

هذا كله معروف. ولكن التسليم بهذه الحقيقة شئ، واتخاذها مطية للتوصل إلى استنتاجات تحطم ثقة الأمة فى نفسها شئ آخر .

المرتبة الأولى عالميا

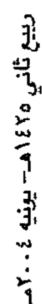
لهذا لم نفهم كيف ولماذا استنتج (التقرير العربى للتنمية الإنسانية) أن سجل الوطن العربى هو الأسوأ على المستوى العالمى (ويضيفون أحياناً : باستثناء إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى) - وذلك فيما يتعلق باستخدام الإنترنت مثلا أو مشاركة النساء فى المقاعد البرلمانية. وكما يقتبس المشروع الأمريكى من ذلك التقرير فإنه (من بين سبع مناطق فى العالم حصلت البلدان العربية على أدنى درجة فى الحرية فى أواخر التسعينات وأن قواعد البيانات التى تقيس «التعبير عن الرأى والمساءلة» أدرجت المنطقة العربية فى المرتبة الأدنى فى العالم - وأن العالم العربى لا يتقدم إلا على إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى على صعيد تمكين النساء)..!..

وفى سبيل ردنا على مثل هذه الأطروحات نستغرب بداية كيف وقع محررو تقرير (التنمية الإنسانية العربية) فى أحابيل بعض المؤسسات البحثية الأمريكية، رغم أن عددا من أولئك المحررين إحصائيون محترفون يعرفون على وجه الدقة، كيف يمكن التلاعب فى البيانات الأولية عن طريق التصميم المتحيز للمعايير والمؤشرات ، وعبر «الشراك الخداعية» للمقاييس الإحصائية والتحليل الإحصائى عموما..

ورغم معارضتنا لمجمل السياسات العربية الرسمية، فهل من الحقيقة العلمية المجردة أن الدول العربية هى الأسوأ على الصعيد العالمى فى مجال (التعبير عن الرأى والمساءلة) مثلاً؟ وعلى مقياس الحرية أيضاً..؟ وأية حرية بالضبط..؟ وهل تشمل أعمال التحرر من محاولات الهيمنة الأجنبية؟ ثم .. أى استخدام للإنترنت؟ وهل كل استخدام له، وأية مشاركة برلمانية للنساء تمثل تقدماً على مقياس المعرفة أو التمكين؟.

وما معنى أن مجموع الناتج المحلى الإجمالى المجمع للدول العربية أقل من إسبانيا - تلك العبارة التى ذكرها الرئيس الأمريكى ثم كررها المشروع الأمريكى الحالى..؟.. علماً بأن الوطن العربى ينتج من باطن ثرواته الطبيعية وزراعته وصناعاته، بينما تعتمد إسبانيا فى شنطر كبير نسبياً من ناتجها على السياحة. وعلماً بأن إسبانيا قد تلقت دعماً سخياً من الاتحاد الأوروبى لتأهيلها للانضمام إلى عضويته منذ سنوات، بينما الدول العربية عانت من الاستعمار الأجنبى (بما فيه الإسبانى) عقوداً متطاولة..؟.

ومع العلم - فى الختام - بأن جماهير الوطن العربى وأجياله الشابة تسعى إلى تنمية جذرية وشاملة ، وبدايتها التحرر الحقيقى من كل صور الهيمنة الأجنبية . ■



دائرة حوار

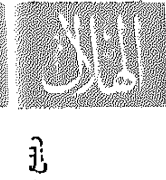
حسن حنفى والفكر الفلسفى الغربى

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

(١)

يتحرك إنتاج الدكتور حسن حنفى الفكرى الغزير، بل الذى ربما كان أغزر مما ينبغى، على عدة محاور سأختصرها هنا على تناول محور واحد منها هو ترجماته لنماذج من الفكر الفلسفى الغربى، مع التركيز على نموذج واحد من هذه الترجمات.

لكن الحديث عن ترجماته لا يكتمل بدون إشارة، مهما تكن سريعة، إلى المحاور الأخرى التى ترتبط بها الترجمات من قريب أو بعيد، والتى تصنع منظومة متكاملة، وإن لم تخل من تناقضات داخلية. وربما كان أقوى نقاد هذه التناقضات هو الدكتور فؤاد زكريا الذى يتساءل: «كيف يمكن لمؤرخ يريد تحديد الموقف العام لحسن حنفى من هذه المسألة ويظل محتفظا بقواه العقلية سليمة بعد أن يتراقص مع كاتبنا فى حلقة المتناقضات الجنونية التى تدور فيها معالجة الموضوع؟» (زكريا الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة).



والآخـر»: إعـداد وتقـديم د. أحـمـد عبدالحليم عطية).

المحاور الرئيسية لحسن حنفي

أعـود، بعـد هذا الاسـتطراد، إلى المحاور الرئيسية لعمل حنفي وهي ستة: إلى مشروعه الفكرى الكبير - التراث والتـجـديد - الذى يتـحـرك على ثلاث جبهات: الموقف من التراث القديم أو نقد تراث الماضى، الموقف من التراث الغربى، الموقف من الواقع المباشر (تحليل الواقع الموضوعى) أو نظرية التأويل، وموقفه فى هذا المشروع يعبر عنه قوله فى مقدمة كتاب «من العقيدة إلى الثورة»: «أنا فقيه من فـقـهـاء المسلمين، أجـدد لـهم دينـهم وأرعى مـصـالح الناس»، فـهـو يقف على الطرف المقابل لمن يسـمـيـهم «فـقـهـاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس» ممن انشغلوا بالقشور عن اللباب، ويدعو إلى إسـلام ثورى هو عنده «الخطاب الثـالث الغـائب فى عـصـر الاسـتـقطاب الفكرى» (انظر مجلته «اليسار الإسلامى» التى لم يصدر منها إلا عدد واحد يتيم فى يناير ١٩٨١ وقـد أصـبـحـت الآن أشـبـه بما يسـمـى فى الإنجـلـيزية: عجائب الأدب curiosities of literatuer الـتـى يتـسـابق على اقـتنائهـا جـامـعـو الكتب القـديمة والنـادرة.a Collector's iten ، وكـأنما يرمى حنفى إلى شىء قـريب من لاهـوت التـحـرير فى أمـريكا اللاتينيـة عند كـامـيلو توريز وأقـرانه، مـؤسـسـا للاهـوت مـواز فى الإسلام، بل سـاعـيـا إلى تحـويل اللاهوت إلى

حسن حنفى

وعلى حين اتفق تمـامـا مع الدكتور زكريا فى نقده للدكتور حنفى أرى (رغم ما قد يبدو فى قوله هذا من غرابة) أن مرد هذه التناقضات كون حنفى «فنان» بقدر ما هو مفكر. والفنان لا يلتزم دائما بالاتساق المنطقى وإنما قد تحفل كتابته، كما يلاحظ التفكيكيون، بالتنـاقـضـات وازدواج الدلالة والقـول بالشىء ونقـيـضـه فى آن واحـد. وتحضـرنى هنا مقـالة نافـذة للدكـتـور صـلاح قنصـوة عن كـتـاب حنفى «علم الاستغراب» توحى بهذا البعد الفنى فى كتابة مفكرنا، يلاحظ قنصوة أن الكتاب ذو بناء درامى يعتمد على الصراع بين البطل (الأنا) والخصم (الآخر) ويستخدم لقطات استرجاعية (فلاش باك) مع خيال مغرق واصطناع لتقنيات السرد عن طريق راو، وقرب الختام تتحقق فيه العدالة الشعرية حين يثب العرب - بدل الغـرب - إلى مكان الصـدارة! (انظر مقـال قنصـوة فى كـتـاب «جـدل الأنا

أنثروبولوجيا، وتوجيه النظر من السماء إلى الأرض بعد أن استقرت لدينا عقائد الألوهية والتوحيد والنبوة والثواب والعقاب وخلود النفس.

مشروع التراث والتجديد

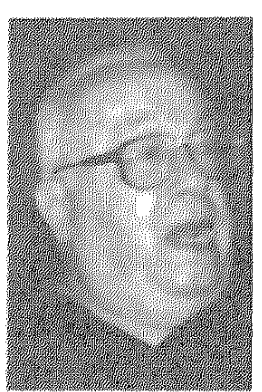
ومشروع التراث والتجديد يتجلى، من زوايا مختلفة، فى كتب حنفى الأساسية قضايا معاصرة، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، دراسات إسلامية، من العقيدة إلى الثورة (فى خمسة مجلدات)، دراسات فلسفية، حوار المشرق والمغرب (بالاشتراك مع د. محمد عابد الجابرى)، هموم الفكر والوطن، جمال الدين الأفغانى، الدين والثورة فى مصر (فى ثمانية أجزاء)، ويتواصل فى مقاله من أحدث ما نشر: مقالة «الروح والجسد فى القرآن الكريم» فى مجلة «المحيط الثقافى» (نوفمبر ٢٠٠٢).

٢ - أعماله فى التحقيق والتقديم والتعليق، وهذه تشمل: «المعتمد فى أصول الفقه» لأبى الحسين البصرى، «الحكومة الإسلامية» للإمام الخمينى، و«جهاد النفس أو الجهاد الأكبر» لنفس الإمام.

٣ - سعيه إلى تأسيس «علم الاستغراب» وذلك فى سفره الضخم الموسوم بـ «مقدمة فى علم الاستغراب» (أكثر من ثمانمائة صفحة) انطلاقا من إيمان صاحبه بأننا نميل إلى «إعطاء الآخر (الغربى) أكثر مما يستحق وإعطاء الأنا أقل مما تستحق» وسعيا إلى جعل الآخر موضوعا للمعرفة وليس مصدرا وحيدا لها، والهدف من هذا العلم الجديد - أو الذى يعده حنفى جديدا - هو «القضاء على ظاهرة التغريب فى ثقافتنا المعاصرة» (حنفى، حوار الأجيال، دار قباء ١٩٩٨، ص ٣٦٩).

٤ - مساجلاته الفكرية مع أسلافه الأقربين ومعاصريه، وهو ما يتمثل فى كتابه «حوار الأجيال» وكتابات أخرى. لقد كتب حنفى عن الطهطاوى وعلال الفاسى وميشيل عفلق والصادق النيهوم وإبراهيم فوزى وأحمد أمين وطه حسين ومحمود قاسم وعثمان أمين وتوفيق الطويل ومحمد أبوريدة وجمال حمدان وزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى وشكرى عياد ونصر أبوزيد وقاسم أحمد وغيرهم، وكتاباته هذه نموذج رفيع للحوار الفكرى الموضوعى الذى طالما شكا أمثال زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا من افتقار حياتنا الثقافية إليه، ومنطلق حنفى فى هذه المراجعات لأفكار السابقين والمعاصرين يجمله قوله فى مقالة عن نصر حامد أبوزيد:

«لا تعنى المراجعة كيل المدح أو الذم للكتاب وصاحبه. فقد جاوز الفكر العربى والبحث العلمى فى أوطاننا هذا الذى برع فيه القدماء والمحدثون، المديح والهجاء، شعرا ونثرا، علانية وسرا. فالمؤلف عالم ومواطن جاد والمراجع كذلك، والقضية مشتركة، والهم لدى الجميع، والصواب صواب الاثنين، والخطأ خطأ الاثنين. كما لا تعنى المراجعة بيان الصواب والخطأ،



زكى نجيب محمود　　　فؤاد زكريا

الصواب لتأييده والثناء عليه، والخطأ لنقده والتحذير منه، فتلك مراجعة المتفرجين وليس اللاعبين، والعاجزين وليس القادرين، إنما تعنى المراجعة المشاركة فى إنتاج النص بما هو عمل جماعى، وبمسئولية جماعية، القضية قضية الجميع، والمسئولية مسئولية الجميع» (حنفى، حوار الأجيال، ص ٤١٠).

وأعلى تجليات هذا النوع من المراجعة ربما كان متمثلا فى مقالة حنفى العظيمة عن عبدالرحمن بدوى. هنا يحرك الناقد حججه ضد الفيلسوف المتأله (ولسنا ننكر عظمته) حجة وراء أخرى مثلما يدفع قائد عسكرى بارع فى ميدان القتال بفرقة وراء أخرى، كل فرقة منها تتمم عمل سابقتها وتكسب أرضا جديدة، إن نغمة هذه المقالة من الوجهة الأدبية الخالصة، وبصرف النظر عن مضمونها الفلسفى، تجعل منها آية أدبية من آيات الجدل الفكرى واصطراع الأفكار وتلاحم الأنظار.

٥ - كتاباته فى النقد الأدبى التطبيقى، على قلتها، ومن أمثلتها ورقته غير المنشورة عن الفلسفة والرواية فى أدب نجيب محفوظ، وورقة أخرى عن البعد الفلسفى فى روايات محفوظ، ومقالته الضافية «الرسم باللغة والكتابة بالجسد» (مجلة القاهرة ، يونيه ١٩٩٣) عن رواية راوية راشد «هوس البحر»، ولا تستحق الرواية هذا البحث العميق ولا التحليل النافذ فهى عندى - كأغلب كتابات الروائيات النساء - ليست بشىء، أو ليست بشىء كبير (من القلائل الذين وجهوا النظر إلى نقد حنفى الأدبى فاضل الأسود فى مقالته «حسن حنفى: وقائع للإبداع خارج الفلسفة» فى كتاب «جدل الأنا والآخر»).

٦ - كتاباته بالفرنسية وعلى رأسها أطروحاته الجامعية عن «مناهج التفسير: دراسة فى علم أصول الفقه» و«تفسير الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهرانى وتطبيقه على الظاهرة الدينية» و«ظاهريات التفسير: محاولة وجودية هرمنيوطيقية ابتداء من العهد الجديد» (تحت الطبع)، وكتاباته بالإنجليزية: «الحوار الدينى والثورة : مقالات عن اليهودية والمسيحية والإسلام»، «الإسلام فى العصر الحديث» (فى جزءين)، وهذه الكتابات بحاجة إلى دراسة مستقلة ، وليت أحد تلاميذ حنفى أو أصدقائه - ممن يجيدون الفرنسية والإنجليزية - يعكف على نقل هذه الأعمال إلى اللغة العربية على نحو ما نقل د. إمام عبدالفتاح إمام أطروحة أستاذه زكى نجيب محمود «الجبر الذاتى» من

الإنجليزية إلى العربية.

لحسن حنفى كتب ومقالات غزيرة عن الفكر الفلسفى الغربى من أهمها:

- قضايا معاصرة فى الفكر الغربى المعاصر (الطبعة الأولى ١٩٧٧/ الطبعة الثانية ١٩٨٢/ الطبعة الثالثة ١٩٨٨).
- دراسات فلسفية (١٩٨٨) وبه مقالة ممتازة عن «ثورة الجماهير عند أورتيجا إى جاسيه».
- أونامونو والمسيحية المعاصرة (مجلة الفكر المعاصر، يناير ١٩٦٩).
- الدين فى حدود العقل وحده لكانط (مجلة تراث الإنسانية، العدد ٣، المجلد السابع، سبتمبر ١٩٦٩).
- بين ياسبرز ونتشه (مجلة الفكر المعاصر، أكتوبر ١٩٦٩).
- القاموس الفلسفى لفولتير (مجلة تراث الإنسانية، العدد ١ ، المجلد الثامن، مارس ١٩٧٠).
- هيجل والفكر المعاصر (مجلة الفكر المعاصر، سبتمبر ١٩٧٠).
- محاضرات فى فلسفة الدين لهيجل (مجلة تراث الإنسانية، العدد ٤، المجلد الثامن، د. ت.).
- جيل دولوز: مفكر ما بعد الحداثة (مجلة أوراق فلسفية، يناير - يونيه ٢٠٠١).
- الظاهريات أم ما بعد الحداثة: نهاية البداية أم بداية النهاية؟ (مجلة أوراق فلسفية، ديسمبر ٢٠٠١)
- مواد : اسبير Spir ، أوديموس، أوريجين، أوستقالد، أونامونو أو يكن، آيرينيه، برنار الشارترى، برنار الكليرفوى، بومبوناتزى، بوناڤنتير، بيل فى : معجم أعلام الفكر الإنسانى، المجلد الأول (وهو سفر نفيس من أسف أن لم يصدر منه جزء ثان) تصدير د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.

ونقل أربعة كتب إلى اللغة العربية هى:

- نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط («المعلم» لأوغسطين، «الإيمان باحثا عن العقل» لأنسليم، «الوجود والماهية» لتوما الأكوينى) (الطبعة الأولى ١٩٦٨/ الطبعة الثانية ١٩٧٨/ الطبعة الثالثة ١٩٨١).
- رسالة فى اللاهوت والسياسة لاسبينوزا (الطبعة الأولى ١٩٧٣/ الطبعة الثانية ١٩٧٣/ الطبعة الثالثة ١٩٨١).
- تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى للسنج (الطبعة الأولى ١٩٧٧/ الطبعة الثانية ١٩٨١).
- تعالى الأنا موجود لجان بول سارتر (الطبعة الأولى ١٩٧٧/ الطبعة الثانية ١٩٨٢).

الترجمة وشخصية المترجم

وعند حنفى، كما يقول فى مقدمة ترجمته لاسبينوزا:

«إن اختيار نصوص بعينها للترجمة فى حد ذاته تأليف غير مباشر، ويكون المترجم فى هذه الحالة مؤلفا بطريق غير مباشر، قد يكون الدافع لاتباع هذا المنهج - التأليف من خلال الترجمة - هو حساسية الموضوع بالنسبة لبعض

الطوائف التى ترى فيه تعديا صارخا على حقوقها أو جرأة على عقلية مجتمع ما لم يبلغ من التطور والتنوير ما يستطيع به تقبل الموضوع الجديد بسهولة ويسر، أو تعبيرا للمترجم عن نفسه من خلال الآخرين حتى تتحول القضية من الذاتية إلى الموضوعية، مهما يكن من شىء فالترجمة المختارة اختيارا دقيقا لما يناسب العصر واحتياجاته هى فى صميمها تأليف يرتكز على التاريخ الحضارى، والترجمة الهادفة تخدم نفس الغرض الذى يسعى إليه التأليف الواعى للداعية» (رسالة فى اللاهوت والسياسة، تأليف سبينوزا، ترجمة وتقديم د. حسن حنفى، مراجعة د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١، ص ٥).

ويقول فى فصله عن عبدالرحمن بدوى: «اختيار الأعمال المترجمة فى ذاتها دليل على شخصية المترجم وتوحده مع أبطال الأعمال الأدبية» (حنفى، حوار الأجيال، ص ٣٢٠).

وبتطبيق هذا المفهوم على ترجمات بدوى نجد أنها تومىء إلى مناطق أربع من اهتماماته:

اللاهوت المقارن - فكر التنوير الأدبى - النقد التاريخى للكتب المقدسة (النقد الأعلى أو النقد السامىhiger criticisn بترجمة محمد عنانى - ومن خير المداخل إليه مقالة حنفى «مدرسة تاريخ الأشكال الأدبية» بمجلة «ألف» (العدد الثانى، ربيع ١٩٨٢) - الفينومينولوجيا الوجودية.

ومنهج حنفى فى الترجمة ، كما يقول فى تصديره لكتاب «نماذج من الفلسفة المسيحية»، يمثله قوله شئت أن أجمع بين الترجمة الحرفية والترجمة المعنوية على السواء ولكن يبدو أنى كنت أقرب إلى الحرف منى إلى المعنى حرصا على النص الأصلى وعلى الإبقاء على مصطلحات العصر الوسيط وتعبيراته وهى أهم ما يميز طابعه الفلسفى» (نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط، ترجمة وتقديم وتعليق حسن حنفى، الطبعة الثانية ١٩٧٨، مكتبة الأنجلو المصرية، الصفحة الأولى من التصدر.

ومع التزامه الدقة البالغة يعمد أحياناً إلى إضافة بعض كلمات بين قوسين على سبيل الإيضاح، وقد يستخدم الأداة «بل» وهى لا توجد فى اللغة اللاتينية ولكنه يستعملها تمشياً مع الأسلوب العربى، ويورد معجماً للمصطلحات والتعبيرات الفلسفية باللاتينية والفرنسية والعربية (تحدث بعض ترجماته - عن غير قصد منه - تأثيرا هزليا كأن يترجم كلمة Uidditas - الماهية - إلى «الهوهو» وهى أشبه بنبحة الكلب!).

وفى مقتطفاته من العهدين القديم والجديد يعمد إلى تنقيح الترجمة العربية الشائعة (وهى ركيكة لكن ركاكتها لاتخلو من فتنة) كما ينقح - يحالفه التوفيق - بعض التعبيرات ليجعلها أقرب إلى بلاغة العربية، «قال الجاهل فى قلبه ليس إله» تتحول عنده إلى «حدثته نفسه أن ..».

وفى ترجمته لعنوان سارتر -Tran

scendantlei de l'ego (تعالى الأنا) يخسف كلمة «الموجود» ليصبح العنوان «تعالى الأنا موجود» وهى إضافة موفقة ربما كانت - كما يلاحظ الدكتور حسين عبد القادر - «أغلب الظن إدراكا منه كامنا لقصديه سارتر انتقالا من الأنا أفكر عند ديكارت إلى معناها الثرى عند هوسيرل والفينومينولوجيا» (انظر د. حسين عبدالقادر، «الإنسان» والقضية: مقابلات لما تكتمل، فى كتاب «جدل الأنا والآخر» ص ٣٢٤. وفى الأصل بعض أخطاء مطبعية صوبتها هنا).

وأكتفى من ترجمات حسن حنفى، على سبيل التمثيل، بالإشارة إلى ترجمته لمحاورة القديس أوغسطين «المعلم» فلننتقل إليها.

ليس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) بحاجة إلى تعريف فمؤلف «الاعترافات» و«مدينة الله» وغيرها من الأعمال البذرية Seminal واحد من مؤسسى الفكر الدينى المسيحى وواحد من آباء الوجودية المؤمنة ورائد لفن الترجمة الذاتية الروحية والفكرية. ونقلته - بعد عمر من الخطيئة الحسية - إلى المسيحية وقصة اهتدائه فى سن الثانية والثلاثين من التجارب الروحية الشهيرة (وكذلك مقولته - وهو يناضل ضد رغبات البدن من أجل التطهير - «ارزقنى العفة .. ولكن ليس بعد!»).

اجتمع فى أوغسطين - كما يلاحظ أحد نقاده - الموروث العقلى للعالم القديم فى أحسن صوره والشعور الدينى المميز للعصور الوسطى. ونستطيع أن نرى فى صفحاته النقلة من العالم القديم إلى عالم جديد. فذهنه التحليلى يتابع رحلته عبر جزر غريبة متناثرة صوفية المانويين، شكية الفلاسفة الأكاديميين، قدرية المنجمين، إلى أن يجد له مستقراً فى الكنيسة (انظر: أوغسطين فى «منتخبات نورتون من الروائع العالمية» تحرير مينارد ماك، الناشر : نورتون، نيويورك ١٩٨٥، الطبعة الخامسة ص ٩٩٤ - ٩٩٥).

اختار حسن حنفى أن يترجم لأوغسطين محاورة «المعلم» . ويعرف المترجم بظروف إنشائها فيقول :

«المعلم من مجموعة المحاورات الفلسفية التى كتبها أوغسطين فى أول عهده بالتفكير الفلسفى سنة ٣٨٩ بعد أن قبل طقس العماد أخيراً على يد القديس أمبرواز فى ميلانو سنة ٣٨٧ ونزح إلى مسقط رأسه فى افريقيا عاكفا على نفسه ومؤسسا بذلك أول دير افريقى.

ومحاور أوغسطين هو أديودات Adeodat «ابن خطيئة» كما يسميه، وهو من أوائل من انتسبوا إلى ديرد. كان عمره وقتئذ ستة عشر عاماً. ويؤكد أوغسطين فى اعترافاته أن ابنه قد قال بالفعل كل ماورد على لسانه فى المحاورة إذ أن ذكاءه يفوق ذكاء الكبار خاصة وأن المحاورة كلها كانت جزءاً من تثقيفه الأدبى الذى تعهده به أبوه» (نماذج من الفلسفة المسيحية، ص ١٠ -١١).



عبد الرحمن بدوي   عبد الغفار مكاوي

ويصطنع النص شكل المحاورة الأفلاطوني وهو الشكل الذى تابعه - فيما بعد - لوسيان (محاورات الموتى) وباركلى وهيوم وآخرون. وتنتشر فى تضاعيفه إشارات (من تراث أوغسطين الوثنى) إلى خطبة لشيشرو» وأبيات من «إنيادة» فرجيل وهجائيات پرسيوس ومسرحية ترنس Andrea (لايترجم حنفى العنوان بأكثر من أندريا والمقصود «فتاة جزيرة أندروس» أو «الأندرية»).

وفى مقدمته لترجمة المحاورة يربط حنفى فكر القديس أوغسطين بمفكرين آخرين مثل الغزالى وكركجور وبرجسون وهوسرل وبولتمان وذلك على نحو مقنع لاتعسف فيه ولا تعمل.

والمحاورة من قسمين . أولهما عن قيمة الكلمات والثانى عن عجز اللغة عن التعليم . ويشكل هذان القسمان جزءا أول مداره «مناقشة حول مدلول اللغة». أما الجزء الثانى فيحمل عنوان «المسيح هو المعلم الوحيد للحقيقة».

وتطرح المحاورة عديداً من الأسئلة المعرفية واللاهوتية واللغوية والأخلاقية : كيف تدل العلامة على علامة أخرى وتتميز عنها؟ هل هناك علامات تدل على بعضها البعض وكيف تتم التفرقة بينها؟ هل توجد مترادفات؟ (من أهم المفكرين الأدباء الذين وجهوا النظر إلى مشكلة الترادف اللفظى أبو حيان التوحيدى فى الشرق، وكولردج فى الغرب) إلى أى شىء تنتبه النفس، إلى الكلمة بوصفها علامة أم إلى الشىء المعنى؟ أيهما أفضل الشىء المعنى أم العلامة؟

ومن القضايا التى تطرحها المحاورة: الغاية من اللغة تعليما وتذكيراً، نفع الشك فى ضرورة العلامات للتعليم ، إمكانية تعليم بعض الأشياء دون علامة، العجز التام لكل من العلامات واللغة عن التعليم، الكلام يعطى اعتقاداً لا علما بالأشياء، المسيح - وهو الحقيقة - هو المعلم الداخلى، دور التساؤلات، عجز اللغة عن إيصال الحقيقة، المسيح يعلم من الداخل ولا يعطى الكلام إلا منبها خارجياً؛ وكلها قضايا تقع من اهتمامات الفكر الغربى الحديث - فى مباحث المعرفة واللغة بخاصة - فى الصميم.

وتنتهى المحاورة إلى نتيجة يلخصها قول أديودات لمحاوره:

«إننا لا نحصل من الكلمات إلا على التنبيه على التعلم، ولا تكشف لنا اللغة عن فكر المتحدث إلا فى النزر اليسير، وإن أردنا الحقيقة فإن هذا المعلم هو الذى يعلمنا عن طريق كلمات خارجية أنه موجود فى داخلنا» (نماذج من الفلسفة المسيحية ، ص ٩٩).

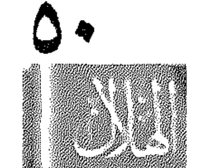
ترجم حسن حنفى المحاورة عن

ترجمة فرنسية للأصل اللاتينى. وصعوبة النص لاتحتاج إلى فضل بيان،وقد ألمح المترجم إلى نماذج منها فى مقدماته : «إن كلمة جماد»، مثلا، فى اللاتينية تختلف من حيث الجنس Gender عن مقابلها فى العربية، وعدد المقاطع فى الكلمات اللاتينية يختلف عن عددها فى الكلمات العربية المناظرة؛ وثمة جناس لفظى فى كلمات لاتينية لا يوجد مايقابلها فى الكلمات العربية، إلخ.. واجه حنفى هذه الصعوبات كلها بأمانة وشجاعة، وقدم لنا نصا عربيا أقرب إلى السلاسة رغم صعوبة الفكر، واختلاف الإطار المرجعى، واختلافات النصين صوتاً ودلالة وتركيباً. ولو عرضنا ترجمة حنفى لنص أوغسطين على ترجمته لنصوص أنسليم والأكوينى لوجدنا أن من أكبر منجزاته حفاظه على النغمة Tone الفكرية والنفسية والأسلوبين لكل من هؤلاء المفكرين الثلاثة : إنه ينجح فى أن ينقل إلى القارىء العربى مذاق الفكر الأوغسطينى الذى يلتحم فيه الانفعال العارم وقوة العقل ، ومذاق فكر أنسليم بابتهالاته الدينية الحارة وقلبه الحجج العقلية إلى رؤى صوفية ، ومذاق الفكر الأكوينى الذى يقوم بتعميد أو تنصير، حجج أرسطو وتحقيق الالتحام بين مقولات الفكر الأرسطى (وقد مرت بمرشح ابن سينا وابن رشد) ودقائق اللاهوت الرومانى - الكاثوليكى . إن أوغسطين، فى هذه الترجمة، لايشتبه بأنسليم أو الأكوينى، وإنما يظل كل منهم - وإن جمعتهم أرض اعتقادية مشتركة - محتفظاً بطابعه الخاص ومذاقه المتفرد.

فى ترجمة حنفى لمحاورة أوغسطين، وغيرها هفوات يسيرة كأن يقول فى ترجمته لسطور من قاموس ڤولتير الفلسفى : «هم قوم مسخهم سيرسيه إلى خنازير» (حنفى، القاموس الفلسفى لڤولتير، مجلة تراث الإنسانية، مارس ١٩٧٠ و ص ٨٩). وسيرسيه أنثى لا ذكر ، فهى (بحسب مايقوله هوميروس فى «الأوديسة») ابنة هليوس (الشمس) وبرس، وكانت ذات قدرات سحرية مسخت بها رجال أوديسيوس إلى خنازير. وفى مواضع أخرى يرسم حنفى اسمى مدينة Tgre و Smyrna حرفياً : «تاير» وسميرنا» غير مدرك - فيما يبدو - انهما بالعربية «صور» و«أزمير» على التوالى.

لكن هذه المآخذ الضئيلة ليست بشىء بجانب إنجاز حنفى الكبير مترجماً ، فهو من تلك الطبقة الممتازة من أساتذة الفسفة التى نقلت آثارا فكرية جليلة إلى لغة الضاد : زكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى ومحمد فتحى الشنيطى وفؤاد زكريا وأحمد فؤاد الأهوانى وعبد الغفار مكاوى وفؤاد كامل وسائر إخوان ذلك الطراز . ويظل حنفى (رغم كل ما يمكن أن يؤخذ على فكره) نموذجا رائعاً لالتقاء الفكر الفلسفى الغربى والتراث العربى الإسلامى فى عقل تركيبى خلاق.

قلت : رغم كل ما يمكن أن يؤخذ على فكره ، إذ لا مفر (على مودتى الشخصية له) من أن أختم هذه المقالة بنغمة سلبية . إن المآخذ على فكره من جانب أقرانه المفكرين كثيرة، وإن اقترنت فى الغالب



بتقديرهم لعلمه وأصالته ونشاطه . فالأستاذ محمود أمين العالم (فى كتابيه : «الوعى والوعى الزائف فى الفكر العربى المعاصر» و«مواقف نقدية من التراث») والدكتور جابر عصفور (فى سلسلة مقالات بجريدة «الحياة» من ١٩٩٤/٢/٢٧ أعيد نشرها فى مجلة «الثقافة الجديدة») يتساءلون فى صدد كتابه «علم الاستغراب»: أهو استغراب أم تغريب معكوس؟ وعندهما أن الكتاب ضرب من آليات الدفاع يسعى به الشرق المظلوم إلى الثأر من الغرب الظالم.

والدكتور نصر حامد أبو زيد (فى كتابه : نقد الخطاب الدينى) يأخذ على كتابات حنفى غلبة الأيديولوچى على الإبستمولوچى. والدكتورة يمنى الخولى تأخذ عليه تضخيمه من شأن الفينومينولوچيا ومطابقته بينها وبين القومية التحررية وتتساءل : «هل الفينومينولوچيون الغربيون – ومنهم ألفردشوتس صاحب الفضل فى الدعوة إلى تأسيس علم اجتماع فينومينولوچى .. أقرب إلينا وأحرص علينا دونا عن سائر فلاسفة المناهج الأخرى فى الغرب؟! هل ينتسب إديموند هوسرل إلى عدنان؟ أم تراه قد صاهر قحطان؟» (الخولى، «المنهج فى مشروع «التراث والتجديد»»، مجلة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلة ٥٦، العدد٢، إبريل ١٩٩٦، ص ١٥٢).

من العدل أن يسجل المرء سعة صدر حسن حنفى إزاء ماوجه إليه من نقدات، وهو ما ذكره الدكتور چورچ طرابيشى – أحد نقاد حنفى – فى مقابلة معه بمجلة «المحيط الثقافى» (ديسمبر ٢٠٠٢) على النقيض من ضيق صدر د. عابد الجابرى بنقد طرابيشى . لكن كاتب هذه السطور لايستطيع أن يقبل الخلط الشنيع فى بعض أقضية حنفى ، وجمعه مالا يجتمع، كأن يكتب : «إن الماركسية دين إسلامى كما أن الإسلام أيديولوچية ماركسية» مشوها بذلك كلاً من الإسلام والماركسية فى سبيل مفارقة لافتة. ولا أقبل إهانة حنفى لياسبرز العظيم (وهو ، على مركزيته الأوربية المسرفة ، من أكثر المفكرين نزاهة خلقية ووضوح قصد) حين يكتب: «إن الفرق بين موقف نتشه وياسبرز من المسيحية هو الفرق بين الصراحة والنفاق» (حنفى، بين ياسبرز ونتشه، مجلة أوراق فلسفية، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٤٧).

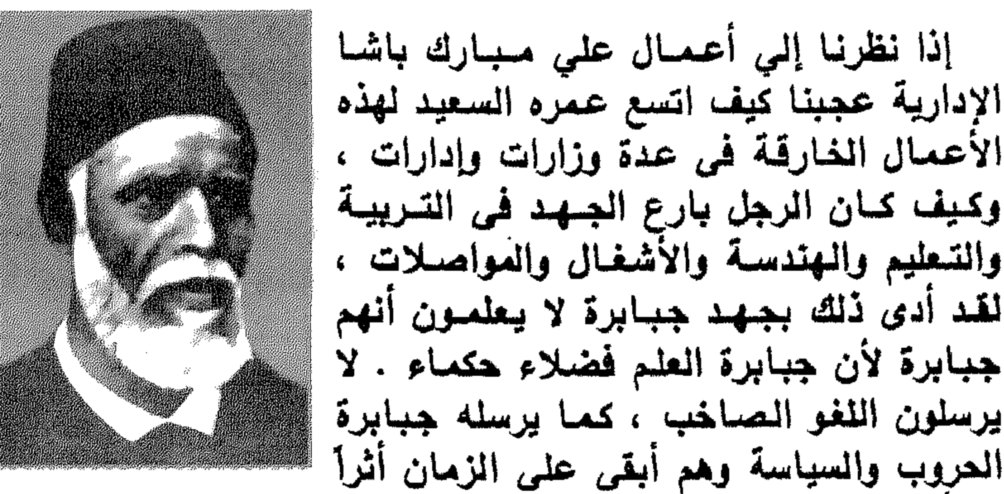
وأرصد ، محزونا، ابتعاد حنفى المتزايد عن المنظور الهيومانى العلمانى واقترابه من منظور سلفى أصولى وهو نفس المنحنى المحزن الذى أجده – بدرجات متفاوتة – فى التطور الفكرى لطه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى واسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وغيرهم.

إن تراجع هؤلاء المفكرين عن منطلقاتهم الثورية الباكرة أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث وفاتحة النزعات الانفلاتية الراهنة. ■



بقلم

د. محمد رجب البيومي

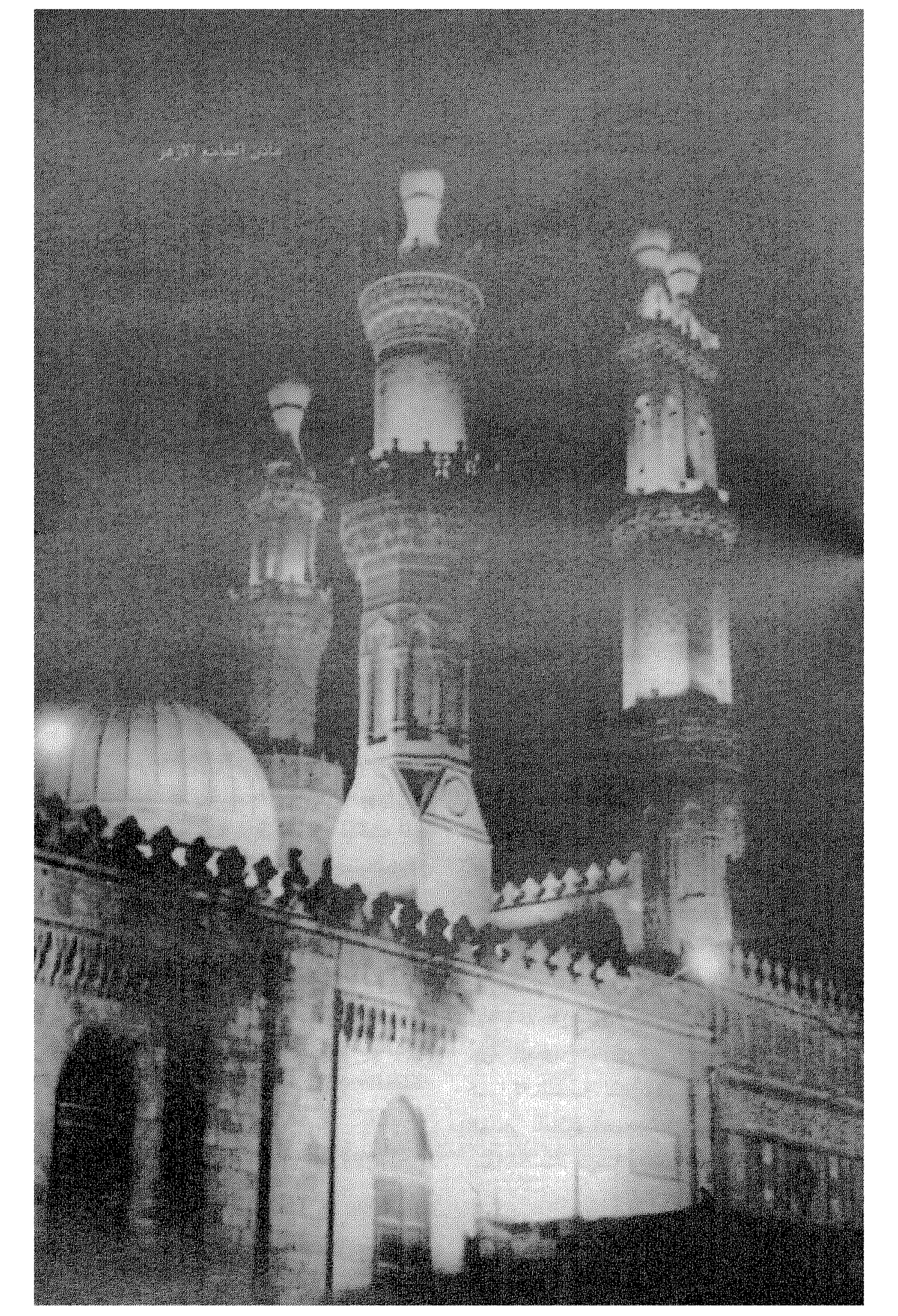


علي مبارك

إذا نظرنا إلي أعمال علي مبارك باشا الإدارية عجبنا كيف اتسع عمره السعيد لهذه الأعمال الخارقة فى عدة وزارات وإدارات ، وكيف كان الرجل بارع الجهد فى التربية والتعليم والهندسة والأشغال والمواصلات ، لقد أدى ذلك بجهد جبابرة لا يعلمون أنهم جبابرة لأن جبابرة العلم فضلاء حكماء . لا يرسلون اللغو الصاخب ، كما يرسله جبابرة الحروب والسياسة وهم أبقى على الزمان أثراً ، وأعظم نفعا ، بل إن تسعة وتسعين فى المائة من جبابرة الحرب والسياسة يفسدون ولا يصلحون ، وتعمى نفوسهم فتكون بلادهم أول ما يصيبون من الهلاك والدمار !

أقول إن هذه الأعمال الإدارية الرائعة لا تترك مجالا قصيرا للتأليف العلمى. والبحث النظرى ، فكيف إذا كان هذا المجال فسيحا ممتدا يشمل مجلدات تقع فى عشرين جزءا تحت عنوان واحد ، كما يشمل مختلف الفنون من تربية وهندسة وقصة ! أجل مارس الرجل القصة الطويلة فى جزءين كبيرين كما فهم مدلولها فى منهجه الإصلاحى ، وأصبح رجال الفكر يفسحون له مجالا رائعا فى مضمار التفكير العلمى كما يفسح رجال الإصلاح الاجتماعى هذا المجال فى مضمار التقدم الحضارى ! أقول ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد كما قال أحد الشعراء .



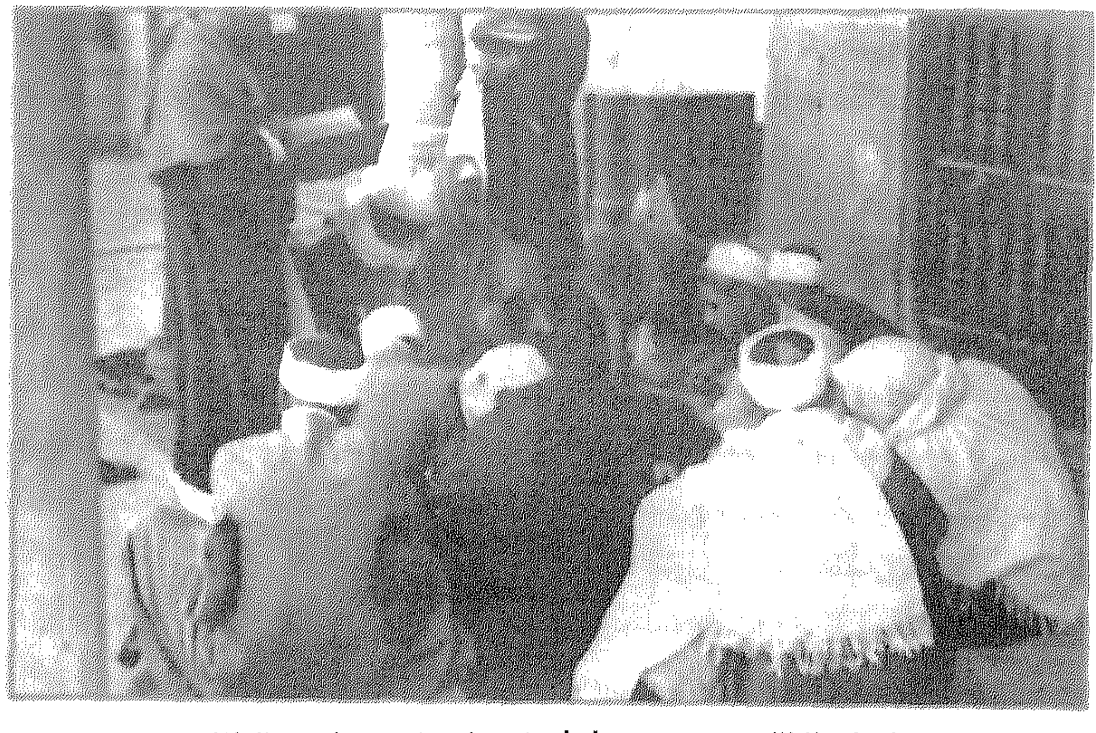


حديث اليوم يقتصر على ما كتبه المؤرخ العظيم عن حالة الأزهر الاجتماعية والدينية فى عصره . والرجل لم يتعلم فى الأزهر، وإن عانى فى سبيل تعليمه أكثر مما كان يعانيه طلبة الأزهر من بلاء، إذ شق بأظفاره الناعمة طريقه الوعر بين الأشواك والصخور على طراوة العمر ، وصغر السن دون نصير غير همة عالية اندلعت فى نفس العصامى الصغير ، كما يتألق الكوكب الساطع فى الليل لعينى مدلج وحيد يتخبط وحده فى ظلام حالك فيهديه الطريق ، لقد هرب الطفل من بلده شريدا ينام فى المغارات، وينتقل من صعب إلى صعب بوحى من إلهامه حتى اهتدى إلى مدرسة القصر العينى دون مرشد غير هاجس من ضميره ، فكانت أولى خطوات النصر الحقيقى فى سجل حياته ، ومنها عرف الدرجة الأولى فى السلم الممتد إلى ذروة النجاح ، وأخذت الدرجات تسعى إلى قدمه مرحبة مزهوة حتى أبلغته إلى الأوج ، فاحتل القمة فى تواضع العلماء لا فى شموخ المتكبرين !

وقد نشأت فى الأزهر متعلما ومعلما، وعرفت من تاريخه الحافل منذ أكثر من ألف عام ما يعرفه الأزهرى المولع بتاريخ معهده ، ولكنى حين قرأت ما كتبه على مبارك عن الأزهر فى كتابه «الخطط التوفيقية» علمت الكثير مما كنت أجهل ، بل علمت أن الذين كتبوا عن هذه الفترة من حياة الأزهر قد اغتصبوا كل ما قال دون أن يشيروا إليه ، ومنهم من نقل السطور سطرا سطرا دون أن يذكر المرجع أو المؤلف ، فأصبح هو المرجع الأول للدارسين ، كما سيجىء ، وهو داء فاتك عند بعض أهل العلم ، وإن جاز ذلك قبل عصر المطبعة ، فكيف يجوز بعد أن صارت نسخ الكتاب الواحد تبلغ الآلاف !! وتزدحم بها خزائن المكتبات؟!

الالتحاق بالأزهر

لم يتحدث على مبارك طويلا عن كيفية الالتحاق بالأزهر وتقديم الطلب الخاص بالمبتدئ ، وإفساح المكان له ، كما تحدث غيره ، بل هجم على الحديث عن الحالة العلمية بدءاً فذكر أن الطالب يأتى فى سن البلوغ أو المراهقة ويكون قد حفظ القرآن فى بلده قبل المجىء، فإذا وفد غير حافظ اشتغل بالحفظ قبل الالتحاق، إذ يعقد له امتحان خاص بالحفظ وهو إجازة المرور ، فإذا تم التصديق على التحاقه، انتظم فى الدراسة كما يشاء ، فالطالب لا يتقيد بدرس أو بأستاذ ، بل يجلس فى إحدى الحلقات العلمية التى يهتدى إليها بمشورة الكبار من زملائه ، ويجلس الأستاذ على كرسى خشبى، وله مكان جوار العمود اشتهر به فلا يحتله سواه ، كما له طلبته الذين يعرفون مكانهم الخاص بالحلقة ، صغيرة كانت أو كبيرة، ويبدأ الأستاذ درسه بالبسملة والحمد لله



لم يكن الطالب يتقيد بدرس أو أستاذ ، بل يجلس فى إحدى الحلقات العلمية التى يهتدى إليها بمشورة الكبار من زملائه

والصلاة على نبيه، وقد ظل هذا البدء متصلا حتى هذا العهد ، والتلاميذ يعرفون الكتاب الذى يشرح الأستاذ عباراته ، فيفتحون الملازم لمتابعته ، ويسألونه كما يشاءون، ولكل طالب حريته التامة فى السؤال ، وفيهم من كبار السن من يحاولون المباهاة بما يسألون ، فيأتون بأسئلة عويصة يتحتم على الأستاذ أن يجيب عنها بإشباع . وقد عرف ذلك من قبل ، فهو يتهيأ تهيؤا تاما فى إعداد الدرس ليلاً دون إبطاء ، أما الطلاب فقد كانوا مثل الأستاذ تماما يقرأون الدرس الذى سيشرح فى الغد قراءة مستوعبة ، ويجتمع النبهاء منهم فى الرواق أو فى صحن المسجد ليتداولوا الرأى فيما غمض من العبارة أو انبهم من القضية، حتى إذا استوثقوا من كل فكرة ، حضروا إلى الدرس وقد عرفوا غوامضه التى لم يهتدوا إلى حلها، فأحسنوا الاستماع ، وقد يبدو لهم من قول الأستاذ مالا يرتاحون إليه من التوجيه، فلا يجدون حرجا فى مناقشته بجد ، وقد يعارض الأستاذ اتجاههم ولكن بالحجة التى لا تدفع لأن المنافس مسلح بالدليل ، وإذا علمنا أن الأستاذ كان يشرح فى كتب معقدة ذات تعبيرات صارمة ، وذات اكتناز فى العبارة أدركنا مدى الصعوبة التى يعانيها الأستاذ والطالب معا ، وقد أدركت فى عهد الأزهر النظامى بعض ما يمثل هذا الاتجاه ، إذ كان الزملاء يقرأون الدرس المقرر قبل الحضور ، ويعدون ذلك وسيلة

لاستيعاب ما يقول الأستاذ على وجه دقيق ، ولعل من أعجب ما قرأت فى هذا المجال ما رواه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين عن شيخه الأستاذ عمر الشيخ أستاذ علم الأصول بجامع الزيتونة بتونس ، حيث تعرض لشرح كتاب المواقف لأول مرة وهو من أعقد الكتب تأليفا ومادة ، فرأى أن يختار من نوابغ طلابه من يسهرون معه كل ليلة لقراءة الدرس المنتظر فيتفاهم معهم وكأنهم أساتذة مثله حتى يتفقوا جميعا على فكرة محددة ، وكان من شمائله النبيلة أثناء الشرح بالجامع أن يقول للطلبة إن هذا رأى زميلكم فلان وقد وافقناه عليه بالأمس !! فهل ترى إخلاصاً للحقيقة العلمية أبلغ من هذا الإخلاص؟!

وقد صدرت حواش كثيرة فى هذا العهد تدور حول شروح للمتن العلمى المقرر للطلاب ، هذه الحواشى الضخمة مثل كتب الباجورى والامبابى والدسوقى لم يكتبها الأستاذ فى منزله منعزلا عن طلابه ، بل كان يشرح المتن والطلاب ينقلون الشرح عنه فإذا مضى العام تهيأ لهم مما كتبوه مؤلفا كبيرا ، فيأتى صاحب المطبعة ليختار النسخة الواضحة مما كتب الطلاب فينشرها وتذيع فى الوسط الأزهرى وفى غيره من الأوساط العلمية ، ويرى الأستاذ ذلك شيئا طبيعيا ، بل يشجع عليه لأن دروسه أصبحت علماً ينتفع به وإذا مات الميت انقطع عمله إلا من ثلاث أحدها «علم ينتفع به» كما جاء فى الحديث الشريف !

ويظل الطالب طالبا مدى يبلغ أكثر من عشر سنوات ، فإذا أنس من نفسه الكفاءة العلمية التى ترشحه للتدريس ، أعلن ذلك لزملائه الطلاب ، ولمشايخه من الأساتذة فحددوا موعداً للجلوس أمامه كى يشرح الدرس الذى يقررونه له ، فإذا بدأ القول ، توالت عليه الأسئلة من كل صوب ، وعليه أن يجيب عن كل سؤال دون تردد، وتمتد الجلسة حتى تحين الصلاة ، فيقوم الجمع لأدائها ، ثم تنعقد ثانية وتتوالى الأسئلة والإجابة وفيها ما يدق ويعمق ، فإذا وفق الله الطالب فى جميع الإجابات كان ذلك شهادة له، يجوز بعدها أن يكون صاحب حلقة ، وأن يجتمع حوله الطلاب ، وكأنه نال درجة علمية ذات تقدير رسمى .

يقول على مبارك (وكان لا يتصدر للتدريس إلا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلا للتصدر، حلالا للمشكلات ومعضلات المسائل ، فلا يحتاج لاستئذان إلا على جهة الأدب والبركة ، وإنما يعلم بعض المشايخ والطلبة فيحضرون درسه. ويتراكمون عليه ، وهو يتألق فى الابتداء ، ويسلك فيه طريق الإغراب والتوغل وبعض الحاضرين يتعصب عليه . والبعض ينتصر له ، وإذا

تلعثم فى إجابة ربما أقاموه ومنعوه من التصدر وإذا عاند ربما ضربوه» .

قد تكون هذه وسيلة دقيقة لاختيار الطالب ، ولكنها محفوفة بالمكاره ، إذ ربما تكالب عليه خصومه فأعنتوه لا ليعرفوا مقدرته العلمية ، بل ليسقطوه عن عمد ، وللكثرة فى هذه المناسبات قوتها فى الصخب والتشويش فتطيح الأصوات المحايدة ، وينتهى الأمر بالحبوط والخذلان ، كما أنه من الناحية الأخرى قد يجمع الطالب أنصارا من المشايخ والزملاء يبلغون حد الكثرة ، والناس هم الناس ، فيتفقون على نوع من الأسئلة يعرف الطالب إجابتها قبل الاختبار ، ويبدى الجدارة فى الإجابة عنها وقد ألم بها من قبل ، فينجح فى الاختبار دون استحقاق !!

الامتحان الرسمى

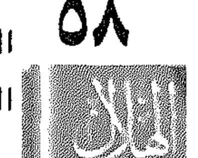
شعر الشيخ مصطفى العروسى بما يوجه لطريقة اختيار المدرس من اعتراضات جدية ، فرأى عقد امتحان فعلى للطالب على نحو أفضل ، وفوجىء بالعزل من المشيخة فرأى خلفه الشيخ محمد المهدى العباسى أن يسير بالموضوع إلى غايته فاستأذن الخديو فى إصدار قانون خاص لكل من يريد التدريس من المستجدين ، وجمع مجلسا من كبار العلماء لتحديد مواد هذا القانون ، فتم الأمر على اختيار ستة من المشايخ الكبار للامتحان على أن يمثلوا المذاهب الفقهية المشتهرة ، أما مواد الامتحان فلا تترك للأسئلة دون ضابط كما كان يفعل من قبل ، بل لابد من الامتحان فى أحد عشر فنا ، وهى العلوم المتداولة بالأزهر وقد حصرت فى التفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق على أن من شروط من يتقدم أن يقدم طلبا يصرح فيه بأنه حضر هذه العلوم على الأساتذة . ولا يبحث الطلب على الفور إلابعد أن تمضى فترة للتأكد مما ذكره الطالب ، ومما ييسر الأمر أن يتقدم بشهادة يوقع عليها جمع من المشايخ أقلهم ثمانية مقررين أنه حضر هذه العلوم بمرأى عيانهم ، فإذا تم ذلك عين له فى كل فن من الفنون السابقة يوم خاص يمتحن فيه، فيقضى أحد عشر يوما فى امتحان متصل ، وينعقد الامتحان فى بيت شيخ الجامع . (هكذا قال على مبارك ولعله يريد فى مقر عمله الرسمى بالأزهر) ومن الأسلوب المتبع اذ ذاك أن يجعل الطالب مدرسا يقوم بشرح المادة للأساتذة بدءا،. وهم بمنزلة الطلبة فيبدأ القراءة وتتوالى عليه الأسئلة ليجيب ، ويستمر الامتحان طيلة اليوم ولا ينقطع إلا لنحو الصلاة أو الغذاء ، فإذا وفق الممتحن للإجابة فى الفنون جميعها كتبوه فى الدرجة الأولى وإذا أجاب فى أكثر الفنون نال الدرجة الثانية ، وإذا لم يصل

إلى الأكثر بل آجاد فى النصف فقط أخذ الدرجة الثالثة، وتصدر له شهادة ترسل إلى المعية الخديوية للتوقيع عليها ، وتخلع عليه فرجية وشريط مقصب ، ويدفع عند السفر نصف الأجرة فقط حين يقدم هذه الشهادة التى منحت له ! هذا ولا يمتحن فى العام أكثر من ستة طلاب ، فإذا تقدم أكثر من هذا العدد كان الترجيح فى الاختيار لاعتبارات هامة مثل التقدم فى السن أو الشهرة بالعلم ، والوجاهة فى مجتمع الطلاب!

سار الامتحان على هذا النحو ، فى عهد على مبارك ولم يطرأ عليه من التغير ما يعصف بجوهره ولكل شئ آفته ، ومن ذا الذى ترضى سجاياه ، فقد كانت بعض الأغراض الشخصية تتدخل فى تقدير الممتحن وقد تميل به إلى الفوز دون استحقاق أو الهبوط الظالم دون جريرة ، وهذا ما لم يذكره على مبارك تأدباً منه حذر الإساءة لمن يسميهم أهل الفضل ، ولكن الشيخ سليمان رصد الحنفى ، ذكر فى كتابه الشهير «كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر» مظهراً من مظاهر التحيز الصارخ ، يوم امتحان الشيخ محمد عبده ، إذ تقدم لنيل الدرجة العلمية بعد أن ذاعت آراؤه الإصلاحية فى التعليم ومجالسته لجمال الأفغانى وتشبعه بآرائه الفلسفية وقد روى عنه أنه أفتى برأى للمعتزلة يخالف رأى الجمهور ، فثار عليه الشيخ عليش شيخ المالكية ، واستدعاه ، وسأله كيف تقلد المعتزلة فقال له الشيخ ببسالته المعهودة إذا كنت تركت تقليد الأشعرى فلن أقلد المعتزلة لأنى صاحب اختيار أتبع قوة الدليل ! فغضب الشيخ عليش وانتصر له محبوه ، وفى يوم الامتحان أصر الشيخ وله مقامه المشهود على إسقاطه يقول صاحب (كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر) ص ١٦٧ .

«كان امتحان الشيخ محمد عبده مناظرة لا اختبارا ، وكان بعضهم قد حلف بالطلاق أنه لن يأخذ درجة التدريس ، وأصر على على ذلك ، ولكن الشيخ العباسى شيخ الأزهر قال : إنه لم يمتحن أمامه مثله ، وطلب إعطاءه الدرجة الأولى ، وتعقد الموقف ، وقام أحد المشايخ وكتب له الدرجة الثانية ، وختم الورقة ، ومر بها على المشايخ فوضعوا أختامهم من بعده ، فوافقهم الشيخ العباسى كرها» .

وإذن فلم يخل الامتحان من غرض، والذين يذكرون هذا الامتحان فيما كتبوا من تاريخ الأستاذ الإمام ينحون بالسخط الشديد على الشيخ عليش ، ويعدونه رمز الجمود ، والحق أن الرجل لا يتبع الهوى ولكنه يعتصم بما يراه الحق ، وقد كان موقفه شجاعاً فى الثورة العرابية إذ كان أول من أفتى بمروق الخديو توفيق وحين أخفقت الثورة وهو على فراش المرض الأخير لقى أقسى الإهانات ، ورمى به إلى قصر العينى فلم يجد من يسعفه ثم



رميت جثته وكأنه حيوان لا إنسان ' وهذا ما قرره على مبارك نفسه فيما جاء بالخطط التوفيقية ' وقد ذكرت ذلك من قبل في مجلة الهلال !

الحالة الاجتماعية

وفق على مبارك في تصوير الحياة الاجتماعية لطلاب الأزهر تصويراً لا يتاح إلا لمن لابس هذه الحالة ملابسة ذاتية ، ولعله اختار من كبار الأساتذة من وصف له الأمر وصفا تاما ، فقد ذكر من عادات طلاب الوجه البحرى أنهم يذهبون إلى بلادهم أثناء العام الدراسى وبخاصة فى فترة الإجازات المتعارفة حينئذ ومنها إجازة مولد السيد البدوى وشهر رمضان فيأتون بالمؤونة المناسبة ، وفيهم من يأتيه زاده الشهرى بوساطة القادمين من القرى إلى القاهرة لزيارة الأولياء ، وأكثرهم يسكنون بالأزهر نفسه لقلة المتاع ، وينشرون الخبز فى صحن الجامع كى يجفف بحرارة الشمس كما ينامون فى الصحن صيفاً وفى الأروقة والمقصورات شتاء لتجنب البرد ، والذين يسكنون خارج الأزهر فى حجر متواضعة زهيدة الأجر يباشرون ما يتطلب من الأعمال الضرورية كطبخ الطعام ، وغسل الملابس ، وطعامهم المعتاد هو الفول المدمس والكرات ، أما أهل الصعيد فيأتون بمؤونة تكفى لنصف العام من خبز مقدد بالنار وسمن وجبن ودقيق ، كل بحسب مقدرته ، وإذا فرغ الزاد كتبوا لأهليهم كى يرسلوا ما يتيسر ، ويسكنون الرواق الخاص بالصعايدة ، ويظلون تسعة أشهر دون سفر للأهل نظراً لبعد المسافة ، وقد يتزوج الطالب أثناء زيارته السريعة ويترك زوجته فى حمى أمه وأبيه حتى يعود بعد عام فى الزيارة القادمة فينفقوا عليها كأنها ابنتهم ، ومنهم من يظل طيلة أعوام الدراسة بالقاهرة دون أن يزور أهله فى العطلات السنوية فإذا انتهى من الزيارة بعد أخذ الدرجة كتب لأهله كى ينتظروه بعد هذا الأمد الطويل فيتلقونه بالزغاريد وإقامة الأفراح ! وأهل الصعيد أكثر تقشفا من أهل الوجه البحرى ، ويختلفون فى الزى - ما عدا العمامة - تبعاً لاختلاف بلادهم ، وأهل الثراء منهم على قلتهم النادرة يلبسون الثياب المفرجة (الواسعة) من الجبب والقفاطين والشرابات فى أرجلهم مع الأحذية الجيدة .

هذا عن المصريين ، أما أهل الأقطار الخارجية من الهنود والسنارية (السودان) والأتراك فهم أنعم عيشا من المصريين ، وأنظف ثياباً ، إذ لهم مرتبات مالية تكفى وتقنع ، كما يحملون من بلادهم نقوداً كثيرة ، والفقير منهم قليل . ويأتون كبار السن فوق العشرين ، وأكثرهم يسكن أروقة الأزهر مع النظافة فى المأكل والمفرش، وإذا قلت نقودهم تيسرت لهم من تبرعات الأمراء

والموسرين لأنهم ضيوف !

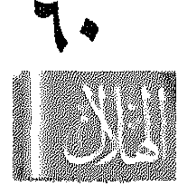
ومن عادة أهل الشام إذا أتم أحدهم رسالته الدينية وعزم على السفر أن يقيم مأدبة حافلة لأصدقائه وأساتذته المختارين ، فتوقد الشموع بالرواق طيلة الليل ويطاف عليهم بالقهوة والشربات ، وتلقى القصائد فى وداع المسافر العزيز ، وكلها تنويه بعلمه وما أحرزه من النجاح وما يرجى له مستقبلا من خدمة الدين ونشر حقائق الإسلام !

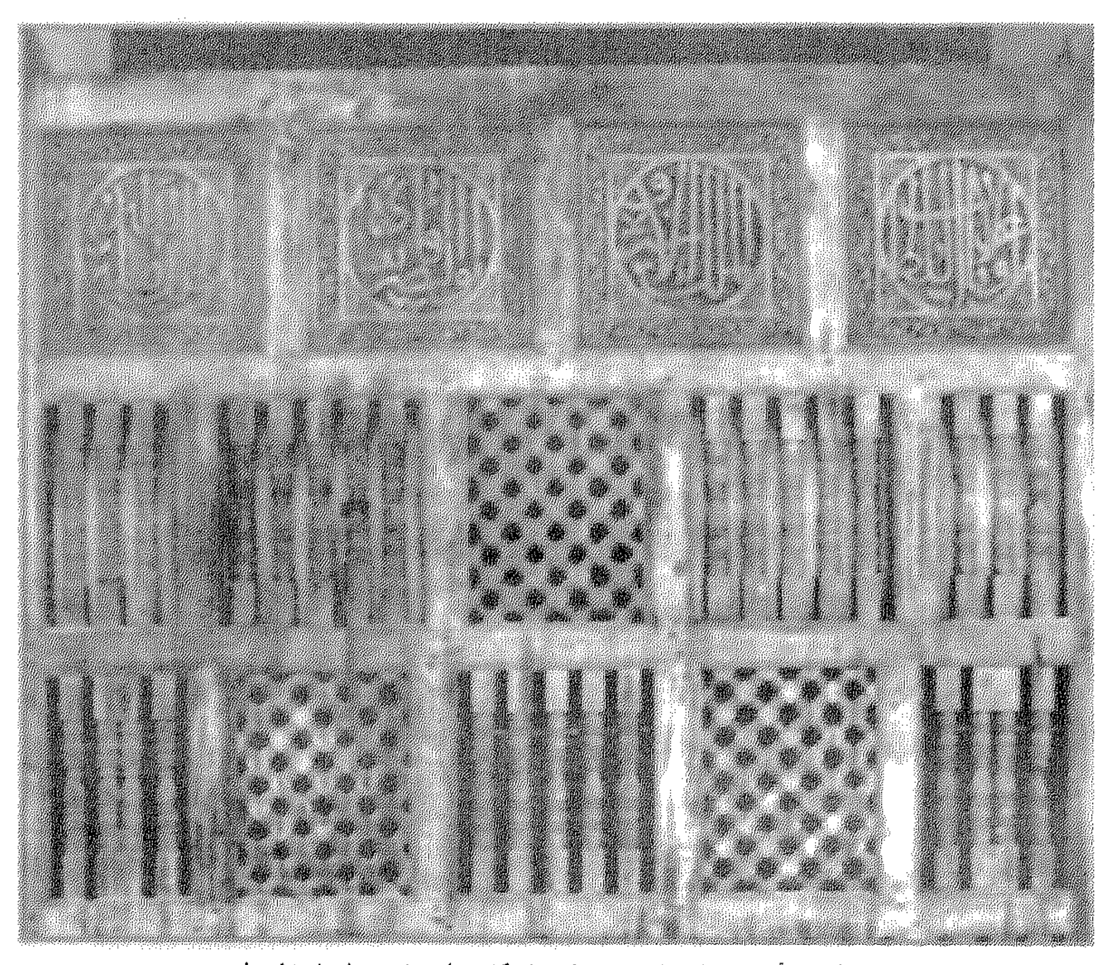
كما أن من عادة الطلاب - مصريين وغير مصريين - أن يحتفلوا بانتهاء المقرر آخر العام فيأتوا بالمباخر والقماقم يفوح منها الطيب ، وروائح العطور وذوو اليسار يحضرون الفواكه والفطائر الصغيرة . ثم يبدأ الحفل بتلاوة شىء من كتاب الله ، ويرش الماء المورد أثناء القراءة وينثر عليهم اللوز والتمر ، فإذا انتهى الحفل هرعوا جميعا لتقبيل يد الشيخ الذى قام بالتدريس ومنهم من يلقى القصائد فى مديحه !

وإلقاء القصائد ظل متوارثا حتى أيامنا ، وفى كتاب البدائع للدكتور زكى مبارك قصيدة ألقاها من نظمه فى ختام دروس الشيخ يوسف الدجوى بالأزهر إذ كان الأستاذ مدرسا للمنطق وكان الطالب من نابغى التلاميذ ولعلى شاركت فى مثل ذلك حين كنت طالبا بمعهد الزقازيق وقد نسيت ما نظمت ، ولكنى قابلت بعد عشرين عاما أحد أساتذتى فذكرنى بقصيدتى ، فجاملته مجاملة طبيعية ، وقلت آسفاً إن القصيدة فقدت منى فقال : هى لدى ، وتفضل بإرسالها ، وقد استرسلت فى هذه الناحية لأقول إن طالب القسم الثانوى كان ينظم القصائد المقبولة بالأمس وأكثر مدرسى اليوم لا يستطيعون قراءة القصيدة صحيحة ! فاللهم غفرانك .

على أنى لمست فى كتاب (الخطط التوفيقية) عطفا وتسامحا كبيرا فى تراجم من تحدث عنهم من علماء الأزهر ، فهو يخلع عليهم أحسن الألقاب ، ويعزو إليهم كثيرا من الفضائل وينقل عن الجبرتى فيما تحدث به عنهم فى عصره ، فيحذف النقدات الجارحة التى لم يكن الجبرتى يتحرز منها ، مع أنه أزهرى صميم ! ولكن وجهة هو موليها ! على أن على مبارك لم يكن يكتفى بما قال الجبرتى بل أخذ يبحث عن الأحفاد ليأخذ عنهم ما لم يبلغه من غيرهم ، ففى ترجمته للشيخ حسن العطار ، ذكر أنه لم يجد عنه ما يشفى الغلة ، ثم علم أن ابنه «أسعد» لا يزال على قيد الحياة ، فاتصل به ووجد لديه ترجمة لوالده جمعها له «بعض فضلاء الوقت ممن سمع منه أو نقل عنه أو وجد مكتوبا مشتتا فى مؤلفاته» وإذن فالرجل لم يترك جهداً ما فى كتابة كل ما يعينه من أمور البحث الدقيق !

وبعض الذين يهولهم كثرة مؤلفات





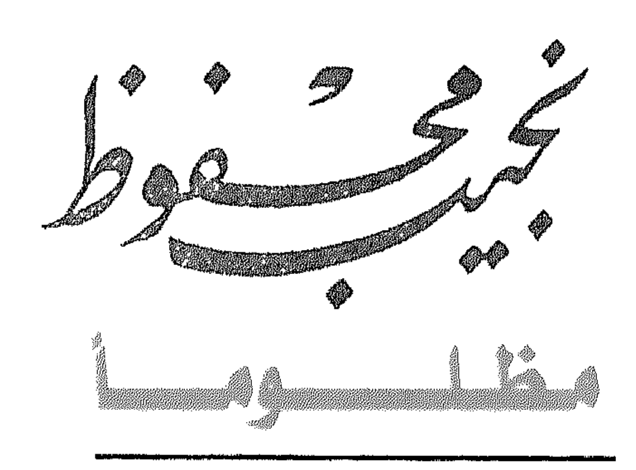
لم يكن الأزهر منارة للعلم فقط ، بل كان طرازا معماريا خاصا

الرجل الكبير يقولون إن غيره من العلماء قد ساعده فى تأليفها ، وذلك احتمال قد يرد ، ولكنه لا يغمط فضلا لرجل حارب فى كل اتجاه ، وكتب فى مجالات شتى من فنون القول ، فلو خلص له مما كتب نصفه لكان مثالا رائعاً فى البحث والتنقيب ، ونحن نرى الآن من الأساتذة الكبار من يستعينون ببعض تلاميذهم فى مباحث شتى ، ولا تكون هذه الاستعانة موضع نقد يوجب التشهير ، والمرء قليل بنفسه !

أعظم ما آلمنى فى حياة على مبارك أنه تلقى أزمات كثيرة فى حياته دون أن يكون أحد أسبابها ، ولكن تعاقب ذوى الأمر على الدولة كان بعض الدواعى الحافزة لاضطهاده ، إذ يغضب التالى على كبار موظفى الحكومة لأنهم كانوا عون سالفه، وهم فى الواقع كانوا عون الأمة ، وبناة نهضتها ، وقد كان يقابل الموقف بشجاعة صابرة ، ويقوم بما يوسد إليه مهما انخفضت درجته عن كفايته ، وكأنه أحد الذين خاطبهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بقوله :

وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه
ليطحن لا يعنيه حلو ولا مر





بقلم
مصطفى الحسينى

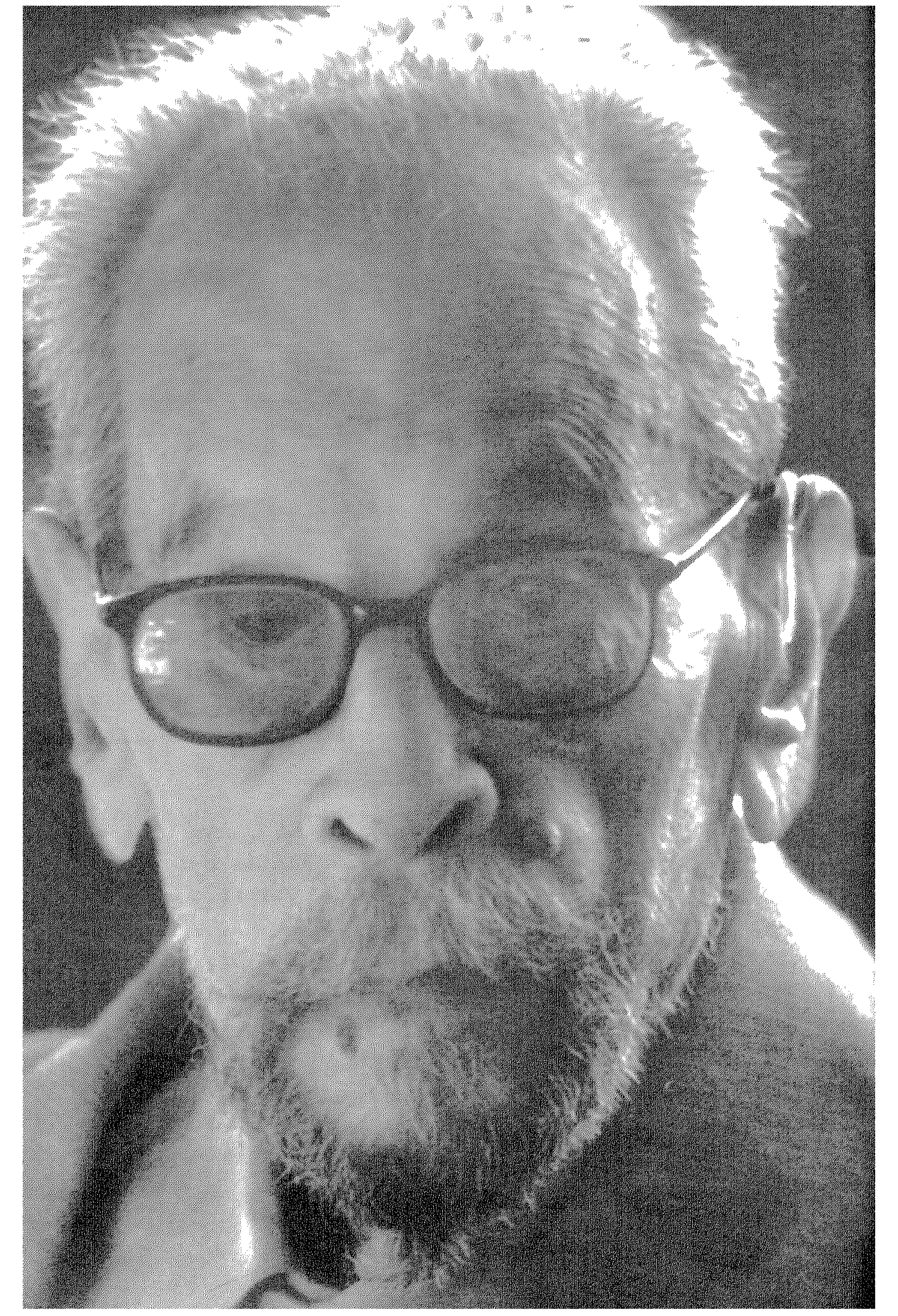
بلغ نجيب محفوظ التسعين. أطال الله عمره وبلغنا أمنية الاحتفال بمئويته بحضوره.

احتفلت القاهرة - وربما غيرها، بتسعينيته، أو حاولت. الأرجح أن الثانية هى الأقرب إلى الصحة. لأن الاحتفال جرى كأنه احتفال بأيقونة، دون لياقة الاعتذار لمحتفى به.

- ١ -

لا يحتفى بكاتب له قامة نجيب محفوظ بمقالات التقريظ والإشادة بمآثره. إنما يحتفى به بنظر جديد فى مجمل عمله وأثره، خصوصاً وأنه قد أعلن أنه «ختم» قوله. حتى لو كان القول الأخير تدللاً منه، أو تعبيراً عن سأمه بما أخذ به نفسه من نظام دقيق يعينه على الكتابة، أو عن ملل إحساسه بأنه ما عاد قادراً على التعامل مع العالم الذى امتد به العمر ليعيش فيه غير قادر على معايشته بقدر ما تغيرت معالم العالم ووتيرة الزمان. أو عن رغبة فى أن ينفض يده من ما كتب عليه - حرفة الأدب، بعد أن أخذت بناصية حياته لما يزيد، ربما كثيراً، عن معدل الأعمار فى بلده. لا حصر ولا نهاية للدوافع الممكنة لقول مثل ذلك القول، يصدر عن رجل مثله.

أى شىء إلا أن يكون معينة قد نضب.



المهم في هذا السياق أننا إذا آخذناه بقوله، فإن كتلة أثره تصبح بيدنا وبيد التاريخ. ولا يجوز أن يفوتنا أنها مادة الحفاوة به.

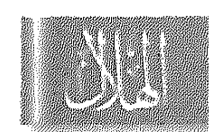
الحفاوة الصحيحة والمفيدة تكون بنظر جديد في هذا الأثر. النظر الجديد ليس بالضرورة إعادة نظر، أي معاودة تقييم ما سبق أن قيل فيه، يستوى إن كان نحو تأكيده أو مده على استقامته، أو الإضافة إليه أو تقويمه. فالنظر الجديد ريادة: التنقيب فيما لم يسبق اكتشافه أو كشفه.

هناك مجالات أخرى: منها مكانه في الحياة العامة للبلاد. رأى النقاد بعض أثرها في عمله؛ المرئى من ذلك الأثر والمخفى، المنطوق والمهموس، البارز والغائر، الطافي والغاطس في التلافيف. هل يمكن تتبعها في حياته اليومية والاجتماعية والجارية التي عاشها كما يعيشها غيره من الناس، والتي لابد أنه عاشها بحساسية تختلف عن حساسية عامة الناس؟

هناك مجالات أخرى، منها الكشف عن مصادره ومنابعه فوق ما كشف منها. منها تتبع تأثره بمن سبقه وجايله وعاصره من المفكرين والأدباء وغيرهم من أصحاب الفنون، والرسم والنحت والتمثيل والغناء وغيرها. ألم تكن جماعة انتقاها من هؤلاء هم صحبة حياته؟ ألم يكن ما اصطحبت به حياة القاهرة من صخب الفن والثقافة والنجوى والهمس به - على مدى قرن كامل أو يزيد، باعتبار أن ما سبق ميلاده لحق به في صباه وشرخ شبابه - بعض مادة ذاكرته الواعية وبعض منابع الحساسية التي أسهمت في تشكيل وجدانه ووعيه ومنها تسربت إلى ما قرأنا له؟

من تلك المجالات استكشاف أثر ما عاصره من تغيرات الحياة في أدبه ورصد ذلك الأثر وتحليله. تغيرات الحياة لا تقتصر على ما يعنى السياسة و«أوضاع البلد» على نحو ما يشيع بين عامة الكتاب، إنما تشمل ما جرى في «أحوال الدنيا» في القرن العشرين الذي هو قرن حياة نجيب محفوظ. ما جرى على تلك الأحوال لا يقف عند الأحداث الكبرى التي هي سياسة في الأساس: حروب ومنازعات وصراعات وتحالفات ومسالمات. إمبراطوريات قائمة تنهار وترثها أو تشغل حيزها من الجغرافيا والتاريخ إمبراطوريات أخرى أو دول ودويلات عدة. دول ومجتمعات وشعوب تنقسم على نفسها أو تقسم رغما عنها وقد تعود إلى وحدتها أو تعاد أو لا تعود ولا تعود. دول تنشأ وغيرها

● أخطر ما في الاحتفال بنجيب محفوظ هو تحويله إلى مجرد أيقونة دون اعتذار للمحتفى به.



تضمحل... إلى آخر ما عندك وما هنالك من هذا القبيل. إلا أن هذا النوع من التغير الذى يقع كله فى أفق «السياسة» - على خطره - لا يعدو أن يكون أثرا لتغيرات أخرى أكثر عمقا ونتيجة من نتائجها. التغيرات الأبعد غورا هى ما توفر للإنسان من مزيد معرفة بالكون وما فيه وما يعتمل فى غير المنظور من مكوناته. تلك التغيرات الأكثر عمقا هى التى أسهمت بالدور الأكبر فى تكوين التغيرات السياسية التى هزت العالم وفى صياغتها على النحو الذى شهده الناس ورصده التاريخ، هى ما لحق بمنظومات القيم ومفرداتها، ما غير معايير الأخلاق ومقاييس المنطق، ما خطأ ما كان صوابا وصوب ما كان الإجماع أو الغلبة منعقدين على خطئه. ما حرم ما كان مباحا وأجاز ما كان مستهجنا وربما حبذه .

شهد قرن نجيب محفوظ كثيرا من ذلك، بل ما يفيض منه عن طاقة المتابعة والإدراك، ناهيك عن الاستيعاب. وذلك كفيل بأن يكون منبعا لاستثارة لا تجافى فضلا عن أن تقاوم. كما أنه قد يكون مصدرا لاضطراب عظيم يعصف ببعض المستقر فى حياة المجتمعات وأفرادها .

ولا ريب أن بعض ذلك قد جرى على الكاتب المبدع مثل ما جرى على غيره من الناس وفوق ما جرى عليهم وأعمق أثرا .

ومن يدقق سيجد من ذلك أبوابا تؤدى إلى ما تنفتح عليه الأبواب.

أليس ذلك أجدى على تاريخ الأدب وأخصب فى صناعة النقد وفنه وأكثر فائدة لأجيال من الكتاب ناشئة وآتية وأولى بإعانتنا على فهم أنفسنا ومجتمعنا الذى نسجت أعماله من بعض خيوطه على نحو ما أمسك بها؟

***

- ٢ -

غير أن أمر النحو الذى جرى به الاحتفال بنجيب محفوظ أخطر فى دلالته على نظرنا إلى حياتنا وما نأخذ به من طرق وما نعتمد من قيم، أخطر من مجرد القصور فى الحفاوة بحياة كاتب كبير مثله. فأسلوب تلك الحفاوة ليس إلا واحداً من أعراض ذلك النظر. درجنا على تحويل أشخاص تاريخنا - خصوصاً فى فصليه القريب والمعاصر - إلى أيقونات ورموز للسوء والشر؛ نتعبد أمام هذه ونلعن تلك. والحصيلة أن هؤلاء الأشخاص التاريخيين جميعاً معبودون وملعونون فى الوقت نفسه بحكم ما يتميز به النظر إلى التاريخ من خلاف وانقسام. وفى الأحوال كلها معبودون أو ملعونون دون عمق نظر ولا جهد تمحيص ولا فسحة للجدل.

التاريخ أحداث تقع للناس وعليهم فى المكان والزمان. وهى أحداث متصلة فى عمق ما تحت سطحها الظاهر، حتى وإن بدت منفصلة أو متباعدة. وقيمة

التاريخ فى عبرته التى يعوقها التصنيم والترميز.

***

فى تاريخنا الحديث استولى على ألبابنا ما زعمنا فى كتب تاريخنا أنه محاولة محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر بناء «مصر حديثة». لم نتوقف لنفحص حاجة البلد إلى تحديث أو لحاق بالعصر قوامه مشروع عسكرى توسعى. لم ننظر فى شرعية حروب الاختيار» التى شنها محمد على على الدولة العثمانية. لم ننظر فى جدواها بالنسبة للمشروع الذى ننسبها إليه؛ هل أفادت البلاد أم ألحقت بها الضرر؟ هل كان صاحب المشروع يدرك ما ننسبه إليه؟ أم أن هدفه لم يكن يعدو إقامة مملكته «المستقلة» عن الباب العالى؟ على ماذا يدل «الكسب» الأكبر الذى حصل عليه فى التسوية التي أعقبت هزيمة جيشه - أن يبقى حكم مصر فى سلالته؟

هذه كلها وغيرها كثير لم يلتفت إليه كتاب تاريخنا الحديث الذى يكتفى بأسطورة أن محمد على كان يريد «تحديث مصر» و«اللحاق بالعصر». لكن «القوى الخارجية» تآمرت عليه وقضت على المشروع العظيم.

ثم تحولت الأسطورة إلى أيقونة تحكمت بتاريخنا اللاحق.

***

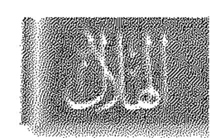
أعجبتنا وقفة أحمد عرابى أمام الخديوى توفيق وأسرتنا محاولته الباسلة لمواجهة الغزو البريطاني للبلاد. تحول أحمد عرابى إلى أيقونة بينما كان يستحق ماهو أفضل من ذلك وأجدى علينا فى التاريخ. كان يستحق أن ندرس فى تجربته النواقص التى أدت إلى فشلها وهزيمتنا. لكننا جعلنا من الرجل العظيم مجرد أيقونة، إن تمثلنا بها كان سعينا إلى الديمقراطية مجرد وقفة تتكرر عند احتدام الأزمات؛ هبات فى وجه حكام مستبدين، لا يبقى منها إلا الرمز. وإن تمثلنا بها فى الحرب، حدث لنا ما حدث فى حروبنا جميعاً منذ «الثورة العرابية» كما يسميها ذوو الرصانة من المؤرخين، أو «هوجة عرابى» كما سماها الفلاحون. حروب دون خطة للنصر ولا خطة للتراجع المنظم عند الانكسار ولا خطة للتفاوض بعد انتهاء الحرب بالانتصار أو الانكسار.

وهكذا..

هذا بعض وجه من مشكلتنا مع الوعى بالتاريخ. وربما ذلك يتحول تاريخنا إلى عبء علينا بد أن يكون لنا عبرة ومرشداً.

وسنرى مثل ذلك فى تعاملنا مع شخص نجيب محفوظ ومع

الاحتفال بنجيب محفوظ يكون بالنظر الجديد في مجمل عمله والكشف عن مصادره ومنابعه



أدبه، خصوصاً منذ حصوله على جائزة نوبل.

قبل حصوله على الجائزة، كنا نتعامل مع أدبه دون شخصه. في هذا عدل لكل أديب .

لكن حدثا جسيما في تاريخنا المعاصر - زيارة أنور السادات للقدس وما ترتب عليها ، دفعت بعضنا إلى التعامل مع « شخص» نجيب محفوظ. لم يكن في هذا بذاته جور عليه. فهذا شأن «الشخص العام وحاله عندما يتعرض مباشرة للقضايا العامة، خصوصا عندما تكون من قبيل ما للموقف من إسرائيل من خطر. فقد أيد نجيب تلك الزيارة صراحة ودافع عنها . يمكن القول إنه عندئذ وضع نفسه في مدار الانقسام الوطني من حوله. ولم يحاول إنصافه أي من الذين أخذوا عليه موقفه ذاك ولا من الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن ذلك الموقف، إنصافه بالبحث في تاريخ جيله من نخبة المثقفين عن ما «يؤصل» لموقف من هذا القبيل. خصوصا أنه لم يكن فريدا في هذا السياق. على الدرب ذاته كان غير قليل من صفوة جيله من الذين يمكن تمييزهم بمنظور مختلف عن المنظور «القومي العربي» إلى انتماء مصر الثقافي وهويتها، يذكر منهم على سبيل المثال: توفيق الحكيم ، حسين فوزي وطه حسين ولويس عوض وغيرهم .

محاولة التأصيل من هذا المنظور كفيلة بالارتقاء بالجدل حول الموقف من الصهيونية ومشروعها ومن إسرائيل ومن التزام مصر بالقضايا العربية من مستوى الجدل حول هذا الشخص أو ذاك إلى مستوى البحث في تيار من الثقافة المصرية تشربت منه أجيال ومازال ذا وجود وأثر في حياتنا.

أدى غياب ذلك «التأصيل» بالذين طالما نظروا إلى نجيب محفوظ باعتباره راوية الوطنية المصرية، إلى أن أخذوه بأعنف الكلام والاتهام.

كما أدى الغياب نفسه بهم إلى ابتلاع كلامهم واتهامهم ما أن حصل الراوية على جائزة نوبل.

حوته الجائزة إلى «أيقونة»، حتى في أعين شانئيه!

وكان الاحتفال ببلوغه التسعين مناسبة ملائمة لإنصافه بتأصيل موقفه ذاك في التيار الذي ينتمي إليه وانتمى إليه كثرة من صفوة أبناء جيله، والتعرض لذلك التيار من ثقافتنا وتاريخها بالنقد الذي يضعه في مكانه الصحيح بين الصواب والخطأ.

لكن «الأيقونة» ضيعت فرصة ماتزال واردة، على أي حال.

ولا يعزى عن هذا التقصير القول الصحيح بأن ما يبقى من نجيب محفوظ للتاريخ هو ما أبدع من أدب. لكن هذا الأدب لا يستوفي ما يستحق من فهم دون وضعه في سياق التيار الثقافي الذي انتمى إليه صاحبه.

وقد يصلح هذا موضوعاً مستحقاً لمؤتمر من المؤتمرات الكثيرة التي يعقدها المجلس الأعلى للثقافة أو غيره من المؤسسات. ■







تأملات فى عالم علاء الأسوانى

بقلم
د. جلال أمين

ها هو الدكتور علاء الأسوانى يعطينا هدية أخرى، هى مجموعة ممتازة من القصص القصيرة بعنوان «نيران صديقة» نشرتها له دار ميريت للنشر منذ أسابيع قليلة بعد أن أهدانا من قبل روايته الممتازة أيضا «عمارة يعقوبيان».

وبعد أن قرأت هذه المجموعة الجديدة من القصص القصيرة تبين لى كم كان علاء الأسوانى موفقا أيضا فى اختيار عنوانها، فهاتان الكلمتان البسيطتان «نيران صديقة» تحملان دراما بشرية كاملة.

أن يموت الإنسان أو يصاب لا بيد عدوه بل بيد صديق أو قريب كان المتوقع أن يقدم له الدعم والعون فإذا به يكون هو مصدر عذابه أو موته.

هذا هو بالضبط موضوع أكثر قصص هذه المجموعة. ففى قصة بعد أخرى نجد أن مصدر عذاب البطل وشقائه صديق قريب إلى قلبه أو زملاء له فى نفس الفصل فى المدرسة، أو أستاذ قديم له فى الكلية كان المنتظر أن يقدم له العون على مصاعب الحياة فإذا به يكون مصدر هوانه وذله، بل قد يكون مصدر العذاب فى القصة، الأم أو الأخت أو الزوج. معظم القصص تدور إذن حول نوع

أو آخر من القسوة، والقسوة تصدر في معظم الأحوال عن أشخاص كان المفروض أن يكونوا أصدقاء أو محبين فإذا بهم، وعلى غير المتوقع، لاتصدر منهم إلا «نيران صديقة».

ليس هناك جديد بالطبع في أن تدور قصة حول القسوة من الأقرباء أو الأصدقاء، فما أكثر القصص المشهورة التي تدور حول صورة أو أخرى من القسوة الصادرة من زوج أو زوجة، من أخ أو أخت، أم أو أب أو عاشق أو معشوق لايرجع تميز هذه المجموعة القصصية إذن إلى مجرد تناولها لهذا الموضوع، فما هو السبب الحقيقي لتميزها؟

هناك أولا امتلاك علاء الأسواني للقدرة على الحكي الناجح للقصة، التي أثبتها بجدارة في رواية «عمارة يعقوبيان» ومعرفته بما يسمح به شكل القصة القصيرة ومالا يسمح به، وامتلاكه لناصية اللغة العربية دون أي تقعر، مع القدر اللازم من روح الدعابة، والضروري حتى في أكثر المواقف مأساوية. كل هذا واضح ومفروغ منه، ولكن الجدير الآن بالذكر هو ما يلاحظه قارىء هذه القصص القصيرة من أن مصدرالقسوة فيها (كلها تقريبا) ليس سببا عارضا أو استثنائيا، بل هو مصدر ثابت ومشترك بين الناس جميعا، أو يكاد يكون كذلك.

إن هذا القاسم المشترك بين كل حالات «النيران الصديقة» في هذه المجموعة، هو في رأيي مايضفي عليها جاذبية وقوة لايمكن الفكاك منها. القسوة من الاقرباء والأصدقاء ليست صدفة، ولاشيئا عارضا، بل نابعة من أعماق النفس البشرية، ومن ثم فهي أكثر عمومية وانتشارا بكثير مما قد نظن. فلأضرب على هذا مثلا أو مثلين من هذه القصص في قصة «حصة الألعاب» قد تبدو المشكلة في البداية بسيطة جدا لاتتجاوز حالة سمنة مفرطة بُلي بها أحد التلاميذ، وتمنعه من الاشتراك في الألعاب الرياضية خوفا وهلعا من الاضطرار إلى ارتداء الملابس الرياضية التي تكشف سمنته المفرطة بكل أبعادها أمام كل العيون. ولكن مدرسا جديدا للألعاب، لايتحلى بنفس حساسية المدرسة السابقة، يجبره على ارتداء ملابس الرياضة، وكان هذا وحده كافيا لإطلاق كل المشاعر الخسيسة والدنيئة لدى بقية التلاميذ ليس بين هؤلاء التلاميذ أي شخصية أكثر سفالة من الآخرين، فكلهم تلاميذ عاديون، ولكن لديهم كلهم استعداد طبيعي للإفادة، من مصائب الآخرين، ومجاراة أقرانهم في العبث والسخرية من أي زميل سيىء الحظ. إنهم ليسوا مجموعة من السفلة بأي حال من الأحوال، إنهم فقط شياطين صغار ينهشون الفريسة إذا وقعت، ويمارس كل منهم قدراته وإمكانياته على

حسابها. حاول التلميذ المسكين (واسمه الدواخلى) كل الأساليب لإنقاذ نفسه من هذا المصير، بالامتناع عن ارتداء ملابس الألعاب مرة، وبالضحك مرة، وبالقيام بدور المهرج الذى يسخر من نفسه مع الساخرين مرة فباءت كل جهوده بالفشل وتنتهى القصة كما يلى:

«توقف الدواخلى عن المشى، وطوّح ذراعيه بقوة ليضربنا، لكن ضرباته طاشت كلها، فأخذ يحدق فينا وفتح فمه ليقول شيئا .. ثم ارتعشت شفتاه وأجهش بالبكاء».

***

فى قصة أخرى بعنوان «أختى الحبيبة مكارم» ليس هناك أكثر من خطاب من رجل إلى أخته. هو يعمل، مع زوجته، مدرسين فى إحدى بلاد النفط فى الخليج، بينما الأخت مكارم تسهر على رعاية أمهما المريضة فى القاهرة. وتفهم من الخطاب أشياء كثيرة أخرى، أهمها أن الأخت كتبت لأخيها تطلب منه مساعدة مالية تمكنها من نقل الأم إلى مستشفى خاص حيث إن الرعاية مفقودة فى المستشفى المجانى، فجاء رد شقيقها وثيقة رائعة للتدليل على دناءة كاملة مغلفة بعبارات النفاق والتدين الكاذب. القسوة هنا من ابن على أمه، ومن أخ على أخته، فهى نيران «صديقة» تماما، ولكنها أيضا، وهذا هو الشىء المهم فى نظرى،. والذى يجعل لهذه القصة تأثيرا مضاعفا فى نفس القارىء، لاتعبر عن شىء عارض أو حالة استثنائية. الرجل كاتب الخطاب وغد بلاشك، ولكن ما أكثر الأوغاد الذين سافروا للعمل فى دول النفط أو غيرها، أو بالأحرى ما أكثر من سافروا إلى دول النفط بغية ادخار بعض المال ليحلوا به مشكلة حقيقية، فحولّهم تراكم المدخرات إلى أوغاد، ولابد فإنهم كتبوا لذويهم خطابات كثيرة من نوع خطاب «أختى الحبيبة مكارم».

***

مجموعة قصص علاء الأسوانى

تضعنا إذن وجها لوجه أمام مواقف شديدة القسوة، ولكنها بكل أسف شائعة فى حياتنا وإن كنا لانحب عادة الاعتراف بوجودها، انظر مثلا ذلك المنظر المرعب فى قصة «الذى اقترب ورأى» حيث تقترب الجدة العجوز من الأم المريضة بالسرطان وهى راقدة على سريرها، وقد فقدت شعرها بسبب أدوية السرطان فغطت رأسها بمنديل لإخفاء ماحدث، وقد ظهرت على وجه الجدة ابتسامة وشغف «كذلك الذى يلوح على وجه طفل يقدم على لعبة مثيرة فيها خطورة ومتعة. دنت جدتى حتى حاذت أمى الراقدة ولم تأبه لصياحها الذى تعالى، وانحنت عليها ومدت يدها وجذبت المنديل عن رأسها فانكشف عاريا، ونظرت جدتى لأمى وقالت بصوت واضح

(الله، هو راح فين شعرك؟) ولما دخلت عليها بعد لحظات كانت أمي تعوى بالبكاء وتصرخ (إنت إيه اللي معيشك لحد دلوقتي؟ موتي بقى وريحينا).

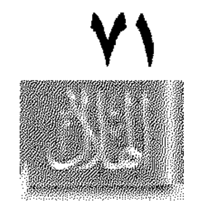
لايمكن أن تترك مثل هذه الصور من صور القسوة هذا الأثر البالغ القوة فى نفوس قارئيها، لولا معرفتهم بأن هذه الصور موجودة بالفعل فى الحياة، وبكثرة، وليست على نحو استثنائى أو لسبب غير مألوف، بل لأسباب تتعلق بما يسمى أحيانا «بالحالة الإنسانية» أو الطبيعة البشرية، التى تتسم بجوار جوانبها البالغة القوة والجمال بجوانب أخرى شديدة القبح والسفالة.

☆☆☆

هناك قصص قليلة أخري، تتعلق بالقسوة أيضا، ولكنها ليست قسوة إنسانية قليلة، بل القسوة فى نظام الكون، كحتمية حلول الشيخوخة محل الشباب، أو استحالة استعادة الماضى الجميل بعد حلول الموت، أو استحالة أن يعيش المرء حياة طبيعية بعد أن يصاب بعاهة مستديمة كفقد ساق أو ذراع، هكذا يصوِّر لنا علاء الأسوانى فى قصة «مدام زتامنديس .. صورة أخيرة» مايفعله الزمن بالإنسان ، وفى قصة «جمعية منتظرى الزعيم» استحالة استعادة الماضى، وفى قصته البديعة «عزت أمين اسكندر» استبسال الإرادة الإنسانية فى مواجهة قدر قاس، حيث يحاول هذا الطالب من طلاب الصف الأول الإعدادى، أن يعيش حياة طبيعية بين زملائه وكأنه لايختلف عنهم على الرغم من فقده لساقه فى حادث، فيحاول ركوب دراجة بعكازه وساقه الصناعية التى يغطيها بنطلون المدرسة.

☆☆☆

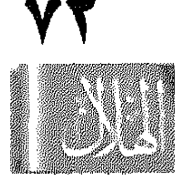
كان طبيعيا تماما أن يذكِّرنى بإعجابى واستمتاعى بهذه القصص بإعجابى واستمتاعى القديم بقصص يوسف إدريس فرحت استعيد بعض قصص يوسف إدريس فى ذهنى، وأعدت قراءة بعضها. لم يكن يوسف إدريس مشغولا بهذين النوعين من القسوة، بل كان مشغولا بنوع مختلف تماما، وإن لم يكن يقل عنهما ضراوة وإيلاما. كان يوسف إدريس مشغولا بقسوة النظام الاجتماعى، بما يمكن أن يصنعه الفقر بالناس، وما يمكن أن يولده الانقسام الطبقى بين فئات بالغة الثراء وأخرى بالغة الفقر، من مساخر ومتناقضات تجلب الضحك أحيانا والدموع أحيانا أخرى، أو الضحك والدموع معا، وقد تجلت عبقرية يوسف إدريس على الأخص فى تصوير هذه المساخر والمتناقضات الناتجة عن الفقر والانقسام الطبقى، ووجد بين يديه فى مصر، فى منتصف القرن العشرين، معينا لاينضب وكنزا زاخرا بموضوعات لقصص وحكايات لاتنتهى تدور كلها تقريبا، على الأقل فى السنوات العشر



الأولى من انتاجه ،أى من مطلع الخمسينات إلى مطلع الستينات، حول هذا الوضوع. ولكن شيئا مهما كان قد حدث خلال هذه الفترة .كانت ثورة ١٩٥٢ قد قامت، وفعلت ما فعلت فى التقريب بين الطبقات وإزالة المرتفعات الشاهقة من الثراء وردم الحفر السحقية من الفقر. صحيح أنه لم يمض على قيام ثورة يوليو ٥٢ وقت طويل حتى بدأت عوامل جديدة تعمل على إعادة التناقضات الاجتماعية من جديد وظهور مظاهر للتفاوت الشديد فى أنماط الحياة، قد لاتقل فى مساخرها عما كنا نعرفه قبل ١٩٥٢، ولكن يبدو أن شيئا مهما يميز هذه المساخر الجديدة عن المساخر القديمة.

إذا أردت أن تتعرف على بعض هذه الفوارق المهمة فلتقرأ رواية علاء الأسوانى «عمارة يعقوبيان» التى ظهرت منذ ثلاثة أعوام (عن دار ميريت أيضا ثم عن مدبولي) نعم هناك تناقضات اجتماعية صارخة تجلب الضحك والدموع معا، ولكن هناك فارقا مهما بين التناقض الاجتماعي عند علاء الأسواني وبينه فى عالم يوسف إدريس، كان الفقير فى عالم يوسف إدريس، الذى يمثل فى الواقع فقراء ماقبل ١٩٥٢، يائسا تماما من أى إصلاح، فاقدا تماما لأى أمل فى أن يأتى المستقبل بشيء مختلف عن الماضى. أما الفقر فى عالم علاء الأسوانى، فى نهاية القرن العشرين، فهو وإن لم يكن بنفس ضراوة فقر ماقبل ١٩٥٢، فإنه مع ذلك أكثر مرارة، إذ أنه جاء مقترنا بخيبة أمل شديدة، خيبة أمل المتعلم الذى كان يظن أن الشهادة الجامعية ستجلب له وظيفة محترمة فلم تجلبها له، وخيبة أمل الفتاة المصرية الشريفة بطبعها فاضطرت، رغم ذكائها وطموحها وشهادتها المتوسطة، إلى قبول الزواج من شيخ عجوز هو الوحيد الذى أبدى لها بعض العطف الحقيقى، وذلك بعد أن فقدت حبيبها الحقيقى الذى هزمه النظام الاجتماعى والسياسى الجديد هزيمة ساحقة.

لم يكن ثمة مفر أمام قصصى مصرى موهوب بعد مرور ٥٠ عاما فى مصر منذ قيام ثورة يوليو، إلا أن يصف التناقضات الطبقية فى صورتها الجديدة، وهو مافعله علاء الأسوانى ببراعة فى «عمارة يعقوبيان»، ولكن كان من المفهوم أيضا أن يلقى بنظره إلى مساخر وتناقضات أبعد وأعمق وأكثر دواما من التناقضات الطبقية، فإذا به يجد كنزا آخر لاينضب فى مختلف مظاهر القسوة التى يتسم بها الإنسان حتى فى أحواله الطبقية جدا، إزاء أصدقائه وأقرب المقربين إليه، ناهيك عن مختلف مظاهر القسوة التى يتعرض لها الإنسان باستمرار من نظام الحياة والموت. ■





● «لم يكن عجيبا أن يعبد المصريون فرعون، ولكن العجيب أن فرعون آمن حقا بأنه إله»

الأديب نجيب محفوظ

● «الإنسان لا يتعرف على نفسه كشخصية وهوية ما لم يشعر أن له فردا أو جماعة، امتدادا فى المكان والزمان»

المفكر المغربي عبدالسلام بنعبد العالي

● «لا يكتب لأى عمل فنى النجاح إذا لم تكن فيه حصة للأجيال القادمة»

علاء بشير
فنان تشكيلي عراقي

● «أغلب نقادنا العرب، لا يعرفون كيف يقرأون قصيدة»

الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي

● «الرجل العربى لا يحقق انتصاراته إلا على المرأة»

الأديب المصري عبدالسلام العمري

● «العنف يبدأ فى الرؤوس ، قبل استخدام الفؤوس»

عالم النفس السلوكي ف . ب سكيني

● « اللجوء إلى القرآن الكريم لإرهاب الآخرين أمر غير مقبول على الإطلاق»

عبدالله بدوي
رئيس وزراء ماليزيا

● «عانيت كثيرا فى حياتى، والآن أعانى أشد من ذلك فى الكتابة عنها»

بيل كلينتون
الرئيس الأمريكي السابق

● «حتى يفوز العراقيون علينا أن نخسر»

دافيد بروكس
صحفي بالنيويورك تايمز

● «الأمم المتحدة تتناول طعامها على الواقف، توزع المسكنات والضمادات للشعوب المنكوبة والأقطار التى ضربها الزلزال»

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

● «الاعتراف بالآخر ضرورة وجود، ولو تجردنا من أثر الغرب سنخرج للشارع عرايا»

المفكر اللبناني علي حرب

● «رأيت أمى تحارب وظهرها «للحيطة» للحائط، ومع ذلك فازت رغم كل الصعاب»

راؤول غاندي عن انتصار حزب أمه سونتا في انتخابات الهند الأخيرة


مريد البرغوثي


بيل كلينتون


سميح القاسم



الحمام ومناهج التقدم والتخلف

بقلم

د. نبيل حنفى محمود

لم يكن نهار الأحد الثاني والعشرين من شهر فبراير الماضى قد انتصف، حين هاتفت الأستاذ/ مصطفى نبيل: رئيس تحرير «الهلال» لأمر متعلق بمقالى فى عدد مارس ٢٠٠٤م من «الهلال»، باغتنى سؤال رئيس التحرير فى ختام الحديث: هل طالعت ماكتب عن الحمام فى «الهيرالد تريبيون» مؤخراً؟، فأجبت بالنفى وأنا فى حيرة مما رمى إليه رئيس التحرير بسؤاله هذا، وعندما طالعت ماكتبته مارى بوشيه تحت عنوان «التاريخ المقدس للحمام الزاجل» فى عدد الجمعة ٣٠ يناير ٢٠٠٤م من «الهيرالد تريبيون»، تضاعفت حيرتى وازدحم عقلى بأسئلة اختزلتها فى سؤالين بعد التدبر والتفكير، تبلور السؤال الأول فى الصيغة التالية: ماالذى جذب الأستاذ مصطفى نبيل لقراءة موضوع كهذا؟، وأما ثانى الأسئلة... فان عقلى طرحه بالنص التالى: أى دافع حفز «الهيرالد تريبيون» لتقديم موضوع كهذا وفى ذلك التوقيت؟، إن الإجابة عن هذين السؤالين هى موضوع المقال الحالى.

يعد الحمام من أكثر ما ذكر في الكتب - علمية كانت أو أدبية - من طيور الأرض، وذلك لتعدد ما حبا الخالق عز وجل به هذا الطائر من مزايا، نذكر للوهلة الأولي من هذه المزايا حسن الطعم وبديع الشكل وجميل الصوت، وهو أحد طيور الفصيلة الحمامية من جنس كولامبا Co-lumba ونوع بالمبس Palumbus، وينتشر الحمام في جميع بقاع الأرض وإن كثر في المناطق الحارة والمعتدلة، ومن أشهر أنواعه: حمام الغابة Wood Pi-geons- اليمام البري Wild Doves ويمام الصخر Rock Doves، ومن المعروف أن يمام الصخر هو أهم هذه الأنواع، لأن استئناسه أنتج للبشرية كل أنواع الحمام الأليف.

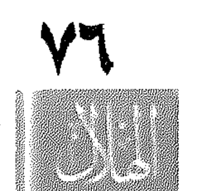
إن أهم ما حوته حافظة الكتب من حقائق علمية وتاريخية عن الحمام، هو ما كان من اتخاذه وسيلة لنقل الرسائل أو البريد السريع، فقد ألهم الحمام الإنسان بقدرته الفذة على العودة لعشه كي يستخدمه فى نقل الرسائل، إذ يمكن للحمام الصغير الذى تربى فى عش خاص ونقل بعيدا عنه لمسافات طويلة النجاح فى التوصل لمكان عشه إذا ما أطلق من الموقع الذى نقل إليه، وهو ما أثبته كمال الدين: محمد بن موسى الدميرى (١٣٤١ - ١٤٠٥م) فى معجمه الشهير «حياة الحيوان الكبرى» بقوله: ومن طبعه (أى الحمام) أن يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ. ويحمل الأخبار ويأتى بها من البلاد البعيدة فى المدة القريبة. وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ فى يوم واحد» (الدميرى: حياة الحيوان الكبرى - طبعة كتاب الجمهورية - ١٩٩١م - ص٤٤٦)، وتأتى بعد ذلك سرعة الحمام لتكون السبب الثانى فى اختياره لحمل الرسائل، حيث تبلغ سرعته فى المتوسط ما بين ٤٨ و٩٦ كيلومترا فى الساعة، والسرعة القصوى التى سجلت لحمام الرسائل تبلغ ١٥٣.٤٤ كيلومتر فى الساعة (موسوعة المعرفة ص ١٩١٢)، إن أحدا لا يستطيع الجزم الآن بمن وأين ومتى بدأ استخدام الحمام فى نقل الرسائل، وإن كانت جمهرة مفسرى القرآن الكريم قد أجمعت على أن نبى الله نوح - عليه السلام - هو أول من أرسل الحمام فى مهمة من بنى البشر، حيث تقول روايات المفسرين إن نبى الله نوح أطلق حمامة بعد توقف الطوفان لتبحث عن أرض تصلح لرسو سفينته ، فعادت الحمامة لنبى الله حاملة فى فمها غصنا من أغصان شجرة الزيتون (شمس الدين محمد بن أحمد القرطبى الجامع لأحكام القرآن - طبعة دار الغد العربى - ١٩٨٩م - المجلد الرابع - ص ٣٢٦٣)، ولكن الثابت فى مصادر التاريخ الإسلامى أن صاحب دمشق. السلطان نور الدين محمود ابن زنكي والذى توفى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م هو أول من اتخذ حمام الرسائل من الملوك (أبو الفداء إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية - طبعة دار الغد العربى - ١٩٩١م - المجلد السادس - ص ٨٠٤)، وقد شهد العصر المملوكى تنظيم نقل البريد بالحمام بين أطراف الدولة المصرية، حيث امتدت شبكة حمام الرسائل فيما بين القاهرة وقوص (عاصمة الصعيد) ودمياط والاسكندرية ومدن الشام الكبرى وحتى نهر الفرات، ومما يفهم من حديث تقى الدين المقريزى فى الجزء الثالث من خططه أن الرسائل التى يحملها الحمام كانت غالبا من ورق خفيف وتوضع تحت جناح الطائر، ولقد استدعى تنظيم البريد فيما ذكره المقريزى أن ينقل الحمام الرسائل لمسافات محددة بين مراكز معدة لذلك، ولكن التاريخ يحفظ أخبارا من

حمائم طارت عائدة إلى أعشاشها لمسافات لا يصدقها العقل، ومن ذلك ما حدث في الخامس عشر من شهر يونيه سنة ١٩٣٢م، عندما أطلقت حمامة من مدينة آراس الفرنسية (إلى الشمال الشرقى من باريس)، لتصل إلى عشها فى سايجون بفيتنام بعد أربعة وعشرين يوما اجتازت خلالها ١٠٦٤٠ كيلومترا (فى خط مستقيم على الخريطة)!، لقد عمل الحمام بنقل الرسائل خلال قرون طوال من تاريخ الانسانية وحتى إلى ما بعد منتصف القرن العشرين المنصرم، وبالرغم من أن وسائل الاتصالات الحديثة حلت الآن محل الحمام فى نقل الرسائل والمعلومات، فإن الحمام مازال يطير حتى الآن فى أنحاء متفرقة من العالم ميمما صوب عشه، حيث حل سباق الحمام الآن محل نقل الرسائل، وغدا سباق الحمام رياضة محببة فى كثير من دول أوربا وأمريكا، وبالرغم من أن الأرض أصبحت الآن كتابا مفتوحا أمام عدسات الأقمار الصناعية والطائرات، إلا أن قدرة الحمام العجيبة على العودة فى كل الظروف إلى عشه مازالت مثار تساؤل العقل البشرى، فأولتها مراكز البحث فى كثير من دول العالم المتقدم قدراً كبيراً من الاهتمام، لأغراض قد يكون الخفى منها أكبر من الظاهر، ولعل فيما نشرته صحيفة الأهرام فى عدد السبت ٢٢ مايو ٢٠٠٤ ما يكشف السر وراء اهتمام الغرب باستجلاء تلك القدرة لدى الحمام ، يقول الخبر المنشور بالأهرام إن الوثائق السرية البريطانية التي كشف عنها مؤاخرا أوضحت أن وزارة الطيران البريطانية خططت في إثناء الحرب العالمية الثانية لتدريب الحمام على حمل كبسولات محملة بالبكتيريا و الهبوط بها في أرض العدو. لقد شكلت تلك الأبحاث عن قدرة الحمام إضافة هامة لعلم سلالات الطيور، وإن فى عرض نتائج البعض من الأبحاث التى أجريت فى تلك المراكز لاستقصاء أسباب تلك القدرة لدى الحمام عرضا مبسطا هنا، إن فى ذلك ما يكفى لإحاطة القارئ علما بسمات منهج التقدم الذى رفع الغرب إلى المكانة التى يحتلها الآن .

منهج التقدم

حظيت دراسة أسلوب الحمام فى العودة لعشه باهتمام واسع فى الدراسات التى أجريت على سلالات الطيور بدول الغرب، حيث ألهم التراث المتداول من حكايات لا حصر لها عن عودة الحمام إلى عشه فى ظروف قاسية وعبر مسافات شاسعة العديد من العلماء أفكاراً لتجارب أجريت لاستجلاء كنه غوامض تلك القدرة، وقد تم خلال هذه التجارب تطوير العديد من الطرق الدقيقة لاختبار الكيفية والسمة المميزة لمختلف وسائل الاستشعار التى يمكن للحمام الاستعانة بها.

قدم جولد Gould فى عام ١٩٨٢م، وصفاً لنمط عودة الحمام إلى عشه، فقال بأن الحمام يدور عند إطلاقه محلقا عدة مرات حول مكان الإطلاق، ثم يوجه الطائر نفسه بعد ذلك فى اتجاه مستقل ليطير فى مسار مستقيم نسبيا ومبتعداً عن موقع إطلاقه، يقول جولد بأن الاتجاه الأولى الذى يتخذه الحمام عند طيرانه مبتعداً عن موقع إطلاقه يتفق وبدقة مع الاتجاه الحقيقى لموقع العش، ولا يظل هذا الاتجاه ثابتا مع تكرار إطلاق نفس الطائر من موقع الاطلاق ذاته لأكثر من مرة، تم إطلاق اسم الاتجاه الزائل Vanishing bearing على الاتجاه الأولى الذى يتخذه الحمام فى طريق عودته لعشه، ومن الأهمية بمكان القول بأن قيمة الاتجاه الزائل عند موضع ما أثناء طيران الحمام يختلف بمقدار طفيف عن الاتجاه الحقيقى للعش عند هذا الموضع، ويعرف هذا



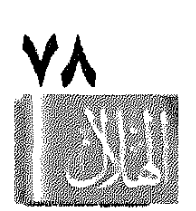
الاختلاف عند كل موضع على طول مسار طيران الحمام على أنه ميل أو انحراف موقع الاطلاق، أثبت جولد أن معظم التجارب التى أجريت على عودة الحمام لعشه قد اعتمدت على واحدة أو أكثر من طرق الاستشعار الخارجي الملائمة لطيران الحمام، ويعد استخدام الحمام لموقع الشمس وحاسة الشم والشواهد الأرضية بالاضافة إلى المجال المغناطيسي للأرض أكثر ما تناولته تلك التجارب من طرق الاستشعار بالدراسة، وباستخدام القياسات المشار إليها قبل ذلك هنا مع بعض القياسات الآخرى، فإنه يمكن تحديد مدى إسهام كل طريقة من هذه الطرق تجريبيا فى نمط عودة الحمام الى عشه .

بدأت التجارب التى أجريت على استخدام الحمام للشمس كوسيلة استشعار منذ بداية خمسينيات القرن العشرين، ففى عام ١٩٥٠م قام كرامر Kramer بتدريب مجموعة من الحمائم على كيفية استخدام الشمس لتحديد موقع للطعام فى اتجاه معين، وعندما عكس كرامر صورة الشمس مستعينا على ذلك بمجموعة مرايا، فان ذلك تسبب فى انحراف توجه الحمام نحو موقع الطعام، وفي تجربة أخرى... وجد هوفمان Hoffmann آن الحمام يستخدم الشمس لتحديد الاتجاه بتناسق مع ساعته الداخلية، والساعة الداخلية هى التى تعطى الكائن الحي الاحساس بتعاقب الليل والنهار، فعندما قام هوفمان بتغيير توقيت استيقاظ الحمام بتعريضه لضوء صناعى، فيما يعرف بطريقة تغيير الساعة الداخلية، فإنه وجد أن اتجاه عودة الحمام قد انحرف بمقدار ١٥ درجة فى مقابل تغيير قدره ساعة واحدة فى توقيت استيقاظ الحمام، وقد فسر هوفمان هذا الانحراف فى اتجاه الحمام بأنه يعادل الفرق بين الوضع الزاوى الحقيقى للشمس والوضع الذى استنبطته ساعة الحمام الداخلية، ونتيجة لما قدمته تجربة هوفمان من حقائق، فان ماتيوس Matthews قال فى عام ١٩٥٣م بأن الحمام يعيد اتجاه موقعه باستقراء قوس الشمس لتحديد مدي ارتفاع الشمس فى الموقع الذى أطلق منه، ومن ثم يقارن الحمام بين ارتفاع الشمس فى هذا الموقع وبين الارتفاع المختزن فى ذاكرته لشمس منتصف اليوم فى مكان عشه، فإذا كان ارتفاع الشمس فى موقع الاطلاق أعلى منه فى مكان العش، فان ذلك يعنى للحمام أن موقع إطلاقه يكون إلى الجنوب من مكان العش!، أي أنه يجب أن يتوجه فى عودته لعشه باتجاه الشمال!، وأما إذا أحس الحمام بأن ارتفاع الشمس فى موقع الاطلاق أدنى من مثيله الذى يذكره فى مكان العش، فان ذلك يترجم لدى الحمام بأن موقع الاطلاق يحل شمالا من العش!، وهو ما يوجب أن يكون اتجاه العودة الزائل نحو الجنوب!، وتستمر نظرية ماتيوس بعد ذلك فى تحديد الوجهتين الأخريين - الشرق والغرب - لعودة الحمام، فتقول النظرية بأن الشمس إذا ما ظهرت منخفضة فى السماء طبقا لساعة الحمام الداخلية، فإن الطائر يدرك أن موقع عشه يكون إلى الشرق من مكان إطلاقه، وأما إذا كانت الشمس مرتفعة، فإن ذلك يدل على أن موقع العش يكون إلى جهة الغرب، وبالرغم من أن نظرية ماتيوس أسست على فروض لها من القوة والاقناع ما يسمح بفهم أدق لنمط عودة الحمام، إلا أن نتائج اختبارها الذى تم على يد كيتون Keeton فى عام ١٩٦٩م أوضحت أن هذه الفروض بعيدة عن الصحة، وأن الحمام الذى غيرت ساعته الداخلية.. استخدم الشمس كاتجاه وليس كإحداثيات ثنائية الأبعاد من أجل استشعار الاتجاه!، وبقول آخر فإن الحمائم التى غيرت نمط

استيقاظها نجحت فى الاتجاه الذى يجب أن تسلكه عائدة لعشها، ولكن التأثير الوحيد لتغيير توقيت استيقاظها تمثل فى عدم تمكنها من تحديد اتجاه العودة بدقة .

فى مجال استخدام الحمام لحاسة الشم كوسيلة استشعار لتحديد طريق العودة إلى العش، فإن نتائج التجارب المتاحة حاليا تكشف أن حاسة الشم تمثل قانونا حرجا فى الدوال المؤسسة لخريطة الحمام الملاحية، فى البداية وقبل الحديث عن التجارب، فإنه من المهم الحصول على إجابات حول كيف ولماذا تتغير الروائح بيئياً أثناء الطيران؟، إن ذلك يحدث بسبب الفروق البيئية، وهى فروق تنشأ من اختلاف ديناميات الغلاف الجوى بين موقع وآخر، مما يجعل الإحساس بالروائح بدرجات أكبر أو أقل من مكان لآخر مصدراً للمعلومات الملاحية التى يستخدمها الحمام أثناء طيرانه، وللتدليل على ذلك .. فإنه إذا افترض أن الحمام الايطالى يتميز عن الحمام الألمانى فى سباق العودة إلى العش، فإن إطلاق الحمام الايطالى فى ألمانيا وإطارة الحمام الألمانى فى إيطاليا سوف يظهران فروقاً فى أداء نوعى الحمام، إن نتائج تجربة كهذه تدعم افتراض كيتون الذى طرحه فى عام ١٩٧٤م، وينص هذا الفرض على أن العوامل البيئية وبالأخص الروائح البيئية تصلح لأن تكون أساساً للمعلومات المطلوبة لخريطة الحمام الملاحية التى يطير بهديها.

لم يلق الدور الذى يمكن أن يلعبه الاستشعار البصرى فى عودة الحمام إلى عشه اهتماما مماثلاً لما لقيته أنواع أخرى من الاستشعار، وكان مرد ذلك لنتائج بعض التجارب القديمة، فعندما جهز الحمام فى تلك التجارب بعدسات مكسوة بالثلج وبما يضمن تحييد الاستشعار البصرى، فان الحمائم التى شاركت فى تلك التجارب تمكنت من العودة إلى أعشاشها بدقة كبيرة!، وعندما وضعت نتائج تلك التجارب إلى جانب الحقيقة المعروفة من أن للحمام القدرة على العودة إلى عشه من مناطق لا يعلم شيئاً عن معالمها الأرضية، فان ذلك كان دافعاً لصرف التجارب على عودة الحمام إلى اتجاه آخر، بيد أن ماجاءت به بعض التجارب الحديثة مؤخراً من نتائج، جعلت الاستشعار البصرى لدى الحمام يأخذ من جديد مكاناً لائقاً على خريطة البحث فى هذا المجال، نذكر من هذه التجارب الحديثة ... تجربة أجراها شابيل وجويلفورد Chappell & Guilford فى عام ١٩٩٧م. لاختبار قدرة الحمام على استخدام شواهد أرضية أثناء بحثه عن الطعام داخل مبنى مغلق، حيث أظهرت نتائج التجربة أن الحمام يستطيع بالفعل أن يستدل بشواهد أرضية خلال بحثه عن الطعام، وذلك شريطة أن تكون تلك الشواهد ثلاثية الأبعاد أى مجسمة وليست ثنائية الأبعاد كالصور مثلا!، وفى نفس العام - ١٩٩٧م - جاءت نتائج تجربة أخرى أجراها بيرت Burt وآخرون لتؤكد نتائج شابيل وجويلفورد، فى تلك التجربة ... أتاح بيرت وفريقه البحثى للحمام مشاهدة موقع إطلاقه لمدة خمس دقائق وقبل أن يطير منه عائداً لعشه، ثم قارن بيرت ومن معه من باحثين سرعة عودة مجموعة الحمائم التى شاهدت الموقع قبل إطلاقها بالسرعة التى حققتها مجموعة أخرى لم تتح لها فرصة مشاهدة موقع الاطلاق، فأظهرت النتائج أن مجموعة الحمائم التى شاهدت موقع الإطلاق قبل الطيران قد قطعت المسافة إلى العش بسرعة أكبر من سرعة المجموعة التى لم تر موقع الإطلاق قبل التجربة بحوالى ١٦٪، لذلك أمكن للباحثين القول بأن الشواهد الأرضية المرئية تعد عنصراً من عناصر قدرة الحمام



على تبين طريق العودة ، ولو أن أنواع الشواهد الأرضية والسمات المميزة لها - والتى يعتمد الحمام عليها فى إنشاء خريطته الملاحية - لم تتضح بعد للباحثين.

ألهمت قدرة الحمام فى العودة إلى عشه بصورة جيدة حتى فى الأيام الغائمة التى تختفى فيها الشمس الكثير من الباحثين بالعديد من الأفكار، ومن هؤلاء الباحثين ويليام كيتون William keeton الذى قال فى عام ١٩٦٩م بأن الحمام يستخدم الشمس فى الأيام المشرقة لاستنباط المعلومات الاتجاهية المطلوبة لعودته إلى عشه، وأضاف كيتون إلى ذلك أن الحمام لابد وأنه يحوز ثمة إحساسا ثانويا بمساره، وقد افترض كيتون أن هذا الإحساس يمكن أن يكون بمجال الأرض المغناطيسى، ولتأكيد نظريته ... قام كيتون فى عام ١٩٧١م بلصق قضيب ممغنط على جسم كل حمامة من مجموعة حمائم أطلقت لتعود إلى عشها، وقد أظهرت التجربة أن الحمائم التى حملت القضيب الممغنط فشلت فى العودة إلى العش عندما أطلقت من مواضع إطلاق مجهولة لها قبل التجربة وفى جو معتم وملبد بالغمام، وقد نجحت هذه المجموعة من الحمائم - المزودة بالقضيب الممغنط - فى العودة إلى العش أثناء الأيام المشرقة وبالرغم من حدوث مشاكل بسيطة فى طيرانها، لذلك يمكن القول بعد هذه التجربة أن المجال المغناطيسى للقضيب الممغنط الذى تحمله الحمائم يتداخل مع نظامها الطبيعى للملاحة الجوية، مما جعل كيتون يستنتج أن الحمام يعتمد على نظامى توجيه أثناء طيرانه ، الأساسى منهما يعتمد على موقع الشمس والثانوى يستلهم المجال المغناطيسى للأرض، وقد أوضح كيتون أخيراً ومتفقاً فى ذلك مع مجموعة أخرى من الباحثين، أن التوجيه المغناطيسى فى الحمام يعد فطريا ، وأن الحمام يستخدم التوجيه المغناطيسى لتقويم أو معايرة التوجيه الشمسى خلال عودته لعشه، مما يعد تفسيراً لإخفاق الحمائم الصغيرة فى استخدام التوجيه الشمسى لتحديد المعلومات الاتجاهية خلال رحلتها الأولى، وذلك لقصور خبراتها ولعدم طيرانها قبلا بواسطة تحسس المجال المغناطيسى (جولد ١٩٨٢ ، كيتون ١٩٧٤)، إن التجارب التى تمت خلال العقود الثلاثة الماضية على الاستشعار المغناطيسى لدى الحمام لاحصر لها ، وهى تجارب استهدفت على سبيل المثال دراسة التأثيرات المحتملة لوجود مجال مغناطيسى صناعى ولحدوث العواصف المغناطيسية على قدرة الحمام فى استنباط خريطة فضائية Spatial map يستهدى بها فى ظروف الأجواء الماطرة أو الملبدة بالغمام ، قامت تلك التجارب أيضاً بالربط بين التغير فى خصائص المجال المغناطيسى الأرضى وبين التغير فى الاتجاه الزائل لحمام التجارب، بل وحاولت تلك التجارب أن توضح أيا من مركبات المجال المغناطيسى يستخدمها الحمام للاستدلال على الاتجاه، وبالرغم من ذلك فإن الحقائق الكاملة عن الاستشعار المغناطيسى لدى الحمام مازالت فى حاجة لمزيد من البحث والاستقصاء.

استخدم ولراف Wallraff فى عام ١٩٩٠م ماباحت به التجارب من نتائج لصياغة نظرية متكاملة حول اهتداء الحمام لعشه، قال ولراف بأن الدلائل تؤكد أن عناصر الخريطة الفضائية التى يستخدمها

الحمام لتحديد موقعه تجمع بين الاستشعار عن طريق الشم والشواهد المرئية والمغناطيسية، بينما يجيء إحساس الحمام بالاتجاه من موقع الشمس والمعطيات (المواصفات) المغناطيسية للموقع ، وبالطبع فان نظرية ولراف لاتقدم إجابات قاطعة لبعض علامات الاستفهام التى طرحتها بعض التجارب ، ومما لاشك فيه أن نتائج تلك التجارب التى تواصلت خلال النصف الثانى من القرن العشرين لم تقدم بعد تفسيرا نهائياً وحاسماً لقدرة الحمام الفذة فى الاهتداء لعشه، ولكن الشيء المؤكد الذى يمكن للمطلع على نتائج تلك التجارب أن يستخلصه ، هو أن تقنية تلك القدرة تعد أمراً بالغ التعقيد يتطلب مزيداً من الجهد والبحث لاستقصاء غوامض تلك القدرة التى تجعل الحمام طائراً أكثر سحراً ومنفعة.

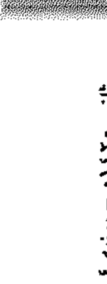
منهج التخلف

عندما حضرت فى مساء الخميس السادس والعشرين من شهر فبراير الماضى جلسة للعلاج بالحمام'، لمع فى عقلى بريق الفهم لما رمى به الأستاذ مصطفى نبيل من سؤالى عما كتبته «الهيرالد تريبيون» عن الحمام، وأدركت فى نفس الوقت الهدف المستتر وراء مقال «الهيرالد تريبيون» فى ٢٠٠٤/١/٣٠، وعرفت أيضاً سر اهتمام رئيس تحرير «الهلال» بقراءة مقال «الهيرالد تريبيون»، عقدت الجلسة التى حضرتها فى غرفة الاستقبال بمسكن جار لى يشغل منصباً مرموقاً فى أحد أجهزة الدولة الحساسة ، حين كنت أحملق - والأسى يملأ قلبى - إلى جارى الجالس على كرسى فى منتصف الغرفة، وهو يمسك بيده حمامة صغيرة نزع الريش من مؤخرتها ويلصق شرج الحمامة بموضع السرة من بطنه العارى، كان عقلى يحلق بعيداً خارج الغرفة يسترجع ماكتب بالصحف والمجلات عن موضوع العلاج بالحمام الذى شغلت به مصر والمصريون فى شهر يناير الماضى. ولما كنت أنفر من الغيبيات بطبعى وأعتقد فى حتمية المنهج العلمى بحكم عملى، فإننى لم أعر ماكتب عن حكاية العلاج بالحمام اهتماماً آنذاك. ولما انتهت جلسة العلاج «الحمامى» بالفشل ولم تنفق الحمامة كما يزعمون، فإننى غادرت مسكن الجار المكتئب لما أصاب كبده ، لأبحث عما نشرته الصحف والمجلات من موضوعات عن العلاج بالحمام، حيث وجدت فى التحقيق الذى نشر بالعدد رقم (٤١٣٥) من مجلة «المصور» الصادر فى ٢٠٠٤/١/٩م ما أسبغ فضولى، ناقش التحقيق الذى أعده الكاتب الصحفى «عزت بدوى» واختار له العنوان التالى : «لماذا تموت الحمامة؟!! - الخرافة والحقيقة فى علاج فيروس (سى) بالزغاليل!!» ما وصل إليه الأمر فى مجال البحث العلمى والطب بمصر وكثير من دول المنطقة ، بدأ التحقيق بالحديث عن مصدر الفكرة وصاحبها، فاذا به طبيب «متخصص فى علاج أمراض الجهاز الهضمى والكبد وعضو بجمعية مرضى الجهاز الهضمى والكبد والجمعية الطبية الأمريكية والأوربية وحاصل على ماجستير فى طب المناطق الحارة عام ١٩٧٦م» (المصور العدد ٤١٣٥ - ص ٣١)، قال الطبيب فى التحقيق المنشور بمجلة «المصور» إنه أخذ فكرة علاج المرضى بفيروس (سى) من أحد الأعراب المقيمين فى جنوب سيناء، ثم قام الطبيب المؤهل والدارس بعد أن تلقى طريقة العلاج الجديدة بتحويل عيادته بإحدى عواصم محافظات الدلتا لمعالجة مرضاه بأنثى (زغاليل) أى صغار الحمام، كانت الفكرة العبقرية للعلاج العصرى الذى أهداه البدوى

مقطوعا لطبيبنا الهمام تقوم على إلصاق فتحة شرج الحمامة التى نزع من حولها الريش ببطن المريض عند منطقة السرة، وإن هى إلا دقائق أو ثوان حتى تموت الحمامة جراء انتقال الفيروس اللعين - فيما يزعم الطبيب - من كبد المريض إليها، هنا يجد المرء نفسه فى مواجهة سيل من الأسئلة لايجد لها إجابة عند الطبيب وأستاذه الأعرابى، ولعل النماذج التالية من هذه الأسئلة تكشف للقارىء بعض الجوانب اللامعقولة فى علاج الطبيب والأعرابى، كيف يعبر الفيروس من كبد المريض إلى شرج الحمامة؟، لماذا يقتصر العلاج على أنثى صغار (زغاليل) الحمام؟، ألا تصلح الذكور لنفس المهمة؟، ولماذا ينفرد الحمام بين طيور الأرض بهذه الخاصية؟، ألا يصلح طائر آخر كالأوز أو البط ليحل محل الحمام فى علاج مرضى الكبد؟، أسئلة لا حصر لها لم يتوقف مريض - مهما بلغ علو مستواه الاجتماعي أو الثقافى - ليسأل نفسه أو الآخرين عنها، وإنما اندفعت الكثرة الغالبة من المرضى - الذين أهلكهم المرض وقضى علاجه الباهظ على مدخراتهم - تتعلق بعلاج رخيص كهذا ينأى بهم عن جحيم الأطباء وشركات الأدوية

لم يكن أمر العلاج الجديد ليمر هكذا دون أن تتصدى الجامعات وأجهزة الدولة المختصة لفحصه وبحث فكرته، وها هو الدكتور صالح محمود صالح . عميد معهد الكبد القومى بجامعة المنوفية يتحدث عن العلاج الجديد قائلاً : «إنه لشيء مهين على مهنة الطب فى مصر أن نتحدث عما يسمى بالعلاج لمرضى الكبد بالحمام، وأن ندخل فى جدل علمى حول (خرافة) ونحن فى بداية الألفية الثالثة» (المصور: العدد ٤١٣٥ - ص ٣٢)، وفيما يعد اتفاقاً فى الرأى مع عميد معهد الكبد ، تساءل الدكتور أحمد مسعود أستاذ أمراض الجهاز الهضمى والكبد بكلية طب الأزهر، «هل هناك عاقل واحد يصدق أن الحمامة تمتص الفيروس من كبد المريض؟» (المصدر السابق)، وجاء التفسير العلمى لحكاية العلاج بالحمام على لسان الدكتور أحمد شوقى العقباوى ، أستاذ الأمراض النفسية بطب الأزهر، تحدث الدكتور العقباوى ، فى تحقيق مجلة «المصور» قائلاً «إن هذا العلاج ليس سوى خرافة، ويمارسها طبيب متخصص ويقدمها في ثوب يسمى بالعلم الزائف، مستغلاً العقل الجمعى العربى الذى تسيطر عليه الخرافة باعتبارها مريحة وتعد بالخلاص السهل من أى أزمة، لأن المجتمع كله يسيطر عليه الفكر الخرافى والاستهواء وهو التصديق بدون مناقشة» (المصدر السابق)، وفى النهاية جاء رد الدولة على العلاج المزعوم متمثلاً فى قرار وزارة الصحة إغلاق عيادة الطبيب، وكان رد الأستاذ الدكتور عوض تاج الدين وزير الصحة حاسماً على من طالب الوزارة بالبحث عن الحقيقة في العلاج الجديد، حيث قال د. عوض تاج الدين: «لن نشكل لجانا علمية لبحث خرافات» (المصدر السابق).

عندما فرغت من قراءة السطر الأخير من تحقيق «المصور» ، أدركت أن ضياع فلسطين وسقوط العراق وما سيأتى بعد ذلك، لم يكن محض مصادفة أو عثرة تقال منها الأمة بالمظاهرات والشعارات، وإنما ما نحن فيه هو هزيمة حضارية بمعنى الكلمة وبكل ماتدل عليه، هزيمة حضارية لن تقوم لنا منها قائمة إلا بإطلاق روح الأمة الخامدة من خلال تطبيق منهج التقدم. ■



قراءة فى صفحات الوجع والمقاومة المصرية

بقلم
صافى ناز كاظم

فى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ - الموافق لشهر المحرم ١٢١٣ هجرى - ضربت مدينة الاسكندرية بالغزو البونابرتى ، الذى جاء على رأس حملة احتلال استمر ثلاث سنوات و ٢١ يوما من ١٧٩٨ حتى ١٨٠١ (من السبت ٩ صفر سنة ١٢١٣ هجرى حتي ليلة الجمعة ٢١ صفر سنة ١٢١٦ هجرى ، كما يذكر الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار» ، جزء ٢ ص ٤٨٠). تصدى حاكم الاسكندرية ، الشهيد محمد كريم ، للغزو فى بطولة مثالية انتهت باعتقاله وإرساله مخفوراً إلى نابليون بونابرت فحكم بإعدامه أو دفع فدية باهظة خلال ١٢ ساعة يقتل بعد انتهاء المهلة فوراً . هذا الحدث يرويه المؤرخ العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، قائلاً : «... فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه إلى مصر وحبسوه ، فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرات فلم يمكن ، إلى أن كانت ليلة الخميس فحضر إليه مجلون وقال له : المطلوب منك كذا وكذا من المال ، وذكر له قدراً يعجز عنه وأجله اثنتى عشرة ساعة ، وإن لم يحضر ذلك القدر وإلا يقتل بعد مضيها .

فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقى فحضر إليه بعضهم فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث وصار يقول : اشترونى يا مسلمون ، وليس بيدهم ما يفتدونه به ، وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشئ يصيبه .. .. فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة ، ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحاً وضربوا عليه البنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوه على نبوت وطافوا به بجهات الرميلة والمنادى يقول : هذا جزاء من يخالف الفرنسيس . ثم إن أتباعه أخذوا رأسه ودفنوه مع جثته . وانقضى أمره وذلك يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول » – (من سنة ١٢١٣ هـ الموافق ٦ سبتمبر ١٧٩٨ م) .

***

فى كتابه المرجع : « ... ودخلت الخيل الأزهر» يهدى محمد جلال كشك صفحاته إلى : «سليمان الحلبى بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر» – (الشهيد سليمان الحلبى ، قاتل المحتل كليبر ، الذى تم إعدامه على الخازوق على يد الفرنسيين ، ولقبه فى فرنسا حتى الآن هو الارهابى !) .

« ... ودخلت الخيل الأزهر » ، مجلد يقع فى ٥٣٤ صفحة من القطع الكبير ، إصدار الدار العلمية ببيروت ، سلسلة المكتبة السياسية ، طبعة أولى ذو الحجة ١٣٩١ ، يناير ١٩٧٢ ، مقسم إلى تسعة فصول ، غير خطبة الكتاب والمدخل والهوامش والمراجع . فى تقديم الكتاب يقول المؤلف «الخلاف حول تفسير التاريخ ليس ظاهرة ترف ، ولا هو مجرد خلاف حول تفسير الماضى ، بل هو فى الدرجة الأولى خلاف حول الطريق إلى المستقبل ... والأمم تهرع إلى تاريخها فى لحظات محنتها ، تستمد منه الإلهام والدعم النفسى ، بينما يلجأ خصومها دائما إلى تزييف التاريخ وتشويهه لتضليل الحاضر وإفساد الطريق إلى المستقبل .

والذين يروجون بعد هزيمة ١٩٦٧ للدور التحضيرى والتحريرى الذى لعبه غزو البلدان المتقدمة للشرق المتخلف ، هم فى الحقيقة يطرحون إجابة – غير مباشرة – للجماهير المعاصرة . وهذا الكتاب محاولة للكشف عن هذا التزييف لدعم اتجاه إعادة الثقة للأمة بمستقبلها»

***

تتميز كتابة محمد جلال كشك

بالحيوية التى تصل بك أحيانا كقارئ إلى حد الإرهاق ، كما تتميز بالحضور الوهاج الذى يجمع بين غزارة المعلومات ، وعمق التحليل ، والقدرة على الربط والمقارنة بين زوايا الرؤية ، والمبارزة الجدلية فى كل اتجاه مع خفة ظل حادة يعرف كيف يوظفها فى قفزات سريعة ويصوبها إلى مكانها المطلوب برشاقة ودقة متناهية . قراءة كتاب مثل « ... ودخلت الخيل الأزهر» هى فى حقيقتها معايشة كاملة لطقس وسخونة حدث الغزو البربرى الذى شنه نابليون بونابرته فى حملته على مصر صيف سنة ١٧٩٨ ، مسحوباً بكل توتره وآلامه وأوجاعه وغيظه إلى أحداث زماننا المعاصرة . وهى قراءة تعطيك إلماماً بكتابات أخرى لأمثال : الجبرتى فى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» وكريستوفر هيرولد فى «بونابرت فى مصر» والرافعى فى «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر» وألن مورهيد ، و د. لويس عوض ... الخ . يستعين بكل هؤلاء وغيرهم - كأنهم حاضرون فى راحة يده - مستشهدا بهم أو شاهداً لهم أو عليهم ، خارجاً فى كل مرة برؤيته الخاصة المخلصة مصقولة متلألئة ناصعة واضحة بلا أى التواء أو مواربة أو تحفظ . يكتب متلذذاً بالكتابة والقضية ، متحمساً ، فينتقل إليك الشغف مهما قاومته أو عاديته ، هو منغمس كل الانغماس فى موضوعه - كأنه سيكون آخر ما يكتب ، وأنت لابد منغمس معه كأن كتابه سيكون آخر ما تقرأ .

ولقد عانى محمد جلال كشك من لصوص النقل : هواة البحث المسلوق المسروق الذين استباحوا جهده ، واغترفوا بوفرة من مؤلفاته ، حصاد بحثه المضنى وخلاصات تحليلاته ورؤيته ، وتعاملوا مع مؤلفاته كأنها فولكلور مجهول المؤلف من حقهم أن ينشلوه بل وينهبوه من دون أن يطرف لهم جفن ، وقد كان هذا يحدث فى حياة الرجل ويشكوه إلىّ قائلاً : «ياريت حتى ينقلوا صح ..» ، أما وقد توفاه الله فى ٥ /١٢/١٩٩٣ فلكم أن تتصوروا ماذا يحدث عندما يخلو الجو للصوص .

***

كتب جلال كشك « ... ودخلت الخيل الأزهر» مستنفراً للرد بالحجة والتفصيل على المنحنى الفكرى الخطير للدكتور لويس عوض ، المعادى للإسلام والعروبة حضارة ودينا ، والدكتور لويس عوض قائد ماهر ثقيل الوزن للأوركسترا

الفرانكفونى الداعى لتغليب الثقافة الغربية لسحق الشخصية الإسلامية العربية لمصرنا المحروسة ، وكان قد شطح بالعزف التغريبى منذ زمن إلى ذروة اعتبار الحملة الفرنسية نقلة «حضارية» واعتبار الخائن المعلم يعقوب من رموز البطولة المصرية الساعية إلى تحريرها بمساندة الغازى الأجنبى .

وياليت جلال كشك كان معنا ليرى ما رأيناه عام ١٩٩٨ من احتفالات ورثة الخائن يعقوب بذكرى مرور ٢٠٠ سنة على دخول خيل بونابرته الأزهر التى يصفها الجبرتى ساردا « .. . وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر واستمر إلى المساء وأصدر بونابرت أمره إلى الجنرال بون بأن يبيد كل من فى الجامع . ودخلوا الجامع عنوة وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته . وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع .. والودائع والمخبئات بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه »

- الجبرتى ج ٣ ، مأخوذ من «ودخلت الخيل الأزهر» ص ٢٣٤

* * *

فى الفصل الثانى ، ص ١٢٥ يقول الأستاذ محمد جلال كشك تحت عنوان «نابليون والمهمة الحضارية» «رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التى صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية .. فإن نابليون كان صريحا وواضحا فى تحديد مهمته فى مصر عندما قال سأستعمر مصر ، وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين . إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيباً . ولو سارت الأمور سيراً طيبا ... لكان نابليون قد استورد المزيد من العمال والنساء . . ثم الفلاحين ... وهذا المخطط للاستعمار البشرى لمصر تحدث عنه نابليون صراحة فى مذكراته فى سانت هيلانة وهو يتحدث عن أحلامه فى مصر ، وما يمكن أن يحدث فيها من رخاء وتقدم بفضل ضبط مياه النيل وتضاعف عدد السكان أربع مرات بفعل المهاجرين الكثيرين من اليونان وفرنسا وإيطاليا وبولنده وألمانيا ..... لكن الأمور

لم تسر - لنابليون - سيراً طيباً لأسباب عديدة أهمها وأخطرها أن الشعب المصرى ، أن أولاد العرب ، أمة الإسلام رفضت المهمة الحضارية لنابليون .....» وهذه الجملة الأخيرة يقولها الأستاذ جلال كشك بتهكم شديد لأنه لم يكتب مؤلفه هذا «ودخلت الخيل الأزهر» ، إلا لكى يثبت كيف كانت مهمة نابليون وحشية ، عنصرية ، بربرية وأبعد ما تكون عن «المهمة الحضارية » ! بل إنه ص ١٣٠ يعمم الحكم حول : «... الازدواجية التى تتميز بها الثورية الغربية ، فهم ثوريون يتغنون بالأناشيد الثورية فى شوارع باريس ، بل وعلى ظهر البوارج الفرنسية، ... ولكنهم لا يجدون أى تناقض بين المقاطع التى تتغنى بالحرية والإخاء والمساواة والتى ترددها حناجرهم الجماعية وبين ذبح الشعوب غير الفرنسية واحتلال بلادها ونهب ممتلكاتها .. هذه الازدواجية ، هى التى مكنت أوروبا من إنجاز تطورها فى اتجاهين : تحرير مجتمعها ، واستعمار مجتمعات الآخرين بذات الجماهير التى قاتلت الاستبداد فى بلادها ، وفرضت الاستبداد والعبودية على الشعوب الواقعة جنوب أو شرق الجنس المتحضر ..... » وفى ص ١٧٧ يقول الأستاذ جلال كشك «وكتّاب الحملة الفرنسية أصدق فى الحديث عن شعور الشعب المصرى ، وعن العلاقة التى قامت بين المحتل وشعب المستعمرة .. فالمسيو مارتان يقول : لم يترك الأهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا واتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية لهذه المقاومة ... وقد اتخذ المصريون شعارهم ... وهو أن مقاومة الاضطهاد هى أقدس واجبات الشعب .... وقال .... كبير أطباء الجيش الفرنسى فى مذكراته : لقد تكلموا كثيرا ... عن حفلات عيد الجمهورية الفرنسية ، وتأثيرها فى نفوس المصريين ، على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما فى سكان القاهرة .... أما المسيو ريبو فقال : كانت هناك عقبات وطنية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد - (الفرنسيين) - فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف الأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها .... لذلك كان الوجه البحرى بالرغم من احتلاله وانهزامه ، غير خاضع ولا مستسلما ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مرّ بها الجيش الفرنسى ورفعت علم الثورة .... وقال:

كان الجنود - الفرنسيين - يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة - المصرية - كانت كحية ذات مئة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى بلد آخر ..... أخطأت حسابات الحملة الفرنسية تقدير مدى الرفض الذى سيجابهها من الشعب المصرى ... » ويقول جلال كشك ، تعقيباً على كلام للأستاذ الرافعي خاص «بظاهرة» المقاومة «العجيبة» التى أبداها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية حتى أن الرافعى أكد أنه من الصعب أن نجد لهذه المقاومة شبها : «كانت مصر مازالت بكراً لم تلوثها أمراض تحديث كاذب ، لذلك هب شعبها ، فى أروع مقاومة ، سجلها تاريخ القرن التاسع عشر كله ، للغزو الاستعمارى الغربى».

***

تقرأ فى كتاب «ودخلت الخيل الأزهر» عناوين يختارها الأستاذ جلال كشك بعناية مثل : «الدجال يدخل القاهرة» ، «المقاومة والتنكيل» ، و «ثارت مدينى» - (القاهرة) - ، «تنظيم الثورة» و «مع الثورة» ، «ثورة القاهرة الثانية» ، «محاولة تمزيق الوحدة الوطنية» ... الخ . وتأتى خلال القراءة فقرات له مثل : «وتاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، يسجل يومياً مدى المقاومة الباسلة التى بذلها الفلاحون المصريون ، والعامة فى المدن ، والنخبة الوطنية ممثلة فى الشيوخ والتجار والأعيان ، مدى المقاومة التى بذلوها ضد استقرار الجيش الفرنسى ولإفساد رسالة نابليون الحضارية .....» ومثل «لنتذكر دائماً أن نابليون هو أول حاكم لمصر تجرأ على إعدام العلماء المصريين . ونابليون هو الذى أمر : أغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة». ومثل : « ... واضح أن نابليون كان يفضل أن يتم النهب بالوسائل العصرية .... ولكن ثورة القاهرة الأولى جاءت تكشف عن التترى المتخفى فى ثياب القرن التاسع عشر ....» ، ومثل : «وجميع المؤرخين المعاصرين للحملة الفرنسية ، والذين جاءوا بعد عشرات السنين ، يجمعون على وصف جماهير الثورة - المصرية - بالزعرنة والغوغائية والدهماء ... وهذا يؤكد أصالتها» . (ثورة القاهرة الأولى أكتوبر ١٧٩٨) - وفى ص ٢٣١ نقرأ : «أما بونابرت فقد ثار غضبه وهو فى مقر قيادته بقصر الألفى ، فأمر مدفعية

القلعة المعززة بمدافع الهاويتزر والمورتار ، بأن تسدد المدافع إلى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هى مركز الثورة ... ولم يكن الأزهر الذى صب نابليون نيران الثورة الفرنسية عليه ، يمثل فقط القيادة المباشرة لثورة أكتوبر ١٧٩٨ ... بل كان قيادة الأمة كلها ، تاريخياً وواقعياً ومستقبليا ، لذلك كان الحقد عليه والتركيز على سحقه مسجداً وجامعاً ومجاورين ومشايخ ونفوذاً .....»

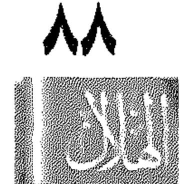
وفى ص ٢٣٥ نقرأ « .... وكانت نية نابليون متجهة إلى هدم الجامع الأزهر ...... بتاريخ ٢٣ أكتوبر - (١٧٩٨) - يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع .... ثم بدأت العدالة الثورية الفرنسية فى الاقتصاص من الثوار البلديين ، سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم . بعقوبات رهيبة شرفتنا ورفعت قدرنا ، كما وصفها تترى فرنسى ! »

وهنا يقول جلال كشك : «ومن أجل المزيد من التشريف ورفع القدر أصدر نابليون للجنرال برتييه : تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح . فليؤخذوا إلى شاطئ النيل بعد هبوط الظلام ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر .» ثم يعقب الأستاذ جلال كشك : «وفضلاً عن هؤلاء المسجونين ، أعدم فى القلعة ثمانون عضواً من ديوان الدفاع ، الذى تزعم الثورة ..... وتم قطع رؤوس ستة من المشايخ ... بل إعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية . ..

ولا يخجل إمام من أئمة المدرسة الاستعمارية مثل هيرولد من تبرير جريمة نابليون ، بأن يخلع على هؤلاء المشايخ أوصافاً تحريضية مثل . لا جدال فى أن هؤلاء الرجال كانوا أشد رجال الدين المسلمين تعصباً وتهييجاً للجماهير ......» !

ويذكر الأستاذ محمد جلال كشك ص ١٩٨ تلك الواقعة : «إئتمر أهالى المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود فى معسكرهم يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالى البلاد المجاورة، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند، ونادت المدينة بالثورة رجالاً ونساء ، وكان النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين ...»

وفى دمياط : « .... لا يأمن الجندى

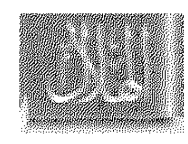


الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة فى حى الأروام» . - (ص ٢٠٠) - ، «وعند جزيرة فيلة - أنس الوجود قال الجنرال بليار : حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ، ويحثون التراب فى وجوهنا ....» - ص ٢٠٣ .

المقاومة من الإسكندرية حتى أنس الوجود . رجال ونساء وصبية . وكان التنكيل الصارم هو القرار النابليونى الحرق والتدمير والإبادة ، والصياغة التاريخية ينقلها جلال كشك ص ٢١٣ هكذا «.... وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف ....» .

وفى ص ٢٤٠ يقول : «قال المسيو بوريين ، سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته : سيق المسجونون إلى القلعة، وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام إثنى عشر سجينا كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل . واستمر ذلك لليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية ....» ويعلق جلال كشك قائلاً : «وإذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة فى إعدام النساء الثائرات ، فأى عذر وأى منطق يخفى عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب فيجعلون من .... الخروج مع العسكر الفرنسيين فى ثياب خليعة وتهتك خلقى ، بداية حركة تحرير المرأة ، ويغفلون عن عمد اشتراك المرأة المصرية فى أعمال المقاومة فى الريف المصرى ، واشتراكها فى قيادة الثورة بالقاهرة على نحو دفعت معه حياتها ثمنا لهذا الاشتراك ، فأعدمت قيادة الثائرات بحد السناكى فى القلعة أو أغرقن فى النيل ... دون أن يسجل تاريخ الحملة الفرنسية حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات ....» ، والمعروف أن الخليعات من النساء ، اللاتى كن يصاحبن العسكر الفرنسى ، كن يدللن من الفرنسيين بالكلمة الفرنسية «شارمنته» - أى اللطيفة - وقد تحولت هذه الكلمة على ألسنة المصريين من «شارمنته» إلى الكلمة الشعبية المعروفة التى تنعت بها المرأة الساقطة : «شر مـ ..... » !

ارتفع الكثير من أبناء مصر وبناتها شهداء المقاومة الباسلة للحملة الفرنسية ، والغالبية هم الشهداء والشهيدات مجهولات الأسماء ، لكن يظل هناك



البعض من الذين سجلهم الشيخ المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بأسمائهم في كتابه «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ، الجزء الثاني ، تحت عنوان «من مات في هذه السنة - (١٢١٣ هـ الموافق ١٧٩٨ ، ١٧٩٩ م) - من الأعيان ومن به ذكر في الناس » ص٢٧٦ ، اختار من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

١ - « .. ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري ، قرأ على والده وتفقه وأنجب ولم يزل ملازما لدروسه حتى توفي والده فتصدر للتدريس في محله ، واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم ، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار يملي ويفيد ويفتي على مذهبه ، ويأتي إليه الفلاحون من جيزة بلاده بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوي في الدعاوي التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي ، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه ، ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه .... واشتهر ذكره وكان جسيما عظيم اللحية فصيح اللسان ، ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيس .. ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعلم له قبر».

٢ - « ... ومات الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الشافعي الأزهري ، تفقه على أشياخ العصر .... وتصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالجوهرية وبالمشهد الحسيني ويحضر درسه فيه الجم الغفير من العامة ويستفيدون منه .... وكان حسن الإلقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة مقبلا على شأنه ، ولم يزل ملازما على حالته حتى اتهم في إثارة الفتنة وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيس في أواخر جمادى الأولى من السنة ، ولم يعلم له قبر » - (حوالي نوفمبر ١٧٩٨) .

٣ - « .. ومات الشاب الصالح والنبيه الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحي الشافعي الأزهري ، حفظ القرآن والمتون وحضر دروس أشياخ العصر .... وأنجب وأملى دروساً بجامع الكردي بسويقة اللالا ، وكان مهذب النفس لطيف الذات حلو الناطقة مقبول الطلعة خفيف الروح ولم يزل ملازماً على حاله ، حتى اتهم أيضا في حادثة الفرنسيس وقتل مع من قتل شهيداً بالقلعة» .

٤ - « .. ومات العمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان .... وقتل فيمن قتل بالقلعة ولم يعلم له قبر...».

٥ - «ومات الأجل المفوه العمدة الشيخ إسماعيل البراوي بن أحمد البراوي الشافعي الأزهري ...... وكان قليل



البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنساوية وقتل مع من قتل شهيداً ولم يعلم له قبر غفر الله لنا وله .».

٦ - «ومات الأمير ابراهيم بك الصغير المعروف بالوالى وهو من مماليك محمد بك أبى الذهب .... ولم يزل فى سيادته وإمارته حتى حضر الفرنساوية ووصلوا بر إنبابه ، ومات هو فى ذلك اليوم غريقا ، ولم تظهر رمته وذلك يوم السبت سابع صفر من السنة » . - الموافق يوليو ١٧٩٨ .

٧ - «ومات أيضاً الأمير أيوب بك الدفتردار وهو من مماليك محمد بك .... وكان ذا دهاء ومكر .... ويشترى المصاحف والكتب ويحب المسامرة والمذاكرة وسير المتقدمين ، ويواظب على الصلاة فى الجماعة ويقضى حوائج السائلين والقاصدين بشهامة وصرامة وصدع للمعاند خصوصاً إذا كان الحق بيده ، ويتعلل كثيراً بمرض البواسير وسمعت من لفظه رؤيا رآها قبل ورود الفرنسيس بنحو شهرين تدل على ذلك وعلى موته فى حربهم . ولما حصل ذلك وحضروا إلى بر إنبابه عدى ... قبل بيومين وصار يقول أنا بعت نفسى فى سبيل الله ، فلما التقى الجمعان لبس سلاحه بعد ما توضأ وصلى ركعتين وركب فى مماليكه ، وقال اللهم إلى نويت الجهاد فى سبيلك ، واقتحم مصاف الفرنساوية وألقى نفسه فى نارهم ، واستشهد فى ذلك اليوم وهى منقبة اختص بها دون أقرانه بل ودون غيرهم من جميع أهل مصر» .

- ص٢٨٥ من المصدر المذكور سابقا -

.... وطوبى لشهدائنا فى كل زمان ومكان . ■

كلمات عاشت

- الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزاهدين سياسة ، وللعارفين تكرمة .

يحيي بن معاذ

- كل فلسفة في الحياة تبدأ بإحساس أو شعور عميق ، أو مزاج شخصي .. وتنتهي برأي

ألدوس هكسلي

- لا أريد لبيتي أن يكون مسورا من جميع الجهات ، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة وأريد أن تهب عليه ثقافات كل الأمم ، ولكني أنكر على أي منها أن تقتلعني من جذوري

غاندي

عشيقة نابليون فى مصر

رغم أن نظرية (كارليل) حول دور الأبطال أصبحت مردودة، إلا أن البحث عن وثائق أو خفايا هؤلاء الأفراد أو القادة ماتزال تغرى، بل مايزال لها دور فى قراءة واستقراء التاريخ، وحينما يكشف الدارس فى هذا العصر وثيقة جديدة تعيد النظر فى موقف تاريخى فليس معنى ذلك أن التاريخ مازال تحت سيطرة الأفراد كما كان يبدو فى القديم.

• أحلام (بونابرت) في رسائل ولوحات (بليلوت)

• السيدة التي تخفت في زي الرجال ثم تخلت عن زوجها وأصبحت عشيقة نابليون

بقلم
د. محمد المهدى



نابليون بونابرت - لوحة من مقتنيات متحف اللوفر للفنان دافيد

فنابليون حينما جاء إلي مصر عام ١٧٩٨ كانت وراءه (٤٧) سفينة حربية، و٩٧ سفينة نقل .. ارتفع العدد بعد ذلك ليصل إلي أربعمائة سفينة.

الحملة كانت ٣٠.٠٠٠ رجل منهم ٢٤ ألفاً من الجنود والباقي من المدنيين ... أطباء، ومهندسون ، ودارسون، وعلماء... وأيضاً ثلاثمائة امرأة متخفية في زي الرجال بعيداً عن أنظار السفينة القائدة، سفينة L'ORIENT (لوريان) الشرق التي وقف في مقدمتها ذلك القائد المتواضع الهيئة البالغ من العمر آنذاك تسعة وعشرون عاماً تاركاً وراءه في باريس تاريخاً حربياً حافلاً رغم قصر مدته ، وزوجة لعوب تكبره بستة أعوام اسمها (جوزفين).

من أسرار نابليون التى لاتزال تغرى بالبحث أيامه الأخيرة فى جزيرة (سانت هيلانة) التى عاشت تحت سيطرة ضابط انجليزى حاقد، تساءل التاريخ منذ وفاة نابليون ... هل قتل؟

ومن له مصلحة فى قتله ؟ الانجليز؟ أم أسرة البربون العائدة إلى حكم فرنسا بعد نفيه؟ أو أقرب الناس إليه؟

منذ ما يقرل من نصف قرن صدر كتاب (جوزيف ايوث) عن أيام نابليون الأخيرة فى سانت هيلانة، أثبت أن نابليون تناول (الزرنيخ) فى طعامه ، ثم صدر كتاب آخر لطبيب سويدى اسمه (فور شيفيد) أكد بعد تحليل بعض شعرات رأس نابليون أنه مات مسموماً، وصدر فى الثمانينات من القرن الماضى كتاب ثالث تحت عنوان (هل قتل نابليون؟) كتبه (بنى وردر) و(دافيد هايجوت) يؤكد أيضاً وفاة نابليون مسموماً بالزرنيخ الذى تناوله علي فترات بعيدة وفى جرعات صغيرة جداً استهلكت معدته تماماً ... وجاء زمان تحليل الحمض النووى فأصدر فى عام ٢٠٠٠ المؤرخ (برونو روى هنرى) كتابه (نابليون لغز مقبرة عام ١٨٤٠).

أثبت فيه بالفحص أن الجثة المدفونة فى الانفاليد بباريس والتى سلمها الإنجليز للفرنسيين عام ١٨٤٠ هى ليست لنابليون!

ومن أسرار نابليون الأكثر فى تاريخنا الوطنى أيامه فى مصر ، هل وضع خطته متكاملة قبل رحيله فى ليلة ١٩ مايوم ١٧٩٨؟

هل كانت الخطة تشمل مصر والشام لتصل إلى الهند؟

هل كانت تشمل مصر وشمال أفريقيا وجزء من البحر الأبيض؟

ماهى الوثائق التى بقيت بعد رحيل الحملة من قصر الألفى بك الواقع فى حى الأزبكية؟

ماهى الرسائل التى تركها فى بيت عشيقته (بولين) التى أسكنها بالقرب من قصره؟

العثور على رسائل ولوحات (بولين)

العلوم الإنسانية والعلمية صارت مترابطة فى زماننا ، فالعلوم الإجتماعية ودراسة العادات والتقاليد وسلوك الأفراد صارت كلها وثائق تاريخية، وقد يشهد جندى بسيط حادثاً خطيراً لم يشهده قائداً أو دارس، يصبح الجندى وثيقة تاريخية ، وتصبح الورقة التى احتفظ بها فى طيات ثيابه ثم بين أوراقه العتيقة وثيقة تاريخية، وقد تتعدد الوثائق، وتتراكم فوق



طاقة الفرد الدارس، هنا يستعين بالكمبيوتر ليحصى ويعطى استقراء بالسلب أو الإيجاب.

تحدث أحد الدارسين مؤخراً على عثوره على عدد من رسائل نابليون التى أرسلها لعشيقته (بولين) التى عاش معها أثناء وجوده فى مصر، وتحدث بيت من بيوت الفن عن عثوره على لوحات رسمتها (بولين) فى حوارى القاهرة، وتحدث مصدر ثالث عن تأكده من أن (بولين) كانت حاملاً من نابليون بعد رحيله المفاجىء عن مصر، وأنه هجرها لطموحات فى الانجاب من إمرأة سلالتها ملكية، أو على الأقل نبيلة، ابن أسرة كورسيكا المتواضعة كانت تراوده أحلام الملوك، وسلطان الأباطرة فى مطلع شبابه، نسى الثورة وشعارها الثلاثى وتبلورت فى داخله الشخصية التى رسمها الأديب (ستندال) فى قصته (الأحمر والأسود).

بليلوت الجميلة!

بولين هي بليلوت، اسمها مشتق من كلمة Belle أى الجميلة عرفت نابليون لمدة عام أو أقل أثناء وجوده في مصر قدر لهذا العام أن يكون مشحوناً بالذكريات والوثائق، طموحات نابليون الغربية والشرقية، وعذاباته الخاصة أمام (جوزفين) وكل النساء، عمرت بولين إلى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر، رحل كل الشهود وماتت قبل رحيل نابليون الثالث عن باريس بعام واحد ١٨٦٩.

مرجريت بولين من مدينة (كركاسون) كانت تعمل فى محل لبيع القبعات أصلها متواضع، أحلامها أيضاً متواضعة تعرفت على ضابط شاب اسمه (جان فوريس) ابن شقيقة صاحبة المحل، اتفقا على الزواج، أتما الاتفاق فى فترة كانت الأحداث في باريس تجرى بسرعة، لقد دخلها الضابط الصغير نابليون منتصراً على النمسا وإيطاليا، وعقد صلح (كامبوفورميو) ١٧٩٧، وانقذ حكومة الإدارة التى يتزعمها (مارا) صار جنرالا بطلاً فى الخارج والداخل، جاء مشروع مواجهة انجلترا بحملة الشرق لقطع طريقها إلى مستعمراتها متفقاً مع رغبات الأعضاء الكبار فى حكومة الإدارة للتخلص من بطل الساعة.

جرت الاستعدادات للحملة فى موانىء مرسيليا، وطولون، وجنوا، وكورسيكا. واستدعى عدد من المسرحين من قوات نابليون، وكان بينهم (جان فوريس) الذى لم يمض على عرسه أكثر من أربعة أشهر فى كركاسون، وألحق بكتيبة القناصة الثانية والعشرين بقيادة الجنرال (لاسال)، وحدد موقع رحيله من ميناء طالون.

كانت أوامر نابليون صريحة ... يمنع صحبة النساء كزوجات أو رفيقات، أو عاملات، لقد حملت له حروبه فى إيطاليا الكثير من الذكريات السيئة بسبب صحبة النساء، وعلى رأسهن زوجته (جوزفين) التى بدأت قصة علاقتها بالضابط هيبوليت شارل فى هذه الرحلة ، جوزفين تركت نابليون فى إيطاليا ولحق بها شارل إلى باريس، وبدأت الشائعات.

فى عرض البحر، وبعيداً عن سفينة (لوريان) التى كانت تحمل الجنرال القائد بدأت تتكشف الأمور لقد تسربت ثلاثمائة امرأة إلى العديد من السفن تخفين فى زى المقاتلين الرجال، وكانت بينهن (بولين)

زوجة الضابط (جان فوريس).

في أول مايو ١٧٩٨ وصلت السفن الفرنسية إلى الإسكندرية وكانت ملحمة بطولية زعيمها محمد كريم. زحفت الحملة بقواتها على صور متفرقة من الإسكندرية إلى دمنهور ، ومنها إلى القاهرة ، ويحكي لنا العديد من رجال الحملة من علماء إلى جنود ، كما حكى لنا الجبرتي في يومياته عن العذاب الذي لقيته قوات نابليون في محاولة زحفها، مقاومة الفلاحين وبدو الصحراء العطش، والجوع، والمطاردة، وقدر للضابط فرويس وزوجته بولين أن يصحبها إحدى الفرق على أقدمها من الاسكندرية إلى القاهرة فذاقا الأمرين..

في القاهرة جعل نابليون قصر الألفي بك في حي الأزبكية (حي الارستقراطية) العثمانية المملوكية آنذاك مقر قيادته، وكان نصيب فرقة فوريس في حي بولاق على ساحل النيل، حي بعيد نسبياً عن مقر القيادة والأهم عن مقر النشاط، والطموح والسهرات، والعلاقات. أراد فوريس وزوجته الاقتراب من عالم الأضواء فاستأجرا منزلاً في حي الحسين. خرجت النساء الفرنسيات سافرات، ماجنات في طرقات القاهرة.

لقد انكشف أمر حضورهن خلسة، وتسامح الجنرال نابليون المعروف بتدليل جنوده في حياتهم الخاصة، وصرامته وعنفه في ميدان القتال، ورغم ما قيل من عذاب نابليون لتيقنه من خيانة زوجته جوزفين إلا أنه كان يقول ... «الحب لعبة الضعفاء». وكان يعجبه قول قيصر ... سمعة الامبراطور لاتحتمل مجرد الإشاعة، كما أعجبه قول بركليس خطيب اليونان الشهير ... لقد خلقت النساء لإمتاعنا، وتربية أولادنا!

نابليون في القاهرة

رسم الجبرتي صورة دامية لحياة الفرنسيين في القاهرة، أطلقوا على نابليون بونابرت اسم (بونا تراب) وسلط عليهم نابليون رجلاً رومياً أسمه (برطلمين) أذاقهم المر، تفنن فيما بعد في تعذيب وخوزقة سليمان الحلبي بعد قتله كليبر، وعرف بين أهل القاهرة بـ (فرط الرمان) وبعد قصته مع الحلبي اختفى من القاهرة، قتلوه ومزقت جثته ووزعت على الكلاب.

وسط هذا الجو ظل نابليون لفترة معزولاً عن عالم عسكره داخل قصر الألفي . يتردد عليه العلماء والقواد ... بورين سكرتيره . والعلماء برتوليه، وفوريه، ولاري، وجبير، وجومار ... يطلق عليهم الفرنسيون (الحمير) فقد كانوا يستخدمون الحمير في تنقلاتهم بين مقر القيادة في الأزبكية، ومقر إقامتهم في بيت السناري في السيدة زينب.

فسر بعض المؤرخين خروج نابليون من عزلته كنوع من رد الفعل بعد وصول رسائل من شقيقيه جوزيف، ولوسيان يبلغانه بسوء سلوك زوجته جوزفين ، ويطلبان منه الانفصال عنها. والحقيقة أن نابليون كان مشغولاً ومهموماً بمشاريعه التوسيعية.

في ليلة ضاق نابليون بالوحدة، إطمأن بعد أن أخلت قواته الطرقات بالقمع على أثر ثورة القاهرة الأولى في أكتوبر ١٧٩٨، فخرج ليلاً ، دخل ملهى (تيفولي) الذي أقامه أحد التجار الفرنسيين في حي





كارولين شقيقة نابليون . اجريت الفحوصات على خصلة شعر من سلالتها لإثبات ان الجثة المدفونة في الإنفاليد ليست لنابليون

الأزبكية، هناك التقى بـ (بولين) كان عملياً معها فدعاها إلى قصره. وكانت سهلة القياد فقبلت، فى ليلة الدعوة كتب نابليون رسالة موجهة إلى الضابط فوريس للسفر فوراً إلى الإسكندرية ومنها يبحر إلى فرنسا لتسليم عدد من الرسائل السرية إلى حكومة الإدارة فى باريس، ولم يكن هناك مفر من القبول والتنفيذ.

فى ليلة سفر الزوج بدأت علاقة نابليون ببولين صريحة فاجرة، أصدر أوامره بإعداد سكن خاص لها بالقرب من قصره، أوقف على خدمتها المملوك يوسف، والخادمة أمينة ، ثم لحق بهما مملوكه الخاص (رستم) الذى صحبه فى رحلة حياته، كان يخرج معها علناً فى طرقات القاهرة وتشاركه حفلاته.

قبل الجميع الوضع دون اندهاش حتى (أوجين دى بوهارنيه) ابن زوجته جوزفين، فقد كان يصحبه فى حملته ، كان فى السادسة عشر من عمره، وارتبط بنابليون أكثر من ارتباطه بأمه..

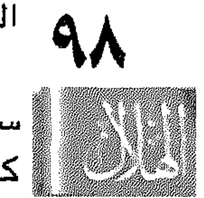
عرفت (بولين) فى القاهرة بالجنرالة ، وأحياناً بالملكة الجمهورية، وأحياناً سيدة الشرق ، أو كليوباترا.

ونعود إلى الزوج (فوريس). خرجت سفينته خفية من ميناء الإسكندرية، فقد كانت شواطىء مصر آنذاك محاصرة بقوات الانجليز بعد هزيمة الفرنسيين فى أبو قير البحرية، لم تبعد سفينة فوريس كثيراً وكان اسمها (شاسور) أى الصياد، عن شواطىء الإسكندرية إلا ووقعت فى أسر سفينة انجليزية اسمها (ليون) أى الأسد.

وقع (الصياد) فى فم (الأسد). وكانت مفاجأة حينما واجه فوريس القائد الانجليزى، أنهم يعرفون اسمه، ويعرفون وجهته، ويعرفون مهمته ... ويعرفون نوايا نابليون مع زوجته . أرادوا السخرية من الموقف فادعوا أنهم تسامحوا معه مقابل تعهده بعدم قتال الانجليز مستقبلاً، أطلقوا سراحه حتى تستكمل قصته مع نابليون قمة دراميتها فى القاهرة .

اسرعوا بإنزاله إلى ساحل الإسكندرية، هناك سلم نفسه لقائد الحامية الفرنسية (مارمون) وطلب منه الإذن بالعودة فوراً إلى القاهرة. مارمون كان يعلم خفايا الأمور فقد شاعت قصة كليوباترا الجنرالة ووصلت إلى الإسكندرية، بل عبرت عن طريق الانجليز إلى باريس وأوروبا.

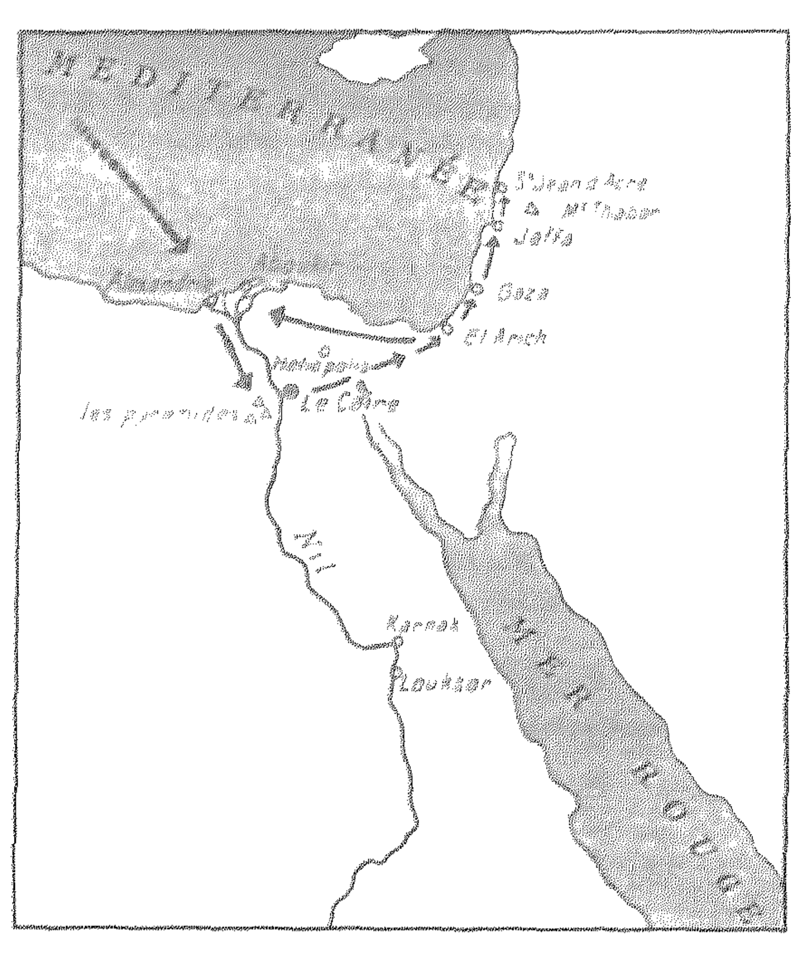
رفض مارمون سفر الضابط فوريس إلى القاهرة، لكن الضابط الشاب تسلل خفية ووصل للقاهرة، لم يجد بولين فى بيتها، لجأ لصديقه جاكومان فصدمه بكل الحقيقة، ظل فوريس مختبئاً فى بيت صديقه إلى أن كانت المفاجأة الجديدة ، فى أحد حوارى القاهرة كانت بولين تتسوق مع المملوك يوسف شاهدها فوريس فهجم عليها بكل ما فى قلبه من مرارة وألم. أوسعوه ضرباً وقادوه إلى مركز قيادة الحملة، ظل محتجزاً لعدة أيام، وفى نهايتها وجد نفسه أمام قاضى الأحوال الشخصية بتهمة الاعتداء على زوجته وصدر حكم طلاق بولين من الضابط فوريس. وفور سماعه الحكم تم ترحيله إلى الإسكندرية ومنها أقلته سفينة من السفن التى كان يسمح الانجليز أحياناً بتسللها أو خروجها من أيديهم



بهــــدف مـــــا ، إلى مرسيليا.

علاقة شاذة ونهاية متوقعة

حينما وصل فوريس إلى بلدته كانت قوات نابليون تغزو الشام من غزة إلى يافا وتوقف عند عكا من ٢٠ مارس إلى ٢٠ مايو ١٧٩٩ خلال هذه الفترة أرسل لبولين فى القاهرة عدة رسائل وهى التى عثر عليها، وكان يعتقد سابقاً أنها أحرقتها فى لحظة يأس، رسائل تناولت أحلام نابليون وطموحاته فى احتضان العالم وامتلاكه والتصرف فيه.



خريطة توضح فريق نابليون فى غزو الشام

هل يصل إلي الخليج العربي ومنها إلي إيران فالهند كما فعل الإسكندر فيحقق المستحيل ويضرب الإنجليز؟

هل يستكمل زحفه فى الشام ليصل إلى تركيا ومنها إلى شرق أوروبا ومنها يدخل باريس وقد احتضن بحيرة البحر الأبيض كما فعل الرومان من قبل؟

وبولين ... أين تراها فى سطور رسائله. لقد وعدها. سيطلق جوزفين الخائنة ويتزوجها.

تتبدد أحلام نابليون أمام عكا. لقد جاء ذكر الانجليز، والعثمانيين، وأهل الشام، وأحمد الجزار، والطاعون، ولكنه لم يذكر شيئاً عن الهزيمة والتراجع.

عندما عاد للقاهرة دخل من باب النصر، وأقام الاحتفالات، أراد أن يوهم أهل القاهرة. ولكن الأخبار كانت قد وصلت وسبقته لقد تراجع نابليون، لذلك لم يتردد فى أن يذهب لقوات العثمانيين فى أبى قير البرية ليستعرض أمام المصريين وأهل الشام نصراً سهلاً فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩.

نابليون كان يدرك خطورة حصاره فى مصر، كان يفكر فى العودة مراراً ولم تكن (بولين) جزءاً من مشاريع البقاء فما بالك بالعودة، وعندما اطلع على صحف فرنسية سربها الانجليز إلى الإسكندرية والقاهرة تتحدث عن سوء الأحوال



السياسية فى باريس لم يتردد فى اتخاذ قرار العودة.

ولم يخطر فى باله مجرد إخطار بولين بالأمر ، فالقضية خطيرة وسرية، وبولين مجرد قطرة فى بحر الطموح.

سافر نابليون سراً فى ٢٤ أغسطس ١٧٩٩، وظلت (بولين) تنتظر وعندما علمت بالحقيقة لجأت إلى كليبر قائد الحملة بعد نابليون ، طلبت تدبير رحيلها إلى فرنسا ، ساومها ، أراد أن يحل محل نابليون فى القيادة والفراش، رفضت وأصرت على الرحيل، ورحلت فى أكتوبر على ظهر سفينة أمريكية.

خلال فترة الانتظار انتجت (بولين) عدة لوحات لوجوه، وحوارى، وابنية القاهرة، وعرفت أنها حامل. حملها كان أملها . تريد العودة إلى باريس لتبلغ نابليون ... سيطير فرحاً، سيتوجها زوجة ، ستحل محل جوزفين، وربما توجها ملكة على كل فرنسا ... هكذا كانت تحلم.

فى باريس تبددت كل الأحلام. حاولت

قناع لرأس نابليون بعد وفاته

الاتصال بنابليون ولكن دون جدوى سكنت مدينة (سان كلو) وفي عام ١٨٠١ تزوجت من (هنرى دى رانشوب) سافرت معه عدة أماكن وكان نابليون يتابع حياتها من بعيد ، وانتهى أمرها إلى الطلاق كما انتهى أمر نابليون مع جوزفين إلى الطلاق عام ١٨٠٩.

تعرفت (بولين) على شاب آخر، وسافرت معه إلى البرازيل، بينما تزوج نابليون (مارى لويز) ابنة امبراطور النمسا التى أنجبت وحيده (فرنسوا لويس نابليون) المعروف باسم نابليون الثانى، وأن لم يقدر له تولى الامبراطورية التى وضع نابليون تاجها على رأسه عام ١٨٠٤.



بولين بريشتها

عادت (بولين) إلى باريس وأقامت صالوناً أدبياً وتفرغت للرسم والكتابة بقية حياتها .وبقى السؤال حائراً .. أين ذهب حملها؟

ويتبع هذا السؤال تساؤلاً آخر، هل إذا كانت قد أنجبت طفلاً أكان يقبل نابليون بزواجها وتتويجها وجعل إبنها ولياً لعهده؟

الحقيقة أن نابليون ابن أسرة كورسيكا الفقيرة نسى أصله. تحكم فى القادة والملوك، ولبس التاج، وأمسك بالصولجان وتسمى بالإمبراطور ووزع أفراد عائلته ملوكاً على أوروبا. نابليون بعد ذلك ما كان ليقبل أن يتزوج ابنة (غسالة) مجهولة الأب.

هكذا قدر لـ (بولين) أن تعرف نابليون لمدة عام واحد فى مصر، وأن تكون بعد ذلك شاهدة القرن بكامله، فقد شهدت أيام عز نابليون، وذله، وموته، وعودة رفاته إلى باريس أيام لويس ١٨، وشارل العاشر، ولويس فيليب، وأن تموت فى سن الثانية والتسعين أى قبل رحيل آخر سلالة نابليون بعام واحد ... نابليون الثالث ، بعد ثورة الكوميون عام ١٨٧٠. ■

من ذخائر الكتب العربية

مصالح الأبدان والأنفس

بقلم
د. فيصـــل الحفيـــان

نحن أمام كتاب مختلف، أقل مايقال فيه إنه «علامة» في التراث الطبي الذي تركه المسلمون، فهو أول كتاب عربي في حفظ الصحة أو ما يسمى اليوم بـ «الطب الوقائي»، وهو ثانياً أول كتاب عربي يخرج بالنفس ومباحثها من دائرة الفلسفة والأخلاق إلى دائرة «الطب»، وهو ثالثاً أول كتاب عربي يربط بين صحة البدن والنفس، ويؤكد تشابك أسبابهما فيما يعرف اليوم بـ «الطب النفجسمي»، مستخرجاً ذلك الخيط الدقيق الذي يقول: إن الإنسان ليس بدنا مستقلاً ولا نفساً مستقلة، البدن والنفس ليسا جزيرتين منعزلتين، بل هما كائن واحد متشابك متداخل، لايمكن أن تخلَّص أحدهما من الآخر، فإذا ماصح البدن صحت النفس، والعكس صحيح، وإذا ما مرض البدن مرضت النفس، والعكس أيضاً صحيح.

وإذا كانت بعض الكتب تعرف قيمتها وأنت تقرؤها، وتدرك جهد صاحبها وعيناك تتعاور سطورها، فإن بعضها يأسرك قبل أن تطالع أول كلمة فيها. إنها تلك التي يخطف بصرك عنوانها، ويشي لك بما تحته. فكرة عبقرية تعكس عبقرية صاحبها، إشراقة ومضت في لحظة، أو سحابة من جهد وخير اختزنت في داخلها ماء كثيراً، ثم أمطرت خيراً وعشباً وخضرة.





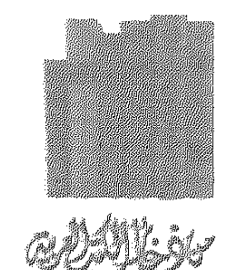
الورقة الأولى من المقالة الأولى
من المخطوط (أ) وعلامه

كتاب «مصالح الأبدان الأنفس» لأبى زيد البلخى واحد من الكتب الأسرة الخاطفة الواشية العبقرية. وصاحبه عالم عربى مسلم عاش قبل نحو أحد عشر قرناً ، وتجاوز بفكرته العبقرية وكتابه الفذ من تقدمه من العلماء ، كما سبق من جاء بعده منهم، وسجّل بتجاوزه وسبقه نقطة مضيئة فى تاريخ العلم العربى الإسلامى، ستظل فى ميزانه وميزان الحضارة التى ينسب إليها إلى قيام الساعة.

* * *

مثل هذا المقال العَجل لايمكن أن يضع الكتاب وصاحبه فى الإطار الذى يستحقه، ولن يبل - بالتأكيد - عطش القراء، لكنه سيلفت النَّهمين منهم للرجوع إليه، ويستحث الباحثين المتخصصين على الاطلاع على صفحة جديدة مشرقة من كتاب العلم العربى الإسلامى، هذا العلم الذى يعانى اليوم أكثر من أى وقت مضى، من مثلث ذهول بعض أبنائه، وحقد بعضهم، ونكران الآخر.

لقد بقى الكتاب حتى وقت قريب مخطوطاً لاتطاله الأيدى. وإن طالته فإن التعامل معه دونه مصاعب، أولها القدرة على قراءة المخطوط وفهم لغته. ومن حسن الحظ أن الباحث التركى المعروف د. فؤاد سركين مدير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فى فرانكفورت (ألمانيا) قد اختار واحدة من النسختين الخطيتين الباقيتين للكتاب ونشرها (فى طبعة محدودة) بطريقة التصوير الضوئى ، وجاءت هذه الطبعة على الرغم من صعوبة الوصول إليها، وعدم معرفة الكثيرين حتى المتخصصين لها أول الغيث، فقد التفت إليها باحث متخصص فى تاريخ الطب الإسلامى، هو د. محمود مصرى (من سورية)، وقام بدراستها دراسة وافية وحقق نصها تحقيقاً متميزاً، وأعد فهارس وافية لها، وتبنى نشر عمله المكتب الاقليمى لمنظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط



بالقاهرة ومعهد المخطوطات العربية «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» بالقاهرة أيضاً . والكتاب الآن على وشك الصدور.

قلت «أول الغيث» لأن ثمة عملاً متصلاً بالكتاب، وإن لم يشمله كله، قد صدر حقاً عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. (عام ١٤٢٤هـ). هذا العمل انتهك حرمة الكتاب، إذ اكتفى بنشر بعضه، بحجتين واهيتين: الأولى «طول الدراسة (أي الكتاب) وخاصة المقالة الأولى منها» والثانية «واعتباراً (كذا) إلى كون المعلومات التي جاءت في هذا الجزء قد تجاوز الزمن بعضها» وبناء على ذلك فقد اتفق الباحثان (د. مالك بدري أستاذ بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي والحضارة بماليزيا، ود. مصطفى عشوى أستاذ بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن - السعودية) على «دراسة المقالة الثانية دراسة مستفيضة .. نظراً لما تشكله من إضافة علمية .. ولما تقدمه من معلومات وتصورات قد تكون منطلقاً لبحوث عملية أخرى في مجال علم النفس والطب النفسي والصحة النفسية بصفة خاصة».

والحق أن كلا الحجتين أو هي من الأخرى، فلا الطول - إن صح - يسوغ الحذف من نص المؤلف، ولا تجاوز الزمن لبعض ما ورد في هذا النص يعطي الحق بإسقاط عصارة فكر عالم محترم، فنحن ندرس النتاج المعرفي في سياقه الزماني والعلمي العام، ولا نحاكمه أو نحكم عليه بمقاييس جاءت بعده بقرون .

وعلى أية حال فإن الباحثين - فيما يبدو - كانا يدركان ماسلف أن قلناه، فاعتذرا في المقدمة قائلين : «وليس معنى هذا إهمال المقالة الأولى أو الجزء الأول من الكتاب، بل إننا قد تعرضنا لأهم الأبواب التي وردت في هذا الجزء، واستعرضنا أهم الأفكار الواردة فيه، على أن تتم دراسة هذه المقالة بصفة مستفيضة في وقت لاحق .. وإخراجها لجمهور القراء كجزء من تاريخنا الطبي».

- ١ -

الفكـــرة

كتاب مصالح الأبدان والأنفس يتغيّا في النهاية رعاية الإنسان وحفظ صحته البدنية والنفسية، فكيف ينظر صاحبه (البلخي) إلى هذا الكائن؟ هذا سؤال مشروع نمهد بالإجابة عنه لفكرة الكتاب وأبعادها وغاياتها وما حققته.

١ - ١ جوهر الإنسان

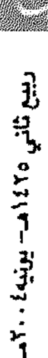
إن الإنسان - كما يراه البلخي وهو الفيلسوف المسلم - كائن مميز ، خصه الله سبحانه وتعالى بقوة التمييز - يقصد العقل - ، هذه القوة هي التي تجعله قادراً على أن يعرف ما ينفعه، فيسعى إليه ليجتلبه، ويعرف مايضره فيحيد أو ينأى عنه ليجتنبه، وبذلك - الاجتلاب والاجتناب - تصلح حياته وآخرته ، ويحرز الخير في العاجلة والآجلة . الخير إذن خيران : خير في الدنيا ، وخير في الآخرة، والإنسان مطالب بالسعي في حياته العاجلة (الدنيوية) لتحقيق الخير في حياته لنفسه ولمن حوله ولما حوله.

والإنسان في جوهره : عقل ونفس وبدن، أما العقل، فهو الذي ميز الله به الإنسان من غيره من مخلوقاته في هذا الكون الفسيح، وبه حمله المسئولية التي ألقاها عليه. وأما النفس والبدن فهما - على حد تعبير البلخي - «قسما كونه، وسببا وجوده في هذا العالم». والبلخي يفكر في كتاب يخدم به نفس الإنسان وبدنه، فعلى الرغم من خطر قوة التمييز ودورها في حياة الإنسان ، فإن النفس والبدن هما «الآلة» التي تمكنه من اجتلاب الخير واجتناب الضر ، لنستمع إليه، وهو يقول في السطور الأولى من مقدمة كتابه ، بعد أن حمد الله وصلى على نبيه الكريم:

«وآلته - أي الإنسان - في اجتلاب المنافع واجتناب المضار : نفسه وبدنه. فبصلاحهما يتهيأ له بلوغ الواجب من ذلك عليه، إذ ليس للإنسان سواهما، وهما قسما كونه وسببا وجوده في هذا العالم».

هذه الآلة «النفس والبدن» تقوم بمهمة خطيرة ، توازي مهمة العقل، أو تقترب منها،





ولهذا كان لابد من السعى لصلاحها، حتى تمكن الإنسان من تأدية الواجب الذى عليه، فإذا ما صلحت الآلة، أو بعبارة أخرى صلحت النفس والبدن، كانتا وسيلة إلى مايريد. هما إذن مكونا الإنسان، وهما فى الوقت نفسه سببا وجوده، إنهما الوسيلة (الآلة)، وإنهما الغاية.

هذه الرؤية للإنسان ولمهمته تدفع كل عاقل إلى أن يبذل ما فى وسعه ليضمن صلاح بدنه ونفسه، والبلخى يريد أن يضع دستوراً لهذا السعى ، يقول.

«فلذلك يحق على كل عاقل أن يعمل جدّه واجتهاده فى ما يستديم به سلامتهما وصحتهما، ويدفع عنهما عوارض الأذى والآفات، وحوادث العلل والأسقام، وألا يفيت نفسه حظاً من العلم بالأشياء التى يوصل بمعرفتها واستعمالها إلى صلاحهما، وأن يجعل ذلك من أهم أموره إليه، وأولاها بأن يقصر عنايته عليه».

وكما كانت النفس والبدن هما مكونا الإنسان وسببا وجوده، فإن السعى ينبغى أن يكون لصلاحهما وتدبيرهما معاً.

١ - ٢ : اشتباك النفس والبدن

إن كلمة السر فى فكرة البلخى التى أثمرت كتابه هى ذلك الربط الوثيق بين البدن والنفس، ولذلك فإن النص السابق ، وليس إلاّ نموذجاً، يحرص على أن يجمع بينهما (سلامتهما وصحتهما، ويدفع عنهما، إلى صلاحهما).

وإذا كان هذا النص (السابق) فى مقدمة الكتاب العامة، فإنه فى المقدمة الخاصة بالمقالة الثانية وهى نصيف الكتاب ، والخاصة بمصالح الأنفس ، يعود إلى تأكيد هذا الربط ، ويؤصله، ويزيده وضوحاً، لنستمع إليه ، وهو يقول:

«إن الإنسان لما كان مركباً من بدن ونفس، صار يوجد له من قبل كل منهما صلاح وفساد، وصحة ومرض وسقم، وأعراض تعرض له فى صحتهما فتفسدهما عليه، وينسب إليه (الضمير للبدن أو للنفس) خصوصاً».

ويبلغ الوضوح مبلغه فى موطن آخر حيث يقول مسوغاً إقدامه على جمع مصالح الأنفس مع مصالح الأبدان مخالفاً بذلك عادة الأطباء

«غير أنهم وإن لم يفعلوا ذلك، ولم تجر العادة به منهم، فإن إضافة تدبير مصالح الأنفس إلى تدبير مصالح الأبدان أمر صواب، بل هو مما تمس الحاجة إليه، ويعظم الانتفاع به لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب الأنفس».

لقد أصاب كبد الحقيقة ، باستخدامه مصطلح «الاشتباك»، وعبر بدقة عما يريد ويعود مرة أخرى إلى ما سبق أن قرره، فيكمل.

«فإن الإنسان إنما قوامه بنفسه وبدنه ، وليس له قوام إلا باجتماعهما». ويوضح «الاشتباك» حتى لايترك مصطلحه مرسلاً بالقول

«وكما أن البدن إذا سقم وألم وعرضت له الأعراض المؤذية منع ذلك قوى النفس من الفهم والمعرفة وغيرهما أن تفعل أفعالها على وجهها، ويتفرغ معها الإنسان للقيام بما يقلقها ويؤذيها، كان فى ذلك (أى فى سقم النفس) مايشغل الإنسان عن الاستمتاع باللذات البدنية، وأخذ شيء منها على سبيله، ووجد عيشته مكدرة، وحياته منغصة عليه . بل ربما أداه تحامل الآلام النفسية عليه إلى الأمراض البدنية».

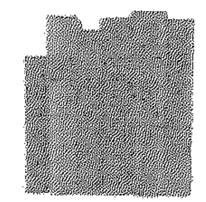
إنه اشتباك يجعل من النفس والبدن شيئاً واحداً، يمرض البدن فيؤثر مرضه على النفس، وتمرض النفس فتؤثر على البدن، وأكثر من ذلك فإن الآلام النفسية إذا ما اشتدت أدت إلى مرض البدن حقيقة.

١ - ٣ : الأعراض النفسية ألزم

على أن الأعراض النفسية ألزم للإنسان، وأكثر اعتراء له، كما يرى البلخى، ذلك أن البدن قد يسلم فى أكثر أيام العمر ، وليست النفس كذلك، فمن يخلو من الحزن، أو الغضب ، أو غير ذلك ، فى أكثر أيام حياته؟

١ - ٤ : حفظ الصحة أولا

واستكمالاً لخيوط الفكرة فإن البلخى يفرق بين أمرين : حفظ الصحة، أو ما يسمى اليوم بـ «الطب الوقائى» وإعادة الصحة، وهو ما يطلق عليه «الطب العلاجى» ولابد من استخدام



النوعين معاً من أجل صحة النفس والبدن، لكن الحفظ مقدم، فاستدامة سلامتهما وصحتهما لاشك أعلى درجة، فإذا ما هجمت عوارض الأذى والآفات، وحوادث العلل والأسقام، كان لابد من «الدفع»، والمعالجة. وإنما كان «الحفظ» مقدماً، لأن به يسلم الإنسان من أكثر العلل والأمراض مدة حياته، ويعيش سعيداً لا يكدره ألم، ولا ينغص صفوه عرض.

فكرة البلخي تركز على ما هو أهم «حفظ الصحة»، أما إعادة الصحة بعد فقدها، فإنها تدخل في صناعة المداواة، وليست داخله في نسيج الفكرة الأساس. «وليس ذلك من الغرض الذي قصدناه على شيء» لكن لا بأس من أن تختم المقالة الأولى الخاصة بمصالح الأبدان بـ «باب في تدبير إعادة الصحة» ، وأن يخصص الباب الثالث من المقالة الثانية الخاصة بمصالح الأنفس لـ «تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت إليها» . وهذا وذاك لا يشغل إلا مساحة وجيزة، تحقق الغاية في تعريف المعنى بصلاح بدنه ونفسه بما يلزمهما من التدبير.

— ٢ —

التجلي

كيف تجلت الفكرة «العبقرية» التي كانت تدور في رأس صاحبها؟ لقد تجلت في الكتاب «مصالح الأبدان والأنفس»، ولعل العنوان نفسه بكلماته الثلاث يشي بمنطلقاته، فما هو إلا عمل علمي يهدف إلى أن يحقق مصالح أبدان الناس ، وذلك بتعهدها وصيانتها في وقت صحتها من آفات الحر والبرد، وأذى الجوع والعطش، ويمعالجتها بالأدوية في وقت علتها ، وأن يحقق مصالح أنفس الناس، ويحفظ قواها على سبيل الصلاح والاعتدال، ونفي الأعراض التي تصيبها.

٢ — ١ البناء

لما كانت الفكرة أساساً قائماً على تدبير مصالح آلة الإنسان، أعني بدنه ونفسه ، فإن التجلي (الكتاب) انقسم قسمين، أو جعل في مقالتين : الأولى في تدبير مصالح الأبدان، والثانية في تدبير مصالح الأنفس.

ثم إن الأولى صيغت في أربعة عشر باباً:

الأول في الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تعهد الأبدان، ومنفعة ذلك وعائدته.

والثاني في وصف أوائل الأشياء وبدء طبيعة الإنسان وخلقته وتركيب أعضائه.

والثالث في تدبير المساكن والمياه والأهوية.

والرابع في تدبير ما بقي الحر والبرد من الأكنان والملابس.

والخامس في تدبير المطاعم.

والسادس في تدبير المشارب.

والسابع في تدبير المشمومات.

والثامن في تدبير النوم.

والتاسع في تدبير المياه.

والعاشر في تدبير الاستحمام.

والحادي عشر في تدبير الحركات الرياضية التي يحتاج إلى استعمالها في حفظ الصحة.

والثاني عشر في تدبر مايتبع الحركات الرياضية من غمز البدن ودلكه.

والثالث عشر في تدبير السماع.

والرابع عشر في تدبير إعادة الصحة.

ويلاحظ أن الأول يرمي إلى بيان ضرورة تعهد الأبدان ، وثمرة ذلك، والتعهد يكون بأمرين : حفظ الصحة عليها إذا كانت موجودة، وإعادتها إليها إذا فقدت . أما الثاني فهو في وصف أوائل الأشياء، وبدء طبيعة الإنسان، وتركيب أعضائه. والغاية منه التأسيس أو ذكر الأشياء التي تجري مجرى الأصول والأوائل في العالم،ويقوم تدبير بدن الإنسان ونفسه عليها ، من مثل الأجسام التي خلق منها جميع ما على الأرض وتحتها ، (النار الهواء والماء والأرض)، وجهات العالم، والرياح، والفصول ، وساعات الليل والنهار، وأخلاط أبدان الناس والحيوان، وطبقات عمر الإنسان، وتسمى الأصول السبعة، وكل أصل ينقسم أربعة أقسام (يكون المجموع ثمانية وعشرين قسماً).

ثم إن الأبواب من الثالث حتى الثالث عشر

فى حـفظ بدن الإنسـان وتهـيـئـة الظروف المناسبة له وما يقوم به حتى تستدام صحته . أما الباب الرابع عشر فهو الباب الوحيد فى العلاج أو المداوة.

المقالة الثانية خاصة بمصالح الأنفس، وهى ثمانية أبواب

الأول (مثل نظيره فى المقالة الأولى) فى مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس.

والثانى فى تدبير حفظ صحة الأنفس عليها.

والثالث فى تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت إليها (نظير الباب الرابع عشر فى المقالة الأولى)

والرابع فى ذكر الأعراض النفسانية وتعديدها.

والخامس فى تدبير صرف الغضب وقمعه.

والسادس فى تسكين الخوف والفزع.

والسابع فى تدبير دفع الحزن والجزع.

والثامن فى الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس.

ويلاحظ أن البابين السادس والسابع فى موضوع واحد تقريباً (الخوف والفزع) و(الحزن والجزع) لكن الأول يدخل فى حفظ الصحة أو الوقاية، والثانى يدخل فى إعادة الصحة أو العلاج.

هذا هو البناء العام للكتاب، وهو بناء منهجى يعكس – على بساطته – قدرة واضحة على التنظيم ، يضاف إلى ذلك أن الكتاب مكتوب بلغة قريبة سهلة، وفى الوقت نفسه رصينة صحيحة.

وإذا كان هذا هو البناء، فما عسانا نجد فى داخله من علم ومعرفة، تجعل منه إضافة فى تاريخ العلم، ، وسبقاً، يخلدانه ويخلدان صاحبه. ذلك هو موضوع الفقرة التالية:

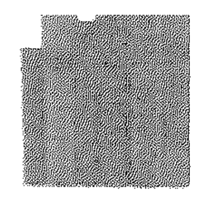
٢ – ٢ : المحتوى

لاشك فى أن البلخى اعتمد على المعارف الفلسفية والطبية السابقة التى كانت سائدة فى عصره (المعارف اليونانية)، وبخاصة فى مجال طبيعة الكون والإنسان (ما يعرف بالأجسام أو العناصر الأربعة وطبائعها وما خلق منها، وحصة الإنسان منها ، والأخلاق التى ركبت فيه، وأجزائه، وأعضائه الداخلية والخارجية، ووظائفها، ودورها فى إدامة حياته ونموه، والقوى التى منحها الله لها لتدبير أسباب غذائه) وهى مقولات تجاوزها العلم الحديث، لكننا لانستطيع – كما قلت سابقاً – أن نحاكم رجلاً عاش فى القرن الثالث والرابع الهجرى بما توصلنا إليه نحن اليوم، بعد نحو إثنى عشر قرناً وعلى أية حال فإن فى ثنايا «مصالح الأبدان والأنفس» كثيراً من الإشارات العبقرية التى تكشف عن رؤية نافذة، تستحق الإجلال والإكبار وتدعو للإعجاب. ولنبدأ بتعقب هذه الإشارات بإيجاز شديد على وفق ترتيب الكتاب نفسه.

(أ) مصالح الأبدان :

يعنى البلخى بما يحيط بالإنسان (البيئة)، ويحدد مفرداتها بـ المساكن، والمياه، والأهوية (جمع هواء)، ويربط بين اختلاف هذه المفردات ، واختلاف أجسام الناس وقدودهم وألوانهم وألسنتهم وأخلاقهم، ويرجع تفاضل الناس إلى تفاضلها. وهذا ربط يتوافق تماماً مع ما يقول به علماء البيئة اليوم.

ومما يتصل بالبيئة مايتعرض له الإنسان من حر وبرد ، وهنا ينصح بتوقى أذى الحر المفرط والبرد المفرط، سواء على ظاهر بدنه أو باطنه، وينبه – فى إشارة ذكية – إلى أن أكثر الأعراض (الأمراض) الخارجية (يريد التى ترد من محيط الإنسان) إنما مصدرها غلبة الحر أو البرد على الهواء الذى يتنسمه ويتقلب فيه، كما أن الأعراض الداخلية سببها غلبة الحرارة أو البرودة على أغذيته من طعام وشراب. وواضح هنا تأثره بنظرية العناصر الأربعة، لكن ذلك لاينفى صواب ماذهب إليه جزئياً، خاصة فى ما يتعلق بالأعراض الخارجية. وإذا كان ينصح بالاحتراس من أذى الحر والبرد بالملابس والأكنان (جمع كن، وهو مايستتر به) فإنه بفطنته يلفت إلى ضرورة عدم المبالغة حتى لايضجر، فإن ذلك ليس محموداً، إذ إن تفنيق (تنعيم) البدن وترقيق الجلد يجعله غير قادر على مقاومة العلل والأمراض، كأنه يشير إلى ضرورة اكتساب المناعة، وهو ماعبر عنه بـ «أن يوقح الإنسان بدنه وجلده على الاحتمال»، على



أن البرد أكثر ضرراً بالإنسان، وإن كان الحر أسرع إهلاكاً.

وأفضل الثياب من وجهة نظره: القطنية، لمناسبتها جميع فصول السنة، فالكتان والإبريسم، والأول أنسب للصيف ، وأما الصوف فهو أصلح للشتاء.

ويؤكد في غذاء الإنسان على الاعتدال، في إشارة واضحة إلى أن الجوع والشبع يؤديان إلى العلل، ويشبه حال الإنسان مع غذائه بحال المصباح الذي يمد من الدهن (الزيت) بقدر ما يحتاج إليه ليبقى متقداً، فإذا قطعت عنه مادة الدهن أو غرق فيها ، فإنه يطفأ سريعاً.

والأغذية ستة أنواع اللحمان والألبان والبيض والحبوب والثمار والبقول، والأقوى هي اللحوم إلا أنها صعبة الهضم ، تليها الألبان التي تتسم باللطف، لذلك صارت غذاء للأطفال وصغار الحيوان، لكن الاقتصار عليها ليس محموداً إلا لمن جرت عادته من الأمم بذلك . وهذا لفتة أخرى، فالعادة تغلب حكم الطبيعة أحياناً حتى تجعل النافع ضاراً والضار نافعاً.

والبيض من جنس اللحم واللبن، وبياضه غذاء ثقيل وخيم، وصفاره شريف نافع . أما الحبوب فتتميز بسهولة هضمها، وأجودها الحنطة. والفواكه والثمار قليلة الغذاء، وأفضلها العنب والتين، ولا ينبغي الإكثار منها. والبقول هي أيضاً قليلة الغذاء، صعبة الهضم.

والماء أصل الأشربة كلها، فهو قوام الحياة، لايستغنى عنه كائن حي.

أما المشمومات (الروائح) فإنها نافعة في حفظ الصحة وإعادتها، فما كان منها طيباً مما تستلذه حاسة الشم فإنه يقع في باب حفظ الصحة، وما كان كريها فإنه يدخل في الدواء. ويلمح البلخي في هذا السياق التأثير العجيب للروائح، سواء على الأبدان أو على الأنفس، فبعضها يهلك، وبعضها يخدر، وبعضها يصيب بالهوس، وبعضها يصيب بالصداع.

والنوم حاجة ضرورية للإنسان، به يستريح من التعب، ويستعيد قوته، ولذلك فإن الإفراط في السهر يؤدي إلى ذبول الأعضاء وقحول الجلد وغؤور العين وفتور النفس. وإذا استمر الإنسان في هذا السهر باختياره، أو على الرغم منه، فإنه يسرع في إهلاكه. ويلحظ هنا أيضاً اختلاف طبائع الناس في القدر الذي يحتاجونه من النوم. كما يلحظ علاقة النوم بفصول السنة. فالإنسان في الصيف أحوج إليه من الشتاء، وفي الخريف أحوج إليه من الربيع. والليل أفضل لأن الله خلقه للسكون والراحة.

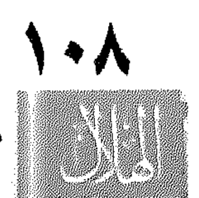
والجنس حاجة ضرورية للإنسان، وجميع الحيوان، تعطيه قوة تأتي في المرتبة الثانية بعد الغذاء، فهو سبب التناسل ، لكن الاقتصاد فيه مطلوب، إذ الإسراف يؤدي إلى الهلاك والعطب، شأنه في ذلك شأن الغذاء الذي تؤدي التخمة فيه إلى السقم.

والضعف الجنسي عنده علاجان: نفساني، جسماني. والإكثار من الأدوية يؤدي إلى النهكة (التعب) والذبول. ولذا فإن الأغذية أفضل.

والنظافة دليل على لطافة حسن الإنسان وطهر أخلاقه . ولذلك فإن مرفق الحمام مرفق عظيم، يعد من أشرف أبواب التدبير التي تعود بالمنفعة على الأبدان ومصلحتها. وهو لاينظف البدن من الخارج فحسب، ولكن من الداخل أيضاً. ويجمع إلى ذلك اللذة النفسية التي تتمثل في خفة البدن وطيب النفس وانشراح الصدر والسرور.

والحمام أيضاً علاج لعلل متضادة. وهو نافع في جميع فصول العام، وفي جميع أوقات الليل والنهار مالم يمنعه مانع، وإن كان أصلح الأوقات وقت الغداة، ويجتنب دخوله عقب الامتلاء من الطعام والشراب، والجماع، والحجامة والفصد، والأدوية المسهلة، والمشي المتعب. كما يجتنب دخوله مع هيجان الأعراض (الانفعالات) النفسية، كالغضب، أو الفزع، أو الغم المفرط ، أو الخوف المقلق.

الحركة (الرياضية) مهمة أيضاً في حفظ الصحة، بل إنها تقوم مقام أشرف العلاجات





الورقة الأولى من المخطوط (ب) وغلافه

وأكثرها نفعاً. وهنا يلحظ البلخى أن كثيراً من أهل الدعة والرفاهية الذين تقل حركتهم يصابون بأمراض مزمنة مثل النقرس وغيره. والمشى أفضل أنواع الحركة. وهذا يتفق مع مايقوله الأطباء اليوم. وأفضل الأوقات للرياضة أول النهار. والكلام رياضة إذا لم تتح حركة الجسد.

ومن مظاهر العناية بمصالح البدن تدبير ماأسماه البلخى «السماع»، ويقصد الغناء والألحان، ويبدو أنه تردد بين أن يجعله فى مصالح الأبدان، أو يجعله فى مصالح الأنفس، ذلك أنه ليس من المصالح البدنية المحضة، بل هو بأن يقع فى مصالح الأنفس أولى، وذلك لما نجده يؤثر فيها من الآثار العجيبة بهزها وتحريكها، حتى يحوجها - مرة بفرط الإطراب، وأخرى بفرط الإشجاء - إلى هيئات عجيبة وأريحيات مغيرة للإنسان عن الحالات التى تتقدمها» ثم إنه جعله ضمن مصالح الأبدان لأن لها فيه حظاً وافراً من المنافع ، وذلك على الرغم من أن أبلغ تأثيره فى النفس . وإنما حسم أمره بهذه الصورة لأمرين:

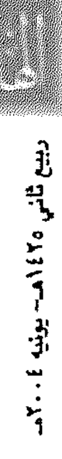
اولهما أن حظ الأبدان من السماع يتحقق فى حال حفظ الصحة، لأن الطعام والشراب يكون أهنأ وأجمع وأعمل فى إنمائها وحسن تغذيتها.

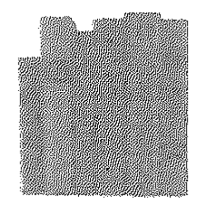
وثانيهما أن حظها يتحقق أيضاً فى حال إعادة الصحة إذ جرت عادة الحكماء وقدماء الأطباء على مداواة كثير من الأعلاء (المرضى) بإسماعهم أصواتاً لذيذة.

هذا التنازع، تنازع السماع بين الأبدان والأنفس هو الذى جعله يؤخر الكلام فيه إلى آخر أبواب مصالح الأبدان، حتى يكون قريباً من مصالح الأنفس، مع أن مرتبته تقترن بمرتبة الأشربة.

والسماع - كما يراه البلخى - يجمع بين كونه حكمة ولهواً، ولذته لا يلحق الإنسان منها ملل شأن لذات المطاعم والمشارب والمناكح وغيرها .. ذلك أن لذته روحانية، وتلك جسمانية.

وفضيلة السماع لاتكتمل إلا بثلاثة: الصوت الحسن، وجودة اللحن، وجمال المعاني. والمعاني التى ينبغى الحرص عليها تلك التى تحرك قوة الحرية وقوة الشجاعة. أما





التى تحرك قوة الشهوة فلا ينبغى الميل إليها كل الميل.

(ب) مصالح الأنفس :

تحفظ صحة الأنفس عليها بأن تصان من الأعراض الخارجية والداخلية، الخارجية ترد عن طريق السمع والبصر فتحرك في الأنسان غضباً أو فزعاً أو خوفاً أو غماً، والداخلية تأتى عن طريق التفكير فى أمور تؤدى إلى غضب وخوف ونحوهما.

ولعل أهم مايسجل للبلخى فى هذا السياق تأكيده ما يلى

- عدم تعريض النفس للأعراض التى تحركها وتهيجها على حد تعبيره، إذ أن صحتها فى أن تكون قواها ساكنة.
- عدم التفكير فى ما يحرك ويهيج، مما يشغل القلب ويقسم الضمير.

أما كيف يفعل الإنسان ذلك فإن الاعتماد - كما يرى - على قوة العقل أو التفكير فى اتجاهين : أولهما يمكن تلخيص كلامه فيه بأنه «الرضا» وذلك بأن يقنع الإنسان نفسه بأن الدنيا مجبولة على أن لاتعطيه مايتمناه، دون شائبة من تنغص وتكدر. وثانيهما أن يعرف الإنسان قدرته على الاحتمال، فلا يعرضها لما هو فوق طاقتها.

ويبدو واضحاً اهتمام البلخى بتأثير الانفعالات على الصحة النفسية، وتعويله على التفكير فى تجنب اضرارها.

ولم يغفل البلخى عن تأثير مايصيب النفس فى البدن، فالغضب مثلاً يؤدى إلى الارتعاش واصفرار اللون، وشبيه بذلك مايفعله الفزع والخوف . ولا يكتفى برصد هذه الأعراض المباشرة الظاهرة، بل يشير أيضاً إلى سخونة البدن أو برودته. وتقبيح شكله، وهو مايعبر عنه بالقول «ويحدث فيه (الجسم) أحداثا موحشة المناظر».

إن رأس الأعراض المؤذية «الغم» ، فهو مقدمة الغضب والجزع وكل مكروه. وإذن فإن رأس العناية بمصالح النفس هو الاجتهاد فى نفى «الغم» واجتلاب السرور.

ويبدو أن «الغضب» أكثر الأعراض اعتراء للإنسان، ويحتاج فى تدبيره وقمعه إلى تدبير من الداخل والخارج. فتدبير الخارج عن طريق الاستماع لمن يعظ وينصح والاستجابة له، وتدبير الداخل بالتفكير فى وقت سكون النفس بأخطار الاستسلام له.

وأشد أنواع الخوف والفزع ذلك المرتبط بحدوث حادث يصيب نفس الإنسان مباشرة كالتلف والألم الشديد، والناس ليسوا سواء فى احتمال الخوف، كما أنهم ليسوا سواء فى درجة الغضب، وكما الاحتمال لقمع الغضب فى التفكير، كذلك الخوف والتفكير هذا الذى يركز عليه البلخى، هو مايسمى اليوم بـ «العلاج المعرفى».

وفى مقابل عرضى الخوف والفزع يأتى الحزن والجزع. الأولان باتجاه المستقبل، أى أنهما يعرضان من توقع مكروه . والأخيران باتجاه الماضى، أى أنهما يتولدان من فوت محبوب، لكن ثانى كل منهما أعلى من أولهما، فالفزع إفراط الخوف، والجزع إفراط الحزن. فإذا ما اجتمعا على إنسان «لم يبقيا له لذة حياة ولا طيب عيش»

وكما كان السماع شركة بين مصالح البدن والنفس، فإن أحاديث النفس ووساوها ليست خالصة لأعراض النفس، فهى عرض خاص. ويفهم هنا من كلام البلخى أن هذه الشركة ترجع إلى أنه قد يكون ناتجاً عن الوراثة، وهو ما عبر عنه بالقول : «وهذا العرض قد يوجد مرة فى الإنسان من قبل الطبع».

والوقاية من الوساوس تكون بـ «حيل من خارج النفس» وأخرى من داخل النفس. هذه الأخيرة تتمثل فى تجنب الوحدة والفراغ واللجوء إلى الأصدقاء، وتتمثل الأولى فى التفكير وإقناع النفس بأنها وساوس باطلة، وأن عليه أن يتعودها .. الخ.

* * *

كان ذلك عرضاً شديد التركيز، ولا أبرئه من بعض الخلل نتيجة ذلك، فالغاية كانت - كما قلت - هى إشارات تهدى إلى الطريق،

لكنها لاتدخله، لاستحالة ذلك في مثل هذا المقام.

– ٣ –

الدلالة

من الحق الذي ينبغي الاعتراف به أني لست طبيباً ولا نفسانياً، وقراءتي للكتاب جاءت من باب أنه «تراث»، ولذلك فإني سأستعين في تقويمه، بما قاله المتخصصون، فهم أقدر على ربطه بما جد في ميدان الطب، والطب النفسي، والوقوع على دلالته أو دلالاته الحقيقية في سياقه المعرفي.

٣ – ١ إن الكتاب يعد في رأي د. فؤاد سزكين «أول محاولة لجمع مسائل ذلك الفرع من الطب الذي يعالج الأمراض النفسية، مع التطرق إلى الطب النفسي العضوي والعلاج النفسي» ولما كان د. سزكين قد دخل إلى الكتاب من باب تاريخ العلوم أيضاً فإنه قد ترك أيضاً «البت النهائي فيما إذا كان هو رائد الطب النفسي للباحثين المتخصصين».

وقد سبق البلخي في رأي د. مالك بدري (هو أستاذ علم النفس) عصره بأكثر من عشرة قرون، ولو قرأ النفسانيون المسلمون كتابه بتدبر لكانوا هم الرواد للعلاج السلوكي وللثورة المعرفية في ميدان العلاج النفسي، ولما أضاعوا عشرات السنين في التقليد الأعمى لنظريات وممارسات غربية فاشلة أو قليلة الجدوى على الفكر الإلحادي الرافض لروحانية الإنسان .. من مثل السلوكية المتطرفة والتحليل النفسي الفرويدي الذي سيطر على نظريات العلاج النفسي وتطبيقاته في الغرب لأكثر من سبعين سنة.

كما أن تركيز البلخي الشديد على دور العوامل النفسية في الصحة والمرض النفسي والجسمي يجعله كأنه من متخصصي الطب السيكوسوماتي والشمولي الحديث.

ويوافق د. مصطفى عشوى مالكاً في أن تأكيد البلخي ارتباط البدن بالنفس لاشتباك أسبابهما، هو أمر مهم للغاية في الصحة النفسية، ويعد من النظريات الجديدة في الطب وعلم النفس.

٣ – ٢ : استطاع البلخي التفرقة بين المرض النفسي أو العصاب، والمرض العقلي أوالجنون، وصنف الأعراض النفسية تحت أربعة أصناف: الغضب، ثم الخوف والفزع، ثم الحزن والجزع، ثم الوسواس. هذه الأصناف – كما يقول د. مالك – تحوي أهم الفصول التي يدرسها طلاب علم النفس المرضي وعلم نفس الشواذ في الجامعات المعاصرة تحت باب الاضطرابات العصابية. كما صنف الاكتئاب بأنواعه المعروفة . وهو أمر لم يسبق إليه ، ولم يأت أحد بمثله إلا بعد تسعة قرون.

كما استطاع البلخي أن يتوصل إلى أهمية «التفكير» في علاج الاضطرابات النفسية، والتفكير هذا هو الذي يطلق عليه «العلاج المعرفي».

– ٤ –

هو

لقد أخذنا الكتاب من صاحبه ، وعشت الفكرة عيوننا عن مبدعها، فمن هو أبو زيد البلخي هذا؟

ولد البلخي عام ٢٣٥ هـ في مدينة تسمى بلخ، وتوفي عام ٣٢٢ هـ. وقد شغل منزلة رفيعة بين علماء عصره في علوم كثيرة: التاريخ والجغرافيا والطب والأدب والنحو والسياسة والفلسفة والرياضيات والتنجيم والهيئة (الفيزياء» وترك نحو ستين كتاباً، لم يبق الزمن منها إلا القليل. تلمذ لفيلسوف العرب الكندي، وتلمذ له أبو بكر الرازي،وقال عنه ياقوت الحموي : كان معلماً للصبيان، ثم رفعه العلم إلى مرتبة علية»، وقد عُدَّ واحداً من متكلمي العالم الثلاثة: الجاحظ وعلي بن عبيد الريحاني، وهو . ويكفي ماقاله فيه أبو حيان التوحيدي: لم يتقدم له شبيه في الأعصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستأنف الدهر. ومن تصفح كلامه في كتاب أقسام العلوم و.. علم أنه بحر البحور، وعالم العلماء وما رئي في الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه».

وما أحسب أن شيئاً يقدم الرجل ويعرِّف به ، مثل كتابه الذي طوفنا معه.

(*) باحث في التراث، ومنسق برامج معهد المخطوطات العربية بالقاهرة. ■

الماضى والحاضر

أمس: العرب يعرفون عن العالم مالا يعرفه سواهم.
اليوم: لا يكاد العرب يعرفون ما يجرى حولهم!

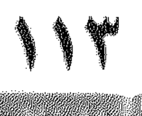
بقلم
مصطفى نبيل

لماذا كانت المعرفة العربية متميزة وسباقة فى الماضى.. ولم تعد اليوم كذلك؟!

بالأمس كان العرب يعرفون عن العالم مالا يعرفه سواهم، واليوم لايكاد العرب يلاحقون التغيرات السريعة، أو يدركون طبيعة مايجرى حولهم!!

وفى الماضى ، ظل الكثير من أنحاء العالم مجهولا حتى قدمه الرحالة والجغرافيون العرب . وهناك أمثلة ثلاثة واضحة على ذلك..

خريطة العالم
القديم كما
تصورها
الجغرافيون
العرب الأوائل



فتناول البيروني الهند سنة ١٠١٢م وما يدور فيها، فمن يقدم لنا اليوم مايجرى فيها من نهضة علمية، وعمل شعبى ديمقراطى متقدم؟!

وقدم لنا أحمد بن فضلان «الفايكنج» أصل الأنجلو سكسون، ورسم لهم صورة البرابرة المتوحشين سنة ٨٧٨م، فمن يقدم علاقة مايجرى اليوم فى العراق بهذا الماضى!

وتناول حسن الوزان أو «ليون الأفريقى» أفريقيا فى القرن السادس عشر، وهى القارة التى ننتمى إليها، ولكنها بعدت، فلا تجد من يلاحق أحداثها ويندر من يعرف تفاصيل مايدور فيها!.

يقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى فى كتاب «الأدب الجغرافى العربى»، «قدمت لنا الجغرافيا العربية لوحة رائعة، وأظهر الجغرافيون العرب الدور المهم الذى لعبوه فى تطوير علم الجغرافيا، ويبدو هذا واضحا فيما قام به البيرونى،.. وابتدع الشرق تلك الشخصية الخالدة شخصية «السندباد البحرى» الذى ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافى، وواضح الاتساع الهائل فى مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب، عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم، وترك العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان»..

ويضيف .. «إن أول مرة أمكن فيها التعرف على أعماق أفريقيا بوصف تفصيلى كان فى المؤلفات العربية .. ولم يكن كل ما أتوا به صحيحاً، فكان لديهم مثلاً تصور أن الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس!، فأعمالهم تارة علمية دقيقة، وتارة شعبية تجمع بين ماهو واقعى وما هو أسطورى، وفيه المتعة وفيه الفائدة. ولا يوجد لذلك مثيل لأدب أى شعب معاصر لنهضة العرب».

الحضور الحى

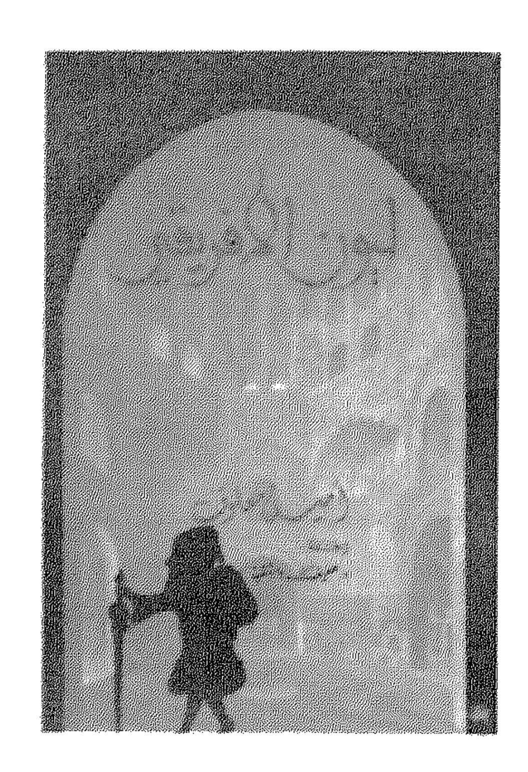
يقف على قمة الجغرافيين والرحالة البيرونى. والذى زار الهند عام (٩٧٣هـ - ١٠١٢م)، وترك لنا كتابه «ما للهند من مقولة مقبولة». ومازال لهذا الكتاب حضور حى، فكثير مما أورده مازال قائماً ..

وفتح هذا الكتاب للقارىء نافذة يطل منها على ذلك العالم المجهول بكل مافيه، وهو عالم يتمتع بحضارة عريقة وثقافة متفردة.

وقد كان عالماً مرموقاً، جاء من خوارزم، ونبغ فى كل علوم عصره، وأتقن من اللغات اليونانية والفارسية والهندية، يصفه ياقوت الحموى بقوله .. «لايكاد القلم يفارق يده، وعينه النظر، وقلبه الفكر» له ثقافة موسوعية تظهر فى كتاباته وملاحظاته الحصيفة، وقامت شهرته على كونه جغرافيا.

ويدلنا البيرونى على الدافع لكتابة هذا الكتاب المهم، وهو الاستجابة لأحد العلماء حتى يصحح أخطاء روايات العوام. ويأخذ البيرونى على الأمة الإسلامية جهلها بأمور هذه البلاد، فيتقدم ليسد هذا النقص، والذى يفسره بالاختلاف فى اللغة، والتباين الدينى بين الهند وفارس.

فماذا هو قائل لو ظهر شاهدا على هذا العصر؛ عصر ثورة المعلومات، وسرعة



الاتصالات، وتزايد أدوات المعرفة، ووجود القـــارات والصـــحـف والإنتـــرنت والفضائيات؟!!

ويقدم للقارئ العقائد المنتشرة فى الهند، ويقـــول عن تناسخ الأرواح «التناسخ علم الهنود، فمن لم يعتنقه لم يكن منهـا..، وأصل هذه العقيدة أن الأرواح لاتفنى، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان، وقد جاء بهذه العقيدة «مانى» الفارسى الذى نفى إلى الهند (قدمه أمين المعلوف فى رواية حدائق النور)، كما تحتل الفلسفة الخلقية فى الهند مساحة واسعة فى اهتمامات الكتاب، ففى عقيدتهم أن الخلاص بالعلم ولا يكون إلا بانتزاع الشر، والانتصار على الشهوة والتحكم فى الغضب».

ويلفت نظره نظام الطبقات الصارم، ويذكر أن السياسة والدين اجتمعا على تصنيف الناس فى مراتب وطبقات تحول دون الاختلاط والمساواة، ويفيض فى تقديم كتبهم الطبية النفيسة، كما يشير إلى كتاب «ينج تنتر» وهو كتاب «كليلة ودمنة»، وأنه تردد بين الهندية والفارسية والعربية حتى يجذب القارئ إلى مذهب المانوية.

ولعل ذلك هو الذى أدى إلى إعدام عبد الله بن المقفع مترجم الكتاب إلى العربية.

ويتناول عاداتهم مثل عدم حلق الشعر، وتضفير اللحى وشرب الخمر على الريق، وقيام النساء بأمور الحراثة والرجال فى راحة، ويرتدى الذكور ملابس النساء، كما أن لهم فى الزواج عادات خاصة، ولاطلاق عندهم، وللرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ويصل عدد زوجاته إلى أربع، ولا تتزوج المرأة بعد وفاة زوجها.

(ونشرت قصور الثقافة النص الكامل لكتاب البيرونى، وقدمته الهلال فى مارس ٢٠٠٤).

الليالى البيضاء

أما رحلة أحمد بن فضلان إلى الشمال بحثا عن الضياء فتعبر عنها لوحة شهيرة للرسام هنرى سميرادسكى فى متحف الأرميتاج فى بطرسبرج، وهى تصور أحد الوقائع التى وصفها ابن فضلان فى رحلته، باخرة تبحر فى النهر المقدس وهى تحترق، تحمل الزوج المتوفى وتصاحبه جاريته حبا ووفاء، حتى تشتعل فيها أعمدة اللهب!

كما أشعلت الصور التى أوردها ابن فضلان خيال الروائى الأمريكى مايكل

كرايتون، فكتب روايته التى حافظ خلالها على الوقائع التى صورها ابن فضلان، «أكلة الموتى»، وترجمت الرواية إلى اللغة العربية، ونشرت فى روايات الهلال فى مايو ١٩٨٥.

وحولت هوليوود الرواية إلى فيلم سينمائى شهير هو «الفارس الثالث عشر».

كما نشر نص الرحلة د. سامى الدهان في دمشق.

وجاء الاهتمام الكبير بهذه الرحلة، لأنها ألقت الضوء على حياة الكثير من الشعوب منهم الصقالبة والفايكنج فى فترة مجهولة من التاريخ المدون والمعروف.

وهى تسد ثغرة فى معرفة ماضى الشمال، وتشمل الرحلة العادات والتقاليد فى ذلك العصر البعيد أى فى القرن العاشر الميلادى.

لاحظت أول مرة الاهتمام برحلة ابن فضلان لدى زيارتى إلى جامعة هلسنكى فى فنلدا، فكان علماء الشمال أول من لفت نظر الدوائر العلمية إلى أهمية هذه الرحلة.



والرحلة - أى رحلة - تتطلع إلى المجهول، والبحث عن الجديد .. ويذكر المستشرق الألمانى فرهنى .. «إن تاريخ روسيا وما جاورها فى العصور القديمة غير معروف، وهو لايزال غامضا فى الكثير من جوانبه .. وإذا كانت الدول الغربية قد أغفلت روسيا، فإن العرب والشرقيين قدموا البلغار والصقالبة فى عصور مجهولة تماماً.. وبذلك فتح العرب عيون الغرب على معارف عجيبة فى الكون من أقصى الهند والصين وحتى المحيط..»

وتصف رسالة إبن فضلان بالفعل بلاد الروس والبلغار أيام الخليفة المقتدر بالله أبى الفضل (٢٩٥هـ)، كما تتناول الصقالبة سكان الشمال على أطراف نهر الفولجا. وهى معارف لاتوجد فى مرجع سواه.

وكان أحمد بن فضلان ضمن بعثة دبلوماسية تحت رئاسة سوسنى الراسى إلى ملك الصقالبة، ويبقى ماسجله فى تقرير كتبه إلى الخليفة، ولم يعرف مضمون ماكتبه مرة واحدة، بدأت معرفة رسالة ابن فضلان من خلال مانقله منها ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان».

فمرت البعثة فى طريقها إلى بلاد الصقالبة بهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى، ثم سارت البعثة مع نهر جيحون إلى خوارزم عند بحر آرال، وعبروا صحراء أوست أورت، ثم نهر يايت ووصلوا إلى حوض نهر الفولجا.

واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً غنية بالأحداث والمغامرات، وجمع رسموس سنة ١٨١٤ بعض أطراف هذه الرحلة وترجمها إلى الروسية مما أورده ياقوت الحموى، ونقلها نيكلسون بدوره إلى الانجليزية.

ثم عرفت بكاملها عندما أدى الكشف عن مخطوط الرسالة فى عشرينيات القرن العشرين، وساهم فى زيادة المعرفة والاهتمام بالتفاصيل الإضافية التى لم يوردها ياقوت الحموى.

بعض، ولايزنون، ومن زنا منهم، ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة، ثم تعلق كل قطع منه على شجرة.[١]»، وهذه مجرد شذرات من وصفه.

أما لوحة الآرميتاج، فكانت نقلا عن الفقرة التالية التى جاءت فى رسالته .. ويسألون الجوارى من على استعداد للموت مع سيدها، خلال رحلته إلى الملأ الأعلى، وعندها تشرب الجارية وتغنى، وتركب السفينة التى جعل فيها خمر وفاكهة، ويدفعون الجارية بعد أن تودع صاحباتها، ثم يحرقون الخشب أسفل السفينة، وهى تتجه إلى الأفق البعيد، حتى تصبح رماداً تذروه الرياح».

وتصور رواية كرايتون اختطاف ابن فضلان من جماعة الفايكنج (أصل الأنجلو سكسون سكان بريطانيا والولايات المتحدة). ويصف حياة الوحشية البربرية التى يعيشونها.

يقول كرايتون فى مقدمة روايته.. «يعد هذا المخطوط أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الاسكندنافى، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها تصف أحداثا تفوق الخيال.

وهناك تباين كبير بين النظرة الأوربية الأولى والقديمة والتى رسمها رجال الدين، الذين نظروا إلى الفايكنج نظرة رعب خاص .. مائة رأس معمم بحديد الفولاذ فوق العنق، ومائة لسان لاسع بارد لا يصدأ، صفيق وقح كل منهم لايسلم من أذاهم أحد.



وحصل المعهد الآسيوى للاستشراق فى بطرسبرج سنة ١٩٢٤ على النسخة الخطية للرحلة التى عثر عليها فى «مشهد» بإيران.

ويصف الكثير من الغرائب والعجائب فى الشمال . قصر الليل وطول النهار، أى الليالى البيضاء فى بلاد الشمال فى بطرسبرج وفنلندا والسويد والنرويج «رأيت النهار عندهم طويلاً جداً، يطول مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار» ويدهشه خلال رحلته وجود النساء إلى جانب الرجال، عريا، ويدعوهن إلى التستر، ويغطى وجهه حين تكشف النسوة عن عوراتهن».

ويضيف مستعرضا بعض عادات أهل الشمال .. «ينزل الرجال والنساء إلى النهر يغتسلون عراة، لايستتر بعضهم من

وجاء إبن فضلان وتجاوز وحشيتهم لكي يظهر نظام القيم لديهم، والأثر الأكثر وضوحاً لفنهم الوثني، ولطاقتهم التي لاتعرف الملل»..

في بؤرة الصراع

وثالثة الرحلات التي أضاءت فترة مجهولة من تاريخ أفريقيا هي رحلة حسن الوزان أو ليون الأفريقي.

وهو الرجل الذي وجد نفسه في بؤرة الصراع بين الشرق والغرب.

كانت البداية خروجه فاراً من غرناطة في الأندلس التي ولد بها، ثم اجتاحتها قوات فرناند واليزابيث عام ١٤٩٢ ولجأ إلى فاس في المغرب، وهو أحد ضحايا سقوط الأندلس.

كما شاهد في مصر سقوط دولة المماليك، ودخول سليم الأول غازيا البلاد، وشهد شنق طومان باي آخر سلاطين المماليك عند باب زويلة، ويشيد في كتابه «وصف أفريقيا» بشجاعته. ويتكرر الإخفاق في كل من غرناطة والقاهرة، وعاش في بؤرة الصراع سواء بين العرب أنفسهم في المغرب ومصر، أو بينهم وبين الأجنبي.

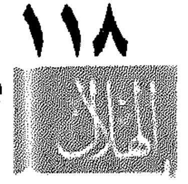
وأخيراً .. يقع أسيراً عام ١٥٢٠م، ويختطفه القراصنة من صقلية بالقرب من جزيرة جربه، ويقدمه خاطفوه إلى البابا ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١)، ويعيش في رعاية البابا ثلاثين عاماً، وأطلق عليه البابا اسمه فأصبح «ليون الأفريقي»، ولعل ماأبقاه في روما كل هذا الوقت، شغفه بالمعرفة في بواكير النهضة الأوربية وفي ظل عائلة المديتشي، وكان يجيد اللغة الإسبانية وتعلم اللغتين الإيطالية واللاتينية ، واغترف المعرفة من مكتبة البابا، وهو عربي النشأة واللسان، ولكنه كتب «وصف أفريقيا» باللغة الإيطالية!

وبعد أن استفاد من كل كتاب وقع بين يديه ، تمكن من الإفلات عائداً إلى تونس.

وبالتالي لم يكن مستغربا أن يجعله الروائي أمين المعلوف بطلا لأحد رواياته التي أطلق عليها اسمه الافريقي «ليون الأفزيقي»، وقد عرف عن المعلوف ولعه بتاريخ العصور الوسطى ومعالجته للعلاقة بين الشرق والغرب. والمعنى بالتأثير والتأثر بينهما. ويتناول قصته وهو ذاته العربي الذي يعيش في باريس ويكتب بالفرنسية، فيروي قصة حسن الوزان منذ مولده سنة ١٤٨٨م وحتى اختفائه من روما سنة ١٥٢٦م.

ويبدأ عمله الدرامي بالقول على لسان حسن الوزان.. «ختنت بيد مزين، وعمدت بيد أحد البابوات، وعشت الحكمة في روما، والصبابة في القاهرة، والغم في فاس، والبراءة في غرناطة».

ويعد حسن الوزان آخر العلماء الذين نشأوا في ظل الحضارة العربية في الأندلس، كما يعد كتابه «وصف أفريقيا» من المصنفات المهمة التي أسهمت في التعريف ببعض المناطق الأفريقية ، فبعد رحلة ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨م)، والتي تمثل وثيقة اعتمد عليها البحث الجغرافي في دراسة الأقطار الأفريقية والآسيوية في القرن الرابع عشر، جاء



بعده حسن الوزان بقرن ونصف القرن وأكمل تلك المغرفة، ويكاد كتابه أن يكون المرجع الوحيد الذى يقدم مجاهل أفريقيا لكل دارس.

ويصف المستشرق الروسى كراتشكوفسكى حسن الوزان ، بقوله .. ، إن الوصف الجغرافى عنده يتميز بالدقة

ولعل معرفته بعدة لغات مكنته من الإطلاع على مؤلفات العصور الوسطى». ويضيف .. «إن أهمية كتاب ، وصف أفريقيا » فى تلك الملاحظات الشخصية التى تشكل الجزء الأساسى من الكتاب

ويعتبر كتابه فتحا جديدا بالنسبة لذلك العصر، حتى لو اقتصر على تقديمه لما يقرب من أربعمائة اسم لمواضع جغرافية مختلفة، مع معطيات دقيقة وجديدة، ورغم مرور ثلاثة قرون ، لم يستطع أن يتجاهله باحث يتناول أفريقيا..»..

ويرى بعض الباحثين العرب، أنه ألف هذا الكتاب بالعربية ثم أتمه وترجمه فى روما إلى الإيطالية، ولم يعثر أحد على الأصل العربى، إلا أن عبد الله عنان يذكر أن النص العربى، كان معروفاً حتى أواخر القرن السادس عشر فى مكتبة بينللى الإيطالية..

يقول الوزان حول منهج كتابه .. «هذا على وجه ماأبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى عن أفريقيا التى عبرتها من أقصاها إلى أقصاها، ودونت تلك الأشياء التى رأيتها بعينى رأسى، ومالم أره فقد جهدت من أجل الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم،.. وانتهيت من تدوينه فى شهر مارس عام ١٥٢٦م».

وهذه بعض الأمثلة مما جاء فى الكتاب، يقول عن مصر . «إنه ركب النيل من القاهرة إلى أسوان، ثم عاد إلى قنا ، واجتاز الصحراء إلى البحر الأحمر».. ويصف سكان القاهرة بقوله .. «سكان القاهرة على جانب كبير من الظرف والمرح، حديثهم ممتع، ولكن عملهم قليل(!)، ولا يغادرون بلادهم، وعلى الرغم من أن المدراس مزدحمة بالطلاب، لايستفيد منهم إلا النزر القليل..»..

هكذا كانت المدارس فى القرن السادس عشر وحتى اليوم

ويبدى فى خاتمة كتابه نيته للعودة وعزمه عليها . «وإنى أعتزم بعون الله، حينما أعود من أوروبا إلى وطنى، أن اخص كل هذه الرحلات بالوصف»..

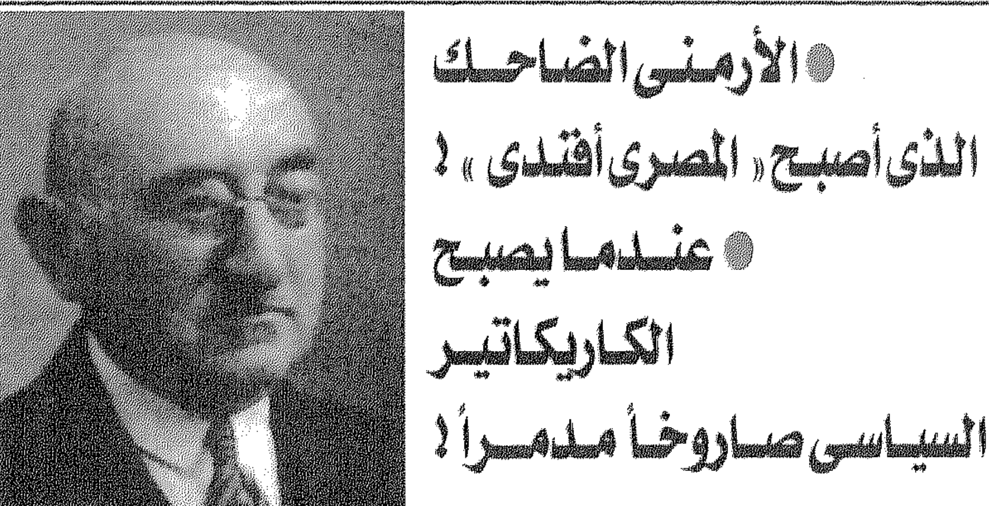
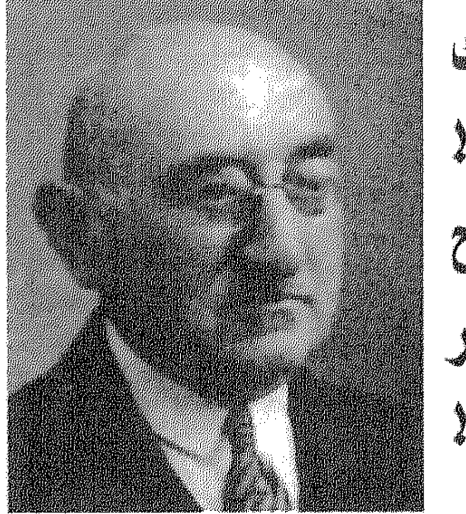
وعاد إلى بلاده ووصل إلى تونس ، ولم يعرف بعدها عنه شيء وترجمت رحلاته إلى كل لغات العالم ، ولم يوجد باللغة العربية إلامؤخراً عندما ترجمه عن الفرنسية فى الغرب، كل من د. محمد حجى ود. محمد الأخضر.

وبعد ...

مازالت الحياة العلمية فى الشرق تحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام، وقد تدهورت عندما اقتصر الاهتمام على العلوم الدينية وإغفال غيرها من العلوم، ومرة أخرى منذ فصلت العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية رغم ارتباطهما، فما أحوج المهندس إلى الموسيقى، وما أحوج الروائى والشاعر إلى المعمار، وما أحوج الطبيب إلى العلوم الاجتماعية . ■

صاروخان

فارس الكاريكاتير السياسى !

- الأرمنى الضاحك الذى أصبح «المصرى أفندى» !
- عندما يصبح الكاريكاتير السياسى صاروخاً مدمراً !

بقلم
محمد رضوان

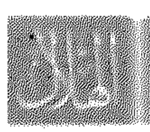
ارتبط اسم فنان الكاريكاتير «صاروخان» بتاريخ الكاريكاتير فى مصر، حيث يعتبره كبار فنانى الكاريكاتير أنه الأستاذ والرائد، باعتباره أول من مصّر فن الكاريكاتير، وعبر من خلاله عن ملامح المواطن المصرى بوضوح، وعكس أفكاره، وجسد شخصيته وعاداته وتقاليده.

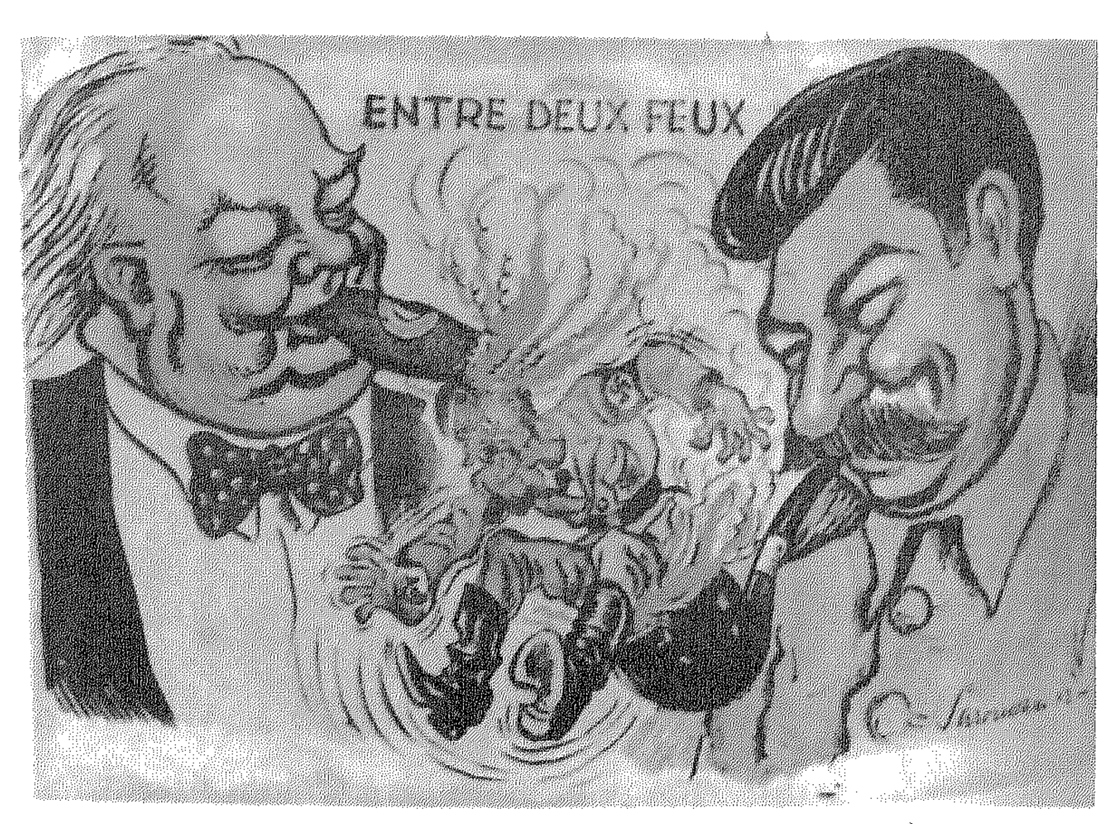
ويكفى أنه ابتكر شخصيته «المصرى أفندى» الذى عبر على لسانه عن قضايا الوطن والمواطن المصرى والحياة المصرية السياسية والاجتماعية والفكرية خلال خمسة عقود منذ حقبة الثلاثينات حتى منتصف السبعينات عاصر خلالها الأحداث الساخنة فى العهدين الملكى والجمهورى بدأ من عهد الملك فؤاد الأول مرورا بعهد فاروق الأول ملك مصر والسودان حتى عصر جمال عبدالناصر ثم عصر السادات الذى رحل فى منتصفه «يناير ١٩٧٧»

روز اليوسف

الوفد بين الحزب الوطني والأحرار الدستوريين ؟!

صاروخان - روز اليوسف - ٢٩ مايو ١٩٢٨





صاروخان ـ "هذه الحرب" ١٩٤٠

ազգերով կ'ուտէ



بياكلها بعنيه !

والغريب أن هذا الفنان الموهوب الذى مصّر ملامح الشخصية الكاريكاتيرية وأعطاها ملامحها المصرية الأصيلة لم يكن مصريا. بل جاء إلى مصر من باطوم ببلاد القوقاز سنة ١٩٢٤ بحثا عن فرصة عمل فى مجال الكاريكاتير وذلك فى مغامرة مثيرة تستحق أى تروى وتقص.

من هو صاروخان؟

ولد الكسندر هاكوب صاروخانيان فى أول أكتوبر ١٨٩٨ ببلدة أردانوج بأقصى شمال تركيا الواقعة ضمن مقاطعة «باطوم» التابعة للإمبراطورية الروسية يومئذ.

وكان صاروخان ثالث أبناء زاديك صاروخانيان الذى كان يعمل تاجرا للأقمشة ثم انتقل بأسرته عام ١٩٠٠ إلى مقاطعة باطوم، وارتبط الكسندر بأخيه «ليفون» حيث عشقا الرسم وبعد ان التحقا بالمدرسة الروسية تقابلا مع معلم الرسم الذى زرع فيهما حب الرسم إلا أن الأحداث السياسية أجبرت الأسرة على الانتقال إلى استانبول حيث أسس والده هناك تجارة فى النفط القوقازى وهناك التحق الأخوان الكسندر وليفون بالمدرسة الكاثوليكية وقاما بتأسيس جريدة أسبوعية منزلية من أربع صفحات تنفذ كلها يدويا فكان ليفون يقوم بكتابة المادة الصحفية وجمع المقالات، أما الكسندر فكان يقوم برسم الصور الكاريكاتيرية ولكن جاء عام ١٩١٥ ليحمل مأساة دامية لأسرة صاروخان.. حيث شهد هذا العام مذابح الأرمن وراح ضحيتها ضمن من راح والد الكسندر ووالدته وأخواته الثلاث.

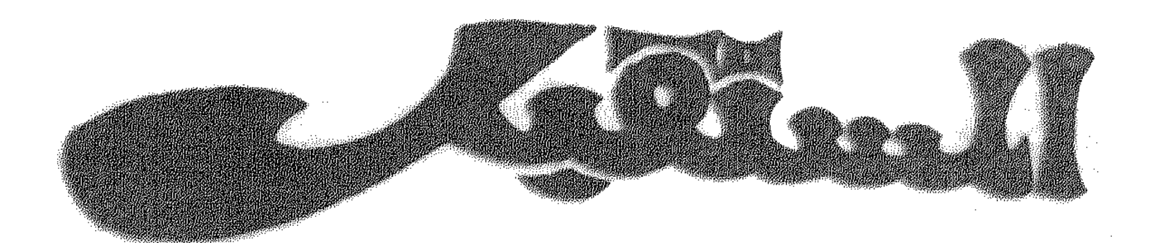
وفى نوفمبر ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى خرج الكسندر من المدرسة ليعمل مترجما للغات الروسية والتركية والإنجليزية بالجيش البريطانى واستطاع نشر بعض رسوماته الكاريكاتيرية فى بعض الجرائد والمجلات الأرمينية.

وبعد دخول قوات الغازى كمال أتاتورك إلى أزمير قرر الكسندر وأخوه الفرار من تركيا خوفا على حياتهما فاتجها إلى بروكسل حيث أعادا إصدار مجلتهما الكاريكاتيرية أسبوعيا والتى استمرت لمدة ثلاث سنوات وبعد احتراف الكسندر للرسم الكاريكاتيرى اتجه إلى فينا لينهى دراسته بمعهد الفنون الجرافيكية.

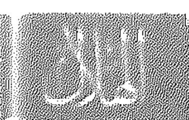
وفى فينا جرى لقاء مع شاب مصرى مغامر كان نقطة تحول فى حياة الكسندر وفنه.

لقاء فى فينا

كان ذلك عام ١٩٢٤ حيث التقى فى فينا بالشاب المصرى المثقف الثرى عبدالقادر الشناوى الذى كان يدرس فى



١٢٤



ربيع ثاني ١٤٢٥هـ - يونية ٢٠٠٤م

صاروخان - المستقبل ١٩٢٩

فينا فنون الطباعة تمهيدا لإصدار صحيفة فكاهية فى مصر بعد عودته.. واتفق مع الكسندر على حضوره إلى مصر ليعمل معه فى إصدار الصحيفة الجديدة.

وبالفعل ركب صاروخان السفينة المتجهة إلى مصر ونزل بميناء الإسكندرية فى ٣١ أغسطس ١٩٢٤.

وبعد محاولات شاقة عثر على عبدالقادر الشناوى فى مدينة المنصورة وبالفعل صدرت الصحيفة وبها رسومات صاروخان الفكاهية لكن الصحيفة توقفت بعد صدور العدد الثانى.. واستطاع صاروخان التعرف على الجالية الأرمينية بالقاهرة فأخذ يرسم فى مجلة السينما الأرمينية منذ يناير ١٩٢٧.

ولكن حدث لقاء أخر مع كاتب مصرى شاب كان نقطة تحول أخرى فى مستقبل صاروخان الصحفى.

التابعى و صاروخان

كان ذلك فى نوفمبر ١٩٢٧ حيث التقى بالكاتب الصحفى محمد التابعى رئيس تحرير مجلة روزاليوسف فى ورشة بريزيريان للتصوير والرنكوغراف. فطلب منه التابعى أن يرسم غلافا لمجلة روزاليوسف، فرسم صاروخان عدة صور كاريكاتيرية بالألوان قدمها للتابعى الذى أعجب بها ونشرها كغلاف لمجلة

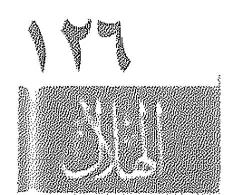


صاروخان - آخر ساعة - ١٩٣٤

روزاليوسف لينافس بها رسومات «سانتيس» الرسام الأسبانى الذى كان يعتبر أكبر رسام كاريكاتير فى مصر يومئذ ، وكان يرسم صور مجلة «الكشكول» التى كانت أكبر مجلة سياسية فى ذلك الحين.

ثم طلب محمد التابعى من صاروخان أن يرسم صورا سياسية للزعماء المصريين، وأحضر له التابعى صور هؤلاء الزعماء الفوتوغرافية وأخذ يشرح له الأوضاع المطلوبة لهؤلاء الزعماء، ونجح صاروخان فى التعبير عن المواقف السياسية المطلوبة





فاكتسحت رسوماته رسوم سانتيس لأنها كانت تتفوق عليها بالحيوية والحركة وخفة الدم المصرية.

وبرسومات صاروخان وقلم التابعي أصبحت روزاليوسف اوسع المجلات السياسية انتشارا في مصر، وأصبحت رسوم صاروخان تزعج الزعماء السياسيين وتثير المشاكل!

نجم الكاريكاتير السياسي

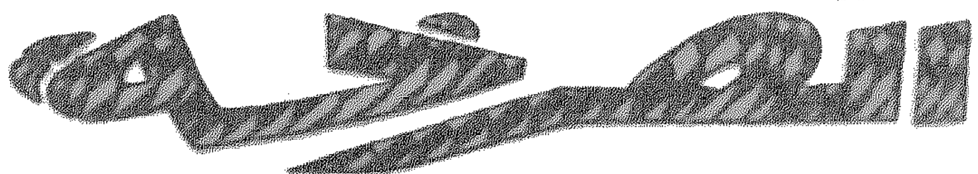
وأصبح «صاروخان» هو نجم الكاريكاتير السياسي الذي كان أبلغ من ألف مقال.

وشهدت مجلة روزاليوسف العديد من رسوماته الكاريكاتيرية اللاذعة منذ ٣ مارس ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٣٤ حيث أنتقل في هذا العام إلى مجلة آخر ساعة مع محمد التابعي ثم انتقل إلى أخبار اليوم منذ ١٩٤٦ حتى وفاته أول يناير ١٩٧٧. وكانت رسومات صاروخان تنقلها بعض مجلات أوروبا وأمريكا، كما كانت رسوماته حديث العالم العربي كله. لأنها كانت رسومات جريئة تسخر من الزعماء والقادة وتهزأ من الطغاة. ورؤساء الحكومات.

ويذكر مصطفى أمين أنه سأل صاروخان عن سر بعض المرارة في رسوماته التي كان يغطيها بابتسامته الدائمة. فذكر أن صورة المذبحة التي تعرضت لها أسرته ظلت ساكنة في وجدانه، ولذلك كنت ترى بعض رسوم صاروخان تضحك وتبكي في وقت واحد. تجمع بين السخرية والمرارة.. ولذلك سماه مصطفى أمين «الرسام الضاحك الباكي» لأنه أحيانا كان يضحك البلد كلها وقلبه يبكي!

المصري أفندي

وقد نجح صاروخان بالاشتراك مع فكر محمد التابعي والسيدة روزاليوسف في ابتكار شخصية نمطية كاريكاتيرية في مصر، تعبر عن العقل والمزاج العام للشعب المصري هي شخصية «المصري أفندي» التي أصبحت أشهر شخصية سياسية على المستوى الجماهيري، وهي شخصية الموظف البسيط ابن الطبقة المتوسطة الذي يتمتع بخفة الظل والسخرية اللاذعة الذكية يرتدي بذلة كاملة ونظارة كثيفة كرمز لثقافته وكثرة اطلاعه وبيده المسبحة أسقط عليها صاروخان كل الأفكار والآراء السياسية والاجتماعية التي تحمل النقد اللاذع للأوضاع السياسية والاجتماعية محليا وعربيا وعالميا وبذلك أصبح كاريكاتير المصري أفندي مؤشرا لاتجاهات الريح السياسية وللأحوال الاجتماعية والفكرية، ويذكر ناصر عراق في دراسته المخطوطة عن «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» أن أول صورة لشخصية «المصري أفندي» نشرت على غلاف





١٢٨

نوع السند والتأييد ؟!

تقول الوزارة بلسان صحفها أنها تحكم مستندة الى تأييد الامة للصرخة !

صاروخان - الصرخة ١٩٣٠

ربيع ثاني ١٤٢٥هـ - يونية ٢٠٠٤م

مجلة روزاليوسف يوم ٧ مارس ١٩٣٢ وكان لرسومات صاروخان تأثير فعال في معركة الأحزاب السياسية ومناوئه الإنجليز والقصر قبل عام ١٩٥٢.

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ واكبت ريشة صاروخان الأحداث والقضايا التي مرت بها الثورة والتحولات السياسية والاجتماعية والمعارك السياسية والعسكرية التي خاضتها مصر تحت زعامة جمال عبدالناصر.

ولحسه المصري العربي القومي واخلاصه لقضايا مصر السياسية منحه الرئيس جمال عبدالناصر الجنسية المصرية سنة ١٩٦٠.

هذا، وقد اختير صاروخان ضمن أربعة عشر رساما كاريكاتيريا عالميا ممن حملت رسومهم رسالة للسلام.

وقد شهدت صفحات مجلات روزاليوسف (١٩٣٢) والمستقبل «١٩٢٩ - ١٩٣١» والصرخة «١٩٣٠ - ١٩٣١» وآخر ساعة (١٩٣٤) ثم صحيفة أخبار اليوم (١٩٤٦) العديد من رسومه الكاريكاتيرية المعبرة، وظل يحمل ريشته حتى رحل عن الحياة في يناير ١٩٧٧.

شهادات

وهناك عدة شهادات لدور صاروخان الكبير في فن الكاريكاتير المصري، ودوره في الانفعال بقضايانا السياسية والاجتماعية والقومية.

يذكر مصطفى أمين أن رسومات صاروخان كانت «تهزأ بالحكام وتسخر منهم . تاره تصورهم كقطع شطرنج يلعب بها الملك والإنجليز ، وكانت صوره تهاجم القصر والإنجليز والاستعمار والديكتاتورية.. وكانت رسوماته الكاريكاتيرية في بعض الأحيان أشد قسوة من سلسلة من المقالات».

ويذكر الفنان حسين بيكار أن صاروخان هو أحد أعمدة فن الكاريكاتير المصري مع سانتيس وعلى مفتي ورخا.

ويعترف الفنان رخا بفضل صاروخان الذى ولد على يديه فن الكاريكاتير المصري الأصيل.

أما شيخ الصحفيين حافظ محمود فيذكر أن صاروخان نحت بدأب صخرة الكاريكاتير وبنى لها معبدا في شارع الصحافة.

أما فنان الكاريكاتير زهدى فيقول عن صاروخان وهو يرثيه متحدثا عن اثره في فن الكاريكاتير المصري. «يصح القول ، بأن من جاء بعده من رسامين.. تأثروا بأسلوبه واستخدموا نفس طريقة تصميمه للحركات والتعبيرات ، وبعضها وصل إلى حد النسخ الكامل.

«فلقد كان الكاريكاتير المصرى الحديث يحتاج إلى اثبات جنسيته ، بريشة مصرية، وبأسلوب مصرى..



الصورة لا تحتاج الى تفسير ومما لا شك فيه ان لسان حال الرجال المجتمعين حول هذه الحسناء
علينا ... طولي بالك ... استني حتى نخلص و بعدين تحكي

والعجيب أن الكاريكاتير المصرى ولد على أيد غير مصرية . وكانت مصر وقتها تتلمس طريقها نحو الاستقلال عن ثقافة الغرب.

«ولئن كان أسلوب «سانتيس» فى البداية فرنسى الذوق، وأسلوب «رفقى» الحالم الأكثر تعبيرا عن الذوق الشرقى واذا كانا قد وضعا أصول الكاريكاتير المصرى، فان صاروخان هو الذى حمل كل ما فيهما من خصائص ، وخرج بما حمل إلى الشارع تعلم منه ما يحتاجه القارىء المصرى أو المصرى أفندى.. وبهذا امكنه أن يتخلص من سيطرة أسلوب سانتيس عليه ليخطط أسلوبا مختلفا تماما عن الأصل المنقول عنه.

ثم يقول الفنان زهدى عن صاروخان.

«كانت لصاروخان مهارة فائقة وقوة ملاحظة فى تخليص الملامح الشخصية التى تركها لنا سجلها فى رسوم كاريكاتيرية للزعماء والمشاهير فى مصر لقد تخلص صاروخان من فخامة الأسلوب ومظهريته المتعمدة . وذلك حتى يستجيب للمطالب الملحة لماكينة الطبع واحتياجات الصحافة المتلاحقة والتى لا ترحم.

ثم يختتم الفنان زهدى شهادته عن صاروخان بقوله:

لقد مات رائد الكاريكاتير المصرى، بعد أن ترك فى ذاكرتنا أعدادا لا حصر لها من الأشكال الكاريكاتيرية المعبرة، بأسلوب لم يكن موجودا من قبله.. ولكنه سيعيش ما عاش فن الكاريكاتير الجميل».

* * *

وبعد ، فقد كان صاروخان رائدا متميزا لفن الكاريكاتير المصرى ، واستطاع بمهارة أن يعبر عن ملامح الشخصية المصرية من خلال شخصية «المصرى أفندى» بحيث وجدت تعاطفا من جميع مستويات الشعب المصرى ، فكانت هذه الشخصية الاعتبارية صاروخ التعبير الوطنى فى جميع مراحل النضال الوطنى فكان القراء يفتحون المجلة او الصحيفة ليعرفوا نبض الشارع السياسى.

ولم تكن شخصية «المصرى أفندى» وحدها بل كانت هناك عشرات من الشخصيات التى رسمها بكل تعبير قوى فكانت ريشته هى ريشة فنان متمكن قوى اللمسة رائع التعبير يلمس فيها دائما حرارة الانفعال وقوة التناول والحركة ولذلك أحس القارىء أنه أمام فنان مصرى الروح حساس بنبض رجل الشارع والموظف ولسان حال السياسى والوطنى .. فنان مصرى حتى النخاع وان كان مولده فى بلاد القوقاز!

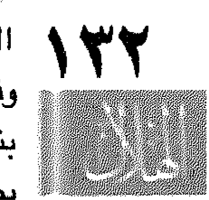
إنه الأرمنى.. الذى أصبح «المصرى أفندى»! ■

نساء هذا الوطن

بقلم
مجيد طوبيا

«من حلاوة الروح» اسم على مسمى لرواية من تأليف الأديبة صفاء عبد المنعم - تذكروا هذا الاسم - مكتوبة بلغة عامية سلسة عفوية (ومحكمة الصنع) حتى تشعر أن المصريين ابتدعوا هذه اللغة خصيصا من أجل القص والحكى وبناء الرواية نفسه متدفق فى تلقائية (ومحكم الصنع) .

تدور أحداث الرواية أو دردشاتها فى دار قديمة متهالكة مكونة من سبع حجرات ، فى كل جحرة أسرة كاملة ، عدا حجرة صغيرة مغلقة دائما تسكنها العفاريت ، وأخري يسكنها شاب صغير ضائع فشل فى التعليم بسبب عشقه للسينما وفريد شوقى ، وتمنيه أن يكون مثله ، يضرب ويحب ويشرب ، ومعه فلوس ، ويبوس بنات جميلات ، لكن الحال انتهت به إلى صائع ضائع يعمل أى شىء ليعيش .. لكنه يصف البيت بأسلوب بديع هكذا :



- «أول أوضه تقابلك أوضة أم رامى، قصادها بالضبط أوضة بدر ، تخش حبتين تلاقى حوش كبير فى وسطه طرمبة خربانة .. جنبها أوضة «زنة» وقصادها أوضه صغيرة (مغلقة دائما ويظنون أنها مسكونة بالعفاريت) .. تخش حبتين تلاقى أوضة «حسنة» كبيرة وواسعة وليها منور كانت حسنة مأجراه تنيم فيه العيال فى الصيف .. قدامها بالضبط وبعرض البيت أوضة لوزة مرات عبده ، ليها شباك ع المنور، والعيال ولاد حسنة كانو دايما يبصو عليها منه ، تحود يمين من بعد أوضة لوزه ، تلاقى طرقه فى اخرها أوضتى».

وطن صغير مهمش، كل غرفة فيه منسوبة إلى امرأة ، وليس إلى زوجها أم رامي، بدر ، زنه ، حسنة، لوزة . ذلك أن المرأة في هذا المجتمع تخدم في البيت وتكدح خارجه ، فهي عصب الأسرة ، وكثيرا ما تحمل الإنفاق وحدها عندما يتعطل الزوج الكسول مدمن المخدرات ، ومع ذلك يتعدى عليها بالضرب !

أين يقع هذا البيت ؟ لن نعرف إلا ابتداء من صفحة ١٠٥ والرواية كلها في ١٧٥ صفحة قطع متوسط وحتى اسم الحي سيظل مؤجلا إلى قرب النهاية ، لنبقى أسرى هذا الوطن الصغير ورعاياه الفران والجزماتي وخادمة البيوت وعامل المجاري وبائعة الخبز البايت ، وأم رامي المسيحية جاءوا وتغربوا من ديارهم - الصعيد أو الدلتا - بحثا عن الرزق ، يعيشون معا ، يتشاجرون كثيرا ، ثم يجلسون معا يأكون من طبق واحد ..

وهم رغم الفقر والجهل فلاسفة ، لكل منهم وجهة نظر في الحياة . بعضهم مذهبه «خراب يا دنيا عمار يا مخي» . والبعض طيبون «يبصو لبعيد لكن مش قادرين يعملو حاجة» والبعض من طينة «إحييني النهاردة وموتني بكره»

والمصيبة أن جميع سكان البيت ، أزواج وزوجات وأولاد وبنات (وبعض الضيوف أحيانا) يشتركون في دورة مياه واحدة «حمام واحد مالهوش باب ، وعشان الواحد يروح له لازم يفضل يتكلم بصوت عالي من أول الطرقة ، أو يتنحنح ويكح ، لوحد رد يرجع ، ما ردش يكمل ويخش كانت دايما الميه ملياه ، عشان كده بنحط قالبين طوب ، وآخر ما زهقنا عملنا سقالة من الطوب نمشي عليه ، صف طويل فوقه لوح خشب . يبقى الواحد ماشي والميه حواليه ، كأنه هايعدى النيل ، ويا سلام لوحد حب يروح الحمام بالليل ، وأصلاً البيت مافهوش نور ، تبقى حوسه ، يعني لازم الواحد يشمر هدومه ويمسكها بأسنانه ، ويفضل يخوص في الميه ، وهو عمال يقول يا ساتر استر يارب . إن عدى ووصل للعين بالسلامة ، الفرحة تنسيه ياخد باله وهو راجع ، فيروح واقع مدبوب على بوزه ، وتبقى ليله ، يفضل يصرخ ويصرخ وينده على حد ينجده ، الكل يخاف ويكش ، لحسن تكون العفاريت اللي في الأوضه المسكوكة طلعت وهيا اللي بتنده !

نساء هذا الوطن الصغير

نبدأ بحسنة، واسمها الكامل حسنه حسان عبد المحسن حسن ، من جروان منوفية . زوجها أبو السعود ابن عمها . تحكي عنه قائلة

- كان أبوه يطلع مع جده عبد المحسن السوق ، وينفخو المعيز .. وساعات كانو يبيعوها على أنها عشار . جه ابن عمي زعل من أبوه وجده ، وقال لهم ده نصب ده حرام ، ضحكو وقالو له : روح شوف لك معزه اتجوزها .. واتجوزني .. كنت فلاحة وصغيرة.. وفضلت بلاد تشيلنا وبلاد تحطنا .. يخرج الصبح يقفل عليا بالقفل ، يحط الأكل والشرب ويقول خايف عليكي يا حسنة، البلد دى (القاهرة) واعرة واحنا أغراب .. ويوم ورا يوم خلفت العيال .. وهو ماشالش القفل إلا لما العيال ابتدت تكبر وتخرج للشارع ويروحو المدرسة ، واحنا كبرنا والحلاوه انطفت ..

مشكلة حسنة أنها جميلة ، وتستحم كثيرا .. وزوجها يعمل في تسليك المجاري طوال

الليل بأجر ثلاثة جنيهات .

ثلاثة جنيه يا عالم يقضو إيه وإلا إيه ؟ .. دا الواد سعد امبارح واخد خمسين قرش لوحده ، والواد حسن عايز شورت للألعاب ، والمخفية بطة عايزه تروح المدرسة السنة الجاية ، ونبوية الفحله طول النهار تنكس فى الزبالة ، تلم صفيح وإزاز وورق وتبيعه، أهي بتجيب قرش والا قرشين..

لأجل المساعدة ، فهى تساعد الجيران المستورين فى مقابل «رغيفين أو طبق طبيخ بايت» ومشكلتها أنها جميلة ونظيفة : «هو أنا باتباها بحلاوتى» : قالت ذلك عندما ضبطت جارتها «زنة» زوجها الفران علوه وهو «بيبص على حسنه من شق الحيطة وهى عريانه فى الطشت» .. فكانت خناقة !!

أما «زنة» فهى صعيدية من الأقصر، عصبية دميمة وأكبر من زوجها بكثير . عندما تأتى حماتها «سعدة» فى زيارة مفاجئة ، ولا تجد الترحيب المناسب ، تلومها قائلة .

– مالك بتتكلمى من غير نفس . أنا حماتك وخالتك ، أم البغل اللى قانيكى .. وأنا اللى جايه مشتاقة وبايته أخبز فى الرغفان (جمع رغيف) وانضف فى الزفر!!

زنة اسمها الحقيقى بخيته (وشتهرتها زنة لأنها زنانة) .. خالتها وحماتها اسمها الحقيقى «داهية» وعندما ترملت ، وطافت فى الدنيا بطفلها «علوه» لتقوم بتربيته بعيداً عن الفقر والدم ، أطلقت على نفسها إسم «سعدة» وصارت تعمل مثل الرجال : «شلت قوالح ، شلت دره .. شربت البرد والمطر وشراويد الصيف ، فى عز بؤونه والحر .. وعمرى ما عمرت فى مطرح» .

عندما كبر ابنها علوه عادت إلى البلد لتزوجه ، وجدت أن أختها (أو بخيته) قد مات زوجها فتزوجت أخاه ، مات فتزوجت الأخ الثالث ، مات فتزوجت الرابع ! .. وكل واحد انجبت منه عدة بنات !

وكانت بخيته المسكينة مات عريسها ليلة زفافها برصاصة غادرة ، فصارت أرملة دون دخلة ، وبقيت فى البيت حتى بلغ علوه السادسة عشرة وعادت به أمه ، وطمع فى إرثها ، فرن للخبز البلدى ، فتزوجها وانجب منها ابنتين ، ثم خسر الفرن فى القمار ، وصار عاملا بالأجر ، أى «راح الفرن ، وبقيت بخيته» ! .. وأمه تريد أن «تربى دكوره» وليس شخاليل (أى بنات) .. تريده أن يتزوج على بخيته إن لم تنجب له الولد. مأساة زنه (بخيته) أنها عندما انجبت الولد الذكر ، مات حرقا بعد أن حاول زوجها التخلص منها ، ثم طلقها !! فأخذت ابنتيها ورحلت ، والدنيا ليل «عينى عليكى يا خالة زنه!» .

راح الفرن وبقيت زنه !! ومثلها لوزه ، تربية عمتيها العانستين المستورتين ، نصحتاها بالزواج من ابن عمها ، لكنها اختارت ابن خالها المقيم بالقاهرة ، لأنها تريد أن تزور السيدة زينب . تقول لوزه عن جهاز عرسها :

– جابولى سرير نحاس بعواميد ، ولحافين حرير أطلس خالص ، ملولى البيت حاجات .. حرير على تفته على رمش العين ، هدوم لو فضلت ألبسها فيها العمر كله ماتخلصش !

ماتت العمتان وسرق ابن العم إرثها ، وعادت من العزاء لتجد الأمير زوجها قاعد فى البيت عاطل من غير شغل .. واضطرت إلى بيع جهازها قطعة قطعة ، وتنتقل من

حجرة إلى أخرى أرخص ، إلى أن استقرت فى غرفتها الحالية .. وعملت شغالة فى بيوت مصر الجديدة ، واستحلى زوجها العيش على كدها ومن عرقها !!

أما أم رامى فاسمها صباح ، صعيدية مسيحية ، وزوجها سراج «أعور وأصلع ، وقد عقلة الصباع ، والواحدة تكسره على ركبتها ، ولسانه زفز ، وسكرى !!» . تحكى عنه صباح:

– كان عنده ورشة كبيرة ، ورشة جزم . وسمعت إنه فرفور حيلة أمه وأبوه وبتاع نسوان . وأنا كنت بطه ، حسنة دى ولا حاجة .. كنت بنت على سبع صبيان . أبويا قال نجوزه صباح، يساعدنا واهى تتاوى .. واتجوزته من غير ما اشوفه عشان الورشة . شفته من هنا ولهاليب قادت فى جتتى ، قطعت هدومى وشعرى ، وكببت الجاز على نفسى . لكن كان سهم الله نفذ .. واحنا ما عندناش طلاق !

وبعد أن أنجبت رامى ثم ألفت ، اكتشفت أن زوجها خسر الورشة فى القمار من مدة ، وشغال فيها بالأجر ، دون أن يخبرها خشية أن تهجره . «طب أسيبه وأروح فيه ؟ . اثنين وأمهم مين يشيل همهم ، بعدها عزلت من البيت ، وفضلت من بيت لبيت ، وبقيت اشتغل معاه ، أعمل له الجزم فى البيت ، وهو يقعد ع الناصية يصلح نعل ، يصلح كعب ، يدق مسمار» .

عندما كانت صباح تسكن فى حى شبرا ، كان أخوها يسكن فى دير الملاك . «وفى يوم وكنت لسه والده الواد رامى ، جه أخويا فى عز طلقه القياله .. ضحك وقال . أنا دبحت النهاردة ، خدى اللحمة دى أطبخى ، كل سنة وأنتى طيبة ، النهاردة مولد العدرا .. حبيت على إيده .. وقلت له خيرك سابق يا خويا ، أنا طابخة ، والحلة ع النار . قام دخل الدروه اللى ورا السرير وراح كاشف الحلة اللى على الوابور .. ورجع يعاتبنى ، بتكدبى على يا بنت أبويا ، طابخه بساريا» .. طب والعدرا ما أنا ماشى إلا لما تطبخى وتنادى ع العيال ياكلو قدامى».

لكنها فى الموسم التالى تعرف أن أخاها الحنون مات : «مات وخد كل حاجة حلوه معاه ، والضحك غلى» . ثم تبعه أخوها الثانى !

كل هذا الفقر ، مع بسالة النساء ونذالة الأزواج ، اجتمع فى بيت واحد .. وارفع رأسك يا أخى !!

موقع هذا الوطن الصغير

شخصيات تعمل من طلعة النهار حتى الليل ، وتكمل عشاءها بالنوم . وطن صغير فى بيت متهالك ، نظل مندمجين مع مواطنيه ، لا نعرف عنهم شيئا خارجه إلا ذكرياتهم القديمة ! ثم نعثر على أول إشارة صفحة ٩١ ونعرف أننا أواخر عام ١٩٦٦ . ثم إشارة أخرى عندما تزورهم امرأة عجوز اسمها «أم عكاشة» ترملت مبكرا ، وعملت وكدحت وانفقت على أولادها الذكور حتى اتموا تعليمهم .. لكنها تفتقد الصغير «مهدى» ، فهو بعد أن أنهى تعليمه أخذوه الجيش .. ثم اختفى .. وقالوا أنه فى حرب اليمن!

تطيب حسنه خاطرها ، وتحكى لها عن ابن أختها الذى شارك فى حرب اليمن وحكى لها عنها . «يا خالتى الحرب دى أهوال ، اللى شفناه فى اليمن مش معقول نشوف زيه !!

كنا بنضرب فى بعض ، مش عارفين مين مع مين .. حرب مالهاش معنى كنا لما نزهق ندك البلد بالى فيها دك ، نجيب عاليها واطيها .. وكانوا لو شافوا حد منا يضربوه» !

ابن أختها هذا رجع من اليمن سليما ، لكنه راح فى دقيقة واحدة · «ماهم بينجو من الحرب ويموتو موته تانية .. كان مسطح ع القطر ، وقام وقف وماخدش باله ، طب وقع والقطر فرمه .. واختى فى البلد فرشت جنب طربته ونامت .. النار كاويه الكل !» .

ثم كانت النكسة الكبرى بهزيمة ١٩٦٧ . يوم الحزن الكبير ، وكنست الحرب الجدعان : «بقى مصر أم الدنيا، اللى الرسول دعى لها ، يحصل ليها كده !! لأ ومن مين ؟؟ من شوية يهود!!».

وبدأت عجائب وغرائب النكسة : انشقت الأرض فى الاسكندرية وبلعت عروساً مع عريسها .. امرأة قتلت ابنها بمساعدة عشيقها .. «اثنين فى سوق سميكه ، عاملين نفسهم شحاتين ، وبيخطفو العيال ويدبحوهم ، قال إيه فى المسله كنز (مسلة عين شمس) ومش هيطلع إلا بدم أربعين عيل دكر!».

ذات ليلة لم تعد نبوية الفحلة ، وجلست أمها حسنه تولول ، فنصحتها آم عكاشة قائلة : «اندرى ندر للسيدة ، ولا قولى شاالله يا عدرا ، يا أم المسيح ترجعى الغايب ، ياللى المطرية حمتك وآوتك ، انتى وابنك .. وابقى روحى عند الشجرة وملسى عليها .. قومى يا بت نلحق المغرب فى سيدك المطراوى» ..

الآن نعرف موقع وطنهم الصغير من القاهرة ، قرب شجرة مريم ، وأرض البلسم ، ومسلة عين شمس .. وكانت نبوية بنت حسنه قد صاحبت فتى من المهجرين ، الذين توافدوا على الحى بعد النكسة ، من مدن القناة والعريش ، فبدأ الغلاء ! وسكنت معهم فى البيت مهجرة بعيالها اطلقوا عليها اسم «أم جلامبو» .. تبكى حالها لهم شاكية :

– كنا ساكنين فى حى الأربعين ، جوزى كان بمبسوطى قد الدنيا ، وأبويا كان بيشتغل فى الكنال .. انضربنا واتبهدلنا .. قمنا شيلنا العيال وهاجرنا . أنا جيت المطرية ، وأمى سافرت بلادها عند اخواتها ، وأختى راحت الصعيد عند أهل جوزها . آه لو شفتو اللى شفناه . لما نار جهنم تبقى فوق روسنا ، وطيارات العدو ماليه السما زى المطره .. وترخ على روسنا كنابل .. اللى بيوتهم اتهدت ، واللى تجارته راحت ، واللى عيالهم ماتو .. كل ده ومش طايقينا وسطيكم ، وانتو هنا وسط أهاليكم ولا خسرتوش حاجة ؟!

وشعر الفقراء بالغلاء «وكل حاجة هاتبقى بالبطاقة» .

ثم فجأة صارت الدنيا مقلوبة «والناس – مابين مصدق ومكذب – ماليه الشوارع بيقولو العدرا ظهرت» .

ابتسامة الرئيس

فى بداية الرواية يعود أبو السعود زوج حسنه من عمله الليلى فى تسليك المجارى ، يجلس أمام غرفته لتناول الافطار قبل أن ينام ، ومعه العديد من سكان البيت يفطرون ، وإذا به يقول لهم الكلام العجيب التالى :

– افطرو .. نهاركم قشطه .. عيش سخن وجبنه قريش ، وفجل وجرجير طازه ، جايبه معايا من القصر !! انتو عمالين هنا تتخانقو والريس طول الليل سهران !! ربنا

يعينه ، أنا شفته كان البكابورت اللى فى جنينة القصر طافح ورحت أسلكه بص لى الريس من الشباك وضحك ، وشاور لى وقال «خلى عنك» '' وسمعته بينده على الجناينى ويوشوشه ، وبعد شويه لقيت الجناينى جاى وفى إيده كباية شاى سخنة ، وبيضحك ويقول «الريس باعت لك» وادانى سيجارة . . أنا فرحت ، وفضلت أدعى له لحد النهار ما طلع وأنا ماشى كان لسه صاحى شاورت له بايدى وحييته ، قام ضحك وحيانى . ولما قربت من الباب لقيت الجناينى جاى يجرى وبيحط فى إيدى فلوس .. ساعتها بس عرفت قد إيه الريس بيحب الناس الغلابه»!

يجدهم لا يصدقونه ، فيقسم :

– والله العظيم دا حصل ، وادى الفلوس كمان أهه

تسأله زنه إن كان قد أخذ الفلوس فيقول

– حد يقدر يرفض حاجة باعتهاله الريس ؟! إنتى كنتى عايزاهم يودونى فى داهية''

هذا الريس الذى ابتسم لعامل المجارى زوج حسنه ، وقال له «خلى عنك» نتأكد فى نهاية الرواية أنه يقصد جمال عبد الناصر شخصيا !! .. ومن رعاياه هؤلاء البؤساء الذين عاشوا فى بيت له دورة مياه واحدة .. ولم تذكر المؤلفة بالكلمات المباشرة أن هؤلاء الرعايا المطحونين من سلالة عريقة ، يعكسها الحى الذى فيه بيتهم ، حيث المسلة الفرعونية فى عين شمس ، أو «أون» التى أشعت منها أقدم جامعة فى التاريخ ، والتى تتلمذ فيها فلاسفة الإغريق ، وحيث شجرة مريم التى استظلت بها العائلة المقدسة ، وحيث الشيخ المطراوى !

تنتهى الرواية عام ١٩٧٠ مع موت عبد الناصر ، وبكاء الجميع عليه . بكت فيه أم عكاشة ولدها الشهيد ، وحسنه ابنتها الصغرى ، وأم رامى أخويها .. وتشتت سكان البيت ، رعايا الرئيس .. تفرقت كل أسرة تجاهد وتعافر .. وكانت المجارى طافحة فى حديقته ''

جيل مظلوم مظلوم

قرأت ايضا للأديب الصعيدى خالد اسماعيل رواية «عرب النيل» وغيرها ، ورواية «أغنية الدم» للأديب جمال زكى مقار ، ومجموعة قصصية للأديبة التائهة راضية أحمد «حلم دافىء»، ولغيرهم كثيرين ، منهم من توقفوا بسبب قسوة الواقع والاهمال !

فى الستينات قال نجيب محفوظ إننا (أى جيلى) نشق طريقنا فى الصخر بأظافرنا، وأنا أقول إن الجيل الجديد يشق طريقه بأصابع منزوعة الأظافر، لا يجدون من يقف إلى جوارهم – وشكرا لمصطفى نبيل رئيس التحرير الذى التفت لهم أخيرا – لكن إعلام الريادة لا يهتم إلا بلاعبى الكرة والممثلين والممثلات (مع احترامى لهم) .. ربما لأن على أكتافهم تبنى الدول العظيمة ، وليست على اكتاف العلماء والمبدعين ، فهؤلاء بدعة من بدع الغرب . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هكذا صرخ من قبل مؤرخونا العظماء من أمثال المقريزى وابن إياس والجبرتى . ■

يمام يسافر حتى .. المرار!

شعر
محمود أحمد المصلى

تسافر (بيروت) فينا
ولسع الشتاء
يحاصر قلب الورود
يلف المدائن
وتشعل (بغداد) حزناً .. دفينا
نسير ..
وقد سلبونا اليقينا .
وقد علقوا فوق نوافذ دجلة ..
جرحاً لعينا !
فكيف عصافير (قانا)
تودع أوكار صبرا – شاتيلا؟!
وكيف المخاوف
تمارس فينا طقوس الهزيمة ؟!
غداً سوف أرسم فيك مكاني
فشدوي بباب الرجوع معلقاً
سيشنق في الليل الحزين
يودع (ليلي)
و(ليلى) تنام ..
كمثل قرنفلة في دمانا !
وتبعث فينا الحنين
و(ليلى) تنام ..
على صدر الفرات
وصدر الفرات لايستكين !
فهذا يمامي ..
يسافر حتى المرار !
يعانق كل السواحل
يعانق قلب النخيل
فمن ذا يدق الطبول
ويسرج خيل العز ؟!
ومن ذا يعيد لقدسي الظلال الوريفة،
ويفرش ثانية بهاء الصلاة؟!!

الشاعرة جليلة رضا

هل أحبت الشاعر إبراهيم ناجي؟



بقلم
وديع فلسطين

ولدت الطفلة جليلة فؤاد رضا في حي الدرب الأحمر في ٣٠ ديسمبر ١٩١٦، أما الشاعرة جليلة رضا فقد جاءت ولادتها الحقيقية في دوحة الشعر في حفل التأبين الذي أقيم للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي في عام ١٩٥٣. فقبل هذه المناسبة لم يكن أحد يسمع بهذه الشاعرة، وإنما كانت تدخر هذه المفاجأة إثباتا لشاعريتها التي هزتها وفاة أستاذها وموجهها إبراهيم ناجي.

بعد وفاة إبراهيم ناجي في ٢٤ مارس ١٩٥٣ قررنا نحن الملتفين حوله في حياته أن نقيم له حفل تأبين، ورحبت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة بإعارتنا قاعتها الرئيسية. واصطف المؤبنون على المنصة في صفين متوازيين، وكانت تجلس أمامي مباشرة على المنصة سيدة ملتحفة بالسواد ينسرح شعرها الأسود الفاحم وراء ظهرها. وكانت السيدة الوحيدة بيننا، فحسبتها من سيدات الأسرة وأنها ستلقى كلمة شكر باسم عائلة ناجي في ختام الحفل. ولكننا فوجئنا بعريف الحفل يدعو الشاعرة جليلة رضا لإلقاء قصيدتها في تأبين ناجي. ووقفت جليلة بكل ثقة وألقت قصيدة رائعة بكت فيها الشاعر بصدق وحرارة. وتساءلنا جميعا من تكون هذه الشاعرة؟ ومتى عرفت إبراهيم ناجي؟ لابد أنها كانت قريبة منه لأن حزنها عليه كان عميقا.

وهي تساؤلات أجابت عنها جليلة رضا في سيرتها المنشورة بعنوان «صفحات من حياتي».

المريضة الشاعرة

كانت جليلة رضا تقيم في عام ١٩٥٢ في حي شبرا عندما هاجمتها آلام مبرحة في الأمعاء لم يفلح في علاجها الأطباء الذين ترددت عليهم. فأشارت عليها صديقة بأن تجرب طب الدكتور إبراهيم ناجي، لأن عيادته قريبة من بيتها تحتل ركنا من شارع شبرا الرئيسي مع شارع ابن الفرات الفرعي. فتوجهت إلى العيادة وهناك رأت حلقة دائرية من شباب الأدباء تحيط بالطبيب الذي كان وقتها في الرابعة والخمسين من عمره في حين كانت جليلة رضا في السادسة والثلاثين.. وقد وصفت ناجي قائلة «كان الرجل ضئيل الحجم نحيلا بعيدا عن الوسامة ذا مقلتين واسعتين حائرتين، فيهما نظرات الصقر وبراءة عين الطفل وهما تدوران مع الدائرة كموج وسط دوامة. ولعل الشباب المحيط بناجي حسبني



إحدى المعجبات به . فأفسحوا لى مكانا بينهم، ووقفت أستمع إليه وإليهم وحانت فرصة فقلت «إن عندى الكثير من هذا الكلام»، ولأول مرة يلتفت إلى الشاعر الكبير، يلتفت إلى صاحبة هذه الجملة فى لهفة وتفرس صائحا. «هاتى قولى ماعندك» . قلت: «لا أستطيع، فأنا مريضة جئت للكشف علىّ، ولكننى دونت مثل هذا الكلام فى نوتة صغيرة عندى فى البيت». وتم الكشف ، وودعنى الطبيب مؤكدا على ضرورة إحضار هذا «الكلام» فى الزيارة المقبلة.

وتقول جليلة رضا إن ناجى تصفح فى المرة التالية النوتة وقرأ بعض ما قرأ قولى:

مضت الأيام تجرى بين هم وعذاب
وسهرت الليل وحدى فى شجون واكتئاب
لم يكن قلبى يحوى غير آمال كبار
كفراش حائرات بين ليل ونهار
كنت كالزهرة حسنا كل ما حولى نعيم
أنشد اللهو وأسرى بين طيات النسيم

وهنا صاح ناجى قائلا: «مرحى مرحى، هذا ناجى الصغير. هذا شعر ، شعر تنقصه دراسة العروض والقراءة. تعالى» وجذبها بشدة إلى مكتبة عريضة تتوسط حجرة العيادة وفتح مصراعيها قائلا: خذى ما تشائين من كتب الشعراء فقالت فى حيرة ولكنى لا أعرف الشعر ولا الشعراء ولكن ناجى طفق يلتقط كتبا من هنا وهناك ويكتب الإهداء حافظ إبراهيم ، خليل مطران، الأغانى، وغيرها.

وعندما سألته جليلة رضا عن كتاب العروض قال لها: اسألى عنه فى مكتبات شارع محمد على. وتقول جليلة «خرجت هذه المرة وأنا مشحونة بانفعالات مبهمة عنيفة. وسرعان ما عكفت على دراسة العروض. وبدأت أنظم الشعر، وأطلع الشاعر الكبير عليه. وما من مرة أطلعت ناجى على قصيدة لى إلا وكان رأيه يدفعنى إلى مزيد من الكتابة.

ثم تعترف جليلة قائلة. ولأول مرة سمحت لرجل غريب أن يزورنى فى بيتى. كان بيتى فى طريق عيادته، فكان يمر علىّ بعد انتهاء عمله. وكان يتحدث إلى مبتهجا دون توقف فى صوت متعجل متحمس، وبيدين صغيرتين عصبيتين دقيقتين تعيدان وتكملان فى صمت ما تفوه به الشفتان، وكنت معجبة به وهو يتكلم دون أن أنظر إلى وجهه . كان يسمعنى أشعاره الرومانسية المجنحة. وكان يكاد ينسى نفسه وهو يلقيها. أية قوة فى شاعر عبقرى لا يحس وجود نفسه؟ أية ثقة يحملها فى الكلمات

الهاربة من عقله وقلبه؟ ومن حين إلى حين يعتريه شبه صمت. ماذا كان ينتظر؟ هل أصفق له وأنا الوحيدة المستمعة؟ هل أصفق وأنا معلقة بين سحر الأحلام الطائرة وجلستي الساكنة الخجلى؟ حقا، إن بعض الشعراء يظل مراهقا مهما كبر . فما من وقت لدى الشاعر كي يغير نفسه. كنت عقب خروجه أحس بشحنة خلاقة. كنت أحس أحاسيسه فأقلد حركاته وسكناته. وأخذني الغرور، فتطلعت إلى نشر ما أكتب، وفاتحت ناجي في الأمر».

رأى العروضيين

وفي حين كان ناجي يحتفي بشعر جليلة رضا بلا تحفظ ويشجعها على مواصلة الدرب الذى اختارته لنفسها، كان «للعروضيين» رأى آخر في هذا الشعر. فعندما عرف ناجي أن جليلة رضا ترغب في نشر قصائدها على الملأ، اتصل بصديقه الشاعر محمد الأسمر «١٩٠٠ - ١٩٥٧» الذى كان يقيم بدوره في حي شبرا ويشرف على الصفحة الأدبية في جريدة «الزمان» المسائية لمحررها جلال الدين الحمامصي «١٩١٣ - ١٨٨» وأوصاه بهذه الشاعرة.

وتقول جليلة رضا إنها توجهت إلى عنوان الشاعر الأسمر الذى وصفته بأنه كان محاسبا قانونيا ومهندسا حريصا على وضع البناء فوق أسس سليمة راسخة. ولكن الأسمر، على خلاف ناجي الذى كان يقفز كعادته مهللا أمام شعر جليلة قائلا: ليس في الإمكان أحسن مما كان وكانت تعترى الشاعرة فرحة دافقة إزاء هذه الجملة المنتظرة من ناجي - استقبل شعر جليلة عابسا مزمجرا وقال لها. ماذا تريدين أن تقولي؟ أنا لا أفهم شيئا مطلقا. فاستولت عليها رعشة خوف وحزن، ولكن بقي الأمل يطغى على عوامل اليأس.

وعندما جاء الصيف سافرت جليلة مع ابنيها إلى رأس البر، فكان ناجي رقيقا معها ومجاملا لها، فودعها عند القطار، وهي لفتة من لفتاته الإنسانية النبيلة احتفظت له بها وراسلته من هناك، وأرسل هو لها خطابين سلمتهما فيما بعد إلى رابطة الأدب الحديث عندما بلغها أن الرابطة ستطبع كتابا عن ناجي بعد وفاته . وعندما عادت من المصيف كانت تنتظرها مفاجأة، حيث أطلعها ناجي على قصيدة «الرحيل» التي كانت ملهمته فيها، لقد وافقت مرتين على أن تخرج مع ناجي بعد إلحاحه، الأولى إلى فندق سميراميس القديم قبل هدمه، والأخرى إلى نقابة الصحفيين. وكان



مطلع قصيدته.

هنا سميراميس، هل تعلمين
وها هنا بالأمس طال السهر

وهي قصيدة بحثت عنها في دواوين ناجي المنشورة فلم أعثر على نصها.

وتقول الشاعرة إن هذا هو كل ما كان بينها وبين الشاعر إبراهيم ناجي. من ناحيته عناية أستاذ بتلميذته، ومن ناحيتي حب أخوى صادق وإعجاب بشعره الرقيق.

وبعد عام واحد من التواصل بين جليلة رضا وإبراهيم ناجي، قرأت ذات صباح نعيه على صفحات الجرائد، فاعتراها ذهول، وانتابها دوار، وتأكد لها أنها لن تقوى بعد ذلك على نظم الشعر، حيث ولى الحافز ومضى المشجع.

فى رثاء ناجى

ولما اقتربت ليلة الأربعين اتصل بها المرحوم محمد ناجي - شقيق الشاعر وكان ضريرا - ودعاها إلى إلقاء قصيدة رثاء في حفل التأبين الذى أقامته رابطة الأدب الحديث، ولأول مرة خرجت جليلة من عزلتها، ووقفت أمام الجمهور وألقت قصيدة حازت الإعجاب، فاستعادت الثقة بنفسها، وعادت إلى النظم، وتوالت بعد ذلك الندوات والاجتماعات سواء في مصر أو في الخارج.

وفي صيف العام التالي كانت جليلة تصطاف في رأس البر، وكانت ذكرى الراحل تلم بها فتقدر فداحة مصابها فيه، وأحست بالغربة بعدما وجدت فيه الأخ والناصح، وكان شعرها قد تأثر كثيرا بشعره، فنظمت أبياتا جاء فيها:

هاهي الشمس تهاوت في دماها غارقة
وعلى الأفق غيوم جاثيات خافقة
ناشرات فوق ذاك الميت أكفان الفناء
تابعات ظل نعش كان رمزا للضياء
حائرات بين أجواء الفضاء الشاهقة

* * *

وهنا في أضلعي قلب جريح في شرود
كان بالأمس له ضوء وإشعاع فريد
فخبا.. وي! كيف يخبو ذلك النجم الرفيق
أين أمسي؟ كيف أخطو والدجى ملء الطريق
ما لعين أن تراني أو لقلب أن يقود

عرفت جليلة رضا الشاعر إبراهيم ناجي في عام ١٩٥٢ في فترة محنته القاتلة، حيث كان قد فصل من وظيفته كمدير للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف في مذبحة التطهير بدعوى أنه غير منتج!.. وكنت بدوري قد اعتقلت في شهر أكتوبر من نفس العام دون توجيه اتهام معين إلى وإن قيل وقتها إنني مغضوب عليّ من الثورة مع أنني لم أكتب حرفا

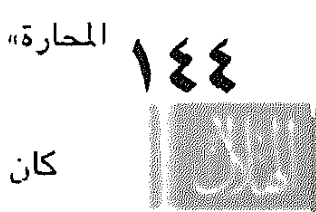
ضدها. وكانت تجمعنى مع ناجى «رابطة الأدباء» التى أنشئت فى عام ١٩٤٥ فكان هو رئيسها وكنت وكيلها، وطوال السنوات التى عاشتها هذه الرابطة باجتماعاتها الأسبوعية لم نصادف جليلة رضا بين من كانوا يترددون على الرابطة، فقد كانت بالنسبة للمجتمع الأدبى نسيا منسيا، ولم تخرج من قوقعتها وعزلتها إلا بعد حفل التأبين المشهود ، فأخذت تنشر شعرها فى مجلات منها «العالم العربى» التى كان يحررها زميلنا أسعد حسنى وكانت القاسم المشترك فى معظم الندوات الأدبية إلى أن اختارها عزيز أباظة باشا (١٨٩٨ - ١٩٧٣) مقرر لجنة الشعر عضوا فى المجلس الأعلى لرعاية الآداب كما منحت جائزة الدولة التشجيعية للشعر بفضل ديوانها «العودة إلى المحارة»

هى والرجال

كان الشعر هو الملاذ الذى تلجأ إليه جليلة رضا فى رحلة طويلة أضنتها كثيرا إلى أن رحلت عن عالمنا عن ٨٥ عاما فى ١٢ مارس ٢٠٠١ . لقد أتعبها الحب كثيرا فى حياتها، فهى تطلبه ولكنها لا تناله إلا لكى يفلت منها أو ترفضه. فهى تقول فى مقدمة سيرتها الذاتية «أنا أحب الصدق، أحبه بكل ما أملك من مشاعر، لذلك لا أستطيع أن أحب أحدا من الرجال الذين صادفتهم فى حياتى».

أما الرجال الذين صادفتهم فى حياتها باعترافها فهم زوجها رجل القضاء الذى لم تطق الحياة معه فانفصلت عنه، وهناك الحبيب السكندرى الذى عرفته فى صباها وحيل بينها وبين الاقتران به، وهناك من أشارت إليه بحرف «ق» وبحرف «أ» بل إن زواجها من الشاعر عبدالله شمس الدين (١٩٢١ - ١٩٧٧) صاحب نشيد «الله أكبر فوق كيد المعتدى» الذى لم يدم إلا أسبوعا واحدا لم تشر إليه إلا بحرف «ع» كما أن زواجها الثالث والأخير من محمد السوادى الناقد البرلمانى لجريدة «البلاغ» وناشر جريدة «السوادى» قد اكتفت بالإشارة إليه بحرف «س» وهناك شاعر أشارت إليه بحرف «م» وهو من مجموعة الشعراء الشباب الذين طارحوها الهوى المزعج حتى هجتهم بقصيدة قالت فيها:

يا معشر الشعراء، أثخنتم فؤادى بالجراح
ضاق الوجود بظلكم والأرض ناءت والبطاح
اليوم تجتمعون كالغربان تنعق فى صياح
فلقد وجدتم قصة فى الليل تروى للصباح

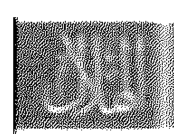


ولا تكتم جليلة رضا حبها لراهبة في مدرسة الراهبات التي أودعتها أسرتها في قسمها الداخلي حتى في الإجازة الصيفية لكي تبقى بعيدة عن المؤثرات العاطفية إذا ما عادت تستأنف حبها مع الحبيب السكندري الأول. أما حبها الوحيد الذي تفانت في هدهدته والصبر عليه، فهو حبها لابنها المسكين «جلال»، الذي أصيب بتخلف عقلي عقب حمى داهمته في طفولته، وبقيت جليلة مشدودة إلى هذا الابن، محتملة هياجه وإيذاءه لنفسه، بل محتملة إهانات القوم بوصفها بأم المجنون، وعندما بلغ الأربعين من عمره سقط في الشارع ميتا وهو بصحبة شقيقته ثريا. لقد كان «جلال» بالنسبة إليها هو الحياة والتحدي والأمل والعمل. وبعد فراقه قالت: «والآن، لا شئ .. خواء.. خواء في قلبي وفي عيني، وأخشى أن يصيب الروح هذا الخواء» .

ولعل الشخص الوحيد الذي أسعد جليلة رضا وألهمها وشجعها ووقف إلى جوارها ولم يكن إلا بلسما لحياتها المضطربة هو الشاعر إبراهيم ناجي الذي أسبغ عليها من عاطفته ووجدانه وحفاوته ما سدد خطاها في رحلة الحياة وأعانها على التبريز في الشعر وأكسبها منزلة اجتماعية وشهرة عريضة، وهو ما لم يكن ليتأتى لها لولا أستاذية ناجي وحنانه ورعايته لهذه الشابة الموهوبة وهي لم تنس لناجي هذا الفضل، وتمنت لو استطال تواصلها معه لولا أن تواصلها معه لم يزد على عام واحد كان فيه ناجي في أسوأ مراحل عمره، ومع ذلك تحامل على نفسه وتعهد هذه الشاعرة الناشئة بكل الحب الخالص والرعاية السابغة فلا غرو أن تكون أول قصيدة تطالع بها الشاعرة الجمهور العام هي مرثيتها لهذا الرجل العظيم وفاء منها لذكراه، واعترافا بجميله وإكبارا لشخصه، ولا يضيرها أن يقال إنها أحبته وهل تملك غير هذه العاطفة تمنحه إياها؟ □

حكم وأمثال الفراعنة

إن المناصب لا تدوم .. فالعرش الذي تجلس عليه اليوم .. جلس عليه بالأمس من سبقك .. وسيجلس عليه غدا من سيخلفك أو يأتي من بعدك ، ولا يدوم إلا أعمالك الصالحة التي انجزتها وأنت جالس علي العرش.







قصة قصيرة

قمل الراديو

بقلم
د. مصطفى رجب
بريشة
ولاء وهبى

ليس من الأهمية فى شىء أن تكون الأزرار متحدة النوع ، مادام واضحاً أن لون الجلباب واحد ، تلك البقع الشاحبة التى تتعاون لترسم دائرة على كل كتف ، يستطيع المتأمل المدقق أن يكتشف أنها بفعل الطبيعة .. ما ألعن أن يدمن الإنسان طعاماً واحداً ، ترى هل يشقى «البهوات» بأكلهم اللحم يومياً كما نشقى نحن بأكل الجبن ثلاث مرات يومياً معظم السنة ، ومرتين يوميا فى موسم نضج الباذنجان والفلفل..؟ ... اللحم !! ... أذكر بوضوح آخر مرة ذقته فيها .. يومها أعلن فى البلدة عن قدوم بعثة حكومية «لتعفير» بيوت الفلاحين ... كانت الحكومة وقتها تحارب القمل والبق والبراغيث اللعينة التى تمتص دماءنا فى شراهة «وتنط» بعيداً دون أن نتمكن من الإمساك بها ... يومها ... - يوم أن ذقت اللحم آخر مرة - ماتت عنز جارتنا أم العز بعد أن أكلت حشائش حملتها إليها صاحبتها من حقل

مرشوش بالمبيدات الحكومية ...

- ومازالت اللجنة الاقتصادية المشتركة المشكلة من الأحزاب السياسية تواصل اجتماعاتها للبحث عن بدائل إلغاء الدعم، ومن المنتظر أن ...

- اقفل الراديو ...

- فيه مباراة بعد النشرة يابا .

- فيه إيه ؟

- مباراة ...

- إيه ؟

- لعب كورة يابا ...

- كورة إيه ؟ اقفل الراديو يا ابنى ...

- لا يابا .. اعمل معروف ... دى مباراة قومية .

- مين ؟

- مصر هتلعب يابا...

- يا أبن الكلب ... هو إحنا مافيش ورانا حاجة غير اللعب ؟

- يابا ... اعمل معروف ...

بعد غد السبت ... يكون قد حل موعد القسط الأسبوعى ... جنيه وريال من ثمن الجلباب ، جنيه ونصف من ثمن الراديو ، الراديو ترف لم يكن لازما لولا زوجتى المريضة التى تحتاج إلى تسلية ، يقضى الولدان الكبيران يومهما فى مقاومة اللطع فى حقول القطن ، وهى وحيدة فى المنزل وهذا «المفعوص» ليس يعنيه شىء سوى اللعب ، المدارس تفسد الأطفال الآن ، إنهم يعلمونهم فى المدارس «الكورة» ويطلبون منهم شراء «فانلات» وهذا مايغيظنى.

طبيبة الوحدة الصحية رفضت بقاء زوجتى فى المستشفى نهائيا حجزتها أسبوعا ثم طردتها فطابور المنتظرين للحجز أكبر من عدد سرر المستشفى ، معظم المنتظرين دخول القسم الداخلى سينعمون بأكل الرز، لا أنسى طعمه يوم حجزوا زوجتى .

حتى البرشام الذى كانوا يوزعونه على المحجوزين قيل لنا إن فيه غذاء وشفاء وصحة ...

- وتؤكد الحكومة أنه لا مساس بمحدودى الدخل ... وأن الإجراءات التى يقترحها صندوق الـ ..

- يابا اعمل معروف سيب الراديو .. مصر هتلعب بعد النشرة .

هل تلعب مصر فعلا؟ مؤكد أن هذا الولد يعبث بى ... إن الحكومة لايمكن أن تلعب ، أخواه الكبيران يكسبان لأنهما لم يلتحقا بالمدرسة أما هو فليس يهمه غير ...

- الله يخرب بيتكم ... كورنر تانى ؟

- يخرب بيت مين يا ولد ؟

- الله حى .. هوب ... هوب .

- انت يا بجم ؟

- يامسهل .. ياللا ..

- ....

- يابا اعمل معروف سيب الراديو ... مصر بتلعب حلو .. ■

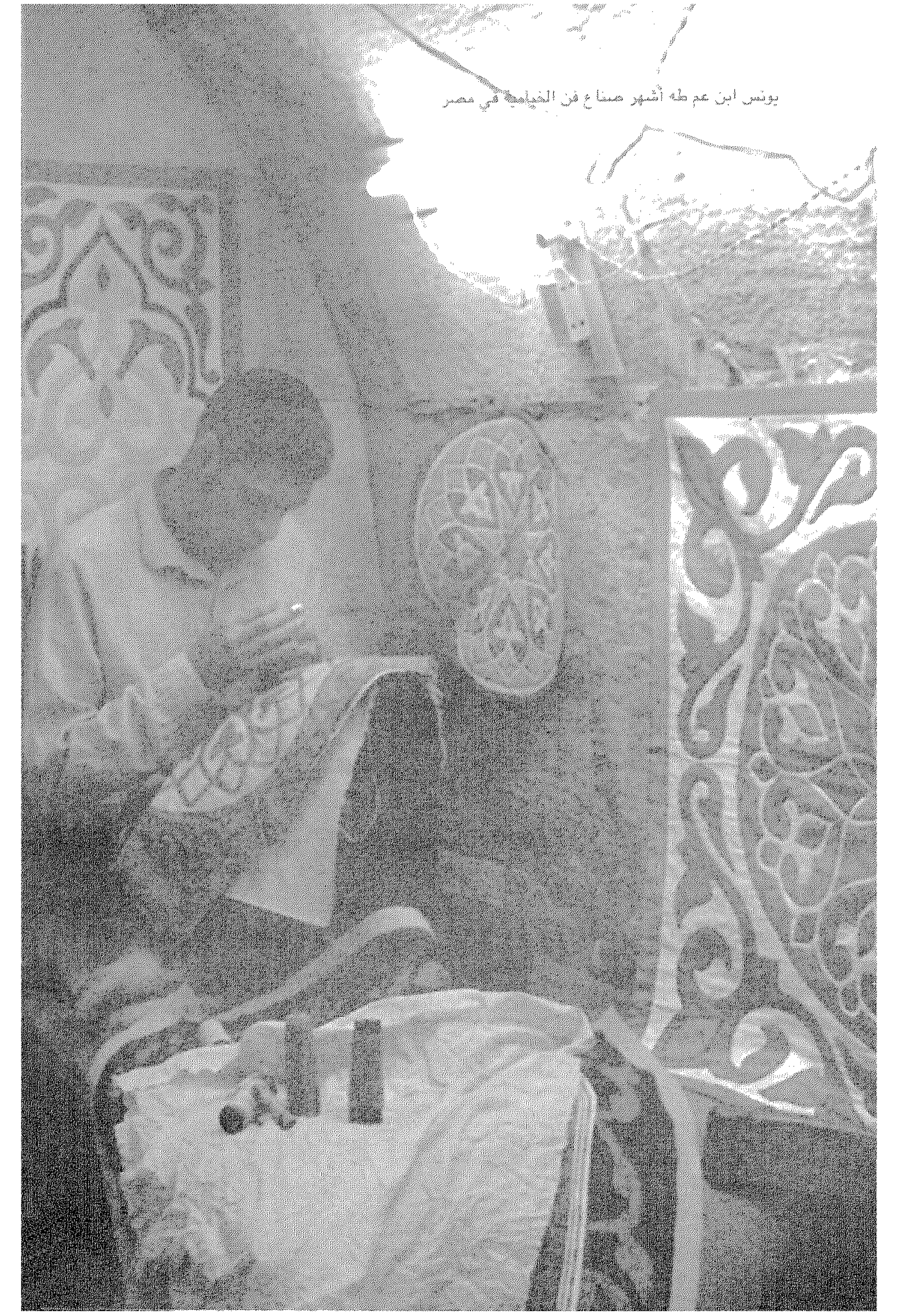
الحرف التقليدية

حلم جميل.. وواقع أليم

أمانى عبد الحميد
تصوير: شرين شوقى

عم «شوقة» عم «صبرة» عم «طه» أسماء يجهلها الكثير منا. فلم تعد صنعتهم، الموروثة أبا عن جد، لها مكانة بيننا كما كانت فى الماضى. وبرغم أنهم وغيرهم من الصنايعية تشربوا حرفتهم فى ظروف صعبة مغايرة لظروف النشأة الأولى. إلا أنهم بصبرهم ودأبهم وحبهم لفنهم التلقائى عبروا بإيمانهم بما يصنعون بحوراً من الإهمال وصولاً إلى شطآن مترامية ظنوا أنها نقاط أمان لهم. لكنهم استبصروا الحقيقة. فالأمر لايعدو سوى بعضاً من المظاهر الإحتفالية أو الإحتفائية التى لا تحمى حرفتهم أو صنعتهم من الموت، ولا تخلق من بعد أيديهم أصابع ماهرة تحمل وتجيد حرفة أو صنعة متوارثة منذ سنين .

لا يتركون احتفالا تشهده القاهرة إلا ويشاركون فيه بمواكبهم الاحتفائية متباهين بفنونهم أمام حشود المارة. هكذا كانت أحوال أهل الحرف والصناعات وأهل السوق والحوانيت خلال القرون الماضية. ينتهزون أى مناسبة حتى يقيموا حفلاتهم الاستعراضية. ففى الاحتفال برؤية هلال رمضان والتى يطلقون عليها اسم «موكب ليلة المحتسب» يتباهى شيخ كل طائفة بأعداد تلاميذه وبفنونهم ومهاراتهم خلال ليلة لا تنام فيها البلاد . حيث لا يقدر أحد على منع زوجته من الخروج فى هذه الليلة. ولا أن يسألها أين كانت؟ حتى أطلقوا على الاحتفال



يونس ابن عم طه أشهر صناع فن الخيامية في مصر



عم مختار حصل على المركز الأول في مهرجان باكستان للحرف ، لتميزه في النقش على النحاس

«بعيد النسوان» لأن أهل القاهرة يسهرون خارج ديارهم حتى الصباح. وخلاله يخرج أبناء الحرف راكبين جيادهم المسرجة بسروج مزركشة يتهادون فى طرقات القاهرة بملابسهم السمورية وطررهم المزينة يتبعون موكب المحتسب من باب العزب بالقلعة مروراً بكل الطرقات والحوارى حتى بزوغ الفجر. تسير بحذاهم فرق العازفين والمطربين والراقصين تصحبهم مواكب المضحكين التى يطلقون عليها مواكب السخرية. حتى المشعوذين يكون لهم نصيب من الاحتفال. ووسط المواكب المتلاحقة يتصدر شيخ كل طائفة الموكب الخاص بها. يتبعه تلاميذه يحملون معهم بتفاخر شديد بعضاً ممن يتقنون صناعته. فصناع السيوف يسيرون مستعرضين أسلحتهم ، والنحاسون أوانيهم النحاسية والتناجر والقدور بزخارفها البراقة. حتى الصاغة يسيرون مبتهجين بمظهرهم المبالغ فيه مستغرقين فى الجواهر والذهب والحلى. كذلك الخيامين ونساجو الكسوة الشريفة وكل من له صنعة أو حرفة... وغير ذلك من مظاهر الاحتفال كما جاء ذكرها من كتاب «سياحتنامة مصر» للرحالة التركى أولياچلبى... وظلت للطوائف الحرفية حضورها القوى فى المجتمع المصرى، فى الاحتفالات الدينية والمناسبات الاجتماعية أو حتى موالد الأولياء الصالحين وأفراد الأسر الحاكمة وذلك خلال العصر الفاطمى ومن بعده الأيوبى والمملوكى.

وأما العصر العثمانى فكان له تأثير



الأويما، تفريغ الخشب، من الحرف المهددة بالاندثار

سلبى على ازدهار الحرف وتطورها . فبدأ فى فرض تأثيراته على المنتج الحرفى علاوة على ترحيل عدد من أمهر الحرفيين إلى الأستانة. حتى وصل عدد المرحلين إلى حوالى خمسين حرفة بصُناعها. وإن كان أشد أوقات اضمحلالها فكانَ مع وصول الخديو اسماعيل إلى الحكم الذى استهواه الذوق الأوروبى الغربى. وقام بتشييد قاهرته الأوروبية بأيدى أصدقائه الأوروبيين، فبنى دار المعارف، دار القضاء العالى، دار الأوبرا، واستورد من الخارج المنسوجات والأثواب والمعدات والتحف والأوانى والمجوهرات المتماشية مع الطابع الجديد مما أثر بالسلب وضرب فى مقتل جميع الحرف التقليدية واليدوية. وانتهى أمرها تماماً مع قيام الخديو توفيق باصدار أوامره باطلاق الحريات للصنايعية باحتراف أية مهنة يريدونها. فحلت الجماعات الاختيارية محل الطوائف . وأصبح العمال يتنقلون بين حرفة وأخرى دون التزام بتقاليد تقيدهم .

هجر كثير من الصناع والحرفيين مهنتهم مع تغير الأحوال وعدم اهتمام الناس بشراء منتجاتهم خاصة مع ارتفاع أسعارها أو لأن الأذواق لم تعد كما كانت فى الماضى. واندثر بالفعل عدد كبير من المهن التى لم نعد نرى لها وجود أمثال ذلك نساجوا كسوة الكعبة، وتحولت كثير من تلك المهن إلى حرف متحفية نجد بعض صناعها متناثرين داخل طرقات شوارع القاهرة القديمة داخل خان الخليلى أو عند قصبة رضوان، يمارسون حرفتهم أمام

أعين الزائرين العابرين الذين يسعون إلى الفرجة والاستمتاع ببعض أعباق التاريخ فقط لا غير . فخرجت الحرف اليدوية والتقليدية والشعبية من طور الفن الفطرى المتوارث إلى أطر أخرى تختلف كثيرا عن نشأتها الأولى كفن تميزت به الأيدى المصريه الماهرة .

حفاظا على ما تبقى

لا تكف وزارة الثقافة متمثلة فى قطاع الفنون التشكيلية عن الإحتفاء بالحرف التقليدية واليدوية، إما بإقامة مهرجانات خاصة بها (المهرجان القومي للحرف التقليدية والشعبية فى عام ٢٠٠١ وعام ٢٠٠٤) أو إنشاء مراكز متخصصة فى أحد أنواعها مثل مركز الخزف بالفسطاط، دار النسجيات في حلوان، مجمع الفنون بمدينة ١٥ مايو، مركز الحرف التقليدية بسبيل السلطان محمود - وكالة الغورى لإحياء الحرف التقليدية....).

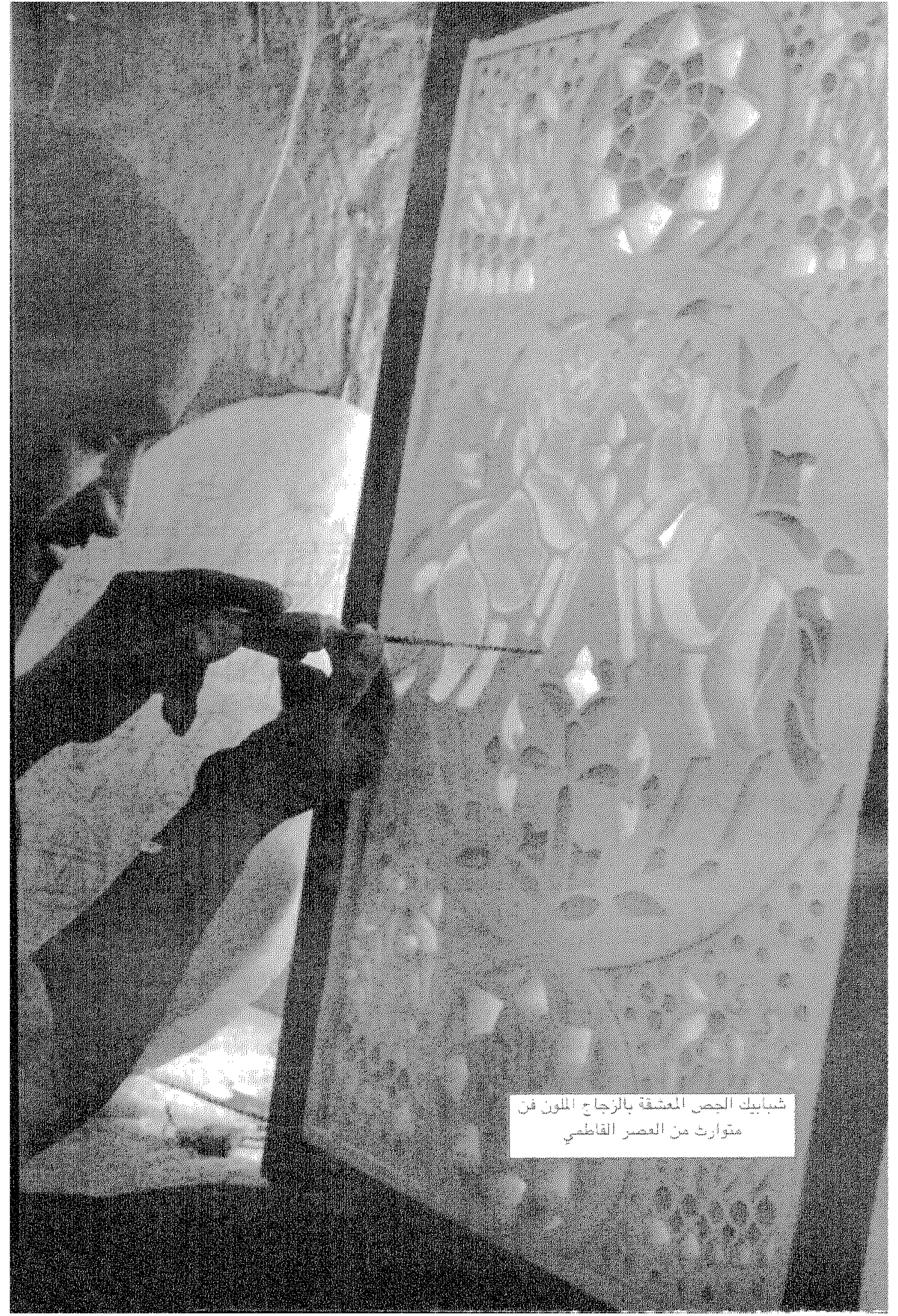
وخلال فترة الخمسينيات تبنت وزارة الثقافة خلال تولى الدكتور ثروت عكاشة سياسة لاحيائها وحمايتها. بدأت بإقامة مشاغل للحرفيين داخل وكالة الغورى فى عام ١٩٥٨، أملاً فى الحفاظ على ما تبقى من الصناع المهرة. حيث بدأت متطلبات السوق تعصف بهم. فكانت الحرف مقصورة على ورش خان الخليلي. القائمة على نظام الصبية الخاضع لقوانين العرض والطلب. وبدأ يعانى من التخلى عن شيوخ الصنعة نظراً لغلو أسعار أيديهم، مقابل الاكتفاء بأنصاف المهرة بالانتاج السريع غير المتقن قليل التكلفة الذى يزغلل أعين السائحين. ومنذ آنذاك لا تكف الوزارة عن الافتخار بحفاظها ورعايتها للحرف. ورغم مرور ما يزيد عن ستين عاما على حركة إعادة البعث التى نجحت فى لم شمل عدد من الصناع المهرة، إلا أن الواقع لم يختلف كثيرا عما مضى بل قد ينذر بالخطر. فقد تحولت الجهود إلى محاولات للبحث عن سبيل لتسويق منتجات الحرفيين الباهظة السعر . والتى لم تعد الوزارة تحتمل ارتفاعها أو حتى إعالة صانعيها . ولا تملك القدرة على توظيفهم بعقود تعترف بها الدولة وتكفل لهم حياة كريمة (يتم تعيينهم على بند عمال الخدمات أي عمال النظافة!!) وظل الحرفيين وبمنتجاتهم داخل حوانيت فى انتظار الفرج.

ومع استمرار الوضع فقد عدد كبير منهم الصبر والدأب وفضل الرحيل إلى عالم آخر يكسب منه قوته، رافضاً أن يتحول إلى مجرد أنتيكة تتباهى بها الوزارة فى الاحتفالات الدولية أو حتى داخل بعض الأماكن التى يتردد عليها علية القوم. فقط لتذكر الزائر بما تمتلكه من مسحات تراثية قديمة تثرى المكان وتعبقه بروائح التاريخ الغابر !!

أحلام عابرة

داخل وكالة الغورى أقامت وزارة الثقافة مركزا لإحياء الحرف التقليدية منذ عام ١٩٥٨ احتشد داخلها عدد من الصناع يمثلون الحرف المختلفة ويصل عددها إلى عشرين حرفة مثل الخيامية،



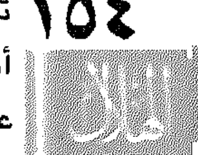


شبابيك الجص المعشقة بالزجاج الملون فن
متوارث من العصر الفاطمي



الشفتشي احد فنون الحلى الشعبي

التطعيم بالصدف، فنون الأرابيسك، التكفين بالفضة، الحلى والمصاغ الشعبى، النقش على النحاس، النجارة الدقيقة ،الزجاج المعشق بالجص... أقدمهم عم عبدالمعبود صبرة المتخصص فى التطعيم بالصدف منذ مايزيد عن ثلاثين عاماً. تعلمها على أيدى أشهر الصدافين محمد أبو العينين وعمر عبدالنبى وسعيد عبدالمجيد. لا يزال يملك بصيص من البصر ليمارس حرفته بصبره المعتاد. وإن كان يرى أن المهنة «على أصولها» لم يعد لها مكان . «الورش الخاصة تشتغل فى البلاستيك وليس بالصدف الطبيعى.. إنتاجهم غير متقن .. أما نحن فلا أحد يريد التعلم ولا يملك الصبر على حمل الإرث...» كلماته لا تختلف كثيرا عما قاله عم مختار سليم وعم حسن شوقة المتخصصان فى الرسم والنقش على النحاس منذ ثلاثين عاماً . يقومان بزخرفة الصوانى والأوانى النحاسية التى تشتريها الوكالة فى السوق لأنه لم يعد هناك حرفى لتصنيعها!! الجميع يؤكدون على أنه منذ خمسة عشر عاما كان بعض الحرفيين وغير الحرفيين يترددون على الوكالة راغبين إما بالتعليم أو حتى لإتقان الصنعة لكن أعدادهم تناقصت حتى لم يعد هناك أحداً راغباً فى ذلك، سوى عدد من تلاميذ المدارس المهنية والحرفية أو أولئك الذين يشاركون فى برامج تمولها وزارة الثقافة سواء بمفردها أو بالتعاون مع جهات أو وزارات أخرى. مثال (مشروع اليونسكو لتعليم الشباب وطلبة المدارس الغير

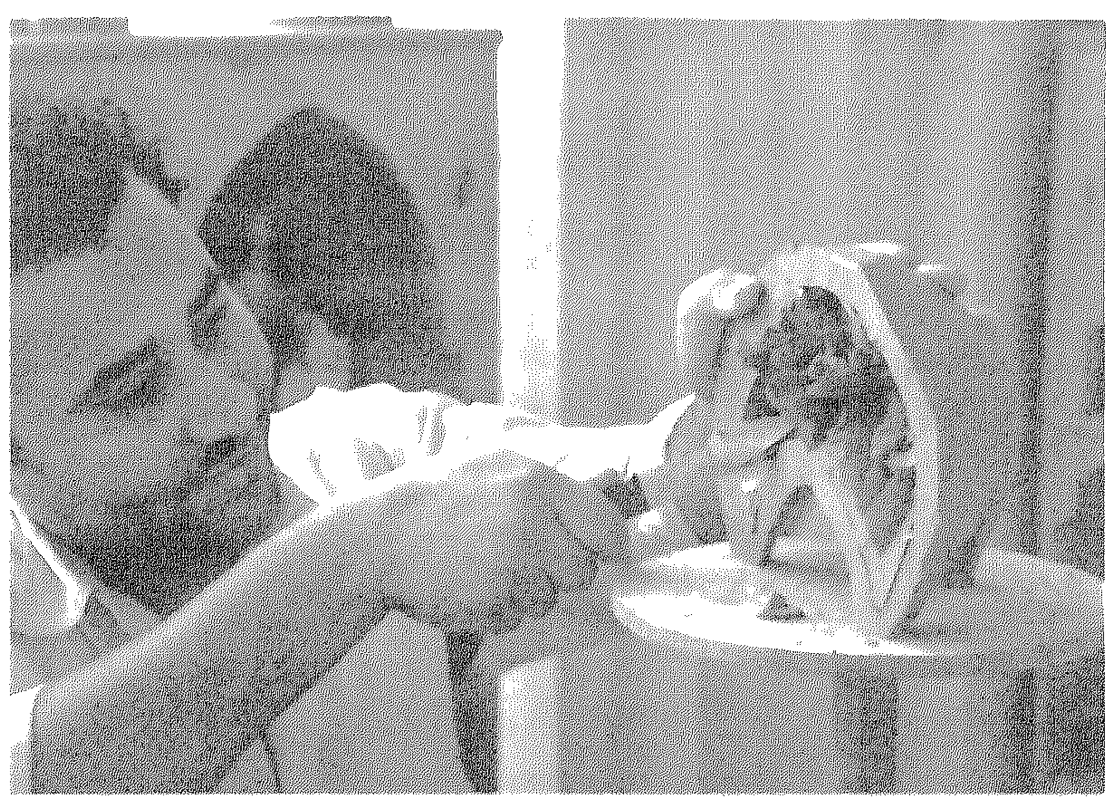




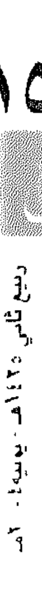
عم صبرة آخر أجيال الصدافين في مصر

قادرين على المعيشة ولتزويد الدخل، على الحرف اليدوية والتقليدية) .

وبالوكالة يعمل يونس طه ابن عم «طه أحمد» أشهر الخيامين فى مصر. ورث المهنة عن أبيه وعمه ويعمل فيها منذ عشر سنوات يرى أن السوق أصبح يعج بقطع الخيامية رديئة الصنع، فيقول القطعة الواحدة تأخذ منى حوالى ثلاث شهور لتصميمها وتنفيذها فى حين فى المحال التجارية نجدهم قد يخيط الصنيعى حوالى عشر قطع فى اليوم الواحد لتحقيق الربح السريع. وبجواره يجلس عدد من الشباب الذي بدأ العمل منذ سنوات لا تتعدى السنة أو الثلاث سنوات مثل سامح حرفى الحلى الشعبى أو كما يطلق عليها «الشفتشى» وأحمد حرفى الفضة والذهب وهما يمتلكان أو يعملان كغيرهما داخل بعض الورش الخاصة المنتشرة فى كل صوب. حيث اجتذبت المراكز المتعددة التابعة لقطاع الفنون التشكيلية عدد كبير من عمال الورش خلال ساعات الصباح التى لا يعملون خلالها. المنطق الذى يؤمنون به أن يوم الحكومة لا تزيد عدد ساعات العمل فيه عن ستة أو ثمانية ساعات الأمر الذى يتيح لهم التفرغ باقى اليوم لورشهم وأعمالهم الخاصة. وإن كان الشباب الحرفى يرى أن العمل الخاص مربح . فالأجرة اليومية قد تبدأ من ٢٠ جنيه وترتفع إلى ٤٠ جنيه للعامل أو الحرفى الماهر. لكنه عمل يفتقر إلى الأمان. فيمكن الاستغناء عن العامل فى أى لحظة طبقا لأحوال السوق .



الفخار كفن تلقائي هل يمكن لورش العمل والفنانين التشكليين أن يحييوه مره أخري ؟



قبل الاندثار

داخل مركز الخزف بالفسطاط موطن الخزف والفخار القديمة. أقامت هناك وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ أيضا مركزاً كلفت به الفنان سعيد الصدر ليشرف عليه

كان دوره يقوم على الاتصال بأهالى المنطقة لتبادل الأفكار والخبرات معهم ضمن خطة للحفاظ على القيم الجمالية للتراث الشعبى للخزافين التلقائيين والفنانين. وفى عام ١٩٩٥ قررت الوزارة تطوير المركز وإعادة انشاؤه وتزويده بالمعدات والأفران وذلك على مساحة ٢٤٠٠م فى المنطقة التى يطلق عليها «الفخرانية» بمصر القديمة. مضت سنوات التطوير سريعا وقف المركز مرة أخرى فى وجه كثير من الصعاب. كما يقول على إبراهيم مدير مركز الخزف : أن المكان يفتقر للأيدى العاملة أو الحرفيين القادرين على التنفيذ لدينا عدد كبير من المصممين يصل عددهم إلى أضعاف عدد الحرفيين الذين يعملون بأيديهم والذين لا يتعدون أربعة أشخاص فقط مقابل أربعين من المصممين» القطاع يوفر جميع المعدات والأفران والتى يصل ثمن الواحد منها إلى أكثر من خمسة عشر ألف جنيه بأنواعها (العضوى، الجاز الكهربائى) ورغم ذلك يصر القطاع على تعيين الحرفيين ضمن بند عمال الخدمات أى عمال النظافة!! الأمر الذى يصيب الكثيرين بالألم لفنانى الحرف اليدوية. مما يجعل كل من يحترف المهن والحرف التقليدية والتراثية فى حالة مقاومة ومقاتلة من أجل البقاء.

وبرغم أن تلك الحرف اجتذبت عددا كبيرا من الجمعيات والرابطات الأهلية التى جمعت بين أهل كل حرفة أو صنعة، جميعها رفعت شعار رعاية الفنون التراثية وحمايتها من الاندثار. وكما يحكى لنا الفنان نبيل وهبى مدير جمعية «أصالة» أن الشعارات القديمة التى تصر جميع الجهات الحكومية والأهلية على ترديدها مثل الحفاظ على الحرف التلقيدية، حماية التراث من الاندثار، ورعاية المهن الفنية التلقانية حتى الموت، كلها شعارات هدفها المعلن قد يكون ثقافى وتربوى لكن للأسف قد تتحول تلك الأهداف إلى الوقوع فى الشرك وتسير وراء الربح التجارى التسويقى فبعد أن كان الهدف الحقيقى هو خلق أرضية حقيقية لممارسة المهن والحرف ودفع الأجيال الجديدة إلى اقترافها، نجد أن الشعارات تحولت إلى مجرد محاولات لسد الخانات وليس إيجاد حلول حقيقية ويكفى أن الحرفيين يدخلون فى الميزانية العامة جنبا إلى جنب الكناسين وعمال النظافة ولا أحد يملك الجرأة فى الاعتراف بأنهم حرفيين وعمال فنيين. ويضيف «وهبى» أن الجمعيات الأهلية قد تكون أكثر تحرراً من اللوائح الحكومية والبيروقراطية. لكنها أيضا لم تستطع تحقيق أية انجازات يمكن أن نلمسها بطريقة جذرية. وهنا يؤكد الفنان عبدالمحسن الطوخى أن مستوى المنتج هو المتضرر الوحيد. فالمنتجات لم تعد كما كانت فى الماضى. فالحرف والحرفيين تم خنقها داخل إطار البيع والشراء. ففى الماضى الحرفى أو الصنايعى لم يكن يخيط قطعة خيامية أو ينقش أنية نحاس أو قطعة فضة لمجرد أن قطع تعرض فى الأسواق. لكنها كانت بالنسبة له قطعة فنية تحقق لذاته رضاء نفسيا وفنيا أولا.

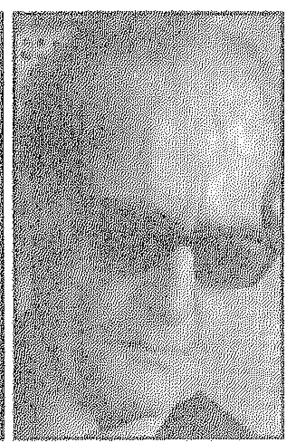
ثم يتباهى بجمالها أمام منافسيه من الحرفيين. أم اليوم فالكل يتسارع من أجل إنتاج أغزر وبالتالى ربح أسرع وأرخص ثمنا.

وللأسف ابتسرت المهن التراثية القائمة على اتقان الصانع وعلى المنتج اليدوى ذو القيمة المرتفعة إلى مجرد منتج أو سلعة تحمل مواصفات سوق العرض والطلب، أى ذات التكلفة القليلة والسعر الزهيد والجودة المنعدمة.

ففى الماضى كانت طوائف الحرف والصناع تتباهى بصناعاتها وبجمال فنونها ومدى اتقانها، أما اليوم لم يعد يملك عم «شوقة» أو عم «صبرة» وعم «طه» الكثير ليتباهوا به أمام العابرين والزائرين. أحلامهم بازدهار الصنعة وتوريثها لأجيال من التلاميذ النجباء تم ابتسارها إلى مجرد احتفالات ومهرجانات تقام كل عام لاستعراض بعض القطع من هنا أو هناك تعود مرة أخرى إلى الدواليب والأدراج إلى حين انعقاد مهرجان جديد داخل سرادق منصوب فى مكان آخر!! ■




عباس محمود العقاد


محمود تيمور


أحمد أمين


الرافعي

أدب الاعتراف

بين الرفض والقبول

بقلم
أحمد حسين الطماوى

الاعتراف والكتمان، فى الشرق يتنازعهما قولان مأثوران هما : من أقر بذنبه غفر له ربه .. وإذا بليتم فاستتروا، والغالب علينا الكتمان والتحفظ. لأننا فى الشرق ، لا نستطيع أن نجهر بالمعاصي والذنوب. وإذا اعترفنا فإنما نعترف بصغائر بسيطة ونقائص قليلة لا تنزل المعترف من عليائه، ولا تؤثر فى حيثيته ، ولا تعرضه للاحتقار الشديد . وقليل منا اعترف بالكبائر والخطايا الجسيمة علي طريقة جان جاك روسو، ذلك أن الاعتراف بالذنوب والعيوب يحتاج من المرء إلي جرأة، ويقظة ضمير، وقدرة على ترويض النفس بالشجاعة لتكشف عما يغشاها ، وتفضى بما في طواياها بصدق وصراحة دون أن يتلاعب بها الخيال وتشتط في التهوين او التهويل





طه حسين — ميخائيل نعيمة — عبد الرحمن شكرى — توفيق الحكيم



وكثيرون من كتابنا لم يكتبوا لا فى الاعتراف ولا فى الكتمان . ولاشك أن هؤلاء من أنصار الكتمان، وهناك نفر من فريق التحفظ تناولوا هذا الموضوع وجاءت اراؤهم مؤيدة للتستر وصيانة الأسرار، ورأوا أن العيوب يجب أن تكون غائبة عن غيرهم مثل العقاد ومحمود تيمور. فالعقاد تناول الموضوع فى كتابه «مراجعات» وأثر التكتم والتحفظ على ما خفى واستتر، وعندما باح، باح بطريقة غير مباشرة وذلك فى روايته «سارة» إذ اختفى وراء شخصية روائية وسجل قدرا من اعترافاته . وفى هذه الحالة يصعب ان نقول إن شخصية «همام» هى شخصية العقاد. لأن الرواية تدخل ضمن الأعمال الفنية المتخيلة. أما تيمور فهو من فريق المتكتمين ، وعندما طلب منه محرر الهلال أن يوافيه باعترافاته ضمن ادباء آخرين. كتب مقالا تحت عنوان «اعترافاتى» وقال فى نهايته : «ما أخالك إلا أنك تعفيتى من أن أفضى إليك باعترافات تسرى فيها الشوائب من كل جنب». وهذان المثلان يتجاوبان مع القول « إذا بليتم فاستتروا » ،وقد يكون مع المتحفظين حق، لأنهم يخشون الزراية بهم . وازدراء الناس لهم . وما أكثر الطعنات التى يتلقونها من أناس آفاق أفهامهم محدودة .

الاعترافات والسير الذاتية

والاعترافات ضرب من ضروب السير الذاتية . وإذا كانت معظم السير الغنائية التى بين أيدينا تحفل بالأحداث الظاهرة ، والمناظر البادية. والأطوار الخارجية . والاخبار والأفعال البارزة، وغيرها مما يبلور جوانب التفوق والامتياز فى الشخصية ، فإن أدب الاعتراف يعنى بالنفس وأطوارها الداخلية. وأسرارها الكامنة، وثوراتها واضطراباتها وهمومها

الغالبة، ويهتم كذلك بنواحي الضعف فى الإنسان أمام اللذات ، وجوانب الضعة والقصور ، حتى ينتهى الأمر الى ذكر المساوىء والسقطات مع تحليل الدوافع وذكر المحرضات على اقتراف الآثام .

وعلى هذا فإن السير الشخصية الخالية من الاعترافات المدهشة ، والبوح الذى يحملنا على التأمل . ليس لها من غرض إلا تطويب الناس لصاحب السيرة، وتمجيدهم له ، ولهجهم بذكره. أما الهدف من السير الاعترافية فهو إظهار النفس فى طبيعتها الأصلية. وإبراز ضعفها وعللها . والمعترف حين يفعل ذلك لا يصوغ هجاء مرا لنفسه. وإنما هو يناجى نفسه فى أحوالها المتباينة .

ويحاسبها ويذكر مثالبها بغية تحريرها من اوهاقها . كما أن النفس تكون فى أخصب حالاتها وهى تنفض عنها اقذارها . وتفتح أبوابها لتلقى أثقالها وتسفر بعد أن كانت محجبة .

اعترافات قديمة

والأدب والفكر العربيان القديمان لا يخلوان من اعترافات مختلفة ، وحسبنا ذكر امثلة قليلة . منها اعترافات امرىء القيس، فى ثنايا قصائده المنسوبة إليه بغرامياته ومغامراته وعربدته مع النساء مثل قوله :

سموت اليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

فهو يتسلل الى حبيبته بعد انقضاء أوقات السمر والسهر بخطوات خفيفة الوقع حتى لا يلحظه أحد من أهلها، ومن هذا كثير في شعره. وما اقترفه عبدالله ابن الدهينة مع عربية من ناحيته وماقاله فيها من شعر يصور لقاءه بها كان سببا فى مصرعه .

أما التراجم الاعترافية فنذكر منها.. «المنقذ من الضلال» للامام الغزالى، الذى صور فيه رحلته من الشك الى الايمان ، و«التعريف» لابن خلدون الذى اعترف فيه بمغامراته السياسية وتقلباته واشتراكه فى مؤامرات ضد أمراء بعضهم أحسن اليه مثل الأمير الموحدى محمد صاحب بجاية الذى قبض عليه وأودعه السجن وطلب ابن خلدون الإفراج عنه بقصيده مدح طويلة لم تشفع له .. وغيره، هذا عدا قبوله أن يكون فى خدمة تيمور لنك التترى آلد أعداء العرب والمسلمين . وكل هذا مقابل المناصب الكبيرة والمغانم الوفيرة .

وقد تأتى اعترافات عارضة فى ثنايا كتب مفكر من المفكرين لها دلالتها . فإذا ضممنا بعضها الى بعض أمكننا تكوين صورة أخرى لذلك المفكر تعبر عن الوجه الآخر له، ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدى الذى لا يسعنى أن أذكر كل ما وقعت عليه من اعترافات ، ويكفى ان نذكر بعضها ، فمن المعروف عن أبى حيان شغفه بالذم والقدح، وقد خص ابن العميد والصاحب



بن عباد بكتاب أطلق عليه «مثالب الوزيرين» جردهما فيه من المزايا، وانتقص من أدبهما وحط من أخلاقهما بما يجعل القارىء يزرى بهما. ويعترف التوحيدى بانه جمع فيما كتبه عن الصاحب نتيجة خصومة، ومن هنا كان ما قيده عنه إملاء من نفس حاقدة، لذلك وقع بعيدا عن الحق والصدق . فعندما سأله الوزير ابن سعدان عن الصاحب قال فى الامتاع والمؤانسة : «إنى رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه فى معاملتى.. وشديد الغيظ لحرمانى. فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب. او عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق، والصدق به أخلق»، وهو اعتراف باتباع الهوى، وعدم النزاهة عند إصدار الحكم على شخص، وبالغلو فى الذم ، كما أن هذا الاعتراف من شأنه أن يعمل على تعديل الحكم الصادر من التوحيدى على الصاحب بن عباد. ويبدو ان حياة الحرمان التى عاشها ابو حيان مع علو قدره فى الفكر ، وتيسر أحوال كثيرين ممن دونه فى المكانة العلمية ، ولدت فى نفسه الحقد، ودفعته الى الثلب والذم .

ولم يكن أبو حيان زاهدا فى الدنيا وإنما طامع فيه، لذلك تقرب الى الوزراء والكبراء ليحقق مطامعه، يقول : «والرفاهية مطلوبة والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة»، فهو ينشد الرفاهية لا الحياة العادية ويطلب الحظوة عند السادة مهما كانت الوسيلة .. بكل حول وقوة . ويعترف بأنه سعى الى الوزراء ليبلغ مكانة عليا يحسده الناس عليها، فهو يسامر الوزير ابن سعدان ويتصرف معه فى الحديث «كل ذلك أملا فى جدوى آخذها، وحظوة أحظى بها ، وزلفى أميس معها، ومثالة أحسد عليها..»، ولكى يحقق ذلك تكلف وتزلف وتهافت حتى ظهر ضعفه ، ولاح غرضه ومدح ابن سعدان ونزهه عن كل عيب. بل نراه يعترف اعترافا صريحا بأنه تقرب للناس وحط من قدر نفسه لينال شيئا منهم وأنه اضطر «إلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لايحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح فى قلب صاحبه الألم» ، ومرد مأساة التوحيدى الى الفرق الشاسع بين حياة رافهة رغده تمناها وحياة شقية شجية مارسها ، ولم تنفعه الحكمة التى تعلمها وتفوه بها ، ولم يجد حتى من يعزيه فى مأتم حياته ومأساته فأقدم فى نوبة يأس على إبادة كتبه بالنار .

الاعترافات الحديثة

أما الأدب العربى الحديث فقد عرف من الفصول والمقالات والكتب الاعترافية قدراً أوفر، وهذا راجع الى التحرر الفكرى بقدر ، وإلى التأثر بالآداب الأوربية التى تتقبل بلدانها هذه الموضوعات بيسر ، ولكن مع ذلك فالتحفظ والتكتم مازالا

مائمين .

وإذا اقصينا التراجم الذاتية ذات الصبغة السياسية ، فإننا نلغى سيرا ذاتية وجدانية الطابع مثل «الاعترافات»، لعبد الرحمن شكرى و «أنا» للعقاد و «الأيام» لطه حسين و «سبعون» لميخائيل نعيمة ، و«حياتى» لأحمد أمين و«مذكراتى» لعبد الرحمن الرافعي ، و«مذكرات محمد لطفى جمعة» .

ومعظم هذه السير مدونة وفقا للتسلسل الزمني، ومشتملة على حوادث مؤلفيها ونوازعهم وما امتلأت به أيامهم . هذا الى جانب انهم أطروا انفسهم بطريقة غير مباشرة . وتشعر اثناء قراءة بعضها ان هناك جانبا أخفاه صاحب السيرة ، فالاعترافات فيها شحيحة باستثناء اعترافات شكرى وسبعون نعيمة .

وإذا نظرنا فى هذه السير نجد الرافعي يعترف فى فصل من مذكراته جاء تحت عنوان «اعترافاتى» بحيائه الشديد وتورطه فى الحب أيام شبابه، وعناده وبأنه ليس عمليا ولا واقعيا ولايريد ان يفهم الحياة على حقيقتها ، بل إنه يؤثر الخيال علي الحقائق، وهى اعترافات علي بساطتها تتناقض مع عمل الرافعى واتجاهاته الوطنية، وثقافته التاريخية، فهو محام يتعامل مع القانون ، وحزبى (الحزب الوطنى) يشتغل بالسياسة ، ومؤرخ يتناول الحقائق ، وكل هذه الاشياء مواد علمية وعملية وحقائق تاريخية ، فكيف يكون خياليا ، إن الحقائق التي يستند اليها فى أوقات عمله ويشغل بها فراغه يجب أن تقضى علي الخيال وتصرعه، ولكن هذا ما يقوله ويعترف به .

وتصل فقرات من هذه التراجم الى درجة الاعتراف بالتقصير والإخفاق مثل ما جاء فى أيام طه حسين (الجزء الثالث) حيث يقول عن نفسه : «كلفه استاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية فى فرنسا بعد سقوط نابليون، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع .. ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب وقدمه الى الاستاذ.. وجاء يوم النقد فاستعرض الاستاذ ما قدم اليه من الواجبات ناقدا ساخرا منددا متندرا موبخاً بعض الطلاب أحيانا حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن القى اليه واجبه معقبا بهذه الجملة المرة التى لم ينسها قط .. «سطحى لا يستحق النقد» .. وهذا اعتراف محدود .. وكنا نود من طه حسين ان يبين لنا عقيدته عندما قال فى مطلع شبابه ..

لو كان لى فى الناس حكم نافذ

ألزمت بالإفطار كل الناس

بل كان عليه ان يفسر سلوكه عندما قال :

أنا لولا سوء حظى

لم أكن إلا ابن هانى

وابن هانى هو ابو نواس . لقد رسم طه حسين فى أيامه لوحات فنية تشرق

فيها نفسه دون ان يظهر المخبوء . ويذكر ما تناساه ، فهو يحضر ويغيب.

ولعل اكثر هذه الاعترافات إثارة وصراحة ما دونه ميخائيل نعيمة فى سيرته الذاتية «سبعون» فقد استدعى ماضيه أيام الشباب ورأى نفسه وهو يعاشر ثلاث نساء، واحدة روسية واثنتين امريكيتين توثقت بينه وبينهن العلائق، ومع الوقت أخذ كل منهم من الطرف الآخر حقوق الجسد وحقق رغباته ، وكانت النتيجة فقد عفافه معهن، واستمرأ الحياة المرنقة معهن فى هدأة الليل سنوات موصولة . ولم يفته ذكر تفاصيل هذه العلاقات والإغراءات التي حركت طبيعته . ودفعت غريزته حارة واثبة نحوهن، وحاول ان يفلسف هذه العلاقات المحرمة فزعم انه فى ظل وحدة الوجود، فإن الوجود يأخذ ويعطى مع بعضه البعض، وكان نعيمة يؤمن بوحدة الوجود وليس بثنائية الله والعالم او الخالق والمخلوق ، وهو مبرر ضعيف وخاطىء ولكن الإنسان فى سبيل الخلاص من آلام الإثم والحسرة التى تخلفها الأفعال الشائنة يقول مايعتقد أنه يعيد اليه الاتزان بعد الاضطراب ، او يغالط فى الحقائق لتصفو نفسه بعد أن تراكمت عليها الغيوم الداكنة .

ومهما يكن من أمر فإن كاتبنا نعيمة بتسطيره لهذه الاعترافات يستكمل أبعاد سيرته الذاتية . ويكشف عن عالم الباطن ، ويظهر قوته عندما يعرى نفسه ويبرز نواحى ضعفه .

اعترافات عبدالرحمن شكري

وعبد الرحمن شكرى (١٨٨٦-١٩٥٨) هو أبو الشعر الحديث او من آبائه الكرام. كون مع العقاد والمازنى المذهب الحديث فى الشعر الذى عرف خطأ فيما بعد باسم مدرسة الديوان، وهو شاعر مجدد وجداني وله ديوان ضخم مكون من ثمانية أجزاء غير كتب الصحائف ، والثمرات ، والاعترافات، وحديث إبليس ، والحلاق المجنون ، الى جانب قصائد ومقالات كثيرة، واعترافات شكرى ليست سيرة ذاتية وافية تبدأ بالمولد وتنتهى يوم كتابتها، كما هو الحال فى السير الذاتية ، إنها اعترافات من أولها الى آخرها تتجه دائما إلى الباطن وتستظهر الخفايا . فالنفس فى اعترافات شكرى هى المتحدثة عن هواجسها وسوء ظنها وشكلها وسائر ماساهم فى تشكيلها ، إن الاعترافات صوت الباطن، وليست شكل الظاهر .

وشكرى كغيره من بعض رجال الفكر يتردد بين الشك واليقين ، وبين الإيمان والانكار، ويعترف بأنه كان « فى بداية حياته متعبدا قارئا لكتب الزهاد والمتعبدين، ملما بكرامات الأولياء ، ولم يمنعه هذا من مواقعة الشهوات، ثم تملكته الحيرة وغشيت نفسه غواشى الشك والجحود ، واشتدت أزمته، فإذا أباح الإنكار فإنه لا يفسر شيئا ولا يقنع ويورثه اليأس والحزن ، فكان يهيم «فى شوارع

المدينة ليلا لأن الليل أشبه بما كنت فيه من اليأس والحزن، وكنت انظر الى النجوم وهى تنظر إلى بحزن واشفاق وأسألها عن الحياة والموت، عن البقاء والفناء عن الله والإنسان ، عن الدنيا والآخرة فتنظر الى بإشفاق» ولكنه لم يظفر بشيء وصارت الحياة اثقل من الكابوس فى نظره او كأنها حلم فظيع يروعه ، وهكذا تلم به الخواطر السود فتهدم أركان الايمان فى نفسه وتجعله يائسا. وأخيرا آب الى الايمان وتوصل الى ما أسماه روح الوجود يقول :

«وقد رجعت الى الايمان لأستفيد منه شيئا جديدا فعلمنى أن للوجود روحا كبيرة.. وأن هذه الروح توحى إلى أرواح الأفراد بما تريد ولها من المقادير جنود».

وأخذت نفسه تهدأ وتستكين الى الإيمان ، وفى شعره يقول:

سكنات الايمان برء من الحز..

ن ومأوى لهارب من قضاء ..

بل رأى أن الايمان بالله ضرورة وحاجة لعظم الشر، وأن الإنكار لا يعين على الخير. ويعترف شكرى بشدة الحياء وكان هذا من أسباب فشله، ويعترف بضعف إرادته ويرد هذا الى التربية فهو لا يعرف الإقدام والتحدى، وكان شكرى مفرطا فى الحذر فلا يطمئن الى صديق وهذا ما أفسد عليه لذة الحياة، والاستمتاع بمحادثة الناس ، هذا عدا سوء الظن الذى لازمه ولم يستطع التغلب عليه، وقد أبعدته ظنونه عن الناس ، وأبعدت الناس عنه فعاش فى عزلته توجهه ظنونه ، وشكرى يضيق بالنقد وحين قرأ نقدا لقصيدة من قصائده خيل إليه ان مؤامرة تحاك ضده ، والحياة عنده نكتة باردة وهذا من تشاؤمه .

ولا يمكن أن نأتى على كل اعترافات شكرى الذى قال عنها د. مندور: «ومن يقرأ هذا الكتاب لا يمكن إلا أن يفكر فى اعترافات كبار الأدباء من أمثال روسو وجيته وشاتوبريان ، بل وتحليلات وتأملات كبار المفكرين والأدباء من امثال باسكال ومرسيل بروست ، حتى ليخيل إلينا أن هذا الكتاب يعتبر من أهم وأعمق وأجمل الوثائق النفسية التى ظهرت فى الأدب العربي الحديث. بل نعتقد أنه يرتفع إلى مستوى أمثاله من مؤلفات كبار الأدباء العالميين» ..

اعترافات النساء

ولبعض الكاتبات والشواعر العربيات سير ذاتية منها «يوميات عائدة » لمى زيادة، و«على الجسر» لبنت الشاطىء و «رحلة جبلية – رحلة صعبة» و«الرحلة الاصعب» لفدوى طوقان و«حملة تفتيش – اوراق شخصية» للطيفة الزيات و«صفحات من حياتى» لجليلة رضا، ولأنى ابحث فى الاعترافات وليس فى السيرة الذاتية ، فإن المرأة العربية كانت تحتال بطرق شتى لتفضفض عن قلبها وإذا كان أغلب الرجال لم يكشفوا عن سقطاتهم فهل

تنتظر من المرأة أن تكون اكثر جسارة وصراحة من الرجل في هذا المجتمع الشرقي . ومع ذلك فقد وجدت المرأة في كتابة الرسائل الغرامية متنفسا لها ، ولم يدر بخلد مي زيادة مثلا أن خطاباتها الغرامية ستنشر يوما ويعرف بها القريب والغريب ، ومن هنا أودعت فيها كلمات عاطفية لاهبة ، وكانت لونا من الاعتراف .

ولما كان بعض الرجال يتخفون خلف شخصية روائية او قصصية ويسجلون ما استتر من حيواتهم علي نحو ما نقرأ في بعض أعمال توفيق الحكيم عودة الروح وعصفور من الشرق ويوميات نائب في الارياف وسجن العمر . فإن مي زيادة صورت الحب الشاذ في المدارس الدينية التي تعلمت فيها ومنها قصة «عائدة تتذكر» ضمن كتابها، «سوانح فتاة» وتصور فيها التلميذة عائدة وهي تغار على الراهبة أوجني من فتاة أخرى كانت الراهبة المعلمة أخذتها بين ذراعيها واتهمت عائدة معلمتها بالخيانة . وتؤكد وداد سكاكيني وعبد اللطيف شرارة ان عائدة هي مي . وقصة الحب في المدرسة ، وموضوعها تلميذة تغار على تلميذة صديقتها من خطيبها ، وهناك قصص أخرى تتوارى فيها مي تحت أسماء وهمية ، وهي اعترافات خفية، ولم تكن مي هي المرأة الوحيدة التي باحت بمكنون عواطفها في خطابات ، فقد تبعتها فدوى طوقان ، وبعثت برسائل الى ابراهيم نجا وأنور المعداوي ، وهذه الخطابات اختفت في ظروف غامضة ، ولكن بقيت خطابات المعداوي اليها التي نشرها رجاء النقاش في كتابه عن فدوى والمعداوي .

وإذا كانت المرأة قد توارت وراء خطابات وحكايات ، فإنه بمرور الوقت صارت اكثر جرأة ، وتمثل سيرة جليلة رضا خطوة واسعة من هذا المجال ، فقد سردت في سيرتها المعلنة والمنشورة، «صفحات في حياتي» أطرافا من حياتها العاطفية، ولم تجد حرجا في التصريح بمن أحبتهم وأحبوها وإن رمزت لكل عاشق بحرف ، فهذا « غ» وذلك «م» وغيرهما «أ» وإنك تقلب صفحات عديدة من كتابها ، فإذا بك أمام مهج رهيفة وغيرة قاتلة ، وغرام يتجدد وقلب يتقلب بين عشاق كثيرين ..

والاعترافات التي يفضي بها الكتاب والشعراء تساعد الذهن على تفهم عالم الفؤاد، لأن اغوار النفس العميقة متشعبة ومستوعبة لتناقضات كثيرة يصعب علي غير صاحبها سبرها وفهم غوامضها . كما أنها تلقي أضواء هادية إلى آدابهم وفنونهم . إذ توضح امورا تفتقر الى الايضاح ، وتفسر اشياء تحتاج الى تفسير، وتمدنا بمعارف لا قبل لنا بها وتذكر ملابسات مواقف وقضايا تعمل على تعميق النظر فيها ، بل قد تساعد على خلود الشخصية .ألا نذكر كثيرا جان جاك روسو ؟ ■

الفراغ والعدم وأمراض الإبداع

بقلم
محمود قاسم

«كل ما عليك أن تفعله هو أن تنظر إلى كل شيء حولك باعتباره فراغاً»

هذا هو الحل المؤكد الذى ينقله إليك كل المصابين بالاكتئاب ، خاصة من الأدباء والفنانين ، كعلاج فعال لواحد من أهم امراض العصر الحديث .

القلق والاحباط ، والتوتر النفسى ، هى أمراض ثلاثية بالغة القسوة ، ولا شك أن أول زبائنها هم المبدعون ، الذين يجدون أنفسهم بين ضفتى رحا متسعتى الهوة . النجاح الساحق ، والنسيان المظلم . وعلى كل منهم أن يتأرجح بين الطرفين حسب درجة إبداعه من ناحية ، وحسب حركة ودورات عجلة الزمن بكل منهم .



فيليب لابرو — سعاد حسنى



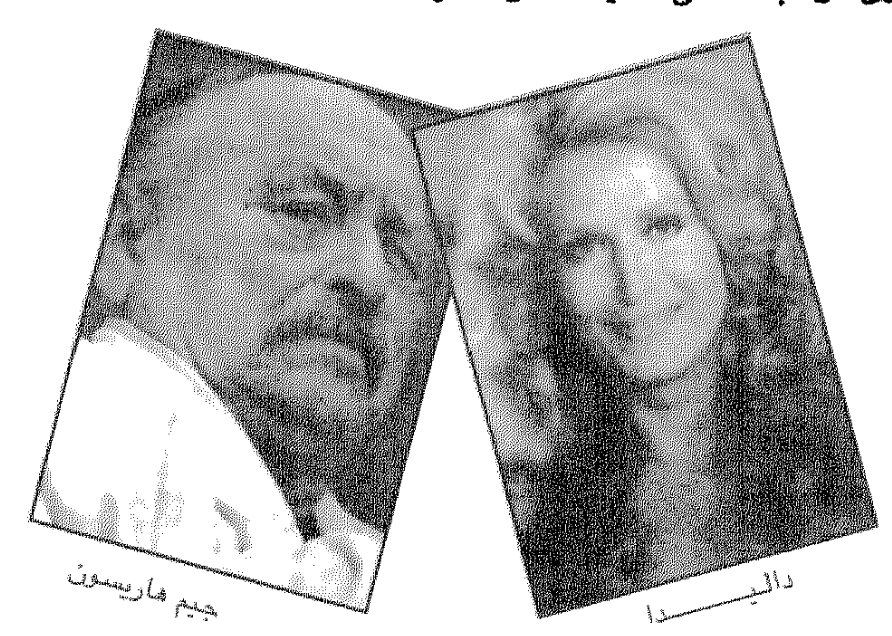
حول هذا التأرجح المميت عبر الروائي الفرنسي فيليب لابرو عن تجربته الخاصة مع التوتر والاحباط في كتابه الأخير «السقوط سبع مرات والنهوض في الثامنة» فكان الكتاب بمثابة شهادة حقيقية علنية لما يمكن أن يصيب الفنان عندما يقع في هذه الدائرة اللامتناهية .

أكدت مجلة لوبوان ، وهي تقدم تحقيقها عن «الضغط النفسي» إن هذا المرض يصيب فرنسياً من بين كل خمسة أشخاص . وأن اعراض المرض تبدأ بترديد صاحبه بعض العبارات منها «أنها سقطة .. أنا أنهار ، أنا المياه القذرة التي تتناثر في اطراف الحوض» ، وتبدو عيونهم زائغة وكأنهم يرقبون آفاق العدم .

فيما قبل ، كانت هذه الأعراض تسمى بالكآبة ، وقيل إن أول من يصاب بها هم غير المؤمنين ، لاقتناعهم بأنه لا جدوى من الإقامة في الحياة . لكن الأمر تغير ، وصار الضغط النفسي يجد زبائنه في مختلف الطبقات والكائنات الاجتماعية الإنسانية ، وصار اليأس والإحباط مسكونا في الكثير من البشر من حولنا .

وقد رصد القرن العشرين الكثير من هذه الحالات في مجالات متعددة من الإبداع ، منهم الروائي الأمريكي سكوت فيتزجيرالد ، صاحب رواية «جاتسبي العظيم» .. والياباني يوكيوميشيما ، والراقص اللبناني كيفام، والروائي الامريكي ويليام سنايرون ، والأديب المصري شريف عليش ، وأيضا سعاد حسني .

أصحاب هذه الاسماء عرفوا ألمع لحظات النجاح ، لكنهم انتهوا بزيارات متكررة إلى العيادات النفسية، وانتهت حيوات الكثير منهم بالموت المأساوي وهم يحسون أنه من الأجدى «الانزلاق بهدوء شديد نحو العدم» .. مؤمنين أن النهاية المحتومة أفضل بكثير من البقاء في


جيم هاريسون
داليدا

الحياة ، وأن العدم هو المصير المؤكد للإنسان .

لم أعد أرغب في شيء...؟

لم تكن الدلائل تشير إلى أن أيا من هذه الشخصيات ستكون نهايتها هي الموت الاختياري ، فقد نجحوا جميعا في بعث البهجة لدى الناس طوال القرن الماضي سواء في مجال التأليف الأدبي ، أو التمثيل ، أو الغناء أو التلحين ، والأديب الفرنسي فيليب لابرو، الذي كان آخر من أصابته الحالة ، هو كاتب ناجح ، وشخص مثالي ، تولى رئاسة تحرير العديد من المجلات ، وهو زوج نموذجي ، وأب للعديد من الاطفال ، كتب الرواية ، والمسلسل التليفزيوني والسيناريو السينمائي ، وحصل على العديد من الجوائز ، وليس هناك ما ينقصه : وسامة ، صوت جميل ، ونجاح متواصل ..إنه يذكرك ببطل فيلم «تدبير الأمور» لايليا كازان ١٩٦٨ ، الذي يمتلك كل أسباب السعادة ، ومع ذلك انطلق بسيارته الصغيرة كي يناطح حافلة ضخمة ، ويدور أسفل سقفها البالغ الضخامة .

ليست هناك أسباب محددة واضحة لدفع التوتر النفسي إلى نفسية أصحاب كل هذه الأسماء أو على الأصح فإن الأسباب الملحوظة هنا تبدو غير تقليدية ، فلم يفقد أحد منهم ابنا غالياً ، أو حبيباً أبدياً ، أو أن أحدهم جاءه فشل حاد بعد نجاح ساحق . ويبدو ذلك واضحاً في حالة لابرو ، فهو يمتلك كل ما يحسده السعداء عليه ، لكن فجأة تخلى لابرو عن وظائفه ، وابتعد عن الكتابة وسقط – إن كان هذا التعبير صحيحا – في وادي الضغط النفسي . وصار لابرو «الرجل الرائع» مجرد شبح إنسان . وصار خائراً ، خجولاً مما يفعل ، رغم أنه لم يتخل عما يفعله البشر : الأكل ، الشرب ، تنفس الهواء، الحب .

وحسب مجلة «لوبوان» ، فإن هناك عشرات التسميات لمثل هذه الأمراض ولذا فإن توصيف حالة ما يختلف تماما عن الأخرى ، وقد اوردت المجلة اسماء عديدة وتشخيصات يصعب ترجمتها، وتحتاج إلى متخصص متابع لاحداث الدراسات والأبحاث .

والجدير بالذكر أن ما حدث لفيليب لابرو ، قد نبه الأوساط الثقافية في اوروبا إلى أن هذه الأمراض قد وجدت ضحاياها الأبديين من الفنانين والكتاب، وأنه من الواجب إعادة تكريمهم ، ومنهم الروائي الامريكي ارنست هيمنجواي ، والكاتب والمخرج الفرنسي رومان جاري ، الروسي الأصل .

وقبل أن نتوقف عند أشهر حالات الأرق النفسي لمشاهير العالم ، فإننا نقتبس بعض العبارات التي وردت في كتاب لابرو ، ومنها :

«فقدان الرغبة ، لم أعد أرغب في شيء ، ولم أعد أتذوق شيئا ، الأكل مجرد بروفة ، والشرب عقاب ، لم يعد لثمرة اليوسفي مذاقها ، ولم تتناثر رائحته عبر حلقومي . وتترك القهوة مذاقاً مراً، ويبقى اللحم في الطبق غير مشتهيا فيه ، لن اتناوله بعد اليوم . صار السكر مراً ، وتسبب الشيكولاته الغثيان

، ولم يعد الملح مملحاً . يقال إن العناصر الأساسية للغذاء فقدت رغباتها ومنذ ذاك الحين لم أعد آكل شيئا ، حتى شرب الماء صار لا يلزمني، سوى جرعات قليلة ، الطعام صار يصفع معدتي ، فلم أعد احتمله ، إذن عليّ أن اتوقف عن فعل أشياء كثيرة ، كنت أحبها» .

أنا .. شخص محبط

ويقول لابرو في مكان آخر من كتابه المؤلم: «صار الوجه نحيلا ، وبدا الجسد النحيل يتسربل في ملابسه المتسعة ، ينظر إليّ الناس بعينين زائغتين ، ولم يعد قادراً على الابتسام. وهناك تجعيدات تزداد يوما وراء آخر في زاويتي الفم . وتبدو ملامحه مختلفة تماما . لم تعد لديّ ذكريات تبعث على الضحك» .

وقد بدت شدة الحالة في ضمائر التعبير التي يستمر لها الكاتب تعبيراً عن حالته ، فهو تارة يتكلم عن نفسه بـ «انا» ، وأخرى بـ «هو»، كأنما هذا الأخير شخص غريب تماما عن «الأنا» المقصودة ، أو كأنه يصف شخصاً لا يعرفه بالمرة .

مثل هذه الحالة لم تختلف كثيرا عما أصاب ويليام ستايرون ، صاحب رواية «اختيار صوفى» التى حازت على جائزة بوليتزر عام ١٩٧٩ ، وتحولت إلى فيلم شهير عام ١٩٨٣ ، وزار مصر فى صحبة ارثر ميللر عام ١٩٨٢، ولم يعرف كاتب امريكى المجد الأدبى فى النصف الثانى من القرن العشرين مثلما حدث مع ستايرون (٧٩ سنة) ، حالة الكاتب لم تكن تنبىء بالمرة أنه سيردد ، وهو فى قمة الضغط النفسى :«سكاكين المطبخ المرتبة فى الدرج لم تعد بالنسبة لى سوى وسيلة مؤكدة للوجود» ..

صار ستايرون يرى الأشياء من حوله بمنظور مختلف ، سيىء، فالجراج هو مكان نموذجى لاستنشاق ثانى أكسيد الكربون ، والبانيو ، هو أفضل ما يمكن أن نجمع فيه رغاوى الدماء . وستايرون لم يكن كاتب الصدفة ، فقد نجح دوما برؤياه القصصية فى أن يحظى باهتمام النقاد والقراء ، ولا يمكن أن نقول إن تقدمه فى السن كان سببا لهذا الاحباط والتوتر اللذين أصاباه . فقد توقف الكاتب عن تعاطى الخمر ، لكنه ظل يتردد على المصحات النفسية ، وحول تجربته مع التوتر كتب عدة مقالات ونصوص أدبية مؤخراً ، سوف تصير بمثابة ناموس للذين عاشوا مثل هذه التجربة .

تقول مجلة لوبوان إن مصرياً قديما مجهولاً ، كتب منذ أربعة آلاف سنة أن «الموت هو اليوم أملى الوحيد»، بما يعنى أن العصر الحديث مجرد وريث وفى ، نقل إلى ابنائه من هذا الجيل خبرات الازمنة الغابرة ، تلك الأزمنة التى دفعت الكثير من المشاهير إلى أن يعيشوا مثل هذه الحالات منهم: الملك الفرنسى لويس الخامس عشر ، (١٧١٠ - ١٧٧٤)، والأديب جيرار دونرفال (١٨٠٨ - ١٨٥٥) ، والفيلسوف الاجتماعى اوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

أما أبرز المعاصرين الذين توقفت



عندهم المجلة ، فهناك المطربة المصرية الأصل داليــــدا (١٩٣٣ - ١٩٨٧) ، والمخرج السينمائى كلود بيرى (٦٩ سنة)، والرياضى البرتو سالازار (٤٥ سنة) والمطرب ذو الصوت الصداح ميشيل دلبيش (٥٧ سنة) صاحب الأغنية الشهيرة «المطلقون» .. والممثلة شارلوت رامبلنج ، نجمة مهرجان كان عام ٢٠٠٣ ، التى رددت «ذات يوم . لم اعد استطيع المقاومة ، عندما وجدت نفسى أمام الفراغ» ..

لقد رددت شارلوت هذه العبارة عام ١٩٩٤ ، بعد سبع سنوات من العزلة الاختيارية، مؤمنة أن عليها أن تبحث عن الموت كى تولد من جديد . وفى هذه الفترة عرفت الممثلة ما اسمته بـ «عالم مجرد مجهول» أو «صخب مرعب ، نحمل فيه كل مخاوف أجدادنا» ..

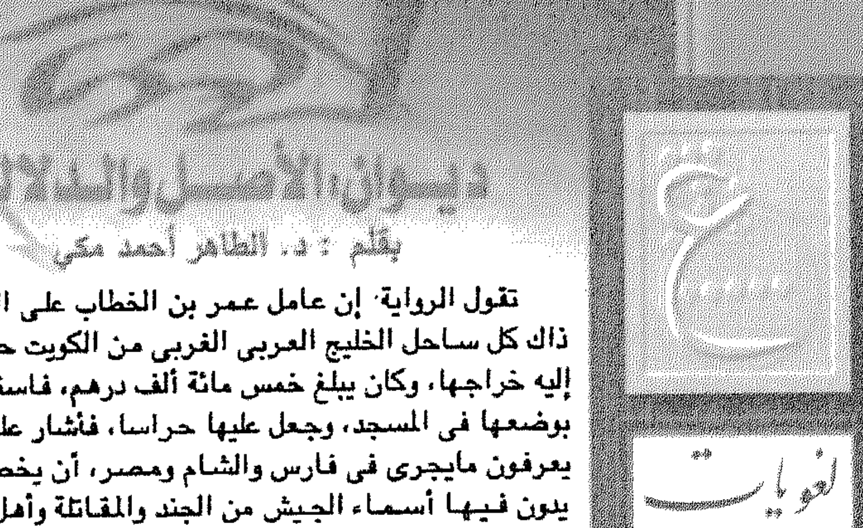
الجدير بالذكر أن لشارلوت رامبلنج أختا ماتت وهى فى الثالثة والعشرين من مرض مشابه .

الإنسان قطعة لحم فى سوبر ماركت

أما أبرز الأدباء المعاصرين الذين أصابتهم مثل هذه الحالة فهناك الامريكى جيم هاريسون (٦٧ سنة) صاحب رواية «أساطير الخريف» التى تم تحويلها إلى فيلم قام ببطولته براد بيت عام ١٩٩٥ . لقد اختار هاريسون أن يعيش كافة حياته فى عزلة ، أسوة بزملاء آخرين له ، بالغى الموهبة ، منهم سالينجر، وتوماس بيتشون ، وذلك تحت شعار: «لا تنس قط أن الحياة أشبه بذئب لا يستحق أن يعيش» ..

الرجل الذى ردد هذه العبارة ، وجد متعة الحياة فى الصيد ، والكتابة ، والتجوال ، والطعام والشراب، ورغم ذلك فقد اجتاز سبع محن من التوتر النفسى ، ساقته جميعا إلى المصحات النفسية بالعدد نفسه ، وتحت تأثير حبات الفاليوم التى تناولها كعلاج كان يردد عبارات مثل: «أنا أشبه بقطع لحم نيء معلقة فى سوبر ماركت» ..

مثل هذه الحالات ، لم تكن بعيدة عن كتاب كثيرين ، ومبدعين ، فى عالمنا العربى ، خاصة مصر ، ربما كانت هناك أسباب لكاتب كبير ، توفى منذ عدة أعوام ، مر بحالة من الاحباط الشديد بسبب المرض ، وفى الاسابيع الأخيرة من حياته رفض تماما تناول الدواء ، ومات فى أشد حالات الاكتئاب ، وهناك فنانة كانت كل الظروف تؤكد أنها صارت صريعة لهذا المرض ، وأثير حول وفاتها جدل ، فى أن موتها منتحرة قد يدفع بها إلى أنها فعلت شيئا ضد العقيدة ، لكن بلا شك فإن الذين يقومون بمثل هذه الإدانة لم يمروا قط بمثل هذه الحالات البالغة الألم ، وقد رأيت ذلك بعينى هذه الأسابيع لكاتب يرقد فى سريره ، يرفض تماما استقبال زواره، والحياة ، وهو يتألم بشدة ، وإذا كانت مجلة لوبوان قد ذكرت اسماء المبدعين الذين دخلو دائرة رؤية الفراغ بدلا من الأماكن ، فإن العرف الاجتماعى فى مصر ، يحول تماما دون ذكر الاسماء. ■



ديوان الأصل والدلالة

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

تقول الرواية: إن عامل عمر بن الخطاب على البحرين، وتعنى إذ ذاك كل ساحل الخليج العربى الغربى من الكويت حتى مسقط، حمل إليه خراجها، وكان يبلغ خمس مائة ألف درهم، فاستعظمها عمر، وأمر بوضعها فى المسجد، وجعل عليها حراسا، فأشار عليه بعض من كانوا يعرفون مايجرى فى فارس والشام ومصر، أن يخصص لذلك صحفا يدون فيها أسماء الجيش من الجند والمقاتلة وأهل العطاء، وما لكل واحد، وأن يجعل الأرزاق مشاهرة، وأن يدون فيها مايرد من الخراج والأموال، وسمى ذلك المجموع من الصحف ديوانا، وكان هذا أول ديوان فى الإسلام، أقيمت على نحوه دواوين فى البصرة والكوفة تكتب بالعربية، وأخرى فى الشام تكتب بالرومية = (اليونانية) وفى العراق بالفارسية، وفى مصر بالقبطية، وعربت فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، ماعدا مصر فقد تم تعريب ديوانها فى ولاية عبدالله بن عبدالملك، فى خلافة الوليد بن عبدالملك، عام٨٧ هـ = ٧٠٥ م.

يقول أبوجعفر النحاس، وهو عالم مصرى (ت ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) إن معنى الديوان: الأصل الذى يرجع إليه، ويعمل بما فيه، ويقول ابن عباس: إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب.

ويقال دون هذا أى أثبته واجعله أصلا.

واختلف فى أصل الكلمة: سيبويه (ت ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) شيخ النحاة، وهو فارسى الأصل، يرى أنها من أصل فارسى، ويوافقه فى هذا العالم اللغوى الأصمعى (ت ٢١٥ هـ = ٨٣١ م) وهو عربى النسب، ويرى المرزوقى (ت ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م)، أن اللفظ عربى مأخوذ من دونت الكلمة إذا ضبطتها وقيدتها، لأنه موضع تضبط فيه أموال الناس وتدون.

وفيما أرى الحق مع سيبويه والأصمعى، لأنهما أسبق تاريخا، وأقرب إلى ولادة الكلمة، ويضعف رأى المرزوقى أن الفعل صيغ من الاسم، جاء بعده ولم يسبقه، وأن المصادر الأولى تذكر الاسم ولاتشير إلى الفعل.

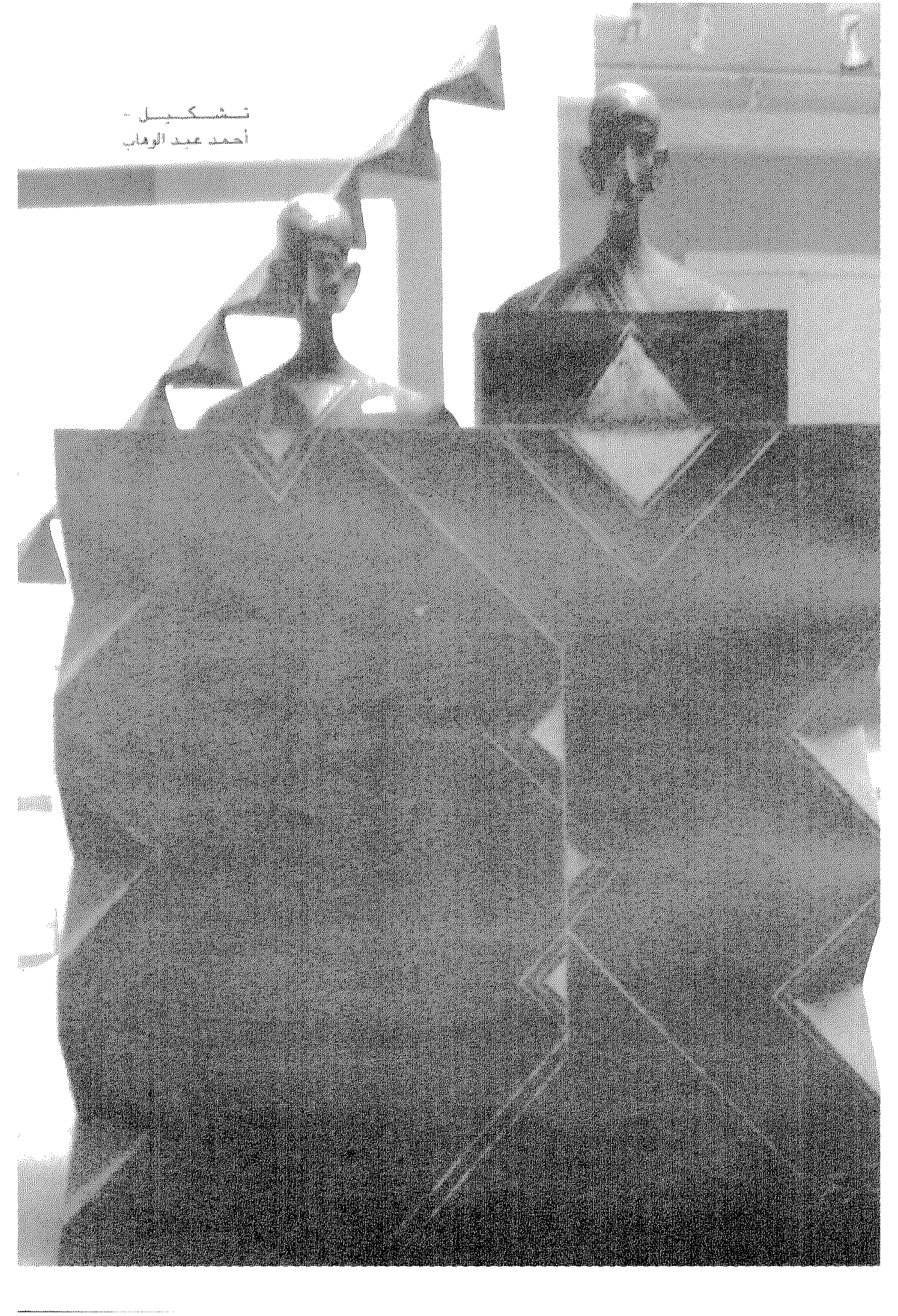
مع انتشار الكتابة، وكثرة التقييد، وسهولة الحصول على الورق، اتسع استخدام الكلمة فأطلقوها على شعر الشاعر يجمع فى كتاب، وتم هذا فى القرن الرابع الهجرى فيما أرجح، ثم أصبحت تطلق على كل كتاب، وتوسع الفاطميون فى مصر فى استخدامها، وأصبحت تعنى إدارة أو مصلحة فهناك: ديوان الجيش أو الجهادية، والكسوة والطراز، والأحباس، والرواتب، وأضيف إليها فى العصر المملوكى ديوان الإنشاء، وفى العصر التركى منح اللفظ لقب أفندى فأصبح: ديوان أفندى، أو أفنديس بالتركية، ويعنون به الديوان العالى فى عاصمة الخلافة أو ديوان الخديوى فى مصر.

بعض القبائل العربية فى جنوب الصعيد (المطاعنة مثلا فى مركز إسنا) يطلقون الكلمة على المكان الذى تعده القبيلة لتلاقى أبنائها للمشاورة أو المسامرة أو استقبال الضيوف والزائرين، ولشىء قريب من هذا تستخدم الكلمة فى الكويت، وتعرف بالديوانية. ■

نحن والأجداد

بقلم
د. صبرى منصور

تظل علاقة الفنان بالتقاليد الفنية - فى جميع مجالات الفنون - من أدق إشكاليات تحقيق ذاتية الفن المصرى، وبلورة سماته الخاصة، وإبراز شخصيته فى ساحة الإبداع الفنى العالمى. ولقد كانت تلك العلاقة وإدراك طبيعتها، وتحديد ملامحها محل التباس الفهم من جانب معظم المبدعين والنقاد. وعلى الرغم من أن البعض من هؤلاء قد استطاع - بعمق موهبته وفرط حساسيته الثقافية وصدق رؤيته الإبداعية - أن يقتنص سر هذه العلاقة، وأن يأتى إبداعه مجسدا لها ومحققا لمعناها الإيجابى، ونذكر من بين هؤلاء المبدعين سيد درويش فى الموسيقى، ومحمود سعيد ومختار والجزار وندا فى الفن التشكيلى، ونجيب محفوظ فى الرواية، ويوسف إدريس ومحمود دياب فى المسرح، وصلاح عبدالصبور وأمل دنقل فى الشعر، وشادى عبدالسلام فى السينما، وحسن فتحى ورمسيس ويصا فى العمارة .



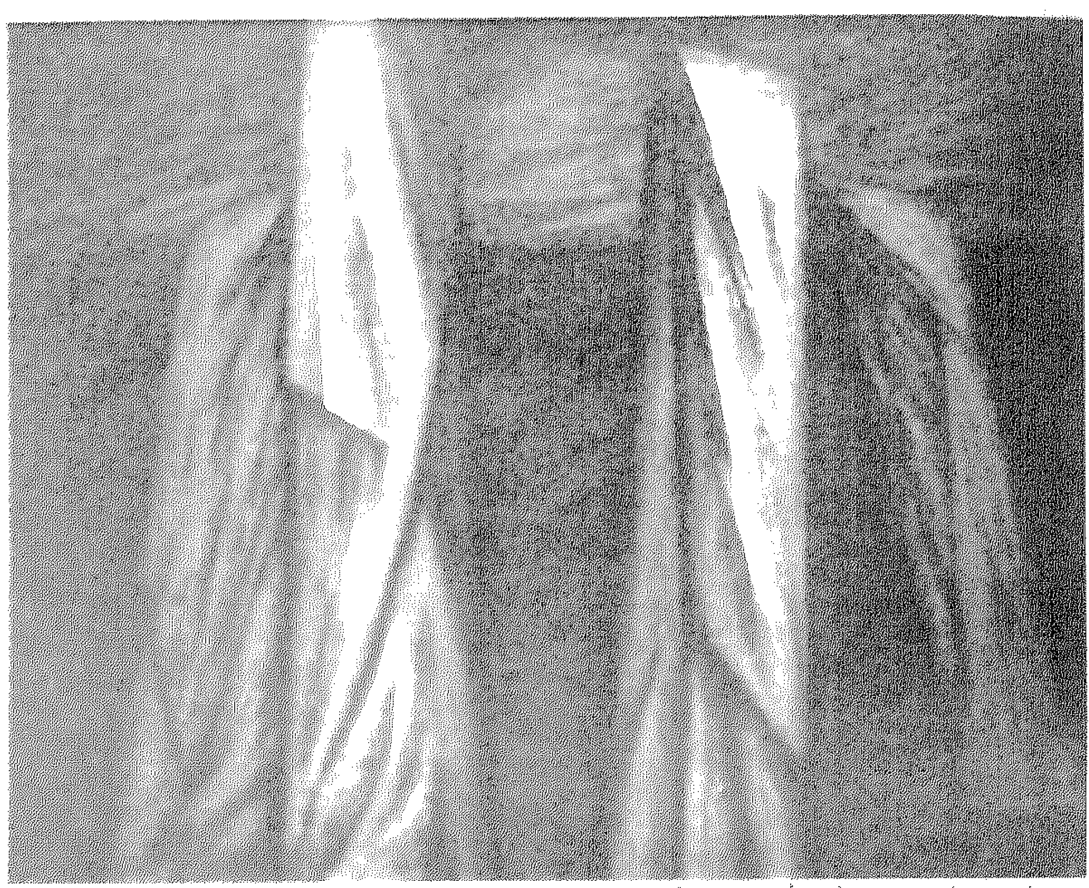
تشكيل:
أحمد عبد الوهاب

إلا أن قضية ارتباط الفنان بتراث أمته باعتباره كيانا ثقافيا متكاملا يجب الاتصال به والامتداد بخيوط منه وإثرائه تتعرض لعوامل إضعاف عديدة، بل ويسعى البعض جاهدا لإفنائها والقضاء عليها انتصارا لأشكال فنية ممسوخة، واتباعا لنماذج غريبة على كياننا الثقافي . ولقد ساهمت عوامل عديدة في خلط الحقائق، واختلال المعايير التي يلحظها الراصد المدقق لنمو حركة الإبداع الفني الحديث في مصر.

التقاليد الفنية والتقليد

وعادة ما ينظر في وسطنا الثقافي إلى الفنان المرتبط بالتقاليد الفنية المتوارثة على أنه متخلف عن ركب التطور والتجديد، فعند مدعي الحداثة أن الفنان يكون حداثيا حين يأتي إبداعه مشابها للنماذج الفنية الغربية وخاضعا لمعاييرها، مع أن ذلك في واقع الأمر تقليد سافر ينتقص من قدرة الإبداع المصري على التميز وينفي وجوده أصلا. ويوضح المفكر زكي نجيب محمود في إحدى مقالاته الفرق بين كلمتي التقليد والتقاليد اللتين تأتيان من مادة لغوية واحدة، إحداهما هي صيغة المفرد، والأخرى هي صيغة الجمع، إلا أن استعمالهما قد أسبغ على كل منهما معنى مختلفا أشد الاختلاف. إذ أن التقليد مرفوض رفضا قاطعا في دنيا الفن والأدب وكافة صور الإبداع، إذ لا يجوز قط لمبدع في أي ميدان أن يقلد أحدا سواه، وحتى إذا كان المبدع منتميا إلى مدرسة فنية بعينها فإنه ينبغي ألا يجاوز في تبعيته هذه حدود الإطار العام للمدرسة، أما الكلمة الأخرى وهي التقاليد فعلى العكس من ذلك» إذ لا أتصور عصرا في تاريخ أي فن من الفنون في أي بلد من بلاد الله إلا ويكون نشاطه الفني ملتزما بالتقاليد الأساسية لذلك الفن عند أسلافه، ولا يجوز لفنان مصري مثلا أن يدعي المصرية إذا لم يستطع أن يقدم فنا يمكن أن يتسق مع أسلافه في تاريخ فني واحد».

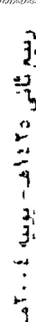
كما يرى زكي نجيب محمود أننا إذا كنا اليوم نستأنف عملية الإبداع الفني بعد قرون من الانقطاع فإن أول ما ينبغي أن نراعيه هو إحياء التقاليد عند الفنان المصري على امتداد عصور التاريخ ثم نجدد في إطار تلك التقاليد، وأنه بغير هذا الاقتران بين تقاليد الماضي التي تصنع الهوية الممتدة عبر التاريخ وبين التنويعات الجزئية التي نضيفها لن تكون هناك سبيل إلى المحافظة على الهوية القومية مضافا إليها التنوع الحضاري. ويؤكد المفكر الكبير بأن الفنان الذي يتعذر عليه أن يصب إبداعه في إطار من تقاليد الإبداع كما عرفت في تاريخه القومي فإنه يكون قد قضى على إبداعه بالحرمان من الدخول في هذا التاريخ، وذلك لأن التيار التاريخي في أي مجال فني وفي أي بلد ينتظمه خيط خفي يربط التيار كله من



سيدات نوبيات - مصطفى أحمد مصطفى

المنبع إلى المصب، وهو بهذا يؤكد على أن أى تجديد، أو تحديث يجب أن يقوم على قاعدة من التقاليد الفنية المصرية، وإلا سيكون شيئا دخيلا ومفخما . ولن يجد له مكانا داخل النسق العام.

أما الناقد والشاعر الإنجليزى الشهير ت. س. إليوت فإنه - فى كتابه «مقالات فى النقد الأدبى» يرى أن خير ما فى عمل الشاعر وأكثر أجزاء هذا العمل فردية هى تلك التى يثبت فيها أجداده الشعراء الموتى خلودهم، ويوضح أن ذلك ليس فى فترة المراهقة الفكرية للشاعر وإنما فى فترة نضوجه الكامل. ويفسر اليوت معنى التقاليد بأنها ليست اتباع الطرق التى سار عليها الجيل السابق، أو إحراز النجاح الذى سبق إحرازه فى أجيال سابقة، فتلك رؤية ساذجة إذ أن للتقاليد مغزى أعمق من ذلك بكثير. والإنسان لا يرث التقاليد وإنما عليه أن يبذل مجهودا كبيرا إذا أراد اكتسابها، وهى تتضمن أول ما تتضمن الحاسة التاريخية، والتى لاتعنى إدراك ماضى الماضى فحسب وإنما حاضرة أيضا. تلك الحاسة التى هى حاسة اللازمنى والزمنى معا هى التى تجعل من الكاتب كاتبا تقليديا، وهى التى تجعله فى نفس الوقت يعى مكانه داخل نطاق هذا الزمن، ويعى عصريته



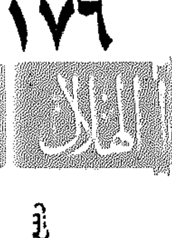


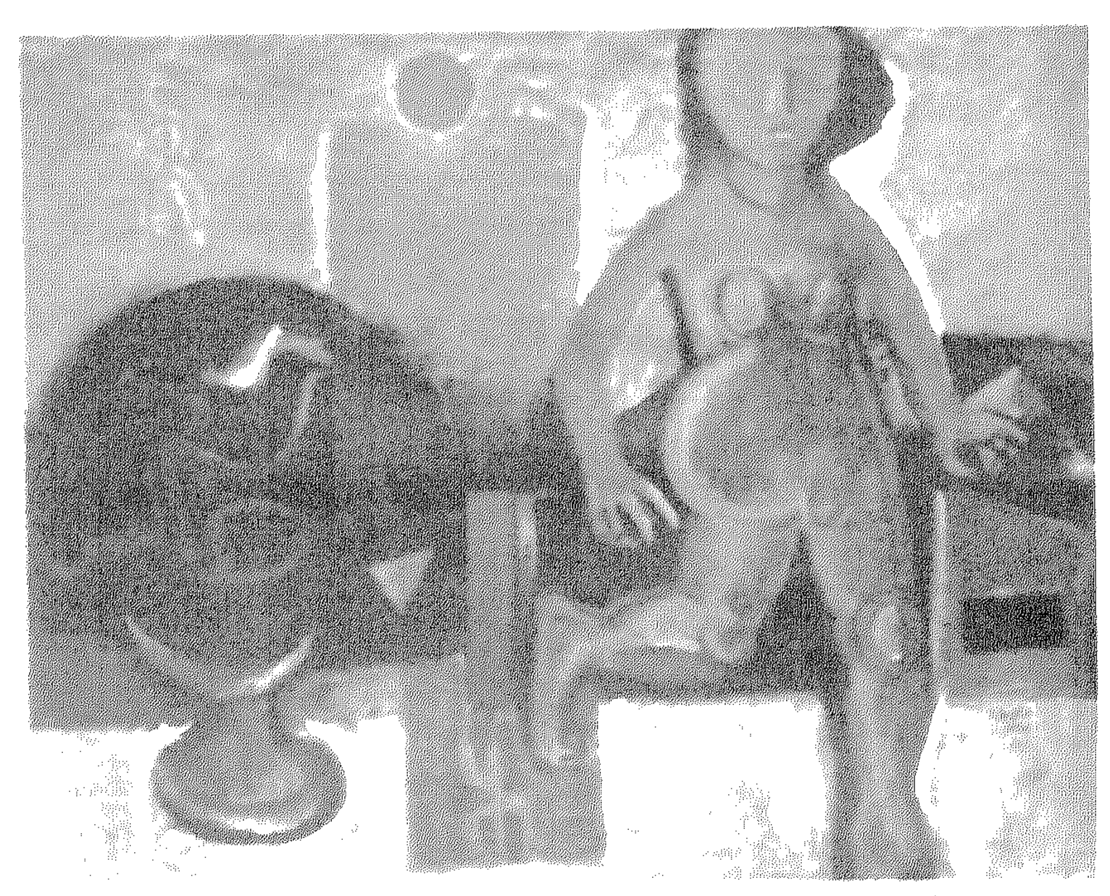
رقص الخيل - سيد عبد الرسول

وعيا مرهفا، كما يرى اليوت بأن معنى الشاعر أو الفنان لا يستمد منه وحده، وإنما هو تقدير للعلاقة التى تربطه بالشعراء والفنانين الموتى.

ويحدد الفنان والمفكر حامد سعيد مفهوم التراث الفنى المصرى بأنه ليس مجموعة من الآثار الفرعونية أو المسيحية أو الإسلامية فقط، وإنما هو مجموعة التقاليد التى تحدد خصائص الشخصية الفنية المصرية، وهى ليست الماضى بكل ما فيه من أخطاء وضعف، وإنما هى مجموعة صوابات الماضى تتواصل من جيل لجيل، وهذا التواصل يخلق رؤية شاملة للحياة وللوجود. ويفرق حامد سعيد بين نوعين من العالمية فى الفن، حيث توجد عالمية مزيفة ونجدها فى المعارض الدولية والرسمية فى البلاد الرأسمالية حيث الكل متشابه ويتبع آخر موضة، وهذه يتبعها أذكياء الفن عندنا. وهناك عالمية حقيقية تكمن فى تحقق شخصية كل فنان وكل بلد من خلال حريته فى الخلق والإبداع بدون تبعية.

كما يكشف نجيب محفوظ عن مدى أهمية التراث وتأثيره فى تكوينه الأدبى، إذ كانت له قراءاته الواسعة فى التراث الأدبى المصرى والعربى، كما اطلع على أمهات الكتب والملاحم الشعبية ، كما اعتبر دراسة مصر القديمة وتاريخ آدابها وأساطيرها جزءا أساسيا من دراسته للتراث. وذلك بالإضافة إلى تراث





من الزار - زكريا الزيني

الآداب الأجنبية، وقد كان لكل ذلك تأثير على ما أبدع من أعمال أدبية لأن التراث جزء حيوى فى تكوين الأديب والفنان.

فكرة إحياء القديم

إن فكرة إحياء تراث فنى ما وفقا لتغيرات ثقافية واجتماعية هى فكرة صحيحة يثبتها تاريخ الفن نفسه، فمادة الفن مادة لا تفنى بمرور الزمن، وهى قابلة دائما للاستيحاء والامتداد بعناصر منها وفق منظور جديد. وفى تاريخ الفن الأوربى عاد الفنانون فى فترتين تاريخيتين مختلفتين - بل ومتباعدتين بمسافة زمنية لعدة قرون - إلى التراث الفنى اليونانى واستلهموا مثالياته واعتنقوا مبادئه الفنية، مرة فى القرن الخامس عشر أثناء عصر النهضة، ومرة أخرى فى نهاية القرن الثامن عشر حين ظهرت الكلاسيكية الجديدة. كما اعتمد فنانو المكسيك فى القرن العشرين على قاعدة تراثية فى صياغة فنونهم الحديثة. وعلى مستوى الفنانين وإمكانية عودتهم لإحياء أو استنباط قيم فنية جديدة من خلال تراث الماضى فإن بيكاسو زعيم التجديد والتمرد فى الفن الأوربى الحديث تشهد مراحل عديدة من حياته الفنية رجوعا متكررا لفنانين وطرز سالفة، مثل أعماله التى استوحى فيها لوحات لڤيلاسكيند وجويا وأيضا الطراز

اليوناني.

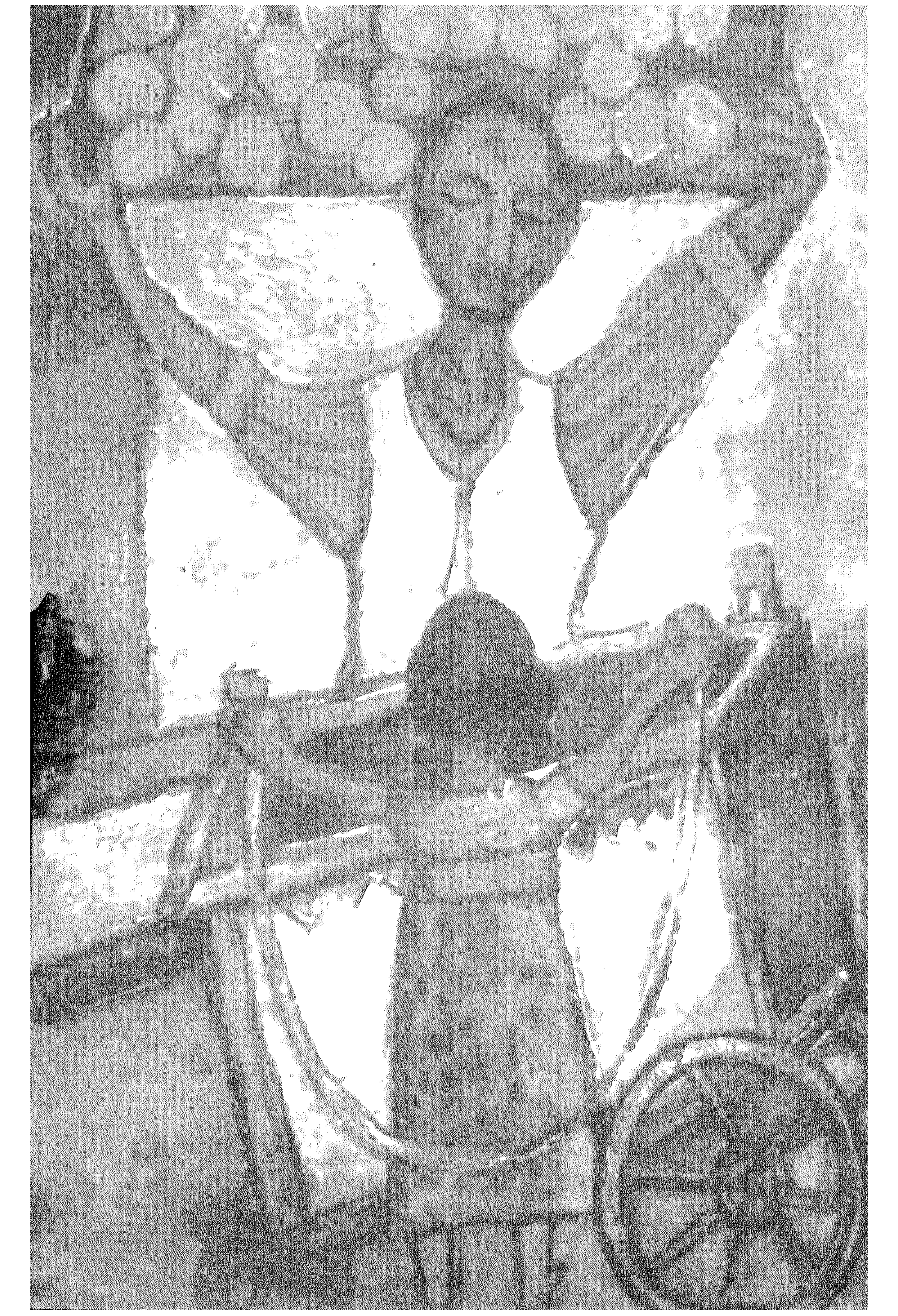
كيف يبدع الفنان ؟

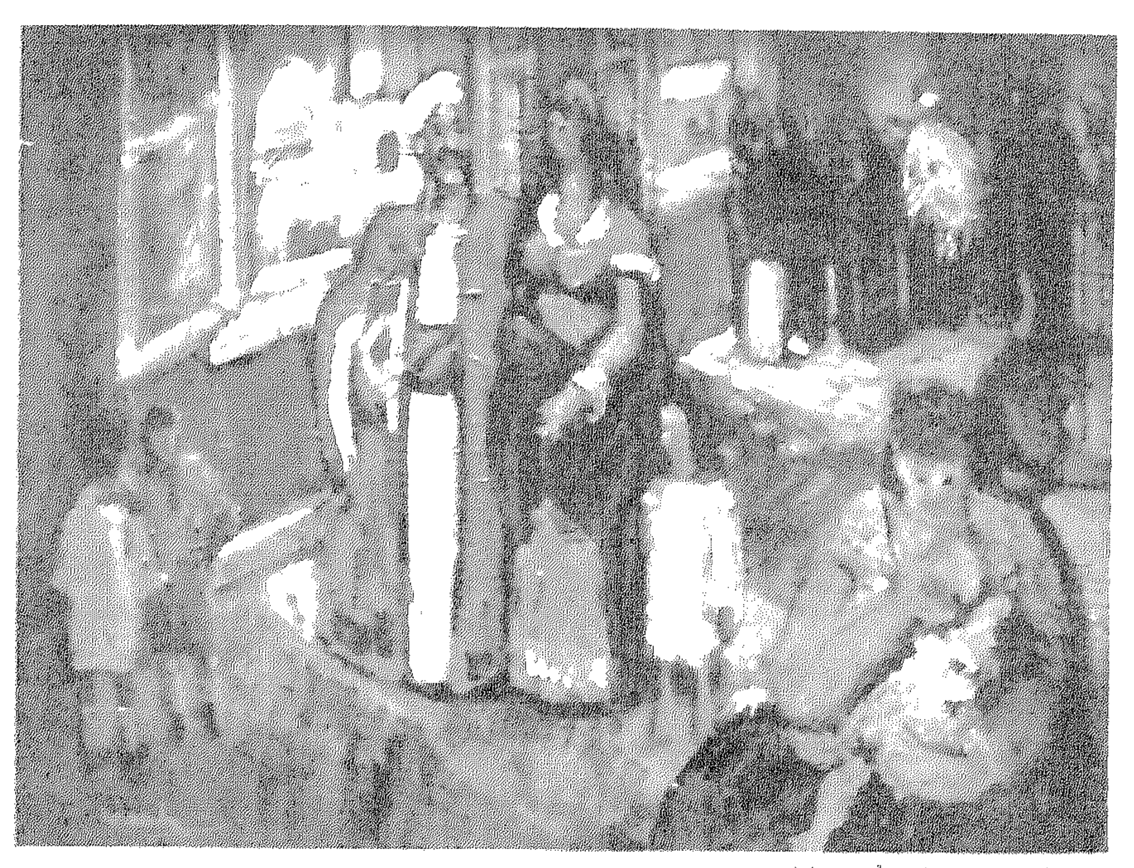
ماذا يفعل الفنان وهو بصدد تحقيق فكرته الفنية التى تلح على خاطره وكيف يخرجها إلى حيز الوجود؟ فالفكرة تحتاج إلى شكل تتجسد فيه ، وإلى أسلوب فني ينظم علاقاتها ويحدد هيئتها ويجمع عناصرها وفق نسق معين. والتطور الطبيعى والمنطقى أن يتأثر الفنان فى بداية تجربته الفنية ببعض الأساليب والطرق لفنانين آخرين من القريبين إلى نفسه وذوقه الفني، (ومثالنا على ذلك أيضا بيكاسو الذى اقتفى أساليب فنانين آخرين فى فترة تكوينه الأولى كان منهم جوجان وفان جوخ ولوتريك) وبعد ذلك وفى خلال فترة النضج يبدأ الفنان فى تلمس أسلوبه الخاص، ويمضى فى استكماله عبر الأعمال والتجارب المتواصلة ، إلى أن تتوفر لديه تلك القاعدة الأسلوبية الخاصة به والتى يستدعيها حين تكتمل لديه فكرة عمل فنى جديد يود تجسيدها.

ويتساءل المرء حين يواجه أعمالا فنية عديدة – ليس في مجال الفنون التشكيلية فقط وانما فى بقية الفنون الأخرى – عن ماهية النسق الفنى الذى انطلق منه الفنان، وعلى أى أسلوب ارتكز فى إبداعه، وخاصة اذا كان فى مرحلة النضج الزمنى وانتهى من مرحلة الإعداد والتكوين. ومما يدعو إلى الأسف تجد أن الفنان قد استدعى إلى ذاكرته تقاليد فنية غريبة علينا ومقطوعة الصلة بنا، وهو ينسلخ بروحه من الكيان الفنى المصرى فيأتى عمله مسخا ثقافيا عديم القيمة.

درجات من التعبير عن الخصوصية

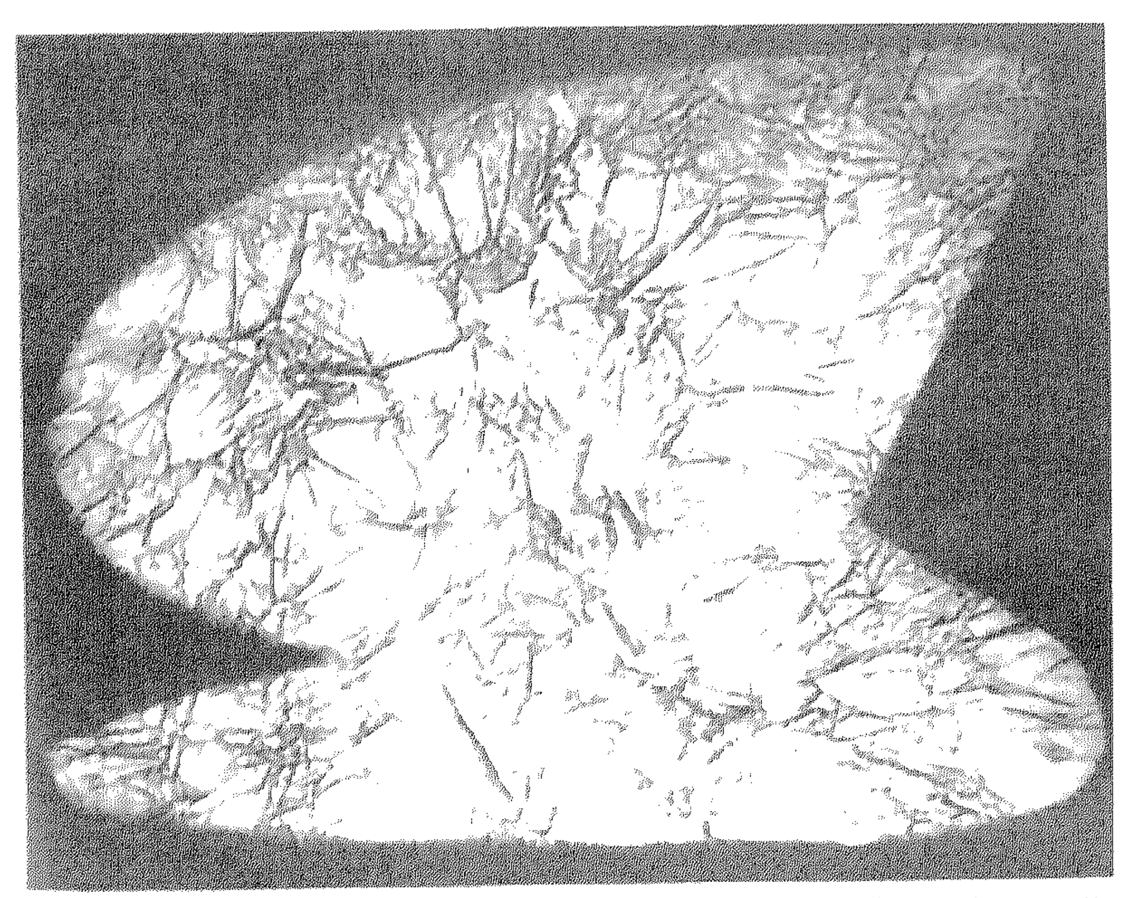
وهناك من يظن – خطأ – أن فى مصرية الموضوع والأشكال مبررا كافيا لاكتساب الخصوصية المصرية وإسباغ الهوية القومية على الأعمال الفنية، فليس تناول موضوع محلى هو وحده الكفيل بذلك، وإنما الأهم منه هو الأسلوب الفنى وطريقة المعالجة، فتلك الطريقة هى التى توحى بالإيقاع وتجسد الروح، كما أنها تتضمن الخيوط التى تتصل بالكيان الثقافى للبلاد وتقاليدها المستمرة فى الزمان. ولقد كانت هناك دائما فى حركتنا الفنية التشكيلية درجات متنوعة من الارتباط بتراث مصر وتقاليدها الفنية، وتفاوتت ما بين النقل الحرفى أو شبه الحرفى لعلامات التراث وأشكاله وعناصره، وذلك فهم يسيء إلى التراث نفسه لأنه تقليد مباشر لا يمكن أن يرقى للشكل الأصلى وإنما يشوهه. وهناك من قام باستخدام ملامح تراثية ومزجها بالاتجاهات الأوروبية بغية الوصول إلى تحقيق مفهوم الأصالة والمعاصرة، مثل الفنانين الذين توسلوا بالحروف والزخارف العربية وألبسوها لباس الفن التجريدى. وذلك أيضا مفهوم سطحى لتناول التراث أو تحقيق المعاصرة فى





المحكمة الشرعية - أدهم وانلي

الإبداع، وهناك من استلهموا روح التراث نفسه وإيقاعه الدفين فى مزيج متكامل غير مصطنع، يشعرك به دون أن يكون منفصلا عن سبيكة الإبداع ومقوماته. وهذا الفريق الذى يتزعمه محمود سعيد فى التصوير ومختار فى النحت قد نجح فى أن يضع الأساس لفن مصرى حديث، ورغم أن هذا الفن مازال فى طور التشكل والتكوين إلا أنه يمنح الأمل فى أن المصريين قادرون على تحقيق شخصيتهم الفنية وتأكيد قدراتهم الإبداعية المتميزة. وذلك لايعنى أن هناك وصفة سحرية يتبعها الجميع، فكل فنان يجب أن يكون له أسلوبه الشخصى ورؤيته الذاتية داخل الكيان العام، وذلك يسمح بدرجات لا نهائية من التنوع وفق حساسية كل فنان ومقدار موهبته ومدى إمكانياته وسيطرته على أدواته الفنية. إذ أن طبيعة العمل الفنى أنه عمل متفرد وهذا هو سر إقبالنا عليه وإعجابنا به وهكذا فإن كل تجربة فنية لا تشبه على الإطلاق تلك التى يثيرها فينا عمل فنى آخر. فالعمل الفنى فى المقام الأول يأتى انعكاسا لانتماء الفنان الواحد الفرد لقومه ولأمته، لكن سحر الإنتاج الفنى أنه برغم فرديته وتفرده وخصوصيته البالغة إلى أقصى الحدود، فإنه إنسان عام بحيث يتلقاه أى إنسان فى أى بلد وفى أى عصر فيرى فيه حقيقة الإنسان حتى وإن يكن إنسانا من شعب آخر



الهمزة - حامد عبد الله

تختلف طرائقه في الحياة.

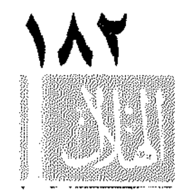
العادات النقدية الخاطئة

ولقد سادت حياتنا الثقافية عادات نقدية يجب إعادة النظر فيها وتقويمها حتى تأخذ مسارها السليم والصحيح من أجل بناء كيان ثقافى مصرى يتسم بالابتكار والتجديد والحداثة دون أن يفقد ذاته أو تطمس هويته. فإذ كان على الفنان حين يلتمس تجسيد تجربته ورؤيته الثقافية فى عمل فنى أن يتمثل تقاليد بلده، وأن يجد الوسيلة للانتماء بشكل أو بآخر لكيانها الثقافى المتصل حتى يأتى عمله ضمن السياق العام وحلقة من حلقاته . فإنه على الناقد - وهو بصدد التحليل والتقدير - أن يتمثل أيضا هذا الكيان الثقافى، ولا يبحث فى الأعمال التى يتناولها عن ملامح الشبه بينها وبين نماذج الكيانات الثقافية الأخرى، وعليه أن ينقب فى الإبداع الفنى عن أصالته وأسباب ارتباطه بعناصر الخصوصية الثقافية المصرية ومدى الابتكار والإضافة إليها، ويجرى مقارناته بين القديم والجديد ، فهو بذلك يساعد على تدعيم كيان مصر الثقافى ويحافظ على نموه الطبيعى السليم فى اتجاه تجسيد فن مصرى حديث لا يقلد الآخرين، وإنما يكون إضافة حقيقية للإبداع الإنسانى. ■

حركة الفن اليوم واستلهام التراث

بقلم
د. محمد عرابي

تزخر حركة الفن المصرى اليوم بالعديد من المعارض الفردية والأحداث الفنية النوعية ويأتى الصالون الأول لفن الرسم بمركز الجزيرة للفنون في مقدمتها، وذلك لما له من أهمية خاصة تكمن فى تأكيده على اقدم وأهم وسائط التعبير الفنى، الذى كاد ينزوى تحت ركام ما أتت به الحداثة وما بعدها من وسائط وتقنيات تكنولوجية مستحدثة لا يطولنا منها سوى شوائبها أو قشورها السطحية لعدم قدرتنا على النفاذ إلى جوهرها، أو لرغبتنا الدائمة فى الاستسلام للتبعية بدعوى الأخذ بأسباب الحداثة والمعاصرة أو العالمية، وذلك باستعارة قوالب جاهزة تكتسب سيادتها من القوة السياسية لمجتمعاتها، فمن فرط ما يظهر على سطح حركتنا الفنية من تلك الشوائب نكاد نشعر بأن فن الرسم والتصوير وغيرهما من وسائط التعبير الفنى المشابهة قد اختفت من الوجود، وتأتى فكرة هذا المعرض فى حد ذاتها لتمثل دعوة لتصحيح الأوضاع والمسارات ، فبغض النظر عما ينطوى عليه من قيم فنية فهو يعيد لفن الرسم هيبته ودوره فى حياتنا الفنية، فلا يمكن لنا أن نغفل دوره في تاريخ حركة الفن العالمية منذ بداياتها المبكرة أو حتى دوره فى إعداد الفنان قديماً وحديثاً، فهو الوسيط الأول لخبرته البصرية والفنية المؤهلة لامتلاك الحساسية الفنية للمبدع، كما لايمكن أن نغفل قدراته وطاقاته التعبيرية والإبداعية كوسيط تعبيرى له استقلاليته، ويمتلك فى ذاته أسباب بقائه واستمراريته رغم ما يستجد من وسائط تعبيرية أخرى .





شاهد في ذاكرة - زينب السجيني

يمثل الصالون بانوراما واسعة لحركة الفن المصرى الحديث والمعاصر بأجيالها المتعاقبة فيصبح فى مجمله مادة ثرية للتعرف على مساراتها وما تنطوى عليه من رؤى فنية، ربما تشترك فى ملامح عامة وتتنوع فى إطار تيارات تسير متوازية أو متقاطعة، ومن جانب أخر يبدو كصورة تم التقاطها بأشعة فوق صوتية أو ما شابه من تقنيات تصوير ما تحت السطح فتبرز الحقيقة المخبأة وتعين مواطن السلامة والعطب بوضوح وجلاء، ولعل هذا هو الهدف غير المنظور، الذى يتحقق بوضوح ما جاءت به لوائح الصالون من محددات تتمثل فى المساحة وحصر عناصر العملية الإبداعية فى قيم الأبيض والأسود فى إطار مفهوم فن الرسم، حيث يكون الخط هو البنية الأساسية للتجربة الإبداعية بما يحمله من دلالات مركبة، ويأتى الجزء الأول من هذه

الصورة ليمثل الأتجاهات الفنية لمدرسة فن الرسم المصرى الحديث عبر الأساليب الفنية التى جاء بها راغب عياد ومحمود سعيد وحامد ندا والجزار وسعيد العدوى وغيرهم .. والتى التصقت فى معظم الأحيان فى خصائصها الفنية بفن التصوير،إذ يغلب عليها النزعة التشخيصية فى إطار لغة رمزية ارتبطت بالحياة المصرية بأبعادها الثقافية والتراثية، وذلك باستثناء رسوم تحية حليم واحمد عثمان ومحمود سعيد التى ارتبطت بالمظهر المرئى لواقع الحياة المصرية .

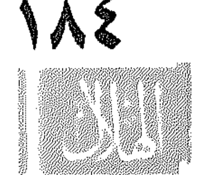
غلبة التشخيص

وتوضح الأعمال المعروضة امتداد هذه الاتجاهات التأسيسية فى تجربة فن الرسم المصرى بكل تنويعاتها التى يغلب عليها - كما ذكرنا - لغة التشخيص سواء كان ذلك فى إطار واقعى يبدو خافتا فى هذا المعرض، أو فى إطار رؤى خيالية رمزية تعلو نبرتها وتسود ويتقاسمها مدرستان من حيث الغرض الفنى : أولاهما مدرسة الرسم الصحفى والثانية تجعل من فن الرسم لغة مستقلة، وتشمل رؤى متنوعة بين ما يمكن أن نطلق عليه مجازا الاتجاه الشعبى وبين التى يعلو فيها صوت التعبير ويجور على الشكل بمعالجات فنية تتشابه أحيانا وتتمايز أحيانا أخرى، والجانب الثالث من هذه الرؤى يتمثل فى أشكال خيالية ربما ترتقى إلى مرتبة الفكر الأسطورى، وبجوار هذا تظهر بعض الأعمال التى تجتمع على تصوير الإنسان المعاصر ومدي تأثره بالآلة التكنولوجية الحديثة.

وتظهر على استحياء المدرسة الواقعية فى هيئة رسوم أولية أو تكوينات تنتهج نهجاً مدرسياً فى اختيار الموضوع أو معالجته، ومنها ما يمتلك ملامح فنية خاصة، وأما اللافت للنظر هو تقلص مساحة المدرسة التجريدية التى تتمثل فى عدد محدود من الأعمال المعروضة .

مستوى هواة ومبتدئين

ومن جانب آخر يكشف المعرض عما يعترى الحركة الفنية من ضعف الخبرة وعدم وضوح الرؤية وتبلورها الذى يظهر فى الكثير من الأعمال المعروضة، إذ لا تتجاوز مستوى خبرة الهواة والمبتدئين، إذ كان من الممكن استبعادها للارتقاء بمستوى القيمة الفنية للعرض، خاصة أن كم الأعمال المعروضة يفوق مساحة العرض المتاحة بمركز الجزيرة، حيث جاءت الأعمال متراصة ومتجاورة بصورة لاتتيح للعين فرصة التأمل والرؤية السليمة ، وربما يكون هناك سبب آخر لضعف المستوى وهو ظاهرة عزوف الفنانين عن ممارسة فن الرسم وخاصة



المواعين للفنانة مها الشابي



في الأوساط الشبابية نظراً لانجذابهم نحو الوسائط والقوالب الفنية المستحدثة، وهذا ما يمكن ملاحظته أيضا عند متابعتنا لصالون الشباب عبر دوراته المتعددة، حيث تتقلص مساحة الرسم فيها عاما بعد عام، ولا نهدف هنا إلى قصر الخبرة على الجوانب الحرفية أو التقنية التي تمكن الفنان من محاكاة البعد الثالث للطبيعة وعناصرها وإنما نقصد مجموعة التجارب والممارسات العملية سواء كانت على المستوى التقنى أو الحياتي أو الثقافى أو الخبرات البصرية، التى تجتمع لتشكل قوام ونوعية الحساسية الفنية التى تؤهل الفنان إلى الولوج فى عالم الإبداع مسلحاً بفهمه العميق لأسرار الشكل ووسائطه الفنية.

وفى مقابل الأبيض والأسود فى معرض فن الرسم الجماعى، يتجلى فن التصوير فى بعض المعارض الفردية بقاعات العرض الخاصة أو قاعات المؤسسة الثقافية، يبرز من بينها معرضان لما لهما من دلالة خاصة تدور فى سياق معرفى يميز كل منهما بملامح فنية خاصة، ويشتركان فى رؤيتيهما لمفهوم الزمن التى تتضح بصورة مباشرة من عنوان كل منهما، حيث تقدم المصورة زينب السجينى فى «قاعة الزمالك للفن» أعمالها تحت فكرة» مشاهد من ذاكرتى»، ويقدم فارس أحمد فارس تجربته فى إطار «الزمن والحلم» أو الزمن الذى يحلم به كما نفهمه من النسخة الإنجليزية The Time I Dream With فإذا كانت زينب السجينى لديها الحنين لما فى ذاكرتها من صور تحمل معانى إنسانية ربما ترتبط بخبراتها الحياتية الخاصة التى لاتخلو من تأثرها بحركة مجتمعها، نجد فارس يحلم بالزمن القديم الذى يبدو بعيداً إلى حد ما عن عالمه الذاتى أو الآنى .

عالم زينب السجينى

التقيت بعالم زينب السجينى الفنى بخان المغربى فى غضون تسعينيات القرن المنصرم، وبدت ملامحه حينها تتبلور فى لغة رمزية مرتبطة بأبعاد إنسانية محورها تلك العلاقة المتزاملة بين الإنسان والسمك وما يشير إليه من دلالات رمزية متعمقة فى الوجدان المصرى تتمثل فى الخصوبة والنماء والوفرة وغيرها من المعانى التى تدعونا إلى التفاؤل وحب الحياة، حيث كانت تكويناتها تبشر برؤية فنية تتبلور فى أسلوب رحب واضح المعالم ويمتلك خصوصيته من صدقها وما ينطوى عليه وجدانها من مشاعر إنسانية تفيض



عمل مركب لفارس أحمد فارس



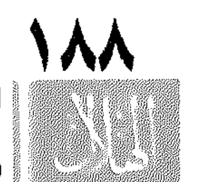
بالحياة، وهذا ما يتأكد فى معرضها الحالى، حيث تظهر رحابة أسلوبها فى مرونة الشكل وقدراته التعبيرية العالية، إذ أنها تعتمد بصورة أساسية على الطاقات التعبيرية للجسد الإنسانى، الذى ينحصر فى ملامح المرأة، التى تسيطر بحضورها المتوهج والجذاب على تجربتها فتمثل موضوعها أو قضيتها الأساسية، فهي لم تصور امرأة بعينها وإنما تجسد رؤيتها للمرأة فى إطار ملامح ثقافية خاصة تحيا فى ذاكرتها عبر خبراتها الحياتية، فتمثل واقعا محدداً بسياقات أجتماعية وثقافية ترتبط بالحياة المصرية، وهذا ما يمكن إدراكه من الملامح الظاهرة لصورة المرأة فى أعمالها، إذ تبدو خارجة من قلب الحياة الشعبية متخمة بأزمنتها العميقة، ومحملة بملامح تجاربها الحياتية، حيث تظهر فى زيها الأبيض أو البرتقالى أو الوردى محتمية فى أخت لها، أو فى علاقة حميمة مع سمكة خضراء، وفى أحيان أخرى تظهر مجتمعة مع رفيقاتها فِى سفينة مصرية الطابع والبناء المعمارى، وهى تبحر على سطح النيل، ربما تشير إلى رحلة الحياة، حيث تظهر النساء منتشرات فى شرفات طوابق السفينة... متقافزات في براءة الطفولة وحلمها رغم ما تحمله من خبرات السنين، وذلك عبر ما يظهر على وجوههن من علامات الدهشة والتساؤل، وهن يراقبن حدثاً ما

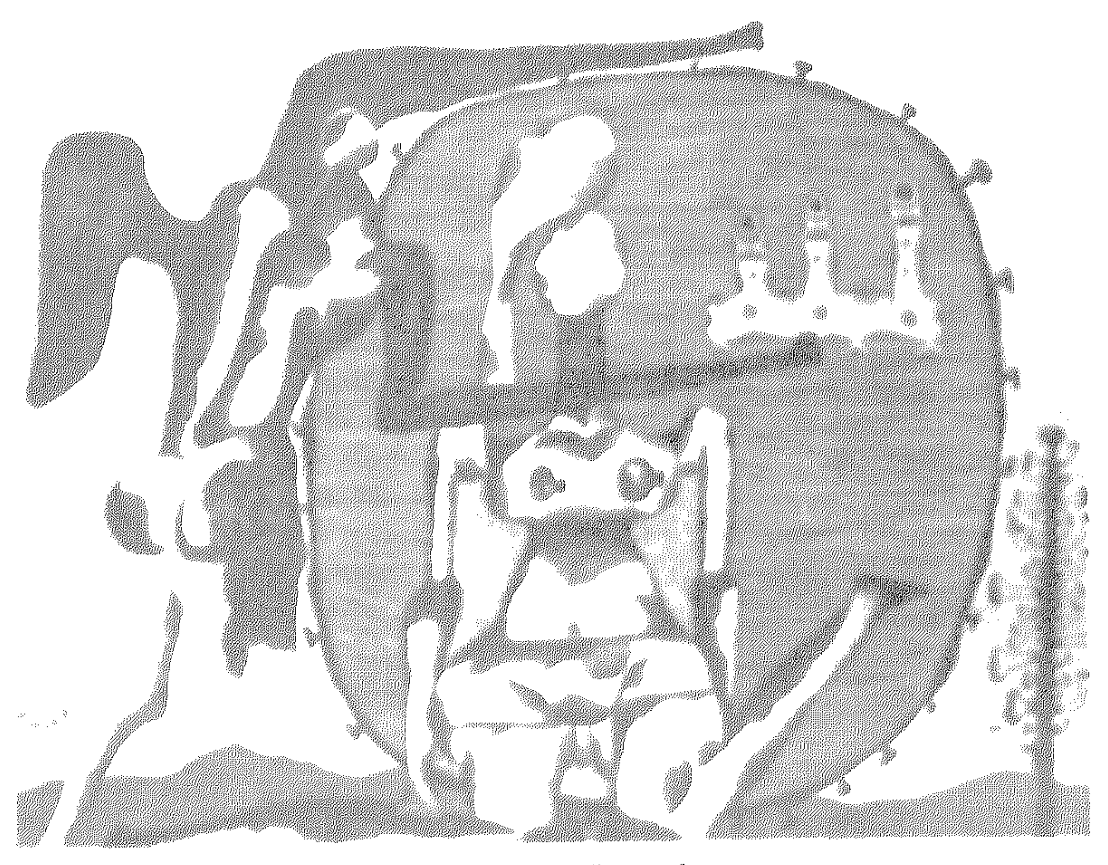
على ضفة الحياة الأخرى، التى ربما يكون المشاهد أو المتلقى أحد عناصرها، وهنا تتجلى ملامح أسلوبها الفنى مصرى الطابع والإيقاع متفرداً بسمات خاصة رغم ما يبدو عليه من ملامح التأثر بمعالجات فنية حديثة أو قديمة، حيث ترتبط بالفن المصرى القديم من حيث معالجة الضوء الذى ينتشر فى جميع أرجاء الشكل ولا يترك من الظلال سوى أقل قدر ممكن يسهم فى التأكيد على الشكل وفى تحديد علاقته بما يجاوره، ولا يفوتنا أن نذكر ما تتمتع به رؤيتها من مسحة نسائية تبيح بمشاعر الحب والحنان والأمومة والعطف .

فارس.. واستلهام الماضى

أما «فارس» فيبدو طامحاً فى مجال التجريب والبحث عن رؤية فنية تمتلك أسباب المعاصرة بخروجها عن الإطار التقليدى للوحة التصويرية أو النحت البارز كما تعلمناه من الفن الأوروبى الحديث، فهو يزاوج بين النحت البارز والتصوير فى إطار بحثه عن الأزمنة المصرية القديمة مستلهماً علاماتها ورموزها الفنية، وخاصة تلك التى تتميز بالبساطة والفطرية التى تمثلت فى رؤية الفن القبطى للشكل وما ترتبط به من سياقات معرفة تربطه بالفن الشعبى، حيث المعالجة الفطرية للشكل المنحوت سواء كان على مستوى فن النحت وجمالياته أو كان على مستوى نسب الشكل الطبيعى، كما يستعير بعض الصور الرمزية بغض النظر عن دلالتها، فتبدو أشكاله فى النهاية كأيقونات قديمة يلعب تشكيلها وعلاقاتها دوراً مهماً فى تعظيم قيمة القدم وفى الوقت نفسه يبدو العمل معاصراً من حيث الفكرة الفنية، واستخدام الخامات المتنوعة من حديد وخشب وألوان زيتية.. فيبدو موفقاً فى بعض أعماله وخاصة فى القدرة على التأليف بين الخامات المتنوعة فى إطار كل موحد، حيث تطويع الأشكال والعناصر والمعالجة الفنية لرؤيته فتذوب خصائصها وتنصهر فى ذاته وتخرج متآلفة وفقاً لقانونه الخاص، كما نراه فى بعض الأعمال الأخرى مازال منبهراً بالأشكال المستلهمة، فهو يسلك طريقا شائكاً يستوجب الحذر والمثابرة حيث يطرح من جديد إشكالية سبر أغوار التراث كأحد مسببات تأصيل الفن المصرى التى نشأت مع بداياته الأولى، ولكنها هنا تبدو متأثرة بمعطيات الحداثة وما بعدها .

وفى قاعة نقابة الصحفيين لمسة وفاء للفنانة مها الشايب التى انسحبت من عالمنا، تاركة لنا من روحها إشراقاتها متجلية فى تجربتها الفنية القصيرة





تكوين - للفنان سعيد الحرملي

بمقياس الزمن والطويلة بمقياس الخبرة والأفكار، حيث يكشف معرضها عن خبرة متنوعة فى استخدام الخامات التصويرية وفهم عميق لخصائصها، التى تنوعت بين خامات التصوير الجدارى من الزجاج المعشق أو الفسيفساء وهى خامات عصية قلما نجد من يروضها للتعبير والإحساس مثل مها الشايب، وكذلك نجدها ترتاد فن الكولاج وتشكل عبره أعمالاً فنية تتناول فيها موضوعات مستلهمة من الحياة اليومية المعاصرة، حيث التوفيق بين قصاصات الصحف أو الصور وبين الرسم بالأحبار فى صياغة فنية تتمتع بحساسية مرهفة فى معالجة الشكل وعلاقاته الفنية، كما تستخدم خامات تصويرية مستحدثة مثل «الأكلريك» عبر معالجة فنية معتمدة على خبراته العالية فى تحليل العناصر الطبيعية وتبسيطها وإخضاعها لرؤيتها الفنية التى تغلف أعمالها المنفذة بتقنيات مختلفة بمسحة رومانسية رقيقة تربط بينها وتوجدها .

وهكذا نرى صورة الفن المصرى فى هذه الأيام تنطوى على أبعاد إيجابية يجب التأكيد عليها . ■

هوليوود

تعود إلى تمجيد الحروب

بقلم

مصطفى درويش

منحت اليونان القديمة عالمنا حس الدراما، والرغبة المتطلعة فى التفلسف، وإلقاء الاسئلة المتعلقة بالفكر والضمير. ويعرف عن الملحمتين اليونانيتين، الإلياذة والأوديسية انهما، بإجماع الآراء، من بين الآيات التى أنجزتها الذهنية اليونانية القديمة، وذلك لبساطة الحكايات التى ترويانها، ونضرة هذه الحكايات وإنسانيتها. وثمة من الأسباب مافيه الكفاية للاعتقاد بأن الملحمتين، هما من نظم رجل لم يكتب أناشيده، أغلب الظن، بعد أن وضعت حرب طروادة أوزارها بأعوام قليلة، بل بعد أن سكنت ريح هذه الحرب الضروس، بقرون طويلة من عمر الزمان.

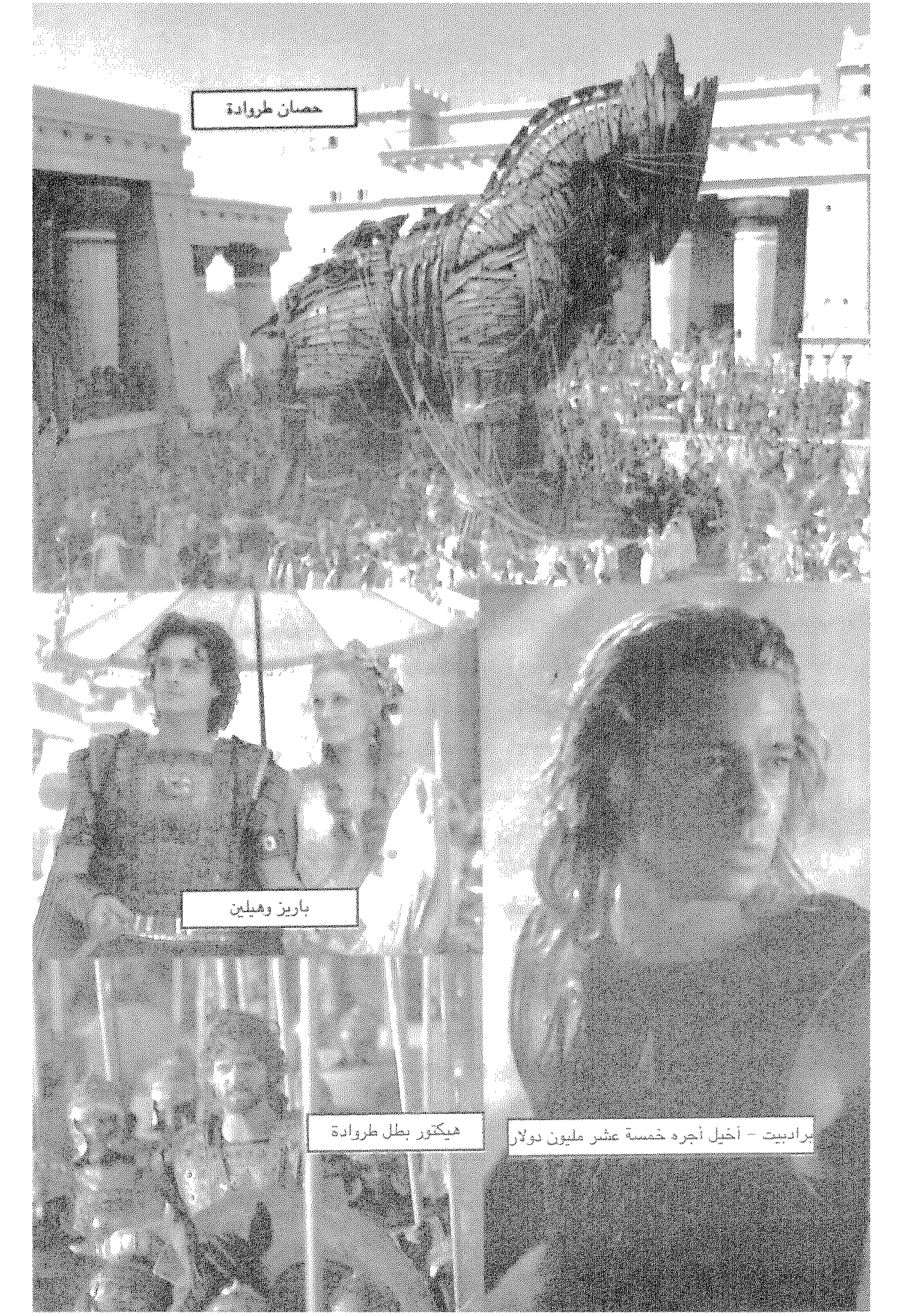


براد بيت في دور (أخيل)

وهذا الرجل هو «هوميروس» الذى جاء دنيانا عام ٨٨٤ قبل الميلاد، حسب تحديد المؤرخ «هيرودوت»، صاحب المقولة التى صارت مثلاً «مصر هبة النيل».

وفى الالياذة أنشد هوميروس موضوعاً قائماً بذاته كامل الوحدة، هو غضب «أخيل» بطل الأبطال.

ولم يقص فيها تاريخ حرب طروادة


حصان طروادة
باريز وهيلين
هيكتور بطل طروادة
براد بيت - أخيل أجره خمسة عشر مليون دولار

التى استمرت عشرة أعوام، بل تناول حوادث الأيام القليلة الأخيرة من حصار المدينة، حيث مجد فعال البطولة والشجاعة والولاء.

قصة المدينتين

ومما يعرف تاريخيا عن طروادة واسبرطة غريمتهما الأولى فى الحرب أن طروادة كانت فى يوم من الأيام مدينة ذات ثروة أكبر، وسلطان أضخم، وعظمة أوسع من أى مدينة من مدن شبه الجزيرة اليونانية، وأمثال دول المدن هذه، فى آسيا الصغرى (تركيا حالياً).

قد توطد سلطانها ورسخت أسس دولتها عن طريق الضراوة والجشع والاستيلاء على أملاك الغير بالقوة والغلب، وذلك لأن أقوامها من هؤلاء القبائل الرحل، الذين كانت حياتهم ترتكز إلى السلب والنهب، واخضاع العشائر الوادعة من الزراع، واجبارهم على دفع الجزية فى شكل جبايات بنسبة مما ينتجون.

أما اسبرطة فكانت مدينة لها شىء من الأهمية التجارية، قبل أن تكون أثينا حتى مجرد قرية صغيرة بزمن طويل.

حب من نار

وكما جاء فى الأساطير، حسب نظم هوميروس لها، حل «باريس» بن «بريام» ملك طروادة ضيفاً على «منيلوس» ملك اسبرطة.

ولم يرع حقوق الضيافة حينما سلب زوجته «هيلين»، وفر بها إلى طروادة، متحصناً وراء الأسوار .

حرب استباقية

ومهما يكن ماحدث بالفعل، فان هذا الغزو الطروادى لأرض يونانية قد شحذ الشعور القومي اليوناني، لأول مرة فى التاريخ، فاتحد أهل القبائل من دول المدن في الشاطىء الغربى من بحر ايجة، وأعلنوا حرباً على طروادة، لم تضع أوزارها حتى اكتسحوا المدينة فى نهاية الأمر، بفضل المكر والدهاء.

وكان من بين الدوافع الأخرى للحرب تعاظم شأن طروادة، حتى لم تصبح شيئاً يهدد هذه المدن اليونانية فقط، بل أصبحت أيضا خطراً يتهدد هذه المدن بالدمار.

ومن هنا، اتحاد كلمة «أثينا» و«اسبرطة» و«طيبة» و«كورنثة» و«سلاميس» و«بيريه».. وكل من ورد ذكرهم فى النشيد الثانى من الألياذة، ضد طروادة.

والقتال المذكور فى الألياذة نوعان: المبارزات الفردية بين الأبطال. ثم القتال الجماعى بالأقواس والنشاب والسيوف والحراب.

وذروة القتال فى «الألياذة» هى

المبارزة بين «هكتور» و«أخيل».

صراع الأبطال

ولقد كان «أخيل» بطل الأرجوسيين (المقصود بهم اليونانيين).

إلا انه كان قد تشاجر مع الملك «إجامنون» القائد العام للارجوسيين. ونتيجة لذلك أحجم عن القتال.

أما لماذا تشاجر مع «أجامنون»؛ فذلك لأن الملك كان قد آثر نفسه بفتاة أسيرة سبيت فى بعض الغارات، وسبق لاخيل أن اختارها من بين جميع السبايا.

ولكن غضب «أخيل» يبلغ مداه، حينما يقتل أعز أصدقائه، وخيرة رجاله «بترومكس» على يد «يوفور بوس» الذى طعنه فى ظهره، حينما كان يحارب «هيكتور» ابن الملك «باريام»، والأخ الأكبر «لباريس»

وهنا يقرر «أخيل» العودة إلى الميدان للقاء هيكتور.

وفى هذا الموضع تبلغ «الالياذة» ذروتها التى تحبس الأنفاس، وتمسك القلوب فى الحناجر.

تدخل الأرباب

ولقد كان أهل طروادة، رجالاً ونساء، يشاهدون ما انتهى إليه أمر هذا النزال من فوق الأسوار.

واليونانيون بدورهم وقفوا صفوفاً فى جنبات الساحة ينتظرون نتيجة النزال.

وعندما يمتشق «أخيل» حسامه ليلقى «هكتور» عن قرب بعد أن أخطأه رمحه، تسرع «مينرفا» ابنة زيوس رب الأرباب، من غير أم، وربة الحكمة والسلام والحرب الدفاعية والاشغال الأبرة من غزل ونسج وتطريز وتصوير بالخيط، أقول تسرع فترد إلى أخيل رمحه، فيتلقفه ثم يرسله فيخترم عنق «هكتور» الذى يتوسل إلى أخيل وهو يلفظ انفاسه الأخيرة، ألا يمثل بجسمانه وأن يتلطف فيرسله إلى أهله ليدفنوه بما يستحق من مراسم التكريم.

ولكن «أخيل» يرفض الرجاء، فيمثل بجثته بسحبها من أعقابها مربوطة وراء عجلته، اتقاء للشر الذى قد يلحقه القتيل، فيما لو بقى جسمه سليماً، وتشفيا وأرواء لظمأ الانتقام.

أما لماذا سارعت «مينرفا» الى انقاذ «أخيل» على الوجه سالف البيان؛ فذلك لانه نصف إله اليست أمه «ذيتيس» ابنة رب الأعماق.

وغنى عن البيان أن كل ما تقدم لا يعدو أن يكون حديثاً من احاديث التاريخ، وقد امتزجت وقائعه، ببعض أساطير الأغريق.

الاحتقار

أما جانب السينما فيه، فابدأ وقائعه

بفيلم للمخرج السويسرى الذائع الصيت «چان لوك جودار» اسمه «الاحتقار».

فذلك الفيلم الرائع، قد عرض فيه «جودار» للأعمال السينمائية وكيف تنتج فى هوليوود، حيث مصنع الأحلام.

فحبكته تدور وجوداً وعدماً، حول ما يثيره صنع فيلم مأخوذ عن «أوديسية» «هوميروس» من توتر وقلق سببه اختلاف المقاصد والأهداف. فمخرج الفيلم المزمع انتاجه سينمائى جاد «فريتز لانج» بلحمه ودمه، ولا عجب، فهو بنفسه، ولا أحد غيره الذى كلفه «جودار» بأداء الدور.

وكما فى الحياة التى عاشها فى هوليوود أعواماً طوالاً، يعانى من الصراع مع منتج الفيلم، فهو يريد الحفاظ على روح النص الأدبى المكلف بترجمته إلى لغة السينما، وهو نص الأوديسية، ملحمة هوميروس.

الضحايا

فى حين أن المنتج لا يهتم بالروح، كل الذي يهمه هو تطعيم الفيلم بالجنس وبحوريات البحر، وتحديث قصته بإضافة بعض بهارات، تضفى نكهة سيكولوجية معاصرة على علاقة «أوديسيوس» بزوجته «بينيلوب» التى يضرب بها المثل فى الطهر والصبر والوفاء.

ووسط دوامة الصراع هذه يقف كاتب السيناريو حائراً، أيهما يرضى، المخرج أم المنتج.

كما يفقد زوجته الحسناء (بريجيت باردو) التى سرعان ما ترتمى فى أحضان المنتج الصفيق، وبئس المصير، إذ سينتهى بهما الفيلم مقتولين فى حادث تحطم السيارة التى كان الاثنان يستقلانها فى رحلة غرام.

وكأن صاحب الفيلم بهذا الختام الدال على فشل مشروع ترجمة الملحمة إلى لغة سينما سوقية، وكأنه به يريد أن يقول أن ملحمة هوميروس، أحق بالترجمة إلى لغة سينمائية أرقى مستوى، وأرفع منزلة.

حسن الاختيار

والحق أن جنوح «جودار» إلى اختيار تلك الملحمة كى يدور حولها الصراع مريراً فى فيلمه «الاحتقار» قد صادفه التوفيق إلى حد كبير.

فما أكثر الأفلام المأخوذة عنها مباشرة أو المستوحاة منها بشكل أو بآخر.

وأرجح الظن انه لا يوجد بين الأعمال الأدبية التى أبدعها الخيال في عصور موغلة فى القدم، عمل يستطيع أن يقف نداً للأوديسية فى هذا المجال.

والذى قاله جودار فى الاحتقار مستوحياً الأوديسية ومحاولات تشويهها،

في الابتكار فوله بوحي من الإليـاذة، وترجماتها إلى لغة السينما، المشوبة هي الأخرى بعيب التشويه لها.

وفيلم «طروادة» الأخير، لصاحبه المخرج الالماني «وولف جانج بيترسن»، وإن كان يعد واحداً من أفضل الأفلام المستوحاة من إلياذة هوميروس إلا انه لم يسلم من بضعة عيوب، انتقصت من قيمته الفنية، رغم المجهود الكبير الذي بذله المخرج، وطاقم الفيلم، ورغم ما يقال من أنه صرف على انتاجه مائتا مليون من عزيز الدولارات

اختزال مخل

فبادىء ذي بدء اختزلت الأعوام العشرة التي دامتها حرب طروادة إلى عشرة أيام!!

وهذه الحروب في يومها الأول، وليكن الإثنين، تبدأ بقيام الأمير الطروادي باريس (أورلاندو بلوم) باختطاف هيلين (ديان كروجر) من اسبرطة، مما يثير غضب زوجها الملك مينيلوس (براندان جليسون) الذي سرعان ما يطلب مساعدة أخيه الملك اجامنون (برايان كوكس) وأغريق آخرين.

وتحت قيادة أجامنون تعبر الجيوش المجيشة بحر ايجة في اليوم التالي الثلاثاء، إلى حيث طروادة المحصنة بأسوار شاهقة كالجبال

ولأن الوصول إلى الشاطئ الاسيوي تم ليلاً فالمعارك الطاحنة مع الطرواديين لم تقع إلا أثناء يومي الأربعاء والخميس

وكالمعتاد نشر «آخيل» بطل الأبطال الرعب في قلوب الطرواديين، ففروا طلبا للنجاة، محتمين بالأسوار.

وكان من نصيبه في الغنائم سبية جميلة بريسيس (روز بيرن).

سر الغيرة

إلا أن العجوز «أجامنون» الذي يغير من بطولات الفارس المغوار، وشعبيته منقطعة النظير ينازعه في امتلاك السبية الجميلة، فيغضب «أخيل»، ويعتزل في خيمته، معتزماً العودة مع رفاقه البواسل إلى اليونان.

وفي اليوم التالي، الجمعة، حدث أمر لم يكن في الحسبان. امتطى «باتروكلوس» (جاريت هيدلوند) جواد ابن عمه «أخيل» في غفلة منه، مرتدياً لباسه.

وفي ساحة الوغى طلب منازلة القلب الشجاع هيكتور (أريك بانا) ابن ملك طروادة الأكبر، الذي أرداه قتيلاً.

وفي سورة غضب نازل أخيل غريمه هيكتور، ليرديه قتيلاً، ويمثل بجثته على نحو يشيب من هوله الرضع في حجور الأمهات.

ولا تمر سوى بضعة أيام على مقتل هيكتور، إلا ويكون قد عصف بطروادة وأسوارها، وسط طبول الأنتصار، ورنين الأبواب العزافة، وصهيل الخيول الزاحفة وصليل السيوف.

أنين وحصان

وفى دوى الانتصار، أنين حزين، وليد مقتل الملكين اجامنون وبرايام (بيتر أوتول)، و«أخيل» الذى جاءه الموت بسهم صوبه باريس الى كعبه كما جاء فى الأساطير.

كل ذلك جرى خلال عشرة أيام، لا عشرة أعوام، حتى حصان طروادة الذي لم يرد له ذكر فى الألياذة، تطوع كاتب سيناريو الفيلم «داڤيد بنيوف» باضافته، نقلاً عن الأديسية.

فبدونه ما كان فى وسع اسبرطة وحلفائها العصف بأسوار طروادة، وتدميرها بحيث لم يبق منها سوى اسم مدينة وحصان يجرى على كل لسان.

ومن غرائب السيناريو الأخرى.

لغة العصر

أولاً أن أخيل لا يجيئه الموت وسط الأحداث كما جاء فى الألياذة، وإنما يجيئه والفيلم على وشك الانتهاء.

وحكمة ذلك ظاهرة، فالموت المبكر لأخيل ويؤدى دوره النجم براد بيت، مؤداه اختفاء النجم المدفوع له أجرا، ربما فاق الخمسة عشر مليون دولار، فى منتصف فيلم عماده نجم شباك، حبيب الملايين، وعند مصنع الأحلام لا يعلو صوت على صوت الأرقام. وثانياً أن أحداً من الأرباب والربات لم يظهر فى الفيلم.

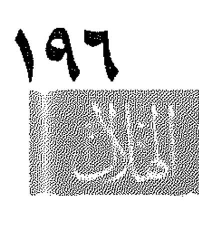
فباستثناء «ذيتيس» (جوليا كريستى) التى ظهرت، لبضع ثوان، لا بوصفها ربة، وإنما بوصفها أم «أخيل»، لتحرضه على الحرب، طريقاً للمجد وخلود الذكرى، باستثنائها لم يحدث أى لقاء مع أى رب أو ربة، عكس الألياذة الزاخرة بوجودهم، وكأنهم ناس من الناس.

كعب أخيل

ومن هنا، دهشنا لموت أخيل لمجرد إصابته فى كعبه! وذلك لأن أحداً لم يقل لنا أن «أخيل» محصن ضد الموت، لأن أمه غمسته فى ماء مقدس يحميه من الفناء، وفاتها أن تغمس كعبه لأنها كانت ممسكة به فأصبح نقطة ضعفه الوحيدة، التى قد يجيئه الموت من خلالها، إذا ما عرف سرها الأعداء.

يبقي لى أن أقول أن طروادة «بيترسن» من نوع الانتاج الضخم.

أعطيت له امكانيات هائلة، واشترك فى تمثيله حشود كبيرة من المكسيكيين لأن الفيلم صور فى المكسيك ومالطا.



ومع ذلك، رأيناها لم تصب بتوتر المسحور بالوقوف، ربما لأول مرة، أمام الكاميرا، ولم تنطق بأنها تتحرك على خطوط مرسومة بالطباشير.

تمثيل جميل

ولعلى لست بعيداً عن الصواب، إذا ما جنحت إلى الإشادة بمشهد فى الفيلم مؤثر ومثير للمواجع، وأعنى به مشهد ذهاب «بريام» الملك الطاعن فى السن (أوتول نجم لورنس العرب)، ووالد هيكتور فريدا وحيدا، مستخفيا فى ظلام الليل، يدب بين خطوط اليونانيين، ليتوسل إلى أخيل كى يسلم إليه جثمان ولده، وذلك فى أسلوب عادى مستقيم لطيف، مشرق البيان، لا يلبث «أخيل» معه إلا أن يدفع اليه بجثمان «هيكتور» معسولاً، معمورا فى الحنوط والطيوب، محمولاً بما هو أهل له من تجلة وإجلال

وختاماً، أرى من اللازم أن أشير إلى ما يقوله الفيلم فى البداية من أنه، على مر الزمان، خاض الرجال حروباً، بعضها من أجل السلطة، والبعض الآخر من أجل المجد والشرف أو من أجل الحب.

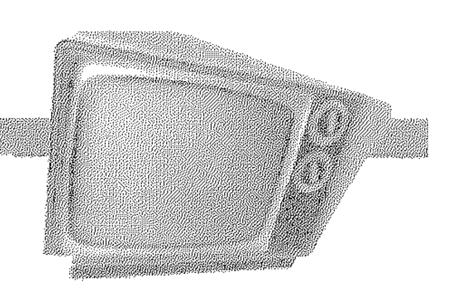
لأبدى تعجبى من إغفال واحداً من أهم أسباب الحرب، ألا وهو السلب والنهب، واستغلال الآخر بقوة الحديد والنار.

وهنا لا يفوتنى أن أذكر أن الفيلم فى جوهره يمجد الحرب باعتبارها حتماً، مقدوراً، تؤخذ بها الدنيا غلابا!! ■

حكم وأمثال الفراعنة

- قبل أن تقدم على عمل يجب ان تعرف ما تريد وتعد الوقت الكافى للمشورة والدراسة والتفكير.
– فرص الحياة يعطيها الاله لكل انسان فاذا أحسن استعمالها مده بفرصة اكبر واذا اساء استعمالها تخلت عنه السماء .
– الزهرة الجميلة التي تتمتع برؤياها في طريقك تركها من قبلك ولم قطفها فاروها واعتن بها ليتمتع بها من يأتي بعدك .
– من يضرب الضعيف علي ظهره يعرض ظهره ليضربه عليه من هو اقوي منه .
–صانع الخزف الماهر هو الذي يختار المقبض الملائم للإناء الجميل الذي يصنعه .
–احترس من أن يخط قلمك علي البردي ما يسيء للغير حتي تكسب رضا الاله وتقدير الناس







بقلم
مرفت رجب

العَوَج

عوجت المذيعة رأسها .. لا أقول أمالتها فقد جاءت العوجة مصحوبة بكلام أعوج مستفز وعلى مدى حوالى ثلاث دقائق واصلت مط الكلام وتقطيعه فى تنويعات تشى بالاستهزاء الجارح.. ذلك أنها بدأت بالاستفهام الاستنكارى من غياب موقف عربى موحد.. وأتبعت ذلك بتصور ابتكرته حضرتها وقد قذفت به فى وجهنا متسائلة.. هل يمكن أن يكون الحل أن تختص بعض الدول العربية ذات الشأن بالانفراد باتخاذ قرارات فيما بينها عوضا عن فشل مجموع الدول العربية فى تحقيق ذلك ؟!!

أما ماتلا ذلك، فهو أن مذيعة البرنامج الناطق باللغة الإنجليزية - لأنه يقدم على قناة النيل الدولية - قامت باستضافة إثنين، أحدهما سفير سابق والآخر مسئول كبير سابق فى أحد أجهزة الدولة العليا..

المهم أن السؤال الذى طرحته حضرتها كان.. ما الذى يجعل إسرائيل تتمادى فى البطش والفتك بالفلسطينيين بلا رادع؟!

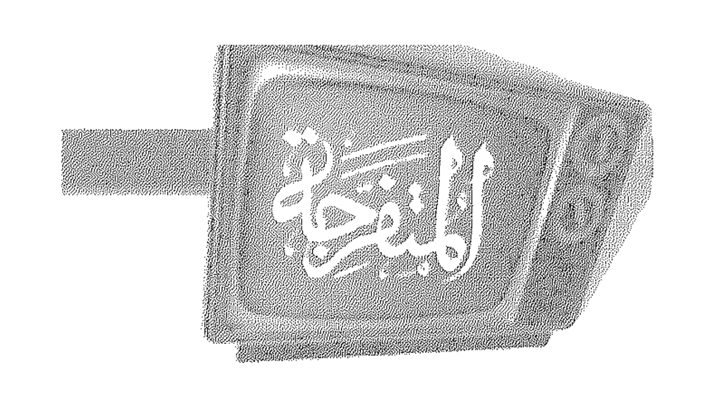
ولقد مضى الضيفان فى الإجابة على السؤال، والمهم أن الكلام تطرق إلى

أمور شتى أرى أن أهم ما جاء فيها، هو حديث المسئول الكبير عن أساليب الردع - غير النووى - تلك التى شرحها بأنها القدرة الإنتاجية للمجتمع بما يمكنه من إيجاد مكان للسلع المصرية فى الأسواق الأجنبية، فلقد دلل المتحدث على كلامه، بأن مصر جاء عليها حين من الدهر - فى الستينيات - بلغت صادراتها ما يزيد على ما تصدره كوريا الجنوبية حاليا.. وتوقعت أن تقوم الست المذيعة ببلورة أهم ما جاء على لسان ضيفيها من كلام، لإيجاد صلة ما، أى صلة، للربط بما قدمت به للموضوع، لكنها خيبت ظنى، والأرجح أنها تاهت ودليلى على ذلك أنها بعد المقدمة الطويلة للبرنامج والسؤال الذى طرحته على الضيفين كانت لا تفعل أى شىء سوى أنها كانت تنتهز كل فرصة ممكنة للمقاطعة، ، وهى حين تقاطع لا تنطق بأى كلام مفيد، وإنما تبتلينا بواحد من تعليقاتها الساخرة المستهزئة.. وهى أثناء ذلك وعلى طول البرنامج ، تأتى بحركات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بموضوع الكلام ، فهى تارة تسوى شعرها المنسدل بيد، وتارة أخرى تمر بكفها على الذراع العارية كأنها تمسح عنها شيئا قد علق.

ما هذا بالضبط؟! أى عبث هذا الذى رأيت وأين أجهزة المتابعة والرقابة سواء على مستوى قناة النيل الدولية أو على مستوى القنوات كافة ولماذا تختار «المتفرجة» أن يكون هذا الموضوع هو محور مقال هذا الشهر.

الإصلاح

لا أخفى على القارىء الكريم، أن أول ما تبادر إلى ذهنى بعد انتهاء البرنامج المشار إليه هو أن الواجب يفرض علىّ أن أقول لتلك المذيعة إنها وأمثالها سبب مباشر فى الحال الذى تناولته حضرتها بمنتهى التهكم والاستهزاء. قد تبدو العلاقة بعيدة، ولكنها عندى وعند غيرى من الغالبية العظمى الصامتة ، هى علاقة جد وثيقة، فالزمن الذى أشار إليه الضيف الكريم، والذى كانت تحقق فيه مصر اكتفاء ذاتيا من السلع - خاصة السلع الاستراتيجية - لم يكن يسمح لنوعية تلك المذيعة أن تظهر على المشاهدين بهذا القدر من التبجح والاستهزاء.. فى ذلك الزمان الذى كانت اشتهرت لمصر فيه سلع تتلقفها الأسواق الأجنبية لجودتها . كان هناك وعى بأهمية الجودة وتطبيق المواصفات .. وكان ذلك يسرى على المذيعات كما كان يسرى على قائمة طويلة من السلع المتميزة.. لم تكن أى سلعة تحظى برواج لأنها من إنتاج أصحاب النفوذ، وكذلك لم تكن المذيعات يظهرن على الشاشة بفضل صلات



القرابة أو النسب..لكن المهم هنا وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد فعلينا جميعا أن نسأل أنفسنا .. كيف نجرؤ على الحديث عن الإصلاح وقد تشابكت المصالح والمحسوبيات والإكراميات إلى هذا الحد الذى جعل المعروض على فضائياتنا يأتى فى ذيل القائمة فى أى استطلاع للرأى يجرى داخل البلاد أو خارجها..

هل هذا هو الوقت؟!

نعم هذا هو الوقت الأنسب لتسمية الأشياء بأسمائها ، وهو الوقت الذى يفرض أن يبدأ كل منا بمحاسبة نفسه قبل أن يعلو له صوت بأى نقد من أى نوع، أو أدنى مطالبة بأى درجة من درجات الإصلاح.

ونظرا لما يتردد حاليا عن قرب خصخصة الإعلام أو كمرحلة أولى خصخصة بعض القنوات الإذاعية والتليفزيونية . فلاشك أن الأمر يتطلب تقليص عدد العاملين بتلك القنوات.. وحتى لو كان الهدف ليس الخصخصة وإنما التطوير.. فإن أى محاولة للتطوير لا يمكن أن تتم فى ظل هذه الأعداد الهائلة من العاملين.. والعالمون بأبجديات علم الاقتصاد يعرفون أن كفاءة الإنتاج تقل مع كل زيادة لعدد الأفراد اللازمين للعمل، أى عمل، وبصرف النظر عن نوع المنتج.. ولذلك فإن الباحثين الإعلاميين يستطيعون إجراء العديد من الدراسات ، فى كل أنواع الإنتاج الإذاعى والتليفزيونى، وليتهم ينشرون النتائج التى تفصّل علاقة مستوى الجودة بعدد العاملين اللازمين لها. اما عن مستوى هؤلاء العاملين ، فغنى عن القول أن لكل عمل مواصفات ومعايير تتحكم فى جودته صعودا وهبوطا يرتبط دوما بدرجة الالتزام بها.

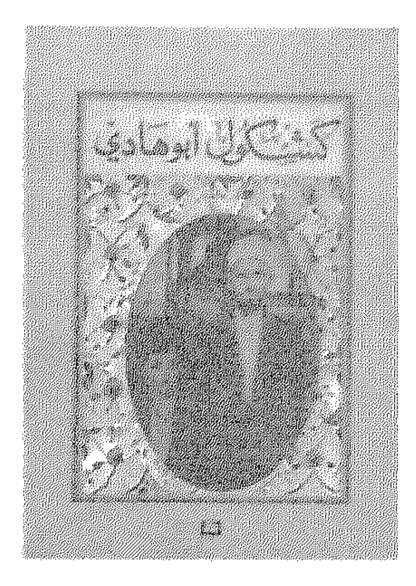
والمقصود باختصار أن الضرورة تلزم بالاستغناء عن العدد الزائد عن الحاجة ، وإذا ظلت الأمور على حالها. فمعنى ذلك أن معيار الاستغناء سيظل «شخصيا» والنتيجة المتوقعة – لا قدر الله – أن تبقى المذيعة موضوع المثال وأمثالها باركين على أنفاسنا على حساب غيرهم ممن قد لا تتوفر لهم نفس الأسانيد «الشخصية».

هل يمكن أن يأتى يوم نجد فيه مؤسسة أو محطة أو قناة إعلامية تقوم بتطبيق القانون . وتمتنع عن تشغيل أقارب العاملين حتى الدرجة الرابعة؟؟ ■

كشكول أبوهادى

تأليف

محمد حسين مروة



من بين أكثر الكتب شيوعا فى تراثنا الأدبى العربى، تلك المصنفات الأدبية التى تحتوى على مختارات شعرية ونثرية تتضمن الحكم والأمثال، والملح والفكاهات، والنوادر التاريخية والنصوص المختارة والتى لا تفقد جدتها ويزداد الطلب عليها كلما مرت الحقب والعصور، ومن بين هذا النوع وأكثرها شهرة «عيون الأخبار» للدينورى، و«العقد الفريد» لابن عبدربه و«المستطرف فى كل فن مستظرف» لشهاب الدين الأبشيهى وغيرها.

وكان أشهر مصنف فى هذا المجال فى العصر الحديث «الكشكول» للأديب الفقيه بهاء الدين العاملى من أدباء القرن السادس عشر الميلادى.

وقد صدر مؤخرا كتاب من هذا اللون تحت عنوان «كشكول أبوهادى» وهو من تأليف الحاج محمد حسين مروة «أبوهادى» وهو ابن الجنوب اللبنانى ، وقد قام بإعداد هذا المصنف الأديب جواد صيداوى وراجعه وأشرف عليه كل من الأستاذ كريم مروة، والسيدة نجاح طاهر.

وقد احتوى كشكول أبو هادى على العديد من المختارات الأدبية شعرا ونثرا، تتضمن الحكمة والمثل، والطرفة والمعلومة مع العديد من الفقرات عن تاريخ جبل عامل فى الجنوب اللبنانى وسائر المناطق اللبنانية مع ايراد مختارات من أعمال كتابها وشعرائها بخلاف مختارات من ابداعات الأدباء العرب وأدباء المهجر.

وقد تصدرت للكتاب مقدمة للأديب جواد صيداوى معد الكتاب ثم تعريف بالكتاب والمؤلف لشقيقه الأستاذ كريم مروة الذى ذكر أن شقيقه محمد حسين مروة «أبوهادى» ينحدر من أبوين ينتميان إلى عائلة مروة الجنوبية الشيعية الاثنى عشرية، التى تعود فى جذورها التاريخية إلى قبيلة حمدان اليمنية.

وقد تواكب إصدار هذا المؤلف فى العام الماضى سنة ٢٠٠٣ مع الاحتفال بالعيد الثمانين لمؤلفه «ولد عام ١٩٢٣».

ويكتسب هذا المصنف أهمية خاصة لكونه يحتوى على العديد من الفقرات المفيدة والطرائف الباسمة مستقاة من تراثنا الأدبى العربى قديمه وحديثه وهو لون محبب الى قراء العربية فى كل زمان ومكان خاصة لإنسان هذا العصر الذى يفضل الانتقال بسرعة من طرفة الى فكاهة الى معلومة الى حكاية الى مثل سائر، وهو فى كل هذا يستمتع ويستفيد ويتفاعل.

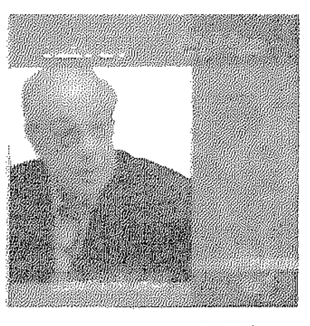
أصدر المهرجان القومي العاشر للسينما المصرية عدة كتب ضمن فعالياته التى استمرت خلال الفترة ما بين ١٩ - ٢٧ ابريل الماضي وذلك بالتعاون مع صندوق التنمية الثقافية ، قدم من خلالها سيرة ذاتية للشخصيات المكرمة خلال المهرجان وهم ، رءوف توفيق ، نادية شكرى ، أنسى أبوسيف ، عزت العلايلي ومنها :



الصورة السينمائية بالوسائل الرقمية

المؤلف : سعيد شيمي

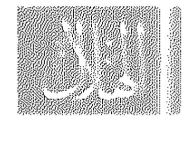
يبحث فى فهم جذور نظرية الصورة الفوتوغرافية والتى هى الأساس فى الصورة السينمائية . ومنها ينطلق إلى الصورة المكونة بالوسائل الإلكترونية الرقمية أو كما يطلق عليها صورة «ديجيتال» ويشرح «شيمي» التطور التاريخي بداية من صور السينماتوغراف. وحتى السينما بالإلكترونيات ويسميها سحر الصفرات الرقمية ويذكر فى كتابه أن السينما فن رفيع وترفيها وستبقى دائما تمتعنا وتبهرنا وتسلينا والاختلاف الذى يحدث الآن وفى فترة وجيزة فى طريقة استقبال وتسجيل صورها على أوساط أخرى غير النظرية الفوتوغرافية . ويضيف أن الوسيط الجديد الإلكتروني معروف منذ مولد الراديو والتليفزيون ولكن زاد الأهتمام به سينمائيا عندما أثبت أنه وسيط صالح و جيد فى أعطاء صور متحركة رغم أن به مزايا وعيوب ... وفى الجزء الأخير من الكتاب يستفيض «شيمى» فى توضيح نقاط الضعف التى قد تشوب التصوير الرقمى الحديث ويقدم آراء السينمائيين العالميين فى السينما الرقمية من مديرى تصوير ومخرجين وكتاب سيناريو ومبدعي مؤثرات خاصة وبصرية وأصحاب معدات سينمائية ومعامل . ويختتم كتابه برؤية مستقبلية لواقع السينما فى ظل استخدام التكنولوجيا المستحدثة .

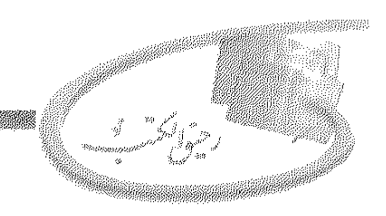


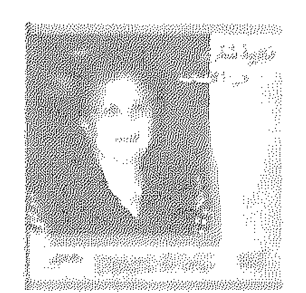
رؤوف توفيق - الرسم بالكلمات

المؤلف :عصام زكريا

يسرد العلاقة المتصلة بين الصحفى عصام زكريا ورئيس تحرير مجلة «صباح الخير» السابق رؤوف توفيق . يلتقط بعض التفصيلات الخاصة بعصام وطريقة رؤيته لكاتب كبير ومؤلف لعدد من الكتب المتخصصة فى شئون السينما . عن طريق التوقف عند بعض المحطات الرئيسية فى حياته . فنجده يبدأ كتابه بذكرياته الأولى بالسينما وبرؤوف توفيق . ثم يفرد حوارا كبيرا شاملا معه حول بعض التحولات المهمة مثل مهرجان كان السينمائى ، رئاسة مهرجان الأسكندرية السينمائى بعض الدراسات النقدية المنشورة له . وفى القسم الثانى يقدم «زكريا» مقاطع من الدراسات النقدية التى قدمها رؤوف توفيق مثل مقال عن أخر فيلم عربى جيد ، نادى السينما .. الحدث الفنى الذى عاش ، «خيبة السينما المصرية فى التليفزيون» . ويقدم فى ختام الكتاب مختارات من كتابات توفيق الاجتماعية والسياسية . ويرفق بعض الصور الشخصية التى تمثل أهمية لرؤوف توفيق كسيرة ذاتية وفيلموجرافيا .







نادية شكرى .. سيدة الصحبة

المؤلف : صفاء الليثى

قصة حياة وكفاح المونتيرة نادية شكرى التى لم تكمل تعليمها الثانوى . لكن عملت مع حسين عفيفى ورشيدة عبدالسلام . وساهمت فى عمل مونتاج أفلام بين القصرين وفجر يوم جديد ، وأدهم الشرقاوى ، وأصبحت تمثل الجيل الرابع من العاملين فى مهنة المونتاج . ويبلغ رصيدها حوالى ٦٥ فيلما محتلة بذلك المرتبة الثالثة بعد رشيدة عبدالسلام (١٧٢ فيلما) ، وعنايات السايس (٧٩ فيلما) . يتناول الكتاب وجهة نظر نادية شكرى فى فن المونتاج وعلم الـ[illegible]حليل وقواعد تحديد [illegible]ات وطرق القطع التى تشكل الوحدة الطبيعية للغة السينمائية .

ويسرد أيضا ذكرياتها مع كبار الفنانين أمثال حسن الإمام ، محمد خان ، عاطف الطيب ، إلى جانب استعراض لأهم الأفلام التى قامت بعمل مونتاج لها مثل «خلى بالك من زوزو» ، «السكرية» ، «ضربة شمس» ، «أحلام هند وكامليا» . وغيرها .

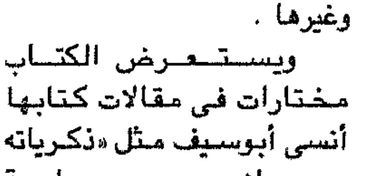


أنسى أبوسيف .. واحد من البنائين

المؤلف : سيد سعيد

أنسى أبوسيف أحد أهم البنائين فى السينما المصرية يعمل مهندساً للمناظر داخل البلاتوه ، يقول عنه الكاتب ها هو الفتى الذى يصنع من خلاء البلاتوه الموحش مدنا وسفنا ومقاهى . وحوارى وقصور وحانات .

الكتاب يمتلىء بالحوارات الحميمية التى جمعت الأثنين معا . سيد سعيد وأنسى أبوسيف . تطرقت إلى عدة موضوعات مثل الديكور السينمائى ودلالاته الفنية الجمالية ، وذكريات أبوسيف عن العمل فى أهم الأفلام التى شهدتها السينما المصرية مثل «المومياء» وشادى عبدالسلام وصلاح مرعى ، تصميماته لملابس فيلم أخناتون الذى لم يرى النور حتى اليوم . وعدد من الأفلام التى نال عنها جوائز مثل «أوهام الحب» ، «الحب فى زنزانة» ، «عيون لاتنام» ، «الكيت كات» ، «سارق الفرح» ، «يوم مر



ويوم حلو» ، «عرق البلح» .. وغيرها .

ويستعرض الكتاب مختارات فى مقالات كتابها أنسى أبوسيف مثل «ذكرياته مع صلاح مرعى» ، «جلسة نبيلة وذكرياته مع شادى عبدالسلام» . ويقدم الكتاب عدد كبير من الرسومات لديكورات أفلامه وللابس بعض الشخصيات التى إبتكرها .



عزت العلايلى ملح الأرض .. وحلوها

المؤلف : د. حسن عطية

سياحة فى عالم عزت العلايلى الفنان والشخصيات والأقنعة التى برع فى أدائها أمام عدسات كاميرا السينما . ومواقفه الفكرية والفنية المعلنة والتى يجسدها سواء فى أفلامه أو عبر الأحاديث الصحفية التى يجريها .

يبدأ بسرد تاريخه الإنسانى منذ الولادة والأسرة التى تربى العلايلى وسطها فى درب الملاح بحى باب الشعرية. والبيئة التى كونت وعيه بالفن والناس خلال تنقله مع أسرته ما بين الأسكندرية بحى محرم بك وأحياء القاهرة القديمة ، ودراسته بالمعهد العالى للتمثيل

العربى وعمله فى مدرسة «الدواوين» بشارع المبتديات ويقدم بداياته مع المسرح المصرى بداية فى فرقة يوسف وهبى وحتى مسرح التليفزيون . ودخوله عالم السينما وكتابته لسيناريو فيلم «الاختيار» عن قصة قصيرة لنجيب محفوظ وإخراج يوسف شاهين . وخلال الستينات بدأ «العلايلى» يؤكد على وجوده على شاشات التليفزيون خاصة بعد دوره الشهير فى فيلم يوسف شاهين الشهير «الأرض» . الذى تحول بعده إلى نجم متميز . يقدم الكتاب رؤية تحول شاملة لأهم مراحل حياة العلايلى الفنية خاصة الأدوار التى اشتهر بها فى السينما مثل الرجل المجهول ١٩٦٥ ، قنديل أم هاشم ١٩٦٨ ، ٣ وجوه للحب ١٩٦٩ ، السيد البلطى ١٩٦٩ ، ويقدم الكتاب بجرأة الفترة التى شهدت تراجعا لمساحة أدوار «العلايلى» بعد فترة وجود قوية خاصة مع ظهور أفلام سينمائية ذات توجهات سياسية مثل «زائر الفجر» ، «الكرنك» ، «على من نطلق الرصاص» ، «بيروت يابيروت» . ويسرد أهم ملامح الشخصيات التى اشتهر بتقديمها العلايلى . مثل دوره فى «أهل القمة» و«قيدت ضد مجهول» و«الكافير» و«انفجار» و«الغيبوبة» و«السقامات» ، وفى الختام يقدم الكتاب فيلمجرافيا كاملة لأفلام عزت العلايلى وعدد من الصور لأهم الشخصيات التى قدمها .

بوش فى بابل

تأليف : طارق علي
ترجمة : د. فاطمة نصر
الناشر : إصدارات سطور

يقدم هذا الكتاب قطعة من النسيج القشيب، سداها يأتى من الماضى إلى الحاضر، راصدا أحداث التاريخ الداخلة فى معادلة التفاعل المنتجة للأزمة العراقية، ولحمتها ملامح المواطن العربى الذى كان بسلبيته مكونا رئيسيا لهذه الأزمة، فليس كل ما حاق بالعرب من كوارث كان نتيجة التدخل الأجنبى فقط، فطالما استغل الغرب المستعمر مواطن الضعف العربى ليحقق انتصاراته .

ورغم أن هذا الكتاب صدر قبل ما أعلنته الصحافة الغربية من صور للانتهاكات والتجاوزات، التى يرتكبها المستعمر الأنجلو أمريكى ضد العراق أفرادا ودولة، فإن المؤلف يرى أن وجه التاريخ الذى لم يتغير هو الاستعمار العسكرى، والاستغلال الاقتصادى، والامتهان والإذلال الجنسى والثقافى من قبل الإمبراطوريات قديمها وحديثها، ونظرة سريعة لكتب التاريخ نعود منها بمشاهد المغول وهم يسلكون نفس الطريق مع بغداد الأمس

ويرى المؤلف أن الإحتلال فى العراق مازال فى مرحلة الطفولة، ويدعمه من العرقيين نظام عميل، ويضطلع به بعض النشطاء، يروج للاحتلال باعتباره «تحريرا» وخلاصا من الاستبداد، بعد أن نسق مع الساسة الأنجلو أمريكيين فى أحد فنادق لندن قبل الغزو ليقرروا مصير العراق بعد التحرير .

والكاتب يأمل أن تتجنب المقاومة العراقية أخطاء الماضى، وألا تسمح بتكرار المآسى التى سمحت بحدوث الإحتلال الإنجليزى للعراق من قبل .

– إن أخطاء المنطقة العربية، والتى يرى المؤلف أنها تجسدت فى العراق، تمثلت فى استبداد الحاكم وتنكيله بمعارضين من ساسة وعسكريين ومثقفين، وكذلك شيوع الانقسام والطائفية وروح الخيانة، وهى ما أضعف بغداد أمام التتار بالأمس وأمام مستعمرى اليوم..

كما يشير المؤلف إلى أن طمس النظام فى واشنطون – عن عمد – الفروق بين المقاومة من أجل التحرر والإرهاب، ليتم له ما يريد من قمع فى العراق.. إن هذا الطمس لهو اللهب الذى سيؤدى إلى انضاج الموقف وبلوغه مرحلة النهاية لهذه الأزمة .

أعيش بروح المتصوف دون أنانية

محمد عبدالحليم

نشأت فى أسرة محافظة متواضعة بحى السيدة زينب، حيث ولدت ودرست حتى تزوجت من الفنانة عايدة عبدالعزيز، وخرجت من حى السيدة زينب إلى حى المنيرة، شارع إسماعيل سرى لأبنى حياة مستقلة.

كانت أسرتى منذ ولادتى مكونة من ثلاثة إخوة رجال وبنتين وكان دورى فى هذه الأسرة رقم ثلاثة، حيث كان يسبقنى فى العمر الأخ الأكبر ثم الأخت الكبرى، ثم أنا وبعد ذلك يأتى الأخ الأخير والأخت الأخيرة كان الوالد موظفا بمصلحة الأملاك الأميرية، فضلا عن أنه كان طموحا لتربية أبنائه، فكان خير مشجع لنا جميعا على الدراسة حتى ولو كلفه ذلك أكثر مما كان يحتمله دخله



أحمد عبد الحليم مع وزير الثقافة

مما دعاه إلى بذل المجهود الكبير فى سبيل زيادة دخله حتى يواجه كل احتياجات أبنائه، وهذا مثل طيب للأسرة المصرية التى تبذل قصارى جهدها من أجل أن ترى أبناءها فى وضع أدبى ومادى أحسن مما هى عليه .. وهناك مثل شائع وهو شعبى يؤيد هذا السلوك وهو أن الآباء دائما يحبون أن يروا أولادهم أحسن منهم .. ورغم حبى وتقديرى واحترامى لأبى وأمى رحمهما الله إلا أن مثلى الأعلى كان أخى الكبير محمد، وطبعا هذا الشعور يرجع لمبررات سأذكرها فيما بعد.

محمد الأب الثانى

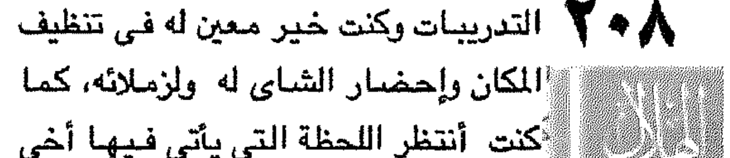
أخى الكبير محمد كان يكبرنى بسنوات عديدة فكان عمره عندما ولدت حوالى خمسة عشر عاما فكان هذا الفارق الكبير فى العمر سببا مباشرا فى أننى كنت أعتبره أبا ثانيا لى، وهكذا مرت الأيام إلى أن أصبح عمرى أحد عشر عاما، فتزايد شعورى بالحب والاحترام لهذا الأخ الكبير إذ كان بعد

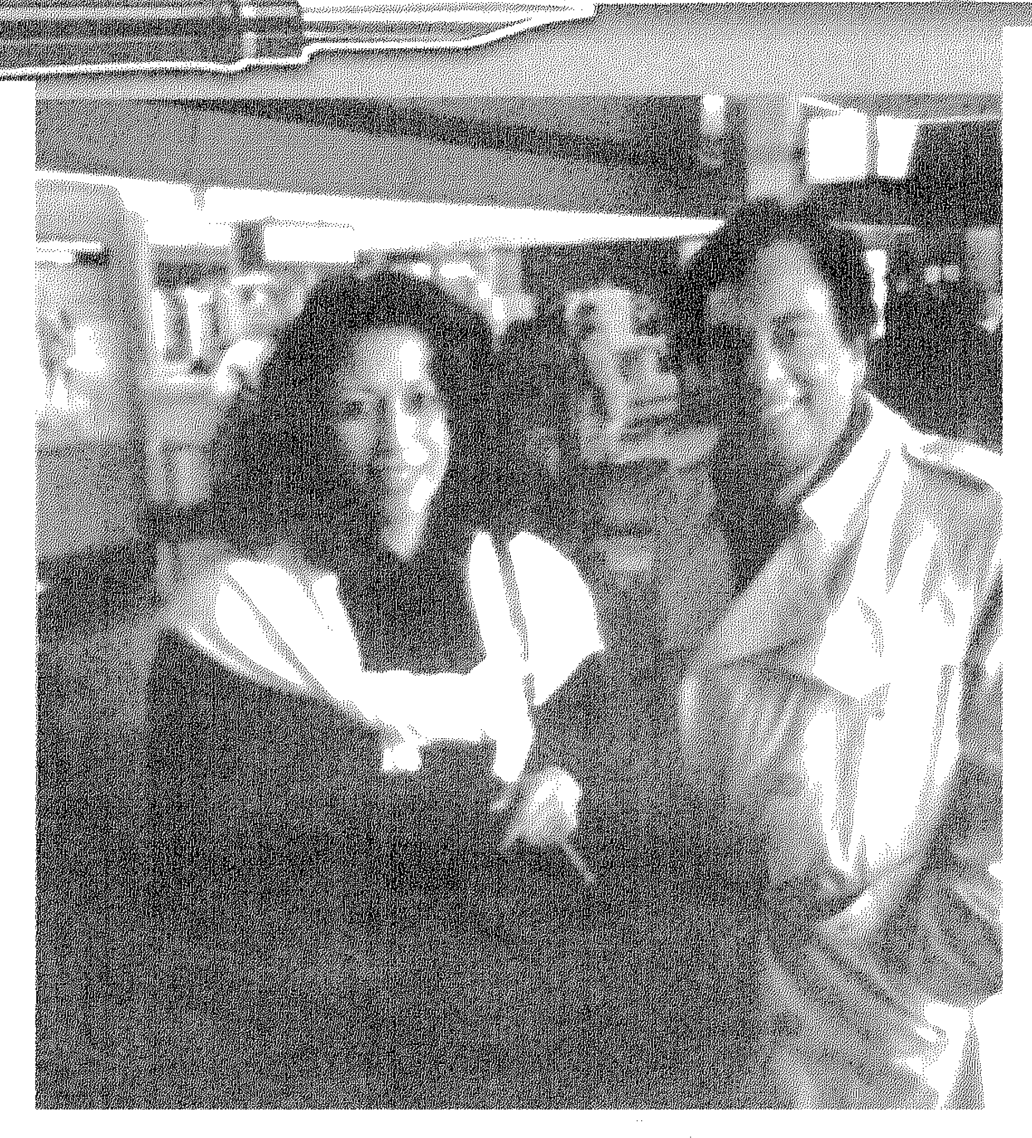


مع شقيقه

حصوله على التوجيهية يعمل في نفس المصلحة التى كان يعمل فيها أبي ولم يتمكن من الدخول للجامعة لاستكمال دراسته لإحساسه بالمسئولية تجاه أسرته وإخوته فكان معينا لأبى فى سد كل احتياجات الأسرة، ومن هذه التركيبة الإنسانية نبت فى داخلى شعور بقوة الانتماء إلى ذلك الأخ والنموذج المثالى الذى كان له فضل كثير علىّ.. فكان هذا الأخ الكبير يحب الكتابة للمسرح كما كان يحب التمثيل حتى وصل به الأمر إلى استغلال شقة فى بيتنا المتواضع الذى كنا نمتلكه فى لقاء زملائه من أقرانه وإقامة تدريبات على مسرحيات مختلفة، وكنت فى هذا العمر الصغير ما بين العاشرة والحادية عشرة تابعا لأخى الكبير فى روحاته وغدواته بل فى حضور التدريبات وكنت خير معين له فى تنظيف المكان وإحضار الشاى له ولزملائه، كما كنت أنتظر اللحظة التى يأتى فيها أخى مع زملائه لأراقبهم بتمعن فى كل نقاشاتهم وتدريباتهم مما أثر فى نفسى، ومن جملة تلك اللقاءات ترسبت فى نفسى محبة وعشق فن المسرح والتمثيل لكنى كنت خجولا للغاية ولم استطع التعبير عن مكنون نفسى، حتى أخى الكبير ما كان يدرى هذا الحب لذلك الفن واكتفى فقط بأننى كنت مساعدا له فى تهيئة المكان وخدمته ومجموعته بكل ما يطلبونه.

وفى ذات يوم أصيب أخى بمرض فى صدره انتقل على أثره لمستشفى الصدر بحلوان وظل فيه حوالى أربعة أشهر عاد بعدها إلى منزلنا فجأة قائلا إنه جاء إلى المنزل ليموت فيه .. ورغم حزنى الشديد عليه فإننى لم أتمكن فى ذلك الوقت من التعبير عن إحساسى بالضياع .. فقد أغلقت الشقة وماتت كل الحركة الدائبة فى التدريبات واللقاءات وأصبح المكان قفرا كالصحراء الجرداء، وفى اليوم الموعود، نادانى أخى الكبير وهو فى سكرات الموت





أحمد عبد الحليم وابنته في برلين

وقــال في تهــدج «خــذ بالك من أبيك وإخوتك» ثم راح فى سبات عميق وهدأت روحه بعد معاناة قاسية مع المرض لمدة ستة أشهر، وكانت والدتى قد سبقته ولم أرها وهى تموت حيث كنت مـريضـا بالمستـشـفى وخـرجت فى يوم ذكـرى الأربعين وفـوجئت بخبر موتها حيث إن أهلى لم يريدوا إخـبـارى بموتهـا وأنا مـريض، فـأنا لم أرها وهى تموت ولكنى رأيت أخى الكبير وهو يحـتـضـر .. فكان لهذا الموقف أشد الأثر فى نفسي.

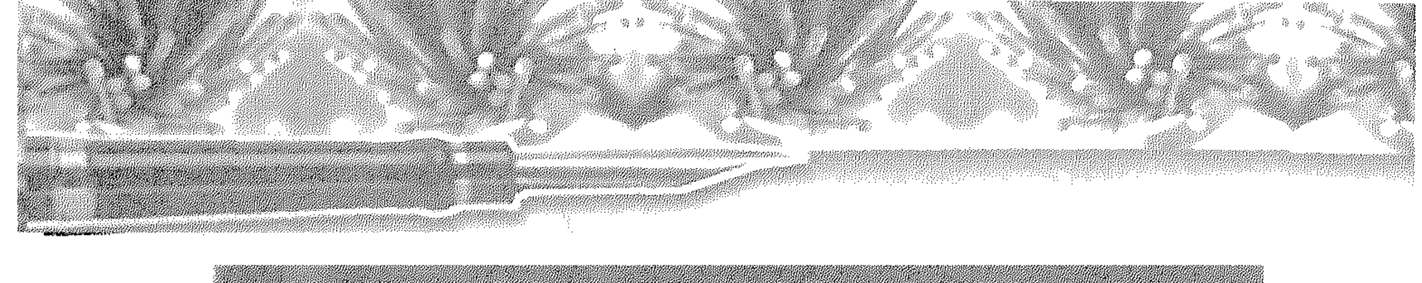
عبرة الموت

لاشك أننا فى سن الحادية عشرة لانعرف الموت إلا بالاسم إلا أننى عرفته وأحسست به طوال حياتى وأكسبتنى تلك التجربة روحا جديدة مؤمنة بالحياة والموت،

ومن ثم عشت وأعيش بروح المتصوف ودائما في لقاءات صحفية أقول «لو لم أكن فنانا لكنت متصوفا» كما أن هذا الموقف الحزين المؤلم أعطاني درسا مفيدا ونافعا بأن الحياة ليست دائمة وأن الإنسان ينبغي أن يعطي ويعطي ويعمل ويبدع حتى يترك وراءه إرثا فنيا يشهد له الجميع، وتلك هي الحياة الحقيقية؛ العمل والعمل حتى يعيش الإنسان بأعماله وحسن معاملته مع الآخرين دون أنانية وبدون حب الذات.

وجهتني ظروفي إلى أن استكمل الرسالة التي عشقتها في داخلي وبدون أن يستشعرها أخي الكبير .. لكن يظل الفضل لهذا الأخ النموذجي الذي زرع في نفسي حب الفن المسرحي.

كنت في السنة الثانية الثانوية بمدرسة على باشا مبارك، إذ تأكدت عندي روح التخاطب مع زملائي وأفصحت لهم عن مكنون كياني من عشقي للفن فضلا عن بداية قراءاتي لبعض كتب أثارت اهتمامي، وكانت البداية مؤلفات المنفلوطي التي أثرت في نفسي لدرجة أنني حفظت بعض الفقرات منها ثم تتابعت قراءاتي لبعض المسرحيات العالمية ومنها هاملت التي كان لها صدى في وجداني وعقلي خاصة المونولوج الذي يبدأ «أكائن أنا أم لست كائنا» واسترسل هاملت في الحديث عن الموت الذي عرفته صغيرا، وكان لهذا الأثر العميق في نفسي مما جعلني أعشق الفلسفة التي تحدث فيها الفلاسفة عن الحياة والوجود والعدم وهو ما جعلني قادرا على استيعاب أمور ما كنت أعرفها لولا المصادفات التي واجهتني في مقتبل عمري والتي غذت روحي ووجداني وعقلي .. ومع كل هذه الأحداث فلم أتأثر بها إلا في الحدود التي تحفظ على الايمان بمعتقداتي الدينية وتقاليد وأعراف مجتمعي، وخلقت مني كل هذه المركبات إنسانا معتدلا يحتكم إلى عقله ووجدانه بل في كثير من الأحيان إلى العقل الذي يعتبره الله سبحانه وتعالى المصفاة لكل ماهو سلوك أو رد فعل لأنه بدون العقل يكون الإنسان غريزيا أقرب مايكون إلى الحيوان وتتابعت الأيام وقدمت في نفس الفترة نفسي إلى فريق المدرسة الذي كان له نشاط مسرحي، ثم جاءت لحظة الاختبار وكنت قد اخترت فقرة طويلة من كتاب المنفلوطي العبرات تتكلم عن الفقراء والعرايا والمساكين إلا أن المجموعة التي كانت تستمع لي تهامسوا فيما بينهم وأخذوا يبتسمون مما أثر على استرسالي فغضبت وانصرفت دون أن



مع الفنان أحمد ماهر في مسلسل (الحب قبل السيف)

أسمع رأيا، وهذا يؤكد فرط حساسيتى تجاه الآخرين ولم أقترب من هذا الفريق أبدا واختفيت عنهم وذلك لإحساسى بأنى لم أعجبهم، وبدا لى فيما بعد أنهم أرادوا أن أنضم إليهم من زميل لى بالمدرسة إلا أننى رفضت الانضمام لمجرد فهمى خطأ ردود فعلهم، وتعلمت من هذا الموقف شيئا مهما وهو تفهم حالة المتقدم للاختبار أو الامتحان والذى يحتاج إلى رعاية إنسانية بما تعنيها من معنى دون الاستخفاف به أو مجرد الإشارة بشىء قد يفهمه المتقدم خطأ، ومع كل هذا فقد ترسب فى كيانى الإحساس بالإصرار نحو تفجير هذه الطاقة الداخلية وذلك بالتحاقى

بالمعهد العالى لفن المسرح العربى فى ذلك الوقت، وكان هذا عام ١٩٥٢ إذ كان على رأس ذلك المعهد الاستاذ الراحل زكى طليمات، وكنت قد حصلت على الشهادة الثانوية وأعددت نفسى لهذا الامتحان أو اختبار قدراتى، وفعلا أديت الاختبار أمام أساتذة كبار منهم جورج أبيض والشاعر الكبير عزيز أباظة وانتظرت نتيجة الاختبار إلا أننا فوجئنا كمتقدمين بتعليق النتيجة بل إلغاء الامتحان نفسه نظرا لخروج الراحل زكى طليمات فى ذلك الوقت من منصبه كعميد فى حركة التطهير أثناء ثورة يوليو ٥٢ نتيجة ملابسات اعتبرتها الثورة سببا فى خروجه من وظائف الدولة، وأعادوا الامتحان من خلال لجنة أخرى وتكاد تكون هى نفسها إلا أن قيادتها كانت لعميد جديد وهو الراحل ممدوح أباظة بدلا من الراحل الاستاذ زكى طليمات ونجحت فى هذا الامتحان، وقبلت بالمعهد كطالب .. هذا بالطبع أشعرنى بالثقة الكبيرة فى نفسى المحتشدة بكل الحب لفن التمثيل وأننى أصبحت فى يد محترفين قادرين على توجيهى الوجهة الفنية السليمة بما يساعدنى على السير فى هذا المجال دون تخبط أو عشوائية، وهذا فعلا ماتم، وكان ضمن رفقائى الزميل والصديق الراحل كرم مطاوع والعبقرى الفنان الراحل نجيب سرور وآخرون منهم الفنان القدير جمال إسماعيل وأيضا الفنان الكبير منير التونى والفنان الدكتور حسن عبدالحميد مما يؤكد أن كل هؤلاء موهوبون استطاعوا بعد تخرجهم أن يشقوا طريقهم الفنى باقتدار وشكلوا فى الحركة المسرحية جيلا جديدا استطاع أن يجسد لونا بارزا فى حركة التجديد المسرحية.

أثناء الدراسة بالمعهد وفى السنة الثالثة بالذات وصل الأستاذ الفنان الراحل نبيل الألفى من فرنسا وقد أسند له التدريس بالمعهد بجانب كونه مخرجا بالمسرح مع زميله الأستاذ الفنان حمدى غيث، وأصبحت أنا وكرم مطاوع تلميذين له مما أفادنا كثيرا وفتح لنا آفاقا ساعدتنا على التفكير فى ضرورة استكمال دراستنا الفنية فى أوروبا .. وهذا فى حد ذاته يؤكد كرم الأستاذ الراحل نبيل الألفى الذى كان يتعامل معنا بأسلوب فريد، فلم يكن بخيلا فى عطائه، بل أعطانا من مخزون علمه وفنه الكثير حتى تشبعنا بأسرار هذه المهنة الشاقة التى تحتاج بشكل أو بآخر إلى قدرة عصبية ونفسية وعضلية.

وأحب أن أسجل من خلال سرد تكوينى حبى ووفائى لهذا الأستاذ النبيل

الأمير نبيل الألفى رحمه الله تعالى فهو كان بحق مفتاح أبواب كثيرة نفذت من خلالها إلى عالم جديد متسم بجمالية الإبداع وإذا كان صديق العمر كرم مطاوع وأنا قد نجحنا فى حياتنا الفنية فالفضل يعود إلى الأستاذ الجليل نبيل الألفى.

هذا الرجل الفنان دفعنا إلى التفكير فى السفر للتزود بالعلم بل وقف إلى جانبنا فى الترشيح قولا وفعلا.

أذكر ذات مرة أنه كان يشاهد مسرحية من إخراجى فى مسرح الطليعة وفوجئت به واقفا وحاولت أن آتى له بكرسى ليجلس عليه إذ كان المسرح ممتلئا ولا مكان للجلوس وكان قد أتى متأخرا حوالى عشر دقائق لكنه رفض وقال جملة مهمة مازالت حروف تلك الجملة ترن فى أذنى حرفا حرفا «عقابى للتأخير عن المسرح هو وقوفى حتى تنتهى المسرحية» ورغم إلحاحى عليه إلا أنه تشدد فى الرفض ورضخت لتشدده هذا مما أثار فى نفسى شعورا غريبا تجاه هذا النبيل وهو انضباط حضور المتفرج فى موعده وحتى تكون للمسرح قدسيته، ومن هنا تنبهت إلى أهمية احترام المتفرج لأسرة العمل الفنى وأيضا احترام المسرح للمتفرجين وذلك بانضباط فتح الستارة فى الميعاد المحدد حتى يشعر المتفرج نفسه باحترام هذا المسرح بما يساعده على ضرورة الانضباط فى الحضور وذلك قبل الستار.



الفنانة عايدة عبد العزيز مع حفيدتها

وكانت البداية

بعد التخرج فى المعهد عام ١٩٥٦ حاولت المحاولة الأولى فى الإخراج وذلك بالجامعة «كلية الطب البيطرى» وذلك بمسرحية «كاليجولا» للكاتب الفرنسى ألبير كامى، وكان بطلها الفنان الدكتور حسن عبدالحميد الذى كان من طلبة الكلية نفسها بجانب كونه زميلا فى الدراسة بالمعهد وذلك فى عام ١٩٥٨، ومع تلك المحاولة أحسست بأننى أمتلك بعض المكونات التى تؤهلنى بأن أكون مخرجا

وبالطبع لن يكتمل هذا إلا بالدراسة الدقيقة التى تساعدنى على المضى قدما نحو المزيد من الفهم المتأنى لعلوم المسرح التى يكون من أثرها القدرة على التصدى لإخراج أية مسرحية ومن أى نوع كانت، وفعلا تم ما كنت أحلم به وهو السفر إلى لندن للدراسة بالأكاديمية الملكية لفن الدراما «فني التمثيل والإخراج».

كنت في عام التخرج ١٩٥٦/٥٥ قد تعرفت على زوجتى الفنانة عايدة عبدالعزيز حيث كانت فى السنة الأولى وكنت فى السنة الرابعة، والسبب فى ذلك كان أيضا الأستاذ نبيل الألفى حيث كان يقوم بالتدريس فى السنة الأولى والسنة النهائية فأرسلها إلى كى تحصل منى على مشهد تمثيلى كان فى حوزتى لتتدرب عليه، وفعلا أعطيته لها، ومن هنا كانت البداية مع تلك الزميلة التى كانت من أول لقاء لها محل اهتمامى وسؤالى عنها مما أدى هذا إلى شعور بالحب لزميلة أحسست من خلالها أنها ستكون زوجة العمر وفعلا تم الزواج، وكان أسرع زواج إذ ما بين التعارف والزواج ستة أشهر فقط وخرجت من المعهد بشهادتين .. شهادة الزواج وشهادة المعهد وبدأنا نشق معا مشوار الحياة.

وفى هذه السنة بالذات ١٩٥٦ مثلت على المسرح القومى شخصية سليمان الحلبى فى مسرحية كفاح الشعب من إخراج أستاذى نبيل الألفى بدلا من الراحل كمال يس الذى كان مشغولا فى نفس الوقت مع المسرح الحديث كواحد من مؤسسى هذا المسرح .. وقد تلقيت نقدا فنيا كان فى صالحى إلى درجة كبيرة أشعرنى بالثقة الكبيرة.

كنت أحاول محاولات كثيرة بضرورة السفر إلى خارج البلاد للتزود بعلوم المسرح من عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦١ الذى تم فيه إنشاء مسرح التليفزيون، وكان أن انضممت إلى الفرق الثلاث الأولى التى تكونت فى بداية مسرح التليفزيون حتى يأتى الفرج بسفرى إلى الخارج، وفى نفس الوقت رشحنى الفنان الراحل كمال يس للتمثيل فى مسرحية «العش الهادىء» للراحل توفيق الحكيم والتى نجحت فيها نجاحا باهرا خاصة وأن الدور كان كوميديا على ضوء النقد الذى أبرز إمكانياتى فى ذلك الوقت كممثل كوميدى، وربما لو ركزت فى ذلك الوقت على استمرارية التمثيل دون التفكير فى السفر لاستكمال الدراسة لكنت واحدا من الممثلين المرموقين، وهذا رأيى الذى استخلصته من واقع الظروف الفنية التى مررت بها.

السفر إلى لندن

المهم أن زميلى الفنان كرم مطاوع كان

قد سافر فى عام ١٩٥٨ إلى إيطاليا فى بعثة لدراسة التمثيل والإخراج وتمنى لى بنفسه السفر أيضا إلى الخارج حتى نحقق طموحاتنا وندخل معا فى حركة المسرح من أجل التجديد والتحديث.

فعلا سافرت متأخرا إلى لندن عام ١٩٦١ أنا وزوجتى وأبنائى إذ كانوا أطفالا وهما شريف ونهال والتحقت بالأكاديمية الملكية لفن الدراما بلندن لدراسة التمثيل والإخراج كما التحقت عايدة أيضا بالبريتش دراما ليج لدراسة فن الحركة والتمثيل وحققت فى دراستها نجاحا باهرا.

فى نهاية الدراسة لفن التمثيل كان عميد الأكاديمية فى ذلك الوقت قد رشحنى للتمثيل وذلك فى دور عطيل إذ تقررت المسرحية كاملة علينا كأحد المشروعات للتخرج فى قسم التمثيل، وعندما علمت ذلك انتابتنى حالة من الخوف والوجل لتمثيل هذا الدور باللغة الإنجليزية، وكنت على وشك الذهاب إلى عميد الأكاديمية لأخبره بإعادة ترشيحى لدور صغير بدلا من عطيل الدور الرئيسى المحورى إلا أن عايدة تصدت لى وأجبرتنى على الإصرار بالتمسك بهذا الدور وقالت لى عايدة بالحرف الواحد فى ذلك الوقت «لولا ثقة العميد والأساتذة بك ماكانوا ليرشحوك، فكن على مستوى تلك الثقة وثق فى نفسك».. كانت هذه الكلمات بمثابة الدواء الذى شربته فاكسبنى ثقتى بنفسى ولولا وجودها معى ماكنت لأتجرأ على قبول هذا التحدى الكبير، وقد قامت بمساعدتى وذلك فى تحفيظى شعر شيكسبير.

لاشك أن الشريكة فى هذه الحالة كان لها دور كبير استطاعت من خلاله أن تقف بجانبى ولايمكن أن أنسى هذا مدى الدهر ومدى العمر فى هذه الحياة.

عندما قمت بتمثيل دور عطيل كان رد الفعل النقدى إيجابيا بما جعلنى أتزود بالثقة الكبيرة التى دفعتنى على العطاء دون كلل أو ملل.

دخلت بعد ذلك مرحلة الإخراج التى شكلت فى نفسى قدرة على التصدى لبعض الأعمال التى تستهوينى وأتفاعل معها من خلال تركيبتى الثقافية والمعرفية وفهمى العميق لمعطيات المسرح وماينبغى تقديمه للمسرح، فالمسرح المصرى على وجه الخصوص يحتاج إلى مسرحيات تتشكل موضوعاتها من نسيج يهتم بقضايا السواد الأعظم من الناس.

العودة من البعثة

عدت بعد ذلك الشوط الكبير أنا وعايدة وأولادى إلى القاهرة فى فبراير ١٩٦٧ وكان الراحل نبيل الألفى عميدا للمعهد العالى للفنون المسرحية فى ذلك الوقت، وقمت بالتدريس فى ذات المعهد،

وفى نفس الوقت أبحث عن طريق لأخرج للمسرح بعدما تشبعت بالدراسة الأكاديمية فى هذا المجال..

كان الراحل يوسف إدريس مديرا لقطاع الدراما فى ذلك الوقت بهيئة المسرح وقابلته فى يوم ما قبل نكسة ١٩٦٧ وتحادثنا معا وشرحت له دراساتى فى الخارج بلندن فتحمس لى فى ذلك الوقت وأعطانى مسرحية «ليالى الحصاد» للراحل محمود دياب الذى لم يكن معروفا فى ذلك الوقت اللهم إلا من خلال عملين سبق أن قدما بالمسرح وهما «الزوبعة» فى أحد أقاليم القاهرة و«البيت القديم» أو «البيت الكبير» على ما أعتقد.

أخرجت هذه المسرحية للمسرح الحديث الذى كان يديره فى ذلك الوقت الراحل محمود مرسى وقد أثارت جدلا كبيرا فى الأوساط الفنية مما ساعد على إلقاء الضوء على شخصى إذ قدمتنى هذه المسرحية للجمهور من ناحية وللأوساط الفنية من ناحية أخرى.

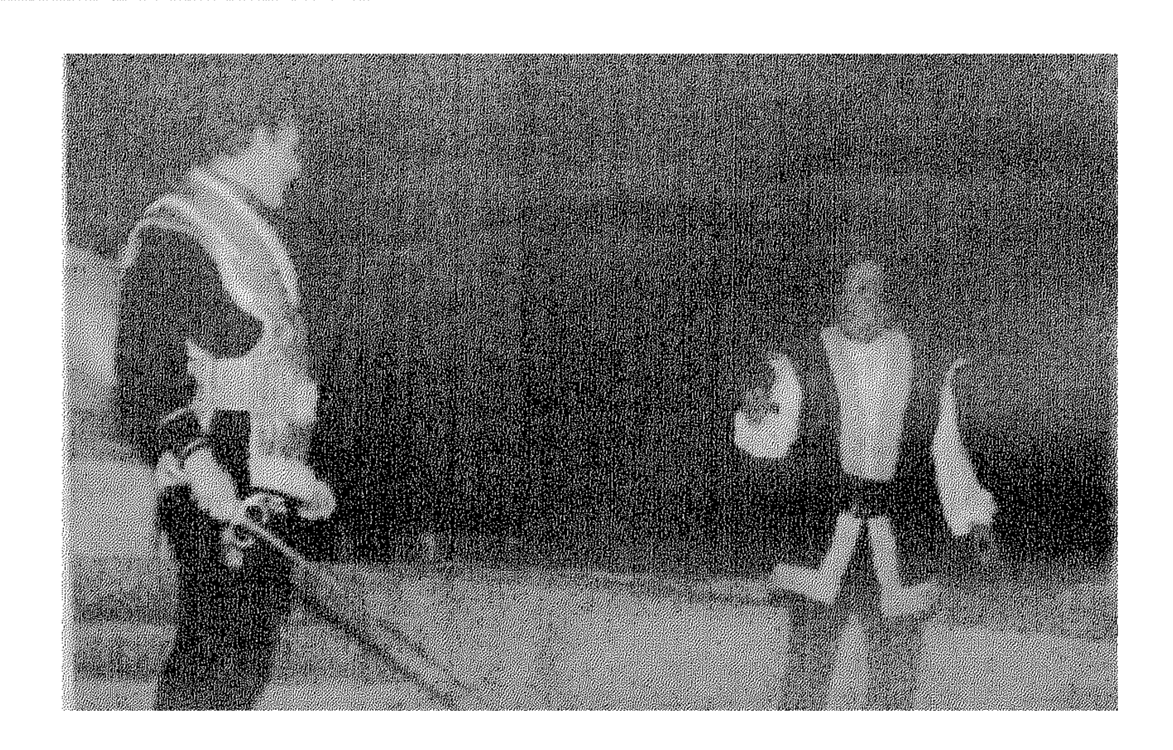
تابعت بعد ذلك القيام بإخراج عديد من المسرحيات منها «ملك يبحث عن وظيفة» و«تحت المظلة» و«العمر لحظة» على سبيل المثال لا الحصر.

وأهم النشاطات التى واجهتها نشاط مسرح المائة كرسى ضمن مجموعة من الكتاب والفنانين التشكيليين منهم عبدالمنعم سليم وأحمد فؤاد سليم وصالح رضا إذ أخرجت بعض المسرحيات التى نبهت كل العاملين فى المسرح إلى محاولة التفكير فى إيجاد مسارح تجريبية كمسرح القهوة والقرية والسرادق وما شابه ذلك مما ساعد على فتح مجالات أخرى يجد فيها الشباب المتعطش للمسرح آفاقا جديدة تعبر عن نشاطهم.

أستاذ للمسرح

لاشك أن المسرح قد أخذ كل وقتى وعمرى إلا أننى فى الوقت نفسه كنت أمثل بين الحين والحين وخاصة فى السينما التى بدأت فيها بأدوار رئيسية كفيلم يوميات نائب فى الأرياف من إخراج الفنان الاستاذ توفيق صالح وفيلم الحب والصمت مع نيللى ونور الشريف وعدة أفلام أخرى وبعض أعمال التليفزيون والإذاعة.

فى عام ١٩٧٤ ذهبت إلى الكويت أستاذا بالمعهد العالى للفنون المسرحية عند بداية إنشائه وذلك لمدة سنتين فقط إلا أنها امتدت إلى اثنين وعشرين عاما أخرجت فيها عددا من المسرحيات للمسرح المحترف كما أخرجت لمسرح الطفل الذى وجدته مجالا من أهم



عبد الله غيث وأحمد عبد الحليم في ماكبث

المجالات، كما أخرجت مشروعات بكالوريوس المعهد على مستوى احترافى وخرج من بين يدى سبع عشرة دفعة شكل طلابها فى النهاية أجيالا جديدة من نجوم المسرح والتليفزيون والمسئولين فى دوائر الثقافة والإعلام وذلك على مستوى منطقة الخليج، وقد يبدو لأى مهتم أن هذه الفترة الطويلة ابتعاد عن المجال الفنى فى القاهرة، وهذا حقيقى إلا أن الحقيقة المهمة هى أن النشاط الفنى كان مستمرا فى مجالات التدريس والإخراج مما ساعد على تزودى بالمعرفة الفنية التى من وجهة نظرى تعتبر زادا استطيع من خلاله التصدى لأى عمل فنى بروح الواثق بنفسه، وكان مجمل ما أخرجته بالكويت حوالى ثمانية وثلاثين عملا .

عدت إلى القاهرة فى عام ١٩٩٦ وأخرجت منذ حضورى مسرحية «الطيب والشرير» للكاتب الفريد فرج ثم مسرحية «الملك لير» لشيكسبير ومسرحية «جواز على ورقة طلاق» للكاتب الفريد فرج، كما أنى أقوم بالتدريس بأكاديمية الفنون وجامعة حلوان بما يؤكد أن الإنسان الفنان أو أى إنسان يظل يعطى ويعطى طالما أن فى داخل نفسه أحلاما يريد أن يحققها من خلال عشقه وحبه للفن. ■



حول مقال «الهلال وأنا»

جاءتنا رسائل حول مقال «الهلال وأنا» لكاتبه مصطفى الحسينى ونشر فى هلال مايو ٢٠٠٤.

الأول كتبه الدكتور سامي منير عامر الاستاذ بكلية التربية جامعة الإسكندرية ويقول: إن كاتب المقال شأن كثيرين من القراء يعترف فى صراحة ممتزجة بالإعجاب بأن متعة قراءة الهلال متعة كبيرة، قل أن تنافسها، ولا حتى أن تضاهيها متعة قراءة أية مجلة ثقافية عربية أخرى، وبين لنا صفات بعض المجلات الثقافية العربية الأخرى التى رأى فيها ظواهر غريبة عسيرة الفهم .. وهذا كما يخيل إلىّ هو ما دفعه إلى تفضيل قراءة «الهلال». بالاضافة إلى أن كثيرين ممن يكتبون دوما بالهلال تتسم كتاباتهم كما، يقول الحسينى، بأنها تتداول مع القراء ولاتقف منهم موقف المعلم، أو تفرض عليهم حكمة ما .. هؤلاء الكتاب تقرأ عندهم (الحاضر ناظرا إلى المستقبل، وتقرأ الحاضر متأملا ما به من قصور تعيد النظر إلى الماضي، وتعيد النظر فيه (ص ٢١٦).

وأننى أتحفظ حيال رأى الأستاذ مصطفى الحسينى فى كتابة الكاتبين الجليلين الشيخين د.رجب البيومى والاستاذ وديع فلسطين إذ أنه يرى فى كتاباتهما ماضيا، مهما بلغ ليس نموذجا للحاضر والمستقبل والقدوة (ص ٢١٦) وإن مايدعونى إلى التحفظ هو أن مانستخلصه - نحن القراء - من كتابات هذين الجليلين وغيرهما إنما يتحكم فيه تأويلنا لما قد قرآناه، وهذا التأويل أمر نسبى، تفرضه ثقافة القارئ التى إما تقربه من محبة أشياء، وإما تباعد بينه وبين محبة أشياء أخرى.

وعلى اختلاف نوعية مابين ما يكتبه كلا الرجلين ، فإن عينيهما على حاضرنا وما يرجوانه له من مستقبل زاهر، يصلح حافزا لنا فى تقويم مسار حياتنا المتداخلة المتسارعة والمتصارعة.

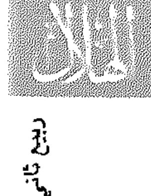
● أما عبدالله محمد فيقول إن أول ما أقرأ من مواد الهلال ما يكتبه هذان الأديبان الكبيران لألتمس فيما يكتبانه المتعة الفنية والذهنية ومقارنة الماضى بالحاضر، واستلهام العبرة فى «أسمار الماضى» لمواجهة المستقبل وبناء المستقبل الجديد على قواعد الماضى الراسخة.

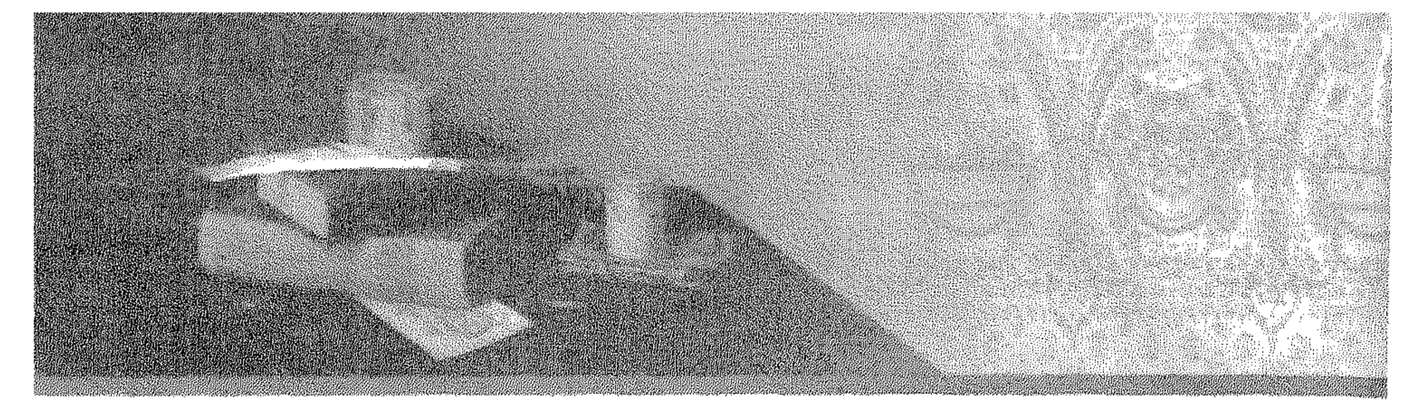
إن دعوة كاتب المقال ببساطة شديدة، هى هدم الماضي بحجة أنه «أسمار» ونسيان تاريخنا وأعلامنا الذين سماهم بعض المفكرين «ملح الأرض».

كما يقول مازن مؤمن بأن صاحب مقال «الهلال وأنا» أشار إلى عدم الاهتمام بالكتاب من العرب فى الوقت الذى نشرتم فيه موضوع الغلاف عن عرائس الجزائر والقصة لكاتب من حلب بسوريا، ومقال جميل للكاتب الفلسطينى سليمان أبو ستة كما كتبت الناقدة صافي ناز كاظم موضوعا عن الرحبانى، فضلا عن هذا المقال المهم حول القصة الكاملة لحماس والتى كتبها د.عادل غنيم. وفى هذا المكان (أنت والهلال) نشرتم كلمة رقيقة لسناء على من السعودية بعنوان «أم كلثوم فنانة خلدها فنها».

فكيف يقول مصطفى الحسينى إن الهلال تغفل هذا الجانب؟.

مجرد سؤال!





في كل يوم مجزرة

في كل يوم مجزرة
لاتحتويها مقبرة
لرجالنا ونسائنا
وصغارنا كم غرغرة
أين الصدى يا إخوتي
ما ردكم .. لم لم نره؟
الظالمون تكاثروا
وظلامهم ما أكثره
أين الردود عليهمو
والصائحات المنذرة؟
ثوروا عليهم ثورة
كونوا عليهم معصرة
قتلوا الكثير بأرضنا
كم من عيون ممطرة
شو أى دمع هاطل
من ناظرات مبصرة
كم من دم متسائل
من أعين متحيرة

حسن أبو الغيط
كفر المصيلحة - منوفية

أوصاف غريبة!

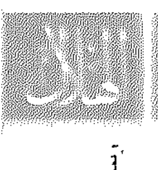
أفرد المقريزى شيخ المؤرخين العرب فى القرن الخامس عشر الميلادى فصلا فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» عن ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم، وقد هالنى ما كتبه المقريزى من أوصاف ونعوت عن المصريين، وهى رؤية بالغة السوء للشخصية المصرية والتى وصفها بأنها قليلة الصبر والجلد، كثيرة الكذب والسعى الى السلطان، وذم الناس، ورجالهم كثيرو النساء ونساؤهم سريعات الحمل، ويغلب عليهم الجبن.

أليس من الواجب ونحن نعيش نشر ذخائر الكتب العربية والتراث العربى أن نعرض هذه الصور الغريبة معلقا عليها بشروح وهوامش تزيل أى لبس، وترفع أى تناقض؟

عمرو عبدالمنعم حموده
برما - مركز طنط

الهلال :

ماجاء فى رسالتك من صفات غريبة حول المصريين وبالطبع هى للمقريزى. فلا أعتقد أنها موجودة فى مجتمعنا الآن .. والسؤال ما أهمية نشر كل هذه الإساءات للمصريين فى وقت لاتتوقف أجهزة الإعلام الغربية عن الهجوم علينا؟!





حلل الربيع

حلل الربيع قصيدة عذراء — برزت بلفظ فى سناه بهاء
ألقت معانى فى تراكب فذة — فى حلة سجدت لها البلغاء
لمعت ببارق ثغرها جذلانة — فتهللت لجلالها الفصحاء
وبدت برائق سبكها مثل الضحى — فى فتنة أخذت بها الحسناء
بسمت فبان جمال عنصر أصلها — كسواد خال قد جلاه ضياء
وتماوجت ببيانها فى رقة — فى مشية وكأنها الورقاء
وتخطرت بلياقة فى طبعها — ثم انثنت وكأنها هيفاء
فرشت خمائل فى بساط مونق — ودنت فقلت الروضة الغناء
غنت بلحن مطرب فى شجوها — وشدت فقلت الجنة الفيحاء

حواش مصطفى بن بكير
غرداية - الجزائر

قراءة في عدد مارس

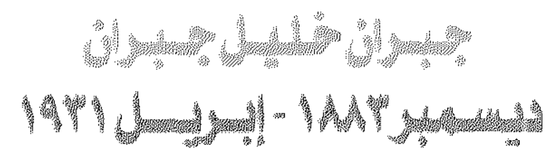
حينما تصلنى الهلال أتصفحها على الفور .. ولى عدة ملاحظات أبديها:

سعدت بنشر مقال «مصر من نافذة قطار» فى عدد مارس من الهلال وبصورة جميلة. وعلى الرغم من تأخر وصول العدد إليّ إلا أنه وصل .. ولا أقول مجاملة إن مانشرته الهلال بقلم محفوظ عبدالرحمن عن أم كلثوم ورامي انفردت به الهلال عن غيرها من المجلات الشهرية الأخرى، ونفس الملاحظة تنسحب على مقالى العقاد، ودعنى أبدى سرورى وسعادتى بمقال رئيس التحرير عن الراحل الكريم د.سيد عويس، فمن خلال ما كتب عنه أعاد لنا مصطفى نبيل جانبا جميلا من ذكريات الستينيات مع هذا الرائد الكبير ودراساته (العلمادبية) التى تنبض بحرارة الحياة حلوها ومرها ، وأعادتنا إلى جانب آخر من مفرداتها رسوم صلاح جاهين فى مقال عبده جبير.

فقط أتساءل .. هل قست الكاتبة صافى ناز كاظم بعض الشىء على «أمر صنع الله».

فى هذا العدد «هلال مارس» الكثير مما يستحق التعليق.

د.محمد المهدى - الكويت



أعلن أخيرا فى استراليا عن منح جائزة الشاعر المهجرى العربى الكبير جبران خليل جبران لأحد الشخصيات الفكرية البارزة وذلك عن جمعية تحمل اسم جبران فى استراليا.

ولد جبران خليل جبران فى إحدى القرى اللبنانية فى عام ١٨٨٣ م فى قرية اسمها «بشرى»، وقد أمضى سنوات التعليم الأولى فى بيروت، لكن الحياة فى لبنان آنذاك لم تكن تحتمل، حيث كانت نسبة كبيرة جدا من الأسر سواء فى الريف او المدن، تعيش فى ضنك شديد، وتفقد انسانيتها بين الفاقة والعوز.

هاجر مع أسرته إلى أمريكا الشمالية بعد اعتقال والده، إلا أنه عاد إلى بيروت ليكمل تعليمه،ثم رجع إلى أمريكا، حيث بدأ يعرف كشاعر يكتب باللغة الإنجليزية وتعرف جبران على زملائه فى المهجر، وتجلى فى قصائده ذلك الميل الحميم إلى الجذور، وكان عاصفة وثورة أدبية بكل المقاييس، وهو ما وضعه فى قلب الريادة الشعرية الحديثة فى مستهل القرن العشرين، وصارت له مدرسة أدبية تسمى باسمه، تخرج فيها مئات التلاميذ على امتداد الوطن العربى ورغم الرغبة الجارفة فى التجديد، وتنقيه شرايين الكتابة الأدبية، إلا أن جبران وزميليه إيليا أبوماضى وميخائيل نعيمه قد حافظوا على جوهر اللغة ويعتبر جبران أشهر كاتب عربى فى العالم، وانطوت ثقافته على عناصر رئيسية هى ثقافة عربية إسلامية ومسيحية.

ولجبران مؤلفات كثيرة من أشهرها «الغبى» و«الموسيقى» و«دمعة وابتسامة» وغيرها من الأعمال، ويعتبر كتاب «النبى» من أهم اعماله الأدبية وترجم إلى لغات عديدة قيل إنها وصلت الى ٢٧ لغة فى العالم، ووزع منه فى أمريكا وحدها اربعة ملايين نسخة، لما يتضمنه من صور فى فلسفة الحياة والكون، و ما انطوى عليه، من عمق تعبيرى وعذوبة بالغة. ولعل الأديبة مى زيادة من أشهر النساء فى حياة جبران . فقد توثقت بينهما صلات الحب عن طريق المراسلة المتبادلة، واستطاعت أن تفجر احاسيسه على نحو مغاير، وأن تدفعه للبوح والكشف عن أغوار ذاته، ودامت علاقتهما ومراسلتهما قرابة عشرين عاما دون أن يلتقيا مرة واحدة!

بعد رحلة طويلة من العطاء ، رحل جبران فى ١٠ ابريل ١٩٣١ ، وكان قد أوصى برسومه ولوحاته الى مارى هاسكل لتتصرف بهما كما تريد، وما كان منها الا أن أرسلتها إلى بلدته. وبقيت مارى مخلصة لجبران بعد رحيلة، وماتت بعد قليل عانسا عمياء!



الصلة

محمود وأحمد وسناء — أسماء يعرفها قلبى
صور فى الروح معطرة — بعبير الألفة والحب
أنفاس طاهرة ورؤى — تتكوكب فى الأفق الرحب
وتدور وتركض وتغنى — وتشد يد الأمل الصعب
فيها الأيام مسافرة — لبلوغ الحلم بلا درب
وبها التاريخ يعود فلا — يفتقد الشيب بعين صبى
أبنائى، والأبناء لنا — غدنا المنقوش على الذهب
أغصان الفرحة فى دمنا — تمتد محلقة الشهب
نجتاز لأجلهمو محنا — ونبث الألفة فى العجب
ونودعهم فلنا بهمو — خيط يتعلق بالسبب

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

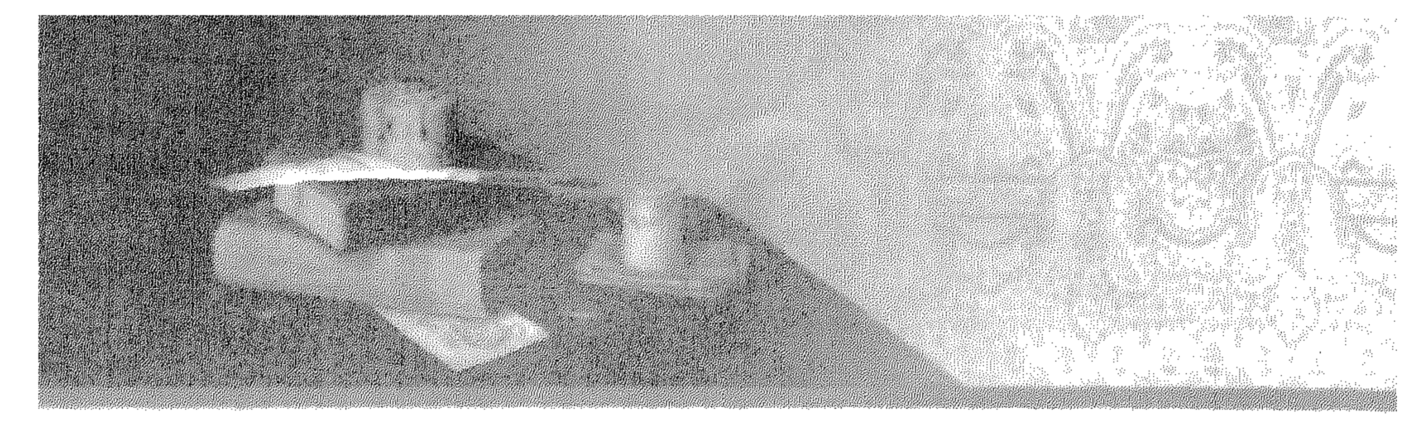
رحيل مفكر كبير

فقدنا واحدا من مفكرينا ومبدعينا وأحد كتاب «الهلال» الدكتور محمد بلتاجى حسن فى الشهر الماضى بعد رحلة عطاء قضى منها ٥٨ عاما فى رحاب كلية دار العلوم، طالبا ومعيدا وأستاذا ورئيس قسم ثم عميدا للكلية في الفترة من ١٩٨٦ الى ١٩٩٥.

حصل د. بلتاجى على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٩ فى كلية دار العلوم فى الشريعة الإسلامية وسافر الى معظم الدول العربية والإسلامية محاضرا وأستاذا فى الشريعة الإسلامية ، وأشرف على حوالى ٦٠٠ رسالة ماجستير ودكتوراه، وكان عضوا بمجمع البحوث الإسلامية وترك اكثر من ٥٠٠ بحث فى الشريعة و ٦٠ كتابا من بينها «فى أحكام الأسرة» ٤ أجزاء، وبحوث مختارة فى السنة عام ١٩٩٧

رجب عبدالحكيم بيومي الخولي
القاهرة - المعصرة - المنشية الجديدة





تحرك خافقي

أتاني لفظها عطرا لطيفا   فأشعل في الهوى معنى نظيفا
دعاني للنخيل لكي أغني   غناء مبدعا حرا عفيفا
قرأت النحل تاريخا عميقا   وأمجادا تضيء لنا الحروفا
عيون ها هنا امتلأت هياما   فتسمن ذلك الوهج الضعيفا
قطيف كلها بستان حب   ربيعه ما أتى يوما خريفا
تحرك خافقي بحرا فبحرا   ليرسم فى المدى الوله الشغوفا
اسافر كي ارى اشكال قلبى   فصارت كلها لدمى قطيفا
قطيف الحب هذا جذر شوقى   لماء هواك قد قهر الظروفا
بداخل خافقى اليامال حرف   يشحن للهوى صوتا لطيفا
أناشيد الخليج فصول زرع   بغير العشق تابى ان تضيفا
تضيف الى القطيف نهار عشق   فانطق فى شواطئها الدفوفا
على شطآن احضان. وشوق   قطيف الحب تيممت الآلوفا
فكل سفينة فى البحر عاشت   لتنبت فى الغرام لها رصيفا
لماذا لا تطوف بأرض فكر   وفيها العقل ما ارتاد الخسوفا
رجال الخط مجد بعد مجد   لخير فضيلة رصوا الصفوفا
بعلم نير زرعوا المعالى   وداووا للغد الآتى النزيفا

عبدالله على الأقزم
السعودية - القطيف

اعتقال وول سوينكا



خبر اعتقال وول سوينكا الكاتب النيجيرى المعروف والحاصل على جائزة نوبل فى الآداب، أصاب كل المثقفين بالاستياء والغضب، نظر لمكانة هذا الكاتب والمفكر الافريقى العالمى الكبير.

فهو بلا شك يرفض ما يحدث الآن في نيجيريا من صراع عقائد من قتل ودمار لهذا البلد الافريقي ترى ماذا يفعل زملاؤه الحاصلون علي جائزة نوبل ؟

وهل يعلن أديبنا الكبير بالمثل نجيب محفوظ وغيره من الحاصلين على نفس الجائزة استياءهم مما يحدث للكاتب الكبير.. تجاه هذه السقطة الكبيرة فى حق مثقف عالمى؟ .

قصة قصيرة

ابتسامة

قام من نومه بعد صلاة العصر، بعدما دخلت زوجته الغرفة، وفتحت شباك الشرفة لنشر غسيل طفلها ابن السبعة شهور. ولما رآته - زوجته - يدعك عينيه، ويتمطى قليلا - وهو نائم على ظهره - جلست على حافة السرير، وقبلته على خديه، وابتسمت. وتنتفت شعره من ذقنه الطويلة. توجع قليلا لكنه ابتسم بصعوبة بالغة مدركا أنه العقاب على تركه شعر ذقنه، وفرد ذراعية ليحتضنها مجاملة.. لكنها قالت.

· أنا مسمعتش الكحة بالليل.

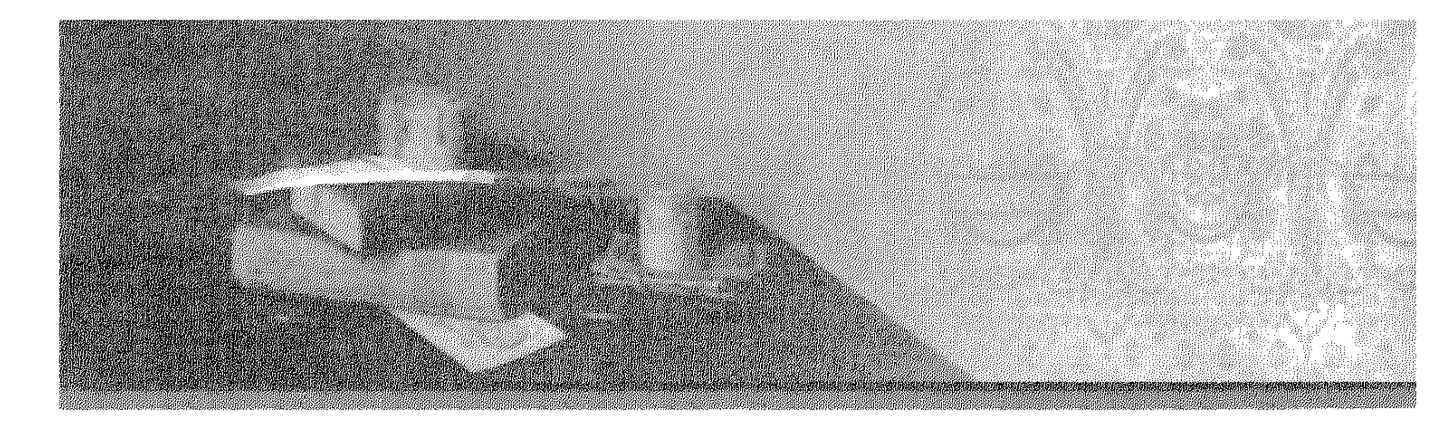
حرك رأسه ناحيتها . علامة الموافقة، واعتدل تركته زوجته يكمل قيامه من تلك النومة الطويلة، لما سمعت بكاء ونداء طفلها المستميت، ورغبته الطفولية القائمة على الونس والاحتياج.. على الرغم من شبعة فقط. يريدها بجواره.. ذلك إحساس لا يغتفر لطفل لا يدرك . هذا الإحساس يشعر الزوج بالمرارة والمقت فى آن واحد. هو - الزوج - أيضا يحس بالاحتياج.. لكنها - الزوجة - تفضل طفلها . هذا الإحساس ينمو بداخل الزوج، يعكر صفوة. ويقلب مزاجه الرائق قليلا، ويغير سحنته ، ويبدلها . لكنه - الزوج - لما تنشط ذاكرته، ويعى الأشياء على حقيقتها يدرك أنها غلطته، ويتمتم صوت مسموع لنفسه كان مالى ومال الجواز، ويدرك أن رغبته فى امتلاك أنثى هى التى دفعته إلى ذلك الإحساس المر ولما يشرب قهوته، ويسمع دندنة الأغانى ويتلاشى كدره قليلا يحب ذلك الطفل . المفعم بالحيوية، وبالابتسامة الرائعة التى توشك أن تقلعه من كيانه الغامض والمتوتر هذا الطفل يدرك تماما ما يريده. وهو - العاقل - لا يدرك ما تعنيه هذه الحياة هذا الطفل يحافظ على حياته باستعباد أمه.. لكنه يعطيها أمومة تستحقها. أما هو فإنه يدرك أن الحياة تهرب منه. يقتلها بالتأمل والتفكير والوصول إلى معنى. ربما يكون المعنى خاويا لكنه فى النهاية مجبر على ذلك.

لما دخن سيجارتين وابتلع القهوة المرة، داعب طفله ، ونسى ما كان يفكر فيه، ولما انتهى من مداعبته - والطفل يطلب المزيد - وهم بالرجوع إلى غرفة المكتب، وجلس على الكرسى المبطن أدرك. أنه مسجون ومستعبد هو الآخر من هذا الطفل. ليس للطفل قدرة على ذلك.. لكنه الإحساس - إحساس الطفل فقط - الذى ينكر كل فكر وكل فلسفة. تلك هى البراءة بمعناها الواسع والجميل

بعد فترة صمت . قام وشد باب الغرفة عليه.. لكن الطفل لم يتركه لحاله، وخبط على باب الغرفة مرات عديدة.. محاولا إخراج كلمة.

- ب... ا . ب...ا.

فتحت الزوجة الباب، وغمزت لزوجها بعينيها، وزحف الطفل نحوه.. ساعتها فقط ، أحس بفكرة غامضة تفسر له هذا الانجذاب، وهذا الاستعباد. فكرة . أنه شاهد مراحل نموه - هو -



إلا تلك الفترة، وارتاح لذلك التفسير وتمدد على الأريكة.. مبتسما هذا المرة بصفاء، لاحظت زوجته تلك البسمة.. وعلى الفور قالت:

- زى بسمة ابنك.

أدرك مرادها وانصرف شاردا.. منشرحا لأغنية فرحة يبثها الراديو عن طيب خاطر لتلك اللحظة

ممدوح عبد الستار - كفر الزيات - قرية الدلجمون

الصقر المغير

مفتتح

إنك لو علمت
حتى فى يومك ماهو لسلامك
ولكن قد أخفى عن عينيك
ستأتى أيام ويحيطك كل أعدائك
بمترسة
وسوف يهدمونك وبنيك فيك
ولن يترك بك حجر على حجر
لأنك لن تعرفى ماهو زمان
افتقادك
(عيسى عليه السلام)

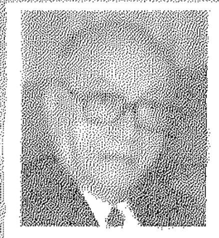
النص

تتهدمين
وتظل نظرتك الخجولة تنتظر
وإلى متى تتألمين
وأنا أترقب الحدث الكبير
قسما بمن هلكت وتحت ترابها
أبنائها وبناتها
والطير والغصن النضير
قسما بمن شهد الزمان
صمودها
ياقدس ياروض العبير

سأظل أنشد من على وتر لك
ولأمة عربية فخرت بك
سأظل أنشد أينما
وجد المناضل والنصير
وأراك يا أرض الكنائس حرة
وأرى الجموع تصب كالمطر
الغزير
فلقد أبيت بأن يبيعك..
تاجر وسماسرة
ولقد أبيت بأن يساومك الأمير
أنى مشى - الكل يهتف خلفه
وأنا هنا عبد فقير
ثمرى ضئيل يابس
جسدى نحيل معدم
لكن بربك - ها أنا
سترينني وقت الجهاد
كما ولو صقرا مغيرا
فتهدمى
ستظل نظرتك الخجولة تنتظر
صحو الضمير

صابر صبرى معوض

الكلمة الأخيرة



أهمية أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب

بقلم: أبو المعاطي أبو النجا

بغض النظر عن الإجابة غير المحسومة للسؤال القديم المتجدد حول: أيهما شرط مسبق لوجود الآخر؟ هل الفرد أو الأفراد المتميزون هم الذين يصنعون المؤسسة، ويرعون مسيرة ازدهارها، أم أن المؤسسة، وهي في نهاية الأمر لا تعدو أن تكون مجموعة من النظم والتقاليد الجيدة، هي التي تفرخ الفرد أو الأفراد المتميزين؟ وتهيئ الفرصة لاستمرار وجودهم.

وبغض النظر مرة أخرى عن المعنى السائد للصدق والكذب وعن إدراكنا أن مجرد الالتزام الحرفي بمعنى الصدق قد تنتج عنه كوارث تفوق أحيانا أي نتائج للكذب؟ فإننا نعنى هنا بالكذب ذلك القول الذي يخبر بخلاف الواقع بقصد تحقيق نفع خاص لقائله، أو بغرض تحقيق إساءة لشخص آخر يريدها ذلك الكذوب لأمر يخصه أو يرضيه بعيدا عن أي واقع أو حقيقة.

بعد كل هذه التحفظات فإننا نعود إلى نقطة البدء وهي التأكيد على أهمية أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب!

ودعونا نتأمل ما الذي يحدث حين نواجه في المؤسسة رجلا نتوقع منه أن يكذب، باديء ذي بدء فإننا نشعر بالارتباك حين نتلقى منه أي إجابة لأي سؤال ونبدأ نفكر ونحن مرتبكون، في أي جزء من حديثه يكمن الكذب، فالكذابون وبخاصة الكبار منهم ينثرون في كلامهم الكثير من الصدق القوي لتمرير أكاذيبهم، ثم نبدأ نفكر في حقيقة دوافعه لهذا الكذب، فلعل صحة تقدير هذه الدوافع أن تعيننا على تحديد منطقة الكذب في كلامه، وتحديد خريطة البحث عن هذه الدوافع يدخلك في أرض كلها ألغام ومتاهات تعرف كيف تدخلها ولكنك لا تعرف كيف تخرج منها!

فقط تخيل نوع وحجم الجهد الذي أنت مدعو لبذله لمجرد التعامل مع رجل واحد في المؤسسة تتوقع منه أن يكذب؟

وتخيل الجهود التي عليك أن تبذلها لو كان في المؤسسة الكثير من الكذابين!

وتخيل ماذا يمكن أن يبقى لديك من الجهد والطاقة، لكي تعمل به في المؤسسة العمل الأساسي الذي جئت إلى المؤسسة لكي تقوم به، ولكي تقوم المؤسسة بدورها كذلك!

ولا تقل ربما كان هذا كله جائز في الماضي، أما الآن ونحن في عصر ثورة المعلومات، فليست المعلومات بهذه الندرة ولا بهذه الصعوبة وثمة آليات ومعايير لاختبارات الصدق والكذب وثمة أكثر من وسيلة وأداة للبحث عن الحقيقة وكل هذا صحيح، ولكن كل هذه القوى والإمكانات متاحة للصادقين والكذابين، وإمكانات تزييف الحقيقة في عصرنا لا تقل عن إمكانات العثور عليها ولذلك فإنه يبقى من المهم جدا أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب! فكرنا في هذا كله، وأنا أسمعهم يتكلمون كثيرا في هذه الأيام عن ضرورة الإصلاح، وكيف نبدأ به في أوطاننا العربية ولعل البداية الحقيقية أن يكون في المؤسسة رجل واحد لا يكذب، لا يرغب في أن يكذب! ■



المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانا
العب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
سلاح التلميذ
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل